

الحجاء إلى الجنة

تصنيف
الإمام أبي بكر أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي
العراف محمد بن عبد الله

المجلد الأول

مطالع من

مكتبة وجمعية كرماتية قوترا - سمارغ

اندونيسيا

إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي

وفلسفته في الإحياء

بمقام

الدكتور بدوي طنبانة

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سمراغ

مواد المقدمة

صفحة

(١) تمهيد في التصوف الإسلامي ٣ - ٧

تعاليم الإسلام - المسلم بين الدنيا والآخرة - المسلمون في الصدر الأول - صراع بين المادية والروحية - عودة إلى الله - البحث عن الحقيقة - السلبية في بعض مناهج التفكير - ألوان جديدة من المعرفة .

(٢) الإمام الغزالي ٧ - ١١

مولده وشأنه - أوبة - علم للحياة وعلم لله - في طوس - في جرجان - في نيسابور - في المسكر - مع نظام الملك - إلى بغداد - في المدرسة النظامية - صدود عن المنصب والجاه - في الشام وبيت المقدس - إلى مكة والمدينة - تنسكه - عودة إلى خراسان - المرة والخلوة - أمر بالخروج إلى نيسابور للتدريس - عودته إلى طوس - وفاته .

(٣) الشك عند الغزالي ١١ - ١٨

اختلاف مناهج البحث في العقائد - التمسك للآراء - الغزالي والتقليد - سبل المعرفة: الحسابات والعقليات - عقبات تترض طريقهما - آثر الفلاسفة والطبيعيين في بثاث التفكير الإسلامي - ليس الكشف موقوفا على الأدلة المحررة - فلسفة الغزالي وتصوفه - الغزالي بين الابتداع والاتباع .

(٤) مناهج البحث عن الحقيقة ١٨ - ٢١

الغزالي وعلم الكلام - الغزالي والفلسفة - الغزالي ومذهب التعليم - الغزالي والتصوفية - مزايا كل منهج وعيوبه .

(٥) آثار الغزالي ٢٢ - ٢٣

(٦) كتاب (إحياء علوم الدين) ٢٣ - ٢٨

متى حدث به ؟ - متى ألفه ؟ - بين التحصيل والإلهام - لماذا ألف الإحياء ؟ - الفرق بين كتابة الغزالي وكتابة الذين سبقوه .

أقسام الإحياء : المبادات - العادات - المهلكات - للنجيات - أسباب الفتور وضعف الإيمان - الإحياء والتربية - صنوف الناس في نظر الغزالي وما ينبغي أن يؤخذ به كل صنف - الشريعة والفلسفة والتصوف في الإحياء - خاتمة .

فهرس الجزء الأول

من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الامام الغزالي

صفحة	صفحة
٤٢	مقدمة
علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها	ترجمة الامام الغزالي
٤٣	٢ خطبة الكتاب
بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رحمهم الله تعالى	٥ (كتاب العلم وفيه سبعة أبواب)
٤٥	(الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم)
بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق	وشواهد من النقل والعقل
٤٩	٥ فضيلة العلم
(الباب الخامس في آداب التعلم والعلم أما التعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تغاريقها عشر جمل)	٩ فضيلة التعلم
٥٥	١٠ فضيلة التعلیم
بيان وظائف المرشد العلم	١٣ في الشواهد العقلية
٥٨	١٤ (الباب الثاني في العلم المحمود والذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو فرض عين وماهو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة)
٨٢	١٤ بيان العلم الذي هو فرض عين
(الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء)	١٧ بيان العلم الذي هو فرض كفاية
٨٢	٢٩ (الباب الثالث فيما يعمده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبدیل اساسی العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر للذموم منها)
٨٢	٢٩ بيان علة ذم العلم الذموم
٨٤	٣٢ بيان ما يدل من ألفاظ العلوم
٨٧	٣٩ بيان القدر المحمود من العلوم المحمود
٨٩	
(كتاب قواعد العقائد) وفيه أربعة فصول	
٨٩	
الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلتي الشهادة الخ	
٩٣	
الفصل الثاني في وجه التدرج إلى الارشاد وترتيب درجات الاعتقاد	
١٠٤	
الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في لوازم الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس وفيها أركان أربعة	

صفحة	صفحة
١٣٤ فضية الوضوء	١٠٤ فأما الركن الأول من أركان الإيمان في
١٣٥ كيفية القبل	معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله
١٣٥ كيفية التيمم	تعالى واحد ومداره على عشرة أصول
١٣٦ القسم الثالث في النظافة والتطيف عن	١٠٨ الركن الثاني السلم بصفات الله تعالى
الفضلات الظاهرة وهي نوعان : أوساخ	ومداره على عشرة أصول
وأجزاء	١١٠ الركن الثالث السلم بأفعال الله تعالى
١٣٦ التسوع الأول الأوساخ والرطوبات	ومداره على عشرة أصول
للترعة وهي ثمانية	١١٣ الركن الرابع في السميات وتصديقه
١٣٩ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من	سلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره
الأجزاء وهي ثمانية	على عشرة أصول
١٤٥ (كتاب أسرار الصلاة ومهمات)	١١٥ الفصل الرابع في الإيمان والإسلام وما
وفيه سبعة أبواب	بينهما من الاتصال والاتصال وما يتطرق
١٤٥ (الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود	إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء
والجماعة والأذان وغيرها)	السلف فيه وفيه ثلاث مسائل
فضية الأذان	١١٥ مسألة اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان
١٤٦ فضية للكتوبة	أو غيره الخ
١٤٧ فضية إتمام الأركان	١١٩ مسألة فإن قلت قد اختلف السلف على
١٤٨ فضية الجماعة	أن الإيمان يزيد وينقص الخ
١٤٩ فضية السجود	١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا
فضية الخشوع	مؤمن إن شاء الخ
١٥١ فضية للسجد وموضع الصلاة	١٢٤ (كتاب أسرار الطهارة)
١٥٢ (الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة	وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات
من الصلاة والبدانة بالتكبير وما قبله)	١٢٧ القسم الأول في طهارة الحث والنظر
١٥٤ القراءة	فيتره يتعلق بالزوال وللزوال به والإزالة
الركوع ولواحه	١٢٧ الطرف الأول في الزوال
السجود	١٢٨ الطرف الثاني في الزوال به
١٥٥ التشهد	١٢٩ الطرف الثالث في كيفية الإزالة
١٥٦ للتيات	١٣٠ القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها
١٥٨ تميز القرائن والسنن	الوضوء والتسل والتيمم وشمها
١٥٩ (الباب الثالث في الشروط الباطنة من	الاستنجاء
أعمال القلب الخ)	١٣٠ (باب آداب قضاء الحاجة)
١٥٩ بيان لفتراط الخشوع وحضور القلب	١٣١ كيفية الاستنجاء
	١٣١ كيفية الوضوء

صفحة	صفحة
٢١٠ الفصل الأول في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها	١٦١ بيان النافي الباطنة التي تم بها حياة الصلاة
٢١٠ النوع الأول زكاة النعم	١٦٣ بيان النداء النافع في حضور القلب
٢١١ النوع الثاني زكاة للضررات	١٦٥ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشروط من أعمال الصلاة
النوع الثالث زكاة التقدين	١٧١ حكايات وأخبار في صلاة الخاضعين رضي الله عنهم
النوع الرابع زكاة التجارة	١٧٣ (الباب الرابع في الإمالة والقدوة الخ)
٢١٢ النوع الخامس الركاز والعدن	١٧٨ (الباب الخامس في فضل الجملة وآدابها وستها وشروطها)
النوع السادس في صدقة القطر	١٧٨ فضيلة الجملة
الفصل الثاني في الأمداء وشروطه الباطنة والظاهرة	١٧٩ بيان شروط الجملة
٢١٤ بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة	١٨٠ وأما السنن الخ
الوظيفة الأولى أي من الوظائف التي هي مريد طريق الآخرة فهم وجوب الزكاة الخ	١٨٠ بيان آداب الجملة على ترتيب العادة وهي عشر جل
٢١٥ الوظيفة الثانية في وقت الأمداء	١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع التهاد وهي سبعة أمور
٢١٦ الوظيفة الثالثة الإسرار	١٨٩ (الباب السادس في مسائل متفرقة تم بها البلوى ويحتاج للرد إلى مرقها)
الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس الخ	١٩٣ (الباب السابع في النوافل من الصلوات وفيأربعة أقسام)
٢١٧ الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى	١٩٣ القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام واليالي وهي ثمانية
٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستنصر الصلابة	١٩٨ القسم الثاني ما يتكرر بتكرر الأسابيع
٢١٩ الوظيفة السابعة أن يتفق من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطبه	٢٠١ القسم الثالث ما يتكرر بتكرر السنين
الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة الخ	٢٠٤ القسم الرابع من النوافل ما يتلق بأسباب مألوفة ولا يتلق بالمواقف وهي تسعة
٢٢١ الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاته ووظائف قبضه	٢٠٥ (كتاب أسرار الزكاة) وفيه أربعة فصول
٢٢٣ بيان أسباب الاستحقاق	
٢٢٣ بيان وظائف القابض	
٢٢٦ الفصل الرابع في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها	
٢٢٧ بيان فضيلة الصدقة	
٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها	
٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة	

صفحة	صفحة
٢٥٦	٢٣١ (كتاب أسرار الصوم)
الوقوف من البيت والرمى والنحر	وفيه ثلاثة فصول
والخلق والطواف	٢٣٣ الفصل الأول في الواجبات والسنن
٢٥٨	الظاهرة والأوازم بإفساده
إلى طواف الوداع	أما الواجبات الظاهرة فستة
٢٥٩	٢٣٤ لوازم الإفطار أربعة
الجملة التاسعة في طواف الوداع	٢٣٥ الفصل الثاني في أسرار الصوم
الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها	وشروطه الباطنة
٢٦٢ فصل في سنن الرجوع من السفر	٢٣٧ الفصل الثالث في التطاوع بالصيام
٢٦٣ (الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال	وترتيب الأوراد فيه
الباطنة)	٢٤٠ (كتاب أسرار الحج)
٢٦٦	وفيه ثلاثة أبواب :
بيان دقائق الآداب وهي عشرة	(الباب الأول وفيه فصلان)
٢٦٧	الفصل الأول في فضائل الحج وفضيلة
في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد	البيت ومكة وللمدينة حرسهما الله تعالى
الشرعة وكيفية الانتكاس فيها والتذكر	وشد الرحال لله للساجد
لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره	٢٤٠ فضيلة الحج
٢٧٣ (كتاب آداب تلاوة القرآن)	٢٤٢ فضيلة البيت ومكة للشفرة
وفيه أربعة أبواب :	٢٤٤ فضيلة القيام بمكة حرسها الله تعالى وكرامته
٢٧٣ (الباب الأول في فضل القرآن وأهله	فضيلة للمدينة الشريفة على سائر البلاد
وذمّ للقصرين في تلاوته)	٢٤٦ الفصل الثاني في شروط وجوب الحج
٢٧٣ فضيلة القرآن	وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته
٢٧٥ في ذم تلاوة الناقلين	٢٤٧ (الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة
٢٧٦ (الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة	من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة جمل
وهي عشرة)	٢٤٧
٢٨١ (الباب الثالث في أعمال الباطن في	الجملة الأولى في السير من أول الخروج
التلاوة وهي عشرة)	إلى الإحرام وهي ثمانية
٢٩٠ (الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره	٢٤٨
بالرأى من غير نقل)	الجملة الثانية في آداب الإحرام من
٢٩٥ (كتاب الأذكار والدعوات)	الليقات إلى دخول مكة وهي خمسة
وفيه خمسة أبواب :	٢٥٠
٢٩٥ (الباب الأول في فضيلة الذكر وفائدته	الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى
على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار	الطواف وهي ستة
والآثار)	٢٥١
٢٩٧ فضيلة مجالس الذكر	الجملة الرابعة في الطواف الح
	٢٥٣
	الجملة الخامسة في السعي
	٢٥٤
	الجملة السادسة في الوقوف وما قبله

صفحة	صفحة
٣٢١ (الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم محدوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب للسكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله)	٢٩٨ فضيلة التهليل
٣٢٤ أنواع الاستعاذة للأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم	٣٠٠ فضيلة التسييح والتحميد وبقية الأذكار
٣٢٦ (الباب الخامس في الأدعية للأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث)	٣٠٥ (الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية للأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم)
٣٣٣ (كتاب ترتيب الأوراد وتخصيل إحياء الليل) وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات . وفيه باهات :	٣٠٥ فضيلة الدعاء
٣٣٤ (الباب الأول في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها)	٣٠٦ آداب الدعاء وهي عشرة
٣٣٤ فضيلة الأوراد وبيان أن للواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى	٣١١ فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضلها
٣٣٥ بيان أعداد الأوراد وترتيبها	٣١٣ فضيلة الاستغفار
٣٤٥ بيان أوراد الليل وهي خمسة	٣١٦ (الباب الثالث في أدعية مأثورة وبمعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها للرء صباحا ومساء وبغيب كل صلاة)
٣٥٣ بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال	٣١٧ دعاء عائشة رضي الله عنها
٣٥٧ (الباب الثاني في الأسباب لليسرة لقيام الليل وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشائين وكيفية قسمة الليل)	دعاء فاطمة رضي الله عنها
٣٥٧ فضيلة إحياء ما بين الصلوات	دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٣٥٨ فضيلة قيام الليل	٣١٨ دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه
٣٦٢ بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل	دعاء قبيصة بن الحارث
٣٧٠ بيان طرق القسمة لأجزاء الليل	دعاء أبي البرداء رضي الله عنه
٣٧٢ بيان الليالي والأيام الفاضلة	دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام
	دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم
	٣١٩ دعاء الحضرة عليه السلام
	دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه
	دعاء عتبة التلام
	دعاء آدم عليه الصلاة والسلام
	دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه
	٣٢٠ دعاء ابن القنبر وهو سليمان التيمي وتسيحاته رضي عنه
	دعاء إبراهيم بن آدم رضي الله عنه

فهرس

ماهامش الجزء الأول من إحياء علوم الدين

صفحة	صفحة
١١١	٢ - كتاب
١١٨ (فصل) في بيان أصناف أهل الاعتقاد	٢ تعرف الأحياء بفضائل الإحياء
١٢٧ (فصل) لما كان الاعتقاد المجرد عن العلم	٢ خطبة الكتاب
بصحة ضعيفا ومجرد من الشرفه قريبا الخ	٤ المقدمة في عنوان الكتاب
١٢٨ بيان أرباب للربة الثالثة وهو توحيد	٨ المقصد في فضل الكتاب وبعض للدائع
للقربين	والثناء من الأكابر عليه والجواب عما
١٤٤ بيان للربة الرابعة وهو توحيد الصديقين	استشكل منه وطعن بسببه فيه
١٤٩ (فصل) في معنى إفتاء سر الربوية كفر	١٦ (فصل) فيمن أفتى على الإحياء من العلماء
وغير ذلك	الأعلام
١٥٧ (فصل) في معنى قاطع الطريق	٣٠ (فصل) في بيان الواضع التي استشكل فيها
١٥٧ (فصل) في معنى فاستمع لما يوحى	على الإحياء والجواب عنها
١٦٩ (فصل) في معنى ولا يتخطى رقاب الصديقين	٣٤ (خاتمة) في الإشارة إلى ترجمة الامام الفزالي
١٧٠ (فصل) في معنى انصراف السالك الناظر	وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية
بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى	رضى الله عنهم
١٧١ (فصل) في معنى ليس في الإمكان أبدع من	٥٥ ٣ - كتاب
سورة هذا العالم الخ	الإيماء في اشكالات الإحياء
١٧٥ (فصل) في بيان أن خطاب القلاء	خطبة الكتاب
للعجمادات غير مستنكر	٦٠ ذكر مراسم الأستة في الكل
١٨٤ (فصل) في الفرق بين العلم المحسوس في عالم	٦٥ مقدمة في الألفاظ للستمة
للك ، وبين العلم الالهي في عالم لللكوت	٧٩ وصية لطالب العلوم والناظر في التصانيف
١٨٧ (فصل) في حد عالم لللك	وللسترف على كلام الناس وكتب
١٨٧ (فصل) في معنى أن الله خلق آدم على صورته	الحكمة
١٩٣ سؤال في بيان معنى قول سهل رحمه الله	٨٦ ابتداء الأجوبة عن مراسم الأستة
الالهية سر لو انكشف بطلت النبوات ،	٩٤ بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم
والنبوات سر لو انكشف بطل العلم ،	٩٩ (فصل) في بيان اللفظ للنبي عن التوحيد
والعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام	١٠٠ (فصل) فان قلت لما الذي صد هؤلاء
١٩٧ (فصل) في حكم هذه العلوم للكتوبة في	الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن
الطلب ، وسلوك هذه القلمات ، ورفق	النظر ، والبحث حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد
هذه المخرجات ، واستنباهم هذه الخاطيات	حتى تخلصوا من عذاب الله الخ

صفحة	صفحة
٢٥٧ (الباب الثالث في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها)	١٩٩ (فصل) لأي شيء ذكرت هذه العلوم
٢٩٦ (الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طرقهم)	بالاشارات دون العبارات ، وبالرموز
٣١١ (الباب الخامس في ماهية الصوف)	دون التصريحات ، وبالتشابه من الألفاظ
٢٥٠ (الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم)	دون المحركات
٣٣٩ (الباب السابع في ذكر الصوف والتصوف وللتنبه به)	٢٠٣ ٣ - (كتاب عوارف المعارف)
٣٥٣ (الباب الثامن في ذكر اللامق وشرح حاله)	خطبة الكتاب
	٢١٥ (الباب الأول في ذكر منشأ علوم الصوفية)
	٢٣٣ (الباب الثاني في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع)

فهرس الجزء الثانى

من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى

صفحة	صفحة
٦٢	٢
﴿ كتاب آداب الكسب والمعاش ﴾	﴿ كتاب آداب الأكل ﴾
وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات	وهو الأول من ربيع العادات
٦٣ (الباب الأول فى فصل الكسب والحش عليه)	٣ (الباب الأول فى لا بد للفرد منه وهو ثلاثة
٦٦ (الباب الثانى فى علم الكسب بطريق البيع الخ	أقسام: قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ،
وبيان شروط الشرع فى صحة هذه التصرفات	وقسم بعد الفراغ منه
التي هى مدار المكاسب فى الشرع)	القسم الأول فى الآداب التي تقدم على
(العقد) الأول البيع	الأكل وهى سبعة
٧٠ (العقد) الثانى عقد الربا	٥ القسم الثانى فى آداب حالة الأكل
٧١ (العقد) الثالث السلم	٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
٧٢ (العقد) الرابع الإجارة	٧ (الباب الثانى فيما يزيد بسبب الاجتماع
٧٣ (العقد) الخامس القراض	والمشاركة فى الأكل وهى سبعة)
(العقد) السادس الشركة	٨ (الباب الثالث فى آداب تقديم الطعام إلى
٧٤ (الباب الثالث فى بيان العدل واجتناب الظلم	الإخوان الزرين)
فى العامة)	١٢ (الباب الرابع فى آداب الضيافة)
القسم الأول فيما يعى ضرره وهو أنواع	١٩ فصل يجمع آداباً ومنها هى طيبة وشرعية متفرقة
٧٦ القسم الثانى ما يخص ضرره للعامل	٢١ ﴿ كتاب آداب النكاح ﴾
٨٠ (الباب الرابع فى الاحسان فى العامة)	وهو الكتاب الثانى من ربيع العادات
٨٤ (الباب الخامس فى شقنة التاجر على دينه	٢٢ (الباب الأول فى الترتيب فى النكاح
فما يخص ويم آخرته)	والتربى عنه)
٨٩ ﴿ كتاب الحلال والحرام ﴾	الترتب فى النكاح
وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات	٢٤ ما جاء فى الترتيب عن النكاح
(الباب الأول فى فضيلة الحلال ومذمة	٢٥ آفات النكاح وفوائده
الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته	٣٧ (الباب الثانى فيما يراعى حالة العقد من أحوال
وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه)	للرأة وشروط العقد)
فضيلة الحلال ومذمة الحرام	٤٣ (الباب الثالث فى آداب المعاشرة وما يجرى
٩٣ أصناف الحلال ومداخله	فى دوام النكاح والنظر فيما على الزوج
القسم الأول الحرام لصفة فى عينه الخ	وفما على الزوجة)
٩٤ القسم الثانى ما يحرم لخلل فى جهة إنبات	٥٨ القسم الثانى من هذا الباب النظر فى
اليده عليه	خقوق الزوج عليها

صفحة	صفحة
١٥٥ (الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها)	٩٥ درجات الحلال والحرام
١٥٩ بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا	٩٦ أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا
١٦٤ بيان البغض في الله	٩٩ (الباب الثاني في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام)
١٦٦ بيان مراتب الذين ينفذون في الله وكيفية معاملتهم	١٠٠ للثار الأول الشك في السبب المحال والمحرم
١٦٨ بيان الصفات المشروطة فيمن يختار محبته	١٠٣ للثار الثاني للشبهة شك منشؤه الاختلاط
١٧٠ (الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحبة)	١١٠ للثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل معصية
١٧١ الحق الأول في المال	١١٥ للثار الرابع الاختلاف في الأدلة
١٧٢ الحق الثاني في الإعانة بالنفس الخ	١١٨ (الباب الثالث في البحث والسؤال والمهجوم والإجمال ومطائنها)
١٧٤ الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ	الثمار الأول أحوال المالك
١٧٨ الحق الرابع على اللسان بالنطق	١٢١ للثار الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك
١٨١ الحق الخامس العفو عن الزلات والمفوضات	١٢٧ (الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية وفيه نظران)
١٨٣ الحق السادس الدعاء للأنخ في حياته الخ	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
١٨٤ الحق السابع الوفاء والإخلاص	١٢٩ النظر الثاني في المصرف
١٨٦ الحق الثامن التخفيف وترك التكليف الخ	١٣٣ (الباب الخامس في إدراتات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران)
١٨٩ (خاتمة) لهذا الباب نذكر فيها جملة الخ	١٣٤ النظر الأول في جهات الدخول لاسلطان
١٩٠ (الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار والمالك وكيفية المعاشرة مع من بدلى هذه الأسباب)	١٣٨ النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ وصفة الآخذ
١٩١ حقوق المسلم	١٤٠ (الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ومحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم)
٢١١ حقوق الجوار	١٥١ (الباب السابع في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى)
٢١٥ حقوق الأقارب والرحم	١٥٤ (كتاب آداب الألفة والأخوة)
٢١٦ حقوق الوالدين والولد	والصحب والمعاشرة مع أصناف الخلق وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني وفيه ثلاثة أبواب
٢١٩ حقوق المملوك	
٢٢١ (كتاب آداب العزلة)	
وهو الكتاب السادس من ربيع العادات وفيه بابان	
٢٢٢ (الباب الأول في نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين في ذلك)	
٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها	
٢٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة	

صفحة	صفحة
٢٦٦	(الباب الثانى فى فوائد العزلة و غوائها وكشف الحق فى فضلها)
٢٦٨	الفائدة الأولى التفرغ للعبادة والفكر الخ
٢٦٨	الفائدة الثانية التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض للانسان لها الخ
٢٦٢	الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن
٢٦٨	والخصومات وصيانة الدين والنفس الخ
٢٦٣	الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس
٢٦٤	الفائدة الخامسة أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس
٢٦٥	الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة التقلأ والحق ومقاساة حقيهم وأخلاقهم الخ
٢٦٦	آفات العزلة المبينة على فوات فوائد
٢٦٦	المخالطة السبعة الآتية
٢٦٨	الفائدة الأولى التعليم والتعلم
٢٦٨	الفائدة الثانية النفع والانتفاع
٢٦٩	الفائدة الثالثة التأديب والتأديب
٢٦٩	الفائدة الرابعة الاستئناس والإيناس
٢٦٩	الفائدة الخامسة فى فضل الثواب وإنائه
٢٦٩	الفائدة السادسة من فوائد المخالطة التواضع
٢٦٩	الفائدة السابعة التجارب
٢٦٣	(كتاب آداب السفر)
٢٦٣	وهو الكتاب السابع من ربيع العادات
٢٦٤	وفيه بابان
٢٦٤	(الباب الأول فى الآداب من أول التموض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائده
٢٦٤	وفيه فصلان)
٢٦٤	الفصل الأول فى فوائد السفر وفضله ونيته
٢٦٥	الفصل الثانى فى آداب المسافر من أول تموضه إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر أدبا
٢٦٦	(الباب الثانى فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات الخ)
٢٦٦	القسم الأول العلم برخص السفر
٢٦٦	القسم الثانى ما يتجدد من الوظيفة الخ
٢٦٦	(كتاب آداب السماع والوجد)
٢٦٦	وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات
٢٦٦	وفيه بابان : الباب الأول فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه .
٢٦٦	بيان أقويل العلماء وللصوفة فى تحليه وتحريمه
٢٦٨	بيان الدليل على إباحة السماع
٢٦٢	بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها
٢٦٤	(الباب الثانى فى آثار السماع وآدابه وفيه مقامات ثلاث)
٢٦٥	المقام الأول فى الفهم
٢٦٩	المقام الثانى بعد الفهم والتزليل الوجد
٢٦٨	المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا الخ
٢٦٢	(كتاب الأمر بالمعروف)
٢٦٣	والتهى عن النكر وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات الثانى وفيه أربعة أبواب
٢٦٣	(الباب الأول فى وجوب الأمر بالمعروف والتهى عن النكر وفضيلته والذمة فى إهاله وإضااعته)
٢٦٨	(الباب الثانى فى أركان الأمر بالمعروف وشروطه ، وأركانه أربعة)
٢٦٣	الركن الأول المحتسب
٢٦٣	الركن الثانى للحسبة ما فيه الحسبة
٢٦٣	الركن الثالث المحتسب عليه
٢٦٤	الركن الرابع نفس الاحتساب
٢٦٣	(باب آداب المحتسب)
٢٦٣	(الباب الثالث فى المنكرات للمألوفة فى العادات)
٢٦٣	منكرات للساجد
٢٦٣	منكرات الأسواق
٢٦٣	منكرات الشوارع

صفحة	صفحة
٣٦٠	٣٣٤ منكرات الحمامات
٣٦٣	٣٣٦ منكرات الضيافة
٣٦٦	٣٣٧ منكرات العامة
٣٧٢	٣٣٧ (الباب الرابع في أمر الأمراء والسلطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر)
٣٧٧	٣٥١ (كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة)
٣٧٨	وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين
كان يكرهه	٣٥٢ يان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن
٣٧٩	٣٥٣ يان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار
٣٨٠	
٣٨١	
٣٨٢	
٣٨٤	

فهرس بقية عوارف المعارف للسهروردي الذي بالهامش

صفحة	صفحة
١٧٢ (الباب العشرون في ذكر من يأكل من الفتوح)	٢ (الباب التاسع في ذكر من اتمى إلى الصوفية وليس منهم)
١٩٥ (الباب الحادى والعشرون في شرح حال المتجرد وللتأهل عن الصوفية وصحة مقاصدهم)	١٣ (الباب العاشر في شرح رتبة المشيخة)
٢٢٠ (الباب الثاني والعشرون في القول في السماع)	٣٤ (الباب الحادى عشر في شرح حال الخادم ومن يتشبه به)
٢٥٣ (الباب الثالث والعشرون في القول في السماع رداً وإنكاراً)	٤٢ (الباب الثاني عشر في شرح خرقه الصوفية)
٢٦٤ (الباب الرابع والعشرون في القول في السماع ترغفاً واستغناء)	٦٢ (الباب الثالث عشر في فضيلة سكان الرباط)
٢٧٩ (الباب الخامس والعشرون في القول في السماع تأديباً واعتناء)	٧٠ (الباب الرابع عشر في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة)
٢٩٦ (الباب السادس والعشرون في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية)	٨٠ (الباب الخامس عشر في خصائص أهل الرباط والصوفية فيما يتعاهدونه ويختصون به)
٣١٠ (الباب السابع والعشرون في ذكر كفوف الأربعينية)	٩٥ (الباب السادس عشر في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام)
٣٣٢ (الباب الثامن والعشرون في كيفية الدخول في الأربعينية)	١٢٢ (الباب السابع عشر فيما يحتاج إليه الصوفى في سفره من الفرائض والفضائل)
٣٥٣ (الباب التاسع والعشرون في أخلاق الصوفية)	١٤٠ (الباب الثامن عشر في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه)
	١٥٨ (الباب التاسع عشر في حال الصوفى للتسبب)

صفحة	محتوى	صفحة	محتوى
٥١	بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق	٢	(كتاب شرح عجائب القلب)
٥٤	بيان قبول الأخلاق للتنبيه بطريق الرياضة		وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات
٥٦	بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة	٣	بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء
٥٩	بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق	٥	بيان جنود القلب
٦١	بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة	٦	بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٦٢	بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه	٧	بيان خاصية قلب الانسان
٦٣	بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات	١٠	بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته
٦٧	بيان علامات حسن الخلق	١٢	بيان مثل القلب بالاضافة إلى العلوم خاصة
٦٩	بيان الطريق في رياضة الصبيان في أوّل نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم	١٥	بيان حال القلب بالاضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والأخرية
٧٢	بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريب المرید في سلوك سبيل الرياضة	١٧	بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظر
٧٧	(كتاب كسر الشهوتين)	١٩	بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
	وهو الكتاب الثالث من ربيع المهلكات	٢٢	بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لامن التعلم ولا من الطريق المعتاد
٧٨	بيان فضيلة الجوع وذم الشبع	٢٥	بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٨١	بيان فوائد الجوع وآفات الشبع	٣٠	بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
٨٦	بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن	٣٩	بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخواطرها وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به
٩٣	بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه	٤٢	بيان أن الوسواس هل تصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا
٩٥	بيان آفة الرياء التطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام	٤٤	بيان سرعة قلب القلب واقسام القلوب في التغير والثبات
٩٦	القول في شهوة الفرج	٤٧	(كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات
٩٨	بيان ما على المرید في ترك الزويع وفعله	٤٨	بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق
١٠١	بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والمين		

صفحة	مقدمة
١٥٤	١٠٤ (كتاب آفات اللسان)
١٥٦	وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات
١٥٧	١٠٥ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
١٥٨	١٠٨ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام
	فما لا ينيك
١٥٩	١١١ الآفة الثانية فضول الكلام
	١١٢ الآفة الثالثة الخوض في الباطل
١٦٠	١١٣ الآفة الرابعة الرأء والجدال
	١١٥ الآفة الخامسة الخصومة
	١١٦ الآفة السادسة التعرف في الكلام بالتشديق
	وتكلف السجع والفصاحة الخ
	١١٧ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة
	اللسان
	١١٩ الآفة الثامنة اللعن
	١٢٣ الآفة التاسعة الفناء والشعر
	١٢٤ الآفة العاشرة الزاح
	١٢٨ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستمراء
	١٢٩ الآفة الثانية عشرة إفشاء السر
	١٣٠ الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب
	واليمين
	١٣٤ بيان ما رخص فيه من الكذب
	١٣٦ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
	١٣٨ الآفة الخامسة عشرة النية
	١٤٠ بيان معنى النية وحدودها
	١٤٢ بيان أن النية لا تقتصر على اللسان
	١٤٣ بيان الأسباب الباعثة على النية
	١٤٥ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن النية
	١٤٧ بيان تحريم النية بالقلب
	١٤٨ بيان الأعداد للرخصة في النية
	١٥٠ بيان كفارة النية
	١٥١ الآفة السادسة عشرة النيمة
	١٥٢ بيان حد النيمة وما يجب في ردها
١٥٤	الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين
١٥٦	الآفة الثامنة عشرة للدح
١٥٧	بيان ما على المدوح
١٥٨	الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق
	الخطأ في حقوى الكلام
١٥٩	الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات
	الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ
١٦٠	(كتاب ذم الغضب والحقد والحسد)
	وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات
١٦١	بيان ذم الغضب
١٦٣	بيان حقيقة الغضب
١٦٥	بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله
	بالرياضة أم لا
٢٦٨	بيان الأسباب المهيبة للغضب
١٦٩	بيان علاج الغضب بعد هيجانه
١٧١	بيان فضيلة كظم الغيظ
١٧٢	بيان فضيلة الحلم
١٧٥	بيان القدر الذي يجوز الاتصا والتشفي
	به من الكلام
١٧٧	القول في معنى الحق وتأنجه وفضيلة
	العفو والرفق
١٧٧	فضيلة العفو والاحسان
١٨١	فضيلة الرفق
١٨٣	القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه
	ومعالجته وغاية الواجب في إزالته
	بيان ذم الحسد
١٨٥	بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه
١٨٨	بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٩٠	بيان السبب في كثرة الحسدين الأمثال
	والأقران والإخوة وبني الم والأقارب
	وتأ كده وقتله في غيرهم وضعفه
١٩٢	بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن
	القلب

صفحة

١٩٥ يان القدر الواجب في نفى الحسد عن القلب

١٩٦ (كتاب ذم الدنيا)

وهو الكتاب السادس من ربيع للهلكات

١٩٧ يان ذم الدنيا

٢٠٦ يان المواعظ في ذم الدنيا وصفها

٢٠٩ يان صفة الدنيا بالأمثلة

٢١٤ يان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

٢١٩ يان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها

التي استغرقت هم الخلق حتى أنسهم أنفسهم وخالفهم ومصدرهم ومورد

٢٢٥ (كتاب ذم البخل وذم حب المال)

وهو الكتاب السابع من ربيع

الهلكات

٢٢٦ يان ذم المال وكراهة حبه

٢٢٨ يان مدح المال والجمع بينه وبين الدم

٢٣٠ يان تفصيل آفات المال وفوائده

٢٣٢ يان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة

والأيسر لها في أيدي الناس

٢٣٥ يان علاج الحرص والطمع والدواء

الذي يكتسب به صفة القناعة

٢٣٧ يان فضيلة السخاء

٢٤٢ حكايات الأسخياء

٢٤٧ يان ذم البخل

٢٥٠ حكايات البخلاء

٢٥١ يان الإيثار وفضله

٢٥٣ يان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

٢٥٥ يان علاج البخل

٢٥٧ يان مجموع الوظائف التي على العبد

في ماله

٢٥٨ يان ذم الغنى ومدح الفقر

صفحة

٢٦٨ (كتاب ذم الجاه والرياء)

وهو الكتاب الثامن من ربيع

للهلكات وفيه شطران

٢٦٩ الشطر الأول في حب الجاه والشهرة

وفيه يان ذم الشهرة ويان فضيلة

الحجول

يان ذم الشهرة وانتشار الصيت

٢٧٠ يان فضيلة الحجول

٢٧١ يان ذم حب الجاه

٢٧٢ يان معنى الجاه وحقيقته

٢٧٣ يان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع

حق لا غلو عنه قلب إلا بشد بد الجاهدة

٢٧٦ يان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي

الذي لاحقيقة له

٢٧٨ يان ما يعمد من حب الجاه وما يندم

٢٧٩ يان السبب في حب المدح والثناء

وارتياع النفس به وميل الطبع إليه

وبعضها للدم وتقرتها منه

٢٨٠ يان علاج حب الجاه

٢٨١ يان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الدم

٢٨٣ يان علاج كراهة الدم

٢٨٤ يان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

٢٨٥ الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه

والمنزلة بالمبادات وهو الرياء وفيه

يان ذم الرياء إلى آخره

٢٨٦ يان ذم الرياء

٢٩٠ يان حقيقة الرياء وما يراى به

٢٩٣ يان درجات الرياء

٢٩٧ يان الرياء الخفي الذي هو أخفى من

ديب النمل

٢٩٩ يان ما يعبط العمل من الرياء الخفي

والجلي ، ومالا يحبط

٣٠٢ يان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

صفحة	صفحة
٣٤٤	٣٠٨
بيان أخلاق للتواضعين ومجامع ما يظهر	بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
فيه أثر التواضع والتكبر	٣١١
٣٤٨	بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكرهه
بيان الطريق في معالجة التكبر	اطلاع الناس عليه وكرهه ذمهم له
واكتساب التواضع له	٣١٣
٣٥٨	بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء
بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	ودخول الآفات
الشرط الثاني من الكتاب في العجب	٣٢٠
وفيه بيان ذم العجب وآفاته الخ	بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة
بيان ذم العجب وآفاته	بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
٣٥٩	٣٢٣
بيان آفة العجب	بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل
٣٦٠	العمل وبعده وفيه
بيان حقيقة العجب والإدلال وحدها	٣٢٦
بيان علاج العجب على الجملة	(كتاب ذم الكبر والعجب)
٣٦٣	وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات
بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه	وفيه شطران
٣٦٧	٣٢٧
(كتاب ذم الغرور)	الشرط الأول من الكتاب في الكبر
وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات	وفيه بيان ذم الكبر الخ
٣٦٨	بيان ذم الكبر
بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله	٣٢٩
٣٧٦	بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر
بيان أصناف الغرور وأقسام فرق كل	في الشئ وجبر الثياب
سرف وهم أربعة أصناف	٣٣٠
أصناف الأول أهل العلم والمفترون	بيان فضيلة التواضع
منهم فرق	٣٣٤
٣٨٩	بيان حقيقة الكبر وآفته
أصناف الثاني أرباب العبادة والعمل	٣٣٦
والمفترون منهم فرق كثيرة الخ	بيان التكبر عليه ودرجاته وأقسامه
٣٩٢	وثمرات الكبر فيه
أصناف الثالث المتصوفة والمفترون منهم	٣٣٨
فرق كثيرة الخ	بيان مابه التكبر
٣٩٥	٣٤٣
أصناف الرابع أرباب الأموال والمفترون	بيان البواعث على التكبر وأسبابه
منهم فرق الخ.	المهيجة له

[فت]

فهرس

١١٥	الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك	٧	(حكايات التوبة)
١١٦	الطرف السادس في إصلاح الأطعمة	٨	الركن الأول في قسم التوبة الخ
١١٧	الطرف السابع في إصلاح المصلحين	٩	بيان حقيقة التوبة وحدها
١١٨	الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	١٠	بيان وجوب التوبة وفضلها
١٢٠	بيان السبب العارف للخلق عن الشكر	١١	بيان أن وجوب التوبة على القور
١٢٤	الركن الثالث من كتاب الصبر	١٢	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال
١٣١	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد	١٣	فلا ينفك عنه أحد التوبة
١٣٢	بيان فضل النعمة على البلاء	١٤	بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لأعماله
١٣٨	بيان الأفضل من الصبر والشكر	١٥	الركن الثاني فيها عنه التوبة وهم القور
	(كتاب الخوف والرجاء)	١٦	بيان أقسام القور بالإضافة إلى صفات المبد
	ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على	١٧	بيان كفة توزع الدرجات والدرجات في الآخرة على
	بيان حقيقة الرجاء الخ	١٨	الحسنات والسيئات في الدنيا
١٣٩	بيان حقيقة الرجاء	١٩	بيان ما تعظم به الصفات من القور
١٤١	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	٢٠	الركن الثالث في تمام التوبة الخ
١٤٢	بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال	٢١	بيان أقسام الصبر في دوام التوبة
	الرجاء ويقلب	٢٢	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه النائب الخ
١٥٢	الشرط الثاني من الكتاب في الخوف	٢٣	الركن الرابع في دواء التوبة الخ
	بيان حقيقة الخوف	٢٤	(كتاب الصبر والشكر)
١٥٤	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف	٢٥	الشرط الأول في الصبر
١٥٥	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يحاط منه	٢٦	بيان فضيلة الصبر
١٥٧	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه	٢٧	بيان حقيقة الصبر ومناه
١٦١	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما	٢٨	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٦٤	بيان الذي به يستجلب حال الخوف	٢٩	بيان الأساس التي تتجدد لغير الخ
١٧٠	بيان معنى سوء الخاتمة	٣٠	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
١٧٧	بيان أحوال الأتقياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف	٣١	بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
١٨٠	بيان أحوال الصعابة والتأبين والسلف والصالحين في شدة الخوف	٣٢	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
١٨٥	(كتاب الفقر والزهدي)	٣٣	الشرط الثاني من الكتاب في الشكر
	الشرط الأول من الكتاب في الفقر	٣٤	الركن الأول في قسم الشكر
١٨٦	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسبابه	٣٥	بيان فضيلة الشكر
١٨٩	بيان فضيلة الفقر مطلقاً	٣٦	بيان حد الشكر وحدته
١٩٥	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراصين والفاصلين والصادقين	٣٧	بيان طريق كشف النقاء عن الشكر في حق الله تعالى
١٩٩	بيان فضيلة الفقير على الثني	٣٨	بيان عجز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
٢٠١	بيان آداب الفقير في فقره	٣٩	الركن الثاني من أركان الشكر الخ
٢٠٢	بيان آداب الفقير في قبول المعطاء الخ	٤٠	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
٢٠٥	بيان محرم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	٤١	بيان وجه التواضع في كثرة نعم الله تعالى وتسللها
٢٠٩	بيان مقدار الثني المحرم للسؤال	٤٢	وخروجها من المصير
		٤٣	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
		٤٤	الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
		٤٥	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة والآلات الحركية
		٤٦	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل منها الأطعمة الخ

ملحوظ

- ٢١٠ بيان أحوال السالكين
 ٢١١ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
 بيان حقيقة الزهد
 ٢١٤ بيان فضيلة الزهد
 ٢٢٠ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
 ٢٢٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
 ٢٣٦ بيان علامات الزهد
 ٢٣٨ (كتاب التوحيد والتوكل)
 بيان فضيلة التوكل
 ٢٤٠ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
 ٢٥٣ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
 بيان حال التوكل
 ٢٥٧ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل
 ٢٥٨ بيان أعمال التوكلين
 ٢٦٥ بيان توكل المؤمن
 ٢٦٨ بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال
 ٢٧٤ بيان آداب التوكلين إذا سرق منافعهم
 ٢٧٩ بيان أن ترك التداوى قد يحمي في بعض الأحوال ويهلك على قوة التوكل الخ
 ٢٨٣ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل لكل حال
 ٢٨٥ بيان أحوال التوكلين في الخطأ والزلل وكتابه
 ٢٨٦ (كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)
 بيان شواهد الشروع في حب المبدقة تعالى
 ٢٨٨ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة المبدقة تعالى
 ٢٩٣ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
 ٢٩٩ بيان أن أجل القدرات وأعلاها معرفة الله تعالى الخ
 ٣٠٣ بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا
 ٣٠٧ بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى
 ٣١١ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
 ٣١٢ بيان السبب في تصور أهكام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
 ٣١٤ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
 ٣١٨ بيان محبة الله تعالى للمبدق ومعامتها
 ٣٢٠ القول في علامات محبة المبدقة تعالى
 ٣٢٩ بيان معنى الأنس بالله تعالى
 ٣٣١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي يشهده خلقه الأنس
 ٣٣٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
 ٣٣٤ بيان فضيلة الرضا
 ٣٣٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
 ٣٤١ بيان أن الدعاء غير منافس للرضا

ملحوظ

- ٣٤٤ بيان أن التفرار من البلاد التي هي مطلق للناس ومنهتها لا يقدح في الرضا
 ٣٤٥ بيان جهة من محاسن المحبين وأقوالهم ومكاشفتهم
 ٣٤٩ عامة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها
 ٣٥٠ (كتاب التوبة والإخلاص والصدق)
 ٣٥١ الباب الأول في التوبة
 بيان فضيلة التوبة
 ٣٥٣ بيان حقيقة التوبة
 ٣٥٥ بيان سر قول صلى الله عليه وسلم : توبوا لله خير من سعة
 ٣٥٧ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالتوبة
 ٣٦٢ بيان أن التوبة غير داخلة تحت التائبين
 ٣٦٤ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
 فضيلة الإخلاص
 ٣٦٧ بيان حقيقة الإخلاص
 ٣٦٩ بيان أول الفروع في الإخلاص
 ٣٧٠ بيان درجات الفوائد والآفات للكدرة للإخلاص
 ٣٧٢ بيان حكم العمل للشوق واستحقاق الثواب به
 ٣٧٤ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته
 فضيلة الصدق
 ٣٧٥ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
 ٣٨١ (كتاب المراقبة والمحاسبة)
 المقام الأول من المراقبة المشارطة
 ٣٨٤ المراقبة الثانية المراقبة
 ٣٨٥ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
 ٣٩١ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ
 فضيلة المحاسبة
 ٣٩٢ بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل
 ٣٩٣ المراقبة الرابعة في معاينة النفس على تصرفها
 ٣٩٥ المراقبة الخامسة المحاسبة
 ٤٠٣ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها
 ٤٠٩ (كتاب التفكر)
 فضيلة التفكر
 ٤١٢ بيان حقيقة التفكر وثمرته
 ٤١٣ بيان مجازي التفكر
 ٤٢٠ بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى
 ٤٣٣ (كتاب ذكر الموت وما بعده)
 الشطر الأول في مقدماته وتوابعه الخ
 ٤٣٤ الباب الأول في ذكر الموت الخ
 بيان فضل ذكر الموت فيما كان
 ٤٣٦ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
 ٤٣٧ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طول وكيفية معالجته

صفحة	موضوع
٤٨٦	بيان سؤال منكر وتكبير وصورتها ونقطة القبر
٤٨٨	وجبة القول في عذاب القبر
٤٩٠	الباب الثامن في معرفة أحوال الموتى بالكشفة في المنام
٤٩٠	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة
٤٩١	بيان منامات الشايخ رحمة الله عليهم أجمعين
٤٩٤	الشعر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت
٤٩٦	من وقت فتح الصور إلى آخر الاستمرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار وفيه بيان نقطة الصور الخ . صفة نقطة الصور
٤٩٦	صفة أرض المحشر وأهلها
٤٩٧	صفة العرق
٤٩٨	صفة طول يوم القيامة
٤٩٩	صفة يوم القيامة ودوامه وأساميه
٥٠١	صفة المساءة
٥٠٣	صفة الميزان
٥٠٤	صفة الخصاء ورد الظالم
٥٠٧	صفة الصراط
٥٠٩	صفة الشفاعة
٥١٢	صفة الخوض
٥١٤	القول في صفة حنم وأهلها وأنسكالها
٥١٩	القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها
٥٢٢	صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها
٥٢٣	صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسروهم وأرائكهم وخيامهم
٥٢٤	صفة طعام أهل الجنة
٥٣٤	صفة الخمر والعين والودان
٥٢٦	بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردتهم بها الأخبار
٥٢٧	صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . تحتم الكتاب بيباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك
٥٢٨	باب في سعة رحمة الله تعالى

صفحة	موضوع
٤٤١	فضيلة نصر الأمل
٤٤١	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٤٧	بيان مراتب الناس في طول الأمل والصره
٤٤٣	بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٤٥	الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال منه
٤٥٠	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٥١	بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بمكاييل يرب لها الحال عنها
٤٥٣	الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلفاء الراشدين من بعده
٤٦٠	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٠	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٦٢	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٦٣	وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٤٦٤	وفاة علي كرم الله وجهه
٤٦٨	الباب الخامس في كلام المحتضرين من المخلفاء والأسماء والصالحين
٤٦٥	بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين
٤٦٨	الباب السادس في أقاويل المارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارته القبور
٤٦٩	بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور
٤٧٣	بيان أقاويلهم عند موت الولد
٤٧٧	بيان زيارة القبور والدعاء للميت الخ
٤٧٧	الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نقطة الصور
٤٨٧	بيان حقيقة الموت
٤٨٧	بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال
٤٨٣	بيان عذاب القبر وسؤال منكر وتكبير

فهرس

بقية عوارف المعارف للسهروردي الذي بالمهامش

صفحة	صفحة
٢٥٢ الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتفصيلها وتميزها	٢ الباب التاسع والأربعون في استقبال النهار والأدب فيه والعمل
٢٨١ الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والقام والفرق بينهما	٣٢ الباب الخمسون في ذكر العسل في جميع النهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨ الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	٧٨ الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ
٣٣٥ الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	١١٧ الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يستند مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣ الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	١٣٨ الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصفة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩ الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	١٦٥ الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصفة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥ الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	١٨٠ الباب الخامس والخمسون في آداب الصفة والأخوة
	١٩٧ الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بمجد الله تعالى تم طبع كتاب [إحياء علوم الدين] لمجدة الإسلام الإمام الغزالي ، ومعه كتاب [الكافي عن سبل الأسفار في الأسفار في تخرج ما في الإحياء من الأخبار] لمافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهامشه ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر العيدروس باعلوى .

الثاني : الإيماء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الغزالي .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الفرز الى واخيه، علوم الدين

تمهيد في التصوف الإسلامي :

- ١ -

جاء الإسلام على فترة من الديانات ، وبث محمد صلوات الله وسلامه عليه على فترة من الرسل ، ليميد لعقيدة التوحيد صفاءها وقاءها ، ويطهرها من أدران الشرك والوثنية ، وليعدل زيف البشرية في عقائدها وعبادتها ومعاملاتها ؛ وليرسي القواعد الأساسية التي تقوم عليها صلة الإنسان بربه ، وتنهض بها علاقته بأخيه الإنسان ؛ وليرسم للناس مقاييس السلوك ، ويتم مكارم الأخلاق ؛ ويضع بكل ذلك دستوراً للمجتمع قوى سليم ، تصان فيه حقوق الإنسان وحرياته ، وتحدد فيه أعباءه وتكاليفه في المجتمع الذي يعيش فيه .

وكان في تعاليم الإسلام ونصوص القرآن أكبر باعث على تنمية الضمير الإنساني .

قد جعلته تلك التعاليم بمنطق أن عليه رقيقاً حسيباً : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ، وهو يبعد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وهو الذي : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . وبذلك يعلم أنه لو خُلِّيَ بينه وبين المصيبة لما اقترفها ، لأنه يرى بضميره ذلك الرقيب في السر ، كما يرى آياته ماثلة شاخصة ، ويراه في جنح الظلام ، كما يرى الذين يخشام في رائحة النهار وأنها : « إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

وخلاصة مبادئ الإسلام مبدآن : عملٌ لدنيا وعملٌ للآخرة . يتلخصان في قوله تعالى : « وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » . وقول الرسول : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ومقتضى العمل لدنيا أن يكون الإنسان فرداً فعالاً يؤثر فيها حوله ، ويتأثر بما حوله . وليس للحي مناص من خوض معترك الحياة ، يضطرب فيها يضطرب فيه الناس ، ساعياً في رزق ، أو طالباً للمجد وكرامة ، وتلك سنة الحياة وطبيعة الأحياء ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً مادامت السموات والأرض .

وإذا وجدت فكرة التبتل والاقطاع شيئاً من الدعوة إليها ، فإن في النصوص الصريحة من الكتاب والسنة ما يؤيد فكرة العمل وما يبحث عليها وبطالها بها في إصرار وتوكيد ، حتى تصبح فكرة التبتل والاقطاع وسيلة لتكبيح جراح النفس ، والمبالغة في طلب الحياة والحرم عليها ، واستسلام النفس للغزوات وحب الشهوات .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق شاهد على ذلك ؛ وهو القدوة لكل مسلم ، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ومنتهى القول فيه أنه إنسان كامل : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

وآثاره صلى الله عليه وسلم في العمل والكسب كثيرة ، منها قوله : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا في غفاف كان في درجة الشهداء » . وروى عائشة رضي الله عنها أن النبي صنع شيئا ترخص فيه ، وتبره عنه قوم ، فبلغه ذلك . حمد الله ، ثم قال : ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية !

هذا العمل نفسه ، وإن كان الدنيا ، وإن كان للفرد يتحرى به خيره أو خير غيره ، عمل للآخرة إذا ما اتبع فيه الحق ، وأنصف نفسه من غيره ، وأنصف الناس منه ، وابتنى بذلك الإنصاف وجه الله والدار الآخرة ، وراعى أصول العقائد والعبادات التي تكون بين العبد وربه ، لا تتجاوز تلك الدائرة إلا قليلا .

وهكذا كان القصد والاعتدال من سنن الإسلام ، الذي يمتثل للنواشئ المقت . فالإسراف في النفقة رذيلة ، والسرقة من إخوان الشياطين ؛ مع أن بذل المال مطلوب ، وكنزه يوجب العقاب : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . ولكن الذي يضيع ماله على خلاف مقتضى العقل والشرع ، ولو في الخير كبناء المساجد ؛ سفيه ينبغي الحجر عليه ومنعه من التصرف في ماله .

والذي يفت نفسه في ضروب العبادات ويبالغ فيها مسرفا ، كالمثبب الذي لا يقطع أرضا ، ولا يبقى ظهرا . ومثله سواء بسواء المقبل على الدنيا ، الماكف على لذتها ، التهاك على عرضها الزائل ، الذي شغل بها عما عند الله ، وغفل عن حق ربه ، وحق دينه ، وحق غيره فيما عنده .

كذلك كان الإسلام ، وكذلك كانت سماحة الإسلام : فرض على المسلم صلاة وزكاة وصوما وحجبا ؛ وكتب عليه جهادا لا يقوى عليه إلا بحسن التدبير الذي يستلزم صحة الأبدان وصحة العقول ، وإعداد المال والرجال ، من غير ظفیان حق على حق ، أو إضرار المأجلة على الآجلة .

وسار المسلمون هذه السيرة في الصدر الأول ؛ حتى آل الأمر إلى ملك عضوض ، أصبحت فيه السياسة فنا لا يتخرج فيه عن الوسيلة في التماس التلبية ، وطلعت المادية على رجال الحكم ، وقدم في ذلك رعاياهم ، فأقبلوا على الدنيا وعكفوا على ضروب الخداع والبهو ، واتخذوا الجوارى والقيان ، وسكنوا القصور ، وعمرروا الأرض ، واصطنعوا الملاذ التي كان يرفع عنها المسلمون في الصدر الأول ، وحاموا حول الشبهات ، واستهقروا بها ، وتأولوا في استباحتها آى القرآن وسنة النبي .

وقد كان خلفاء بني أمية سياستان اقتضاهما الحفاظ على الملك في يديهم يتوارثه أبناؤهم وخلفاؤهم ، فهم يتبعون سياسة القمع ويملكون السيف والصف مع الخارجين عليهم من أهل العراق الذين كانوا شعبة لعلّ وأهل بيته ؛ وهم يتولونهم بالجفاة الغلاظ من الولاة والعمال ؛ على حين يصانعون أشراف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقين على سياسة بني أمية تتطلع إليهم ، فترى الخلفاء يلبثون لهم في القول ويتجاوزون عن مسيئهم ، ويشجعون حياة اللهو والترف فيهم بما يندقون عليهم من العطاء ، ليشغلهم عن التطلع إلى الخلافة وإلى مناصب الدولة .

أما ذرو الجاه الذين مذ لم السلطان في الأسباب فظلوا سادرين في لهوم وترغهم . على حين يئس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا .

وكان هذا اليأس من المنصب والحرمان من البر والفرار من الفتنة التي حدثت في صفوف المسلمين ، مدعاة لمكوفهم على العبادة والزهادة ؛ فانطوا على أنفسهم ، يتذكرون كتاب الله وسنة نبيه ، ويشغلون أنفسهم بقصص الوعد والزهد ، والتصبر بما وعد الله الصابرين من الأجر وجزيل الثواب .

فاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منها نصوص الترغيب فيما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليحصلوا منهجهم في الدار الآخرة ؛ وروا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله وكسب رضاه ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله ، وهم يوقنون أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب التي دنسها حب الدنيا التي استغرق أكثر همها طلب الحاجة ؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطان : « زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَنْخِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخِرَاطِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّأَبِ » .

والأصل هو معرفة الله تعالى ، ثم سلوك الطريق إليه ، فأما أمر الآخرة فيكفي فيه الإيمان المطلق ، فإن المعارف المطيع معاداً مسعداً ، وللمجاهد الماصي معاداً مشقياً ، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط في السلوك ، لكنه زيادة تكميل للتشويق والتحذير ^(١) .

وذلك الأصل هو الذي أفنى فيه أولئك زهرة حياتهم ، وهو الذي أنفقوا في التعرف عليه جل ما وهبوا من عقل وتفكير ، وهو الذي ساقهم إلى التدبر في فهم آثار الصنعة ، حتى يتسنى لهم الوصول بها إلى المعرفة الحقة بالصانع ، وتلك المعرفة غاية في ذاتها ، إذ بها يصبح العبد ربانياً ، وفي ذلك تلك الغاية السعادة الحقة ، وكل ما يصبطنه العبد من عمل ومجاهدة إنما هو للوصول إلى تلك الغاية ، غاية المعرفة .

ولا تكون تلك الغاية لمن نظر إلى غير الخالق ، لأن النظر إلى غيره عَمَى عنه ، وغفلة عن طريقه ، ولا يحمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد ، كيف وهو يجد عند الله كل ما يريد ^(٢) ، وإذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس .

(١) النزالي : جواهر التركان ١٢ (طبعة الرحاية - القاهرة ١٣٥٢ هـ)

(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ٣/١ (مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

والطريق إلى الله يستلزم أمرين : الملازمة والمخالفة . وللملازمة ملازمة ذكر الله تعالى ، والمخالفة لما يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . وليس في هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه ، فإنهما معاً . أو ما سمعت قوله تعالى ، وهو أصديق القائلين : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ١٢ .

بل مثل الطالب والمطلوب ، مثل صورة حاضرة مع مرآة ، وللمرآة ليست تتجلى في المرآة لصدا في وجه المرآة ، فتقضي صفتها بتجلى فيها الصورة ، لا بارتحال الصورة إلى المرآة ، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ، ولكن بيزوال الحجاب ، فإن الله تعالى متجلى بذاته لا يخفى ، إذ يستحيل اختفاء النور ، بل بالنور يظهر كل خفاء ، والله نور السموات والأرض .

وإنما خفاء النور من الحديقة لأحد أمرين : إما لكدورة في الحديقة ، وإما لضف فيها ، إذ لا تطيق احتمال النور العظيم الباهر ، كما لا يطيق نور الشمس أبصار الخفافيش والنور يتجلى في بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح ؛ وفي بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرآة وصقلتها وصحة استدارتها ، واستقامة بسط وجهها ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة (١) » .

ومن هذا الدليل المادى كان الانحياز المملى إلى جلاء النفس وصقلها ، وسبيل ذلك مجاهدة النفس وإحكام مخالفتها بالانصراف عن الدنيا ، والمكوف على العبادة ، وترويضها بطول الخلوة والسياسة والصوم وقلة الطعام في الفطر وكثرة الذكر ، وغير ذلك من وسائل حمل النفس على غير ما تشهى .

ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام ، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولئك الزاهدين في الدنيا وزينتها .

وكانت بعد ذلك حركات عقلية اتجهت أودية التفكير الإسلامى ، ونهبت المسلمين إلى ألوان من المعرفة لم يكن لهم من أكرها حظ ؛ وضروب من التفكير لم يسبق لهم مزاولتها ، والأمة الإسلامية تتطلع إلى احتلال منزلتها ؛ وبناء مدينتها على تلك الأسس الوطيدة التى أرسى دعائمها الإسلام ، وهو دين البشرية الذى بعث صاحبه إلى الأسود والأحر : « لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » وهو رسول الله وخاتم النبيين .

ولذلك كان على حماة هذا الدين والقوامين عليه أن يطوفوا بكل جهات المعرفة ، ويقفوا على ما عند غيرهم من أبناء الأمم من ضروب المعرفة وألوان التفكير ، حتى لا تخفى عليهم زاوية من زوايا العقل ، ولذلك لم يقفوا عند حدود النصوص ليؤمنوا بها إيماناً مطلقاً ، ولم يمدوا يكتفون بالإيمان المجرد . بل أحسوا بضرورة البحث فى أسس هذا الإيمان وضرورة تطبيقه على العقل . وقد وجدوا فى نصوص الدين ما يبحث على ذلك النظر وما يشجع على إعمال العقل والتفكير

وكانت هناك أم سبقتهم إلى البحث والتفكير فى الكون وخالقه ، والحياة وما وراءها ، والإنسان فى

حياته وموتوبته . وكذا تلك الأم تراث خلفه طائفاً ، وورثته حكماؤها الإنسانية لتتظرفه ، وتقص منه أو تزيد عليه . ما وسعها الزيادة وما وسعها التهديب والتصحيح .

وجدة المسلمون في جمع ذلك التراث ونقله إلى لسانهم العربي ، حتى إذا اجتمع لهم منه شيء كثير ، أخذوا في تفهيمه ومدارسته ، وجدوا في تحميمه وتطبيقه على ما ورثوه من دين ومعرفة وحقيقة وعجالة ومعلمة وسلوك .

وقد بلغ هذا التيار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجريين . ففي هذين القرنين كانت أودية العلم تخرج بتلك التيارات الفكرية الطارئة التي حذقها كثير من المسلمين ، وحظم بذلك سلطان النقل ، وطمى الجدل بين العلماء طغياناً كاد يُنسى كثيراً منهم الأصل الذي ورثوه من إسلامهم وعروبهم .

فالحكمة الهندية وفلسفة فارس وفلسفة يونان ومنطقهم ، كل ذلك أصبح يجري على ألسنة العلماء ولتتكلم من المسلمين ويشغل بهم ، ويدعهم إلى البحث في دينهم وأصول عقائدهم على ضوء هذه المعرفة التي جذت على بيتهم ووجد فيهم من يتمصّب تلك الثقافات الطارئة ، ومن يؤثرها على ثقافته الأصيلة ، إلى جانب الذين وصلوا هذه جلت ، وكوتوا من هذا المزاج زاداً جديداً للنقل العربي الإسلامي .

وعاد الأمر إلى أولئك الزهاد الذين صدقوا من الدنيا وزينتها ، ولم تعد السلبية التي كانوا يؤثرونها قبل منهم في هذا المجمع المضطرب ، قد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة ، سواء أكان ذلك المنهج منهجاً نظرياً ، أم منهجاً عملياً . وقلّك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة فكرتهم في الحياة حتى تنهض على أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غورم سلوكهم في الحياة .

الإمام الفيزالي

وقد أنجب القرن الخامس الهجري طائفاً من أعلام الفكر الإسلامي ، هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الفيزالي ، ويحمل بنا أن نشير إلى شيء من تاريخ هذا الإمام ، لنقف من هذا التاريخ على العوامل التي تظلمت على تكوين هذه العقيدة القريضة ، وألوان الثقافة التي احتشدت في ذهنه ، وجعلته أهلاً لأن يحتل تلك المكانة الجليلة بين زهاد المسلمين ومتصوفهم وأبناء مفكرهم .

وفي مدينة طوس^(١) وفي منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠ هـ) ولد أبو حامد بن أبي علف القلب واليد ، بفزل الصوف وبسببه ، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم . والتقهاء في دروسهم ، والوعاظ في مجالسهم ، يستمع إليهم ، ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة ، ويلطفهم بما يفضل من قوته وحاجته . وكان

(١) طوس : مدينة بخراسان . بينها وبين نيسابور مسيرة فراسخ ، فيها المسلمون في أيام صفوان بن مهران ، وبها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، وبها آثار إسلامية جليلة .
قال ياقوت : خرج من طوس من أئمة أهل السلم والفق مالا محصو ، وحبيبك بأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الفيزالي الطوسي جوازي التتويج أخيه .. (معجم البلدان ٦/٧١) .

تأثره بتلك المجالس وما يدور فيها من فنون العلم والوعظ عظيمًا ، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولها من صلبه مجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يملكون الناس أمور دينهم ، ويبصرونهم بخير الحياة الدنيا والآخرة . واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين : أحدهما أبو حامد الذي نتحدث عنه ، والآخر أخوه أحمد الذي اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة ^(١) .

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح وصى بأبي حامد وأخيه صديقاه من أهل التصوف . وقال له : إن لي تأسفا عظيما على ما فاتني من التعلم ، وأشتهى استدراك ما فاتني في ولسي هذين ، فسلمهما ، ولا عليك أن ينفذ في سبيل ذلك جميع ما أخلفه لهما .

وأغذ الصوفى وصيته ، وأقبل على تعليمهما ، حتى فنى المال القليل الذي خلقه أبوهما ، وتعذر عليه المضى في تعليمهما أو تقديم الطعام الذي يقتاتان به . ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التي تقدم لطلاب العلم فيها الغذاء والكساء . وقد أحسن الرجل بذلك صنعا إلى هذين التيسين الذين لا عائل لهما ولا مال يسينهما على الحياة ، ولذلك كان النزالي يقول وهو يذكر هذا الصنيع : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله » . ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش ، يُجْزى عليهما بسببه ما يُجْزى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الناية الحقيقية من طلب العلم ، وهي معرفة الله تعالى حق المعرفة !

هذا أبو حامد يقرأ في صباه طرقا من الفقه ببلده (طوس) ثم يسافر إلى (جرجان) ^(٢) ويأخذ عن أبي نصر الإسماعيلي ، ثم يرجع إلى طوس ، فيقيم بها إلى ما شاء الله حتى يرتحل إلى (نيسابور) ^(٣) فيلازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، ويجد في طلب الفقه ، فيبرع فيه وفي الجدل والمنطق والفلسفة وبقفه كلام أهل تلك العلوم ، ويتصدى للرد عليهم ، وإبطال دعاوهم ، ثم يقصد (المسكر) بعد وفاة إمام الحرمين ، ويلقى فيها الوزير نظام الملك ، ويتناظر في مجلسه الأئمة والعلماء ، ويقهر مناظريه ، حتى يعترف الجميع له بالفضل ، ويأمره نظام الملك بالتوجه إلى (بغداد) والتدريس في المدرسة النظامية ، فيقدمها سنة ٤٨٤ هـ وفي تلك المدرسة يعظم مجده ، ويتألق نجمه ، ويذيع صيته ،

(١) هو أبو الفتح أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي النزالي للقب مجد الدين . قال ابن خلكان : كان واعظا مليح الوعظ ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ ، فقلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد . لا ترك التدريس زهادة فيه ، واختصر كتاب أخيه أبي حامد المسمى بإحياء علوم الدين في مجلد واحد ، وسماه (باب الإحياء) وله تصنيف آخر سماه (التخيير في علم البصيرة) وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلا إلى الانقطاع والزلة . وتوفي أحمد بجزون في سنة صفر من وخسمائة [انظر وفيات الأعيان ١ / ٢٠٧ - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة : ١٣٥٥ هـ]

(٢) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، بعض أهلها من هذه وبعضهم من هذه . قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها صفوة من الأدياء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ أنه حزة بن يزيد السهمي . قال الإصطخري : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بتواحيها ، وهي أقل ندى ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة من كبارهم . ولجرجان مياه كثيرة وضياء عريضة . وليس بالشرقي بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حنا من جرجان (راجع معجم البلدان ٣ / ٧٥ طبعة السعادة ١٩٠٦ م)

(٣) نيسابور : بلد كثير القواكة والمبرات ، كان المسلمون قد فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والأمير عبد الله بن طاهر ابن كرز في سنة ٣١ سلطا ، وقيل إنها تمتعت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأخنف بن قيس ، وإنما اكتسبت في أيام عثمان ، فأرسل إليها عبد الله بن طاهر ففتحها ثانية .

حتى يقال إن مجلس النزال كان يحضره ثلثمائة حامية من أكابر العلماء . وأصبح مضرب الثقل في التدريس والإفادة ؛ تشد إليه رجال طالب العلم وأهل الورع . ولكن نفسه تصد عن المنصب والجاه ، ويرى أن العلم مع شرفه ، والتعليم القوي يقوم به ، غير خالصين لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحرکہا طلب الجاه وبعد الصيت ، فتبين أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشقى على الهلاك إن لم يسرع بتلافى ما هو فيه .

وحينئذ يظهر عزمه على الخروج إلى مكة ، وهو يدبر في نفسه السفر إلى الشام ، ولكنه لا يصرح بنيتة خفراً أن يطلع الخليفة ووجه الأصحاب على عزمه المقام بالشام ، فيتلفط بلطائف الحيل في الخروج من بغداد وهو ينوي ألا يماودها أبداً ؛ واستهدف بذلك لأئمة أهل العراق ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كان فيه حياً دينياً ، قد ظنوا أنه بلغ المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

وقد ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ، وإما من قرب من الولاية ، وكان يشاهد إلماحهم في التعلق به والانكباب عليه وإعراضه عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوي ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت الإسلام وزمرة أهل العلم !

وقارق بغداد ، بعد أن فرق ما كان معه من المال ، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرصدٌ للمصالح لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم يرفى العالم مالا يأخذه العالم لئلا يصلح منه . ودخل الشام ، وأقام به ما يقرب من سنتين لا يشغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، فكان يعتكف في مسجد دمشق ، يصعد منارته طول النهار وينلق بابها على نفسه ، حتى رحل إلى بيت المقدس ، يدخل كل يوم الصخرة ، وينلق بابها على نفسه .

ثم تحركت فيه داعية الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسار إلى الحجاز ؛ حتى جذبتهم المهم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن نية الرجوع إليه .

وفي تلك الرحلات صدفت نفسه عن الدنيا ، ولبس الخشن من الثياب ، وقلل طعامه وشرابه ، وصار يطوف المشاهد ويزور المقابر والمساجد للفتة والاعتبار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، وفي هذه الأثناء ألف هذا الكتاب (إحياء علوم الدين) حتى رجع إلى بغداد فحدث به .

عاد النزال بعد ذلك إلى خراسان ، وانقطع للعبادة ، وآثر العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، حتى طلب إليه فخر الملك بن نظام الملك أن يقوم بالتدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور ، ولكن النزال تأبى وقال : أريد العبادة ! فقال له : لا يحمل لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك ! فدرس مدة يسيرة .

يقول النزال في ذلك : ترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تمثلاً بالمعجز عن إظهار الحق

بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرك داهية سلطان الوقت من نفسه ، لا بهريك من خارج ، فلم أمر إلزام بالتهوؤ إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة . وبلغ الإلزام حياً كان يشي - لوأصرت على الخلاف - إلى حد الوحشة . فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزة الكسل والاستراحة . وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بصبر مطلة الخلق ، والله تعالى يقول : « أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... » الآية . ويقول عز وجل : « وَكَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ فَذَرْنَاهُ وَمَنْ عِندَهُ خِزْيَانٌ لَذِينَ » . فاشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والشهادات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزة ، والخروج من الزلوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله تعالى على رأس هذه اللآلة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحکم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسّر الله تعالى الحركة إلى (نيسابور) للقيام بهذا المهم في ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة ...

قال : وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فارجعت ؟ فإن الرجوع عود إلى ما كان ! وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعلمي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فالدعوى إلى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني !

وأنا أبني أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري الأصل إلى مرادى أم أخترت دون غرضي ؟ ولكني أومن بإيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أتحرك ، لكنه حركني ، وأنى لم أعمل ، لكنه استملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ^(١) .

وأخيراً يعود النزالي إلى طوس بعد اللدة التي قضاها في نيسابور ، ويتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخطابه للصوفية ، ويوزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، حتى توفي في رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٥ هـ .

✽

ذلك ما استطاعت صفحات التاريخ أن تفيه من حياة أبي حامد الرجل في هذه الحياة الدنيا . أما عقليته ، فقد رأينا أن هذه السطور لا تكاد تصورها الصورة الكاملة ، ولن نجد في هذه الترجمة إلا لمحة من قهره وورعه وعلمه وزهده ، وقد لا يجد القارئ في هذه الصورة شيئاً غريباً ، إنها صورة طادية تمثل رجلاً نشأ صغيراً ، فزهد كرهاً أو طوعاً ، ونصوف راصياً أو مضطراً .

وتلك الملامح كثيرة الوجود في البيئات الإسلامية في عصر أبي حامد وفي غيره من العصور الإسلامية .

وانك لو اجدت العلم الذي يطلبه الغنى والفقر ، والعلم المربى يجرى في المجالس والمدارس والمساجد ميسراً لطالبه ، ولا يكاد يكلفهم نفقة ولا جهداً .

بل ربما كان طلب هذا العلم باباً من أبواب الرزق ، وسبباً من السبل التي يسلكها الكثيرون من طالبى الحياة لأجل القوت ، حتى يتقوا على السعى والسكد في طلبها ، أو حتى يفتح لهم هذا العلم نفسه باباً ، ويهيئ لهم بين العلماء منزلة تهيئ لهم منصباً وجاهاً ، ينالون به المحظوة والرفق عند أصحاب الملك والسيادة والسلطان ، فتدر لهم أخلاف العلماء ، وينالون بالعلم ما يشتهون من زينة الدنيا وترفها . وهذا ما تؤكد به قصة الصوفى مع أبى حامد ، بعد استهلاك القليل الذى خلفه أبوه له ولأخيه ؛ واضطراره لأن يدخلها مدرسة كأنهما من طلبة العلم . ويؤكد أيضاً كلمة الغزالي السابقة : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا الله ! »

ولا شك أن كثيراً من شباب المسلمين قد سلك تلك السبل التي سلكها أبو حامد ، ولكنهم لم يتمتعوا بما متع به من العقلية الصافية والذكاء الخارق والإخلاص للعلم ، والتفانى في طلب الحقيقة ، بسلوك سبيلها ، وهو سبيل شاق طويل ، لا يقوى على سلوكه إلا أولو العزم من الباحثين الصابرين ، الذين إذا التوى بهم طريق ، ووجدوه لا يوصل إلى الناية ، جددوا العزم وشحذوا قوتهم وطلبوا غيره ، ووجدوا في هذا العناء وفي تلك المصابرة والمتابعة متعة لنفوسهم وراحة لعقولهم الجادة في طلب المعرفة .

الشك عند الغزالي :

عاش الغزالي في القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى فضحت فيه العقول واستوت أودية التفكير وتعددت روافده ، بين أصيل ودخيل ، وآخذ من هذا وذاك . واختلفت أساليب المعرفة ، ومناهج البحث عن الحقيقة التي ينشدها كل مفكر . وكثر المتكلمون في العقائد وفي أصول الدين ، وفي الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفي المذاهب والديانات ، وفي أفعال العباد وغاياتهم .

وكثر المتكلمون في كل مسألة من تلك المسائل ، واختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة ، والمذاهب المتباعدة يصبح ضرباً من المستحيل .

وتبدو الصعوبة في أعظم صورها أمام كل باحث يريد أن يختط لنفسه خطة بين هذه الخطط الكثيرة والأكثر من يتخيرون لأنفسهم طريقة من الطرق السلوكية يكفون عليها ؛ ويفقهون نهجها ، ثم ينالون بها ما وسعهم الغفلة . وربما كانت مقالاتهم دون غيرها من المقالات ، وربما كانت أدلتهم دون أدلة غيرهم ، ولكنهم في الواقع يؤثرون السلامة بالبحث في دقائق إحدى النواحي ، على حين يفعلون غيرها أو يلمون بها إلماماً عاماً ، ولم يتسع لهم الوقت للإيمان في المناهج الكثيرة التي تباين منهجهم ومقاتلهم .

وأمام هذا الغلو في الاعتقاد والتمصب لرأى أو لمنهج أو طريق سلوك ، ورفض كل ما عدا أولئك ، يجد الباحث المجدد نفسه أمام تيار من التردد ، وسيل من الشك في أى الطرق يختار لنفسه ، إن كان لا يرى التقليد في إثبات هذا المذهب على ذلك .

وجد النزالي نفسه بين هذه للذهاب التي لا تكاد تحصى ، وأمام تلك الاتجاهات التي يستحيل التوفيق بينها ، فبدأ حيث بدأ غيره يلم بأطراف من الثقافة السائدة ، ونفسه تتطلع للزيد ، وإذا المزيدي الذي يريد اليقين بسلمه إلى شك طويل ، وإذا هذا الشك يبدو أمامه في كل أثر ، ولكنه لا يسرع إلى النفي ، ولا يسرع إلى اليقين ؛ فإن قلبه وعقله لا يرضيان بما رضى به غيره من الاتباع . ولذلك اضطره الشك إلى المكابدة في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وإلى الجرأة من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يقاع الاستبصار .

إن اختلاف الخلق في الأديان والمال ، سم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق - كما يرى النزالي - بحر غرق فيه الأكترون ، وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » ، وهو الذي وعد به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » قد كان ما وعد أن يكون !

ورأى النزالي أن أصحاب الأديان كان التقليد ، كما كانت الوراثة ، السبب في نشأتهم على اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ، فصبهان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبهان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبهان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . والحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ! » .

ويحكى النزالي عن نفسه في « المنقذ من الضلال » أنه لم يزل في عنفوان شبابه ، منذ راق البلوغ قبل العشرين إلى أن أناف ستة على الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوف الجبان الخنور ، ويتوغل في كل مظلمة ، ويتجهج على كل مشكلة ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين الحق ومُبطِل ، ومتسنن ومبتدع ، لا يفادر باطنيا إلا أحب أن يطلع على بطائنه ، ولا ظاهريا إلا أراد أن يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا إلا اجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا حرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا ترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا نجمس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

ويقف النزالي عند قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » ويتحرك باطنه إلى معرفة حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات التي أوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فيقول في نفسه : إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هي ؟ ويظهر له أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والرم . ويعلم أن كل ما لا يلمه على هذا الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس يعلم يقيني !

فهو يتطلب المعرفة الحقة ، المعرفة التي ترادف اليقين ؛ وكان يوقن في قرارة نفسه بتلك النظرية الثابتة « إن الحقيقة لا تتمدد » ولكنه يرى التحدّد في الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب ؛ إذن لا يكون الحق إلا ديناً واحداً ، ومذهباً واحداً ، ومقالة واحدة . أو ببساطة أخرى لا يكون المعتقد إلا واحداً ؛ والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحداً ؛ والتفكير المستقيم هو الذي يسلم إلى هذه الغاية .

ولكن الأديان متعددة ، والمناهج شتى ؛ تفيض بها أودية التفكير ؛ إذن فلا بد أن تكون هناك عوائق ، حالت بين القول وبين النهج السوي ؛ لآفة أصابتها ، أو علة اعترتها ؛ فكان هذا التصبب للبل والنحل ؛ والناس عبيد لما عرفوا ، وأعداء لما جهلوا .



سبل المعرفة :

قلنا إن النزالي ابتداً طريق المعرفة بالشك فيها هو حاصل لدى بعض القول ، وفيها هو مسلم به لدى بعضها دون البعض ، وهو يبحث عن طريق الأمان ، ولا أمان إلا بالعلم اليقيني الذي لا يقبل الشك ولا التردد ، وطسمته تأبى التحدّد ، فما الوسيلة إلى هذا العلم اليقيني المزم للقطرة المصافية والعقل السليم ؟

نشد النزالي هذه الوسيلة في الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ؛ لتكون الوسيلة في فهم المشكلات ، ليتيقن أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط في الضروريات ، من جنس أمانه الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له ؟

وأقبل مجد يبالغ في تأمل المحسوسات والضروريات ، وأخذ ينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها ؟ واتهى به طول التشكيك إلى أن لم تسبح نفسه بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ إن أقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأداة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ؛ ويكذبه حاكم العقل ويخونه ؛ تكذيباً لا سبيل إلى مدامته . قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً !

لعلّ سبيل تلك الثقة هو العقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : المشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً .

هنا لا نجد النزالي سبباً واقعياً واحداً يبنى به الثقة بهذه الحقائق العقلية ، التي يلتقي عندها أصحاب القول قاطبة ، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم ؛ ولكنه رجل شك كما أسلفنا ؛ فلا بد أن يجرى مع مذهبه في التشكيك ، ولكنه لا يستطيع أن يبنى الثقة بالعقليات عن سبيل العقل ، ولا عن سبيل التجربة والحس والشاهدة ، وإذ ذاك يلتبس الشك من سبيل الجدل والفسطة ؛ ويخترع لذلك قياساً عجيباً ؛ فيزعم أن المحسوسات جادته وناقشته وحاجته قائمة : بم تأمن أن تكون ثقتك بالمعانيات كثفتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ؛ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، ومن وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا نجلى كذب العقل

في حكمه ، كما نجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم نجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ؟
وتتوقف للنفس في جواب ذلك قليلاً ، وتؤيد إشكالها بالنام ، وتقول : أما ترك اعتقاد في النوم أموراً ،
وتتمثيل أحوالاً ، وامتدادها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ ، فتعلم أنه لم يكن لجسم
متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطاقيل ؟ فم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة
إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن نظراً عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى
منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بقظتك خيالات
لاحاصل لها . ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لم إذا غاصوا
في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه العقول ، ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات
الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

خطرت له تلك الخواطر ، وهو في غمرة الشك والارتباب ؛ إنه يبحث عن يقين يجعله محور البحث ، ونقطة
يبدأ منها سبيل الأمان ؛ ليسير نحو الغاية المنشودة بخطا ثابتة ، لا تنتقل إلا إذا اطمأنت إلى سلامة ما قبلها ، وعرفت
أنها تسير فوق أرض صلبة .

وحاول أن يخلص من هذا الظن ، وأن يقطع الشك باليقين فلم يتيسر له ، إذ لا وسيلة إلى القضاء على تلك
الشكوك إلا بالدليل ، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن تلك العلوم الأولية
مسئلة لم يمكن ترتيب الدليل !

إن نفي الاعتماد على الحواس في سبيل إدراك العلم اليقيني اعتماداً على بعض ما يبدو من خداعها قد يكون له
مايسوغه . ولكن هناك من طرق الكشف ما يمكن معه تصحيح تلك الأخطاء والأوهام ، وقد نبه الفزالي نفسه
إلى شيء من هذا يمكن به تحقيق بعض شبه العارضة . ولكن ما ذهب إليه من جواز تنفيذ أحكام العقل لا يجد
مسوغاً إلا هذا القياس الذي رأيناه ، وفيه من الضعف ما فيه ؛ إذ أن التفكير السليم إذا خضع للنطق واعتمد على
المقدمات الصادقة كانت أحكام العقل والنتائج التي تقضى إليها نتائج نهائية في كل زمان وفي كل مكان .

أكبر الظن أن تلك الآراء ؛ كانت رد فعل لما أحدثه الطبيعيون والفلاسفة في بيئات التفكير الإسلامي ، وهيام
بعض المقلدين بأرائهم واعتنائهم إياها ودفاعهم عنها وعن أصحابها ، مباهاة للجمهور الذي قد يجهل كثيراً من تلك
الأنفكار الطارئة ، ولا يبي إلا الأفكار التي أخذها عن الإسلام وتراث المروية ، ورأى الغناء بها من تحصيل هذا
العلم الطارئ ، الذي لاصلة له بمعتقد ولا أثر له فيه ، ولا سيما أن هذا اللون من المعرفة منسوب إلى جماعة من
القدماء ؛ يعرف عنهم قبل كل شيء أنهم من أهل الوثنية . وقد صرح بهذا الفزالي في التفات ، وأنه رأى طاقة
يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأرباب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ،

واستحقوا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوفى من المحظورات ، واستهانوا بعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلموا بالكلية ربة الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ؛ ولا مستند لسكفرهم غير تقليد سماعي إلقي ، كتقليد اليهود والنصارى إذ جرى على غير دين الإسلام نشوهم وأولادهم ؛ وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظري صادر عن التثني بأذيال الشبه للضارقة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما انفق لطوائف من النظائر في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كمقراط ^(١) وبقرات ^(٢) وأفلاطون ^(٣) وأرسطوطاليس ^(٤) وأمثالهم ؛ وإطناط طوائف من متببعهم ، وضلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ورقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ، لفرط الذكاء واللفظنة ، باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها تواميس مؤلفة وحيل مزخرفة . فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخرطوا في سلكهم ، وترفوا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ، فلما بأن إظهار التكاسيس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد من تقليد خرق وخيال ، فآية رتبة في عالم الله أحسن من رتبة من يتحمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل نصديقاً ، دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً ^(٥) ؟

وقع النزالي في هذه الأمشاج من المقالات والمقارن ، ووجد نفسه أمامها ؛ فأملت عليه تلك الآراء فيها ، وهو رجل يبرأ من الحول والطول ، ويسلم وجهه لله ، ويؤمن بأن الهدى هدى الله ؛ وكمن من حسن فتن صاحبه فأرداه ؛ وكمن عقل أضل صاحبه فأغواه عن سبيل الرشاد .

فطارجت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، رجعت الضروريات العقلية عنده مقبولة موثوقاً بها من أمن ويقين .

(١) هو الفيلسوف المشهور ولد بأثينا سنة ٤٧٠ ق . م وكان من تلاميذ فيثاغورس ، واتصل من الفلسفة على العلوم الإلهية وأعرض من ملاذ الدنيا ورفضها ، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة ، فتوروا عليه العامة ، واضطروا ملكهم إلى قتله .

(٢) هي بعض علوم الفلسفة ، وهو سيد الطبيعيين في عصره ، وكان قبل الاسكندر بنحو مائة سنة ، وله في الطب تأليف مشهورة في جميع العالم ، وفي صدور كتبه وصايا جيلة من التحنن والشفقة على النوع ، وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والمسد .

(٣) أحد أساطين الحكمة من يونان ، أخذ عن فيثاغورس وشاروك سقراط في الأخذ عنه ، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلا بعد موت سقراط ، وصنف كتباً مشهورة في فنون الحكمة ، وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق ، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرجين عليه ؛ وسمى الناس فرقته المشائين لأنه كان يمشي تلاميذه الفلسفة وهو ماش .

(٤) هو تلميذ أفلاطون لازمه عشرين سنة ، وكان أفلاطون يؤثره على سائر تلاميذه ويسميه النقل ، وإلى أرسطوطاليس انتهت فلسفة اليونانيين ، وهو خاتمة حكمائهم ، وهو أول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وجعلها آلة للعلوم النظرية حتى لقب بصناعة المنطق ، وله في جميع العلوم الفلسفية والأدبية كتب مشهورة ، وهو صاحب المنطق ، وكان أرسطوطاليس معلم الأسكندر ابن فيليب ملك مقدونية ، وبأدابه عمل في سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وبسبب أرسطوطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد الإسلامية .

(٥) النزالي : تنهايت الفلاسفة : ص ٣ (المطبعة الحيرية - القاهرة ١٣١٩ هـ) .

ولم يكن السبيل إلى ذلك نظم الدلائل وترتيب الكلام ، بل كان السبيل نوراً قدذفه الله تعالى في صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من « الشرح » ومعناه في قوله تعالى « فَنُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بِشَرْحِ صَدْرِهِ لِلْإِسْلَامِ » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » ! فقيل : وما علامته ؟ فقال : « التجافي عن دار الفرور ، والإجابة إلى دار الخلود » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبئ أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبئ من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب الترسد له ، كما قال عليه السلام « إن ربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا تهرضوا لها » .

ولم يرد الغزالي بذلك كفاً نفسه ، أو كفاً الناس ، عن الدرس والتأمل والبحث ، اعتماداً على هذا النور الذي لا يأتي إلا نفحات ، وفي بعض الأحيان ، ولكنه أراد أن يعمل كالجد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب ، ومالا قدرة على إدراكه ، وهو الذي يحتاج إلى ذلك النور الذي يقذفه الله تعالى في قلوب المصطفين الأخيار من عباده .

✽

وإذا كان الغزالي معدوداً في أئمة فلاسفة الإسلام ؛ فإن ذلك حق ، إذا أريد به أنه صاحب رأى وصاحب فكرة حرة ، لا تسير في ركاب فكر أخرى ، مهما يكن حظها من الذبوع ؛ وحظ أصحابها من المجد في دنيا التفكير .

وإذا كان الغزالي معدوداً في رأس المتصوفة التقية الزاهدة الورعة ، فإن ذلك حق أيضاً ، ولكن ينبغي أن يكون معروفاً أنها ليست صوفية البُله من العوام ، ولكنها صوفية الخاصة ، صوفية مستتيرة جادة مجاهدة في طلب المعرفة ، وسبيل الوصول عندها إلى الحقيقة ذلك الجد الذي يقتحم كل واد من أودية المعرفة : المعرفة التي يرضاها ؛ والمعرفة التي ينكرها ، والمعرفة التي قد يسلم بها ولكنه لا يأخذ بها .

وهي صوفية تقف في وجه الابتداع ، وتقف أيضاً في وجه التقليد ، صوفية تفند من أهل المواءمة من أهل العقل ، وهي في الوقت نفسه تحترم أحكام العقل التي لا تقبل المنازعة ؛ حتى لو عدها بعض الجامدين خروجاً على الدين ومخالفة لنصوص سادت في بيناتهم ؛ إنه يؤول تلك النصوص تأويلاً يجاري به أحكام العقل وأحكام الطبيعة ؛ ويظن في صحة النص إذا عارض أحكام العقل المسلم بها وأحكام الطبيعة الراهنة الشاخصة ، ويذهب إلى أن الإصرار على تقبل تلك النصوص على ما فيها مضر بالإسلام ومشكك في صحة العقيدة .

انظر إليه وهو يحصى أقسام الخلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق ، ويذكر قسماً من هذا الخلاف ، لا يصدم مذهب الفلاسفة فيه أصلاً من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه ، كقولهم : إن كسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر في ظل الأرض

انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما في المقدتين على دقيقة واحدة .

إن هذا الفن لا يحاول النزالي أن يخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض من الدين ، وبصرح بأن من ظن أن المناظرة في هذا من الدين ، قد جنى على الدين وضمت أمره ، لأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسائية لا يبقى معها ريب ، ومن اطلع عليها وتحقق أدلتها ، حتى يحبر بسببها عن وقت الكسوفين وفترتها ومدة بقائها إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب في الشرع . وضرر الشرع عن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يظن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ! .

فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا يخفان لموت أحد ولا حياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » فكيف يلائم هذا ما قالوه ؟ يقول النزالي : ليس في هذا ما يناقض ما قالوه ، إذ ليس فيه إلا نفي وقوع الكسوف لموت أحد أو حياته ، والأمر بالصلاة عنده . والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع ، من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحباباً ؟ .

فإن قيل : قد روي أنه قال في آخر الحديث : « ولكن الله إذا تعجل شيء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التعجل . قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ؛ وإنما الروي ما ذكرناه ، كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ؟ أفكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ؛ فيسهل عليهم طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك !

وهذا لأن البحث في العالم عن كونه حادثاً أو قديماً ، ثم إذا ثبت حدوثه ، فسواء أكان كرة أم بسيطاً ، أم مسدساً ، أم مشتماً ؛ وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، أم قل ، أم كثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي ، كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها ، وعدد حب الرمان ، فالمقصود كونه من فعل الله تعالى حفظ كيفما كان !

إن مثل هذه العقلة الواعية ، هي العقلة التي تخدم الدين ، وتبسط ساحته ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، لا العقليات الجامدة التي تقف في سبيل كل علم ، وتمترس على كل نظر واجتهاد وتمنع من الأمور الحديثة ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة في النار . حتى حار كثير من المسلمين في تقبل ألوان المعارف التي لم يكن للسلف عهد بها ، خشية أن تكون من تلك البدع التي تنود صاحبها إلى غضب الله ، وإلقائه في جهنم وبئس القرار . وبهذا التردد وقف الركب بدل أن يتقدم ، وأحجم حيث يجب أن يتقدم . وزعم بعض النافلين أن الدين نصٌّ ينبغي الوقوف

عند حروفه ودلالات ألفاظه ؛ وما ليس في هذه النصوص فالإسلام منه براء ؛ وهو لنو يحمل بالمسلم أن يحاشاه إن أراد الحفاظ على عقيدته . وغفلوا عن أن صاحب الدين هو صاحب الدنيا ، وأنه واهب القول ، كما ألقى في القلوب الهدى ، وهذا إلى الإيمان ؛ وأنه أمر بالسعى كما أمر بالنظر والبحث في ملكوته ، لتبين آياته للمتوسمين .

الباحثون عن الحقيقة :

وهم السالكون سبل طلب الحق ؛ وإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحقيقة مطمع ؛ إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتها .

وقد بحث عنهم الغزالي في عصره فألفاهم أربع فرق :

- (١) المتكلمون : الذين يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .
 - (٢) الباطنية : الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المصوم .
 - (٣) الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
 - (٤) الصوفية : وهم الذين يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .
- وقد درس الغزالي مباحث هذه الفرق ، وأمعن في درس مناهجها في البحث .

الغزالي وعلم الكلام :

ابتدأ بعلم الكلام فحصله وعقله ، وطالع كتب المحققين من المتكلمين ، وعرف أن غايتهم حفظ عقيدة أهل السنة عن تشويش المبتدعين . فقد أطلق الله ألسنتهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلييس أهل البدعة المحدثين على خلاف السنة الماثورة . وقامت طائفة منهم بما نذبهم الله إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة .

ويرى الغزالي بأنه صادف علم الكلام وافيًا بالفاية التي كان لها ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشف نفسه ولم يف بمقصوده ، لأنه لم ير الاستقلال كاملاً في بحوثه والتجرد في طلبه ، بل ألقي المتكلمين اعتمادوا في سبيل غايتهم على مقدمات نسلوها من خصومهم ، واضطروهم إلى التسليم بها التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، ولأن أكثر خوضهم كان في استخراج مناقضات الخصوم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات بشيء أصلاً . ثم إنه لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه ، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، فحاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الفاية القصوى ، ولم يكن من ذلك ما يعمى بالكلية ظلمات الخيرة في اختلافات الخلق .

ولذلك لم يجد الغزالي علم الكلام وافيًا بمراده ، ولا شافياً لدائه . وإن كان لا ينكر أن هذا العلم قد شفى قسماً غيره ووفى بمقصوده ، بل لا يشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد في بعض الأمور . والغزالي

يحكى بذلك حاله ولا ينكر على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكمن دواء ينتفع به مريض ، ويستغفر به آخر

الغزالي والفلسفة :

وثق بلم الفلسفة ، درسه في سنتين ، ثم لم يزل يراغب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، يعاوده ويردده ، ويتفقد غواظه وأغواره ، ويطلع على مافيه من خدام وتليس ، وتحقيق وتحليل . وقد رأى الفلاسفة أصنافاً ، ورأى علومهم أقساماً .

عرف منهم (الذهرين) الذين جعلوا الصانع المدبر ، العالم للقادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع . ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

وعرف منهم (الطبيين) الذين أكثروا البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، إلا أنهم يرون لاعتدال المزاج تأثيراً عظيماً في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وأنها تبطل ببطلانه ، وإذا انعدم فلا يعقل إعادته ؛ فالتنفس يموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنهمكوا في الشهوات انهمك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

وعرف منهم (الإلهيين) من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسططاليس الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم ، وحرر مالم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان لخباً من علومهم . وهؤلاء يحملتهم ردوا على الذهرين والطبيين وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، وكذلك رد بعضهم بعضاً . ولهم شيعه من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والقارابي .

أما العلوم التي خاض فيها أولئك الفلاسفة فقد حصل أقسامها ودرس مباحث كل منها ، وأعلن رأيه فيها ، وهي العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية والخلاقية ، وتكلم عن آفاقها وعما يتماق منها بالدين ، ومالا يتصل به أولاً يؤثر في العقيدة الوقوف عليه . فالرياضيات التي تتعاقب بعلوم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية فنياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادلتها بعد فهمها ومعرفتها . ولكن تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتمتع من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداوله الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ؛ ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختلف على هؤلاء مع تديتهم

في هذا العلم . فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكما رأيت من يضل عن الدين بهذا القدر ؛ ولا مستند له سواء ؛ مع أن الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً لكل صناعة .
والثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وأدعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللإسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات .
وبهذا الأسلوب عالج النزالي سائر أقسام علوم الفلاسفة ، وخلص من دراسته بأن علومهم غير وافية بكمال النقص ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المضلات .

النزالي ومذهب التعليم :

وعرف ما عند أولئك الذين يسون أنفسهم (التلميين) الذين شاع بين الخلق تحذيرهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المصوم القائم بالحق ، وبحث عن مقالاتهم ، واطلع على ما في كتبهم ؛ وهناك عامل خارجي أعانه على هذا البحث ضمنية للباعث الأصلي من الباطن في طلب المعرفة ، وذلك هو ورود أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسمه مدافته .

وخلاصة رأي النزالي أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة . ولكن شدة التعصب دعت الذآيين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به ، فجاءهم في دعواهم « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ودعواهم أنه « لا يصلح كل معلم بل لا بد من إمام مصوم » وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ؛ فآغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقة ، بل للصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد أن يكون المعلم مصوماً . ولكن معلنا المصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا : هو ميتا فنقول : فمعلمكم غائب .

فإذا قالوا : معلنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول : ومعلنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد ، وأكل التعليم ، إذ قال الله تعالى : « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته .

ويورد بعد ذلك طائفة من مقالاتهم ، ويجهد في البرهان على إبطالها . ثم يقول : فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسيرنا ظاهراً وباطناً ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكار الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفعم ، حتى إذا ساعدتهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات طه ،

واقفنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن سلمت لى هذا قاطبه ، فإنما غرضى هذا القدر فقط ١ . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا فتضح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل يجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .
فلما خبرهم نفض اليد عنهم ، إذ لم يجد معهم شيئا من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .

النزالي والصوفية :

وبقى من طوائف الباحثين عن الحقيقة طائفة (الصوفية) ، وقد علم أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وحاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخليق القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

يقول النزالي : وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصد العملية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات وعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

ولقد أدنى النزالي على الصوفية ثناء عظيما ، وامتدح سيرتهم ، بعد أن عكف على دراستهم علما وعملا واقتداء ونجودا ومجاهدة نفس ، حتى انتهى إلى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل إنه ليذهب إلى أنه لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء لينبروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهى أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ٢ .

وهو على مذهبه في حرية البحث ، وفي حرب التقليد ؛ لا يقرم على كل شيء إقرارا مطلقا ، بل إنه ليصف بانحطاط ما تذهب إليه بعض طوائفهم مما يجرى على ألسنتهم ، ممن يقولون بالحلول ، ومن يقولون بالاتحاد ، ومن يدعون الوصول ؛ وغير ذلك مما يندم أثره من آثار هدم القدرة عن الإنصاح عما يرون وما يشاهدون من آثار عظمة الله ، إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح (١) .



آثار النزالي :

تلك لمحات من الجهود المضيئة التي بذلها النزالي في العلم وتحصيله ، وفي سبيل البحث عن الحقيقة ، بالبحث عن طالبها ، والوقوف على ما عندهم من فنونها ؛ مع تحصيل مقالاتهم والفحص عن حقيقة مذاهبهم وعلومهم ؛ ولا نشك في أن الذين أبلوا مثل هذا الهلاك أقل من القليل ، قد جرت النالبيّة المظني من للفكرين على أن يتخذوا لأنفسهم منهجاً واحداً لا يكادون يتعدونه ، وتهديهم الملامات إلى فكرة واحدة يحومون حولها ، أو يحصرّون أنفسهم في دائرتها ؛ ولا يكادون ينظرون إلى ما حولها من سائر الآراء والأفكار ، على ذلك النحو الذي ذكرنا طرقاً منه .

وإنك لتعجب لتلك الآثار التي خلفها النزالي ؛ فإنها على كثرتها المعجبة تفيض بصنوف من المعرفة المتخصصة وتجد في كل أثر منها لوناً خاصاً متميزاً بما عدها ، وتجد فيه ما تنشد من العمق والأصالة ، وإنك لتراه في كثير من المواضع إذا قارب فكرة من الأفكار ، أو مشكلة من المشكلات ، يكون قد درسها في كتاب آخر ، فإنه يشير إلى الكتاب الذي عرض فيه لتلك الفكرة ، أو درس فيه تلك المشكلة ، وتراه ينفر من تكرار نفسه ، وتلك دلالة القوة والتمكن .

ومن تلك الآثار التي خلفها :

- (١) كتاب إحياء علوم الدين : وسنخصه بشيء من الدراسة .
- (٢) كتاب تهافت الفلاسفة : درس فيه مقالات الفلاسفة ، وبين أغلاطهم ، التي حصرها في عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديهم في سبعة عشر .
- (٣) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد : في مقدار مائة ورقة يحوى لباب علم المتكلمين .
- (٤) كتاب المنقذ من الضلال : ذكر فيه غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق .
- (٥) كتاب جواهر القرآن : أبان فيه عن أسرار من آيات القرآن ، وأنه البحر المحيط المنطوي على أصناف النفائس .
- (٦) كتاب ميزان العمل : وهو فلسفة دينية توضح ما جاء في علوم الدين من النيات والمقاصد .
- (٧) كتاب المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى .
- (٨) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ذكر فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .
- (٩) كتاب القسطاس المستقيم : ذكر فيه طريق رفع الخلاف بين الخلق ، وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم .
- (١٠) كتاب المستظهرى (١١) كتاب حجة الحق (١٢) كتاب مفصل الخلاف في أصول الدين . وفي هذه

الكتب الثلاثة فمعرض لمذهب التعليمية وبين فساد مذهبهم .

(١٣) كتاب كيمياء السعادة : حصر فيه الشبه التي توهمها أهل الإباحة وكشفها .

(١٤) كتاب البسيط (١٥) كتاب الوسيط (١٦) كتاب الوجيز (١٧) كتاب خلاصة المختصر . وهي كتب

تبحث في علم الحدود الموضوع للاختصاص بالأموال والنساء والمعاملات ، وغيرها من المباحث الفقهية .

(١٨) كتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل : في أربعين مجلداً .

(١٩) كتاب للمستصفي (٢٠) كتاب للنخول . وهما في أصول الفقه .

(٢١) كتاب للفتل في علم الجدل (٢٢) كتاب معيار العلم (٢٣) كتاب المقاصد .

(٢٤) كتاب المضمون به على غير أهله (٢٥) كتاب مشكاة الأنوار (٢٦) كتاب محك النظر (٢٧) كتاب

أسرار علم الدين (٢٨) كتاب منهاج العابدين (٢٩) كتاب الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة (٣٠) كتاب

الأنيس في الوحدة (٣١) كتاب القربة إلى الله عز وجل (٣٢) كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار

(٣٣) كتاب بداية الهداية (٣٤) كتاب الأربعين في أصول الدين (٣٥) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة

(٣٦) كتاب المبادئ والغايات (٣٧) كتاب تليس إبليس (٣٨) كتاب نصيحة الملوك (٣٩) كتاب شفاء العليل

في القياس والتعليل (٤٠) كتاب إجماع العوام عن علم الكلام (٤١) كتاب الانتصار (٤٢) كتاب العلوم الدنيوية

(٤٣) كتاب الرسالة القدسية (٤٤) كتاب إثبات النظر (٤٥) كتاب المأخذ (٤٦) كتاب القول الجليل في الرد على

من غير الإنجيل (٤٧) كتاب الأمالي .

ومن هذه الكتب ما هو ضمن رحب المادة ، ولكن بعض هذه الآثار صغير لا يرقى إلى درجة الكتاب ،

ولكنه ربما كان أشبه بالمقالات التي تقضيها المجادلات في موضوع من الموضوعات ؛ أو إزالة شبهة من الشبه العارضة .

وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا الإنتاج الضخم يدل أصداق دلالة على أن صاحبه من الذين وقفوا حياتهم على

العلم ؛ وتبتلوا في محرابه ، كما يدل على إخلاص للدين ، وتغان في سبيل الذود عن حياضه ؛ إلى ما يدل عليه من كثرة

التحصيل وغزارة المعرفة ؛ والحياة المباركة التي هيأ الله سبيلها ووفق إليها .

كتاب إحياء علوم الدين

ذكر المؤرخون أن الغزالي حدث بكتاب الإحياء ، بعد عودته إلى بغداد من رحلته إلى بلاد الشام ، أي بعد

تلك الفترة التي عزفت فيها نفسه عن الدنيا ، وزهدت فيها وقطع فيها ، العلائق بينه وبين الناس ، وذكروا أنه كان

يحدث بهذا الكتاب في مجالس الوعظ ، وروى ابن النجار أن الغزالي « لم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث »

والذي يفهم من ظاهر هذا الكلام أن ما حدث به الغزالي في بغداد من كتاب إحياء علوم الدين كان إلهاماً أو كان

ثمرة من ثمرات المعرفة التي أفاضها الله عليه في مرحلة نسكه وتصوفه .

هذا ولا نستطيع أن نقرّ هذا المفهوم على إطلاقه ، فنقول مع القائلين : إن كل ما في « إحياء علوم الدين » كان وحياً أو إلهاماً ، وأنه كان ثمرة حياة العزّة والتأمل التي قضّاها في دمشق وبيت المقدس وفي البلد الحرام .

ونحن في هذا لا ننكر أثر النفس والخلوة في تطهير النفس وتصفيتها وإطلاقها من قيود المادة ، فإن في قطع الصلات مع الحياة والناس ، إبقاء على كثير من الجهود التي يستنفدها الاضطراب في الحياة والاتصال بالناس ، وانشغال القلب بأقوالهم وأعمالهم وتزاحمهم في طلب الحياة .

لا ننكر أثر التصفية والتخلية في إزهاق الملكات وتنقية الروح من الشوائب التي تعتمد بها عن بلوغ درجة التفكير المجرد في هذا الملسكوت ، وفي الخلق والخلق ، وفي البداية والنهاية ، وفي مذاهب السلوك وفلسفة الأخلاق . بل إننا لانشك أن الخلوة وطول التأمل وكبح جماح النفس من أعظم أسباب تحرير الروح من قيود المادية ، وفيها أكبر عون على تنظيم التفكير ، وتقل ما في الكون من الماديات ، وما ينطوي فيها من الآيات ، وما يحتجى وراءها من الأسرار التي أعيت على العقول .

ولكننا ننكر كل الإنكار أن يكون ما في « الإحياء » من الأصول الفقهية ، والمسائل الشرعية ، وقواعد العبادات ونحوها شيئاً جديداً ألهمه النزالي في رحلاته أو أوحى به إليه في خلواته ، ونرى في مثل هذه الدعوى سذاجة قد يشك فيها البطل من العوام ، بله غيرهم من طبقات المفكرين .

وننكر كل الإنكار أن يكون ما اشتمل عليه « الإحياء » من النصوص وما استشهد به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً عرفه النزالي من غير معلم ولا كتاب ، وقد ثبت أن تلك الأحاديث مروية معروفة خرجها المخرجون من رواة الأحاديث والعالمين بإسنادها ورواياتها .

كل ذلك لاشك في بطلانه بحكم العقل وبحكم الشرع أيضاً .

ولا شيء من هذه الدعاوى يرتفع به النزالي بين الباحثين أو المفكرين أو رجال الصوفية ، إذا كان هناك من يريدون له تلك المنزلة بين الباحثين والمفكرين والمتصوفة عن مثل هذا الطريق التي لا يرضاها النزالي لنفسه .

إن تلك الأصول وتلك النصوص ليست مجال وحي ولا مجال إلهام ، وكيف الإلهام بمحصل موجود يعرفه العامة ويعرفه الخاصة ، وليس في تحصيله كبير عنت ولا مشقة لمن يريد المعرفة والتحصيل ؟

وإنما الجهد أو الاجتهاد ، الذي لا ننكر فيه أثر الخلوة وتصفية النفس ، فهو ما عاقل به لتلك الأحكام وما جمعه منها ، وما نظم به طرائق البحث فيها ، وما أرجع به الدين إلى فطرته ، ليكون عملاً واجتهاداً ، كما كان معتقداً وإيماناً ، وفي « الإحياء » من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على طول الباع ، كما يدل على سعة الاطلاع ، ويدل على صفاء النفس ومهارة القلب ، كما يدل على الجهد والعناء في الرواية والدراسة ، وفيما تقدم الكثير من الأدلة على ذلك .

تنقل النزالي بين خراسان والعراق والشام والحجاز ، فإذا وجد في تلك البلاد التي تعد معاقلاً للإسلام ؟ وجد فيها خلفاء أبطرم السلطان وختهم الدنيا ، وحولهم من الرعية من يفتل لهم بين الذروة والغارب ، وفيهم

الصبر يأساً ، والمصر خذ تيهاً ودلاً ، وألني رجال الدين في شغل عن الدين ، يتذلقونه في استرضاء للسلطان ، وإشباع نهمه في الاستعلاء والكبرياء ، والكل عن الدين لاهون ، إلا بالقدر الذي تدر به معاشهم ، وبين هؤلاء وأولئك طائفة تدعى المرفة ؛ وتتخذ دين الله هزواً ، وترى الآخذين به جهةً من الطعام ، ومن عوام الدماء ؛ والأخذ به غفلة وجوداً ، حتى زاد الخطب وحمت الرزية ، وأحوج الأمر إلى من يذكر بالله ، ويحث على التدبر فيه آياته ، والرجوع إلى دينه الحق وصراطه المستقيم .

إلى هؤلاء وأولئك أشار الفزالي في خطبة « الإحياء » إذ وجد في الناس للتأثير على ما هو عليه من القس من جليلة الحق ، مع الإجماع في نصرة الباطل وتحسين الجمل والتشبيب^(١) على من آثر التزوع قليلاً من مراسم الخلق ، ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم ، طمعا في نيل ما تصده الله تعالى به من تزكية للنفس وإصلاح للقلب . . وأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغلهم الزمان ، ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم للشيطان واستغواهم الظناني ، وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغوقاً ، فصار يرى المعروف منكراً والمفكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندوساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق ألا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام ، أو جلد يتدرع به طالب للباهة إلى التلبية والإفهام ، أو سجع مزخرف يتوصل به القواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ! فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ، وضياءً ، ونوراً وهداية ، ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا ، وصار نسياً منسياً .

ورأى الفزالي ما آل إليه الأمر ثلماً ملأ ، وخطباً مدلهما في الدين ، وأن الاشتغال بتحرير هذا الكتاب فيه إحياء لعلوم الدين ؛ وكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاح لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف للصالحين^(٢) .

وقد ذكر أن أمثال هذه البحوث ليست جديدة مستحدثة ، فقد صنف الناس في المائتي التي ألف فيها كتباً ، ولكن كتابته تتميز عن كتاباتهم بخمسة أمور :

الأول : حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثاني : ترتيب ما بدعوه ، ونظم ما فرقوه .

الثالث : إيجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه .

الرابع : حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة احتاجت على الأنعام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً : إذ الكل وإن توارها

(١) التشبيب : تهيج العمر

(٢) إحياء علوم الدين : ص ٩ من هذه الطبعة .

على منهج واحد ، فلا نستكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه وينفل عنه رقائده . أولاً بفضل من التنبيه ، ولكن يسهو من إirاده في الكتب . أولاً يسهو ، ولكن يصرفه من كشف الخطأ عنه صارف .

وما قرره صحيح ، يترف له به كل باحث وكل دارس وكل مؤلف ، إذ لابد لصاحب الموضوع من الرجوع إلى الجهود السابقة فيه ، ليعرف مواضع النقص ومواطن الخلل ، ثم يحرر من تلك الجهود ما يستحق التحرير ، ويضيف إليه ما عنده من المعرفة فيه ، والتحرير جهد يقتضى الإحاطة ، والإضافة هي ما يمتاز به جهد من جهد ، ويفضل بها الكاتب سواء من الكاتبتين .

أو بمعنى آخر لابد من العنصر الذاتي والأصالة في كل عمل له وزن بين الأعمال ؛ ليحسب صاحبه بين رجال المعرفة بالموضوع ؛ وقد أشرنا إلى مجال الذاتية في الكلمات السابقة .

ولقد ذكر النزالي نفسه أن العلوم التي تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الأحوال في حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنها أقيمت فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى (الإلهام) .

والذي يحصل بالاستدلال يسمى (الاعتبار) و (الاستبصار) ويختص به العلماء .

ثم الواقع في القلب بغير الحيلة والتعلم والاجتهاد من العبد ينقسم إلى :

(١) مالا يدري العبد كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وهذا يختص به الأولياء والأصفياء .

(٢) ما يطلع العبد منه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب ، وهذا

يسمى (وحيا) ويختص به الأنبياء .

ويقرر النزالي أن الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وقاض على صدورهم النور من غير طريق التعلم والدراسة والكتابة ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبرؤ من علاقاتها ، وتفرغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى . .

إلا أنه مع ذلك يصرح بأنه « إذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بمقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول ، ويتقضى العمر قبل النجاح فيها ، وكم من صوفي سلك هذا الطريق ، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانتفع له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فلاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض .

لقد زعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار قهيباً بالوسى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، ثم يقول قائلهم : فأنا أيضاً ربما انتهت في الرياضة والمواظبة إليه ١٩

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، ومثله مثل من يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء المنور على

كنز من الكنوز . إن ذلك ممكن ولكنه بسيد جداً . فكذلك هذا

لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فمساء ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة^(١) .

فليتدبر هذا الكلام جيداً أولئك النافلون ؛ ليعرفوا أن طريق الآخرة معرفة وحمل ، كما أن طريق الحياة علم وجهاد ؛ وليعلموا أن النزالي وهو من أقطابهم في القصة لم يبلغ ما انتهى إليه إلا بالكفاح الطويل في تحصيل المعرفة .

— ٢ —

قسم النزالي « إحياء علوم الدين » أربعة أقسام ، أو أربعة أرباع كما سماها :

(١) ربيع العبادات : ذكر فيه العلم ، وقواعد العقائد ، وأسرار الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار والدعوات ، والأوراد وأوقاتها . وقد ذكر في هذا القسم من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من عطاء الآخرة من لا يطلع عليه .

(٢) ربيع العادات : يشتمل على آداب الأكل ، وآداب النكاح ، وأحكام الكسب ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمماشرة مع أصناف الخلق ، والعترة ، وآداب السفر ، والسمع والوجد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وآداب المعيشة ، وأخلاق النبوة .

وفيه ذكر أسرار الماملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها .

(٣) ربيع الملهكات : وقد شرح فيه عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفات شهوات البطن والفرج ، وآفات اللسان ، وآفات النضب والحقد والحسد ، وذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والمجب ، وذم الغرور .

وقد درس في هذا القسم كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته ، وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه ، وذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حذره وحقيقته ، ثم ذكر سببه الذي يتولد منه ، والآفات التي تترتب عليه ، والعلامات التي يعرف بها ، وطرق المعالجة للتخلص منه .

(٤) ربيع المنجيات : وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصدّيقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وقد ذكر في كل خصلة حذرها وحقيقتها وسببها ونمرتها وعلامتها وفضيلتها .

وتلك المنجيات هي : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء ، والفقر والزهد ، والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة ، والتفكير ، وذكر الموت .

وقد قدم الكتاب بالكلام في فضل العلم والتعليم ، ليكشف عن العلم الذي يبعد الله تعالى به ، حتى تصح العبادة ؛ إذ كان من العلم ما هو نافع وما هو ضار ، وما هو محمود ، وما هو مذموم ؛ وفي فنون العلم التي شغل بها معاصروه ، وحكم كل علم منها .

(١) راجع الجزء الثاني من الإحياء (ص ١٧ - ١٩) من هذه الطبعة .

والذى ينظر في هذه الموضوعات يتضح له أنها تعالج النفس الإنسانية على أوسع نطاق ، وتتناولها ، من أكثر جهاتها ، وتدرس شتى علاقاتها .

لقد درس فيها النزاع بين الإنسان مع ربه ، والإنسان مع نفسه ، والإنسان مع غيره من الناس . وتهدف تلك الدراسات إلى استخلاص أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ؛ أو معرفة الأسباب التي تكون بها الحياة سبيلا إلى الآخرة ؛ أو تسخير ما منح العبد من إرادة وقوة واختيار ؛ لتكون حجة حين يسلب الحياتو الإرادة والقوة والاختيار . أغراض تتلاقى جميعاً ما دامت حياة الإنسان محدودة ، وما دامت إرادته وقوته واختياره موقوفة بهذه الحياة المحدودة ؛ وما دام العقل والاستدلال والمعرفة تنفص إلى التسليم بالبعث والنشور والحساب والجنة أو النار . وكان الذى حفز النزاع إلى تلك البحوث للضيقة مارأى من فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرعته النبوة ، وتحقيق شيوع ذلك بين الخلق ، فنظر في أسباب الفتور وضمف الإيمان ، فإذا هي أربعة :

- ١ - سبب من الخائضين في علم الفلسفة .
 - ٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .
 - ٣ - وسبب من المنتسبين إلى دهرى التعليم .
 - ٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .
- وقد تتبع مدة آحاد الخلق ، يسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع عن شبهته ، ويبحث عن عقيدته وسرته ، ويقول له : مالك تقصر فيها ؟
- فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعملها ، وتبنيها بالدنيا ، فهذه حماقة فإنك لا تتبع الاثنين بواحد ، فكيف تتبع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟
- وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ا فدير نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخلق الذى هو مذهبك باطلاً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملأ بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع ا
- فقاتل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ا وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصل ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يمتزج من الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة . . .
- وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً يرقى عن الحاجة إلى العبادة .
- وقائل ثالث يتطل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة .
- وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .
- وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ا وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقاتل خامس يقول : لست أفضل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط هوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فإنا من العوام والجهال ، حتى أدخل في حجب التكليف ؛ وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغنٍ فيها عن التقليد^(١) . . . ١١

إنك تقرأ هذه الشبه المارضة التي جمعت الدين وقواعد العبادات مجالا للتردد والشك وانصراف هذه الطبقات عن العمل ، والأسباب التي ينتحلها المقصرون ، والأعذار التي يدلى بها الغافلون . وتقرأ في (الإحياء) تنفيذ كل دعوى من هذه الدعاوى ، ودحض كل شبهة من أمثال تلك الشبهات ؛ بطريق النص الثابت ، وبطريق العقل والمنطق الذي يسلم إلى اليقين .

إنك تقرأ في الإحياء مجوئاً شبيهة عميقة في علم النفس والفلسفة والاجتماع والتصوف إلى جانب ما تطالعها فيها من أصول الدين وحقائق التشريع .

وإنك تقرأ من أصول التأديب وقواعد التربية ومراعاة حال النفس في تلقى العلوم في هذا الكتاب ما يضارع آراء كبار فلاسفة التربية وعلم النفس ، ويكفي أن نشير إلى ما كتبه في « وظائف المرشد المعلم »^(٢) وأنه مهتم اشتغل بالتعليم فقد تقلد أسراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه التي نعلم عليه :

(١) الشفقة على التملين ، وأن يحرمهم مجرى بنيه . . .

(٢) الاقتداء بصاحب الشرع الشريف ، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً . . . فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والخدوم هو العلم إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل الخدوم خادماً والخادم مخدوماً ، وذلك هو الاتسكاس . . .

(٣) ألا بدع من يصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنحه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي ، قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينهبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقييح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن . . .

(٤) ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التمريض ما أمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على المعجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار .

(٥) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقيح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ، كعلم الفقه إذ عاداته تقيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عاداته تقيح علم الحديث والتفسير ، وأب ذلك نقل محض وسماع وهو شأن المعجزة ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه . . . فهذه أخلاق مذمومة للتملين ينبغي أن تمتنب ، بل للتكفل

بعلم واحد ينبغي أن يوسع على التعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبى أن يراعى التدريج في ترقية التعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخط عليه عقله . فليث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، ولا ينبغي أن يفشى العالم كل علمه إلى كل أحد ، ولعلك قيل : كل لكل هـد بمقياس عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه ويتفجع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

(٧) أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراءه تدقيقاً يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر غيبته في الجلى ، ويشوش عليه قلبه ، ويؤم إليه البخل به عنه .

(٨) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد . وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .

وما بسطه النزالي في هذه الآراء هو ما يقوله الربون المحدثون في الانتقال بالمتعلمين من الجلى إلى الخفى ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، وما يقوله علماء النفس في الإدراك وأثر الحواس .

وتجد هذا الكتاب زائراً يمثل هذه الدراسات ، حتى إنك لتشعر حين تقرأها بالحاجة الملحة إلى دراسة « النزالي المربي » وسيجد المدارس مادة واسعة الأطراف ، لا تتسع تلك الصفحات لا مستقصاتها ، ولكننا نجتزئ بهذه الإشارات إلى ما حوت تلك الأصداف من كنوز .

- ٤ -

ودراسة صلة الإنسان بخالقه دراسة لأصول العقائد والمبادئ التي فرضها عليه ، والتي يلتبس بها الزاني إليه . وقد أشرنا إلى الموضوعات التي درسها في تلك الأصول . وبقي أن تذكر أن النزالي لم يكتف في تلك المبادئ بذكر أحكام الشرع كما يفعل الفقهاء في دروسهم وفي نصائقيهم ، ولكنه أضاف إلى تلك كثيراً من البحوث الروحية والنفسية والعقلية ، ونصق في فهم أسرارها وحكمها وسبل إجادتها وتخليتها من الشوائب بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وفي استيعاب ليس له نظير .

فليست (الطهارة) عند النزالي كما هي عند الفقهاء : طهارة من الحدث تختص بالبدن ، وطهارة من الخبث تكون في البدن والثوب والمكان ، فإن هذه مرتبة واحدة منها . والمرتبة الثانية عنده : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، والثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل الممقوتة . والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ^(١) ، ثم يفيض بعد ذلك في ألوان هذه الطهارات وأسبابها ووسائلها وغاياتها ، مع ما يوافق الحقيقة التي

(١) الإحياء ١/١٣١ من هذه الطبعة .

يدهو إليها ، والشريعة التي قهها وأجاد نحصيلها ، والمقل الذي عرف موارده ومصادره .
(الصلاة) عنده مناجاة ، والمصلى مُتَاجِر به عز وجل ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة - وإذا كان الفقهاء يفتنون بصحة الصلاة مع الغفلة ، فإن النزالي يتأدب في الرد عليهم ، ولا يطمع في مخالفتهم فيما أفتوا به ، ويعلل بأن ذلك من ضرورة الفتوى .

ولكن الذي يعرف سر الصلاة يعرف أن الغفلة تضادها ، ثم يفرق بين العلم للظاهر والعلم الباطن ، ويرى أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة من التصريح بكل ما يتكشف من أسرار الشرع ^(١) .

ورأيه في (الزكاة) أن التلطف بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ؛ وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن الحجة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمناجاة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق ، لأنها آلة تمتهم بالدنيا ، وبسببها يأنسون بهذا العالم ، ويتفرون عن الموت ، مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْكُوفِرِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ أُجُورُهُمْ فِي ذَلِكَ بِالْجِهَادِ . . . وَالَّذِينَ صَدَقُوا التَّوْحِيدَ وَوَفُوا بِعَهْدِهِمْ ، نَزَلُوا عَنْ جَمِيعِ أَمْوَالِهِمْ ، فَلَمْ يَذْخَرُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، فَأَبَوْا أَنْ يُشْرِكُوا لَوْ جُزِبَ الزَّكَاةُ عَنْهُمْ . حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : كَمْ يَجِبُ مِنَ الزَّكَاةِ فِي مِائَتِي دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : أَمَا عَلَى الْمَوَامِّ بِحَكْمِ الشَّرْعِ خَمْسَةُ دَرَاهِمَ ، وَأَمَا نَحْنُ فَيَجِبُ عَلَيْنَا بِذَلِكَ الْجَمِيعُ ^(٢) .

وهكذا نجد أغصنا دائما ونحن نجول في (الإحياء) أننا أمام عالم كبير عرف الشرع وحفظه وقه وعمل به ، ورأى وراء هذا التشريع العام الذي ينتظم المسلمين جميعاً ؛ تشريعاً خاصاً هو في حقيقته أثر لذلك التشريع العام وتمكينه ، وهذا الخاص فضل وزيادة وناقلة بعد أداء الفروض التي لم بفضل (الإحياء) ركنا من أركانها أوسنة من سننها .

وهذا هو التصوف المستنير الذي أشرنا إليه ، تجدد فيه الحجة البالغة ، وتجدد فيه التقوى والورع وقطع العلائق بالناس وبالمال وبالجاه وبالولد والمنصب ، بل قطع علائق النفس بما تحبه وتحرص عليهم .

في تلك الدراسات يجد المتفقه رغبته ، ويجد المتصوف طلبته ، ويجد صاحب العقل والباحث عن اليقين ما شاء من حجة بالغة وبرهان مستبين ، وبهذه السعة وبذلك الشمول أحيا النزالي علوم الدين ، أحياها في الحياة المضطربة الجادة العاملة ، والمأجنة الهائلة ، وأحياها في نفوس الزهاد ورجال الطريق ، ووصل بينهما وبين حكمة العقل والمنطق التي تفنى إلى الصحيح من النتائج ، وتلزم الشاك المتردد بالإذعان والتسليم وصدق الاعتقاد .
والناس عند النزالي ثلاثة أصناف ، ولكل صنف منهم أسلوب خاص يعالج به ما عنده من الجهل أو الشك أو الغرور .

(١) أما الصنف الأول : فهم (العوام) ، ويصفهم بأنهم البُلهُ ، وبأنهم أهل السلامة . وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق . وهم يُدعون إلى الله بالموعظة .

(٢) والصنف الثانى : (الخواص) ، وهم أهل الذكاء والبصيرة ، وفيهم ثلاث خصال : إحداها التريخة النافذة والفتنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغيرة جبرية لا يمكن كسبها . الثانية : خلوص باطنهم من تقليد وتصب للذهب موروث مسموع ، فإن القلْد لا يضيئ ، والبلبل وإن أصغى لا يفهم . الثالثة : أنه يؤمن أن أستاذه (الغزالي) من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك . وهؤلاء يبالغهم الغزالي بأن يعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم عن قرب ، ويدعوم إلى الله بالحكمة ، كما دعا العوام بالموعظة الحسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . فلم أن الدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة الحسنة قوم ، وبالمجادلة قوم . فإن الحكمة إذا غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وكذلك المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشتمأزوا منها ، كما يشتمز طبع الرجل القوى من الارضاع بلبن الأم .

(٣) والصنف الثالث : (أهل الجدل) ، وهم طائفة فيهم كياسة رقوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة ولكن في باطنهم خبيث وعناد وتصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً . وهؤلاء يدعوم بالتلطف إلى الحق ، من غير أن يتعصب عليهم أو يمنهم ، ولكنه يرفق بهم ، ويمجد لهم بالتي هي أحسن .

لقد نظر إلى كل طبقة من الطبقات التي يتكون منها المجتمع الإسلامى ، وعرف فلسفتها في الحياة وما تسالجه من أسباب السعادة ، وما تسالجه من أسباب الشقاء في الفكر والعمل ، ولا تعرف هذه السعة وذلك الشمول على هذا النحو مثل ما نجدهما في إحياء علوم الدين .

ويمكن أن يلحق بصدق الاعتقاد وأصول العبادات - وهما كما قدمنا صلة بين الإنسان وربه وقيام بطاعته وامتثال لأمره ونهيه وفيها دلالة على المحبة - ما كتبه في الربع الرابع من الإحياء ، وهو (ربيع المنجيات) لأنه يختص بتصفية النفس من الشوائب وتطهيرها من الآثام ، والارتقاء بها إلى درجة المعرفة ، وفيه من أصول التصوف ومبادئ الشريعة الكثير .

ومقدمة (التصوف) التوبة عما اقترفه العبد قبل أن يسلك طريق المعرفة ، ثم آداب السلوك وهي : الصبر ، والشكر والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا ، والتوحيد ، والتوكل ، والمراقبة ، والمحاسبة ، والتفكير ، والنية ، والإخلاص ، والصدق .

وقد تبدو هذه الصفات من قبائل الفضائل العامة ، التي يبنى توافرها في الإنسان الفاضل ؛ ويطلب الناس جميعاً بالترامها ، ماداموا يتطلعون إلى منزلة الفضل ؛ وهذا صحيح لاشك فيه . ولكن الفضلاء قد يحسبون كذلك جميع تلك الصفات ، أو بتحصيل القليل من بعضها ، أما أهل الطريق المتطلعون إلى المعرفة فإنهم يحملونها جميعاً

ويصلون بها إلى أقصى درجاتها ؛ وهم يجاهدون نفوسهم جهاداً حثيفاً ، ويحذلونها على ما تكره ، مما يملأه غيظهم وإسرافاً وحملاً ، ولا يمتدحون بالضرورات ، بل يحاسبون أنفسهم حساباً حسيماً ؛ ولا يبنون لسلك الطريق أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة للمص ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . « بل يبنون أن يعاقبها فإذا أكل لقة شبة بشهوة نفس يبنون أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير تحرّم يبنون أن يعاقب العين بجمع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف يده بمنعه من شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة ، فقد روى أن رجلاً من الصالحين كرم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على خديها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يستوي ، ويحكى أن أحداً تكشفت له جارية ، وهو في بعض الغازي ، فنظر إليها ، فرفع يده فلطم عينه حتى فطرت ، وقال : إنك للمعاظلة إلى ما يضرك ! ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينقص على عيشه » (١) .

ففي هذا الريح ، ربح للنجيات ، يظهر ما يتعلل به القلب من الصفات المحمودة التي ذكرت ، وهو يقابل ما في الريح الثالث ، ربح للمهلكات ، الذي يسط فيه ما نجب تركية النفس وتطهيرها منه ، وهي شرور وآثام مردية ، كالشر والنضب والكبر والرياء والمُتَّعِب والحسد وحب الجاه وحب المال وغيرها .

وقد قدم (المهلكات) على (النجيات) لأن الأولى تطهير ونخلة ، والثانية تركية ونخلة ، والأولى في أصول القرية والتهديب مقدمة على الثانية . ولأن المبدأ لا يمنع له من الوقوع فيما ذكره في المهلكات ، ولكن في استطاعته النهوض منها وجبرها بالمنجيات ، ولأن التجرد للخير المحض دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للخص الشر دون العمل على تلافيه سجية الشياطين ، ولكن الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين .

وبعد فإن كتاب « إحياء علوم الدين » جامع عقليات ثلاث :

(١) : العقيدة الشرعية : وتبدو آثارها فيما بسطه النزالي من أحكام الفقه وأصوله ، وما اعتمد عليه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين ، ومذاهب الأئمة رضي الله عنهم ، وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والحديث والتأويل ، وهو يعد أصول العلوم الشرعية أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . ويرى أن كتب الفقه تبحث في الحياة

الأولى ، وأن الفقهاء هم علماء الدنيا ؛ وعَلَل لذلك بأن الناس لو تنازَلوا الدنيا بالعدل لاحتطمت الخصومات وتطلعت الفقهاء ، ولكسهم تنازَلوها بالشهوات ، فتولدت منها الخصومات ، فست الحاجة إلى سلطان يسوِّعهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوِّعهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازَعوا ، وهو معلم السلطان ، ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لتتنظم باستقامتهم أمورهم الدنيوية . والملك والدين توأمان ، والدين أصل ، والسلطان حارس ، ومالا أصل له فهُدوم ، ومالا حارس له فضائع ^(١) .

ولا يسلم له هذا الرأي كاملاً ، لأنه إن استقام في أحكام الجراحات والحدود والقرائن وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربح المبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربح العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام .

والذي دعاه إلى هذا الوصف أنه جعل هذا العلم علمين : أحدهما يتصل بمصالح الدنيا ، والثاني يتعلق بمصالح الآخرة ، وهو علم أحوال القلب وأخلاقه الحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه ، وهو الذي خص به الكتاب الثالث من الإحياء . والحمود هنا غير فرض الطاعة ، والمذموم هنا أيضاً غير المعصية ، فإن الطاعة واجبها ، والمعصية عقابها . ولكن الرضى في علم الآخرة هو ما يقرب إلى الله ، ثمرة للمعرفة السكاملة ، والفناء ، وقهر النفس وتركيبها .

ومثال ذلك الصلاة ، فإن الفقيه يُفنى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلاً في جميع صلواته من أولها إلى آخرها ، مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير . ولكن هذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يُفنى بالصحة ، أى أن ما فعل حصل به امتثال صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما التشروع وإحضار القلب الذي هو محل الآخرة ، وبه ينفع العمل الظاهر ، فلا يتعرض له الفقيه .

وعلى كل حال ، فإن النزال وإن مدَّ التفقه علم الدنيا والفقهاء علماء الدنيا ، فقد درس في الإحياء هذا العلم ، علم الفقه ، دراسة مستفيضة تدل على الفهم والاستيعاب ؛ إذ كانت الشريعة سُلَّم الحقيقة ، والمعادة سبيل للفرقة الحقة التي نشدها وعدة من رجالها .

(٢) العقيدة الفلسفية : ونفى بها يقظة العقل ، والقدرة على التبصر ، وفهم الكون بظواهره وشواهده ، ومحاوله الوصول إلى أعماقه ، وإلى سر الحياة والأحياء ؛ ودراسة النصوص دراسة تخضع لأحكام العقل والتفكير ؛ والتغلب على الأخطاء الشائعة ، والتقاليد التي تعارض المنطق السليم والتفكير الصحيح .

وقد أشرنا فيما سبق إلى نزوع الفزالي إلى التحرر ، ونفوره من التقليد الذي لا فضل فيه للعقل ، وفي الإحياء كثير من الشواهد على ذلك .

قد بحث الفزالي كثيرا من المسائل الفلسفية ، ومسائل علم الكلام ، التي تتصل بالله تعالى وذاته وصفاته ، كما بحث في أعمال المبدأ ، ومبدأ الخلق وفانيته .

ومن ذلك البحث الفلسفي الذي عقده في « ربيع المهلكات » في شرح مجانب القلب ، وفي بيان معنى النفس والروح والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء .

فلفظ (القلب) له معنيان : أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود ... الخ .

واللغى الثانى للقلب : أنه لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المحط والمقاب والمطالب والمطلوب .. وتعلقه بالعقل الجسماني يضاهي تعلق الأعراس بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان ...

و (الروح) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة المروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا استنار به . والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ (الروح) أرادوا به هذا اللغى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب والروح معنى آخر ، وهو اللطيفة العالمة للدركة من الإنسان ، وهذا هو أحد معني القلب .

ولفظ (النفس) معان كثيرة ، ومن تلك المعاني ما يريد به أهل التصوف في استعمالهم ، وهي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، وهي اللغى الجامع لقوة الشهوة والغضب في الإنسان ، فإنك تزامم يقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله عليه السلام « أغدَى أعدائك غشك التي بين جنبيك » . ومن معانيها نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها .

ثم (العقل) وقد يطلق ويراد به العلم بمقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي يحله القلب . وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب .

هذا شيء قليل نشير به إلى جهاد الغزالي في تلك الدقائق التي حيرت المفكرين وشغلت الفلاسفة، وقد عرض لها من قديم فلاسفة اليونان، ولا تزال إحدى مشكلات الفلسفة المعاصرة . ولكلام الغزالي ودراسته مكان ملحوظ بين تلك الدراسات قديماً وحديثاً .

ثم الفلسفة الأخلاقية ، وقد أفاض فيها في المنجيات والمهلكات والمعادات ، وقد عرض فيها للفضائل الإنسانية على نحو لم يسبق له مثيل في القديم والحديث . وما بالك برجل يعالج الفضائل السكينة والرزائل المستقرة ، فضلاً عن الأخلاق الظاهرة والسلوك الملحوظ . ولا نحب أن نستشهد على ذلك بشيء من النماذج ، فإن المطالع لا كثر أبواب الإحياء يجد فيها مصداق ما نقول .

(٣) المنهاية الصوفية : ظهر للغزالي أنه لا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والحرب من الشواغل والملائق .

ثم لاحظ أحواله فإذا هو منغمس في الملائق . ولاحظ أحواله - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا هو فيها يقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكر في نيتته في التدريس فإذا هي غير خالصة لله تعالى ، بل باعها ومحررها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقن أنه على شفا جُوف هار ، وأنه قد أشفى على النار ، إن لم يشتغل بتلافي الأحوال ^(١) .

وقد رأى العلوم التي حصلها لا تجدى فيما أراد ؛ إلا بنفحة من الله الذي يهب من يشاء من عباده الإيمان والمعرفة ، ورأى ذلك محتاجاً إلى جهد ومشقة ، وعلم وعمل .

وقد ساق الغزالي كثيراً من شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ، ولا من الطريق المعتاد ^(٢) ، من ذلك قوله تعالى « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » أي مخرجاً من الإشكالات والشبه ، ومعنى يرزقه من حيث لا يحتسب : يطلع طامعاً من غير نية ، وينطقه من غير تجربة . . . وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » . . . وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علان فعلم باطن في القلب ، فذلك هو العلم النافع . . . وستل بعض الطماء من العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً . . . وفي الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقعه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . . . » .

(١) الغزالي : المنفذ من الضلال ١٧٨

(٢) الإحياء ٢٢/٣ .

وقد أورد كثيراً من الأدلة التي تؤيده في إمكان الكشف والإلهام بنير الأسباب الظاهرة ، مما وقع للخلفاء الراشدين وأهل التقوى والورع والزهد والتصوف . وهذا هو العلم اللدني ، وهو غير العلم الدنيوي الذي يكون بوسائط نعيم الخلق .

وسبيل هذا العلم مشقة وجهاد ، وحمل النفس على مالا نطقه أكثر النفوس ، ولقد كعب الغزالي في هذا الجهاد كثيراً حتى زخر « الإحياء » بالتصوف ، أكثر مما زخر به من أصول التشريع ، حتى هذا التشريع قد يكون درجات ومفاهيم عند المتصوفة تختلف عنها عند غيرهم .

وما بالك رجل يحمل الدرجة السفلى من الزهد أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كذاب أهمل ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العهد من الأحوال . وبسميه (زهد الخائفين) ؟ وبجعل الدرجة الثانية (زهد الراجين) لأنهم يزهدون رغبة في ثواب الله ونعيمه والذات الموعودة في جنته . أما الدرجة العليا عنده فهي (زهد المحبين) وهم العارفون ، لأنه لا يحب الله تعالى إلا من عرفه ، وزهدهم ليس عن رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا تلتفت قلوبهم إلى الآلام ليقتصدوا والخللاص منها ، ولا إلى الذات ليقتصدوا نهلها والظفر بها .. وهذا هو الزهد الحقيقي والتوحيد الحقيقي الذي لا يطلب فيه غير الله ، لأن من طلب غير الله قد هبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفي .

وما أكثر ما يزخر به الإحياء من آثار التصوف ، مما يدل على تشيع الغزالي بفكرته وإيمانه بأنه الطريق الموصل إلى المعرفة بالله والقرب من رحته ، وتجدر أن هذا التشيع والفهم العميق لفلسفة التصوف في أبواب كثيرة نخص بالذكر منها الجزء الرابع من هذه الطبعة في (ربيع المنجيات) في أبواب الخوف والرجاء والصبر والشكر والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا ... الخ .

✽

وأخيراً ...

للك بعض إشارات إلى الينابيع الطاهرة والمناهل الصافية ، التي يفيض بها هذا الآثر الخالد ، يقصد إليها المصلحون والمفكرون من طلاب الشريعة وطلاب الحقيقة ، والباحثون في أسرار الاعتقاد وحقائق الإيمان والأعمال وقواعد السلوك ، ليجدوا فيها غذاء لقلوبهم ، ورياء لظمئهم ، وشفاء لأفواء قلوبهم ، ونهيذاً لظلمات الخيرة في قلوبهم وأمنافى لسلوكهم ، ونجاة من موبقات هذا السراب الأنغاز في دنيا الباطل والضلال ، وسبيلاً إلى السعادة بالمرقة القلبيّة والحكمة البالغة .

وقد كتبت هذه الكلمات استجابة للرغبة الكريمة التي أبدتها (دار إحياء الكتب العربية) في تقديم هذه الطبعة من (إحياء علوم الدين) الذي عظم نفعه ، وهدت بركته ، منذ كتبه حجة الإسلام للنزالي ، الذي نتميز به عالمًا بدين الله ، ونؤمنًا بالله ، وداعيًا إلى الله ، ونتميز به مسلمًا من أولى البصيرة واليقين ، وحلًا من أعلام الصوفية وفلاسفة الإسلام .

وأقمت على هذا الصلح . مستعينًا بالله ، حتى وفق إلى هذه الكلمات ، التي أرجو أن تكون مفتاحًا لكشف عن شخصية النزالي وخصايته ومطرقه ، وما بث في (الإحياء) من آيات الهدى والحكمة .
والحمد لله على ما هدنى إليه ، وأطمن طميه ، له الحمد في الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير .

بروق الكريمان

مصر الجديدة { ٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ
٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ م



إخفاء علوم الدين

للإمام الفخر إلى

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ»
(مَرَّانَ كَرِيم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متوالياً ، وإن كان يتضاءل دون حلي جلاله حمد الحامدين ، وأصلح وأسلم على رسوله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر الرسلين ، وأستخيره تعالى ثالثاً فيما أنبت له عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين ، وأتدب لقطع تعجبك رابعاً ، أيها العادل التعالى في العادل من بين زمرة الجاحدين ، للسرف في التفريع والانكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ، فلقد حل عن لساني عقدة الصمت وطوقتي عهدة السلام وقلادة النطق ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل والتشبيب على من آثر الزرع قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر بأساً من عام التلاقي والجبر وانحيازاً عن عمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأبنت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحد من دركها فرجعت بكلامها ، أحمد وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من ظلة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

وبعد : فلما وفق الله تعالى لا كمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبينه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عذب عنى علمه ثم شرعت في تبينه في نصف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطئ في إكمال غير متعرض لتركه وإماله إلى أن ظفرت بأكثر مما كنت لم أقف عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكمالها فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار فاقصرت فيه على ذكر طرف الحديث ومجايه ومخرجه وبيان محته أو حسنه أو ضعف مخرجه فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند للذاكرة والناظرة وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مستول .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بزمه إليه وإلا عزوته إلى من خرج من بقية السنة وحيث كان في أحد السنة لم أعزّه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب

كتاب تعريف الأحياء

بفضائل الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق

لنشر المحاسن وطبها

في أحسن كتاب

وجعل ذلك قرة لأعين

الأحباب وذخيرة ليوم

للآب والصلاة والسلام

على سيدنا محمد الذي

أحيا بأحياء شريسته

وطريقته قلوب ذوي

الألباب وعلى آله

الطيبين الطاهرين

وجميع الأصحاب

ما أشرقت شمس الأحياء

للقلوب وتوجهت همه

روحانية مصنفه الولي

الوهاب إلى إسعاف

ملازمي مطالعته

ومجبه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب

العظيم الشأن المسمى

بإحياء علوم الدين

الشهور بالجمع والبركة

والنفع بين العلماء

العاملين وأهل طريق

الله السالكين المشايخ

العارفين للنسب إلى

الامام الغزالي رضي

الله عنه عالم العلماء

وارث الأنبياء حجة

« أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفقه الله سبحانه بعله (١) » ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجسم الفغير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجمل بأن الأمر إد والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقل البصير رد وسلوك طريق الآخرة مع كثرة العوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد فائدة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا الترسيمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً فصار يرى المروف منكراً والنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام أو جدل يتدرع به طالب البهاة إلى الغلبة والإفحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسياً منسياً . ولما كان هذا ثلماً في الدين ولما وخطباً مدلهما رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما إحياء لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين وإيضاحاً لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين . وقد أنسته على أربعة أرباع وهي : ربيع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية اللهم لا كشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢) » وأميز فيه العلم النافع من الضار إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع (٣) » وأحقق ميل أهل العصر عن شاة كلة الصواب ، وانخداعهم بالامع السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب .

الترم مخرجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه في الإحياء ، وحيث كرر المصنف ذكر الحديث فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وبما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لفرض أول لذهول عن كونه تقدم وإن كرره في باب آخر ذكرته ونهت على أنه قد تقدم وربما لم أنه على تقدمه لذهول عنه وحيث عزوت الحديث لمن خرجته من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يفيق عنه غالباً وربما لم أذكره . وميمته :

المغنى من حل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

جمله الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى التعميم المقيم .

أحاديث الخطبة

(١) حديث : أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفقه الله بعله . الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث : طلب العلم فريضة على كل مسلم . ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث : نعوذ بالله من علم لا ينفع . ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

الاسلام حسنة الدهور
والأعوام تاج المجتهدين
سراج التهجددين
مقتدى الأئمة ميين
الحل والحرمة زين الله
والدين الذي باهى به
سيد المرسلين صلى الله
عليه وسلم وعلى جميع
الأنبياء ورضى عن
الغزالي وعن سائر
العلماء المجتهدين لما
كان عظيم الوقع كثير
النفع جليل المقدر
ليس له نظير في بابيه ولم
ينسج على منواله ولا
سمحت قريحته بمثاله
مشتغلاً على الشريعة
والطريقة والحقيقة
كاشفاً عن التوامض
الحفية مينا للأسرار
الدقيقة رأيت أن أضع
رسالة تكون كالغنوان
والدلالة على صبابة
من فضله وشرفه
ورشحة من فضل
جامعه ومصفه
(ورتبته على مقدمة .
ومقصد . وخاتمة)
فالمقدمة في عنوان
الكتاب . والمقصد
في فضائله وبعض
المذامع والثناء من

ويشتمل ربيع العبادات على عشرة كتب

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربيع العادات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصعبة والمعاشر مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربيع النجيات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب التوبة وكتاب الصبر والشكر وكتاب الخوف والرجاء وكتاب الفقر والزهد وكتاب التوحيد والتوكل وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا وكتاب النية والصدق والاخلاص وكتاب المراقبة والمحاسبة وكتاب التفكير وكتاب ذكر الموت . فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهاء . وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار للعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغنى عنها متدين . وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ثم الآفات التي عليها ترتب ، ثم العلامات التي بها تعرف ، ثم طرق العلاج التي بها يتخلص . كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار . وأما ربيع النجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال القربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة أحدها وحقيقتها وسببها الذي به يجتلب ونمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ولكن يميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور : الأول : حل ما عقده وكشف ما أجهله . الثاني : ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه . الثالث : إيجاز ما طولوه وضبط ما قررروه . الرابع : حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه . الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأنفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذاً الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفاقه أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراد في الكتب أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف النطاء عنه صارف فلهذا خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً للمجامع هذه العلوم . وإنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما وهو الباعث الأصلي : أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف العلوم فقط وأعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع

الأكار عليه والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه والخاتمة في ترجمة المصنف رضي الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

(المقدمة في عنوان

الكتاب)

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والمعاملة قسمان معاملة بين العبد وبين الله تعالى ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضاً قسمان ما يجب تركه القلب عنه من الصفات المذمومة وما يجب تحلية القلب به من الصفات الحمودة وقديني الامام الغزالي رحمه الله كتابه إحياء علوم الدين على هذه الأربعة الأقسام فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع ربيع العبادات وربيع العبادات وربيع المهلكات وربيع النجيات فأما ربيع العبادات فيشتمل على عشرة كتب كتاب

الكشف العمل به والقصود من هذا الكتاب علم العاملة فقط دون علم الكاشفة التي لارخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين وعلم العاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والارشاد إليه . وأما علم الكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والاحمال علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال والعماء ورثة الأنبياء فلهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاعتداء . ثم إن علم العاملة ينقسم إلى علم ظاهر أعنى العلم بأعمال الجوارح وإلى علم باطن أعنى العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الجواس من عالم المسكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشرط الظاهر للتعليق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة والشرط الباطن للتعليق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم العاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني : أتى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى التدرج به إلى البهاة والاستظهار بجاهه ومنزله في النافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والتزني بزي المحبوب محبوب فلم أبعاد أن يكون تصور الكتاب بصورة الفقه تلطفا في استدراج القلوب ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا في الجداول والرقوم ومما تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذبا لهم إلى اللطافة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد فتمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح التوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد فأبين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد إنه كريم جواد .

الكتاب في علم وفيه سبعة أبواب (الأول)

الباب الأول : في فضل العلم والتعلم . الباب الثاني : في فرض العلم وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا . الباب الثالث : فيما تعدد العامة من علوم الدين وليس منها وفيه بيان جنس العلم للمذموم وقدره . الباب الرابع : في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . الباب الخامس : في آداب المعلم والتعلم . الباب السادس : في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . الباب السابع : في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول في فضل العلم والتعلم وشواهد من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدا من القرآن قوله عز وجل - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط - فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلاث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا وقال الله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - قال ابن عباس رضي الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام وقال عز وجل - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - وقال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وقال تعالى - قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب - وقال تعالى - قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم وقال عز وجل - وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا - بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم وقال تعالى - وتلك الأمثال

العلم كتاب قواعد
العقائد كتاب أسرار
الطهارة كتاب أسرار
الصلاة كتاب أسرار
الزكاة كتاب أسرار
الصيام كتاب أسرار
الحج كتاب تلاوة
القرآن كتاب الأذكار
والدعوات كتاب
ترتيب الأوراد في
الأوقات . وأما ربيع
العادات فيشتمل على
عشرة كتب كتاب
آداب الأكل كتاب
آداب النكاح كتاب
آداب الكسب كتاب
الحلال والحرام كتاب
آداب الصعبة كتاب
العزلة كتاب آداب
السفر كتاب
آداب السماع والوجد
كتاب الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر
كتاب أخلاق النبوة .
وأما ربيع المهلكات
فيشتمل على عشرة
كتب كتاب شرح
عجائب القلب كتاب
رياضة النفس كتاب
آفة الشهوتين : البطن
والفرج كتاب آفة
اللسان كتاب آفة

نصرها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وقال تعالى - ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعله
الدين يستنبطونه منهم - رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبهم بركة الأنبياء في كشف حكم
الله . وقيل في قوله تعالى - يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم - يعني العلم - وربنا - يعني
اليقين - ولباس التقوى - يعني الحياء وقال عز وجل - ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم - وقال
تعالى - فلنقصن عليهم بعلم - وقال عز وجل - بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم - وقال
تعالى - خلق الإنسان على البيان - وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان . وأما الأخبار فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم
«العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) ومعلوم أنه لارتبة فوق النبوة ولاشرف فوق شرف الوراثة تلك الرتبة
وقال صلى الله عليه وسلم «يستغفر للعالم ما في السموات والأرض»^(٣) وأي منصب يزيد على منصب من
تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له وقال
صلى الله عليه وسلم «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع الملوك حتى يدرك مدارك الملوك»^(٤) وقد
نبه هذا على غمراه في الدنيا ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم «خصلتان لا يكونان
في منافق حسن سمع وقفة في الدين»^(٥) ولا تشك في الحديث لنفاق بعض قهواء الزمان فإنه ما أراد به
الفقه الذي ظننته وسيأتي معنى الفقه وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا وهذه
المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه يرى بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم «أفضل الناس
للمؤمن العالم الذي إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه»^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم «الایمان
عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم»^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم «أقرب الناس من درجة
النبوة أهل العلم والجهاد أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاء به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم
على ما جاء به الرسل»^(٨) . وقال صلى الله عليه وسلم «لموت قبيلة أيسر من موت عالم»^(٩) وقال
عليه الصلاة والسلام «الناس معادن كعادن الذهب والفضة يخارم في الجاهلية خيارهم في الاسلام
إذا قهوا»^(١٠) وقال صلى الله عليه وسلم «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء»^(١١)

كتاب العلم . الباب الأول

(١) حديث من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده متفق عليه من حديث معاوية دون قوله
ويلهمه رشده وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير (٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء . أبو داود
والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء (٣) حديث يستغفر للعالم ما في السموات
والأرض هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم (٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفا الحديث
أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في بيان العلم وعبد الغني الأزدی في آداب المحدث من حديث أنس
باسناد ضعيف (٥) حديث خصلتان لا يجتمعان في منافق الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة
وقال حديث غريب (٦) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث البيهقي في شعب الإيمان موقوفا
على أبي الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعا (٧) حديث الإيمان عريان الحديث الحاكم في تاريخ
نيسابور من حديث أبي الدرداء باسناد ضعيف (٨) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم
والجهاد الحديث أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٩) حديث
لموت قبيلة أيسر من موت عالم الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء وأصل الحديث عند
أبي الدرداء (١٠) حديث الناس معادن الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (١١) حديث
يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف

الغضب والحقد والحسد
كتاب ذم الدنيا
كتاب ذم المال والبخل
كتاب ذم الجاه والرياء
كتاب الكبر والعجب
كتاب الفرور . وأما
ربيع النجيات فيشتمل
على عشرة كتب
كتاب التوبة كتاب
الصبر والشكر كتاب
الخوف والرجاء كتاب
المقمر والزهد كتاب
التوحيد والتوكل
كتاب المحبة والشوق
والرضا كتاب النية
والصدق والاخلاص
كتاب الرقابة والمحاسبة
كتاب التفكير كتاب
ذكر الموت . ثم قال
رحمه الله : فأما ربيع
العبادات فأذكر فيه
من خفايا آدابها
ودقائق سننها وأسرار
معانيها ما يضطر العالم
العامل إليها لئلا يكون
من علماء الآخرة من لم
يطلع عليها وأكثر ذلك
عما أهمل في الفقهيات .
وأما ربيع العادات
فأذكر فيه أسرار
العاملات الجارية بين
الخلق ودقائق سننها

وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل يوم القيامة قبها عالماً »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهله ورزقه من حيث لا يحتسب »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام بإبراهيم إني أعلم أحب كل حليم »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه في الأرض »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « صفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس الأمراء والفقهاء »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل فلا يورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي »^(٨) فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حظ رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم يكن عبادة . وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »^(٩) وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء »^(١٠) فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من قبه في الدين ولقائه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه »^(١١) وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه »^(١٢) وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة »^(١٣) وقال

وخفايا الورع في مجاريها
وهي عمال يستغنى التدين
عنها . وأما ربيع
للهلكات فأذكر فيه
كل خلق مذموم ورد
القرآن بإماطته وتزكية
النفس عنه وتطهير
القلب منه وأذكر في كل
واحد من هذه الأخلاق
حده وحقيقته ثم سيبه
الذي منه يتولد ثم
الآفات التي عليها يترتب
ثم العلامات التي بها
يتعرف ثم طرق
المعالجة التي منها يتخلص
كل ذلك مقروناً بشواهد

(١) حديث من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة . ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٢) حديث من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة قبها عالماً ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٣) حديث من تفقه في دين الله كفاه الله همه الحديث الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزيدى بإسناد ضعيف (٤) حديث أوحى الله إلى إبراهيم بإبراهيم إني أعلم أحب كل حليم ذكره ابن عبد البر تعليقا ولم أظفر له بإسناد (٥) حديث العالم أمين الله في الأرض ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث صفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس الحديث ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٧) حديث إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الحديث الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (٨) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح (٩) حديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم (١٠) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف (١١) حديث ما عبد الله بشيء أفضل من قبه في الدين الحديث الطبراني في الأوسط وأبو بكر الأجرى في كتاب فضل العلم وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد (١٢) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف والشرط الأول عند أحمد من حديث مجنون بن الأدرع بإسناد جيد والشرط الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١٣) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة

من الآيات والأخبار
والآثار . وأما ربيع
للنجيات فأذكر فيه
كل خلق محمود وخصلة
مرغوب فيها من خصال
القربين والصديقين
التي يتقرب بها العبد
من رب العالمين
وأذكر في كل خصلة
حدها وحقيقتها وسببها
الذي به تجلب وتغتر بها
التي منها تستفاد
وعلاقتها التي بها تعرف
وفضلها التي لأجلها
فيها يرغب مع ما ورد
فيها من شواهد الشرع

والعمل

(للقصد في فضل الكتاب الشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه والجواب عما استشكل منه وطمع بسببه فيه) اعلم أن فضائل الأحياء لا تعصى بل كل فضيلة لها باعتبار حيثياتها لا تستقصى جمع الناس مناقبهم وقصروا وما قصروا وغاب عنهم أكثر مما أبصروا وعز من أفردوا فيها علت بتأليف وهي جسدرة بالتصنيف غاص مؤلفه رضى الله عنه في بحار الحقائق واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها وجمال في بساين العلوم فاجتنى ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها وسمما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة وجللت عليه عرائس أسرار المعاني فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة جمع رضى الله عنه فأوعى وسمى في إحياء علوم الدين

صلى الله عليه وسلم « إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه قليل قراؤه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه العمل فيه خير من العلم وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه العلم فيه خير من العمل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حصر الجواد الضمر سبعين سنة (٢) » وقيل يارسول الله : أي الأعمال أفضل فقال « العلم بالله عز وجل » فقيل أي العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم « العلم بالله سبحانه » فقيل له نسال عن العمل وتجب عن العلم فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول يا مبشر العلماء إنى لم أضع على فيكم إلا للمسلمي بكم ولم أضع على فيكم لأعذبكم بكم اذهبوا فقد غفرت لكم (٤) » نسال الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال صلى الله عليه وسلم « إن أى طالب رضى الله عنه لسكريل يا كليل العلم خير من لئال العلم يهرسك وأنت تهرس لئال العلم حاكم وللالم يحكموم عليه وللالم تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإتقان . وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإدامات العالم تلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه وقال رضى الله تعالى عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقر بعلم تعيش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود ليس شيء أعز من العلم الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك من الناس فقال العلماء قيل لمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل أقوى منه ولا بظفه فان الفيل أعظم منه ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا بأكله فان الثور أوسع بطنا منه ولا لجامع فان أخس المصافير أقوى على السفاد منه بل لم يخلق إلا للعلم وقال بعض العلماء ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم وأي شيء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي خيرا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى » وقال نفع المومل رحمه الله أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قال كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت ولقد صدق فان غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياتاه كما أن غذاء الجسد الطعام ومن قد العلم قلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به إذ ذهب الدنيا وشغلها أبطل إحساسه كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا فاذا حط

ابن عدى من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف (١) حديث إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٢) حديث بين العالم والعابد مائة درجة الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال سبعون درجة بسند ضعيف وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة (٣) حديث قيل له يارسول الله أي الأعمال أفضل فقال العلم بالله الحديث ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء الحديث الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف

الموت عنه أعباء الدنيا أحسن بهلاكه وتحسر تحسرا عظيما ثم لا ينفعه وذلك كاحساس الآمن من خوفه واليقين من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف فتعوذ بالله من يوم كشف العطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وقال الحسن رحمه الله يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء وقال ابن مسعود رضي الله عنه عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفع موت رواه فواللهي نفسي يده ليودن رجل قتلوا في سبيل الله شهداء أن يعظم الله علماء لما يرون من كرامتهم فإن أحدا لم يولد علما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله وقال الحسن في قوله تعالى - ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة - إن الحسن في الدنيا هي العلم والعبادة وفي الآخرة هي الجنة وقيل لبعض الحكماء أي الأشياء تقتني قال الأشياء التي إذا هزقت سيفتكت سبحت معك يعني العلم وقيل أراد بفرق السفينة هلاك بدنه بالموت وقال بعضهم من اتخذ الحكمة لجأما اتخذها الناس إماما ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعي رحمه الله عليه من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فخرج ومن رفع عنه حزن وقال عمر رضي الله عنه يأبى الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداء محبة فمن طلب بابا من العلم ردا لله عز وجل بردائه فإن أذنب ذنبا استغفبه ثلاث مرات كذا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى عوت وقال الأحنف رحمه الله كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلوم إلى ذلك مصيره وتال سالم بن أبي الجعد اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت بأي شيء أحترفت فاحترفت بالعلم لما نمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرا فلم أذن له وقال الزبير بن أبي بكر كتب إلى أبي بالعراق عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكي ذلك في وصايا التهان لأنه قال يابني جالس العلماء وزاحمهم بركيك فان الله سبحانه يحبي القلوب بنور الحكمة كما يحبي الأرض بوابل السماء وقال بعض الحكماء إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكران الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فتقوله تعالى - فاولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين - وقوله عز وجل - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وأما الأخبار فتقوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله طريقا إلى الجنة ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالعين ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

(١) حديث من سلك طريقا يطلب فيه علما الحديث مسلم فيه علما الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع أحمد وابن حبان والحاكم ومصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث لأن تغدو فتتعلم بابا من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذلك والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا ابن حبان في روضة العقلاء وابن عبد البر موقوفا على الحسن البصري ولم أره مرفوعا إلا بلفظ خير له من مائة ركعة رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر (٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالعين ابن عدى والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس وقال البيهقي متنه مشهور وأسانيد ضعيفة .

فشكر الله له ذلك
السعي لله دره من عالم
عحق مجيد وإمام جامع
لشتات الفضائل محرر
فريد لقد أبدع فيها
أودع حكاياه من
الفوائد الشوارد وقد
أغرب فيها أعرب فيه
من الأمثلة والشواهد
وقد أجاد فيها أفاد فيه
وأملى يدي أنه في العلوم
صاحب القدح المعلى
إذ كان رضي الله عنه
من أسرار العلوم بمحل
لا يدرك وأين مثله
وأصله وأصله فضله فضله:
هيئات لا يأتى الزمان
بمثله

إن الزمان بمثله لشحيح
وما عسيت أن أقول
فيمن جمع أطراف
الحاسن ونظم أشنات
الفضائل وأخذ برقاب
الحامد واستولى على
غايات المناقب فشجرت
في فواردة العلم والعمل
والملا والفهم والذكاء
أصلها ثابت وفرعها
في السماء مع كونه
رضي الله عنه هذا الصدر
الرحيب والقريجة
الثاقبة والبراية الصائبة

وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة السائل والعالم والمستمع والمحب لهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (٢) » وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعبادة ألف مريض وشهود ألف جنازة » قيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم وهل ينفع القرآن إلا بالعلم (٣) . وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فينبه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة (٤) » . وأما الآثار فقال ابن عباس رضي الله عنهما ذلت طالبا فمزت مطلوبها وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله ما رأيت مثل ابن عباس إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها وإذا تكلم فأعجب الناس لسانا وإذا أفتى فأكثر الناس علما وقال ابن المبارك رحمه الله عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال بعض الحكماء إنني لأرحم رجلا كرحمتي لأحد رجلين رجل يطلب العلم ولا يفهم ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة وقال أيضا العالم والتعلم شريكان في الخير وشائر الناس هج لا خير فيهم وقال أيضا كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو وقال عمر رضي الله عنه موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم يصير بحلال الله وحرامه وقال الشافعي رضي الله عنه طلب العلم أفضل من النافلة وقال ابن عبد الحكم رحمه الله كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال يا هذا ما الذي قتت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية وقال أبو الدرداء رضي الله عنه من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل - ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون - والمراد هو التعليم والارشاد وقوله تعالى - وإذا أخذنا ميثاق الذين أتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه - وهو إيجاب للتعليم وقوله تعالى - وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون - وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة - ومن يكتمها فإنه آثم قلبه - وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه (٥) » وقال تعالى - ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا - وقال تعالى - ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - وقال تعالى - ويعلمهم الكتاب والحكمة - وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بث معاذا رضي الله عنه إلى اليمن « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها (٦) »

- (١) حديث العلم خزائن مفاتيحها السؤال الحديث رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعا بإسناد ضعيف
- (٢) حديث لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة التلمذ من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث أبي ذر حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٤) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم الحديث الدارمي وابن السني في رياضة التلمذ من حديث الحسن قيل هو ابن طي وقيل هو ابن يسار البصري فيكون مرسل (٥) حديث ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين الحديث أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفي الخلفيات نحوه من حديث أبي هريرة (٦) حديث قال لمعاذ حين بثه إلى اليمن لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم

والنفس السامية والهمة العالية ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله عليه أن الفقيه العلامة قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمنى سئل عن تصانيف الغزالي فقال من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد للصنفين وذكر اليافعي أيضا أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور القرطبي كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطاعا مسموع الكلمة فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الأحياء وهم باحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقا ^(١) » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا فيقول الله عز وجل أنتم عندي كبعض ملائكتي اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة ^(٢) » وهذا إنما يكون بالعلم للتعدي بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدى به . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لا يترزع العلم انتراعا من الناس بعد أن يؤتهم إياه ولكن ينهب ينهب العلماء فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم يفضلون ويضلون ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمه تسمعها فطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تطعه إياها تعدل عبادة سنة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو لمعلمها أو متعلمها ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النخلة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد بالسلم أخا فائدة أفضل من حديث حسن بلغه قبله ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة ^(٩) » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعو الله عز وجل ويرغبون إليه والثاني يعلمون الناس فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما يشت معلما » ثم عدل إليهم وجلس معهم ^(١٠)

أحمد من حديث معاذ وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلى ^(١) حديث من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقا رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ^(٢) حديث إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة الحديث أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف ^(٣) حديث إن الله لا يترزع العلم انتراعا من الناس الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ^(٤) حديث من علم علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حديث حسن ^(٥) حديث نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمه تسمعها الحديث الطبراني من حديث ابن عباس نحوه باسناد ضعيف ^(٦) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن غريب ^(٧) حديث إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النخلة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب وفي نسخة حسن صحيح ^(٨) حديث ما أفاد بالسلم أخا فائدة أفضل من حديث حسن الحديث ابن عبد البر من رواية محمد بن النكدر مرسلا نحوه ولأبي نعيم من حديث عبد الله بن عمرو ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى ^(٩) حديث كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها الحديث ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كلمة حكمه يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة ^(١٠) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعو الله الحديث ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

فلما أقبل ابن حزم قال النزالي هنا خصمى يارسول الله فإن كان الأمر كما زعم ثبت إلى الله وإن كان شيئا حصل لي من بركتك واتباع سنتك فخذلي حتى من خصمى ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ثم ناوله الصديق رضى الله عنه فنظر فيه فاستجاده ثم قال نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن ثم ناوله الفاروق عمر رضى الله عنه فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه على ابن حزم عن القميص وأن يضرب ويعد حد المقرى فجرد وضرب فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضى الله عنه وقال يارسول الله لعله ظنّ خلاف سنتك

وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأبنتت الكلاً والمشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فثربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً^(١) » اهـ فالأول ذكره مثلاً للمتفعل بعلمه والثاني ذكره مثلاً للنافع والثالث للمحروم منها . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به^(٢) » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلا في اثنين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ورجل آتاه الله ما لا فسلطه علىهلكته في الخير^(٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « على خلقائي رحمة الله قيل ومن خلقاؤك ؟ قال الذين يحبون سنتي ويعلمونها عباد الله^(٥) » . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر وقال بعض العلماء العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكثرت لاسأله إنسان فقال اكروا لي لأخرج من هذا البلد هذا البلد يموت فيه العلم وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به . وقال عطاء رضي الله عنه دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت ما يبكيك قال ليس أحد يسألني عن شيء . وقال بعضهم العلماء سرج الأزمنة كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدة البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة إن لهذا العلم ثمناً قيل وما هو قال أن تضعه فيمن يحسن عمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم قيل وكيف ذلك قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل علم علمك من يجمل وتعلم من يعلم ما يجمل فانت إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيت أيضاً مرفوعاً « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قرينة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والصبر على السراء والضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنارسيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتبس آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلهم وبأجنتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيطان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها^(٦) . لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة

(١) حديث مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث الدال على الخير كفاعله الترمذي من حديث أنس وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدرى بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله (٤) حديث لاحسد إلا في اثنين الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٥) حديث على خلقائي رحمة الله الحديث ابن عبد البر في العلم والمروى في ذم الكلام من حديث الحسن قيل هو ابن علي وقيل ابن يسار البصري فيكون مرسلان ولابن السني وأبي نعيم في رياضة التلميذ من حديث علي نحوه (٦) حديث معاذ تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة الحديث بطوله أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب وابن عبد البر وقال ليس له إسناد قوي .

فأخطأ في ظنه فرضى
الامام الغزالي وقبل
شفاعة الصديق ثم
استيقظ ابن حزم
وأثر السباط في ظهري
وأعلم أصحابه وتاب إلى
الله عن إنكاره على
الامام الغزالي واستغفر
ولكنه بقي مدة طويلة
متألاً من أثر السباط
وهو يتضرع إلى الله
تعالى ويتشفع برسول
الله صلى الله عليه وسلم
إلى أن رأى النبي
صلى الله عليه وسلم
دخل عليه ومسح
بیده الكربة على
ظهره فعوفي وشفي بأذن
الله تعالى ثم لازم مطالعة
إحياء علوم الدين ففتح
الله عليه فيه ونال
المعرفة بالله وصار من
أكابر المشايخ أهل
العلم الباطن والظاهر
رحمه الله تعالى . قال
اليافعي روي ذلك
بالأمانيد الصحيحة
فأخبرني بذلك ولي الله
عن ولي الله عن ولي
الله عن ولي الله الشيخ
الكبير القطب شهاب
الدين أحمد بن الليق

الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدايرته بالقيام به يطاع الله عز وجل وبه يسند وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجّد وبه يتورّع وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

في الشواهد العقلية

اعلم أن للطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونقاسه ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم تتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أولغير من الحصول فاقتصدل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا وهو بدم لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيها هو كمال ذلك الشيء كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشارك في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة المدو وحسن الصورة فلو فرض حمار اختص بسلمة زائدة لم يقل إنه أفضل لأن تلك زيادة في الجسم وتقصان في العنى وليست من الكمال في شيء والحيوان مطلوب لعنايه وصفاته لا لجسمه فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الأوصاف كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الحيوانات بل شدة المدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة فانه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء بل الكيس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره وإلى ما يطلب لذاته وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا لما يطلب لذاته وأشرف وأفضل مما يطلب لغيره والمطلوب لغيره الدرامم والدنانير فانها ما حيران لا منفعة لهما ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات لهما لكانا والحصاب بمثابة واحدة والذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمنى بها والتوصل إلى التآرب والحاجات وهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيت له لذيذ في نفسه فيكون مطلوب لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ماهو وسيلة إليها لن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العلم بكيفية العمل فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضا بشرف ثمرته وقد صرفت أن ثمره العلم القرب من رب العالمين والاتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملائكة الأعلى هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم بمجونة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الانسان لشعورها بتميز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها . هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لعمالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة بما ذكرناه فان العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا فان الدنيا منزعة للآخر وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن يتخذها مستقرا ووطنا وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام : أحدها أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة الزراعة وهي للمطعم والحيا كدوى للملبس والبناء

الشاذلي عن شيخه
الشيخ الكبير العارف
بالله يا قوت الشاذلي عن
شيخه الشيخ الكبير
العارف بالله أبي العباس
الرسى عن شيخه الشيخ
الكبير شيخ الشيوخ
أبي الحسن الشاذلي
قدس الله أرواحهم
وكان معاصرا لابن
حرزهم قال وقال الشيخ
أبو الحسن الشاذلي
ولقد مات الشيخ
أبو الحسن بن حرزهم
رحمه الله يوم مات وأثر
السياط ظاهر على ظهره
وقال الحافظ بن عساكر
رحمه الله وكان أدرك
الامام الغزالي واجتمع
به قال سمعت الامام
الفتية الصوفي سمع بن
طى بن أبي هريرة
الاسفرايني يقول سمعت
الشيخ الامام الأوحى
زين القراء جمال
الحرم أبا الفتح الشاوى
بمكة الشرفة يقول
دخلت المسجد الحرام
يوما فطرا على حال
وأخذنى عن نفسى
فلم أقدر أن أنف
ولا أجلس لشدة ما بى

وهو للمسكن والسياسة وهي لتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها الثاني ماهي مهنة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالمعداة فانها تخدم الزراعة وحجة من الصناعات باعداد آلاتها كالحلابة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد عملها . الثالث ماهي متممة للأصول ومزينة كالطحن والحبز للزراعة وكالقصار والحياطة للحياكة وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملة فانها ثلاثة أضرباً أيضاً أصول كالقلب والكبد والدماغ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرابين والأعصاب والأوردة وإما مكملة لها ومزينة كالأنظار والأصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من السكالك فيمن يشكّل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات ولذلك يستخدم لأعماله صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق للتعظيم النجى في الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى وهي العليا سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في ظاهريهم وباطنيهم . والثانية الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهريهم لا على باطنيهم . والثالثة العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنهى قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالانزاع والنفع والشرع . والرابعة الوعاظ وحكمهم على مواطن العوام فقط وأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة للهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق الحمودة السعيدة وهو الراد بالتعليم وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالاتفات إلى الفريضة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع إما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة وإما بملاحظة المصل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة إذ عمل أحدهما الذهب وعمل الآخر جلد البتة وليس يغني أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل أشرف صفات الإنسان كإسباني يانه إذ به تقبل أمانة الله وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه وأما عموم النفع فلا يسترب فيه فان نفعه ونعمته سعادة الآخرة وأما شرف المصل فكيف يغني والعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم وأشرف موجود على الأرض جنس الانس وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه والعلم مشغول بتكيله وتجليته وتطهيره ووسايقته إلى القرب من الله عز وجل فتعليم العلم من وجه عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة الله تعالى وهو من أحل خلافة الله فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العام الذي هو أخص صفاته فهو كالحازن لأنفس خزائنه ثم هو مأذون له في الاتفاق منه على كل محتاج إليه فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تزيينهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى جعلنا الله منهم بكرمه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

(الباب الثاني . في العلم المحمود والذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة)
بيان العلم الذى هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » واختلف الناس في العلم الذى هو فرض على كل مسلم ففرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ولا تطيل بنقل التفضيل ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده فقال المتكلمون هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله

فوقعت على جنبي الأيمن
نجاه الكعبة للعظمة
وأنا على طهارة وكنت
أطرد عن نفسى
النوم فأخذتني سنة
بين النوم واليقظة
فرايت النبي صلى الله
عليه وسلم في أكل
سورة وأحسن زى
من القميص والعامة
ورأيت الأئمة الشافعى
ومالكا وأبا حنيفة
وأحمد رحمهم الله
يرضون عليه مذاهبهم
واحداً بعد واحد
وهو صلى الله عليه
وسلم يقرهم عليها ثم جاء
شخص من رؤساء
المتدعة ليدخل الحلقة
فأمر النبي صلى الله
عليه وسلم بطرده
وإهاتته فتقدمت أنا
وقلت يا رسول الله
هذا الكتاب أعنى
إحياء علوم الدين
معتقدى ومعتقد أهل
السنة والجماعة فلو
أذنت لى حق أقراء
عليك فأذن لى
فقرأت عليه من
كتاب قواعد العقائد
بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانه وصفاته وقال الفقهاء هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل وعزوا به ما يحتاج إليه الأحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها وقال للتصوف المراد به هذا العلم فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل وقال بعضهم هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييزه للملك من لمة الشيطان وقال بعضهم هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومهم . وقال أبو طالب السكي هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الاسلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله (١) » إلى آخر الحديث لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذي ينبغي أن يقطع به المصنف ولا يستريب فيه ما سنذكره وهو أن العلم كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد وفعل وترك فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً فأول واجب عليه تعلم كلتي الشهادة وفهم معناها وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدق به ويستفقه جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسمع من غير بحث ولا برهان « إذا كنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل (٢) » فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهماهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير ماص له وإنما يجب غير ذلك بموارض تعرض وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الاتسكال عنها وتلك الموارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد . أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت - بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يعد أن يقال الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال وهكذا في بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقوع وأن ذلك يتأدى إلى رؤية الهلال أو شاهدين فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل وكذلك في سائر الأصناف فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوا على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فتند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله فإن فعل ذلك نقل تعلمه أيضاً نقل فلا يكون تعلمه فرض عين

(الباب الثاني)

(١) حديث بنى الإسلام على خمس متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث ا كتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل ، مشهور في كتب السير والحديث فتند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة .

كتاب قواعد العقائد
وفيه أربعة فصول
الفصل الأول في ترجمة
عقيدة أهل السنة
حتى انتهت إلى قول
الغزالي وأنه تعالى
بعث النبي الأمي
القرشي محمداً صلى
الله عليه وسلم إلى
كافة العرب والعجم
والجن والإنس فرأيت
البشاشة في وجهه
صلى الله عليه وسلم
ثم التفت وقال أين
الغزالي وإذا بالغزالي
واقف بين يديه فقال
ها أنا ذا يا رسول الله
وتقدم وسلم فرد عليه
السلام عليه الصلاة
والسلام وناولته يده
الكريمة فأكب
عليها الغزالي قبلها
ويتبرك بها وما رأيت
النبي صلى الله عليه وسلم
أشد سروراً بقرابة
أحد عليه مثل ما كان
بقراءتي عليه الأحياء
ثم انتبهت والدمع يجري
من عيني من أثر تلك
الأحوال والكرامات
وكان تقريره صلى الله
عليه وسلم لهذه الأئمة

وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ولا على البدوى تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن فذلك أيضا واجب بحسب ما يقتضيه الحال فما يعلم أنه ينفع عنه لا يجب تعلمه وما هو ملائمه له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابسا للحريز أو جالسا في النصب أو ناظرا إلى غير ذي محرم فيجب تحريمه بذلك وما ليس ملائمه ولكنه يصدد التمرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه وما يجب تعليمه وجب عليه تعلمه . وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليها بحسب الحواطر فإن خطرله شك في العاني التي تدل عليها كتمان الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك فإن لم يخطرله ذلك ومات قبل أن يعتد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات قد مات على الإسلام إجماعا ولكن هذه الحواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطح وببعضها يخطر بالسامع من أهل البلد فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يسان في أوله بلوغه عنها بتلقين الحق فانه لو أتى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب لمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه قد علم العلم الذي هو فرض عين وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولة الملك حق أيضا ولكن في حق من يتصدى له فإذا كان الطالب أن الانسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربيع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا إليه وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (١) » ولا ينفك عنها بشر وبقية ما سذكركه من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات وإزالتها فرض عين ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه والعلاج هو مقابلة السبب بصدقه وكيف يمكن دون معرفة السبب والسبب وأكثر ما ذكرناه في ربيع المهلكات من فروض الأعيان وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يمين . وما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى الايمان بالجنة والنار والخبر والنشر حتى يؤمن به ويصدق وهو من تمة كلمتي الشهادة فانه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاه فله النار فإذا انتهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا وتعققت أن كل عبد هو في مجارى أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجديد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المرف بالآلف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير فقد اتضح وجه التدرج ووقت وجوبه والله أعلم .

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع الحديث البرار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف .

السنة واستبشاره
بعقيدة الفزالي
وتقريرها نعمة من الله
عظيمة ومنه جسيمة
سأل الله تعالى أن
يعيننا على سنته ويتوفانا
على ملته آمين .

(صل) أتى على الأحياء
عالم من علماء الإسلام
وغير واحد من عارف
الأنام بل جمع أقطاب
وأفراد فقال فيه الحافظ
الإمام الفقيه أبو الفضل
المراقى في ترجمته إنه
من أجل كتب الإسلام
في معرفة الحلال
والحرام جمع فيه بين
ظواهر الأحكام ونزع
إلى سرائر دقت عن
الأنفهام لم يقتصر فيه
على مجرد الفروع
والمسائل ولم يتبحر
في اللجة بحيث يتعذر
الرجوع إلى الساحل
بل مزج فيه على
الظاهر والباطن ومرج
معانيها في أحسن
للوطن وسبك فيه
نفائس اللفظ وضبطه
وسلك فيه من النمط
أوسطه مقتديا بقول
على كرم الله وجهه

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ماهو محمود وإلى ماهو مذموم وإلى ماهو مباح فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ماهو فرض كفاية وإلى ماهو فضيلة وليس بفريضة . أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواثيق وغيرها وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها خرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحياطة والحياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك فإن الذي أزل الداء أزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بأعماله . وأما ما بعد فضيلة لا فريضة فالتمعق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه وأما المذموم منه فمثل السحر والطلسمات وعلم الشعنة والتليسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخر فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه . وأما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان : فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة فتقسم إلى الحمودة والمذمومة . أما الحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب : الضرب الأول الأصول : وهي أربعة : كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة ، والاجتماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة وكذا الأمر فإنه أيضاً يدل على السنة لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدركه بالقرائن فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيهذا الفن . الضرب الثاني الفروع : وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بعمان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام « لا يقضى القاضي وهو غضبان »^(١) أنه لا يقضى إذا كان حائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض وهذا على ضربين : أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا وبحويه كتب الفقه والتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه الحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب . والضرب الثالث المقدمات : وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فانهما آلة لعم الكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً

(١) حديث لا يقضى القاضي وهو غضبان متفق عليه من حديث أبي بكر

خير هذه الأمة الخط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم التالي إلى آخر ما ذكره مما الأولى بنا في هذا المل طيه ثم الانتقال إلى نشر محاسن الأحياء ليظهر للمحب والبغض رشده وغيره . وقال عبد الغافر الفارسي في مثال الأحياء إنه من تصانيفه للشهيرة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النووي كاد الأحياء أن يكون قرآناً . وقال الشيخ أبو محمد الكازروني لو عجت جميع العلوم لاستخرجت من الأحياء . وقال بعض علماء المالكية الناس في فضل علوم الغزالي أي والأحياء جماعها كما سيأتي أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه قلا وروى عنه أنه قال مكثت سنين أطلع

« إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً (١) » ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنىء
 الكتابة ولكنه صار بحكم المعجز في الغالب ضروريا . الضرب الرابع للتمعات : وذلك في علم القرآن
 فانه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات وغارح الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كال تفسير فان اعلم
 أيضا على النقل إذ اللغة بمعجزتها لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كعقوبة الناسخ والنسخ وال
 والحاس والنس والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه
 ويتناول السنة أيضا . وأما التتمعات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة
 وصفاتهم والعلم بالمعدلة في الرواة والعلم بأحوالهم لتمييز الضعيف عن القوى والعلم بأعمارهم لتمييز الرسل
 السند وكذلك ما يتعلق بهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمولة بل كلها من فروع الكفايات . فان قد
 لم ألحق الفقه بعلم الدنيا وألحق الفقهاء بعلم الدنيا فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام
 التراب وأخرج ذريته من سلاله من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها
 الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وها
 الدنيا زادا للمعاد ليتناول ما يصلح للترؤد فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعتل الفقه
 ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولد منها الخصومات فحست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان
 إلى قانون يسوسهم به فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا في
 الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامة
 أمورهم في الدنيا ولعمري إنه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فان الدين امر زرع الآخ
 ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فهدوم و
 لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالقوم كما
 سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به فكذا
 معرفة طريق السياسة فلعلم أن الحج لا يتم إلا بيزقة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج ثم
 وسلك الطريق إلى الحج شيء ثان ولقيام بالحراسة التي لا يتم إلا بهاشي ثالث ومعرفة طرق الحراسة وحيا
 وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة وبدل على ذلك ما روى من
 « لا يغني الناس إلا ثلاثة أمير أو أمور أو متكلف (٢) » فالأمير هو الامام وقد كانوا هم المفتون وللامم
 نائبه والتكلف غيرهما وهو الذي يتقلد تلك المهدة من غير حاجة وقد كان الصحابة رضي الله
 عنهم عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه وكانوا لا يجترزون إذا سئلوا عن
 القرآن وطريق الآخرة وفي بعض الروايات بدل التكلف للرأي فان من تقلد خطر الفتوى وهو غ
 متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال . فان قلت هذا إن استقام لك في أحكام الجراحا
 والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربيع العبادات من الصيام والصلاة
 فيما يشتمل عليه ربيع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه
 الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة الاسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام فاذا تأملت منتهى نظر الفقه

كتاب الاحياء كل فصل
 وحرف منه وأعادوه
 وأتدبره فيظهر لي منه
 في كل يوم علوم وأسرار
 عظيمة ومفهمات
 غزيرة غير التي قبلها
 ولم يسبقها أحد ولم يلحقه
 أحد أننى على كتاب
 الاحياء بما أننى عليه
 ودعا الناس بقوله وفعله
 إليه وحث على التزام
 مطالعته والعمل بما فيه
 ومن كلامه رضى الله
 عنه : عليكم يا إخواني
 بتأسيه الكتاب
 والسنة أعنى الشريعة
 للشروحة في الكتب
 الغزالية خصوصا
 كتاب ذكر اللوت
 وكتاب الفقر والزهد
 وكتاب التوبة
 وكتاب رياضة النفس
 ومن كلامه : عليكم
 بالكتاب والسنة أولا
 وآخرها وظاهرها وباطنها
 وفكرها واعتبارها
 واعتقادها وشرح
 الكتاب والسنة
 مستوفى في كتاب إحياء
 علوم الدين للامام
 حجة الاسلام الغزالي
 رحمه الله ونفعنا به ومن
 كلامه وبعد فليس
 لنا طريق ومنهاج

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أى لا يحسن الكتابة ابن مردويه في التفسير من حديث
 عبد الله بن عمر مرفوعا أنا محمد النبي الأمي وفيه ابن لهيعة وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيه
 ومحمد بن حنبل حديث ابن مسعود قولوا اللهم صل على محمد النبي الأمي وللبخاري من حديث البراء وأ
 الكتاب وليس يحسن يكتب (٢) حديث لا يغني الناس إلا ثلاثة الحديث ابن ماجه من رواية عمه
 ابن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ لا يقص على الناس وإسناده حسن .

سوى الكتاب والسنة
وقد شرح ذلك كله
سيد للصنفين وبقية
المجتهدين حجة الإسلام
الغزالي في كتابه العظيم
الشان للقلب أعجوبة
الزمان إحياء علوم
الدين الذي هو عبارة
عن شرح الكتاب
والسنة والطريقة
ومن كلامه عليكم
بملزمة كتاب إحياء
علوم الدين فهو موضع
نظر الله وموضع رضا
الله فمن أحبه وطالعه
وعمل بما فيه فقد
استوجب محبة الله
ومحبة رسول الله ومحبة
ملائكة الله وأنبيائه
وأوليائه وجمع بين
التريعة والطريقة
والحقيقة في الدنيا
والآخرة وصار عالماً
في الملك والملكوت .
ومن كلامه الوجيز
العزير لوبص الله للوني
لما أوصوا الأحياء
إلا بما في الإحياء .
ومن كلامه اعلوا أن
مطالعة الأحياء تحضر
القلب الناقل في لحظة
كحضور سواد الخبر
بوقسوع الزاج في
الصفى والساء وتأثير

فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر . أما الإسلام فتكلم الفقيه فيها بصدق منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان وأما القلب فنخرج عن ولاية الفقيه لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبي » (١) « للذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتدراً بأنه قال ذلك من خوف السيف بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف مع أنه يعلم أن السيف لم يكشفه عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف متمد إلى رقبته واليد متمد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تصمم رقبته وماله مادام له رقبته وماله وذلك في الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » (٢) « جعل أثر ذلك في الدم والمال وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها وليس ذلك من فن الفقه وإن خاض الفقيه فيه كان كالأخاض في الكلام والطب وكان خارجاً عنه . وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير فأما الحشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عنه . وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة الساطن حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهم مالها إسقاطاً للزكاة فعكى ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من قهقهه وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرت في الآخرة أعظم من كل جناية ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ولكن الورع له أربع مراتب : الأولى الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاي والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر . الثانية ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم « الائم حزاز القلوب » (٤) . الثالثة ورع للتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أذاؤه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل من اللتين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس » (٥) « وذلك مثل التورع من التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر للودى إلى مفارقة المخطورات . الرابعة ورع الصديقين وهو الاعتراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى وهو ورع الشهود والقضاة وما يندرج في العدالة والقيام بذلك لا يفتي الائم

(١) حديث هلا شققت عن قلبي مسلم من حديث أسامة بن زيد (٢) حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر بن عمر (٣) حديث دع ما يريبك إلى ما لا يريبك الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي (٤) حديث الائم حزاز القلوب البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ورواه الصدوق في مسنده موقوفاً عليه (٥) حديث لا يكون الرجل من اللتين حتى يدع ما لا بأس به الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي .

في الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت قلبك وإن أقفوك وإن أقفوك وإن أقفوك (١) والفقهاء لا يتكلم في حازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يندرج في العدالة فقط فإذا جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام وكانت تدخل الحكمة في النحو والشعر . وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظاهر والامان والسلم والاجارة والصرف ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون وإعالم العمل بالقلب والجوارح في الطاعات والشرف هو تلك الأعمال . فان قلت لم سويت (٢) بين الفقه والطب إذ الطب أيضا يتعلق بالدنيا وهو صفة الجسد وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين . فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه : أحدها أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوة بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع . والثاني أنه لا يستغنى عنه أحد من السالكين طريق الآخرة البتة لا الصحيح ولا المريض وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا للرضى وهم الأقول . والثالث : أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه ينظر في أعمال الجوارح ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب فالحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة وللذموم يصدر من اللذموم وليس يغني اتصال الجوارح بالقلب وأما الصحة والمرض فتنشأها صفاء المزاج والأخلاق وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب فهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضا شرف علم طريق الآخرة . فان قلت فصل على علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله فاعلم أنه قيمان : علم مكاشفة وعلم معاملة . فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم فقد قال بعض المارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الحاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم بدعة أو كبر . وقيل من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم وأقل عقوبة من ينسكركه أنه لا يندوق منه شيئا وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيسه

وهو علم الصديقين والقرابين أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكته من صفاته الذمومة وينكشف من ذلك النور أمرر كثيرة كان يسمع من قبل أمعاءها فيتوهم لها معاني محملة غير متضعة فتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ووجه تربيته للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحي إليهم والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ومعرفة الفرق بين ملك الملائكة وملك الشيطان ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط واليزان والحساب ومعنى قوله تعالى - اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - ومعنى قوله تعالى - وإن الفدار الآخرة هي الحيوان

(١) حديث استفت قلبك وإن أقفوك أحمد من حديث وابصة .

(٢) هكذا بالنسخ ولعل الصواب لم لا سويت بدليل بالي كلامه فأمل .

كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن ومن كلامه أجمع العلماء المارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الاسلام الغزالي ومحبة كتبه فان كتب الإمام الغزالي لباب الكتاب والسنة ولباب للمقول والمقول وأقوى وكيل على ما أقول . ومن كلامه أنا أشهد سرا وعلاية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين ، ومن كلامه من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق المارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن فليبه بمطالعة كتب الغزالي خصوصا إحياء علوم الدين فهو البحر المحيط . ومن كلامه اشهدوا على أن من وقع على كتاب الغزالي قد وقع على عين التريسة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه من أراد طريق الله ورسوله وورثاها فليبه

لو كانوا يعلمون - ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول في جواره ومعنى حصول السعادة بمرافقة اللائحة الأولى ومقارنة اللائحة والنبين ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى السكوكب الدرر في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعدّه الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها للمفهومة من المأظها وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل وبعضهم يقول حدث معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر مبيع بصير متكلم نفخ يعلم الكاشفة أن يرتفع العطاء حتى تضع له جلبة الحق في هذه الأمور انضاحاً يجري مجرى البيان القدي لا يشك فيه وهذا يمكن في جواهر الإنسان لولا أن امرأة القلب قد تراكم صدوها وخبثها بقاذورات الدنيا وانما نعى يعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقل هذه المرأة عن هذه الخبايا التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاعتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم فيقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلأ في حقائقه ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها بالعلم والتعليم وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنتم الله عليه بشئ منها إلا مع أهله وهو الشاركة فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار وهذا هو العلم الخفي الذي أراد الله صلى الله عليه وسلم بقوله «إن من العلم كهيئة السكون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يحمله إلا أهل الاعتقاد بالله تعالى فلا تحمقوا علماً أناه الله تعالى علماً منه فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آناه إياه (١) ». وأما القسم الثاني : وهو علم العاملة فهو علم أحوال القلب . أما ما يعمد منها فكالمصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ومعرفة الله تعالى في جميع الأحوال والاحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والاخلاص ، لمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وتثمرها وعلامتها ومعالجة ما ضف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة . وأما ما يذم غفوف الفقر وسخط القدر والقل والحقد والحسد والنفس وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والأشر والبطر وتمظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والحيلاء والتنافس والباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعني وحب كثرة الكلام والصلف والتزين للخلق والمداينة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بميوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الحشية منه وشدة الانتصار للنفس إذا نالها القدر وضعف الانتصار للحق واتخاذ إخوان الملاينة على عداوة السر والأمن من معكر الله سبحانه في سلب ما أعطى والانتكال على الطاعة والمكر والحيلة والخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فواتها والأنس بالخلق والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والمجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المخطورة . وأضدادها وهي الأخلاق الحمودة منبع

(١) حديث إن من العلم كهيئة السكون الحديث أبو عبد الرحمن السلي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

الطاعات والقربات فالعلم محدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها ونعماتها وعلاجها هو علم الآخر وهو فرض عين في خوى علماء الآخرة فالمرض عنها هالك بسطوة ملك للوكة في الآخرة كما أر للمرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا يحكم خوى فقهاء الدنيا فنظر الفقهاء في فروض المين بالإضافة إلى صلاح الدنيا وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة ولوسئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حق عن الاخلاص مثلاً وعن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عين الذي في إجماله هلاكه في الآخرة ولو سأله من الأمان والظهار والسبق والرهى لسرد عليك مبهلمات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وإن احتيج لم تغل البله عن يقو بها ويكفيه مؤنة التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا وفي حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه والوطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض المين بل قدم عليها كثيرا من فروض الكفايات فكم من بله ليس فيها طبيب إلا من أهل القسمة ولا يجوز قبول شهادتها فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا ترى أحدا يشتغل به ويتأثرون على علم الفقه لاسيا الخلافات والجدليات والبله مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخس فقهاء الدين في الاعتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإعمال مالا قائم به هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومات والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء السوء فافقه تعالى المستعان وإليه للالذ أن يبيدنا من هذا الضرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بغض علماء الباطن وأرباب القلوب . كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيخان الراعي كما يقعد الصبي في للكتب ويسأله كيف يفعل في كذا وكذا فيقال له مثلك يسأل هذا البدوي فيقول إن هذا وفق لما أخفناه . وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف السرخسي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلةهما وكانا يسألهما كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا قيل له كيف تفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب ولا سنة فقال صلى الله عليه وسلم سلوا الصالحين واجملوه شورى بينهم (١) » ولذلك قيل علماء الظاهر زينة الأرض ولللك وعلماء الباطن زينة السماء ولللكوت . وقال الجنيدي رحمه الله قال لي السري شيعي يوما إذا قلت من عندي لمن تجالس قلت المجالس قال نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام وردة على التكلمين ثم لما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطب نفسه . فان قلت فلم لم يورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مدمومان أو محمودان . فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها القرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة لمنومة وهي من البدع كما سيأتي يانهو إما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها وتطويل بنقل اللقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات ترددها الطباع وتحمجها الأصماع وبضها خوض فيها لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكيفية من البدع ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبت جماعة لفقوا لها شيئا وربوا فيها

(١) حديث قيل له كيف تفعل إذا جاء أمر لم نجد في كتاب الله ولا سنة رسوله الحديث الطبراني من حديث ابن عباس فيه عبد الله بن كيسان ضعه الجمهور .

جميع الأسرار وكتاب بداية الهداية فيه التقوى وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله وكتاب الخلاصة في الفقه فيه الثور . ومن كلامه السركه في اتباع الكتاب والسنة وهو اتباع الشريعة والشرعية مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين للشيخ أبيهمية الثرمان . ومن كلامه نجح نجح لمن طالع إحياء علوم الدين أو حكته أو سمعه ، وكلامه رضي الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون من التناء على الإمام الفزالي وكتبه والحث على العمل بها خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله البندروس رضي الله عنه يقول إن أهل الزمان جمعت كلام الشيخ

عبد الله في الغزالي وصيته [الجوهر التلالي] خصوصا من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي فلم يتيسر له وأرجو أن يوفقني الله لذلك عقيقا لرجائه ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي وناهيك بيشارة في هذه العبارة السقي برزت من ولي عارف وقطب مكاشف لا يحازف في مقال ولا ينطق إلا عن حال وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد - إن في ذلك قد كرى لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد - فان العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل وإذا تصدى العبدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف

كلما مؤلفا فصار ذلك المنذور بحكم الضرورة مأذونا فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود سندكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى . وأما الفلسفة فليست علما برأسها بل هي أربعة أجزاء : أحدها الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منها إلى البدع فيصان الضعيف عنهما لئلا يهتدى بهما إلى الضلال عن شاطئ التهر خيفة عليه من الوقوع في التهر وكإيصان حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم . الثاني للنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه وهذا داخل في علم الكلام . والثالث الإلهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وهو داخل في الكلام أيضا والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة وكما أن الاعتزال ليس علما برأسه بل أصحابه طائفة من التكميين ، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة فكذلك الفلاسفة . والرابع الطبيعيات وبعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس يعلم حتى يورد في أقسام العلوم وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استعالتها وتغيرها وهو شبيه بنظر الأطباء إلا أن الطبيب ينظر في بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها فاذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الانسان إلى استئجار البذرة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج فلذلك لوترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم فليعلم التكميم حده من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج فاذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج والتكميم إذا تجرد للمناظرة والدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا وليس عند التكميم من الدين إلا العقيدة التي يشارك فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان وإغما يميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم للكاشفة فلا يحصل من علم الكلام بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومائعا عنه وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين - فان قلت قد رددت حد التكميم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة كما أن حد البذرة حراسة أفضة الحجيج عن نهب العرب ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض وهاتان رتبتيان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين وعلماء الأمة للشهورون بالفضل هم الفقهاء والتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه للترلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ، فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في مناهات الضلال فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق وإن قصت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تنفل عن الصحابة وعلموا منصبهم قد أجمع الدين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل يعلم الآخرة وسلك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا قوى

ولا كلام ولكن بشيء وقرئ صدره (١) كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فليكن حرصه في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ودع عنك ما تطابق أكثر الناس على تفخيجه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله أنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في أحد بحسن صنعة الكلام ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهما منهم وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس وضعها في عنقه إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة ولما مات رضى الله عنه قال ابن مسعود مات تسعة أعشار العلم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل فما بالنا لا نعصر على معرفة ذلك العلم الذى مات بموت تسعة أعشاره وهو الذى سد باب الكلام والجد وضرب صيفا بالدرة لما أورد عليه سؤالاً في تعارض آيتين في كتاب الله وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والتكلمون فاعلم أن ما ينال به الفضل عندنا شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذى وقر في قلبه وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالذى مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه وهو أمر باطن في سره فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسم والراغب في الشهرة فتكون الشهرة فيها هو للهلاك والفضل فيها هو سر لا يطلع عليه أحد فالتقوى والتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء وقد اتسموا فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وقواه وذو عن سنة نبية ولم يطلب به رياء ولا سمعة فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعمل بعلمهم ولأرادتهم وجه الله سبحانه بفتوهم ونظرهم فإن كل علم عمل فانه فعل مكتسب وليس كل علم علماً والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل سبحانه وتعالى به والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثاباً لأمه حيث إنه متكفل بعلم الدين بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم الكاشفة وعمل مجرد وهو كمد السلطان مثلاً وضبطه للناس ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله أو عماله الله تعالى أو أوازيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما فهذا أهم عليك من التقليد المجرد للاشتهار كما قيل خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يفنيك عن زحل

على أناس نقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين اتحلوا مذاهبهم ظنوا أنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة فاتهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى وقد شوهده من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخر كما سيأتى بيانه في باب علامات علماء الآخرة فاتهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشتغلين بعلوم القلوب ومراقبين لها ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقائين بعلوم الفتوى والصوارف والدواعى متيقنة ولا حاجة إلى (١) حديث : ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام الحديث : الترمذى الحكيم النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرفوعاً .

وحصل من الأحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة حتى إن بعض العوام حصلها لم أرى من ترغيبه فيه وألزم أخاه الشيخ علياً قراءته فقرأ عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ثم إن الشيخ علياً ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته فحتمه عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ألزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول لا أترك تحصيل الإحياء أبداً ما عشت حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ . قلت وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله

ذكرها . ونحن الآن نذكر من أقوال فقهاء الاسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق أعنى الذين أكثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفتيا في مصالح الخلق في الدنيا ومريدا بفقعه وجه الله تعالى فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جعلها على خصلة واحدة وهي التشمير والبالية في تفاريع الفقه لأن الحاصل الأربع لا تصلح إلا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة وهيات أن تقاس الملائكة بالحدادين فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع فان معرفتهم بالفقه ظاهرة . أما الامام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا ما روى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم . قال الربيع كان الشافعي رحمه الله يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسي بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحووا من ثلث الليل لما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا كثرت لئمة آية وكان لا يمر بآية راحة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تحره في أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعي رحمه الله ما شيعت منذ ست عشرة سنة لأن الشيع يشغل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة فانظر إلى حكته في ذكر آفات الشيع ثم في جده في العبادة إذ طرح الشيع لأجلها ورأس التبعيد تقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط فانظر إلى حرمة وتوقيره لله تعالى ودلالة ذلك على علمه بحلال الله سبحانه ومثل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ف قيل له ألا تحبب رحمك الله فقال حتى أدرى الفضل في سكوتي أدنى جوابي فانظر في مراقبته لسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي إلينا وقال زهوا أنماعكم عن استماع الحنا كما تزهون السنككم عن النطق به فان المستمع شريك القائل وإن السفيه لينظر إلى أجبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه كتب حكيم إلى حكيم قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقي في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه لما يروح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه انسان إليه فاعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارقه فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همه بالآخرة

ماروى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا في الرقائق فذهب على الشافعي فقبل له قد مات فقال إن مات
 فقد مات أفضل زمانه وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا تذاكر
 العباد والزهاد فقال لي عمر ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه
 خرجت أنا وهو والحريث بن ليث إلى الصفا وكان الحريث تلميذا لصالح للري فافتتح يقرأ وكان حسن
 الصوت فقرأ هذه الآية عليه - هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون - فرأيت الشافعي
 رحمه الله وقد تغير لونه واقتصر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول
 أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين . اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك
 رقاب المشتاقين إلهي هب لي جودك وجللي بستره واعف عن تقصيري بكرم وجهك قال ثم مشى
 وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فعمدت على الشط أتوصلا للصلاة إذ مر بي رجل فقال لي
 يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت
 في وضوئي وجعلت أقفؤ أثره فالتفت إلى فقال هل لك من حاجة قلت نعم تعلمني مما علمك الله شيئا
 فقال لي أعلم أن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قوت
 عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا أفلا أزيدك قلت نعم قال من كان فيه ثلاث خصال فقد
 استكمل الايمان من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر واتقى وحافظ على حدود الله تعالى
 ألا أزيدك قلت بلى فقال كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا وصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع
 الناجين ثم مضى فسألت من هذا فقالوا هو الشافعي فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ثم إلى وعظه كيف يدل
 ذلك على زهده وغاية خوفه ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فانه - إنما غشى الله
 من عباده العلماء - ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر
 كتب الفقه بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة
 فيهما . وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم للأئمة عنه . روى أنه سئل عن
 الرياء فقال على البديهة الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء
 اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى إذا أنت خفت على عملك العجب
 فانظر رضا من تطلب وفي أي ثواب ترغب ومن أي عقاب ترهب وأي عافية تشكر وأي بلاء
 تذكر فانك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك فانظر كيف ذكر حقيقة
 الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب . وقال الشافعي رضي الله عنه من لم يصب نفسه لم ينفعه
 عمله . وقال رحمه الله من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال مامن أحد إلا له عيب وبغض فإذا
 كان كذلك فكيف فكأن مع أهل طاعة الله عز وجل . وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا
 ورعا وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه وقال
 للشافعي يوما يا أبا الفضل الصبر أو المحنة أو التمكن فقال الشافعي رحمه الله التمكن درجة الأنبياء ولا يكون
 التمكن إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر ممكن ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام
 ثم مكنته وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنته وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنته وامتحن سليمان عليه
 السلام ثم مكنته وآتاه ملكا والتمكن أفضل الدرجات قال الله عز وجل - وكذلك مكنا ليوسف
 في الأرض - وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكنته الله تعالى - وآتيناه أهله ومثلهم معهم -
 الآية فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبخره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين
 إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله متى يكون
 الرجل عالما قال إذا تحقق في علم فعله وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالما فانه قيل

وسر نفس مصنفه
 وحسن قصده والمراد
 بالكافر هنا فيما يظهر
 الجاهل بعيوب النفس
 المحجوب عن إدراك
 الحق أي فبمجرد
 مطالعته لا يكتب
 للذكور يشرح الله
 صدره وينور قلبه
 وذلك لأن الوعظ إذا
 صدر عن قلب متعظ
 كان حريا أن يتعظ به
 سامعه وكان الله تعالى
 جعل لعباده الذين
 لا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون رتبة فوق
 غيرهم كذلك جعل
 لما يبرز منهم ويؤخذ
 عنهم بركة رائدة على
 غيره لأن السنتهم كريمة
 وأنوار قلوبهم عظيمة
 وهمهم عليه وإشاراتهم
 صافية حتى يكون للقرآن
 أثر عظيم عند صماغه
 منهم ولا حاديت بهجة
 وجلالة زائدة إذا
 أخذت عنهم والدواعظ
 منهم تأثير في القلوب
 ظاهر ولعلومهم وقهمهم
 أنوار ونفع متظاهر
 حتى تجد الرجل له العلم
 القليل وبعد ذلك
 ينتفع به كثير لحسن
 نيته ووجود بركته

وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه في منزلته ومن تأمل ذلك وجدته أمراً ظاهراً مبهوداً وشيئاً مجرباً موجوداً فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى والتمني في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى والجلل العريه والارشاد في علم الكلام وانتشارها مع أن ما حوت من العلم في فنونها قليل وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضعاف ما فيها مع تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعاني وتلخيص الحدود وبعده هذا فالنفع بهذه أكثر وهي أظهر وأشهر لأن العلم يزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله في القلب. قلت ونما أشد الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه لنفسه فيه قوله :

لجاليوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجهمة فقال إنما القصد منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتتمكن حديثه لأن الأفراد قاتل فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة . وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيوجهه الله تعالى فيدل عليه ما روى عنه أنه قال وودت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلي شيء منه فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزله القلب عن الالتفات إليه مجرد النية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ . وقال ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويصان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ وما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه . وقال ما أوردت الحق والحجة على أحد قبلها مني إلا هبته واعتقدت بحجته ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقطت من عيني ورفضته فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الحاصلات الخمس على خصلة واحدة فقط ثم كيف خالفوه فيها أيضا ولهذا قال أبو ثور رحمه الله ما رأيت ولا رأي الرايون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعولة وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ولكثرة دعاؤه قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعوله كل هذا الدعاء فقال أحمد يابني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالغاية للناس فانظر هل لهن من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول مامس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووقفه للسداد فيه ولتقتصر على هذه النبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر وأكثر هذه المناقب قلناه من الكتاب الذي صنعه الشيخ نصر بن إبراهيم القدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين . وأما الامام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضا متجليا بهذه الحاصلات الخمس فانه قيل له ما تقول يا مالك في طلب العلم فقال حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزومه وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغا حتى كان إذا أراد أن يحدث تواضعا وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطبيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث قتيلا له في ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالك العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجهه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدال في الدين ليس شيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله إنني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لأدري ومن يرد غير وجهه الله تعالى يعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد من على من مالك . وروى أن أبا جعفر النصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق فضر به بالباطل ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله ما كان رجل صادقا في حديثه ولا يكذب إلا متع بمقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زهد في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار فقال لا ولكن أحدثك سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول نسب المرء داره وسأله الرشيد هل لك دار فقال لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها دارا فأخذها ولم ينفعها فلما أراد الرشيد الشخص قال مالك رحمه الله

ينبغي أن نخرج معنا فاني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس القرآن فقال له أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ائتمروا بعده في الأمصار فحدثوا فحدث كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أهل المدينة خير لهم لو كانوا على واحد » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا على واحد » وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفي خبيثها كما ينفي الكبر خبيث الحديد » وهذه دلائل على أن شتم غزوها وإن شتم فدعوها يعني أنك إنما تكلف في مفارقة المدينة لما اصطفت إلى فلا تأمر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذلك كان زهد مالك في الدنيا ولما حملت إليه الأمور الكثيرة من أطراف الدنيا لا تنشر علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهد وقلة حبه للدنيا وليس الزهد قد لال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال رأيت على باب ما كراعا من أفراس خراسان ويقال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لما لك رحمه الله ما أحسنه فقال هو هذا مني إليك يا أبا عبد الله فقلت دع نفسك منها دابة تركها فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة نبي الله صلى الله عليه وسلم بخافر دابة فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى تربة تربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاقه للدنيا ما روى أنه قال دخلت مروان الرشيد فقال لي يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى نسمع صيائنا منك الموطأ قال قلت أ الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فان أتم عززتموه عز وإن أتم أذلتموه ذل والعد يؤتى ولا يأتي فقال صدقت أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس . وأما أبو حنيفة رحمه الله فقد كان أيضا عابدا زاهدا عارفا بالله تعالى خائفا منه مريدا وجهه الله تعالى يعلمه فأما كونه عابدا فمما روى عن ابن المبارك أنه قال كان أبو حنيفة رحمه الله مروة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحكي الليل كله . وروى أنه كان يحكي نصف الليل ثم يوافق طريق فأنه إليه إنسان وهو يحكي فقال لآخر هذا هو الذي يحكي الليل كله فلم يزل بعد ذلك يحكي الليل كله وأنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع ابن عاصم قال أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه فأراده أن يكون حاكما على المال فأبى فضربه عشرين سوطا فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل المذاب . قال الحكم هشام الثقفي حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختر عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذاب أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بخداقها فقرمها . وروى محمد بن شعاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم قال فلا رضي أبو حنيفة قال فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصلوة ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه فقال بعض حضر ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة أي هذه عادته فقال ضموا المال في هذا الجراب في زاوية اليد

(١) حديث اختلاف أمي رحمه ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقاً وأسندته في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ اختلاف أصحابي لكم رحمه وأسندته ضعيف (٢) حديث المدينة خير لهم لو كانوا على واحد متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير (٣) حديث المدينة تنفي خبيثها الحديث متفق عليه حديث أبي هريرة .

أخى انقبه والزم سلوك الطرائق وسارع إلى الولي بمجد وسابق أيا طالبا شرح الكتاب وسنة وقانون قلب القلب بحر الرقائق وإيضاح منهج للحقيقة مشرق وشرب حياصفو راح الحقائق وإجلال أذكار المعاني ضواحاك يا هاج حسن جذاب للخلائق عليك بأحياء العلوم ولها وأسرارها كم قد حوى من دقائق وكم من لطيفات لدى القلب منهل وكم من مليحات سبت لب حاذق كتاب جليل لم تصنف قبله ولا بعده مثل له في الطرائق فكلم من بديع اللفظ يجل عرائسا وكمن فموس في حماه شوارق معانيه أنصت كالبدور سواطحا

ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه إذا مت ودفتنوني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له خذ وديتلك التي أودعتها أبا حنيفة قال ابنه ففعلت ذلك فقال الحسن رحمه الله صلى الله عليه وآله أليك فلقد كان شجاعاً على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال أنا لا أصليح لهذا فقليل له لم فقال إن كنت صادقاً فما أصليح لها وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفة بالله عز وجل فيذل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا وقد قال ابن جرير قد بلغني عن كوفيك هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني والاشتغال بهما من الدين فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة . وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى فاتباعهما أقل من أتباع هؤلاء وسفيان أقل أتباعاً من أحمد ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر . وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن فانظر الآن في سير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والاجارة والظهار والايلاء والأمان أو يثمرها علم آخر أسمى وأشرف منه وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أميدوا في دعواهم أم لا .

الباب الثالث : فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها (بيان علة ذم العلم المذموم) لعلمك تقول العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة : الأول أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قبره وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسائية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصده وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمنمومة ولكنها ليست تصلح إلا للاضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر فشر فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً بل من اتبع ولما من أولياء الله ليقته وقد اختفى منه في موضع حرير إذا سأل الظالم عن عمله لم يحز تنبيهه عليه بل وجب الكذب فيه وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر . الثاني أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم فإنه في نفسه غير مذموم لأنه إذ هو قيمان : قسم حسابي وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب إذ قال عز وجل - الشمس والقمر بحسبان - وقال عز وجل - والقمر قدرناه منازل حتى

(الباب الثالث)

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث عائشة .

على در لفظ المعاني
مطابق
وكم من عزيزات زهت
في قبائها
عجبة عن غير كفه
مسابق
وكم من لطيف مع بديع
ونعفة
حلاوتها كالشهد نخلو
لذائق
بساتين عرفان وروس
لطائف
وجنة أنواع العلوم
القوائق
رعى الله صباراً لمافي
جناتها
يروح ويفسدين
تلك الحقائق
وبقطف من ذاكي
جناتها فواكها
بساحل بحر بالجواهر
دافق
خضم طمى حتى علا
فوق من علا
بشامخ مجد مشرق
بالحقائق
فان لم بهذا القول
تؤمن فجرين
وأقبل على تلك المعاني
وعائق
وراجع طرفاً في بديع
جمالها
وطف حياها منشدا
كل سابق

تري في بدور الحى
أقار قد بدت
بألى جمال مدهش
لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم
قشفت عى
وكم قدسعت في غربها
والشارق
فيضى براح الحب
سكران مفرما
أصم عن العذال غير
موافق
وعسى يناديها طريقا
يأبها
منعم عيش في الربوع
العواقق
صلاة على سر الوجود
شفيها
محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم
والعلا
وعثرته وراث علم
الحقائق
[فصل] وأما أنكر
عليه فيه من مواضع
مشكلة الظاهر وفي
التحقيق لا إشكال أو
أخبار وآثار تكلم
في سندها فأما من
جهة تلك المواضع
لمن أجاب عنها
المصنف نفسه في كتابه
للمسمى (بالأجوبة)
وأسوق لك نبذة من

عاد كالمرجون القديم . . . والثاني الأحكام وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو
بضاهى استدلال الطبيب بالنفس على ما يحدث من المرض وهو معرفة لجارى سنة الله تعالى وعادته
في خلقه ولكن قد ذمه الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكرت
النجوم فأمسكوا وإذا ذكرت أمماني فأمسكوا » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمي بعدى
ثلاثا حيف الأئمة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر » (٢) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا
من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا وإنما جرعته من ثلاثة أوجه : أحدها أنه مضى
بأن كثر الخلق فانه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في قوسهم أن الكواكب
هي المؤثرة وأنها الآلهة المدبرة لأنهم جواهر شريفة سماوية وعظم وقعها في القلوب فينبغي القلب ملتفتا إليها
ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهة ما وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب فان الضعيف يصر
نظره على الوسائط والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه
وتعالى ومثال نظر الضعيف إلى حصول جنوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال الخلة لو خلق لها عقل
وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها
إلى مشاهدة الأصابع ثم منها إلى اليد ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد ثم منها إلى الكاتب القادر للريد
ثم منها إلى خالق اليد والقدرة والإرادة فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة مقطوع من
الترقى إلى مسبب الأسباب فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم . وثانيها أن أحكام النجوم تخمين محض ليس
يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا فالحكم به حكم بجهل فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل
لا من حيث إنه علم فلهذا كان ذلك معجزة لا دريس عليه السلام فيها عجي وقد اندرس وأنمحي ذلك العلم وأنمحي
وما يتفق من إصابة النجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل للسبب عقيبها إلا
بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها فان اتفق أن قدر الله تعالى الأسباب وقعت
الإصابة وإن لم يقدر خطأ ويكون ذلك كتحمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم
يجمع وينبث من الجبال فتتحرك ظنه بذلك وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم وربما يكون
بخلافه ومجرد الغيم ليس كافيا في عجم الطر وبقية الأسباب لا تدرى وكذلك تخمين الملاح أن السفينة
تسلم اعتمادا على ما ألقه من العادة في الرياح وتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها فتارة يصيب
في تخمينه وتارة يخطئ ولهذا العلة يمنع القوى عن النجوم أيضا . وثالثها أنه لا فائدة فيه فأقول أحواله
أنه خوض في فضول لا ينفي وتضييع العمر الذى هو أنف بضاعه الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الحسرات
« قد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا فقالوا رجل علامة
فقال بماذا قالوا بالشعر وأنساب العرب فقال علم لا ينفع وجهل لا يضر » (٣) . وقال صلى الله عليه وسلم
« إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » فاذن الخوض في النجوم وما يشبه اقتحام خطر
وخوض في جهالة من غير فائدة فان ما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن بخلاف الطب فان الحاجة
ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من سنة وأربعين جزءا من

- (١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث رواه الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد حسن
(٢) حديث أخاف على أمي بعدى ثلاثا حيف الأئمة الحديث ابن عبد البر من حديث أبي عجين
باسناد ضعيف (٣) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال ما هذا فقالوا
رجل علامة الحديث ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعفه وفي آخر الحديث ، إنما العلم
آية محكمة . إلى آخره وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو .

النبوة ولا خطر فيه . السبب الثالث الخوض في علم لا يستفيد الحائض فيه فائدة علم فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليها وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية إذ تطلع الفلاسفة والتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء فيجب كفت الناس عن البحث عنها ووردهم إلى مناطق به الشرع ففي ذلك مقنع للوقوف فكم من شخص خاض في العلوم واستغنى بها ولولم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين مما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع بل يضر شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور فلقد حكى أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لاتلد فحس الطبيب نبضها . وقال لا حاجة لك إلى دواء الولادة فانك ستمتوتين إلى أربعين يوما وقد دل النبض عليه فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنفس عليها عيشها وأخرجت أموالها وفرقتها وأوصت وبقيت لاتأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت فجاء زوجها إلى الطبيب . وقال له لم تمت فقال الطبيب قد علمت ذلك فجامعها الآن فانها تلد فقال كيف ذاك . قال رأيته ميمنة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لاتمزل إلا بخوف الموت غرقها بذلك حتى هزلت وزال السانع من الولادة فهذا ينهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع » (١) فاعتبر بهذه الحكاية ولا تسكن بمخاتع علوم ذمها الشرع وزجر عنها ولازم الاقتداء بالصحابه رضى الله عنهم واتصروا على اتباع السنة فالسلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ولا تكثر الحجج برأيك ومعقولك . ودليلك وبرهانك وزعمك أتى أبحت عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه فأى ضرر في التفكير في العلم فان ما يعود عليك من ضرره أكثر وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضررا يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في العلاجات يستبعد ما من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية فلا تتحكم على سنتهم بمعقولك قبلك فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضى عقله أن يطلبه حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطفى الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انعشاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفاقها على البدن فهكذا الأمر في طريق الآخرة وفي دقائق سنن الشرع وآدابه وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الاحاطة بها كإن في خواص الأحجار أمورا عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد والعجائب والغرائب في العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب وتقاؤها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقى إلى جوار الله تعالى وترضيها للنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير وكأن القول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها فالقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها وإعما كانت التجربة تطرق إليها لورجع إليها بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة القريبة إلى الله تعالى زلني وعن الأعمال البعيدة عنه وكذا عن العقائد وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته فأعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن وهو عند ابن ماجه بلفظ نعوذوا وقد تقدم .

ذلك هنا قال رحمه الله سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها وقرب لك مقامات الأولياء تحمل معاليها عن بعض ما وقع في الاسلام للقلب بالأحياء عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز به من الحظوظ الملكي قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الظنم وأمثال الأنعام وأتباع العوام وسفهاء الأحلام وعار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعة وأنفوا بالهوى مجردا على غير بصيرة باطراحه ومنابدته ونسوا عليه إلى ضلال وإضلال ورموا قراءه ومنتحليه بزئج عن التريعة واختلال إلى أن قال ستكتب شهادتهم ويسألون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ثم وصف الدهر وأهله وذهاب العلم وفضله ثم ذكر عذر للمترفين

« إن من العلم جهلا وإن من القول عيا (١) » ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الاضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم (٢) » وقال عيسى عليه السلام ما أ كثر الشجر وليس كلها يثمر وما أ كثر الثمر وليس كلها بطيب وما أ كثر العلوم وليس كلها بنافع .

بيان ما يدل من ألقاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها وتقليلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألقاظ الفقه والمسلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشوع إطلاق هذه الأسامي عليهم . اللفظ الأول الفقه فقد تصرفوا فيه بالتخصيص بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الفريضة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان أشد تسهما فيها وأ كثر اشتغالا بها يقال هو الأ فقه ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدل ذلك عليه قوله عز وجل - ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم - وما يحصل به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والطلاق واللعان والسلم والاجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقبى القلب وينزع الحشية منه كما نشاهد الآن من المتجربين له وقال تعالى - لهم قلوب لا يفقهون بها - وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا قال تعالى - لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله - الآية فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه فانظر ان كان ذلك نتيجة عديم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكما وقهاء (٣) » للذين وفدوا عليه ، وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أي أهل المدينة أقفه فقال أتقاهم لله تعالى فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى قال من لم ينظ الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه (٤) » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقدم مع قوم يدكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعق أربع رقاب (٥) » قال فالتفت إلى زيد الرقائي وزيد

(١) حديث إن من العلم جهلا الحديث أبو داود ومن حديث بريدة وفي إسناده من مجهول (٢) حديث قليل من التوفيق خير من كثير من العلم لم أجده أصلا وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء . وقال العقل بدل العلم ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث علماء حكما وقهاء أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث صويد بن الحرث بإسناد ضعيف (٤) حديث ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وأبو بكر بن السني وابن عبد البر من حديث علي . وقال ابن عبد البر أ كثرهم يوقفونه عن علي (٥) حديث أنس لأن أقدم مع قوم يدكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس الحديث أبو داود بإسناد حسن .

بما يرجع حاصلها إلى الحمد وإلى الجمل وقلة الدين بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال حججوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والاضرار ومحبة الدنيا واطهار الدعوى ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة قال فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ما ذكره وأما ما اعترض به من تضمنه أخبارا وأثارا موضوعة أو ضعيفة واكتاره من الأخبار والآثار والإكثار يتحاشى منه للتورع لئلا يقع في الموضوع . وحاصل ما أجيب به عن النزالي ومن المهيئين الحافظ العراقي أن أ كثر ما ذكره النزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج وغير الأكثر وهو في غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئا صيغة روى منه بنحو وأما الاعتراض عليه أن فيها ذكره الضعيف بكثرة فهو اعتراض ساقط لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل

الغیری وقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا إنما كنا نضعه فنذكر الإيمان وتدبر القرآن وتنفعه في الدين ونعد نعم الله علينا نفعها فسمى تدبر القرآن وعد النعم نفعها قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه المبدل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة (١) » وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقنا وقد سأل فرقد السبخي الحبس عن الشيء فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن رحمه الله شككتك أمك فريد وهل رأيت قهرا بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه للداوم على عبادة ربه الورع الكفاف نفسه عن أعراض السليين العفيف عن أموالهم الناسح لجماعتهم ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متاولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستنباع فكان إطلائهم له على علم الآخرة أكثر فبان من هذا التخصيص تلبس بعض الناس على التجرد له والأعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع فان علم الباطني غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر فوجد الشيطان مجالس تحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع . اللفظ الثاني العلم وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله لقد مات تسعة أعشار العلم فصره بالالف واللام ثم فسر العلم بالله سبحانه وتعالى وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهوروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الحصوص في المسائل الفقهية وغيرها فيقال هو العالم على الحقيقة وهو الفحل في العلم ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يمد من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم وهذا أيضا تصرف بالتخصيص ولكن ماورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشئ سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيمد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم للذهب وغيره وصار ذلك سببا مهلكا خلق كثير من أهل الطلب لا علم . اللفظ الثالث التوحيد وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والاحاطة بطرق مناقضات الحصوص والقدرة على التشديق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الازمات حتى لقب طوائف منهم بأنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعات لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم التكبر على من كان يفتح بابا من الجدل والمارة فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل وكان العلم بالقرآن هو العلم كله وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين وإن فهموه لم تصفوا به وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل ومن ثمراته أيضا ترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضا والتسليم لحكم الله تعالى وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه أنطلب لك طبيبا فقال الطيب أمرضني وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطيب في مرضك فقال قال لي إني ضال لما أريد

(١) حديث لا يفقه المبدل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله الحديث ابن عبيد البر من حديث شداد بن أوس وقال لا يصح مرفوعا .

وسبأ في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك والتوحيد جوهر نفيس وله قشران أحدهما أبعد عن القلب من الآخر فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأعملوا القلب بالكلية فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذي صرح به النصارى ولكنه قد يصدر من النفاق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش للتدعة . والثالث وهو الباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط وأن يعبد عبادة يفردها فلا يعبد غيره . ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى فكل متبع هواه قد اتخذ هواه معبوده قال الله تعالى - أفرأيت من اتخذ إلهه هواه - وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى »^(١) وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آتائه فيتبع ذلك الميل ويميل النفس إلى اللذات وأحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم فإن من يرى الشكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه وكيف اتخذوا هذا معصما في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول وجهي وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وهو أول كذب يفتاح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون التوجه إليها متوجها إليه ، تعالى عن أن تجده الجهات والأقطار وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبده فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ومتوجه بالكلية إليها فمضى وجهه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد فالمراد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه وهو امتثال قوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وليس المراد به القول باللسان فانما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب وهو معدن التوحيد ومنبعه . اللفظ الرابع الذكر والتذكير فقد قال الله تعالى - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - وقد ورد في الثناء على محاسن الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا قيل وما رياض الجنة قال محاسن الذكر »^(٢) وفي الحديث « إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا محاسن الذكر ينادي بعضهم بعضا ألا هلموا إلى بفتيكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم »^(٣) فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهي بدعة وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصص وقالوا

- (١) حديث أبغض إله عبد عند الله تعالى في الأرض هو الهوى الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف . (٢) حديث إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا الحديث الترمذي من حديث أنس وحسنه . (٣) حديث إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله في الهواء والترمذي سياحين في الأرض وقال مسلم نسيارة .

مصنفاته إلى الغرب أمر سلطانه على بن يوسف باحراقها التوجه اشتغالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ووثب عليه الجند ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكد بعد أن كان عادلا .

[خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه وعنا به ونقنها بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم]

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد النزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعى الأشعرى الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأصعب فى جزالة العبارة وسهولتها

وحسن الإشارة وكشف
الغضلات والتجهر في
أصناف العلوم فروجها
وأصولها ورسومها
التقدم في متقونها
ومعقولها والتحكم
والاستيلاء على إجمالها
وتفصيلها مع ما خسه
الله به من الصكرامة
وحسن السيرة
والاستقامة والزهد
والعزوف عن زهية
الدنيا والاعراض عن
الجهات القانية
واطراح الحشمة
والتكلف قال الحافظ
العلامة ابن عساكر
والشيخ غيف الدين
عبد الله بن أسعد
اليافعي والفقير جمال
الدين عبد الرحيم
الأسنوي رحمهم الله
تعالى ولد الامام الغزالي
بطوس سنة خمسين
وأربع مائة وأبدأ بها
في صباه بطرف من
القمم ثم قنم نيسابور
ولازم دروس إمام
الحرمين وجد واجتهد
حتى تخرج في مدة
قريبة وصار أنظر أهل
زمانه وأوحد أقرانه
وجلس للأقران وإرشاد
الطلبة في أيام إمام

لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى
ظهرت الفتنة وظهر القصاص . وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال ما أخرجني
إلا القاص ولولاه لما خرجت وقال ضمرة قلت لسفيان الثوري نستقبل القاص بوجوهنا فقال ولوا
البدع ظهوركم وقال ابن عون دخلت على ابن سيرين فقال ما كان اليوم من خبر قلت نهى الأمير
القصاص أن يقصوا فقال وفق للصاب ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول حدثنا
الأعمش فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه فقال القاص يا شيخ ألا تستحي فقال لم أنا في سنة وأنت
في كذب أنا الأعمش وما حدثت بك وقال أحمد أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال ، وأخرج على
رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرج له إذ كانت
يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبية على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان
ووجه الحذر منها ويذكر بالله الله ونعمائه وتقدير العبد في شكره ويعترف حقارة الدنيا وعبوبها
وتصرمها ونكت عيبتها وخطر الآخرة وأهوالها فهذا هو التذكير المأمود شرعا الذي يروى الحديث
عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة
وحضور مجلس علم أفضل من عبادة ألف مريض وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة
فقيل يا رسول الله من قراءة القرآن قال وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالمعلم (٢) » وقال عطاء رحمه الله
مجلس ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس الله وقد أخذ الزخرفون هذه الأحاديث حجة على تركية
أنفسهم وتلقوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق الله ذكر المأمود واشتغلوا بالقصاص التي
تطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها فان
من القصص ما ينفع مماعه ومنها ما يضرون إن كان صدقاً ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه
الصدق بالكذب والنافع بالضرار فمن هذا نهى عنه ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله ما أحوج الناس
إلى قاص صادق فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص
صادقاً صحيح الرواية فليست أرى به بأساً ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تؤول إلى هفوات أو
مساهمات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة
محسنتات تعطى عليها فان العاصي يتصمم بذلك في مساوماته وهفواته ويمهد لنفسه عذراً فيه ويخرج بأنه
حكي كيت وكيت عن بعض الشايخ وبعض الأكابر فكأننا بصدد المعاصي فلا غرو إن عصيت الله تعالى
فقد عصاه من هو أكبر مني وفيه ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري فبعد الاحتراز عن
هذين الملهذين فلا بأس به وعند ذلك يرجع إلى القصص المأمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن
ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات
ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق فهذه من نزغات الشيطان فان في الصدق مندوحة عن
الكذب وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غيبة عن الاختراع في الوعظ ، كيف وقد
كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر وقد جمعه
يسجع هذا الذي يفضلك إلى لا قضيت حاجتك أبداً حتى تتوب وقد كان جاءه في حاجة ، وقد قال

(١) حديث لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ماجه من حديث عمر
بإسناد حسن (٢) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة تقدم في
الباب الأول .

صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة (١) » فكان السجع المذمور التكلف ما زاد على كلمتين ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين « كيف ندى من لا شرب ولا كل ولا صاح ولا استل ومثل ذلك يطل قال النبي صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الأعراب (٢) » وأما الأشعار فتكثيرها في الواعظ مذموم قال الله تعالى - والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون - وقال تعالى - وما علمناه الشعر وما ينبغي له - وأكثرا ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المشوق وروح الوصال وألم الفراق والجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور اللينة فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتغل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون وأصحح ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استنباط واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة (٣) » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم فإن أولئك لا يضرب معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق فإن السجع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع ولذلك كان الجليل رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا فإن كثروا لم يتكلم وما تم أهل مجلسه قط عشرين وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقل له تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال لا ما هؤلاء أصحابي إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابي هم الخواص . وأما الشطح فعنى به منفيين من الكلام أحدهم بعض الصوفية . أحدهما الدعوى الطويلة المريضة في العشق مع الله تعالى والوصال التي عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الانحداد وارتفاع الحجاب والشاهدة بالرؤية والشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي سلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله أنا الحق . وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغنياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله بما قد استطار في البلاد شروره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه قتلته أفضل في دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فقلعه كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام رده في نفسه كما لو سمع وهو يقول إني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية . الصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن

وصنف وكان الامام يتبع به ويستد بمكانه منه ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرجال العلماء ومقصد الأئمة والفضلاء ووقع للامام الغزالي فيها اضافات حسنة من مناظرة الفحول فظهر اسمه وطار صيته فرسم عليه نظام الملك بالسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية فصار إليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان ولترفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجلاء والحشمة مشغلاً بأسباب التقوى وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق

(١) حديث إياك والسجع يا ابن رواحة لم أجده هكذا ولا أحمد وأبي يعلى وابن السني وأبي نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ولا ابن جابر واجتنب السجع ، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس (٢) حديث أسجع كسجع الأعراب مسلم من حديث المغيرة (٣) حديث إن من الشعر لحكمة البخاري من حديث أبي بن كعب .

إليها مثل إحياء علوم الدين وغيره التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم قيل إن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ثم صار إلى القدس مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين السمائل حتى مرن على ذلك ثم هاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح المباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى والاستعداد للدار الآخرة مرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انحلع عنه من الجاه واللباهة وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسة مائة خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراة كما خصه بها في دنياه قيل وكانت مدة القطبية للفرز إلى ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات

خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله (٢) » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يلغى عقل المستمع فكيف فيما لا يفهمه قائله فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا محل ذكره وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموكم كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ومن منعها أهلها فقد ظلم إن الحكمة حق وإن لها أهلا فأعط كل ذي حق حقه وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة كمكاديب الباطنية في التأويلات فهذا أيضا حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا يضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيهه على وجوه شتى وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الأغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكينا من مذاهبهم في كتاب المستظهرى للصنف في الرد على الباطنية ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى - اذهب إلى فرعون إنه طغى - أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان وفي قوله تعالى - وأن ألق عصاك - أى كل ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فيزنى أن يلقه وفي قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فإن في السحور بركة (٣) » أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرقون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره القول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا كتزويل فرعون على القلب فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له كأبي جهل وأبي لهب وغيرها من الكفار وليس من جنس الشياطين واللائكة مما لم يدرك بالحواس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : « تسحروا (٤) » واهلوا إلى الغذاء المبارك (٥) فهذه أمور تدرك

(١) حديث ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود (٢) حديث كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون الحديث البخارى موقوفا على طريق أبي نعيم (٣) حديث تسحروا فإن في السحور بركة متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث تناول الطعام في السحور ورواه البخارى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا (٥) حديث هلموا إلى الغذاء المبارك أبوداود والنسائي وابن حبان من حديث العرياض بن سارية وضعفه ابن القطان .

بالتواتر والحس بطلانها نقلاً وبعضها يعلم بغالب الظن وذلك في أمور لا يتعلق بها الاحساس فكذلك حرام وضلالة وإفساد الدين على الخلق ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسد القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »^(١) معنى إلا هذا الخط وهو أن يكون غرضه ورأيه تقريراً وتحقيقاً فيستجر شهادة القرآن إليه ويعمله عليه من غير أن يشهد لتزييله عليه دلالة لفظية لغوية أو عقلية ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فإن من الآيات ما مثل فيه عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنه « اللهم قهقه في الدين وعلقه التأويل »^(٢) ومر يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد به دعوة الخلق إلى الخلق بضمهم من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أظلم وأعظم لأنها مبطلات للخلق عن العلوم المحمودة إلى الذمومة فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسماء فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكماً فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والنجم في هذا العصر وذلك بالتفلة عن تبديل الألفاظ . اللفظ الخامس : وهو الحكمة فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والنجم حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى - يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خير كثيراً - وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها »^(٤) فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه وإلى ماذا نقل وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الاعتراض بتلبسات علماء السوء فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين إذا الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى ارتعاب الدين من قلوب الخلق ولهذا « لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أي وقال اللهم اغفر حقى كرروا عليه فقال هم علماء السوء »^(٥) فقد عرفت العلم المحمود والذموم ومثار الالتباس

(١) حديث من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد وعند النسائي في الكبرى (٢) حديث اللهم قهقه في الدين وعلقه التأويل قاله لابن عباس البخاري من حديث ابن عباس دون قوله وعلقه التأويل وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد (٣) حديث من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار متفق عليه من حديث أبي هريرة وعلى وأنس (٤) حديث كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا . تقدم بنحوه (٥) حديث لما سئل عن شر الخلق أي وقال اللهم اغفر الحديث الدارمي بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسل وهو ضعيف ورواه البراز في مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .

الشيخ السيد العمودي
ضع الله به وذكر
الشيخ عفيف الدين
عبد الله بن أسعد
اليافعي رحمه الله تعالى
باسناده الثابت إلى
الشيخ الكبير القطب
الرباني عهاب الدين
أحمد الصياد البغلي
الزبيدي وكان معاصراً
للفزالي ضع الله بهما قال
بينما أنا ذات يوم قاعد
إذ نظرت إلى أبواب
السماء مفتحة وإذا
عصبة من الملائكة
الكرام قد نزلوا ومعهم
خلع خضر ومركوب
قيم فوقوا على قبر
من القبور وأخرجوا
ساحبه وألبسوه الخلع
وأركبوه وصعدوا به
من سماء إلى سماء إلى
أن جاوز السموات
السبع وخرق بعدها
ستين حجاباً ولا أعلم
أين بلغ انتهائه فسألت
عنه فقيل لي هذا الإمام
الفزالي وكان ذلك
عقيب موته رحمه
الله تعالى ورأى في
اليوم السيد الجليل
أبو الحسن الشاذلي
رضي الله عنه النبي
صلى الله عليه وسلم وقد

وإليك الحيرة في أن تتظر لنفسك فتقتدى بالسلف أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبّه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس وما أكتب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث وقد صرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدا الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء ، قيل ومن الغرباء ؟ قال الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنن والدين يحبون ما أماتوه من سنن ^(١) » وفي خبر آخر « هم المتمسكون بما أتم عليه اليوم ^(٢) » وفي حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير من يفضهم في الخلق أكثر ممن يحبهم ^(٣) » وقد سارت تلك العلوم غريبة بحيث عقت ذاكرها ، ولذلك قال الثوري رحمه الله إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه غلط لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

(بيان القدر الممجد من العلوم الممودة)

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام قسم هو مذموم قليل وكثير وقسم هو محمود قليل وكثير وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم محمدهم مقدار الكفاية ولا يعمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل أحوال البدن فإن منها ما يعمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما يعمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن القبذ لا يعمد فيه وهو بذل كالشجاعة فإن التهور لا يعمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليل وكثيره هو مالا فائدة فيه في دين ولا دنيا إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم فبعضه لافائدة فيه أصلا وصرف العمر الذي هو أنفس ما يمسكه الإنسان إليه وإضاعة النفيس مذمومة ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطرق الدنيا فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم الممجد إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللوصول به إلى سعادة الآخرة وبذل القدر فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والأسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم وهذا هو العلم السكون الذي لا يسطرفي الكتب ويعين على التنبه للنعم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتي علامتهم هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبّه بها بالأنبياء والأولياء ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها . وأما العلوم التي لا يعمد منها إلا مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروع الكفايات فإن في كل علم منها اقتصارا وهو الأقل واقتصادا وهو الوسط واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر فكن أحد رجلين إما مشغولا بنفسك وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن هكنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم وإنما الأمم التي أهملها السلك علم صفات القلب وما يعمد منها وما يذم إذ لا ينفع

(١) حديث بدا الإسلام غريبا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا وهو بتأمله عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف وحسنه (٢) حديث هم المتمسكون بما أتم عليه اليوم في وصف الغرباء لم أر له أصلا (٣) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

بأبي موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالامام الغزالي وقال أفي أمثلكا جبر كهذا قال لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم منهم الشيخ الامام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجتهد لها دينها على رأس كل مائة سنة أنه كانت على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى رأس المائة الثانية الامام الشافعي رضي الله عنه وعلى رأس المائة الثالثة الامام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه

بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدمامل والتهاون باخراج المادة بالقصد والاسهال وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطريقة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن وعلاء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بافساد منابها وقلع ممارسها من القلب وإنما فرغوا أكثر من الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستعصاب أعمال القلوب كما يفرغ إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض فإن كنت تريد الآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربيع المهلكات ثم ينجر بك ذلك إلى التمامات المأمودة المذكورة في ربيع النجيات لا محالة فإن القلب إذا فرغ من الذنوم امتلأ بالهمود والأرض إذا قويت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والراحين وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذلك فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيها صلاح غيره سفيه فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الباب عن غيره ممن لا يفيده ولا ينجي مما يلاقيه من تلك الحيات والقارب إذا همت به وإن تفرغت من نفسك وتطهرها وقدرت على ترك ظاهر الآثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك وما أبعد ذلك منك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج فيها فابتدى بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والنسوخ والفصول والوصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنن اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ثم بأصول الفقه وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لبنائها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسب فيه المطلوب ويستكثر منه فاقصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه واقصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فبان علم الإلوه اقصار واقتصاد واستقصاء ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتيسر بها غيرها فالإقتصاد في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في القدر كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر وأما الحديث فالإقتصاد فيه تحصيل ما فى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبر بعلم متن الحديث ، وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفى فيه بما تحمله عنك من قبلك ولاك أن تقول على كتبهم وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصيله تحصيل لا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في السندات الصحيحة وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوى والصحيح والسيق مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم وأما الفقه فالإقتصاد فيه على ما يحويه مختصر للزنى رحمه الله وهو الذى رتبناه في خلاصة المختصر والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذى أوردناه فى الوسيط من المذهب والاستقصاء ما أوردناه فى البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات وأما الكلام فقصدوه حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير وما وراء ذلك طلب لكشف

روى ذلك عن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى الامامين الأولين أعنى عمر بن عبد العزيز والشافعى ومنابعه رضى الله عنه أكثر من أن تحصر وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته البسيط والوسيط والوجيز والخلصة فى الفقه وإحياء علوم الدين وهو من أنفس الكتب وأجملها وله فى أصول الفقه المستقصى والنحول والتمحل فى علم الجدل وتهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمقاصد والمفنون به على غير أهله ومشكاة الأنوار وللقصد من الضلال وحقيقة القولين وكتاب ياقوت التاويل فى تفسير التنزيل أربعين مجلدا وكتاب أسرار علم الدين وكتاب مناج العابدین والدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة وكتاب الأنيس فى الوحدة وكتاب القرية إلى الله عز وجل

وكتاب أخلاق الأبرار
والنجاة من الأشرار
وكتاب بداية الهداية
وكتاب جواهر القرآن
والأربعين في أصول
الدين وكتاب للتصد
الأسقى في شرح أسماء
الله الحسنى وكتاب
ميزان العمل وكتاب
القسطن للستقيم
وكتاب التفرقة بين
الاسلام والزندقة
وكتاب الذريعة إلى
مكارم الشريعة وكتاب
للبادئ والفايات وكتاب
كيمياء السعادة وكتاب
تلبس إبليس وكتاب
نصيحة للولك وكتاب
الاقتصاد في الاعتقاد
وكتاب شفاء العليل
في القياس والتعليل
وكتاب المقاصد وكتاب
إلجام العوام عن علم
الكلام وكتاب
الاتصار وكتاب الرسالة
اللدنية وكتاب الرسالة
القدسية وكتاب
إثبات النظر وكتاب
للاخذ وكتاب القول
الجميل في الرد على من
غير الانجيل وكتاب
للمستظهرى وكتاب
الأمالي وكتاب في علم
أعداد الوفق وحدوده

حقائق الأمور من غير طريقها ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصاد منه بمعتقد مختصر
وهو القدر الذى أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر
مائة ورقة وهو الذى أوردناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة
بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامى وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم وأما
للمبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً قلما ينفع معه الكلام فانك إن أفحمته لم يترك مذهبه
وأحال بالقصور على نفسه وقد أن عند غيره جواباً وهو طاهر عنه وإنما أنت ملبس عليه بقوة
المجادلة وأما العامى إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثل قبل أن يشتد التعصب
للأهواء فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من
آفات العلماء السوء فانهم ياتون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين ازدراء والاستحقار
فتنبث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والعاملة وتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى
غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلو لا في معرض
التعصب والتحقير لأنجحوا فيه ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يهتميل الأتباع مثل
التعصب واللعن والشم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن
السليين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس . وأما الخلافات التي أحدثت في
هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يسهل مثلها في السلف
فاياك وأن تحوم حولها واجتنبها اجتناب السم القاتل فانها الداء العضال وهو الذى رد الفقهاء كلهم إلى
طلب المناصاة واللباهة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتنا وهذا الكلام ربما يسمع من قائله
فيقال الناس أعداء ماجهولوا فلا تظن ذلك فعلى الخير سقطت فاقبل هذه النصيحة بمن ضيع العمر
فيه زماناً وزاد فيه على الأولين تصليفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره
واشتغل بنفسه فلا يترك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف فان
علل للذهب مذكورة في للذهب والزيادة عليها عبادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم
بعلل الفتاوى من غيرهم بل هى مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لدوق الفقه فان الذى
يشهد له حدس الملقى إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمحيته على شروط الجدل في أكثر الأمر فمن
ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمتعضيات الجدل وجبن عن الاذعان لدوق الفقه وإنما يشتغل
به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل للذهب وقد يتقضى عليه العمر ولا
تصرف همه إلى علم المذهب فكان من شياطين الجن في أمان واحترز من شياطين الانس فانهم
أراحوا شياطين الجن من التعب في الاغواء والاضلال وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر
نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار وتأمل فيما
يعنيك مما بين يديك ودع عنك ما سواه والسلام وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام
فقال له ما خبر تلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتناظر عليها فبسط يده ونفع فيها وقال
طاحت كلها هباء منثوراً وما انتفعت إلا بركتين خلصتا لي في جوف الليل وفي الحديث « ماضل
قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل^(١) » ثم قرأ سماضر بوملك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون -
وفي الحديث في معنى قوله تعالى - فأما الذين في قلوبهم زيغ - الآية « هم أهل الجدل الذين عنانهم

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل الترمذى وابن ماجه من حديث أبى
أمامة قال الترمذى حسن صحيح .

الله بقوله تعالى فاحذروهم^(١) وقال بعض السلف يكون في آخر الزمان قوم يفلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل وفي بعض الأخبار « إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل^(٢) » وفي الخبر المشهور « أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الحصم^(٣) » وفي الخبر « ما أوثق قوم النطق إلا منعوا العمل^(٤) » والله أعلم .

(الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل

آفات للناظرة والجدل وشروط إباحته)

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولها الخلفاء الراشدون للهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فتهاد في أحكامهم وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن الشاوره ففرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما تسئل من سيرهم فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على ميثاق علماء السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاء عليهم مع إعراضهم عنهم فاشترأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ففهم من حرم ومنهم من أجمع والنسج لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالين وبعد أن كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم إلا من وقفه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات . ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى مماع الحجج فيها فعملت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات وزعموا أن غرضهم الدب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع البدعة كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقليد أحكام المسلمين إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية القضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وقون العلم واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبى حنيفة على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات

(١) حديث هم أهل الجدل الذين عني الله بقوله فاحذروهم متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل لم أجده (٣) حديث أبغض الخلق إلى الله الألد الحصم متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث ما أوثق قوم النطق إلا منعوا العمل لم أجده أصلا .

وكتاب مقصد الخلاف وجزء في الرد على النكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين وكتبه كثيرة وكلها نافعة . وقال

يعدده تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأتليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب

النجم والكواكب : أيا حامد أنت المخلص بالمجد

وأنت الذي علتنا سنن الرشد

وضعت لنا الإحياء تحي نفوسنا

وتقذرتنا من طاعة النازع الردى

فربيع عبادات وعاداته التي يعاقبها كالدرد نظم في العقد

ونالها في الهلكات وأنه

لمسج من الملك البرج والبعد

ورابعها في النجيات وأنه

ليسرح بالأرواح في جنة الخلد

ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ومنها صلاح للقلوب من الجهد

ورتبوا فيها أنواع المجلدات والتصنيفات وهم مستمررون عليه إلى الآن ولنا ندرى ما الذي يحدث
الله فيما بعدنا من الأعصار فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والناظرات لا غير ولومالت
نقوم أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لئلا يوا أيضا معهم
ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .
(بيان التلبس في تشبيه هذه الناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف)
اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن فرضنا من الناظرات للباحثة عن الحق ليتضح
فان الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر هكذا كان عادة الصحابة
رضي الله عنهم في مشاوراتهم كمشاورهم في مسألة الجدة والاخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على
الإمام إذا أخطأ كما نقل من إجهاض المرأة جنيها خوفا من عمر رضي الله عنه وكما نقل من مسائل
الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء
رحمهم الله تعالى ويظلمك على هذا التلبس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين
ولكن له شروط وعلامات ثمان : الأول أن لا يشتغل : وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ
من فروض الأعيان ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو
ككذاب ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول فرضي أسترعورة
من يصلي عريانا ولا يجد ثوبا فان ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر
التي عنها البحث في الخلاف ممكن والاشتغال بالمناظرة مهملون لأمر هي فرض عين بالاتفاق ومن
توجه عليه رد وديعة في الحال قمام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به فلا يكفي
في كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب . الثاني
أن لا يرى فرض كفاية أهم من الناظرة فان رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال
من يرى جماعة من المطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم
الماء فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل
له في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية
لحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملهمة بجماعة المطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة
وفي البلد فروض كفايات مهجلة لا قائم بها . فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بل من جملة الفروض
المهجلة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد
شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به وكذا الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون الناظر في مجلس مناظرته
مشاهدا للحريز ملبوسا ومفروشا وهو ساكت وينظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام
بها جماعة من الفقهاء . ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات وقد روى
أنس رضي الله عنه أنه « قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال عليه
السلام إذا ظهرت المداينة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صفاركم والفق في أراذلكم (١) »
الثالث أن يكون الناظر مجتهدا يفتي برأيه لا بمنذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق

(الباب الرابع)

(١) حديث أنس قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحديث ابن ماجه
بإسناد حسن

من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافق رأى الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم والأئمة فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتى فيما يثقل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه فأى فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره وما يشكل عليه يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبي جوابا عن هذا فاني لست مستقلا بالاجتهاد في أصل الشرع ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به فانه ربما يفتى بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى الناظرات جارية فيها قط بل ربما ترك المسئلة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسئلة يكون الخلاف فيها مبتوتا . الرابع أن لا يناظر إلا في مسئلة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا فان الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجد من الوقائع أو ما يظن وقوعه كالقراض ولا ترى الناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسئلة خبرية أو هي من الروايات وليست من الطبوليات فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسئلة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الاخبار أولأنها ليست من الطبول فلا نطاول فيها الكلام . والقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول . الخامس أن تكون المناظرة في الخلوأ أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكارب والسلطين فان الخلوأ أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا أو مبطلا وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجامع ليس لله وأن الواحد منهم يغلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو التخصيص بالكلام . السادس أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يدمن يعاونه ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا صرفه الخطأ وأظهر له الحق كالأخذ طريقا في طلب ضالته فبها صاحبه على ضالته في طريق آخر فانه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى إن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونهته على الحق وهو في خطبته على ملا من الناس فقال أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضي الله عنه فأجابه فقال ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى لا تسألوني عن شيء وهذا الجبرين أنظر كم وذلك لماسبل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال هو في الجنة وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال أعده على الأمير فله لم يفهم فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود أنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة فقال أبو موسى الحق ما قال وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فان ذلك معلوم لكل أحد فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يغجل به وكيف يجتهد في مجادحته بأقصى قدرته وكيف يذم من أخفه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق . السابع أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال فهكذا كانت مناظرات السلف ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل البتة فيما له وعليه كقوله هذا لا يلزمي ذكره وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك فان الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله وأنت

للدعة فابتدرت لاجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك قلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوقفا منه وملتمعا إليه اعلوا أحسن الله ارشادكم وألان إلى قبول الحق انيادكم أن اختلاف الخلق في الأديان والمثل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون وكل فريق يزعم أنه الناجي كل حزب بما لديهم فرحون ولم أزل في عنقوان شباني مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الحسين أتتجم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحدور وأتوغل في كل مظلة وأهجم على كل مشككة وأتفحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأتكشف أسرار

مذاهب كل طائفة
لأميز بين كل محق
ومبطل ومستن
ومبتدع لأغادر باطنيا
إلا وأحب أن أطلع
على باطنيته ولاظاهريا
إلا وأريد أن أعلم
حاصل ظاهريته ولا
فلسفيا إلا وأقصد
الوقوف على فلسفته
ولا متكلميا إلا وأجهد
في الاطلاع على غاية
كلامه ومجادلته ولا
صوفيا إلا وأحرص
على العثور على سر
صوفيته ولا متعبدا
إلا وأريد ما يرجع
إليه حاصل عبادته ولا
زنديقا معطلا إلا
وأجتسس وراءه للتنبيه
لأسباب جراته في
تعطيله وزندقته وقد
كان التعطش إلى درك
حقائق الأمور دأبي
وديدني من أول
أمرى وريعان عمري
غريزة من الله وفطرة
وضعهما الله في جيلتي
لاباختياري وحيثي
حتى انحلت عني رابطة
التقليد وانكسرت
عني العقائد المروية
على قرب عهد مني
بالصبا إذ رأيت صبيان

تري أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلته يظنها فيقال له ما الدليل على أن الحكم في الأصل معمل بهذه العلة فيقول هذا ما ظم لي فان ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه فيصر المترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرقها ولا أذكرها إذ لا يلزمي ذكرها ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ويصر المترض على أنه لا يلزمه ويتوخي مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله إنني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمي كذب على الشرع فانه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها وإن كان صادقا فقد فسق باخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه السلم ليفهمه وينظر فيه فان كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم لثبوت قوله لا يلزمي أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشبي والروعة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمي وإلا فهو لازم بالشرع فانه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهاى هذا الجنس وهل منع أحدهم الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه . الثامن أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابرخوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم علمعا في ترويح الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر الله ومن يناظر لعله . واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب أو مسام للمصيب في الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين ولذلك ثبت الشيطان به لما غسه فيه من ظلمات الآفات التي تعددها ونذكر تفاصيلها فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

(بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق)

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والافحام وإظهار الفضل والشرف والتشديد عند الناس وقصد البهاة والمارة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق الذمومة عند الله المحموده عند عدو الله إبليس ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والنافسة وتركية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة وكما أن الذي خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليه حب الافحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والبهاة دعاه ذلك إلى إضمار الحباث كلها في النفس وهييج فيه جميع الأخلاق الذمومة وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربيع المهلكات ولكننا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة فمنها الحسد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) ولا ينفك الناظر عن الحسد فانه تارة يقلب وتارة يقلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره فنادام يبق في الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاما

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبي هريرة وقال البخاري لا يصح وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن .

وأقوى نظرا فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه والحسد نار محرقة فمن بلى به فهو في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فانهم يتغايبون كما تتغايب الثيوس في الزرية ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظيمة إزارى والكبرياء ردأى فمن نازعني فيهما قصمته ^(٢) » ولا ينفك الناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والترب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق وربما يتعلل النجى والمكار الحداغ منهم بأنه ينهى صيانة عز العلم « وأن المؤمن منهى عن الإذلال لنفسه ^(٣) » فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر للمقوت عند الله بعز الدين عزيفا للاسم وإضلالا للخلق به كما فصل في اسم الحكمة والعلم وغيرها ومنها الحق فلا يكاد الناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بمحقود ^(٤) » وورد في ذم الحق ما لا يخفى ولا ترى مناظرا يقدر على أن لا يضم حقا على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الاصفاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إظهار الحق وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الاخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لا عمالة في غالب الأمر وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة بمبالاة بكلامه انقرب في صدره حقد لا يقلمه مدى الدهر إلى آخر العمر . ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكل اللثة ولا يزال الناظر مثابرا على أكل اللثة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لا عمالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة فأما الكذب فبهران وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض من كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحمالة وقلة الفهم والبلاهة . ومنها تزكية النفس . قال الله تعالى - فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى - وقيل لحكيم ما الصدق القبيح ؟ فقال ثناء المرء على نفسه ولا يخلو الناظر من الثناء على نفسه بالقوة والعلبة والتقدم بالفضل على الأقران ولا ينفك في أثناء الناظرة عن قوله لست بمن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا التفتن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا . ومنها التجسس وتتبع عورات الناس وقد قال تعالى - ولا تجسسوا - والناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يسدها ذخيرة لنفسه في إفصاحه

(١) حديث من تكبر وضعه الله الحديث الخطيب من حديث عمر باسناد صحيح وقال غريب من حديث الثوري وابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن (٢) حديث الكبرياء ردأى والعظيمة إزارى الحديث أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة وهو عند مسلم بلفظ الكبرياء ردأوه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٣) حديث نهى المؤمن عن إذلال نفسه الترمذى ومحمه وابن ماجه من حديث حذيفة لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه (٤) حديث المؤمن ليس بمحقود لم أصف له على أصل .

النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التصبر وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود وصبيان الاسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام وممعت الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » فتحرك باطل إلى طلب الفطرة الأصلية وحقيقة المقائد العارضة بتقليد الوالدين والأساتذيين والتمييز بين هذه التقاليد وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات قلقت في نفسى أولا إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي يشكف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان التلطف كالوهم ولا يتبع العقل لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لنقص مقارنته لو تحدى

وتعجبه إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فصاه يستر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويصد من لطائف التسبب ولا يتمتع عن الانصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء كما حكى عن قوم من أكابر الناظرين للمعذوبين من فحولهم ومنها القرح لمساء الناس والتم لمسارهم ومن لا يحب لأخيه للمسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين فكل من طلب البهاة بظاهر الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله القدين يسامونه في الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها فهكذا ترى الناظر إذا رأى مناظرا تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سباعا ضاريا فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتسامح في السراء والضراء حتى قال الشافعي رضي الله عنه العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل فلا أدري كيف يدعى الاقتداء بمنهجه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب التلبة واللباهة هيئات هيات وناهيك بالشر شرا أن يلزمك أخلاق الناظرين ويرثك عن أخلاق المؤمنين والتقنين . ومنها اتفاق فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فانهم يلقون الخصوم وعبيهم وأشياهم ولا يجدون بدا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور وتفاق وفجور فانهم متوددون بالأسنة متباغضون بالقلوب نموذ بالله العظيم منه . فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرجام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم (١) » رواء الحسن وقد صرح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على للمارة فيه حتى إن أبغض شيء إلى الناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تشمر لجده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والسكر والحيلة لدفعه حتى تصير المارة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يعلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ نذب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة (٢) » وقد سوى الله تعالى بين من أقرى على الله كذبا وبين من كذب بالحق . فقال تعالى - ومن أظلم ممن أقرى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه - وقال تعالى - فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه - ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر كما سيأتي في كتاب الرياء والناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خصال من أمهات القواحي الباطنة سوى ما يتفق لغير التماسكين منهم من الخصام المؤدى إلى الضرب والسك والظلم وتمزيق الثياب والأخذ باللحي وسب الوالدين وشم الأستاذين والقذف الصريح فان أولئك

بأظلم بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكواً وإمكاناً فاني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل الواحد أكثر من العشرة بدليل أتى قلبه منه العصا ثعباناً وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك في معرفتي لكذبه ولم أعصم معي منه إلا التعجب من حكيمة قدرته عليه وأما الشك فيما علمته فلا ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ثم فقتحت عن علومى فوجدت نفسى عاطلة عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحيات والضروريات قتل الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات وهى الحيات والضروريات فلا بد من إحكامها أولاً لأتبين أن يقينى بالحسوسات وأمانى من

(١) حديث إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسن وتباغضوا بالقلوب الحديث الطبراني من حديث سلمان باسناد ضعيف (٢) حديث من ترك المراء وهو مبطل الحديث الترمذى وابن ماجة من حديث أنس مع اختلاف قال الترمذى حسن .

ليسوا معدودين في زمرة الناس للمعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الحصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الأعطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله القارين له في الدرجة ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الحصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل الأنفة والضب والبخس والطمع وحسب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة واللباهة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم والتجمل بالحيول والمراكب والياب المظورة والاستحقار للباس بالفقر والخيلاء والحوض فيما لا ينفي وكثرة الكلام وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري الصلي منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في الناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تخصي والناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن حمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غاية إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلوم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يحمل العالم بل يهلكه هلاك الأبدي أو يحية حياة الأبدي ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضربه مع أنه لم ينفعه وليته نجمانه رأساً برأس وهيات هيات فخطر العلم عظيم وطالبه طالب الملك للؤبد والنعيم السرمدي فلا ينفك عن الملك أو المملك وهو كطالب الملك في الدنيا فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لابد من لزوم أفصح الأحوال . فإن قلت في الرخصة في الناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندست العلوم فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالسكرة والصولجان واللعب بالصفير مارغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ولولا حب الرياسة لاندس العلم ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال ﷺ فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ^(٢) » فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضر قصد الجاه فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصالح غيره في هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها فالعلماء ثلاثة إمامهك نفسه وغيره وهم المصروحون بطلب الدنيا والقبولون عليها وإمامهك نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً وإمامهك نفسه مسعدي غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربيع الهلكات ما ينفي عنك الرياسة فيه إن شاء الله تعالى .

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبي هريرة

الغلط في الضروريات من جنس أمان الذي كان من قبل في التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات وهو أمان عتق لا يجوز فيه ولا غائله فأقبلت بمجديليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكنني أشكك نفسي فيها فأتى بعد طول التشكك إلى أنه لم تسمع نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات وأخذت تتعشك فيها ثم إنى ابتدأت بعلوم الكلام فصلته وعلقت به وطالمت كتب المحققين منهم وصنفت ما أردت أن أصفه فصادفته علماً وإياها قصوده غير واف بمقصودي ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعسد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج عن بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرى ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة إلا حمل عليها جند

(الباب الخامس في آداب التعلم والمعلم)

أما للتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر حمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذا علم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة ^(١) » وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى - إنما المشركون نجس - تنبيه للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس فالشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر رأى باطنه ملطخ بالخبائث والنجاسة عبارة عما يختبئ ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فانها مع خبئها في الحال مهلكات في المال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ^(٢) » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابغة فأني تدخله للملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة - وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه ما يشاء - وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة لا وكون بها وهم القدسون المطهرون البرؤون من الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعبرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا ولست أقول المراد بلفظ البيت هو القلب وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو تنبيه عليه وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ففارق الباطنية بهذه الدقيقة فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بسند الانقلاب فصوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذي ذم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعة ونجاسة إلى الروح السكينة وهي السبعة . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكبر عليها والحرس على التزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور والصور في هذا العالم غالب على المعاني والمعاني باطنة فيها وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني فلذلك يحتر كل شخص على صورته المعنوية « فيحتر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا والشره إلى أموالهم ذنبا عاديا والتكبر عليهم في صورة نمر وطالب الرياسة في صورة أسد ^(٣) » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار . فإن قلت كم من طالب ردى الأخلاق حصل العلوم فهبات ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع

(الباب الخامس)

- (١) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فان الاسلام نظيف وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود النظافة تدعو إلى الايمان
- (٢) حديث لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري
- (٣) حديث حشر الممزق لأعراض الناس في صورة كلب ضار الحديث الثعلبي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

الشهوة جملة فيغيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبن بسبب ميلها إلى المقام ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتغيل وإن لم تستعد الآن للآخرة فمى تستعد وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمى تقطعها ففسد ذلك تنبث الرغبة وينجز الأمر على الحرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فاتها سريعة الزوال وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاء الطويل العريض والشأن العظيم الحالى عن التكدير والتغيب والأمر السالم الحيالى عن منازعة الخصوم ربما التفت إليك تفكك ولا تيسر لك المعاودة فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعى قريبا من ستة أشهر أولها رجب من سنة ست

في الآخرة الجالب للمادة فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي مسمومة قاتلة مهلكة وهلا بآيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا إنما الذي تسمعه من التزمين حديث يلقونه بالسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء قال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يذف في القلب ، وقال بعضهم إنما العلم الحشنة لقوله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا قد أن العلم أوى وامتنع علينا فلم تكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه . فان قلت إنى أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا في القروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها . فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد صبقت إلى هذا إشارة وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاختغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فان العلائق شاغلة وصارفة - وما جعل الله لرجل من قليلين في جوفه - ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيتك كلك فأنت من عطائه إياك بضه على خطر والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بضه واختطف الهواء بضه فلا يبقى منه ما يجمع ويبلغ المزدرع . الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على العلم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويدعن لنصيحته إذ عاين للريض الجاهل للطبيب للشفق الحاذق وينبغى أن يتواضع لعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته قال الشعبي « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بعلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد خلّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء قبل زيد ابن ثابت يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من أخلاق المؤمنين التعلق إلا في طلب العلم (٢) » فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على العلم ومن تكبره على العلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من الرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطالب مهربا من سبع صار يقرسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الحرب مشهور أو خامل وضراوة سبع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يفتنمها حيث يظهر بها ويتقلد النمل من ساقها إليه كائنا من كان فلذلك قيل :

العلم حرب للفسق التعالى كالسيل حرب للسكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لانه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول النة فليكن التعلم لعله كأرض دمنة يالت مطرا غزيرا فتشرب جميع أجزائها وأذغت بالكلية لقبوله ومهما أشار عليه العلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه

(١) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت ، وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا هكذا نفعل قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم (٢) حديث ليس من أخلاق المؤمنين التعلق إلا في طلب العلم ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة بن بادين ضعيفين .

وثمانين وأربعمائة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ قل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبيا للقلوب المختلفة إلى فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبنة حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب وكان لا تنفس لي شربة ولا تنضم لي لقمة وتمدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طعمهم في العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يروح السر عن المم المم ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الاعراض عن المال

والجاء والأهل والأولاد
وأظهرت غرض
الخروج إلى مكة وأنا
أدبر في نفسى سفر
الشام حذرا من أن
يطلع الخليفة وجملة
الأصحاب على غرضى
في المقام بالشام فتلطفت
بلطائف الحيل في
الخروج من بغداد على
عزم أن لا أعودها أبدا
واستعزأت بأئمة العراق
كافة إذ لم يكن فيه
من يجوز أن يكون
الاعراض عما كنت
فيه سببا دينيا إذ ظنوا
أن ذلك هو النصب
الأعلى في الدين فكان
ذلك هو مبلغهم من
العلم ثم ارتبك الناس
في الاستنباطات فظن
من بعد عن العراق
أن ذلك كان الاستشعار
من جهة الولاة وأما
من قرب منهم فكان
يشاهد لجأهم في
التعلق بالانكار
على وإعراضهم
وعن الالتفات إلى قولهم
فيقولون هذا أمر
سمأوى ليس له سبب
إلا عين أصابت أهل
الاسلام وزمرة العلم
فزارت بغداد وطارقت

في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نعمها فكم من مريض محروور
بمألجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من
لاخبرة له به وقد نبه الله تعالى بقصة الحضرة وموسى عليهما السلام حيث قال الحضرة - إنك لن تستطيع
معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا - ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال - فإن اتبعتنى فلا تسألنى
عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا - ثم لم يصبر ولم يزل في مرادته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما
وبالجملة كل متعلم استبق لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار للعلم فاحكم عليهما بالخفاق والحسران . فان قلت
قد قال الله تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - فالسؤال بالمأمور به . فاعلم أنه كذلك ولكن
فيما ياذن للمعلم في السؤال عنه فان السؤال عما لم يبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ولذلك منع الحضرة موسى
عليه السلام من السؤال أى دع السؤال قبل أوانه فالعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف
ومالم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراتب الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه . وقد قال
على رضى الله عنه إن من حق العالم أن لا يتكبر عليه بالسؤال ولا تمتعه في الجواب ولا تلج عليه إذا
كسل ولا تأخذ بشوبه إذا نهض ولا تغشى له سرا ولا تقتاتن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته وإن زل
قبلت معذرتة وعليك أن توقره وتعلمه فله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ولا تجلس أمامه وإن كانت له
حاجة سبقت القوم إلى خدمته . الوظيفة الرابعة : أن يحتز الحائض في العلم في بدء الأمر عن الاصغاء
إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله
ويعير ذهنه ويفتر رأيه ويؤسسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة
المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصنى إلى المذاهب والشبه وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى
واحد وإنما عادتة نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فان إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى
لقود العميان وإرشادهم ومن هذا حاله يمد في عمى الخبرة وتيه الجهل ومنع المتبدى عن الشبه يضاهى منع
الحديث المهدى بالاسلام عن مخالطة الكفار ونذب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهى حث القوى
على مخالطة الكفار ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار وينذب الشجاع له ومن الغفلة
عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ولم يدرك
أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء وفي ذلك قال بعضهم من رأى في البداية صار صديقا ومن
رآنى في النهاية صار زنديقا إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن روائب الفرائض
فترأى للناظرين أنها باطلة وكسل وإهمال وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة
التكرار الذى هو أفضل الأعمال على الدوام وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى
اعتذار من يلتقى نجاسة بسيرة في كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر والبحر أعظم
من الكوز فاجاز للبحر فهو للكوز أجوز ولا يدرك المسكين أن البحر بقوة يحيل النجاسة ماء فتقلب
عين النجاسة باستيلائه إلى صفته والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحمله إلى صفته ولمثل هذا جاوز
للنبي صلى الله عليه وسلم ما لم يجوز لغيره حتى أيسح له تسع نسوة^(١) إذ كان له من القوة ما يتعدى
منه صفة العدل إلى نساءه وإن كثرن وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما يبين من الضرار
إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين . الوظيفة
الخامسة : أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المأمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به

(١) حديث أيسح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع الحديث . .

على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفس كك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى - وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفاك قديم - قال الشاعر :

ومن يك ذا قم مر مريض يحمد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالبعد إلى الله تعالى أو مينة على السلوك نوعان الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود والقوامها حفظه كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى . الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدى بالأهم فان العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمه ويصرف جهام قوته في اليسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والكاشفة فضاية المعاملة الكاشفة وغاية الكاشفة معرفة الله تعالى ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي ورائة أو تلقفا ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية التكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضى الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح (١) كاشده به سيد البشر ﷺ فاعندى أن ما يعتقده العامي ويرتبه التكلم الذي لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاما وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وفر في صدره والعجب بمن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدرى ما يسمعه على وقفه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول فينبغي أن تتد في هذا فنده ضيعة رأس المال فكأن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره وأقصى درجات البشرية رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم وقد روى أنه رأى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يدهما رقعة فيها إن أحسنك كل شيء فلا تظن أنك أحسن شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء وفي يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظما حتى إذا عرفته رويت بلاشرب . الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج . قال الله تعالى - الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته - أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده في كل علم يتجراه الترقى إلى ما هو فوقه فينبغي أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا يخطئ واحد أو آحاد فيه ولا يخالقهم موجب علمهم بالعمل فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها وقدمضى كشف هذه الشبه في كتاب معيار العلم وترى طائفة يستقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفاق الواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفاق الآخر والكل خطأ بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله . الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم

(١) حديث لوزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه البيهقي في الشعب موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

ما كان معى من مالى ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ولم أرى في العالم ما يأخذ العالم لبياله أصلح منه ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين لاشغل لى إلا العزلة والحلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتركية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة للسجد طول النهار وأغلق بابها على ناسي ثم تحرك بي داعية فريضة الحج والاستعداد من مركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ثم سرت إلى الحجاز ثم جددتني اللهم ودعوات الأطفال إلى الوطن

وأن ذلك يراد به شيان أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان
ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخرة الحياة القانية فيكون علم الدين أشرف ومثل علم الحساب وعلم
النجوم فان علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوتها وان نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار
ثمرته والحساب أشرف باعتباره أدلته وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره
بالتخمين وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل
إلى هذه العلوم فإياك وأن ترغب إلا فيه وأن تفرغ له لا غيره . الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد التعلم
في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المال القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملا الأعلى من
الملائكة والقرين ولا يقصد به الرياسة والسلب والجاه ومخاطبة السفهاء ومباهاة الأقران وإذا كان هذا
مقصده طلب لعمالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقد إلى
سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة للتعلمين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في
القدميات والتميمات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ولا تفهم من غلوها في الثناء على علم الآخرة
تهجين هذه العلوم فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله ففهم
المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحدهم عن
أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى - يرفع الله الذين
آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات - وقال تعالى - هم درجات عند الله - والفضيلة نسبية واستحقاقنا
للمصارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة
القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم للصالحين على تفاوت
درجاتهم وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ومن قصد الله تعالى
بالعلم أى علم كان نفعه وورقه لعمالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع
القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهكم ولا يهكم إلا شأنك في الدنيا والآخرة وإذا لم
يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى
العيان فالأهم ما سبق أبدأ الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سعي إلى المقصد ولا مقصد
إلا لقاء الله تعالى فيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأفلون والعلوم بالإضافة إلى سعادة
لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم أعنى النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم
العوام والتكلمين على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذي علق عقله وتمكنه من
الملك بالحج وقيل له إن حجبت وأتممت وصلت إلى الحق والملك جميعا وإن ابتدأت بطريق الحج
والاستعداد له وعاقك في الطريق مانع ضروري فلك الحق والحلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة
الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل : الأول : تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد
والراحلة . والثاني السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . والثالث الاشتغال
بأعمال الحج ركن بعد ركن ثم بعد الفراغ والتزويج عن هيئة الاحرام وطواف أوداع استحقاق التعرض
للملك والسلطنة وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ومن أول سلوك البوادي إلى
آخره ومن أول أركان الحج إلى آخره وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو
بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتداء بالسلوك بل هو أقرب منه فالعلوم أيضا ثلاثة أقسام
قسم مجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا
وقسم مجرى مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع

وعاودته بعد أن كنت
أبعد الخلق عن أن
أرجع إليه وآثرت
العزلة حرصا على
الحلوة وتصفية القلب
للتذكر وكانت حوادث
الزمان ومهمات العيال
وضرورات العيشة تغير
في وجه المراد وتشوش
صفوة الحلوة وكان
لا يصفون لي الحال إلا في
أوقات متفرقة لكنني
مع ذلك لا أقطع طمعي
عنها فيدفعني عنها
الدوايق وأعود إليها
ودمت على ذلك مقدار
عشر سنين وانكشف
لي في أثناء هذه
الحلوات أمور لا يمكن
إحصاؤها واستقصاؤها
والقدر الذي ينبغي أن
نذكره لينفع به
أني علمت يقينا أن
الصوفية هم السالكون
لطريق الله خاصة
وأن سيرتهم أحسن
السير وطريقهم أصوب
الطرق وأخلاقيهم أزكى
الأخلاق بل لو جمع
عقل العقلاء وحكمة
الحكماء وعلم الواقفين
على أسرار الشرع من
العلماء لغيروا شيئا
من سيرتهم وأخلاقيهم

تلك العقبات الشائعة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه
 كتصنيف علم جهات الطريق ومنازله وكما لا ينفى علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا ينفى
 علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجري مجرى
 نفس الحجج وأركانها وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم الكاشفة
 وههنا نجا وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة .
 وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم القربون للمعمون في جوار الله تعالى بالروح
 والريحان وجنة النعيم وأما المتوعدون دون ذروة السالك فلمهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل
 - فأما إن كان من الثقلين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من
 أصحاب اليمين - وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو اتهم إلى جهته لا طي قصد الامتثال والعبودية
 بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم . واعلم أن هذا
 هو حق اليقين عند العلماء الراسخين أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة
 الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد الحق وحال غيرهم
 حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان فالسعادة وراء علم الكاشفة وعلم
 الكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات
 للذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة
 أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى اللبس والطعم والسكن
 وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منبج العدل والسياسة في ناصية الفقيه . وأما أسباب
 الصحة في ناصية الطبيب ومن قال العلم علان علم الأبدان وعلم الأديان وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم
 الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة . فان قلت لم يشهد علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة
 فاعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس بل
 هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس والطفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس
 الطمئة والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه الطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية
 وآلة لتلك اللطيفة وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم الكاشفة وهو مضمون به بل لا رخصة في ذكره
 وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرر عزيز أشرف من هذه الأجرام الرئية وإنما هو أمر إلهي
 كما قال تعالى - ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - وكل المخاوفات منسوبة إلى الله تعالى
 ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن فقه الخلق والأمر جميعا والأمر أعلى من الخلق
 وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبالات
 إذ أبين أن يحملها وأشفق منها من عالم الأمر ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فان القائل يقدم
 الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بصدده
 والقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه مرجعها
 وأما البدن فطيتها التي تركبها وتسعى بواسطتها فالبدن لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في
 طريق الحجج وكالراوية الحازنة للواء الذي يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من
 جملة مصالح الطية ولا ينبغي أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان
 الإنسان وحده لا يحتاج إليه والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه
 خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسمي وحده في تحصيل طعامه بالجرأة والزرع

ويبدلوه بما هو خير
 منه لم يجدوا إليه سبيلا
 فان جميع حركاتهم
 وسكناتهم في ظاهرهم
 وباطنهم مقبسة من
 نور مشكاة النبوة
 وليس وراء نور النبوة
 على وجه الأرض نور
 يستضاء به وبالجملة ماذا
 يقول القائل في طريقة
 أول شروطها تطهير
 القلب بالكليّة عماري
 الله تعالى ومفتاحها
 الجاري منها مجرى
 التحريم في الصلاة
 استغراق القلب بذكر
 الله وآخرها الفناء
 بالكليّة في الله تعالى
 وهو أقواها بالإضافة
 إلى ماتحت الاختيار
 انتهى قال العراقي فلما
 نفذت كلمته وبعد صيته
 وعلت منزلته وشدت
 إليه الرحال وأذعنت
 له الرجال شرفت نفسه
 عن الدنيا واشتاق
 إلى الأخرى فاطرحها
 وسعى في طلب الباقية
 وكذلك النفوس
 الزكية كما قال عمر بن
 عبد العزيز إن لي نفسا
 تواقه لما نالت الدنيا
 تافت إلى الآخرة قال
 بعض العلماء رأيت

الغزالي رضى الله عنه
في البرية وعليه مرقعة
ويده عكاز وركوة
قلبت له يا امام اليس
التدريس يفتد
أفضل من هذا فنظر
إلى شذرا وقال لما بزغ
بدر السعادة في فلك
الارادة وظهرت شمس
الوصل :

ترصكت هوى ليلي
وسعدى بمنزل

وعدت إلى مصحوب
أول منزل

ونادى الأشواق مهلا
فهذه

منازل من تهوى
رويدك فانزل

اتهى كتاب تعريف
الأحياء فضائل الإحياء

بمحمد الله وعونه .

[هذا كتاب الاملاء

في إشكالات الاحياء]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما خصص

وعمم وصلى الله على

سيد جميع الأنبياء

البعوث إلى العرب

والعجم وعلى آله وعترته

وسلم كثيرا وكرم

سألت بورك الله

لمراتب العلم تصعد

مراقبها وقرب لك

مقامات الولاية محل

والحيز والطبخ وفي تحصيل اللبس والسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة
ومهما اختلط النافع وثار شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم
هلاكمهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاق من داخل ، وبالطبع
يحفظ الاعتدال في الأخلاق للتنازع من داخل ، وبالسبب تضاد الاعتدال في التنافس
من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاق طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات
والأعمال فقه وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه
ولا يصلح قلبه كالتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج والسترق
عمره في دقائق الحكامات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها
تستحكم الحيوط التي تخرز بها الراوية للحج ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب
الواصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانها فتأمل هذا أولا
واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراحة تامة على مبادئة
الحلق العامة والخاصة في الزرع من تقليدكم بمجرد الشهوة فهذا القدر كاف في وظائف التعلم .

(بيان وظائف الرشيد العلم)

اعلم أن للانسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون
مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا
وحال بذل لغيره فيكون بمسخيا متفضلا وهو أشرف أحواله فكذلك العلم يقتضى كما يقتضى المال فله
حال طلب واكتساب وحال تحصيل يقتضى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع
به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال فن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظميا في ملكوت السموات
فانه كالشمس تضيء لغيرها وهى مضئة فى نفسها وكالمالك الذى يطيب غيره وهو طيب والذى يعلم
ولا يعمل به كالقدر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسكين الذى يشحن غيره ولا يقطع والإبرة
التي تكسو غيرها وهى عارية وذباله المصباح تضيء لغيرها وهى تخرق كاقيل :

ما هو إلا ذباله وقدت تضيء للناس وهى تخرق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمر عظميا وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه . الوظيفة الأولى :
الشفقة على التلمذ وأن يجري مجرى بنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل
الوالد لولده (١) » بأن يقصد إقناذهم من نار الآخرة وهو أتم من إقناذ الوالدين ولدها من نار الدنيا
ولذلك صار حق العلم أعظم من حق الوالدين فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والعلم
سبب الحياة الباقية ولولا العلم لانساقت ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما للعالم هو المفيد
للحياة الآخروية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فأما
التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نفوذ بالله منه وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتجاربوا
ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواضع ولا يكون إلا كذلك
إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا فان العلماء وأبناء
الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا وسنوها وشهورها منازل الطريق
والتراشق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس
الأعلى والتراشق في طريقه ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

في سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم والمادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون ع
موجب قوله تعالى - إنما المؤمنون إخوة - وداخلون في مقتضى قوله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم
لبعض عدو إلا المتقين . الوظيفة الثانية : أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلد
على إفادة العلم أجرا ولا يقصده جزاء ولا شكرا بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يبر
لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله
تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يترك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فنفعتك بها تزيد على منف
صاحب الأرض فكيف تقلد منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب التعلم عند الله تعالى ولولا ذلك
مانلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل - ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إ
أجرى إلا على الله - فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو اله
إذ به شرف النفس فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفله مدامه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خاد
والمخدوم مخدوم وذلك هو الاتسكاس على أم الرأس ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكرم مع المجرم
ناكس رؤسهم عند ربهم وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمو
أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والسكلام والتدريس فيهما وفي غيرها فانه
يبدلون المال والجاه ويتحملون أصناف الدل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولوتركوا ذل
لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع العلم من المعلم أن يقوم له في كل ناحية وينصروا له ويعدى عدوه ويقتله
جهارا له في حاجاته ومسخرين يديه في أوطاره فان قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه فأخذ
بالم يرضى لنفسه بهذه للترلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر اله
تقربا إلى الله تعالى ونصرة لدينه فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاعتقادات . الوظيفة الثالثة
أن لا يبدع من نصيح المعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدي لرغبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قد
الفراغ من الجلي ثم ينهه على أن العرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والجاه
والمناصفة ويقدم تقييحه ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسد
فان علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فان كان هو علم الخلاف في الفقه
والجدل في السكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فان هذه العلوم ليست من علو
الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله وإتمام ذلك عام التفسير وع
الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذ اتلها
الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه فانه يشمر له طمعا في الوعظ والاستبعا ولكن قد يتنبه في أثناء
الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحرقة للدنيا العظيمة للآخرة وذلك يوشك أن يؤد
إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ويجزى حب القبول والجاه مجرى الحب الذي يش
حوالي الفخ ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النفس
وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم فأما الخلافات المحضة ومجادلات
السكلام ومعرفة التفاريح الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الاعراض عن غيرها إلا نقوسة في القلب وغف
عن الله تعالى وتغاديا في الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم
الدينية ولا يرهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في الب
والبلاد والله المستعان . وقد رؤى سفيان الثوري رحمه الله حزينا قليل له مالك فقال صرنا متجرا الأبد
الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاصيا أو عاملا أو قهرا مانا . الوظيفة الرابعة : وهي من دقات

معاليها عن بعض
ما وقع في الاملاء للقلب
بالإحياء مما أشكل على
من حجب فهمه وقصر
عليه ولم يفز بشيء
من الحظوظ لللكية
قدحه وسهمه وأظهرت
التحزن لما شاش به
شركاء الطعام وأمثال
الأنعام وأجماع العوام
وسفهاء الأحلام وذعار
أهل الاسلام حتى
طنعوا عليه ونهوا عن
قراءته ومطالعتهم وأقتوا
بمجرد الهوى على غير
بصيرة باطراحه
ومنايذته ونسبوا عليه
إلى ضلال وإضلال
ونبذوا قراءه ومنتحلته
بزئج في الشريعة
واختلال فإلى الله
انصرافهم ومآبهم
وعليه في العرض
الأكبر إيقافهم
وحسابهم فستكتب
شهادتهم ويستلون
وسيعلم الذين ظلموا أي
منقلب ينقلبون بل
كذبوا بما لم يحيطوا
بعلومه . وإذا لم يهتدوا به
فسيقولون هذا إفاك
قديم ولو ردوه إلى
الرسول وإلى أولى
الأمر منهم لعلمه الذين

يستنبطونه منهم
ولكن الظالمون في
شفاق بعيد ولا هيب
قد تنوى أدلاء الطريق
وذهب أرباب التحقيق
ولم يبق في الغالب
إلا أهل الزور والفسق
متشبثين بدعاوى
كاذبة متصفين بحكايات
موضوعة متزينين
بصفات منمقة
متظاهرين بظواهر
من العلم فاسدة
متعاطين للحجج غير
صادقة كل ذلك لطلب
الدنيا أو حجة تاء أو
مغالبة نظراء قد ذهب
المواصلة بينهم بالبر
وتألفوا جميعا على النكر
وعدمت النصائح بينهم
في الأمر وتضافوا
بأسرهم على الخديعة
والسكر إن نصحتهم
العلماء أغروا بهم وإن
صحت عنهم العقلاء
أزروا عليهم أولئك
الجهال في علمهم الفقراء
في طولهم البخلاء عن
الله عز وجل بأنفسهم
لا يفلحون ولا ينجح
تابعهم ولذلك لا تظهر
عليهم موارث الصدق
ولا تسطع حولهم أنوار
الولاية ولا تحقق لديهم

صناعة التعليم أن يزجر التعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق
الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ويهيج
الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه
وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء (١) » وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه
فأذكرت القصة معك لتكون ممرا بل لتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس
الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفتن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك
مما لا يعزب عن فطنته . الوظيفة الخامسة : أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس للتعلم
العلوم التي وراءه كعلم اللغة إذ عادتته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادتته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن
ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك
فروع وهو كلام في حيز النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين
ينبغي أن تجنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على التعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلا
بعلم فينبغي أن يراعى التدرج في ترقية التعلم من رتبة إلى رتبة . الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمعلم
على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى
الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر
عقولهم (٢) » فليتب إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال ﷺ « ما أحد يحدث قوما بحديث
لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال على رضي الله عنه وأشار إلى صدره إن ههنا لعلومنا
حجة لو وجدت لها حجة وصدق رضي الله عنه قلوب الأبرار قبور الأسرار فلا ينبغي أن يفشى العالم كل
ما يعلم إلى كل أحد هذا إذا كان يفهمه التعلم ولم يكن أهلا للاطلاع به فكيف فيما لا يفهمه وقال عيسى
عليه السلام لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من
الخنازير ولذلك قيل كل لكل عبد بميزان عقله وزن له ميزان فهمه حتى تعلم منه وينتفع بك والإوقع
الانكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل أما سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « من كنتم علما نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار (٣) » فقال أترك اللجام وأذهب
فإن جاء من يفقه وكنتمته فليجمن فقد قال الله تعالى - ولا توتوا السفهاء أموالكم - تنبها على أن
حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق

أثر درآين سارحة النعم فأصبح مغزونا براعية النعم
لأنهم أمسوا بجمل قدره فلا أنا أضحي أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادقت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيدا واستفدت مودة وإلا فمخزون لدى ومكتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة : إن التعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا

(١) حديث لو منع الناس عن فت البعر لفتوه الحديث لم أجده (٢) حديث نحن معاشر الأنبياء
أمرنا أن نزل الناس منازلهم الحديث رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر
أخضر منه وعند أبي داود من حديث عائشة أنزلوا الناس منازلهم (٣) حديث من كنتم علما نافعاً
جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف وتقدم حديث
أبي هريرة بنحوه .

وهو يدخره عنه فان ذلك يفتر رغبته في الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فإمن أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشدهم حياءً وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله وبهذا يعلم أن من تفيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفس العقائد المأثورة عن السلف من غير تشييه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقلاً أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يغلى وحرقة فأنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقله شيطاناً يريد أن يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغي أن يغاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصدها ويعمل قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجاهل والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فانه ربما تغلفت الشبهة بقلبه ويصر عليه حلها فيشوق ويهلك وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فانه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوا عيش الخواص . الوظيفة الثامنة : أن يكون العلم عاملاً بعلومه فلا يكذب قوله فعلة لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر فاذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً واثقاً للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولاً : أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ومثل العلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظلمة من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل في المعنى لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى - أأأمرون الناس بالبر ونسجون أنفسكم - ولذلك كان وزير العالم في معاصيه أكبر من وزير الجاهل إذ زل يزلته عالم كبير ويقتدون به ومن سن سنة سيئة قطيعه وزرعا ووزر من عمل به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متهتك فالجاهل يفر الناس بتسكك والعالم يفرهم بتسكك والله أعلم .

(الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء)

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدين وعلماء الآخرة ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدوا من العلم التمتع بالدنيا والتوصل إلى الجاهل والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق (٣) »

(الباب السادس)

(١) حديث لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً ابن حبان في كتاب روضة العقلاء والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً (٢) حديث العلم علمان علم على اللسان الحديث الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي (٣) حديث يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق وهو ضعيف .

أعلام المعرفة ولا يستر عوراتهم لباس الحشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب وفي هذه أسباب السعادة وتمة الطهارة لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلموا علة أهل التاقل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ولكن ليس هذا من بضائعهم جربوا عن الحقيقة بأربع بالجهل والاصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى فالجهل أورثهم السخف والاصرار أورثهم التهاون ومحبة الدنيا أورثهم طول الغفلة وإظهار الدعوى أورثهم التكبر والاعجاب والرياء والله من ورائهم محيط . وهو على كل شيء شهيد . فلا يفر منك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ولا يذهلك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطمعائهم ولا يغيروك

بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكان قد جمع الخلائق في صعيد - وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد - وتلا - لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - فياله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقييل ومتابعة الأباطيل فأعرض عن الجاهلين - ولا تقطع كل أفاك أثيم ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تتبغى نفقا في الأرض أو سلا في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون - ولقد جئناك بحول الله وقوته وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة ما زعم فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عنده ألبه الله بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم « لأنامن غير الدجال أخوف عليكم من الدجال قليل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا » (٣) وقال عيسى عليه السلام إلى متى تصفون الطريق للمدجلين وأنتم مقيمون مع التحييرين فهذا وظيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد وإمنا بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة للنافق العليم قالوا وكيف يكون منافقا علما قال عليم اللسان جاهل القلب والعمل وقال الحسن رحمه الله لا تمكن ممن يجمع علم الطاء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة له وقيل لإبراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندما قال أما في عاجل الدنيا فصانع للعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفترط وقال الحليل بن أحمد: الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارقضوه وقال سفيان الثوري رحمه الله يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل وقال ابن المبارك لا يزال الرءءاء طالبا ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله إني لأرحم ثلاثة عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا وقال الحسن عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواء فهو من ذين أعجب

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليعذب عذابا يطيء به أهل النار استعظما لشدة عذابه » (٤) وأراد به العالم الفاجر وقال أسامة بن زيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيء به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية » (٥) وإغماضا عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل - إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار - لأنهم جحدوا بعد العلم وجعل اليهود شرا من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدا ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله

(١) حديث لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء الحديث ابن ماجه من حديث جابر باسناد صحيح

(٢) حديث غير الدجال أخوف عليكم من الدجال الحديث أحمد من حديث أبي ذر باسناد جيد

(٣) حديث من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث على باسناد ضعيف إلا أنه قال زهدا ، وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفا

على الحسن من ازداد علما ثم ازداد الله على الدنيا حرصا لم يزد من الله إلا بعدا ، وروى أبو الفتح الأزدي

في الضعفاء من حديث على من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد الله عليه غضبا (٤) حديث

إن العالم يعذب عذابا يطيء به أهل النار الحديث لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة

المذكور بعده (٥) حديث أسامة بن زيد يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أفتابه الحديث

متفق عليه بلفظ الرجل بدل العالم .

- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - وقال تعالى - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين - وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء - واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين - حتى قال - مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - فكذاك العالم الفاجر فإن بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخذ إلى الشهوات فشبهه بالكلب أي سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات وقال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها تين ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخسر حالا وأشد عذابا من الجاهل وأن الفائزين للقرين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهم أسخطت الأخرى وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداها خفت الأخرى وأنهما كالشرق والغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقديحين أحدهما ملوئ والآخر فارغ فيقدر ما تصيب منه في الآخر حتى يعتلى بفرغ الآخر فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لثمتها بالمهامة انصرام ما يصفه ومنها فهو فاسد العقل فإن الشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي يا داود لا تسأل عني عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما يا داود من رد إلى هاربا كتبته جهنما ومن كتبته جهنما لم أعذبه أبدا ولذلك قال الحسن رحمه الله عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة ولذلك قال يحيى بن معاذ إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا وقال سعيد بن المسيب رحمه الله إذا رأيتم العالم يشقى الأمراء فهو لص وقال عمر رضي الله عنه إذا رأيتم العالم يحيا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب محوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه وكتب رجل إلى أخيه إنك قد أوتيت علما فلا تطفئ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا يا أصحاب العلم قصوركم قصيرة وبيوتكم كسروية وأنوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكم كبرية قارونية وأوانيسكم فرعونية وما تمسكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة الحميدة قال الشاعر :

وراعى الشاة يحصى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال الآخر : يامعشر القراء يا ملع البلد ما يصلح اللع إذا اللع قد

وقيل لبعض العارفين أتري أن من تكون المعاصي قرعة عينه لا يعرف الله فقال لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى وهذا دون ذلك بكثير ولا تظن أن ترك المال يكفي في الحقوق

ذكر فيه الأقدام إذ اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفا على السنة الصدور والأصحاب حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وحديث المجالس فساعدتنا أمنيتهك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى أملائنا هذا بياناً غير مما عده مشكلا وصار لمقوله الضعيفة غيلا ومضللا ونحن نستعذ بالله من الشيطان ونستصم به من جراءة فقهاء الزمان ونسخر إليه في المزيد من الإحسان إنه الجواد اللبان [ذكر مراسم الأسئلة في المثل]

ذكرت رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نبيه وأمره كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ولفظة التوحيد تنافي التقسيم في الشهود كما ينافي التكرير التعديد وإن صح اقتضاه على وجه لا يندفع فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ورغبت

مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة واتهام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور واللحوب ولم كانت الأول لا ينفع والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه وما معنى قول أهل هذا الشأن إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ما قالوه في التبرع إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتباعد والصدقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة إنما هي مأخذ شرعية وأحكام نبوية وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجادات والمخاطبة الجادات المقلاء وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الأذان أم بسمع القلب وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت وما معنى أن الله تعالى خلق آدم

بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال ولذلك قال بشر حدثنا باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول حدثنا فلما يقول أو سعا لي ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول أنا أشبه أن أحدث ولو ذهبت عن شهوة الحديث لحدثت وقال هو وغيره إذا اشتيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته تحدث وهذا لأن التلذذ بجاه الافادة ومنصب الارشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا ولذلك قال الثوري فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين عليه السلام - ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا - وقال سهل رحمه الله العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الاخلاص وقال الناس كلهم موني إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا الخالصين والخلص على وجل حتى يدري ماذا يعتمد له به وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب الماش فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة وقال عيسى عليه السلام كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من بطلب السلام ليخبر به لا يعمل به وقال صالح بن كيسان البصري أدركت الشيوخ وهم يتعبدون بالله من الفاجر العالم بالسنة وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علما مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ^(١) » وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهدي فقال عز وجل في علماء الدنيا - وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا - وقال تعالى في علماء الآخرة - وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم - وقال بعض السلف العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والثناء يحشرون في زمرة السلاطين وفي معنى القصة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وبني يستهزئون لا ينجح لهم فتنة تندر الحليم حيران ^(٢) » وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رجلان رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتريه ثمنا فذلك يصلى عليه طير السماء وحياتان الماء ودواب الأرض والكرام السكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ورجل آتاه الله علما في الدنيا ففطن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة ملجما بلجما من نار ينادى مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علما في الدنيا ففطن به على عبادته وأخذ به طمعا واشترى به ثمنا فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس ^(٣) » وأشد من هذا ما روى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صلى الله عليه وسلم أني أخبرني الله عن موسى عليه السلام فقال لا يحسن له خبرا حتى جاءه رجل ذات يوم

(١) حديث أبي هريرة من طلب علما مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضا الحديث أبو داود وابن ماجه باسناد جيد (٢) حديث أبي الدرداء أوحى الله إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين الحديث ابن عبد البر باسناد ضعيف (٣) حديث ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان الحديث الطبراني في الأوسط باسناد ضعيف .

وفي يده خنزير وفي عنقه جبل أسود فقال له موسى عليه السلام أتعرف فلانا قال نعم هو هذا الخنزير فقال موسى يارب أسألك أن تردّه إلى حاله حتى أسألهم أصاب هذا فأوحى الله عز وجل إليه لودعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به لأنه كان يطلب الدنيا بالدين . وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع »^(١) وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم ومن العلماء من يحزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو فهوون بشيء من حقه غضب فذلك في الدرك الثاني من النار ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة أهلا فذلك في الدرك الثالث من النار ومن العلماء من نصب نفسه للفن فيفتي بالخطأ والله تعالى يفض للتكلمين فذلك في الدرك الرابع من النار ومن العلماء من يشكهم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذكر في الناس فذلك في الدرك السادس من النار ومن العلماء من يستغز الزهو والعجب فان وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار فعليك يا أخى بالصمت به تغلب الشيطان وإياك أن تضحك من غير هيب أو تمشي في غير أرب وفي خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة »^(٢) وروى أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة فقال الحسن عافاك الله تعالى ضم إليك ثققتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له وعن جابر رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا قال قال رسول الله ﷺ « لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الاخلاص ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة »^(٣) قال تعالى - فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه قدوة حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - الآية ، فعرف أهل العلم بإشار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالذي « ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى - أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم - وقال تعالى - كبر مقتا عند الله أن تقولوا لا تفعلون - وقال تعالى في قصة شعيب - وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه - وقال تعالى - واتقوا الله ويعلمكم الله - وقال تعالى - واتقوا الله واعلموا - واتقوا الله واسمعوا - وقال تعالى ليعسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فان اعطت فنظ الناس وإلا فاستحي مني » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي بأقوام تفرض شفاههم بمقاريض من نار قفلت من أثم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ونهى عن الشر ونأتيه »^(٤) وقال

على صورته وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدها منزها مجللا وما معنى الطريق في فانك بالوادي القدس طوى ولعله يغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى وما معنى فاستمع بسر قليل لما يوحى وهل يكون سماع القلب بغير سره وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ومن له بالتعلق إلى مثل ذلك للقام حتى يسمع أسرار الآله وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق وما يسمع في النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين وما الذي

(١) حديث معاذ من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع الحديث أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث إن العبد لينشر له من الثناء ما يزن عند الله جناح بعوضة ما أجده هكذا في الصحيحين من حديث أبي هريرة إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة (٣) حديث جابر لا تجلسوا عند كل عالم الحديث أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث مررت ليلة أسرى بي بأقوام تفرض شفاههم بمقاريض من نار الحديث ابن حبان من حديث أنس

أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد القرين وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه وما الذي يمنعه من البقاء في اللوح الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء لو وصلوا ما رجعوا ما وصل من رجوع وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيباً ولا أكل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخسلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الإلهية وما حكم هذه العلوم للكنونة هل طلبها فرض ومندوب إليه أو غير ذلك ولم كسبت للمشاكل من الألفاظ واللفظ من العبارات وإن جاز ذلك للشارع فيها له أن يختبر به ويمتنع فما بال من ليس شارحاً

صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل وشر الثرثار شرار العلماء وخير الخياريار العلماء (١) » وقال الأوزاعي رحمه الله شككت الثواويس ما تجدد من ثمن جيف الكفار فأوحى الله إليهما بطون علماء السوء أثنى مما أنتم فيه وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات وقال الشعبي يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديكم وتعليمكم فيقولون إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ونهى عن الشر ونفعله وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به فجازوا بسببه وهلك هو وقال مالك ابن دينار إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا وأنشدوا:

يا واعظ الناس قد أصبحت منهمما إذ عبت منهم أمورا أنت تأتمها
أصبحت تصحبهم بالوعظ مجتهدا فملووقات لعمري أنت جانبها
تصيب دنيا وناسا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها
وقال آخر: لانتبه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله مررت بعجر بركة مكتوب عليه اقلبي تعتبر قلبته فإذا عليه مكتوب أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم وقال ابن السكيت رحمه الله كم من مذكر بالله ناس لله وكم من مخوف بالله جرى على الله وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله وكم من داع إلى الله فار من الله وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم نعرف. وقال الأوزاعي إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلان يأجركم الله حتى تعملوا (٢) » وقال عيسى عليه السلام مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السرف حملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وقال معاذ رحمه الله احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتمونه على زلته وقال عمر رضي الله عنه إذا زل العالم زل بزلة عالم من الخلق وقال عمر رضي الله عنه ثلاث بهن يهدم الزمان إحداهن زلة العالم وقال ابن مسعود سيأتي على الناس زمان تملح فيه غدوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ. عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباح من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها غدوبة وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطلق مصاييح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه غشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله فما أخصب الألسن يومئذ وما أجذب القلوب فوالله الذي لا إله إلا هو ماذلك إلا لأن للعلمين علموا لغير الله تعالى والتعلمين تعلموا لغير الله تعالى وفي التوراة والإنجيل مكتوب

(١) حديث هلاك أمتي عالم فاجر وشر الثرثار شرار العلماء الحديث الدارمي من رواية الأحموس بن حكيم عن أبيه مرسلا بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجده صدر الحديث (٢) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلان يأجركم الله حتى تعملوا لعله ابن عبد البر وأسندته ابن عدي وأبو نعيم والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفا على معاذ بسند صحيح.

لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعلموا بما علمتم وقال حذيفة رضي الله عنه إنكم في زمان من ترك فيه عتة ما يعلم هلك وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين . واعلم أن مثل العالم من القاضي وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاء ثلاثة قاض قضي بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض قض بالجور وهو يعلم أو لا يعلم فهو في النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو في النار ^(١) » وقال كعب رحمه الله يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون ويخوفون الناس ولا يخافون وينبؤون عن غشيان الولاة ويأتونهم ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بالسنتهم يقرّبون الأغنياء دون الفقراء يتنايرون على العلم كاتفاير النساء على الرجال يغضب أحدهم على جلسيه إذا جالس غيره أولئك الجباروا أعداء الرحمن وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم قليل يارسول الله وكيف ذلك قال صلى الله عليه وسلم يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العلم قائلا وللعمل مسو حتى يموت وما عمل ^(٢) » وقال سري السقطي اغترل رجل للتبذ كان حريصا على طلب علم الظاهر فسأله فقال رأيت في النوم قائلا يقول لي إلى كم تضع العلم ضعك الله فقلت إنني لأحفظه فقال حفظ العلم العمل فتركت الطلب وأقبلت على العمل وقال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية وقال الحسن تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همهم الرواية والعلماء همهم الرعاية وقال مالك رحمه الله إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكم انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئا وقال ابن مسعود رضي الله عنه أنزأ القرآن ليعمل به فأخذتم دراسته عملا وسيأتي قوم يتفوهونه مثل القناة ليسوا بغيركم والعالم الذي لا يعمل كالمرضى الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يبعدها وفي مثله قوله تعالى - ولكم الويل مما تصفون - وفي الخبر « مما أخاف على أمتي زلة عالم وجدال منافق في القرآن ^(٣) » ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقييل والقيل فمثال من يمرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصة العقاقير والأدوية وغرائب الطب فترك مهمه الذي هو مؤاخذ به وذلك محض السفه وقد روى « أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني من غرائب العلم فقال له ما صنعت في رأس العلم فقال ومارأى العلم قال صلى الله عليه وسلم هل عرفت الرب تعالى قال نعم قال فما صنعت في حقه قال ما شاء الله فقال صلى الله عليه وسلم هل عرفت الموت قال نعم قال فما أعددت له قال ما شاء الله قال صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم ^(٤) » بل ينبغي أن يكون التعلم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البخاري رضي الله عنهما أنه قال له شقيق منذ كم صحبتني قال حاتم منذ ثلاث وثلاثين سنة قال فما تعلمت مني في هذه اللدة قال ثمان مسائل قال شقيق له إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب حمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل قال يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنني لأحب أن أكذب فقال هات هذه الثمان مسائل حتى أحصمها قال حاتم نظرت إلى هذا الخلق

- (١) حديث القضاء ثلاثة الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح (٢) حديث إن الشيطان ربما يسبقكم بالعلم الحديث في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث مما أخاف على أمتي زلة عالم الحديث الطبراني من حديث أبي الدرداء وابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين (٤) حديث أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني من غرائب العلم الحديث ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما وابن عبد البر من حديث عبد الله بن السور مرسل وهو ضعيف جداً .

اتمى جملة مر اسم
الأسئلة في التل فأسأل
الله تعالى أن يعلى علينا
ما هو الحق عنده في
ذلك وأن يجري على
ألسنتنا ما يستضاء به
في ظلمات المسالك وأن
يعم بنفعه أهل البادية
والدارك ثم لا بد أن
أشهد مقدمة وأؤكد
قاعدة وأؤكد وصية .
أما المقدمة فالعرض
بها تبين عبارات انقرد
بها أرباب الطريق
تفهم معانيها على
أهل القصور فنذكر
ما يضمن منها ونذكر
للقصديها عندهم قرب
واقف على ما يكون من
كلامنا مختصاً بهذا
الفن في هذا وغيره
فيتوقف عليه فهم
معناه من جهة اللفظ
وأما القاعدة فنذكر
فيها الاسم الذي يكون
سلوكنا في هذه العلوم
عليه والسمت الذي
تنوى بمقصدنا إليه
ليكون ذلك أقرب
على التأمل وأسهل
على الناظر للفهم وأما
الوصية فنقصد فيها
تصرف ما ظي من نظر
في كلام الناس وأخذ

فرايت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقته جعلت الحسنات محبوبا فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي فقال أحسنت يا حاتم في الثانية فقال نظرت في قول الله عز وجل - وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى الثالثة أتت نظرت إلى هذا الخلق فرايت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفته وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل - ما عندكم ينفد وما عند الله باق - فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليقب عنده محفوظا الرابعة أتت نظرت إلى هذا الخلق فرايت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هي لاشئ ثم نظرت إلى قول الله تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريما الخامسة أتت نظرت إلى هذا الخلق وهم يطمئن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل - نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا - فتركت الحسد واجتبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عن السادسة نظرت إلى هذا الخلق يعني بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا فرجعت إلى قول الله عز وجل - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا - فعاديتة وحسده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره السابعة نظرت إلى هذا الخلق فرايت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - فعلمت أنني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى على وتركت مالي عنده الثامنة نظرت إلى هذا الخلق فرايتهم كلهم متوكلين على مخلوق هذا على ضيعته وهذا على تجارتهم وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى قوله تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي . قال شقيق يا حاتم وقتك الله تعالى فأتت نظرت في علوم التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لا يهتم بأدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم أذكر كتبهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام . ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في الطعام والشرب والتجمل في الأثاث والمساكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ماله ازداد من الله قربا وارتفع في علماء الآخرة حظه . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخواص وكان من أصحاب حاتم الأصم قال دخلت مع حاتم إلى الري ومعنا ثلثائة وعشرون رجلا يريد الحج وعليهم الثرماقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا في رجل من التجار متشفين بحب الساكنين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقبحا لنا هو عليل قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضا أجيء معك وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذه الحالة ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسناء فوراء واسعة تهرة وإذا بزة وستور فبقى حاتم متفكرا ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرس وطيفة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة فقدم الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لا أجلس فقال لعلك حاجة

نفسه بالاطلاع على أغراضهم فيها ألفوه من تصانيفهم وكيف يصكون نظره فيها وإطلاعه عليها وإقتباسه منها فذلك أوكد عليه أن يتعلم من ظهورها فصرخوا عنها وغلقت في وجوههم الأبواب وأسدل دلوهم الحجاب ولو أتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب القيوب والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [المقدمة] : اعلم أن الألفاظ الستعلة منها ما يستعمله الجماهير والعموم ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع والصنائع على ضربين عدية وعملية فالعملية كالهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ويتعاطون أصول صناعتهم والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركون فيها غيرهم

فقال نعم قال وما هي قال مسئلة أسألك عنها قال سل قال قم فاستو جالسا حتى أسألك فاستو جالسا قال حاتم علمك هذا من أين أخذه فقال من الثقات حدثوني به قال عمن قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن قال عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل قال حاتم فبها أذاه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأذاه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عز وجل المنزلة أكبر قال لا قال فكيف سمعت قال سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب للمساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة قال له حاتم فأنت بمن اقتديت أبا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم فرعون ونمرود أول من بنى بالجس والآخر يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل للتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول العالم طي هذه الحالة أفلا أكون أنا شرا منه وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا وبلغ أهل الري ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له إن الطنافسي قزوين أكثر توسعا منه فإنا حاتم متعمدا فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبدءا ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة قال نعم وكرامة يا غلام هات إناء فيه ماء فأني به قعد الطنافسي فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال هكذا فتوضأ فقال حاتم مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد قيام الطنافسي وقصد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعين أربعين فقال الطنافسي يا هذا أسرفت قال له حاتم فيماذا قال غسلت ذراعيك أربعين فقال حاتم يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف ففعل الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما فلما دخل حاتم بنسداد اجتمع إليه أهل بنسداد فقالوا يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعتة قال معي ثلاث خصال أظهر بهن طي خصمي أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجعل عليه فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه فلما دخلوا عليه قال له يا أبا عبد الرحمن ما العلامة من الدنيا قال يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال تفقر للقوم جهلهم وتنعج جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتسكون من شينهم آيسا فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال يا قوم أية مدينة هذه قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه قالوا ما كان له قصر وإنما كان له بيت لا طير بالأرض قال فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم قالوا ما كان لهم قصور وإنما كان لهم بيوت لا طير بالأرض قال حاتم يا قوم فهذه مدينة فرعون فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون قال الوالي ولم ذلك قال حاتم لا تسجل طي أنا رجل أعجمي فربب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصره وقص القصة ، ثم قال وقد قال الله تعالى - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة - فأنتم عن تأسيتم برسول الله صلى الله عليه وسلم أم فرعون أول من بنى بالجس والآخر غفلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجميل ما يشهد لذلك في مواضعه

إلا أن يكون ذلك بالانفاق من غير قصد وتكون المشاركة إذا انفتحت إما في صورة اللفظ دون المعنى أو في المعنى وصورة اللفظ جميعا وهذا يعرف من بحث عن مجازي الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين مبدءا وغاية وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم فانهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من يعدم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذي هو عند من خافهم ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لانسميا عندهم صناعة ونسميا بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الاشارات إلى الحقائق

والمسكين بالسادة
والمقربين بالصوفية
والمتشبهين بالفقراء
والمعروفين بالرفقة
والمعزى إليهم العلم
والمعمل ألقاظ جرى
رسمهم بالتخاطب بها
فيما يتداحكرون أو
يذكرونه ونحن إن
شاء الله نذكر ما ينعص
منها إذ قد يقع منا
عند ما نذكر شيئا من
علومهم ونشير إلى
غرض من أغراضهم
فلم نر أن يكون ذلك
بغير ما عرف من
ألقاظهم وعباراتهم
ولا حرج في ذلك عقلا
وشرعا ونحن بحكم
مصرف التقدير وهو
على كل شيء قدر فصن
ذلك السفر والسالك
والمسافر والحال والمقام
والمسكن والشطع
والتطالع والتهاب
والنفس والسرو والوصل
والفصل والأدب
والرياضة والتعلم
والتخلي والتجلى والعلامة
والانزعاج والشهادة
والمكاشفة والنوايح
والتلون والغيرة والحربة
واللطيفة والفتوح
والوسم والرسم والبطط

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بمحرام ولكن الخوض فيه يوجب الأُنس به حتى يشق تركه واستدامة الزينة لا يمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداينة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخرى هي محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة ولو كانت السلامة مبنولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبلغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالصلم^(١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة^(٢) إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك بن أنس رضى الله عنها بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس أما بعد فقد بلغت أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطى وتعمل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطىء وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا ما طلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام ، فكتب إليه مالك بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك . أما بعد فقد وصل إلى كتابك فوق من موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأما ما ذكرت لي أنى أكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطى فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - وأنا لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام . فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيها جميعا ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يعمل ذلك على المرادة والمداينة والتجاوز إلى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه فالتعرج على التتم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والحشية وخاصة علماء الله تعالى الحشية وخاصة الحشية التباعد من مظان الخطر . ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغي أن يحترز عن مخالطهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين والمخاطلة لهم لا يغلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستماله قلوبهم مع أنهم ظلمة ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتضييق قلوبهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى نجسهم فيزدرى نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مدهانا لهم أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الأضرار والجوائز وغيرها وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم للاحتياط . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا » يعنى من سكن البادية جفا « ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء

(١) حديث نزع القميص المطرز متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٣) حديث من بدا جفا الحديث أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث ابن عباس

تعرفون منهم وتتكبرون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أمعه
الله تعالى قيل أفلا تخافونهم قال صلى الله عليه وسلم لا ماصلوا (١) وقال سيفان في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء
الزأرون للملوك وقال حذيفة إياكم ومواقف الفتن قبل وماهى ؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على
الأمير فيصدق بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه وقال رسول الله ﷺ «العلماء أمناء الرسل على عباد
الله تعالى ما لم يخالفوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم (٢) » رواه
أنس ، وقيل للأعمش لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال لا تصجلوا ثلث يموتون قبل
الادراك وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل ولذلك
قال سعيد بن المسيب رحمه الله إذا رأيتم العالم ينشئ الأمراء فاجتروا منه فإنه لنس وقال الأوزاعي
ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار
العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء (٣) » وقال مكحول الدمشقي رحمه
الله من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تعلقا إليه وطمعا فيما لديه خاض في بحر من نار
جهنم بعدد خطاه وقال سمعون ما أجمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيستل عنه فيقال هو عند
الأمير قال وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فانهموه على دينكم حتى جربت ذلك إذ
مادخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه
به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أجو من الدخول عليه كفافا مع أنى
لاأخذ منه شيئا ولا أشرب له شربة ماء ثم قال وعلماء زماننا شر من علماء بنى إسرائيل يخبرون
السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستقلهم وكره دخولهم عليه
وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم وقال الحسن كان فيمن كان قلبكم رجل له قدم في الاسلام وصحبة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن المبارك عني به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال
وكان لا ينشئ السلاطين وينفر عنهم فقال له بنوه يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم
في الاسلام فلو أتيتهم فقال يابى آتى جيفة قد أحاط بها قوم والله لئن استطعت لأشاركم فيها . قالوا
يا أبانا إذن نهلك هز الا قال يابى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا ممينا
قال الحسن خصمهم والله إذا علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان وفي هذا إشارة إلى
أن الداخل على السلطان لا يسلم من التناق البتة وهو مضاد للإيمان وقال أبوذر لسلمة ياسلمة لا تنش
أبواب السلاطين فانك لا تنصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه وهذه فتنة عظيمة
للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه
أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزرعهم عن الظلم ويقع شاعر الشرع إلى أن يغيل إليه أن
الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويدهن ويغوض في الثناء
والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا
قدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشر على بأقوام

والقيص والقناء والبقاء
والجمع والفرقة وعين
التحلم والزوائد والارادة
والمريد والمراد والهمة
والضربة والمصكر
والاصطلام والريضة
والرهبة والوجد
والوجود والتواجد
فذكر شرح هذه على
أوجز ما يمكن بمشيئة
الله تعالى وإن كانت
ألفاظهم المصرفة
بينهم في علومهم
أكثر مما ذكرنا
فإنما قصدنا أن نريك
منها أعوذ جاد دستوراً
تصلم به إذا طرأ
عليك عالم تذكره
للشهنة إذ لها مبحث
والها سيل فتطلبه
بعد ذلك على وجه
(فأما السفر والطريق)
فالمراد بها سفر القاب
بالفكر في طريق
العقولات وعلى ذلك
اتفق لفظ السالك
والمسافر في لغتهم ولم
يريد بذلك سلوك
الأقدام التي بها يقطع
مسافات الأجسام فإن
ذلك مما شاركه فيه
البهائم والأنعام وأول
مسالك السفر إلى الله
تعالى عز وجل معرفة

(١) حديث سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتتكبرون الحديث مسلم من حديث أم سلمة
(٢) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله الحديث العقيلي في الضعفاء وذكره ابن الجوزي
في الموضوعات (٣) حديث شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء ابن
ماجة بالشر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

قواعد الشرع وخرق
حجب الأمر والنهي
وتعلق الغرض فيها
والمراد بها ومنها فاذا
خلفوا نواحيها وقطعوا
معاطنها أشرفوا على
مفاوز أوسع وبرزت
لهم مهامه أعرض
وأطول من ذلك معرفة
أركان المعارف النبوية
النفس والعدو والدنيا
فاذا تخلصوا من
أوعارها أشرفوا على
غيرها أعظم منها في
الانتساب وأعرض
بغير حساب من ذلك
سر القدر وكيف خفي
بحكم في الخلائق وقادهم
بلطف في عفو وشدة
في لين وبقوة في ضعف
وباختيار في جبر إلى
ما هو في مجاريه لا يخرج
الخائفون عنه طريقة
عين ولا يتقدمون
ولا يتأخرون عنه
والإشراف على
الملكوت الأعظم
ورؤية عجائب ومشاهدة
غرائب مثل العلم
الإلهي والروح المحفوظ
واليمين الكاتبة
وملائكة الله يطوفون
حول العرش والبيت
المعزوم وهم يسبحونه

أستعين بهم على أمر الله تعالى فكتب إليه أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدكم ولكن عليك بالأشراف فانهم يصنونون شرفهم أن يدنسوا بالحياة هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أزهد أهل زمانه فاذا كان شرط أهل الدين الحرب منه فكيف يستنسب طلب غيره ومخالطته ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وابراهيم بن آدم ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما ليلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين . ومنها أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا فان مثل عما يعله تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو لإجماع أو قياس جلي أفق وإن مثل ما يشك فيه قال لأدري وإن مثل مما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر « العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري (١) » قال الشعبي لأدري نصف العلم ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضي الله عنهم كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الذي يفق الناس في كل ما يستفتونه لمجنون وقال جنة العالم لا أدري فان أخطأها فقد أصيبت مقاتله وقال ابراهيم بن آدم رحمه الله ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم يقول انظروا إلى هذا سكوت أشد على من كلامه ووصف بعضهم الأبدال فقال أكلهم قاعة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة أي لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفهم سكتوا فان اضطروا أجابوا وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام ومرة على وعبد الله رضي الله عنهما رجل يتكلم على الناس فقال هذا يقول اعرفوني وقال بعضهم إنما العالم الذي إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقطع ضرره وكان ابن عمر يقول تريدون أن تجعلونا جمرات تعبرون علينا إلى جهنم وقال أبو حفص النيسابوري العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت وكان ابراهيم التيمي إذا سئل عن مسألة ينكى ويقول لم تجدوا غيري حتى احتجتم إلى وكان أبو العالية الرياحي وابراهيم بن آدم والثوري يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فاذا كثروا انصرفوا وقال صلى الله عليه وسلم « ما أدري أعزير نبي أم لا وما أدري أتبع ملعون أم لا وما أدري ذو القرنين نبي أم لا (٢) » ولما سئل رسول الله ﷺ عن خير البقاع في الأرض وشربها قال لا أدري حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال لا أدري إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشربها الأسواق (٣) وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضي الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة وكان في الفقهاء من يقول لأدري أكثر ممن يقول أدري منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك (١) حديث العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري ، الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مررفوا نحوه مع اختلاف وقد تقدم (٢) حديث ما أدري أعزير نبي أم لا الحديث أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٣) حديث لما سئل عن خير البقاع وشربها قال لا أدري حتى نزل جبريل الحديث أحمد وأبو يعلى والبخاري والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر .

وفي لفظ آخر كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول . وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو في غاية الضر فأهداه إلى الآخر . وأهداه الآخر إلى الآخر هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار للهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً منه ويشهد لحسن الاحتراز من تلك الفتاوى ما روى مسنداً عن بعضهم أنه قال لا يفتي الناس إلا ثلاثة أمير أو مأمور أو متكلف وقال بعضهم كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء الإمامة والوصية والودعة والفتيا وقال بعضهم كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً وأشدهم دفعا لها أورعهم وكان شغل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في خمسة أشياء قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة أمور معروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى (١) » وقال تعالى - لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - الآية ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من أهل الكوفة في المنام فقال ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي فكره وجهه وأعرض عنه وقال ما وجدناه شيئاً وما حمدناه عاقبته وقال ابن حنبل إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفي الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً فاقربوا منه فإنه يلحق الحكمة (٢) » وقيل العالم إما عالم عامة وهو الفقي وهو أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون وكان يقال مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يفترق منها ومثل بشر بن الحرث مثل برع عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد وكانوا يقولون فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر عملاً وقال أبو سليمان المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) : يا أخى بلغني أنك قصدت طبيبياً تدأوى المرضى فانظر فإن كنت طبيبياً فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطيّباً فالله لا تقتل مسلماً فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضي الله عنه إذا سئل يقول سلوا مولانا الحسن وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل يقول سلوا حارثة بن زيد وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابي في حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال ما عندي إلا ما رويت فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً فمجبوا من حسن تفسيره وحفظه فأخذ الصحابي كفاً من حصي ورماه به وقال تسألوني عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم . ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تنفي إلى الشاهدة ودقائق علوم القلب تنفجر بهانيات يسع الحكمة من القلب وأما الكتب والتعليم فلا تنفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعدّة إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال

(١) حديث كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذي حديث غريب (٢) حديث إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً الحديث ابن ماجه من حديث ابن خالد بإسناد ضعيف (٣) حديث ، وإخاتة صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء البخاري من حديث أبي جعفر .

ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق لكل والمالك للجميع والقادر على كل شيء فتشاهم الأنوار المحرقة ويتجلى لمراة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيملكون الصفات ويشاهدون الوصف ويحجبون حيث غاب أهل الدعوى ويصرون ماعين عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى . والحال منزلة العبد في الخلق فيصفوه له في الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه العبد ويتغير مما يرد على قلبه فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال وقال بعضهم الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالاً . والمقام هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع للامالات وصنوف المجاهدات فمضى آتيم العبد بشئ منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى يتقل منه إلى غيره

الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصفاء الفكرة والاتقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف فكمن من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة وكمن من مقتصر على اللهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (١) وفي بعض الكتب السالفة يابى إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به إلى الأرض ولا في تخوم الأرض من يصعبه ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به ، العلم جمول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بأداب الروجانيين وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى ينطيقكم ويفهمكم وقال سهل بن عبد الله التقى رحمه الله خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء ثم تلا قوله تعالى - وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو - الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال عليه السلام « استفت قلبك وإن أقنوك وأقنوك وأقنوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به » (٢) الحديث فكمن من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب التجردين للذكر والفكر تغلوعها كتب التفسير ولا يطلع عليها أفاضل القسرين وإذا انكشف ذلك للمريد للراقب وعرض على القسرين استحسنوه وعلما أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية واللطاف الله تعالى بالهمم العالية التوجهة إليه وكذلك في علوم الكاشفة وأسرار علوم العامة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه وإنما يغوصه كل طالب بقدر ما رزق منه وبه حسب ما وفق له من حسن العمل وفي وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه في حديث طويل القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير والناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة ومحج رعا ع أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة في حياته وحيل الأحداث بعد وفاته العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله ما تخرزان للأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون ما بقى الدهر ثم تنفس الصعداء وقال هاه إن ههنا علما جما لو وجدت له حملة بل أجد طالبا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيع بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه أو متقادا لأهل الحق لكن ينزع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لاذا ولا ذاك أو منهوما بالذات سلس القياد في طلب الشهوات أو مغرى بجمع الأموال والادخار متقادا لهواه أقرب شهابهم الأنعام الساعة اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبياناته وكمن أولئك هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من ورائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلنا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه المترفون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمنائه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال واشوقاه إلى رؤيتهم

(١) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه (٢) حديث لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كنت سمعه وبصره وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف.

والكان هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية فإذا كمل العبد في معانيه قد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال فيكون صاحب مكان كإقال بعضهم :

مكانك من قلبي هو القلب كله

فليس شيء فيه غيرك موضع

والشطح كلام يترجم به اللسان عن وجاه

يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى إلا أن

يكون صاحبه محفوظا والطوالع أنواع

التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة

شعاعها فيطمس سلطان نورها الألوان

كما أن نور الشمس يحجوا أنوار الكواكب

والذهاب هو أن يغيب القلب عن حسن كل

محسوس بمشاهدة محبوبها . والنفس

روح سلطه الله على نار القلب ليطن شرها

والسر ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق

وسر السر ما لا يحس به السر . والسر ثلاثة

فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظب على المجاهدة . ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله ^(١) » فلا بد من تعلم علم اليقين أعني أوائله ثم يفتح للقلب طريقه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين ^(٢) » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كقوى يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين فقال صلى الله عليه وسلم : مامن آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضربه الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ^(٣) » ولذلك قال عليه السلام « إن من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ^(٤) » وفي وصية لقمان لابنه يابى لا يستطيع العمل إلا باليقين ولا يصلح الرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نورا وللشرك نارا وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات الشركين وأراد به اليقين وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات . فان قلت فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان ما لا تفهم صورته لا يمكن طلبه فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظائر والتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات : الأول أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يماقه أم لا وهو مجهول الحال عندك فان نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بآثبات ولا نفي بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً . الثاني أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لومات على هذه الحالة هل يعاقب فان نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريته فهذا التجوز مساو لذلك الليل ولكنه غير دلغ رجحانه فهذه الحالة تسمى ظناً . الثالث أن تميل النفس إلى التصديق بشئ بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأتى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة حقيقة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجوز اتسعت نفسه للتجوز وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ ارسخ في شؤسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة شق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نقر عن قبوله . الرابع للمعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان القدي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً

(١) حديث اليقين الإيمان كله البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن (٢) حديث تعلموا اليقين أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسل وهو مفضل ورواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان (٣) حديث قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم (٤) حديث من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث لم أقف له على أصل وروى ابن عبد البر من حديث معاذ ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من العلم الحديث .

سر العلم وسر الحال
وسر الحقيقة فسّر
العلم حقيقة العالمين
بالله عز وجل وسر
الحال معرفة مراد الله
في الحال من الله وسر
الحقيقة ما وقعت به
الإشارة . والوصل
إدراك الفائت .
والفصل قوت ما ترجوه
من محبوبك . والأدب
ثلاثة : أدب الشريعة
وهو التعلق بأحكام
العلم بصحة عزم الخدمة
والثاني أدب الخدمة
وهو التشمر عن
العلامات والتجرد
من الملاحظات .
والثالث أدب الحق
وهو موافقة الحق
بالمعرفة . والرياضة
اثان رياضة الأدب
وهو الخروج عن
طبع النفس ورياضة
الطلب وهو صفة الراد
والتحلي التشبه
بأحوال الصادقين
بالأحوال وإظهار
الأعمال . والتخلي
اختيار الحلولة
والإعراض عن كل
ما يشغل عن الحق
والتجلى هو ما ينكشف
لقلوب من أنوار

عند هؤلاء ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم فلا يمكنه التصديق به بالبدية لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجوده بحس وليس العلم بوجود شيء قديم أزلي ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال فإن هذا أيضاً ضروري غرق غريزة العقل أن توقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبدية ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزئياً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له إن لم يكن في الوجود قديم فالوجودات كلها حادثات فإن كانت كلها حادثات فهي حادثات بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال فالمراد إلى المحال محال فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة وهي أن تكون الوجودات كلها قديمة أو كلها حادثات أو بعضها قديمة وبعضها حادثات فإن كانت كلها قديمة فقد حصل للطلوب إذ ثبت على الجملة قديم وإن كان الكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث غير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بفريضة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر كالعلم بوجود مكة أو تجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عند عدم الشك فكل علم لاشك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك . الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والتصوف كأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل حتى يقال فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لاشك فيه ويقال فلان قوي اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو التحكم والتصرف في النفس بالتجويز والنقص على ذلك يقينا ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به ، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يفادر فيه متسعاً لغيره فيغير عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ولذلك قال بعضهم ما رأيت يقيناً لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحو إنعاماً رداً بقولنا إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب التحكم عليها للتصرف فيها فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام بالقوة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء فأما بالقوة والضعف فلهذا الاصطلاح الثاني وذلك في القلب والاستيلاء على القلب ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تنهاه وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضاً ما فيها ينطرق إليه التجويز فلا ينكر ، أعني الاصطلاح الثاني وفيما اتفق الشك أيضاً عنه لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقه بين تصديقك بوجود مكة ووجود فذلك مثلاً وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً فستندهما جميعاً التواتر ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة الخبرين وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس بوضوح ملاح له بدليل واحد كوضوح ملاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك وهذا قد ينكره التكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة

الغيوب والعلة تنبه
عن الحق والارتجاج
انتباه القلب من سنة
العقل والتحرك للأشياء
والوحدة . والملاحظة
ثلاثة مشاهدة بالحق
وهي رؤية الأشياء
بدلائل التوحيد
ومشاهدة للحق وهي
رؤية الحق في الأشياء
ومشاهدة الحق وهي
حقيقة اليقين
بلا رتاب . والمكاشفة
أتم من المشاهدة وهي
ثلاثة مكاشفة بالعلم
وهي تحقيق الإصابة
بالفهم ومكاشفة بالحال
وهي تحقيق رؤية
زيادة الحال ومكاشفة
بالتوحيد وهي تحقيق
حمة الإشارة . واللوائح
ما يلوح من الأسرار
الظاهرة الصافية من
السوء من حيلة إلى
حالة أتم منها والارتقاء
من درجة إلى ما هو
أعلى منها . والتلوين
تلوين العبد في أحواله
وقالت طائفة علامة
الحقيقة رفع التلوين
بظهور الاستقامة
وقال آخرون علامة
الحقيقة التلوين

متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علماً من فلان أي معلوماته أكثر ولذلك قد يكون العالم قوياً اليقين في جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوياً اليقين في بعضه . فان قلت قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاله وخفائه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيما ذا يطلب اليقين فاني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه . فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين فان اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة بالمعلومات التي وردت بها الشرائع فلا مطمع في إحصائها ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها فمن ذلك التوحيد وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لأحكامها فالمصدق بهذا موقن فان اتنى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين فان غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالته عنه الغضب على الوسائط والرضاعين والشكر لهم ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق النعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا ينضب عليهما بل يراها آيتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الاشراف وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقناً بريثاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق فهذه أحد أبواب اليقين ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدر له سيقاق إليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجحلاً في الطلب ولم يشدد حرصه وشهره وتأسفه على ما فاتته وآتمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة . ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الحزب إلى الشيع ونسبة العاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك فكما يحرس على التحصيل للخير طلباً للشيع فيحفظ قلبه وكثيره فكذلك يحرس على الطاعات كلها قليلاً وكثيرها وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصي قليلاً وكثيرها وصغيرها وكبيرها فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به القربون وثمره هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات وكما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ . ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال ومشاهد لمواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس يشهد ملك معظم ينظر إليه فانه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متأسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والدل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأشجار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه وسيأتي ذلك في ربيع

لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه البعد الغيرة . والغيرة غير في الحق وغيره على الحق وغيره من الحق فالغيرة في الحق برؤية الفواحش والنهائى وغيره على الحق هي كتمان السرائر والغيرة من الحق ضنه على أوليائه . والحرية إقامة حقوق المبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً . واللاطفة إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا يسعها العبارة . والفتوح ثلاثة فتوح العبادة في الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد وفتوح الخلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق . والوسم والرسم معنيان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل . والبسط عبارة عن حال الرجاء والقبض عبارة عن حال الخوف . والقناء قناء العاصي ويكون قناء رؤية العبد لفعاله

بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء والجمع التسوية في أصل الخلق وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق والفرقة إشارة إلى اللون والخلق فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر وإذا جمع بينهما فقد وجد . عين التعلم إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء . والزوائد زيادات الإيمان بالغيب واليقين والإرادات ثلاثة إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمنى وإرادة الحفظ منه وذلك موضع الطمع وإرادة الله سبحانه وذلك موضع الإخلاص والرید هو الذي صبح له الابتلاء ودخل في جملة المقطعين إلى الله عز وجل بالاسم .

النجيات إن شاء الله تعالى وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن . ومنها أن يكون حزينا منكسرا مطرفا صامتا يظهر أثر الحشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والذلة والتواضع وقد قيل ما ألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسبا الصالحين والصدّيقين والعلماء وأما التهافت في الكلام والتشديق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطور والأمن والنفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا القافلين عن الله دون العلماء به وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله عالم بأمر الله تعالى لأبائهم الله وهم للفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الحشية وعالم بالله تعالى لأبائهم الله ولا بأبائهم الله وهم عموم المؤمنين وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأبائهم الله تعالى وهم الصدّيقون والحشية والخشوع إنما تغلب عليهم وأراد بأبائهم الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه وقال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تسكنوا من جبايرة العلماء فلا يقوم علمكم بمهلككم ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورققا فذلك هو العلم النافع وفي الأثر من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين وفي الخبر « إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة يتعشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة ^(١) » وقال الحسن الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سر باله وقال بشر بن الحرث من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى يفضّه فانه يموت في السماء والأرض ويروي في الاسرائيليات أن حكما صنف ثلثمائة وستين مصنف في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل لعلان قد ملأت الأرض نفاقا ولم تردني من ذلك بشيء وإنني لأقبل من نفاقك شيئا فندم الرجل وترك ذلك وخالف العامة ومشى في الأسواق ووا كل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له الآن وقفت لرضائي . وحكي الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيز بالله منه وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق للثقلين إلى الرياسة فلا يعقهم وهم أحق بالمت من ذلك الشرطى وروى أنه قيل « يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى قيل فأى الأصحاب خير قال ^{عليه السلام} صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيتك ذكرتك قيل فأى الأصحاب شر قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن نسيتك لم يذكرك وإن ذكرتك لم يعنك قيل فأى الناس أعلم قال أشدهم لله خشية قيل فأخبرنا بخيارنا نجالسهم قال صلى الله عليه وسلم الذين إذا رؤوا ذكر الله قيل فأى الناس شر قال اللهم غفرا قالوا أخبرنا يا رسول الله قال العلماء إذا فسدوا ^(٢) »

(١) حديث إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه الحديث الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان (٢) حديث قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله الحديث لم أجده هكذا بطوله وفي زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسل سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل قال أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسل ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء وقد تقدم .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم فكرياً في الدنيا وأكثر الناس ضعفاً في الآخرة أكثرهم بكاءً في الدنيا وأشد الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « الله عنه في خطبة له ذمى رهينة وأنا به زعيم إنه لا يسبح على التقوى زرع قوم ولا ينظم على الهدى صنع أهل وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل فحش علماً أغار به في أغباش الفتنة حماه أشباهه من الناس وأرذالهم علماً ولم يمش في العلم يوماً سالماً بكر واستكثر فساقل منه وكفى خيراً ما أكثر وألمى حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلماً لتخليص ما التبس على غيره فانزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيها حشواً رأى فهو من قطع الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ركاب جهالات خباط عشوات لا يتنذر عما يعلم فيسلم ولا يعض على العلم بضرر قاطع فيضم تبيكى منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لا ملء والله بأصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم الثلاث وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم العلم فأكظموا عليه ولا تملطوه بهزل فتعجه القلوب وقال بعض السلف العالم إذا ضحك ضحكة مع من العلم بحجة وقيل إذا جمع العلم ثلاثاً تمت النعمة بها على التعلم الصبر والتواضع وحسن الخلق وإذا جمع التعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على العلم العقل والأدب وحسن الفهم وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفع عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة وقال ابن عمر رضي الله عنهما لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ولقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة لا يدري ما أمره وما زجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره ثراً ^(٢) » وفي خبر آخر بثله معناه كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعللنا فمن أعلم منا فذلك حظهم ^(٣) وفي لفظ آخر أولئك شرار هذه الأمة وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل الحشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد فأما الحشية فمن قوله تعالى - إنا نخشى الله من عباده العلماء - وأما الخشوع فمن قوله تعالى - خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً - وأما التواضع فمن قوله تعالى - واخضض جناحك للمؤمنين - وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى - فبأرحمة من الله لنت لهم - وأما الزهد فمن قوله تعالى - وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً - ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - قيل له ما هذا الشرح فقال إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفتح قيل فهل لذلك من علامة قال صلى الله عليه وسلم نعم التبحر عن دار الفسور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله ^(٤) » . ومنها أن يكون

والتراد هو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات .
والهمة ثلاثة : همة منية وهي تحريك القلب للمني وهمة إرادة وهي أول صدق المرید وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل فان الأمراد والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق مسدود وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شعر منهم الزمان ولم يبق إلا للترعمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغیان وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً فصار يرى العرف

- (١) حديث إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الدنيا الحديث لم أجده أصلاً
(٢) حديث ابن عمر لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقي (٣) حديث كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن الحديث ابن ماجه من حديث جندب مخصراً مع اختلاف (٤) حديث لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - الحديث الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود .

منكرا والنكر معروفا
حق ظل علم الدين
مندرسا ومنار الهدى
في أفطار الأرض
منظما ولقد خيلوا
إلى الخلق أن لا علم إلا
قوى حكومة تستعين
به القضاة على فصل
الحصام عند تهاوش
الطعام أو جدل تدرع
به طالب الباهات إلى
الغلبة والإفحام أو سجع
مزخرف يتوسل به
الواعظ إلى استدراج
العوام إذ لم يروا ما سوى
هذه الثلاثة مصيدة
للحرام وشبكة للحطام
فأما علم طريق الآخرة
هو ما درج عليه السلف
الصالح وهي جمع المهم
بصفاء الإلهام
والغربة ثلاثة : غربة
عن الأوطان من أجل
حقيقة القصد وغربة
عن الأحوال من
حقيقة التفرد بالأحوال
وغربة عن الحق من
حقيقة الدهش عن
المعرفة . والاصطلام :
نعت وله برده على القلوب
بقوة سلطان فيستكنها .
والسكر ثلاثة : مكر
عموم وهو الظاهر
في بعض الأحوال

أكثر بحثه عن علم الأعمال وعمما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويشير الشر فإن أصل الدين التوق من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
ولأن الأعمال العملية قربية وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنمسا الشأن
في معرفة لا يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبة ويطول تفريعه وكل ذلك مما يخلب ميسر الحاجة
إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة وأما علماء الدنيا فانهم يتبعون غرائب التفرجات في
الحكومات والأفضية ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تقع أبدا وإن وقعت فأنما تقع لغريم
لا لهم وإذا وقعت كان في القاعين بها كثرة ويتركون ما يلازمهم ويشكروا عليهم أثناء الليل وأطراف
النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه للزعم بهم غيره
النادر لإشارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه وشرها في أن يسميه البطالون
من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينفع في الدنيا بقبول الخلق بل
يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العالمين
وفوز المقربين وذلك هو الحشران اللين ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاما
بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضي الله عنهم أتفتت الكلمة في حقه
على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية
الغامضة في شهوات النفس وقد قيل له يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته
قال من حذيفة بن اليمان وقيل الحذيفة تراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته
قال خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر عفاة
أن أقع فيه وعلت أن الخير لا يسبقني عليه ^(١) وقال مرة فعلت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير
وفي لفظ آخر كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول
يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم وكان حذيفة رضي الله
عنه أيضا قد خص بلم للناققين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن فكان عمر وعثمان وأكابر
الصحابة رضي الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن الناققين فيخبر بعدد من يقي
منهم ولا يخبر بأسمائهم وكان عمر رضي الله عنه يسأله عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرأه من ذلك
وكان عمر رضي الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظرفان حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك وكان
يسمى صاحب السر فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب
الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد وقيل
هذا تزويق للذكرين فأين التحقيق ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم فهم على مهمل يمشون قصاد

والناس في غفلة عما يراد بهم فجاهم عن سبيل الحق رقاد

وطى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأدق لطباعهم فان الحق مر والوقوف
عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق

(١) حديث حذيفة كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر الحديث أخرجاه مختصرا .

الذمومة فان ذلك نزع للروح على الدوام وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسى الشدائد ليسكون فطره عند الملوت ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق ولذلك قيل إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلماً في الوعظ والتذكير ولم يكن من يشكك في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم سهل التستري والصبيحي وعبد الرحيم وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يئذل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتماداً في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما التقليد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسرارهم فإن التقليد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله وفعله لا بد وأن يكون لسرّ فيه فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً ولذلك كان يقال فلان من أوعية العلم فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار ومن كشف عن قلبه الغطاء واستثار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلداً فلا ينبغي أن يقلد غيره ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالفهما في الفقه والقرأة جميعاً . وقال بعض السلف ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فتأخذ منهم وترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن فسددم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ وإذا كان الاعتماد على السموع من الغير تقليداً غير مرضى فلا اعتماد على الكتب والتصانيف أبعد بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضي الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن السيب والحسن وخيار التابعين بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا احفظوا كما كنا نحفظ ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصنيف القرآن في مصحف وقالوا كيف نعمل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا ترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهم حتى أشار عمر رضي الله عنه بوقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تحاذل الناس وتكاسلهم وحدثنا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من للتشابهات فأنشراح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك فجعل القرآن من مصحف واحد وكان

(١) حديث ابن عباس مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من حديثه يرضه بلفظه من قوله وبدع .

ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ومكر خفي في إظهار الآيات والسكرامات. والرغبة ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ورغبة القلب في الحقيقة ورغبة السرفى الحق . والرهبة رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق . والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقدته والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك والوجود ما تجده من الله الكريم والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد (القاعدة) وأما القاعدة التي ينبغي عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المعاني والإشارة إلى البعد في القرب قصد الاستدلال بالأقوال

أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضي الله عنهم
وقيل أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف التفسير عن مجاهد وعطاء
وأصحاب ابن عباس رضي الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سننا
مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثوري ، ثم في القرن
الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والفوس في إبطال القالات ، ثم مال الناس
إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين في الاندرا من ذلك الزمان فصار بعد ذلك
يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكاييد الشيطان وأهمل عن ذلك إلا الأقولون
فصار يسمى المجالد للتكلم علما والخاص للزخرف كلاما بالعبارات المسجعة علما وهذا لأن العوام
هم المستمعون إليهم فكان لا يميز لهم حقيقة العلم من غيره ولم تكن سيرة الصحابة رضي الله عنهم
وعلمهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث
اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويا وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن
الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم فلان أعلم أم فلان يقولون فلان أكثر علما وفلان أكثر كلاما
فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام هكذا ضعف الدين في قرون
سالفة فكيف الظن زمانك هذا وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنفسه إلى
الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوق من محدثات
الأمر وإن اتفق عليها الجمهور فلا يفرته إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم
وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم
أكان في التدريس والتصنيف والناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا أو كل مال الأيتام
وغالطة السلاطين ومعاملتهم في العشرة أم كان في الخوف والحزن والتفكير والمجاهدة ومراقبة
الظاهر والباطن واجتناب ذيق الآثم وجليسه والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكاييد
الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن . واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق
أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين ولذلك قال على رضي الله عنه خيرنا أتبعنا
لهذا الدين لما قيل له خالفت فلانا فلا ينبغي أن يكثر بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر
رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الناس رأوا رأيا فيما هم فيه ليل طابعهم إليه ولم تسمع قوسهم
بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه ولذلك قال الحسن
عبدان أحدنا في الإسلام رجل ذو رأي سيء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ومترف يبعد
الدنيا لها يفضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوها إلى النار وإن رجلا أصبح في هذه الدنيا
بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواء وقد عصمه الله تعالى منهما عن
إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويتفتي آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك نكونوا وقد
روى عن ابن مسعود موقوفا ومستندا أنه قال « إنما هما اثنتان الكلام والمهدي ، فأحسن
الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن المهدي هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإياكم
ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ،
ألا لا يطولن عليكم الأمد فتفسق قلوبكم ، ألا كل ما هو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت » (١)

(١) حديث ابن مسعود إنما هما اثنتان الكلام والمهدي الحديث ابن ماجه .

والأعمال والأحوال على
الله تعالى قصدا ذاتيا
لا على ماسلكه أرباب
علوم الظاهر ، ثم
التصديق بالقوة والنظر
إلى المسكوت من
كوة ومعرفة العلوم
في الانصراف ومصاحبة
القدر بالمساعدة
وبالمعروف ومعاطاة
الوجودات الحسنة :
الداني والحسي والخيالي
والعقلي والشبهى
حسبا فهم من الشرع
وثبت معناه في المحفوظ
من الوحي وقلنا أدرك
شئ من العجز والعلم
لا ينال براحة الجسم
ومن يتق الله يجعل
له من أمره يسرا
ذلك أمر الله أنزله
إليكم ومن يتوكل
على الله فهو حسبه
إن الله بالغ أمره قد
جعل الله لكل شئ
قدرا (والوصية) أيها
الطالب للعلوم
والناظر في التصنيف
والاستشرف على كلام
الناس وكتب الحكمة
ليكن نظرك فيما
تنظر فيه بالله وفيه
وفي الله لأنه إن لم يكن

نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحة ميز أو ما شا كل ذلك وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عليك لغيره ونكست على عقيبك وخسرت في الدارين صفقتك وعاد كل هول عليك فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يجره عبادة ربه أحدا وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيبه ولا حظت بالحقيقة سواء ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك الستر وتحجب اللب وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن ولا تنقب به حيث وقف به كلامه فالعلماني أوسع من العبارات والصدور أفسح من الكتب للؤلؤات وكثير علم مما

وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيه عن عيوب الناس وأشق من ما اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والمصيبة طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خليفته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بطله وأتقى الفضل من ما وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنن ولم يعد إلى بدعة (١) » وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل وقال أتم في زمان خيركم فيه للسارع في الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خیرهم فيه التثبت التوقف لكثرة الشبهات وقد صدق لمن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا وقال حذيفة رضي الله عنه أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لا تزالون بغير ما صرتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به ولقد صدق قال أكمة معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم إذ من غير المعروفات في زماننا تزيين للساجد وتنجيدها وانفاق الأموال العظيمة في دقائق مخابراتها وفرش البسط الرقيقة فيها ولقد كان يعد فرش البوارى في المسجد بدعة وقيل إنه من محدثات الحجاج فقد كان الأولون قلسا يحسبون بينهم وبين التراب حاجزا وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل وللناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات وقد كان من المنكرات ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب والتساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال أتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى وقد كان أحمد بن حنبل يقول تركوا العلم وأقبلوا على الفرائب ما أقل العلم فيهم والله للثمان وقال مالك بن أنس رحمه الله لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدرتهم يقولون مستحب ومكروه ومعناه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان غشه ظاهرا وكان هشام بن عروة يقول لا تسألوا اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فانهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فانهم لا يعرفونها وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول لا ينبغي لمن ألهم شيئا من الحيران يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق ما في نفسه وإما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وورب يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحاط فيبالا استظهار بشهادة الآثار ولهذا لما أحدث مروان النبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال يا مروان ما هذه البدعة فقال إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يلفهم الصوت فقال أبو سعيد والله لا تأتون بغير مما أعلم أبدا والله لأصليت وراءك اليوم وإما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لاهل النبر (٢) »

(١) حديث طوبى لمن شغله عيه عن عيوب الناس وأتقى ما لا اكتسبه الحديث أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف والبراز من حديث أنس أول الحديث وآخره والطبراني والبيهقي من حديث ركب الصرى وسط الحديث وكلها ضيفة (٢) حديث كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأضحية ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف وروا في الصغير من حديث سعد القرظي كان إذا خطب في الميدان خطب على قوس وإذا خطب في الجمع خطب على عصا وهو عند ابن ماجه بالمعنى كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس الحديث

وفي الحديث المشهور «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد»^(١) وفي خبر آخر «من غش أمي فعليه لعنة الله واللائكة والناس أجمعين قيل يا رسول الله وما غش أمتك قال أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها»^(٢) وقال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنه شفاعته»^(٣) ومثال الجاني على الدين بابتداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة وذلك قد يغفر له فأما قلب الدولة فلا وقال بعض العلماء ماتكم في السلف فالمكوت عنه جفاء وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تسكف وقال أمير الحق قهيل من جاوزهم ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى وقال صلى الله عليه وسلم «عليكم بالخط الأوسط الذي يرجع إليه العالي ويرتفع إليه التالئ»^(٤) وقال ابن عباس رضي الله عنهما الضلالة لها حلالة في قلوب أهلها قال الله تعالى - وذو الدين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا - وقال قتال - أئمن زين له سوء عمله فرآه حسنا - فبكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم بما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللب واللغو وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال ما شأنكم قالوا ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئا وقد أتبعونا فقال إنكم لا تقدرون عليهم قد هبوا نبهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتي بعدهم قوم تتلون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم شيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات فقال إنكم لن تتلوا من هؤلاء شيئا لصعوبة توحيدهم واتباعهم لسنة نبهم ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات قال فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادومهم أين شاءوا. فإن قلت من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك فاعلم أن أرباب القلوب يكشفون بأسرار المكسوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك فقيه هلك المتحدثون من العلماء الراعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالكلية قال بعض العارفين إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء قال سهل التستري رضي الله عنه إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يعنى إلى قوله بل ينبغي أن يتم

(١) حديث من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد متفق عليه من حديث عائشة بلفظ في أمرنا ما ليس منه وعند أبي داود فيه (٢) حديث من غش أمي فعليه لعنة الله الحديث الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جدا (٣) حديث إن الله ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنه شفاعته لم أجده أصلاً (٤) حديث عليكم بالخط الأوسط الحديث أبو عبيد في غريب الحديث موقوفاً على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعاً .

لم يعبر عنه واطمع بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل فذلك يعرفك قدر حيويتك باب قصده ولا تقطع له بصعة ولا تحكم عليه بفساد وليكن تحسین النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه وإذا رأيت له حسنة وسيدة فانتشر الحسنة واطلب العاذر للسيئة ولا تكن كالذبابه تنزل على أقدر ما تجده ولا تجعل على أحد بالخطئة ولا تبادر بالتهجيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر فكل عالم عورة وله في بعض ما يأتي به احتجاج وناهيك ماجرى بين ولى الله تعالى الخضر وكنية موسى على نبينا وعليهما السلام وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بحال أو اختلال فخذ ما ظهر لك عليه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله

في كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيها أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه ولذلك قال الله عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً والعوام العصاة أسعد حالاً من الجاهل بطريق الدين المتقين أنهم من العلماء لأن العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر بل لا يزال مستمر عليه إلى اللوت وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى واقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لدى الدين المحتاط العزلة والافتقار عنهم ككسائي في كتاب العزلة يانه إن شاء الله تعالى ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة الرعشي ما ظنك عن يبق لا يحد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يحد أهله ولقد صدق فان مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر أو أن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيد ولو تأمل هذا السكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن الاستفادة إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا وسيلة إلى الشرف فيكون هو معنياله على ذلك ورد أو ظهر أو مهبطاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ولذلك لا يرخص له في البيع من يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف فكان أحد رجلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بذلت آلة الدنيا بالدين وتشتمسيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بمجملك وإنكارك بزمرة المالكين الآيسين نموز باقه من خدع الشيطان فيها هلك الجهر فتنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تفره الحياة الدنيا ولا يضره باقه الضرور .

الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره ولا سبأ وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى النخلة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة أو كيف يستراب فيه والبهجة مع قصور تمييزها تحتكم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدّها ضراوة واقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمته وهابة لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الشيخ في قومه كالنبي في أمته ^(١) » وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكير شخصه ولا لزيادة قوته بل لثريته تجرّبه التي هي عمدة عقله ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون للشيخ بالطبع ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراعى لهم ما كان يتلأأ على دياجته وجهه من نور النبوّة وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل شرف العقل مدرك بالضرورة وإعسا القصد أن نور دما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى - الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة - ومعنى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى - وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا - وقال سبحانه - أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا عمنى به

الباب السابع في العقل

(١) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته ابن جبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي عن حديث أبي رافع بسند ضعيف.

عزوجل فہندہ وصیتی
لک فاحفظہا وتذکری
ایاک فلا تذہل عنہ :
اسمع وصیتی ان تحفظ

حفظت بها

وإن تخالف فقد ردي

بِكَ الْحَلْفِ

وَأَزِيدُكَ زِيَادَةً تَقْتَضِي

التعريف بأصناف

العلماء لكي يعرف

أهل الحقيقة من

غيرهم فلك في ذلك

أكبر منفعة ولي في

وصفهم أبلغ غرض

قال علماءنا : العلماء

ثلاثة حجة وحجاج

والمحبوب فالحجة عالم

بِاللهِ وَبِأَمْرِهِ وَبِآيَاتِهِ

مَهْمَا يَأْتِيهِ لَهْ نَبِيحَانَهْ

والورع في الدين

والزهد في الدنيا

والإشارة لله عز وجل

المستقيم والحجاج

مدفوع إلى إقامة الحجّة

وإطفاء نار البدعة قد

آخرى المتكلمين

وأختم للتخريصين

برہانہ ساطع ویاثہ

قائم و حفظہ ماینارے

شواهد، بینة ونجومه

نيرة قدحی صراط الله

للسقيم والمهجوج عالم

بِأَمْرِ وَبِآيَاتِهِ

في الناس وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله - يخرجهم من الظلمات إلى النور - وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتهم عنه واعلموا أنه يجذكم عند ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم للنظر حقير الخطر دنيء المزلقة رث الهية وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل النظر عظيم الخطر شريف المزلقة حسن الهية فصيحاً نطقاً فالتوردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه ولا تنتر بتعظيم أهل الدنيا يا أيكم فانهم من الخاسرين (١) » . وقال ﷺ « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزني وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب (٢) » فان قلت فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز . فاعلم أن هذا من علم الكاشفة فلا يليق ذكره بعلم العامة وغرضنا الآن ذكر علوم العامة وعن أنس رضي الله عنه قال « أتني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسلنا عن عقله فقال ﷺ : إن الأحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم (٣) » . وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وماتم إيمان عبداً ولا استقام دينه حتى يكمل عقله (٤) » وقال ﷺ « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فند ذلك ثم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس (٥) » وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فيقدر عقله تكون عبادته أمامته قول الفجار في النار - لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (٦) » وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لقيم الداري « ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله ﷺ كما سألتك فقال كما قلت ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السودد فقال العقل (٧) » وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كثرت المسائل يوم أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ومطية للرد العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلاً (٨) »

(١) حديث يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل الحديث داود بن المهبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحرث بن أبي أسامة عن داود (٢) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أبي أسامة، وأبو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين (٣) حديث أنس أتني قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا في الثناء فقال كيف عقل الرجل الحديث ابن المهبر في العقل بتمامه والترمذي والحكيم في النوادر مختصراً (٤) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل الحديث ابن المهبر في العقل وعنه الحرث بن أبي أسامة (٥) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث ابن المهبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله ولا يتم من حديث عائشة وصححه (٦) حديث أبي سعيد لكل شيء دعامة ودعامة للمؤمن عقله الحديث ابن المهبر وعنه الحرث (٧) حديث عمر أنه قال لقيم الداري ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث ابن المهبر وعنه الحرث (٨) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية الحديث ابن المهبر وعنه الحرث .

ولكنه قد الحشية قد برؤيته لنفسه وحجبه عن الورع والزهد في الدنيا والرغبة والحرص وبسده من بركات علمه محبة الموت والشرف وخوف السقوط والفقر فهو عبد لميل الدنيا خادم لخدمها مفتون بسده علمه مقتر بعد معرفته مخذول بسده نصرتة شأنه الاحترار لنعم الله والازدراء لأوليائه والاستخلاف بالجهال من عباده وفخره ببقاء أميره وصلة سلطانه وطاعة القاضي والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثله في مثل هذا ضرب الله للثل حين قال - واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين ولو شئت لرفقناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه فله كمثل الكلب إن تحمل

عليه يلهث أو تركه يلهث - فويل لمن يحب مثل هذا في دنياه وويل لمن تبعه في دينه وهذا هو الذي أكل دينه غير منصف لله سبحانه في نفسه ولا ناصح له في عباده تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالمذحة لمن أعطاه وإن منع رضى بالدم لمن منعه وقد نسي من قيم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم فعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الضلالة بعد الهدى وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكبرأتها ليست من الفرض الذي نحن فيه قصدي أن يعلم من ذهب من الناس ومن بقى ومن أبصر الحقائق ومن عمى ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من الطاء قد ذهبوا وإن كان بقى منهم أحد فهو خير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة :

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالميل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فلا علم لكم به قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم ^(١) » وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أو فرم عقل ^(٢) » وعن عائشة رضى الله عنها قالت « قلت يا رسول الله بما يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل قلت وفي الآخرة قال بالعقل قلت أليس إنما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون ^(٣) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء آله وعدة وإن آله المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية الرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل ^(٤) » وقال عليه السلام « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « آتاكم عقلا أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا ^(٦) »

(بيان حقيقة العقل وأقسامه)

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكترون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجري هذا الجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه . فالأول : الوصف الذي يفارق الإنسان بمسائر البهائم وهو الذي استعده لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل إنه غريزة يتبها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن التألف عن

(١) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان الحديث ابن المجرى (٢) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل الحديث ابن المجرى وكذلك وعنه الحارث في مسنده ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذي رواه ابن المجرى (٣) حديث عائشة قلت يا رسول الله بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل الحديث ابن المجرى والترمذي الحكيم في النوادر نحوه (٤) حديث ابن عباس لكل شيء آله وعدة وإن آله المؤمن العقل الحديث ابن المجرى وعنه الحارث (٥) حديث إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله الحديث ابن المجرى من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف (٦) حديث آتاكم عقلا أشدكم لله خوفا الحديث ابن المجرى من حديث أبي قتادة .

غاب الذين إذا ما أخذوا

صدقوا

وظنهم كيفين إن هم

حدسوا

وذلك لما سبق في

القضاء من ظهور

الفساد وعدم أهل

الصلاح والرشاد نعم

وعدم الصنف الثالث

على غريته وأعز شيء

على وجه الأرض وفي

الغالب ما يقع عليه في

الحقيقة اسم علم عند

شخص مشهور به

وإنما الوجود اليوم

أهل سخافة ودعوى

وحماقة واجترأ وعجب

بغير فضيلة ورياء

يحبون أن يحمداوا

بما لم يفعلوا وهم أكثر

من عمر الأرض

وصيروا أنفسهم أوتاد

البلاد وأرسان العوام

وهم خلفاء إبليس

وأعداء الحقائق

وأخذوا لموائد السوء

وعنهم يرد عتب الحكم

الشائعة وانتقاض أهل

الارادة والدين :

مثل البهائم جهال مغالتم

لهم تصاوير لم يعرف

لهن حبا

كل يوم على مقدار

حيلته

العلوم والناسم بسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما قد العلوم وكان الحياة غريزة بها
تنبأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تنبأ بعض الحيوانات
للمعلوم النظرية ولو جاز أن يسوي بين الإنسان والجماد في الغريزة والادراكات الحسية فيقال لافرق
بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوما وليس يخلقها في الجماد والبهائم لجاز أن
يسوي بين الجماد والحياة ويقال لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الجماد حركات مخصوصة بحكم
إجراء العادة فإنه لو قدر الجماد لجاداميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فإله سبحانه وتعالى قادر
على خلقها فيه على الترتيب المشاهد وكما يجب أن يقال لم يكن مفارقة الجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت
به عبرتها بالحياة فكذلك مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو
كالمرأة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصفاة وكذلك
العين تفارق الجبهة في صفات وهيئاتها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين
إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور
الشمس إلى البصر فهكذا ينبغي أن نفهم هذه الغريزة . الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات
الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة الاستحالات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص
الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض
العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة الاستحالات وهو أيضا صحيح في نفسه لأن هذه
العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهرا وإنما القاسدان تشكر تلك الغريزة ويقال موجود إلا هذه العلوم .
الثالث : علوم تستفاد من التجارب بتجاري الأحوال فإن من حسنة التجارب وهذه المذاهب يقال
إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمرا جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى
عقلا . الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى
اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب
ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضا من خواص الإنسان التي بها يتميز عن
سائر الحيوان فالأول هو الأس والسنخ والنبع والثاني هو الفرع الأقرب إليه والثالث فرع الأول
والثاني إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي
الغاية القصوى فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عاقلين فطبع ومسموع ولا ينفع مسموع

إذا لم يك مطبوع كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل » (١) والأخير
هو المراد بقوله ﷺ « إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك » (٢) وهو
المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضى الله عنه « ازدد عقلا تزدد من ربك قربا
فقال بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك فقال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا
واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتتل في آجل العقب بها من ربك

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من
رواية الحسن عن عدة من الصحابة (٢) حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك
أبو نعيم في الحلية من حديث على إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل
فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزفة والقرب وإسناده ضعيف .

عز وجل القرب والعز^(١) وعن سعيد بن المسيب «أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال صلى الله عليه وسلم العاقل قالوا فمن أعبد الناس قال العاقل قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل قالوا أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال صلى الله عليه وسلم وإن كل ذلك لما متاع الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين إن العاقل هو التقي وإن كان في الدنيا خيسا ذليلا^(٢) » قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر «إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسوله وعمل بطاعته^(٣) » ويشبه أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة لتلك الفريضة وكذلك في الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها تمرتها كما يعرف الشيء بثمرته فيقال العلم هو الحشية والعالم من غنى الله تعالى فإن الحشية ثمرة العلم فتكون كالجهاز لغير تلك الفريضة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة والقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول والصحيح وجودها بل هي الأصل وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الفريضة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ومثاله للساء في الأرض فإنه يظهر بحجر البئر ويختص ويتميز بالحسن لا بأن يساق إليها شيء جديد وكذلك الدهن في اللوز وماء الورد في الورد ولذلك قال تعالى - وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى - فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فانهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرر وإلى جاحد ولذلك قال تعالى - ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله - بمعناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم - فطرة الله التي فطر الناس عليها - أي كل آدمي فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعني أنها كالمضمنة فيها القرب استعدادها للادراك ثم لما كان الإيمان مركوزا في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين إلى من أعرض فنسى وهم الكفار وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة نفسها بغفلة ثم تذكرها ولذلك قال عز وجل - لعلمهم يتذكرون - وليتذكر أولوا الألباب - واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واتقكم به - ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر - وتسمية هذا الخط تذكرها ليس يبعد فكان التذكر ضربان أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه ولكن غابت بعد الوجود والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه^(٤) السماع والتقليد دون الكشف والعيان ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات ويتعسف في تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ويتخيل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحغار ويعتقد فيها التهاوت ومثاله مثال الأعمى الذي يدخل دارا فيعثر فيها بالأواني المصقوفة في الدار فيقول

(١) حديث ازدد عقلا تزدد من ربك قريبا الحديث قاله لأبي الدرداء ابن الحبر ومن طريقه طهارت ابن أبي أسامة والترمذي الحكيم في النوادر (٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل الحديث ابن الحبر (٣) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسوله وعمل بطاعته ابن الحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسل وفيه قصة .

(٤) قوله يستروجه : من الرواج أى يكون السماع والتقليد رأيا عنده فتأمل اهـ مصححه .

زواجر الأسد والنباح

الله

فاحذرهم قاتلهم الله
أى يؤفكون اغذوا
أيمانهم خسة فصدوا
عن سبيل الله إنهم
سواء ما كانوا يعملون .
أولئك كالأنعام بل هم
أضل أولئك هم
الغافلون .

أولو الففاق فان قلت
اصدقوا كذبوا
من السفاه وإن قلت
اكذبوا صدقوا

ولناخذ في جواب
ماسألت عنه على
نحو ما رغبت فيه
واستوهب الله تفوذ
البصيرة وحسن
السيرة وغفران
الجرير قوه وروى ورب
كل شيء وإليه المصير .

[ابتداء الأجوبة عن

مراسم الأسئلة]

جرى الرسم في الأحياء
بتقسيم التوحيد على
أربع مراتب تشبها
لمواقفة الغرض في
التخيل به وذكرت أن
للمعرض وسوس أو
بالخواطر هيجس بأن
لفظ التوحيد ينافي
التقسيم إذ لا يغلو بأن
يتعلق بوصف الواحد

ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها فيقال له إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصره فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأظلم منه وأعظم إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وسمى الفارس أضمر من عى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - وقال تعالى - وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - الآية وسمى ضده عى فقال تعالى - فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور - وقال تعالى - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سيلا - وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثابتة لم يعلق به من الدين إلا تشوره وأمثله دون لبابه وحقائقه فهذه أقسام ما ينطق اسم العقل عليها .

(بيان تفاوت النفوس في العقل)

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق والصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني وهو العلم الضروري بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديما حادثا وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكا محققا من غير شك وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها . أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يغني تفاوت الناس فيه بل لا يغني تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزدد قوة بالكبر لضعفا وقد يكون سببه التفاوت في العلم المرف لثائلة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب على الاحتناء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه في العقل على ذلك إذا لم يكن طبييا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة في قمع الشهوات وكسرها وكذلك يكون العالم أقدر على ترك الماصي من الجاهل لقوة علمه بضرر الماصي وأعنى به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد مينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لأحالة أشد وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا يشكر فاتهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوت في الغريزة وإما تفاوت في الممارسة فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جرده فانه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادئ إشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نحو الخفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ومثاله نور الصبح فإن أوائله يغنى خفاء بشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطولوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربة العقل ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل أحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من أحاد السوادية وكيف يشكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم

الذي ليس بزانة عليه
فذلك لا ينقسم
لأبائين ولا بالفصل
ولا بغير ذلك وإنما أن
يتعلق بوصف المكلفين
الذين توجب لهم حكمه
إذا وجد فيهم فذلك
أيضا لا ينقسم من
حيث انتسابهم إليه
بالعقل وذلك لضيق
المجال فيه ولهذا
لا يتصور فيه مذاهب
وإنما التوحيد مسلوك
حق بين مسلكين
باطلين أحدهما الشرك
والثاني الإلbas وكلا
الطرفين كفر
والوسط إيمان محض
وهو أحد من السيف
وأضيق من خط
الظل ولهذا قال أكثر
التكلمين بتأمل
إيمان جميع المؤمنين
والملائكة والنبين
والرسلين وسائر عموم
الرسلين وإنما تختلف
طرق إيمانهم التي هي
علومهم ومذهبهم في
ذلك معروف وعن
لأنهم في هذه الإجابة
كلها بشيء من أنحاء
الجدال ومقابلة الأقوال
بالأقوال بل بقصد
إزالة غير الإشكال

ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من العلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبثق من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم كما قال تعالى - يكاد ينهضوا ولولم تحسه نار نور على نور - وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ تنضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعنى ماشئت فانك ميت واعمل ما هئت فانك مجزي» به (١) وهذا النمط من تعريف اللائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر وتلك أخبر عن هذا بالنفث في الروح ودرجات الوحي كثيرة والجوهر فيها لا يليق بعلم العامة بل هو من علم السكاكفة ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يعد أن يعرف الطبيب للمريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات المذلة وإن كان حاليا عنها فالعلم شيء ووجود العلوم شيء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الساء فيقوى فيضجر بنفسه عيونا وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوت وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ماروى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن لللائكة قالت «يا ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ من قدره قال هيئات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال الله عز وجل فاني خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك» (٢) فان قلت فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والعقول . فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإزاعات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسومه في القلوب فقدموا العقل والعقول وهو المسمى به عندهم فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رساله فكيف يتصور ذمه وقد أنبأ الله تعالى عليه وإن ذم فما الذي بعده محمد فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع فان علم بالعقل للذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولا يلتفت إلى من يقول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل فانا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان وهي الصفة الباطنة التي تتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور وأكثر هذه التخييلات إنما نارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخطوا فيها لتخييل اصطلاحات الناس في الألفاظ فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم .

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف (٢) حديث ابن سلام سئل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن لللائكة قالت يا رب هل خلقت شيئا أعظم من العرش الحديث ابن الهجر من حديث أنس بن مالك والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا .

ورد ما طعن به أهل الضلال والإسلاف . واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أعماه بتوجهها بشيء قدح به المقترض أو هجس به الحاطر وإنما للاستعمل ههنا من أعماه فانتبه به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال وكل حاله منها تسمى توحيدا على جهة تفرد بها لا يشاركها فيها غيرها فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع في الحكم ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والليل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ولا برهان يربط به مسمى أيضا موحدا على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا والحنبلي حنبلًا

ومن رزق علم التوحيد
وما يتحقق به عنده
وسعى من أجله
بشكوكه المارضة له
فيسمى موحدا لأنه
عارف به يقال جدلي
ونعوى وقبه ومعناه
يعرف الجدل والفقة
والنعوى . وأما من
استغرق علم التوحيد
قلبه واستولى على جلته
حتى لا يجد فيه فضلا
لغيره إلا على طريق
التبعية له ويصكون
شهود التوحيد لكل
ماعداه سابقا له مع
الذكر والفكر مصاحبا
من غير أن يعتريه
ذهول ولا نسيان له
لأجل اشتغاله بغيره
كالعادة في سائر العلوم
فهذا يسمى موحدا
ويكون القصد بالمسمى
من ذلك المبالغة فيه .
فأما الصنف الأول وهم
أرباب النطق بالفرد
فلا يصرّبون في
التوحيد بسهم ولا
يفوزون منه بنصيب
ولا يكون لهم شيء من
أحكام أهله في الحياة
إلا ما دام الظن بهم أن
قلب أحدهم موافق
لسانه كما يفرد القول

ثم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل
الأرض والسماء، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا

بسم الله الرحمن الرحيم

(كتاب قواعد العقائد ، وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام فنقول
وبالله التوفيق : الحمد لله للبدى للعبد الفعّال لما يريد ذي العرش المجيد والبطش الشديد الهادي
صفوة العبيد إلى النهج الرشيد والسلك السديد النعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن
ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار حبه الأكرمين الكرمين
بالتأييد والتسديد المنجلى لهم في ذاته وأفضاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو
شاهد للعرف بإمام أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد
قديم لا أول له أزلي لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قیوم لا انقطاع له دائم لا انصرام
له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانقضاء بتصرم الآباد وانقراض
الآجال بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . التنزيه : وأنه ليس بحسم مصور
ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله
الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ليس كمثل شيء ولا هو مثل
شيء . وأنه لا يحده القدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تتكثفه الأرضون ولا السموات
وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أرادته استواء منزلها عن الماسة والاستقرار
والتسكين والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومههورون في
قبضته وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء . إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيد قربا إلى العرش والسماء
كما لا تزيد بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات
عن الأرض والثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد وهو
على كل شيء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا يماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء
ولا يحل فيه شيء . تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدّس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان
والمكان وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواء ولا في سواء ذاته
وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال في نعوت جلالة منزلها
عن الزوال وفي صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرقّ
الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار في دار القرار وإتماما منه للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم .
الحياة والقدرة : وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يمارضه
فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات
مطويات بيمينه والخلق مقهورون في قبضته وأنه المنفرد بالخلق والاختراع التوحيد بالإنجاد والإبداع
خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تعاريف
الأمور لا تحصى مقدورات ولا تتناهى معلوماته . العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من
تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل

(كتاب قواعد العقائد)

عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل . وأما الصنف الثاني وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله النبي عنه قبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل فنسبوا إلى التوحيد وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم . وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها قرأوا على كل منها خطا منطبقا فيها ليس بعربي ولا سرياني ولا عبراني ولا غير ذلك من أجناس الخطوط فيأدر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه فاذا هو الخط الإلهي المكتوب على صفحة

يعلو ديبب الخلة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر في جو الهواء ويعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الحواطر وخفيات السرائر يعلم قديم أزلى لم يزل موصوفاً به في أزل الأزال لا يعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال . الإرادة : وأنه تعالى مرید للكائنات مدبر للعاديات فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خيرا أو شرا نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فإشياء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لقلة ناظر ولا قلة خاطر بل هو للبدى العبد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لبعده عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته ولا قوة على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لمجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها مریداً في أزاله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أرادته في أزاله من غير تقدم ولا تأخر بل وقفت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير دبر الأمور بترتيب أنسكار ولا ترص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن . السمع والبصر : وأنه تعالى سمع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق ولا يعجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام يرى من غير حدة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويطنش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الحائق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق . الكلام : وأنه تعالى متكلم أمرناه وأعدمتوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو صطكك أجرام ولا بحرف يتقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه للزلة على رسله عليهم السلام وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في الصالح محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والاتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى البرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مریدا مميما بصيرا متكلم بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا يعجز دالته . الأفعال : وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وآتمها وأعدلها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضية لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأ إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان في الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كفته لا لافتقاره إليه وحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لأعن وجوب ومتطول بالانعام والإصلاح لأعن لزوم فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما وأنه عز وجل يثيب عباده للؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا مجرد العقل ولكنه بث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فلبقوا أمره ونهيه ووعده ووعده

فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به . معنى الكلمة الثانية : وهي الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم برسائه إلى كافة العرب والمجم والجن والأنس فنسخ بشرية الشرائع إلا ما قرره منها وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ما لم تقتن بها شهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيان هائلان يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك (١) وهما فتانا القبر (٢) وسؤالهما أول فتنة بعد الموت (٣) وأن يؤمن بمذاب القبر (٤) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء ، وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرته الله تعالى ، والصنح يومئذ مثاقيل الدر والجرلد تحقيقا لتمام العدل وتوضيح مخائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها للميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح مخائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها للميزان بعدل الله (٥) وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه قهوى بهم إلى النار وثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار (٦) وأن يؤمن بالخوض للورود

(١) حديث سؤال منكر ونكير الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أبي هريرة إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما النكير وللآخر النكير وفي الصحيحين من حديث أنس إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه الحديث (٢) حديث إنهما فتانا القبر أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر أترد علينا عقولنا الحديث (٣) حديث إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت لم أجده (٤) حديث عذاب القبر أخرجه من حديث عائشة إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر (٥) حديث الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طباق السموات والأرض البهي في البعث من حديث عمر قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبي داود من حديث عائشة أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أخف ميزانه أم يثقل زاد ابن مردويه في تفسيره قالت عائشة أي حي قد علمنا اللوازم هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء وبوضع في هذه الشيء فترجح إحداها وتخف الأخرى والترمذي وحسنه من حديث أنس وإطليبي عند الميزان ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطاقة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة الحديث وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها (٦) حديث الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر الشيخان من حديث أبي هريرة ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ولهما من حديث أبي سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قال أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفع أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب والبعث من حديث أنس وضعه وفي البعث من رواية عبيد بن عمير مرسل ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع .

حوض محمد صلى الله عليه وسلم شرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط (١) من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً عرضه مسيرة شهر ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعد نجوم السماء (٢) فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر (٣) وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم للقرّيون فيسأل الله تعالى (٤) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسلين (٥) ويسأل للبتة عن السنة (٦) ويسأل للسليين عن الأعمال (٧) وأن يؤمن بإخراج اللوحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يغفل

(١) حديث الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون مسلم من حديث أنس في نزول - إنا أعطيناك الكوثر - هو حوض ترد عليه أمّتي يوم القيامة آتته عدد النجوم ولها من حديث ابن مسعود وعفة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطك على الحوض ومن حديث ابن عمر أما لكم حوض كباين جرباء وأدرج . وقال الطبراني كما بينكم وبين جرباء وأدرج وهو الصواب وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس بن مرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٢) حديث من شرب من شربة لم يظمأ أبداً عرضه مسيرة شهر أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أنس فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء وفي رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء (٣) حديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر مسلم من حديث ثوبان يصب فيه ميزابان يمدّانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق (٤) حديث الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش في الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب البيهقي في البعث من حديث عمر فقال يا رسول الله ما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والتقدير كله الحديث وهو عند مسلم دون ذكر الحساب وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى - فسوف يحاسب حساباً يسيراً - قال ذلك المرض ولها من حديث ابن عباس عرضت على الأمّ قليل هذه أمّتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمّتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعده هذه الزيادة فقال فها استزدته قال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً قال عمر فها استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبي بكرين بديه الحديث (٥) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسلين . البخاري من حديث أبي سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول لييك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمتي فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمتي الحديث . ولابن ماجه يحيى النبي يوم القيامة الحديث وفيه فيقال هل بلغت قومك الحديث (٦) حديث سؤال للبتة عن السنة ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشيء من التقدير صل عنه يوم القيامة . ومن حديث أبي هريرة ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً للدعوة ماداً إليه وإن دعا رجل رجلاً وإسنادها ضعيف (٧) حديث سؤال للسليين عن الأعمال أصحاب السنن من حديث أبي هريرة إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته الحديث وسأني في الصلاة .

التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بأذنه وإيجاده عن غيره وعقلت أنها عقلت توحيد فسيحان من بصرها لذلك وفتح عليها بما ليس في وسعها أن تدركه إلا بهو هو اللطيف الخبير لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجداً لديه فيما لا يزال وهم القرّيون والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن يعرف ربه موجداً لنفسه فيما لم يزل وهم الصديقون وبينهما تفاوت كثير . وأما طريق معرفة محبة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده فأما من عدست عنه فهو كافر وإن كان في زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعّد عن مقام هذا

في النار موحد^(١) وأن يؤمن بشفاعاة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزله عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان^(٢) وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم^(٣) وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثنى عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين^(٤) فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موثقا به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

الفصل الثاني في وجه التدرج إلى الارشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبانيها التلقين المجرّد والتقليد المفضى نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقرآنة الحديث ومعانيه ويشغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار

(١) حديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحّد بفضل الله سبحانه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا عن أراد الله أن يرحمه عن يقول لا إله إلا الله الحديث (٢) حديث شفاعاة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وقد تقدم في العلم وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه وفي رواية من خير وفيه فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفعت المؤمنين ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يصلوا خيرا قط الحديث (٣) حديث أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي البخاري من حديث ابن عمر قال كنا نغير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ولأبي داود كنا نقول لورسول الله صلى الله عليه وسلم حي أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره (٤) حديث إحسان الظن بجميع الصحابة والتناء عليهم الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدى وللشيخين من حديث أبي سعيد لا تسبوا أصحابي . وللطبراني من حديث ابن مسعود إذا ذكر أصحابي فأمسكوا .

الكلام وأما من يوجد عنده فلا يغلو أن يكون مقلدا في عقده أو عالما به والتقليد هو العوام وهم أهل للمرتبة الثانية في الكتاب فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يغلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لسنفه دون النبوة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ فالتدري لم يبلغ وكان على قرب هم القربون وهم أهل للمرتبة الثالثة والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل للمرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائريين النفي والاثبات ومحصور بين البادي والغايات ولم يدخل أهل للمرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ثم لا بد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث مزيد شرح وبسط بيان تعرف منه ماذن الله حقيقة

العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالسهم وسباهم وجماعهم وحياتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كالقاء بذرة في الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقى والترية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء وينبغي أن يحرس سمه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يعمده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما افتتها ذلك ويغسدها وهو الأغلب والشاهدة تكفيك في هذا بياناً فناهيك بالبيان برهانا قس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة للتكلمين والمجادلين ترى اعتقاد العوامى في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة التكلم الحارس اعتقاده بتفسيرات الجدل كخيوط مرسل في الهواء تفتت الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلغفه تقليداً كالتلفف نفس الاعتقاد تقليداً إذ لا فرق في التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم الدلول فتلقي الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه ثم الصبي إذا وقع نشوء على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة اختصت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين - وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والتقربين وإليه الإشارة بالسرا الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين وذلك كثافات الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في التكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه . مسألة : فإن قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتنم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافاً في أطراف فمن قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خيره من أن يلقاه بالكلام ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فانه تحقيق لم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبد الأمل رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفص الفرد وكان من متكلمي للفترة يقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه وقال أيضاً قد اطلمت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكراييسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فضرب وقال سل عن هذا حفص الفرد وأصحابه أخزاهم الله ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا فقال حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب بما أنت فيه وقال أيضاً لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لقروا منه فرازه من الأسد وقال أيضاً إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولادين له قال الزعفراني قال الشافعي حكمت في أصحاب

كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجريه الواحد الخلق على القلب واللسان (بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقه) فأقول أرباب النطق المجرد أربعة أصناف أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يستقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يملوه لا يتصورون صحته ولا فساد ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما بعد همهم وقلة أكرامهم وإما لغورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل وما بعد ذلك فإن التزموها فارقوا راحت أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم وإن لم يلتزموا شيئاً من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منخصة وملاذم مكذرة من خوف

الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب الكلام أبدا ولا تكاد ترى أحدا نظير في الكلام إلا وفي قلبه دغل وبالع في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على البدعة وقال له وبحك ألت تحكي بدعتهم أو لا ثم ترد عليهم ألت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات فيدعوم ذلك إلى الرأي والبحث. وقال أحمد رحمه الله علماء الكلام لا تادق. وقال مالك رحمه الله أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أبدع دينه كل يوم لدين جديد يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت وقال مالك رحمه الله أيضا لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء فقال بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام ترندق وقال الحسن لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولمونه من الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون»^(١) أي المتعمقون في البحث والاستقصاء واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنباط^(٢)، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم^(٣) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا^(٤) عن القدر، وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طفلان وظنهم الأستاذون والقدة ونحن الأتباع والتلامذة وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا إن المخذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولوعرض عليهم عبارة النقص والكسر والتركيب والتعدي وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه فأحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كأحداث آية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح وإن كان المخذور هو المعنى فتحن لأننى به لا المعرفة بالذليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل وإن كان المخذور هو القشع والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى - قل هاتوا برهانكم - وقال عز وجل - ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة - وقال تعالى - قل هل عندكم من سلطان بهذا - أي حجة وبرهان وقال تعالى - قل لله الحجة البالغة - وقال تعالى - ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه - إلى قوله - فبهت الذي كفر - إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإخامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عز وجل - وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه - وقال تعالى - قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا - وقال تعالى في قصة فرعون - وما رب العالمين - إلى قوله - وأولو

من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لأدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لأدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنباط مسلم من حديث سلمان الفارسي (٣) حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ابن ماجه من حديث أبي هريرة تعلموا الفرائض وعلوها الناس الحديث ولقرنمذي من حديث أنس وأقرضهم زيد بن ثابت (٤) حديث نهام عن الكلام في القدر وقال أمسكوا . تقدم في العلم .

جئت بشيء مبين سوطي الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فمعدة أدلة للتكليمين في التوحيد قوله تعالى - لو كان فيما آتاه الله لفسدتا - وفي النبوة - وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله - وفي البعث - قل يحييها الذي أنشأها أول مرة - إلى غير ذلك من الآيات والأدلة ولم يزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون للنسكرين ويجادلونهم قال تعالى - وجادلهم بالتي هي أحسن - فالصحابة رضي الله عنهم أيضا كانوا يحاجون للنسكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة للبتة بالمجادلة إلى الحق طي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلهم فقال ماتمقون على إمامكم قالوا قاتل ولم ينسب ولم يفتنهم فقال ذلك في قتال الكفار أرأيتم لو سببت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب فقالوا لا فرجع منهم إلى الطاعة عبادته ألفان وروى أن الحسن ناظر قدر يفرج عن القدر وناظر طي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد ابن عبيدة في الإيمان قال عبد الله لوقلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة فقال له يزيد بن حميرة يا صاحب رسول الله هذمزل منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث واليزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ولنا ذنوب لو تعلم أنها تغفر لنا لعلنا أنؤمن أهل الجنة فمن أجل ذلك يقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة فقال ابن مسعود صدقت والله إنها من زلة فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس وأغراضه صناعة فيقال أما قل خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان وأما القصر فقد كان الغاية إتمام الحضم واعتراؤه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة فلو طال إشكال الحضم أو لجاجة لطلال لا محالة إلزامهم وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بيزان ولا مكيال بعد الشروع فيها وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا فان جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تنفق إلا على الدور إما ادخار ليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشجيدا للخوارج فحين أيضا ترتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشجيد الخاطار أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة طي البدية والارتيال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين . فان قلت لما اختار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بدمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعني بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الاسكار واللوث وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطراب وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك للسلم في وقت الحيار والبيع وقت النداء وكأكل الطين فإنه يحرمها فيه من الاضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قلبه وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قلبه وكثيره وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالغسل فان كثيره يضر بالهرور وكأكل الطين وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على الصل التفتات إلى أغلب الأحوال فان تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فتعود إلى علم الكلام وهو قول إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعة في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار وعمله حرام أما مضرته فأنارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل

فيقولان لا حريت ولا تليت وصماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والرتاب والصنف الثاني نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينظم به معنى التوحيد وذلك مثل ما قالت السبابة طائفة من الشيعة القدماء ان عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه وكانوا في زمنه يفرق منهم جماعة وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقه مثل هذا التكبر ويسمون الزنادقة وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك « متفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة » . والصنف الثالث نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد واستنبطوا خلاف ما ظهر منهم من الاقرار وإذا رجعوا إلى أهل

المشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد
البتدعة للبدعة وتثبيتته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ولكن
هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل ولذلك ترى للبتدع العاصي يمكن أن يزول اعتقاده
باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشوء في بلديظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون
والآخرون لم يقدرُوا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة
المخالفين يستولى على قلبه ويعنمه من إدراك الحق حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء
ويعرفك بالبيان أن الحق مع خصمك لكراه ذلك خيفة من أن يفرض به خصمه وهذا هو الداء العصال
الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثارته المجادلون بالتعصب فهذا ضرره وأما منفعة قد يظن
أن فائدته كشف الحقائق ومعرفة ما هي عليه وهيات فليس في الكلام وفاد هذا المطلب الشريف
ولعل التخيل والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما
خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قلاد بعد حقيقة الحق وبهذا التخلل
فيه إلى منتهى درجة التكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن
الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح
لبعض الأمور ولكن على التدور في أمور جليلة تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعة شيء
واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات البدعة بأنواع الجدل
فإن العاصي ضعيف يستغفره جدل البدع وإن كان فاسدا ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه والناس
متبدلون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم وديارهم وأجمع السلف
الصالح عليها والعلماء يتعمدون بحفظها على العوام من تلبسات البدعة كما تبعد السلاطين بحفظ
أمورهم عن تهجمات الظلمة والفساد وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنعته فينبغي أن يكون كالطبيب
الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة .
وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها
مهما تاقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر عظم في حقهم إذ ربما يثير لهم
شكا وبزول عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بذلك بالإصلاح وأما العاصي المتعمد للبدعة فينبغي أن
يدعى إلى الحق باللطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف القنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سبيل
أدلة القرآن والحديث المزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل للوضع على
شرط التكلمين إذ العاصي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها التكلم ليستدرج الناس
إلى اعتقاده فإن هجر عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرُون على دفعه فالجدل
مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة
القبولة البعيدة عن تعمق الكلام واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض على
اعتقد البدعة بنوع جدل سمح فيقابل ذلك الجدل بمثل فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له
من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العاصية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه
منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقي إليه وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها للذاهب فيقتصر
فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويترتب وقوع شبهة فإن وقعت ذكر
بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائسة وكان يخاف على الصبيان أن يخذعوا فلا بأس أن يطعوا
القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات البدعة إن وقعت

فيرجى أن لا تضيق عنه
سعة رحمة الله عز
وجل والحكم عليه
بالتار والخلود فيها مع
الكفار تحكهم على غيب
الله سبحانه وربما
كان من هذا الصنف
في الحكم عند الله عز
وجل قوم رزقوا بعد
الهم وغيب الدهن
وفرط البسالة أن
يدعوا إلى النطق
فيجيبوا مساعدة
ومحاذاة ثم يدعوا إلى
فهم الحق بكل وجه
فلا يتأتى منهم قبول
لما يعرض عليهم فهمه
كأنما تخاطب بهيمة
ومثل هذا أيضا في
الوجود كثير ولا أحكم
على أحد مثله بخلود
في النار ولا بعد أن هذا
الصنف بأسره أعنى
المحترم قبل تحصيله
المقد مع هذا البليد
البعيد بعض ما ذكره
النبي صلى الله عليه وسلم
في حديث الشفاعة
الذين أخرجهم الله عز
وجل من النار بشفاعته
حين يقول تعالى: فرغت
شفاعة اللائكة والنبين
وبقيت شفاعتي . وهو
أرحم الراحمين فيخرج

إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه
لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر
الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة وليس فيه خروج عن النطرق
قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين فإن أفنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد
صارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى
فيه إلى أن ينكشف له الحق بنبه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر
الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من الصفات هو الذي يرجى نفعه فأما الخارج منه فبما أحدهما
بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكواف وعن الادراكات وعن الخوض
في الرؤية هل لها ضد يسمى النع أو العمی وإن كان فذلك واحدهو منع عن بيع ما لا يرى أو ثبت
لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات والقسم الثانى زيادة
تقرير لتلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضا استقصاء لا يزيد إلا ضللا
وجها في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيد الإطباب والتقرير غموضا . ولوقال قائل البحث
عن حكم الادراكات والاعتمادات فيه فائدة تشجيد الخواطر والخواطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد
فلا بأس بتشجيده كان كقوله لعب الشطر نج يشجدا لخواطر فهو من الدين أيضا وذلك هوس فإن الخاطر
يتشجد بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر الحمود من
الكلام والحال الذى يذم فيها والحال الذى يحمدها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به .
فإن قلت مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع البتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت
الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق
كالقضاء والولاية وغيرها وما لم يشتغل العلماء بشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولوترك
بالكلية لا تدرس وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبه البتدعة ما لم يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه
والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة
إليه فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل بدفع شبه البتدعة التى ثارت في تلك البلدة
وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل
الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر فالعلم
ينبغى أن يخص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال إحداها التجرد للعلم والحرس عليه فإن المحترف
يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية الذكاء والفطنة والفصاحة فإن
البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحجابه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه .
الثالثة أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبه عليه فإن الفاسق
بأدنى شبهة ينخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السد الذى بينه وبين الملاذ فلا يعرض على
إزالة الشبهة بل يفتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا التعلم أكثر مما يصلحه
وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحاجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس جميع
القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب القنعة للنفوس دون التغافل في التفسيات والتدقيقات التى
لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس فإذا قابله
مثله في الصنعة قاومه، وعرفت أن الشافى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما
فيه من الضرر الذى نهىنا عليه وأن ما قل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناصرة الخوارج

من النار أقوام لم يصلوا
حسنة قط ويدخلون
الجنة فيكون في أعناقهم
صمات ويسمون عتقاء
الله عز وجل والحديث
يطول وهو صحيح
وإنما اختصرت منه
قدر الحاجة على للمنى
وحكم الصنف الأول
والثاني والثالث أجمعين
أن لا يحب لهم حرمة
ولا يكون لهم عصمة ولا
ينسبون إلى إيمان ولا
إسلام بل هم أجمعون
من زمرة الكافرين
وجملة المالكين ما،
عشر عليهم في الدنيا
قتلوا فيها بسيف
الموحدين وإن لم يضر
عليهم فهم صائرون إلى
جهنم خالدين ترفع
وجوههم النار وهم فيها
كالخون .

[فصل] ولما كان
اللفظ النسبي عن
التوحيد إذا انفرد
عن المقدم وتجرد عنه
لم يقع به في حكم الشرع
منفعة ولا لصاحبه
بسيه نجا إلا مدة
حياته عن السيف
أن يراق دمه واليدان
تسلط على ماله

وما تقل عن على رضى الله عنه من الناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلى الظاهر وفى محل
الحاجة وذلك محمود فى كل حال ، نعم قد تختلف الأعصار فى كثرة الحاجة وقتها فلا يبعد أن يختلف
الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التى تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة
الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هى عليه وإدراك الأسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ
هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والاقبال بالسكينة على الله تعالى وملازمة الفكر
الصافى عن شوائب المبادلات وهى رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفعاتها بقدر
الرزق وبحسب التبرع وبحسب قبول المصل وطهارة القلب وذلك البحر الذى لا يدرك غوره
ولا يبلغ ساحله [مسئلة] فإن قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها
جلى يبدو أولا وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى
عن كل شئ من أشغال الدنيا سوى للطلوب وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر
وباطن وسر وعلم بل الظاهر والباطن والسر والعلم واحد فيه فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى
خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا فى أوائل الصبا شيئا
وجهدوا عليه فلم يمكن لهم ترقى إلى شأو العلماء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة
الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلما (١) » وقال على رضى الله
عنه وأشار إلى صدره إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حكمة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن
معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث
أحد قوما بمحدث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم (٣) » وقال الله تعالى - وتلك الأمثال نضربها
للناس وما يفتلها إلا العالمون - وقال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة السكون لا يعلمه
إلا العالمون بالله تعالى (٤) » الحديث إلى آخره كما أوردناه فى كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم
« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٥) » فليت شعرى إن لم يكن ذلك سرا منع من
إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أولمضى آخر فلم يذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره
لهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل - الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض
مثلهن يتزل الأمر بينهن - لو ذكرت تفسيره لرجمتونى وفى لفظ آخر لقلم إنه كافر . وقال
أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعشرين أما أحدهما فبثته
وأما الآخر لو بثته لقطع هذا الخلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام
ولا صلاة ولكن بروتق فى صدره (٦) » رضى الله عنه ولا شك فى أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد
الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره وقال سهل التستري
رضى الله عنه للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر ينفله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسمعه إظهاره إلا لأهله
وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر وقال
بعضهم للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم والعلماء بآله سر لو أظهروه

- (١) حديث إن للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه
(٢) حديث نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم الحديث تقدم فى العلم (٣) حديث
ما حدث أحد قوما بمحدث لم تبلغه عقولهم الحديث تقدم فى العلم (٤) حديث إن من العلم كهيئة السكون
الحديث تقدم فى العلم (٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجه من حديث
عائشة وأنس (٦) حديث ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام الحديث تقدم فى العلم .

لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضملاء لقصور فهمهم فاذا كره له بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفى نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبوة [مسئلة] فان قلت هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فيبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر فيه إبطال الشرع وهو قول من قال إن الحقيقة خلا الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقض ولا يخالفه فهو فيزول به الإقسام ولا يكون للشرع سر لا يخفى بل يكون الحفي والجلي واحدا . فإنا هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجر إلى علوم للكاشفة ويخرج عن مقصود علم العاملة و غرض هذه الكتب فان العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تصدنا بتلقيها بالقول والتصديق بقدر القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ولولا من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطن لما أوردناه في الشارح الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انهمر الكلام تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله فن قال إن الحقيقة تخالف الشرع أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها القريب يدركها ولا يشاركهم الأكرهون في عملها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : الله الأول أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تسلك أكثر الأنفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعلم أن لا يفتشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أنفهامهم عن الفكر وإخفاء سر الراد وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يانه (١) من هذا القسم فان حقيقته مما تسلك الأنفهام : دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه ولا تظن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه ولا بد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكم يتأدبون بأداب الله فيسكتون عما سكت عنه بل في صفاة الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أنفهام الجماهير عن دركه يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرها حتى يفهما الخلق بنوع مناه توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بمقايسة ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض للناسبة شيء لم يفهموه بل لغة الجاهل ذكرت للصحى أو الضعيف لم يفهما إلا بما يناسبه إلى لغة المطوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لغة الجاهل والأكل . وبالجملة فلا يدرك الإنسان لأنفسه وصفاته نفسه مما هي حاضرة له في الحال أو مما كانت له قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً في الشرف والكمال فليس في قوة الباطن إلا أن ثبت الله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به . الجلال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أئنتت على نفسك » (٢) ولي

(١) حديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم قلم يرد عليهم شيئا الخلد

(٢) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أئنتت على نفسك مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده .

إذ لم يعلم خلق حاله حسن فيه أن يشبه بغير الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ولا يحضر في المجالس أى مجالس الطعام ولا تشبهه النفوس إلا مادام منطويا على طعمه صونا على له فاذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منطوي على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لم يصلح لشيء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لا يخفى في صحته والتمرض بالتمثيل تقرب ما غمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاس على التعلم والسمع فهمه وليس من شرط المثال أن يطابق المثل به من كل وجه فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يصحكون مطابقا لخواصه المراد منه .

[فصل] فان قلت لما الذي صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق من النظر والبحث حتى نطقوا أو من الاعتقاد حتى نطقوا من عذاب الله

اللعن أني أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالصور عن إدراك كنه جلالة ولذلك قال بعضهم ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل وقال الصديق رضى الله عنه الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولتنبض عنان الكلام عن هذا الخط ولترجع إلى الفرض وهو أن أحد الأقسام ما تسلك الأفهام من إدراكه ومن جلته الروح ومن جلته بعض صفات الله تعالى ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه سبعين حجبا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » (١) القسم الثاني من الحفريات التي تتمتع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكمل الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر السامعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم فلا يمد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الحفائش وكأضرار رياح الورد بالجمل وكيف يعمد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق في نفسه وقد أضر سماعة بقوم إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه وتقيض الحكمة والرضا بالتبعية والظلم وقد ألد ابن الراوندي وطائفة من المخدولين عثر ذلك وكذلك سر القدر لو أفضى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيد ذلك الوهم عنهم ولو قال قائل إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل أكثراتها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا فهذا المعنى لو أنجحه وصح فيكون مثالا لهذا القسم . القسم الثالث : أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحها لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكفى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقع في قلب السامع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه كالأمر في قوله تعالى فلا تأخذوا الدنيا والدنيا لا تأخذكم الله المولى كماله قال قائل رأيت فلانا يتخذ الدر في أعناق الخنازير فكفى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالسامع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه خنزير فظن لدرك السر والباطن فتفاوت الناس في ذلك ومن هذا قال الشاعر:

رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السكك الأعزل
لازال بنسج ذاك خرقة مدبر ويحيط صاحبه ثياب القبل

فانه عبر عن سبب صحاوى في الاقبال والادبار رجلين صائمين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن معنى المعنى أو مثله . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجملدة على النار » (٢) وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقيره فيضاد معنى للسجدة مضادة النار لاصصال أجزاء

(١) حديث إن ثمة سبعين حجبا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بين الله وبين اللائكة الذين حول العرش سبعون حجبا من نور وإسناده ضيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال إن بيني وبينه سبعين حجبا من نور ، وفي الأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد مؤيد الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبي موسى حجاب من نور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ولا بين ما جبهه في أدركه بصره .

(٢) حديث إن المسجد لينزوى من النخامة الحديث لم أجده أصلا .

ومعنى الظاهر قادرون على ذلك وما السانع الحسنى الذي منهم وأبدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم ففقه فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ولكن لا بد إذا وقع في الأصماع ووعته قلوب الطالبين واشتاتت إلى صماع الجواب عنه أن نور في ذلك قدر ما يقع به الكفاية وتنفع به النفوس بحول الله وقوته، نعم ما سبق في العلم القديم لا تجرى غلافه المقادير فهم من ذلك بارادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق السكانية والشيم القلبية والطباع السبعة وغلبتها عليهم واللائكة لا تدخل بيتا فيه كلب كذلك قال عليه الصلاة والسلام والقبوب بيوت تولى الله بنامها يسده وأعداها لأن

الجلدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أما يغشى الذي يرفع رأسه قبل الامام أن يحول أقراسه رأس حمار» (١) وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كأن إذا رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحق ومن رفع رأسه قبل الامام قد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى إذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع فلم أتوا كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الحق وكفى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الاقتدار ومن هذا القبيل في كنياته عن الاقتدار قوله تعالى - إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقوله كن فيكون - فان ظاهره متمتع إذ قوله كن إن كان خطأ بالشيء قبل وجوده فهو محال إذ اللعدم لا يفهم الخطاب حتى يمثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهم غاية الاقتدار عدل إليها . وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى - أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها - الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هي القلوب وأن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل والزبد مثل الكفر والتناق فانها وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لا يثبت ولهداية التي تنفع الناس تمسك ، وفي هذا القسم تصق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من البراز والصراط وغيرها وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الانسان الشهادة جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والدوق بأن يصير حاله لا بأسا له في تفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب والأول كالظاهر والثاني كالباطن وذلك كما يمثل للانسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ولا يكون الأخير ضد الأول بل له استكمال له فكذلك العلم والايمان والتصديق إذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أو كمال من تحققه قبل الوقوع بل للانسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة الأول تصديقه بوجوده قبل وقوعه والثاني عند وقوعه والثالث عند تصدقه فان تحققك بالجويع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها ففي هذه الأقسام الأربعة تفاوت الحلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتم القلب القشر والسلام . القسم الخامس : أن يمر بلسان القائل عن لسان الحال فالتعاصر القهم يقف على الظاهر ويعتقده نظما والبصير بالحقائق يدرك السرفيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوثة لم تشقني قال سل من يدقني فلم يتركني ورأى الحجر الذي ورأى فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان القال ، ومن هذا قوله تعالى - ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائمين - فالبلد يفترق في فهمه إلى أن يقدر لها حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان

تكون خدائن عله ومشارق مكشواته ومهيطة ملائكة ومغاثي أنواره ومهاب فتحاته ومحال مكاشفاته ومجاري رحمة وهياها لتحصيل المعرفة به فحق كان فيها شيء من تلك الأخلاق للدمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والواصلون إليه وعنه بالباقيات الصالحات ولولا تلك الأخلاق للدمومة التي حلت فيهم وهي التي فم الكلب لأجلها لما احترمت للملائكة بأذن الله عن حلولها فيها وهي لا تغلظ من خير تنزل به ويكون معها حينما حلت حل الخير في ذلك القلب غلظها وإنما هي لها غيثا وجدت قلب خاليا ولو حينما من الدهر وزمنا زلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده فان لم يظهر على للملائكة ما زعمها عنه

(١) حديث أما يغشى الذي يرفع رأسه قبل الامام الحديث أخرجه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

من تلك الأخلاق
للمنومة بواسطة
الشياطين الذين هم في
مقابلة اللاتكة ثبتت
عنده وسكنت فيه ولم
تبرح عنه وعمرته
بقدر سعة البيت
وانشراحه من الخير
فان كان البيت كثير
الاتساع أكثر فيه
من متاعها واستعانت
بغيرها حتى يتلى البيت
من متاعها وجهازها
وهو الإيمان بالله
والصلاح وضروب
المعارف النافعة عند
الله عز وجل فاذا
طرق ذلك البيت طارق
شيطان ليسرق من
ذلك الخير الذي هو متاع
الملك ويثبت فيه خلقا
مذموما لا يوجد إلا
في الكلب وهو متاع
الشيطان قاتله الله
وطرده عن ذلك المنزل
فان جاء للشيطان مدد
من الهوى من قبل
النفس ولم يجد الملك
نصره وهو عزم اليقين
من قبل الروح انهزم
الملك وأخلى البيت
ونهب للتاع وخرب
البيت بعد عمارته وأظلم
بعد نوره وضاق بعد

بحرف وصوت وتقولان أتينا طائمين والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما
مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير ومن هذا قوله تعالى - وإن من شيء إلا يسبح
بحمده - فالبلد يقتصر فيه إلى أن يقدر لاجتماع حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول
سبحان الله ليتحقق تسبيحه والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا
بذاته وشاهدا بوحديته الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية يدل على أنه الواحد

وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكال العلم لا يعني أنها تقول أشهد بالقول
ولكن بالذات والحال وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده ويقيه ويدبر
أوصافه ويردده في أطواره فهو بحاجة يشهد لحالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون
الجامدين على الظواهر ولذلك قال تعالى - ولكن لا يفقهون تسييحهم - وأما القاصرون فلا يفقهون
أصلا وأما القربون والطاء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكاله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس
الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم
العامة فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب اليصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن
للظاهر وفي هذا المقام لأرباب القامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير
جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم -
وقوله تعالى - وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء - وكذلك
المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي اللباز والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل
الجنة في قولهم - أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله - زعموا أن ذلك كله لسان الحال وغلا
آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله - كن فيكون -
وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعد كون كل مكون حتى
سمعت بعض أصحابه يقول إنه حسم باب التأويل إلا ثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر
الأسود بين الله في أرضه (١) » وقوله ﷺ « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله
صلى الله عليه وسلم « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين (٢) » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر
والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه
منع من التأويل حسم الباب ورعاية صلاح الخلق فانه إذا فتح الباب اتسع الحرق وخرج الأمر عن
الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حدهما جاوز الاقتصاد لا يضبط فلا بأس بهذا الزجر ونشهد له سيرة السلف
فانهم كانوا يقولون أمرؤها كما جاءت حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء الاستواء معلوم
والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب
التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه
وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه جميعا بصيرا وأولوا
للمراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر واللباز والصراط وجلة من أحكام الآخرة
ولكن أقروا بعشر الأجساد والجنة واشتغالها على الأكلات والشحومات واللتكوحات وللألاذ

(١) حديث الحجر بين الله في الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر (٢) حديث
إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه وأجد نفس
ربكم من قبل اليمين ورجاله تقات .

المحسوسة وبالنار واشتغالها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم ومن ترتبهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا أكل ماورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا بقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم السرفون وحد الاقتصاديين. هذا الانحلال كله وبين جمود الخنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الوقون الذين يدركون الأمور بنور الهی لا بالسماح ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فسا وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه وما خالف أولوه فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتبين له موقف والأليق بالتقصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله والآن فكشف القطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالفه فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة وإذا رأينا أن تقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها وأنهم لا يكافون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوفه تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوازم من الأدلة مختصرة من غير تعمق فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولتقتصر فيها على ما حرمناه لأهل القدس ومبينات الرسالة القدسية في قواعد العقائد وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الفصل الثالث : من كتاب قواعد العقائد في لوازم الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائعين وضلال الملحدين ووقفهم للاقتداء بسيد الرسلين وسددهم للتأسي بصحبه الأكرمين وبسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالجلل التين ومن سبر الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع للنقول وتحققوا أن النطق بما تبعوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هسة الشهادة من الأنطاب والأصول وعرفوا أن كلتي الشهادة على إنجازها تضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفضاله وإثبات صدق الرسول وعطوا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول . الركن الأول في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان وأنه يرى وأنه واحد . الركن الثاني في صفاته ويشتمل على عشرة أصول وهو العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا صميما بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة . الركن الثالث في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنهم متفضل بالخلق والاختراع وأنه تعالى تكليف ما لا يطاق وأنه لا يلام البرى ولا يجب عليه رعاية الأهل والأولاد إلا بالشرع وأن بنة الأنبياء جائزة وأن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات . الركن الرابع في السمعات ومداره على عشرة أصول وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر واليزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار

انشرأحه وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى وذل واهتدى فان قلت : فيزلي أصناف هذه الأخلاق الذمومة التي صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت اللائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معاني التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخبرات السكاكن معها فأعلم أن الأخلاق التي لا يجتمع معها اللائكة في قلب واحد كثيرة والتي في قلوب هؤلاء منها مظهرها وهي الطمع في غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصنف الأول فانهم رجوا وخافوا أن تبدو لهم حمة ما يشغلهم عن قاداتهم وينص عليهم ما رغبوا فيه من راحتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ما هم عليه . وأما الصنف الثاني والثالث فصدم أيضا خوف وجزع وحرص على ما ألقوه من تبجيل أحدهم أن يزول

ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان. وقد قال تعالى - ألم نجعل الأرض مهادا
والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا
فوقكم سبعة سدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من العصرات ماء فنجاءا لنخرج به نباتا وحيات
الفا - وقال تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في
البحر بما ينفع الناس - وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة
وتصريف الرياح والسحاب المسخرين بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون - وقال تعالى - ألم تروا كيف
خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا
ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا - وقال تعالى - أفرأيتم ما تمنون - أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - إلى
قوله - المقوين - فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار
نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدايع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب
والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها
متهورة تحت تسخيرهم ومعرفة بمقتضى تدبيره ولذلك قال الله تعالى - أفي الله شك فاطر السموات والأرض -
ولهذا بث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله وما أمروا أن يقولوا
لنا إله وللإله إله فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفي غفوة شبابهم ولذلك قال
عز وجل - ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله - وقال تعالى - فأقم وجهك للدين حنيفا
فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم - فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن
ما يضي عن إقامة البرهان ولكن على سبيل الاستظهار والافتداء بالعلماء النظار نقول من بدائه العقول
أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب محدثه والعالم حادث فاذن لا يستغنى في حدوثه عن سبب أما
قولنا إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب فجلى فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل
تقدير تقدمه وتأخيره فأخصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتر بالضرورة إلى المختص وأما قولنا
العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث
فهو حادث ففي هذا البرهان ثلاث دواوى : الأولى قولنا إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهذه
مدركة بالبدية والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وانكار فإن من عقل جسا لاسا كنا ولا متحركا
كان لمن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا . الثانية قولنا إنهما حادثان ويدل على ذلك تماقهما
وجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ماشوهد منها وما لم يشاهد لها
من ساكن إلا والعقل قاض بمجاوز حركته ومامن متحرك إلا والعقل قاض بمجاوز سكونه فالطاري
منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه على ما سيأتى بيانه
وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس . الثالثة قولنا ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وبرهانه
أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولولم تنقض تلك الحوادث بمحملتها
لانتهى التوبة إلى وجو الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال ولأنه لو كان للفلك
دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عندها عن أن تكون شغفا أو وترا أو شغفا وترا جميعا أو لا شغفا
ولا وترا ومحال أن تكون شغفا وترا جميعا أو لا شغفا ولا وترا فإن ذلك جمع بين النقيض والاثبات
إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ومحال أن يكون شغفا لأن الشفع صير
وترا بزيادة واحد وكيف يجوز ما لا نهاية له واحد ومحال أن يكون وترا إذ الترتير صير شغفا بواحد
فكيف يجوزها واحد مع أنه لا نهاية لاعدادها ومحال أن يكون لا شغفا ولا وترا إذ له نهاية فتحصل من

ومؤانسة أشياعهم أن
تغير وتذهب ومواساة
إيلافهم أن تنقطع
واستقلال ما يشاهدونه
من أهل الإيمان أن
يلتزموه وفرارا من
شرائطه وما يصحبه
من الأعمال والوظائف
إذ يتشكوه والكلب
ما ضم صورته وإنما ذم
بهذه الأخلاق التي
هي الطمع في الحسائس
والجوع من الصبر على
ما يسهل من الفضائل
حق احترمت لللائكة
أن تدخل بيتا فيه كلب
فان قلت فكيف آمن
من كفر وأطاع من
عصى واهتدى من
ضل إذا كانت
الشياطين لا تفارق
قلب الكافر والعاصي
والضال بما تثبتون
من الأخلاق الذمومة
التي هي كلاب نائمة
وذئاب عادية وسباع
ضارية وأصناف الخير
إنما ترد من الله عز
وجل بواسطة اللائكة
وهي لا تدخل موصفا
عمل فيه شيء مما ذكرنا
وإذا لم تدخل لم يصل
إلى الخير الذي يكون
مهما ولم تصل إليه فضل

هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى الحدث من الدركات بالضرورة. الأصل الثاني : العلم بأن الله تعالى قدير لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لا تقهر هو أيضا إلى محدث وأفتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى مالا نهاية وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سمينا صنائع العالم ومبدئه وبارئته ومحدثه ومبدعه . الأصل الثالث : العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن يتعدم بنفسه أو بعدم مضاده ولو جاز أن يتعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكم يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب وباطل أن يتعدم بعدم مضاده لأن ذلك العدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه وقد ظهر بالأصليين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده فان كان الضد للمعدم حادثا كان محالا إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحدث حتى يدفع وجوده بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث . الأصل الرابع : العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فان سماه سم جوهرا ولم يرد به التحيز كان غمطا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر وإذا بطل كونه جوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جواهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الاقتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والقدر وهذه سمات الحدوث ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو شيء آخر من أقسام الأجسام فان تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا في الاسم مع الإصابة في نفي معنى الجسم . الأصل السادس : العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن الغرض ما يحل في الجسم فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجودا قبله فكيف يكون حالا في الجسم وقد كان موجودا في الأزل وحده وما معه غيره ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ولأنه عالم قادر مريد خالق كما سيأتى بيانه وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لوجود قائم بنفسه مستقل بذاته وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذن لا يشبه شيئا ولا يشبه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كشئ شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه وللقدر مقداره وللصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه ومنه فاستحال القضاء عليها بمائلته ومشابهته . الأصل السابع : العلم بأن الله تعالى منزلة الذات عن الاختصاص بالجهات فان الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا والآخر يقابلها ويسمى رأسا فحدث اسم القوق لما يلي جهة الرأس واسم السفلى لما يلي جهة الرجل حتى إن النملة التى تدب بمنكسة تحت السقف تنقلب جهة القوق فى حقها تحنا وإن كان فى حقا فوقا وخلق للإنسان الدين وإحداها أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم

هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم . فاعلم أن هذا يستدعى أسنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك فى مثل هذا المقام المعلوم والقول وللحق فى جواب ما سألت عنه أن للشيطان غفلات وللأخلق للذمومة عدمات كما أن لللائكة لها عن القلوب غيبات وتواتر الخير عليها قرات فاذا وجد الملك كما أعلمت قلبا خاليا ولو زنا ما فر ودخل فيه وأراه ما عنده من الخير فان صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا وتزوعا أورد عليه ما يعلل ويستغرق له وإن صادف منه سموا ومع منه مجنود الشياطين استغاثة بالأخلق الكلاية استعانة رجل عنه وتركه ولهذا قيل ما خلا ب عن لمة ملك أو زعة شيطان . فان قلت : فأى بيت فهم

اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التي تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا وخلق له جانبين يصير من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها فالجهات حادثة بمحدث الانسان ولو لم يخلق الانسان بهذه الحلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة فكيف كان في الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة أو كيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له أبان خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل وكل ذلك مما يستحيل في العقل ولأن العقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بمحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص المرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو عرضًا فاستحال كونه مختصا بالجهة وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا في الإنسجام مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له وهو محاذ لجسم فلما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير عجوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد الدبر فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء وفيه أيضا إشارة إلى ماهو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء . الأصل الثامن . العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن - ثم استوى إلى السماء وهي دخان - وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

واضطرت أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطرت أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى - وهو معكم أينما كنتم - إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » على القدرة والقهر وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود عين الله في أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكين لزم منه كون المتمكن جسما محاسا للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال وما يؤدي إلى المحال فهو محال . الأصل التاسع : العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرئيا بالعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى - وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل - لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار - ولوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام - لن تراني - وليت شعري كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ولعل الجهل بنوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فاذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك . الأصل العاشر : العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لا ند له انفراد بالخلق والإبداع واستبعاد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساويه ولا ضد له فينازعه ويتاوه وبرهانه قوله تعالى - لو كان

عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب وأي كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان فاعلم أن الحديث خارج على سبب ومعناه وجملته أن التصود بالإخبار هو بيت اللبن وكلب الحيوان معلوم ولا يترك في ذلك ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ولا نكر في ذلك إذ دل عليه العلم ووجه الاستنباط ولم تنجبه القلوب للستزاء ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة فلا تكن جاحدا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من تفور مقلة فكثيرا ما ورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافي معناه ومثابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رب مبلغ أوعى من سامع وحامل

فهي آلهة إلا الله لقدستا - ويانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالثاني إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهورا عاجزا ولم يكن إلهيا قادرا وإن كان قادرا على مخالفته ومداغته كان الثاني قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلهيا قادرا .

(الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأول : العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى في قوله - وهو على كل شيء قدير - صادق لأن العالم عكم في صناعته مرتب في خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسيج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توم صدور نسجه عن ميت لاستطاعة له أو عن إنسان لا قدرته كان متخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا في سلك أهل الغباوة والجهل . الأصل الثاني : العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات - لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء - صادق في قوله - وهو بكل شيء عليم - ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى - ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير - أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع اللزج بالترتيب ولوفى الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف . الأصل الثالث : العلم بكونه عز وجل حيا فان من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في الحركات والسكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انقماش في غمرة الجهالات والضلالات . الأصل الرابع : العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو البدئ والعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارقة للقدرة إلى أحد التقديرين ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص العلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز أن ينفي عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه . الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى مسمع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوم والتفكير ولا يشذ عن مسمعه صوت ديبب التلذذ السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وكيف لا يكون مسمعا بصيرا والسمع والبصر كالاحالة وليس بنقص فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع وكيف تتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعه أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وفيما فقال له - لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا ينفى عنك شيئا - ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى - وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه - وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدة ومسمعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما . الأصل السادس : أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهة الشعراء حيث قال قائلهم :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يقله عقله ولا نهماء نهامه عن أن يقول لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم

فقه إلى من هو الله منه
سؤال : فان قلت قد
قال النبي صلى الله عليه
وسلم « لا تدخل
اللائكة بيتا فيه
صورة » وعلم السبب
الذي جاء هذا الحديث
عليه وفيه فهل يمدى
عن سببه ويرتقى منه
إلى مثل ما ترقى من
الحديث الآخر فهذا كما
قيل الحديث شجون
وأتبنا هذا الباب
ما يقرب منه ويعد
علينا التخلص عنه نعم
يرتقى منه إلى قريب من
ذلك وشبهه ويكون
هذا الحديث منها
عليه وهو أن الصورة
النحوتة قد اتخذت
آلهة وعبدت من
دون الله عز وجل وقد
نهى الله عز وجل قلوب
المؤمنين على عيب فعل
من رضى بذلك ونقص
إدراك من دان به حين
قال ضربا عن إبراهيم
عليه السلام حيث قال -
أتعبدون ما تحتون
والله خلقكم وما
تعلمون - فكان
امتناع اللائكة من
دخول بيت فيه صورة
لأجل أن فيه ماعبد

فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين التأخر عن الباء قديما فتره عن الالتفات إليه قلبك فله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد - ومن يضل الله فماله من هاد - ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستكر أن يرى في الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من المبارات وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة وعفوفة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحديقة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحديقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا في القلوب مكتوبا في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولا حرق . الأصل السابع : أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخل تحت التغير بل يجب للصفات من نوت القدم ما يجب للذات فلا تفتريه التغيرات ولا تحل الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزال في أبدنه كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وإنما ثبتت الحدوث للأجسام من حيث تغيرتها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها في قبول التغير وينبئ على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل - اخلع نعليك - بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به - وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم . الأصل الثامن : أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم بقدم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس كان قدم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر فكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى . الأصل التاسع : أن إرادته قديمة وهي في القدم تملقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاتمة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ولو جاز أن يحدث إرادة يغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة . الأصل العاشر : أن الله تعالى عالم بعلم حي حياة قادر بقدره ومريد بارادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير بصير وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة وقول القائل عالم بلا علم كقوله غنى بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والقتول والقاتل وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتل ولا يتصور قاتل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم

من دون الله سبحانه أو ما حكي به ما هو على مثاله وبترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناء الله ليكون مهبط الملائكة ومحلا للذكر ومعرفة عبادته وحده دون غيره فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تتر به الملائكة أيضا . فإن قيل فظاهر الحديث يقتضي منافرة الملائكة لكل صورة عموما وما ذكرته تمليلا ينبغي أن لا يقتضي إلا منافرة ما عبد أو ما نحت على مثاله . قلنا تشابه الصور النحوت كلها في المعنى الذي قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح وما نعت للعبادة إنما قصده تشبيه ذى روح فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة . فإن قيل فما وجه الترخيص فيما رقم في ثوب فذلك لأنها ليست مقصورة في نفسها وإنما المقصود الثوب الذي رقت فيه .

فليجوز انفسكاكه عن العلوم وانفسكاكه العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .
(الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأول : العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لخالقه له سواء ولا يحدث له إلا بإياه خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحر كتهم لجميع أفعال عباد مخلوقه ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى - الله خالق كل شيء - وفي قوله تعالى - والله خلقكم وما تعملون - وفي قوله تعالى - وأسروا قولكم أو جهروا به إنه علم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير - أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإظهارهم لمعلمهم بموارد أفعالهم واستدل على العلم بالخلق وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا تصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها لما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من النكبات والحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب هيئات هيئات ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات . الأصل الثاني : أن أفراد الله سبحانه باختراع حر كات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والقدر جميعا وخلق الاختيار والاختار جميعا فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليس بكسبه وأما الحر كة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسبه فانها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحر كة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحر كة القدرة والحر كة الضرورية أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحر كات للملكية وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاتصاف في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وقدرة العبد على وجه آخر من التعلق بغيره بالاكتساب وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى في الأزلق كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصل بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بمحصل القدر بها . الأصل الثالث : أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه فلا يجزى في الملك والملكوت طرفة عين ولا فتنة خاطر ولا فتنة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيته ومنه الشر والخير والنفع والضرر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والقوز والخبران والقواية والرشد والطاعة والعصيان والترك والإيمان لأراد لقضائه ولا معقب لحسكه يضل من يشاء ويهدي من يشاء - لا يستل عما يفعل وهم يسألون - ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ما شاء كان . وما لم يشأ لم يكن وقول الله عز وجل - أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا - وقوله تعالى - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها - ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرها ولا يريد بها وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله سمع أنه عدو لله سبحانه والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليتشمع كيف يستجيز السلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لوردت إليها رياسه زعيم ضيعة لاستنكف منها إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته والمصيبة هي الغالية على الخلق وكل ذلك جار عند البدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا ثم مهاظر أن أفعال العباد مخلوقة لله صرح أنها مرادة له . فان قيل فكيف ينهى عما يريد وأمر بما لا يريد

فان قيل لما بال الثياب رخص في حكايتها بالتصوير وذات أنواط في الصرب مشهورة معلومة فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة في أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما في السنة فاخر ثيابها وحلى نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها في ذلك اليوم ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل للنحوته والأصنام ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط حق أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والسيح عليه السلام وعلى رضى الله عنه ولم يبدوا ما تحت على شكل النبات فلم تعبد من هذه الإذات روح فما أبعد عن در كهان حرمة الله تعالى إياها فله الحمد وهو أهله .

قلنا الأمر غير الإرادة ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجة بأن يأمر العبد بفعل ويغالفه بين يديه فقال له أسرج هذه الدابة بعهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد أمثاله ولولم يكن آمرا لما كان عذره عند السلطان مهملوا ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال . الأصل الرابع : أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال إذ هو الموجب والأمر والنهي وكيف يهدف لإيجاب أو تيسر للزوم وخطاب والرد بالواجب أحد أمرين إما الفعل الذي في تركه ضرر إما أجل كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار أو ضرر عاجل كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود العلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرّضه للضرر وأن أراد به المعنى الثاني فهم مسلم إذ بعد سبق العلم لا يمتنع وجود العلوم وإن أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم وقوله يجب لمصلحة عباده كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلاء ويرثهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهو العرض والحساب فإني في ذلك غبطة عند ذوى الألباب . الأصل الخامس : أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه خلافا للمعتزلة ولولم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقساؤا ذلك فقالوا ربنا ولا تعملنا ما لا طاقة لنا به . ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أباهل لا يصدق ثم أمره بأن يأمره بأن يصدق في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدق فكيف يصدق في أنه لا يصدق وهل هذا إلا محال وجوده . الأصل السادس : أن لله عز وجل إيلام الخلق وتذليلهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافا للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم إيلام لها وما صلب عليها من أنواع العذاب من جهة آدميين لم يتقدمها جرمية . فإن قيل إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه . فنقول من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقعة عركت حتى يشيها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه فهو محال وإن أراده غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذا خرج عن المعاني المذكورة للواجب . الأصل السابع : أنه تعالى يفعل لعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون وليت شعري بما يجب للمعتزلي في قوله إن الأصلح واجب عليه في مسئلة نرضها عليه وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ مائة مسلمين فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه يحب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ويجب عليه ذلك عند المعتزلي فلو قال الصبي يارب لم رفعت منزله على فيقول لأنه بلغ واجتهد في الطاعات ويقول الصبي أنت أمتي في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضله فيقول الله تعالى لأنني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا هذا عذر للمعتزلي عن الله عز وجل وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا فانارضينا بما دون منزلة الصبي المسلم فماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند

[بيان أصناف أهل]

الاعتقاد المجرد]

وأما أهل الاعتقاد

المجرد عن تحصيله بالم

وتوثيقه بالأدلة وشده

بالبراهين قد اتسموا

في الوجود إلى ثلاثة

أصناف أحدهم صنف

اعتقدوا مضمون

بما أقرّوا به وحشوا به

قلوبهم من غير تردد

ولا تكذيب أسروا في

أنفسهم ولكم غير

عارفين بالاستدلال

على ما اعتقدوا وذلك

لفرط بدم وغلظ

طبائهم واعتياص

طرق ذلك عليهم ويقع

عليهم اسم الموحدين

ونعمة وجود أمثالهم

كثيرا على عهد سيد

الرسولين صلى الله عليه

وسلم والسلف الصالحين

رضي الله عنهم ثم لم

يلفتنا أنه اعترض

أحد إسلامهم ولا

أوجب عليهم الخروج

منه والعروف عنه ولا

كلفوا مع قصور فهمهم

وبعدم عن فهم ذلك

بعلم الدلالة وقراءة

ترك البراهين وترتيب

الحجاج بل تركوا على

مام عليه وهؤلاء

هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال . فان قيل هما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحا لا يليق بالحكمة . قلنا القبيح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحا عند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أو ولياؤه ويستحسنه أعداؤه فان أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من محاسبة أهل النار ثم الحكيم معناه العالم بمخائلي الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح ، وأما الحكيم منابر أسمى الأصلح نظرا لنفسه لينتفده في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى . الأصل الثامن : أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإحباب الله تعالى وشرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يغلو إما أن يوجبها للغير فائدة وهو محال فان العقل لا يوجب العيب وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يغلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى فانه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سبيلان وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتم به وينصرف عن الشهوات لسببه وليس في المال إلا الثواب والعقاب ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تميز ذلك بالشرع ولقد دل من أخذ هذا من القياس بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر . فان قيل فاذا لم يحب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر للكلف فيه فاذا قال المكلف للنبي إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر أذي ذلك إلى إقحام الرسول صلى الله عليه وسلم . قلنا هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من اللواضع إن وراءك سبعا ضاريا فان لم تبرح عن المكان كذلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي ولا أنظر ما لم يثبت صدقك فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المهرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لي صدقي بالالتفات إلى معجزتي وإلا هلكتم من التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون وإنما على البلاغ المبين » فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ومعنى كون الشيء واجبا أن في تركه ضررا ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فان العقل لا يهدي إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط تركه ضرر في الآخرة . الأصل التاسع : أنه ليس يستحيل بشة الأنبياء عليهم السلام خلافا للبراهمة حيث قالوا لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال النجبة في الآخرة كما لا يهدي إلى الأدوية الفاسدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة .

عندي معذورون
يعدم مقبولون بما
توافقوا عليه من إقرارهم
وعقدتهم والله سبحانه
قد عذرهم مع غيرهم
بقوله سبحانه لا يكلف
الله نفسا إلا الوسعها ولا
يخرجون عن مقتضى
هذه الآيات محال
وسنبدى لك طريقا
من الاعتبار تعرف به
صحة إسلامهم وسلامة
توحيدهم إن شاء الله
عز وجل . والصنف
الثاني اعتقدوا الحق
مع ما ظهر منهم من
النطق واعتقدت مع
ذلك أنواعا من الخائيل
قام في حيلتها أنها أدلة
وطأتها براهين وليست
كذلك وقد وقع في
هذا كثير ممن يشار
إليه فضلا عن دونهم
فان وقع إلى هذا
الصنف من يزعم
عليهم تلك الخائيل
بالصدق ويظهرها
عليهم بالمعارضة أو
الاعتراض لم يلتفتوا
إليه ولا أصغوا لما يأتي
به ويرفعوا إلى أن
يجابوه لما يحملهم
عليه من سوء الفهم
أو رداة الاعتقاد

وعندهم أن جميع تلك الحقايل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ومنهم من يكون دليله خبرا له ومنهم من يكون دليله بعض احتمالات آية أو حديث صحيح ولعمري أنهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقنعوا في شيء من الضلال أن يتركوا على ما هم عليه ولا يهزكوا بأمر آخر بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يمسر انحلالها أو يقنعوا في تكفير مسلم وتضليله بل هناك أسباب كثيرة . واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلما من أغذية النفوس فمن رغب في أكلتها لم يقنع بدونها وإقنا حصل له ذلك قويا به ومن قنع بأيسرها ولم تطمع همته إلى ما هو أعلى

الأصل العاشر : أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصائبين وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر (١) وتسييح الحمى (٢) وإنطاق العجاء (٣) وما تفجر من بين أصابعه من الماء ومن آياته الظاهرة التي تعدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدقوا لسيده ونبيه وقتله وإخراجه كما أخبر الله عز وجل عنهم ولم يقدروا على معارضة بمثله القرآن إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير محارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين - وكقوله تعالى - ألم تغلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين - ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما هجر عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى فلهما كان مقرونا بتحدى النبي ﷺ ينزل منزلة قوله صدقت وذلك مثل القائم بين يدي الملك الدعي على رعيته أنه رسول الملك إليهم فانه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقصد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله صدقت الركن الرابع في السميات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول الأصل الأول : الحشر والنشر (٤) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ومعناه الاعادة بعد الانقضاء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الانشاء قال الله تعالى - قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة - فاستدل بالابتداء على الاعادة وقال عز وجل - ما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة - والاعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول. الأصل الثاني سؤال منكر ونكير (٥) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعي الإعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي يفهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء البيت وعدم معاناة السؤال له فان النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبيه وقد كان رسول الله ﷺ يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه (٦) ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فاذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه .

(١) حديث انشقاق القمر متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث تسييح الحمى البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر . وقال صالح بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمخطوط رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر (٣) حديث إنطاق العجاء أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير التي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله وقد ورد في كلام الضب والذب والجرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل (٤) حديث الحشر والنشر الشيخان من حديث ابن عباس إنكم لمحشورون إلى الله الحديث ومن حديث سهل بن عبد الله الناس يوم القيامة على أرض يضاء الحديث ومن حديث عائشة يحشرون يوم القيامة خفاء ومن حديث أبي هريرة يحشر الناس على ثلاث طرائق الحديث ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أتنا في بيت المقدس وأرض الحشر والنشر الحديث وإسناده جيد (٥) حديث سؤال منكر ونكير تقدم (٦) حديث كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم .

من ذلك ضعف ولكنه
يعيش عيش الطيف
وإنما يهلك من لا بلغه
له ولا يجدها أو يجدها
ولكنها تكون مشابهة
من جاء بمضرة بدعة
ومموم كفر فلا تنهل
عما يشار لك إليه وإنما
المرغوب تنبيهك والله
للسنان وقلم بين
الصف الثاني والأول
من التفاوت من حيث
إن أولئك مقلدون فيما
يستقدونه دليلا غير
أنهم أوثق رباطا من
الأولين لأن أولئك إن
وقع إليهم من شكهم
ربما شكوا وأغل
رباط عقدهم وهؤلاء
في الأغلب لا سبيل إلى
انحلال عقودهم إذ
لا يرون أنفسهم أنهم
مقلدون وإنما يظنون
أنهم مستدلون عارفون
فلهذا كانوا أحسن
حالا. والصف الثالث
أقروا واعتقدوا كما فعل
الذين من قبلهم وقدموا
النظر أيضا ولكنهم
لعدم سلوكهم سبيله
مع القدرة عليه ومعهم
من الذكاء والنظنة
والتيقظ مالم ينظروا
لعلوا ولو استدلو

الأصل الثالث : عذاب القبر وقدر الشرح به قال الله تعالى - النار يرضون عليها غدوا وعشيا ويوم
تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب - واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح
الاستعاذة من عذاب القبر (١) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء
البيت في بطون السباع وحواصل الطيور فإن المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر
الله تعالى على إعادة الإدراك إليها . الأصل الرابع : البرزان وهو حق قال الله تعالى - ونضع للوازن
القسط ليوم القيامة - وقال تعالى - فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه -
الآية ووجه أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى قصير
مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في المقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب . الأصل
الخامس : الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى
- فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقومهم إنهم مسئولون - وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على
أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط . الأصل السادس : أن الجنة والنار
مخلوقتان قال الله تعالى - وسارعوها إلى مفطرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للتقين -
قوله تعالى أعدت دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ولا يقال لا فائدة
في خلقها قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - . الأصل السابع : أن الامام
الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول
الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء
على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم
يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع وذلك مما لا يستجري على اختراعه إلا الروافض واعتقاد
أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أتى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم
وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الامامة
إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشارهم واختلاطهم بالسكر يؤدي إلى
اضطراب أمر الامامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم
يوجب الاغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك ، وقد قال أفاضل العلماء كل مجتهد مصيب وقال قائلون
للصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة علي ذو تحصيل أصلا . الأصل الثامن : أن فضل الصحابة رضي الله
عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه
إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (٢) وإنما يدرك
دقائق الفضل والترتيب فيه للمشاهدون للوحي والتزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل فلو لا فهمهم
ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف ،
الأصل التاسع : أن شرائط الامامة بعد الاسلام والتكليف خمسة الكورة والورع والعلم والكفاية
ونسبة قريش لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٣) وإذا اجتمع عدد من الوصفين
بهذه الصفات فالامام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى

(١) حديث استعاذ من عذاب القبر أخرجه من حديث أبي هريرة وعائشة وقد تقدم .

(٢) حديث الثناء على الصحابة تقدم .

(٣) حديث الأئمة من قريش النسائي من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

الانقياد إلى الخلق . الأصل العاشر : أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لاتطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأننا بين أن تحرك فتنة بالاستبدال فما يليق المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يغوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية الصلحة فلا يهدم أصل الصلحة شغفا بمزاياها كالتدنى بيني قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الامام وبفساد الأقضية وذلك محال ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البقي في بلادهم لميس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الامامة عند الحاجة والضرورة فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فناعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة فآله تعالى يسد لنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه عنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

[الفصل الرابع من قواعد العقائد] في الإيمان والاسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل [مسألة] اختلفوا في أن الاسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلزمه قليل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيان لا يتواصلان وقيل إنهما شيان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر ، وقد أورد أبو طالب السكي في هذا كلاما شديد الاضطراب كثير التطويل فلنجهج الآن على التصريح بالحق من غير تعريض على نقل مالا تحصيل له فنقول في هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين في اللغة ، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوي والثاني تفسيري والثالث فقهي شرعي . البحث الأول : في موجب اللغة والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى - وما أنت بمؤمن لنا - أي بمصدق والاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالاذعان والانقياد وترك التمرد والاباء والعناد والتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمان وأما التسليم فانه عام في القلب واللسان والجوارح فان كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الاباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فوجب اللغة أن الاسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام فاذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا . البحث الثاني : عن إطلاق الشرع والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل . أما الترادف ففي قوله تعالى - فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين - فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين - ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى - يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين - وقال صلى الله عليه وسلم « بني الإسلام على خمس ^(١) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس ^(٢) وأما الاختلاف فقوله تعالى - قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا - ومعناه استسلمنا في الظاهر فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالاسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح ، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب والقدر خيره »

(١) حديث بني الإسلام على خمس أخرجه من حديث ابن عمر (٢) حديث سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس ، البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس تدرون ما الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد أن تؤتوا خمسا من اللقم .

لتحققوا ولو طلبوا
لأدر كواسيل المعارف
ووصلوا ولكنهم آثروا
الراحة وما لو إلى الدعة
واستبعدوا طريق العلم
واستقلوا الأعمال
الموصلة إليه وقصوا
بالقعود في حضيض
الجهل فهؤلاء فيهم
إشكال عند كثير من
الناس في البداية
ويردد في حالهم النظر
وهل يسمون عصاة أو
غير ذلك يحتاج إلى
تمهيد آخر ليس هذا
مقامه والالتفات إلى
هذا الصنف أوجب
خلاف التكمين في
العوام على الإطلاق
من غير تفريق بين
بلد ومتيقظ وفطن
فهم من لم ير أنهم
مؤمنون ولكن لم
يحفظ عنهم أنهم أطلقوا
اسم الكفر عليهم
ولعلك تقول إن
مذهبهم للشيور أن
الحل لا يخلو عن
الصفات إلا إلى ضدها
فن لم يحكم له بالإيمان
حكم عليه بالكفر كما
أن من لم يحكم له
بالحرمة حكم عليه
بالسكون وكذلك

وشبهه فقال لما الاسلام، فأجاب بذكر الجصالح الخمس (١) « فعب بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلم فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « وأما التداخل فما روى أيضا أنه سئل « قيل أى الأعمال أفضل فقال صلى الله عليه وسلم الاسلام فقال أى الاسلام أفضل فقال صلى الله عليه وسلم (٣) « وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الايمان عمل من الأعمال وهو أفضلها والاسلام هو تسليم إمام القلب وإمام اللسان وإمام الجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيمانا والاستعمال لها على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة أما الاختلاف فهو أن يجعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة والاسلام عبارة عن التسليم ظاهرا وهو أيضا موافق للغة فإن التسليم يعنى محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن لمس غيره يعنى بدنه يسمى لامسا وان لم يستغرق جميع بدنه فاطلاق اسم الاسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى - قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا - وقوله صلى الله عليه وسلم « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ويريد بالاختلاف تفاضل السمعين وأما التداخل فموافق أيضا للغة في خصوص الايمان وهو أن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا والايمان عبارة عن بعض ما دخل في الاسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنينا به بالتداخل وهو موافق للغة في خصوص الايمان وعموم الاسلام للكل وعلى هذا خرج قوله الايمان في جواب قول السائل أى الاسلام أفضل لأنه جعل الايمان خصوصا من الاسلام فأدخله فيه وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فإن كل ذلك تسليم وكذا الايمان ويكون التصرف في الايمان على الخصوص يتعميمه وإدخال الظاهر في معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمرة على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الاسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرج قوله - فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين - البحث الثالث : عن الحكم الشرعى، والاسلام والايمان حكمان أخروى ودنيوى . أما الأخروى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٤) »

(١) حديث جبريل لما سأل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته الحديث أخرجه من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم (٢) حديث سعد أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم الحديث أخرجه بنحوه (٣) حديث سئل أى الأعمال أفضل فقال الاسلام فقال أى الاسلام أفضل فقال الايمان أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالشطر الأخير قال رجل يا رسول الله أى الاسلام أفضل قال الايمان وإسناده صحيح (٤) حديث يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان أخرجه من حديث أبى سعيد الخدرى في الشفاعة ، وفيه اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه الحديث ، ولهما من حديث أنس فيقال انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان لفظ البخارى منهما ، وله تعليقاً من حديث

الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ما له من الصفات. قلنا فلئن صح ذلك في الصفات التى هي أعراض قد لا يصح في الأوصاف التى هي أحكام الايمان والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك في شعوب ما نورد على ذلك ومنهم من أوجب لهم الايمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو وهو لا يخالفوا للذكورين قبلهم لأن أولئك سلبوا الايمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل وهؤلاء أوجبوا الايمان لمن أضافوا إليه المعرفة للشرطة في صحة الايمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال وزادوا على أنفسهم أنهم ألوا بقول من جعل المعارف

كلها ضرورية ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد الاعتقاد وعددوا من هذه العارفين كثيرا ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن العارفين كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى النسبية ولم يتم نواحي العبارة على مواضع العلوم وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما ألقوه من عبارات وجدوا أنفسهم غير منكورة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفية ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنتبه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد

وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو فن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ونحن نكشف النطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة وهذه درجة . والدرجة الثانية أن يوجد اثنان وبعض الثالث وهو القول والعقد وبعض الأعمال ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر فعند هذا قالت المعتزلة خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو محلد في النار وهذا باطل كما سنذكره . الدرجة الثالثة أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح وقد اختلفوا في حكمه فقال أبو طالب للمكي العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الاجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى - الذين آمنوا وعملوا الصالحات - إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل في حكم للعاد والعجب أنه ادعى الاجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به (١) » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو الجنة فلا بد أن يقول نعم وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل فتزيد وتقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أوزن ثم مات فهل يغلد في النار فإن قال نعم فهو مراد المعتزلة وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقاق الجنة به وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلى ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية فنقول فما ضبط تلك المدة وماعده تلك الطاعات التي تركها يبطل الإيمان وما عدد الكبائر التي بارتكبها يبطل الإيمان وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل قول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى وهذا ما اختلف فيه ومن شرط القول لحام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يغلد في النار ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة أن يصدق بالقلب ويساعده من العمرملة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يحصل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة وتقول هو مؤمن غير محلد في النار والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى ترجمه اللسان وهذا هو الأظهر إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وقال قائلون القول ركن إذ ليس كلنا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر وقد فلا في هذا طائفة للرجعة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصي فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه لا إله إلا الله أنس يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان وهو عندهما متصل بلفظ خير مكان إيمان (١) حديث لا تكفروا أحدا إلا بجحوده بما أقر به الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه وإسناده ضعيف .

محمد رسول الله ولكن لم يصدق قلبه فلانشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه عجل في النار ولا نشك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه علينا أن نظن به أنه ماقاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه في قلبه وإنما نشك في أمرناث وهو الحكم الديوى فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستغنى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى أن نكح مسلمة ثم يصدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ومحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كان من العبادات والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وليس هذا مانقضا لقولنا إن الإرث حكم الاسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن وهذه مباحث قهية ظنية تنبى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلوم أن الطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده في فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفصح من نظر إلى العادات والراسم في العلوم . فان قلت فإشبهة المعزلة والرجة وما حجة بطلان قولهم . فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما للرجة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل - فمن يؤمن بربى فلا يخاف غصا ولا رهقا - وقوله عز وجل - والذين آمنوا بآية ورسله أولئك هم الصديقون - الآية ولقوله تعالى - كلما أتى فيها فوج سألمهم خزنتها . إلى قوله - فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء - قوله كلما أتى فيها فوج عام فينبى أن يكون كل من أتى في النار مكذبا ولقوله تعالى - لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى - وهذا حصر وإثبات ونفى ولقوله تعالى - من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون - فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى - والله يحب المحسنين - وقال تعالى - إنا لانضيق أجر من أحسن عملا - ولا حجة لهم في ذلك فانه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الاسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة في معاقبة العصاة ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ومن القرآن قوله تعالى - إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء - والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى - ومن مع الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها - وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى - ألا إن الظالمين في عذاب مقيم - وقال تعالى - ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار - فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون (١) بل قوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - كالصرح في أن ذلك لا بد منه لكل إذ لا يغلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى - لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى - أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشتى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى - كلما أتى فيها فوج سألمهم خزنتها - أى فوج من الكفار وتخصيص العمومات

(١) حديث تعذيب العصاة البخارى من حديث أنس يصيين أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها الحديث ويأتى في ذكر الموت عدة أحاديث .

ذلك فذكر فانه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه لكنه ناسى له أو غافل عنه ولولا عرفانه به ما وجد عدم الانكار وسرعة الألفة عنه وطائفة من التكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة للشروطة عند أولئك وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا في هذا الوضع وإنما غرضنا تبديد ما أشاعه في الأحياء أهل الغلول والأغلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك في مراقى الزلف ما ينبى فيها بآذن الله عز وجل .

[فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد]

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تنمة ماجرى فلنعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى فأصنى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان

الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب لكنه على طريق التفاوت كما سبق . الحالة الثانية أن لا يستقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف إذا نظر ولم تنصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يستقد وجود الواحد فقط أو يعتقد أنه موجود حتى لا غير وأمثال هذه التقديرات ويغلو عن اعتقاد باقي الصفات خلوا كاملا لا يخطر بباله ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ولكن التقدير الذي يحتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لنبيه . الحالة الثالثة أن يستقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ويكون فيها يستقد في باقي الصفات على ما لا يوافق الحق ما هو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح فالذي يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى

قريب ومن هذه الآية وقع للأشعري وطائفة من التكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما العزلة فشبهم قوله تعالى - وإني لفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - وقوله تعالى - والمصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتما مقضيا - ثم قال - ثم تنجي الدين اتقوا - وقوله تعالى - ومن يصص الله ورسوله فإن له نارجهم - وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى - ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها - وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى - وينظر مادون ذلك لمن يشاء - فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ماسوى الشرك وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وقوله تعالى - إنا لانضج أجر من أحسن عملا - وقوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمصية واحدة وقوله تعالى - ومن يقتل مؤمنا متعمدا - أي لا يمانه وقد ورد على مثل هذا السبب . فان قلت قد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل وقد اشتهر عن السلف قولهم الإيمان عقد وقول وعمل فإمناه . قلنا لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التديجات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقد هاتين التديتين بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) والصحابة رضی الله عنهم ما اعتقدوا مذهب العزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز لا تقطع الأطراف هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية . (مسئلة) فان قلت قد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمصية فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان . فأقول السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول لما ذكره حق وإنما الشأن في فهمه وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد ببلحيته ومنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالأدب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان . فان قلت فالاشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فأقول إذا تركنا المداينة ولم نكثر بتشبيب من تشب وكشفنا الغطاء ارتفع الاشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه : الأول أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف والشرع صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشد وتقوى وتارة تضعف وتترخي كالعقدة على الحيط مثلا ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصراني والبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استزاله عن اعتقاده بأدنى استئالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر في تمام هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في تمام الأشجار ولذلك قال تعالى - فزادهم إيمانا - وقال تعالى - ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم - وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فما يروى في بعض الأخبار «الايان يزيد وينقص»^(١) وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الايمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فسمع رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك يعتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسيأتي هذا في ربيع للنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالمقالات والقلوب فان ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعني بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودفقة بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال:

رق الزجاج ورفت الحمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولترجع إلى القصور فان هذا العلم خارج عن علم العاملة ولكن بين العالين أيضاً اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتلاقى كل ساعة على علوم العاملة إلى أن يكف عنها بالكشف فهذا وجه زيادة الايمان بالطاعة بموجب هذا الاطلاق ولهذا قال على كرم الله وجهه: إن الايمان ليدو لمة يضاء فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليدو نكته سوداء فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلاق قوله تعالى - كلا بل ران على قلوبهم - الآية . الاطلاق الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم «الايان بضع وسبعون باباً»^(٢) وكما قال صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الايمان لم تخف زيادته وتقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الايمان الذي هو مجرد التصديق هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه . الاطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وإشراح الصدر والشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكن أقول الأمر اليقيني الذي لا شك فيه يختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقنيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الاعادة وقد ظهر في جميع الاطلاقات أن ما قالوه من زيادة الايمان وتقصانه حق

(١) حديث الايمان يزيد وينقص ابن عدي في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدي باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب للملح يعتمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء (٢) حديث الايمان بضع وسبعون باباً وذكر بعد هذا فزاد فيه: أدانها إمطة الأذى عن الطريق البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة الايمان بضع وسبعون زاد مسلم في روايته وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها قد كرهه ورواه بلنظ المصنف الترمذي وصححه .

والله أعلم على سبيل
نجاة ومسلك خلاص
ووصف إيمان أو إسلام
وسواء في ذلك الصنف
الأول والثاني من أهل
الاعتقاد وبيق الصنف
الثالث على محتملات
النظر كما نبهناك عليه
وأما أهل الحالة الثانية
وهي الانقصار على
الوجود الفردي والوجود
ووصف آخر معه مع
الخلو من اعتقاد سائر
الصفات التي للكمال
والجلال وأركانها
فالمقدمون من السلف
لم تشهر عنهم في صورة
للسئلة ما يخرج صاحب
هذا المقدم عن حكم
الايمان والاسلام
والتأخرون مختلفون
فكثير خاف أن يخرج
من اعتقد وجود الله
عز وجل وأظهر
الافرار بنبه صلى الله
عليه وسلم من الاسلام
ولا يعد أن يكون
كثير ممن أسلم من
الأجلاف والرعيان
وضغفاء النساء والأبناء
على هذا بلا مزيد عليه
لوسلوا واستكشفا
عن الله عز وجل هل
له إرادة أو بقاء أو كلام

وكيف لا وفي الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر « مثقال دينار (١) » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت (مسئلة) فان قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله والاستثناء شك والشك في الايمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالايان ويحترزون عنه فقله سفيان الثوري رحمه الله من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمنا في نفسه كان مؤمنا عند الله كأن من كان طويلا وسخيا في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من كان مسرورا أو حزينًا أو صميا أو بصيرا ولو قيل للانسان هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله ولما قال سفيان ذلك قيل له فإذا تقول قال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن وقيل للحسن مؤمن أنت فقال إن شاء الله قيل له لم تستثنى يا أبا سعيد في الايمان فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق على الكلمة وكان يقول ما يؤمنى أن يكون الله سبحانه قد اطلع على في بعض ما يكره فمقتنى وقال اذهب لا قبلت لك عملا فأنا عمل في غير معمل وقال إبراهيم بن آدم إذا قيل لك مؤمن أنت قل لا إله إلا الله وقال مرة قل أنا لأشك في الايمان وسؤالك إياي بدعة وقيل لمقلمة مؤمن أنت قال أرجو إن شاء الله وقال الثوري نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى فاما معنى هذه الاستثناءات فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه وجهان مستندان إلى الشك لافي أصل الايمان ولكن في خاتمة أو كاله وجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول الذي لا يستند إلى معارضة الشك الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تركية النفس قال الله تعالى - فلا تزكوا أنفسكم - وقال - ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم - وقال تعالى - انظر كيف يفترون على الله الكذب - وقيل لحكيم ما الصدق القبيح فقال ثناء للرء على نفسه والايان من أطل صفات المجد والجزم به تركية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها قل من عرف التركية كما يقال للانسان أنت طيب أو قبيح أو مفسر فيقول نعم إن شاء الله لافي معرض التشكيك ولكن لاخراج نفسه عن تركية نفسه فالصيغة صيغة التردد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للزوم من لوازم الخبر وهو التركية وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثاني : التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله - ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رء وسكم ومقصرين - وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لأحالة وأنه شاءه ولكن للقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون (٢) » والحقوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن اظهار الرغبة والتمنى فاذا قيل لك إن فلانا يموت سريرا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشكك وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه أو يصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى

(١) حديث يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار متفق عليه من حديث أبي سعيد وسيأتي في ذكر اللوت وما بعده (٢) حديث لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

أو ما شاكل ذلك وهل له صفات معنوية ليست هي هو ولا هي غيره ربما وجدوا مجهولون هذا ولا يقولون وجه ما يخاطبون به وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووجدانيته مع الاقرار بالنبوة من حكم الاسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قدر رفع القتال والقتل وأوجب حكم الايمان أو الاسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى الدينية من غير نظر ثم معنا عمن قالها في صدر الاسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيات الأعمال الدينية والكف عن أذى السلم ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ولاهل الله تعالى عالم يعلم أو عالم بنفسه وهو باق يقاء أوابق بنفسه وأشباه

معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأديب بذكر الله تعالى كيف كان الأمر . الوجه الثالث مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله إذ قال الله تعالى تقوم غصوصين بأعيانهم - أولئك هم المؤمنون حقا - فاقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لافي أصله وكل انسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر والشك في كمال الإيمان حق من وجهين : أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه . والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى - إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون - فيكون الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين - فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالمهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى - أولئك الذين صدقوا - وقد قال تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - وقال تعالى - لا يستوى منكم من أتى من قبل الفتح وقاتل - الآية وقد قال تعالى - هم درجات عند الله - وقال **عليه السلام** « الإيمان عريان ولباسه التقوى ^(١) » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضغ وسبعون بابا أدناها إمطة الأذى عن الطريق » فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الحقي قوله صلى الله عليه وسلم « أربع من كنّ فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر ^(٢) » وفي بعض الروايات « وإذا عاهد غدر » وفي حديث أبي سعيد الخدري « القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القبيح والصديد فأى للمادتين غلب عليه حكم له بها ^(٣) » وفي لفظ آخر « غلبت عليه ذهبته » قال عليه السلام « أكثر منافق هذه الأمة قراؤها ^(٤) » وفي حديث « الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا ^(٥) » وقال حذيفة رضى الله عنه « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات ^(٦) » وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه يرى من النفاق وقال حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكلاه وهو خفي . وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه يرى منه فقد قيل للحسن البصري يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق وقال هو أو غديره لو نبئت للمناققين أذئاب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا

(١) حديث الإيمان عريان تقدم في العلم (٢) حديث أربع من كنّ فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث القلوب أربعة قلب أجرد الحديث أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (٤) حديث أكثر منافق هذه الأمة قراؤها أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر (٥) حديث الشرك أخفى في أمتي من ديب النملة على الصفا أبو يعلى وابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى وسليمان في ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا الحديث أحمد بإسناد فيه جهالة وحديث حذيفة للمناققون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث البخارى إلا أنه قال شر بدل أكثر .

سده المعارف ولا يدفع ظهور هذه إلا معاند أوجاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأنى أن يذعن لتعلم ما زاد على معانده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من لا إله إلا الله دخل الجنة ولملك يقول قد قال في مواطن أخرى إلا يحقها ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكلاه من حقها ثم من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يستقدها وأما من خلا من اعتقادها ولم يقله أن يلقاها ولم يسمع بها فقيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر وهذا وأمث

تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وذكر من الثقال إلى القدرة والحدلة من الإيمان إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم الرادين لأن التقدير وقع في الإيمان لافي الأعمال فان قلت فان من الناس وأمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها قلنا قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لبدا له أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصويره عن معرفة شرطها في إيمان غيره ولآثر من حسه الركون إلى ما رأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب

«وسمع ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يتعرض للحجاج فقال أرايت لو كان حاضرا يسمع أ كنت تسكلم فيه فقال لا فقال: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه» وقيل للحسن إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق وقال والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إلي من تللاع الأرض ذهبا وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه إني أخاف أن أكون منافقا فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن النفاق قد أمن من النفاق وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين ومائة وفي رواية خمسين ومائة من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه فقال صلى الله عليه وسلم أرى على وجهه سعة من الشيطان، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك فقال اللهم نعم» (٢) وقال ﷺ في دعائه «اللهم إني أستغفرك لما علمت ولم أعلم قليل له آخاف يا رسول الله فقال وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال سبحانه - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يعتسبون» (٣) قيل في التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات وقال سري السقطي لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور غطاه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا في يديها فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في النفاقين وقال أبو سليمان الداراني سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكر خفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روعي فكففت وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكاله وصفاه لأصله فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويأحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلفين في النار والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية والأمن من مكر الله والعجب وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون . الوجه الرابع: وهو أيضا مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتعة فانه لا يدري أي سلم له الإيمان عند الموت أم لا فان ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ولو سئل (١) حديث سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرايت لو كان حاضرا أ كنت تسكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج (٢) حديث كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء الحديث أحمد والبراز والدارقطني من حديث أنس (٣) حديث اللهم إني أستغفرك لما علمت ولم أعلم الحديث مسلم من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل ولأبي بكر بن الضحاك في الشامل في حديث مرسل وشر ما أعلم وشر ما أعلم ...

الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم قطعا فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على النقام إلى غروب الشمس من آخر النهار وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه والعاقبة غوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القنينة السابقة والشبهة الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور القضي به ولا مطلع عليه لأحد من البشر غروف الحائمة تكوف السابقة وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بتقيضه فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وقيل في معنى قوله تعالى - وجاءت سكرة الموت بالحق - أي بالسابقة يعني أظهرتها . وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله ما من أحديا من أن يسلب إيمانه إلا سلبه وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الحائمة نموذ بالله من ذلك وقيل هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالأقراء . وقال بعض العارفين لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت للموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لا أدري ما يمرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار . وقال بعضهم لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد وفي الحديث «من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل»^(١) وقيل في قوله تعالى - وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا - صدق لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك - وقد قال تعالى - ولله عاقبة الأمور - فهم ما كان الشك بهذه الثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الدمة وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الدمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يعد أن يسأل عن الصوم لماضى الذى لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصحمت بالأمس فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو القبول والقبول غائب عنه لا يطالع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا في القبول إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطالع عليها إلا الرب الأرباب جلّ جلاله فيحسن الشك فيه فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به كتاب قواعد العقائد ثم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(كتاب أسرار الطهارة وهو الكتاب الثالث من ربيع المبادات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلتطف بعباده فتصدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزيكية لسرايرهم أنواره وألطفه، وأعدّ لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالبرقة واللطفه ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاها يوم الخافه ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «بنى الدين على النظافة»^(٢) .

(١) حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل الطبراني في الأوسط بالشرط الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم والشرط الأول روى من قول يعقوب بن أبي كثير رواه الطبراني في الأصغر بلفظ من قال أنا في الجنة فهو في النار وسنده ضعيف .

(كتاب الطهارة)

(٢) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فان الاسلام نظيف والطبراني في الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود والنظافة تدعو إلى الإيمان .

ولم يدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يقولوا اسم الكفر عليهم ثم يرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ما قالوه وقص ما قالوا إليه فلترجع إلى ما نحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل وأما أرباب الحالة الثالثة وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها فان حكمتنا بصحة إيمان أهل الحالة للذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه اذ لم يقنعوا فيه بوجه تصديقهم عن إيصال العذر لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك فان أمكن ردم في الدنيا وزجرهم عنه أن أظهرنا النع عن الاتصال والرجوع

بالعبودية المؤلفة دون
قتل كان ذلك وإن
قالوا بالموت لم تقصرهم
في اعتقادنا عن أرباب
الحالة الثانية المذكورة
قبلهم والله أعلم بالتأجي
والهالك من خلقه
والطبع والعامى من
عباده هكذا ينبغي أن
يكون مذهب من نظر
في خلق الله تعالى بين
الرفقة والرحمة ولم
يدخل بين الله عز وجل
وبين عباده فيما ناب
عنه علمه وعدم فيه
سبيل اليقين وفهم
معنى قوله عز وجل
- ولا تقف ما ليس
لك به علم إن السمع
والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه
مسئولا - . فإن قلت
وأين أنت من تكفير
كثير من الناس لجميع
أهل البدع عامة وخاصة
وقول النبي صلى الله
عليه وسلم في القدرية
« إنهم مجوس هذه
الامة » وقوله صلى الله
عليه وسلم « ستفترق
أمتي إلى ثلاث وسبعين
فرقة كلها في النار إلا
واحدة » وقال عن

وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور ^(١) » وقال الله تعالى - فيرجل يحبون أن يتطهروا
والله يحب المطهرين - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الايمان ^(٢) » قال الله تعالى
- ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم - فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن
أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوة على الله عليه وسلم « الطهور نصف الايمان »
عمارة الظاهر بالتنظيف بافاسة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإيقائه مشحونا بالأخيات والأقدار هيئات
هيئات والطهارة لها أربع مراتب : للرتبة الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخيات
والفضلات . للرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .. للرتبة الثالثة : تطهير القلب عن
الأخلاق المذمومة والردائل المعقوثة . للرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء
صلوات الله عليهم والصدّيقين والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في عمل
السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن نعمل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل
ماسومه الله تعالى عنه ولذلك قال الله عز وجل - قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - لأنهما لا يجتمعا
في قلب - وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق
المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن شوائبها من العقائد الفاسدة والردائل
المعقوثة فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شرط
الايمان بهذا المعنى وكذلك تطهير الجوارح عن الناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو
شرط في الثاني فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارته بالطاعات الشطر الثاني فهذه
مقامات الايمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة الساقطة فلا يصل
إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق
الذموم وعمارته بالخلق الحمود ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن الناهي
وعمارته بالطاعات وكلما عزّ الطالب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظن
أن هذا الأمر يدرك بالمنى ويتال بالمهوى ، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من
مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالاضافة إلى اللب المطلوب فصار
يعمن فيها ويستقصي في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر
وطلب المياه الجارية الكثيرة طمانه بحكم الوسوسة وتغيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي
هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساھلهم في أمر
الظاهر حتى إن عمر رضى الله عنه مع علو منصبه تواضاً من ماء في جرة نصرانية وحسب إنهم
ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخص أقدامهم وعدوا
الأشنان من البدع المحدثه ولقد كانوا يصلون على الأرض في للساجد ويمشون خفاة في الطرقات
ومن كان لا يجمل بينه وبين الأرض حاجزا في مضجعه كان من أكابرهم وكانوا يقتصرون
على الحجارة في الاستنجاء وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كنا نأكل الشواء فتقام
الصلاة فتدخل أصابعنا في الحصى ثم نفرّكها بالتراب ونكبر ^(٣) » وقال عمر رضى الله عنه :

(١) حديث مفتاح الصلاة الطهور د ت . من حديث علي قال الترمذي هذا أصح شيء في هذا الباب
وأحسن (٢) حديث الطهور نصف الايمان ت من حديث رجل من بني سليم وقال حسن ورواه مسلم
من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ شطر كافي الإحياء (٣) حديث كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة
فتدخل أصابعنا في الحصى الحديث . من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة .

« ما كنا نعرف الأشنان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا كنا إذا أكلنا القمح مسحنا بها (١) » ويقال أول ما ظهر من البدع بمدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع الناخل والأشنان والوائد والشبع فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم الصلاة في التعلين أفضل « لأن رسول الله ﷺ لما نزع نعليه في صلاته يأخذه جبرائيل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتن نعالكم (٢) » وقال النخعي في الدين يخلعون نعالهم وددت لو أن محتاجا جاء إليها فأخذها منكرا لخلع النعال فكذا كان تساهلهم في هذه الأمور بل كانوا يعيشون في طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون في المساجد على الأرض وياكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه ولا يحترزون من عرق الإبل والحيل مع كثرة تمرتها في النجاسات ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات فكذا كان تساهلهم فيها وقد انتهت النبوة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الناشطة بعروستها والباطن خراب مشحون بغبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والتفاخر ولا يستكفون ذلك ولا يتعجبون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو طوى بوارى السجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم أو تواضعا من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زميرهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته فسموا البذاءة التي هي من الإيمان قذارا والرعونة نظافة فانظر كيف صار النكر معروفا والمعروف منكرا وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه . فان قلت أقول إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظائهم من المحظورات أو المنكرات . فأقول حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكني أقول إن هذا التنظيف والتكف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار للقدم به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد يقرن بها أحوال ونيات تليقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات فأما كونها مباحة في نفسها فلا ينبغي أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف وأما مصيرها منكرا فبأن يحمل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله ﷺ « بنى الدين على النظافة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرم فان ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكرا بهذين الاعتبارين وأما كونه معروفا فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره فإذا لم يقرن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يحمل قربة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للباطنين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعني فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يحمده ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف . وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن

(١) حديث عمر ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بباطن أرجلنا الحديث لم أجده من حديث عمرو لابن ماجة نحوه مختصرا من حديث جابر (٢) حديث خلع نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة ذلك وصححه من حديث أبي سعيد الخدري .

قوم « يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية أو من قول خير البرية يقرءون من الدين كما يقرء السهم من الرمية » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالاطلاق فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام التقيين صلى الله عليه وسلم فهو عليه الصلاة والسلام حين قال عجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة وما حكم بأن لم يقل عجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار فما أخبر أنهم خالدون فيها وحين قال يقرءون من الدين كما يقرء السهم

من الرمية قد قال
متصلا بهذا القول
وتناري في الفرق وما
موضع هذا التناري
من المثل الذي ضربه
فيهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال
أراك تلاحظ جهة
وتترك أخرى وتذكر
شيئا وتذهل عن غيره
عليك بالعدل تكن
من أهله واستعمل
التفطن تشاهد
العجائب المعجبة
وتفهم قول الله
- وكذلك جعلناكم
أمة وسطا لتكونوا
شهداء على الناس
ويكون الرسول
عليكم شهيدا - .

[فصل] ولما كان
الاعتقاد المجرد عن
العلم بصحته ضعيفا
وتفرد عن المعرفة
قريبا من رآه ألقى
عليه شبه القشر الثاني
من الجوز لأن ذلك
القشر يؤكل مع ما هو
عليه صونا وإذا انفرد
أمكن أن يكون طعاما
للحجاج وبلاغا للجائع
وبالجملة فهو لمن لا شيء
معه خير من قدسه

بصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر
وأعزها في حق من قدر على الانتفاع به ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولا ينبغي
للبطال أن يترك النظافة ويشكر على التصوفة وزعم أنه يشبه بالصعابة إذ التشبه بهم في أن لا يفرغ
إلا لما هو أهم منه كما قيل لداود الطائي لم لا تسرح لحيتك؟ قال إني إذن لفارغ فلهذا لا أرى للعالم ولا
للتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته في غسل الثياب احترازا من أن يلبس الثياب القصورة وتوها بالقصار
تقصير في الفصل فقد كانوا في العصر الأول يصلون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين القصور
والمدبوغة في الطهارة والنجاسة بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظركم في استنباط
الاحتمالات الدقيقة بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يعيش
معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى
هذا الاسراف فالناظر إليه معين له على الاسراف فكانوا يعدون حمام الذهب لاستنباط مثل هذه
الرقائق لافي احتمالات النجاسة فلو وجد العالم عاميا يتعاطى له غسل الثياب محتاطا فهو أفضل فانه بالاضافة
إلى التساهل خير وذلك العاى يتنفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمانة بالسوء بعمل الباح في نفسه فيمتنع
عليه للمعاصي في تلك الحال والنفس إن لم تشغل بشئ شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار
ذلك عنده من أفضل القربات فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظا عليه وأشرف
وقت العاى أن يشغل عقله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال
وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على البعض فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها
إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا عذافيرها وإذا عرفت هذه المقدمة واستبنت أن الطهارة لها
أربع مراتب . فاعلم أنا في هذا الكتاب لسنا نكمل إلا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر لأننا في الشرط
الأول من الكتاب لا نتمرض قصد إلا للظواهر فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام طهارة عن الحبث وطهارة
عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن وهي التي تحصل بالقلم والاستعداد واستعمال النورة والختان وغيره .
(القسم الأول في طهارة الحبث والنظر فيه يتعاق بالزوال والمزال به والازالة)

(الطرف الأول في المزال)

وهي النجاسة . والأعيان ثلاثة جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل
متبذ مسكر والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما فإذا ماتت
فكلها نجسة إلا خمسة الآدمي والسمك والجراد ودود التفاح وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة
وكل ما ليس له نفس سائلة كالدباب والحفشاء وغيرها فلا ينجس الماء بوقوع شئ منها فيه وأما أجزاء
الحيوانات فقسمان : أحدهما ما يقطع منه وحكمه حكم الميت والشعر لا ينجس بالجزء والموت والعظم ينجس .
الثاني الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللحاح
والخاط وما له مقر وهو مستحيل تنجس إلا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض والقيح والدم والروث
والبول نجس من الحيوانات كلها ولا يعني عن شئ من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة :
الأول أثر النجس بعد الاستجمار بالأحجار يعني عنه ما لم يعد المخرج . والثاني طين الشوارع وغبار الروث
في الطريق يعني عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه وهو الذي لا ينسب التلطيخ به إلى
تفريط أو سقطة . الثالث ما على أسفل الحنف من نجاسة لا يغسل الطريق عنها فيعني عنه بعد ذلك للحاجة .
الرابع دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا تجاوز حد العادة سواء كان في ثوبك أو في ثوب غيرك فلبسته .
الخامس دم البثرات وما يفصل منها من قيح وصديد وذلك ابن عمر رضى الله عنه برة على وجه

غُرج منها الدم وصل لم يغسل وفي معناه ما يترشح من لطخات الدمايل التي تدوم غالباً وكذلك أثر القصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ولا يكون في معنى البثرات التي لا يغسلها الإنسان عنها في أحواله ومساهمة التبرع في هذه النجاسات المحس تترك أن أمر الطهارة على التسهيل وما ابتدع فيها وسوسة لأصل لها .

(الطرف الثاني في الزال به)

وهو إما جامد وإما مائع أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترق وأما المائعات فلا تزال النجاسات حتى منها إلا الماء ولا كل ماء بل الطاهر الذي لم يتناحش تغيره بخالطة ما يستغنى عنه ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه فإن لم يتغير وكان قريباً من مائتين وخمسين منا وهو خمسمائة رطل برطل العراق لم يتنجس لقوله صلى الله عليه وسلم «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً»^(١) وإن كان دونه صار نجساً عند الشافعي رضي الله عنه هذا في الماء الراكد وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة الجارية للتغير نجسة دون ما فوقها وما تحته لأن جريات الماء متفاوتات وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقتها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة لما فوق النجاسة طاهر وما أسفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع في حوض قدر قلتين وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجساً بالتفريق هذا هو مذهب الشافعي رضي الله عنه وكنت أود أن يكون مذهبه كذهب مالك رضي الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذا الحاجة ماسة إليهم مئثار الوسواس اشتراط قلتين ولأجله شق على الناس ذلك وهو لم يجرى سبب للشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله وما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطاً لكان أولى المواضع بتغير الطهارة مكة والمدينة إذ لا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكد الكثرة ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يهتزون عن النجاسات وقد توضحاً عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية وهذا كالصريح في أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء وإلا فتجاسة النصرانية وإنائها غالباً تعلم بظن قريب فإذا عسر القيام بهذا للذهب وعدم وقوع السؤال في تلك الأعصار دليل أول وفعل عمر رضي الله عنه دليل ثان والدليل الثالث إسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة^(٢) وعدم تقطية الأواني منها بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السناير فيها وكانت لاتنزل الآبار . والرابع أن الشافعي رضي الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضاً ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء في إجابة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإحانة وفيها ماء وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأواني . والخامس أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف في مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلاً وأى فرق بين الجاري والراكد وليت

(١) حديث إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر (٢) حديث إسماء الاناء للهرة الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبي قتادة .

وكذلك اعتقاد التوحيد وإن كان مجرداً عن سبيل للفرقة وغير منوط بشئ من الأدلة ضعيفاً فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التطييل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والشكر . [بيان أرباب للرتبة الثالثة وهو توحيد للقرنين] والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود : أحدها أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه وللأسالك التي يصبر عليها نحوه والأحوال التي يتخذها بمحصوله كإقذاره العز بن العليم واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط للستقيم والحد الثاني أن يكون الكلام في حين ذلك التوحيد وقته وحقيقته وكيف يتصور للأسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة

والحد الثالث في غمرات ذلك التوحيد وما يلحق أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمونه به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه وتذلل للصغير والكبير مأمور به مشددا في أمره متوعدا بالنار على كتمه فيه بثم الأنبياء ومن أجله أرسل الرسل وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمته وحبه الصحف والكتب وليقع التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتموه وفيه أنزل الله يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ولما عني رسول الله

شمرى هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ثم ما حد تلك القوة تجري في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا فإن لم تجر في الفرق وإن جرت في الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضا جارية ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجارى من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجري عليها وإن لم يتغير نجس إلى أن يجتمع في مستنقع قلتان فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة . والسادس أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقنا فكل كوز يشتر منه طاهر ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شمرى هل تحليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة كثرة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها . والسابع أن الحمامات لم تنزل في الأعصار الحالية يتوضأ فيها المتشفون ويضمون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدي النجسة والطهارة كانت تتوارد عليها فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم « خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أولونه أو ريحه » (١) وهذا فيه تحقيق وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوبا من جهته فكما ترى السكب يقع في المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة الكلية عنه فكذلك الحلل يقع في الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بقلية طعمه أولونه أو ريحه فهذا للعيان وقد أشار الشارع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يذهب عليه فيطهره كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الفسالة وفي الماء الجارى وفي إصفاء الاناء للهرة ولا تظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان أكثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاق له نجسا ولا ينجس بالفسالة ولا ببولوغ السنور في الماء القليل وأما قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثا » فهو في نفسه مبهم فإنه يحمل إذا تغير . فإن قيل أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها يمكن وقوله لا يحمل خبثا ظاهره نفي الحمل أى يقلبه إلى صفة نفسه كما يقال للمملحة لا تحمل كلبا ولا غيره أى ينقلب وذلك لأن الناس قد يستنجون في المياه القليلة وفي القدران ويضمون الأواني النجسة فيها ثم يرددون في أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير بهذه النجاسة المعتادة . فإن قلت فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثا » ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حافلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعا وعلى الجملة فمبلى في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسب المادة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل .

(الطرف الثالث في كيفية الإزالة)

والنجاسة إن كانت حكيمة وهي التي ليس لها جرم محسوس فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها وإن كانت غيفة فلا بد من إزالة العين وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا أن يلحق به فهو معفو عنه بعد الحلت والقرص أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يبقى عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يصير إزالتها فالدلك والمصررات متواليات يقوم مقام الحلت والقرص في اللون

(١) حديث خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه . من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف وقد رواه بدون الاستثناء دونت من حديث أبي سعيد وصححه د وغيره .

والزبل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة ييقن فلا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصلي معه ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات . القسم الثاني طهارة الأحداث : ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، فلتنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

(باب آداب قضاء الحاجة)

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستتر بشيء إن وجدته وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان في بناء والعدول أيضا عنها في البناء أحب وإن استتر في الصحراء براحتة جاز وكذلك بذيله وأن يتقى الجلوس في متحدث الناس وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الحجر وأن يتقى الموضع الصلب ومهب الرياح في البول استنزاهها من رشاشه وأن يتكىء في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بستان يقدم الرجل اليسرى في الدخول واليمين في الخروج ولا يبول قائما قالت عائشة رضي الله عنها « من حدثكم أن النبي ﷺ كان يبول قائما فلا تصدقوه » (١) وقال عمر رضي الله عنه « رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : يا عمر لا تبول قائما » (٢) قال عمر فابلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضي الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما فأتيته بوضوء فوضأ ومسح على خفيه » (٣) ولا يبول في القنصل قال صلى الله عليه وسلم « عامة الوسواس منه » (٤) وقال ابن المبارك قد وسع في البول في القنصل إذا جرى للماء عليه ذكره الترمذي وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم في مستحمه ثم يتوضأ فيه فان عامة الوسواس منه » وقال ابن المبارك إن كان الماء جاريا فلا بأس به ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس وأن يقول عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم وعند الخروج الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذي وأبقى علي ما ينفعني ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد النبيل قبل الجلوس وأن لا يستنجي بالماء في موضع الحاجة وأن يستبرئ من البول بالتنضيع والترتلات وإمرار اليد على أسفل القضيبي ولا يكثر التفكر في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء فان كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء (٥) وقد كان أحفهم استبراء أقفهم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه وفي حديث سلمان رضي الله عنه « علنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة فأمرنا أن لا نستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بفائط أبول » (٦) وقال رجل لبعض الصحابة من العرب وقد

صلى الله عليه وسلم بقوله « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وجميع ذلك محصور في اثنتين العلم بالعبادة والغسل بالسنة وما مبنيان على آيتين الحرص الشديد والنية الحافظة والسرف في تحصيلهما اثنان نظافة الباطن وسلامة الجوارح ويسمى جميع ذلك بعلم العاملة وأما الحد الثاني فالكلام فيه أكثر مما يكون على طريقة ضرب الأمثال تشبها بالرمز تارة وبالتصریح أخرى ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل ما يشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب بعيدا من هوة الهوى نظيفا من دنس التقليد ، وأما الحد الثالث فلا سبيل إلى ذكر شيء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على

(٢) حديث عائشة من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ت ن . قال ت هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح (٣) حديث عمر رضي الله عنه « رأي رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة فأمرنا أن لا نستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بفائط أبول » (٤) حديث قال في البول لعمر (٥) حديث أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما الحديث متفق عليه (٦) حديث قال في البول في القنصل عامة الوسواس منه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذي غريب قلت وإسناده صحيح (٥) حديث رش الماء بعد الوضوء وهو الاغتسال د ن . من حديث سفيان بن الحكم الثقفي أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كقالت وابن عبد البر (٦) حديث سلمان علنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة الحديث م وقد تقدم في قواعد العقائد .

سبيل التذكار لاطي
التعليم إنما كانت أحكام
هذه الحدود الثلاثة
على ما وصفناه لأن الحد
الأول فيه محض النص
للخلق واستفادهم من
غمرة الجهل والتكيب
هم من مهاوى العطب
وقودهم إلى معرفة هذا
للقيام وماوراء مما هو
أعلى منه مما لهم فيه
الملك الأكبر وقور الأبد
وقد بين لهم غاية البيان
وأقيم عليه واضح
البرهان وهو يومئذ
الطريق وأول سبيل
السعادة فمن عجز عن
ذلك كان عن غيره
أعجز ومن سلكه على
استقامة فالغالب عليه
الوصول إن الله لا يضيع
أجر من أحسن عملا
ومن وصل شاهد ومن
شاهد علم وذلك غاية
الطلب ونهاية الرغبة
والمحسوب ومن قصد
حرم الوصول وما بعده
فضل الله المجاهدين على
القاعدين أجرا عظيما
ومن غاب لم تنفعه
الأخبار ولم يفده
كثير من الأحاديث
وأياها فإن الأخبار
بما وراء الحد الأول

خاصه لأحسبك نعمن الحراء قال بلى وأليك إني لأحسها وإني بها لحاذق أبعد الأثر وأعد الددر
وأستقبل الشيخ وأستدير الريح وأقمى إقواء الظبي وأجفل إجمال النعام . الشيخ ثبت طيب الرائحة
بالبادية، والإقواء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والاجفال أن يرفع عجزه ومن الرخصة أن يبول
الانسان قريبا من صاحبه مستترا عنه (١) فعل ذلك رسول الله ﷺ مع شدة حياته ليبين للناس ذلك.

(كيفية الاستنجاء)

ثم يستنجي لمقدمته بثلاثة أحجار فلان أنقى بها كفى والاستعمل رباعا فان أنقى استعمل خامسا لأن الإقواء
واجب والإيتار مستحب قال عليه السلام « من استجمر فليوتر (٢) » يأخذ الحجر بيساره ويضعه
على مقدم القعدة قبل موضع النجاسة ويمر بالمسح والادارة إلى المؤخر ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر
كذلك ويمر به إلى المقدمة ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فان عسرت الإدارة ومسح
من المقدمة إلى المؤخر أجزاء ثم يأخذ حجرا كبيرا يمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه
ويمحرك اليسار فيمسح ثلاثا في ثلاثة مواضع أو في ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن
لا يرى الرطوبة في محل للمسح فان حصل ذلك بمرتين آتى بالثالثة ووجب ذلك إن أراد الاقتصاد على
الحجر وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجي
بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجاسة ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللبس ويترك
الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فان ذلك منبع الوسواس ويعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن
ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فظهره أن
يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس ويقول عند الفراغ من الاستنجاء اللهم طهر قلبي من النفاق وحسن
فرجي من الفواحش ويدلك يده بمحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت والجمع بين الماء والحجر
مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين - قال
رسول الله ﷺ لأهل قباء ما هذه الطهارة التي أئتمى الله بها عليكم قالوا كئنا نجتمع بين الماء والحجر (٣) »

(كيفية الوضوء)

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله ﷺ قط خارجا من الغائط إلا توضأ ويبتدئ
بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهمكم طرق القرآن فطيوها بالسواك (٤) »
فينبغي أن ينوى عند السواك تطهير فيه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم
« صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث البول قريبا من صاحبه متفق عليه من حديث حذيفة (٢) حديث من استجمر
فليوتر متفق عليه في حديث أبي هريرة (٣) حديث لما نزل قوله تعالى - فيه رجال يحبون أن
يتطهروا - الحديث من أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء البراز من حديث ابن عباس بسند ضعيف
ورواه هـ ك ومحمه من حديث أبي أيوب وجابر وأنس في الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر الحجر
وقول النووي تبع لابن الصلاح إن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف مردود بما تقدم
(٤) حديث إن أفواهمكم طرق القرآن أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه موقوفا على
وكلاهما ضعيف (٥) حديث صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك أبو نعيم
في كتاب السواك من حديث ابن عمر بأسناد ضعيف ورواه دك ومحمه والبيهقي وضعفه من حديث
عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة .

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (١) «وقال صلى الله عليه وسلم «مالي أراكم تدخلون على قلحا استاكوا» (٢) «أي صفر الأسنان» وكان عليه السلام يستاك في الليلة مرارا (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء» (٤) وقال عليه السلام «عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب» (٥) وقال على ابن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلم (٦). وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم وكيفيته أن يستاك بغشب الأراك أو غيره من قشبان الأشجار مما يخن ويزيل القلع ويستاك عرضا وطولاً، اقتصر فرضا ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبها وعند تغير الكعبة بنوم أو طول الأزم أو أكل ما تكره راحته ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول بسم الله الرحمن الرحيم قال صلى الله عليه وسلم «لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى» (٧) أي لا وضوء كامل ويقول عند ذلك أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ثم يسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلها الإناء ويقول اللهم إني أسألك الجن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتضمض بها ثلاثا ويغترغ بأن يرد الماء إلى الفلصة إلا أن يكون صائما فيرق ويقول اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ثم يأخذ غرفة لأفقه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق اللهم أوجد لي راحة الجنة وأنت عني راض وفي الاستنثار اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ومن الأذن إلى الأذن في العرض ولا يدخل في حد الوجه التزعتان اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس ويوصل الماء إلى موضع التعذيب وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وضع طرف الحيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ويوصل الماء إلى منابت الشهور الأربعة الحاجبان والشاربان والعداران والأهداب لأنها خفيفة في الغالب والعداران هما ما يوازيان الأذنين من مبدأ اللحية ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعني ما يقبل من الوجه وأما السكيفة فلا وحكم المنفقة حكم اللحية في السكافة والحقة ثم يفعل ذلك ثلاثا أو يفيض الماء على ظاهر ما استرسل

(١) حديث لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث مالي أراكم تدخلون على قلحا استاكوا البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبد المطلب دواليعوى من حديث تمام بن عباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب (٣) حديث كان يستاك من الليل مرارا من حديث ابن عباس (٤) حديث ابن عباس لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء رواه أحمد (٥) حديث عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب البخاري تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة موصولا قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان (٦) حديث كان أصحاب رسول الله ﷺ يروحون والسواك على آذانهم الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك وعند دت وصححه أن يزيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواك على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب (٧) حديث لا وضوء لمن لم يسم الله ت من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ونقلت عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب.

والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف الخطاب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام وذلك لمرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوه في منازل الرضة وبسده بالجملة والتفصيل من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشأ عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل: فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحققها

من اللحية ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمض ومجتمع الكحل ويتقيهما قد روى أنه عليه السلام فعل ذلك ^(١) ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده اللهم يضر وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجود أعدائك ويغسل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فانه مستحب ثم يمسح يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الحاتم ويطيل القرة ويرفع الماء إلى العضد فاتهم بمحروون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء كذلك ورد الخبر قال عليه السلام « من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ^(٢) » وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء ^(٣) ويبدأ باليمنى ويقول اللهم أعطني كتابي يميني وحاسبي حسابا يسرا ويقول عند غسل الشمال اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالى أو من وراء ظهري ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويصق رموس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة وهذه مسحة واحدة يفعل ذلك ثلاثا ويقول اللهم غشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلي تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحته في صاخي أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ويكرره ثلاثا ويقول اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني مناديا الجنة مع الأبرار ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من القل يوم القيامة ^(٤) » ويقول اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ثم يفصل رجله اليمنى ثلاثا ويغسل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويغتم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار ويقول عند غسل اليسرى أعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين فاذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانه اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني عبدا صورا شكورا واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا يقال إن من قال هذا بعد الوضوء نفع على وضوئه بختام ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدمه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة ويكره في الوضوء أمور منها أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم وأن يسرف في الماء « تواضاً عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء ^(٥) » وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يتعدون في الدعاء والظهور ^(٦) » ويقال من وهن علم الرجل ولوعه بالماء في الظهور ^(٧) وقال إبراهيم بن آدم يقال

(١) حديث إدخاله الأصبع في محاجر العينين وموضع الرمض ومجتمع الكحل أحمد من حديث أبي أمامة كان يتعاهد المائقين ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف أشربوا الماء أعينكم (٢) حديث من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل أخرجه من حديث أبي هريرة (٣) حديث تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء أخرجه من حديثه (٤) حديث مسح الرقبة أمان من القل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف (٥) حديث تواضاً ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وظلم دن واللفظ له و . من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث سيكون قوم من هذه الأمة يتعدن في الدعاء والظهور د . وابن جبان وك من حديث عبد الله بن مغفل (٧) حديث من وهن علم الرجل ولوعه في الماء في التطهير لم أجده أصلا .

في الدنيا وإضافا لوجاز الاخبار بها الغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورهما إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ويتطرق إلى من أهل الغفلة وذوى القصور رجوع وتبعد فلهذا أمرنا بالكم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لا تعذبوا الناس بما لم تصله عقولهم أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة » وعلى هذا يخرج قول المشايخ إفشاء سر الرواية كقوله رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير إنه ولي كل صالح وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية ومثلت منه الطروس وكثرت به في المحافل الدروس وهو غير محبوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب قد أمر الجهال به أن يتعلموه والعلماء

إن أول ما يبتدىء الوساوس من قبل الطهور ، وقال الحسن إن شيطاناً يضجك بالناس في الوضوء يقال له الوطآن ويكره أن يفيض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يلم وجهه بالماء لطماو كره قوم التنشيف وقالوا الوضوء يوزن قاله سعيد بن المسيب والزهري لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه ^(١) » وروى عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة ^(٢) » ولكن طعن في هذه الرواية عن عائشة ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب وقد روى عن ابن عمر وأبي هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفر وقال بهنهم أخرجت لشعبة ماء في إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه وتقل كراهية ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضى الله عنهما ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وليتحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقاذورات واشتغل بتجسيس ظاهر الباب البراني من الدار وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للعنت واليوار والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فضيلة الوضوء)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى الركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ^(٣) » وفي لفظ آخر « ولم يسه فيها غفرله ما تقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاث مرات ^(٤) » « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به وتوضأ مرتين مرتين وقال من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ^(٥) » وقال ﷺ « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء ^(٦) » وقال ﷺ « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات ^(٧) » وقال ﷺ « الوضوء على الوضوء نور على نور ^(٨) » وهذا كله حث على تجديد الوضوء

(١) حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه ت وقال غريب وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له منشفة ت وقال ليس بالقائم قال ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شيء (٣) حديث من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وفي لفظ آخر لم يسه فيها غفرله ما تقدم من ذنبه ابن المبارك في كتاب الزهد والرفائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله بشيء من الدنيا ودون قوله لم يسه فيها ود من حديث زيد بن خالد ثم صلى ركعتين لاسهو فيها الحديث (٤) حديث ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات الحديث م عن أبي هريرة (٥) حديث توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به الحديث . من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٦) حديث من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله الحديث الدارقطني من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف (٧) حديث من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات د ت . من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٨) حديث الوضوء على الوضوء نور على نور لم أجده أصلاً .

أن يذلوله ويعلموه فلانعيد فيه ههنا قولاً ولما كان حكم الحد الثالث السكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع فلئن اللعان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام فقول : أرباب المقام الثالث في التوحيدوم القربون على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلامهم نظروا إلى المخلوقات فأولاعلامات الحدوث فيها لائحة وعانوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وسمعوأجمعها تدل على توحيدده وتفريده راشدة ناصحة ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغير أرواحهم ولا حظوا إجلاله وجماله بغير أسرارهم وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته

وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فاذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فاذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فاذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فاذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجله خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظفار رجله ثم كان مشياً إلى السجدة وصلاته نافذة له (١) » وروى « إن الطاهر كالصائم (٢) » قال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء (٣) » وقال عمر رضي الله عنه: « إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان وقال مجاهد من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً إذا كرا مستغفراً فليفعل فإن الأرواح تبع طي ما قبضت عليه .

(كيفية الفسل)

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ثم يتوضأ وضوءاً للصلاة كما وصفنا لإغسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ثم يدلك ما قبل من بدنه وما أدبر ويغسل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كشف منه أو خف وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ويتعمد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء وإن توضأ قبل الفسل فلا يعيده بعد الفسل فهذه سنن الوضوء والفسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله وماعده من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه والواجب من جملة ما ذكرناه في الفسل أمران النية واستيعاب البدن بالفسل وفرض الوضوء النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما يتطرق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب ، وأما الموالاة فليست بواجبة والفسل الواجب بأربعة بخروج المني والتقاء الحثائين والحيض والنفاس وماعده من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والاحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع على قول والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً فشكل ذلك مستحب .

(كيفية التيمم)

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو بمانعه عن الوصول إليه من سبغ أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعلطش رقيقه أو كان ملكاً لغيره ولم يعبه إلا بأكثر من ثمن الثلث أو كان به جراحة أو مرض أو خاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ويضرب عليه

(١) حديث إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه الحديث د ه من حديث الصائغى إسناده صحيح ولكن اختلف في صحته وعند م من حديث أبي هريرة وعمرو بن عتبة نحوه مختصراً (٢) حديث الطاهر النائم كالصائم أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث الطاهر النائم كالصائم القائم وسنده ضعيف (٣) حديث من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله الحديث د من حديث عتبة بن عامر وهو عند م دون قوله ثم رفع هكذا عزاه المزني في الأطراف وقد رواه في اليوم والثيلة من رواية عتبة بن عامر وكذا رواه الدارمي في مسنده .

واقتسامهم في تلك المعرفة كاتقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلاً فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيراً منه دون كاله ومن حافظ لجميعه لكنه متلبم فيه متوقف على الانهماز في قراءته ومن حافظ في تلاوته غير متوقف في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في الشهد والغيب من أهله وكذلك أهل هذه الزبة أيضاً منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها وربما كان فيما يقرأ من الصفحات ما يقيم عليه ومن قارى جميعها متفهم لها لكن بنوع تعب ولزوم فكرة ومداومة عبرة ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها ناقد البصيرة في رؤية حقيقتها مفتوح السمع تناطقه الأشياء في فراغه وغفله ومحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الخوف والرجاء والقبض والبسط

كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة وينوى عند ذلك استباحة الصلاة ولا يكلف إيصال الغبار إلى ماتحت الشعور. خفت أو كثفت ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فان عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين ويكفي في الاستيعاب غالب الظن ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج بين أصابعه ثم يلمس ظهور أصابع يده اليمنى يطون أصابع يده اليسرى بحيث لا يجاوز أطراف الأمان من إحدى الجهتين عن المسبحة من الأخرى ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويعدها إلى الكوع ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ثم يفعل باليسرى كذلك ثم يمسح كفيه ويغسل بين أصابعه وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فان عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة وإذا صلى به القرض فله أن يتنفل كيف شاء فان جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم الثانية وهكذا يرد كل فريضة بتيمم والله أعلم.

(القسم الثالث : في النظافة والتنظيف عن الفضلات الظاهرة، وهي نوعان أوساخ وأجزاء)

(النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترسبة وهي ثمانية)

الأول ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالنظيف عنه مستحب بالغسل والرجيل والتدهين إزالة للشعث عنه « وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غيا ويأمر به ^(١) » ويقول عليه الصلاة والسلام : « ادهنوا غيا » ^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام « من كان له شعرة فليكرمها » ^(٣) أي ليصنها عن الأوساخ « ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال يدخل أحدكم كأنه شيطان » ^(٤) الثاني ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصباغ فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فان كثرة ذلك ربما تضر بالمع. الثالث ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة المتلصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار. الرابع ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القاع فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناها. الخامس ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرأة في سفر ولا حضر » ^(٥) وهي سنة العرب وفي خبر غريب أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته في اليوم مرتين ^(٦) وكان صلى الله عليه وسلم كث اللحية ^(٧) وكذلك كان أبو بكر وكان عثمان طويل اللحية رقيقها

(١) حديث كان يدهن الشعر ويرجله غيا الترمذي في الثمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته وفي الثمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابي لم يسم أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غيا (٢) حديث ادهنوا غيا قال ابن الصلاح لم أجده أصلاً وقال النووي غير معروف وعند دت ن من حديث عبد الله بن مغفل التهي عن الرجل إلا غيا بإسناد صحيح (٣) حديث من كانت له شعرة فليكرمها من حديث أبي هريرة وقال به شعر فليكرمها وليس بإسناده بالقوى (٤) حديث دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره الحديث دت وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد (٥) حديث كان لا يفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسناده ضعيف وسيأتي في آداب السفر مطوًلاً (٦) حديث كان يسرح لحيته كل يوم مرتين تقدم حديث أنس كان يكثر تسريح لحيته وللخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلًا كان يسرح لحيته بالمشط (٧) حديث كان كث اللحية ت في الثمائل من حديث هند ابن أبي هالة وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند ت .

والفناء والبقاء، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لقوى الأفهام من فحش النهار وقت الزوال وعلقت لم يمي أهل هذه للربة مقرين فذلك لعدم عن ظلمات الجمل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور وعلى الحقيقة عند السامعين لها في هذا الفن إحدى الحالتين عماء البصرة وانطاس القلب والحلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ويسمى هذا بعداً مأخوذاً من البعد عن محل الراحة والنزل الواجب وموضع العبادة والأنس والاقطاع في مهامه القفر وأمكنة الخوف ومظان الانقراض والوحشة والحالة الثانية عبارة عن انقراض الباطن واشتغال القلب وانقاساح الصدر بنور اليقين والمعرفة

وكان على عريض اللحية قد ملأت ما بين منكببيه وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضي الله عنها «اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأته يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته فقلت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم^(١) » والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياساً على أخلاق غيره وتشبيهاً للملائكة بالحدادين وهيات فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأموراً بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تزدرية نفوسهم ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستغفره أعينهم فيفترهم ذلك ويتعلق المتأفقون بذلك في تنفيرهم وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل وهو أن يراعى من ظاهره مالا يوجب غفرة الناس عنه والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من القصد والتزين على هذا القصد محبوب وترك الشعث في اللحية إظهاراً للزهد وقلة البالالة بالنفس محذور وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل والناقد بصير والتلبس غير رابح عليه بحال وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاناً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف - يوم تبلى السرائر - ويوم يعثر مافي القبور ويحصل مافي الصدور ، فصد ذلك تميز السيكة الخالصة من البهجة فتعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر . السادس وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل كانت العرب لا تسكر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الفضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم^(٢) . السابع تنظيف الرواجب^(٣) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهي رءوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها القراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ فوقت لهم رسول الله ﷺ قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً^(٤) لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار^(٥) وجاء في الأثر « أن النبي صلى الله عليه وسلم استبطأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قاله كيف نزل عليكم وأتمم لا تغسلون . براجمكم ولا تنظفون رواجبكم وقلعوا لا تستاكون مرأتمك بذلك^(٦) » والأف وسخ الظفر والتنف وسخ الأذن وقوله عز وجل - فلا تقل لها أف - تعبهما أي بما

(١) حديث عائشة اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأته يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته ابن عدى وقال حديث منكر (٢) حديث الأمر بغسل البراجم الترمذي الحكيم في النوادر من حديث عبد الله بن بسر نقوا براجمكم ولا بن عدى في حديث لأنس وأن يتعاهد البراجم إذا تواضاً ولمسلم من حديث عائشة عشر من الفطرة وفيه وغسل البراجم (٣) حديث الأمر بتنظيف الرواجب أحمد من حديث ابن عباس أنه قيل له يا رسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقيل ولم لا يبطئ . وأتمم لا تستنظفون ولا تغسلون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنظفون رواجبكم وفيه إسماعيل بن عياش (٤) حديث التوقيت في قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً من حديث أنس (٥) حديث الأمر بتنظيف ما تحت الأظفار الطبراني من حديث وابصة بن سعيد سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سألت عن الوسخ الذي يكون بين الأظفار فقال دع ما يريك إلى ما لا يريك (٦) حديث استبطأ الوحي فلما هبط عليه جبريل قاله كيف نزل عليكم وأتمم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم تقدم قبل هذا حديثين

والعقل وعمارة البيت بمشاهدة ما غاب عنه أهل الغفلة والاهو ولكنه يدل على أنه لم يصل لملك يقول أرى بعض أئمة الكلام عن حقوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ولم يفر قدحهم منه بحظ ولا سهم وأرام عند الجمهور في الظاهر وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الخلق إلى مرادهم ومحاهدون أرباب النجى المردية واللل الضالة المهلكة وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء وإنما فارقوم بإحسانهم حراسة عقودهم . فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين وهو أن التكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفرقوا عقود العوام وإنما فارقوم بالجدل عن الانغماس والجدل علم لفظي وأكثره

تحت الظفر من الوسخ وقيل لاتأذى بهما كما تأذى بما تحت الظفر . الثامن الدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويدكر النار روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما وقال بعضهم بمس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء فهذا تعرض لآفته وذلك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فحليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره أما الواجبان في عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة وفي إباحة مس ما ليس بسوءة لازالة الوسخ احتمال ولكن الأقيس التحريم إذ الحلق مس السوائين في التحريم بالنظر فكذلك ينبغي أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين ، والواجبان في عورة الغير أن يغشى بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النهي عن النكسر واجب وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب التذكر إلا الخوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه مما هو حرام في نفسه فليس عليه أن ينكر حراما يرهق النكسر عليه إلى مباشرة حرام آخر فأما قوله اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا بل لابد من التذكر فلا يغفل قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي وذلك يؤثر في تيسير الأمر في عينه وتغيير نفسه عنه فلا يجوز تركه ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات إذ لا تغلو عن عورات مكشوفة لاسيما ما تحت السرة إلى ما فوق العانة إذ الناس لا يمدونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحریم لها ولهذا يستحب تحلية الحمام وقال بشر بن الحرث ما أغضب رجلا لا يملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام ورؤي ابن عمر رضى الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بمصاصة وقال بعضهم لا بأس بدخول الحمام ولكن يزارين إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه . وأما السنن فمشرية : فالأول النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصده للتنظيف المحبوب تزيينا للصلاة ثم يعطى الحمامي الأجرة قبل الدخول فان ما يستوفيه مجبول وكذا ما ينتظره الحمامي فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطيب لنفسه ثم يقدم رجلاه اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم ثم يدخل الحلوة أو يتكلف تحلية الحمام فانه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمهتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في العورات ثم لا تغلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري ولأجله عصب ابن عمر رضى الله عنهما عينيه ، ويفصل الجناحين عند الدخول ولا يجعل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فانه للأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامي لكرهه لاسيما الماء الحار فله مشقة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا في البيت الحار ساعة ويقبض إلى جهنم فانه أشبه بيت جهنم النار من تحت والظلام من فوق فعوذ بالله من ذلك ، بل الماقل لا يفتل عن ذكر الآخرة في لحظة فانها مصيره ومستقره فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرها عبرة وموعظة فان المرء ينظر بحسب همته فاذا دخل بزاز ونجار وبناء وحائك دار معمورة مفروشة فاذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والتجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها

احتياال وهمى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بشجرة المشاهدة والكشف ولأجل هذا كان فيه السمين والثث وشاع في حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الحضم والقام للشار إليه بالله كره وشبه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم للضارح للضرورة بأن لا إله إلا الله إذ لا فاعل غيره ولا حاكم في الدارين سواء ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ومن أين للنازل على النازل ومال العالم الكلام مثل هذا القام بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع وله مقام على قدره ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار والدار في أوقات الضرورات والاختيار

والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئا إلا ويكون له موعظة وذكرة للآخرة بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حبة تذكر أفاعي جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرف عنه إلا مهمات الدنيا فاذا نسب مدة اللقاة في الدنيا إلى مدة اللقاة في الآخرة استحقها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بافظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال عافاك الله ولا بأس بأن يصفح الداخل ويقول عافاك الله لا ابتداء الكلام . ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن الأسرا ولا بأس باظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين المشاءين وقرىبا من القروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين ولا بأس بأن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن ينسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال إنه دلكني في الحمام مرة فأردت أن أكاثه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت ما هذا يا رسول الله؟ فقال إن الناقة تقحمت بي (١) ثم منها فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة فقد قيل الماء الحار في الشتاء من النعيم الذي يسأل عنه وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل الحمام بعد النورة أمان من الجذام ، وقيل النورة في كل شهر مرة تطفى اللثة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع ، وقيل بولة في الحمام قائم في الشتاء أنفع من شربة دواء ، وقيل نومة في الصيف بعد الحمام تبدل شربة دواء . وللقدميين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من القرمس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه هذا حكم الرجال . وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام (٢) » وفي البيت المستعم والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمنزلة (٣) وحرام على المرأة دخول الحمام إلا تنفقاء أو مريضته دخلت عائشة رضي الله عنها حماما من سقم بها فإن دخلت لفرورة فلا تدخل إلا بمنزلة سابع ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معينا لها على الكروه .

(النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية)

الأول شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهن ويرجله إلا إذا تركه قزعا أي قطعا وهو دأب أهل الشطارة أو أرسل القواضب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك

(١) حديث نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره الحديث الطبراني في الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف (٢) حديث لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام الحديث يأتي في الذي يليه مع اختلاف (٣) حديث حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمنزلة الحديث النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمنزلة ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام وللعناكم من حديث عائشة الحمام حرام على نساء أمي قال صحيح الاسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر فلا يدخلها الرجال بالأزار وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نساء .

شعارا لهم فانه اذا لم يكن شريفا كان ذلك تلييبا . الثاني شعر الشارب . وقد قال صلى الله عليه وسلم «قصوا الشارب» وفي لفظ آخر «جزوا الشوارب» وفي لفظ آخر «حفوا الشوارب وأعفوا اللحى» (١) أي اجعلوها حفاف الشفة أي حولها وخفاف الشيء حوله ومنه - وترى الملائكة حافين من حول العرش - وفي لفظ آخر احفوا وهذا يشعر بالاستئصال وقوله حفوا يدل على مادون ذلك قال الله عز وجل - إن يستلكنوها فيحفرنكم تبخلوا - أي يستقصي عليكم وأما الحلق فلم يردوا الحفاء القريب من الحلق بل عن الصحابة نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربته فقال ذكرتنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المغيرة بن شعبه «نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال تعال قصه لي على سواك» (٢) ولا بأس بترك سباليه وها طرعا الشارب فعل ذلك عمرو وغيره لأن ذلك لا يستز النعم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه وقوله صلى الله عليه وسلم «عفوا اللحى أي كثروها وفي الخبر» أن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم (٣) غالفوهم » وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة . الثالث شعر الابط واستحب تنفقه في كل أربعين يوما مرة وذلك سهل على من تعود تنفقه في الابتداء فأما من تعود الحلق فيسكه الحلق إذ في التنف تعذيب وإيلام والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحلق . الرابع شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغي أن تأخر عن أربعين يوما . الخامس الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة قلم أظفارك فان الشيطان يقعد على ما طال منها» (٤) ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء . لأنه لا يمنع وصول الماء . ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزرع عن ذلك ولم أرقى الكتب خبرا مرويا في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت «أنه صلى الله عليه وسلم يبدأ بمسبحة اليمنى وختم بابهامه اليمنى وابتدأ باليسرى بالخصصر إلى الإبهام» (٥) ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة وأما العالم ذوالبصرة فغايتة أن يستنبط من العقل بعد نقل الفعل إليه فالذي لاح لي فيه والعالم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هي الشيرة

(١) حديث قصوا وفي لفظ جزوا وفي لفظ احفوا الشوارب وأعفوا اللحى متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ أحفوا ولمسلم من حديث أبي هريرة جزوا ولأحمد من حديثه قصوا (٢) حديث المغيرة ابن شعبه نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال تعال قصه لي على سواك (٣) في الثمائل (٤) حديث إن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم غالفوهم أحمد من حديث أبي أمامة قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يعصون عثانينهم ويوفرون سباليهم فقال قصوا سباليكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب قلت والشهور أن هذا فعل الجوس في صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر في الجوس أنهم يوفرون سباليهم ويحلقون لحاهم غالفوهم (٤) حديث يا أبا هريرة قلم ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها الخطيب في الجامع باسناد ضعيف من حديث جابر قصوا أظفارك فان الشيطان يجري مابين اللحم والظفر (٥) حديث البداة في قلم الأظفار بمسبحة اليمنى والختم بابهامها وفي اليسرى بالخصصر إلى الإبهام لم أجده أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به .

الأهواء والفتن وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب القمامات ووصف قه الأرواح والنفوس وتفهم كل ناطق وجامد فان هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فان ذلك من علم الخواص وهم مكفون المؤنة والعامه أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد والتصديق على ذى بلغة من العيش فكيف إن كان عن غناء وأيضا فان علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الأحاد والزبغ لقصورهم عن ملاحظة الحق موضع السيف للأنبياء وللرسلين عليهم السلام بعد التبليغ مع أهل العناد والتمادى على التمسيل الفساد فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك لا يقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء

في كافي الشهادة من جملة الأصابع ثم بعدها ينبغي أن يتبدى بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمنى وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالأهم هو اليمنى وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى وإذا تركت بطبعها كان الكف مائلا إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمنى إلى اليسار واستقامت الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليا فيقتضيه الطبع أولى ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرية فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة فتقع البداءة بخصر اليسرى والحتم بإيهامها ويحق إيهام اليمنى فيحتم به التقليل وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فان ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي إن لم يثبت فيها ثقل أن يبدأ بخصر اليمنى ويحتم بخصر اليسرى كما في التخليل فان المعاني التي ذكرناها في اليد لا تنجبه هنا إذ لا مسبحة في الرجل وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فان تقديرها حلقة بوضع الأخصى على الأخصى بأباه الطبع بخلاف اليدين وهذه الدقائق في الترتيب تتكشف بنور النبوة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه وسلم وترتيبه ربما تسررنا بما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ولا تظن أن أقواله عليه السلام في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يترد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الأقدام والتقديم فان الاسترسال مهما كما يتفق سجية البهائم وضبط الحركات بموازين المعاني سجية أولياء الله تعالى ، وكلما كانت حركات الانسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر إذا القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريبا فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فانه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنين ^(١) » فيبدأ باليمنى لشرفها وتفاوتها بين العينين لتكون الجملة وترا فان للوتر فضلا عن الزوج فان الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى ولذلك استحب الإيتار في الاستجمار وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجنان بالكحل وإنما خصص اليمنى بالثلاث لأن التفضيل لا بد منه للإيتار واليمنى أفضل فهي بالزيادة أحق . فان قلت فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهي زوج فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لسكل واحدة وترا كان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج ورعايته الإيتار في مجموع الفعل وهو في حكم الحصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاديث ولذلك أيضا وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثا على قياس الروض ^(٢) وقد قل ذلك في الصحيح وهو الأولى ولو ذهبت أستقصى دقائق ماراها صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر قسى بما سمعته ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون وارثا لليمنى

(١) حديث كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنين الطبراني من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٢) حديث لا يكتحل في كل عين ثلاثا قال الغزالي ونقل ذلك في الصحيح قلت هو عند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن .

وكما لا يقال في الصدر الأول قهواء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم آخر كالفقه والحديث والتفسير لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لعلبة الجهل على أكثرهم فلو لا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجلت العبارات واقطع علم الشرع ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدل يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذهم عنهم الخاص والعام ومثل ذلك حالة الصحابة رضى الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لما خافوا دروس الإسلام وأن يضعف ويقل أهلهم ويرجع البلاد والعامه إلى الكفر كما كانوا أول مرة فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم والبعوث لدعوة الحق عليه

صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث إذ الموروث هو الذي حصل للماله واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام . السادس والسابع زيادة السرة وقلعة الحشفة أما السرة فتقطع في أول الولادة وأما التطهير بالحنان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يشفر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال عليه السلام « الحنّان سنة للرجال ومكرمة للنساء ^(١) » وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم « يا أم عطية أشمى ولا نهكي فانه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج ^(٢) » أي أكثر لئلا الوجه ودمه وأحسن في جماعها فانظر إلى جزالة لفظه صلى الله عليه وسلم في الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أمي من هذا الأمر النازل قدره ما لو وقت الفضة عنه خيف ضرره فسيحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم يمين بتمتة مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم . الثامنة ما طال من اللحية وإعنا أخرناها لنلحق بها ما في اللحية من الحسن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها قليل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقنادة وقالوا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم « أعفوا اللحى » والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فإن الطول المفرط قد يشوه الحلقة ويطلق ألسنة الفتاين بالبذالة فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية . وقال النخعي عجت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيته فان التوسط في كل شيء حسن ، ولذلك قيل كلما طال اللحية تشمر العقل .

(فصل) وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ، خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت وتصفها وتصف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسميحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثا إظهارا للزهد والنظر إلى سوادها عجا بالشباب وإلى يابضها تكبرا بعلم الدين وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبه بالصالحين . أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم ^(٣) » والمراد بالتشبه بالشيوخ في الوقار لافي تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد ^(٤) » وقال « هو خضاب أهل النار ^(٥) » وفي لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضاب الكفار

(١) حديث الحنّان سنة الرجال مكرمة النساء أحمد والبيهقي من رواية أبي الليث عن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف (٢) حديث أم عطية أشمى ولا نهكي الحديث الحاكم والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس ولأبي داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف (٣) حديث خير شبابكم من تشبه بشيوخكم الحديث الطبراني من حديث وثالة بإسناد ضعيف (٤) حديث نهى عن الخضاب بالسواد ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد منقطع ، ولمسلم من حديث جابر : وغيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد قاله حين رأى يابض شعر أبي قحافة (٥) حديث الخضاب بالسواد خضاب أهل النار ، وفي لفظ خضاب الكفار الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ الكافر قال ابن أبي حاتم منكر .

الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والرباط في ثغر العدو والغزو في سبيل الله وضرب وجوه الكفر بالسيف وإدخال الناس في دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهرا وباطنا وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم يؤكّد من النظر إلى الخصوص لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ولهم بحالهم قيام والمعموم إن لم يكن مشتغلا بهم وإذا بداهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مرأشدم وصلاحيهم كان الهلاك إليهم أسرع ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال المعموم للخصوص قدر ولا يظهر لهم نور ولا يقدر على شيء كامل من البر فلا خاصة إلا بعامه ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم عمال الجاهير أكثر والخوف عليهم من الزيف والضلال

وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يغضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفضه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجهه ضربا وقال غررت القوم بالشباب ولبت عليهم شيبتك ويقال أول من غضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان قوم يغضبون بالسواد كعواصل الحمام لا يريحون راحة الجنة » (١) الثاني الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تلبسا للشيب على الكفار في الغزو والجهاد فان لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله ﷺ « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين » (٢) وكانوا يغضبون بالخاء للحمرة وبالخالق والسكر للصفرة وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لأبأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث تبييضها بالكبريت استعجالا لإظهار علو السن توصلا إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعاً عن الشباب وإظهارا لكثرة العلم فلنا بأن كثرة الأيام تعطيه فضلا وهبات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا فالعلم عمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحق فطول المدة يؤكد حماقة وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما أتى الله عز وجل عبدا علما إلا شابا والخير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل - قالوا سمعنا فحق يذكركم يقال له إبراهيم - وقوله تعالى - إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى - وقوله تعالى - وآتيناه الحكم صبيا - وكان أنس رضي الله عنه يقول « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء قليل له يا أبا حمزة قد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب قليل أهوشين فقال كاسك يكرهه » (٣) ويقال إن يحيى بن أكرم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يحمله بصر سنة كم سن القاضي أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأفحمه » (٤) وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت في بعض الكتب لاترئكم اللحي فان التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحق ولو كان أمية بن عبد شمس وقال أيوب السخيتاني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع

(١) حديث يكون في آخر الزمان قوم يغضبون بالسواد الحديث أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد (٢) حديث الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين الطبراني والحاكم بلفظ الأفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر (٣) حديث قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء قليل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب متفق عليه من حديث أنس دون قوله قليل الخ ولمسلم من حديثه ومثل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما شأنه الله ببيضاء (٤) حديث يحيى بن أكرم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة قليل له كم سن القاضي فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن . الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكرم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فانه كان حين الولاية ابن عشرين سنة وأما بالنسبة إلى معاذ فانما يتم له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجع أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم

القلم يتعلم منه . وقال طي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر منك . وقيل لأبي عمرو بن العلاء أيحس من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجاهل يبيع به فالتعلم يحسن به وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رأيته عثى خلف بطة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وعثى خلف بطة هذا الفتي وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت عثى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتني بعلوه أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلوه ولا نزول . الرابع تنف يياضها استنكافا من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن ^(١) » وهو في معنى الحناب بالسواد وعلة الكراهية ما سبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور . الخامس تنفها أوتف بعضها يحكم العتب والموس وذلك مكروه ومشوه للخلقة وتنف الفنيكين بدعة وهما جانب العنفة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان يننف فنيكه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان يننف لحية وأما تنفها في أول النبات تشبها بالمرد فمن السكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن تنفها سبب ما تنكف يقسمون والذي زين بن آدم باللحي وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غرب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى - يزيد في الخلق ما يشاء - قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا وقال شريح القاضي وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المجالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض فإن من يشتم يمرض باللحية إن كان للمشتوم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أبا موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سترته تخصيصا له وتفضيلا . السادس تقصيصها كاللحية طاقة على طاقة للترين للنساء والتصنع قال كعب يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحام كذب الحمامة ويعرقون نعالهم كالمنجل أولئك لا خلاق لهم . السابع الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصديين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحي وينتهي إلى نصف الحد وذلك بيان هيئة أهل الصلاح . الثامن تسريحها لأجل الناس قال بشر في اللحية شر كان تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لاظهار الزهد . التاسع والمائس النظر في سوادها وفي يياضها بعين العجب وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتي بيانه فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس ^(٢) والضمضة والاستنشاق ^(٣) وقص الشارب والسواك وثلاثة في اليد والرجل وهي القلم

(١) حديث نهى عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن دت وحسنه ن . من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث فرق شعر الرأس أخ من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه (٣) حديث عشر من الفطرة الحديث مسلم من حديث عائشة ولفظه قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاقه الماء وقص الأظفار وغسل البراجم وتنف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء قال وكعب يعني الاستنجاء قال مسعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون الضمضة ضعفه ن ولأبي د . من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه الضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء قاله روى نحوه عن ابن عباس قال خمس كلها في الرأس وذكر منها الفرق ولم يذكر إعفاء اللحية وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة الفطرة خمس الختان الحديث .

بالكفر لرددت البيت على قواءد إبراهيم وقال للأصهار أماترون أن يذهب النار بالشاء والبعر فتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ومع ذلك فالذي حفظ عنه صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان التكلمين من الاشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لا يحصى وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثاهم فاقصد تحذ وتصد لاقتباس المعارف تعلم وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم وتوقن ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب .

[بيان المرتبة الرابعة]

وهو توحيد الصديقين وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ولا اطلعوا في الوجود

على سواء فقد كان بيان
شارات الصحابة رضى
الله عنهم أجمعين فيما
خصوا من المعرفة في
هجيرهم فكان هجير
أبي بكر الصديق رضى
الله عنه : لا إله إلا الله
وكان هجير عمر رضى
الله عنه : الله أكبر وكان
هجير عثمان رضى الله
عنه : سبحان الله وكان
هجير علي رضى الله
عنه : الحمد لله فاستقرى
السابقون من ذلك
أن أبا بكر لم يشهد في
الدارين غير الله سبحانه
وتعالى فلذا كان
الصديق وصمى به كما
علمت وكان يقول
لا إله إلا الله وكان عمر
يرى مادون الله صغيرا
مع الله في جنب عظمته
فيقول الله أكبر وكان
عثمان لا يرى التنزيه
إلا الله تعالى إذ الكل
قائم به غير معرى من
النقصان والقائم بغيره
معلول فكان يقول
سبحان الله وعلى
لا يرى نعمة في الدفع
والرفع والعطاء وللتع
في السكروه والمحبوب
إلا من الله سبحانه
فكان يقول الحمد لله

وغسل البراجم وتنظيف الرواجب^(١) وأربعة في الجسد وهي تنف الابط والاستحداد والختان
والاستنجاء بالماء قد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة
الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا ولتتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف
منها أكثر من أن تحصى وسيأتى تفصيلها في ربيع المهمات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير
القلب منها إن شاء الله عز وجل . ثم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء
الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(كتاب أسرار الصلاة ومهماتا)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غفر العباد بطاقتهم وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء
الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في
السؤال والدعاء فقال هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له وبين السلاطين بفتح الباب
ورفع الحجاب فرخص للعباد في الناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم
يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضمائم الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم
الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه وأتم لطفه وأعم إحسانه والصلاة على محمد نبيه
المصطفى ووليّه المجتبي وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصاييح الدجى وسلم تسليما . أما بعد : فإن الصلاة
عماد الدين وعصام اليقين ورأس القربات وغرة الطاعات وقداسة صينا في فنّ الفقه في بسيط المذهب
ووسيطه ووجيزه أصولها وفروعها صارفين حمام العناية إلى تفاريحها النادرة ووقائعها الشاذة لتكون خزانة
للفنق منها يستمد ويعول له إليها يفرغ ويرجع ونحن الآن في هذا الكتاب تقتصر على ما لا بد للمريد منه
من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والاخلاص
والنية ما لم تبحر العادة بذكره في فنّ الفقه، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : في فضائل
الصلاة . الباب الثاني : في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : تفضيل الأعمال الباطنة
منها . الباب الرابع : في الإمامة والقدوة . الباب الخامس : في صلاة الجمعة وآدابها . الباب السادس :
في مسائل متفرقة تم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : في التطوعات وغيرها .
(الباب الأول : في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها)

(فضيلة الأذان)

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى
يفرغ مما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأتم بقوم وهم به راضون ورجل أذن في
مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة^(٢) »
وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة^(٣) »

(١) حديث تنظيف الرواجب تقدم .

(باب أسرار الصلاة)

(٢) حديث ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك الحديث ت وحسنه من حديث ابن عمر عنصرا
وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف (٣) حديث لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس
ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة غ من حديث أبي سعيد .

وقال صلى الله عليه وسلم «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه» (١) وقيل في تفسير قوله عز وجل - ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً - نزلت في المؤذنين وقال صلى الله عليه وسلم «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» (٢) وذلك مستحب إلا في الحيلتين فإنه يقول فيها لا حول ولا قوة إلا بالله وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها مادامت السموات والأرض وفي التثويب صدقت وبررت ونصحت وعند الفراغ يقول اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وإيسته القام المأمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد. وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة.

(فضيلة للكتوبة)

قال الله تعالى - إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - وقال صلى الله عليه وسلم «خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحضن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فماترون ذلك يقي من درنه قالوا لا شيء قال صلى الله عليه وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب القنوب كما يذهب الماء الدرن» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «بيننا وبين المنافقين شهود التهمة والصبح لا يستطيعونها» (٦) وقال صلى الله عليه وسلم «من لقي الله وهو مضيق للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسنة» (٧) وقال صلى الله عليه وسلم «الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين» (٨) وسئل صلى الله عليه وسلم «أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لوقتها» (٩) وقال صلى الله عليه وسلم «من حافظ على الخمس يكال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان» (١٠) وقال صلى الله عليه وسلم «مفتاح الجنة الصلاة» (١١) وقال «ما اقترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبده ملائكته فمنهم من رآه كعب ومنهم من رآه قائماً وقاعاً» (١٢)

(١) حديث يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس باسناد ضعيف (٢) حديث إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن متفق عليه من حديث أبي سعيد (٣) حديث خمس صلوات كتبهن الله على العباد الحديث د ن ه ح ب من حديث عبادة بن الصامت ومحمّد بن عبد البر (٤) حديث مثل خمس صلوات كمثل نهر الحديث مسلم من حديث جابر ولما نحوه من حديث أبي هريرة (٥) حديث الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر م من حديث أبي هريرة (٦) حديث بيننا وبين المنافقين شهود التهمة والصبح مالك من رواية سعيد بن المسيب من سلا (٧) حديث من لقي الله مضيقاً للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسنة وفي معناه حديث أول ما يغاسب به العبد الصلاة وفيه فان فسدت فسد سائر عمله رواه طبر في الأوسط من حديث أنس (٨) حديث الصلاة عماد الدين البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر قال لك عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط إنه غير معروف (٩) حديث سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها متفق عليه من حديث ابن مسعود (١٠) حديث من حافظ على الخمس يكال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً الحديث أحمد ح ب من حديث عبد الله بن عمرو (١١) حديث مفاتيح الجنة الصلاة د الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذى ولكن ليس داخلياً في الرواية (١٢) حديث ما اقترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة الحديث لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر .

وأهل هذه الرتبة على الجلة في حال خصوصهم فيها صفان مريدون ومرادون فالمريدون في الغالب لا بد لهم من أن يحلوا في المرتبة الثالثة وهي توحيد القرّين ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبلاء ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم . فإن قلت أليس الوجود مشتركاً بين الحادث والقديم والمألوه والآله ثم معلوم أن الآله واحد والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه للرتبة الأشياء شيئاً واحداً ذلك على طريق قلب الأعيان فتعود الحوادث قديمة ثم تحدث بالواحد فترجع هي هو وفي هذا من الاستحالة والروق من مصدر العقل ما يغنى عن إطالة القول فيه وإن كان على طريق

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر »^(١) « أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بأغلل عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه يلتمها ودخلها وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد برى » من ذمة محمد عليه السلام^(٢) » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توشأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فانه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وإنه يكتب له بإحدى خطوته حسنة ونعمى عنه بالأخرى ميتة فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجرا أبعدكم دارا قالوا لم يا أبا هريرة ؟ قال من أجل كثرة الخطأ . ويروى « إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة »^(٣) « فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تختبئ »^(٤) وقال بعض العلماء مثل للصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك الصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى القريضة وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتوها فاطفئوها .

(فضيلة إتمام الأركان)

قال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى »^(٥) وقال يزيد الرقاشى « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة »^(٦) وقال عليه السلام « إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض »^(٧) وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده »^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذى يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار »^(٩) وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر البزار من حديث أبي الدرداء باسناد فيه مقال .
 (٢) حديث من ترك صلاة متعمدا فقد تبرأ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم حم هق من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات (٣) حديث أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة الحديث رويناه في الطووريات من حديث أبي سعيد باسناد ضعيف ولأصحاب السنن ك ومصحح إسناده نحوه من حديث أبي هريرة وسيأتى (٤) حديث يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تختبئ لم أقف له على أصل (٥) حديث مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ابن المبارك في الزهد من حديث الحسن مرسلا وأسنده البهيقي في الشعب من حديث ابن عباس باسناد فيه جهالة (٦) حديث يزيد الرقاشى كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف (٧) حديث إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد الحديث ابن المبر في العقل من حديث أبي أيوب الأنصارى بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده عن ابن المبر (٨) حديث لا ينظر الله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده أحمد من حديث أبي هريرة باسناد صحيح (٩) حديث أما يخاف الذى يحول وجهه وجه حمار أن يحول الله وجهه وجه حمار ابن عدى في عوالى مشايخ مصر من حديث جابر مائزونه إذا التفت في صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير قال منكر بهذا الاسناد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار .

التخيل للولى لما لا حقيقة له فكيف يحتاج به أو كيف يعد حالا لولى أو فضيلة لبشر ؟ . الجواب عن ذلك أن الحوادث لم تقلب إلى القدم ولم تتعد بالفاععل ولا اعترى الولى تخيل فتخيل ما لا حقيقة له وإنما هو ولى مجتبى وصديق مرتضى خصه الله تعالى بعرفته على سبيل اليقين والكشف التام وكشف قلبه مالورآه يبصره عيانا ما ازداد لإيقنا وإن أنكرت أن يكون وهب الله العرفه على هذا السبيل أحدا من خلقه فما أظم مصيبتك وما أعظم العزاء فيك حين فتشت الخلق بمبارك وكلهم بمصكالك وفضلت نفسك على الجميع إذ لاسبب لانكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا مالم ترزق أو يخص من العرفه مالم يخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف قلبه

« من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يافت الثوب الخاق فيضرب بها وجهه^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته^(٢) » وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طغف فقد علم ما قال الله في الطغففين .

(فضيلة الجماعة)

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة^(٣) » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناما في بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق يوثهم^(٤) » وفي رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم فتحرق عليهم يوثهم يحزم الحطب ولوعلم أحدهم أنه يجد عظامينا أو مرماتين لشهدها يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة^(٦) » وقال سعيد بن المسيب ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد وقال محمد بن واسع ما أشتى من الدنيا إلا ثلاثة أخا إنه إن تعوجت قومي وقوتا من الرزق عفوا من غير تبعة وصلاة في جماعة يرفع عن سبورها ويكتب لي فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال ما زال الشيطان في آثاق حتى أريت أن لي فضلا على غيري لأؤم أبدا . وقال الحسن لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعي مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدرى زيادته من نقصانه . وقال حاتم الأصم فاتتني الصلاة في الجماعة فزاني أبو إسحق البخاري وحده ولومات لي ولد لعزائي أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا وقال ابن عباس رضي الله عنهما من مع نادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به خيرا وقال أبو هريرة رضي الله عنه لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خيره من أن يسمع النداء ثم لا يجيب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقبل له إن الناس قد انصرفوا فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إلي من ولاية العراق وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لانقوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار^(٧) »

(١) حديث من صلى الصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني الحديث طبع في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف نحوه (٢) حديث أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي قتادة (٣) حديث صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث أبي هريرة لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون الحديث متفق عليه (٥) حديث عثمان من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة الحديث م من حديثه مرفوعا قال الترمذي وروى عن عثمان موقوفا (٦) حديث من صلى صلاة في جماعة قد ملأ نحره عبادة لم أجده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة (٧) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لانقوته تكبيرة الإحرام الحديث ت من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات .

لا يخرج منه وما اطلع عليه لا يغيب عنه وما ذكره من ذلك لا ينسأ ولا في حال نومه وشغله وهذا موجود فيمن أكثر اهتمامه بشيء وثبت في قلبه حاله أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفراغه ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن في رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو مجادا صغيرا أو كبيرا لم يره من حيث هو هو وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدر وتميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه في الوجود ثم لما كانت الصفات المشمودة آثارها في المخلوقات نبتت لغير الوصف الذي هو الله عز وجل له ألهمت الولي عن غيره وصار لم يرسوا ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك في ظاهر الحس دون ما كان موجودا به

ويقال إنه إذا حُكِّن يوم القيامة يخشع قوم وجوههم كالسكوك البري فتقول لهم الملائكة ما كانت أعمالكم فيقولون كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ثم تخشع طائفة وجوههم كالأنصار فيقولون بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت ثم تخشع طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان في السجدة . وروى أن السلف كانوا يمزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويمزون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

(فضيلة السجود)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم سجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة » (٢) وروى « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مراقبتك في الجنة فقال ﷺ « أعني بكثرة السجود » (٣) وقيل أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا » (٤) وهو معنى قوله عز وجل - واسجد واقترب - وقال عز وجل - سيأمن في وجوههم من أثر السجود - قيل هو ما يتصلق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فمضيت في النار » (٥) وروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجادة وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب وكان يوسف بن أسباط يقول يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض لما بقي أحد أحسنه إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك وقال سعيد بن جبيرة ما أتى على شيء من الدنيا إلا على السجود ، وقال عقبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث غمر ساجدا وقال أبو هريرة رضى الله عنه أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك .

(فضيلة الخشوع)

قال الله تعالى - وأتم الصلاة له كرى - وقال تعالى - ولا تكن من الغافلين - وقال عز وجل - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون - قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا وقال وهب للراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال - حتى تعلموا ما تقولون - وكم من مصل لم يشرب خمرا وهو لا يعلم ما يقول في صلاته وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسل (٢) حديث ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة . من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبي الدرداء (٣) حديث إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مراقبتك في الجنة الحديث م من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك (٤) حديث إن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجدا م من حديث أبي هريرة (٥) حديث إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي الحديث م من حديث أبي هريرة .

وصار عنه فانيا فبعد هذا على من أحبه أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح ولا فهم إلا بالله ولا شرح إلا منه ولا نور إلا من عندهم له الحول والقوة وهو العلي العظيم [فصل] وأما معنى إفتاء سر الرواية كسر فيخرج على وجهين أحدهما أن يكون المراد به كفرا دون كفر ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به الفتى وتعظيما لما ارتكبه ويعترض هذا بأن يقال لا يصح أن يسمى هذا كفرا لأنه ضد الكفر إذ الكفر الذي ممي على معناه سائر وهذا الفتى ليس ناشرا وابن النثر والإظهار من التغطية والإعلان من الكتم واندفاع هذا من بأن يقال ليس الكفر الشرعي تابع للاشتقاق وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب التهي فمن رد إحسان محسن أو جحد نعمة منفضل يقال عليه كافر

«من صلى ركعتين لم يحدث ، نفسه فيهما بشئ» من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه^(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتادم وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج»^(٢) وروى عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال «ليس كل مصل أقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهي» وقال صلى الله عليه وسلم «إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو التقصود والبتنى عظيمة ولا هيبة لما يقيمه ذكرك»^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه «وإذا صليت فصل صلاة مودع»^(٤) أي مودع لنفسه مودع لهواه مودع لغيره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل - يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه - وقال تعالى - واتقوا الله ويصلحكم الله - وقال تعالى - واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه - وقال صلى الله عليه وسلم «من لم تنبه صلاته عن الفحشاء والنكر لم يزد من الله إلا بعدا»^(٥) والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة وقال بكر بن عبد الله بن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت قيل وكيف ذلك قال تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن تكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه»^(٦) اشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه^(٧) وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين وكان سعيد التوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته «ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يبيت بلحيتة في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لحشمت جوارحه»^(٨)

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسل وهو في الصحيحين من حديث عثمان بن يزيد في أوله دون قوله بشئ من الدنيا وزاد طس إلا بغير (٢) حديث إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع الحديث ت ن بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب (٣) حديث إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت الناسك لإقامة ذكر الله ت ن من حديث عائشة بنحوه دون ذكر الصلاة قال ت حسن صحيح (٤) حديث إذا صليت فصل صلاة مودع ابن ماجه من حديث أبي أيوب وك من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس بنحوه (٥) حديث من لم تنبه صلاته عن الفحشاء والنكر لم يزد من الله إلا بعدا على بن معبد في كتاب الطاعة والعصية من حديث الحسن مرسل بإسناد صحيح ورواه طب وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنه عن المنكر الحديث وإسناده صحيح (٦) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسل كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جامع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس (٧) حديث لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر في كتابه الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسل لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف (٨) حديث رأى رجلا يبيت بلحيتة في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لحشمت جوارحه الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم ،

لجهتين إحداهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك أصما ينبي عن وصف والثانية من جهة التضرع ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة والتضرع قد ورد بشكر للنعم فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ولا يفرنك العبارات ولا تحجبك التسميات وتغفلن لخداعها واحسرتس من استدراجها فاذن من أظهر ما أمر بكنهه كان كمن كتم ما أمر بشهره في مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ويدل على ذلك من جهة التضرع قوله صلى الله عليه وسلم «لا تعذبوا الناس بما لم تصله عقولهم» وفي ارتكاب التهي عصيان ويسمى في باب القياس على المذكور ككفران البدن وقسمة أخرى وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فمأس الإنسان تشابه صماء العالم من حيث

ويرى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالخصى ويقول اللهم زوجني الحور العين فقال بشئ الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالخصى وقيل لحلف بن أيوب ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردھا قال لأعود نفسي شيئا يفسد عليّ صلاتي قيل له وكيف تصبر على ذلك قال بلفظي أن القساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدي ربّي فأتحرك لثباته ويرى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله تعمدوا أتم فاني لست أسمعكم ويرى عنه أنه كان يصلي يوما في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة وكان عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزّول ويتلون وجهه قليل له مالك يا أمير المؤمنين فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها ويرى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي بعتريك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ويرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال داود صلى الله عليه وسلم في مناجاته: إلهي من يسكن بيتك ومن تقبل الصلاة فأوحى الله إليه يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجله، يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذي يضيء نوره في السموات كالشمس إن دعاني لبيته وإن سألتني أعطيتني أجل له في الجمل حلما وفي النفلة ذكرا وفي الظلمة نورا وإنما مثله في الناس كالفرديوس في أعلى الجنان لا تبيس أنهارها ولا تتغير ثمارها ويرى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال إذا حانت الصلاة أسيئت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى يجتمع جوارحي ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورأى أظنها آخر صلاتي ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعا بتواضع وأسجد سجودا بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمي وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالانحلال ثم لأدري أقبلت مني أم لا وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه.

(فضيلة السجدة وموضع الصلاة)

قال الله عز وجل - إنما يصمّر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر - وقال صلى الله عليه وسلم «من بنى لله مسجدا ولو كفحه من قطعة بنى الله له قصرًا في الجنة» (١) وقال عليه السلام «من ألقى المسجد ألقى الله تعالى» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه تقول اللهم صل على محمد اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد» (٥)

- (١) حديث من بنى لله مسجدا ولو مثل مفحص قطعة الحديث . من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبي ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله ولو مثل مفحص القطعة
- (٢) حديث من ألقى المسجد ألقى الله تعالى طب في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف
- (٣) حديث إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس متفق عليه من حديث أبي قتادة
- (٤) حديث لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة بإسنادين ضعيفين وك من حديث أبي هريرة (٥) حديث الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

إن كل ما علا فهو
سماء وحواشيه تشابه
الكواكب والنجوم
من حيث إن
الكواكب أجسام
مشقة تستمد من نور
الشمس قضى بها
والحواس أجسام لطيفة
مشقة تستمد من
الروح فيض مسلك
للدركات وروح
الإنسان مشابهة
للشمس فضياء العالم
ونور نباته وحركة
سواربه وحيوانه
وحياته فيها تظهر
بتلك الشمس وكذلك
روح الإنسان به حصل
في الظاهر نمو أجزاء
بدنه ونبات شعره
وحلول حياته وجلست
الشمس وسط العالم
وهي تطلع بالتهار
وتغرب بالليل وجعلت
الروح وسط جنم
الإنسان وهي تغيب
بالنوم وتطلع باليقظة
ونفس الإنسان تشابه
القمر من حيث إن
القمر يستمد من
الشمس ونفسه تستمد
من الروح والقمر
خالف الشمس والروح

وقال صلى الله عليه وسلم « يأتي في آخر الزمان ناس من أمي يأتون للساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا يجالسهم فليس لهم حاجة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل في بعض الكتب إن يوتى في أرضي للساجد وإن زوّارني فيها عمارها فطوبى لبدن تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على الزور أن يكرم زائره (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يعتاد السجدة فاشهدوا له بالإيمان (٣) » وقال سعيد بن المسيب من جلس في السجدة فأنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيرا وبروى في الأثر أو الخبر الحديث في السجدة يأكل الحشرات كما تأكل البهائم الحشيش (٤) » وقال النخعي كانوا يرون أن الشئ في الليلة للظلمة إلى السجدة واجب للجنة وقال أنس بن مالك من أسرج في السجدة سراجا لم تزل لللائكة وحمة العرش يستغفرون له مادام في ذلك للسجدة ضوؤه وقال صلى الله عليه وسلم « وجهه إذا مات العبد يضيء عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم قرأ - لما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين - وقال ابن عباس تبكى عليه الأرض أربعين صباحا وقال عطاء الخراساني ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت وقال أنس بن مالك ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها صلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلي إلا تزخرفت له الأرض ويقال ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلغهم .

(الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتسكير وما قبله)

ينبغي للصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الحلب في البدن وللكان والياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويراوح بين قدميه ولا يضمهما فإن ذلك مما كان يستدل به على قلة الرجل وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد في الصلاة (٥) والصفد هو اقتران القدمين مما ومنه قوله تعالى - مفرنين في الأصفاد - والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل - الصافات الجياد - هذا ما راعيه في رجله عند القيام وراعى في ركبتيه ومعقده نطاقه الانتصاب وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والاطراق أقرب للخشوع

(١) حديث يأتي في آخر الزمان ناس من أمي يأتون للساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا الحديث ابن حبان من حديث ابن مسعود وك من حديث أنس وقال صحيح الإسناد (٢) حديث قال الله تعالى : إن يوتى في أرضي للساجد ، وإن زوّارني فيها عمارها الحديث أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جيرانى فتقول لللائكة من هذا الذى ينبغي له أن يجاورك فيقول أين قرأ القرآن وعمار للساجد وهو في الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسناد صحيح وأسنده ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه (٣) حديث إذا رأيتم الرجل يعتاد للسجدة فاشهدوا له بالإيمان وحسنه . وك وصححه من حديث أبي سعيد (٤) حديث الحديث في السجدة يأكل الحشرات كما تأكل البهيمة الحشيش لم أنف له على أصل .

(الباب الثاني)

(٥) حديث النهى عن الصفن والصفد في الصلاة عزاء رزين إلى ت ولم أجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب القريب كابن الأثير في النهاية وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أو صافا قديمه فقال أخطأ هذا السنة .

خالف النفس والقمر آية محمودة والنفس مثلها وعو القمر في أن لا يكون ضياؤه منه وعو النفس في أن ليس عقلها منها ويعتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان وفي الإنسان نبات وهو الشعر ومياه وهو العروق والدموع والريق والدم وفيه جبال وهي العظام وحيوان وهي هوام الجسم فصلت للشبهة على كل حال ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ما هي لنا غير معروفة ولا معلومة كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل وفيها ذكرناه ما يحصل به قدوى العقول تشبيه وتثليل . فان قلت أراك فرقت بين النفس والروح وجعلت كل واحد منهما غير الآخر وهذا قلما تساعد

عليه إذ قد كثر الخلاف في ذلك فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يني كلامه على ما يعلم لا على ما يحل وأنت لو علت النفس والروح علت أهما اثنان فإن قلت قد سبق في الإحياء أهما شيء واحد وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى وبغير ذلك ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر يفرد باسم النفس فقط ولا يسمى بروح ولا غير ذلك فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر سميع بصير عالم يريد متكلم فاعلم

وأغض للبصر وليسكن بصره محصوراً على مصلاه الذي يسكن عليه فإن لم يكن له مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطاً فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط وليدع على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات هذا أدب القيام فإذا امتوى قيامه واستقبله وإطرافه كذلك فليقرأ قل أعوذ برب الناس تحصناً به من الشيطان . ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أولاً ثم ليحضر الية وهو أن ينوي في الظهر مثلاً ويقول بقلبه أودى فريضة الظهر لله ليعزها بقوله أودى عن القضاء وبالقرينة عن النفل وبالظهر عن العصر وغيره وتلكن معاني هذه الألفاظ حاضرة في قلبه فإنه هو النية والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ويجهت أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يمزب فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حذو منكبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذي بكفيه منكبيه وبأهاميته شحمت أذنيه وبرءوس أصابعه رءوس أذنيه^(١) ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه ويكون مقبلاً بكفيه وإهاميته إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقضها ولا يتكلف فيها تحريها ولا ضماً بل يتركها على مقتضى طبيعتها إذ تقل في الأثر النشر والضم^(٢) وهذا بينهما فهو أولى وإذا استقرت اليدين في مقرها ابتداء التكبير مع إرسالهما وإحضار النية . ثم يضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراماً لليمنى بأن تكون محمولة ويغسر للسبعة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالأبهام والخنصر والنصر على كوع اليسرى وقد روي أن التكبير مع رفع اليدين^(٣) ومع استقرارهما^(٤) ومع الإرسال^(٥) فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع ومبدأ التكبير الألف وآخره الرأه فليقل مراعاة التطابق بين الفعل والعقد وأما رفع اليد فكل مقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا يفضهما عن يمين وشمال فضا إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رقيقاً ويستأنف وضع اليدين على الثمال بعد الإرسال وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى^(٦) » فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه وأما التكبير فينبغي أن يضم الماء من قوله الله ضمة خفيفة من غير مبالغة

(١) حديث رفع اليدين إلى حذو المنكبين وورد إلى شحمة أذنيه وورد إلى رءوس أذنيه متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول و د من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف إلى شحمة أذنيه ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث فروع أذنيه (٢) حديث نشر الأصابع عند الافتتاح ونقل ضمها . وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي لم يفرج بين أصابعه ولم يضمها ولم أجداً تصرع ضم الأصابع (٣) حديث التكبير مع رفع اليدين البخاري من حديث ابن عمر كان يرفع يديه حين يكبر ولأبي داود من حديث وائل يرفع يديه مع التكبير (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أي مرفوعتين مسلم من حديث ابن عمر كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر زاد د هما كذلك (٥) حديث التكبير مع إرسال اليدين د من حديث أبي حميد كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم كبر حتى يقرأ كل عظم في موضعه معتدلاً قال ابن الصلاح في المشكل فكلمة حتى التي هي للغاية تدل بالمعنى على ما ذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال (٦) حديث كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى الطبراني من حديث معاذ بإسناد ضعيف .

ولا يدخل بين الماء والألف شبه الواو وذلك ينساق إليه بالمبالغة ولا يدخل بين باء كبر ورائه ألفا كأنه يقول أ كبار ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه

(القراءة)

ثم يتدبى بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا (١) وجهت وجهي إلى قوله وأؤمن للمسلمين (٢) ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك (٣) ليكون جامعا بين متفرقات ماورد في الأخبار وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة يتدبى فيها بسم الله الرحمن الرحيم تمام تشديداتها وحروفها ، ويعتد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول آمين في آخر الفاتحة وبمدهامدا ولا يصل آمين بقوله ولا الضالين وصلا ويجهز بالقراءة في الصبح والغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ويجهز بالتأمين ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن لما فوقها ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوله سبحان الله ويقرأ في الصبح من السور الطوال من الفصل وفي المغرب من قصاره وفي الظهر والعصر والعشاء نحو والسماء ذات البروج وما قاربها وفي الصبح في السفر . قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

(الركوع ولواحقه)

ثم يركع ويراعي فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابه من شورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يشبههما وأن يمد ظهره مستويا وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يحافي مرقبيه عن جنبيه وتضم الرأفة مرقبها إلى جنبها وأن يقول سبحان ربّي العظيم ثلاثاً والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن إن لم يكن إماماً ثم يرفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول سمع الله لمن حمده ويطمئن في الاعتدال ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح ويقت في الصبح في الركعة الثانية بالسكّات المأثورة قبل السجود (٤) .

(السجود)

ثم يهوى إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأذنيه وكفيه مكشوفة ويكبر

(١) حديث أنه يقول بعد قوله الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا م من حديث ابن عمر قال بينما نحن نصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا الحديث وده من حديث جابر بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال الله أكبر كبيرا الحديث (٢) حديث دعاء الاستفتاح وجهت وجهي الحديث م من حديث علي (٣) حديث سبحانك اللهم وبحمدك الحديث في الاستفتاح أيضا ذلك وصححه من حديث عائشة وضعت قط ورواه م موقوفا على عمر وعند حق من حديث جابر الجعفي وجهت وبين سبحانك اللهم (٤) حديث القنوت في الصبح بالسكّات المأثورة حق من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم يفت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات اللهم اهدني فيمن هديت الحديث ذلك وحسنه ون من حديث الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يله هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر وإسناده صحيح .

وخلق آدم عليه السلام جبارا قادرا عالما مريدا بصيرا مريدا متكلما فاعلا وكانت لأدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالقول وهي لله تعالى مضافة باللفظ وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا وإنما مرادنا تبين ما بين الصورتين بأبمد وجوه الامكان حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الإسماء للفظ بها لا غير وفرار أن ثبت صورة لله تعالى وبطلق عليها حالة الوجود فافهم هذا فانه من أدق ما يقرع صمك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ولهذا قيل لك فان كنت تستقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تكن مشبا مطلقا ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المزهين

على قسك بالتشبيه
معتقدا ولا تشكر كاقبل
كن يهوديا صرفا وإلا
فلا تلعب بالتوراة أى
تلبس بدينهم وتريد
أن لا تنسب إليهم أى
تقرأ التوراة ولا تعمل
بها وإن كنت تعتقد
الصورة الباطنة منزلها
مجللا ومقدسا مخلصا
أى ليس تعتقد من
الإضافة في الضمير إلى
الله تعالى إلا الأسماء
دون للماني تلك الماني
للسما لا يقع عليها اسم
صورة على حال وقد
حفظ عن الشبل راحة
الله عليه في معنى
ما ذكرناه من هذا
الوجه قول بليغ مختصر
حين سئل عن معنى
الحديث فقال خلقه الله
على الأسماء والصفات
لا على الذات . فان قلت
فكذا قال ابن حنبل
في كتابه للعروف
بتناقض الحديث حين
قال هو صورة لا كالصور
فلم أخذ عليه في ذلك
وأقيمت عليه الشناعة
به وإطرح قوله ولم
يرضه أكثر العلماء
وأهل التحقيق . فاعلم

عند الموى ولا يرفع يديه في غير الركوع وينبغي أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته وأن يضع
بعض يديه ثم يضع بعدها وجهه وأن يضع جبهته وأنته على الأرض وأن يحافى مرقبيه عن جنبه
ولا تفعل للراءة ذلك وأن يخرج بين رجله ولا تفعل للراءة ذلك وأن يكون في سجوده نحويا على الأرض
ولا تكون للراءة نحوية والنخوية رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين وأن يضع يديه على
الأرض حذاء منكبيه ولا يخرج بين أصابعها بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما وإن لم يضم الإبهام
فلا بأس ولا يفتش ذراعيه على الأرض كما يفتش السكب (١) فإنه منهي عنه وأن يقول سبحان ربى
الأعلى ثلاثا فان زاد لحسن إلا أن يكون إماما ثم رفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا فيرفع رأسه
مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على غزديه والأصابع منشورة
ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ويقول رب اغفرلى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عني
ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالسا جلسة
خفيفة للاستراحة في كل ركعة . لا تشهد عقيبها ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجله في
حال الارتفاع وبعد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام
بحيث تكون الهاء من قوله الله عند استوائه جالسا وكاف أكبر عند اعتناؤه على اليد للقيام وراء
أكبر في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدىء في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله
ولا يغلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم ويصلى الركعة الثانية كالأولى وبعد التعميم لا يبدأ .

(التشهد)

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده
اليمنى على غزده اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلى السبعة ولا بأس بأرسال الإبهام أيضا ويشير بمسبحة عنقه
وحدها عند قوله إلا الله لا عند قوله لا إله إلا الله ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدة
وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء للأئمة (٢) بعد الصلاة على النبي ﷺ وسننه كسنة التشهد الأول
لكن يجلس في الأخير على وركة الأيسر لأنه ليس مستوفزا للقيام بل هو مستقر ويضع رجله
اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه ثم يقول
السلام عليكم ورحمة الله ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليميني ويلتفت
ثمالة كذلك ويسلم تسليمة ثانية وينوى الخروج من الصلاة والسلام وينوى بالسلام من على يمينه
الملائكة والسلمين في الأولى وينوى مثل ذلك في الثانية ويجزم التسليم (٣) ولا يعمده مدا فهو السنة
وهذه هيئة صلاة المنفرد ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وينوى
الامام الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم إذا نواوا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ويسر بدعاء
الاستفتاح والتعوذ كالمفرد ويجهر بالقراءة والسورة في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك
المنفرد ويجهر بقوله آمين في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا
لا تعقيا ويسكت الامام سكتة عقيب القاعة ليثوب إليه نفسه ويقرأ للمأموم القاعة في الجهرية في هذه
السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ للمأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع

- (١) حديث النهي عن أن يفتش ذراعيه على الأرض كما يفتش السكب متفق عليه من حديث
أنس (٢) حديث الدعاء للأئمة بعد التشهد من حديث على في دعاء الاستفتاح قال ثم يكون
من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفرلى ما قدمت الحديث وفي الصحيحين من حديث عائشة
إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع من عذاب جهنم الحديث وفي الباب غير ذلك جميعها في الأصل
(٣) حديث جزم السلام سنة دت من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وضحه ابن القطان .

صوت الامام ويقول الامام مع الله لمن حمده عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم ولا يزيد الامام على الثلاث في تسيحات الركوع والسجود ولا يزيد في التشهد الأول بعد قوله اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاعلة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوي عند السلام السلام على القوم ولللائكة وينوي القوم بتسليمهم جوابه ويثبت الامام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم وينصرف الامام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى ولا يخص الامام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول اللهم اهدنا وبجر به ويؤمن القوم ورفضون أيديهم خلف صدورهم ويمسح الوجه عند ختم الدعاء الحديث نقل فيه وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد .

(التيات)

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناها وعن الإقماء (١) وعن السدل (٢) والكف (٣) وعن الاختصار (٤) وعن الصلب (٥) وعن الواصلة (٦) وعن صلاة الحاقن (٧) والحاقب (٨) والحاظ (٩) وعن صلاة الجائع والغضبان والتئم (١٠) وهو ستر الوجه أما الإقماء فهو عند أهل اللغة أن يجلس على ركبة وينصب ركبته ويجعل يديه على الأرض كالكلب وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين

(١) حديث النهي عن الإقماء تـ من حديث علي بن بسند ضعيف لا تقع بين السجدين وم من حديث عائشة كان ينهى عن غلبة الشيطان ولك من حديث سمرة ومحمه نهى عن الإقماء (٢) حديث النهي عن السدل في الصلاة ذلك ومحمه من حديث أبي هريرة (٣) حديث النهي عن الكف في الصلاة متفق عليه من حديث ابن عباس أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعة أعظم ولا نسكف شعرا ولا ثوبا (٤) حديث النهي عن الاختصار ذلك ومحمه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ نهى أن يصلي الرجل مختصرا (٥) حديث النهي عن الصلب في الصلاة دن من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث النهي عن الواصلة عزاه رزين إلى ت ولم أجده عنده وقد فسر الغزالي بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك وقد روى ذلك وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة سكتان حفظهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في صلاته: إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته الحديث (٧) حديث النهي عن صلاة الحاقن . وقط من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن ود من حديث أبي هريرة لا يحل لرجل أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقن وله وت وحسنه نحوه من حديث ثوبان وم من حديث عائشة لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان (٨) حديث النهي عن صلاة الحاقب لم أجده بهذا اللفظ وفسره المنصف تبعاً للأزهري بدافعة الفائط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا (٩) حديث النهي عن صلاة الحاقن وهو صاحب الحنف الضيق (١٠) حديث النهي عن التئم أصحاب القريب حديث لا رأي لحازقي وهو صاحب الحنف الضيق (١٠) حديث النهي عن التئم في الصلاة . من حديث أبي هريرة بسند حسن نهى أن يضطى الرجل قام في الصلاة زواها الحاكم ومحمه قال الخطابي هو التئم على الأفواه .

أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضاً عنه وأبلغ في الإنكار عليه وأبعد الناس عن تبويخ قوله وليس هو الذي أئمتنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا وذهلت عن تعقل مرادنا ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات وهو أثبتنا حالة للذات فأين من لب الجوز قشور تفرقع والذي يغلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق السق أمرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها وإنما ظهر له شيء لم يكن له به ألف وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوي التصور تشبيها وبين التأويل الذي ينفه فأثبت للشيء المرغوب

والركبتين . وأما السدل فذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فركع ويسجد كذلك وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم قهوا عن التشبه بهم والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه في بدن القميص وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يخطهما على كتفيه والأول أقرب وأما الكعب فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود وقد يكون الكعب في شعر الرأس فلا يصلح وهو ناقص شعره والنهي للرجال وفي الحديث « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعرا ولا ثوبا » (١) وكره أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكعب . وأما الاختصار فإن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فإن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام . وأما اللواصة فهي خمسة اثنتان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيره الاحرام ولا ركوعه بقراءته واثنتان على للأوموم أن لا يصل تكبيرة الاحرام بتكبيره الامام ولا تسليمة بتسليمه وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية ويفصل بينهما . وأما الحاقن فمن البول والحاقب من الغائط والحازق صاحب الحنف الضيق فان كل ذلك يمنع من الحشوع وفي معناه الجائع والهم وفهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب » (٢) وفي الخبر « لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان » (٣) وقال الحسن كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع وفي الحديث « سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان الرعاف والنعاس والوسوسة والتأوب والحكاك والالتفات والعبث بالثياب » (٤) وزاد بعضهم السهو والشك وقال بعض السلف أربعة في الصلاة من الجفاء الالتفات ومسح الوجه وتسوية الخصى وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك « ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه » (٥) أو يفرق أصابعه » (٦) أو يستر وجهه » (٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى ويدخلهما بين فخذه في الركوع » (٨) وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم كنا نفعل ذلك قهينا عنه ويكره أيضا أن ينفع في الأرض عند السجود للتنظيف وأن

(١) حديث أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعرا ولا ثوبا متفق عليه من حديث ابن عباس (٢) حديث إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان لم أجده (٤) حديث سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة: الرعاف والنعاس والوسوسة والتأوب والالتفات وزاد بعضهم السهو والشك من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتأوب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبي العاص يارسل الله إن الشيطان قد حل بيني وبين صلاتي الحديث وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة هو اختلاس يغتله الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبي هريرة التأوب من الشيطان ولهما من حديث أبي هريرة إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى (٥) حديث النهي عن تشبيك الأصابع أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ود ث ح نحوه من حديث كعب بن عجرة (٦) حديث النهي عن تقيع الأصابع في الصلاة من حديث طي بستان ضعيف لا تضع أصابعك في الصلاة (٧) حديث النهي عن ستر الوجه د ه ك وصححه من حديث أبي هريرة حديث نهى أن ينطى الرجل فاه في الصلاة قد تقدم (٨) حديث النهي عن التطبيق في الركوع متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص قال كنا قمنا قهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب .

عنه وأرادني ماخاف من الوقوع فيه فلم يتأت له اجتماع مارام ولا نظام ما اقترف فها هو صورة لا كالصور ولكل ساقطة لا قطة فتبادر الناس إلى الأخذ عنه .

[فصل] ومعنى قاطع الطريق - فإنك بالوادي

القدس طوى - أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب فإنك على هداية ورشد والوادي القدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى في الوادي وإنما تقدس الوادي بما أنزل

فيه من الذكر وسمع كلام الله تعالى وأقيم ذكر الوادي مقام ما حصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وإلا فالمقصود ما حذف لاما أظهر بالقول إذ الواضع لآثار لها وإنما هي ظروف .

[فصل] ومعنى فاستمع أي سر قلبك لما يوحى فطالك بعد على النار هدى ولطاك من

يسوى الحصى يده فانها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على فخذه ولا يستند في قيامه إلى حائط فان استند بحيث لو سئل ذلك الحائط لم يقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

(تميز الفرائض والسنن)

جملة ما ذكرناه يشتمل على فرائض و سنن وآداب وهيئات مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة النية والتكبير . والقيام والقائمة والانحناء في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا والجلوس للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والسلام الأول فأمانية الخروج فلا تجب وماعدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض . أما السنن فمن الأفعال أربعة رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام والجلسة للتشهد الأول فأما ما ذكرناه من كيفية ضم الأصابع وحد رفعها فهي هيئات تابعة لهذه السنة والتورك والاقتراش هيئات تابعة للجلسة والاطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته وجلسة الاستراحة لم نعدها من أصول السنة في الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم نتردد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله آمين فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ثم التشهد الأول . والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ثم التسليمة الثانية وهذه وإن جمناها في اسم السنة فلهذا درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فصر عن ذلك بالهضم وقيل الأباض تجبر بالسجود وأما الأذكار فكلها لا تنقض سجود السهو إلا ثلاثة القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما لأن الركوع والسجود في صورتها مخالفتان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فقدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركها لا يؤثر مع أن القيام صار معمورا بالقائمة وبمزا عن العادة بها وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مد الاعتدال في الصبح لأجله فكان كجلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسة للتشهد الأول فبقى هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصبح وفي خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة . فان قلت تميز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تميز سنة عن سنة والكل مأثور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه . فاعلم أن اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ولن يكشف ذلك لك بمثال وهو أن الإنسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالعنى الباطن هو الحياة والروح والظاهر أجسام أعضائه ثم بعض تلك الأعضاء ينعم الإنسان بخدمتها كالقلب والكبد والدماغ وكل عضو تفوت الحياة بفواته وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن

سراقات المرء تنادي
بما نودى به موسى إنى
أنار بك أى فرغ قلبك
لما يرد عليك من
فوائد للزبد وحوادث
الصدق وتجار المعارف
وارتياح سلوك الطريق
وإشارات قرب الوصول
وسر القلب كما يقول
أذن الرأس ووسع
الآذان وما يوحى أى
ما يرد من الله تعالى
بواسطة ملك أو إلقاء
بواسطة ملك أو إلقاء
في روع أو مكاشفة
بحقيقة أو ضرب مثل
مع السلم بتأويله
ومعنى لعلك حرف
ترويح ومعنى إن لم
تدرك آفة تقطعك
عن سماع الوحي من
إعجاب بحال أو إضافة
دعوى إلى النفس أو
قنوع بما وصلت إليه
واستبداده عن غيره
وسراقات المجد هي
حجب للسكوت وما
نودى به موسى هو علم
التوحيد التى سمعت
العبارة اللطيفة عنه
بقوله حين قال له
يا موسى إننى أنا الله لا إله
إلا أنا والنادى باسمه
أزلا وأبدا هو اسم

موسى لما سمى السالك
الوجود في كلام الله
تعالى في أزل الأزل قبل
أن يخلق موسى لا إلى
أول وكلام الله تعالى
صفة لا يتغير كالاتغير
هو إذ ليست صفاته
للعنوية لغيره وهو
الذي لا يحول ولا يزول
وقد زل قوم عظم
اقتراحهم وهو أنهم
حملوا صدور هذا
القول على اعتقاد
اكتساب النبوة وعبادة
الله من أين يحتمل
هذا القول ما حملوه
من اللذهب أليسوا
وهم يعرفون أن كثيرا
من يكون بحضرة
ملك من ملوك الدنيا
وهو يخاطب إنسانا
آخر قل ولاية كبيرة
وفوض إليه عملا عظيما
وحياه حياه خطيرا
وهو ينادى باسمه أو
بأمره بما يمثل من
أمره ثم إن السامع
للملك الحاضر معه غير
الولى لم يشارك للولى
المخووع عليه والفوض
إليه في شيء مما ولى
وأعطى ولم نجب له
بسماعه ومشاهدته

الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كاله كاستقواس
الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون
فهذه درجات متفاوتة فكذلك العبادة صورها الشروع وتعبدا بنا كتسابها فروحها وحياتها
الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والاخلاص كما سيأتي ونحن الآن في أجزائها الظاهرة فالركوع
والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والسكبد إذ يفوت وجود الصلاة
بفواتها والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها مجرى
اليدين والمئين والرجلين ولا نفوت الصحة بفواتها كما لا نفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن
يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الحلقة مذموما غير مرغوب فيه فكذلك من اقتصر على أقل
ما يجزى من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . وأما الهيئات
وهي ما وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون .
وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية
وغيرها فالصلاة عندك قربة وتغفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة
من السلاطين إليهم وهذه التغفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك
الحبرة في تحمين صورتها وتقييحها فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فضليها ولا ينبغي أن يكون
حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بغيرك من أوصاف السنة إلا أنه
يجوز تركها فتركها فان ذلك يضاهي قول الطبيب إن فقه العين لا يسطل وجود الانسان ولكن
يخرجه عن أن يصدق رجاء التقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية فمكذبا ينبغي
أن نفهم مراتب السنن والهيئات والآداب فكل صلاة لم يتم الانسان ركوعها وسجودها فهي
الحصم الأول على صاحبها تقول ضيمك الله كما ضيحت فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان
الصلاة ليظهر لك وقعها .

(الباب الثالث في الشروط الباطنة من أعمال القلب)

ولقد كرفي هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ثم نذكر للغانى الباطنة وحدودها وأسبابها
وعلاجها ثم نذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون سالحة لزيادة الآخرة .

(بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب)

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى - أقم الصلاة لذكري - وظاهر الأمر الوجوب والغفلة تضاد
الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقبلا للصلاة لذكره وقوله تعالى - ولا تكن من الغافلين -
نهي وظاهره التحريم وقوله عز وجل - حتى تطمأنا تقولون - تعليل لنهي السكران وهو مطرد
في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تتمكن
وتواضع » حصر بالألف واللام وكلمة « إنما » لتحقيق والتوكيد وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام
« إنما الشفعة فيما لم يقصر » الحصر والاثبات والنفي وقوله صلى الله عليه وسلم « من لم تنه صلاته عن
الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر . وقال صلى
الله عليه وسلم « كم من قائم حظه من صلاته الثعب والنصب ^(١) » وما أراد به إلا الغافل وقال

(الباب الثالث)

(١) حديث كم من قائم حظه من صلاته الثعب والنصب . من حديث أبي هريرة ربه قائم
ليس له من قيامه إلا السهر ولأحمد ربه قائم حظه من صلاته السهر وإسناده حسن .

على الله عليه وسلم «ليس للمسلم من صلاته إلا ما عقل منها»^(١) والتحقيق فيه أن الصلي مناخ ربه عز وجل^(٢) كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ويأنه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسلطة الهوى الذي هو آلة للشيطان صدواؤه فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة وكذلك الحج أفضل شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلاء كان القلب حاضراً مع أفضاله أو لم يكن أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود فأما الذكر فإنه محالورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً وهو ماوراء المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالامساك في الصوم وكما تمتحن البدن بمشقة الحج ويطحن القلب بمشقة إخراج الزكاة والانتطاع لله للعشوق ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الناظر فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب فأى سؤال في قوله لهدن الصراط المستقيم إذا كان القلب غافلاً وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاءً فأى مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتقاد هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الألفاظ للهالة على هذه الماني على لسانه في النوم لم ير في يمينه ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضراً وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً مالم يكن هو حاضراً في قلبه فلو كانت تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضراً إلا أنه في رياض النهار غافل لسكونه مستغرق في المهم فسكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه ولا شك في أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة لما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيت القلب وتجديده ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به هذا حكم القراءة والله كرو بالجملة فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعتيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصم موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظماً للعائط الذي بين يديه وهو غافل عنه وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من الشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعله عماد الدين والفصل بين الكفر والاسلام ويقسم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود الناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منك - أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفضالها فهذا ما يدل من حيث المعنى على اعتراط حضور القلب . فإن قلت إن حكمت يطلان الصلاة وجلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فاتهم لم يشترطوا

(١) حديث ليس للمسلم من صلاته إلا ما عقل منها أجد مرفوعاً وروى محمد بن نسر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسل لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولا بن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما انتهى عنه (٢) حديث الصلي بناجي ربه متفق عليه من حديث أنس .

أكثر من حظوة القرية
وشرف الحضور ومنزلة
للكاشفة من غير
وصول إلى درجة
المخاطب بالولاية
والتقوى إليه الأمر
وقد كان هذا السالك
للمذكور إذا وصل في
طريقه ذلك بحيث
يصل للكاشفة
وللمجاهدة واليقين التام
الذي يوجب المعرفة
والعلم بتفاصيل العلوم
فلا يمتنع أن يسمع
ما يوحى لغيره من غير
أن يقصد هو بذلك
إذ هو محل صماع الوحي
على الدوام وموضع
للاصالة وكفى بها أنها
الحضرة الربوبية
وموسى عليه السلام
ما استنقى الرسالة
والنبوة ولا استوجب
التكليم وسماع الوحي
مقصوداً بذلك بحلوله
في هذا المقام الذي هو
المرتبة الثالثة فقط بل
قد استحق ذلك بفضل
الله تعالى حين خصه
بمعنى آخر ترقى إلى
ذلك المقام أضماً لما
يفاوز للرتبة الرابعة
لأن أخسر مقامات

إلا حضور القلب عند التكبير . فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة بل يبنون ظاهر أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتزوير السلطان فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع قد قل عن جرير بن الحارث فيارواه عنه أبو طالب للسكنى عن سفیان الثوري أنه قال من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن الحسن أنه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى التقوية أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متمعدا وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ^(١) » وهذا لو قل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسكه به وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها فجعله إجماعا وما قل من هذا الجنس عن الفقهاء الثورين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يصح عنه كل البشر إلا الأقلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما ينطق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقصرنا على التكليف بذلك ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر القلب لحظة وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ومع هذا الرجاء فيختص أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذي يحضر الخدمة ويتأون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحق أشد حالا من الذي يعرض عن الخدمة وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر خطرا في نفسه فإليك الحيرة بعده في الاحتياط والتساهل ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب للامانة عن التصريح بكل ما يشكف من أسرار الشرع فلنتصير على هذا القدر من البحث فإن فيه مقاما للريد الطالب لطريق الآخرة وأما المجادل للشكيب فلسنا نقصد مخاطبته الآن . وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رفق الروح الحضور عند التكبير فالتقصان منه هلاك وبقدرة الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة وكل من حى لأحراك به قريب من ميت فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لأحراك به نسأل الله حسن العون .

(بيان للعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة)

اعلم أن هذه المعاني تكثر عبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهي حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها . أما التفاصيل فالأول حضور القلب ونفى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جاثلا في غيرهما ومهما اسرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان

(١) حديث إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها الحديث دق حب من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

الأولياء أول مقامات الأنبياء وموسى عليه السلام نبى مرسل فقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه لأن هذا المقام الذى هو للرتبة الثالثة ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مبادئها أقرب منه إلى غايتها فمن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها والظعن على أهلها هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه محاسب بظنه وبقيته مكتوب عليه خطراته محفوظ عليه لحظاته مخلصا منه يقظاته وغفلاته فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . فإن قلت أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه والله تعالى يقول - تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - قد نبه أن تكليم الله تعالى لمن

في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ فاشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم الماني للقرآن والتسييحات وكمن معان لطيفة يفهمها الصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والنكر فانها تفهم أمورا تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والتفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا والخافة من القرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الحسية لا تسمى مهابة بل الخوف من السلطان المظلم يسمى مهابة والهيبة خوف مصدرها الاجلال . وأما الرجاء فلا شك أنه زادكم من معظم ملوكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته والبيد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل . وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه الماني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فان قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهتك ومهما أهملك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعللا بل جانبا في الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة والهمة لا تنصرف إليها مالم يتبين أن الفرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بمقاراة الدنيا ومهماتا حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر بمن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك فإذا كان لا يحضر عبد المناجاة مع ملك المولود الذي يده الملك والملكوت والنفع والضرب فلا تظن أن له سببا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع . وأما التفهم فسيبه بعد حضور القلب إيمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الأقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أغنى الزروع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها ومالم تنقطع تلك للواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المنيب يهجم على القلب بالضرورة فلذلك ترى أن من أحب غير الله لا تنصرف له صلاة عن الخواطر وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين إحداهما معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فان من لا يستقد عظمته لا تدع عن النفس لتعظيمه . الثانية معرفة حقارة النفس وخساستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ومالم تتزوج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فان المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه . وأما الهيبة والخوف فعلة للنفس تتولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته وتقوذه مشيئته فيه مع قلة البالاة به وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة

كله من الرحيل إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل وهذا لا يصلح أن يكون نظيره ممن ليس بنبي ولا رسول وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض في مسالك الحقائق فنقول ليس في الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره لأننا ما أوجبنا أنه كلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا وإنما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع كلام إنسان مثلاً مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كلمه وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كلمه ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا للمشاركة في نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن

ما يجري على الأنبياء والأولياء من الصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض ، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الحشية والمحبة وسيأتى أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربح النجيات . وأما الرجاء فسيبه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف منحه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبثت من مجموعهما الرجاء لاهالة . وأما الحياء فباستشماره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويعزى ذلك بالمعرفة بيوب النفس وآفاتنا وقلة إخلاصها وخبت دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السرّ وخطرات القلب وإن دقت وخفيت وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبثت منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فملاجه إحضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعنى به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب الصلوة ويحذر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونعذته فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » ، وقد روى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنفض أعضاءك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتني فأجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قلت بين يدي قم قيام الصلوة الدليل وناجني قلب وجعل لسان صادق » ، وروى أن الله تعالى أوحى إليه « قل لصلاة أمتك لا يذكروني فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم بالجنة » هذا في عاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها وإلى من يتم ولم ينب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب المم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها وبضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره ووجب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين وجماعة كانت تصفر وجوههم وترعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد فإن أضافه مشاهد في هم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع مجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ولو سئل عن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يتذكر على الأخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ولكل درجات مما عملوا حفظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتمظيمه فان موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم يحضر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعم بها واللذة ولقد صدق فانه يحشر كل على مامات عليه ويعوت على ما طاش عليه ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من آى الله قلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان الدواء النافع في حضور القلب)

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما فاعز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحيما من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدرة قوة بقيه فانفك كما عنها في الصلاة لاسبب له إلا تفرق الفكر وتهم الخاطر وغية القلب عن النجاة والغفلة عن الصلاة ولا يلهى عن الصلاة

إلا الحواطر الواردة الشاغلة والدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الحواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه وسبب موارد الحواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا أما الخارج فما يفرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف الملم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الابصار سببا للافتكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض ومن قويت نيته وعلت همته لم يلبه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يفض بصره أو يصل في بيت مظلم أولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ويعتزل من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة للصنوعة وعلى الفرش للصبوغة ولذلك كان للتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعة قدر السجود ليكون ذلك أجمع للهمم والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على عيניהم ولما لهم ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفا ولا سيفا إلا نزعها ولا كتابا إلا يحرقه . وأما الأسباب الباطنة فهي أشد فأن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يفيده ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك أن يستمد له قبل التحريم بأن يحدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف للنجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويغري قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهجمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة « إني نسيت أن أقول لك أن تحضر القدر الذي في البيت (١) » فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم فهذا طريق تسكين الأفكار فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينبغي إلا للسبيل الذي يجمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فامساكه أضرم عليه من إخراجها فيتخلص منه بإخراجها كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخيضة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألفتني ألتفا عن صلاتي واتوني بأبجانية أبي جهم (٢) . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شركائه فله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها ويرد الشركاء الخلق (٣) . وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى فعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربي عز وجل كي لا يعقني ثم خرج بها فدفعها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضي الله عنه أن يشتري له ثوبين سبطين جرداوين فلبسهما (٤) . وكان صلى الله عليه وسلم في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر

- (١) حديث إني نسيت أن أقول لك تحضر القربتين اللذين في البيت الحديث د من حديث عثمان الحجي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع المصنف أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وهم (٢) حديث نزع الخيضة وقال اتوني بأبجانية أبي جهم متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم .
(٣) حديث أمره بنزع الشركاء الجديد ورد الشركاء الخلق إذ نظر إليه في صلاته ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النصر مرسلا بإسناد صحيح (٤) حديث احتذى فعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربي الحديث أبو عبد الله بن حقيق في شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

القرآن كلام الله تعالى
إذ هي دلالة عليه . فإن
قلت فليبق على السامع
إذا سمع كلام الله تعالى
الذي يستفيد معرفة
وحدانيته وقته أمره
ونبيه وفهم مراده
وحكمه يلحقه العلم
الضروري فيها أرى
بأنه الشيء المرسل
إلا بأن يشتغل باصلاح
الخلق دونه ولو كان
عوضا منه آخر
عنه ومقامه مقامه ؟
فاعلم أن الذي أوجب
عشورك ودوام ذلك
واعتراضك على العلوم
بالجهل وعلى الحقائق
بالخايل إنك بعيد
عن غور اللطاب بعيد
في شرك اللطاب بعيد
صوب الصوت عتيد
صحب السحاب إن
الذي استحق به
الناظر السالك الواصل
للمرتبة الثالثة سماع
نداء الله تعالى معنى
ومقام وحال وخاصة
أعلى من تلك الأولى
وأجل وأكبر وبينهما
ما بين من استحق
للمواجهة بالخطاب
والقصد به وبين من

لا يستحق أكثر من
سماعه من يخاطب به
غيره فهذا من الإشارة
باختلاف ورود
الخطاب إليهما بما
يوجب تقورا وتباين
ما بينهما فإن فهمت
الآن وإلا فقد عني
لا ندر به حال؟ فإن قيل
ألم يقل الله تعالى - فلا
يظهر على غيره أحدا
إلا من ارتضى من
رسول - وسماع كلام
الله تعالى بحجاب أو
بغير حجاب وعلم ما في
اللكوت ومشاهدة
اللائكة وما غاب عن
الشاهدة والحس من
أجل الصوب فكيف
يطلع عليها من ليس
برسول قلنا في الكلام
حذف يدل على صحة
تقديره الشرع الصادق
والشاهدة الصورية
وهو أن يكون معناه
إلا من ارتضى من
رسول ومن اتبع
الرسول بالإخلاص
والاستقامة أو عمل بما
جاءه النبي لأن النبي
صلى الله عليه وسلم قال
« اتقوا فراسة المؤمن
فانه ينظر بنور الله »

فرماه وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم^(١) » وروى « أن أباطلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه
دبى طار في الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدركه صلى فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ما أصابه من الفتنة ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت^(٢) » . وعن رجل آخر أنه صلى
في حائط له والنخل مطوقة بشعرها فنظر إليها فأعجبه ولم يدركه صلى فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال
هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل فباعه عثمان بخمسين ألفا فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر
وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ولا يفتى غيره فأما ما ذكرناه
من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الله كذا فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والمهم التي لا تشغل إلا حواس
القلب فأما الشهوة القوية للرقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتتغنى
جميع صلاتك في شغل المجاذبة ومثاله رجل تحت شجرة أراد أن ينفوله فكره وكانت أصوات المصافير
تشوش عليه فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويمود إلى فكره فتعود المصافير فيعود إلى التنقير بالخشبة
فقيل له إن هذا أسير السواني ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة فكذلك شجرة الشهوات
إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب المصافير إلى الأشجار وانجذاب القلب إلى
الأقدار والشغل يطول في دفعها فإن الدباب كلما ذاب وآب ولأجله سمى ذبابا فكذلك الخواطر وهذه الشهوات
كثيرة وقلما يغلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأساس
كل نقصان ومنبع كل فساد ومن انطوى بباطنه على حب الدنيا هوى مال إلى شيء منها لا يلتزود منها ولا
ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفوله لذة النجاة في الصلاة فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله
سبحانه وبنجاته وهمة الرجل مع قرعة عينه فإن كانت قرعة عينه في الدنيا انصرف لاجالة إليها همه ولكن مع
هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر والمرارة
استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا حتى إن الأكارب اجتهدوا أن يصلوا ركعتين
لا يحدوثا أنفسهم فيها بأموال الدنيا فجزوا عن ذلك فاذن لا مطمع فيه لأمثالنا وليتسلم لنا من الصلاة شطرها
أو ثلثها من الوسواس لتكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب
مثل اللاء الذي يصب في قدح مخلوئ غل فيقدر ما يدخل فيه من لاء يخرج منه من الحل لاجالة ولا يجتمعان .

(بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة)

فقول حقا إن كنت من المرادين للآخرة أن لا تنفل أولا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة
وأركانها . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائما
والنية فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك
للإجابة والسارعة فإن السارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون بالطف يوم العرض الأكبر فأعرض
قلبك على هذا النداء فإن وجدته مخلوئا بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه
يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يا بلال^(٣) » أي أرحنا بها
وبالنداء إليها إذ كان قرعة عينه فيها صلى الله عليه وسلم وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك

(١) حديث رمية بالحاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم ن من حديث
ابن عباس باسناد صحيح وليس فيه بيان أن الحاتم كان ذهبيا ولا فضة إنما هو مطلق (٢) حديث إن
أباطلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر الحديث في سهوه في الصلاة وتصدقه
بالخائط . الك عن عبدالله بن أبي بكر أن أباطلحة الأنصاري فذكره بنحوه (٣) حديث بها أرحنا يا بلال
قط في الطل من حديث بلال ولأبي داود ومعه من حديث رجل من الصحابة لم يسم باسناد صحيح .

الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ثم في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تفعل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على ما فرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فانه موضع نظر مبدوك . وأما ستر المورة فاعلم أن معناه تغطية مقايح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق لما بالك في عورات باطنك وفشاح سرائك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل فأحضر تلك الفشاح بياك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه سائر وإنما يفرها النديم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها في قلبك ابتعاث جنود الخوف والحياء من مكانها فتدلل بها نفسك ويستكين تحت الحجة قلبك وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام المبد المجرم السوء الأبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى أقرى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى أمراقه عز وجل ليس مطلوباً منك هيات فلا مطلوب سواه وإنما هذه الظواهر تحريكاً للباطن وضبطاً للجوارح وتسكين لها بالاثبات في جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب فانها إذا ثبتت وظلت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفريغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام المبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدت أمه ^(١) » وأما الاعتدال قائماً فانما هو مشول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطأ متكسباً وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن التروؤس والتكبر وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك قم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومراقوب بعين كائنة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فانه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع وإذا أحسست من نفسك بالهناك عند ملاحظة عبد مسكين فتاب نفسك وقُل لها إنك تدعين معرفة الله وجهه أفلا تستحيين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك ^(٢) » وروى « من أهلك » . وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في أمثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه باذنه إليك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وبماذا

- (١) حديث إذا قام المبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدت أمه لم أجده
(٢) حديث قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك الخرائطي في مكارم الأخلاق حق في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسل بنحوه وأرسله حق بزيادة ابن عمر في السند وفي المثل قط عن ابن عمر له وقال إنه أشبه شيء بالصواب لو روده من حديث سعيد بن زيد أحد الثمرة .

وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن يشكف إليه وقال « إن يكن منكم محدثون فمهر » أو كما قال « للؤمن ينظر بنور الله » وفي القرآن العزيز - قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك - فلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبيا ولا رسولا وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال - فإذا جاء وعد ربك جعله دكاء وكان وعد ربك حقا - وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول وهو خلاف للسطور في الآية وإن رام أحد الدافعة بالاحتياط لما أخبر به ذوا القرنين وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب وأراد أن يجوز على

عمر التشبه بالحقائق
فما يصنع فيما جرى
للخضر وما أنبا الله
سبحانه وأظهر عليه
من العلوم الغيبية وهو
بعد أن يكون نبيا فليس
برسول على الوفاق من
الجميع والله تعالى يقول
- إلا من ارتضى من
رسول - فدل على أن
في الآية حذف مضاف
منه ما تقدم وانظر
إلى ما ظهر من كلام
سدرضى الله عنه
أنه يرى لللائكة وهو
غيب الله وأعلم أبو بكر
بما في البطن وهي من
غيب الله وشواهد
الشرع كثيرة جدا
يميز التأول ويلهو
المعاند هذا والقول
بتخصيص العموم
أظهر من الجرأة
وأشهر مما قل الكافة
ويحتمل أن يكون المراد
في الآية بالرسول للذكور
فيها ملك الوحي الذي
بواسطته تنجلي العلوم
وتكشف الغيوب
فحق لم يرسل الله ملكا
بإعلام عيب أو مخاطب
متأففة أو إلقاء معنى
في روح أو ضرب مثل

تاجي وعند هذا ينبغي أن يشرق جبينك من الجبل وترتعد فرائصك من الهبة ويصفر وجهك من
الخوف . وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك فإن كان في قلبك شيء هو
أكبر من الله سبحانه فله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقا كما شهد على الناقين في قولهم
إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله فإن كان هوأك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع
له منك لله تعالى فقد أخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك الله أكبر كلاما باللسان
المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن
بكرم الله تعالى وغضوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك وجهي للذي فطر السموات
والأرض وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما توجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس
عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجهه بذكره عليه وإنما وجه القلب هو الذي توجه به إلى فاطر
السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل
على فاطر السموات وإياك أن تكون أول مغامرتك للنجاة بالكذب والاختلاق ولن يصرف الوجه
إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن
قولك في الحال صدقا ، وإذا قلت حيفا مسلما فينبغي أن يخطر ببالك أن السلم هو الذي سلم
للسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال
وتقدم على ما سبق من الأحوال وإذا قلت أما أنا من الشركين فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن
قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - نزل فيمن
يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن حذرا مشققا من هذا الشرك واستشعر الحجة في قلبك
إن وصفت نفسك بأنك لست من الشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع
على القليل والكثير منه وإذا قلت بحياي ومحاسني لله فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود
لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمر
الدنيا لم يكن ملائما للخال وإذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومتهدد لصرف
قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لمن
بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها وأن استعذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما
يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقته فقال أعوذ منك
بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه فإن ذلك لا ينفعه بل لا يبيحه إلا بتبديل المكان فكذلك
من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يبيعه مجرد القول فليقرن قوله بالعزم
على التعمد بحسن الله عز وجل عن شر الشيطان وحسنه لا إله إلا الله إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه
نبينا صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصي أمن من عذابي »^(١) وللتنصيص بمن لا معبود له سوى الله
سبحانه فأنا من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكايده
أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لينمك عن فهم ما تقرأ فاعلم أن كل ما يشغلك عن
فهم معاني قراءتك فهو وبواسف فإن حركة اللسان غير مقصودة بل للقصد معانيها . فأما القراءة فالتناس
فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه فافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه
كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولا ثم يخدم اللسان القلب
(١) حديث قال الله تعالى لا إله إلا الله حصني كفي التاريخ وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت
من حديث علي بن إسماعيل ضعيف جدا وقول أبي منصور الديلمي - حدثت تبت مردود عليه .

في بقية أو مقام لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ويكون تقدير الآية فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في بقية أو مقام فانه يطالع على ذلك أيضا ويكون قاعدة الأخبار بهذا في الآية الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ولا مخلوق سواء إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ويرجع إلى الله تعالى وحده ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ويحتمل وجه آخر وهو أن يكون معناه والله أعلم فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ويكون معنى من

فترجمه ففرق أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمترجمون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة العاني أنك إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه وافهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه وأن للراد بالاسم ههنا هو المسمى وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان الحمد لله ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو بقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل في تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى فإذا قلت الرحمن الرحيم فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتضع لك رحمة فينبعث بها رجاؤك ثم استر من قلبك التعظيم والخوف ببولك مالك يوم الدين أما العظمة فلا أنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه ثم جدد الاخلاص بقولك إياك نعبد وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك وإياك نستعين وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بأعانه وأن له المنه إذ وثقك الله لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من الطرودين مع الشيطان اللعين ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك بسم الله الرحمن الرحيم ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الاعانة مطلقا فحينئذ سؤالك ولا تطلب إلا أم حاجاتك وقل أهدنا الصراط المستقيم الذي يسوقنا إلى جوارك ويغض بنا إلى مرصاتك وزده شرحا وتفصيلا وتأكيذا واستشهادا بالدين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائمين من اليهود والنصارى والصائبين ثم التمس الإجابة وقل آمين فإذا تلاوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيها أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل » (١) يقول الصمد الحمد لله رب العالمين فيقول الله عز وجل حمدني عبدي وأثنى علي وهو معنى قوله سمع الله لمن حمده الحديث الخ فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعدته وعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد والخوف حق الوعيد والعزم حق الأمر والنهي والاتعاظ حق الوعظة والشكر حق ذكر النعم والاعتبار حق إخبار الأنبياء . وروى أن زرار بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى - فإذا قرأ في الناقور - خر ميتا وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى - إذا السماء انشقت - اضطرب حتى تضطرب أوصاله وقال عبد الله بن واقد رأيت ابن عمر يصلي مقلوبا عليه وحق له أن يحترق قلبه بوعده سيده ووعيده فانه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر وتكون هذه العاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضا ثم راعى الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فان ذلك أيسر للتأمل ويفرق بين نعماته في آية الرحمة والعذاب والوعود والوعيد والتعظيم والتعجيد . كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل - ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله - يخفض صوته كالمتسحي عن أن يذكره بكل شيء لا يلبق به وروى أنه يقال لقارئ القرآن « اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا » (٢) .

(١) حديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث م عن أبي هريرة (٢) حديث يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق دت ن من حديث عبد الله بن عمر وقال ت حسن صحيح .

رسول أي عن يد
رسول من الملائكة .
[فصل] ومعنى ولا
يتخطى رقاب المصدقين
إن قلت ما الذي أوصله
إلى مقامهم أو جاوز به
ذلك وهو في الرتبة
الثالثة حال للقرنين
ما وصل حيث ظننت
فكيف يجاوزه وإنما
خاصية من هو في رتبة
الصديقين عدم السؤال
لكثرة التحقق
بالأحوال وخاصة من
هو في رتبة القرب
كثرة السؤال طمعا
في بلوغ الآمال ومثالها
فيما أشير إليه مثا
إنسانين دخلا في بستان
أحدهما يعرف جميع
أنواع نبات البستان
ويتحقق أنواع تلك
الثمار ويعلم أسماءها
ومتافعها فهو لا يسأل
عن شيء مما يراه ولا
يحتاج إلى أن يخبر به
والثاني لا يعرف مما
رأى شيئا أو يعرف
بعضا ويجهل أكثر
مما يعرف فهو يسأل
ليصل إلى علم الباقي
وذلك من تكلمنا
عليه حين أكثر

وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعم واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على الصلي ما لم يلتفت ^(١) » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة فاذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقيع التهاون بالمناجى عند غفلة الناجي ليعود إليه وألزم الخشوع للقلب فان الخلاص عن الالتفات باطنا وظاهرا ثمرة الخشوع ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا صلياً يصلي بليته « أما هذا لو خشع قلبه لحشمت جوارحه » فان الرعية بحكم الراعي ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعي والرعية ^(٢) » وهو القلب والجوارح وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع المصافير عليه كأنه جماد وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك وكل من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سوره وضميره وقال عكرمة في قوله عز وجل - الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين - قال قيامه وركوعه وسجوده وجاوسه . وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجد عند هذا ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بفوق الله عز وجل من عقابه بتجديدية ومتباعدة بنية ^{عليه السلام} ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك وتجهدا في ترفيق قلبك وتجهيدا خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكد كده بالتكرار ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقولك مع الله لمن حمده أي أجاب لمن شكره ثم تردف ذلك الشكر المتقاضى للمزيد فتقول ربنا لك الحمد وتكثر الحمد بقولك ملء السموات وملء الأرض ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الدل وإذا وضعت نفسك موضع الدل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فانك من التراب خلقت وإليه تعود فتجد هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل سبحان ربّي الأعلى وأكده بالتكرار فان الكثرة الواحدة ضئيفة الأثر فاذا رقت قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله فان رحمته تتسارع إلى الضعف والدل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا ومائلا حاجتك وقائل رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم أوما أردت من الدعاء ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيا كذلك وأما التشهد فاذا جلست له فاجلس متأدبا وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وليصدق أملك في أنه يلغى ويرد عليك ما هو أوفى منه ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما واقيا بمدد عباده الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولحمدنبيه صلى الله عليه وسلم بالرسلالة مجددا عهد الله سبحانه بإعادة كلتي الشهادة ومستأنفا لتحسن بها ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء للأتور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال

(١) حديث إن الله يقبل على الصلي ما لم يلتفت د ن ك وصحح إسناده من حديث أبي ذر

(٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية لما قبله على أصل وفسره للصنف بالقلب والجوارح .

أسطوانة في السجد وهو في الصلاة وتأكل كل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه قليل إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلاة وقال بعضهم الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا وقيل لآخر هل تحدث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة فقال لا في الصلاة ولا في غيرها وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئاً فقال وهل شيء أحب إلي من الصلاة فأذكره فيها وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول من قبه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها قليل له خفت يأبى اليقظان فقال هل رأيته في قصص من حدودها شيئاً قالوا لا قال إني بادرت سهو الشيطان إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وكان يقول إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها^(١)» ويقال إن طلحة والزير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال طي النبر إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها . وسئل أبو العالية عن قوله - الذين هم عن صلاتهم ساهون - قال هو الذي يسهو في صلاته فلا يدرى طي كم ينصرف إلى شفع أم طي وتر؟ وقال الحسن هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج . وقال بعضهم هو الذي إن صلاه في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً ولا تأخيرها إثمًا . واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كإدلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول إن الصلاة في الصحة لا تجزأ ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دل عليه الأحاديث إذ ورد جبر قصان الفرائض بالنوافل^(٢) وفي الخبر قال عيسى عليه السلام يقول الله تعالى بالفرائض نجما مني عبدي وبالنوافل تقرب إلى عبدي وقال النبي صلى الله عليه وسلم «قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما اقترضته عليه^(٣)» وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم «صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انقضى قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبي بن كعب رضي الله عنه فقال قرأت سورة كذا وتركت آية كذا لما ندرى أنسحت أم رفعت فقال أنت لها يا أبي ثم أقبل على الآخرين فقال ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويسمون صغوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أبدانكم وتعطوني ألسنتكم وتفتيرون على قلوبكم باطل ما تذهبون إليه^(٤)» وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه وقال بعضهم إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لهلكوا قيل وكيف يكون ذلك قال يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه

(١) حديث إن عمار بن ياسر صلى فأخفها قليل له خفت يأبى اليقظان الحديث وفيه إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها إلى آخره أحمد بإسناد صحيح وتقدم للرفع عنه وهو عند (٢) حديث جبر قصان الفرائض بالنوافل أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته وفيه فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة (٣) حديث قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما اقترضت عليه لم أجده (٤) حديث صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انقضى قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبي بن كعب الحديث رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مراسلا وأبو منصور الديلمي من حديث أبي بن كعب ورواه مختصراً من حديث عبد الرحمن بن أبي بصير بإسناد صحيح.

أكل صنعا ولو كان
وآخره مع القدرة
كان ذلك محلاً يناقض
الكرم الإلهي وإن
لم يكن قادراً عليه
كان ذلك مجزأ يناقض
القدرة الإلهية فكيف
يقضى عليه بالعجز فيها
لم يحلقه اختياراً وكان
ذلك ولم ينسب إليه
ذلك قبل خلق العالم
ويقال إذا خار إخراج
العالم من العدم إلى
الوجود مجزئاً ما قبل
فيما ذكرنا وما الفرق
بينهما وذلك لأن تأخير
بالعالم قبل خلقه عن
أن يخرج من العدم
إلى الوجود يقع تحت
الاختيار الممكن من
حيث إن الفاعل المختار
له أن يفعل فإذا فعل
فليس في الامكان أن
يفعل إلا نهاية ما تقتضيه
الحكمة التي عرفنا أنها
حكمة ولم يعرفنا بذلك
إلا لنعلم بجاري أفعاله
ومصادر أموره وأن
تتحقق أن كل
ما اقتضاه ويقضيه عن
خلقه بملء وإرادته
وقدرته إن ذلك طي
غاية الحكمة ونهاية

فهذه صفة الخاشعين فدلّت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في العباد واقه أعلم نسأل الله حسن التوفيق .
(الباب الرابع في الإمامة والقعدة)

وفي أركان الصلاة وبعد السلام وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة : أولها أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين فإن كان الأقولون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفي الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاحهم ردوسهم : العبد الأبق وامرأ تزوجها اخط عليها وإمام أم قوم ما ومله كارهون » (١) وكأني عن تقدمه مع كراهتهم فكذلك ينهى عن التقدم إن كان وراءه من هو أقدم منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم فإن لم يكن شيء من ذلك فليقدم بهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قومًا مدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخصف بهم وماروى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضي الله عنهم فسيب إشارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاحهم فإن الأئمة ضمانهم وكان من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المعتدين لاسيا في جهره بالقراءة فكان لا حتراز من احتراز أسباب من هذا الجنس . الثانية إذا خير المرء بين الأذان والإمامة فينبغي أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه بل ينبغي أن يكون الإمام غير المؤذن وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى وقال قائلون الأذان أولى لما قلناه من فضيلة الأذان ولقوله ﷺ « الإمام ضامن وللمؤذن مؤتمن » (٢) فقالوا فيها خطر الضمان وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فاذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا » (٣) وفي الحديث « فإن أتم فله ولهم وإن قص فعليه لا عليهم » (٤) « لأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » (٥) « والنفرة أولى بالطلب فإن الرشيد را دله مفرة وفي الخبر « من أم في (١) مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بالاحساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » (٦) ولذلك نقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واطب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما والأئمة بعدهم ، ثم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة والخلافة أفضل لقوله ﷺ « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » (٧)

(الباب الرابع)

(١) حديث ثلاثة لا تجاوز صلاحهم وسنهم : العبد الأبق الحديث ت من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وضعفه هق (٢) حديث الامام ضامن والمؤذن مؤتمن د ت من حديث أبي هريرة وحكي عن ابن للدين أنه لم يشته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة باسناد حسن (٣) حديث الامام أمين فاذا ركع فاركعوا الحديث خ من حديث أبي هريرة دون قوله الامام أمين وهو بهذه الزيادة في مسند الحميدى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة (٤) حديث فإن أتم فله ولهم وإن اتقص فعليه ولا عليهم د ه ك وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبي هريرة يصلون بكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطوا فلكم وعليهم (٥) حديث اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين هو بقية حديث الامام ضامن وتقدم قبل بمحدثين (٦) حديث من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب ت . من حديث ابن عباس بالشرط الأول نحوه قال ت حديث غريب (٧) حديث ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة

(١) قوله من أم الخ هكذا هو في النسخ وهو الموافق لكلام المصنف ولكن في المراقى والشارح لفظا وإن في الوضعين فليحذر الحديث اه .

الاتقان ومبلغ جودة الصنع ليجعل كالماخلق دليلا قاطعا وبرهانا على كماله في صفات جلاله الوجبة لإجلاله فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ولولم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من النقصان قطعا وما يحمل عليه من القدرة على أكل منه ظنا إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهمها وعرفهم ما أمكن وكشف لهم ما حجب وأجن فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على قصه ومن حيث أعلمهم بقدرته بصبرهم بعجزه فتعالى الله رب العالمين الملك الحق البين وأيضا فلا يعترض هنا ويتز به إلا من لا يعرف مخلوقاته ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابه ذلك

ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أتمتكم شفاعتي أوقات وفدتكم إلى الله فان أردتم أن تركوا صلاتكم قدموا خياركم » (١) وقال بعض السلف ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة الصليين لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعناد الدين وهو الصلاة وهذه الحاجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنه للخلافة إذ قالوا نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لديننا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا (٢) « وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضى للأذان » (٣) « وما روى أنه قال له رجل يا رسول الله « دنى على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا قال لا أستطيع قال كن إماما قال لا أستطيع فقال صل يا إمام » (٤) « فله ظن أنه لا يرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها . الثالثة أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصل في أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا (٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته ، ولما فاتته من أول وقتها خيره من الدنيا وما فيها » (٦) « ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لا تنظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الخامس وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإماما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى قامت رسول

الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين (١) حديث أتمتكم وفدتكم إلى الله تعالى فان أردتم أن تركوا صلاتكم قدموا خياركم قط هو وضعف إسناده من حديث ابن عمر والنفوي وابن قانع والطبراني في معاجهم ولك من حديث مرثد بن أبي مرثد نخوة وهو منقطع وفيه عجي بن يحيى الأسدي وهو ضعيف (٢) حديث تقديم الصحابة أبا بكر وتوهموا اخترنا لديننا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة من حديث على قال لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس وإني لشاهد ما أنا بخائب ولأني مرض فرسينا لديننا ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا وللرفع منه متفق عليه من حديث عائشة وآبي موسى في حديث قالوا أبا بكر فليصل بالناس (٣) حديث تقديم الصحابة بلالا (٤) احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى للأذان أما للرفع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد في بدء الأذان وفيه قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به الحديث وأما تقديمهم له بعد موت النبي ﷺ فروى الطبراني أن بلالا جاء إلى أبي بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط نفسي في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أنشدك بالله يا بلال وحرمتي وحقى قد كبرت سننى وضعفت قوتى واقترب أجلى فأقام بلال معه فلما توفي أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر فاني عليه فقال عمر فممن يا بلال فقال إلى سعد فانه قد أذن بقاء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبه وفي إسناده جهالة (٤) حديث قال له رجل يا رسول الله دنى على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا الحديث البخاري في التاريخ والعتيل في الضعفاء وطب في الأوسط من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٦) حديث إن العبد ليصلي الصلاة في أول وقتها ولم تفته الحديث الدارقطني من

(١) قول الرازي تقديم الصحابة بلالا لعل للناس عدم تقديمه فليأتمل

أصلا في العلم أو كان نسغا له ومعنى تقيس عليه غيره وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر إذ أفشاء لتسير أهله وأهده لمن لا يستحقه كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام لا تعلقوا بالدرق أعناق الخنازير . وإنما أراد قطاع العلم غير أهله وقد جاء لا تمنعوا الحكمة أهلها فظلموهم ولا تضعوها عند غير أهلها فظلموها وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام فان كان كشفه من الله سبحانه لقلوب صغيفة بطلت الأحكام في حقها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه في خير وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كن

أتهما كه فلا يحتاج
إلى تبزائد ولا تصيه
مكابدة فلو عرف كل
واحد عاقبته ومآله
بطلت الأحكام الجارية
عليه وإن كان
كشفها من غير
استروح الضيف إلى
ما يسمع من ذلك
فيتعطل وينخرم حاله
وينحل قيده وبعد
هذا فلا يحمل كلام
سهل إلا على ما يقدر
لا على ما يوجد ولذلك
جعله مقرونا بحرف
لو الدال على امتناع
الشيء لامتناع غيره
كما يقال لو كان للإنسان
جناحان لطار ولو
كان للنساء درج
لصعد عليهن ولو كان
البشر ملكا لفقد
الشهوات فعلى هذا
يخرج كلام سهل في
ظاهر العلم .

[فصل] وأما خطاب
العقلاء للجمادات فغير
مستكر قديما نذب
الناس الديار وسألوا
الأطلس واستخبروا
الآثار وقد جاء في أشعار
العرب وكلامها من
ذلك كثير وفي حديث

الله صلى الله عليه وسلم ركة فقام يقضيها قال فأشفتنا من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قد أحسنتم هكذا فافعلوا» (١) وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه (٢) وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره . الرابعة أن يؤتم بحضرة عز وجل ومؤديا أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته أما الإخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجره فقد أمر رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال اتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا (٣) فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو أحد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه والكراهية في الفرائض أشد منها في الترايع وتكون أجره له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة باطنا عن الفسق والكبائر والاصرار على الصغار فالترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك مجرده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهرا عن الحدث والخبث فانه لا يطلع عليه سواء كان تذكر في أثناء صلاته حدثا أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنبات في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة (٤) وقال سفيان صلى خلف كل بر وفاجر إلا ممن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لولديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق . الخامسة أن لا يكبر حتى تستوى الصفوف فليكتف يميننا وشمالا فإن رأى خلا أمر بالتسوية ، قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعب ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة ففي الخبر «لتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه» (٥) وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين (٦) وأمر بتقديم العشاء على العشاء (٧) طلبا لفرغ القلب . السادسة أن يرفع صوته بتكبيره الاحترام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وينوي الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نواوا الاقتداء ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة ، ولؤخر المأموم تكبيره عن تكبيره الإمام فيبتدىء بعد فراغه والله أعلم . وأما وظائف القراءة فثلاثة : أولها

حديث أبي هريرة نحوه بأسناد ضعيف (١) حديث تأخر رسول الله ﷺ يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف الحديث متفق عليه من حديث المغيرة . (٢) حديث تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد (٣) حديث اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجره أصحاب السنن وك وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي (٤) حديث تذكر النبي ﷺ الجنبات في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع د من حديث أبي بكره بأسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال ثم أومأ إليهم أن مكانكم الحديث وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلى وعند خ استخلاف عمر في قصة طعنه (٥) حديث يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه ، ت ك من حديث جابر : يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه وللمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته قال ت إسناده مجهول وقال ك ليس في إسناده سطعون فيه غير عمرو بن قايذ قلت بل فيه عبد النعم الدياجي منكر الحديث قاله خ وغيره (٦) حديث النبي عن مدافعة الأخبثين م لمن حديث عائشة بلفظ لا صلاة واليهي لا يصلين أحدكم الحديث (٧) حديث الأمر بتقديم العشاء على العشاء تقدم من حديث ابن عمر وعائشة إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابتدءوا بالعشاء متفق عليه .

أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأوابي
العشاء والمغرب وكذلك للفرد ويجهر بقوله آمين في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم
تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقياً (١) ويجهر بيسم الله الرحمن الرحيم والأخبار فيه متعارضة (٢) واختيار
الشافعي رضي الله عنه الجهر . الثانية أن يكون للإمام في القيام ثلاث سككات (٣) هكذا رواه سمرة بن
جندب وعمران بن الحصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً هن إذا كبر وهي الطولى منهن
مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فإنه إن لم يسكت يفوتهم
الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم فإن لم يقرأوا الفاتحة في سكوتهم واشتغلوا بغيرها فذلك عليه
لأعليهم . السككة الثانية إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة في السككة الأولى فاتحته وهي
كنصف السككة الأولى . السككة الثالثة إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك
بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة
فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصود هو الإمام وإن لم يسمع المأموم في الجهرية بعده
أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة . الوظيفة الثالثة أن يقرأ في الصبح سورتين من الثاني
مادون المائة فإن الإطالة في قراءة الفجر والتغليس بها سنة ولا يضره الخروج منها مع الاسفار ولا
بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأن ذلك لا يتكرر
على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكير وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض
أول السورة وقطعها وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر
موسى وفرعون قطع فركع (٤) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر آية من البقرة (٥) وهي
قوله - قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا - وفي الثانية - ربنا آمنا بما أنزلت - وسمع بلالا يقرأ
من ههنا وههنا فسأله عن ذلك فقال أخطأ الطيب بالطيب فقال أحسنت (٦) ويقرأ في الظهر

(١) حديث الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم قطك وصححه من حديث ابن عباس (٢) حديث
ترك الجهر بها م من حديث أنس صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً
منهم يقرأ بيسم الله الرحمن الرحيم وللنساء يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم (٣) حديث سمرة بن جندب
وعمران بن حصين في سككات الإمام أحمد من حديث سمرة قال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم
سككات في صلاته وقال عمران أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا في ذلك إلى
أبي بن كعب فكتب إن سمرة قد حفظ هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من السند والمعروف أن
عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضوع من السند وده حب وت فأنكر ذلك عمران وقال
حفظاً سككة وقال حديث حسن انتهى وليس في حديث سمرة إلا سككتان ولكن اختلف عنه في محل
الثانية فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة ولقط من حديث أبي هريرة وضعفه من صلى
صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سككاته (٤) حديث قرأ بعض سورة يونس فلما
انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع م من حديث عبد الله بن السائب وقال سورة المؤمنين
وقال موسى وهرون وعلقه خ (٥) حديث قرأ في الفجر - قولوا آمنا بالله - الآية ، وفي الثانية -
ربنا آمنا بما أنزلت - م من حديث ابن عباس كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما - قولوا
آمنا بالله وما أنزل إلينا - الآية التي في البقرة وفي الآخرة منهما - آمنا بالله واشهدوا بأننا مسلمون -
و د من حديث أبي هريرة - قل آمنا بالله وما أنزل علينا - الآية وفي الركعة الآخرة - ربنا آمنا
بما أنزلت - أو - إنا أرسلناك بالحق - (٦) حديث سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا فسأله عن ذلك
فقال أخطأ الطيب بالطيب فقال أحسنت د من حديث أبي هريرة باسناد صحيح نحوه .

إني صلى الله عليه وسلم - اسكن أحد
فإنما عليك نبى وصديق
وشهيدان وقال بعضهم
اسأل الأرض تخبرك
عن شئ أنهارها
وجر بحارها وفتق
أهواءها ورتق
أحواءها وأرسي جبالها
إن لم تحبك أجابتك
اعتباراً وإنما الذى
يتوقف على الأذهان
ويشعر في قوله
السامعون وتتعجب
منه العقول هو كيفية
كلام الجادات
والحيوانات الصامتات
ففي هذا وقع الإنكار
واضطرب النظر
وكذب في تصحيح
وجوده ذو السمع من
الاعتبار ولكن لتعلم
أن تلقى الكلام للعقل
ممن لم يعقل عنه في
الشهود يكون على
جهات من ذلك مع
الكلام الدانى كما تلقى
من أهل النطق إذا
قصدا إلى نظم اللفظ
وذلك أكثر ما يكون
للأنبياء والرسل
صلوات الله عليهم في
بعض الأوقات كحين

الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبعة ومنها تلقى الكلام في حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ويمتري هذا سائر الحواس كشكل ما يسمع النائم في منامه من مثال شخص من غير مثال والثال للرقى للنائم ليس له وجود في سمعه وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادى المسلم يا مسلم خلني يهودى فآتله وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستر عن الأبصار في العبادة من اللائكة والجن أو يكون كلام يخلقه الله عز وجل في أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودى حتى يقتله وكما يقال في العرض الأكبر يوم

يطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفي العصر بنصف ذلك وفي المغرب بأواخر المفصل وآخر صلاة صلاحها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب قرأ فيها سورة المرسلات ماضى بعدها حتى قبض (١) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثر الجمع قال صلى الله عليه وسلم في هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وإذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ماشاء (٢) » وقد كان معاذ ابن جبل يصلى بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه فقالوا نافع الرجل فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجر رسول الله ﷺ معاذ فقال أفتان أنت يا معاذ أقرأ سورة تسبح والسماء والطارق والشمس وضحاها (٣) . وأما وظائف الأركان الثلاثة : أولها أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسيبجات على ثلاث قد روى عن أنس أنه قال ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام (٤) ، ثم روى أيضا أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب قال وكننا نسبح وراءه عشر أعشرا (٥) وروى مجمل أنهم قالوا : كننا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشر أعشرا (٦) وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن فإذا لم يحضر إلا التجردون للدين فلا بأس بالمثل هذا وجه الجمع بين الروايات وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع سمع الله لمن حمده . الثانية في المأموم ينبغي أن لا يساوى الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلا إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راكعا وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساؤون وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسبقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقهم مرعى في ترك التطويل عليهم . الثالثة لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ولا ينحس نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول اللهم اغفر لنا ولا يقول اغفر لي فقد كره للإمام أن ينحس نفسه ولا بأس بأن يستعذ في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول نعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة الحيا والمات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين (٨) وقيل سمى مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها

- (١) حديث قراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاحها متفق عليه من حديث أم الفضل .
- (٢) حديث إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة الحديث متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر والسماء والطارق وهي عند البهقي (٤) حديث أنس ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام متفق عليه (٥) حديث أنس أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الشاب الحديث د ن بإسناد جيد ووضفه ابن القطان (٦) حديث كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشر أم أجده أصلا إلا في الحديث الذي قبله وفيه فحرمنا في ركوعه عشر تسيبجات وفي سجوده عشر تسيبجات .
- (٧) حديث كان الصحابة لا يهويون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض متفق عليه من حديث البراء بن عازب (٨) حديث التوعد في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر الحديث تقدم وزاد فيه القرأى هنا وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين ولم أجده مقيدا .

وقيل لأنه مسح العين أي مطموسها . وأما وظائف التحلل الثلاثة : أولها أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية أن يثبت عقيب السلام كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي النافلة في موضع آخر فإن كان خلفه نسوة لم يغم حتى ينصرفن^(١) وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلا بقدر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام^(٢) . الثالثة إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل اقتال الإمام فهدوى عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا للإمام ما أحسن صلاتك وآتينا لإشيئا واحدا أنك لما سلمت لم تغفل بوجهك ثم قالا للناس ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن يغفل إمامكم ثم ينصرف الإمام حيث شاء من بينه وبينه وشماله واليمين أحب هذه وظيفة الصلوات وأما الصبح فريد فيها القنوت فيقول الإمام اللهم اهدنا ولا يقول اللهم اهدني ويؤمن للمأموم فإذا انتهى إلى قوله إنك تقضى ولا يقضى عليك فلا يليق به التأمين وهو ثناء فيقرأه فيقول مثل قوله أو يقول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين أو صدقت وبررت وما أشبه ذلك وقد روى حديث في رفع اليدين في القنوت^(٣) فإذا صبح الحديث استحبه ذلك وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع يديه اليد اليمنى على التوقيف وبينهما يضاف ذلك أن لا يبدى وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة غصوة ولا وظيفة لهما هنا فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت فإنه لا يفتى بالدعاء والله أعلم فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الوفي .

(الباب الخامس في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها)

(فضيلة الجمعة)

اعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخص به المسلمين . قال الله تعالى - إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع - فحرم الاختغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة في يومى هذا في مقامى هذا^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه^(٢) » وفي لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره^(٣) » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال في النار فلم يزل يتردد إليه شهرا يسأله عن ذلك وهو يقول في النار ، وفي الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرقوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عبدا لهم فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع^(٤)

بآخر الصلاة وللمزنى من حديث ابن عباس وإذا أردت بعبادك قننة فأقبضني إليك غير مفتون ولا نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصحبهما وسيأتي في الدعاء (١) حديث المكث بعد السلام من حديث أم سلمة (٢) حديث إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام م من حديث عائشة (٣) حديث رفع اليدين في القنوت البيهقي من حديث أنس بسند جيد في قصة قتل القراء وقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداة رفع يديه يدعو عليهم .

(الباب الخامس)

(٤) حديث إن الله فرض عليكم الجمعة في يومى هذا الحديث . من حديث جابر باسناد ضعيف . (٥) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن و ك وصححه من حديث أبي الجعد الضمري (٦) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس (٧) حديث إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه .

القيامه إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص وفي الخلائق مثل اسم للنادى به كثير وقد قالت العلماء إنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للنادى في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحجاب وحده دون من يشاركه في اسمه ولا يكون نداء من خارج والأمثلة كثيرة في الشرح وفيها سميت غيبة ومنع . ومنها تلقى الكلام في العقل وهو للاستفاد بالمعرفة السموع بالقلب للظهور بالتقدير على اللفظ للسمى بلسان الحال كما قال قيس : وأجهشت للتوداد حين رأيته

وكبر للرحمن حين رأيته قلت له أين الدين عهدتهم حوالبك في عيش وخفض زمان فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن اتقى يبق على الحدان

وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتاني جبريل عليه السلام في كفه مرآة يضاء وقال هذه الجمعة يرضى عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت لسانا فيها قال لكم خير ساعة من دها فيها خير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره له ما هو أعظم منه أو نحو من شره هو مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن نعوه في الآخرة يوم للزبد . قلت ولم ؟ قال إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة واديا أبيض من اللسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسية فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه يمير عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم للزبد كذلك تسميه لللائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة (٢) » وفي الخبر « إن لله عز وجل في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار (٣) » وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا سلت الجمعة سلت الأيام (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجمعيم تسع في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسع فيه (٥) » وقال كتب إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ، ويقال إن الطير والمواويل يلقى بعضها بعضا في يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفي ثنة القبر (٦) »

(بيان شروط الجمعة)

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط : الأول الوقت فإن وقت تسليمه الإمام في وقت العصر ثلاث الجمعة وعليه أن يتمها ظهرا أربعا والسبوق إذا وقت ركعتي الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف . الثاني للكان ، فلا تصح في الصحارى والبراري وبين الحياض بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل ، يجمع أربعين ممن تازمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه . الثالث العدد فلا تنقذ بأقل من أربعين ذكرورا مكلفين أحرارا مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفا فإن انقضوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة بل لا بد منهم من الأول إلى الآخر . الرابع الجماعة فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرقين لم تصح جمعهم ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد

(١) حديث أنس أتاني جبريل في كفه مرآة يضاء فقال هذه الجمعة يرضى عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت لسانا فيها قال لكم خير ساعة من دها فيها خير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره له ما هو أعظم منه أو نحو من شره هو مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن نعوه في الآخرة يوم للزبد . قلت ولم ؟ قال إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة واديا أبيض من اللسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسية فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه يمير عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم للزبد كذلك تسميه لللائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة (٢) » وفي الخبر « إن لله عز وجل في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار (٣) » وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا سلت الجمعة سلت الأيام (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجمعيم تسع في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسع فيه (٥) » وقال كتب إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ، ويقال إن الطير والمواويل يلقى بعضها بعضا في يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفي ثنة القبر (٦) »

(٢) حديث أنس أتاني جبريل في كفه مرآة يضاء فقال هذه الجمعة يرضى عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت لسانا فيها قال لكم خير ساعة من دها فيها خير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره له ما هو أعظم منه أو نحو من شره هو مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن نعوه في الآخرة يوم للزبد . قلت ولم ؟ قال إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة واديا أبيض من اللسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسية فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه يمير عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم للزبد كذلك تسميه لللائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة (٢) » وفي الخبر « إن لله عز وجل في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار (٣) » وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا سلت الجمعة سلت الأيام (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجمعيم تسع في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسع فيه (٥) » وقال كتب إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ، ويقال إن الطير والمواويل يلقى بعضها بعضا في يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفي ثنة القبر (٦) »

وفي أمثال العوام قال الحائط لوتد لم تشقى فقال لوتد للحائط سل من يدق فلو كانت العبارة تتأني منها ما عبرت إلا بما قد استعمل لها وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين - قالتا أتيننا طائمين - وفي قوله تعالى - إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كأي أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عبادتان قطوانيتان يلي وتجييه الجبال والله يقول ليك يا يونس » قوله كأي بدلة على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتي لأن يونس بن متى عليه السلام قدمنا وتلك الحالة منسلفة

بالركعة الثانية وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظاهر وإذا سلم الإمام نعمها ظهرها .
الخامس أن لا تكون الجمعة مسبوقه بأخرى في ذلك البلد فان تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز
في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم
أولا ، وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الامامين فإن تساوا فالمسجد الأقدم
فإن تساوا ففي الأقرب ولكثرة الناس أيضا فضل يراعى . السادس الخطبتان فهما فريضان والقيام
فيهما فريضة والجلوس بينهما فريضة وفي الأولى أربع فرائض : التحميد وأتله الحمد لله والثانية
الصلاة على النبي ﷺ والثالثة الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة قراءة آية من القرآن وكذا
فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة واستماع الخطبتين واجب من الأربعين .
وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى النجاة
والكلام لا ينقطع إلا باقتراح الخطبة ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجه ويردون عليه
السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ويشغل يديه بقائم السيف
أو العزة والمنبر لا يثبت بهما أو يضع إحدهما على الأخرى ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة
ولا يستعمل غريب اللغة ولا يعطط ولا يتنقى وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة ويستحب أن يقرأ
آية في الثانية أيضا ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جوابا والاشارة بالجواب
حسن ولا يشمت العاطسين أيضا هذه شروط الصحة فأما شروط الوجوب فلا تجب الجمعة إلا على
ذكر بالغ عاقل حر مقيم في قرية تشتمل على أربعين جامعين لهذه الصفات أو في قرية من سواد
البلد يبلغها نداء البلد من طرف يليها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى - إذا
نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع - ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة
للسفر للطرف والوحل والفرخ والمرض وإذا لم يكن للمريض قيم غيره ثم يستحب لهم أعنى
أصحاب الأعداء تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر
أوعبد أو امرأة صحت جمعهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم .

(بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر حمل)

الأول أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح
بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قولت بالساعة المهمة في يوم الجمعة قال بعض السلف إن لله
عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة
ويصل في هذا اليوم ثيابه وينبضها ويصد الطيب إن لم يكن عنده ويخرج قلبه من الأعمال التي
تنمعه من البكور إلى الجمعة وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا وليكن مضموما إلى
يوم الخميس أو السبت لا مفردا فانه مكروه ويشغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل
كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة ويجمع أهلها في هذه الليلة أوفى يوم الجمعة قد استحب ذلك
قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل ^(١) » وهو حمل
الأهل على غسل وقيل معناه غسل ثيابه فروى بالتخفيف واغتسل لجسده وبهذا تم آداب الاستقبال
ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم قال بعض السلف أوفى الناس نصيبا من الجمعة
من انتظرها وورطها من الأمس وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول إيش اليوم وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة
(١) رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل الحديث أصحاب السنن وحسنه من حديث أوس بن أوس من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وأبكر الحديث وحسنه ت .

وفي هذا الحديث إخبار
عن الوجود الخيالي
في البصر والوجود
الخيالي في السمع
ومنها تلقى الكلام
بالشبه وهو أن يسمع
السامع كلاما أو صوتا
من شخص حاضر
فيلقى عليه شبه غيره
مما غاب عنه كقوله
عليه السلام في صوت
أبي موسى الأشعري
إذ سمعه يترنم بالقرآن
« لقد أعطى مزمارا
من زمير آل داود »
ومزمير آل داود قد
عدمت وذهبت
وإنما شبه صوته بها
وكأنه إذا سمع للريد صوت
مزمير أو عود فجاء على
غير قصد يتخيل صرير
أبواب الجنة وشبهها
بما جأ صوته من ذلك
فهذه مراتب الوجود
فأنت إذا أحسنت
التصرف بين أساليبها
ولم يترك غلط في
بعضها يرض ولا
اشتبهت عليك وصمت
همن نظر بمشكاة نور
الله تعالى إلى كاعند
وقدر آه اسود وجهه
بالحبر فقال له ما بال

وجهك وقد كان أيضاً
أشقر موقعا والآن
قد ظهر فيه السواد
فلم سودت وجهك
فقال سل الخبر فانه
كان مجموعا في الهجرة
التي هي مستقرة ووطنه
فافر عن الوطن
ونزل بساحة وجهي
ظلماء وعدوانا فقال
سدت . ثم أنت إذا
سمعت أمثال هذه
للمراجعات أحمل الفكر
وجدد النظر وحل
الكلام إلى أجزائه التي
ينظم منها جملة ما بقلبك
فقال عن معنى الناظر
ومعنى الشكاة ومعنى
نور الله سبحانه
وما سبب أنه لم يعرف
الناظر الصكابة
والكتوب وبأى لسان
خاطب الكاغد وكيف
عاطبة الكاغد وهو
ليس من أهل النطق
وفيما صدق الناظر
الكاغد ولم صدقه
بمجرد قوله دون دليل
ولا شاهد فيدو لك
ههنا من الناظر هو
ناظر القلب فيما أورده
عليه الحس وللشكاة
استمارة من مشكاة

في الجامع لأجلها . الثاني إذا أصبح ابتداء بالتسل بعد طلوع الفجر وإن كان لا يكره فأقربه إلى الرواح
أحب ليكون أقرب عهدا بالنظافة فالتسل مستحب استحبابا مؤكدا وفهب بعض العلماء إلى
وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » (١) وللشهور من حديث نافع عن
ابن عمر رضي الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل » (٢) وقال عليه السلام « من عهد الجمعة من الرجال
والنساء فليغتسل » (٣) وكان أهل المدينة إذا تسابوا للتسابان يقول أحدهما للآخر لانت أشمر بمن
لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لثمان رضي الله عنهما لما دخل وهو مخاطب « أهذه الساعة منكرا عليه ترك
البكور قال لما زدت بعد أن سمعت الأذن على أن تؤنات وخرجت فقال والوضوء أيضا وقد علمت أن
رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالتسل » (٤) وقد عرف جواز ترك التسل بوضوء عثمان رضي الله عنه وما روى
أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالتسل أفضل » (٥) ومن اغتسل
للجنابة فليغسل الماء على بدنه مرة أخرى على نية غسل الجمعة فإنا كتنى بغسل واحد أجزاءه وحصل له
التسل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة وقد دخل بعض الصحابة على ولهم وقد اغتسل فقال
له ألعجمة فقال بل عن الجنابة فقال أعد غسلا ثانيا وروى الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم وإنما أمره
به لأنهم يكن نواه وكان لا يعمدان يقال للقصور والنظافة وقد حصلت دون النية ولكن هذا ينقدح في الوضوء
أيضا وقد جعل في الشرع قربة فلا بد من طلب فضلها ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يطل غسله وأحب
أن يحترز عن ذلك . الثالث الزينة وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة الكسوة والنظافة ولطيب
الرائحة أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة قال
ابن مسعود من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء فإن كان قد دخل
الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل للتقصود فليطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليطلب بها
الروائح الكريمة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره « وأحب طيب الرجال
ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » (٦) روى ذلك في الأثر وقال الشافعي
رضي الله عنه من نظف ثوبه قل حبه ومن طاب ريحه زاد عقله وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب
إذا أحب الثياب إلى الله تعالى البياض لا يلبس ما فيه شهرة ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل
بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصمامة مستحبة في هذا
اليوم روى وثالة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله وملائكته يصلون
على أصحاب العمام يوم الجمعة » (٧) فإن أكره الحر فلا بأس بزعمها قبل الصلاة وبسدها ولكن لا يزعج
في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام للتب في خطبته . الرابع

(١) حديث غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم متفق عليه من حديث أبي سعيد (٢) حديث
نافع عن ابن عمر من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل متفق عليه وهذا لفظ حب (٣) حديث
من عهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا . حب وهو من حديث ابن عمر (٤) حديث قال عمر
لثمان لما دخل وهو مخاطب أهذه الساعة منكرا عليه ترك التسل بوضوء عثمان رضي الله عنه وما روى
صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالتسل متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري وعثمان
(٥) حديث من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت الحديث دت وحسنه ون من حديث سمرة (٦) حديث
طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه دت وحسنه ون من
حديث أبي هريرة (٧) حديث وثالة بن الأسقع إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة
ط وعد وقال منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث وثالة

التي أضرمت
بسراج النار إلى خبر
للمرفسة للقلب بسر
القلب عبيها بها لأنها
مسرحة الرب سبحانه
وقد على شعلتها بنوره
ونوره للذكور ههنا
عبارة عن صفاء
الباطن واشتغال السر
بطلوع نيران كواكب
للعارف الداهية بإذن
الله تعالى ظلم جهالات
القلوب ووجه إضافته
إلى الله تعالى على سبيل
الإشارة بالذكر لأجل
التخصيص بالشرف
والكاغدوا الخبر كناية
عن أنفسهم لا عن
غيرها وجعلها مبدأ
طريقه وأول سلوكه
إذا ما في عالم الملك
والشهادة الذي عمل
جولة الناظر في حال
نظره وأما سبب أنه
لم يصرف الكتابة
وللكتوب فلاجل
أنه كان أميا لا يقرأ
الكتاب الصانع وإنما
يؤم معرفة قراءة
الحط الإلهي الذي
هو أين وأدل على
انهم منه وأما مخاطبة
الناظر الكاغد وهو

التي أضرمت
بسراج النار إلى خبر
للمرفسة للقلب بسر
القلب عبيها بها لأنها
مسرحة الرب سبحانه
وقد على شعلتها بنوره
ونوره للذكور ههنا
عبارة عن صفاء
الباطن واشتغال السر
بطلوع نيران كواكب
للعارف الداهية بإذن
الله تعالى ظلم جهالات
القلوب ووجه إضافته
إلى الله تعالى على سبيل
الإشارة بالذكر لأجل
التخصيص بالشرف
والكاغدوا الخبر كناية
عن أنفسهم لا عن
غيرها وجعلها مبدأ
طريقه وأول سلوكه
إذا ما في عالم الملك
والشهادة الذي عمل
جولة الناظر في حال
نظره وأما سبب أنه
لم يصرف الكتابة
وللكتوب فلاجل
أنه كان أميا لا يقرأ
الكتاب الصانع وإنما
يؤم معرفة قراءة
الحط الإلهي الذي
هو أين وأدل على
انهم منه وأما مخاطبة
الناظر الكاغد وهو

قد سبقوه بالبكور فاعتم لذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها رابع أربعة ومارابع أربعة من البكور بعيد . الخامس في هيئة الدخول ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب وهو أنه يحجل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس (١) وروى ابن جريج مرسلًا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال يا فلان ما منك أن تجمع اليوم معنا قال يا نبي الله قد جمعت معكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألم ترك تتخطى رقاب الناس (٢) . أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفي حديث مسند أنه قال « ما منك أن تصلي معنا » قال أولم ترني يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « رأيتك تأنيت وآذيت (٣) » أي تأخرت عن البكور وآذيت الحضور ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة قال الحسن تخطوا رقاب الناس الذين يتعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله . السادس أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يديه أعني بين يدي المصلي فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاماً خير له من أن يمر بين يدي المصل (٤) » وقال ﷺ « لأن يكون الرجل رماً داراً مديداً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصل (٥) » وقد روى في حديث آخر في النار والمصلي حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال « لو يعلم النار بين يدي المصلي واللعن ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يديه (٦) » والأسطوانة والحائط والمصلي للفروخ حد للمصلي فمن اجتاز به فينبغي أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فان أبي فليدفعه فان أبي فليقاتله فإنه شيطان (٧) » وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصصره فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي ﷺ أمره بذلك فان لم يجد أسطوانة فليصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده . السابع أن يطلب الصف الأول فان فضله كثير كإروائه وفي الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام (٨) »

(١) حديث من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة أخذ جسراً إلى جهنم ت وضعفه و . من حديث معاذ بن أنس (٢) حديث ابن جريج مرسلًا أن النبي صلى الله عليه وسلم بينا هو يخطب إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس الحديث وفيه ما منك أن تجمع معنا اليوم ابن المبارك في الرقائق (٣) حديث ما منك أن تصلي معنا فقال أولم ترني قال رأيتك آتيت وآذيت دن حبك من حديث عبد الله بن بسر مختصراً (٤) حديث لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلي البزار من حديث زيد بن خاله وفي الصحيحين من حديث أبي جهم أن يقف أربعين قال أبو النضر لأدري أربعين يوماً أو شهراً أو سنة و . وجب من حديث أبي هريرة مائة عام (٥) حديث لأن يكون الرجل رماً داراً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصلي أبو نعيم في تاريخ أصبهان وابن عبد البر في التمهيد موقوفاً على عبد الله بن عمر وزاد متعمداً (٦) حديث لو يعلم النار بين المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك الحديث رواه هكذا أبو العباس محمد بن يعقوب السراج في مسنده من حديث زيد بن خاله باسناد صحيح (٧) حديث أبي سعيد فليدفعه فان أبي فليقاتله فانما هو شيطان متفق عليه (٨) حديث من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع الحديث ك من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن .

وفي لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وقد اشترط في بعضها ولم يتخطرقاب الناس ^(١) » ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور : أولها أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره من لبس حرير من الامام أو غيره أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع لهم فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة قيل لبشر بن الحرث نراك تبكر وتصل في آخر الصفوف فقال إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر النصور فلما فرغ من الصلاة قال شغل قلبي قريبك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال يا أبا عبد الله أليس في الخبر « ادن واستمع ^(٢) » فقال ويحك ذاك للخلفاء الراشدين الهديين فأما هؤلاء فكلما بدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبي البرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف فلما صلينا قلت له أليس يقال خير الصفوف أولها قال نعم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليهم بين الأمم ^(٣) » فان الله تعالى إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس فأنما تأخرت رجاء أن يغفري بواحد منهم بنظر الله إليه وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك فمن تأخر على هذه النية إشارا وإظهارا لحسن الخلق فلا بأس وعندهذا يقال الأعمال بالنيات . ثانيا إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقطوعة عن السجدة للسلطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول للقصور كان الحسن وبكر المزني لا يصليان في القصور ورأيا أنها قصرت على السلطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله ﷺ في الساجد والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه وصلى أنس بن مالك وعمران بن حصين في القصور ولم يكرها ذلك لطلب القرب ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة . وثالثا أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وماطى طرفه مقطوع وكان الثوري يقول الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب . الثامن أن يقطع الصلاة عند خروج الامام ويقطع الكلام أيضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم يستماع الخطبة وقد جرت عادة بعض الغوام بالسجود عند قيام المؤذن ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا ينسب لتحريمه ، وقد روى عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنها قال : من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولما فعله وزيان ومن لم يسمع ولما فعله ووزر واحد وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت أومه فقد لنا ومن لنا والامام يخطب فلا الجمعة له ^(٤) » وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بإشارة أو رمي وحصة لا بالنطق

(١) حديث أنه اشترط في بعضها ولم يتخطرقاب الناس دح بك من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقال صحيح على شرط م (٢) حديث ادن فاستمع دمن حديث حمزة احضروا الله ذكر وادنوا من الامام وتقدم بلفظ من هجرونا واستمع وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد (٣) حديث أبي البرداء إن هذه الأمة مرحومة منظور إليهم بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس ولم أجده (٤) حديث من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت قد لنا ومن لنا لا الجمعة له تن عن أبي هريرة دوت قوله ومن لنا فلا الجمعة له قالت حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ

له أنه في جسم كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتبع العطف وتتفر من العداوة وأما ما سمعته في حد عالم اللسكوت وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك مما هو داخل فيه ومعدود منه فسر القلب الذي يأخذ به عن اللاتسكة ويسمع به ما بهد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره فأما أي شيء حقائق هذه الذكورات وما كره كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا يتفنع بسامعه مع عدم الشاهدة والله قد عرفك بأسمائها فان كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجمعة لملك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها تسميات إلى أن يلحقك الله بأولى الشاهدة وتحصل خالص الكرامات ومن كفر فان الله غنى حميد . [فصل] والفرق بين العلم المحسوس في عالم

الملك وبين العلم الإلهي
في عالم لللكوت أن
العلم كما اعتقدته مجسما
بطيء الحركة بالفعل
سريع الانتقال بالهلاك
مختلفا عن مثله في
الظاهر عموما تحت
قهر سلطان الآدمي
الضعيف الجاهل في
أكثر أوقاته متصرف
بين أحوال متنافية
كالعلم والجهل والعدل
والظلم والشك والصدق
والإفك فالعلم الإلهي
عبارة عن خلق الله في
عالم لللكوت مختص
بخصائص
الجواهر الحسية الكائنة
في عالم الملك يرى من
أوصاف مسمى به القلم
المحسوس كليا مصرفا
يتميز الخالق بحكم إرادته
على ما سبق به عليه
في أزل الأزل وإنعاشي
بهذا الاسم لأجل شبهه
بعمل مسمى به غير أنه
لا يكتب إلا حقائق
الحق والفرق بين عين
الآدمي وعين الله عز
وجل أن عين الآدمي
كما علمت مركبة من
عصب استعصى بقاؤها
وعضل تعضل أدواؤها
وعظام يعظم بلاؤها

وفي حديث أبي ذر أنه لما سأل أيا والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال متى أنزلت هذه السورة فأومأ
إليه أن اسكت فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أباي أذهب فلاحمة لك فشكاه أبو ذر إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال « صدق أبي » (١) وإن كان بعيدا من الإمام فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره بل
يسكت لأن ذلك يتسلسل ويغشى إلى هينة حتى ينتهي إلى السمعين ولا يجلس في حلقة من يتكلم
لأن عجز عن الاستماع بالبعد فليصت فهو السمع وإذا كانت تسكره الصلاة في وقت خطبة الإمام
فالكلام أولى بالكراهية وقال علي كرم الله وجهه تسكره الصلاة في أربع ساعات بعد الفجر وبعد العصر
ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب . التاسع أن يراعى في قدوة الجمعة كونه في غيرها فإذا سمع قراءة
الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة فإذا فرغ من الجمعة قرأ الحمد سبع مرات قبل أن يتكلم وقل هو الله أحد
والمؤذنين سبعين سماعا وروى بعض السلف أن من فطه عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزا له من
الشیطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغني بحلالك
عن حرامك وبفضلك عمن سواك يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه
من حيث لا يحتسب ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات ، قد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه
وسلم كان يصلي بعد الجمعة ركعتين (٢) ، وروى أبو هريرة أربعا (٣) ، وروى علي وعبد الله بن عباس
رضي الله عنهم ستا (٤) ، والكل صحيح في أحوال مختلفة والأكل أفضل . العاشر أن يلازم للسجدة حتى
يصلي العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل يقال من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى
للمغرب فله ثواب حجة وعمره فإن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف
الحوض فيما لا ينبغي فالأفضل أن يرجع إلى بيته إذا كرا الله عز وجل مفكرا في آلائه شاكرا لله تعالى
على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تنوته الساعة الشريفة
ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من الساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على
الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسهم » (٥) .
(بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يجمع جميع التهار وهي سبعة أمور)

الأول أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصص فلاخير في كلامهم ولا ينبغي
أن يغلو المرید في جميع يوم الجمعة عن الحيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو خير ولا ينبغي
أن يحضر الخلق قبل الصلاة وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم
إذا قلت لصاحبك و د من حديث علي من قال صه فقد لنا ومن لنا فلاحمة له (١) حديث أبي ذر
لما سأل أيا والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة الحديث حق وقال في العرفة
إسناده صحيح د . من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر وأحمد من
حديث أبي الدرداء أنه سأل أيا ولابن جبان من حديث جابر إن السائل عبد الله بن مسعود ولأبي يعلى
من حديث جابر قال قال سعد بن أبي وقاص لرجل لاجمة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع فقال
لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد (٢) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه
(٣) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا
(٤) حديث علي وعبد الله في صلاة ست ركعات بعد الجمعة حق مرفوعا عن علي وله موقوفا على
ابن مسعود أربعا و د من حديث ابن عمر كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا (٥) حديث يأتى على
أمتي زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دينهم الحديث حق في الشعب من حديث الحسن مرسلا
وأسنده لك من حديث أنس وصححه إسناده وحسنه نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

نهي عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة^(١) « إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالعداء فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذر^(٢) » إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة^(٣) » قال أنس بن مالك في قوله تعالى - فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله - أما أنه ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أئمة في الله عز وجل وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا في مواضع قال تعالى - وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما - وقال تعالى - ولقد آتينا داودنا فضلا - يعني العلم فعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع بكر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فإذا قاص بقص في موضعه فقال قم من مجلسي فقال لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا^(٤) » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليهم روى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلني عن سبحتى فضر به ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده . الثاني أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة في الخبر المشهور « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه^(٥) » وفي خبر آخر « لا يصادفها عبد صلى^(٦) » واختلف فيها قليل إنها عند طلوع الشمس وقليل عند الزوال وقليل مع الأذان وقليل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقليل إذا قام الناس إلى الصلاة وقليل آخر وقت العصر أغنى وقت الاختيار وقليل قبل غروب الشمس وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمر خادماتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تقرب الشمس وتخرج بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أيها عليه السلام وعليها^(٧) وقال بعض العلماء هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدوامي على مراقبتها وقليل إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه وله سر لا يليق بعلم العامة ذكره ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم فتحات لا تقترضوا^(٨) لها » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متضرعا لها باحضار القلب وملازمة الذكر والزروع عن وساوس الدنيا فضاء يحظى بشيء من تلك الفتحات وقد قال كعب الأحمري إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب فقال أبو هريرة وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يوافقها عبد صلى ولا ت حين صلاة » فقال كعب ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قام ينتظر

ولحم ممتد وجلد غير جلد موصولة كمثلها في الضعف والافتعال ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال وبين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بمحارة ولا جسم وعند آخرين أنها عبارة عن خلق الله هي واسطة بين القلم الإلهي الناقل للمعلوم المحدث وغيرها وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها البين السكينة بالقلم المذكور بالخط الإلهي الثبوت على صفحات المخلوقات الذي ليس بمرئي ولا عجمي يقرؤه الأميون إذا شرخت صدورهم وتستجمع على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك بين الآدمي إلا في بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما بالفعل وتقريبا إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

(١) حديث عبد الله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة دن و . من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولم أجده من حديث ابن عمر (٢) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة تقدم في العلم (٣) حديث لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه ت . من حديث عمرو بن عوف المزني (٥) حديث لا يصادفها عبد مصل متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث فاطمة في ساعة الجمعة قط في الملل حق في الشعب وعلمه الاختلاف (٧) حديث إن لربكم في أيام دهركم فتحات الحديث الحكيم في النوادر وطب في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولا بن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه بن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده .

الصلاة فهو في الصلاة (١) قال بلي قال فذلك صلاة فسكت أبو هريرة وكان كعب مائلا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما . الثالث يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وتفقد واحدة وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضا ولحقة أداء وأعطه الوسيلة وابته القام المحمود الذي وعدته واجزه عنا ما هو أهل واجزه أفضل ماجازيت نبياً عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين يارحم الراحمين (٢) » تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم وإن أراد أن يزيد آتى بالصلاة المأمورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونواصي بركاتك وشرائف زكواتك وراقتك ورحمتك ونعمتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائداً الخير وفاتح البرّ ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابته مقاما محمودا تزلف به قربه وتقرّ به عينه يضبطه به الأولون والآخرون اللهم أعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والنزلة الشاهقة النيفة اللهم أعط محمدًا سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلغ عجته وارفع في أعلى للقرين درجته اللهم احشرونا في زمرة واجعلنا من أهل شفاعته وأحبنا إلى سئلته وتوفنا على ملته وأوردنا حوضه وأسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فائتين ولا مفتونين آمين يارب العالمين (٣) » وعلى الجملة فكل ما آتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة في التشهد كان مصليا وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضا مستحب في هذا اليوم . الرابع قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما أن « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفي من الدمام والهيبة وذات الجلب والبرس والجذام وقتة الدجال (٤) » ويستحب أن يحتم القرآن في يوم الجمعة وليتأني أن قدر وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم وكان العابدون يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة ويقال إن من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه وكانوا يصلون

(١) حديث اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلي ولا ت حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قد ينتظر الصلاة فهو في صلاة قلت وقع في الإحياء أن كعبا هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فأنما قال إنها في كل سنة مرة ثم رجع والحديث رواه ذن حبة من حديث أبي هريرة وم نحوه من حديث عبد الله بن سلام (٢) حديث من صلى في يوم الجمعة ثمانين مرة الحديث قط من رواية ابن السيب قال أظنه عن أبي هريرة وقال حديث غريب وقال ابن النعمان حديث حسن (٣) حديث اللهم اجعل فضائل صلواتك الحديث ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقفه على ابن مسعود (٤) حديث ابن عباس وأبي هريرة من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة الحديث لم أجده من حديثهما .

[فصل] وحدها عالم الملك ماظهر للحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التعبير وحدها عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلي بلاتدرج وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه وحدها عالم الجبروت هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك غير بالقدر الأزلي بما هو من عالم الملكوت .

[فصل] ومعنى أن الله خلق آدم على صورته فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وللعلماء فيه وجهان فمنهم من يرى للحديث سببا وهو أن رجلا ضرب غلامه فراءه النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته وتأولوا عود الضمير على المضروب وعلى هذا لا يكون للحديث مدخل في هذا الوضع لم يرد موردا آخر في غير هذا الموضع

على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة وإن قرأ للسموات الست في يوم الجمعة وليلتها غفران وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سوراً بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والناقصين^(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في ركعتي الجمعة وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان^(٢). الخامس الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائة مرة في كل ركعة خمسين مرة^(٣) قد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من فعل لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف. أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك^(٤) وفي حديث غريب أنه صلى الله عليه وسلم سكت للداخل حتى صلاها^(٥). فقال الكوفيون إن سكت له الإمام صلاها ويستحب في هذا اليوم أو في ليلة أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: الأنعام والكهف وطه وبس فان لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة فيها فضل كثير ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الحنطة ويكثر من قراءة سورة الاخلاص ويستحب أن يصلي صلاة التيسيع كما سيأتي في باب التطوعات كيفيتها لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعنه العباس صلها في كل جمعة^(٦) وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وكان يخبر عن جلالة فضلها والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتيسيع والاستغفار. السادس الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فانها تضاعف إلا على من سأل والامام يخطب وكان يتكلم في كلام الامام فهذا مكروه وقال صالح بن محمد سأل مسكين يوم الجمعة والامام يخطب وكان إلى جانب أبي فاعطى رجل أبي قطعة ليناوله ياها فلم يأخذها منه أبي وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد قد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه ومن العلماء من كره الصدقة على السائل في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تخط ولا كعب الاجار من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه وقال بعض

(١) حديث القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وفي عشاها الجمعة والناقصين حب وهق من حديث حمزة وفي ثقات حب المحفوظ عن سماك مرسلات لا يصح مسنداً ولا مرسلات (٢) حديث القراءة في الجمعة بالجمعة والناقصين وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى م من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٣) حديث من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائة مرة الحديث الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جداً (٤) حديث الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والامام يخطب م من حديث جابر وخ الأمر بالركعتين ولم يذكر التخفيف (٥) حديث سكوتة صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية قط من حديث أنس وقال أسد سيب بن محمد وروى فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلات (٦) حديث صلاة التيسيع وقوله لعنه العباس صلها في كل جمعة دة وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال علق وغيره ليس فيها حديث صحيح .

ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث وإثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يميز ويصير فليبقى السبب على حاله ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن والوجه الآخر أن يكون الضمير الذي في صورته عائداً إلى الله سبحانه ويكون معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة هي إلى اقمسبحانه وهذا العبد للضروب على صورة آدم فاذا هذا العبد للضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الاضافة وعلى أي جهة يحتمل في الاعتقاد الملقى على الله سبحانه فيها وجهان: أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والنافع واليمين على أحد الأوجه والوجه الآخر أن تكون إضافة تخصيص

به تعالى فمن حملها
على إضافة الملك له
رأى أن المراد بصورته
هو العالم الأكبر بحملته
وآدم مخلوق على
مضاهاة صورة العالم
الأكبر لكنه مختصر
صغير فان العالم إذا
فصلت أجزاؤه بالعلم
وفصلت أجزاء آدم
عليه السلام بمثله
وجدت أجزاء آدم عليه
السلام مشابهة للعالم
الأكبر وإذا شابهت
أجزاء جملة أجزاء
جملة فالجملتان بلا شك
متشابهتان فالذي نظر
في تحليل صورة العالم
الأكبر قسمه على
أقسام من القسمة
وقسم آدم عليه
السلام كذلك فوجد
كل نحوين منهما
شبهين فمن ذلك أن
العالم ينقسم إلى
قسمين أحد القسمين
ظاهر محسوس كالعالم
الملك والثاني باطن
معقول كالعالم الملكوت
والإنسان كذلك
ينقسم إلى ظاهر
محسوس كالعظم واللحم
والدم وسائر أنواع

السلف من أطعم مسكيناً يوم الجمعة ثم غداوا ابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام بسم الله الرحمن الرحيم إلى القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمي وتعافيني من النار ثم دعا بما بدا له استجيب له . السابع أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يتبدى فيه السفر قد روى « أنه من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه ^(١) » وهو بطلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرقعة تفوت وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد فان البيع والشراء في المسجد مكروه وقالوا لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد وبالجملة ينبغي أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فان الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة فغواضل الأعمال وإذا مقتته استعمله في الأوقات الفاضلة بغير الأعمال ليكون ذلك أوجع في عتابه وأشد لفته لحرماته بركة الوقت واتها كه حرمة الوقت ويستحب في الجمعة دعوات وسياى ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى وصلى الله على كل عبد مصطفى .

(الباب السادس : في مسائل متفرقة تتم بها البلوى ويحتاج للريد إلى معرفتها)

فأما للمسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه

[مسئلة] الفعل القليل وإن كان لا يطل الصلاة فهو مكروه إلا الحاجة وذلك في دفع النار وقتل القرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة وكذلك القملة والبرغوث مهمات أذى بهما كان له دفعهما وكذلك حاجته إلى الحلك الذي يشوش عليه الخشوع كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده وقال النخعي يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها وقال ابن السيب يأخذها ويغدرها ثم يطرحها وقال مجاهد الأحب إلى أن يدعى إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذى ثم يلقها وهذه رخصة والأفالكال الاحتراز عن الفعل وإن قل ولقد كان بعضهم لا يطرده الباب وقال لأعود نفسي ذلك فيفسد على صلاتي وقد سمعت أن الفساق بين يدي للولك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون ومهمات اب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأول وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه وإن تبحساً فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا للضرورة [مسئلة] الصلاة في النملين جائزة وإن كان نزع النملين سهلاً وليست الرخصة في الخف لعمري التزع بل هذه النجاسة يعفونها وفي معناها الداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم نزع فزع الناس نعالهم فقال لم خلعت نعالكم قالوا رأيناك خلعت فخلعنا فقال صلى الله عليه وسلم إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أن بهما خبثاً فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فان رأى خبثاً فليمسحه بالأرض وليصل فيهما ^(٢) » وقال بعضهم الصلاة في النملين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال لم خلعت نعالكم وهذه مبالغة فانه صلى الله عليه وسلم سألهم ليين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على مواقفه وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي ﷺ خلع نعليه ^(٣) » فاذن قد فعل كلهما فمن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه

(١) حديث من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه قط في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال غريب والخطيب في الزواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

(الباب السادس)

(٢) حديث صلى في نعليه ثم نزع فزع الناس نعالهم الحديث أحمد واللفظ له ذلك وصححه من حديث أبي سعيد (٣) حديث عبد الله بن السائب في خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه م .

ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتا إليهما ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راحي هذا للمنى وهو التفات القلب إليهما روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه »^(١) وقال أبو هريرة لغيره اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماما^(٢) فلا إمام أن يضع ذلك إذا يقف أحد على يساره والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فيشتغلانه ولكن قدام قدميه وله للراد بالحديث وقد قال جبير بن مطعم وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة [مسئلة] إذا برز في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل ومالا يحصل به صوت لا يمد كلاما وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغى أن يهترز منه إلا كما أذن رسول الله ﷺ فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبلة غمامة فغضب غضبا شديدا ثم حكها برجون كان في يده وقال اتوني بغير فلتقطع أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال أياكم يحب أن يبرز في وجهه قتلنا لأحد قال فان أحدكم إذا دخل في الصلاة فان الله عز وجل بينه وبين القبلة »^(٣) وفي لفظ آخر واجبه الله تعالى فلا يبرز أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فان بدرته بادرة فليصق في ثوبه وليقل به هكذا وذلك بضم يعض [مسئلة] لوقوف القتدى سنة وفرض . أما السنة فان يقف الواحد عن يمين الامام متأخرا عنه قليلا والراة الواحدة تقف خلف الامام فان وقعت بجنب الامام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة فان كان معهما رجل وقف الرجل عن يمين الامام وهي خلف الرجل ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل في الصف أو يمر إلى نفسه واحدا من الصف فان وقف منفردا صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرض فالتصال الصف وهو أن يكون بين القتدى والامام رابطة جامعة فانهما في جماعة فان كانا في مسجد كفى ذلك جامعا لأنه بئله فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الامام ؛ صلى أبو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بسلامة الامام وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفى القرب بقدر غلوة قسم وكفى بهما رابطة إذ يصل فضل أحدهما إلى الآخر وإنما يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبأبها لاطى في المسجد فالشرط أن يعد صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة فأما البناء الواحد والعروة الواحدة فكالصحراء [مسئلة] المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الامام فهو أول صلاته فليوافق الامام وليبن عليه وليقت في الصبح في آخر صلاة نفسه وإن قنت مع الامام وإن أدرك مع الامام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاضة وليخففها فان ركع الامام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم فان عجز وافق الامام وركع وكان لبعض الفاعحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق وإن ركع الامام وهو في السورة فليطعمها وإن أدرك الامام في السجود أو التشهد كبر للإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فانه يكبر ثانيا في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للمعارض بسبب القدوة ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمئن راكما في الركوع والامام بعد في حد الراكعين فان لم يتم طمأنينة إلا بعد مجاوزة الامام حد الراكعين فاته تلك

(١) حديث أبي هريرة إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه د بسند صحيح وضعه للنذرى وليس بجيد (٢) حديث وضعه نعليه على يساره م من حديث عبد الله بن السائب (٣) حديث رأى في القبلة غمامة فغضب الحديث م من حديث جابر وانفقا عليه مختصرا من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

الجواهر المحسوسة وإلى باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشياء ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للعوالم وإلى عالم السموات وهو الباطن في العقول وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منهما والإنسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة وقد علمتها وللشابه لعالم السموات فمثل الروح والعقل والقدرة والآراء وأشياء ذلك وللشابه لعالم الجبروت فكلا لإدراك الوجود بالحواس والقوى للوجود بأجزائه والوجه الثاني أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر بخلاف الوجه الأول ويكون هذا مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم لا تعذبوا الناس بما لم تعذبوا أنفسكم أنريدون

أن يكذب الله ورسوله
 فمن حدث أحدا بما لم
 يصله عقله ربما سارع
 إلى التكذيب وهو
 الأكثر ومن كذب
 بقدرة الله تعالى وبما
 أوجدتها فقد كفر
 ولو لم يقصد الكفر فإن
 أكثر اليهود والنصارى
 وسائر الكفار ما قصدت
 الكفر ولا تنظيره
 بأخسها وهي كفار
 بلا ريب وهذا وجه
 واضح قريب ولا
 تلتفت إلى ما مال إليه
 بعض من لا يعرف
 وجوه التأويل ولا
 يتقن كلام أئمة الحكمة
 والراشخين في العلم
 حين ظن أن قائل ذلك
 أراد التكفر الذي
 هو هيب الإيمان
 والاسلام يتعلق بحبره
 وتلحق قائله وهذا
 لا يخرج إلا على مذاهب
 أهل الأهواء الذين
 يكفرون بالمعاصي
 وأهل السنن لا يرضون
 بذلك وكيف يقال لمن
 آمن بالله واليوم الآخر
 وعبد الله بالقول الذي
 ينزه به والعمل الذي
 يقصد به التمدد لوجهه

الركعة [مسئلة] من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أو لا ثم العصر فإن ابتداء العصر
 أحزاه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف فإن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده
 فإن الجماعة بالأداء أولى فإن صلى منفردا في أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة
 الوقت والله يحسب أيهما شاء فإن نوى فاتة أو تطوعا جاز وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة
 أخرى فليغو الفاتة أو النافلة فإعادة للوادة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتمل ذلك لدرك
 فضيلة الجماعة [مسئلة] من صلى ثم رأى على نوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه ولو رأى النجاسة
 في أثناء الصلاة رمى بالتوب وأتم والأحب الاستئناف وأصل هذا قصة خلع الثملين حين أخبر جبرائيل
 عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فانه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة
 [مسئلة] من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأول أو فعل
 فلا سهوا وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلم يدر أصل ثلاثا أو أربعا أخذ باليقين وسجد سجدتي
 السهو قبل السلام فإن نسي بعد السلام مهما تذكر على القرب فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث
 بطلت صلاته فانه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسيانا في غير محله فلا يحصل التحال به وعاد
 إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود فإن تذكر سجد السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد
 طول الفصل فقد فات [مسئلة] الوسوسة في نية الصلاة سببا خيل في العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال
 أمر الله عز وجل مثل امتثال أمر غيره وتعميمه كتعميم غيره في حق القصد ومن دخل عليه عالم
 قدام له فلو قال نويت أن أتصعب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله متصلا بدخوله مقبلا
 عليه بوجهي كان سفها في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تضييت داعية التعظيم فتقبحه ويكون تعظيما
 إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة واشترط كون الصلاة ظهرا أداء فرضاني كونه امتثالا كاشتراط كون
 القيام مقرونا بالدخول مع الاقبال بالوجه على الداخل واتقاء باعث آخر سواء وقصد التعظيم به ليكون
 تعظيما فانه لو قام مدبراعته أو صبر قائما بعد ذلك بمدة لم يكن معظما ثم هذه الصفات لابد وأن تكون
 معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ
 الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب لمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم
 النية فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقت فالوسوسة محض الجهل فإن هذه
 القصور وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الأحاد في الدهن بحيث تطالها
 النفس وتأملها وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر والحضور مضاد للمزوب والنفقة
 وإن لم يكن مفصلا فإن من علم الحادث مثلا فيعلمه بلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما
 هي حاضرة وإن لم تكن مفصلة فإن من علم الحادث فقد علم الوجود والمعدم والتقدم والتأخر والزمان
 وأن التقدم للمعدم وأن التأخر للوجود فهذه العلوم منطقية تحت العلم بالحادث بدليل أن العالم بالحادث
 إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو المعدم أو تقدم المعدم أو تأخر الوجود أو الزمان
 المنقسم إلى المتقدم والتأخر قال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله إن أعلم الحادث ومن
 الجهل بهذه الحقيقة يثور الوسواس فإن الوسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظهيرة والأدائية
 والفرضية في حالة واحدة مفصلة بالتأمل وهو يطالها وذلك محال ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل
 العالم لتعذر عليه فهذه المعرفة يدفع الوسواس وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله سبحانه في النية كما امتثال
 أمر غيره ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول لو لم يفهم الوسوس النية إلا باحضار هذه
 الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله

إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة في النية فقدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل فكيف ما تيسرت النية للوسوس ينبغي أن يقتنع به حتى تعود ذلك وتفارقه الوسوسة ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة ، وقد ذكرنا في الفتاوى وجوها من التحقيق في تحقيق العلوم والقصود المتعلقة بالنية نفتقر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضلوا بها وسج عليها الوسواس فذلك تركها [مسئلة] ينبغي أن لا يتقدم للأوموم على الامام في الركوع والسجود والرفع منها ولا في سائر الأعمال ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفوا أثره فهذا معنى الاقتداء فإن ساواه عمدا لم تبطل صلاته كالوقوف بحجبه غير متأخر عنه فإن تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ولا يبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم في الموقف على الامام بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف فالتبعية في الفعل أهم وإنما شرط ترك التقدم في الموقف تسهلا للتأدية في الفعل وتحصلا لصورة التبعية إذ لا تنق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهوا وتلك شدة رسول الله صلى الله عليه وسلم التكفير فيه قال «أما يحشى الذي يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار» (١) وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يطل الصلاة وذلك بأن يستدل الامام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الامام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الراكعين بطلت صلاته وكذا إن وضع الامام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول [مسئلة] حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف والانكار على من يرفع رأسه قبل الامام إلى غير ذلك من الأمور فقد قال صلى الله عليه وسلم «ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه» (٢) وقال ابن مسعود رضي الله عنه من رأى من رأى من يسئ صلاته فلم ينه فهو شريكه في وزرها وعن بلال ابن سعد أنه قال الخطيئة إذا أخفيت لم تضرب إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغبر أضرت بالعامة وجاء في الحديث «أن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرية» (٣) وعن عمر رضي الله عنه قال تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا قدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أمحاء فعاتبوهم والتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنابة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن المبيت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحى ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف ولقد كان تراحم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم «من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر» (٤) ومهما وجد غلاما في الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرج به إلى خلف ويدخل فيه أعنى إذا لم يكن بالغا وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تم بها البلوى وسيأتى أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

(١) حديث أما يحشى الذي يرفع رأسه قبل الامام متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث ويل للعالم من الجاهل الحديث صاحب مسند القردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث إن بلالا كان يسوي الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرية لم أجده (٤) حديث قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد الحديث . من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

الذي يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك فوائده للزيد وبنيه ما شرف من النسخ ويريد أعلام الرضا ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه والإيمان لا يخرج عنه إلا بنينه وأطراحه وتركه واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ولا يحصل بمقارنته وليس في إنشاء سرّ الولي ما يحصل به تناقض الإيمان اللهم إلا أن يريد بانثائه وقوع الكفر من السامع له فهذا مات متمرد وليس بولي ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لامحالة كافر وعلى هذا يخرج قوله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يجد من العبادة والبضاض قيل له أخطأت وأتيت من غير تكفير وأنه إيمان فقل ذلك وسب رسول

(الباب السابع من النوافل من الصلوات)

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن ومستحبات وتطوعات ونفى بالسنة ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها لأن السنة عبارة عن الطريق السلوكية ونفى بالمستحبات ما ورد الخبر بفضلها ولم ينقل للمواظبة عليه كما سنقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله ونفى بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عز وجل بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقاً فكأنه متبرع به فلم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقاً والتطوع عبارة عن التبرع وصميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجلتها زائد على الفرائض فلفظ النافلة والسنة والمستحب والتطوع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد وكل قسم من هذه الأقسام تفاوتت درجاته في الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المرفقة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد وأفضل سنن الجماعات صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء وأفضل سنن الانفراد الوتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب الكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات والتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرر اليوم واليلة أو بتكرر الأسبوع أو بتكرر السنة فالجملة أربعة أقسام :

القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية خمسة هي رواتب الصلوات

الحسن وثلاثة ورائها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

الأولى : راتبة الصبح وهي ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » (١) ويدخل وقتها بطول الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبحر فيستدل بالكواكب عليه ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب ويتطرق إليه تفاوت في بعض البروج وشرح ذلك بطول وتقصم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ويقترب من ركعتي الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ولكن السنة أداؤها قبل الغرض فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » (٢) ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلهما والصحيح أنهما أداء ما وقعتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للغرض في وقته وإنما الترتيب بينهما سنة في التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقية أداء والمستحب أن يصلحها في المنزل ويخففهما ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب

(الباب السابع)

(١) حديث ركعتا الفجر خير من الدنيا الحديث م من حديث عائشة (٢) حديث إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة م من حديث أبي هريرة .

الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .

[سؤال] فإن قيل

فإمعنى قول سهل رحمه

الله تعالى ونسب إليه :

للإلهي سر لو انكشف

لبطلت النبوات

ولنبوات سر لو

انكشف لبطل العلم

وللعلم سر لو انكشف

بطلت الأحكام وجاء

في الإحياء على أثر هذا

القول وقائل هذا القول

إن لم يرد به إبطال

النبوة في حق الضعفاء

فما قالوا ليس بحق فإن

الصحيح لا يتناقض

والكامل من لا يطنق

نور معرفته نور ورعه

وهذا وإن لم يكن من

الأسئلة الرسومة فهو

متعلق منها بما فرغ

من الكلام فيها آنفاً

ونظر إليه إذ ما أدى

إفشائه إلى إبطال النبوة

والأحكام والعلم كفر

فالجواب : أن الذي

قاله رحمه الله وإن كان

مستحسناً في الظاهر

فهو قريب المسلك باد

للمتأمل الذي يعرف

مصادر أغراضهم

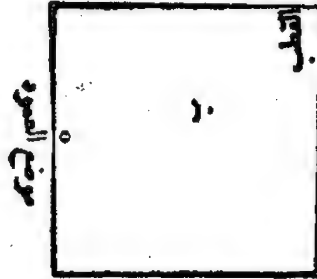
ومسالك أقوالهم الإلهية

فيه الذكر والفكر والاعتصار على ركعتي الفجر والفريضة . الثانية : رابعة الظهر وهي ست ركعات ركعتان بعدها وهي أيضا سنة مؤكدة وأربع قبلها وهي أيضا سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى مئة سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل (١) . وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها عمل (٢) » رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرد به ودل عليه أيضا ما روت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت في الجنة وركعتين قبل الفجر وأربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب (٣) » وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حفظت من رسول الله ﷺ في كل يوم عشر ركعات (٤) « فذكر ما ذكره أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثني أخى حفصة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج وقال في حديثه ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد المشاء فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة ويدخل وقت ذلك بالزوال والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص للتنصبة مائلة إلى جهة الشرق إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب الغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة الغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مذكورة بالحس دخل وقت الظهر ويبلغ قطعا أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكليف لا يرتبط إلا بما يدخل تحت الحس والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدى ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان ويعرف ذلك بالآقدام والموازين ومن الطرق القرية من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربها وضعا مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضامين ثم تنصب عموداً على اللوح نصبا مستويا في موضع علامة ه وهو بازاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة الغرب في صوب خط ه ثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب بحيث لو مد رأسه لانهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ويكون موازيا للضلع الشرقي والغربي غير مائل إلى أحدهما فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في منتهى الارتفاع فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس وهذا يدرك بالحس تحقيقاً في وقت

(١) حديث أبي هريرة من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن الحديث ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث ابن مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي أيوب كان لا يدع أربعاً بعد الزوال الحديث أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي داود وه مختصراً وت نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن (٣) حديث أم حبيبة من صلى في يوم اثنتي عشرة ركعة الحديث ن ك وصحح إسناده على شرط م ورواه م مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٤) حديث ابن عمر حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات الحديث متفق عليه واللفظ لم ولم يقل في كل يوم .

ومن وصل إليه اليقين
القدى لولا لم يكن نيا
لا يغلو أن يكون
انكشافه من الله بما
يطلع على القلوب من
أنوار الشمس التي هي
غاية عنها بأن كانت
القلوب ضعيفة طراً
عليها من الشهى
والاصطلام والخسرة
والتيه ما بهر العقول
ويقتطع الحس ويقطع
عن الدنيا وما فيها
وذلك لضغفه ومن
انتهى إلى هذه الحالة
فتبطل النبوة في حقه
أن يعرفها أو يستقل
ما جاء من قبلها إذ قد
شغل عنها ما هو أعظم
لديه منها وربما كان
سبب موته لعجزه عن
حمل ما يطرا عليه
كما حكى أن شاباً من
سالكى طريق الآخرة
عرض عليه أبو يزيد
ولم يره من قبل فلما رآه
انكشف له ذلك وكان
في مقام الضغفاء من
الريدين فلم يطلق حمله
فمات به وإما أن يكون
انكشافه من عالم به
على وجه الخبر عنه
فتبطل النبوة في حق

جانب الشرق



جانب المغرب

(١) حديث أبي هريرة رحم الله عبدا صلى أربعاً قبل العصر دلت حجب من حديث ابن عمر وأعله ابن القطن ولم أره من حديث أبي هريرة (٢) حديث عبادة أو غيره في ابتداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري إذا أذن لصلاة المغرب متفق عليه من حديث أنس لامن حديث عبادة وروى عبد الله بن أحمد في زيادات السند أن أبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب (٣) حديث كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا من حديث أنس (٤) حديث بين كل أذانين صلاة لمن شاء متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل (٥) حديث إذا أقبل الليل من ههنا الحديث متفق عليه من حديث عمر (٦) حديث عائشة كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام د .

الخبر حينئذ لا يفتش فاقضى أو أمر
 أن لا يتحدث فلم يفعل
 فخرج بهذه المعية
 عن طاعة النبي صلى
 الله عليه وسلم فيها
 فلماذا قيل في ذلك
 بطلت النبوة في حقه .
 فان قيل فلم لا تكفروه
 على هذا الوجه إذا بطلت
 النبوة في حقه بأخباره .
 قلنا ما بطلت في حقه
 جبراً وإنما بطل في
 حقهم ما خالف الأمر
 الثابت من قبلها وبعد
 هذا من الكلام على
 تعليل حق الإفتاء
 وقد سبق الكلام عليه
 في معنى إفتاء سر
 الربوية كفر وأما
 سر النبوة الذي أوجب
 العلم لمن رزقها أو
 رزق معرفتها على
 الجملة إذ النبوة
 لا يسرفها بالحقيقة
 إلا نبي فإن انكشف
 ذلك قلب أحد بطل
 العلم في حقه بارتفاع
 الهبة له بالأمر المتوجه
 عليه بطلبه والبحث
 عنه والتفكر فيه
 فيكون كالتبي إذا
 سئل عن شيء لو وقت

العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر (١) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلامعنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل » (٢) فإذا اختار كل مريد من هذه الصلوات بقدر رغبته في الخير فقد ظهر فيها ذكرناه أن بعضها أكد من بعض وترك الآخر أكد أبدا لاسيما والفرائض تسكل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر . السادسة : الوتر قال أنس ابن مالك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبع اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد (٣) وجاء في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا وفي بعضها متربعا (٤) وفي بعض الأخبار إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه صلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما إذا زلزلت الأرض وسورة التكاثر (٥) وفي رواية أخرى قل يا أيها الكافرون ويجوز الوتر مفصولا وموصولا بتسليمة واحدة وتسليمتين وقد أوتر رسول الله ﷺ بركة (٦) وثلاث (٧) وخمس (٨) وهكذا بالأوتار (٩) إلى إحدى عشرة ركعة (١٠) والرواية متردة في ثلاث عشرة (١١) وفي حديث شاذ سبع عشرة ركعة (١٢) وكانت هذه الركعات أعنى ما سمينا جملتها وترا صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة وسيأتى ذكر فضلها في كتاب الأوراد وفي الأفضل خلاف قيل إن الأيتار بركة فردة أفضل إذ صبح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الأيتار بركة فردة وقيل للوصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسيما الامام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة فان صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترا وأن يكون موطرا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح

(١) حديث الوتر ثلاث بعد العشاء أحمد واللفظ له والنسائي من حديث عائشة كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهما (٢) حديث الصلاة خير موضع أحمد وابن حبان وصححه من حديث أبي ذر (٣) حديث أنس كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبع الحديث ابن عدى في ترجمة محمد بن أبان ورواه ت ن . من حديث ابن عباس بسند صحيح (٤) حديث كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا من حديث عائشة (٥) حديث إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين الحديث حق من حديث أبي أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه زحف إليه ولا ذكر ألقاكم التكاثر (٦) حديث الوتر بركة متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة (٧) حديث الوتر ثلاث تقدم (٨) حديث الوتر بخمس من حديث عائشة يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها (٩) حديث الوتر سبع م دن واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لا يقعد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة حديث الوتر تسع م من حديث عائشة وهو في الذي قبله (١٠) حديث الوتر بأحدى عشرة أبو داود باسناد صحيح من حديث عائشة كان يوتر بأربع وست وثلاث وثمان وثلاث وعشر وثلاث الحديث ولمسلم من حديثها كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة الحديث (١١) حديث الوتر ثلاث عشرة تقدم في الذي قبله وللمزمذني والنسائي من حديث أم سلمة كان يوتر بثلاث عشرة وقال ت حسن ولمسلم من حديث عائشة كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة زاد في رواية بركعتي الفجر (١٢) حديث الوتر سبع عشرة ابن المبارك من حديث طاوس من صلاة كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل.

له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بأخبار ملك أو ضرب مثل فيهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو لقاء في روع فيعود محترعته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ولا عرف خواصها ولا تنزه في عجايبها ولا لاحظ للسلوك يصير قلبه ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولله ولأنهم أن الجنة أعلى النعيم وأن النار أقصى العذاب الأليم وأن النظر إليه منتهى الكرامات وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات وأن منتهى المعارف والعلوم أسنى الهبات ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نقي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح وقدره منازل وجعله للقيات فمن حي وميت ومتحرك وساكن وعالم

وجاهل وشقي وسعيد
وقريب وبعيد وصغير
وكبير وجليل وحقير
وغنى وفقير ومأمور
وأمر ومؤمن وكافر
وجاحد وشاكر وذكر
وأثني وأرض وساء
ودنيا وأخرى وغير
ذلك مما لا يحصى
والكل قائم به موجود
بقدرته وباق بعلمه
ومنته إلى أجله
ومصرف بعيشته
وذلك على بالغ حكته لما
أكل جهل من لا يجد
به إلا قدماه ولا من
يصرفه إلا استبداده
ولا ملكه إلا ملكه
فيعود المحدث قدما
والربوب رباً والملك
مالك فيعود الخلق من
خلق الله كره، تعالى الله
عن جهل الجاهلين
وتخيل المتوهين
وزيغ الزائغين .
[فصل] وأما حكم هذه
العلوم للكتابة في
الطلب وسلوك هذه
المقامات ورفق هذه
الدرجات واستفهام
هذه المحاطبات أي من
قيل الواجبات
والندوبات والمباحات

أى لا ينال فضيلة الوتر الذى هو خير له من حمر النعم (١) كما ورد به الخبر وإلا فركعة فردة صحيحة
فى أى وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق فى الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به
وترا فأما إذا أراد أن يوتر ثلاث مفصولة فى نيته فى الركعتين نظر فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة
العشاء لم يكن هو من الوتر وإن نوى الوتر لم يكن هو فى نفسه وترا وإنما الوتر ما بعده ولكن الأظهر
أن ينوى الوتر كما ينوى فى الثلاث للوصولة الوتر ولكن للوتر معنيان أحدهما أن يكون فى نفسه وترا
والآخر أن ينشأ ليكمل وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا والركعتان من جملة الثلاث إلا أن
وتريته موقوفة على الركعة الثالثة وإذا كان هو على عزم أن يوترها بثلاثة كان له أن ينوى بهما الوتر
والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها والركعتان لا يوتران غيرها وليستا وترا بأنفسهما ولكنها
موترتان بغيرهما والوتر ينبغى أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد وسبأى فضائل الوتر والتهجد
وكيفية الترتيب بينهما فى كتاب ترتيب الأوراد . السابعة : صلاة الضحى فالمواظبة عليها من عزائم
الأعمال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات روت أم هانىء أخت على بن
أبي طالب رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وحسنهن (٢) ولم
ينقل هذا القدر غيرها فأما عائشة رضى الله عنها فأنها ذكرت أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى
الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله سبحانه (٣) فلم تحدد الزيادة أى أنه كان يواظب على الأربعة
ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات وروى فى حديث مفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى
الضحى ست ركعات (٤) وأما وقتها فقد روى على رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى
الضحى ستاً فى وقتين إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين وهو أول الورد الثانى من
أوراد النهار كما سيأتى وإذا انبسطت الشمس وكانت فى ربيع السماء من جانب الشرق صلى
أربعاً (٥) فالأول إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثانى إذا مضى من النهار
ربعه بازاء صلاة العصر فإن وقته أن يبقى من النهار ربيعة والظهر على منتصف النهار ويكون الضحى
على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب
وهذا أفضل الأوقات ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة .
الثامنة : إحياء ما بين العشاءين وهى سنة مؤكدة وما نقل عدده من فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين العشاءين ست ركعات (٦) ولهذه الصلاة فضل عظيم وقيل إنها المراد بقوله عز وجل

(١) حديث الوتر خير من حمر النعم د ت ه من حديث خارجة بن حذافة إن الله أمدكم بصلاة هى خير
لكم من حمر النعم وضعفه خ وغيره (٢) حديث أم هانىء صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وأحسنهن
متفق عليه دون زيادة أطالهن وأحسنهن وهى منكورة (٣) حديث عائشة كان يصلى الضحى أربعاً
ويزيد ما شاء الله م (٤) حديث كان يصلى الضحى ست ركعات ك فى فضل صلاة الضحى من حديث
جابر ورجاله ثقات (٥) حديث كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس
وكانت فى ربيع النهار من جانب الشرق صلى أربعاً ن ه من حديث على كان نبي الله صلى الله
عليه وسلم إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى
ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات لفظ ن وقال ت حسن (٦) حديث صلى
بين العشاءين ست ركعات ابن منده فى الضحى وطب فى الأوسط والأصغر من حديث عمار بن
ياسر بسند ضعيف وت وضعفه من حديث أبي هريرة من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يشككم
فيا بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتى عشرة سنة .

- تتجاف جنوبهم عن المضاجع - وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوَّين » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتسكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقا على الله أن يني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغفر له بينهما غراسا لو طافه أهل الأرض لوسمهم » (٢) وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

(القسم الثاني ما يتكرر بشكر الأسماع)

(وهي صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة)

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعد كل نصراني ونصرانية حسنات وأعطاه الله ثواب نبى وكتب له حجة وعمره وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر » (٣) وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فانه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فسلم ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقا على الله أن يقضى حاجته » (٤) . يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة فإذا سلم استغفر الله عشرين مرة وصلى على النبي ﷺ عشرين مرة غفر الله تعالى له ذنوبه كلها » (٥) وروى أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة واستغفر اثنتي عشرة مرة ينادى به يوم القيامة أين فلان بن فلان ليقم فلأخذ ثوابه من الله عز وجل فأول ما يعطى من الثواب ألف حلة ويتوَّج ويقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلأأ » (٦) . يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقائى عن أنس بن مالك قال: قال صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند اتصاف النهار » (٧) وفي حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب

(١) حديث من صلى بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوَّين . ابن للبارك في الرقائق من رواية ابن المنذر مرسل (٢) حديث من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغله من حديث عبد الله بن عمر (٣) حديث من صلى يوم الأحد أربع ركعات الحديث أبو موسى الدينى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٤) حديث على وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد الحديث ذكره أبو موسى الدينى فيه بصير إسناد (٥) حديث جابر من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين الحديث أبو موسى الدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعا وهو حديث منكر (٦) حديث أنس من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة الحديث ذكره أبو موسى الدينى فيه سند وهو منكر (٧) حديث يزيد الرقائى عن أنس من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند اتصاف النهار الحديث أبو موسى الدينى بسند ضعيف ولم يقل عند اتصاف النهار

فاعلم أن للشئول عنه على ضربين أحدهما ما هو في حكم اللبائى والثانى في حكم الغايات فأما الذى هو في حكم اللبائى فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل الجهد وإفراغ الوسع وجميع ما يقدر عليه من العبادة وذلك ما تضمنه أصول علم للعامة مثل إخلاص التوحيد والصدق في العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهى واجبة قال الله تعالى - فاقنوا الله ما استطعتم - وقد سبق التنبيه عليه . وأما الذى هو في حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالاثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معاني التوحيد وسبر معاني التقرير وأوصاف أهل آيات اليقين فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنع

يغصن الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارجع لا تخط رقاب الصديقين لكنهما مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته وهي مراتب الصدق في العلم وبركات الإخلاص في العمل فمن لم يرث من علمه وعمله المقرض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني فليس في شيء من الحقيقة وإن كان حقاً غير أن حاله معلول إمامفتون بدينه أو محجوب بهواه وربك على كل شيء قدير .

[فصل] وأما أي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات وبالرموز دون التصريحات وبالمشابه من الألفاظ دون المحكمات وإن كان قد سبق هذا من

آية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة . يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات وللعودتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش بإعبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقة وظلمته ورفع عنك شدائد القيامة ورفع له من يومه هملني » (١) يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلي على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجباً وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بسدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة » (٢) يوم الجمعة : روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يوم الجمعة صلاة كله مامن عديم مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسيغ الوضوء فبسط سبحة المصحف ركعتين إيماناً واحتساباً لا كتب الله له مائة حسنة ومحا عنه مائة سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربع مائة درجة ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمان مائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائة حسنة ومحا عنه ألفين ومائة سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائة درجة » (٣) وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال « من دخل الجامع يوم الجمعة فصل أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له » (٤) . يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله بكل حرف حبة وعمره ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء » (٥) . وأما الليالي ليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة وللعودتين مرة مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كلم الله وعيسى روح الله

ولا عند ارتفاعه (١) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة الحديث أبو موسى الدين وقال رواه ثقات والحديث مركب . قلت بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين (٢) حديث عكرمة عن ابن عباس من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين الحديث أبو موسى الدين بسند ضعيف جداً (٣) حديث علي بن عمر من دخل الجامع يوم الجمعة فصل أربع ركعات الحديث الدارقطني في غرائب مالك وقال لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جداً ولا أعرف له وجهاً غير هذا (٥) حديث أبي هريرة من صلى يوم السبت أربع ركعات الحديث أبو موسى الدين في كتاب وظائف الليالي والأيام بسند ضعيف جداً .

وعهدا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبه الله عز وجل يوم القيامة مع الآمين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين (١) . ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم يسأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤاله ما سأل (٢) » وهي تسمى صلاة الحاجة . ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . روى عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع مرات أعتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة فائده ودليله إلى الجنة (٣) » . ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات وفي الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل مائة سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة (٤) » وفي حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ما شاء الله ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأولين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار » روت فاطمة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول جزى الله محمدنا عنا ما هو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له براءة من النار (٥) » . ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه

الشارع فيما له أن يتمتع به من كلف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجال مخصوصون لما بال من لم يجعل شارع ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك . والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويعمل فيه كعمله والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى عليه شديد القوى ذو مرة فاستوى وحكم الوارث فيما ورث حكم اللوروث فيما ورث عنه فما عرف فيه الحكم من فعل اللوروث عنه امتثله وما لم يصل إليه فيه شيء كان له اجتاده فان أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم للعاملات وأشار بما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصص كما قال الله عز وجل وما يعقلها إلا العالمون

(١) حديث أنس من صلى ليلة الأحد بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة الحديث لم أجده أصلا وحديث من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة الحديث ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات وكلاهما ضعيف جدا (٢) حديث الأعمش عن أنس من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات الحديث ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد وأسنده من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثا في صلاة ست ركعات فيها وهو منكر (٣) حديث الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين الحديث ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسنده من حديث ابن مسعود وجابر حديثا في صلاة أربع ركعات فيها وكلها منكورة (٤) حديث من صلى ليلة الأربعاء ركعتين الحديث لم أجده إلا حديث جابر في صلاة أربع ركعات فيها ورواه أبو موسى المديني وروى من حديث أنس ثلاثين ركعة (٥) حديث فاطمة من صلى ست ركعات أي ليلة الأربعاء الحديث أبو موسى المديني بسند ضعيف جدا .

قول العراقي حديث أنس من صلى ليلة الأحد اثنتي عشرة ركعة . لم يكن بالأحياء ولعله بنسخته وكذا لم يخرجه تأمل .

وإن كان عاقا لهما وأعطاء الله تعالى ما سخطى الصديقين والشهداء^(١) . ليلة الجمعة : قال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلا^(٢) » وقال أنس قال النبي ﷺ « من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمودنتين مرة مرة ثم أوتر ثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن وجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثرُوا من الصلاة على في الليلة الغراء واليوم الأزهري ليلة الجمعة ويوم الجمعة^(٤) . ليلة السبت : قال أنس قال رسول الله ﷺ « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بنى له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن ينفر له^(٥) » .

(القسم الثالث ما تكرر بتكرار السنين)

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان . الأولى صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعار الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور ، الأول : التكبير ثلاثا نسقا فيقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر وهذا أكل الأقاويل ويكبر عقب الصلوات للفروضة وعقب النوافل وهو عقب الفرائض أكد . الثاني إذا أصبح يوم العيد يتسلل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال وليجنب الصبيان الحرير والعجائر التزين عند الخروج . الثالث أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر^(٦) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ﷺ « يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور^(٧) » . الرابع المستحب الخروج إلى الصحراء إلى البكة وبيت المقدس فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ويجوز في يوم الصحوا أن يأمر الإمام رجلا يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدرة خطبتين وركعتين إلى آخر يوم . الثالث عشر ويستحب تعجيل صلاة الأضحية لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر

(١) حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين الحديث أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جدا وهو منكر (٢) حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة الحديث باطل لأصله (٣) حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات الحديث باطل لأصله له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للبيت من حديث أنس من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيها فاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمسة عشر مرة وقال إبراهيم بن المظفر خمسين مرة آمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضا وكلها ضعيفة منكورة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء والله أعلم (٤) حديث أكثروا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهري طيب في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد النعم بن بشير ضعيف ابن معين وابن حبان (٥) حديث أنس من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة الحديث لم أجده أصلا (٦) حديث الخروج في العيد في طريق والرجوع في أخرى م من حديث أبي هريرة (٧) حديث كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور متفق عليه من حديث أم عطية .

فلم يكن للوثر تعبد عن حكم الموروث كما حكى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أحدهما هو الذي بثته فيكم ، وأما الثاني فلو بثته لحزتم البيكين على هذا الباعوم وأشار إلى حلقه وبعد كل شيء في القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة وفي اتباعه الفوز بحب الله ويد الله مع الجماعة وفوق كل ذي علم عليم وقد أفدناكم من طرائف ما عندنا وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا وإلى الله يرد العلم بما دق وجل وكثر وقل وعظم وصغر وظاهر واستتر وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه إذ كل ميسر لما خلق له فاستنزل ما عند ربك وخالفك من خير واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر براءة السبع الثاني والقرآن

لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١). السادس في كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين في الطريق وإذا بلغ الإمام المصلي لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة ويصلي الإمام بهم ركعتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويقول وجهته وجهي للذي فطر السموات والأرض عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ سورة في الأولى بعد الفاتحة واقترت في الثانية والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع وبين كل تكبيرتين ماذكرناه ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضاها : السابق أن يضحي بكبشي « ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين وذبح بيده وقال بسم الله والله أكبر هذا عن وعمن لم يضح من أمي (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً (٣) » قال أبو أيوب الأنصاري كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون (٤) وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وردت فيه الرخصة بعد النهي عنه وقال سفيان الثوري يستحب أن يصل بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد عيد الأضحي ست ركعات (٥) وقال هو من السنة . الثانية التراويح : وهي عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلفوا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد وقد خرج رسول الله ﷺ فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج وقال « أخاف أن توجب عليكم (٦) » وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي قيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل في الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشرائع كالعيدين فالحاقها بصلاة الضحى ونحية للمسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة وقد جرت العادة بأن يدخل للمسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة لقوله صلى الله عليه وسلم « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت (٧) »

(١) حديث تمجيل صلاة الأضحي وتأخير صلاة الفطر الشافعي من رواية أبي الخويرث مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن يحل الأضحي وآخر الفطر (٢) حديث ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال بسم الله والله أكبر هذا عن وعمن لم يضح من أمي متفق عليه دون قوله عن الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبي داود وت من حديث جابر وقال ت غريب ومنقطع (٣) حديث من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره م من حديث أم سلمة (٤) حديث أبي أيوب كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون ت . قال ت حسن صحيح (٥) قال سفيان الثوري من السنة أن يصل بعد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحي ست ركعات لم أجده أصلاً في كونه سنة وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه ﷺ لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا في قول التابعي من السنة كذا وأما قول تابعي التابع كذا كالثوري فهو مقطوع (٦) حديث خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقال أخاف أن يوجب عليكم متفق عليه من حديث عائشة بلفظ خشيت أن تفرض عليكم (٧) حديث فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت رواه آدم بن أبي إياس في كتاب الثواب من حديث ضمرة بن حبيب مرسل ورواه ابن أبي شيبة في المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقوفاً

العظيم التي أمرت بقراءتها في كل صلاة وكذا عليك أن تصليها في كل ركعة وأخبرك الصادق للصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلاً وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمننت من القوائد وخصت به من الذخائر والعوائد بما لو سطر لكان فيه أوقار الجلال فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له واعرف ما أعد لك والله تعالى سبحانه حبيب من أراحه وهادى من جاهد في سبيله وكاف من توكل عليه وهو القى التكريم انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ونسأل الله تعالى الباعذة بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الكدورات والأهواء ومراتب المفين فيده مجاري القدورات وهو إله من ظهر وغبر وإليه يرجع

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من ذلك كله رجل يصلي في زاوية بيته ركعتين لا يطمعهما إلا الله عز وجل » (١) وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إلى الله في الجمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه ، والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه فإن بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشرائع التي تظهر ، وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة وكان قائله يقول الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء فلنفرض للمثلة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرأى لو حضر الجمع فأيهما أفضل له فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة فيجوز أن يكون في تفضيل أحدهما على الآخر تردد ، ومما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعنّة اثنتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بآخرة الكتاب مرة وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول اللهم صلى على محمد النبي الأُمى وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة : سبوح قدوس ربّ الملائكة والروح ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى » (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زيد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار » فهذه صلاة مستحبة وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تكرر بتكرار السنين وإن كانت رتبها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة تقلها الأحاد ولكن رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد فهذا أيضا مروى في جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمون صلاة الخير ويجمعون فيها

وفي سنن د بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة الراء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة (١) حديث صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية بيته لا يطمعهما إلا الله ، أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصلحهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصنفار في كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوزعي قال دخلت على يحيى فأسند لي حديثا فذكره إلا أنه قال في الأولى ألف وفي الثانية مائة (٢) حديث مامن أحد يصوم أول خميس من رجب الحديث في صلاة الرغائب أوردته رزين في كتابه وهو

حديث موضوع

من آمن وكفرو مجازي
الحلالق بنعيم أوسقر
والصلاة على سيدنا
محمد سيد البشر
وكافي الضرر وطى
آله السادات القرر
وسلم تسليما والحمد لله
رب العالمين .

تم كتاب الإملاء
في مشكلات الإحياء
[مکتاب عوارف
للعارف]

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله العظيم شأنه
القوى سلطانه الظاهر
إحسانه الباهر حجه
وبرهانه المحتجب
بالجلال والنفرد
بالكمال والمرتدى
بالعظمة في الآباد
والآزال لا يصوره وهم
وخيال ولا يحصره حد
ومثال ذى العز الدائم
السرمدى والملك القائم
الديعوى والقسدة
المعتنع إدراك كنهها
والسطوة للستوعر
طريق استيفاء وصفها
نظقت الكائنات بأنه
الصانع للبسع ولاح من
صفحات ذرات الوجود
بأنه الخالق المخبتر
وسم عقل الانسان

وربما صلوا جماعة روى عن الحسن أنه قال حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها للغفرة (١)

(القسم الرابع من التوافل ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة :)
صلاة الحسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه ونظائر ذلك فذكر منها ما يحضرنا الآن . الأولى صلاة الحسوف قال رسول الله ﷺ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا حياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » (٢) قال ذلك لممات ولله إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس إنما كسفت لموته . والنظر في كيفية وقوعها : أما الكيفية فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودي الصلاة جامعة وصلى الامام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أو اثلهما أطول من أواخرها ولا يجهر فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة وفي الثانية الفاتحة وآل عمران وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزاء ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية وفي الثاني قدر ثمانين وفي الثالث قدر سبعين وفي الرابع قدر خمسين وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعق والتوبة وكذلك يفعل بحسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تقرب الشمس كاسفة ، وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يسطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفاً لأن الليل كله سلطان القمر فإن انجلى في أثناء الصلاة أعما مخففة ومن أدرك الركوع الثاني مع الامام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول . الثانية صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار واقطعت الأمطار أو انهارت قناة فيستحب للامام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من الظالم والتوبة من المعاصي ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان منتظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين بخلاف العيد وقيل يستحب إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رقع لصب عليكم العذاب صبا » (٣) ولو خرج أهل الدمة أيضاً متميزين لم ينعوا فإذا اجتمعوا في الصلوة الواسع من الصحراء نودي الصلاة جامعة فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة وليكن الاستغفار معظم الخطبتين وينبغي في وسط الخطبة الثانية أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة تفاؤلاً بتحويل الحال (٤) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث صلاة ليلة نصف شعبان حديث باطل و . من حديث علي إذا كانت ليلة النصف من شعبان قوموا ليلاً وصوموا نهارها وإسناده ضعيف (٢) حديث إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله الحديث أخرجه من حديث المغيرة بن شعبه (٣) حديث لولا صبيان رضع ومشايخ ركع الحديث حق وضعفه من حديث أبي هريرة (٤) حديث استدبر الناس واستقبل القبلة وتحول الرداء في الاستسقاء أخرجه من حديث عبد الله بن زيد المازني

بالهجز والنقصان وأثرهم فصيححات الألسن وصف الحصر في حلبة البيان وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم وسدت تمرزا وجلالا مسالك الوم وأطرق طامح البصرة تعظيما وإجلالا ولم يجد من فرط الحية في هضاء الجبروت مجالا فهاد البصر كليلًا والعقل غليلا ولم يتجهج إلى كنه الكبرياء سيلا فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه وتعذر على العقول تحديده وتكليفه ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان وخصهم من بين عباده بخصائص الاحسان فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة ومرأى قلوبهم بنور القدس مجلوة قهيات لقبول الإمداد القدسية واستمدت لورود الأنوار العلوية وانغذت من الأنفاس العطرية بالأذكار

فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أردتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما دعوتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك في سقايانا وسعة أرزاقنا ولا بأس بالدعاء أديار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ، ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد للظالم وغيرها وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات . الثالثة صلاة الجنائز : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ما روى في الصحيح عن عوف بن مالك قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلى على جنازة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد وثقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجته وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار (١) » حتى قال عوف تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعى ترتيب الصلاة في نفسه ويكرر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق فإنه لو بادر التكبيرات لم يبق للقدوة في هذه الصلاة معنى فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندى وإن كان غيره محتملا والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنائز وتشيعها مشهورة فلانظيل بإيرادها وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات وإنما يصير نقلا في حق من لم يمتنع عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يمتنع لأنهم يحملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم فلا يكون ذلك كغفل لا يسقط به فرض عن أحد ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة اللهم والأدعية واشتاله على ذى دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس أنه مات له ابن فقال يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال تقول هم أربعون قلت نعم قال أخرجه فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعم الله عز وجل فيه (٢) » وإذا شيع الجنائز فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال اللهم عبدك رد إليك فأرآف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه واقفح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن اللهم إن كان محسنا فضاعف له في إحسانه وإن كان سيئا فاجزعه . الرابعة تحية المسجد : ركعتان فصاعدا سنة مؤكدة حتى إنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة نعتا كد وجوب الاصغاء إلى الخطيب وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ القصد أن لا يغلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياما بحق المسجد ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لمبور أو جلوس فليقل سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تسكره التحية في أوقات الكراهية وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب لما روى

(١) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنائز اللهم اغفر لي وله وارحمي وارحمه وعافني وعافه الحديث أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلى (٢) حديث ابن عباس مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون الحديث م .

جلالنا وأقامت على
الظاهر والباطن من
التقوى حراسا واشعلت
في ظلم البشرية من
اليقين نبراسا
واستحقرت فوائد
الدنيا ولذاتها وأتكرت
مسايد الهوى وتبعاتها
وامتطت غوارب
الرغبات والرهבות
واستفرشت بملوهمتها
بساط الملوكوت
وامتدت إلى للعالي
أغناقها وطمعت إلى
اللامع العلوى أحداقها
واتخذت من اللأ
الأعلى مسامرا وعجورا
ومن النور الأعز
الأقصى مزاورا ومجاورا
أجساد أرضية بقلوب
سماوية وأشباح فرشية
بأرواح عرشية
نفوسهم في منازل
الخدمة سيار وأرواحهم
في فضاء القرب طيارة
مذاهبهم في العبودية
مشهورة وأعلامهم
في أفطار الأرض
منشورة يقول الجاهل
بهم قعدوا وما قعدوا
ولكن سميت أحوالهم
فلم يدركوا وعلا
مقامهم فلم يملكوا

« أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أمانيتنا عن هذا ؟ فقال : هاركتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلني عنهما الوفد (١) » فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما أن الكراهية مقصورة على صلاة لا سبب لها ومن أضغف الأسباب قضاء التوافل إذ اختلفت العلماء في أن التوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاتته هل يكون قضاء وإذا انتفت الكراهية بأضغف الأسباب فبأخرى أن تنتفى بدخول المسجد وهو سبب قوى ولذلك لا تكره صلاة الجنائز إذا حضرت ولا صلاة الحسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً . الفائدة الثانية : قضاء التوافل إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقدّم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة (٢) » وقد قال العلماء من كان في الصلاة قضاؤه جواب التؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان للتؤذن سكوت ولا معنى الآن لقول من يقول إن ذلك مثل الأول وليس يقضى إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهية ، نعم من كان له ورد فهاهنا عن ذلك عند فيتنى أن لا يرخس لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل (٣) » فيقصد به أن لا يفترق دوام عمله وروى عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها لملاة مقتته الله عز وجل (٤) » فليحذر أن يدخل تحت الوعيد وتحقيق هذا الخبر أنه مقتته الله تعالى بتركها لملاة فلولاً للقت والاباد لما سلطت الملاة عليه . الخامسة : ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطأ الحديث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيق السعي فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها قلت لبلال بهم سبقني إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أتى لأحدث وضوءاً إلا أصلى عقيدتين ركعتين (٥) » . السادسة : ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنانك مخرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين يمنانك مدخل السوء (٦) » وفي معنى هذا كل أمر يبتدأ به بحاله وقع ولذلك ورد ركعتان عند الاحرام (٧) وركعتان

(١) حديث صلى ركعتين بعد العصر قيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر الحديث أخرجاه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم إنه شغل عنهما الحديث (٢) حديث عائشة كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقدّم تلك الليلة الحديث م (٣) حديث أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل أخرجاه من حديث عائشة . (٤) حديث عائشة من عبد الله بعبادة ثم تركها لملاة مقتته الله ورواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة (٥) حديث دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها قلت لبلال بهم سبقني إلى الجنة الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة (٦) حديث أبي هريرة إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنانك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك الحديث هو في الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان ابن سليم . قال بصكر حسبه عن أبي سلمة عن أبي هريرة فذكره وروى الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيراً قال ابن عدي وهو بهذا الإسناد منكرو وقال خ لا أصل له (٧) حديث ركعتي الاحرام خ من حديث ابن عمر .

كاتبين بالجمان
بائنين بقلوبهم عن
أوطان الحداث
لأرواحهم حول العرش
تطواف ولقلوبهم من
خزائن البر إسعاف
يتعمون بالخدمة في
الدياجر ويتلذذون من
وهيج الطلب بظماً
المهاجر تسوا
بالصلوات عن الشهوات
وتعوضوا بعبادة
التلاوة عن اللذات
يلوح من صفحات
وجوههم بحر
الوجدان وينم على
مستكون سرائرهم
نضارة العرفان لا يزال
في كل عصر منهم علماء
بالحق داعون للخلق
منحوا بحسن للتابعة
رتبة الدعوة وجعلوا
للمتقين قدوة فلا يزال
تظهر في الخلق آثارهم
وتزهر في الآفاق أنوارهم
من اتقى بهم
اهتدى ومن أنكرهم
ضل واعتدى فله الحمد
على ما هباً للعباد من
بركة خواص حضرته
من أهل الوداد والصلاة
على نبيه ورسوله
محمد وآله وأصحابه

الأكرمين الأجناد .
ثم إن إشاري لهدى
هؤلاء القوم وعجبي
لهم علما بشرف
حلمهم ومحة طريقهم
للبنية على الكتاب
والسنة للتحقق بهما
من الله الكريم الفضل
وللتفداني أن أذهب
عن هذه العصابة بهذه
الصياغة وأؤلف أبوابا
في الحقائق والآداب
معربة عن وجهه
الصواب فيما اعتدوه
مشعرة بشهادة صريح
العلم لهم فيما اعتدوه
حيث كثر التشبهون
واختلفت أحوالهم
وتسبزوهم للتقرون
وفسدت أعمالهم
وسبق إلى قلب من
لا يعرف أصول سلفهم
سوء ظن وكاد لا يسم
من وقية فيهم وطعن
ظنا منه أن
حاصلهم راجع إلى
مجرد رسم وتخصيم
عائد إلى مطلق اسم
ومما حضرنى فيه من
النية أن أكثر سواد
القوم بالاعتزاء إلى
طريقهم والاشارة إلى
أحوالهم وقد ورد من

عند ابتداء السفر (١) وركعتان عند الرجوع من السفر (٢) في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور
من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شرربة
صلى ركعتين وكذلك في كل أمر يحدثه وبداية الأمور ينبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهى على
ثلاث مراتب بعضها يتكرر مرارا كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم
« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أتر (٣) » الثانية ما لا يكثر تكرره وله وقع كقصد
النكاح وابتداء النصيحة والشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول للزوج الحمد لله والصلاة
على رسول الله ﷺ زوجتك ابنتي ويقول القابل الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت
النكاح وكانت عادة الصحابة رضى الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والشورة تقديم التعميد .
الثالثة ما لا يتكرر كثيرا وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والأحرام وما يجرى مجراه
فيستحب تقديم ركعتين عليه وأدناه الخروج من المنزل والدخول إليه فانه نوع سفر قريب . السابعة
صلاة الاستخارة . فمن لم يأمر وكان لا يدري عاقبته ولا يعرف أن الحير في تركه أو في الإقدام عليه فقد
أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصلى ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون
وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فإذا فرغ دعا وقال اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدر بك بقدرتك
وأسألك بحن فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن
هذا الأمر خير لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى وبارك لى فيه ثم يسره لى
وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفنى عنه واصرفه
عنى واقدر لى الخير أينما كان إنك على كل شئ قدير (٤) رواه جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يسلنا الاستخارة في الأمور كلها كما يسلنا السورة من القرآن وقال ﷺ « إذا هم أحدكم
بأمر فليصل ركعتين ثم ليستم الأمر ويدعو بما ذكرنا » وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع أربعا
من أعطى الشكر لم يمنع للزبد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع
الحيرة ومن أعطى الشورة لم يمنع الصواب . الثامنة صلاة الحاجة : (٥) فمن ضاق عليه الأمر
ومسته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد
أنه قال إن من الدعاء الذى لا يرد أن يصلى العبد اثنتى عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بأمر الكتاب
وآية الكرسي وقل هو الله أحد فإذا فرغ نحر ساجدا ثم قال سبحان الذى ليس العز وقال به
سبحان الذى تعطف بالجد وتكرم به سبحان الذى أحصى كل شئ بعلمه سبحان الذى لا ينبغي
التسبيح إلا له سبحان ذى المن والفضل سبحان ذى العز والكرم سبحان ذى الطول أسألك بمعاقدة العز

(١) حديث صلاة ركعتين عند ابتداء السفر الخرائطى في مكارم الأخلاق من حديث أنس ما استخلف
في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين العبد في بيته إذا شد عليه ثياب سفره
الحديث وهو ضعيف (٢) حديث الركعتين عند القدوم من السفر أخرجاه من حديث كعب بن
مالك (٣) حديث كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أتر د ن ه حب في صحيحه من حديث
أبي هريرة (٤) حديث صلاة الاستخارة خ من حديث جابر قال أحمد حديث منكر (٥) حديث
ابن مسعود في صلاة الحاجة اثنتى عشرة ركعة أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين
جدا فيهما عمرو بن هارون البلخى كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت صلاة الحاجة
ركعتين رواته من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقالت حديث غريب وفي إسناده مقال .

من عرشك ومنهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلناك التامات العامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ثم يسأل حاجته التي لامعية فيها فيجواب إن شاء الله عز وجل قال وهيب بلغنا أنه كان يقال لا تملوها لسفهاكم فيمتاونون بها على معصية الله عز وجل . التاسعة صلاة التسييح : وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال للعباس بن عبد المطلب « ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبك بشئ إذا أنت فعلت غفر الله لك ذنبك أو له وآخره قديعه وحديثه خطاه وعمده سره وعلايته تصلى أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات ثم ترفع من الركوع فتقولها قائماً عشراً ثم تسجد فتقولها عشراً ثم ترفع من السجود فتقولها جالساً عشراً ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشراً ثم ترفع من السجود فتقولها عشراً فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل في كل جمعة مرة فإن لم تفعل في كل شهر مرة فإن لم تفعل في السنة مرة ^(١) » وفي رواية أخرى : أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وقد ست أسماءك ولا إله غيرك ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشراً بعد القراءة والباقي كاسبق عشراً ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك والمجموع عن الروايتين ثمانية تسبيحة فإن صلاها نهاراً فتسليمة واحدة وإن صلاها ليلاً فتسليمتين أحسن إذ ورد « أن صلاة الليل مثنى مثنى ^(٢) » وإن زاد بعد التسييح قوله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة ولا يستحب شئ من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية السجد وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا لأن النهي مؤكد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الحسوف والاستسقاء والتحية وقد رأيت بعض المتصوفة يصلي في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سبباً للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء فينبغي أن يتوضأ ليصلي لا أنه يصلي لأنه يتوضأ وكل محدث يريد أن يصلي في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلي فلا يبقى للكراهية معنى ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعاً كيلا يعطل وضوءه كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب الحسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه أتوضأ لصلاة وفي صلاته يقول أصلي لوضوئي بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فليؤخر قضاءه إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه فأما نية التطوع فلا وجه لها في النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة أحدها التوقي من مضاهاة عبدة الشمس والثاني الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارئها وإذا ارتفعت فارقها فإن استوت قارئها فإذا زالت فارقها فإذا انضيفت للغروب قارئها فإذا غربت فارقها ^(٣) » ونهى عن الصلوات

(١) حديث صلاة التسييح تقدم (٢) حديث صلاة الليل مثنى مثنى أخرجه من حديث ابن عمر (٣) حديث إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارئها الحديث ن من حديث عبد الله الصنابحي .

كثير سواد قوم فهو منهم وأرجو من الله الكريم همه النية فيه وتخليصها من شوائب النفس وكل ما فتح الله تعالى على فيه منح من الله الكريم وعوارف وأجل النسخ عوارف المعارف والكتاب يشتمل على نيف وستين باباً والله المعين . الباب الأول في منشأ علوم الصوفية . الباب الثاني في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع . الباب الثالث في بيان فضيلة علم الصوفية والاشارة إلى أعوذج منها . الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طرقهم فيها . الباب الخامس في ذكر ماهية التصوف . الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم . الباب السابع في ذكر المتصوف والمقشبه . الباب الثامن في ذكر اللامق وشرح حاله . الباب التاسع في ذكر من اتقى إلى الصوفية وليس منهم . الباب

في هذه الأوقات ونبه به على العلة والثالث أن السالك طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات والواظبة على نعط واحد من العبادات يورث الملل ومهما منع منها ساعدت النشاط وانبتت الدواعي والانسان حريص على ما منع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تعريض وبسبب على انتظار انقضاء الوقت تخلصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفي الاستمرار على شيء واحد استئصال الملل ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل ترتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة فان القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل فاذا كانت هذه أمور مهمة في التهي عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار آخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والحسوف وتحمية المسجد فأما ما ضعف عنها فلا ينبغي أن يصادم به مقصود التهي هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .
كمل كتاب أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين . يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

(كتاب أسرار الزكاة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسعدنا وشفى وأمات وأحيا وأضعفك وأبكى وأوجد وافتى وأقر وأغنى وأضر وأتقى القدي خلق الحيوان من نطفة نمت ثم تفردت عن الخلق بوصفها التي ثم خصص بعض عبادته بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ما ليس به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهارا للامتحان والابتلاء ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومبنى وبين أن بفضل تركي من عباده من تركي ومن غناه زكي ماله من زكي والصلاة على محمد المصطفى سيد الوري وشمس المهدي وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .
[أما بعد] فان الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبادئ الاسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى - وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة - وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة »^(١) وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بذاب أليم - ومعنى الاتفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة قال الأحنف بن قيس كنت في نفر من قريش فمر أبوذر فقال بشر الكاذبين بكى في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى في أعقابهم يخرج من جباههم وفي رواية أنه يوضع على حلة ندى أحدهم فيخرج من نفض كتفيه ويوضع على نفض كتفيه حتى يخرج من حلة نديه يتزلزل وقال أبوذر انتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال « هم الأخسرون ورب الكعبة فقلت ومن هم قال الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب إبل ولا بقرة ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كنت وأمينه تنطحه بقرونها وتطوؤه بأظلافها كلما نفدت آخرها عادت وهو مرسل ومالك هو الذي يقول عبد الله الصنابعي وهم فيه والصواب سيد الرحمن ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم .

(كتاب أسرار الزكاة)

(١) حديث بنى الاسلام على خمس أخرجه من حديث ابن عمر

(٢٧ - إحياء - أول)

العاشر في شرح رتبة
الشبيخة . الباب
الحادي عشر في شرح
حال الخادم ومن يتشبه
به . الباب الثاني عشر
في شرح خرقه المشايخ
الصوفية . الباب الثالث
عشر في فضيلة سكان
الربط . الباب الرابع
عشر في مشابة أهل
الربط بأهل الصفة .
الباب الخامس عشر
في خصائص أهل
الربط فيما يتعاهدونه
بينهم . الباب السادس
عشر في اختلاف
أحوال المشايخ بالسفر
والقيام . الباب السابع
عشر فيما يحتاج للمسافر
إليه من القرائن
والتوافل والفضائل .
الباب الثامن عشر في
القدوم من السفر
ودخول الرباط والأدب
فيه . الباب التاسع
عشر في حال الصوفي
المتسبب . الباب
العشرون في حال من
يأكل من الفتوح .
الباب الحادي
والعشرون في شرح
حال التجسرد من
الصوفية والتأهل .

مما يحلها وما وسرها مما ويكون للرعي مما ويكون إنزاه الفحل مما وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة ولا حكم لخلطة مع الدمي والسكران ومهما زل في واجب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز مالم يجاوز بنت مخاض في التزول ولكن تضم إليه جيران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما وستين أربع شياء أو أربعين درهما وله أن يصعد في السن مالم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ الجيران من الساعين من بيت المال ولا يؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحا ولو واحدة ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللثام لثيمة ولا يؤخذ من المال الكولة ولا للماخض ولا الربى ولا الفحل ولا غراء للمال .

(النوع الثاني زكاة للمشرات)

فيجب المشر في كل مستتب مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شيء فبادونها ولا في القواكه والقطن ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمر أو زبينا لا رطبا وعنبا ويخرج ذلك بعد التجفيف ويكمل مال أحد الحليطين بمال الآخر في خلطة الشيوع كالبلستان للشرك بين ورثة لجمعهم ثمانمائة من من زبيب فيجب على جميعهم ثمانون منا من زبيب بقدر حصصهم ولا يعتبر خلطة الجوار فيه ولا يكمل نصاب الخلطة بالشعير ويكمل نصاب الشعير بالسلت فانه نوع منه هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسبح أو قناة فان كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر فان اجتمعا فالأغلب يعتبر وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحلب اليابس بعد التنقية ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير ولا يمنع من هذه القسمة قولنا إن القسمة بيع بل يرخص في مثل هذا للحاجة ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب ووقت الأداء بعد الجفاف .

(النوع الثالث زكاة النقدين)

فاذا تم الحول على وزن مائة درهم بوزن مكة نفرة خالصة فيها خمسة دراهم وهو ربع العشر وما زاد فبحسابه ولودرها ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا بوزن مكة ففيها ربع العشر وما زاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة وتجب على من معه دراهم مغلوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النفرة الخالصة وتجب الزكاة في التبر وفي الحلي المظهور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تجب في الحلي للبائعات وتجب في الدين الذي هو على مولى ولكن تجب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

(النوع الرابع زكاة التجارة)

وهي كزكاة النقدين وإنما ينقذ الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا فان كان ناقصا أو اشترى بجرس على نية التجارة فالحول من وقت الشراء وتؤدي الزكاة من نقد البلد وبه يقوم فان كان ماله الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقويم به أولى من نقد البلد ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينقذ الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئا ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة والأولى أن تؤدي زكاة تلك السنة وما كان من ربع في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف به حولا كما في التاج وأموال السيارات لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربع مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ، هذا هو الأنيس .

والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها .
الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره . الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الحصوص والصوفية فيه . الباب السادس والثلاثون في فضيلة الصلاة وكبر شأنها . الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب . الباب الثامن والثلاثون في ذكر آداب الصلاة وأسرارها . الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره . الباب الأربعون في أحوال الصوفية في الصوم والافطار . الباب الحادى والأربعون في آداب الصوم ومهامه . الباب الثانى والأربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة . الباب الثالث والأربعون في آداب الأكل . الباب الرابع والأربعون في ذكر آدابهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه . الباب الخامس

(النوع الخامس الركاز والمدن)

والركاز مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يجز عليها في الاسلام ملك فعلي واجده في الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضا لأن إيجاب الخمس يؤكده شبهة بالغنمة واعتباره أيضا ليس بعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ولذلك يخص على الصحيح بالتقدين ، وأما المعادن فلا زكاة فيها استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتخليس ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب وفي الحول قولان وفي قول يجب الخمس فعلي هذا لا يعتبر وفي النصاب قولان والأشبه والعم عند الله تعالى أن يلحق في قدر الواجب بركة التجارة فانه نوع اكتساب وفي الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب كالمعشرات والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين التقدين أيضا خروجها عن شبهة هذه الاختلافات فانها ظنون قرينة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

(النوع السادس في صدقة الفطر)

وهي واجبة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليته صاع بمائقتان (١) بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منون وثلاث من يخرجها من جنس قوته أو من أفضل منه فان اقتات بالحنطة لم يجز الشعير وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزاء وفسمها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وماله وأولاده وكل قريب هو في نفقته أعنى من يجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون » (٢) وتجب صدقة العبد للشرع على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عمن نفسها أجزاءها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته كدود قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقته على نفقة الخادم (٣) فهذه أحكام فقهاء لا بد للمفتي من معرفتها وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكفل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

(الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة)

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور : الأول : النية وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسن عليه تعيين الأموال فان كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عد إطلاقه ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي ونية السلطان تقوم مقام نية المالك للمتع عن الزكاة ولكن في ظاهر حكم الدنيا : أعنى في قطع المطالبة عنه أما في الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاء لأن توكيله بالنية نية . الثانية : البدار عقيب الحول

(١) حديث وجوب صدقة الفطر على كل مسلم أخرجه من حديث ابن عمر قال فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان الحديث (٢) حديث أدوا زكاة الفطر عمن تمونون قط هق من حديث ابن عمر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والمبد عن تمونون قال هق لإسناده غير قوى (٣) حديث قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقته على نفقة الخادم من حديث أبي هريرة بسند صحيح وحج لك وصححه ورواه ن حب بتعديهم الزوجة على الولد وسيأتي

والأربعون في ذكر فضل قيام الليل .

الباب السادس والأربعون في الأسباب للجنة على قيام الليل .

الباب السابع والأربعون في آداب الانتباه من النوم والعمل بالليل .

الباب الثامن والأربعون في تقسيم قيام الليل .

الباب التاسع والأربعون في استقبال التهار والأدب فيه .

الباب العاشر في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات .

الباب الحادي والخمسون في آداب الريد مع الشيخ .

الباب الثاني والخمسون في اعتماد الشيخ مع الأصحاب والتلامذة .

الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر .

الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى .

الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة .

الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان

وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان ووقت تمجيلها شهر رمضان كله ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه تلف ماله وتمكنه بمصادفة للتحقق وإن أخر لعدم التحقق قتل ماله سقطت الزكاة عنه وتمجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانقضاء الحول ويجوز تمجيل زكاة حولين ومهما جهل لمات للسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما جهل إليه أو تلف مال المالك أو مات فالدفع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن للجلل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة . الثالث : أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج للنصوص عليه فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ القصور من سد الحلة وما أبهده عن التحصيل فان سد الحلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تمديد بعض لا مدخل للخطوط والأغراض فيه وذلك كرمي الجرات مثلا إذ لاحظ للجمرة في وصول الحصى إليها المقصود الشرع فيه الأبتلاء بالعمل ليظهر العبد رقة وعبوديته بفعل ما لا يقبل له معنى لأن ما يقبل معناه قد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر للعبود فقط لا لمشي آخر وأكثر أعمال الحج كذلك وذلك قال صلى الله عليه وسلم في إحرامه « ليك بحجة حقا تبدا ورقا »^(١) تنبها على أن ذلك إظهارا للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامثاله كل أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثاني من واجبات الشرع ما المقصود منه حفظ معقول وليس يقصد منه التبعيد كقضاء دين الأديين ورد للنصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ للتحقق أو يدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس . والقسم الثالث هو المركب الذي يقصد منه الأمان جميعا وهو حفظ العباد وامتحان للكلف بالاستعداد فيجتمع فيه تبديري الجوار وحفظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول فان ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التبعد والاسترقاق بسبب أجلاهما ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعي رضي الله عنه لحظ الفقير مقصود في سد الحلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التبعد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الاسلام ولا شك في أن على المكلف تبعا في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير لكنه قادح في التبعد ويدل على أن التبعد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات ومن أوضحها أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النعدين والتقويم وإن قدر أن ذلك لقة النقود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشاتين فلم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة ولم قدر بعشرين درهما وشاتين وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها ، فهذه وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التبعدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيين والأذهان الضعيفة تنصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه . الرابع : أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فان أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها وفي الثقل تخيب للظنون فان صل ذلك أجزاء في قول ولكن

(١) حديث ليك بحجة حقا تبدا ورقا . البرازر والدارقطني في الملل من حديث أنس .

نفسه ومكاشفات
الصوفية من ذلك .
الباب السابع والخمسون
في معرفة الخواطر
وتفصيلها وتميزها .
الباب الثامن والخمسون
في شرح الحال وللقام
والفرق بينهما . الباب
التاسع والستون في
الإشارة إلى اللقائات
على الاختصار والابحاز .
الباب الستون في ذكر
إشارات الشايع في
اللقائات على الترتيب .
الباب الحادي والستون
في ذكر الأحوال
وشرحها . الباب الثاني
والستون في شرح
كلمات من اصطلاح
الصوفية مشيرة إلى
الأحوال . الباب الثالث
والستون في ذكر شيء
من البدايات والتهابات
ومنها ، فهذه الأبواب
تحررت بمون الله تعالى
مشملة على بعض
علوم الصوفية
وأحوالهم ومقاماتهم
وأدابهم وأخلاقهم
وغرائب مواجيدهم
وحقائق معرقهم
وتوحيدهم ودقيق
إشاراتهم ولطيف

الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى التبرء في تلك البلدة . الخامس أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده فان استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى - إنما الصدقات للفقراء والمساكين - الآية فانه يشبه قول للريض إنما ثلث مالي للفقراء والمساكين وذلك يقتضي التشريك في التخليك والعبادات ينبغي أن يتوقى عن المجهوم فيها على الظواهر وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون أغنى أبناء السبيل وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض وهم التزاة والمساكين فان وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسماً . ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم لها فوفاً إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين أحاد الصنف فان له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر قسماً ولو نقص منهم واحد مع الامكان غرم نصيب ذلك الواحد فان عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع للمستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهروا فيه فان ذلك لا بد منه .

(بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة)

اعلم أن على مرير طريق الآخرة بركاته وظوائف . الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مباني الاسلام مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاثة معان . الأول : أن التلطف بكلمة الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بافراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للوحد محبوب سوى الواحد الفرد فان الهبة لا تقبل الشركة والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة الحب بفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تتمهم بالدنيا ويسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن اللوت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصدق دعواهم في المحبوب واستزلوا عن اللال الذي هو مرقومهم ومشوقهم ولذلك قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - وذلك بالجهاد وهو مساهمة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل وللأسخنة بالمال أهون ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم وزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا دينار ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة في مائتي درهم قال أما على العوام بحكم الشرع نفقة درهم وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر رضي الله عنه بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم ما بقيت لأهلك فقال مثله وقال لأبي بكر رضي الله عنه ما بقيت لأهلك قال الله ورسوله قال صلى الله عليه وسلم ما بقيت لأهلك ما بين كتيكاً^(١) فالصديق وفي تمام الصديق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثاني درجتهم دون درجة هذا وهم للمسكون أموالهم الرقيقون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات فيكون قصدهم في الادخار الاتقيا على قدر الحاجة دون التمتع وصرف الفائض عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً

(١) حديث جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله الحديث دلتك وصحبه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله بينك ما بين كتيكاً .

اصطلاحاتهم فصولهم كلها إنباء عن وجدان واعتناء إلى عرفان وذوق تحقق بصدق الحال ولم يف باستيفاء كنهه صريح للقال لأنها مواهب ربانية ومنافع حقانية استزلفها صفاء السرائر وخلوص الضمائر فاستمتت بكنيتها على الإشارة وطفعت على العبرة ونهادتها الأرواح بدلالة التثام والاتصاف وكرعت حقائقها من بحر الأنطاف وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ونحن نسلك في حواشيه بدا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بسلام السلف وصالحى التابعين فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين والعارفين بدقائق علوم الدين والله للأموال أن يقابل جهدهم للقل بحسن القبول

والحمد لله رب العالمين .
 الباب الأول في ذكر
 منشأ علوم الصوفية :
 حدثنا شيخنا شيخ
 الإسلام أبو النجيب
 عبد القاهر بن عبد الله
 ابن محمد السهروردي
 إسناده من لفظه في
 شوال سنة ستين
 وخمسة قال أنبأنا
 الشريف نور المهدى
 أبو طالب الحسين بن
 محمد الزيني قال أخبرتنا
 كريمة بنت أحمد بن
 محمد الرزوية المجاورة
 بمكة حرسها الله تعالى
 قالت أخبرنا أبو الهيثم
 محمد بن مكي الكشميري
 قال أنبأنا أبو عبد الله
 محمد بن يوسف
 القريري قال أخبرنا
 أبو عبد الله محمد بن
 اسمعيل البخاري قال
 حدثنا أبو كريب قال
 حدثنا أبو أسامة عن
 بريد عن أبي بردة عن
 أبي موسى الأشعري
 رضى الله عنه عن
 رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال « إنا مثلي
 ومثل ما بعثني الله به
 كمثل رجل آتى قومًا
 فقال يا قومى إني رأيت

صوى الزكاة كالنخمي والشمي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة قال نعم أما سمعت قوله عز وجل - وآتى المال على حبه ذوى القربى - الآية واستدلوا بقوله عز وجل - وبما رزقناهم ينفقون - وبقوله تعالى - وأتقوا مما رزقناكم - وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق السلم على السلم ومعناه أنه يجب على الموصى مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إلا لا يجوز تضييع مسلم ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموصى إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرضا ولا يلزمه بذلك بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ويحتمل أن يقال يلزمه بذلك في الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه والاقتراض نزول إلى العرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام عليه ليحلهم بالمال وميلهم إليه ونصف جهنم للآخرة قال الله تعالى - إن يسألكموها فيحلفكم بخلوا - يحلفكم أى يستصحبكم عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستصحب عليه لبخله فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده بئذ الأموال . للمنى الثاني التطهير من صفة البخل فانمن المهلكات قال **الشيخ** « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(١) » وقال تعالى - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - وسياق في ربيع للمهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التقصص منه وإنما نزول صفة البخل بأن تعود بذل المال فحب الشيء لا ينقطع إلا بظهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتيادا فالزكاة بهذا للمنى طهيرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله بقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . للمنى الثالث شكر النعمة فان الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكرا لنعمة البدن والمالية شكرا لنعمة المال وما أحسن من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغاثته عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله . الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ومن آداب ذوى الدين التحجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة في الامتثال بإصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلمنا بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يفتنم فان ذلك لمة الملك وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فما أسرع قلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر وله لمة عقيب لمة الملك فليفتنم الفرصة فيه وليعين لركاتها إن كان يؤديها جريما شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لتفاءل قربه وتضاعف زكاته وذلك كشهر المحرم فانه أول السنة وهو من أول الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا ^(٢) ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن وكان مجاهد يقول لا تقولوا رمضان فانه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فانه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول والأيام للصدقات وهى أيام التشريق وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر وأفضل أيام ذى الحجة

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم (٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان ، الحديث أخرجاه من حديث ابن عباس .

الشر الأول . الوظيفة الثالثة . الاسرار فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة جهد القل إلى قبر في سر » (١) وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة (٢) وقد روى أيضاً سنداً وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد يعمل عملاً في السر فيكتبه الله له سرا فان أظهره قل من السر وكتب في العلانية فان تحدث به قل من السر والعلانية وكتب رياء (٣) وفي الحديث للشهيد « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله . أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه » (٤) وفي الخبر « صدقة السر تطفي غضب الرب » (٥) وقال تعالى - وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم - وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال لا يقبل الله من مسمع ولا مرأ ولا منان والتحدث بصدقة يطلب السمعة والمطى في ملأ من الناس يخفى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه (٦) وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض للمطى فكان بعضهم يلقبه في يد أمي وبعضهم يلقبه في طريق القبر وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى للمطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير طي يد غيره بحيث لا يعرف للمطى وكان يستكم للتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يغشيه كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى للسكين والسكين لا يعرف أولى إذ في معرفة للسكين الرياء واللثة جميعاً وليس في معرفة للتوسط إلا الرياء ومهما كانت الشهرة مقصودة لحبط عملها لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف حب للال وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب للال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم للثال عقرباً لادها وصفة الرياء تنقلب في القبر أقصى من الأفاى وهو مأمور بتضعيفها أو قتلها لدفع أذاها أو تخفيف أذاها فهما قصد الرياء والسمعة فكانه جعل بعض أطراف المقرب مقبواً للحية فيقدر ما ضعف من المقرب زاد في قوة الحية ولوترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل بمقتضاها وضمف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة في أن يخالف دواى البخل ويحبب دواى الرياء فيضف الأدنى ويقوى الأقوى وستأتى أسرار هذه المعاني في ربيع للهلكات . الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرم سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل - إن تبدوا الصدقات فنعماى - وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل طي ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصديق خيفاً من

(١) حديث أفضل الصدقة جهد القل إلى قبر في سر أحمد حب ك من حديث أبي ذر ولأبي داود من حديث أبي هريرة أى الصدقة أفضل قال جهد القل (٢) حديث ثلاث من كنوز البر فقد ذكر منها إخفاء الصدقة أبو نعيم في كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضيف (٣) حديث إن العبد يعمل عملاً في السر فيكتبه الله له سرا فان أظهره قل من السر الحديث الخطيب في التاريخ من حديث أنس نحوه باسناد ضعيف (٤) حديث سبعة يظلمهم الله في ظله الحديث أخرجه من حديث أبي هريرة (٥) حديث صدقة السر تطفي غضب الرب طي من حديث أبي أمامة ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وهو في الشعب من حديث أبي سعيد كلاهما ضعيف والترمذي وخسنه من حديث أبي هريرة إن الصدقة تطفي غضب الرب ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً (٦) حديث لا يقبل الله من مسمع ولا مرأ ولا منان لم أظفر به هكذا.

الجبيى يبنى وإن أنا
النذير المريان فالنجاء
النجاء فأطاعه طائفة
من قومه فأدلجوا
فانطلقوا طي مهلم
فنجوا وكذبت طائفة
منهم فأصبحوا مكانهم
فصبحهم الجيش
فأهلكهم واجتاحهم
فذلك مثل من أطاعنى
فاتبع ما جئت به ومثل
من عصانى وكذب بما
جئت به من الحق .
معنى اجتاحتهم :
استأصلهم ومن ذلك
الجماعة التي تفسد
البار ، وقال صلى الله
عليه وسلم « مثل
ما يبنى الله به من
الهدى والعلم كمثل
النيت الكثير أصاب
أرضاً فكانت طائفة
منها طيبة قبلت الماء
فأنبتت الكلاً والعشب
الكثير وكانت منها
طائفة أخذت أمسكت
لئلا تنفع الله تعالى بها
الناس فخرى واستقوا
وزرعوا وكانت منها
طائفة أخرى قيمان
لا تمسك ماء ولا تنبت
كلاً فذلك مثل من فقه
في دين الله وقعه ما يبنى

الرياء في الاظهار بل ينبغي ان يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الامكان وهذا لأن في الاظهار عذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير فانه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا للمنى في اظهاره وهو كاظهار القسق على من تستر به فانه محذور والتجسس فيه والاعتقاد بذكره منهي عنه فاما من أظهره فاقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها ومثل هذا للمنى قال عليه السلام « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ^(١) » وقد قال الله تعالى - وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلاية - ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فان ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فقد يكون الاعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ومن عرف القوائد والقوائل ولم ينظر بين الشهوة الفصح له الأولى والأليق بكل حال . الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقة بالمن والأذى قال الله تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - واختلفوا في حقيقة اللن والأذى قيل اللن أن يذكرها والأذى أن يظهرها وقال سفيان من فسد صدقة قيل له كيف للن فقال أن يذكره ويتحدث به وقيل للن أن يستخدمه بالطعام والأذى أن يعيره بالفقر وقيل اللن أن يشكر عليه لأجل عطائه والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسئلة وقد قال عليه السلام « لا يقبل الله صدقة منان ^(٢) » وعندى أن اللن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنما عليه وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذي هو طهرته ونجاته من النار وأنه لو لم يقبله لبقى مرتبنا به فحقه أن يتقصد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل قال رسول الله ﷺ « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ^(٣) » فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صبر ورته إلى الله عز وجل ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفا وجبلا فان المحسن إليه هو للتكفل برزقه أما هو فائما يقضى الذي لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع في حق نفسه فلم يمن به على غيره ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه إما يذل ماله إظهارا لحب الله تعالى أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل أو شكرا على نعمة المال طلبا للزيد وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرغ منه على ظاهره ماذكر في معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والتباسة في الأمور فهذه كلها ثمرات المنة ومعنى المنة في الباطن ماذكرناه وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك السر بالاظهار وفنون الاستخفاف وباطنه وهو منعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فان ذلك يضيق الخلق لاعمالة . والثاني رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل أما كراهية تسليم المال فهو حق لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفا فهو شديد الحق ومداوم أنه يذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب في الدار الآخرة

- (١) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له عدد حب في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف
(٢) حديث لا يقبل الله صدقة منان هو كالتى قبله بعدي لم أجده (٣) حديث إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل قط في الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه حق في الشعب بسند ضعيف

وذلك أشرف مما بذله أو يذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد وكيف فرض
فالكراهة لوجه لها وأما الثاني فهو أيضا جهل لأنهم يعرف فضل الفقير على النفي وعرف خطر الأغنياء
لما استحق الفقير بل تبرك به. وتعني درجته فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بحسبالة عام
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال أبو ذر من هم قال «هم الأكثرون
أموالا» الحديث ثم كيف يستحق الفقير وقد جعله الله تعالى متجربة له إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر
منه ويحتمل في حفظه بمقدار الحاجة وقد أرم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذي
يضره لو سلم إليه فالتى مستخدم للسعي في رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام الشاقي وحراسة
الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه فاذن مهما انتقلت الكراهية وبذلت بالسرور والفرح
بتوفيق الله تعالى له في أداء الواجب وتقيضه الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه اتقى الأذى
والتوبيخ وتخطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والتناء وقبول للنة فهذا منشأ للأن والأذى. فان قلت
فرويته عنه في درجة الحسن أمر فامض فهل من علامة يمتنع بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير عنه
عسنا. فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوا له
عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره واستنكاره قبل التصديق فان زاد لم نخل صدقه
عن شائبة للنة لأنه توقع بسببه مالم يكن يتوقعه قبل ذلك. فان قلت : فهذا أمر فامض ولا ينفك قلب
أحد عنه لما دواؤه. فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا أما الباطن فالعفة بالحقائق التي ذكرناها في
فهم الوجوب وأن الفقير هو الحسن إليه في تطهيره بالقبول وأما الظاهر فالأعمال التي يتعاطاها متقلد
للنة فان الأعمال التي تصدر عن الأخلاق تصنع القلب بالأخلاق كما سيأتي أسرارها في الشطر الأخير من
الكتاب ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى
يكون هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لورده وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ
الفقير من كفه وتكون يد الفقير هي العليا وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفا
إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعوه به ثم كاتتا تردان عليه مثل قوله وتقولان هذا بذلك حتى نخلص
لنا صدقتنا فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه السكافة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله وهكذا فعل عمر
ابن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من
حيث الظاهر إلا هذه الأعمال التي تذلل والتواضع وقبول للنة ومن حيث الباطن للمنافع التي
ذكرناها هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ولا يصلح القلب إلا بمعجون العلم والعمل وهذه
الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «ليس للره
من صلاته إلا ما عقل منها» (١) وهذا كقوله ﷺ لا يقبل الله صدقة منان وكقوله عز وجل لا تبطلوا
صدقاتكم باليمن والأذى - وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط
فحديث آخر وقد أشرنا إلى مناه في كتاب الصلاة. الوظيفة السادسة : أن يستعصر العطية فانه إن
استعظمها أوجب بها والعجب من الملهكات وهو محبط للأعمال قال تعالى - ويوم حين إذا همجيتكم
كثرتكم فلم تنن عنكم شيئا - ويقال إن الطاعة كلما استصعرت عظمت عند الله عز وجل وللصية كلما
استعظمت صغرت عند الله عز وجل وقيل لا يتم للمروف إلا بثلاثة أمور تصغيره وتجيئه وسره
وليس الاستعظام هو للأن والأذى فانه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام
ولا يمكن فيه للأن والأذى بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل .

(١) حديث ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها تقدم في الصلاة

عليه وسلم فوجدتهم
كأخاذات لأن قلوبهم
كانت واعية فصارت
أوعية للعلوم بما رزقت
من صفاء الفهم
أخبرنا الشيخ الامام
رضي الدين أبو الخير
أحمد بن اسماعيل
القزويني إجازة قال
أبنا أبو سعيد محمد
الجليلى قال أبنا
القاضي أبو سعيد محمد
القرخزادى قال أبنا
أبو اسحق أحمد بن
محمد التمالى قال أبنا
ابن فنجويه قال حدثنا
ابن حبان قال حدثنا
اسحق بن محمد قال
حدثنا أبى قال حدثنا
إبراهيم بن عيسى قال
حدثنا طى بن طى قال
حدثنا أبو حمزة التمالى
قال حدثني عبد الله بن
الحسن قال حين نزلت
هذه الآية - وتبرأ أذن
واعية - قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
لعل سألت الله سبحانه
وتعالى أن يجعلها أذنك
يا طى قال طى لما نسيت
شيئا بعد وما كان لي
أن أنسى قال أبو بكر
الواسطى أذان وع

عن الله تعالى أسراره
وقال أيضا واعية في
معادنها ليس فيها غير
ما شهدته شيء فهي
الحالية عما سواه
لما اضطراب الطباع
إلا ضرب من الجبل
قلوب الصوفية واعية
لأنهم زهدوا في الدنيا
بعد أن أحكموا أساس
التقوى فبالتقوى
زكت نفوسهم وبالزهد
صفت قلوبهم فقام
عدموا شواغل الدنيا
بتحقيق الزهد انفتحت
مسام بواطنهم وصحت
آذان قلوبهم وأعانهم
على ذلك زهدهم في
الدنيا فطما التفسير
وأئمة الحديث وقهاء
الإسلام أحاطوا علما
بالكتاب والسنة
واستنبطوا منها
الأحكام وردوا الحوادث
للتجسدة إلى أصول
من النصوص وحملوا
بهم الدين وعرف
علماء التفسير وجه
التفسير وعلم التأويل
ومذاهب العرب في
اللغة وغرائب النحو
والنصريف وأصول
القصص واختلاف

أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع نفسه بأحسن درجات البذل كذا كرنا
في فهم الوجوب فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله
أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه فالمال لله عز وجل وله اللذة عليه إذ أعطاه ووقعه
لبنده فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة
وأنه يذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه وأما العمل فهو أن يسطيه عطاء الجبل من بخله
بإسناك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء كثرة من يطلب برد ودية
فيمنك بعضا ويرد البعض لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه وإنما
لما أمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل - فيحبكم بتخلوا - . الوظيفة السابعة :
أن ينتقى من ماله أجوده وأحب إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإذا كان المخرج
من شبهة فرعا لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الواقع وفي حديث أبان عن أنس بن مالك طوى لبيد
أنفق من مال اكتسبه من غير معصية (١) وإذا لم يكن المخرج من جيد للمال فهو من سوء الأدب إذ
قد يمسك الجيد لنفسه أولعبه أولاهه فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ولو فعل هذا بضيفه وقدم
إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل وإن كان نظره إلى نفسه
وثوابه في الآخرة فليس بماتل من يؤثر غيره على نفسه وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو كل فأفنى
والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى
- يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه
تفقون ولستم - بأخذه إلا أن تمضوا فيه - أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الاغماض
فلا تؤثر وابه ربكم وفي الخبر سبق درهم مائة ألف درهم (٢) وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أهل
ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل
ذلك أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا الله ما يكرهون
قال تعالى - ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسن لا - وقف بعض القراء
على التقي تكذبا لهم ثم ابتداء وقال - جرم أن لهم النار - أي كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار .
الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقة من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف
الثانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهي ستة : الأولى أن يطلب
الأتقياء للعرضين عن الدنيا التجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام
تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى (٣) » وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له في
طاعته بإعتناك إياه وقال صلى الله عليه وسلم « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين (٤) »
وفي لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه في الله تعالى (٥) » وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء
الصوفية دون غيرهم قليله لو عجمت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل فقال لاهؤلاء قوم معهم
له سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشقت هم أحدهم فلأن أردمة واحدة إلى الله عز وجل أحب إلى

(١) حديث أنس طوى لبيد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية عدو البزار (٢) حديث سبق درهم
مائة ألف ن حب ومحمد من حديث أبي هريرة (٣) حديث لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى
د ت من حديث أبي سعيد بلفظ لا تصعب إلا مؤمنوا ولا يأكل طعامك إلا تقى (٤) حديث أطعموا طعامكم
الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ابن المبارك في البر والصلوة من حديث أبي سعيد الخدري قال ابن طاهر
غريب فيه مجهول (٥) حديث أضف بطعامك من تحبه الله ابن المبارك أنبأنا جوير عن الضحاك مرسل .

من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا فذكر هذا الكلام للجنيذ فاستحسنه وقال هذا ولي من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله ومم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيذ مالا وقال اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه . الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إغانة له على العلم والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية وكان ابن المبارك يخصص بعرفه أهل العلم قليله لوعظمت فقال إني لأعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه وفي وصية لقمان لابنه لا تجعل بينك وبين الله منكما وأعد نعمة غيره عليك مغرما ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف للنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلب الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودنياه في فعله لهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة واتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذي لا تردد فيه والله عز وجل خالق البواعث ومهيجه ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للاتهاض بمقتضى البواعث فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطي من ثناء غيره وشكره فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه وإغانة مثل هذا العبد الموحّد لا تضيق . وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فيسبّغ بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم « بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذ قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره ثم قال اللهم إنك لم تنس فلانا يعني نفسه فاجعل فلانا لا ينساك يعني بفلان نفسه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسرّ وقال صلى الله عليه وسلم : علمت أنه يقول ذلك ^(١) » فانظر كيف قصر التفاتته على الله وحده وقال صلى الله عليه وسلم « لرجل تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله ^(٢) » ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه قومي قبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لأفضل ولا أحمد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم دعها يا أبا بكر ^(٣) وفي

(١) حديث بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذه قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره الحديث لم أجده أصلا إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده في الصحابة أوله ولم يسبق هذه القطعة التي أوردتها المصنف وسمى الرجل حديرا فقد روي من طريق البيهقي أنه وصل لحدير من أبي الدرداء شيء فقال اللهم انك لم تنس حديرا فاجعل حديرا لا ينساك وقيل إن هذا آخر لأصحبه يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٢) حديث قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد الحديث أحمد وطب من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف (٣) حديث لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومي قبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث د من حديث عائشة بلفظ قال أبو بكر قومي قبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لأحمد الله لا إيا كما وللبحاري عليا قال أبو بكر قومي قبلي لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد ولا أحمد كما ولكن أحمد الله ، وله وسلم فقالت لي أمي موسى إليه قلت لا والله لا أقوم إلا الله ولطبراني قالت

وجوه القراءة وصنفوا في ذلك الكتب فالتسع بطريقهم علوم القرآن على الأمة وأئمة الحديث مبرزوا بين الصحاح والحسان وتفرّدوا بعرفة الرواة وأسامي الرجال وحكموا بالجرح والتعديل ليقين الصحيح من السقيم ويتميز البوع من المستقيم فيتحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظا للسنة وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع في المسائل ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالمثل الجوامع واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف وتفرع من علم الخلاف علم الجدل وأخرج علم أصول الفقه إلى شيء من علم أصول الدين وكان من علمهم علم الفرائض ووزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة إلى غير ذلك فتمهدت الشريعة

ولما رأيت واستقام الدين
الحنيني وتفرع وتاصل
المهدي النبوي
الصفوي فأثبتت
أراضي قلوب العلماء
الكلال والعشب بما
قبلت من مياه الحياة
من المهدي والعلم قال
الله تعالى - أنزل من
السما ماء فسالت أودية
بقدرها - قال ابن
عباس رضي الله عنهما
السما العلم والأودية
التلوب قال أبو بكر
الواسطي رضي الله عنه
خلق الله تعالى ذرة
صافية فلا حظها بين
الجلال فذابت حياء
منه فسالت فقال أنزل
من السما ماء فسالت
أودية بقدرها فصفاء
التلوب من وصول ذلك
السما إليها . وقال ابن
عطاء أنزل من السما
ماء هذا مثل ضربه
الله تعالى للمبد وذلك
إذا سال السيل في
الأودية لا يبقى في
الأودية نجاسة
إلا كنسها وذهب بها
كذلك إذا سال النور
القي قسمه الله تعالى
للمبد في نفسه لا يبقى

لفظ آخر أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك فلم ينكر
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحي وصل إلي بالحق لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ورؤية الأنبياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى - وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب
الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون - ومن لم يصف باطنه عن رؤية
الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكانه لم ينفك عن الشرك الحقي سره فليتنق الله سبحانه في تصفية
توحيد عن كدواير الشرك وشوائبه . الصفة الرابعة : أن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث
والشكوى أو يكون من أهل للرؤية عن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعشى في جلباب التجمل
قال الله تعالى - يحجبهم الجاهل أغنياء من التحف تعرفهم يسام لا يسألون الناس إلحافا - أي لا يلحون
في السؤال لأنهم أغنياء يقيهم أعزة بصبرهم وهذا ينبغي أن يطلب بالتمسك عن أهل الدين في كل علة
ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فواب صرف للوقوف إليهم أضاف ما يصرف
إلى المجاهرين بالسؤال . الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب فيوجد
فيه معنى قوله عز وجل - لفقراء الذين أحصروا في سبيل الله - أي حبسوا في طريق الآخرة بعة أو
ضيق معيشة أو إصلاح قلب - لا يستطيعون ضربا في الأرض - لأنهم مقصودون الجناح مقيدوا الأطراف
فهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يسطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة لما فوقها وكان صلى
الله عليه وسلم يسطي المطاء على مقدار العيلة (١) ومثل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة
الأيال وقلة المال . الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فكون صدقة وصلة رحم
وفي صلة الرحم من الثواب مالا يحصى . قال صلى الله عليه وسلم لأن أبا بكر أخا من إخوان بدرم أحب
إلي من أن تصدق بشرين درهما ولأن أبا بكر أحب إلي من أن تصدق بمائة درهم ولأن
أبا بكر أحب إلي من أن أعترق رقبة والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يقدمون على المعارف كما
يتقدم الأقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة وفي كل صفة درجات فينبغي
أن يطلب أعلاها فان وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الأخيرة الكبرى والنعمة العظمى
ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وان أخطأ فله أجر واحد فان أحد أجره في الحال تطهيره
نفسه عن صفة البخل وتأكيده حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته وهذه الصفات هي التي
تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وممته
فان قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل فان أصاب حصل الأجران وان أخطأ حصل الأول دون
الثاني فهذا يضاعف أجر للصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر اللواضع والله أعلم .

(الفصل الثالث في القايض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه)

(بيان أسباب الاستحقاق)

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهائمي ولا مطلبي الصنف بصحة من صفات الأصناف الثمانية
الذكرين في كتاب الله عز وجل ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هائمي ولا إلى مطلبي

بحمد الله لا بحمد صاحبك ، وله من حديث ابن عباس قالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، وله من
حديث ابن عمر قال أبو بكر هوي فاجتني رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا والله لأدنومه
الحديث وفيه أنها قالت لئن صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك (١) حديث كان يعطى المطاء
على مقدار العيلة لم أر له أصلا ولأبي داود من حديث عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان إذا أتاه النبي قسمه في يومه وأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظا .

أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وإليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية . الصنف الأول الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب فان كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تبقى بجميع ذلك كإيلق بالفقراء فهو فقير لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فان هذا غلو . والقالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج عن الفقر كونه معتادا للسؤال فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فان ذلك يخرج عن الفقر فان قدر على الكسب بألة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة وإن قدر على كسب لا يلقى عروته وبحال مثله فهو فقير وإن كان متفقا ويمتعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته وإن كان متعبدا بتمتعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة (١) » وأراد به السعي في الاكتساب وقال عمر رضي الله عنه كسب في شبهة خير من مسئلة وإن كان مكفيا بنفقة أبيه أو من يجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير . الصنف الثاني الساكنين : والسكنين هو الذي لا يلقى دخله غرضه فقد علك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا قاسا وحبالا وهو غنى والدورة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم الساكنين وكذا أثاث البيت أعنى ما يحتاج إليه وذلك ما يلقى به وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن السكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فانه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يختار في قطع الحاجة بالكتاب فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة أما حاجة التفرج فلا تعتبر كإقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك بما لا ينفع في الآخرة ولا يجرى في الدنيا إلا يجرى التفرج والاستئناس فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر ويمنع اسم السكنة وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والعليل وللدرس بأجرة فهذه آله فلا تباع في الفطرة كأدوات الحياط وسائر الحرفين وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم الساكنين لأنها حاجة مهمة وأما حاجة الاستفادة والتعليم من الكتاب كدخاؤه كتب طب يعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فان كان في البلي طيب وواعظ فهذا مستثنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة والأقرب أن يقال مالا يحتاج إليه في السنة فهو مستثنى عنه فان من فضل من قوت يومه من ثمرته الفطرة فاذا قدرنا القوت باليوم حاجة أثاث البيت وثياب البدن فينبغي أن تعدر بالسنة فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها . فان قال إحداها أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . قلنا اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفيه وإن كان نسختان من علم واحد إحداها بسيطة والأخرى وجيزة فان كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم تعرض له في فن الفقه وإنما أوردناه لمعوم البلوى والتنبيه بحسب هذا النظر على غيره فان استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن

(١) حديث طلب الحلال فريضة بعد الفريضة الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن

مسعود بسند ضعيف

فيه غفلة ولا ظلة أنزل من السماء ماء يعني قسمة النور فسالت أودية . بقدرها يعني في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل - فأما الزبد فيذهب جفاء - فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة سواء ما ينفع الناس فيصككت في الأرض - تذهب البواطل وتبقى الحقائق وقال بعضهم أنزل من السماء ماء أنواع الكرامات فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها وسالت أودية قلوب الصوفية من السماء الزاهدين في الدنيا للتمسكين بحقائق التقوى بقدرها فمن كان في باطنه لوث حبة الدنيا من فضول اللال والجاه وطلب للناسب والرفعة سال وادى قلبه بقدره فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بحقائق العلوم ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه

وفي الدار وسعتها وضيقها وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بمباراه ويتحتم فيه خطر الشبهات والتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريه إلى ما لا يريه والدرجات المتوسطة للمشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينبغي منها إلا الاحتياط والله أعلم .

الصنف الثالث العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي ويدخل فيه العريف والكاظم والمستوفي والحافظ والبقال ولا يزال واحد منهم على أجرة الثلث فان فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كل من ماله المصالح .

الصنف الرابع المؤلفة قلوبهم على الاسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم وفي إعطائهم تقريرهم على الاسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يمد عبدا له .

الصنف السادس الغارمون : والغارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فان استقرض في معصية فلا يسقط إلا إذا تاب وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فنة .

الصنف السابع الفزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المزرقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على النزول .

الصنف الثامن ابن السبيل : وهو الذي شخص من يلبه لیسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان قهرا وإن كان له مالا يولد آخر أعطى بقدر بلغته فان قلت فبم تعرف هذه الصفات قلنا أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولا يطالب بيعة ولا يحلف بل يجوز اعتداده بقوله إذا لم يعلم كذبه وأما النزول والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز فان لم يغ به استرد وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البيعة فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار ما يصرّف إلى كل واحد فيأتي .

(بيان وظائف القابض وهي خمسة)

الأولى : أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكني همه ويجعل همومه بها واحدا قد تبيد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى - وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسقط على السيد الشهوات والحاجات وهي تفرق همه اقتضى الكرم إفادة نعمة تكفي الحاجات فأكثر الأموال وصحبها في أيدي عباده لتكون آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعتهم فتمهم من أكثر ماله فنة وبليّة فأفحمه في الخطر ومنهم من أحبه حماء عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب للقائه وهذا منتهى النعمة خلق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه ويانه إن شاء الله تعالى فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فان لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فان استعان به على معصية الله كان كافرا لأنهم الله عز وجل مستحقا للعباد والملت من الله سبحانه .

الثانية : أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يهرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه والطريق حق من حيث جسه الله طريقا واسطة

فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات . قيل للحسن البصري هكذا قال الفقهاء فقال وهنل رأيت قبيها قط لأنما الفقيه الزاهد في الدنيا فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم فلما عملوا بماعلموا أفادهم العمل علم الوراثة فهم مع سائر العلماء في علومهم وتعبروا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة وعلم الوراثة هو الفقه في الدين قال الله تعالى - فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم - فصار الانذار مستفادا من الفقه والانذار لإحياء النذر بماء العلم والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين فصار الفقه في الدين من أكل المراتب وأعلاها وهو علم العالم الزاهد في الدنيا للثقي الذي يبلغ رتبة الانذار بلسانه لمورد العلم

وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) وقد أنشأ الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى - نعم العبد إنه أواب - إلى غير ذلك وليقل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزكي عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تستطعوا فادعوا له حتى تملأوا أنكم قد كافأتموه » (٢) ومن تمام الشكر أن يستر عيوب المطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يئمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه فوظيفة المعطى الاستغفار ووظيفة القابض تغلذ اللذة والاستعظام وعلى كل عبد القيام بحقه وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تمارض والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضربه خلافه والأخذ بالمعكس منه وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة واسطة قصد جهل وإعما للسكر أن يرى الواسطة أصلاً . الثالثة : أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ولن يعدم للتورع عن الحرام قنوحاً من الحلال فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة فإن توى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به على ماسيأت يئنه في كتاب الحلال والحرام وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام . الرابعة : أن يتوقى مواقع الريّة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا للتقدير البياح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق فإن كان يأخذه بالكتابة والقرامة فلا يزيد على مقدار الدين وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجره للثلث وإن أعطى زيادة أبي وامتنع إذ ليس للمال للمعطى حتى يتبرع به وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده وإن كان غازياً لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح وثقفة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد وكذا زاد السفر والورع ترك ما يريه إلى ما يريه وإن أخذ بالسكنة فلينظر أولاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن قياسته فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته وكل ذلك إلى اجتهد فيه وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشبهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والاعتماد في هذا على قول الأخذ ظاهراً والمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل للتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجاً إلى فنون من التوسع وهو محقور في الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذ من مالا كثيراً بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذخر لأهله قوت سنة (٣) فهذا أقرب ما يجد به حد الفقير والسكين

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله ت وجسته من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن جبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه الحديث من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ من صنع (٣) حديث أذخر لئاله قوت سنة أخرجه من حديث عمر كان يعزل ثقة أهله سنة والطبراني في الأوسط من حديث أنس كان إذا أذخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي قال الذهبي حديث سنكر .

واللهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً فظهر من ارتواء ظاهره الدين والدين هو الاتقياد والخضوع مشتق من الدون فكل شيء اتضع فهو دون فالدين أن يضع الإنسان نفسه لربه قال الله تعالى - شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه - فالتفرق في الدين يستولى الله بول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم والنضارة في الظاهر يستزين الجوارح بالاتقياد في النفس والمال مستفاد من ارتواء القلب والقلب في ارتوائه بالعالم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى والمهدى مجراً موجاً ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس

ولواقتصروا على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى . ومذاهب العلماء في قدر المال أخذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الفنى فمثل عن غناه فقال ^(١) غداؤه وعشاؤه ^(٢) » وقال آخرون يأخذ إلى حد الفنى وحد الفنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة وقال آخرون حد الفنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال ينيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش فمثل وماغناه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ^(٣) » وقيل راويه ليس بقوى وقال قوم أربعون لما روى عطاء بن يسار منقطعا أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال ^(٤) » وبالع آخرون في التوسيع فقالوا له أن يأخذ بمقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يبيع بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الفنى وقد قال عمر رضي الله عنه إذا أعطيتم فأغنوا حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال ولما شغل أبو طلحة بيستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله في قرابتك فهو خير لك ^(٥) » فأعطاه حسان وأباتادة فحائط من نخل لرجلين كثير من وأعطى عمر رضي الله عنه أعرايا ناقة معها ظئر لها فهذا ما حكى فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر بل التجوز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الاسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فموراءه فيه خطر وفيما دونه تضيق وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزء بالتوقيف فليس للمعتمد إلا الحكم بما رقع له ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أتوك وأفتوك ^(٦) » كقوله صلى الله عليه وسلم إذ الائم حراز القلوب فإذا وجد القايض في نفسه شيئا مما يأخذه فليتركه فيه ولا يترخص تطلا بالتقوى من علماء الظاهر فإن لغتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات وفيها تخمينات واقتحام شبهات والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة . الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فليقتص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فاتهم لا يراعون هذه القسمة إما الجهل وإما لتسهيل وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلط على الظن احتمال التحريم وسيأتي ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

(١) حديث سهل بن الحنظلية في النهى عن السؤال مع الفنى فيسأل ما ينيه فقال غداؤه وعشاؤه د حب بلفظ من سأل وله ما ينيه فأنما يستكثر من جر جهنم الحديث (٢) حديث ابن مسعود من سأل وله ما ينيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش الحديث أصحاب السنن وحسنه ت وضعفه النسائي والخطابي (٣) حديث عطاء بن يسار منقطعا من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال د ن من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلا وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه د ن حب من حديث أبي سعيد (٤) حديث لما شغل أبو طلحة بيستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة تقدم في الصلاة (٥) حديث استفت قلبك وإن أتوك تقدم في العلم .

فظهر على نفسه الشريفة
نضارة العلم وريه
فتبدلت نعوت النفس
وأخلاقها . ثم وصل
إلى الجوارح جدول
فصارت رياه ناضرة
فلما استتم نضارة
وامتلاء رياه الله
تعالى إلى الخلق فأقبل
على الأمة بقلب مواج
بمياه العلوم واستقبل
جدول الفهم وجرى
من بحره في كل جدول
قسط ونصيب وذلك
القسط الواصل إلى
الفهم هو الفقه في
الدين . روى عبد الله
ابن عمر رضي الله عنهما
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « ما عبد
الله عز وجل بشيء
أفضل من فقه في الدين
ولفقيه واحد أشد على
الشیطان من ألف عابد
ولكل شيء عماد وعماد
هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ
الإسلام أبو النجيب
إملاء قال حدثنا سعيد
ابن حفص قال حدثنا
أبو طالب الزيني قال
أخبرتني كريمة بنت
أحمد بن محمد الروزية

(للفصل الرابع في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها)

(بيان فضيلة الصدقة)

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بتمررة فانها تسد من الجائع وتطفى الحطينة كما يطفى الماء النار » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » (٢) وقال ﷺ « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله أخذها يمينه فيريها كإبري أحدكم فضيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء « إذا طبخت مرققة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصهم منه بمعرف » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » (٦) وقال ﷺ « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل » وقال ﷺ « ما الذي أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذي يقبل من حاجة » (٨) ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة دينه وسئل رسول الله ﷺ « أي الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى العاقبة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت فلان كذا وفلان كذا وقد كان لفلان » (٩) وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينار فقال أنفق على نفسك فقال إن عندى آخر قال أنفق على زوجتك قال إن عندى آخر قال أنفق على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفق على خادمك قال إن عندى آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به » (١٠) وقال ﷺ « لا تحل الصدقة لآل محمد إنما هي أوساخ الناس » (١١)

(١) حديث تصدقوا ولو بتمررة فانها تسد من الجائع وتطفى الحطينة كما يطفى الماء النار ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسل وأحمد من حديث عائشة بسند حسن استرعى من النار ولو بشق تمرة فانها تسد من الجائع مسندا من الشبان ولأبي يعلى والبرار من حديث أبي بكر اتقوا النار ولو بشق تمرة فانها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبان وإسناده ضعيف والترمذي ون في الكبرى و في حديث معاذ والصدقة تطفى الحطينة كما يطفى الماء النار (٢) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة أخرجه من حديث عدى بن حاتم (٣) حديث ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا الحديث خ تعليقا وم ت ن في الكبرى واللفظ له من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال لأبي الدرداء إذا طبخت مرققة فأكثر ماءها الحديث م من حديث أبي ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبي الدرداء وهم (٥) حديث ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسل بأسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس حب ك وصححه على شرط م من حديث عقبة ابن عامر (٧) حديث الصدقة تسد سبعين بابا من الشر ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف إن الله ليدرا بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء (٨) حديث ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذي يقبل من حاجة حب في الضعفاء وطب في الأوسط من حديث أنس ورواه في الكبير من حديث ابن عمر بسند صحيح (٩) حديث سئل أي الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح الحديث أخرجه من حديث أبي هريرة (١٠) حديث قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى دينار فقال أنفق على نفسك الحديث د ن واللفظ له وح ك من حديث أبي هريرة وقد تهمد قبل بيسير (١١) حديث لا تحل الصدقة لآل محمد الحديث م من حديث المطلب بن ربيعة

قالت أخبرنا أبو الهيثم قال أخبرنا الفربري قال أخبرنا البخاري قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن قال سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من يريد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى » قال الشيخ إذا وصل العلم إلى القلب افتتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشدين النى ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابي : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره قال الأعرابي حسبي حسبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قه الرجل وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه في الدين والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال لهم قلوب لا يفقهون بها - فلما قهوا علموا

وقال « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو صدق السائل ما أفلح من رده ^(٢) » وقال عيسى عليه السلام : من رد سائلا خائبا من بيته لم تقش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام . وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يكل خصلتين إلى غيره كان يضع ظهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين يده ^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذي تردم التمرة والتمر تان واللقمة واللقمتان إنما المسكين اللعفف اقربوا إن شئتم لا يسألون الناس إلخافا ^(٤) » وقال ^(٥) « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان في حفظ الله عز وجل مادامت عليه من رقعة ^(٥) » . الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها لم رقع وقال مجاهد في قول الله عز وجل « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فقال وهم يشتهونه وكان عمر رضي الله عنه يقول اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلمهم يمدون به على ذوى الحاجة منا وقال عمر بن عبد العزيز الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وقال ابن أبي الجعد إن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علانياتها سبعين ضحا وإنها لتفك لحي سبعين شيطانا وقال ابن مسعود إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف ففقر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين وقال لقمان لابنه إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزني جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة وقال عبد العزيز بن أبي رواد كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان للرض وكتمان الصدقة وكتمان للصائب وروى مسند وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضل كن وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول « لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » والله يعلم أني أحب السكر وقال النخعي إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرن أن يكون فيه عيب وقال عبيد بن عمير يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأمرى ما كانوا قط فمن أطعم الله عز وجل أشبعه الله ومن سقى الله عز وجل سقاه الله ومن كسا الله عز وجل كساه الله وقال الحسن لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا تقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض وقال الشعبي من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أخرج من الفقر إلى صدقة فقد أبطل صدقة وضرب بها وجهه وقال مالك لا نرى بأما يشرب للوسر من الماء الذي يتصدق به ويسقى في المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ولم يرد به أهل الحاجة للسكنة على الخصوص ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال للنخاس أترضى ثمنها القدرم والدرهمين قال لا قال فاذهب فإن الله عز وجل رضى في الحور العين بالفلس واللقمة .

(بيان إخفاء الصدقة وإظهارها)

قد اختلف طريق طلاب الاخلاص في ذلك فمال قوم إلى أن الاخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الاظهار أفضل ونحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه . أما الاخفاء ففيه خمسة معان : الأول أنه أبقى للستر على الآخذ فان أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة وكشف عن

(١) حديث ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام العقيلي في الضعفاء من حديث عائشة (٢) حديث لو صدق السائل ما أفلح من رده العقيلي في الضعفاء وابن عبد البر في التمهيد من حديث عائشة قال العقيلي لا يصح في هذا الباب شيء وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث كان لا يكل خصلتين إلى غيره الحديث الدار قطني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك في البر مرسل (٤) حديث ليس للمسكين الذي تردم التمرة والتمر تان الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان في حفظ الله الحديث وحسنه وكه وصححه إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالفه بن طهمان ضعيف

ولما علموا أعمالهم ولما عملوا عرفوا ولما عرفوا اهتموا فكل من كان أقمه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر اعتيادا لمعلم الدين وأوفر حظا من نور اليقين فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب والمعرفة تميز تلك الجملة والهدى وجدان القلوب ذلك فالتبى صلى الله عليه وسلم لما قال « مثل ما بشئ الله به من الهدى والعلم » أنه وجد القلب النبوى العلم وكان هاديا مهديا وعلمه صلوات الله عليه منها ورائة معجونة فيه من آدم أبى البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها والأسماء صمة الأشياء فكرمه الله تعالى بالعلم وقال تعالى « علم الإنسان ما لم يعلم » فأدرك لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والرافة واللفظ والحب والبغض والفرح والغم والرضا والغضب

الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .
 الثاني أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فأنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويطنون أنه أخذ
 مع الاستثناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة والحسد وسوء الظن والغيرة من القنوب الكبائر وصياتهم عن
 هذه الجرائم أولى وقال أبو أيوب السخيتاني إنني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني
 حسدا وقال بعض الزهاد ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين له هذا وعن إبراهيم
 التيمي أنه رأى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا فقال كسائي أخى خيشمة ولو علمت
 أن أهله علموا به ما قبلته . الثالث إغاثة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء
 أكثر والإغاثة على إتمام المعروف معروف والسكمان لا يتم إلا بالثبات فهما أظهر هذا انكشف أمر
 المعطى ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرد إليه يودع إليه آخر شيئا في السر قبله قيل له في ذلك
 فقال إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه قبلته وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه وأعطى رجل لبعض
 الصوفية شيئا في الملا فرددته فقال له لم ترد علي الله عز وجل ما أعطاك فقال إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان
 لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك وقبل بعض العارفين في السر شيئا كان رده في العلانية
 قيل له في ذلك فقال عصيت الله بالجهر فلم أذكعنا لك على العصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك وقال
 التوري لو علمت أن أحدا لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها قبلت صدقته . الرابع أن في إظهار الأخذ ذلا
 وامتنانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول إن في إظهاره
 إذلالا للعلم وامتنانا لأهله فما كنت بالذي أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله . الخامس الاحتراز
 عن شبهة الشركه قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ^(١) » وبأن
 يكون ورقا أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه
 ورقا أو يطعمه خبزا ^(٢) » فجعل الورق هدية بانفراده فيعطى في الملا مكروه إلا برضا جميعهم ولا يغلو
 عن شبهة فاذا انفراد سلم من هذه شبهة . أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة : الأول الإخلاص
 والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والراءاة . والثاني إسقاط الجاه والمترلة وإظهار العبودية والسكينة
 والتبري عن الكبرياء ودعوى الاستعلاء وإسقاط النفس من أعين الخلق قال بعض العارفين لتلميذه
 أظهر الأخذ على كل حال إن كنت أخذا فانك لا تغلو عن أحد رجلين رجل تسقط من قلبه إذا قبلت
 ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لأفات نفسك أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق
 فذلك الذي يريد أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب
 مزيد ثوابه . الثالث هو أن العارف لا ينظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية في حقه واحد
 باختلاف الحال شرك في التوحيد قال بعضهم كنا لانعيا بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية
 والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال بل ينبغي أن يكون النظر مقصورا على الواحد
 الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الليل إلى واحد من جملة الريدن فشق على الآخرين فأراد

(١) حديث من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها العقيلي وابن حبان في الضعفاء وطب
 في الأوسط وهق من حديث ابن عباس قال علق لا يصح في هذا المتن حديث (٢) حديث أفضل
 ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعمه خبزا بعد وضعه من حديث ابن عمر أن أفضل العمل عند
 الله أن يقص عن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يطعمه خبزا ولا حمد وتوصحه من حديث
 البراء من مع منحة ورق أو منحة لبن أو هدي زقا فاهو كفتاق نسمة .

والكياسة ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل قلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذي وهب له فالتبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور للوروث والوهوب له خاصة وقيل لما خاطب الله السموات والأرض بقوله - اثبتا طوعا أو كرها قالتا آمينا طائعين - نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سررة الأرض بمكة فقال بعض العلماء هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ومن موضع الكعبة دحيث الأرض فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين والكانات تبع له وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبيا وآدم

بين الماء والطين «
وفي رواية «بين الروح
والجسد» وقيل لذلك
سمى أميا لأن مكة أم
القرى بوزنه أم الخليقة
وتربة الشخص مدته
فكان يقتضى أن
يكون مدته بمكة
حيث كانت تربته منها
ولكن قبل الماء لما
توج رعى الزبد إلى
النواحي فوقت
جوهرة النبي صلى الله
عليه وسلم إلى ما عاذى
تربته بالمدينة وكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم مكيا مدنيا
حينه إلى مكة وتربته
بالمدينة والاشارة فيها
ذكركناه من ذرة
رسول الله صلى الله
عليه وسلم هو ما قاله
الله تعالى - وإذ أخا
ربك من بنى آدم من
ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم
ألسنت بربكم قالوا بلى -
وردد في الحديث «إن
الله تعالى مسح ظهر
آدم وأخرج ذريته منه
كهيئة القدر» استخرج
الذر من مسام شعر
آدم فخرج الدر

أن يظهر لهم فضيلة ذلك الريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال لينفرد كل واحد منكم بها وليدبحها
حيث لا يراه أحد فانفرد كل واحد وذبح الإذك الريد فانه رد الدجاجة فسالهم فقالوا فلنا ما أمرنا به
الشيخ فقال الشيخ للريد مالك لم تذبح كاذب أم حاك بك فقال ذلك الريد لم أقدر على مكان لا يراني فيه
أحد فان الله يراني في كل موضع فقال الشيخ لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . الرابع
أن الاظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى - وأما بنعمة ربك فحدث - والسكتان كفران النعمة
وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى - الذين يبخلون ويأمرون
الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله - وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن
تري نعمته عليه (١)» وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا في السر فرفع به يده وقال هذا من الدنيا
والعلاية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل ولذلك قال بعضهم إذا أعطيت في اللات غدا ثم ارددني
السر والشكر فيه محثوث عليه قال صلى الله عليه وسلم «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل (٢)»
والشكر قائم مقام للكفاة حتى قال صلى الله عليه وسلم «من أسدى إليكم معروفا فكاثروه فان لم تستطيحوا فأثثوا
عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه» ولما قال المهاجرون في الشكر «يا رسول الله
ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمون الأموال حتى خفنا أن ينهبوا بالأجر كله فقال صلى الله
عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأنعمت عليهم به فهو مكافأة (٣)» فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن
ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا في السئلة بل هو اختلاف حال فكشف النطاء في هذا أنا
لأنكم حكما بتا بأن الاختفاء أفضل في كل حال أو الاظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات
وتختلف النيات باختلاف الأجوال والأشخاص فينبغي أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى
بجمل الثرور ولا يندفع بتليبس الطبع ومكر الشيطان والسكر والحداع أغلب في معاني الاختفاء منه في
الاظهار مع أن له دخلا في كل واحد منهما فاما مدخل الحداع في الاسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض
الجاه والمرتلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بين الازدراء وإلى المعطى بين النعم الحسن
فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتطل بالمعاني الحمسة
التي ذكرناها وميعار كل ذلك ومحكم أمر واحد وهو أن يكون تأمله بانكشاف أخذه الصدقة كتناه بانكشاف
صدقة أخذه بعض نظرائه وأمثاله فانه إن كان ينبغي صيانة الناس عن التبية والحسد وسوء الظن أو
يتقى انتهاك السر أو إعانة المعطى على الاسرار أو صيانة العلم عن الابتدال فكل ذلك مما يحصل
بانكشاف صدقة أخيه فان كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر
من هذه المعاني أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه فان إذلال العلم محدور من حيث إنه علم
لا من حيث إنه علم زيدا أو علم عمرو والفيه محدورة من حيث إنها تعرض لمرض مصون لا من حيث إنها
تعرض لمرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يسجر الشيطان عنه وإلا فلا يزال
كثير العمل قليل الحظ وأما جانب الاظهار فبيل الطبع إليه من حيث إنه تطيب لقلب المعطى واستحثاث
له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من البالغين في الشكر حتى زعجوا في إكرامه وتفقدوه وهذا داء دفين
في الباطن والشيطان لا يقدر على التدبير إلا بأن يروج عليه هذا الحبث في معرض السنة ويهول له الشكر

(١) حديث إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن تری عليه أحمد من حديث عمران بن حصين
بسند صحيح وحسنه ب من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث من لم يشكر
الناس لم يشكر الله تعالى (٣) حديث قالت المهاجرون يا رسول الله ما رأينا حراما من قوم نزلنا عليهم
الحديث ب وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا د ن في اليوم واليلة وك وصححه .

من السنة والاختفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك ومحكمه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الجهر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يسطون إلا من يغني ولا يشكر فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالمنة والإفهام مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو من يجب الشكر والنشر فينبغي أن يغني ولا يشكر لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم وإذا علم من حاله أنه يجب الشكر ولا يقصده فبند ذلك يشكره ويظهر صدقته ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لومعها ما أفلح ^(١) » مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثنى على قوم في وجوههم لثقتهم يقيهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الدير ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموا ^(٣) » وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خير فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه ^(٦) » وقال الثوري من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضا يوسف بن أسباط إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر ودقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يرعى قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشمانة له لكثرة التعب وقلة النفع ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل وعلى الجلمة فالأخذ في اللأ والرد في السر أحسن للسالك وأسلمها فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل للفرقة بحيث يستوى السر والعلاية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

(بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة)

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز

(١) حديث قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لومعها ما أفلح متفق عليه من حديث أبي بكر بلفظ وبحك قطعت عنق صاحبك زاد طب في رواية والله لومعها ما أفلح أبدا وفي سننه على بن زيد بن جدهان متكلم فيه وله نحوه من حديث أبي موسى (٢) حديث إنه سيد الدير العنبري وطب وابن قانع في معاجهم وحج في الثقات من حديث قيس بن عاصم للتقري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك (٣) حديث إذا جاءكم كريم قوم فأكرموا . . من حديث ابن عمر ورواه في التراسل من حديث الشعبي مرسلًا بسند صحيح وقال روى متصلًا وهو ضعيف وك نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه وصحح إسناده (٤) حديث إن من البيان سحرا خ من حديث ابن عمر (٥) حديث إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير قط في العلل من رواية ابن السيب عن أبي هريرة . وقال لا يصح عن الزهري وروى عن ابن السيب مرسلًا (٦) حديث إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه طب من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

تخرج العرق وقيل كان المسح من بعض اللاتكة فأضاف الفعل إلى المسبب وقيل معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما نخصي الأرض بالمساحة وكان ذلك يظن نعمان واد يجنب عرفة بين مكة والطائف فلا خاطب الدر وأجابوا بيلي كتب العهد في رقى آيتش وأشهد عليه لللائكة وألقم الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المحيية من الأرض والعلم والهدى فيه معجونا فبعت بالعلم والهدى موروثا له وموهو بأوقيل لما ثبت الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبى حق بمش الله تعالى عزرائيل قبض قبضة من الأرض وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضوع أقدامه خلقت النفس مما من قدم

وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ولوتركها للساكنين كلهم أخذ الزكاة لأنهم لا يأخذون الزكاة لأنهم لا حاجة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين ولأنه أخذ بالحاجة والاحتياج يعلم حاجة نفسه قطعا وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن الغالب أن التصديق يطمئنه من يتقدم فيه خيرا ولأن مراعاة للساكنين أدخل في الدل والمساكنة وأبعد من التكبر إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تميز عنه وهذا تنصيص على ذلك الأخذ وحاجته والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يئلب عليه وما يحضره من النية فإن كان في عربة من اتصافه بسفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة فإذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قضاءه فهو مستحق قطعا فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك لئلا يولم يأخذ هو فليأخذ الصدقة فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على الساكنين وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضيق على الساكنين فهو خير والأمر فيها يتفاوت وأخذ الزكاة أعاد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم .

كل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسلين وعلى اللواتي وللقرين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(كتاب أسرار الصوم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم على عباده الجنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمه وخيب ظنه ، إذ جعل الصوم حصنا لأولياته وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات للسكنة وإن جمعها تصبح النفس للطمشة ظاهرة الشوك في قسم خصمها قوية للجنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق ومحمد السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأبصار الثابتة والمقول للرجعة وسلم تسليما كثيرا [أما بعد] فإن الصوم ربيع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر »^(١) وبمقتضى قوله ﷺ « الصبر نصف الإيمان »^(٢) ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيها حكاية عنه نبيه ﷺ « كل حسنة بشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به »^(٣) وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - والصوم نصف الصبر قد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لحولف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجل الصوم لي وأنا أجزي به »^(٤)

(كتاب أسرار الصيام)

- (١) حديث الصوم نصف الصبر وحسنه من حديث رجل من بني سليم و هـ من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث الصبر نصف الإيمان أبو بصير في الحلية والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن
- (٣) حديث كل حسنة بشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم الحديث أخرجه من حديث أبي هريرة
- (٤) حديث والذي نفسي بيده لحولف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وهو بعض الذي قبله

إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لميسها قدم إبليس فلم يصبه حظ الجبل بل صار مزروع الجبل موفرا حظه من العلم فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم وانتقل من قلبه إلى القلوب ومن نفسه إلى النفوس فوقت للناسبة في أصل طهارة الطينة ووقع التأليف بالعارف الأول فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات فعملوا وعلموا كالأخاذ الذي يستقى منه ويزرع منه وجمعا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكام أساس التقوى ولما

وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود ببقاء الله تعالى في جزاء صومه ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة ^(٤) » وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ^(٥) » وقال وكيع في قوله تعالى - كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية - هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة البهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته لأجل اللبذل شابهني أنت عندي كبعض ملائكتي ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يقول الله عز وجل انظروا يا ملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل ^(٧) » وقيل في قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون - قيل كان عملهم الصيام لأنه قال - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازف جزاؤه فلا يدخل تحت وم وتقدير وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعين : أحدهما أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فانه عمل في الباطن بالصبر المجرد . والثاني أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لئله الله الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ولذلك قال ^(٨) « إن الشيطان ليحرق من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ^(٨) » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « داومي قرع باب الجنة قالت بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم بالجوع ^(٩) » وسبأني فضل الجوع في كتاب شره الطعام وعلاجه من ربع المهلكات فلما كان الصوم على الخصوص فلما للشيطان وسدا لمساكه وتضييقا لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففي قرع عدو الله نصرة

(١) حديث للجنة باب يقال له الريان الحديث أخرجه من حديث سهل بن سعد (٢) حديث للصائم فرحتان الحديث أخرجه من حديث أبي هريرة (٣) حديث لكل شيء باب وباب العبادة الصوم ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٤) حديث نوم الصائم عبادة رويناه في أمالي بن منده من رواية ابن للغيرة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف ولله عبد الله بن عمرو فانهم لم يذكروا لابن للغيرة رواية إلا عنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو والنخعي أحد الكذابين (٥) حديث إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة الحديث وقال غريب وهو في صحيحه على شرطهما من حديث أبي هريرة وصححه وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله ونادى مناد (٦) حديث إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته الحديث عد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٧) حديث يقول الله تعالى للملائكة يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل (٨) حديث إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم الحديث متفق عليه من حديث سمية دون قوله فضيقوا مجاريه بالجوع (٩) حديث قال لعائشة داومي قرع باب الجنة الحديث لم أجده أصلا .

نزكت النفوس انجلت مرأيا قلوبهم بما صقلها من التقوى فأنجلي فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها فبانت الدنيا بقميحها فرفضوها وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها فلما زهدوا في الدنيا انصبحت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصباوا وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة . واعلم أن كل حال شريف نمرؤه إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال للقرب والصوفي هو للقرب وليس في القرآن اسم الصوفي واسم الصوفي ترك ووضع للقرب على ما سنشرح ذلك في باب ولا يعرف في طرفي بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب وإنما يعرف للمترجمين وكم من الرجال المقربين في بلاد القرب وبلاد تركستان وما وراء النهر ولا يسمون صوفية لأنهم لا يتزبون بزي الصوفية ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نضى

فه سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى - إن تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - فالبدية بالجهد من الصبر والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وقال تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإنما التغير تكبير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرحاض فسادات محضبة لم يتقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للمبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه وقال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات (١)» فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ونبين ذلك بثلاثة فصول .

(الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة والواجبات بافساده)

(أما الواجبات الظاهرة فستة)

الأول : مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ونفى بالرؤية العلم وبمحصل ذلك بقول عدل واحد ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة ومن صام عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضي به فليتبّع كل عبد في عبادته موجب ظنه وإذا رأى الهلال ليلة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدى الوجوب . الثاني النية ولا بد لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة فلونوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكنه وهو الذي علينا بقولنا كل ليلة ولو نوى بالتهار لم يحجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع وهو الذي علينا بقولنا مبيتة ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يحجزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يحجزه فانها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يسطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالكشف في الليلة الأخيرة من رمضان فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتihad كالمحبوس في الطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشك لا يمنعه من النية ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فإن النية محلها القلب ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ وعمل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صامها . الثالث الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحفنة ولا يفسد بالقصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والاحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ الثالثة وما يصل بهير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في الضمضة فلا يفطر إلا إذا بالغ في الضمضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا عمدا فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناس فإنه لا يفطر أمان من أكل عامدا في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بظن واجتهاد . الرابع الإمساك عن الجماع وحده مغيب الحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر وإن طلع الفجر وهو محالط أهله فترج في الحال صام صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة .

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه

بالصوفية القريين
فشايخ الصوفية الذين
أساؤهم في الطبقات
وغير ذلك من
الكتب كلهم كانوا في
طريق القريين
وعلمهم علوم أحوال
القريين ومن تطلع
إلى مقام القريين من
جسلة الأبرار فهو
متصوف ما لم يتحقق
بالحلم فإذا تحقق
بالحلم صار صوفيا
ومن عداها ممن يميز
بزي ونسب إليهم
فهو مشبه - وفوق
كل ذي علم علم - .
[الباب الثاني في
تخصيص الصوفية
بحسن الاستماع]
حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
السهروردي إملاء
قال أنا أبو منصور
القرى قال أنا الامام
الحافظ أبو بصير
الخطيب قال أنا أبو
عمرو الهاشمي قال أنا
أبو طي اللؤلؤي قال أنا
أبو داود السجستاني
قال حدثنا مسدد قال
حدثنا يحيى عن شعبة
قال حدثني عمر بن

الخامس : الامساك عن الاستمناة وهو إخراج المني قصداً بجماع أو بغير جماع فان ذلك يفطر ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو ماله كلاً لا ربه فلا بأس بالتقيل وتركه أولى وإذا كان يخاف من التقيل أن ينزل قبله وسبق المني أفطر لتقصيره السادس : الامساك عن إخراج المني فلاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه المني لم يفسد صومه وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .

(وأما لوازم الافطار فأربعة)

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبيهاً بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر فالحائض تقضى الصوم وكذا المرتد أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقاً ومجموعاً . وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع وأما الاستمناة والأكل والشرب وما عدا الجماع لا تجب به كفارة فالكفارة عتق رقبة فان أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فاطعام ستين مسكيناً مداً مداً . وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ولا على السافر إذا قدم مفطراً من سفر بلغ مرحلتين ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقبلاً في أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً . وأما الفدية : فتجب على الحامل والرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما لكل يوم مئة حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الحرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مداً . وأما السنن فست : تأخير السحور وتسهيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة وترك السواك بعد الزوال والجلود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة ومدارسة القرآن والاعتكاف في المسجد لاسيما في العشر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المزور ودأب وأدأب أهله ^(١) » أي أداموا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها في أوتار وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع والتابع في هذا الاعتكاف أولى فان نذر اعتكافاً متتابعاً أو نواه انقطع تنافسه بالخروج من غير ضرورة كما لو خرج لعبادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع وله أن يتوضأ في البيت ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر « كان صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا مارة ^(٢) » وينقطع التابع بالجماع ولا ينقطع بالتقيل ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح والأكل والنوم وغسل اليد في الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه في التابع ولا ينقطع التابع بخروج بعض بدنه « كان صلى الله عليه وسلم يدي رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجر ^(٣) » ومهما خرج للتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً والأفضل مع ذلك التجديد .

- (١) حديث كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش الحديث متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المزور (٢) حديث كان لا يخرج إلا لحاجة ولا يسأل عن المريض إلا مارة متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثاني رواه أبو داود بنحوه بسند لين (٣) حديث كان يدي رأسه لعائشة متفق عليه من حديثها

سليمان بن وهب عن ابن الخطاب عن عبد الرحمن بن أبيان عن أبيه عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نصر الله امرأ سمع منا حديثاً حفظه حتى يبلغه غيره قرب حامل قته إلى من هو أقمه منه ورب حامل قته وليس بفقير » أساس كل خير حسن الاستماع قال الله تعالى - ولو علم الله فيهم خيراً لأجمعهم - يقول بعضهم علامة الخير في السماع أن يسمع العبد بشيء أو صافه ونعوته يسمعه بحق من حق وقال بعضهم لو علمهم أهلاً للسمع لفتح آذانهم للاستماع فمن ملكته الوسواس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده وخطاباته إليهم رأوا كل آية من كلامه تعالى بحراً

(الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة)

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن المغمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطرى هذا الصوم بالسكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا والآخرة فالله تعالى قد قال في ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب من تحركت همته بالتصرف في نهاري لتدبير ما يطر عليه كتبت عليه خطيئة فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه للوعود وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر في تفصيلها قولا ولكن في تحقيقها عملا فإنه إقبال بكنهه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل - قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتعمامه بستة أمور : الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يندم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس لئن لم تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يمجده حلاوته في قلبه (١) » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة (٢) » . الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والحسومة والراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم رواه بشر بن الحرث عنه وروى ليث عن مجاهد خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم إنى صائم (٣) » وجاء في الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تلتقا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قداما وقال ﷺ : قل لهما قيا فيه ما أكلتا قضاء إحداهما نصفه دما عبيطا ولحا غريضا وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتهما فغضب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما فعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا ينتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم (٤) » . الثالث : كف السمع عن الاصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الاصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وآكل السحت فقال تعالى - مراعون للكذب أكالون للسحت - وقال عز وجل - لولا نهيهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت - فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى - إنكم إذا مثلم -

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس الحديث ك وصحح إسناده من حديث حذيفة (٢) حديث جابر عن أنس عن خمس يفطرن الصائم الحديث الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب (٣) حديث الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما أخرجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في الغيبة للصائم أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول .

من أبحر العلم بما تضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليه وخفيه وبابا من أبواب الجنة باعتبار ما تنبه أو تدعو إليه من العمل ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى من عند الله تعالى يتعين الاستماع إليه فكان من أمم ما عندهم الاستعداد للاستماع ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب اللسكوت واستئزال بركة الرغبوت والرهبوت ورأوا أن الوسواس أذخنة نائرة من نار النفس الأمارة بالسوء وقنام يتراكم من نقت الشيطان وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناظ الهوى ومثار الردى بمثابة الخطب الذي تزداد النار به تأججا ويزداد القلب به تحمرا قرفضوا الدنيا وزهدوا فيها فلما انقطعت عن نار

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الفتاب والمستمع شريكان في الآثم» (١) الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثم من اليد والرجل وعن السكره وكف البطن عن الشهوات وقت الافطار فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام فمثل هذا الصائم مثال من يبني قصرا ويهيم مصرا فان الطعام الحلال إنما يضر بكثرة لا بنوعه فالصوم لتقليله وتترك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها والحرام سم مهلك للدين والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره وقصد الصوم لتقليله وقد قال صلى الله عليه وسلم «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» (٢) قيل هو الذي يفطر على الحرام وقيل هو الذي يمكك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالنية وهو حرام وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثم . الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ جوفه فإمن وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاتته محوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى وإذا دفعت المدة من محوة نهار إلى العشاء حتى حاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطمعت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبتت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أقله التي كان يأكلها كل ليلة لولم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصغوا عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخف عليه تهجدته وأوراده فمضى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى - إنا أنزلناه في ليلة القدر - ومن جعل بين قلبه وبين صدره حيلة من الطعام فهو عنه محبوب ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يحل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام وسياق له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل . السادس : أن يكون قلبه بعد الافطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من اللقرين أو يرد عليه فهو من المقوتين وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا لخلقهم يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام غابوا فالكشف الغطاء المحجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه البطولون أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أي كان سرور القبول يشغله عن اللعب وحسرة للردود تسد عليه باب الضحك وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم . فان قلت فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء

النفس أخطاها وقررت نيرانها وقيل دخانها شهدت بواطنهم وقبورهم مصادر العلوم قهيا وأموارها بصفاء القهوم فلما شهدوا سمعوا قال الله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - قال الشبل رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا ينفل عنه طرفة عين قال يعقوب بن معاذ الرازي القلب قلبان قلب قد احتسنى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا وقلب قد احتسنى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة فانظر كم يكن برهكة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشتغال الثانية التي أقصدتك عن الطاعة قال بعضهم لمن كان له قلب سليم من

(١) حديث المغتاب والمستمع شريكان في الآثم غريب للطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف
 نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النية وعن الاستماع إلى النية (٢) حديث كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ن . من حديث أبي هريرة

صومه صحيح فامتنعه . فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة أي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لاسيما القية وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكاليف إلا ما يتيسر على عموم القائلين للقبليين على الدنيا الدخول تحته فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول والقبول الوصول إلى المقصود ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلص بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية والاعتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فانهم منزهون عن الشهوات والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها فكما انهك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بضمار البهائم وكما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق للملائكة والملائكة مقربون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم فان الشبيه من القريب قريب وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الآخر طول النهار ولو كان مثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء يا حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف لا يسيون صوم الحق وسهرهم ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من الفترين ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكم مفطر صائم والمفطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك لله وهو الفصل فضلاته مردودة عليه مجمله ومثل من أفطر بالأكل وصيام بجوارحه عن للكاره كمن غسل أعضائه مرة مرة فضلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته (١) » . ولما تلا قوله عز وجل - إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها - وضع يده على سمعه وبصره فقال : « السمع أمانة والبصر أمانة (٢) » ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إني صائم » أى إني أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك فاذن قد ظهر أن الشكل عبادة ظاهرا وباطنا وتشرا وبلا ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات فإليك الحيرة الآن في أن تنفع بالقشر عن الباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

(الفصل الثالث في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه)

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواصل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها يوجد في كل شهر وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم ، وجميع الأشهر الحرم مطلق الصوم وهي أوقات فاضلة « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان (٣) »

(١) حديث إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته الخرائطى في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم واسناده حسن (٢) حديث لما تلا قوله تعالى: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع والبصر أمانة د من حديث أبي هريرة دون قوله السمع أمانة (٣) حديث كان يكثر صيام شعبان الحديث متفق عليه من حديث عائشة

الأغراض والأمراض
قال الحسين بن منصور
لمن كان له قلب لا يخطر
فيه إلا شهود الرب
وأشد :

أنسى إليك قلوبا طالما
هطلت

سحاب الوحي فيها
أبحر الحكم

وقال ابن عطاء قلب
لاحظ الحق بعين
التعظيم فذاب له
واقطع إليه عماسواه

قال الواسطى : أى
لذكرى قوم مخصوصين

لا لسائر الناس لمن
كان له قلب أى فى

الأزل وهم الذين قال الله
تعالى فيهم - أو من كان

ميتا فأحييناه - وقال
أيضا المشاهدة تذهل

والحجة تفهم لأن الله
تعالى إذا تجلى لشيء

خضع له وخضع وهذا
الذى قاله الواسطى

صحيح فى حق أقوام
وهذه الآية تحكم

بخلاف هذا لأقوام
آخرون وهم أرباب

التمكين يجمع لهم
بين الشهادة والقهم

فموضع القهم محل
المحادثة والمكاملة وهو

وفي الخبر «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم» (١) «لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب» وأرجى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم «صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام» (٢) وفي الحديث «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام» (٣) وفي الخبر إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان (٤) ولهذا يستحب أن يخطر قبل رمضان أياما فإن وصل شعبان برمضان فجاز (٥) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة (٦) ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان يومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاها شهر رمضان فالأشهر الفاضلة ذو الحجة والمهرم ورجب وشعبان والأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمهرم ورجب واحد فرد وثلاثة سر دو أفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والعدوات وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج وشوآل من أشهر الحج وليس من الحرم والمهرم ورجب ليسا من أشهر الحج وفي الخبر «ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر قيل ولا الجهاد في سبيل الله تعالى قال ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه» (٧) وأما ما يتكرر في الشهر: فأول الشهر وأوسطه وآخره ووسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع : فالثنين والخميس والجمعة فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها بركة هذه الاوقات . وأما صوم الدهر فانه شامل للكل وزيادة وللسالكين فيه طرق فمنهم من حكره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته والصحيح أنه إنما يكره لثنيين أحدهما أن لا يفطر في العيدين وأيام التثريق فهو الدهر كله (٨) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل

(١) حديث أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم م من حديث أبي هريرة (٢) حديث صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين الحديث لم أجده هكذا وفي المعجم الصغير للطبراني من حديث ابن عباس من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما (٣) حديث من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت الحديث الأزدي في الضعفاء من حديث أنس (٤) حديث إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان الأربعة من حديث أبي هريرة حب في صحيحه عنه إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يحى رمضان وصححه ت (٥) حديث وصل شعبان برمضان مرة الأربعة من حديث أم سلمة لم يكن يصوم من السنة شهرا تاما إلا شعبان يصل به رمضان ودن نحوه من حديث عائشة (٦) حديث فصل شعبان من رمضان مرارا د من حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان ما لا يتحفظ من غيره فان غم عليه عدت ثلاثين يوما ثم صام وأخرجه قط وقال إسناده صحيح وك وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة الحديث ت . من حديث أبي هريرة دون قوله قيل ولا الجهاد الخ وعند غ من حديث ابن عباس ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذا العشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج غناط بنفسه وماله فلم يرجع بشيء (٨) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر م من حديث عبد الله بن عمرو في حديث له لا صام من صام الأبد ولمسلم من حديث أبي قتادة قيل يا رسول الله كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر و ن نحوه من حديث عبد الله بن عمر وحمز بن حنين وعبد الله بن الشخير .

جمع القلب وموضع للشاهدة بصر القلب وللمسمع حكمة وفائدة وللبر صر حكمة وفائدة فمن هو في سكر الحال يغيب صمعه في بصره ومن هو في حال الصحو والتكبين لا ينيب صمعه في بصره لتلكه ناصية الحال وفيهم بالوعاء الوجودي للمستعد لفهم التقال لأن الفهم مورد الإلهام والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأ لإنشاء ثانيا للتمكن في مقام الصحو وهو غير الوجود الذي يتلشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على بحر الفناء إلى مقار البقاء . وقال ابن صمسون إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وآداب القلب وهي ثلاثة أشياء فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة فمن وقف على شهوته وجد نلت الأدب ومن افتقر إلى ما لم يحسد

الصوم حجة على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه فإذا لم يكن شيء من ذلك وأرى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين ^(١) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فردتها وقلت أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعته وأنضرع إليك إذا جعت ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صوم أخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ^(٣) ومن ذلك « منازلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول إني أطيق أكثر من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما فقال إني أريد أفضل من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم لأفضل من ذلك ^(٤) » وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان ^(٥) » بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلاثة وهو أن يصوم يوما ويفطر يومين وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث وواقع في الأوقات الفاضلة وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكامل في أن يعمهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفرغ القلب لله عز وجل والفقير بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام ^(٦) » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات وقد ذكره العلماء أن بوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرا بيوم العيد وأيام التثريق وذكروا أن ذلك يقضى القلب ويولد ردى العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم التطوع به والله أعلم بالصواب .

ثم كتاب أسرار الصوم والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها

(١) حديث أبو موسى الأشعري من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين أحمد ن في الكبرى وحسنه أبو حنيفة الطوسي (٢) حديث عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا الحديث ت من حديث أبي أمامة بلفظ عرض على ربى لي جعل لى بطحاء مكة ذهابا . وقال حسن (٣) حديث أفضل الصيام صوم أخى داود الحديث أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث منازلته لعبد الله بن عمرو وقوله صم يوما وأفطر يوما الحديث أخرجه من حديثه (٥) حديث ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان أخرجه من حديث عائشة (٦) حديث كان يصوم حتى يقال لا يفطر الحديث أخرجه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر القيام والنوم وخ من حديث أنس كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشاء تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما إلا رأيته .

من الأدب بعـه
الاشتغال بما وجد
فقد وجد ثلثي الأدب
والثالث امتلاء القلب
بالذى بدأ بالفضل عند
الوفاء تفضلا فقد وجد
كل الأدب . قال محمد
ابن طي الباقر موت
القلب من شهوات
النفس فكلما رفض
شهوات نال من
الحياة بقسطها فالسباع
للأحياء لالأموات
قال الله تعالى - إنك
لا تسمع الموتى - قال
سهل بن عبد الله القلب
ريقق تؤثر فيه الحطرات
الذمومة وأثر القليل
عليه كثير قال الله
تعالى - ومن يشأ عن
ذكر الرحمن تقيض
له شيطاناً فهو له قرين -
فالقلب عمال لا يفتر
والنفس يقظانة لا ترقد
فإن كان العبد مستمعا
إلى الله تعالى وإلا فهو
مستمع إلى الشيطان
والنفس فكل شيء
سد باب الاستماع فمن
حركة النفس وفي
حركتها يطرق
الشيطان . وقد ورد
« لولا أن الشياطين

ما علمنا منها وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وحلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الحج والله المعين لأرب غيره وماتوفيق إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(كتاب أسرار الحج)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحسنا وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحسيناً ومنا وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين العذاب وجنا والصلاة على محمد بنى الرحمة وسيد الأمة وحلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتتمام الإسلام وكمال الدين فيه أنزل الله عز وجل قوله - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً - وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرايا ^(١) » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدائها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفوائدها وأسرارها وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب .

الباب الأول : فى فضائلها وفوائدها والبيت العتيق وجعل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة فليبدأ بالبَاب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشهد الرحال إلى المساجد .

(فضيلة الحج)

قال الله عز وجل - وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - وقال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام وحلى نبينا وحلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه وقال تعالى - ليشهدوا منافع لهم - قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة ولما سمع بعض السلف هذا قال غفر لهم ورب السكبة وقيل فى تفسير قوله عز وجل - لأقعدن لهم صراطك المستقيم - أى طريق مكة يقعد الشيطان عليها لينجس الناس منها وقال عليه السلام « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ^(٢) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « ما روى الشيطان فى يوم أصغر ولا أدر ولا أحقر ولا أغيط منه يوم عرفة ^(٣) » وما ذلك إلا لما يرى من زوال الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة ^(٤) »

(كتاب أسرار الحج)

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرايا عده من حديث أبى هريرة وث نحوه من حديث حلى وقال غريب وفى إسناده مقال (٢) حديث من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه أخرجاه من حديث أبى هريرة (٣) حديث ما روى الشيطان فى يوم أصغر الحديث مالك عن إبراهيم بن أبى عتبة عن طلحة بن عبد الله بن كريب مرسل (٤) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة لم أجده أصلاً

محومون على قلوب
بنى آدم لنظروا إلى
ملكوت السموات
وقال الحسين بشار
البصري ومعارف
العارفين ونور العلماء
الربانيين وطرق
السابقين الناجين
والأزلى والأبدى ما بينهما
من الحدث لمن كان
له قلب أو ألقى السمع .
وقال ابن عطاء هو
القلب الذى يلاحظ
الحق ويشاهده ولا
يغيب عنه خيرة
ولا قرة فيسمع به بل
يسمع منه ويشهد به
بل يشهد فاذا لاحظ
القلب الحق بعين
الجلال فرغ وارتمد
وإذا طالعه بعين
الجمال هدأ واستقر
وقال بعضهم لمن كان
له قلب بصير يقوى
على التجريد مع الله
تعالى والتفريد له
حتى يخرج من الدنيا
والخلق والنفس فلا
يشغل بشيء ولا يركن
إلى سواه قلب الصوفى
مجرد عن الأكوان
ألقى محبه وشهد
بصره فسمع للسموات

وأبصر للبصرات
وشاهد الشهودات
لتخلصه إلى الله تعالى
واجتماعه بين يدي
الله والأشياء كلها عند
الله وهو عنده فسمع
وشاهد فأبصر وسمع
جملها ولم يسمع ويشاهد
تفاصيلها لأن الجمل
تدرك لسة عين
الشهود والتفاصيل
لا تدرك لضيق وعاء
الوجود والله تعالى هو
العالم بالجمل والتفاصيل
وقد مثل بعض
الحكماء تفاوت الناس
في الاستماع وقال إن
الباذر خرج يئذه
فلا منه كفه فوق
منه شيء على ظهر
الطريق فلم يلبث أن
انعط عليه الطير
فاختطفه ووقع منه
شيء على الصفوان وهو
الحجر الأملس عليه
تراب يسير وندى قليل
فثبت حتى إذا وصلت
عروقه إلى الصفاء لم
يجد مساعا تفد
فيه فيس ووقع منه
شيء في أرض طيبة
فيها شوك نابت فثبت
فلما ارتفع خنقه الشوك

وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر بعض المكاشفين من القريين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون باكي العين مقصوف الظهر فقال له ما الذي أبكى عينك قال خروج الحاج إليه بلا تجارة أقول قد قصدوه أخاف أن لا يغيهم فيحزنني ذلك قال فما الذي آمل جسمك قال صهيل الحيل في سبيل الله عز وجل ولو كانت في سبيلي كان أحب إلي قال فما الذي غير لونك قال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على العصية كانت أحب إلي قال فما الذي قصف ظهرك قال قول العبد أسألك حسن الخاتمة أقول يا وليقي متى يجب هذا عمله أخاف أن يكون قد فطن وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى له أجر الحاج المتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يمرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والعمار وقد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروهم غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفّعوا شفّعوا (٣) » وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له (٤) » وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة مستون للطائفين وأربعون للصليين وعشرون للناظرين (٥) » وفي الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شيء تجدون في صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه (٦) » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفي الخبر « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في الطر غفر له ما سلف من ذنبه (٧) » ويقال إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا في الوقف غفره لكل من أصابه في ذلك الوقت وقال بعض السلف إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل يوم في الدنيا وفيه « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل - اليوم أكملت لكم دينكم

(١) حديث من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يمرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة حق في الشعب بالشرط الأول من حديث أبي هريرة وروى هو وقط من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف (٢) حديث حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة أخرجه من حديث أبي هريرة الشطر الثاني بلفظ الحج للبرور وقال إن الحجة للبرورة وعند ابن عدي حجة مبرورة (٣) حديث الحجاج والعمار وقد الله وزواره الحديث . من حديث أبي هريرة دون قوله وزواره ودون قوله إن سألوه أعطاهم وإن شفّعوا شفّعوا وله من حديث ابن عمر وسألوه فأعطاهم ورواه حب (٤) حديث أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له الخطيب في التتفق والمفترق وأبو منصور شهر دار ابن شيرويه الديلم في مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٥) حديث ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة حب في الضعفاء وحق في الشعب من حديث ابن عباس باسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر (٦) حديث استكثروا من الطواف بالبيت الحديث حب و ك من حديث ابن عمر استمتعتوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة وقال ك صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في الطر غفر له ما سلف من ذنوبه لم أجده هكذا وعند ت . من حديث ابن عمر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة لفظت وحسنه .

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً - (١) « قال أهل الكتاب لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه أشهد لقد أنزلت هذه الآية في يوم عشرين اثنين يوم عرفة ويوم الجمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » (٢) « وروى أن علي بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي يا ابن موفق حجبت عنى ؟ قلت نعم قال وليت عنى ؟ قلت نعم قال فاني أكاثك بها يوم القيامة أخذ يدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب وقال محاهد وغيره من العلماء إن الحاج إذا قدموا مكة تلقهم الملائكة فسلموا على ركب الأبل وصاحوا ركب الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقاً وقال الحسن من مات عقب رمضان أو عقب غزو أو عقب حج مات شهيدا وقال عمر رضي الله عنه الحاج مغفور له ولئن يستغفر له في شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول وقد كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشبعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألون الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام وروى عن علي بن موفق قال حجبت سنة فلما كان ليلة عرفة تمت بمنى في مسجد الحيف فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه يا عبد الله فقال الآخر ليك يا عبد الله قال تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل في هذه السنة ؟ قال لا أدري قال حج بيت ربنا ستائة ألف أتدرى كم قبل منهم ؟ قال لا قال ستة أنفس قال ثم ارتفعنا في الهواء فقابا عنى فانتبهت فرعا واغتممت غما شديدا وأهمنى أمرى فقلت إذا قبل حج سنة أنفس فأين أكون أنا في سنة أنفس فلما أفضت من عرفة قمت عند الشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلعة من قبل منهم فخلنى النوم فاذا الشخصان قد نزلا على هيتما فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال أتدرى ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة ؟ قال لا قال فانه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف قال فانتبهت وبى من السرور ما يحل عن الوصف وعنه أيضا رضي الله عنه قال حجبت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت اللهم إني قد وهبت حجتي وجعلت ثوابها لمن لم يقبل حجه قال فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي يا علي تقسحني على وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجوود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته .

(فضيلة البيت ومكة المشرفة)

قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستائة ألف فان قصوا أكلامهم الله عز وجل من الملائكة » (٣) « وأن الكعبة تحشر كالعروس المزوقة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفي الخبر « إن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحقوقه وصديقه » (٤) «

(١) حديث وقوفه في حجة الوداع يوم الجمعة ونزول - اليوم أكملت لكم دينكم - الحديث أخرجه من حديث عمر (٢) حديث اللهم اغفر للحجاج ولمن استغفر له الحاج ك من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط م (٣) حديث إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستائة ألف الحديث لم أجد له أصلا (٤) حديث إن الحجر ياقوته من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان الحديث صحيحه من حديث ابن عباس الحجر الأسود من الجنة لفظه وباقى الحديث رواه ت وحسنه و . وحب وك وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضا وللحاجم من حديث أنس إن الركن والقام ياقوتان من يواقيت الجنة وصحح إسناده ورواه ت ح ك من حديث عبد الله بن عمرو .

فأنفده واختلط به
ووقع منه شيء
على أرض طيبة
ليست على ظهر الطريق
ولا على الصفوان ولا
فيها شوك فنبت ونما
وصلح فمثل الباذر مثل
الحكيم ومثل البذر
كمثل صواب الكلام
ومثل ما وقع على ظهر
الطريق مثل الرجل
يسمع الكلام وهو
لا يريد أن يسمعه فما
يلبث الشيطان أن
يغتنفه من قلبه
فينساه ومثل الذي وقع
على الصفوان مثل
الرجل يستمع الكلام
فيستحسنه ثم تفضى
الكلمة إلى قلب ليس
فيه عزم على العمل
فينسخ من قلبه ومثل
الذي وقع في أرض
طيبة فيها شوك مثل
الرجل يسمع الكلام
وهو ينوى أن يعمل
به فاذا اعترضت له
الشهوات قيدته عن
النهوض بالعمل فترك
مانوى عمله للبلية
الشهوة كالزراع يفتق
بالشوك ومثل الذي
وقع في أرض طيبة

وكان صلى الله عليه يقبله كثيرا (١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر به عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن (٢) وقبله عمر رضي الله عنه ثم قال إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع (٣) ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم بكى حتى علا نحيبه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضي الله عنه فقال يا أبا الحسن ههنا تكب العبرات وتستجاب الدعوات فقال علي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال وكيف قال إن الله تعالى لما أخذ البيثاق على القرية كتب عليهم كتابا ثم ألقاه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكفار بالجحود قيل فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيماننا بك وتصديقنا بكتابك ووفاء بعهدك ، وروى عن الحسن البصري رضي الله عنه أن صوم يوم فيها مائة ألف يوم وصدة درهم مائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة وفي الخبر الصحيح « عمرة في رمضان كحجة » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين » (٥) وفي الخبر « إن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيه اللائكة فقالوا برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام » (٦) وجاء في الأثر : إن الله عز وجل ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبلا الكعبة غفر له وكوشف بعض الأولياء رضي الله عنهم قال إني رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدة ويقال لا تقرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثرا وهذا إذا آتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد ثم رفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل القرب التي توقع ولادتها وفي الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة » (٧) وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيت فخريته ثم أخرب الدنيا على أثره » (٨)

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا أخرجه من حديث عمر دون قوله كثيرا ، وإن أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه خاليا (٢) حديث أنه كان يسجد عليه البزار وكن حديث عمر وصححه إسناده (٣) حديث قبله عمر وقال إني لأعلم أنك حجر أخرجه دون الزيادة التي رواها علي ورواه بتلك الزيادة وقال ليس من شرط الشيخين (٤) حديث عمرة في رمضان كحجة معي أخرجه من حديث ابن عباس دون قوله معي فهي عند مسلم على الشك تقضى حجة أو حجة معي ورواه كزيادتها من غير شك (٥) حديث أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي الحديث توحشته وحب من حديث ابن عمر (٦) حديث إن آدم لما قضى مناسكه لقيه اللائكة فقالوا برحمتك يا آدم الحديث رواه الفضل الجندی ومن طريقه ابن الجوزي في اللؤلؤ من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرق في تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس (٧) حديث استكثروا من الطواف بهذا البيت الحديث البزار وحب وك وصححه من حديث ابن عمر استتموا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة (٨) حديث قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيت فخريته ثم أخرب الدنيا على أثره ليس له أصل

مثل السمع الذي ينوى عمله فيه همه ويسمى به ويحاسب هو وهذا الذي جانب الهوى واتسج سبيل الهدى هو الصوفي لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهي تترك إلى وتتلذذ واستلذذ الهوى هو الذي يخفق التبت كالشوك وقلب الصوفي نازله حلاوة الحب الصافي والحب الصافي تعلق الروح بالحضرة الإلهية ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستبغ القلب والنفس وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ليكونها لا تترقى عن حد النفس وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء لأنها متأصلة في الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة

(فضيلة القام بمكة حرسها الله تعالى وكرامته)

كره الخائفون المحتاطون من العلماء القام بمكة لثمان ثلاثة . الأول : خوف التبرم والأنس بالبيت فان ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام وهكذا كان عمر رضي الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول يا أهل اليمن ينكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم ولذلك هم عمر رضي الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف وقال خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت . الثاني : تهيج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العود فان الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنأ أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا وقال بعضهم : تكون في بلد قلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالقام وقلبك في بلد آخر وقال بعض السلف : كم من رجل يخرسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ويقال إن لله تعالى عبادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عز وجل . الثالث : الخوف من ركوب الخطايا والدنوب بها فان ذلك محذور وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الوضع وروى عن وهيب بن الورد السكي قال كنت ذات ليلة في الحجر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكو ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطافين حولي من تفكرهم في الحديث والقوم ولهم وهم لن يمتنعوا عن ذلك لأنفسهم انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه وقال ابن مسعود رضي الله عنه ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى - ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم - أي أنه على مجرد الإرادة ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم وقيل الكذب أيضا وقال ابن عباس لأن أذن سبعين ذنبا بركة أحب إلى من أن أذن ذنبا واحدا بمكة وركبة منزل بين مكة والطائف والخوف ذلك انتهى بعض القميين إلى أنه لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض ، وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة ولا تظن أن كراهة القام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة عليها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الوضع فمعنى قولنا إن ترك القام به أفضل أي بالاضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم إما أن يكون أفضل من القام مع الوفاء بحقه فهيأت وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال « إنك خير أرض أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أني أخرجت منك لما خرجت » (١) وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كذا كرهناه .

(فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد)

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (٢) وكذلك كل عمل بالمدينة بألف وبعد مدينته الأرض المقدسة فان للصلاة فيها بمئة صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وكذلك سائر الأعمال وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » (٣)

(١) حديث إنك خير أرض أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك لما خرجت ت وصححه ون في الكبرى و . وحب من حديث عبد الله بن عدي بن الحزام (٢) حديث صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه م من حديث ابن عمر (٣) حديث ابن عباس صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة غريب لم أجده يجعله هكذا و .

في أرض النفس فاذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفسدها بكليته ويقول :

أشتم منك نسيما لست أعرفه

أظن ليلاء جرت فيك أردانا

فعمه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه ممما وكل ذرة منه بصرا فيسمع الكل بالكل ويصر الكل بالكل ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى - فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب - قال بعضهم القلب والعقل مائة جزء تسعة وتسعون في النبي صلى الله عليه وسلم وجزء في سائر المؤمنين والجزء الذي في سائر

الؤمنين أحد
وعشرون سهما فسهم
يتساوى للؤمنين كلهم
فيه وهو شهادة أن
لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله وعشرون
جزءا يتفاضلون فيها
على مقادير حقائق
إيمانهم قيل في هذه
الآية إظهار فضيلة
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أي الأحسن
ما يأتي به لأنه لما
وقعت له محبة
التكئين ومقارنة
الاستقرار قبل خلق
الكون ظهرت عليه
الأتوار في الأحوال
كلها وكان معه أحسن
الخطاب وله السبق في
جميع اللقائات ألتزامه
صلى الله عليه وسلم
يقول نحن الآخرون
السابقون بمعنى
الآخرون وجودا
السابقون في الخطاب
الأول في الفضل في محل
القدس وقال تعالى
- يا أيها الذين آمنوا
استجبوا لله وللرسول
إذا دعاكم لما يحكيكم-
قال الجنيد تنسموا
روح مادعاهم إليه

وقال صلى الله عليه وسلم «من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعا يوم القيامة» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة» (٢) وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن القام بها للرابطة فيها فيه فضل عظيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى» (٣) وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في النع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء وماتين إلى أن الأمر كذلك بل الزيارة مأثور بها قال صلى الله عليه وسلم «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا» (٤) والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد لأن للمساجد بعد للمساجد الثلاثة مئة مائة ولا بد إلا وفيه مسجد فلامع للرحلة إلى مسجد آخر وأما المشاهد فلا تتساوى بل ركز زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام فالتع من ذلك في غاية الإحالة فإذا جاوز هذا قبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كأن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد هذا في الرحلة أما القام فالأولى بالمريد أن يلزم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهاسم له حاله في وطنه فإن لم يسلم فيطلب من اللواضع ما هو أقرب إلى الخول وأسلم للدين وأفرغ القلب وأيسر للعبادة فهو أفضل للواضع له قال صلى الله عليه وسلم «البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأنت موضع رأيت فيه رقعا فأقم واحمد الله تعالى» (٥) وفي الخبر «من بورك له في شيء فليزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه» (٦) وقال أبو نعيم رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده فقلت إلى أين يا أبا عبد الله قال إلى بلد أملا فيه جرابي بدرهم وفي حكاية أخرى بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها قال فقلت وتفضل هذا يا أبا عبد الله فقال نعم إذا سمعت برخص في بلد فأقصده فانه أسلم لدينك وأقل لمالك وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الحاملين فكيف بالمشهورين هذا زمان تنقل ينتقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بدنه من الفتن ويحكي عنه أنه قال والله ما أدري أي البلاد أسكن فقيل له خراسان فقال مذهب مختلفة وآراء فاسدة قيل فالشام قال يشار إليك بالأصابع أراد الشهرة قيل فالعراق قال بلد الجبابة قيل مكة قال مكة تذيب الكيس والبدن وقال له رجل غريب عزمتم على المجاورة بمكة فأوصني قال أوصيك بثلاث لاتصلين في الصف الأول ولا تصحب قرشيا ولا تظهرن صدقة وإنما كره الصف الأول لأنه يشتر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله الزين والتصنع.

من حديث ميمونة بأسناد جيد في بيت المقدس اتوه فضلا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره وله من حديث أنس صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي إنه منكر (١) حديث لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد (٢) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها الحديث ب. من حديث ابن عمر قال ت حسن صحيح (٣) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٤) حديث كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها م من حديث بريدة بن الحصيب (٥) حديث البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأنت موضع رأيت فيه رقعا فأقم أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف (٦) حديث من رزق في شيء فليزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه م من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ إذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتكره.

(الفصل الثاني في شروط وجوب الحج ومحة أركانه وواجباته ومحظوراته)

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان الوقت والاسلام فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مجزأ ويحرم عنه وليه إن كان صغيرا ويفعل به ما يفعله في الحج من الطواف والسعي وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهي عمرة وجميع السنة وقت العمرة ولكن من كان مكروفا على النفسك أيام منى فلا ينبغي أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال بغيره لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الاسلام غمسة : الاسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأها عن حجة الاسلام لأن الحج عرفة وليس عليهما دم إلا شاة وتشرط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض الاسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج فلا عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الاسلام فحج الاسلام متقدم ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف (*) ثم التذرع ثم النيابة ثم النفل وهذا الترتيب مستحق وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج غمسة : البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطابا لزمه الاحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فتوعان : أحدها الباشرة وذلك له أسباب ، أما في نفسه فبالصحة ، وأما في الطريق فبأن تكون خصة آمنة بلا عر محظر ولا عدو قاهر ، وأما في المال فبأن يجد نفقته ذهابه وإيابه إلى وطنه كان له أهل أو لم يكن لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة وأن يملك ما يقضيه ديونه وأن يقدر على راحلة أو كراها يحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة . وأما النوع الثاني فاستطاعة العضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الاسلام لنفسه ويكفي نفقة الذهاب زاملة في هذا النوع والابن إذا عرض طاعته على الأب الزم من صاربه مستطاعا ولو عرض ماله لم يصربه مستطاعا لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد وبذلك المال فيه منة على الوالد ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه وإن مات قبل الحج لقي الله عز وجل عاصيا بترك الحج وكان الحج في تركه يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه وإن استطاع في سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله في تلك السنة قبل حج الناس ثم مات لقي الله عز وجل ولا حج عليه ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى قال عمر رضي الله عنه لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس ولعلت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ماصليت عليه وبضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه وكان ابن عباس يقول من مات ولم يرك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل - رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فإني تركت - قال : الحج . وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها غمسة : الإحرام والطواف والسعي بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف . والواجبات المهيورة بالنسب ست الأحرام من الميقات فمن تركه وجاوز للميقات محلا فعليه شاة والرمي فيه الدم قول واحد وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة واللبث بنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجزئ تركها بالنسب على أحد القولين وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب . وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة

(*) قوله في حالة الوقوف هكذا بالنسخ وفي نسخة الشارح الرقيق وهو أظهر فإن الرقيق إذا أفسد حجه وهو رقيق ثم عتق ثم حج انصرف حجه للقضاء ولا يجزئ عن حجة الاسلام تأمل .

فأسرعوا إلى محو
الملائق المشقة وهجموا
بالنفوس على معاقبة
الحذر وتجرعوا إمارة
للكابدة وصدقوا الله
في المعاملة وأحسنوا
الأدب فيما توجهوا
إليه وهانت عليهم
للصائب وعرفوا قدر
ما يطلبون وسجنوا
همهم عن التلفت إلى
مذكور سوى ولهم
غياحية الأبد بالحلى
الذى لم يزل ولا يزال .
وقال الواسطي رحمه
الله تعالى حياتها
تصفيتها عن كل معلول
لفظا وفلا وقال
بضهم استحيوا لله
بسراركم وللرسول
بظواهركم حياة
النفوس بتابعة الرسول
صلى الله عليه وسلم
وحياة القلوب بمشاهدة
النيوب وهو الحياء
من الله تعالى برؤية
التصوير وقال ابن
عطاء في هذه الآية
الاستجابة على أربعة
أوجه : أولها إجابة
التوحيد . والثاني
إجابة التحقيق .
والثالث إجابة التسليم

الأول الافراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتذر وأفضل الحل لأحرام العمرة الجعنة ثم التمتع ثم الحديبية وليس على الفرد دم إلا أن يتطوع . الثاني القران وهو أن يجمع فيقول لبيك بحجة وعمرة معا فيصير محرما بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الفسل إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسيحسب محسوب من التمتع وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط الطواف القران في الحج أن يقع بعد الوقوف وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيا فلا شيء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة . الثالث التمتع وهو أن يجاوز الليقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعا إلا بخمس شرائط : أحدها أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثاني أن يقدم العمرة على الحج . الثالث أن تكون عمرته في أشهر الحج . الرابع أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعا ولزمه دم شاة فإن لم يجد قسيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تاتيا أو متفرقا وبدل دم القران والتمتع سواء والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة : الأول اللبس للقميص والسر اويل والحف والعمامة بل ينبغي أن يلبس إزارا ورداء وتعلين فان لم يجد نعلين فكممين فان لم يجد إزارا فسر اويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال في المحمل ولكن لا ينبغي أن يغطي رأسه فان إحرامه في الرأس وللرأة أن تلبس كل عيظ بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فان إحرامها في وجهها . الثاني الطيب فليجنب كل ما يصد العتلاء طيبا فان تطيب أو لبس فليده دم شاة . الثالث الخلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والغسل والحجامة وترجيل الشعر . الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه . الخامس مقدمات الجماع كالقبة وللأمانة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستمناة ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد . السادس قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فان قتل صيدا فليده مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الحلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

(الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة جمل)

الجملة الأولى في السير من أول الخروج إلى الاحرام وهي ثمانية

الأولى في المال : فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد للظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ورد ما غنمه من الودائع ويستحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لدهابه وإيابه من غير تقدير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء ويتصدق بشيء قبل خروجه ويشتري لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها فان اكترى فليظهر للسكري كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه . الثانية في الرفيق : ينبغي أن يلتزم رفيقا صالحا محبا للخير معينا عليه إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قواه وإن ضاق صدره صبره ويودع رفقاه للقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أديعتهم فان الله تعالى جاعل في أديعتهم خيرا ، والسنة في الوداع أن يقول : أسودع الله دينك

(الباب الثاني في ترتيب الأفعال الظاهرة)

والرابع إجابة التقريب والاستجابة على قدر السماع والسمع من حيث الفهم والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالتكلم ووجوه الفهم لا تنحصر لأن وجوه الكلام لا تنحصر قال الله تعالى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - الله تعالى في كل كلمة من القرآن كتاباته التي ينفذها البحر دون نقادها فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلي . حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال : أنبأنا الرئيس أبو علي بن نبهان قال أنا الحسن بن شاذان قال أنا دعلج بن أحمد قال أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوي قال أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن

وأما تذكرك وخواتيم عملك (١) وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر « في حفظ الله وكفنه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت » (٢) . الثالثة في الخروج من الدار : ينبغي إذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين أو لا يقرأ في الأولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال اللهم أنت صاحب السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم إنا نعوذ بك من وعاء السفر وكآبة للقلب وسوء للنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عاقبتك . الرابعة : إذا حصل على باب الدار قال بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على اللهم إني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وإتقاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقا إلى لقاءك فإذا مشى قال اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت تقى وأنت رجائي فاكفني ما أمنى وما لأهتم به وما أنت أعلم به مني عزجارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهي للخير أينما توجهت ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه . الخامسة في الركوب : فإذا ركب الرحلة يقول بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا المنقلبون اللهم إني وجهت وجهي إليك وفوضت أمري كله إليك وتوكلت في جميع أموري عليك أنت حسبي ونعم الوكيل فإذا استوى على الرحلة واستوت تحته قال سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبع مرات وقال الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور . السادسة في النزول : والسنة أن لا ينزل حتى يحمي النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال ﷺ « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار » (٣) وليقل نومه بالليل حتى يكون عونا على السير ومهما أشرف على للنزل فليقل اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه أصرف عني شر شرارهم فإذا نزل النزل صلى ركعتين فيه ثم قال أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق فاذا جن عليه الليل يقول يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالله وما ولد وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . السابعة في الحراسة : ينبغي أن يعتاط بالنهار فلا

سلمة عن علي بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قال قلت يا أبا سعيد ما المطلع قال يطلع قديم يعملون به قال أبو سعيد أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود قال أبو سعيد حدثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أولها قوم سيعملون بها فالمطلع للمعد يصعد إليه من معرفة علمه فيكون للمطلع القهم بفتح الله تعالى من كل قلب بما يرزق من النور واختلف الناس في معنى الظهر والبطن قال قوم الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله وقيل الظهر صورة القصة

(١) حديث أستودع الله دينك وأمانتكم وخواتيم عملك دت وصححه ون من حديث ابن عمر أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرا ادن مني حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا (٢) حديث كان ﷺ يقول لمن أراد سفرا في حفظ الله وكفنه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عندت وحسنه دون قوله في حفظ الله وكفنه (٣) حديث عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار د من حديث أنس دون قوله ما تطوى بالنهار وهذه الزيادة في اللوطا من حديث خالد بن معدان مرسل .

عما أخبر الله تعالى
عن غضبه على قوم
وعقابه ليوم فظاھر
ذلك إخبار عنهم
وباطنه عظة وتنبيه
لمن يقرأ ويسمع من
الأمّة وقيل ظاهره
تنزيه الذي يجب
الإيمان به وباطنه
وجوب العمل به وقيل
ظهره تلاوته كما أنزل
قال الله تعالى - ورتل
القرآن ترتيلا وبطنه
التدبير والتفكير
فيه قال الله تعالى -
كتاب أنزلناه إليك
مبارك ليدبروا آياته
وليتذكروا أولو الألباب
وقيل قوله لكل
حرف حد أي في
التلاوة لا يجاوز
الصنف الذي هو
الإمام وفي التفسير
لا يجاوز للسمع
للقول وفرق بين
التفسير والتأويل
فالتفسير علم نزول الآية
وشأنها وقصتها
والأسباب التي نزلت
فيها وهذا محظور على
الناس كافة القول فيه
إلا بالباع والأثر وأما
التأويل فصرف الآية

بشيء منفردا خارج القافة لأنه ربما يتناول أو ينقطع ويكون بالليل متحفظا عند النوم فإن نام في
ابتداء الليل اقترش ذراعه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه في كفه هكذا كان ينام
رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره (١) لأنه ربما استنقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدري
فيكون ما يؤت من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأجب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة
فإذا نام أحدهما حرس الآخر (٢) فهو السنة فإن قصد عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي
وشهد الله والاخلاص والمودتين وليقل بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء
الله لا يأتى بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله
منتهى ولا دون الله ملجأ - كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز - تحصنت بالله العظيم
واستغنت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام اللهم ارحمنا
بقدرك علينا فلا نهلك وأنت تحتنا ورجاؤنا اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإيمانك برأفة ورحمة
إنك أنت أرحم الراحمين . الثامنة : مهما علا نشرا من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا
ثم يقول اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ومهما هبط سبج ومهما خاف الوحشة
في سفره قال : سبحان الله للذي القدوس رب اللاتكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

(الجلفة الثانية في آداب الاحرام من اللقيات إلى دخول مكة وهى خمسة)

الأول : أن يغسل وينوى به غسل الاحرام أعنى إذا انتهى إلى اللقيات للشهور الذى يهرم الناس
منه ويتم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة
التي ذكرناها في الطهارة . الثانى : أن يفارق الثياب الخبيطة ويلبس ثوبى الاحرام فيرتدى ويتزر
ثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ويتطيب في ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب
يبقى جرمه بعد الإحرام ، فقد روى بعض السك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاحرام
عما كان استعماله قبل الاحرام (٣) الثالث : أن يصبر ببدليس الثياب حتى تنبعث به راحته إن كان
راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فنذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو إفرادا كما أراد
ويكنى مجرد النية لانقضاء الاحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول ليك اللهم ليك
ليك لا شريك لك ليك إن الحمد والنعمة لك ولللك لا شريك لك وإن زاد قال ليك وسعديك
والخير كله يديك والريضاء إليك ليك بحجة حقاً تبدا ورضا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .
الرابع : إذا قصد إحرامه بالتلبية للذكورة فيستحب أن يقول اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعنى
على أداء فرضه وتقبله مني اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك
وآمنوا بوعدك واتبوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم اللهم

(١) حديث كان إذا نام في أول الليل اقترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل
ذراعه في كفه أحد موت في الثمائل من حديث أن قتادة بإسناد صحيح وعزاه أبو مسعود التمشقي
والحميدى إلى م ولم أره فيه (٢) حديث تناوب الرفيقين في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر
حق من طريق ابن إسحق من حديث جابر في حديث فيه قال الأنصارى للمهاجرى أى الليل أحب
إليك أن أكنيكة أوله أو آخره فقال بل أكنفى أوله فاضطجع المهاجرى الحديث . حديث عند
أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرى (٣) حديث رؤية بعض السك على مفرق
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاحرام متفق عليه من حديث عائشة قالت : كأنما أنظر إلى
ويص للسك الحديث .

فيصلى أداء مانويت من الحج اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وعصي وعظامي وحرمت على نفسي النساء والطيب ولبس الخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، ومن وقت الاحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها . الخامس : يستحب تجديد التلبية في دوام الاحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لا يسبح حلقه ولا ينهر فانه لا ينادى أصم ولا غابيا^(١) كما ورد في الخبر ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فانها مظنة الناسك : أعني السجدة الحرام ومسجد الحيف ومسجد اليقات وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء قال « لبيك إن العيش عيش الآخرة »^(٢) .

(الجلفة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة)

الأول أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة . والاعتسالات السنوية في الحج تسعة . الأول : للاحرام من الليقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث ولا غسل لرمي جمرة العقبة ثم لطواف الوداع ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد غسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة . الثاني : أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة اللهم هذا أحرمك وأمنك فحرم لحمي ودمي وشعري وبشري على النار وآمن من عذابك يوم تبعث عبادك واجلني من أولياك . وأهل طاعتك . الثالث : أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو من ثنية كداء بفتح الكاف عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق إليها^(٣) فالتأسي به أولى وإذا خرج خرج من ثنية كدى بضم الكاف وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا . الرابع : إذا دخل مكة واتى إلى رأس الردم فمعه يقع بصره على البيت فيقول : لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت إذا الجلال والاكرام اللهم إن هذا بيتك عظمت وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجه برا وكرامة اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعزني من الشيطان الرجيم . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبه وليقل : بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك وليفزع يديه وليقل اللهم إني أسألك في مقامى هذا في أول مناسكى أن تقبل توبتي وأن تتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جنتك أطلب رحمتك وأعمالك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجي لرحمتك الطالب لمرضااتك . السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتي أديتها وميثاقي وفيتها

(١) حديث إنكم لاتنادون أصم ولا غابيا متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث كان إذا أعجبه شيء قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة الشافعي في للسند من حديث مجاهد مرسلنا نحوه ولحاكم وصححه من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك قال إنما الحخير خير الآخرة (٣) حديث دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء بفتح الكاف متفق عليه من حديث ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالبطحاء الحديث .

إلى معنى عتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ماذا كراهه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة فما أعجب قول عبد الله ابن مسعود ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها وهذا الكلام معرض لكل طالب صاحب همة أن يصنى موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه فالصوفي بكمال الزهد في الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد وله بكل فهم عمل جديد فقههم يدعو إلى العمل وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب فمن

أشهدلى بالموافاة فان لم يستطع التقييل وقف فى مقابلته ويقول ذلك ثم لا يرجع على شئ دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يحد الناس فى المكتوبة فيصل معهم ثم يطوف .

(الجملة الرابعة فى الطواف)

فاذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما للخروج فينبغى أن يراعى أموراً ستة . الأول : أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والحجث فى التوب والبدن والسكان وستر البورة فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام وليضطجع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجمل وسط رداءه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبيه الأيسر فيرخى طرفا رداء ظهره وطرفاً على صدره ويقطع التلية عند ابتداء الطواف ويستغل بالأدعية التى سذكرها . الثاني : إذا فرغ من الاضطجاع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتبع عنه قليلاً ليكون الحجر قدماه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فانه أفضل ولكيلاً يكون طائفاً على الشاذروان فانه من البيت وعند الحجر الأسود قد يصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به والطائف عليه لا يصح طوافه لأنه طائف فى البيت والشاذروان هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الوقف يبتدىء الطواف . الثالث : أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك وإتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويطوف فأول ما يجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام المائدة بك من النار وعند ذكر المقام يشير بيده إلى مقام إبراهيم عليه السلام : اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحرم لحى ودمى على النار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفى مؤنة الدنيا والآخرة ثم يسبح الله تعالى ويمحده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء النظر فى الأهل ولئال والولد فاذا بلغ اليزاب قال اللهم أظننا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم استغنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا تظمأ بعدها أبداً فاذا بلغ الركن الشامى قال اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم فاذا بلغ الركن اليمانى قال اللهم إنى أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة الهيا والمات وأعوذ بك من الخزي فى الدنيا والآخرة ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار فاذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفر لى برحمتك أعوذ رب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط . الرابع : أن يرمى فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخرى على الهيئة المعتادة ومعنى الرمل الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد والقصد منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة (١) والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فان لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل

(١) حديث مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة أما الرمل فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقالوا لئن لم يمشوا لكانوا قد قدموا عليهم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يملوا الأشواط الثلاثة الحديث وأما الاضطباع

القوم علم ومن العلم عمل
والعلم والعمل يتناوبان
فيه وهذا العمل آتفا
إتفا هو عمل القلوب
وعمل القلوب غير عمل
القلب وأعمال القلوب
للقوم وسداقها
مشاكله للعلوم لأنها
نيات وطويات
وتقطعات روحية
وتأديبات قلبية
ومسامرات سرية وكلا
أنوا يعمل من هذه
الأعمال رفع لهم علم
من العلم وطلوعاً على
مطلع من فهم الآية
جديد وبخارج سرى
أن يكون للطلع ليس
بالوقوف بصفاء الفهم
على دقيق المعنى وغامض
السرى فى الآية ولكن
المطلع أن يطلع عند
كل آية على شهود
التكلم بها لأنها
مستودع وصف من
أوصافه ونعت من
نعمته فتجسد له
التجليات بتلاوة الآيات
وسماعها ويصير له
مراء منبئة عن عظيم
الجلال ولقد نقل عن
جعفر الصادق رضى
الله عنه أنه قال لقد

فليخرج إلى حاشية اللطاف وليرمل ثلاثاً ثم يقرب إلى البيت في الزدحم وليجش أربعا وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب وإن منعه الرحمة أشار باليد وقبل يده وكذلك استلام الركن الباني يستحب من سائر الأركان وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن الباني (١) وقبله (٢) ويضع خده عليه (٣) » ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر في الركن الباني على الاستلام أغنى عن اللبس باليد فهو أولى : الخامس إذا تم الطواف سبعا فليأت للترزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة وليلزق بالبيت وليلتصق بالأستار ويلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه وليقل : اللهم يارب البيت العتيق أعنتي رقبتي من النار وأعنتي من الشيطان الرجيم وأعنتي من كل سوء وقعنني بما رزقتني . وبارك لي فيما آتيتني اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام المائدة بك من النار اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك ثم ليحمد الله كثيرا في هذا للوضع وليلصق على رسوله ﷺ وعلى جميع الرسل كثيرا وليدع بعوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف في هذا للوضع يقول لمواليه تحوا عني حق أقر لربي بذنوبي . السادس : إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف للقيام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهري مضت السنة أن يصلي لكل أسبوع ركعتين (٤) وإن قرن بين أسايح وصلى ركعتين جاز (٥) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل اللهم يسر لي اليسرى وجنبني اليسرى واغفر لي في الآخرة والأولى واعصني بأطرافك حق لأصعبك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبني مضاصيك واجعلني ممن يحبك ويعب ملائكتك ورسلك ويعب عبادك الصالحين اللهم حبيبي إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكها هديتي إلى الإسلام فبنتي عليه بأطرافك وولايتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولاك وأجرني من مضلات الفتن ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف

فروى دة ك وصححه من حديث عمر قال فم الزمان الآن والكشف عن لناكب وقد أظهر الله الإسلام ونفي الكفر وأهله ومع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حديث استلامه صلى الله عليه وسلم للركن الباني متفق عليه من حديث ابن عمر قال رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود الحديث ولما من حديثه لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الأركان إلا البجائين ولمسلم من حديث ابن عباس لم أره يستلم غير الركنتين البجائين وله من حديث جابر الطويل حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن (٢) حديث تقبيله صلى الله عليه وسلم له متفق عليه من حديث عمر أنه قبل الحجر وقال لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك والبخاري من حديث ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه وقبله وله في التاريخ من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن الباني قبله (٣) حديث وضع الحدة عليه قطك من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن الباني الحديث قال ك صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضغفه الجمهور (٤) حديث الزهري مضت السنة أن يصلي لكل أسبوع ركعتين ذكره ك تعليقا السنة أفضل لم يظف النبي صلى الله عليه وسلم أسبوعا إلا صلى ركعتين وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف للقيام ركعتين (٥) حديث قرأه صلى الله عليه وسلم بين أسايح ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ورواه ع في الضعفاء وابن شاهين في أماليه من حديث أبي هريرة

نجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يصرون فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه فالحد حد الكلام والمطلع الترقى عن حد الكلام إلى شهود للتكلم . وقد نقل عن جعفر الصادق أيضا أنه خر مغشبا عليه وهو في الصلاة فسل عن ذلك فقال ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من التكلم بها فالصوفي لما لاح له نور ناضية التوحيد وألقى صمعه عند صماع الوعد والوعيد وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدي الله حاضرا شهيدا يرى لسانه أو لسان غيره في التسلاوة كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمع الله منها خطابه إياه بأن أنا الله فإذا كان صمعه من الله تعالى واستماعه إلى الله صار صمعه بصره وبصره سمعه وغلظه عمله وعمله علمه وعاد آخره وأوله وأوله آخره ومعنى ذلك أن الله تعالى

قال صلى الله عليه وسلم « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة (١) » وهذه كيفية الطواف والواجب من حجته بمشروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت وأن يتدبى بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل للمسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا في الحجر وأن يوالى بين الأشواط ولا يفرقها بغير يقا خارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيات .

(الجملة الخامسة في السعي)

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذة الضلع الذي بين الركن اليماني والحجر فإذا خرج من ذلك الباب واتى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له السكبة (٢) . وابتداء السعي من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ولكن بعض تلك الدرج مستحذنة فينبغي أن لا يغلفها وراء ظهره فلا يكون متمما للسعي وإذا ابتداء من ههنا سعى بينه وبين البروة سبع مرات وعند رقيه في الصفا ينبغي أن يستقبل البيت ويقول الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا للهدى بحمده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحصى من اللبت ويخرج اللبت من الحصى ويهيئ الأرض بمد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون - اللهم إني أسألك إعانة دائما وبقينا صادقا وعلمنا نافعا وقلبا خاشعا ولسانا ذا كرا وأسألك العفو والعافية والمعاينة في الدنيا والآخرة وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء ثم ينزل ويتدبى السعي وهو يقول . رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ويمشى على هيئة حتى يتيمى إلى الليل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا وهو على زاوية للمسجد الحرام فإذا بقي بينه وبين محاذة الليل ستة أذراع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى يتيمى إلى الليلين الأخضرين ثم يعود إلى الهيئة فإذا انتهى إلى البروة صمدها كاصد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء وقد حصل السعي مرة واحدة فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون كما سبق وفي كل نوبة بعد الصفا والبروة فإذا فعل ذلك قد فرغ من طواف القدوم والسعي وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغي أن لا يمد السعي بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن ثم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان

وزاد ثم صلى لكل أسبوع ركعتين وفي إسنادها عبد السلام بن أبي الجيوب منكر الحديث

(١) حديث من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة ت وحسنه ونه من حديث ابن عمر من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة لفظه وقال الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة والبيهقي في الشعب من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة (٢) حديث أنه رقى على الصفا حتى بدت له السكبة م من حديث جابر فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ولهم من حديث أبي هريرة آتى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت

خاطب الذر بقوله - ألت بربكم - فسمعت النداء على غاية الصفاء ثم نزل الذرات تتقلب في الأصلاب وتنقل إلى الأرحام قال الله تعالى - الذي يراك حين تقوم وتقلب في الساجدين - يعنى قلب ذرتك في أصلاب أهل السجود من آباءك الأنبياء فما زالت تنتقل الذرات حتى برزت بين أجسادها فاحتجبت بالحكمة عن القدرة وبالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلماتها بالقلب في الأطوار فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاستماع بأن يصيره صوفيا صافيا لا يزال يرقه في رتب التزكية والتجلي حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى فضاء القدرة ويزال عن بصيرته النافذة سحج الحكمة فيصير معاه - ألت بربكم - كشفا وعيانا وتوحيدا وعرفانه تبياناً وبرهانا وتشرح له ظلم الأطوار في لوايح الأنوار . قال

(الجملة السادسة في الوقوف وما قبله)

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات فلا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطواف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والبيت بها وبالغدو منها إلى عرفة الإقامة فرض الوقوف بعد الزوال إذوقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر فينبغي أن يخرج إلى منى ملياً ويستحب له الشئ من مكة في التماسك إلى انقضاء حجه إن قدر عليه والشئ من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الوقوف أفضل وأكد فإذا انتهى إلى منى قال اللهم هذه منى فامنن على بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك ولحمك هذه البلية بمنى وهو بيت منزل لا يتعلق به نسك فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول: اللهم اجعلها خير غداة غدونها قط وأقرها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدت وإليك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فأجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد فتم ضرب رسول الله ﷺ قبته (١) ونمرة هي بطن عرنة دون الوقوف ودون عرفة وليختل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقصد وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين وقصر الصلاة وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولا يقف في وادي عرفة وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدرة في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم الأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتلهيل والتناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على اللواظبة على الدعاء ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلي نارة ويكب على الدعاء أخرى وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان التلطف في الحلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ثم يقضى العام الآتي وليكن أهم اشتغاله في هذا اليوم الدعاء ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات والدعاء للأئمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) إلا وعن السلف في يوم عرفة أولى ما يدعوه قليل لا إله إلا الله وحده لا شريك له

(١) حديث ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة مسلم من حديث جابر الطويل فأمر بقبته من شعر تضرب له بنمرة الحديث (٢) حديث الدعاء للأئمة في يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحديث من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وقال حسن غريب وله من حديث على قال أكثر ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في الموقف اللهم لك الحمد كالتدى قول وخيراً مما أقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبى ولك رب تراني اللهم إني أعوذ بك من شر ما تنجي به الريح وقال ليس بالقوى إسناداً وروى المستنظري في الدعوات من حديثه ياطي إن أكثر دعاء من قبل يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في صري نوراً وفي قلبي نوراً اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري

بضمهم أنا أذكر خطاب ألت بربكم إشارة منه إلى هذا الحال فإذا عقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤبداً ومعاها متواليات متجدداً يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع . قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر . وقال بعضهم تعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام وقيل من حسن الاستماع أهال للتكلم حتى يقضى حديثه وقلة التفت إلى الجوانب والاقبال بالوجه والنظر إلى التكلم والوعى قال الله تعالى لنبيه عليه السلام - ولا تمجّل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وحيداً وقال لا تحرك به لسانك لتعجل به - هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع قيل معناه لا تمهله على الصحابة حتى تتدبر

معانيه حتى تكون
أنت أول من يخلص
بفرائده وبجانبه وقيل
كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذا نزل عليه
جبريل عليه السلام
وأوحى إليه لا يفتر من
قراءة القرآن مخافة
الانقلاط والنسيان
فنهاه الله تعالى عن
ذلك أي لا تجعل
بفرائده قبل أن يغفر
جبرائيل من إلقائه
إليك وقد تكون
مطالعة العلوم وأخبار
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بمعنى السماع
وبمحتاج الطالع للعلوم
والأخبار وسير أهل
الصلاح وحكاياتهم
 وأنواع الحكم والأمثال
 التي فيها نجاة من
عذاب الآخرة أن
يكون في ذلك كله
متأدبا بأداب حسن
الاستماع لأنه نوع من
ذلك وكأن القلب
استمد بحسن الاستماع
بالتزادة والتقوى حتى
أخذ من كل ما سمعه
أحسنه فيكون أخذاً
بالمطالعة من كل شيء
أحسنه ومن الأدب

له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في قلبي
نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وفي لساني نورا اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري ولينقل
الله رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيرا مما تقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي
وإليك ثوابي اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر اللهم إني أعوذ بك
من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تهب به الرياح ومن شر بوائقي اللهم
إني أعوذ بك من تهوّل طاقتك وجفأة قمتك وجميع سخطك اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في
الآخرة والأولى يا خير مقصود وأسنى منزل به وأكرم مسئول مالهيه أعطني العشية أفضل ما أعطيت
أحدًا من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين اللهم بارفيع الدرجات ومنزل البركات وإفاطر الأرضين
والسموات خبّث إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن لا تنساني في دار
البلاء إذا نسيت أهل الدنيا اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سرّي وعلائي ولا يغني عنك
شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجه الشفق المعترف بذنبي أسألك مسألة للسكين
وأبتل إليك ابتهاك للذنوب الدليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت
لك عبرته وذلك لك جسده ورغم لك آفة اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن برب رحما يا خير
السؤولين وأكرم المعطين إلهي من مدح لك نفسه فاني لا أحمق إلهي أخرست للعاصي لساني فإني
وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاها ولا للاعتذار وجهها
ولكنك أكرم الأكرمين إلهي إن ما كن أهلا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهدأ من أن تبلغني ورحمتك
وسمت كل شيء وأنا شيء إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظما ولو لكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي
يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا أنا العواد إلى الذنوب وأنت العواد إلى المغفرة إلهي إن كنت لا ترحم
إلا أهل طاعتك فإني من يفرغ الذنوبون إلهي تجنبت عن طاعتك عمدا وتوجهت إلى مصيبتك
قصدا فسبحانك ما أعظم حجتك عليّ وأكرم عفوك عني فبوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتك
عني وقرى إليك وغناك عني إلا غفرت لي يا خير من دعاء داع وأفضل من رجاء راج عزيمة
الاسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقعي هذا مقضى
الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فها تحيت إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمته فلا تحرمني الرجاء
الذي عرفته إلهي ما أنت صانع العشية بعد مكر لك بذنبي خاشع لك بذنبي مستكين بجرمه متضرع
إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتل إليك في الغفوة عنه طالب إليك
نجاح حوائجه راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن من أحسن
فبرحمتك يهوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك اللهم إليك خرجنا وبنائك أئنا وإياك أملنا وما عندك
طلبنا وإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأنقال الذنوب هربنا
وليبتك الحرام حجبنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين يامن ليس معه رب يدعي ويامن
ليس فوقه خالق يخشى يامن ليس له وزير يؤتي ولا حاجب يرشئ يامن لا يزاد على كثرة السؤال
الله إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وقتة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج
في النهار وشر ما تهب به الرياح ومن شر بوائقي اللهم اهدني بالهدى واسأله ضعيف وروى الطبراني في المعجم الصغير
من حديث ابن عباس قال كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشة عرفة اللهم إنك ترى
مكاني وتسمع كلامي وتعلم سرّي وعلائي ولا يغني عنك شيء من أمري أنا البائس الفقير فذكر
الحديث إلى قوله يا خير للسؤولين ويا خير المعطين وإسناده ضعيف وباقي الدعاء من دعاء بعض السلف
وفي بعضه ما هو مرفوع ولكن ليس مقبدا بموقف عرفة .

إلا جودا وكرما وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلا وإحسانا اللهم إنك جعلت لكل صيف قرى ونحن
أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية
ولكل راج ثوابا ولكل ملتمس لما عندك جزاء ولكل مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك
زلفى ولكل متوسل إليك عفوا وقد وقفنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه الشاعر العظام وشهدنا هذه
الشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا إلهنا تابعت النعم حتى اطمانت الأنفس بتتابع نعمك
وأظهرت العبر حتى نطق الصوامت بهجتك وظهرت للنعم حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك
وأظهرت الآيات حتى أفصح السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك
وعنت الوجوه لعظمتك إذا أنشأت عبادك حلت وأمهلت وإن أحسنوا نفضت وقبلت وإن عصوا
سترت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا
وليناعنك دعوت إلهنا إنك قلت في كتابك المبين الحمد خاتم النبيين - قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم
ما قد سلف - فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد محبتين ولحمد
بالرسالة مخلصين فاعف لنا بهذه الشهادة سوائف الأجرام ولا تجعل حظنا فيه أقص من حظ من دخل
في الإسلام إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بتق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالفضل
فاعتقنا وإنك أمرتنا أن تصدق على قرائنا ونحن قراءوك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا وصيتنا
بالعفو عن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار . وليكثر من دعاء الحضرة عليه
السلام وهو أن يقول يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشبهه عليه الأصوات يا من
لا تفلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات يا من لا يرميه إلحاح الملحين ولا تفجره مسئلة السائلين أذنا
برد عفوك وحلاوة مناجاتك وليمع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليمع
في الدعاء وليعظم المسئلة فإن الله لا يتعاضده شيء وقال مطرف بن عبد الله وهو برفة الله لا ترد الجميع من
أجبي وقال بكر الزني قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم .
(الجملة السابعة في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من البيت والرمي والنحر والحلق والطواف)

فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغي أن يكون على السكينة والوقار وليجنب وجيف الحيل
وإضاع الأبل كما يعتاده بعض الناس فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الحيل وإضاع
الأبل وقال : اتقوا الله وسروا سيراجملا لا تطشوا ضعيفا ولا تؤذوا مسلما » (١) فاذا بلغ الزدلفة اغتسل لها
لأن للزدلفة من الحرام فليدخله بفسل وإن قدر على دخوله ماشيا فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم
ويكون في الطريق رافعا صوته بالتلبية فاذا بلغ للزدلفة قال اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها السنة مختلفة
تسألك حوائج مؤتلفة فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيتها ثم يجمع بين المغرب والعشاء
بمزدلفة في وقت العشاء قاصرا له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ولكن يجمع نافلة للمغرب والعشاء والوتر
بعد الفريضتين ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين فإن ترك النوافل في السفر خسران
ظاهر وتكليف إيقاعها في الأوقات إضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض فاذا جاز أن يؤدي
النوافل مع الفرائض بتمام واحد بحكم التبعية فبأن يحوز أدائها على حكم الجمع بالتبعية أولى ولا يمنع من

(١) حديث نهى النبي عن وجيف الحيل وإضاع الأبل ذلك وصححه من حديث أسامة بن زيد
عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إضاع الأبل وقال لك ليس البر بإجفاف الحيل والإبل
وللبخاري من حديث ابن عباس فإن البر ليس بالإضاع .

في المطالبة أن العبد إذا
أراد أن يطالع شيئا
من الحديث والعلم يعلم
أنه قد تكون مطالعة
ذلك بداعية النفس
وقلة صبرها على الذكر
والتلاوة والعمل
فتستروح بالمطالبة
كما تستروح بمجالسة
الناس ومكالمتهم
فليتفقد للتغلب نفسه
في ذلك ولا يستحلي
مطالبة الكتب إلى حد
يأخذ ذلك من وقته
ويراعى الإفراط فيه
فاذا أراد مطالعة
كتاب أو شيء من العلم
لا يسادر إليه إلا
بعد التثبت والانتابة
والرجوع إلى الله تعالى
وطلب التأيد من
رحمة الله تعالى فيه
فانه قد يرزق بالمطالبة
ما يكون من مزيد
حاله ولو قدم الاستغارة
لذلك كان حسنا فإن
الله تعالى يفتح عليه باب
الفهم والتفهيم موهبة
من الله زيادة على
ما يتبين من صورة
العلم فله علم صورة ظاهرة
وسرى باطن وهو الفهم
والله تعالى به على

هذا مفارقة النفل للفرض في جواز أدائه على الراحة لما أومأنا إليه من التبعة والحاجة ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت نيك ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت عليه دم وإحياء هذه الليلة الشريف من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انصف الليل أخذ في التأهب للرجل ويزود الحصى منها فقيها أحجار رخوة فليأخذ سبعين حصة فانها قدر الحاجة ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها وتسكن الحصى خفافا بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم ثم ليغسل صلاة الصبح وليأخذ في السير حتى إذا انتهى إلى للشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الاسفار ويقول اللهم بحق للشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والقام بلع روح محمدنا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان راجلا أسرع في المشي ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى فينتهي إلى منى ومواقع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جملة العقبة وهي على عين مستبيل القبلة في الجادة والمرمى مرتفع قليلا في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح وكيفيته أن يقف مستقبلا القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرمى سبع حصيات رافعا يده ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصة الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله وصفة التكبير أن يقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له محاصنين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ثم ليذبح الهدى إن كان معه والأولى أن يذبح نفسه وليقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقرة ثم بالشاة وأفضل من مشاركة ستة في البدنة والبقرة والضأن أفضل من العز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من البهراء والسوداء»^(١) وقال أبو هريرة البيضاء أفضل في الأضحية من دم سوداوين وليأكل كل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحى بالرجاء والجذعاء والضباء والجرعاء والشرعاء والحرعاء والمقابلة والمدايرة والعجفاء والجذع في الأنف والأذن للقطع منهما والعضب في القرن وفي نقصان القوائم والشرعاء المشقوقة الأذن من فوق والحرعاء من أسفل والمقابلة المخروقة الأذن من قدام والمدايرة من خلف والعجفاء المهزولة التي لا تنقي أي لامخفة من الهزال ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدىء بتقديم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بهاسيئة وارفع لي بها عندك درجة والمرأة تقصر الشعر والأصبع يستحب له إمرار الموصى على رأسه ومه ما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحله كل المظهورات إلا النساء والعيد ثم يفيض إلى مكة ويطوف كإصغاف وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ولكن يبق مقيدا بعلقة الاحرام فلا تحل له النساء إلى أن يطوف فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ولم يبق إلا رمى أيام التشريق والمبيت عني وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج وكيفية هذا الطواف

شرف القهم بقوله
- قهمناها سليمان
وكلا آتيناهما حكما وعلما -
أشار إلى القهم بمزيد
اختصاص وتبذير عن
الحكم والعلم قال الله
تعالى - إن الله يسمع
من يشاء - فإذا كان
للسمع هو الله تعالى
يسمع تارة بواسطة
اللسان وتارة بما يرزق
بمطالمة الكتب من
التيان فصار ما يفتح
الله تعالى بمطالمة
الكتب على معنى
ما يرزق من السموع
يركة حسن الاستماع
ليتقن العبد حاله
في ذلك وتعلم علمه
وأدبه فانه باب كبير
من أبواب الخير وعمل
صالح من أعمال الشايع
والصوفية والعلماء
الزاهدين التبتلين
لاستفتاح أبواب
الرحمة وللمزيد من كل
شئ ينفع سلوك الآخرة
[الباب الثالث في بيان
فضيلة علوم الصوفية
والإشارة إلى آعوذج
منها]

حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب

مع الركنين كما سبق في طواف القدوم فإذا فرغ من الركنين فليسمع كإصغافاً لم يكن سمي بعد طواف القدوم وإن كان قد سمي قد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يبدأ السعي . وأسباب التحلل ثلاثة الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحداً التحللين ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع التبع ولكن الأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهي خطبة وداع رسول الله ﷺ في الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر^(١) وخطبة يوم النفر الأول وكلها عقيب الزوال وكلها أفراد إلا خطبة يوم عرفة فاتها خطبتان بينهما جملة ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للبيت والرمي فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القر لأن الناس في غد يقدرون بمنى ولا ينفرون فإذا أصبح اليوم الثاني من الصيود زالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجرة الأولى التي على عرفة وهي على عين الجادة ويرمي إليها بسبع حبات فإذا تمداها انحرف قليلاً عن عين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على السماء ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمي كرامى الأولى ويقف كواقف للأولى ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرمي مباحواً ولا يرجع على شغل بل يرجع إلى منزله ويبين تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق رمي في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالأيوم التي قبله ثم هو غير بين للقيام بمنى وبين العود إلى مكة فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل زمه للبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني أحد عشر حجراً كما سبق وفي ترك البيت والرمي إراقة دم وليتصدق باللحم وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك^(٢) ولا يتركن حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الحيف فإن فضله عظيم فإذا أقاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلي العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة^(٣) فهو السنة رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم فإن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه .

(الجلة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع)

من أراد أن يستمر قبل حجة أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام كما سبق في الحج ومحرم بالعمرة من ميقاتها وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية وينوي العمرة ويلبي ويقصد مسجد عائشة رضى الله عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل للمسجد الحرام فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا فإذا فرغ حلق رأسه وقد

غريب وغفير يضعف في الحديث (١) حديث الخطبة يوم النحر وهي خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم مخ من حديث أبي بكره خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر وله من حديث ابن عباس خطب الناس يوم النحر وفي حديث علقه وخ ووصله من حديث ابن عمر وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم التحريين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال أي يوم هذا الحديث وفيه ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع (٢) حديث زيارة البيت في ليالي منى والبيت بمنى د في الراسل من حديث طاوس قال أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفيض كل ليلة من ليالي منى قال د وقد أسندت وصله ابن عدى عن طاوس عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يزور البيت أيام منى وفيه عمرو بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد ولأبي داود من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالي أيام التشريق (٣) حديث نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقوده رقدة مخ من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالطحاء ثم هجع هجعة الحديث .

السهروردي رحمه الله قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفي قال أنا عبد الرحمن ابن محمد قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي قال أنا أبو عمران السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال حدثنا سفيان بن حماد قال حدثنا بقية عن الأحوص ابن حكيم عن أبيه قال سألت رجلاً النبي عليه السلام عن الشر فقال « لا تسألوني عن الشر وسألوني عن الخير » يقولها ثلاثاً ثم قال « إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خير العلماء » فالعلماء أدلاء الأمة وعمد الدين وسراج ظلمات الجهالات الجبلية وبقايا ديوان الاسلام ومعادن حكم الكتاب والسنة وأمناء الله تعالى في خلقه وأطباء العباد وجهابذة الملة الحنيفة وحمة عظيم الأمانة فهم أحق الخلق بمخافتة التقوى وأحوج

تنت عمرته والقيم بكمه ينبغي أن يكثر الاعتبار والطواف وليكثر النظر إلى البيت فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافيا موقرا قيل لبعضهم هل دخلت بيت ربك اليوم فقال والله ما أرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيتي فكيف أراها أهلا لأن أطأ بهما بيت ربى وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا وليكثر شرب ماء زمزم وليستق يده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع ويلقى اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الاخلاص واليقين والمغافاة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له » (١) « أى يشفى ما قصده .

متعد . قال سفيان

ابن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم وأعلم الناس من عمل بما يعلم وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعله فليس بعالم فلا يترك تشدقه واستطائه وحذاته وقوته في المناظرة والمجادلة فانه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه بركة العلم فان العلم في الاسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم والعلم فريضة وفضيلة فالفريضة ما لا بد للانسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة وكل علم

تنت عمرته والقيم بكمه ينبغي أن يكثر الاعتبار والطواف وليكثر النظر إلى البيت فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافيا موقرا قيل لبعضهم هل دخلت بيت ربك اليوم فقال والله ما أرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيتي فكيف أراها أهلا لأن أطأ بهما بيت ربى وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا وليكثر شرب ماء زمزم وليستق يده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع ويلقى اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الاخلاص واليقين والمغافاة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له » (١) « أى يشفى ما قصده .

متعد . قال سفيان

ابن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم وأعلم الناس من عمل بما يعلم وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعله فليس بعالم فلا يترك تشدقه واستطائه وحذاته وقوته في المناظرة والمجادلة فانه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه بركة العلم فان العلم في الاسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم والعلم فريضة وفضيلة فالفريضة ما لا بد للانسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة وكل علم

(الجملة التاسعة في طواف الوداع)

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فليجز أو لا أشغاله وليشدر حاله وليجعل آخر أشغاله ووداع البيت ووداعه بأن يطوف به سبعا كسابق ولكن من غير رمل واضطباع فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتي الملتزم ويدعو ويضرع ويقول اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمك حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أعنتني على قضاء مناسكك فان كنت رضية عني فازدد عني رضا وإلا فمن الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أو انصرفي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا بيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك اللهم أمحبنى المغافاة في بدنى والعصمة في ديني وأحسن من قلبي وارزقني طاعتك أبدا ما بقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فموضى عنه الجنة والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

(الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها)

قال صلى الله عليه وسلم « من زارني بعد وفاتي فساكنما زارني في حياتي » (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم « من وجد سعة ولم يقد جفاني » (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم « من جاءني زائرا لايهمه إلا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا » (٤) « فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيرا فاذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب وليقتل قبل الدخول من بر الحرة ولينظف ثيابه فاذا دخلها فليدخلها متواضعا معظما وليقل بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بمجنب التبر ركعتين ويجعل عمود التبر حذاء منسكه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد وليجهد أن يصلي في المسجد

(١) حديث ماء زمزم لما شرب له . من حديث جابر بسند ضعيف ورواه قط و ك في المستدرک من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الاسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجارودي قال ابن القطان سلم منه فان الخطيب قال فيه كان صدوقا قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد ابن هشام الروزى (٢) حديث من زارني بعد وفاتي فساكنما زارني في حياتي الطبراني والدارقطنى من حديث ابن عمر (٣) حديث من وجد سعة ولم يقد إلى قد جفاني ابن عدى والدارقطنى في غرائب مالك وابن حبان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر من حج ولم يزرنى قد جفاني وذكره ابن الجوزى في الموضوعات وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس مامن أحدهم أمى له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر (٤) حديث من جاءني زائرا لايهمه إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعا الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن .

الأول قبل أن يزاد فيه ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولأن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا بني الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفوة الله السلام عليك يا خيرة الله السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماضي السلام عليك يا قاب السلام عليك يا حاضر السلام عليك يا بشير السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طهر السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يا فاتح البر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك يا قائد الفتح المجيد السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته وصلى عليك كما ذكرك الله اذكرون وكما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استغفرك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجاهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين صلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول السلام عليك من فلان السلام عليك من فلان ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق رضي الله عنه ويقول السلام عليك يا وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزا كما الله خير ما جزى وزير نبى عن دينه ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبر والاسطوانة اليوم ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل ولیمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ثم يقول اللهم إني قد قلت وقل لك الحق ولو أنهم إذ ظلوا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لو جدوا الله توأما راحبا - اللهم إنا قد صمنا قولك وأطعنا أمرنا وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما نأكل ظهرونا من أوزارنا تائبين من زللنا متعثرين بخطايانا وتقصيرنا كتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلة عندك وحقه عليك اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان اللهم لا تجعل آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين ثم يأتي الروضة فيصل إلى فيماركتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله ﷺ « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » (١) ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة (٢) ويستحب له

(١) حديث ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله بن زيد (٢) حديث وضعه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المنبر لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن بن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم يديه الكرمتين إذا جلس شبرا وأصبعان .

لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كائنا ما كان فهو رذيلة وليس بفضيلة يزاد الإنسان به هوانا ورذيلة في الدنيا والآخرة فالعلم الذي هو فريضة لا يبع الإنسان جهله على ما حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب قال أنا الحافظ أبو القاسم للشمس قال أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري قال أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهاني قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن عامر السكري قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو حنيفة عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

أن يأتي أحدا يوم الخميس ويזור قبور الشهداء فيصلى القداء في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويזור قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما وفيه أيضا قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ويصل في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويזור قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية حمة رسول الله ﷺ فذلك كله بالبقيع ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصل فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصل فيه كان له عند حمزة (١) « ويأتي بئر أريس يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيها وهي عند المسجد فتوضأ منها وشرب من مائها (٢) ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق وكذا يأتي سائر المساجد والشاهد ويقال إن جميع للشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضأ منها ويشرب منها (٣) وهي سبع آبار طلبا للشفاء وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم

(١) حديث من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصل فيه كان عند حمزة النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف باسناد صحيح (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل في بئر أريس لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه نزل في بئر البصة وبئر غرس كما سيأتي عند ذكرها (٣) حديث الآبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويشرب منها وهي سبعة آبار . قلت وهي بئر أريس وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جل . فحديث بئر أريس رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه حتى دخل بئر أريس قال فجلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ الحديث . وحديث بئر رومة متفق عليه من حديث أنس قال كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بئر رومة وكانت مستقبلة للمسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب الحديث . وحديث بئر رومة رواه تان من حديث عثمان أنه قال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم للمدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين الحديث قال ت حديث حسن ، وفي رواية لها هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بائنه فابتعتها فجعلتها لغني والفقير وابن السيل الحديث وقال حسن صحيح وروى البقوي والطبراني من حديث بشير الأسلمي قال لما قدم المهاجرون للمدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القرية بعد الحديث . وحديث بئر غرس رواه ابن جبان في الثقات من حديث أنس أنه قال اتوني بماء من بئر غرس فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ولابن ماجه باسناد جيد مرفوعا إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئر بئر غرس وروينا في تاريخ المدينة لابن النجار باسناد ضعيف مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ منها وشرق فيها وغسل منها حين توفي . وحديث بئر بضاعة رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتوضأ من بئر بضاعة وفي رواية أنه يستقي لك من بئر بضاعة الحديث قال يحيى بن معين إسناده جيد وقال ت حسن والطبراني من حديث أبي أسيد يثق النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بضاعة وروينا أيضا في تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد وحديث بئر البصة

واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة قال بعضهم هو طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال لأن الاخلاص مأمور به كأن العمل مأمور به قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين - فالاخلاص مأمور به وخدم النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تحرب مباني الاخلاص للمأمور به فصار علم ذلك فرضا حيث كان الاخلاص فرضا وما لا يصلح العبد إلى الفرض إلا به صار فرضا وهو بعضهم معرفة الحواطر وتفصيلها فريضة لأن الحواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولة الشيطان فلا يصح الفعل إلا بصحتها فصار علم ذلك فرضا حتى يصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم هو طلب علم الوقت . وقال سهل ابن عبد الله هو طلب

قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فانه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة »^(٢) ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فليستحب أن يأتي القبر الشريف ويصعد دعاء الزيارة كما سبق ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زينت للقصور في السجدة فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً ثم اليمنى وليقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعل آخر العهد بنبينا وحط أوزاري بزيارته وأصحبني في سفرى السلامة وسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالماً بأرحم الراحمين وليصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه وليتبع للساجد التى بين المدينة ومكة فيصل فيها وهي عشرون موضعا .

(فصل فى سنن الرجوع من السفر)

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده »^(٣) وفى بعض الروايات « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبى أن يستعمل هذه السنة فى رجوعه وإذا أشرف على مدينته يهرك الله باليقول اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً ثم يرسل إلى أهله من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بئنة فذلك هو السنة^(٤) ولا ينبى أن يطرق أهله ليلاً فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولاً وليصل ركعتين فهو السنة^(٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا دخل بيته قال توباً توباً لربنا أو بآ لا ينادر علينا حوباً فإذا استقر فى منزله فلا

رواه ابن عدى من حديث أنس بن سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه يوماً فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسى فان اليوم الجمعة قال نعم فأخرج له سدرًا فخرج معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره فى البصة وفيه محمد بن الحسن بن زباله ضعيف وحديث بثر السقى رواه د من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستنذب له من بيوت السقى زاد البزار فى مسنده أو من بثر السقى ولأحمد من حديث على خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسقى التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتونى بوضوء فلما توضأ قام الحديث . وأما بثر حمل فى الصحيحين من حديث أبى الجهم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بثر حمل الحديث وصله خ وعلقه م وللشهور أن الأبار بالمدينة تبعة وقد روى الداريمى من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه صبوا على صبيح قرب من آبار شقى الحديث وهو عند خ دون قوله من آبار شقى (١) حديث لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة تقدم فى الباب قبله (٢) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها الحديث تقدم فى الباب قبله (٣) حديث كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر ومازاده فى آخره فى بعض الروايات من قوله وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رواه المحاملى فى الدعاء باسناد جيد (٤) حديث إرسال للسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بئنة كما جديده ذكر الإرسال وفى الصحيحين من حديث جابر كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال أمهوا حتى ندخل ليلاً أى عشاء كي نغتسل الششة ونستحب للنية (٥) حديث صلاة ركعتين فى المسجد عند القدوم من السفر تقدم فى الصلاة .

علم الحال يبنى حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته وقيل هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة وقد ورد « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة وقيل هو طلب علم الباطن وهو ما يزداد به العبد يقيناً وهذا العلم هو الذى يكتب بالصحة وهجالة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقوهم بطريقهم ويرشد هم بهم فهم وراث علم النبي عليه السلام ومنهم يتعلم علم اليقين . وقال بعضهم هو علم البيع والشراء والكساح والطلاق إذا أراد الدخول فى شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه وقال بعضهم هو أن يكون العبد يريد عملاً يحل ما الله عليه فى ذلك فلا يجوز له أن يحصل برأيه

ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى النفلة والهوى والحوض في المعاصي لما ذلك علامة الحج للبرور بل علامته أن يعود زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

(الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة)

(بيان دقائق الآداب وهي عشرة)

الأول : أن تكون النفقة حلالا وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى يكون الهم مجردا لله تعالى والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره وقد روى في خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزهوة وأغنيائهم للتجارة وقراؤمهم للسئلة وقراؤمهم للسمعة (١) » وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تصل بالحج فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص لاسيما إذا كان متجردا بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يملئه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعونة أخيه المسلم باستقاط الفرض عنه وفي مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الوصي بها وللنفذ لها ومن حج بها عن أخيه (٢) » ولست أقول لأهل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الاسلام عن نفسه ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجرا فان الله عز وجل يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا وفي الخبر « مثل الذي يفرز في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجرا مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرا (٣) » فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فانه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى لتيسر لها الارضاع بتليبس حالها عليهم . الثاني : أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكسوم والصادق عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأمراء بالترصدين في الطريق فان تسليم المال إليهم إغانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالأغانة بالنفس فليتلطف في حيلة الخلاص فان لم يقدر فقد قال بعض العلماء ولا بأس بما قاله إن ترك التنفل بالحج والجوع عن الطريق أفضل من إغانة الظلمة فان هذه بدعة أحدثت وفي الاقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين يذل جزية ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فانه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زى الفقراء لم يطالب فهو الذي ساقى نفسه إلى حالة الاضطرار . الثالث التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والافتاق من غير تقثير ولا إسراف

(الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة)

(١) حديث إذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للزهوة وأغنيائهم للتجارة وقراؤمهم للسؤال وقراؤمهم للسمعة الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين فقال تحج أغنياء أمي للزهوة وأوساطهم للتجارة وقراؤمهم للسئلة وقراؤمهم للرياء والسمعة (٢) حديث يدخل الله بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الوصي بها والنفذ لها ومن حج بها عن أخيه حق من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث مثل الذي يفرز ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرا ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الاسناد منكر المتن .

إذ هو جاهل بما له وعليه في ذلك فيراجع عالما يسأله عنه ليحييه على بصيرة ولا يعمل برأيه وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم طلب علم التوحيد فرض فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال ومن قائل يقول إن طريقه النقل . وقال بعضهم إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والالتحاق بالاسلام ولا عيبك في صدره شيء فهو سالم فان حاك في صدره شيء أو توسوس بشيء يقدح في العقيدة أو ابتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن تجرّه إلى بدعة أو ضلالة فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن فهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب للكي رحمه الله هو علم الفرائض الخمس التي بنى عليها الاسلام لأنها اقترنت على المسلمين

بل على الاقتصاد وأعلى بالاسراف التمتع بأطيب الأطعمة والترفيه بشرب أنواعها على عادة الترفيع فأما كثرة البذل فلاسرف فيه إذ لاخير في السرف ولاسرف في الخير كما قيل وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعائة درهم قال ابن عمر رضي الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده في سفره وكان يقول أفضل الحجاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا وقال صلى الله عليه وسلم «الحج البرور ليس له جزاء إلا الجنة قبيل له يا رسول الله ما بر الحج؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام» (١) الرابع: ترك الرفق والفسوق والجدال كأنطق به القرآن والرفق اسم جامع لكل لغو وخنى وخفى من الكلام ويدخل فيه معارضة النساء ومداعبتن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فان ذلك يهيج داعية الجماع المظهور والداعى إلى المظهور محظور والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل والجدال هو اللبالة في الخصومة والمارة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة ويناقض حسن الخلق وقد قال سفيان من رقت فسد حجه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج وللمارة تناقض طيب الكلام فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسايرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كلف الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا هل سمعته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق قال لا فقال ما أراك تعرفه . الخامس: أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بنيه عند موته فقال يا بني حجوا مشاة فان للحجاج للشيء بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال الحسنة بمائة ألف والاستجاب في الشيء في الناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه في الطريق وإن أضاف إلى الشيء الاحرام من ديرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل - وأتموا الحج والعمرة لله وقال بعض العلماء الركوب أفضل لما فيه من الاتقاء والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتتمام حجه وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغي أن يفصل ويقال من سهل عليه الشيء فهو أفضل فان كان يضعف ويؤذى به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة أي شيء فيها أو يكثرى حمارا بدرهم فقال إن كان وزن الدرهم أثقل عليه فالركاء أفضل من الشيء وإن كان الشيء أشد عليه كالأغنياء فالشيء له أفضل فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه ولكن الأفضل له أن يمشى ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى السكاري عوضا عن ابتذال الدابة فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس وتقصان المال لما ذكره غير بعيد فيه . السادس: أن لا يركب إلا زاملة أما الحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف من الزاملة أن لا يستمسك عليها لعنر وفيه معنيان أحدهما التخفيف على البعير فان الحمل يؤذيه والثاني اجتناب زى الترفيع والتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلة قيمتها أربعة دراهم » (٢)

(١) حديث الحج البرور ليس له جزاء إلا الجنة ، قيل ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام أحمد من حديث جابر باسناد لين ورواه الحاكم مختصرا وقال صحيح الاسناد (٢) حديث حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلة قيمتها أربعة دراهم الترمذى في الثمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف .

وإذا كان عملها فرضا صار علم العمل بها فرضا وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك لأن أولها الشهادتان والاخلاص داخل في ذلك لأن ذلك من ضرورة الاسلام وعلم الاخلاص داخل في صحة الاسلام وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضى أن لا يسع مسلما جهله وكل ما تقدم من الأقاويل أحسنها ما يسع المسلم جهله لأنه قد لا يعلم علم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوهه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لمعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله وميل في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر وإلى قول من قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح

وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «خذوا عني مناسككم»^(٢) وقيل إن هذه الهامل أحدثها الحاج وكان الطاء في وقته ينكرونها فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجواقات ورواحل وما رأيت في جميعهم إلا عجلين وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحاج من الزي والحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة فحتمه جوالق فقال هذا نعم من الحاج. السابع أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب في ديوان التكبر للترفيه ويخرج عن حزب الضعفاء والساكنين وخصوص الصالحين فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشمع والاختفاء^(٣) ونهى عن التعم والرفاهية^(٤) في حديث فضالة بن عبيد وفي الحديث «إنما الحاج الشمع التفت»^(٥) ويقول الله تعالى انظروا إلى زوار بيتي قد جاءوا في عشائ غيرا من كل فج عميق^(٦) وقال تعالى - ثم ليقتضوا نفهم - والتفت الشمع والأغبر وقضاؤه بالخلق وقص الشارب والأظفار وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد اخلقوا واخشوشنوا أي البسوا الخلق واستعملوا الخشونة في الأشياء وقد قيل زين الحبيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف فينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم فقد روي أنه عليه السلام كان في سفر فزل أصحابه منزلا فسرحت الابل فنظر إلى أكسية حمر على الأتارب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم^(٧) قالوا قمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الابل. الثامن أن يرفق بالدابة فلا يعملها مالا تطيق والحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي»^(٨) ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة^(٩) وفيه آثار عن السلف. وكان بعض السلف يكثر بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيكون في حسناته ويوضع في ميزانه لافي ميزان للكارى وكل من أدى بهيمة وحملها

(١) حديث طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته تقدم (٢) حديث خذوا عني مناسككم م ن واللفظ له من حديث جابر (٣) حديث الأمر بالشمع والاختفاء البغوي والطبراني من حديث عبد الله بن أبي حنيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعددوا واخشوشنوا واتصلوا وامشوا خفاة وفيه اختلاف ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف (٤) حديث فضالة بن عبيد في النهي عن التعم والرفاهية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن كثير من الإرفاء ولأحمد من حديث معاذ بإك والتعم الحديث (٥) إنما الحاج الشمع التفت ت من حديث ابن عمر وقال غريب (٦) حديث يقول الله تعالى انظروا إلى زوار بيتي قد جاءوا في عشائ غيرا من كل فج عميق الحاكم ومعه من حديث أبي هريرة دون قوله من كل فج عميق وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله ابن عمرو (٧) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فزل أصحابه منزلا فسرحت الابل فنظر إلى أكسية حمر على الأتارب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم الحديث د من حديث رافع ابن خديج وفيه رجل لم يسم (٨) حديث لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي أحمد من حديث سهل ابن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم ومعه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه (٩) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك الطبراني في الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الفجر في السفر مشى ورواه البيهقي في الأدب وقال مشى قليلا وناقته تقاد.

مالا تطيق طول به يوم القيامة . قال أبو الدرداء ليعرله عند الموت بأيتها البعير لا تخصمني إلى ربك فاني لم أكن أحملك فوق طائتك وعلى الجملة في كل كبد حرى أجر فلباع حق الدابة وحق الكارى جميعا وفي زوله ساعة تزويج الدابة وسرور قلب الكارى . قال رجل لابن المبارك احملي هذا الكتاب معك لتوصله فقال حق أستأمر الجمال فاني قد اكرت فأنظر كيف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له وهو طريق الحزم في الورع فانه إذا فتح باب التذلل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا . التاسع أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويحسد أن يكون من محبين النعم ونقيسه وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا قيل في تفسير قوله تعالى - ذلك ومن يظم شعائر الله - إنه تحسينه وتسميته وسوق الهدى من اللبقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده ولترك الكاس في شرائه قد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون الكاس فيهن الهدى والأضحية والرقبة فان أفضل ذلك أغلاء غنا وأنفسه عند أهله وروى ابن عمر « أن عمر رضى الله عنهما أهدى نحية فطلبت منه بثلاثة دنانير فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعهما ويشترى بشمها بدنا فنهأ عن ذلك وقال بل أهدها (١) » وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون وفي ثلثائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود زكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بحمال التعظيم فحز وجل فلن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قل « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بار الحج فقال العج والبعج (٢) » والعج هو رفع الصوت بالتلبية والبعج هو نحر البدن وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإن الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفسا (٣) » وفي الخبر « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « استجدوا هداياكم فانها مطاياكم يوم القيامة » [١] . العاشر أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك فان ذلك من دلائل قبول حجه فان المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعائة درهم وهو بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب

(١) حديث ابن عمر أن عمر أهدى نحية فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعهما ويشترى بشمها بدنا فنهأ عن ذلك وقال بل أهدها أخرجه دوقال انحرها (٢) حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بار الحج فقال العج والبعج واستغربه وءوك وصححه والبرار واللفظ له من حديث أبي بكر وقال الباقر لى الحج أفضل (٣) حديث عائشة ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما الحديث وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال خ إنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) حديث لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا ءك وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة وفي رواية للبيهقي بكل قطرة حسنة قال خ لا يصح وروى أبو الشيخ في كتاب الضحايا من حديث علي أما إنها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع في ميزانك يقولها لفاطمة .

[١] (قوله استجدوا الحج) هذا الحديث لم يخرج له العراقي وهو ليس في نسخة الشرح فله لم يكن في نسخته .

للشيخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا فمروا عن ساق الجد في طلب العلم للفتراض حتى عرفوه وأقاموا الأمور انتهى وخرجوا من عهدته ذلك بحسن توفيق الله تعالى فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى - فاستقم كما أمرت ومن تاب معك - فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها . قال بعضهم من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من للشاهدات القوية والأنوار البينة والآثار الصادقة بالثبوت يرهان عظيم كما قال تعالى - ولولا أن ثبتناك - ثم حفظ في وقت الشهادة ومشافهة الخطاب وهو للزين بمقام القرب والمخاطب على بساط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك خوطب بقوله - فاستقم

ولا يضيع منه شيء عند الله عز وجل ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل باخوانه البطالين إخوانا صالحين وبمحاسن الأمور والفعله بمحاسن الذكروالبقرة .
(بيان الأعمال الباطنة ووجه الاخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الانتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره)

اعلم أن أول الحج الفهم أعنى فهم موقع الحج في الدين ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الاحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الرحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الاحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأعمال كما سبق وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للتذكروعبارة للمعتبرون تنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفظن فلنرمز إلى مفاتها حتى إذا افتتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه . أما الفهم : فاعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالنزعة عن الشهوات والكشف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلة الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل فتركوا الله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال - ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون - فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرده لخدمة الله عز وجل وقرؤوا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم : « أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف (١) » يعني الحج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال هم الصائمون (٢) » فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فحرف البيت العتيق بالاضافة إلى نفسه تعالى ونفسيه مقصدا لعباده وجعل ما حواليه حرما لبيتة تفخيا لأمره وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ووضع على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعنا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا للجلالة واستكانة لعزته مع الاعتراف بتزويجه من أن يغربه بيت أو يكتنفه بلد ليسكون ذلك أبلغ في رفهم وعبوديتهم وأنهم في إذعانهم وانقيادهم ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمي الجار بالأحجار والترديد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وبثمل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية فإن الزكاة إرفاق ووجه مفهوم وللعقل إليه ميل والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكشف عن الشواغل والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل فأما ترددات السعي

(١) حديث سئل عن الرهبانية والسياسة فقال بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف أبوداود ومن حديث أبي أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله رواء الطبراني بانظ إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو واليهيقي في الشعب من حديث أنس رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف (٢) حديث سئل عن السائحين فقال هم الصائمون البهيقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحموظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

كما أمرت - ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التي أمر بها . قيل لأبي حمزة أي الأعمال أفضل قال الاستقامة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « استقيموا ولن تحصوا » وقال جعفر الصادق في قوله تعالى - فاستقم كما أمرت - أي اقتصر إلى الله بصحة العزم ورأي بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام . قال قلت يا رسول الله زوى عنك أنك قلت شيتي سورة هود وأخواتها فقال نعم قال قلت له ما الذي شيتك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم فقال لا ولكن قوله فاستقم كما أمرت فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات الشهادات خوطب بهذا الخطاب وطولب بمحافظ الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية القربون منحهم الله تعالى من

ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلاحظ للنفس ولا أنس للطبع فيها ولا اعتناء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فان كل ما أدرك العقل منه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الليل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرقي والاعتقاد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقا تبدا ورقا (١) » ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الاعتقاد وعلى مقتضى الاستعداد وكان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التبعيدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق وإذا تخطت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأعمال العجيبة مصدره اللغول عن أسرار التبعيدات وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى . وأما الشوق : فالتما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك قاصده قاصدا إلى الله عز وجل وزائره وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في مياده للضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار من حيث إن العين القاصرة القانية في دار الدنيا لا تشرأأ لقبول نور النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطيق احتماله ولا تستمد للاكتحال به تصورها وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استمدت للنظر والإبصار ولكنها قصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لاعماله هذا مع أن الحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فالحري أن يشاق إلى المجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لبيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل . وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وإن من طلب عظيما خاطره يعظم وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه ببدا عن شوائب الرياء والسمة ولتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من أخفى الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمة والمقصود غيره فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . وأما قطع العلائق : فمنه رد اللطام والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة العاصي فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلايه ينادى عليه ويقول له إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فبرذك ولا يقبلك فان كنت راغبا في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد للظالم وتب إليه أولا من جميع للماصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك فان لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء وآخرا إلا الطرد والرد وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدّر أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاده وأهله فان للسافر وماله على خطر إلا من وفى الله سبحانه ولتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فان ذلك بين يديه على القرب وما يتقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو للسفر

(١) حديث لبيك بحجة حقا تبدا ورقا تقدم في الزكاة .

ذلك بقسط ونصيب ثم ألهمهم طلب التهوض بواجب حق الاستقامة ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو علي الجورجاني كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة فان نفسك متحركة في طلب الكرامة وتوربك يطلب منك الاستقامة وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب وذلك أن المجتهدين وللتبدين مسموا بسير الصالحين للتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدا نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ومحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك ولعل أحدهم يتيق من كسر القلب منهما لنفسه في حصة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ولو عدوا سر ذلك لمان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد

يخرج على بعض
المجاهدين الصادقين من
ذلك بابا والحكمة
فيه أن يزداد بما يرى
من خوارق العادات
وآثار القدرة يقينا
فيقوى عزمه على
الرهبة في الدنيا
والخروج من دواعي
الهوى وقد يكون
بعض عباده يكشف
بصرف اليقين ويرفع
عن قلبه الحجاب
ومن كوشف بصرف
اليقين اعتنى بذلك
عن رؤية خوارق
العادات لأن الراد منها
كان حصول اليقين
وقد حصل اليقين فلو
كوشف هذا للرؤى
بصرف اليقين جهه
من ذلك ما لزداد يقينا
فلا تقتضى الحكمة
كشف القدرة
بخوارق العادات
لهذا للوضع لاستغناء
وتقتضى الحكمة
كشف ذلك للآخر
لموضع حاجته فكان
هذا الثاني يكون أم
استعدادا وأهلية من
الأول حيث رزق
حاصل ذلك وهو

والله المصير فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر . وأما الزاد : فيطلبه من
موضع حلال وإذا أحسن من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير
ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتكز أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده التقوى وأن ماعنده
ما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند اللوث ويخونه فلا يبقى معه كالطعام الرطب الذي يفسد في أول
منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متغيرا محتاجا لاجلته له فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى
الآخرة لا تصحبه بسد للوث بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير . وأما الرحلة : إذا
أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه
الشقة وليتكز عنده للركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنابة التي يحمل عليها فان أمر الحج
من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة هو لينظر أ يصلح سفره على هذا للركب لأن يكون زاده لذلك
السفر على ذلك للركب فما أقرب ذلك منه وما يدرى لعل للوث قريب ويكون ركوبه للجنابة قبل
ركوبه للجمل وركوب الجنابة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاج في
أسباب السفر للشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحته وبهمل أمر السفر للستيقن . وأما شراء
توبى الإحرام : فليتكز عنده الكفن وله فيه فانه سير تدى ويتز ثوبى الإحرام عند القرب
من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا في ثياب الكفن
لا محالة فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا محالفا عادته في الثوب والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد
الموت إلا في رزى محالفا لرى الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه محيط كافى الكفن .
وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل في سفر
لا يضاهاى أسفار الدنيا فليحضر في قلبه أنه ما ذابريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد وأنه متوجه إلى ملك
للملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستهضوا قهضوا وقطعوا الملائق
وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليا بقاء البيت
عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى منام ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم وليحضر في قلبه رجاء الوصول
والقبول لا إدلالا بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء
لتحقيقه وعده لمن زار بيته وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته النية في الطريق لقي الله عز وجل
وافدا إليه إذ قال جل جلاله - ومن خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع
أجره على الله - . وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك المقبات : فليتكز فيها ما بين الخروج
من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات وليتكز من هول قطاع
الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات
ومن انفراد عن أهله وأقاربه وحشة القبر وكرهته ووحدته وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله
متزودا لمخاوف القبر . وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل
فارج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا ليك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف مترددا
وعن حولك وقونك متبرقا وعلى فضل الله عز وجل وكرم متكللا فان وقت التلبية هو بداية الأمر وهي
عمل الخطر قال سفيان بن عيينة حج على بن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته
أصفر لونه واشتفض ووقفت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبى فقيل له لم لا تلبى فقال أخشى أن يقال لي
لا ليك ولا سعديك فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يصره ذلك حتى قضى حجه . وقال أحمد
ابن أبي الخوارى كنت مع أبي سليمان الداراني رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا

فأخذته العشية ثم أفاق وقال يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مرظلة بنى إسرائيل أن يقولوا من ذكرى فاني أذكر من ذكرى منهم باللعنة ويحك يا أحمد بلقي أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا ليك ولا سمديك حتى ترد ما في يديك فما نأمن أن يقال لنا ذلك ولتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية في الليقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال وأذن في الناس بالحج ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة محيين لنداء الله سبحانه منقسمين إلى مقرين ومقوتين ومقبولين ومردودين ومترددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الليقات حيث لا يدرون آتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا . وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خالياً ومستحقاً للمقت وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً بالكرم عظيم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وتمام المستجير اللانث غير مضيع . وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم واشكر الله تعالى على تليغته إياك هذه الرتبة وإحاطته إياك بزمرة الوافدين عليه واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصرفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فان كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة . وأما الطواف بالبيت فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فاضلته في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحائزين حول العرش الطائفين حوله ولا تظن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تغتم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتغتم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت للعمود في السموات بازاء الكعبة فان طواف اللاتكة به كطواف الانس بهذا البيت ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الامكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم^(١) والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض الكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى . وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في البايعة استحق اللقت وقدرى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « الحجر الأسود بين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه^(٢) » . وأما التعلق بأستار الكعبة والاتصاف بالمتكزمت فتكزن نيتك في الالتزام بطلب القرب حيا وشوقاً للبيت ولرب البيت وبركا بالمعاسة ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لاني البيت ولتكن نيتك في التعلق بالأستار الإلحاح في طلب للفرقة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بشباب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا

(١) حديث من تشبه بقوم فهو منهم أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح (٢) حديث ابن عباس الحجر بين الله في الأرض يصافح بها خلقه الحديث تخدم في العلم من حديث عبد الله بن عمرو .

صرف اليقين بصير
واسطة من رؤية
قدرة فان فيه آفة
وهو العجب فأغنى
عن رؤية شيء من
ذلك سبيل الصادق
مطالبة النفس
بالاستقامة فهي كل
الكرامة ثم إذا وقع في
طريقه شيء من ذلك
جاز وحسن وإن لم يقع
فلا يزال ولا ينقص
بذلك وإنما ينقص
بالإخلال بواجب حق
الاستقامة فليعلم هذا
لأنه أصل كبير للطالين
فالعلم الزاهدون
ومشايخ الصوفية
والمقربون حيث
أكرموا بالقيام بواجب
حق الاستقامة رزقوا
سائر العلوم التي أشار
إليها للتقدمون كما
ذكرنا وزعموا أنها
فرض فمن ذلك علم
الحال وعلم القيام وعلم
الخواطر وسنشرح علم
الخواطر وتفصيلها في
باب إن شاء الله تعالى
وعلم اليقين وعلم
الإخلاص وعلم النفس
ومعرفتها ومعرفة
أخلاقها وعلم النفس

ولم يفرغ له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يغارق ذيله إلا بالغفو وبذل الأمن في المستقبل . وأما السعي
بين الصفا والروة في فناء البيت : فانه يضاهي تردد المبد بقاء دار الملك جاثيا وذاهبا مرة بعد أخرى
إظهارا للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بين الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري
ما انتهى يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن
يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى وليندكر عند تروده بين الصفا والروة تروده بين كفتي لليزان
في عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والروة بكفة السيئات وليندكر تروده بين الكتبتين
ناظرا إلى الرجحان والتقصان مترددا بين العذاب والنيران . وأما الوقوف بعرفة : فلا ذكر بما ترى
من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على للشاعر
اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم عرصات القيامة واجتماع الأم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيا وطعمهم
في شفاعتهم وتعميم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة
والإقبال إلى الله عز وجل فتعشر في زمرة الفائزين للرحومين وحقق رجائك بالإجابة فالوقوف شريف
والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب المرززة من أوتاد الأرض ولا
يفك للوقوف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب طالما اجتمعت همهم
وتجردت للضراعة والإقبال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إليه أعناقهم وشخصت
نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن أنه يغيب أملهم ويضيع سعيهم
ويدخر عنهم رحمة تفرمهم ولذلك قيل إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى
لم يفر له وكان اجتماع الهمم والاستظهار بما جاور الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هوس
الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في
وقت واحد على صعيد واحد . وأما رمي الجمار : فاقصد به الاتقياد للأمر بإظهار اللق والبودية واتهاضا
لمجرد الامتثال من غير حفظ للعقل والنفس فيه ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له
إبليس لعنه الله تعالى في ذلك للوضع ليدخل على حبه شبهة أو يفتنه بمصيبة فأمره الله عز وجل
أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمه فان خطر لك أن الشيطان عرض له فشاهده فذلك رماه وأما
أنا فليس يمرض لي الشيطان فاعلم أن هذا الحاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفترع زمك
في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجد
والتشهير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة
ترمي به وجه الشيطان وتقصم بظهره إذ لا يحصل إرغام الله إلا بالامتثال أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما
له بمجرد الأمر من غير حفظ للنفس والعقل فيه . وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم
الامتثال فأكل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار (١) فكذلك ورد الوعد
فكلما كان الهدى أكبر وأجزاءه أوفر كان فداؤك من النار أعم . وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك
على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته
وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله
عز وجل ثم جعل تربته فيها وتربة القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما ثم مثل في نفسك مواقع
(١) حديث أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءا من المضحي من النار لم أقف له على أصله في كتاب
الاضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد فان لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يفر لك ما تقدم
من ذنوبك بقوله لفاطمة وإسناده ضعيف .

ومرقتها من أعز
علوم القوم وأقوم
الناس بطريق
التسريع والصوفية
أقومهم بمعرفة النفس
وعلم معرفة أقسام
الدنيا ووجود دقائق
الهوى وخفايا شهوات
النفس وشهواتها وشهوات
وعلم الضرورة ومطالبة
النفس بالوقوف على
الضرورة قولاً وفعل
ولبسا وخلما وأكلا
ونوما ومعرفة حقائق
التوبة وعلم خفي
الذنوب ومعرفة سيئات
هي حسنات الأبرار
ومطالبة النفس بترك
ملا يبنى ومطالبة
الباطن بحصر خواطر
العصية ثم بحصر
خواطر الفصول ثم علم
للمراقبة وعلم ما يندح
في المراقبة وعلم المحاسبة
والرعاية وعلم حقائق
التوكل وذنوب التوكل
في توكله وما يندح في
التوكل وما لا يندح
والفرق بين التوكل
الواجب بحكم الإيمان
وبين التوكل الخاص
المختص بأهل العرفان
وعلم الرضا وذنوب

أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه مامن موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينته ووجل وتذكر مشيته وتخطيه في سككها وتصوّر خشوعه وسكينته في الكى وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حق قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمة ولو برفع صوته فوقه . تذكر مامن الله تعالى به على الدين أدركوا محبته وسعدوا بعشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسّفك على ما فاتك من محبته ومحبّة أصحابه رضى الله عنهم ثم اذكر أنك قد فاتت رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر وأنك تجر بما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبينه بقوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد يا محمد فاقول يا رب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا ^(١) » فان تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعد ذلك عن محبته وليعظم مع ذلك رجاءك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره إذ صحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتت رؤيته لما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بين الرحمة فإذا بلغت للسجد فاذا ذكرتها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصاة وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعا معظما وما أجدر هذا للكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال حج أويس القرني رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ففتش عليه فلما أفاق قال أخرجوني فليس يلقى بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون . وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفناه وتزوره ميتا كما تزوره حيا ولا تقربه من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ما تلابس يديه فكذلك فافعل فان للسّ والتّخيل للشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يلفه سلامك وصلاتك فمثل صورته الكريمة في خيالك موضوعا في الأحد بازائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك قد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يلفه سلام من سلم عليه من أمته ^(٢) » هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقا إلى لقائه ولاكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريم وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشرا ^(٣) » فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته يديه ثم اتى منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل في قلبك طلعت البية كأنها على المنبر وقد أحرق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحتمهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وسل الله عز وجل أن لا يفرق

- (١) حديث يرفع الله إلى أقوام فيقولون يا محمد يا محمد فاقول يا رب أصحابي فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله يا محمد يا محمد
- (٢) حديث إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يلفه سلام من سلم عليه من أمته ن ح ك من حديث ابن مسعود بلفظ إن الله ملائكة سيّاحين في الأرض يلفون عن أمى السلام (٣) حديث من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشرا م من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو .

مقام الرضا وعلم الزهد
وعديده بما يلزم من
ضرورته ومالا يندح
في حقيقته ومعرفته
الزهد في الزهد ومعرفته
زهد ثالث بعد الزهد
في الزهد وعلم الانابة
والالتجاء ومعرفته
أوقات الدعاء ومعرفته
وقت السكوت عن
الدعاء وعلم المحبة
والفرق بين المحبة
العامة الفسرة بامثال
الأمر والمحبة الخاصة
وقد أنكر طائفة من
علماء الدنيا دعوى
علماء الآخرة المحبة
الخاصة كما أنكروا الرضا
وقالوا ليس إلا الصبر
وانقسام المحبة الخاصة
إلى محبة الذات وإلى
محبة الصفات والفرق
بين محبة القلب ومحبة
الروح ومحبة العقل
ومحبة النفس والفرق
بين مقام المحب والمحبوب
والمريد والمراد ثم علوم
الشهادات كعلم المحبة
والأنس والقبض
والبسط والفرق بين
القبض والمهم والبسط
والنشاط وعلم الفناء
والبقاء وتفاوت أحوال

في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلوم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجمه وأثبث في زمرة المهبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين وليتصرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار النور وانصرفا إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ومن أحبه تولاؤه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لئله الله فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول وإن كان الأمر بخلافه فيوسعك أن يكون حظه من بفره الضياء والتعب فنوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

ثم كتاب أسرار الحج يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن .

(كتاب آداب تلاوة القرآن)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه للرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه للزلاقي - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - حق اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك النهج القويم والصراط المستقيم بما فيه من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من النور وفيه شفاء لما في الصدور من خالفه من الجبابة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غير ما أسله الله هو جبل الله التين ونوره البين والعروة الوثقى وللمتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير لا تنقض محابته ولا تنهاى غرابته لا يحيط بغوائده عند أهل العلم تحديدا ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة التردد هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن تولوا إلى قومهم منفردين - قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشدا فآمنوا به ولن نشترك به شيئا أحدا - فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - ومن أسباب حفظ في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بأدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتكشف مقاصده في أربعة أبواب . الباب الأول : في فضل القرآن وأهله . الباب الثاني : في آداب التلاوة في الظاهر . الباب الثالث : في الأعمال الباطنة عند التلاوة . الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

(الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم القصرين في تلاوته)

(فضيلة القرآن)

قال عليه السلام « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من شئ أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره (٢) »

(كتاب آداب تلاوة القرآن)

(الباب الأول في فضل القرآن وأهله)

(١) من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله طيب من حديث عبد الله بن عمرو بن سنان ضعيف (٢) حديث مومن شفيح أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم ومرسلا للطبراني من حديث ابن مسعود القرآن شافع مشفع ولمسلم من حديث أبي أمامة أقرءوا القرآن فإنه يجي يوم القيامة شفيحا لصاحبه .

القضاء والاستقرار
واتجلى والجمع والفرق
واللوامع والطوالع
والبوادي والصحو
والسكر إلى غير ذلك
لواتسع الوقت ذكرناها
وشرحناها في مجلدات
ولكن العمر قصير
والوقت عزيز ولولا سقم
الغفلة لضاق الوقت
عن هذا القدر أيضا
وهذا المختصر للؤلؤ
يحتوي من علوم القوم
على طرف صالح نرجو
من الله الكريم أن
ينفع به ويعمله حجة
لنا لا حجة علينا وهذه
كلها علوم من ورائها
علوم عمل بمقتضاها
وظهر بها علماء الآخرة
الزاهدون وحزم ذلك
علماء الدنيا الراغبون
وهي علوم ذوقية
لا يكاد النظر يصل إليها
إلا بنوق ووجدان
كالعلم بكيفية حلالة
السكر لا يحصل
بالوصف فمن ذاقه
عرفه ونبشك عن
شرف علم الصوفية
وزهاد العلماء أن العلوم
كلها لا يتعذر تحصيلها
مع محبة الدنيا والاحلال

وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمي تلاوة القرآن »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السالكين »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ورجل أم به قوما وهم به راضون »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وخاصته »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها فقال تلاوة القرآن وذكر اللوت »^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا إلى قاريء القرآن من صاحب القينة إلى قينته »^(٩) الآثار : قال أبو أمامة الباهلي اقرءوا القرآن ولا تفرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يذب قلبا هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود إذا أردتم العلم فاتروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين وقال أيضا اقرءوا القرآن فانكم تؤجرون عليه بكل حرف عشر حسنة أما إني لا أقول الحرف الم ولكن الألف حرف واللام حرف والهم حرف وقال أيضا : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويسجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وقال عمرو بن العاص كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في يوتنكم وقال أيضا من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه وقال أبو هريرة إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين وقال أحمد بن حنبل رأيت الله عز وجل في المنام فقلت يارب ما أفضل ما تقرب به للتقربون إليك قال بكلامي يا أحمد قال قلت يارب بفهم أو بفهمهم قال بفهمهم وبغير فهمهم وقال محمد بن كعب القرظي إذا سمع

(١) حديث لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل ابن سعد ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف (٢) حديث أفضل عبادة أمي تلاوة القرآن أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادها ضعيف (٣) حديث إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام الحديث الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٤) حديث خيركم من تعلم القرآن وعلمه خ من حديث عثمان ابن عفان (٥) حديث يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب السالكين ت من حديث أبي سعيد من شغله القرآن عن ذكرى أو مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٦) حديث ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك الحديث تقدم في الصلاة (٧) حديث أهل القرآن أهل الله وخاصته ن في الكبرى و ه ك من حديث أنس بإسناد حسن (٨) حديث إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر اللوت البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث لله أشد أذنا إلى قاريء القرآن من صاحب القينة إلى قينته ه حب ك ومحمده من حديث فضالة بن عبيد .

بحقائق التقوى وربما كان حجة الدنيا عوناً على استقامتها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجلبت النفوس على حجة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعدد الملاذ والشهوات وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع حجة الدنيا ولا تكشف إلا بجانبها الهوى ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى - واتقوا الله ويسلكم الله - جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك فلم فضل علم علماء الآخرة حيث يكشف النقاب إلا لأولى الأبواب وأولو الأبواب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا قال بعض الفقهاء إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف إلى

الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسموه قط وقال الفضيل بن عياض
 يعني لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج
 الخلق إليه وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الاسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهر مع
 من يسهر ولا يلقو مع من يلقو تعظيما لحق القرآن وقال سفيان الثوري إذا قرأ الرجل القرآن قبل
 الملك بين عينيه وقال عمرو بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلي الصبح قرأ منه مائة آية رفع الله
 عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا ويروى « أن خالد بن عتبة جاء إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم . وقال اقرأ على القرآن ققرأ عليه - إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى -
 الآية فقال له أعد فأعاد فقال والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لشمس
 وما يقول هذا بشر (١) وقال الحسن والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة وقال الفضيل من قرأ
 خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي
 ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن قلت لبعض النساك ماهيتا
 أحد نساك به فديده إلى المصحف ووضع على حجره وقال هذا وقال على بن أبي طالب رضى الله
 عنه ثلاث يزدن في الحفظ وينهين البلم السواك والصيام وقراءة القرآن .

(في ذم تلاوة الغافلين)

قال أنس بن مالك رب تال للقرآن والقرآن يلغنه وقال ميسرة الغريب هو القرآن في جوف الفاجر
 وقال أبو سليمان الداراني الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة
 الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط
 ثم عاد ققرأ قيل له مالك ولكلامى وقال ابن الرماح ندمت على استظهارى القرآن لأنه بلغنى أن أصحاب
 القرآن يشلون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة وقال ابن مسعود ينبغي لحامل القرآن أن يعرف
 بلبه إذا الناس ينامون ونهاره إذا الناس يفرطون وبجزئه إذا الناس يفرحون ويكائه إذا الناس
 يضحكون وبصمته إذا الناس يغوضون وبغشوعه إذا الناس يغتالون وينبغي لحامل القرآن أن
 يكون مستكينا لنا ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا مكاريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديثا وقال
 صلى الله عليه وسلم « أكثر منافق هذه الأمة قراؤها (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « اقرأ القرآن
 ما نهاك فان لم ينك فلست تقرأه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل
 عماره (٤) » وقال بعض السلف إن العبد ليفتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها
 وإن العبد ليفتح سورة فتلغنه حتى يفرغ منها قيل له وكيف ذلك فقال إذا أحسن حلافا
 وحرم حرامها صلت عليه وإلا لنته . وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلغنه نفسه

(١) حديث أن خالد بن عتبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على قرأ عليه - إن الله
 يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى - فقال أعد فأعاد فقال إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن
 أسفله لمندق وإن أعلاه لشمس وما يقول هذا بشر ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه
 البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عتبة
 وكذا ذكره ابن أسحق في السيرة بنحوه (٢) حديث أكثر منافق أمي قراؤها أحمد من حديث
 عتبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن لهيعة (٣) حديث اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينك
 فلست تقرأه طب من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٤) حديث ما آمن بالقرآن من
 استحل عماره ت من حديث صهيب وقال ليس إسناده بالقوى .

الزهاد لأنهم أعقل
 الخلق . قال سهل بن
 عبد الله التستري
 للعقل ألف اسم ولكل
 اسم منه ألف اسم
 وأول كل اسم منه
 ترك الدنيا . حدثنا :
 الشيخ الصالح أبو الفتح
 محمد بن عبد الباقي
 قال أنا أبو الفضل
 أحمد بن أحمد قال
 أنا الحافظ أبو نعيم
 الأصفهاني قال حدثنا
 محمد بن أحمد بن محمد
 قال حدثنا العباس
 ابن أحمد الشاشي قال
 حدثنا أبو عقيل
 الوصافي قال أنا عبد الله
 الخوصاص وكان من
 أصحاب حاتم قال دخلت
 مع أبي عبد الرحمن
 حاتم الأصم الرى ومعه
 ثلاثمائة وعشرون رجلا
 يريدون الحج وعليهم
 الصوف والزماقات
 ليس معهم جراب
 ولا طعام فدخلنا الرى
 على رجل من التجار
 متنسك يحب المتقشفين
 فأضافنا تلك الليلة فلما
 كان من الغد قال لحاتم
 يا أبا عبد الرحمن ألك
 حاجة فاني أريد أن

وهو لا يعلم يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم نفسه ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم وقال الحسن إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فقطعون به مراحلهم وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالهار وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فأخذوا دداً عملاً إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط الصل به وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرًا طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ثم لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدكم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره ثم الدقل (١) وقد ورد في التوراة يا عبدي أما تستحي مني يا نبيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق غشي فتعبد عن الطريق وتقدم لأجله وتقرؤه وتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك شيء منه وهذا كتابي أنزلته إليك انظروا فصلت لك فيه من القول وكما كررت عليك فيه لتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتضفي إلى حديثه بكل قلبك فان تكلم متكلم أو شغلك شغل عن حديثه أو مات إليه أن كفه وأهأنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلني أهون عندك من بعض إخوانك .

(الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة)

الأول في حال القاري وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير مرتبع ولا متكى ولا جالس على هيئة التكبر ويكون جلوسه وحده بجلوسه بين يدي أستاذه وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال فان قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك قال الله تعالى - الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض - فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الله كرم مضطجعا قال على رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء وخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فشر حسنة وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل . الثاني في مقدار القراءة ، وللقراءة عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم واليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفته » (٢) وذلك لأن الزيادة عليه تمنحه الترتيل وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً إن هذا ما قرأ القرآن ولا سمكت وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع (٣) وكذلك

(١) حديث ابن عمر وحديث جندب لقد عشنا دهرًا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث تقدما

(الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة)

(٢) حديث من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفته أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه ت (٣) حديث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرآن في كل أسبوع متفق عليه من حديثه

أعود قتها لئلا هو طيل
فقال حاتم إن كان لكم
قته عليل فيادة
الفتية لها فضل والنظر
إلى الفتية عبادة فأنا
أيضاً أجيء معك وكان
الليل محمد بن مقاتل
قاضي الري فقال
سربنا يا أبا عبد الرحمن
لجاءوا إلى الباب فإذا
باب مشرف حسن
فبقي حاتم متفكراً
يقول باب عالم على هذا
الحال ثم أذن لهم
فدخلوا فإذا دارقوراء
وإذا بزة ومنعة وستور
وجمع بقي حاتم متفكراً
ثم دخلوا إلى المجلس
الذي هو فيه فإذا بفرش
وطيئة وإذا هو راقد
عليها وعند رأسه
غلام ويسده مذبة
فبعد الرأزي يسأله
وحاتم قائم فأوماً إليه
ابن مقاتل أن أقعد
فقال لا أقعد فقال له
ابن مقاتل لعل لك حاجة
قال نعم قال وما هي قال
مستقلاً سألك عنها قال
سأني قال نعم فاستو
جالسا حتى أسألكها
فأمر غلامه فأسندوه
فقال له حاتم عليك

كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يغمثون القرآن في كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضى الله عنهم في الحتم أربع درجات الحتم في يوم وليلة وقد كرهه جماعة والحتم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا وكأنه مبالغة في الاختصار كأن الأول مبالغة في الاستكثار وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والأحب أن يغمث ختمه بالليل وختمه بالنهار ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين في ركعتي القجر أو بعدهما ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعتي القرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وأول الليل يغمثه فان لللائكة عليهم السلام نصلي عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بشعر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن قد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة التريد والتأمل . الثالث في وجه القسمة : أمان ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزابا (١) فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد يوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالنسكيات إلى ص وليلة الأربعاء بنزول إلى الرحمن ويغمث ليلة الخميس وابن مسعود كان يقسمه أقساما لا على هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع للقصل من ق إلى آخره فهكذا حزبه الصحابة رضى الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تسهل الأخماس والأعشار والأجزاء فاسوى هذا محدث . الرابع في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحرمة وغيرها فانها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللعن لمن يقرؤه وقد كان الحسن وابن سيرين يشكرون الأخماس والعواشر والأجزاء وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحرمة وأخذ الأجرة على ذلك وكانوا يقولون جردوا القرآن والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحمل الباب وتشوفا إلى حراسة القرآن عما يطرأ عليه تغييرا وإذا لم يؤد إلى محذور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كافي في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضى الله عنه وإنها بدعة حسنة إنما البدعة الذميمة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها وبعضهم كان يقول اقرأ في الصحف للنقوط ولا نقطه بنفسى وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير كان القرآن مبردا في الصحاح فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا لا بأس به فانه نور لهم أحدثوا بعده تقطعا كبارا عند منتهى الآية فقالوا لا بأس به يعرف به رأس الآية ثم أحدثوا بعد ذلك الحواتم والقوائم قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط الصحاح بالأحمر فقال وما تنقطها قلت يهربون الكلمة بالحرية قال أما إصراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الخداء دخلت على ابن سيرين فرأيت

(١) حديث تحزب القرآن على سبعة أجزاء . من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه طرأ على حزبي من القرآن قاله أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب الفصل وفي رواية للطبراني فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزى القرآن قالوا كان يحزئه ثلاثا فذكره مرفوعا وإسناده حسن .

هذا من أين جئت به
قال الثقات حدثوني
به قاله عثمان قال عن
أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم
قال وأصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عثمان قال عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال ورسول الله من
أين جاء به قال عن
جبرائيل قال حاتم قضا
أداه جبرائيل عن
الله وأداه رسول الله
إلى أصحابه وأداه
أصحابه إلى الثقات
وأداه الثقات إليك
هل مممت في العلم من
في داره أمير أو منعه
أكثر كانت له التزلة
عند الله أكثر قال
لا قال فكيف مممت
قال من زهد في الدنيا
ورغب في الآخرة
وأحب للساكنين وقدم
لآخرته كان له عند الله
للتزلة أكثر قال حاتم
فأنت بمن اقتديت بالنبي
وأصحابه والصالحين أم
بفرعون ونمرود أول
من بنى بالجس والآخر
ياعلباء السوء مثلكم
يراه الجاهل الطالب

يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط وقيل إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزائه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخرى . الخامس الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن لأننا سنبين أن المقصود من القراءة التفكير والترتيل معين عليه ولذلك نعت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هي تمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً (١) وقال ابن عباس رضي الله عنه لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذمة ، وقال أيضاً لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرها أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديراً وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال هما في الأجر سواء واعلم أن الترتيل مستحب لا يجرّد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشدّ تأثيراً في القلب من الهذمة والاستعجال . السادس البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فبناكوا » (٢) وقال عليه السلام « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » (٣) وقال صالح المري قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأتهم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحزنوا » (٤) ووجه إحضار الحزن أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والوائق والعهود ثم يتأمل قصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فان لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليك على قد الحزن والبكاء فان ذلك أعظم للصائب . السابع أن يراعى حق الآيات : فاذا مرّ بآية سجدة وسجد وكذلك إذا جمع من غيره سجدة سجدة إذا سجد التالي ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة وفي القرآن أربع عشرة سجدة وفي الحج ستجدتان وليس في ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى - خرّوا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون - فيقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك الساجدين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك وإذا قرأ قوله تعالى - وغرّون للأذقان يكون ويزيدم خشوعاً - فيقول اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وكذلك كل سجدة ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والحبث ومن لم يكن على طهارة عند السجود فاذا تطهر يسجد وقد قيل في كمالها أن يكبر رافعا يديه تحريره ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم وزاد زائدون التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فانه ورد الأمر في السجود فليتبّع فيه الأمر وتكبيره للهوى أقرب للبدية وما عدا ذلك ففيه بعد

(١) حديث نعت أم سلمة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فاذا هي تمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً دن ت وقال حسن صحيح (٢) حديث اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فبناكوا . من حديث سعد بن أبي وقاص باسناد جيد (٣) حديث ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن خ من حديث أبي هريرة (٤) حديث إن القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحزنوا أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

للهنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شرامته وخرج من عنده فاذا ابن مقاتل مرصاف بلغ أهل الري ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له يا أبا عبد الرحمن بجزوين عالم أكبر شأنا من هذا وأشاروا به إلى الطنافسي قال فسار إليه متممدا فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أجهلي أحب أن تظني أول مبتدئ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة قال نعم وكرامة بإغلام هات إناء فيه ماء فأني بانه فيه ماء قمعد الطنافسي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هكذا فتوضأ قمعد فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الدراعين غسل أربعا فقال له الطنافسي يا هذا أسرفت فقال له حاتم فيما ذا قال غسّلت فراعيك أربعا قال حاتم يا سبحان الله أنا في كف ماء أسرفت وأنت

ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً . الثامن أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم - رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون - وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفضا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحى القيوم وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تيسيح سبع وكبر. وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر وإن مر بمرجوت سأل وإن مر بمخوف استعاذ يفعل ذلك بلسانه أو قبله فيقول سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح (١) ، فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين (٢) . التاسع في الجهر بالقراءة : ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الإسرار ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفي لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والسر بالصدقة (٣) » وفي الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً (٤) » وكذلك قوله ﷺ « خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي (٥) » وفي الخبر « لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء (٦) » وسمع سعيد بن السيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لعلامة اذهب إلى هذا الصلي فمره أن يخفض صوته فقال السلام إن للسجد ليس لنا وللرجل فيه نصب فرفع سعيد صوته وقال يا أيها الصلي إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فاتهم لن ينصوا عنك من أقد شئت فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ ثعلبه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة ويدل على استحباب الجهر

(١) حديث حذيفة كان لا يمر بآية عذاب إلا تصوذ ولا بآية تنزيه إلا سبح مع اختلاف لفظ (٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لي إماماً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين رواه أبو مسعود المظفر بن الحسين الأرجاني في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الثمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس مضافاً (٣) حديث فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية قال وفي لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والسر بالقرآن كالسر بالصدقة دن ت وحسنه من حديث عتبة بن عامر باللفظ الثاني (٤) حديث يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفاً البيهقي في الشعب من حديث عائشة (٥) حديث خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص (٦) حديث لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء رواه أبو داود من حديث البيهقي دون قوله بين المغرب والعشاء والبيهقي في الشعب من حديث على قبل العشاء وجدها وفيه الحرب الأعور وهو صحيح

في هذا الجمع كله : تسرف فلم الطافسي أنه أراد بذلك ولم يرد منه التعلم فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً وكتب تجار الرى وفزون ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والطافسي فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له يا أبا عبد الرحمن أنت رجل الكن أعجمي ليس يكلمك أحد إلا وقطعته قال ممي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي قالوا أى شئ هي قال أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فجاه إليه وقال سبحان الله ما أعقله فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال سلم يا أبا عبد الله لا تعلم من الدنيا حق يكون معك أربع خصال قال أى شئ هي يا أبا عبد الرحمن قال تنفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك عنهم

ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم مع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك (١) وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل صلى فليجهر بالقراءة فان اللائكة وعمارة الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته (٢) » ومروى صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم مختلفي الأحوال لمروى على أبي بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال إن الذى أناجيه هو يسمنى ومروى على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ومروى على بلال وهو يقرأ آيات من هذه السورة وآيات من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب (٣) . فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أجود عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالجهر التمدى أفضل من اللازم ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ولأنه يطرد النوم فيرفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقطع من كسله ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة فتعنى حضرة شمس هذه النيات فالجهر أفضل وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتضاعف أجورهم فإن كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور ولهذا قول قراءة القرآن في المصاحف أفضل اذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه وقد قيل الختمة في المصحف بسبع لأن النظر في المصحف أيضاً عبادة وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه في السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى شغلكم الفكر عن القرآن إنى لأصلى التمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح . الماشر تحسين القراءة وترتيبها بترديد الصوت من غير تعطيط مغرط خير النظم فذلك سنة قال ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم (٤) » وقال عليه السلام « ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قيل أرأببه الاستغناء وقيل أرأببه التزم وترديد الألفان به وهو أقرب عند أهل اللغة وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أنه مع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك ففي الصحيحين من حديث عائشة أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلانا الحديث ومن حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لورائقي وأنا أصح قراءتك البارحة الحديث ومن حديثه أيضاً إنما أعرف أصوات رقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن الحديث (٢) حديث إذا قام أحدكم من الليل صلى فليجهر بقراءته فان اللائكة وعمارة الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته بولاه بنحوه زيادة فيه أبو بكر البزار وصهر للقدس في اللواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع (٣) حديث مروى صلى الله عليه وسلم بأن بكر وهو يخافت وجهر وهو يجهر ويلا ل وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة الحديث تقدم في الصلاة (٤) حديث زينوا القرآن بأصواتكم دن . حب لك وصحة من حديث البراء بن عازب (٥) حديث ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغن بالقرآن زاد من لشيء حسن الصوت وفي رواية أنه كاذبه لشيء يتغن بالقرآن .

وتبذل لمسم شيك
وتكون من شينهم
آيسا فاذا كان هذا
سلمت ثم سار إلى
الدينة . قال الله تعالى
- إنما يغشى الله من
عباده العلماء - ذكر
بكلمة إنما فينتنى العلم
عمن لا يغشى الله كما
إذا قال إنما يدخل الدار
بغدادى ينتنى دخول
غير البغدادى الدار
فلاح العلماء الآخرة أن
الطريق مسدود إلى
أنصبه المعارف ومقامات
القرب إلا بالزهد
والتقوى . قال
أبو يزيد رحمه الله
لأصحابه بقيت البارحة
للى الصباح أجهد أن
أقول لا إله إلا الله
ما قدرت عليه قبل ولم
ذلك قال ذكرت كلمة
قلتها في صباى فجاءتنى
وحشة تلك الكلمة
فمنعتنى عن ذلك
وأعجب بمن يذكر الله
تعالى وهو متصف
بشيء من صفاته بصفاء
التقوى وكال الزهادة
صير الصبر راسخا في
العلم . قال الواسطى :
الراسخون في العلم هم

الذين رسخوا بأرواحهم
في غيب الغيب في سر
السرف فهم ما عرفهم
وخاصوا في بحر العلم
بالفهم لطلب الزيادات
فانكشف لهم من
مدخور الخزان ما تحت
كل حرف من الكلام
من القهم وهجالب
الخطاب ففقهوا بالحكم
وقال بعضهم الراسخ من
أطلع على محل المراد من
الخطاب وقال الخراز :
هم الذين كملوا في جميع
العلوم وعرفوها واطلموا

على هم الخلاق كلهم
أجمعين وهذا القول
من أبي سعيد لا ينفى
به أن الراسخ في العلم
ينبغي أن يقف على
جزئيات العلوم ويكمل
فيها فان عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه
كان من الراسخين في
العلم ووقف في معنى قوله
تعالى - وفاكهة أبا -
وقال ما للأدب ثم قال
إن هذا إلا تكلف
وتقل أن هذا الوقوف
في معنى الأب كان من
أبي بكر رضي الله تعالى
عنه وإعنا عن ذلك
أبو سعيد ما يفسر أول

ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمي مثله (١) واستمع صلى الله عليه وسلم أيضا ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طويلا ثم قال صلى الله عليه وسلم «من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود «اقرأ على» قال يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمع من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان (٣) واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال لقد أوتي هذا من مزامير آل داود فبلغ ذلك أبا موسى فقال يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تخيرا (٤) ورأى هيثم القاري رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال فقال لي أنت المهيم الذي نزل القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا وفي الخبر : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن . وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما إذا ذكرنا ربنا فليقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا في صلاة إشارة إلى قوله عز وجل - ولذكر الله أكبر - وقال صلى الله عليه وسلم «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة» (٥) وفي الخبر كتب له عشر حسنات ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكا في الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

(الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة)

فهم أصل الكلام ثم التعميم ثم حضور القلب ثم التدبر ثم التفهم ثم التخلي عن موانع القهم ثم التخصيص ثم التأثر ثم الترقى ثم التبرى . فالأول : فهم عظمة الكلام وعلاؤه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قديمة بذاته إلى أفهام خلقه وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يصجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه ولولا استتار كنهه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسامع الكلام عرش ولا تروى وتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره ولولا تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسامع كلامه كما لم يطق الجبل

(١) حديث كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمي مثله . من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات (٢) حديث استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد . أحمد بن في الكبرى من حديث عمرو بن مسعود أن أبا بكر وعمر بشرأه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن الحديث قالت حسن صحيح (٣) حديث أن قال لابن مسعود اقرأ فقال يا رسول الله أقرأ عليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من غيري الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث استمع إلى قراءة أبي موسى فقال لقد أوتي هذا من مزامير آل داود متفق عليه من حديث أبي موسى (٥) حديث من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة وفي الخبر كتب له عشر حسنات أحمد بن حديث أبي هريرة من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة وفيه ضعف وانقطاع .

(الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة)

مبادئ تجليه حيث صار ذكاً ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حدفهم الخلق ولهذا عبر
بعض المارفين عنه فقال إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ أعظم من جبل
قاف وإن اللانكحة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرائيل
عليه السلام وهو ملك اللوح فيرقه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته لا بقوته وطاقته ولكن الله عز وجل
طوقه ذلك واستعمله به ولقد تأنق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع
علو درجته إلى فهم الإنسان وتبنيته مع قصور رتبته وضرب له مثلاً لم يقصر فيه وذلك أنه دعا بعض
الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمل فهمه فقال الملك
أرأيت ما تأتي به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطبق الناس
حملة فقال الحكيم إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها
وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع
حسنه وتزيينه وبديع نظمه فترلوا إلى درجة تميز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات
يضعونها لآفة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطبقوا حملها وكذلك الناس
يسجرون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكالصفات فصاروا بما تراجموا بينهم من الأصوات التي سمعوا
بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس ولم يمنع ذلك معاني الحكمة المحبوبة
في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها فكان الصوت للحكمة جسداً
ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحاً فسكناً أن أجساد البشر تكرم وتمزج لكان الروح فكذلك
أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم
في الحق والباطل وهو القاضي العدل والشاهد للترضى يأمر وينهى ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام
كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة
كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به
أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط فالكلام كالملك المحبوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس
العزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الظاهرة التي قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها فهو
مفتاح الحزائن النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يموت ودواء الأسقام الذي من سقى
منه لم يسمم فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا لتليق بهم المعاملة
فينبغي أن يقتصر عليه . الثاني : التعظيم للتكلم فالقاري عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن
يحضر في قلبه عظمة للتكلم ويحسم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله
عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال - لا يحسه إلا الطهرون - وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه
محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً فباطن ممناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محبوب
عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير وكما لا يصلح
لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ولعل هذا التعظيم
كان عكرمة بن أبي جهل إذا شر المصحف غشى عليه ويقول هو كلام ربي هو كلام ربي فتعظيم
الكلام تعظيم التكلم ولن تحضره عظمة للتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفضاله فإذا حضر
بياله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والانس والدواب والأشجار وعلم أن
الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها الواحد وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين
تعمته وسطوته إن أنعم بفضله وإن أعاقب فيمده وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي هؤلاء إلى النار

كلامه بآخره وهو قوله
اطلوا على هم الخلائق
كلهم لأن التقي حق
التقوى والزاهد حق
الزهادة في الدنيا صفا
باطنه وانجلت مرآة
قلبه ووقفت له معاذة
بشيء من اللوح
المحفوظ فأدرك بصفاء
الباطن أمهات العلوم
وأصولها فيعلم منتهى
أقدام العلماء في علومهم
وفائدة كل عالم والعلوم
الجزئية متجزة في
النفوس بالتعليم
وللممارسة فلا ينهيه
عنه الكلي أن
يراجع في الجزئي أهله
الدين هم أوعيته
فنفوس هؤلاء امتلأت
من الجزئي واشتغلت
به واقطعت بالجزئي
عن الكلي ونفوس
العلماء الزاهدين بعد
الأخذ مما لا بد لهم
منه في أصل الدين
وأساسه من الشروع
أقبلوا على الله واقطعوا
إليه وخلصت أرواحهم
إلى مقام القرب منه
فأفاضت أرواحهم على
قلوبهم أنواراً تهيأت
بها قلوبهم لإدراك

العلوم فأرواحهم ارتفعت
عن حد إدراك العلوم
بمكوفها على العالم الأزلي
وتجردت عن وجود
يصلح أن يكون وعاء
للعلم وقلوبهم بنسبة
وجهها الذي يسلي
النفوس صارت أوعية
وجودية تناسب وجود
العلم بالنسبة الوجودية
تألفت العلوم وتألفتها
العلوم بنسبة انفصال
العلوم باتصالها بالروح
المحفوظ وللصفي
بالانفصال انتفاشها
في اللوح لا غير
وانفصال القلوب عن
مقام الأرواح لوجود
انجذابها إلى النفوس
فصار بين للفصلين
نسبة اشتراك موجب
للتألف فحصلت العلوم
لذلك وصار العالم
الرباني راسخا في العلم
أوحى الله تعالى في
بعض الكتب المنزلة
يا بني إسرائيل لا تقولوا
العلم في السماء من
ينزل به ولا في تخوم
الأرض من يصعد به
ولا من وراء البحار
من يسير فيأتي به
العلم مجهول في قلوبكم

ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالى فبالفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم للتكلم ثم تعظيم الكلام
الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس قيل في تفسير - يا يحيى خذ الكتاب بقوة - أى يجد واجتهاد
وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه من غيره وقيل لبعضهم إذا قرأت
القرآن تحدث نفسك بشئ فقال أو شئ أحب إلى من القرآن حتى أحدث به شئ وكان بعض
السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن للعظم
لكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان
التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في منزلة ومتفرج والذي يتفرج في
للتزهات لا يتفكر في غيرها فقد قيل إن في القرآن مبادئ وبساتين ومقاصير وهرائس ودياسج
ورياض وخانات فالمبادئ مبادئ القرآن والآراء بساتين القرآن والحانات مقاصير والمقاصير
هرائس القرآن والحاميات دياسج القرآن وللنفل رياضه والحانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارى
المبادئ وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد الهرائس ولبس الدياسج ونزه في الرياض وسكن
غرف الحانات استغرق ذلك وغفله عما سواه فلم يهرب قلبه ولم يتفرق فكره . الرابع : التدبر
وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه
وهو لا يتدبره وللقصود من القراءة التدبر ولذلك من فيه الترتيل لأن الترتيل في الظاهر يتمكن
من التدبر بالباطن قال على رضى الله عنه : لا خير في عبادته لائقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها وإذا
لم يتمكن من التدبر إلا بتريده فليدّر إلا أن يكون خلف إمام فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل
الإمام بآية أخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بالتجرب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية
كلامه وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس قد دروى
عن عامر بن عبد قيس أنه قال الوسواس يعتري في الصلاة قليل في أمر الدنيا فقال لأن تختلف في
الأسنة أحب إلى من ذلك ولكن يشتغل قلبى بموقفى بين يدي ربى عز وجل وأنى كيف أنصرف
فقد ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله
بهم دينى ولكن يمنعه به عن الأفضل ولما ذكر ذلك للحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما استطع
الله ذلك عندنا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة (١) وإنما
رددها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها وعن أبي ذر قال « قام رسول الله ﷺ بناليلة قيام بآية
بردها وهي - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تفرحهم (٢) - الآية » وقام تيمم الدار ليلة بهذه الآية - أم حسب
الذين اجتروا السفات - الآية وقام سعد بن جبير ليلة بردها هذه الآية - وامتازوا اليوم أيها المجرمون -
وقال بعضهم إنى لأفتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وكان بعضهم
يقول آية لا أنفهمها ولا يكون قلبى فيها لأعد لها ثوابا . وحكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال إنى لأتلو
الآية فأقيم فيها أربع ليل أو خمس ليل ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها وعن بعض السلف
أنه بقى في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها وقال بعض العارفين لى في كل جمعة ختمه وفي
كل شهر ختمه وفي كل سنة ختمه ولى ختمه منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد وذلك بحسب درجات
تدبره وتفتيشه وكان هذا أيضا يقول ألفت نفسى مقام الأجراء فانا عمل ميامنة ومجامعة ومشاهدة ومسانهة

(١) حديث أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة رواه أبو ذر الهروى في معجمه
من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث أبي ذر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة بآية
بردها وهي - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ن . بسند صحيح .

الخامس التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وذكر أحوال للكافرين لهم وأنهم كيف أهلكوا وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى - ليس كنهه شيء وهو السميع البصير - وكقوله تعالى - للملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر - فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تكشف إلا للموقنين وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبدا فهما في كتابه فليكن جريصا على طلب ذلك الفهم (١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا مورا لا ثقة بأفهامهم ولم يثروا على أغوارها . وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيره فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمتة فينبغى أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل فمن عرف الحق رأى كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه وبهوله فهو الكل على التحقيق ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل لأن كل شيء هالك إلا وجهه لأنه سيظل في ثاني الحال بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يستبرج وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية نبات وبطريق الاستقلال بطلان محض وهذا مبدأ من مبادئ علم الكاشفة ولهذا ينبغي إذا قرأ التالى قوله عز وجل - أفرأيت ما تعرجون ، أفرأيت ما تمنون ، أفرأيت الماء الذى تشربون أفرأيت النار التى توردون - فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرج واللئى بل يتأمل فى اللئى وهو نقطة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعمود والعصب كيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات للدمومة من الغضب والشهوة والكبر والجمل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فاذا هو خصيم مبين - فيتأمل هذه العجائب ليرقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع . وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فاذا جمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا وإذا منع نصرته من آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق . وأما أحوال للكافرين : كما دهم وتمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته وهيمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النعمة وتتفد فيه القضية وكذلك إذا جمع وصف الجنة والنار وسأله ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما فيها منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رقة فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب

(١) حديث على ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه ن من رواية أبى جحيفة قال سألتنا عليا قلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه الحديث وهو عند البخارى بلفظ هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن وفى رواية وقال مرة ما ليس عند الناس ولأبى داود والنسائى قلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يهده إلى الناس قال لا إلا ما فى كتابى هذا الحديث ولم يذكر التفهم فى القرآن .

تأدبوا بين يدي
بآداب الروحانيين
وتخلقوا إلى بأخلاق
الصديقين ظهر العلم
من قلوبكم حتى يطيعكم
أو ينعركم فالتأدب
بآداب الروحانيين
حصر النفوس عن
تقاضى جيلاتها وقها
بصرىح السلم فى كل
قول وفعل ولا يصح
ذلك إلا لمن علم وقرب
وتطرق إلى الحضور
بين يدي الله تعالى
فيتحفظ بالحق للحق
أخبرنا شيخنا
أبو النجيب عبد القاهر
السهروردى إجازة قال
أخبرنا أبو منصور بن
خيرى إجازة قال أنا
أبو محمد الحسن بن على
الجوهري إجازة قال
أنا أبو عمر محمد بن
الحساس قال حدثنا
أبو محمد يحيى بن صاعد
قال حدثنا الحسين بن
الحسن للروزي قال أنا
عبد الله بن المبارك قال
أنا الأوزاعي عن
حسان بن عطية بلفظ
أن شداد بن أوس
رضى الله عنه نزل
منزلا فقال اتونا

بالسفرة. نصبت بها
فأنكر منه ذلك فقال
ما تكلمت بكلمة منذ
أسلمت إلا وأنا أخطئها
ثم أزمها غير هذه
فلا تحفظوها على فشل
هذا يكون التأدب
بآداب الروحانيين
مكتوب في الإنجيل
لا تطلبوا علم ما لم تعلموا
حتى تعملوا بما قد علمتم
وقد ورد في خبر عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن
الشیطان ربما يسوفكم
بالعلم قلنا يا رسول الله
كيف يسوفنا بالعلم قال
يقول اطلب العلم ولا
تعمل حتى تعلم فلا يزال
العبد في العلم قائلاً
ولاعمل مسوفاً حتى
يموت وما عمل ». وقال
ابن مسعود رضي الله
عنه ليس العلم بكثرة
الرواية إنما العلم بالحشية
وقال الحسن إن الله
تعالى لا يبعأ بذى علم
ورواية إنما يبعأ بذى
فهم ودراية فعلم الوراثة
مستخرجة من علم
الدراسة ومثال علوم
الدراسة كاللبن الخالص
المانع للشاربين

مبين - قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً -
وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب فالغرض مما ذكرناه
التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في
أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى - ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم
ماذا قال آتوا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم - والطابع هي اللوائح التي سند كرها في موانع الفهم
وقد قيل : لا يكون للمرء مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه نقصان من الزيد ويستغنى
بالمولى عن العبد . السادس : التخلي عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن
لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال صلى الله عليه وآله وسلم « لو أن
الشياطين يعمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى اللسكوت (١) » ومعاني القرآن من جملة اللسكوت وكل
ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من اللسكوت . وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون
الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بأخراجها من مخارجها وهذا ينول حفظه شيطان وكل بالقراءة ليصرفهم
عن فهم معاني كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترداد الحرف بخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه
فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تكشف له المعاني وأعظم ضحكة للشيطان من كان
مطيعاً لمثل هذا التلبيس . ثانياً : أن يكون مقلداً للمذهب ممة بالتقليد وجمداً عليه وثبت في نفسه التصب
له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه
فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه فان لم يرق على بعد وبدا له معنى
من المعاني التي تبين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف
معتقد آباءك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيبقا عدمه ويعتز عن مثله ومثل هذا قالت الصوفية
إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية
حررها التصبون للمذاهب وألقوها إليهم فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف وللشاهدة بنور البصيرة
فكيف يكون حجاباً وهو منتهى الطلب وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كمن يعتقد في الاستواء
على العرش التمكن والاستقرار فان خطر له مثلاً في القديس أنه قد يكون حقا ويكون أيضاً مانعاً من الفهم
يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه ولو استقر في نفسه لا يجرى إلى كشف ثنائ وثالث وتواصل ولكن
يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تخليده الباطل وقد يكون حقا ويكون أيضاً مانعاً من الفهم
والكشف لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وعور باطن وجود
الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى النور الباطن كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن
في كتاب قواعد العقائد . ثالثاً : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا
مطاع فان ذلك سبب ظلمة القلب وصداء وهو كالخشب على للرآة فيجنع جلية الحق من أن يتجلى فيه
وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكترون وكلما كانت الشهوات أشد ترا كما كانت معاني الكلام
أهدأ احتجاباً وكلما خفف عن القلب أهوال الدنيا قرب تجلى للغي فيه فالقلب مثل المرآة والشهوة مثل الصدأ
ومعاني القرآن مثل الصور تتردى في للرآة والرياسة للقلب بما طام الشهوات مثل تصليل الجلاء للمرآة
وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم « إذا عظمت أمق الديار والدرم زرع منها هية الإسلام وإذا تركوا
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرّموا بركة الوحي (٢) » قال الفضيل يبي حرّموا فهم القرآن

(١) حديث لولا أن الشياطين يعمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى اللسكوت تقدم في الصلاة .

(٢) حديث إذا عظمت أمق الديار والدرم زرع منها هية الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرّموا

وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى - تبصرة وذكرى لكل عبد منيب - وقال عز وجل - وما يتذكر إلا من ينيب - وقال تعالى - إنما يتذكر أولو الألباب - فالدين أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوى الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب . رابعاً : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه قد تبوأ مقعداً من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة وسنبين معنى التفسير بالرأى في الباب الرابع وأن ذلك يناقض قول علي رضي الله عنه إلا أن يؤنى الله عبداً فهماف القرآن وأنه لو كان المعنى هو الظاهر للنقل لما اختلفت الناس فيه . السابع : التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدراً أنه للنهي وللأمر وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليتربه وليأخذ من تضاعيفها محتاج إليه لئلا يفتن في القرآن إلا وسياقها لقائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمة ولذلك قال تعالى - ما تثبت به فؤادك - فليقدر العبد أن الله ثبت قلوبهم بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لا ينتظار نصر الله تعالى وكيف لا يهدر هذا القرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى - واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به - وقال عز وجل - لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين - وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الأحاد فهذا القارى الواحد مقصود لئلا يلهو لسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال تعالى - وأوحى إلى هذا القرآن لأندركم به ومن بلغ - قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويتمثل بمقتضاه ولذلك قال بعض العلماء هذا القرآن رسائل أتنا من قبل ربنا عز وجل بهوده تدبرها في الصلوات وتقف عليها في الخلوات وتنفذها في الطاعات والسنن والتعبات وكان مالك بن دينار يقول ما زرع القرآن في قلوبكم يأهل القرآن إن القرآن ربيع للؤمن كما أن النيث ربيع الأرض وقال قتادة لم يجالس أحدهم هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى - هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . الثامن : التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الحشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل - وإنى لنفار - ثم أتبع ذلك بأربعة شروط - لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - وقوله تعالى - والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الابرار آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر - ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى - إن رحمة الله قريب من المحسنين - فالإحسان يجمع الكل وهكذا من تصفع القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدد بأن يكون حاله الحشية والحزن ولذلك قال الحسن والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاءه وقل ضحكته وأكثر نصيبه وشغله

بركة الوحي رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضل بن عياض قال ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ولكن الزبد هو البنية للطلوبة من اللبن وللماية في اللبن جسم قام به روح البنية وللماية بها القوام قال الله تعالى - وجعلنا من الماء كل شيء حي - وقال تعالى - أو من سكان ميثا فأحييناه - أى كان ميثا بالكفر فأحييناه بالإسلام فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول وللإسلام علوم وهي علوم مبادئ الإسلام والإسلام بعد الإيمان نظر إلى مجرد التصديق ولكن للإيمان فروع بعد التحقق بالإسلام وهي مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فقد قال للتوحيد والعرفة وللشاهدة . وللإيمان في كل فرع من فروعه علوم فعلوم الإسلام علوم الإيمان علوم القلوب ثم علوم القلوب لها وصف خاص ووصف

وقلت راحته وبطائه . وقال وهيب بن الورد نظرنا في هذه الأحاديث والواظظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية للتلاوة فسد الوعيد وتفيد للفرقة بالشروط يتضائل من خيفته كأنه يكاد يموت وعند التوسع ووعده للفرقة يستبشر كأنه يطير من الفرح وعند ذكر الله عز وجل كذكرم لله عز وجل ولدا واستشعارا لمظنمه وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل وصف الجنة ينبعث يباطنه وصاحبة ينفخ صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقاتلهم وعند وصف الجنة ينبعث يباطنه شوقا إليها وعند وصف النار ترتد فرائصه خوفا منها « ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ (١) قال فالتفت سورة النساء فلما بلغت - فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئناك على هؤلاء شهيدا - رأيت عيني تذر فان بالسمع فقال لي حسبك الآن » وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية ولقد كان في الحائنين من خر مفضيا عليه عند آيات الوعيد ومنهم من مات في سماع الآيات فنزل هذه الأحوال فخرج عنه أن يكون حاكيا في كلامه فإذا قال - إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - ولم يكن خائفا كان حاكيا وإذا قال - عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك للصبر - ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا وإذا قال - ولنصبرن على ما آذيتونا - فليكن حاله الصبر أو المزعجة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة فان لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللحن على نفسه في قوله تعالى - أَلَمْ نَقُلْ لَهُ عَلَى الظَّالِمِينَ - وفي قوله تعالى - كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون - وفي قوله عز وجل - وهم في غفلة معرضون - وفي قوله - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا - وفي قوله تعالى - ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون - إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلا في معنى قوله عز وجل - ومنهم أُميون لا يسلمون الكتاب إلا أمانى - يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل - وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - لأن القرآن هو البين لتلك الآيات في السموات والأرض ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضا عنها ولذلك قيل إن من لم يكن متصفا بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تقب إلى ومثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب للكل في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملوكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلم له لترك الدراسة عند الحاجة لكان أبعد عن الاستزاء واستحقاق الوقت ولذلك قال يوسف بن أسباط إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التيسير والاستغفار والعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل - فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فيئس ما يشترون - ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأوا القرآن ما تلتفت عليه قلوبكم ولأنتم له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه وفي بعضها فإذا اختلفتم قوموا عنه (٢) » قال الله تعالى - الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون - وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى (٣) »

(١) حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ على الحديث تقدم في الباب قبله (٢) حديث اقرأوا القرآن ما تلتفت عليه قلوبكم ولأنتم له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه وفي بعضها فإذا اختلفتم قوموا عنه متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي في اللفظ الثانى دون قوله ولأنتم جلودكم (٣) حديث إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى بسند ضعيف .

عام فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدين مع علماء الآخرة وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى السكينة التى أزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان والشاهدة وصف خاص في اليقين وهو عين اليقين وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين لحق اليقين إذن فوق الشاهدة وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجدان فصار علم الصوفية وزهاد العلماء

وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل » (١) قال القرآن يراد الاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلا فالمؤنة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة ولذلك قال بعض القراء قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فاتهرني وقال جعلت القرآن على عملاً اذهب فأقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهيك وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال لمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم (٢) ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فاتتهى إلى قوله عز وجل - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - (٣) قال يكفي هذا وانصرف فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو قهيه . وإنما العزير مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية فأما مجرد حركة اللسان قليل الجدوى بل التالى باللسان للعرض عن العمل جدير بأن يكون هو للراد بقوله تعالى - ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى - وبقوله عز وجل - كذلك أتتك آياتنا فكسيتها وكذلك اليوم تنسى - أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تنبأ بها فان للقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب لحفظ اللسان تصحيح الحروف

(١) حديث لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم النافقي في كتاب فضائل القرآن (٢) حديث مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف منهم في اثنين وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم قلت قوله مات عن عشرين ألفاً لعله أراد بالمدينة وإلا فقد روي عن أبي زرعة الرازي أنه قال قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى وأما من حفظ القرآن في عهده ففي الصحيحين من حديث أنس قال جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبوزيد قلت ومن أبوزيد قال أحد عمومي وزاد بن أبي شيبة كالمصنف من رواية الشعبي مرسل وأبو البرداء وسعيد بن عبيد وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو استقرئوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وروى ابن الأثير يسنده إلى عمر قال كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها الحديث وسنده ضعيف والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاً وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل مائة من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنة فقال مامعك يا فلان ؟ قال معنى كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم الحديث (٣) حديث الرجل الذي جاء ليتعلم فاتتهى إلى قوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - فقال يكفيني هذا وانصرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم انصرف الرجل وهو قهيه دن في الكبرى ووجب له وصحه من حديث عبدالله بن عمر وقال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئني يا رسول الله الحديث وفيه فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل والذي بشك بالحق لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلع الرجل أطلع الرجل أطلع الرجل ولاحمد ون في الكبرى من حديث مصعب عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها

نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرناه من علم الوراثة والدراسة عليهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والايمن الذي هو الاساس وعلم الصوفية بالله تعالى من أنسبة الشاهدة وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن فضيلة الانسان بفضيلة العلم وورثته الأعمال على قدر الحفظ من العلم وقد ورد في الخبر « فضل العالم على العابد كفضل على أمي » والاشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والتناق وإنما الاشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون البعد علماً بالله تعالى ذائقين كامل وليس عنده علم من فروض الكتابات وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بمقائق اليقين ومقائق المعرفة وقد كان علماء

بالتريل وحفظ العقل تفسير للماني وحفظ القلب الاتساظ والتأثر بالانزجار والالتفات فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ . التاسع الترقى ، وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتعلق والتضرع والابتهال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بالطافه ويناجيه بانامه وإحسانه لقائه الحياه والتعظيم والاضفاء والفهم . الثالثة أن يرى في الكلام التكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الانعام بمن حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصورا لهم على التكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة للتكلم عن غيره وهذه درجة القربين ومابقه درجة أصحاب اليقين وما خرج عن هذا فهو درجات النافلين وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال والله لقد تجلى الله عز وجل لحلقه في كلامهم لا يصرون وقال أيضا وقد سألوهم عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سري منه قيل له في ذلك فقال ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من التكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته في مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة النجاة . ولذلك قال بعض الحكماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كآتي أسمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلوه على أصحابه ثم رخصت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كآتي أسمعهم من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعهم من التكلم به فندوها وجدت له لذة ونعما لا أصبر عنه وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة للتكلم في الكلام ولذلك قال ثابت البناني كابدت القرآن عشرين سنة وتممت به عشرين سنة ومشاهدة للتكلم دون ما سواه يكون العبد بمثابة لقوله عز وجل - فقرأوا إلى الله - ولقوله تعالى - ولا تجملوا مع الله إلها آخر - فمن لم يره في كل شيء قدر رأي غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفي بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل . العاشر التبري : وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه وبين الرضا والتزكية فاذا تلا آيات الوعد وللدخ للضالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد للواقين والصديقين فيها ويتشوق إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقد رآه الخاطب خوفا وإشفاقا ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري وقيل له هذا الظلم لما بال الكفر فتلا قوله عز وجل - إن الإنسان لظلوم كفار - وقيل ليوسف بن أسباط إذا قرأت القرآن بماذا تدعو فقال بماذا أدعو أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة فاذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قرب به فان من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراهها ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفنيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه ومهما كان مشاهدته لنفسه بين الرضا صار محجوبا بنعمه فاذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر للسكرات قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الصجر فلقبه أخوه من النقد فقال له وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت فقال لولا ميمادى معك ما أخبرتك بالذي حبسني عنك إني لما صليت التمتع قلت أوتر قبل أن أجيبك لأنني لا آمن ما يحدث من اللوت فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة لما رلت أنظر إليها حتى أصبحت وهذه الكاشفات لا تسكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم

التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم . روى أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول سلوا سعيد ابن السيب وكان عبد الله بن عباس يقول سلوا جابر بن عبد الله لو نزل أهل البصرة على قيام لوسعهم وكان أنس بن مالك يقول سلوا مولانا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا فكانوا يريدون الناس إليهم في علم الفتوى والأحكام ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة . وكذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين صادة لهم طراوة الوحي المنزل وغمرهم غزير العلم الجليل والمفصل فتلقى منهم طائفة مجللة ومفصلة وطائفة مفصلة دون مجللة والمجمل أصل العلم ومفصلة المكتسب بطهارة القلوب وقوة الفريضة وكمال الاستعداد وهو خاص بالخواص قال الله تعالى لئن لم يأتكم اليقين فاعلموا أن الله تعالى له قدرة على ما يشاء من عباده .

الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه الكاشفات بحسب أحوال الكاشف بحيث ينال آيات الرجا
ويغلب على حاله الاستبشار تكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وان غلب عليه الخوف
كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد
الصوف والرجو والخوف وذلك بحسب أوصافه إذ منها الرحمة والطف والانتقام والبطن فبحسب
مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستمد للكاشفة بأمر
يناسب تلك الحالة ويقارنها إذ يستحيل أن يكون حال للسمع واحدا وللسموع مختلفا إذ فيه كلام راض
وكلام غضبان وكلام منكم وكلام منتقم وكلام حيار متكبر لا ينال وكلام حنان متعطف لا يهمل .

(الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير هل)

لملك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه
فكيف يستحب ذلك فوقفه قال عليه السلام « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) وعن هذا
شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من القصرين للنسويين إلى التصوف في تأويل كلمات
في القرآن على خلاف ما قل عن ابن عباس وصائر للفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فان صرح ما قاله أهل
التفسير لما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره وان لم يصح ذلك لما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من
فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر
التفسير فهو عتبر عن حدسه وهو مصيب في الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسا لأرباب
الفهم (٢) قال على رضي الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن فان لم يكن سوى الترجمة للنقولة
فإذ ذلك الفهم وقال عليه السلام « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلما » (٣) ويروى أيضا عن ابن مسعود
موقوفا عليه وهو من علماء التفسير في معنى الظاهر والباطن والحد والمطلع وقال على كرم الله وجهه
لوشئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب فامضاء وتفسير ظاهرها في غاية الاتسار وقال
أبو الدرداء لا يفقه الرجل حتى يحجل للقرآن وجوها وقد قال بعض العلماء لكل آية ستون ألف فهم
وما بقى من فهمها أكثر وقال آخرون القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم
ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحده ومطلع ومريد رسول الله صلى الله
عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة (٤) لا يكون إلا لتدبر باطن معانيها ولا تخرج منها
وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير وقال ابن مسعود رضي الله عنه من أراد علم الأولين والآخرين
فليتدبر القرآن وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أمثال الله عز وجل
وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لانهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها
والقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل
فيه على النظر واختلف فيه الخلاق في النظريات والمقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه
يجتص أهل الفهم بدركها فكيف ينفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

(الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير هل)

(١) حديث من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار تقدم في الباب الثالث من العلم (٢) حديث
الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسا لأرباب الفهم تقدم قول على في الباب قبله إلا
أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه (٣) حديث إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلما تقدم في قواعد
العقائد (٤) حديث تكرير النبي صلى الله عليه وسلم البسملة عشرين مرة تقدم في الباب قبله .

- ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والوعظة
الحسنة وجادلهم بالتي
هي أحسن - وقال
تعالى - قل هذه سبيلي
أدعو إلى الله على
بصيرة - فلهذه السبل
سابعة ولهذه الدعوات
قلوب قابلة لنها نفوس
مستحبة جامدة باقية
على خشونة طبيعتها
وجبيلها فليتها بنار
الإنذار والوعظة
والحداد ومنها نفوس
زكية من تربة طيبة
موافقة للقلوب قريبة
منها لمن كانت نفسه
ظاهرة على قلبه دماء
بالوعظة ومن كان
قلبه ظاهرا على نفسه
دعاه بالحكمة فالدعوة
بالوعظة أجاب بها
الأبرار وهي الدعوة
بذكر الجنة والنار
والدعوة بالحكمة أجاب
بها القرون وهي الدعوة
بتلويح منح القرب
وصفو للرفة وإشارة
التوحيد فلما وجدوا
التلويحات الخفائية
والتحريغات الزبانية
أجابوا بأرواحهم
وقلوبهم ونفوسهم

«اقرأوا القرآن والتسوا غرابه» (١) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طي كرم الله وجهه «والله يبتلى بالحق نبياً لتفرقن أمي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلمة ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فليكن بكتاب الله عز وجل فإن فيه نأ من كان قبلكم ونأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبارة قصه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو جل الله للتين ونوره البين وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يسوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقض عجايبه ولا يخلقه كثرة التردد» (٢) الحديث وفي حديث حذيفة «لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال قلت يا رسول الله لماذا تأمرني إن أدركت ذلك فقال تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك قال فأجبت عليه ذلك ثلاثاً فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثاً تعلم كتاب الله عز وجل وأعمل بما فيه فيه النجاة» (٣) وقال طي كرم الله وجهه من فهم القرآن فسر به جل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً - يعني الفهم في القرآن . وقال عز وجل - ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً - مسمى ما آتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتطعن له باسم الفهم وجملة مقدما على الحكم والطم قبله الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالنا وأن النقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه فأما قوله صلى الله عليه وسلم : من فسر القرآن برأيه ونهيه عنه (٤) صلى الله عليه وسلم وقول أبي بكر رضي الله عنه أي أرض تقلى وأى مماء تظلى إذا قلت في القرآن برأى إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأى فلا يخفى إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل والسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالههم أو المراد به أمراً آخر ، وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه : أحدها أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومستمداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم . والثاني أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي تخييراً على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها قيل إن الر هي حروف من الرحمن وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون

(١) حديث اقرءوا القرآن والتسوا غرابه ، ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الوصلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ أعربوا وسنده ضعيف (٢) حديث طي والقدى بشئى بالحق لتفرقن أمي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فليكن بكتاب الله فإن فيه نأ من كان قبلكم الحديث بطوله هو عند ت دون ذكر اقتراق الأمة بلفظ إلا إنها ستكون فتنة مضلة قلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نأ من كان قبلكم فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول (٣) حديث حذيفة في الاختلاف والفرقة بعده قلت ما تأمرني إن أدركت ذلك قال تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه الحديث د ن في الكبرى وفيه تعلم كتاب الله واتبع ما فيه ثلاث مرات (٤) حديث النهي عن تفسير القرآن بالرأى عريب .

فصارت متتابعة الأحوال
إجابتهم نفساً ومتابعة
الأعمال إجابتهم قلباً
والتحقق بالأحوال
إجابتهم روحاً وإجابة
الصوفية بالكل وإجابة
غيرهم بالبعض . قال
عمر رضي الله عنه :
رسم الله تعالى صبيها
لو لم يخف الله لم يصبه
يعنى لو كتب له كتاب
الأمان من النار حمله
صرف للفرقة بمظلم
أمر الله على القيام
بواجب حق اليهودية
أداء لما عرف من حق
المنظمة فاجابة الصوفية
إلى الدعوة إجابة
الحب للمحجوب على
الذائفة وذهاب السر
وإجابة غيرهم على
للكابدة والمجاهدة
وهذه الإجابة يظهر
مع الساعات أثرها
في القيام بعنائق
الاستقامة والعبودية
قال الله تعالى - فأما من
أعطى واتقى وصدق
بالحسن فسيسره
للإسرى - قال بعضهم
أعطى الدارين ولم ير
شيئاً واتقى القفو
والسيئات وصدق

الكل مسموعا . والثالث أنه صلى الله عليه وسلم « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ^(١) » فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله لما معنى تخصيصه بذلك . والرابع أنه قال عز وجل - لعلمه الدين يستنبطونه منهم - فأثبت لأهل العلم استنباطا ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الجحيل فيطلب أن يشترط السماع في التأويل وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما التمسك فانه ينزل على أحد وجهين : أحدهما أن يكون له في الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلزم له من القرآن ذلك للمنى وهذا تارة يكون مع العلم كالكفى يخرج بعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجع ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه أى برأيه هو الذى حمل على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يرجع عنده ذلك الوجه وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما يريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فان في السحور بركة ^(٢) » ويزعج أن المراد به السحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل - اذهب إلى فرعون إنطقى - ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو غرض وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغريير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فيزولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به فهذه الفنون أحد وجهى النسخ من التفسير بالرأى ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والوافق للهوى قد يخص بأسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل قبله يعلق بخرائب القرآن ومافيه من الألفاظ اللمجة والبدلة ومافيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير فن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط للمعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى فالتنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولا ليتق به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والخرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب أو يدعى فهم مقاصد الأثر كمن كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم ومالا بدقيه من السماع فنون كثيرة منها الإيجاز بالحذف والاضمار كقوله تعالى - وآتينا عود الناقة مبصرة فظلموا بها - معناها آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها فانظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ولم يدركهم عذابا ظموا أو أنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم وقوله تعالى - وأشر بواقي قلوبهم المعجل بكفرهم - أى حب المعجل فحذف الحب وقوله عز وجل - إذا أذقناك ضعف الحياة و ضعف الماتسأى ضعف عذاب الأحياء و ضعف عذاب الموتى فحذف المذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فسح

بالحسن أقام على طلب الزلقى والآية قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه ويلوح في الآية وجه آخر أعطى بالمواظبة على الأعمال واتقى للوساوس والهواجس وصدق بالحسن لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود فسنيسره ليسرى فتفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والأنس وأمان من غل بالأعمال واستغنى امتلا بالأحوال وكذب بالحسن لم يكن فى اللسكوت بنفوذ بصيرته بالجوال فسنيسره للصرى نسد عليه باب اليسر فى الأعمال قال بعضهم إذا أراد الله بعبده سوءا سد عليه باب العمل وفتح عليه باب السكسل فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهرا وباطنا كان حظهم من العلم أوفرو نصيبهم من المعرفة أكل فبكانت أعمالهم أركى وأفضل جاء رجل

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل تقدم في الباب الثانى من العلم

(٢) حديث تسجروا فان في السحور بركة تقدم في الباب الثالث من العلم .

إلى معاذ قال أخبرني
عن رجلين أحدهما يجتهد
في العبادة كثير العمل
قليل الذنوب إلا أنه
ضعيف اليقين يتوره
الشك قال معاذ
ليجعلن شكك عمله قال
فأخبرني عن رجل قليل
العمل إلا أنه قوي
اليقين وهو في ذلك
كثير الذنوب فسكت
معاذ فقال الرجل والله
لئن أبسط شك
الأول أعمال بره
ليجعلن يقين هذا
ذنوبه كلها قال فأخذ
معاذ يديه وقال ما رأيت
الذي هو أقبح من هذا
وفي وصية لقمان لابنه
يا بني لا استطاع العمل
إلا باليقين ولا يعمل لله
إلا بقدر يقينه ولا يقصر
عامل حتى يقصر يقينه
فكان اليقين أفضل
العلم لأنه أدهى إلى
العمل وما كان أدعى
إلى العمل كان أدعى
إلى العبودية وما كان
أدعى إلى العبودية
كان أدعى إلى القيام
بحق الربوبية وكال
الحظ من اليقين والطم
بأنه للصوفية والمطاء

اللغة وقوله تعالى - واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها - أي أهل القرية وأهل العير فالأهل
فيها محذوف مضمرة وقوله عز وجل - ثقلت في السموات والأرض - معناه خفيت على أهل السموات
والأرض والتي إذا خفي ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم في مقام على وأضمر الأهل وحذف وقوله تعالى
- وتعملون رزقكم أنكم تكذبن - أي عسكر رزقكم وقوله عز وجل - آتينا ما وعدتنا على رسلك -
أي على السنة رسلك لحذف الألسنة وقوله تعالى - إنا آزلناه في ليلة القدر - أراد القرآن وما سبق له
ذكر وقال عز وجل - حتى توارت بالحجاب - أراد الشمس وما سبق لها ذكره وقوله تعالى - والذين
أخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - أي يقولون ما نعبدهم وقوله عز وجل - فلما
هو لاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك - معناه
لا يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فإن لم يرد هذا كان مناقضا لقوله - قل كل من عند
الله - وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية ومنها القول بالنقلب كقوله تعالى - وطور سينين - أي طور
سيناء سلام على آل ياسين - أي على إلياس وقيل إدريس لأن في حرف ابن مسعود سلام على إدراسين ومنها
للكرر القاطع لوصول الكلام في الظاهر كقوله عز وجل - وما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء إن
يتبعون إلا الظن - معناه وما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن وقوله عز وجل - قال اللأ
الدين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم - معناه الدين استكبروا لمن آمن من الدين
استضعفوا ومنها للتقدم وللؤخر وهو مظنة التلطف كقوله عز وجل - ولولا كلمة سبقت من ربك لكان
لزاما وأجل مسمى - معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولا أن نصيبا كاللزام وقوله تعالى
- يسألونك كأنك حفي عنها - أي يسألونك عنها كأنك حفي بها وقوله عز وجل - لهم مغفرة ورزق
كريم - كما أخرجك ربك من بيتك بالحق - فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق - قل
الأفعال لله والرسول - كما أخرجك ربك من بيتك بالحق - أي فصارت أفعال الفاعل لك إذ أنت راض
بمخرجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل
- حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه الآية - ومنها للبهيم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو
حرف أما الكلمة فكالشئ والقرين والأمة والروح ونظائرهما قال الله تعالى - ضرب الله مثلا عبدا
مملوكا لا يقدر على شئ - أراد به النفقة بمحارزق وقوله عز وجل - وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم
لا يقدر على شئ - أي الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عز وجل - فإن اتبعني فلا تسألني عن شئ - أراد
به من صفات الربوبية وهو العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى ينتهي بها العارف في أو ان الاستحقاق
وقوله عز وجل - أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون - أي من غير خالق فرجما يتوهم به أنه يدل على أنه
لا يخلق شئ إلا من شئ - وأما القرين فكقوله عز وجل - وقال قرينه هذا ما لبى عتيد - ألقيا في جهنم
كل كفار - أراد به للكل للكل به وقوله تعالى - قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان - أراد به
الشیطان - وأما الأمة فطلق على ثمانية أوجه الأمة الجماعة كقوله تعالى - وجد عليه أمة من الناس
يسقون - وأتباع الأنبياء كقولك نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورجل جامع للخير يقتدى به
كقوله تعالى - إن إبراهيم كان أمة قانتا لله - والأمة الدين كقوله عز وجل - إنا وجدنا آباءنا على
أمة - والأمة الحين والزمان كقوله عز وجل - إلى أمة معدودة - وقوله عز وجل - وادكر بعد أمة -
والأمة القامة يقال فلان حسن الأمة أي القامة ، وأمة رجل منفرد بدين لا يشرك فيه أحد قال صلى الله
عليه وسلم « يمت زيد بن عمرو بن نفيل أمة واحدة ^(١) » والأمة الأم يقال هذه أمة زيد أي أم زيد.

(١) حديث يمت زيد بن عمرو بن نفيل أمة واحدة ن في الكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء

والروح أيضا ورد في القرآن على معان كثيرة فلا تطول بارادها وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله عز وجل - فأتزن به تعافوسطن به جمعا - فالهاء الأولى كناية عن الحوافر وهي الوريات أي أترن بالحوافر قعما . والثانية كناية عن الاغارة وهي المغيرات صعبا فوسطن به جمعا جمع الشركين فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى - فأنزلناه الماء - يعني السحاب - فأخرجنا به من كل الثمرات - يعني الماء وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر . ومنها التدرج في البيان كقوله عز وجل - شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار وبأن بقوله عز وجل - إنا أنزلناه في ليلة مباركة - ولم يظهر به أي ليلة فظهر بقوله تعالى - إنا أنزلناه في ليلة القدر - وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات فهذا وأمثاله مما لا ينفي فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ليكون ذلك مفعلا لهم ومعجزا في حقهم فكل من اكتفى بفهم ظاهر العرية وبإدراك تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه مثل أن يفهم من الأمة للذي الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فإذا صحه في موضع آخر مال برأيه إلى ماسمه من مشهور معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منها عنه دون التفهم لأسرار المعاني كما سبق فاذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال وهو أن الله عز وجل قال - وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى - فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض فانه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماء الله عز وجل وكذلك قال تعالى - قاتلواهم بدينهم الله بأيديكم - فاذا كانوا هم للقائين كيف يكون الله سبحانه هو للمعذب وإن كان الله تعالى هو للمعذب بتحريك أيديهم لما معنى أمرهم بالقتال حقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم للكشافات لا ينفي عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة وفيهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف بعد إضاح أمور كثيرة غامضة صدق قوله عز وجل - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - ولعل الصبر لو اتفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط به قد ماتوا لو احقه لا تقضى الصبر قبل استيفاء جميع لواحقه ومامن كل من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراصين في العلم من أسرار به قدر غزارة علومهم وسفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لانهاية لها فتنفذ الأبحر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا ينفي عنه ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده « أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض فان الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال أعوذ بك منك ثم زاد قربه بما استحيابه من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأنشأ بقوله لا أحصى ثناء عليك ثم علم أن ذلك قصور فقال أنت كما أثنيت على نفسك فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ثم لها أغوار وراء هذا بنت أبي بكر باسنادين جيدين (١) حديث قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعافاتك من عقوبتك الحديث مسلم من حديث عائشة .

الراهدين فإن بذلك فضلهم وفضل علمهم . ثم إن صور مسئلة يستبين بها الاعتبار فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره عالم دخل مجلسا وقد وميز لنفسه مجلسا يجلس فيه كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه فدخل داخل من أبناء جنسه وقد فوقه فانصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل فهذا عارض عارض له ومرض اعتره وهو لا يظن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى الدواولة ولا يتفكر في منشأ هذا المرض ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها وجهلها لوجود كبرها وكبرها برؤية نفسها خيرا من غيرها فلم الانسان أنه أكبر من غيره كبر وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر بحيث التصبر صار فضلا به تكبر الزاهد لا يميز نفسه جي دون

وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نوردته لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم . ثم كتاب آداب التلاوة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد ومحبيه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات والله المستعان لا رب سواه .

(كتاب الأذكار والدعوات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشامل لراقته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى - فاذكروني أذكركم - ورغبهم في السؤال والدعاء بأمره فقال - ادعوني أستجب لكم - فأطعم الطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط إلى حضرة جلالة برفع الحاجات والأمان بقوله - فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان - والصلاة على محمد سيد أنبيائه وآله وأصحابه خيرة أصفياه وسلم تسليما كثيرا . [أما بعد] فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى فلا بد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل الآثار من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها ويتحرر للقاصود من ذلك بذكر أبواب خمسة . الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائده جملة وتفصيلا . الباب الثاني : في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الباب الثالث : في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها . الباب الرابع : في أدعية منتخبة مهندفة الاسناد من الأدعية للآثورة . الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

(الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائده على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار)

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات قوله سبحانه وتعالى - فاذكروني أذكركم - قال ثابت البناني رحمه الله إنني أعلم من يذكرني ربي عز وجل فزعوا منه وقالوا كيف تعلم ذلك فقال إذا ذكرتني ذكرني وقال تعالى - اذكروا الله ذكرا كثيرا - وقال تعالى - فإذا أنضم من عرفات فاذكروا الله عند الشعر الحرام واذكروه كأهداكم - وقال عز وجل - فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكرا - وقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم - وقال تعالى - فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم - قال ابن عباس رضي الله عنهما أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والفقر والرفق والمرض والصحة والسر والعلانية وقال تعالى في ذم المنافقين - ولا يذكرون الله إلا قليلا - وقال عز وجل - واذكروا ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالندو والآصال ولا تسكن من المنافقين - وقال تعالى - ولذكرا الله أكبر - قال ابن عباس رضي الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه والآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الحشيم ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين »

(كتاب الأذكار والدعوات)

الباب الأول في فضيلة الذكر

(١) حديث ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الحشيم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من

للسلمين ولا يرى نفسه في مقام تميز غيرها بمجلس فالصوفي العالم بخصوص يميز ولو قدر له أن ينتل بمثل هذه الواقعة وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله فيرفع في الحال داءه إلى الله تعالى ويشكو إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ويقطع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغنيا من النفس فيشغله اشتغاله بروية داء النفس في طلب دوائها من السكر فيمن قصد فوقه ويرعى أقبل على من قصد فوقه يعزى التواضع والانكسار تكفيرا للذنب الوجودي ودوايا لدائه الحاصل . فبين هذا الفرق بين الرجلين فإذا اعتبر المعتبر وتفقد حال نفسه في هذا المقام يرى

وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنامع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاهي (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم من عمل أنجي له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل (٣) » . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل فقال « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله عز وجل بالمعاش والموت أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملائير من ملكه وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إلى هرولت إليه (٧) » يعني بالهرولة سرعة الإجابة وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله من جعلتهم رجل ذكر الله خاليا قضاة عيناه من خشية الله (٨) » وقال أبو الهرداء قال رسول الله ﷺ « ألا أنبشكم بغير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل دائماً (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل من شغلته ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين (١٠) » .

حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال في وسط الشجر الحديث (١) حديث يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاهي هـ حب من حديث أبي هريرة وك من حديث أبي الهرداء وقال صحيح الإسناد (٢) حديث ما عمل ابن آدم من عمل أنجي له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثلاث مرات ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بن يسناد حسن (٣) حديث من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند ث بلفظ إذا مررتهم برياض الجنة فارتموا وقد تقدم في الباب الثالث من العلم (٤) حديث سئل أي الأعمال أفضل قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى حب وطب في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ (٥) حديث أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة أبو القاسم الأصبهاني في الترفيب والترهيب من حديث أنس من أصبح وأمس ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة وفيه من لا يعرف (٦) حديث لذكر الله بالمعاش والموت أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً ورواه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كلوا من ابن عبد البر في التمهيد (٧) حديث قال الله عز وجل إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله من جعلتهم رجلاً ذكر الله خاليا قضاة عيناه متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضاً (٩) حديث ألا أنبشكم بغير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم الحديث ت هـ ك وصحح إسناده من حديث أبي الهرداء (١٠) حديث قال الله تعالى من شغلته ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ح في التاريخ والبرز في للسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن

نفسه كنفوس عوام الخلق وطالب للناسب النبوية فأى فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له ولو أكثرنا تصوير للسائل لتبرهن فضيلة الزاهدين وتقصان الراغبين لأورث اللال وهذه من أوائل علوم الصوفية فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم والله للوفق للصواب .

[الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم]

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم المحروى قال أنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياق قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي قال حدثنا مسلمة بن حاتم

الأصمري قال حدثنا
عبد بن عبد الله
الأصمري عن أبيه
عن علي بن زيد عن
سعيد بن السيب قال :
قال أنس بن مالك
رضي الله عنه قال لي
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « يا بني إن
قدرت أن تصبح وتسي
وليس في قلبك غش
لأحد فافعل ثم قال يا بني
وذلك من سنن ومن
أحيائنا قد أحيانا
ومن أحيانا كان معي
في الجنة » وهذا أثر
شرف وأكمل فضل
أخبر به الرسول صلى
الله عليه وسلم في حق
من أحيائنا الصوفية
هم الذين أحيوا هذه
السنة وطهارة الصدور
من الغل والنس عماد
أمرهم وبذلك ظهر
جوهرهم وبان فضلهم
ولما قدروا على إحياء
هذه السنة ونهضوا
بواجب حقها لخدمهم
في الدنيا وتركها لأزواجها
وطلابها لأن مشار القل
والنفس حبة الدنيا
وحبة الرفعة وللزلة
عند الناس والصوفية

وأما الآثار : فقد قال الفضيل بلنا أن الله عز وجل قال يا عبادي اذكروني بعد الصبح ساعة
وبعد العصر ساعة أذكرك ما بينهما وقال بعض العلماء إن الله عز وجل يقول أيعا عبد اطلعت
على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى تولى سياسة وكنت جليسه ومحادثه وأنيبه وقال
الحسن الله ذكر ذكران : ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره
وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل ويرى « إن كل نفس تخرج من الدنيا
عطشى إلا ذاكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ليس يتحصر أهل الجنة على شيء
إلا على ساعة مرت بهم لم يذكر الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

(فضيلة مجالس الله)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جلس قوم مجلسا يذكر الله عز وجل إلا حفت بهم
لللائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من
قوم اجتمعوا يذكر الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا
لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات (٢) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « ما تعد قوم مقعدا لم يذكر الله
سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة (٣) »
وقال داود صلى الله عليه وسلم : ألمى إذا رأيته أجوز مجالس الأكرمين إلى مجالس العاقلين فأكبر
رجلي دونهم فانها نعمة تتم بها على . وقال صلى الله عليه وسلم « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي
ألف مجلس من مجالس السوء (٤) » وقال أبو هريرة رضي الله عنه إن أهل السماء ليرتاضون بيوت
أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تترامى النجوم وقال سفيان بن عيينة رحمه الله إذا
اجتمع قوم يذكر الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا ألا ترين ما يصنعون
فتقول الدنيا دعهم فانهم إذا غرقوا أخذت بأعناقهم إليك وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل
السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى
للمسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثا فقالوا يا أبا هريرة ما رأينا ميراثا يقسم في المسجد قال فإذا رأيتم
قالوا رأينا قوما يذكر الله عز وجل ويقرون القرآن قال فذلك ميراث رسول الله صلى الله
عليه وسلم (٥) وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا
وجدوا قوما يذكر الله عز وجل تنادوا هلموا إلى بيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء

الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره حب في الضعفاء وفي الثقات أيضا (١) حديث ما جلس قوم
جلسا يذكر الله تعالى إلا حفت بهم لللائكة وغشيتهم رحمة وذكرهم الله فيمن عنده م من حديث
أبي هريرة (٢) حديث ما من قوم اجتمعوا يذكر الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم
مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف
من حديث أنس (٣) حديث ما تعد قوم مقعدا لم يذكر الله ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم
حسرة يوم القيامة ت وحسنه من حديث أبي هريرة (٤) حديث المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي
ألف مجلس من مجالس السوء ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرج
ولم يروه وكذلك لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي هريرة أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا
وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق
الحديث الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع .

فيقول الله تبارك وتعالى أى شئ تركتم عبادى يصنعونه فيقولون تركناهم يمجدونك ويعبدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسيحاً وتحميداً وتعجباً فيقول لهم من أى شئ يتعبدون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً فيقول الله عز وجل وأى شئ يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً فيقول جل جلاله إنى أعلمكم أنى قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردم إنما جاء الحاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لا يشقى جليهم^(١) .

(فضيلة التهليل)

قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما قلت أنا والنبىون من قبل لآله إلا الله وحده لأشريك له^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وحده لأشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك^(٣) » وقال عليه السلام « مامن عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لأشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كآنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا لأبى هريرة « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فاتها لا توضع في ميزان لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا وضعت السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك^(٦) »

(١) حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيد الخدرى عن صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس الحديث رواه ت من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من حديث أبى هريرة وحده وقد تقدم في الباب الثالث من العلم (٢) حديث أفضل ما قلته أنا والنبىون من قبل لآله إلا الله الحديث تقدم في الباب الثانى من الحج (٣) حديث من قال لا إله إلا الله وحده لأشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير مائة مرة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث مامن عبد توشأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله الحديث ومن حديث عقبة بن عامر وقد تقدم في الطهارة (٥) حديث ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور الحديث أبو يعلى والطبرانى والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٦) حديث يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فاتها لا توضع في ميزان لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا وضعت السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ، قلت وصية أبى هريرة هذه موضوعة وآخر الحديث رواه المستغفرى في الدعوات ولو جعلت لا إله إلا الله وهو معروف من حديث أبى سعيد مرفوعا لو أن السموات السبع وسمارهن غيري والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله رواه ن في اليوم والليلة وحب وك وصححه .

زهدوا في ذلك كله كما قال بعضهم طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم للزابل فلما سقط عن قلوبهم حبة الدنيا وحب الرقة أصبحوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد يقول القائل كنست بأرواحهم للزابل إشارة منه إلى غاية التواضع وأن لا يرى نفسه تميز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه وعند هذا يندب باب النش والنسل وجرت هذه الحكاية وقال بعض الفقهاء من أمحابتنا وقيل أن معنى كنست بأرواحهم للزابل أن الإشارة بالزابل إلى النفوس لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة وكنسها بنور الروح الواصل إليها لأن الصوفية أرواحهم في محال القرب ونورها يسرى إلى النفوس وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها اللزوم

من القل والنش والحمد
والحمد فكأنها
تكفى بنور الروح
وهذا اللغى صحيح
وإن لم يرد القائل بقوله
ذلك . قال الله تعالى
في وصف أهل الجنة
سوزعنا ما في صدورهم
من غل إخوانا على
سرر متقابلين - قال
أبو حفص كيف يلقى
القل في قلوب التلفت
بالله وانفتحت على عبته
واجتمعت على مودته
وأنست بذكره إن
تلك قلوب صافية من
هواجس النفوس
وظلمات الطبائع بل
كملت بنور التوفيق
فصارت إخوانا فالحق
حجابهم عن عيب القيام
ياحياء سنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم
قولوا فضلا وحالافات
نفوسهم فاذا تبدلت
نور النفس ارتفع
الحجاب وفتح المتابعة
ووقعت للواقعة في كل
شيء مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ووجبت
المحبة من الله تعالى
عند ذلك قال الله تعالى
- قل إن كنتم تحبون
الله فاتبعوني يحبكم

وقال صلى الله عليه وسلم « لوجاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له ذلك ^(١) » وقال
صلى الله عليه وسلم « يا باهريرة لقن للوثى شهادة أن لا إله إلا الله فاتمها تهتم الذنوب هدمًا قلت
يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هي أهدم وأهدم ^(٢) » وقال صلى
الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لتدخلن الجنة
كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله قيل يا رسول الله من الذي أبى وشرد
عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله ^(٤) » فأكثرنا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها فاتمها
كلمة التوحيد وهي كلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي الكلمة الطيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى
وهي عن الجنة « وقال عز وجل - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - قيل الإحسان في الدنيا قول لا إله
إلا الله وفي الآخرة الجنة وكذا قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وروى البراء بن عازب أنه
صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له لله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير
عشر مرات كانت له عدل رقبة أو قال نسمة ^(٥) » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال في يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له لله الملك وله
الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسفه أحد كان قبله ولا يدركه أحد كان بعده إلا من عمل بأفضل من عمله ^(٦) »

(١) حديث لوجاء حامل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له غريب بهذا اللفظ .
ولترمذي في حديث أنس يقول الله يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا شريك
بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة . ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس يارب ماجزاء من هلك
مخلصا من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب وفيه اقطاع (٢) حديث يا باهريرة
لقن للوثى شهادة أن لا إله إلا الله فاتمها تهتم الذنوب الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من
طريق ابن القري من حديث أبي هريرة وفيه موسى بن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من
حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين من حديث الحسن مرسل (٣) حديث
من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم بأسناد ضعيف (٤) حديث
لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله شرود البعير على أهله البخاري من حديث أبي
هريرة كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبى . زادك وصحها وشرد على الله شرود البعير على أهله قال
البخاري قالوا يا رسول الله ومن أبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى ولابن عدي
وأبي يعلى والطبراني في الدعاء من حديث أكثرنا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها وفيه
ابن وردان أيضا ولأبي الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمار التميمي مرسل إذا قلت لا إله إلا الله
وهي كلمة التوحيد الحديث والحكم ضعيف ولأبي بكر بن الضحاك في التيمال من حديث ابن مسعود
في إجابة المؤذن اللهم رب هذه الدعوة المجابة للاستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص ولابن عدي من
حديث ابن عمر في إجابة المؤذن دعوة الحق والطبراني في الدعاء عن عبد الله بن عمرو كلمة الإخلاص لا إله
إلا الله الحديث والطبراني من حديث سلمة بن الأكوع وأثرهم كلمة التقوى قال لا إله إلا الله والطبراني
في الدعاء عن ابن عباس كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله وله عنه في قوله دعوة الحق قال شهادة أن لا إله
إلا الله وله عنه فقد استمسك بالعروة الوثقى قال لا إله إلا الله ولابن عدي والمستغفر من حديث أنس
عن الجنة لا إله إلا الله ولا يصح شيء منها (٥) حديث البراء من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحديث
الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله عشر مرات (٦) حديث عمرو بن
شعيب عن أبيه عن جده أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده

وقال صلى الله عليه وسلم « من قال في سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبغله بيتا في الجنة » وروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أنت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها (١) » وفي الصحيح عن أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل صلى الله عليه وسلم (٢) » وفي الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تمار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي فغفر له أو دعا استجيب له فإن نوحنا وصلى قبلت صلاته (٣) » .

(فضيلة التسييح والتحميد وبقية الأذكار)

قال صلى الله عليه وسلم « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر (٤) » وقال ﷺ « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت به خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر (٥) » وروى « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تولى عن الدنيا وقلت ذات يدي فقال رسول الله ﷺ فأبذ أنت من صلاة الملائكة وتسييح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وماذا يارسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم استغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تولى المصباح تأتيك الدنيا راغمة ضاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والسابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعطى (٧) » قال دافعة الزرقى « كتابوما فصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال مع الله لمن حمله

لا شريك له الحديث أحمد بلفظ مائة وكذا رواه ك في الاستدرك وإسناده جيد وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء (١) حديث إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أنت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها أبو يعلى من حديث أنس بن مالك ضعيف (٢) حديث أبي أيوب من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل متفق عليه (٣) حديث عبادة بن الصامت من تمار من الليل فقال لا إله إلا الله والحمد لله ثلاثا وثلاثين الحديث م من حديث أبي هريرة (٤) حديث من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين الحديث م من حديث أبي هريرة (٥) حديث من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال تولى عن الدنيا وقلت ذات يدي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبذ أنت عن صلاة الملائكة وتسييح الخلائق وبها يرزقون الحديث للاستغفر في الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلا في حديث مالك ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو أن نوحا قال لابنه آمرك بلإله إلا الله الحديث ثم قال وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق وإسناده صحيح (٧) حديث إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض وإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والسابعة إلى الأرض وإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعطه غريب بهذا اللفظ لم أجده

الله - جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة المبدربه وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه فأوفر الناس حظا من متابعة الرسول أوفرهم حظا من محبة الله تعالى والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم قال الله تعالى - وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - ثم اتبعوه في أعمالهم من الجهد والاجتهاد في العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال والتخلق بأخلاقه من الحياء والحلم والصفح والشفقة والرأفة وللدأرة والنصيحة والتواضع ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والمصبر

قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال من للتكم آتفا قال أنا يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا^(١) وقال رسول الله ﷺ «الباقيات الصالحات هن لإله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر^(٣)» رواه بن عمر وروى الثعلباني بن بشر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «الدين يذكر من جلال الله وتسيحه وتكبيره وتحميده ينمطون حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكر من صاحبه أولاً يجب أحدكم أن لا يزال عند الله ما يذكر به^(٤)» وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس^(٥)» وفي رواية أخرى زاد لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت^(٦)» رواه حمزة بن جندب وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ لليزان وسبحان الله والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حبة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فووقها أو مشتر نفسه ففقتها^(٧)» وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «كلمات خفيفتان على اللسان ثقلتان في اليزان جبيتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم^(٨)» وقال أبو ذر رضي الله عنه «قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم ما اصطفتي الله سبحانه للآلئكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم^(٩)» وقال

(١) حديث رفاعة الزرقى كنا يومنا صلى وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه الحديث رواه مخ -
(٢) حديث الباقيات الصالحات هن لإله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ن في اليوم واليلة وجب لك وصحة من حديث أبي سعيد ون ك من حديث أبي هريرة دون قوله ولا حول ولا قوة إلا بالله (٣) حديث ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ك من حديث عبد الله ابن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند حسن ون في اليوم واليلة مختصرا دون قوله سبحان الله والحمد لله (٤) حديث الثعلباني بن بشر الدين يذكر من جلال الله وتسيحه وتكبيره وتحميده ينمطون حول العرش له دوى كدوى النحل يذكر صاحبه الحديث ه وك وصحة على شرط م (٥) حديث أبي هريرة لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس وزاد في رواية ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا وما فيها م باللفظ الأول والمستشرق في الدعوات من رواية مالك بن دينار أن أبا أمامة قال لني صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أعظم القوم وهو مرسل جيد الاسناد (٦) حديث حمزة بن جندب أحب الكلام إلى الله أربع الحديث رواه م (٧) حديث أبي مالك الأشعري الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ لليزان الحديث رواه م وقد تقدم في الطهارة (٨) حديث أبي هريرة كلمتان خفيفتان على اللسان الحديث متفق عليه (٩) حديث أبي ذر أي الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفتي الله للآلئكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم رواه م دون

والزهد والتوكل
فاستوفوا جميع أقسام
المتابعات وأحبوا سنته
بأقصى التأيات . قيل
لعبد الواحد بن زيد
من الصوفية عندك ؟
قال القائمون بمقوله
على فهم السنة
والماضون عليها
بقلوبهم وللتصميم
بسيدهم من شرفهم
هم الصوفية وهذا
وصف تام وصفهم به
فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم دائم
الاقتدار إلى ماله حق
يقول لا تنكفي إلى
نفس طرفة عين
اكلاقي كلاءة الوليد
ومن أشرف ما ظفريه
الصوفي من متابعة
رسول الله صلى الله
عليه وسلم هذا الوصف
وهو دوام الاقتدار
ودوام الاتجاء ولا
يتحقق بهذا الوصف
من صدق الاقتدار
إلا عبد كشف باطنه
بصفاء العرفه وأشرق
صدره بنور اليقين
وخلص قلبه إلى بساط
القربى وخلاه سره بلاذة
السامرة فبقيت نفسه

أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ^(١) » فإذا قال العبد سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ونحط عنه عشرون سيئة وإذا قال الله أكبر فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ^(٢) » وعن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال قال الفقراء لرسول الله ﷺ « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به إن لكم بكل تسبيحة صدقة وتحميدة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف ونهى عن منكر صدقة ووضع أحدكم القيمة في أهله فهي له صدقة وفي بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر قالوا نعم قال كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٣) » وقال أبو ذر رضى الله عنه قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما تقول وينفقون ولا تنفق قال رسول الله ﷺ أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وقت من بعدك إلا من قال مثل قولك تسبيح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمد ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعاً وثلاثين ^(٤) » وروى بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكن بالتسبيح والتحليل والتفليس فلا تنفلن واعقدن بالأنامل فاتها مستنطقات ^(٥) » يبنى بالشهادة في القيامة وقال ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول التسبيح ^(٦) وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بي ومن قالهن عند الموت لم يمه النار ^(٧) » وروى مصعب بن سعد عن أبيه عنه ﷺ أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة قيل كيف ذلك يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة ^(٨) »

قوله سبحان الله العظيم ^(١) حديث إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله الحديث ن في اليوم واليلة وك وقال صحيح على شرط م وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنهما قالوا في ثواب الحمد كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة ^(٢) حديث جابر من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ت وقال حسن ون في اليوم واليلة وحسب وك وقال صحيح على شرط م وصححه ^(٣) حديث أبي ذر قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي الحديث رواه م ^(٤) حديث أبي ذر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما تقول وينفقون ولا تنفق الحديث رواه إلا أنه قال قاله ثمانية لأدري أين أربع ولأحمد في هذا الحديث وتحمد أربعاً وثلاثين وإسنادها جيد ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء وتكبر أربعاً وثلاثين كما ذكر المصنف ^(٥) حديث بسرة عليكن بالتسبيح والتحليل والتفليس ولا تنفلن واعقدن بالأنامل فاتها مستنطقات د ت ك بإسناد جيد ^(٦) حديث ابن عمر رأيت رسول الله ﷺ يقول التسبيح قلت إنما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه د ن وحسنه وك ^(٧) حديث أبي هريرة وأبي سعيد إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق عبدي الحديث ت وقال حسن ون في اليوم واليلة و ه ك وصححه ^(٨) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة الحديث م إلا أنه قال أو يحط كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح

بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ومع ذلك كله يراها مأوى كل شروعي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالمي وشيكة الرجوع سريسة الانقلاب والاقبال فاقه تعالى بكل لطفه عرفها إلى الصوفي وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها وكانها جعلت سوطاً للعبد تسوقه لمرفقه بشرها مع اللحظات إلى جناب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء فلا يغفل الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة كما لا يغفل عن ربه أدنى ساعة وربط معرفة الله تعالى فيها ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ك ربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذي يقوم بأحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بالله الزاهد في الدنيا المتمسك من

التقوى بأوثق العرى
ومن الذي يهتدى
إلى فائدة هذه الحال
غير الصوفي فدوام
افتقار إلى ربه تمسك
بجنان الحق وليأذبه
وفي هذا اليل إذا استغرق
الروح واستنجا القلب
إلى محل الدعاء وفي
أنجذاب القلب إلى محل
الدعاء بلسان الحال
والكون فيه نبوة
النفس عن مستورها
من الأقسام العاجلة
وزولها إلى في مدارج
العلم مخوفة بحراسة
الله تعالى ورعايته
والنفس المدبرة بهذا
التدبير من حسن
تدبير الله تعالى مأمونة
العائلة من الغل والنش
والحقد والحسد وسائر
الذنومات فهذا حال
الصوفي. ويجمع حمل
حال الصوفية شيئا كان:
هما وصف الصوفية
واللهما الإشارة بقوله
تعالى - الله يجتبي إليه
من يشاء ويهتدى
إليه من ينيب - تقوم
من الصوفية خصوا
بالاجتناب الصرف
وقوم منهم خصوا

وقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله بن قيس أويا أباه وصى أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال قل لا حول ولا قوة إلا بالله (١) » وفي رواية أخرى « ألا أدلك كلمة من كنز تحت العرش لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدي واستسلم (٢) » وقال ﷺ « من قال حين يصبح رضى الله به وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا كان حقا على الله أن يرزقه يوم القيامة (٣) » وفي رواية من قال ذلك رضى الله عنه . وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته فقال باسم الله قال الملك هديت فإذا قال توكلت على الله قال الملك كيفت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال الملك وقيت فتفرق عنه الشياطين فيقولون ما تريدون من رجل قد هدى وكفى ووقى لاسبيل لكم إليه . فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التمسك فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة الشغلات فيها . فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بطل للكاشفة والقدر الذي يسمح بذكره في علم العامة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفي الأخبار ما يدل عليه أيضا (٤) وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو القديم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية والذكر أول وآخر فأوله يوجب الأنس والحب وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه والمطلوب ذلك الأنس والحب فان الرشد في بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل فان وفق للمداومة أنس به وانفرد في قلبه حب المذكور ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فان من الشاهد في العبادات أن تذكر طائفا غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيجبه وقد يشق بالوصف وكثرة الذكر ثم إذا عشق بكثرة الذكر للتكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخر بحيث لا يصبر عنه فان من أحب شيئا أكثر من ذكره ومن أكثر ذكر شيء وإن كان تكلفا أحبه فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يشر الأنس بالذكر والحبه ثم تمتع الصبر عنه آخر فيصير الموجب موجبا والثمر مثمرا وهذا معنى قول بعضهم كابدت القرآن عشرين سنة ثم تمتعت به عشرين سنة ولا يصدر التمتع إلا من الأنس والحب ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على السكابة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعيا فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا ويكابد كله ويؤاظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف هي النفس ما عودتها تعود * أي ما كلفها أولا يصير لها طبعيا آخر ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه اقتطع من غير ذكر الله وما سوى الله

(١) حديث يا عبد الله بن قيس أويا أباه وصى أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لا حول ولا قوة إلا بالله متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدي واستسلم في اليوم واليلة وك من قال سبحان والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدي واستسلم وقال صحيح الاسناد (٣) حديث من قال حين يصبح رضى الله به وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا كان حقا على الله أن يرزقه يوم القيامة (٤) حديث الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى ت وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الاسناد من حديث أبي هريرة واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه .

عز وجل هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبق إلا ذكر الله عز وجل فإن كان قد أنس به تمتعه به وتلذذ باقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصدعن ذكر الله عز وجل ولا يبق بعد الموت عائق فكأنه خلى بينه وبين محبوبه فظلمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان يمتنع عاقيه عما به أنسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب ما أحببت فانك مفارقة (١) » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك ينفى في حق الموت فكل من عليها فإن ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام وإنما تنفى الدنيا بالموت في حقه إلى أن تنفى في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله وهذا الأنس يتلذذ به العبد بمدمونه إلى أن ينزل في جوار الله عز وجل ويرقى من الذكر إلى اللقاء وذلك بعد أن يمر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه بعد الموت فيقول إنه أعظم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل فإنه لم يعد مع ما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله ﷺ « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٢) » وبقوله ﷺ « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر (٣) » وبقوله صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من الشركين « يا فلان يا فلان وقد صمماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فأن وجدتم ما وعدني ربى حقا (٤) » فسمع عمر رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جفوا ؟ فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما أتم أسمع لكلامي منهم ولكنهم لا يتقدرون أن يجيبوا » والحديث في الصحيح هذا قوله عليه السلام في الشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال ﷺ « أراحهم في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش (٥) » وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عز وجل وقال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن الطلب الحقة ونفى بالحقة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العائق عن غيره فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل مرن الدنيا كلها فإنه يزيد بها حياته وقدهون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك ولذلك عظم

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب ما أحببت فانك مفارقة تقدم في الكتاب السابع من العلم (٢) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ت من حديث أبي سعيد بتقديم وتأخير وقال غريب قلت فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي ضعيف (٣) حديث أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر من حديث ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا - الآية قال أما إنا قد سألتنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر فلم يسم به النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية ت أما إنا سألتنا عن ذلك فأخبرنا وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده (٤) حديث ندائه لقتلى بدر من الشركين يا فلان يا فلان وقد صمماهم إلى قد وجدت ما وعدني ربى حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا م من حديث أنس (٥) حديث أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ه من حديث كعب بن مالك إن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة وروى ن بلفظ إنما نسمة المؤمن طائر ورواه ت بلفظ أرواح الشهداء وقال حسن صحيح .

بالهداية بشرط مقدمة الإجابة فالاجتناب المحض غير مطلق بكسب العبد وهذا حال المحبوب للراد يادته الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتاده وفي هذا أخذ بظانفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبأدرهم سطوع نور اليقين فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال فأقبلوا على الأعمال باللذات والعيش فيها قرة أعينهم فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحره فرعون لاداة النازل بهم من صفو العرفان فحمل وعيد فرعون فقالوا - لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات - قال جعفر الصادق رضي الله عنه وجدوا أرياح العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا آمنا برب العالمين . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن

أبي الفضل إجازة
قال أنا أبو بكر أحمد
ابن علي بن خلف
إجازة قال أنا
عبد الرحمن السلي
قال سمعت منصورا
يقول سمعت أبا موسى
الرقاق يقول سمعت
أبا سعيد الخزاز يقول
أهل الخاتمة الذين هم
المرادون اجتنبهم مولاكم
وأكل لهم النعمة وهيا
لهم الكرامة فأسقط
عنهم حركات الطلب
فصارت حركاتهم في
العمل والخدمة على
الألفة والذكر والتنم
بمناجاته والانفراد
بقربه وهذا الاسناد
إلى أبي عبد الرحمن
السلي قال سمعت علي
ابن سعيد يقول سمعت
أحمد بن الحسن الحصري
يقول سمعت فاطمة
العسروقة بجورية
تليقذة أبي سعيد تقول
سمعت الخزاز يقول
المراد محمول في حاله
معان على حركاته وسعيه
في الخدمة مكنى مصون
عن الشواهد والنواظر
وهذا الذي قاله الشيخ
أبو سعيد هو الذي

أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى عليه وسلم لجابر «ألا أبشرك يا جابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعد بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن علي يا عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى فقال عز وجل سبق القضاء مني بأنهم إليها لا يرجعون (١)» ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل وبقي مدة ريماعات شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة فإن القلب وإن أُرْمِ ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تغريه فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا وذلك لقله حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويمش على ما مات عليه فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك (٢) كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر عنها بـ «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك لا إله إلا الله فإنه لا مقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إلا فهذا الشهيد قاتل بلسان حاله لا إله إلا الله إذ لا مقصود له سواه ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر ولذلك فضل رسول الله صلى عليه وسلم قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار (٣) وذكر ذلك مطلقا في مواضع الترغيب ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والاخلاص فقال مرة من قال لا إله إلا الله عخلصا ومعنى الاخلاص مساعدة الحال للقال . ففسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقالا ظاهرا وباطنا حتى نودع الدنيا غير متلفين إليها بل متبرمين بها ومحبين لقاء الله فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فهذه مرامز إلى معاني الذكر التي لا يمكن الزيادة عليها في علم العامة .

(الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة
وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم)

(فضيلة الدعاء)

قال الله تعالى - وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي - وقال تعالى - ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب للمتدين - وقال تعالى - وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وقال عز وجل

(١) حديث ألا أبشرك يا جابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقعد بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن علي الحديث وقال حسن و . ك وصحح إسناده من حديث جابر (٢) حديث الرجل يقاتل لئيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك متفق عليه من حديث أبو موسى قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال الرجل يقاتل لله كره والرجل يقاتل للنعم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٣) حديث تفصيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار وقال حسن ون في اليوم واليلة وهو من حديث جابر (الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله)

- قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي اتمتعوا فله الأسماء الحسنى - وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ - ادعوني أستجب لكم (١) » - الآية وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مع العبادة (٢) » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إما ذنب يغفر له وإما خير يسجل له وإما خير يدخر له (٤) » وقال أبو ذر رضي الله عنه يكنى من الدعاء مع البر ما يكتفى الطعام من اللع وقال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج (٥) » .

(آداب الدعاء وهي عشرة)

الأول : أن يرصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى - وبالأسماء يستغفرون - وقال صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له (٦) » وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال سوف أستغفر لكم ربي ليدعو في وقت السحر قبيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلقه فأوحى الله عز وجل إليه إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء . الثاني : أن يقتنم الأحوال الشريفة قال أبو هريرة رضي الله عنه إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى وعند نزول النيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها . وقال مجاهد إن الصلاة جملة في خير الساعات فليكن بالدعاء خلف الصلوات وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « الصائم لا يرد دعوته (٨) » وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من الشوشات ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع المهم وتعاون القلوب على استدراار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها وحالة السجود أيضا أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث النعمان بن بشير إن الدعاء هو العبادة أمحباب السنن وك وقال صحيح الاسناد وقال ت حسن صحيح (٢) حديث الدعاء مع العبادة ت من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث ابن لهيعة (٣) حديث أبي هريرة ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء ت وقال غريب وه ح ك وقال صحيح الاسناد (٤) حديث إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إما ذنب يغفر له وإما خير يسجل له وإما خير يدخر له الدبلى في الفردوس من حديث أنس وفيه روح ابن مسافر عن أبان بن أبي عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد وخ في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها (٥) حديث سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج ت من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضعه ابن معين وغيره (٦) حديث ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد ت في اليوم واليلة وت وحسنه من حديث أنس وضعه ابن عدى وابن القطان ورواه في اليوم واليلة باسناد آخر جييد وح ك وصححه (٨) حديث الصائم لا يرد دعوته ت وقال حسن وه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه .

اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل وقد رأوا جمعا من الشايخ قلت نوافلهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ولم يسلوا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض حكانت بداياتهم بدايات للريدين فلا وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلاوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال فاما المرادون فبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرّة أعينهم وهذا أتم وأكمل من الأول فهذا الذي أوضحناه أحد طريقى الصوفية فأما الطريق الآخر طريق للريدين وهم الذين شرطوا لهم الانابة فقال الله تعالى - ويهدي إليه من ينيب - فطوبى لسا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف قال الله تعالى سوادين جاهدوا

« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثر وأقرب من الدعاء (١) » وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن نيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه من أن يستجاب لكم (٢) » . الثالث : أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى يياض إبطيه وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف برفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غابت الشمس (٣) » وقال سلمان قال رسول الله ﷺ « إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردّها صفراً (٤) » وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى يياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه (٥) » وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على إنسان يدعو ويشير بأصبعه السبائتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد (٦) أي اقتصر على الواحدة وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ارفعوا هذا لا يدي قبل أن تغلب بالأغلال ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء قال عمر رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردّها حتى يمسح بهما وجهه (٧) وقال ابن عباس كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما على وجهه (٨) فهذه هيئتان اليد ولا يرفع يده إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « ليتبين أقوام عن رفع أفعالهم إلى السماء عند الدعاء أولئك يخطئون أفعالهم (٩) » الرابع : خفض الصوت بين الخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال قدّمنا مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبروا كبر الناس ورفضوا أصواتهم فقال النبي ﷺ « يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم (١٠) » وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل - ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها (١١) - أي بدعائك وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال - إذ نادى ربه نداء خفياً - وقال عز وجل - ادعوا ربكم تضرعاً وخفية - . الخامس : أن لا يتكلف السجعة في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع

(١) حديث أبي هريرة أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثر وأقرب من الدعاء رواه م (٢) حديث ابن عباس إن نيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً الحديث م أيضاً (٣) حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف برفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غابت الشمس م دون قوله يدعو فقال مكانها واقفاً ومن حديث أسامة بن زيد كنت ردفه برفات فرفع يديه يدعو ورجاله ثقات (٤) حديث سلمان إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردّها صفراً دت وحسنه وهك وقال إسناده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس كان يرفع يديه حتى يرى يياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه م دون قوله ولا يشير بأصبعه والحديث متفق عليه لكن مفيد بالاستسقاء (٦) حديث أبي هريرة مرّ على إنسان يدعو بأصبعه السبائتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد ن وقال حسن وهك وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردّها حتى يمسح بهما وجهه ت وقال غريب وهك في المستدرک وسكت عليه وهو ضعيف (٨) حديث ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما على وجهه الطبراني في الكبير بسند ضعيف (٩) حديث ليتبين أقوام عن رفع أفعالهم إلى السماء عند الدعاء أولئك يخطئون أفعالهم وقال عند الدعاء في الصلاة (١٠) حديث أبي موسى الأشعري يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب متفق عليه مع اختلاف اللفظ الذي ذكره الصنف لأن داود (١١) حديث عائشة في قوله تعالى - ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها - أي بدعائك متفق عليه .

فيتأهدينهم سبلنا -
يدرجهم الله تعالى في
مدارج الكسب بأنواع
الرياضات والمجاهدات
وسهر الداجر وظلم
المواجر وتأجج فيهم
نيران الطلب وتنحجب
دونهم لوامع الأرب
يتقبلون في رمضان
الإرادة وينخلعون
عن كل مألوف وعادة
وهي الإنابة التي شرطها
الحق سبحانه وتعالى
لهم وجعل الهداية
مقرونة بها وههنا
الهداية آتاه هداية
خاصة لأنها هداية إليه
غير الهداية العامة التي
هي المدي إلى أمره
ونبيه بمقتضى المعرفة
الأولى وهذا حال
السالك المهبّ للريد
فكانت الإنابة خير
الهداية العامة فأمرت
هداية خاصة واهتدوا
إليه بعد أن اهتدوا
بالمكابدات فخلصوا
من مضيق الضر إلى
فضاء اليسر وبرزوا
من وهج الاجتهاد إلى
روح الأحوال فسبق
اجتهادهم كشوفهم
والرادون سبق

والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون في الدعاء »^(١) وقد قال عز وجل - ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين - قيل معناه التكلف للأسجاع والأولى أن يجاوز الدعوات للأثورة فإنه قد يعتدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته لما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضي الله عنه إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى تعلموا من العلماء وقد قال عليه السلام « يا أيكم والسجعة في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » وفي الخبر سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطهور ومريم بن السلف بقاس يدعو بسجعة فقال له ألي الله تبلغ أشهد لقد رأيت عبيدا الصمى يدعو وما يزيد على قوله اللهم اجعلنا جدين اللهم لا تفضعنا يوم القيامة اللهم وقنا للخير والناس يدعون من كل ناحية وراؤه وكان يعرف بركه دعائه وقال بعضهم ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ويقال إن العلماء والأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ويشهده آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسجعة هو التكلف من الكلام فإن ذلك لا يلزم الضراعة والذلة والإفنى الأدعية للأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع القربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد »^(٢) وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أوليتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل . السادس : التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى - إنهم كانوا يسارعون في الحيرات ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - ادعوا ربكم تضرعا وخفية - وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه »^(٣) . السابع : أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه قال صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسئلة فإنه لا مكره له »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظم شيء »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث سيكون قوم يعتدون في الدعاء وفي رواية والطهور د . حب لك من حديث عبد الله بن مغفل
(٢) حديث يا أيكم والسجعة في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس وانظر السجعة من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله عليه السلام لا يفعلون إلا ذلك و . ك واللفظ له وقال صحيح الاسناد من حديث عائشة عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة إلى آخره
(٣) حديث أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع القربين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد ت من حديث ابن عباس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته فذكر حديثا طويلا من جملته هذا وقال حديث غريب انتهى وفيه محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى س . الحفظ (٤) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس إذا أحب الله عبدا حبب عليه البلاء صبا الحديث وفيه دعه فإني أحب أن أسمع صوته وللطبراني من حديث أبي أمامة إن الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبيدي فصبوا عليه البلاء الحديث وفيه فإني أحب أن أسمع صوته وسندهما ضعيف (٥) حديث لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسئلة فإنه لا مكره له متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظم شيء حب من حديث أبي هريرة .

كشوفهم اجتهدم
أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي قال أنا
أبو الفضل أحمد بن
أحمد قال أنا الحافظ
أبو نعيم الأصفهاني قال
تنا محمد بن الحسين بن
موسى قال سمعت محمد
ابن عبد الله الرازي
يقول سمعت أبا محمد
الجريري يقول سمعت
الجنيد رحمه الله عليه
يقول لما أخذنا التصوف
عن القليل والقال
ولكن عن الجوع
وترك الدنيا وقطع
الألوات وللتحسنت
قال محمد بن خفيف
الإرادة مما هو القلب
لطلب المراد وحقيقة
الإرادة استدامة الجد
وترك الراحة وقال
أبو عثمان اللريد الذي
مات قلبه عن كل شيء
دون الله تعالى فيريد
الله وحده ويريد
قربه ويشتاق إليه
حتى تذهب شهوات
الدنيا عن قلبه لشدة

وادعوا الله وأتمموا موافقون بالاجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل^(١) وقال
سفيان بن عيينة لا يمنن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الحلق إبليس
لمنه الله إذ قال رب فأنتظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من اللذين - . الثامن : أن يلح في الدعاء
ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود كان عليه السلام إذا دعاه ثلاثا وإذا سأله ثلاثا^(٢) وينبغي أن لا يستبطى
الاجابة لقوله صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم ما لم يجعل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا
دعوت فاسأل الله كثيرا فانك تدعو كرما^(٣) » وقال بعضهم إن أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة
حاجة وما أجابني وأنا أرجو الاجابة سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا ينبغي وقال صلى الله عليه وسلم
« إذا سألك ربه مسألة فاعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذي نعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه شيء
من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال^(٤) » . التاسع : أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال
قال ضمرة بن الأكوخ ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتح بقوله سبحان رب العلى الأعلى
الوهاب^(٥) وقال أبو سليمان الدارني رحمه الله من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل يقبل الصلاتين
وهو أكرم من أن يدع ما بينهما وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سألت الله
عز وجل حاجة فابتدءوا بالصلاة على فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى إحداها ويرد
الأخرى^(٦) » رواه أبو طالب الليثي . العاشر : وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الاجابة فلو ورد للظالم
والاقبال على الله عز وجل بكنه الحمة فذلك هو السبب القريب في الاجابة فيروى عن كعب الأحبار أنه
قال أصاب الناس قحط عديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببني إسرائيل
يستسقى بهم فلم يستقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يستقوا فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أني
لا استجيب لك ولان معك وفيكم غمام فقال موسى يارب ومن هو حق نخرجه من بيننا فأوحى الله
عز وجل إليه يا موسى أنهاركم عن النجاسة وأكون غماما فقال موسى لبني إسرائيل توبوا إلى ربكم
بأجمعكم عن النجاسة فتابوا فأرسل تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبيرة قحط الناس في زمن ملك
من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال للملك لبني إسرائيل ليرسلن الله تعالى علينا السماء أولئذينه قيل
له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء فقال أتدل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل
الله تعالى عليهم السماء وقال سفيان الثوري بلغني أن بني إسرائيل قطعوا سبع سنين حتى أكلوا للبتة من

(١) حديث ادعوا الله وأتمموا موافقون بالاجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل ت من
حديث أبي هريرة وقال غريب و ك وقال مستقيم الاسناد تفرد به صالح اللري وهو أحد زهاد البصرة
قلت لكنه ضعيف في الحديث (٢) حديث ابن مسعود كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا
سأل سأل ثلاثا رواه مسلم وأصله متفق عليه (٣) حديث يستجاب لأحدكم ما لم يجعل فيقول قد دعوت فلم
يستجب لي متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث إذا سألك ربه مسألة فاعرف الاجابة فليقل
الحمد لله الذي نعمته تم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال البيهقي في
الدعوات من حديث أبي هريرة والحاكم نحوه من حديث عائشة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥) حديث
سلة بن الأكوخ ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتح وقال سبحان
رب العلى الأعلى الوهاب أحمد وك وقال صحيح الاسناد قلت فيه عمر بن راشد الجاني ضعفه الجمهور
(٦) حديث إذا سألت الله حاجة فابتدءوا بالصلاة على فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين
فيعطى إحداها ويرد الأخرى لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبي النضر .

شوقه إلى ربه وقال
أيضا عقوبة قلب
المريدين أن يحجبوا
عن حقيقة للمعاملات
والمقامات إلى أصدادها
فهذان الطريقان
يعملان أحوال
الصوفية ودونها طريقان
آخران ليسا من طرق
التحقق بالتصوف .
أحدهما مجذوب أبقى
على جذبة مارد إلى
الاجتهاد بعد الكشف
والثاني مجتهد متعب
ماخلص إلى الكشف
بعد الاجتهاد وللصوفية
في طريقتها باب
مزيد ومحة طريقتهم
بحسن التابعة ومن
ظن أن يبلغ غرضا
أو يظفر بمراد لا من
طريق للتابعة فهو
مخذول مغرور . أخبرنا
شيخنا أبو النجيب
السهروردي قال أنا
عصام الدين عمر بن
أحمد الصفار قال أنا
أبو بكر أحمد بن علي
ابن خلف قال أنا أبو
عبد الرحمن قال سمعت

للزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يكون وينضرمون فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لومستينم إلى بأقدامكم حتى تحنن ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكمل ألسنتكم عن الدعاء فاني لأجيب لكم داعيا ولا أرحم لكم باكيا حتى تردوا للظالم إلى أهلها ففعلوا فطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكتاف قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن زدادوا مني إلا بئدا . وقال أبو الصديق الناجي خرج سليمان عليه السلام يستسقي لربنملة ملقاة على ظهرها رافضة قوائمها إلى السماء وهي تقول اللهم إنا خلقنا من خلقك ولاغنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غبرنا فقال سليمان عليه السلام ارجعوا قد صقيتم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعي خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال يا مشرك من حضر ألسن مفرين بالإساءة فقالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول - ما على الحسين من سيل - وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لنا اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا فرغ يديه ورفعوا أيديهم فسقوا وقيل لما لك بن دينار أدم لنا ربك فقال إنكم تستبطئون للطر وأنا أستبطئ الحجرة وروى أن عيسى صلات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد فقال له عيسى عليه السلام أمالك من ذنب فقال والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فرتبني امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانزعجتا وأبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى أؤمن على دمالك قال فدعا فتجالت السماء سحابا ثم صبت فسقوا . وقال يحيى النساني أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاخترأوا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم اللهم إنك آزلت في توراتك أن نفو عن ظننا اللهم إنا قد ظننا أنفسنا فاعف عنا . وقال الثاني اللهم إنك آزلت في توراتك أن نفتق أرقامنا اللهم إنا أرقامنا فاعتقنا وقال الثالث اللهم إنك آزلت في توراتك أن لا نرد للسالكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا يابك فلا ترد دعاءنا فسقوا وقال عطاء السلي منعا النبيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بمعدون المجنون في القابر فنظر إلى فقال بإعطاء أهلنا يوم النشور أو يشر ما في القبور قتلنا ولاولكنا منعا النبيث فخرجنا نستسقي فقال بإعطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية قتلنا بل بقلوب سماوية فقال هيات بإعطاء قل للتبرجين لاتتبرجوا فان الناقد بصير ثم رمق السماء بطرفة وقال إلهي وسيدى ومولاي لاتهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المسكون من أسماك وماوارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدا فرأنا تهي به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شيء قدير قال عطاء لما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والمابدون إذ لمولاهم أجاجوا البطونا

أسهروا الأعين العلية جبا فاقضى إليهم وهم ساهرون

غفلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أتبيل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد أنزرا باحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جانبي فسمعت يقول إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عناغيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك يا حليما أنا يا من لا يعرف عباده من إلا الجليل أن تسقيهم الساعة الساعة فمزل يقول الساعة

نصر بن أبي نصر
يقول صمت قريبا فلام
الرفاق يقول صمت
أبا سعيد السكري يقول
صمت أبا سعيد الحراز
يقول كل باطن يخافه
ظاهر فهو باطل وكان
يقول الجنيد رحمه الله
علنا هذا مشتبك
بحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وقال بعضهم من أمر
السنة على نفسه قولاً
وفلا نطق بالحكمة
ومن أمر الهوى على
نفسه قولاً وفلا نطق
بالبدعة . حكى أن
أبا يزيد البسطامي
رحمه الله قال ذات يوم
لبعض أصحابه قم بنا
حتى ننظر إلى هذا
الرجل الذي قد شهر
نفسه بالولاية وكان
الرجل في ناحية مقصودا
ومشهورا بالزهد
والعبادة فضينا إليه
فما خرج من بيته قصد
للسجدة رزقة فهو
القبلة قال أبو يزيد
انصرفوا فانصرف

الصاعقة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب قال ابن المبارك فبحث إلى الفضيل فقال مالي أراك كشيئا قلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرت منفضيا عليه ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه في القوم إليك لمكان من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراحم لا تهمل الفضالة ولا تضع الكبير بدار مضبغة قد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغيثك قبل أن ينفطوا فيهلكوا فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فلما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

(فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم)

قال الله تعالى - إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما - وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه » فقال عليه السلام إنه جاءني جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصل عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه غفوا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلت عليه للملائكة ماضى على فليقل عند ذلك أوليكتر (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بي أكثرهم على صلاة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكرهوا من الصلاة على يوم الجمعة (٤) » وقال عليه السلام « من صلى على من أمي كتبت له عشر حسنات ومحبت عنه عشر سيئات (٥) » وقال عليه السلام « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي (٦) » وقال رسول الله ﷺ « من صلى على

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقال إنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصل عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرة ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرة (٢) وحب من حديث أبي طلحة بإسناد جيد (٣) حديث من صلى على صلت عليه للملائكة ماضى فليقل عبد من ذلك أوليكتر من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن (٤) حديث إن أولى الناس بي أكثرهم على صلاة ت من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وحب (٥) حديث بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصل على قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا ون وحب من حديث أخيه الحسن: البخل من ذكرت عنده فلم يصل على ورواه ت من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال حسن صحيح (٦) حديث أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة دن . حبك وقال صحيح على شرط من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبي حاتم في الملل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر (٧) حديث من صلى على من أمي كتبت له عشر حسنات ومحبت عنه عشر سيئات ن في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات ، وله في السير ولا بن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله مخلصا من قلبه ودون ذكر محو السيئات ولم يذكر ابن حبان أيضا رفع الدرجات (٧) حديث من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي البخاري من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي ﷺ وقال النداء

ولم يسلم عليه وقال هذا رجل ليس بمؤمن على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين

وشلو خادم الشبلي رحمه الله ماذا رأيت منه عند موته قال لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى أن وضئى للصلاة فوضأته فمسيت غليل لحية قبض على يدي وأدخل أصابعي في لحية بخلها . وقال سهل بن عبد الله كل وجد لا يشهد له الكتاب والشفقة طل هذا حال الصوفية وطريقهم وكل من يدعى حالا على غير هذا الوجه فمدح مفتون كذاب .

[الباب الخامس في

ماهية التصوف]

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل في كتابه قال أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف

في كتاب لم تزل للملائكة يستغفرون له مادام اسمي في ذلك الكتاب (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الأرض ملائكة سياحين يلتمون عن أمي السلام (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس أحد يسلم على إلارداة حتى روي حتى أرد عليه السلام (٣) » و « قيل له يا رسول الله كيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد (٤) » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان جلع فخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسميهم فعن الجذع لفرأك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمثك كانت أولى بالحنين إليك لما رقتهم « بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته قال عز وجل - من يطع الرسول فقد أطاع الله - بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالغو عنك قبل أن يخبرك بالذنب قال تعالى - عفا الله عنك لم أذنت لهم - بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد بلغ من فضيلتك عنده أن بشك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال عز وجل - وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم - الآية « بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول « بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تنفجر منه الأنهار لفاذا بأعجب من أصابك حين نبع منها الماء صلى الله عليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر لفاذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأطمح صلى الله عليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله الموتى لفاذا بأعجب من الشاة السمومة حين كلمتك وهي مشوية فقالت لك اقتراع لانا كلني فاني مسمومة بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعانوح على قومه قال رب لا تنذرني الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بثلثا لهلكنا كلنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا قلت اللهم اغفر لقومي فانهم لا يسلمون بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالسنا ولولم تتكلم

وللمستغفري في الدعوات حين يسمع الدعاء للصلاة وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن علي الصوري في اليوم واليلة من حديث أبي الهرداء ذكر الصلاة فيه وله وللمستغفري في الدعوات بسند ضعيف من حديث أبي رافع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان فذكر حديثا فيه وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة الحديث وزاد وقبل شفاعة في أمته ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا سمعتم للؤذن يقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على « ثم صلوا الله على الوصيلة وفيه لمن سأل الوصيلة جلت عليه الشفاعة (١) » حديث من صلى على في كتاب لم تزل للملائكة تستغفره مادام اسمي في ذلك الكتاب الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب وللمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث إن في الأرض ملائكة سياحين يلتمون عن أمي السلام تقدم في آخر الحج (٣) حديث ليس أحد يسلم على إلارداة حتى روي حتى أرد عليه السلام د من حديث أبي هريرة بسند جيد (٤) حديث قيل له يا رسول الله كيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الحديث متفق

الشيخ أبي إجازة قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال أنا إبراهيم ابن أحمد بن محمد ابن رجاء قال أنا عبد الله بن أحمد البغدادي قال شاعثان ابن سعد قال شاهر ابن أسد عن مالك ابن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب للمساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » قال فقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه . قال روي التصوف مبني على ثلاث خصال التمسك بالفقرو الافتقار والتحقيق بالبلد والإيتار وترك التمرض والاختيار وقال الجنييد وقد سئل من التصوف فقال أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال :

إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا ولولم تواكل إلا كفؤا لك ما واكلتنا فقلدوا الله جالسنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولقمت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم (١). وقال بعضهم كنت أكتب الحديث وأصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي أمانتم الصلاة على في كتابك لما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه وروى عن أبي الحسن قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله بم جوزي الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة وصلى الله على محمد كما ذكره الداكرون وغفل عن ذكره الناقلون فقال **جوزي عن أنه لا يوقف للمصاب**.

(فضيلة الاستغفار)

قال الله عز وجل - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنبت بعد ذنبا قترأها واستغفرت الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم - الآية وقوله عز وجل - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - وقال عز وجل - فبسط محمد ربك واستغفره إنه كان توابا - وقال تعالى - وللمستغفرين بالأسفار - وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم

عليه من حديث أبي حميد الساعدي (١) حديث عمر في حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والاسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة السمومة وأنه دعى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولحق أصابعه وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى لحديث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الاسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح وحديث كلام الشاة السمومة رواه د من حديث جابر وفيه انقطاع وحديث أنه دعى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد في غزوة أحد وحديث اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون رواه البيهقي في دلائل النبوة والحديث في الصحيح من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبي من الأنبياء صربه قومه وحديث لبس الصوف رواه الطيالسي من حديث سهل بن سعد وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن مرسلا وللبخاري من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط وحديث لفته أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك (٢) حديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده دون قوله إنك أنت التواب الرحيم (٣) حديث من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب دن في اليوم واليلة وهكذا وقال صحيح الاسناد من حديث أبي عباس وصحه ابن حبان .

معروف الكرخي
التصوف الأخمد
بالخفاف والياس بها
في أيدي الخلائق فمن
لم يتحقق بالفقر لم
يتحقق بالتصوف .

وسئل الشيلي : عن
حقيقة الفقر فقال
أن لا يستغنى بشي
دون الحق . وقال
أبو الحسين التتوي
نعت الفقير السكون
عند الندم والبلد
والإيثار عند الوجود

وقال بعضهم إن الفقير
الصادق ليحترق من
النفي حذر أن يدرك
عليه النفي فيفسد
فقره كما أن النفي يحترق
من الفقير حذر أن
يدخل عليه الفقر
فيفسد عليه غناه .
وبالاسناد الذي سبق
إلى أبي عبد الرحمن
قال سمعت أبا
عبد الرحمن الرازي
يقول سمعت مظفرا
القمي يسيى يقول
الفقير الذي لا يكون
له إلى الله حاجة قال

سبعين مرة (١) « هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد رمل حالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف (٤) » وقال حذيفة كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت « يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار فقال النبي صلى الله عليه وسلم فأين أنت من الاستغفار فإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة (٥) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار (٦) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول في الاستغفار « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت للقدم وأنت للآخر وأنت على كل شيء قدير (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة فإذا حلف صدقته قال وحديثي أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يذنب ذنب فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم تلا قوله عز وجل - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم - (٨) الآية - وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب

(١) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة خ من حديث أبي هريرة إلا أنه قال أكثر من سبعين وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره للصف (٢) حديث إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة م من حديث الأغر (٣) حديث من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر الحديث ت من حديث أبي سعيد وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافي . قلت الوصافي وإن كان ضعيفاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة رواه خ في التاريخ دون قوله حين يأوي إلى فراشه وقوله ثلاث مرات (٤) حديث من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف د ت من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود و ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين (٥) حديث حذيفة كنت ذرب اللسان على أهلي الحديث وفيه أين أنت عن الاستغفار ن في اليوم واليلة و ه ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٦) حديث عائشة إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار متفق عليه دون قوله فإن التوبة الخ وزاد أوتوبى إليه فإن البعد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه والطبراني في الدعاء فإن البعد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له (٧) حديث كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي بمتفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم (٨) حديث على عن أبي بكر ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له أصحاب السنن وحسنه ت .

ومعته يقول سألت
أبا بكر الصري عن
الفقر فقال الذي
لا يملك ولا يملك (قوله
لا يكون له إلى
الله حاجة) معناه
أنه مشغول بوظائف
عبوديته تام الثقة
بربه عالم بحسن كلامه
به لا يعوجه إلى رفع
الحاجة لعله يعلم الله
بحاله فيرى السؤال في
البين زيادة ، وأقوال
للشايخ تنوع معانيها
لأنهم أشاروا فيها إلى
أحوال في أوقات دون
أوقات وتحتاج في
تفصيل بعضها من
البعض إلى الضوابط
قد تذكر أشياء
في معنى التصوف
ذكر مثلها في معنى
الفقر وتذكر أشياء
في معنى الفقر ذكر
مثلها في معنى التصوف
وحيث وقع الاشتباه
فلا بد من بيان فاصل
قد تشبه الاشارات
في الفقر بمعاني الزهد
تارة وبمعاني التصوف

وزرع واستغفر صلى الله عليه وسلم فيها فان زاد حتى تلف قلبه (١) فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل في كتابه - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للبعد في الجنة فيقول يارب آتني هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك (٢) » وروت عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجنني من الدين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أذنب العبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي فيقول الله عز وجل أذنب عبي ذنباً فلم أن لهرباً يأخذ بالذنب ويضرب الذنب عبي يعمل ما شئت قد غفرت لك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وقال ﷺ « إن رجلاً لم يصل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لي رباً يارب فاغفر لي فقال الله عز وجل قد غفرت لك (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنباً فلم أن الله قد اطلع عليه غفره وإن لم يستغفر (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا عبادي كل من مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ومن علم آتي ذو قدرة على أن أغفره غفرت له ولا أبالي (٨) » وقال ﷺ « من قال سبحانه ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يضر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كسب الغل (٩) » وروى « إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء ظني بقدر ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يضر الذنوب جميعاً إلا أنت (١٠) » الآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادي إليّ للتحابون عبي والتعلقة قلوبهم بالمساجد وللستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت

(١) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فان تاب وزرع واستغفر صلى الله عليه وسلم فيه ون في اليوم واليلة و . حب لك (٢) حديث أبي هريرة إن الله ليرفع البعد الدرجة في الجنة فيقول يارب آتني هذه فيقول باستغفار ولدك لك رواه أحمد بإسناد حسن (٣) حديث عائشة اللهم اجنني من الدين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا . وفيه على ابن زيد بن جدهان مختلف فيه (٤) حديث إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لي يقول الله أذنب عبي ذنباً فلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويضرب الذنب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة د ت من حديث أبي بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوي (٦) حديث إن رجلاً لم يصل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لي رباً يارب اغفر لي فقال الله تعالى قد غفرت لك لم أقصله على أصل (٧) حديث من أذنب فلم أن الله قد اطلع عليه غفره وإن لم يستغفر الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٨) حديث يقول الله يا عبادي كل من مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ومن علم آتي ذو قدرة على أن أغفره غفرت له ولا أبالي ت . من حديث أبي ذر وقال ت حسن وأمله عند بلطف آخر (٩) حديث من قال سبحانه ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي إنه لا يضر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه وإن كانت كسب الغل البقي في الدعوات من حديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تهولن لو كان عليك كمد الغسل أو كمد الدر ذنوباً غفرها الله لك فذكره بزيادة لإله إلا أنت في أوه وفيه ابن لهيعة (١٠) حديث أفضل الاستغفار اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت الحديث مخ من حديث شداد بن أوس دون قوله وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ودون قوله ما قدمت بها وأخرت ودون قوله جميعاً .

تارة ولا يبين المستغفر بعضها من البعض . فتقول التصوف غير القفر والزهدي القفر والتصوف غير الزهد والتصوف اسم جامع لمعان القفر ومعاني الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وقديراً . قال أبو حنيس التصوف كله آداب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يقطن القرب ومردود من حيث يرجو القبول . وقال أيضاً حسن آداب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لو خشع قلبه لحضعت جوارحه » . أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل بإجازة

أهل الأرض بمقوبة ذكرتهم فذكرتهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما دأؤكم فالدنوب وأما دوائكم فالاستغفار . وقال طي كرم الله وجهه السبب بمن يهلك ومعه النجاة قيل وماهى قال الاستغفار وكان يقول ما اللهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يملذه وقال الفضيل قول العبد أستغفر الله تضرعها ألقى وقال بعض العلماء العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار وقال الريس بن خثيم رحمه الله لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأنوب إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب علي وقال الفضيل رحمه الله الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين وقالت رابعة المدوية رحمها الله استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير وقال بعض الحكماء من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لا يعلم وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول اللهم إن استغفاري مع إصراري للوؤم وإن تركي استغفارك مع على بسمة غفوك لعجزفكم تتجيب إلى بالنعم مع غناك عني وكم أبغض إليك بالمعاصي مع قفري إليك يا من إذا وعده في وإذا أوعده غفا أدخل عظيم جرمي في عظيم غفوك يا أرحم الراحمين وقال أبو عبد الله الوراق لو كان عليك مثل عدد القطر وزيد البحر ذنوبا لحيث عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء غلصا إن شاء الله تعالى . اللهم إني استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك غافلته غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستغنت بها على مصيبتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيت به في ضياء النهار وسواد الليل في ملاء أو خلاء وسر وعلاية يا حلیم ويقال إنه استغفار آدم عليه السلام وقيل الحضر عليه الصلاة والسلام .

(الباب الثالث في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب)

أن يدعو بها للرء صباحا ومساء وبمقب كل صلاة)

لها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر قال ابن عباس رضي الله عنهما بعثني العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسيا وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي من الليل فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملتي وتلم بها وجهي وتلهمني بها رشدي وتصلح بهادي وتغفر بها غايب وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبييض بها وجهي وأنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنال الشهادة وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومراقة الأنبياء اللهم إني أزل بك حاجتي وإن ضف رأيت قلت حيلتي وقصر عملي واقتربت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور ويا شافي الصدور كما تجبر بين البحور أن تجبرني من عذاب السمير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطي أحدا من خلقك فاني أرفع إليك فيه وأسألك يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلاما لأوليائك نجح بحبك من أطاعك من خلقك ونصاى بعبادتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء عليك الاجابة وهذا الجهد عليك التكلان وإن الله وإنا إليرا جعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذي الجبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الحلود مع القرين الشهود والركع السجود الوفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحانه الذي

(الباب الثالث في أدعية مأثورة)

قلنا الشيخ أبو الظفر عبد النعم قال أخبرني والهي أبو القاسم القشيري قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقول سمعت عبد الله بن طي يقول سئل أبو محمد الجربري عن التصوف فقال الدخول في كل خلق سقى والخروج عن كل خلق دنى فاذا عرف هذا للمنى في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر وقيل نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون قال الله تعالى سلفقراء الذين أحصروا في سبيل الله هذا وصف المصوفية والله تعالى محام قراء وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر قول الفقير في فقره

لبس المز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتسكرم به سبحان الذي لا ينبغي التسييح إلا له سبحان ذي الفضل والنعم سبحان ذي العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شمري ونورا في بشرى ونورا في لحي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوق ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا (١) .

(دعاء عائشة رضي الله عنها)

قال رسول الله ﷺ لما شق رضي الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولي اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك بما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين (٢) » .

(دعاء فاطمة رضي الله عنها)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة ما يمنحك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله (٣) » .

(دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه)

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول « اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد ﷺ وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيت أوقض قضيت وأسألك أعطيت أوفيت أقررت أوفيت أغنيت أوفيت أزال هديته وأسألك باسمك الذي أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذي بثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذي وضعت على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذي وضعت على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذي وضعت على الجبال فرست وأسألك باسمك الذي استدل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر للزل في كتابك من لدنك من النور للبين وأسألك باسمك الذي وضعت على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبظلمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقني القرآن والعلم به وتخلطه بلحى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بمولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين (٤) » .

(١) حديث ابن عباس اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتلم بها شعبي الحديث وقال غريب ولم يذكر في أوله بسم العباس لابنه عباده ولا نومه في بيت ميمونة وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني (٢) حديث قوله لعائشة عليك بالجوامع الكوامل قولي اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم الحديث . وك وصححه من حديثها (٣) حديث يا فاطمة ما يمنحك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقول يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله في اليوم واليلة . وك من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين (٤) حديث علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى كلمتك الحديث في الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من رواية

تمسك به متحقق
بفضله يؤثره على
النفس متطلع إلى
ما تحقق من العوض
عند الله حيث يقول
رسول الله صلى الله عليه
وسلم « يدخل قراء
أمتي الجنة قبل الأغنياء
بنصف يوم وهو خمسمائة
عام » فكلما لاحظ
العوض الباقي أمسك
عن الحاصل الثاني
وعانق الفقر والقلة
وخشى زوال الفقر
لفوات الفضيلة والعوض
وهذا عين الاعتلال في
طريق الصوفية لأنه
تطلع إلى الأعواض
وترك لأجلها والصوفي
يترك الأشياء
للاأعواض للعودة
بل للأحوال للوجود
فانه ابن وقته وأيضاً
ترك الفقير الحظ
العاجل واغتنامه
الفقر اختيار منه
وإرادة والاختيار
والإرادة علة في حال
الصوفي لأن الصوفي
صار قائماً في الأشياء

(دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه)

روى أنقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبداً قال قلت بلى يا رسول الله قال قل : اللهم إني ضيف قوتي في رضاك ضعفي وخذ لي الخير بناصيق واجعل الإسلام منتهى رضاك اللهم إني ضيف قوتي وإني ذليل فأعزني وإني فقير فأغنني يا أرحم الراحمين (١) » .

(دعاء قبيصة بن الحارثي)

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « عليّ كلمات ينفعني الله عز وجل بها فقد كبرني وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام أما لديك فإذا صليت العداة قل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأنك إذا قلتين أمنت من النجم والجدام والبرص والفالج وأما آخرتك قل اللهم اهدني من عندك وأفض عليّ من فضلك واتر عليّ من رحمته وأزل عليّ من بركاتك ثم قال صلى الله عليه وسلم أما إنه إذا وفي بين عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء (٢) » .

(دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه)

« قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه قد احترقت دارك وكانت النار قد وقعت في عتلتك قال ما كان الله ليفعل ذلك فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول ما كان الله ليفعل من ذلك ثم أتته آت فقال يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت قال قد علمت ذلك قبله ما ندرى أي قوليك أعجب قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتين وهي اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت ربّ العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٣) » .

(دعاء الحليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام)

كان يقول إذا أصبح اللهم إن هذا خلق جديد فاتحه على بطاعتك واختمه لي بخفرك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعفها لي وما عملت فيه من سيئة فاعفها لي إنك غفور رحيم ودود كريم قال ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

(دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم)

كان يقول اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر يد غيري وأصبحت مرتبنا بمولى فلا تقهر أقرمني اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسوئ لي صديق ولا تجعل مصيقي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط عليّ من لا يرحمي يا حي يا قيوم .

عبد الملك بن هارون بن عبثة عن أبيه أن أبا بكر آتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أعلم القرآن ويتفلت مني فدكره وعبد الملك وأبوه ضعيفان وهو منقطع بين هارون وأبي بكر .

(١) حديث بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه الحديث ك من حديث بريدة وقال صحيح الإسناد (٢) حديث إن قبيصة بن الحارثي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ كلمات ينفعني الله بها فقد كبرتني وعجزت الحديث ابن السني في اليوم واليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد في للسند مختصراً من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم (٣) حديث قيل لأبي الدرداء احترقت دارك قال ما كان الله ليفعل ذلك الحديث الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعيف

بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه فلا يرى فضيلة في صورة قهر ولا في صورة غنى وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه ويبلغ الأذن من الله تعالى في الدخول في الشيء وقد يدخل في صورة سعيه بالفقير بإذن من الله تعالى ويرى الفضيلة حينئذ في السعة لمكان الأذن من الله فيه ولا ينسحب في السعة والدخول فيها للمصدقين إلا بعد إحكامهم علم الأذن وفي هذا منزلة للأقدام وباب دعوى للمدعين وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه ركب الحال لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى أن الوصول

في الأول لمن دعا بهذه الأسماء فليقل إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا لمن دعا بهن كتب من الساجدين المحبتين الذين يجاورون محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والنبیین صلوات الله عليهم في دار الجلال وله ثواب العابدین في السموات والأرضین وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .
(دعاء للتمتع وهو وسيلان التیمی وتسیحاته رضى الله عنه)

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا في المنام ممن قتل شهيدا يملأ الروم قال ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال رأيت تسيحات ابن التمتع من الله عز وجل بمكان وهي هذه : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق ومل ما خلق ومل ما هو خالق ومل سمواته ومل أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ماضى وعدد مام ذا كروه فما بقي في كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم وقس من الأضراس وأبد من الأبدان إلى أبد أبدي الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينفذ آخره .

(دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه)

روى إبراهيم بن بشار خادمه أنه كان يقول هذا الدعاء في كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى : مرجأ يوم للزبد والصبح الجديد والكتاب والشهد يومنا هذا يوم عيد أكتب لنا فيه ما هو بسم الله الحميد الحميد الرفيع الودود القهار في خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمنا وبقائه مصدقا وبهجته معظما ومن ذنب مستغفرا ولربوبية الله خاضعا ولسوى الله في الآلهة جاحدا وإلى الله قهيرا وعلى الله متكللا وإلى الله منيا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملته عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاة حق ومنكرا ونكيرا حق ووعدك حق ووعدك حق وعليه أبيت إن شاء الله اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فانه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فانه لا يصرف سيئها إلا أنت ليبيك وسعديك والخير كله يديك وأنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا خاتم كلامي ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يا رب العالمين اللهم أوردنا حوض محمد وأسقنا بكأسه مشربا رويأ ساقما هنيا لا نظما بعده أبدا واحشرنا في زمرة غير خزايا ولا ناكسين للهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مضطوب علينا ولا ضالين اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووقني لما تحب وترضى وأصلح لي شأني كله وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تضلني وإن كنت ظالما سبحانك يا حي يا عظيم يا باري يا رحيم يا عزيز يا جبار سبحان من سبحت له السموات بأكنافها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الجبال بأصداؤها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأعجار بأصولها وتفرعها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فبين ومن عليهن - سبحان من سبح له كل شيء من مخلوقاته تباركت وتعالى سبحانك ،

وإرادة الله على إرادة
توسم . قبل بعضهم
من أصحب من
الطوائف قال الصوفية
فلن لقيح عندهم
وجها من الماذير وليس
لكبير من العمل
عندهم وقع برفونك
به فتعجبك نفسك
وهذا علم لا يوجد عند
الفقير والزاهد لأن
الزاهد يستعظم الترك
ويستحب الأخذ
وهكذا الفقير وذلك
لضيق وعظائم ووقوفهم
على حد علمهم . وقال
بعضهم الصوفي من
إذا استقبله حالان
حسنان أو خلقان
حسنان يكون مع
الأحسن والفقير
والزاهد لا يميزان كل
الخير بين الخلقين
الحسين بل يختاران
من الأخلاق أيضا
ما هو أدعى إلى الترك
والخروج عن عواقل
الدنيا ما كان في ذلك
بطهما والصوفي هو
للتبين الأحسن من

سبحانك يا حي يا قيوم يا عليم يا حليم سبحانه لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تهي وتحي وأنت حي لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير .

(الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم مخلوقة الأسانيد متخبة من جملة ما جمعه أبو طالب السكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله)

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أرواده الدعاء كما سيأتي ذكره في كتاب الأوراد فإن كنت من المرادين لحث الآخرة للقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به قتل في مفتاح دعواتك (١) أعقاب صلواتك (٢) سبحانه ربّي العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وقل رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً (٣) ثلاث مرات وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه (٤) وقل اللهم إني أسألك الخوف والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتي وآمن روعاتي وأقل عثراتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغفل من تحتي (٥) اللهم لا تؤمنني مكرك ولا تؤمنني غيرك ولا تنزع عني شرك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من النافلين (٦) وقل اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٧) ثلاث مرات وقل اللهم إني أسألك وقل اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت (٨) ثلاث مرات وقل اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبردا لعيشي بعد الموت ولقمة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدي علي أو أكتب خطيئة أو ذنباً لا تغفره (٩)

(الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث افتتاح الدعاء بسبحان ربّي العلى الأعلى الوهاب تقدم في الباب الثاني في الدعاء (٢) حديث القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير متفق عليه من حديث للبخاري بن شعبة (٣) حديث رضيت بالله ربا والحديث تقدم في الباب الأول من الأذكار (٤) حديث اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه دت وصححه وحسب وك وصححه من حديث أبي هريرة أن أبا بكر الصديق قال يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال قل اللهم فذكره (٥) حديث اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتي وآمن روعتي وأقل عثراتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغفل من تحتي د ن ه ك من حديث ابن عمر قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح (٦) حديث اللهم لا تؤمنني مكرك ولا تؤمنني غيرك ولا تنزع عني شرك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من النافلين واما بومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله ولا تؤمنني غيرك وإسناده ضعيف (٧) حديث اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٨) حديث اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت ثلاث مرات د ن في اليوم واليلة من حديث أبي بكره وقال ن جعفر بن ميمون ليس بالقوي (٩) حديث اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء بالحديث

عند الله بصدق التجاه
وحسن إجابته وحظ
قربه ولطف ولوجه
وخروجه إلى الله تعالى
لطفه بربه وحظه من
عنايته ومكاته قال
رويم التصوف
استرسال النفس مع
الله تعالى على ما يريد
وقال عمرو بن عثمان
للكي التصوف أن
يكون العبد في كل
وقت مشغولاً بما هو
أولى في الوقت وقال
بعضهم التصوف أوله
علم وأوسطه عمل
 وآخره موهبة من الله
تعالى وقيل التصوف
ذكر مع اجتماع ووجد
مع استماع وعمل مع
اتباع وقيل التصوف
ترك التكلف وبذل
الروح وقال سهل بن
عبد الله الصوفي من
صفاء من الكدر والعتلا
من الفكر والقطع
إلى الله من البشر
واستوى عند الذهب
واللدر ومثل
بعضهم عن التصوف

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا خاشعا سليما وخالقا مستقيما ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك لما تعلم فانك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب (١) اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فانك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد (٢) اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونفعا لا ينفد وقرة عين الأبد ومراقبة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد (٣) اللهم إني أسألك الطيبات وفضل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني وإذا أردت بقوم فتنة فاقبض إليهم غير مفتون (٤) اللهم بملك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولقمة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك وأعوذ بك من ضراء مضرة وقتة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (٥) اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٦) اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقا وأسكن في قلوبنا من عظمتك ما نذل به جوارحنا لخدمتك . واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك (٧) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة ومغفرة (٨)

إلى قوله أودبنا لا يفر أحمد و ك من حديث زيد بن ثابت في أثناء حديث وقال صحيح الاسناد (٩) حديث اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد الحديث إلى قوله وأنت علام الغيوب ت ن ك وصححه من حديث عبيد بن أوس قلت بل هو منقطع وضعيف (١٠) حديث اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت الحديث إلى قوله وعلى كل غيب شهيد متفق عليه من حديث أبي موسى دون قوله وعلى كل غيب شهيد وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب (١١) حديث اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونفعا لا ينفد وقرة عين الأبد الحديث ن في اليوم واليلة و ك من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله وقرة عين الأبد وقال صحيح الاسناد و ن من حديث عمار بن ياسر بأسناد جيد وأسألك نفعا لا يبيد وقرة عين لا تقطع (١٢) حديث اللهم إني أسألك الطيبات وفضل الخيرات الحديث إلى قوله غير مفتون ت من حديث معاذ اللهم إني أسألك فضل الخيرات الحديث . وقال حسن صحيح ولم يذكر الطيبات وهي في الدعاء للطبراني من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحة (١٣) حديث اللهم إني أسألك بملك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي الحديث إلى قوله واجعلنا هداة مهتدين ن ك وقال صحيح الاسناد من حديث عمار بن ياسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به (١٤) حديث اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك الحديث ت وقال حسن و ن في اليوم واليلة و ك وقال صحيح على شرط خ من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتم مجلسه بذلك (١٥) حديث اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا الحديث إلى قوله واجعلنا أخشى لك من سواك لما أف له على أصل (١٦) حديث اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة عبد بن حميد في المنتخب والطبراني من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط إلى قوله نجاحا وإسناده ضعيف .

فقال تصفية القلب
عن موافقة السيرة
ومفارقة . الأخلاق
الطبيعية وإيجاد صفات
البشرية ومجانبة
الدواعي النفسانية
ومنازلة الصفات
الروحانية والتعلق
بعلوم الحقيقة وإتباع
الرسول في الشريعة .
قال ذوالنون المصري
رأيت بعض سواحل
الشام امرأة قتلت من
أين أقبلت قالت من
عند أقوام تتجافى
جنوبهم عن المضاجع
قتلت وأين تريد
قالت إلى رجال لا تلهمهم
تجارة ولا بيع عن
ذكر الله قتلت صفهم
لي فأنشأت :
قوم همومهم بالله قد
علقت
فألهمهم هم تسمو إلى
أحد
فطلب القوم مولا
وسيدم
يا حسن مطلبهم للواحد
الصمد

ما إن تنازعهم دنيا
ولا شرف
من للطاعم والذات
والولد
ولا لبس ثياب فائق
أنق
ولا لروح سرور حل
في بلد
إلا مسارعة في إثر
منزلة
قد قارب الخطو فيها
باعد الأبد
فهم رهائن غدران
وأودية
وفي الشوامخ تلقاهم
مع العدد .
وقال الجنيد : الصولي
كالأرض يطرح عليها
كل قبيح ولا يخرج
منها إلا كل مبيع
وقال أبضا هو كالأرض
يطؤها البر والفاجر
وكالسحاب يظل كل
شيء وكالقطريس يكل
شيء وأقوال المشايخ
في ماهية التصوف
تزيد على ألف قول
ويطول خلها ونذكر
منايها يجمع جمل
معانيها فان الألفاظ

الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء للملكه واستسلم كل شيء
لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لمهيته وأظهر كل شيء بحكته وتصاغر كل شيء لكبريائه (١)
اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته
كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد (٢) اللهم صلى على محمد عبدك
ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين (٣) اللهم
اجعلنا من أوليائك للتقين وحزبك للفلاحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضايتك عنا ووقنا لهما بك
منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٤) نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع
الشر وفوائده وخواتمه (٥) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبملكك على أعف
عني إنك أنت الغفار الحليم وبملكك بي أرفق بي إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لي ملكني
نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار (٦) سبحانه اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا
وظلمت نفسى فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربى ولا يضر الذنوب إلا أنت (٧) اللهم ألهمنى رشدى وقي شر
نفسى (٨) اللهم ارزقنى حلالا لا تماقبنى عليه وقنعى بما رزقتنى واستعملنى به صالحا تقبله منى (٩)
أسألك العفو والمغفرة وحسن اليقين والمغافاة في الدنيا والآخرة (١٠) يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه

(١) حديث الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته الحديث إلى قوله وتصاغر كل
شيء لكبريائه الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله والحمد لله الذي سكن كل شيء
لمهيته إلى آخره وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضا (٢) حديث اللهم صلى
على محمد وأزواجه وذريته الحديث إلى قوله حميد مجيد تقدم في الباب الثاني (٣) حديث اللهم صلى
على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين لم أجده
بهذا اللفظ مجموعا وخ من حديث أبي سعيد اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك وحب قط لك حق
من حديث ابن مسعود اللهم صلى على محمد النبي الأمي ون من حديث جابر وابنه المقام المحمود الذي
وعده وهو عنده بخ بلفظ وابنه مقاما محمودا قال قط إنسانه حسن وقال ك صحيح وقال حق في
المعرفة إنسانه صحيح (٤) حديث اللهم اجعلنا من أوليائك للتقين وحزبك للفلاحين الحديث إلى
قوله صرفنا بحسن اختيارك لنا لم أقف له على أصل (٥) حديث نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه
ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه وطب من حديث أم سلمة أنه كان يدعو بهذا الكلام
فذكر منها اللهم إني أسألك فوائع الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من
الجنة آمين فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة (٦) حديث اللهم بقدرتك على
تب على إنك أنت التواب الرحيم وبملكك على أعف عني الحديث إلى قوله إنك الملك الجبار لم أقف
له على أصل (٧) حديث سبحانه اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لي
ذنبي أنت ربى إنه لا يضر الذنوب إلا أنت حق في الدعوات من حديث على دون قوله ذنبي إنك أنت
ربى وقد تقدم في الباب الثاني (٨) حديث اللهم ألهمنى رشدى وقي شر نفسى ت من حديث عمران
ابن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الحصين وقال حسن غريب ورواه في اليوم والليلة وك
من حديث حصين والد عمران وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) حديث اللهم ارزقنى حلالا لا تماقبنى
فيه وأتقنى بما رزقتنى واستعملنى به صالحا تقبله منى لم من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه
وسلم يدعو اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لي فيه وأخلف على كل غائبة لي بخير وقال صحيح الإسناد ولم
يخرجاه (١٠) حديث اللهم إني أسألك العفو والمغافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة ن

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تتببع وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الحياة فاتها بئست البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والحرم ومن أن أزد إلى أزدل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة الهيا واللمات اللهم إنا نسألك فلوبا أو أهة محبته منية في سبيلك اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والفتنة من كل بر والقور بالجنة والنجاة من النار (١). اللهم إني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من التهم والفرق والمدم وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك اللهم إني أعوذ بك من شر ما لم أعلم (٢). اللهم جنبني منكرات الأخلاق الدنيا (٣). اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم (٤). اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء (٥). اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال (٦). اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني وقلبي وشر مني (٧). اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول (٨). اللهم إني أعوذ بك من القسوة والنفلة والعيلة والقدلة والسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والقسوة والفتنة والفسوق والشقاق والنفاق وشر الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسمي الأسقام (٩).

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع الحديث إلى قوله والنجاة من النار ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مفردا في أحاديث جيدة الأسانيد (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من التهم الحديث إلى قوله وأعوذ بك أن أموت في تطلب الدنيا دن ك وصحح إسناده من حديث أبي اليسر واسمه كعب ابن عمر زيادة فيه دون قوله وأعوذ بك أن أموت في تطلب دنيا وتقدم من عند البخاري الاستعاذة من فتنة الدنيا (٣) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم قلت هكذا في غير نسخة علمت وإنما هو عملت وأعمل كذا رواه م من حديث عائشة ولأبي بكر بن الضحاك في الشبائل في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه وشر ما لم أعلم وشر ما لم أعلم (٤) حديث اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء وحسنه وك وصححه والفظ له من حديث قطبة ابن مالك (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال ن ك وقال صحيح الإسناد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول من الكفر والدين وفي رواية للنسائي من الكفر والفقر ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه ومن شر فتنة المسيح الدجال (٧) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقلبي وشر مني دن ت وحسنه ك وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد (٨) حديث اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول ن ك من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط م (٩) حديث اللهم إني أعوذ بك من القسوة والنفلة والعيلة والقدلة والسكنة وأعوذ بك من الكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسمي الأسقام دن مقتصرين على الأربعة الأخيرة وك بتأمله من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

الحضرة الإلهية يعني
أن روح الصوفي
متطلعة منجذبة إلى
مواطن القرب وللنفس
بوضعها رسوب إلى
طامها واضلاب على
عقبها ولا بد للصوفي
من دوام الحركة بدوام
الافتقار ودوام القرار
وحسن التفقد لمواقع
إصابات النفس ومن
وقف على هذا المعنى
يجد في معنى الصوفي
جميع للتفرق في
الاشارات [الباب
السادس في ذكر
تسميتهم بهذا الاسم]
أخبرنا الشيخ
أبو زرعة طاهر بن
محمد بن طاهر قال
أخبرني والدي قال أنا
أبو طي الشافعي بمكة
حرسها الله تعالى قال
أنا أحمد بن إبراهيم
قال أنا أبو جعفر محمد
ابن إبراهيم قال أنا
أبو عبد الله الهذلي
قال ثنا سفيان عن
مسلم عن أنس بن
مالك قال كان رسول

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن لحاة نعمتك ومن جميع سخطك (١).
اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشرقة القبر وشرقة الفقر
وشرقة المسيح الدجال وأعوذ بك من المغمم والمأثم (٢). اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب
لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر النعم وفتنة الصدر (٣). اللهم إني أعوذ بك
من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء (٤) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .
(الباب الخامس في الأدعية للأنثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث)

إذا أصبحت وممعت الأذان فيستحب لك جواب اللؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاه
والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة فإذا خرجت إلى المسجد قل : اللهم اجعل في قلبي نورا وفي
لساني نورا واجعل في سمعي نورا واجعل في بصري نورا واجعل خلقي نورا وأمامي نورا واجعل من فوق نورا
اللهم أعطني (٥) نورا وقل أيضا اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك (٦)
فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن
تقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يفر الدنوب إلا أنت فإن خرجت من المنزل لحاجة قل
باسم الله رب أعوذ بك أن أعظم أو أعظم أو أجمل أو يجهل على (٧) بسم الله الرحمن الرحيم لاحول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم باسم الله التكلان على الله (٨) فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله
قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك (٩)

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك ولحاة نعمتك ومن جميع سخطك
م من حديث ابن عمر (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة
القبر وشرقة القبر وشرقة الفقر وشرقة المسيح الدجال وأعوذ بك من المغمم والمأثم والقرم متفق عليه
من حديث عائشة (٣) حديث اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة
لا تستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر م من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث اللهم
إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع وعك
أبو الصمر في صمائه من أنس وللنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث وأعوذ بك ودمن
حديث أنس اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر (٤) حديث اللهم إني أعوذ
بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء ن ك من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم .
(الباب الخامس في الأدعية للأنثورة عند كل حادث من الحوادث)

(٥) حديث القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا الحديث متفق
عليه من حديث ابن عباس (٦) حديث اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا
إليك الحديث من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن (٧) حديث القول عند الخروج من
المنزل لحاجة باسم الله رب أعوذ بك أن أعظم أو أعظم أو أجمل أو يجهل على أصحاب السنن من حديث
أم سلمة قالت حسن صحيح (٨) حديث بسم الله الرحمن الرحيم لاحول ولا قوة إلا بالله التكلان
على الله ه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال باسم الله
فذكره إلا أنه لم يقل الرحمن الرحيم وفيه ضعف (٩) حديث القول عند دخول المسجد اللهم صل
على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ت ه من حديث فاطمة ابنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم قالت حسن وليس إسناده متصل ولمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد إذا دخل
أحدم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وزاد في أوله فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم .

له صلى الله عليه وسلم
يبب دعوة العبد
يركب الحمار ويلبس
الصوف ثمن هذا
الوجه ذهب قوم إلى
أنهم موصوفية نسبة
لهم إلى ظاهر اللبسة لأنهم
اختاروا لبس الصوف
لكونه أرقف ولكونه
كان لباس الأنبياء
عليهم السلام . روى
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال
« مرة بالصخرة من
الروحاء سبعون نبيا
حفاة عليهم العباء
يؤمنون البيت الحرام »
وقيل إن عيسى عليه
السلام كان يلبس
الصوف والشعر
ويأكل من الشجر
ويبيت حيث أمسى .
وقال الحسن البصري
رضي الله عنه لقد
أهدت سبعين بدرية
كان لباسهم الصوف
ووصفهم أبو هريرة
وفضالة بن عبيد قالا
كانوا يخرجون من
الجوع حتى نحسبهم

وقدم رجلك اليمنى في الدخول فاذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع قف لأربع الله تجارتك (١) وإذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد قف لأردّها الله عليك أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فاذا صليت ركعتي الصبح قف باسم الله اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي الدعاء إلى آخره (٣) كأوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فاذا ركعت قف في ركوعك : اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت رب خشع معي وبصرى وعنى وعظمى وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين (٤) وإن أحببت قف سبحان رب العظيم ثلاث مرات (٥) أو سبح قدوس رب اللائكة والروح (٦) فاذا رفعت رأسك من الركوع قف مع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد (٧) وإذا سجدت قف اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشفق رحمته وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى وأبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي وهذا ماجئت علىّ نفسي فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٨) أو تقول سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات (٩) فاذا فرغت من الصلاة قف اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام (١٠) وتدعو بسائر الأدعية التى ذكرناها فاذا قلت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس قف سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (١١) فاذا دخلت السوق قف لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير (١٢) باسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها بعينا

(١) حديث القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع في المسجد لأربع الله تجارتك وقال حسن غريب ون في اليوم واليلة من حديث أبي هريرة (٢) حديث القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسجد لأردّها الله عليك من حديث أبي هريرة (٣) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي الخ قد تقدم في الدعاء (٤) حديث ابن عباس في القول في الركوع اللهم لك ركعت ولك أسلمت الحديث م من حديث على (٥) حديث القول فيه سبحان ربى العظيم ثلاثا د ت ه من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع (٦) حديث القول فيه سبح قدوس رب اللائكة والروح م من حديث عائشة (٧) حديث القول عند الرفق من الركوع مع الله لمن حمده ربنا لك الحمد الحديث م من حديث أبي سعيد الخدرى وابن عباس دون قوله مع الله لمن حمده فهي في اليوم واليلة للحسن بن على للممرى وهى عند م من حديث ابن أبى أوفى وعند م من حديث أبى هريرة (٨) حديث القول في السجود اللهم لك سجدت الحديث م من حديث على اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي وهذا ماجئت علىّ نفسي فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الاسناد وليس ك قال بل هو ضعيف (٩) حديث سبحان ربى الأعلى ثلاثا د ت ه من حديث ابن مسعود وهو منقطع (١٠) حديث القول إذا فرغ من الصلاة اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام م من حديث ثوبان (١١) حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ن في اليوم واليلة من حديث رافع بن خديج باسناد حسن (١٢) حديث القول عند دخول السوق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير من حديث عمر وقال غريب وك وقال صحيح على شرط الشيخين .

الأعراب مجانين وكان
لباسهم الصوف حتى
إن بعضهم كان يعرق
في ثوبه فيوجد منه
رائحة الضأن إذا
أصابه النيث وقال
بعضهم إنه ليؤذى
ريح هؤلاء أما يؤذيك
ريحهم يخاطب رسول
الله صلى الله عليه وسلم
بذلك فكان اختيارهم
لبس الصوف تركهم
زينة الدنيا وقناعهم
بسد الجوعة وستر
المودة واستغراقهم في
أمر الآخرة فلم يفرغوا
للاذات النفوس وراحاتها
لشدة شغلهم بخدمة
مولاهم وانصراف
همهم إلى أمر الآخرة
وهذا الاختيار بلائم
ويناسب من حيث
الاستغنى لأنه يقال
نصوف إذا لبس
الصوف كما يقال تميم
إذا لبس القميص
ولما كان حلقهم بين
سير وطير لتقلبهم في
الأحوال ولورقهم بين
قال إلى أعلى منه

فاجرة أو صفة خاسرة (١) فإن كان عليك دين قتل اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأعني بفضلك
عن سواك (٢) فإذا لبست ثوبا جديدا قتل اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير
ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له (٣) وإذا رأيت شيئا من الطيرة تسكره قتل اللهم لا يأتني
بالحسنة إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله (٤) وإذا رأيت الهلال قتل اللهم أهله
علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط ربي
وربك الله (٥) ويقول هلال رشد وخير آمنت بحالك (٦) اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر
وأعوذ بك من شر يوم الحشر (٧) وتكبر قبله أولا ثم لا وإذا هبت الريح قتل اللهم إني أسألك خير
هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به (٨)
وإذا بلغك وفاة أحد قتل إن الله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا منتقلون اللهم اكتبه في المحسنين واجعل
كتابته في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله (٩)

(١) حديث باسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر
ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفة خاسرة كمن حديث بريدة وقال أقربها
لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله خص بن سليمان
الأسدي مختلف فيه (٢) حديث دعاء الدين اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك
ت وقال حسن غريب وك وقال صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب (٣) حديث الدعاء إذا
لبست ثوبا جديدا اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من
شره وشر ما صنع له د ت وقال حسن ون في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري ورواه ابن السني
بلفظ المصنف (٤) حديث القول إذا رأى شيئا من الطيرة يكرهه اللهم لا يأتني بالحسنة إلا أنت ولا يذهب
بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة وهي في الدعوات من
حديث عروة بن عامر مرسل ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبه بن عامر فجهله مسندا
(٥) حديث التكبير عند رؤية الهلال ثلاثا ثم يقول اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة
والإسلام ربي وربك الله الدارمي من حديث ابن عمر لأنه أطلق التكبير ولم يقل ثلاثا ورواه
وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير وللهيقي في الدعوات من حديث قتادة مرسل
كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كبر ثلاثا (٦) حديث هلال خير ورشد آمنت بحالك د
مرسل من حديث قتادة أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد لهلال
خير ورشد آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات وأسنده الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط من
حديث أنس وقال د وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح (٧) حديث
اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر ابن أبي شيبة وأحمد في
مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه حدثني من لآتهم

(٨) حديث القول إذا هبت الريح اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به
ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ت وقال حسن صحيح ون في اليوم والليلة من حديث
أبي بن كعب (٩) حديث القول إذا بلغه وفاة أحد إن الله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا منتقلون اللهم
اكتبه من المحسنين واجعل كتابته في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا
بعدمه واغفر لنا وله ابن السني في اليوم والليلة وحسنه من حديث أم سلمة إذا أصاب أحدكم مصيبة
فليقلل إن الله وإنا إليه راجعون ولمسلم من حديثها اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين

يغدم وصف ولا
يعبسهم نعت وأبواب
للزبد علما وحالا عليهم
مفتوحة بواطنهم
ممدن الحقائق وجمع
العلوم فلما تعذر تقديم
بحال تقديم لتنوع
وجدانهم وتجنس
مزيدهم نسبوا إلى
ظاهر اللبسة وكان
ذلك أئين في الإشارة
إليهم وأدعى إلى حصر
وصفهم لأن لبس
الصوف كان غالبا على
للتقدمين من سلفهم
وأينما لأن حالهم حال
للقريين كما سبق ذكره
ولما كان الاعتناء إلى
القرب وعظم الإشارة
إلى قرب الله تعالى أمر
صعب يمز كشفه
والإشارة إليه وقت
الإشارة إلى زهيم ستر
لحالهم وغيرة على عزيز
مقامهم أن تكسر
الإشارة إليه وتداوله
الألسنة فكان هذا
أقرب إلى الأدب
والأدب في الظاهر
والباطن والقول والفعل

ونقول عند التصديق - ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم - ونقول عند الحشران - عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون - ونقول عند ابتداء الأمور - ربنا آتانا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا - رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري - ونقول عند النظر إلى السماء - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فتننا عذاب النار - تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيرا - وإذا سمعت صوت الرعد قل سبحانه من يسبح الرعد بحمده ولللائكة من خفته (١) فان رأيت الصواعق قل اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك (٢) قاله كعب فإذا أمطرت السماء قل اللهم سقيا هنيئا وسيا نافعا (٣) اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب (٤) فإذا غضبت قل اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم (٥) فإذا خفت قوما قل اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم (٦) فإذا غزت قل اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل (٧) وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل ذكر الله من ذكرني بخير (٨) فإذا رأيت استجابة دعائك قل الحمد لله الذي بزمته وجلاله تتم الصالحات وإذا أبطأت قل الحمد لله على كل حال (٩) وإذا سمعت أذان المغرب قل اللهم هذا إقبال ليالك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي (١٠) وإذا أصابك هم قل اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيقي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهي (١١)

واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه (١) حديث القول إذا سمع صوت الرعد سبحانه من يسبح الرعد بحمده ولللائكة من خفته مالك في اللوط أعين عبد الله بن الزبير موقوفا ولم أجده مرفوعا (٢) حديث القول عند الصواعق اللهم لا تقتلنا بغضبك وتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وقال غريب ون في اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد حسن (٣) حديث القول عند المطر اللهم سقيا هنيئا وسيا نافعا من حديث عائشة كان إذا رأى للمطر قال اللهم اجعله سيبا نافعا وه سيبا بالسين أوله ون في اليوم والليلة اللهم اجعله سيبا هنيئا وإسنادها صحيح (٤) حديث اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب ون في اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلا (٥) حديث القول إذا غضب اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث القول إذا خاف قوما اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم ون في اليوم والليلة من حديث أبي موسى بسند صحيح (٧) حديث القول إذا غزا اللهم أنت عضدي ونصيري بك أقاتل دت ن من حديث أنس قال ت حسن غريب (٨) حديث القول عند طنين الأذن اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرني الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف (٩) حديث القول إذا رأى استجابة دعائه الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات تقدم في الدعاء (١٠) حديث القول إذا سمع أذان المغرب اللهم هذا إقبال ليالك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي ت د وقال غريب وك من حديث أم سلمة دون قوله وحضور صلواتك فانها عند الحرائط في مكارم الأخلاق والحسن بن علي للعمري في اليوم والليلة (١١) حديث القول إذا أصابه هم اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيقي بيدك الحديث أحمد وحبك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط م إن سلم من إرساله عبد الرحمن

عماد أمر الصوفية وفيه معنى آخر وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقلبهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من اللبوس الناعم حتى إن للبندى للريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم بوطن نفسه على التشف والتقليل ويسلم أن للأكل أيضا من جنس اللبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة وهذا أمر مفهوم معلوم عند البندى والاشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات فكان تسميتهم بهذا الأنفع وأولى وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفيه لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للباسهم الصوف كان أبعد من الدعوى وكل ما كان أبعد من

قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحدا حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحا فقيل له يا رسول الله أفلا نعلمها ؟ قال صلى الله عليه وسلم بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » وإذا وجدت وجعا في جسدك أو جسد غيرك فارقه بريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحا وضع سبابة على الأرض ثم رفعها وقال باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بأذن ربنا (١) » وإذا وجدت وجعا في جسدك فضع يديك على الذي يتألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحذر (٢) « فإذا أصابك كرب قل لا إله إلا الله العلي الحلیم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم (٣) فان أردت النوم فتوضأ أولا ثم توسد على عينيك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعين وثلاثين وسبحه ثلاثة وثلاثين واحمده ثلاثا وثلاثين (٤) ثم قل اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إني لأستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك (٥) اللهم باسمك أحيا وأموت (٦) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء ومليكه فائق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر (٧) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة (٨) باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي (٩) اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك (١٠) اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك

عن أبيه فإنه يختلف في جماعه من أبيه (١) حديث رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بأذن ربنا متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث وضع يده على الذي يتألم من جسده ويقول باسم الله ثلاثا ويقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحذر سبع مرات م من حديث عثمان بن أبي العاص (٣) حديث دعاء الكرب لا إله إلا الله العلي الحلیم الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس (٤) حديث التكبير عند النوم أربعين وثلاثين والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين متفق عليه من حديث علي (٥) حديث القول عند إرادة النوم اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لأستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك النسائي في اليوم والليلة من حديث علي وفيه انقطاع (٦) حديث اللهم باسمك أحيا وأموت م من حديث حذيفة م من حديث البراء (٧) حديث اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فائق الحب والنوى الحديث إلى قوله وأغتنا من الفقر م من حديث أبي هريرة (٨) حديث اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها الحديث إلى قوله إني أسألك العافية م من حديث ابن عمر (٩) حديث باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي ن في اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفرها وقال غ فارحها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين (١٠) حديث اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك ت في الثبائيل من حديث ابن مسعود وهو عند من حديث حفصة بلفظ تمت وكذا رواه ت من حديث حذيفة وضمحه من حديث البراء وحسنه .

الدعوى كان أليق بحالهم وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ونسبهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن والحكم بالظاهر أوفق وأولى فالقول بأنهم هموا صوفية للبهيم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ويقرب أن يقال لما آثروا القبول والاحول والتواضع والانكسار والتخفي والتوازي كانوا كالخرقة للمقاتلة والصوفة للمرية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة وهذا ما ذكره بعض أهل العلم والمعنى المقصود به قريب بلاءم الاشتقاق ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقنين والعباد . أخبرنا أبو زرعة طاهر عن

والجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لاملجأ ولا منجأ منك إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونيبك الذي أرسلت (١) ويكون هذا آخر دعائك قدأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني بأحب الأعمال إليك تعزني إليك زلفي وتبعدني من سخطك بهذا أسألك تمنطيني واستغفرك تغفرك وأدعوك فتستجيب لي (٢) فإذا استيقظت من نومك عند الصباح قل الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور (٣) أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله (٤) أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أينا إبراهيم حنيفا وما كان من للشركين (٥) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير (٦) اللهم إني أسألك أن تبثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجبره إلى مسلم فإنك قلت - وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالتهار ثم يميتكم فيه ليقتضى أجل مسمى - (٧) اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسيبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه (٨)

(١) حديث اللهم إني أسألت نفسي إليك وفوضت أمري إليك الحديث متفق عليه من حديث البراء (٢) حديث اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني بأحب الأعمال إليك تعزني إليك زلفي وتبعدني من سخطك بهذا أسألك تمنطيني واستغفرك تغفرك وأدعوك فتستجيب لي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس اللهم ابثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فذكركنا ونسألك تمنطينا وتدعوك فتستجيب لنا ونستغفرك تغفركنا وإسناده ضعيف وهو معروف من قول جيب الطائي كرواه ابن أبي الدنيا في الدعاء (٣) حديث القول إذا استيقظ من منامه الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور مع من حديث حذيفة م من حديث البراء (٤) حديث أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله الطبراني في الأوسط من حديث عائشة أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحوال والقوة والقدرة والسلطان والسماوات والأرض وكل شيء في قرب الملائكة وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوفى أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والتهار وما سكن فيهما الله وإسناده ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود أصبحنا وأصبح الملك لله (٥) حديث أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أينا إبراهيم حنيفا وما كان من للشركين في اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبيزى عن أبي بن كعب مرفوعا (٦) حديث اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير أصحاب السنن وحسنه ت إلا أنهم قالوا وإليك النشور وابن السني وإليك المصير (٧) حديث اللهم إنا نسألك أن تبثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجبره إلى مسلم الحديث لم أجداؤه وت من حديث أبي بكر في حديثه أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن تقترف على أنفسنا سوءا أو نجبره إلى مسلم رواه د من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد (٨) حديث اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسيبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسيبانا اقض عني الدين وأغنني من الفقر وتوفني على الجهاد في سبيلك ، وللدارقطني في الأفراد من حديث البراء نسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ونعوذ بك من شر

أيه قال أنا عبد الرزاق
ابن عبد الكريم قال
أنا أبو الحسن محمد بن
محمد قال ثنا أبو علي
إسماعيل بن محمد قال ثنا
الحسن بن عرفة قال ثنا
خلف بن خليفة عن
حميد بن الأعرج عن
عبد الله بن الحرث عن
عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم : يوم كلم الله تعالى
موسى عليه السلام كان
عليه جبة صوف
وسراويل صوف
وكساء صوف وكعبان
صوف ونعلاء من جلد
حمار غير مذكي . وقيل
سموا صوفية لأنهم في
الصف الأول بين يدي
الله عز وجل بارتجاع
همهم وإقبالهم على
الله تعالى بقلوبهم
ووقوفهم بسرائرهم بين
يديه وقيل كان هذا
الاسم في الأصل صفوى
فاستقل ذلك وجعل
صوفيا وقيل سموا
صوفية نسبة إلى الصفة

باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله (١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير - (٢) وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول أمسينا ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٣) وإذا نظر في المرأة قال الحمد لله الذي سوى خلقه فعدله وكرم صورته وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين (٤) وإذا اشترت خادماً أو غلاماً أو دابة فخذ بناصيته وقل اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه (٥) وإذا هنأت بالنكاح قل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير (٦) وإذا قضيت الدين قل للقضى له بارك الله لك في أهلك ومالك إذا قال صلى الله عليه وسلم «إنما جزاء السلف الحمد والأداء» (٧)

هذا اليوم وشر ما بعده و د من حديث أبي مالك الأشعري اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهدايه وبركته أعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده وسنده جيد وللحسن بن علي المعمر في اليوم والليالي من حديث ابن مسعود اللهم إني أسألك خيراً ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده والحديث عند م في النساء خير ما في هذه الليالي الحديث ثم قال وإذا أصبح قال ذلك أيضاً (١) حديث باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله عد في الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلم إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال يلتقي الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم يعني فيخلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات فذكره ولم يقل الخير كله بيد الله قال موضعها لا يسوق الخير إلا الله قال ابن عباس من قالهن حين يصبح وحين يمسي أمته الله من الفرق والحرق وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب أوردته في ترجمة الحسين بن برزنج قال ليس بالمعروف وهو بهذا الإسناد منكر (٢) حديث رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً تقدم في الباب الأول (٣) حديث القول عند النساء مثل الصباح إلا أنك تقول أمسينا ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وبرأ وذراً أعتصم من شر الثقلين الحديث وفيه وإن قالهن حين يمسي كن له كذلك حتى يصبح وفيه ابن لهيعة وأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن في حديث إن جبريل قال يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذراً وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء الحديث وإسناده جيد ولمسلم من حديث أبي هريرة في الدعاء عند النوم أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ولطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة الخ الحديث وقد تقدم في الباب الثاني (٤) حديث القول إذا نظر في المرأة الحمد لله الذي سوى خلقه فعدله وكرم صورته وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين الطبراني في الأوسط وابن السني في اليوم والليالي من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث القول إذا اشترى خادماً أو دابة اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه د ه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد (٦) حديث التهنة بالنكاح بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير د ه من حديث أبي هريرة قال ت حسن صحيح (٧) حديث الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه بارك الله لك في أهلك ومالك

التي كانت لفقرائه المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم - للفقرائه الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض - الآية وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكن صحيح من حيث المعنى لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتهدين متألهين متصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصفة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم يسكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر جمعوا أنفسهم في للسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والرباط وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى شراع ولا إلى تجارة كانوا يعتمدون ورضخون النوى بالتمار وبالليل يشتغلون

فهذه أدعية لا يستغنى الريد عن حفظها وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة . فان قلت لفائدة الدعاء والقضاء لا مرد له . فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة كأن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالمجان وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى - خذوا حذركم - وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلع البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدره لدفعه سببا فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فانه يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »^(١) والقالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق لملة فان الانسان إذا مسه الشر ففقد دعاء عريض فالحاجة تخرج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمتنع من نسيانه وأما الغنى فبسبب لبطخ في غالب الأمور فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فهذا ما أردنا أن نورد من جملة الأذكار والدعوات والله للوفى بالخير وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعبادة المريض وغيرها فستأتى في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان . نجز كتاب الأذكار والدعوات بكلامه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأوراد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل)

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين وبه اختتام ربيع العبادات تقع الله به للسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمدا كثيرا ونذكره ذكرا لا ينادر في القلب استكبارا ولا غورا ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه القدى بشه بالحق بشيرا ونذيرا وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غداوة وغشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما في الدين هاديا وسراجا منيرا .

[أما بعد] فان الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لا ليستقروا في منابها ليتخذوها منزلا فيترودوا منها زادا يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايد ما ومعاطيا ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السقينة براكبها فالناس في هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار والعمر مسافة السفر فسنة مراحله وشهوره فراسخه

إنما جزاء السلف الحمد والأداء من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه إلى قال قد كره وإسناده حسن (١) حديث الدعاء مخ العبادة تقدم في الباب الأول .

(كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل)

بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤاسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم وفيهم نزل قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالدعاء والعش يريدون وجهه - وقوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالدعاء والعش - ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى - عبس وتولى أن جاءه الأعمى - وكان من أهل الصفة فتوب النبي صلى الله عليه وسلم لأجله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صاح بهم لا ينزع يده من أيديهم وكان يفرقهم على أهل الجنة والسعة يمت مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة وكان سعد بن معاذ يحصل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم . وقال أبو هريرة رضي الله

وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته وطاعته بضاعته وأوقاته رهوس أمواله وشهواته وأغراضه قطاع طريقه وربحه الفوز بقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم القيم وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم فالغافل في نفس من أنفاسه حق ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلني متعرض في يوم التباين لفبينة وحسرة ملها منتهى ولهذا الخطر العظيم والحطبل الهائل جمر للوقوف عن ساق الجسد وودعوا بالنكبة ملاذ النفس واغتموا بقايا العمر ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعي إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوديع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا الفهم بذكرها بين :
الباب الأول : في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار . الباب الثاني : في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به . الباب الأول : في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها .

(فضيلة الأوراد ويان أن الواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى)

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه وأن المحبة والأنس لا يحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والواظبة عليه وإن المعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله ولن يتيسر دوام الفكر والفكر إلا بدوام الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار والنفس لما جبلت عليه من السآمة واللال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى غمط واحد أظهرت اللال والاستغراق وأن الله تعالى لا يعمل حق عملوا فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزير بالاستتال لذتها وتظم بالله رغبها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تديرات الدنيا وشهواتها الباحة مثلا والشرط الآخر إلى العبادات رجع جانب الليل إلى الدنيا لمواظبتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا فأتى يتقاربان والطبع لأحدهما مرجح إذا الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبها القلب ويتجرده . وأما الرد إلى العبادات فتشكف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة ومن أراد أن ترجع كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والغفو من كرم الله منتظر فسي الله تعالى أن يغفر له بمجوده وكرمه فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة فإن لم تسكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واتقته بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه . إن لك في النهار سبعا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلا . وقال تعالى . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا . وقال تعالى . وسبح بحمديك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . وقال سبحانه . وسبح بحمديك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم وقال تعالى . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . وقال تعالى . ومن آناه الليل فسبح وأطراف النهار لمالك ترضى . وقال عز وجل . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات

(الباب الأول في فضيلة الأوراد)

عنه لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد منهم من لا يبلغ ركبتيه فاذا ركع أحدهم قبض يديه مخافة أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة جئنا بجماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا يا رسول الله أحرق بطوننا النمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا النمر أما علمتم أن هذا النمر هو طعام أهل المدينة وقد وسوناه به وواسيناهم بما وسونا به والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان للخبز وليس لهم إلا الأسودان للآء والنمر . أخبرنا الشيخ أبو القتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال أنا الشيخ أبو بكر

يذهب السيات ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى - آمن هو قانت
آناه الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون - وقال تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا - وقال عز وجل
- والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - وقال عز وجل - كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأصباح
هم يستغفرون - وقال عز وجل - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون - وقال تعالى - ولا تطرد
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة
الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله إلى الله
الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى (١) » وقد قال تعالى - الشمس والقمر بحسبان -
وقال تعالى - ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم
قبضناه إلينا قبضا يسيرا - وقال تعالى - والقمر قدرناه منازل - وقال تعالى - وهو الذي جعل لكم
النجوم لتبهتوا بها في ظلمات البر والبحر - فلا تظن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان
منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير
الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة بذلك عليه قوله تعالى - وهو الذي جعل الليل
والنهار خلفا لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا - أي غلب أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات
في الآخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير وقال تعالى - وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية
الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب - وإنما الفضل
للمبتغي هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

(بيان أعداد الأوراد وترتيبها)

اعلم أن أوراد النهار سبعة فمابين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد وما بين طلوع الشمس
إلى الزوال وردان وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان وما بين العصر إلى المغرب وردان والليل ينقسم
إلى أربعة أوراد وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ووردان من النصف الأخير من الليل إلى
طلوع الفجر ، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به . فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى
طلوع الشمس وهو وقت شريف ويبدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال - والصبح إذا تنفس -
وتعده به إذ قال - فالحق الإصباح - وقال تعالى - قل أعوذ برب الفلق - وإظهاره القدرة قبض
الظل فيه إذ قال تعالى - ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا - وهو وقت قبض ظل الليل يسط نور الشمس
وإرشاده الناس إلى التيسيع فيه بقوله تعالى - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون - وبقوله
تعالى - فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - وقوله عز وجل ومن آناه الليل
فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى - وقوله تعالى - واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا - . فأما ترتيبه
فلأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فينبغي أن يتندى بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذي
أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التي ذكرناها في دعاء الاستيقاظ من كتاب
الدعوات ولبس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته امتثالا لأمر الله تعالى واستماعة به على
عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الله إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل
أولا رجلاه اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج

(١) حديث أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله الطبراني وك
وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ خيار عباد الله .

ابن زكريا الطريفي
قال أنا الشيخ أبو عبد
الرحمن السلي قال
حدثنا محمد بن محمد بن
سعيد الأنماطي قال
حدثنا الحسن بن يحيى
ابن سلام قال حدثنا
محمد بن علي الترمذي
قال حدثني سعيد بن
حاتم البلخي قال حدثنا
سهل بن أسلم عن
خالد بن محمد عن أبي
عبد الرحمن السكري
عن يزيد النحوي عن
عكرمة عن ابن عباس
رضي الله عنهم قال :
« وقف رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوما على
أهل الصفة فرأى قهرم
وجهدهم وطيب قلوبهم
فقال أئبر وايا أصحاب
الصفة فن بقى منكم
على النعت الذي أنتم
عليه اليوم راضيا بما
هو فيه فانه من رفقائي
يوم القيامة » وقيل :
كان منهم طائفة
بخراسان يأوون إلى
الكهوف والغارات
ولا يسكنون القرى

ثم يستاك على السنة كما سبق ويتوضأ مراعيًا لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر أعنى السنة في منزله (١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أداها في البيت أو للسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي إلى آخر الدعاء (٢) ثم يخرج من البيت متوجهًا إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسمى إلى الصلاة سعيًا بل يمشي وعليه السكينة والوقار (٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد (٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متسما ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم كما سبق ذكره في كتاب الجمعة ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاحًا في البيت ويشتمل بالدعاء المذكور بعدها وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التوبة وجلس منتظرًا للجماعة والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يفلس بالصبح (٥) ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل ، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعى عنه سيئة والحسنة بشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة واقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا حسنة ومن صلى التمة فله مثل ذلك واقلب بمبرورة (٦) » وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر قال رجل من التابعين دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فقلت أبا هريرة قد سبقني فقال لي يا ابن أخي لأمر شيء أخرجت من منزلك في هذه الساعة فقلت لصلاة النداء فقال أشر فإنا كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى (٧) أو قال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرده فاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال « ألا تصليان قال علي فقلت يا رسول الله إنما ألقنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثنا بها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعتنه وهو منصرف يضرب فخذه ويقول وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (٨) » ثم ينبغي أن يشتمل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار

(١) حديث صلاة ركعتي الصبح في المنزل متفق عليه من حديث حفصة (٢) حديث الدعاء بعد ركعتي الصبح اللهم إني أسألك رحمة من عندك الحديث تقدم (٣) حديث الشيء إلى الصلاة وعليه السكينة متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث الدعاء المأثور لدخول المسجد تقدم في الباب الخامس من الأذكار (٥) حديث التغليس في الصبح متفق عليه من حديث عائشة (٦) حديث أنس في صلاة الصبح من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعى عنه سيئة والحسنة بشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة واقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا حسنة ومن صلى التمة فله مثل ذلك واقلب بحجة مبرورة لم أجده أصلاً بهذا السياق وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف ومن صلى للترب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمره متقبلة (٧) حديث أبي هريرة كنا نعد خروجنا وقعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله لم أقف له على أصل (٨) حديث علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرده فاطمة وهما نائمان فقال ألا تصليان قال علي فقلت يا رسول الله إنما ألقنا بيد الله الحديث متفق عليه .

والذين يسمونهم في خراسان شكفتية لأن شكفت اسم النار ينسبونهم إلى النأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم نجوعية والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصلاح فسمى قوماً أبرزوا وآخرين مقربين ومنهم الصابرون والصادقون والذاكرون والمحبون واسم الصوفي مشتعل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان في زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذ وقال معي أربع دوايق يكفيني مامى ويشيد هذا ما روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء

والتسبيح إلى أن تمام الصلاة فيقول أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يصلى الفريضة مراعى جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة فى الصلاة والقعدة فإذا فرغ منها قصد إلى السجدة إلى طلوع الشمس فى ذكر الله تعالى كما سنرى بعد ذلك قال عليه السلام «لأن أقصد فى مجلسي أذكر الله تعالى فيه من صلاة العداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب» (١) وروى «أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى العداة قصد فى مصلاه حتى تطلع الشمس ، وفى بعضها ويصلى ركعتين» (٢) «أى بعد الطلوع وقد ورد فى فضل ذلك ما لا يحصى وروى الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم اذكرنى بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما» (٣) وإذا ظهر فضل ذلك فليقم ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغي أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها فى سبعة وقرآنة وتفسيرا أما الأدعية فنكلمنا بفرغ من صلاته فليبدأ وليقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينارينا بالسلام وأدخلنا دارالسلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ثم يفتح السماء بما كان يفتح به رسول الله عليه السلام وهو قوله سبحانه ربى العلى الأسمى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (٤) ثم يبدأ بالأدعية التى أوردناها فى الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملة ما يراه أوفق بحاله وأرق قلبه وأخف على لسانه . وأما الأذكار المكررة فهى كلمات ورد فى تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ما ينبغي أن يكرر كل واحد منها ثلاثا أو سبعا وأكثره مائة أو سبعمائة أو وسطه عشر فليكررها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر والأوسط الأوسط أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أდومها وإن قل وكل وظيفة لا يمكن للواظبة على كثيرها قليلها مع الدائمة أفضل وأشد تأثيرا فى القلب من كثيرها مع الفترة ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالى فتحدث فيها حفرة ولو وقع ذلك على الحجر ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعت متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة . الأولى : قوله لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير» (٥) . الثانية : قوله سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

(١) حديث لأن أقصد فى مجلسي أذكر الله فيه من صلاة العداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب د من حديث أنس وتقدم فى الباب الثالث من العلم (٢) حديث كان إذا صلى العداة قصد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع م من حديث جابر ابن سمرة دون ذكر الركعتين وت من حديث أنس وحسنه من صلى الفجر فى جماعة ثم قصد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة (٣) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال يا ابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما ابن المبارك فى الزهد هكذا مرسل (٤) حديث كان يفتح السماء سبحانه ربى العلى الأسمى الوهاب تخدم (٥) حديث الفضل فى تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير تقدم من حديث أبى أيوب تكرارها عشرا دون

وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يصرف قديما وقيل لم يصرف هذا الاسم إلى اللاتين من الهجرة العربية لأن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل محايا لشرف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة وبعد اقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمى تابعا ثم لما تقدم زمان الرسالة وبعد عهد النبوة واشتط الوحي الماوى وتوارى النور المصطفوى واختلفت الآراء وتوعدت الأنحاء وتفرد كل ذى رأى برأيه وكدر شرب العلوم شوب الأهوية وتزعزعت أبنية الناس واضطربت عزائم الزهادين وغلبت

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (١). الثالثة: قوله سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٢).
الرابعة: قوله سبحان الله العظيم وبحمده (٣). الخامسة: قوله أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة (٤). السادسة: قوله اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد (٥). السابعة: قوله لا إله إلا الله الملك الحق المبين (٦).
الثامنة: قوله باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (٧).
التاسعة: اللهم صل على محمد عبدك ونيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم (٨).

قوله يحي ويحي ويحي وهو حي لا يموت بيده الخير فانها في اليوم والليلة للناس من حديث أبي ذر دون قوله وهو حي لا يموت وهي كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين للطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف.

(١) حديث الفضل في تكرار سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله في اليوم والليلة وحبك وصحبه من حديث أبي سعيد الخدري استكثروا من الباقيات الصالحات فذكرها (٢) حديث تكرار سبوح قدوس رب الملائكة والروح لم أجد ذكرها مكررة لكن عند من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها في ركوعه وسجوده وقد تقدم ولابي الشيخ في الثواب من حديث البراء أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح (٣) حديث تكرار سبحان الله وبحمده متفق عليه من حديث أبي هريرة من قال ذلك في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر (٤) حديث تكرار أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة للمستغفر في الدعوات من حديث معاذ أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ولفظه وأتوب إليه وفيه ضعف وهكذا رواه من حديث أبي سعيد في قولها ثلاثا والبخاري من حديث أبي هريرة إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ولم يقل الطبراني أكثر ولمسلم من حديث الأعرابي لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة تقدمت هذه الأحاديث في الباب الثاني من الأذكار (٥) حديث تكرار اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع (٦) حديث تكرار لا إله إلا الله الملك الحق المبين المستغفر في الدعوات والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلب به الفنى واستقرع به باب الجنة وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولابي نعيم في الحلية من قال ذلك في كل يوم وليلة مائتي مرة لم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه أظنه عن علي (٧) حديث تكرار باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم أصحاب البنين وابن حبان وك وصحبه من حديث عثمان من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسي لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي قالت حسن صحيح غريب (٨) حديث تكرار اللهم صل على محمد عبدك ونيك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد العافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات فذكره وهو منكر قلت ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا أدركته شفاعتي يوم القيامة وفيه انقطاع

الجهالات وهكفت
حجابها وكثرت العادات
وتملك أربابها
وتزخرت الدنيا وكثر
خطابها تغرد طائفة
بأعمال صالحة وأحوال
سنية وصدق في العزيمة
وقوة في الدين وزهدوا
في الدنيا ومحبته
واغتنموا العسرة
والوحدة واتخذوا
لنفوسهم زوايا
يجتمعون فيها تارة
وينفردون أخرى
أسوة بأهل الصفة
تاركين للأسباب
متبئين إلى رب
الأرباب فأتم لهم صالح
الأعمال سقى الأحوال
ونهاهم صفاء الفهوم
لقبول العلوم وصار لهم
بعد اللسان لسان وبعد
العرفان عرفان وبعد
الإيمان إيمان كما قال
حارثة أصبحت مؤمنا
حقا حيث كوشفت
برتبة في الإيمان غير
ما يتأهدها فصار لهم
بمقتضى ذلك علوم
يمرونها وإشارات

العاشرة : قوله أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون^(١) فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة فهو أفضل من أن يكرر ذكرها واحدا مائة مرة لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياته وللقلب بكل واحدة نوع تنبيه وتلذذ للنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد^(٢) وآية الكرسي^(٣) وخاتمة البقرة^(٤) من قوله آمين الرسول وشهادته^(٥) وقل اللهم مالك الملك الآيتين^(٦) وقوله تعالى - لقد جاءكم رسول من أنفسكم - إلى آخرها^(٧)

(١) حديث تكرر أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ت من حديث معقل بن يسار من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك الحديث ومن قالها حين يمسي كان تلك للترلة وقال حسن غريب ولا بن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله من قالها حين يصبح عشر مرات أجبر من الشيطان إلى الصبح الحديث ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة الأعمى يا خالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون والحديث عند أبي داود وت وحسنه وك وصححه فيما يقال عند الفرع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو (٢) حديث فضل سورة الحمد من حديث أبي سعيد بن الملقى أنها أعظم السور في القرآن وم من حديث ابن عباس في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للنبي ﷺ أبشر بنورين أو تيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته (٣) حديث فضل آية الكرسي م من حديث أبي بن كعب يا أبا للنضر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قلت الله لا إله إلا هو الحى القيوم الحديث وخ من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجيء الشيطان إليه وقوله إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ الحديث وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقك وهو كذوب (٤) حديث فضل خاتمة البقرة متفق عليه من حديث أبي مسعود من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (٥) حديث فضل شهد الله أبو الشيخ حب في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود من قرأ شهد الله إلى قوله الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عنده ودية جىء به يوم القيامة قبيل له عدى هذا عهد إلى عهدا وأنا أحق من وفى بالهد أدخلوا عدى الجنة وفيه عمر بن المختار روى الأباطل قاله ابن عدى وسيأتى حديث على بنه (٦) حديث فضل قل اللهم مالك الملك الآيتين المستغفري في الدعوات من حديث على بن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب الحديث وفيه فقال الله لا يقرأ كن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه الحديث وفيه الحارث ابن عمير وفى ترجمته ذكره حب في الضعفاء وقال موضوع لأصل له والحارث يروى عن الآيات الموضوعات قلت وتنه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم ون وروى له خ تعليقا (٧) حديث فضل لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها طلب في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد فذكر

يتعاهدونها فحرروا
لفومهم اصطلاحات
تشير إلى معاني يعرفونها
وتعرب عن أحوال
يجدونها فأخذ ذلك
الحلف عن السلف حتى
صار ذلك مستمرا
وخبرا مستقرا في كل
عصر وزمان فظهر
هذا الاسم بينهم
وتسموا به وسموا به
فلاسم ستمهم والعلم بالله
صفتهم والعبادة حلينهم
والتقوى شعارهم
وحقائق الحقيقة
أسرارهم، نزاع القبائل
وأصحاب الفضائل سكان
قباة النيرة وقطان
ديار الحسيرة لهم مع
الساعات من إمداد
فضل الله مزيد ولبيب
شوقهم يتأجج ويقول
هل من مزيد اللهم
احشرنا في زمرةهم
وارزقنا حالاتهم والله
أعلم .

[الباب السابع في ذكر
التصوف وللقبيل به]
أخبرنا شيخنا شيخ
الإسلام أبو النجيب

وقوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - إلى آخرها (١) وقوله سبحانه الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا - (٢)
 الآية وخمس آيات من أول الحديد (٣) وثلاث من آخر سورة الحشر (٤) وإن قرأ السبعات العشر التي أهداها
 الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل
 وجميع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال
 أتاني أخ لي من أهل الشام فأهدى لي هدية وقال يا كرز أقبل مني هذه الهدية فانها نعمت الهدية فقلت يا أخى
 ومن أهدى لك هذه الهدية قال أعطانها إبراهيم التيمي فقلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها قال بلى
 قال كنت جالسا في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فجاءني رجل فسلم علي
 وجلس عن يميني فلم أرفق زمانى أحسن منه وجهها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشديا منا ولا أطيب ريحاً منه
 فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت فقال أنا الخضر فقلت في أى شيء جئتني فقال جئتك للسلام عليك
 وجا لك في الله عندى هدية أريد أن أهدىها لك فقلت ما هي قال أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل
 انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله
 أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول سبحان الله والحمد لله ولا
 إله إلا الله والله أكبر سبعاً وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم سبعاً وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين
 وللمؤمنات سبعاً وتقول اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا
 تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رءوف رحيم سبع مرات وانظر أن
 لا تدع ذلك غدوة وعشية فقلت أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة فقال أعطانها
 محمد صلى الله عليه وسلم (٥) فقلت أخبرني بثواب ذلك فقال إذا بقيت محمداً صلى الله عليه وسلم فأسأله
 عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك فذكر إبراهيم التيمي أنه رأى ذات يوم في منامه كأن اللائكة جاءت
 فاحتلمته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أموراً عظيمة فمأراه في الجنة قال فسألت اللائكة
 حديثاً وفي آخره قل حسبى الله إلى آخر السورة وذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن في رغائب
 القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لزم قراءة
 لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة لم يمت هدماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة وهو
 ضعيف (١) حديث فضل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لم أجده فيه حديثاً يخصها لكن في فضل
 سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بن كعب من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد
 فتح مكة مع النبي ﷺ وهو حديث موضوع (٢) حديث فضل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية أحمد
 والطبراني من حديث معاذ بن أنس آية المزمع الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية كلها وإسناده ضعيف
 (٣) حديث فضل خمس آيات من أول الحديد ذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن من حديث
 علي إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقراء خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله - علم بذات الصدور -
 ومن آخر سورة الحشر من قوله - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - إلى آخر السورة ثم تقول يا من هو
 كذا افعل بي كذا وتدعو بما تريد (٤) حديث فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ت من
 حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا بورقة ولبهيق في الشعب من حديث أبي أمامة بسند
 ضعيف من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار لمات من يومه أوليته فقد أوجب الله له الجنة
 (٥) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي أن الخضر عليه السبعات العشرة
 وقال في آخرها أعطانها محمد صلى الله عليه وسلم ليس له أصل ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر
 بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته .

السهروردي إجازة قال
 أنا الشيخ أبو منصور
 ابن خيرون قال أنا أبو
 محمد الحسن بن علي
 الجوهري إجازة قال أنا
 محمد بن العباس بن
 زكريا قال أنا أبو محمد
 يحيى بن محمد بن صاعد
 الأصفهاني قال حدثنا
 الحسين بن الحسن
 للروزي قال أنا عبد الله
 ابن المبارك قال أنا
 للتمر بن سليمان قال
 أنا حميد الطويل
 عن أنس بن مالك
 قال جاء رجل إلى
 النبي عليه الصلاة
 والسلام فقال يا رسول
 الله متى قيام الساعة
 فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم إلى
 الصلاة فلما قضى
 الصلاة قال أين
 للسائل عن الساعة
 فقال الرجل أنا يا رسول
 الله قال ما أعددت
 لها قال ما أعددت لها
 كثير صلاة ولا صيام
 أو قال ما أعددت لها
 كبير عمل إلا أني

قلت لمن هذا فقالوا للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال فأنا
النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من اللاتكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب
فسلم على وأخذ يدي قلت يا رسول الله الحضر أخبرني أنه مع منك هذا الحديث فقال صدق الحضر
صدق الحضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى
في الأرض قلت يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامى هل يعطى شيئا مما
أعطيته فقال والقي بشئ بالحق نبيا إنه لا يسطى العامل بهذا وإن لم ير في الجنة إنه لا يغفر له جميع
الكبائر التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب السموات أن لا يكتب عليه خطيئة من
السيئات إلى سنة والذي بعثني بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله
شقيا وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فله كان يدهله الرؤيا فهذه وظيفة
القراءة فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع
لفضل الله كرو الفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار فليكن
ذلك إحدى وظائفه وسببا تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكير من ربيع النجيات ولكن
بجامعه ترجع إلى فئتين : أحدهما أن يتفكر فيما ينفعه من العاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره
ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر
تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي
معاملته للمسلمين . الفن الثاني فيما ينفعه في علم للكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر
آلائه الظاهرة والباطنة ليزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو في عقوباته وتعماته ليزيد معرفته
بقدرته الإله واستغاثته ويزيد خوفه منها ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكير فيها
على بعض الخلق دون البعض وإنما نستقصي ذلك في كتاب التفكير ومهما تيسر الفكر فهو أشرف
العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين : أحدهما زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة
والكشف . والثاني زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تكشف عظمة الله سبحانه
وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته . وهما باب أفضاله فيحصل من الفكر للمعرفة ومن المعرفة التعظيم
ومن التعظيم المحبة والله كرا أيضا يورث الأنس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة أقوى
وأثبت وأعظم ونسبة محبة العارف إلى أنس الله أكبر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد
جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفضاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر
على صممه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن
فيهما فليس محبته له كحبة للشاهد وليس الخبر كالمعاينة فالعباد الموابون على ذكر الله بالقلب واللسان
الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور
جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة
الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحط بكنهه جلاله وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من
الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولانهاية لجمال حضرة الربوبية ولا حجبها وإنما عدد
حجبها التي استحققت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا قال
صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره (١) »
وتلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو

(١) حديث إن لله سبعين حجابا من نور الحديث تقدم في قواعد العقائد .

أحب الله ورسوله
فقال النبي عليه الصلاة
والسلام : « الرء مع من
أحب أو أنت مع
من أحببت » قال
أنس لما رأيت
للمسلمين فرحوا حتى
بعد الإسلام فرحهم
بهذا فالتشبه بالصوفية
ما اختار التشبه بهم
دون غيرهم من
الطوائف إلا لمحبة
إيائهم وهو مع تقصيره
عن القيام بمسام فيه
يكون معهم لموضع
إرادته ومحبة وقد
ورد بلفظ آخر أوضح
من الخبر الذي
رويناه في النص
روى عبادة بن
الصامت عن أبي ذر
الغفاري قال : قلت
يا رسول الله الرجل
يحب القوم ولا
يستطيع أن يعمل
كعملهم قال « أنت
يا أبا ذر مع من أحببت »
قال قلت فاني أحب
الله ورسوله قال « فأنك
مع من أحببت » قال

في الأول أصغرهما ثم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لأبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في رقيه وقال - فلما جن عليه الليل - أي أظلم عليه الأمر - رأى كوكبا - أي وصل إلى حجاب من حجب النور فبرعنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام للضيئة فإن آحاد العوام لا يغني عنهم أن الربوية لا تليق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فلا يضل العوام لا يضل الخليل عليه السلام والحجب للسماء أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى - الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - الآية ولتجاوز هذه المعاني فاتها خارجة عن علم للعامة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من يفتح له بابه والتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد في علم للعامة وذلك أيضا مما تنزّر قائمته ويعظم نعمه فهذه الوظائف الأربعة أعنى الدعاء والذكر والقراءة والفكر ينبغي أن تكون وظيفة الريد بعد صلاة الصبح بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجته والصوم هو الجنة التي تنفيق مجارى الشيطان المعادي الصارفة عن سبيل الرشاد وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي التجبر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار (١) وهو الأولى إلا أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به . الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعنى بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الأربع وفي هذا الأربع من النهار وظيفتان زائدتان إحداها صلاة الضحى وقد ذكرناها في كتاب الصلاة وأن الأولى أن يصلي ركعتين عند الاشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح وصلى أربعاً أو ستاً أو ثمانياً إذا رمضت الفصال وضحيت الأندام بحر الشمس فوق الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله - يسبحن بالعشي والإشراق - فانه وقت إشراق الشمس وهو ظهور غمام نورها بارتفاعها عن موازاة البخارات والنبارات التي على وجه الأرض فانها تمنع إشراقها التام ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذي أقسم الله تعالى به فقال - والضحى والليل إذا سجي - « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال (٢) فذلك قول إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل للصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفي وقت الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطول نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء واسم الضحى ينطلق على الكل وكأن ركعتي الاشراق تقع في مبتدأ وقت الاذن في الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقتها (٣) » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا راعى بالتقريب . الوظيفة الثانية في هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عبادة مريض

(١) حديث اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس تقدم حديث جابر بن سمرة عند م في جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس (٢) حديث خرج على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال طيب من حديث زيد بن أرقم دون قوله فنادى بأعلى صوته وهو عند م دون ذكر الاشراق (٣) حديث إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقتها تقدم في الصلاة .

فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله صلى الله عليه وسلم « فحبة للتشبه لإمام لا تكون إلا لثبته بروحه لما قضيت له أرواح الصوفية لأن حبة أمر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه تكون يجاذب الروح غير أن للتشبه تعمق بظلمة النفس والصوفي تخلص من ذلك وللتصوف متطلع إلى حال الصوفي وهو مشارك بقاء شيء من صفات نفسه عليه للتشبه وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق فالتشبه صاحب إيمان والأيمان بطريق الصوفية أصل كبير قال الجنيد رحمة الله عليه الإيمان بطريقنا هذا ولاية ووجه ذلك أن الصوفية تميزو بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم

وتشيع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجري مجراه من قضاء حاجة مسلم وغيرها فان لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع التي قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات للتطوع بها إن شاء فانها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن فتصير الصلاة فيها خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أرادها أما بعد فريضة الصبح فتسبب كل صلاة لاسبب لها وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتي الفجر وتحية للسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والادعاء والفكر . الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ونهى بالضحوة للتصف ومابعده قليل وإن كان بكل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فتدبرها وقبل مضى صلاة الضحى فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالصبر فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالغرب ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة الصبر بين الزوال والغروب إلا أن الضحى لم تعرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخنق عنهم . الوظيفة الرابعة : في هذا الوقت الأقسام الأربعة وزيد أمران : أحدهما الاشتغال بالكسب وتدير المشقة وحضور السوق فان كان تاجرا فينبغي أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فينصح وعققة ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتب في كل يوم لقوته فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزوج لآخرته فان الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتمتع بأدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت ، فقد قيل لا يوجد للؤمن إلا في ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه بل أكثر الناس يقدرون فيما عنه بد أنه لا بد لهم منه وذلك لأن الشيطان يهدم الفقر ويأمرهم بالتحشاء فيصغون إليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يهدم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثاني : القيولة وهي سنة يستأن بها على قيام الليل كما أن التسحر سنة يستأن به على صيام النهار فان كان لا يقوم بالليل لكن لو لم يتم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل التفة وتحدث معهم فالتوم أحبه إذا كان لا يثبت نشاطه للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة إذ في التوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم يأتي على الناس زمان الصمت والتوم فيه أفضل أعمالهم وكم من عابد أحسن أحواله التوم وذلك إذا كان يراني بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالتأمل القاسق قال سفيان الثوري رحمه الله كان يصحبه إذا نضرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة ، ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور السجد قبل دخول وقت الصلاة فان ذلك من فضائل الأعمال وإن لم يتم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت حقة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهوم الدنيا فالقلب للتفرغ لخدمة ربه عند إغراض العبد عن بابه حدير بأن يركيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فان الليل وقت التفة بالتوم وهذا وقت التفة باتباع الهوى والاشتغال بهوم الدنيا وأحد معني قوله تعالى - وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر - أي يخلف أحدهما الآخر في الفضل والثاني أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما . الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ورايته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها فإذا كان قد توشأ قبل الزوال وحضر المسجد فهما زالت الشمس وابتدأ للؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقيم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الاظهار الذي أراده الله تعالى بقوله - وحين تظهرون -

واشاراتهم إلى عظيم
أمر الله والقرب منه
والإيمان بذلك إيمان
بالقدرة وقد أنكر
قوم من أهل السنة
كرامات الأولياء
والإيمان بذلك إيمان
بالقدرة ولهم علوم
من هذا القليل
فلا يؤمن بطريقهم
إلا من خصه الله تعالى
بزيد عنايته فالمتشبه
صاحب إيمان والتصوف
صاحب علم لأنه بعد
الإيمان اكتسب مزيد
علم بطريقهم وصار له
من ذلك مواجيد
يستدل بها على سائر
الصوف صاحب ذوق
فالتصوف الصادق
نصيب من حال الصوف
وللمتشبه نصيب من
حال للتصوف وهكذا
سنة الله تعالى جارية أن
كل صاحب حال له ذوق
فيه لا يد أن يكشفه
علم حال أعلى مما هو
فيه فيكون في الحال
الأول صاحب ذوق وفي
الحال الثاني كوشف به

ويلصل في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهما بتسليمة واحدة (١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار. قل بعض العلماء أنه يصلها بتسليمة واحدة ولكن طعن في تلك الرواية ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصل مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة (٢) وهو الذي صحته الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كأوردنا الجفرية في باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من اللذين أو أربعا من اللذين فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل ثم يصل الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة كما سبق أو قصيرة لا ينبغي أن يدعها ثم يصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعا فقد كره ابن مسعود أن تتبع القريضة بثلاث من غير فاصل ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقرأة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت. الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه المكث في السجدة مستمرا بالذكر والصلاة أو غنونا الخير ويكون في انتظار الصلاة متكفيا لمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف وكان الداخل يدخل للسجدة بين الظهر والعصر فيسمع للصليين دوي كدوى النحل من التلاوة فإن كان يته أصلم لهينه وأجمع لجمه فاليست أفضل في حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضا وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالتهار قال بعض العلماء ثلاث يغتف الله عليها: الضحك بغير عجب والآكل من غير جوع والنوم بالتهار من غير سهر بالليل والحد في النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعا فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالتهار وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالتهار فعسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كأن الطعام غذاء الأبدان وكان أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدر الاعتدال هذا والنقصان منه ربعا يفضى إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجا فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتها للعباد وهو أحد الأصول التي ذكرها الله تعالى إذ قال - والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال - وإذا سجد لله عز وجل الجادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات. الورد السادس: إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى والعصر هذا أحد معني الآية وهو الراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو العشي للذكر وفي قوله والعشي والإشراق وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة كما سبق في الظهر ثم صلى الفرض ويستغل بالآقسام الأربعة المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى ردوس الحيطان وتصفر والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والتفكير فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الآقسام الثلاثة. الورد السابع: إذا اصفرت الشمس بأن تحرب من الأرض بحيث يظن نورها الفبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كان ذلك قبل الطلوع

(١) حديث صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة وفيه أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع له فيها عمل صالح د. ه من حديث أبي أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس (٢) حديث صلاة الليل والنهار مثنى مثنى د. ه من حديث ابن عمر.

صاحب علم وجاه فوق ذلك صاحب إيمان حتى لا يزال طريق الطلب مسلو كما فيكون في حال التدقيق صاحب قدم وفي حال العلم صاحب نظر وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون - وصف الأبرار ووصف شراهم ثم قال سبحانه وتعالى - ومزاجه من تسنيم عينا يضرب بها القربون - فكان لشراب الأبرار مزج من شراب القربين وللمقربين ذلك صرفا فللصوفي شراب صرف وللمتصوف من ذلك مزج في شراهم وللمتشبه مزج من شراب للتصوف فالصوفي سبق إلى مقام الروح من بساط القرب والتصوف بالنسبة إلى الصوفي كالتردد بالنسبة إلى الزاهد لأنه يفعل وتعمل وتسبب إشارة إلى ما سبق

وهو للراد بقوله تعالى - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون - وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى - فسبح وأطراف النهار - قال الحسن كانوا أشد تعظيماً للعشي منهم لأول النهار وقال بعض السلف كانوا يجعلون أول النهار للدين وآخره للآخر فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده مأخوذة من قوله تعالى سواستغفر ربك وسبح بحمديك بالعشى والابكار والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله أستغفر الله إنه كان غفارا أستغفر الله إنه كان توابا رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها ، والليل إذا يشئ ، وللمؤمنين . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال اللهم هذا إقبال ليك وإدبار نهارك وأصوات دعائك كاسبق ثم يحجب المؤذن ويشغل صلاة المغرب والمغرب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويعاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة فإن ساوى يومه أمنه فيكون مغنونا وإن كان شرا منه فيكون ملغونا قد قال عليه السلام « لا بورك لى في يوم لا ازداد فيه خيرا » (١) فإن رأى نفسه متوفرا على الخير جميع نهاره مترفها عن التجمعات كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسيده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلفه النهار فليعزم على تلافى ما سبق من تخريبه فإن الحسنات يذهبن السيئات وليشكر الله تعالى على هبة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك قصيره وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع وعند ذلك يفتل باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أيام معدودة تنقضى لا محالة جعلتها بانقضاء آحادها (بيان أوراد الليل وهي خمسة)

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بأحياء ما بين العشاءين فأخّر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أعنى الحمرة التي بفسوبتها يدخل وقت العتمة وقد أتم الله تعالى به فقال - فلا أقسم بالشفق - والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نشوء ساعاته وهو آن من الآناء المذكورة في قوله تعالى - ومن آتاء الليل فسبح - وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدركهم رسول الله عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره » (٢) والملاغات جمع ملغاة من اللغو وسئل أنس رحمه الله عن

(١) حديث لا بورك لى في يوم لا ازداد فيه خيرا تقدم في العلم في الباب الأول إلا أنه قال علما بدل خيرا (٢) حديث سئل عن قوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره قال للصفحة أسنده ابن أبي الزناد [١] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت إنما هو إسماعيل بن أبي زياد بالياء للثناة من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الشامي عن الأعمش حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني واسم أبي زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش وابن مردويه من حديث أنس أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء والحديث عند ت وحسنه بلفظ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

[١] قول العراقي ابن أبي الزناد هي نسخة وقعت له وإلا ففي النسخ الصحيحة ابن أبي زياد فلي تأمل .

عليه من وصفه فهو
يجتهد في طريقه سائر
إلى ربه قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« سيروا سبق للمفردون »
قبل من المفردون
يا رسول الله ؟ قال
للمستهترون بذكر الله
وضغ الذم عندهم
أوزارهم فوردوا القيامة
خفافا فالصوفي في مقام
للمفردين والتصوف في
مقام السائرين واصل
في سيره إلى مقر القلب
من ذكر الله عز وجل
ومراقبته بقلبه وتلذذه
بنظره إلى نظر الله
إليه فالصوفي في مقام
الروح صاحب مشاهدة
والتصوف في مقام القلب
صاحب مراقبة والتشبه
في مقاومة النفس
صاحب مجاهدة
وصاحب محاسبة فتلوين
الصوفي بوجود قلبه
وتلوين للتصوف
بوجود نفسه والتشبه
لاتلوين له لأن التلوين
لأرباب الأحوال
والتشبه يجتهد سالك

ينام بين العشاءين فقال لا تفعل فانها الساعة اللعنية بقوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - وسيأتي فضل إحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصلى بعد المغرب ركعتين أو لا يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصلى أربعاً يطيلها ثم يصلى إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له وإن كان للسجد قريبا من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه المكوف في السجد وإن عزم على المكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمنا من التصنع والرياء . الورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حدنومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال - والليل وما وسق - أى وما جمع من ظلمته وقال إلى غسق الليل فهناك يسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور : الأول أن يصلى سوى فرض العشاء عشر ركعات أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستا بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . والثاني أن يصلى ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فانه أكثر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل (١) والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره والحزم التقديم فانه ربما لا يستيقظ أو يتقل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل ثم يقرأ في هذه الصلاة قدر ثمانية آية من السور المخصوصة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمرو والواقعة (٢) فإن لم يصل فلا يبدع قراءة هذه السور أو بعضها قبل النوم فقد روى في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ليلة أشهرها السجدة وتبارك الملك (٣) والزمرو والواقعة وفي رواية الزمرو وبني إسرائيل (٤) وفي أخرى أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية (٥) وكان العلماء

(١) حديث الوتر ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل وانه أكثر ما صلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الليل د من حديث عائشة لم يكن يوتر بأكثر من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة وخ من حديث ابن عباس كانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل وم كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة وفي رواية للشيخين منها ركعتا الفجر ولها أيضا ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة (٢) حديث إكثاره صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمرو والواقعة غريب لم أقف على ذكر الاكثار فيه وحسب من حديث جندب من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له وت من حديث جابر كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك وله من حديث عائشة كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمرو وقال حسن غريب وله من حديث أبي هريرة من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك قال غريب ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة من قرأ في ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذي بيده الملك واقتربت كنه له نورا الحديث ولأبي منصور المظفر بن الحسين الغزنوي في فضائل القرآن من حديث طي ياطي أكثر من قراءة يس الحديث وهو منكر وللعارث بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضيف من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا وت من حديث ابن عباس شيعتي هود والواقعة الحديث وقال حسن غريب (٣) حديث كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك وت تقدم في الحديث قبله (٤) حديث كان يقرأ في كل ليلة الزمرو وبني إسرائيل ت وتقدم أيضا (٥) حديث كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية د ت وقال حسن ون في الكبرى من حديث عرياض بن شارية :

لم يصل بعد إلى الأحوال والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء قال الله تعالى - ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات - قال بعضهم الظالم الزاهد والمقتصد العارف والسابق المحب وقال بعضهم الظالم الذي يجزع من البلاء والمقتصد الذي يصبر عند البلاء والسابق الذي يتلذذ بالبلاء وقال بعضهم الظالم يعبد على الفعلة والعادة والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة والسابق يعبد على الهيبة والمنة وقال بعضهم الظالم يذكرك الله بلسانه والمقتصد بقلبه والسابق لا ينسى ربه وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله : الظالم صاحب الأقوال والمقتصد صاحب الأفعال والسابق صاحب الأحوال وكل هذه الأقوال قريبة التناسب

يجملونها ستا فزيدون سبع اسم ربك الأملئ إذ في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب سبع اسم ربك الأملئ ، وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبع اسم ربك الأملئ ^(١) وقل يا أيها الكافرون والإخلاص ^(٢) فإذا فرغ قال سبحان للملك القدوس ثلاث مرات . الثالث الوتر وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضي الله عنه : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر ^(٣) وإن كان مبتدأ صلاة الليل فالتأخير أفضل قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة ^(٤) » وقالت عائشة رضي الله عنها أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ^(٥) وقال علي رضي الله عنه الوتر على ثلاثة آحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعني أنه يصير وترًا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت خففت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك هذا ما روى عنه والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما قضى الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغي أن ينقض ^(٦) وروى أنه مطلقاً أنه ^(٧) قاله لا وتران في ليلة ^(٨) ولمن يتردد في استيقاظه تلتطف استحسنته بعض العلماء وهو أن يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً فيقرأه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم ^(٩) لما فيهما من التحذير والوعيد وفي رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التوبة وإفراد العبادة لله تعالى فيقول إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة في آخر صلاة الليل وكأنه صار ماضياً شفعاً بهما وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب الليثي وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل وهو كما ذكره لكن ربما غلط أنهم لو شفعتا ماضياً لكان كذلك وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافهاً إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلهما وإعادة الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتها وترهما فيحسب وترًا إن لم يستيقظ وشفعاً إن استيقظ ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان للملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت وتعززت بالقدر وقهرت العباد بالموت روى أنه صلى الله عليه وسلم مامات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة ^(١٠) وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللقائم نصف أجر القاعد ^(١١) » وذلك يدل على صحة النافذة نافعاً . الوتر الثالث النوم ولا بأس أن يعد ذلك

(١) حديث كان يحب سبع اسم ربك الأملئ أحمد والبخاري من حديث علي بسند ضعيف (٢) حديث كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر بسبع اسم ربك الأملئ وقل يا أيها الكافرون والإخلاص دن ه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح وتقدم في الصلاة من حديث أنس (٣) حديث أبي هريرة أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر ومتفق عليه بلفظ أن أوتر قبل أن أنام (٤) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث عائشة أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر متفق عليه (٦) حديث النهى عن قضى الوتر قال للصنف صح فيه نهى قلت وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله هبة كما رواه ومن قول ابن عباس كما رواه هق ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إنما أراد ما ذكرناه عن الصحابة (٧) حديث لا وتران في ليلة دت وحسنه ون من حديث طلق بن علي (٨) حديث الركعتين بعد الوتر جالساً تقدم في الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة (٩) حديث مامات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة متفق عليه من حديث عائشة لما بدن النبي صلى الله عليه وسلم وتقل كان أكثر صلاته جالساً (١٠) حديث للقاعد نصف أجر القائم وللقائم نصف أجر القاعد خ من حديث عمران بن حصين

من حال الصوفي والتصوف والتشبه وكلهم من أهل الفلاح والنجاح تجمعهم دائرة الاصطفاء وتؤلف بينهم نسبة التخصيص بالمنح والعطاء . أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد ابن اسماعيل القزويني بإجازة قال أنا أبو سعد محمد بن أبي العباس قال أنا القاضي محمد بن سعيد قال أنا أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازي قال حدثنا أبو أيوب سليمان ابن داود قال حدثنا حصين بن نمير عن أبي ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى - فمنهم ظالم لنفسه ومنهم

في الأوراد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل : إن الصبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فان تحرك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله (١) وفي الخبر «إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش (٢)» هذا في العوام فكيف بالخواص والطاء وأرباب القلوب الصافية فانهم يكثفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح (٣)» وقال معاذ لأبي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ قال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأخفق القرآن فيه فحوقا قال معاذ لكن أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما أحسب في قومي فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاذ أقمه منك (٤) . وآداب النوم عشرة : الأول الطهارة والسواك . قال ﷺ «إذا نام الصبد على طهارة عرج روحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم يتم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فذلك للثامات أضعاف أحلام لا تصدق (٥)» وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا وطهارة الباطن هي للزورة في انكشاف حجب القيب . الثاني أن يمد عند رأسه سواكه وطهوره . وينوي القيام للعبادة عند التيقظ وكما يتنبه يستاك كذلك كان يضمه بعض السلف وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها (٦)» وإن لم تيسره الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فان لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليستغل بالذكر والدعاء والتسكّر في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل وقال ﷺ «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى (٧)» . الثالث أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن القبض في النوم فان مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة يزاوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا للسكين مات من غير وصية وذلك مستحب خوف موت الفجأة وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعدا للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم . الرابع أن ينام تائبا من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يزم على معصية إن استيقظ قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث قيل إنه إذا نام على طهارة ذكر الله تعالى يكتب مصليا ويدخل في شعاره ملك الحديث حب من حديث ابن عمر من بات طاهرا بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا (٢) . حديث إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي برداء وهو في الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص وروى طبري الأوسط من حديث علي مامن عبد ولا أمة تام فتقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا عند العرش فذلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكذب هو ضعيف (٣) حديث نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح قلت للعروف فيه الصائم دون العالم وقد تخدم في الصوم (٤) حديث قال معاذ لأبي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ قال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأخفق القرآن فحوقا قال معاذ لكني أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما أحسب في قومي فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال معاذ أقمه منك متفق عليه بنحوه من حديث أبي موسى وليس فيه أنهما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ولا قوله معاذ أقمه منك وإنما زاد فيه طبري فكان معاذ أفضل منه (٥) حديث إذا نام الصبد على طهارة عرج روحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة الحديث تخدم (٦) حديث أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها تقدم في الطهارة (٧) حديث من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه

مقصد ومنهم سابق بالحيرات - كلهم في الجنة قال ابن عطاء الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا والمقصد الذي يحب الله من أجل العقي والسابق هو الذي أسقط براده مجرد الله فيه وهذا هو حال الصوفي فالتشبه بغيره من أمر القوم ويوجب له ذلك القرب منهم والقرب منهم مقدمة كل خير . سمعت شيخنا يقول جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بأصبهان يريد منه الحرقه فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك في معنى الحرقه ثم احضر حتى ألبسك الحرقه قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الحرقه وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها فاستعظم الرجل حقوق الحرقه وجبن

« من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفلة ما اجترم ^(١) » . الخامس أن لا ينعم بتمهيد الفراش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفا وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمع بذلك نفسه فليقتصد . السادس أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم لاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قتيلا من الليل ما يهجمون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدري ما يقول فليمن حتى يقل ما يقول وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره النوم قاعدا وفي الخبر « لا تكابدوا الليل ^(٢) » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصلي بالليل فاذا غلبها النوم تملقت بحبل قهبي عن ذلك وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسر له فاذا غلبه النوم فليرقد ^(٣) » وقال ^(٤) « تكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله لن يعل حتى تعلموا ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أسره ^(٦) » وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلي فلا ينام ويصوم فلا يظطر فقال لكنني أصلي وأنا نام وأصوم وأفطر هذه سنقي فمن رغب عنها فليس مني ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده ينل به فلا تنفض إلى نفسك عبادة الله ^(٨) » السابع أن ينام مستقبل القبلة والاستقبال على ضربين أحدهما استقبال المحتضر وهو المستلقي على قفاه فاستقباله أن يكون وجهه وأخصاه إلى القبلة والثاني استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن . الثامن الهاء عند النوم فيقول باسمك ربني وضعت جنبي وباسمك أرفضه إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في كتاب الدعوات ^(٩) ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسي وآخر البقرة وغيرهما وقوله تعالى - وإلهمك إله واحد لا إله إلا هو - إلى قوله - تقوم يقولون - يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه وقرأ من سورة الأعراف هذه الآية - إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام - إلى قوله سقرب من المحسنين -

ن ه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح ^(١) حديث من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفلة ما اجترم ابن أبي الدنيا في كتاب النية من حديث أنس من أصبح ولم يمسح بظلم أحد غفلة ما اجترم وسنده ضعيف ^(٢) حديث لا تكابدوا الليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفي جامع سفیان الثوري موقوفا على ابن مسعود لا تكابدوا هذا الليل . ^(٣) حديث قيل له إن فلانة تصلي فاذا غلبها النوم تملقت بحبل قهبي عن ذلك الحديث متفق عليه من حديث أنس ^(٤) حديث تكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يعل حتى تعلموا متفق عليه من حديث عائشة بلفظ اكلفوا ^(٥) حديث خير هذا الدين أسره أحمد من حديث هجبن ابن الأدرع وتقدم في العلم ^(٦) حديث قيل له إن فلانا يصلي ولا ينام ويصوم ولا يظطر فقال لكنني أصلي وأنا نام وأصوم وأفطر هذه سنقي فمن رغب عنها فليس مني ن من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله هذه سنقي الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة من رغب عن سنقي فليس مني وهي متفق عليها من حديث أنس ^(٧) حديث لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده ينل به ولا تنفض إلى نفسك عبادة الله مع من حديث أبي هريرة لن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ولبيبي من حديث جابر إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تنفض إلى نفسك عبادة الله ولا يصح إساده . ^(٨) حديث الدعاء للمأثورة عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي الحديث إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات

أن يلبسها فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك وقال بئس إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الحرقة فكلمته بما قرت عزيمته ثم الذي ذكرته كله صحيح وهو الذي يجب من حقوق الحرقة ولكن إذا أئزمتنا للبتي بذلك نقر وعجز عن القيام به فنحن نلبسه الحرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزى بهم فيقرب به ذلك من مجالسهم ومخاطبتهم ويركة محالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يسلك ملكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الفزالي ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصغار قال أنا أبو بكر أحمد بن علي بن

وآخر بن إسرائيل - قل ادعوا الله - الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ الموذنين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وليقرأ عنرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآية للاستيقاظ لقيام الليل وكان على كرم الله وجهه يقول ما أرى أن رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمسا وعشرين مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة . التاسع أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة واليقظ نوع بعث قال الله تعالى - الله يتوفى الأتقى حين موتها والتي لم تمت في منامها - وقال - وهو الذي يتوفاكم بالليل - فبما توفيها وكما أن المستيقظ تتكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله في النوم فكذلك للبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه ومثل النوم بين الحياة والوفاة مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه يا بني إن كنت تشك في اللوث فلا تنم فكما أنك تام كذلك تموت وإن كنت تشك في البعث فلا تنبه فكما أنك تنبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك وقال كعب الأحبار إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فاتها وفاة وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته ذلك « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليكه (٢) » الدعاء إلى آخره كاذكرناه في كتاب الدعوات فعلى العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أوجب الدنيا وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن الرء مع من أحب ومع ما أحب . العاشر الدعاء عند التنبيه فليقل في تيقظاته وتقبلاته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (٣) » وليجتهد أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب ولا يلزم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فانها علامة تتكشف عن باطن القلب وإنما استجبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى فإذا استيقظ يقوم قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ . الورد الرابع : يدخل بعض التصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد فاسم التهجد يختص بمآبد المعبود والمجرب وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال - والليل إذا سجى - أي إذا سكن وسكونه هدوء في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وقيل إذا سجد إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع قال جوف الليل (٤) » وقال داود صلى الله عليه وسلم على

خلف قال أنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفر بن يعقوب بن يزيد يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وأبدأ بالرفق فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع بالبتدى الطالب وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رققا بالبتدى الطالب . حكى عن بعضهم أنه صبحه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا أنظر للبتدى إليه والتأدب بأدبه والاعتناء به في عمله وهذا هو الرفق الذي مادخل في شيء إلا زانه فالمتشبهه الحقيقي له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة

(١) حديث قراءة للموذنين عند النوم بنفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث عائشة كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم الحديث تقدم في الدعوات دون وضع الحد على اليد وتقدم من حديث حفصة (٣) حديث كان يقول عند تيقظه لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليل من حديث عائشة (٤) حديث سئل أى الليل أسمع قال جوف الليل دت وصححه من حديث عمرو بن عبسة .

إني أحب أن أتعبد لك فأني وقت أفضل فأوحى الله تعالى إليه ياداد لا تقم أول الليل ولا آخره فان من قام أوله نام آخره ومن قام آخره لم يقم أوله ولكن قم وسط الليل حتى تغلوبي وأخلوبك وارفع إلى حوائجك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم «أي الليل أفضل فقال نصف الليل الغابر»^(١) يعني الباقي وفي آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبارته إلى سماء الدنيا^(٢) وغير ذلك من الأخبار وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التي للاستيقاظ يتوضأ وضوءا كما سبق بسنته وآدابه وأدعيته ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ويقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلًا ثم يسبح عشرا ويحمد الله عشرا ويهلل عشرا وليقل الله أكبر ذولا للذكوات والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة وليقل هذه الكلمات فانها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنور حق والنبون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت أنت القديم وأنت للآخر لا إله إلا أنت^(٣) اللهم أنت تهي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها^(٤) اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت^(٥) أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء للمفقر الدليل فلا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رءوفا رحيما يا خير السؤلين وأكرم للمطيقين^(٦)

(١) حديث سئل أي الليل أفضل قال نصف الليل الغابر أحمد وحسب من حديث أبي ذر دون قوله الغابر وهي في بعض طرق حديث عمرو بن عبسمة .

(٢) (الأخبار الواردة في اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن

في آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا)

أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي فهي آثار رواها محمد بن نصر في قيام الليل من رواية سعيد الجريري قال : قال داود ياجبريل أي الليل أفضل قال ما أدري غير أن العرش يهتز من السحر وفي رواية له عن الجريري عن سعيد بن أبي الحسن قال إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ريح كل شجرة وله من حديث أبي الدرداء مرفوعا إن الله تبارك وتعالى لينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل يفتح الله في الساعة الأولى وفيه ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن الحديث وهو مثله (٣) حديث القول في قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض ودون قوله ومن عليهن ومنك الحق (٤) حديث اللهم أنت تهي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة أنها شهدت النبي صلى الله عليه وسلم من مضجعه فليسته يدها فوقت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط تهي تقواها الحديث (٥) حديث اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت م من حديث طي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة فذكره بلفظ لأحسن الأخلاق وفيه زيادة في أوله (٦) حديث أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء للمفقر الدليل الحديث الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس أنه كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عشية عرفة يخدم في الحج .

ومحاسبة . ثم يصير متصوفا صاحب مراقبة ثم يصير صوفيا صاحب مشاهدة فأما من لم يتطلع إلى حال للتصوف والصوفي بالتشبه ولا يقصد أوائل مقاصدهم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة وللشاركة في الزنى والصورة دون السيرة والصفة فليس بعشبه بالصوفية لأنه غير محال لهم بالدخول في بداياتهم فاذن هو متشبه بالمتشبه يمتزى إلى القوم بمجرد لبسه ومع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » . أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال ثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم قال ثنا إبراهيم بن محمد

وقالت عائشة رضي الله عنها « كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (١) » ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفتين ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح في صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدرج إلى ثلاث عشرة ركعة (٢) وسئلت عائشة رضي الله عنها أكان رسول الله ﷺ يجهر في قيام الليل أم يسر قالت ربما جهر وربما أسر (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٤) » وقال « صلاة الغروب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل (٥) » وأكثر ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (٦) وقرأ في هذه الركعات من ورد من القرآن أو من المور المخصوصة ما خف عليه وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل . الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فان الله تعالى قال - وبالأصباح يستغفرون - قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر التي هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبو الدرداء رضي الله عنهما ليلة زاره (٧) في حديث طويل قال في آخره فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له سلمان ثم فنام ثم ذهب يقوم فقال له ثم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان قم الآن فاما فسلم قال إن نفسي عليك حقا وإن لنيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه وذلك أن امرأة أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل قال فأبى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال صدق سلمان وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب المحور وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة في هذين الوردين الصلاة فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلي ركعتي الفجر وهو للراد بقوله تعالى - ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم - ثم - عهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة - إلى آخرها ثم يقول وأنا أشهد بما عهد الله به لنفسه وعهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وعلى عند الله تعالى وديعة وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها اللهم احفظ عني بها وزرا واجعلها عندي ذخرا واحفظها عني وتوفني عليها حتى ألقاها بها غير مبدل تبديلا فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعيادة مريض وشهود جنازة ففي الخبر

(١) حديث عائشة كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض الحديث رواه م (٢) حديث أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدرج إلى ثلاث عشرة ركعة م من حديث زيد بن خالد الجهني (٣) حديث سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله ﷺ في قيام الليل أم يسر قالت ربما جهر وربما أسر د ن ه بإسناد صحيح (٤) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة متفق عليه وقد تقدم (٥) حديث صلاة الغروب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فانه أكثر ما صح عنه تقدم (٧) حديث زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له سلمان ثم فنام الحديث وفي آخره فقال صدق سلمان ع من حديث أبي جعيفة .

الشافعي قال تناطى بن أحمد قال تناطى بن علي القدسي قال ثنا محمد ابن عبد الله بن حامر قال ثنا إبراهيم بن الأشعث قال ثنا فضيل ابن عياض عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتبعون مجالس الذكر فإذا رأوا قوما يذكرون الله تادوا هل سبوا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى هناك السماء فيقول الله وهو أعلم ما يقول عبادي ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك فيقول وهل رأوني فيقولون لا فيقول وكيف لو رأوني قالوا لو رأوك كانوا أهدي تسبيحا وتحميدا ونعجيذا فيقول

« من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له (١) » وفي رواية دخل الجنة فانفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقض اليوم ولم يصدقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خبر لقوله صلى الله عليه وسلم « الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس (٢) » ولقوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة (٣) » ودفع مائشة رضى الله عنها إلى سائل عنة واحدة فأخذها فظن من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت ما لكم إن فيها لما قيل ذكر كثير وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك ما سأله أحد شيئا فقال لا ولكنه إن لم يقدر عليه سكت (٤) وفي الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى للفصل وفي جسده ثلثائة وستون مفصلا فأمره بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإما طنت الأذى صدقة حتى ذكر التسييح والتهيل ثم قال دوركتنا الضحى تأتي على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله (٥) » .

(بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال)

اعلم أن المرید لحث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فانه إما طاب وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإماما وحده مستغرق بالواحد الصمد عن غيره . الأول : العابد وهو التجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة لجلس بطالا فترتيب أورادهما ذكرناه ، نعم لا يمتد أن يختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو في القراءة أو في التسيجات فقد كان في الصحابة رضى الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسيحة وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا وكان فيهم من ورده ثلثائة ركعة إلى سبائة إلى ألف ركعة وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم واليلة وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليلة في التفكير في آية واحدة يردها وكان كرز بن وبرة مقيا بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعا وفي كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم واليلة مرتين فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وخمسمائة وعشرة فراسخ فان قلت فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد . فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتخليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فلينظر المرید إلى قلبه فما يراه أشد تأثيرا فيه فليواظب عليه فإذا أحس بملاحة منه فلينتقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات كسبق والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن اللال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضا تختلف ولكن إذا فهم هذه الأوراد وسرها فليتبص العنى فان سمع تسيحة مثلا وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا وقد روى عن إبراهيم بن آدم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر فسمع صوتا عاليا بالتسييح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك قال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسييح منذ خلقت

(١) حديث من جمع بين صوم وصدقة وعبادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له وفي رواية دخل الجنة من حديث أبي هريرة ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة (٢) حديث الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس تقدم في الزكاة (٣) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة تقدم في الزكاة (٤) حديث ما سأله أحد شيئا فقال لا إن لم يقدر عليه سكت من حديث جابر والبرار من حديث أنس أو بسكت (٥) حديث يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة الحديث م من حديث أبي ذر .

ما يسألونني ؟ قالوا
يسألونك الجنة فيقول
وهل رأوها قالوا
لا فيقول كيف لأورأوها
قالوا لو رأوها كانوا
أشد لها طلبا وعليها
أكثر حرصا قالوا
ويتعذون من النار
فيقول وهل رأوها
قالوا لا فيقول كيف
لو رأوها قالوا كانوا
أشد منها تعوذا وأشد
فرارا فيقول أشهدكم
أنى قد غفرت لهم
فيقول الملك فمنهم فلان
ليس منهم إنما جاء
لحاجة فيقول تبارك
وتعالى هم الجلساء
لا يشقى جلسهم فلا
يشقى جلسي الصوفية
والمتشبه بهم والمحب
لهم .

[الباب الثامن في ذكر
اللامق وشرح حاله]
قال بعضهم اللامق
هو الذي لا يظهر خيرا
ولا يضر شررا وشرح
هذا هو أن اللامق
تشربت عروقه طم
الإخلاص ونهق

قلت لما سمعت قال بها يائيل قلت فما ثواب من قاله قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له والتسبيح هو قوله سبحان الله العلي الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الخنثى للثان سبحان الله للصبح في كل مكان فهذا وأمثاله إذا سمعه للريد ووجد له في قلبه وقفا فيلازمه وأيا ما وجد القلب عنده وقص له فيه خير فليواظب عليه . الثاني : العالم الذي ينفع الناس بطله في كسبه أو تدريس أو تصنيف ترتيب الأوراد بخلاف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى اللطالة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لأعماله فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد للكتابات وروايتها ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعلم والتعلم في كتاب العلم وكيف لا يكون كذلك وفي العلم للواظبة على ذكر الله تعالى وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ورب مسئلة واحدة يتعلمها للتعليم فيصلح بها عبادة عمره ولولم يتعلمها لكان سعيه ضائعا وإنما نفعي بالعلم للتصميم على العبادة العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويتردد في الدنيا أو العلم الذي يمتنع على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في اللال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فإن استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع فينبغي أن يخص مابعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهوم الدنيا يمين على التفتن للمشكلات ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقتا كل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يغلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير وهذا يتنفس في ليالي الشتاء والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا ما نستجبه من ترتيب أوراد العلم . الثالث : للتعلم والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة وبالتعليم والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يخلق ويحصل ليصير عالما بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات في حديث أبي ذر رضي الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعبادة ألف مريض » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها » (١) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث تخدم في العلم .

بالصدق فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله . أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر ابن أبي الفضل القدسي إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازة قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت علي بن سعيد وسأله عن الإخلاص ما هو قال سمعت علي بن إبراهيم وسأله عن الإخلاص ما هو قال سمعت محمد بن جعفر الحصاف وسأله عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو قال سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن علي الجهمي عن الإخلاص ما هو قال سألت عبد الواحد ابن زيد عن

ف قيل يا رسول الله وما رياض الجنة قال خلق الله كراماً (١) وقال كعب الأحبار رضي الله عنه لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو إليك قساوة قلبي فقال أدنه من مجالس الذكر ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من اللواظبات على خلق الذكر فقال مرحباً يا مسكينة فقالت هيات هيات للسكرنة وجاء الغنى فقال هيه فقالت ما تسأل عمن أيسح لها الجنة بهذا فيراها قال يوم ذلك قالت بعجالة أهل الذكر ، وعلى الجملة لما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقوله واعظ حسن الكلام زكي السيرة أشرف وأرفع من ركعات كثيرة مع اشتغال القلب على حب الدنيا . الرابع : المحترف الذي يحتاج إلى الكسب ليعاله فليس له أن يضع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته بل يواظب على التسيبجات والأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظوراً فإنه لا يجز عن إقامة أوراد الصلاة معه ثم مهما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد وإن دوام على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها لأن العبادات التعبدية فائدتها أتق من اللازمة والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر . الخامس الوالي مثل الامام والقاضي والتولي لينظر في أمور المسلمين قيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص أفضل من الأوراد المذكورة لحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهائراً ويقتصر على المكتوبة . ويقيم الأوراد المذكورة بالليل كما كان عمر رضي الله عنه يفعل إذ قال مالي والنوم فلو نمت بالهراضيعة المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسي وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران أحدهما العلم والآخر الرفق بالمسلمين لأن كل واحد من العلم وفصل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين عليه . السادس : للوحد للستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهو مهتم واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يقتصر إلى تنويع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحداً وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يفرح سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائحه إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد فلا يحرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى فهو لاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم فلا تميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى - لعلكم تذكرون - ففروا إلى الله وتحقق فيهم قوله تعالى - وإذا اعتزلتموه وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته - وإليه الإشارة بقوله - إني ذاهب إلى رب سيدين - وهذه منتهى درجات الصديقين والوصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والواظبة عليها دهرًا طويلاً فلا ينبغي أن ينتر المرید بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويقت

(١) حديث إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها الحديث تقدم في العلم .

الاخلاص ماهو قال
سألت الحسن عن
الاخلاص ماهو قال
سألت حذيفة عن
الاخلاص ماهو قال
سألت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن
الاخلاص ماهو قال
« سألت جبرائيل عن
الاخلاص ماهو قال
سألت رب العزة عن
الاخلاص ماهو قال
هو سر من سرى
استودعته قلب من
أحببت من عبادي »
فاللامية لهم مزيد
اختصاص بالتمسك
بالاخلاص يرون كتم
الأحوال والأعمال
ويتلذذون بكنهم حتى
لو ظهرت أعمالهم
وأحوالهم لأحد
استوحشوا من ذلك
كما يستوحش العاصي
من ظهور معصيته
فاللماق عظم وقع
الاخلاص وموضعه
وتمسك به معتدا به
والصوفي قاب في

عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهيجس في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية ولا تزعمه هواجم الأهوال ولا تستفزه عظام الأشفال وآتي تزيق هذه الرتبة لكل أحد فيتعين على الكفاة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى - قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا - فكلهم مهتدون وبضهم أهدى من بض وفي الخبر « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة (١) » وقال بض العلماء الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقا بعد الرسل فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله فإذا الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب - أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب - وإنما يتفاوتون في درجات القرب في أصله وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به وأعرفهم به لا بد وأن يكون أعبدهم له فمن عرفه لم يبد غيره . والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس للداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة وأحاديث الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر في المجموع فإذا لم يقب العمل الواحد آثرا محسوسا ولم يردف ثبات وثالث على القرب انعمى الأثر الأول وكان كالتقية يريد أن يكون قبه النفس فإنه لا يصير قبه النفس إلا بتكرار كثير فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهرا أو أسبوعا ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه ولو وزع ذلك القدر على الليالي للتواصله لأثر فيه ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل (٢) » . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبتته (٣) . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقتته الله (٤) » وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تدارك لما فاتته من ركعتين شغله عنهما الوقت ثم لم يزل بعد ذلك يصلهما بعد العصر ولكن في منزله لا في المسجد كيلا يقتدى به (٥) روته عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما . فإن قلت فهل لغيره أن يقتدى به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن للمعان الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التشبه ببسطة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذرا من اللال لا يتحقق في حقه فلا يقاس عليه في ذلك غيره ويشهد لذلك فعله في التزل حتى لا يقتدى به صلى الله عليه وسلم .

(١) حديث الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة ابن شاهين واللالسكافي في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية للثيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهم دخل الجنة وقال الطبراني والبيهقي ثلاثمائة وثلاثون وفي إسناده جهالة (٢) حديث أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبتته رواه (٤) حديث من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقتته الله وهو موقوف على عائشة (٥) حديث شغله الوقت عن ركعتين فصلها بعد العصر ثم لم يزل يصلها بعد العصر في منزله متفق عليه من حديث أم سلمة أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر ولهما من حديث عائشة ما تركهما حتى لقي الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلهما ولا يصلهما في المسجد مخافة أن يقتل على أمته ، والله للوافق للصواب .

إخلاصه عن إخلاصه .
قال أبو يعقوب
السوسي متى شهدوا
في إخلاصهم الإخلاص
احتاج إخلاصهم إلى
إخلاص وقال ذو النون
ثلاث من علامات
الإخلاص استواء القلب
واللذخ من العامة
ونسيان رؤية الأعمال
في الأعمال وترك
اقتضاء ثواب العمل في
الآخره أخبرنا أبو زرعة
إجازة قال أنا أبو بكر
أحمد بن علي بن خلف
إجازة قال أنا أبو
عبد الرحمن قال سمعت
أبا عثمان الغري يقول:
الإخلاص مالا يكون
للنفس فيه حظ بحال
وهذا إخلاص العوام
وإخلاص الخواص
ما يجري عليهم لا بهم
فتبدو منهم الطاعات
وهم عنها بمنزلة ولا يقع
لهم عليها رؤية ولا بها
اعتداد فذلك إخلاص

(الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها
وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل)
(فضيلة إحياء ما بين العشاءين)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها « إن أفضل الصلوات عند الله صلاة
للقرب لم يعطها عن مسافر ولا عن مقيم فتعبد بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى
بعدها ركعتين بنى الله له قصرين في الجنة (١) » . قال الراوي لأدري من ذهب أوفضة « ومن صلى
بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة » وروت أم سلمة وأبو هريرة
رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة
سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر (٢) » وعن سعيد بن جبير عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يشككم إلا بصلاة أو قرآن كان
حقا على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغفر له بينهما غراما
لوطافه أهل الدنيا لو سمعهم (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء
بنى الله له قصرا في الجنة فقال عمر رضي الله عنه إذا تكبر قصورنا يا رسول الله فقال الله أكثر وأفضل
أوقال أطيّب (٤) » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى المغرب في
جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يشككم شيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة
الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن
الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم ركع
ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله - أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون - وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله قل ما في السموات وما في
الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة (٥) » وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج
عن الحصر . وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال قلت للخضر عليه السلام علمني شيئا أعمله في كل ليلة

(الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام الليل)

(١) حديث عائشة إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يعطها عن مسافر ولا عن مقيم الحديث
رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصغار في كتاب الصلاة رواه الطبراني في الأوسط مختصرا وإسناده
ضعيف (٢) حديث أم سلمة عن أبي هريرة من صلى ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة
أو كأنه صلى ليلة القدر ت ه بلفظ اثنتي عشرة سنة وضعفت وأما قوله كأنه صلى ليلة القدر فهو من
قول كعب الأحبار كما روله أبو الوليد الصغار ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن
عباس من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحدا وضعت له في عليين وكان كمن أدرك
ليلة القدر في المسجد الأقصى وسنده ضعيف (٣) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان من عكف نفسه
ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يشككم إلا بصلاة أو قرآن كان حقاً على الله أن يبنى له قصرين
في الجنة لم أجده أصلاً من هذا الوجه وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر (٤) حديث من ركع
عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى له قصرا في الجنة فقال عمر إذا تكبر قصورنا يا رسول الله الحديث
ابن المبارك في الزهد من حديث عبد الكريم بن الحرث مرسل (٥) حديث أنس من صلى المغرب
في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يشككم شيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة
الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهم إله واحد الحديث أبو الشيخ
في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف

الخواص وهذا الذي
فصله الشيخ أبو عثمان
للغربي يفرق بين
الصوفي والملاحق لأن
للملاحق أخرج الخلق
عن عمله وحاله ولكن
أثبت نفسه فهو مخلص
والصوفي أخرج نفسه
عن عمله وحاله كما
أخرج غيره فهو مخلص
وشتان ما بين المخلص
الحال والمخلص قال
أبو بكر الزقاق نقصان
كل مخلص في إخلاصه
رؤية إخلاصه فإذا
أراد الله أن يخلص
إخلاصه أسقط عن
إخلاصه رؤيته
لإخلاصه فيكون مخلصا
لا مخلصا قال أبو سعيد
الحراز رياء العارفين
أفضل من إخلاص
الريدين ومعنى قوله
إن إخلاص للريدين
معطول برؤية الإخلاص
والعارف منزّه عن
الرياء الذي يطل

قال إذا صليت المغرب قم إلى وقت صلاة العشاء مصلياً من غير أن تسلم أحداً وأقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين وأقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثاً فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تسلم أحداً وصل ركعتين وأقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ثم ارفع رأسك من السجود واستوجالساً وارفع يديك وقل يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يا رب يا رب يا الله يا الله يا الله ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء ثم قم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم فقلت له أحب أن تملن عن ممعت هذا فقال إني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوصى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بمحض مني فملته من علمه إياه (١) وقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من دأوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل أن يخرج من الدنيا وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه وعلى الجملة ما ورد في فضل إحياء ما بين العشاءين كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان رسول الله ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة قال ما بين المغرب والعشاء (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين (٣) » وقال الأود ما أتيت ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيت يصلي فسألته فقال نعم هي ساعة الغلبة وكان أنس رضي الله عنه يواظب عليها ويقول هي ناشئة الليل ويقول فيها زل قوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - وقال أحمد بن أبي الخوارى قلت لأبي سليمان الداراني أصوم النهار وأتصلى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالهار وأحي ما بينهما فقال اجمع بينهما فقلت إن لم يتيسر قال أفطر وصل ما بينهما

(فضيلة قيام الليل)

أما من الآيات قوله تعالى - إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل - الآية وقوله تعالى - إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً - وقوله سبحانه وتعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - وقوله تعالى - أمن هو قانت آناء الليل - الآية وقوله عز وجل - والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً - وقوله تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - قيل هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس - ومن الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فان استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فان توضأ انحلت عقدة فان صلى انحلت عقدة فأصبح شيطايب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان (٤) » .

(١) حديث كرز بن وبرة أن الحضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه أن كرزاً سأله الحضر عن ممعت هذا قال إني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء الحديث وهذا باطل لأصله (٢) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة قال ما بين المغرب والعشاء رواه أحمد وفيه رجل لم يسم (٣) حديث من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين تقدم في الصلاة (٤) حديث يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

العمل ولكن الله يظهر
حيثما من حاله وعمله يعلم
كامل عنده فيه لجذب
مريد أو معاناة خلق
من أخلاق النفس في
إظهار الحال والعمل
وللعارفين في ذلك علم
دقيق لا يعرفه غيرهم
فيرى ذلك ناقص العلم
صورة رياء وليس رياء
إنما هو صريح العلم لله
بالله من غير حضور
نفس ووجود آفة
فيه . قال روم :

الإخلاص أن لا يرضى
صاحبه عليه عوضاً في
الدارين ولا حظاً من
اللكين . وقال
بعضهم صدق الإخلاص
نسيان رؤية الخلق
بدوام النظر إلى الحق
واللامتنى يرى الخلق
فيخفى عمله وحاله وكل
ما ذكرناه من قبل
وصف إخلاص الصوفى
ولهذا قال الزقاق لابد
لكل مخلص من رؤية

وفي الخبر « أنه ذكر عنده رجل بنام كل الليل حتى أصبح فقال ذلك رجل بال الشيطان في أذنه (١) » وفي الخبر « إن للشيطان سعوطا ولموقا وذرورا فإذا أسعط العبد ساء خلقه وإذا ألغقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى أصبح (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرمتها عليهم (٣) » وفي الصحيح عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه » وفي رواية « يسأل الله تعالى خيرا من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة » وقال الغيرة بن شعبة قام رسول الله ﷺ حتى غطرت قدماه فقيل له أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا (٤) ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب الزيد قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم فإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب ومطرقة للداء عن الجسد ومنهارة عن الإثم (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فقلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « لأبذر لو أردت سفرا أعددت له عدة قال نعم قال فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبتك يا أباذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بآي أنت وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لو حشة القبور ورجع حجة لمظالم الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها (٨) »

(١) حديث ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال ذلك بال الشيطان في أذنه متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث إن للشيطان سعوطا ولموقا وذرورا الحديث طبع من حديث أنس إن للشيطان لموقا وكلا فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كله من كله نامت عيناه عن الذكر ورواه البراء من حديث حمزة بن جندب وسندهما ضعيف (٣) حديث ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرمتها عليهم - آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلًا ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح (٤) حديث الغيرة بن شعبة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غطرت قدماه الحديث متفق عليه (٥) حديث يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا باطل لأصله (٦) حديث عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم الحديث ت من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه طبع وهو من حديث أبي أمامة بسند حسن وقالت إنه أصح (٧) حديث ما من امرئ يكون له صلاة بالليل ينقله عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه د ن من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم صاه ن في رواية الأسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي قال ن ليس بالقوي ورواه ن ه من حديث أبي الهرداء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله (٨) حديث إنه قال لأبذر لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبتك يا أباذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بآي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لو حشة القبور الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد من رواية السري بن محمد مرسلًا والسري ضعه الأزدى.

إخلاصه وهو قصان
عن كمال الإخلاص
والإخلاص هو الذي
يتولى الله حفظ صاحبه
حتى يأتي به على التمام.
قال جعفر الحلي سألت
أبا القاسم الجليد رحمه
الله قلت أئين الإخلاص
والصدق فرق؟ قال نعم
الصدق أصل وهو الأول
والإخلاص فرع وهو
تابع وقال بينهما فرق
لأن الإخلاص لا يكون
إلا بعد الدخول في
العمل ثم قال إنما هو
إخلاص ومخالصة
الإخلاص ومخالصة
كائنة في المخالصة فعل
هذا الإخلاص حال
اللامق ومخالصة
الإخلاص حال الصوفي
والمخالصة الكائنة من
المخالصة ثمرة مخالصة
الإخلاص وهو غناء
العبد عن رسومه
برؤية قيامه بقيومه
بل غيخته عن رؤية

وروي « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول يا رب النار أجرني منها فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا كان ذلك فأذنوني فأتاه فاستمع فلما أصبح قال يا فلان هلا سألت الله الجنة قال يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك فلم يابث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة^(١) » وروي « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل^(٢) » قال نافع كان يصلي بالليل ثم يقول يا نافع أسحرنا فأقول لا يقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا فأقول ثم فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال علي بن أبي طالب شيع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خير شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أوجدت دارا خيرا لك من دارى أم وجدت جوارا خيرا لك من حوارى فوعزنى وجلالى يا يحيى لو اطلعت إلى الفردس اطلاعة لداب شححك ولزهرت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لداب شححك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلود بعد المسوح . « وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال سينهاه ما يعمل^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فان أبت نضج في وجهها الماء^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأة قامت من الليل فصارت ثم أيقظت زوجها فصلى فان أبت نضجت في وجهه الماء » وقال صلى الله عليه وسلم « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الدارين الله كثيرا والداكرات^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل^(٦) » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حربه أو عن شئ منه بالليل قرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأما قرأه من الليل^(٧) » . الآثار روى أن عمر رضى الله عنه كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد للريض وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى التحل حتى يصبح ، ويقال إن سفيان الثوري رحمه الله شيع ليلة فقال إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله قام تلك الليلة حتى أصبح وكان طائوس رحمه الله إذا انطجع على فراشه تنقل عليه كما تنقل الحبة على القلاة ثم يثب ويصلي إلى الصباح ثم يقول طير ذكر جهنم نوم العابدين ، وقال الحسن رحمه الله ما نعلم عملا أشد من مكابدة الليل وثقة هذا المال قليل له ما بال المهجدين من أحسن الناس وجوها قال لأنهم خلوا بالرحن فألبسهم نورا من نوره وقدم بعض الصالحين من سفره فهد له فراش فنام عليه

(١) حديث أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول يا رب النار أجرني منها فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا كان ذلك فأذنوني الحديث لم أقف له على أصل (٢) حديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وليس فيه ذكر لجبريل (٣) حديث قيل له إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما يقول ، ابن حبان من حديث أبي هريرة (٤) حديث رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت الحديث دح من حديث أبي هريرة (٥) حديث من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الدارين الله كثيرا والداكرات د ن من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح (٦) حديث أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل م من حديث أبي هريرة (٧) حديث عمر من نام عن حربه أو عن شئ منه قرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأما قرأه من الليل رواه م .

قيامه وهو الاستغراق في العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستئثار وهو قد حال الصوفي واللامق مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه وهذا فرق واضح بين اللامق والصوفي ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم وقد رأينا في العراق من يسلك هذا السلك ولكن لم يشهر بهذا الاسم وقلنا يتداول السنة أهل العراق هذا الاسم . حكى أن بعض اللامية استدعى إلى مماع فامتنع فقيل له في ذلك فقال لأني إن حضرت يظهر على وجد ولا أوتر أن يعلم أحد حالى . وقيل إن أحمد بن أبي الحواري

حق فانه ورده نحلّف أن لا نيام بعدها على فراش أبدا وكان عبد العزيز بن أبي رواد إذا جنّ عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول إنك لين وواثق إن في الجنة لألين منك ولا يزال يصلي الليل كله وقال الفضيل إنى لأستقبل الليل من أوله فيروني طوله فأفتح القرآن فأصبح وما قضيت نهقي وقال الحسن إن الرجل ليدنّب الذنب فيحرم به قيام الليل وقال الفضيل إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلي الليل كله فإذا كان في السحر قال إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ولكن أجرني برحمتك من النار وقال رجل لبعض الحكماء إنى لأضعف عن قيام الليل فقال له يا أخى لا تمنس الله تعالى بالنهار ولا تنم بالليل وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت يا أهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا أصبحنا أطلع الفجر فقالت وما تصلون إلا للكتابة قالوا نعم فرجعت إلى الحسن فقالت يا مولاي بنتي من قوم لا يصلون إلا للكتابة ردني فردها وقال الربيع بن خثيم في منزل الشافعي رضي الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا وقال أبو الجوزية لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض وكان أبو حنيفة يعمي نصف الليل ثم يقوم فقالوا إن هذا يعمي الليل كله فقال إنى أستحي أن أوصف بما لا أهل فكان بعد ذلك يعمي الليل كله ويروى أنه ما كان له فراش بالليل ويقال إن مالك بن دينار رضي الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح - أم حسب الدين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالدّين آمنوا وعملوا الصالحات - الآية . وقال الفيرة بن حبيب رمت مالك بن دينار قوساً بعد المشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فغفغته العبرة فجعل يقول اللهم حرم شيعة مالك على النار إلهي قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأرى الرجلين مالك وأبي الدارين دار مالك فلم يزل ذلك قوله طلع الفجر وقال مالك بن دينار سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي آعمن ثمراً قلت نعم فدفعت إليّ الرقعة فإذا فيها :

أأهنتك اللذائد والأمانى عن البيض الأوانس في الجنان
تميش محمداً لاموت فيها وتلهو في الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيرا من النوم التهجد بالقرآن

وقيل حج مسروق لما بات ليلة إلا ساجداً ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا قلت لها من أنت قالت حوراء قلت زوجيني نفسك فقالت اخطبني إلى سيدى وأمهرني قلت وما مهرك قالت طول التهجد . وقال يوسف بن مهران بلغني أن تحت العرش ملكاً في صورة ديك برائه من لؤلؤ وصنعه من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقيم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقيم المجتهدون فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقيم الصالحون فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقيم العافلون وعليهم أوزارهم وقيل إن وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إليّ من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم وكانت له مسورة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرج إلى الصلاة وقال بعضهم رأيت رب العزة في النوم فسمعت يقول وعزّي وجلالي لا أكرم من مثوى سليمان التيمي فانه صلى لي العداة بوضوء المشاء أربعين سنة ويقال كان منهبه

قال لأبي سليمان
الداراني إنى إذا كنت
في الخلوة أجدها ملقى
لقة لا أجدها بين
الناس قال له إنك
إذا لضعيف فالملقى
وإن كان متمسكا
بمروة الإخلاص
مستغنياً بباط الصدق
ولكن بقي عليه بقية
رؤية الخلق وما أحسنها
من بقية تحقق
الإخلاص والصدق
والصوفي صفا من هذه
البقية في طرق العمل
والترك للخلق وعزلهم
بالكلية ورأهم بين
القناء والزوال ولاح
له ناصية التوحيد
وعاين سر قوله - كل
شيء هالك إلا وجهه -
كما قال بعضهم في بعض
غلبته ليس في الدارين
غير الله وقد يكون
إخفاء للواقع الحال على
وجهين أحد الوجهين
لتحقيق الإخلاص

أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال إن عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي لا ينتظر بقيامه صباح الديكة .

(بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل)

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق لقيامه بشروطه اليسرة له ظاهره وباطنه . فأما الظاهرة فأربعة أمور . الأول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام كان بعض الشيوخ يقف على اللاندة كل ليلة ويقول معاشر الريدن لاتأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتعسروا عنداوت كثيراً وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام . الثاني أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم . الثالث : أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سبب للاستعانة على قيام الليل (١) . الرابع : أن لا يحتجب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقضى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن بأباسيد إنى آيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فإبالي لأقوم فقال ذنوبك قيدتك وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لعلهم ولتوهم يقول أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فأنهم لا يقبلون وقال الثوري حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل وما ذاك الذنب قال رأيت رجلا يبكي قلت في شئ هذا مرأه وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبره وهو يبكي قلت أذاك نبي بعض أهلك فقال أشد قلت وجع يؤلمك قال أشد قلت فإذاك قال باني مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير ولذلك قال أبو سليمان الداراني لا تنفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجناية بعد وقال بعض العلماء إذا صمت بامسكين فانظر عند من تظفر وعلى أى شئ تظفر فإن العبد ليا كل أكلة فيقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حاله الأولى فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر القسمة الحال في تصفية القلب وتطهيره إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل الرقابة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له ولذلك قال بعضهم كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وإن العبد ليا كل أكلة أو يضل فعلة فيحرم بها قيام سنة وكان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الحيرات وقال بعض السجانيين كنت سجاناً نيفاً وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة فكانوا يقولون لا وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر .

(وأما اليسرات الباطنة فأربعة أمور)

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق بهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يحول إلا في وسأوسه وفي مثل ذلك يقال :

يخبرني البواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فتائم

الثاني : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاوس إن ذكر جهنم طبر نوم العابدين وكما حكى أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدة إن قيامك بالليل يضر بعلمك بالنهار فقال إن صيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقيل لعلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال إذا ذكرت النار اشتد خوفاً وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقاً فلا أقدر أن أنام ، وقال ذو النون المصري رحمه الله :

(١) حديث الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل هـ من حديث ابن عباس وقد تقدم .

والصديق والوجه الآخر وهو الأثم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة فإن من خلا بمحبوه يكره اطلاع الغير عليه بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوه وهذا وإن علا في طريق الصوفى علة وتقص فعل هذا يتقدم للامتنع على التصوف ويتأخر عن الصوفى وقيل إن من أصول السلامة أن

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بلبها أن تهجما
فهموا عن لك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضا
وأشددوا أيضا :

يا طول الرقاد والنفلات كثرة النوم تورث الحشرات
إن في القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعد للمات
ومهادا مهادا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أمنت اليات من ملك للو ت وكم نال آمنة ييات
وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كأبدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الحوف نومهم قماموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاء وشوقه إلى ثوابه
فيهجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته
فهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح فقالت له زوجته كنا
نتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح قال والله إنى كنت أنفكر في حوراء من حور الجنة طول
الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقامت طول ليلتي شوقا إليها . الرابع وهو أشرف البواعث الحب لله
وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه
وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه فإذا أحب الله تعالى أحب لأحالة الخلوة به وتلقذ بالمناجاة
فتحملة لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام ولا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل فأما
العقل فاعتبر حال الحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته
حتى لا يأتية النوم طول ليله . فان قلت : إن الجليل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى . فاعلم أنه لو كان
الجليل المحبوب وراء سترا وكان في بيت مظلم لكان الحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع
في أمر آخر سواء وكان ينتم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه يسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده .
فان قلت : إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى . فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يحينه
ويستكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريره إليه كيف والوقن يسمع من
الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في
جنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه والرجاء في حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما
عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات . وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل في
تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر الحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم كيف أنت
والليل قال ما راعيت قط برين وجهه ثم يتصرف وما تأملته بعد . وقال آخر أنا والليل فرسا رهان
مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر . وقيل لبعضهم كيف الليل عليك فقال ساعة أنا فيها بين
حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ماتم فرحى به قط . وقال طي بن بكار منذ أربعين
سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر وقال الفضيل بن عياض إذا غربت الشمس فرحت بالظلام
لخلوتي برين وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على وقال أبو سليمان أهل الليل في ليلهم الله من أهل الله
في لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وقال أيضا لوعرض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم

الذكر على أربعة أقسام
ذكر باللسان وذكر
بالقلب وذكر بالسر
وذكر بالروح فإذا صبح
ذكر الروح سكنت السر
والقلب واللسان عن
الذكر وذلك ذكر
الشاهدة وإذا صبح
ذكر السر سكنت القلب
واللسان عن الذكر
وذلك ذكر الهية وإذا
صبح ذكر القلب قر
اللسان عن الذكر
وذلك ذكر الآلاء
والنعماء وإذا غفل

ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم وقال بعض العلماء ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التماق في قلوبهم بالليل من حلاوة النجاة وقال بعضهم لذة النجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم . وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة ، وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتقطين فيملؤها أنواراً فتد الفوائد على قلوبهم فتستبصر ثم تنتشر من قلوبهم الدوافع إلى قلوب الغافلين ، وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عباداً من عبادي أحبه ويحبوني ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكروهم وينظرون إليّ وأنظر إليهم فإن حدوث طريقهم أحبتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وماعلامهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويمجنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلل كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقفروا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وعلقوا إلى يانماي فبين صارخ وباكي ، وبين متأوه وشاكي ، بيني ما يتحملون من أجل وبسعي ما يشككون من حي أول ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقلتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أعلم أحد ما أريد أن أعطيه ، وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتجهد من الليل قرب منه الجبار عز وجل وكانوا يرون لا يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتعميق ستأتي الإشارة إليه في كتاب المحبة ، وفي الأخبار عن الله عز وجل « أي عبدي أنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري » وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه يا بني إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب التيقظة وتخطي القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات فقال يا سيدي تركتني لأنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه ^(١) » وفي رواية أخرى « يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » وذلك كل ليلة ومطلوب القارئ تلك الساعة وهي مهمة في جملة الليل كلية القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل : اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب . الأولى : إحياء كل الليل وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا للنوم إلى النهار في وقت اشتغال الناس وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكي أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واطب عليه أربعين سنة قال منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان وفصيل بن عياض ووهيب بن الورد السكيات وطاوس ووهب بن منبه الجباليان والريبع بن خيثم والحكم الكوفيان وأبوسليمان الدبراني وعلي بن بكار الشاميان وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العبادي وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماي القارسيان

(١) حديث جابر : إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة ، رواه م .

القلب عن الله كرا قبل
اللسان على الله كرو ذلك
ذكر العادة وليس كل
واحد من هذه الأذكار
عندهم آفة فآفة ذكر
الروح اطلاع السري على
وآفة ذكر السري اطلاع
القلب عليه وآفة ذكر
القلب اطلاع النفس
عليه وآفة ذكر النفس
رؤية ذلك وتعتيمه
أو طلب ثوابه أو ظن أنه
يصل إلى شيء من
اللقامات وأقل الناس
قيمة عندهم من يريد

ومالك بن دينار وسليمان التيمي وي زيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويعني البكاء البصريون وكهيس بن النبال وكان يهتم في الشهر تسمين خنمة ومالم يفهمه رجع وقرأ مرة أخرى وأيضاً من أهل المدينة أبو حازم ومحمد بن النكدر في جماعة يكثر عددهم . المرتبة الثانية : أن يقوم نصف الليل وهذا لا يتحصر عدد الواظنين عليه من السلف وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل . للمرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب الناس بالعداء وكانوا يكرهون ذلك ويقلل صفة الوجه والشهرة به فلو قام أكثر الليل ونام سحراً قلت صفة وجهه وقل نكاحه ، وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة (١) » وقالت أيضاً رضي الله عنها « ما ألفتني بعد السحر إلا نائماً (٢) » حتى قال بعض السلف هذه الضجة قبل الصبح سنة منهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان نوم هذا الوقت سبباً للمكاشفة والملاحظة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ، ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم . المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسة وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه . المرتبة الخامسة : أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إما يتيسر لنبي يوحى إليه أول من يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويؤظفه ثم ربما يضطرب في ليالي التيم ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يخلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدات الليل وأشد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضي الله عنهم وكان بعض السلف يقول هي أول نومة فإذا انتهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عينا فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان

إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك وسر هذا الأصل الذي بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات وذكر النفس متعرض للعلات فمضى قولهم اطلاع السر على الروح يشيرون إلى التحقق بالقضاء عند ذكر الصفات والذات وذكر الحية

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة م من حديث عائشة كان ينام أول الليل ويعني آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام وقال النسائي فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة ألم بأهله ، ولأبي داود كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أبغضني وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصل ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة وهو متفق عليه بافظ : كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة ، وقال م إذا صلى ركعتي الفجر (٢) حديث عائشة ما ألفتني السحر الأعلى إلا نائماً متفق عليه بافظ ما ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى في بيتي أو عندى إلا نائماً لم يقلخ الأعلى وقال ه ما كنت ألقى أبا النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عندي (٣) حديث قيامه أول الليل إلى أن يخلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان دت ومصححه وه من حديث أم سلمة كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح ، وللبخاري من حديث ابن عباس صلى الله عليه وسلم ثم جاء فصل أربع ركعات ثم نام ثم قام وفيه فصل خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى مضى غطيته الحديث .

يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثه أو سدسه (١) يختلف ذلك في اليالي ودلّ عليه قوله تعالى في
للموضعين من سورة الزمل - إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه - فأدنى
من ثلثي الليل كأنه نصفه ونصف سدسه فإن كسر قوله ونصفه وثلثه كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب
من الثلث والرابع وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضي الله عنها كان صلى الله عليه وسلم
يقوم إذا سمع الصارخ (٢) يعني الديك وهذا يكون السدس فما دونه وروى غير واحد أنه قال راعيت
صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق
فقال : ربنا ما خلقت هذا باطلاً حتى بلغ إنك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواً كافاستاك به
وتوضاً وصلى حتى قلت صلى مثل الذي نام ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى ثم استيقظ فقال
ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة (٣) . الرتبة السادسة : وهي الأقل أن يقوم مقدار أربع
ركعات أو ركعتين أو تعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء
فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله وقد جاء في الأثر صلّ من الليل ولو قدر حلب شاة (٤)
فهذه طرق القسمة فليختار المرید لنفسه ما يراه أيسر عليه وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل
فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر
فلا يدركه الصبح نائماً ويقوم بطرفي الليل وهذه هي الرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار
فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره . وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيما إلى
القدر فليس يجرى أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه
في السادسة ولا الخامسة دون الرابعة .

(بيان اليالي والأيام الفاضلة)

اعلم أن اليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الأحياء في السنة خمس عشرة ليلة

(١) حديث ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثه أو سدسه ، الشيخان من حديث ابن عباس
قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ الحديث
وفي رواية للبخاري فلما كان ثلث الليل الآخر قد فنظر إلى السماء الحديث ولأن داود قام حتى إذا
ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ الحديث لمسلم من حديث عائشة فيبعثه الله بما شاء أن يبعثه من الليل .
(٢) حديث عائشة كان يقوم إذا سمع الصارخ متفق عليه (٣) حديث غير واحد قال راعيت صلاة
رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال ربنا
ما خلقت هذا باطلاً سبحانك حتى بلغ إنك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواً كافاستاك وتوضاً
وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام الحديث ن من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلاً من
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال قلت وأنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرغبين
رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث في كتاب الصلاة من رواية
اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أن رجلاً قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث
وفيه أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل وهذا يدل أنه أيضاً كان في سفر (٤) حديث صلّ من الليل
ولو قدر حلب شاة أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعاً نصفه ثلثه ربعه فوافق حلب
ناقة فوافق حلب شاة ولأن الوليد بن مغيث من رواية إياس بن معاوية مرسل لا بد من صلاة الليل
ولو حلب ناقة أو حلب شاة .

في ذلك الوقت ذكر
الصفات مشعر بنصيب
الهيبة وهو وجود
الهيبة ووجود الهيبة
يستدعي وجوده وبقية
وذلك يناقض حال
الفناء وهكذا ذكر
السر وجوده هيبة وهو
ذكر الصفات مشعر
بنصيب القرب وذكر
القلب الذي هو ذكر
الآلاء والنعماء مشعر
بعدمه لأنه اشتغال
بذكر النعمة وذهول
عن النعم والاشتغال

لا ينبغي أن يغفل للريد عنها فاتها مواسم الحيرات ومظان التجارات ومق غفل التاجر عن المواسم لم يرجع ومق غفل الريد عن فضائل الأوقات لم ينجح فستة من هذه الليالي في شهر رمضان: خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها تطلب ليلة القدر وليلة سبع عشرة من رمضان فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فيه كانت وقعة بدر وقال ابن الزبير رحمه الله هي ليلة القدر . وأما التسع الأخر فأول ليلة من المحرم وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال صلى الله عليه وسلم «للعامل من هذه الليلة حسنة مائة سنة» (١) فمن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دينه وآخرته ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية ، وليلة النصف من شعبان ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الاخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة التطوع وليلة عرفة وليلة العيدين قال صلى الله عليه وسلم «من أحيا ليلتي العيدين لم يميت قلبه يوم تموت القلوب» (٢) . وأما الأيام الفاضلة فثلاثة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم وروى أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا » (٣) وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويوم سبعة عشر من رمضان وهو يوم وقعة بدر ويوم النصف من شعبان ويوم الجمعة ويوما العيدين . والأيام المعلومات وهي عشر من ذي الحجة والأيام المدودات وهي أيام التشريق وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » (٤) وقال بعض العلماء من أخذ مهنة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهنة في الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء . ومن فواصل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والاثنتين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبيد مصطفى من كل العالمين .

(١) حديث الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب ذكر أبو موسى اللدني في كتاب فضائل الأيام والليالي أن أبا محمد الجباري رواه من طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعا ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكرو (٢) حديث من أحيا ليلتي العيدين لم يميت قلبه يوم تموت القلوب ه باسناد ضعيف من حديث أبي أمامة (٣) حديث أبي هريرة من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم رواه أبو موسى اللدني في كتاب فضائل الليالي والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه (٤) حديث أنس إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بمجملته ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

(تم الجزء الأول من : كتاب إحياء علوم الدين ، ويتلوه : الجزء الثاني)

برؤية العطاء عن
رؤية للمطى ضرب
من بعد للزلة
واطلاع النفس نظرا
إلى الأعواض اعتداد
بوجود العمل وذلك
عين الاعتدال حقيقة
وهذه أقسام هذه
الطائفة وبعضها أهل
من بعض ، والله أعلم .

إحياء علوم الدين

للإمام الفخري

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء
بمقدم

الدكتور بدوي طه

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل عزمي (المقدمي)

From the Library of
Muhammad T. Ezien

المجلد الثاني

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سمارا

« إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب آداب الأكل)

(وهو الأول من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين)

الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات ، غلق الأرض والسموات ، وأنزل السماء الفرات من المصبرات ، فأخرج به الحب والنبات ، وقدر الأرزاق والأقوات ، وحفظ بالمأكولات قنوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بمكمل الطيبات ، والصلاة على محمد وآله المعجزات الباهرات ، وعلى آله وأصحابه صلاة تتوالى على ممر الأوقات ، وتتضاعف بتعاقب الساعات ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فان مقصد ذوى الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب ، ولا طريق إلى الوصول لقاء الله إلا بالعلم والعمل ، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات ، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرار الأوقات ، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين إن الأكل من الدين ، وعليه نهى رب العالمين ، بقوله وهو أصدق القائلين - كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً - فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى ، فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى ، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في الرعى ، فان ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ، ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمها ، ويلجئ التقي بإجماعها ، حتى يترن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مدفعة للوزر ، ومجلبة للأجر ، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس . قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليؤجر حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته ^(١) » وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدن مراعاة في آدابه ووظائفه ، وهانئ نرشد إلى وظائف الدين في الأكل فرائضها وسننها وآدابها ومرواياتها وهيئاتها في أربعة أبواب . وفصل في آخرها . الباب الأول : فيما لا بد للأكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل . الباب الثاني : فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل . الباب الثالث : فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين . الباب الرابع : فيما يخص الدعوة والضيافة وأشباهاها .

(كتاب آداب الأكل)

(١) حديث إن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته من حديث سعد بن أبي وقاص وإنك معها أنفقت من ثقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك .

بسم الله

حوارف المعارف

للسهروردي

[الباب التاسع في ذكر من اتقى إلى الصوفية وليس منهم] فمن أولئك قوم يسون نفوسهم قلندرية تارة وملازمة أخرى وقد ذكرنا حال الملازمة وأنه حال شريف ومقام عزيز وتعمك بالنسب والآثار وتحقق بالإخلاص والصدق وليس مما يزعم للفتونون بشيء فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرحوا التقيد بالمعاشات والمخالطات وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم هلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض

الباب الأول : فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام قسم قبل الأكل وقسم مع الأكل وقسم بعد الفراغ منه
(القسم الأول في الآداب التي تقدم على الأكل وهي سبعة)

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا للسنة والورع لم يكتب
بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم هوى ومداينة في دين على ماسياتي في معنى الطيب المطلق في كتاب
الحلال والحرام وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهي عن الأكل على الباطل القتل
تفخيا لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم
بالباطل - إلى قوله - ولا تقتلوا أنفسكم - الآية فالأصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين
الثاني : غسل اليد ، قال صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم ^(١) »
وفي رواية « ينفي الفقر قبل الطعام وبعده » ولأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب
إلى النظافة والتزامة ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري
منه مجرى الطهارة من الصلاة . الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو
أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا أتى بطعام وضعه على الأرض ^(٢) فهذا أقرب إلى التواضع فإن لم يكن فعل السفرة فإنها تذكر
السفر وتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته إلى زاد التقوى وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل
رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ^(٣) » . قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون قال
على السفرة وقيل أربع أحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائد والناخل والأشنان
والشبع . واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه
نهي كراهة أو تحريم إذ لم يثبت فيه نهى وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس
كل ما أبدع منهي بل النهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته بل الإبداع قد يجب
في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال
ذلك مما لا كراهة فيه والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من
النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يتبادر
عندهم أولا لتيسر أو كانوا مشغولين بأمور أهم من المباغة في النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضا
وكانت مناديلهم أخص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل مستحبا وأما النخل فالمقصود منه تطيب الطعام
وذلك مباح ما لم ينته إلى التعمم المفرط وأما المائدة فتيسر للأكل وهو أيضا مباح ما لم ينته إلى الكبر
والتعظيم وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهيج الشهوات وتحريك الأدوية في البدن
فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات . الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستدعيها كذلك

(الباب الأول)

(١) حديث الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده مما ينفي اللمم وفي رواية ينفي الفقر قبل الطعام وبعده
القضاعي في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آياته متصلا باللفظ الأول وللطبراني في الأوسط
من حديث ابن عباس الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر ولأبي داود وت من حديث سلمان
بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده وكلها ضعيفة (٢) حديث كان إذا أتى بطعام وضعه على
الأرض أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلًا ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه
وفيه مجاهد وثقه أحمد وضعه الدارقطني (٣) حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم
على خوان ولا في سكرجة الحديث رواه مخ .

ولم يألوا بتناول شيء
من لذات الدنيا من
كل ما كان مباحا
برخصة الشرع وربما
اقتصروا على رطابة
الرخصة ولم يطلبوا
حقائق المزية ومع
ذلك هم متمسكون
بترك الادخار وترك
الجمع والامتكار ولا
يترسمون بمراسم
التقشفين والتزهدين
والتعبدية وقتعوا
بطية قلوبهم مع الله
تعالى واقتصروا على
ذلك وليس عندهم
تطلع إلى طلب مزيد
سوى ما هم عليه من
طية القلوب والفرق
بين اللامق والقنندري
أن اللامق يعمل
في كتم المبادات
والقنندري يعمل
في تخريب العادات
واللامق يتمسك بكل
أبواب البر والخير
ويرى الفضل فيه

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى ^(١) » وكان يقول « لا آكل متكاً ^(٢) » إنما أنا عبد آكل كأيما كل العبد وأجلس كما يجلس العبد ^(٣) » والشرب متكاً مكروه للمعدة أيضاً ويكرهه الأكل قائماً ومتكاً إلا ما ينتقل به من الحبوب وروى عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كمكاً على نرس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله . الخامس : أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعيم بالأكل قال إبراهيم بن شيان منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشهوتي وبزعم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل ما دون الشبع فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإثارة القناعة على الاتساع قال رسول الله ﷺ « ماملأ آدمى وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيات يقمن ضله فان لم يفعل فثلث طعام وثلاث شراب وثلاث للنفس ^(٤) » ومن ضرورة هذه النية أن لا يعتمد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحداً لا بد من تقديمه على الأكل ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب وسبأى فائدة قلعة الأكل وكيفية التدرج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربيع للمهلكات . السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الأدم وقد ورد الأمر بكرايم الخبز ^(٥) فكل ما يديم الرمي ويقوى على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي أن يستحقر بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع قال ﷺ « إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء ^(٦) » وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه ومهما كانت النفس لا تنوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوش أمره فتقدمه أحب عند اتساع الوقت تأقت النفس أولم تنق لمعوم الخبر ولأن القلب لا يغلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالباً . السابع : أن يجتهد في تسخير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه ^(٧) » وقال أنس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى د من حديث عبد الله بن بشر في أثناء حديث أنوا تلك القصعة فالتقوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وله و ن من حديث أنس رأيته يأكل وهو مقع من الجوع وروى أبو الحسن بن المقرئ في الثمائل من حديثه كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كأيما كل العبد وأفضل كما يفعل العبد وإسناده ضعيف (٢) حديث كان يقول لا آكل متكاً خ من حديث أبي جحيفة (٣) حديث إنما أنا عبد آكل كأيما كل العبد وأجلس كما يجلس العبد تقدم قبله من حديث أنس بلفظ وأفضل بدل وأجلس رواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله وأجلس (٤) حديث ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه الحديث ت وقال حسن ن . من حديث المقداد بن معديكرب (٥) حديث أكرموا الخبز البزار والطبراني وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٦) حديث إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء تقدم في الصلاة والمرووف وأقيمت الصلاة (٧) حديث اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه د . من حديث وحشي بن حرب بإسناد حسن .

ولكن يغني الأعمال والأحوال ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته وأمور مسترا الحال لئلا يظن له وهو مع ذلك متطلع إلى طلب للزبد بلذل مجهوده في كل ما يتقرب به المييد والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا ينال بما يعرف من حاله وما لا يعرف ولا ينطفئ إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله والصوفي يضع الأشياء مواضعها ويدير الأوقات والأحوال كلها بالحلم يقيم الخلق مقامه ويقيم أمر الحق مقامهم ويسترا ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر ويأني بالأمور في موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكامل معرفة ورعاية صدق وإخلاص تقوم من للفتونين مما أفتهم ملائمة ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وعامهم من

لأيا كل وحده (١) وقال صلى الله عليه وسلم « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي [١] ».

(القسم الثاني في آداب حالة الأكل)

وهو أن يبدأ بسم الله في أوله وبالحمد لله في آخره ولو قال مع كل لقمة بسم الله فهو حسن حتى لا ينقله الشرع عن ذكر الله تعالى ويقول مع اللقمة الأولى بسم الله ومع الثانية بسم الله الرحمن ومع الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم ويجهز به ليذكر غيره ويأكل باليمين ويبدأ بالملح ويغتم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها ومالم يتلعمها لم يعد اليد إلى الأخرى فإن ذلك هبة في الأكل وأن لا ينغم مأكولا ، كان صلى الله عليه وسلم لا يصيب مأكولا كان إذا أنهجه أكله وإلا تركه (٢) وأن يأكل مما يليه إلا الفاكة فإن له أن يحيل يده فيها قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك (٣) » ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكة قليل له في ذلك فقال ليس هو نوعا واحدا (٤) وأن لا يأكل كل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين (٥) ولا يقطع اللحم أيضا فقد نهى عنه وقال أنهشوه نهشا (٦) ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به قال عليه السلام « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزلهم من ركات السماء [٢] » ولا يمسح يده بالخبز وقال صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليطعم ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمتدبل حتى يلقق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة (٧) » ولا ينفخ في الطعام الحار (٨) فهو منهي عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من التمر وترايسما أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقبها وكذا كل ماله هيم وتخل وأن لا يترك ما استرذله من الطعام وينظر حه في القصعة بل يتركه

(١) حديث أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده رواه الحارثي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف (٢) حديث أنس كان لا يصيب مأكولا إن أنهجه أكله وإلا تركه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث كل مما يليك متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة (٤) حديث كان يدور على الفاكة وقال ليس هو نوعا واحدا . من حديث عكراش بن دؤيب وفيه وجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق فقال يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد قالت غريب ورواه حب في الضعفاء (٥) حديث النهي عن قطع الخبز بالسكين رواه حب في الضعفاء من حديث أبي هريرة وفيه نوح بن أبي مريم وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف (٦) حديث النهي عن قطع اللحم بالسكين د من حديث عائشة وقال أنهشوه نهشا قال ن منكر و ت . من حديث صفوان بن أمية وأنهشوا اللحم نهشا وسنده ضعيف (٧) حديث إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليطعم ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمتدبل حتى يلقق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة م من حديث أنس وجابر (٨) حديث النهي عن النفخ في الطعام والشراب أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود وت صحيحه ابن ماجه إلا أنهم قالوا في الإناء وت صحيحه من حديث أبي سعيد نهى عن النفخ في الشراب .

[١] (قوله وقال صلى الله عليه وسلم خير الطعام الخ) لم يشكلم عليه العراقي لسقوطه من نسخته كالم يذكره الفارح فليتأمل .

[٢] (قوله أكرموا الخبز الخ) لم يخرج العراقي وقد أخرجه الشارح عن الحكيم الترمذي وغيره فانظره .

الصوفية حتى بل دم في غرور وغلط يسترون بلبسة الصوفية توقيتا تارة ودعوى أخرى ويتنهجون مناهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضائرهم خلصت إلى الله تعالى ويقولون هذا هو الظفر بالمراد والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام للنصرين في مضيق الاقتداء تقليدا وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والابساد فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة وجعل هؤلاء الضرورون أن الشريعة حق البودية والحقيقة البودية هي حقيقة البودية ومن صار من أهل الحقيقة تفيد بمضيق البودية وجها مطالبيا بأسور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك لأنه يخلع عن عنقه ربة التكليف ويخامر باطنه التزيغ

مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب في الطب وأنه دباغ المعدة . وأما الشرب : فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول بسم الله ويشربه مصا لا عباً قال صلى الله عليه وسلم « مصوا الماء ولا تعبوه عبا فإن الكباد من العب (١) » ولا يشرب قائماً ولا مضطجماً فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائماً (٢) وروى أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائماً (٣) ولعله كان لعذر ، ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب « الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا (٤) » والكوز وكل ما يدار على القوم بدار يمينه « وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضى الله عنه أعط أبو بكر فناول الأعرابي وقال الأعرابي « لا أئمن » ويشرب في ثلاثة أنفاس بحمد الله في أواخرها ويسمى الله في أوائلها ويقول في آخر النفس الأول الحمد لله وفي الثاني يزيد رب العالمين وفي الثالث يزيد الرحمن الرحيم فهذا قريب من عشرين أدبا في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

(القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام)

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلق أصابعه ثم يمسح بالمدليل ثم يفسلها ويلتقط فتات الطعام قال صلى الله عليه وسلم « من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوف في ولده (٥) » ويتخلل ولا يتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلال فيرميه وليتضمن بعد الخلال فيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام وأن يلحق القصعة ويشرب ماءها ويقال من لحق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة وأن التقاط الفتات مهوور الحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى - كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله - ومهما أكل حلالا قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم أطعنا طيبا واستعملنا صالحا وإن أكل شبة فليقل الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك وبقراء بعد الطعام - قل هو الله أحد - و - لا يلاف قریش - ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولافان أكل طعام الغير فليدع له وليقل اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيرا وبقته بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين وإن أفطر عند قوم فليقل أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبة ليطفي بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها لقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا أبو منصور الديلمي في مسند الفردس من حديث أنس بالشرط الأول ولأبي داود في الراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح إذا شربتم فاشربوا مصا (٢) حديث النهى عن الشرب قائماً من حديث أنس وأبي سعيد وأبي هريرة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائماً متفق عليه من حديث ابن عباس وذلك من زمزم (٤) حديث كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا الطبراني في الدعاء مرسل من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (٥) حديث من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوف في ولده أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ آمن من الفقر والبص والجلد وهو من عن ولده الحق وله من حديث الحجاج بن علاط أعطى سعة من الرزق ووفى في ولده وكلاهما منكر جدا .

والتحريف . أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أنا أبو محمد الخطيب ثنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال ثنا أبو بكر بن أبي داود قال ثنا أحمد بن صالح قال ثنا عنبسة قال ثنا يونس بن يزيد قال قال محمد يعني الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله تعالى يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتي حسنة وعنه أيضا رضى الله

« كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » (١) وليس من يأكل ويصلي كمن يأكل ويلهو ويلقى إذا أكل
لنا اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه (٢) فإن أكل غيره قال اللهم بارك لنا فيما رزقنا وارزقنا خيرا
منه فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين لموم نعمة ويستحب عقيب
الطعام أن يقول الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكتفى
منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت
من عيلة فلك الحمد حمدا كثيرا دائما طيبا نافعا مباركا فيه كما أنت أهله ومستحقه اللهم أطعمتنا طيبا
فاستعملنا صالحا واجبه عونا لنا على طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على مصيبتك وأما غسل اليدين
بالأشنان فكيفيته أن يحمل الأشنان في كفه اليسرى ويضلل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولا
ويضرب أصابعه على الأشنان اليايس فيمسح به شفته ثم ينعم غسل القم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه
وباطنها والحنك واللسان ثم يضل أصابعه من ذلك بالماء ثم يدلك يقية الأشنان اليايس أصابعه
ظهرا وبطنا ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى القم وإعادة غسله .

(الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والشاركة في الأكل وهي سبعة)

الأول : أن لا يتدنى بالطعام ومعه من يستحق التقديم بغير من أوزيادة فضل إلا أن يكون هو التبويع
والمقدي به فيعتد ينفي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشترأبوا للأكل واجتمعوا له . الثاني : أن
لا يسكروا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات
الصالحين في الأطعمة وغيرها . الثالث : أن يرفق برفيقه في القصة فلا يقصد أن يأكل زيادة على
ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقا لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركا بل ينفي أن يقصد
الإيثار ولا يأكل تمرين في دضة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في
الأكل وقال له كل ولا يزيد في قوله كل على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط . كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم إذا خوطب في شيء ثلاثا لم يرجع بعد ثلاث (٣) وكان عليه السلام يكرر الكلام ثلاثا (٤)
فليس من الأدب الزيادة عليه فأما الحلف عليه بالأكل فمنوع قال الحسن بن علي رضي الله عنهما
الطعام أهون من أن يحلف عليه . الرابع : أن لا يعوج رفيقه إلى أن يقول له كل قال بعض الأدباء
أحسن الآكلين أكل من لا يعوج صاحبه إلى أن يتفقه في الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول
ولا ينبغي أن يدع شيئا مما يشبهه لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجري على المعتاد ولا ينقص من
عادته شيئا في الوحدة ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع
نعم لو قتل من أكله إشارا لإخوانه ونظرا لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن وإن زاد في الأكل
على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حسن وكان ابن المبارك يقدم

(١) حديث كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ
سحت وهو عندنا وحسنه بلفظ لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به (٢) حديث
القول عند أكل اللين اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه وحسنه و . من حديث ابن عباس إذا أكل
أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ومن ساء الله لنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه .

(الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والشاركة في الأكل)

(٣) حديث كان إذا خوطب في شيء ثلاثا لم يرجع بعد ثلاث أحمد من حديث جابر في حديث طويل
ومن حديث أبي حنيفة أيضا وإسناده أحسن (٤) حديث كان يكرر الكلمة ثلاثا من حديث أنس
كان يعيد الكلمة ثلاثا .

عنه قال من عرض
نفسه لقتلهم فلا يلومن
من أساء به الظن فإذا
رأيتهم اتهاونا بحدود
الشرع مهملا للصلوات
للفروضات لا يستد
بحلاوة التلاوة والصوم
والصلاة ويدخل في
للدخل للكروهة
المهرمة نرده ولا قبله
ولا قبل دعواه أن له
سريرة صالحة .
أخبرنا شيخنا ضياء
الدين أبو النجيب
السهروردي بإجازة عن
عمر بن أحمد عن ابن
خلف عن السلي قال
سمعت أبا بكر الرازي يقول
سمعت أبا محمد الجريري
يقول سمعت الجنيد
يقول لرجل ذكر المعرفة
قال الرجل أهل المعرفة
بالله يصلون إلى ترك
الحركات من باب البر
والتقوى إلى الله تعالى
قال الجنيد إن هذا
قول قوم تكلموا
باسقاط الأعمال وهذه
عند عظمة والذي
يسرق ويرزى أحسن

فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول من أكل أكثر أعطته بكل نواة درهما وكان يعد النوى ويعطى كل من له فضل نوى بعده دراهم وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط في الانبساط . وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما أحب إخواني إلى أكثرهم أكلا وأعظمهم لقمة وأقلهم طي من يحوجني إلى تمهده في الأكل وكل هذا إشارة إلى الجري على العناد وترك التصنع وقال جعفر رحمه الله أيضا تبين جودة عجة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله . الخامس : أن غسل اليد في الطست لأبأس به وله أن يتنخم فيه إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يغسل ذلك فإذا قدم الطست إليه غيره إكرامه فليقبله . اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس إذا أكرمك أخوك فأقبل كرامته ولا تردّها فأما بكرم الله عز وجل وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرب فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك فقال لا قال صبه أمير المؤمنين فقال يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك كما أجلت العلم وأهله . ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » (١) قيل إن المراد به هذا . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا ملوءة ولا تشبهوا بالجهم وقال ابن مسعود اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم والخدام الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادما جالسا فقام المصوب عليه فقيل له لمقت فقال أحدنا لا بد وأن يكون قائما وهذا أولى لأنه أبسر للصب والنسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيتمكنه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك ففي الطست إذن سبعة آداب أن لا يزيق فيه وأن يقدم به التبوع وأن يقبل الإكرام بالتقديم وأن يدار بمنه وأن يجتمع فيه جماعة وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وأن يعج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال لا يروك ما رأيت من خدمة الضيف فرض . السادس : أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يفيض بصره عنهم ويشغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يعد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنه فإن امتنع لسبب فليمتد إلىهم دفعا للخلعة عنهم . السابع : أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا يفيض يده في القصعة ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فيه وإذا أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ به يساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فديكره غير مو اللقمة التي قطعها بسننه لا يغمس بقيتها في المرققة والخل ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

(الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين)

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما إذا قدمت مع الإخوان على المائدة فأطبلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله كل ثقة (١) حديث اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم رواه القضاة في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة باسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال إنه مضطرب وفيه نظر .

(الباب الثالث في تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين)

حالا من الذي يقول هذا وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رعون فيها ولو بقيت ألف عام لم تنقص من أعمال البر فذة إلا أن يحال في دونها وإنه لا أكد في معرفتي وأقوى لحالي ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول ويرحمون أن الله تعالى يهل فيهم ويعمل في أجسام يستطفيها ويسبق لأفهامهم معنى من قوله النصاري في اللاهوت والناسوت . ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحبات إشارة إلى هذا الوهم ويتخيل له أن من قال كلمات في بعض غلباته كان مضرا لشيء مما زعموه مثل قول الحلاج أنا الحق وما يحكي عن أبي يزيد من قوله سبحان حلما أن نصنف في أبي يزيد أنه يقول ذلك لإعطي معنى الحكاية عن الله تعالى

ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها البتة إلا تفرقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأله عن ذلك هذا مع ماورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال لللائكة تصلي على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع »^(١) وروى عن بعض علماء خراسان أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدر أن يأكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك »^(٢) فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لأكل فضل ذلك وفي الخبر « لا يحاسب العبد على ما يأكل مع إخوانه »^(٣) وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقل إذا أكل وحده وفي الخبر « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إلي من أن أعتق رقبة وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول من كرم للرء طيبزاده في سفره وبذله لأصحابه وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يفرقون إلا عن ذواق وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا وفي الخبر « يقول الله تعالى للعبيد يوم القيامة يا ابن آدم جئت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول جاع أخوك للسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتي »^(٥) وقال عليه السلام « إذا جاءكم الزائر فأكرموه »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من أطعم الطعام »^(٨) وقال عليه السلام « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام »^(٩) وأما آدابه : فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى - لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه - يعني منتظرين حينه ونضجه وفي الخبر

(١) حديث لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع ، الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف (٢) حديث إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام ، لم أقف له على أصل (٣) حديث لا يحاسب العبد بما يأكل مع إخوانه هو في الحديث الذي بعده بمعناه (٤) حديث ثلاثة لا يحاسب عليها العبد أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان ، الأزدي في الضعفاء من حديث جابر ثلاثة لا يدخلون عن النعم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه أورده في ترجمة سليمان بن داود الجزري وقال فيه منكر الحديث ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة (٥) حديث يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جئت فلم تطعمني الحديث م من حديث أبي هريرة باللفظ استطعمتك فلم تطعمني (٦) حديث إذا جاءكم الزائر فأكرموه ، الحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه (٧) حديث إن في الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها ، هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام ت من حديث علي وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقد تسكلم فيه من قبل حفظه (٨) حديث خيركم من أطعم الطعام أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال صحيح الإسناد (٩) حديث من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقال ابن حبان ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الذهبي غريب منكر .

وهكذا ينبغي أن يستند في قول الحلاج ذلك ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمرا لشيء من الحلول ردناه كما نردم وقد أثانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريعة يضاء نية يستقيم بها كل معوج وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز والله تعالى منزله أن يحل به شيء أو يحل شيء حق لعل بعض الفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالة الله تعالى إياه مثل أن يقول قال لي وقلت له وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثا جاهل بربه وبكيفية للكلمة والمحادثة ، وإما عالم بطلان ما يقول ، بحمله

«من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما» (١) ولكن حق الداخل إذا لم يترصص واتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له فإذا قيل له كل فظن بأنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد وإن كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل بل ينبغي أن يتعلل أما إذا كان جائعا فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يترصص به وقت أكله فلا بأس به . قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعا (٢) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف وكان عون بن عبد الله السعدي له ثلاثمائة وستون صديقا يدور عليهم في السنة وآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر وآخر سبعة يدور عليهم في الجمعة فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادا لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واقفا بصدقاته عالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه إذ المراد من الإذن الرضا لاسيما في الأطعمة وأمرها على السنة قرب رجل بصرح بالأذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب وقد قال تعالى - أو صدقكم - ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال بلفت الصدقة محلها (٣) وذلك لعله بسرورها بذلك لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بطله بالأذن فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أولا ثم الدخول وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسري به ويقول هكذا كنا وروى عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائما يأكل من متاع يقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة فقال له هشام ما بذلك يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بغير إذنه فقال بالكع اتل على آية ألاكل قتلا إلى قوله تعالى - أو صدقكم - فقال فمن الصديق يا أبا سعيد قال من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا ، وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فظفر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبز وغير ذلك فغله كله قدمه إلى أصحابه وقال كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئا فقبل له قد أخذه فلان فقال قد أحسن فلما لقيه قال يا أخى إن عادوا فقد فهمه آداب الدخول . وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولا وتقديم ما حضر فإن لم يحضر شيء ولم

هواه على الدعوى بذلك ليوم أنه ظفر بشيء وكل هذا ضلال ويكون سبب تجربته على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بمد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة وتعسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكال الزهد في الدنيا فلما صفت أسرارهم تشككت في سرارهم مخاطبات موافقه للكتاب والسنة قرئت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ولا يكون ذلك كلاما يسمعون بل كحديث في النفس يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة مفهوما عند أهل موافقا للعلم ويكون ذلك مناجاة لسرارهم ومناجاة سرارهم أيام فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الربوبية

(١) حديث من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما هو من حديث عائشة نحوه وضعفه ولأبي داود من حديث ابن عمر من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا إسناده ضعيف (٢) حديث قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه ، أما قصة أبي الهيثم فرواها ت من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عند لم يكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال رجل من الأنصار ، وأما حديث قصد منزل أبي أيوب فرواها الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال بلفت الصدقة مكانها متفق عليه من حديث عائشة أهدى لبريرة لحم فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو لها صدقة ولنا هدية ، وأما قوله بلفت محلها فقال في الشاة التي أعطيتها نسيئة من الصدقة وهو متفق عليه أيضا من حديث أم عطية .

فيضيفون ما يجدونه
إلى نفوسهم وإلى
مولاهم وهم مع ذلك
عالمون بأن ذلك ليس
كلام الله وإنما هو
علم حادث أحدثه الله
في بواطنهم فطريق
الأشياء في ذلك الفرار
إلى الله تعالى من كل
ما تحدث نفوسهم به
حتى إذا برئت ساحتهم
من الهوى ألهموا
في بواطنهم شيئاً
ينسبونه إلى الله تعالى
نسبة الحادث إلى
المحدث لأن نسبة الكلام
إلى المتكلم لينصانوا
عن الزيف والتحريف
ومن أولئك قوم
يزعمون أنهم يفرقون
في بحار التوحيد ولا
يشتون ويسقطون
لنفوسهم حركة وفعلاً
يزعمون أنهم مجبورون
على الأشياء وأن لا فعل
لهم مع فعل الله
ويسترسلون في المعاصي
وكل ما تدعو النفس
إليه ويركنون إلى
البطالة ودوام الغفلة

أنكر وقال ما أمرت بهذا فمرضت عليه الرقة ملحقاً بها خط الشافعي فلما وقعت بينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر الكنانى دخلت على السري فبجاء فتيت وأخذ يحمل نصفه في القدح قفلت له أى شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة فضحك وقال هذا أفضل لك من حبة ، وقال بعضهم الأكل على ثلاثة أنواع مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانسباط ومع أبناء الدنيا بالأدب . الأدب الثالث : أن يشتهى الزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جليل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن قد سر الله تعالى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر « من لاذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف حسنة وهي عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنان الجنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد (٢) » . الأدب الرابع : أن لا يقول له هل أقدم لك طعاماً بل ينبغي أن يقدم إن كان قال الثورى إذا زارك أخوك فلا تقل له أنا كل أو أقدم إليك ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع وإن كان لا يريد أن يطعمهم طعاماً فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم قال الثورى إذا أردت أن لا تطعم عيالاً مما تأكله فلا تعدهم به ولا يرونه معك وقال بعض الصوفية إذا دخل عليكم الفقراء قدموا إليهم طعاماً وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسئلة فإذا دخل القراء فدلوهم على المهراب .

(الباب الرابع فى آداب الضيافة)

ومظان الآداب فيها ستة الدعوة أولاً ثم الإجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف ولتقدم على شرحها إن شاء الله تعالى . فضيلة الضيافة : قال صلى الله عليه وسلم « لا تنكفوا للضيف فتبخسوه فإنه من أبغض الضيف قد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا خير فيمن لا يضيف (٤) » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومربما رأته لها شويهاً فذبحته فقال صلى الله عليه وسلم : انظروا إليها إنما هذه الأخلاق يداها فمن شاء أن يمنعه خلقاً حسناً فعل (٥) » . وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال : قل للفلان اليهودى نزلنى ضيف فأسلمنى شيئاً من الدقيق إلى رجب فقال اليهودى والله ما أعلفه إلا برهن فأخبرته فقال والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض

(١) حديث من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن قد سر الله عز وجل البزار والطبرانى من حديث أبى الدرداء من وافق من أخيه شهوة غفر له قال ابن الجوزى حديث موضوع وروى ابن حبان والعقيلي فى الضعفاء من حديث أبى بكر الصديق من سر مؤمناً قائماً سر الله الحديث قال العقيلي باطل لأصله (٢) حديث جابر من لاذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف حسنة الحديث ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد ابن حنبل هذا باطل كذب .

(الباب الرابع فى آداب الضيافة)

(٣) حديث لا تنكفوا للضيف فتبخسوه فإنه من أبغض الضيف قد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله ، أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان لا ينكف عن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه وفيه محمد بن الفرج الأزرق مشكلم فيه (٤) حديث لا خير فيمن لا يضيف أحمد من حديث عتبة بن عامر وفيه ابن لهيعة (٥) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومربما رأته لها شويهاً فذبحته الحديث الحرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية أبى النبال مرسل

والاغترار بالله والخروج من السنة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام . وقد سئل سهل عن رجل يقول أنا صك الباب لا أتحرك إلا إذا حركت قال هذا لا يقوله إلا أحد رجلين إما صديق أو زنديق لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله وإسقاطاً للامعة عن نفسه وانحلالاً عن الدين ورسمه فأما من كان معتقداً للحلال والحرام والحدود والأحكام معترفاً بالمعصية إذا صدرت منه معتقداً وجوب التوبة منها فهو سليم صحيح وإن كان تحت التصور بما يركن إليه من البطالة ويتروح بهوى النفس إلى

ولو أسلفني لأدتيه فاذهب بدرعي وارهنه عنده ^(١) وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتئم من يتعدى معه وكان يكنى أبا الضيفان ولصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا فلا تنقضى ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة وقال قوام الوضغ إنه لم يخل إلى الآن ليلة عن ضيف « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ قال إطعام الطعام وبذل السلام ^(٢) » وقال ^(٣) « في الكفارات والبرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ^(٤) » وسئل عن الحج البرور فقال « إطعام الطعام وطيب الكلام ^(٥) » وقال أنس رضي الله عنه كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله للملائكة والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى فلنذكر آدابها . أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يصدق بدعوته الأتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم « أكل طعامك الأبرار ^(٦) » في دعائه لبعض من دعاه وقال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي ^(٧) » ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء ^(٨) » وينبغي أن لا يهمل أقربه في ضيافته فإن إهمالهم يحاشى وقطع رحم وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إباحاشاً لقلوب الباقين ، وينبغي أن لا يقصد بدعوته البهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان والتسكين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين ، وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشقى عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب للدعوة فضله خطيئتان لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله وإطعام التقي إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الحيط والابرة أما أنت فمن الظلمة قسمهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل بوجودها في بعض اللواضع قال صلى الله عليه وسلم « لودعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت ^(٩) » وللإجابة خمسة آداب : الأول أن لا يميز الفنى بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر للنهى عنه . ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال : انتظار المروة ذل ، وقال آخر إذا وضعت يدي في قصعة غیری فقد ذلت له رقبتي ومن

(١) حديث أبي رافع أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلفني شيئاً من الدقيق إلى رجب الحديث رواه اسحاق بن راهويه في مسنده والحرائطي في مكارم الاخلاق وابن مردويه في التفسير بإسناد ضعيف (٢) حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان قال إطعام الطعام وبذل السلام متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو يلفظ أى الاسلام خبر ؟ قال تعظم الطعام وتقربى السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٣) حديث قال صلى الله عليه وسلم في الكفارات والبرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ت وصححه وك من حديث معاذ وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث اللهم إني أسألك فضل الخيرات (٤) حديث سئل عن الحج البرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام تقدم في الحج (٥) حديث أكل طعامك الأبرار د من حديث أنس بإسناد صحيح (٦) حديث لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي تقدم في الزكاة (٧) حديث شر الطعام طعام الوليمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٨) حديث لودعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت مخ من حديث أبي هريرة .

الأسفار والترحال في البلاد متوصلاً إلى تناول اللذات والشهوات غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذه ويصمره بعيب ما هو فيه والله الموفق .

[الباب العاشر في شرح رتبة للشيخة] ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده لئن شتمت لأقسمن لكم إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادته ويعجبون عباد الله إلى الله ويعشون على الأرض بالنصيحة » وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة الشيخة والدعوة إلى الله تعالى لأن الشيخ يحب الله إلى عبادته حقيقة ويعجب عباد الله إلى الله ، ورتبة الشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونياحة النبوة في الدعاء إلى الله فأما وجه كون

الشيخ يحجب الله إلى عباده فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى قال الله تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله - ووجه كونه يحجب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالمريد طريق التزكية وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ولاح فيه جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية السكال الأزلى فأحب العبد ربه لأعماله وذلك ميراث التزكية قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها - وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاح فيها الدنيا بحبها وحقيقتها

المستكبرين ممن يحجب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة كان صلى الله عليه وسلم يحجب دعوة العبد ودعوة المسكين (١) ومروا الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من الساكنين الذين يسألون الناس على قارة الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بقلته فسلم عليهم فقالوا له هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ فقال نعم إن الله لا يحب المستكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال قد أجبتكم فأجيئوني قالوا نعم فوعدهم وقتا معلوما فحضروا فقدم إليهم فأخروا الطعام وجلس يأكل معهم ، وأما قول القائل إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي ، فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالاجابة ولا يتقصد بهامنة وكان يرى ذلك بدا له على الدعوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعله أن الداعي له يتقصد منه ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه في الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستنقل الطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته (٢) بل الأولى التملل ، ولذلك قال بعض الصوفية لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه سلم إليك ودية كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه وقال سري السقطي رحمه الله آم على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا مخلوق فيها منة فإذا علم الدعواته لامة في ذلك فلا ينبغي أن يرد وقال أبو تراب النخشي رحمه الله عليه عرض على طعام فامتعت فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما فعلمت أنه عقوبته وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه كل من دعاك تمر إليه فقال أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني . الثاني : أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الاجابة بعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك يقال في التوراة أو بعض الكتب سربلاعد مريضا سربيلين شيع جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زراخا في الله وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحى فهو أولى من البت وقال صلى الله عليه وسلم « لودعيت إلى كراع بالغميم لأجبت (٤) » وهو موضع على أميال من المدينة أظرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان (٣) لما بلغه وقصر عنده في سفره (٥) . الثالث : أن لا يمتنع لكونه صائما بل يحضر فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يعتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوع وإن لم يتحقق سرور

(١) حديث كان يحجب دعوة العبد ودعوة المسكين ت . من حديث أنس دون ذكر المسكين وضغفة ت وصححه ك (٢) حديث ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفا د من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام التبايرين قال د من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس وللعقيلي في الضعفاء نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام التباهيين والتبايرين المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء قاله أبو موسى اللدني (٣) حديث لودعيت إلى كراع بالغميم لأجبت ذكر الغميم فيه ليعرف والمعروف لودعيت إلى كراع كما تقدم قبله بثلاثة أحاديث ويرد هذه الزيادة ما رواه ت من حديث أنس لو أهدى إلى كراع لقبلت (٤) حديث إفطاره صلى الله عليه وسلم في رمضان لما بلغ كراع الغميم رواه من حديث جابر في عام الفتح (٥) حديث قصره صلى الله عليه وسلم في سفره عند كراع الغميم لم أقفله على أصل وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر كان يقصر الصلاة بالعقيق يريد إذا بلغه وهذا رد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع الغميم بين مكة وعسفان والله أعلم .

قلبه فليصدق بالظاهر وليفطر وإن تحقق أنه متكلف فليتمل وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم « تكلف لك أخوك » وتقول إني صائم ^(١) » وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق ثوابه فوق ثواب الصوم ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجرة والحديث الطيب وقد قيل الكحل والدهن أحد القراءين. الرابع أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع شيء من الزامير والآلهي أو التشاغل بنوع من اللهو والعرف والمزل واللعب واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب وشبه ذلك فكل ذلك مما يمنع الإجابة واستجابها ويوجب تحريرها أو كراهيتها وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر. الخامس أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للأخرة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في قوله « لودعيت إلى كراع لأجبت » وينوي الحذر من معصية الله تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم « من لم يحب الداعي فقد عصي الله ورسوله ^(٢) » وينوي إكرام أخيه المؤمن اتباعاً لقوله صلى الله عليه وسلم « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله ^(٣) » وينوي إدخال السرور على قلبه امثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم « من فكأنما أكرم الله ^(٤) » وينوي مع ذلك زيارته ليكون من التحابين في الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور والتبازل ^(٥) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يعمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو ما يجرى مجراه فلهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات أحدها فكيف مجموعها وكان بعض السلف يقول أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب وفي مثل هذا قال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى ديار يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ^(٦) » والنية إنما تؤثر في المباحات والطاعات أما النيات فلا فائدة لونها أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يجز أن يقال الأعمال بالنيات بل لو قصد بالفزو الذي هو طاعة المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة وكذلك المباح للرد بين وجوه الخبرات وغيرها يلتحق بوجوه الخبرات بالنية فتؤثر النية في هذين القسمين لافي القسم الثالث. وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع

(١) حديث وقال لمن امتنع بعذر الصوم تكلف لك أخوك وتقول إني صائم حق من حديث أبي سعيد الخدري صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً وأنا ناني هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاكم أخوكم وتكلف لكم الحديث ولقد أرقطني نحوه من حديث جابر (٢) حديث من لم يحب الداعي فقد عصي الله ورسوله متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث من أكرم أخاه المؤمن فأنما يكرم الله تعالى الأصفياني في الترغيب والترهيب من حديث جابر والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي بكر وإسنادهما ضعيف (٤) حديث من سر مؤمناً قدس الله تعالى في الباب قبله (٥) حديث وجبت محبة للمزاورين في التبازلين في م من حديث أبي هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه (٦) حديث الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .

وما هيها ولاحت
الآخرة ونفائسها
بكنها وغائتها
فتكشف للبصرة
حقيقة الدارين
وحاصل المنزلين فيحب
العبد الباقي ويذهب في
القاني فتظهر فائدة
التركية وجدوى
للشيخة والترية
فالشيخ من جنود الله
تعالى يرشده اليريدين
ويهدى به الطالبين .
أخبرنا أبو زرعة عن
أبيه الحافظ المقدسي
قال أنا أبو الفضل
عبد الواحد بن علي
بهذان قال أنا أبو بكر
محمد بن علي بن أحمد
الطوسي قال ثنا
أبو العباس محمد بن
يعقوب قال ثنا أبو عتبة
قال ثنا بقية قال ثنا
صفوان بن عمرو قال
حدثني الأزهر بن
عبد الله قال قد سمعت
عبد الله بن بشر صاحب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال كان
يقال إذا اجتمع

ولا يطول الانتظار عليهم ولا يجعل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ولا يضيق المكان على الحاضرين بالترجمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخافه ألبته فانه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس (١) » ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فانه دليل على الشره ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبیت الماء وموضع الوضوء كذلك فعل مالك بالشافعي رضى الله عنهما وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى لأنه يدعو الناس إلى كرمه وحكمه أن يتقدم بالفصل وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فياكل كل معه وإذا دخل فرأى منكرا غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف ، والنكر فرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان ومماح للالهى والزماير وحضور النسوة للتكشفات الوجوه وغير ذلك من المهرمات حتى قال أحمد رحمه الله إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغي أن يخرج ولم يأذن في الجلوس إلا في ضبة وقال إذا رأى كلة فينبغي أن يخرج فان ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حرا ولا برءا ولا تستر شيئا وكذلك قال يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كاستر الكعبة وقال إذا أكرى بيتا فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغي أن يحكمها فان لم يقدر خرج وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر في السكلة وتزيين الحيطان بالديباج فان ذلك لا ينهى إلى التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثها (٢) » وما على الحائط ليس منسوباً إلى الذكور ولو حرم هذا الحرير تزيين الكعبة بل الأولى بإباحته لموجب قوله تعالى - قل من حرم زينة الله - لاسمياً في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر وإن تخيل أن الرجال ينفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الارتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة. وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة : الأول تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (٣) » ومهما حضر الأكرهون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت للوعود فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير إلا أن يكون التأخر قفيرا أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد العيين في قوله تعالى - هل أملك حديث ضيف إبراهيم للكرمين - إنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى - فما لبث أن جاء بعجل حنيد - وقوله - فراغ إلى أهله فجاء بعجل ممين - والروغان الذهاب بسرعة وقيل في خفية وقيل جاء بفخذ من لحم وإناحسى عجلا لأنه عجله ولم يلبث قال حاتم الأصم العجلة من الشيطان إلا في خمسة فانها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الضيف وتجهيز البيت

(١) حديث إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس الخرائطى في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد (٢) حديث هذان حرامان على ذكور أمتي دن . من حديث على وفيه أبو أفلح الهمداني جهله ابن القطان ون ت وصححه من حديث أبي موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبي هند وأبي موسى فأدخل أحمد بينهما رجلا لم يسم (٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي سريج .

عشرون رجلاً وأكثر فان لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل فقد خطر الأمر فعلى الشايخ وقار الله وبهم يتأدب الريدون ظاهرا وباطنا قال الله تعالى - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده - فالشايخ لما اعتدوا أهوال الاقتداء بهم وجعلوا أئمة المتقين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت همته ولذته في ذكرى فإذا جعلت همته ولذته في ذكرى عشقني وعشقتة ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذاسها الناس أولئك كلامهم كلام الأنبياء أولئك الأبطال حقا أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم والسرفى وصول السالك إلى رتبة الشيخة أن السالك

وتزويج البكر وقضاء الدين والتوب من الذنب^(١) ويستحب التمسك بالولاية ، قيل الولاية في أول يوم سنة وفي الثاني معروف وفي الثالث زياره . الثاني : ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت فذلك أوفق في الطب فأنها أسرع استحالة فينبى أن تقع في أسفل اللمة وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى - وفاكهة مما يتخيرون - ثم قال - ولحم طير مما يشتهون - ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والتريد قد قال عليه السلام «فضل عائشة على النساء كفضل التريد على سائر الطعام» [١] فان جمع إليه خلوة بعده قد جمع الطيبات ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى : في ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيد أى الحنود وهو الذى أجيد فضجه وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم وقال تعالى في وصف الطيبات - وآتيناك عليكم للنن والسوى - للنن العسل والسوى اللحم سمى سوى لأنه يتلى به عن جميع الآدم ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال عليه السلام «سيد الآدم اللحم» ثم قال بعد ذكر للنن والسوى - كلوا من طيبات ما رزقناكم - فاللحم والخلوة من الطيبات قال أبو سليمان الداراني رضى الله عنه أكل الطيبات يورث الرضا عن الله ويتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الفصل قال للأمون شرب الماء بلع يخلص الشكر وقال بعض الأدباء إذا دعوت إخوانك فأطعمتهم حصرية وبورانية وسقيتهم ماء بارداً فقد أكلت الضيافة وأتقى بعضهم دراهم في ضيافة فقال بعض الحكماء لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبرك جيداً وماؤك بارداً وخلك حامضاً فهو كفاية وقال بعضهم الخلوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان والتمسك على للسانه خير من زيادة لونين ويقال إن اللاتكة تحضر للآئمة إذا كان عليها بقل فذلك أيضاً مستحب ولما فيه من الزين بالخضرة وفي الخبر إن للآئمة التي آتلت على بن إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث وكان عليها ثمكة عند رأسها حل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان فهذا إذا اجتمع حسن للواقعة . الثالث : أن يقدم من الألوان ألقها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة للترفين تقديم القليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده وهو خلاف السنة فانه حيلة في استكثار الأكل وكان من سنة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة وصفنون القصاع من الطعام على للآئمة ليأكل كل واحد مما يشتهى وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه . ويعكس عن بعض أصحاب الروايات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان وقال بعض الشيوخ قدم إلى بعض الشايخ لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخرها فقال وكذا عندنا بالشام ولم يكن له لون غيره فغجلت منه وقال آخر كنا جماعة في ضيافة قدم إلينا ألوان من الرءوس للشوية طيبها وقديداً فكنا لأننا كل نتظر بعدها لونا أو حملاً فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها

(١) حديث حاتم الأصم العجلة من الشيطان إلا في خمسة فأنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الطعام ونهيز البيت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب ت من حديث سهل بن سعد الأئمة من الله والعجلة من الشيطان وسنده ضعيف وأما الاستثناء فروى د من حديث سعد بن أبي وقاص التؤدة في كل شئ إلا في عمل الآخرة قال الأعشى لأعلم إلا أنه رفضه وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى بن نعيم عن مشيخة من قومه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الأئمة في كل شئ إلا في ثلاث إذا صبح في خيل الله وإذا نودى بالصلاة وإذا كانت الجنائزة... الحديث وهذا مرسل وت من حديث علي ثلاثة لا تؤخرها الصلاة إذا أتت والجنائزة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤاً وسنده حسن.

[١] حديث فضل عائشة لم يخرجها المراتى وخرجه الشارح عن الترمذى في الشمائل وغيره .

مأمور بسياسة النفس مبتلى بصفاتها لا يزال يسلك بصدق العامة حتى تطمئن نفسه وبطمأنيتها ينزع عنها البرودة واليوسة التي استصحبها من أصل خلقها وبها تستصحى على الطاعة والالتقاء للمبودية فأذا زالت اليوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها وهذا اللين هو الذى ذكره الله تعالى في قوله - ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله - تعالى تجيب إلى العبادة وتلين لقطاع عند ذلك وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذو وجهين أحدهما وجهه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح يستمد من الروح بوجهه الذى يليه ويمد النفس بوجهه الذى يليها حتى تطمئن النفس فأذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها

فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا إن الله تعالى يقدر أن يخلق رءوسا بلا أبدان قال وبتنا تلك الليلة جياعا نطلب فتيتا إلى السحور فلماذا يستحب أن يقدم الجميع أو يغبر بما عنده . الرابع : أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمسكهم من الاستيقاظ حتى يرفضوا الأيدي عنها ففعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتغص عليه بالمبادرة وهي من التمكن على السائدة التي يقال إنها خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال ومحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن السجوري وكان صوفيا مزاحا فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة قدم إليهم حمل وكان في صاحب المائدة بخل فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال يا غلام ارفع إلى الصبيان فرفع الحمل إلى داخل الدار قام السجوري بعدو خلف الحمل فقبل له إلى أين فقال آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فانهم يستحيون بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلا كان بعض السكرام يغبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومسده يده إلى الطعام وأكل وقال بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم وكان السلف يستحيون ذلك منه . الخامس : أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في الروعة والزيادة عليه تصنع ومראה لاسيا إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يشرك بفضلة طعامهم إذ في الحديث لا يحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته فقال سفيان يا أبا اسحاق أما تخاف أن يكون هذا سرفا فقال إبراهيم ليس في الطعام سرف فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف قال ابن مسعود رضي الله عنه نهينا أن نجيب دعوة من يياهي بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام البهاة ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامعة إلى رجوع شيء منه فلهذا لا يرجع قضيق صدورهم وتنتقل في الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطمع الضيفان ما يتبعه كراهية قوم وذلك خيانة في حقهم وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح صاحب الطعام بالاذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغي مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء . فاما الانصراف : فله ثلاثة آداب . الأول : أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر باكرامه قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال عليه السلام « إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار » [١] قال أبو قتادة قدم وفد النجاشي عن رسول الله ﷺ فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه نحن نكفيك يا رسول الله فقال كلا إنهم كانوا الأنحاض مكرمين وأنا أحب أن أكرمهم [٢] وتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى السائدة قيل للأوزاعي رضي الله عنه ما كرامة الضيف قال طلاقة الوجه وطيب الحديث وقال يزيد بن أبي زياد ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا الثاني أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن [١]

انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس واتقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله ثم القلب يشرب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس فتقوم نفوس اللريدين والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه ولوجود التألف بين الشيخ والمريد من وجه التألف الإلهي قال الله تعالى - لو أنفق ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فيسوس نفوس الريدين كما كان يسوس نفسه من قبل ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى : الأطال شوق الأبرار إلى لقائي وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا وبما هيا الله تعالى من حسن التأليف بين

[١] حديث إن من سنة وكذا حديث إكرام وفد النجاشي وحديث إن الرجل ليدرك لم يخرجهم العراقي .

خلقه درجة الصائم القائم » ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل . وقال قد خرج القوم فقال هل بقي بقية قال لا قال فكسرة إن بقيت قال لم تبقى قال فالتقدر أمسحها قال قد غسلتها فانصرف بحمد الله تعالى فقيل له في ذلك فقال قد أحسن الرجل دعانا بنية وردنا بنية فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دناه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فرده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطيبا لقلب الصبي بالحضور وقلب الأب بالانصراف فهذه نفوس قد ذلت بالتواضع لله تعالى واطمأنت بالتوحيد وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها فلا تنكسر بما يجرى من العباد من الإذلال كما لا تستبشر بما يجرى منهم من الإكرام بل يرون الكل من الواحد القهار ولذلك قال بعضهم أنا لا أجيب الدعوة إلا لأنني أتذكر بها طعام الجنة أي هو طعام طيب يجعل عنا كده ومؤنته وحسابه . الثالث : أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه في قدر الإقامة وإذ انزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة ^(١) » نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلبه لله التمام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان ^(٢) » .

(فصل يجمع آدابا ومناهى طيبة وشرعية متفرقة)

الأول : حكى عن إبراهيم النخعي أنه قال الأكل في السوق دناءة ^(٣) وأسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب وقد نقل عنه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمتشى ونشرب ونحن قيام ^(٤) . ورؤى بعض المشايخ من التصوفة المروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال ويحك أجوع في السوق وآكل في البيت فقيل تدخل المسجد قال أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه ووجه الجمع أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه وهو مختلف بآداب البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة الروءة وفرط الشره ويقدم ذلك في الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا . الثاني : قال علي رضي الله عنه من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حرام لم ير في جسده شيئا يكرهه واللحم يئس اللحم والثريد طعام العرب والبسقارجات تعظم البطن وترخي الألتين ولحم البقر داء ولبنها شفاء ومنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء ولن تستشفى النساء بشيء أفضل من الرطب ، والسماك يذيب الجسد وقراءة القرآن والسواك يذهب البلم ومن أراد البقاء ولا بقاء فليأكل بالعداء

(١) حديث الضيافة ثلاثة أيام فإذا دقة متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي (٢) حديث فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان م من حديث جابر (٣) حديث الأكل في السوق دناءة الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضيف ورواه ابن عدي . كامل من حديثه وحديث أبي هريرة (٤) حديث ابن عمر كأننا كل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمتشى ونشرب ونحن قيام وصححه . وحبه

الصاحب والصاحب
يصير المرید جزء
الشیخ كما أن الولد
جزء الوالد في الولادة
الطبیعیة وتصور هذه
الولادة آتفا ولادة
معنویة كما ورد عن
عیسی صلوات الله علیه
لن یلج ملکوت
السماء من لم یولد مرتین
فبالولادة الأولى یصیره
ارتباط بعالم الملك وبهذه
الولادة یصیره ارتباط
بالمملکوت قال الله
تعالی - وكذلك نرى
لإبراهيم ملکوت
السموات والأرض
ولیکون من الموقنین -
وصرف الیقین علی
الکمال یحصل فی هذه
الولادة وبهذه الولادة
یستحق میراث الأنبیاء
ومن لم یصله میراث
الأنبیاء ما ولد وإن
کان علی کمال من
الفطنة والذكاء لأن
الفطنة والذكاء نتیجة
العقل والعقل إذا کان
یأسا من نور الشرع
لا یدخل للمملکوت

وليكرر العشاء وليلبس الخذاء ولين يتداوى الناس بشيء مثل السم من [١]. وليقل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدين . الثالث : قلل الحجاج لبعض الأطباء صفه الى صفة آخذ بها ولا أعدوها قال لا تنكح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتية ولا تأكل كل الطبوع حتى ينم فضجه ولا تشرب دواء إلا من علة ولا تأكل كل من الفاكهة إلا نضيجها ولا تأكل كل طعام إلا أجدت مضغه وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه فإذا شربت فلا تأكل عليه شيئا ولا تحبس النائط والبول وإذا أكلت بالتهار فم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولومائة خطوة وفي معناه قول العرب تعد تعد تمش تمش يعني تعد كآمال الله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتعطى - أي يتعطى ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد التهرما حوله إذا سد مجراه . الرابع : في الخبر « قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهمة » (١) والعرب تقول ترك العشاء يذهب بشحم الكاذبة يعني الآية وقال بعض الحكماء لابنه يابني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حطك أي تغذى إذ به يبق الحلم ويحول الطيش وهو أيضا أقل لشهوته لما يرى في السوق وقال حكيم لسمين أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك قم هي قال من أكل كل باب البروصغار الغز وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان . الخامس : الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمرضى هكذا قيل وقال بعضهم من احتسب فهو على يقين من السكره وعلى شك من العوافي وهذا حسن في حال الصحة « ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال أنا أكل التمر وأنت رمد فقال يا رسول الله إنما أكل بالشق الآخر » (٢) يعني جانب السليمة فضحك رسول الله ﷺ . السادس : أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل البيت ، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام « إن آل جعفر شغلوا بيتهم عن صنع طعامهم فأحملوا إليهم مايا كلون » (٣) « فذلك سنة وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه إلا ما يهيا للنوايح والعينات عليه بالبكاء والجزع فلا ينبغي أن يؤكل معهم . السابع : لا ينبغي أن يحضر طعام ظام فان أكره فليقل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب . رد بعض الزكبي شهادة من حضر طعام سلطان فقال كنت مكرها فقال رأيتك تقصد الأطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه وأجبر السلطان هذا الزكي على الأكل فقال إما أن آكل وأخلي التزكية أو أزكي ولا آكل فلم يجذوا بدا من تزكيتهم فتركوه . وحكى أن ذا النون المصري حبس ولم يأكل أياما في السجن فكانت له أخت في الله فبعثت إليه طعاما من مغز لها على يد السجن فامتنع فلم يأكل فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال كان حلالا ولكن جاءني على طبق ظام وأشار به إلى يد السجن وهذا غاية الورع . الثامن : حكي عن نفع الوصل رحمة الله أنه دخل على بشر الحافي زائرا فأخرج بشر درهما فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا ، قال فاشتريت خبزا نظيفا وقلت : لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لشئء

(١) حديث قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهمة ابن عدى في الكامل من حديث عبد الله بن جراد بالشر الأول وت من حديث أنس بالشر الثاني وكلاهما ضعيف وروى ابن ماجه الشر الثاني من حديث جابر (٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال له أنا أكل التمر وأنت رمد فقال إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حديث صهيب بإسناد جيد (٣) حديث لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم إن آل جعفر شغلوا بيتهم عن طعامهم فأحملوا إليهم مايا كلون د ت . من حديث عبد الله بن جعفر نحوه بسند حسن وابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت عميس .

ولا يزال مترددا في الملك ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية لأنه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت والملك ظاهر الكون والملكوت باطن الكون والعقل لسان الروح والبصيرة التي منها تنبث أشعة الهداية قلب الروح واللسان ترجمان القلب وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من ترجم عنه وليس كل ما عند من ترجم عنه يبرز إلى الترجمان فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول العربية عن نور الهداية الذي هو موهبة الله تعالى وعند الأنبياء وأتباعهم الصواب وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان وحرمانهم غاية التبيان وكما أن في الولادة الطبيعية ذرات الأولاد في صلب الأب مودعة تنقل إلى أصلاب الأولاد

[١] قوله وليكرر العشاء إلى قوله السم ليس موجودا بنسخة الشارح ولعلها الأظهر فلي تأمل اه .

اللهم برك لنا فيه وزدنا منه (١) سوى اللبن فلتشترى اللبن واشترى تمرا جيذا قدمت إليه فأكل وأخذ الباقي فقال بشر أندرون لم قلت لمتز طعنا طينا لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر أندرون لم يقل لي كذا لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل أندرون لم حمل حايقي لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحمل . وحكى أبو طي الروذباري رحمه الله عز وجل أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال لرجل قد أسرفت فقال له ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطعمته فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فاقطع . واشترى أبو طي الروذباري أحمالا من السكر وأمر الخلاويين حتى يواجدا را من السكر عليه شرف ومحاريب طي أعمدة منقوشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها . التاسع قال الشافعي رضي الله عنه : الأكل على أربعة أنحاء الأكل باصبع من القوت وباصبعين من السكر بثلاث أصابع من السنة (٢) وبأربع وحسن من الشره . وأربعة أشياء تقوى البدن أكل اللحم وشم الطيب وكثرة القسل من غير جماع ولبس الكتان ، وأربعة توهن البدن كثرة الجماع وكثرة الهمة وكثرة شرب اللبأ على الريق وكثرة أكل الخوخة ، وأربعة تقوى البصر الجالوس أنحاء القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الحضرة وتنظيف اللبس وأربعة توهن البصر النظر إلى القدر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى قريح المرأة والعود في استدبار القبلة ، وأربعة يزيد في الجماع أكل المصايف وأكل الاطريف الأكل وأكل الفستق وأكل الجرجير . والنوم على أربعة أنحاء فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض ونوم على الجنب وهو نوم العلماء والعباد ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهمهم طعامهم ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين ، وأربعة تزيد في العقل ترك الفضول من الكلام والذواك . ومجالسة الصالحين والعلماء ، وأربعة هن من العبادة لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم الساجد وكثرة قراءة القرآن . وقال أيضا عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت وعجبت لمن احتجم ثم يادر الأكل كيف لا يموت وقال لم أر شيئا أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب والله أعلم بالصواب .

(كتاب آداب النكاح)

(وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه عجری ولا ترجع العقول عن أوائل بداعتها إلا والهة حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين ترى في توالي عليهم اختيارا وقهرا ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الخيانة جبرا واستتبق بها نسلهم إقهارا وقسرا ثم عظم أمرا الأنساب وجعل لها قدرا حرم بسببها السفاح وبالغ في تقيحه ردعا وزجرا وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمرا إمرأ وندب إلى النكاح وحث عليه استحبابا وأمرا فسبحان من كتب اللوت على عباده فأذهم به هدماء وكسرا ثم بث بذور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر اللوت جبرا تنبها على أن يحار القادير فياضة على العالمين نعمًا

(١) حديث اللهم برك لنا فيه وزدنا منه قاله عند شرب اللبن تقدم في آخر الباب الأول من آداب الأكل

(٢) حديث الأكل بثلاث أصابع من السنة مسلم من حديث كعب بن مالك كان النبي ﷺ يأكل بثلاث أصابع . وروى ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس موقوفا كل بثلاث أصابع فإنه من السنة .

(كتاب آداب النكاح)

بمعد كل ولد ذرة وهي القرات التي خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بأنت ربكم قالوا بلى حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى بيطن نمان بين مكة والطائف فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بمعد كل ولد من ولد آدم ذرة ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم فمن الآباء من تنفذ الذرات في صلبه ومنهم من لم يودع في صلبه شيء فينقطع نسله وهكذا المشايخ فمنهم من تكثر أولاده وبأخذون منه العلوم والأحوال ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم من النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ومنهم من نقل أولاده ومنهم من ينقطع نسله وهذا النسل هو الذي رد الله على الكفار حيث قالوا عهد أبتر لانس ل له قال الله تعالى - إن

وضرا وخيرا وشرا وعسرا ويسرا وطيا ونشرا والصلاة والسلام على محمد البعوت بالإندار والبشرى وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصرا وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحسن دون عدوائه حين وسبب للتكثير الذي به مباحها سيد المرسلين لسائر النبيين لما أحراه بأن تحرى أسبابه وتحفظ سننه وآدابه وتشرح مقاصدهم وآرايه وتفصل فصوله وأبوابه والقدر اللهم من أحكامه ينكشف في ثلاثة أبواب . الباب الأول : في الترغيب فيه وعنه . الباب الثاني . في الآداب المرعية في العقد والعاقدين . الباب الثالث : في آداب العاشرة بهذا العقد إلى الفراق (الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه)

اعلم أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله مهما لم تنق النفس إلى النكاح توقانا يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع وقال آخرون الأفضل تركه في زمانه هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن تقدم أولا ماورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

(الترغيب في النكاح)

أما من الآيات، فقد قال الله تعالى - وأنكحوا الأيامى منكم - وهذا أمر وقال تعالى - فلا تضلوهن أن ينكحن أزواجهن - وهذا منع من الضل ونهى عنه وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم - ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية - فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ومدح أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال - والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين - الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا للتأهيل فقالوا إن يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجمع قيل إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة وقيل لنقض البصر وأما عيسى عليه السلام فانه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له . وأما الأخبار فقول النبي ﷺ « النكاح سنن من رغب عن سنن فقد رغب عني » وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سنن من أحب فطرني فليسنن بسنن (١) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تكثرُوا فاني أباهي بكم الأم يوم القيامة حتى بالسقط (٢) » وقال أيضا عليه السلام « من رغب عن سنن فليس مني وإن من سنن النكاح من أحبني فليسنن بسنن (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا (٤) »

(الباب الأول في الترغيب في النكاح)

(١) حديث النكاح سنن من أحب فطرني فليسنن بسنن أبي يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن (٢) حديث تناكحوا تكثرُوا فاني أباهي بكم الأم يوم القيامة حتى بالسقط أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله حتى بالسقط وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه (٣) حديث من رغب عن سنن فليس مني وإن من سنن النكاح من أحبني فليسنن بسنن متفق على أوله من حديث أنس من رغب عن سنن فليس مني وباقيه تقدم قبله بحديث (٤) حديث من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف وللدائري في مسنده والبخاري في معجمه وأبي داود في المراسيل من حديث أبي نعيم من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا وأبو نعيم اختلف في صحته

شأنك هو الأبر -
والافضل رسول الله
صلى الله عليه وسلم باقى
إلى أن تقوم الساعة
وبالنسبة للضوية يصل
ميراث العلم إلى أهل
العلم . أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي إمامنا قال
أنا أبو عبد الرحمن
للإمامي قال أنا أبو
الحسن الداودي قال
أنا أبو محمد الحموي
قال أنا أبو عمران
السمرقندي قال أنا
أبو محمد الدارمي قال أنا
نصر بن علي قال حدثنا
عبد الله بن داود عن
عاصم عن رجاء بن
حيوة عن داود بن
جميل عن كثير بن
قيس قال كنت جالسا
مع أبي الدرداء في
مسجد دمشق فأتاه
رجل فقال يا أبا الدرداء
إني أمتيتك من مدينة
مدينة الرسول صلى
الله عليه وسلم لحديث
يلقي عنك أنك تحدثه
عن رسول الله صلى الله

وهذا من لذة الامتناع للأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا طول فليتزوج ^(١) » وقال « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء ^(٢) » وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج والوجاه هو عبارة عن رض الحسيتين للفحل حتى تزول فعولته فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ^(٣) » وهذا أيضا تعليل الترغيب لحوف الفساد . وقال عليه السلام « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني ^(٥) » وهذا أيضا إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصنا من الفساد فكان المقصد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثا ولد صالح يدعوه ^(٦) » الحديث ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح . وأما الآثار فقال عمر رضي الله عنه : لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور ، فينب أن الدين غير مانع منه وحصر للمانع في أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج يحتمل أنه جعله من النسك وتسمه له ، ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لخلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بخرق القلب ولذلك كان يجمع غلظانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرها ويقول إن أردتم النكاح أنكحتم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه في الطاعون وكان هو أيضا مطمونا فقال زوجوني فاني أكره أن ألقى الله عزبا وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلا من حيث التحرز عن غائلة الشهوة وكان عمر رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول ما أتزوج إلا لأجل الولد « وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويبس عنده حاجة إن طرقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تزوج ؟ فقال يا رسول الله إني فقير لا شيء لي وأنقطع عن خدمتك فكت ثم عاد ثانيا فأعاد الجواب ثم تفكر الصحابي وقال والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله مني ولئن قال لي الثالثة لأفعلن فقال له الثالثة ألا تزوج قال قلت يا رسول الله زوجني قال اذهب إلى بني فلان قتل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجوني فتناسكم قال قلت يا رسول الله لا شيء لي فقال لأصحابه اجمعوا

(١) حديث من كان ذا طول فليتزوج . من حديث عائشة بسند ضعيف (٢) حديث من استطاع منكم الباءة فليتزوج الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٣) حديث إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ت من حديث أبي هريرة ونقل عن خ أنه لم يعبده محفوظا وقال د إنه خطأ ورواه ت أيضا من حديث أبي حاتم المزني وحسنه ورواه د في الراشدين وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواه (٤) حديث من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عز وجل أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه (٥) حديث من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر ، ابن الجوزي في العلل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ قد استكمل نصف الإيمان وفي المستدرک وصحح إسناده بلفظ من رزقه الله امرأة سالحة قد أعانته على شطر دينه الحديث (٦) حديث كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة فذكر به ولد صالح يدعوه م من حديث أبي هريرة بنحوه .

عليه وسلم قال فإ
جاء بك تجارة قال لا
قال ولا جاء بك غيره
قال لا قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول « من سلك
طريقا يلتمس به علما
سلك الله به طريقا
من طرق الجنة وإن
الملائكة لنضع أجنتها
رضا لطالب العلم وإن
طالب العلم يستغفر له
من في السماء والأرض
حتى الحيتان في الماء
وإن فضل العالم على
العابد كفضل القمر
على سائر النجوم وإن
العلماء هم ورثة الأنبياء
إن الأنبياء لم يورثوا
دينارا ولا درهما إنما
أورثوا العلم فمن أخذه
أخذ بحظه أو بحظ
وافره فأول ما أودعت
الحكمة والعلم عند آدم
أبي البشر عليه السلام
ثم انتقل منه كما انتقل
منه النسيان والحسيان
وماتدعو إليه النفس
والشيطان كما ورد إن
الله تعالى أمر جبرائيل

لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له أولم يجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة (١) » وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح وحكى أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر النبي زمانه حسن عبادته فقال نعم الرجل هو لولا أنه تارك للنبي من السنة فاعتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال أنت تارك للتزويج فقال لمست أحرمه ولكني فقير وأنا عيال على الناس قال أنا أزوجه لك ابنتي فزوجه النبي عليه السلام ابنته ، وقال جبر بن الحرث : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث يطلب الحلال لنفسه ولنبيه وأنا أطلبه لنفسى فقط ولا تساعه في النكاح وضيق عنه ولأنه نصب إماما للعامة ، ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثاني لوفاة أم ولده عبد الله وقال أكره أن أبيت عزبا ، وأما بشر فانه لما قيل له إن الناس يتكلمون فيك تركك النكاح ويقولون هو تارك للسنة فقال قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة وعونب مرة أخرى فقال ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى - ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف - فذكر ذلك لأحمد فقال وأين مثل بشر إنه قد طلى مثل حد السنان ومع ذلك قد روى أنه روى في المنام قبيل له ما فعل الله بك فقال رفعت منزلي في الجنة وأشرف بي على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل للتأهلين وفي رواية قال ما كنت أحب أن تلقاني عزيا قال قلنا له ما فعل أبو نصر التمار فقال رفع فوقى بسبعين درجة قلنا بماذا فقد كنا نراك فوقه قال يصبره على بيناته والعيال ، وقال سفيان بن عيينة : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء ، وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله طوبى لك قد تفرغت للعبادة بالمزوجة فقال لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنافيه قال فما الذي يمنعك من النكاح فقال مالي حاجة في امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى ، وقد قيل فضل التأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب . وأما ما جاء في الترهيب عن النكاح : فقد قال عليه السلام « خير الناس بعد المائتين الحنيف الحاذ الذي لأهل له ولا ولد (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه ما لا يطيق ، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك (٣) » وفي الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين (٤) » وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال الصبر عن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار ، وقال أيضا الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد التأهل ، وقال مرة ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى .

(١) حديث كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقيت عنده حاجة إن طرقت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تزوج الحديث أحمد من حديث ربيعة الأسلمي في حديث طويل وهو صاحب القصة بأسناد حسن (٢) حديث خير الناس بعد المائتين الحنيف الحاذ الذي لأهل له ولا ولد أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابي في العزلة من حديثه وحديث أبي أمامة وكلاهما ضعيف (٣) حديث يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه ما لا يطيق فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك الخطابي في العزلة من حديث ابن مسعود نحوه وللبيهقي في الزهد نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف (٤) حديث قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين القضاة في مسند الشهاب من حديث علي وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزني كلاهما بالشرط الأول بسندين ضعيفين .

حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كونها من الجوهر التي خلقها أولا فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصة السماع من الله تعالى والجواب حيث خاطب السموات والأرضين بقوله - انقباطوا أو كرها قلنا أتيننا طائعين - فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصة ثم انتزعت هذه الخاصة منها بأخذ أجزائها لتركيب صورة آدم فركب جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصة فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الهوى حتى مد يده إلى شجرة الفناء وهي شجرة الخطيئة في أكثر الأقاويل فطرقت لقلبه الفناء وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخبر عنه بقوله - فإذا سويته ونفخت

وقال أيضا : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله إذا أراد الله بعبده خيرا لم يشغله بأهل ولا مال . وقال ابن أبي الحواري تظاهر جماعة في هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكون له بل أن يكون له ولا يشغلانه وهو إشارة إلى قول أبي سليمان المدايني ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم ، وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب في النكاح فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلنكشف الغطاء عنه بمحصر آفات النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده : وفيه فوائد خمسة الولد وكثر الشهوة وتدير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام بهن . الفائدة الأولى . الولد : وهو الأصل وله وضع النكاح والقصود إبقاء النسل وأن لا يغلو العالم عن جنس الأنس وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفعل في إخراج البذر والأثني في التمكن من الحرث تلطف بهما في السباقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهيه ليساق إلى الشبكة وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حرائة وازدواج ولكن الحكمة اقتضت ترتيب السببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهارا للقدرة وإتماما لمعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به الشبهة وحقت به الكلمة وجرى به القلم وفي التوصل إلى الولد قرينة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزبا . الأول موازنة حجة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان والثاني طلب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تكثير من به مباهاته . والثالث طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده . والرابع طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله . أما الوجه الأول فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجاهيل وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه ، ويانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهياكله أرضا مهياة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة وكل به من يتقاضاه عليها فإن تكامل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للعتق والعتاب من سيده والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق النطفة في الفقار وهياكلها في الأنثيين عزوقا ومجاري وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثيين فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الاعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الأبواب بتعريف ما أعدت له ، هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال « تناكحوا تناسلوا » فكيف وقد صرح بالأمر وبإباح السر فكل مجتمع عن النكاح معرض عن الحراثة مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات العدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الحاققة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط الهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية ولذلك عظم القسح الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد لأنه منع لتمام الوجود وإليه أشار من قال العزل أحد الوادين فالناكح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه ولأجل حجة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالاطعام وحث عليه وعبر عنه ببارة القرض فقال - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - فإن قلت : قولك إن بقاء النسل والنفس محبوب يوم أن فناءها مكروه عند الله وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم أو بقاءهم عن فناءهم . فاعلم أن هذه الكلمة حق

فيه من روحى - قال
العلم والحكمة بالقسوة
صار ذا نفس منقوسة
وبنفع الروح صار ذا
روح روحاني وشرح
هذا يطول فصار قلبه
معدن الحكمة وقلبه
معدن الهوى فانتقل
منه العلم والهوى وصار
ميراثه في ولده فصار
من طريق الولادة أبا
بواسطة الطباع التي هي
معتد الهوى ومن
طريق الولادة للنوعية
أبا بواسطة العلم فالولادة
الظاهرة تطرق إليها
الفناء والولادة للنوعية
عجبة من الفناء لأنها
وجدت من شجرة الخلد
وهي شجرة العلم لا شجرة
الخطية التي سماها إبليس
شجرة الخلد فإبليس
يرى الشيء بضده فبين
أن الشيخ هو الأب
معنى وحكيما كان
شيخنا شيخ الاسلام
أبو النجيب السهروردي
رحمه الله يقول ولدى
من سلك طريقى
واهتدى بهدينى فالشيخ

أريد بها بطلان ما ذكرناه لا ينافي بإضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها
ولكن المحبة والكرهية يتضادان وكلاهما لا يصادان الإرادة فرب مراد مكروه ورب مراد محبوب فالمعاصي
مكروهة وهي مع الكراهية مرادة والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومرضية أما الكفر
والشر فلا قول إنه مرضى ومحبوب بل هو مراد وقد قال الله تعالى - ولا يرضى لعباده الكفر - فكيف
يكون القناء بالإضافة إلى محبة الله وكرهته كالبقاء فإنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في
قبض روح عبدى السلم هو يكره الموت وأنا أكره مسأته ولا بدله من الموت (١) » قوله لا بدله
من الموت إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور في قوله تعالى - نحن قدرنا بينكم الموت - وفي
قوله تعالى - الذى خلق الموت والحياة - ولانقضاض بين قوله تعالى - نحن قدرنا بينكم الموت -
وبين قوله « وأنا أكره مسأته » ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعى تحقيق معنى الإرادة والمحبة
والكرهية وبيان حقائقها فان السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكرهاتهم
وهيات فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتههم وكما أن ذوات الخلق
جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض فكذا
صفاته لاتناسب صفات الخلق وهذه الحقائق داخلية في علم المكاشفة ووراء سر القدر الذى منع
من إفشائه فلنقتصر عن ذكره ولنقتصر على ما نبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح
والإحجام عنه فان أحدهما مضيع لسلامة أدام الله وجوده من آدم عليه السلام بعد عقب إلى أن انتهى
إليه فالمتنع عن النكاح قد حسم الوجود الاستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه
فما أتبر لآعقب له ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون
زوجونى لألقى الله عزبا . فان قلت لما كان معاذ يتوقع ولدا في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه .
فأقول الولد يحصل بالوقوع ويحصل الوقوع بياض الشهوة وذلك أمر لا يدخل في الاختيار إنما العلق
باختيار العبد إحضار المحرك للشهوة وذلك متوقع في كل حال فمن عقد قد أدى ما عليه وفصل ما إليه
والباقي خارج عن اختياره ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضا فان نهضت الشهوة خفية لا يطلع
عليها حتى إن المسوح الذى لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضا في حقه على الوجه الذى يستحب
للأصغر إمرار موسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين وكما يستحب الرمل والاضطباع
في الحج الآن وقد كان المراد منه أولا إظهار الجلد للكفار فصار الاقتداء والتشبه بالدين أظهر وأجلد
سنة في حق من بعدهم ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث
وربما يزداد ضعفا بما يقابله من كراهية تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر فان ذلك
لا تخلو عن نوع من الخطر فهذا المعنى هو الذى ينبى على شدة إنكارهم لترك النكاح مع قور
الشهوة . الوجه الثانى السعى في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه بشكثير ما به مباحاته إذ
قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ما روى
عن عمر رضى الله عنه أنه كان ينكح كثيرا ويقول إنما أنكح للولد وما روى من الأخبار في
مذمة المرأة العقيم إذ قال عليه السلام « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد (٢) »

(١) حديث أنه تعالى يقول ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى السلم يكره الموت
وأنا أكره مسأته ولا بدله منه خ من حديث أبى هريرة انفرد به خالد بن مخلد القطوانى وهو
متكلم فيه (٢) حديث الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد أبو عمر التوفائى في كتاب معاشره
الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب ولم أجده مرفوعا .

الذى يكتسب بطريقة
الأحوال قد يكون
مأخوذا في ابتدائه في
طريق المحبين وقد
يكون مأخوذا في طريق
المحبوبين وذلك أن أمر
الصالحين والسالكين
يتقسم أربعة أقسام
سالك مجرد ومجذوب
مجرد وسالك متدارك
بالجذبة ومجذوب
متدارك بالسلك
فالسالك المجرد لا يؤهل
للمشيخة ولا يسلطها لبقاء
صفات نفسه عليه
فيقف عند حظه من
رحمة الله تعالى في مقام
للعامة والرياسة ولا
يرتقى إلى حال يروح بها
عن وهج للكبد
والمجذوب المجرد من
غير سلوك يبادته الحق
بآيات اليقين ويرفع
عن قلبه شيئا من
الحجاب ولا يؤخذ في
طريق العامة والمعاملة
أمر تام سوف تشرحه
في موضعه إن شاء الله
تعالى وهذا أيضا
لا يؤهل للمشيخة ويقف

وقال « خير نسائك المولود الودود (١) » وقال « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد (٢) » وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة لأن الحسناء أصلح للتحسين وغيض البصر وقطع الشهوة . الوجه الثالث أن يبقى بعده ولدا صالحا يدعوله كما ورد في الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثا فذكر الولد الصالح وفي الخبر « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور (٣) » وقول القائل إن الولد ربما لم يكن صالحا لا يؤثر فيه فانه مؤمن والصالح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيا إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد برا كان أو فاجرا فهو مثاب على دعواته وحسناته فانه من كسبه وغير مؤاخذ بسيناته فانه لا تزر وأزرة وزر أخرى ولذلك قال تعالى - ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء - أى ما نقصناهم من أعمالهم وجعلنا أولادهم مزيدا فى إحسانهم . الوجه الرابع أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعا قد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الطفل يجر بأبويه إلى الجنة (٤) » وفي بعض الأخبار « يأخذ بثوبه كما أنا الآن أخذ بثوبك (٥) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « إن المولود يقال له ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبنتا أى تمتلئا غيظا وغضا » ويقول لأدخل الجنة إلا وأبواى معى فيقال أدخلوا أبويه معه الجنة (٦) » وفي خير آخر « إن الأطفال يجتمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحتساب عليكم فيقولون فأين آباؤنا وأمهاتنا فيقول الحزنة إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون قال فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم ماهذه الضجة فيقولون ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آباؤنا فيقول الله تعالى تغلغلوا الجمع فخذوا

(١) حديث خير نسائك المولود الودود البيهقي من حديث ابن أبي أديّة الصدى قال البيهقي وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسل (٢) حديث سوداء ولود خير من حسناء لاتلد ابن حبان فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح [١] (٣) حديث إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور رويناه فى الأربعين المشهورة من رواية أبى هذبة عن أنس فى الصدقة عن الميت وأبو هذبة كذاب (٤) حديث إن الطفل يجر أبويه إلى الجنة . من حديث على وقال السقط بدل الطفل وله من حديث معاذ إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هى احتسبته وكلامها ضعيف (٥) حديث إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن أخذ بثوبك م من حديث أبى هريرة (٦) حديث إن المولود يقال له ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبنتا أى تمتلئا غيظا وغضا ويقول لأدخل إلا وأبواى معى الحديث حب فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح ون من حديث أبى هريرة يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أتم وآباؤكم وإسناده جيد .

[١] وجد بهامش العراق بأحد النسخ العول عليها مانصه قلت : ولأبى يعلى بسند ضعيف ذروا الحسناء العقيم وعليكم بالسوداء المولود فإنى مكاثركم بكم الأمم رواه عبد الله وله من حديث أبى موسى إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن امرأة قد أعجبتنى لا تلد أفأتزوجها ؟ قال لا فأعرض عنها ثم تتبعها نفسه فقال يا رسول الله قد أعجبتنى هذه المرأة ونحرها أعجبتنى دلها وعمرها أفأتزوجها ؟ قال لا امرأة سوداء ولود أحب إلى منها أما شجرت أنى مكاثركم الأمم سنه ضعيف .

عند حظه من الله
مروءة حاجاله غير مأخوذة
فى طريق أعماله ماعدا
الفرصة والسالك
الذى تدورك بالجنبة
هو الذى كانت بدايته
بالمجاهدة والكابدة
والمعاملة بالإخلاص
والوفاء بالشروط ثم
أخرج من وهج
الكابدة إلى روح
الحال فوجد العمل بعد
العقمة وتروح بنسبات
الفضل ويرز من مضيق
الكابدة إلى متسع
المساهلة وأونس
بنفحات القرب وفتح
له باب من للشاهدة
فوجد دواءه وفاض
وطاؤه وصدرت منه
كلمات الحكمة ومالت
إليه القلوب وتوالى
عليه فتوح الغيب وصار
ظاهره مسندا وباطنه
مشاهدا وصلح للجلوة
وصار له فى جلوته
خلوة فيقلب ولا يقلب
ويقرس ولا يقرس
يؤهل مثل هذا الشيخة
لأنه أخذ فى طريق

بأيدي آبائهم فأدخلوهم الجنة^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات له اثنان من الولد فقد احتضر بحظار من النار^(٢) » وقال ﷺ من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم قيل يارسول الله واثنان قال واثنان^(٣) . وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره قال فانتبه من نومه ذات يوم وقال زوجوني زوجوني فزوجوه فستل عن ذلك فقال لعل الله يرزقني ولدا ويقضه فيكون لي مقدمة في الآخرة ثم قال رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الوقف وبني من العطش ما كاد أن يقطع عني وكذا الخلائق في شدة العطش والسكر فتنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع عليهم مناديل من نور وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب وهم يستقون الواحد بعد الواحد يتخللون الجمع ويتجاوزون أكر الناس فمدت يدي إلى أحدهم وقلت اسقني قد أجهدتني العطش فقال ليس لك فينا ولد إنما نسقي آباءنا فقلت ومن أتم فقالوا نحن من مات من أطفال المسلمين وأحد للماني المذكورة في قوله تعالى - فأتوا حركم أني شتمهم وقدموا لأنفسكم - تقديم الأطفال إلى الآخرة فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سببا للهولاء . الفاعلة الثانية : التحصن عن الشيطان وكسر التوقان ودفع غوائل الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من نكح فقد حصن نصف دينه فليتنق الله في الشطر الآخر » وإليه الإشارة بقوله « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فليصم بالصوم فان الصوم له وجاء » وأكثر ما قلناه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى وهذا المعنى دون الأول لأن الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد فالنكاح كاف لشغله دافع لجملة وصارف لشر سطوته وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل فالشهوة والولد مقدران وبينهما ارتباط وليس يجوز أن يقال المقصود اللذة والولد لازم منها كإلزام مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته بل الولد هو المقصود بالقطرة والحكمة والشهوة باعثة عليه ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإلهاء وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لودامت فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان إذ التزغيب في لذة لم يجد لها ذوقاً لا ينفع فهو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع التزغيب وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثاً على عبادة الله فانظر إلى الحكمة ثم إلى الرحمة ثم إلى التعمية الإلهية كيف عبيت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة فالحياة الظاهرة حياة المرء يبقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام فيستحث على العبادة

(١) حديث إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذراري المسلمين ادخلوا لاحتساب عليكم فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا الحديث بطوله لم أجده أصلاً يعتمد عليه (٢) حديث من مات له اثنان من الولد احتضر بحظار من نار البرار والطيراني من حديث زهير بن أبي علقمة جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إنه مات لي اثنان سوى هذا فقال لقد احتضرت من دون النار بحظار شديد ولمسلم من حديث أبي هريرة التي قالت دفنت ثلاثة لقد احتضرت بحظار شديد من النار (٣) حديث من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم قيل يارسول الله واثنان قال واثنان خ من حديث أنس دون ذكر الاثنين وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بلفظ إنما امرأة بنحو منه .

المحبين ومنع حالا من أحوال المقربين بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم ويظهر بطريقه بركة ولكن قد يكون محبوباً في حاله محكماً حاله فيه لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال النوال يقف عند حظه وهو حظ وافر سنى والذين أوتوا العلم درجات ولكن المقام الأكمل في الشبهة القسم الرابع وهو المجذوب للتدارك بالسلوك يادته الحق بالكشوف وأنوار اليقين ويرفع عن قلبه الحجب ويستتير بأنوار الشاهدة وينشرح وينفس قلبه ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ويرتوي من بحر الحال ويتخلص من الأغلال والأغلال ويقول معلنا لا أعبد رباً لم أره ثم

الواصلة إليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر الواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان وما من ذرة من ذرات بدن الانسان باطناً وظاهراً ذرات بل ملكوت السموات والأرض إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجايبها ما تحار العقول فيها ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها فالتكاح بسبب دفع فائقة الشهوة مهم في الدين لسكل من لا يؤتى عن عجز وعنة وهم غالب الخلق فان الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى - إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير - وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة فيخض البصر ويحفظ الفرج فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره بل لا تزال النفس تجاذبه وتعذبه بأمر الواقع ولا يفتقر عنه الشيطان للوسوس إليه في أكثر الأوقات وقد يمرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الواقع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحيا منه والله مطلع على قلبه والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبه والواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن يضاف إليه ضعف في البدن وفساد في الزاج ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح وهذهمنة عامة قل من يتخلص منها قال فتادة في معنى قوله تعالى - ولا تجعلنا مالا طاقة لنا به - هو الغلبة . وعن بكرمة ومجاهد أنهما قالاً في معنى قوله تعالى - وخلق الانسان ضعيفاً - إنه لا يصبر عن النساء وقال قياض بن نجيع إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله وبعضهم يقول ذهب ثلث دينه وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما - ومن شرفا سقى إذا وقب - قال قيام الذكر وهذه بلية غالبية إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم وإليه أشار عليه السلام بقوله « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الأبواب منكن » (١) وإنما ذلك لمهيجان الشهوة وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شرمي وبصري وقلبي وشرمني » (٢) وقال « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي » (٣) فما يستعذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث فأنكر عليه بعض الصوفية فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفاً في معاملة غطرت على قلبه خاطر شهوة فقالوا يصيبنا من ذلك كثير فقال لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت لكني ما خطر على قلبي خاطر يشغلي عن حالي إلا نفذته فاستريح وأرجع إلى شغلي ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له بعض ذوى الدين ما لدى تنسك منهم قال يا أكون كثيرًا قال وأنت أيضاً لو جمعت كما يجوعون لأكلت كما يأكون قال ينكحون كثيراً قال وأنت أيضاً لو حفظت عيفك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون . وكان الجنب يقول أحناج إلى الجماع كما أحناج إلى القوت فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ولذلك أمر رسول الله

(١) حديث ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الأبواب منكن م من حديث ابن عمر واتفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسق م لفظه (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر سمى وبصري وشرمني تقدم في الدعوات (٣) حديث أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي هو في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين .

من باطنه على ظاهره وتجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء بل بلا اذة وهناء ويصير قلبه بصفة قلبه لا ملأه قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه وعلامة لين جلده إجابة قلبه للعمل كاجابة قلبه فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين ينقطع فيواصل ويعرض عنه فيراسل يذهب عنه جمود النفس ويصطفى بحرارة الروح وتنكشف عن قلبه عروق النفس قال الله تعالى - الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله - أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ولا يكون هذا إلا

صلى الله عليه وسلم كل من وقع نظره على امرأة فتأقت إليها نفسه أن يجماع أهله (١) ، لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس وروى جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذى معها (٢) وقال عليه السلام « لا تدخلوا على الغيبات وهى التى غاب زوجها عنها فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم قلنا ومنك قال ومنى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم (٣) » قال سفيان بن عيينة فأسلم معناه فأسلم أنا منه هذا معناه فإن الشيطان لا يسلم وكذلك يحكى عن ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يطر من الصوم على الجماع قبل الأكل وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يقتسل ويصلى وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله وإخراج غدة الشيطان منه وروى أنه جامع ثلاثا من جواربه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة وقال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء (٤) ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولأجل فراغ القلب أبيع نكاح الأمة عند خوف الفتنة مع أن فيه إرقاق الولد وهونوع إهلاك وهو محرم على كل من قدر على حرة ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين وليس فيه إلا تنقيص الحياة على الولد مدة وفى اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الأخرى التى تستحق الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقي شاب لم يرح فقال له ابن عباس هل لك من حاجة قال نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس وأنا الآن أهالك وأهلك قال ابن عباس إن العالم بعزلة الوالد لما كنت أفضيت به إلى أهلك فأفض إلى به فقال إني شاب لازوجتى وربما خشيت الفتنة على نفسى فربما استمنيت يدي فهل فى ذلك معصية فأعرض عنه ابن عباس ثم قال آف وآف ونكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنا فهذا تنبيه على أن العزب القلم مردد بين ثلاثة شروء أدناها نكاح الأمة وفيه إرقاق الولد وأشد منه الاستمناء باليد وأخفشه الزنا ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شئ منها لأنهما محذوران يفرع إليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه كما يفرع إلى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة للطفة ولا فى معنى الخير المطلق وليس قطع اليد للتأكل من الحشرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك فاذن فى النكاح فضل من هذا الوجه ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر قريب شخص قرت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فيعتمد هذا الباعث فى حقه ويبقى ماسبق من أمر الولد فإن ذلك عام إلا للمسوح وهو نادر ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصى المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ويقال

(١) حديث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتأقت نفسه إليها أن يجماع أهله أحمد من حديث أبى كبشة الأنمارى حين مرت به امرأة فوقع فى قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بعض أزواجه وقال فكذلك فافعلوا فإنه من أمثال أفعالكم إتيان الحلال وإسناده جيد (٢) حديث جابر رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته الحديث مسلم والترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح (٣) حديث لا تدخلوا على الغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم الحديث ت من حديث جابر وقال غريب ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل بعديوى هذا على مغية إلا ومعه رجل أو ثمان (٤) حديث ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء يعنى النبي صلى الله عليه وسلم رواه غ .

حال المحبوب للمراد وقد ورد فى الخبر أن إبليس سأل السبيل إلى القلب فقيل له يهرم عليك ولكن السبيل لك فى مجارى العروق للشبكة بالنفس إلى حد القلب فإذا دخلت العروق عرفت فيها من ضيق مجاريها وامتزج عروقك بماء الرحمة للترشح من جانب القلب فى مجرى واحد ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ومن جعلته نيبا أو وليا قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب سليما فإذا دخلت العروق لم تصل إلى الشبكة بالقلب فلا يصل إلى القلب سلطانك فالمحبوب للمراد الذى أهل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولأن جلده فصار قلبه بطبع الروح ونفسه بطبع القلب ولانت النفس بعد أن كانت أمارا بالسوء مستعصية

إن الحسن بن علي كان منكاحاً حتى نكح زيادة عن مائتي امرأة وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهنّ وقد قال عليه الصلاة والسلام «للحسن أشبهت خلقي وخلقى» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «حسن مني وحسين مني» (٢) قيل إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوج الغيرة بن شعبة بثمانين امرأة وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ومن كان له اثنتان لا يحصى ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه في الكثرة والقلة . الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالمجاسة والنظر واللعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة فإن النفس ملول وهى عن الحق تنور لأنه على خلاف طبعها فلو كلفت الدائمة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت وإذارت وحّت بالذات في بعض الأوقات قوية ونشطت وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويبنى أن يكون للنفس المتقين استراحات بالمباحات ولذلك قال الله تعالى - ليسكن إليها - وقال علي رضي الله عنه روحوا القلوب ساعة فأنها إذا كرهت عميت وفي الخبر «على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات» (٣) ومثله بلفظ آخر «لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد وأمرمة لمعاش أولدة في غير محرم» (٤) وقال عليه الصلاة والسلام «لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت قترته إلى سنى فقد اهتدى» (٥) والشرّة الجود والمكابدة بعمدة وقوة وذلك في ابتداء الإرادة والفترة الوقوف للاستراحة وكان أبو الدرداء يقول إنى لأستجم نفسى بشئ من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق وفي بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال «شكوت إلى جبريل عليه السلام ضغني عن الوقوع فدلىني على المريسة» (٦) وهذا إن صح لا يحمل له إلا الاستعداد للاستراحة ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استئثار للشهوة ومن عدم الشهوة عدم الأكر من هذا الأنس وقال عليه الصلاة والسلام «حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرّة عينى في الصلاة» (٧) فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إعتاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي أشبهت خلقي وخلقى قلت المعروف أنه قال هذا اللفظ لجمع من أبي طالب كما هو متفق عليه من حديث البراء ولكن الحسن أيضاً كان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة والترمذى ومحمد وابن حبان من حديث أنس لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن (٢) حديث حسن مني وحسين من علي أحمد من حديث المقداد بن معديكرب بسند جيد (٣) حديث على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة فيها يناجى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه حب من حديث أبي ذر في حديث طويل أن ذلك في صحف إبراهيم (٤) حديث لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أولدة في غير محرم حب من حديث أبي ذر الطويل أن ذلك في صحف إبراهيم (٥) حديث لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت قترته إلى سنى فقد اهتدى أحمد والطبراني من حديث عبدالله بن عمرو والترمذى نحو من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٦) حديث شكوت إلى جبريل ضغني عن الوقوع فدلىني على المريسة عد من حديث حذيفة وابن عباس والعقيلي من حديث معاذ وجابر بن سمرة وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة والأزدي في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضيفة قال ابن عدى موضوع وقال العقيلي باطل (٧) حديث حب إلى من دنياكم الطيب والنساء وقرّة عينى في الصلاة من حديث أنس باسناد جيد وضعفه العقيلي .

ولأن الجدل بين النفس ورد إلى صورة الأفعال بعد وجدان الحال ولا يزال روحه يجذب إلى الحضرة الإلهية فيستتبع الروح القلب ويستتبع القلب النفس والقالب فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ويصح له أن يقول لو كشف الغطاء ما زددت يقيناً فنفدت ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال لا الحسالة مسيطراً عليه ويصير حراً من كل وجه والشيخ الأوّل القدي أخذ في طريق المهين حر من رقّ النفس ولكن ربما كان باقياً في رق القلب وهذا

وهي خارجة عن الفائدتين السابقتين حتى إنها تطرد في حق المسحور وعن الشهوة إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية وهل من يقصد بالنكاح ذلك : وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء البارد والحضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتبه له . الفائدة الرابعة : تفرغ القلب عن تدير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والسكنس والقرش وتنظيف الأواني وتهية أسباب العيشة فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الواقع لتعذر عليه العيش في منزله وحده إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لصاع أكرأ وقته ولم يتفرغ للعلم والعمل فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنصات للعيش ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فاتها تفرغك للآخرة وإنما تفرغها بتدير المنزل وبقضاء الشهوة جميعا وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى - ربنا آتانا في الدنيا حسنة - قال المرأة الصالحة وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلبا شاكرًا ولسانًا ذا كرا وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته ^(١) » فانظر كيف جمع بينهما وبين الذكر والشكر وفي بعض التفاسير في قوله تعالى - فلنحيينه حياة طيبة - قال الزوجة الصالحة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيرا من امرأة صالحة وإن منهن غنا لا يحصى منه ومنهن غلا لا يندى منه وقوله لا يحصى أي لا يتناهى عنه بعباءة وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم بخصلتين كانت زوجته عونًا له على العصية وأزواجي أعوان لي على الطاعة وكان شيطانه كافرًا وشرطاني مسلم لا يأمر إلا بخير ^(٢) » فمدعاوتها على الطاعة فضيلة فهذه أيضا من الفوائد التي تصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كفل لهم ولا مدبر ولا تدعو إلى أمرئين بل الجمع ربما ينقص العيشة ويضطرب به أمور المنزل ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة ولذلك قيل ذل من لا ناصر له ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة فإن الدل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع للذل . الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق أهل البيت والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهم والسعي في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والقيام بربيته لأولاده فكل هذه أعمال عظيمة الفضل فاتها رعاية وولاية والأهل والولد رعاية وفضل الرعاية عظيم وإنما يعتز منها من يعتز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها والافتقار إلى الله تعالى عليه الصلاة والسلام « يوم من والعدل أفضل من عبادة سبعين سنة ثم قلب ألا كلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته ^(٣) » وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل

الشيخ في طريق
المحبوبين حر من رق
القلب كما هو حر من رق
النفس وذلك أن النفس
حجاب ظلماتي أرضي
أعتق منه الأول
والقلب حجاب نوراني
مماوى أعتق منه
الآخر فصار له لا قلبه
ولموقعه لا لوقعه فبعد
الله حقًا وآمن به صدقا
ويسجد لله سواده
وخياله ويؤمن به فؤاده
ويقرب به لسانه كما قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم في بعض
سجوده ولا يتخلف
عن العبودية منه شعرة
وتصير عبادته مشاكلة
لعبادة الملائكة - وقد
يسجد من في السموات
والأرض طوعا وكرها
وظلالهم بالقعود
والآسال فالقوال بهي

(١) حديث ليتخذ أحدكم قلبا شاكرًا ولسانًا ذا كرا وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته ت وحسنه وه
واللفظ له من حديث وفيه انقطاع (٢) حديث فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بخصلتين كانت
زوجته عونًا له على العصية وأزواجي أعوان لي على الطاعة وكان شيطانه كافرًا وشرطاني مسلم لا يأمر إلا
بخير رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلانسي قال ابن عدي
كان يضع الحديث ولمسلم من حديث ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وقد وكل بقرينه من الجن قالوا
ويا لك يا رسول الله قل وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير (٣) حديث يوم من وال
عدل أفضل من عبادة سبعين سنة ثم قال ألا كلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته طب وهق من
حديث ابن عباس وقد تقدم بلفظ ستين سنة دون مابعد فانه متفق عليه من حديث ابن عمر .

باصلاح نفسه فقط ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ولذلك قال بشر فضل عليّ أحمد بن حنبل ثلاث إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره وقد قال عليه الصلاة والسلام «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته» (١) وقال بعضهم لبعض العلماء من كل عمل أعطاني الله نصيبا حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له أين أنت من عمل الأبدال قال وما هو قال كسب الحلال والنفقة على العيال وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه قالوا ما نعلم ذلك قال أنا أعلم قالوا فما هو قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه فعمله أفضل مما نحن فيه وقال صلى الله عليه وسلم «من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغترب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين» (٢) وفي حديث آخر «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال» (٣) وفي الحديث «إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه» (٤) وقال بعض السلف من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا التمسك بالعيال وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا التمسك بالعيلة» (٥) وقال عليه السلام «من كان له ثلاث بنات فأنتفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنين الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة إلا أن يعمل عملا لا يغفر له» (٦) كان ابن عباس إذا حدث بهذا قال والله هو من غرائب الحديث وغرره وروى أن بعض التابعين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت فعرض عليه التزويج فامتنع وقال الوحدة أروح لقلبي وأجمع لحمي ثم قال رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكأن رجلا ينزلون ويسرون في الهواء يتبع بعضهم بعضا فكلما نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه هذا هو المشوم فيقول الآخرون نعم ويقول الثالث كذلك ويقول الرابع نعم فخطت أن أسألهم هبة من ذلك إلى أن مر بي آخرهم وكان غلاما فقلت ليا هذا من هذا المشوم الذي تؤمنون إليه فقال أنت قتلت ولم ذاك قال كذا نرفع عمك في أعمال المجاهدين في سبيل الله فندجعة أمرنا أن نضع عمك مع الخالفين فما ندري ما أحدث فقال لإخوانه زوجوني زوجوني فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوما دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت فتعجبوا من ذلك فقال لا تعجروا فاني سألت الله تعالى وقلت ما أنت متعاقب لي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا قال إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها

(١) حديث ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته من حديث ابن مسعود إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة ولهما من حديث سعد بن أبي وقاص ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك (٢) حديث من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغترب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف (٤) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال بالخرن وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (٥) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا التمسك بالعيلة الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص التشابه من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف (٦) حديث من كان له ثلاث بنات فأنتفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنين الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة إلا أن يعمل عملا لا يغفر له الحرانطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف وهو بلفظ آخر ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد من قال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة ورجاله ثقات وفي سننه اختلاف .

لطيف العبد وكشفه وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال ويمتلى بما أنيل من وجدان الحال وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ ولو كثرت العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد رأي أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة عن القوالب فإذا امتلأت القوالب باقية فالعمل باق ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ الطلق والعارف الحقوق المحبوب المتق نظره دواء وكلامه شفاء بالله ينطق وبالله يسكت كما ورد ولا يزال العبد يتقرب إلى بالذواقل حتى أحبه فإذا أحبته كنت له سمعا وبصرا ويبدأ ومؤيداً ينطق وبني يصير الحديث فالشيخ يعطى بالله ويعنع بالله فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه بل

قزوت بها وأنا صابر على ما ترون منها وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب وتحسين الخلق فان للفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا ترشح منه خبايا النفس الباطنة ولا تكشف بواطن عيوبه فحق على سالك طريق الآخرة أن يحترّب نفسه للتعرض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أن رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها فهذه أيضا من الفوائد ولكنه لا ينفع بها إلا أحد رجلين إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق فلا يجد أن يرى هذا طريقا في المجاهدة وترتاض به نفسه وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بترتيبهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا تمتدّ خيرها إلى غيره فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الحلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والكشافات فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض فإن الرياضة هو مكفي فيها وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك لأنه أيضا عمل وفائده أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة . أما آفات النكاح ثلاث . الأولى : وهي أقواها العجز عن طلب الحلال فإن ذلك لا يتيسر لكل أحد لاسيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعاش فيكون النكاح سببا في التوسع للطلب والاطعام من الحرام وفيه هلاك أهله والتمزب في أمن من ذلك وأما التزوج ففي الأكثر يدخل في مداخل سوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بديناره وفي الخبر « إن العبد ليوقف عند اللزآن وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم وعن ماله من أين اكتسبه وفيه أثقه حق يستغرق تلك المطالبات كل أعماله فلا تبقى له حسنة فتنادي لللائكة هذا الذي أكل عياله حسنة في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله ويقال إن أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون يا ربناخذ لنا بحقنا منه فانهما علنا مانجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لانعلم فيقتص لهم منه ^(١) » وقال بعض السلف إذا أراد الله بعبده شرا سلط عليه في الدنيا أنيابا تنهشه يعني العيال وقال عليه الصلاة والسلام « لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله ^(٢) » فهذه آفة عامة قل من يتخاص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال بقي به وبأهله وكان له من القناعة ما ينمعه من الزيادة فإن ذلك يتخلص من هذه الآفة أو من هو محترف ومقتدر على كسب حلال من الباحات باحتطاب أو اصطيد أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله وقد سئل عن التزوج فقال هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب مثل الحمار يرى الأتان فلا ينتهي عنها بالضرب ولا يملك نفسه فان ملك نفسه فتركه أولى . الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقوقهم والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهم وهذه دون الأولى في العموم فإن القدرة على هذا أسير من القدرة على الأولى وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحقوقهن محظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته وقال عليه الصلاة والسلام « كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول ^(٣) »

(١) حديث إن العبد ليوقف عند اللزآن وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهم الحديث لم أقف له على أصل (٢) حديث لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي سعيد ولم يحده ولده أبو منصور في مسنده (٣) حديث كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول دن يلفظ من يقوت وهو عند م بلفظ آخر .

هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه فان علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

[الباب الحادي عشر في شرح حال الخادم ومن يشبه به]

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام وقال يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما الخادم يدخل في الجنة راعيا في الثواب وفيما أعد الله تعالى للعباد ويتصدي لإيصال الراحة ويفرغ خاطر القلبين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يفعله الله تعالى بنية صالحة فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى والخادم واقف

وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ومن يقصر عن القيام بحقوقهم وإن كان حاضرا فهو بمنزلة هارب فقد قال تعالى - قوا أنفسكم وأهليكم نارا - أمرنا أن نقيم النار كأنني أنفسنا والانسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضفت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أماراة بالسوء إن كثرت كثرت الأمار بالسوء غالبا ولذلك اعتذر بعضهم من التزويج وقال أنا مبتلى بنفسى وكيف أضيف إليها نفسا أخرى كما قيل .

لن يسع الفأرة جحرها علفت المكس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن آدم رحمه الله وقال لأغر امرأة بنفسى ولا حاجة لى فيهن أى من القيام بحقوقهم وتحصينهم وإمتاعهم وأنا عاجز عنه وكذلك اعتذر بشر وقال بمعنى من النكاح قوله تعالى - ولهن مثل الذى عليهن - وكان يقول لو كنت أعول دجاجة لحفت أن أصير جلادا على الجسر ورؤى سفيان بن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له ما هذا موقفك فقال وهل رأيت ذاعيل أطلع وكان سفيان يقول :

يا حبذا العزبة والفتاح ومسكن تحرقه الرياح لا صخب فيه ولا صباح

فهذه آفة عامة أيضا وإن كانت دون عموم الأولى لا يسلم منها إلا حكيم عاقل حسن الأخلاق بصير بمادات النساء صبور على لسانهن وقاف عن اتباع شهواتهن حريص على الوفاء بحقوقهن يتفادى عن زللهم ويدارى بعقله أخلاقهم والأغلب على الناس السفه والفظاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الانصاف مع طلب تمام الانصاف ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لا محالة فالوحدة أسلم له . الآفة الثالثة : وهى دون الأولى والثانية أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحن تدير العيشة للأولاد بكثرة جمع المال وإدخالهم وطب الطفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه ولست أعنى بهذا أن يدعو إلى محظور فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية بل أن يدعو إلى التمتع بالمباح بل إلى الإغراق فى ملاعبة النساء وموانستن والامعان فى التمتع بهن ويشور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب فينقض الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيها للتفكير فى الآخرة والاستعداد لها ولذلك قال إبراهيم بن آدم رحمه الله من تعود أخذ النساء لم ينج منه شيء وقال أبو سليمان رحمه الله من تزوج فقد ركن إلى الدنيا أى يدعو ذلك إلى الركون إلى الدنيا فهذه مجامع الآفات والفوائد فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الاحاطة بمجامع هذه الأمور بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومعكبا ويعرض المرید عليه نفسه فإن اتفت فى حق الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجرد فى الدين تام لا يشغله النكاح عن الله وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد محتاج إلى تدبير للنزل والتحصن بالعشيرة فلا يمارى فى أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى فى تحصيل الولد فإن اتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة فى الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات فى نقصان منه فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول من لم يكن فى أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه فى السعى لتحصيل الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى فلا خير فيما يشغل عن الله ولا خير فى كسب الحرام ولا يبنى بتقصان هذين الأمرين

مع نيته فالخادم يفعل
الشيء لله تعالى والشيخ
يفعل الشيء لله فالشيخ
فى مقام المقرين والخادم
فى مقام الأبرار فيختار
الخادم البذل والإيثار
والارتفاق من الأغيار
للأغيار ووظيفة وقته
تصديده لخدمة عباد الله
وفيه يعرف الفضل
ويرجحه على نوافله
وأعماله وقد يقيم من
لا يعرف الخادم من
الشيخ الخادم مقام
الشيخ وربما جهل
الخادم أيضا حال نفسه
فيحسب نفسه شيخة لقلة
العلم واندراس علوم
القوم فى هذا الزمان
وقناعة كثير من
الفقراء من الشايخ
باللحمة دون العلم والحال
فكل من كان أكثر
إطعاما هو عندهم أحق
بالمشيخة ولا يعلمون
أنه خادم وليس بشيخ
والخادم فى مقام حسن
وحظ صالح من الله
تعالى . وقد ورد ما يدل
على فضل الخادم فيها

أمر الولد فإن النكاح للولد سعى في طلب حياة للولد موهومة وهذا نقصان في الدين ناجز حفظه
لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى في الولد وذلك ربح والدين رأس مال وفي فساد الدين
بطلان الحياة الأخروية وذهاب رأس المال ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآتين وأما إذا
انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر فإن لم يقو لجأ التقوى
رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام والكسب
الحرام أهون الشرين وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر
عن الحرام فترك النكاح أولى لأن النظر حرام والكسب من غير وجه حرام والكسب يقع دائما
وفيه عصيانا وعصيان أهله والنظر يقع أحيانا وهو يخصه وينصرم على قرب والنظر زنا العين ولكن
إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى الغنى أقرب من أكل الحرام إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج
فيرجع ذلك إلى خوف العنت وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة وهو أن يقوى على غض البصر ولكن
لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب أولى بترك النكاح لأن عمل القلب إلى الغنى أقرب وإنما
يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه فكذا ينبغي أن توزن
هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها ومن أحاط بهذا لم يشكك عليه شيء مما قلنا عن السلف من
ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح . فان قلت فمن أمن
الآفات فما الأفضل له التخلي لعبادة الله أو النكاح ؟ فأقول يجمع بينهما لأن النكاح ليس مانعا من
التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب فان قدر على الكسب
الحلال فالنكاح أيضا أفضل لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة والواظبة على
العبادة من غير استراحة غير ممكن فان فرض كونه مستغرقا للأوقات بالكسب حتى لا يبقى له وقت
سوى أوقات الكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة فان كان المجل بمن لا يسلك سبيل الآخرة
إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل لأن في كسب الحلال
والقيام بالأهل والسعى في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعا من العبادات لا يقصر فضلها
عن نوافل العبادات وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن والكسب يشوش عليه ذلك فترك
النكاح أفضل . فان قلت فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله وإن كان الأفضل التخلي
لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج . فأقول أن الأفضل الجمع بينهما في حق
من قدر ومن قوت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة
وجمع بين فضل العبادة والنكاح ولقد كان مع تسع من النسوة (١) متخليا لعبادة الله وكان قضاء
الوطر بالنكاح في حقه غير مانع كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعا لهم
عن التدبير حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهمهمهم غير غافلة عن مهماتهم
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلوا درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى
فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته (٢) ومتى سلم مثل هذا النصب لغيره فلا يبعد أن
يغير السواقي ما لا يغير البحر الحضم فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره . وأما عيسى صلى الله عليه وسلم
فانه أخذ بالحزم لا بالقوة واحتاط لنفسه ولعل حاله كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل أو يتعذر

(١) حديث جمعه صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة خ من حديث أنس وله من حديثه أيضا
وهن إحدى عشرة (٢) حديث كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته خ من حديث أنس
بأنه سلمة لا تؤدى في عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة
ابن الحافظ أبي الفضل
محمد بن طاهر القديسي
عن أبيه قال أنا
أبو الفضل محمد بن
عبد الله القري قال
حدثنا أبو الحسن محمد
ابن الحسين بن داود
العلوي قال حدثنا
أبو حامد الحافظ قال
حدثنا العباس بن محمد
الدوري وأبو الأزهر
قالا حدثنا أبو داود قال
ثنا سفيان عن
الأوزعي عن يحيى بن
أبي كثير عن أبي سلمة
عن أبي هريرة أن النبي
صلى الله عليه وسلم أتى
بطعام وهو عمر
الظهران فقال لأبي بكر
وعمر كلا فقالا إنا
صائمان فقال ارحلا
صاحبيكما اعملا
صاحبيكما ادنوا فكل
يعني أنكما ضعفتما
بالصوم عن الخدمة
فاحتجتما إلى من
يخدمكما فكلوا واخدما
أنفسكما فالخادم يحرم
على حيازة الفضل

معهما طلب الحلال أولا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فأثر التخلي للعبادة وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب للكاسب وأخلاق النساء وما على الناكح من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال متقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل فتحقق أن تنزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال والله أعلم .

(الباب الثاني فيما يرامى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد)

أما العقد فأركانها وشروطه لينتقد ويفيد الحل أربعة : الأول إذن الولي فإن لم يكن فالسلطان . الثاني رضا المرأة إن كانت ثيبا بالغا أو كانت بكرا بالغا ولكن يزوجه غير الأب والجد . الثالث حضور شاهدين ظاهري العدالة فإن كانا مستورين حكمنا بالانقضاء للحاجة . الرابع إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناها الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما . وأما آدابه فتقديم الخطبة مع الولي لا في حال عدة المرأة بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ولا في حال سبق غيره بالخطبة إذ نهى عن الخطبة على الخطبة (١) ومن آدابه الخطبة قبل النكاح ومزج التعميد بالإيجاب والقبول فيقول المزوج المحدث والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة ويقول الزوج الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق وليكن الصداق معلوما خفيفا والتعميد قبل الخطبة أيضا مستحب . ومن آدابه : أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكرا فذلك أخرى وأولى بالألفة ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فانه أخرى أن يؤدم بينهما . ومن الآداب إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها أن ينوي بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطاب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع فيصير عمله من أعمال الدنيا ولا يمنع ذلك هذه النيات فرب حق يوافق الهوى قال عمر بن العزيز رحمه الله إذا وافق الحق الهوى فهو الزيد بالزريان ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثا معا ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوال قالت عائشة رضي الله عنها تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني في شوال (٢) . وأما النكوة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحل . والثاني لطيب المعيشة وحصول المقاصد . النوع الأول ما يعتبر فيه الحل : وهو أن تكون خالية عن موانع النكاح والوانع تسعة عشر : الأول أن تكون منكوبة للغير . الثاني أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك عين . الثالث أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر . الرابع أن تكون مجنونة . الخامس أن تكون وثنية أو زنديقة لا تنسب إلى نبي وكتاب ومنهن المعتقدات لمذهب الإباضية فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتقدة مذهبا فاسدا يحكم بكفر معتقدة . السادس أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل فإذا عدت كلتا الحالتين لم يحل نكاحها وإن عدت النسب فقط فقيه خلاف . السابع أن تكون رقيقة والناكح حرا قادرا على طول الحرية أو غير خائف من العنت . الثامن أن تكون كلها أو بعضها مملوكا للناكح ملك عين التاسع أن تكون قريبة للزوج

(الباب الثاني فيما يرامى حالة العقد)

(١) حديث النبي عن الخطبة على الخطبة متفق عليه من حديث ابن عمر ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له (٢) حديث عائشة تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني في شوال م .

فيقوصل بالكسب تارة وبلاسترقاق والدروزة تارة أخرى وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة لعله أنه قيم بذلك صالح لإيصاله إلى الوقوف عليهم ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الاتفاق يحتاج إلى علم تام ومعاناة تخليص النية عن شوائب النفس والشهوة الخفية ولو خلصت نية ما رغبت في ذلك لوجود مراده فيه وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق . أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف بإجازة قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي يقول سمعت محمد بن الحسين بن الحشاش يقول سمعت جعفر بن محمد يقول سمعت الجنيدي يقول سمعت

بأن تكون من أصوله أو فصول أول أصوله أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل وأغنى بالأصول الأمهات والجندات وبفصوله الأولاد والأحفاد وبفصول أول أصوله الإخوة وأولادهم وبأول فصل من كل أصل بعده أصل العمات والحالات دون أولادهن . العاشر : أن تكون محرمة بالرضاع ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كالمسبق ولكن المحرم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم . الحادى عشر : المحرم بالمصاهرة وهو أن يكون النكاح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد [١] من قبل أو وطئهن بالشبهة في عقد أو وطئ أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد فجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ولا يحرم فروعها إلا بالوطء أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل . الثانى عشر : أن تكون النكحة خامسة أى يكون تحت النكاح أربع سواها إما فى نفس النكاح أو فى عدة الرجعة فإن كانت فى عدة بينونة لم تمنع الخامسة . الثالث عشر : أن يكون تحت النكاح أختها أو عماتها أو خالتها فيكون بالنكاح جامعا بينهما وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى لم يحز بينهما النكاح فلا يجوز أن يجمع بينهما . الرابع عشر : أن يكون هذا النكاح قد طلقها ثلاثا فهي لا تحل له مالم يطأها زوج غيره فى نكاح صحيح . الخامس عشر : أن يكون النكاح قد لا عنها فاتها تحرم عليه أبدا بعد اللعان . السادس عشر : أن تكون محرمة بمح أو محرمة أوكان الزوج كذلك فلا ينقصد النكاح إلا بعد تمام التحلل . السابع عشر : أن تكون ثيبا صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . الثامن عشر : أن تكون بتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ : التاسع عشر : أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن توفى عنها أو دخل بها فانهن أمهات المؤمنين وذلك لا يوجد فى زماننا فهذه هى اللوائح المحرمة . أما الحاصل للطبيعية للعيش التى لا بد من مراعاتها فى المرأة ليوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين والخلق والحسن وخفة المهر والولادة والبكارة والنسب وأن لا تكون قرابة قربية . الأولى أن تكون صالحة ذات دين فهذا هو الأصل وبه ينبى أن يقع الاعتناء فاتها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفوزها أرزت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنقص بذلك عيشه فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل فى بلاء وعنة وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والأثقة وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ويكون كالذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله إن لى امرأة لاتر يد لاس قال طلقها فقال إني أحبها قال أمسكها (١) وإنا أمره بامساكها خوفا عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضا معها فرأى ما فى دوام نكاحه من دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه فإن سكنت ولم ينكره كان شريكا فى العصية مخالفا لقوله تعالى - قوا أنفسكم وأهليكم نارا - وإن أنكر وخاصم تنقص العمر ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين فقال « تنكح المرأة لما لها وجمالها وحسبها » (١) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن لى امرأة لاتر يد لاس قال طلقها الحديث د ن من حديث ابن عباس قال ن ليس بثابت والرسول أولى بالصواب وقال أحمد حديث منكر وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

[١] قوله أو ملك بعقد أو شبهة عقد ليس بنسخة الشارح وهو الصواب لأن الملك ليس من المحرمات اه .

السرى يقول أعرف طريقا مختصرا قصدا إلى الجنة فقلت له ماهو قال لا تسأل من أحد شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ولا يكن معك شيء تعطى منه أحدا شيئا والخدام يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار فيقدم الخدمة على النوافل ويرى فضلها وللخدمة فضل على النافلة التى يأتى بها العبد طالبا لها الثواب غير النافلة التى يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود عقد قبل وعد . وما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنى والذى الحافظ المقدسى قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان قال أنا إبراهيم بن عبد الله ابن خرشيد قال حدثنا الحسين بن إسماعيل الحمامل قال

ودينها فضلك بذات الدين تربت يداك^(١)» وفي حديث آخر «من نسكح المرأة لمالها وجمالها حرم جمالها ومالها ومن نسكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يردبها ولا لمالها فلعل مالها ينطسها وانكح المرأة لدينها^(٣)» وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له. الثانية حسن الخلق وذلك أصل مهم في طلب القراغة والاستعانة على الدين فانها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنم كان الضرر منها أكثر من النفع والصبر على لسان النساء مما يعتجن به الأولياء قال بعض العرب: لا تنكحوا من النساء ستة لا أمانة ولا منانة ولا خيانة ولا تنكحوا أحداً قولا براقاً ولا شداقة. أما الأمانة فهي التي تكبر الأئمن والتشكي وتصب رأسها كل ساعة فنكاح المراضاة أو نكاح الممارضة لا خير فيه، والثانية التي عني على زوجها فتقول ضلت لأجلك كذا وكذا، والحنانة التي عني إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه، والحادقة التي ترمي إلى كل شيء بمحدثها فتشبهه وتنكف الزوج شراءه؛ والبراقة تحتل معنيين أحدهما أن تكون طول النهار في تصقل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق يحصل بالصنع والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء وهذه لغة عيانية يقولون برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده، والشداقة للتشدة الكثيرة الكلام ومنه قوله عليه السلام «إن الله تعالى يغيض الثرائين المتشدين^(٤)» وحكي أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل ثم قال لا تنكح أربعا المختلة والبارية والعاهرة والناشر، فأما المختلة فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب، والبارية الباهية بغيرها للفاخرة بأسباب الدنيا، والعاهرة الفاسقة التي تعرف بخليل وخذن وهي التي قال الله تعالى - ولا متخذات أخدان - والناشر التي تملو على زوجها بالفعال والقتال والنشر العالي من الأرض، وكان على رضى الله عنه يقول: شر خصال الرجال خبر خصال النساء البخل والزهو والجبن فان المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لبن حبيب وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح. الثالثة حسن الوجه فذلك أيضاً مطلوب إذ به يحصل التحسن والطبع لا يكتفى بالديممة غالباً كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفرقان وما قلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجراً عن رعاية الجمال بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين فان الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الالتفات إلى

(١) حديث تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين متفق عليه من حديث أنى هريرة (٢) حديث من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقراً ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ومن تزوج امرأة لم يردبها إلا أن يغضب بصره ويغضب فرجه أو يصل رحمه بركة الله له فيها وبارك لها فيه ورواه حب في الضعفاء (٣) حديث لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يردبها من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٤) حديث إن الله يغيض الثرائين المتشدين وحسنه من حديث جابر وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون، ولأنى داود والترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو إن الله يغيض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تغلل الباقرة بلسانها.

ثنا أبو السائب قال
ثنا أبو معاوية قال
ثنا عاصم عن مورك
عن أنس قال كنا مع
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فبنا الصائم
ومنا للفطر فزلنا منزلاً
في يوم حار شديد
الحر فبنا من يتقى
الشمس يده
وأكثرنا ظلاً صاحب
الكساء يستظل به
فنام الصائمون وقام
الفطرون فضربوا
الأبنية وسقوا الركاب
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «ذهب
الفطرون اليوم بالأجر»
وهذا حديث يدل على
فضل الخدمة على النافلة
والخادم له مقام عزيز
يرغب فيه فأما من
لم يعرف تخليص النية
من شوائب النفس
ويتشبه بالخادم
ويتصدى لخدمة
الفقراء ويدخل في
مداخل الخدام بحسن
الارادة بطلب الناس
بالخدام فتصكون

معنى الجمال أن الألف والمودة تحصل به غالبا وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال « إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما ^(١) » أى يؤلف بينهما من وقوع الألفة على الألفة وهى الجملة الباطنة والبشرة الجملة الظاهرة وإنما ذكر ذلك للبالغة فى الائتلاف وقال عليه الصلاة والسلام « إن فى أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن ^(٢) » قيل كان فى أعينهم عشى وقيل صغر وكان بعض الورعين لا ينكحون كراهم إلا بعد النظر احترازا من الغرور وقال الأعمش كل تزويج يقع على غير نظر فأخبرهم وهم ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال وإنما يعرف الجمال من التبصير وروى أن رجلا تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه شابا فأوجسه عمر ضربا وقال غررت القوم وروى أن بلالا وصبيها أتيا أهل بيت من العرب فغطيا إليهم فقيل لهما من أنتم فقال بلال أنا بلال وهذا أخى صبيب كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله وكنا عاتلين فأغنانا الله فان تزوجونا فالحمد لله وإن تردونا فسيحان الله فقالوا بل تزوجنا والحمد لله فقال صبيب لبلال لو ذكرت مشاهدنا وسواها مع رسول الله ﷺ فقال اسكت قد صدقت فأحكك الصدق والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعا فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر وفى الخلق بالوصف والاستيفاف فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ولا يوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى الثناء ولا يحسدها فيقصر فالطباع مائلة فى مبادئ النكاح ووصف النكوحات إلى الإفراط والتفريط وقل من يصدق فيه ويقتصد بل الحداد والاعتراف أغلب والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قديما على الدين فى حق بعض الأشخاص قال أبو سليمان الداراني الزهد فى كل شئ حتى فى المرأة يتزوج الرجل العجوز إشارا للزهد فى الدنيا وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول يترك أحدكم أن يتزوج بتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة الثؤنة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فتشبهى عليه الشهوات وتقول اكسنى كذا وكذا واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة فسأل من أعقلهما فقيل العوراء فقال تزوجونى إياها فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فليطلب الجمال فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل إذا كانت المرأة حسنة خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهى على صورة الحور العين فان الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة في قوله - خيرات حسان - أراد بالخيرات حسنات الأخلاق وفى قوله - قاصرات الطرف - وفى قوله - عربا آرابا - العروب هى العاشقة لزوجها المشبهة للواقع وبه تم اللذة والحور البياض والحوراء شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر والعناية الواسعة العين . وقال عليه الصلاة والسلام « خير نساءكم من إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب

خدمته مشوبة منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته فى خدمة القوم ومنها ما لا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشئ فى غير موضعه وقد يخدم بهواه فى بعض تصاريفه ويخدم من لا يستحق الخدمة فى بعض أوقاته ويجب الخدمة والثناء من الخلق مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى وزعماء خدم للثناء وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخامرهم فى حق من يلقاه بمكره ولا يراعى واجب الخدمة فى طرف الرضا والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى والخادم لا يتبع الهوى فى الخدمة فى الرضا والغضب ولا يأخذ فى الله لومة لائم ويضع الشئ فى موضعه فإذا كان الشخص الذى وصفناه آتفا متخادما وليس بخادما ولا يميز بين

(١) حديث إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما ابن ماجه بسند ضعيف من حديث أحمد بن مسleme دون قوله فإنه أحرى وللترمذى وحسنه والذهاوى وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبه أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما (٢) حديث إن فى أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن مسلم من حديث أبى هريرة نحوه .

عنها حفظته في نفسها وماله^(١) » وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت عجة للزوج . الرابعة أن تكون خفيفة المهر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا^(٢) » وقد نهى عن المغالة في المهر^(٣) تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحييد وجرة ووسادة من آدم حشوها ليف^(٤) ، وأولم على بعض نسائه عديدين من شعير^(٥) وعلى أخرى عديدين من تمر ومدين من سويق^(٦) ، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالة في الصداق ويقول مات تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربع مائة درهم^(٧) ولو كانت المغالة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم^(٨) وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضى الله عنه على درهمين ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعد سبعة أيام فلم عليها ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج عن خلاف العلماء فلا بأس به وفي الخبر « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما » أى الولادة « ويسر مهرها^(٩) » وقال أيضا « أبركهن أقلهن مهرا^(١٠) » وكانت المرأة في المهر من جهة المرأة

(١) حديث خير نساكم التي إذا نظر إليها زوجها سرته وإن أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله النساء من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح وقال ولا تغالfe في نفسها ولا مالها وعند أحمد في نفسها وماله ولأبي داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح (٢) حديث خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا ابن حبان من حديث ابن عباس خيرهن أيسرهن صداقا وله من حديث عائشة من بين المرأة تسهل أمرها وقلة صداقها وروى أبو عمر التوقاني في كتاب معايشة الأهلين إن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا وصححه (٣) حديث النبي عن المغالة في المهر أصحاب السنن الأربعة موقوفا على عمر وصححه الترمذى (٤) حديث تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحييد وجرة ووسادة من آدم حشوها ليف أبو داود الطيالسي والبخاري من حديث أنس تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم قال البخاري ورأيت في موضع آخر تزوجها على متاع بيت ورعى قيمته أربعون درهما ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف ولأحمد من حديث على لما زوجه فاطمة بث معها بخميلة ووسادة آدم حشوها ليف ورحين وسقاء وجرتين ورواه الحاكم وصححه إسناده وابن حبان مختصرا (٥) حديث أولم على بعض نسائه عديدين من شعير البخاري من حديث عائشة (٦) حديث وأولم على أخرى عديدين تمر ومدى سويق الأربعة من حديث أنس أولم على صفية بسويق وتمر ولمسلم فجعل الرجل يحب فضل التمر وفضل السويق وفي الصحيحين التمر والأقط والسمن وليس في شيء من الأصول تقييد التمر والسويق عديدين (٧) حديث كان عمر ينهى عن المغالة ويقول مات تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربع مائة درهم الأربعة من حديث عمر قال الترمذى حسن صحيح (٨) حديث تزوج بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقويها بخمسة دراهم رواه البيهقي (٩) حديث من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما أى الولادة وتيسر مهرها أحمد والبيهقي من حديث عائشة من بين المرأة أن تيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحما قال عروة يعنى الولادة وإسناده جيد (١٠) حديث أبركهن أقلهن مهرا أبو عمر التوقاني في معايشة الأهلين من حديث عائشة إن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا وقد تقدم وأحمد والبيهقي أن أعظم النساء بركة أيسرهن

الحادم والمتخادم إلا لمن له علم بصحة النيات وتخليصها من شوائب الهوى والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الحادم في كثير من تصاريفه ولا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزج هواه وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه أو توفير رفق عليه وهو يخدم لئال يصيبه أو حظ عاجل يدركه فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره فلواقطع رفته ماخدم وربما استخدم من يخدم فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ويحتاج إليه في المحافل يتكثربه ويقم به جاء نفسه بكثرة الأتباع والأشباع فهو خادم هواه وطالب دنياه يحرم من ناره وويله في تحصيل ما يقيم به جاهه ويرضى نفسه وأهله وولده فيتسع في الدنيا ويتزنا بغير رى الخدام والفقراء وتنتشر نفسه

فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل ولا ينبغي أن ينكح طمعا في المال قال الثوري إذا تزوج وقال أي شيء للمرأة فاعلم أنه لم يمس وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطرم إلى القابلة بأكثر منه وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة فأما التهادي فمستحب وهو سبب المودة قال عليه السلام «تهادوا تحابوا» (١) «وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى - ولأن تنكح - أي تعطى لتطلب أكثر وتحت قوله تعالى - وما آتيت من ربا ليربو في أموال الناس - فإن الربا هو الزيادة وهذا طلب زيادة على الجملة وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح . الخامسة أن تكون المرأة ولودا فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها قال عليه السلام «عليكم بالولود الودود» (٢) «فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فإراعى معها وشاؤها فإنها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين . السادسة أن تكون بكرًا قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيبا «هلا بكراتلاعها وتلاعبك» (٣) «وفي البكارة ثلاث فوائد إحداها أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود وقد قال ﷺ «عليكم بالودود» والطباع محبولة على الأنس بأول ما لوف . وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألقتة فتقل الزوج . الثانية أن ذلك أكل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر وبعض الطباع في هذا أشد نفورا . الثالثة أنها لا تنح إلى الزوج الأول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالبا : السابعة أن تكون نسية أعني أن تكون من أهل بيت الدين والصالح فإنها تستر بناتها وبناتها فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والترية ولذلك قال عليه السلام «إياكم وخضراء الدمن قليل ما خضراء الدمن قال للمرأة الحسناء في الثبوت السوء» (٤) «وقال عليه السلام» تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع» (٥) . الثامنة أن لا تكون من القرابة القريبة فإن ذلك يقلل الشهوة قال صلى الله عليه وسلم «لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا» (٦) «أي نحيفا وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس وإنما يقوى الاحساس بالأمر الغريب الجديد فأما المهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة فهذه هي الخصال المرغوبة في النساء ويجب على الولي أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكرمه فلا يزوجه ممن ساء خلقه أو خلقه أضعف دينه أو قصر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكافئها

صداقا وإسناده جيد (١) حديث تهادوا تحابوا البخاري في كتاب الأدب المفرد والبيهقي من حديث أبي هريرة بسند جيد (٢) حديث عليكم بالودود الودود أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار تزوجوا الودود الودود وإسناده صحيح (٣) حديث قال لجابر وقد نكح ثيبا هلا بكراتلاعها وتلاعبك متفق عليه من حديث جابر (٤) حديث إياكم وخضراء الدمن قليل وما خضراء الدمن قال للمرأة الحسناء في الثبوت السوء الدارقطني في الأفراد والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري قال الدارقطني تفرد به الواقدي وهو ضعيف (٥) حديث تخيروا لنطفكم فإن العرق دحاس ابن ماجه من حديث عائشة مختصرا دون قوله فإن العرق وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس وروى أبو موسى التيمي في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس وكلاهما ضعيف . (٦) حديث لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا قال ابن الصلاح لم أجده أصلا معتمدا . قلت إنما يعرف من قول عمر إنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا في النوايح رواه إبراهيم الحارثي في غريب الحديث وقال معناه تزوجوا الغرائب قال ويقال اغربوا ولا تضووا .

بطلب الحفظ ويستولى عليه حب الرياسة وكلما كثرت مواد هواه كثرت واستطال على الفقراء ويحوج الفقراء إلى التملق المفرط له لطلب الرضا وتوقيا لضيعة وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما فليس بخادم ولا متخدوم ومع ذلك كله ربما نال برحمتهم باختيار خدمتهم على خدمة غيرهم وباتانته إليهم وقد أوردنا الخبر للسند الذين في سياقه «هم القوم الذي لا يشقى بهم جليسهم» والله الموفق والعلمين .

[الباب الثاني عشر في شرح خرقه الشايع الصوفية]

لبس الخرقه ارتباط بين الشيخ وبين المريد ونعكس من المريد للشيخ في نفسه والتحكيم سائق في الشرع لمصالح دينوية

في نسبها قال عليه السلام « النكاح رقي فليُنظر أحدكم أين يضع كريمة (١) » والاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة بالنكاح لا يخلص لها والزوج قادر على الطلاق بكل حال ومهما زوج ابنته ظلما أو قاسما أو مبتدعا أو شاربا خمر فقد جنى على دينه وتعرض لخطأ الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار وقال رجل للحسن قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها ؟ قال بمن يتقى الله فإن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها وقال عليه السلام « من زوج كريمة من فاسق فقد قطع رحمها (٢) » .

الباب الثالث : في آداب العاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة .

أما : الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في انثى عشر أمرا في الوليمة والمعاشرة والدعابة والسياسة والغيرة والنفقة والتعليم والقسم والتأديب في النشوز والوقوع والولادة والمفارقة بالطلاق . الأدب الأول الوليمة وهي مستحبة قال أنس رضي الله عنه « رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال ما هذا فقال تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال بارك الله لك أولم ولو بشاة (٣) » وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق وطعام الثاني سنة وطعام الثالث سمعة ومن مع مع الله به (٥) » ولم يرفعه إلا لزيد ابن عبد الله وهو غريب وتستحب تهنيته فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير (٦) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ويستحب إظهار النكاح قال عليه السلام « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت (٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف (٨) » وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله ﷺ فدخل على غداة بني بى فجلس على فراشي وجواريات لنا يضربن بدفهن ويندن من قتل من أبائي إلى أن قالت إحداهن * وفينا نبي يعلم ما في غد * فقال لها اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها (٩) » . الأدب الثاني : حسن الخلق معهن

(١) حديث النكاح رقي فليُنظر أحدكم أين يضع كريمة رواه أبو عمر التوفاني في معايشة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر . قال البيهقي وروى ذلك مرفوعا والموقوف أصح (٢) حديث من زوج كريمة من فاسق فقد قطع رحمها ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ورواه في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح .

(الباب الثالث في آداب العاشرة)

(٣) حديث أنس رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال ما هذا قال تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال بارك الله لك أولم ولو بشاة متفق عليه (٤) حديث أولم على صفية بسويق وتمر الأربعة من حديث أنس ولمسلم نحوه وقد تقدم (٥) حديث طعام أول يوم حق وطعام الثاني سنة وطعام الثالث سمعة ومن مع مع الله به قال المصنف لم يرفعه إلا لزيد بن عبد الله قلت هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه (٦) حديث أبي هريرة في تهنية الزوج بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وتقدم في الدعوات (٧) حديث فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب (٨) حديث أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف الترمذي من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقي (٩) حديث الربيع بنت معوذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بني بى فجلس على فراشي وجواريات لنا يضربن بدفوفهن الحديث رواه البخاري وقال يوم بدر وقع في بعض نسخ الإحياء يوم بعث وهو وهم .

فماذا ينكر النكر
لبس الحرقة على طالب
صادق في طلبه يتقصد
شيخا بحسن ظن
وعقيد يحكمه في نفسه
لمصالح دينه يرشده
ويهديه ويعرفه طريق
الواجب ويبيصره
بآفات النفوس وفساد
الأعمال ومداخل
العدو فيسلم نفسه
إليه ويستسلم رأيه
واستصوابه في جميع
تصاريفه فيلبسه الحرقة
إظهارا للتصرف فيه
فيكون لبس الحرقة
علامة التفويض
والتسليم ودخوله في
حكم الشيخ دخوله
في حكم الله وحكم رسوله
وإحياء سنة المباشرة
مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم . أخبرنا
أبو زرعة قال أخبرني
والذي الحافظ المقدسي
قال أنا أبو الحسين
أحمد بن محمد البزار
قال أنا أحمد بن محمد
أخي يميمي قال ثنا يحيى
ابن محمد بن صاعد

واحتال الأذى من ترحمنا عليهن لقصور عقولهن قال الله تعالى - وعاشروهن بالمعروف - وقال في تعظيم حقهن - وأخذن منكم ميثاقا غليظا - وقال - والصاحب بالجانب - قيل هي المرأة « وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلى لسانه وخفى كلامه جعل يقول: الصلاة الصلاة وماملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم يعني أسراهن أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله (١) » وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ومن صبر على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون (٢) » . واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كفى الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل (٣) وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال أتراجعيني بالكساء فقالت إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعنه وهو خير منك (٤) فقال عمر خابت حفصة وخسرت إن راجعته ثم قال لحفصة لا تقترى بآبنة ابن أبي قحافة فانها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة وروى أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال عليه السلام دعها فانهن يصنعن أكثر من ذلك (٥) وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما واستشهده فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تغل إلا حقا فلفظها أبو بكر حتى دمي فوها وقال يا عادية نفسها أو يقول غير الحق فاستجارت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا (٦) وقالت له مرة في كلام غضبت عنده أنت الذي تزعم أنك نبي الله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما (٧)

(١) حديث آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلى لسانه وخفى كلامه جعل يقول الصلاة الصلاة وماملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النساء فانهن عوان عندكم الحديث النسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الموت جعل يقول الصلاة الصلاة وماملكت أيمانكم فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع رواء مسلم من حديث جابر الطويل وفيه فالتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله الحديث (٢) حديث من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه الحديث لم أقف له على أصل (٣) حديث كان أزواجه صلى الله عليه وسلم راجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل متفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى - فان نظاهرا عليه - (٤) حديث وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال أتراجعيني بالكساء قالت إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعنه وهو خير منك الحديث هو الحديث الذي قبله وليس فيه قوله بالكساء ولا قولها هو خير منك (٥) حديث دفعت إحداهن في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال صلى الله عليه وسلم دعها فانهن يصنعن أكثر من ذلك لم أقف له على أصل (٦) حديث جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما الحديث الطبراني في الأوسط والحطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف (٧) حديث قالت له عائشة مرة غضبت عنده وأنت الذي تزعم أنك نبي فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة وفيه ابن اسحاق وقد نعتنه .

قال ثنا عمرو بن طلي
ابن حفظة قال سمعت
عبد الوهاب الثقفي
يقول سمعت يحيى
ابن سعيد يقول حدثني
عبادة بن الوليد بن
عبادة بن الصامت قال
أخبرني أبي عن أبيه
قال « يا معشر رسول الله
صلى الله عليه وسلم طي
السمع والطاعة في
السرو واليسر والنشط
والسكره وأن لا تنازع
الأمر أهله وأن تقول
بالحق حيث كنا ولا
تخاف في الله لومة لائم »
ففي الحرقة معنى المباينة
والحرقة عتبة الدخول
في الصعبة والمقصود
الكل هو الصعبة
وبالصعبة يرجى للمريد
كل خير . وروى عن
أبي يزيد أنه قال من لم
يكن له أستاذ فإمامه
الشیطان . وحكى
الأستاذ أبو القاسم
القشيري عن شيخه
أبي طي الدقاق أنه قال
الشجرة إذا نبتت
بنفسها من غير غارس

وكان يقول لها إني لأعرف غضبك من رضاك قالت وكيف تعرفه ؟ قال إذا رضيت قلت لا وإله محمد وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم قالت صدقت إنما أهبج اسمك (١) ويقال إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها (٢) وكان يقول لها كنت لك كأني زرع لأم زرع غير أني لأطلقك (٣) وكان يقول لنسائه « لا تؤذوني في عائشة فانه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها (٤) » وقال أنس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان (٥) . الثالث أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والضحك والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء وقد كان رسول الله ﷺ يعزج معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في المدو فسبقته يوما وسبقها في بعض الأيام فقال عليه السلام هذه بتلك (٦) وفي الخبر أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكك الناس مع نسائه (٧) وقالت عائشة رضي الله عنها « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء فقال لي رسول الله ﷺ آتبعين أن ترى لعبهم ؟ قالت قلت نعم فأرسل إليهم فجهلوا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين فوضع كفه على الباب ومديده ووضعت ذقني على يده وجملوا يلعبون وأنظروا جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يقول حسبك وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال يا عائشة حسبك فقلت نعم فأشار إليهم فانصرفوا (٨) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله (٩) » وقال عليه السلام « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي (١٠) »

(١) حديث كان يقول لعائشة إني لأعرف غضبك من رضاك الحديث متفق عليه في حديثها .
(٢) حديث أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال أي الناس أحب إليك يا رسول الله قال عائشة الحديث وأما كونه أول فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام يريد بالمدينة وإلا ففجة النبي صلى الله عليه وسلم لحديجة أمر معروف يشهد له الأحاديث الصحيحة (٣) حديث كان يقول لعائشة كنت لك كأني زرع لأم زرع غير أني لأطلقك متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب (٤) حديث لا تؤذوني في عائشة فانه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها البخاري من حديث عائشة (٥) حديث أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان منكم بلفظ ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على ابن عبد العزيز والبغوي والصبيان (٦) حديث سابقته صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقته ثم سبقها وقال هذه بتلك أبو داود والنسائي من الكبرى وابن ماجه في حديث عائشة بسند صحيح (٧) حديث كان من أفكك الناس مع نسائه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله مع نسائه ورواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط فقالا مع صبي وفي إسناده ابن لهيعة (٨) حديث عائشة سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم آتبعين أن ترى لعبهم الحديث متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء وإنما قال يوم عيد ودون قولها اسبكت وفي رواية للنسائي في الكبرى . قلت لا تعجل مرتين وفيه فقال باحيماء وسنده صحيح (٩) حديث أكل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله الترمذي والنسائي واللفظ له والحاكم وقال رواه ثقات على شرط الشيخين (١٠) حديث خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا خيركم لنسائي وله من حديث عائشة وصححه خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم.

لحافها تورق ولا شمر وهو كما قال ويجوز أنها شمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ولكن لا يكون لها كبتها طعم فأكبة البساتين والقرص إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب العلم وأحل ما يقتله بخلاف غير العلم . ونسخت كثيرا من الشاي يقولون من لم يرمقها لا يفلح ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى عن بعض الصحابة « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة » فالمريد الصادق إذا دخل تحت

وقال عمر رضي الله عنه مع خشوته ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً . وقال لقمان رحمه الله ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي وإذا كان في القوم وجد رجلاً وفي تفسير الخبر المروي « إن الله يفيض الجعظري الجواظ ^(١) » قيل هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه . وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى عتق قيل العتد هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ^(٢) » ووصفت أعرابية زوجها وقدمات فقالت والله لقد كان ضحوكا إذا ولح سكينتا إذا خرج آكلا ما وجد غير مسائل عما فقد . الرابع : أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والواقعة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيئته عندها بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهية والاقباض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب الساعدة على المنكرات أثبتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والروعة تمر وامتنع قال الحسن وأما ما أصبح رجل يطيع امرأته فيأتهوى إلا كبه الله في النار . وقال عمر رضي الله عنه خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة وقد قيل شاوروهن وخالفوهن وقد قال عليه السلام « نفس عبد الزوجة ^(٣) » وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبيدها وقد نفس فإن الله ملكة المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال - ولأمرهم فليغيرن خلق الله - إذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سييدا فقال تعالى - وألفيا سيدها لدى الباب - فإذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا ونفس المرأة على مثال نفسك إن أرسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا وإن أرخيت عذارها قرأ جذبتك ذراعاً وإن كبحتها وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها . قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة إن أكرمهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك المرأة والحامد والنبطي أراد به إن محضت الإكرام ولم تنزع غلظتك بدينك وفظاظتك برفقتك وكانت نساء العرب يملن بناتهن اخبار الأزواج وكانت المرأة تقول لا تبنتها اختبري زوجك قبل الإقدام والجرامة عليه انزعج زج رحمه فإن سكت قطعتي اللحم على ترسه فإن سكت فكسرى العظام بسينه فإن سكت فاجعلى الا كاف على ظهره واميطيه فأعسا هو حمارك وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض فكل ما جاوز حده انعكس على ضده فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والواقعة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن فإن كيدهن عظيم وشرهن فاش والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف بمزوج سياسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب ^(٤) » والأعصم يعني الأبيض البطن وفي وصية لقمان لابنه يابى اتق المرأة السوء فانها تشبيك

(١) حديث إن الله يفيض الجعظري الجواظ أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنى هريرة بسند ضعيف وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ ألا أخبزكم بأهل النار كل عتق جواظ مستكبر ولأبي داود لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري (٢) حديث قال لجابر هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٣) حديث نفس عبد الزوجة لما أقفله على أصل والمعروف نفس عبد الدينار وعبد الدرهم الحديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة (٤) حديث مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم من مائة غراب الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص كناعم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر الظهران فإذا بغريان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هاه الغريان وإسناده صحيح وهو في السنن الكبرى للنسائي .

حكم الشيخ وصحبه وتأديب بأدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المرید كسراج يقتبس من سراج وكلام الشيخ يلقح باطن المرید ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال وينتقل الحال من الشيخ إلى المرید بواسطة الصحة ومما عكس المقال ولا يكون هذا إلا لمرید حضر نفسه مع الشيخ وانسلخ من إرادة نفسه وفي في الشيخ بترك اختيار نفسه فبالأنف الإلهي يصير بين صاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة القلبية ثم لا يزال المرید مع الشيخ كذلك متأديبا بترك الاختيار حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ ومبدأ

قبل الشيب وأتق شرار النساء فانهن لا يدعون إلى خير وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعينوا من الفواقر الثلاث ^(١) » وعدن من المرأة سوء فانها الشيبة قبل الشيب وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها سبتك وإن غبت عنها خاتك » وقد قال عليه السلام في خيرات النساء « إنكن صواحبات يوسف ^(٢) » يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى وقال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما أي مالت وقال ذلك في خير أزواجه ^(٣) وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تعلقهم امرأة ^(٤) » وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجته وقال ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت فاذن فيهن شر وفيهن ضعف فالسياسة والحشونة علاج الشر واللطاية والرحمة علاج الضعف والطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء فلينظر الرجل أولا إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها . الخامس : الاعتدال في الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنّت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ^(٥) وفي لفظ آخر أن تبغ النساء ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة لا تطرقوا النساء ليلا تخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد في منزله ما يكره ^(٦) وفي الخبر للشهور « للمرأة كالضلع إن قومته كسرته فدعه تستمع به على عوج ^(٧) » وهذا في تهذيب أخلاقها وقال ^(٨) « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية ^(٩) » لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه فان بغض الظن إثم وقال علي رضي الله عنه لا تنكسر الغيرة على أهلك فترعى بالسوء من أجلك وأما الغيرة في عملها فلا بد منها وهي محمودة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يبارر المؤمن يبارر وغيره الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم عليه ^(١٠) » وقال عليه السلام « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني ^(١١) »

(١) حديث استعينوا من الفواقر الثلاث وعدمهن للمرأة سوء فانها الشيبة قبل الشيب وفي لفظ آخر إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها خاتك أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد ثلاث من الفواقر وذكر منها وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خاتك وسنده حسن (٢) حديث إنكن صواحبات يوسف متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث نزول قوله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما في خير أزواجه متفق عليه من حديث عمر والمرأتان عائشة وحفصة (٤) حديث لا يفلح قوم تعلقهم امرأة البخاري من حديث أبي بكر نحوه (٥) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء الطبراني في الأوسط من حديث جابر نهى أن تطلب عثرات النساء والحديث عند مسلم بلفظ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا يخونهم أو يطلب عثراتهم واقتصر البخاري منه على ذكر النهي عن الطروق ليلا (٦) حديث أنه قال قبل دخول المدينة لا تطرقوا أهلكم ليلا تخالفه رجلان فسبقا إلى منازلهما فرأى كل واحد في بيته ما يكره أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد (٧) حديث المرأة كالضلع إن أردت فقيمه كسرته الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر ابن عتيك (٩) حديث الله يبارر المؤمن يبارر وغيره الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري والمؤمن يبارر (١٠) حديث أتعجبون من غيرة سعد والله لأننا أغير منه والله أغير مني الحديث متفق عليه من حديث الغيرة بن شعبة .

هذا الخبر كله للصحة
واللازمة للشيخ
والحرقة مقدمة ذلك
ووجه لبس الحرقة من
السنة ما أخبرنا الشيخ
أبو زرعة عن أبيه
الحافظ أبي الفضل
للقدس قال أنا أبو بكر
أحمد بن طي بن خلف
الأديب النيسابوري
قال أنا الحاكم أبو
عبد الله محمد بن
عبد الله الحافظ قال
أنا محمد بن اسحاق قال
أنا أبو مسلم إبراهيم بن
عبد الله المصري قال
ثنا أبو الوليد قال ثنا
اسحاق بن سعيد قال
ثنا أبي قال حدثني
أم خالد بنت خالد قالت
« أتى النبي عليه السلام
بثياب فيها خمصة
سوداء صغيرة فقال
من ترون أكوهذه ؟
فكف القوم فقال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم اتوني بأمر
خالد قالت فأتىني
فألبسنيها بيده فقال
أبلى وأخلق يقولها

مرتين وجعل ينظر إلى علم في الخيصة أصفر وأحمر ويقول بآم خاله هذا سنه . والسنه هو الحسن بلسان الحبشة ولاخفاء أن لبس الحرقة على الهيئة التي تعتمد الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ وأصله من الحديث غاروبه والشاهد لذلك أيضا التحكيم الذي ذكرناه وأما اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أمم وأكد من الاقتداء به في دعاء الخلق إلى الحق وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم المرید شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم قال الله تعالى - فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك

ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش مظهر ومباطن ولاأحد أسب إليه العذر من الله ولذلك بحث للذرين والبشرين ولاأحد أحب إليه الدخ من الله ولأجل ذلك وعد الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بي في الجنة قصرا وبضائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر فبكى عمر وقال أعليك أغار يا رسول الله (١) » وكان الحسن يقول أتمدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من القيرة ما يحبه الله ومنها ما يفضه الله ومن الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يفضه الله فأما القيرة التي يحبها الله فالقيرة في الريه والقيرة التي يفضها الله فالقيرة في غيرية والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة والاختيال الذي يفضه الله الاختيال في الباطن (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « إني لا غيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب (٣) » والطريق القبيح عن القيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة عليها السلام « أي شيء خير للمرأة ؟ قالت أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل فضمها إليه وقال ذرية بعضها من بعض (٤) » فاستحسن قولها وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدون السكوى والثقب في الحيطان كذا تطلع النسوان إلى الرجال ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضرها ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه ففاحه قد أكلت منها فضرها وقال عمر رضي الله عنه أعرأ النساء يلزمن الرجال وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في الخروج في الهيئة الرثة وقال عودوا نساءكم لاوكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في حضور السجد (٥) والصواب الآن النع إلا العجائز بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها : لو علم النبي ﷺ ما أحدثت النساء بعده لنعهن من الخروج (٦) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله فقال بعض ولده بلى والله لنمنعن فضربه وغضب عليه وقال اسمعني أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمنعوا فتقول بلى (٧) » وإنما استجراً على المخالفة لعله بتغير الزمان وإنما غضب عليه

(١) حديث رأيت ليلة أسرى بي في الجنة قصرا وبضائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر الحديث متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسرى بي ولم يذكر الجارية وذكر الجارية في حديث آخر متفق عليه من حديث أبي هريرة بينا أنا نائم رأيتني في الجنة الحديث (٢) حديث إن من القيرة ما يحبه الله تعالى ومنها ما يفضه الله تعالى الحديث أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك وهو الذي تقدم قبله بأربعة أحاديث (٣) حديث إني لغيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب تقدم أوله وأما آخره فرواه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشره الأهلين من رواية عبد الله بن محمد مرسلا والظاهر أنه عبد الله بن الحنفية (٤) حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة أي شيء خير للمرأة فقالت أن لا ترى رجلا الحديث [١] البزار والدارقطني في الأفراد من حديث علي بسند ضعيف (٥) حديث الإذن للنساء في حضور المساجد متفق عليه من حديث ابن عمر ائذنوا للنساء بالدليل إلى المساجد (٦) حديث قالت عائشة لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لنعهن من الخروج متفق عليه قال البخاري لنعهن من المساجد (٧) حديث ابن عمر لا تمنعوا إماء الله مساجد الله فقال بعض ولده بلى والله الحديث متفق عليه .

[١] بهامش النسخة الصحيحة : قلت وروى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ماخير للنساء فلم ندر ما تقول فصار على إلى فاطمة فأخبرها بذلك فقالت فم لا قلت له خير لمن أن لا يرى الرجال ولا يراهم الرجال فرجع فأخبره بذلك فقال له من عليك هذا قال فاطمة قال إنها بضعة مني .

لإطلاقة اللفظ بالخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لمن في الأعياد خاصة أن يخرج من (١) ولكن لا يخرج من الإبرضا أزواجهن والخروج الآن مباح للمرأة الغفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم وينبغي أن لا تخرج إلا لهم فان الخروج للنظارات والأمور التي ليست مهمة تخدم في الروعة وربما نفى إلى الفساد فإذا خرجت فينبى أن تغض بسرهما عن الرجال ، ولنا قول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقها بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط فان لم تكن فتنة فلا إذ لم يزل الرجال على عمر الزمان مكشوف الوجوه والنساء يخرجن منتقيات ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتغيب أو منعن من الخروج إلا للضرورة . السادس : الاعتدال في النفقة فلا ينبى أن يكثر عليهن في الاتفاق ولا ينبى أن يسرف بل يقتصد قال تعالى - وكلوا واشربوا ولا تسرفوا - وقال تعالى - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط - وقد قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك (٣) » وقيل كان لعلى رضى الله عنه أربع نسوة فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم ، وقال الحسن رضى الله عنه كانوا في الرجال مخاصيب وفي الأناث والثياب مجاديب وقال ابن سيرين يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فالزوجة وكأن الخلاوة وإن لم تكن من اللهمات ولكن تتركها بالكلية فتتفر في العادة وينبى أن يأمرها بالتصدق بقايا الطعام وما يفسد لوترك فهذا أقل درجات الخير وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ولا ينبى أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه فان ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن العاشرة بالمعروف فان كان مزماً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله ولا ينبى أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته فقد قال سفيان رضى الله عنه بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة وأهم ما يجب عليه مراعاته في الاتفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها فان ذلك جناية عليها لامرأته لها وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح . السابع : أن يعلم الزوج من علم الحيض وأحكامها يحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى فانه أمر بأن يقبها النار بقوله تعالى - قوا أنفسكم وأهليكم نارا - فعليه أن يلقيها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ويخوفها في الله إن تساهت في أمر الدين ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما يحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول فأما الذي لابد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها فانها مهما انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء وهذا أقل ما يراعيه النساء فان كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بحواب الفتى فليس لها الخروج فان لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك وبعض الرجل عنها ومهما علمت ما هو من الفرائض عايمه فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل الإبرياء

(١) حديث الإذن لمن في الأعياد متفق عليه من حديث أم عطية (٢) حديث خيركم خيركم لأهله الترمذي من حديث عائشة وصححه وقد تقدم (٣) حديث دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك مسلم من حديث أبي هريرة .

فيما شجر بينهم ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً - وسب نزول هذه الآية « أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة والشراج مسيل الماء كانا يسقيان به النخل فقال النبي عليه الصلاة والسلام للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الرجل وقال قضى رسول الله لابن عمته » فأُزيل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الانقياد ظاهره ونفي الجرح وهو الانقياد باطنا وهذا شرط المرید مع الشيخ بعد التحكيم فليس الحرقه بزيل اهتمام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه ويحذر

ومهما أهملت المرأة حكما من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الانتم . الثامن : إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهما ولا يميل إلى بعضهن فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرع بينهما ^(١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليتها قضى لها فإن القضاء واجب عليه وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان فمال إلى إحداها دون الأخرى وفي لفظ ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحذقني مائل ^(٢) » وإنما عليه العدل في العطاء والبيت وأما في الحب والواقع فذلك لا يدخل تحت الاختيار قال الله تعالى - ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصن - أي لاتعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ويتبع ذلك التفاوت في الواقع « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهما في العطاء والبيت وفي البالي ويقول : اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاعة لي فيما أملك ^(٣) » يعني الحب وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساءه إليه ^(٤) وسائر نساءه يعرفن ذلك « وكان يطاق به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول أين أنا غدا فظننت لذلك امرأة منهن فقالت إنما يسأل عن يوم عائشة فقلنا يا رسول الله قد أذن لك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تعدل في كل ليلة فقال وقدر ضيق بذلك قلنا نعم قال فحولوني إلى بيت عائشة ^(٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نساءه فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرها على الزوجة حتى عشر في زمرة نساءه فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ^(٦) ولكنه صلى الله عليه وسلم لحسن عدله وقوته كان إذا تناقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها فجامعها طاف في يومه أو ليلته على سائر نساءه فمن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نساءه في ليلة واحدة ^(٧) وعن أنس أنه عليه السلام

(١) حديث الشريعة بين أزواجه إذا أراد سفره متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث من كان له امرأتان فمال إلى إحداها دون الأخرى وفي لفظ آخر لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحذقني مائل أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة قال أبو داود وابن حبان فقال مع إحداها وقال الترمذي فلم يعدل بينهما (٣) حديث كان يعدل بينهما ويقول اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاعة لي فيما أملك ولا أملك أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه (٤) حديث كانت عائشة أحب نساءه إليه متفق عليه من حديث عمرو بن الماص أنه قال أي الناس أحب إليك يا رسول الله قال عائشة وقد تقدم (٥) حديث كان يطاق به محمولا في مرضه كل يوم وليلة فيبيت عند كل واحدة ويقول أين أنا غدا الحديث ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان يحول في ثوب يطاق به على نساءه وهو مريض يقسم بينهما وفي مرسل آخر له لما نقل قال أين أنا غدا قالوا عند فلانة قال فأين أنا بعد غد قالوا عند فلانة فعرف أزواجه أنه يريد عائشة الحديث والبخاري من حديث عائشة كان يسأل في مرضه الذي مات فيه أين أنا غدا أين أنا غدا يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء وفي الصحيحين لما نقل استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له (٦) حديث كان يقسم بين نساءه فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة الحديث أبو داود من حديث عائشة قالت سودة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله يومى لعائشة الحديث وللطبراني فأراد أن يفارقها وهو عند البخاري بلفظ لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها يوم سودة وللبيهقي مرسلا طلق سودة فقالت أريد أن أحشر في أزواجك الحديث (٧) حديث عائشة طاف على نساءه في ليلة واحدة متفق عليه بلفظ كنت أطيب رسول الله

الاعتراض على الشيوخ
فانه السام القاتل للمريدين
وقل أن يكون للمريد
يعترض على الشيخ بباطنه
فيطلع ويذكر للمريد
في كل ما أشكل عليه
من تصارييف الشيخ
قصة موسى مع الحضير
عليه السلام كيف كان
يصدر من الحضير
تصارييف ينكرها
موسى ثم لما كشف
له عن معناها بان
لموسى وجه الصواب
في ذلك فهكذا ينبغي
لهم إذن يعلم أن كل
تصرف أشكل عليه
صحته من الشيخ
عند الشيخ فيه يان
وبرهان للصحة ويد
الشيخ في لبس الحرقة
تنوب عن يد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وتسليم للمريده تسليم
له ورسوله قال الله
تعالى - إن الذين
يبيعونك إنما يبيعون
الله يدا الله فوق أيديهم
فمن نكث فإني مكث
على نفسه - ويأخذ

طاف على تسعة نسوة في ضحوة نهار^(١)، التاسع: في النشور ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما فإن كان من جانبها جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من فكك من أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما - إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما - وقد ثبت عمر رضي الله عنه حكما إلى زوجين فصاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالفرقة وقال إن الله تعالى يقول - إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما - فصاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما وأما إذا كان النشور من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء - فله أن يؤديها ويعملها على الطاعة قهرا وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهرا ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها وهو أن يقدم أولا الوعظ والتحذير والتخويف فإن لم ينفع ولاها ظهره في الضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال فإن لم ينفع ذلك فيها ضربها ضربا غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ولا يدمي لها جثما ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «ما حق للمرأة على الرجل؟ قال يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يقيح الوجه ولا يضرب إلا ضربا غير مبرح ولا يهجرها إلا في البيت^(٢)» وله أن يضرب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه فقالت له التي هو في بيتها لقد أفتأتك إذ ردت عليك هديتك^(٣) أي أذلتك واستصغرتك فقال صلى الله عليه وسلم: «أتئن أهون على الله أن تعمثنني ثم غضب عليهن كلهن شهرا إلى أن عاد إليهن - العاشر: في آداب الجماع ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولا ويكبر ويهلل ويقول بسم الله العلي العظيم اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من سلبى وقال عليه السلام «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتا فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان^(٤)» وإذا قربت من الأزال قتل في نفسك ولا تحرك شفتيك - الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا - الآية وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالواقع إكراما للقبلة وليغبط نفسه وأهله ثوب «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة: عليك بالسكينة^(٥)» وفي الخبر «إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين^(٦)» أي الحارين ولتقدم التلطف بالكلام والتقبل

صلى الله عليه وسلم فيطوف على نسائه ثم يصبح محرما ينضح طيبا (١) حديث أنس أنه طاف على تسعة نسوة في ضحوة نهار ابن عدي في السكامل والبخاري كان يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسعة نسوة (٢) حديث قبل له ما حق المرأة على الرجل فقال يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يقيح الوجه ولا يضرب إلا ضربا غير مبرح ولا يهجرها إلا في البيت أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد وقال ولا يضرب الوجه ولا يقيح وفي رواية لأبي داود ولا يقيح الوجه ولا تضرب (٣) حديث هجره صلى الله عليه وسلم نساء شهرا لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها لقد أفتأتك الحديث ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير إسناد وفي الصحيحين من حديث عمر كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن وفي رواية من حديث جابر ثم اعتزلهن شهرا (٤) حديث لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال اللهم جنبنا الشيطان الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس (٥) حديث كان يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة عليك بالسكينة الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف (٦) حديث إذا جامع أحدكم امرأته فلا تجردان تجرد العيرين ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد بسند ضعيف .

الشيخ على المرید
عهد الوفاء بشرائط
الحرقه ويعرفه حقوق
الحرقه فالشيخ المرید
صورة يستشف المرید
من وراء هذه الصورة
الطالبات الإلهية
وللراعي النبوية
ويستقد المرید أن
الشيخ باب فتحه الله
تعالى إلى جناب كرمه
منه يدخل وإليه يرجع
وينزل بالشيخ سوانحه
ومهامه الدينية
والدنيوية ويعتقد أن
الشيخ ينزل بالله
الكریم ما ينزل
المرید به ويرجع في
ذلك إلى الله المرید كما
يرجع المرید إليه
وللشيخ باب مفتوح
من السكالة والمحادثة
في النوم واليقظة فلا
يتصرف الشيخ في
المرید بهواه فهو أمانة
الله عنده ويستغني
إلى الله بمحوائج المرید
كما يستغني بمحوائج
نفسه ومهام دينه ودنياه
قال الله تعالى - وما كان

قال صلى الله عليه وسلم «لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول قيل وما الرسول يا رسول الله قال القبلة والكلام» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من العجز في الرجل أن يلقي من يحب معرفته يفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه والثاني أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته والثالث أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه» (٢) ويكره له الجماع في ثلاث ليال من الشهر الأول والآخر والنصف يقال إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي ويقال إن الشياطين يجامعون فيها وروى كراهة ذلك عن علي ومعاوية وأبي هريرة رضي الله عنهم ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليكن تحقيقاً لأحد التآويلين من قوله صلى الله عليه وسلم «رحم الله من غسل واغتسل» (٣) الحديث ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هي أيضاً نهماً فان إنزالها ربما يتأخر فبسيح شهوتها ثم القعود عنها إنداء لها والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التاخر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال والتوافق في وقت الإنزال الله عندها ليشغل الرجل بنفسه عنها فأنهار بما تستحي وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أعدل إذ تعدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين فان تحصينها واجب عليه وإن كان لا يثبت الطالبة بالوطء فذلك لعسر الطالبة والوفاء بها ولا يأتيها في الحيض ولا بعد انقضاءه وقبل الفصل فهو محرم بنص الكتاب وقيل إن ذلك يورث الجذام في الولد وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأني إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى والأذى في غير المأني دائم فهو أشد تحريراً من إتيان الحائض وقوله تعالى - فأتوا حرثكم أني شتمتم - أي أي وقت شتمتم وله أن يستمتع بيدها وأن يستمتع بما تحت الأزار بما يشتهي سوى الوقاع وينبغي أن تنزّر المرأة بأزار من حقوها إلى فوق الركبة في حال الحيض فهذا من الأدب وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في المضاجعة وغيرها وليس عليه اجتنابها وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ويكره الجماع في أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة فان أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة قال ابن عمر «قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أيّ نام أحدنا وهو جنب قال نعم إذا توضأ» (٤) ولكن قد وردت في رخصة قالت عائشة رضي الله عنها «كان النبي ﷺ ينام جنباً لم يمسه ماء» (٥) ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجهه فراشه أو لينفضه فانه لا يدرى ما حدث عليه بعده ولا ينبغي أن يحلق أو يقلم أو يستحذ أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً ويقال إن كل شعرة تطالعه بجنباتها ومن الآداب أن لا يعزل بل لا يبرح إلا إلى محل الحث وهو الرحم فامن نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة (٦) هكذا قال رسول الله ﷺ فان عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب فمن مبيح

لبشر أن يكاحه الله إلا
وحياً أو من وراء حجاب
أو يرسل رسولا -
فأرسل الرسول يخص
بالأنبياء والوحي كذلك
والكلام من وراء
حجاب بالإلهام والمحواف
والنام وغير ذلك
للشيوخ والراسخين
في العلم . واعلم أن
للريدن مع الشيوخ
أوان ارتضاع وأوان
فظام وقد سبق شرح
الولادة المعنوية فأوان
الارتضاع أوان لزوم
الصحة والشيخ يعلم
وقت ذلك فلا ينبغي
للريد أن يفارق
الشيخ إلا بإذنه قال
الله تعالى تأدياً للامة -
إنما المؤمنون الذين
آمنوا بالله ورسوله وإذا
كانوا معه على أمر
جامع لم يذهبوا حتى
يستأذنوه إن الذين
يستأذنونك أولئك
الذين يؤمنون بالله
ورسوله فإذا استأذنوك
لبعض شأنهم فأذن
لن شئت منهم - وأى

(١) حديث لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
من حديث أنس وهو منكر (٢) حديث ثلاث من العجز في الرجل أن يلقي من يحب معرفته
يفارقه قبل أن يعرف اسمه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أخضر منه وهو بعض الحديث
الذي قبله (٤) حديث رحم الله من غسل واغتسل تقدم في الباب الخامس من الصلاة (٤) حديث
ابن عمر قالت للنبي صلى الله عليه وسلم أيّ نام أحدنا وهو جنب قال نعم إذا توضأ متفق عليه من حديثه
أن عمر سأل لأن عبد الله هو السائل (٥) حديث عائشة كان ينام جنباً لم يمسه ماء أبو داود والترمذي
وابن ماجه وقال يزيد بن هارون إنه وهم ونقل البيهقي عن الحفاظ الطعن فيه قال وهو صحيح من جهة
الرواية (٦) حديث مامن نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة متفق عليه من حديث أبي سعيد .

مطلقا بكل حال ومن محرم بكل حال ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها وكان هذا القائل يحرم الإبداء دون العزل ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة والصحيح عندنا أن ذلك مباح وأما الكراهية فانها تطلق لتبى التحريم ولتبى التنزيه وترك الفضيلة فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة كما يقال يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغا لا يشتغل بذكر أو صلاة ويكره للحاضر في مكة مقايها أن لا يخرج كل سنة والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليجمع أهله فيكتب له بجماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله قتل (١) » وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه مع أن الله تعالى خالقه وحيمه ومقويه على الجهاد والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع وذلك عند الإئمان في الرحم وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه لأن إثبات النهى إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلا أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب منى ولا فرق إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم ولها أربعة أسباب النكاح ثم الوقاع ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع ثم الوقوف لينصب المني في الرحم وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث وكذا الثالث كالثاني والثاني كأول وليس هذا كالإجهاض والوآد لأن ذلك جناية على موجود حاصل وله أيضا مراتب وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتخلط بماء المرأة وتستعمل لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية فان صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أوحش وإن نفخ فيه الروح واستوت الحلقة ازدادت الجناية تفاحشا ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانقصال حيا وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المني في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل لأن الولد لا يخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعا إمامنا مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض قال بعض أهل التشريح إن للمضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض وإن الدم منها كاللبن من الرائب وإن النطفة من الرجل شرط في خثور دم الحيض وانقاده كالإثقة للبن إذ بها ينمق الرائب وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانقاد فيجرى لما آن مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانبا على العقد بالنقض والفسخ ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الزوج بعد رفا وفسخا وقطا وكما أن النطفة في القفار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الإحليل الملمع بمرج بماء المرأة أو دمها فهذا هو القياس الجلي . فان قلت فان لم يكن العزل مكروها من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفى . فأقول النيات الباعثة عن العزل خمس : الأولى في السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنى عنه . الثانية استبقاء جمال المرأة ومنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق وهذا أيضا ليس بمنى عنه . الثالثة الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء . وهذا أيضا غير منى عنه . فان قلت الحرج معين على الدين ، نعم الكمال والفضل في التوكل والثقة بضمان الله حيث قال - ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها - ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه منافعا للتوكل لا تقول إنه منى عنه . الرابعة الخوف من الأولاد الاناث لما يمتد في تزويجهم من المرة كما كانت من عادة

(١) حديث إن الرجل ليجمع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله لم أجده أصلا .

أمر جامع أعظم من أمر الدين فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أو أن القطام وأنه يقدر أن يستقل بنفسه واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أو أن فطامه ومتى فارق قبل أو أن القطام يناله من الإعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما يناله الفطوم لغير أو أنه في الولادة الطبيعية وهذا التلازم بصحبة الشايخ للمريد الحقيقي والمريد الحقيقي يلبس خرقة الإرادة . واعلم أن الخرقة خرقتان خرقة الإرادة وخرقة التبرك والأصل الذي قصده الشايخ للمريدن خرقة

العرب في قتلهم الإناث فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أمهم بها لا يترك النكاح والوطء، فكذا في العزل والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافاً من أن يعلوها رجل فكانت تشبه بالرجال ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة أن تمتنع المرأة لتعززها ومبايعة النكاح في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبايعة النكاح في استعمال المياه حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الحلاء إلا عراة فهذه بدعة تخالف السنة فهي نية فاسدة واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها فيكون القصد هو الفساد دون منع الولادة . فان قلت فقد قال النبي ﷺ « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثاً (١) » . قلت فالعزل كترك النكاح وقوله ليس منا أي ليس موافقاً لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل . فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الحفي وقرأ وإذا الموءودة سئلت (٢) » وهذا في الصحيح قلنا وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة (٣) في الإباحة وقوله الوأد الحفي كقوله الشرك الحفي وذلك يوجب كراهة لا تحريماً . فان قلت فقد قال ابن عباس العزل هو الوأد الأصغر فان المنوع وجوده به هو الموءودة الصغرى . قلنا هذا قياس منه دفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف ولذلك أنكره عليه رضي الله عنه لما سمعه قال ولا تكون موءودة إلا بعد سبع أي بعد الأخرى سبعة أطوار وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين - إلى قوله - ثم أنشأناه خلقاً آخر - أي نفخنا فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية - وإذا الموءودة سئلت وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهما في القوم على المعاني ودرك العلوم كيف وفي التفرق عليه في الصحيحين عن جابر أنه قال « كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل » وفي لفظ آخر « كنا نعزل فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا (٤) » وفيه أيضاً عن جابر أنه قال « إن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال عليه الصلاة والسلام اعزل عنها إن شئت فانه سيأتيها ما قدر لها فقلت الرجل ما شاء الله ثم أتاه فقال إن الجارية قد حملت فقال قد قلت سيأتيها ما قدر لها (٥) » كل ذلك في الصحيحين . الحادى عشر : في آداب الولادة وهي خمسة : الأول أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فانه لا يدري الحيرة له في أيهما فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن يكون بنتاً بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل

الإرادة وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي وخرقة التبرك للمتشبه ومن تشبه بقوم فهو منهم وسر الخرقه أن الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع والد يريه الشيخ بطله المستمد من الله تعالى بصدق الاقتدار وحسن الاستقامة ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن قد يكون للمريد يلبس الحشن كتياب للتفشين للترهدين وله في تلك الهيئة من اللبوس هوى كامن في نفسه ليري بين الزهادة فأشد ما عليه لبس الناعم وللنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من اللبوس في قصر الكم والتدليل وطوله وخشونته ونعومتها على

(١) حديث من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا تقدم في أوائل النكاح (٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم في العزل ذلك الوأد الحفي مسلم من حديث جذامة بنت وهب (٣) حديث أحاديث إباحة العزل مسلم من حديث أبي سعيد أنهم سألوه عن العزل فقال لا عليكم أن لا تفعلوه ورواه النسائي من حديث أبي صرمة وللشيخين من حديث جابر كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد مسلم فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا وللنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل قيل اليهود تزعم أنها الموءودة الصغرى فقال كذبت يهود . قال البيهقي رواية الإباحة أكثر وأحفظ (٤) حديث جابر التفرق عليه في الصحيحين كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا هو كما ذكر متفق عليه إلا أن قوله فلم ينهنا انفرد بها مسلم (٥) حديث جابر أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن لي جارية وهي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال اعزل عنها إن شئت الحديث ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك وإنما انفرد به مسلم .

قال صلى الله عليه وسلم «من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة» (١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبتهن إلا أدخلته الجنة» (٢) وقال أنس قال رسول الله ﷺ «من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبتهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» (٣) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا فغمله إلى بيته نخس به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه» (٤) وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليدأ بالاناث قبل الذكور فانه من فرح أنى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشيته حرم الله بدنه على النار» (٥) وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن فقال الرجل وثنتان يا رسول الله؟ قال وثنتان فقال رجل أو واحدة؟ فقال واحدة» (٦) . الأدب الثاني : أن يؤذن في أذن الولد روى رافع عن أبيه قال «رأيت النبي ﷺ قد أذن في أذن الحسن حين ولدته فاطمة رضي الله عنها» (٧) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان» (٨) ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه لا إله إلا الله ليكون ذلك أول حديثه والختان في اليوم السابع ورد به الخبر (٩) . الأدب الثالث : أن تسميه اسمًا حسنًا فذلك من حق الولد وقال صلى الله عليه وسلم «إذا ميمت فمبدا» (١٠) وقال عليه الصلاة والسلام

(١) حديث من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاها الحديث الطبراني في الكبير والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث ابن عباس ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبتهن إلا أدخلته الجنة ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٣) حديث أنس من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبتهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين الخراطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه الترمذي بلفظ من عال جارتين وقال حسن غريب (٤) حديث أنس من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا فغمله إلى بيته نخس به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه الخراطي بسند ضعيف (٥) حديث أنس من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة الخراطي بسند ضعيف جدا وابن عدي في الكامل وقال ابن الجوزي حديث موضوع (٦) حديث أبي هريرة من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصر على لأوائهن الحديث الخراطي واللفظ له والحاكم ولم يقل أو أخوات وقال صحيح الإسناد (٧) حديث أبي رافع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه إلا أنهما قالوا الحسن مكبرا وضعفه ابن القطان (٨) حديث من ولد له مولود وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم والليلة والبيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف (٩) حديث الختان في اليوم السابع الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام وإسناده ضعيف واختلف في إسناده فقيل عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جدّه (١٠) حديث إذا ميمت فمبدا الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة .

قدر حسابها وهواها
فلبس الشيخ مثل
هذا الراكن لتلك
الهيئة ثوبا يكسر
بذلك على نفسه هواها
وغرضها وقد يكون
على المرید ملبوس ناعم
أو هيئة في الملبوس
تشرّب النفس إلى تلك
الهيئة بالعادة فلبس
الشيخ ما يخرج النفس
من عاداتها وهواها
فتصرف الشيخ في
الملبوس كتصرفه في
الطعوم وكتصرفه في
صوم المرید وإفطاره
وكتصرفه في أمر دينه
إلى ما يرى له من الصلحة
من دوام الذكر ودوام
التفكير في الصلاة ودوام
التلاوة ودوام الخدمة
وكتصرفه فيه برده
إلى السكسب والفتوح
أو غير ذلك فللشيخ
إشراف على البواطن
وتنوع الاستعدادات
قياس كل مرید من أمر
نمائه ومعاده بما
يصلح له ولتنوع
الاستعدادات تنوعت

« أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ^(١) » وقال « سموا باسمي ولا تكونوا بكنتي ^(٢) » قال العلماء كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان ينادى بأبنا القاسم والآب فلا بأس نعم لا يجمع بين اسمه وكنتيه وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تجمعوا بين اسمي وكنتي ^(٣) » وقيل إن هذا أيضا كان في حياته وتسمى رجل أباعيسى فقال عليه السلام « إن عيسى لأب له ^(٤) » فيكره ذلك والسقط ينبغي أن يسمى قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بلغني أن السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول أنت ضيعتي وتركنتي لاسم لي فقال عمر بن عبد العزيز كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن من الأسماء ما جمعتهما كعمرة وعمارة وطلحة وعتبة وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم ^(٥) » ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله ^(٦) « وكان اسم زينب بركة قال عليه السلام : تركي نفسها فها زينب ^(٧) » وكذلك ورد النبي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ^(٨) لأنه يقال أئمه بركة فيقال لا . الرابع العقيقة عن الله كبر بشاتين وعن الأنبياء بشاة ولا بأس بالشاة ذكرها كان أو أنثى وروى عائشة رضي الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين وفي الجارية بشاة ^(٩) » وروى « أنه عقى عن الحسن بشاة ^(١٠) » وهذا رخصة في الانتصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأمطبوا عنه الأذى ^(١١) » ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة فتدور فيه خبر « أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة ^(١٢) »

(١) حديث أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن مسلم من حديث ابن عمر (٢) حديث سموا باسمي ولا تكونوا بكنتي متفق عليه من حديث جابر وفي لفظ تسموا (٣) حديث لا تجمعوا بين اسمي وكنتي أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر من سمى باسمي فلا يتكفى بكنتي ومن تكفى بكنتي فلا يتسمى باسمي . (٤) حديث إن عيسى لأب له أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ولأبي داود أن عمر ضرب ابنا له تكفى أباعيسى وأنكر على للغيرة بن شعبة تكنيه بأبي عيسى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى وإسناده صحيح (٥) حديث إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم أبو داود من حديث أبي الدرداء قال النووي بإسناد جيد وقال البيهقي إنه مرسل (٦) حديث بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزيندي بسند صحيح (٧) حديث قال صلى الله عليه وسلم لزينب وكان اسمها بركة تركي نفسها فها زينب متفق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث النبي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباحا وله من حديث جابر أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينهى أن يسمى يعلى وبركة الحديث (٩) حديث عائشة أمر في الغلام بشاتين مكافئتين وفي الجارية بشاة الترمذي وصححه (١٠) حديث عقى عن الحسن بشاة الترمذي من حديث علي وقال ليس بإسناده متصل ووصله الحاكم إلا أنه قال حسين ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال كبشا (١١) حديث مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأمطبوا عنه الأذى البخاري من حديث سلمان ابن عامر الضبي (١٢) حديث أمر فاطمة يوم سابع حسين أن تحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة الحاكم وصححه من حديث علي وهو عند الترمذي منقطع بلفظ حسن وقال ليس بإسناده متصل ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

مراتب الدعوة قال الله تعالى - ادع إلى سبيل ربك - بالحقظة والوعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن - فالحقظة رتبة في الدعوة والوعظة كذلك والمجادلة كذلك فمن يدعى بالحقظة لا يدعى بالوعظة ومن يدعى بالوعظة لا تصلح دعوته بالحقظة فكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ومن هو على وضع القميين ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ومن لهوى في التختن أو في التعم فيخلع للريد من عادة ويخرجه من مضيق هوى نفسه وبطعمه باختياره ويلبسه باختياره ثوبا يصلح له وهبة تصلح له ويدأوى بالخرقة المخصوصة والمهينة المخصوصة داء هواء ويتوخى بذلك تقريه

قالت عائشة رضي الله عنها لا يكسر للعقيقة عظم . الخامس أن يحنكه بتمر أو حلوة وروى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت « ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ثم دعا بتمر فضعها ثم نفل في فيه (١) » فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حنكه بتمر ثم دعا له وبرك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام قهر حوا به فرحا شديدا لأنهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتم فلا يولد لكم . الثاني عشر : في الطلاق وليعلم أنه مباح ولكنه أفض الباحات إلى الله تعالى وإنما يكون مباحا إذا لم يكن فيه إيذاء بالبطل ومهما طلقها قد آذاها ولا يباح إيذاء الغير إلا بحماية من جانبها أو بضرورة من جانبها قال الله تعالى - فإن أطلعكم فلا تبغوا عليهن سيلا - أي لا تطلبوا إحالة لافراق وإن كرهها أبوه فليطلقها قال ابن عمر رضي الله عنهما « كان تحق امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن عمر طلق امرأتك (٢) » فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم ولكن والديكرهها لا تعرض فاسد مثل عمر ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين قال ابن مسعود في قوله تعالى - ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة وهذا أزيد به في العدة ولكنه تنبيه على التصود وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تمتد يد مل مال ويكرم للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إحجاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع قال تعالى - فلا جناح عليهما فيما اتدت به - فرد ما أخذته فما دونه لائق بالقداء فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آفة قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة (٣) » وفي لفظ آخر فالجنة عليها حرام وفي لفظ آخر أنه عليه السلام قال « المختلعات هن المناقات (٤) » ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور . الأول أن يطلقها في طهر لم يحامها فيه فان الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه بدعي حرام وإن كان واقعا لما فيه من تطويل العدة عليها فان فعل ذلك فليراجعها « طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمري : مرة فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها فذلك المدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء (٥) » وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين ثلاثا لأن الطلقة الواحدة بعد الطلاق قسط . الثاني : أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد التصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة وإذا طلق ثلاثا ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة وعقد المحلل منى عنه ويكون هو السامح فيه ثم يكون قلبه معلقا بزوجة الغير وتطليقه أعنى زوجة المحلل بعد أن تزوج منه ثم يورث ذلك تنفيرا من الزوجة وكل ذلك ثمرة الجمع وفي الواحدة كفاية في التصود من غير محذور ولست

(١) حديث أسماء ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ثم أتت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم دعا بتمر فضعها ثم نفل في فيه الحديث متفق عليه (٢) حديث ابن عمر كانت تحق امرأة أحبها وكان أبي يكرهها فأمرني بطلاقها الحديث أصحاب السنن قال ت حسن صحيح (٣) حديث أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة وفي لفظ فالجنة عليها حرام أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان (٤) حديث المختلعات هن المناقات النساء من حديث أبي هريرة وقال لم يسمع الحسن من أبي هريرة قال ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة قلت رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف (٥) حديث طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمري مرة فليراجعها الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

إلى رضا مولاه فالمرید
الصادق المذهب باطنه
نار الإرادة في يده أمره
وحدة إرادته كالملسوع
الحريص على من يرفقه
ويداويه فإذا صادف
شيخا ثبت من باطن
الشيخ صدق الضاية
به لاطلاعه عليه
وينبت من باطن
الريد صدق الحبة
بتألف القلوب وتسام
الأرواح وظهور سر
السابعة فيهما باجتماعهما
له وفي الله وبالله
فيكون القميص الذي
يلبس الريد خرقة
تبشر الريد بحسن
عناية الشيخ به فيعمل
عند الريد عمل قميص
يوسف عند يعقوب
عليهما السلام . وقد
نقل أن إبراهيم
الحليل عليه السلام
حين ألقى في النار جرد
من ثيابه وقذف في
النار عرياناً فأنام جبريل
عليه السلام بقميص
من حرير الجنة
وألisse إياه وكان ذلك

أقول الجمع حرام لكنه مكروه بهذه المعاني وأعني بالكراهة تركه النظر لنفسه . الثالث أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف وتطبيب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعه الله من أذى الفراق قال تعالى - ومتعوهن - وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح . كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلقا ومنكاحا ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نساؤه وقال قل لهما اعتدا وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ففعل فلما رجع إليه قال ماذا فعلتا قال أما إحداها فنكست رأسها وتكست وأما الأخرى فبكت واتجبت وصمعتها تقول متاع قليل من حبيب مفارق فأطرق الحسن وترحم لها وقال لو كنت مراجعا امرأة بعد مفارقتها لراجعتها . ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضربت للث عائشة رضي الله عنها حيث قالت لو لم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلي من أن يكون لي ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فدخل عليه الحسن في بيته فظفمه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وقال ألا أرسلت إلي فكتك أجيئك فقال الحاجة لنا قال وما هي قال جئتك خاطبا ابنتك فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال والله ما على وجه الأرض أحد يعيش عليها أحرى منك ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوؤني ما يسوؤها ويسرني ما يسرها وأنت مطلق فأخاف أن تطلقها وإن ضلت خشيت أن يتغير قلبي في محبتك وأكره أن يتغير قلبي عليك فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان شرطت أن لا تطلقها زوجتك فكنت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته سمعته وهو يعيش ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقا في عنقي . وكان على رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته : إن حسنا مطلقا فلا تنكحوه حتى قام رجل من همدان فقال والله يا أمير المؤمنين لننكحه ما شاء فان أحب أمسك وإن شاء ترك فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة قلت لهمدان ادخلي بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه فهذه الموافقة قبيحة بل الأدب المخالفة ما أمكن فان ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن دائه والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعا فقال - وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله - وقال سبحانه وتعالى - وإن يفرقا يغن الله كلا من سعته - . الرابع : أن لا يفتي سرها لافي الطلاق ولا عند النكاح فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم (١) . ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة فقيل له ما الذي يريك فيها فقال العاقل لا يهتك ستر امرأته فلما طلقها قيل له لم تطلقها قال مالي ولا امرأة أخرى فهذا بيان ما على الزوج .

(القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها)

والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رقي فهي رقيقة له فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها في نفسها بما لا معصية فيه وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة قال صلى الله عليه وسلم « أيعا امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخل الجنة » (٢) « وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل

(١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة مسلم من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : إن أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينفي سرها (٢) حديث أيعا امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم سلمة .

عند إبراهيم عليه السلام فلما مات ورثه اسحق فلما مات ورثه يعقوب فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص في تعويد وجهه في عنق يوسف فكان لا يفارقه لما ألقى في البئر عريانا جاءه جبريل وكان عليه التمود فأخرج القميص منه وألبسه إليه . أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد ابن اسمعيل القزويني بإجازة قال أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس قال أنا القاضي محمد بن سعيد قال أنا أبو اسحق أحمد بن محمد قال أخبرني ابن فنجويه الحسين بن محمد قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا الحسن بن علي قال ثنا اسمعيل بن عيسى قال ثنا إسحق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى

وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قصر بيتها وإن صلاتها في محن دارها أفضل من صلاتها في المسجد وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في محن دارها وصلاتها في محن دارها أفضل من صلاتها في بيتها (١) » والمندع بيت في بيت وذلك للستر ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان (٢) » وقال أيضا « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات (٣) » حقوق الزوج على الزوجة كثيرة وأهمها أمران أحدهما الصيانة والستر والآخر ترك اللطافة مما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراما وهكذا كانت عادة النساء في السلف كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له امرأته وأبنته إياك وكسب الحرام فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك شقة فقالت زوجي منذ عرفته عرفته كالا وما عرفته رزاقا ولي رب رزاق يذهب الأكل ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت اسماعيل أحمد بن أبي الحواري فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها والله مالي همه في النساء لشغلي بحالي فقالت إني لأشغل بحالي منك ومالي شهوة ولكن ورثت ما لاجزلا من زوجي فأردت أن تنفقه على اخوانك وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقا إلى الله عز وجل فقال حتى أستاذن أستاذي فرجع إلى أبي سليمان الداراني قال وكان ينهاني عن التزويج ويقول ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير فلما سمع كلامها قال تزوج بها فانها ولية لله هذا كلام الصديقين قال فتزوجتها فكان في منزلنا كن من جص قفى من غسل أيدى المتعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عن غسل بالأشنان قال وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني وتقول اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام رابعة العدوية بالبصرة . ومن الواجبات عليها أن لا تنظرط في ماله بل تحفظه عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فسادة فان أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر (٤) » ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن العاشرة وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء

وخرفة الإرادة ممنوعة
بالمن الصادق الراغب
وليس الأزرق من
استحسان الشيوخ
في الحرقة فان رأى
شيخ أن يلبس مريدا
غير الأزرق فليس
لأحد أن يعترض
عليه لأن الشايع
آراؤهم فيما يفعلون
بحكم الوقت وكان
شيخنا يقول كان
الفقير يلبس قصير
الأكم ليكون أعون
على الخدمة ويعوز
للشيخ أن يلبس المريد
خرقا في دفعات على
قدر ما يطلع من
الصلحة للمريد في ذلك
على ما أسلفناه من
تداوى هواء في
اللبوس والملون
فيختار الأزرق لأنه
أرفق للفقير لكونه
يحمل الوسخ ولا
يجوز إلى زيادة
الفصل لهذا المعنى
حسب وما عدا هذا
من الوجوه التي
يذكرها بعض

(١) حديث أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قصر بيتها فان صلاتها في محن دارها أفضل من صلاتها في المسجد الحديث ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره وآخره رواه أبو داود ومختصرا من حديثه دون ذكر محن الدار ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد وإسناده حسن ولابن حبان من حديث أم حميد بنحوه (٢) حديث المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود (٣) حديث للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة الحديث الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجماعي في تاريخ الطالبين من حديث علي بسند ضيف وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس للمرأة ستران قيل وماها قال الزوج والقبر (٤) حديث لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الحديث أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه ولا تعطى من بيته شيئا إلا بإذنه فان فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر ولأبي داود من حديث سعد قالت امرأة يارسول الله إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم قال الرطب تأكله وتهديته وقد صحح الدارقطني في العلل أن سعدا هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص واختاره ابن القطان ولمسلم من حديث عائشة إذا أنققت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنققت ولزوجها أجره بما كسب .

بنت خاتمة الفزاري قالت لا بنتها عند الزوج : إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفه وقرين لم تألفه فكوني له أرضاً يكن لك سماء وكوني له مهاداً يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً لا تلجئي به فيقلاك ولا تباعدى عنه فينداك إن دنا منك فأقرب منه وإن نأى فأبعدى عنه واحفظي أنفه وصممه وعينه فلا يشمن منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلاً . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو منى تستدبى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تقرىنى فترك الدف مرة فانك لا تدرين كيف اللبيب
ولا تنكثى الشكوى تنذهب بالهوى وبأباك قلبى والقلوب تغلب
فانى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فأقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة فى قمر بيتها لازمة لمزملها لا يكثر صعودها وإطاعتها قليلة الكلام لجيرانها لا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول تحفظ بعلها فى غيبته وأطلب مسرته فى جميع أمورها ولا تخونه فى نفسها وماله ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بإذنه فحذيفة فى هيئة رثة أطلب الواضع الحالية دون الشوارع والأسواق محترمة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تعرف إلى صديق بعلها فى حاجتها بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه مهما صلاح شأنها وتدير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها وإذا استأذن صديق لبعالها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام غيره على نفسها وجعلها وتكون قائلة من زوجها بما رزق الله وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها منتظفة فى نفسها مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء مشفقة على أولادها حافظة للستر عليهم قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين فى الجنة امرأت أمت من زوجها وحبت نفسها على بناتها حتى نابوا أو ماتوا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « حرم الله على كل آدمى الجنة يدخلها قبل غير أنى أنظر عن يمينى فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة فأقول ما لهذا تبادرنى فيقال لى يا محمد هذه امرأة كانت حسناء جميلة وكان عندها يتامى لها فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذى بلغ فشكر الله لما ذلك (٢) » . ومن آدابها أن لا تتفاخر على الزوج بعملها ولا تزدري زوجها لقبه فقد روى أن الأصمعى قال دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهاً تحت رجل من أجمع الناس وجهاً فقلت لها يا هذه أترضين لنفسك أن تكونى تحت مثله فقالت يا هذا اسكت فقد أسأت فى قولك لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجلنى ثوابه أولمى أسأت فيما بينى وبين خالقي فجعله عقوبتى أفلا أرضى بما رضى الله لى فأسكتنى . وقال الأصمعى رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مخضبة ويدها سبعة فقلت ما أبعد هذا من هذا فقالت :

والله منى جانب لا أضيعه والله منى والبطالة جانب

فصلت أنها امرأة سالحة لها زوج تزين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والالتباس فى غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة فى حضور زوجها ولا ينبغي أن تؤذى زوجها بحال روى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجها من الحور العين لا تؤذيه قالتك الله فانما هو عندك دخیل يوشك أن يفارقك إلينا (٣) »

(١) حديث أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين الحديث أبو داود من حديث أنى مالك الأشجعي بسند ضيف (٢) حديث حرم الله على كل آدمى الجنة أن يدخل قبل غير أنى أنظر عن يمينى فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة الحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة بسند ضيف (٣) حديث معاذ

التصوفة فى ذلك كلام
إقناعى من كلام
التصميين ليس من
الدين والحقيقة بشيء
سمعت الشيخ سيد
الدين أبى الفجر الحمدانى
رحمه الله قال : كنت
يغداد عند أبى بكر
الشروطى فخرج إلينا
فقير من زاووته عليه
ثوب وسخ فقال له بعض
الفقراء لم لا تغسل
ثوبك فقال يا أخى
ما أتفرغ فقال الشيخ
أبو الفخر لا زال أتذكر
حلاوة قول الفقير
ما أتفرغ لأنه كان
صادقاً فى ذلك فأجد
قمة تهمه وبركة
بتذكارى ذلك
فاختاروا اللون لهذا
للعنى لأنهم من رعاية
وقتهم فى شغل شاغل
والأفأى ثوب ألبس
الشيخ الريد من
أيض وغير ذلك
فلىشيخ ولاية ذلك
بحسن مقصده ووفور
علمه وقد رأينا من
الشايع من لا يلبس

وما يجب عليها من حقوق النكاح إذا زوجها أن لاتعد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشرا
وتجنب الطيب والزينة في هذه المدة قالت زينب بنت أبي سلمة دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله
عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية
ثم مست بعارضها ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لامرأة
تؤمن بالله واليوم الآخر أن تعد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا (١) »
ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا للضرورة .
ومن آدابها أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها قد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله
عنهما أنها قالت تزوجني الزير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف
فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن وكنت
أقل النوى على رأسى من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بحارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما اعتقني (٢)
ولقيت رسول الله ﷺ يوما ومعه أصحابه والنوى على رأسى فقال صلى الله عليه وسلم أخ أخ لينسخ ناقته
ويعملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزير وغيرته وكان غير الناس فعرف رسول الله
صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت فجئت الزير فحكيت له ماجرى فقال والله لحملك النوى على رأسك
أشد على من ركوبك معه . ثم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

(كتاب آداب الكسب والعاش)

وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد واحد الحق في توحيد ماسوى الواحد الحق وتلاشى . ونعجده تعجيد من يصح بأن
كل شيء ماسوى الله باطل ولا يتحاشى . وأن كل من في السموات والأرض لن يخلقوا ذابا ولو اجتمعوا
له ولا فراشا . ونشكره إذ ذرق السماء لباده سقفا مبينا ومهد الأرض بساط لهم وفراشا . وكور الليل
على النهار فجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا . لينتشروا في ابتغاء فضله وينتفشوا به عن ضراعة
الحاجات اتعاشا . ونصلى على رسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعدد رودهم عليه عطاشا .
وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمرا وانكماش . وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب . جعل الآخرة دار الثواب والعقاب والدنيا دار
التمهل والاضطراب . والتشمير والاكتساب . وليس التشمر في الدنيا مقصورا على البعاد دون المعاش
بل المعاش ذريعة إلى البعاد ومعين عليه فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها . والناس ثلاثة رجل
شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين والأقرب
إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . ولن ينال رتبة الاقتصاد
من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد ولن ينتهز من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة مالم

لاتؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لاتؤذيه الحديث الترمذى وقال حسن
غريب وابن ماجه (١) حديث أم حبيبة لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تعد على ميت
أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا متفق عليه (٢) حديث أسماء تزوجني الزير وماله
في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح فكنت أعلف فرسه الحديث متفق عليه .

(كتاب آداب الكسب)

الحرقه ويسلك بأقوام
من غير لبس الحرقه
ويؤخذ منه العلوم
والآداب وقد كان
طبقة من السلف
الصالحين لا يعرفون
الحرقه ولا يلبسونها
للردين فمن يلبسها
فله مقصد صحيح وأصل
من السنة وشاهد من
الشرع ومن لا يلبسها
فله رأيه وله في ذلك
مقصد صحيح وكل
تصارييف الشايخ محمولة
على السداد والصواب
ولا تخلو عن نية صالحة
فيه والله تعالى يرفعهم
وبآثارهم إن شاء الله
تعالى .

[الباب الثالث عشر
في فضيلة سكان الرباط]
قال الله تعالى في بيوت
أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه يسبح
له فيها بالعدو والآمال
رجال لا تلهيهم تجارة
ولا بيع عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة يخافون يوما
تقلب فيه القلوب

يتأدب في طلبها بآداب الشريعة . وهانحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب . الباب الأول : في فضل السكس والحث عليه . الباب الثاني : في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات . الباب الثالث : في بيان العدل في المعاملة . الباب الرابع : في بيان الإحسان فيها . الباب الخامس : في شفقة التاجر على نفسه ودينه .

(الباب الأول في فضل السكس والحث عليه)

أما من الكتاب قوله تعالى - وجعلنا النهار معاشا - فذكره في معرض الامتنان ، وقال تعالى - وجعلنا لكم فيها معاشا قليلا ما تشكرون - فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها وقال تعالى - ليس عليكم جناح أن تبغثوا فضلا من ربكم - وقال تعالى - وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله - وقال تعالى - فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله - وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الله في طلب العيشة ^(١) » وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حاللا وتعففا عن المسئلة وسعيا على عياله وتعطفوا على جاره لقي الله ووجهه كالمعزلة البدر ^(٣) » « وكان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو في سبيل الله وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس ويغض العبد يعلم العلم يتخذه مهنة ^(٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور ^(٧) » وفي خبر آخر

(الباب الأول في فضل السكس والحث عليه)

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الله في طلب العيشة تقدم في النكاح (٢) حديث التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء الترمذي والحاكم من حديث أبي سعيد قال الترمذي حسن وقال الحاكم إنه من مراسيل الحسن والابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر (٣) حديث من طلب الدنيا حاللا وتعففا عن المسئلة وسعيا على عياله الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٤) حديث كان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان جلده في سبيل الله الحديث الطبراني في معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف (٥) حديث إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس الحديث لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي إن الله يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال وفيه محمد بن سهل العطار قال الدارقطني يضع الحديث (٦) حديث إن الله يحب المؤمن المحترف الطبراني وابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر (٧) حديث أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور أحمد من حديث رافع بن خديج قيل يارسول الله أي السكس أطيب قال عمل الرجل يده وكل عمل مبرور ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه قال الحاكم صحيح الاسناد قال وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد البراء بن عازب ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مراسلا وقال هذا هو المحفوظ وخطأ قول من قال عن عمه وحكاة عن البخاري ورواه أحمد والحاكم من رواية

والأبصار - قيل إن هذه البيوت هي الساجد وقيل بيوت المدينة وقيل بيوت النبي عليه السلام والسلام : وقيل لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضي الله عنه وقال يارسول الله هدم البيوت منها بيت على وفاطمة قال نعم أفضلها . وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجدا لرسول الله عليه الصلاة والسلام فلي هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لا بصور البقاع وأي بقعة حوت رجالا بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع : روى أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال « ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضا هل مرّ بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك فمن قائلته نعم ومن قائلته لا فاذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلا وما

«أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح^(١)» وقال عليه السلام «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق^(٢)» وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع؟ قال أتعبد قال من يعولك؟ قال أخي قال أخوك أعبد منك وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «إني لأعلم شيئاً يقرّ بكم من الجنة ويعمدكم من النار إلا أمرتكم به وإنّي لأعلم شيئاً يعمدكم من الجنة ويقرّ بكم من النار إلا نهيتكم عنه وإنّ الروح الأمين نفث في روعي إنّ نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطلها عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل أتركوا الطلب ثم قال في آخره «ولا يجملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «الأسواق موائد الله تعالى فمن أتاها أصاب منها^(٤)» وقال عليه السلام «لأن يأخذ أحدكم حبله فيخطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه^(٥)» وقال «من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر^(٦)». وأما الآثار: فقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروءته وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به. وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولافضة وكان زيد بن مسلفة يفرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه أصبت استغن عن الناس يكن أمون لدينك وأكرم لك عليهم كما قال صاحبكم أحيحة: فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الإخوان ذوالمال

وقال ابن مسعود رضي الله عنه إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لافي أمر ديناه ولا في أمر آخرته. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحب إليك أم التفرغ للعبادة قال التاجر الصدوق أحب إليّ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال واليزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده وخالفه الحسن البصري في هذا وقال عمر رضي الله عنه: مامن موضع يأتي اللوت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري وقال الهيثم ربما ييلن عن الرجل يقع في فأذكر استغنائي عنه فيكون ذلك على وقال أيوب كسب فيه شيء أحب إلي من سؤال الناس وجاءت ريع

جميع بن عمير عن خاله أبي بردة وجميع ضعيف والله أعلم (١) حديث أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح أحمد من حديث أبي هريرة خير الكسب كسب العامل إذا نصح وإسناده حسن (٢) حديث عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن تسعة أعشار الرزق في التجارة ورجاله ثقات ونعيم هذا قال فيه ابن منده ذكر في الصحابة ولا يصح وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان إنه تابعي فالحديث مرسل (٣) حديث إني لأعلم شيئاً يعمدكم من الجنة ويقرّ بكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها الحديث ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهد الحديث أبي حميد وجابر ومحمد علي شرط الشيخين وهما مختصران ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال إنه منقطع (٤) حديث الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها ورواه في الطيوريات من قول الحسن البصري ولم أجده مرفوعاً (٥) حديث لأن يأخذ أحدكم حبله فيخطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها وقال حسن صحيح.

من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أو صلى الله عليها إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت. ، وقيل في قوله تعالى - فما بكت عليهم السماء والأرض - تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى فسكان الرباط هم الرجال لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى وانقطعوا إلى الله فأقام الله لهم الدنيا خادمة. وروى عمران بن الحصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها» وأصل الرباط ما يربط فيه الحيول ثم قيل لكل نمر يدفع أهله عمن

عاصفة في البحر فقال أهل السفينة لإبراهيم بن آدم رحمه الله وكان معهم فيها أما ترى هذه الشدة فقال ما هذه الشدة إنما الشدة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال لي أبو قلابة الزم السوق فإن الغنى من العافية يعني الغنى عن الناس . وقيل لأحمد ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتي رزقي فقال أحمد هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمعي ^(١) » وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال « تغدو خماصا وتروح بطانا ^(٢) » فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم والقدوة بهم وقال أبو قلابة لرجل لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد . وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن آدم رحمه الله وطى عنقه حزمة حطب فقال له يا أبا اسحق إلى متى هذا إخوانك يكفونك فقال دعني عن هذا يا أبا عمرو فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة وقال أبو سليمان الداراني ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وعيرك بقوتك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ينادى مناد يوم القيامة أين بغضاء الله في أرضه فيقوم سؤال المساجد فهذه مذمة الشرع لسؤال والاتكال على كفاية الأغيار ومن ليس له مال موروث فلا ينجي من ذلك إلا الكسب والتجارة . فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما أوحى إلى أن أجمع المال وكن من التاجرين ولكن أوحى إلى أن سبغ محمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ^(٣) » وقيل لسلمان الفارسي أوصنا فقال من استطاع منكم أن يموت حاجا أو غاريا أو طامرا المسجد به فليفعل ولا يموتن تاجرا ولا خائنا . فالجواب أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال فنقول لسنا نقول التجارة أفضل مطلقا من كل شيء ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية فان طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا يصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة لأنه إقبال على الدنيا التي حبر رأس كل خطيئة فان كان مع ذلك ظالما خائنا فهو ظالم وفسق وهذا ما أراده سلمان بقوله لا تمت تاجرا ولا خائنا وأراد بالتاجر طالب الزيادة فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم السؤال فالتجارة تغفقا عن السؤال أفضل وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى من غير سؤال فالكسب أفضل لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره فالتعفف والتستر أولى من البطالة بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة عابد بالعبادات البدنية أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والكشافات أو عالم مشغول بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم أو رجل مشغول بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمورهم كالسلطان والقاضي والشاهد فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح والأوقاف المسبلة على الفقراء والعلماء فأقبلهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب ولهذا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبغ محمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين لأنه كان جامعا لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضى الله عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح وكان يأخذ كفايته من مال المصالح ورأى ذلك أولى

(١) حديث إن الله جعل رزقي تحت ظل رمعي أحمد من حديث ابن عمر جعل رزقي تحت ظل رمعي وإسناده صحيح (٢) حديث ذكر الطير فقال تغدو خماصا وتروح بطانا الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث ما أوحى إلى أن أجمع المال وكن من التاجرين ولكن أوحى إلى أن سبغ محمد ربك وكن من الساجدين ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين.

وراءه رباط فالجهاد للرباط يدفع عمن وراءه والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاد عن العباد والبلاد . أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزويني بإجازة قال أنا أبو سعيد محمد ابن أبي العباس الحلي قال أخبرنا القاضي محمد ابن سعيد القرخاذي قال أنا أبو اسحق أحمد ابن محمد قال أنا الحسين ابن محمد قال أنا أبو بكر ابن خزيمة قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبو حميد الحمصي قال حدثنا يحيى بن سعيد القطار [١] قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سودة عن وبرة بن عبد الرحمن [١] قوله بالهامش القطار هكذا بنسخة وفي أخرى العطار ولله القطان بالنون وليحرر .

ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال ولكنه رآه في الابتداء أولى ، ول هؤلاء الأربعة حالتان أخريان أحدهما أن تكون كفايتهم عند ترك الكسب من أيدي الناس وما يتصدق بهم عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال فترك الكسب والاشتغال بتمام فيه أولى إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لها هو بحق عليهم وأفضل لهم . الحالة الثانية الحاجة إلى السؤال وهذا في محل النظر والتشديدات التي رويها في السؤال وذمة تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير بل هو موكل إلى اجتهد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلقى في السؤال من المذلة وهتك الرومة والحاجة إلى التثقل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية وربما يكون بالعكس وربما يقابل المطلوب والمحدور فينبغي أن يستفتي الريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال ولقد كان في السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون وكانوا يشتغلون بالعبادة لهم بأن التكفين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته فهذه فضيلة الكسب وليكن العقد الذي به الكتاب جامعا لأربعة أمور الصحة والعدل والإحسان والشفقة على الدين ونحن نقف في كل واحد بابا ونبتدى بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني .

(الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة)

وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار الكسب في الشرع)

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات العاملة فيتقيا وما شد عنه من القروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل فانه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال ولو قال لا أقدم العلم ولكني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أتعلم وأستفتي فيقال له وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم حمل مفسدات العقود فانه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة لتمييزه للباح عن المحظور وموضع الإشكال عن موضع الوضوح ولذلك روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه وإلا أكل الربا شاء أم أبى ، وعلم العقود كثير ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكسب عنها وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض فلنشرح شروطها .

(العقد الأول البيع)

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان العاقد والعقود عليه واللفظ . الركن الأول : العاقد ينبغي للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة الصبي والمجنون والعبد والأعمى لأن الصبي غير مكلف وكذا المجنون ويجهلها باطل فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي وما أخذه منهما مضمون عليه لهما وما سلمه في العاملة إليهما فضاء في أيديهما فهو الضيعه . وأما العبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا بإذن سيده

(الباب الثاني في علم الكسب)

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليندفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لولا عباد الله ركن وصية رضع وبهائم رزع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض زضا » . وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليصلح بصالح الرجل ولده وولد وولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم » . وروى داود بن صالح قال قال لي أبو سلمة ابن عبد الرحمن يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية - اصبروا وصابروا ورباطوا - قلت لا قال يا ابن أخي لم يكن في

فلى البقال والحجاز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا المبيد ما تآذن لهم السادة في معاملتهم وذلك بأن يسمح
صريحاً أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيده وفي البيع له فيقول على الاستفاضة أو على قول
عبدل بخبره بذلك فإن عامله بغير إذن السيد فمعه باطل وما أخذه منه مضمون عليه لسيده وما تسلمه إن
ضاع في يد العبد لا يتعاق برقبته ولا ضمنه سيده بل ليس له إلا اللطابة إذا عتق . وأما الأعمى فإنه يبيع
ويشتري ما لا يرى فلا يصح ذلك فليأمره بأن يوكل ويكلاً بصيراً ليشتري له أو يبيع فيصح توكيله . وصرح
بيع وكيله فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته وما تسلمه إليه
أيضاً مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه الصحف ولا العبد المسلم ولا يباع منه
السلاح إن كان من أهل الحرب فإن فعل فقه معاملات مردودة وهو عاص بها ربه . وأما الجندي من
الأتراك والتركية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام فلا
ينبغي أن يتملك مما في أيديهم شيئاً لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئاً بينه أنه حلال وسيأتي تفصيل
ذلك في كتاب الحلال والحرام . الركن الثاني في العقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد
العاقدين إلى الآخر عما كان أو شئنا فيعتبر فيه ستة شروط . الأول أن لا يكون نجساً في عينه فلا يصح
بيع كلب وخنزير ولا بيع زبل وعذرة ولا بيع العاج والأواني المتخذة منه فإن العظم ينجس بالموت
ولا يظهر القيل بالذبح ولا يظهر عظمه بالتذكية ولا يجوز بيع الحجر ولا بيع الودك النجس المستخرج
من الحيوانات التي لا تؤكل وإن يصلح للاستصباح أو طلاء السفن ولا يأس ببيع الدهن الطاهر في عينه
الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل وهو في عينه ليس
بنجس وكذلك لا يرى بأساً ببيع زبر القرفانة أصل حيوان ينتفع به وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان
أولى من تشبيهه بالروث ويجوز بيع فأرة السك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الطيبة في حالة الحياة .
الثاني أن يكون متفعلاً به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ولا الثفات إلى انتفاع للشعب
بالحية وكذا لا الثفات إلى انتفاع أصحاب الحق باخراجها من السلة وعرضها على الناس ويجوز بيع
الهرّة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده ويجوز بيع القيل لأجل الحمل
ويجوز بيع الطوطى وهى البياض والطاوس والطيور المبيحة الصور وإن كانت لا تؤكل فإن التفرج
بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتنى إعجاباً بصورته
تهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ^(١) ولا يجوز بيع العود والصنج والزامر والملاهي فإنه لا منفعة
لها شرعاً وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن
كسرها واجب شرعاً وصور الأشجار متسامح بها وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح
بيعها وكذا الستور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « اتخذى منها
نمارق ^(٢) » ولا يجوز استعمالها منصوبة ويجوز موضوعة وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع
لذلك الوجه . الثالث أن يكون التصرف فيه مملوكاً للعاقدة أو مأذوناً من جهة المالك ولا يجوز أن يشتري
من غير المالك انتظاراً للأذن من المالك بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ولا ينبغي أن
يشتري من الزوجة مال الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد
اعتماداً على أنه لو عرف لرضى به فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع وأمثال ذلك مما يجري
في الأسواق فواجب على العبد للدين أن يحترز منه . الرابع أن يكون العقود عليه مقدوراً على تسليمه

(١) حديث النهي عن اقتناء الكلب متفق عليه من حديث ابن عمر من اتقى كلباً إلا كلب ماشية أو ضارياً
نقص من عمله كل يوم قبراطان (٢) حديث اتخذى منها نمارق يقوله لعائشة متفق عليه من حديثها .

ومن رسول الله صلى الله
عليه وسلم غزور يربط
فيه بالحيل ولكنه
انتظار الصلاة بعد
الصلاة فالرباط للجهاد
النفسي والتقسيم في
الرباط مزابط مجاهد
نفسه قال الله تعالى
سواجدهوا في الله حق
جهاده - قال عبد الله
ابن المبارك هو مجاهدة
النفسي والمهوى وذلك
حق الجهاد وهو
الجهاد الأكبر على
ماروى في الخبر أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال حين
رجع من بعض غزواته
« رجنا من الجهاد
الأصغر إلى الجهاد
الأكبر » . وقيل : إن
بعض الصالحين كتب
إلى أخ له يستدعيه
إلى الغزو فكتب إليه
يا أخى كل الغزور مجتمة
لى فى بيت واحد
والباب على مردود
فكتب إليه أخوه
لو كان الناس كلهم ثمروا
ماثرته اختلت أمور

شرعا وحسب لما لا يقدر على تسليمه حسا لا يصح بيعه كالأبق والسمك في الماء والجبن في البطن وعصب الفجل وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان واللبن في الضرع لا يجوز فانه يتعذر تسليمه لاختلاط غير البيع بالمبيع والمعجوز عن تسليمه شرعا كالمهون والوقوف والمستولدة فلا يصح بيعها أيضا وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيرا وكذا بيع الولد دون الأم لأن تسليمه تفريق بينهما وهو حرام فلا يصح التفريق بينهما بالبيع . الخامس : أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه فلو قال بعتك شاة من هذا القطيع أي شاة أردت أو ثوبا من هذه الثياب التي بين يديك أو زراعا من هذا الكرباس وخذه من أي جانب شئت أو عشرة أذرع من هذه الأرض وخذه من أي طرف شئت فالبيع باطل وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شاة مثل أن يبيع نصف الثور أو عشرة فان ذلك جائز . وأما العلم بالقدر فاعلم يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه فلو قال بعتك هذا الثوب بمابع به فلان ثوبه وهما لا يدريان ذلك فهو باطل ولو قال بعتك بزنة هذه الصنعة فهو باطل إذا لم تكن الصنعة معلومة ولو قال بعتك هذه الصبرة من الخنطة فهو باطل أو قال بعتك بهذه الصبرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراه صرح البيع وكان تخمينه بالنظر كافيا في معرفة المقدار ، وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مدة لا يظلم التعريفها والوصف لا يقوم مقام العيان هذا أحد الذهبين ولا يجوز بيع الثوب في المنسج اعتمادا على الرقوم ولا يصح الخنطة في سبيلها ويجوز بيع الأرز في قشرته التي يدخر فيها وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى ولا يجوز في القشرتين ويجوز بيع البافلاء الرطب في قشره للحاجة ويتسامح ببيع القفاح لجريان عادة الأولين به ولكن نجعله إباحة عوض فان اشتراه ليبيعه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقه ولا يبعد أن يتسامح به إذ في إخراجهم إفساده كالرمان وما يستر بستر خلق معه . السادس : أن يكون البيع مقبوضا إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة وهذا شرط خاص وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع مالم يقبض (١) ويستوى فيه العقار والمنقول فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل وقبض المنقول بالنقل وقبض العقار بالتخلية وقبض ما يتبعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتب له . وأما بيع الميراث والوصية والوديعة ومالم يكن الملك حاصلا فيه بمعاوضة فهو جائز قبل القبض . الركن الثالث : لفظ العقد فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود مفهم إما صريح أو كناية فلو قال أعطيتك هذا بذلك بدل قوله بعتك فقال قبلته جاز مهما قصدت به البيع لأنه قد يحتمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين والنية تدفع الاحتمال والصريح أقطع للخصومة ولكن الكناية تفيد الملك والحل أيضا فيما يختاره ولا ينبغي أن يقرن بالبيع شرطا على خلاف مقتضى العقد فلو شرط أن يزيد شيئا آخر أو أن يحمل المبيع إلى داره أو اشتري الحطب بشرط النقل إلى داره كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ومهما لم يجز بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلفظ باللسان لم ينعقد البيع عند الشافعي أصلا وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير فان رد الأمر إلى العادات قد تجاوز الناس المحقرات في المعاطاة إذ تقدم الدلال إلى البراز يأخذ منه ثوبا دينا جا قيمته عشرة دنائير مثلا ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاء فيقول له خذ عشرة فيأخذ من صاحبه العشرة ويحمله ويسلمها إلى البراز فيأخذها ويتصرف فيها ومشتري الثوب يقطعها ولم يجز بينهما إيجاب وقبول أصلا وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت

المسلمين وغلب الكفار فلا بد من الفوز والجهاد فكتب إليه يأخى لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجاداتهم الله أكبر انهدم سور قسطنطينية . وقال بعض الحكماء ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات محل ما عقده الأفلاك الدائرات في اجتماع أهل الروابط صح على الوجه للوضوح له الربط وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقي ما يفسد الأعمال واعتماد ما يصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد . وقال سري السقطي في قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ورابطوا أهواء النفس

(١) حديث النهي عن بيع مالم يقبض متفق عليه من حديث ابن عباس .

البيع فيعرض متاعا قيمته مائة دينار مثلا فيمن يزيد فيقول أحدهم هذا على بتسعين ويقول الآخر هذا على بخمسة وتسعين ويقول الآخر هذا بمائة فيقال له زن فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول وقد استمرت به العادات وهذه من الضلالت التي ليست قبل العلاج إذ الاحتمالات ثلاثة . إما فتح باب المعاوضة مطلقا في الحقيق والتفيس وهو محال إذ فيه نقل للملك من غير لفظ دال عليه وقد أحل الله البيع والبيع اسم للإيجاب والقبول ولم يمر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل تسليم وتسليم فإذا يحكم بانتقال الملك من الجانبين لاسيما في الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه إذ لم يسلم أن يرجع ويقول قد ندمت وما بهته إذ لم يصدر مني إلا مجرد تسليم وذلك ليس ببيع . الاحتمال الثاني أن نسد الباب بالكلية كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد وفيه إشكال من وجهين أحدهما أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتادا في زمن الصحابة ولو كانوا يتكفون الإيجاب والقبول مع البقال والحجاز والقصاب لنقل عليهم فعله ولنقل ذلك نقل منتشرا ولكان يشتهر وقت الإعراض بالكلية عن تلك العادة فإن الأعصار في مثل هذا تفاوت . والثاني أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئا من الأطعمة وغيرها إلا ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاوضة فأى فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك . الاحتمال الثالث أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قال أبو حنيفة رحمه الله وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه وقد ذهب ابن سريج إلى تخرج قول للشافعي رحمه الله على وقته وهو أقرب الاحتمالات إلى الاعتدال فلا بأس لومنا إليه لمسيس الحاجب ولعموم ذلك بين الخلق ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتادا في الأعصار الأول . فأما الجواب عن الإشكالين فهو أن نقول أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير فإن ذلك غير ممكن بل له طرفان واضحان إذ لا يخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخبز واللحم من العدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاوضة وطالب الإيجاب والقبول فيه بعد مستقصيا ويستبد تكليفه لذلك ويستقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ولا وجه له فهذا طرف الحقارة والطرف الثاني الدواب والعبيد والعقارات والياب النفيسة فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها هي في محل الشبهة فحق ذي الدين أن يميل إليها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشككة وأما الثاني وهو طلب سبب لنقل الملك فهو أن يجعل الفعل باليد أخذًا وتسليمًا سببا إذ اللفظ لم يكن سببا لعينه بل لدلالته وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة والنظم إليه مسيس الحاجة وعادة الأولين واطراد جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها ، وأى فرق بين أن يكون فيه عوض أولا يكون إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضا إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقيق والنفيس بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان وفي البيع لم يستقبح في غير المحقرات هذا ما تراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لا يذيع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف فلا ينبغي أن يتمتع من ذلك لأجل أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول فإن ذلك لا يعرف تحقيقا فربما اشتراه بقبول وإيجاب فإن كان حاضرا عند شرائه أو أقر البائع به فليمتنع منه وليشتر من غيره فإن كان الشيء محقرا وهو إليه محتاج فليلتفظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ومن الفعل ممكن . فإن قلت فإن أمكن هذا فيما يشتريه فكيف فعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاوضة في البيع والشراء

العوامة وانتقوا ما يعقب
لكم الندامة لعلكم
تفلحون غدا على بساط
الكرامة وقيل اصبروا
على بلائى وصابروا
على نعمائى ورابطوا
دار أعدائى وانتقوا
حجة من سوائى لعلكم
تفلحون غدا بلغائى .
وهذه شرائط ساكن
الرباط قطع الماملة مع
الخلق وفتح الماملة مع
الحق وترك الاكتساب
اكتفاء بكفالة مسبب
الأسباب وحبس
النفس عن الخاطات
واجتناب التبعات
وعائق ليله ونهاره
العبادة متعوضا بها
عن كل عادة يشغله
حفظ الأوقات وملازمة
الأوراد وانتظار
الصلوات واجتناب
الغفلات ليكون بذلك
مرابطا مجاهدا . حدثنا
شيخنا أبو النجيب
السهروردي قال أنا ابن
نهران محمد الكاتب
قال أنا الحسن بن
شاذان قال أنا دعلج

أوسع منهم ذلك أوزاره أوجب عليه الامتناع من الأكل . فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقدارا نفيسا ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل فلا يجب الامتناع منه فإني أقول إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك فلا ينبغي أن لا نجعله دلالة على الإباحة فإن أمر الإباحة أوسع وأمر نقل الملك أضيق فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة فتسليم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال كإذن الحمامي في دخول الحمام والإذن في الإطعام لمن يريده للشترى فينزل منزلة ما لو قال أبحث لك أن تأكل هذا الطعام أو تطعم من أردت فإنه يحل له ولو صرح وقال كل هذا الطعام ثم اغرم لي عوضه لحل الأكل ويلزمه الضمان ببدل الأكل هذا قياس الفقه عندي ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومتلف له فعليه الضمان وذلك في ذمته والتمن الذي سلمه إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه فله أن يملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه وإن كان قادرا على مطالبته فإنه لا يملك ما ظفر به من ملكه لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه للمراجعة وأما ههنا فقد عرف رضا بقرينة الحال عند التسليم فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضا بأن يستوفي دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه لكن على كل الأحوال جانب البائع أغمض لأن ما أخذه قد يرد بالملك ليتصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا ألتف عين طعامه في يد المشتري ثم ربما يفتقر إلى استئناف قصد التملك ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفادته من الفعل دون القول . وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين فإن ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ولكن ربما يلزم من مشاورته أنضيف يضمن ما ألتفه وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط فيكون كالمقاضي دينه والمتحمل عنه فهذا مانراه في قاعدة المعاطاة على عمومها والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون رددناها ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فإنه ينبغي أن يستغنى قلبه ويتقن مواضع الشبه .

(العقد الثاني عقد الربا)

- وقد حرمه الله تعالى وشدد الأمر فيه ويجب الاحتراز منه على الصياغة المتعاملين على التقدين وعلى المتعاملين على الأطعمة إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام وعلى الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل . أما النسيئة فإن لا يبيع شيئا من جواهر التقدين بشيء من جواهر التقدين إلا يدايد وهو أن يجري التقابض في المجلس وهذا احتراز من النسيئة وتسليم الصياغة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير الضرورية حرام من حيث النساء ومن حيث إن الغالب أن يجري فيه تفاضل إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل فيحترز منه في ثلاثة أمور في بيع الكسبر بالصحيح فلا يجوز المعاملة فيه ما إلا مع المائلة وفي بيع الجيد بالردى فلا ينبغي أن يشتري رديا بجيد دونه في الوزن أو يبيع رديا بجيد فوقة في الوزن أعنى إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة فإن اختلف الجنس فلا حرج في الفضل والثالث في المركبات من الذهب والفضة كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة إن كان مقدار الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان ذلك نقدا جاريا في البلد فأنارخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد وكذا الدراهم الغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة وإن كان نقدا رائجا في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا وكذلك كل حلي مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه بالذهب ولا بالفضة بل ينبغي أن يشتري بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما إلا إذا كان موهبا بالذهب أو موهبا لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار فيجوز بيعها بمثلها

قال أنا البغوي عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال حدثنا صفوان عن الحرث عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إسباغ الوضوء في الكارم وإعمال الأقدام إلى الساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة يغسل الخطايا غسلا » . وفي رواية « ألا أخبركم بما يحو الله به الخطايا وترفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال إسباغ الوضوء في الكارم وكثرة الخطا إلى الساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » [الباب الرابع عشر في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة] قال الله تعالى - لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يعبون

من النقرة بما أريد من غير النقرة وكذلك لا يجوز للصير في أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب ولأن البيعة بل بالفضة يد يد إن لم يكن فيها فضة ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب ويجوز بالفضة وغيرها . وأما للتعاملون على الأطعمة فليسهم التقابض في المجلسين . يختلف جنس الطعام البيع والشترى أولم يختلف فإن أخذ المجلس فليسهم التقابض ومراعاة المائلة والمتاد في هذا معاملة القصاب بأن يسلم إليه النعم ويشترى بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ومعاملة الحجاز بأن يسلم إليه الحنطة ويشترى بها الحبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ومعاملة المصار بأن يسلم إليه البز والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام وكذا اللبن يعطى اللبن ليأخذ منه اللبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبن فهو أيضا حرام ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا وبجنسه إلا نقدا ومتائلا وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متائلا ولا متفاضلا فلا يباع بالحنطة دقيق وخبر وسويق ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن والمائلة لاتفيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتائلا فلهذه جمل مقنعة في تعريف البيع والتنبية على ما يشعر التاجر بمشارات الفساد حتى يستفيق فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال واتحمت الربا والحرام وهو لا يدري .

(العقد الثالث السلم)

وليراع التاجر فيه عشرة شروط . الأول : أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تمطر تسليم السلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال فإن أسلم كفا من الدراهم جزاء في كره حنطة لم يصح في أحد القولين . الثاني : أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفريق فلو تفرقا قبل القبض انفسخ السلم . الثالث : أن يكون السلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع الطارين وأشباهاها ولا يجوز في المعجنات والمركبات وما يختلف أجزاؤه كالقسي المصنوعة والنبل المعمول والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات ويجوز السلم في الحبز وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعني عنه ويتسامح فيه . الرابع : أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف حتى لا يبقى وصف متفاوت به القيمة تفاوت لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع . الخامس : أن يجعل الأجل معلوما إن كان مؤجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر . السادس : أن يكون السلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالبا فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه وكذا سائر الفواكه فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة فله أن يمهله إن شاء أو يفسخ ويرجع في رأس المال إن شاء . السابع : أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به كي لا يثير ذلك نزاعا . الثامن : أن لا يعلقه بمعين فيقول من حنطة هذا الزرع أو ثمرة هذا البستان فإن ذلك يطل كونه ديننا نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة لم يضر ذلك التاسع : أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يمز وجود مثلها أو جارية حسنة معها ولدها أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالبا . العاشر : أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاما سواء كان من جنسه أو لم يكن ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقدا وقد ذكرنا هذا في الربا .

أن يتطهروا والله يحب
الطاهرين - هذا وصف
أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم
قيل لهم ماذا كنتم
تصنعون حتى أتى الله
عليكم بهذا الثناء قالوا
كنا تتبع الماء الحجر
وهذا أشباه هذا من
الآداب وظيفه صوفية
الربط يلزمونه
ويتعاهدونه والرباط
بيتهم ومضربهم ولكل
قوم دار والرباط دارهم
وقد شابهوا أهل الصفة
في ذلك على ما أخبرنا
أبو زرعة عن أبيه
الحافظ القدسي قال
أنا أحمد بن محمد
البرزقي قال أنا عيسى
ابن علي الوزير قال
حدثنا عبد الله البغوي
قال حدثنا وهبان بن
بقية قال حدثنا خالد
ابن عبد الله عن داود
ابن أبي هند عن أبي
الحرث حرب بن أبي
الأسود عن طلحة
رضي الله عنه قال
كان الرجل إذا قدم

(العقد الرابع الإجارة)

وله ركنان الأجرة والمنفعة فأما العاقدة واللفظ فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كالنخل فينبغي أن يكون معلوما وموصوفا بكل ما شرطناه في البيع إن كان مينا فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم المصنف والقدر وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها وذلك مثل كراء الدار بمارتها فذلك باطل إذ قدر العارة مجهول ولو قدر دراهم وشرط على الكسرى أن يصرفها إلى العارة لم يجز لأن عمله في الصرف إلى العارة مجهول . ومنها استئجار السلاخ على أن يأخذ الجلد بعد السلع واستئجار حمال الجيف بجمله الجيفة واستئجار الطحان بالنخالة أو ببعض الدقيق فهو باطل وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانقصاله على عمل الأجير فلا يجوز أن يجعل أجرة . ومنها أن يقدر في إجارة النور والحوانيت مبلغ الأجرة فلوقال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الإجارة . الركن الثاني : المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير فيجوز الاستئجار عليه وجملة فروع الباب تدرج تحت هذه الرابطة ولكننا لانطول بشرحها فقد طوّلنا القول فيها في التفهيمات وإنما نشير إلى ما تم به البلوى فليراجع في العمل للمستأجر عليه خمسة أمور : الأول أن يكون متقوما بأن يكون فيه كلفة ونصب فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان أو أشجاراً ليخفف عليها الثياب أو دراهم ليزين بها الدكان لم يجز فإن هذه النافع تجري مجرى حبة مسمومة وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه وهي كالنظر في مرآة الغير والشرب من بئر والاستئجار بمقداره والاقتراس من ناره ولهذا لو استأجر ياباط على أن يسكلم بكلمة يروجها سلعته لم يجز وما يأخذه البياعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في رويج السلع فهو حرام إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لاتصّب فيها ولا قيمة لها وإنما يحل لهم ذلك إذا تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام في تأليف أمر المعاملة ثم لا يستحقون إلا أجرة الثلث فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق . الثاني : أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاقه ولا إجارة للواشي للبثها ولا إجارة البساتين لثمارها ويجوز استئجار للرضعة ويكون اللبن تابها لأن أفرادها غير ممكن وكذا يتسامح بحجر الوراق وخياط الحياط لأنهما لا يقصدان على حالهما . الثالث : أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حسا وشرعا فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه كالاستئجار على قلع سن سليمة أو قطع عضو لا يرضى الشرع في قطعه أو استئجار الحائض على كنس المسجد أو العلم على تعليم السحر أو الفحش أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات أو استئجار الصانع على صيغة الآواني من الذهب والفضة فكل ذلك باطل . الرابع : أن لا يكون العمل واجبا على الأجير أو لا يكون بحيث لا تجرى النيابة فيه عن المستأجر فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا على سائر العبادات التي لا نيابة فيها إذ لا يقع ذلك عن المستأجر ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحمل الجنائز وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح . الخامس : أن يكون العمل والمنفعة معلوماً فالخياط يعرف عمله بالثوب والعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة وكل ما يشير خصوصاً في العادة فلا يجوز إجماله وتفصيل ذلك يطول وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواضع الاشكال فيسأل فإن الاستقصاء شأن المفتي لا شأن العوام .

للدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة وكنت فيمن نزل الصفة فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ووضع الربط لهذا للمنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى - وزرعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين - واللقابة باستواء السر والعلانية ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابل له وإن كان وجهه إليه فأهل الصفة هكذا كانوا لأن منار الفل والحقد وجود الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة فأهل الصفة رفضوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع فزال الأحماد والقل عن بواطنهم وهكذا أهل الربط متقابلون

(العقد الخامس القراض)

وليراع فيه ثلاثة أركان . الركن الأول : رأس المال وشرطه أن يكون قدما معلوما مسلما إلى العامل فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض فإن التجارة تضيق فيه ولا يجوز على صرة من الدراهم لأن قدر الربح لا يتبين فيه ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجوز لأن فيه تضيق طريق التجارة : الركن الثاني : الربح وليكن معلوما بالجزئية بأن شرط له الثلث أو النصف أو ما شاء فلو قال على أن لك من الربح مائة والباقي لي لم يجوز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع . الثالث : العمل الذي على العامل . وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين وتأقيت فلو شرط أن يشتري بالمال مائتة ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل أو حنطة فيخزنها ويتقاسمان الربح لم يصح لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء وما يقع من ضرورتهما فقط وهذه حرف أعنى الخبز ورعاية اللواشي ولوضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الخبز الأحمر أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ثم مهما إنعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالعبطة تصرف الوكلاء ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك فإذا فسخ في حالة والمال كله فيها فقد لم يخف وجه القسمة وإن كان عروضا ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تسكينه أن يرده إلى النقد لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئا وإن قال العامل أئيمه وأبى المالك فالتبوع رأى المالك إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بخمس رأس المال لا بنقد آخر حتى يتميز الفاضل ربعا فيشتركان فيه وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال ومهما كان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأقرب أن زكاة نصيب العامل على العامل وأنه يملك الربح بالظهور وليس للعامل أن يسافر بحال القراض دون إذن المالك فإن فعل صحت تصرفاته ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعا لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن النقول وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال فأما نشر الثوب وطيه والعمل اليسير المعتاد فليس له أن ينزل عليه أجره وعلى العامل نفقته وسكناء في البلد وليس عليه أجره الخانوت ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض فإذا رجع فله أن يرد بقايا آلات السفر من المظفرة والسفرة وغيرها .

(العقد السادس الشركة)

وهي أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة . الأول : شركة الفاوضة وهو أن يقولوا تفاوضنا لشترك في كل مالنا وعلينا بمالهما ممتازان فهي باطلة . الثاني : شركة الأبدان وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجره العمل فهي باطلة . الثالث : شركة الوجوه وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التفتيل ومن جهة غيره العمل فهذا أيضا باطل ، وإنما الصحيح العقد الرابع السمي شركة العنان . وهو أن يختلط مالاها بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمة وبأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ثم بالعدل يمنع التصرف عن العزول والقسمة يفصل الملك عن الملك والصحيح أنه يجوز عقد الشركة العروض المشتركة ولا يشترط النقد بخلاف القراض فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب وإلا اقتصم الحرام من حيث لا يدري . وأما معاملة القصاب والحجاز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب والحلل فيها من ثلاثة وجوه من إهمال شروط البيع أو إهمال

بظواهرهم وبواطنهم
يجتمعون على الألفة
والمودة يجتمعون
للحلال ويجمعون
للطعام ويتعرفون بركة
الاجتماع . روى وحشى
ابن حرب عن أبيه عن
جده أنهم قالوا « يا رسول
الله إنا نأكل ولا نشبع
قال لعلكم تفرقون
على طعامكم اجتمعوا
واذكروا الله تعالى
يسارك لكم فيه » .
وروى أنس بن مالك
رضي الله عنه قال
« ما أكل رسول الله
صلى الله عليه وسلم
على خوان ولا في
سكرجة ولا خبز له
مرق قليل فعلى أي
شيء كانوا يأكلون
قال على السفر » فالعباد
والزهاد طلبوا الاضداد
لدخول الآفات عليهم
بالاجتماع وكون
نفوسهم تفتلق للأهوية
والخوض فيما لا ينفع
فأروا السلامة في
الوحدة والصوفية لقوة
عملهم وصحة حالهم
نزع عنهم ذلك

شروط السلم أو الافتصار على المعاطاة إذا العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء عجاجات كل يوم ثم الحاسبة في كل مدة ثم التقوم بحسب ما يقع عليه التراضي وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة ويحمل تسليمهم على إباحة تناول مع انتظار العوض فيحل آكله ولكن يجب الضمان بأكله ونلزم قيمته يوم الإلتلاف فتجتمع في الذمة تلك القيم فإذا وقع التراضي على مقدار ما ينبغي أن يلتزم منهم الإبراء المطلق حتى لا تبقى عليه عهدة إن تطرق إليه تفاوت في التقوم فهذا ما يجب التسامح به فإن تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط وكذا تكليف الإعجاب والقبول وتقدير عن كل قدر يسير منه فيه عسر وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه والله للوفيق .

(الباب الثالث في بيان العدل واجتناب الظلم في العامة)

اعلم أن العامة قد تجري على وجه يحكم الفقه بصحتها وانقيادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به العامل لسخط الله تعالى إذ ليس كل نهي يقتضي فساد العقد وهذا الظلم يعني به ما استصر به الغير وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص العامل .

(القسم الأول فيما يعم ضرره . وهو أنواع)

النوع الأول : الاحتكار فائع الطعام يدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار وهو ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره ^(١) » وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد برى من الله وبرى الله منه ^(٢) » وقيل فكأنما قتل الناس جميعاً . وعن علي رضي الله عنه من احتكر الطعام أربعين يوماً فساقبله وعنه أيضاً أنه أحرق طعام محتكر بالنار وروى في فضل ترك الاحتكار عنه ^(٣) « من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنه تصدق به وفي لفظ آخر فكأنما أعتق رقبة ^(٤) » وقيل في قوله تعالى - ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم - إن الاحتكار من الظلم ودخل تحت الوعيد وعن بعض السلف أنه كان بواسطة فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله ببيع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد فوافق سعة في السعر فقال له التجار لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه فأخره جمعة فربح فيه أمثاله وكتب إلى صاحبه بذلك فكتب إليه صاحب الطعام يا هذا إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بنهب شيء من الدين فقد جنبت علينا جناية فإذا أذك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتقى أئجه من إثم الاحتكار كفافاً لا على ولاي . واعلم أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس أما الجنس فيطرده النهي في أجناس الأقوات أماما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير

(الباب الثالث في بيان العدل)

(١) حديث من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي والخطيب في التاريخ من حديث أنس بسنتين ضعيفين (٢) حديث ابن عمر من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد برى من الله وبرى الله منه أحمد والحاكم بسند جيد وقال ابن عدي ليس بحفوظ من حديث ابن عمر (٣) حديث من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به وفي لفظ آخر فكأنما أعتق رقبة ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد وللحاكم من حديث اليسع بن المغيرة إن الجالب إلى سوقنا كالجاهد في سبيل الله وهو مرسل

هم أو الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاوية يوم كل واحد مهمه ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة . وروى أبو سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت « كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيراً من الليف يصل عليه من الليل » وروى ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح له الحجرة في المسجد حتى يصل عليها » والرباط يحتوي على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة فالمشايخ بالزوايا أليق نظراً إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستعداد بالحركات والسكنات فللنفس

والزعران وأمثاله فلا يمتدئ النهى إليه وإن كان مطموماً وأما ما يمين على القوت كاللحم والفواكه وما يمدد مسداً يغنى عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن الداومة عليه فهذا في محل النظر فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والخبز والريث وما يجري مجراه وأما الوقت فيحتمل أيضاً طرد النهى في جميع الأوقات وعليه تدل الحكاية التي ذكرناها في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر ويحتمل أن يخصص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرراً فأمّا إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطاً فليس في هذا إضرار وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضراراً فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعول في نفي التحريم وإثباته على الضرر فإنه مفهوم قطعاً من تخصيص الطعام وإذا لم يكن ضرراً فلا يخلو احتكار الأدوات عن كراهية فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهو ارتفاع الأسعار وانتظار مبادئ الضرر عند زور كاتظار عين الضرر ولكنه دونه وانتظار عين الضرر أيضاً ودون الإضرار فيقدر درجات الأضرار متفاوتة درجات الكراهية والتحريم وبالجملة التجارة في الأدوات مما لا يستحب لأنه طلب ربح والأدوات أصول خلقت قواماً والربح من الزايا فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة الزايا التي لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال لا تسلم ولدك في بيعتين ولا في صنتين يبيع الطعام ويسع الأكل فإنه يتمنى الفناء وموت الناس والصنعتان أن يكون جزاءاً فإنها صنعة تقبى القاب أو صواغاً فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة . النوع الثاني ترويح الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم إذ يستضر به العامل إن لم يعرف وإن عرف فسروجه على غيره فكذلك الثالث والرابع ولا يزال يتردد في الأيدي ويم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر السك ووباله راجعاً إليه فإنه هو الذي فتح هذا الباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزانهم شيئاً» (١) وقال بعضهم إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة أو مائتي سنة إلى أن يفنى ذلك الدرهم ويكون عليه ما فسد من أموال الناس بسنته وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويسئل عنها إلى آخر انقراضها قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - أي نكتب أيضاً ما أخرجه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه وفي مثله قوله تعالى - ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر - وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن في الزيف خمسة أمور : الأول أنه إذا ردّ عليه شيء منه فيدبني أن يطرحه في بر بحيث لا يعتد إليه اليد وإياه أن يروجه في بيع آخر وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز . الثاني أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا يستغنى بنفسه ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم فالكل عمل علم به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله ولئلا هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم للدنياهم . الثالث أنه إن سلم وعرف للعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم لأنه ليس يأخذه إلا لوجهه على غيره ولا يخبره ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلاً فاعلم بتخلص من إثم الضرر الذي يخص معامله

(١) حديث من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزانهم شيء مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الفرق والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار لشكر العيون عليه فيتقيد ويتأدب ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض ببعض وهكذا ينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضرب بوقتهم فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللغو فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب بزوايته وموضع خلوته ليحبس

قط . الرابع : أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل
الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »^(١) فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بر
وإن كان عازماً على أن يروجه في معاملة فهذا شرّ روجه الشيطان عليه في معرض الخير فلا يدخل
تحت من تساهل في الاقتضاء . الخامس أن الزيف نعني به مالا تقرر فيه أصلاً بل هو محمول
أو مالا ذهب فيه أعني في الدناير أما ما فيه تقرر فإن كان مخلوطاً بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف
الملاء في المعاملة عليه وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد سواء علم مقدار النقرة أو لم
يعلم وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجوز إلا إذا علم قدر النقرة فإن كان في ماله قطعة تقررنا ناقصة عن
نقد البلد فعليه أن يغبر به معاملة وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويح في جملة النقد بطريق
التلبس فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد فهو كبيع الضب ممن يعلم أنه
يتخذه خيراً وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه وسلوك طريق الحق بمثل هذا في التجارة
أشد من اللواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها ولذلك قال بعضهم التاجر الصدوق أفضل عند الله
من المتعب وقد كان السلف يعطاطون في مثل ذلك حتى روى عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال
حملت على فرسي لأقتل علياً فقصر بي فرسي فرجعت ثم دنا مني العليج فحملت ثانية فقصر فرسي
فرجعت ثم حملت الثالثة فقصر مني فرسي وكنت لا أعتاد ذلك منه فرجعت حزينا وجلست منكسر
الرأس منكسر القلب لما فاني من العليج وما ظهر لي من خلق الفرس فوضعت رأسي على عمود
الفسطاط وفرسي قائم فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي بالله عليك أردت أن تأخذ
على العليج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفا ودفعته في ثمنه درهما زائفا لا يكون هذا أبداً
قال فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم فهذا مثال ما يعم ضرره وليقس عليه أمثاله .
(القسم الثاني ما يخص ضرره العامل)

فكل ما يستضر به العامل فهو ظلم وإنما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم والضابط الكلّي فيه أن
لا يعب لأخيه إلا ما يعب لنفسه فكل ماله وعمله به شق عليه وقفل على قلبه فينبغي أن لا يعامل
غيره به بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم وليس
يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دنانير فإنه قد ترك النصح للمأمور به في المعاملة ولم يحب لأخيه
ما يعب لنفسه هذه جملة فأمّا تفصيله ففي أربعة أمور أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها وأن
لا يكتّم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلاً وأن لا يكتّم في وزنها ومقدارها شيئا وأن لا يكتّم من
سعرها ماله وعرفه العامل لا تمتنع عنه : أما الأول فهو ترك الثناء فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس
فيها فهو كذب فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبس وظلم مع كونه كذبا وإن لم يقبل فهو كذب
وإسقاط مريضة إذ الكذب الذي يروج قد لا يقدح في ظاهر المروءة وإن أثني على السلعة بما فيها فهو
هذان وتكلم بكلام لا يعنيه وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها قال الله تعالى - ما يلفظ
من قول إلا لديه رقيب عتيد - إلا أن يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري مالم يذكره كما يصفه
من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطّباب
وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتتقضى بسببه حاجته ولا ينبغي أن يخلف عليه ألبته
فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين النعوس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع وإن كان صادقا فقد جعل
الله تعالى عرضه لأيمانته وقد أساء فيه إذ الدنيا أحسن من أن يقصد ترويحها بذكر اسم الله من غير ضرورة ،
(١) حديث رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء البخاري من حديث جابر .

القلب نفسه عن
دواعي الهوى والخواص
فيما لا ينبغي ويكون
الشيخ في بيت الجماعة
هوية حاله وصبره على
مداواة الناس وتخلّصه
من تبعات المخالطة
وحضور وقاره بين الجمع
فينضبط به الثبر ولا
يتكدر هو وأما الخدمة
فشأن من دخل الرباط
مبتدئا ولم يذق طعم
العلم ولم يتنبه لغفائس
الأحوال أن يؤمر
بالخدمة لتكون عبادته
خدمة ويغذب بحسن
الخدمة قلوب أهل الله
إليه فتشمله بركة ذلك
ويصين الإخوان
المشتغلين بالعبادة . قال
رسوله الله صلى الله
عليه وسلم « المؤمنون
إخوة يطلب بعضهم إلى
بعض الخواص فيقضى
بعضهم إلى بعض
الخواص يقضى الله لهم
حاجاتهم يوم القيامة »
فيتحفظ بالخدمة
عن البطالة التي تمت
القلب والخدمة عند

وفي الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله وويل للصانع من غد وبعد غد » (١) وفي الخبر « الذين الكاذبة منفقة للسلعة بمحقة للبركة » (٢) وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة عتل مستكبر ومنان بغيته ومنفق سلعته يمينه » (٣) فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفى التغليظ في أمر البين وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزايا أنه طلب منه خزل للشراء فأخرج غلامه سقط الخزل ونشره ونظر إليه وقال اللهم ارزقنا الجنة فقال لغلامه رده إلى موضعه ولم يعبه وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة فمثل هؤلاء هم الذين تجروا في الدنيا ولم يضعوا دينهم في تجارتهم بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا . الثاني : أن يظهر جميع عيوب البيع حميها وجليها ولا يكتم منها شيئا فذلك واجب فإن أخفاء كان ظلما غاشا والفش حرام وكان تاركا للنصح في العاملة والنصح واجب ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غشا وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف أو النعل وأمثاله ويدل على تحريم الفش ما روى « أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فيه فرأى بلا فقال ما هذا قال أسابته السماء فقال فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس من غشنا فليس منا » (٤) ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب لينصرف فجدب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم (٥) فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال إن شئت فخذ وإن شئت فترك فقبل له إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع قال إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم وكان واثلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقه له بثلاثة دراهم فضلل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة فسمي وراءه وجعل يصيح به يا هذا اشتريتها للحم وللظهر فقال بل للظهر فقال إن بخفها تقبأ قدرأيتها وإنها لا تتابع السير فعاد فردها فقصفها البائع مائة درهم وقال لو ائله رحمك الله أفسدت على بيعي فقال إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يعمل لأحد يبيع بها إلا أن يبين آفته ولا يعمل لمن يعلم ذلك إلا تبينه » (٦) فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة القامات بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم وهذا أمر يشق على أكثر الخلق فلذلك يختارون التحيل للعبادة والاعتزال عن الناس لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والعاملة بمجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون ولما يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين . أحدهما أن تلبسه العيوب وتروجه

(١) حديث ويل للتاجر من بلى والله ولا والله وويل للصانع من غد وبعد غد لم أقف له على أصل و ذكر صاحب مسند الفروس من حديث أنس بغير إسناد نحوه (٢) حديث الذين الكاذبة منفقة للسلعة بمحقة للبركة متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ الحلف وهو عند البيهقي بلفظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة عاتل مستكبر ومنان بغيته ومنفق سلعته يمينه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا عاتل مستكبر ولهما ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ولمسلم من حديث أبي ذر النان والسبل إزاره والنفق سلعته بالحلف الكاذب (٤) حديث مر برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بلا فقال ما هذا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث جرير بن عبد الله بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم متفق عليه (٦) حديث واثلة لا يعمل لأحد يبيع بها إلا بين ما فيه ولا يعمل لمن يعلم ذلك إلا بينه الحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي.

القوم من جملة العمل الصالح وهي طريق من طرق الواجد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم . أخبرنا الشيخ التقه أبو الفتح قال أنا أبو الفضل حميد ابن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان ابن أحمد قال ثنا علي ابن عبد العزيز قال ثنا أبو عبيد قال ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شريك عن أبي هلال الطائي عن وثيق بن الرومي قال كنت مملوكا لصبر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يقول لي أسلم فانك إن أسلمت استعت بك على أمانة للمسلمين فانه لا ينفي أن أستعين على أماناتهم عن ليس منهم قال فأبنت فقال عمر لا إكراه في الدين سخطا

السلع لا يزيد في رزقه بل يمحقه ويذهب يركته وما يجمعه من ممرقات التلبسات يهلكه الله دفعة واحدة .
 قد حكى أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل فغرق البقرة فقال بعض
 أولاده إن تلك اللبنة المنفرقة التي صيدناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة كيف وقد
 قال صلى الله عليه وسلم « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما وإذا كتما وكذبا نزلت بركة
 بيعهما (١) » وفي الحديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع يده عنهما (٢) » فإذا لا يزيد
 مال من خيانة كما لا ينقص من صدقة ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث
 ومن عرف أن الدرهم الواحد قديلك فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين والآلاف
 المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سبباً لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصليح
 له في بعض أحواله فيعرف معنى قولنا إن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه والمعنى الثاني الذي
 لا بد من اعتقاده لئيم له النصع ويتيسر عليه أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا وأن فوائد
 أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجير العاقل أن يستبدل الذي هو
 أدنى بالذي هو خير والخير كله في سلامة الدين قال رسول الله ﷺ « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق
 سخط الله ما لم يؤثر وصفة دنياهم على آخرتهم (٣) » وفي لفظ آخر « ما لم يالوا ما نقص من دنياهم بسلامة
 دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين » وفي حديث آخر « من
 قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة قيل وما إخلاصه قال أن يحوزه عما حرم الله (٤) » وقال أيضاً ما آمن
 بالقرآن من استحل محارمه ومن علم أن هذه الأمور قادمة في إيمانه وأن إيمانه رأس ماله في
 تجارتها في الآخرة لم يضع رأس ماله للعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياماً معدودة . وعن
 بعض التابعين أنه قال لودخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لي من خير هؤلاء . قلت من أنصحهم
 لهم فإذا قالوا هذا قلت هو خيرهم ولو قيل لي من شرهم قلت من أغشهم لهم فإذا قيل هذا قلت هو
 شرهم والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لوعامله به
 غيره لما ارتضاء لنفسه بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب
 فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء بن سالم فقال كيف لي أن أسام في بيع النعال فقال اجعل الوجهين
 سواء ولا تفضل اليمنى على الأخرى وجود الحشو وليكن شيئاً واحداً تاماً وقارب بين الخرز ولا تطبق
 إحدى النعلين على الأخرى ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث
 لا يتبين قال لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع . فان قلت
 فلا تتم للمعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب البيع . فأقول ليس كذلك إذ شرط التاجر أن
 لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يفتح في بيعه بربح يسير فيبارك الله له فيه ولا

(١) حديث البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما الحديث متفق عليه من حديث حكيم
 ابن حزام (٢) حديث يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع يده عنهما أبو داود والحاكم
 من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد (٣) حديث لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق
 سخط الله ما لم يؤثر وصفة دنياهم على آخرتهم الحديث أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس
 بسند ضعيف وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر حتى إذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبطلون ما نقص
 من دينهم إذا سلت لهم دنياهم الحديث وللطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة وهو ضعيف
 أيضاً (٤) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة قيل وما إخلاصها قال يحجزه عما حرم الله الطبراني
 من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

حضرته الوفاة اعتقني
 فقال اذهب حيث شئت
 فالقوم يكرهون
 خدمة الأغيار ويأبون
 مخالطتهم أيضاً فان
 من لا يحب طريقهم
 ربما استضر بالنظر
 إليهم أكثر مما ينفع
 فانهم شر وتبدؤهم
 أمور بمقتضى طبع
 البشر وينسكروا الغير
 لقلة علمه بمقاصدهم
 فيكون إياؤهم لموضع
 الشفقة على الخلق
 لا من طريق التمرز
 والرفع على أحد
 من السليين والشاب
 الطالب إذا خدم أهل
 الله المشغولين بطاعته
 يشاركون في الثواب
 وحيث لم يؤهل
 لأحوالهم السنية يخدم
 من أهل لها فخدمته
 لأهل القرب علامة
 حب الله تعالى . أخبرنا
 الثقة أبو الفتح محمد
 ابن سليمان قال أنا
 أبو الفضل حميد بن
 أحمد قال أنا الحافظ
 أبو نعيم قال ثنا

يحتاج إلى تلبس وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالريح اليسير وليس يسلم الكثير إلا بتلبس فمن
 تعود هذا لم يشتر الصيب فإن وقع في يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته باع ابن سيرين ثلثة قال
 المشتري أربأ إليك من عيب فيها إنما تقلب العلف برجلها وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري إنها
 تنحمت مرة عندنا فما فكذا كانت سيرة أهل الدين فمن لا يقدر عليه فليترك العاملة أو ليوطن
 نفسه على عذاب الآخرة . الثالث أن لا يكتم في القدر شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي
 الكيل فينبغي أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى - ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس
 يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون - ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعطى وينقص إذا
 أخذ إذ العدل الحقيقي قلما يتصور فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان فإن من استقصى حقه بكتاله
 يوشك أن يتعداه وكان بعضهم يقول : لا أشتري الويل من الله بحبة فكان إذا أخذ نقص نصف حبة
 وإذا أعطى زاد حبة وكان يقول : ويل لمن باع حبة حبة عرضها السموات والأرض وما أخسر من
 باع طوي بويل وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها إذ لا يعرف
 أصحاب الجباب حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا
 قال للوزان لما كان وزن ثمنه « زن وأرجع ^(١) » ونظر فضيل إلى ابنه وهو يسئل دينارا يريد أن يصرفه
 ويذبل تسكيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال يا بني فملك هذا أفضل من حبتين وعشرين
 عمرة وقال بعض السلف عجبت للتاجر والبائع كيف ينحو وزن ويغلف بالنهار وينام بالليل وقال سليمان
 عليه السلام لابنه : يا بني كاتدخل الحبة بين الحجرين كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض
 الصالحين على محنت قليل له إنه كان فاسقا فسكت فأعيد عليه فقال كأنك قلت لي كان صاحب ميزانين
 يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر أشار به إلى أن فسقه مظنة بينه وبين الله تعالى وهذا من مظالم العباد
 والمساخة والعفوية أبعد والشد في أمر الميزان عظيم والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة وفي قراءة
 عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - لا تطعوا في الميزان وأقيموا الوزن باللسان ولا تحسروا الميزان - أي لسان
 الميزان فإن النقصان والرجحان يظهر بعيه وبالمجلة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينصف
 بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى - ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون - الآيات
 فإن تحريم ذلك في الكيل ليس لكونه مكيبال بل لكونه أمرا مقصود ترك العدل والنصفة فيه فهو جار
 في جميع الأعمال فصاحب الميزان في خطر الويل وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته
 فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ولو لا تعذر هذا واستحالت لما ورد قوله تعالى - وإن منكم
 إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا - فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة إلا أن درجات
 الميل تفاوتت تفاوتت عظميا فلذلك تفاوتت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص حتى لا يبقى بعضهم
 إلا بقدر تحلة القسم ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين فنسأل الله تعالى أن يقرنا من الاستقامة والعدل
 فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه فانه أدق من الشعرة وأحد من
 السيف ولولا له لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذي من صفته
 أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على
 الصراط وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من اللطفين في الكيل وكل قصاب وزن مع اللحم
 عظم لم يجر العادة بمنله فهو من اللطفين في الوزن وقس على هذا سائر التقديرات حتى في الدرع الذي يتعاطاه البراز

(١) حديث قال للوزان زن وأرجع أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس قال
 الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

أبو بكر بن خلاد قال
 ثنا الحرث بن أبي
 أسامة قال ثنا معاوية
 ابن عمرو قال ثنا
 أبو اسحاق عن حميد
 عن أنس بن مالك
 رضى الله عنه قال
 لما انصرف رسول الله
 صلى الله عليه وسلم من
 تبوك قال حين دنا
 من المدينة إن
 بالمدينة أقواما
 ما سرتهم من سير ولا
 قطعتم واديا إلا كانوا
 معكم قالوا وهم في المدينة
 قال « نعم حبسهم العذر »
 فالتفتهم بخدمة القوم
 تعوق عن بلوغ درجهم
 بعذر القصور وعدم
 الأهلية فقام حول
 الحى بأذلا مجهوده في
 الخدمة يتعلل بالأثر
 حيث منع النظر فجراه
 الله على ذلك أحسن
 الجزاء وأناله من
 جزيل العطاء وهكذا
 صكان أهل الصفة
 يتعاونون على البر
 والتقوى ويجمعون
 على الصالح الدينية

فانه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الدرع ولم يده مدا وإذا باع مده في الدرع ليظهر تفاوتاً في القدر فكل ذلك من التطييف للمرض صاحبه للويل . الرابع أن يصدق في سعر الوقت ولا يغني منه شيئاً فقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقى الركبان ^(١) ونهى عن النجش ^(٢) أما تلقى الركبان فهو أن يستقبل الرقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تلقوا الركبان » ومن تلقاها فصاحب السلمة بالخيار بعد أن يقدم السوق وهذا الشراء منعقد ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار وإن كان صادقاً ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبس ونهى أيضاً أن يبيع حاضر لباد ^(٣) وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه فيقول له الحضري أركه عندي حتى أغالي في غننه وأنتظر ارتفاع سعره وهذا في القوت محرم وفي سائر السلع خلاف والأظهر تحريره لعموم النهي ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي الضيق ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السعة بزيادة وهو لا يريد بها وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد وإن جرى مواطأة ففي ثبوت الخيار خلاف والأولى إثبات الخيار لأنه تقرير بفعل يضاهي التقرير في المصرة وتلقى الركبان فهذه الناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويحكم منه أمراً لوعله لما أقدم على العقد ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب . فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس مجهز إليه السكر فكتب إليه غلامه إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة فاشتر السكر قال فاشترى سكرًا كثيرًا فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً فانصرف إلى منزله فأفكر ليلته وقال ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصح رجل من السلفين فلما أصبح غداً إلى بائع السكر فدفعت إليه ثلاثين ألفاً وقال بارك الله لك فيها فقال ومن أين صارت لي فقال لي كنتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت فقال رحمك الله قد أعلتني الآن وقد طيبتها لك قال فرجع بها إلى منزله وتفكروبات ساهرا وقال مانصحته فلعله استجبتني فتركها لي فبكر إليه من الغد وقال عافاك الله خذ مالك إليك فهو أطيب قلبي فأخذ منه ثلاثين ألفاً فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يستمتع بفرصة ويتهم غفلة صاحب المتاع ويغني من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار فان فعل ذلك كان ظالماً تاركا للعدل والنصح للمسلمين ومهما باع مراعاة بأن يقول بعث بما قام على أوجعاً اشتريته فعليه أن يصدق ثم يحب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ولو اشترى مسامحة من صديقه أو ولده يجب ذكره لأن المعامل يعول على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره إذ الاعتماد فيه على أماته .

(الباب الرابع في الإحسان في المعاملة)

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة يجري رأس المال والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة وهو يجري من التجارة يجري الربح ولا يبعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل ^(١) حديث النهي عن تلقى الركبان متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة ^(٢) حديث النهي عن النجش متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة ^(٣) حديث النهي عن بيع الحاضر للبادي متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس .

(الباب الرابع في الإحسان في المعاملة)

ومواساة الاخوان
بالمال والبدن .

[الباب الخامس عشر
في خصائص أهل
الربط والصوفية
فيما يتعاهدونه
ويختصون به]

أعلم أن تأسيس هذه
الربط من زينة هذه
لله الهادية المهدية
ولسكان الربط أحوال
تميزوا بها عن غيرهم
من الطوائف وهم على
هدى من ربهم قال
الله تعالى - أولئك
الذين هدى الله فبهداهم
اتقوا - وما يرى من
التقصير في حق البعض
من أهل زماننا
والتخلف عن طريق
سلفهم لا يقدح في أصل
أمرهم وحمية طريقهم
وهذا القدر الباقي من
الأثر واجتماع المتصوفة
في الربط وماهياً الله
تعالى لهم من الرفق
بركة جمعية بواطن
للشايخ الماسنين وأثر
من آثار منع الحق في
حقهم وصورة الاجتماع

واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان وقد قال الله - وأحسن كما أحسن الله إليك - وقال عز وجل - إن الله يأمر بالعدل والإحسان - وقال سبحانه - إن رحمت الله قريب من المحسنين - ونفى بالإحسان فعل ما ينفع به العامل وهو غير واجب عليه ولكنه فضل منه فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه وتنازل رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور : الأول في المغالبة فينبغي أن لا يبيع صاحبه بما لا يتغابن به في العادة فأما أصل المغالبة فما ذون فيه لأن البيع للربح ولا يمكن ذلك إلا ببيع ما ولكن يراعى فيه التقريب فإن بدل المشتري زيادة على الربح المتنازل إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه فينبغي أن يتمتع من قبوله فذلك من الإحسان ومهمالم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلما وقد ذهب بعض العلماء إلى أن العن بما يزيد على الثلث يوجب الحيار ولنا نرى ذلك ولكن من الإحسان أن يحط ذلك العن . يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ضرب قيمة كل حلة منها أربع مائة وضرب كل حلة قيمتها مائتان فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان فجاء أعرابي وطلب حلة بأربع مائة ففرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها فاشتراها ففرض بها وهي على يديه فاستقبله يونس فعرف حلة ففرض عليه من حلل الأعرابي بكم اشترى فقال بأربع مائة فقال لا تساوى أكثر من مائتين فأرجع حتى ترددها فقال هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها فقال له يونس انصرف فان النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله وقال أما استحييت أما اتقيت الله ترجع مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين فقال والله ما أخذها إلا وهو راض بها قال فهل رضى له بما ترضاه لنفسك وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبيس فهو من باب الظلم وقد سبق وفي الحديث « غبن المسترسل حرام ^(١) » وكان الزبير بن عدى يقول أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشترى لحما بدرهم فبين مثل هؤلاء المسترسلين ظلم إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان وقلمنا يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السري السقطي أنه اشترى كرلوز بستين دينارا وكتب في روزنامه ثلاثة دنانير بربعه وكأنه رأى أن يربح على الشرة نصف دينار فصار اللوز بتسعين فأثناء الدلال وطلب اللوز فقال خذه قال بكم فقال بثلاثة وستين فقال الدلال وكان من الصالحين قد صار اللوز بتسعين فقال السري قد عقدت عقدا لأحله لست أعيه إلا بثلاثة وستين فقال الدلال وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلما لست آخذ منك إلا بتسعين قال فلا الدلال اشترى منه ولا السري باعه فهذا عجز الإحسان من الجانبين فانه مع العلم بحقيقة الحال . وروى عن محمد بن النكدر أنه كان له شق بعضا بخمسة وبعضا بعشرة فباع في غيبته غلامه شقة من الخمسات بعشرة فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي لاشترى طول النهار حتى وجده فقال له إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة فقال يا هذا قدر ضيت فقال وإن رضيت فانا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا فاختر إحدى ثلاث خصال إما أن تأخذ شقة من العشرينات بدارهمك وإما أن نرد عليك خمسة وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك فقال أعطني خمسة فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول من هذا الشيخ قبيل له هذا محمد بن النكدر فقال لا إله إلا الله هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قطعنا فهذا إحسان في أن لا يربح على الشرة إلا نصفها أو واحدا على ما جرت به العادة في مثل ذلك الناع في ذلك السكان ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستغاد من تكررها ربعا كثيرا وبه تظهر البركة . كان على رضى الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول معاشر التجار

(١) حديث غبن المسترسل حرام الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف والبيهقي من حديث جابر بسند جيد وقال ربا بدل حرام .

في الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب عكس نور الجمعية من بواطن المؤمنين وسلوك الخلف في مناهج السلف فهم في الربط كجسد واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف قال الله تعالى في وصف المؤمنين - كأنهم بنيةان مرصوص - وبكس ذلك وصف الأعداء فقال - تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى - وروى النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع وإذا اشتكى مؤمن من المؤمنين اشتكى للمؤمنين » فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن وإزالة التفرقة بينهم بنسبة الأرواح

خذوا الحق تسلموا لا تردوا قليل الريخ فتعزموا كثيره قيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ما سبب يسارك قال ثلاث ما رددت رجحا قط ولا طلب من حيوان فأخرت بيعه ولا بت بنسبته ويقال إنه باع ألف ناقة فاربخ إلا عقلا باع كل عقال بدرهم فربخ فيها ألفا وربخ من نفقته عليها ليومه ألفا . الثاني : في احتمال الغبن والشترى إن اشترى طعاما من ضعيف أو شيئا من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا وداخلا في قوله عليه السلام « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء » فأما إذا اشترى من غني تاجر يطلب الريخ زيادة على حاجته فاحتمال الغبن منه ليس محمودا بل هو تضييع مال من غير أجر ولأحمد قد ورد في حديث من طريق أهل البيت « الغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور ^(١) » وكان إياس بن معاوية بن قره قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول لست بخب والخب لا يغني ولا يغني ابن سيرين ولكن يغني الحسن ويغني أي يغني معاوية بن قره والكمال في أن لا يغني ولا يغني كما وصف بعضهم عمر رضي الله عنه فقال كان أكرم من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهون مع ذلك الجزيل من المال قليل لبعضهم تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهيب الكثير ولا تبالي فقال إن الواهب يعطي فضله وإن المغبون يغبن عقله وقال بعضهم إنما أغبن عقلى وبصرى فلا أمكن الغابن منه وإذا وهبت أعطى لله ولا أستر من شيئا . الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان في عمرة بالمساحة وحط البعض ومرة بالإمهال والتأخير ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه قال النبي صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء ^(٢) » فليغتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم « اصحح يسمع لك ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أنظر مصرا أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا » وفي لفظ آخر ، أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ^(٤) » وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا كان مسرفا على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة فقيل له هل عملت خيرا قط فقال لا إلا أني كنت رجلا أدين الناس فأقول لفتيانى ساعحوا للوسر وأنظروا العسر ^(٥) » وفي لفظ آخر « وتجاوزوا عن العسر فقال الله تعالى نحن أحق بذلك منك فتجاوز الله عنه وغفر له » وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض دينارا إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة ^(٦) » وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر حتى يكون كاتصدق بجميعة في كل يوم وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب

(١) حديث من طريق أهل البيت المغبون لا محمود ولا مأجور الترمذي الحكيم في التوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن علي يرفعه قال الذهبي هو منكر (٢) حديث رحم الله سهل البيع سهل الشراء تقدم في الباب قبله (٣) حديث اصحح يسمع لك الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات (٤) حديث من أنظر مصرا أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا وفي لفظ آخر أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو (٥) حديث ذكر رجلا كان مسرفا على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة فقيل له هل عملت خيرا قط فقال لا إلا أني كنت رجلا أدين الناس فأقول لفتيانى ساعحوا للوسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة (٦) حديث من أقرض دينارا إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة ابن ماجه من حديث بريدة من أنظر مصرا كان له مثله كل يوم صدقة ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة وسنده ضعيف ورواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

اجتمعوا وبرابطة التآلف الإلهي اتفقوا وبمشاهدة القلوب تواطئوا ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رباطوا فلا بد لهم من التألف والتودد والنصح . روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المؤمن يألف ويؤلف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل للقدس عن أبيه قال ثنا أبو القاسم الفضل ابن أبي حرب قال أنا أحمد بن الحسين الخيري قال أنا أبو سهل ابن زياد القطان قال ثنا الحسين بن مكرم قال ثنا يزيد بن هرون الواسطي قال ثنا محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجنونة فما تعارفت

الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمان عشرة ^(١) « قيل في معناه إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج ولا يحتل ذلك الاستقراض إلا محتاج » ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلا يدين فأومأ إلى صاحب الدين يده أن يضع الشطر ففعل فقال للديون قم فأعطه ^(٢) « وكل من باع شيئا وترك عنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فموفى معنى المقرض . وروى أن الحسن البصري باع بغلة له بأربعمائة درهم فلما استوجب المال قال له المشتري امصح يا أبا سعيد قال قد أسقطت عنك مائة قال له فأحسن يا أبا سعيد فقال قد وهبت لك مائة أخرى فقبض من حقه مائتي درهم فقيل له يا أبا سعيد هذا نصف الثمن فقال هكذا يكون الإحسان وإلا فلا وفي الخبر « خذ حقل في كفاف وعفاف واف أو غير واف يحاسبك الله حسابا يسيرا ^(٣) » . الرابع : في توفية الدين ومن الإحسان فيه حسن القضاء وذلك بأن يعثى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يعثى إليه يتقاضاه فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيركم أحسنكم قضاء ^(٤) » ومهما قدر على قضاء الدين فليأدر إليه ولوقبل وقته وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن وإن عجز فليؤق قضاءه مهما قدر قال صلى الله عليه وسلم « من آذان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه ^(٥) » وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ومهما كلفه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وإيقابله باللفظ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم « إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه فجعل الرجل يشدد الكلام على رسول الله ﷺ فهم به أصحابه فقال : دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ^(٦) » ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالإحسان أن يكون الليل الأكثر للتوسطين إلى من عليه الدين فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر فإن البائع راغب عن السلعة يعني ترويجها والمشتري محتاج إليها هذا هو الأحسن الآن يتعدى من عليه الدين حده فنصد ذلك نصرته في منعه عن تمديه وإعانة صاحبه إذ قال ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قبل كيف تنصره ظالماً فقال منعك إياه من الظلم نصرته له ^(٧) » . الخامس : أن يقلل من يستقبله فانه لا يستقبل إلا متمتعاً مستضر بالبيع ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه قال صلى الله عليه وسلم « من قال نادماً صفة الله عزته يوم القيامة ^(٨) » أو كما قال . السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطلبا لهم إن لم تظهر لهم ميسرة فقد كان في صالحى السلف من له دقتران للحساب أحدهما ترجمته بجهولة فيه أسماء من لا يعرفه

(١) حديث رأيت على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمان عشرة ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٢) حديث أوماً إلى صاحب الدين يده ضع الشطر الحديث متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٣) حديث خذ حقل في عفاف الحديث ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله يحاسبك الله حسابا يسيرا وله ولا ابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة (٤) حديث خيركم أحسنكم قضاء متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث من آذان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه أحمد من حديث عائشة ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ وفي رواية له لم يزل معه من الله حارس وفي رواية للطبراني في الأوسط إلا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه (٦) حديث دعوه فإن لصاحب الحق مقالا متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً الحديث متفق عليه من حديث أنس (٨) حديث من قال نادماً صفة الله عزته يوم القيامة أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

منها اتلف وماتناكر
منها اختلف « فهم
باجتماعهم تجتمع
بواطنهم وتنفيد
نفوسهم لأن بعضهم
عين على البعض على
ماورد « المؤمن مرآة
المؤمن » فأى وقت
ظهر من أحدهم أثر
الفرقة نافروه لأن
الفرقة تظهر بظهور
النفس وظهور النفس
من تضيق حق الوقت
فأى وقت ظهرت
نفس الفقير علموا منه
خروجه عن دائرة
الجمعة وحكموا عليه
بتضييع حكم الوقت
وإهمال السياسة وحسن
الرعاية فيقاد بالنافرة
إلى دائرة الجمعة .
أخبرنا شيخنا ضياء
الدين أبو النجيب
عبد القاهر السهروردي
إجازة قال أنا الشيخ
العالم عصام الدين أبو
حفص عمر بن أحمد
ابن منصور الصفاق قال
أنا أبو بكر أحمد بن
خلف الشيرازي قال أنا

من الضعفاء والفقراء وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه فكان يقول خذني واقض ثمنه عند اللبيرة ولم يكن بعد هذا من الخيار بل عدة من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يحمله ديناً لكن يقول خذ ما تريد فإن يسرك فاقض وإلا فانت في حل منه وسعة فهذه طرق تجارات السلف وقد انبرست والقائم به عني لهذه السنة وبالجملة التجارة يحكم الرجال وبها تمتنع دين الرجل وورعه ولذلك قيل : لا يفرنك من الرء فقيص رقبته أو إزار فوق كسب الساق منه رقبته أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه ولدى الدرهم فانظر غيه أو ورعه ولذلك قيل إذا أتني على الرجل خيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال اتني بمن يعرفك فأنا رجل فأتني عليه خيراً فقال له عمر أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه قال لا فقال كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق فقال لا قال فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل قال لا قال أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى قال نعم فقال اذهب فلست تعرفه وقال للرجل اذهب فأتني بمن يعرفك .

(الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه وبعم آخرته)

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة وما يفوت من الربح في الآخرة لا يبق به ما ينال في الدنيا فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله ورأس ماله دينه وتجارته فيه قال بعض السلف أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه في العاجل وأحوج شيء إليه في العاجل أحمد عاقبة في الأجل وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته إنه لا بد لك من نصيبك في الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابداً بنصيبك من الآخرة فخذ فانك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنتظمه قال الله تعالى - ولاتنس نصيبك من الدنيا - لاتنس في الدنيا نصيبك منها للآخرة فانها مزرعة الآخرة وفيها تكسب الحسنات وإنما تم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور . الأول : حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة فلينبه بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم واستعانة بما يكسبه على الدين وقياماً بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ولينبه الصالح للسلمين وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه ولينبه اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه ولينبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملاً في طريق الآخرة فإن استفاد مالا فهو مزيد وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة . الثاني : أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك أكثر الخلق فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمله ولو أقبل كلهم على صناعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا وعلى هذا حمل بعض الناس قوله ﷺ « اختلاف أممي رحمة » (١) أي اختلاف همهم في الصناعات والحرف ومن الصناعات ما هي مهمة ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والزين في الدنيا فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً عن السلمين مهما في الدين وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشديد البنيان بالحصص وجميع ما تخرف به الدنيا فكل ذلك كرهه

(الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه)

(١) حديث اختلاف أممي رحمة تقدم في العلم .

الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال سمعت محمد بن عبد الله يقول سمعت رويماً يقول لا يزال الصوفية غير ما تافروا فإذا اصطالحوا هلكوا وهذه إشارة من رويهم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس يقول إذا اصطالحوا أو رفعوا المنافرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن للساهة والراءاة ومساحة البعض البعض في إهمال دقيق آدابهم وبذلك تظهر النفوس وتستولي وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأً أهدى إلى عيوى . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ للقدسي قال أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروي قال أنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال أنا أبو القاسم البغوي قال

ذو الدين فأما عمل الملاحى والآلات التي يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ومن جملة ذلك خياطة الحياط القباء من الإبريسم للرجال وصياغة الصانغ مراكب القذهب أو خواتيم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصى والأجرة للأخوة عليه حرام ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة في الحلى لأنها إذا قصدت للرجال فهي محرمة وكونها مهيئة للنساء لا يلحقها بالحلى الباح ما لم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بفناء السر ويكره أن يكون جزاء لما فيه من تساوة القلب وأن يكون حجاباً أو كناساً لما فيه من غامرة النجاسة وكذا الدباغ وما في معناه وكره ابن سيرين الدلالة وكره قتادة أجرة الدلال ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والافراط في الثناء على السلفة لترويجها ولأن العمل فيه لا يتقدر قد يقل وقد يكثر ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب وهذا هو العادة وهو ظلم بل ينبغي أن ينظر إلى قدر الثوب وكرهوا شراء الحيوان للتجارة لأن المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذى يصدده لمعالة وحلوه وقيل بيع الحيوان واشترى اللوتان وكرهوا الصرف لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها وقلائم للصير في ربح لإباعتها جهالة معاملته بدقائق النقد قلما يسلم الصيرفي وإن احتاط ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير لإعند الشك في جودته أو عند ضرورة قال أحمد بن حنبل رحمه الله ورد نهى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وعن أصحابه في الصياغة من الصالح وأنا أكره الكسر وقال يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدرهم ذهباً ويصوغه واستحبوا تجارة البر قال سعيد بن المسيب ما من تجارة أحب إلى من البر ما لم يكن فيها أيمان وقد روى «خير تجاركم البر وخير صناعتكم الحرز» ^(٢) وفي حديث آخر «لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البر ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف» ^(٣) وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع الحرز والتجارة والحمل والحياطة والحدو والقصارة وعمل الخفاف وعمل الحديد وعمل المغازل ومعالجة صيد البر والبحر والوراقة قال عبد الوهاب الوراق قال لأحمد بن حنبل ما صنعتك قلت الوراقة قال كسب طيب ولو كنت صانعاً يسدى لصنعت صنعتك ثم قال لى لا تكتب إلا بواسطة واستبق الحوائش وظهور الأجزاء وأربعة من الصنائع موسومون عند الناس بضعف الرأى الحماكة والقطانون وللمغازلون والمعلون ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل وعن مجاهد أن مريم عليها السلام مرت في طلبها لميسى عليه السلام بحماكة فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق فقالت اللهم انزع البركة من كسبهم وأمتهم قراء وحقرهم في أعين الناس فاستجيب دعاؤها وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل المبادات وفروض الكفايات كغسل الموتى ودقهم وكذا الأذان وصلاة التراويح وإن حكم

(١) حديث النهى عن كسر الدينار والدرهم أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة ابن عبد الله عن أبيه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس زاد الحاكم أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ويكسر الدينار فيجعل ذهباً وضعفه ابن حبان (٢) حديث خير تجاركم البر وخير صنائعكم الحرز لم أقف له على إسناد وكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب (٣) حديث لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البر ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف . وروى أبو يعلى والعقيلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق .

حدثنا مصعب بن عبد الله الزيرى قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار أرايتم لو ترخست في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال فسكتنا قال فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً أرايتم لو ترخست في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال بشر بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تخويم القدر فقال عمر أتم إذن أتم وإذا ظهرت نفس الصوفى بفضب وخصومة مع بعض الإخوان تشترط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب فان النفس إذا قبلت بالقلب انعمت مادة الشر وإذا قبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت العصمة قال الله تعالى - ادفع بالتي هي أحسن فإذا

بصحة الاستئجار عليه وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع فان هذه أعمال حقها أن يتجر فيها
للاخرة وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك . الثالث أن لا يعمد سوق
الدنيا عن سوق الآخرة وأسواق الآخرة المساجد قال الله تعالى - رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن
ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - وقال الله تعالى - في يوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه -
فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم السجود ويطلب على الأوراد كان عمر
رضي الله عنه يقول للتجار اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعدكم لدنياكم وكان صاحب السلف يعملون
أول النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة ولم يكن يبيع الهريسة والراءوس بكرة إلا للصبيان وأهل
الذمة لأنهم كانوا في المساجد بعدد في الخبر « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أول النهار
وفي آخره ذكر الله وخير كفر الله عنه ما بينهما من سيء الأعمال (١) » وفي الخبر « تلتقي ملائكة
الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي
فيقولون تركناهم وهم يصلون وجئناهم وهم يصلون فيقول الله سبحانه وتعالى أشهدكم أنني قد غفرت
لهم (٢) » ثم يسمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر فينبغي أن لا يخرج على شغل وينزعج عن
مكانه ويدع كل ما كان فيه لما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها
الدنيا بما فيها ومهما لم يحضر الجماعة عصي عند بعض العلماء وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان
ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات
الصلوات وكان ذلك معيشة لهم وقد جاء في تفسير قوله تعالى - لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله -
إنهم كانوا حدادين وخرازين فكان أخذهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشي فسمع الأذان لم يخرج
الإشي من الغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة . الرابعة أن لا يقتصر على هذا بل يلزم
ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالتلهيل والتسبيح فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل قال
صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالقاتل خلف الفارين وكالحى بين الأموات » وفي لفظ آخر
« كالشجرة الخضراء بين المهشم » وقال صلى الله عليه وسلم « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده
لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب
الله له ألف ألف حسنة (٣) » وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله وعبد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق
قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر وقال الحسن ذاكر الله في السوق يحيى يوم القيامة له ضوء كضوء القمر
وبرهان كبرهان الشمس ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها وكان عمر رضي الله عنه
إذا دخل السوق قال اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق ومن شر ما أحاطت به السوق اللهم
إني أعوذ بك من عین فاجرة وصفقه خاسرة وقال أبو جعفر الفرغانى كنا يوما عند الجنيد فجرى ذكر
ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويمسكون
من يدخل السوق فقال الجنيد كم ممن هو في السوق حكمه أن يدخل المسجد يأخذ باذن بعض من فيه

(١) حديث إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد في أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله ما بينهما
من سيء الأعمال أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه (٢) حديث تلتقي ملائكة الليل
وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر فيقول الله وهو أعلم كيف تركتم عبادي
الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون
في صلاة الغداة وصلاة العصر الحديث (٣) حديث من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده شريك له
الحديث تقدم في الأذكار .

الذى بينك وبينه
عداوة كأنه ولي حميم .
وما يلقاها إلا الذين
صبروا - ثم الشيخ
أو الخادم إذا شكا إليه
قصر من أخيه فله أن
يسأب أيهما شاء فيقول
للمتعدى لم تعدت
وللمتعدى عليه ما الذي
أذنبت حتى تعدى
عليك وسلط عليك
وهلا قابلت نفسه
بالقلب رققا بأخيك
وإعطاء للفتوة
والصحبة حقها فكل
منهما جان وخارج عن
دائرة الجمعية فيرد إلى
الدائرة بالنقار فيعود
إلى الاستغفار ولا يسلك
طريق الإصرار روت
عائشة رضي الله عنها
قالت « كان يقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم :
اللهم اجعلني من
الذين إذا أحسنوا
استبشروا وإذا أساءوا
استغفروا » فيكون
الاستغفار ظاهرا مع
الإخوان وباطنا مع الله
تعالى ويرون الله في

فيخرجه ويجلس مكانه وإلى لأعرف رجلا يدخل السوق ورده كل يوم ثلثمائة ركة وثلثون ألف تسبيحة قال فسبق إلى وهي أنه يعني نفسه فكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لالتئم في الدنيا فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة والسوق والسجد والبيت له حكم واحد وإنما النجاة بالتقوى قال صلى الله عليه وسلم « اتق الله حينما كنت (١) » فوظيفة التقوى لا تنقطع عن التجردين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال وبه تكون حياتهم وعيشهم إذ فيه برون تجارهم وربهم وقد قيل من أحب الآخرة عاش ومن أحب الدنيا طاش والأحق يغدو وبروح في لاش والمائل عن عيوب نفسه فتاش . الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان يقال إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق وفي الخبر « لا يركب البحر إلا للحج أو عمرة أو غزو (٢) » وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها فإن بها باض الشيطان وفرغ روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر أن ابليس يقول لولبه زلت ورسر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق زين لهم الكذب والخلف والحديمة والمكر والحياة وكن مع أول داخل وآخر خارج منها وفي الخبر « شر البقاع الأسواق وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجا (٣) » وتعلم هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة هكذا كانوا صالحو السلف لقد كان منهم من إذا ربح دافعا انصرف قناعة به وكان حماد بن مسلمة يبيع الخبز في سبط بين يديه فكان إذا ربح جبتين رفع سبطه وانصرف وقال إبراهيم بن بشار قلت لأبراهيم بن آدم رحمه الله أمر اليوم أعمل في الطين فقال يا ابن بشار إنك طالب ومطلوب يطلي بك من لافوته وتطلب ما قد كفيته أما رأيت حريصا محروما وضعيفا مبرزوقا قلت إن لي دافعا عند البقال فقال عز على بك تملك دافعا وتطلب العمل وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ومنهم بعد العصر ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوما أو يومين وكانوا يكتفون به . السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتق مواضع الشبهات ومظان الرب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفق قلبه فإذا وجد فيه حرازة اجتنبه وإذا حمل إليه سامة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة « وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن فقال من أين لكم هذا ؟ فقالوا من الشاة فقال ومن أين لكم هذه الشاة ؟ قيل من موضع كذا فشرب منه ثم قال : إنا معاشرا الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيبا ولا نعمل إلا صالحا (٤) » وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال - يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم - (٥) » فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد لأن ما وراء ذلك يتعذر وسنين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال فإنه كان عليه السلام لا يسأل

(١) حديث اتق الله حينما كنت حديث أبي ذر وصححه (٢) حديث لا تركب البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو أبو داود من حديث عبد الله بن عمر وقيل إنه منقطع (٣) حديث شر البقاع الأسواق وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجا تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس أبيض البقاع إلى الله الأسواق وأبيض أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجا (٤) حديث سؤاله عن اللبن والشاة وقوله إنا معاشرا الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيبا ولا نعمل إلا صالحا الطبراني من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف (٥) حديث إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

استغفارهم فلهذا المعنى يقفون في صف النعال على أقدامهم تواضعا وانكسارا وممعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة قم واستغفر فيقول الفقير ما أرى باطنيا صافيا ولا أوتر القيام للاستغفار ظاهرا من غير صفاء الباطن فيقول أنت قم فبركة سعيك وقيامك رزق الصفاء فكان يجد ذلك ويرى أثره عند الفقير وترقى القلوب وترفع الوحشة وهذا من خاصية هذه الطائفة لا يبيتون والبواطن منطوية على وحشة ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة ولا يرون الاجتماع ظاهرا في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشغث فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره بحال . روى عبد الله

عن كل ما يحمل إليه (١) وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يامله فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يامله وكذا الأجناد والظلة لا ياملهم البتة ولا يامل أصحابهم وأعوانهم لأنه معين بذلك على الظلم . وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور قال فوقع في نفس من ذلك شيء وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الاسلام ولكن كان الأمير الذي تولى في محله من الظلة قال فسألت سفيان رضي الله عنه فقال لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير فقلت هذا سور في سبيل الله للمسلمين فقال نعم ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفرك أجرك فتكون قد أحببت بقاء من يعصى الله وقد جاء في الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » (٢) وفي الحديث « إن الله لا يغضب إذا مدح الفاسق » (٣) وفي حديث آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام » (٤) ودخل سفيان على للهدى ويده درج أبيض فقال ياسفيان أعطني الدعوة حتى أكتب فقال أخبرني أي شيء تكتب فإن كان حقاً أعطيتك وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوبين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب فقال ناو لي الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه فكلنا كانوا يعترضون عن معاونة الظلة ومعاملتهم أشد أنواع الاعانة فينبغي أن يجتنبها ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً وبالجملة فينبغي أن يتقسم الناس عنده إلى من يامل ومن لا يامل وليكن من يامله أقل ممن لا يامله في هذا الزمان قال بعضهم أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول من روني أن أعامل من الناس فيقال له عامل من شئت ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون عامل من شئت إلا فلانا وفلانا ثم أتى زمان آخر فكان يقال لا تعامل أحداً إلا فلانا وفلانا وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون إنما الله وإنما إليه راجعون . السابع : ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع واحد من معامليه فانه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة فانه لم أقدم عليها ولأجل ماذا فانه يقال إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة ومحاسب عن كل واحد محاسبة على عدد من عامله قال بعضهم رأيت بعض التجار في النوم فقلت ماذا فعل الله بك فقال نشر على حسين ألف صحيفة فقلت هذه كلها ذنوب فقال هذه معاملات الناس بعدد كل انسان عاملته في الدنيا لكل انسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والاحسان والشفقة على الدين فان اقتصر على العدل كان من الصالحين

(١) حديث كان لا يسأل عن كل ما يحمل إليه أحمد من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة الحديث فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة فلم يستطع أن يسيغها فقال هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها الحديث وله من حديث أبي هريرة كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه الحديث وإسنادهما جيد وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتى به من عند أهله والله أعلم (٢) حديث من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات اللسان (٣) حديث إن الله لا يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبي الدنيا في الصمت وابن عدي في الكامل وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام غريب بهذا اللفظ والمعروف من وقر صاحب بدعة الحديث رواه ابن عدي من حديث عائشة والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي كلها موضوعة

ابن عمر رضي الله عنهما
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « ارحموا
ترحموا واغفروا يغفر
لكم » . وللصوفية في
تهليل يد الشيخ بعد
الاستغفار أصل من
السنة . روى عبد الله
ابن عمر قال « كنت في
سرية من سرابار رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فخاص الناس حصة
فكنت فيمن خاص
قلنا كيف نصنع وقد
قررنا من الرخص بؤثنا
بالنصب ثم قلنا لودخلنا
للدنية فتننا فيها ثم قلنا
لو عرضنا أنفسنا على
رسول الله صلى الله عليه
وسلم فإن كان لنا توبة
وإلا ذهبنا فأتينا
قبل صلاة الغداة نفرج
فقال من القوم قلنا نحن
الفرارون قال لا بل
أنتم العكارون أنا فتنكم
أنا فئة المسلمين » يقال
عكر الرجل إذا تولى ثم
كر راجعاً والعكار
العطاف والرجاع قال
فأتينا حتى قلنا يده »

وإن أضاف إليه الإحسان كان من اللقرين وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب تم كتاب آداب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنه .

(كتاب الحلال والحرام)

وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ، ثم ركب صورته في أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه في أول نشوه بلبين استصفا من بين قرث ودم سائفا كالماء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعي الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته العادية له عن السطوة والصيل ، وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرهما جند الشيطان للتشمر للاضلال ، ولقد كان يجري من ابن آدم مجرى الدم السيل ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال ، إذا كان لا يذوقه إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال ، فبقى لما زمت بزمام الحلال خائبا خاسرا ماله من ناصر ولا وال . والصلاة على محمد الهادي من الضلال وعلى آله خير آل وسلم تسليما كثيرا . أما بعد . فقد قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »^(١) رواه ابن مسعود رضي الله عنه وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على العقول فهما وأثقلها على الجوارح فعلا ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا وصار غموض علمه سببا لانداس عمله إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء القرات والحشيش النابت في الموات وما عده قد أخبثته الأيدي العادية وأفسدته للعاملات الفاسدة وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفضلا وهيئات هيئات فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات ولما كانت هذه بدعة عم في الدين ضررها واستطار في الخلق شررها وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ولا يخرجها التضييق عن حيز الإمكان . ونحن نوضح ذلك في سبعة أبواب . الباب الأول : في فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . الباب الثاني : في مراتب الشبهات ومثارها وتميزها عن الحلال والحرام . الباب الثالث : في البحث والسؤال والمجوع والاهمال ومطائنها في الحلال والحرام . الباب الرابع : في كيفية خروج الثائب عن الظالم للسالية . الباب الخامس : في إدارات السلاطين وصلاحهم وما يحل منها وما يحرم . الباب السادس : في الدخول على السلاطين ومخالطتهم . الباب السابع : في مسائل متفرقة .

(الباب الأول في فضيلة الحلال ومذمة الحرام ، وبيان أصناف الحلال

ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه)

(فضيلة الحلال ومذمة الحرام)

(كتاب الحلال والحرام)

(الباب الأول في فضيلة طلب الحلال)

(١) حديث ابن مسعود طلب الحلال فريضة على كل مسلم تقدم في الزكاة دون قوله على كل مسلم وللطبراني في الأوسط من حديث أنس واجب على كل مسلم وإسناده ضعيف .

وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قبل يد عمر عند قدومه وروى عن أبي مرثد الغنوي أنه قال « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إليه وقبلت يده » فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ومعاقتهم للاخوان عقيب الاستغفار لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة وقدومهم من سفر الهجرة بالفرقة إلى أوطان الجمعية بظهور النفس تغربوا وبمدوا وبضية النفس والاستغفار قدموا ورجعوا ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله قد أخطأ فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وعيد روى عنه عليه

قال الله تعالى - كلوا من الطيبات واعملوا صالحا - أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل وقيل إن الراد به الحلال وقال تعالى - ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل - وقال تعالى - إن الدين يأكلون أموال اليتامى ظلما - الآية . وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين - ثم قال - فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله - ثم قال - وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم - ثم قال - ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون - جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بحاربة الله وفي آخره متعرضا للنار والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ولما قال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ^(١) » قال بعض العلماء أراد به طلب علم الحلال والحرام وجعل الراد بالحديثين واحدا وقال صلى الله عليه وسلم « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا في غفاف كان في درجة الشهداء ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٣) » وفي رواية « زهد الله في الدنيا » وروى « أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله محاب الدعوة فقال له أطب طعمتك تستجب دعوتك ^(٤) » ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحرص على الدنيا قال « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه فيقول يارب يارب فأني يستجاب لذلك ^(٥) » وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل ^(٦) » فقيل الصرف النافلة والعدل الفريضة وقال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته لئلام عليه منه شيء ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم تقدم في العلم (٢) حديث من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا في غفاف كان في درجة الشهداء الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة من سعى على عياله في سبيل الله ولأبي منصور في مسند الفردوس من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مسئلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين وإسنادها ضعيف (٣) حديث من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ولأبي عندي نحوه من حديث أبي موسى . وقال حديث منكر (٤) حديث أن سعدا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله أن يجعله محاب الدعوة فقال له أطب طعمتك تستجب دعوتك الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه (٥) حديث رب أشعث مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام الحديث مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر الحديث (٦) حديث ابن عباس إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل لم أقف له على أصل ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود من أكل لقمة من حرام لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة الحديث وهو منكر (٧) حديث من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٨) حديث كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه وقد تقدم

للصلاة والسلام أنه قال « من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب الكوس » وروى جابر أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اتصل إليه فلم يقبل لم يرد الخوض » ومن السنة أن يقدم للاخوان شيئا بعد الاستغفار روى أن كعب بن مالك قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن من توبتي أن أخلع من مالي كله وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الدين . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « عجزك من ذلك الثلث » فصارت سنة الصوفية للطالبة بالقراءة بعد الاستغفار وللناقرة وكل قصدم رعاية التألف حتى تكون بواطهم على الاجتماع كأن ظواهرهم على الاجتماع وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام . ثم

« من لا يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال »^(٢) روى هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أسمى وانيا من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنده راض »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قدّفه في النار »^(٤) وقال عليه السلام « خير دينكم الورع »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الاسلام كله »^(٦) ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الاسلام »^(٧) وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه « المدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المدة صدرت العروق بالصحة وإذا سقمت صدرت بالسقم »^(٨) ومثل الطعنة من الدين مثل الأساس من البنيان فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع وإذا ضعف الأساس واعوجج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل - أقم أسس بنيانه على تقوى من الله - الآية وفي الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه وإن تركه وراهه كان زاده إلى النار »^(٩) وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال . وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت تقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقي حتى ظننت أن نفسه ستخرج ثم قال اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء »^(١٠) وفي بعض الأخبار أنه

(١) حديث من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر قال ابن العربي في عارضة الأحواذى شرح الترمذى إنه باطل لم يصح ولا يصح (٢) حديث العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال أبو منصور الديلمي من حديث أنس إلا أنه قال تسعة في الصمت والماثرة كسب اليد من الحلال وهو منكر (٣) حديث من أسمى وانيا من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس من أسمى كالا من عمل يديه أسمى مغفوراً له وفيه ضعف (٤) حديث من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قدّفه في النار أبو داود في الراسيل من رواية القاسم بن عجيمة مرسل (٥) حديث خير دينكم الورع تقدم في العلم (٦) حديث من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الاسلام كله لم أقف له على أصل (٧) حديث درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الاسلام أحمد والدارقطني من حديث عبد الله بن حنظلة وقال ستة وثلاثين ورجاله ثقات وقبل عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً والطبراني في الصغير من حديث ابن عباس ثلاثة وثلاثين وسنده ضعيف (٨) حديث أبي هريرة المدة حوض البدن والعروق إليها واردة الحديث الطبراني في الأوسط والعقيلي في الضعفاء وقال باطل لأصل له (٩) حديث من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه وإن تركه وراهه كان زاده إلى النار أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وابن حبان من حديث أبي هريرة من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه (١٠) حديث إن أبا بكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل فقال تكهنت تقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقي وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال أوما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيبا البخاري من حديث عائشة كان لأبي بكر غلام يخرج له الحراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر .

شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو بما يطلب لساكنه بالدروزة أن يكون عنده من الشغل بالله مالا يسعه الكسب وإلا إذا كان للبطالة والحوض فيما لا يعنى عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الارادة من الجهد والاجتهاد فلا ينبغي له أن يأكل من مال الرباط بل يكتبسب ويأكل من كسبه لأن طعام الرباط لأقوام كمل شغلهم بالله فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم إلا أن يكون تحت سيطرة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحته ويهتدى بهديه فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية أن يشغله بخدمة الفقراء

صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال أو ما علم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً وكذلك شرب
 عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً فأدخل أصبعه وتقياً وقالت عائشة رضى الله عنها إنكم
 لتخفلون عن أفضل العبادة هو الورع وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما صليتم حتى تكونوا كالحنابا
 وصتم حتى تكونوا كالأوتار لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله
 ما أدرك من أدرك إلا من كان يقبل ما يدخل جوفه وقال الفضيل من عرف ما يدخل جوفه كتب الله
 صديقاً فانظر عند من تظفر يامسكين وقيل لإبراهيم بن آدم رحمه الله لم لا تشرب من ماء زمزم فقال
 لو كان لى دلو شربت منه وقال سفيان الثوري رضى الله عنه من أنفق من الحرام في طاعة الله كان
 كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال وقال ابن
 يحيى بن معاذ الطاعة خزائن من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء وأسانه لقم الحلال وقال ابن
 عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام وقال سهل التستري لا يبلغ العبد حقيقة
 الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع واجتناب النهي من
 الظاهر والباطن والصبر على ذلك إلى الموت وقال من أحب أن يكشف بآيات الصديقين فلا يأتى كل إلا
 حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة ويقال من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه وهو تأويل قوله
 تعالى - كلا بل ديان على قلوبهم ما كانوا يكسبون - وقال ابن المبارك ردت درهم من شبهة أحب إلى
 من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ألف ومائة ألف حتى بلغ إلى ستمائة ألف وقال بعض السلف
 إن الهيد يأكل أكلة فيقلب قلبه فينقل كما ينقل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً وقال سهل رضى الله
 عنه من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى علم أولم يعلم ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه
 ووقفت للخيرات وقال بعض السلف إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه
 ومن أقام نفسه مقام ذلك في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى في آثار
 السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء تفقدوا منه ثلاثاً فإن كان معتقداً لبدعة فلا
 تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق وإن كان سعى الطعمة فمن الهوى ينطق فإن لم يكن مكين
 العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه وفي الأخبار الشهيرة عن علي عليه السلام وغيره
 إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وزاد آخرون وشبهتها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع
 طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل فسأله عن ذلك فقال نحن لأننا كل الإحلالاً فذلك تستقيم قلوبنا
 ويدوم حالنا ونكشف للسكر ونشاهد الآخرة ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء
 من علم اليقين ولذهب الخوف والشهادة من قلوبنا فقال له الرجل فاني أصوم الدهر وأختم القرآن في
 كل شهر ثلاثين مرة فقال له البذل هذه الشربة التي رأيته شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين
 ختمة في ثلثمائة ركة من أعمالك وكانت شربته من لبن طيبة وحشية وقد كان بين أحمد بن حنبل
 ويحيى بن معين محبة طويلة فهجره أحمد إذ سمعه يقول إني لأسأل أحدا شيئاً ولو أعطاني الشيطان
 شيئاً لأكلته حتى اعتذر يحيى وقال كنت أمزج فقال تمزج بالدين أما علمت أن الأكل من الدين
 قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال - كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً - وفي الخبر أنه مكتوب في التوراة
 « من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله » وعن علي رضى الله عنه
 أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا غثوماً خذراً من الشبهة واجتمع الفضيل بن عياض
 وقال له الغلام أتدرى ما هذا فقال وما هو قال كنت تكهنت لأنسان في الجاهلية فذكره دون
 الرفوع منه فلم أجده .

فيكون ما يأكله في
 مقابلة خدمته . روى
 عن أبي عمرو الزجاني
 قال ألفت عند الجيد
 معة فما رأيت قط إلا
 وأنا مشتغل بنوع من
 العبادة فما كفى حتى
 كان يوم من الأيام
 خلا للوضع من الجماعة
 قممت وزعت ثيابي
 وسكنت للوضع
 ونظفت ورششته
 وغسلت موضع الطهارة
 فرجع الشيخ ورأى
 على أثر الفبار فدعا لي
 ورحب بي وقال أحسن
 عليك بها ثلاث مرات
 ولا يزال مشايخ الصوفية
 يندبون الشباب إلى
 الخدمة حفظاً لهم عن
 البطالة وكل واحد
 يكون له حظ من
 للعامة وحظ من
 الخدمة . روى أبو
 محذورة قال : جعل
 رسول الله صلى الله
 عليه وسلم لنا الأذان
 والسقاية لبني هاشم
 والحجابة لبني عبد المدار
 وبهذا يقتدى مشايخ

وابن عينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة فذكروا الرطب فقال وهيب هو من أحب الطعام إلى إلا أنى لا آكله لا خلطاً رطب مكة يسانين زيدة وغيرها فقال له ابن المبارك إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبر قال وما سببه قال إن أصول الضياع قد اختلطت بالصواب في فئسي على وهيب فقال سفيان قلت الرجل قال ابن المبارك ما أردت إلا أن أهون عليه فلما أفاق قال لله على أن لا آكل خبزاً أبداً حتى ألقاه قال فكان يشرب اللبن فأتته أمه بلبن فسألها فقالت هو من شاة بني فلان فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت فلما أدناه من فيه قال بقي أنها من أين كانت ترعى فسكت فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين فقالت أمه اشرب فإن الله يغفر لك فقال ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنا لمغفرته بمعصيته وكان بشر الخافى رحمه الله من الوريين قليله من أين تأكل ؟ فقال من حيث تأكلون ولكن ليس من يأكل وهو يبيى كمن يأكل وهو بضحك وقال يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

(أصناف الحلال ومداخله)

اعلم أن تفصيل الحلال إنما يتولى بيانه كتب الفقه ويستغنى الريد عن تطويله بأن يكون له طعمه معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتب الفقه ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم وهو أن المال إنما يحرم إما للمعنى في عينه أو للحلل في جهة اكتسابه .

(القسم الأول)

الحرام لصفة في عينه كالخمر والحزير وغيرها وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرها أو من النبات أو من الحيوانات . أما المعادن فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل وفي بعضها ما يجري مجرى السم والحزير لو كان مضراً لحرم أكله والطين الذي يمتد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر وفائدة قولنا إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل أنه لو وقع شيء منها في مرقعة أو طعام مائع لم يضر به محرماً . وأما النبات فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة فزيل العقل النج والحمز وسائر السكرات ومزيل الحياة السموم ومزيل الصحة الأدوية في غير وقتها وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والسكرات فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته لعينه ولصفته وهي الشدة الطرية وأما السم فإذا خرج عن كونه مضراً لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم وأما الحيوانات فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل وتفصيله في كتاب الأطعمة والنظر يطول في تفصيله لاسيما في الطيور والفريسة وحيوانات البر والبحر وما يحل أكله منها فأنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روى فيه شروط الذابح والآلة والمذبح وذلك مذكور في كتاب الصيد والذابح وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد وفي مناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والحل والجبن فإن الاحتراز منهما غير ممكن فأما إذا أفردت وأكلت فتحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة لأسباب في تحريمها إلا الاستفادار ولولم يكن لكان لا يكره فإن وجد شخص لا يستقدره لم يلفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالحيات لمعوم الاستفادار فيكره أكله كالجوع الخاط وشربه كره ذلك وليست السكراة تنجسها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت إذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه ^(١) وربما يكون حاراً ويكون ذلك سبب موته

(١) حديث الأمر بأن يعقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه البخارى من حديث أبي هريرة .

الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء ولا يعذر في ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته ولا يعنى بكامل الشغل شغل الجوارح ولكن نعني به دوام الرعاية والحماية والشغل بالقلب والقالب وقتاً وبالقلب دون القالب وقتاً وتفقد الزيادة من نقصان فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام وبذلك يؤدي شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والسكفاية أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو العجيب عبد القاهر إجازة قال أنا عمر بن أحمد بن منصور قال أنا أحمد بن خلف قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد ابن الحسين قال سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول سمعت علي بن عبد الحميد الفضايرى يقول سمعت السرى

ولو تهرت غلة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقها إذ الاستقذر هو جرمة إذ ابقى له جرم ولم ينجس حتى يحرم
بالنجاسة وهذا يدل على أن تحريره للاستقذار ولذلك يقول لو وقع جزء من آدمى ميت في قدر ولو وزن
دانق حرم السكل بالنجاسة فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت ولكن لأن أكله محرم احتراماً
لاستقذاراً وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تلحق جميع أجزائها بل يحرم منها الدم
والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها بل تناول النجاسة مطلقاً محرم ولكن ليس في الأعيان شيء
محرم نجس إلا من الحيوانات وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج فإن
نجاسة السكر تغليظ لاجزعه لكونه في مظنة التشوف ومهما وقت قطرة من النجاسة أو جزء
من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه ولا يحرم الاتفاغ به لغير الأكل فيجوز
الاستصباح بالدهن النجس وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته .
(القسم الثاني ما يحرم لحلل في جهة إثبات اليد عليه)

وفيه يتسع النظر فنقول أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره فالذي يكون بغير اختياره
كالإرث والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنبيل المادن أو يكون من مالك والذي أخذ من
مالك فاما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً ولأخوذ قهراً إما أن يكون إسقاط عصمة المالك كالغنائم
أو لاستحقاق الأخذ كزكاة المتعدين والنفقات الواجبة عليهم ولأخوذ تراضياً إما أن يؤخذ بعوض
كالبيع والصدقات والأجرة وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية فيحصل من هذا السياق ستة
أقسام . الأول : ما يؤخذ من غير مالك كنبيل المادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء
من الأنهار والاحتشاش فهذا حلال بشرط أن لا يكون للأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين فإذا
انفك من الاختصاصات ملكها أخذها وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات . الثاني : الأخوذ قهراً
ممن لا حرمة له وهو النقي . والغنيمة وسائر أموال الكفار والمخاريق وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا
منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد وتفصيل هذه
الشروط في كتاب السير من كتاب النقي والغنيمة وكتاب الجزية . الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق
عند امتناع من وجب عليه فيؤخذ دون رضاه وذلك حلال إذا تم بسبب الاستحقاق وتم وصف المستحق
الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان
أو مستحق وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات إذ فيها النظر في
صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق فإذا استوفيت شرائطها كان للأخوذ
حلالاً . الرابع : ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين
وشرط اللفظين أعني الإيجاب والقبول مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة وبيان
ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والساقاة والشفعة والصلح
والخلع والكتابة والصدقات وسائر المعارضات . الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض وهو
حلال إذا روعي فيه شرط العقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث
أو غيره وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات . السادس : ما يحصل بغير اختيار
كالإرث وهو حلال إذا كان للورث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال
ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والخلع
والكفارة إن كان واجباً وذلك مذكور في كتاب الوصايا والقراض فهذه مجامع مداخل الحلال
والحرام أو ماناً إلى حملتها ليم الريد أنه إن كانت طمته متفرقة لأمس جهة معينة فلا يستغنى عن

يقول من لا يعرف
قدر التمسك بها من
حيث لا يعلم . وقد
يذكر الشيخ العاجز
عن الكسب في تناول
طعام الرباط ولا يذمر
الشاب هذا في شرط
طريق القوم على
الإطلاق فأما من حيث
فتوى الشرع فإن
كان شرط الوقف على
التصوفة وعلى من تزيوا
بزي للتصوفة ولبس
خرقهم فيجوز أكل
ذلك لهم على الإطلاق
فتوى وفي ذلك
القناعة بالرخصة دون
العزعة التي هي شغل
أهل الإرادة وإن
كان شرط الوقف على
من يملك طريق
الصوفية عملاً وحالاً
فلا يجوز أكل أهل
البطالات والراكين
إلى تصنيع الأوقات
وطرق أهل الإرادة
عند مشايخ الصوفية
مشهورة . أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
قال أنا أبو الفضل

علم هذه الأمور فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات ينبغي أن يستحق فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل فانه كما يقال للعالم لم خالفت عليك يقال للجاهل لم لازمت جهلك ولم تعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم .

(درجات الحلال والحرام)

اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفي من بعض وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر وبعضها حار في الثانية كالفايند وبعضها حار في الثالثة كالديس وبعضها حار في الرابعة كالعدل كذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة وكذا الحلال تفاوت درجات صفاته وطيبه فلنقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريبا وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر وكذا غيره فلذلك نقول الورع عن الحرام على أربع درجات : ورع العدول وهو الذي يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه وهو الورع عن كل ما محرمة فتاوى الفقهاء . الثانية : ورع الصالحين وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن المفق يرخص في تناول بناء على الظاهر فهو من مواقع الشبهة على الجملة فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية . الثالثة : ما لا يحرمه الفتوى ولا شبهة في حله ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس وهذا ورع المتقين قال صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس »^(١) الرابعة : ما لا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه السهلة له كراهية أو معصية والامتناع منه ورع الصديقين فهذه درجات الحلال جملة إلى أن تفصلها بالأمثلة والشواهد . وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطراح صفة الفسق فهو أيضا على درجات في الحبث فالأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيمالا يجوز فيه المعاطاة حرام ولكن ليس في درجة للنصوب على سبيل القهر بل للنصوب أغلظ إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير وليس في المعاطاة إيذاء وإنما فيه ترك طريق التمسك فقط ثم ترك طريق التمسك بالمعاطاة أهون من تركه بالربا وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض للنهي على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة بل للأخوذ ظلما من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من للأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذى فهذه دقائق في تفاصيل الحبث لا ينبغي أن يذهل عنها فلو لا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار وإذا عرفت ماثرات التخليط فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشبه وهو طلب حصره فيما لا حصر له ويدل على اختلاف درجات الحرام في الحبث ما سيأتي في تعارض المخذورات وترجيح بعضها على بعض حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فانا نقدم بعض هذا على بعض .

(١) حديث لا يبلغ العبد درجة للمتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس ابن ماجه وفرد تقدم .

حميد قال أنا الحافظ
أبو نعيم قال حدثنا
أبو العباس أحمد بن
محمد بن يوسف قال
حدثنا جعفر الفرياني
قال حدثنا محمد بن
الحسين البلخي
بسمرقند قال حدثنا
عبد الله بن المبارك
قال حدثنا سعيد بن
أبي أيوب الخزازي قال
حدثنا عبد الله بن
الوليد عن أبي سليمان
الليثي عن أبي سعيد
الحدرى عن النبي
صلى الله عليه وسلم
أنه قال « مثل للؤمن
كمثل الفرس في
آخيته يحول ويرجع
إلى آخيته وإن للؤمن
يسهو ثم يرجع إلى
الإيمان فأطمعوا
طعامكم الأتقياء وأولوا
معروفكم المؤمنين » .
[الباب السادس عشر
في ذكر اختلاف
أحوال مشايخهم في
الفرو والقام] اختلف
أحوال مشايخ الصوفية
فمنهم من سافر في

(أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا)

أما الدرجة الأولى : وهي ورع المدول فكل ما اقتضى الفتوى تحريره مما يدخل في الداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتضاه إلى الفسق والمعصية وهو الذي يزيد بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد . وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها كل شبهة لا نوجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الوسوسين كمن يتمتع من الاصطياد خوفا من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه وهذا وسواس ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريك إلى ما لا يريك » (١) ونحمله على نهى التنزيه وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كل ما أصميت ودع ما أتميت » (٢) والإبقاء أن يجرح الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتا إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر والذي نختاره كما سيأتي أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين وقوله دع ما يريك أمر تنزيه إذ ورد في بعض الروايات كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثرا غير سهمك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في الكلب العلم : وإن أكل فلا تأكل فاني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه على سبيل التنزيه لأجل الخوف إذ قال لأبي ثعلبة الخشني « كل منه فقال وإن أكل منه فقال وإن أكل » (٣) وذلك لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع وحال عدى كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة . أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين فيشهد لها قوله ﷺ « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » وقال عمر رضي الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام وقيل إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال أبو الدرداء إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان لحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة وكان بعضهم يتحوز فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ليكون ذلك حاجزا من النار ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس فان ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وترك الورع فمن ذلك ما روى عن علي بن مبيد أنه قال كنت ما كنا في بيت بكراء فكتبت كتابا وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتزيه وأجفئه ثم قلت الحائط ليس لي فقالت لي نفسي وما قدر تراب من حائط فأخذت من التراب حاجتي فلما نمت فاذا أنا بشخص واقف يقول يا علي بن مبيد يعلم غدا الذي يقول وما قدر تراب من حائط ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته فان للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين وليس المراد به أن يستحق

(١) حديث دع ما يريك إلى ما لا يريك للنسائي والترمذي والحاكم ومجناه من حديث الحسن ابن علي (٢) حديث كل ما أصميت ودع ما أتميت الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفا عليه وقال إن الرفوع ضعيف (٣) حديث قال لأبي ثعلبة كل منه فقال وإن أكل قاله وإن أكل أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ومن حديث أبي ثعلبة أيضا مختصرا وإسنادهما جيد والبيهقي موقوفا عليه وقال إن الرفوع ضعيف

بدايته وأقام في نهايته ومنهم من أقام في بدايته وسافر في نهايته ومنهم من أقام ولم يسافر ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام فأما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده بالسفر لمعان منها تعلم شيء من العلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالطين » وقال بعضهم لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدل على هدى ما كان سفره ضائعا . وتقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهر لحديث بلغه أن أنسا يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » وقيل في تفسير قوله تعالى - السامعون -

عقوبة على قتلها ، ومن ذلك ما روى أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين فقال وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عائكة أنا أجيد الوزن فسكت عنها ثم أعاد القول فأعادت الجواب فقال لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فمسحني بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين فأخذ بأثفه حتى لاتصيه الرائحة وقال وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه « وأخذ الحسن رضي الله عنه ثمرة من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال صلى الله عليه وسلم كع كع (١) » أي ألقها ، ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند مختصر فأت ليلا فقال أطفئوا السراج فقد حدث للورثة حق في الدهن ، وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطاراة قالت كان عمر رضي الله عنه يدفع إلى امرأته طيبا من طيب المسلمين لتيمة فيأعنتي طيبا فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضي الله عنه فقال ماهذه الرائحة فأخبرته فقال طيب المسلمين تأخذينه فانزع الخمار من رأسها وأخذ جرة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه حتى لم يبق له ريح قالت ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها فأدخلت أصبعها فيها ثم مسحت به التراب فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى لحوف أداء ذلك إلى غيره وإلا ففصل الخمار ما كان بعيد الطيب إلى المسلمين ولكن أنقله عليها زجرا وردعا واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره ، ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل حجرة لبعض السلاطين ويخسر المسجد بالعود فقال ينبغي أن يخرج من المسجد فإنه لا ينتفع من العود إلا براحمته وهذا قديقارب الحرام فإن القدر الذي يعقب ثوبه من رائحة الطيب قديقصد وقد ييخل به فلا يدرى أنه يتسامح به أم لا ، وسئل أحمد بن حنبل عن من سقطت منه ورقة فيها أحاديث فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها فقال لا بل يستأذن ثم يكتب ، وهذا أيضا قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا فها هو في محل الشك والأصل تحريمه فهو حرام وتركه من الدرجة الأولى ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها وإن كانت الزينة مباحة في نفسها ، وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السنية فقال أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو وأما من أراد الزينة فلا ، ومن ذلك أن عمر رضي الله عنه لما ولي الخلافة كانت له زوجة يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعته في باطل فيطيعها ويطلب رضاها وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس أي مخافة من أن يفضى إليه وأكثر اللباحات داعية إلى المحظورات حتى استكثر الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرك الشهوة ثم الشهوة تدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى النظر والنظر يدعو إلى غيره وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله وهكذا اللباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرر من غوائلها بالمعرفة أولا ثم بالخذر ثانيا فقلما تخلو عاقبتها عن خطر وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما تخلو عن خطر حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال أما تجصيص الأرض فيمنع التراب وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه سئل أن يكحل السجدة فقال لا ، عريش كعريش موسى (٢) »

(١) حديث أخذ الحسن بن علي ثمرة من الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم كع كع كع ألقها. البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنه سئل أن يكحل السجدة فقال لا ، عريش كعريش موسى الدارقطني في الأفراد من حديث أبي الدرداء وقال غريب .

أنهم طلاب العلم . حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إماما قال أنا أبو الفتح عبد الملك الهروي قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا الجراحي قال أنا أبو العباس المهبوب قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ، حدثنا وكيع قال حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبي هرون قال كنا نأتي أبا سعيد فيقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي عليه السلام قال « إن الناس لكم تبع وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا » وقال عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وروى عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى أوحى إلى إنهم

وإنما هو شيء مثل الكحل يطل به فلم يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وكره السلب الثوب الرقيق وقالوا من رقيق ثوبه ورق دينه وكل ذلك خوفا من سريان اتباع الشهوات في اللباجات إلى غيرها فان المظنور والباح تشبههما النفس بشهوة واحدة وإذا تعوت الشهوة للساحة استرسلت فاقضى خوف التقوى الورع عن هذا كله فبكل حلال افلك عن مثل هذه الخالفة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة وهو كل ما لا يتقدم في أسبابه معصية ولا يستمان به على معصية ولا يقصد منه في الحال والمآل فالحلال عندهم كل ما لا يتقدم في أسبابه معصية ولا يستمان به على معصية ولا يقصد منه في الحال والمآل قضاء وطرب بل يتناول في تعالى فقط وللتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراما امتثالا لقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خواصهم يلعبون - وهذه رتبة الموحدين للتجرد عن حظوظ أنفسهم المنفردين في تعالى بالقصد ولا شك في أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستمان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية في ذلك ماروى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء فقالت له امرأته لو عثقت في الدار قليلا حتى يصل الدواء فقال هذه مشية لا أعرفها وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين فلم يجرز الاقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه فتناولت من الحشيش وشربت من الماء وقلت في نفسي إن كنت قدأ كنت يوما حلالا طيبا فهو هذا اليوم فتهتفي هاتف إن القوة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي فرجعت وندمت ومن هذا ماروى عن ذى النون المصري أنه كان جائعا محبوسا فبعثت إليه امرأة صالحة طعاما على يد السجان فلم يأكل ثم اعتذر وقال جاءني على طبق ظالم يعني أن القوة التي أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة وهذه الغاية القصوى في الورع . ومن ذلك أن بشرا رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء فان النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحا في نفسه فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال وقال لصاحب أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء . وكان بعضهم إذا فرغ من طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة مع أن الماء مباح ولكنه بقي عفوفا بالمصنع الذي عمل به بما لا حرام فكأنه انتفاع به وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله لأن يد السجان لا توصف بأنه حرام بخلاف الطبقة الغصوب إذا حمل عليه ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام ولذلك تقي الصديق رضى الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه فوتمع أنه شربه عن جهل وكان لا يجب إخراجه ولكن تخليط البطن عن الحبيث من ورع الصديقين ومن ذلك التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يخطط في المسجد فان أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد . وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في القابر في وقت يخاف من الطر فقال إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها وأطلقا بعضهم سراجا أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم وامتنع من تسجير تنور الخبز وقد بقى فيه جرم من حطب مكروه وامتنع بعضهم من أن يحكم شمع نعله في مشعل السلطان فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع مما حرمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط فكلما كان البعد أشد تشديدا على نفسه كان أخف ظهرا يوم القيامة وأسرع جوازا على الصراط وأبعد عن أن

سله مسلكا في طلب العلم سهلته له طريقا إلى الجنة ومن جملة مقاصدهم في البداية لقاء الصالح والإخوان الصادقين فليزيد بهما كل صادق مزيد وقد ينفع لحظ الرجال كما ينفع لحظ الرجال وقد قيل من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه وهذا القول في وجهان أحدهما أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فله أصح ما يكلمهم بلسان قوله فاذا نظر الصادق إلى تصاريحه في مودعه ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وسكوته ينفع بالنظر إليه فهو قمع الحفظ ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضا لا ينفع لأنه يتكلم بهواه ونورانية القول على قدر نورانية القلب ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق

ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته وتتفاوت للنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع كما تفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الحبث ، وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتياط وإن شئت فرخص. فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص والسلام .

(الباب الثاني في مراتب الشبهات ومشاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه (١) » فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة والمشكل منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها وكشف القطاء عنها فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل فنقول : الحلال المطلق هو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه وأخل عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية ومثاله للماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد ويكون هو واقفا عند جمعه وأخذه من الهواء فى ملك نفسه أو فى أرض مباحة والحرام المحض هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها كالشدة المطرية فى الحجر والنجاسة فى البول أو حصل بسبب منهي عنه قطعاً كالحصل بالظلم والربا ونظائرهما فهذان طرفان ظاهران ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه فإن صيد البر والبحر حلال ومن أخذ ظلية فيحتمل أن يكون قد ماسكها صياد ثم أفلتت منه وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه فى يده وخريطته فمثل هذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء اللطخ المحتطف من الهواء ولكنه فى معنى ماء النظر والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن ورع الموسمين حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرد لادلالة عليه نعم لودل عليه دليل فإن كان قاطعاً كالوجود حلقه فى أذن السمكة أو كان محتملاً كالوجود على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كذا لا يقدر عليه إلا بعد الضبط ويحتمل أن يكون جرحاً فهذا موضع الورع وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال العدوم دلالة كالاتصال العدوم فى نفسه ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المير فيخرج ويقول لعله مات وصار الحق للوارث فهذا وسواس إذا لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المهدورة ما نشأ من الشك والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين ثم لا سبب له لا يثبت عقده فى النفس حتى يساوى العقد المقابل له فيصير شكاً ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التى أداها قبل هذا بغير سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة وإذا لم يقطع جواز أن تكون ثلاثة وهذا التجويز لا يكون شكاً إذا لم يحضره سبب أو جب اعتقاد كونها ثلاثاً فلنفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب فهذا يلتحق بالحلال المطلق ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ولكن لم يدل عليه سبب كمن فى يده طعام لمورثه الذى لا وارث له سواء فغاب عنه فقال يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى فأكله فأقدامه عليه إقدام على حرام محض لأنه احتمال لا مستند له فلا ينبغي أن يعدّ هذا النمط من أقسام الشبهات وإنما الشبهة نعتى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومشارات الشبهة خمسة :

(الباب الثاني في مراتب الشبهات)

(١) حديث الحلال بين والحرام بين متفق عليه من حديث الثعلب بن بشير .

العبودية وحقيقتها والوجه الثانى أن نظر

الماء الراشدين فى العلم

والرجال البالغين رباى

نافع ينظر أحدهم إلى

الرجل الصادق

فيستكشف بنور

بصيرته حسن اعتماد

الصادق واستشهاده

لمواهب الله تعالى

الخاصة فيقع فى قلبه

عجبة الصادق من

الريدين وينظر إليه

نظر عجة عن بصيرة

وهم من جنود الله تعالى

فيحسبون بنظرهم

أحوالاً سنية ويهبون

آثاراً مرضية وماذا

ينكر النكر من قدرة

الله أن الله سبحانه وتعالى

كأجعل فى بعض الأفاعى

من الخاصة أنه إذا

نظر إلى إنسان يهلكه

بنظره أن يجعل فى نظر

بعض خواص عباده

أنه إذا نظر إلى طالب

صادق يكسبه حالاً

وحياة وقد كان شيخاً

رحمه الله يطوف فى

مسجد الحيف بمعنى

(لثار الأول الشك في السبب المحلل والمحرّم)

وذلك لا يغلو إما أن يكون متعادلاً أو غلب أحد الاحتمالين فإن تعادل الاحتمالين كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد فلنقسمه على أقسام أربعة . القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل فهذه شبهة يجب اجتنابها ومحرم الإقدام عليها . مثاله : أن يرعى إلى سيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح فهذا حرام لأن الأصل التحريم إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها على هذا ينزل قوله عليه السلام لعدي بن حاتم « لا تأكله فلعله قتله غير كلبك ^(١) » فذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو ^(٢) وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقال له بعض نسائه أرقتي يا رسول الله فقال أجل وجدت تمر غشيت أن تكون من الصدقة ^(٣) » وفي رواية « فأكلتها غشيت أن تكون من الصدقة » ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال « كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع فزنا منزلاً كثير الضباب فبينما القدور تغلي بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه فأكفأنا القدور ^(٤) » ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه لم يمسح الله خلقاً فجعل له نسلاً ^(٥) وكان امتناعه أولاً لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محللاً . القسم الثاني : أن يعرف الحل ويشك في المحرم فالأصل الحل وله الحكم كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر فقال أحدهما إن كان هذا غراباً فامرأتى طالق وقال الآخر إن لم يكن غراباً فامرأتى طالق والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحل لساير الأزواج وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسئلة وأفقى الشعبي بالاجتناب في رجلين كانا قد تنازعا فقال أحدهما للآخر أنت حسود فقال الآخر أحسننا زوجته طالق ثلاثاً فقال الآخر نعم وأشك الأمر وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له إذ ثبت في لياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك وهذا في معناه . فإن قلت وأى مناسبة بين هذا وبين ذلك فأعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به فكيف لا يجوز أن يشربه وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك إلا أن ههنا دققة وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا فيقال الأصل أنه مطلق

(١) حديث لا تأكله فلعله قتله غير كلبك قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه (٢) حديث كان إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه البخاري من حديث أبي هريرة (٣) حديث أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه أرقتي يا رسول الله فقال أجل وجدت تمر غشيت أن تكون من الصدقة أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن (٤) حديث كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع فزنا منزلاً كثير الضباب فبينما القدور تغلي بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه فأكفأنا القدور ابن حبان والبيهقي من حديث عبد الرحمن وحسنه وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف قال البخاري وحديث ثابت أصح (٥) حديث أنه لم يمسح الله خلقاً فجعل له نسلاً مسلم من حديث ابن مسعود .

ويتصفح وجوه الناس قيل له في ذلك فقال لله هباد إذا نظروا إلى شخص أكسبه سعادة فانا أنطلب ذلك ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع للآلوفات والانسلخ من ركون النفس إلى معبود ومعلوم والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الآلاف والخلاف والأهل والأوطان فمن صبر على تلك الآلوفات عتسباً عند الله أجراً فقد حاز فضلاً عظيماً . أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ القدسي عن أبيه قال أنا القاضي أبو منصور محمد بن أحمد الفقيه الأصفهاني . قال أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خريشد قوله قال حدثنا أبو بكر عبد الله ابن محمد بن زياد النيسابوري قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى

ووزان مسئلة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشتهب عنه فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد لأنه قابل يقين النجاسة يقين الطهارة فيبطل الاستصحاب فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجتين قطعا والتبس عين المطلقة بغير المطلقة فتقول اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه فقال قوم يستصحب بغير اجتهاد وقال قوم بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يفي الاجتهاد وقال المقصدون بجهتد وهو الصحيح ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزنب طالق وإن لم يكن فعمرة طالق فلا جرم لا يجوز له غشيانها بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد إذ لا علامة ونحرهما عليه لأنه لو وظئهما كان مقتضاها للحرام قطعا وإن وطئ إحداها وقال أقصر على هذه كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح ففي هذا افترق حكم شخص واحد أو شخصين لأن التحريم على شخص واحد متحقق بخلاف الشخصين إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه . فان قيل فلو كان الإناءان لشخصين فينبغي أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوأسا كل واحد بإنائه لأنه يقين طهارته وقد شك الآن فيه فتقول هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني النع وأن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا بل وضوء الإنسان بما فيه من رفع الحدث كوضوئه بما فيه فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة يدفع بها قوة يقين النجاسة للمقابلة ليقين الطهارة وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه وقد استقصينا في كتب الفقه ولنا قصد الآن إلى التنبيه على قواعدها . القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله فهذا ينظر فيه فان استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذي نختار فيه أنه محل واجتنابه من الورع . مثاله : أن يرمى إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثر سوى سهمه ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر فان ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله في هذا القسم والختار أنه حلال لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه فطريانه مشكوك فيه فلا يدفع اليقين بالشك . فان قيل فقد قال ابن عباس : كل ما أصحمت ودع ما أنميت . وروى عائشة رضي الله عنها « أن رجلا أتى النبي ﷺ بأرنب فقال رميته عرفت فيها سهمي فقال بل أنميت قال إن الليل خاف من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه فلعله أعان على قتله شيء ^(١) » وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في كلبه العلم « وإن أكل فلاناً كل فاني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ^(٢) » والغالب أن الكلب العلم لا يسيء خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه ومع ذلك نهى عنه وهذا التحقيق وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب وتمام السبب بأن يفضى إلى الموت سليما من طريان غيره عليه

(١) حديث عائشة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال رميته عرفت فيها سهمي فقال أصحمت أو أنميت قال بل أنميت قال إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه فلعله أعان على قتله شيء . ليس هذا من حديث عائشة وإنما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصيد فقال إنى رميته من الليل فأعياني ووجدت سهمي فيه من الغد وعرفت سهمي فقال الليل خلق من خلق الله عظيم لعله أعانك عليها شيء . رواه أبو داود في المراسيل والبيهقي وقال أبو رزين اسمه مسعود والحديث مرسل قال البخاري (٣) حديث قال لعدي في كلبه العلم وإن أكل فلاناً كل فاني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه متفق عليه من حديثه .

قال حدثنا بن وهب قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « مات رجل بالمدينة ممن ولد بها فصرى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ليته مات بغير مولده قالوا ولم ذلك يا رسول الله قال إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة » ومن جهة للقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج رغواتها ودعائها لأنها لا تمكث تقيين حقائق ذلك بغير السفر ومضى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق وإذا وقف على داله يتشمر لدوائه وقد يكون أثر السفر في نفس للبتي كآثر النوافل من الصلاة والصوم والتجود وغير ذلك وذلك أن التفتل

وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه . فالجواب أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتزبه بدليل ما روى في بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثرا غير سهمك » (١) وهذا تنبيه على للنهي الذي ذكرناه وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة للظن فيحكم به على الاستصحاب كما يحكم على الاستصحاب بغير الواحد والقياس للظنون والعمومات للظنونة وغيرها . وأما قول القائل إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكاً في السبب فليس كذلك بل السبب قد تحقق إذ الجرح سبب الموت فطريان الغير شك فيه ويدل على صحة هذا الإجماع على أن من جرح وغاب فوجد ميتاً فيجب القصاص على جرحه بل إن لم يصب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في بطنه كما يموت الإنسان فجأة فينبغي أن لا يجب القصاص إلا بجزء الرقبة والجرح للذقة لأن العلل القاتلة في الباطن لا تؤمن ولأجلها يموت فجأة ولا قائل بذلك مع أن القصاص مبناه على الشبهة وكذلك جنين للذقة حلال ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح وغرة الجنين يجب ولعل الروح لم ينفخ فيه أو كان قد مات قبل الجنابة بسبب آخر ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كاذكرناه فكذلك هذا وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » فللشافعي رحمه الله في هذه الصورة قولان والذي نختاره الحكم بالتحريم لأن السبب قد تعارض إذاً الكلب للعلم كالألة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل ولو استرسل للعلم بنفسه فأخذ لم يعمل لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ومنها انبثت بأشارته ثم كل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آله وأنه يسمى في وكراته ونيابته ودل أكله آخراً على أنه أمسك لنفسه لاصحابه فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال والأصل التحريم فيستصحب ولا يزال بالشك وهو كما لو وكل رجلاً بأن يشتري له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله لم يعمل للموكل وطؤها لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعاً ولا دليل مرجح والأصل التحريم فهذا يلتحق بالقسم الأول بالقسم الثالث . القسم الرابع : أن يكون الحل معلوماً ولكن ينطب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يفي له حكم مع غالب الظن . ومثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتقاد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجب منع الوضوء به وكذا إذا قال إن قتل زيد عمراً أو قتل زيد صيداً منفرداً بقتله فامرأتى طالق فجرحه وغاب عنه فوجد ميتاً حرمت زوجته لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في القدران ماء متغيراً احتمل أن يكون تغيره بطول الكسك أو بالنجاسة فيستعمله ولو رأى ظلية يالت فيه ثم وجده متغيراً واحتمل أن يكون بالبول أو بطول الكسك لم يجز استعماله إذ صار البول الشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء فأما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رحمه الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني الشركين ومدمن الخمر والصلاة في القابر النبوشة والصلاة مع طين الشوارع

(١) حديث كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثر سهم غيرك متفق عليه من حديث عدي بن حاتم

صالح سائر إلى الله تعالى
من أوطان الغلات
إلى محل القربات
وللسافر يقطع المسافات
ويتقلب في للفاوز
والقلوات بحسن النية
فه تعالى سائر إلى الله
تعالى بمرامحة الهوى
ومهاجرة ملاذ الدنيا .
أخبرنا شيخنا إجازة
قال أنا عمر بن أحمد قال
أنا أحمد بن محمد بن
خلف قال أنا أبو
عبد الرحمن السلمي
قال سمعت عبد الواحد
ابن بكر يقول سمعت
على بن عبد الرحيم
يقول سمعت النووي
يقول التصوف ترك
كل حظ النفس فإذا
سافر للبتي تاركا
حظ النفس تطمئن
النفس وتلين كاتلين
بدوام النافذة ويكون
لها بالفرد باغ ينهب
عنها الحشونة واليوسه
الجبلية والبفونة
الطبيعية كالجلد يعود
من هيئة الجلود إلى
هيئة الثياب تعود

أعنى المقدار الزائد على ما يتعدى الاحتراز عنه وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الحجر والشركين لأن النجس لا يحمل شربه فإذا ما أخذ النجاسة والحل واحد فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر والذي أختره أن الأصل هو المعتبر وأن العلامة إذا لم تملق بعين التناول لم توجب رفع الأصل وسيأتي بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أوطن وحكم حرام شك في طريان محلل عليه أوطن وبأن الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين مالا يستند إليه وكل ما حكمنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في المراجعة الأولى والاحتياط تركه فالتقدم عليه لا يكون من زمرة التيقن والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقض في قنوى الشرع بنسبهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلاً .

(المثار الثاني للشبهة شك منشؤه الاختلاط)

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشبه الأمر ولا يميز والخلط لا يخلو إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما أو بعدد محصور فإن اختلط بمحصور فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يميز بالإشارة كاختلاط اللائمات أو يكون اختلاط استنبام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعبد والدور والأفراق والذي يختلط بالاستنبام فلا يخلو إما أن يكون مما يقصد عنه كالعروض أو لا يقصد كالنفود فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام . القسم الأول : أن تستبهم العين بعدد محصور كما لو اختلطت البتة بمذكاة أو بمشر مذكيات أو اختلطت رضعة بمشر نسوة أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلبس بهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ولا فرق في هذا بين أن ثبت حل فطرأ اختلاط بمحرم كما لو وقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسألة الطائر أو يختلط قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب وقد نبهنا على وجه الجواب وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب وجانب الخطر أغلب في نظر الشرع فلذلك ترجح وهذا إذا اختلط حلال محصور بمحرم محصور فإن اختلط حلال محصور بمحرم غير محصور فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى . القسم الثاني : حرام محصور بحلال غير محصور كما لو اختلطت رضعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهن وهذا لا يجوز أن يملك بكثرة الحلال إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به بل الملة الغلبة والحاجة جميعاً إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل فإن ذلك حرج ومافى الدين من حرج ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عجن (١) وغل واحد في الغنيمة عباءة (٢) لم يمتنع أحد من شراء الجبان والعباءة في الدنيا وكذلك كل ماسرق وكذلك كان

(١) حديث سرقه الجهن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقاً في عجن قيمته ثلاثة دراهم (٢) حديث غل واحد من الغنائم عباءة البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، واسم الغال كركرة

النفس من طيعة
الطغيان إلى طيعة
الإيمان . ومن جهة
القاصد في السفر رؤية
الآثار والعبر وتسريح
النظر في مسارج الفكر
ومطالعة أجزاء الأرض
والجبال ومواطن
أقدام الرجال واستماع
التسييح من ذرات
الجمادات والقهم من
لسان حال القطع
التجاورات قد تجد
البقطة تجد مستودع
العبر والآيات وتوفر
بمطالعة للشاهد
والواقف الشواهد
والدلالات قال الله تعالى
- سنريهم آياتنا في
الآفاق وفي أنفسهم حتى
يتبين لهم أنه الحق -
وقد كان السري يقول
لصوفية : إذا خرج
النساء ودخل أدبار
وأورقت الأشجار طاب
الاتقار . ومن جهة
القاصد بالسفر لإثارة
الحول وإطراح حظ
القبول فصدق الصافي
يتم على أحسن الحال

يعرف أن في الناس من يرى في الدراهم والدنانير وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالسكية^(١) وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي وهو محال وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضا في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين بل اجتناب هذا من ورع الواسوسين إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار . فان قلت فكل عدد محصور في علم الله فما حد المحصور ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضا إن تمكن منه . فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن وإنما يضبط بالتقريب . فنقول كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لمسر على الناظر عددهم بمجرد النظر كالألف والألفين فهو غير محصور وما سهل كالشرة والعشرين فهو محصور وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن وما وقع الشك فيه استغنى فيه القلب فان الإثم حراز القلوب وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أثوك وأثوك وأثوك^(٢) » وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثار الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والاثبات وأوساط متشابهة فالمتقى يفتى بالظن وعلى المستفتى أن يستفتى قلبه فان حاك في صدره شيء فهو الآثم بينه وبين الله فلا ينجي في الآخرة فتوى المفتي فانه يفتى بالظاهر والله يتولى السرائر . القسم الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر حكم الأموال في زماننا هذا فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور وقد حكمنا ثم بالتحريم فلنحكم هنا به والذي نختاره خلاف ذلك وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بينه احتمال أنه حرام وأنه حلال إلا أن يقترب بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام فان لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله ومن العلامات أن يأخذه من يد سلطان ظالم إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتي ذكرها ويدل عليه الأثر والقياس فأما الأثر فما علم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده إذ كانت أثمان الخمر ودراهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال وكذا غلول الأموال وكذا غلول الغنيمة ومن الوقت الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال « أول ربا أضعه ربا العباس^(٣) » ماترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمر وسائر المعاصي حتى روي أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر فقال عمر رضي الله عنه لعن الله فلانا هو أول من سبغ الخمر إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لنفها وقال صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يجر في النار عبادة قد غلها^(٤) » وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود لا تساوي درهمين قد غلها^(٥) وكذا أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحدهم من شراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهى أصحاب يزيد ثلاثة أيام وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه في الورع والأكثرين لم يمتنعوا

(١) حديث إن في الناس من كان يرى في الدراهم والدنانير وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالدراهم بالسكية هذا معروف وسيأتي حديث جابر بعده بحديث وهو يدل على ذلك (٢) حديث استفت قلبك وإن أثوك وأثوك وأثوك قاله لوابصة تقدم (٣) حديث أول ربا أضعه ربا العباس مسلم من حديث جابر (٤) حديث إن فلانا في النار يجر عبادة قد غلها البخاري من حديث عبد الله بن عمر وتقدم قبله بثلاثة أحاديث (٥) حديث قتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرز من خرز اليهود لا تساوي درهمين قد غلها أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الحنفى .

ويرزق من الخلق حسن الاقبال وقفا يكون صادق متمسك بمرورة الاخلاص ذو قلب عامر لا ويرزق إقبال الخلق حتى سمعت بعض الشايخ يحكى عن بعضهم أنه قال : أريد إقبال الخلق على لا آنى أبلغ نفس حظها من الهوى فاني لا أبالي أقبلوا أو أدبروا . ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال فاذا ابتلى المرء بذلك لا يأمّن نفسه أن تدخل عليه بطريق الرصكون إلى الخلق وربما يفتح عليه باب من الفرق وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب الممودة وتريه فيه وجه للصحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الوجود ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجره إلى السكون إلى الأسباب واستجلاء

مع الاختلاط وكثرة الأموال النبوية في أيام الظلمة ومن أوجب ما لم يوجب السلف الصالح وزعم أنه تفتن من الشرع ما لم يتفطنوا له فهو موسوس غفل العقل ولوجاز أن يزداد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم إن الجدة كالأم في التحريم وابن الإبن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن والربا جار فيما عدا الأشياء الستة وذلك محال فانهم أولى بفهم الشرع من غيرهم . وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات وخرب العالم إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدى ذلك لامحالة إلى الاختلاط . فان قيل فقد تعلقتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضب وقال « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو في اختلاط غير المحصور ؟ قلنا يعمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول . فإن قيل هذا معلوم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقه والنهب وغول الضيعة وغيرها ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال فماذا نقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر مما في أيدي الناس لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فمن أخذ مالا لم يشهد عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا . ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ما ليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أنهم قسبان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر . ومثاله أن الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثيرا وكذا السفر حتى يقال للرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضا بل هو كثير والفقهاء إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر فإذا فهم هذا فتقول قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجنديّة أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكررت من أول الاسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم . أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر فانهم الجنديّة إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشرين فكل سلطان يجمع عليه من الجنود مائة ألف مثلا فيملك إقليبا يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عندها على جميع عسكره ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلا مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصور ذلك بل كفاية الواحد منهم تجمع من ألف من الرعية وزيادة وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل . وأما المستند الثاني وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضا كثيرة وليست بالأكثر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يتعامل بالربا أو غيره فهو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الانسان بوجهه في البلد خصوصا بالهجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيرا فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخفى هو أيضا عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب

قبول الخلق وربما قويا عليه جفرا إلى التصنع والتعمل ويتسع الحرق على الرابع . وصحمت أن بعض الصالحين قال لمريد له أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ولكن يدخل عليك من طريق الخير وهذا مزلة عظيمة للأقدام فانه تعالى يدرك الصادق إذا ابتلى بشئ من ذلك وبزجه بالعبادة السابقة والمعونة اللاحقة إلى السفر فيفارق للعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويشجده لله تعالى بالخروج إلى السفر وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين فهذه جمل المقاصد المطلوبة للشايع في بداياتهم ماعدا الحج والعمرة وزيارة بيت المقدس ، وقد نقل

هذا على النفوس الفاسدة لاستكثار النفوس الفاسدة واستبعادها إياه واستعظامها له وإن كان نادرا حتى ربما يظن أن الزنا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثر وهو خطأ فانهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة . وأما الاستدلال الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد فإذا نظرنا إلى شاة مثلا وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من خمسمائة ولا يغلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غصب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا وكذا بذور الحبوب والقواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلا إلى أول الصرع ولا يكون هذا حلالا ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالا وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهي أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ولا تخرج إلا من دار الضرب وهي في أيدي الظلمة مثل المعادن في أيديهم ينعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصبا فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد ولا ظلم وقت الليل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والجشيش في الصحارى والموات والمفاوز والحطب المباح ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنبات والتوالد فيكون قد بذل حلالا في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلا . والجواب أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذي نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها وقد طرأ سبب غالب يخرجها عن صلاحه فيضاهي هذا محل القولين للشافعي رضي الله عنه في حكم النجاسات والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر وأن الوضوء من أواني الشركين جائز وأن الصلاة في المقابر المبنوثة جائزة فنثبت هذا أولا ثم نقيس ما نحن فيه عليه ويدل على ذلك توضع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضع حجر رضى الله عنه من جرة نصرانية ، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعنا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم ، بل نقول نعلم قطعا أنهم كانوا يلبسون القراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة والطهارة في تلك الثياب محال أو نادر ، بل نقول نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يسلطونه مع أنه يداس بالقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلما يخلص منها ، وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يسلطون ظهورها مع كثرة تمرغها في النجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها ، وكانوا يعيشون حفاة في الطريق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة ، وكانوا لا يعيشون في البول والعذرة ولا يجلسون عليهما ويستترهون منه ، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة السكاب وأبوالها وكثرة الدواب وأرواثها ، ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تفصل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب هيئات فذلك معلوم استحالة بالعادة قطعا فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين ، فأما الظن الغالب الذي يستتار من ردة الهراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه وهذا عند الشافعي رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع .

أن ابن عمر خرج من المدينة قاصدا إلى بيت المقدس وصلى فيه الصلوات الخمس ثم أسرع راجعا إلى المدينة من الغد . ثم إذا من الله على الصادق بإحكام أمور بدايته قلبه في الأسفار ومنحه الحفظ من الاعتبار وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته واستفاد من مجاورة الصالحين وانتش في قلبه فوائد النظر إلى حال للتقين وتطرباطنه باستنشاق عرف معارف القربين وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسير أحوال النفس وأسفر السفر عن دلائل أخلاقها وشهواتها الخفية وسقط عن باطنه نظر الخلق وصار يطلب ولا يطلب كما قال الله تعالى إخبارا عن موسى - ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين - فبعد ذلك

إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضؤون من الحياض وفيها المياه القليلة والأبدى المختلفة تسمى فيها على الدوام وهذا قاطع في هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحقيق حكم الحل بحكم النجاسة . فان قيل لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهورات ويعتزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها . قلنا إن أريد به أنهم صلوا مع النجاسة والصلاة معها معصية وهي عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تسامحوا حيث لم يجب وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب فبان أن الغالب الذي لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس لأن أمر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تضبط عنها وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض فالإقتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذي أجمنا فيه على أن تجري في هذا الاستنداد على الجواب الذي قدمناه في المستدين السابقين ولا نسلم ما ذكره من أن الأكثر هو الحرام لأن المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون في أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض وكما أن الذي يتبدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا يغصب ولا يسرق فهكذا كل مال في كل عصر وفي كل أصل فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول في كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ولنا ندري أن هذا الفرع بعينه من أي القسمين فلانسلم أن الغالب تحريره فانه كإزالة المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لا محالة في كل عصر وزمان أكثر بل الغالب أن الجبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام وليتفهم المترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فانه مزلة قدم وأكثر العلماء يفلطون فيه فكيف العوام هذا في التولدات من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فانها مخلقة مسجلة يأخذها في بلاد الترك وغيرها من شاء ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر ومن حاز من السلاطين معدنا فظلمه بمنع الناس منه فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستنابة في إثبات اليد على المباحات والاستتجار عليها فالاستأجر على الاستئمان إذا حاز المالك دخل في ملك المستقي له واستحق الأجرة فكذلك النيل فاذا فرغنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بتقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظالما ببقاء الأجرة في ذمته وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذي غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ما سلموه إليهم إلا شيئا قليلا يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز وإن فرض دنائير مضروبة من دنائير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة ، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان فما يأخذه السلطان عوض من حشمة وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشر فكيف يكون هو الأكثر فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشمر لتزيينها جماعة ممن رقى دينهم حتى قبحوا الورع وسدوا بابها واستقبحوا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلal . فان قيل فلو قدر

يرده الحق إلى مقامه
وبعد بهزله إنصافه
ويجمله إماما للمؤمنين به
يقبض وعلم للمؤمنين
به يهتدى . وأما الذي
أقام في بدايته وسافر
في نهايته يكون ذلك
شخصا يسر الله له في
بداية أمره محبة صحيحة
وقبض له شيئا عالما
يسلك به الطريق
ويدرجه إلى منازل
التحقيق في لازم موضع
إرادته ويلتزم بصحة
من يرد عنه عادته
وقد كان الشبل يقول
للحضرى في ابتداء
أمره إن خطر يالك
من الجمعة إلى الجمعة غير
الله فحرام عليك أن
تعصرن فمن رزق
مثل هذه الصحة
يعرم عليه السفر
فالصحة خير له من
كل سفر وفضيلة
يقصدها . أخبرنا رضى
الدين أبو الخير أحمد
ابن اسمعيل القزوينى
إجازة قال أنا أبو
الظفر عبد المنعم بن

غلبة الحرام. وقد اختلط غير محصور بغير محصور فإذا تقولون فيه إذا لم يكن في المعين للتناولة علامة خاصة . فنقول الذي نراه أن تركه وريح وأن أخذه ليس بحرام لأن الأصل الحل ولا يرفع الإبلامة معينة كافي طين الشوارع ونظائرها بل أزيد . وأقول : لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق في الدنيا لسكنت أقول نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف وتقول ماجاوز حده انعكس إلى ضده فهما حرم الكل حل الكل ، وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاختلالات خمسة : أحدها أن يقال يدع الناس إلا كل حتى يموتوا من عند آخرهم . الثاني أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمي يزجون عليها أياما إلى الموت . الثالث أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهه وجهة . الرابع أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعد من غير اقتصار على قدر الحاجة . الخامس أن يقتصر مع شروط الشرع على قدر الحاجة أما الأول فلا يغني بطلانه وأما الثاني فباطل قطعاً لأنه إذا اقتصر الناس على سد الرمي وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخرت الدنيا بالسكينة وفي خراب الدنيا خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا لتمامها مصالح الدين وأما الثالث وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالنصب والسرقة والتراضي وكيفما اتفق فهو رفع لسد الشرع بين الفسدين وبين أنواع الفساد فتحت الأيدي بالنصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عاقبته حرام عليه وعلينا وذو اليد قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجا فإننا أيضا محتاجون وإن كان الذي أخذته في حق زائدا على الحاجة فقد سرقته نحن هوزائد على حاجته يومه وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذي يراعى وكيف يضبط وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا بل يؤخذ برضاه والتراضي هو طريق الشرع وإذا لم يحز إلا بالتراضي فللراضي أيضا مناج في الشرع تتعلق به الصالح فإن لم يعتبر فلم يتبين أصل التراضي وتعمل تفصيله . وأما الاحتمال الخامس وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لا نقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لا وجه لا يجابه على الكفاية ولا لإدخاله في فتوى العامة لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لاحق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويبدد على السكل الأموال يوما فيوما أوسنة فسنة وفيه تكليف شطط وتضييع أموال . أما تكليف الشطط فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخفاق بل لا يتصور ذلك أصلا وأما التضييع فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغي أن يلقى في البحر أو يترك حتى يتعفن فإن الذي خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد على قدر توسع الخلق وترفعهم فكيف على قدر حاجتهم ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحجج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة ينط بالتضييع عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح بل أقول لو ورد نبي في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويعهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراضي وسائر الطرق ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالا من غير فرق وأعني بقولي يجب عليه إذا كان النبي ممن بعث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يبعث للصالح لم يجب هذا ونحن نجوز أن يقدر الله سببا يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دينهم ويضلون في دينهم فانه يضل من يشاء ويهتدي من

عبد الكريم بن
هو اذن القشيري عن
والده الأستاذ أبي
القاسم قال سمعت محمد
ابن عبد الله الصوفي
يقول سمعت عياش بن
أبي الصخر يقول سمعت
أبا بكر الزقاق يقول
لا يكون المرید مريدا
حتى لا يكتب عليه
صاحب الشمال شيئا
عشرين سنة فمن رزق
صحة من يتدبه إلى
مثل هذه الأحوال
السنية والعزائم القوية
يحرم عليه المارقة
واختيار السفر ثم إذا
أحكم أمره في الابتداء
بازوم الصحة وحسن
الاقتداء وارتوى من
الأحوال وبلغ مبلغ
الرجال وانجس من
قلبه عيون ماء الحياة
وصارت نفسه مكسبة
للسعادات يستنشق
نفس الرحمن من صدور
الصادقين من الإخوان
في أقطار الأرض
وشاسع البلدان يشرب
إلى التلاق وينبث

يشاء ويعيت من يشاء ويحيى من يشاء ولكننا نقدر الأمر جاريا على ما ألف من سنة الله تعالى في بعثة الأنبياء لصالح الدين والدنيا ومالي أقدر هذا وقد كان ما أقدره فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبداء الأوثان وإلى مصدقين له قدشاع الفسق فيهم كاشاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة والأموال كانت في أيدي الكذابين له وللمصدقين أما للكاذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما الصدقون فكانوا يتعاملون مع أصل التصديق كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما وعفا عنه عما سلف ولم يتعرض له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع ومائتة تحريرة في شرع لا يتقلب حاله لا يعترضه رسول ولا ينقلب حاله بأن يسلم الذي في يده الحرام فانا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ممن خر أموال ربا فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن وأمر العرب كان أشد لعموم النهب والغارة فيهم فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى والاحتمال الخامس هو طريق الورع بل تمام الورع الاقتصار في الباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة ونحن الآن نتكلم في الفقه النوط بمصالح الخلق ونقوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فان ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدينية والصناعات الحسنيات لبطل النظام ثم يبطل يطلانه الملك أيضا فالمحترفون إنما سخروا لينتظم الملك للملوك وكذلك القبول على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لدوى الدين وهو ملك الآخرة ولولا لما سلم لدوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يمرض الأكثر عن طريقهم ويستغلوا بأموال الدنيا وذلك قسمة سبقت بها الشيعة الأتزية وإليه الإشارة بقوله تعالى - نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا - فان قيل لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حال فان ذلك يرواقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى السكل جلى ولكن لا بد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح الرسالة وما ذكرتموه من التقسيمات كلها صالح مرسل فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق فان بعض العلماء لا يقبل المصالح الرسالة . فأقول إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفي بنا برهاننا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصعابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأ أكثر هو الحرام فيجوز التناول أيضا فبرهانه ثلاثة أمور . الأول: التقسيم الذي حصرناه وأبطلناه من أربعة وأثبتنا القسم الخامس فان ذلك إذا أجرى فيما إذا كان السكل حراما كان أخرى فيما إذا كان الحرام هو الأ أكثر والأقل وقول القائل هو مصلحة رسالة هوس فان ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به فانا لا نشك في أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة وليس يظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أولا وللدين بواسطة الدنيا ثانيا فانه لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الحيات الظنونة المتعلقة بأحاد الأشخاص . البرهان الثاني : أن يعلى قياس محرر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأقيسة الجزئية عليه وإلا كانت الجزئيات مستحقة عند المصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى الذي هو ضرورة النبي لو بعث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لحرب العالم والقياس المهر الجزئي هو أنه قد تعارض

إلى الطواف في الآفاق
يسيره الله تعالى في
البلاد لقائدة العباد
ويستخرج بمخاطيس
حاله خب أهل الصدق
والتطلمين إلى من
يغير عن الحق ويذر
في أراض القلوب بذر
الفلاح ويكثر بركة
نفسه وصحبته أهل
الصالح وهذا مثل
هذه الأمة الهادية في
الإنجيل كزريع أخرج
شطاء فأزروه فاستغلظ
فاستوى على سوقه
تعود بركة البعض
على البعض وتسرى
الأحوال من البعض
إلى البعض ويكون
طريق الوراثة معمورا
وعلم الإفادة منشورا .
أخبرنا شيخنا قال أنا
الإمام عبد الجبار البيهقي
في كتابه قال أنا
أبو بكر البيهقي قال
أنا أبو علي الروذباري
قال ثنا أبو بكر بن
داستة قال ثنا أبو داود
قال أنا يحيى بن أيوب
قال ثنا اسماعيل بن

أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات العينة من الأمور التي ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على طين الشوارع وجرة النصرية وأواني الشركين وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة وقولنا انقطعت العلامات العينة احتراز عن الأواني التي تطرق الاجتهاد إليها وقولنا ليست محصورة احتراز عن التباس اللينة والرضية بالذكية والأجنبية . فان قيل كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يسل أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم . فنقول الأمور التي لا تحرم لصلة في عينها حرمة الحر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول للعلامات بالتراضي كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فانها تخرج عن قبول العاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها كما تخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول التجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين . والجواب الثاني أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضا قوله إقامة ليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة . البرهان الثالث : هو أن كل ما دل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعاً بأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى وبأنه أن ما علم أنه ملك زيد فحقه من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالكا في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصد لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة ولو دل على أن له مالكا محصورا في عشرة مثلاً أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالذي يشك في أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا لا يزيد على الذي يتيقن قطعاً أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة فيكون هذا الأصل شاهدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكة بصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير ليس ذلك إلا لحكمنا بأن المصلحة تقتضي أن ينتقل الملك إليه ويحل له قضيتها بموجب المصلحة . فان قيل ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان . فنقول والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لاسبابه إلا المصلحة وهو أنه لو ترك لضاع فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من التضييع فرجع عليه والمصلحة فيما يشك فيه ولا يلزم تحريمه أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي إذا تزعاعها بالشك وتسكينهم الاقتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه وجهات المصلحة تختلف فان السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبنى بذلك المال قنطرة وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذ في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كالم يؤخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بفسهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلا النظر في امتزاج المائعات والدرهم والعروض في يد مالك واحد وسأيت بياناً في باب تفصيل طريق الخروج من الظالم .

(النار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل معصية)

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عومته وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل . مثال المعصية في القرائن : البيع في وقت النداء يوم الجمعة والبيع بالسكين

جفر قال أخبرني العلماء
ابن عبد الرحمن عن
أبيه عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « من دعا إلى هدى
كان له من الأجر مثل
أجور من اتبعه
لا ينقص ذلك من
أجورهم شيئا ومن دعا
إلى ضلالة كان عليه
من الإنم مثل آثام
من اتبعه لا ينقص
ذلك من آثامهم شيئا »
فأما من أقام ولم يسافر
يكون ذلك شخصاً ربا
الحق سبحانه وتعالى
وتولاه وفتح عليه
أبواب الخير وجذبه
بصائته . وقد ورد
جذب من جذبات الحق
توازي عمل الثقلين
ثم لما علم منه الصدق
ورأى حاجته إلى من
ينتفع به ساق إليه
بعض الصديقين حتى
أيده بلطفه ولطفه
وتداركه بلطفه ولطفه
بقوة خاله وكفاه
يسير الصعبة لكمال

للمعصية والاحتطاب بالتقدم للنصوب والبيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل من يورد في العقود ولم يدل على فساد العقدان الامتناع من جميع ذلك وبيع وإن لم يكن الاستفادة هذه الأساليب محكوماً بتجريمه وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسمع لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه هنا بل العيان بالبيع بسكين الغير معلوم وحل الديعة أيضاً معلوم ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالشبهة هذا فقسمة هذا شبهة له وجه وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسامي فساد الفقهاء القسام في الاطلاقات. ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تنهى إلى نوع من البالغة تكاد تلتحق بورع للموسسين وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين فالكراهة في صيد كلب منصوب أشد منها في الديعة بسكين منصوب أو للقتنص بسهم منصوب إذ الكلب له اختيار وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصيد ولبه شبهة البذر وللزروع في الأرض للمعصية فإن الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالتفن الحرام ولكن الأقيس أن لا يثبت حق حبس كما لو طعن بطاحونة منصوبة واقتنص بشبكة منصوبة إذ لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منعها بالصيد ولبه الاحتطاب بالتقدم للنصوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المنصوب إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الديعة ولبه البيع في وقت النداء فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ولو أفسد البيع بثلثه لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور أو في ذمته مظلمة دانت فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء وينجر ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من في ذمته درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهى على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحذر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتخرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر ممالاتهم . وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة فردّه خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية البالغة أنه رد بالشك ومثل هذا الوهم في تقدير الناهي أو للفسادات لا يتقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم فقد قال عليه السلام « هلك المتطعمون »^(١) فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم سجد عما هو أيسر منه فترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زلماتها هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأبوا عن القيام به فاطرحوه فكأن الموسوس في الطهارة قد يهجر عن الطهارة فيتركها فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال . وأما مثال الواحق : فهو كل تصرف يفضي في سياقه إلى معصية وأغلاء بيع العنب من الحمار وبيع الغلام من العروف بالفجور بالغلمان وبيع السيف من قطاع الطريق وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص ببقده كما يصح بالذبح بالسكين المنصوب والديعة حلال ولكنه يصح عيان الإغاة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بين العقد المأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من نورع المهم وليس بحرام ولبه في الرتبة بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خمارا وبيع السيف ممن يضرب ويظلم أيضاً

(١) حديث هلك المتطعمون مسلم من حديث ابن مسعود وتقدم في قواعد العقائد .

الأهلية في صاحب
والصحب وإجراء
سنة الله تعالى في إعطاء
الأسباب حقها الإقامة
رسم الحكمة يحوج
إلى سير الصحة فيتنبه
بالتقيل للكثير وينبه
اليسير من الصحة عن
الاحتطاب الكبير ويكتفي
بواقر حظ الاستبصار
عن الأسفار ويتعرض
بأشعة الأنوار عن
مطالعة الغير والآثار
كما قال بعضهم الناس
يقولون اتحوا
أعينكم وأبصروا وأنا
أقول غمضوا أعينكم
وأبصروا . وصحت
بعض الصالحين يقول
لله عباد طور سيناء
ركبهم تكون رءوسهم
على ركبهم وهم
في عز القرب فمن
ينبع له معين
الحياة في ظلمة خلوته
فماذا يصنع بدخوله
الظلمات ومن اندرج
له أطباق السموات
في طي شهبه ماذا
يصنع بتقلب طرفه في

لأن الاحتمال قد تعارض وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة خفية أن يشتريه ظاهراً فهذا ورع فوق الأول والكرهية فيه أخف ويليها ما هو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لا تجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث لأنهم يستعينون بها على الحرثة ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يبيع منهم البقر والغدان والآلات الحرث وهذا ورع الوسوسة إذ ينجر إلى أن لا يبيع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحرثة ولا يسقى من الماء العام لذلك وينتهي هذا إلى حد التنطع للنهي عنه وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لا بد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ولهذا قال عليه السلام «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمهاني» ^(١) والتنتطعون هم الذين يغشون عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم - الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وبالمجمل لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذ جاوز ما رسم له وتصرف بذهنه من غير ممانع كان ما يفعله أكثر مما يصلحه وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يبيع العنب ممن يتخذة سخراً وهذا لا أعرف له وجهاً إن لم يعرف هو سبباً خاصاً يوجب الإحراق إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة ولو جاز هذا لجاز قطع الله كرم خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإلتفات . وأما القدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات . الدرجة العليا التي تشتد الكراهة فيها : ما بقي أثره في التناول كالأكل من شاة علفت بعلف منسوب أو رعت في مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمه والحمى وأجزائها من ذلك العلف وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجباً وتقل ذلك عن جماعة من السلف وكان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبتها كل يوم إلى الصحراء ويرطها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها ففعل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها . فإن قيل فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلاً فبعثاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سمحت فقال عمر رضي الله عنه أرعيتها في الحمى فقالا نعم فشاطرها فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريمها . قلنا ليس كذلك فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعاً ولكن عمر غرمها قبيحة الكلاء ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة وكذلك شاطر أباه ريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهداً . الرتبة الوسطى : ما نقل عن بشر بن الحرث من امتناعه عن الماء الساقي في نهر اجتفره الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصى الله بحفره وامتنع آخر عن عنب كرم يسقي بماء يجري في نهر حفر ظملاً وهو أرفع منه وأبلغ في الورع وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق وأعلى من ذلك امتناع ذي النون من طعام حلال أوصل إليه على يد سجان وقوله إنه جاءني على يد ظالم ودرجات هذه الرتبة لا تنحصر . الرتبة الثالثة : وهي قريب من الوسواس والمبالغة أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف وليس هو كالأوصى بأكل الحرام فإن الوصول قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس بخلاف أكل الحرام إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بنية أو كذبة وهو غاية التنطع والإسراف فليضبط ما عرف من ورع ذي النون وبشر بالمعصية في السبب

السموات ومن جمعت أحقاد بصيرته متفرقات الكائنات ماذا يستفيد من طي الفلوات ومن خلص بخاصية فطرته إلى جمع الأرواح ماذا تفيد زيادة الأشباح . قيل أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلاً وقال قل له إلى متى هذا النوم والراحة وقد صارت القافلة فقال للرسول قل لأخي الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة فقال ذو النون هنيئاً له هذا كلام لا تبلغه أحوالنا . وكان بشر يقول يا ميسر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا كثرت بكته في موضع تغير وقيل قال بعضهم عند هذا الكلام صر بحراً حتى لا تغير فإذا أدام الريد سير الباطن يقطع مسافة النفس الأمارة بالسوء حتى قطع منازل آفاتهما

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمهاني تقدم في العلم .

الموصل كالنهر وقوة اليد الاستفادة بالعداء الحرام ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذي عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواسا ولو امتنع من لحم شاة ساقها آكل حرام فهذا أبعد من يد السجان لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تسمى بنفسها والسائق بمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس فانظر كيف تدرجنا في بيان ما تدعى إليه هذه الأمور . واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ما عده من ورع المتقين والصالحين والفتوى في هذا ما قاله عليه السلام لو ابصرت إزدقال « استفت قلبك وإن أتوك وأتوك وأتوك » وعرف ذلك إذ قال « الإثم حزاز القلوب ^(١) » وكل ما حاك في صدر المرء من هذه الأسباب فلوا قدم عليه مع حزازة القلب استضر به وأظلم قلبه بقدر الحزازة التي يجدها بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة في قلبه فذلك يضره وإنما الذي ذكرناه في النسي عن البالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما في حقه وإن كان محططا في نفسه أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم ولذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة ولواخذوا أولا بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك فلا تفعل عن هذه الدقائق التي رددناها نفيا وإثباتا فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجامعه يوشك أن يزل في درك مقاصده . وأما للمصية في العوض فله أيضا درجات . الدرجة العليا : التي تشتد الكراهة فيها أن يشتري شيئا في الذمة ويقضى ثمنه من غضب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعني قبل قضاء الثمن ولا هو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ولو لم يقضه أصلا لكان متقلدا للمظلمة بترك ذمته مرتبة بالدين ولا ينقلب ذلك حراما فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام قد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه في الدرام الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه بما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإبراء هذا حكم المشتري والإكل منه وحكم الذمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده لأن الذي تومي الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كاتمين ملك المشتري وإنما يطل حق حبسه إما بالإبراء أو الاستيفاء ولم يجزئ شيئا منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتهن وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه فأما إذا أوفى الثمن الحرام أولا ثم قبض فإن كان البائع عالما بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض البائع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته إذا أخذه ليس بشئ ولا يصير أكل البائع حراما بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكان بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض البائع فعق حبسه لا يطل بهذا التأسيس فأكله حرام محرم أكله الرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال

(١) حديث الإثم حزاز القلوب تقدم في العلم .

وبدل أخلاقها
للذمومة بالهمودة
وعائق الإقبال على
الله تعالى بالصدق
والإخلاص اجتمع له
المنفقات واستفاد في
حضرة أكثر من سفره
لكون السفر لا يخلو
من متاع وكلف
ومشوشات وطوارق
ونوازل يتجدد الضعف
عن سياستها بالعلم
للضعفاء ولا يقدر على
تسليط العلم على
متجددات السفر
وطواره إلا الأقوياء
قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه للذي
زكى عنده رجلا : هل
صحبته في السفر الذي
يستدل به على مكارم
الأخلاق قال لا قال
ما أراك تعرفه فإذا
حفظ الله عبده في بداية
أمره من تشويش
السفر ومتمعه بجمع العلم
وحسن الإقبال في
الحضر وساق إليه من
الرجال من اكتسب
به صلاح الحال قد

أورضى هو بالحرام ويرى فيصح إيراؤه ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه ويان الحكم في الدرجة الأولى من الحل والحرمه فأما الامتناع عنه فمن الورع المأمور لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشدد الكراهية فيه كما سبق وأنقوى الأسباب للوصلة الثمن ولولا الثمن الحرام لما رضى البائع بتسليمه إليه فرضاء لا يخرج عنه كونه مكروها كراهية شديدة ولكن العدالة لا تخبر به وتزول به درجة التقوى والورع ولو اشترى سلطان مثلاً ثوباً أو أرضاً في الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى قتيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخلف إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقتله في مال ذلك السلطان وما يغلب على الظن فيه وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما يتفقد في القلب . الرتبة الوسطى : أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتبرأ للمعصية كالمسلم عوضاً عن الثمن عنباً والأخذ شارب الحمر أوسيفاً وهو قاطع طريق فهذا لا يوجب تحريراً في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب وتفاوت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة للمعصية على قابض الثمن وندوره ومهما كان العوض حراماً قبله حرام وإن احتمل تحريره ولكن أيسر بظن قبله مكروه وعليه ينزل عندى النهى عن كسب الحجام وكراهته (١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يلفف الناضح (٢) وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد إذ يجب طرده في الدباغ والكناس ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو يدل عن اللحم واللحم في نفسه غير مكروه وغامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطنه ولكن السبب أن في الحجامه والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجاً لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحسب واجتهاد وربما يظن نافعا ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحسب ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعيد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طيب ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجره للحجام (٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى وهذا كان ينبغي أن نذكره في القرائن والقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه . الرتبة السفلى : وهي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة وروى عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة لا يجوز واستشهد بأن النبي ﷺ قال «لئن الله اليهود حرمت عليهم الخمر فباعوها وأكلوا أموالها» (٤) وهذا غلط

أحسن إليه . قيل في تفسير قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب - هو الرجل للقطع إلى الله يشكل عليه شيء من أمر الدين فيعت الله إليه من محل إشكاله فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رزق وهو في القام من غير سفر ثمزات النهاية فيستقر في الحضراتها وابتداه وأقيم في هذا القام جمع من الصالحين وأما الذي أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك يقول بعضهم اجتهد أن تكون كل ليلة صيف مسجوداً لا تموت إلا بين منزلين . وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله فكان علم الناس

(١) حديث النهى عن كسب الحجام وكراهته ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصاري والنسائي من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام وللبخاري من حديث أبي جحيفة نهى عن غن الدم ولمسلم من حديث رافع بن خديج كسب الحجام خبيث (٢) حديث نهى عنه مرات ثم أمر بأن يلفف الناضح أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محبسة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في إجارة الحجام فنهأ عنها فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال ألعفه ناضحك وأطعمه رقيقك وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال ألا أطعمه أيتاما لي قال لا قال أفلا أتصدق به قال لا فرخص له أن يلففه ناضحه (٣) حديث أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجره الحجام متفق عليه من حديث ابن عباس (٤) حديث المغيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لئن اليهود إذ حرمت عليهم الخمر فباعوها لم أجدهم هكذا والمعروف أن ذلك في الشحوم ففي الصحيحين من حديث جابر قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جعله ثم باعوه فأكلوا ثمنه .

لأن بيع الخمر باطل إلا لم يبق للخمر منفعة في الشرع وثمن البيع الباطل حرام وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدريج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد ولكن المقصود من التعديد التقريب والتفهم . فان قيل فقد قال صلى الله عليه وسلم «من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه» (١) ثم أدخل ابن عمر أصبعه في أذنيه وقال صمنا إن لم أكن سمعته منه . قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة وإذا اشترى في الذمة فقد حكمنا بالتحريم في أكثر الصور فيحمل عليها ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالشترى في وقت النداء وغيره .

(المثار الرابع الاختلاف في الأدلة)

فان ذلك كالاختلاف في السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة فهو سبب في حق المعرفة ومالم يثبت في معرفة الفسر فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه في علم الله وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض الصلوات الدالة أو لتعارض التشابه . القسم الأول : أن تعارض أدلة الشرع مثل تعارض عموميين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل للمعلوم قبله إن لم يكن ترجيح فإن ظهر ترجيح في جانب الحذر وجب الأخذ به وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه واتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق الملقى والمقلد وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن وإن كان لا يحسن الطب وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أو سببها عليه بل عليه أن يبحث حتى يلقب على طئه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلا ، نعم إن أفتى له إمامه بشيء وإمامه فيه مخالف فالقرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحسب وتخمين وظن فالورع له الاجتناب فلقد كان للفتون يفتون بعمل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعا منها وحذرا من الشبهة فيها فلنقسم هذا أيضا على ثلاث مراتب . الرتبة الأولى : ما تأكد الاستصحاب في التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه فمن المهمات التورع عن فريسة الكلب المعلم إذا أكل منها وإن أفتى الملقى بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أقيس قولي الشافعي رحمه الله ومهما وجد للشافعي قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما وإن أفتى الملقى بالقول الآخر ومن ذلك الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الآية ظاهرة في إيجابها والأخبار متواترة فيه فانه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت عليه اسم الله فكل » (٢) ونقل ذلك على التكرار وقد شهر الذبح بالبسملة (٣) وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط

(١) حديث من اشترى ثوبا بعشرة دراهم الحديث تقدم في الباب قبله (٢) حديث إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل متفق عليه من حديث عدى بن حاتم ومن حديث أبي ثعلبة الخفسي (٣) حديث التسمية على الذبح متفق عليه من حديث رافع بن خديج ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ليس السن والظفر .

ومعرقهم إياه براه سببا ومعلوما . وحكى عنه أنه قال مكثت في البادية أحد عشر يوما لم آكل وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر فرأيت الحذر مقبلا نحوى فهربت منه ثم التفت فإذا هو رجع عنى قليل لم هربت منه قال تشوقت نفسي أن يغيبني فهو لاء الفرارون بدينهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر ابن الحافظ أبي الفضل القدسي عن أبيه قال أنا أبو بكر أحمد بن علي قال أنا أبو عبد الله بن يوسف بن ناموية قال ثنا أبو محمد الزهري القاضي قال ثنا محمد بن عبد الله بن أسباط قال ثنا أبو نعيم قال ثنا محمود يعني ابن مسلم عن عثمان ابن عبد الله بن أوس عن سليمان بن هرمز عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أحب شيء إلى الله القرباء »

ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم «أؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمى ولم يسم» (١) واحتمل أن يكون هذا عاما موجبا لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ويحتمل أن يخص هذا بالناس ويترك الظواهر ولا تأويل وكان حمله على الناس ممكنا تمهيدا لعنده في ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكانا أقرب رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى . الثانية : وهي مزاحمة لدرجة الوسواس أن يتورع الانسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان الذبوح وعن الضب وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين إن ذكاته ذكاة أمه (٢) صحة لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وقد قل ذلك في الصحيحين وأظن أن أباحيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغت لقال بها إن أنصف وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطا لا يعتد به ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد . الرتبة الثالثة : أن لا يشتر في المسئلة خلاف أصلا ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس في خبر الواحد فمنهم من لا يقبله فأنا أتورع فان النقلة وإن كانوا عدولا فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم لأن العدل أيضا قد يكذب والوهم جائز عليه فانه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعون من عدل تسكن نفوسهم إليه وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فالتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلا . وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتد به وهو تكلاف النظام في أصل الإجماع وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الانسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبنين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز إذ خالف النظام فيه وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بمعومات القرآن إذ من التسكمين من ذهب إلى أن العمومات لاصيغة لها وإنما يحتاج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس فاذن لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليفهم ذلك ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريه إلى ما لا يريه وليترك خزاز القلوب وحكايات الصدور وذلك يختلف

(١) حديث المؤمن يذبح على اسم الله سمى أو لم يسم قال المصنف إنه صح . قلت لا يعرف بهذا اللفظ فضلا عن محته ولأبي داود في الراسيل من رواية الصلت مرفوعا ذبيحة للسلم خلال ذكر اسم الله أو لم يذكر ولاطبراني في الأوسط والدارقطني وابن عدى والبيهقي من حديث أبي هريرة قال رجل يارسل الله الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى الله فقال اسم الله على كل مسلم قال ابن عدى منكر والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس للسلم يكفيه اسمه فإن نسي أن يسمى حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل كل فيه محمد بن سنان ضعفه الجمهور (٢) حديث ذكاة الجنين ذكاة أمه قال المصنف إنه صح لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده وأخذ هذا من إمام الحرمين فانه كذا قال في الأساليب والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الاسناد وليس كذلك للطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد وقال عبد الحق لا يحتج بأسانيدنا كلها (٣) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المصنف هو في الصحيحين وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد .

قبل ومن الغريب ؟ قال
الفرارون بدينهم
يجمعون إلى عيسى
ابن مريم يوم القيامة
وهذه كلها أحوال
اختلفت واتبع أربابها
الصحة وحسن النية
مع الله وحسن النية
يقتضى الصدق
والصدق لعينه محمود
كيف تقلبت الأحوال
فمن سافر ينبغي أن
يفقد حاله ويصح
نيتة ولا يقدر على
تخليص النية من
شوائب النفس إلا
كثير العلم تام التقوى
وافر الحظ من الزهد
في الدنيا ومن انطوى
على هوى كامن ولم
يستقم في الزهد
لا يقدر على تصحيح
النية فقد يدعوه إلى
السفر نشاط جبل
قصاني وهو يظن أن
ذلك داعية الحق ولا
يميز بين داعية الحق
وداعية النفس
ويحتاج الشخص في
علم صحة النية إلى العلم

بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوى على حرازة في مظان الوسواس ولا يغلو عن الحرازة في مظان الكراهة وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله (١) . القسم الثاني : تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة فانه قد يهيب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير التهيب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير التهيب على أنه حرام فيتعارض الأمران وكذلك يغير عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ فإن ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف وسأني تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال . القسم الثالث : تعارض الأشياء في الصفات التي تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها فالمفتي يفتي بحسب الظن والورع الاجتناب وهذا أغمض ماثرات الشبهة فإن فيها صوراً يتغير للمفتي فيها تحييراً لازماً لاحيلة له فيه إذ يكون للتصنيف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين للتقابلتين لا يظهر لانه يميل إلى أحدهما وكذلك الصدقات الصروقة إلى المحتاجين فإن من لا شيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدى بينهما مسائل غامضة كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ويتعدى منه النظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لا من الخرف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتها وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين وشئ من ذلك لا خد له والوجه في هذا ما قاله عليه السلام « دع ما يريك إلى ما لا يريك » (٢) وكل ذلك في عمل الرب وإن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وإن أفق المفتي بظن وتخمين فالورع التوقف وهو أهم مواقع الورع وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد ويبيها أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها فما دون الرطل المكي في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حد فليدع الورع ما يريه إلى ما لا يريه وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب إذا العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا مضمّنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة فانه لا يحتمل مادونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقديرات فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في كتاب الله وستة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ويتطرق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف فالوقوف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفية على الخصوص

(١) حديث لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه وإنما قال ذلك لوابصة وتقدم حديث وابصة وروى الطبراني من حديث وائلة أنه قال ذلك لوائلة أيضاً وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول .

(٢) حديث دع ما يريك إلى ما لا يريك تقدم في الباب قبله .

بمعرفة الخواطر وشرح
الخواطر وعليها يحتاج
إلى باب مفرد لنفسه
ونومى الآن إلى ذلك
يرمز يدركه من نازله
شئ من ذلك فأكثر
الفقراء من علم ذلك
ومعرفته على بعد .
اعلم أن ما ذكرناه من
نشاط النفس واقع
للفقير في كثير من
الأمر قد يجد الفقير
الروح بالخروج إلى
بعض الصحارى
والبساتين ويكون
ذلك الروح مضراً به
في ثانی الحال وإن كان
يتراءى له طيبة القلب
في الوقت وسبب طيبة
قلبه في الوقت أن النفس
تفسح وتتسع يلوغ
غرضها وتيسر يسر
هواها بالخروج إلى
الصحراء والتزه وإذا
انست بعدت عن
القلب وتحت عنه
متشوفة إلى متعلق
هواها فيترجح القلب
للاصحراء بل يعدد
النفس منه كشخص

ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلا مطمع في استيفائها فهذه اشتباهات تشور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يرجع جانباً لحل بدلالة قلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم «دع ما يريك إلى ما لا يريك» وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها فهذه منارات الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ مثل أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبايع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشر حصرها فما انضح من هذا الشرح أخذه وما التبس فليجتنب فإن الإثم حراز القلب وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح الفتى أمأحيث حرمه فيجب الامتناع ثم لا يبول على كل قلب قرب موسوس ينفر عن كل شيء ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق الراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فمن لم يثق بقلب نفسه فليتمسك بالنور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقته ، وجاء في الزبور : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام قل لبي إسرائيل إني لأنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجل ذلك الذي أنظر إليه وأؤيده بنصري وأباهي به ملائكتي .

(الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ومظانها)

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تنهب فليس لك أن تفتش عنه وتساءل وتقول هذا مما لا تحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضاً أن تترك البحث فأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريية ومنشأ الريية ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

(البار الأول أحوال المالك)

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال إما أن يكون مجهولاً أو مشكوكاً فيه أو معلوماً بنوع ظن يستد إلى دلالة . الحالة الأولى : أن يكون مجهولاً والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فسادته وظلمه كزى الأجناد ولا ما يدل على صلاحه ككتاب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات فإذا دخلت قرية لا تعرفها قرأت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مرياً أو خائناً ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدري وبين ما يشك فيه وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يدري . قال يوسف بن أسباط منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة في أشق الأعمال فقالوا هو الورع فقالوا لهم حسان بن أبي سنان ما شيء عندي أسهل من الورع إذا حاك في صدري شيء تركته فهذا شرط الورع وإنما ذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاماً أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلماً دلائل كافيتان

(الباب الثالث : في البحث والسؤال)

تباعده عنه قرين يستقله ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته واستفتح ديوان معاملته وميز دستور حاله يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لثبوتها وكما ازداد ثقلها تكدر القلب وسبب زيادة ثقلها استرسالها في تناول هواها فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء ويظن الفقير أنه ترويح ودواء فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباناً وخفت ولطفت وصارت قريناً صالحاً للقلب لا يستقلها وعلى هذا يماس التروح بالأسفار فللنفس وثبات إلى توهم التروحات فمن فطن لهذه الدققة لا يتر بالتروحات للمستعارة التي لا تحمد عاقبتها ولا تؤمن غائلتها ويثبت عند ظمور خاطر السفر ولا يكثر بالخاطر بل يطرحه بعدم الالتفات

في الهجوم على أخذه ، وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا السلم بينه وإن بعض الظن إثم وهذا السلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تنسى الظن به فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فسادا من غيره قد جنبت عليه وأثبت به في الحال قدما من غير شك ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضی الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يعمرزون من الأسواق وكان الحرام أيضا موجودا في زمانهم وماتل عنهم سؤال إلا عن ربة إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه بل سأل في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية (١) لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين للمدينة وهم قراء فقلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم إسلام للعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة ، وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا (٢) إذ العادة ماجرت بالتصدق بالضيافة ، ولذلك دعت أم سليم (٣) ودعا الحياض (٤) كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدم إليه طعاما فيه قرع ، ودعا الرجل الفارسي فقال عليه الصلاة والسلام وأنا وعائشة فقال لا قال فلا ثم أجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساقطان قريبا إليهما إهالة (٥) ولم ينقل السؤال في شيء من ذلك ، وسأل أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رآه من أمره ، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاء من لبن إبل الصدقة إذ رآه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة وهذه أسباب الرتبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بأجابته من غير تفتيش بل لو رأى في داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عز و هذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وأزيد على هذا وأقول ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدرى من أين هو فهو حسن فليتلطف في الترك وإن كان لا بد له من أكله فليأكل كل بغير سؤال إذ الـؤال إيذاء وهتك ستر وإعماش وهو حرام بلا شك . فان قلت لله لا يتأذى فأقول لله لا يتأذى فأنت تسأل حذرا من لعل فان قمت فقلع ماله حلال وليس الائم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الائم في أكل الشبهة والحرام والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء في ذلك أكثر وإن سأل من حيث لا يدرى هو فقيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه نجس وفيه تشبث بالقبية وإن لم يكن ذلك صريحا وكل ذلك منهي عنه في آية واحدة قال الله تعالى - اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا - وكم زاهد جاهل يوحش القلوب بالتفتيش ويتكلم الكلام الحسن المؤذى وإعما يحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشهرة بأكل الحلال ولو كان باعته محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى

(١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد من حديث سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام فسأله عنه أصدقة أم هدية الحديث تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة (٢) حديث كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا هذا معروف مشهور من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري في صنع أبي شعيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا خامس خمسة . (٣) حديث دعت أم سليم متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث أنس أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم إليه طعاما فيه قرع متفق عليه (٥) حديث دعا الرجل الفارسي فقال أنا وعائشة الحديث مسلم عن أنس .

مسيئا ظنه بالنفس
وتسوياتها ومن هذا
القبيل والله أعلم قول
رسول الله صلى الله
عليه وسلم «إن الشمس
تطلع من بين قرني
الشیطان» فيكون
للنفس عند طلوع
الشمس وثبات تستند
تلك الوثبات والتهنئات
من النفس إلى المزاج
والطبائع ويطول
شرح ذلك ويعمق
ومن ذلك القبيل خفة
مرض المريض غدوة
بخلاف العشيات
فيتشكل اهتزاز النفس
بنمضات القلب ويدخل
على الفقير من هذا
القبيل آفات كثيرة
يدخل في مداخل
باهتزاز نفسه ظنانه
أن ذلك حكم نهوض
قلبه وربما يترأى له
أنه بالله يصول وبالله
يقول وبالله يتحرك
قد ابتلى بنهضة النفس
ووثوبها ولا يقع هنا
الاشتباه إلا لأرباب
القلوب وأرباب الأحوال

أشده من خوفه على يظنه أن يدخله ما لا يدري وهو غير مؤاخذ بما لا يدري إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم أن طريق الورع التردد دون التجسس وإذا لم يكن بد من الأكل فالورع ألا كل وإحسان الظن هذا هو للألوف من الصحابة رضي الله عنهم ومن زاد عليهم في الورع وهو ضال مبتدع وليس بمنجس فلن يبلغ أحدهم أحدهم ولا نصيفه ولو اتفق ما في الأرض جميعا كيف هـ وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة فقيل إنه صدقة فقال هو لها صدقة ولنا هدية^(١) ولم يسأل على التصديق عليها فكان للتصديق مجهولا عنده ولم ينتج . الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أوردت رية فلنذكر صورة رية ثم حكمها . أما صورة الرية فهو أن تطعمه على تحریم ما في يده دلالة إيمان خلقته أو من زيه وثيابه أو من فمه وقوله . أما الخلقة فبأن يكون على خلقة الآثراك والبوادي والمروفين بالظلم وقطع الطريق وأن يكون طويل الشارب وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على طاب أهل القصاد ، وأما الثياب فالقباء والقلنسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم ، وأما الفعل والقول فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضا في المال ويأخذ ما لا يحل فله مواضع الرية فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئا أو يأخذ منه هدية أو يجنيه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات فيحتمل أن يقال البدن على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قال بها مثل هذه الدلالة فأوردت رية فلهجوم غير جائز وهو الذي نختاره ونفق به لقوله صلى الله عليه وسلم «دع ما يريك إلى ما لا يريك^(٢)» فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم «الإثم حراز القلوب^(٣)» وهذا له وقع في القلب لا يشكر ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أصدقاءه هو أو هدية وسأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه وسأل عمر رضي الله عنه وكل ذلك كان في موضع الرية وحمله على الورع وإن كان ممكنا ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكيم والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أوردت رية فإذا تخالفا فلا استحلال لاستند له وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا للاء متغيرا واحتمل أن يكون بطول للكث فإن رأينا ظلية بالث فيه ثم احتمل التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فإن طول الشوارب وليس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال أما القول والفعل الخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كالمصحة بأمر بالنصب والظلم أو بقد عقد الربا فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو أتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة فكم من إنسان يتخرج في طلب المال ولا يكتب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بعد فليستفت العبد في مثل ذلك قلبه . وأقول إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم وإن رآه ممن عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذا تعارضت الدلائل بالاضافة إلى المال وتساقتنا وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدلائل تناسب للمال على الخصوص فكم من متخرج في المال لا يتخرج في غيره وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد الحكم في هذه المواضع ما يعيل إليه القلب فإن هذا أمر بين المبدوين الله فلا يبعد أن يناط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب وهو حكم حراز القلب ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون

وغير أو يلب القلب والحال من هذا بمزول وهذه مزية قدم غنصة بالحواص دون العوام فاعلم ذلك أنه عزيز على وأقل مراتب الفقراء في مبادئ الحركة للفر للتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة وصلاة الاستخار لا يحمل وإن تبين للفقير صحة خاطره أو تبين له وجه للصلحة في السفر يمان أوضح من الخاطر فلقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ففي ذلك كله لا يحمل صلاة الاستخارة اتباعا لسنة في ذلك البركة وهو من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمامه قال أنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه أن أبا سعيد الكنجرودي أخبرهم

(١) حديث أكله طعام بريرة فقيل إنها صدقة فقال هو لها صدقة ولنا هدية متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث دع ما يريك تقدم في البابين قبله (٣) حديث الإثم حراز القلوب تقدم في العلم .

جنديا أو عامل سلطان أو ناعمة أو مغنية فإن دل على أن في ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا بل كان السؤال من الورع . الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظنا في حلل المال أو تحريمه مثل أن يعرف صلاح الرجل ودياته وعدالته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فهنا لا يجب السؤال ولا يجوز كافي المجهول فالأولى الإقدام والإقدام هنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل كل الإطعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » (١) فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغنى أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والنياب فهنا السؤال واجب لاحتمال كافي موضع الريبة بل أولى .

(للثالث الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المال)

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح في سوق أحمال من طعام غصب واشتراها أهل السوق فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام فذلك يجب السؤال فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب والسوق الكبير حكمه حكم بلد والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها وكانوا لا يسألون في كل عقد وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادرا في بعض الأحوال وهي محال الريبة في حق ذلك الشخص المعين وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه فجاءا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذريجان إنكم في بلاد تدبج فيها البيعة فانظروا ذكاه من ميتة أذن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي آتمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن آتمان الجلود وإن كانت هي أيضا تباع وأكثر الجلود كان كذلك وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه إنكم في بلاد أكثر قصايها الجوس فانظروا الذكي من الميتة فخص بالأكثر الأمر بالسؤال ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلنفرضها [مسئلة] شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام مخصوب أو مال منسوب ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدار على سلطان ظالمه أيضا مال موروث ودهقنة أو تجارة أو رجل تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويرى أيضا فإن كان الأكثر من ماله حراما لا يجوز أكل كل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبها فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبين إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بشعر ميتات مثلا وجب اجتناب الشكل وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لا سيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان ويخالفه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها في الحال يقينا والحرام الذي خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا في الحال وإن كان المال قليلا وعلم قطعا أن الحرام موجود في الحال فهو ومسئلة اختلاط الميتة واحد وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كافي الأسواق والبلاد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ولا يشك في

(١) حديث لا تأكل كل الإطعام تقى ولا يأكل كل طعامك إلا تقى تقدم في الزكاة .

قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي قال حدثنا منصور بن أبي مزاحم قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي اللواتي عن محمد بن النسكر عن جابر رضي الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلينا الاستخارة كما يلينا السورة من القرآن قال : إذا هم أحدكم بالأمر أو أربأ الأمر فليصل ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدر بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إني كنت تعلم أن هذا الأمر وبسمه بينه خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ثم

بإمره لي فيه وإن كنت
تطعمه شرأى مثل ذلك
فاصرفه عني واصرفني
عنه واقدر لي الخير
حيث كان .

[الباب السابع عشر
فيلمحتاج إليه الصوفي
في سفره من الفرائض
والفضائل]

فأما من الفقه وإن
كان هذا يذكر في كتب
لفقه وهذا الكتاب
غير موضوع لذلك
ولكن نقول على سبيل
الإيجاز تبينا بذكر
للأحكام الشرعية التي
هي الأساس الذي يبنى
عليه لا بد للصوفي
للسافر من علم التيمم
وللسح على الحفين
والقصر والجمع في
الصلاة أما التيمم فجائز
للمريض والسافر في
الجنابة والحدث عند
عدم الماء أو الخوف
من استعماله تلقا في
النفس أو المال أو
زيادة في المرض على
القول الصحيح من
للذهب أو عند حاجته

أن المجهوم عليه بعيد من الورع جدا ولكن النظر في كونه فسقا مناقض للمدالة وهذا من حيث النقل
أيضا غامض لتجاذب الأشياء ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ما ينقل فيه عن الصعابة من الامتناع
في مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم وما ينقل من
إقدام على الأكل كأكل أبي هريرة رضي الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك
أيضا يحمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح فالأفصال في هذا
ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم لو أعطاني السلطان شيئا لأخذته وطرده
الإباحة فيها إذا كان الأكل أيضا حراما لم يعرف عين للأخذ واحتمل أن يكون حلالا واستدل
بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين كسياتي في باب بيان أموال السلاطين فأما إذا كان الحرام هو الأقل
واحتمل أن لا يكون موجودا في الحال لم يكن الأكل حراما وإن تحقق وجوده في الحال كما في مسألة
اشتباه الذكية بالميته فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من التشابهات التي يتعبر الفقهاء فيها لأنها مترددة
بين مشابهة المحصور وغير المحصور والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن
كان يلبدة فيها عشرة آلاف لم يجب وبينهما أعداد ولو شئت عنها لكن لا أدري ما أقول فيها ولقد
توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رمى صيدا فوق
في ملك غيره أيبكون الصيد للرأى أو للملك الأرض فقال لا أدري فروجع فيه مرات فقال لا أدري
وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف في كتاب العلم فليقطع الملقى طمعه عن درك الحكم في جميع الصور
وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما ياملون السلاطين فقال إن لم ياملوا سوى
السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فاملهم وهذا يدل على الساعية في الأقل ويحتمل
الساعية في الأكثر أيضا وبالجملة فلم ينقل عن الصعابة أنهم كانوا يهجرون بالكية معاملة القصاب والحجاز
والتاجر لتعاطيه عقد واحد فاسدا أو لمعاملة السلطان مرة وتقدير ذلك فيه بعد والمسئلة مشكلة في نفسها
فإن قيل فقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رخص فيه وقال خذ ما يسطيك السلطان فأما
يسطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام وسئل ابن مسعود رضي الله عنه في ذلك
فقال له السائل إن لي جارا لا أعلمه إلا خبيثا يدعونا أو نحتاج فنستسلفه فقال إذا دعاك فأجبه وإذا
احتجت فاستسلفه فإن لك الهنا وعليه المأثم وأفق سلمان بمثل ذلك وقد علل على بالكثرة وعلل ابن
مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك الهنا أي أنت لاتعرفه . وروى
أنه قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه إن لي جارا يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه أفأنا فيه فقال نعم
وروى في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعي ومالك رضي الله
عنهما جواز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط ما لهم الحرام . قلنا أما ما روى عن علي رضي
الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه
ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت التسل لا يجد غيره ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز
وفعله محتمل للورع ولكنه لو صرح فسال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما
لا يحصر وسيأتي بيان ذلك وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما متعلق بمال السلطان وسيأتي
حكمه وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأموالهم قرية من الحصر وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه قليل
إنه إنما قلعه خوات التيمم وأنه ضعيف الحفظ والشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال لا يقولن
أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتهيات فدع ما يريك إلى ما لا يريك
وقال اجتنبوا الحكايات قصيرا الاسم . فإن قيل فلم قلتم إذا كان الأكل حراما لم يجوز الأخذ مع أن

لأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص واليد علامة على الملك حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والسكرة توجب ظنا مرسل لا يتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ولا يجوز أن يستدل على هذا بموم قوله صلى الله عليه وسلم «دع ما يريك إلى ما لا يريك» لأنه مخصوص بغير الموضع بالاتفاق وهو أن يريه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فإن ذلك يوجب رية ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم . فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلت عن معارض قوى فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المالحظ موجود في الحال والمال غير خال عنه وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من المحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام «دع ما يريك إلى ما لا يريك» لا يبقى له محمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجودا في زمانه وكان لا يدعه وعلى أى موضع حمل هذا كان هذا في معناه وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب والسكرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر وقد اجتمعوا حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه لا تجتهد في الأواني إلا إذا كان الظاهر هو الأكثر فاشتراط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة السكرة والاستصحاب تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضا فيلزمه التجوز ههنا بمجرد علامة اليد ولا يجزى ذلك في بول اشقبه بما إذ لا استصحاب فيه ولا نظره أيضا في ميتة اشتهت بدكية إذ لا استصحاب في الميتة واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام للباح على أنه ملك فههنا أربع متعلقات استصحاب وقلة في الخلوط أو كثرة وانحصار أو اتساع في الخلوط وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد فمن ينقل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض للسائل بما لا يشبهه فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله وكل واحد إما أن يعلم يقين أو يظن عن علامة أو توهم فالسؤال يجب في موضعين وهو أن يكون الحرام أكثر يقينا أو ظنا كالمثل رأى تركيا مجهولا يظن أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوما باليقين فهو محل التوقف وتكاد تيسير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الليل إلى الرخصة وأما الأقسام الثلاثة الباقية فالسؤال غير واجب فيها أصلا . مسألة : إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل في يده حرام من ادراكه قد أخذه أو وجه آخر ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا ؟ فله الأكل ولا يلزمه التفيتش وإنما التفيتش فيه من الورع ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدرك أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل وقد سبق أن أمر الأقل مشكل وهذا يقرب منه . مسألة : إذا كان في يد التولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ ما يملكه إليه صاحب الوقف نظر، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة بغيرها التولى وكان التولى ظاهرة العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالتولى أنه لا يصرف إليه ما يصرفه إلا من المال الذي يستحقه وإن كانت الصفة خفية وإن كان للتولى ممن عرف حاله أنه يغلط ولا يبالى كيف يفعل فعليه السؤال إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعول عليه وهو وزان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهبة عند تردده فهما لأن اليد لا تخصص الهبة عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينبجى منه إلا السؤال فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لثمان ذي حته واحتمل أن يكون مجوسيا لم يجزله ما لم يعرف أنه مسلم إذ اليد

إلى الماء الوجود لمطشه
أو عطش دابته أو
رفيقه في هذه الأحوال
كلها يصلى بالتيمم
ولا إعادة عليه والخائف
من البرد يصلى بالتيمم
وبعد الصلاة على
الأصم ولا يجوز التيمم
إلا بشرط الطلب للماء
في مواضع الطلب
ومواضع الطلب مواضع
تردد السافر في منزله
للاحتطاب والاحتشاش
ويكون الطلب بعد
دخول الوقت والسفر
التصير في ذلك كالطويل
وإن صلى بالتيمم مع
يقين الماء في آخر
الوقت جاز على الأصح
ولا يبعد مهما صلى
بالتيمم وإن كان الوقت
باقيا ومهما توهم وجود
الماء بطل تيممه كما إذا
طلع ركب أو غير ذلك
وإن رأى الماء في أثناء
الصلاة لا تبطل صلاته
ولا تلزمه إعادة
ويستحب له الخروج
منها واستئنافها بالوضوء
على الأصح ولا يقيم

لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين فيجوز أن يظن بالبدى ليس فيه علامة الكفر أنه مسلم. وإن كان الخطأ ممكناً فيه فلا ينبغي أن تلبس الواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد. مسألة: له أن يشتري في البلد داراً وإن علم أنها تشتمل على دور منصوبة لأن ذلك اختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع وإن كان في سكة عشر دور مثلاً إحداها منصوب أو وقف لم يحز الثراء مالم يتميز ويجب البحث عنه ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التميز ولا يجوز الهجوم مع الإيهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لابد أن تكون محصورة. مسألة: حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لا يسأل بفضب مثله إذ يجب إيذاء الظالم بأكثر من ذلك والغالب أن مثل هذا لا يفضب من السؤال، نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب لأنهم لا يفضبون من سؤاله ولأن عليه أن يسأل ليظهر طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه وسأل عمر من سقاء من إبل الصدقة وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضاً لما أن قدم عليه بمال كثير فقال ويعك أكل هذا طيب من حيث إنه تعجب من كثرتهم وكان هو من رعيته لاسياً وقد رفق في صيغة السؤال وكذلك قال على رضي الله عنه ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورعه ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه. مسألة: قال الحرث المحاسبي رحمه الله لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لومأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع لأنه ربما يدوله ما كان مستورا عنه فيكون قد حمله على هتك السر ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لامن الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاختراز عن هتك السر وإثارة البغضاء أهم وزاد على هذا وقال وإن رآه منه شيء أيضاً لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب ويحببه الخبيث فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفاً ولا يهتك ستره بالسؤال قال لأنني لم أر أحداً من العلماء فعله فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط للمال الحرام القليل ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق لأن لفظ الزهوية يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراع هذه الدقائق بالسؤال. مسألة: ربما يقول القائل أي فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال. فأقول مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه فينبغي أن يسأل من غيره وكذا إن كان يباعاً وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره. وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن منهما كما يسأل للتولي على المال الذي يسله أنه من أي جهة وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤدي ولايتهم القائل فيه وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال فلايتهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه فهنا يفيد السؤال فإذا كان صاحب المال منهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واعد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينه حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال وليس كل من فسق يكذب ولا كل من

للفرض قبل دخول الوقت ويقيم لكل فريضة ويصل مهما شاء من التوافل بقيم واحد ولا يجوز أداء الفرض بقيم النافلة ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصل ويبعد عند وجود أحدهما ولكن إن كان محدثاً لا يمس للصحن وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة ولا يقيم إلا بتراب طاهر غير مختلط بالرمل والجص ويجوز بالتبرار على ظهر الحيوان والثوب ويسمى الله تعالى عند التيمم وينوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح بجميع الوجه فلا يبقى شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم وضرب ضربة للدين مبسوط الأصابع ويمسح بالتراب محل الفرض

ترى العدالة في ظاهره يصدق وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فان البواطن لا يطلع عليها وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق وكمن شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصي ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به وكذلك إذا أخبر به صبي يميز عن عرفته بالثبوت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه فأما إذا أخبر به مجهول لا يدري من حاله شيء أصلاً فهذا ممن جوزنا الأكل من يده لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه وربما يقال إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه وهذا فيه نظر ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تغيد ظناً قوياً إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فلينظر إلى حد تأثيره في القلب فان الفرق هو القلب في مثل هذا الموضع والقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فلي تأمل فيه ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روى عن عقبة بن الحرث « أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة فقال دعها فقال إنها سوداء يصغر من شأنها فقال عليه السلام فكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتكما لا خير لك فيها دعها عنك^(١) » وفي لفظ آخر كيف وقد قيل « ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أماره غرض له فيه كان له وقع في القلب لا محالة فذلك يتأكد الأمر بالاحتراز فان اطمأن إلى القلب كان الاحتراز حتماً واجباً . مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ويجوز أن يرجح في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والعرفة وذلك بما يتشعب تصويره . مسألة : لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعاً في يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون من المنصوب فان كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصالح جاز الشراء وكان تركه من الورع وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً فان كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المنصوب فله أن يشتري وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب النصب فليس يدل على الحل إلا اليد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ولكن الوجوب فيه نظر فان العلامة متعارضة ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أن أردته إلى قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه فان كان الأقوى أنه منصوب لزمه تركه وإلا حل له شراؤه وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من التشابهات التي لا يعرفها كثير من الناس فمن توقها فقد استبرأ لمرئيه ودينه ومن اقتحمها فقد حارم حول الحمى وخاطر بنفسه . مسألة : لو قال قائل قد سأل رسول الله ﷺ عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال^(٢) . فيجب السؤال عن أصل اللال أم لا وإن وجب فمن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الرية المتضمنة للسؤال إملوجوباً أو ورعاً ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الرية للمتضمنة وذلك يختلف باختلاف الأحوال فان كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فان قال اشتريت انقطع بسؤال واحد وإن قال من شاتي وقع الشك في المشاة فاذا قال اشتريت انقطع وإن كانت الرية من الظلم وذلك بما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم للمنصوب فلا تنقطع الرية بقوله إنه من شاتي ولا بقوله إن الشاة ولدتها شاتي فان أسندته إلى الورثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام

(١) حديث عقبة بن الحرث « أنه تزوج امرأة فجاءت أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة البخاري من حديث عقبة بن الحرث (٢) حديث سأل رسول الله ﷺ عن لبن قدم إليه فسكت عن لبن قد قدم إليه الحديث تقدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمعاش .

وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعداً كيف أمكنه لا بد أن يعم التراب محل القرض ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحين ويمسح اليد على ما نزل من الحجية من غير إيصال التراب إلى الثابت . وأما للمسح : فيمسح على الخف ثلثة أيام ولياليهن في السفر والقيم يوماً وليلة وابتداء اللدة من حين الحدث بعد لبس الخف من حين لبس الخف ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف بل يحتاج إلى كال الطهارة حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف ويشترط في الخف إمكان متابعة الشيء عليه وستر محل القرض ويكفي مسح يسير من أظنى الخف والأولى مسح أعلاه وأسفله

قد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فيكثرة التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه فليُنظر في هذه المعاني . مسألة : سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادهم الذي يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك السكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء وهو غلظ الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلالاً أو حراماً أو شبهة . فقلت إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول . الأصل الأول : أن الطعام الذي يقدم إليهم في الغالب يشترى بالمعاطاة والذي اخترناه صحة المعاطاة لاسيما في الأطعمة والمستحقرات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف . الأصل الثاني : أن ينظر أن الخادم هل يشترى بعين المال الحرام أو في الدمة فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام وإن لم يعرف فالغالب أنه يشترى في الدمة ويجوز الأخذ بالغالب ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شراؤه بعين مال حرام . الأصل الثالث : أنه من يشترى فإن اشترى ممن أكثر ماله حرام لم يجز وإن كان أقل ماله فقيه فنظر قد سبق وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشترى ممن ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله يتقين كالمجهول وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال . الأصل الرابع : أن يشترى لنفسه أو للقوم فإن التولى والخادم كالنائب وله أن يشترى له ولنفسه ولكن يكون ذلك بالية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة والقصاب والحجاز ومن يعامله يحول عليه ويقصد البيع منه لا يمن لا يحضرون فيقع عن جبهته ويدخل في ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم . الأصل الخامس : أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف فهو معاوضة ولكن ليس يبيع ولا إقراض لأنه لو انتفض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه فأشبهه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب أغنى هدية لالفظ فيها من شخص تقتضي قرينة حاله أنه يطعم في ثواب وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ما طعم الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه لإحقيهم من الوقف ليقضى به دينه من الحجاز والقصاب والبقال فهذا ليس في شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ولا مبالاة بقول من لا يصح هدية في انتظار ثواب . الأصل السادس : أن الثواب الذي يلزم فيه خلاف قيل إنه أقل متمول وقيل قدر القيمة وقيل ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض بدينه عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقف فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصاً ورضى به الخادم صح أيضاً وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقف الآخر الذي يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام والحرام لم يدخل في أيدي السكان فهذا كالحلل التطرق إلى الثمن وقد ذكرنا حكمه من قبل وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة وهذا لا يقتضى تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل للهدى بسبب الهدية إلى حرام . الأصل السابع : أنه يقضى دين الحجاز والقصاب والبقال من ربيع الواقفين فإن وفي ما أخذ من حقهم قيمة ما أطعمهم قد صح الأمر وإن قصر عنه فرضي القصاب والحجاز بأى ثمن كان حراماً أو حلالاً فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً فليفتت إلى ما قدمناه من الشراء في الدمة ثم قضاء الثمن من الحرام هذا إذا علم أنه قضاء من حرام فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرة أدوى

من غير تكرار ومتى ارتفع حكم السح بانقضاء الدمة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لثافة وهو على الطهارة يغسل القدمين دون استئذان الوضوء على الأصح وللأسح في السفر إذا أقام يمسح كالقيم وهكذا للقيم إذا سافر يمسح كالسافر واللبد إذا ركب جورباً ونعل يجوز السح عليه ويجوز على للشرح إذا ستر محل الفرض ولا يجوز على للنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة . فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما ويتم لكل واحدة ولا يفصل بينهما بكلام وغيره . وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء ولا قصر في المغرب والمبصر بل يصليهما كبريتهما من غير قصر وجمع . والسنن

في النفس كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخرج الوقائع للفتنة للفتنة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يحجز عنه أكثر المفتين .

(الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن الظالم للمالية)

اعلم أن من تاب وفي يده مختلط فطيه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيها .

(النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج)

اعلم أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو ودية أو غيره فأمره سهل فعليه تمييز الحرام وإن كان متبسا مختلطاً فلا يغلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب فإن كان في التمايزات أو كان شائهاً في المال كله كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المراجعة وصدق في بعضها أو من غصب دهنًا وخلطه بدهن نفسه أو فلي ذلك في الحبوب أو الدراهم والدنانير فلا يغلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً فإن كان معلوم القدر مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف وإن كان أشكل فله طريقتان أحدهما الأخذ باليقين والآخر الأخذ بظالم الظن وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة ونحن لا نجوز في الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال الدمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها وأما ههنا فلا يمكن أن يقال الأصل أن ما في يده حرام بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بظالم الظن اجتهدا ولكن الورع في الأخذ باليقين فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبق إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلاً أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث مثلاً حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بظالم الظن وهكذا طريق التحري في كل ما هو أن يقتطع القدر اللتين من الجانبين في الحل والحزمة والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جازله الأمساك والورع إخراجه وإن شك فيه جاز الأمساك والورع إخراجه وهذا الورع أكد لأنه صار مشكوكاً فيه وجاز إمساكه اعتدالاً على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفاً بعد يقين اختلاط الحرام ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يظن على ظنه أنه حلال وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر وليس يتيقن في الحال ترجيح وهو من للشكوك . فإن قيل هب أنه أخذ باليقين لكن الذي يخرجه ليس يدرى أنه عين الحرام فقلل الحرام ما بقي في يده فكيف يقدم عليه ولو جاز هذا لجاز أن يقال إذا اختلطت ميتة بتسع مذكرة فهي الحرام فله أن يطرح واحدة أي واحدة كانت ويأخذ الباقي ويستحله ولكن يقال لعل للينة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبق واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام . فنقول هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال محل لإخراج البدل لطرق المعاوضة إليه وأما الميتة فلا تطرق للمعاوضة إليها فليكشف النطاء عن هذا الاشكال بالقرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه وقد سئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن مثل هذا فقال يدع الكل حتى يتيقن وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حمل إليه للرهن آيتين وقال لا أدرى أيتهما آيتك فتركهما فقال للرهن هذا هو الذي لك وإنما كنت أختبرك فقضى دينه ولم يأخذ

(الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن الظالم)

الرواتب يصلها بالجمع بين السنتين قبله الفريضتين للظهر والصبر وبعد الفراغ من الفريضتين يصل ما يصل بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الربابة لها ويوتر بعدها ، ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغزى ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة وفي الركوع والسجود الإيماء ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع إلا أن يكون قادراً على التحكك مثل أن يكون في محاورة وغير ذلك ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا لقلبة حتى

الرهن وهذا ورع ولكننا نقول إنه غير واجب فلنفرض المشتقة في درهم له مالك معين حاضر فنقول إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر لأنه لا يخلو إما أن يكون الردود في علم الله هو الأخذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه فلا احتياط أن يتبايا باللفظ فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة وإن كان المقصود منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذ وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والاشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه . فنقول لأنه أيضا إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالتائب فيقع هذا بدلا عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أنف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه بل في عين مسئلتنا لو ألقى كل واحد مافي يده في البحر أو أحرقه كأن قد أنفقه ولم يكن عليه عهدة الآخر بطريق التقاص فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من التصير إلى أن من يأخذ درهما حراما ويطره في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال مجبورا عليه لا يجوز التصرف فيه وهذا للذهب يؤدي إليه فانظر مافي هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ والمعاطاة بيع ومن لا يعملها يباع حيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالاته وحيث يمكن التلفظ وههنا هذا التسليم والتسليم للمبادلة قطعا والبيع غير ممكن لأن البيع غير مباح إليه ولا معلوم في عينه وقد يكون ممالا يقبل البيع كالأموال طرطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والرطب وكل ما لا يباع البعض منه بالبعض . فإن قيل فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه يباع . قلنا لا نجعله يباع بل نقول هو بدل عما فات في يده فيملكه كما يملك التلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال لا أخذ درهما أصلا إلا عين ملكي فإن استبهم فأتركه ولاأهبه وأعطي عليك مالك . فأقول على القاضى أن ينوب عنه في القبض حتى يطيب للرجل ماله فإن هذا محض التعتق والتضييق والشرع لم يرد به فإن عجز عن القاضى ولم يجد له فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويغرد على نية الصرف إليه درهما ويتعين ذلك له ويطيب له الباقي وهذا في خلط المائعات أظهر وأقرب . فإن قيل فينبغي أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف في الباقي . قلنا قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك وقال آخرون ليس له أن يأخذ ما لم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال وقال آخرون يجوز للأخذ في التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصي هو دون الأخذ منه وماجوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حتى وبالتعيين وإخراج حق الغير وتميزه يندفع هذا الاحتمال فهذا المال يرجع بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك ما يحتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما يحتمل فيه رجوع القيمة وما يحتمل فيه رجوع العين يقدم على ما يحتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول على قضاء حقه من موضع آخر إذ الاختلاط من الجانبين وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتا بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه أو ينظر إلى الذى خلط فيجعل فعله متلفا لحق غيره وكلاهما بعيدان جدا وهذا واضح في ذوات الأمثال فإنها تقع عوضا في الاتلافات من غير عقد فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبيد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضى .

لو حرف دابته عن الصوب للتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته . والمائى يتنفل في السفر ويقبضه استقبال القبلة عند الإحرام ولا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال ويقبضه الإيعاء للركوع والسجود وراكب للعبادة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضا . وإذا أصبح للسافر مقما ثم سافر فعليه أتمام ذلك اليوم في الصوم وهكذا إن أصبح مسافر ثم أقام والصوم في السفر أفضل من الفطر وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام . فهذا القدر كاف للصوفى أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره . فأما المندوب والمستحب فينبغي أن يطلب لنفسه رفقا في الطريق بعينه على أمر الدين وقد قيل الرفيق ثم الطريق ونهى رسول الله صلى الله

فإن أبي أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه فان كانت متائلة القيم فالطريق أن يبيع القاضى جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنف الدور وصرف إلى للمتبع منه مقدار قيمة الأقل ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل وإن لم يوجد القاضى فللذى يريد الخلاص وفيه السكل أن يتولى ذلك بنفسه هذه هي الصلحة وماعداها من الاحتمالات ضعيفة لا تختارها وفيما سبق تنبيه على العلة وهذا في الحنطة ظاهر وفي العقود دونه وفي المروض أغصن إذ لا يقع البعض بدلا عن البعض فلذلك احتيج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل . مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيقة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة ولو رد من الضيقة نصفاً وهو قدر حقه ساهم الورثة فإن النصف القليل لا يتميز حتى يقال هو الردود والباقي هو للغصب ولا يصير محيزاً بنية السلطان وقصد حصر النصب في نصيب الآخرين . مسألة : إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب وللال عقار وكان قد حصل منه ارتفاع فيبنى أن يحسب أجر مثله لطول تلك اللدة وكذلك كل منصوب له منفعة أو حصل منه زيادة فلا تصح توبته ما لم يخرج أجره للغصب وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجره العبيد والحياب والأواني وأمثال ذلك مما لا يتبادر إيجارها مما يحسر ولا يدرك ذلك إلا بالاجتهاد وتخمين وهكذا كل التوقعات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأقصى وما ربحه على المال للغصب في عقود عقدها على القيمة وقضى الثمن منه فهو ملك له ولكن فيه شبهة إذ كان ثمنه حراماً كما سبق حكمه وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقد كانت فاسدة ، وقد قيل تنفذ بإجارة المنصوب منه للمصلحة فيكون المنصوب منه أولى به والقياس أن تلك العقود تنسخ وتسترد الثمن وترد الأعواض فإن عجز عنه لكثرة فهي أموال حرام حصلت في يده فلم ينصوب منه قدر رأس ماله والفضل حرام يجب إخراجه ليتصدق به ولا يحل للغاصب ولا للمنصوب منه بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده . مسألة : من ورث مالا ولم يدرك أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة فهو حلال باتفاق العلماء وإن علم أن فيه حراماً وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالاً للسلطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئاً أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدة فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراجه ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء : لا يلزمه والآن على اللورث واستدل بما روى أن رجلاً من ولئ عمل السلطان مات فقال صحابي الآن طاب ماله أى لوارثه وهذا ضعيف لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل بقدر كان في الصحابة من يتساهل ولكن لا نذكره لحرمة الصعبة وكيف يكون موت الرجل مبيعاً للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا نعم إذا لم يتيقن يجوز أن يقال هو غير مأخوذ بما لا يدري فيطيب لوارث لا يدري أن فيه حراماً يقينا .

(النظر الثاني في الصرف)

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال : إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتنجم فوائده إلى وقت حضوره وإما أن يكون للمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه وربما لا يمكن الرد لكثرة اللالك كمنهول النسيئة فانها بعد تفرق التزاة كيف يقدر على جمعهم وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً مثلاً ألف

عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده إلا أن يكون صوفياً طالماً بأفة نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة وإذا كانوا جماعة يبنين أن يكون فيهم متقدم أمير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرؤاً أحدهم » والذي يسميه الصوفية يشتر وهو الأمير وينبئ أن يكون الأمير أزهدي الجماعة في الدنيا وأوفرهم حظاً من التقوى وأتمهم مروءة وسخاوة وأكثرم شفقة . روى عبد الله ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه » نقل عن عبد الله للروزي أن أبا بلى الرباطي سمعه فقال على أن أكون أنا الأمير أو أنت فقال بل أنت فلم يزل يعمل

اتراد لنفسه ولأبى على
 على ظهره. وأمطرت
 السماء ذات ليلة قمام
 عبد الله طول الليل
 على رأس رفيقه يغطيه
 بكسائه عن اللطر وكذا
 قال لا تفعل قول ألتست
 الأمير عليك الاثياد
 والطاعة فأما إن كان
 الأمير يصحب الفقراء
 لحبة الاستبعا وطلب
 الرياسة والتمزز ليقسط
 على الخدام في الربط
 ويبلغ قمه هواها
 فهذا طريق أرباب
 الهوى الجهال المبائنين
 لطريق الصوفية وهو
 صليل من يريد جمع
 الدنيا فليتخذ لنفسه
 رقاء مائلين إلى الدنيا
 يهتمون لتحصيل
 أغراض النفس
 والدخول على أبناء
 الدنيا والظلمة للتوصل
 إلى تحصيل مأرب
 النفس ولا يخلو
 اجتماعهم هذا عن
 الخوض في الفسقة
 والدخول في المداخل
 المكروهة والنقل في

فَلَنْ

فان في الخبر الصحيح « إن للزارع والغارس أجرا في كل ما يصبه الناس والطيور من نماره وزرعه (١) » وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل لا تصدق إلا بالطيب فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر وتردنا بين التضييع وبين التصديق ورجحنا جانب التصديق على جانب التضييع ، وقول القائل لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه وللفقر حلال إذ أحله دليل الشرع وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل فقد رضينا له الحلال ونقول إن له أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا يمتنع عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدق عليهم وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ولترسم في بيان هذا الأصل أيضا مسائل . مسألة : إذا وقع في يده مال من يد سلطان قال قوم يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فقله ما قلته وهو خير من أن يتصدق به واختار المحاسبي ذلك وقال كيف يتصدق به فقل له مالكا معينا ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرد به إلى المالك لأن ذلك إغاة للظالم وتكثير لأسباب ظلمه فالرد إليه تضييع لحق المالك ، والختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرد به إلى مالكة فيتصدق به عن مالكة فهو خير للمالك إن كان له مالك معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لا يكون له مالك معين ويكون حق المسلمين فردا على السلطان تضييع فإن كان له مالك معين فالرد على السلطان تضييع وإغاة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يملكها ثم وإن كان غنيا من حيث إنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك ولا يؤثر في المنع من التصديق . مسألة : إذا حصل في يده مال لا مالكا له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل ويتنظر لطف الله تعالى في الحلال فإن لم يجد فله أن يشتري ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه فإذا نفي عاد إليه فإذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ما أتقنه من قبل ويكون ذلك قرضا عنده ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما أتقنه قرضا عنده فيه نظر ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضا فإذا وجد حلالا تصدق بمثله ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدق به عليه فلا يعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لأسباب إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعديا بنفسه وكسبه حتى يغلظ الأمر عليه فيه . مسألة : إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحاجة عليه أو كد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرمهم من الحرام إن كان لا يفيض بهم إلى ما هو أشد منه فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة وبالجملة كل ما عذرته في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع العلم والعيال بما تعذر إذا

(١) حديث أجر الزارع والغارس في كل ما يصبب الناس والطيور البخاري من حديث أنس ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة .

الربط والاستمتاع
والزهوة وكلها حكر
العلوم في الرباط أطالوا
للقام وإن تصدرت
أسباب الدين وكلها قل
العلوم رحلوا وإن
تيسرت أسباب الدين
وليس هذا طريق
الصوفية ومن المستحب
أن يودع إخوانه إذا
أراد السفر ويدعولهم
بدعاء رسول الله صلى
الله عليه وسلم . قال
بعضهم صحبت عبد الله
ابن عمر من مكة إلى
المدينة فلما أردت
مفارقتهم شيعي وقال
صحت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
قال لقمان لابنه يا بني
إن الله تعالى إذا
استودع شيئا حفظه
وإن أستودع الله
دينك وأمانتك
وخواتم عملك وروى
زيد بن أرقم عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنه قال « إذا أراد
أحدكم سفرا فليودع
إخوانه فان الله تعالى

لم تعلم إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤمنين كأجرة الحجامة والصباغ والقصار والحمال والاطلاء بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعمد الدابة وتسجير التنور وعن الحطب ودهن السراج فليخص بالحلال قوته ولباسه فان ما يتعلق بيده ولاغنى به عنه هو أولى بأن يكون طيبا وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه مخزج بلحمه ودمه وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به وأما الكسوة فقائدتها ستر عورته ودفع الحر والبرد والإبصار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندى وقال الحرث الهامسي يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه لما روى أنه « لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بمشرة درهم فيها درهم حرام (١) » وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام (٢) ثم رعاة اللحم والعظم أن ينبت من الحلال أولى ولذلك تقي الصديق رضى الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا ينبت منه لحم ثبت ويقي . فان قيل فإذا كان السكل منصرفا إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهه ومادرك هذا الفرق . قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضعا وعيدا حجاما فسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجامة فراجع مرات ففتح منه قليل إن له أثاما فقال أعلفوه الناضح (٣) فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أودابته فإذا افتتح سبيل الفرق قصص عليه التفصيل الذى ذكرناه . مسألة : الحرام الذى فى يده لو تسدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم وإذا أنفق على نفسه فليضيّق ما قدر وما أنفق على عياله فليقتصد وليكن وسطا بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه وإن كان غنيا فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئا فإنه فى ذلك الوقت فقير وإن كان الفقير الذى حضر ضيفا تقياً لو علم ذلك لتورع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعا بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره ولا ينبغي أن يعول على أنه لا يدري فلا يضره فان الحرام إذا حصل فى المعدة أثر فى قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه ولذلك تقي أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد شربا على جهل وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحلناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخزير والجر إذا أحلناه بالضرورة فلا يلتحق بالطيبات مسألة : إذا كان الحرام أو الشبهة فى يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فان كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى فان كان شبهة وكان امتناعه للورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاها بل هو واجب فليتطلب فى الامتناع فان لم يقدر فليوافق وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ولا يتوسع فان ذلك عدوان والأخ والأخت قريبان من ذلك لأن حقهما أياضاً كد وكذلك إذا ألبسته أمه ثوبا من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل

(١) حديث لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بمشرة درهم وفيها درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم (٢) حديث الجسد نبت من حرام تقدم (٣) حديث أن رافع بن خديج مات وخلف ناضعا وعيدا حجاما الحديث وفيه أعلفوه الناضح أحمد والطبراني من رواية عباية بن رفاعه ابن خديج أن جده حين مات ترك جارية وناضعا وغلاما حجاما الحديث وليس المراد بجده رافع ابن خديج فإنه بقى إلى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أره ذكرنا فى الصحابة وفى رواية للطبراني عن عباية بن رفاعه عن أبيه قال مات أبى وفى رواية له عن عباية قال مات رفاعه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم الحديث وهو مضطرب .

جاء له فى دعائهم البركة . وروى عنه عليه السلام أيضا أنه كان إذا ودع رجلا قال « زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيناً توجهت » وينبغى أن يستغفر إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطايام إذا جاء رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذابك فقال الرجل أحدثك عنه يا أمير المؤمنين إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت تخرج وتدعى على هذه الحالة فقلت أستودع الله ما فى بطنك فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت فجلسنا نتحدث فإذا نار تلوح على قبرها فقلت للقوم ماهذه النار فقالوا هذه من قبر فلانة نراها كل ليلة فقلت والله إنها

وليلبس بين يديها ولينزع في غيبتها وليجتمد أن لا يصلى فيه إلا عند حضورها فيصلى فيه صلاة المضطر
 وحسد تعارض أسباب الورع فينبغي أن يتفقد هذه الدقائق . وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلت
 إليه أمه ربة وقالت بحقي عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم سعد غرفة فصعدت أمه وراءه
 فرأته يتقياً وإنما فصل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة العدة وقد قيل لأحمد بن
 حنبل سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة فقال لا فقال أحمد هذا شديد قبيح له سئل محمد بن مقاتل
 العباداني عنها فقال بر والديك فإذا تقول فقال للسائل أحب أن تعفيني فقد سمعت ما قالاً ثم قال
 ما أحسن أن تداريها . مسألة : من في يده مال حرام محض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية
 لأنه مفلس ولا تجب عليه الزكاة إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلاً وهذا يجب عليه
 إخراج الكل إمارداً على المالك إن عرفه أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك وأما إذا كان
 مال شبهة يحتمل أنه حلال فإذا لم يخرج من يده لزمه الحج لأن كونه حلالاً ممكن ولا يسقط الحج
 إلا بالفقر ولم يتحقق فقره وقد قال الله تعالى - وفيه على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً -
 وإذا وجب عليه التصديق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريره فالزكاة أولى بالوجوب
 وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والاعتاق ليتخلص يمينين وقد قال قوم يلزمه الصوم دون
 الإطعام إذ ليس له يسار معلوم وقال المحاسبي يكفي الإطعام والذي نختاره أن كل شبهة حكماً بوجوب
 اجتنابها وألزمناه إخراجها من يده لتكون احتمال الحرام أغلب على ما ذكرناه فعليه الجمع بين الصوم
 والإطعام أما الصوم فلا لأنه مفلس حكماً وأما الإطعام فلا لأنه قد وجب عليه التصديق بالجميع وعملت
 أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة . مسألة : من في يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد
 أن يتطوع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به لأنه سبياً كل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة
 أولى وإن كان لا يقدر على أن يمشي ويحتاج إلى زيادة للمركوب فلا يجوز الأخذ لثل هذه الحاجة
 في الطريق كالأجور شراء للمركوب في البلد وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغنى
 به عن بقية الحرام فالإقامة أولى من الحجاج ماشياً بالمال الحرام . مسألة : من خرج لحج
 واجب بماله فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل
 فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام وملبسه
 حرام فليجتهد أن لا يكون في بطنه حرام ولا على ظهره حرام فإنما وإن جوزنا هذا بالحاجة فهو نوع
 ضرورة وما ألحقناه بالطيبات فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والتمسك لما هو مضطر إليه من تناول
 ما ليس بطيب فساء ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته . مسألة :
 سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل مات أبى وترك مالا وكان يعامل من تسكره معاملته فقال
 تدع من ماله بقدر ما ربح فقال له دين وعليه دين فقال تقضى وتقضى فقال أفتري ذلك قال أفتدعه
 محتسباً بدينه وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحريم بإخراج مقدار الحرام إذ قال يخرج
 قدر الربح وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلاً عما بذله في المعاولات الفاسدة بطريق التفاضل
 والتقابل مهما كثرت تصرف وعسر الرد وعول في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة .

(الباب الخامس في إدراوات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم)

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر في ثلاثة أمور في مدخل ذلك إلى يد السلطان
 من أين هو وفي صفته التي بها يستحق الأخذ وفي القدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى
 حاله وحال شركائه في الاستحقاق .

(الباب الخامس في إدراوات السلاطين)

كانت صوامع قوامه
 فأخذت المعول حتى
 اتسبنا إلى القبر فحفرنا
 وإذا سراج وإذا هذا
 الفلام يدب ثقيل إن هذا
 وديعتك ولو كنت
 استودعتنا أمه لوجدتها
 فقال عمر لم هو أشبه بك
 من الغراب بالغراب .
 وينبغي أن يودع كل
 منزل يرحل عنه
 بركتين ويقول : اللهم
 زدني التقوى واغفر لي
 ذنوبي ووجهي للخير
 أينما توجهت . وروى
 أنس بن مالك قال كان
 رسول الله عليه الصلاة
 والسلام لا ينزل منزلاً
 إلا ودعه بركتين
 فينبغي أن يودع كل
 منزل ورباط يرحل
 عنه بركتين وإذا
 ركب الدابة فليقل
 - سبحان الذي سخر
 لنا هذا وما كنا له
 مقرنين - بسم الله
 والله أكبر توكلت على
 الله ولا حول ولا قوة
 إلا بالله العلي العظيم .
 اللهم أنت الحامل على

(النظر الأول في جهات الدخل للسلطان)

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسماً : مأخوذ من الكفار وهو الغنيمة للأخوذة بالقهر والقبض وهو الذي حصل من ماله في يده من غير قتال والجزية وأموال الصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقبة . والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسماً : الوارث وسائر الأمور الضائعة التي لا يتعين لها مالك والأوقاف التي لا تمتلئ لها أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام فإذا كتب لقمية أو غيره إندار أو صلة أو خلة على جهة فلا يغلو من أحوال ثمانية : فانه إما أن يكتب له ذلك على الجزية أو على الوارث أو على الأوقاف أو على ملك أحياء السلطان أو على ملك اشتراه أو على عامل خراج المسلمين أو على بيع من جملة التجار أو على الخزانة . فالأول هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسة الجهات معينة فما يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأقسام الأربعة لما فيه مصلحة وروعي فيه الاحتياط في القدر فهو حلال بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعي ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير فانه أيضاً في محل الاجتهاد والسلطان أن يفعل ما هو في محل الاجتهاد وبشرط أن يكون الدمي الذي تؤخذ الجزية منه مكتسباً من وجه لا يعلم تحريره فلا يكون عامل سلطان ظالماً ولا يبيع خمر ولا صبياء ولا امرأة إذ لا جزية عليهما فهذه أمور تروى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار ما يصرف فيجب النظر في جميع ذلك . الثاني للوارث والأموال الضائعة فهي للمصالح والنظر أن الذي خلقه هل كان ماله كله حراماً أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه فان لم يكن حراماً بقي النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة ثم في المقدار للصرف . الثالث الأوقاف وكذا يجري النظر فيها كما يجري في للبركات مع زيادة أمر وهو شرط الواقف حتى يكون للأخوذ موافقاً له في جميع شرائطه . الرابع ما أحياء السلطان وهذا لا يعتبر فيه شرط إذله أن يعطى من ملكه ما شاء لمن شاء أي قدر شاء وإنما النظر في أن الطالب أنه أحياء باكره الأجراء أو بأداء أجرهم من حرام فان الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه فان كانوا مكروهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا متأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نبهنا عليها في تعلق الكراهة بالأعراض . الخامس ما اشتراه السلطان في الدمة من أرض أو ثياب خلة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضي ثمنه من حرام وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى وقد سبق تفصيله . السادس أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أموال القسمة والصادرة وهو الحرام السحت الذي لا شبهة فيه وهو أكثر الإندارات في هذا الزمان إلا ما على أراضي المراق فانها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين . السابع ما يكتب على بيع عامل السلطان فان كان لا يعامل غيره فانه كمال خزانة السلطان وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسياً أخذ بدله من الخزانة فالحلل يتطرق إلى العوض وقد سبق حكم الثمن الحرام . الثامن ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فان لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بينه من الحلال احتمالاً قريباً له وقع في النفس واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز

الظهر وأنت للسلطان على الأمور السنة وأن يرحل من المنازل بكثرة ويستدعى يوم الخميس روى كتب بن مالك قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس وكان إذا أراد أن يبعث سرية بشها أول النهار ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول : اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقلن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا للترز وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا للترز وشر أهله وإذا نزل فليصل ركعتين . وما ينبغي للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة قيل كان إبراهيم الخواص لا يخارقه أربعة أشياء في الحضر والسفر الركوة والمبل والإبرة

فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم كل ما لا يتيقن أنه حرام في أن آخذه وقال آخرون لا يحل أن يأخذ
 ما لم يتحقق أنه حلال فلا تحل شبهة أصلا ولا كلاهما إسراف والاعتدال ما قدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب
 إذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق . ولقد احتج
 من جوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام بما روى
 عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال منهم أبو هريرة وأبو سعيد
 الخدرى وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصارى وجابر بن عبد الله وجابر وأنس بن مالك والمسلم بن
 مخزومة فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك وأخذ ابن عمر وابن عباس من
 الحجاج وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبى وإبراهيم والحسن وابن أبي ليلى وأخذ الشافعى من هرون
 الرشيد ألف دينار في دفعة وأخذ مالك من الخلفاء أموالا لاجئة وقال على رضى الله عنه خذ ما يحيطيك السلطان
 فانما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على
 دينه أن يحمل على ما لا يحل ألا ترى قول أبي ذرٍّ للأحنف بن قيس خذ العطاء ما كان نعمة فإذا كان آثما
 دينكم فدعوه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب
 أن أباه هريرة رضى الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه وعن الشعبي عن مسروق
 لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار أى يحمله ذلك على الحرام لأنه في نفسه حرام وروى نافع
 عن ابن عمر رضى الله عنهما أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول لأسأل أحدا ولا أرد ما رزقنى
 الله وأهدى إليه ناقة فقبلها وكان يقال لها ناقة المختار ولكن هذا يعارضه ما روى أن ابن عمر رضى الله
 عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار والاسناد في رده أثبت وعن نافع أنه قال يبعث ابن عمر إلى ابن
 عمر بستين ألفا تقسمها على الناس ثم جاءه سائل فاستقرضه من بعض من أعطاه وأعطى السائل ولما
 قدم الحسن بن على رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال لأجيرك بجائزة لم أجزها أحدا قبلك
 من العرب ولا أجيزها أحدا بعدك من العرب قال فأعطاه أربعمائة ألف درهم فأخذها وعن حبيب
 ابن أبي ثابت قال لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس قبلها قليل ما هى قال مال وكسوة وعن
 الزبير بن عدى أنه قال قال سلمان إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعك إلى طعام أو نحوه
 أو أعطاك شيئا فاقبل فان للهنا لك وعليه الوزر فان ثبت هذا في الربى فالظالم في معناه وعن جعفر عن
 أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية وقال حكيم بن جبير مررتا على سعيد
 ابن جبيرة وقد جعل عامل على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين أجمعونا معانديكم فأرسلوا بطعام فأكل
 وأكلنا معه وقال العلاء بن زهير الأزدي أتى إبراهيم أبى وهو عامل على حلوان فأجازه فقبل وقال
 إبراهيم لا بأس بجائزة المال إن لعمال مؤنة ورزقا ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب لما أعطاك
 فهو من طيب ماله قد أخذته هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في عصية الله
 تعالى وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع
 كالخلفاء الراشدين وأبى ذرٍّ وغيرهم من الزهاد فانهم امتنعوا من الحلال المطلق زاهد ومن الحلال الذى
 يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى فأقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لا يدل على التحريم
 وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت للمال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا وما نقل عن
 الحسن من قوله لا أنوضأ من ماء صيرنى ولو ضال الوقت الصلاة لأنى لأندى أصل ماله كل ذلك ورع
 لا ينكر واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضا فهذه
 شبهة من يجوز أخذ مال السلطان للظالم . والجواب أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالاضافة إلى

وخيوطها والقراض
 ورويت عائشة رضى الله
 عنها أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم كان إذا
 سافر حمل معه خمسة
 أشياء للمرأة والمكحلة
 والسدى والسواك
 والشط وفي رواية
 القراض والصوفية
 لا تغار قهم العاصي
 أيضا من السنة . روى
 معاذ بن جبل قال قال
 رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « إن آخذ
 منبرا قد اغتذم إبراهيم
 وإن آخذ الصا
 قد اغتذم إبراهيم
 وموسى » وروى عن
 عبد الله بن عباس
 رضى الله عنهما أنه قال
 التوكؤ على الصا من
 أخلاق الأنبياء كان
 لرسول الله صلى الله عليه
 وسلم عصا يتوكأ عليها
 ويأمر بالتوكؤ على
 الصا وأخذ الركوة
 أيضا من السنة . وروى
 جابر بن عبد الله قال
 « بينا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يتوضأ من

ما نقل من ردم وإنكارهم وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات . الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئاً أصلاً كما فعله الورعون منهم وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون حتى إن أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فمرمها لبيت المال وحق إن عمر رضي الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوماً فدخلت ابنة له وأخذت درهمين من المال فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الماحفة عن أحد منكبَيْه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدرهم في فيها فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطره على الحراج وقال أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا مال المسلمين قريهم وبيدهم وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهما فربى لعمر رضي الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال يا أبا موسى ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبق من أمة محمد ﷺ أحد إلا طلبنا بظلمة ورد الدرهم إلى بيت المال هذا مع أن المال كان حلالاً ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم «دع ما يريك إلى مالا يريك» (١) وقوله «ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه» (٢) ولما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال ﷺ حين بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة «اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة يعير بعمله على رقبته له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج فقال يا رسول الله أهكذا يكون قال نعم والذي نفسي بيده إلا من رحم الله قال فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبداً» (٣) وقال ﷺ «إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي إنما أخاف عليكم أن تنافسوا» (٤) وإنما خاف التنافس في المال ولذلك قال عمر رضي الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال إني لم أجند نفسي فيه إلا كالو إلى مال اليتيم إن استغنيت استغنيت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وروى أن ابناً لطاوس اقتلع كتاباً عن لسانه إلى عمر بن عبد العزيز فأعطاه ثلثمائة دينار فباع طائوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر ثلثمائة دينار هذا مع أن السلطان مثل عمر بن عبد العزيز فهذه هي الدرجة العليا في الورع . الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة خلال فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكثر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المباليغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان وقد كان من أشدهم إنكاراً عليهم وأشداهم ذماً لأموالهم وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر وهو في مرضه واشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذاً عند الله تعالى بها فقالوا له إنا ترجو لك الخير حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت وصنعت وابن عمر ساكت فقال ماذا تقول يا ابن عمر فقال أقول ذلك إذا طاب للكسب وزكت النفقة وستر دقري وفي حديث آخر أنه قال إن الحبيث لا يكفر الحبيث وإنك قدوليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شراً فقال له ابن عامر ألا تندعو لي فقال

(١) حديث دع ما يريك إلى مالا يريك تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام (٢) حديث من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام (٣) حديث قال لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة يعير بعمله على رقبته الحديث الشافعي في السند من حديث طاوس مرسل ولأبي يعل في اللعج من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة وإسناده صحيح (٤) حديث إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي إنما أخاف عليكم أن تنافسوا متفق عليه من حديث عتبة بن عامر .

ركوة إذ جهش الناس نحوه أي أسرعوا نحوه والأسل فيه البكاء كالصبي يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء قال «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لكم قالوا يا رسول الله ما نجد ماء فشراب ولا تنوشاً به إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة فنظرت وهو يخور من بين أصابعه مثل العيون قال فتوضأ القوم منه قلت كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية . ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة . روى أبو سعيد قال «حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال اربطوا على أوساطكم بأزركم فربطنا ومشينا خلفه المرولة . ومن ظاهر آداب الصوفية عند

ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » (١) وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : ما سمعت من الطعام ماذا انتهت الدار إلى يومى هذا . وروى عن طى رضى الله عنه أنه كان له سويق في إثناء غنوم يضرب منه قليل أو قليل هذا بال عراق مع كثرة طعامه فقال أما إنى لا أخشيه بخلافه ولكن أكره أن يحمل فيه ما ليس منه وأكره أن يدخل بطنى غير طيب فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لا يبيح شيء إلا أخرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفا فقال إنى أخاف أن تقتنى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب أذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى ما من أحد إلا وقد مات به الدنيا إلا ابن عمر فهذا يتضح أنه لا يظن بوجوب أن كان في منصبه أنه أخذ ما لا يدرى أنه حلال . الدرجة الثالثة : أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين فإن ما لا يتعين مالكة هذا حكم الشرع فيه فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظم فقد يقول أخذه منه وشرقه أولى من تركه في يده ، وهذا قدر آه بعض العلماء وسيأتى وجهه ، وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك إن الذين يأخذون الجواز اليوم ويعتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما لأن ابن عمر فرق ما أخذ حتى استقرض في مجلسه بعد ذلك فتستين ألفا وعائشة فلت مثل ذلك وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال رأيت أن أخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها في أيديهم وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بمأقوله من هرون الرشيد فانه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة ، الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر مما له حلال وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر ما لهم حراما ويدل عليه تعليل على رضى الله عنه حيث قال فان ما يأخذه من الحلال أكثر فهذا مما قد جوزة جماعة من العلماء تنويلا على الأكثر ونحن إنما توقعنا فيه في حق آحاد الناس ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتمادا على الأغلب وإنما منعه إذا كان الأكثر حراما فإذا فهمت هذه الدرجات عرفت أن ادراعات الظلمة في زماننا لا تجري مجرى ذلك وأنها تفرقه من وجهين قاطعين : أحدهما أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفقة والنسيئة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فأنهم يجاوزون حدود الشرع في الأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينسب إليهم من الحراج والضروب على المسلمين ومن للصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره . والوجه الثانى أن الظلمة في العصر الأول تقرب عهدهم زمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوفين إلى استئالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطايهم وجوائزهم وكانوا يبتغون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون النية بقبولهم ويفرحون به وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطعمون السلاطين في أغراضهم ولا يشقون مجالسهم ولا يكثرهم جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكثون النكثات منهم عليهم لما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن بأخذهم بأس فأما الآن فلا تسمع نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثيرهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بشيائهم مجالسهم وتكليفهم الواظبة على الدعاء والثناء والتركية والاطراء

(١) حديث لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول مسلم من حديث ابن عمر .

خروجهم من الربط
أن يصل ركعتين في
أول التيار يوم السفر
بكرة كاذ كرنا يودع
البقرة بالركعتين
ويقدم الحنف وينفضه
ويشمر الكم اليمنى ثم
اليسرى ثم يأخذ
اليانيد الذى يتدبه
وسطه ويأخذ خريطة
للداس وينفضها ويأتى
للوضع الذى يريد أن
يلبس الحنف فيفرق
السجادة طاقين
ويحك فكل أحد
للداسين بالآخر ويأخذ
للداس اليسار
والخريطة باليمين وضع
للداس فى الخريطة
أعقابيه إلى أسفل
ويشد رأس الخريطة
ويدخل للداس يده
اليسرى من كفه
الأيسر ويضعه خلف
ظهره ثم يقعد على
السجادة ويقدم الحنف
يساره وينفضه
ويبتدى باليمين فيلبس
ولا يدع شيئا من الران
أو للمنطقة يقع على

في حضورهم ومنعهم فلم يذلل الأخذ نفسه بالسؤال أولا وبالتردد في الخدمة ثانيا وبالثناء والدعاء ثالثا وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا وبكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا وبإظهار الحب والموالاة والناصرته له على أعدائه سادسا وبالستر على ظلمه ومقابعه وسأوى أعماله ساجدا لم يتم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا فاذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لأفضائه إلى هذه اللعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصعابة والتابعين قد قاس الملائكة بالحدادين في أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم واحتمال القتل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك مصيبة على ماسنين في الباب الذي يلي هذا فاذا قد تبين مما تقدم مداخل أموالهم وما يعمل منها وما لا يعمل فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يعمل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سنبه عليها في الباب الذي يلي هذا.

(النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ وصفة الأخذ)

ولنفرض المال من أموال الصالح كاربعة أخماس التي وللوارث فان ماعدها بمقادير معين مستحقة إن كان من وقف أو صدقة أو خمس في أو خمس غنيمة وما كان من ملك السلطان بما أحياء أو اشتراه فله أن يعطى ما شاء لمن شاء وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال الصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب فأما النفي الذي لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه هذا هو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه ، وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقا في بيت المال لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمرا يقوم به تمتدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه فله في بيت المال حق الكفاية ويدخل فيه العلماء كلهم أعني العلوم التي تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه للملون والمؤذنون ، وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه فانهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب ويدخل فيه العمال وهم الذين تربط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الأجناد للترزقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغي وأعداء الإسلام ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج أعني العمال على الأموال الحلال لا على الحرام فان هذا المال للمصالح والمصاحبة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين وبالأجناد حراسة الدنيا والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يقبضه فيجوز أن يكون له وللمن يجري مجراه في العلوم المحتاج إليها في مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدرار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين أعني من حال منهم خير أجرة وليس يشترط في هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع النفي فان الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يفرقوا بالحاجة وليس يتقدر أيضا بمقدار بل هو إلى اجتهد الإمام وله أن يوسع ويغني وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال قد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية في دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم وقد كان عمر رضي الله عنه يعطى لجماعة اثني عشر ألف درهم ثمرة في السنة ، وأثبتت عائشة رضي الله عنها في هذه الجريدة والجماعة عشرة آلاف وجماعة ستة آلاف وهكذا فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء فان خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس وكذلك للسلطان أن يخص

للأرض ثم يضل يديه ويحصل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه ويودع الحاضرين فان أخذ بعض الإخوان رايته إلى خارج الرباط لا ينعمه وهكذا المسواو الأبريق ويودع من شيعة ثم يشد للراوية برفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ويشد للراوية على الجانب الأيسر ويكون كتفه الأيمن خاليا وعقدة للراوية على الجانب الأيمن فاذا وصل في طريقه إلى موضع شريف أو استقبله جمع من الإخوان أو شيخ من الطائفة عمل الراوية ويحيطها ويستقبلهم ويسلم عليهم ثم إذا جاوزوه يشد الراوية وإذا دنا من منزل ورباطا كان أو غيره عمل الراوية ويحيطها تحت إبطه الأيسر وهكذا المسواو الأبريق يمكنه يساره وهذه

من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك في السلف ولكن ينبغي أن يلتفت فيه إلى المصلحة ومهما خسر عالم أو شجاع بصلة كان فيه بث للناس وتغريض على الاشتغال والتشبه به فهذه فائدة الخلع والصلوات وضروب التخصيصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان وإنما النظر في السلاطين الظلة في شيئين : أحدهما أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته وهو إمام عزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان . والثاني أنه ليس بعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للأحد أن يأخذوا أيجوز لهم الأخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلاً أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى . أما الأول فالذي نراه أنه لا يمنع أخذاً للحق لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فنة نائرة لا تنطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء إذ قد ورد في الأمر بطاعة الأمراء (١) وللنع من سل اليد عن مساعدتهم (٢) أو امر وزواجر فالذي نراه أن الخلافة منعقدة للتكفل بها من بنى العباس رضى الله عنه وأن الولاية نافذة للسلاطين في أنظار البلاد والبايعين للخليفة وقد ذكرنا في كتاب المستظهرى المتنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار تأليف القاضي أبى الطيب فى الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه . والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط فى السلاطين تشوقاً إلى مزايا المصالح ولو قضينا بطلان الولايات الآن لبطلت للمصالح رأساً فكيف يفوت رأس المال فى طلب الربح بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة فى أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذاً للحكم والقضاء فى أنظار الأرض ولاية نافذة الأحكام وتحقيق هذا قد ذكرناه فى أحكام الامامة من كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد فلسنا نطول الآن به . وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يعم بالمطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فعلا بعضهم وقال كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء ولا يدري أن حصته منه دائق أو حبة فليترك الكل وقال قوم له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين وقال قوم له قوت سنة فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق فى هذا المال فكيف يتركه وقال قوم إنه يأخذ ما يعطى والمطلوب هم الباقون وهذا هو القياس لأن للمال ليس مشتركاً بين المسلمين كالتنمية بين الغنائم ولا كالميراث لأن الورثة لأن ذلك صار ملكاً لهم وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكاً لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال مالى صرف إليه بطريق الأيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجواز له أن يأخذه والتفضيل جائز فى المطاء . سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجع عمر رضى الله عنه فقال إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ وفضل

(١) حديث الأمر بطاعة الأمراء البخارى من حديث أنس سمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زينة . ولمسلم من حديث أبى هريرة عليك بالطاعة فى منشطك ومكرهك الحديث وله من حديث أبى ذر أوصانى النبي ﷺ أن أسمع وأطيع ولو لعبد مجدع الأطراف (٢) حديث النع من سل اليد عن مساعدتهم الشيخان من حديث ابن عباس ليس أحد يفارق الجماعة شراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية ولمسلم من حديث أبى هريرة من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية وله من حديث ابن عمر من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له .

الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجيل ولا يشهد بها أكثر قراء العراق والشام والمغرب ويحجى بين الفقراء مشاحة فى رعايتها فمن لا يشهد بها يقول هذه رسوم لا تلزم والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق ومن يشهد بها يقول هذه آداب وضعا للتقدمون وإذا رأوا من يخل بها أو بشئ منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ويقال هذا ليس بصوفى وكلا الطائفتين فى الإنكار يتعدون الواجب والصحيح فى ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه فليس بمنكر فى الشرع وهو أدب حسن ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه فليس بواجب فى الشرع ولا مندوب إليه وكثير من قراء خراسان والجيل يبالغ

عمر رضى الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجويرة سنة آلاف وكذا صفية وأقطع عمر لعل خاصة رضى الله عنهما وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات وآثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها قبل ذلك منه ولم ينكر وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدين التي أقول فيها إن كل مجتهد مصيب وهي كل مسألة لانص على عنها ولا على مسألة تقرب منها فتكون في معناها بقياس جلي كهذه للسئلة ومسئلة حد الشرب فانهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق وإن كل واحد من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم إذ للفضول مارد في زمان عمر شيئا إلى الفاضل مما قد كان أخذه في زمان أبي بكر ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل في زمان عمر واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرأيين حق فليؤخذ هذا الجنس دستورا للاختلافات التي يصب فيها كل مجتهد فأما كل مسألة شد عن مجتهد فيها نص أو قياس جلي بنفلة أو سوء رأى وكان في القوة بحيث ينقض به حكم المجتهد فلا حول فيها إن كل واحد مصيب بل للصيب من أصاب النص أو مافى معنى النص وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص للموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا وأخذ من السلطان خلعة أو إدارا على التركات أو الجزية لم يصر فاسقا بمجرد أخذه وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاوته أيام ودخوله عليهم وثنائه وإطرائه لهم إلى غير ذلك من لوازم لا يسلّم المال غالبا إلا بها كما سنينه .

(الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ويحرم

وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم)

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال . الحالة الأولى : وهي شرها أن تدخل عليهم والثانية وهي دونها أن يدخلوا عليك والثانية وهو الأسلم أن تعتزل عنهم فلا ترام ولا يرونك . أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جدا في الشرع وفيه تليطات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار فتتقيا لتعرف ذم الشرع له ثم تعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم . أما الأخبار : فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال « فمن نابذهم نجى ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم ^(١) » وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه النابذة والنازعة وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولم يرد على الخوض ^(٢) » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء ^(٣) » وفي الخبر « خير الأمراء الذين يأتون العلماء وشر الذين يأتون الأمراء »

(الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين)

(١) حديث فمن نابذهم نجى ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال ومن خالطهم هلك (٢) حديث سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولم يرد على الخوض النسائي والترمذي وصححه والحاكم من حديث كعب بن جعرة (٣) حديث أبي هريرة أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء تقدم في العلم .

في راية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الافراط وكثيرا ما يحل بها قراء العراق والهام والمغاربة إلى حد يخرج إلى المضيط والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر وما لا ينكره لا ينكر ويحصل للصلوف الاخوان أعذار مالم يكن فيها منكر أو إخلال بتدبؤ إليه والله للوفى .

[للباب الثامن عشر في القدوم من السفر ودخول الرباط والآداب فيه]
ينبى للفقير إذا رجع من السفر أن يستعذ بالله تعالى من آفات لقلم كما يستعذ به من وعاء السفر . ومن الدعاء المأثور : « اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر وكآبة القلب وسوء النظر في الأهل والمال والولد » وإذا أشرف

وفي الخبر «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم» (١) رواه أنس رضي الله عنه . وأما الآثار : فقد قال حذيفة إياكم ومواقف الفتن قيل وما هي قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدق بالكذب ويقول ما ليس فيه وقال أبوذر «لسنة ياسلة لا تنفى أبواب السلاطين فانك لا تصيب من دينهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك ، وقال الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمنون ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فانهموه على دينكم حتى جربت ذلك إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدر ك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالطة لمواهم ، وقال عباد بن الصامت حب القاري الناسك الأمراء نفاق وجهه الأغنياء رياء ، وقال أبوذر من كثر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولادين له قيل له ولم قال لأنه يرضيه بسخط الله واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلا قليل كان عاملا للعجاج فعزله فقال الرجل إنما عملت له على شيء يسير فقال له عمر حبسك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤما وشيرا ، وقال الفضيل ما ازداد رجل من ذى سلطان قريبا إلا ازداد من الله بعدا . وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول إن في هذا لثقى عن هؤلاء السلاطين ، وقال وهيب هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من القامرين ، وقال محمد بن سلمة اللباب على العذرة أحسن من قارى على باب هؤلاء ، ولما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك أصبحت شيخا كبيرا قد أفتلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه محمد ﷺ وليس كذلك أخذ الله الليثاق على العلماء قال الله تعالى - لتبينه للناس ولا تنكموه - واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك آنت وحشة الظالم وسهلت سبيل البغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلا حين أدناك أنخذوك قطبا تدور عليك رضى ظلمهم وجسرا يعبرون عليك إلى بلادهم وسلا يصعدون فيه إلى ضلاتهم ويدخلون بك الشك على العلماء ويقعادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك لما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم - غلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة - الآية وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا ينفل فداو دينك فقد دخله سقم وهي زادك فقد حضر سفر بعيد - وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء - والسلام ، فهذه الأخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ولكن تفصل ذلك تفصيلا قهيا نميز فيه المخطوئ عن الكروه والباح . فنقول : الداخل على السلطان متعرض لأن يرضى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا يشفك عن أحد هذه الأمور أما الفعل فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مضبوطة وتخطيطها والدخول فيها بغير إذن للملك حرام ولا يفرنك قول القائل إن ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فوات خبز فإن ذلك صحيح في غير المنصوب أما المنصوب فلا لأنه إن قيل إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في عمل التسامح وكذلك الاجتياز فيجرى هذا في كل واحد فيجرى أيضا في المجموع والنصب إنما تم بفعل الجميع وإنما يتسامح به

(١) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان الحديث القليل في الضعفاء في ترجمة حفص الأبري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم .

على بلد يريد القيام بها
يشير بالسلام على من
بها من الأحياء
والأموات ويقرأ من
القرآن ما تيسر
ويجعله هدية للأحياء
والأموات ويكبر فقد
روى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
كان إذا قفل من
غزو أو حج يكبر على
كل شرف من الأرض
ثلاث مرات ويقول :
لا إله إلا الله وحده
لا شريك له له الملك
وله الحمد وهو على كل
شيء قدير آيوني
تائبون عابدون
ساجدون لربنا حامدون
صدق الله وعده ونصر
عنده وهزم الأحزاب
وحده ويقول إذا رأى
البلد : اللهم اجعل لنا بها
قرارا ورزقا حسنا
ولو اغتسل كان حسنا
اقتداء برسول الله صلى
الله عليه وسلم حيث
اغتسل لدخول مكة .
وروى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما
رجع من طلب الأحزاب

إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه فأما إذا كان ذلك طريقاً إلى الاستغراق بالاشتراك لحكم التحريم ينسحب على الكل فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقاً اعتاد على أن كل واحد من المارين إنما يخطو خطوة لاتتصم الملك لأن المجموع مفوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصاً فإن فرض كون الظالم في موضع غير منصوب كالموات مثلاً فإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستغلال به فإن فرض كل ذلك حلالاً فلا يصح بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله السلام عليكم ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قائماً في سلامه وخدمته كان مكراً للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية بل من تواضع لغيره ليس بظالم لأجل غناه لالمعنى آخر اقتضى التواضع قمى ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم فلا يباح إلا مجرد السلام فأما تقبيل اليد والانعناء في الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف أو لإمام عادل أو لعالم أولم يستحق ذلك بأمر ديني .

قبل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يد على كرم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه وقد بالغ بعض السلف حق امتنع عن رد جوابهم في السلام والاعراض عنهم استحقاقاً لهم وعد ذلك من محاسن القربات فأما السكوت عن رد الجواب فقيه نظر لأن ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يغلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم هذا من حيث الفعل . فأما السكوت فهو أنه سيري في محفلهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير اللبوس عليهم وعلى غلمانهم ماهو حرام وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة بل يسمع من كلامهم ماهو غش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام بل يراه لابس الثياب الحرام وآكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفضله .

فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يمرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بصرفه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه بالعذر وعند هذا أقول من علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليحري ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته . وأما القول فهو أن يدعو للظالم أو يثنى عليه أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه أو يظهر له الحب والموالة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يبدو كلامه هذه الأقسام . أما الدعاء له فلا محل إلا أن يقول أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فقير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه ^(١) » فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومناقاً ومكرماً للظالم وهذه ثلاث معاص وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ^(٢) » وفي خبر آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام ^(٣) »

(١) حديث من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه تقدم (٢) حديث إن الله يغضب إذا مدح الفاسق تقدم (٣) حديث من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام تقدم أيضاً .

ونزل للدينة نزع لأتمته
واغتسل واستحم
وإلا فليجدد الوضوء
ويتنظف ويتطيب
ويستمد لقاء الإخوان
بذلك وينوي التبرك
بمن هنالك من الأحياء
والأموات وزورهم .

روى أبو هريرة رضي
الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« خرج رجل زوراً أخاً
له في الله فأرسل الله
بمدرجته مسلماً وقال
أين تريد قال أزور
فلاناً قال لقرابة قال
لا قال لنعمة له عندك
تشكرها قال لا قال
فيم تزوره قال إن
أحبته في الله قال فاني
رسول الله إليك بأنه
يحبك يحبك إياه » .

وروى أبو هريرة رضي
الله عنه عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال « إذا دعا الرجل
أخاه أو زاره في الله قال
الله له طبت وطاب
ممشاك ويتبوأ من الجنة
موتلاً » وروى أن

فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول والتزكية والثناء على ما يعمل كان عاصيا بالتصديق وبالإعانة
فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتوبيخ زجر
عنه وتضعيف لدواعيه والإعانة على المعصية ولو بشرط كلمة ، ولقد سئل سفيان الثوري رضى الله
عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال لا دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له
وقال غيره يسقى إلى أن شوب إليه نفسه ثم يعرض عنه فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه
وطول بقائه فإن كان كاذبا عصى معصية الكذب والنفاق وإن كان صادقا عصى بحبه بقاء الظالم وحقه
أن يعضه في الله ويمتته فالبغض في الله واجب ومحبة المعصية والراضى بها عاص ومن أحب ظلما فإن
أحبه لظلمه فهو عاص لمحبهه وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يعضه وكان الواجب عليه
أن يعضه وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر
وسبأني في كتاب الإخوة والتحايين في الله وجه الجمع بين البغض والحب فإن سلم من ذلك كله وهيبات
فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه ويكون مقتحما
نهي رسول الله ﷺ حيث قال « يامعشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق (٢) »
وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتجميله إياهم إن كان
من يتجمل به وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان بن
عبد الملك بن مروان فقال لا أباع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين (٢)
فقال ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر فقال لا والله لا يقتدى بي أحد من الناس فجلد مائة وألبس
السوح ولا يجوز الدخول عليهم إلا بمذنين . أحدهما أن يكون من جهتهم أمر إلزام لأمر إكرام
وعلم أنه لو امتنع أذى أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة
لأطاعتهم بل مراعاة المصلحة الحاقى حتى لا تضطرب الولاية . والثاني أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن
مسلم سواء أوعى نفسه إما بطريق الحسنة أو بطريق الظلم فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني
ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولا فهذا حكم الدخول . الحالة الثالثة أن يدخل عليك السلطان الظالم
زائرا فجواب السلام لا بد منه وأما القيام والاكرام له فلا يحرم مقابله على إكرامه فإنه باكرام العلم
والدين مستحق للاحاديث كما أنه بالظلم مستحق الإبعاد فلا إكرام بالاكرام والجواب بالسلام ولكن الأولى
أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ويظهر غضبه للدين واعراضه
عمن أعرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه وإن كان الداخل عليه في جميع فمراعاة حشمة أرباب
الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية وإن علم أن ذلك لا يورث فسادا في الرعية
ولا يناله أذى من غضبه فترك الاكرام بالقيام أولى ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه فإن
كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب وأما ذكر تحريم
ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن
أن التخويف يؤثر فيه وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقا على وفق الشرع

(١) حديث يامعشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق الحاكم من حديث
عبد الله بن الشخير أنلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تزددوا نعم الله عز وجل وقال صحيح
الاسناد (٢) حديث دعا ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان بن عبد الملك فقال لا أباع اثنين
ما اختلف الليل والنهار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين أبو نعيم في الحلية بإسناد
صحيح من رواية يحيى بن سعيد .

رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « كنت
نهيتكم عن زيارة
القبور فزوروها فإنها
تذكر الآخرة » فيحصل
للفقير فائدة الأحياء
والأموات بذلك فافها
دخل البلد بيتدى
بمسجد من المساجد
يصلى فيه ركعتين فإن
قصد الجامع كان أكمل
وأفضل وقد كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
إذا قدم دخل المسجد أولا
وصلى ركعتين ثم دخل
البيت والرباط للفقير
بمنزلة البيت ثم قصد
الرباط فقصد الرباط
من السنة على ما روينا
عن طلحة رضى الله
عنه قال : مكان
الرجل إذا قدم للدينة
وكان له بها عريف
ينزل على عريفه وإن
لم يكن له بها عريف
نزل الصفة فكنت
ممن أنزل الصفة ، فإذا
دخل الرباط يمشى إلى
الوضع الذي يريد نزاع
الحف فيه فيحلق

بحيث يحصل بها غرض الظلم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم فإذا يجب عليه التعريف في محل جهله والتخويف فيما هو مستجري عليه والإرشاد إلى ماهو غافل عنه بما يفنيه عن الظلم فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أنرا وذلك أيضا لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها فينأ أناعنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له مالي إذا رأيتك امتلأت منك رعبا قال حماد لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء . وإن أراد أن يكثر به السكون هاب من كل شيء » (١) ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال تأخذها وتضمن بها قال أردتها على من ظلمتها قال والله ما أعطيتك إلا بما ورثته قال لا حاجة لي بها قال فأخذها فقسمها قال لعلني إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عني .

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لاسلامة إلا فيه فقله أن يعتقد بعضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ولا يثق عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى التصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم وذلك إذا خطر بباله أمرهم وإن غفل عنهم فهو الأحسن وإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم « إنما بيني وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يعبدون لدته وإني وإياهم في غد لعلني وجل وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم ، وما قاله أبو الدرداء إذ قال أهل الأموال يا كلون ونا كل وشربون ونشرب ويلبسون ولبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها برآء وكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لاعمالة والمعصية ينبغي أن تكره فانه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنياته على حقه .

فان قلت الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب . قلنا ليس كذلك فان المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوه ومخالف له فان من لا يكره معصية الله لا يحب الله وإنما لا يحب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة وإذا أحبه كره ما كرهه وأحبه ما أحبه وسأيت تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا . فان قلت فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين . فأقول نعم تعلم الدخول منهم ثم ادخل كما حكى أن هشام بن عبد الملك قمع حاجا إلى مكة فلما دخلها قال اتوني برجل من الصحابة قليل يا أمير المؤمنين قد تفانوا فقال من التابعين فأتى بطاوس الجاني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال السلام عليك يا هشام ولم يكنه وجلس بإزائه وقال كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله فقبل له أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك فقال له يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت قال وما الذي صنعت فازداد غضبا وغيظا قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي غير إذني وقلت كيف أنت يا هشام قال أما ما فعلت

(١) حديث حماد بن سلمة مرفوعا إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء . وإذا أراد أن يكثر به السكون هاب من كل شيء . هذا معضل وروى أبو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب من حديث وثالة بن الأسقع من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يغف الله خوفه الله من كل شيء وللعقيلي في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما منكر .

وسطه وهو قائم ثم يخرج الخريطة بيساره من كفه اليسار ويحل رأس الخريطة باليمين ويخرج اللداس باليسار ثم يضع اللداس على الأرض ويأخذ باليمنى ويلقيها في وسط الخريطة ثم ينزع خفه اليسار فإن كان على الوضع يغسل قدميه بعد نزاع الخف من تراب الطريق والعرق وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ويمسح قدميه بما انطوى ثم يستقبل القبلة ويصلي ركعتين ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطا بها موضع السجود من السجادة وهذه الرسوم الظاهرة التي استحسناها بعض الصوفية لا تنكر على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ وينتبه الظاهرة في ذلك تحيد للريد في كل شيء بهيئة مخصوصة ليكون أبدا مفتقدا

من خلع نعلي بحاشية بساطك فأنى أخلدكما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبي ولا يمتصب علي وأما قولك لم تقبل يدي فأنى سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : لا يعمل لرجل أن يقبل يداً أحداً إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب وأما قولك لم تكني فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأوليائه فقال يادود يا عيسى وكفى أعداءه فقال - ثبت يداً أبي لهب - وأما قولك جلست بازائي فأنى سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له هشام عظمي فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وهرب وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال أدخلت علي أبي جعفر المنصور يعني فقال لي ارفع إلينا حاجتك فقلت له اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً قال فطأ رأسه ثم رفعه فقال ارفع إلينا حاجتك فقلت إنما أتلت هذه النزلة بسبب المهاجرين والأنصار وأبناءؤهم يموتون جوعاً فأتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأ رأسه ثم رفعه فقال ارفع إلينا حاجتك فقلت حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لحازنه كم أنفقت قال بضعة عشر درهماً وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها وخرج فكذا كانوا يدخلون علي السلاطين إفا ألزموا وكانوا يفرزون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم ودخل ابن أبي شملة علي عبد الملك بن مروان فقال له تكلم فقال له إن الناس لا ينجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه فبكي عبد الملك وقال لأجملن هذه الكلمة مثلاً نصب عيني ما عشت ولما استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه عبد الله بن عامر أتماه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عنه أبو ذر وكان له صديقاً فعاتبه فقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه ^(١) » ودخل مالك بن دينار علي أمير البصرة فقال أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحق من سلطان وما أجهل ممن عصاني ومن أعز من اعتز بي أيها الراعي السوء دفعت إليك غنا سماناً صحاحاً فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركها عظماً تتفقع فقال له والي البصرة أتدري ما الذي يعزئك علينا ويحببنا عنك قال لا قال قلة الطمع فينا وترك الامساك لما في أيدينا . وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فزع ووضع صدره علي مقدمة الرحل فقال له عمر هذا صوت رحمتي فكيف إذا سمعت صوت عذابي ثم نظر سليمان إلي الناس فقال ما أكثر الناس فقال عمر خصاؤك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان ابتلاك الله بهم . وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلي أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان يا أبا حازم مالنا نذكر الموت فقال لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلي الخراب فقال يا أبا حازم كيف القدوم علي الله قال يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالثائب يقدم علي أهله وأما السيئ فكالآبق يقدم علي مولاه فبكي سليمان وقال ليت شعري مالي عند الله قال أبو حازم اعرض نفسك علي كتاب الله تعالى حيث قال - إن الأبرار لفي نعم وإن النجار لفي جحيم - قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من الحسين ثم قال سليمان يا أبا حازم أي عباد الله أكرم قال أهل البر والتقوى قال فأي الأعمال أفضل قال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال فأي الكلام أسمع قال قول الحق عند من تخاف وترجو

(١) حديث أبي ذر إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه لم أقف له علي أصل .

لحركاته غير قادم علي
حركة بغير قصد وعزيمة
وأدب ومن أدخل من
الفقراء بشئ من ذلك
لا يشكر عليه ما لم يخل
بواجب أو مندوب لأن
أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ماتوا
بكثير من رسوم
للتصوفة وكون الشبان
يطالبون الوارد عليهم
بهذه الرسوم من غير
نظر لهم إلي النية في
الأشياء غلط ففعل
الفقير يدخل الرباط
غير مشمر أ كالمه وقد
كان في السفر لم يشمر
الأكام فينبه أن
لا يتعاطى ذلك لنظر
الحلق حيث لم يخل
بمندوب إليه شرعاً
وكون الآخر يشمر
الأكام يقيس ذلك
علي شد الوسط وشد
الوسط من السنة كما
ذكرنا من شد أصحاب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أوساطهم
في سفرهم بين المدينة
ومكة فتشعر الأكام

قال فأى المؤمنين أكيس؟ قال رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها قال فأى المؤمنين أخسر؟ قال رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره قال سليمان ماتقول فيما نحن فيه؟ قال أوتفني قال لا بد فانها نصيحة تلقينا إلى قال يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من السليدين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم فقال له رجل من جلسائه بشيا قلت قال أبو حازم إن الله قد أخذ اليشاق على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه قال وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال أن تأخذه من حله فتضمه في حقه فقال سليمان ومن يقدر على ذلك؟ فقال من يطلب الجنة ويخاف من النار فقال سليمان ادع إلى فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره خبرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك غفد بناصيته إلى ما تحب وترضى فقال سليمان أوصني فقال أوصيك وأوجز عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وقال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم عظمي فقال اضطلع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فغذبه الآن وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن فلعل تلك الساعة نصحه ولا تأمن غشه فكيف بمن تأمن غشه وزجو نصحه فقال الأعرابي يا أمير المؤمنين إنه قد تكفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأمنهم على ما أتمنك الله تعالى عليه فانهم لم يألوا في الأمانة تضديعا وفي الأمة خسفا وعسفا وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبا من باع آخرته بدنياه غيره فقال له سليمان يا أعرابي أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك قال أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لاعليك. وحكى أن أبا بكر دخل على معاوية فقال اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لارتداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا وعلى أثرك طالب لاتفوته وقد نصب لك علما لا تجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك ما يلحق بك الطالب وأنا وما نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون باق إن خيرا غير وإن شرا فشر فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أغنى علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلوهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فما يوافق أغراضهم وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم وفي هذا غرور إن يفتر بهما الحق: أحدهما أن يظهر أن قصدى في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفيفة للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم وعلامة الصدق في طاب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الإصلاح فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضائعا فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه فإن كان يصادف في قلبه ترجيح الكلام على كلام غيره فهو مغرور. الثاني أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامه وهذا أيضا مظنة التعرور ومعياره ما تقدم ذكره وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل. مسألة: إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن

في معناه من الخفصة والارتفاع به في الشيء فمن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط أو كان راكبا لم يشد وسطه فمن الصدق أن يدخل كذلك ولا يعتمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكاف ونظر إلى الخلق ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق ومما ينكر على للتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدون بالسلام ويقول النكر هذا خلاف للندوب ولا ينبغي للنكر أن يبادر إلى الانكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمادهم وتركهم السلام بمحتل وجوها: أحدها أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عبد الله بن عمر قال «مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو

بل كان حكمه أنه يحب التصديق به على المساكين كما سبق فلك أن تأخذه وتولى التفرقة ولا تصمى
بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فنهذهذا ينظر في الأولى فنقول : الأولى أن تأخذه إن أمنت
ثلاث غوائل . الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت
تعد يدك إليه ولا تدخله في ضمانك فان كان كذلك فلا تأخذه فان ذلك محذور ولا يبق الخبر في
مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام . الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك
من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به على جوازه ثم لا يفرقون
فهذا أعظم من الأول فان جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضى الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون
عن تفرقته وأخذه على نية التفرقة فالمقتدى والنسبة به ينبغي أن يعتز عن هذا غاية الاحتراز فانه
يكون فعله سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلا أتى به إلى ملك بمشهد من
الناس ليكرهه على أكل لحم الخنزير فلم يأكل فلم يقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل فقيل
له في ذلك فقال إن الناس قد اعتقدوا أنني طوبت بأكل لحم الخنزير فإذا خرجت سالما وقد أكلت
فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون . ودخل وهب بن منبه وطاوس على محمد بن يوسف أخى الحاج وكان
عاملا وكان في غداة باردة في مجلس بارز فقال لفلانة هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن
أى طاوس وكان قد قعد على كرسي فألقى عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه
فغضب محمد بن يوسف فقال وهب كنت غنيا عن أن تفضيه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به قال نعم
لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس ولا يصنع به ما أصنع به إذن فعلت . الغائلة الثالثة : أن
يتحرك قلبك إلى حبه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أتقده إليك فان كان كذلك فلا تقبل فان
ذلك هو السم القاتل والداء الدفين أعنى ما يجب الظلمة إليك فان من أحببته لابد أن تحرص عليه
وتداهن فيه قالت عائشة رضى الله عنها : جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وقال عليه السلام
« اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا فيحبه قلبي »^(١) بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لا يكاد يمتنع
من ذلك . وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأناها
محمد بن واسع فقال ما صنعت بما أعطاك هذا الخلق ؟ قال سئل أصحابي فقالوا أخرجه كله فقال
أنشدك الله أفلبك أشد حبا له الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ قال لا بل الآن قال إنما كنت أخاف
هذا وقد صدق فانه إذا أحبه أحب بقاءه وكرهه عزله ونكته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة
ماله وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم قال سلمان وابن مسعود رضى الله عنهما من رضى
بأمر وإن غاب عنه كمن شهد قال تعالى - ولا تركنوا إلى الذين ظلموا - قيل لا ترضوا بأعمالهم
فان كنت في القوة بحيث لا تزداد حبا لهم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة
أنه كان يأخذ أموالا ويفرقها فقيل له ألا تخاف أن تعذبهم فقال لو أخذ رجل يدي وأدخلني الجنة ثم
عصى ربه ما أحبه قاي لأن الذى سخره لأخذ يدي هو الذى أبغضه لأجله شكراله على تسخير
إياه وبهذا تبين أن أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم
لأنه لا ينفك عن هذه الغوائل . مسألة : إن قال قائل إذا جاز أخذه ما وتفرقته فهل يجوز أن يسرق
ماله أو تخفى ودبته وتكر وتفرق على الناس فنقول ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين

(١) حديث اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا فيحبه قلبي ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن
عطية عن رجل لم يسم ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى
الذين في كتاب تضييع العمر والأيام من طريق أهل البيت مرسلأ وأسانيد كلها ضعيفة .

يول فسلم عليه فمرد
عليه حتى كاد الرجل
أن يتوارى فضرب
يده على الحائط ومسح
بها وجهه ثم ضرب
ضربة أخرى فمسح بها
ذراعيه ثم رد على الرجل
السلام وقال إنه لم يعنى
أن أرد عليك السلام
إلا أنى لم أكن على طهره
وروى « أنه لم رد عليه
حتى توضأ ثم اعتذر
إليه وقال إني كرهت
أن أذكر الله تعالى إلا
على طهره » وتديكون جمع
من الفقراء مصطحين
في السفر وقد يتفق
لأحدهم حدث فلوسلم
التوضي وأمسك
المحدث ظهر حاله فترك
السلام حتى توضأ من
يتوضأ ويصل قدمه
من يصل سترأ للحال
على من أحدث حتى
يكون سلامهم على
الطهارة اقتداء برسول
الله صلى الله عليه وسلم
وقد يكون بعض
القيمين أيضا على غير
طهارة فيستعد لجواب

وهو على عزم أن يرد عليه وليس هذا كما لو بثه إليك فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بما
 يعلم مالكة فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكة فإن كان ممن يشكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل
 منه المال ما لم يعرف ذلك، ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته
 فإن اليد دلالة على الملك فهذا لا سبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندى واحتمل أن
 تكون له بشراء في الدمة أو غيره وجب الرد عليه فإذا لا يجوز سرقة ما لهم لأنهم ولا يمن أودع عنده
 ولا يجوز إنكار ودينتهم ويجب الحد على سارق ما لهم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لهم فعند
 ذلك يسقط الحد بالدعوى . مسألة : للعامة معهم حرام لأن أكثر ما لهم حرام فأي أخذ عوضا فهو
 حرام فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم فإن علم أنهم يصون الله به
 كبيع الدياج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الحار وإنما الخلاف في الصحة
 وإن أمكن ذلك وأمکن أن يلبسها نساء فهو شبهة مكروهة هذا فيما يوصى في عينه من الأموال
 وفي معناه بيع الفرس منهم لاسيما في وقف ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إعانة
 لهم بفرسه وهي محظورة فأما بيع الدرام والدنانير منهم وما يجري مجراها مما لا يوصى في عينه بل
 يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب
 وسائر الأسباب وهذه الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجره حتى في تعليمهم
 وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن
 ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ولو اتصّب وكلامهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجره
 فهو مكروه من حيث الإعانة وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به العصية كالغلام والدياج للفرس
 واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام فهو مظهر قصد للعصية بالمبتاع حصل التحريم
 ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلائلها عليه حصلت الكراهة . مسألة : الأسواق التي بنوها
 بالمال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكناها فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم
 كسبه وكان عاصيا بسكناء للناس أن يشتروا منهم ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء
 منها فإن ذلك إعانة لسكناءهم وتكثير لكراء حوائثهم وكذلك معاملة السوق التي لاخراج لهم عليها
 أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب
 الأراضي التي لهم عليها الخراج فانهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة وهذا
 غلو في الدين وخرج على المسلمين فإن الخراج قد عمّ الأراضي ولا غنى بالناس عن ارتفاق الأرض
 ولا معنى للمنع منه ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها وذلك مما يطول
 ويتداهى إلى حسم باب العاش . مسألة : معاملة قضاتهم وعاملهم وخدمهم حرام كعاملتهم بل أشد
 أما القضاة فلا أنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثر جمعهم ويخرون الخلق بزبهم فانهم
 على زى العلماء ويغتلطون بهم يأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والافتداء بنوى
 الجاه والحشمة فهم سبب انقياد الخلق إليهم وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح
 ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال
 بمالههم قال طاوس لا أشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه وبالجملة
 إنما فسدت الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل
 فساد الملوك خوفا من إنكارهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة تحت يدي الله

السلام أيضا بالطهارة
 لأن السلام اسم من
 أسماء الله تعالى وهذا
 من أحسن ما يذكر
 من الوجوه في ذلك
 ومنها أنه إذا قدم يقاته
 الإخوان وقد يكون
 معه من آثار السفر
 والطريق ما يكره
 فيستمد بالوضوء
 والنظافة ثم يسلم
 ويصافحهم ومنها أن
 جمع الرباط أرباب
 مراقبة وأحوال
 فلو هجم عليهم بالسلام
 قد يزعج منه مراقب
 ويتشوش محافظ
 والسلام يقدمه
 استئناس بدخوله
 واشتغاله بفصل القدم
 والوضوء وصلاة ركعتين
 فيتأهب الجمع له كما
 يتأهب لهم بعد مسابقة
 الاستئناس وقال الله
 تعالى - حق تستأنسوا -
 واستئناس كل قوم
 على ما يليق بمالهم
 ومنها أنه لم يدخل على
 غريبته ولا هو بغريب
 منهم بل هم إخوانه

وكشفه مالم تعالى قراؤها أمرها (١) وإما ذكر القراء لأنهم كانوا هم الطاء وإما كان عليهم بالقرآن ومعانيه الفهومة بالسنة وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم وقد قال سفيان : لا تخالط السلطان ولا من يخالطه وقال صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرباس وصاحب البيطة بعضهم شركاء بعض وقد صدق فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن في الحجر عشرة حتى العاصر والعصر (٢) وقال ابن مسعود رضي الله عنه « آكل الربا وموكله وشاهداه وكتابه ملمونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (٣) » وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وقال ابن سيرين لا تعمل للسلطان كتابا حتى تعلم ما فيه وامتنع سفيان رحمه الله من مناوله الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حوالمهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بنضهم في الله جميعا . وروى عن عثمان بن زائدة أنسأله رجل من الجند وقال أين الطريق فسكت وأظهر الصم وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو بارشاده إلى الطريق معينا وهذه البالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكمة والحجابين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم بل مع الكفار من أهل الدمة وإما هذا في الظلمة خاصة الأكليين لأموال اليتامى والمساكين والمواظين على إيذاء المسلمين الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها وهذا لأن النصية تنقسم إلى لازمة ومتعدية والفسق لازم لا يتعدى وكذا الكفر وهو جناية على حق الله تعالى وجسابه على الله وأمامصية الولاية بالظلم وهو متعد فأنما يغلظ أمرهم لذلك ويقدر عموم الظلم وعموم التمدي يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازا فقد قال صلى الله عليه وسلم « يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار (٥) » وقال عليه السلام « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر (٦) » فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلمته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة فمن روى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيابهم ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجان

(١) حديث لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكشفه مالم تعالى قراؤها أمرها أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلا ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي وابن عمر بلفظ مالم يعظم أبرارها فجارها ويدهان خيارها شرارها وإسناده ضعيف (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لمن في الحجر عشرة حتى العاصر والعصر الترمذي وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذي حديث غريب (٣) حديث ابن مسعود آكل الربا وموكله وشاهداه وكتابه ملمونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للسنن دون قوله وشاهداه ولأبي داود لمن رسول الله صلى الله عليه وآله آكل الربا وموكله وشاهداه وكتابه ملمونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للسنن دون قوله وشاهداه ولأبي داود (٤) حديث جابر لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكتابه ملمونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للسنن دون قوله وشاهداه ولأبي داود (٥) حديث قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر (٦) » فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلمته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة فمن روى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيابهم ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجان

والألفة بالنسبة المنوية الجامعة لهم في طريق واحد والنزل منزله والوضع موضعه فبرى البركة في استفتاح النزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق وكما يهد عذرهم في ترك السلام ينبغى لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدىء بالسلام فكأن من ترك السلام له نية فالذي ابتدأ به له أيضا نية وللقوم آداب ورد بها الشرع ومنها آداب استحسانها شيوخم فها ورد به الشرع ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة والابتداء باليمين في لبس الخف وفي نزعه باليسار . روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا استلتم فأبدءوا باليمين وإذا خلصتم فأبدءوا باليسار أو اخلعها جميعا أو اخلعها جميعا » روى جابر رضي الله عنه « أن رسول الله صلى

إلا يحجون ولا يتشبه بالفاسق إلا فاسق نعم الفاسق قد يلبس فيتشبه بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوائهم وإنما نزل قوله تعالى - إن الدين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم - في قوم من المسلمين كانوا يكثر جمعاء الشركين بالمخالطة وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم فقال ما بال الأخيار قال إنهم لا يفتضون لفتني فكانوا يؤاكلونهم ويشربونهم وبهذا يتبين أن بغض الظلة والنصب لله عليهم واجب . وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ «إن الله لعن علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم» (١) . مسألة : الواضع التي بناها الظلة كالقناطر والرباطات والساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة والورع الاختراز ما أمكن وإن وجد معدلاً تأكد الورع وإنما جوزنا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف تلك الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير فأما إذا عرف أن الأجر والحجر قد تقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً بالضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه وأما المسجد فإن بني في أرض مفضوبة أو غصب مفضوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة بل لو وقف الامام فيه فليصل هو خلف الامام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المفضوبة تسقط الفرض وتتعد في حق الاقتداء فلذلك جوزنا للفتنى الاقتداء بمن صلى في الأرض المفضوبة وإن عصى صاحبه بالوقوف في النصب وإن كان من مال لا يعرف مالكة فالورع المدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو حل بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن صلى فيه مع اتساع المسجد أعنى في الورع قيل لأحمد بن حنبل ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر فقال حجتى أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضاً وأما الخلق والتجسس فلا يمنع من الدخول لأنه غير منفع به في الصلاة وإنما هوزينة والأولى أنه لا ينظر إليه وأما البوارى التي فرسوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز اقترائها ولكن الورع المدول عنها فإنها محل شبهة . وأما السقاية فتحكمها ما ذكرناه وليس من الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إلا إذا كان يخاف قوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة . وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رقبة الأرض مفضوبة أو الأجر منقولاً من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال الصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر . مسألة : الأرض المفضوبة إذا جعلت شارعاً لم يحز أن يتخطى فيه ألبته وإن لم يكن له مالك معين جاز والورع المدول إن أمكن فإن كان الشارع مباحاً وفوقه سابط جاز العبور وجاز الجلوس تحت السابط على وجه لا يحتاج فيه إلى

الله عليه وسلم كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ويلبس اليمنى قبل اليسرى « وبسط السجادة وردت به السنة وقد ذكرناه وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون وقد ورد في حديث طويل « لا يؤم الرجل الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه » وإذا سلم على الإخوان يماقهم ويماقونه فقد روى جابر بن عبد الله قال « لما قدم جعفر من أرض الحبشة عاقه النبي صلى الله عليه وسلم » وإن قبلهم فلا بأس بذلك روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال ما أنا بفتح خير أسر منى بقدم جعفر » ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام « قبله السلم أخاه للصافحة » وروى أنس

(١) حديث ابن مسعود لعن الله علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم أبو داود والترمذى وابن ماجه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل في العاصى نهتهم عماؤهم فلم ينتهوا فجالسهم في مجالسهم وواكلهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم أفظ الترمذى وقال حسن غريب

السقف كما يقف في الشارع لشغل فإذا انتفع بالسقف في دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا يراد إلا لذلك وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مباحة سقف أو حوط بنصب فانه بمجرد التخطي لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد أو تستر عن بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذ لم يحرم الجلوس على النصب لما فيه من العاسة بل للانتفاع والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستظلال به فلا فرق بينهما .

(الباب السابع في مسائل متفرقة يكثر ميسس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى)

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو نقدا ويشتري به طعاما لمن الذي يحل له أن يأكل منه وهل يختص بالصوفية أم لا . قلنا أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يغلو عن شبهة أما الحل فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية ولكن هو المعطى للصوفية فهو كالرجل المعيل يعطى بسبب عياله لأنه متكفل بهم وما يأخذ من ماله لا ليعيل له أن يطعم غير العيال إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ولا يتسلط الخادم على الشراء به والتصرف فيه لأن ذلك مصير إلى أن العاطاة لا تسكن وهو ضعيف ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا ويعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الحاقه إذ لا خلاف أن له أن يطعم منه من يقدم بعدهم ولوماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وراثته ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لا تنوجب تسليط الآحاد على التصرف فان الداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة وإنما يتصرف فيه الولاة والخادم لا يجوز له أن ينتصب نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والروء فان منعهم عنه منعه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عن مات عياله . مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فمن الذي يجوز أن يصرف إليه قلنا التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل في خاقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكرا عندهم فهو داخل في غمارهم والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفر وزى الصوفية وأن لا يكون مشتغلا بحرفة وأن يكون مخالطهم بطريق الساكنة في الحاقه ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم وبعضها ينجر ببعض البعض فالفسق يمنع هذا الاستحقاق لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة فالذي يظهر فسقه وإن كان على زيه لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولنا نعتبر فيه الصفات . وأما الحرفة والاشتغال بالكسب يمنع هذا الاستحقاق فالدهقان والعامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذي يخدم بأجرة كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية ولا ينجر هذا بالزى والمخالطة فأما الوراقة والحياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها فإذا تعاطاها لا في حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق وكان ذلك ينجر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة لا تمنع وأما الوعظ والتدريس فلا ينافي اسم التصوف إذا وجدت بقية الحصول من الزى والساكنة والفر إذ لا يتناقض أن يقال صوفي مقرر وصوفي واعظ وصوفي عالم أو مدرس ويتناقض أن يقال صوفي دهقان وصوفي تاجر وصوفي عامل وأما الفقر فإن زال بني مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذوصية الصوفية وإن كان له مال ولا يفي دخله

(الباب السابع في مسائل متفرقة)

ابن مالك قال « قيل
يا رسول الله الرجل يلقى
صديقه وأخاه ينحني له
قال لا قيل يلتزمه ويقبله
قال لا قيل فيصافحه قال
نعم ويستحب للقراء
القيمين في الرباط أن
يتلقوا القراء بالترحيب
روى عكرمة قال : قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يوم جئته :
مرحبا بالراكب
للهاجر مرتين وإن
قاموا إليه فلا بأس
وهو مسنون . روى
عنه عليه السلام أنه
قام لجحر يوم قدومه
ويستحب للخادم أن
يقدم له الطعام . روى
لقيط بن صبرة قال
« وقدنا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فلم نصادفه في منزله
وصادفنا عائشة رضي
الله عنها فأمرت لنا
بالحريرة فصنعت لنا
وأتينا بقناع فيه تمر
والقناع الطبق فأكلنا
ثم جاء رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال

بخرجه لم يطل حقه وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خراج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات وأما الخاططة لمساكنهم فلها أثر ولكن من لا يخاططهم وهو في داره أو في مسجد على زيهب ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك في سهمهم وكان تركه الخاططة يعبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زيهب ووجد فيه بقية الصفات فلا يستحق إلا إذا كان مساكنهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية فالخاططة والزى ينوب كل واحد منهما عن الآخر والفقير الذي ليس على زيهب هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعد صوفيا وإن كان ساكنًا معهم ووجدت بقية الصفات لم يعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما لبس الرقعة من بدشيش من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق وعده لا يضره مع وجود الترائط المذكورة وأما التأهل للتردد بين الرباط والسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة : ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم فغير الصوفي أن يأكل معهم برضامهم على مائدتهم مرة أو مرتين فإن أمر الأطعمة مبنية على التسامح حتى جاز الانفراد بها في الضائفة المشتركة وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معاشهم وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف وكذلك من أحضره من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ممن لهم غرض في استئالة قلوبهم محلهم الأكل برضامهم فإن الواقف لا يقف إلا معتقدا فيه ما جرت به عادات الصوفية فيزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام فلا يجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل كل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زيهب وأخلاقهم فله النزول عليهم وكونه فقيها لا ينافي كونه صوفيا والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحق بقلوبهم إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما . وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهب وأخلاقهم فله منعه من النزول عليهم فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكان عدم الزى تجبره الساكنة ولكن برضا أهل الزى وهذه أمور تشهد لها العادات وفيها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في النفي والاثبات ومتشابهة أوساطها فمن احترز في مواضع الاشتباه قد استبرأ لدينه كأنهنا عليه في أبواب الشبهات . مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهبة مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض وقد حرمت إحداها دون الأخرى . فقلت باذل المال لا يئذله قط إلا لترض ولكن الغرض إما أجل كالثواب وإما عاجل والعاجل إما مال وإما فضل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبة إما للمحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة الأول : ما غرضه الثواب في الآخرة وذلك إما أن يكون لسكون المصروف إليه محتاجا أو عالما أو منتسبا بنسب ديني أو صالحا في نفسه متدينا فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجا وما علم أنه يعطاه لشرف نسبه لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب وما يعطى لعله فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما يعتقد الله-أي فإن كان خيل إليه كالا في العلم حتى يشبه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقا في الباطن فسقا لوعله المعطى ما أعطاه وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجليل هو الذي يحب الخلق إلى الخلق وكان التورعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتساعجوا في البيع خيفة من أن يكون ذلك أكل بالدين فإن ذلك محظر والتقى حتى لا كالعلم

أصبتم عيشا قلنا نعم
يا رسول الله ويستحب
للقادم أن يقدم للفقراء
عيشا لحق القدوم .
ورد أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما
قدم المدينة نخرج زورا
وكرهيتهم لقدوم القادم
بعد العصر وجهه من
السنة منع النبي صلى
الله عليه وسلم عن
طروقي الليل والصوفية
بعد العصر يستندون
لاستقبال الليل
بالطهارة والانكباب
على الأذكار والاستغفار
روى جابر بن عبد الله
قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « إذا قدم
أحدكم من سفر فلا
يطرقن أهله ليلا »
وروى كعب بن مالك
أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان
لا يقدم من السفر إلا
نهارا في الضحى
فيستحبون القدوم في
أول النهار فإن فات
من أول النهار فقد
يتفق تعويق من

والنسب والفقر فينبغي أن يجنب الأخذ بالدين ما أمكن . القسم الثاني : ما يقصد به في العاجل غرض معين كالفقير يهدى إلى الفنى طمعا في خاتمة هذه هبة بشرط الثواب لا يبغي حكمها وإنما تحمل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود . الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالاحتياج إلى السلطان يهدى إلى وكيل السلطان وخاصة ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال فلينظر في ذلك العمل الذى هو الثواب فإن كان حراما كالسعى في تحييز إدار حرام أو ظلم إنسان أو غيره حرم الأخذ وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهى الرشوة التى لا يشك في تحريمها وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما وكان فيه تب محيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفى بالغرض وهو جار مجرى الجمالة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تب وعمل متقوم أو قال اقترح على فلان أن يعينى فى غرض كذا أو ينم على بكذا وافقر فى تحييز غرضه إلى كلام طويل فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصوصة بين يدي القاضى فليس بحرام إذا كان لا يسعى فى حرام وإن كان مقصوده يحصل بكلمة لا تب فيها ولكن تلك الكلمة من ذى الجاه أو تلك الفعل من ذى الجاه تفيد كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ولم يثبت فى الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهى عنه كما سياتى فى هدايا الملوك وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان فى هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينهبها على دواء ينفرده يعرفه كواحد ينفرده بالعلم ثبت يقطع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كحبة من ممسم فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على عمله إذ ليس ينتقل عمله إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل عمله ويبقى هو عالما به ودون هذا الحاذق فى الصناعة كالصيقل مثلا الذى يزيل اعوجاج السيف أو الرأة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ولحذقه باصابعه بقدريز بدقة واحدة مال كثير فى قيمة السيف والرأة فهذا لا يرى بأسا بأخذ الأجرة عليه لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل فى تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدى إليه لا لغرض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأكيذا للصحة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود للعقلاء ومنسوب إليه فى الشرع قال صلى الله عليه وسلم «تهادوا تحابوا»^(١) وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان فى الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة فى محبته ولكن إذا لم تعين تلك الفائدة ولم يتمثل فى نفسه غرض معين يبعثه فى الحال أو المال سمي ذلك هدية وحل أخذها . الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لالهفته ولا لأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بمجاهة إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمة اكان لا يهدى إليه فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية فى ظاهرها فإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأتوة فمثلا وكان لولا تلك الولاية اكان لا يهدى إليه فهذه رشوة عرضت فى معرض الهدية إذ القصد بها فى الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن لأمر ينحصر فى جنس واحد إذ ما يمكن التوصل إليه بالولايات لا يبغي وآية أنه لا يبغي المحبة أنه لو ولى فى الحال غيره لم يبال إلى ذلك الغير فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا فى كونه حراما والمعنى

(١) حديث تهادوا تحابوا البيهقي من حديث أبى هريرة وضعه ابن عدى .

ضعف بعضهم فى الشئ أو غير ذلك فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التمويق فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدم أول النهار فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملا بالسنة للقدوم ضحوة وأيضا فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة . ومن الأدب أن يصلى القادم ركعتين فذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر وقد يكون من الفقهاء القادمين من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويناله دهشة فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينسبط وتذهب عنه الدهشة فى ذلك فضل كثير

فيه متعارضا فانه دأب بين الهدية المحضة وبين الرشوة للبذولة في مقابلة جاء محض في غرض معين وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعضدت الأخبار والآثار أحدهما تعين الميل إليه وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعة يقتل البريء لتوعظ به العامة (١) » ، وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن السحت فقال : يقضى الرجل الحاجة فتهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لاتعب فيها أو تبرع بها لامل قصد أجرة فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض . شفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردّها وقال لوعلت ما في قلبك لما تسكمت في حاجتك ولا أتكم فيما بقى منها وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال سحت ، وأخذ عمر رضى الله عنه ربع مال القراض الذى أخذه ولداه من بيت المال وقال إنما أعطيتا لمكانكما حتى إذا علم أنهما أعطيا لأجل جاء الولاية . وأهدت امرأة أبى عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتهما بجوهر فأخذه عمر رضى الله عنه فباعه وأعطاهما ثمن خلوقها ورد باقية إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما هدايا للولك غلول ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية فقال كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة (٢) » أى كان يتقرب إليه لقبوته لالولايته ونحن إنما نمطى للولاية وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الأزدي فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسك بعض ما معه وقال هذا لكم وهذا لى هدية فقال عليه السلام ألا جلست في بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيتك هديتك إن كنت صادقا ثم قال مالى أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لى هدية ألا جلست في بيت أمه لهدى له والذى تقضى يده لا يأخذ منكم أحد شيئا بنير حقه إلا أتى الله بحمله فلا يأتين أحدكم يوم القيامة يعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأيت رياض إبطيه ، ثم قال اللهم هل بلغت (٣) » وإذا ثبتت هذه التشديدات فالتقاضى والوالى ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه لما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته وما يعلم أنه إنما يعطاه لولايته فغرام أخذه وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا فهو شبهة فليجتنبه .

(تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله أعلم)

(كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق)

(وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غفر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتثانا . وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا . ونزع الغل من صدورهم فظفروا في الدنيا أصدقاء وأخذانا . وفي الآخرة رقاء وخلانا والصلاة على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلًا وعدلاً وإحساناً .

(١) حديث يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعة يقتل البريء ليوعظ به العامة لم أقف له على أصل (٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية البخاري من حديث عائشة (٣) حديث أبى حميد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا إلى صدقات الأزدي فلما جاء قال هذا مالكم وهذا هدية لى الحديث متفق عليه .

(كتاب آداب الصحبة)

روى أبو رفاعة قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدرى مدينه قال فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على وترك خطبته ثم أتى بكرسى قوائمه من حديد فقدم رسول الله ثم جعل يلمنى بماعله الله ثم أتى خطبته وأتم آخرها » فأحسن أخلاق الفقراء المرفق بالمسلمين واحتمل للكروه من للموع والرفق وقد يدخل فقير بعض الربط ويغل بشئ من مراسم للتصوفة فينهر ويخرج وهذا خطأ كبير قد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الترمس الظاهر ويقصدون الرابطة بنية صالحة فإذا استقبلوا بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى

أما بعد : فإن التحاب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات . وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى وفيها حقوق بمراتبها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله تعالى وباللحظة عليها تنال الدرجات العلى ، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب . الباب الأول : في فضيلة الألفة والأخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . الباب الثاني : في حقوق الصعبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . الباب الثالث : في حق السلم والرحم والجوار والملك وكيفية للعاشرة مع من قد بلى بهذه الأسباب .

(الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها)

(فضيلة الألفة والأخوة)

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق والتفرق ثمرة سوء الخلق ، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابير ومهما كان للثمر محمودا كانت الثمرة محمودة وحسن الخلق لا تغنى في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال - وإنك لملى خلق عظيم - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ^(١) » وقال أسامة بن شريك قلنا يارسول الله « ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال خلق حسن ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم محاسن الأخلاق ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أتقل ما يوضع في الميزان خلق حسن ^(٤) » وقال ﷺ « ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فيطعمه النار ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق قال أبو هريرة رضى الله عنه وما حسن الخلق يارسول الله ؟ قال تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك ^(٦) » ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة واتقطاع الوحشة ومهما طاب الثمر طابت الثمرة ، وكيف وقد ورد في الشفاء على نفس الألفة سببا إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله . ومن الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقتع . قال الله تعالى مظهر عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة - لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقال - فأصبحتم بنعمته إخوانا - أى بالألفة ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - إلى - لعلمكم تهتدون - وقال ﷺ « إن أقربكم منى مجلسا أحسنكم أخلاقا الوطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم

(الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة)

(١) حديث أول ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد وقد تقدم (٢) حديث أسامة بن شريك يارسول الله ما خير ما أعطى الإنسان قال خلق حسن ابن ماجه بإسناد صحيح (٣) حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق أحمد والبيهقى والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٤) حديث أتقل ما يوضع في الميزان خلق حسن أبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء وقال حسن صحيح (٥) حديث ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فيطعمه النار ابن عدى والطبرانى في مكارم الأخلاق وفي الأوسط والبيهقى في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة قال ابن عدى في إسناده بعض النكرة (٦) حديث يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق قال وما حسن الخلق قال تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك البيهقى في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه (٧) حديث إن أقربكم منى مجلسا أحسنكم أخلاقا الوطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون الطبرانى في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف ،

ويدخل على التكرار عليه ضرر في دينه ودينه فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وما كان يعتمد مع الخلق من اللدابة والرفق وقد صح « أن أعرايا دخل السجود بال فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم ينهر الأعرايا بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين والفظاظة والتلطيف والتسلط على السليين بالقول والفعل من النفوس الحبيثة وهو ضد حال التصوفة ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأسا يصرف من اللوح على أطف وجه بعد أن يقدم له طعام ويحسن له الكلام فهذا القدي يليق بسكان الرباط وما يعتمد الفقراء من تمييز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة وردت

« المؤمن إلف مألوف ولاخير فيمن لا يآلف ولا يؤلف (١) » وقال صلى الله عليه وسلم في الشاء على الأخوة في الدين « من أراد الله به خيرا رزقه خيلا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليمين تفصل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا (٣) » وقال عليه السلام في الترغيب في الأخوة في الله « من أخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله (٤) » وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال هم المتحابون في الله تعالى (٥) » ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء فقالوا يا رسول الله صفهم لنا فقال هم المتحابون في الله والمتجاسسون في الله والتزاورون في الله (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه (٧) » ويقال إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وإنه يلتحق به

(١) حديث المؤمن إلف مألوف ولاخير فيمن لا يآلف ولا يؤلف أحمد والطبراني من حديث سهل ابن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه (٢) حديث من أراد الله به خيرا رزقه خيلا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير ورواه أبو داود من حديث عائشة إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه الحديث ضعفه ابن عدى ولأبي عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة من حديث علي من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين (٣) حديث مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليمين تفصل إحداهما الأخرى الحديث السلمي في آداب الصحبة وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات (٤) حديث من أخى أخا في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس ما أحدث عبد أخا في الله عز وجل إلا أحدث الله عز وجل له درجة في الجنة وإسناده ضعيف (٥) حديث قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة الحديث أحمد والحاكم في حديث طويل إن أبا إدريس قال قلت والله إني لأحبك في الله قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ بلفظ المتحابون في جلال الله لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء قال حديث حسن صحيح وأحمد من حديث أبي مالك الأشعري إن الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقرهم من الله الحديث وفيه تحابوا في الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نور أو ثيابهم نور يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرحون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه (٦) حديث أبي هريرة إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء الحديث النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات (٧) حديث ما عاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاستاد.

بعالسنه روى عمر رضي الله عنه قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلام له حبشي يغمز ظهره فقلت يا رسول الله ما شأنك فقال إن الناقة اتهمتني » قد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز في وقت تعب وقدمه من السفر فأما من يتخذ ذلك عادة ويجب التغميز ويستجلب به النوم ويسا كنهه حتى لا يفوته فلا يليق بحال الفقراء وإن كان في الشرع جائزا وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمز واستلذه واستدعاه يحتلم فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله في التغميز ولأرباب المزاحم أمور لا يسهم فيها الركون إلى الرخص . ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يتسدى بالكلام دون أن يستل ويستحب أن يمكث

كما تلتحق القرية بالآبوين والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل - ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول - حق محبى للذين يتزاوون من أجل وحقت محبى للذين يتحابون من أجل وحقت محبى للذين يتبادلون من أجل وحقت محبى للذين يتناصرون من أجل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلاناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلا زار أخاه فى الله فأرصد الله له ملكا فقال أين تريد قال أريد أن أزور أخى فلانا فقال لحاجة لك عنده قال لا قال لقرابة بينك وبينه قال لا قال فنعمة له عندك قال لا قال فم قال أحبه فى الله قال فإن الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله (٦) » فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يفضهم فى الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم فى الله . وروى أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء أما زهدك فى الدنيا قد نجت الراحة وأما انقطاعك إلى قد تمزنت بى ولكن هل عادت فى عدوا أو هل واليت فى وليا . وقال ﷺ « اللهم لا تجعل لفاجر على منة تفرقه منى محبة (٧) » وروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام « لو أنك عبدتنى بعبادة أهل السموات والأرض وحب فى الله ليس وبغض فى الله ليس ما أغنى عنك ذلك شيئا » وقال عيسى عليه السلام : تحببوا إلى الله يفض أهل المعاصى وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم قولوا ياروح الله فمن تجالس قال جالسوا من تذكرم الله رؤيته ومن يزيد فى عملكم كلامه ومن يرغبكم فى الآخرة عمله . وروى فى الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى على موسى عليه السلام يا ابن عمران كن يقظانا وارعد لنفسك إخوانا وكل خدن وصاحب لا يوازرك على مسرتى فهو لك عدو

(١) حديث إن الله يقول حق محبى للذين يتزاوون من أجل وحقت محبى للذين يتحابون من أجل الحديث أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ورواه الحاكم وصححه (٢) حديث إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى مسلم (٣) حديث أبى هريرة سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلاناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ابن عدى من حديث أنس دون قوله شوقا إليه ورغبة فى لقائه وللترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة من عاد مريضا أوزار أخا فى الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلا قال الترمذى غريب (٥) حديث إن رجلا زار أخاه فى الله فأرصد الله له ملكا فقال أين تريد الحديث مسلم من حديث أبى هريرة (٦) حديث أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله أحمد من حديث البراء بن عازب وفيه ليث بن أبى سليم يختلف فيه والخراطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٧) حديث اللهم لا تجعل لفاجر على منة الحديث تقدم فى الكتاب الذى قبله .

ثلاثة أيام لا يصعد زيارة أو مشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعشاء الفجر ويعود باطنه إلى هيئته فقد يكون بالفرو عوارضه تغير باطنه وتكدر حتى يجتمع فى الثلاثة الأيام همته وينصلح باطنه ويستمد للقاء الشايع والزيارات بتنوير الباطن فان باطنه إذا كان منورا يستوفى حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره . وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ويقول لانكلموا أهل هذا الطريق إلا فى أصنى أوقاتكم وهذا فيه فائدة كبيرة فان نور الكلام على قدر نور القلب ونور السمع على قدر نور القلب فاذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغي أن يستأذنه إذا أراد الانصرافه فقد روى عبد الله بن

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : يا داود مالي أراك منبذا وحيدا قال إلهي قلت الخلق من أجلك فقال يا داود كن يقظانا وار تد لنفسك أخذانا وكل خدن لا يوا قبلك على مسرتي فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقبى قلبك وياعدك مني . وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال يارب كيف لي أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك قال خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك وفي بعضها خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي ﷺ « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم المشاءون بالتحية المرفقون بين الإخوان ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين ^(٢) » وقال أيضا « ما أحدث عبد أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة يصفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم المتحابون في الله ^(٤) » . الآثار : قال على رضي الله عنه عليكم بالإخوان فانهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار - فالنا من شافين ولا صديق حميم - وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والله لو صمت النهار لأفطره وقت الليل لأنامه وأنفقت مالي غلقا غلقا في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما تمنى ذلك شيئا . وقال ابن السكك عند موته اللهم إنك تعلم أنني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك . وقال الحسن على ضده يا ابن آدم لا يفرنك قول من يقول المرء مع من أحب فانك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فان اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل في بعض كلامه ما تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بأى عمل عملته بأى شهوة تركتها بأى حظ كظمته بأى رحم قاطع وصلتها بأى زلة لأخيك غفرتها بأى قريب باعدته في الله بأى بعيد قاربته في الله . ويرى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام هل عملت لي عملا قط فقال إلهي إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت فقال إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأى عمل عملت لي ؟ قال موسى إلهي دلت على عمل هولاك قال يا موسى هل واليت لي وليا قط وهل عادت في عدوا قط فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله . وقال ابن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضي الله عنه مصارمة الفاسق قربان إلى الله وقال رجل لمحمد بن واسع إني لأحبك في الله فقال أحبك الذي أحببتني له ثم حول وجهه وقال اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لي مبغض ودخل رجل

(١) حديث إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون الحديث الطبراني في الأسط والصغير من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين أبو الشيخ ابن حبان في كتاب المظنة من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية بسند ضعيف (٣) حديث ما أحدث عبد أخا في الله تعالى إلا أحدث الله له درجة في الجنة ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة الحديث الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقوم من حتى يستأذنه » وإن نوى أن يقيم أياما وفي وقته سعة ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف يطلب خدمة يقوم بها وإن كان دائم العمل لربه فكفى بالعبادة شغلا لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة ولا يخرج من الرباط إلا باذن المقدم فيه ولا يفعل شيئا دون أن يأخذ رأييه فيه فهذه جمل أعمال يستندها الصوفية وأرباب الربط والله تعالى بفضلهم يزعمون توفيقا وتأديبا .

[الباب التاسع عشر في

حال الصوفي المتسبب]

اختلف أحوال الصوفية

في الوقوف مع الأسباب

والاعراض عن

الأسباب فمنهم من كان

على الفتوح لا يركن

على داود الطائي فقال له ما حاجتك ؟ فقال زيارتك فقال أما أنت فقد عملت خيرا حين ررت ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي من أنت قترار أمن الزهاد أنت لا والله أمن العباد أنت لا والله أمن الصالحين أنت لا والله ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول كنت في الشبهة فاسقا فلما شخت صرت مرانيا والله للمرأى شر من الفاسق وقال عمر رضى الله عنه إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به قفلا يصيب ذلك وقال مجاهد التعابون في الله إذا التقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تحتات عنهم الخطايا كما تحت ورق الشجر في الشتاء إذا دبس وقال الفضيل نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

(يان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا)

اعلم أن الحب في الله والبغض في الله غامض وينكشف الغطاء عنه بما ذكره وهو أن الصعبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق كالصعبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في الكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد وهو الذي نريد يانه إذا الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لا محالة إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها والصعبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فان غير المحبوب يختب ويأعد ولا يقصد مخالطته والذي يحب فاما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحفظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام . القسم الأول : وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له فان كل جميل لذيد في حق من أدرك جماله وكل لذيد محبوب واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والواقعة بين الطباع ثم ذلك للمستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعنى حسن الخلقة وإما أن يكون هي الصورة الباطنة أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل السليم وكل مستحسن فمستلذبه ومحبوب بل في اتلاف القلوب أمر أغمض من هذا فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحظة في صورة ولا حسن في خلق وخلق ولكن مناسبة باطنة توجب الألفة والواقعة فان شبه الشيء ينحذب إليه بالطبع والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ^(١) » قالتنا كرتيجة التباين والائتلاف نتيجة التناصب الذي عبر عنه بالتعارف وفي بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام في الهواء ^(٢) » وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلما أطافها حول العرش فأى روحين من فلقين تعارفا هناك فالتقيتا واصلتا في الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم ومارأى أحدهما صاحبه قط ^(٣) » وروى « أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فزلت الكعبة

(١) حديث الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقا من حديث عائشة (٢) حديث الأرواح تلتقي فتتشام في الهواء الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي بن الأرواح في الهواء جند مجندة تلتقي فتتشام الحديث .

(٣) حديث إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم ومارأى أحدهما صاحبه قط أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ تلتقي وقال أحدهم وفيه ابن لهيعة عن دراج .

إلى معلوم ولا يقسب بكسب ولا سؤال ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل في وقت فاقته ولم في كل ذلك أدب واحد يراعونه ولا يتعدونه وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب فلا يبنين للفقير أن يسأل مهما أمكن فقد حدث النبي عليه السلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب فأما الترغيب فأروى ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يضمن لي واحدة أتكفل له بالجنة قال ثوبان قلت أنا قال لا تسأل الناس شيئا » فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله وينزل هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال

على المدينة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها فقالت أين نزلت فذكرت لها صاحبها فقالت صدق الله ورسوله (١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الأرواح جنود مجندة» الحديث والحق في هذا أن الشاهدة والتجربة تشهد للاتلاف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم . وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها وغاية هديان النجم أن يقول إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تليثه فهذا نظر للواقعة والوادة فتقتضي التناسب والتواد وإذا كان على مقابلته أو تريعه اقتضى التباغض والصدادة فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجاري سنة الله في خلق السموات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب فلا معنى للغرض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ويكفي في التصديق بذلك التجربة والشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم «لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه (٢) » وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به . وكان مالك بن دينار يقول لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة قال فرأى يوما غرابا مع حمامة فجبج من ذلك فقال اتفقا وليسا من شكل واحد ثم طارا فاذاهما أعرجان فقال من ههنا اتفقا ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله كأن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يفترقا ، وهذا معنى خفي فطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل فكيف تفارقتما فقلت قولاً فيه إنصاف

لميك من شكلي ففارقتك والناس أشكال وألوان

قد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لقائده تنال منه في حال أو مآل بل لجبرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفتح الثرب بالجرة وإلى الماء الجاري والحضرة من غرض سوى عينها وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ويتصور ذلك بمن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم إذا لم يحجب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمى ولا يذم . القسم الثاني : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ولا غرض فيهما إلا لا يطم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث

(١) حديث إن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فزلت للكية على المدينة فدخلت على عائشة فذكرت حديث الأرواح جنود مجندة الحسن بن سفيان في مسنده بالقصة بسند حسن وحديث عائشة عند البخاري تعليقا مختصرا دونها كما تقدم (٢) حديث لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس وفيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه الحديث البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ولم يخرج له ولده في المسند .

رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فبأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه فان اليد العليا خير من اليد السفلى» . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ للقدس قال أخبرني والدي قال أنا أبو محمد الصيرفي بغداد قال أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال ثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال ثنا علي بن الجعد قال ثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال : أتيت المدينة فزلت دار أبي سعيد فضمني وإياه المجلس فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع فقالت لي امرأتك انت رسول الله صلى الله عليه وسلم

إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لا تتفاهه بماله أو جاهه ويجب خواصه لتحسين حاله عنده وتمهيد أمره في قلبه فالتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلذذ لأستاده فهو أيضا خارج عن الحب لله فانه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحوبه العلم فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحوبه الجاه والقبول والعلم وسيلة إليه والأستاذ وسيلة إلى العلم فليس في شيء من ذلك حب لله إذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلا ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح فان كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال الدنيا وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد للتوصل إليه فانها تابعة له غير قائمة بنفسها . القسم الثالث : أن يحبه لأفئدته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهذا من جملة المحبين في الله وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتأقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء ، إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء ولا يتم التعليم إلا بتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال فان أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرمته الذي هو سبب تربيته إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله بل الذي يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الفرية تقربا إلى الله فأحب طبائحا لحسن صنعه في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله بل يزيد على هذا وتقول إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكسب بيته وطبخ طعامه وبفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله بل يزيد عليه وتقول إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفائتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسي والمواسي جميعا من المتحابين في الله بل يزيد عليه وتقول من نكح امرأة سالحة ليتحصن بها عن وشواس الشيطان ويصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعوله وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدنيوية فهو محب في الله ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الاتفاق على العيال حتى اللقمة يضمها الرجل في أمراته (١) بل تقول كل من اشترى محب الله وحبه رضاه وحبه لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل بل أزيد على هذا وأقول إذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد اللتان جميعا حتى صلح لأن يتوصل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة فهو وسيلة إليهما فهو محب في الله وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل

(١) حديث الأجر في الإتفاق على العيال حتى اللقمة يضمها الرجل في أمراته تقدم .

عليه وسلم فقد أنام
فلان فأعطاه وأنام
فلان فأعطاه قال فأثبته
وقالت الخمس شيئا
فذهبت أطلب فأنهبت
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو غطيظ
ويقول «من يشتف
يفيه الله ومن يستغن
يفيه الله ومن سألنا
شيئا فوجدناه أعطينا
وواسيناه من استغف
عنه واستغنى فهو أحب
إلينا ممن سألنا» قال
فرجعت وما سألته
فرزقني الله تعالى حتى
ما أعلم أهل بيت من
الأنصار أكثر أموالا
منه وأما من حيث
الترهيب والتحذير فقد
روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال «لا تزال المسئلة
بأحدكم حتى يلقي الله
وليس في وجهه مزعة
لحم» وروى أبو هريرة
رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم «ليس
المسكين الذي تزدونه

خطا ألبته إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم - ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة - وقال عيسى عليه السلام في دعائه : اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسوئني صديق ولا تجعل مصيبتى لدينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى فدفعت شجاعة الأعداء من حظوظ الدنيا ولم تقل ولا تجعل الدنيا أصلا من همى بل قال لا تجعلها أكبر همى وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ^(١) » وقال « اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(٢) » وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضا لحب الله تعالى لحب السلامة والصحة والكفاية والمكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضا لحب الله والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداها أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم وإنما يحبها غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضا إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاف حظوظ الآخرة وينتفع منها وهي التي احتجز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يضاف وهي التي لم يتمتعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك فما يضاف حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه أعنى أن يكرهه بقله لا بطبعه كما يكره تناول من طعام لقيده الملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حزت رقبتة لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهي بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به والقصد من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدها حظ عاجل والآخر آجل لكان في زمة التحاين في الله ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلا أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقدته هو لله تعالى وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب فليس حبك للذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما يوصل إليه الفضة فاذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله، وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب في الله وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فذلك الزيادة من الحب في الله فذلك وإن دق فهو عز يز قال الجريري تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رقق الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء. وفي الثالث بالمرودة حتى ذهبت المرودة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة. القسم الرابع : أن يحب لله وفي الله لا لئلا يمنه علما أو عملا أو يتوصل به إلى أمر وراء ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأعظمها وهذا القسم أيضا ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولومن بعد فن أحب إنسانا حبا شديدا أحب عب ذلك الإنسان وأحب محبوه وأحب من يخدمه وأحب من يثق عليه محبوه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوه حتى قال بقية بن الوليد إن للؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه وهو كما قال ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بن عامر

(١) حديث اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم (٢) حديث اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة ، أحمد من حديث جرير بن أبي أرطاة نحوه بسند جيد .

الأكله والأكلتان
والتمرة والتمران
ولكن للسكين الذي
لا يسأل الناس ولا
يغتن بمكانه فيعطى
هذا هو حال الفقير
الصادق والتصوف
الحق لا يسأل الناس
شيئا ومنهم من يلزم
الأدب حتى يؤديه إلى
حال يستحي من
الله تعالى أن يسأله
شيئا من أمر الدنيا
حتى إذا همت النفس
بالسؤال زده الهية
ويرى الإقدام على
السؤال جراءة فيعطيه
الله تعالى عند ذلك
من غير سؤال كما قل
عن إبراهيم الخليل
عليه السلام : أنه جاءه
جبريل وهو في الهواء
قبل أن يصل إلى النار
فقال هل لك من حاجة
فقال أما إليك فلا
فقال له قد ربك
فقال حسبي من سؤالى
عليه بحالى وقد يضعف
عن مثل هذا فيسأل
الله عبودية ولا يرى

أمر على الديار ديار ليل أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فإذن للشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولومن بعد ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لا يكفى فيه ويكون اتساع الحب في تمديه من المبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستنثار فيتمدى إلى كل موجود دسوله فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعة وخطه وجميع أفضاله وقد لك كان ^{عليه السلام} إذا حمل إليه با كورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال إنه قريب المهدي ربنا (١) وحب الله تعالى تارة يكون لصلى الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته وتارة قداته لا لأمر آخر وهو أذق ضروب المحبة وأعلاها وسيأتي تحقيقها في كتاب المحبة من ربيع اللجيات إن شاء الله تعالى وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى تمدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتمدى إلى ماهو في نفسه مؤلم مكروه ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المبوب وقصده إياه بالإيلايم بنمر إدراك الألم وذلك كالفرح بضرب قوس المبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة فإن قوة المحبة تثير فرحنا بمر إدراك الأمل فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله قالوا لفرح الإيماء بمرضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بحصية الله وقال ممنون : وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة وللقصود أن حب الله إذا قوى أمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بأداب الشريعة ومامن مؤمن محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ثم ضعف ذلك الليل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الليل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة فذلك الليل هو حب في الله والله من غير حظ فانه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر فإذا قوى حمل على اللوالة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المبوب في الحال أو اللال لما تصور حب للوقى من العلماء والمباد ومن الصحابة والتابعين بل ومن الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ويتبين ذلك بغضبه عند ظمن أعدائهم في واحد منهم وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يتمتعن الحب بالمقابلة بحفظ النفس وقد يئلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيها هو حظ المبوب وعنه عبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

(١) حديث كان إذا حمل إليه با كورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال إنها قريب عهد برها الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس ، وأبو داود في الراسل والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله وأكرمها الخ وقال إنه غير محفوظ وحديث أبي هريرة في البا كورة عند بقية أصحاب السنن دون مسح عينيه بها وما بعده وقال الترمذي حسن صحيح .

سؤال المخلوقين فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق. بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول : إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء لا تغلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه فتنبه النفس له فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنوب وجد منه فإذا وجد الفقير ذلك وألحت النفس بالمطالبة فليقم وليسبح الوضوء ويصل ركعتين ويقول : يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فأستغفرك وأتوب إليك وإن كانت لرزق قدرته لي فبجل وصوله إلى فإن الله تعالى يسوقه إليه إن

كان رزقه وإلا فليطلب المطالبة عن باطنه

وقول من قال * وما لجرح إذا أرمأكم ألم * وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشرة فقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئا مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالا فلم ابنته التي هي قرة عينه وبذل جميع ماله ، قال ابن عمر رضي الله عنهما « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه عن الله السلام وقال له يا رسول الله مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فقال أنفق - والله على قبل الفتح قال فأقرأه من الله السلام وقل له يقول لك ربك أراض أنت عني في قهرك هذا أم ساخط ؟ قال فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول أراض أنت عني في قهرك هذا أم ساخط قال فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال أهي ربي أسخط أنا عن ربي راض أنا عن ربي راض (١) . فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عبدا أو أحب شخصا راغبا في علم أو في عبادة أو في خير فأنما أحبه في الله والله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله أيضا ولكن نزيد يانا .

(بيان البغض في الله)

اعلم أن كل من يحب في الله لابد أن يبغض في الله فانك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله ومحقوق عند الله ومن أحب بسبب بالضرورة يبغض لضده وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مقرر في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالطة والمواقفة فإذا ظهر في الفعل ممي موالاة ومعاداة ولذلك قال الله تعالى : هل واليت في وليا وهل عادي في عدوا كما قلناه ، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فانك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان وكذلك تتناقض ثمرتهما من اللواقفة والمخالفة والموالاة والمعاداة فأقول ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية فانه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فانك تحبه من وجه وتبغضه من وجه فمن له زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكي خدوم ولكنه فاسق فانه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فانه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والاقبال والصعوبة والقطعة وسائر الأفعال الصادرة منه . فإن قلت فكل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الاسلام . فأقول تحبه لاسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قسمتها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب الاسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله

(١) حديث ابن عمر بيننا النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فأقرأه من ربه السلام الحديث ابن حبان والتمثيل في الضعفاء قاله الذهبي في البرازان هو كذب .

فصان الفقير أن ينزل حوائجه بالحق فاما أن يرزقه الله أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه لله سبحانه ونصالي أجواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة فان فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة وبآية الله يخرق العامة كما كان يأتي مريم عليها السلام - كما دخل عليها زكريا الهرباب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله - حكى عن بعض الفقهاء قال جئت ذات يوم وكان حالي أن لأسأل فدخلت بعض المجال ينقاد مجازا متحررا لعل الله تعالى يفتح لي على يد بعض عباده شيئا فلم يقدر ففست جائعا فأتى آت في منامي فقال لي اذهب إلى موضع كذا وعين الوضع قم خرقه زرقاء

والطاعة له كالجنابة على حثك والطاعة لك فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الاتقياض والاسترسال وبين الأقبال والاعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ولا تتألف في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ولا تتألف في إهانتك مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجنابة وتارة إلى طرف المجاملة والاكرام عند غلبة الموافقة فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولخطئه أخرى . فان قلت فهذا يمكن إظهار البغض فأقول أما في القول فكف اللسان عن مكائده ومحادثته مرة وبالاتخفاف والتغليظ في القول أخرى وأما في الفعل فبقطع السعي في إهانتك مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى وبعض هذا أشد من بعض وهو بحسب درجات الفسق والعصية المصادرة منه . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فان كان بمن تأكدت بينك وبينه مودة ومحبة وأخوة فله حكم آخر ونسأني وفيه خلاف بين العلماء . وأما إذا لم تتأكد أخوة ومحبة فلا بد من إظهار أثر البغض إما في الاعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه وهذا أشد من الاعراض وهو بحسب غلظ العصية وخفتها وكذلك في الفعل أيضا ربتان أحدهما قطع للمونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات والأخرى السعي في إفساد أغراضه عليه كقتل الأعداء للبغضين وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق العصية أما ما لا يؤثر فيه فلا ، مثاله رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطا بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منته من شرب الخمر ولا في بئس وعريض عليه فإذا قدرت على إهانتك لبيته غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه أما الإهانة فلوتركتها إظهارا للغضب عليه في فسقه فلا بأس وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تلطف بأعانتك وإظهار الشفقة عليه ليعتد مودتك ويقبل نصحتك فهذا حسن وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بمنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجنابة على حثك أو حق من يتعلق بك وفيه زل قوله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة - إلى قوله تعالى - ألا تحبون أن يغفر الله لكم - إذ تكلم مسطح بن أثانة في واقعة الإفك^(١) خلف أبو بكر أن يقطع عنه رقه وقد كان يواسيه بالمال فزلت الآية أبع عظم معصية مسطح وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالجنبي عليه في نفسه بتلك الواقعة والعمو عمن ظلم والاحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين وإنما يحسن الاحسان إلى من ظلمك فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن الاحسان إليه لأن في الاحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم وحق المظلوم أولى بالمراعاة وتقوية قلبه بالاعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حثك العفو والصفح . وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره فأما من عصى الله في نفسه ففهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم . ومنهم من شدد الانكار واختار المهاجرة فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكار في أدنى كلمة حتى هجر يحيى بن معين لقوله إن لا أسأل أحدا شيئا ولو حمل السلطان إلى شيئا لأخذته ، وهجر الحرث

(١) حديث كلام مسطح في الإفك وهجر أبي بكر له حتى زلت ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية متفق عليه من حديث عائشة .

فيها قطيعات أخرجهما في مصالحك فمن تجرد عن المخلوقين وتفرّد بالله قصد تفرد بنبي قادر لا يعجزه شيء .
يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء وأولى من سأل نفسه بإلها الصبر الجليل فان الصادق تهيئه نفسه . وعكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له أريد جبة قال قلت له ما تفضل بالجبة فذكر شهوة يشتريها بالجبة ثم قال من إذ ذلك اذهب واستقرض الجبة قال قلت نعم استقرضها من قصك فهي أولى من أقرض . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إن شئت أن تستقرض المال منفقا
على شهوات النفس في زمن السر
فصل نفسك للاتفاق من كنز صبرها

الحاسي في تصديقه في الرد على المعتزلة وقال إنك لا بد تورث أولادهم وتعمل الناس على التفكير فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبو ثور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته (١) » وهذا أمر مختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلا في العادة والبغض وله وجه ولكن قد تلبس به الداهنة فأكثر البواعث على الاغضاء عن المعاصي للداهنة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها وقد يلبس الشيطان ذلك على النبي الأحق بأنه ينظر بعين الرحمة ويحك ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخره والقدر لا ينفع منه الحذر وكيف لا يفعله وقد كتب عليه قتل هذا قد تصح له نية في الإغضاء عن الجناية على حق الله وإن كان يتأط عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداهن مفرور بمكيده من مكاييد الشيطان فليتبذره . فإن قلت فأقل الدرجات في إظهار البغض المهجر والاعراض وقطع الرفق والاعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه . فأقول لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والایجاب فانا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتماطوا الفواحش في زمان رسول الله ﷺ والصعابة ما كانوا يهجرهم بالكيفية بل كانوا منقسمين فيهم : إلى من يلفظ القول عليه ويظهر البغض له ، وإلى من يرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر القاطعة والتباعد فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يختص به حاله ووقته ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والایجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يتعدى من المبوب إلى غيره وإنما التمدى إفراط الحب واستيلاؤه وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلا .

(بيان مراتب الذين ينفذون في الله وكيفية معاملتهم)

فإن قلت إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجبا فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفاسق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا . فأقول أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يغلو إما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر والبتدع إما دأع إلى بدعته أو ساكت إما بجزءه أو باختياره فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة الأول : الكفر فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والارفاق وليس بدهذين إهانة وأما الذي فانه لا يجوز إيذاؤه إلا بالاعراض عنه والتحقيره بالاضطرار إلى أنصيق الطرق وبترك اللفافة بالسلام فإذا قال السلام عليك قلت وعليك والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الاصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى - لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشراهم - الآية ، وقال ﷺ « السلم والمشاركة لا تراهي نارها (٢) » وقال عز وجل - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء - الآية . الثاني المبتدع الذي يدعو إلى بدعته فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذي لأنه لا يقر بعجزية ويسامح بفقد ذمة وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة ولكن الأمر في الانكار عليه أشد منه

عليك وإرفاقا إلى
زمن اليسر
فإن قلت كنت الغنى
وإن أبت
فكل ممنوع بعدها
واسع العذر
فاذا استغنى الفقير
الجهل من نفسه
وأشرف على الضعيف
وتحقق الضرورة
وسأل مولاه ولم يقدر
له شيء ووقته يضيق
عن الكسب من شغله
بحاله فعند ذلك يقرع
باب السبب ويسأل
قد كان الصالحون
يفعلون ذلك عند
فائقهم . نقل عن أبي
سعيد الخزاز أنه كان
يعد يده عند الفاقة
ويقول : ثم شيء لله .
ونقل عن أبي جعفر
الحسداد وكان أستاذنا
للجنيد أنه كان يخرج
بين العشائين ويسأل
من باب أو باين
ويكون ذلك معلومه
على قدر الحاجة بعد
يوم أو يومين . ونقل
عن إبراهيم بن آدم

(١) حديث إن الله خلق آدم على صورته مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث المؤمن والمؤمن والمؤمنين لا تراهي نارها أبو داود والترمذي من حديث جرير أنا برى من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين قالوا يا رسول الله ولم ؟ قال لا تراهي نارها ورواه النسائي مرسل وقال البخاري الصحيح أنه مرسل .

على الكافر لأن شر الكافر غير متحد فان المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لا يدعى لنفسه الاسلام واعتقاد الحق . أما البدع الذي يدعو إلى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد فلاستحباب في إظهار فضله ومعاداته والاقطاع عنه وتحقيره والتشجيع عليه يدعته وتغيير الناس عنه أشد وإن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه وإن علمت أن الاعراض عنه والسكوت عن جوابه يقع في نفسه بدعته ويؤثر في زجره ترك الجواب أولى لأن جواب السلام وإن كان واجبا فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الانسان في الحمام أو في قضاء حاجته وغرض الزجرهم من هذه الأعراض وإن كان في ملأ ترك الجواب أولى تغييرا للناس عنه وتغييرا لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كلف الاحسان إليه والاهانة له لاسيا فيما يظهر للخلق قال عليه السلام « من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيماننا ومن اتهم صاحب بدعة أمته الله يوم القزع الأكبر ومن آلان له وأكرمه أوليه يبشر قد استخف بما أنزل الله على محمد ﷺ (١) » . الثالث : للبدع العاصي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يقابح بالتعليق والاهانة بل يتلف به في النصح فان قلوب العوام سريعة التقلب فان لم ينفع النصح وكان في الاعراض عنه تقييح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الاعراض وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالاعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحها شاعت بين الخلق وعم فسادها . وأما العاصي بفعله وعمله لاعتقاده فلا يغلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره كالظلم والنصب وشهادة الزور والنية والتضريب بين الناس والنهي بالنيمة وأمثالها أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء وبهي أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذي ضرب ويزني وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة وكل واحد فلما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر فهذه التقيحات تحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولانسلك بالكل مسلكا واحدا . القسم الأول : وهو أشدها ما يتضرر به الناس كالظلم والنصب وشهادة الزور والنية والنيمة فهؤلاء الأولى الاعراض عنهم وترك مخالطتهم والابتعاض عن معاملتهم لأن للعصية شديدة فما يرجع إلى إبداء الخلق ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في السماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض وبعضها أشد من بعض فلاستحباب في إهانتهم والاعراض عنهم مؤكدا جدا ومهما كان يتوقع من الاهانة زجرا لهم أوليهم كان الأمر فيه أكد وأشد . الثاني : صاحب الماخور الذي بهي أسباب الفساد ويسهل طريقه على الخلق فهذا لا يؤذى الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم وإن كان على وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فان للعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعد على الجماعة إلى غيره فهو شديد وهذا أيضا يقتضي الاهانة والاعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أوليهم . الثالث : الذي يغشى في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مفارقة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته ان صودف يجب منه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فان التهي عن السكر واجب وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتعليق إن كان

(١) حديث من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيماننا ، الحديث أبو نعيم في الحلية والمروى

في ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضيف .

أنه كان متسكفا بجامع البصرة مدة وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة ليلة إفطاره يطلب من الأبواب وتقل عن سفیان الثوري أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق وقال كنت أذكر لهم حديثا في الضيافة فيقدم لي الطعام فأتناول حاجتي وأترك ما بقي . وقد ورد من جاع ولم يسأل فئات دخل النار ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا بل يسأل بالعلم وبالحكمة عن السؤال بالعلم . وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصي ثم اتقه وتاب وحسنت توبته وصار له حال مع الله تعالى قال : عزمت أن أحج مع القافلة ونويت أن لأسأل أحدا عينا وأكتفي بعلم الله بحالي قال فبقيت ألبما في

هو الأنفع فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصير وأن النصيح ليس ينفعه فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال الأعمال بالنيات إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفنى فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ باظهار العلو والادلال بالصلاح وقد يكون رفقته عن مدهانة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو لحوف من تأثير وحشته ونفرتة في جاء أو مال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة فكل راغب في أعمال الدين يجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال والقلب هو الفتى فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يهجم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة وسيأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربيع الهلكات ، ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روى أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات وهو يعود فقال واحد من الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يشرب فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك (١) » أو لفظاً هذا معناه وكأن هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتفريط .

(بيان الصفات المشروطة فيمن تختار محبته)

اعلم أنه لا يصلح للصحة كل انسان قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل (٢) » ولا بد أن يتميز بمخالفات وصفات يرغب بسببها في محبته وتشرط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود بالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط ويطلب من الصحة فوائد دينية ودنيوية أما الدنيوية فكالاستغناء بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا . وأما الدينية فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ومنها الاستفادة للمال لا اكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال ومنها التبرك بمجرد الدعاء ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال بعض السلف استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك وروى في غريب التفسير في قوله تعالى - ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله - قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه ولذلك حدث جماعة من السلف على الصحة والآلفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها ونحن نفصلها أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر محبته خمس خصال أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في محبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت قال صلى الله عليه وسلم : فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكلم من جاهل أردى حلياً حين آخاه يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

الطريق فتح الله على
بالماء والزاد في وقت
الحاجة ثم وقف الأمر
ولم يفتح الله على شيء
لجأت وعطشت حتى
لم يبق لي طاقة فضعفت
عن الشيء وبقيت متأخرة
عن القافلة قليلاً قليلاً
حتى مرت القافلة فقلت
في نفسي هذا الآن
مضى إلقاء النفس إلى
الهلكة وقد منع الله
من ذلك وهذه مسألة
الاضطرار أسأل فلما
همت بالسؤال انبعث
من باطني إنكار لهذه
الحال وقأت عزيمة
عقدتها مع الله لا أقصها
وهان على الموت دون
نقص عزيمة قصدت
شجرة وقصدت في
ظلمها وطرحت رأسي
استطرحاً للسوت
وذهبت القافلة فيينا
أنا كذلك إذ جاءني
شاب متسللاً بسيف
وحركني فقصت وفي
يده أداة فيها ماء
فقال لي اشرب فشربت
ثم قدم لي طعاماً وقال

(١) حديث إن شارب خمر ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه لا تكن عوناً للشيطان على أخيك البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث المرء على دين خليله الحديث أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح إن شاء الله .

كيف والأحق قد يضررك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر :

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتره جنون

فالقفل فن واحد وطريقه أدري فأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل مقاطعة الأحق قربان إلى الله . وقال الثوري : النظر إلى وجه الأحق خطيئة مكتوبة ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور من معنى عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو غل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لمعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في محبته ، وأما الفاسق المصير على الفسق فلا فائدة في محبته لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة ومن لا يخاف الله لا يؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض وقال تعالى - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه - وقال تعالى - فلا يصدرك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه - وقال تعالى - فأعرض عمن أتولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا - وقال - واتبع سبيل من أناب إلى - وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما اللبتدع ففي محبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر محبته وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب الدين في الصديق فيما رواه سعيد بن السيب قال : عليك بأخوان الصديق تعش في أكنافهم فأنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما ينبئك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا آمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ولا تطلمه على سره واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة البطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يا بني إذا عرضت لك إلى محبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن محبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بغير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها ، اصحب من إذا سأله أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمرا أمرك وإن تنازعتما آترك فكانه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكرم قال المأمون فأين هذا فليله أتدري لم أوصاه بذلك قال لا قال لأنه أراد أن لا يصحب أحدا . وقال بعض الأدباء لا تصحب من الناس إلا من يكرمك ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسناتك ويطوى سيئاتك فإن لم تجد فلا تصحب إلا نفسك ، وقال علي رضي الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب زمان صدعك شئت فيه فمهله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين رجل تتعلم منه شيئا من أمر دينك فينفعك أو رجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه ، وقال بعضهم : الناس أربعة فواحد حلو كله فلا يشبع منه وآخر مر كله فلا يؤكل منه وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويعد منك القريب ، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك ، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها قليل وما أقل منها قال الطمع فيها ثم لا ينالها . وقال الجنيد لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارى

كل فأكلت ثم قال لي
أريد القافلة فقلت من
لي بالقافلة وقد عبرت
فقال لي قم وأخذ
يسدى ومشي معي
خطوات ثم قال لي
اجلس فالتفتة إليك
تجني فجلست ساعة
فإذا أنا بالقافلة ورائي
متوجهة إلى ، هذا شأن
من يعامل مولا
بالصدق وذكر
الشيخ أبو طالب السكي
رحمه الله أن بعض
الصوفية أول قول
رسول الله صلى الله عليه
وسلم « أحل ما أكل
المؤمن من كسب يده »
بأنه للسألة عند القافة
وأنكر الشيخ
أبو طالب هذا التأويل
من هذا الصوفي وذكر
أن جفرا الخلدی كان
يحكي هذا التأويل عن
شيخ من شيوخ
الصوفية ووقع لي والله
أعلم أن الشيخ الصوفي
لم يرد بكسب اليد
ما أنصكر الشيخ
أبو طالب منه وإنما

سبي الخلق ، وقال ابن أبي الحواري قال لي أستاذي أبو سليمان يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين رجلاً ترتفع به في أمر دينك أو رجلاً يزيد معه وتنفع به في أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حق كبير . وقال سهل بن عبد الله : اجتنب محبة ثلاثة من أصناف الناس الجبارة العافلين والقراء الدهانين والتسوفة الجاهلين . واعلم أن هذه السمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحة والهيئ ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط للصحة في مقاصد الدنيا مشروطاً للصحة في الآخرة والأخوة كما قاله بشر . الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك وأخ لدينك وأخ لنفسك به . وقلنا تجتمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جمع فتفرق الشروط فهم لا محالة ، وقد قال للمؤمن الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ولكن البعد قد يبتلى به وهو الذي لأنس فيه ولا تنفع ، وقد قيل مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن وقع الدنيا كالظل السريع الزوال ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ومنها ماله ثمر وظل جميعاً ومنها ما ليس له واحد منهما كأمر غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب ومثله من الحيوانات الفأرة والعرب كما قال تعالى - يدعو لمن ضره أقرب من نعمة لبئس للولى ولبئس العشير - وقال الشاعر :

الناس شتى إذا ما أمت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوى الشجر

هذا له ثمر حلو مذاقه وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فاذا لم يجد رفيقاً يؤاخي ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو بكر رضي الله عنه الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ويروى مرفوعاً . وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى - واتبع سبيل من أناب إلى - ولأن مشاهدة الفسق والفساق نهون أمر العصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لا تنتظروا إلى الظلمة فتجنب أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلاماً في مخالطتهم وإنما السلامة في الانقطاع عنهم . قال الله تعالى - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً - أي سلامة والألف بدل من الهاء ومعناه إنا سلمنا من إفسادكم وأنتم سلمتم من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها ، فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بمحبتها ، وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والانتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه ، فبجالة الحريص على الدنيا تهرك الحرس وبجالة الزاهد تهزه في الدنيا فلذلك تسكره محبة طلاب الدنيا ويستحب محبة الراغبين في الآخرة . قال علي عليه السلام : أحبوا الطاعات ببجالة من يستحبها منه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله ما أوقعني في بلية إلا محبة من لأحتشمه . وقال لقمان : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب لتحيا بالحسنة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر .

(الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة)

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين وكإتفاي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح فكذلك عقد الأخوة . فلا خليك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعمو والدعاء وبالاخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يحمله ثمانية حقوق :

(الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة)

أراد بكسب الدير فيها إلى الله تعالى عند الحاجة فهو من أهل ماياً كله إذا أجاب الله سؤاله وساق إليه رزقه وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام - رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير - قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال ذلك وإن خضرة البقل تراءى في بطنه من الهزال . وقال محمد الباقر رحمه الله قلما وإنه يحتاج إلى شق ثمرة وروى عن مطرف أنه قال : أما والله لو كان عند نبي الله شيء ما اتبع المرأة ولكن حملته على ذلك الجهد وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن النضر ابني أنه قال في قوله - إني لما أنزلت إلي من خير فقير - لم يسأل الحكيم الخافي وإنما كان سؤاله من الحق ولم يسأل غداء النفس إنما أراد

(الحق الأول في المال)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل الأخوين مثل الدين تسفل إحداهما الأخرى» (١) وإيما شبههما بالدين لا باليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الإخوان إنما تم أخوتهما إذا تراقبا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد وهذا يقتضى المساهمة في السراء والضراء والشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار . والواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك فإذا سئمت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تجوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التخصير في حق الأخوة . الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بشاركتك إياك في مالك ونزوله منزلك حتى تسمح بمشاطرته في المال . قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه . الثالثة : وهي العليا أن تؤثر على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات التحابين ومن ثمار هذه الرتبة الايثار بالنفس أيضا كما روى أنه سمى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النورى فبادر إلى السيف ليكون هو أول مقتول قيل له في ذلك فقال أحببت أن أوتر إخواني بالحياة في هذه اللحظة فكان ذلك سبب نجاتهم جميعهم في حكاية طويلة فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينقد بعد في الباطن وإيما الجارى بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الافضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد أخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغى أن لاتعامله في الدنيا . قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة . وأما الرتبة العليا فهي التي وصف الله تعالى للؤمنين بها في قوله - وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون - أي كانوا خلطاء في الأموال لا يعيز بعضهم رحله عن بعض وكان منهم من لا يصحب من قال نعلى لأنه أضافه إلى نفسه وجاء فتح الموصلى إلى منزل لأخ له وكان غائبا فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاهما فقال إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل ، وجاء رجل إلى أبي هريرة رضى الله عنه وقال إنى أريد أن أواخيك في الله فقال أترى ما حق الإخاء قال عرفنى قال أن لاتكون أحق بدينارك ودرهمك منى قال لم أبلغ هذه المنزلة بعد قال فاذهب عني وقال على بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه قال لا قال فلستم باخوان ودخل قوم على الحسن رضى الله عنه فقالوا يا أبا سعيد أصليت قال نعم قالوا فإن أهل السوق لم يصلوا بعد قال ومن يأخذ دينه من أهل السوق بلغنى أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم قاله كالمعجب منه وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال إنى أريد أن أرافقك فقال له إبراهيم على أن أكون أملك لشيتك منك قال لا قال أعجبني صدقك . قال فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يغالقه وكان لا يصحب إلا من يوافقه ، وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصة من تريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصة وردها إلى صاحب الهدية فلما جاء رفيقه قال أين الشراك قال ذلك الثريد الذى أكلته إيش كان قال كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة قال اصبر بسمعك

(١) حديث مثل الأخوين مثل الدين الحديث تقدم في الباب قبله .

سكون القلب . وقال أبو سعيد الخراساني الخلق مترددون بين ما لهم وبين ما إليهم من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفخر ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والفخر الأثرى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال : أرني أنظر إليك . ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إنى لما أنزلت إلى من خير قدير . وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية غشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار افتقار العبيد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال وطلب . وقال الحسين : فقير لما خصصتنى من علم اليقين أن ترقينى إلى عين اليقين وحقه ووقع واقفه أعلم في قوله لما أنزلت

وأعطى مرة حمرا كان لرفيقه بغير إذنه رجلا رآه راجلا فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال أخى فلان أحوج مني إليه فبعت به إليه فبعت ذلك الانسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن سروقاً ادان ديناً ثقبلاً وكان على أخيه خيشمة دين قال فذهب مسروق ففقد دين خيشمة وهو لا يعلم وذهب خيشمة ففقد دين مسروق وهو لا يعلم ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله لك فيهما (١) فأثره بما آثره به وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة والبداءة إيثار والإيثار أفضل من المساواة وقال أبو سليمان الداراني لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقلتها له وقال أيضاً إنى لأتقم اللقمة أخاً من إخواني فأجد طعمها في حلقى . ولما كان الإيثاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال على رضي الله عنه لعشرون درهما أعطوها أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين وقال أيضاً لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلى من أن أعتق رقبة . واقتداء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه فقال له يارسول الله كنت والله أحق بالمستقيم منى فقال « ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من النهار إلا سئل عن محبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه (٢) » فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في المحبة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يفتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله ﷺ حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال بأبى أنت وأنى يارسول الله لا تفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحدهما إلى الله أرقهما بصاحبه (٤) » وروى أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائباً فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك كف يدك حتى يجي صاحب البيت فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقاً فدخل الحسن وقال يا مويلك هكذا كنا لا نعشم بعضنا بعضاً حتى ظهرت أنت وأصحابك وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى - أوصديقكم - وقال - أو ماملكم مفاتيحهم - إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض التصرف كما يريد وكان أخوه يتخرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والاصدقاء .

(الحق الثاني في الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات

والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة)

(١) حديث لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله لك فيهما رواه البخاري من حديث أنس (٢) حديث أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع للمستقيم إلى صاحبه الحديث لم أقف له على أصل (٣) حديث ستر حذيفة لاني صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره صلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل لم أجده أيضاً (٤) حديث ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحدهما إلى الله أرقهما بصاحبه تقدم في الباب قبله بلفظ أشدهما حياً لصاحبه .

إلى من خير فقير . أن
الانزال مشعر يبعد
رتبته عن حقيقة القرب
فيكون الانزال عين
الفقر فما وقع بالمتزل
وأراد قرب المتزل ومن
صح فقره فققره في
أمر آخرته كفقره في
أمر دنياه ورجوعه
إليه في الدارين وإياه
يسأل حوائج المتزلين
وتساوى عنده
الحاجتان فإله مع غير
الله شغل في الدارين .
[الباب العشرون في
ذكر من يأكل من
الفتوح]

إذا كمل شغل الصوفي بالله
وكل زهده لكل تقواه
بحكم الوقت عليه يترك
التسبب وينكشف
له صريح التوحيد
وصحة الكفالة من الله
الكريم فيزول عن
باطنه الاهتمام بالأقسام
ويكون مقدمة هذا
أن يفتح الله له باباً من
التعريف بطريق
المقابلة على كل فعل
يصدر منه حتى لو جزى

وهذه أيضا درجات كمالها واساها بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول اللذة وقال بعضهم إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلمه أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية - والوحي يعظم الله - وتضي ابن شبرمة حاجة بعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية فقال ماهذا قال لما أسديته إلى فقال خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يعهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعنه في الوحي قال جعفر بن محمد إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردم فيستغفروا عني هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء وكان في السالف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويعونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول هل لكم زيت هل لكم ملح هل لكم حاجة وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها قال ميمون بن مهران من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته وقال صلى الله عليه وسلم « ألا وإن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله تعالى أصفاه وأصلبها وأرقها أصفاه من الذنوب وأصلبها في الدين وأرقها على الإخوان ^(١) » وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تنفل عن أحوال نفسك وتقنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك تمت بها ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها بل تتفقد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالأكرام والزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد كان الحسن يقول إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة وقال الحسن من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة وفي الأثر ما زار رجل أخا في الله شوقا إلى لقائه لإخاءه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ^(٢) وقال عطاء تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغل فاعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم وروى « أن ابن عمر كان يلتفت عينا وشحالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحدا فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعنته ^(٣) » وفي رواية وعن اسم جده وعشيرته . وقال الشعبي في الرجل يحالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه تلك معرفة النوكي . وقيل لابن عباس من أحب الناس إليك قال جليسي وقال ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثا من غير حاجة له إلى فطمت ما مكافأته من الدنيا وقال سعيد ابن العاص لجليسي طي ثلاث إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وقد قال تعالى - رحما بينهم - إشارة إلى الشفقة والاكرام ومن تمام الشفقة أن لا يفرد بطعام لزيد

(١) حديث إن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله أصفاه وأصلبها الطبراني من حديث أبي عتبة الحولاني إلا أنه قال ألبها وأرقها وإسناده جيد (٢) حديث ما زار رجل أخا في الله الحديث تقدم في الباب قبله (٣) حديث ابن عمر إذا أحببت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته الحديث الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نعمة وقال غريب ولا يعرف ليزيد بن نعمة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم .

عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا مما هو منبى عنه في الشرع يجد غيب ذلك في وقته أو يومه كان يقول بعضهم : إنى لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي وقيل إن بعض الصوفية قرض القارخه فلما رآه تألم وقال :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي

بنو اللقيطة من ذهل ابن شيانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية حق يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت ويتجرد له حكم فعل الله وتتمحى عنه أفعال غير الله فيرى المعطى والمائع هو الله سبحانه ذوقا وحالا

أو بحضور في مسرة دونه بل يتنص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

(الحق الثالث)

(في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى) : أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يشككم به ولا يجاريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يخاطبه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه وليسكت عن أسرارته التي بها إليه ولا يبينها إلى غيره ألبتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة فإن ذلك من ثؤم الطبع وخبث الباطن وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه فإن الذي سبك من بلفك وقال أنس « كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا بشيء يكرهه ^(١) » والتأذي يحصل أولا من اللبغ ثم من القائل نعم لا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولا يحصل من اللبغ للدهش ثم من القائل وإخفاء ذلك من الحسد وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا إلا إذا وجب عليه النطق في أمر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فاذ ذاك لا يبالى بكرهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر . أما ذكر مساويه وعيوبه ومساوى أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويزجر عنه أمران : أحدهما أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئا واحدا مذموما فهو على نفسك مآثره من أخيك وقد رآه جاز عن قهر نفسه في تلك الحصة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستغله بحصة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب وكل مالا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقك عليه بأكثر من حق الله عليك . والأمر الثاني أنك تعلم أنك لو طلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولئن تجد من تصاحبه أصلا من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو فاذ غلبت المحاسن المساوي فهو الغاية والنتهى فالؤمن الكريم أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبت من قلبه التوقير والود والاحترام . وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ للمساوي والميوب قال ابن المبارك المؤمن يطلب العاذير والمنافق يطلب العثرات وقال الفضيل الفتوة الغفوة عن زلات الأخوان ولذلك قال عليه السلام « استعذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره ^(٢) » وما من شخص إلا ويمكن تخمين حاله بحصال فيه ويمكن تقيحه أيضا روى « أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذه فقال عليه السلام : أنت بالأمس تثنى عليه واليوم تنم عنه فقال والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه فقال عليه السلام : إن من البيان لسحرا ^(٣) » وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ولذلك قال في خبر آخر

(١) حديث أنس كان لا يواجه أحدا بشيء يكرهه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم واليلة بسند ضعيف (٢) حديث استعذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح : تمودوا بالله من جار السوء في دار اللقائم (٣) حديث أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذه الحديث وفيه فقال صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحرا الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک من حديث أبي بكره إلا أنه ذكر للدهش والقدم في مجلس واحد لا يومين ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا .

لا عسا وإيمانا ثم يتدراكه الحق تعالى بالمعونة ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى كما حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قبرة عمياء عرجاء ضيفة فوقف متسجعا منها متفكرا فيها تأكل مع عجزها عن الطيران والشيء والرؤية فينا هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجان في إحداها سمسم نقي وفي الأخرى ماء صاف فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انشقت الأرض وغابت السكرجان قال فلما رأيت ذلك سقط عن قلبي الاهتمام بالرزق فاذا أوقف الحق عبده في هذا اللقائم يزيل عن باطنه الاهتمام بالأنعام ويرى الدخول في التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة

« البذاء والبيان شعبتان من النفاق ^(١) » وفي الحديث الآخر « إن الله يكره لكم البيان كل البيان » وكذلك قال الشافعي رحمه الله ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يصيه ولا أحد يصي الله ولا يطيعه فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلا في حق الله فبأن تراء عدلا في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضا وحده أن لا تحمل ضلة على وجه فاسد ما أمكن أن تحمل على وجه حسن ، فأما ما انكشف يقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى ظنرا وهو الذي يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكا ضروريا لا يقدر على دفعه وإلى ما منشؤه سوء اعتقاده فيه حتى يصدر منه فعله وجهان فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأرذل من غير علامة تخصه به وذلك جنابة عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن إذا قال صلى الله عليه وسلم « إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ^(٣) » وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس ، وقد قال ^(٤) « لا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ^(٥) » والتجسس في تطلع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالمعين فستر العيوب والتجاهل والتناقل عنها شيمة أهل الدين ويكفيك تنبيهها على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجليل أن الله تعالى وصف به في الهداء قبيل يأمن أظهر الجليل وستر القبيح والرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستر العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيب فكيف لا تتجاوز أنت عن من هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ، وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أناسكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه قلوبا نستره ونقطيه قال بل تكشفون عورته قالوا سبحان الله من يفعل هذا فقال أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها . واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأقل درجات الأخوة أن يحامل أخاه بما يحب أن يحامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوي والعيوب ولو ظهر له منه قبيح ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه لما أبعد إذا كان ينتظر منه ما لا يضره له ولا يضره عليه لأجله وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال - ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون - وكل من يلتمس من الانصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسد فإن الحقود الحسود بلاء باطنه بالحب ولكن يحسه في باطنه ويخفيه ولا يديه مهما

(١) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله وعرضه ورجاله تحت إلا أن أباطي النيسابوري قال ليس هذا عندي من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو عندي من كلام ابن عباس وابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ولمسلم من حديث أبي هريرة كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٣) حديث إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث لا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذي قبله .

العوام ويصير مسلوب الاختيار غير متطلع إلى الأغيار ناظرا إلى فضل الله تعالى منتظرا لأمر الله ففساق إليه الأقسام ويضج عليه باب الانعام ويكون بدوام ملاحظته لفضل الله وترصد ما يحدث من أمر الله تعالى مكشفا له تجليات من مكشفا لله تعالى بطريق الأفصال والتجلى بطريق الأفصال رتبة من القرب ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والاشارة في هذه التجليات إلى رتب في اليقين ومقامات في التوحيد شيء شيء فوق شيء شيء أصفى من شيء فالتجلى بطريق الأفصال يحدث صفو الرضا والتسليم والتجلى بطريق الصفات يكسب الهية والأنس والتجلى بالذات يكسب الفناء والبقاء وقد

لم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء وترشح الباطن بحبته الدفين ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى قال بعض الحكماء ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه ومن في قلبه سخيمة على مسلم فأيمانته ضيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله . وقد روى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال كنت باليمن ولي جاري يهودي يخبرني عن التوراة يقدم على اليهودي من سفر قحلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الاسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة فقال اليهودي صدقت ولكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به إنا نحمد نعمة ونست أمتة في التوراة إنه لا يعمل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه السلم ، ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا في كل مقام فانه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزله وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن هذه حقيقة الأخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مزايا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كفرته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة (١) » وفي خبر آخر « فكأنما أحيا مودة (٢) » وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهو أمانة (٣) » وقال « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس مجالس يسفك فيه دم حرام ومجلس يستحل فيه فرج حرام ومجلس يستحل فيه مال من غير حله (٤) » وقال عليه السلام « إنما يتجالس التجالسان بالأمانة ولا يعمل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره (٥) » قيل لبعض الأدباء كيف حفظك للسر قال أناقبره وقد قيل صدور الأحرار قبور الأسرار وقيل إن قلب الأحق في فيه ولسان العاقل في قلبه أي لا يستطيع الأحق إخفاء ما في نفسه في يديه من حيث لا يدري به فمن هذا يجب مقاطعة الحق والتوقي عن محبتهم بل عن مشاهدتهم وقد قيل لآخر كيف تحفظ السر قال أجدد الخبر وأحاف للستخير . وقد قال آخر أستره وأستراني أستره وعبر عنه ابن المنز قال :
ومستودعي سرا تبوات كتمه فأودعته صدرى فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه :

وما السر في صدرى كشوا بقره لأنى أرى القبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساء حق ككأننى بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

(١) حديث من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال يوم القيامة ولم يقل في الدنيا ولمسلم من حديث أبي هريرة من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٢) حديث فكأنما أحيا مودة من قبرها أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مودة زاد الحاكم من قبرها وقال صحيح الاسناد (٣) حديث إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهي أمانة أبو داود والترمذي من حديث جابر . وقال حسن (٤) حديث المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس الحديث أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه (٥) حديث إنما يتجالس للتجالسان بالأمانة لا يعمل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلًا والحاكم ومصححه من حديث ابن عباس إنكم تجالسون بينكم بالأمانة .

يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء ينعون به فناء الإرادة والهوى والارادة ألطف أقسام الهوى وهذا الفناء هو الفناء الظاهر فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود يكون في تجلى الذات وهو أكل أقسام اليقين في الدنيا فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة وهو للقام الذى حظى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العراج ومنع عنه موسى بلن ترانى فليعلم أن قولنا في التجلى إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة فإذا وصل المبدأ إلى مبادئ أقسام التجلى وهو مطالعة الفعل الإلهى مجردا عن فعل سواء يكون تناوله الأقسام من الفتوح . روى عن رسول الله صلى الله

وأثنى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له حفظت فقال بل نسيت وكان أبو سعيد الثوري يقول إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك فإن قل خيرا وكنتم شرك فاهمبه وقيل لأبي يزيد من تصحب من الناس قال من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله وقال ذواتون لا خير في محبة من لا يحب أن يراك إلا معصوما ومن أثنى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها وقد قال بعض الحكماء لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه وعند طعمه وهواه بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل:

ورى الكريم إذا تصرم وصله يخفى القبيح ويظهر الاحسانا

ورى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله إني أرى هذا الرجل يعني عمر رضي الله عنه يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خما لا تفشين له سرا ولا تقتابن عنده أحدا ولا تجرين عليه كذبا ولا تعصين له أمرا ولا يطلعن منك على خيانة فقال الشعبي كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف ومن ذلك السكوت عن المارة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك قال ابن عباس لا تمار سفيها فيؤذيك ولا حليما فيقلبك وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربح الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة» (١) هذا مع أن تركه مبطلا واجب وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر النصب وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المارة والمنافسة فانها عين التدابر والتقاطع فان التقاطع يقع أولا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان وقال عليه السلام «لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يغرمه ولا يخذله بحسب المراء من أشر أن يحقر أخاه المسلم» (٢) وأشد الاحتقار المارة فان من رد على غيره كلامه فقد نسبته إلى الجهل والحقق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وإيقار للصدر وإيقاش وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تبارى فنضب وقال: ذروا المراء قلقة خيرة وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يبيح العداوة بين الإخوان» (٣) وقال بعض السلف من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته وقال عبد الله بن الحسن إياك ومماراة الرجال فانك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم وقال بعض السلف أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وكثرة المارة توجب التضيق والقطيعة وتورث العداوة وقد قال الحسن لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل وعلى الجملة فلا باعث على المارة إلا إظهار التمييز بزيادة العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والايذاء والشتم بالحق والجهل ولا معنى للمعادة إلا هذا فكيف تضامنه الأخوة والمصافاة فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربح الجنة الحديث تقدم في العلم (٢) حديث لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قبل هذا بسبعة أحاديث (٣) حديث أبي أمامة خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تبارى فنضب وقال ذروا المراء قلقة خيرة فان نفعه قليل فانه يبيح العداوة بين الإخوان الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء وواثلة وأنس دون ما بعد قوله قلقة خيرة ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور والديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط وإسنادهما ضعيف .

عليه وسلم أنه قال «من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئلة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه فان كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه» وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ثم إذا أخذ ففهم من يخرججه إلى المحتاج ومنهم من يقف في الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال أنا والدي الحافظ أبو الفضل المقدسي قال أنا أبو اسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال أنا محمد بن عبد الرحمن ابن سعيد قال أنا أبو طاهر أحمد بن محمد

أنه قال لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تعد موعدا فتخلفه ^(١) وقد قال عليه السلام «إنكم لا تسمعون الناس بأموالكم ولكن ليسمعهم منكم بسط وجه وحسن خلق ^(٢)» والمارة مضادة لحسن الخلق وقد انتهى السلف في الحذر عن المارة والحض على الساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلا وقالوا إذا قلت لأخيك قم قال إلى أين فلا تصحبه بل قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل وقال أبو سليمان الداراني كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول أعطني من مالك شيئا فكان يلقي إلي كيسه فأخذ منه ما أريد فجئت ذات يوم فقلت أحتاج إلى شيء فقال كم تريد فخرجت حلاوة إخوانه من قلبي وقال آخر إذا طلبت من أخيك مالا فقال ماذا تصنع به فقد ترك حق الإخاء . واعلم أن توام الأخوة بالمواقة في الكلام والفعل والشفقة قال أبو عثمان الحيري مواقة الإخوان خير من الشفقة عليهم وهو كما قال .

(الحق الرابع على اللسان بالنطق)

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن الكارهة تقتضي أيضا النطق بالمحباب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت محب أهل القبور وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم والسكوت معناه كفاف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقد في أحواله التي يحب أن يتفقد فيها كالتسؤال عن عارض إن عارض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه وكذا جملة أحواله التي يكرها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كرهاها وجملة أحواله التي يسرها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركتها له في السرور بها فمعنى الأخوة للسامية في السراء والضراء وقد قال عليه السلام «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ^(٣)» وإنما أمر بالأخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحببك بالطبع لا محالة فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين وتضاعف والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين ولذلك علم في الطريق قتاله «تهادوا تحابوا ^(٤)» ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره قال عمر رضي الله عنه ثلاث يصفين لكود أخيك أن تسلم عليه إذا لقيت أولًا وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعه وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحمين ما يقبل التحسين لا بد منه وآ كمن ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك يحض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك قال على رضي الله عنه من لم يحمدا أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة وأعظم من ذلك تأثيرا في جلب المحبة الدب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعرض لخلق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيه المذنت وتلظي القول عليه

(١) حديث ابن عباس لا تمار أخاك ولا تمارحه ولا تعد موعدا فتخلفه الترمذي وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور (٢) حديث إنكم لا تسمعون الناس بأموالكم ولكن ليسمعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق أبو يعنى اللوصلي والطبراني في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وضعفه الحاكم ومعه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة (٣) حديث إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث للمقدام بن معدي كرب (٤) حديث تهادوا تحابوا البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة .

ابن عمرو قال أنا يونس ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال ثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حبيب بن عبد المزي عن عبيد الله السعدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أقدر مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خذه فتموله أو تصدق به وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشرف ولا سائل خذه وما لا فلا تتبعه نفسك» قال سالم فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه درج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج

والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين بالدين تفضل إحداها الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه^(١) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يغذله ولا يئله»^(٢) وهذا من الاتسلاط والخذلان فإن إهماله لتزيق عرضه كإهماله لتزيق لحمه فأخس بأخ يراك والكلاب تفتسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال - أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا - وللملك الذي يمثل في المنام ما تطالع الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس لأن ذلك الملك في تمثله يراعي المشاركة والنسبة بين الشيء وبين مثاله المعنى الذي يجري من المثال يجري الروح لا في ظاهر الصور فاذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعت للعتين واجب في عقد الأخوة وقد قال مجاهد لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك فاذن لك فيه معياران أحدهما أن تقدر أن الذي قيل فيه لوقيل فيك وكان أخوك حاضرا ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك فينبغي أن تعامل التعرض لعرضه به والثاني أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره لما كان يتحرك في قلبك من النصرة له يسمع منه ويرأى فينبغي أن يكون في منفيه كذلك فقد قال بعضهم ما ذكر أخى في غيب إلا تصورته جالسا فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو حضر وقال آخر ما ذكر أخى إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحترقان في فدان فوق أحدهما يحك جسمه فوق الآخر فبكى وقال هكذا الإخوان في الله يعملان الله فإذا وقف أحدهما واقفه الآخر وبالمواقفة يتم الاخلاص ومن لم يكن محاسنا في إخائه فهو منافق والاخلاص استواء الغيب والشهادة واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلو والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك محاذقة في لاوذة وهو دخل في الدين ووليعة في طريق المؤمنين ومن لا يقدر من نفسه على هذا فلا تقطع والعزلة أولى به من الاواخاة والصاحبة فان حق الصعبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق ولذلك قال عليه السلام «أباهر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا»^(٣) فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصعبة والإسلام جزاء الجوار فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين الشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصعبة فان الصعبة تقتضي حقوقا كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقا قربية في أوقات متباعدة لا تدوم ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا فان علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبيهه على عيوبه وتبصيح التبييح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع

(٢) حديث تشبيه الأخوين بالدين تقدم في الباب قبله (٢) حديث المسلم أخو المسلم تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث (٣) حديث أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشرط الأول فقط وقال الترمذي مؤمنا قال وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما وقال ابن ماجه مؤمنا قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القضاعي في مسند الشهاب بلفظ الصنف .

من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى . سئل سهل بن عبد الله التستري عن علم الحال قال هو ترك التدبير ولو كان هذا في واحد لكان من أوتاد الأرض . وروى زيد ابن خالد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإمنا هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه » وهذا البعد الواقف مع الله تعالى في قبول ما ساق الحق آمن ما غشى عليه إنما يغشى على من يرد لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد في أخذه إسقاط نظر الخلق تحققا بالصدق والاخلاص وفي إخراجهم إلى الغير إثبات حقيقته فلا يزال في كلا الحالين زاهدا

عليه أحد فما كان على اللاء فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن ^(١) » أي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد للزم بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفراد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة وقال الشافعي رضى الله عنه من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه وقيل لمعسر أحب من يغربك بعيوبك فقال إن نصحتني فيما بيني وبينه فعم وإن قرأتني بين اللاء فلا وقد صدق فإن النصيح على اللاء فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا وقد يدفع كتاب عمله محتوما إلى اللائكة الذين يحفون به إلى الجنة فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب محتوما ليقرأه وأما أهل المقت فينادون على ردوس الأَشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم فيزدادون بذلك خزيا واقتضاها ونموذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالأسرار والاعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداينة بالفرض الباعث على الأغضاء فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالاغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداينة وقال ذوالنون لا تصحب مع الله إلا بالمواقفة ولا مع الخلق إلا بالمناجحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة . فإن قلت فإذا كان في النصيح ذكر العيوب فيه إغشاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة فاعلم أن الإغشاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استئالة القلوب أعني قلوب العقلاء وأما الحق فلا يلتفت إليهم فإن من ينهك على فعل مذموم تعاطيته أوصفه مذمومة اتصفت بها تركي نفسك عنها كان كمن ينهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك فإن كنت تكره ذلك فما أشد حملك والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فانها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ولذلك كان عمر رضى الله عنه يستهدى ذلك من إخوانه ويقول رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه ولذلك قال عمر لسانا وقد قدم عليه ما الذي بلغك عني مما تكره فاستعني فألح عليه فقال بلغني أن لك حلتين تلبس إحداها بالتهار والأخرى بالليل وبلغني أنك تجمع بين إدامين على مائة واحدة فقال عمر رضى الله عنه أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرها فقال لا وكتب حذيفة الرعشى إلى يوسف بن أسباط بلغني أنك بعث دينك بعيتين وقتت على صاحب لهن قتلتيك بكم هذا فقال بدس قتلتي له لا شمن فقال هو لك وكان يعرفك اكشف عن رأسك قناع الغافلين واتقه عن ردة اللوث واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستزئين وقد وصف الله تعالى الكاذبين يخضهم للناسحين إذ قال - ولكن لا تحبون الناصحين - وهذا في عيب هو غافل عنه فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فأما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصيح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإغشاش فإن علمت أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الاصرار عليه فالكسوت عنه أولى وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه أما ما يتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعاضد عنه والتعرض لذلك ليس من النصيح في شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح والسكينة خير من الشافهة والاحتمال خير من الكل إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به

(١) حديث المؤمن مرآة المؤمن أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل ومن لا ينتظر تقدم العلم فوق من ينتظر تقدم العلم لتتمام محبته مع الله وانسلاخه من إرادته وعلم حاله في ترك الاختيار ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدم العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ولكن يركز شربا من المحبة بطريق رؤية النعمة وقد يتكبر شرب هذا بتغير معهود النعمة وهذا حال

والاسترقاق منه قال أبو بكر الكتاني صهني رجل وكان على قلبي ثقيلا فوهبت له يوما شيئا على أن يزول ما في قلبي فلم يزل فأخذت يده يوما إلى البيت وقتلته وضع رجلك على خدي فأبى فقلت لا بد ففعل فزال ذلك من قلبي ، وقال أبو علي الرباطي صهبت عبد الله الرازي وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني قال أأعطي قلت أنت الأمير فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر فكنت أقول مع نفسي ليتني مت ولم أفل أنت الأمير .

(الحق الخامس النفو عن الزلات والمفوات)

وهفوة الصديق لا تغلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الاخوة أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويبعد إلى الصلاح والورع حاله فان لم تقدر وبقي مصرا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته فذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى الاتقطاع وقال إذا قلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه فقال أبو الدرداء إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فان أخاك يزوج مرة ويستقيم أخرى ، وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فانه يرتكبه اليوم ويتركه غدا ، وقال أيضا لا تحدثوا الناس بزلة العالم فان الزلة ثم يتركها وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا قبته (١) » وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال ما فعل أخى قال ذلك أخو الشيطان قال له قال إنه قارف الكبائر حتى وقع في الحفر قال إذا أردت الخروج فأذن فكتب عند خروجه إليه بسم الله الرحمن الرحيم - حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - الآية ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى وقال صدق الله ونصح لي عمر فتاب ورجع . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال إني قد اعتللت فان شئت أن لاتعقد على صحتي لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيبتك أبدا ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه فطوى أربعين يوما في كلها يسأله عن هواه فكان يقول القلب مقيم على حاله وما زال هو يتحلل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يئس هزلا وضرا . وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه ألا تقطعه وتهجره فقال أحوج ما كان إلى في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن يأخذ يده وأتلف له في العاتية وأدعوله بالعود إلى ما كان عليه . وروى في الاسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من الصر لحما بدرهم فرأى بياضا عند اللحم فرمقها وعشقها واحتجبها إلى خلوة وواقها ثم أقام عندها ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائنه قال فافتقده أخوه واهتم بشأنه فزحل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دلَّ عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحياؤه منه فقال قم يا أخى فقد علمت شأنك

(١) حديث اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا قبته البغوى في المعجم وابن عدى في الكامل من حديث عمرو بن عفوف المزني وضعفاء .

ضعيف بالإضافة إلى
الحالين الأولين لأنه
علة في المحبة ووليعة
في الصدق عند
الصدقين وقد ينتظر
صاحب الفتوح العلم
في الإخراج أيضا كما
ينتظر في الأخذ لأن
النفس تظهر في
الإخراج كما تظهر في
الأخذ وأتم من هذا
من يكون في إخراج
عناز أو في أخذه عننازا
بعد تحققه بصحة
التصرف فان انتظار
العلم إنما كان لموضع
إتهام النفس وهويقة
هوى موجود فاذا زال
الإتهام بوجود صريح
العلم يأخذ غير محتاج
إلى علم متجدد ويخرج
كذلك وهن حال من
تحقق بقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم حاكيا
عن ربه « فإذا أحببته
كنت له سمعا وبصرا
ففي اسمع وبصروني
ينطق » الحديث فلما
صح تعرفه صح تصرفه
وهذا أعز في الأحوال

وفستك وما كنت قط أحب إلى ولا أعز من ساعتك هذه فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه فهذه طريقة قوم وهي ألطف وأقرب من طريقة أبي ذر رضي الله عنه وطريقته أحسن وأسلم . فإن قلت ولم قلت هذا ألطف وأقرب من هذه العصية لأن يجوز مؤاخاته ابتداء فوجب مقاطعته انتهاء لأن الحكم إذا ثبت بطلان القياس أن يزول بزوالها وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة العصية . فأقول أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف للنفس إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصبغة ومهما قوطع واتقطع طمعه عن الصبغة أصر واستمر وأما كونه أقرب فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انقضت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وقصره وقصر الدين أشد من قهر اللال وقد أصابته جائحة وألمت به آفة اقتصر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعي ولا يهمل بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التي ألمت به فلا أخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أهدأ النواصب والفاجر إذا صاحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فيسرع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان مهما قرت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاط في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعا وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لجة كل حمة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالعصية ولذلك قال الله تعالى لئن لم يكن الله عليه وسلم في عشرينه فان عسوك قل إنني بري مما تعملون ولم يقل إنني بري منكم مراعاة لحق القرابة ولجة النسب وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له ألا تنفص أخاك وقد فعل كذا فقال إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة ولذلك قيل للحكيم أيما أحب إليك أخوك أو صديقك فقال إنما أحب أخي إذا كان صديقا لي وكان الحسن يقول كم من أخ لم تلته أمك ولذلك قيل القرابة تحتاج إلى مودة واللودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضي الله عنه مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعها قطعها الله فإذا نزل الوفاء بقصد الأخوة إذا سبق انقضاها واجب وهذا جوابنا عن ابتداء اللؤاخة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقطع بل يجامل والدليل عليه أن ترك اللؤاخة والصبغة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها بل قال قائلون الانفراد أولى فأما قطع الأخوة عن دوامها فمنه في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح قال صلى الله عليه وسلم « شرار عباد الله المشاءون بالنجاسة المرفقون بين الأحبة »^(١) وقال بعض السلف في ستر زلات الاخوان ود الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه فإذا اتقيتم من عجة عدوك وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة الصياني من محابه فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال له وزبره وقال « لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيك »^(٢) فهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفاسق محذورة ومفارقة الأحباب والاخوان أيضا محذورة وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الأخوة أولى هذا كله في زلته في دينه أما زلته في حقه بما يوجب إيمانه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتساب بل كل ما يعمد لتزليه على وجه حسن ويتصور تمهيد

من الكبريت الأحمر وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله يحكي عن الشيخ حماد الهباس أنه كان يقول أنا لا آكل إلا من طعام الفضل فكان يرى الشخص في المنام أن يعمل إليه شيئا وقد كان يبين له أني في المنام أن أحمل إلى حماد كذا وكذا وقيل إنه بقي زمانا يرى هو في واقته أو منامه إنك أحلت على فلان بكذا وكذا وحكي عنه أنه كان يقول كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حاله فهو غنى بالله . قال الواسطي الافتقار إلى الله أعلى درجة للمريدین والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين وقال أبو سعيد الخزاز

(١) حديث شرار عباد الله المشاءون بالنجاسة المرفقون بين الأحبة أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف
(٢) حديث لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيك . البخاري من حديث أبي هريرة . وتقدم في الباب قبله .

عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة فقد قيل ينبغي أن تستبسط لزلة أخيك سبعين عذرا فان لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك ما أقصاك يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله فأنت العيب لا أخوك فان ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان فلا تكن حمارا ولا شيطانا واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل قال الأحنف حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم المفوة وقال آخر ما شتمت أحدا قط لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أولئك فلا أجعل عرضي له عرضا ثم تمل وقال :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقد قيل : خذ من خليلك ماصفا ودع الذي فيه العكس

فالممر أقصر من معا تبة الخليل على الغير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره قال عليه السلام « من اعتذر إلي أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب الكس^(١) » وقال عليه السلام « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا^(٢) » فلم يصفه بأنه لا يغضب وكذلك قال الله تعالى - والكاظمين الغيظ - ولم يقل والغاقلين الغيظ وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يخرج الإنسان فلا يتألم بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل وكما أن التألم بالجرح يقتضي طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ولا يمكن قلمه ولكن يمكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه فانه يقتضي التشنج والاستقام والكفأة وترك العمل بعقضاء ممكن وقد قال الشاعر :

ولست بمستبق أخا لائمه على شتم أي الرجال المهذب

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه فانك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول قال تجربته فوجدته كذلك وقال بعضهم الصبر على مضمض الأخ خير من معاتبته والمعاتبه خير من القطيعة والقطيعة خير من الوقعة وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقعة قال تعالى - عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة - وقال عليه السلام « أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما^(٣) » وقال عمر رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

(الحق السادس)

(الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه نفسه ولأهله وكل متعلق به فتدعوه كما تدعوا لنفسك)

(١) حديث من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل صاحب مكس ابن ماجه وأبو داود في للراسل من حديث جودان واختلف في محبته وجهله أبو حاتم وباقي رجاله ثقات ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضا لم أجده هكذا ولا ترمذى وحسنه من حديث أبي سعيد الخدرى ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شق الحديث وفيه ومنهم سريع الغضب سريع النى فتلك تلك (٣) حديث أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوى تردد في رفته .

العارف تديره فنى
في تدبير الحق فالواقف
مع الفتوح واقف مع
الله ناظر إلى الله
وأحسن ما حكى في هذا
أن بعضهم رأى
النورى يمد يده
ويسأل الناس قال
فاستظمت ذلك منه
واستجبته له فأنتيت
الجيد وأخبرته
فقال لي لا يعظم هذا
عليك فان النورى لم
يسأل الناس إلا لعظيم
سؤلهم في الآخرة
فيؤجرون من حيث
لا يضره وقول الجيد
للعظيم كقول بعضهم
اليد العليا يد الآخذ
لأنه يعطى الثواب قال
ثم قال الجيد هات
الميزان فوزن مائة درهم
ثم قبض قبضة فألقاها
على المائة ثم قال أحملها
إليه قللت في نفسى إنما
يزن لي عرف مقدارها
فكيف خلط المجهول
بالموزون وهو رجل
حكيم واستحييت أن
أسأله فنهبت بالصرعة

ولا تفرق بين نفسك وبينه فان دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك » (١) وفي لفظ آخر « يقول الله تعالى بك أبدأ يا عبدي » (٢) وفي الحديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » (٣) وفي الحديث « دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد » (٤) وكان أبو الدرداء يقول إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أميهم بأسمائهم وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول وأين مثل الأخ الصالح أهلك يتعمون ميراثك ويتعمون بما خلفت وهو منفرد بحزنك مهم بما قدمت وماصرت إليه يدعوك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى وكان الأخ الصالح يقتدى باللائكة إذ جاء في الخبر « إذا مات العبد قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم » (٥) « يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ويقال من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الميت في قبره مثل الفريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولده أو والد أو أخ أو قريب » (٦) وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول هذه هدية لك من عند أخيك فلان من عند قريبك فلان قال فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية .

(الحق السابع الوفاء والإخلاص)

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فان الحب إنما يراد للآخرة فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ولذلك قال عليه السلام « في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه » (٧) وقال بعضهم قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة ولذلك روى أنه عليه السلام « أكرم عجزوا دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال إنما كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرم العهد من الدين » (٨) فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والتعلقين به ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه فان فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به حتى الكلب الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان فانه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخين في الله ومتحايين

(١) حديث إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك مسلم من حديث أبي الدرداء (٢) حديث الدعاء للأخ بظهر الغيب وفيه يقول الله بك أبدأ يا عبدي لم أجدها اللفظ (٣) حديث يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب (٤) حديث دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد الدارقطني في الملل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال مستجابة مكان لا ترد (٥) حديث إذا مات العبد قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) حديث مثل الميت في قبره مثل الفريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة ولده أو والد الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة قال الذهبي في الليزان إنه خبر منكر جدا (٧) حديث سبعة يظلمهم الله في ظله الحديث تقدم غير مرة (٨) حديث إكرامه صلى الله عليه وسلم لعجوز دخلت عليه وقوله إنما كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

إلى النوري قال هات لليزان فوزن مائة درهم وقال ردّها وقل له أنا لا أقبل منك شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تسجي فأسأله على ذلك فقال الجنيّد رجل حكيم يريد أن يأخذ الجبل بطريقه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن فله أخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها على الجنيّد فبكي وقال أخذ ماله ورد ماله . ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه نحن محتاجون إلى شيء من العلوم فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى وما يفتح الله تعالى لكم التوفيق به فعملوا ثم جاءهم من بينهم شخص يعرف باسمعيل البطاخي ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة وقال هذا الذي فتح

فيه فانه يجهد نفسه لافساد ما بينهما فلله تعالى - وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم - وقال غبرا عن يوسف - من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي - ويقال ما تواخى اثنان في الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما وكان بشر يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه وذلك لأن الاخوان مسالة للهوم وعون على الدين ولذلك قال ابن المبارك ألد الأشياء مجالسة الاخوان والانتقال إلى كفاية واللودة الدائمة هي التي تكون في الله وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض ومن ثمرات اللودة في الله أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا وكيف يحسده وكل من هو لأخيه فإليه ترجع فائدته وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال - ولا يجحدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم - ووجود الحاجة هو الحسد ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الاخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أسروا ذكروا من كان يألفهم في النزل الحسن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال يا بني لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استفتيت عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك وقال بعض الحكماء إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . وحكى الربيع أن الشافعي رحمه الله آخى رجلا يفتاد ثم إن أخاه ولي السيين فغير له عما كان عليه فكتب إليه الشافعي بهذه الآيات :

أذهب فودك من فؤادي طالق أبدا وليس طلاق ذات البين

فإن أروعيت فانها تطليقة ويدوم ودك لي على ثنتين

وإن امتنعت شفعتها بمثلها فتكون تطليقتين في حيزين

وإذا التلات أتك منى بته لم تغن عنك ولاية السيين

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء له المخالفة فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمى بمصر غيره فاعتل محمد فماده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذري عليه

وأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته فقبل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من تجلس بهك بأبا عبد الله فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئذ إليه فقال الشافعي سبحان الله أشك في هذا أبو يعقوب البويطي فأنكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع فنصح الشافعي لله وللسلمين وترك الداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى فلما توفي انقلب محمد ابن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله أبو الربيع الزهد والحوال ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الأم الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصيح لله قال الأحنف الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير ومن آثار الصدق والإخلاص وتتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من الفارقة تفور الطبع عن أسبابها كاقيل :

الله لي في واقعي فأخذ
الشيخ الكاغد فلم
يكن إلا ساعة فإذا
بشخص دخل ومعه
ذهب قدمه بين يدي
الشيخ ففتح القرطاس
وإذا هو ثلاثون
صحيفة فترك كل
صحيفة على دائرة وقال
هذا فتوح الشيخ
اسماعيل أو كلاما هذا
معناه . وصمعت أن
الشيخ عبد القادر
رحمه الله بحث إلى
شخص وقال لقائل
طعام وذبح اتنى من
ذلك بكذا ذبحا
وكذا طعاما فقال الرجل
كيف تصرف في ودية
عندي ولو استفتيتك
ما أفتيتك بالتصرف
فألزمه الشيخ بذلك
فأحسن الظن بالشيخ
وجاء إليه بالذي طلب
فلما وقع التصرف
منه جاءه مكتوب من
صاحب الوديعة وهو
غائب في بعض نواحي
العراق أن اجعل إلى
الشيخ عبد القادر

وجدت مصيبت الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب.

وأئسد ابن عينة هذا البيت وقال لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يغيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لاسيما من يظهر أولا أنه عيب لصديقه كيلا يهتم ثم يلقي الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يعتز منه لم تدم مودته أصلا قال واحد لحكيم قد جئت خاطبا لمودتك قال إن جعلت مهرها ثلاثا فقلت قال وما هي قال لا تسمع على بلاغة ولا تغالفي في أمر ولا توطئي عشوة ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه قال الشافعي رحمه الله إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

(الحق الثامن التخفيف وترك التكلف والتكليف)

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يحمله شيئا من أعبائه فلا يستمد منه من جاء ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمعجته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلفظه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤثته قال بعضهم من اقتضى من إخوانه مالا يقتضونه قد ظلمهم ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه قد أتعبهم ومن لم يقتض فهو للفضل عليهم وقال بعض الحكماء من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا ونعم التخفيف بطي بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه وقال الجنيد ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لمة في أحدهما وقال على عليه السلام شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وأجلك إلى اعتذار وقال الفضيل إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه وقالت عائمة رضى الله عنها المؤمن أخو للمؤمن لا ينتميه ولا يعتشمه وقال الجنيد صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة كل طبقة ثلاثون رجلا حارثا الماسي وطبقته وحنا للوحي وطبقته وسريا السقطي وطبقته وابن الكريبي وطبقته فما تواخى اثنان من الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لمة في أحدهما وقيل لبعضهم من نصحب قال من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ وقال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما يقول أقل إخواني على من يتكلف لي وأعف من أخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي وقال بعض الصوفية لا تعاشر من الناس إلا من لا يزيد عنده ير ولا تنقص عنده يأم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ وإلا فالطبع يعمل على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده وقال بعضهم كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت وقال آخر لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه وقائل هذا قد سبق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يواخى كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه إذ به يكون مواخيا في الله وإلا كانت مواخاته لحظوظ نفسه فقط ولذلك قال رجل للجنيد قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخفى في الله فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا فلما أكثر قال له الجنيد إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمرى قليل وإن أردت أخا في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على آذاه فندى جماعة أعرفهم لك فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة رجل تنتفع بصحبته ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تنضر به ولكن

كذا وكذا هو القدر
على عينه الشيخ
عبد القادر ضابطه
الشيخ بعد ذلك على
توقفه وقال ظننت
بالفقراء أن إشاراتهم
تكون على غير صحة
وعلم فالعبد إذا صح
مع الله تعالى وأتقى هواه
متطليا رضا الله تعالى
يرفع الله عن باطنه
هموم الدنيا ويجعل
الغنى في قلبه ويفتح
عليه أبواب الرفق وكل
الهموم للتسلطة على
بعض الفقراء لكون
قلوبهم ما استكملت
التمتع بالله والاهتمام
برعاية حقائق العبودية
فلى قدر ما خلعت من
الهم بالله ابتليت به
الدنيا ولو امتلأت من
هم الله ما عذبت بهوم
الدنيا وقعت وارتقت.
روى أن عوف بن
عبد الله السعدي كان
له ثلثانة وستون
صديقا وكان يكون
عده كل واحد يوما
وآخر كان له ثلاثون

لا تنتفع به ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتضرر به وهو الأحق أو السوء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه فأما الثاني فلا تتجنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبشوايك على القيام به وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إن أعطيتي لما أكره إخوانك أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم وقد قال بعضهم صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف فاني كنت معهم على نقى ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يترس في نوافل المبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم وإن صام الشهر كله لم يقل له أفطر وإن نام الليل كله لم يقل له قم وإن صلى الليل كله لم يقل له نم وتسمى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفيز لا محالة وقد قيل من سقطت كلفته دامت ألفتة ومن خفت مؤنته دامت مودته وقال بعض الصحابة إن الله لعن التكلفين وقال صلى الله عليه وسلم « أنا والأتقياء من أمتي برآء من التكلف »^(١) وقال بعضهم إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به ^(٢) إذا أكل عنده ودخل الخلاء وصلى ونام فذكر ذلك لبعض الشايع فقال بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويحاميها لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هذه الأمور الخمس وإلا فالساجد أرواح لقلوب المتعبدين فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الاخاء وارتفعت الحشمة وتأكّد الانبساط وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك إذ يقول أحدهم لصاحبه مرحبا وأهلا وسهلا أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب واللسان ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ولك عندنا سهولة في ذلك كله أي لا يشتد علينا شيء مما تريد ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسوء الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فعند ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود إخواني كلهم خير مني قيل وكيف ذلك ؟ قال كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلي على نفسه فهو خير مني وقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله ولا خير في صفة من لا يرى لك مثل ماترى له »^(٣) فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ ولذلك قال سفيان إذا قيل لك بإشر الناس فضبت فأنت شر الناس أي ينبغي أن تكون معتقدا ذلك في نفسك أبدا وسيأتي وجه ذلك في كتاب الكبير والعجب وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للاخوان آيات :

تذلل لمن إن تذلت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزال على الأصدقاء يرى الفضل له
وقال آخر : كم صديق عرفته بصديق صار أخطى من الصديق العتيق
ورفيق رأيت به في طريق صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه قد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم قال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٤) ومن تمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور

(١) حديث أنا وأمتي برآء من التكلف الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام ألا إني يرى من التكلف وصالحوا أمتي وإسناده ضعيف (٢) حديث إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث المرء على دين خليله ولا خير في صفة من لا يرى لك مثل ماترى له تقدم الشطر الأول منه في الباب قبله وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدي في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . مسلم

صديقا يكون عند كل واحد يوما وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد فكان إخوانهم معلومهم والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيد يكون نعمة هنيئة . جاء رجل إلى الشيخ أبي السعود رحمه الله وكان من أرباب الأحوال السنية والواقفين في الأشياء مع فعل الله تعالى متمكنا من حاله تاركا لاختياره ولعله سبق كثيرا من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار رأينا منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين فقال له الرجل أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخبز أحمله إليك ولكني قلت الصوفية يقولون المعلوم شؤم قال الشيخ نحن ما نقول المعلوم شؤم فإن الحق يصني لنا وفه نرى فكل ما يقسم لنا

إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى - وشاورهم في الأمر - وينبغي أن لا يخفى عنهم شيئا من أسرارهم كما روى أن يعقوب بن أخى معروف قال جاء أسود بن سالم إلى عمى معروف وكان مواخيا له فقال إن بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافئك بذلك وقد أرسلني إليك يسألك أن تفعله فبإيئك وبينه أخوة محتمسها ويبتد بها إلا أنه يشترط فيها شروطا لا يحب أن يشتر بها ذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فانه يكره كثرة الالتقاء فقال معروف أما أنا لو آخيت أحدا لم أحب مفارقتة ليلا ولا نهارا ولزرتة في كل وقت وآثرته على نفسي في كل حال ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ثم قال فيها وقد آخى رسول الله ﷺ عليا فشاركه في العلم (١) وقاسمه في البدن (٢) وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاتة (٣) وأنا أشهدك أنى قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت إياه في الله لرسالتك ولمسانته على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكني أزوره متى أحببت ومره أن يلتقاني في مواضع تلتقي بها ومره أن لا يخفى على شيئا من شأنه وأن يطلعني على جميع أحواله فأخبر ابن سالم بشرا بذلك فرضى وسر به فهذا جامع حقوق الصبة وقد أجملناه مرة وفضلناه أخرى ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للاخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك . أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتعامى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطي كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه ومعه وحديثه ولطيف مسأله وتوجهه للجالس إليه (٤)

من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث لاتدابوا في هذا الباب (١) حديث أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه في العلم النساء في الخصائص من سننه الكبرى من حديث على قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب الحديث وفيه فأبيكم يابني على أن يكون أخى وصاحي ووارثي فلم يبق إليه أحد فقامت إليه وفيه حتى إذا كان في الثالثة ضرب يده على يده وله وللحاكم من حديث ابن عباس أن عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله إنى لأخوه ووليّه ووارث علمه الحديث وكل ما ورد في أخوته فضعيف لا يصح منه شيء وللترمذى من حديث ابن عمر وأنت أخى في الدنيا والآخرة وللحاكم من حديث ابن عباس أنا مدينة العلم وعلى بابها وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لأصله وقال ابن طاهر إنه موضوع وللترمذى من حديث على أنا دار الحكمة وعلى بابها وقال غريب (٢) حديث مقاسمته عليا للبدن مسلم في حديث جابر الطويل ثم أعطى عليا فنخر ما عبر وأشركه في هديه (٣) حديث أنه أنكح عليا أفضل بناته وأحبهن إليه هذا معلوم مشهور في الصحيحين من حديث على لما أردت أن أبقي فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا صواغا الحديث وللحاكم من حديث أم أيمن زوج صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليا الحديث وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة يافاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين الحديث (٤) حديث كان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه الحديث الترمذى في الثمائل من حديث على في أثناء حديث فيه يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يردده إلا بها أو يعيسور من القول ثم قال مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة وفيه يضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون منه وللترمذى من حديث عبد الله بن الحرث بن جزء ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب

نرفه مباركا ولا نراه شؤما. أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال أنبأنا أبو بكر ابن أحمد بن خلف الشيرازي بإجازة قال أنا أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر السكتاني قال كنت أنا وعمرو للكي وعياش ابن المهدي نصطحب ثلاثين سنة نصلى التذلة على طهر العصر وكنا قعودا بمكة على التجريد مانا على الأرض ما يساوى فلما وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل أحدا فان ظهر لنا شيء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكلناه وإلا طوينا فاذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا التقصان في الفرائض قصدا أباسعيد الخراز فيتخذنا ألوانا من الطعام ولا يقصد غيره

وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعبجا عما يحدثونه به وكان فمك أصحابه عنده التيسر اقتداء منهم بفعله وتوقيرا له عليه السلام .
وأما السمع فبأن تسمع كلامه متلذذا بسماعه ومصدقاه ومظهرا لاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فان أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتغرس سمعك عن سماع ما يكرهون . وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فان القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون . وأما اليدان فأن لا يقبضهما عن معاوئتهم في كل ما يتعاطى باليد . وأما الرجلان فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي التبوعين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد ومهما تم الاتحاد خف حملهم من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والشاء فانها من حقوق الصحبة وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف فاذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالسكينة فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها ومن كان نظره إلى محبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحلب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فانها أعلى أنواع الخدمة فمأذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القامم الصائم وزيادة .
[خاتمة لهذا الباب] نذكر فيها جملة من آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء . إن أردت حسن العشرة فالحق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم وتوقير من غير كبر وتواضع في غير مذلة وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلما طرقت في قصد الأمور ذميمة ولا تنظر في عطفك ولا تكرر الالتفات ولا تنقب على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتعظم من تشييك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك ونخليل أسنانك وادخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقتك وتخمك وطرده الباب من وجهك وكثرة التخطي والتثاوب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واضع إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته واسكت عن الضاحك والحكايات ولا تعدث عن إيجابك بولده ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يحسك ولا تصنع تصنع المرأة في التزين ولا تبدل تبدل العبد وتوق كثرة الكحل والاسراف في الدهن ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك وولده فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك وإذا خاضعت فتوقروا وتعظم من جهلك وتجنب مجلتك وتفكر في حبك ولا تكرر الإشارة بيديك ولا تكرر الالتفات إلى من وراءك ولا تبحث على ركبتك وإذا هدا غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكُن منه على مثل حد السنان فان استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفقه برفقك بالصبي وكله بما يشتهي بالم يكن معصية ولا يعملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقا عنده فان سقطه الداخل بين الملك وبين أهله سقطه لا تنعش وزلة لا تنال وإياك وصديق العافية فانه أعدى الأعداء ولا تعمل مالك أكرم من عرضك وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ولا تجلس على الطريق فان جلست فأدبه غض البصر ونصرة الظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياد لموضع البصاق ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن

ولا تبسط إلا إليه لما
نعرف من تقواه
وورعه . وقيل لأبي
يزيد ما نراك تشتغل
بكسب فن أبن معاشك
فقال مولاي يرزق
الكلب والخنزير تراه
لا يرزق أبا يزيد .
قال السلي سمعت أبا
عبد الله الرازي يقول
سمعت مظفرا القرميضي
يقول الفقير الذي
لا يكون له إلى الله
حاجة . وقيل لبعضهم
ما الفقر قال وقوف
الحاجة على القلب
وعوها من كل أحد
سوى الرب . وقال
بعضهم أخذ الفقير
الصدقة ممن يعطيه
لا يمن تصل إليه على
يده ومن قبل من
الوسائل فهو الترسم
بالفقر مع دناءة همته .
أبنا نا شيخنا ضياء الدين
أبو النجيب السهروردي
قال أنا عصام الدين أبو
حفص عمر بن أحمد
ابن مصور الصفار قال
أنا أبو بكر أحمد بن

عينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى ولا تجالس الملوك فان فعلت فأدبه ترك النيسة ومجانبة الكذب وصيانة السروقة والحوائج وتهذيب الألفاظ والاعراب في الخطاب والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم وإن ظهرت لك المودة وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتدخل بعد الأكل عنده وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفساء السروا والقدح في الملك والتعرض للحرم ولا تجالس العامة فان فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم والتفاقل عما يجري من سوء أفعالهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم وإياك أن تنازع لبيبا أو غير لبيب فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترى عليك لأن المزاح يخرق الحمية ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجري السفيه ويسقط المزية عند الحكيم ويعتقه التقون وهو يمت القلب ويساعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الدلة وبه تظلم السرائر وتموت الجوارح وتكثر العيوب وتبين الذنوب وقد قيل لا يكون المزاح إلا من سخط أو بطر ومن بلى في مجلس عزم أولعظ فلينكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » (١) لا يغفر له ما كان في مجلسه ذلك (٢) .

(الباب الثالث في حق السلم والرحم والجوارح والملك وكيفية العاشرة مع من بدلى بهذه الأسباب)

اعلم أن الانسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الانسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة وكل مخالطة في مخالطة أدب والآداب على قدر حقه وحقه على قدر رابطة التي بها وقعت المخالطة والرابطة إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الاسلام وهي أعمها وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحة وإما الجوارح وإما محبة السفر والكتب والدرس وإما الصداقة أو الأخوة ولكل واحد من هذه الروابط درجات فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد وللحرم حق ولكن حق الوالدين آكد وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوارح في البلد وكذلك حق للأهل بيتا كدبتا كد العرفة وللعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسمع بل آكد منه والعرفة بعد وقوعها تآكد بالاختلاط وكذلك الصحة تفاوت درجاتها كحق الصحة في الدرس والكتب آكد من حق صحة السفر وكذلك الصداقة تفاوت فانها إذا قويت صارت أخوة فان ازدادت صارت محبة فان ازدادت صارت خلة والخلة أقرب من الحبيب فالهبة ما تمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلا وتفاوت درجات الصداقة لا يغني بحكم المشاهدة والتجربة فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وأعرف من قوله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذ خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » (٣) إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزائه قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعت الخلة عن الاشتراك في مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أخا فقال « على مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » (٤)

(١) حديث من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه .

(الباب الثالث في حق السلم والرحم والجوارح)

(٢) حديث لو كنت متخذ خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري

(٣) حديث على مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

خلف الشيرازي قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أحمد ابن حنبل بن جعفر يقول سمعت أن أبا سليمان الداراني كان يقول آخر أقدام الزاهدين أول أقدام التوكلين . روى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني رزقي فأخذ يسبح فأقام في سفح جبل سبعا لم يأته شيء حتى كاد أن يتلف فقال يارب إن أحببتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فألمه الله تعالى في قلبه وعزتي وجلالي لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس فدخل المدينة وأقام بين ظهراني الناس فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس في نفسه من ذلك

فعدل بعلی عن النبوة كما عدل بآبي بكر عن الخلة فشارك أبو بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال فانه نبه عليه بقوله لا اتخذت أبا بكر خليلا وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله وقد روى أنه صعد النبريوما مستبشرا فرحا فقال «إن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى» (١) فاذن ليس قبل المرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة وما سواهما من الدرجات بينهما وقد ذكرنا حق الصعجة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلة وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الايثار بالنفس والمال كما أثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم وكما أثره طلحة يدينه إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم ونحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الاسلام وحق الرحم وحق الوالدین وحق الجوار وحق الملك أعني ملك المؤمنين فان ملك التكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح .

﴿ حقوق المسلم ﴾

(١) هي أن تسلم عليه إذا لقيته وتحييه إذا دعاك وتشمته إذا عطس وتعوذه إذا مرض وتشهد جنازته إذا مات (٢) وتبرقعه إذا أقسم عليك وتصح له إذا استنصحك وتخفله بظهر الغيب إذا غاب عنك وتحب له ما يحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك (٣) ورد جميع ذلك في أخبار وآثار وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أربع من حق للمسلم عليك أن تعين محسنهم وأن تستغفر لمذنبهم وأن تدعو لمديهم وأن تحب تأييدهم» (٤) وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى - رحماء بينهم - قال يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال اللهم بارك له فيا قسمت له من الخير وثبتته عليه واتقنا به وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال اللهم اهدده وتب عليه واغفر له عثرته . ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كتل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر الجسد بالسهر» (٥) وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «للمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» (٦) ومنها أن لا يؤذى أحدا من المسلمين بفعل ولا قول قال ﷺ «السلم من سلم للمسلمون من لسانه ويده» (٧)

(١) حديث إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله فأنا حبيب الله وأنا خليل الله .

(الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم)

(٢) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فقد ذكر عشر خصال الشيخان من حديث أبي هريرة حق السلم على المسلم خمس رد السلام وعبادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس وفي رواية لمسلم حق السلم على المسلم ست إذا لقيته تسلم عليه وزاد وإذا استنصحك فانصح له وللترمذي وابن ماجه من حديث علي السلم على المسلم ست قد ذكر منها ما يحب له ما يحب لنفسه وقال وينصح له إذا غاب أو شهد ولا أحد من حديث معاذ وأن يحب للناس ما يحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وفي الصحيحين من حديث البراء أمرنا رسول الله ﷺ بسبع قد ذكر منها وإبرار القسم ونصر المظلوم (٣) حديث أنس أربع من حقوق المسلمين عليك أن تعين محسنهم وأن تستغفر لمذنبهم وأن تدعو لمديهم وأن تحب تأييدهم ذكره صاحب الفردوس ولم أجد له إسنادا (٤) حديث النعمان بن بشير مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كتل الجسد الحديث متفق عليه (٥) حديث أبي موسى للمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا متفق عليه (٦) حديث السلم من سلم للمسلمون من لسانه ويده متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

فسمع هاتفا أردت أن تبطل حكمته بذهلك في الدنيا أما علمت أن يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدي القدرة فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدي الآدميين وأيدي الملائكة واستوى عنده القدرة والحكمة وطلب القفار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتهان برؤية الأسباب وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب في عين الانسان . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو حفص عمر قال أنا أحمد ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال أنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبري قال سمعت أحمد بن محمد ابن اليسرى يقول سمعت محمدا الإسكافي يقول سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول من استفتح باب العاش

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل «فإن لم تقدر فدع الناس من الصنفين»^(١) صدقة تصدقت بها على نفسك^(٢)» وقال أيضا «أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «أتدرون من المسلم قالوا الله ورسوله أعلم قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده قالوا فمن المؤمن قال من آمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم قالوا فمن المهاجر قال من هجر السوء واجتنبه^(٤)» وقال رجل يارسل الله ما الاسلام قال «أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك» وقال مجاهد يسلط على أهل النار الحرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده فينادى يا فلان هل يؤذيك هذا فيقول نعم فيقول هذا بما كنت تؤذى المؤمنين وقال صلى الله عليه وسلم «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى للمسلمين^(٥)» وقال أبو هريرة رضي الله عنه «يارسل الله علمي شيئا أنتفع به قال اعزل الأذى عن طريق المسلمين^(٦)» وقال صلى الله عليه وسلم «من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة^(٧)» وقال عليه السلام «لا يحل لمسلم أن يروغ مسلما^(٨)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يكره أذى المؤمنين^(٩)» وقال الربيع بن خثيم الناس رجلان مؤمن فلا تؤذوه وجاهل فلا تجاهله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه فإن الله لا يحب كل مختال فخور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد^(١٠)» ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل قال الله تعالى لبيته صلى الله عليه وسلم - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل - وعن ابن أبي أوفى «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته^(١١)»

(١) حديث فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فانها صدقة تصدقت بها على نفسك متفق عليه من حديث أبي ذر (٢) حديث أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أتدرون من المسلم قالوا الله ورسوله أعلم قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد الأخرى كرم بالمؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب رواه ابن ماجه مقتصر على المؤمن والمهاجر وللحاكم من حديث أنس وقال على شرط مسلم والمهاجر من هجر السوء ولأحمد باسناد صحيح من حديث عمر بن عتبة قال رجل يارسل الله ما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك (٤) حديث لقد رأيت رجلا في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي هريرة يارسل الله علمي شيئا أنتفع به قال اعزل الأذى عن طريق المسلمين مسلم من حديث أبي هريرة قال قلت يا نبي الله فذكره (٦) حديث من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ومن كتب الله بها حسنة أوجب له بها الجنة أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٧) حديث لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلا بسند ضعيف وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عبد الله بن أبي ميمى وهو الصواب (٨) حديث إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلا باسناد جيد (٩) حديث إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن جمار ورجاله رجال الصحيح (١٠) حديث ابن أبي أوفى كان لا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته النسائي باسناد صحيح والحاكم وقال على شرط الشيخين .

بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى الخلقين . قال بعض النقطيين كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها فذاك في صدرى من أين العاش فهتف بي هاتف لا أراه تنقطع إلى وتنهى في رزقك على أن أخدمك ولما من أوليائي أو أسخر لك مناصبا من أعدائي فلما صبح حال الصوفى وانقطعت أطعماعه وسكنت عن كل تشوف وتطلع خدمته الدنيا وصلحت له الدنيا خادمة وما رضيا بخدمة فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جنابة وذنبا . روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن في ذلك اللوم من عمله فوافى أبواب المحال فجعله ودفع إليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق

ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة قتات » (١) وقال الحليل بن أحمد من نمت لك نمة عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك . ومنها أن لا يزيد في المهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » (٢) وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة » (٣) قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها « ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله » (٤) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما عفا رجل عن مظلة إلا زاده الله بها عزاً . وقال صلى الله عليه وسلم « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله » (٥) وروى طي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فان أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله » (٦) وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » (٧) قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد يده فيزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركة جلسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه » (٨) ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاستئذان ثلاث فالأولى يستنتصون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون » (٩) ومنها أن يخالف الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته فانه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمر بالفقه والعلم بالبيان أدى وتأذى . ومنها أن

(١) حديث لا يدخل الجنة قتات متفق عليه من حديث حذيفة (٢) حديث أبي أيوب لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث الحديث متفق عليه (٣) حديث من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة أبو داود والحاكم وقد تقدم (٤) حديث عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله متفق عليه بالفظ إلا أن تنتهك (٥) حديث ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلاً بعفو وإعزاء وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله مسلم من حديث أبي هريرة (٦) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده اصنع المعروف إلى أهله فان لم تصب أهله فأنت من أهله ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف ورواه القضاة في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا بسند ضعيف (٧) حديث طي بن الحسين عن أبيه عن جده رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر الطبراني في الأوسط والخطابي في تاريخ الطالبيين وعنه أبو نعيم في الحلية دون قوله واصطناع إلى آخره وقال الطبراني التحجب . (٨) حديث أبي هريرة كان لا يأخذ أحد يده فيزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها الحديث الطبراني في الأوسط بإسناد حسن ولأبي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف (٩) حديث أبي هريرة الاستئذان ثلاث فالأولى يستنتصون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاستئذان ثلاث فان أذن لك وإلا فارجع .

أن أهل الدار قد خبروا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبر على السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهر فقال أحمد لابنه صالح ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردها قال أحمد ضعما ثم صبر قليلا ثم قال خذها فالحقه بهما فلحقه فأخذها فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد عجبت من رده وأخذته قال نعم قال هذا رجل صالح فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيتاه مع الاستشراف رده ثم أيس فردناه إليه بعد الإياس قبل . هذا حال أرباب الصدق إن سألوا سألوا بعلم وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال وإن قبلوا قبلوا بعلم فن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والسكب بشرط العلم فأما السائل

يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا » (١) قال عليه السلام « من إجلال الله إكرام ذى الشبهة المسلم » (٢) ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم مه فأين الكبير » (٣) وفي الخبر « ما وقر شاب شيخا إلا قبض الله في سنه من يوقره » (٤) وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال عليه السلام « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا وتفيض الثمام فيضا وتفيض الكرام غيضا ويختري الصغير على الكبير والثلثم على الكريم » (٥) « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله عليه السلام » (٦) . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيلتقاء الصبيان فيقف عليهم ثم يأمرهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم » (٧) « فرجما تفاخر الصبيان بذلك فيقول بعضهم لبعض حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت ورائه ويقول بعضهم أمر أصحابه أن يحملوك ورائهم » وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوله بالبركة ويسميه فيأخذه فيضعه في حجره فرجما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه للآيروا أنه تأذى يوله فاذا انصرفوا غسل ثوبه بعده » (٨) « ومنها أن يكون

مستكثرا فوق الحاجة لاقى وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء . سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل فقال لمن عنده ألم أقبل لك عش السائل فقال قد عشيت فتنظر عمر فاذا تحت إبطه حلافة مملوءة خبزاً فقال عمر ألك عيال فقال لا فقال عمر لست بسائل ولكنك تاجر ثم ثر حلالته بين يدي أهل الصدقة وضربه بالقدرة وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال إن الله تعالى في خلقه مثوبات وقرعوبات قرع فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ويطيع ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على قرعته ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ويسعى ربه ويكثر الشكاية ويتسخط للقضاء فقال الصوفية حسن الأدب

(١) حديث جابر ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا الطبراني في الأوسط بسند ضعيف وهو عند أبي داود والبخاري في الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن (٢) حديث من إجلال الله إكرام ذى الشبهة المسلم أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري باسناد حسن (٣) حديث جابر قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم مه فأين الكبير الحاكم وصححه (٤) حديث ما وقر شاب شيخا لسنه إلا قبض الله في سنه من يوقره الترمذي من حديث أنس بلفظ ما أكرم ومن يكرمه وقال حديث غريب وفي بعض النسخ حسن وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (٥) حديث لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا الحديث الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود وإسنادهما ضعيف (٦) حديث التلطف بالصبيان البراز من حديث أنس كان من أفكك الناس مع صبي وقد تقدم في النكاح وفي الصحيحين يا أبا عمير ما فعل النضر وغير ذلك (٧) حديث كان يقدم من السفر فيلتقاء الصبيان فيقف عليهم ثم يأمرهم فيرفعون إليه الحديث مسلم من حديث عبد الله بن جعفر كان إذا قدم من سفر تلقى بنا قال فيلقى بي وبالحسن وقال فحمل أحدا بين يديه والآخر خلفه وفي رواية تلقى بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبقني إليه فحملني بين يديه ثم جرى بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس قال نعم فحملنا وتركك لفظ مسلم وقال البخاري إن ابن الزبير قال لابن جعفر فالتقنا علم (٨) حديث كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوله بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فرجما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه الحديث مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحسبهم فأتى صبي فقال عليه فدعا بقاء فأتبعه بوله ولم ينسله وأصله متفق عليه وفي رواية لأحمد فيدعولهم وفيه صوابا عليه الماء صبا ولقد أرقطني بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه أخذا عنيفا الحديث وفيه الحاجب بن أرقطة ضعيف ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلعب صبيا إذ بال فقامت لتأخذه وتضربه فقال دعني اتوني بكوز

مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفقا . قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم قال على الذين الهين السهل القريب ^(١) » وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب السهل الطلق الوجه ^(٢) » وقال بعضهم : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة . فقال « إن من موجبات الغفرة بذل السلام وحسن الكلام ^(٣) » وقال عبد الله بن عمر إن البرة شيء هين وجهه طلق وكلام لين وقال ^(٤) « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكرة طيبة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لفرقا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها : قال أعرابي لمن هي يا رسول الله ؟ قال « لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام ^(٦) » وقال معاذ بن جبل قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الحيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخض الجناح ^(٧) » وقال أنس رضي الله عنه « عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت : لي معك حاجة وكان معه ناس من أصحابه فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك فجلست إلى الباحة فقتت حاجتها ^(٨) » وقال وهب بن منبه إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سبعة أيام فسأل الله تعالى أنه يريه كيف ينصوي الشيطان الناس فلما طالع عليه ذلك ولم يجب قال لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربى لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته فأرسل الله إليه ملكا فقال له إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك وقد فتح الله بصرك فانظر فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالدباب فقال أي رب من ينجو من هذا قال الورع الذين . ومنها أن لا يمد مسلما بوعده إلا ويوفي به قال ^(٩) « المدة عطية ^(١٠) » وقال « المدة دين ^(١١) » وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ^(١٢) » وذكر ذلك وعد أخلف وإذا اتهم خان ^(١٣) » وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ^(١٤) » وذكر ذلك

من ماء الحديث وإسناده صحيح ^(١٥) حديث أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم قال الهين الذين السهل القريب الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل الذين وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقب عن أمه قال الترمذي حسن غريب ^(١٦) حديث أبي هريرة إن الله يحب السهل الطلق البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه من رواية موريق الجعفي مرسل ^(١٧) حديث إن من موجبات الغفرة بذل السلام وحسن الكلام ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هانيء بن يزيد بأسناد جيد ^(١٨) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة الحديث متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقديم في الزكاة ^(١٩) حديث إن في الجنة غرضا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها الحديث الترمذي من حديث على وقال حديث غريب . قلت وهو ضعيف ^(٢٠) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي وخض الجناح وإسناده ضعيف ^(٢١) حديث أنس عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك الحديث رواه مسلم ^(٢٢) حديث المدة عطية الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف ^(٢٣) حديث المدة دين الطبراني في معجمه الأوسط والأصغر من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود في الراشدين ^(٢٤) حديث ثلاث في المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه ^(٢٥) حديث ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى البخاري من حديث أبي هريرة

في السؤال والفتوح
والصدق مع الله على
كل حال كيف تقلب
[السبب الحادي
والمشرون في شرح
حال التجرد والتأهل
من الصوفية وصحة
مقاصدهم]

الصوفي يتزوج لله كما
يتجرد لله فلتجرده
مقصد وأوان ولتأهله
مقصد وأوان والصادق
يسلم أوان التجرد
والتأهل لأن الطبع
الجوهر للصوفي ملجم
بلجام العلم مهما يصلح
له التجرد لا يستجمله
الطبع إلى التزوج ولا
يقدم على التزوج إلا إذا
انصلحت النفس
واستحقت إدخال الرفق
عليها وذلك إذا صارت
منقادة مطوعة بحجة
إلى ما يراد منها بمثابة
الطفل الذي يتعاهد بما
يروق له ويمنع عما يضره
فإذا صارت النفس
محكومة مطوعة فقد
فادت إلى أمر الله
وتصلت عن مشاحة

ومن هذا أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم
 « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الاتفاق من الاقتار والانصاف من نفسه
 وبذل السلام ^(١) » وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته
 وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٢) » وقال
 صلى الله عليه وسلم « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ما عيب نفسك
 تكن مسلماً ^(٣) » قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال فيهن :
 جماع الأمر لك ولولدك واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين الخلق
 فأما التى لى تعبدنى ولا تشرك بى شيئا وأما التى لك فعملك أجزيك به أقصر ما تكون إليه وأما التى
 بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الإجابة وأما التى بينك وبين الناس فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك
 به وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال أى رب أى عبادك أعدك أن أنصف من نفسه .
 ومنها أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فيزول الناس منازلهم روى أن عائشة
 رضى الله عنها كانت فى سفر فزلت منزلاً فوضعت طعامها فجاء سائل فقالت عائشة ناولوا هذا المسكين
 قرصاً ثم مر رجل على دابة فقالت ادعوه إلى الطعام فقبل لها تعطين المسكين وتدعين هذا الذى
 فقالت إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن نزلهم تلك المنازل هذا المسكين رضى بقرص
 وقبيح بنا أن نعطي هذا الذى على هذه الهيئة قرصاً وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوت
 فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلاً فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكاناً فقعده على
 الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال له اجلس على هذا فأخذ جرير ووضع
 على وجهه وجعل يقبله ويبكى ثم لفه ورمى به إلى النبی صلى الله عليه وسلم وقال ما كنت لأجلس على
 ثوبك أكرمك الله كما أكرمتنى فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالاً ثم قال « إذا أتاكم كريم
 قوم فأكرموه ^(٤) » وكذلك كل من له عليه حق فليكرمه ، روى « أن ظر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم أتى أرضه جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها مرحبا بأبى ثم أجلسها على الرداء
 ثم قال لها اشفعى تشفعى وسلى تعطى فقالت قولى فقال أما حقى وحق بنى هاشم فهو لك قيام الناس من كل
 ناحية وقالوا وحققاً يا رسول الله ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سمانه بخين ^(٥) » فبيع ذلك
 من عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة ألف درهم « ولربما آتاه من يأتيه وهو على وسادة

وأصله متفق عليه ولفظ مسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم وهذا ليس فى البخارى ^(١) حديث
 لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال الاتفاق من الاقتار والانصاف من نفسه
 وبذل السلام الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقف البخارى عليه
^(٢) حديث من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص
 نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه ^(٣) حديث يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن
 مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف
 والمعروف أنه قاله لأبى هريرة وقد تقدم ^(٤) حديث إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وفى أوله قصة
 فى قدوم جرير بن عبد الله الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الزكاة مختصراً
^(٥) حديث إن ظر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى أرضه جاءت إليه فبسط لها رداءه الحديث
 أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى الطفيل مختصراً فى بسط رداءه لها دون ما بعده .

القلب فيصلح بينهما
 بالعدل وينظر فى أمرهما
 بالقسط ومن صبر من
 الصوفية على العزوبة
 هذا الصبر إلى حين
 بلوغ الكتاب أجله
 ينتخب له الزوجة انتخاباً
 ويهيء الله له أعواناً
 وأسباباً وينعم برفيق
 يدخل عليه ورزق
 يساق إليه متى استعجل
 للرشد واستغفره الطبع
 وخامره الجهل بثوران
 دخان الشهوة المطفئة
 لشعاع العلم وأنخط من
 أوج العزيمة الذى هو
 قضية حاله وموجب
 إرادته وشريطة صدق
 طلبه إلى حضيض
 الرخصة التى هى رحمة
 من الله تعالى لعامة خلقه
 يحكم عليه بالنقصان
 ويشهد له بالخسران
 ومثل هذا الاستعجال
 هو حضيض الرجال
 قال سهل بن عبد الله
 التستري إذا كان للمديد
 مال يتوقع به زيادة
 فدخل عليه الابتلاء
 فرجوعه فى الابتلاء

جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فيزعمها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فان أبي عزم عليه حق فعل^(١) . ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا قال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين^(٣) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضي الله عنه قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله بأني أنت وأمي ما الذي أضحكك قال رجلان من أمي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذني مظلمتي من هذا فقال الله تعالى رد علي أخيك مظلمته فقال يارب لم يبق لي من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء فقال يارب فليحمل عني من أوزاري ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله تعالى أي للمظلم ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصور من ذهب مكدلة بالؤلؤ لأى نبى هذا أولأى صديق أولأى شهيد قال الله تعالى هذا لمن أعطى الثمن قال يارب ومن يملك ذلك قال أنت تملكه قال بماذا يارب قال بعفوك عن أخيك قال يارب قد عفوت عنه فيقول الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة^(٤) » وقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا^(٥) » وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يقط الواجب إلا بواجب آكد منه قال صلى الله عليه وسلم « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب فان الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها^(٦) » . ومنها أن تستر عورات المسلمين كلهم قال صلى الله عليه وسلم « من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة^(٧) » وقال « لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة^(٨) »

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذي يجلس إليه أحمد من حديث ابن عمرو أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى إليه وسادة من آدم حشوها ليف الحديث وإسناده صحيح والطبراني من حديث سلمان دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على وسادة فألقاه إلى الحديث وسنده ضعيف قال صاحب اللباز هذا خبر ساقط (٢) حديث ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء (٣) حديث أفضل الصدقة إصلاح ذات البين الطبراني في الكبير والحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الأفريقي ضعفه الجمهور (٤) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يا رسول الله بأني وأمي ما الذي أضحكك قال رجلان من أمي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذ لي مظلمتي من هذا الحديث الحرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الاسناد وكذا أبو يعلى الوصلى خرج به بطول وضعفه البخاري وابن حبان (٥) حديث ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (٦) حديث كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب الحديث الحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث النواس ابن سمعان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة (٧) حديث من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة مسلم من حديث أبي هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٨) حديث لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة مسلم من حديث أبي هريرة أيضا .

إلى حال دون ذلك نقصان وحدث وصحت بعض الفقهاء وقد قيل لهم لا تزوج فقال المرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون وقد تعارضت الأخبار وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج وتتنوع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك لتنوع الأحوال فمنهم من فضيلته في التجريد ومنهم من فضيلته في التأهل وكل هذا التعارض في حق من نازت وقاته برد وسلام لكامل تقواه وقهره هوام وإلا ففي غير هذا الرجل الذي يخاف عليه الفتنة يجب النكاح في حال التوقان المفرط ويكون الخلاف بين الأئمة في غير النائق فالصوفي إذا صار متأهلا يتعين على الإخوان معاوته

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم «لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة» (١) وقال عليه السلام لما عز لما أخبره «لو سترته بثوبك كان خيرا لك» (٢) فإذا نهي للمسلم أن يستر عورة نفسه بحق إسلامه واجب عليه بحق إسلام غيره قال أبو بكر رضي الله عنه لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسر بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس أرايتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين قالوا إنما أنت إمام فقال على رضي الله عنه ليس ذلك لك إذا يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سأله فقال القوم مثل مقالهم الأولى فقال على رضي الله عنه مثل مقالته الأولى وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان مترددا في أن الموالي هل له أن يقضي ببله في حدود الله فذلك راجعهم في معرض التقدير لافي معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بإخباره ومال رأي على إلى أنه ليس له ذلك وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أغشها الزنا وقد نيط بأربعة من العدول يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالرود في السككة وهذا قط لا ينق وإن علمه القاضي تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات ثم انظر إلى كيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه فترجو أن لا نحرّم هذا الكرم يوم تبلى السرائر ففي الحديث «إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى» (٣) وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمّه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولنظ فآخذ عمر يدي وقال أتدري بيت من هذا؟ قلت لا فقال هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف صوم الآن شرب فأتري؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما هنا الله عنه قال الله تعالى - ولا تجسسوا - فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب السر وترك التبصير وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاوية «إنك إن تبصرت عورات الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع عورة الله وعورته ومن يتبع عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته» (٥) وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى

(١) حديث أبي سعيد الخدري لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة الطبراني في الأوسط والصغير والحرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٢) حديث لو سترته بثوبك كان خيرا لك أبو داود والفسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الاسناد ونعيم مختلف في صحته (٣) حديث إن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث على من أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فآفه أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه ومن أذنب ذنبا في الدنيا فبوقب عليه فآفه أعدل من أن يثنى العقوبة على عبده لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين والمسلم من حديث أبي هريرة لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة (٤) حديث إنك إن تبصرت عورات الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم قاله لمعاوية أبو داود باسناد صحيح من حديث معاوية (٥) حديث يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم الحديث أبو داود من حديث أبي برزة باسناد جيد والترمذي نحوه من حديث ابن عمرو وحسنه .

بالإيثار ومساعدته في الاستكثار إذا رأى ضعيف الحال قاصرا عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله. أخبرنا أبو زرعة عن والده أبي الفضل القدسي الحافظ قال أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال أنا أبو الحسين محمد بن عبيد الله ابن أخي ميمى قال أنا أبو القاسم عبيد الله ابن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا محمد ابن هرون قال أنا أبو المغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن ابن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه في نفسه في يومه فأعطى التأهل حظين والعزب حظا واحدا فدعينا وكنت أدعى قبل عمار بن ياسر

ما أخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معي غيري وقال بعضهم كنت قاعدا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بآخر فقال هذا نشوان فقال عبد الله بن مسعود استنكوهوا فاستنكوهوه فوجده نشوانا فحبسه حتى ذهب سكره ثم دعا بسوط فسكر ثم قال للجلاد اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده وعليه قباء أو مرط فلما فرغ قال للذي جاء به ما أنت منه قال همه قال عبد الله ما أدبت فأحسنيت الأدب ولا سترت الحرمة إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيه وإن الله غفور يحب العفو ثم قرأ - وليعفوا وليصفحوا - ثم قال « إني لأذكر أول رجل قطعه النبي ﷺ آتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه فقالوا يا رسول الله كأنك كرهت قطعه فقال وما يعنني لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيك فقالوا ألا عفوت عنه فقال إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيه إن الله غفور يحب العفو وقرأ - وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم - (١) وفي رواية فكأنما سني في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تقيده وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسى بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتدور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر فقال يا عدواؤه أظننت أن الله يسترك وأنت على مصيئته فقال وأنت يا أمير المؤمنين فلا تسجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثا قال الله تعالى - ولا تجسسوا - وقد تجسس وقال الله تعالى - وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها - وقد تسورت على وقد قال الله تعالى - لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم - الآية وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام فقال عمر رضي الله عنه هل عندك من خير إن عفوت عنك قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عني لأعود إلى مثلها أبدا ففأعنه وخرج وتركه وقال رجل لعبد الله بن عمر يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول « إن الله ليدينني منه للؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول نعم يارب حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له يا عبدني إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكافرون والمنافقون فيقولون الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألألئنه الله على الظالمين (٢) » وقد قال صلى الله عليه وسلم « كل أمتي معافي إلا المجاهرين (٣) » وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل سوءا ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع خبر قوم وهم له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة (٤) » ومنها أن يتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة فانهم إذا عصوا الله بذكركم وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - وقال صلى الله عليه وسلم « كيف ترون من يسب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه (٥) » وقد روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه

(١) حديث ابن مسعود إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم آتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ الحديث رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وللخرايطي في مكارم الأخلاق فكأنما سني في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد الحديث (٢) حديث ابن عمر إن الله عز وجل ليدينني للؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا الحديث متفق عليه (٣) حديث كل أمتي معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث من استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة البخاري من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبي هريرة أيضا (٥) حديث كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ونحوه .

فأعطاني حظين وأعطاه حظا واحدا فسخط حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ومن حضره فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا فلم يجبه أحد فقال عمار ودنا يا رسول الله لو قد أكرتنا من هذا فالتجرد عن الأرواح والأولاد أعون على الوقت للفقير وأجمع لهمه وألقت ليشه ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع الملائق ومحو العوائق والتنقل في الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجابا والتزوج انعطاط من العزيمة إلى الرخص ورجوع من الترويح إلى النقص وتقيد

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا فلان هذه زوجتي صفية فقال يا رسول الله من كنت أظن فيه فاني لم أكن أظن فيك فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ^(١) » وزاد في رواية « إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وكنا رجلين فقال علي رسلكما إنها صفية ^(٢) » الحديث وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان وقال عمر رضي الله عنه من أقام نفسه مقام النهم فلا يلومن من أساء به الظن ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال يا أمير المؤمنين : إنها امرأتى فقال هلا حيث لا يراك أحد من الناس ؟ . ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسمى في قضاء حاجته بما يقدر عليه قال صلى الله عليه وسلم « إني أوتي وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيي ما أحب ^(٣) » وقال معاوية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشفعوا إلى تؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلى فتؤجروا ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان قيل وكيف ذلك ؟ قال الشفاعة يحقن بها الدم وتجر بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر ^(٥) » وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته فقال صلى الله عليه وسلم لعباس ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له فقال النبي صلى الله عليه وسلم لوراجعتي فائه أبوولئك فقالت يا رسول الله أتأمرني فأفعل فقال لا إنما أنا شافع ^(٦) » ومنها أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام قال صلى الله عليه وسلم « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام ^(٧) » وقال بعضهم « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أسلم عليه وسلم ارجع قتل السلام عليكم وادخل ^(٨) » وروى جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فان الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته ^(٩) » وقال أنس رضي الله عنه « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي بأنس أسبغ الوضوء بزد في عمرك وسلم على

بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الأعوجاج والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والمادة. قال أبو سليمان إلهداراني ثلاث من طلبهن فقد رخصن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته . أخبرنا الشيخ طاهر قال أنا والدي أبو الفضل قال أنا محمد بن اسمعيل القمري قال أنا أحمد بن الحسن قال أنا حاجب الطوسي قال حدثنا عبد الرحيم قال حدثنا الفزاري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تركت بشيء فتنة أضرب على

(١) حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فقال يا فلان هذه زوجتي صفية وفيه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم رواه مسلم (٢) حديث إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وقال علي رسلكما إنها صفية متفق عليه من حديث صفية (٣) حديث إني أوتي وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه (٤) حديث ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان الحديث الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث سمرة بن جندب بسند ضعيف (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها يبكي الحديث رواه البخاري . (٦) حديث من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين (٧) حديث دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن فقال ﷺ ارجع قتل السلام عليكم أ أدخل أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة (٨) حديث جابر إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فان الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف .

[١] هذا الحديث ساقط عند العراقي وهو من رواية أبي داود والنسائي وابن عساكر من طريق همام بن منبه عن معاوية كافي الشارح اهـ .

من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المؤمنان فتصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشرا » وقال تعالى - وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - وقال عليه السلام « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم قالوا بلى يا رسول الله ؟ قال أفشوا السلام بينكم (٢) » وقال أيضا « إذا سلم السلم على السلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة تعجب من السلم يمر على السلم ولا يسلم عليه (٤) » وقال عليه السلام « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم (٥) » وقال قتادة كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة وكان أبو سلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول ما يعني إلا أنني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة والصاخة أيضا سنة مع السلام « وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فقال عليه السلام عشر حسنات فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال ثلاثون (٦) » وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم (٧) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد بن بهرام « أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية (٨) » فقال عليه السلام « لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه (٩) » وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثماني حجيج فقال لي يا أنس أصبح الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك الحرائط في مكالم الأتلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضيف للترمذي وصححه إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك (٢) حديث والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث إذا سلم السلم على السلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولله في المسند (٤) حديث الملائكة تعجب من السلم يمر على السلم فلا يسلم عليه لم أقف له على أصل (٥) حديث يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم ومالك في الوطأ عن زيد بن أسلم مرسل ولأبي داود من حديث علي بن جزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يسلم الراكب على الماشي الحديث وصيأتي في بقية الباب (٦) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم عشر حسنات الحديث أبو داود والترمذي من حديث عمران بن حصين قال الترمذي حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن (٧) حديث أنس كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعته متفق عليه (٨) حديث عبد الحميد بن بهرام أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فألوى بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده الترمذي من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أمعاء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبي حسين عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به (٩) حديث لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

الرجال من النساء « وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال « ابتلينا بالضراء فصرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ولبسن ريط الشام وعصب اللبن وأتبعن الغني وكلفن الفقير ما لا يجد » وقال بعض الحكماء معالجة العزوبة خير من معالجة النساء . وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقيل في تفسير قوله تعالى - خلق الإنسان ضعيفا - لأنه لا يصبر عن النساء وقيل في قوله تعالى - ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به - الغلة فان قدر الفقير على مقاومة النفس ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة

« لاتصاغوا أهل الذمة ولا تبدهم وبهم بالسلام فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق »
 قالت عائشة رضي الله عنها « إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم قالت عائشة رضي الله عنها فقات بل عليكم السام والمنة فقال عليه السلام يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء قالت عائشة ألم تسمع ما قالوا قال قد قلت عليكم (١) » وقال عليه السلام « يسلم الراكب على السائق والسائق على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير (٢) » وقال عليه السلام « لاتشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود والنصارى بالأيصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأ كف (٣) » قال أبو عيسى إسناده ضعيف وقال عليه السلام « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة (٤) » وقال أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ « إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشراً (٥) » وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادي تسعون وللصافح عشرة (٦) » وقال الحسن للصافحة تزيد في الود وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمام تحياتكم بينكم الصافحة (٧) » وقال عليه السلام « قبله المسلم أخاه الصافحة (٨) » ولا بأس بقبلة يد العظم في الدين تبركاً به وتوقيراً له وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم (٩) وعن كعب بن مالك قال لما نزلت توبى أثبت النبي صلى الله عليه وسلم قبلت يده (١٠) وروى أن أعرابياً قال يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال فأذن له ففعل (١١) ولقي أبو عبيدة

النفس وصبر عنهن
 فقد حاز الفضل
 واستعمل العقل
 واهتدى إلى الأمر
 السهل قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 « خيركم بعد المائتين
 رجل خفيف الحاذق
 يا رسول الله وما خفيف
 الحاذق؟ قال الذي لأهل
 له ولا ولده وقال بعض
 الفقهاء لما قيل له تزوج
 أنا إلى أن أطلق نفسي
 أخرجني إلى الزوج
 وقيل لبشر بن الحرث
 إن الناس يتكلمون
 فيك فقال ما يقولون
 قيل يقولون إنه تارك
 للسنة يعني النكاح فقال
 قولوا لهم أنا مشغول
 بالقرض عن السنة .
 وكان يقول لو كنت
 أعول دجاجة خفت
 أن أكون جلاداً على
 الجسر والصوف مبتلى
 بالنفس ومطالبها وهو
 في شغل شاغل عن
 نفسه فإذا انضاف إلى
 مطالبات نفسه
 مطالبات زوجته

(١) حديث عائشة إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك الحديث متفق عليه (٢) حديث يسلم الراكب على السائق والسائق على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم والصغير على الكبير (٣) حديث لاتشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأيصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأ كف الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف (٤) حديث إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٥) حديث أنس إذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة الحديث الخرائطي بسند ضعيف وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة مائة رحمة تسعون لأحسنهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسألة لأخيه وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٦) حديث عمر بن الخطاب إذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة الحديث البزار في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٧) حديث أبي هريرة تمام تحياتكم بينكم الصافحة الخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه (٨) حديث قبله المسلم أخاه الصافحة الخرائطي وابن عدي من حديث أنس وقال غير محفوظ (٩) حديث ابن عمر قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو داود بسند حسن (١٠) حديث كعب ابن مالك لما نزلت توبى أثبت النبي صلى الله عليه وسلم قبلت يده أبو بكر بن القرى في كتاب الرخصة في قبيل اليد بسند ضعيف (١١) حديث أن أعرابياً قال يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال رجلك موضع يدك وقال صحيح الاسناد.

عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصاحه وقبل يده وتحميا يكيان وعن البراء بن عازب رضي الله عنه «أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصاحه فقال يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المسلمين إذا التقيا فصاحا تحاتت ذنوبهما (١) » وعن النبي ﷺ قال «إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملا خير منهم وأطيب ، أو قال وأفضل (٢) » والآنحناء عند السلام منهي عنه قال أنس رضي الله عنه «قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا لبعض ؟ قال لا قال فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال لا قال فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال نعم (٣) » والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر (٤) وقال أبو ذر رضي الله عنه ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صاغني وطلبني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود (٥) والأخذ بالركاب في توقيير العلماء ورد به الأثر فل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت (٦) وأخذ عمر بن زر زيد حتى رفعه وقال هكيدا فاضلوا زيد وأصحاب زيد . والقيام مكروه على سبيل الأعظام لا على سبيل الأكرام قال أنس ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يملون من كراهيته لذلك (٧) وروى أنه عليه السلام قال مرة «إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم (٨) » وقال عليه السلام «من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار (٩) » وقال عليه السلام «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتنبهوا (١٠) » وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النبي وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته فانما هي كرامة أكرمه بها أخوه

(١) حديث البراء بن عازب أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصاحه الحديث رواه الحارثي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي اسحاق عن البراء (٢) حديث إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملا خير منهم وأطيب الحارثي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (٣) حديث أنس قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا لبعض قال لا الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي (٤) حديث الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر الترمذي من حديث عائشة قالت قدم زيد بن حارثة الحديث وفيه فاعتقه وقبله وقال حسن غريب (٥) حديث أبي ذر ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صاغني الحديث أبو داود وفيه رجل من عزة لم يسم وصماه البيهقي في الشعب عبد الله (٦) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت تقدم في العلم (٧) حديث أنس ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يملون من كراهيته لذلك الترمذي وقال حسن صحيح (٨) حديث إذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال كما يقوم الأعاجم وفيه أبو العديس مجهول (٩) حديث من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال حسن (١٠) حديث لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتنبهوا متفق عليه من حديث ابن عمر .

يضعف طلبه وتكل إرادته وتفتقر عزيمته والنفس إذا أطمعت طمعت وإذا أقنعت قنعت فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بادامة الصوم فإن للصوم أثرا ظاهرا في قمع النفس وقهرها وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجماعة من الشبان وهم يرفضون الحجارة فقال «يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء » أصل الوجاء رض الحصىتين كانت العرب تحب الفحل من الغنم لتذهب لحولته ويسمن ومنه الحديث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين موجودين وقد قيل هي النفس إن لم تشغلها شغلتك فاذا أدام الشاب للريد العمل وأذاب نفسه في

فإن لم يوسع له فلينظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه ^(١)» وروى أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب ^(٢) فيكره السلام على من يقضى حاجته ويكره أن يقول ابتداء عليك السلام فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام «إن عليك السلام تحية الموتى قالها ثلاثاً» ثم قال : إذا لقي أحدكم أخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله ^(٣)» ويستحب للدخول إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه ^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «ممن مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا ^(٥)» . وسلمت أم هانيء على النبي صلى الله عليه وسلم فقال من هذه فقيل له أم هانيء فقال عليه السلام مرحباً بأم هانيء ^(٦)» . ومنها أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويتنازل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الاسلام . روى أبو الدرداء «أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله ﷺ فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار ^(٧)» وقال صلى الله عليه وسلم «ممن امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ^(٨)» وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أدركه الله بها في الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة ^(٩)»

(١) حديث إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع يعني له فيجلس فإنه كرامة من الله عز وجل الحديث البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن شيبة ورجاله ثقات وابن شيبة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب بن شيبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخصر منه وشيبة بن جبير والد منصور ليست له حجة (٢) حديث أن رجلاً سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب مسلم من حديث ابن عمر بلفظ فلم يرد عليه (٣) حديث قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال إن عليك السلام تحية آليت الحديث أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جري الهجيمي وهو صاحب القصة قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها الحديث متفق عليه من حديث أبي واقد اللائي (٥) حديث مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (٦) حديث سلمت أم هانيء عليه فقال مرحباً بأم هانيء مسلم من حديث أم هانيء (٧) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار الترمذي وحسنه (٨) حديث مامن امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والحرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب (٩) حديث أنس من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة الحديث ابن أبي الدنيا .

العبادة تفعل عليه خواطر النفس وأيضاً شغله بالعبادة يميز له خلوة العامة ومحبة الاكثار منه ويفتح عليه باب السهولة والعيش في العمل فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة . ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الانابة فتدركه الله تعالى حينئذ بقوة المزمعة ويؤيده بمراغمة النفس بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثواباً لحسن إجابته فتسكن النفس عن المطالبة ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول في المداخل المذمومة للسودية إلى الدل والموان وأخذ الشيء من غير وجهه وما يتوقع من القواطع

وقال عليه السلام « من حمى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله تعالى له ملكا يحميه يوم القيامة من النار » (١) وقال جابر وأبو طلحة سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره وما من امرئ خذل مسلما في موطن ينتهك فيه حرمة إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته » (٢) . ومنها تسميت العاطس قال عليه الصلاة والسلام في العاطس يقول « الحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمته يرحمكم الله ويرد عليه العاطس فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم » (٣) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين فإذا قال ذلك فليقل من عنده يرحمك الله فإذا قالوا ذلك فليقل يغفر الله لي ولكم » (٤) . وسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتسا ولم يشمت آخر فساله عن ذلك فقال إنه حمد الله وأنت سكت » (٥) وقال ﷺ « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام » (٦) . وروى أنه شمت عاتسا ثلاثا فعطس أخرى فقال إنك مزكوم » (٧) وقال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غص صوته واستتر بثوبه أويده » (٨) . وروى خمر وجهه وقال أبو موسى الأشعري « كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول : يهديكم الله » (٩) . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه « أن رجلا عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا وبعد ما يرضى والحمد لله على كل حال فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال من صاحب الكلمات فقال أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيرا فقال لقد رأيت اثني عشر ملكا كلهم يتتدرونها أيهم يكتبها » (١٠) .

في الصمت مقتصر على ما ذكر منه وإسناده ضعيف (١) حديث من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف (٢) حديث جابر وأبي طلحة ما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمة الحديث أبو داود مع تقديم وتأخير واختلاف في إسناده (٣) حديث يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمته يرحمكم الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري على كل حال (٤) حديث ابن مسعود إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين الحديث النسائي في اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضا أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله واختلف في إسناده (٥) حديث شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتسا ولم يشمت آخر فساله عن ذلك فقال إنه حمد الله وأنت سكت متفق عليه من حديث أنس (٦) حديث شمتوا المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام أبو داود من حديث أبي هريرة شمت أخاك ثلاثا الحديث وإسناده جيد (٧) حديث أنه شمت عاتسا فعطس أخرى فقال إنك مزكوم مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (٨) حديث أبي هريرة كان إذا عطس غص صوته وستر بثوبه أويده أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة خمر وجهه وفاه (٩) حديث أبي موسى كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول يهديكم الله أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح (١٠) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه الحديث أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد

بسبب التفات الحاطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التي لا تنحصر . وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال ، وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين وقلة العيال أحد اليسارين . وكان إبراهيم بن آدم يقول : من تعود أفضاذا النساء لا يفلح ولا شك أن للمرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويتسلط على الباطن خوف الفقر وعجة الادخار وكل هذا بعيد عن التجرد وقد ورد « إذا كان بعد المائتين أيسحت العزوبة لأمتي » فإن توالى على الفقير خواطر النكاح وزاحمت باطنه سيما في الصلاة والأذكار والتلاوة فليستمن باقه أولا ثم

وقال صلى الله عليه وسلم « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته ^(١) » وقال عليه السلام « العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان فإذا ثأب أحدكم فليضع يده على فيه فإذا قالهاها فان الشيطان يضحك من جوفه ^(٢) » وقال إبراهيم النخعي إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس - بأن يذكر الله وقال الحسن بن محمد الله في نفسه ، وقال كعب قال موسى عليه السلام يارب أقرئني أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك فقال أنا جليس من ذكرني فقال فأناسكون على حال نجلتك أن تذكرك عليها كالجناية والغائط فقال اذكرني على كل حال . ومنها أنه إذا بلى بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه قال بعضهم خالص المؤمنين مخالصة وخالق الفاجر مخالقة فان الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء إن النبي في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلغهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى - اذفع بالتي هي أحسن السيئة - قال ابن عباس في معنى قوله - ويدبرون بالحسنة السيئة - أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة وقال في قوله تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض - قال بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة وقالت عائشة رضي الله عنها « استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو فلما دخل ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له لما دخل قلت الذي قلت ثم ألتفت له القول فقال يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خضته ^(٣) » وفي الخبر « ما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ^(٤) » وفي الأثر : خالطوا الناس بأعمالكم وزابلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . ومنها أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويعين إلى الأيتام كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين ^(٥) » وقال كعب الأحمري كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل السجد فرأى مسكينا جلس إليه وقال مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان من كلمة تنال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يا مسكين وقال كعب الأحمري ما في القرآن من يا أيها الذين آمنوا فهو في التوراة يا أيها المساكين وقال عبادة ابن الصامت إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين وقال الفضيل بلقي أن نبيا من الأنبياء قال : يارب كيف لي أن أعلم رضاك عني فقال انظر كيف رضا المساكين عنك ، وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم ومجالسة اللوثي ، قيل ومن اللوثي يا رسول الله ؟ قال الأغنياء ^(٦) » وقال موسى إلهي أين أبغيك قال عند المنكسرة قلوبهم ، وقال صلى الله عليه وسلم

بالمشايع والإخوان ويشرح الحال لهم ويسألهم مسألة الله له في حسن الاختيار ويطوف على الأحياء والأموات والمساكين والمشاهد ويستعظم الأمر ولا يدخل فيه بقلة الاكتراث فانه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم وقد قال الله تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ويكثر السكاء بين يديه في الخلوات ويكرر الاستخارة وإن رزق القوة والصبر حتى يستعين به من فضل الله الخيرة في ذلك فهو السكاء والتمام قد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعا أو إطلاقا في منامه أو يقظته أو على لسان من يثق إلى دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة وإذا حكم لا يحكم إلا بحق فند

(١) حديث من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بن بسند ضعيف (٢) حديث العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله العطاس من الله فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب الحديث (٣) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث متفق عليه (٤) حديث ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه (٥) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والترمذي من حديث عائشة وقال غريب (٦) حديث إياكم ومجالسة اللوثي قيل وما اللوثي قال الأغنياء الترمذي وضعفه والحاكم وصححه إسناده من حديث عائشة إياكم ومجالسة الأغنياء .

«لاتبطن فاجرا. نعمة فانك لاتدرى إلى ما يصير بعد الموت فان من ورائه طالبا حثيا» (١) وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم «من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبنة» (٢) وقال عليه السلام «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة كهاتين وهو يشرب بأصبعيه» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة» (٤) وقال ﷺ «خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» (٥) . ومنها النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم «للمؤمن عجب للؤمن كما يحب لنفسه» (٦) وقال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقال صلى الله عليه وسلم «إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئا فليحطه عنه» (٧) وقال صلى الله عليه وسلم «من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره» (٨) وقال صلى الله عليه وسلم «من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة» [١] وقال صلى الله عليه وسلم «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاه أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين» (٩) وقال عليه السلام «من فرج عن مؤمن مغموم أو أمان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة» (١٠) وقال صلى الله عليه وسلم «انصر أخاك ظالما أو مظلوما . فقيل كيف ينصره ظالما قال يمنعه من الظلم» (١١) وقال عليه السلام

(١) حديث لاتبطن فاجرا نعمة الحديث البخارى فى التاريخ والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبنة أحمد والطبرانى من حديث مالك بن عمر وفيه على بن زيد بن جعدان متكلم فيه (٣) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة البخارى من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة أحمد والطبرانى بإسناد ضعيف من حديث أبى أمامة دون قوله ترحما ولا بن جبان فى الضمفاء من حديث ابن أبى أوفى من مسح يده على رأس يتيم رحمة له الحديث (٥) حديث خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه ضعف (٦) حديث المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه تقدم بلفظ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ولم أره بهذا اللفظ (٧) حديث إن أحدكم مرآة أخيه الحديث رواه أبو داود والترمذى وقد تقدم (٨) حديث من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره البخارى فى التاريخ والطبرانى والحرائلى كلاهما فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسل (٩) حديث من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاه أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين الحاكم وصححه من حديث ابن عباس لأن يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته وأشار بأصبعه أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين والطبرانى فى الأوسط من مشى فى حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكافه عشر سنين وكلاهما ضعيف (١٠) حديث من فرج عن مغموم أو أمان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة الحرائلى فى مكارم الأخلاق وابن جبان فى الضمفاء وابن عسدى من حديث أنس بلفظ من أغاث مله وفا (١١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

حديث من أقر عين مؤمن لم نجد له تخريجا فى نسختنا ووجدنا الشارح نقل عن المراقى أنه رواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق بإسناد ضعيف مرسل .

ذلك يكون تزوجه مدبرا معاناه فيه . وممنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى قال له بعض الصالحين لم تزوجت ؟ فقال ما تزوجت حتى قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج فقال له ذلك الرجل الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالزيجة فلا أعلم ما قال الشيخ فى جوابه ولكنى أقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة وأمره على لسان الشرع فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتر إلى واستخاره فيكاشفه الله بتنبهه إياه فى منامه وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب الزيجة لأنه من علم الحال لا من علم الحكم ويدل على صحة ما وقع لى ما نقل عنه أنه قال كنت أريد

«إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غمًا أو يقضى عنه دينًا أو يطعمه من جوع» (١) «وقال صلى الله عليه وسلم «من حمى مؤمنا من منافق يفتنه بعث الله إليه ملكا يوم القيامة يحمى لحيته من نار جهنم» [١] «وقال صلى الله عليه وسلم «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والنفع لعباد الله» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم» (٣) «وقال معروف السخري من قال كل يوم : اللهم ارحم أمة محمد كتبته الله من الأبدال وفي رواية أخرى اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد كل يوم ثلاث مرات كتبته الله من الأبدال . وبكى على بن الفضل يوما قعيل له ما ييكك ؟ قال أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة . ومنها أن يعود مرضاهم فالمرقة والاسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول أنا إذا قيل له من ؟ ولا يقول يا غلام ولكن يحمد ويسبح وقال صلى الله عليه وسلم «تمام عبادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو ونعمام تحياتكم المصافحة» وقال ﷺ «من عاد مريضا قعد في مغارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل» (٤) «وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه» (٥) «وقال صلى الله عليه وسلم «إذا عاد المسلم أخاه أوزاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلا في الجنة» (٦) «وقال عليه السلام «إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواذته فان هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رضا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول لعبدى طي إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لما خيرا من الحمد وما خيرا من دمه وأن أ كفر عنه سيئاته» (٧) «وقال رسول الله صلى الله

الزوجة مدة من الزمان ولا أجترى على التزوج خوفا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لي أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة فهذه ثمرة الصبر الجليل الكامل فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج - ومن يتقى الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء وورد عليه وارده من الله تعالى بإذن فيه فهو الغاية والنهاية وإن عجز عن الصبر إلى ورود الأذن واستنفذ جهده في الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ويغان عليه لحسن نيته وصدق مقصده وحسن رجائه واعتماده على ربه وقد

(١) حديث إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن الحديث الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٢) حديث خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر لعباد الله الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث طي ولم يسنده ولده في مسنده (٣) حديث من لم يهتم للمسلمين فليس منهم الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف (٤) حديث من عاد مريضا قعد في مغارف الجنة الحديث أصحاب السنن والحاكم من حديث طي من آتى أخاه المسلم عائدا مشى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس غمرته الرحمة فان كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء الحديث لفظ ابن ماجه ومصححه الحاكم وحسنه الترمذي ولمسلم من حديث ثوبان من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة (٥) حديث إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال انعمس فيها قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر وذكره مالك في الموطأ بلاغا بلفظ قرت فيه ورواه الواقدي بلفظ استقر فيها للطبراني في الصغير من حديث أنس فإذا قعد عنده غمرته الرحمة وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمر بن حزم استنفع فيها (٦) حديث إذا عاد المسلم أخاه أوزاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلا في الجنة الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة إلا أنه قال ناداه مناد قال الترمذي غريب قلت فيه عيسى بن سنان القسطلي ضعفه الجمهور (٧) حديث إذا مرض العبد بعث الله تعالى

[١] حديث من حمى مؤمنا قال الشارح لم يذكره العراقي ورواه ابن المبارك وأحمد وأبو داود وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والطبراني عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه .

عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه »^(١) وقال عثمان رضي الله عنه مرضت فصادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعينك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد قالها مرارا »^(٢) ودخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له « قل اللهم إني أسألك تسجيل عافيتك أو صبرا على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فانك ستعطى إحداهن »^(٣) ويستحب للعليل أيضا أن يقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا شكأ أحدكم بطنه فليسال امرأته شيئا من صدقها ويشتري به عسلا ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والبرى والشفاء والبارك . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار قلت بلى يا رسول الله قال يقول لا إله إلا الله يحيى ويميت وهو حي لا يموت سبحان الله رب العباد والبلاد والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال الله أكبر كبيرا إن كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان اللهم إن أنت أمرتني لتقبض روحي في مرضي هذا فأجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى وباعدني من النار كما باعدت أوليائك الذين سبقت لهم منك الحسنى »^(٤) وروى أنه قال عليه السلام « عيادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة »^(٥) وقال طاوس أفضل العيادة أخفها وقال ابن عباس رضي الله عنهما عيادة للمريض مرة سنة لما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم عيادة للمريض بعد ثلاث ، وقال عليه السلام « أغبوا في العيادة وأربعوا فيها »^(٦) وحمله أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفرع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء . ومنها أن يشيع جنازته قال صلى الله عليه وسلم « من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فان وقف حتى تدفن فله قيراطان »^(٧) وفي الخبر « القيراط مثل أحد »^(٨) ولما روى أبو هريرة هذا الحديث ومعه ابن عمر ملكين فقال انظرا ما يقوله لعواد الحديث مالك في الوطأ مرسلين حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثير الثقفي ضعيف الحديث وللبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواده أطلقته من يسارى ثم أبدله لما خيرا من لحمه وصاخيرا من دمه ثم استأنف العمل وإسناده جيد^(٩) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه البخاري من حديث أبي هريرة^(١٠) حديث عثمان مرضت فصادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بسم الله الرحمن الرحيم أعينك بالله الأحد الصمد الحديث ابن السني في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن .^(١١) حديث دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال قل اللهم إني أسألك تسجيل عافيتك الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكى ولم يسم عليه وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة أن جبريل علمها للنبي صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات^(١٢) حديث أبي هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي المرض والكفارات^(١٣) حديث عيادة المريض فواق ناقة ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بإسناد فيه جهالة^(١٤) حديث أغبوا في العيادة وأربعوا ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد إلا أن يكون مغلوبا وإسناده ضعيف^(١٥) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فان وقف حتى تدفن فله قيراطان الشيخان من حديث أبي هريرة^(١٦) حديث القيراط مثل جبل أحد مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه .

تقل عن عبد الله بن عباس أنه قال لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج وتقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر الزواج حتى لم يكن يغلو عن زوجتين أو ثلاث فتوبت في ذلك فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف وقفة في معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة فقالوا قد يصينا ذلك فقال لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد مات زوجت قط ولكني ما خطر على قلبي خاطر شهوة قط شغلني عن حالي إلا نقذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلي ثم قال منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية فالصادقون ما دخلوا في النكاح إلا على بصيرة وقصدوا حسم مواد النفس وقد يكون للأقوياء والعلماء

قال لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة والقصد من التشيع قضاء حق السلمين والاعتبار وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فإناراعون موعظة بليغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخرا لعقل له ، وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو سكي ويقول والله لا تمر عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لأعلم ما صنعت حيا . وقال الأعمش كنا نشهد الجناز فلا ندرى لمن نعزي لحزن القوم كلهم ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى إنه نجى من أهوال ثلاث وجه ملك الموت قدرأى ومראה الموت قد ذاق وخوف الحائمة قد آمن ، وقال صلى الله عليه وسلم « يتبع لليت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله (١) » ومنها أن يزور قبورهم والقصد من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال عليه السلام « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه (٢) » وقال عمر رضي الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فسكى وبكى فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (٣) » وكان عمر رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحية ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن القبور أول منازل الآخرة فان نجما من صاحبه لما بعده أيسر وإن لم ينج منه فابعد أشد (٤) » وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرة تقول أنا بيت الدود وبيت الوحيدة وبيت الغربة وبيت الظلة فهذا ما أعددت لك لما أعددت لى ؟ وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم قبرى يوم أوضع فى قبرى ، وكان أبو الدرداء يعد إلى القبور قصيل له فى ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكروننى معادى وإن قتلت عنهم لم يتأبونى وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم قد خان نفسه وخانهم وقال صلى الله عليه وسلم « مامن ليلة إلا وينادى مناد يأهل القبور من تنبطون قالوا نبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلى ويذكرون الله ولا نذكره (٥) » وقال سفيان من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال - رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت - ثم يقول ياربى قد رجعت فأعمل الآن قبل أن لا ترجع وقال يمين بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال يا يمين هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى قداهم أما تراهم صرعى قد خلت بهم اللات وأصاب الهوام من أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم من صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله . وآداب العزى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم . وآداب تشييم الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكير فى الموت والاستعداد له

(١) حديث يتبع لليت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد مسلم من حديث أنس (٢) حديث ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الاسناد وقال الترمذى حسن غريب (٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر الحديث فى زيارته قبر أمه مسلم من حديث أبى هريرة مختصرا وأحمد من حديث بريدة وفيه قمام عمر فقدها بالأب والأم يقول يا رسول مالك الحديث (٤) حديث عثمان بن عفان إن القبر أول منازل الآخرة الحديث الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده (٥) حديث مامن ليلة إلا وينادى مناد يأهل القبور من تنبطون فيقولون نبط أهل المساجد الحديث لم أجده أصلا .

الراسخين فى العلم أحوال فى دخولهم فى النكاح تختص بهم وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والراقبات والرياضات تطمئن قلوبهم وتقبل قلوبهم وللقلوب إقبال وإدبار يقول بعضهم : إن للقلوب إقبالا وإقبالا فإذا أدبرت روح بالارفاق وإذا أقبلت ردت إلى الشياق فتبقى قلوبهم دأمة الإقبال إلا اليسير ولا يدوم إقبالها إلا لطمانية النفوس وكفها عن المنازعة وترك التثبت فى القلوب فإذا اطمأنت النفوس واستقرت عن طيشها وغورها وشراستها توفرت عليها حقوقها وربما يصير من حقوقها حظوظها لأن فى أداء الحق إقناعا وفى أخذ الحظ انساعا وهذا من دقيق علم الصوفية فانهم يتسمون بالنكاح للباح إيسالا إلى النفس حظوظها لأنها ما زالت

وأن يمشى أمام الجنائز بقرعها والاسراع بالجنائز سنة (١) فهذه جملة آداب تنبه على آداب العاشرة مع عموم الخلق ، والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحدا حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدري له خير منك فانه وإن كان فاسقا فلعله يغتم لك بمثل حاله ويغتم له بالصلاح ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله ولا تبدل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في العادة ويذهب دينك ودينك فيهم ويذهب دينهم فيك إلا إذا رأيت منكرا في الدين فمادى أفعالهم القبيحة وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لعقوبة الله وعقوبته بصيائهم فحسبهم جهنم يصلونها فمالك تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثناهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحدا وربما لا تجده ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وآتى تظفر به ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعمل الدل ولا تنال الغرض ولا تعلم عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر باظهار الاستغناء وإذا سألت أبا منهم حاجة قضها فهو أخ مستغاد وإن لم يقض فلا تمنائه فيصير عدوا تطول عليك مقاساته ولا تشغل بوعظ من لا ترى فيه غايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظك عرضا واسترسالا من غير تخصيص على الشخص ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعد بالله أن يكلك إليهم وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا أو أصابك منهم ما يبرؤك فكل أمرهم إلى الله واستعد بالله من شرهم ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي ، واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موصعا في قلوبهم فإله المحب والبغض إلى القلوب وكن فيهم ميمعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بحقهم صموتا عن باطلهم واحذر محبة أكثر الناس فانهم لا يقولون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقص والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والسيان ولا يعفون بفرون الاخوان على الاخوان بالقيمة والبهتان فضيحة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الخلق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في ملقهم فظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب يقطعون بالظنون ويتعالمون وراءك بالعيون ويربصون بصديقهم من الحسد ريب اللون يحسبون عليك العثرات في محبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ولا تعمل على مودة من لم تخبره حق الخبره بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه فان رضيت في هذه الأحوال فاتخذته أبلك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك ، فهذه جملة آداب العاشرة مع أصناف الخلق .

(حقوق الجوار)

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراة ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم « الجيران ثلاثة جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق ، فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذوالرحم فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم

(١) حديث الاسراع بالجنائز متفق عليه من حديث أبى هريرة اسرعوا بالجنائز الحديث .

تخالف هواها حتى صار
داؤها وداؤها وصارت
الشهوات الباسحة
واللذات الشرعة
لا تضرها ولا تفرعها
عزائمها بل كالأوصاف
النفوس الزكية إلى
حظوظها ازداد القلب
انشراحا وانفساحا
ويصير بين القلب
والنفس مواءمة يطف
أحدهما على الآخر
يزداد كل واحد منهما
عما يدخل على الآخر
من الحظ كلا أخذ
القلب حظه من الله
خلع على النفس خلع
الطمأنينة فيكون
مزيد السكينة للقلب
مزيد الطمأنينة للنفس
وينشد :
إن السماء إذا اكتست
كست اترى
حلا يدبجها النعام
الرام
وكلا أخذت النفس
حظها تروح القلب
تروح الجار المشفق
براحة الجار . سمعت
بعض الفقهاء يقول :
النفس تقول للقلب كن

وأما الذي له حقان فالجوار المسلم له حق الجوار وحق الاسلام ، وأما الذي له حق واحد فالجوار المشرك (١) فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أحسن مجاورة من جاورك تسكن مسلماً » (٢) وقال النبي ﷺ « مازال جبريل يوصيني بالجوار حتى ظننت أنه سيورثه » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « أول خصمين يوم القيامة جاران » (٦) وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذنته » (٧) وروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إنني جارا يؤذني ويشتمني ويضيق عليّ فله اذهب فان هو عصي الله فيك فأطع الله فيه ، وقيل لرسول الله ﷺ « إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم هي في النار » (٨) . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اصبر ثم قال له في الثالثة أو الرابعة اطرع متاعك في الطريق قال فجعل الناس يعمرون به ويقولون مالك فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون لعنه الله فجاءه جاره فقال لهرد متاعك فوالله لأعود » (٩) وروى الزهري « أن رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي على باب المسجد ألا إن أربعين داراً جار » (١٠) قال الزهري أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وقال عليه السلام « الجن والشؤم في المرأة والسكن والفرس فيمن للمرأة خفة مهرها ويسمى نكاحها وحسن خلقها وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها وعين السكن ستمه وحسن جوار أهله وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله وعين الفرس ذله وحسن خلقه وشؤمه صعبته وسوء خلقه » (١١) .

(١) حديث الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق الحديث الحسن بن سفيان والبخاري في مسندهما وأبو الشيخ في كتاب التواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدي من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف (٢) حديث أحسن مجاورة من جاورك تسكن مسلماً تقدم (٣) حديث مازال جبريل يوصيني بالجوار حتى ظننت أنه سيورثه متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر (٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حديث أبي شريح (٥) حديث لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه البخاري من حديث أبي شريح أيضاً (٦) حديث أول خصمين يوم القيامة جاران أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف (٧) حديث إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذنته لم أجده أصلاً (٨) حديث إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال هي في النار ، أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد (٩) حديث جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له في الثالثة أو الرابعة اطرع متاعك على الطريق الحديث أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (١٠) حديث الزهري ألا إن أربعين داراً جار أبو داود في الراشدين ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال أربعون ذراعاً وكلاهما ضعيف (١١) حديث الجن والشؤم في المرأة والسكن والفرس فيمن للمرأة خفة مهرها الحديث مسلم من حديث ابن عمر الشؤم في الدار والمرأة والفرس وفي رواية له إن بك من الشؤم شيء حقاً وله من حديث سهل بن سعد إن كان في الفرس والمرأة والسكن وللترمذي من حديث حكيم ابن معاوية لشؤم وقد يكون الجن في الدار والمرأة والفرس ورواه ابن ماجه فجاه محمد بن معاوية وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله ماسوء الدار قال ضيق ساحتها وخبت جيرانها .

معى في الطعام أكن معك في الصلاة وهذا من الأحوال العزبة لا تصلح إلا لعالم رباني وكم من مدح يهلك بتوهمه هذا في نفسه ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه وقد كان الجليل يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام وجمع بعض العلماء بعض الناس يظمن في الصوفية فقال يا هذا ما الذي ينقصهم عندك فقال يا كلون كثيراً فقال وأنت أيضاً الوجهت كما يجوعون أكلت كما يأكلون ثم قال : ويتزوجون كثيراً قال وأنت أيضاً حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون قال وأى شيء أيضاً قال يسمعون القول قال وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما

واعلم أنه ليس حق الجوار كنف الأذى فقط بل احتمال الأذى فإن الجار أيضا قد كفف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ولا يكتفى احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره النقي يوم القيامة فيقول يارب سل هذا لمعنى معروفه وسد بابہ دونی وبلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داره في دين ركه وكان يجلس في ظل داره فقال ما كنت إذا بحرمة ظل داره إن باعها معدما قدفع إليه عن الدار وقال لا تبعها ، وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره فقيل له لو اتقنت هرا قال أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحبيت لهم مالا أحب لنفسى ، وجملة حق الجار أن يبدأ بالسلام ولا يطيل معه الكلام ولا يكثر عن حاله السؤال ويعوده في الرض ويعزبه في المصيبة ويقوم معه في العزاء ويهنئه في الفرح ويظهر الشركة في السرور معه ويصفح عن زلاته ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ولا في مصب الماء في ميزابه ولا في مطرح التراب في فثائه ولا يضيق طريقه إلى الدار ولا يتبعه النظر فيما يعمله إلى داره ويستمر ما ينكشف له من عوراته وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ولا يسمع عليه كلاما ويغض بصره عن حرمة ولا يديم النظر إلى خادمته ويتلطف بولده في كلمته ويرشده إلى ما يحمله من أمر دينه ودنياه ، هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما حق الجار إن استعان بك أعتته وإن استنصرك نصرته وإن استقرضك أقرضته وإن افتقر عدت عليه وإن مرض عدته وإن مات تبع جنازته وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزته ولا تستمل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بأذنه ولا تؤذنه وإذا اشتريت فأكهة فأهد له فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذنه بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها ، ثم قال أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله (١) » هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد « كنت عند عبد الله بن عمر وعظام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فأبدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجوار حتى خشينا أنه سيورثه (٢) » وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك ، وقال أبو ذر رضي الله عنه أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم وقال « إذا طبخت قدرا فأكثر ماءه ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل على نياحه والآخر ناه

قيل فما سوء الدابة ؟ قال منعها ظهرها وسوء خلقها ، قيل فما سوء المرأة ؟ قال عقم رحمها وسوء خلقها وكلاهما ضعيف ورويناه في كتاب الحيل للدمياطي من رواية سالم بن عبد الله مرسلًا إذا كان الفرس ضروريا فهو مشؤم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجها قبل زوجها فحنت إلى الزوج الأول فهي مشؤمة وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والاقامة فهي مشؤمة وإسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه (١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتدرون ما حق الجار إن استعان بك أعتته وإن استقرضك أقرضته الحديث الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف (٢) حديث مجاهد كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فأبدأ بجارنا اليهودي الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب (٣) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم إذا طبخت فأكثر الرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها رواه مسلم .

يسمعون . وكان سفيان ابن عيينة يقول كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول خير هذه الأمة أكثرها نساء وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عباداتبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه فذكر لنبي ذلك الزمان فقال نعم الرجل لولا أنه تارك لشيء من السنة ففهم ذلك إلى العابد فأفهمه فقال ما تنفعني عبادتي وأنا تارك السنة فجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال نعم إنك تارك التزوج فقال ما تاركته لأنني أحرمة وما منعني منه إلا أني فقير لشيء لي وأنا عيال على الناس يطعمني هذا مرة وهذا مرة فأكره أن أتزوج

يباه عنى وربما كان الذى عندى لا يسمعهما فأيهما أعظم حقا قال القبل عليك يباه (١) ورأى الصديق ولقد عبد الرحمن وهو يباهى جارا له فقال لا تناس جارك فان هذا يبق والناس ينهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابورى : سألت عبد الله بن المبارك فقلت الرجل المجاور يأتينى فينكس غلامى أنه أتى إليه أمرا والغلالم ينكره فأكره أن أضربه ولله برى وأكره أن أدعه فيجد على جارى فكيف أصنع ؟ قال إن غلامك لله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث فتكون قد أَرْضِيتَ جارك وأدبته على ذلك الحدث وهذا تَلَطَّفٌ فى الجمع بين الحَقَيْنِ . وقالت عائشة رضى الله عنها خلال للكارم عشر تكون فى الرجل ولا تكون فى أَيْه وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث وصدق الناس وإعطاء السائل وللصانع وصلة الرحم وحفظ الأمانة والتدبُّم للجار والتدبُّم للمصاحب وقرئ الضيف ورأسهن الحياء . وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامشتر للسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن من سعادة المرء السلم للسكن الواسع والجار الصالح والركب الهنيء » (٣) وقال عبد الله قال رجل يارسول الله « كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت قال إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت قد أحسنت وإذا سمعتمهم يقولون قد أسأت قد أسأت » (٤) وقال جابر رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان له جار فى حائط أو شريك فلا يسه حتى يرضه عليه » (٥) وقال أبو هريرة رضى الله عنه « قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى » (٦) وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يضمن أحدكم جاره أن يضع خشبه فى جداره » وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول ما لى أراكم عنها معرضين والله لأرمينها بين أكتافكم وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيرا عسله قبل وماعسله قال يحببه إلى جيرانه » (٧) .

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله إن لى جارين الحديث رواه البخارى (٢) حديث أبى هريرة يانساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة رواه البخارى (٣) حديث إن من سعادة المرء للسلم للسكن الواسع والجار الصالح والركب الهنيء أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث وسعد بن أبى وقاص وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٤) حديث عبد الله قال رجل يارسول الله كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت قال إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت قد أحسنت أحمد والطبرانى وعبد الله هو ابن مسعود وإسناده جيد (٥) حديث جابر من كان له جار فى حائط أو شريك فلا يسه حتى يرضه عليه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار وقال صحيح الإسناد وهو عند الحرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظ المصنف وابن ماجه من حديث ابن عباس من كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره ورجاله رجال الصحيح (٦) حديث أبى هريرة قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى الحرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا وهو متفق عليه بلفظ لا يضمن أحدكم جاره أن يفرز خشبه فى حائطه رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة (٧) حديث من أراد الله به خيرا عسله أحمد من حديث أبى عتبة الخولانى ورواه الحرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الزهد من حديث عمرو بن الحقيق زاد الحرائطى قبل وماعسله قال يحببه إلى جيرانه وقال البيهقى يفتح له عملا صالحا قبل موته حتى يرضى عنه من حوله وإسناده جيد .

بأمرأة أعرضها أو أرفقها
جهدا قال له النبي
عليه الصلاة والسلام
وما عتصمك إلا هذا قال
نعم قال أنا أزوجه
ابنتى فزوجه النبي
عليه السلام ابنته وكان
عبد الله بن مسعود
يقول لو لم يبق من
عمرى إلا عشرة أيام
أحببت أن أتزوج
ولا ألقى الله عزبا
وما ذكر الله تعالى فى
القرآن من الأنبياء
إلا المتأهلين . وقيل إن
يحيى بن زكريا عليهما
السلام تزوج لأجل
السنة ولم يكن يقربها
وقيل إن عيسى عليه
السلام سينكح إذا
نزل إلى الأرض ويولد
له . وقيل إن ركة
من متأهل خير من
سبعين ركة من عزب
أخبرنا الشيخ طاهر بن
أبى الفضل قال أنا
أبو منصور محمد بن
الحسين بن أحمد بن
الميثم للقومى القزوينى
قال أنا أبو طلحة القاسم

(حقوق الأقارب والرحم)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شقت لهما اسمي من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بقتته ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه ^(٢) » وفي رواية أخرى « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » وقيل لرسول الله ﷺ أي الناس أفضل « قال أنعام لله وأوصلهم لرحمه وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ^(٣) » وقال أبوذر رضي الله عنه « أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها ^(٥) » وقال عليه السلام « إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون لجارا فنعمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم ^(٦) » وقال زيد بن أسلم لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج فقال عليه السلام « إن الله قد منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم ^(٧) » وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قدمت على أمي فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت على وهي مشركة أفأصلها ؟ قال نعم ^(٨) » وفي رواية أفأصلها قال نعم صليها وقال عليه السلام « الصدقة على الساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان ^(٩) » ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمحائط كان له يسجبه عملا بقوله تعالى - لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون - ^(١٠) قال يا رسول الله هو في سبيل الله وللفقراء وللساكين فقال عليه السلام « وجب أجرك على الله فاقسمه في أقاربك » وقال عليه السلام « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح ^(١١) »

(١) حديث يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه متفق عليه من حديث أنس دون قوله فليتيق الله وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بن إسماعيل (٣) حديث أي الناس أفضل فقال أنعام لله وأوصلهم لرحمهم أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن (٤) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ، أحمد وابن حبان ومحمد (٥) حديث إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو وهو عند البخاري دون قوله الرحم معلقة بالعرش فرواها مسلم من حديث عائشة (٦) حديث أعجل الطاعات ثوابا صلة الرحم الحديث ابن حبان من حديث أبي بكر والخراطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف (٧) حديث زيد بن أسلم لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج فقال إن الله منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم الخراطي في مكارم الأخلاق وزاد وطعنهم في لبات الإبل وهو مرسل صحيح الإسناد (٨) حديث أسماء بنت أبي بكر قدمت على أمي فقلت يا رسول الله قدمت على أمي وهي مشركة أفأصلها قال نعم صليها متفق عليه (٩) حديث الصدقة على الساكين صدقة وعلى ذى الرحم صدقة وصلة الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان بن عامر الضبي (١٠) حديث لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمحائط كان له يسجبه عملا بقوله تعالى - لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون - الحديث أخرجه البخاري وقد تقدم (١١) حديث أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب وفيه الحجاج

ابن أبي البدر الخطيب
قال ثنا أبو الحسن علي
ابن إبراهيم بن
سنة القطان قال ثنا
أبو عبد الله بن محمد
يزيد بن ماجه قال ثنا
أحمد بن الأزهر قال
حدثنا آدم قال حدثنا
عيسى بن ميمون عن
القاسم عن عائشة
رضي الله عنها قالت قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « النكاح
سنتي فمن لم يعمل بسنتي
فليس مني فتزوجوا فإني
مكاثر بكم الأم ومن
كان ذا طول فليتكح
ومن لم يجد فضله
بالصيام فإن الصوم له
وجاء » ومما ينبغي
للتأهل أن يحذروا من
الافراط في المخالطة
والمعاشره مع الزوجه إلى
حد ينقطع عن أوراده
وسياسة أوقاته فإن
الافراط في ذلك يقوى
الفس وجنودها ويفتر
ناهض الهمة . وللتأهل
بسبب الزوجه فتنتان
فتنة لموم حاله وفتنة

وهو في معنى قوله «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصنع عن ظلمك»^(١) وروى أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزام على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

(حقوق الوالدين والولد)

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها وقد قال صلى الله عليه وسلم «لن يجزى ولد والله حتى يجد مملوكا فيشتريه فيعتقه»^(٢) وقد قال صلى الله عليه وسلم «برّ الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»^(٣) وقد قال عليه السلام «من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحدا فواحدا وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار وإن أمسى مثل ذلك وإن كان واحدا فواحدا وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما»^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم»^(٥) وقال عليه السلام «برّ أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك»^(٦) وروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام يا موسى إنه من برّ والديه وعقني كتبته باراً ومن برّني وعق والديه كتبته عاقاً، وقيل لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يرق له فأوحى الله إليه أتعظم أن تقوم لأبيك وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبيا وقال صلى الله عليه وسلم «ما طي أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يحملها لوالديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء»^(٧) وقال مالك بن ربيعة بيننا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أرملة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة (١) حديث أفضل الفضائل أن تصل من قطعك الحديث أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف للطبراني نحوه من حديث أبي أمامة وقد تقدم (٢) حديث لن يجزى ولد والله حتى يجد مملوكا فيشتريه فيعتقه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث برّ الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد لم أجده هكذا وروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال هل بقي من واديك أحد، قال أمي قال قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتبر ومجاهد وإسناده حسن (٤) حديث من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة الحديث البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح (٥) حديث إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع وهي في الأوسط من حديث جابر إلا أنه قال من مسيرة ألف عام وإسناده ضعيف (٦) حديث برّ أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك النساء من حديث طارق الهاربي وأحمد والحاكم من حديث أبي رزمة ولأبي داود نحوه من حديث كليب بن منقعة عن جده وله للترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : من أبر قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رجل من أحق الناس بمحسن الصلابة قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك لفظ مسلم (٧) حديث ما طي أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يحملها لوالديه إذا كانا مسلمين الحديث الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف دون قوله إذا كانا مسلمين .

لخصوص حاله فقتنة عموم حاله الا فرط في الاهتمام بالعيشة . كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه في النار . وفي الخبر «يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يبرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل في الداخر التي يذهب فيها دينه فيهلك» . وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ماكت فحببوا من ذلك وهابوه أن يسألوه فقال لا تعجبوا من هذا فإني سألت الله فقلت يارب ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها

إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال يا رسول الله هل بقي على من بر أبوى شيء أبرها به بدو عاتهما ؟ قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودة أبيه بعد أن يولى الأب ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدة على الولد ضعفان ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « دعوة الوالدة أسرع إجابة قيل يا رسول الله ولم ذلك قال هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط ^(٤) » . « وسألهم رجل فقال : يا رسول الله من أبر ؟ قال بر والديك فقال ليس لي والدان فقال بر ولدك كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله والدا أعان ولده على بره ^(٦) » أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم « ساووا بين أولادكم في العطية » وقد قيل ولداك ومخاطبك تشبهان سبما وخادمك سبما ثم هو عدوك أو شريكك . وقال أنس رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم « الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ تسع سنين عزل فراغه فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ثم أخذ يده وقال قد أدبتك وعلمتك وأنبكتك أعوذ بأقمن فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه ^(٨) » وقال عليه الصلاة والسلام « كل غلام رهين أو رهينة بقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ^(٩) » وقال قتادة إذا ذبحت الققيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها وأداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الحيط ثم يفسل رأسه ويحلق بعد وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده فقال هل دعوت عليه قال نعم قال أنت

(١) حديث مالك بن ربيعة يينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال هل بقي على من بر أبوى شيء الحديث أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد (٢) حديث إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودة أبيه مسلم من حديث ابن عمر (٣) حديث بر الوالدة على الولد ضعفان غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث (٤) حديث الوالدة أسرع إجابة الحديث لم أقف له على أصل (٥) حديث قال رجل يا رسول الله من أبر ؟ قال بر والديك فقال ليس لي والدان فقال ولدك فكما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق أبو عمر التوفاني في كتاب معاشره الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله فكما أن لوالديك الخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر قال الدار قطني في العلل إن الأصح وقفه على ابن عمر (٦) حديث رحم الله والدا أعان ولده على بره أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث على بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه التوفاني من رواية الشامي مرسل (٧) حديث أنس الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراغه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ يده وقال قد أدبتك وعلمتك وأنبكتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال وأدبوه لسبع وزوجه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم وفي إسناده من لم يسم (٨) حديث من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه البهقي في الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضمفهما (٩) حديث كل غلام رهين أو رهينة بقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذي حسن صحيح .

فترى حيت بها وأنا صابر
على ماترون فاذا أفرط
الفقير في الداراة ربة
تعدى حد الاعتدال
في وجوه للميشة متطلبا
رضا الزوجة فهذا فتنة
عموم حاله . وقتنة
خصوص حاله الافراط
في المجالسة والمخالطة
فتنطلق النفس عن
قيد الاعتدال
وتسرق الفرض بطول
الاسترسال فيستولي
على القلب بسبب
ذلك السهو والنفقة
ويستجلس مقار الهمة
فيقل الوارد لقلة
الأوراد ويتكدر الحال
لاهمال شروط
الأعمال وألطف من
هذين الفتنتين فتنة
أخرى تختص بأهل
القرب والحضور وذلك
أن للنفس امتزاجا
وبرابطة الامتزاج
تتمتد وتمتد
وتطرى . طبيعتها
الحامدة وتلتهب نارها
الحامدة فدواء هذه
الفتنة أن يكون للتأهل

أنفسته ويستحب الرفق بالولد . رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال عليه الصلاة والسلام « إن من لا يرحم لا يرحم » (١) وقالت عائشة رضي الله عنها « قال لي رسول الله ﷺ يوما اغسلي وجه أسامة فجلست أغسله وأنا أنفة فضرب يدي ثم أخذه فقبل وجهه ثم قبله ثم قال : قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » (٢) وتشر الحسن والنبي صلى الله عليه وسلم على منبره فنزل حمله وقرأ قوله تعالى - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - (٣) وقال عبد الله بن شداد « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر فلما قضى صلاته قالوا قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر فقال : إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » (٤) وفي ذلك فوائد إحداهما القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا وفيه الرفق بالولد والبر وتعليم لأمنته . وقال ﷺ « ربح الولد من ربح الجنة » (٥) وقال يزيد بن معاوية أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال : يا أبا عمر ما تقول في الولد ؟ قال يا أمير المؤمنين محار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسما ظلية وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم بمنحوك ودم وعجوك جهدهم ولا تكن عليهم قلا ثقيلًا فيسلوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك فقال له معاوية « أنت يا أحنف لقد دخلت على وأنا ملوء غضبا وغيظا على يزيد فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن يزيد وبعت إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقامه بإياها على الشطر فهذه الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بحقوقهما تعرف مما ذكرناه في حق الأخوة فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران : أحدهما أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض حتى إذا كانا يتنصان بافترادك عنهما بالطعام فليك أن تأكل معهما لأن ترك الشبهة ورع ورعا للوالدين حتم وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا باذنهما والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام قل لأنه على التأخير والخروج لطلب العلم قل إلا إذا حكنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق

- (١) حديث رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال من لا يرحم لا يرحم البخاري من حديث أبي هريرة
(٢) حديث عائشة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اغسلي وجه أسامة فجلست أغسله وأنا أنفة فضرب يدي ثم أخذه فقبل وجهه ثم قبله ثم قال قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية لما جده هكذا ولأحمد من حديث عائشة أن أسامة عثر بعثة الباب فدمى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول لو كان أسامة جارية لحببها ولكسوتها حتى أنفقها وإسناده صحيح (٣) حديث عثر الحسن وهو على منبره ﷺ فنزل حمله وقرأ قوله تعالى - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معا بمشيان وبعثان قال الترمذي حسن غريب
(٤) حديث عبد الله بن شداد بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه النساء من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الشك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٥) حديث ربح الولد من ربح الجنة الطبراني في الصغير والأوسط وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منديل بن على ضعيف .

عند المجالسة عينا
باطنان ينظر بهما إلى
مولاهم عينا ظاهرا
يستعملهما في طريق
هواه . وقد قالت رابعة
في معنى هذا نظما :
إن جملتك في الفؤاد
عندي
وأبحت جسمي من
أراد جلوس
فالجسم من للجليس
مؤاني
وحبيب قلبي في الفؤاد
أنيس .
والطف من هذا فتنة
أخرى يخشاها التأهل
وهو أن يصير للروح
استرواح إلى لطف
الجمال ويكون ذلك
الاسترواح موقوفا
على الروح ويصير
ذلك وليجة في حب
الروح الخصوص
بالخلق بالحضرة الإلهية
فتبطل الروح وينسد
باب الزيد من الفتوح
وهذه البلادة في الروح
يصر الصوفية بالتعذر
ومن هذا القبيل
دخلت الفتنة على طائفة

قالوا بالمشاهدة وإذا
كان في باب الحلال
وليعة في الحب يتولد
منها ببلادة الروح
في القيام بوظائف حب
الحضرة الإلهية لها
ظنك فيمن يدعى
ذلك في باب غير
مشروع يغره سكون
النفس فيظن أنه لو
كان من قبيل الهوى
ما سكنت النفس
والنفس لا تسكن في
ذلك دائماً بل تسلب من
الروح ذلك الوصف
وتأخذها إليها على أنى
استبحرت عما يتبلى به
الفتونون بالمشاهدة
فوجدت الحمى من
ذلك من صورة الفسق
عنده رغبة شراب
الشهوة إذ لو ذهب علة
الشراب ما بقيت الرغبة
فليحذر ذلك جداً
ولا يسمع ممن يدعى
فيه حلاً وصحة فإنه
كذاب مدع ولهذا
الغنى قال الأطباء الجماع
يسكن هيجان المشق
وإن كان من غير

(١) حديث أبي سعيد الخدري هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم باليمن أبواك ؟ قال نعم الحديث أحمد وابن حبان دون قوله ما استطعت الخ
(٢) حديث جاء آخر إلى النبي ﷺ يستشير في الغزو فقال ألك والدة فقال نعم قال فالزمها فإن الجنة تحت قدمها النساء وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جهم أن جاهمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح الإسناد (٣) حديث جاء آخر فقال ما جئتك حتى أبكيك والدي فقال ارجع إليهما فأضحكما كما أبكيتهما أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الإسناد (٤) حديث حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود في الراسل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلًا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد ابن العاص وإسناده ضعيف (٥) حديث إذا استصعب على أحدكم دابته أو سوء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه (٦) حديث كان من آخر ما وصى به رسول الله ﷺ أن قال اتقوا الله فيما ملكت أيماكم أطعموهم مما تأكلون الحديث الخ وهو مفرق في عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث علي كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيماكم وفي الصحيحين من حديث أنس كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت الصلاة الصلاة وما ملكت أيماكم ولهما من حديث أبي ذر أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلهم فإن كلفتموهم فأعينوهم لفظ رواية مسلم وفي رواية لأبي داود من لا يملك من مملوككم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يملك منكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى وإسناده صحيح (٧) حديث للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق مسلم من حديث أبي هريرة (٨) حديث لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة أحمد مجموعا والترمذي مفرقا وابن ماجه مقتصرًا على سيء الملكة من حديث أبي بكر وليس

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كم نفق
عن الخادم فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اعف عنه في كل يوم سبعين مرة (١)»
وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت فإذا وجد عبدا في عمل لا يبطئه وضع
عنه منه . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسمى خلفه
فقال له يا عبد الله أحمله خلفك فأما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال لا يزال البعد يزاد
من الله بعبادته ما مشى خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء إني مميتك منذ سنة لما عمل فيك شيئا فقال
لم فصمت ذلك فقالت أردت الراحة منك فقال اذهبي عنى فأنت حرة لوجه الله وقال الزهري متى قلت للفلوك
أخراك الله فهو حر . وقيل للأحنف بن قيس ممن تلمعت الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم ، قيل فما بلغ من
حلمه ؟ قال بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فمقط السفود من يدها على ابن له
فقره فمات فذهشت الجارية فقال ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها أنت حرة لا بأس
عليك وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال ما أشبهك بمولاك مولاك يسمى مولاه وأنت تسمى
مولاك فأغضبه يوما فقال إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر وكان عند ميمون بن مهران ضيف
فاستجبل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة فمترت وأرقاها على رأس سيدها ميمون
فقال يا جارية أحرقتني قالت يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال وما قال الله تعالى
قالت قال - والكاذمين النيط - قال قد كظمت غيظي قالت والعافين عن الناس - قال قد عفوت عنك
قالت زد فان الله تعالى يقول - والله يحب المحسنين - قال أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن السكدر
«إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل البعد يقول أسألك بالله
أسألك بوجه الله فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح البعد فانطلق إليه فلما رأى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح البعد فأنطق إليه فلما رأى
يدك قال فانه حر لوجه الله يا رسول الله فقال لولم تفعل أسفعت وجهك النار (٢)» وقال عليه السلام «البعد
إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين (٣)» ولما عتق أبو رافع بكى وقال كان لي أجران
فذهب أحدهما وقال صلى الله عليه وسلم «عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار
فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وعفيف متعفف
ذو عيال وأول ثلاثة يدخلون النار أمير مملوك وذو ثروة لا يعطى حق الله وفقير فخور (٤)» وعن أبي

عند أحد منهم متكبر وزاد أحمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طرقه
(١) حديث ابن عمر جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كم نفوع الخادم
فصمت ثم قال اعف عنه كل يوم سبعين مرة أبو داود والترمذي وقال صحيح حسن غريب
(٢) حديث ابن المنكدر أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له فجعل العبد
يقول أسألك بالله أسألك بالله فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد الحديث ابن
البارك في الزهد مرسل وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره فجعل يقول أعوذ بالله قال
فجعل يضربه فقال أعوذ برسول الله فتركه وفي رواية له قتلته هو حر لوجه الله فقال أما إنك لولم
تفضل للفحتك النار أو لمستك النار (٣) حديث إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره
مرتين متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول
ثلاثة يدخلون النار فأول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده

للمشوق فليعلم أن
مستند الشهوة
ويكذب من يدعى
فيه حالا وهذه قن
للتأهل وفتنة العزب
مرور النساء بخاطره
وتصورهن في متخيله
ومن أعطى الطهارة
في باطنه لا يدنس باطنه
بخواطر الشهوة وإذا
سبح الخاطر بمحوه
بحسن الانابة واليباز
بالمهر يومئى سامر
الفكر كشف الخاطر
وخرج من القلب إلى
الصدر وعند ذلك
يحذر حساس العضو
بالخاطر فيصير ذلك
عملا خفيا وما أجب
مثل هذا بالصادق
للتطلع إلى الحضور
واليقظة فيكون ذلك
فايحة الحال وقد قيل
مرور الفاحشة بقلب
العارفين كفعل
الفاعلين لها والله أعلم.
[الباب الثانى
والعشرون في القول
في السماع قبولاً وإثارة]
قال الله تعالى - فشر

مسعود الأنصاري قال « بينا أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خافي أعلم يا أبا مسعود مرتين قالت
 فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال : والله الله أنذر عليك منك على
 هذا ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فانه أطيب
 لنفسه ^(٢) » رواه معاذ . وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتى
 أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله لقمة ^(٣) » وفي رواية « إذا كفى
 أحدكم مملوكه صنعة طعامه فكفاه حره ومؤته وقرّبه إليه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله
 أو ليأخذ أكلة فليروغها وأشار بيده وليضعها في يده وليقل كل هذه . ودخل على سلمان رجل وهو
 يمجّن فقال يا أبا عبد الله ما هذا فقال بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عمليين وقال صلى الله
 عليه وسلم « من كانت عنده جارية فصاتها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران ^(٤) » وقد
 قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٥) » فجملة حق المملوك أن يشركه في
 طعامه وكسوته ولا يكلفه فوق طاقته ولا ينظر إليه بين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر
 عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته في معاصيه وجناته على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أن قدرة
 الله عليه فوق قدرته وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يشل عنهم رجل
 فارق الجماعة ورجل عصي إمامه فأت عاصياً فلا يسأل عنهما وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفها مؤنة
 الدنيا فترجعت بعده فلا يسأل عنها وثلاثة لا يسأل عنهم رجل ينزع الله رداؤه ورداؤه الكبرياء وإزاره
 العز ورجل في شك من الله وقنوط من رحمة الله ^(٦) » ثم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق.

(كتاب آداب العزلة)

(وهو الكتاب السادس من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته وأجزل حظهم
 من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته وحقه في قلوبهم النظر إلى
 متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزله كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته فاستأنس بمطالعة
 سبحات وجهه تعالى في خلوته واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته
 الحديث الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة .

(١) حديث أبي مسعود الأنصاري بينا أنا أضرب غلاماً لي سمعت صوتاً من خفي أعلم يا أبا مسعود مرتين
 الحديث رواه مسلم (٢) حديث معاذ إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فانه أطيب
 لنفسه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف (٣) حديث أبي هريرة وليأكل
 معه فإن أبي فليناوله وفي رواية إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه الحديث متفق عليه مع اختلاف
 لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر علاجه وهذه
 اللفظة عند البخاري (٥) حديث من كانت عنده جارية فعاصها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها
 فذلك له أجران متفق عليه من حديث أبي موسى (٥) حديث كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته
 متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم (٦) حديث فضالة بن عبيد ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق
 الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً الحديث الطبراني والحاكم وصححه .

(كتاب العزلة)

(الباب الأول في قول المذاهب والجحج فيها)

عباد الذين يستمعون
 القول فيتبعون أحسنه
 أولئك الذين هداهم الله
 وأولئك هم أولو الألباب -
 قيل أحسنه أي أهده
 وأرشدته وقال عز
 وجل - وإذا سمعوا
 ما أنزل إلى الرسول ترى
 أعينهم تفيض من الدمع
 مما عرفوا من الحق -
 هذا السماع هو السماع
 الحق الذي لا يختلف
 فيه اثنان من أهل
 الإيمان محكوم لصاحبه
 بالهداية واللب وهذا
 سماع ترد حرارته على
 برد اليقين تفيض
 العين بالدمع لأنه تارة
 يثير حزناً والحزن حار
 وتارة يثير شوقاً
 والشوق حار وتارة
 يثيرندما والندم حار
 فإذا أثار السماع هذه
 الصفات من صاحب
 قلب مملوء ببرد اليقين
 أبكى وأدمع لأن
 الحرارة والبرودة إذا
 اصطدما عصر إماماً فإذا
 ألم السماع بالقلب تارة
 خفت إمامه فيظهر

والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحبه سادة الحق وأئمة .

[أما بعد] فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداها على الأخرى مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحة من فضيلة المخالطة وللؤاخاة والؤلفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيعاش والحلوة فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم ويحصل ذلك برسم باين . الباب الأول : في تقل للذاهب والحجج فيها . الباب الثاني : في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل .

(الباب الأول في تقل للذاهب والأقاول وذكر حجج الفريقين في ذلك)

أما للذاهب فقد اختلف الناس فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وداود الطائي وفضيل بن عياض وسليمان الحواري ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي وبشر الحافي وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاونا على البر والتقوى ومال إلى هذا سعيد بن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك ابن عبد الله وابن عينة وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وجماعة ، والمأثور عن الغطاء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الليل فلتنقل الآن مطلقات تلك الكلمات لتبين المذاهب فيها وما هو مقرون بذكر العلة نوره عند التمرس للغوائل والفوائد فتقول قد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال خذوا بحظكم من العزلة وقال ابن سيرين العزلة عبادة وقال الفضيل كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وباللوت واعظا وقيل اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً . وقال أبو الريح الزاهد لداود الطائي عظمي قال صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد وقال الحسن رحمه الله كلمات أحفظهن من التوراة قنع ابن آدم فاستغنى اعترل الناس فسلم ترك الشهوات فصار حرا ترك الحسد فظهرت مروءته صبر قليلا فتمتع طويلا وقال وهيب بن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشق في عزلة الناس وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار ما أصبرك على الوحدة وقد كان لزم البيت فقال كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا كنت أجالس الناس ولأكلهم وقال سفيان الثوري هذا وقت السكوت وملازمة البيوت وقال بعضهم كنت في سفينة ومعنا شارب من العلوية فكش معنا سبطا لانسع له كلاما قتلناه يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا فأنشأ يقول :

قليل اللهم لا وله يموت ولا أمر يحاذره يموت
قضى وطر الصبا وأفاد علما قضايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعترل وكذا قال الريح بن خثيم وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويمشي الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحدا واحدا حتى تركها كلها وكان يقول لا يبرأ للمرء أن يغبر كل عذره وقيل لمعمر بن عبد العزيز لو تفرغت لنا فقال ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل إني لأجد للرجل عندي يدا إذا تقبني أن لا يسلم علي وإذا مرضت أن لا يعودني وقال أبو سليمان الداراني بينا الريح بن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فرك جبهته فشججه فجعل يسبح الدم ويقول لقد وعظت يا ربيع فقام ودخل داره فجالس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته . وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لهما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق وقال يوسف بن أسباط سمعت سفيان الثوري يقول : والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة

أثره في الجسد وتقشعر منه الجلد قال الله تعالى - تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم - وتارة يسظم وقصه ويتصوب أثره إلى فوق نحو السماع كالخبر للعقل فيعظم وقع للتجدد والحادث فتندفع منه العين بالسمع وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتعوج منه الروح موجا يكاد تضيق عنه نطاق القلب فيكون من ذلك الصباح والاضطراب وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحال وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المجال . روى أن عمر رضي الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخفه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يباد ويحسب مرضا فالسمع يستجلب الرحمة من الله الكريم . روى زيد بن أسلم قال

وقال بشر بن عبد الله أقل من معرفة الناس فأنك لا تدري ما يكون يوم القيامة فإن تكن ضحية كان من معرفتك قليلا ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له ألك حاجة ؟ قال نعم قال وما هي ؟ قال أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني وقال رجل لسهل أريد أن أصحبك فقال إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر قال الله قال فليصحبه الآن وقيل للفضيل إن عايبا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني فسكن الفضيل وقال يابويع على أفلا آتئها فقال لا أراهم ولا يروني وقال الفضيل أيضا من سخافة عقل الرجل كثرة معارفة وقال ابن عباس رضى الله عنهما أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى فهذه أقاويل السائلين إلى العزلة .

(ذكر حجج السائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها)

احتج هؤلاء بقوله تعالى - ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا - الآية وبقوله تعالى - فألف بين قلوبكم - أمئن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف لأن الراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة والراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب الثيرة لافتن الحركة للخصومات والعزلة لا تنافي ذلك واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف »^(١) وهذا أيضا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق التي تمتنع بسببه المؤلف ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلباً للسلامة من غيره واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الاسلام من عنقه » وقال « من فارق الجماعة فمات فميته جاهلية »^(٢) وبقوله صلى الله عليه وسلم « من شق عصا المسلمين والمسلمون في اسلام دامج فقد خلع ربة الاسلام من عنقه »^(٣) وهذا ضعيف لأن الراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بمقد البيعة فالخروج عليهم بغيره وذلك مخالفة بالرأى وخروج عليهم وذلك محظور لا اضطرار الخلق إلى إمام منقطع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر فالمخالفة فيها تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة . واحتجوا بنبيه صلى الله عليه وسلم عن المهجر فوق ثلاث إذ قال « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار »^(٤) وقال عليه السلام « لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق يدخل الجنة »^(٥) وقال « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه »^(٦) قالوا والعزلة هجرة بالكلية وهذا ضعيف لأن الراد به الغضب على الناس واللباج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب مع أن المهجر فوق ثلاث جائز في موضعين : أحدهما أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . والثاني أن يرى لنفسه سلامة فيه والنهي وإن كان عاما فهو محمول على ما وراء الموضعين الخصوصيين بدليل ما روى عن عائشة رضى الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة

(١) حديث للمؤمن ألف مألوف الحديث تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة (٢) حديث من ترك الجماعة فمات فميته جاهلية مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام (٣) حديث من شق عصا المسلمين والمسلمون في اسلام دامج فقد خلع ربة الاسلام الطبراني والحطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد (٤) حديث من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار أبو داود من حديث أبي هريرة باسناد صحيح (٥) حديث لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصالح يدخل الجنة متفق عليه من حديث أنس دون قوله والسابق بالصالح زاد فيه الطبراني والذهي يبدأ بالصالح يسبق إلى الجنة (٦) حديث من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حذرد بن أبي حذرد وإسناده صحيح .

قرأ أبي بن كعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اغتصموا الدماء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى » وروى أم كلثوم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اقتشع جلد العبد من خشية الله تحات عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » وورد أيضا « إذا اقتشع الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار » وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها إنما الاختلاف في استماع الأتباع بالأحاديث وقد كثرت الأقوال في ذلك وتباينت الأحوال فمن منصرف بلحقه بالفسق ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاذبان في طرفي الإفراط والتفريط . قيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري

والحرم وبعض صفر^(١)» وروى عن عمر «أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفة له وهي خزائنه فلبث تسعا وعشرين يوما فلما نزل قيل له إنك كنت فيها تسعا وعشرين فقال الشهر قد يكون تسعا وعشرين^(٢)» وروى عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بواقعه^(٣)» فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحاققة لا ينتظر علاجها وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات فقال هذا شيء قد تقدم فيه قوم : سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لمبار بن ياسر حتى مات وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في الهاجرة . واحتجوا بما روى «أن رجلا أتى الجبل ليتبع فيه نجى» به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الاسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاما^(٤)» والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الاسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء فقال واحد من القوم لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولئن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلوا الجنة اغزوا في سبيل الله فانه من قاتل في سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة^(٥)» واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه ﷺ قال «إن الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة وإياكم والشعاب وعليكم بالعامية والجماعة والماسجد^(٦)» وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم وسياق بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة .

(ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة)

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام - واعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعوا ربى - الآية ثم قال تعالى - فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا - إشارة إلى أن ذلك يركة العزلة وهذا ضيف لأن مخالطة الكفار لافائدة فيها لإدعوتهم إلى الدين وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة (١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والحرم وبعض صفر . قلت : إنما هجر زينب هذه الامة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح (٢) حديث عمر أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا الحديث متفق عليه (٣) حديث عائشة لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يأمن بواقعه ابن عسدي وقال غريب اللين والاستناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح (٤) حديث أن رجلا أتى الجبل ليتبع فيه نجى» به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تفعل الحديث البيهقي من حديث عسعين بن سلامة قال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٥) حديث أبي هريرة غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ففررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء غزيرة فقال واحد من القوم لو اعتزلت الناس في هذا الشعب الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعين عاما (٦) حديث معاذ بن جبل الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا .

السقطى وذو النون يسمعون فقال كيف أنكرا السماع وقد أجازوه وصحبه من هو خير مني فقد كان جعفر الطيار يسمع وإنما النكر اللهو واللعب في السماع وهذا قول صحيح . أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ للقدس قال أنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال أنا أبو محمد عبده الله ابن يوسف قال ثنا أبو بكر بن واثب وقال ثنا عمرو بن الحرث قال ثنا الأزواعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها «أن أبا بكر دخل عليها وعندها جريتان قضيتان وتضربان بدفين ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بثوبه فاتهرها أبو بكر فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يأبأ بكر فاتهما أيام عيده»

لما روى أنه قيل « يارسول الله الوضوء من جر غمر أحب إليك أو من هذه المظاهر التي يتطهر منها الناس فقال بل من هذه المظاهر الخمسا لبركة أيدي المسلمين ^(١) » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها فاذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد منعه الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون فاستسقى منه وقال اسقوني فقال العباس إن هذا النبيذ شراب قد منعت وخيض بالأيدي أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر غمر في البيت فقال اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس الخمس بركة أيدي المسلمين فشرب منه ^(٢) » فإذا كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام - وإن لم تؤمنوا لي فاعزلون - وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف - وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته - أمرهم بالعزلة « وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة ^(٣) » ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أهل الله كلمته وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فانه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار وإنما النظر في العزلة من المسلمين واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عامر الجهمي لما قال « يارسول الله ما النجاة ؟ قال ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك ^(٤) » وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم « أي الناس أفضل ؟ قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى قيل ثم من ؟ قال رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد التقي التقي الخفي ^(٦) » وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر فأما قوله لعبد الله بن عامر

(١) حديث قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر غمر أحب إليك أو من هذه المظاهر التي يطهر منها الناس فقال بل من هذه المظاهر الخمس الطهارة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) حديث لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فاذا التمر منقع في حياض الأدم قدمته الناس بأيديهم الحديث وفيه فقال اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسل نحوه (٣) حديث اعتزاله صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة الحديث رواه موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسل ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب على بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسل أيضا واصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن الشريكين حصروا بني هاشم في الشعب وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ومغازي موسى بن عقبة أصح للمغازي وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ولأبي داود من حديث أبي موسى أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نطلق إلى أرض النجاشي قال البيهقي وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود بنينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وروى ابن اسحق بإسناد جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاد الحديث (٤) حديث سأل عقبة بن عامر يارسول الله ما النجاة ؟ فقال ليسعك بيتك الحديث الترمذي من حديث عقبة وقال حسن (٥) حديث أي الناس أفضل فقال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قيل ثم من قال رجل معتزل الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (٦) حديث إن الله يحب العبد التقي التقي الخفي مسلم

وقالت عائشة رضي الله عنها « رأيت رسولا صلى الله عليه وسلم يستتر بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسام » قد ذكر الشيخ أبو طالب السكي رحمه الله ما يدل على تجويزه وقتل عن كثير من السلف محابي وتابعي وغيرهم وقول الشيخ أبي طالب السكي يعتبر لو فور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف ومكان ورعه وتقواه وتجربته الأصواب والأولى وقاله في السماع حرام وحلال وشبهة فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فتهو حرام ومن سمعه بمقوله على صفة مباح من جلوية أو زوجة كان شبهة لدخول اللغو فيؤمن سمعه بقلب يشاهد معاني قله على التلليل ويشهد طرفات الجليل فهو مباح وهذا

فلا يمكن تنزيهه إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الذي يخالط الناس ويصبر على أذىهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذىهم »^(١) وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رجل معتزل بعيد ربه ويدع الناس من شره » فهذا إشارة إلى شريز بطبعه تتأذى الناس بمخالطته وقوله « إن الله يحب التقي الحقني » إشارة إلى إثار الخلو وتوقي الشهرة ، وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة ، واحتجوا بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى يا رسول الله فأشار يده نحو المغرب وقال رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده وأشار يده نحو الحجاز وقال رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس »^(٢) فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا تغنيها من الجانبين فلا بد من كشف النطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقاساة بعضها ببعض ليتبين الحق فيها .

(الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها)

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة ، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب مافصلناه من آفات النكاح وفوائده فكذلك القول فيما نحن فيه فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودينية والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم وإلى التخلص من ارتكاب الناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والفتنة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء . وأما الدينية فتقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة كتمكين المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطعمه في الناس وطعم الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق الجليس في مرآته أو سوء ظنه أو نيمته أو محاسناته والتأذى بقله وتشويه خلقته وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد :

(الفائدة الأولى)

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة إليه ، ولهذا قال بعض الحكماء لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله

من حديث سعد بن أبي وقاص (١) حديث الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذىهم الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) حديث ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى قال فأشار يده نحو المغرب وقال رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه الحديث الطبراني من حديث أم مبشر إلا أنه قال نحو الشرق بدل المغرب وفيه ابن اسحق رواه بالنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصراً من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

(الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها)

قول الشيخ أبي طالب السكي وهو الصحيح فإذا لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والانكار على من يسمع كفعل القراء للترهدين البالغين في الانكار ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض الشبهين به المهملين شروطه وآدابه للقيمين على الإصرار ونفصل الأمر فيه تفصيلاً ونوضح الماهية فيه تحريماً وتعليلاً فأما الدف والشابة وإن كان فيها في مذهب الشافعي فحة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف وأما غير ذلك فإن كان من القصاص في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجبار وذكر العبادات والترغيب في الخيرات فلا سبيل إلى الانكار ومن ذلك القيل قصائد الغزاة

تعالى والتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذكرون الله بالله عاشوا
بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله ، ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر
والذكر فالعزلة أولى بهم ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل
إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يجيبونه عن الله فكان يدهن مع الخلق وبقلبه
مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن
استغراق همه بالله فقال «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله (٢)»
ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا والاقبال على الله سرا إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يفتر كل
ضعيف بنفسه فيقطع في ذلك ولا يمد أن تقضى درجة بعض الأولياء إليه ، فقد نقل عن الجنيد أنه
قال أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلهم وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقا
لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ففي الشهرين بحب الخلق من مخالطة الناس يدهن وهو لا يدري
ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه بل الذي دهاه لم يشوش عليه أمرا من أمور دنياه فقد
يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه وأمر الآخرة أعظم
عند العقلاء فلا يستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة ، ولذلك قيل لبعض
الحكماء ما الذي أرادوا بالخلو واختيار العزلة فقال يستدعون بذلك دوام الفكرة وثبت العلوم في
قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويدوقوا حلاوة المعرفة وقيل لبعض الرهبان ما أصبرك على الوحدة فقال ما أنا
وحدي أنا جالس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت وقيل لبعض
الحكماء إلى أي شيء أفنى بكم الزهد والخلو فقال إلى الأنس بالله وقال سفيان بن عيينة لقيت إبراهيم
ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له يا إبراهيم تركت خراسان فقال ما نهأت بالعيش إلا ههنا أفر
بدين من شأقي إلى شأقي فمن يراني يقول موسوس أو حمر أو ملاح وقيل لغزوان الرقاشي هبك
لاتضحك فما يمنعك من محاسبة إخوانك قال إني أصيب راحة قلبي في محاسبة من عنده حاجتي وقيل
للحسن يا أبا سعيد ههنا رجل لم نره قط جالسا إلا وحده خلف سارية فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبروني
به فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن هذا الرجل الذي أخبرنا بك به وأشاروا إليه فمضى إليه الحسن وقال
له يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من محاسبة الناس فقال أمر شغلي عن الناس قال
فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه فقال أمر شغلي عن الناس وعن الحسن
فقال له الحسن وما ذاك الشغل يرحمك الله فقال إني أصبح وأمسى بين نعمة وذنوب فرأيت أن أشغل
نفسى بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنوب فقال له الحسن أنت يا عبد الله أقمه عندي من
الحسن فالزم ما أنت عليه وقيل بينا أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس ما جاء
بك قال جئت لأنس بك فقال أويس ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره وقال الفضيل
إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربي وإذا رأيت الصبح أذكركني استرجعت كراهية لقاء
الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي وقال عبد الله بن زيد طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة
قيل له وكيف ذلك قال يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة وقال ذوالنون المصري سرور المؤمن
ولده في الخلوة بمناجاة ربه وقال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة الخلقوين

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه متفق عليه من
حديث عائشة نحوه فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الحديث (٢) حديث لو كنت متخذًا خليلًا
لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

والحجاج في وصف
الغزو والحج مما يثير
كامن العزم من الغاوى
وساكن الشوق من
الحاج وأما ما كان من
ذكر القدود والحدود
ووصف النساء فلا يليق
بأهل الديانات الاجتماع
لكل ذلك وأما ما كان
من ذكر المعجروا والوصل
والقطيعة والصد مما
يقرب حمله على أمور
الحق سبحانه وتعالى
من تلون أحوال
المرئيين ودخول
الآفات على الطالبين
فمن سمع ذلك وحدث
عنده ندم على ما فات
أو تعبد عنه عزم
لما هو آت فكيف
يكون سماعه وقد قيل
إن بعض الواجدين
يقتات بالسباع ويتقوى
به على الطير والوصال
ويثير عنده من الشوق
ما يذهب عنه لهب
الجوع فإذا استمع
البدد إلى بيت من
الشعر وقلبه حاضره
كان يسمع الحادى

فقد دل علمه وعمى قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك ما أحسن حال من انقطع إلى الله تعالى وبروى عن بعض الصالحين أنه قال بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا ببادخارج من بعض تلك الجبال فلما نظرت إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت سبحان الله تبخل على النظر إليك فقال يا هذا إني أقت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفي فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والافتراد فلما نظرت إليك خفت أن أتع في الأمر الأول فإليك عنى فإني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب القانتين ثم صاح واغماء من طول المكث في الدنيا ثم حول وجهه عنى ثم نقض يديه وقال إليك عنى يا دنيا لغيري فترزني وأهلك ففري ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألقى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسنان وجمع مهمهم في ذكره فلا شيء الله عندهم من مناجاته ثم مضى وهو يقول قدوس قدوس فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل :

وإني لأستبشى ومأبى غشوة لعل خيالا منك يلقى خيالها

وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس بالسرخالها

ولذلك قال بعض الحكماء إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ لملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالسكون معهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على السكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الله كالأُنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة فإن غاية العبادات وعمرة للامالات أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله ولا عجة إلا بالأُنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

(الفائدة الثانية)

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومشاركة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا . أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات وجوهها عرفت أنها تتحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكك بها والتنقل بمحلاتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشهم في الخلوة فإن خالطتهم وواقفتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى وإن سكت كنت شريكا والمستمع أحد الغتابين وإن أنكرت أبضوك وتركوا ذلك الغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة وربما زادوا على الغيبة واتهوا إلى الاستخفاف والشم . وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب كما سيأتى بيانه في آخر هذا الرابع ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عنى الله به وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يحرمه طلب الخلاص منها إلى معاصي أكبر مما نهى عنه ابتداء وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق . وقد قام أبو بكر رضى الله عنه خطيبا وقال لا أيها الناس إنكم تفرءون هذه الآية - يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم - وإنكم تضعونها في غير موضعها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأى الناس للنكر فلم يغيروه .

أتوب إليك يا رحمن إني
أسأت وقد تضاعفت
الذنوب

فأما من هو يلى وحي
زيارتها فإني لأتوب
فطاب قلبه لما يجده
من قوة عزمه على
الثبات في أمر الحق
إلى الممات يكون في
مماعه هذا ذا كراهة
تعالى . قال بعض
أصحابنا صكنا نعرف
مواجهيد أصحابنا في
ثلاثة أشياء عند
المسائل وعند الغضب
وعند السماع . وقال
الجنيذ تمرل الرحمة
على هذه الطائفة في
ثلاثة مواضع عند
الأكل لأنهم يأكلون
عن ذائق وعند المذاكرة
لأنهم يتجاوزون في
مقامات الصديقين
وأحوال النبيين وعند
السماع لأنهم يسمعون
بوجد ويشهدون حقا
وسئل رويم عن وجد
الصوفية عند السماع
فقال يتنبهون للمعاني
التي تعزب عن غيرهم

أوشك أن يعمهم الله بعقاب (١) « وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له مامنك إذا رأيت للنكر في الدنيا أن تنكره فإذا لقن الله العبد حجه قال يارب رجوتك وخفت الناس (٢) » وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر وفي العزلة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن النكر إثارة للخصومات وتحريك لعوائل الصدور كإقيل :

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد النخضة للتصحيح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه فإذا سقط عليه يقول باليتى تركته ما لائتم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وأنج نفسك . وأما الرياء فهو الداء العضال الذى يصسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه وكل من خالط الناس داراً من دارهم راءهم ومن راءهم وقع فيها وقصوافيه وهلك كما هلكوا وأقل ما يلزم فيه النفاق فأنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه بواقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً وإن جاملتهما كنت من شرار الناس . وقال عليه السلام « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه (٣) » وقال عليه السلام « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه (٤) » وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يغفل ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك كيف أنت وكيف أهلك وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه وهذا نفاق محض قال سري لودخل على أخ لي فسويت لحقي يدي لدخوله لحشيت أن أكتب في جريدة الناققين وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له ماجاء بك قال للؤانة يا أبا على فقال هي والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك إما أن تقوم عني أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يشعر به ودخل طاووس على الخليفة هشام فقال كيف أنت يا هشام فضرب عليه وقال لم تخاطبني بأمر المؤمنين فقال لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك غشيت أن أكون كاذباً فمن أمكنه أن يجترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بانبثبات اسمه في جريدة الناققين فقد كان السلف يتلاقون ويجترزون في قولهم كيف أصبحت وكيف أمسيت وكيف أنت وكيف حالك وفي الجواب عنه فكان سؤالهم عن أحوال الدين لأن أحوال الدنيا قال حاتم الأصم لحامد اللخاف كيف أنت في نفسك قال سالم معافى فكره حاتم جوابه وقال يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت قال أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أهاذر وأصبحت مرتجهاً بعمل والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر منى وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له كيف أصبحت قال أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا وننتظر آجالنا وكان أبو الدرداء إذا قيل له كيف أصبحت قال أصبحت بخير إن نجوت من النار وكان سفيان الثوري إذا قيل له كيف أصبحت يقول أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا وقيل لأويس القرني كيف

(١) حديث أبي بكر إنكم تقرأون هذه الآية - يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم - وإنكم لتضعونها في غير موضعها الحديث أصحاب السنن قال الترمذي حسن صحيح (٢) حديث إن الله يسأل العبد حتى يقول مامنك إذا رأيت للنكر في الدنيا أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد (٣) حديث تجدون من شرار الناس ذا الوجهين متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث إن من شر الناس ذا الوجهين مسلم من حديث أبي هريرة وهو الذى قبله .

فيشير إليهم إلى إلى
فيتنعمون بذلك من
الفرح ويقع الحجاب
لوقت فيعود ذلك
الفرح بكاء فمنهم من
يعزق ثيابه ومنهم من
يسكى ومنهم من يصيح .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن ابن خلف بإجازة
عن السلي قال سمعت
أبا سهل محمد بن سليمان
يقول للسمع بين
استتار ونجل فالاستتار
يورث التلب والتجلى
يورث المزيد فالاستتار
يتولد منه حركات
للريدين وهو محل
الضعف والعجز والتجلى
يتولد منه السكون
للواصلين وهو محل
الاستقامة والتحكين
وكذلك محل الحضرة
ليس فيه إلا الدبول
تحت موارد الهيبة قال
الشيخ أبو عبد الرحمن
السلي سمعت جدى
يقول المستمع ينبغي
أن يستمع بقلب ونفس
ميتة ومن كان قلبه
ميتاً ونفسه حية لا يحل

له السماع وقيل في قوله تعالى - يزيد في الخلق ما يشاء - الصوت الحسن وقال عليه السلام « فقه أشد أذنًا بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته » نقل عن الجنيد قال : رأيت إبليس في النوم فقلت له هل تنظر من أصحابنا بشئ أو تنال منهم شيئًا فقال إنه يعسر عليّ شأنهم ويعظم عليّ أن أصيب منهم شيئًا إلا في وقتين قلت أي وقت قال وقت السماع وعند النظر فاني أسترق منهم فيه وأدخل عليهم به قال فكيف رأيت لبعض المشايخ فقال لو رأيته قلت له يا أحمق من مع منه إذا مع ونظر إليه إذا نظر أثر بع أنت عليه شيئًا أو تنظر بشئ منه قلت صدقت . وروى عائشة رضي الله عنها قالت « كانت عندي

مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماما للاقتداء ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك ويكفي في تفسير الطبع مجرد سماع الخير والشرف فلا عن مشاهدته وبهذه الدقة يعرف سر قوله ﷺ «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة (١)» وإعنا الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستكفاف عما هو ملائس له من القصور والتقصير ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين فهذا معنى نزول الرحمة والفهم من فحوى هذا الكلام عند النطق كاللهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر للمعاصي واللعة هي البعد ومبدأ البعد من الله هو للمعاصي والإعراض عن الله بالإقبال على المحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه للشرع ومبدأ للمعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بجره علق بك من ريحه (٢)» فكما أن الريح يعلق بالتوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به وقال مثل الجليس الصالح مثل صاحب للسك إن لم يهب لك منه نجد ريحه ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايته لثنين : إحداهما أنها غيبة والثانية وهي أعظمهما أن حكايته تهون على السامعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك للصية فانه مهمل وقع فيها فاستكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام فكمن شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهاك على حب الرياسة وتزينها ويهون على نفسه قبورها ويزعم أن الصحابة رضوا الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ويحمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولو أزمها من المعاصي والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتزليل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكاييد الشيطان ولذلك وصف الله الراغمين للشيطان فيها بقوله - الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه - وضرب ﷺ لذلك مثلا وقال «مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يسمع كمثل رجل آتى راعيا فقال له يراعى اجرى لى شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم (٣)» وكل من يقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا وما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره وقد يشاهدون

(١) حديث عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ليس له أصل في الحديث الرفوع وإنما هو قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزي في مقدمة صفوة الصفوة (٢) حديث مثل الجليس السوء كمثل الكير الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يعمل منها إلا شر ما يسمع كمثل رجل آتى راعيا فقال يراعى اجرى لى شاة من غنمك الحديث ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

جارية تسمعني فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على حالها ثم دخل عمر ففرت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثه حديث الجارية فقال لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسمته وذكر الشيخ أبو طالب اللكي قال كان لعطاء جارينان تلحان وكان إخوانه يجتمعون إليهما وقال أدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن التاجين أعدهن للصوفية وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبي طالب فقال وعندي اجتناب ذلك هو الصواب وهو لا يسلط إلا بشرط طهارة القلب وغض البصر والوفاء بشرط قوله تعالى :

من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم وحز الرقة عند قوم وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقصها بالمشاهدة عن القلب ولذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفس واشتد انكارها وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياث للناس ولا يستبعد منه ذلك والنية أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ولكن كثرة صماع النية ومشاهدة للفتاين أسقط وقصها عن القلوب وهون على النفس أمرها ففطن لهذه الدقائق وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك العصية ويضعف رغبتك في الطاعة فإن وجدت جليسا يذكر لك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تخارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء ومهما فهمت هذه المعاني ولا حظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالمزلة أو التقرب إليه بالخلاطة وإياك أن تحكم مطلقا على المزلة أو على الخلاطة بأن أحدهما أولى إذ كل مفصل فاطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل .

(الفائدة الثالثة)

(الخلاص من الفتن والحصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها)
وقلنا تغلوا البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات فالمعتزل عنهم في سلامة منها قال عبادة بن عمرو ابن العاص لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال « إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قلت فإنا أمرني فقال الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة (١) » وروى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاق إلى شاق (٢) » وروى عبادة بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاق إلى شاق ومن جحر إلى جحر كالتلب الذي يروغ قبل له ومتى ذلك يارسول الله قال إذا لم تنل للعيشة إلا بماصى الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزويج قال إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يدي قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يبرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة (٣) » وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغنى التأهل عن الميعة والمخالطة ثم لا ينال الميعة إلا بمعية الله تعالى ولست

(١) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم الحديث أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن (٢) حديث أبي سعيد الخدري يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن رواء البخاري .
(٣) حديث ابن مسعود سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاق إلى شاق تقدم في النكاح .

يصل خاتمة الأعين وما تخفى الصدور وما هذا القول من الشيخ أبي طالب للسك إلا مستغرب عجيب والتزهد عن مثل ذلك هو الصحيح . وفي الحديث في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالياحة على نفسه وتلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لصماع صوته وكان يحمل من مجله آلاف من الجنايز . وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى زممارا من مزامير آل داود » . وروى عنه عليه السلام أنه قال « إن من الشمر لحكمة » « ودخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم يمشون الشمر فقال يارسول الله قرآن وشمر فقال من

أقول هذا أو أن ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ولأجله قال سفيان والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضى الله عنه « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام المهرج قلت وما المهرج قال حين لا يأمن الرجل جلسه قلت فم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان قال كف نفسك ويدك وادخل دارك قال قلت يارسول الله أرأيت إن دخل على دارى قال فادخل بيتك قلت فإن دخل على بيتي قال فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع وقل ربى الله حتى توت (١) » وقال سعد لما دعى إلى الخروج أيام معاوية لا إلا أن تعطوني سيفه عينا بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه وقال مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على حجة يضاء فيبناهم كذلك يسبيرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا . وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا وأناس آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فاسفروا فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخاطبوا إلا بمدروالفتن . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه لما بلغه أن الحسين رضى الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له أين تريد فقال العراق فإذا منعه طوامير وكتب فقال هذه كتبهم ويعتصم فقال لا تنتظر إلى كتبهم ولا تأتهم فأبى فقال إني أحدثك حديثا إن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم غيرة بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم فأبى أن يرجع فاعتقه ابن عمر وبكى وقال أستودعك الله من قتل أو أسير (٢) وكان في الصحابة عشرة آلاف لما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا وجلس طاوس في بيته فقبله في ذلك فقال فساد الزمان وحيف الأئمة ولما بنى عروة قصره بالعقيق وثرمه قيل له لزم القصر وترك مسجد رسول الله ﷺ فقال رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة في فجأكم عالية وفيها هناك عما أنتم فيه عافية فإذا من الحذر من الخصومات ومشارت الفتن إحدى فوائد العزلة .

(الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس)

فانهم يؤذونك مرة بالفتنة ومرة بسوء الظن والتهمة ومرة بالافتراحت والأطباع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها وتارة بالنيحة أو الكذب وربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر فإذا اعتزلتم استغنت من التحفظ عن جميع ذلك ، ولذلك قال بعض الحكماء لغيره أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم قال ما هما قال :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجمة حين يبدو بقبیح يكون أو بحمال

ولاشك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسى الظن به ويتوهم أنه يستعمل عاداته ونصب الكيدة عليه وتدسيس غائله وراءه فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر يحسبون كل

(١) حديث ابن مسعود ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام المهرج قلت وما المهرج قال حين لا يأمن الرجل جلسه الحديث أبو داود مختصرا والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته (٢) حديث ابن عمر أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام الحديث وفيه أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة الطبراني مقتصرا على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل على مسيرة ثلاثة أيام وكذا رواه البرازي نحوه وإسنادهما حسن .

هذامرة ومن هذامرة
وأشد النافعة عند
رسول الله صلى الله عليه
وسلم آياته التي فيها :
ولاخبر في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمى صفوه
أن يكدر
ولاخبر في أمر إذا لم
يكن له
حكيم إذا ما ورد الأمر
أصدرا

فقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم
« أحسن يا أبا لي
لا يفض الله فاك »
فماش أكثر من مائة
سنة وكان أحسن الناس
ثغرا وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يضع لسان منبرا في
المسجد فيقوم على المنبر
قائما يهجو الذين كانوا
يهجون رسول الله صلى
الله عليه وسلم ويقول
النبي صلى الله عليه
وسلم « إن روح القدس
مع حسان مادام ينافع
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم » ورأى
بعض الصالحين أبا

صيحة عليهم هم العدو واحذرهم وقد اشتد حرسهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرس عليها قال النبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل معايشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وعن
يختلط به كثيرة ولنا نطول بتفصيلها فيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها وفي العزلة خلاص من جميعها
وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة فقال أبو المرداء اخبر قفله يروي مرفوعا وقال الشاعر:

من حمد الناس ولم ييلهم ثم بلاهم ذم من يحمدهم
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه في العزلة راحة من القرن السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير ألا تأتي للدينة فقال
ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرج بنعمة . وقال ابن السكيت كتب صاحب لنا أما بعد فإن الناس كانوا دواء
يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففر منهم فرارك من الأسد وكان بعض الأعراب يلزم شجرا ويقول
هو نديم فيه ثلاث خصال إن سمع مني لم ينم علي وإن تغلبت في وجهه احتمل مني وإن عربت عليه
لم يغضب فسمع الرشيد ذلك فقال زهدني في الندماء ، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر وللقابر فقيل له في ذلك
فقال لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ولا جليسا أمتع من دفتر . وقال الحسن رضي الله عنه أردت
الحج فسمع ثابت البناني بذلك وكان أيضا من أولياء الله فقال بلغني أنك تريد الحج فأجبت أن أحبك
فقال له الحسن ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إني أخاف أن نصطبغ فيرى بعضنا من بعض ما تباقت
عليه وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء السر على الدين والروء والأخلاق والفقرو سائر
العورات وقد مدح الله سبحانه التسترين فقال - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف - وقال الشاعر:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجميل

ولا يخلو الإنسان في دينه ودينه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا يتبقى
السلامة مع انكشافها . وقال أبو المرداء كان الناس ورقا لاشوك فيه فالناس اليوم شوك لا ورق فيه
وإذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر . وقال
سفيان بن عيينة قال لي سفيان الثوري في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته أقلل من معرفة الناس
فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا عن عرفت . وقال بعضهم جئت إلى مالك
ابن دينار وهو قاعد وحده وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته فذهبت أطرده فقال دعه يا هذا هذا
لا يضرك ولا يؤذي وهو خير من المجلس السوء وقيل لبعضهم ما حملك على أن تعتزل الناس قال خشيت أن
أساب ديني ولا أشعر وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرن السوء وقال أبو المرداء اتقوا
الله واحذروا الناس فانهم ماركبو اظهر بغير إلا أدبروه ولا تظهر جواد إلا أعقروه ولا قلب مؤمن إلا خربوه ،
وقال بعضهم أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخف لسهو الحقوق عنك لأنه كلما كثرت
المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم أنكر من تعرف ولا تعرف إلى من لا تعرف .

(الفائدة الخامسة)

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد
فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور
الجنائز وعبادة المريض وحضور الولائم والأملات وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات ثم قد
تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المآذير ولا يمكن اظهار كل الاعتذار فيقولون له فمت بحق .

المعاصي الحضر قال
قللت له ما تقول في
الساج الذي يختلف فيه
أصحابنا ؟ فقال هو الصفا
الزلال لا يثبت عليه
إلا أقدام العلماء . ونقل
عن عمشاد الدينوري
قال رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
ثمام قللت يا رسول
الله هل تنكر من
هذا الساج شيئا ؟
فقال ما أنكره ولكن
قل لهم يفتحون
قبله بقراءة القرآن
ويختمون بعده
بالقرآن قللت يا رسول
الله إنهم يؤذون
وينبسطون فقال
احتملهم يا أبا علي هم
أصحابك فكان عمشاد
يفتخر ويقول كنان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وأما وجه
الانكار فيه فهو أن
يرى جماعة من المريدين
دخلوا في مبادئ الإرادة
وفسوسهم ما عرنت على
صدق المجاهدة حتى
يحدث عندهم علم بظهور

فلان وقصرت في حقنا ويصير ذلك سبب عداوة قد قيل من لم يعد مريضا في وقت العيادة انتهى موته خيفة من تحجيلة إذا صح على تقصيره ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا وتميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه التجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا . قال عمرو بن العاص كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أهدأ ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله أصل كل عداوة اصطناع المروء إلى اللثام وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبت بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الحية في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم - وقال صلى الله عليه وسلم « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ^(١) » وقال عون بن عبد الله كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحمت . وحكى أن الزنى رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكة فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى - وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون - ثم قال بلى أصبر وأرضى وكان فقيرا مقلا فالذي هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن فإن من شاهد زينة الدنيا فلما أن يقوى دينه ويقيه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر وهو أمر من الصبر أو تنبت رغبته فيحتاج في طلب الدنيا فملك هلاكا مؤبدا أما في الدنيا فبالطمع الذي يوجب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تيسر له وأما في الآخرة فيبائساره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه ولذلك قال ابن الأعرابي :

إذا كان باب الدل من جانب الفنى سموت إلى العليا من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا .

(الفائدة السادسة)

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحقى ومقاساة حَقْمهم وأخلاقهم فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر قيل للأعمش ثم عمشت عينك قال من النظر إلى الثقلاء . ويحكى أنه دخل عليه أبو خيفة فقال في الخبر « إن من سلب الله كرميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما ^(٢) » فما الذى عوضك فقال في معرض اللطاية عوضى الله منهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقل مرة ففتى على وقال جالينوس لكل شئ حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعي رحمه الله ما جالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر . وهذه الفوائد ماسوى الأولين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله فإذا تأذى من غيره بغية أو سوء ظن أو عاصدة أو نعمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

(١) حديث انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم من حديث أبي هريرة (٢) حديث من سلب الله كرميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير من سلب كرميته عوضه الله عنهما الجنة ولهؤلاء نحو من حديث أبي أمامة بسند حسن وللبخارى من حديث أنس يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيتي ثم صبر عوضته منها الجنة يريد عينيه .

صفات النفس وأحوال
القلب حتى تنضبط
حركاتهم بقانون
العلم ويعلمون ما لهم
وعليهم مشتغلين به
حكى أن ذا النون لما
دخل بغداد دخل عليه
جماعة ومعهم قوالب
فاستأذنوه أن يقول
شيئا فأذن له فأشدد
القول :

صغير هوأك عذبي
فكيف به إذا احتسكا
وأنت جمعت من قلبى
هوى قد كان مشتركا
ما تترى لمكتب
إذا ضحك الخلى بكى
فطاب قلبه وقام وتواجد
وسقط على جبهته والدم
يقطر من جبهته ولا يقع
على الأرض ثم قام
واحد منهم فنظر إليه
ذو النون فقال اتق
الذى يراك حين تقوم
فجلس الرجل وكان
جالوسه لموضع صدقه
وعلمه أنه غير كامل
الحال غير صالح للقيام
متواجدا فيقوم أحدهم
من غير تدبر وعلم في

(آفات العزلة)

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة وفوائده من آفات العزلة فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ماهي وهي التعليم والتعلم والنفع والانتفاع والتأديب والتأدب والاستئناس والابتناس ونيل الثواب وإنائه في القيام بالحقوق واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها فلنفصل ذلك قائما من فوائد المخالطة وهي سبع :

(الفائدة الأولى : التعليم والتعلم)

وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة وبعضها ضروري في الدنيا فالحاجة إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة وإن تعلم القرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعزل وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الحسran ولهذا قال النخعي وغيره تفقه ثم اعزل ومن اعزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيق أوقاته بنوم أو فكر في هوس وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يغيب سعيه ويظلم عمله بحيث لا يدري ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها عن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال أعنى من لا يحسن العبادات في الحلوة ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها فثاله النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لاهلته مرضه فلا تليق العزلة إلا بالعلم وأما التعليم فقيه ثواب عظيم مهما سحت نية العلم والتعلم ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم وحكم العالم في هذا الزمان أن يعزل إن أراد سلامة دينه فانه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه بل لا طالب إلا للكلام مزخرف يستميل به العوام في معرض الوعظ أو الجدل معقد يتوصل به إلى إلخام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل في معرض المناصاة والباهاة وأقرب علم مرغوب فيه الذهب ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولى الولايات واجتلاب الأموال فهو لاهلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم فان صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبائر الاعتزال عنه وكتبان العلم منه وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أ كثر من واحد أو اثنين إن صودف ولا ينبغي أن يعتزل الإنسان بقول سفيان ثعلبنا العلم لغير الله فإني العلم أن يكون إلا لله فان الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله وانظر إلى أواخر أعمار الأ كثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها وليس الخبر كالمينة . واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة فان فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فان لم يؤثر في الحال أثر في المال ، وأما الكلام والفقه المجرد الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات الذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله بل لا يزال متباديا في حرصه إلى آخر عمره ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه للتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فانه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب فلا ينبغي أن يحادع الإنسان نفسه فان المقصر العالم

قيامه وذلك إذا سمع
إيقاعا موزونا بسمع
يؤدى ماسمعه إلى طبع
موزون فيتحرك بالطبع
الموزون للصوت
الموزون والإيقاع
للموزون وينسب
حجاب نفسه للنسب
ببساط الطبع على
وجه القلب ويستفزه
النشاط النبض من
الطبع فيقوم برقص
موزونا موزجا بتضع
وهو محرم عند أهل
الحق ويعجب ذلك
طية للقلب وما رأى
وجه القلب وطيبته لله
تعالى ولعمري هو
طية القلب ولكن
قلب ملون بلون النفس
ميال إلى الهوى موافق
للردي لا يهتدى إلى
حسن النية في الحركات
ولا يعرف شروط صحة
الارادات ومثل هذا
الراقص قيل الرقص
نقص لأنه رقص
مصدره الطبع غير
مقترن بنية صالحة
لا سيما إذا انضاف

بتقصيره أسعد حالا من الجاهل الغرور أو الجاهل النبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجلاء وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الادلال على الجاهل والتكبر عليهم فآفة العلم الخيلاء (١) كما قال صلى الله عليه وسلم ، ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قطرا من كتب الأحاديث التي سمعها وكان لا يحدث ويقول إني أشتي أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتيت أن لا أحدث لحديث ولذلك قال حدثنا باب من أبواب الدنيا وإذا قال الرجل حدثنا فاعلم يقول أو سمعوا لي . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري ، نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا قال وفيذا رغبت ؟ قالت : في الحديث ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر قد دركن إلى الدنيا فهذه آفات قد نهينا عليها في كتاب العلم والحزم والاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما يمكن بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان عاقلا في مثل هذا الزمان أن يتركه فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال إخوان العلانية أعداء السر إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك من أتاك منهم كان عليك رقبيا وإذا خرج كان عليك خطيبا أهل تقاق ونجاسة وغلّ وخديعة فلا تفترباجتماعهم عليك فمأغرضهم العلم بل الجلاء والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارافي حاجتهم إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ويفرضون عليك أن تبذل عرصتك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريتهم وخادمهم ووليهم وتنهض لهم سفيرا وقد كنت قريبا وتكون لهم تابعا خيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا ولذلك قيل اعترال العامة مروءة تامة فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه وهو حق وصدق فانك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم وربما لا يغتلف إليهم ما يكفل برزق له على الإدرار ثم إن المدرس السكين قديمجز عن القيام بذلك من ماله فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسي القتل والشدائد مقاساة الدليل المهيئ حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ثم لا يزال العامل يستترقه ويستخدمه ويغتنه ويستنله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتنه الميزون ونسبوه إلى الحق وقلة التميز والقصور عن درك مصارقات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والأساد فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذونه ويفرقه عليهم في العقبي والعجب انه مع هذا البلاء كله يعنى نفسه بالأباطيل ويدلها بحبل الغرور ويقول لها لا تفتري عن صنعك فاعلم أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذبة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله وأموال السلاطين لأمالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله ولولم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لاسببه إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام فتلحظهم أعين الجاهل ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقفاء لأنارهم ولذلك قيل ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء فتعوذ بالله من الغرور والعمى فانه الداء الذي ليس له دواء .

إلى ذلك شوب حركاته
بصرح التفاف بالتودد
والقرب إلى بعض
الحاضرين من غير
نية بل بدلالة نشاط
النفس من المعاقبة
وتقيل اليد والقدم
وغير ذلك من الحركات
التي لا يعتمد عليها من
التصوفة إلا من ليس
له من التصوف إلا
مجرد زى وصورة أو
يكون القوال أمرد
تنجذب النفوس إلى
النظر إليه وتستلذ ذلك
وتضمخ خواطر السوء
أو يكون للنساء إشراف
على الجمع وتراسل
البواطن للملوءة من
الهوى بسفارة الحركات
والرقص وإظهار
التواجد فيكون ذلك
عين الفسق المجمع على
تخرجه فأهل اللواخير
حينئذ أرحى حالهم
يكون هذا ضميره
وحركاته لأنهم يرون
فسقهم وهذا لا يراه
ويريه عبادة لمن لا يعلم
ذلك أقرى أحدا من

(١) حديث آفة العلم الخيلاء المعروف مارواء مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء .

(الفائدة الثانية النفع والانتفاع)

أما الانتفاع بالناس في الكسب والمعاملة وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه كإذ كثرناه في كتاب الكسب فإن كان معه مال لو اكتفى به قائما لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق الكسب في الأكثر إلا من المعاصي إلا أن يكون غرضه الكسب للصديقة فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ولأمن الأقبال بكنه الحمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصرة لأعن أوهام وخيالات فاسدة . وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو يبيدنه فيقوم بمحاجاتهم على سبيل الحسبة في النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزله إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية وإن كان ممن افتتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره البتة .

(الفائدة الثالثة التأديب والتأدب)

ونعني به الارتياض بتقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهر للشهوات وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه ولم تدع عن حدود الشرع شهواته ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهم إلى الله سبحانه وكان هذا هو البدأ في الأغصار الحالية والآن قد خالطته الأراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كمالا سائر شعائر الدين فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر وإن كانت التبرية النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ مركبا يقع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال من عضها ورفسها ورحمها وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل من الهيمة الميتة وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والوئ ولا ينبغي أن يقتنع به كالراهب الذي قيل له ياراهب فقال ما أنا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة أخرا . وأما التأديب فأنعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم فانه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم وحاله حال العلم وحكمه حكمه ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن يحايل طلب الدنيا من الريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلو بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم وإمالة أحدهما بالآخر دأؤهم الأفضل وذلك يدرك بدق

أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره فمن هذا الوجه توجه المنكر الانكار وكان حقيقا بالاعتذار فكمن من حركات موجبة للمقت وكم من نهضات تذهب رونق الوقت فيكون إنكار المنكر على المرید الطالب بمنعه عن مثل هذه الحركات ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ووجه نيته في ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء في الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالا ووجدا يجعل حركته في طرف الباطل لأنها وإن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللام وتوضيح حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تجرى عليه من الضحك

الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفي ولا إثبات .

(الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس)

وهو غرض من يحضر الولايم والدعوات ومواضع العاشرة والأنس وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته أو على وجه مباح وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى وقد يتعاق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتيسير دواعي النشاط في العبادة فإن القلوب إذا أكرهت عمت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس بروح القلب فهي أولى إذ الرفق في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يعل حتى تملوا ^(١) » وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح وفي تكليفها للزمنة داعية للفترة وهذا على بقوله عليه السلام « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » والإيضال فيه برفق دأب للمستبصرين ولذلك قال ابن عباس لولا محافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة لدخلت بلادا لا أنيس بها وهل يفسد الناس إلا الناس فلا يستغنى العزلة إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة فيلجئ في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ^(٢) » وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشيد ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فانه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة والراضى عن نفسه مغرور قطعا فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص فليتنفقد أحوال القلب وأحوال الجالس أو لا ثم ليجالس .

(الفائدة الخامسة : في نيل الثواب وإنالته)

أما النيل فيحضور الجنائز وعبادة المرضى وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلا بد منه وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضا لا رخصة في تركه إلا لحوف ضرر ظاهر يقام ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نادرا وكذلك في حضور الاملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم . وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فاتهم ينالون بذلك ثوابا وكذلك إذا كان من العلماء وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة وكان هو بالتمكين سببا فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها التي ذكرناها وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة . فقد حكي عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال تفرغا للعبادة وقرارا من الشواغل .

(الفائدة السادسة)

من المخالطة التواضع فانه من أفضل القامات ولا يقدر عليه في الوحدة وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة فقد روى في الاسرائيليات أن حكما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإني لا أقبل من نفاقك شيئا قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال الآن قد بلغت رضا ربى

(١) حديث إن الله لا يعل حتى تملوا تقدم (٢) حديث المرء على دين خليله تقدم في آداب الصلابة .

والداعية وملاعبة الأهل والولد ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب وربطها بذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال إني لأستجم نفسي بشي من الباطل ليكون ذلك عوناً إلى على الحق ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات ليستريح عمال الله وترتفع النفوس ببعض مآربها من ترك العمل وتستطيب أوطان الملل والآدمي يتركه المختلف وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته وقد سبق شرحه في غير هذا الباب لا تنفى قواه بالصبر على الحق الصرف فيكون التفسح في أمثال ما ذكرناه من الباح الذي ينزع إلى هو ما باطلا يستعان به على الحق فإن الباح وإن لم يكن باطلا في حقيقة

فأوحى الله إلى نبيه قل له إنك لن تبلغ رضى حق تخالط الناس وتصبر على أذامهم فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم فأوحى الله تعالى إلى نبيه الآن قد بلغ رضى فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر وامانه عن الحافل أت لا يوقر أولاً يقدم أو يرى الترفع عن مخالطهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقديه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترًا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والساطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبلهم أيديهم على سبيل التبرك ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يفيض إليه المخالطة وزيارة الناس لفيض إليه زيارتهم له كما حكيناه عن الفضيل حيث قال وهل جثتي إلا لأتزين لك وتزين لى . وعن حاتم الأصم أنه قال للأمر الذى زاره حاجي أن لا أراك ولا ترانى فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزله عن الناس سيده شدة اشتغاله بالناس . لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرم إليه بعين الوقار والاحترام والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه : أحدها أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل الثمر والمخ في ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كاله . ماجر من تقع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبى وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الخطب وجرب الدقيق على أكتافهم . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول وهو إلى المدينة والخطب على رأسه طرّقوا لأمرهم « وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطنى أحمله فيقول صاحب الشيء أحق بحمله (١) » وكان الحسن بن على رضى الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول - إن الله لا يحب المتكبرين - الوجه الثانى أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً وأن ضرره وتعبه بيد الله ولا نافع ولا ضارّ سواء وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس بل رضا الناس غاية لا تتال فرضا الله أولى بالطلب ولذلك قال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل فانظر ماذا يصلحك فافعله ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غمًا . وفاز باللذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا لشيء أمر به فقال يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس فالتفت إلى أصحابه وقال لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين : عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالفه وإن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرويه . وقال الشافعى رحمه الله ليس من أحد إلا وله عيب ومبغض فإذا كان هكذا فكأن مع أهل طاعة الله . وقيل للحسن يا أبا سعيد إن قومًا يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعتيك بالسؤال فتبسم وقال للقائل هون على نفسك فإن حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن قطعت ومحدثت نفسى بالسلامة من الناس لأنى قد

(١) حديث كان يشتري الشيء ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطنى أحمله فيقول صاحب التاع أحق بحمله أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف في حمله السراويل الذى اشتراه .

الشرع لأن حدّ الباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق الصادق يكون جهله مزيدا لعلمه وباطله مزيدا لحقه ودينه مزيدا لآخرته ولهذا المعنى جيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة للوهوب لها حظوظها الموفّر عليها حقوقها لموضع طهارتها وقديسها فيكون ما هو نصيب الباطل الصرف في حق الغير من اللباحات المقبولة برخصة الشرع المروءة بعزيمة الحال في حقه صلى الله عليه وسلم متسا بسمه العبادات وقد ورد في فضيلة النكاح ما يدل على أنه عبادة ومن ذلك

علت أن خالطهم ورازقهم وعيهم ومخيرهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه سلم : يارب احبس عني أسنة الناس فقال يا موسى هذا شيء لم أصطفه لنفسى فكيف أبصرك وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزيز إن لم تطب نفسا بأن أجعلك علما في أفواء الماضين لم أكتبك عندي من للتواضعين فاذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا - ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون - فاذن لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرها وفكرها وعبادة وعلمها بحيث لو خالطه الناس لصاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقن فأنها مهلكات في صور منجيات .

(الفائدة السابعة التجارب)

فإنما استفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم والعقل التريزي ليس كافيا في فهم مصالح الدين والدنيا وإنما تنيدها التجربة والممارسة ولا خير في عزلة من لم تحمكه للتجارب فالصبي إذا اعتزل بقي غمرا جاهلا بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة ومن أم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدّر عليه في الخلوة فإن كل مجرب في الخلوة يبرئ وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبئه وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إبطاؤها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يهركها فثالث القلب للشجون بهذه الحباثت مثال دمل تمتلئ بالصديد والدة وقد لا يحسن صاحبه بأله ما لم يتحرك أو يسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يهركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقدده ولكن لو حركه حرك أو أصابه مشرط حجام لا تفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال فكذلك القلب للشجون بالحقود والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق القبيحة إنما تفجر منه خباثاته إذا حرك وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم فمن كان يستشعر في نفسه كبرا صمى في إماطته حتى كان بضمهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليحرب نفسه بذلك فأن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ، ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أنى كنت أصلها في الصف الأول ولكن تخلفت يوما بصدّر فها وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول فسلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصلها كانت مشوبة بالرياء محروجة بلفتة نظر الناس إلى ورؤيتهم إياى في زمرة السابقين إلى الخير فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الحباثت وإظهارها ولذلك قيل السرفيسر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة وستأتى غوائل هذه الأمانى ودقائقها في ربيع المماسكات فأن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد إلا للصلاة أفضل من الصلاة فأننا علم أن ما يراد لغيره فأن ذلك الغير أشرف منه وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى ^(١) » فعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاث أوجه : أحدها ما ذكرناه والثانى عموم النفع لتمدى فائدته والعمل لا تمدى فائدته والثالث أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتبنيته

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى تقدم في العلم .

من طريق القياس
استماله على المصالح
الدينية والدينية على
ما أطلب في شرحه
الفقهاء في مسألة
التخلي لنوافل المبادات
فاذا يخرج هذا
الراقص بهذه النية
التبرى من دعوى
الحال في ذلك من
إنكار النكر فيكون
رقصه لأعليه ولا له
وربما كان بحسن
النية في الترويع يصير
عبادة سببا إن أضمر
في نفسه فرحا بربه
ونظر إلى شمول رحمته
وعظفه ولكن لا يليق
الرقص بالشيوخ
ومن يقتدى به لما فيه
من مشابهة اللهو
واللهو لا يليق بمنصبهم
وبين حال التمكن
مثل ذلك وأما وجه
منع الإنكار في السماع
فهو أن النكر للسمع
على الإطلاق من غير
تفصيل لا يغلو من
أحد أمور ثلاثة إما

بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبه فالعمل وعلم العمل مراد أن لهذا العلم وهذا العلم غاية المريد
والعمل ككسرط له وإليه الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - فالكلم
الطيب هو هذا العلم والعمل كالحال الرفع له إلى مقصده فيكون الرفع أفضل من الرفع وهذا
كلام معتز لا يليق بهذا الكلام . فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها
تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيًا وإثباتًا خطأ بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى
الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى القائن بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ويقاس
القائن بالحاصل فمضد ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب
إذ قال يابونيس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين
النقبض والانبساط فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد
والآفات يتبين الأفضل هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر وإنما هو إخبار كل
واحد عن حالة خاصة هو فيها ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال والفرق بين العالم
والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا يجزم يختلف أجوبتهم
في المسائل والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه وذلك
بما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبداً والقاصر عن الحق كثير لا يحصى ولذلك سئل الصوفية عن
الفقر فما من واحد إلا أجاب بجواب غير جواب الآخر وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق
في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحداً ولذلك قال أبو عبد الله الجلاء ، وقد سئل عن الفقر فقال اضرب
بكُميك الحائط وقل رب الله فهو الفقر . وقال الجنيد الفقير هو الذي لا يسأل أحداً ولا يعارض وإن
عورض سكت وقال سهل بن عبد الله الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر وقال آخر هو أن لا يكون لك فان
كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك وقال إبراهيم الخواص هو ترك الشكوى وإظهار أثر
البلى والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان وذلك كله
حق من وجه فانه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه ولذلك لا ترى اثنين منهم يثبت أحدهما
لصاحبه قدما في التصوف أو ينفي عليه بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه
لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى
غيرهم ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف ومثال نظره هؤلاء ما رأيت
من نظر قوم في أدلة الزوال بالنظر في الظل فقال بعضهم هو في الصيف قدما . وحكى عن آخر أنه
نصف قدم وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام . وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام وآخر يرد
عليه فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه يولد
نفسه فصدق في قوله وأخطأ في تخطيطه صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده كما أن الصوفي
لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه
بالبلاد فيجبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل وفي بعضها يطول وفي بعضها
يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة . فان قلت فمن أثر العزلة ورآها أفضل له
وأسلم فما آدابها في العزلة فنقول إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة
وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزله كشف شر نفسه عن الناس أولا ثم طلب
السلامة من شر الأشرار ثانيا ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ثم التجرد
بكنه المهمة لعبادة الله رابعا فهذه آداب نيته ثم ليكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر

جاهل بالسنن والآثار
وإما معتز بما أتبع
له من أعمال الأخيار
وإما جامد الطبع
لا ذوق له فيصير على
الإنكار وكل واحد
من هؤلاء الثلاثة
يقابل بما سوف يقبل ،
أما الجاهل بالسنن
والآثار فيعرف بما
أسلفناه من حديث
عائشة رضي الله عنها
وبالأخبار والآثار
الواردة في ذلك وفي
حركة بعض المتحركين
تعرف رخصة رسول
الله صلى الله عليه وسلم
للحجبة في الرقص
ونظر عائشة رضي الله
عنها إليهم مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم
هذا إذا سلت الحركة
من السكره التي
ذكرناها وقد روى
أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال لعلى
رضي الله عنه أنت
منى وأنا منك فحبل
وقال لجعفر أشبهت

ليجتنى ثمرة العزلة ولينج الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به فان كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبت في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض وأحد مهمات للمتميز قطع الوسواس الصارفة عن ذكر الله والأخبار يتابع الوسواس وأصولها وليقع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولومدة يسيرة وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفاً عن سيره إلى طريق الآخرة فان السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملسكوت صواته وأرضه وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاتيح القلوب وطلب طرق التحصن منها وكل ذلك يستدعى الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر وليكن له أهل صالحة أو جلس صالح لتتربح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة فقيه عون على بقية الساعات ولا يئمه له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهم يكون فيه ولا يقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة ولتتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه إذ لا يهدم للموت محل الأنس والعرفة بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ورحمته كما قال الله تعالى في الشهداء - ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله - وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد منهما أدركه الموت مقبلاً غير مدبر « فالجهاد من جاهد نفسه وهواه ^(١) » كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم رجسنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يضنون جهاد النفس .

تم كتاب العزلة ويتلوه كتاب آداب السفر والحمد لله وحده .

﴿ كتاب آداب السفر ﴾

وهو الكتاب السابع من ربيع العادات من كتب إحياء العلوم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر واستخلص همهم لمشاهدة هجائب منعمه في الحضر والسفر فأصبحوا راضين بمجاري القدر منزهين قلوبهم عن التلفت إلى منزهات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسع في مسارج النظر ومجاري الفكر فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد خير البشر وعلى آله وصحبه المقتفين لأناره في الأخلاق والسير وسلم كثيراً .

(١) حديث المجاهد من جاهد نفسه وهواه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله وهواه وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلوة .

(كتاب آداب السفر)

خلقى وخلقى فجعل وقال
لزيد أنت أخونا ومولانا
فجعل « وكان جعل
جعفر في قصة ابنه حمزة
لما اختصم فيها على
وجعفر وزيد . وأما
النكر الغرور بما
أصبح له من أعمال
الأخبار فيقال تفريك
إلى الله بالعبادة لشغل
جوارحك بها ولولانية
قلبك ما كان لعمل
جوارحك قدر فاعلم
الأعمال بالنيات ولكل
امرئ ما نوى والنية
لنظرك إلى ربك خوفاً
أو رجاء فالسامع من
الشعر بيتاً يأخذ منه
معنى يذكره ربه إما
فرحاً أو حزناً أو انكساراً
أو افتقاراً كيف يقلب
قلبه في أنواع ذلك
ذاكراً لربه ولو سمع
صوت طائر غاب له ذلك
الصوت وتفكر في قدرة
الله تعالى وتسويته
حجارة الطائر وتسخير
خلقهم ومنشأ الصوت
وتأديته إلى الأسماع

[أما بعد] فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه والسفر سفران سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات وأشرف السفيرين السفر الباطن فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومتبدل بتوسع فضاء - جنة عرضها السموات والأرض - ظلمة السجن وضيق الحبس ولقد صدق القائل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقصده في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخير فاتقضى غموض السبيل وقصد الحفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل اندرس مسالكه فاتقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين متزهات الأنفس والملكوت والآفاق وإليه دعا الله سبحانه بقوله - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - وبقوله تعالى - وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسهم أفلا تبصرون - وعلى التعود عن هذا السفر وقع الانكار بقوله تعالى - وإنكم لتكرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون - وبقوله سبحانه - وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - فمن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متزهاً في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن وهو السفر الذي لا تضيق فيه الناهل والموارد ولا يضر فيه التزامم والتوارد بل تزيد بكرة للسافرين غناؤه وتضاعف ثمراته وفوائده فضاءه دائرة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للسافر فترة في سفره ووقفة في حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا زاغوا أزاع الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنياً بها تجارة الدنيا أو ذخيرة للآخرة فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة وكان له في سفره شروط وآداب إن أهمها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان وإن اظلم عليها لم يغل سفره عن فوائده تلحقه بهمال الآخرة ونعمن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى . الباب الأول :

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان . الباب الثاني :

فيما لا بد للسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .

(الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان : الفصل الأول في فوائد السفر وفضله ونيته)

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة وفيه فوائد وله آفات كذا ذكرناه في كتاب الصحة والعزلة والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه وإما أن يكون له مقصد ومطلب والهروب عنه إما أمر له نكايته في الأمور الدنيوية كالطاعون والوباء إذا ظهر يله أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء ومر وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأفدية في بلدة فيهرب منها وإما أمر له نكايته في الدين كمن ابتلى في بلدة بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله فيؤثر الغربة والحول ويحتمل السعة والجاه أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً أو إلى ولاية عمل لا أهل مباشرته فيطلب الفرار منه وأما المطلوب فهو إما دنيوي كالجمال والجاه أو ديني والدين إما علم وإما عمل والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق

(الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع)

كان في جميع ذلك
الفكر مسجماً مقدماً
فإذا سمع صوت آدمي
وحضره مثل ذلك
الفكر وامتلأ بطنه
ذكراً وفكراً كيف
ينحصر ذلك . حكى
بعض الصالحين قال
كنت معتكفاً في جامع
جدة على البحر فرأيت
يوماً طائفة يقولون في
جانب منه شيئاً
فأنكرت ذلك بقلبي
وقلت في بيت من بيوت
الله تعالى يقولون
الشعر فرأيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم
في المنام تلك الليلة وهو
جالس في تلك الناحية
وإلى جنبه أبو بكر
وإذا أبو بكر يقول
شيئاً من القول والنبي
صلى الله عليه وسلم
يستمع إليه ويضع يده
على صدره كالواجب
بذلك فقلت في نفسي
ما كان ينبغي لي أن
أنكر على أولئك
الذين كانوا يسمعون
وهذا رسول الله

نفسه وصفاته على سبيل التجربة وإمّا علم بآيات الأرض ومعانيها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض والعمل إما عبادة وإما زيارة والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كسكة والمدينة وبيت المقدس والثغور فإن الرباط بها قرينة وقد يقصد بها الأولياء والعلماء وهم إما موتى فتزار قبورهم وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم فهذه هي أقسام الأسفار ومخرج من هذه القسمة أقسام . القسم الأول : السفر في طلب العلم وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا وذلك العلم إما علم بأمر دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حق يرجع ^(١) » وفي خبر آخر « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ^(٢) » وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا في حديث بانهم عن عبد الله بن أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يعموه ^(٣) وكل مذكور في العلم حصل له من زمان الصحابة إلى زماننا هذا لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا منهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحصين الخلق وتهذيبه ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الحب في السموات والأرض وإنما ممي السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض اليهود هل محبة في السفر الذي يستدل به على مكازم أخلاقه فقال لا فقال ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول يا معشر القراء سيجوا تطيؤوا فإن البناء إذا ساح طاب وإذا طال مقامه في موضع تغير . وبالجملة فإن النفس في الوطن مع موادة الأسباب لا تظهر خبايا أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتنحت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخاطلة والسفر بمخاطلة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق . وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر فيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد وأما الجاحدون والمافلون والمفترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فانهم لا يصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون - يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وما أريد بالسمع السمع الظاهر فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات ويشارك الإنسان فيه

(١) حديث من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٢) حديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما الحديث رواه مسلم وتقدم في العلم (٣) حديث رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبد الله ابن أنيس الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي وقال البخاري في صحيحه رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر في حديث وله أن عقبة بن عامر

صلى الله عليه وسلم
يسمع وأبو بكر إلى
جنبه يقول فالتفت
رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو يقول هذا
حق بحق أو حق من
حق بل إذا كان
ذلك الصوت من أمره
يغشى بالنظر إليه
الفتنة أو من امرأة غير
محرم وإن وجد من
الأذكى والأفكار
ما ذكرنا يحرم معامه
لخوف الفتنة لا لجرد
الصوت ولكن يحل
سماع الصوت حريم
الفتنة ولكل حرام
حريم ينسحب عليه
حكم للنوع الصلحة
كأقبة للشباب النصارى
حيث جعلت حريم
حرام الوقاع وكالحلوة
بالأجنبية وغير ذلك
فعل هذا قد تقتضي
الصلحة النوع من السماع
إذا علم حال السامع
وما يؤديه إليه معامه
فيجمل للنوع حريم
الحرام هكذا وقد
ينكر السماع جامد

سائر الحيوانات فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق اللقال يشبه قول القائل حكاية لكلام الوجد والحائط قال الجدار للوجد لم تشقني فقال سل من يدق ولم يتركني ورأى الحجر الذي ورأى وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحداية هي توحيدها وأنواع شهادات لصانعها بالقدس هي تسبيحها - ولكن لا يفقهون تسبيحها - لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ومن زكاة لسان اللقال إلى فصاحة لسان الحال ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسمع كلام الله تعالى الذي يجب تهديسه عن مشابهة الحروف والأصوات ومن يسافر ليستقرى هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجادات لم يطل سفره بالبدن بل يستقر في موضع ويغرق قلبه لفتنة جماع قيمات التسييعات من آحاد الذرات فماله ولتتردد في الغلوات وله غنية في ملكوت السموات فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات وهي إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات بل هي دالة في الحركة على توالي الأوقات فمن الغرائب أن يدأب في الطواف بأحد المساجد من أمريت الكعبة أن تطوف به ومن الغرائب أن يطوف في أكناف الأرض من تطوف به أقطار السماء ثم مادام للسافر مفتقرا إلى أن يصير طام الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في التزل الأول من منازل السائرين إلى الله والسافرين إلى حضرته وكأنه متكف على باب الوطن لم يغض به للسير إلى متسع الفضاء ولا سبب لطول اللقاء في هذا المنزل إلا الجبن والقصور ولذلك قال بعض أرباب القلوب إن الناس يقولون اتحموا أعينكم حتى تبصروا وأنا أقول غمضوا أعينكم حتى تبصروا وكل واحد من القولين حق إلا أن الأول خير من التزل الأول القريب من الوطن والثاني خير مما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها إلا غاطر بنفسه والمجاور إليها بما يتيه فيها من ورع بما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل والمالك يكون في التيه هم الأكترون من ركاب هذه الطريق ولكن السائحون بتور التوفيق فازوا بالنعيم والملك القيم وهم الذين سقط لهم من الله الحسنى واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالامانة إلى كثرة الخلق طلبا به ومهما عظم المطلوب قل للمساعد ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك ولا يصدي لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وسلول الصب:

وإذا كانت النفوس كبارا قصبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل :

تري الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض . فلترجع إلى الغرض الذي كنا قصده ولينين القسم الثاني : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء وكل من يتبرك بعشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » (١) لأن ذلك في المساجد قائما متابعا بعد هذه المساجد وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء

أتى سلة بن هذيل وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطع (١) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحديث تقدم في الحج .

الطبع عديم الذوق
فيقال له : العنين لا يعلم
لذة الوقاع والمكفوف
ليس له بالجمال البارع
استمتاع وغير المصاب
لا يتكلم بالاسترجاع
فماذا ينكره من محب
تربى باطنه بالشوق
والهبة ويرى انحباس
روحه الطيارة في
مضيق قصص النفس
الأمارة بمر بروحه
نسيم أنس الأوطان
وتلوح له طالع جنود
العرفان وهو بوجود
النفس في دار العربة
يتجرجع كأس المجران
يقن تحت أعباء المجاهدة
ولا تحمل عنه سوانح
الشاهدة وكلما قطع
منازل النفس بكثرة
الأعمال لا يقرب من
كعبة الوصول
ولا يكشف له السبل
من الحجاب فيتروح
بنفس الصعداء ويرتاح
بالأنف من شدة البرحاء
ويقول مخاطبا للنفس
والشيطان وهما المانعان :
أياجلي نعمان باقه خليا

وأصل الفضل وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله . وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة وفيه أيضاً حركة للرجبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم هذا سوى ما ينتظر من الفوائد الطبية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف وبجهد زيارة الإخوان في الله فيه فضل كما ذكرناه في كتاب الصعبة وفي التوراة : سر أربعة أميال زر أخاً في الله . وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى الساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى الساجد الثلاثة وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج ، وببيت المقدس أيضاً له فضل كبير خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعاً من القدس إلى المدينة وقد سأله سليمان عليه السلام ربه عز وجل أن من قصد هذا المسجد لأبيه إلا الصلاة فيه أن لا تصرف نظرك عنه مادام متعباً فيه حتى يخرج منه أن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك . القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين وذلك أيضاً حسن فالفرار عما لا يطاق من سجن الأنبياء والمرسلين . ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأميـاب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله فإن لم يتم فراغه فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بالدين ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ولكن تصور تخفيفها وتقليلها وقد نجى المحفون وهلك الثقلون والمحدث الذي لم يسلق النجاة بالفراغ السائق عن جميع الأوزار والأعباء بل قبل الخف بفضله وشمله بسعة رحمة والخف هو الذي ليست الدنيا أكبره وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علاقته فلا يتم مقصوده إلا بالهجرة والترحال وقطع العلائق التي لا بد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة ثم ربما عده الله بموته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها فلا يصده شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله وذلك عملياً بوجوده جداً بل الغالب على القلوب الضعف والتصور عن الاتساع للخلق والخالق وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضاً ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كثافات القوة الظاهرة في الأعضاء قرب رجل قوى ذي مرة سبى شديد الأعصاب بحكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلاً فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بعمارة الجمل والتدرج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه ولكن المارسة والجهد يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يسلطه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن وقال سفيان الثوري هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الحامل فكيف على المشتهرين هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره وقال أبو نعيم رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت إلى أين يا أبا عبد الله قال بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقم بها فقلت له وتفعل هذا قال نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لديك وأقل لمحك وهذا هرب من غلاء السعر وكان سري السقطي يقول للصوفية إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا وقد كان الخواص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوماً وكان من التوكلين ويرى الإقامة اعتماداً على الأسباب قادجاً في التوكل وسيأتي أسرار الاعتقاد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى . القسم الرابع : السفر هرباً عما يهدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر

نسيم الصبا يخلص إلى

نسيمها

فإن الصبا ربح إذا

ما تنفس

على قلب محزون تجلت

همومها

أجد ردها أوتشف

من حرارة

على كبد لم يبق إلا

صميمها

ألا إن أدوائى بليل

قديمة

وأقتل داء العاشقين

قديمها

ولعل النكر يقول هل

الهبة إلا امثال الأمر

وهل يعرف غير هذا

وهل هناك إلا الخوف

من الله ويذكر الهبة

الخاصة التي تختص

بالعلماء الراسخين

والأبدال للقرين ولما

تقرر في فهمه القاصر

أن الهبة تستدعى

مثلاً وخيلاً وأجناساً

وأشكالاً أنكر محبة

القوم ولم يعلم أن القوم

يلفوا في رتب الإيمان

إلى آتم من المحسوس

وجادوا من فرط

أو ما يجري مجراه ولا حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض الواضع وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من القوائد واستجابة ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود النهي فيه قال أسامة بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الوباء أو السقم جرح عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض فليذهب المرة ويأتى الأخرى فمن سمع به في أرض فلا يقد من عليه ومن وقع بأرض وهو بها فلا يخرج منه القرار منه (١) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ « إن فناء أمتي بالطمن والطاعون قتل هذا الطمن قد عرفناه فما الطاعون قال غدة كعدة البعير نأخذهم في مراقهم للسلم لبيت منه شهيد والقيم عليه المهنسب كالمرباط في سبيل الله والقار منه كالغار من الزحف (٢) » وعن مكحول عن أم أيمن قالت « أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه لا تشرك بالله شيئا وإن عذبت أو حرق أو أطمع والدك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هلاك فخرج منه ولا تحرك الصلاة عمدا فإن من ترك الصلاة عمدا قد برئت ذمة الله منه وإياك والمحرفانها مفتاح كل شر وإياك والمصبية فانها تسخط الله ولا تهر من الزحف وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فانتب فيهم أنتق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أخفهم بالله (٣) » فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه وكذلك القدوم عليه وسيأتي شرح ذلك في كتاب التوكل فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مدموم وإلى محمود وإلى مباح والمدموم ينقسم إلى حرام كابق العبد وسفر العاق وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم ومن هذه الأسباب تبين النية في السفر فإن النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية ولتسكن نيتة الآخرة في جميع أسفاره وذلك ظاهر في الواجب والندوب ومحال في المكروه والمحذور . وأما الباح فمرجه إلى النية فهما كان قصده بطلب المال مثلا التصفع عن السؤال ورعاية ستر الروء على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ولو خرج إلى الحج وباعته الرياء والسمة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات (٤) » لقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات عام في الواجبات والندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن حكونها من المحظورات وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيتة فمن كانت نيتة الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه وفرق عليه همه وكثر الحرص والرغبة فخلطه ومن كانت نيتة الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيتة وجمع له همه ودعت له لللائكة واستغفرت له . وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة وقد ذكرنا منهاجه في كتاب العزلة فليتهم هذا منه فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تب ومشفقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين ونهاية ثمرة الدين في الدنيا عصيل معرفة الله تعالى

(١) حديث أسامة بن زيد إن هذا الوباء جرح عذب به بعض الأمم قبلكم الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم (٢) حديث عائشة إن فناء أمتي بالطمن والطاعون الحديث رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد (٣) حديث أم أيمن أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله لا تشرك بالله شيئا وإن حرق أو أطمع والدك وفيه إرسال (٤) حديث الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

الكشف والبيان
بالأرواح والنفوس .
روى أبو هريرة رضي
الله عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم « أنه
ذكر غلاما كان في بني
إسرائيل على جبل فقال
لأمه من خلق السماء
قالت الله قال من خلق
الأرض قالت الله قال
من خلق الجبال قالت
الله قال من خلق النعم
قالت الله فقال إني أسمع الله
شأنا ورمي نفسه من
الجبل فتقطع » فالجمال
الأزلي الإلهي منكشف
للأرواح غير مكيف
للعقل ولا مفسر لفهم
لأن العقل موكل بآل
الشهادة لا يهتدي من
الله سبحانه إلا إلى
مجرد الوجود ولا يتطرق
إلى حريم الشهود
التجلى في طي الغيب
المنكشف للأرواح
بلا ريب وهذه رتبة
من مطالعة الجمال رتبة
خاصة وأعم منها من
رتب المحبة المخلصة

وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى والأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة يحصل بدوام الفكر ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء والاقامة هي المعينة على العمل بالعلم في الانتهاء وأما السياحة في الأرض على الهواء فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء فإن السافر وماله لعل قلق إلا ما وقى الله فلا يزال السافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله وتارة بفارقة ما آله واعتاده في إقامته وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع ثم الشغل بالحط والتراحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طاب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته وتستفاد الرقبة في الخير من مشاهدته فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانتقله طريق الفكر أو العمل فالكون أولى به إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة وكانوا بطلين غير محترفين ولا مشغولين قد آلهوا البطالة واستغفلوا العمل واستوعروا طريق الكسب واستلناوا جانب السؤال والكدية واستطابوا الرباطات البنية لهم في البلاد واستسخروا الخدم للتصيين للقيام بخدمة القوم واستخفوا عقولهم وأديانهم من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تماثلا بكثرة الأتباع فلم يكن لهم في الحائقاتها حكم نافذ ولا تأديب للمريدين نافع ولا حرج عليهم قاهر فلبسوا للرقعات وآخذوا في الحائقاتها متزهات وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم فيظنون بأنفسهم خيرا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ويستقدون أن كل سوداء ثمرة ويتوهمون أن المشاركة في الظاهر توجب للسامعة في الحقائق وهيئات فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم فهؤلاء بضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ ولم يحلمهم على السياحة إلا للشباب والفراغ إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمعة أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدي به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعت إلا التصوف فإنه قد أعحق بالكلية وبطل لأن العلوم لم تدرس بعد والعالم وإن كان عالم سوء قائما فساده في سيرته لا في علمه فيبقى عالما غير عامل بعلمه والعمل غير العلم وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ومهما فسد العمل فأت الأصل وفي أسفار هؤلاء نظر للقهاء من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة وقد يقال إن ذلك ممنوع ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة مشاهدة البلاد المختلفة وهذه الحظوظ وإن كانت خسية فنفس للتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسية ولا بأس باتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه فهو التأذى والتلذذ والفتوى تقتضي تشتيت العوام في الباحات التي لا تقع فيها ولا ضرر فالسائحون في غير مهم في الدين والدنيا بل لحض التفرج في البلاد كالبهايم المترددة في الصحارى فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخلق حالهم وإنما عصيانهم في التلبس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر وراء الصلاح ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين وأكل الحرام من السكائر فلا تبق معه العدالة والصلاح ولو تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وقيه يهودي وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم محض فالصوفي عبارة عن عدل محض لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به العدالة ، وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم .

دون العامة مطالعة
جمال الكمال من
الكبرياء والجلال
والاستقلال بالنفع
والنوال والصفات
للنقمة إلى ما ظهر
منها في الآباد ولازم
الذات في الآزال فللكمال
جمال لا يدرك بالحواس
ولا يستنبط بالقياس
وفي مطالعة ذلك الجمال
أخذ طائفة من الهيين
خصوا بتجلى الصفات
ولهم بحسب ذلك ذوق
وشوق ووجد وسماع
والأولون منحوا قسطا
من تجلى الذات فكان
وجدتهم على قدر الوجود
وسماعهم على حد
الشهود . وحكى بعض
المشايخ قال رأينا جماعة
من عيشى على الماء
والهواء يسمعون
السماع ويعبدون به
ويتلهون عنده .
وقال بعضهم كنا على
الساحل فسمع بعض
إخواننا فجعل يتقلب
على الماء يمر ويحس
حتى رجع إلى مكانه .

وأعطى من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتاً وأعفى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم فأخذ المال باظهار التصوف من غير انصاف بحقيقته كأخذه باظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ، ومن زعم أنه علوى وهو كاذب وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام وكذلك الصوفى ولهذا احترز المتألمون عن الأكل بالدين فإن البالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشف للراغب في مواساته لغرت رغبته عن الواساة فلا جرم كانوا لا يشترطون شيئا بأنفسهم مخافة أن يساعوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين وكانوا يوكون من يشتري لهم ويشرطون على الوكيل أن لا يظفر أنه لمن يشتري نعم إنما يعمل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه ما يعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتورا في رأيه فيه والعقل النصف يعلم من نفسه أن ذلك محتج أو عزيز والقرور الجاهل بنفسه أخرى بأن يكون جاهلا بأمر دينه فإن أقرب الأشياء إلى قلبه قلبه فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لاهالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الفائلة أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم ينعمه ذلك عن مواساته فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له وليقل إنك إن كنت تعطى لما تمتد في من الدين فليست مستحقا لذلك ولو كشف الله تعالى سري لم ترني بعين التوفير بل اعتقدت أنى شر الخلق أو من شرارهم فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ فانه ربما رضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة وعقادة فليفتن لها وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقاقهم لها ونظرهم إليها بعين التفت والازدراء فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والاطراء ، فكلم من ذام نفسه وهو لها ماذج بعين ذمه قدم النفس في الخلوة مع النفس هو الممود وأما الدم في اللأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ومعتز بها وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تلبسه بقرائن الأحوال والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن محاذته لله عز وجل أو محاذته لنفسه محال فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

(الفصل الثانى فى آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر أدبا)

الأول أن يبدأ برد الظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ زاده إلا الحلال الطيب وليأخذ قدر ما يوسع به على رفقائه . قال ابن عمر رضى الله عنهم ما من كرم الرجل طيب زاده فى سفره ولا بدى السفر من طيب الكلام وإطعام وإظهار مكارم الأخلاق فى السفر فانه يخرج خبايا الباطن ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر وقد يصلح فى الحضر من لا يصلح فى السفر ولذلك قيل إذا أتى على الرجل معامله فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكو فى صلاحه والسفر من أسباب الضجر ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق وإلا فند مساعده الأور على وفق القرض فلما يظهر سوء الخلق . وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضجر : الصائم والمريض والمسافر . وتعام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المسكبر ومعاونة الرقعة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالاعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله وتعام ذلك مع الرقاء بمزاج ومطابقة فى بعض الأوقات من غير غش ولا عصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه . الثانى : أن يختار رفيقا .

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها . ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع فأخذ شمعة فجعلها فى عينه قال الناقل قربت من عينه أنظر فرايت نارا أو نورا يخرج من عينه بردنار الشمعة . وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض فى الهواء أذرعاً ويمر بجوى فيه . وقال الشيخ أبو طالب الكلى رحمه الله فى كتابه إن أنكرنا السماع جهلا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا وإن كنا نعلم أن الانكار أقرب إلى قلوب القراء والتعبدين إلا أنا لا نفعل ذلك لأننا نعلم ما لا يعلمون وممنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون وهذا قول الشيخ عن

ولا يخرج وحده فالرفيق ثم الطريق وليكن رفيقه ممن يمينه على الدين فيذكره إذا نسي وبعينه ويساعده إذا ذكر فإن الرافق على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده (١) وقال الثلاثة نفر (٢) وقال أيضاً إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرؤا أحكم (٣) وكانوا يفعلون ذلك ويقولون هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وليؤمروا أحسنهم أخلاقاً وأرقهم بالأهباب وأسرعهم إلى الأثر وطلب الواقعة وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا ومهما كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير وإذا كثرت المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمر البلد وأمر خاص كمر الدار وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأشير فلهذا وجب التأشير ليجتمع شتات الآراء ثم على الأمير أن لا ينظر إلا مصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم كما نقل عن عبد الله المزني أنه صحبه أبو على الرباطي فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقال بل أنت فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي على على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر فكما قال له عبد الله لا تفعل يقول ألم نقل إن الامارة مسلمة لي فلا تتحكم على ولا ترجع عن قولك حتى قال أبو على وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الأصحاب أربعة (٥) » وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة والذي يتفحص فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل محتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ولو كانوا ثلاثة لكان التردد في الحاجة واحداً فيتردد في السفر بالرفيق فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحداً فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر فإذا نـ مادون الأربعة لا يفي بالمقصود وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينمق بينهم الترافق لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ومن يستغنى عنه لا تنصرف المهمة إليه فلا تتم المرافقة معه نعم في كثرة الرقاء فائدة للأمن من المخاوف ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة للرفاقة العامة وكمن رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاعتناء عنه . الثالث : أن يودع رقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم بحب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك (٦) » وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث النهي عن أن يسافر الرجل وحده أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بماط ولو يعلم الناس مافي الوحدة ماأمر راكب بديل وحده (٢) حديث الثلاثة نفر رويناه من حديث علي في وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف الثلاثة ركب رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٣) حديث إذا كنتم ثلاثة فأمرؤا أحكم الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن (٤) حديث كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم البزار والحاكم عن عمر أنه قال إذا كنتم ثلاثاً في سفر فأمرؤا عليكم أحكم ذا أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين (٥) حديث خير الأصحاب أربعة أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذي حسن عريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين (٦) حديث ابن عمر قال لقمان إن الله إذا

علمه الوافر بالسكن والآثار مع اجتنبه ونحره الصواب ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ونوضح لهم الفرق بين صماع يؤثر وبين صماع ينكر وسمع الشبلي قال يقول :

أسألك عن سلسي فهل من غير
يكون له علم بها أين تنزل

فزعق الشبلي وقال لا والله مافي الدارين عنه غير . وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو نصر السراج أهل السماع على ثلاث طبقات يقوم رجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيها يسهون وقوم يرجعون فيها يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم فهم

أنه قال « إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه فان الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة ^(١) » وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلا قال « زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت ^(٢) » فهذا دعاء القيم للودع وقال موسى بن وردان أنبت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته فقال ألا أعلمك يا ابن أخي شيئا علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع قلت بلى قال قل « أستودعك الله الذي لا تضيع ودائمه ^(٣) » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إني أريد سفرا فأوصني فقال له في حفظ الله وفي كفه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أينما كنت ^(٤) » شك فيه الراوي . ويبنى إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجمع ولا يخص فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك فقال له الرجل أحدثك عن يا أمير المؤمنين بأمره إني أردت أن أخرج إلى سفروأمة حامل به فقالت تخرج وتدعى على هذه الحالة قلت أستودع الله ما في بطنك غربت ثم قدمت فاذا هي قد ماتت جلسنا نتحدث فاذا نار على قبرها قلت للقوم ما هذه النار فقالوا هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة قلت والله إنها كانت لصوامدة قوامة فأخذت العول حتى اتينا إلى القبر فحفرنا فاذا سراج وإذا هذا البلام يدب قيل لي إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمة لوجدتها فقال عمر رضي الله عنه : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب . الرابع : أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة ووقت الخروج يصلي لأجل السفر فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إني نذرت سفرا وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها إلى ابني أم أخي أم أبي قال النبي ﷺ ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين في بيته إذا شدة عليه ثياب سفره يقرأ فيهن بغائصة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللهم إني أتقرب بهن إليك فأخلفني بهن في أهلي ومالي فمسي خليفة في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله ^(٥) » الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل على فاذا مشى قال اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتمدت وإليك توجهت اللهم أنت تقى وأنت رجاى فأكفنى ما أهنى وما لأهت به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زدنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهى للخير أينما توجهت ، وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرسل عنه فاذا ركب الدابة فليقل باسم الله وبالله

استودع شيئا حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك النساءى في اليوم واليلة ورواه أبو داود مختصرا وإسناده جيد (١) حديث زيد بن أرقم إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه فان الله جاعل له في دعائهم البركة الخرائطى في مكارم الأخلاق بسند ضيف (٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا قال زدك الله التقوى الخرائطى في مكارم الأخلاق والمهاجلى في الدعاء وفيه ابن لهية (٣) حديث أبي هريرة أستودعك الله الذي لا تضيع ودائمه ابن ماجه والنسائى في اليوم واليلة بإسناد حسن (٤) حديث أنس في حفظ الله وفي كفه زدك الله التقوى الحديث تقدم في الحج في الباب الثانى (٥) حديث أنس أن رجلا قال إني نذرت سفرا وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها إلى أبي أم أخي أم امرأتى فقال ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات الحديث الخرائطى في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف .

مرتبون بالصلح ومطالبون بالصدق فيما يشيرون الله من ذلك وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تلوث قلوبهم بحبة الدنيا والجمع والنسج فهم يسمعون لطيفة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة وكل قلب ملوث بحبة الدنيا فمعاها سماع طبع وتكلف وسئل بعضهم عن التكلف في السماع فقال هو على ضربين : تكلف في السمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية وذلك تلبس وخيانة وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بالتواجد وهو بمنزلة التباكي المندوب إليه وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة يقال له إنما البدعة المهدورة المنوع منها

والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون فإذا استوت الدابة تحته فليقل - الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت السنان على الأمور . السادس : أن يرجل عن المنزل بكرة . روى جابر « أن النبي صلى الله عليه وسلم راحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتي في بكورها »^(١) » ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس^(٢) . وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت » وكان ﷺ إذا بعث سرية بعثها أول النهار^(٣) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها »^(٤) وقال عبد الله بن عباس : إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهارا ولا تطلبها ليلا واطلبها بكرة فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم بارك لأمتي في بكورها »^(٥) » ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصيا بترك الجمعة واليوم منسوب إليها فكان أوله من أسباب وجوبها والتشجيع للوداع مستحب وهو سنة قال صلى الله عليه وسلم « لأن أشيع مجاهدا في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روضة أحب إلى من الدنيا وما فيها »^(٦) . السابع : أن لا ينزل حتى يحصى النهار فهي السنة ويكون أكثر سيرة بالليل قال ﷺ « عليكم بالجلبة فان الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار »^(٧) » ومهما أشرف على المنزل فليقل اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه اصرف عني شرارهم فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم يقل اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق فاذا جن عليه الليل فليقل يا أرض رب وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما كفى البلد ووالد وما ولد وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ومهما علا شرفا من الأرض في وقت السير فينبغي أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ومهما هبط سبعا ومهما خاف الوحشة في سفره قال سبحانه للكه القديوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعرزة والجبروت . الثامن : أن يحتاط بالنهار فلا يمسي

(١) حديث جابر أنه صلى الله عليه وسلم راحل يوم الخميس يريد تبوك وقال اللهم بارك لأمتي في بكورها رواه الخرائطي ، وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري اللهم بارك لأمتي في بكورها قال الترمذي حديث حسن (٢) حديث كعب بن مالك قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت البزار مقتصر على يوم خميسها والخرائطى مقتصر على يوم السبت وكلاهما ضعيف (٣) حديث كان إذا بعث سرية بعثها أول النهار الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي (٤) حديث أبي هريرة اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها ابن ماجه والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه يوم الخميس وكلا الإسنادين ضعيف (٥) حديث ابن عباس إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهارا الحديث البزار والطبراني في الكبير والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف (٦) حديث لأن أشيع مجاهدا في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روضة أحب إلى من الدنيا وما فيها ابن ماجه . بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس (٧) حديث عليكم بالجلبة الحديث تقدم في الباب الثاني من الحجج .

بدعة تزاحم سنة
مأمور بها وما لم يكن
هكذا فلا بأس به وهذا
كالقيام للداخل لم يكن
فكان في عادة العرب
ترك ذلك حتى تقل أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يدخل
ولا يقام له وفي البلاد
التي فيها هذا القيام لهم
عادة إذا اعتمد ذلك
لتطبيب القلوب
والندارة لا بأس به لأن
تركه يوحش القلوب
ويوغر الصدور فيكون
ذلك من قبيل المشرة
وإحسن الصحبة
ويكون بدعة لا بأس
بها لأنها لم تزاحم سنة
مأثورة .

الباب الثالث
والشروع في القول
في السجود وإناكارا
قد ذكرنا وجه صحة
السجود وما يليق منه
بأهل الصدق وحيث
كثرت الفتنة بطريقه
وزالت الصحة فيه
وتصدى للحرص عليه
أقوام قلت أعمالهم

منفردا خارج القافلة لأنه ربما يقتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظا عند النوم كان صلى الله عليه وسلم إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل رأسه في كفه^(١) والغرض من ذلك أن لا يستقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره ، والمستحب بالليل أن يتناول الرققاء في الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر^(٢) فهذه السنة ومهما قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسورة الإخلاص والموذنين وليقل باسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتي بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى مع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ - كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز - تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحي القيوم الذي لا يموت اللهم احرمنا بعينك التي لاتام واكفنا بركنك الذي لا يرام اللهم ارحنا بقدرتك علينا فلا تهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإيمانك بأوفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين . التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكباً فلا يحملها مالا تطيق ولا يضرها في وجهها فإنه منهى عنه ولا ينأى عنها فإنه يشغل بالنوم وتأذي به الدابة كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة ، وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسي^(٣) » ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك^(٤) فهو سنة وفيه آثار عن السلف وكان بعض السلف يكرى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل ليكون بذلك محسناً إلى الدابة فيوضع في ميزان حسناته لافي ميزان حسنات الكاري ومن أدى بهيمة بضرب أو حمل مالا تطيق طولب به يوم القيامة إذ في كل كبد حراء أجر . قال أبو الدرداء رضي الله عنه ليعبر له عند الموت : أيها البعير لاتخاصمني إلى ربك فاني لم أذك أحملك فوق طاقتك وفي النزول ساعة صدقتان : إحداها ترويح الدابة والثانية إدخال السرور على قلب الكاري وفيه فائدة أخرى وهي رياضة البدن وتحريك الرجلين والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب وينبغي أن يقرر مع الكاري ما يحمله عليها شيئاً ما يعرضه عليه ويستأجر الدابة بعقد صحيح لئلا يشور بينهما نزاع يؤذي القلب ويعمل على الزيادة في الكلام فإي يلفظ العبد من قول إلاليه رقيب عتيد فليحترز عن كثرة الكلام والججاج مع الكاري فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة أحمل لي هذه الرقعة إلى فلان فقال حتى أستأذن الكاري فاني لم أشاركه على هذه الرقعة فانظر كيف لم تبلغت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع . العاشر : ينبغي أن يستصحب ستة أشياء قالت عائشة رضي الله عنها يكفل رسول الله ﷺ إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمكحلة والقراض والسواك والمشط^(٥) وفي رواية أخرى عنها ستة أشياء : المرأة والقارورة والقراض والسواك والمكحلة والمشط وقالت أم سعد الأنصارية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة^(٦) وقال صهيب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسمع ولزعموا يتخذ للاجتماع طعاماً تطلب النفوس الاجتماع لذلك لارغبة للقلوب في السماع كما كان من سير الصادقين فيصير السماع معلولاً تركن إليه النفوس طلباً للشهوات واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات ويقطع ذلك على المرید طلب المزيد ويكون بطريقه تضییع الأوقات وقلة الحظ من العبادات وتكون الرغبة في الاجتماع طلباً لتناول الشهوة واسترواحاً لأولى الطرب والهم والغمرة ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق . وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكين ولا يباح لمريد مبتدئ .

وقال الجيد رحمه الله تعالى إذا رأيت المرید يطلب السماع فاعلم أن

- (١) حديث كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه الحديث تقدم في الحجج (٢) حديث تناول الرققاء في الحراسة تقدم في الحجج في الباب الثاني (٣) حديث لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسي تقدم في الباب الثالث من الحجج (٤) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية تقدم فيه (٥) حديث عائشة كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء المرأة والمكحلة والندري والسواك والمشط وفي رواية ستة أشياء الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه والخرائطي في مكالم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة (٦) حديث أم سعد الأنصارية كان لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة رواه الخرائطي وإسناده ضعيف

«عليكم بالأئمة عند مضجعكم فانه مما يزيد في البصر وينبت الشعر» (١) وروى أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا وفي رواية أنه اكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين (٢) وقد زاد الصوفية الركوة والحبل وقال بعض الصوفية إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه وإنعاده هذا لما رآه من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب فالركوة لحفظ الماء الطاهر والحبل لتجفيف الثوب للغسل ولزج الماء من الآبار وكان الأولون يكتفون بالتيتم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء ولا يبالون بالوضوء من الصدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضعاً عمر رضى الله عنه من ماء في جرة نصرانية وكانوا يكتفون بالأرض والحبال عن الحبل فيفرشون الثياب القسولة عليها فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة وإنما البدعة الذمومة ما تضاد السنن الثابتة وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فستحسن وقد ذكرنا أحكام للبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة بل يخطأ في الطهارة ما لم ينعه ذلك عن عمل أفضل منه . وقيل كان الخواص من التوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر الركوة والحبل والابرة بخيوطها والمقراض وكان يقول هذه ليست من الدنيا . الحادى عشر : في آداب الرجوع من السفر «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول لا إله إلا الله وعنده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون ثابتون عابدون ساجدون لرَبنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» (٣) وإذا أشرف على مدينته فليقل اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً ثم يرسل إلى أهله من يشترم بدومته كيلا يقدم عليهم بقتة فيرى ما يكرهه ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً (٤) فقد ورد النهى عنه ، وكان عليه السلام إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت (٥) وإذا دخل قال «توباً توباً لرَبنا أوباً لا يفادر علينا حوباً» (٦) وينبغي أن يجعل لأهله بيتاً وأقاربه تحفة من مطعم أو غيره على قدر امكانه فهو سنة قد روى أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في غملاته حجراً (٧) وكان هذا مبالغة في الاستحاثات على هذه المسكرمة لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القاب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه في الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة . وأما الآداب الباطنة ففي الفصل الأول بيان جملة منها وجملة أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فليقف وليصرف ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوعها ويعتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدباً أو كلمة لينفع بها لاليجي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ ولا يقيم ليلة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك ولا يجالس في مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو وحده الضيافة

(١) حديث صحيح عليكم بالأئمة عند مضجعكم فانه يزيد في البصر وينبت الشعر الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذى ومصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس ومصححه ابن عبد البر وقال الخطابي صحيح الاسناد (٢) حديث كان يكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين (٣) حديث كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر الحديث تقدم في الحج (٤) حديث النهى عن طروق الأهل ليلاً تقدم (٥) حديث كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين تقدم (٦) حديث كان إذا دخل قال توباً توباً لرَبنا أوباً لا يفادر حوباً ابن السني في اليوم والليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث اطراق أهله عند القدوم ولو بحجر الدارنطنى من حديث عائشة باسناد ضعيف .

فيه بقية البطالة .
وقيل إن الجيد ترك
السباع قليل له كنت
تسمع فقال مع من
قل له تسمع لنفسك
فقال ممن لأنهم كانوا
لا يسمعون إلا من
أهل مع أهل فلما قد
الاخوان ترك لما
اختاروا السباع حيث
اختاروه إلا بشروط
وقيود وآداب يذكرون
به الآخرة ويرغبون
في الجنة ويحذرون
من النار ويزداد
به طلبهم وتعسن به
أحوالهم ويتفق لهم
ذلك اتفاقاً في بعض
الأحايين لأن يمحطوه
دأباً وديناً حتى
يتروا لأجله الأوراد .
وقد نقل عن الشافى
رضى الله عنه أنه قال
في كتاب القضاء القضاء
لهو مكروه يشبه
الباطل وقال من
استكثر منه فهو
سفيه ترد شهادته .
واتفق أصحاب الشافى
أن المرأة غير المهرم

إلا إذا شق على أخيه مفارقتها وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة ولا يشغل نفسه بالعمرة فإن ذلك يقطع بركة سفره وكلما دخل بلدا لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ زيارة منزله فإن كان في بيته فلا يندق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج فإذا خرج تقدم إليه بأدب فلم عليه ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله فإن سأله أجاب بقدر السؤال ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولا وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسغياتها ولا ذكر أصدقائه فيها وليذكر مشايخها وفقراءها ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدتها في كل قرية وبلدة ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها ويلزم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره وإذا كلف إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يعدته ثم يرجع إلى ما كان عليه فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالأقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرما بالخدمة فذلك كفران نعمة ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبي عثمان اللخمي خرج فلان مسافرا فقال السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه وأشار به إلى أن من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة فليكن سفر المرء من وطن هو أو مراده وطبعه حتى يمز في هذه الغربة ولا يذل فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة إما عاجلا وإما آجلا .

(الباب الثاني فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات)

اعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يزود لذيائه وآخرفته أما زاد الدنيا فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة فإن خرج متوكلا من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة وإن ركب البادية وحده أومع قوم لاطعام معهم ولا شراب فإن كان بمن يصبر على الجوع أسبوعا أو عشرة مثلا أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجترار بالحشيش فغروجه من غير زاد معصية فانه ألقى نفسه يده إلى التهلكة ولهذا سرسباني في كتاب التوكل وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فيه فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى الشرب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه وستأتي حقيقة التوكل في موضعها فانه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين وأما زاد الآخرة فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعباداته فلا بد وأن يزود منه إذا السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر وتارة يشدد عليه أمورا كان مستنبا عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات فانه في البلد يكتفي بغيره من محارب للساجد وأذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه فإذا ما يقتدر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

(القسم الأول العلم برخص السفر)

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين مسح الخفين والتيمم وفي صلاة الفرض رخصتين التقصر والجمع وفي النفل رخصتين أدائه على الراحة وأدائه ماشيا وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر فهذه سبع

(الباب الثاني فيما لا بد للمسافر من تعلمه)

لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب . وتقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يهكركه الطعنة بالفتنة ويقول وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن وقال لأبأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأي وجه كان . وعند مالك رضي الله عنه إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردّها بهذا العيب وهو مذهب سائر أهل المدينة وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير إعلانا في المساجد والبقاع الشريفة . وقيل في تفسير قوله تعالى - ومن الناس

رخص . الرخصة الأولى : المسح على الخفين قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرا أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن (١) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسه على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا أو يوما وليلة إن كان مقبلا ولكن بخمسة شروط : الأول أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجز له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويبعد لبسه . الثاني : أن يكون الخف قويا يمكن للشئ فيه ويجوز للمسح على الخف وإن لم يكن منعلا إذ العادة جارية بالتردد فيه في النازل لأن فيه قوة على الجملة بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز للمسح عليه وكذا الجرموق الضعيف . الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الفسل خرق فإن تحرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه وللشافعي قول قديم إنه يجوز مادام يستمسك على الرجل وهو مذهب مالك رضي الله عنه ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت وللداس للنسوج يجوز للمسح عليهما كان ساترا لا يبدو بشرة القدم من خلاله وكذا المشقوق الذي يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تنس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا إلى مافوق الكمين كيفما كان فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يجز المسح عليه . الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء فإن اقتصر على غسل القدمين جاز . الخامس : أن يمسه على الموضع المأذى لحل فرض الفسل لا على الساق وأقله ما يسمى مسحا على ظهر القدم من الخف وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه والأولى أن يخرج من شبه الخلاف وأكمله أن يمسه أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (٢) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه أن يمل يده اليمنى ويضع رءوس أصابع اليمنى من يده على رءوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه ويضع رءوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمررها إلى رأس القدم . ومهما مسح مقبلا ثم سافر أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيفسل رجله ويبعد لبس الخف ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسه ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضي اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذرا من حية أو عقرب أو شوكة فقد روى عن أبي أمامة أنه قال دعا رسول الله ﷺ بغفية فلبس أحدهما فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية فقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما (٣) .

(١) حديث صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرا أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن الترمذي وصححه وابن ماجه والنسائي في الكبرى وابن خزيمة وابن حبان (٢) حديث مسحه صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله أبو داود والترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة (٣) حديث أبي أمامة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما رواه الطبراني وفيه من لا يعرف .

من يشتري لهو الحديث - قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه هو القضاء والاستماع إليه . وقيل في قوله تعالى - وأتمم سامدون - أي مغنون رواه عكرمة عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وهو القضاء بلفظة حمير يقول أهل اليمن سمع فلان إذا غنى وقوله تعالى - واستغفر من استغفرت منهم بصوتك - قال مجاهد الغناء والزامير . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تقى » وروى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إيمانيت عن صوتين فاجترن صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة » وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر وإنما يعذر الماء بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لومشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث وهو البعد القدي لا يعتاد أهل المنزل في ترددهم لقضاء الحاجة التردد إليه وكذا إن نزل على الماء عدواً أو سبغ فيجوز التيمم وإن كان الماء قريباً وكذا إن احتاج إليه لمعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم وكذا إن احتاج إليه للعطش أحد رفاقه فلا يجوز الوضوء ويلزمه بذله إما بشئ أو بغير شئ ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرققة أو لحم أو لبل قثيت يجمعه به لم يجز له التيمم بل عليه أن يجتري بالقثيت اليابس ويترك تناول الرقعة ومهما وهب له الماء وجب قبوله وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من النة وإن بيع بشئ الثلث لزمه الشراء وإن بيع بغيره لم يلزمه فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جاوز الوصول إليه بالطلب وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفقيش الرحل وطلب البقايا من الأواني والطاهر فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلى بالتيمم في أول الوقت فإن العذر لا يوثق به وأول الوقت رضوان الله . تيمم ابن عمر رضى عنهما قليل له أتتيمم وجدرا ن للدينة تنظر إليك ؟ فقال أو أبقى إلى أن أدخلها ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء وإذا وجدته قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيدا طيبا عليه تراب يشور منه غبار وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما ضربة فيمسح بهما وجهه ويضرب ضربة أخرى بعد نزع الخاتم وفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرققيه فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يقتفل ماشاء بذلك التيمم وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية فلا يصلى فريضتين إلا بتيممين ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم ولينو عند مسح الوجه استباحة الصلاة ولو وجد من الماء ما يكفي بعض طهارته فليستعمله ثم ليتيمم بعده تيمما تاما . الرخصة الثالثة في الصلاة المفروضة القصير وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والمساء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة : الأول : أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فلا يظهر لزوم الإتمام . الثاني : أن ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام . الثالث : أن لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم فإن فعل لزمه الإتمام بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام وإن يقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا تخفى فليكن متحققا عند النية وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر لم يضره ذلك لأن النيات لا يطلع عليها وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح وحده السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعا معينا ولا يصير مسافرا ما لم يفارق عمران البلد ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شئ نسيه لم يترخص أن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز عمران وان لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافرا بالانزعاج والخروج منه . وأما نهاية السفر فأحد أمور ثلاثة : الأول : الوصول إلى عمران من البلد الذي عزم على الإقامة به . الثاني : العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعدا إما في بلد أو في صحراء . الثالث : صورة الإقامة وإن

قال ما غنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال الغناء ينبت النفاق في القلب وروى أن ابن عمر رضى الله عنه مرة عليه قوم وهم يحرمون وفيهم رجل يتغنى فقال ألا لا سمع الله لكم ألا لا سمع الله لكم وروى أن إنسانا سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال أنهالك عنه وأكرهه لك قال أحرام هو ؟ قال انظر يا ابن أخي إذا ميز الله الحق والباطل في أيهما يجعل الغناء . وقال الفضيل بن عياض الغناء رقية الزنا . وعن الضحاك الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب وقال بعضهم : إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم الروعة وإنه لينوب عن الحجر

لمنعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ولكنه يتعوق عليه ويتأخر فله أن يترخص وإن طالت المدة على أقيس القولين لأنه مزرع بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع ازعاج القاب ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالا أو غيره ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاءه ثلاثة أيام أو لغيره إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد (١) وظاهر الأمر أنه لو تبادى القتال لتبادى ترخصه إذ لا معنى للتقدير ثمانية عشر يوما والظاهر أن قصره كان لكونه مسافرا لا لكونه غازيا مقاتلا هذا معنى القصر ، وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين كل مرحلة ثمانية فراسخ وكل فرسخ ثلاثة أميال وكل ميل أربعة آلاف خطوة وكل خطوة ثلاثة أقدام ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منهما ولا هاربا من مالكة ولا تكون للمرأة هاربة من زوجها ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ولا يكون متوجها في قطع طريق أو قتل إنسان أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم أو سعى بالقسادين المسلمين . وبالجمله فلا يسافر الإنسان إلا في غرض والغرض هو المحرك فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخص وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة ولو كان له باعثن أحدها مباح والآخر محظور وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلا بتحريكه ولكن لا عمالة يسافر لأجله فله الترخص والتصوفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف والمختار أن لهم الترخص . الرخصة الرابعة : الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما : فذلك أيضا جائز في كل سفر طويل مباح وفي جوازه في السفر القصير قولان ، ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقيم وعند الفراغ يقيم للعصر ويحدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة فإن قدم العصر لم يجز وإن نوى الجمع عند التحريم بصلاة العصر جاز عند الزنى وله وجه في القياس إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع جوز الجمع وهذا جمع وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها وأما الظهر فجاء على القانون ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصلحها بعد الفراغ من العصر إما راكبا أو مقبلا لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لا تقطعت الواوالة وهي واجبة على وجهه ولو أراد أن يقيم الأربع السنونة قبل الظهر والأربع السنونة قبل العصر فليجمع بينهما فيصلي سنة الظهر أولا ثم سنة العصر ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الغرض ولا ينبغي أن يهمل النوافل في السفر فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح لاسيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الرحالة كي لا يتعوق عن الرقعة بسببها وإن أخر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر

(١) حديث قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلح إلا ركعتين وللبخاري من حديث ابن عباس أقام بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة ولأبي داود سبعة عشر بتقديم السنين وفي روايته خمسة عشر .

ويفعل ما يفعل المسكر وهذا الذي ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع الموزون يفيق بالفناء والأوزان ويستحسن صاحب الطبع عند الباع ما لم يكن يستحسنه من الفرقة بالأصابع والتصفيق والرقص وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل . وروى عن الحسن أنه قال : ليس الهدف من سنة المسلمين . والذي شغل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع الشعر لا يدل على إباحة الفناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منشور فحسنة حسن وقيده قبيح وإعنا يصير غناء بالألحان وإن أنصف المنصف وتذكر في اجتماع أهل الزمان وقعود المغنى بدفه والمشبب بشبابته وتصور في نفسه هل وقع مثل

بعد العصر في الوقت المكروه لأن ماله سبب لا يكره في هذا الوقت وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر وإذا قدم أو أخر بعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويغتم الجميع بالوتر وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جمعا فهو نية الجمع لأنه إنما يغلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر وذلك حرام والعزم عليه حرام وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصيا لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا في السفر بين الصلاتين ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب ولذلك يتقدم أن لا تشترط للوالة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر أما إذا قدم العصر على الظهر لم يحز لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتا للعصر إذ يمد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره وعذر للطرع يجوز للجمع كعذر السفر وترك الجمعة أيضا من رخص السفر وهي متعلقة أيضا بفرائض الصلوات ولو نوى الإقامة ببدان صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر ومضى إنما كان عجزنا بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر . الرخصة الخامسة : التنفل راكبا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته (١) وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة وليس على التنفل راكبا في الركوع والسجود إلا الإيماء وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فانه قادر عليه . وأما استقبال القبلة فلا يجب لافي ابتداء الصلاة ولا في دوامها ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة فليكن في جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها في صوب الطريق لتكون له جهة ثبت فيها فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة ولو حرفها ناسيا وقصر الزمان لم تبطل صلاته وإن طال ففیه خلاف وإن جمعت به الدابة فاحرفت لم تبطل صلاته لأن ذلك مما يكثر وقوعه وليس عليه سجود سهو إذا لم يحج غير منسوب إليه بخلاف ما لو حرف ناسيا فانه يسجد للسهو بالإيماء . الرخصة السادسة : التنفل للقماش جائز في السفر ويومئ بالركوع والسجود ولا يبعد للشبهة لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الركوع لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلا للقبلة لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه بخلاف الركوع فإن في تحريف الدابة وإن كان النسيان يده نوع عسر وربما تكرر الصلاة فيطول عليه ذلك ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمدا فإن فعل بطلت صلاته بخلاف ما لو وطئت دابة الركبة نجاسة وليس عليه أن يشوش الثوب على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تغلو الطريق عنها غالبا وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه في التنفل . الرخصة السابعة : الفطر وهو في الصوم فله مسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقبلا ثم سافر فعليه أتمام ذلك اليوم وإن أصبح مسافرا صائما . ثم أقام فعليه الأتمام وإن أقام مفطرا فليس عليه الإمساك بقية النهار وإن أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد والصوم أفضل من الفطر والقصر أفضل من الأتمام للخروج عن شبهة الخلاف ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فانه في عهدة القضاء وربما يعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته إلا إذا كان الصوم يضربه فالأفطار أفضل . فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي القصر والفطر والسج ثلاثة أيام وتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا أو قصيرا

هذا الجالس والمشي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل استحضروا قوالا وقصدوا مجتمعين لاسماعه لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولو كان في ذلك فضيلة تطالب ما أهموها فمن يشير بأنه فضيلة تطالب ويجمع لها لم يحظ بدوق معرفة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين واستروح إلى استحسان بعض للتأخيرين ذلك وكثيرا ما يغلط الناس في هذا وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالتأخيرين وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديم أشبه بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من الفقهاء يتسرع عند قراء القرآن

(١) حديث كان يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة متفق عليه من حديث ابن عمر .

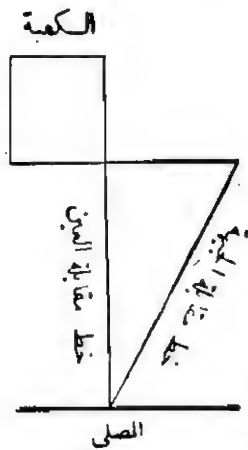
وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتييم وأما صلاة النافلة ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازها في القصير والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل وأما صلاة الغرض راكبا وماشيا للخوف فلا تتعلق بالسفر وكذا أكل الميتة وكذا أداء الصلاة في الحال بالتييم عند فقد الماء بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها . فان قلت فالعلم بهذه الرخص هل يجب على السافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك . فاعلم أنه إن كان عازما على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكبا وماشيا لم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك لأن الترخص ليس بواجب عليه ، وأما علم رخصة التيمم فيلزمه لأن فقد الماء ليس إليه إلا أن يسافر على شاطئ نهر يوثق ببقاء مائه أو يكون معه في الطريق عالم بقدر على استغثائه عند الحاجة فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه عالم فيلزمه التعلم لا محالة . فان قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم يجب وربما لا يجب . فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر ويلزمه تعلم الناسك لا محالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه لأن الأصل الحياة واستمرارها وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا غالبا على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة كعلم للناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته فلا يحمل إذن للسافر أن ينشئ السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص فانه إذا لم يعلم القدر الجائر لرخصة السفر لم يكن له الاقتصار عليه . فان قلت إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يفرضه وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة وهي غير واجبة فكيف يكون علمها واجبا . فأقول من الواجب أن لا يصلّي التنفل على نصت الفساد فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام فعليه أن يتعلم ما يحترزه عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع في المحذور فهذا بيان علم ما خفف عن السافر في سفره .

(القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر)

وهو علم القبلة والأوقات وذلك أيضا واجب في الحضر ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يخيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعى الوقت فيخيه عن طلب علم الوقت والسافر قد تشبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام : أرضية كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار وهوائية كالأستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها وصماوية وهي النجوم فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على عین المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه فليعلم ذلك وليفهّمه وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهّم ذلك ولنا تقدير على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر وأما السماوية فادلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية أما النهار فبالشمس فلا بد أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه أي بين الحاجبين أو على العين اليمنى أو اليسرى أو على الجبين ميلا أكثر من ذلك فإن الشمس لاتعدو في البلاد الشمالية هذه للواقع فإذا حفظ ذلك فهما عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر فانه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه وأما القبلة وقت الغروب فانها تدرك بموضع الغروب وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن عین المستقبل أو هي مائلة إلى وجهه أو قفاه وبالشفق أيضا تعرف القبلة للشاء الأخيرة وبمشرق الشمس تعرف القبلة .

بأشياء من غير غلبة
قال عبد الله بن عروة
ابن الزبير قلت لجدي
أسماء بنت أبي بكر
الصدّيق رضي الله عنهما
كيف كان أصحاب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يفعلون إذا
قرئ عليهم القرآن
قالت كانوا كما وصفهم
الله تعالى تدمع أعينهم
وتشعر جلودهم قال
قلت إن ناسا اليوم إذا
قرئ عليهم القرآن خروا
أحسهم منشا عليه
قالت أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم .
وروى أن عبد الله بن
عمر رضي الله عنهما
مرّ رجل من أهل
العراق يتساقط قال
ما هذا ؟ قالوا إنه إذا
قرئ عليه القرآن
وسمع ذكر الله تعالى
سقط فقال ابن عمر
رضي الله عنهما إنا
لنخشى الله وما نسقط
إن الشيطان يدخل
في جوف أحسهم
ما هكذا كان يصنع

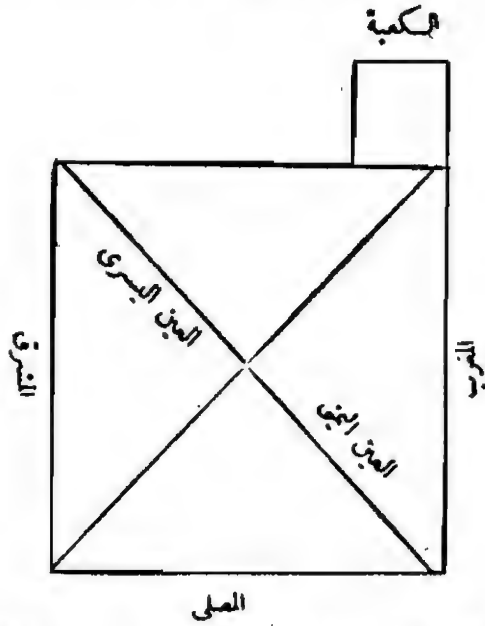
لصلاة الصبح فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف فان المشرق والغارب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين فلا بد من تعلم ذلك أيضا ولكن قد يصل الغرب والعشاء بعد غيوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به فعليه أن يراعى موضع القطب وهو الكوكب الذي يقال له الجدى فانه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل أو على منكبه الأيمن من ظهره أو منكبه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة وفي البلاد الجنوبية كاليمين وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل فيتعلم ذلك وما عرفه في بلده فليعمل عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر فان السافة إذا بدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشرق والغارب إلا أن يتسنى في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصرة أو راقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك فهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعمل عليها فان بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضى وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء وقد أورد الفقهاء خلافا في أن المطلوب جهة الكعبة أو عيناها وأشكال معنى ذلك على قوم إذ قالوا إن قلنا إن المطلوب العين فمق يتصور هذا مع بعد الديار وإن قلنا إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج يبدنه عن موازاة الكعبة لاخلاف في أنه لا تصح صلاته وقد طولوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة فمعنى مقابلة العين أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان وهذه صورتها والخط الخارج من موقف للصلى بقدر أنه خارج من بين عينيه فهذه صورة مقابلة العين :



وأما مقابلة الجهة فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من عيناها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة فانه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعيناها وحد تلك الجهة ما يقع بين خطين يوجههما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين فيلتقي طرفاهما في داخل الرأس

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجله ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فان رضى بنفسه فهو صادق وليس هذا القول منهم إنكارا على الإطلاق إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين ولكن لتصنع التوهم في حق الأكثرين فقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء ويكون من البعض لقصور علم وعقامة جهل ممزوج بهوى يلم بأحدهم يسير من الوجد فينبهه بزيادات جهل أن ذلك يضر دينه وقد لا يجهل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا تخرج الوجد عن الحد الذى

بين العينين على زاوية قائمة لما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة وسعة ما بين الخطين تزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة وهذه صورته :



ينبغي أن يقف عليه
وهذا يبين الصدق .
قل أن موسى عليه
السلام وعظ قومه
فشق رجل منهم قميصه
فقال لموسى عليه
السلام قل لصاحب
القميص لا يشق قميصه
ويشرح قلبه . وأما
إذا انضاف إلى السماع
أن يسمع من أمرد
فقد توجهت الفتنة
وتعين على أهل الديانات
انكار ذلك . قال بركة
ابن الوليد كانوا
يكرهون النظر إلى
الغلام الأمرد الجليل .
وقال عطاء كل نظرة
يهواها القلب فلا خير
فيها وقال بعض التابعين
مأناً أخوف على الشاب
التائب من السبع
الضاري خوفاً عليه
من الغلام الأمرد يقعد
إليه . وقال بعض
التابعين أيضاً اللوطة
على ثلاثة أصناف صنف
ينظرون وصنف
يصاغنون وصنف
يعملون ذلك العمل

فاذا فهم معنى العين والجهة فأقول الذي يصح عندنا في الفتوى أن المطلوب الدين إن كانت الكعبة
بما يمكن رؤيتها وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيمكن استقبال الجهة . فأما طلب
العين عند المشاهدة فجميع عليه وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة
وفعل الصحابة رضي الله عنهم والقياس . أما الكتاب فقوله تعالى - - - - - . وأما السنة فما روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والشرق قبلة (١) » والمغرب يقع على عين أهل
المدينة وللشرق على يسارهم فجعل رسول الله ﷺ جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لاتفق بما بين
الشرق والمغرب وإنما بقي بذلك جهتها ، وروى هذا اللفظ أيضاً عن عمر وابنه رضي الله عنهما .
وأما فعل الصحابة رضي الله عنهم فما روى أن أهل مسجد قباء كانوا في صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين
لبيت المقدس مستدبرين الكعبة لأن المدينة بينهما ، قيل لهم الآن قد حوت القبلة إلى الكعبة
فاستداروا في أثناء الصلاة من غير طلب دلالة (٢) ولم ينكر عليهم ومضى مسجدهم ذا القبليتين ومقابلة
العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية بطول النظر فيها فكيف أدركوا ذلك على البديهة
في أثناء الصلاة وفي ظلمة الليل ، ويدل أيضاً من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفي سائر بلاد
الاسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر
المهندسي . وأما القياس فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد في جميع أقطار الأرض
ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها بل ربما يزجر عن التعمق في علمها

(١) حديث ما بين للشرق والمغرب قبلة الزمى وصححه والنسائي وقال منكر وابن ماجه من حديث
أبي هريرة (٢) حديث إن أهل قبا كانوا في صلاة الصبح مستقبلين لبیت المقدس فقيل لهم ألا إن
القبلة قد حوت إلى الكعبة فاستداروا الحديث مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن
عمر مع اختلاف .

فكيف ينبنى أمر الشرع عليها فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة . وأما دليل صحة الصورة التي صورناها وهو حصر جهات العالم في أربع جهات فقوله عليه السلام في آداب قضاء الحاجة « لا تستقبلوها ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا » (١) وقال هذا بالمدينة والشرق على يسار المستقبل بها والغرب على يمينه فنهى عن جهتين ورخص في جهتين ومجموع ذلك أربع جهات ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض في ست أو سبع أو عشر وكيفما كان فما حكم الباقي بل الجهات ثبتت في الاعتقادات بناء على خلقه الانسان وليس له إلا أربع جهات قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الانسان في ظاهر النظر أربعة والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أدلة القبلية فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة في المشرق ثم يعرف ذلك أيضا في موقف الصلي ثم يقابل أحدها بالآخر ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة والشرع غير مبني عليها قطعا فاذن القدر الذي لا بد من تعلمه من أدلة القبلية موقع المشرق والغرب في الزوال وموقع الشمس وقت العصر فهذا يسقط الوجوب . فان قلت فلو خرج للمسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى . فأقول إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلية موثوق بعد التمهيد وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصى وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره فان تعلم هذه الأدلة واستنهم عليه الأمر بنعيم مظلم أو ترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده فليعلم أن يصلي في الوقت على حسب حاله ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ والأعمى ليس له إلا التقليد فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا في القبلية وإن كانت القبلية ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل بخبره بذلك في حضر أو سفر وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلية حيث يحتاج إلى الاستدلال كالمسافر في الليل أن يقيم ببلدة ليس فيها قومه عالم بتفصيل الشرع بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلم دينه وكذا إن لم يكن في البلد إلا قومه فاسق فليعلم الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى كما في الرواية وإن كان معروفا بالفتوة مستور الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين فان رآه لا بسا للحرير أو ما يغاب عليه الابريس أو راكبا للفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله فليطلب غيره وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إدارا أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة . وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال فان كل شخص لا بد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب فليقيم للمسافر في موضع أو لينصب غودا مستقيما وليعلم على رأس الظل ثم لينظر بعد ساعة فان رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر . وطريقه في معرفة ذلك أن ينظر في البلد وقت أذان المؤذن المتمد ظل قامته فان كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه ففهما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى فان زاد على ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف وإن كان أول الشتاء فينقص كل يوم وأحسن ما يعرف به ظل الزوال واليزان فليستصحبه المسافر وليتعلم اختلاف

(١) حديث لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا متفق عليه من حديث أبي أيوب.

قد تعيين على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم فان التصوف صدق كله وجد كله . يقول بعضهم التصوف كله جد فلا تخاطبوه بشيء من الهزل فهذه الآثار دلت على احتساب السماع وأخذ الحذر منه والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه وتزنيه عن الكراهة التي ذكرناها وقد فصلنا القول وفرقا بين القصاص والغناء وغير ذلك . وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

[الباب الرابع والعشرون في القول في السماع ترفعا واستغناء]

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فتدفق لم يفقد لم يجد وإنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقيائه فلو تمحض عبدا

الطل به في كل وقت وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفري موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصير بين عينه مثلاً إن كانت كذلك في البلد . وأما وقت المغرب فيدخل بالمغرب ولكن قد تعجب الجبال المغرب عنه فينبغي أن ينظر إلى جانب الشرق لهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح قد دخل وقت المغرب . وأما العشاء فيعرف بنسوبة الشفق وهو الحمرة فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرها فإن ذلك يكون بعد غيوبة الحمرة . وأما الصبح فيدعى في الأول مستطيلاً كذب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان ثم يظهر رياض معترض لا يمر إدراكه بالعين لظهوره فهذا أول الوقت قال **عليه السلام** « ليس الصبح هكذا وجمع بين كفيه وإنما الصبح هكذا ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما (١) » وأشار به إلى أنه معترض وقد يستدل عليه بالمنازل وذلك تقرب لتحقيق فيه بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضاً لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمزتين وهذا تقرب ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها وبعضها منتصب فيطول زمان طلوعها ويختلف ذلك في البلاد اختلافاً يطول ذكره فم تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمزتين أصلاً وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يقين أنه الصبح الكاذب وإذا بقي قريب من مزتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب وهو مبداً يظهر البياض وانتشاره قبل الساعة عرضه فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم السجود ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك فإذا تحقق صلى ولو أراد مزيد أن يقدر على التحقيق وقتاً معيناً يشرب فيه متسحراً ويقوم عفيه ويصلي الصبح متصلاً به لم يقدر على ذلك فليس معرفة ذلك في قوة البشر أصلاً بل لابد من مهلة للتوقف والشك ولا اعتماد إلا على العيان ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشراً في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت وبدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر (٢) » وهذا صريح في رعاية الحمرة قال أبو عيسى وفي الباب عن عدي بن حاتم وأبي ذرّة وممرة بن جندب وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم وقال ابن عباس رضي الله عنهما كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعاً قال صاحب التريين أي مستطيلاً فإذا لا ينبغي أن يعول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادئ الحمرة وإنما يحتاج السافر إلى معرفة الأوقات لأنه قديماً بالهالة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه الزول أو قبل النوم حتى يسرع فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يقين فتسمع نفسه بفوات

(١) حديث ليس الصبح هكذا وجمع كفه وإنما الصبح هكذا ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار به إلى أنه معترض ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبابتين ولأحمد من حديث طلق بن علي : ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه يعترض الأحمر وإسناده حسن (٢) حديث طلق بن علي كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر قال المصنف رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال حسن غريب وهو كما ذكره ورواه أبو داود أيضاً .

لتحضر حراً ومن
تحمض حراً أفلت من
شرك الوجد فترك
الوجد يسطاد البقايا
ووجود البقايا لتخلف
شيء من المطايا . قال
الحصري رحمه الله
ما أدون حال من يحتاج
إلى مزعج يزعبه
فالوجد بالسباع في حق
الحق كالوجد بالسباع
في حق البطل من حيث
النظر إلى انزعاجه
وتأثير الباطن به وظهور
آثره على الظاهر وتغييره
للبعد من حال إلى
حال وإنما يختلف الحال
بين الحق والبطل أن
البطل يجد لوجود
هوى النفس والحق
يجد لوجود إرادة
القلب ولهذا قيل
السباع لا يحدث في
القلب شيئاً وإنما
يعرك ما في القلب فمن
متعلق بباطنه خير الله
يعركه السباع فيجد
بالهوى ومن متعلق
باطنه بمحبة الله يجد
بالإرادة إرادة القلب

فضيلة أول الوقت ويتجنب كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات فان الشكل أوائل الأوقات لا أوساطها .

﴿ كتاب آداب السماع والوجد ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته . واسترقى همهم وأرواحهم بالشوق إلى لقاءه ومشاهدته . ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته . حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى . وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى . فلم يروا في الكونين شيئا سواه . ولم يدركوا في الدارين إلا إياه . إن عنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى الصور بصائرهم . وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم . وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مبهيج لم يكن أزعاجهم إلا إليه . ولا طربهم إلا به . ولا قلقهم إلا عليه . ولا حزنهم إلا فيه . ولا شوقهم إلا إلى ماله . ولا ابتعائهم إلا له . ولا تردد هم إلا حواله . فنه سماعهم وإليه استماعهم . قد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم . أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته . واستخلصهم من بين أصفياه وخاصته . والصلاة على محمد المبعوث برسائه وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته . وسلم كثيرا .

[أما بعد] فان القلوب والسرائر . خزائن الأسرار ومعادن الجواهر . وقد طويت فيها جواهرها كاطويت النار في الحديد والحجر . وأخفيت كما أخفى الماء تحت التراب والدر . ولا سبيل إلى استئارة خفاياها إلا بقوادح السماع . ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع . فالنغمات للوزونة للستنة تخرج مافيها . وتظهر محاسنها أو مساوئها . فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه . كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه . فالسماع للقلب محك صادق . ومقياس ناطق . فلا يصل نفس السماع إليه . إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكائنها . وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها . وجب شرح القول في السماع والوجد وبين مافيها من القوائد والآفات . وما يستحب فيها من الآداب والهيئات . وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو الباحات . ونحن نوضح ذلك في بابين . الباب الأول : في إباحة السماع . الباب الثاني : في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزق وعزق الثياب .

(الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه)

(بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وعزيمه)

اعلم أن السماع هو أول الأمر ويشمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويشمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول وننقل فيه الأقاويل العربية عن المذهب فيه ثم نذكر الدليل على إباحته ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه ، فأما نقل المذهب فقد حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألقاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه وقال الشافعي رحمه الله

(كتاب السماع والوجد)

(الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحته)

فالمبطل
بجواب النفس والمحق
بجواب بجواب القلب
وحجاب النفس حجاب
أرضي ظماني وحجاب
القلب حجاب سماوي
نوراني ومن لم يفقد
بدوام التحقق بالشهود
ولا يشتر بأذيال الوجود
فلا يسمع ولا يجد
ومن هذه اللطافة قال
بعضهم الوجد نار دم
كل لا ينفذ في قول
ومر تمشاد الدينوري
رحمه الله بقوم فهم
قوال ظنا رأوه
أسكوا فقال ارجعوا
إلى ما كنتم فيه فوافقه
لوجعت ملاهي الدنيا
في أذن ما شغل همي ولا
شغى من بابي فالوجد
صراخ الروح المبلى
بالنفس تارة في حق
البطل وبالقلب تارة
في حق الحق فثار
الوجد الروح الروحاني
في حق الحق والمبطل
ويكون الوجد تارة
من فهم المعاني يظهر
وعارة من مجرد النغمات

في كتاب آداب القضاء إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفیه ترد شهادته وقال القاضي أبو الطيب استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه ترد شهادته وقال وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعت الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن وقال الشافعي رحمه الله ويكره من جهة الخبر اللب بالرد أكثر مما يكره اللب بشئ من اللامه ولا أحب اللب بالشرع وأكره كل ما يلعب به الناس لأن اللب ليس من صنعة أهل الدين ولا الروعة . وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم ابن سعد وحده . وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فانه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري ونقل أبو طالب السكي بإباحة السماع عن جماعة فقال سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المندوبات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا عمروان القاضي وله جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية قال وكان لطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما قال وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون قال وكيف أنكر السماع وقد أجازوه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال قد دنا ثلاثة أشياء فبأرأها ولا أرأها تردد إلا قلّة حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الديانة وحسن الإخاء مع الوفاء ورأيت في بعض الكتب هذا محكيًا بعينه عن الحرث المحاسبي وفيه ما يدل على تجوز السماع مع زهده وتواضعه وجده في الدين وتشميره قال وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع وحكى غير واحد أنه قال اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر بن داود وابن مجاهد في نظرهم فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي فقال أبو القاسم ابن بنت منيع أما جدى أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحجازة فقال ابن مجاهد لابن داود دعني أنت من أبيك وقال لابن بنت منيع دعني أنت من جدك أي شئ تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام فقال ابن داود لا قال فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده قال لا قال فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومدّ منه القصير أيحرم عليه قال أنا لم أقول شيطان واحد فكيف أقوى لشيطنين قال وكان أبو الحسن العمقلاقي الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع وصف فيه كتابا وردّ فيه على منكره وكذلك جماعة منهم صنعوا في الرد على منكره . وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام قفلت له ماتقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا فقال هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدم العلماء . وحكى عن مشاد الدينوري أنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قفلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا فقال ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتحون قلبه بالقرآن ويغتمون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال

والألحان فما كان من
قبيل للعاني تشارك
النفس الروح في السماع
في حق البطل ويشارك
القلب في حق الحق وما
كان من قبيل مجرد
النفات تتجرد الروح
للسماع ولكن في حق
البطل تسترق النفس
السمع وفي حق الحق
يسترق القلب السمع
ووجه استلذاذ الروح
النفات أن العالم
الروحاني يجمع الحسن
والجمال ووجود
التناسب في الأكواف
مستحسن قولاً وفلاً
ووجود التناسب في
الهياكل والصور
ميراث الروحانية التي
سمع الروح النفات
الليذنة والألحان
التناسب تأثر به لوجود
الجنسية ثم يتقيد ذلك
بالشرع بمصالح علم
الحكمة ورعاية الحدود
للمعبد عين المصلحة
عاجلاً وآجلاً . ووجه
آخر إنما يستلذد الروح
النفات لأن النفات بها

المحمداني الوراق وكان من أهل العلم أنه قال كنت معتكفا في جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون فأسكرت ذلك بقلبي وقلت في بيت من بيوت الله يقولون الشعر قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك فقلت في نفسي ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا حق بحق أو قال حق من حق أنا أشك فيه وقال الجنيذ تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع قليل له أن يؤتي يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك فقال لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه بالغو وقال الله تعالى - لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم - هذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحق في التقليد فهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهي وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقة وذلك بالبحث عن مدراك الخطر والإباحة كما سذكره.

(بيان الدليل على إباحة السماع)

اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على النصوص وأغنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله والقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم ومهماتهم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض لكن لستفتح ونقول قد دل النص والقياس جميعا على إباحته . أما القياس فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب فالوصف الأعم أنه صوت طيب ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بادراك ما هو مخصوص به وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فذلك النظر في البصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة وهي في مقابلة ما يكره من الألوان السكدرية القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الأتبان المستكرهة وللذوق الطعوم اللذيذة كالسومة والحلاوة والخمصة وهي في مقابلة المرارة المستبعدة وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراصة والعقل لذة العلم والعرفه وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الأصوات للدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنبق الخمر وغيرها فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها . وأما النص فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به إذ قال - يزيد في الخلق ما يشاء - قليل هو الصوت الحسن وفي الحديث « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « الله أشد أذنا للرجل

نطق النفس مع الروح بالإيمان الحق إشارة ورمزا بين المتعاشقين وبين النفوس والأرواح تماشق أصل ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكرورة الروح وللبل والتماشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع قال الله تعالى - وجعل منها زوجها ليكن إليها - وفي قوله سبحانه منها إشعار بتلازم وتلاصق موجب للاتلاف والتعاشق والنفات يستلذها الروح لأنها مناغاة بين للتعاشقين وكما أن في عالم الحكمة كونه حواء من آدم في عالم القدرة كونه النفس من الروح الروحاني فهذا التألف من هذا الأصل وذلك أن النفس روح حيواني تجنس بالقرب من الروح الروحاني وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف

(١) حديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت الترمذي في الشرائع عن قتادة وزاد قوله وكان نبيكم

الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لفينته (١) « وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام « أنه كان حسن الصوت في النباحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الاتس والجن والوحوش والطير لسماع صوته وكان يعمل في مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى زممارا من زمائر آل داود (٣) » وقول الله تعالى - إن أنكر الأصوات لصوت الخير - يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ولو جاز أن يقال إنما أيسح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزومه أن يحرم سماع صوت العنديل لأنه ليس من القرآن وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يهيم منه الحكمة والعاني الصحيحة وإن من الشعر لحكمة فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيب حسن : الدرجة الثانية النظر في الصوت الطيب الموزون فإن الوزن وراء الحسن فكيف من صوت حسن خارج عن الوزن وكم من صوت موزون غير مستطاب والأصوات للوزونة باعتبار مخارجها ثلاثة فاتها إما أن تخرج من جناد كصوت الزمير والأوتار وضرب القضيب والطلل وغيره وإما أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنديل والتمار والذات السبع من الطيور فهي مع طيبها موزونة متناسبة للطالع والقاطع فلذلك يستلزم سماعها والأصل في الأصوات تخارج الحيوانات وإما وضعت الزمير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالحنجرة وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الحنطرة التي استأثر الله تعالى باختراعها فنه تعلم الصناعات قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم صوت العنديل وسائر الطيور ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جناد وحيوان فينبغي أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختیار الآدمي كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطلل والدف وغيره ولا يستثنى من هذه إلا للامه والأوتار والزمير التي ورد الشرع بالمنع منها (٤) لا لأنها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلذ به الإنسان ولكن حرمت الخمر واقتضت ضراوة الناس بها البالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والزمير فقط وكان تحريمها من

حسن الوجه حسن الصوت ورونياء متصلا في الفيلايات من رواية قتادة عن أنس والصواب الأول قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة (١) حديث أنه أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى فيننه تقدم في كتاب تلاوة القرآن (٢) حديث كان داود حسن الصوت في النباحة على نفسه وفي تلاوة الزبور الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث لقد أوتي زممارا من زمائر آل داود قاله في مدح أبي موسى تقدم في تلاوة القرآن (٤) حديث المنع من الملهى والأوتار والزمير البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري ليسكون في أمي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمعارف صورته عند البخاري صورة التعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاماعلى . والمعارف الملهى قاله الجوهرى ولأحمد من حديث أبي أمامة إن الله أمرني أن أعق الزمير والكباريات يعني البرابط والمعارف وله من حديث قيس بن سعد بن عباد إن ربي حرم على الخمر والكوبة والفنين وله في حديث لأبي أمامة باستعمالهم الخمر وضربهم بالدفوف وكلها ضعيفة ولأبي الشيخ من حديث مكحول مرسل الاستماع إلى للملهى معصية الحديث ولأبي داود من حديث ابن عمر سمع زممارا فوضع أصبعه على أذنيه قال أبو داود وهو منكبر .

القرب من الروح
الروحاني فصارت لها
فإذا تكون النفس من
الروح الروحاني في عالم
القدرة كتنكون
حواء من آدم في عالم
الحكمة فهذا التألف
والتعاشق ونسبة
الأثونة والذكورة من
ههنا ظهر وبهذا
الطريق استطابت
الروح الثقات لأنها
مراسلات بين
للتعاشقين ومكاملة
بينهما وقد قال القائل :
تكلم منا في الوجود
عيوننا
فتحن مكوت والهوى
يشكم
فإذا استلذت الروح النعمة
وجدت النفس للملولة
بالهوى وتحركت بما
فيها لحدوث العارض
ووجد القلب للملول
بالارادة وتحرك بما فيه
لوجود العارض في
الروح :
شربنا وأهرقنا على
الأرض جرة
وللأرض من كأس
السكرام نصيب

قبل الاتباع كاحرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسواطين وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر وما من حرام إلا وله حريم يطيف به وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمي للحرام ووقاية له وحظارا مانعا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه (١) » فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر ثلاث علل : أحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب فهي سبب التذكر والذكر سبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام ولهذا العلة « نهى عن الانتباز في الزفت والحنتم والتقيير (٢) » وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها لفعي هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار لذة في التذكر إذ لا لذة في رؤية القنية وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهى عن السماع لحصول هذه العلة فيه . الثالثة الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين وضربها عادة الخشنيين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيح والغزو وبهذه العلة يقولوا لاجتماع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه وصبوا فيها السكجيين ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم فيأخذون من الساق ويشربون ويعجب بعضهم بعضا بكلماتهم للعادة بينهم حرم ذلك عليهم وإن كان للشروب مباحا في نفسه لأن في هذا تشبها بأهل الفساد بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء التهر لاعتقاد أهل الصلاح ذلك فيهم فبهذه العلة حرم اللزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيح وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن في معناها فبقي على أصل الاباحة قياسا على أصوات الطيور وغيرها بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلح حرام أيضا وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحریمها مجرد اللذة الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد قال الله تعالى - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر كما سيأتي في العوارض المحرمة . الدرجة الثالثة : الموزون والفهوم وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه مازاد إلا كونه مفهوما والسلام الفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم ثبوته ونظمه وحرم النطق به سواء كان بالألحان أو لم يكن والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال الشعر كلام حسن وقبيح قبيح ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت والألحان جاز إنشاده مع الألحان فإن أفراد الباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا

ففس البطل أرض
لسماء قلبه وقلب الحق
أرض لسماء روحه
فالبائع مبلغ الرجال
والتجوهر التجرد من
أعراض الأحوال خلع
فعلى النفس والقلب
بالوادي المقدس
وفي مقعد صدق عند
ملك مقتدر استقر
وعرس وأحرق بنور
إليان أجرام الألحان
ولم تصغ روحه إلى
مناغة عاشقه لشغله
بمطالعة آثار محبوبه
فألهام الشناق لايسعه
كشف ظلامه العشاق
ومن هذا حاله لا يحركه
السماع رأسا وإذا
كانت الألحان لا تلحق
هذا الروح مع لطافة
مناجاتها وحق لطيف
مناغاتها كيف يلحقه
السماع بطريق فهم
العاني وهو أكتف
ومن يضعف عن حمل
لطيف الاشارات كيف
يتحمل ثقل أعباء
العبارات وأقرب من
هذا عبارة تقرب إلى :

(١) حديث إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه تقدم في كتاب الحلال والحرام .

(٢) حديث التهمي عن الانتباز في الحنتم والزفت والتقيير متفق عليه من حديث ابن عباس .

ومهما انضم مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تضمنه الآحاد ولا محظور ههنا وكيف
يشكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقال عليه السلام « إن
من الشعر لحكمة » وأنشدت عائشة رضي الله عنها :

ذهب الدين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
الدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما وكان بها وباء قتل يا أبت كيف تجددك وبإبلال كيف
تجددك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شركائه

وكان بلال إذا أقلت عنه الحمى برفع فقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل آيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم حبب إلينا
الدينة كحبنا مكة أو أشد » وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد
وهو يقول : هذا الحمال لأحمال خير هذا أبر ربنا وأطهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة (٢)

(١) حديث إنشاد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث أبي هريرة
أن عمر بن الخطاب وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك
الحديث ، ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسان :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء القصيدة

وإنشاد حسان أيضا :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وللبخاري إنشاد ابن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع الأيات

(٢) حديث إن من الشعر لحكمة البخاري من حديث أبي بن كعب وتقدم في العلم

(٣) حديث عائشة في الصحيحين لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال

الحديث وفيه إنشاد أبي بكر :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شركائه

وإنشاد بلال : ألا ليت شعري هل آيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدون لي شامة وطفيل

قلت : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند

مسلم (٤) حديث كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الحمال لأحمال خير هذا أبر ربنا وأطهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

الأنفهام : الوجد والورد

يرد من الحق سبحانه

وتعالى ومن يريد الله

لا يقنع بما من عند الله

ومن صار في محل القرب

متحققا لا يليه ولا

يحركه ما ورد من عند

الله فالوارد من عند

الله مشعر يبعد

والقريب واجد في

يصنع بالوارد والوجد

نار والقلب للواجد

ربه نور والنور لالطف

من النار والكثيف

غير مسيطر على

اللطيف فإدام الرجل

البالغ مستمرا على

جادة استقامته غير

منحرف عن وجه

معهوده بنوازع

وجوده لا يدركه الوجد

بالسمع فان دخل عليه

فتور أو عاقه قصور

بدخول الابتلاء عليه

من الملبى المحسن يتألف

الحسن من تفريق صور

الابتلاء أي يدخل

عليه وجود يدركه

الواجد لعود العبد

عند الابتلاء إلى حجاب

وهذه في الصحيحين وكان النبي صلى الله عليه وسلم « يضع لسان منبراً في السجدة يقوم عليه قائماً
يفأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله
يؤيد حسان روح القدس ما نافع أو فآخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) » ولما أنشدته النابغة
شعره قاله صلى الله عليه وسلم « لا يفيض الله فاك (٢) » وقالت عائشة رضي الله عنها « كان أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم (٣) » وعن عمرو بن الشريد عن
أبيه قال « أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك
يقول هيه هيه ثم قال إن كاد في شعره ليسلم (٤) » وعن أنس رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يحذيه في السفر وإن أنجشة كان يحذو بالنساء والبراء بن مالك كان يحذو بالرجال فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير (٥) » ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة
العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضي الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدي
بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره بل ربما كانوا يلتمسون ذلك
تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى

قال المصنف والبيتان في الصحيحين . قلت البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية
عروة مرسل وفي البيت الثاني أيضاً إلا أنه قال الأجر بدل العيش تمثل بشعر رجل من المسلمين
لم يسم إلى قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام
غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه
وسلم معهم يقولون :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار وللهاجرة

وليس البيت الثاني موزوناً وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بلفظ : فبارك في الأنصار
والهاجرة . وفي رواية فاغفروني رواية لمسلم فأكرم ولهما من حديث سهل بن سعد فاغفروا للمهاجرين
والأنصار (١) حديث كان يضع لسان منبراً في السجدة يقوم عليه قائماً يفأخر عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أو ينافح الحديث البخاري تعليقاً وأبو داود والترمذي والحاكم متصلان من حديث عائشة قال
الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح الإسناد وفي الصحيحين أنها قالت إنه كان ينافح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم (٢) حديث أنه قال للناطقة أنشد شعراً لا يفيض الله فاك البغوي في معجم الصحابة
وابن عبد البر في الاستيعاب بأسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال أنشدت النبي ﷺ :
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لترجو فوق ذلك مظهرنا الآيات
وزواه البرار بلفظ : علونا العباد عفة ونكرما . الآيات وفيه فقال أحسنت يا أبا ليلى لا يفيض
الله فاك وللحاكم من حديث خريم بن أوس سمعت العباس يقول يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك
فقال قل لا يفيض الله فاك فقال العباس :

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق الآيات

(٣) حديث عائشة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم
الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة (٤) حديث الشريد أنشدت
النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول هيه هيه الحديث
رواه مسلم (٥) حديث أنس كان يحذيه في السفر وإن أنجشة كان يحذو بالنساء وكان البراء بن مالك
يحذو بالرجال الحديث أبو داود والطائلي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك

القلب فمن هومع الحق
إذا زل وقع على القلب
ومن هومع القلب إذا
زل وقع على النفس
سمعت بعض مشايخنا
يعكف عن بعضهم أنه
وجد من السماع قليل
له أين حاله من هذا
فقال دخل على داخل
أوردني هذا للورد .

قال بعض أصحاب سهل
صحبته سهلاً سنين
مارأيت تغيير عند
شيء كان يسمعه من
الذكر والقرآن فلما
كان في آخر عمره قرئ
عنده - فالיום لا يؤخذ
منكم فدية - فارتعد
وكاد يسقط فستأثرت عن
ذلك قال نعم لحقني
ضعف وسمع مرقع الملك
يومئذ الحق للرحمن -
فاضطرب فسأله ابن سالم
وكان صاحبه قال قد
ضعفت قليل له إن
كان هذا من الضعف
فما القوة قال القوة
أن الكامل لا يرد
عليه وارد إلا

بأصوات طيبة وألحان موزونة . الدرجة الزاوية : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهييج لما هو الغالب عليه فأقول قه تعالى سر في مناسبة بالنغمات للوزونة للأرواح حتى إنها تؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويضطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يكرهه إلى الاصغاء إليه والجل مع بلاده طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحوال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في معاهه للسافات الطويلة وينبت فيه من النشاط ما يسكره ويولعه فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت الهاميل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمد أعناقها وتضفي إلى الحادى ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تترعزع عليها أحمالها وعاملها وربما تلف نفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها قد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري للعروف بالرقى رضى الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبائه فرأيت في الحباء عبدا أسود مقيدا ب قيد ورأيت جمالا قد مات بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو نازل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لي الفلام أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر فصاه يحل القيد عنى قال فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد فقال إن هذا العبد قد أقرني وأهلك جميع مالى فقلت ماذا فعل فقال إن له سوتا طيبا وإنى كنت أعيب من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحمدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نعمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبت لك قال فأجبت أن اسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحمدو على جمل يستقى للماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقفت أنا على وجهي لما أظن أنى سمعت قطصوتا أطيبت منه فاذن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكم ما في القلب قال أبو سليمان السماع لا يجمع في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه فالترنم بالكلمات المسجدة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع . الأول : غناء الحجيج فانهم أولا يدورون في البلاد بالطلب والشاهين والقناء وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والقام والحطيم وزمزم وسائر للشاعر ووصف البادية وغيرها وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرائه إن كان ثم شوق حاصل أو استتارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلًا وإذا كان الحج قرية والشوق إليه محمودا كان التشويق إليه بكل ما يشوق محمودا وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه في الوعظ ويؤثره بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على تقلم الشعر فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القاب فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقته فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير وكل ذلك جائز ما لم

يبتلغه بقوة حاله فلا يفسره الوارد . ومن هذا القبيل قول أبي بكر رضى الله عنه هكذا كنا حتى قست القلوب لما رأى الباكي يسكى عند قراءة القرآن وقوله قست أى تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره لما استغربه حتى تغير والواجد كالمتغرب ولهذا قال بعضهم حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فكذا فى السماع كقبلى السماع . وقد قال الجيد لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم وفضل العلم أهم من فضل الوجد . وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله أنه كان يقول البكاء من بقية الوجود وكل هذا يقرب البعض من البعض فى المعنى لمن عرف الإشارة فيه وفهم وهو عزيز الفهم عزيز الوجود . واعلم أن

يدخل فيه الزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار ، نعم إن قصده تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج فهذا يحرم عليه الخروج فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع وبكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق . الثاني : ما يستأبه الغزاة لتحريض الناس على الفزو وذلك أيضاً مباح كما للحاج ولكن ينبغي أن يخالف أشرارهم وطرق ألعانهم أشرار الحاج وطرق ألعانهم لأن استئارة داعية الفزو بالتشجيع وتحريك الفيظ والفضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه بالأشعار للشجعة مثل قول المتنبي :

فإن لا نمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الدل غير مكرم

وقوله أيضاً :

رى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

وأمثال ذلك وطرق الأوزان للشجعة تخالف الطرق للشوكة وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الفزو ومندوب إليه في وقت يستحب فيه الفزو ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الفزو . الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء والفرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة وذلك إذا كان بلفظ زشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس وذلك مباح في كل قتال مباح ومندوب في كل قتال مندوب ومحظور في قتال المسلمين وأهل الدمة وكل قتال محظور لأن تحريك الدواعي إلى المظهور محظور وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرها ولذلك تقول ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة فإن صوته مرقق يحزن محل عقد الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب فالألحان المرققة المزعزعة تباين الألحان المهيضة فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتغيير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو ذلك مطيع . الرابع : أصوات النياحة ونهاتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكابة والحزن فسمان : محمود ومذموم فأما للمذموم فكالحزن على ما فات الله تعالى - لكيلاً تأسوا على ما فاتكم - والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط قضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له فهذا الحزن لما كان مذموماً تحريكه بالنياحة مذموماً فلذلك ورد النهي الصريح عن النياحة (١) وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على قصيره في أمر دينه ، وبكائه على خطاياهم والبكاء والتباكى والحزن والتعازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محموداً إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته وكان يفعل ذلك بالفاظه وألحانه وذلك محمود لأن الفضى إلى المحمود محمود وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المزعزعة المرققة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه . الخامس : السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كإفناء في أيام العيد

(١) حديث النهي عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا نتوح .

للباكين عند السماع
مواجيد مختلفة فمنهم
من يبكي خوفاً ومنهم
من يبكي شوقاً ومنهم
من يبكي فرحاً كإقبال
القائل :

طمع السرور على حق إنني
من عظم ما قد سرتني أبكاني
قال الشيخ أبو بكر
الكتاني رحمه الله
سماع العوام على
متابعة الطمع وسماع
للريدين رغبة ورهبة
وسماع الأولياء رؤية
الآلاء والنعماء وسماع
العارفين على الشاهدة
وسماع أهل الحقيقة على
الكشف والبيان
ولكل واحد من
هؤلاء مصدر ومقام .
وقال أيضاً للوارد ترد
تصادف شكلاً أو
مواقفاً يوارد تصادف
شكلاً مازجه وأي
وارد صادف موقفاً
ساكنه وهنم كلها
مواجيد أهل السماع
وما ذكرناه حال من

وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدمه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود فإظهاره بالشعر والغناء والرقص والحركات أيضا محمود فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم جعلوا في سرور أصابهم (٢) كما سيأتي في أحكام الرقص وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من أسباب السرور ويدل على هذا ما روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترن بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في السجد حتى أكون أنا التي أسأله (٣) » فاقدر واقدر الجارية الحديثة السن الحريصة على الأهر إشارة إلى طول مدة وقوفها. وروى البخاري ومسلم أيضا في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها « أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان والنبي صلى الله عليه وسلم متغشى بثوبه فاتهرها أبو بكر رضي الله عنه فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فاتهما أيام عيد » وقالت عائشة رضي الله عنها « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترن بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في السجد فزجرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أمنا يابني أرفدة (٤) » يعني من الأمن ومن حديث عمرو بن الحرث عن ابن شهاب نحوه وفيه تقيان وتضربان (٥) وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسترن بثوبه أو بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف (٦) »

(١) حديث إنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
البقي في دلائل النبوة من حديث عائشة مضافا وليس فيه ذكر للدف والألحان (٢) حديث جعل جماعة من الصحابة في سرور أصابهم أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني (٣) حديث عائشة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترن بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في السجد الحديث هو كما ذكره للصف أيضا في الصحيحين لكن قوله إنه فيها من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعندهما من رواية عمرو بن الحرث عنه (٤) حديث عائشة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترن بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في السجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أمنا يابني أرفدة تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لم إلى آخره فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أمنا يابني أرفدة بل قال دعهم يا عمر زاد النساء فأنما هم بنو أرفدة ولهما من حديث عائشة دونكم يابني أرفدة وقد ذكره الصف بهذا (٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه يغبنيان ويضربان رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب (٦) حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحراهم الحديث رواه مسلم أيضا .

ارتفع عن السماع وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التي ذكرناها من الخوف والشوق والفرح وأغلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته فصد رؤية الأهل يسكن من قوة الفرح وكثرته وفي البكاء رتبة أخرى أعز من هذه يمز ذكرها ويكره نشرها لقصور الإفهام عن إدراكها فربما يقابل ذكرها بالانصكار وغنى بالاستكبار ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا أو فهمها نظرا كثيرا ومثولا وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح وحدث ذلك في بعض مواطن حق اليقين ومن حق اليقين في الدنيا إمامات يسيرة فيوجد البكاء في بعض مواطنه

وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت كنت ألعب بالبئات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان يأتيني صواحب لي فكانت يتقنن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير ليحيين إلى فيلعبن معي (١) وفي رواية أن النبي ﷺ قال لها يوما « ما هذا قالت بتاني قال لها هذا الذي أرى في وسطهن قالت فرس قال ما هذا الذي ألعيه قالت جناحان قال فرس له جناحان قالت أو ما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه » والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان في اتخاذ الصور ومن الحزف والرقاع من غير تكميل صورته بدليل ما روى في بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقايع وقالت عائشة رضي الله عنها « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بفناء بسات فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضي الله عنه فاتهرني وقال مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجا (٢) » وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال تشتهين تنظرين قلت نعم فأقامني وراءه وخذني على خده ويقول دونكم يا بني أرفدة حتى إذا مللت قال حسبك قلت نعم قال فاذهي . وفي صحيح مسلم فوضعت رأسي على منكبي فجعلت أنظر إلى لهنم حتى كنت أنا الذي انصرفت فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الفناء واللعب ليس بحرام وفيها دلالة على أنواع الرخص . الأول : اللعب ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب . والثاني فعل ذلك في المسجد . والثالث قوله صلى الله عليه وسلم « دونكم يا بني أرفدة » وهذا أمر باللعب والناس له فكيف يقدر كونه حراما . والرابع منه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الانكار والتخير وتعليقه بأنه يوم عيد أي هو وقت سرور وهذا من أسباب السرور . والخامس : وقوفه طويلا في مشاهدة ذلك وسماعه لمواقفة عائشة رضي الله عنها وفيه دليل على أن حسن الخلق في تطيب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتعسف في الامتناع والمنع منه . والسادس : قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لمائدة « أتشبهين أن تنظري » ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة فإن الالتئام إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه . والسابع : الرخصة في الفناء والضرب بالدف من الجاريتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن الزمار المحرم غير ذلك . والثامن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع مسمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ولو كان يضرب بالأوتار في موضع لا يجوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار معه فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت للزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة فهذه القاييس والنصوص تدل على إباحة الفناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنج في أوقات السرور كلها قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور وفي معناه يوم العرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر

(١) حديث عائشة كنت ألعب بالبئات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وهو في الصحيحين كما ذكره المصنف لكن مختصرا إلى قولها فيلعبن معي . وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله وفي رواية فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح (٢) حديث عائشة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بفناء بسات الحديث هو في الصحيحين كما ذكره المصنف والرواية التي عزاها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر .

أوجود تقاير وتباين بين المحدث والقديم فيكون البكاء رشعا هو من وصف الجذبان لو هج سيطرة عظمة الرحمن ويقرب من ذلك مثلا في الشاهد قطر النعام بتلاقى مختلف الأجرام وهذا وإن عز مشعر بيقية تقدر في صرف الفناء ، نعم قد يتحقق العبد في الفناء متجردا عن الآثام منغمسا في الأنوار ثم يرتقي منه إلى مقام البقاء ويرد إليه الوجود مطهرا فعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا بمشكلة صورها ومباينة حقائقها بفرق لطيف يدركه أربابه وعند ذلك يسود عليه من السماع أيضا قسم وذلك القسم مقدوره مقهور معه يأخذه إذا أراد وربه إذا أراد ويعسكون هذا السماع من

وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ويجوز الفرح بزيارة الاخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنة السماع . السادس : سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهيجاً للعشق وتسلياً للنفس فإن كان في مشاهدة المشتوق فالغرض تأكيد اللذة وإن كان مع التفارقة فالغرض تهيج الشوق والشوق وإن كان ألماً فقيه نوع لذة إذا اضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب لكثير للرجو ففي هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء القدر في الوصال مع الاطياب في وصف حسن المحبوب وهذا حلال إن كان للشقاق إليه من يباح وصاله كمن يشق زوجته أو سرته فيصنئ إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسماع الأذن ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب فتترادف أسباب اللذة فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها وما الحياة إلا لهو ولعب وهذا منكم كذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع عروقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام لأنه يحرك الفكر في الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضار شيء من ذلك وذلك ممنوع في حقهم لما فيه من الداء الدفين لا الأمر يرجع إلى نفس السماع ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال دخان يصعد إلى دماغ الانسان يزيله الجماع ويهيج السماع . السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع صمعه قارع إلا سمع منه أوفيه فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يحرقها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجداً مأخوذاً من الوجود والصادقة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن صادفها قبل السماع ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتقيه من الكدورات كاتني النار الجواهر المعروضة عليها من الحب ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرات القربات كلها فالغرض إليها من جملة الكربات لا من جملة المعاصي واللباحات وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النفقات الوزنة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثيرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبطاطاً وانقباضاً ومعرفة السبب في تأثير الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزنج وتعجب العنبر من لذة الباشرة وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجلاء وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع الإدراك والادراك يستدعي مدركاً ويستدعي قوة مدركة فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ولذة العقولات من فقد العقل وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب فمن فقدها عديم لا محالة لذته ولملك تقول كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محرراً له . فاعلم أن من عرف الله أحبه لا محالة ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته والمحبة إذا تأكدت سميت عشقاً فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفردة ولذلك قالت العرب إن محمداً قد عشق ربّه لما رآه يتخلى

للممكن بنفس اطمانت واستنارت وباينت طبعها واصكتسبت طمأنينتها وأكسبها الروح معنى منه فيكون سماعه نوع تمتع للنفس كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات لأن يأخذ السماع منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثر فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد يفرحه في بعض الأوقات ببعض ما يراه ومن هذا القبيل ما قل أن أبا محمد الرازي كان يشغل أصحابه بالسماع وينزل عنهم ناحية يصلي فقد تطرق هذه النفقات مثل هذا الصلي فتدلى إليها النفس متمتعة بذلك فترداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك لبعث النفس عن الروح في تمتعها فانها مع طمأنينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجلبها وفي بعدها توفر

للعادة في جبل حراء . واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الجمال إن كان يتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً فيقال إن فلانا حسن وجميل ولا تراد صورته وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما يحب الصورة الظاهرة وقد تنأى كد هذه المحبة فتسمى عشقا وكم من الغلاة في حب أبواب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضى الله عنهم حتى يذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة ومن المحب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته للرضية والخبرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الحاصل ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والأبصار والاسماع وسائر الحواس من مبتدا العالم إلى منقرضه ومن ذروة التبرأ إلى منتهى الترى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمحة من أنوار حضرته فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه وكيف لا يتأذى كد عند المعارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلماً في حقه لقصوره عن الأنباء عن فرط محبته فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بأشراق نوره ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ولوركت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا فأتى تطبيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش وسيأتى تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل للتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه لا من حيث إنه يباض وجلد وجبر وورق وكلام منظوم ولمعة عربية فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ولا جاوزت محبته إلى غيره فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبة مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواء ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشراكة وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشراكة إذ كل محبوب سواء يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الامكان فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا في الامكان ولا في الوجود فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة ، نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لقطة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الواقع فثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لقطة العشق والشوق والوصال والأنس بل يحب هذه الألفاظ والمعاني كما تنجب البهيمة الزجس والريحان وتخصم بالقت والحشيش وأوراق القصبان فان الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تعديس الله تعالى عنه والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدققة في أمثال هذه الألفاظ بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب ينقطع بسببه نياط القلب فقد روى أبوهريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقسام الروح من الفروح ويكون طروق الألحان سمعه في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة النجاة وفهم تنزيل الكلمات وتصل الأقسام إلى المعال غير مزاحمة ولا مزاحمة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن للثان ولهذا قيل السماع لقوم كاللدواء ولقوم كالغذاء ولقوم كالمروحة ومن عود أقسام البكاء ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي « اقر أفعال أقرأ عليك وعليك أنزل فقال أحب أن أمتعه من غيري فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى - فكيف إذا جثا من كل أمة بشهيد وجثا بك على هؤلاء شهيدا - فاذا عيناه تهللن » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل الحجر واستلمه ثم وضع

« أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء قالت الله عز وجل قال فمن خلق الأرض قالت الله عز وجل قال فمن خلق الجبال قالت الله عز وجل قال فمن خلق القيم قالت الله عز وجل قال « إنى لأسمع قه شأنا ثم رعى بنفسه من الجبل فتقطع » وهكذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتعالى قدرته فطرب لذلك ووجد فرعى بنفسه من الوجد وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى قال بعضهم رأيت مكتوبا في الإنجيل غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع بإباحته في بعض الواضع والندب إليه في بعض الواضع . فان قلت فهل له حالة يحرم فيها . فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض عارض في السمع وعارض في آلة الإسماع وعارض في نظم الصوت وعارض في نفس السميع أو في مواظبته وعارض في كون الشخص من عوام الخلق لأن أركان السماع هي السمع والسمع والسمع وآلة الإسماع العارض الأول أن يكون للسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخفى الفتنة من سماعها وفي معناها الصبي الأصم الذي تخفى فتنته وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها وعاداتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته . فان قلت فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسب الباب أو لا يحرم إلى حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف الفتنة . فأقول هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلا أن أحدهما أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة قضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور . والثاني أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الجسيم بل يتبع فيه الحال وصوت المرأة دأري بين هذين الأصلين فان قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيئتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة للماسة كتحرريك السماع بل هو أشد وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والشاورة وغير ذلك ولكن الغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة قياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه هذا هو الأنيس عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحرز منه ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحرز فاذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال فانا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك لأن القبلة تدعو إلى الوقوع في الصوم وهو محظور والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص . العارض الثاني في الآلة بأن تكون من شعار أهل الشرب أو الخنثين وهي المزامير والأوتار وطبل السكوبة فهذه ثلاثة أنواع متنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف وإن كان فيه الجلال والكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات . العارض الثالث في نظم الصوت وهو الشعر فان كان فيه شيء من الحنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم فسماع ذلك حرام بالآلحان

(١) حديث أبي هريرة إن غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء قالت الله عز وجل قال فمن خلق الأرض قالت الله عز وجل قال فمن خلق الجبال قالت الله عز وجل قال فمن خلق القيم قالت الله عز وجل قال « إنى لأسمع قه شأنا ثم رعى بنفسه من الجبل فتقطع » وهكذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتعالى قدرته فطرب لذلك ووجد فرعى بنفسه من الوجد وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى قال بعضهم رأيت مكتوبا في الإنجيل غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع بإباحته في بعض الواضع والندب إليه في بعض الواضع . فان قلت فهل له حالة يحرم فيها . فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض عارض في السمع وعارض في آلة الإسماع وعارض في نظم الصوت وعارض في نفس السميع أو في مواظبته وعارض في كون الشخص من عوام الخلق لأن أركان السماع هي السمع والسمع والسمع وآلة الإسماع العارض الأول أن يكون للسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخفى الفتنة من سماعها وفي معناها الصبي الأصم الذي تخفى فتنته وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها وعاداتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته . فان قلت فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسب الباب أو لا يحرم إلى حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف الفتنة . فأقول هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلا أن أحدهما أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة قضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور . والثاني أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الجسيم بل يتبع فيه الحال وصوت المرأة دأري بين هذين الأصلين فان قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيئتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة للماسة كتحرريك السماع بل هو أشد وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والشاورة وغير ذلك ولكن الغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة قياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه هذا هو الأنيس عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحرز منه ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحرز فاذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال فانا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك لأن القبلة تدعو إلى الوقوع في الصوم وهو محظور والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص . العارض الثاني في الآلة بأن تكون من شعار أهل الشرب أو الخنثين وهي المزامير والأوتار وطبل السكوبة فهذه ثلاثة أنواع متنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف وإن كان فيه الجلال والكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات . العارض الثالث في نظم الصوت وهو الشعر فان كان فيه شيء من الحنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم فسماع ذلك حرام بالآلحان

شفتيه عليه طويلا
يكي وقال يا عمرهنا
تسكب العبرات
وللتمكن تعود إليه
أقسام البكاء وفي ذلك
فضيلة سألها النبي صلى
الله عليه وسلم فقال
« اللهم ارزقني عيني
هطالتين » ويكون
البكاء في الله فيكون لله
ويكون بالله هو الأتم
لموده إليه بوجود
مستأنف موهوب له
من الكريم اللان في
مقام البقاء .

[الباب الخامس
والعشرون في القول في
السمع تأديبا واعتناء]
ويتضمن هذا الباب
آداب السماع وحكم
التخريق وإشارات
الشايع في ذلك وما في
ذلك من السأثور
والمحذور . مبنى
التصوف على الصدق
في سائر الأحوال وهو
جيد كله لا ينبغي
لصادق أن يتمدد
الحضور في جمع يكون
فيه سماع إلا بعد أن

وغير ألحان وللمسمع شريك للقاتل وكذلك ما فيه وصف امرأة بينها فانه لا يجوز وصف المرأة بين
 ينسب الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه
 ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك (١) فأما النسيب
 وهو التشبيه بوصف الحدود والأصداف وحسن القامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر ،
 والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن وعلى السمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن
 نزله فليزله على من يحل له من زوجته وجاريته فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتزليل وإجالة
 الفكر فيه ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأساً فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه
 عليه سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن إلا ما من لفظ لا يمكن نثره على معان بطريق الاستعارة
 فالذي يظلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر وبضارة الخلد نور الإيمان
 ويذكر الوصال لقاء الله تعالى ويذكر القراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة للرودين ويذكر الرقيب
 للشوش روح الوصال عوائق الدنيا وآفات الشوكة لمولم الأنس بالله تعالى ولا يحتاج في نثر ذلك
 عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة بل تسبق للعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ كما روى عن
 بعض الشيوخ أنه مر في السوق فسمع واحداً يقول الخيار عشرة بحبة فغلب عليه الوجد ففشل عن ذلك
 فقال إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشجار واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلاً يقول يا ستر برى
 فغلب عليه الوجد فقيل له على ماذا كان وجدك فقال سمعته كأنه يقول اسع تر برى حتى إن العجمي قد غلب
 عليه الوجد على الآيات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف السجمية فيفهم منها
 معان أخر أشد بعضهم : وما زارني في الليل إلا خياله • فوجد عليه رجل أجهمي فشل عن سبب
 وجدته فقال إنه يقول مازاريم وهو كما يقول فإن لفظ زار يدل في السجمية على المشرف على الهلاك
 فتوهم أنه يقول كلنا مشرفون على الهلاك فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة والمحترق في حب
 الله تعالى وجدته بحسب فهمه وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيره أن يوافق مراد الشاعر ولنته
 فهذا الوجد حق وصدق ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فقدر بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه
 أعضاؤه فاذن ليس في تغير أعيان الألفاظ كبير فائدة بل الذي غلب عليه عشق مخلوق ينبغي أن يحترز
 من السماع بأي لفظ كان والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضربه الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني
 اللطيفة المتعلقة بمجاري همته الشريفة . العارض الرابع في السمع : وهو أن تكون الشهوة غالبية
 عليه وكان في غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها فالسمع حرام عليه سواء غلب
 على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب فانه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والحد والقراق والوصال
 إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتمل فيه نار الشهوة
 وتحتد بواعث الشر وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيذ للعقل للناع منه الذي هو حزب الله
 تعالى والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل
 إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان
 وغاب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها فكيف يجوز تكثير أسلحتها
 وتشجيع سيوفها وأسننها والسمع مشدّد لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص فليخرج
 مثل هذا عن مجمع السماع فانه يستغربه . العارض الخامس أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم

(١) حديث أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء للشركين متفق عليه من حديث البراء
 أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجمهم أوهاجهم وجبريل ملك .

يخلص النية له تعالى
 ويتوهم به مزيداً في
 إرادته وطلبه ويحذر
 من ميل النفس لشيء
 من هواها ثم يقدم
 الاستخارة للحضور
 ويسأل الله تعالى إذا
 عزم البركة فيه وإذا
 حضر يلزم الصدق
 والوقار بسكون
 الأطراف قال أبو بكر
 الكنانى رحمه الله
 للسمع يجب أن يكون
 في صماعة غير مستروح
 إليه يهيج منه السماع
 وجداً أو شوقاً أو غلبة
 أو وارداً والوارد عليه
 يفنيه عن كل حركة
 وسكون ويتيق الصادق
 استدعاء الوجد
 ويجتنب الحركة فيه
 منها أمكن سبباً محضرة
 الشيوخ . حكى أن
 شاباً كان يصحب الجنيد
 رحمه الله وكلاهما مع
 شيتازعق وتغير فقال له
 يوماً إن ظهر منك شيء
 بعد هذا فلا تصبني
 فكان بعد ذلك يصبط
 نفسه وربما كان من

يطلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ولا غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظورا ولكنه أيسر في حقه كسائر أنواع اللذات للباحة إلا أنه إذا اتخذ ديدنه وهجيرا وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته فإن الواظبة على الله جناية وكأن الصغيرة بالأصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض اللباحات بالمداومة يصير صغيرة وهو كالواظبة على متابعة الزوج والحبشة والنظر إلى لبيم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن للواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ومهما كان الفرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إجماع لما فيه من ترويح القلب إذ راحة القلب معالجته في بعض الأوقات لتنبث دواعيه فتشتغل في سائر الأوقات بالجد في الدنيا كالكسب والتجارة أو في الدين كالصلاة والقراءة واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الحال على الخلد ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوخته فما أقبح ذلك فيعود الحسن قبيحا بسبب الكثرة لما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره بل الحيز مباح والاستكثار منه حرام فهذا للباح كسائر اللباحات . فان قلت قد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولا بالاباحة إذ إطلاق القول في الفصل بلا أو نعم خلف وخطأ . فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إجماع يتبع لتفصيل ينشأ من عين مافيه النظر فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ألا ترى أنا إذا شئنا عن العسل أهو حلال أم لا قلنا إنه حلال على الإطلاق مع أنه حرام على الهرور الذي يستشر به وإذا شئنا عن الخمر قلنا إنها حرام مع أنها محل لمن غص بلغمه أن يشربها مهما لم يجد غيرها ولكن هي من حيث إنها خمر حرام وإنما أيسر لعارض الحاجة والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض والسماع من جملة اللباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته فإذا انكشف الغطاء عن دليل الاباحة فلا نبالي بمن يخالف بعد ظهور الدليل وأما الشافعي رضي الله عنه فليس بتحريم القضاء من مذهبه أصلا وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذ صناعة لا تجوز شهادته وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل ومن أخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط الرودة وإن لم يكن محرما بين التحريم فإن كان لا ينسب نفسه إلى النساء ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرأ في الحال فيترجمها لم يسقط هذا مردونه ولم يطل شهادته واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة رضي الله عنها وقال يونس ابن عبد الأعلى سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعي لأعلم أحد من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في لأوصاف فأما الحداء وذكر الأطلال والرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار ثم مباح وحيث قال إنه لم هو مكروه يشبه الباطل فقول له لم هو محسب ولكن اللهو من حيث إنه لم هو ليس بحرام فلم يلعب الحبشة ورقصهم لم هو وقد كان عليه السلام ينظر إليه ولا يكرهه بل اللهو واللغو لا يؤخذ الله تعالى به إن عني به أنه فعل ما لا فائدة فيه فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم قال الله تعالى - لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم - فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤخذ به فكيف يؤخذ بالشعر والرقص . وأما قوله يشبه الباطل فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه بل لوقال هو باطل صريحا لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة فالباطل ما لا فائدة فيه فقول الرجل لامرأته مثلا بعت نفسي منك وقولها اشتريت عقد باطل مهما كان القصد اللعب واللطاية وليس

كل شعرة منه تخطئ قطرة صرق فما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل أو ادعاء الحال من غير حال حاصل وذلك عين النفاق . قيل كان النصر ابداً رحمه الله حكثير الولع بالسماع فموتب في ذلك قال نعم هو خير من أن تعد وتقتاب فقال له أبو عمرو ابن مجيد وغيره من إخوانه هيات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا كذا سنة تقتاب الناس وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى وترويح للحال بصريح المحال وفي ذلك ذنوب متعددة منها أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له والكذب على الله من أقبح الزلات . ومنها أن يغرب بعض الحاضرين فيحسن به الظن

بحرام إلا إذا قصد به التملك المحقق الذي منع الشرع منه . وأما قوله مكروه فيزل على بعض الواضع التي ذكرتها لك أو يزل على التنزيه فانه نص على إباحة لعب الشرع وذكر آتى أكره كل لعب وتعليه يدل عليه فانه قال ليس ذلك من عادة ذوى الدين وللروءة فهذا يدل على التنزيه ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضا بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق وما يجرم للروءة بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوى الروءة وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخبيسة فتعليه يدل على أنه أراد بالكره التنزيه وهذا هو الظن أيضا بغير من كبار الأئمة وإن أرادوا التحريم لما ذكرناه حجة عليهم .

(بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها)

احتجوا بقوله تعالى - ومن الناس من يشتري لهو الحديث - قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضى الله عنهم إن لهو الحديث هو الماء وروت عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال « إن الله تعالى حرم القينة ويعمها وثمنها وتعليمها ^(١) » فنقول أما القينة فالمراد بها الجارية التي تنفى للرجال في مجلس الشرب وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام وهم لا يصدون بالفتنة إلا ما هو محظور فأما غناء الجارية لملكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث بل لغير مالها كما سماها عند عدم الفتنة بدليل ما روى في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضى الله عنها وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم وليس الزنا فيه وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى وهو المراد في الآية ولوقرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما . حكى عن بعض الناقضين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ورأى فعله حراما لما فيه من الاضلال فالاضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . واحتجوا بقوله تعالى - أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - قال ابن عباس رضى الله عنهما هو الغناء بلغة حمير يعنى السعد فتقول ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه فان قيل إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لاسلامهم فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى - والشعراء يتبعهم الغاوى - وأراد به شعراء الكفار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه . واحتجوا بما روى جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تنفى ^(٢) » فقد جمع بين الناح والغناء . قلنا لا جرم كما استثنى منه نباحة داود عليه السلام ونباحة للذين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغاؤه من عند قدمه عليه السلام بقوله من : طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك ^(٣) » قلنا هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق

(١) حديث عائشة إن الله حرم القينة ويعمها وثمنها وتعليمها الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف قال البيهقي ليس بحفوظ (٢) حديث جابر كان إبليس أول من ناح وأول من تنفى لم أجده أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبي طالب ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث أبي أمامة ما رفع أحد عقيرته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك ابن أبي الدنيا في ذم اللامى والطبراني في الكبير وهو ضعيف .

والاغرار خيانة قال عليه السلام « من غشنا فليس منا » ومنها أنه إذا كان مبطلا ويرى بين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة للعتقد فيه . فيفسد عقيدته في غيره ممن يظن به الخير من أمثاله فيكون سببا إلى فساد العقيدة في أهل الصلاح ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها ومن أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته في قيامه وقعوده فيكون متكلفا مكلفا للناس ياطله ويكون في الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل ويعمل على نفسه للوافقة للجمع مداريا ويكثر شرح الذنوب في ذلك فليتنق الله ربه ولا يتحرك إلا إذا

المخلوقين فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة والنسج في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتزويل أما الفعل فلا تأويل له إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط وما أيسع فعله يحرم بعارض كثيرة حتى النبات والقصود . واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأدييه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته ^(١) » قلنا فقله باطل لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد سلم ذلك على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام بل يلحق بالمصور غير المحصور قياسا كقله صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث فانه يلحق به رابع وخامس ^(٢) » فكذلك ملاعبة امرأته لافائدة إلا التلذذ وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع اللداعيات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل . واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه : ما تنبت ولا تميت ولا مست ذكري يعني مذ بايت به رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا فليكن التمني ومس الذكر بالمني حراما إن كان هذا دليل تحريم الفناء فمن أين ثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام . واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه الفناء ينبت في القلب النفاق وزاد بعضهم كما ينبت للماء البقل ^(٣) ورفع بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح قالوا ومروا على ابن عمر رضي الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال ألا لا نسمع الله لكم ألا لا نسمع الله لكم وعن نافع أنه قال كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أسمع ذلك حتى قلت لا فأخرج أصبعيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ^(٤) وقال الفضيل بن عياض رحمه الله الفناء رقية الزنا وقال بعضهم الفناء رائد من رواد الفجور وقال يزيد بن الوليد إياكم والفناء فانه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم الرودة وإنه لينوب عن الحر ويفعل ما يفعله السكر فان كنتم لابد فاعلمين فجنوبه النساء فان الفناء داعية الزنا فقول قول ابن مسعود رضي الله عنه ينبت النفاق أراد به في حق النفي فانه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غناؤه وذلك أيضا لا يوجب تحريما فان لبس الثياب الجليلة وركوب الخيل المملجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط بل المباحات التي هي موانع نظر الخلق أكثر تأثيرا ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته فهذا النفاق من المباحات وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما ألا لا نسمع الله لكم فلا يدل على التحريم من

(١) حديث عقبة بن عامر كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأدييه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب (٢) حديث لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٣) حديث ابن مسعود الفناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل قال المصنف والرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية الأوثي ورواه البيهقي مرفوعا وموقوفا (٤) حديث نافع كنت وابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه الحديث ورفع أبو داود وقال هذا حديث منكر.

صارت حركته حركة الرعش الذي لا يجد سبيلا إلى الإمساك وكالعاطس الذي لا يقدر أن يرد العطسة وتكون حركته بمثابة النفس التي يدعو إليه داعية الطبع قهرا . قال السري : شرط الواحد في زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا وقد لا يبلغ الواحد هذه الرتبة من الغيبة ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة مزوجة بالاضطرار فهذا الضبط من رعاية الحركات ورداثر عفات وهو في تمزيق الثياب أكد فان ذلك يكون إتلاف المال وإنفاق المال وهكذا رمى الحرقه إلى الحادي لا ينبغي أن يفعل إلا إذا حضرته نية يحتجب فيها التكلف والراءاة

حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث وظهر له من غياليهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو فانكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر ناهيا بذلك ولا أنكر عليه سماعه وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الجمال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يمنع ابن عمر لا يدل أيضا على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه (١) أقترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب فلمه صلى الله عليه وسلم كان في حالة كان صوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كاشغله العلم عن الصلاة بل الحاجة إلى استتارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق وإن كان كالا بالإضافة إلى غيره ولذلك قال الحصري ماذا أحمل بسماع يتقطع إدامات من يسمع منه إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لغة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل هورقة الزنا وكذلك ماعدها من الأقاويل القرية منه فهو منزل على سماع الفساق والفطنين من الشبان ولو كان ذلك عاما لما منع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما القياس فضاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار وقد سبق الفرق أو يقال هو لم يوجب وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لم يوجب . قال عمر رضي الله عنه لزوجته إنما أنت لعبة في زاوية البيت وجميع اللعابة مع النساء لم يوجب إلا الحرمة التي هي سبب وجود الولد وكذلك الزح الذي لا يحض في حلال قل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة كما سيأتي تفصيله في كتاب آفات اللسان إن شاء الله (٢) وأي هو يزيد على الحبشة والزنج في لعابهم وقد ثبت بالنص إباحته على أني أقول اللهو مروح للقلب ومغف عنه أعبله الفكر والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجدة فالمواظب على التفقة مثلا ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات فالمطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدة ولا يصبر على الجدة المحض والحق للرب لا نفوس الأنبياء عليهم السلام فاللهو دواء القلب من داء الإعياء واللذات فينبغي أن يكون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة هذا في حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ولكن حسنات الأبرار سيئات القربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه .

(الباب الثاني في آثار السماع وآدابه)

(١) حديث خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه تقدم في الصلاة (٢) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم يأتي في آفات اللسان كما قال المصنف .

(الباب الثاني في آداب السماع وآثاره)

ولذا حفت النية فلا بأس بالقاء الحرقه إلى الحادى قد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد وأنشده آياتا التي أولها :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول

حق انتهى إلى قوله فيها :

إن الرسول لسيف يستضاء به

مهند من سيوف آفة مسلول

قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم من

أنت فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

محمد رسول الله أنا كعب بن زهير فرمى

رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بدة

كانت عليه فلما كان زمن معاوية بعث إلى

كعب بن زهير بعنا بدة رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعشرة آلاف فوجه إليه

اعلم أن أول درجة السماع فهم السمع وتزيله على معنى يقع المستمع ثم يثمر الفهم الوجد ويشمر الوجد الحركة بالجوارح فلينظر في هذه المقامات الثلاثة . المقام الأول : في الفهم وهو يختلف باختلاف أحوال السمع ، وللمستمع أربعة أحوال : أحدها أن يكون سماع بمجرد الطبع أى لاحظته في السماع إلا استدلاذ الألحان والنغمات وهذا مباح وهو أحسن رتب السماع إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعى هذا الدوق إلا الحياة فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة . الحالة الثانية أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا وإما غير معين وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم للسمع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم وهذه الحالة أحسن من أن تسلك فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها . الحالة الثالثة أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى وهذا سماع الريدن لاسيا للبتدين فان للريد لا محالة مراداً هو مقصده ومقصده معرفة الله سبحانه ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرى وكشف الغطاء وله في مقصده طريق هو سالكه ومعاملات هو مشاير عليها وحالات تستقبله في معاملاته فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو بأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو تقص للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصول أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحشرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بد أن يوافق بعضها حال الريد في طلبه فيجرب ذلك مجرى القدح الذى يورى زناد قلبه فتشتمل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكرن له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله وليس على السمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه بل لكل كلام وجوه ولكل ذى فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ ولنضرب لهذه التزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن السمع لأيات فيها ذكر القم والحمد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم اللعان من الآيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك فقد حكى أن بعضهم مع قائل يقول :

قال الرسول غدا تزور رقتل تغفل ماتقول

فاستغزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء نونا فيقول : قال الرسول غدا تزور . حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور فلما أفاق سئل عن وجده م كان ؟ فقال ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة مرة (١) » . وحكى الرقى عن ابن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن القوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة فإذا بقصر حسن له منظرة وعليه رجل بين يديه جارية تقف وتقول :

كل يوم تسلمون غير هذا بك أحن

فإذا شاب حسن تحت المنظرة ويده ركوة وعليه مرقمة يستمع فقال يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت فأعدت فكانت الشاب يقول هذا والله تلوأتى مع الحق في حالى فشوق شهقة ومات . قال : قلنا قد استقبلنا فرض فوقنا فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى

(١) حديث إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل جمعة الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد بن حبيب بن أبى العثرين مختلف فيه وقال الترمذى لا تعرفه إلا من هذا الوجه قال وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئا من هذا .

ما كنت لأوتر ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا فلما مات كعب بنت معاوية إلى أولاده بشرين ألفا وأخذ البردة وهى البردة الباقية عند الامام الناصر لدين الله اليوم عادت بركتها على أيامه الزاهرة . وللتصوفة آداب يتعاهدونها ورعايتها حسن الأئب في الصلوة والمعاينة وكثير من السلف لم يكونوا يتمدون ذلك ولكن كل شئ استحسنوه وتواطوا عليه ولا ينكره الشرع لوجه الانكار فيه فمن ذلك أن أحدم إذا تحرك في السماع فوقعت منه خرقة أو نازله وجد ورعى عمامته إلى الحادى فالتحسن عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ وإن كان ذلك من الشبان في حضرة

قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فاضلوا عليه فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر أشهدكم أن كل شيء على في سبيل الله وكل جوارى أحرار وهذا القصر للسبيل قال ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بآخر ومرت على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم وهم يسعون فلم يسمع له بعد خبر والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة محجزة عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة وتأسفه على تغلب قلبه وميله عن سنن الحق فلما قرع صمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تسألون غير هذا بك أحسن

ومن كان سمعه من الله تعالى وعلى الله وفيه فينبغي أن يكون قد أحكم قانون العلم في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وإلا خطر له من السماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به فحق سمع اللريد للتسدى خطر إلا إذا لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى . ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق وقد يكون عن جهل ساقط إليه نوع من التحقيق وهو أن يرى تغلب أحوال قلبه بل تغلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق فانه تارة يسط قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يشته على طاعته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق وهذا كله من الله تعالى ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة قد يقال له في العادة إنه ذو بدوا - وإنه متلون ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوه إلى التلون في قبوله ورده وتغريه وإبعاده وهذا هو المعنى فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض بل ينبغي أن يعلم أن سمعجانه وتعالى يلون ولا يتلون وينير ولا يتغير بخلاف عبادته وذلك العلم يحصل للريد باعتقاد تقليدي إيماني وحصل للعارف البصير يتبين كسفي حقيقي وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو للغير من غير تغير ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى بل كل مغير سواء فلا يغيره مالم يتغير ومن أرباب الوجد من يظلب عليه حال مثل السكر للدهش فيطابق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ويستنكر اقتضاه للقلوب وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت فانه المستصفي لقلوب الصديقين والبعد لقلوب الجاحدين وللغروبين فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولم يقطع التوفيق عن الكفار الجنابة متقدم ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوفيقه ونور هدايته لو سيلة ساقطة ولكنه قال - ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين - وقال عز وجل - ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون - فان خطر يبالك أنه لم تختلف السابقة وهم في رتبة العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب - فانه لا يستل عما يفعل وهم يستلون - ولم يمرى تأدب اللسان والظاهر بما يقدر عليه الأكثرون فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقریب والإبعاد والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم ولهذا قال الحضرة عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محرك لأسرار القلوب ومكامنها ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا بمن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس في هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة فان غاية ذلك مصيبة وغاية الخطأ ههنا كفر .

الشيوع فليس على
الشيوع موافقة
الشبان في ذلك
وينسحب حكم الشيوع
على بقية الحاضرين في
ترك الموافقة للشبان
فاذا سكتوا عن السماع
رد الواجد إلى خرقته
ويوافق الحاضرون
برفع العائم ثم رد بها على
الروس في الحال
للموافقة والخرقة إذا
رسمت إلى الحادى هي
للحادى إذا قصد
إعطائه إياها وإن لم
يقصد إعطاءها للحادى
فيلهى للحادى لأن
المحرك هو ومنه صدر
للوجب لرى الخرقه .
وقال بعضهم هي للجمع
والحادى واحد منهم
لأن المحرك قول
الحادى مع بركة الجمع
في إحداث الوجد
وإحداث الوجد
لا يتقاصر عن قول
القائد فيكون الحادى
واحدا منهما في ذلك .
روى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع فيطلب الوجد على مستمعين ليبت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر غطىء أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول :

سبحان جبار السما إن الحب لفي عنا

فقال صدقت وسمعه رجل آخر فقال كذبت فقال بعض ذوى البصائر أصابا جميعا وهو الحق فالصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصد والمجهر ، والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخطر الصد في المال وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه فاختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم . وحكى عن أبي القاسم بن مروان ، وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة فحضر دعوة وفيها إنسان يقول :

واقف في اللاء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا فلما سكنوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها فلم يبقهم ذلك فقالوا له لماذا عندك فيه فقال أن يكون في وسط الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يعطى منها ذرة وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال والكرامات والأحوال سوابقها والكرامات تسنح في مبادئها والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها ولا فرق بين المعنى الذى فهمه وبين ما ذكره إلا في تفاوت رتبة للتعطش إليه فان المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها فان مكن منها تعطش إلى ما وراءها فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبين . وكان الشبلى رحمه الله كثيرا ما يتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وجحيم قلبي ووصلكم صرم وسلمكم حرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل وأظهرها أن يفهم هذا في الحلق بل في الدنيا بأسرها بل في كل ما سوى الله تعالى فان الدنيا مكاره خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظهرة صورة الود « لما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة » (١) « كاور في الحبر وكأ قال التلميذ في وصف الدنيا :

تنح عن الدنيا فلا تخطبها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس في مرجسوها بخوفها ومكروها إما تأملت راجع
تقد قال فيها الواصفون فأكثرنا وعندي لها وصف لعمري صالح
سلاف قصارها زعاف ومركب شهي إذا استذلت فهو جامع
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والعنى الثانى : أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى فانه إذا تفكر فمعرفة جهل إذا ما قدروا الله حق قدره وطاعته رياء إذ لا يتقى الله حق تقاته وجهه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه ومن أراد الله به خيرا بصره بعبود نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه وإن كان على الرتبة بالإضافة إلى الغافلين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) وقال عليه الصلاة والسلام « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » (٣) « وإنما كان استغفاره عن أحوال

(١) حديث ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أي كثير مرسلات (٢) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك رواه مسلم وقد تقدم (٣) حديث إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة تقدم في الباب الثانى من الأذكار .

يوم بدر « من وقف
بمكان كذا فله كذا
ومن قتل فله كذا ومن
أسرفه كذا ففسارح
الشبان وأقام الشيوخ
والوجوه عند الرايات
فما فتح الله على المسلمين
طلب الشبان أن يحمل
ذلك لهم فقال الشيوخ
كنا ظهرا لكم وردنا
فلا تذهبوا بالفتنم
دوننا فأمر الله تعالى
- يستلونك عن
الأنفال قل الأنفال لله
والرسول - قسم
النبي صلى الله عليه وسلم
بينهم بالسوية . وقيل
إذا كان القول من
القوم يحمل كواحد
منهم وإذا لم يكن من
القوم لما كان له قيمة
يؤثر به وما كان من
خرق الفقراء يقسم
بينهم . وقيل إذا كان
القول أجيرا فليس له
منها شيء وإن كان
متبرعا يؤثر بذلك وكل
هذا إذا لم يكن هناك
شيخ يحكم فأما إذا
كان هناك شيخ يهاب

هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها وإن كانت قربا بالإضافة إلى ما قبلها فلا قرب إلا ويقي ورامه قرب لانهاية له إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه والوصول إلى أقصى درجات القرب محال وللغنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر في عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا القرور فيها فيرى ذلك من الله تعالى فيستمتع البيت في حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر وهذا كفر كما سبق بيانه وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان وذلك بقدر غزارة علم السمع بصفاء قلبه .

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات فمزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذي يضاها حاله حال النسوة اللاتي قطمن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفى فكانه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد للشهود وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن الشهود فالمستبهر بالمرئي لا التفات له في حال استنراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بهار رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذته فالسكران لا خبر له من سكره والتلذذ لا خبر له من التذاذة وإنما خبره من التلذذ به فقط ومثاله العلم بالشئ فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشئ فالعالم بالشئ مهمأورد عليه العلم بالعلم بالشئ كان معرضا عن الشئ ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطراً أيضا في حق الخالق ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تطقه القوة البشرية فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه كما روى عن أبي الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من ودللك منزلا تتحير الأبواب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه فوق في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف فصار يمدونها ويبيع البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماء وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي بمنزلة صفات البشرية وهو نوع قصور وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله أعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتخذ بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الاخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلا بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيفه إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمرائه عز وجل عرفها من عرفها وجهها من جهلها ولذلك السر وجوده وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكانه لا وجود إلا للحاضر ومثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها نور في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها وكذلك الزجاجة فانها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ولونها هويته الاستعداد لقبول الألوان ويعرب عن هذه الحقيقة أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه قول الشاعر :

رق الزجاج ورق الحجر فتشابه فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم الكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق

ويعتدل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى قد تختلف الأحوال في ذلك وللشيخ اجتهاد فيقل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى للقول والقوم بما رضوا به وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك وإذا أصروا على الإتيار بما خرج منه لئلا له في ذلك يؤثر بخرقته الحادى وأما تمزيق الحرقه المبروكة التي ميزها واحد صادق عن غلبة سلبت اختياره كغلبة النفس فمن يتعمد إمساكه فتيهم في تفرقتها وتمزيقها التبرك بالحرقه لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق وتمزيق الحرقه أثر من آثار الوجد فصارت الحرقه متأثرة بأثر رباني من حضها أن تغدى بالنفوس

وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد الالهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرأة بصورة الحجرة إذ ظهر فيها لون الحجرة من مقابلها وإذا كان هذا غير لائق بعلم العامة فلنرجع إلى الغرض فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم السموعات . التمام الثاني : بعد الفهم والتزيل الوجد . وللباش كلام طويل في حقيقة الوجد أعنى الصوفية والحكماء الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح فلنقتل من أقوالهم ألقاظهم لنكشف عن الحقيقة فيه أما الصوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع إنه وارد حق جاء بزعم القلوب إلى الحق فمن أضنى إليه بحق تحقق ومن أضنى إليه بنفس تزندق فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذسمى السماع وارد حق . وقال أبو الحسين الدراج مخبرا عما وجدته في السماع الوجد عبارة عما يوجد عند السماع وقال جال بن السماع في ميادين البهاء فأوجدني وجود الحق عند العطاء فسقاني بكأس الصفاء فأدركت به منازل الرضاء وأخرجني إلى رياض التنزه والقضاء . وقال الشبل رحمه الله : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية وقال بعضهم السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يندى عن سائر الأعمال ويدرك برقة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله وقال عمرو بن عثمان الكلي لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سراقه عند عباده للؤمنين الموقنين وقال بعضهم الوجد مكاشفات من الحق وقال أبو سعيد بن الأعرابي الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس للفقود وهو فناؤك من حيث أنت وقال أيضا الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالنيب فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب وقال أيضا الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب لأن النفس محبوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص القلب وصرح القلب ورق وصفا ونجعت الموعظة فيه وحل من اللذات في محل قريب وخوطف وصمغ الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده وقال أيضا الوجد ما يكون عند ذكر مزيج أو خوف مقلق أو توييح على زلة أو محادثة بلطفية أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة بسر وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والنيب بالنيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسمي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر إذ كان هو البتدى . بالنم والتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة . وأما الحكماء فقال بعضهم في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر وقال بعضهم نتائج السماع استنباض العاجز من الرأى واستجلاب المازب من الأفكار وحدة الكمال من الأنفهام والآراء حتى يثوب ماعزب وينض ما هجر ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأى ونية فيصيب ولا يخطئ . ويأتى ولا يخطئ . وقال آخر كما أن الفكر يطرقي العلم إلى المعلوم فالسماع يطرقي القلب إلى العالم الروحاني . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والايقاعات فقال ذلك عشق عقلى والعاشق العقل لا يحتاج إلى أن يناغى معشوقه بالمنطق الجرمي بل يناغيه ويناجيه بالتبسم والالحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجنين والإشارة وهذه نواطق أجمع الإنهار روحانية وأما العاشق البهيمى فإنه يستعمل النطق الجرمي ليعبر به

وترك على الروس
إسكراما واعزازا :
تضوع أرواح نجد
من ثيابهم
يوم القدوم لقرب
المهد بالدار
كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يستقبل
القيث ويتبرك به
ويقول حديث عهد
بربه فالخرقة المزقة
حديثه العهد حكيم
المبروحة أن تفرق على
الحاضرين وحكم
ما يتبعها من الحرق
الصالح أن يحكم فيها
الشيخ إن خصص
بشيء منها بعض الفقهاء
فله ذلك وإن خرقها
خرقا فله ذلك ولا يقال
هذا تفريط وسرف
فإن الخرقة الصغيرة
ينفع بها في موضعها
عند الحاجات
كالكبيرة . وروى
عن أمير المؤمنين على
ابن أبي طالب رضي الله
عنه أنه قال « أهدى
لرسول الله صلى الله
عليه وسلم حلة حرير

عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه الزائف . وقال آخر من حزن فليسمع الألبان فان النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفاته ونقائه من الفس والذنس . والأقويل للقررة في السماع والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار من إيرادها فلنشغل بتفهم المعنى الذي الوجد عبارة عنه فنقول إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا وإن ظهر على الظاهر مسمى وجدا إما ضعيفا وإما قويا بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله فإن الكشف يحصل بأسباب منها التنبيه والسماع منه ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فان إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورد ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملوكوت كما أن عمل البعير حمل الأثقال فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف بل القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة وبالرؤيا إذا كان في المنام وذلك جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم للعامة وذلك كما روى عن محمد ابن مسروق البغدادي أنه قال خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تجمعه خالق فأبقى له في الجوف أمعاء

قال فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة ، فانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى يمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر . وروى عن مسلم العباداني أنه قال قدم علينا مرة صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسوارى فزولوا على الساحل قال فهيات لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع

قال فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبقي القوم فرضعت الطعام وماذاقوا والله منه لذة ، وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضا بالبصر صورة الحضرة عليه السلام فانه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة وفي مثل هذه الحالة تتمثل اللائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها

فأرسل بها إلى غرجت فيها فقال لي ما كنت لأكره لنفسى شيئا أَرْضاء لك فتشققها بين النساء خمرًا وفي رواية أتيتني قلت ما أصنع بها ألبسها قال ولكن اجعلها خمرًا بين الفواطم أراد فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت حمزة وفي هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكشوفة بحري وهذا وجه في السنة لتزريق الثوب وجعله خرقا . حكى أن الفقهاء والصوفية بنسبوا بوجع في دعوة فوكت الحرقه وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبو محمد الجويني وشيخ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيري قصمت الحرقه على عاداتهم فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا هذا سرف وإساءة للمال فسمع أبو القاسم

وإما على مثال بما حكى صورتها بعض المحاكاة وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق (١) وهو المراد بقوله تعالى - علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى - إلى آخر هذه الآيات وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب وقد عبر عن ذلك الاطلاع بالتفريس ولذلك قال عليه السلام « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » (٢) وقد حكى أن رجلا من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن » فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض الشايخ من الصوفية فسأله فقال له معناه أن تقطع الزنار الذي على وسطك تحت ثوبك فقال صدقت هذا معناه وأسلم وقال الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال كنت بغداد في جماعة من الفقهاء في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي يقع لي أنه يهودي نسلكهم كرهوا ذلك فخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال أي شيء قال الشيخ في فاحتشموه فألج عليهم فقالوا له قال إنك يهودي قال فجأني وأكب على يدي وقبل رأسي وأسلم وقال نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطئ فراسته فقلت أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقرءون كلامه فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفريس في علمت أنه صديق قال وصار الشاب من كبار الصوفية وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » (٣) وإنما يحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات الذمومة فانها تمر على الشيطان وجنده ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حول قلبه وإليه الإشارة بقوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - وبقوله تعالى - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان - والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء وعلى هذا يدل ما روى أن ذا النون المصري رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال فاستأذنوه في أن يقول لهم شيئا فأذن لهم في ذلك فأنشأ يقول :

صغير هو لك عذبي فكيف به إذا احتسكا وأنت جمعت في قلبي
هوى قد كان مشتركا أما ترني لمكتتب إذا ضحك الحلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون الذي يراك حين تقوم فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذي النون على قلبه أنه متكلف متواجد فعرفه أن الذي يراه حين يقوم هو الخصم في قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقا لما جلس ، فاذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات . واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الافاقته وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلا ولعلك تستبعد حالة أو علما لا تعلم حقيقة ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقة فلا تستبعد ذلك فانك تجد في أحوالك القرية لذلك شواهد . أما العلم فكمن فقيه تعرض عليه مسئلتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا في الحكم وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه وإدراكه الفرق علم يصادفه في قلبه بالدوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة ولا يمكنه الاخبار عنه لا لتصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة وهذا مما قد تظن أنه

(١) حديث رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأفق متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حديث غريب (٣) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القشيري ولم يقل شيئا
حق فرغت القصة ثم
استدعى الخادم وقال
انظر في الجمع من معه
سجادة خرق اثني بها
جفاه - بسجادة ثم
أحضر رجلا من أهل
الحبرة فقال هذه
السجادة بك تشتري
في المزاد؟ قال بدينار قال
ولو كانت قطعة واحدة
كم تساوى قال نصف
دينار ثم التفت إلى
الشيخ أبي محمد وقال
هذا لا يسمى اصداة
للأل والحرق للمزقة
تقسم على جميع
الحاضرين من كان
من الجنس أو من غير
الجنس إذا كان حسن
الظن بالقوم معتقدا
للتبرك بالحرقه .
روى طارق بن
شهاب أن أهل البصرة
غزوا نهاوند وأمدم
أهل الكوفة وعلى
أهل الكوفة عمار بن
ياسر فظهروا وأراد
أهل البصرة أن
لا يقسموا لأهل

الواظبون على النظر في المشكلات . وأما الحال فكأن من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به وقد تكون الحالة التي يحسها سرورا ثبت في نفسه بتفكره في سبب موجب للسرور أو حزنا فينسى التفكر فيه ويحس بالأثر عقبيه وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة لمقصده عن القصد بل ذوق الشعر الوزون والفرق بينه وبين غير الوزون يختص به بعض الناس دون بعض وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها أعني التفرقة بين الوزون والزلحف فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده به لمن لا ذوق له وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم ، وأما الأوتار وسائر النغمات التي ليست بمفهومة فأنها تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن هجائب تلك الآثار وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوقه لا يعرف صاحبه الشائق إليه فهو هيب والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشاق ويحذ في نفسه حالة كأنها تقاضى أمرا ليس يدري ماهو حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لاجب آدمي ولا حب الله تعالى وهذا لاسر وهو أن كل شوق فله ركنان : أحدهما صفة الشائق وهو نوع مناسبة مع الشائق إليه . والثاني معرفة الشائق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه فان وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة الشائق إليه كان الأمر ظاهرا وإن لم يوجد العلم بالمشائق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نازها أو رث ذلك دهشة وحيرة لا محالة ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه نازر الشهوة ولكن لا يدري أنه يشاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء فكذلك في نفس الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى واللذات التي وعد بها في مدرة النسي والقراديس العلا إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرأة لا يعرف بالمقاييس فالسباع يحرك منه الشوق والجهل للفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدري ماهو فدهش ويتعبر ويضطرب ويكون كالمختلق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن التصف بها أن يعبر عنها فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره . واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد وهذا التواجد المتكلف فنه مذموم وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الافلاس منها ومنه ماهو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة فان للسكسب مدخلا في جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن (١) فان هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أو آخرها وكيف لا يكون التكلف سببا في أن يصير التكلف في الآخرة طبعيا وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفا وبقروءه تكلفا مع تمام التأمل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك ديدنا للسان مطردا حتى يجري به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بمجدد شديد ثم

الكوفة من الغنيمة شيئا فقال رجل من بني تميم لعمار أبيها الأجسدة تريد أن تشاركنا في غنائنا فكتب إلى عمر بذلك فكتب عمر رضى الله عنه أن الغنيمة لمن شهد الواقعة وذهب بعضهم إلى أن المجرع من الحرق ينقسم على الجمع وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقول . واستدل بما روى عن أبي قتادة قال لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من اقوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلًا فله سلبه » وهذا له وجه في الحرق الصحيحة فأما المجرعة فكيفها اسهام الحاضرين والقسمه لهم ولو دخل على الجمع وقت القسمه من لم يكن حاضرا قسم له . روى أبو موسى الأشعري رضى الله

(١) حديث البكاء عند قراءة القرآن فان لم تبكوا فبأقبا كوا، تقدم في تلاوة القرآن في الباب الثاني .

تتمرن على الكتابة يده فيصير الكتب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لاسيلاً إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولاً ثم يصير بالعادة طبعاً وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذا الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند قدحها بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره فلقد شوهد في العادات من انتهى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى غشقه ورسخ ذلك في قلبه رسوخاً خرج عن حد اختياره فاشتبهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص فكذا حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا قدحها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم في النفس وبالجلوس معهم في السماع وبالثناء والتضرع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحالة بأن ييسره أسبابها . ومن أسبابها السماع ومجالة الصالحين والخائفين والحسينين والشتائين والحاشمين فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري وبدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك . حب من أحبك . وحب من يقريني إلى حبك » (١) قد فزع عليه السلام إلى الدعاء في طلب الحب فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن وانقسامه إلى التكلف وإلى المطبوع . فان قلت : فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء فنقول : الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه وذلك يهيج بسماع القرآن أيضاً وإنما الذي لا يهيج بسماع القرآن حب الحلق وعشق الخلق وبدل على ذلك قوله تعالى - ألا بذكر الله تطمئن القلوب - وقوله تعالى - مثاني تقشعر منه جلود الذين يغشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله - وكل ما يوجد عقيب السماع بسبب السماع في النفس فهو وجد فالطمأنينة والافتشاعر والخشية ولين القلب كل ذلك وجد وقد قال الله تعالى - إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - وقال تعالى - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله - فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » (٢) وقال لآبي موسى الأشعري « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود عليه السلام » (٣) . وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم « شيتني هود وأخواتها » (٤) خبر عن الوجد فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء فلما انتهى إلى قوله تعالى - فكيف إذا جثا من كل أمة بشهيد

تعالى عنه قال لما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خير ثلاث فأقسم لنا ولم يسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم في السماع كتمزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر أو صاحب دنيا يحوج إلى للدارة والتكلف أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبي الفضل الحافظ القدسي قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري بسرخس قال أخبرنا أبو علي الفضل بن منصور بن نصر السكاغدي السمرقندي إجازة قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخبرنا أبو بكر عمار بن اسحق قال ثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن

(١) حديث اللهم ارزقني حبك . وحب من أحبك الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث زينوا القرآن بأصواتكم تقدم في تلاوة القرآن (٣) حديث لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود قاله لآبي موسى تقدم فيه (٤) حديث شيتني هود وأخواتها الترمذي من حديث أبي جحيفة وله للحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذي حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - قال حبيب وكانت عيناه تذرفان بالدموع (١) وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية أوتري عنده - إن لدينا أنكالا وجعيا وطعاما ذا فصة وعذابا أليما - فصق (٢) وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ - إن تعذبهم فإنهم عبادك - فبكى (٣) وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر (٤) والاستبشار وجد وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى - وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق - وروى أن رسول صلى الله عليه وسلم كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز للرمل (٥) وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فكثير : منهم من صق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته وروى أن زرارة بن أوفى وكان من التابعين كان يؤم الناس بالركة ققرأ - فإذا قرأ في الناقور - فصق ومات في صحابه رحمه الله وسمع عمر رضي الله عنه رجلا يقرأ - إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع - فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فعمل إلى بيته فلم يزل مريضا في بيته شهرا وأبو جرير من التابعين قرأ عليه صالح للرمل فشق ومات وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ - هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون - فغشى عليه وسمع على ابن الفضيل قارئا يقرأ - يوم يقوم الناس لرب العالمين - فمقط مغشيا عليه فقال الفضيل شكر الله لك ما قد علمه منك وكذلك نقل عن جماعة منهم وكذلك الصوفية فقد كان الشبلي في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلي خلف إمامه ققرأ الإمام - ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك - فزعى الشبلي زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واجمر وجهه وارتعدت فرائضه وكان يقوم بمثل هذا يخاطب الأجاب يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد دخلت على سري السقطي فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لي هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه فقلت أقرءوا عليه تلك الآية بعينها فقرأت فأذق فقال من أين قلت هذا فقلت رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل مخلوق فمخلوق أبصر ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق فاستحسن ذلك ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية كنت أقرأ ليلة هذه الآية - كل نفس ذائقة الموت - فجملت أرددها فإذا هاتف ينتف بي كم تردد هذه الآية فقد قلت أربعة من الجن ما رفعوا رءوسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو علي النبازي للشبلي : ربما أطرق سمعي آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرحع إلى أحوالي وإلى الناس فلا أبقى على ذلك فقال ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك وإذا ردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لا يصلح لك إلا التبري من الحول والقوة في التوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ - يا أيها النفس

عبد العزيزين صهيب
عن أنس قال كنا عند
رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذ نزل عليه
جبريل عليه السلام
فقال يا رسول الله إن
قراء أمك يدخلون
الجنة قبل الأغنياء
بنصف يوم وهو
خمسائة عام فخرج
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال هل
فيكم من ينشدنا فقال
بدوى نعم يا رسول الله
فقال هات فأنشأ
الأعرابي :

قد لست حية الهوى
كبدى

فلا طيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذي
شفعت به

فعنده رقيق وترياق

فتواجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وتواجد الأصحاب معه

حتى سقط رداؤه عن
منكبه فلما فرغوا أوى
كل واحد منهم إلى
مكانه قال معاوية بن
أبي سفيان ما أحسن

(١) حديث إن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله - فكيف إذا جئنا من كل أمة
بشهاد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - قال حبيب الحديث متفق عليه من حديثه (٢)
أنه قرأ - إن لدينا أنكالا وجعيا وطعاما ذا فصة وعذابا أليما - فصق ، ابن عدي في
الكامل والبيهقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبي الأسود مرسلا (٣)
أنه قرأ - إن تعذبهم فإنهم عبادك - فبكى ، مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (٤)
حديث كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر تقدم في تلاوة القرآن دون قوله واستبشر (٥)
حديث أنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز للرمل أبو داود والترمذي في التمهال من حديث عبد الله
ابن الشخير وقد تقدم .

الطمشة ارجعى إلى ربك راضية مرضية - فاستعادها من القارىء. وذل كم أقول لها ارجعى وليست ترجع وتواجد وزعق زعقة غرجت روحه وسمع بكربن معاذ قارئا يقرأ - وأنذرهم يوم الآزفة - الآية فاضطرب ثم صاح ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الانذار بطاعتك ثم غشى عليه وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله إذا سمع أحدا يقرأ - إذا السماء انشقت - اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد وعن محمد بن صبيح قال كان رجل يغتسل في الفرات فرث به رجل على الشاطئ يقرأ - وامتا زوا اليوم أيها المجرمون - فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات. وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شابا يقرأ فاتى على آية فاتشعر جلده فأحبه سلمان وقبده فسأل عنه فقيل له إنه مريض فأتاه بعوده فإذا هو في اللوت فقال يا عبد الله : رأيت تلك التشعيرة التي كانت بي فانها أنتى في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب. وبالجملة لا يغلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلا فـ مثله كمثل الذي ينق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عسى فهم لا يفتقون - بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسعيا قال جعفر الخلدی دخل رجل من أهل خراسان على الجنيـد وعنده جماعة فقال للجنيـد متى يستوى عند العبد حامده وذامه فقال بعض الشيوخ إذا دخل البهارستان وقيد بقيدين فقال الجنيـد ليس هذا من شأنك ثم أقبل على الرجل وقال إذا تحقق أنه مخلوق فشق الرجل شقة ومات. فان قلت فان كان سماع القرآن مفيدا للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئین فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في خلق القراء لخلق اللغنين وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارىء لا قوال فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة. فاعلم أن الغناء أشد تهيجا للوجد من القرآن من سببه أوجه. الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال السمع ولا تصلح لفهمه وتزيله على ما هو ملائـم له فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى - يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين - وقوله تعالى - والذين يرمون المخصنات - وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام لليراث والطلاق والحدود وغيرها وإنما المهرك لما في القلب ما يناسبه والآيات وإنما يضعها الشعراء إغرابا بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسع لتغيرها ومعه يتقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى - يوصيكم الله في أولادكم - حالة اللوت المخرج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخاف ماله وولده وما محبوباه من الدنيا فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعا فينقلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر الله في قوله - يوصيكم الله في أولادكم - فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده أو يخطر له رحمة الله على عباده وشقيقته بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظرا لهم في حياتهم وموتهم فيقول إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيبيع منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا أو يخطر له من قوله تعالى - للذكر مثل حظ الأنثيين - تفضيل الذكـر بكونه رجلا على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا لتلهيم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأن من ألغى غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لأن الرجال تحقيقا فيخشى أن يحب أو يؤخر في نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن فيه وصفان : أحدهما حالة غالبة مستغرقة قاهرة والآخر تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبية بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز فلاجل ذلك يفرع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها. وروى أن أبا الحسن بن النوري كان مع جماعة

لعلكم يا رسول الله فقال
مهيا معاوية ليس بكريم
من لم يهتز عند سماع
ذكر الحبيب ثم قسم
رداءه رسول الله صلى
الله عليه وسلم على من
حاضرهم بأربعة قطعة
فهذا الحديث أورده
مسندا كما سمعناه
ووجدناه وقد تكلم
في صحته أصحاب الحديث
وما وجدنا شيئا نقل
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم يشاكل
وجد أهل الزمان
وسماعهم واجتماعهم
وهيئتهم إلا هذا وما
أحسنه من حجة
للمصوية وأهل الزمان
في سماعهم وتمزيقهم
الحرق وقسمتها أن
لوصح والله أعلم ويخالف
سرى أنه غير صحيح
ولم أجد فيه ذوق
اجتماع النبي صلى الله
عليه وسلم مع أصحابه
وما كانوا يستمدونه
على ما بلغنا في هذا
الحديث وبأبي القلب
قبوله والله أعلم
بذلك.

في دعوى جفري بينهم مسألة في العلم وألحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :
 رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في قطن
 ذكرت إلها ودورها سالحا وبكت حزنا فهاجت حزني
 فبكائي ربما أرقها وبكاهها ربما أرقني
 ولقد أشكو لها أفهمها ولقد تشكو لها تفهمني
 غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

قال لما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجد ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا . الوجه الثاني : أن القرآن محفوظ لأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب وكما سمع أولا عظم أثره في القلوب وفي السكرة الثانية يضعف أثره وفي الثالثة يكاد يستقط أثره ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك ولو أبدل بيت آخر لتحدد له أثر في قلبه وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأول يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الإتيان عليه وكله محفوظ متكرر وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويكونون فقال كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا ولا تظن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقمى من قلوب الأجلاف من العرب وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ولكن التكرار على قلبه اقتضى للرون عليه وقلة التأثير به لما حصل له من الأثر بكثرة استماعه إذ حال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ثم يرددها ويبكي ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا غريبا جديدا ولكل جديد لغة ولكل طارىء صدمة ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أي يأنسوا به ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا يبكي وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره وقديم بمكة شهرا ولا يحسن من ذلك في نفسه بأثر فإذا المعنى يقدر على الآيات القرآنية في كل وقت ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة . الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات ولوزحف المعنى البيت الذي ينشده أولحن فيه أو مال على حديثك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل وجده ومعايه ونفر طبعه لعدم المناسبة وإذا نقر الطبع اضطرب القلب وتشوش فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر . الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والدستانات وإنما اختلاف تلك الطرق عند القصور وقصر المدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي يسيبه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوما كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم . الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات آخر موزونة خارج الخلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوى وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير وواجب أن يسان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق

[الباب السادس
والشعرون في خاصية
الأربعينية التي
يتأهدها الصوفية]
ليس مطلوب القوم
من الأربعين شيئا
خصوصا لا يطلبونه في
غيرها ولكن لما
طرقهم عائلات حكم
الأوقات أحبوا تقييد
الوقت بالأربعين
رجاء أن ينسحب حكم
الأربعين على جميع
زمانهم فيكونوا في
جميع أوقاتهم كبيتهم
في الأربعين على أن
الأربعين خصت بالذكر
في قول رسول الله صلى
الله عليه وسلم « من
أخلص لله أربعين
صباحا ظهرت ينابيع
الحكمة من قلبه على
لسانه » وقد خص الله
تعالى الأربعين بالذكر
في قصة موسى عليه
السلام وأمره بتخصيص
الأربعين بمزيد تبذل
قال الله تعالى « وواعدنا
موسى ثلاثين ليلة
وآمعناها بعشر فتم

صورة الله والحب والقرآن جد كله عند كافة الخلق فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو له عند العامة وصورة صورة الله عند الخاصة وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو بل ينبغي أن يقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ولا في حال الجنابة ولا على غير طهارة ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا الراغبون لأحوالهم فيمدل إلى الفناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف في العرس فقال «أظهروا النكاح ولو بضرب الغراب» (١) أو بلفظ هذا معناه وذلك جائز مع الشمر دون القرآن ولذلك لما دخل رسول الله ﷺ بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار ينفين فسمع إحداهن تقول وفيما نهد لم ما في غد على وجه الفناء فقال صلى الله عليه وسلم «دعى هذا وقول ما كنت تقولين» (٢) وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها ووردها إلى الفناء الذي هو لهو لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة الله فإذا اعتذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محرراً للقلب فواجب في الاحترام المدول إلى الفناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية المدول عن شهادة النبوة إلى الفناء. الوجه السادس: أن الفنى قد ينفي بيت لا يوافق حال السامع في فكره وينها عنه ويستدعى غيره فليس كل كلام موافقاً لكل حال فلو اجتمعوا في الدعوات على القارى فربما يقرأ آية لا توافق حاله إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال، فأيات الرحمة شفاء الحائف وآيات العذاب شفاء القروور الآمن وتفصيل ذلك مما يطول فاذا لا يؤمن أن لا يوافق القروور الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه فلا احتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى. وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيافته عن ذلك، وهذا ما ينقدح لى في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الفناء عن سماع القرآن. وههنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسى في الاعتذار عن ذلك فقال: القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الخطوط لأن نسبة الحقوق والشعر نسبتة نسبة الخطوط فاذا علقت الألحان والأصوات بما في الآيات من الاشارات والاطائف شاكل بعضها بعضاً كان أقرب إلى الخطوط وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق فمادامت البشرية أقيمت ونعمت بصفاتها وحفظوا تنعم بالنفحات الشجية والأصوات الطيبة فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الخطوط إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذى هو صفته وكلامه الذى منه بدأ وإليه يعود هذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره. وقد حكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الرى كنت أسأل عنه فكل من سأله عنه قال أبش تعمل بذلك الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف ثم قلت فى نفسى قد جئت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه فى مسجد وهو قاعد فى المجراب وبين يديه رجل ويده مصحف وهو يقرأ فاذا هو شيخ بهى حسن الوجه واللحية فسلمت عليه فأقبل على وقال

(١) حديث الأمر بضرب الدف فى العرس تقدم فى النكاح (٢) حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار ينفين الحديث البخارى من حديثها وقد تقدم فى النكاح.

مقات ربه أربعين ليلة - وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى فيه تبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام فلما فعل الله ذلك وأهلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً وهو ذو القعدة فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر خلفه فقتلوه بسود خرنوب قتالت له اللاتكة كنانهم من فيك رائحة المسك ففسدته بالسواك فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة وقال له أما علمت أن خلفك فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام

من أين أقبلت فقلت من بغداد فقال وما الذي جاء بك فقلت قصدتك للسلام عليك فقال لو أن في
بعض هذه البلدان قال لك إنسان أتم عندنا حتى نشترى لك داراً أو جارية أو كان يقصدك ذلك عن
الحيى فقلت ما امتحنى الله بشئ من ذلك ولو امتحنى ما كنت أدرى كيف أكون ثم قال لي آتسمن
أن تقول شيئاً فقلت نعم فقال هات فأنشأت أقول :

رأيتك تبني دائماً في قطيقتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأنى بك والبيت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ البيت لا يبنى

قال فأطبق الصحف ولم يزل يكي حتى ابتلت لحيتي وابتل ثوبه حتى رحمت من كثرة بكائه ثم قال يا بني
تلوم أهل الرأي يقولون يوسف زنديق هذا أنا من صلاة النداء أقرأ في الصحف لم تنظر من عيني
قطرة وقد قامت القيامة على هذين البيتين فإذا القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى فإن البيت
الغريب يهيج منها مالا تهيج تلاوة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ولكونه مشاكلاً
للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه وهو
لذلك معجز لا يدخل في قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن إسرائيل أستاذ ذى النون المصري
دخل عليه رجل فرآه وهو ينسكت في الأرض بأصبعه ويترنم بيت فقال هل تحسن أن ترنم بحسني
فقال لا قال فأنت بلا قلب أشاره إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الأبيات والنفحات
تحريكاً لا يصادف في غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره وقد ذكرنا حكم القام
الأول في فهم السمع وتزيله وحكم القام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب ، فلنذكر الآن أثر
الوجد أعني ما يترشح منه إلى الظاهر من ضيقة وبكاء وحركة وتزيق ثوب وغيره فنقول :

(القام الثالث من السماع)

نذكر فيه آداب السماع ظاهراً وباطناً وما يعمد من آثار الوجد وما يذم ، فأما الآداب فهي خمس جل
الأول : مراعاة الزمان والسكان والاخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء والإفلا تسمع
الزمان والسكان والاخوان ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو صارف
من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له .
وأما للسكان فقد يكون شارعاً مطروقاً أو موضعاً كره الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب
ذلك . وأما الاخوان فسيببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع مترهذ الظاهر مفلس من
لطائف القلوب كان مستقلاً في المجلس واشتغل القلب به وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا
يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرأى بالوجد والرقص وتزيق
السياب فكل ذلك مشوشات فترك السماع عند هذه الشروط أولى ففي هذه الشروط نظر للمستمع .
الأدب الثاني : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله يريدون بضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع
في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة أقسام درجة هو
الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع فاشتغاله بالسماع اشتغال بما
لا يفي به فانه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر
أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه . الثاني : هو الذي له ذوق السماع ولكن فيه بقيت من الحظوظ
والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكساراً تؤمن غوائله فرمياً بهيج
السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال . الثالث : أن يكون
قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم

بالتبار وأكله بالليل
بل طوى الأربعين
من غير أكل فدل على
أن خلوا للعدة من
الطعام أصل كبير في
الباب حتى احتاج موسى
إلى ذلك مستمداً للمكاملة
الله تعالى والعلوم
الالهيّة في قلوب
المتقنين إلى الله تعالى
ضرب من المكاملة
ومن انقطع إلى الله
أربعين يوماً مخلصاً
متاهناً نفسه بغفة
للجنة يفتح الله عليه
العلوم الالهيّة كما أخبر
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بذلك غير
أن تعيين الأربعين
من اللذة في قول رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وفي أمر الله تعالى موسى
عليه السلام بذلك
والتحديد والتقييد
بالأربعين لحكمة فيه
ولا يطلع أحد على حقيقة
ذلك إلا الأنبياء إذا
عرفهم الحق ذلك أو من
يخصه الله تعالى
بمعرف ذلك من غير

ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل فاذا فتح له باب السماع نزل السموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السماع . قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل فلا يصلح السماع لمثل هذا ولأن قلبه بدمالوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ولأنه يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضمراء عنه قال الجنيد : رأيت إيايس في النوم قلت له هل تغفّر من أصحابنا شيء قال نعم في وقتين وقت السماع ووقت النظر فاني أدخل عليهم به فقال بعض الشيوخ لورأيته أنا قلت له ما أحقك من ميع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تغفّر به فقال الجنيد صدقت . الأدب الثالث : أن يكون مصفيا إلى ما يقول القائل حاضر القلب قليل الالتفات إلى الجوانب متحرزا عن النظر إلى وجوه السامعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم بل يكون ساكن للظاهر هادئ الأطراف متحفظا عن التنحن والثأوب ويجلس مطرفا رأسه كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراعاة ساكنا عن النطق في أثناء القول بكل ما عنه بد فان غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه ولا ينبغي أن يستدعيه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ولأن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقّة . حكى أن شابا كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعم فقال له الجنيد يوما إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزعم فحكى أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشقق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه . وروى أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل ففرق واحد منهم ثوبه أوقيصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له مزق قلبك ولا تمزق ثوبك قال أبو القاسم النضر اباضى لأبي عمرو بن عبيد أنا أقول إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يتناوبا فقال أبو عمرو الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تقتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك . فان قلت الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه ، فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن ولكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها فلا يتبين للسمع مزيد تأثير وهو غاية الكمال فان صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم فهو الرابط للحق واللازم لمعين الشهود فهذا لا تغرر طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضى الله عنه كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا معناه قويت قلوبنا واشتدت فصار تطبيق ملازمة الوجد في كل الأحوال فتحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا في حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به فإذا قوة الوجد تحرك قوة العقل والتماسك فنضبط الظاهر وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدة قوته وإما لضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أنهم وجدوا من الساكن باضطرابه بل رب ساكن أم وجدنا من المضطرب قد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقليل له في ذلك فقال - وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء - إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في اللسكوت

الأنبياء ويلوح في سر ذلك معنى والله أعلم وذلك أن الله تعالى لما أراد تكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد كما ورد خمرة طينة آدم بيده أربعين صباحا فكان آدم لما كان مستصلا لعمارة الدارين وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كونه من التراب تركيا يناسب عالم الحكمة والشهادة وهذه الدار الدنيا وما كانت عمارة الدنيا تأتي منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه وأربعين صباحا خمرة طينته ليعبد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا ويتعوق به عن الحضرة الإلهية

والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة : صحبت سهل ابن عبد الله ستين سنة فأرايته تغير عنده شيء . كان يسمه من الذكر أو القرآن فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه - فالיום لا يؤخركم فدية - الآية فأرايته قد ارتعد وكاد يسقط فلما عاد إلى حاله سأله عن ذلك فقال نعم يا حبيبي قد ضعفنا وكذلك مع مرة قوله تعالى - للملك يومئذ الحق لرحمن - فاضطرب فسأله ابن سالم وكان من أصحابه فقال قد ضعف قليله فان كان هذا من الضعف فما قوة الحال فقال أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله فلا تفره الواردات وإن كانت قوية وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بعلزمة الشهود كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال حالتي قبل الصلاة وبديها واحدة لأنه كان مراعيًا لقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال فكذلك يكون قبل السماع وبمده إذ يكون وجهه دائمًا وعطشه متصلًا وشربه مستمرًا بحيث لا يؤثر السماع في زيادته كما روى أن عمشاد الدينوري أشرف على جماعة فيهم قال فسكتوا فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغلني ولا شغني بعض ما بي . وقال الجنيد رحمه الله تعالى لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم وفضل العلم أنم من فضل الوجد فان قلت فمثل هذا لم يحضر السماع فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادرا للمساعدة أخ من الإخوان وإدخلا للسرور على قلبه وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس السكالب بالوجد الظاهر فيعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به في صيرورته طبعالهم وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم كما يجلسون من غير جماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضي الجلوس معهم وبعضهم تقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو تركه لئلا يكون مشغولا بما لا ينيه وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم لم لا تسمع فقال ممن ومع من . الأدب الرابع : أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تابا كي فهو مباح إذا لم يقصد به للرأاة لأن التباكي استجلاب للحزن والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط فكل سرور مباح فيجوز تحريكه ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفون (١) هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات وقد روى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في تريبتها فقال صلى الله عليه وسلم لعل « أنت مني وأنا منك فحجج علي وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلق فحجج وراءه فحجج علي وقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجج زيد وراءه فحجج جعفر ثم قال عليه السلام هي لجعفر لأن خالتها تحتها والحالة والدة (٢) » وفي رواية أنه قال لعائشة رضي الله عنها « آتبعين أن تنظري إلى زفن الحبشة » والزفن والحجل هو الرقص وذلك يكون للفرح أو شوق فحكمه حكم مهيجه إن كان فرحه محمودا والرقص يزيد ويؤكده فهو محمود وإن كان مباحا فهو مباح وإن كان مذموما فهو مذموم نعم لا يلبق اعتياد ذلك بمنصب الأكابر وأهل القدوة لأنه

(١) حديث نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفون تقدم في الباب قبله (٢) حديث اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعل أنت مني وأنا منك فحجج علي وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلق فحجج وراءه فحجج علي وقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجج الحديث أبو داود من حديث علي باسناد حسن وهو عند البخاري دون فحجج .

ومواطن القرب إذ لم يتوق بهذا الحجاب ما سمعت الدنيا فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لمعارضة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى في الأرض فالتبطل لطاعة الله تعالى والاقبال عليه والاتزاع عن التوجه إلى أمر اللماش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع على قدر زوال كل حجاب يتجذب ويتخذ منزلا في القرب من الحضرة الإلهية التي هي مجمع العلوم ومصدرها فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت أنوارا باتصال اكسير نور العظمة الإلهية بها فانقلبت أعيان حديث النفس علوما إلهامية وقصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة فلولا وجود

في الآ كثر يكون عن لهُو ولصب وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به
 لثلايصفر في أعين الناس فيترك الاقتداء به . وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن
 الاختيار ولا يبعد أن يظلم الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لعلبة سكر الوجد عليه أو يدري
 ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه وتكون صورته صورة السكره إذ يكون له
 في الحركة أو التمزيق متنفس فيضطر إليه اضطرار للرخص إلى الأنيب ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه
 مع أنه فعل اختياري فليس كل فعل حصوله بالارادة يقدر الانسان على تركه فالتنفس فعل يحصل بالارادة
 ولو كلف الانسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس فكذلك الرخصة
 وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد
 الغالب فقال نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري فروجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر
 عليه ولم يرجع ومعناه أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص . فان قلت فأتقول
 في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فانهم يمزقونها قطعاً صفاراً
 ويفرقونها على القوم ويسمونها الحرقه . فأعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب
 والتجادات فان السكران يمزق حتى يغط منه القميص ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لفرض
 وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصفار وذلك مقصود والتفرقة على الجميع ليم ذلك الخير
 مقصود مباح ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين ولكن ينبغي أن تكون
 القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاق وإنما منعنا في السماع التمزيق للفسد للثوب الذي يهلك بعضه
 بحيث لا يبقى متفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار . الأدب الخامس : موافقة القوم في القيام
 إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف . أوقام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له
 الجماعة فلا بد من للموافقة فذلك من آداب الصحة وكذلك إن جرت عادة طائفة بتحية العامة على
 موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق فالموافقة في هذه
 الأمور من حسن الصحة والعشرة إذا مخالفتها موحشة ولكل قوم رسم ولا بد من مخالفة الناس بأخلاقهم (١)
 كما ورد في الخبر لاسيما إذا كانت أخلاقاً فيها حسن العشرة والجمالة وتطيب القلب بالمساعدة وقول
 القائل إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة فليس كل ما يحكم بإباحته منقولاً عن الصحابة رضي الله عنهم
 وإنما المندور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ولم ينقل النبي عن شيء من هذا والقيام عند الدخول
 للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرؤس رسول الله ﷺ في بعض
 الأحوال (٢) كما رواه أنس رضي الله عنه ولكن إذا لم يثبت فيه شيء عام فلا نرى به بأساً في البلاد التي جرت
 العادة فيها باكرام الداخل بالقيام فإن القصد منه الاحترام والاكرام وتطيب القلب به وكذلك سائر
 أنواع المساعدات إذا قصد بها تطيب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها بل الأحسن
 المساعدة إلا فيما ورد فيه شيء لا يقبل التأويل ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستعمل
 رقصه ولا يشوش عليهم أجوالهم إذا رقص من غير إظهار التواجد مباح والتواجد هو الذي يلوح للجمع
 منه أثر التكلف ومن يقوم عن صدق لا تستثله الطباع قلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب
 محك للصدق والتكلف . مثل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال محمته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا

النفس وحديثها
 ما ظهرت العلوم الالهية
 لأن حديث النفس
 وطاء وجودى لقبول
 الأنوار وما للقلب في
 ذاته لقبول العلم شيء
 وقول رسول الله صلى
 الله عليه وسلم «ظهرت
 ينابيع الحكمة من
 قلبه على لسانه» أشار
 إلى القلب باعتبار أن
 للقلب وجهاً إلى النفس
 باعتبار توجهه إلى عالم
 الشهادة وله وجه إلى
 الروح باعتبار توجهه
 إلى عالم الغيب فيستمد
 القلب العلوم للكونة
 في النفس ويخرجها
 إلى اللسان الذي هو
 ترجمانه فظهور العلوم
 من القلب لأنها متأسمة
 فيه فالقلب والروح
 مراتب من قرب اللهم
 سبحانه وتعالى فوق
 رب العالمين فالعبد
 باقطاعه إلى الله تعالى
 واعتزال الناس يقطع
 مسافات وجوده
 ويستنبط من معدن
 نفسه جواهر العلوم

(١) حديث مخالفة الناس بأخلاقهم الحاكم من حديث أبي ذر خالفوا الناس بأخلاقهم الحديث قال
 صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث كانوا لا يقومون لرؤس رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
 الأحوال كما رواه أنس تقدم في آداب الصحة .

أشكالا غير أضداد . فإن قلت فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين فلا يراه ذو وجد في الدين إلا وينكره . فاعلم أن الجدل لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى الحبشة يزفون في المسجد وما أنكروه لما كان في وقت لا ترق به وهو العيد ومن شخص لا ترق به وهم الحبشة نعم نقرة الطباع عنه لأنه يرى غالباً مقرونا باللهو واللعب واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم وهو مكروه لدوى الناصب لأنه لا يليق بهم وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغبنا كان ذلك طاعة مستحسنة ولو سأل ملكا فأعطاه رغبنا أو رغبين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ويعبر به أعباه وأشياعه ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خيرا للفقير حسن ومن حيث إنه بالاضافة إلى منصبه كالمع كالمع بالاضافة إلى الفقير مستحب فكذلك الرقص وما يجري مجراه من اللباعات ومباحات العوام سيئات الأبرار وحسنات الأبرار سيئات القرين ولكن هذا من حيث الالتفات إلى الناصب وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراما محضا وقد يكون مباحا وقد يكون مكروها وقد يكون مستحبا أما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات الذمومة وأما المكروه فهو لمن ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذ عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو وأما المباح فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

﴿ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بجمعه . ولا تستمنع النعم إلا بواسطة كرمه ورفده . والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسول الله وعبد . وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .
[أما بعد] فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين . وهو المم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين . ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستمرى الفساد واتسع الحرق وخربت البلاد . وهلك العباد . ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد . وقد كان الذي خفنا أن يكون . فإن الله وإننا إليه راجعون . إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه . وانعقد بالكلية حقيقته ورسمه . فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانعجت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم . وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم . فمن سعى في تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتشعرا في إحيائها كان مستاثرا من بين الخلق بأحياء سنة أفضى الزمان إلى إقامتها . ومستبدا بقرية تتضائل درجات القرب دون ذروتها . وهانحن نشرح علمه في أربعة أبواب . الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقضيلته . الباب الثاني : في أركانه وشروطه . الباب الثالث : في مجاريه وبيان

وقد ورد في الخبر « الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا قفقوا » ففي كل يوم باخلاصه في العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجلية البعدة عن الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة في كل يوم طبقة من أطباق حجاب آية صفة هذا المبدوع علامة تأثره بالأربعين ووفاته بضروط الاخلاص أن يزهد بعد الأربعين في الدنيا ويتجافى عن دار القرور وينيب إلى دار الخلود لأن الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ومن لم يزهد في الدنيا ماظفر بالحكمة ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد أخلّ بالشروط ولم يخلص لله تعالى ومن لم يخلص لله ما عبد

(كتاب الأمر بالمعروف)

النكرات المألوفة في العادات . الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر .
(الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته)

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه الآيات والأخبار والآثار . أما الآيات :
ف قوله تعالى - ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
الفلحون - ففي الآية بيان الإيجاب فان قوله تعالى ولتكن أمر وظاهر الأمر الإيجاب وفيها بيان أن
الفلاح منوط به إذ حصر وقال وأولئك هم الفلحون وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا
قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال ولتكن منكم
أمة فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين
وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لاحالة وقال تعالى - ليسوا سواء من أهل
الكتاب أمة فآمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين - فلم يشهد لهم بالصالح بمجرد
الايان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال تعالى - وللمؤمنون
والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة - وقد نفت
للمؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فإلذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
خارج عن هؤلاء للمؤمنين للمؤمنين في هذه الآية ، وقال تعالى - لمن الدين كفروا من بني إسرائيل على
لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتأخعون عن منكر فعلوه
لبئس ما كانوا يفعلون - وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر وقال من
وجل - كنتم خيراً أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر - وهذا يدل على فضيلة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى - فلما نسوا
ما ذكروا به آجبنا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعباد بئس بما كانوا يفعلون - فبين
أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن سوء ويدل ذلك على الوجوب أيضاً . وقال تعالى - الذين إن مكناهم
في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر - قرن ذلك بالصلاة
والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان - وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب
الامكان وقال تعالى - لولا بنهام الربايون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا
يصنعون - فبين أنهم أثموا بترك النهي وقال تعالى - فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون
عن الفساد في الأرض - الآية فبين أنه أهلك جميعهم لإقلالهم كانوا ينهون عن الفساد وقال تعالى
- يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالمسطر شهداء لله ولوطي أنفسكم أو الوالدين والأقربين - وذلك هو
الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى - لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف
أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً - وقال تعالى
- وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو بينهما - الآية والإصلاح نهى عن البغي وإعادة إلى الطاعة
فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال - فقاتلوا التي تبغى حق تنفي إلى أمر الله وذلك هو النهي عن
المنكر . وأما الأخبار : فمنها ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها :

(الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف)

الله لأن الله تعالى
أمرنا بالاخلاص كما
أمرنا بالعمل فقال
تعالى - وما أمروا إلا
ليعبدوا الله مخلصين له
الدين - أخبرنا الشيخ
طاهر بن أبي الفضل
إجازة قال أنا أبو بكر
أحمد بن خلف إجازة
قال أنا أبو عبد الرحمن
السلي قال أنا
أبو منصور الضبي قال
ثنا محمد بن أشرس
قال ثنا حفص بن
عبد الله قال ثنا إبراهيم
ابن طهمان عن عاصم
عن زر عن صفوان
ابن عسال رضي الله
عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « إذا
كان يوم القيامة يحيى
الإخلاص والشرك
يخثوان بين يدي الرب
من وجل ، فيقول
الرب للإخلاص انطلق
أنت وأهلك إلى الجنة
ويقول للشرك انطلق
أنت وأهلك إلى النار .
وهذا الاسناد قال
السلي سمعت علي بن

أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها - يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم (١) لا يضركم من ضل إذا اهتديتم - وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده » وروى عن أبي ثعلبة الخشني « أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى - لا يضركم من ضل إذا اهتديتم (٢) - فقال يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وأنه عن المنكر فإذا رأيت شعرا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام إن من ورائكم قتنا كقطع الليل الظلم للتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم قيل بل منهم يارسل الله قال لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون عليه أعوانا » وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال إن هذا ليس زمانها إنما اليوم مقبولة ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم فينشد عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (٣) » معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجى (٥) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنهك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله العبد حجة قال رب وثقت بك وفرقت من الناس (٦) » وقال ﷺ « يا أيكم والجلوس على الطرقات قالوا ما لنا بذلك إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق قال غصن البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلام ابن آدم كله عليه لاله إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكر الله تعالى (٨) »

(١) حديث أبي بكر أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها - يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم - الحديث أصحاب السنن وتقدم في العزلة (٢) حديث أبي ثعلبة أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى - لا يضركم من ضل إذا اهتديتم - الحديث أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه (٣) حديث لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف والترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال أو ليوشك أن يعذبكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم قال هذا حديث حسن (٤) حديث يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ مروا وانموا وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين (٥) حديث ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى - ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مقتصر على الشطر الأول من حديث جابر بسند ضعيف وأما الشطر الأخير فرواه على ابن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلا أو معضلا ولا أدري من يحيى ابن عطاء (٦) حديث إن الله تعالى ليسأل العبد ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه وقد تقدم (٧) حديث يا أيكم والجلوس على الطرقات الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد (٨) حديث كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمرا بمعروف الحديث تقدم في العلم .

سعيد وسأله عن
الاخلاص ما هو قال
سمعت إبراهيم الشفيقي
وسأله عن الاخلاص
ما هو قال سمعت محمد
ابن جعفر الحفاف
وسأله عن الاخلاص
ما هو قال سألت أحمد
ابن بشار عن الاخلاص
ما هو قال سألت أبا
يعقوب الشروطى عن
الاخلاص ما هو قال
سألت أحمد بن غسان
عن الاخلاص ما هو
قال سألت أحمد بن
على الهجيمي عن
الاخلاص ما هو قال
سألت عبد الواحد بن
زيد عن الاخلاص
ما هو قال سألت الحسن
عن الاخلاص ما هو
قال سألت حذيفة عن
الاخلاص ما هو قال
سألت النبي صلى الله
عليه وسلم عن
الاخلاص ما هو قال
سألت جبريل عليه
السلام عن الاخلاص
ما هو قال سألت رب
العزة عن الاخلاص

وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ^(١) » وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك لكانن يارسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه يارسول الله قال كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن منكر قالوا وكان ذلك يارسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه سيكون قالوا وما أشد منه قال كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف قالوا وكان ذلك يارسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول الله تعالى في حلفت لأتبعن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران ^(٢) » وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ^(٣) » قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له ^(٤) » وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور المواقف التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره فإنه قال اللعنة تنزل على من حضر ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم للمنكرات في الأسواق والأعياد والجماع وعجزهم عن التغيير وهذا يقتضي لزوم الهجر للخلق ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ماسح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمنزل منازل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ورأوا أنه لا يقبل عن تكلم ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعذبهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلطون منه فرأوا أن يحاوره السباع وأكل البقول خير من محاورة هؤلاء في نصيحهم ثم قرأ - فمروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين - قال فقروم فلولوا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر قلنا ما هم بأفضل من هؤلاء فبالمنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصفاهم والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ويسألها أين أمرت فتخبره وليس بني . وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حضر معصية فكرهاها فكأنه غاب عنها »

(١) حديث إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر الحديث أحد من حديث عدى ابن عميرة وفيه من لم يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه (٢) حديث أنى أمانة كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك لكانن يارسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه قال كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر الحديث ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصر على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها دون الآخرين وإسناده ضعيف (٣) حديث عكرمة عن ابن عباس لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه الطبراني بسند ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن (٤) حديث لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذي قبله وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد لا يعن من رجلا هيئة الناس أن يقول الحق إذا علمه .

ما هو ؟ قال هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادي فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة مبالغة إلى مخالطة الخلق فإذا أزعجها عن مقام عاداتها وحبسها على طاعة الله تعالى يعقب كل مرارة تدخل عليها خلوة في القلب . قال ذو النون رحمه الله : لم أر شيئا أهدى على الاخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة ، فقد استمسك بممود . الاخلاص وظفر بركن من أركان الصدق . وقال الشبلي رحمه الله لرجل استوصاه الزم الوحدة وامح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت . وقال يحيى ابن معاذ رحمه الله الوحدة منية الصديقين ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة

ومن غاب عنها فأحبها فمكانه حضرها (١) » ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك بين يديه فأما الحضور قصدا فممنوع بدليل الحديث الأول . وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يميل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيه فإذا انقضوا كان من بعدهم قوم يركبون ردوس النابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيت ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم يده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلمه وليس وراء ذلك إسلام (٢) » وقال ابن مسعود رضي الله عنه كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة هرينكرون ما يعملون فقام أحدهم فقال إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينهاتهم ويخبرهم بقبائح ما يصنعون فحصلوا يردون عليه ولا يرعون عن أعمالهم فسبهم فسبوه وقتلهم فطلبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وشببتهم فسبوني وقتلتهم فطلبوني ثم ذهب ثم قام الآخر فنهتهم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وشببتهم فسبوني ولو قاتلتهم لطلبوني ثم ذهب ثم قام الثالث فنهتهم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لطلبوني ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لصبوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لطلبوني ثم ذهب قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما « قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم قيل بم يا رسول الله قال بها ونهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى (٣) » وقال جابر ابن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال اقلبها عليه وعليهم فان وجهه لم يتمعر في ساعة قط (٤) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يعضون فيه ولا يأمررون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر (٥) » وعن عروة عن أبيه قال : قال موسى صلى الله عليه وسلم : يارب أي عبادك أحب إليك قال الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه والذي يكلف بعباد الصالحين كما يكلف الصبي بالثدي والذي يغضب إذا أتيت محارمي كما يغضب النمر لنفسه فان النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفاري

(١) حديث أبي هريرة من حضر معصية فكرها فمكانه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فمكانه حضرها رواه ابن عدي وفيه يحيى بن أبي سليمان قال البخاري منكر الحديث (٢) حديث ابن مسعود ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى الحديث روى مسلم نحوه (٣) حديث ابن عباس قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون قال نعم قيل بم يا رسول الله قال بها ونهم وسكوتهم عن معاصي الله البزار والطبراني بسند ضعيف (٤) حديث جابر أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا الحديث الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول مالك بن دينار (٥) حديث عائشة عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء لم أقف عليه مرفوعا وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني أوحى الله إلى يوشع بن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار قال إنهم لم يعضبوا لتضيئ فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم

وتتجذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدلى على كمال الاعتماد . وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال أخبرنا الحافظ أبو القاسم اسمعيل ابن أحمد القرى قال أنا جعفر بن الحكك للكي قال أنا أبو عبد الله الصنعاني قال أنا أبو عبد الله البغوي قال أنا اسحق الديري قال أنا عبد الرزاق عن معمر قال أخبرني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت « أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه « يا رسول الله هل من جهاد غير قتال للشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهد في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يعيشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزيت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله ومن هم ؟ قال الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله واللبضون في الله ثم قال والذي نفسي بيده إن العبد منهم ليكون في الرفقة فوق الرفقات فوق غرف الشهداء للرفقة منها ثلثمائة ألف باب من الياقوت والمرمذ الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج ثلثمائة ألف حوراء فاصرات الطرف معي كما التفت إلى واحدة منهم فنظر إليها تقول له أئذك يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر كما نظر إلى واحدة منهم ذكرت له مقاماً أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر ^(١) » وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت « يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عز وجل قال رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فان لم يقتله فان القلم لا يجرى عليه بعد ذلك وإن عاش ما طاش ^(٢) » وقال الحسن البصري رحمه الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل شهداء أمي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزله في الجنة بين حمزة وجعفر ^(٣) » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بشئ القوم قوم لا يأمرهم بالقسط وبشئ القوم قوم لا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ^(٤) » . أما الآثار :

فقد قال أبو البرداء رضي الله عنه : ثلث أمرن بالمعروف وثنتين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يعمل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تتصرون وتستغفرون فلا ينظر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال الذي لا ينكر للمنكر يده ولا لسانه ولا قبله . وقال مالك بن دينار كان خبر من أخبار بني إسرائيل ينشئ الرجال والنساء منزله يعظمهم ويدكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض فيه يوماً وقد غمز بعض النساء فقال مهلاً يا بني مهلاً وسقط من سريره فاقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه أن أخبر فلانا الخبر آتى لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً أما كان من غضبك لي إلا أن قلت مهلاً يا بني مهلاً وقال حذيفة يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم

(١) حديث أبي ذر قال أبو بكر يا رسول الله هل من جهاد غير قتال للشركين قال نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهد في الأرض أفضل من الشهداء فذكر الحديث وفيه فقال هم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الحديث بطوله لم أقضه على أصل وهو منكر (٢) حديث أبي عبيدة قلت يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله قال رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله الحديث البزار مقتصراً على هذا دون قوله فان لم يقتله إلى آخره وهذه الزيادة منكورة وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف (٣) حديث الحسن البصري مرسل أفضل شهداء أمي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزله في الجنة بين حمزة وجعفر بن أرو من حديث الحسن وللحاكم في المستدرک وصححه إسناده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله (٤) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا بني لا تأمرهم بالقسط وبشئ القوم قوم لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأغار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه على ابن مبد في كتاب الطاعة والخصية من حديث الحسن مرسل .

يأتي حراء فينتحنت فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال اقرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ من الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم رجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة مالي وأخبرها الخبر فقال

وبيناهم وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام إن هلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم فقال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار قال إنهم لم يفضبوا لفضي وواكلوهم وشاربوهم وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالامة ، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني كيف منزلتك من قومك ؟ قال حسنة . قال كعب إن التوراة لتقول غير ذلك . قال وما تقول ؟ قال تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه فقال صدقت التوراة وكذب أبو مسلم ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يأتيان العمال ثم قعد عنهم فقبل له لواتينهم فلعلمهم يحدون في أنفسهم فقال أرباب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي وإن سكت رعبت أن آثم وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك للوضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشاهدته ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بالسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان فهو بمن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بمنهاو الغاية في حقها ، وقيل للفضيل الأتامي ونهى ؟ فقال إن قوماً أمروا ونهوا فسكروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصبوا ، وقيل للثوري الأتامي بالمعروف ونهى عن المنكر فقال إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به فلذلك ذكر الآن شروطه وشروط وجوبه .

(الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه)

اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة المحتسب والمحتسب عليه والمحتسب فيه ونفس الاحتساب فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروط .

(الركن الأول المحتسب)

وله شروط وهو أن يكون مكلفاً مسلماً قادراً فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والمأجور ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مآذونين ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة ، فلذلك كروجه اشتراط ما اشتراطناه ووجه اطراح ما اطرحناه . أما الشرط الأول : وهو التكليف فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل حتى إن الصبي الزاهق للبلوغ المميز وإن لم يكن مكلفاً فله إنكار المنكر وله أن يريق الحجر ويكسر اللهاى وإذا فعل ذلك نال به ثواباً ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف فإن هذه قرينة وهو من أهلها كالصلاة والامامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ولذلك أثبتناه للعباد وآحاد الرعية نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أميابه وسلب أسلحته فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضره فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر . وأما الشرط الثاني : وهو الإيمان فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوه . وأما الشرط الثالث : وهو العدالة فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب ، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى - أأمرون الناس بالبر وهمون أنفسهم -

(الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه)

قد خشيت على عقل
فقلت كلا أجب فوالله
ما يغريك الله أبداً
إنك لتصل الرحم
وتصدق الحديث
وتعمل الكل وتكسب
للمعصوم وتقرى الضيف
وتعين على نواب الحق
ثم انطلقت به خديجة
رضي الله عنها حتى أتت
به ورقة بن نوفل
وكان امرأاً تنصر في
الجاهلية وكان يكتب
الكتاب العبراني
فيكتب من الانجيل
بالعبرانية ما شاء الله أن
يكتب وكان شيخاً
كبيراً قد غمى فقالت
له خديجة يا عم اسمع
من ابن أخيك فقال
ورقة يا ابن أخي ماذا
ترى فأخبره الخبر
رشول الله صلى الله
عليه وسلم فقال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم
هذا هو الناموس
الذي أنزل على موسى
باليثني فيها جذعا ليتنى
أكون حياً إذ يخرجك
قومك فقال رسول الله

وقوله تعالى - كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون - وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مررت ليلة أسرى بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قعلت من آثم فقالوا كئنا نأمر بالخير ولا نأته ونهى عن الشر» ونأته (١) «وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم عظم نفسك فإن اتفقت ففظ الناس وإلا فاستحي مني» ، وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتمام وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة والاصلاح زكاة عن نصاب الصلاح فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ومضى يستقيم الظل والعود أعوج وكل ما ذكره خيالات وإنما الحق أن الفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن قول هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها فإن شرط ذلك فهو خرق للاجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عن دونهم والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى العصية وكذا جماعة من الأنبياء ، ولهذا قال سعيد بن جبير : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء فأنجب مالكا ذلك من سعيد ابن جبير وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر حتى يجوز للابن الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فتقول : وهل لشارب الخمر أن يفرض الكفار ويحتسب عليهم بالنهي من الكفر فإن قالوا لا ، خرقوا الاجماع إذ جنود المسلمين لم ينزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو لافي عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده فإن قالوا نعم فتقول : شارب الخمر هل له النهي من القتل أم لا فإن قالوا لا فلنا في الفرق بينهما وبين لابس الحرير إذ جازله النهي من الخمر والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لابس الحرير فلا فرق ، وإن قالوا نعم وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عما دونه وإنما يمنع عما فوقه فهذا تحكم فانه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلامه وخدمته من الشرب ويقول يجب على الانتهاء والنهي فمن أين يلزم من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثاني وإذا كان النهي واجبا على فمن أين يسقط وجوبه باقدا متى إذ يستحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط عنه النهي . فان قيل فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأنسحر وإن لم أصم لأن الاستحباب على السحور والصوم جميعا ولكن يقال أحدهما مرتب على الآخر فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يقول . والجواب أن التسحر يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحبا وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتيب أحدهما على الآخر تحكم ، وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤديا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والانتهاء أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة . وأما الحسبة فليست شرطا في الانتهاء والاثم فلا مشابهة بينهما . فان قيل فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول أنت مكرهة في الزنا وعثرة في كشف الوجه لغير محرم وما أنا غير محرم لك فاسترى وجهك فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشمنه كل طبع سليم . فالجواب أن الحق قد يكون شنيعا وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع والتبع

(١) حديث مررت ليلة أسرى بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار الحديث تقدم في العلم .

صلى الله عليه وسلم
أو أخرجني هم قال ورقة
نعم إنه لم يأت أحد قط
بما جئت به إلا عودي
وأودى وإن يدركني
يومك أنصرك نصرا
مؤزرا وحدث جابر
ابن عبد الله رضي الله
عنه قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وهو يحدث عن قصة
الوحى فقال في حديثه
«فبينما أنا أمشي سمعت
صوتا من السماء فرفعت
رأسي فإذا الملك الذي
جاءني بحراء جالس
على كرسي بين السماء
والأرض فجئت منه
رعبا فرجعت قعلت
زملوني زملوني
فدثروني فأنزل الله
تعالى - يا أيها المدثر
فأنذر - إلى - والرجز
فاهجر - » وقد نقل أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذهب مرارا
كي يردى نفسه من
شوايق الجبال فكلمها
وأنى ذروة جبل لكي
يلقى نفسه منه تبدي له

الدليل دون قرة الأوهام والخيالات فانا نقول قوله لها في تلك الحالة لا تكشف وجهك واجب أو مباح أو حرام فان علمت إنه واجب فهو الفرض لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق وإن قلتم إنه مباح فإذن له أن يقول ما هو مباح فامعنى قولكم ليس للفاسق الحسبة وإن قلتم إنه حرام فقول كان هذا واجبا فمن أين حرم باقدامه على الزنا ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر وأما قرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسيئين : أحدهما أنه ترك الأثم واعتزل بما هو مهم وكما أن الطباع تنفر عن ترك اللهم إلى ما لا ينفى تنفر عن ترك الأثم والاشتغال بالمهم كما تنفر عمن يتخرج عن تناول طعام منصوب وهو مواظب على الربا وكما تنفر عمن يتصاوم عن النية ويشهد بالزور لأن الشهادة بالزور أغش وأشد من النية التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه الخبر وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك النية ليس بواجب وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته فكذلك ضرره في الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع من حيث إنه ترك الأكثر لامن حيث إنه أتى بالأقل فمن غضب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك القرس قهرت عنه الطباع ويرى مسيئا إذا قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكرو ولكن للنكر تركه لطلب القرس بطلب اللجام فاشتد الانكار عليه لتركه الأثم بما دونه فكذلك حبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لا يدل على أن حسبه من حيث إنها حبة مستنكرة . الثاني أن الحسبة تارة تكون بالهوى بالوعظ وتارة بالقهر ولا يجمع وعظ من لا يعظ أولا ونحن نقول من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ إذا لا فائدة في وعظه فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر وتعم القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا وإذا كان فاسقا فان قهر بالفعل قد قهر بالحجة إذ يتوجه عليه أن يقال له فأنت لم تقدم عليه فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن من يذب الظالم عن آحاد المسلمين وبهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يعظ وإذا لم يكن عليه ذلك وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالانكار فنقول ليس له ذلك أيضا فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمر وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر وهذا غاية الانصاف والكشف في السئلة وأما الآيات التي استدلو بها فهو انكار عليهم من حيث تركهم المعروف لامن حيث أمرهم ولكن أمرهم دل على قوة عليهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة علمه وقوله تعالى - لم تقولون مالا تفعلون - للرد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل - وتنسون أنفسكم - إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لامن حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على علمهم وتأكيدها للحجة عليهم وقوله يا ابن مريم عظ نفسك الحديث هو في الحسبة بالوعظ وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه ثم قوله فاستحى من لا يدل على تهريم وعظ الغير بل معناه استحي من فلا ترك الأثم وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحى . فان قيل فليجز للكافر القبح أن يحتسب على المسلم إذا رآه زنى لأن قوله لا تزن حق في نفسه فمعامل أن يكون حراما عليه بل ينبغي أن يكون مباحا

جبرائيل عليه السلام
قال يا محمد إنك
لرسول الله حقا فيسكن
لك ذلك جاشعوا إذا طالت
عليه فترة الوحي عاد
مثل ذلك فيبتدى له
جبريل فيقول له مثل
ذلك فهذه الأخبار
المنبهة عن بدء أمر
رسول الله صلى الله
عليه وسلم هي الأصل
في إشار الشايخ الحلوة
للمريدين والطلاب
فانهم إذا أخلصوا الله
تعالى في خلواتهم يفتح
الله عليهم ما يؤنسهم في
خلواتهم ثم يضيء من الله
إياهم عما تركوا لأجله
ثم خلوة القوم مستمرة
وإنما الأربعون
واستكمالها له أثر
ظاهر في ظهور مبادئ
بشار الحق سبحانه
وتعالى وصنوح مواهبه
السنية .

[الباب السابع
وانشرون في ذكر
فتوح الأربعينية]
وقد غلط في طريق
الحلوة والأربعينية

أو واجبا . قلنا الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وأما مجرد قوله لا تزن فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على السلم وفيه إذلال للمحتكم عليه والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالدلالة منه فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله لا تزن من حيث إنه نهى بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر بغرور الدين وفيه نظر استوفينا في الفقهيات ولا يليق بضرنا الآن . الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للاتحاد من الرعية الحسبة وهذا الاشتراط فاسد فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لأصله والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المصوم وهو الإمام الحق عندهم وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دماءهم وأموالهم إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم نهى عن النكر وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهى عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج . فإن قيل في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ولذلك لم يثبت للكافر على السلم مع كونه حقا فينبغي أن لا يثبت لاتحاد الرعية إلا بتفويض من الولي وصاحب الأمر . فقله أما الكافر فمنع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على السلم وأما اتحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والعرفه وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يجوز إلى تفويض كعز التليم والتعريف إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على النكر بمجهله لا يحتاج إلى إذن والى وفيه عز الإرشاد وعلى التعريف ذل التجهيل وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهى . وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب كما سيأتى أولها التعريف . والثاني الوعظ بالكلام اللطيف . والثالث السب والتعنيف ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول بجاهل يأحق ألا تخاف الله وما يجري هذا المجرى . والرابع اللع بالقره بطريق المباشرة ككسر اللاهى وإرافة الحر واختطاف الثوب الحرير من لابس واستلاب الثوب المنسوب منه ورده على صاحبه . والخامس التخويف والتهديد بالضرب ومباشرة الضربه حتى يمنع عما هو عليه كاللواظب على الغيبة والقذف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يعمل على اختيار السكوت بالضرب وهذا قد يجوز إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجز ذلك إلى قتال وسائر الراتب لا يغنى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا لرتبة الخامسة فإن فيها نظرا سيأتى أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام . وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو كلام صدق والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر^(١) كما ورد في الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه وكذلك كسر اللاهى وإرافة الخمر فإنه تعاظم ما يعرف كونه حقا من غير اجتهد فلم يفتقر إلى الإمام وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر سيأتى واستمرار عادات السالف على الحسبة على الولاية

(١) حديث أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى .

قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم بابا من الضرور ودخلوا الخلو على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوه بالاخلاص وسمعوا أن الشايع والصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع وكوشفوا بترائب وعجائب فدخلوا الخلوه لطلب ذلك وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال وإنما القوم اختاروا الخلوه والوحدة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى . نقل عن أبى عمرو الأنماطى أنه قال لن يصفو لما قل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمزدا هو أم منتقص فقله أن يطلب مواضع الخلوه

قاطع باجماعهم على الاستغناء عن التفويض بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالي راضياً به فذلك وإن كان ساخطاً له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل إنما الخطبة بعد الصلاة فقال له مروان اترك ذلك يا فلان فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكراً فلينتكره بيده فإن لم يستطع فليسهان فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضف الإيمان ^(١) » فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنه وروى أن المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله فلما أخذ في الطواف نهى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فليبه بردائه ثم هزم وقال له انظر ما صنع من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه وقد قال الله تعالى - سواء الماكف فيه والباد - من جعل لك هذا فنظر في وجهه وكان يعرفه لأنه من مواليتهم فقال أعبد الله بن مرزوق ! قال نعم فأخذ فضج به إلى بغداد فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فرساً عضواً سيء الخلق يعقره الفرس فلين الله تعالى له الفرس قال ثم صبروه إلى بيت وأغلق عليه وأخذ المهدي الفتح عنده فاذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل فأوذن به المهدي فقال له من أخرجك فقال الذي حبسني فضج المهدي وصاح وقال ما تخاف أن أقتلك فرجع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول لو كنت تملك حياة أوموتاً فما زال محبوساً حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة قال وكان قد جعل على نفسه نذراً إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها . وروى عن جبان بن عبد الله قال نثره هرون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هرون قد كانت لك جارية تنقن فتحسن فبعثنا بها قال فجاءت فننت فلم يعهد غناها فقال لها ما شأنك قالت ليس هذا عودي فقال للخادم جئنا بعودها قال فجاء بالعود فوافق شيخاً يلقط النوى فقال الطريق يا شيخ فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم ففصر به الأرض فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربيع فقال احتفظ بهذا فإنه طلبة أمير المؤمنين فقال له صاحب الربيع ليس يغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين فقال له اسمع ما أقول لك ثم دخل على هرون فقال إني مررت على شيخ يلقط النوى فقات له الطريق فرفع رأسه فرأى العود فأخذه ففصر به الأرض فكسره فاستشاط هرون وغضب واحمرت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ابست إلى صاحب الربيع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة فقال لا ولكن نبعت إليه ونناظره أولاً فجاء الرسول فقال أجب أمير المؤمنين فقال نعم قال اركب قال لا فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر فقيل لهرون قد جاء الشيخ فقال للندماء أي شيء ترون نرفع ما قدمنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو تقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر فقالوا له قوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح قداموا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل وفي كفه السكيس الذي فيه النوى فقال له الخادم أخرج هذا من كلك وأدخل على أمير المؤمنين فقال من هذا عشائى الليلة قال نحن نعشيك قال لا حاجة لي في عشائكم فقال هرون للخادم أي شيء تريد منه قال في كفه نوى قلت له اطرحه وأدخل على أمير المؤمنين

(١) حديث إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد الحديث وفيه حديث أبي سعيد مرفوعاً من رأى منكراً الحديث رواه مسلم .

لكي لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريد .
أبنا طاهر بن أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال أبنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا عبد الرحمن يقول من اختار الخلوة على الصلابة فينبغي أن يكون خالياً من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل وخالياً من جميع الرادات إلا مراد ربه وخالياً من مطالبه النفس من جميع الأسباب فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توفقه في فتنة أو بلية .
أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصوراً يقول سمعت محمد بن حاتم يقول جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق وقال له أوصني فقال وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ووجدت شرها في الكثرة والاختلاط

فقال دعه لا يطرحه قال فدخل وسلم وجلس فقال له هرون يا شيخ ما حملك على ما صنعت قال وأى شئ صنعت وجعل هرون يستحي أن يقول كسرت عودي فلما أكثر عليه قال إني سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على النبر - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وأنا رأيت منكرا فغيرته فقال فغيره فوالله ما قال إلا هذا فلما خرج أعطى الخليفة رجلا بدرة وقال اتبع الشيخ فإن رأيت يقول قلت لأمر المؤمنين وقال لي فلا تعطه شيئا وإن رأيت لا يكلم أحدا فاعطه البدره ، فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحدا فقال له يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدره فقال قل لأمر المؤمنين ردها من حيث أخذها . ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن همى في يديه هموما كلها كثرت لديه
تهين الكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شئ فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

وعن سفیان الثوري رحمه الله قال حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأيت يرمى جمرة العقبة والناس يخطبون عينا وشمالا بالسياط فوقفت فقلت يا حسن الوجه حدثنا أين عن وائل عن قدامة ابن عبد الله الكلبي قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك (١) وها أنت يخط الناس بين يديك عينا وشمالا فقال لرجل من هذا قال سفیان الثوري فقال يا سفیان لو كان النصور ما احتملك على هذا فقال لو أخبرك النصور بما لقي لقصرت عما أنت فيه قال قيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك يا أمير المؤمنين فقال اطلبوه فطلب سفیان فاخفى . وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ولم يكن مأمورا من عنده بذلك فأمر بأن يدخل عليه فلما صار بين يديه قال له إنه بلغني أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن تأمرك وكان المأمون جالسا على كرسى ينظر في كتاب أو قصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به فقال له المحتسب ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم فقال إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل ثم عاد وقال لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا أهل البيت ونحن الذين قال الله تعالى فيهم - الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر - فقال صدقت يا أمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمسكن غير أننا أعوانك وأولياؤك فيه ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى - وللؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرؤن بالمعروف - الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (٢) وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فان أتهدت لها شكرت لمن أعانك لحرمتهما وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما

(١) حديث قدامة بن عبد الله رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وأما قوله في أوله إن الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين فليس بصحيح فان الثوري توفي سنة إحدى وستين (٢) حديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلوة .

فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان وامتلاء من الفرور والمحال فظن أنه على حسن الحال فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجموا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهايين والبراهمة والفلاسفة والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الله كره والعالملة لله بالاخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله

فإن الذي إليه أمرك ويده عزك وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا قل الآن ما شئت فأعجب المؤمن بكلامه وسريه وقال مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا فاستمر الرجل على ذلك في سياق هذه الحكايات يان الدليل على الاستثناء عن الأذن. فإن قيل أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد والمبد على الولي والزوجة على الزوج والتليذ على الأستاذ والرعية على الوالي مطلقا كما ثبت للوالد على الولد والمبد على المبد والزوج على الزوجة والأستاذ على التليذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق . فاعلم أن الذي نراه أنه ثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل ولنغرض ذلك في الولد مع الوالد فنقول قدرتنا للحسبة خمس مراتب وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما التعريف ثم الوعظ والنصح بالتحسين والتكليف وليس له الحسبة بالنصح والتكليف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخريان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الوالد وسخطه هذا فيه نظره هو بأن يكسر مثلا عوده ويريق حمرة ويحل الحيوط عن ثيابه للنسوجة من الحرير ويرد إلى الملك ما يجمعه في بيته من المال الحرام الذي غصبه أو سرقة أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين إذا كان صاحبه معينا ويطل الصور النقوشة على حيطانه وللنفورة في خشب بيته ويكسر أو أواني الذهب والفضة فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه إلا أن فعل الولد حق وسخط الأب منشؤه حبه للبطل والحرام والأظهر في القياس أنه ثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ولا يبعد أن ينظر فيه إلى تبجح النكر وإلى مقدار الأذى والسخط فإن كان للنكر قاحشا وسخطا عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر وإن كان للنكر قريبا والسخط شديدا كالألو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صورة حيوان وفي كسر هاضران مال كثير فهذا مما يشتد فيه الغضب وليس تجرى هذه العصية مجرى الحجر وغيره فهذا كله مجال النظر . فإن قيل ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتكليف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص وأما النهي عن التأنيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب للنكرات فنقول قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم إذ لا خلاف في أن الجلال ليس له أن يقتل أباه في الزنا حدا ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه بل لا يباشر قتل أبيه الكافر بل لوقف يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه في مقابله . وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع^(١) فإذا لم يجز له إيذاؤه بقوبة هي حق على جناية سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بقوبة هي منع عن جناية مستقبلية متوقعة بل أولى وهذا الترتيب أيضا ينبغي أن يجري في الزوجة مع السيد والزوج فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك النكاح كدمن ملك النكاح ولكن في الخبر أنه «لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢) وهذا يدل على تأكيده الحق أيضا وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن المجهوم على أخذ الأموال من خزائنه وردها إلى الملك وعلى تحليل الحيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخمر في بيته يكاد يفضى إلى خرق هيئته وإسقاط حشمته وذلك محظور ورد النهي عنه كأورد النهي عن السكوت على المنكر^(٣) فقد تعارض فيه أيضا محذوران والأمر فيه موكول

عليه وسلم ينتج صفاء في النفس يستمان به على اكتساب علوم الرياضة مما يقتضي به الفلاسفة واللاهوتيون خذلهم الله تعالى وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله ولا يزال للقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرباطية . أو بما قد يترأى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من التصاري والبراهمة وليس هو المقصود من الخلوة بقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة وقد يفتح على الصادقين شيء من خوارق العادات وصدق الفرائسة ويتبين ما سيحدث في المستقبل وقد لا يقدح عليهم ذلك لولا يقدح

(١) الأخبار الواردة في أن الجلال ليس له أن يجلد أباه في الزنا ولأن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لوقف يده لم يلزمه القصاص ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت: لم أجده إلا حديث لا ينادي بالولد رواء الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي فيه اضطراب (٢) حديث لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها تقدم في النكاح (٣) حديث النهي عن الانكار

إلى اجتهاد منشؤه النظر في تفاشئ المنكر ومقدار ما يسهط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لا يمكن ضبطه وأما التليذ والأستاذ فالأمر فيها بينهما أخف لأن المحترم هو الأستاذ الفيد للعلم من حيث الدين ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يعتب على والده فقال يعظه ما لم يعضب فان غضب سكت عنه . الشرط الخامس : كونه قادرا ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حصة إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكرم معاصيه وينكرها . وقال ابن مسعود رضي الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فان لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فافعلوا . واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى بل يلحق بما يخاف عليه مكروها يناله فذلك في معنى العجز وكذلك إذا لم يغف مكروها ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليفت إلى معنيين : أحدهما عدم إفادة الإنكار امتناعا والآخر خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال أحدها أن يجتمع النعيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة بل ربما تحرم في بعض المواضع نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا الحاجة مبهمة أو واجب ولا يلزمه مقارنة تلك البلدة والمهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والنكرات فتلزمه المهجرة إن قدر عليها فان الاكراه لا يكون عذرا في حق من يقدر على الهرب من الاكراه . الحالة الثانية أن يتنفي النعيان جميعا بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة . الحالة الثالثة أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها ولكن تستحب لأظهار شعائر الاسلام وتذكير الناس بأمر الدين . الحالة الرابعة عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ويريق الحمر أو يضرب العود الذي في يده ضربة محتطفة فيكسره في الحال ويتعطل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه فهذا ليس بواجب وليس بمحرم بل هو مستحب ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فضل كلمة حق عند إمام جائر ولا شك في أن ذلك نظنة الحقوق . ويدل عليه أيضا ما روى عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال سمعت من بعض الخلفاء كلاما فأردت أن أنكر عليه وعلت أني أقتل ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملأ من الناس غشيت أن يعتريني التزني للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل . فان قيل فامعنى قوله تعالى - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة - قلنا لا خلاف في أن السلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل وهذا ربما يظن أنه مخالف لأوجب الآية وليس كذلك فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس التهلكة ذلك بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى أى من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب على ، وقال أبو عبيدة هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيرا حتى يهلك وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضا له ذلك في الحسبة ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام ودخل تحت عموم آية التهلكة وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراته واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وحبهم للشهادة في سبيل الله فتكسر بذلك شوكتهم فكذلك يجوز

على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيئته الحاكم في المستدرك من حديث عياض بن غنم الأشعري من كانت عنده نصيحة لدى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ يده فليخل به فان قبلها قبلها وإلا كان قد أدى إلى الله عليه والذي له قال صحيح الاسناد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله في الأرض .

في حاله عدم ذلك وإنما يقدح في حاله الانحراف عن حد الاستقامة فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد إيمانهم والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدراؤه بالخلق ولا يزال به حتى يخلع ربة الاسلام عن عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ويظن أن التقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نموذجاته من الضلال وقد يلوح لأقوام خيالات

للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل إذا كان حسبه تأثير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق أو في تقوية قلوب أهل الدين وأما إن رأى فاسقا متغلبا وعنده سيف ويده قدح وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدر وضرب رقبتة فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجها وهو عين الهلاك فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثرا ويفديه بنفسه فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حراما وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة وذلك بشرط أن يقتصر للسكران عليه فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه محذور عن دفع المنكر إلا بأن يفرض ذلك إلى منكر آخر وليس ذلك من القدرة في شيء بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سببا لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر لأن المقصود عدم منكر الشرع مطلقا لا من زيدا أو عمرو وذلك بأن يكون مثلامع الإنسان شراب حلال نجس بسبب وقوع نجاسة فيه وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر لإعوازم الشراب الحلال فلامعنى لاراقته ذلك ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلا لمنكر وأما شرب الخمر فهو المعلوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر وقد ذهب إلى هذا ذاهبون وليس يعيد فان هذه مسائل قهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر الغير والمنكر الذي تفضى إليه الحسبة والتغير فانه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنسانا وأكله فلامعنى لهذه الحسبة نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرفه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله وهذه الدقائق تقول : العايم ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المألومة كشراب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يظن به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالعايم إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالي إذ ربما يتدب لها من ليس أهلا لها لقصور معرفته أو قصور ديانتة فيؤدي ذلك إلى وجوه من الخلل وسيأتي كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله فان قيل وحيث أطلقم العلم بأن يصيه مكروه أو أنه لا تنفذ حسبه فلو كان بدل العلم ظن فما حكمه . قلنا : الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في مواضع أخرى وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعا أنه لا يفيد فان كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروهه فقد اختلفوا في وجوبه والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه إما بالاجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد له بل المأمور فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه فأما إذا لم يكن بأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب فان قيل فالمكروه الذي تتوقع إصابته إن لم يكن متيقنا ولا معلوما بغالب الظن ولكن كان مشكوكا فيه أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتدل أن يصاب بمكروه فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه قلنا إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب وإن غلب أنه لا يصاب وجب ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب فان ذلك ممكن في كل حاسبة وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر فيحتمل أن يقال الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه والمنكر وهو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقفا وهذا هو الأظهر ويحتمل أن يقال إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه

يظنونها ويجهلونها بوقائع الشايخ من غير علم بحقيقة ذلك فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقصد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر فمنهم من يباشر بطنه صفو اليقين ويرفع الحجاب عن قلبه ويصير كما قال قائلهم : رأى قاي ربي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكف الجوارح وبوزع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات وتارة يبادئه الحق لموضع صدقه وقوة استعداده مباداة من غير عمل وجد منه وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقول وتكون عبادته الصلوات

والأول أصح نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف فإن قيل فالمتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجرأة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه والتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه فعلى ماذا التعويل . قلنا التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والزاج فإن الجبن مرض وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط والتهور إفراط في القوة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان وإنما السكالم في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل وتارة عن خلل في الزاج بتفريط أو إفراط فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجرأة قد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جراته جهله وقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جبنه جهله وقد يكون علما بحكم التجربة والممارسة بمدخل الشر ودواقمه ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع فلا التفات إلى الطرفين وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته وعلته جهل أو ضعف ويحول الجهل بالتجربة ويحول الضعف بممارسة الفعل الخوف منه تكيفا حتى يصير معتادا إذ البتدى في المناظرة والوعظ مثلا قد يحجب عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فأزله الضعف فإن صار ذلك ضروريا غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب فحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات ولذلك قد نقول على رأي لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الاسلام على من يغاب عليه الجبن في ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه منه فكذلك الأمر في وجوب الحسبة . فإن قيل فالمكروه المتوقع ماحده فإن الإنسان قديكره كلمة وقديكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالنبيه ومامن شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسمى به إلى سلطان أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدره فيه فما حدل المكروه الذي يسقط الوجوب به . قلنا هذا أيضا فيه نظر غامض وصورته منشرة ومجارية كثيرة ولكننا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه فنقول المكروه تقيض المطلوب ومنطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما في النفس فالعلم . وأما في البدن فالصحة والسلامة . وأما في المال فالثروة . وأما في قلوب الناس فقيام الجاه ، فإذا المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه ومعنى الجاه ملك قلوب الناس كما أن معنى الثروة ملك الدراهم لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض وسيأتي تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربيع المهادكات وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به ويكره في هذه الأربعة أمران أحدهما زوال ما هو حاصل موجود والآخر امتناع ما هو منتظر مفقود أعني اندفاع ما يتوقع وجوده فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله أو تعويق منتظر فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه فوات إمكانه كأنه فوات حصوله فرجع للمكروه إلى قسمين أحدهما خوف امتناع المنتظر وهذا لا ينبغي أن يكون مرخصا في ترك الأمر بالمعروف أصلا . ولنذكر مثاله في اللطال الأربعة . أما العلم فمثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذة خوفا من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه . وأما الصحة فتركه الانسكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلا وهو لا بس حريرا خوفا من أن يتأخر عنه فيمتنع بسببه صحته المنتظرة . وأما المال فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله خيفة من أن يقطع إدراره في المستقبل ويترك مواساته . وأما الجاه فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاها في المستقبل خيفة من أن لا يحصل له الجاه أو خيفة من أن يقبح حاله

الحسب يستنها الراتية
فحسب وسائر أوقاته
مشغولة بالذكر الواحد
لا يتخللها فتور ولا
يوجد منه قصور ولا
يزال يردد ذلك الذكر
ملتزما به حتى في طريق
الوضوء وساعة الأكل
لا يفتر عنه . واختار
جماعة من المشايخ من
الذكر كلمة لا إله إلا الله
وهذه الكلمة لها
خاصية في تنوير الباطن
وجمع المهم إذا دام
عليها صادق مخلص
وهي من مواهب الحق
لهذه الأمة وفيها خاصية
لهذه الأمة فيما حدثنا
شيخنا ضياء الدين
إسماعيل قال أنا
أبو القاسم الدمشقي
الحافظ قال أنا
عبد الكريم بن
الحسين قال أنا
عبد الوهاب الدمشقي
قال أنا محمد بن حريم
قال ثنا هشام بن
عمار قال ثنا الوليد
ابن مسلم قال أنا
عبد الرحمن بن زيد

عن أبيه أن عيسى
ابن حريم عليه السلام
قال : رب أنبئني عن
هذه الأمة للرحومة
قال أمة محمد عليه
الصلاة والسلام علماء
أخفاء أقياء حلماء
أصفاء حكماء كأنهم
أنبياء يرضون منى
بالتقيل من العطاء
وأرضى منهم بالسير من
العمل وأدخلهم الجنة
بلا إله إلا الله يا عيسى
هم أكثر سكان الجنة
لأنهم لم تذلل ألسن قوم
قط بلا إله إلا الله كما
ذلت ألسنتهم ولم تذلل
رقاب قوم قط بالسجود
كأذلت رقابهم . وعن
عبد الله بن عمرو بن
العاص رضى الله عنهما
قال إن هذه الآية
مكتوبة في التوراة
يا أيها النبي إنا أرسلناك
شاهدا ومبشرا ونذيرا
وحرزا للمؤمنين وكفرا
للاميين أنت عبدى
ورسولى سميتك المتوكل
ليس بقط ولا غليظ
ولا صخاب فى الأسواق

عند السلطان الذى يتوقع منه ولاية وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت
وتسمية امتناع حصول الزيادات ضررا مجاز وإنما الضرر الحقيقى فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء
إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون فى فواته محذور يزيد على محذور السكوت على النكر كما إذا كان محتاجا إلى
الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن فى تأخره شدة الضرر به وطول المرض وقد
يفضى إلى الموت وأغنى بالعلم الظن الذى يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى
هذا الحد لم يعد أن يرخص فى ترك الحسبة وأما فى العلم فمثل أن يكون جاهلا بمهمات دينه ولم يجد إلا مطعا
واحدا ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره . وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه
لكون العالم مطعما له أو مستمعا لقوله ، فإذا الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على النكر
محذور ولا يعد أن يرجع أحدهما ويختلف ذلك بتفاحش النكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات
الدين وأما فى المال فكمن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس فى التوكل ولا منفق
عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه وانقر فى تحصيله إلى طلب ائدار حرام أو مات
جوتا فهذا أيضا إذا اشتد الأمر فيه لم يعد أن يرخص له فى السكوت . وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير
ولا يجد سبيلا إلى دفع شره إلا بجاء يكتسبه من سلطان ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص
يلبس الحرير أو يشرب الخمر ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه
ويدوم بسببه أذى الشرير فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يعد استثنائها ولكن الأمر فيها
منوط باجتهاد المحتسب حتى يستغنى فيها قلبه ويزن أحد المحذورين بالأخر ويرجع بنظر الدين لا بموجب
المهوى والطبع فإن رجح بموجب الدين سمى سكوته مداراة وإن رجح بموجب المهوى سمى سكوته
مداينة وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير فحق على كل متدين فيه أن
يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعته وصارفه أنه الدين أو المهوى وستجد كل نفس ماعملت من
سوء أو خير محضرا عند الله ولو فى فلة خاطر أو فلة ناظر من غير ظلم وجور لما الله بظلام للعبيد .
وأما القسم الثانى وهو فوات الحاصل فهو مكروه ومعتبر فى جواز السكوت فى الأمور الأربعة إلا العلم فإن
فواته غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة
والسلامة والثروة والمال وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم فى الدنيا ويدوم ثوابه فى الآخرة فلا
انقطاع له أبد الآباد . وأما الصحة والسلامة ففواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضربا مؤلما
يتأذى به فى الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يحتسب له ذلك كما سبق وإذا فهم هذا فى الإيلام بالضرب
فهو فى الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تهب داره ويخرب بيته وتسلم
ثيابه فهذا أيضا يسقط عنه الوجوب ويبقى الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدى دينه بدينه ولكل واحد
من الضرب والنهب حد فى القلة لا يكثر به كالحبة فى المال واللطمة الخفيف ألما فى الضرب وحد
فى السكرة يتبعين اعتباره ووسط يقع فى محل الاشتباه والاجتهاد وعلى المتدين أن يجتهد فى ذلك
ويرجع جانب الدين ما أمكن . وأما الجاه فقواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو يسب على ملائمتين
الناس أو يطرح منديله فى رقبته ويدار به فى البلد أو يسود وجهه ويطاف به وكل ذلك من غير
ضرب مؤلم للبدن وهو قاذح فى الجاه ومؤلم للقلب وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه
بسقوط المروءة كالطواف به فى البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له فى السكوت لأن المروءة ما مور عفظها
فى الشرع وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دربهات قليلة فهذه درجة .
الثانية ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة فإن الخروج فى ثياب فاخرة تجمل وكذلك الركوب للخيول

فلو علم أنه لو احتسب لكلف الشيء في السوق في ثياب لا يتباد هو مثلها أو كلف الشيء رجلا وعادته الركوب فهذا من جملة الزايا وليست الواظبة على حفظها محمودة وحفظ الرودة محمود فلا ينبغي أن يستطو وجوب الحسبة بمثل هذا القدر وفي معنى هذا ما لو خاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجمل والتجمل والتجمل والنسبة إلى الرياء والبهتان وإما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة ولو تركت الحسبة بلوم لأنهم أو باغتيال فاسق أو شتمه وتغيبه أو سقوط للزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان للنكر هو الغيبة وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن الكتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا يجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية في حق الكتاب ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بمرض نفسه على سبيل الإيثار وقد دلت العمومات على تأكيد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابل إلا ما عظم في الدين خطره والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له . وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المسكاره في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ومن وجه الدين هو فوقه لأنه أن يسمح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره فإذا ينبغي أن يتمتع فانه إن كان ما يغوت من حقوقهم يغوت على طريق المعصية كالضرب والتبليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر وإن كان يغوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للسلم أيضا وليس له ذلك إلا برضاهم فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فانه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطتهم فإذا كان يتعدى الأذى من حسبه إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المهدور في نكاته في القلب وقدحه في العرض . فان قيل فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يتمتع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه فان قتلهم يقاتل فهو محال لأنه اهلاك نفس خوفا من اهلاك طرف وفي اهلاك النفس اهلاك الطرف أيضا . قلنا نعمه عنه ويقاومه إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية وقتله في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فانه جائز لا على معنى أننا نقدي درهما من مال مسلم بروح مسلم فان ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي . فان قيل فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن يقتله في الحال حسم باب المعصية . قلنا ذلك لا يعلم يقينا ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ولكننا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفنناه فان قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه فإذا المعصية لها ثلاثة أحوال : إحداها أن تكون متعمدة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلى الأحاد . الثانية أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وأساكه العود والخمر فباطل هذه المعصية واجب بكل ما يمكن مالم تؤدي إلى معصية أغثن منها أو مثلها وذلك يثبت للأحاد والرعية الثالثة أن يكون المنكر متوقفا كالتدب بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعد لم يحضر الخمر فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للأحاد سلطنة على العازم على الشرب

ولا يحزى بالسبب السيئ
ولكن بصفو وصفه
ولن أقضه حتى تمام
به الله للمعوجة بأن
يقولوا لا إله إلا الله
ويستحقوا أعيا عيا
وآذانا صما وقلوبا غلفا
فلا يزال المبد في خلوته
يردم هذه الكلمة على
لسانهم مواطاة القلب
حتى تصير الكلمة
متأصلة في القلب
مزية لحديث النفس
ينوب عنها في القلب
عن حديث النفس
فإذا استولت الكلمة
وسهلت على اللسان
يتشرها القلب فلو
سكت اللسان لم يسكت
القلب ثم تتجهر في
القلب وتتجهرها
يستكن نور اليقين
في القلب حتى إذا ذهبت
صورة الكلمة من
اللسان والقلب لا يزال
نورها متجوها ويتخذ
الذكر مع رؤية
عظمة المذكور سبحانه
وتعالى ويصير الذكر
حينئذ ذكر الذات

إلا بطريق الوعظ والنصح تأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للأسياد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علنت منه بالمادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج فانهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم باقامتهم من الوضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية وإن كان مقصد العاصي وراه كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية وتحصيل مظنة المعصية معصية ونفى بالمظنة ما يتعرض الانسان به لوقوع المعصية غالبا بحيث لا يقدر على الانكشاف عنها فإذا هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لاهل معصية منتظرة .

(الركن الثاني للحسبة مافيه الحسبة)

وهو كل منكرو موجود في الحال ظاهر للختسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتهد فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها . الأول : كونه منكرا ونفى به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية إذ من رأى صبيبا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه وكذا إن رأى مجنونا زنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس بل لوصاف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لاعاصي بها محال فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنساء الأجنبية كل ذلك من الصغار ويجب النهي عنها وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظريسياتي في كتاب التوبة . الشرط الثاني : أن يكون موجودا في الحال وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر فان ذلك ليس إلى الآحاد وقد اتقرض المنكر واحتراز عما سيجد في ثاني الحال كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته فلاحسبة عليه إلا بالوعظ وإن أنكر عزمه عليه لم يحجز وعظه أيضا فان فيه اساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق وليتنبه للدقيقة التي ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء وما يجري مجراه . الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للختسب بغير تجسس : فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابها لا يجوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة وكذلك ما روى أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال بأمر المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه فقال وما هي ؟ فقال قد قال الله تعالى - ولا تجسسوا - وقد تجسست . وقال تعالى - وأتوا البيوت من أبوابها - وقد آسورت من السطح . وقال - لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها - وما سلمت فتركه عمر وشرط عليه التوبة ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضي الله عنه بأن ذلك منوط بحدلين فلا يكفي فيه واحد وقد أوردنا هذه الأخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها فان قلت فما حد الظهور والاستتار . فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بعيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزمار والأوتار إذا ارتفع بحيث جاوز ذلك حيطان الدار فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملامى وكذا

وهذا الذكر هو
الشاهدة والكاشفة
والعانية أعني ذكر
الذات بتجوهر نور
الذكر وهذا هو
للقصد الأقصى من
الخلوة وقد يحصل
هذان الخلوة لا يذكر
الكلمة بل بتلاوة
القرآن إذا أكثر من
التلاوة واجتهد في
مواظاة القلب مع
اللسان حتى تجري
التلاوة على اللسان
ويقوم معنى الكلام
مقام حديث النفس
فيدخل على السند
سهولة في التلاوة
والصلاة ويتنور
الباطن بتلك السهولة
في التلاوة والصلاة
ويتجوهر نور الكلام
في القلب ويكون منه
أيضا ذكر الذات
ويجتمع نور الكلام

إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعون أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة فاذن إنما يدرك مع غلغل الحيطان صوت أوراثة فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمر المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل والظاهر جواز الحسبة وقد تسترقق ضرورة الخمر في الكم وتحت الدليل وكذلك اللامهي فإذا روى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجوز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة فإن فسقها لا يدل على أن الذي منه خمر إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخلق وغيره فلا يجوز أن يستدل باخفائه وأنه لو كان حلالا لا أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تنكر وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر والظاهر أن له الاحتمال لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور وكذلك العود ربما يعرف بشكه إذا كان الثوب الساتر له رقيقة فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالاته فهو غير مستور بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستمر استر الله وتنكر على من أبدى لنا صفحته والإبداء له درجات فتارة يبدو لنا بحاسة السمع وتارة بحاسة الشم وتارة بحاسة البصر وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن نخصص ذلك بحاسة البصر بل للراد العلم وهذه الحواس أيضا تفيد العلم فاذن إنما يجوز أن يكسر ماتحت الثوب إذا علم أنه خمر وليس له أن يقول أرني لأعلم ما فيه فإن هذا نجس ومعنى التجسس طلب الأمارات للعرفة فالأمارات للعرفة إن حصلت وأورثت للعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الأمارات للعرفة فلا رخصة فيه أصلا . الشرط الرابع أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتihad فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضيغ ومتروك التسمية ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوى الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد نعم لورأى الشافعي شافيا يشرب النبيذ وينسكب بلا ولي ويطأ زوجته فهذا في محل النظر والأظهر أن له الحسبة والانكار إذ لم ينهب أحد من المصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتihad غيره ولا أن الذي أدى اجتihadه في التقليد إلى شخص رآه أفضل الطاء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من للذهاب أطيبها عنده بل على كل مقلد اتباع مقلده في كل تفصيل فاذن مخالفته للتقليد متفق على كونه منكرا بين المصلين وهو عاص بالخالفه إلا أنه يلزم من هذا أمر أغمض منه وهو أنه يجوز للحنفي أن يتراضى على الشافعي إذا نسكب بغير ولي بأن يقول له الفعل في نفسه حق ولكن لا في حقك فأنت مبطل بالأقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعي ومخالفة ما هو صواب عندك معصية في حقك وإن كانت صوابا عند الله وكذلك الشافعي يحسب على الحنفي إذا شاركه في أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له إما أن تعتقد أن الشافعي أولى بالاتباع ثم تقدم عليه أولا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه لأنه على خلاف معتقدك ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجمع الأصم مثلا امرأة على قصد الزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجته أبوه إياها في صفره ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لسكونه غير عارف بلغته فهو في الأقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه في الدار الآخرة فينبغي أن يمنعه عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال في علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلظه وجهله ولا شك في أنه لو علق طلاق زوجته على صفة في قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة في قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك ولكن علم وقوع الطلاق في الباطن فإذا رآه يجمعها فلينع أئني باللسان لأن ذلك زنا إلا أن الزاني غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طلقته منه ثلاثا وكونهما غير عاصيين لجهلها ما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكرا ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون

في القلب مع مطالعة
عظمة للتكلم سبحانه
وتعالى ودون هذه
للهيبة ما يفتح على
العبد من العلوم
الالهامية الدنية وإلى
حين بلوغ العبد هذا
البلغ من حقيقة الذكر
والتلاوة إذا صفا باطنه
قد يضيء في الذكر من
كأن أنه وحلاوة
ذكره حتى يلتحق في
غيته في الذكر بالنائم
وقد تتجلى له الحقائق
في لبسة الخيال أولا
كما تنكشف الحقائق
للتائم في لبسة الخيال
كن رأى في المنام أنه
قتل حية فيقول له
المعبر تظفر بالعدو وتظفره
بالعدو هو كشف
كاشفه الحق تعالى به
وهذا الظفر روح
مجرد صاغ ملك الرؤيا
له جسدا لهذا الروح

وقد بينا أنه يمنع منه فإذا كان يمنع مما هو منكرو عند الله وإن لم يكن منكرا عند الفاعل ولا هو عاص به لمعذر الجهل فيلزم من عكس هذا أن يقال ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكرو عند الفاعل لجهله لا يمنع منه وهذا هو الأظهر والعلم عند الله ، فتحصل من هذا أن الحنفى لا يعترض على الشافعى فى النكاح بلاولى وأن الشافعى يعترض على الشافعى فيه لكون التعرض عليه منكرا باتفاق المحتسب والمحتسب عليه وهذه مسائل قديمة دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجح عندنا فى الحال ولنا قطع غلطاً ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لا يعجز الاحتساب إلا فى معلوم على القطع وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا لا حسبة إلا فى مثل الخمر والحزير وما يقطع بكونه حراما ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد إذ يعطى البعد أن يجتهد فى القبة ويعترف بظهور القبة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلدان أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتد به وولطه لا يصح ذهاب ذهاب إليه أصلا فهذا مذهب لا يثبت وإن ثبت فلا يعتد به . فان قلت إذا كان لا يعترض على الحنفى فى النكاح بلاولى لأنه يرى أنه حق فينبى أن لا يعترض على المعتزلى فى قوله إن الله لا يرى وقوله وإن الخير من الله والشر ليس من الله وقوله كلام الله مخلوق ولا على الحشوى فى قوله إن الله تعالى جسم وله صورة وإنه مستقر على العرش بل لا ينبى أن يعترض على الفيلسوفى فى قوله الأجساد لا تبعث وإتباع تبعث النفوس لأن هؤلاء أيضا أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فان قلت بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضا ظاهر وكأنت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزلى ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كمشكلة النكاح بلاولى ومشكلة شعبة الجوار ونظائرهما . فاعلم أن المسائل تنقسم إلى ما يتصور أن يقال فيه كل مجتهد مصيب وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمه وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خطأهم قطعا بل ظنا وإلى ما لا يتصور أن يكون المصيب فيه إلا واحد كمشكلة الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفى الصورة والجسميه والاستقرار عن الله تعالى فهذا مما يعلم خطأ المخطئ فيه قطعا ولا يبقى لحطه الذى هو جهل بحض وجه فاذن البدع كلها ينبى أن تحسم أبوابها وتنعصر على البدع بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يستقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد . فان قلت فهما اعترضت على القدرى فى قوله الشر ليس من الله اعترض عليك القدرى أيضا فى قولك الشر من الله وكذلك فى قولك : إن الله يرى وفى سائر المسائل إذ البدع محق عند نفسه والحق مبتدع عند البدع وكل يدعى أنه محق وينكر كونه مبتدعا فكيف يتم الاحتساب . فاعلم أن الأجل هذا التعارض تقول ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان وإن اتهم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للأحاد الحسبة فى المذاهب إلا بنصب السلطان فإذا رأى السلطان رأى الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر البدعة عن إظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره فإن ما يكون باذن السلطان لا يتقابل وما يكون من جهة الأحاد فيتقابل الأمر فيه وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ولكن ينبى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه كيلا يتقابل الأمر فيها ولا ينجر إلى تحريك الفتنة بل وأذن السلطان مطلقا فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق أو أن الله لا يرى أو أنه مستقر على العرش مماس له أو غير ذلك من البدع لتسلط الأحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

من خيال الحية فالروح الذى هو كشف الظفر أخبار الحق ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبثاق من نفس الرأى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير فكان يرى الظفر ويصبح الظفر وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة فيكون المنام أضغاث أحلام لا يبرو وقد يتجرد

(الركن الثالث : المحتسب عليه)

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرا أو أقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنسانا. ولا يشترط كونه مكلفا إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإركان قبل البلوغ ولا يشترط كونه عميرا إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتى بهيمة لوجب منعه منه نعم من الأفعال ما لا يكون منكرا في حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره. ولكننا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضا مما يختلف فيه القيم والسافر والريض والصحيح وغرضنا الإشارة إلى الصفة التي بها يتبين توجه أصل الإنكار عليه لا ما به يتبين التفاصيل. فإن قلت فاكثف بكونه حيوانا ولا تشترط كونه إنسانا فإن البهيمة لو كانت تفسد زراعا لإنسان لكننا نمنعها منه كما نمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة. فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لأوجهها إذا حسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارنة المنكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله وكذا منع الصبي عن شرب الخمر والإنسان إذا ألتف زرع غيره منع منه لحقين : أحدهما حق الله تعالى فإن فعله معصية والثاني حق المتلف عليه فهما علتان تنفصل إحداها عن الأخرى فلو قطع طرف غيره بأذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجني عليه بأذنه فنثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين والبهيمة إذا ألتفت فقد عذمت المعصية ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين ولكن فيه دققة وهو أننا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة بل حفظ مال المسلم إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم تمنعها منه بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقد راعى حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظا للمال بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة لمنع الجرة من السقوط فإنا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ومنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي لاصيانة للبهيمة المأثية أو الخمر المشروب بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتزويجها له من حيث إنه إنسان محترم فهذه لطائف دققة لا يفتن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر إذ قد يتردد في منعهما من لبس الحرير وغير ذلك ويستعرض لما نشير إليه في الباب الثالث. فإن قلت فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه. فإن قلتم إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخرا لغيره طول عمره. وإن قلتم لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير. فنقول : هذا بحث دقيق غامض والقول الوجيز فيه أن نقول مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان في جاهه وجب عليه ذلك فذلك القدر واجب في حقوق المسلم بل هو أقل درجات الحقوق والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام بل لا خلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عنده شهادة لتكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتان الشهادة ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لاضرر على الدافع فيه فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جوارح لم يلزمه ذلك لأن حقه مرعى في منفعة بدنه وفي ماله وجاهه كحق غيره فلا يلزمه أن يفدى غيره بنفسه نعم الإيثار مستحب وتجشم المصاعب لأجل المسلمين قربة فأما إيجابها فلا فإذن إن كان يتعب بإخراج البهائم عن الزرع يلزمه السمي في ذلك واسكن إذا كان لا يتعب بتنبية صاحب الزرع من نومه أو باعلامه يلزمه ذلك فاهمال تعريفه وتنبيهه كاهمال تعريف القاضي بالشهادة وذلك لارخصة فيه ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال

لصاحب الحلوة الخيال
النيبث من ذاته من
غير أن يكون وعاء
لحقيقة فلا ينبغي على
ذلك ولا يلتفت إليه
فليس ذلك واقعة وإنما
هو خيال فأما إذا غاب
الصادق فيه ذكر الله
تعالى حتى ينيب عن
المحسوس بحيث لو
دخل عليه داخل من
الناس لا يعلم به لنيبته
في الذكر فمند ذلك قد
ينبث في الابتداء من
نفسه مثال وخال
ينفخ فيه روح
الكشف فإذا عاين
غيبته فإما يأتية تفسيره
من باطنه موهبة من
الله تعالى وإما يفسره
له شيخه كما يبر للمبر
الناس ويكون ذلك
واقعة لأنه كشف
حقيقة في لبسة مثال
وشرط صحة الواقعة

إن كان لا يصح من منفعته في مدة اشتغاله باخراج البهائم إلا قدر درهم مثلا وصاحب الزرع ينفوته مال كثير فيترجع جانبه لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل للمصير إلى ذلك فأما إذا كان قوات المال بطريق هو معصية كالنصب أو قتل عبد مملوك للغير فهذا يجب النع منه وإن كان فيه تعب ما لأن المقصود حق الشرع والغرض دفع المعصية وحق الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي والمعاصي كلها في تركها تعب وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المخذورات التي يخافها المحتسب وقد اختلف الفقهاء في مسئلتين تقربان من غرضنا : إحداهما أن الالتقاط هل هو واجب واللاقطه ضائعة والملتقط مانع من الضياع وساع في الحفظ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال إن كانت اللقطة في مواضع لو تركها فيه لم تنفع بل يلتقطها من يعرفها أو تركه كالألو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناه فلا يلزمه الالتقاط وإن كانت في مضية نظر فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف وإصطبل فلا يلزمه ذلك لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك وحقه بسبب كونه إنسانا محترما والملتقط أيضا إنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله فإن كانت ذهبا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب التعريف فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين قائل يقول التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طلبا للثواب وقائل يقول : إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التعب بهذه الخطوات لا يعد تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأحوج إلى الحضور في الهاجرة وشدة الحر فهذا قديع في محل الاجتهاد والنظر فإن الضرر الذي يبال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبال به وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزمه احتمالاً ووسط يتعاضد به الطرفان ويكون أبداً في محل الشبهة والنظر وهي من الشبهات الزمنة التي ليس في مقدور البشر إزالتها إذ لأعلة تفرق بين أجزائها المتقاربة ولكن التقي ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

(الركن الرابع : نفس الاحتساب)

وله درجات وآداب أما الدرجات فأولها التعرف ثم التعريف ثم النهي ثم الوعظ والنصح ثم السب والتعنيف ثم التغيير باليد ثم التهديد بالضرب ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ثم شهر السراح ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود . أما الدرجة الأولى وهي التعرف ونعني به طلب المعرفة بجريان السكر وذلك منهي عنه وهو النجس الذي ذكرناه فلا ينبغي أن يترق السمع على دار غيره لسمع صوت الأوتار ولأن يستشق ليدرك رائحة الخمر ولأن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل الزمار ولأن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمر أعمده للشرب فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزمه الاستئذان ويكون تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع السكر ككسر رأسه بالضرب للمنع مهما احتاج إليه وإن أخبره عدلان أو عدل واحد وبالجملة كل من تقبل روايته لاشهادته في جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال والأولى أن يمنع لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ولا يسقط حق السلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين فهذا أولى ما يجعل مردداً فيه . وقد قيل إنه كان نفس خاتم لقمان الستر لما عاينته أحسن من إذاعة ما ظننت .

الإخلاص في الذكر أولاً
ثم الاستغراق في الذكر
ثانياً وعلمة ذلك
الزهد في الدنيا وملازمة
التقوى لأن الله جعله
بما يكشف به في واقعة
مورد الحكمة والحكمة
تحكم بالزهد والتقوى
وقد يتجرد للذاكر
الحقائق من غير لبسة
الثال فيكون ذلك
كشفاً وإخباراً من الله
تعالى إياه ويكون ذلك
تارة بالرؤية وتارة
بالسمع وقد يسمع من
باطنه وقد يطرق ذلك
من الهواء لا من باطنه
كالهوائف يعلم بذلك
أمراً يريد الله إحداثه
له أو لغيره فيكون
إخبار الله إياه بذلك
مزيداً ليقينه أو يري
في المنام حقيقة الشيء .
تقل عن بعضهم أنه
أتى بشراب في قدح

الدرجة الثانية : التعريف فان النكر قد يقدم عليه القدم بجهله وإذا عرف أنه منكرك تركه كالسوادى
يصل ولا يحسن الركوع والسجود فيعلم أن ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولورضى بأن لا يكون
مصليا ترك أصل الصلاة فيجب تعريفه باللطيف من غير عنف وذلك لأن ضمن التعريف نسبة
إلى الجهل والحق والتجهيل إيذاء وقدما يرضى الانسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمر لاسميا بالشرع
ولذلك ترى الذى يطلب عليه الغضب كيف يغضب إذا تلبس على الخطأ والجهل وكيف يجتهد في محادثة
الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله والطباع أحرم على ستر عورة الجهل منها على
ستر العورة الحقيقية ، لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه وصاحبه ملوم عليه وقبح
السواتين يرجع إلى صورة البدن والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن ثم هو غير
ملوم عليه لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله ولا في اختياره إزالته وتحسينه والجهل قبح يمكن
إزالته وتبديله بحسن العلم فذلك يعظم تألم الانسان بظهور جهله ويعظم ابتهاجه في نفسه بملئه ثم لدته
عند ظهور جمال علمه لغيره وإذا كان التعريف كشفا للمورة مؤذيا للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه
بلطف الرفق فنقول له إن الانسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فلعنا العلماء
ولعل قريتك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها إنما شرط الصلاة الطمأنينة
في الركوع والسجود وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء فان إيذاء السلم حرام محذور
كما أن تقريره على النكر محذور وليس من العقلاء من يسل الدم بالدم أو بالبول ومن اجتنب محذور
السكوت على النكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للسلم من الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على
التحقيق ، وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه فانه يستفيد منك علما
وبصيرتك عدوا إلا إذا علمت أنه يغتم العلم وذلك عزيز جدا . الدرجة الثالثة : التمس بالوعظ والنصح
والتخويف بالله تعالى وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا أو فيمن أصر عليه بعد
أن عرف كونه منكرا كالذى يواطى على الشرب أو على الظلم أو على اغتيال المسلمين أو ما يجرى
مجره فينبغى أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكى له سيرة
السلف وعبادة التقيين وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر إليه نظر الترحم عليه
ويرى إقدامه على العصية مصيبة على نفسه إذ السلون كنفس واحدة ، وههنا آفة عظيمة ينبغي
أن يتوفاها فانها مهلكة ، وهى أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم وذله غيره بالجهل فربما
يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التميز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل فان كان
الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من النكر الذى يعترض عليه ، ومثال هذا المحتسب مثال
من يخلص غيره من النار بأحراق نفسه وهو غاية الجهل ، وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور
للاشيطان يتدلى بجهله كل إنسان إلا من عرفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته فان في
الاحتكام على الغير لدنة للنفس عظيمة من وجهين : أحدهما من جهة دالة العلم والآخر من جهة دالة
الاحتكام والسلطنة وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه وهو الشهوة الخفية الداعية إلى التملك الخفى
وله محكم ومعيار ينبغي أن يتحسب به نفسه وهو أن يكون امتناع ذلك الانسان عن النكر
بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه فان كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه
وهو يود أن يكفى بغيره فليحتسب فان باعته هو الدين وإن كان اتماط ذلك العاصى بوعظه وأزجاره
بزجره أحب إليه من اتماطه بوعظه بغيره فهاهو إلا متبع هوى نفسه وتوسل إلى إظهار جاه نفسه
بواسطة حسبه فليترك الله تعالى وليحتسب أولا على نفسه وعند هذا يقال ما قيل لعيسى عليه السلام

فوضعه من يده وقال
قد حدث في العالم
حدث ولا أشرب هذا
دون أن أعلم ماهو
فانكشف له أن قوما
دخلوا كذوة لواء فيها.
وحكى عن أبى سليمان
الحواص قال كنت
راكبا حمارا لى يوما
وكان يؤذيه الذباب
فطأطأ رأسه فكنت
أضرب رأسه بخشبة
كانت فى يدي فرفع
الحمار رأسه إلى وقال
اضرب فانك على
رأسك تضرب قيل له
يا أبا سليمان وقع لك
ذلك أو سمعته فقال
سمعته يقول كما سمعنى.
وحكى عن أحمد بن
عطاء الروذبارى قال
كان لى مذهب فى أمر
الطهارة فكنت ليلة
من الليالى أستنجى
إلى أن مضى ثلث الليل

يا ابن مريم عظ نفسك فان اتمظت فعمظ الناس وإلا فاستعنى منى ، وقيل لداود الطائى رحمه الله : أرايت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فقال أخاف عليه السوط قال إنه يقوى عليه قال أخاف عليه السيف قال إنه يقوى عليه قال أخاف عليه الهاء الدين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الحشن وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللفظ وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام - أفلكم ولما تميدون من دون الله أفلا تعقلون - ولنا نغنى بالسب الفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه عمالا بعد من جملة الفحش كقوله يافاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله وكقوله يا سوادى يا غيى وما يعجزى هذا المجزى فان كل فاسق فهو أحمق وجاهل وأولا حمقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس بكيس فهو أحمق والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(١) ولهذا الرتبة أدبان : أحدهما أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثانى أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه بل يقتصر على قدر الحاجة فان علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزره فلا ينبغي أن يطلقه بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحلله لأجل معصيته وإن علم أنه لو تكلم ضرب ولوا كفروا وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب بل يلزمه أن يعطى وجهه ويظهر الإنكار له . الدرجة الخامسة : التفسير باليد وذلك ككسر اللامى وإراقة الحجر وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المغصوبة بالجور برجله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يعجزى مجراه ويتصور ذلك في بعض المعاصى دون بعض ، فأما معاصى اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصى وجوارحه الباطنة ، وفي هذه الدرجة أدبان : أحدهما أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك فإذا أمكنه أن يكلفه الشئ في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره وإذا قدر عن أن يكلفه إراقة الحجر وكسر اللامى وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه فان فى الوقوف على حد الكسر نوع عسر فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لا حجر عليه فى فعله . الثانى أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه وهو أن لا يأخذ بلبعيته فى الإخراج ولا برجله إذا قدر على جره بيده فان زيادة الأذى فيه مستغنى عنه وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ولا يحرق اللامى والصليب الذى أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج فى استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء وفى إراقة الخمر يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا فان لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الحجر إذ صار حائلا بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ولو ستر الخمر بيده لكننا نقصد بدنه بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر فاذا لا تزيد حرمة ملكه فى الظروف على حرمة نفسه ولو كان الخمر فى قوارير رقيقة الرءوس ولو اشتغل باراقبتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها فهذا عذر وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع فى زمانه وتتعلل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

ولم يطب قلبي فتضجرت
فبكيت وقلت يارب
العفو فسمعت صوتا ولم
أر أحدا يقول
يا أبا عبد الله العفو فى
العلم وقد يكشف الله
تعالى عبده بآيات
وكرامات تربية للعبد
وتقوية ليقينه وإيمانه
قيل كان عند جعفر
الخلدى رحمه الله فص
له قيمة وكان يوما من
الأيام راكبا فى السارية
فى دجلة فهم أن يعطى
السلاح قطعة وحل
الحرقه فوق الفص فى
الدجلة وكان عنده
دعاء للضالة مجرب وكان
يدعوه فوجد الفص
فى وسط أوراق كان
يتصفحها والدعاء هو
أن يقول يا جامع الناس
ليوم لا ريب فيه اجمع
على ضالتي . ومممت
شيخنا بهمدان حكاه

لأجل ظروف المحروحيث كانت الارافة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان . فان قلت فهلا جاز الكسر لأجل الزجر وهلا جاز الجرب بالرجل في الاخراج عن الأرض المنصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر . فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل والعقوبة تكون على الماضي والدفع على الحاضر الرأى وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام النكر فإزاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة أو زجر عن لاحق وذلك إلى الولاية لا إلى الرعية . نعم الوالى له أن يفعل ذلك إذا رأى الصلحة فيه . وأقول له أن يأمر بكسر الظروف التي فيها المحجور زجراً وقد فعل ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيذا للزجر (١) ولم يثبت نسخه ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفظام شديدة فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل تلك الحاجة جاز له مثل ذلك وإذا كان هذا منوطاً بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لأحاد الرعية . فان قلت : فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصي باتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يهربون ويصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي . فاعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجاً عن سنن الصالح ولكننا لا نتبذع الصالح بل نتبع فيها وكسر ظروف المحر قد ثبت عند شدة الحاجة وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً بل الحكم يزول بزوال العلة ويؤيد بمودها وإنما جواز ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه لحفاء وجه الاجتهاد فيه بل تقول لو أريقت المحجور أو لا يفلح بجز كسر الأواني بعدها وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالمحر لا تصلح إلا لها فكان الفعل للنقول عن المصر الأول كان مقروناً بعينين : أحدهما شدة الحاجة إلى الزجر والآخر تبعية الظروف للخمر التي هي مشغولة بها وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما ومعنى ثالث وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعله بشدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه فهذه تصرفات دقيقة تفهية يحتاج المحتسب لمعالجة إلى معرفتها . الدرجة السادسة التهديد والتخويف كقوله دع عنك هذا أو لا كسر رأسك أو لأضربن رقبتك أو لأكرن بك وما أشبهه وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تنديعه والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه كقوله لأنهن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما جرى مجراه بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام وإن قاله من غير عزم فهو كذب نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد ما معلوم يقتضيه الحال وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يجمعه ويردعه وليس ذلك من الكذب المحذور بل بالعلقة في مثل ذلك معتادة وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين وذلك بما قد رخص فيه للحاجة وهذا في معناه فان قصد به إصلاح ذلك الشخص وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف في الوعيد كرم وإنما يقبح أن يمد بما لا يفعل وهذا غير مرضى عندنا فان الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيداً وإنما يتصور هذا في حق العباد وهو كذلك إذ الخلف في الوعيد ليس بحرام . الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح وذلك جائز للأحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع فإذا اندفع النكر فينبغي أن يكف والقاضي قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس فان أصر المهجوس وعلم القاضي قدرته

(١) حديث تكسير الظروف التي فيها المحجور في زمنه صلى الله عليه وسلم الترمذى من حديث أبى طلحة أنه قال : يا نبي الله إني اشتريت خيراً لأيتام في حجرى قال اهرق الخمر واكسر الدنان وفيه لث بن أبى سليم والأصح رواية السدى عن يحيى بن عباد عن أنس أن أباً طلحة كان عنده قاله الترمذى .

شخص أنه كوشف في بعض خلواته بوله له في جيحون كاد يسقط في الماء من السفينة قال فزجرته فلم يسقط وكان هذا الشخص بنواحي همدان وولده يجيحون فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط في الماء فسمع صوت والده فلم يسقط ، وقال عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل على للتبر بالمدينة وسارية بهاوند فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو فقيل لسارية كيف علمت ذلك فقال سمعت صوت عمر وهو يقول يا سارية الجبل . سئل ابن سالم وكان قد قال للإيمان أربعة أركان ركن منه الإيمان بالقدره وركن منه الإيمان بالحكمة وركن منه التبرى من

على أداء الحق وكونه معاندا فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه وكذلك المحتسب يرى التدريج فان احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع النكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تترقنة كالوقص فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بزمزم معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له خل عنها أو لأمرينك فان لم يخل عنها فله أن يرمى وينبى أن لا يقصد القتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج وكذلك يسلب سيفه ويقول أترك هذا النكر أو لأمرينك فكل ذلك دفع للنكر ودفعه واجب بكل ممكن ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالأميين. وقالت المصنفات ما لا يتعلق بالأميين فلا حصة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للامام والآحاد . الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى اذن الامام فقال قائلون لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون لا يحتاج إلى الاذن وهو الأقبح لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تخرج إلى نوان والثواني إلى نواث وقد ينتهي لامحالة إلى التضارب والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ومنهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار فمأهل الكفر فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله والسلم إن قتل فهو شهيد فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله والمحتسب الحق إن قتل مظلوما فهو شهيد . وعلى الجملة فانها الأمر إلى هذا من النوازل في الحسبة فلا يغيره قانون القياس بل يقال كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبفسه وبأعوانه فالمسئلة إذن محتملة كما ذكرناه فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الوافق .

(آداب المحتسب)

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات ونذكر الآن جملة ما مصادرها فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب : العلم والورع وحسن الخلق . أما العلم فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه . والورع ليردعه عن مخالفة معلومه فما كل من علم بعمل بطله بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد للمأذون فيه شرعا ولكن يحمله عليه عرض من الأغراض وليسكن كلامه ووعظه مقبولا فان الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جراءة عليه . وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه العلم والورع لا يكفيان فيه فان الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بهتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشغل بنفسه بل ربما يقدم عليه ابتداء لطاب الجامع والاسم فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات وإن قدقت لم يندفع النكر بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لمجاوزه حد الشرع فيها ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حلیم فيما يأمر به حلیم فیم ينهى عنه قبیح فيما يأمر به قبیح فیم ينهى عنه (١) » وهذا يدل على أنه لا يشترط

الحول والقوة وركن منه الاسعانة بالله عز وجل في جميع الأشياء قيل له ما معنى قولك الايمان بالقدرة فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالشرق قائما على يمينه ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب تؤمن بمجواز ذلك وكونه، وحكى لي فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص يفتاد أنه قد مات فكشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى في سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يموت وكان كذلك حتى ذكر لي هذا الشخص أنه في تلك الحالة التي كشف بالشخص راكبا قال

(١) حديث لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه الحديث

أن يكون فقها مطلقا بل فباأمر به وينهى عنه وكذا الحلم . ول الحسن البصري رحمه الله تعالى :
إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فيمكن من أخذ الناس به وإلا هلك . وقديلا :

لا تلم للرم على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وآتى مثله فانما يزرى على عقله

رأيت في السوق وأنا
أسمع بأذني صوت
للطرفة من الحداد في
سوق بغداد وكل هذه
مواهب الله تعالى وقد
يكشف بها قوم وتمطي
وقد يكون فوق هؤلاء
من لا يكون له شيء
من هذا الآن هذه كلها
تقوية اليقين ومن
منع صرف اليقين
لا حاجة له إلى شيء من
هذا فكل هذه
الكرامات دون
ما ذكرناه من تجوهر
الذكر في القلب
ووجوده ذكر الذات
فان تلك الحكمة فيها
تقوية للريدن وتربية
للسالكين ليزدادوا
بها يقينا يحذون به إلى
مراغمة النفوس
والسلو عن ملاذ الدنيا
ويستنهض منهم
بذلك ما كن عزمهم

ولسنا نفي بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يستط أثره عن القلوب بظهور نفسه
للناس . فقد روى عن أنس رضي الله عنه قال « قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله
ولا نهى عن النكر حتى نتجنبه كله فقال صلى الله عليه وسلم بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله
وانهوا عن النكر وإن لم تتجنبوه كله (١) » وأوصى بعض السلف بنيه فقال إن أراد أحدكم أن
يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد من
الأذى ، فاذن من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف
فقال حاكيا عن لقمان - يابن أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن النكر واصبر على ما أصابك - .
ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداينة .
فقد روى عن بعض الشايع أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من
الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكرا فدخل الدار أولا وأخرج السنور ثم جاء واحتسب على
القصاب فقال له القصاب لا أعطيك بهذا شيئا السنورك قال ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج
السنور وقطع الطمع منك وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع
في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة لم تيسر له الحسبة . قال كعب
الأجبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال حسنة قال إن التوراة تقول : إن الرجل
إذا أمر بالمعروف ونهى عن النكر ساءت منزلته عند قومه فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب
أبو مسلم . وبذل على وجوب الرفق ما استدل به للمأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال
يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى - فقولا
له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى - فليكن ابتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد
روى أبو أمامة « أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يابني الله أتأذن لي في الزنا فصاح
الناس به فقال النبي صلى الله عليه وسلم قريوه اذن فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي صلى الله عليه وسلم
والسلام آجبهم أمك ؟ فقال لا ، جعلني الله فداك قال كذلك الناس لا يحبونه لأنهم آجبهم أمك لا بنتك ؟ قال لا ،
جعلني الله فداك قال كذلك الناس لا يحبونه لأنهم آجبهم أمك لا بنتك (٢) » وزاد ابن عوف حتى ذكر
العمرة والحالة وهو يقول في كل واحد ، لا جعلني الله فداك وهو صلى الله عليه وسلم يقول كذلك الناس
لا يحبونه وقالا جميعا في حديثهما أعنى ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يده على صدره وقال « اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحسن فرجه » فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعني
من الزنا وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل

لم أجده هكذا وللبقي في الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أمر بمعروف فليكن
أمره بمعروف (١) حديث أنس قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا نهى عن النكر
حتى نتجنبه كله فقال صلى الله عليه وسلم بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن النكر وإن لم
تتجنبوه كله الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه .
(٢) حديث أبي أمامة أن شابا قال يا رسول الله أتأذن لي في الزنا فصاح الناس به الحديث رواه أحمد باسناد جيد

ما أخذ منهم إلا دون حقه ثم خلا به وعذله ووجعه فقال سفيان يا أبا علي إن لم تكن من الصالحين فانا لنحب الصالحين . وقال حماد بن سلمة : إن صلة بن أشيم مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال دعوني أنا أكفيكم فقال يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال وما حاجتك يا عم ؟ قال أحب أن ترفع من إزارك فقال نعم وكرامة فرفع إزاره فقال لأصحابه لو أخذتموه بشدة لقال لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله وإذا في طريقه غلام من قرين سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس يضربونه فنظر إليه ابن عائشة فصرفه فقال للناس تتحوا عن ابن أخي ثم قال لي يا ابن أخي فاستحي الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ثم قال له امض معي فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه بيته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف فقال الغلام قد أمر أن تأتبه فأدخله عليه فقال له أما استحييت لنفسك أما استحييت لشرفك أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله واتزع عما أنت فيه فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال عاهدت الله تعالى عهدا يسألني عنه يوم القيامة أتى لأعود لشرب النبيذ ولأشرب مما كنت فيه وأنا تأتاب فقال ادن مني قبل رأسه وقال أحسيت يا بني فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك يركه رقه ثم قال : إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فليكم بالرفق في جميع أموركم تتألون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة وقهرض لها ويده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره وكان الرجل شديد البدن فيينا الناس كذلك والمرأة تصبح في يده إذ مر بشر بن الحرث فدنا منه وحك كتفه بكف الرجل فوق الرجل على الأرض ومشى بشر فدنا من الرجل وهو يترشح عرفا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسالوه ما حالك ؟ فقال ما أدري ولكن حاكني شيخ وقال لي إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل فضعفت لقوله قدمي وهتبه هبة شديدة ولا أدري من ذلك الرجل ؟ فقالوا له هو بشر بن الحرث فقال واسأناه كيف ينظر إلي بعد اليوم وحّم الرجل من يومه ومات يوم السابع ، فهكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة وقد قلنا فيها آثارا وأخبارا في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصلابة فلا نطوّل بالاعادة فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه .

(الباب الثالث في المنكرات للألوفة في العادات)

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطلق في حصرها واستقصائها . فمن ذلك :

(منكرات المساجد)

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة فإذا قلنا هذا منكر مكروه فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بمحرام إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه وإذا قلنا منكر محظور أو قلنا منكر مطلقا فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا . فما يشاهد كثيرا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنفس الحديث فيجب النهي عنه إلا عند الخفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة إذ لا يرفع النهي معه ومن رأى مبيثا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه هكذا ورد به الآثار وفي الخبر ما يدل عليه إذ ورد في الغيبة أن السمع شريك القائل (١)

رجالهم الأوقات بالقربات فيترجون بذلك ويروقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لكان أن نفسه أسرع إجابة وأسهل اتقيادا وأتم استعدادا والأولون استلين بذلك منهم ما استوعروا واستكشف منهم ما استروا وقد لا يمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة عن هو غير متنج سبل الهدى وراكب طريق الردى ليكون ذلك في حقهم مكررا واستدراجا ليستحسنوا حالهم ويستقروا في مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيها أراد الله منهم من الصمى والضلال والردى والوبال حتى لا يستر السالك بيسير شيء يفتح له ويعلم أنه

رجالهم الأوقات بالقربات فيترجون بذلك ويروقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لكان أن نفسه أسرع إجابة وأسهل اتقيادا وأتم استعدادا والأولون استلين بذلك منهم ما استوعروا واستكشف منهم ما استروا وقد لا يمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة عن هو غير متنج سبل الهدى وراكب طريق الردى ليكون ذلك في حقهم مكررا واستدراجا ليستحسنوا حالهم ويستقروا في مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيها أراد الله منهم من الصمى والضلال والردى والوبال حتى لا يستر السالك بيسير شيء يفتح له ويعلم أنه

(١) حديث الغتاب والسمع شريكان في الإثم تقدم في الصوم .

وكذلك كل ما يمدح في صحة الصلاة من نجاسة على توبه لا يراها أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو غمي فكل ذلك يجب الحسبة فيه . ومنها قراءة القرآن باللحن يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح فان كان العتكف في السجدة يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به فان هذا أفضل له من ذكره وتطوعه لأن هذا فرض وهي قرينة تعمده فائدها فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدها وإن كان ذلك ينمعه عن الوراثة مثلا أو عن الكسب الذي هو طعمته فان كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يجزله ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له فيسقط الوجوب عنه لعجزه والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فانه عاص به وإن كان لا يطاوعه اللسان فان كان أكثر ما يقرؤه لحنا فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها وإن كان الأكثر صحيحا وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ولكن ينبغي أن يخفف به الصوت حتى لا يسمع غيره ولنمعه سرا منه أيضا وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فليست أرى به بأسا والله أعلم . ومنها ترأس المؤمنين في الأذان وتطويلهم بعد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الجعلتين أو لفرد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر بحيث يضرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريضها فان صدرت عن معرفة فيستحب النع منها والحسبة فيها وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يبول على أذانه في صلاة وترك سجود أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح . ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة إما من واحد أو جماعة فانه لا فائدة فيه إذ لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف . ومنها أن يكون الخطيب لابسا ثوبا أسود يغلب عليه الإبريسم أو ممسكا سيف مذهب فهو فاسق والانكار عليه واجب وأما مجرد السواد فليس بمكروه ولكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهودا في العصر الأول لكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغي أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب . ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة بالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والانكار عليه واجب وكذا الوعاظ للبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه إما لكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواليا فان لم يقدر فلا يجوز صماع البدعة قال الله تعالى لنبيه - فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره - ومهما كان كلامه مائلا إلى الإرجاء وتجرئة الناس على المعاصي ، وكان الناس يزدادون بكلامه جرأة وبغفوا الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجائهم على خوفهم فهو منكر ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فاتهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه لو نادى مناد يوم القيامة ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نادى مناد ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لحقت أن أكون أنا ذلك الرجل ومهما كان الوعاظ شامرا بمنزلة النساء في ثيابه وهيئته كثير الأسماء والإشارات والحركات وقد حضرت مجلسه النساء فهذا منكر يجب النع منه فان الفساد فيه أكثر من الصلاح ويتبين ذلك منه برأى أحواله

لو مشى على الماء
والهواء لا ينفعه ذلك
حق يؤدي حق التقوى
والزهد فأما من تقوى
بغمال أو وقع بمحال ولم
يعلم أساس خلوته
بالاخلاص يدخل
الحلوة بالزور ويدخل
بالزور فيرفض
العبادات ويستحقها
ويسلبه الله تعالى
لذة للعامة وتذهب
عن قلبه هبة
الشرية ويفتضح في
الدنيا والآخرة فليعلم
الصادق أن القصور
من الحلوة التقرب إلى
الله تعالى بعبادة
الأوقات وكف الجوارح
عن المكروهات
فيصلح لقوم من
أرباب الحلوة إدامة
الأوراد وتوزيعها على
الأوقات ويصلح لقوم
ملازمة ذكر واحد

بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زى الصالحين وإفلا
يزداد الناس به إلا تماديا في الضلال ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن
ذلك أيضا مظنة الفساد والعادات تشهد لهذه المنكرات ويجب منع النساء من حضور الساجد للصلوات
ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بين قد منتهين عائشة رضي الله عنها قيل لها : إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم مامنعن من الجماعات فقال لوعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن بعده لمنعن (١)
وأما اجتياز المرأة في السجدة مسترة فلا يمنع منه إلا أن الأولى أن لا تتخذ السجدة مجازا أصلا وقراءة القرآن
بين يدي الوعاظ مع التقيد والألحان على وجه يغير نظم القرآن ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه
شديد السكره أنكره جماعة من السلف . ومنها الخلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة
والتعويذات وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه فهذه الأشياء منها
ما هو محرم لكونه تليسا وكذبا كالكذابين من طريقة الأطباء وكأهل الشعبة والتليسات وكذا
أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتليسات على الصبيان والسوداء فهذا حرام في السجدة
وخارج السجدة ويجب النع منه بل كل بيع فيه كذب وتليس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام .
ومنها ما هو مباح خارج السجدة كالحياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة فهذا في السجدة أيضا لا يحرم
إلا بعارض وهو أن يضيق المحل على الصلبيين ويشوش عليهم صلاتهم فإن لم يكن شيء من ذلك فليس
بحرام والأولى تركه ولكن شرط بإباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة فإن اتخذ السجدة
دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه فمن الباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثرت صار صغيرة كما أن من
الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لوقوع بابة خفيف منه أن ينجر
إلى الكثير فليمنع منه وليكن هذا النع إلى الوالي أو إلى القيم بمصالح السجدة من قبل الوالي لأنه
لا يدرك ذلك بالاجتهاد وليس للأحد النع مما هو مباح في نفسه لحوفه أن ذلك يكثر . ومنها دخول
المجانين والصبيان والسكران في السجدة ولا بأس بدخول الصبي السجدة إذا لم يلعب ولا يحرم عليه اللعب
في السجدة ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ السجدة لعبا وصار ذلك معتادا فيجب النع منه فهذا مما يحل
قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ما روي في الصحيحين « أن رسول الله ﷺ وقف لأجل عائشة رضي الله
عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفون ويلعبون بالدرق والحرايب يوم العيد في السجدة » ولا شك في أن
الحبشة لو اتخذوا السجدة لعبا لمنعوا منه ولم يرد ذلك على الندرة والقلة منكر حتى نظر إليه بل أمرهم به
رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطيبا لقلبها إذا قال « دونكم يا بني أرفدة » كما نقلناه
في كتاب السماع . وأما المجانين فلا بأس بدخولهم السجدة إلا أن يغشى ثوبهم له أو شتمهم أو نطقهم بما هو
خفى أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره . وأما المجنون الهادي الساكن الذي قد
علم بالعادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من السجدة والسكران في معنى المجنون فإن خيف منه
الغذف أعنى القى أو الأذى بالأسنان وجب إخراجه وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه
وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد السكره وكيف لا ، ومن
أكل الثوم والبصل (٢) فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور الساجد ولكن يحمل ذلك
على السكره والأمر في الحرأشد . فإن قال قائل ينبغي أن يضرب السكران ويخرج من السجدة زجرا .
قلنا لا ، بل ينبغي أن يلزم القعود في السجدة ويدعى إليه ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلا

ويصلح يقوم دوام
للمراقبة ويصلح يقوم
الانتقال من الذكر
إلى الأوراد ولقوم
الانتقال من الأوراد
إلى الذكر ومعرفة
مقادير ذلك يسهل
للمصحب لشيخ اللطاع
على اختلاف الأوضاع
وتنوعها مع نصحه
للأمة وشفقته على
الكافة يريد للمريد
لأنفسه غير مبتلى
بهوى نفسه عجا
للاستبصار ومن كان
عجا للاستبصار فما
يفسده مثل هذا أكثر
عما يصلحه .

الباب الثامن

والشؤون في كيفية
الدخول في الأربينية
روى أن داود عليه
السلام لما ابتلى بالخطيئة
خرقه ساجدا أربعين
يوما و ليلة حتى أتاه

(١) حديث عائشة لوعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن أى النساء من بعده لمنعن من الساجد
متفق عليه (٢) هذا الحديث لم يخرج في العراق وقد أخرجه الشارح عن البخاري ومسلم وغيرهما .

فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الأحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين فأما لجرد الرائحة فلا ، نعم إذا كان عثى بين الناس متايلا بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد منعاه عن إظهار أثر السكر فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها فإن كان مستترا مخفيا لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه والرائحة قد تفوح من غير شرب بالجلوس في موضع الخمر وبوصوله إلى النعم دون الابتلاع فلا ينبغي أن يعول عليه .

(منكرات الأسواق)

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في الرابحة وإخفاء الميب فمن قال اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذبا فهو فاسق وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه فإن سكنت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له في الخيانة وعصى بسكوته وكذا إذا علم به عيا فيلزمه أن يئنه المشتري عليه وإلا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام وكذا التفاوت في الدراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفضه إلى الوالي حق تغييره . ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الانكار فيها فانها مفسدة للعقود وكذا في الربويات كلها وهي غالبية وكذا سائر التصرفات الفاسدة . ومنها بيع للالهى وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان فتلك يجب كسرها والنزع من بيعها كاللهى وكذلك بيع الآواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير وقلائس الذهب والحرير أعنى التي لا تصلح إلا للرجال أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المتخذة المصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والنزع منه واجب وكذلك تلبس الخراف الثياب بالرؤف وما يؤدي إلى الالتباس وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبس وذلك بطول إحصاؤه . فليفس عاذكرناه ما لم نذكره .

(منكرات الشوارع)

فمن المنكرات المعتادة فيها وضع الاسطوانات وبناء الدكاك التصلة بالأبنية الملوكة وغرس الأشجار وإخراج الرواشن والأجنحة ووضع الحطب وأعمال الحبوب والأطعمة على الطرق فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستضرار للارة وإن لم يؤدي إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه نعم يجوز وضع الحطب وأعمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن النزع منه وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق ويتجسس المجتازين منكر يجب النزع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والرعى هو الحاجة التي تتراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات . ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع وإفلاء منع إذ حاجة أهل البلد تنس إلى ذلك نعم لا تترك ملفاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل ، وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الخانات ويولوث الطريق بالدم فانه منكر يمنع منه بل حقه أن يتخذ في مكانه مذبحا فإن في ذلك تضيقا بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة وبسبب استقدار الطباع للفاذورات وكذلك طرح القمامة

الغفران من ربه وقد

تقرر أن الوحدة

والعزلة ملاك الأمر

وتمسك أرباب

الصدق فمن استمرت

أوقاته على ذلك فجميع

عمره خلوة وهو الأسلم

لدينه فإن لم يتيسره

ذلك وكان مبتلى

بنفسه أولاهم بالأهل

والأولاد ثانيا فيجعل

لنفسه من ذلك نصيبا .

قل عن سفیان

الثوري فيأروى أحمد

ابن حرب عن خالد بن

زيد عنه أنه قال كان

يقال ما أخلص عبده

أربعين صباحا إلا أنبت

الله سبحانه الحكمة

في قلبه وزهده الله

في الدنيا ورغبه

في الآخرة وبصره داء

الدنيا ودواءها فيتعاهد

العبد نفسه في كل سنة

على جواد الطرق وتبديده شور البطيخ أورش الماء بحيث يخشى منه التزاق والتضرر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من اليازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فان ذلك ينجس الثياب أو يضيئ الطريق فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذا العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأحوال والتلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ولكن ليس يختص به شخص معين إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق وإن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها وليس للأحاديث إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه وإن كان لا يؤذى إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه وإن كان يضيئ الطريق ببسط ذراعيه فيمنع منه بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقع قدودا يضيئ الطريق فكلبه أولى بالمنع .

(منكرات الحمامات)

منها الصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر فان كان الموضع مرتفعاً لاتصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر فان مشاهدة المنكر غير جائزة ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان . ومنها كشف العورات والنظر إليها ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتحية الوسخ بل من جملتها ادخال اليد تحت الإزار فان مس عورة الغير حرام كالنظر إليها . ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتفخيم الأفعاذ والأعجاز فهذا مكروه إن كان مع حائل ولكن لا يكون محظوراً إذ لم يخش من حركة الشهوة وكذلك كشف العورة للحجج القمى من الفواحش فان المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدن اللذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال . ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل فانه منجس للماء إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية وإن اجتمع مالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالكي من ذلك إلا بطريق الالتماس واللفظ وهو أن يقول له إننا نحتاج أن نغسل اليد أولاً ثم نغمسها في الماء وأما أنت فمستغن عن إيدائي وتفويت الطهارة على وما يجرى مجرى هذا فان مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالتمهر . ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر ويجب قلعها وإزالتها وينكر على الحمامي إهماله فانه يفضي إلى السقطة وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه وكذلك ترك الصدر والصابون الزلق على أرض الحمام منكر ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به إنسان وانكسر عضو من أعضائه وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحمامي إذ حقه تنظيف الحمام والوجه إعجاب الضمان على تاركه في اليوم الأول وعلى الحمامي في اليوم الثاني إذ إعادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة والرجوع في مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات فليعتبر بها وفي الحمام أمور أخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتنظر هناك .

(منكرات الضيافة)

فمنها فرش الحرير للرجال فهو حرام وكذلك تبخير البخور في محبرة فضة أو ذهب أو الشراب أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رؤوسها من فضة . ومنها إسدال الستور وعليها الصور . ومنها صماح الأوتار أو صماح القينات . ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال

مرة وأما اللريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكمل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما علكه ويقتل غسلاً كاملاً بعد الاحتياط للثوب وللصلى بالنظافة والطهارة ويصلى الركعتين ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه يكاء وتضرع واستكانة وتخشع ويسوي بين السريرة العلانية ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ثم يقعد في موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ فان وجد تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلي معه جماعة

دباب يخاف الفتنة منهم فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره ومن يحجز عن تغييره لزمه الخروج ومن لم يحجز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات وأما الصور التي على الناريق والزرايا الفروشة فليس منكرها وكذلك على الأطباق والقصاع لا الأواني المتخذة على شكل الصور فقد تكون رؤوس بعض الجمار على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه وفي المسكحة الصغيرة من الفضة خلاف وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها ومهما كان الطعام حراما أو كان الموضع مفضوبا أو كانت الثياب الفروشة حراما فهو من أشد المنكرات فإن كان فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور إذ لا محل لحضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك وأنه هل يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر والصحيح أن ذلك منكر ويجب نزع عنه إن كان محجرا لمعوم قوله عليه السلام «هذان حرام على ذكور أمتي»^(١) وكما يجب منع الصبي من شراب الخمر لا لكونه مكلفا ولكن لأنه يأنس به فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده فيكون ذلك بذرا للفساد يئثر في صدره فتبت منه شجرة من الشهوة راسخة يصير قلعها بعد البلوغ أما الصبي الذي لا يميز فيضغف معنى التحريم في حقه ولا يغلو عن احتمال العلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز نعم محل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف ولا أرى رخصة في تنقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا الحاجة مهمة كالقصد والحجامة والحتان والتزين بالخلق غير مهم بل في التفريط بتعليقه على الأذن وفي المخائيق والأسورة كفاية عنه فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والنع منه واجب والاستنجار عليه غير صحيح والأجرة المأخوذة عليه حرام إلا أن ثبت من جهة الثقل فيه رخصة ولم يلبسنا إلى الآن فيه رخصة. ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع يشكك في بدعته فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد فإن كان لا يقدر عليه لم يحجز فإن كان البدع لا يتكلم يدعته فيجوز الحضور مع إظهار الكراهة عليه والإعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يحجز الحضور وعند الحضور يجب الانكار عليه وإن كان ذلك بمنزلة لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح أعني ما يقل منه فأما اتخاذ صنعة عادة فليس بمباح وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصده التلبس فليس من جملة المنكرات كقول الإنسان مثلا طلبتك اليوم مائة مرة وأعدت عليك الكلام ألف مرة وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصده التحقيق فذلك لا يهدح في العدالة ولا ترد الشهادة به وسيأتي حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات. ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر بل في المال منكران: أحدها الإضاعة والآخر الإسراف فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كاحراق الثوب وتعميقه وهم البناء من غير غرض وإلقاء المال في البحر وفي معنى صرف المال إلى الناحية والمطرب وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعا فصارت كالمعدومة وأما الإسراف فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى الناحية والمطرب والمنكرات وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة والمبالغة تختلف بالاضافة إلى الأحوال فنقول لمن لم يملك إلا مائة دينار مثلا ومنعه عياله وأولاده

(١) حديث هذان حرامان على ذكور أمتي أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث على وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل.

في خلوة ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفردا ألبتة فترك الجماعة يغني عليه آفات وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة غير أنه ينبغي أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذكر لا يفتر عن الذكر ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ولا يضي إلى ما يسمع لأن القوة الحافظة والتخيلة كلوح ينتفش بكل مرئ ومسموع فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال ويجهتد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الاحرام فأذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته ويتق في خروجه

ولا معيشة لهم سواء فأنفق الجميع في ولاية فهو مسرف يجب منعه منه قول تعالى - ولا تبسطهما كل البسط فتعمد ملوما محسورا - نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئا لعياله فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى - ولا تبذر تبذيرا إن للبذرين كانوا إخوان الشياطين - وكذلك قال عز وجل - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا - فمن يسرف هذا الاسراف ينكر عليه ويجب على القاضي أن يحجر عليه إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر ومن له عيال أو كان عاجزا عن التوكل فليس له أن يتصدق بجميع ماله وكذلك لو سرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم وفضل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ولم نزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لافائدة فيه إلا مجرد الزينة فكذا الدور وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته وأمثال هذه النكرات كثيرة لا يمكن حصرها فقس بهذه النكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية وخانات الأسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور . واستقصاء جميع النكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلنقتصر على هذا القدر منها.

(النكرات العامة)

اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن ارشاد الناس وتعليمهم وحملهم على العروف فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبادي ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد قفية يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية وواجب على كل قفية فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل المواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويطلعهم دينهم وفرائض شرعهم ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرهم مفسدون فان قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا غم الحرج السكينة أجمعين أما العالم فلتقصيره في الخروج وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الاثم ومعلوم أن الانسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها ولعمري الاثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصاعتهم أليق ، لأن المحترفين لو تركوا حرفة لم يطلعت العايش فهم قد تقلدوا أمرا لا بد منه في صلاح الخلق وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فان العلماء هم ورثة الأنبياء وليس للانسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي وكذا كل من يتيقن أن في السوق منكرًا يجري على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالعود في البيت بل يلزمه الخروج فان كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير عرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبذل نفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ثم يعلم ذلك أهل بيته ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى حيوانه ثم إلى أهل محله ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم وهكذا إلى أقصى العالم فان قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا

استجلاء نظر الخلق إليه وعلمهم بحلوسه في خلوته فقد قيل لا تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد للمنزلة عند الناس وهذا أصل يفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر ويكون في خلوته جاهلا وقته شيئا واحدا موهوبا لله بادامة فعل الرضا إماما لاوة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة وأي وقت فتر عن هذه الأقسام ينال فان أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئا فشيئا وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام فاذا فتر عن ذلك ينال وإن

كان أو بعيدا ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاعل بغيره من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه وهذا شأنه شاغل لمن يسه أمر دينه يشغله عن تجرئة الأوقات في التفريجات النادرة والتسحق في دقائق الصلوات التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

(الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر)

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التمرض وتواضع الوعظ وتلكه التخشين في القول لورايه للنسب بالقهر في الحلق على الحق بالعرب والضيقة والجائر من جملة ذلك مع السلاطين المرتبطين الأوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع بالقهر فليس ذلك لأحد الرعية مع السلطان فإن ذلك يجرى الحركة ويهيج الشر ويكون مايتولد منه من المفسد أكثر ، وأما التخشين في القول كقوله : يا ظالم ائمن لا تخاف الله وما يجرى مجراه فذلك إن كان يجرى فتنه يتعدى شرها إلى غيره لم يجر ولأن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائر بل خندوب إليه فلقد كان من عادة السلف التمرض للأخطار والتصريح بالانكار من غير مبالاة بولاء للجهة والتعرض لأنواع العذاب لهم بأن ذلك شهادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك (١) » وقال رسول الله « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر (٢) » ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال « قرن من حديد لا تأخذه في العلمومة لأمم ولا يركب قوله الحق ماله من صديق (٣) » ولما علم الصليبيون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قسموا على ذلك موطنين أنفسهم على الملائكة ومحتلين أنواع العذاب وصاروا على في ذات الله تعالى ومحتسين لما يبدلون من مهجهم عند الله وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف . وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام وتقتصر الآن على حكايات تعرف وجه الوعظ وكيفية الانكار عليهم . فنهنا ما روى من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكار قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء وذلك ما روى عن عروة رضي الله عنه قال « قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت حمزة ثاقت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته فقال حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل منه أحلامنا وشتم آباءنا وعبادتنا وفرق جماعتنا وسب آلنا وقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا فينبأهم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول

(الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر)

(١) حديث خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله (٢) حديث أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر تقدم (٣) حديث وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم تركه الحق ماله من صديق الترمذي بسند ضعيف مقتصر على آخر الحديث من حديث على رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق وماله من صديق وأما أول الحديث فرواه الطبراني إن عمر قال لكعب الأحبار كيف نجد نعتي ، قال أجندتك قرنا من حديد قال وما قرن من حديد قال أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم .

أراد أن يبقى في سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعسة أو ساعتين فقل ولازم في خلقه إدامة الوضوء ولا ينظم إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات فيكون هذا غلبة ليله ونهاره وإذا كان ذلك الكلمة لا إله إلا الله وشئت النفس الله كالبان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان ، وقد قال سهل ابن عبد الله : إذا قلت لا إله إلا الله مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأنبت وأبطل ما سواه وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة فيمكن دائم التلزم بفعل الرضا . وأما قوت من في الأربعينية

قال ففرت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ففرت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى لمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال أسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده لقد جشتم بالذبح قال فأتى القوم حتى قام بهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدتم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم راهدا فوالله ما كنت جهولا قال فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحبر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض ذكرت ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بدأتم بما تكرهون تركتموه فبيناهم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا أنت الذي تقول كذا لما كان قد بلغهم من عيب آلهم ودينهم قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم أنا الذي أقول ذلك قال فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه قال وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه يقول وهو يسكن ويلكم أفتقولون رجلا أن يقول ربى الله قال ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه ^(١) وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه فغفقه خنقا عديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أفتقولون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبيئات من ربكم ^(٢) » وروى أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الحولاني فقال له يا معاوية إنه ليس من كذا ولا من كذا أيك ولا من كذا أمك قال فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم مكانكم ، وغاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال إن أبا مسلم كلني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل ^(٣) » وإني دخلت فاعتسلت وصدق أبو مسلم أنه ليس من كذا ولا من كذا أي فلهوا إلى عطاءكم . وروى عن ضبة بن محسن العنزي قال كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال فغاضني ذلك منه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جعاً ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لي في خطبتي فكتب إليه عمر أن أشخصه إلى قال فأشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال من أنت قلت أنا ضبة فقال لي لا مرحبا ولا أهلا قلت أما المرحب فمن الله وأما الأهل فلا أهلاً لي ولا مال فبأذا استحللت يا عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبته ولا شيء أثبتته فقال ما الذي شجر بينك وبين عاملي قال قلت الآن أخبرك به إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاضني ذلك منه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جعاً ثم كتب إليك يشكوني قال فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً وهو يقول أنت والله أوفى منه وأرشد فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك قال قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين قال

والخولة فالأولى أن يقتنع بالحيز والمخ ويتناول كل ليترطلا واحدا بالبدائي يتناوله بسند العشاء الآخرة وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة وأعون على قيام الليل وإحيائه بالدهكر والصلاة وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل وإن لم يصبر على ترك الآدم يتناول الآدم كان الآدم شيئا يقوم مقام الحيز ينقص من الحيز بقدر ذلك وإن أراد التقليل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون اللقمة بحيث ينتهي قلبه في العشر الأخير من الأربعين

(١) حديث عزرة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته الحديث بطوله البخاري مختصراً وابن جابر بن عامر (٢) حديث عبد الله بن عمرو بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث رواه البخاري (٣) حديث معاوية الغضب من الشيطان الحديث وفي أوله قصة أبو نعيم في الحلية وفيه من لا أعرفه .

ثم اندفع باكيا وهو يقول والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليته ويومه قلت نعم قال أما ليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فقبه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أهلك فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آتمن عليك قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليته على أطراف أصابعه حتى احتيت فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمل على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى قم الغار فأنزله ، ثم قال والذي بئسك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك قال فدخل فلم يرفه عينا فعمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع فآلقه أبو بكر قدمه عذابة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه وجعل يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تتحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله ﷺ يقول يا أبا بكر لا تعزن أن الله معنا فأنزل الله مكيته عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلة ، وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم نصل ولا نركي فأنبته لا آلوه نصحا فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارتفق بهم فقال لي أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام فبأذا أنالهم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي فوالله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه ثم كتب إلى أبي موسى يولمه (١) . وعن الأصمعي قال دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حبه في خلافته فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهد بالمعاهدة واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فانك بهم جلست هذا المجلس واتق الله في أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك السئول عنهم واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم فقال له أجل أقبل ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك قال يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال مالي إلى مخلوق حاجة ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف . وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله حتى ليحدثني فوقفت للحاجب على الباب مدة ثم ربه عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال السلام عليك يا وليد قال فضرب الوليد على حاجبه وقال له ويلك أمرتك أن تدخل إلى رجل لا يحدثني ويسامرنى فأدخلتني إلى رجلا لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره لي الله فقال له حاجبه ما مر بي

(١) حديث ضبة بن محسن كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة وفيه عن عمر أنه قال والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليته فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقي في دلائل النبوة باسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بغير هذا السياق واتفق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بل غلط آخر ولهما من حديثه قال قلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وأما قتاله لأهل الردة ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر كيف تقاتل الناس الحديث.

إلى نصف رطل وإن قوى قسح النفس بنصف رطل من أول الأربعين وتقص يسيرا كل ليلة بالتدريج حتى يعود فطوره إلى ربع رطل في العشر الأخير . وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس وقد جعل للجوع وقتان : أحدهما آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا والوقت الآخر على رأس اثنتين وسبعين ساعة فيكون الطهي

أحد غيره ثم قال لطاء اجلس ثم أقبل عليه يحدثه فبكان فيما حدثه به عطاء أن قال له بلغنا أن في جهنم واديا يقال له هبيب أعداء الله لكل إمام جائر في حكمه ضيق الوليد من قوله وكان جالسا بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوفه المجلس منشيا عليه فقال عمر لطاء قتل أمير المؤمنين فقبض عطاء على فزع عمر بن عبد العزيز فغضبه غمزة شديدة وقال له يا عمر إن الأمر جد فجد ثم قام عطاء وانصرف فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال مكثت سنة أجد أم غمزته في ذراعي . وكان ابن أبي عميلة يوصف بالعقل والأدب فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك تسكلم قال بيم أنسكلم وقد علمت أن كل كلام تسكلم به التسكلم عليه وبال . إلا ما كان لله فبكي عبد الملك ثم قال يرحمك الله لم يزل الناس يتواظفون ويتواصون فقال الرجل يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا يجنون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أراضى الله بسخط نفسه فبكي عبد الملك ثم قال لا جرم لأجلن هذه الكلمات مثالا نصيب عني ما عشت ، وروى عن ابن هانئة أن الحاجاج دعا بفقهاء البصرة وقهء الكوفة فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل فقال الحاجاج مرحبا بآبي سعيد إلى . إلى ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فعمد عليه فجعل الحاجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال منه وثلاثه مقاربة له وفرقا من شره والحسن ساكت عاض على إبهامه فقال يا أباسعيد مالى أراك ساكتا قال ما عسيت أن أقول قال أخبرني برأيك في أبي تراب قال سمعت الله جل ط كره يقول - وما جعلنا القبة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا لى الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم - فلى بمن هدى الله من أهل الإيمان فأقول ابن عم النبي عليه السلام وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوايق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يعطرها عليه ولا يحول بينه وبينها وأقول إن كانت لى هاء فالله حسبه والله ما أجد فيه تولا أعدل من هذا فسر وجه الحاجاج وتغير وقام عن السرير مضطربا فدخل بيتا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت يا أباسعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره فقال إليك عني يا عامر يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أنت شيطاننا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه وبحك يا عامر هلا أنقبت إن سثلت فصدقت أو سكت فسلمت قال عامر يا أباسعيد قد قتلها وأنا أعلم ما فيها قال الحسن فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة قال وبعت الحاجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال أنت الذى تقول قاتلهم الله قاتلوا عباد الله على الدينار والدرهم قال نعم قال ما حملك على هذا قال ما أخذ الله على العلماء من لواثيق - ليبيته للناس ولا يكتمون - قال يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يلعن عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . وحكى أن حطيطة الزيات جىء به إلى الحاجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيطة قال نعم قال سل عما بدا لك لاني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال إن سثلت لأصدقن وإن ابتليت لأصبرن وإن عوفيت لأشكرن قال فماتقول في قال أقول إنك من أعداء الله في الأرض تشترك المحارم وتقتل بالظنة قال فماتقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قال أقول إنه أعظم جرم ما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياهم قال فقال الحاجاج ضموا عليه العذاب قال فأتته به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوا على لجه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه حتى استحلوا لجه فاصعوه يقول شيئا قال فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال أخرجوه فارسوا به في السوق قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيطة ألك حاجة قال شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمه الله عليه . وروى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل

ليتين والانطار في
الليلة الثالثة ويكون
لكل يوم وليلة ثلث
رطل وبين هذين
الوقتين وقت وهو أن
يفطر من كل ليلتين
ليلة ويكون لكل يوم
وليلة نصف رطل
وهذا ينبغي أن يفعله إذا
لم ينتج ذلك عليه سامة
وضجرا وفيه انشراح
في الذكر والعامة فإذا
وجد شيئا من ذلك
فليفطر كل ليلة
وياً كل الرطل في
الوقتين أو الوقت
الواحد فالنفس إذا
أخذت بالإفطار من
كل ليلتين ليلة ثم ردت
إلى الإفطار كل ليلة
تنفع وإن سومت
بالإفطار كل ليلة لا تنفع
بالرطل وتطلب الآدام
والشهوات وقس على
هذا فهي إن أطعت

المدينة وأهل الشام وقرأها فحملها لهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ثم قال هما هذان هذا رجل أهل الكوفة يعني الشعبي وهذا رجل أهل البصرة يعني الحسن فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن فأقبل على الشعبي فقال يا أبا عمرو إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمتهم فأنأ أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم وقد يلقى عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطاياهم فأضربه في بيت المال ومن نيتي أن أردعه عليهم فيبلغ أمير المؤمنين أني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إلي أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة فهل علي في هذا نعمة وفي أشيائه من الأمور والثبة فيها على ما ذكرت قال الشعبي : قلت أصلح الله الأمير إنما السلطان والدي خطي ويصيب قال فسر بقولي وأهيب به ورأيت البشرى في وجهه وقال فله الحمد ثم أقبل على الحسن فقال ماتقول يا أبا سعيد قال قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمتهم والنصيحة لهم واتعهد لما يصلحهم وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإني سمعت عبد الرحمن بن حمزة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة»^(١) ويقول إني ربما قبضت من عطاياهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن رجعوا إلى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلي أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه وحق الله أن أؤتم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فابذله يا ابن هيرة اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودينك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك يا ابن هيرة إن الله لينمك من يزيد وإن يزيد لا ينمك من الله وإن أمر الله فوق كل أمر وإنه لا طاعة في معصية الله وإني أحذرك بأسماء الله لا يرد عن القوم المجرمين ، فقال ابن هيرة إربع على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعله به وما يمله من فضله ونيته فقال الحسن يا ابن هيرة الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله المرصاد يا ابن هيرة إنك أن تلقى من ينصح لك في دينك ويعملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلا يفرك ويعينك ققام ابن هيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه وقال الشعبي قلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا ، مرفقه وصلته فقال إليك عني يا عامر قال فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له للزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى إليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف وما شهدنا مشهدا إلا يرض علينا وقال لله عز وجل قلنا مقاربة لهم قال عامر الشعبي وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحايه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له ماتقول في القدر ؟ فقال جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن حمزة من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة رواه البغوي في معجم الصحابة بإسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

طمعت وإن أقنعت
قنعت. وقد كان بعضهم
ينقص كل ليلة حتى ردت
النفس إلى أقل قوتها
ومن الصالحين من
كان يبر القوت بنوي
التمتر وينقص كل ليلة
نواة ومنهم من كان
يصير يعود رطب
وينقص كل ليلة بقدر
نشاف العود . ومنهم
من كان ينقص كل
ليلة ربع سبع الرغيف
حتى يبقى الرغيف في
شهر ومنهم من كان
يؤخر الأكل ولا يعمل
في تقليل القوت ولكن
يعمل في تأخير
التدريج حتى تندرج
ليلة في ليلة وقد فعل
ذلك طائفة حتى انتهى
طوبهم إلى سبعة أيام
وعشرة أيام وخمسة
عشر يوما إلى الأربعين
وقد قيل لسهل بن

فان فيهم شغلا عن القدر . وعن الشافعي رضى الله عنه قال حدثني عمي محمد بن علي قال إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر للنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال فأتى الفخاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد فقال الحسن بن أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال فسأله فقال ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب فقال أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثير والأذى لهم ، فقال أبو جعفر : قد سمعتم فقال الفخاريون يا أمير المؤمنين سل عن الحسن بن زيد فقال يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد فقال أشهد عليه أنه يحكمه بغير الحق ويتبع هواه فقال قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ، فقال يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك قال ما تقول في قال تغيب يا أمير المؤمنين قال أسألك بالله ألا أخبرني قال تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك قال والله لتخبرني قال أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله وأشهد أن الظلم يابك فاش قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب قبض عليه ثم قال له أما والله لولا أني جالس هنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك قال فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقبضوا بالسوية وأخذوا بأقفاء فارس والروم وأسفروا آفاقهم قال غلب أبو جعفر قبضه وخلي سبيله وقال والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال ابن أبي ذؤيب والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك للمهدي قال فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس النصور لقيه سفيان الثوري فقال له يا أبا الحرث قد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن سامني قولك له ابنك للمهدي فقال ينفر الله لك يا أبا عبد الله كنا مهدي كلنا كان في للمهدي . وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال بعث إلى أبو جعفر النصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وصلت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي قال قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين قال أريد الأخذ عنكم والانتباس منكم قال فقلت فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك قال وكيف أجعله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأهدمتك له قال قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به قال فصاح بي الريح وأهوى بيده إلى السيف فأتته النصور وقال هذا مجلس مشوبة لا مجالس عقوبة (١) فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فأتها نعمة من الله سقيت إليه فان قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثمها ويزداد إثمها سخطا عليه (٢) » يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة (٣) » يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم

(١) حديث الأوزاعي مع النصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة والقصة بمحملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواعظ الخلفاء ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدي يحدث عننا كبير وهو عندي من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة في الموعظة لتذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق وليرف محابي كل حديث أو كونه مرسلًا فاولها (٢) حديث عطية بن بشر أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فأتها نعمة من الله الحديث ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء (٣) حديث عطية بن ياسر أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة ابن أبي الدنيا في ابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد

عبد الله هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لخب الجوع عنه قال يطفئه النور . وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاما بمباراة دلت على أنه يجد فرحاً به ينطفئ معه لخب الجوع وهذا في الخلق واقع أن الشخص بطرقه فرح وقد كان جائعاً فيذهب عنه الجوع وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك ومن فعل ذلك ودرج نفسه في شيء من هذه الأقدام التي ذكرناها لا يؤثر ذلك في نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان في حماية الصدق والاخلاص وإنما يغني في ذلك وفي دوام الله كرم على من لا يخلص لله تعالى .

ردوا فراحوا مواسيا لهم بنفسي في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس تحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم سائرا لا تنلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتجج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء يأمر المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا أبتعت منهم فقام وراء فقام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه يأمر المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال «كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له يا محمد ماهذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا^(١)» فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماهم وخرّب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يأمر المؤمنين حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرايا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرايا فقال اقتص مني فقال الأعرايا قد أحللتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي فدعاه بخير^(٢)» يأمر المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها^(٣)» يأمر المؤمنين إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كالم يبق لغيرك يأمر المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك - ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - قال الصغيرة التسم والكبيرة الضحك فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن يأمر المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لحشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يأمر المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك - يادادو إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله - قال الله تعالى في الزبور : يادادو إذا فقد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفالج على صاحبه فأعحوك عن نبوتى ثم لا تكون خليفة ولا كرامة يادادو إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ورقفهم بالسياسة ليحبروا الكسير ويدلوا المهزىل على الكلا والماء . يأمر المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات

(١) حديث عروة بن رويم كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين الحديث ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٢) حديث حبيب بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرايا لم يتعمده الحديث ابن أبي الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقص من نفسه وللحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتي قال اقتص الحديث قال صحيح الاسناد (٣) حديث لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي مضافا لم يذكر اسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ لقاب .

وقد قيل حدّ الجوع أن لا يميز بين الحبز وغيره مما يؤكل ومتى عيت النفس الحبز فليس بجائع وهذا المعنى قد يوجد في آخر الحديث بعد ثلاثة أيام وهذا جوع الصديقين وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام براض العبودية ويكون هذا حدّ الضرورة لمن لا يعتمد في التقليل بالتدريج فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين كما ذكرنا وقد قال بعضهم حدّ الجوع أن يبرق فإذا لم يقع اللباب على براقه يدلّ هذا على خلو المعدة من الدسومة وصفاء البزاق كالماء الذي لا يقصده اللباب . روى أن سفيان

والأرض والجبال لا يبين أن يحمله وأعفقه منه يأمر المؤمنين حديثي يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمار الأضاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقبلا فقال له : ما معك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله قال لا قال وكيف ذلك ؟ قال إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من وال يلى شيئا من أمور الناس إلا آتى به يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه لا يفسكه إلا عله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر امتفاعة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يباد فيجاسب فإن كان حسنا نجا بإحسانه وإن كان سيئا انخرق به ذلك الجسر فيبوي به في النار سبعين خريفا (١) » وقال له عمر رضي الله عنه من سمعت هذا ؟ قال من أبي ذر وحذافيرهم فأسألهما عنهما فقالا نعم سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله عمر وأمهراء من يتولاها بما فيها قال أبو ذر رضي الله عنه من سلبت الله أهله وألقى خده بالأرض ، قال فأخذ للتدليل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكى ثم قلت يأمر المؤمنين قد سألت جدك عباس النبي صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام « يا عباس يا عم النبي نفس تنجيا خيرا من إمارة لا تحصى (٢) » نصيحة منه لعمه وعفقه عليه وأخبره أنه لا يبنى عنه من الله شيئا إذ أوحى الله إليه - وأندرعشيرتك الأقرين - قال « يا عباس وباصفة همى النبي وباطمة بنت عمار بن لست أغنى عنكم من الله شيئا إن لي عملي ولكم عملكم (٣) » وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس إلا خفيف العقل أريب البصيرة لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم . وقال الأمراء أربعة : فأمر قوى ظلف نفسه وعمله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة ، وأمر فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عمله لضغفه فهو على شفاهلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمر ظلف عمله وأرتع نفسه فذلك الحطمة القدي قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الرعاة الحطمة فهو المسالك وحده (٤) » وأمر أرتع نفسه وعمله فلهكوا جميعا وقد بلغني يأمر المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أتيتك حين أمر الله بتأفيع النار فوضعت على النار تسع ليوم القيامة فقال له جبريل صف لي النار فقال إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يظفأ لها والله يبتك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لساتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب في مياه الأرض جميعا لقتل من ذاقه

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر أن عمر استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة الحديث وفيه مرفوعا ما من وال يلى شيئا من أمور الناس إلا آتى يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه الحديث ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبي الحكم عن أبي وال أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخضر منه وأن بشرا ممة من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر فيه سلمان (٢) حديث يا عباس يا عم النبي نفس تنجيا خيرا من إمارة لا تحصى ابن أبي الدنيا هكذا مضلا بغير إسناد ورواه البيهقي من حديث جابر متصلا من رواية ابن المنكر مرسلًا وقال هذا هو المفوظ مرسلًا (٣) حديث يا عباس وباصفة وباطمة لا أغنى عنكم من الله شيئا لي عملي ولكم عملكم ابن أبي الدنيا هكذا مضلا دون إسناد ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلا دون قوله لي عملي ولكم عملكم (٤) حديث شر الرعاة الحطمة رواه مسلم من حديث عائذ ابن عمر الزني متصلا وهو عند ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي مضلا كما ذكره المنصف.

التوري وإبراهيم بن آدم رضي الله عنهما كانا يطويان ثلاثا ثلاثا . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستا . وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يطوى سبعة أيام . واشتهر حال جدهنا محمد ابن عبد الله المعروف بمويده رحمه الله وكان صاحب أحمد الأسود الدينوري أنه كان يطوى أربعين يوما وأقصى ما بلغ في هذا المعنى من الطي رجل أدرك زمانه وما رأته كان في أجهر يقال له الزاهد خليفة كان يأكل في كل شهر لوزة ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد بالطي والتدريج إلى هذا الحد وكان في أول أمره على ما حكى بنفس القوت

ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعا لذابت وما استقلت ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من قن ريعه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال أنبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا ولم يكبت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وجهه ؟ قال أخاف أن أتبلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذي منعتني من أنسكالي على منزلي عند ربى فأكون قد أننت مكره فلم يزالا يكيان حتى نوديا من السماء يا جبريل ويا محمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة (١) وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم إن كنت تعلم أنى أبالي إذا تعد الحصان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تهملنى طرفه عين يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضع ، فهذه نصيحتى إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لى إلى أين ؟ فقلت إلى الولد والوطن إذن يا أمير المؤمنين إن شاء الله قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخفى من مطالعتك إياى بمثل هذا فانك للقبول القول غير التهم في النصيحة . قلت أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بحال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا فى غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا وعرف النصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك . وعن ابن المهاجر قال قدم أمير المؤمنين النصور مكة شرفها الله حاجبا فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به فاذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس فخرج ذات ليلة حين أسحر فيينا هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إنى أشكر إليك ظهور البنى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع النصور فى مشيه حتى ملا مسامحه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأثاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له النصور ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور البنى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع والظلم فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن أمنتنى على نقبى أنبأتك بالأمر من أصولها وإلا اقتصرت على نقبى فيها لى شغل شاغل فقال له أنت آمن على نفسك فقال الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البنى والفساد فى الأرض أنت فقال وريحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدي والحلو والحامض فى قبضتى قال وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والأجر وأبوابا من الحديد وحجة معهم الإصلاح ثم سجن نفسك فيها منهم وبشت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها وأخذت وزراء وأعوانا طلبة إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقوتهم على ظلم الناس بالأموال والكرام والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان فمر ميمتهم ولم تأمر بإصلاح الظلوم ولا للهلوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحد إلاولة فى هذا المال حتى

(١) حديث بلغني أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار وضعت على النار تسمر ليوم القيامة الحديث بطوله ابن أبي الدنيا فيه هكذا معضلا بغير إسناد .

بنشاف العود ثم طوى
حتى انتهى إلى اللوزة في
الأربعين ثم إنه قد
يسلك هذا الطريق
جمع من الصادقين وقد
يسلك غير الصادق هذا
لوجود هوى مستكن
فى باطنه يهون عليه
ترك الأكل إذا كان
له استعلاء لنظر الحاق
وهذا عين التفريق نمود
بالله من ذلك والصادق
ربما يقدر على الطي
إذا لم يعلم بحاله أحد
وربما تضعف عزيمته
فى ذلك إذا علم بأنه
يطوى فإن صدقه فى
الطي ونظره إلى من
يطوى لأجله يهون
عليه الطي فاذا علم به
أحد تضعف عزيمته فى
ذلك وهذا علامة
الصادق فهما أحسن
فى نفسه أنه يحب أن
يرى بعين التقل

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحببوا عنك
 تحبب الأموال ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا فائتمروا على أن لا يصل
 إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه
 حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وغنم أعظمهم الناس وهاجهم وكان أول
 من صانهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة
 من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلات بلاد الله بالطمع ببناء وفسادا وصار هؤلاء
 القوم شركاءك في سلطانتك وأنت غافل فإن جاء متظلم حبل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد
 رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر في
 مظالمهم فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب الظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم
 به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو
 ويستنثب وهو يدفعه ويمتل عليه فإذا جهدوا خرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا
 مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا ولقد
 كانت بنو أمية وكانت العرب لا يفتي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ولقد كان الرجل
 يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون
 مظلمته إلى سلطانهم فينصف ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك قدسيتها
 مرة وقد ذهب مع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه مالك تبكي لا تبكت عيناك فقال أما إنني
 لست أبكي على الصية التي نزلتني ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ثم قال أما إن
 كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم وكان
 يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت
 رأفته بالمشركين ورقته على شع نفسه في ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك
 بالمسلمين ورقتك على شع نفسك فأنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة إن قلت أجمعها لولدي
 فقد أراك الله عبدا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ومامن مال إلا ودونه
 يد شحيحة تحويه فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذي تعطى
 بل الله يعطى من يشاء وإن قلت أجمع المال لأشد سلطاني فقد أراك الله عبدا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم
 ما جمعه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والسكران وما ضرز وولد أباك ما كنت
 فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية
 التي أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من
 عصاك من رعيتك بأشد من القتل قال لا قال فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه
 من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو
 الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرت جوارحك فإذا تقول إذا انتزع لللك الحق المبين ملك الدنيا
 من يدك ودعاك إلى الحساب هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شجحت عليه من ملك الدنيا
 فبكي المنصور بكاء شديدا حتى حب وارتفع صوته ثم قال يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئا ثم قال كيف احتيالي
 فيما حول وفي ولم أرم من الناس إلا خائفا قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال ومن هم ؟
 قال العلماء قال ودرواني قال هر بوا منك مخافة أن يعملهم على ما ظهر من طريقك من قبل عمالك
 ولكن أفتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب

عليهم نفسه فإن فيه
 شائبة النفاق ومن
 يطوى لله يموت الله
 تعالى فرحا في باطنه
 ينسبه الطعام وقد
 لا ينسى الطعام ولكن
 امتلاء قلبه بالأنوار
 يقوى جاذب الروح
 الروحاني فيجذبه إلى
 مركزه ومستقره من
 العالم الروحاني وينفرد
 بذلك عن أرض
 الشهوة الفسادية وأما
 أثر جاذب الروح إذا
 تخلف عنه جاذب
 النفس عند كمال
 طمأنينتها وانكسار
 أنوار الروح عليها
 بواسطة القلب المستنير
 فأجل من جذب
 للمغناطيس للحديد إذ
 للمغناطيس يجذب
 الحديد لروح في الحديد
 مشا كل للمغناطيس
 فيجذبه بنسبة الجنية

واقسمه بالحق والعدل وأناضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيماونك على صلاح أمرك ورعتك
 فقال النصور : اللهم وقتني أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة ففرج
 فصل بهم ثم قال لا تحرسى عليك بالرجل إن لم تأتيه لأخبرين عنك واغتاض عليه غيظا شديدا فخرج
 الحرس يطلب الرجل فيينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب فقص حتى صلى ثم قال إذا
 الرجل أمانتي الله قال بلى قال أمانته قال بلى قال فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آتته
 بك قال ليس لي إلى ذلك من سبيل قال يقتلني قال لا قال كيف قال تحسن تقرأ قال لا فأخرج من
 مزود كان معه رقما مكتوبا فيه شيء فقال خذنه فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج قال ومادعاه الفرج
 قال لا يزره إلا الشهداء قلت رحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرني ماهذا الدعاء ومافضله قال من
 دعاه مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره وحيث خطايا واستجيب دعاؤه وبسط له في رزقه
 وأعطى أمه وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا تقول اللهم كما لطفت في عظمتك
 دون اللطفاء وعلوت بسظمتك على العظماء وعلت ماتحت أرضك كملكك بما فوق عرشك وكانت
 وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع
 كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لي من كل هم أمسيته فيه فرجا
 ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمئني أن أسألك
 ما لا أستوجبه بما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا للشيء إلى نفسي
 فيما بيني وبينك تتودد إلى نعمتك وأتبعك إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك
 فقد بفضلك وإحسانك على إنك أنت التواب الرحيم قال فأخذته فصورته في جيبه ثم لم يكن لي هم غير
 أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال ويلك وتحسن السحر فقلت لا والله
 يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال هات الرق الذي أعطاك ثم جعل يبكي وقال قد
 نجوت وأمر ينسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم ثم قال أتعرفه قلت لا قال ذلك الخضر عليه السلام .
 وعن أبي عمران الجوني قال لما ولي هرون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة
 ففتح بيوت الأموال وأقبل يحيزهم بالجوائز السنية وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر
 التمسك والتعشف وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن النضر الثوري قديما فبهجره سفيان ولم يزره فاشتاق
 هرون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يبعأ بموضعه ولا بمأساره إليه فاشتد ذلك على هرون
 فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى
 أخيه سفيان بن سعيد بن النضر أما بعد يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى وأخى بين المؤمنين وعجل
 ذلك فيه وله واعلم أني قد واختك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وإنى منطورك على
 أفضل المحبة والأرادة ولولا هذه القلادة التي قلديها الله لأتيتك ولوجوا لما أجداك في قلبي من المحبة
 واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه وقد فتح
 بيوت الأموال وأعطيتم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وإنى استبطأتك فلم
 تأتي وقد كتبت إليك كتابا شوقا مني إليك شديدا وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن
 وزيارته ومواصلته فإذا ورد عليك كتابي فالجمل العجل ، فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا
 كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشوته فقال على رجل من الباب فأدخل عليه رجلا يقال له
 عباد الطالقاني فقال يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني
 ثور ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فالق كتابي هذا إليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول

الخاصة فإذا تجسست
 النفس بعكس نور
 الروح الواصل إليها
 بواسطة القلب يصير
 في النفس روح
 استمدتها القلب من
 الروح وأدائها إلى
 النفس فتجذب الروح
 النفس بجنيبة الروح
 الحادثة فيها فيزدرى
 الأطعمة الدنيوية
 والشهوات الحيوانية
 ويتحقق عنده قول
 رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « أبيت
 عند ربى يطعنى
 ويسقينى » ولا يقدر
 على ما وصفناه إلا بعد
 تصير أعماله وأقواله
 وسائر أحواله ضرورة
 فيتناول من الطعام
 أيضا ضرورة ولو
 تكلم مثلا بكلمة
 من غير ضرورة
 التهب فيه نار الجوع

فأحس عليه ذوق أمره وجليله لتخبرني به فأخذ عبد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيبة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد قال عباد فأقبلت إلى المسجد فلما رأيته قام قائما وقال أهوذا بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق بالإغبر قل عباد فوقت الكلمة في قلبي فخرجت فلما رأيته قلت يا رب السجد لهما يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم الساطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فلما رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على بزموس الأصابع فبقيت وانما فلما منهم أحد يمرض على الجلوس وقد علاني من هيبته الرعدة ومددت عنى إليهم فقلت إن الصلي هوسفيان فرميت بالكتاب إليه فلما رأى الكتاب ارتعد وقاعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كفه ولهاها بعبادته وأخذ قلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال يأخذه بضكم يقرؤه فاني أستغفر الله أن أمس شيئا منه ظالم يده قال عباد فأخذه بعضهم فله كأنه خائف من فم حية ثم شفه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم للتعجب فلما فرغ من قراءته قال اتقبلوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فقيل له يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي فقال اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فان كان اكتبته من حلال فسوف يعجزى به وإن كان اكتبته من حرام فسوف يصلي به ولا يبقى شيء منه ظالم عنيدا فيفسد علينا ديننا فقيل له ما كتب فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم من العبد للذنب سفيان بن سعيد بن النضر الثوري إلى العبد للثور بالآمال هرون الرشيد الذي سب حلالة الإيمان . أما بعد فاني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت جملتك وقطعت وذك وقلت موضعك فأنك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنتفتحه في غير حقه وأنتفتحه في غير حكمه ثم لم أرض بما فطنت وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدني على نفسك أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضام هل رضيت بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل أم رضيت بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام أم هل رضيت بذلك خلق من رعيته فسد ياهرون مؤزك وأعد للمسئلة جوابا وللبلأ جلبابا واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل قد رزمت في نفسك إذ سلبت حلالة العلم والزهد ولذيد القرآن وبجالة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما للظالمين إماما ياهرون قدت على السرير ولبتت الحرير وأسبلت سترا دون بابك وتشمت بالحجة رب العالمين ثم أقصدت أجنالك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون يشربون الخمر ويضربون من يشرها ويزنون ويعدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى النادى من قبل الله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم أين الظلمة وأعوان الظلمة قد مدت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفسكهما إلا عدلك وإنصافك والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأن بك ياهرون وقد أخذت بضيق الحنق ووردت للساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك بلأ على بلأ وظلمة فوق ظلمة فأحتفظ بوصيقي واتمظ بموعظتي التي وعظتكم بها . واعلم أني قد نصحتك وما أقيمت لك في النصح غاية فانق الله ياهرون في رعيته واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل

التهاب الخلفاء بالنار
لأن النفس الراقدة
تستيقظ بكل ما يوقظها
وإذا استيقظت
نزعته إلى هواها فالعبد
للرأب بهذا إذا فطن
لسياسة النفس ورزق
العلم سهل عليه
الطبي وتداركته
للمونة من الله تعالى
لا سيما إن كوشف
بشيء من النسخ الالهية .
وقد حكى في قبر أنه
اشتد به الجوع وكان
لا يطالب ولا يتسبب
قال فلما انتهى جوعى
إلى الغاية بعد أيام
فتح الله على بتفاحة
قال فتناولت التفاحة
وقصدت أكلها فلما
كسرتها كوشفت
بحوراء نظرت إليها
عقيب كسرها فحدث
عندي من الفرح
يذلك ما استغثيت

بأهلها واحدا بعد واحد فمنهم من تزود زادا فقهه ومنهم من خسر ديناه وآخرته وإن أحسبك ياهرون
 بمن خسر ديناه وآخرته فأياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيئك عنه والسلام. قال عبد
 فالتقى إلى الكتاب منشورا غير مطوى ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقفت للوعظ
 من قلمي فنادت يا أهل الكوفة فأجابوني قتلتم لهم ياقوم من يشتري رجلا هرب من الله إلى الله فأقبلوا
 إلى بالله نائير والدرهم قتلتم لاجل في اللال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية قال فأبيت
 بذلك وزعت ما كان على من اللباس للذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أتود البرذون وعليه
 السلاح للذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا فزأني من كان على باب الخليفة
 ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقدم ثم قام فأعاجل بطم رأسه ووجهه
 ويدعو بالويل والجزن ويقول انتفع الرسول وخاب الرسل مالي وللدنيا مالي ولللك يزول عني سريعا
 ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلى فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تتحدر من عينيه ويقرأ
 ويشبه فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجتبراً عليك سفيان فلو وجهت إليه فأنقذته بالحديد
 وضيق عليه السجن كنت نجمة عبرة لغيره فقال هرون : أتركوا يا عبيد الدنيا الضرور من غررتهم
 والشقي من أهلكتموه وإن سفيان أمة وحده فأر كوا سفيان وشأنه ثم لم يزل كتاب سفيان إلى
 جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقى الله فيا قدم
 عليه غذا من عمله فانه عليه بحاسب وبه يحازي والله ولي التوفيق . وعن عبد الله بن مهران قال
 حج الرشيد فوافي الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن
 خرج بالكساسة والصبيان يؤذونه ويولعون به إذ أقبلت هوداج هرون فكف الصبيان عن الولوع
 به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف يده عن وجهه فقال
 ليك يا بهلول فقال يا أمير المؤمنين : حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال رأيت النبي
 صلى الله عليه وسلم منصوراً من عرفة على ناقه له صبياء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك^(١) وتم اضحك
 في سفره هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك قال فيكي هرون حتى سقطت دموعه على
 الأرض ثم قال يا بهلول زدنا رحمك الله قال نعم يا أمير المؤمنين رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله
 وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار قال أحسنت يا بهلول ودفع له جائزة. فقال
 اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها قال يا بهلول فإن كان عليك دين قضيتاه قال يا أمير المؤمنين
 هؤلاء أهل القم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز قال يا بهلول فنجري
 عليك ما يقتوك أو يقيمك قال فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال يا أمير المؤمنين أنا واثقت من عيال الله
 فبحال أن يذكرك وينساني قال فأقبل هرون السجاف ومضى . وعن أبي اللباس الهاشمي عن صالح
 ابن اللأمون قال دخلت على الحرب الهاشمي رحمه الله فقلت له : يا أبا عبد الله هل حاسبت نفسك؟ فقال كان
 هذا مرة قلت له فاليوم قال أكتهم حالي إلى لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي
 ولولا أن يظنني فيها فرح ما أعلنت بها ولقد كنت ليلة قاعدا في محرابي فإذا أنا بفتي حسن الوجه طيب
 الرائحة فسلم على ثم قدم بين يدي فقلت له من أنت فقال أنا واحد من السباحين أقصد التصديق في
 محاريهم ولا أرى لك اجتهداً فأبى سئ عمك قال قلت له كتمان للصاب واستجلاب الفوائد قال

عن الطعام أياما
 وذكر لي أن المحوراء
 خرجت من وسط
 التفاحة والإيمان
 بالقدرة ركن من
 أركان الإيمان فلم
 ولا تسكر . وقال
 سهل بن عبد الله
 رحمه الله من طوى
 أربعين يوماً ظهرت له
 القدرة من اللسكوت
 وكان يقال : لا يزهد
 البعد حقيقة الزهد
 التي لا مشوبة فيه
 إلا بمشاهدة قدرة
 من اللسكوت . وقال
 الشيخ أبو طالب
 السك رحمه الله :
 عرفنا من طوى
 أربعين يوماً رياضة
 النفس في تأخير
 القوت وكان يؤخر
 فطره كل ليلة إلى
 نصف سبع الليل
 حتى يطوى ليلة

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصوراً من عرفة على ناقه
 له صبياء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه دون قوله منصوراً
 من عرفة وإنما قالوا يرمي الجرة وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني .

فصاح وقال ما علمت أن أحدا بين جنبي الشرق والغرب هذه صفته قال الحرث فأردت أن أزيد عليه
قلت له أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم
فمن أين تعرفهم قال فصاح صيحة غشى عليه منها فمكث عندي يومين لا يعقل ثم أفاق وقد أحدث في
نياه فعلت إزالة عقله فأخرجت له ثوبا جديدا وقلت له هذا كفي قد تركت به فاغتسل وأعد صلاتك
فقال هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج فقلت له أين تريد فقال لي قم معي فلم يزل يمشي حتى
دخل على المأمون فسلم عليه وقال يا ظالم أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم أسففر الله من تقصيري فيك أما اتق
الله تعالى فيما قد ملكك وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه
المأمون وقال من أنت قال أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبل فلم أجدهم في
حظا فطلعت بموعظتك لعل الخلقهم قال فأمر بضرب عنقه فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفا في ذلك
الثوب ومناد ينادي من ولى هذا فليأخذه قال الحرث فاخبتأت عنه فاخذه أقوام غرباء فدفعوه
وكنتم معهم لا أعلمهم بحاله فاقت في مسجد بالمقابر عزونا على الفتي فغلبتني عيناى فاذا هو بين وصائف
لم أر أحسن منه من وهو يقول يا حرث أنت والله من الكافرين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم
قلت وما فعلوا قال الساعة بلقونك فنظرت إلى جماعة ركان فقلت من أنتم قالوا الكائنون أحوالهم حرك
هذا الفتي كلامك له فلم يكن في قلبه مما وصفته شئ فخرج للأمر والنهي وأن الله تعالى أنزله معنا
وغضب لبيده . وعن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال كان أبو الحسين النورى رجلا قليل الفضول لا يسأل
عما لا يهنيه ولا يفتش عما لا يحتاج إليه وكان إذا رأى منكرا غيره ولو كان فيه تلفه فزله ذات يوم
إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين يتطهر للصلاة إذ رأى زورا فيه ثلاثون دنا مكتوب عليهم بالقرار
لطف قراء وانكره لأنه لم يعرف في التجارات ولا في البيوع شيئا يعبر عنه بلطف فقال للملاح إيش
في هذه الدنان قال وإيش عليك امض في شغلك فلما سمع النورى من اللاح هذا القول ازداد تمشا إلى
معرفة فقال أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان قال وإيش عليك أنت والله صوفى فضولى هذا آخر
للمعتضد يريد أن يتم به مجلس فقال النورى وهذا آخر قال نعم فقال أحب أن تعطيني ذلك الدرى فاغناظ
للالاح عليه وقال لعلامه أعطه حتى أنظر ما يصنع فلما صارت الدرى في يده صعد إلى الزورق ولم يزل
يكسرهما دنا حتى أتى على آخرها إلا دنا واحدا ولا للاح يستغيث إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ
ابن بشر أفلح فقبض على النورى وأشخصه إلى حضرة المعتضد وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك
الناس في أنه سيقته قال أبو الحسين فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد ويده عمود يقبله
فلما رأى قال من أنت قلت عمتسب قال ومن ولاك الحسبة قلت الذى ولاك الامامة ولا فى الحسبة يا أمير
المؤمنين قال فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قلت بشقة
منى عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه قال فأطرق فمكرا فى كلامى ثم رفع
رأسه إلى وقال كيف تخلص هذا الدين الواحد من جملة الدنان فقلت فى تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين
إن أذن فقال هات خبرنى فقلت يا أمير المؤمنين إني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لى بذلك
وغمر قلبى شاهد الاجلال للحق وخوف المطالبة فآبت هية الخلق عنى فأقدمت عليها بهذه الحال إلى
أن صرت إلى هذا الدين فاستشعرت نفسى كبيرا على أنى أقدمت على مثلك فمذمت ولو أقدمت عليه بالحال
الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال فقال المعتضد اذهب فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت
أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت يا أمير المؤمنين بنص إلى التغيير لأنى كنت أغير عن الله
تعالى وأنا الآن أغير عن شرطى فقال المعتضد ما حاجتك فقلت يا أمير المؤمنين تأمر بأخراجه سلما

في نصف شهر
فيطوى الأربعين
في سنة وأربعة
أشهر فتندرج الأيام
والإيالي حتى يكون
الأربعين بمنزلة يوم
واحد . وذكري أن
الذى فعل ذلك ظهرت
له آيات من اللكوت
وكوشف بمعاني قدرة
من الجبروت بحلي الله
بهاله كيف شاء . واعلم
أن هذا المعنى من الطي
والثقل لو أنه عين
الفضيلة ما فات أحدا
من الأنبياء ولكان
رسول الله صلى الله عليه
وسلم يبلغ من ذلك إلى
أقصى غاياته ولا شك
أن لذلك فضيلة لا تنكر
ولكن لا تنحصر
مواهب الحق تعالى في
ذلك فقد يكون من
بأكل كل يوم أفضل
من يطوى أربعين

فأمرله بذلك وخرج إلى البصرة فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد فأقام بالبصرة إلى أن توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالغاتهم بسطوة السلاطين لكنهم اتكلموا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثركلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجعوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا فساد الرأيا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر والله المستعان على كل حال .

﴿ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة ﴾

(وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدب نبيه محمد ﷺ فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذ صفيه وحببيه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ؟ وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه . وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا .
أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن وحركات الجوارح ثمرات الخواطر والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشع المعارف وسرائر القلوب هي ، غارس الأفعال ومنابعها وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها وتبدل الحسن مكارهها ومساوئها ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفيض على ظاهره جمال الآداب النبوية ولقد كنت عزمت أن أختتم ربيع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يشق على طالبا استخراجها من جميع هذه الكتب ثم رأيت كل كتاب من ربيع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستقلت تكريرها وإعادتها فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة العادات فرأيت أن أقصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه الماثورة عنه بالإسناد فأسردها مجموعة فصلا فصلا معذوقة الأسانيد ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلام رتبة وأجلهم قدرا فكيف مجموعها ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشم ومنتزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صام الصمم والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطربين ولندكر فيه أوليايان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ثم بيان كلامه وضحه ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان إغضائه عما كان يكره ثم بيان سخاوته وجوده ثم بيان شجاعته وبأسه ثم بيان تواضعه ثم بيان صورته وخلقته ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم .

(كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة)

يوما وقد يكون من
لا يكشف شيء من
معاني القدرة أفضل من
يكشف بها إذا كاشفه
الله بصرف المعرفة
فالقدره أثر من القادر
ومن أهل قرب القادر
لا يستغرب ولا يستنكر
شيئا من القدرة ويرى
القدرة تجلي له من
سجف أجزاء علم
الحكمة فإذا أخلص
العبد لله تعالى أربعين
يوما واجتهد في ضبط
أحواله بشيء من
الأنواع التي ذكرنا
من العمل والذكر
والقوت وغير ذلك
تعود بركة تلك
الأربعين على جميع
أوقاته وساعاته وهو
طريق حسن اعتمده
طائفة من الصالحين
وكان جماعة من
الصالحين يختارون

(بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفه محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال عن الله تعالى أن يزيده بمجلس الآداب ومكارم الأخلاق فكان يقول في دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقى ^(١) » ويقول « اللهم جنبني منكرات الأخلاق ^(٢) » فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل - ادعوني استجب لكم - فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن . قال سعد بن هشام دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتهما عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت أم القريز قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ^(٣) وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - وقوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقوله - واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور - وقوله - ولئن صبروا غفر إن ذلك لمن عزم الأمور - وقوله - فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين - وقوله - وليعفوا وليصنعوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم - وقوله - ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - وقوله - والكافين العفيف والماعين عن الناس والله يحب المحسنين - وقوله - اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا - ولما كسرت رباعيته وشجع يوم أحد فبصل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ^(٤) فأنزل الله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - تأديبا له على ذلك وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهديب ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فانه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « بثت لأتكم مكارم الأخلاق ^(٥) » ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب رياضة النفس وتهديب الأخلاق فلانعيده ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أنى عليه فقال تعالى - وإنك لملئ خلق عظيم - فسبحان ما أعظم شأنه وأتم امتنانه ثم انظر إلى عظيم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم ألقى فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال - وإنك لملئ خلق عظيم - ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفافها ^(٦) قال صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه يا عبادا لرجل مسلم يحبته أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يغنى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فانها مما تدل على سبيل النجاة فقال له رجل أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طلي وقفت جارية في السبي فقالت يا محمد

للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة وهى أربعون موسى عليه السلام . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا أبو منصور محمد ابن عبد الملك بن خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن طي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس قال ثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال ثنا الحسين بن الحسن الروزى قال ثنا عبد الله بن المبارك قال ثنا أبو معاوية الضرير قال ثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »

(١) حديث كان يقول في دعائه اللهم حسن خلقي وخلقى أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما اللهم أحسن خلقي فأحسن خلقى وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه حب (٢) حديث اللهم جنبني منكرات الأخلاق ت وحسنه وك وصححه واللفظ له من حديث قطبة ابن مالك وقالت ت اللهم إني أعوذ بك (٣) حديث سعد بن هشام دخلت على عائشة فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن رواه مسلم وروى الحاكم في قوله إنها لم يخرجاه (٤) حديث كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد الحديث في نزوله ليس لك من الأمر شيء - من حديث أنس وذكره خ تعليقا (٥) حديث بثت لأتكم مكارم الأخلاق أحمد وك حق من حديث أنس هريرة قال الحاكم صحيح على شرطه وقد تقدم في آداب الصحبة (٦) حديث إن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفافها حق من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة ابن عبيد الله بن كرز مرسلا ورجلها ثقات .

إن رأيت أن تغلى عني ولا تشمت بي أحياء العرب فاني بنت سيد قومي وإن أبي كان يجمعى الدمار
 وبك العاني ويشجع الجائع ويعظم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم
 الطائي فقال صلى الله عليه وسلم يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لرحمنا عليه خلوا
 عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق فقالوا بركة بن نيار فقال
 يا رسول الله الله يحب مكارم الأخلاق فقال والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق (١)
 وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال «إن الله حفي الاسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال» (٢)
 ومن ذلك حسن العاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل اللزوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام
 وعيادة المريض المسلم برآكان أوفاجرا وتشجيع جنازة السلم وحسن الجوار لمن جاورت مسلما كان
 أو كافرا وتوقير ذي الشبهة للسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح بين الناس والجود
 والكرم والسباحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الاسلام من
 اللهو والباطل والفناء والعاظف كلها وكل ذي وتر وكل ذي دخل والقيية والكذب والبخل والشح
 والجفاء والسكر والحديعة والنجمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر
 والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحدود والحد والبطي والبنى والعدوان والظلم .
 قال أنس رضي الله عنه فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشا أو قال عيبا أو
 قال شينا إلا حذرناه ونهانا عنه (٣) ويكنى من ذلك كله هذه الآية - إن الله يأمر بالعدل والإحسان -
 وقال معاذ أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث
 والوفاء بالمعهد وأداء الأمانة وترك الحيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام
 وحسن العمل وقصر الأمل وزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب
 وخفض الجناح وأنهاك أن تسب حكما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما أو تهوى إماما عادلا أو
 تفسد أرضا وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر وأن تحدث لكل ذنب توبة السربالسر
 والعلانية بالعلانية (٤) فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .
 (بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار)
 فقال كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس (٥)

(١) حديث طي قوله واعجبوا الرجل مسلم يحبه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا الحديث
 وفيه مرفوعا لما أتى بسبايا طي* وقتت جارية في السبي فقالت يا محمد إن رأيت أن تغلى عني الحديث
 ت الحكيم في نوادر الأصول باسناد فيه ضعف (٢) حديث معاذ حفي الاسلام بمكارم الأخلاق
 ومحاسن الأعمال الحديث بطوله لم أقف له على أصل ويفي عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث
 (٣) حديث أنس لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها لم أقف له
 على إسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٤) حديث يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث أوفنعم
 في الحلية وهقي في الزهد وقد تقدم في آداب الصحبة (٥) حديث كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس
 أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبزي كان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس الحديث وهو مرسل . وروي أبو حاتم بن حبان من
 حديث عبد الله بن سلام في قصة إسلام زيد بن شعبة من أخبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب
 يا عمر كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين
 لم أخبرهما به يسبق حلمه جهله ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما فقد اختبرتهما الحديث .

[الباب التاسع
 والعشرون في أخلاق
 الصوفية وشرح الخلق
 الصوفية أو فرائد الناس

حظا في الاقتداء
 برسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأحقيهم
 بإحياء سنته والتخلق
 بأخلاق رسول الله
 صلى الله عليه وسلم من
 حسن الاقتداء وإحياء
 سنته طي ما أخبرنا
 الشيخ العالم ضياء
 الدين شيخ الاسلام
 أبو أحمد عبد الوهاب
 ابن طي قال أنا أبو الفتح
 عبد الملك بن أبي
 القاسم الهروي قال
 أنا أبو نصر عبد العزيز
 ابن حمد الترياق قال
 أنا أبو محمد عبد الجبار
 ابن محمد الجراحي قال
 أنا أبو العباس محمد بن
 أحمد المصنوعي قال أنا
 أبو عيسى محمد بن

وأشجع الناس (١) وأعدل الناس (٢) وأعطف الناس لم تمس يده قط يدا امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه (٣) وكان أسخى الناس (٤) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء لم يجد من يعطيه وفجأة الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه (٥) لا يأخذ مما آتاه الله إلى قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله (٦) لا يسئل شيئا إلا أعطاه (٧) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأت به شيء (٨) وكان يخفف النعل ويرقع الثوب ويعمد في مهنة أهله (٩)

(١) حديث أنه كان أشجع الناس مثق عليه من حديث أنس (٢) حديث كان أعدل الناس ت في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم لا يتصرعن الحق ولا يجاوزه وفيه قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبوا صاروا عنه في الحق سواء الحديث وفيه من لم يسم (٣) حديث كان أعف الناس لم تمس يده قط يدا امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له الشيخان من حديث عائشة مامست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها (٤) حديث كان أسخى الناس الطبراني في الأوسط من حديث أنس فضلت على الناس بأربع بالسقاء والشجاعة الحديث ورجاله ثقات وقال صاحب اليزان إنه منكر وفي الصحيحين من حديثه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس واتفقا عليه من حديث ابن عباس وتقدم في الزكاة (٥) حديث كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل لم يجد من يعطيه وفجأة الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه د من حديث بلال في حديث طويل فيه أهدى صاحب فذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام ويسع بلال لذلك ووفاء دينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في السجدة وحده وفيه قال فضل شيء قلت نعم دينار قال انظر أن تري عني منهما فلست بدخلت على أحد من أهلي حتى تري عني منهما فلم يأتنا أحد فبات في السجدة حتى أصبح وظل في السجدة اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى التمة دعاني فقال ما فعل الذي قبلك قلت قد أراحك الله منه فكبر وحمد الله شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه الحديث والبخاري من حديث عقبة ابن الحارث ذكرت وأنا في الصلاة ففكرت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسلان لا يقبل مالا عنده ولا يبيت (٦) حديث كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة (٧) حديث كان لا يسئل شيئا إلا أعطاه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد والبخاري من حديثه في الرجل الذي سأله الشعلة فقيل له سألتك إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلا الحديث ولهم من حديث أنس ماسئل على الإسلام شيئا إلا أعطاه وفي الصحيحين من حديث جابر ماسئل شيئا قط فقال لا (٨) حديث أنه كان يؤثر بما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام هذا معلوم ويدل عليه ما رواه ت ن ه من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله وقال ه ثلاثين صاعا من شعير وإسناده جيد وخ من حديث عائشة توفي ودرعه مرهونة عند يهودي ثلاثين وفي رواية هق ثلاثين صاعا من شعير (٩) حديث وكان صلى الله عليه وسلم يخفف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله أحمد من حديث عائشة كان يخفف نعله ويخيط ثوبه ويسمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ ويرقع الثوب والبخاري من حديث عائشة كان

عيسى بن سنورة الترمذي قال ثنا مسلم ابن حاتم الأنصاري البصري قال ثنا محمد ابن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال قال أنس ابن مالك رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل» ثم قال : يا بني وذلك من سنن ومن أحيائنا قد أحيائنا ومن أحيائنا كان معي في الجنة « فالصوفية أحيوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أقواله وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله فأنجزهم ذلك أن تحققوا

ويقطع اللحم معهن^(١) وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد^(٢) ويجب دعوة العبد والحرة^(٣) ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو غنم أو نبت ويكافى عليها^(٤) ويأكلها ولا يأكل الصدقة^(٥) ولا يستكبر عن إجابته الأمة والسكين^(٦) يغضب لربه ولا يغضب لنفسه^(٧) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك^(٨) ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه الحاجة إلى بعير واحد يتقوون به^(٩) وكان يعصب الحجر على بطنه

يكون في مهنة أهله^(١) حديث أنه كان يقطع اللحم أحمد من حديث عائشة أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلا فامسكت وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقات فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر في أثناء حديث وإيم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حزنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها^(٢) حديث كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها^(٣) حديث كان يجب دعوة العبد والحرة هـ ك من حديث أنس كان يجب دعوة المملوك قال ك صحيح الاسناد . قلت بل ضعيف وللدارقيني في غرائب مالك وضعفه والخطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة كان يجب دعوة العبد إلى أي طعام دعى ويقول لودعيت إلى كراع لأجبت وهذا بعمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عندخ من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة كان لا يدعوهم أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه الحديث وهو مرسل^(٤) حديث كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو غنم أو نبت ويكافى عليها خ من حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ، وأما ذكر جرعة اللبن وخنم الأرنب في الصحيحين من حديث أم الفضل أنها أرسلت بقدر لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فشربه ولأحمد من حديث عائشة أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا الحديث وفي الصحيحين من حديث أنس أن أباطلعة بعث بورك أرنب أو غنمها إلى رسول الله ﷺ قبله^(٥) حديث كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم^(٦) حديث كان لا يستكبر أن يمشى مع السكين ن ك من حديث عبد الله بن أبي أوفى بسند صحيح وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصجبة ورواه أيضا من حديث أبي سعيد الخدري وقال صحيح على شرط الشيخين^(٧) حديث كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ت في الثبائل من حديث هند بن أبي هالة وفيه وكان لا تغضبه الدنيا وما كان منها فإذا تمضى الحق لم يبق له غضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وفيه من لم يسم .^(٨) حديث وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال أنا لا أنتصر بمشرك من حديث عائشة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحرة البصرة ادركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين راوه فلما ادركه قال جئت لأتبعك وأصيب معك فقال له اتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن استعين بمشرك الحديث^(٩) حديث وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن أبي حنيفة ورافع بن خديج والرجل الذي وجد مقتولا هو عبد الله بن سهل الأنصاري .

في نهاياتهم بأخلاقه
وتحسين الأخلاق
لا يأتي إلا بعد تزكية
النفوس وطريق التزكية
بالإذعان لسياسة
الشرع وقد قال الله
تعالى لنبيه محمد صلى
الله عليه وسلم - وإنك
لعلى خلق عظيم -
لما كان أشرف الناس
وأزكاهم نفسا كان
أحسنهم خلقا قال مجاهد
على خلق عظيم أي على
دين عظيم والدين
مجموع الأعمال الصالحة
والأخلاق الحسنة .
سئلت عائشة رضي الله
عنها عن خلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قالت كان خلقه القرآن
قال قتادة هو ما كان
يأتمر به من أمر الله تعالى
ويتهنى عما نهى الله
عنه وفي قول عائشة
كان خلقه القرآن مر

مرة من الجوع^(١) ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد ثمرا دون خبز أكله^(٢) وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبزاً أو شعيراً أكله وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله وإن وجد لبناً دون خبز أكتفى به وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله ، لا يأكل متسكناً^(٣) ولا طلي خوان^(٤) مندبيله باطن قدميه^(٥) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية^(٦) حتى لقي الله تعالى إشاراً على نفسه لا تقرا ولا بخل^(٧) يجب الوليمة ويعود المريض^(٨) ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس^(٩)

(١) حديث كان يصب الحبر على بطنه من الجوع متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجراً وأغرب حب فقال في صحيحه إنما هو الحبر بضم الحاء وآخره زاي جمع حجرة وليس بتابع على ذلك ويرد على ذلك ما رواه ت من حديث أبي طلحة شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفنا عن بطوننا عن حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين ورجاله كلهم تمات (٢) حديث كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال إن وجد ثمرا دون خبز أكله وإن وجد خبزاً أو شعيراً أكله وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه ففي ت من حديث أم هانئ دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أعندك شيء ؟ قلت لا إلا خبز يابس وخبث فقال هات الحديث ، وقال حسن غريب وفي كتاب الثمائل لأبي الحسن بن الضحاك بن المقرئ من رواية الأوزاعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبالي ما رددت به الجوع وهذا معضل ولمسلم من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا ما عندنا إلا خبث فدعا به الحديث وله من حديث أنس رأيته مقبياً يأكل تمرات وت وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنباً مشوياً فأكل منه الحديث وللشيخين من حديث عائشة ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً خبز بر حتى مضى لسبيله لفظهم وفي رواية له ما شبع من خبز شعير يومين متتابعين وت وصححه وه من حديث ابن عباس كان أكثر خبرهم الشعير وللشيخين من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل ولهما من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبناً فدعا بماء فمضى ون من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ واستاده صحيح (٣) حديث أنه كان لا يأكل متسكناً تقدم في آداب الأكل في الباب الأول (٤) حديث أنه كان لا يأكل على خوان تقدم في الباب المذكور (٥) حديث كان مندبيله باطن قدمه لأعرافه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه ه من حديث جابر كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلاً ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا وقد تقدم في الطهارة (٦) حديث لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث (٧) حديث كان يجب الوليمة هذا معروف وتقدم قوله لودعيت إلى كراع لأجبت وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أنه كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز الشعير فيجيب واستاده ضيف (٨) حديث كان يعود المريض ويشهد الجنائز وت وضعفه وه ك وصححه من حديث أنس ورواه ك من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الاستناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز (٩) حديث كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ت ك من حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية - والله يصمك من الناس - فأخرج رأسه من القبة فقال انصرفوا فقد عصمتني الله قال ت غريب وقال ك صحيح الاستناد .

كبير وعلم غامض
ما نطق بذلك إلا بما
خصها الله تعالى به
من بركة الوحي السابوي
وحجة رسول الله صلى
الله عليه وسلم وتخصيصه
بإياها بكلمة خذوا شطر
دينكم من هذه
الحجارة وذلك أن
النفوس مجبولة على
غرائز وطباع هي من
لوازمها وضرورتها
خلقت من تراب ولها
بحسب ذلك طبع
وخلقت من ماء ولها
بحسب ذلك طبع
وهكذا من حمائمون
ومن صلصال كالفخار
وبحسب تلك الأصول
التي هي مبادئ تكوينها
استفادت صفات من
الهيمنة والسبعة
والشيطانية وإلى صفة
الشيطة في الإنسان
إشارة بقوله تعالى - من

أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر (١) وأبلغهم في غير تطويل (٢) وأحسنهم بشرا (٣) لايهوله شيء من أمور الدنيا (٤) ويلبس ما وجد ثمرة شملة ومرة بردجبة يمانيا ومرة جبة سوف ما وجد من اللباس (٥) وخاتم فضة (٦) يلبسه في خنصره الأيمن (٧) والأيسر (٨) يردف خلفه عبده أو غيره (٩) يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بصيرا ومرة بفضة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى

(١) حديث كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر أبو الحسن بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم حين للثؤنة ليل الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه إلى أن قل متواضع في غير ذلة وفيه دائب الاطراق واسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند ن من حديث ابن أبي أوفى كان لا يألف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين الحديث وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء فجلس وجلسنا كان على رءوسنا الطير الحديث ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير (٢) حديث كان أبلغ الناس من غير تطويل خ م من حديث عائشة كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه ولهما من حديثها لم يكن يسرد الحديث كسر دم علقه خ ووصله م زادت ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه وله في الثمائل من حديث ابن أبي هالة يتكلم بمجامع الكلم فصل لافضل ولا تقصير (٣) حديث كان أحسنهم بشرا ت في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق الحديث وله في الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت وفيه ابن لميعة (٤) حديث كان لايهوله شيء من أمور الدنيا أحمد من حديث عائشة ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذوتني وفي لفظ له ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذوتني وفيه ابن لميعة (٥) حديث كان يلبس ما وجد ثمرة شملة ومرة جبة سوف ما وجد من اللباس خ م من حديث سهل بن سعد جاءت امرأة يردة . قال سهل هل تدرون ما البردة هي الشملة منسوج في حاشيتها وفيه فخرج إلينا وانها لإزاره الحديث ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها فيه الأوص بن حكيم يختلف فيه وللشيخين من حديث أنس كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الخبرة ولهما من حديث المغيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف (٦) حديث خاتم فضة متفق عليه من حديث أنس اتخذ خاتما من فضة (٧) حديث لبيه الخاتم في خنصره الأيمن م من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه ولليخاري من حديثه فاني لأرى بريقه في خنصره (٨) حديث تختمه في الأيسر م من حديث أنس كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى (٩) حديث إردافه خلفه عبده أو غيره أردف صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد من عرفة كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضا من حديث أسامة وهو مولاة وابن مولاة وأردف الفضل بن عباس من الزدلفة وهو في الصحيحين أيضا من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة .

صلصال كالنخار لدخول النار في الفخار وقد قال الله تعالى - وخلق الجنان من مارج من نار والله تعالى بخفي لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ورد في حديث حليلة ابنة الحرث أنها قالت في حديث طويل فينا نحن خائف بيوتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال ذلك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب يياض فأضجعهما فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه فنجداه قائما منتعما لونه فاعتقه أبوه ، وقال أي بني ما شأنك ؟ قال

رجالاً حافياً بلارداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود الرضى في أقصى المدينة^(١) يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة^(٢) ويجالس الفقراء^(٣) ويؤاكل الساكنين^(٤) ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم^(٥) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم^(٦) لا يجفو على أحد^(٧)

(١) حديث كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بقلته شبيه ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلارداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود الرضى في أقصى المدينة في الصحيحين من حديث أنس ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة ومسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه الفرس عرياحين انصرف من جنازة ابن الدحاح ومسلم من حديث سهل بن سعد كان للنبي ﷺ فرس يقال له : اللحيث ولهما من حديث ابن عباس طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير ولهما من حديث البراء رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء يوم حنين ولهما من حديث أسامة أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على إكاف الحديث ولهما من حديث ابن عمر كان يأتي قبا راكبا وماشيا ومسلم من حديثه في عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عباد بن عباد فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ماعلينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نعشى في السباخ الحديث (٢) حديث كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الكريهة من حديث أنس حبيب إلى النساء والطيب وذلك من حديث عائشة أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها وكان يعجبه ريح الطيبة لفظك وقال صحيح على شرط الشيخين وابن عدى من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة (٣) حديث كان يجالس الفقراء من حديث أبي سعيد جالس في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستربضا من العري الحديث وفيه فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا الحديث وهو من حديث خباب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم - إسنادهما حسن (٤) حديث مؤاكلته للمساكين خ من حديث أبي هريرة قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها (٥) حديث كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ت في الثبائل من حديث على الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم وكان من سيرته إظهار أهل الفضل بأذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين وفيه ويؤلفهم ولا ينفهم ويكرم كريم كل قوم ويؤلف عليهم الحديث والطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه فألقى إلى كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فاكرموه وإسناده جيد ورواه ك من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٦) حديث كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ك من حديث ابن عباس كان يحمل العباس إجلال الوالد والوالدة وله من حديث سعد بن أبي وقاص أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن عليا فقال ما أنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكنه قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفيه مسلم اللأى ضيف فأثر عليا لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدرا والله أعلم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد لا يقيين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر (٧) حديث كان لا يجفو على أحد ت في الثبائل ون في اليوم والليلة من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا بشئ يكرهه وفيه ضعف وللشيخين من حديث أبي هريرة أن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال بئس أخو العشيرة فلما دخل ألان له القول الحديث .

جاء في رجلان عليهما ثياب بيضاء فأضجاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا فقال أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيب انطلق بنا فلنرده إلى أهله قيل أن يظهر به ما نتخوف قالت فاحتملناه فلم نترع أمه إلا وقد قدمنا به عليها قالت ما ردك قد كتبنا عليه حريصين قلنا لا والله لا خير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا القدي كان علينا وقلنا نخشى الأتلاف والأحداث نرده إلى أهله فقالت ماذا لك بكما فاصدقاني شأنكما فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت خشيتا عليه الشيطان

يقبل معذرة العتذر إليه (١) يمزح ولا يقول إلا حقا (٢) يضحك من غير قهقهة (٣) يرى اللعب للباح فلا ينكره (٤) يسابق أهله (٥) وترفع الأصوات عليه فيصبر (٦) وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها (٧) وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس (٨) ولا يعصى له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيها لا بد منه من صلاح نفسه (٩) يخرج إلى بساتين أصحابه (١٠)

(١) حديث يقبل معذرة للعتذر إليه متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه طفق الخلفون يعتذرون إليه قبل منهم علانيتهم الحديث (٢) حديث يمزح ولا يقول إلا حقا أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند تليفظ قالوا إنك تداعبنا قال إني ولا أقول إلا حقا وقال حسن (٣) حديث ضحكه من غير قهقهة الشيخان من حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم وت من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسما قال صحيح غريب وله في الثمائل في حديث هند بن أبي هالة جل ضحكه التبسم (٤) حديث يرى اللعب للباح ولا يكرهه الشيخان من حديث عائشة في لب الحبيشة بين يديه في السجود وقال لهم دونكم يا بني أرفدة وقد تقدم في كتاب السماع (٥) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم أهله دهن في الكبرى وه من حديث عائشة في مسابقته لها وتقدم في الباب الثالث من النكاح (٦) حديث ترفع الأصوات عنده فيصبرخ من حديث عبد الله بن الزبير قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمر القمقام بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافتك قماريا حتى ارتفعت أصواتهما قزلت - يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - (٧) حديث وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن أوقالت أكثر عيشنا كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالثابة الحديث وفي رواية له كانت لنا أغز سبع فكان الراعي يبلغ بهن مرة الحمي ومرة أحدا وروح بهن علينا وكانت لقاح بندي الحبل فيؤب إلينا ألبانها بالليل الحديث وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي ضعيف في الحديث وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع كانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بندي قرد الحديث ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة لنا غنم مائة لا يزيد أن تزيد فإذا ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها شاة الحديث (٨) حديث كان له عبيد وإماء فلا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن وإسناده ضعيف وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر بركة أم أيمن وزيد بن حارثة وأبا كبشة وأنسة وشقران وسفينة وثوبان ورباحا ويسارا وأبارافع وأبامويهبة ورافعا أعتقهم كلهم وفضالة ومدعما وكركرة وروى أبو بكر بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه وم من حديث أبي اليسر أطمعهم مما تأكلون وألبسهم مما تلبسون الحديث (٩) حديث لا يعصى له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيها لا بد منه من صلاح نفسه ت في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزء الله وجزء لأهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزءا بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة الحديث (١٠) حديث يخرج إلى بساتين أصحابه تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل خر وجهه صلى الله عليه وسلم إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما.

كلا والله ما للشيطان عليه سيل وإنه لكان لابن هذا شأن ألا أخبركما بخبره قلنا بلى قالت حملت به لما حملت حملا قط أخف منه قالت فرأيت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور قد أضاءت به قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوطا لم يقمه الولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر لها ظهور بصفات وأخلاق مبقاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بمزيد من الظلمة

لا يحقر مسكيناً لفقره وزماتته ولا يهاب ملكاً للملك يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويًا (١) قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجبل والصحارى في قعر وفي رعاية الغنم يتبع لأب له ولا أم ضله الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين ومافيه النجاة والفوز في الآخرة والنبطة والخلص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول (٢) . وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في ضله آمين يارب العالمين .

(بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه)

كما رواه أبو البحتري قالوا ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من المؤمنين بشتمه إلا جعل لها كفارة ورحمة (٣) وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة (٤) وقيل له وهو في القتال لولنتهم يا رسول الله

(١) حديث لا يحقر مسكيناً لفقره وزماتته ولا يهاب ملكاً للملك يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحداً مخ من حديث سهل بن سعد مرّ رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقولون في هذا ؟ قالوا حري إن خطب أن ينكح الحديث وفيه مرّ رجل من قراء المسلمين فقال ما تقولون في هذا ؟ قالوا حري إن خطب أن لا ينكح الحديث وفيه هذا خير من ملء الأرض مثل هذا وم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل (٢) حديث قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجبل والصحارى وفي قعر وفي رعاية الغنم لأب له ولا أم ضله الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين ومافيه النجاة والفوز في الآخرة والنبطة والخلص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول هذا كله معروف معلوم فروى ت في التماثل من حديث علي ابن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته وكان من سيرته في جزء الأمة إشار أهل الفضل بأذنه وقسمه الحديث وفيه فأنثته عن سيرته في جلسائه قال كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب الحديث وفيه كان يحزن لسانه إلا فيها يمينه وفيه قد ترك نفسه من ثلاث من اللراء والإكثار وما لا يمينه الحديث وقد تقدم بعضه وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس في قوله - وما كنت تلوم من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك - قال كان نبي الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب وقد تقدم في العلم والبخارى من حديث ابن عباس قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام - قد خسر الدين قتلا أولادهم سفها بغير علم - وحسب من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة أن جعفراً قال لنجاشي أيها الملك كنا قوم أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة الحديث ولأحمد من حديث أبي بن كعب إني لفي صحراء ابن عشرين وأشهر فإذا كلام فوق رأسي الحديث وخ من حديث أبي هريرة كنت أرهاها أي الغنم على قراريط لأهل مكة ولأبي يعلى وحسب من حديث حليمة إنما نرجوا كرامة الرضاعة من والد للولود وكان يتبعها الحديث وتقدم حديث بعثت بمكارم الأخلاق (٣) حديث ما شتم أحداً من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فأى المؤمنين لعنته شتمته جلدة فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة . وفي رواية فاجعلها زكاة ورحمة وفي رواية فاجعلها كفارة وقربة وفي رواية فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة (٤) حديث ما لعن امرأة ولا خادماً قط المعروف ما ضرب مكان لمن كما هو متفق عليه من حديث عائشة والبخارى من حديث أنس لم يكن لحافها ولا عاناً وسيأتي الحديث الذي بعده فيه هذا المعنى .

خاوت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الأمة فاستمدت تلك الصفات للبقاء بظهورها في رسول الله صلى الله عليه وسلم بتزليل الآيات المحكمات بآرائها لقمعها تأدياً من الله لتبنيه رحمة خاصة له وطامة للأمة موزعة بنزول الآيات على الآماء والأوقات عند ظهور الصفات قال الله تعالى - وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً - وتثبيت القواد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطراب آية متضمنة لحلق صالح متى إما

قال هـ إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعنا (١) وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له (٢) وما ضرب يده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى وما اتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك (٣) وما كان يأتيه أحد حر أو عبداً أو أمة إلا قام معه في حاجته (٤) وقال أنس رضي الله عنه والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه لم فعلته ولا لمي نساؤه إلا قال دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر (٥) قالوا وما عاب رسول الله ﷺ مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض (٦) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يعثقه في السطر الأول فقال محمد رسول الله عدى المختار لافظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يعزى بالسيئة السيئة ولا يكن يفتو ويصنع ، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأزر على وسطه هو ومن معه دعاء للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه وكذلك نعته في الإنجيل وكان خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام (٧) ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو للنصرف (٨) وما أخذ أحد يده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر (٩)

(١) حديث إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعنا م من حديث أبي هريرة (٢) حديث كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له الشيخان من حديث أبي هريرة قالوا يارسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع عليهم قيل هلكت دوس فقال اللهم اهد دوسا واثبت بهم (٣) حديث ما ضرب يده أحدا قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما اتقم من شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله الحديث متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة (٤) حديث ما كان يأتيه أحد حر أو عبداً أو أمة إلا قام معه في حاجته بخ تعليقا من حديث أنس إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتطلق به حيث شاءت وتوصله هـ وقال فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها وقد تقدم أيضا من حديث ابن أبي أوفى ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والسكينة حتى يقضى لهما حاجتهما (٥) حديث أنس والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه لم فعلته ولا لمي أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر الشيخان من حديث أنس ما قال شيء صنعته لم صنعته ولا شيء تركته لم تركته وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له فيه ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فأتيتني عليه فان عاتبنى أحد من أهله قال دعوه فلو قدر شيء كان وفي رواية له كذا قضى (٦) حديث ما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض ، لم أجده بهذا اللفظ والمعروف ما عاب طعاما ويؤخذ من عموم حديث على بن أبي طالب ليس يغط إلى أن قال ولا عياب رواه في الثمائل والطبراني وأبو نعيم في دلائل النبوة وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس ما عابه عاب شيئا قط وفي الصحيحين من حديث عمر اضطجعه على حصير وتوضأ وصحبه من حديث ابن مسعود نام على حصير قمام وقد أثر في جنبه الحديث (٧) حديث كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام في الثمائل من حديث هند بن أبي هالة (٨) حديث ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو للنصرف الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث على بن أبي طالب وهو من حديث أنس كان إذا لقي الرجل بكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو للنصرف ورواه تميمه وقال غريب (٩) حديث وما أخذ أحد يده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر هـ من حديث أنس الذي قبله كان إذا استقبل الرجل ضاحكه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع لفظ ت وقال غريب .

تصريحاً أو تعريضاً كما
تحركت النفس الشريفة
النسوية لما كسرت
رباعيته وصار الفم
يسيل على الوجه
ورسول الله صلى الله
عليه وسلم يمسحه
ويقول: كيف يفلح قوم
خضبوا وجه نبيهم وهو
يدعومهم إلى ربهم فأزل
الله تعالى - ليس لك
من الأمر شيء -
فاكتسى القلب التبوى
لباس الاضطراب وفاء
بعد الاضطراب إلى
القرار فما توزعت
الآيات على ظهور
الصفات في مختلف
الأوقات صفت الأخلاق
النسوية بالقرآن
ليكون خلقه القرآن
ويكون في إحياء تلك
الصفات في نفس رسول
الله صلى الله عليه وسلم

وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ يديه فتشابه ثم شد قبضته عليها^(١) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله^(٢) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال ألك حاجة ؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته^(٣) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك يديه عليهما شبه الحبوة^(٤) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه^(٥) لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس^(٦) وما رؤى قط ماداً رجله بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون للسكان واسعا لا يضيق فيه وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة^(٧) وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه^(٨) وكان يؤثر الداخل عليه بالسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل^(٩) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه^(١٠) حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة

(١) حديث كان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ يديه فتشابه ثم شد قبضته ومن حديث أبي ذرٍّ وسأله رجل من عزة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصاحفكم إذا قعتموه قال ما قعته قط إلا صاحفتي الحديث ، وفيه الرجل الذي من عزة ولم يسم وصماه البيهقي في الأدب عبد الله وروينا في علوم الحديث للحاكم من حديث أبي هريرة قال شبك يدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عندهم بلفظ أخذ رسول الله ﷺ يدي (٢) حديث كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل ت في الثمائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفته وقال علي ذكر بالتونين (٣) حديث كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال ألك حاجة فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته لم أجده أصلا (٤) حديث كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك يديه عليهما شبه الحبوة د ت في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتبى يديه وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتبياً يديه (٥) حديث إنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه دن من حديث أبي هريرة وأبي ذرٍّ قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه فيجىء القريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل الحديث (٦) حديث إنه حيثما انتهى به المجلس جلس ت في الثمائل في حديث علي الطويل (٧) حديث ما رؤى قط ماداً رجله بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد إلا أن يكون للسكان واسعا لا يضيق فيه الدار قطفي في غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل وتوهلر مقدما ركبتيه بين يدي جلس له زاد ابن ماجه قط وسنده ضعيف (٨) حديث كان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه ك وصحح إسناده من حديث أنس . دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم وفيه فأخذ بردته فألقاها عليه فقال اجلس عليها يا جرير الحديث وفيه فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة والطبراني في الكبير من حديث جرير فألقى إلى كساءه ولأبي نعيم في الحلية فبسط إلى رداءه (٩) حديث كان يؤثر الداخل بالسادة التي تكون تحته الحديث تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة (١٠) حديث ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة ت في الثمائل من حديث علي الطويل وفيه يعطى كل جلسائه نصيبه لا يحب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه وفيه مجاشه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة.

معنى قوله عليه السلام « إنما أنسى لأسن »
فظهر صفات نفسه الشريفة وقت استئصال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة في حقهم حتى تنزكي قوسهم وتشرق أخلاقهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأخلاق محزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى ببعد خيرا منحه منها خلقا » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما بثت لأسم مكارم الأخلاق » .
وروى عنه صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ما تقوبضه عشر

ذل الله تعالى - فبارحة من الله كنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نقضوا من حولك - ولقد كان يدعو أصحابه بكنامهم إكراما لهم واستالة لقلوبهم (١) ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعو بما كناه به (٢) ويكنى أيضا النساء اللاتي لمن الأولاد واللاتي لم يلدن بيتدى لمن السكى (٣) ويكنى الصبيان فيستلن به (٤) فلوهم وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا (٥) وكان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس (٦) ولم تكن ترفع في مجامع الأصوات (٧) وكان إذا قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبمحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ثم يقول عني جبريل عليه السلام (٨) .

(بيان كلامه وضحه صلى الله عليه وسلم)

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما ويقول (٩) :

خلقا من آتاه واحدا
منها دخل الجنة
فتقديرها وتعديدها
لا يكون إلا بوحى
سماوى لم رسل ونبي
والله تعالى أبرز إلى
الخلق أسماء منبئة
عن صفاته سبحانه
وتعالى وما أظهرها
لهم إلا ليدعوم إليها
ولولا أن الله تعالى أودع
في القوى البشرية
التخلق بهذه الأخلاق
ما أبرزها لهم دعوة
لهم إليها يختص رحمته
من يشاء ولا يمد
والله أعلم أن قول
عائشة رضى الله عنها
كان خلقه القرآن فيه
رمز تامض ولعماء

(١) حديث كان يدعو أصحابه بكنامهم إكراما لهم واستالة لقلوبهم في الصحيحين في قصة الغار من حديث أبي بكر يابا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وللحاكم من حديث ابن عباس أنه قال لعمر يابا حفص أبصرت وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر إنه لأول يوم كنانى فيه بأبى حفص وقال صحيح على شرطهم وفي الصحيحين أنه قال لعلى قم يابا تراب وللحاكم من حديث رفاعة بن مالك أن أبا حنن وجد منضا في بطنه فتخلفت عليه يريد عليا ولأبى على الموصلى من حديث سعد ابن أبي وقاص فقال من هذا أبو إسحاق فقلت نعم وللحاكم من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبد الرحمن ولم يولد له (٢) حديث كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعو بما كناه به ت من حديث أنس قال كنانى النبي صلى الله عليه وسلم بيقلة كنت أختليها يعنى أبا حمزة قال حديث غريب وه أن عمر قال لصيب بن مالك تكتنى وليس لك ولد قال كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى يحيى للطبرانى من حديث أبى بكر تديت بكرة من الطائف فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم فأنت أبوبكرة (٣) حديث كان يكنى النساء اللاتي لمن الأولاد واللاتي لم يلدن بيتدى لمن السكى ك من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي صلى الله عليه وسلم فقال يأمن أيمن قومي إلى تلك الفخارة الحديث وه من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ كل أزواجك كنيته غيرى قال فأنت أم عبد الله وخ من حديث أم خالد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يأمن خالد هذا ساء وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبى داود باسناد صحيح أنها قالت يا رسول الله كل صواحبى لمن كنى قال فاكنتى بابنك عبد الله بن الزبير (٤) حديث كان يكنى الصبيان في الصحيحين من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخ له صغير يابا عمير ما فعل الصغير (٥) حديث كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا هذا من العلوم ويدل عليه إخباره صلى الله عليه وسلم أن بنى آدم خيرهم بطى الغضب سريع النى رواه ت من حديث أبى سعيد الخدرى وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بنى آدم وسيدهم وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها رواه ت في الثمائل من حديث هناد بن أبي هالة (٦) حديث كان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس هذا من العلوم وروينا في الجزء الأول من فوائد أبى الدرداء من حديث على في صفة النبي صلى الله عليه وسلم كان أرحم الناس بالناس الحديث بطوله (٧) حديث لم تكن ترفع في مجامع الأصوات ت في الثمائل من حديث على الطويل (٨) حديث كان إذا قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبمحمدك الحديث أخرجه النسائى في اليوم واليلة وك في الاستدرك من حديث رافع بن خديج وتقدم في الأذكار والدعوات (٩) حديث كان أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما أبو الحسن بن الضحاك في كتاب الثمائل وابن الجوزى

أنا أفصح العرب (١) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم (٢) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بهذار وكان كلامه كخرزات نظمن (٣) قالت عائشة رضي الله عنها كان لا يسرد الكلام كسر دم هذا كان كلامه نزا وأتم تنثرون الكلام ثرا (٤) قالوا وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وصكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد (٥) وكان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كأنه يتبع بضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه (٦) وكان جهر الصوت أحسن الناس نعمة (٧) وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة (٨)

في الوفاء باسناد ضعيف من حديث بريدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ماهو حتى يجهرهم (١) حديث أنا أفصح العرب الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري أنا أعرب العرب وإسناده ضعيف وك من حديث عمر قال قالت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا الحديث . وفي كتاب الرعد والطرلاب بن أبي الدنيا في حديث مرسل أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما رأيت أفصح منك (٢) حديث إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ك من حديث ابن عباس ومحمده كلام أهل الجنة عربي (٣) حديث كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بهذار وكان كلامه خرزات النظم الطبراني من حديث أم معبد وكان منطق خرزات نظم ينحدرون حلو للنطق لا نزر ولا هنذر وقد تقدم وسيأتي من حديث عائشة بسده كان إذا تكلم تكلم نزا وفي الصحيحين من حديث عائشة كان يحدثنا حديثا لوعده العاد لأحصاء (٤) حديث عائشة كان لا يسرد كسر دم هذا كان كلامه نزا وأتم تنثرون ثرا اتفق الشيخان على أول الحديث وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الحلبي في فوائده باسناد منقطع (٥) حديث كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والدارقطني من حديث ابن عباس باسناد جيد أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصارا وشطره الأول متفق عليه كما سيأتي قال خ بنفي في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأميرين ونحو ذلك وللاحاكم من حديث عمر التقدم كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل لحفظتها (٦) حديث كان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كلام يتبع بضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه ت في الثمائل من حديث هند بن أبي هالة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة بعثت بجوامع الكلم ولأبي داود من حديث جابر كان في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل وفيه شيخ لم يسم وله ولترمذي من حديث عائشة كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه وقالت يحفظه من جلس إليه وقالت في اليوم واليلة يحفظه من سمعه وإسناده حسن (٧) حديث كان جهر الصوت أحسن الناس نعمة ت ن في الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر بيننا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري يا محمد فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو من صوته هاؤم الحديث . وقال أحمد في مسنده وأجابه نحو ما تكلم به الحديث وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائما وقد يقال لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيخين من حديث البراء ماممت أحدا أحسن صوتا منه (٨) حديث كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ت في الثمائل من حديث هند بن أبي هالة .

خفي إلى الأخلاق
الروائية فاحتشمت
من الحضرة الإلهية
أن تقول متخلقا
بأخلاق الله تعالى
فصبرت عن المعنى بهولها
كان خلقه القرآن
استحياء من سبحات
الجلال وسترا للحال
بلطف اللقال وهذا
من وفور علمها وكال
أدبها وبين قوله تعالى
- ولقد آتيناك سمعا
من الثاني والقرآن
العظيم - وبين قوله
- وإنك لعل خالق عظيم -
مناسبة مشعرة بقول
عائشة رضي الله عنها
كان خلقه القرآن .
قال الجنيدي رحمه الله

ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق (١) ويعرض عن تكلم بغير جميل (٢) ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٣) وكان إذا سكت تكلم جليساؤه ولا يتنازع عنده (٤) في الحديث وبعضه بالجد والنصيحة (٥) ويقول لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فانه أنزل على وجوه (٦) وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم (٧) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (٨) وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له (٩) قالوا ولقد جاءه أعرابي يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا لا تفعل يا أعرابي فانا نسكر لونه فقال دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لأدعه حتى يتبسم فقال يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تفعفا وتزها حتى أهلك هذا أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبا آمنت بالله وكفرت به قالوا فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين (١٠) قالوا وكان

(١) حديث لا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق د من حديث عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فتهنى قريش وقالوا تكتب كل شيء ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق رواه ك وصححه (٢) حديث يعرض عن تكلم بغير جميل ت في الثمائل من حديث علي الطويل يتغافل عما لا يشئ الحديث (٣) حديث يكنى عما اضطره الكلام مما يكره فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك رواه خ من حديث عائشة ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثها في المرأة التي سألت عن الاغتسال من الحيض خذى فرصة ممسكة فتطهرى بها الحديث (٤) حديث كان إذا سكت تكلم جليساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث ت في الثمائل في حديث علي الطويل (٥) حديث يعظ بالجد والنصيحة م من حديث جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه وتلاصوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم الحديث (٦) حديث لا تضربوا القرآن بعضه ببعض وأنه أنزل على وجوه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو باسناد حسن إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض وفي رواية للهروري في ذم الكلام إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض وفي رواية له أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف (٧) حديث كان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم ت من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الصحيحين من حديث جرير ولا رآني إلا تبسم وت في الثمائل من حديث علي بضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه وم من حديث جابر بن سمرة كانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم (٨) حديث ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الخبر الذي قال إن الله يضع السموات على أصبع ومن حديث أبي هريرة في قصة الجامع في رمضان وغير ذلك (٩) حديث كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له ت في الثمائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل جل ضحكك التبسم (١٠) حديث جاءه أعرابي يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا لا تفعل يا أعرابي فانا نسكر لونه فقال دعوني والذي بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم فقال

كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى وقال الواسطي رحمه الله لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق وقيل لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقهم وبإينهم بقلبه وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف: التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق وقيل عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه بمشاهدة مكوناتها وقيل سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه . وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى

من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يحط بحظبة عظيمة (١) وكان إذا سرور ورضى فهو أحسن الناس رضا فان وعظ وعظ بمجد وإن غضب وليس يغضب إلا الله لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلها (٢) وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى يقول : اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشقبه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٣) .

(بيان أخلاقه وآدابه في الطعام)

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد (٤) وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (٥) والصفف يارسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثرید وقد هلكوا جوعا الحديث وهو حديث منكر لم أقفله على أصل وورده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المغيرة بن شعبة التفق عليه حين سأله أنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك وفي رواية لمسلم أنهم يقولون إن معه جبلا من خبز ولحم الحديث نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود التفق عليهما إن معه ماء ونارا الحديث (١) حديث كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يغضب بحظبة عظيمة تقدم حديث عبد الله بن الحارث ما رأيت أحدا أكثر تبسما منه وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر كان إذا نزل عليه الوحي قلت نذير قوم فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا الحديث ولأحمد من حديث علي أو الزبير كان يغضب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم تبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك وللحاكم من حديث جابر كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وهو عند مسلم بألفظ كان إذا خطب (٢) حديث كان إذا سرور ورضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بمجد وإن غضب ولا يغضب إلا الله لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلها أبو الشيخ بن حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديث ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما تلاحك الجدر وجهه وإسناده ضعيف والراد به المرأة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال وهو يرق وجهه من السرور وفيه وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه الحديث وم كان إذا خطب احمرت عيناه وعلاصوته واشتد غضبه الحديث وقد تقدم وت في الشاأل في حديث هذبن أبي هالة لا تغضبه الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصره ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وقد تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشقبه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم لم أقف لأوله على أصل ، وروى الاستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطانا منها ما يرضيك عنا وم من حديث عائشة فيما كان يفتح به صلاته من الليل اهدني لما اختلف فيه إلى آخر الحديث .

(بيان أخلاقه وآدابه في الطعام)

(٤) حديث كان يأكل ما وجد تقدم (٥) حديث كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف

حسن الخلق في حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن طي قال أنا أبو نصر الهروي قال أنا أبو محمد الترياق قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس الهبوبي قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذي قال حدثنا أحمد بن الحسين ابن خراش قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبد الله ابن سعيد عن محمد بن النكدر عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن

ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال : باسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة (١) وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبته وبين قدميه كما يجلس للصلى إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد (٢) وكان لا يأكل الحار ويقول : إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا نارافا بردوه (٣) وكان يأكل مما يليه (٤) ويأكل بأصابه الثلاث (٥) وربما استعان بالراية (٦) ولم يأكل بأصبعين ويقول إن ذلك أكلة الشيطان (٧) وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بغالودج فأكل منه وقال ما هذا يا أبا عبد الله قال باني أنت وأمي نجعل السمن والصل في البرمة ونضعها على النار ثم نعليه ثم

أى كثرت عليه الأيدي أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدى في الكامل من حديث جابر بسند حسن أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي ولأبي يعلى من حديث أنس لم يجتمع له غذاء وعشاء خبر ولحم إلا على صنف وإسناده ضعيف (١) حديث كان إذا وضعت المائدة قال باسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة . أما التسمية فرواهان من رواية من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاما يقول باسم الله الحديث وإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٢) حديث كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبته وقدميه كما يفعل للصلى إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد . عبد الرزاق في الصنف من رواية أيوب معضلا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل احتفز وقال آكل كما يأكل العبد الحديث وروى ابن الضحاك في السمائل من حديث أنس بسند ضعيف كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأصل كما يفعل العبد روى أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه وكان لا يتكىء . أوردته في صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقباز من حديث ابن عمر إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ولأبي يعلى من حديث عائشة آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وسندها ضعيف (٣) حديث كان لا يأكل الحار ويقول إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا نارالبيهي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوما بطعام سخن فقال ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم ولأحمد بإسناد جيد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث حولة بنت قيس وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها لفظ الطبراني والبيهقي وقال أحمد فأحرقت أصابعه فقال حسن والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذي بركة وله فيه وفي الصغير من حديثه أتى بصحفة فخور فرفض يده منها وقال إن الله لم يطعمنا نارا وكلامها ضعيف (٤) حديث كان يأكل مما يليه أبو الشيخ بن جابر من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وصحافه في رواية له وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم نسيب سفيان الثوري وقال البيهقي تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ولأبي الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٥) حديث أكله بأصابه الثلاث م من حديث كعب بن مالك (٦) حديث استعانه بالراية رويناه في الفيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمري هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مرسلان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالحس (٧) حديث لم يأكل بأصبعين ويقول إن ذلك أكلة الشيطان الدار قطنى في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف لا تأكل بأصبع فانه أكل اللوكولاتا كل بأصبعين فانه أكل الشياطين الحديث .

من أحبك إلى وأقربكم
منى مجلسا يوم القيامة
أحسنكم أخلاقا وإن
أبغضكم إلى وأبغضكم
منى مجلسا يوم القيامة
الثرثرون للثديقون
للتفريقون قالوا يا رسول
الله علنا الثرثرون
وللتشديقون في
التفريقون ؟ قال
التكبرون والثرثرا هو
للكثار من الحديث
والتشديق للتناول
على الناس في الكلام
قال الواسطي رحمه الله
الحلق العظيم أن
لا يغاصم ولا يغاصم
وقال أيضا وإنك لملئ
خلق عظيم لو جادناك
حلاوة للطالمة على

ناخذ مخ الحنطة إذا طحنت فتقليه على السمن والعسل في البرمة ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كآري
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الطعام طيب ^(١) وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ^(٢)
 وكان يأكل القثاء بالرطب ^(٣) وبالملح ^(٤) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب ^(٥)
 وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر ^(٦) وربما أكله بالرطب ^(٧) ويستعين باليدن جميعاً وأكل
 يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل
 من كفه اليسرى وهو يأكل يمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة ^(٨) وكان ربما أكل العنب

(١) حديث جاءه عثمان بن عفان بفالودج الحديث قلت المروف أن الذي صنعه عثمان الخبيص روله
 البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان قدمت
 عليه غير تحمل النقي والعسل، الحديث. وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث
 عبد الله بن سلام أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان وفيه فاذا دقيق ومن وعسل وفيه ثم قال
 لأصحابه كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص وأما خبر الفالودج فرواه بإسناد ضعيف من حديث
 ابن عباس قال أول ما صنعنا بالفالودج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أمتك تفتح
 عليهم الأرض ويقاض عليهم من الدنيا حتى إنهم ليأكلون الفالودج قال النبي صلى الله عليه وسلم وما
 الفالودج قال يغلطون السمن والعسل جميعاً قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لأصله
 (٢) حديث كان يأكل خبز الشعير غير منخول البخاري من حديث سهل بن سعد (٣) حديث كان
 يأكل القثاء بالرطب متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر (٤) حديث كان يأكل القثاء بالملح
 أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد
 ابن كثير متروك (٥) حديث كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب أبو نعيم في الطب النبوي
 من رواية أمية بن زيد العنسي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ
 وروى أبو الشيخ وابن عدى في الكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس
 كان يأخذ الرطب يمينه والبطيخ يساره ويأكل الرطب بالبطيخ وكان أحب الفاكهة إليه، فيه يوسف
 ابن عطية الصغار يجمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة كان أحب الفاكهة لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ وله من حديث آخر لها فإن خير الفاكهة العنب وكلاهما ضعيف
 (٦) حديث كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل
 العنب بالخبز فيما رواه ابن عدى من حديث عائشة مرفوعاً عليكم بالمرامة قيل يا رسول الله وما المرامة
 قال أكل الخبز مع العنب فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز وإسناده ضعيف وأما أكل البطيخ
 بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والرطب مشهور فهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر
 الذي هو الطبرزد فلم أره أصلاً إلا في حديث منكر معضل رواه أبو عمر النوفلي في كتاب البطيخ من
 رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل بطيخاً بسكر وفيه موسى بن إبراهيم
 للروزي كذبه يحيى بن معين (٧) حديث أكل البطيخ بالرطب ن من حديث عائشة وحسنه وه
 من حديث سهل بن سعد كان يأكل الرطب بالبطيخ وهو عند الدارمى بلفظ البطيخ بالرطب (٨) حديث
 استعانت باليدن جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها
 بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل يمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة أما استعانت يديه
 جميعاً فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال آخر ما زأيت من رسول الله ﷺ في إحدى يديه
 رطبات وفي الأخرى قثاء يأكل من هذه ويمض من هذه وتقدم حديث أنس في أكله يديه قبل

سرك وقال أيضاً أنك
 قبلت فون ما أسديت
 إليك من نعمي أحسن
 مما قبله غيرك من
 الأنبياء والرسل. وقال
 الحسين لأنه لم يؤثر
 فيك جفاء الخلق مع
 مطالعة الحق وقيل
 الخلق العظيم لباس
 التقوى والتخلق
 بأخلاق الله تعالى إذ لم
 يبق للأعواض عنده
 خطر. وقال بعضهم
 قوله تعالى ولو تقول
 علينا بعض الأقاويل
 لأخذنا منه باليمين -
 آثم لأنه حيث قال وإنك
 أحضره وإذا أحضره
 أغفله وحجبه وقوله
 لأخذنا آثم لأن فيه
 فناء في قول هذا القائل

خرطاً يرى زؤانه على لحيته تكثرز اللؤلؤ (١) وكان أكثر طعامه للماء والتمر (٢) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين (٣) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفضل (٤) وكان يأكل التريد باللحم والقرع (٥) وكان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخرى يونس عليه السلام (٦) قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثرُوا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين (٧) وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد (٨) وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فياً كله (٩) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ورفضه إلى فيه رفضاً ثم ينتهشه انتهاشاً (١٠) وكان يأكل الخبز والسمن (١١)

هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف (١) حديث ربما أكل العنب خرطاً الحديث ابن عدى في الكامل من حديث العباس والعقيلي في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاهما ضعيف (٢) حديث كان أكثر طعامه للماء والتمر خ من حديث عائشة توفي رسول الله ﷺ وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء (٣) حديث كان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين أحمد من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بتمر وقال ادن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها الأطينين ورجاله تغتات وإيهامه لا يضر (٤) حديث كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفضل أبو الشيخ من رواية ابن سمان قال سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم الحديث وت في السائل من حديث جابر أئانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فذبحنا له شاة فقال كأنهم علموا أنا نحب اللحم وإسناده صحيح و ه من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم (٥) حديث كان يأكل التريد باللحم والقرع م من حديث أنس (٦) حديث كان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخرى يونس ن ه من حديث أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب القرع وقال ن الدباء وهو عند م بلفظ تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس فلفظته في أصل شجرة وهي الدباء (٧) حديث يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثرُوا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي (٨) حديث كان يأكل لحم الطير الذي يصاد ت من حديث أنس قال كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير فجاء على فأكل معه قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة ، وروى دت واستقر به من حديث سفيانة قال أكلت مع النبي صلى الله عليه وسلم لحم جباري (٩) حديث كان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتى به فياً كله قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه د ن ت من حديث ابن عباس وقال حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني قد كانت قبله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد فهو ضعيف جداً (١٠) حديث كان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ورفضه إلى فيه رفضاً ثم نهشه د من حديث صفوان بن أمية قال كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ اللحم من العظم فقال أدن اللحم من فيك فإنه أهني وأمرأ وت من حديث أنهش اللحم نهشاً فإنه أهني وأمرأ وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً والشيخين من حديث أبي هريرة فتناول الذراع فنهش منها نهشة الحديث (١١) حديث كان يأكل الخبز والسمن متفق عيه من حديث أنس في قصة طويلة فيها فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت وعصرت أم سليم عكة فأدتمته الحديث وفيه ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية ه فصنعت فيها شيئاً من سمن ولا يصح و د ه من

نظر فبلا قال إن كان
في ذلك فناء ففي قوله
وإنك بقاء وهو بقاء
بعد فناء والبقاء أتم
من الفناء وهذا أليق
بمنصب الرسالة لأن
الفناء إنما عز لمزاحمة
وجوده مذموم فإذا نزع
الذموم من الوجود
وتبدلت النعوت فأى
عزة تبقى في الفناء
فيكون حضوره بالله
لا بنفسه فأى حجة
تبقى هنالك . وقيل
من أوتى الخلق العظيم
فقد أوتى أعظم اللقائات
لأن اللقائات ارتباطاً
عاماً والخلق ارتباطاً
بالنعوت والصفات .
وقال الجنيذ اجتمع

وكان يحب من الشاة الدراع والكنتف ، ومن القدر الدباء ومن الصباغ الحبل ومن التمر العجوة (١) ودعا في العجوة بالبركة وقال هي من الجنة وشفاء من السم والسحر (٢) وكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحقاء التي يقال لها الرحلة (٣) وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول (٤) وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر والأثنين والثلاثة والمرارة والفدد والحيا والسم ، ويكره ذلك (٥) وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات (٦) وماذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يفضه إلى غيره (٧) وكان يعاف الضب والطحال ولا يعرمهما (٨)

حديث ابن عمر وددت أن عندى خبزة يضاء من بر صمراء ملبقة بدم من الحديث قال د منسك .
(١) حديث كان يحب من الشاة الدراع والكنتف ومن القدر الدباء ومن الصباغ الحبل ومن التمر العجوة وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال وضعت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قطعة من ثريد ولحم فتناول الدراع وكانت أحب الشاة إليه الحديث . وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكنتف وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة ولم يكن يعجبه من الشاة إلا الكنتف وتقدم حديث أنس كان يحب الدباء قبل هذا بستة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس كان أحب الطعام إليه الدباء وله من حديث ابن عباس باسناد ضعيف كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبل وله بالاسناد المذكور كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة (٢) حديث دعا في العجوة بالبركة وقال هي من الجنة وشفاء من السم والسحر البزار والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد سدوس فأهدبنا له تمرا وفيه حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامى قال بارك الله في الجذامى وفي حديثه خرج هذا منها الحديث قال أبو موسى للدينى قيل هو تمر أحمر وت ن ه من حديث أبي هريرة العجوة من الجنة وهي شفاء من السم وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص من تصبى سبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر (٣) حديث كان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحقاء التي يقال لها الرحلة أبو نعيم في الطب النبوى من حديث ابن عباس عليكم بالهندباء فانه مايوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضيفة وأما الباذروج فلم أجده فيه حديثا وأما الرحلة فروى أبو نعيم من رواية ثور قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بالرحلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله ﷺ بارك الله فيك أنبتى حيث شئت فأتت شفاء من سبعين داء أدناه الصداق وهذا مرسل ضعيف (٤) حديث كان يكره الكليتين لمكانهما من البول وروناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيد الله بن الشيخ من حديث ابن عباس باسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوى أحد الكذابين (٥) حديث كان لا يأكل من الشاة : الذكر والأثنين والثلاثة والمرارة والفدة والحيا والسم ، ابن عدى ومن طريقه البيهقى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ورواه البيهقى من رواية مجاهد مرسل (٦) حديث كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسل ووصله الدارقطنى في غرائب مالك عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا الحديث وفيه قال فأتى أناجى من لاتاجى ولمسلم من حديث أنى أيوب في قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال إني أكرهه من أجل ريحه (٧) حديث مادم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يفضه إلى غيره تقدم أول الحديث وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال كلوا فانه ليس بمحرام ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومى (٨) حديث كان يعاف الضب والطحال ولا يعرمهما

فيه أربعة أعشاب :
السحابة والألفة
والنصيحة والشفقة .
وقال ابن عطاء : الخلق
العظيم أن لا يكون له
اختيار ويكون تحت
الحكم مع فناء النفس
وفناء للألوقات . وقال
أبو سعيد القرشى :
العظيم هو الله ومن
أخلاقه الجود والكرم
والصفح والصفو
والإحسان ألا ترى إلى
قوله عليه السلام « إن
له مائة وبضعة عشر
خلقا من أتى بواحد
منها دخل الجنة » فلا
تخلق بأخلاق الله
تعالى وجد الثناء عليه
بقوله - وإنك لملئ

وكان يلعق بأصابه الصخرة ويقول آخر الطعام أكثر بركة (١) وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى
تحمّر (٢) وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول إنه لا يدري في أي
الطعام البركة (٣) وإذا فرغ قال الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت لك الحمد
غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه (٤) وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه بغسل جيد ثم
يمسح بفضل الماء على وجهه (٥) وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث
تحميدات (٦) وكان يمسح اللسان بماء ولا يمسح بها (٧) وكان يدفع فضل مؤثره إلى من على يمينه (٨) فإن
كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم (٩) وربما كان
يشرب بنفس واحد حتى يفرغ (١٠) وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه (١١) وآتى بإناء فيه

أما الضب في الصحيحين عن ابن عباس لم يكن بأرض قومي فأجذني أعافه ولهما من حديث ابن عمر
أحلت لنا ميتتان ودمان وفيه أما الدمان فالكبد والطحال واليبيقي موقوف على زيد بن ثابت إني
لا أكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به (١) حديث كان يلعق الصخرة ويقول
آخر الطعام أكثر بركة البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه ولا ترفع القصعة حتى
تلمعها أو تلمعها فإن آخر الطعام فيه البركة وم من حديث أنس أمرنا أن نسلت الصخرة وقال إن أحدكم
لا يدري أي طعامه يبارك له فيه (٢) حديث كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمّر م من حديث
كعب بن مالك دون قوله حتى تحمّر فلم أنف له على أصل (٣) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى
يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول إنه لا يدري في أي أصابعه البركة م من حديث كعب بن مالك
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر فإذا فرغ فيلعق أصابعه
فانه لا يدري في أي طعامه تسكون البركة والبيهقي في الشعب من حديثه لا يمسح أحدكم يده بالمنديل
حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه (٤) حديث وإذا فرغ قال اللهم لك
الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه الطبراني من
حديث الحرث بن الحارث بسند ضعيف والبخاري من حديث أبي أمامة كان إذا فرغ من طعامه قال
الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفي ولا مكفور وقال مرة الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى
عنه ربنا (٥) حديث كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء
على وجهه أبو يعلى من حديث ابن عمر بأسناد ضعيف من أكل من هذه اللحوم شيئا فليغسل يده من
ريح وضرة لا يؤذى من حذائه (٦) حديث كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفي
آخرها ثلاث تحميدات الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورجاله ثقات وم من حديث أنس
كان إذا شرب بنفس ثلاثا (٧) حديث كان يمسح اللسان بماء ولا يمسح بها البغوي والطبراني وابن
عدي وابن قانع وابن منده وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز كان يستاك عرضا ويشرب مصا
ولطبراني من حديث أم سلمة كان لا يمسح ولا يبي الشيخ من حديث ميمونة لا يمسح ولا يلمس وكلها
ضعيفة (٨) حديث كان يدفع فضل مؤثره إلى من عن يمينه متفق عليه من حديث أنس (٩) حديث
استئذنه من على يمينه إذا كان على يساره أجل رتبة متفق عليه من حديث سهل بن مسعد
(١٠) حديث شربه بنفس واحد أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بأسناد ضعيف والحاكم من
حديث أبي قتادة ومحمه إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد ولعل تاويل هذين الحديثين على
ترك التنفس في الإناء والله أعلم (١١) حديث كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه ك من حديث
أبي هريرة ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم يتنفس

خلق عظيم - وقيل
عظم خلقك لأنك لم
ترض بالأخلاق
وسرت ولم تسكن إلى
النوع حتى وصلت إلى
الذات . وقيل لما ثبت
محمد عليه الصلاة
والسلام إلى الحجاز
حجزه بها عن اللذات
والشهوات وألقاه في
الغربة والجفوة ففاضنا
بذلك عن دنس
الأخلاق قال له
- وإنك لم يخلق
عظيم - . وأخبرنا
الشيخ الصالح أبو زرعة
ابن الحافظ أبي الفضل
محمد بن طاهر المقدسي
عن أبيه قال أنا أبو عمر
المليخي قال أنا أبو محمد

عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد (١) ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله » وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب (٢) وكان ربما قام فأخذ مايا كل بنفسه أو يشرب (٣) .

(بيان آدابه وأخلاقه في اللباس)

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك (٤) وكان يعجبه الثياب الخضر (٥) وكان أكثر لباسه البياض ويقول ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم

وقال حديث صحيح الاسناد (١) حديث أنى إثناء فيه عسل وماء فأبى أن يشربه وقال شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد الحديث البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله شربتان في شربة إلى آخره وسنده ضعيف (٢) حديث كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب الشيخان من حديث أبي سعيد كان أشد حياء من العذراء في خدرها الحديث وقد تقدم وأما كونه كان لا يسألهم طعاما فإنه أراد أى طعام يعينه من حديث عائشة أنه قال ذات يوم يا عائشة هل عندكم شيء ؟ قالت قلت ما عندنا شيء الحديث وفيه فلما رجع قلت أهديت لنا هدية قال ما هو قلت حيس قال هاتيه وفي رواية قريه وفي رواية للنسائي أصبح عندكم شيء تطعمينه ولأبي داود هل عندكم طعام وت أعندك غداء وفي الصحيحين من حديث عائشة فدعا بطعام فأبى فخبز وأدم من أدم البيت فقال ألم أربمة على النار فيها لحم الحديث وفي رواية لمسلم لو صنعت لنا من هذا اللحم الحديث فليس في قصة بريرة إلا الاستفهام والرضا والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهي والله أعلم . وللشيخين من حديث أم الفضل أنها أرسلت إليه بقدر لبن وهو واقف على بعيره فشربه ولأبي داود من حديث أم هانئ فجاءت الوليدة بإثناء فيه شراب فتناوله فشرب منه وإسناده حسن (٣) حديث وكان ربما قام فأخذ مايا كل أو يشرب بنفسه د من حديث أم المنذر بنت قيس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب ومعه على وعلى ناقه - ولنا دوال معلقة بقم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها الحديث وإسناده حسن وللترمذي ومعه وابن ماجه من حديث كبشة دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب من في قربة معلقة قائما الحديث .

(بيان أخلاقه وآدابه في اللباس)

(٤) حديث كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك الشيخان من حديث عائشة أنها أخرجت إزارا مما يصنع باليمن وكساء من هذه اللبدة فقالت في هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية إزارا غليظا ولها من حديث أنس كنت أمتي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية الحديث لفظ مسلم وقال خ برد نجراني وه بسند ضعيف من حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصا قصير اليدين والطول ودت وحسنه ون من حديث أم سلمة كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص ولأبي داود من حديث أسماء بنت زيد كانت يد قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا الحديث الجبة والشملة والخبرة (٥) حديث كان أكثر لباسه البياض ويقول ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم ه ك من حديث ابن عباس خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم قال ك صحيح الاسناد وله ولاصحاب السنن من حديث عمرة عليكم بهذه الثياب البياض فلبسها

عبد الله بن يوسف قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي قال ثنا جعفر بن الحجاج الرقي قال أنا أيوب بن محمد الوزان قال حدثني الوليد قال حدثني ثابت عن يزيد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول « مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الإبن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله تعالى لمن

وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب ^(١) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على يياض لونه ^(٢) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق ^(٣) وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها ^(٤) وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ^(٥) وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ^(٦) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ^(٧)

أحباؤكم وكفتموا فيها موتاكم لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وقال ت حسن صحيح ^(١) حديث كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير المحشو الشيخان من حديث السور بن محزمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أقية من ديباج مزرر بالذهب الحديث وليس في طرق الحديث لبسها إلا في طريق علقها قال غفرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب الحديث وم من حديث جابر لبس النبي صلى الله عليه وسلم يوما قباء من ديباج أهدى له ثم نزعه الحديث ^(٢) حديث كان له قباء سندس فيلبسه الحديث أحمد من حديث أنس أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة سندس أوديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه وكان ينهى عن الحرير وعند ت ومحمه ن أنه لبسها ولكنه قال بجبة ديباج منسوجة فيها الذهب ^(٣) حديث كان ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن بسر كانت ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره فوق الكعبين وقيصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك وإسناده ضعيف وك ومحمه من حديث ابن عباس كان يلبس قميصا فوق الكعبين الحديث وهو عنده بلفظ قميصا قصير الدين والطول وعندها وت في التماثل من رواية الأشعث قال سمعت عمتي تحدث عن عمها فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه فاذا إزاره إلى نصف ساقه ورواه ن وصلى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف ^(٤) حديث كان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها ده ت في التماثل من رواية معاوية بن قرة بن إباس عن أبيه قال أتيت النبي ﷺ في رهط من مزينة وباعناه وإن قميصه لمطلق الأزرار والبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال رأيت ابن عمر يصلي محلولة أزاره فسألته عن ذلك فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل وفي العلل للترمذي أنه سأل خ عن هذا الحديث فقال أنا أتى هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد راويه عن زيد بن أسلم قلت تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة في صحيحه للطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي محتبيا محلل الأزرار ^(٥) حديث كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها د ت من حديث قيلة بنت محزمة قالت رأيت النبي ﷺ وعليه أعمال ملاءتين كانتا بزعفران قالت لا نعرفه إلا من عبد الله بن حسان قلت ورواته م وثقون و د من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبي سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها الحديث ورجاله ثقات ^(٦) حديث ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره ه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في بني عبد الأشهل وعليه كساء متلفف به الحديث وفي رواية البزار في كساء ^(٧) حديث كان له كساء ملبد يلبسه ويقول أنا عبد ألبس كما يلبس العبد الشيخان من رواية أبي بردة قال أخرجت إلينا عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت في هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والبخاري من حديث همر إنما أنا عبد ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السخيتاني مرفوعا معضلا إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة متصلا .

أراد به السعادة : صدق
الحديث وصدق اليأس
وأن لا يشبع وجاره
وصاحبه جائعان
وإعطاء السائل
والكفاة بالصنائع
وحفظ الأمانة وصلة
الرحم والتذم للصاحب
وإقراء الضيف
ورأسهن الحياء .
وسئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن
أكثر ما يدخل الناس
الجنة قال « تقوى الله
وحسن الخلق » وسئل
عن أكثر ما يدخل
الناس النار قال : الغم
والفرح يكون هذا
الغم غم فوات الحظوظ
العاجلة لأن ذلك

وكان له ثوبان لجمته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة (١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعتد طرفه بين كتفيه (٢) وربما أمّ به الناس على الجنائز (٣) وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ (٤) وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلّي كذلك (٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود فقال كسوته مارأيت شيئا قط كان أحسن من يياضك على سواده (٦) وقال أنس وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه (٧) وكان يتختم (٨) وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء (٩)

(١) حديث كان له ثوبان لجمته خاصة الحديث الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد فإذا انصرف طوبىناها إلى مثله وورده حديث عائشة عند ابن ماجه مارأيته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب (٢) حديث ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فقد طرفه بين كتفيه الشيخان من حديث عمر في حديث اعتزاله أهله فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وللبخاري من رواية محمد بن النكدر صلى بنا جابر في إزار قد عنده من قبل قفله وثيابه موضوعة على الشجب وفي رواية له وهو يصلي في ثوب ملتصقه ورذاؤه موضوع وفيه رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي هكذا (٣) حديث ربما أمّ به الناس على الجنائز لم أقف عليه (٤) حديث ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب واحد قفلت يأثم حبيبة أبصلي النبي صلى الله عليه وسلم في الثوب الواحد قالت نعم وهو الذي كان فيه ما كان تعني الجماع ورواه الطبراني في الأوسط (٥) حديث ربما كان يصلي بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه د من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في ثوب بعضه على ولمسلم كان يصلي من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وللطبراني في الأوسط من حديث أبي عبد الرحمن حاضن عائشة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة وسنده ضعيف (٦) حديث كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الحديث لم أقف عليه من حديث أم سلمة وسلم من حديث عائشة خرج النبي صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرحل أسود ولأبي داود ون صنع للنبي صلى الله عليه وسلم ردة سوداء من صوف فلبسها الحديث وزاد فيه ابن سعد في الطبقات فذكرت يياض النبي صلى الله عليه وسلم وسوداها ورواه ك بلفظ جبة وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث أنس ربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيها البرار وأبو يعلى بلفظ صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه وللبرار خرج في مرضه الذي مات فيه مرتديا بثوب قطن فصلي بالناس وإسناده صحيح و ه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها وفي كامل ابن عدى قد عقد عليها هكذا وأشار سفيان إلى قفاه وفي جزء الطريف فمقدّها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف (٨) حديث كان يتختم الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٩) حديث ربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء عد من حديث وائلة بسند ضعيف كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطا وزاد الحارث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر ليذكر به وسنده ضعيف .

يتضمن التسخط والتضرع وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ويكون الفرح للشار إليه الفرح بالحفظ العاجلة المنوع منه بقوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - وهو الفرح الذي قال الله تعالى - إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين - لما رأى مفاعمه تنوء بالعصبة أوى القوة فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود ينافس فيه قال الله تعالى - قل

وكان يختم به على الكتف ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة (١) وكان يلبس القلانس تحت العمام ويغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها (٢) وربما لم تكن العمامة فيشد العصاية على رأسه وعلى جبهته (٣) وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فرعاء طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم أنا كم على في السحاب (٤) وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه (٥) ويقول الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي وأجمل به في الناس (٦) وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره (٧) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسو مسلما من ثيابه لا يكسوه إلا الله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واره حيا وميتا (٨)

(١) حديث كان يختم به على الكتف ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة الشيخان من حديث أنس لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم قالوا إنهم لا يقرءون إلا كتابا محتوما فآخذ خاتما من فضة الحديث ون ت في التماثل من حديث ابن عمر آخذ خاتما من فضة كان يختم به ولا يلبسه وسنده صحيح وأما قوله الخاتم على الكتاب خير من التهمة فلم أقف له على أصل (٢) حديث كان يلبس القلانس تحت العمام ويغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في ذهب الإيمان من حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلانس: قلنسوة بيضاء مضرية وقلنسوة بردجيرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر فرعاء وضما بين يديه إذا صلى وإسنادها ضعيف ولأبي داود وت من حديث ركانة فرق ما بيننا وبين للشر كين العمام على القلانس قالت ت غريب وليس إسنادها بالقائم (٣) حديث ربما لم تكن العمامة فيشد العصاية على رأسه وعلى جبهته خ من حديث ابن عباس سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للنبر وقد عصب رأسه بعصاة دهماء الحديث (٤) حديث كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فرعاء طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم أنا كم على في السحاب ابن عدى وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولابن نعيم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث عمامته السحاب الحديث (٥) حديث كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه ت من حديث أبي هريرة ورجال رجال الصحيح وقد اختلف في رقبته (٦) حديث الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي وأجمل به في الناس ت وقال غريب وهك ومحمه من حديث عمر بن الخطاب (٧) حديث كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره أبو الشيخ من حديث ابن عمر كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ بالأيسر وله من حديث أنس كان إذا ارتدى أو ترجل أو اتسل بدأ يمينته وإذا خلع بدأ يساره وسندها ضعيف وهو في الاعتال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من فعله [١] حديث كان له ثوب لجمته خاصة الحديث تقدم قريبا بلفظ نويين (٨) حديث كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسو مسلما الحديث ك في الاستدراك والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ثيابه قلبها فلما بلغ تراقبه قال الحمد لله الذي كساني ما أجمل به في حياتي وأوارى به عورتي ثم قال ما من مسلم يلبس ثوبا جديدا الحديث دون ذكر تصدقه صلى الله عليه وسلم ثيابه وهو عند ه د ون ذكر لبس النبي صلى الله عليه وسلم ثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقي وهو غير قوي .

[١] قول المراتي: حديث كان له ثوب الخ ليس هذا الحديث بنسختنا فاعلمه بنسخة المراتي .

بفضل الله وبرحمته
فذلك فليفرحوا -
وقر عبد الله بن
البارك حسن الخلق
قال هو بسط الوجه
وبذل للعروف وكف
الأذى فالصوفي قراضوا
نفوسهم بالمكابدات
والمجاهدات حتى أجابت
إلى تحسين الأخلاق
وكم من نفس تحجب
إلى الأعمال ولا تحجب
إلى الأخلاق فنفس
العباد أجابت إلى
الأعمال وجعت
عن الأخلاق ونفوس
الزهاد أجابت إلى
بعض الأخلاق دون
العض ونفوس
الصوفية أجابت إلى

وكان له فراش من آدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه (١) وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ثني طاقين تحته (٢) وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره (٣) وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له الخنم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيبي وكانت قبضة سيفه محلاة بالنضة (٤) وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة (٥) وكان اسم قوسه الكتوم وجبته الكافور (٦) وكان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها الضباء واسم بقلته الدلدل

(١) حديث كان له فراش من آدم حشوه ليف الحديث متفق عليه من حديث عائشة مقتصراً على هذا دون ذكر عرضه وطوله ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم نحو ما يوضع الإنسان في قبره وفيه من لم يسم (٢) حديث كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية الحديث ولأبي سعيد عنها أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائتين الحديث وكلاهما لا يصح وت في الشئان من حديث حفصة وسئل ما كان فراشه قالت مسح ثنية ثنتين فينام عليه الحديث وهو منقطع (٣) حديث كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره متفق عليه من حديث عمر في قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نسائه (٤) حديث كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له الخنم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيبي وكان قبضة سيفه محلاة بالنضة الطبراني من حديث ابن عباس كان لرسول الله ﷺ سيف قائمته من فضة وقيعته من فضة وكان يسمى ذا الفقار وكانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكانت له حريرة تسمى النمة وكانت له مجن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بقله شبيه يقال لها الدلدل وكانت له ناقه تسمى القصواء وكان له حمار يسمى يعفور وكان له بساط يسمى الكر وكانت له عنزة تسمى النمر وكانت له ركوة تسمى الصادر وكانت له مرآة تسمى المرأة وكان له مقراض يسمى الجامع وكان له قصب شوحط يسمى للمشوق وفيه على بن غررة الدمشقي نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسلًا وله من حديث علي بن أبي طالب كان اسم سيف رسول الله ﷺ ذا الفقار ت ه من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم تنقل سيفه ذا الفقار يوم بدر وك من حديث علي في أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولابن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد بن الحلي مرسلًا قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف: سيف قلبي وسيف يدعى بتارا وسيف يدعى الخنم وكان عنده بعد ذلك الخنم ورسوب أصابهما من القلبي وفي مسنده الواقدي وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه أنه يقال إنه ﷺ قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما الضب شهد به بدرًا ولابن داود وث وقال حسن ون وقال منكر من حديث أنس كانت قيمة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة (٥) حديث كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل ولابن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلًا كان في درع النبي صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة (٦) حديث كان اسم قوسه الكتوم وجبته الكافور لم أجده

الأخلاق الكريمة كلها
أخبرنا الشيخ أبو زرعة
إجازة عن أبي بكر
ابن خلف إجازة عن
السلمي قال سمعت
حسين بن أحمد بن
جعفر يقول سمعت
أبا بكر الكتاني يقول
التصوف خلق فمن
زاد عليك بالخلق زاد
عليك بالتصوف فالعباد
أجابت قوسهم إلى
الأعمال لأنهم يسلكون
بنور الإسلام والزهاد
أجابت قوسهم إلى بعض
الأخلاق لكونهم
سلكوا بنور الإيمان
والمصوفة أهل القرب
سلكوا بنور الاحسان
قلنا باشر بواطن أهل

وكان اسم حمارة ينفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة (١) وكان له مطهرة من غفار يتوضأ فيها ويحرب منها (٢) فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يذفون عنه فاذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويتنعمون بذلك البركة .

(بيان عفوہ صلی اللہ علیہ وسلم مع القدرة)

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس (٣) وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة قسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال « يا محمد والله لن أمرك الله أن تعدل لما أراك تعدل فقال ويحك فمن يعدل عليك بعدى فلما ولى قال ردوه على رويدها (٤) » روى جابر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خير من فضة في ثوب بلال فقال له رجل يا رسول الله اعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي (٥) » وكان رسول الله ﷺ في حرب فقرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال من يمنعك مني فقال الله قال فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال من يمنعك مني فقال كن خير آخذ قال قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال لا غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك على سبيله فجاء أصحابه فقال جئكم من عند خير الناس (٦) وروى أنس « أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها فجبى بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت أردت قتلك فقال

له أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قوس: قوس اسمها الروحاء وقوس شوخط تدعى البيضاء وقوس صفراء تدعى الصفراء من سبع (١) حديث كان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العضباء واسم بقلته الدلدل واسم حمارة ينفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني والبخاري من حديث أنس كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقه يقال لها العضباء والمسلم من حديث جابر في حجة الوداع ثم ركب القصواء وك من حديث علي: ناقته القصواء وبقلته دلدل وحمارة غير الحديث وروياته في فوائد ابن الدحداح فقال حمارة ينفور وفيه شاته بركة وخ من حديث معاذ كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له غير ولا بن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان كانت منافع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سبعة: عجورة وزمزم وسقيا وبركة ورشة واهلال وأطراف وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسلات كانت نهشة تسمى قمر (٢) حديث كانت له مطهرة من غفار يتوضأ فيها ويحرب منها الحديث لم أقف له على أصل .

(بيان عفوہ صلی اللہ علیہ وسلم مع القدرة)

(٣) حديث كان أحلم الناس تقدم (٤) حديث أتى بقلائد من ذهب وفضة قسمها بين أصحابه الحديث أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد (٥) حديث جابر أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل يابني الله اعدل الحديث رواه (٦) حديث كان في حرب قرؤى في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف الحديث متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وصحى الرجل غورث بن الحارث .

القرب والصوفية نور
اليقين وتواصل في
بواطنهم ذلك انصلح
القلب بكل أرجائه
وجوانبه لأن القلب
يبيض بضئه بنور
الاسلام وبضئه بنور
الايمان وكله بنور
الاحسان والايقان فاذا
ايض القلب وتور
انكس نوره على
النفس والقلب وجه
إلى النفس ووجه إلى
الروح والنفس وجه
إلى القلب ووجه إلى
الطبع والفريضة والقلب
إذ لم يبيض كله لم
يتوجه إلى الروح بكلمه
ويكون ذا وجهين
وجه إلى الروح ووجه

ما كان الله ليعطيك على ذلك قالوا أفلا تقتلها فقال لا ^(١) وسحر رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحلّ العقد فوجد لذلك خفة وماذ كرك ذلك لليهودى ولا أظهره عليه قط ^(٢) وقال على رضى الله عنه « بعثى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظمينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ قلنا أخرجى الكتاب قالت ما معنى من كتاب قلنا لتخرجن الكتاب أو لتزعين الثياب فأخرجته من عفاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل على إتي كنت أمرا ملصقا في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأجيب إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن آخذ فيهم بدا يحمون بها قرابتي ولم أقبل ذلك كفر أو لارجه بالكفر بعد الاسلام ولا ارتدادا عن ديني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه صدقكم فقال عمر رضى الله عنه دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٣) . وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة قال رجل من الأنصار هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فذ كرك ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأحر وجهه وقال: « رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٤) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لا يلقى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ^(٥) » .

(بيان إغضاؤه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه ^(٦) وكان إذا اشتد وجهه أكثر من مس لحية السكرية ^(٧) وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم لو قلتم لهذا أن يدع هذه ^(٨) يعني الصفرة ، وبأل أعرابي في السجد بعضته فهم به الصعابة فقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أنس أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة الحديث رواه وهو عندخ من حديث أبى هريرة (٢) حديث سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه الحديث ن باسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر (٣) حديث على بعثى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ الحديث متفق عليه (٤) حديث قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٥) حديث لا يلقى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر دت من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

(بيان إغضاؤه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه)

(٦) حديث كان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه أبو الشيخ من حديث ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه الحديث وقد تقدم .

(٧) حديث كان إذا اشتد وجهه أكثر من مس لحية السكرية الحديث وقد تقدم أبو الشيخ من حديث عائشة باسناد حسن (٨) حديث كان لا يشافه أحدا بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهه فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم لو قلتم لهذا أن يدع هذه يعني الصفرة دت في التماثل ون في اليوم والليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف .

إلى النفس فاذا ابيض
كله توجه إلى الروح
بكله فيتداركه مدد
للروح ويزداد إشراقا
وتورا وكلما انجذب
القلب إلى الروح
انجذبت النفس إلى
القلب وكلما انجذبت
توجهت إلى القلب
بوجهها الذى يليه
وتور النفس لتوجهها
إلى القلب بوجهها
الذى يلي القلب وعلامة
تورها طمأنينتها قال
الله تعالى - يا أيها

«لا ترموه» أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال له «إن هذه للساجد لاتصلح لشيء من القدر والبول والحلاء» (١) وفي رواية قربوا ولا تنفروا وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له أحسنت إليك قال الأعرابي لا ولا أجملت قال فضرب السليون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال أحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت قتل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال نعم فلما كان الغد أو المشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى كذلك فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا قهورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين نائقي فاني أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار» (٢)

(بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم)

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا (٣) وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أجود الناس وكفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفام ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله (٤) وما سئل عن شيء قط على الاسلام إلا أعطاه (٥) وإن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت مابين جبلين فرجع إلى قومه وقال أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يغشى الفاقة ومما مثل شيئا قط فقال لا (٦) وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها (٧) وجاءه رجل فسأله

(١) حديث بال أعرابي في المسجد يحضرته فقال صلى الله عليه وسلم لا ترموه الحديث متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أحسنت إليك فقال الأعرابي لا ولا أجملت الحديث بطوله البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

(بيان سخائه وجوده صلى الله عليه وسلم)

(٣) حديث كان أجود الناس وأسخم في شهر رمضان كالريح المرسلة الشيخان من حديث أنس . كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس ولهما من حديث ابن عباس كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان وفيه فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة (٤) حديث كان على إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أجود الناس وكفا وأجرأ الناس صدرا الحديث رواه ت وقال ليس إسناده بتصل (٥) حديث ما مثل شيئا قط على الاسلام إلا أعطاه الحديث متفق عليه من حديث أنس (٦) حديث ما مثل شيئا قط فقال لا متفق عليه من حديث جابر (٧) حديث حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قال إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها أبو الحسن ابن الضحاك في الثمائل من حديث الحسن مرسلا أن رسول الله ﷺ قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يعط ساكنا فقال له العباس الحديث والبخاري تعليقا من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه لما كان يرى أحدا إلا أعطاه

النفس للطمثه ارجى

الى ربك راضية

مرضية وتور وجهها

الذى بلى القلب بثابة

نورانية أحد وجهي

الصدف لا اكتساب

النورانية من اللؤلؤ

وبقاء شيء من الظلة

على النفس لنسبة

وجهها الذى بلى

الفرزة والطبع كقاء

ظاهر الصدف على

ضرب من السكر

والنقصان عفاها

لنورانية باطنه وإذا

فقال ما عندى شيء ولكن اتبع على فاذا جاءنا شيء قضينا فقال عمر يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلا فنبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعرف السرور في وجهه (١) ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة غطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أعطوني ردائي لو كان لى عدد هذه العضاء نعماً لتقسمتها بينكم ثم لا تعبدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً (٢)

(بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم)

كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم (٣) قال طى رضى الله عنه لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً (٤) وقال أيضاً كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (٥) قيل وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام قليل الحديث فاذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً (٦) وكان الشجاع هو الذى يقرب منه في الحرب لقربه من العدو (٧) وقال عمران بن حصين مالى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب (٨) وقالوا كان قوى البطش (٩) ولما غشيه للشركون نزل عن بغلته فجعل يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فما روى يومئذ أحد كان أشد منه (١٠)

إذ جاءه العباس الحديث ووصله عمر بن محمد البحرى في صحيحه (١) حديث جاءه رجل فسأله فقال ما عندى شيء ولكن اتبع على فاذا جاءنا شيء قضينا فقال عمر يا رسول الله ما كلفك الله الحديث في الشائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروى لم يروه غير ابنه هرون (٢) حديث لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة غطفت رداءه الحديث خ من حديث جبير بن مطعم .

(بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم)

(٣) حديث كان أنجد الناس وأشجعهم الدارمى من حديث ابن عمر بسند صحيح ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وللشيخين من حديث أنس كان أشجع الناس وأحسن الناس الحديث (٤) حديث طى لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم الحديث أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بأسناد جيد (٥) حديث طى أيضاً كنا إذا حمى البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بأسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء (٦) حديث كان قليل الكلام قليل الحديث فاذا أمر بالقتال تشمر الحديث أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض الثمالى مرسل (٧) حديث كان الشجاع هو الذى يقرب منه في الحرب الحديث م من حديث البراء والله إذا حمى الوطيس تنق به وإن الشجاع ما الذى يعاذى به (٨) حديث عمران بن حصين مالى كتيبة إلا كان أول من يضرب أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه (٩) حديث كان قوى البطش أبو الشيخ أيضاً من رواية أنى جعفر معضلاً ولطبرانى في الأوسط من حديث عبد الله بن عمرو أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع وسنده ضعيف (١٠) حديث لما غشيه الشركون نزل فجعل يقول : أنا النبي لا كذب . الحديث متفق عليه من حديث البراء دون قوله فما روى أحد يومئذ أشد منه وهذه الزيادة لأبى الشيخ وله من حديث طى في قصة بدر وكان من أشد الناس يومئذ بأساً

تور أحد وجهى
النفس لجأت إلى تحسين
الأخلاق وتبديل
النموت وقدك جمى
الأبدال أبداً والسر
الأكر في ذلك أن قلب
الصوفى بدوام الإقبال
على الله ودوام الله كرك
بالقلب واللسان يرتقى
إلى ذكر القدرات ويصير
حينئذ بمثابة العرش
فالعرش قلب الكائنات
في عالم الخلق والحكمة
والقلب عرش في عالم
الأمر والقدرة . قال

(بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم)

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعا في علو منصبه (١) قال ابن عامر رأيته يرمى الجمرة على ناقه شبيه لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك (٢) وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف (٣) وكان يهود الرضى ويتبع الجنائز ويحجب دعوة للملوك (٤) ويخفف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم (٥) وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك (٦) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم (٧) وآتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيئته فقال له هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد (٨) وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يرفقه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه (٩) وقالت له عائشة رضى الله عنها كل جعلنى الله فذلك متكئا فانه أهون عليك قال فأصنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال بل آكل كما يأكل المبد وأجلس كما يجلس المبد (١٠) وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى (١١) وكان لا يدعو أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال ليك (١٢) وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رقابهم وتواضع لهم (١٣) وكانوا يتناشدون الشعرين يديه

(بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث كان أشد الناس تواضعا في علو منصبه أبو الحسن بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدرى في حديث طويل في صفته قال فيه متواضع في غير مذلة وإسناده ضعيف (٢) حديث قال ابن عامر رأيته يرمى الجمرة على ناقه شبيه لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ت ن ه من حديث قدامة ابن عبد الله بن عمار قال ت حسن صحيح وفي كتاب أبي الشيخ قدامة بن عبد الله بن عامر كاذ كره للصف (٣) حديث كان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٤) حديث كان يهود الرضى ويتبع الجنائز ويحجب دعوة للملوك ت وضعفه وك وصحح إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعاً (٥) حديث كان يخفف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته هو في للسند من حديث عائشة وقد تقدم في أوائل آداب المعيشة (٦) حديث كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك هو عند ت من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصحبة (٧) حديث كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة (٨) حديث آتى برجل فأرعد من هيئته فقال هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ك من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) حديث كان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدري أيهم هو الحديث د ن من حديث أبي هريرة وأبى ذر وقد تقدم (١٠) حديث قالت عائشة كل جعلنى الله فذلك متكئا فانه أهون عليك الحديث أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف (١١) حديث كان صلى الله عليه وسلم لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لقي الله خ من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل (١٢) حديث وكان ﷺ لا يدعو أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال ليك أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان منهم بالكذب وللطبراني في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أثناء حديث أن أمة قالت يا رسول الله فقال ليك وسعديك الحديث (١٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى

سهل بن عبد الله
القسرى القلب كالعش
والصدر كالكرسى
وقد ورد عن الله تعالى
« لا يسعنى أرضى ولا
سمائى ويسعنى قلب
عبدى للؤمن » فلذا
اكتحل القلب بنور
ذكر اللغات وصار
بحرا مواجعا من نبات
القرب جرى في جداول
أخلاق النفس صفاء
النعمت والصفات
وتحقق التخلق بأخلاق
الله تعالى . حكى عن

أحيانا يذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام (١) .

(بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم)

كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد بل كان ينسب إلى الربة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يمشي أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولربما اكتشفه الرجلان الطويلان فيطولهما فإذا فارقه نسباً إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربة ويقول صلى الله عليه وسلم « جعل الخير كله في الربة (٢) » وأمالونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ، ونفته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٣)

ونفته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا إنما كان للشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ماتحت الثياب منه وكان عرقه يطلع في وجهه كالثلج أطيب من المسك الأذفر وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنة ليس بالسيط ولا الجعد التقطط وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل وقيل كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه وربما جعله غدائر أربعة تخرج كل أذن من بين غديرتين وربما جعل شعره على أذنيه فبدو سوائفه تتلألاً وكان شبهه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة مازاد على ذلك وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس

أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم الحديث في الثمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر الشراب وفيه سليمان بن خازجة تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات (١) حديث كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا يذكرون أشياء من أمر الجاهلية الحديث م من حديث جابر بن سمرة دون قوله ولا يزجرهم إلا عن حرام .

(بيان صورته صلى الله عليه وسلم)

(٢) حديث كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد الحديث بطوله أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة زيادة وتقصان دون شعر أبي طالب الآتي ودون قوله وربما جعل شعره على أذنيه فبدو سوائفه تتلألاً ودون قوله وربما كان واسع الجبهة إلى قوله وكان سهل الحديث وفيه صبيح بن عبد الله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب في الصحيحين من حديث البراء له شعر يبلغ شحمة أذنيه ودت وحسنه وه من حديث أم هانئ قدم إلى مكه وله أربع غدائر وت من حديث علي في صفة صلى الله عليه وسلم أدعج العينين أهدب الأشفار الحديث وقال ليس إسناده متصل وله في الثمائل من حديث ابن أبي هالة أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب أفق العينين له نور يعلوه يحبه من لم يتأمله أشم كثر اللحية سهل الحديث ضليع الفم مفلج الأسنان الحديث (٣) حديث نفته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ذكره ابن إسحاق في السيرة وفي السند عن عائشة أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يفضي فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه وخ تعليقا من حديث ابن عمر ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستقي فما ينزل حتى يحش كل ميزاب فأنشده وقد وصله بإسناد صحيح

الشيخ أبي علي
الفارمزي أنه حكى
عن شيخه أبي القاسم
البركاني أنه قال إن
الأسماء التسعة
والقسمين تصير أوصافا
لعبث السالك وهو بعد
في السلوك غير واصل
ويكون الشيخ عتي
بهذا أن العبد يأخذ
من كل اسم وصف يلائم
ضعف حال البشر
وقصوره مثل أن يأخذ
من اسم الله تعالى
الرحيم معنى من الرحمة

وجها وأنور لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته
وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفي الخبير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة أزج الحاجبين صابهما وكان أبلغ ما بين الحاجبين كان ما بينهما
الفضة المخلصة وكانت عيناه تملأون أدعجهما وكان في عينيه نزع من حمرة وكان أهدب الأشعار
حتى تفكاد تلتبس من كثرتها وكان أفتى المرينين : أي مستوى الأنف وكان مفلج الأسنان : أي
متفرقا وكان إذا اقترضا حاكما اقترع عن مثل سنا البرق إذا تلاحقا وكان من أحسن عباد الله شفتين
والطفم ختم فم ، وكان سهل الحدين صلبهما ليس بالطويل الوجه ولا للكثم كث اللحية وكان يفي
لحيته ويأخذ من شاربه وكان أحسن عباد الله عتقا لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ما ظهر من عتقه
للشمس والرياح فكان أنه يريق فضة مشرب ذهابا يتلأل في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ، وكان صلى
الله عليه وسلم عريض الصدر لا يبدو لحم بعض بدنه بضاً كمرأة في استوائها وكالقمر في بياضه
وهو يولد ما بين لبته وسرته بشعر متقاد كالقضب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره وكانت له عكن
ثلاث يغطي الأزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم التكبير أشعرهما ضخم الكراديس : أي
رموس العظام من التكبير وللرقين والوركين وكان واسع الظهر ما بين كنفه خاتم التجوة وهو
مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من حرف
فرس وكان جبل المضدين والدرعين طويل الزندين رجب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه
قضبان الفضة كفه ألين من الخبز كأن كفه كف عطار طيباً مسها بطيب أو لم يمسها يصاغفه للصفائح
فيظل يومه يمد ريعها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريعتها على رأسه وكان
جبل ماتحت الأزار من الفخذين والساق وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه وكان له
مناسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن . وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يمشي
كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صلب يخطو تكفياً ويمشي الهويبي غير يتخذ والهويبي تقارب
الخطا وكان عليه الصلاة والسلام يقول « أنا أشبه الناس بآم صلى الله عليه وسلم وكان أبي إبراهيم
صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خلقا وخلقا » وكان يقول « إن لي عند ربى عشرة أسماء أنا محمد
وأنا أحمد وأنا للماحي الذي يحو الله بي الكفر وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد وأنا الحاشر عشر
الله الصاب على قديمي وأنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والتمقي قضيت الناس جميعا وأنا
قم (١) قال أبو الجحري : والقلم الكامل الجامع ، والله أعلم .

على قدر قصور البشر
وكل إشارات الشايع
في الأسماء والصفات
التي هي أعز علومهم
على هذا اللغز والتفسير
وكل من توم بذلك شيئاً
من الحلول تزدق
والحمد وقد أوصى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم معاذاً
بوصية جامعة لمحاسن
الأخلاق فقال له « يا معاذ
أوصيك بتقوى الله
وصديق الحديث والوفاء
بالمهد وأداء الأمانة

(١) حديث إن لي عند ربى عشرة أسماء الحديث ابن عدى من حديث علي وجابر وأسماء بن
زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل لي عند ربى
عشرة أسماء قال أبو الطفيل حفظت منها ثمانية فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب أن
أبا جعفر قال إن الأسمين طه ويس وإسناده ضعيف وفي الصحيحين من حديث جابر بن مطعم لي
أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشر وأنا للماحي وأنا العاقب ولمسلم من حديث أبي موسى واللقيني ونبي
التوبة ونبي الرحمة وأنا أحمد من حديث حذيفة ونبي الملاحم وسنده صحيح .

(بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه)

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتعلة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعادته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده بإمام إلى طاعته مع ما يحكى من هجالب أجوبته في مضائق الأسئلة وبدائع تديراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية بل لا يتصور ذلك إلا بالاستعداد من تأييد سماوى وقوة الهيبة وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى إن العربى القمع كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب عالم ولم يزل بين أظهر الجبال من الأعراب يتبنا ضعيفا مستضعفا فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك فلم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يترتب فيه محصل ، فلنذكر من حملها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل على كفاية التفصيل فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ، إذ شق له القمر بمكة لما سأله قريش آية (١) وأطعم النفر الكثير في منزل جابر (٢) وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق (٣) ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شمير وعناق (٤) وهو من أولاد اللز فوق العتود ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقرض شمير حملها أنس في يده (٥) ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم (٦) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش وتوضوا من قدح صغير ضاق عن أن ييسط عليه السلام يده فيه (٧)

(بيان معجزاته)

(١) حديث انشقاق القمر متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس (٢) حديث إطعام النفر الكثير في منزل جابر متفق عليه من حديثه (٣) حديث إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شمير وعناق للإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلثمائة وهو عند ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة وهم ألف (٥) حديث إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقرض شمير حملها أنس في يده م من حديث أنس وفيه حتى فعل ذلك ثمانين رجلا ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا وهو متفق عليه بلفظ والقوم سبعون أو ثمانون رجلا (٦) حديث إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها الحديث البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق : حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد (٧) حديث نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضوا الحديث متفق عليه

وترك الحيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح وإياك أن تسب حلما أو تكذب صادقا أو تطمع آثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا أو سيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر

وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حق رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء (١) وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربة البعير وهو موضع بروكة فزودهم كلهم منه وبقي منه فحبسه (٢) ورعى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - (٣) وأبطل الله تعالى الكهانة بجمعه ﷺ فعدمت وكانت ظاهرة موجودة (٤) وحنّ الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له النبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الابل فضمه إليه فسكن (٥) ودعا اليهود إلى غي الموت وأخبرهم بأنهم لا يتصنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه (٦) وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الاسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة جهرا تعظيما للآية التي فيها وأخبر عليه السلام بالقيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة (٧) وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية (٨) وأن الحسن يصاح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين (٩)

من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط ولأبي نعيم من حديثه خرج إلى قبا فأتى من بعض بيوتهم بقدر صغير وفيه ثم قال هلم إلى الشرب قال أنس بصري عني نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدر حتى رووا منه وإسناده جيد وللبرار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال اتوني بماء فأتوه بأناء فيه ماء فوضع يده في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه الحديث (١) حديث إهراقه وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء الحديث م من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه فاما دعا وإما بصق فيها فجاشت الحديث وللبخاري من حديث البراء أنه توضع وصبه فيها وفي الحديثين معا أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند خ من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر ، وقال البيهقي إنه الأصح ولهما من حديثه أيضا ألف وخمسمائة وسلم من حديث ابن أبي أوفى ألف وثلاثمائة (٢) حديث أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان كربة البعير الحديث أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بن سنان بن صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصرا من غير بيان لعددهم (٣) حديث رمية الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم الحديث م من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس (٤) حديث إبطال الكهانة بجمعه الخرائطي من حديث مرداس بن قيس الدوسي قال حضرت النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه الحديث ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند خ بغير هذا السياق (٥) حديث حنين الجذع م من حديث جابر وسهل بن سعد (٦) حديث دعا اليهود إلى غي الموت وأخبرهم بأنهم لا يتصنونه الحديث م من حديث ابن عباس لو أن اليهود تنصروا الموت لما اتوا الحديث وللبهقي في الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه فأبوا أن يملوا الحديث وإسناده ضعيف (٧) حديث إخباره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٨) حديث إخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية م من حديث أبي قتادة وأم سلمة وخ من حديث أبي سعيد (٩) حديث إخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين م من حديث أبي بكر .

وأن تحدث لكل ذنب
توبة السرّ بالسرّ
والعلانية بالعلانية
بذلك أدب الله عباده
ودعاهم إلى مكارم
الأخلاق ومحاسن
الآداب . وروى معاذ
أيضا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
حفت الاسلام بمكارم
الأخلاق ومحاسن
الآداب . أخبرنا الشيخ
العالم ضياء الدين
عبد الوهاب بن علي
بإسناده المتقدم إلى

وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار^(١) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها إلا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر سكن بأعلام الله تعالى له ووحية إليه ، وأتبعه سراق بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس وأندره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى^(٢) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر عن قتله^(٣) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه^(٤) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له^(٥) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين أحدكم في النار ضرسه مثل أحد فساتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا^(٦) وقال لآخرين منهم آخركم موتا في النار فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات^(٧) ودعا شجرتين فأنتاه واجتمعتا ثم أمرهما فاقتربتا وكان عليه السلام نحو الربرة فاذا مشى مع الطوال طالمه^(٨) ودعا عليه السلام النصاري إلى المباهلة فامتنعوا فرفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعملوا صحة قوله فامتنعوا^(٩) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتسكاهم عازمين على قتله عليه السلام فحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بئدة وهلك ر بدبصاعة أحرقتة^(١٠) وأخبر عليه السلام

الترمذي رحمه الله قال أنا أبو صكر بن الليث حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبي الرداء قال سمعت النبي عليه السلام يقول « ما من شيء يوضع في للبراز أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليلعب به درجة صاحب الصوم والصلاة » وقد كان من

(١) حديث إخباره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد (٢) حديث اتباع سراق بن مالك له في قصة الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض الحديث متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٣) حديث إخباره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهني شأنهما فأوحى إلي في المنام أن اتخذهما فنفتخهما فطارا فتأولتهما كذابين فخرجان بهدي فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء الحديث (٤) حديث خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه أنهم كانوا مائة وكذلك رواه ابن اسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسل (٥) حديث شكا إليه البعير وتذلل له د من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه فانه شكا إلى إنك تبعه وتذنبه وأول الحديث عند د من ذكر قصة البعير (٦) حديث قال لنفر من أصحابه أحدكم ضرسه في النار مثل أحد الحديث ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بغير اسناد في ترجمة الرجال ابن عثرة وهو الذي رتدوه وهو بالجيم وذكره عبد الغني بالمهملة وسبقه إلى ذلك الواقدي والدائمي والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلنظ أحد هؤلاء النفر في النار وفيه الواقدي عن عبد الله ابن نوح متروك (٧) حديث قال لآخرين منهم آخركم موتا في النار فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن محذورة وفي رواية البيهقي أن آخرهم موتا صخرة بن جندب لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواته ثقات وقال ابن عبد البر إنه سقط في قدر مخلوطة ماء حارا فمات وروى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن الهجر وقد ضعفه الجمهور (٨) حديث دعا شجرتين فأنتاه فاجتمعتا ثم أمرهما فاقتربتا أحد من حديث علي بن مرة بسند صحيح (٩) حديث دعا النصاري إلى المباهلة وأخبر إن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا غ من حديث ابن عباس في أثناء حديث ولو خرج الدين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يعبدون مالا ولا أهلا (١٠) حديث أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتسكاهم عازمين على قتله

أنه يقتل أبي بن خلف الجحى غداة يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه ^(١) وأطعم عليه السلام السم فمات الذي أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين وكله الذراع السموم ^(٢) وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم وجلا رجلا فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع ^(٣) وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يفزون في البحر فكان كذلك وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيلغ مازوى لها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول للشرق من بلاد الترك إلى آخر للغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بدواء ^(٤) وأخبر فاطمة بنته رضي الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به ^(٥) وكان كذلك وأخبر نساءه بأن أطولهن بدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن بدا بالصدقة وأولهن لحوقا به رضي الله عنها ^(٦) ومسح ضرع شاة لالبن لها فدرت ^(٧) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضي الله عنه وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم عبد الحزاعية وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما ^(٨) وتفل في عين على رضي الله عنه وهو أرمد يوم خير فصيح من وقته وبثته بالراية ^(٩) وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم ^(١٠) وأصابت رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فمسحها بيده فبرأت من حينها ^(١١) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فقتل جميع ما بقي فاجتمع شيء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء

فحل بينهما وبين ذلك الحديث طبع في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسندلين ^(١) حديث إخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجحى غداة يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسل ^(٢) حديث إنه أطعم السم فمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين وكله الذراع السموم د من حديث جابر في رواية له مرسل أن الذي مات بشر بن البراء وفي الصحيحين من حديث أنس أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسومة فأكل منها الحديث وفيه فما زلت أعرفها في لحوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) حديث إخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش الحديث م من حديث عمر بن الخطاب ^(٤) حديث إخباره بأن طوائف من أمته يفزون في البحر فكان كذلك متفق عليه من حديث أم حرام ^(٥) حديث زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيلغ مازوى له منها الحديث م من حديث عائشة وفاطمة أيضا ^(٦) حديث إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضا ^(٧) حديث أخبر نساءه أن أطولهن بدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب الحديث م من حديث عائشة وفي الصحيحين أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك ^(٨) حديث مسح ضرع شاة لالبن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود أحمد من حديث ابن مسعود باسناد جيد ^(٩) حديث ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما أبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عينه في رواية للبيهقي أنه كان يدر وفي رواية أبي نعيم أنه كان بأحد وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي فيه من حديث أبي سعيد الخدري ^(١٠) حديث تفل في عين على وهو أرمد يوم خير فصيح من وقته وبثته بالراية متفق عليه من حديث على ومن حديث سهل بن سعد أيضا ^(١١) حديث كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه م من حديث ابن مسعود ^(١٢) حديث أصابت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها م في قصة قتل أبي رافع .

أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل ولم يجد من يعطيه ، وبأية الليل لا يأوى إلى منزله حتى يرا منه ولا ينال من الدنيا وأكثر قوت عامه من أسر ما يجد من الثمر والشعر ويضع ماعدا ذلك في سبيل الله لا يسئل شيئا إلا يعطى

في المسكر إلا ملي من ذلك^(١) وحكى الحكم بن العاص بن وائل [١] مشيته عليه السلام مستهزأ فقال صلى الله عليه وسلم كذلك فكان فلم يزل يرتعش حتى مات^(٢) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال عليه السلام فلتكن كذلك^(٣) فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم وإنما اقتصرنا على السفيض ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا بل التواتر هو القرآن قط كمن يستريب في شجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا ثم لا يتعارى في تواتر القرآن وهي العجزة الكبرى الباقية بين الخلق وليس لى معجزة باقية سواه عليه السلام إذ تهدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مخلوعة بألاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم وكان بنادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بشر سور مثله أو بسورة من مثله إن شكوا فيه وقال لهم - قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - وقال ذلك تعجيزا لهم فجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذرائعهم للبي وما استطاعوا أن يمارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرنة وعصرا بعد عصر وقد انقضى اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته فأعظم بجاوة من ينظر في أحواله ثم في أقواله ثم في أفعاله ثم في أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه إلى الآن ثم في انتشاره في أقطار العالم ثم في إذهاب ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه يتمارى بعد ذلك في صدقه وما أعظم توفيق من آمن به وصدقته واتبه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال عنه وسعة جوده . ثم كتاب آداب العيشة وأخلاق النبوة بحمد الله وعونه ومنه وكرمه ، ويتلوه كتاب شرح عجائب القلب من ربيع المهلكات إن شاء الله تعالى .

ثم يسود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى وبما احتاج قبل انقضاء العام . وكان يحصف النعل ويرقع الثوب ويغتم في مهنة أهله ويقطع اللحم معين . وكان أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا فصلاوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(١) حديث قل زاد جيشي كان معه فدعا بما بقي فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة الحديث متفق عليه من حديث سلمة بن الأكوع (٢) حديث حكى الحكم بن العاص مشيته مستهزأ به فقال فكذلك كن الحديث البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج صححه إسناده جليل والحاكم في المستدرک من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد . [٢] حديث يد طلحة لما أزال ما كان بها من شلل أصابها يوم أحد حين مسحها بيده من حديث جابر لما كان يوم أحد وفيه قتال طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه فقال حس وليس فيه أنه مسحها وللبخاري من حديث قيس رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٣) حديث خطب امرأة فقال أبوها إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال فلتكن كذلك فبرصت المرأة ذكرها ابن الجوزي في التلخيص ومهاجر بن الحارث ابن عوف الزني وتبعه على ذلك الديماطى في جزء له في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ذلك .

[١] قوله الحكم بن العاص بن وائل هكذا في النسخ وصوابه كما في الشارح الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس [٢] قول العراقي حديث يد طلحة الخ لم يكن بنسختنا ولا بنسخة الشارح وأثبتناه بما للأصل فلي نظر .

[قد تم بحون الله وحسن توفيقه طبع : الجزء الثاني من كتاب إحياء علوم الدين]

وبيله : الجزء الثالث إن شاء الله تعالى . وأوله كتاب شرح عجائب القلب]

إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء
بمقدم

الدكتور عبد الوهيّ طيّبانه

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزيّ القدرسي

From the Library of
Muhammad T. Hozien

المجلد الثالث

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب شرح عجائب القلب)
وهو الأول من ربيع للهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تحرير دون إدراك جلاله القلوب والجواهر ، وتدهش في مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر ، الطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، الستغنى في تدبير مملكته عن المشاور والموازر ، مقلب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفرج الكرب . والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .

أما بعد : شرف الانسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكاله وغره وفي الآخرة عدته وذخره وإنما استمداده معرفة بقلبه لا بمجاهدة من جوارحه ، فالقلب هو العالم بالله وهو التقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله وهو الكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخد بها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة فالقلب هو القبول عند الله إذا سلم من غير الله وهو المحبوب عن الله إذا صار مستغفرا بغير الله وهو الطالب وهو الخاطب وهو العاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيملح إذا زكاه وهو الذي يغيب ويشقى إذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وباطلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء بنضح بما فيه ، وهو الذي إذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذي إذا جهله الانسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فإن الله يحول بين الرء وقلبه ويحولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الللائكة المقربين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويرصد لما يلوح من خزائن المكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه - نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون - فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طرق السالكين . وإذ فرغنا

(كتاب شرح عجائب القلب)

[الباب الثلاثون في

تفاصيل أخلاق

الصوفية]

من أحسن أخلاق

الصوفية التواضع ولا

يلبس العبد لينة أفضل

من التواضع ومن ظفر

بكثر التواضع والحكمة

يقيم نفسه عند كل

أحد مفادرا يعلم أنه

يقيم ويقيم كل أحد

على ما عنده من نفسه

ومن رزق هذا فقد

استراح وأراح وما

يقلمها إلا العالمون .

أخبرنا أبو زرعة عن

أبيه الحافظ القديسي

قال أنا عثمان بن عبد الله

قال أنا عبد الرحمن

ابن إبراهيم قال ثنا

عبد الرحمن بن حمدان

قال ثنا أبو حاتم الرازي

من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن تقدم عليه كتابين كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم تدفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

(بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو الراد بهذه الأسماء)

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب ، ويقال في دخول العلماء من محيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بضرنا . اللفظ الأول : لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الضویری الشكل اللودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولنا قصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود لميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو الخاطب والمعاقب والمغائب والطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني وقد تغيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فان تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعاقب الاستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالممكن ونشرح ذلك مما توفاه لمعنيين : أحدهما أنه متعلق بمعلوم السكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الإلغوم المعاملة . والثاني أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والقصد أننا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقةها في ذاتها وعلم المعاملة يقتصر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يقتصر إلى ذكر حقيقةها . اللفظ الثاني : الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بمجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جنس لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فانه لا يمتد إلى جزء من البيت إلا ويستدير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنفجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا إذ يتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للآفات حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا . المعنى الثاني هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح منفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى إليه الحديث وقد تقدم .

قال ثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لميعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يفتخروا بعضكم على بعض » وقال عليه السلام في قوله تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني - قال على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس ، وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو أنها جرة لبن أو غدا رطب ويكافئ عليها أو يأكلها

شرحناه في أحدهما القلب وهو الذى أراحه الله تعالى بقوله - قل الروح من أمر ربي - وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته . اللفظ الثالث : النفس وهو أيضاً مشترك بين معانيه ويتعلق بفرضاتيه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ماسياتي شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »^(١) . المعنى الثاني هو اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس الطمئة قال الله تعالى في مثلها - يأتيتها النفس الطمئة ارجعي إلى ربك راضية مرضية - والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهي حزب الشيطان وإذا لم يتم سكوتها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند قصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز - وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء - وقد يجوز أن يقال للراد بالأماراة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فاذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم والمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالة بالله تعالى وسائر المعلومات . اللفظ الرابع : العقل وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم ، والمتعلق بفرضاتيه من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي يحل القلب . والثاني أنه قد يطلق ويراد به الإدراك فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى الإدراك وهو المراد بقوله عليه السلام « أول ما خلق الله العقل »^(٢) فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ولأنه لا يمكن الخطأ معه وفي الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث فاذن قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية . والعلوم فهذه أربعة معاني يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس : وهي اللطيفة العالة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها للمعاني خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد اتبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردتها فترام يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسماء وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان وبصرف حقيقة الأشياء وقد يكتفى عنه بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه عليها ومملكتها وأعمالها ومطيئها ولذلك شبه سهل القسري القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش

ولا يستكبر عن إجابة لأمة والمساكين وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلي قال أنا أحمد بن علي المقرئ قال أنا محمد بن الهلال قال حدثني أبي عن محمد بن جابر الجبائي عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من تقيت وترد على من سلم عليك » وأن ترضى بالدون من المجلس وأن لا تحب المدحة والتركية والبر « وورد أيضاً عنه عليه السلام « طوبى لمن تواضع من غير

(١) حديث أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين (٢) حديث أول ما خلق الله العقل وفي الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم في العلم .

والصدر هو الكرسي ولا يظن به أنه يرى أي عرش الله ذكره فان ذلك محال بل أراد به أنه مملوكته وأنجزى الأول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بضرنا فلتجاوزوه .

(بيان جنود القلب)

قال الله تعالى - وما يعلم جنود ربك إلا هو - ففسبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من الموالج جنود مجتدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بضرنا وله جندان جند يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان فهذا معنى الجند فأما جنده الشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو التصرف فيها وللرد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا أمر العين بالافتتاح اقتضت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجهه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإنما يفرقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمه بطاعتها وامثالها والأجناف تطيع القلب في الاشتياح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والراد لسفرو الذي لأجله خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع النازل إلى لقائه فلا جله خلقت القلوب قال الله تعالى - وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - وإنما مركبه البدن وزاده العلم وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمسكه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهي منزل من منازل الهدى وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلين فاضطر إلى أن يتزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه وخلق الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع الملهكات إلى جندين باطن وهو الغضب الذي به يدفع الملهكات وينتقم من الأعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذي بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمور خارجة فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإنما فافتقر للمعرفة إلى جندين باطن وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب السكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة وإما إلى دفع الضار المناهي كالغضب وقد جبر عن هذا الباعث بالارادة والثاني هو المهرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبنوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار والثالث هو المدرك للآشياء كالحواس وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهي مبنوثة في أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم والحم والعصب

منقصة وذلك في نفسه من غير مسكنة - مثل الجند عن التواضع فقال خض الجناح ولين الجانب . مثل الفضيل عن التواضع فقال تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه . وقال أيضا من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب . وقال وهب بن منبه مكتوب في كتب الله إني أخرجت الله من صلب آدم فلم أجد قلبا أعبد تواضعا إلى من قلب موسى عليه السلام فلذلك اصطفتيه وكلمته ، وقيل من عرف كوامن نفسه لم يطمع في العلو

والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود فان قوة البطش إنما هي بالأصابع وقوة البصر إنما هي بالعين وكذا سائر القوى ولنا تسكلم في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فانها من عالم الملك والشهادة وإنما تسكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو للدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن للنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة وهي تجاويف الدماغ وهي أيضا خمسة فان الانسان بصدر رؤية الشيء ينمض عنه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجنود الحافظين ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحواس المشتركة بين المحسوسات ففي الباطن حس مشترك وتخييل وتفكر ونذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخييل لكان الدماغ غلو عنه كما غلو اليد والرجل عنه فلكل القوى أيضا جنود باطنة وأما كتبها أيضا باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والقحول من العلماء ولكننا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد يتقادان للقلب اتيادا تاما فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مراقبتهما في السفر الذي هو بصدده وقد يستصيان عليه استعصاء بشي وتعمد حتى يملكاه ويستبداه وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد وللقلب جنود آخر وهو العلم والحكمة والتفكير كما سيأتي شرحه وحقه أن يستعين بهذا الجنود فانه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستغانة وسلط على نفسه جنود الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة . المثال الأول : أن تقول مثل نفس الانسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصانع والعملة والقوة العقلية الممكرة له كالشهير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح ويحت نصحه الشر المائل والمم القاتل ودينته وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديراته حتى إنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديراته بوزيره ومستشير الله ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث مستدلا بإشارته في أن الصواب في تقيض رأيه أدبه صاحب شرطته وماسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد موسسا لاسائسا ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداها على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب ولوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بدمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه - أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم - وقال تعالى - اتبع هواه فله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى

والعزف ويسلك سبيل
التواضع فلا يخاف من
يذمه ويشكر الله لمن
يحمده وقال أبو حفص
من أحب أن يتواضع
قلبه فليصحب الصالحين
وليتزم بحرماتهم فمن
شدة تواضعهم في أنفسهم
يقتدى بهم ولا يتكبر .
وقال لقمان عليه السلام
لكل شيء مطية ومطية
العبد التواضع . وقال
النوري خمسة أنفس
أعز الخلق في الدنيا عالم
زاهد وقيه صوفي
وغني متواضع وفقير
شاكرو شريف سني .
وقال الجلاء لولا شرف
التواضع كنا إذامشينا
نخطو وقال يوسف بن
أسيب وقد مثل ما غاية
التواضع قال أن تخرج

- وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - وسيتأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسلط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى . المثال الثاني : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعنى للدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه الدركة من الحواس الظاهرة والباطنة بكنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيتة والنفس الأماراة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وتغر وقسه كقيم فيه مرابط فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد الله إذا قاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة - وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم الله فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك (١) كما ورد في الخبر وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» (٢) المثال الثالث : مثل العقل مثال فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فتى كان الفارس حاذقا وفرسه مبروضا وكلبه مؤدبا مطعنا كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جوحا والكلب عقورا فلأفرسه ينبت تحتة منقادا ولاكلبه يسترسل بأشارته مطيعا فهو خلق بأن يعطى فضلا عن أن يتال ما طلب وإنما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه .

(بيان خاصة قلب الانسان)

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الأدمى إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الانسان ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى وهو راجع إلى علم وإرادة أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وزاد المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم السكينة الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الانسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر وأما الإرادة فانه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعت من ذاته شوق إلى جهة للصحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فإن الشهوة تنفر عن القصد والحجامة والعقل يريد بها ويطلبها ويسذل المال فيها والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين للرض والعاقل يحمد في نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل للعرف بمواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذن قلب الانسان اختص بعلم وإرادة بنفسك عنها سائر الحيوان بل بنفسك عنها الصبي في أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانهما موجودا في حق الصبي ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه لدرجتان : إحداهما أن يشتمل قلبه

من بيتك فلا تلق
أحدا إلا رأيته خيرا
منك ورأيت شيخنا
ضياء الدين أبا النجيب
وكننت معه في
سفره إلى الشام وقد
بث بعض أبناء الدنيا
له طعاما على رؤوس
الأسارى من الأفرنج
وم في قيودهم فلما
مدت السفرة والأسارى
ينتظرون الآوانى حتى
تفرغ قال للخادم
أحضر الأسارى حتى
يقعدوا على السفرة مع
الفقراء فجاء بهم
وأقدم على السفرة
صفا واحدا وقام الشيخ
من سجادته ومضى
إليهم وقعد بينهم
كالواحد منهم فأكل
وأكلوا وظهر لنا على
وجهه ما نازل باطنه

(١) حديث يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة الخبر لم أجد له أصلا (٢) حديث رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال هذا إسناد فيه ضعف .

على سائر العلوم الضرورية الأولية كالعالم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الامكان والحصول ويكون حاله بالاضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد . الثانية أن تتحصل له العلوم للكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالحزونة عنده فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرة للكتابة بقدرته عليها وهذه هي غاية درجة الانسانية ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكمرة للعلوم وقلتها وبشرف للمعلومات وخستها وبطريق تحصيلها إذ تحصل لبعض القلوب بالإلهام إلهي على سبيل المبادأة والكاشفة وبعضهم يتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيئ الحصول وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها وأقصى الرتبة التي التي التي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل يكشف إلهي في أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراق هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالذيق كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها - وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا تعرضوا لها (١) » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيت من الخبث والسكندورة الحاصلة من الأخلاق النسيمة كما سيأتي بيانه وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجب له » وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا (٢) » وقوله تعالى « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا (٣) » كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تمنع عن القلوب لبخل ومنع من جهة النعم ، تعالى عن البخل والنعم علوا كبيرا ولكن حببت لخبث وكدورة وغفل من جهة القلوب فإن القلوب كالأواني لم تدامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يهيمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (٤) » ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الانسان العلم والحكمة

من التواضع لله والانكسار في نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله. أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلي قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول سمعت الجريري يقول صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال خمسة في الظاهر وخمسة في الباطن فأما اللواتي في الظاهر فصدق في الإنسان وسخاوة في الملك وتواضع في الأبدان وكف الأذى واحتماله بلا إباء . وأما اللواتي في الباطن فحب وجود سيده خوف الفراق من سيده ورجاء الوصول إلى سيده

(١) حديث إن لربكم في أيام دهركم نفحات الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم (٢) حديث يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقاء الحديث لم أجده أصلا إلا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولله في مسند الفردوس إسنادا (٣) حديث يقول الله من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث لولا أن الشياطين يهيمون على قلوب بني آدم الحديث أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفي كماله سعاده وصلاحه لجوار
حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب لانس والانس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته
التي لأجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويغتنص عنه بخاصية السكر والفر
وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصة فان تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار
وكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك الخاصة من
صفات الملائكة القربين من رب العالمين والانسان على رتبة بين الالهائم والملائكة فان الانسان من
حيث يغضى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار حيوان ومن حيث صورته وقامته
فكالمصورة المنقوشة على الحائط وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء فمن استعمل جميع أعضائه وقواه
على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة تحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى
ملكاً وربانياً كما أخبر الله تعالى عن صواحيب يوسف عليه السلام بقوله - ما هذا بشراً إن هذا
إلا ملك كريم - ومن صرف همه إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى
حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثوراً وإما شرهاً تكثيراً وإما ضريباً ككلب أوسنور أو حقوداً
كجمل أو متكبراً كذئب أو ذا روغان كعقاب أو يجمع ذلك كله كشیطان مريد وما من عضو من
الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي
بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وحمله
السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه
والأعضاء خدمه فيستقر هو أعنى المدرك من الانسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك ويجرى
القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بریده إذ تجتمع أخبار الحسوسات عنده ويجرى
القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ويجرى الأعضاء
المتحركة مجرى كتابه ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من
الأصقاع فيوكل العين بعالم الألوان والسمع بعالم الأصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائر أعضائها
أصحاب أخبار يلتفتونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد
وبسملها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها
ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده وقع عدوه الذي هو مبتلى به ودفع
قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفاً سعيداً شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجلة
أو استعملها لسكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو في عمارة طريقه
دون عزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان عذو لا شقياً كافراً بنعمة
الله تعالى مضيقاً لجنود الله تعالى ناصراً لأعداء الله مخذلاً لحزب الله فيستحق الموت والابعاد في القلب
والبعاد نعوذ بالله من ذلك وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأخبار حيث قال دخلت على عائشة
رضي الله عنها فقلت للانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويده جناحان ورجلاه بريد
والقلب منه ملك (١) فإذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول . وقال على رضي الله عنه في تمثيل القلوب : إن لله تعالى في أرضه آية وهي القلوب فأحبها

والنسم على فصله
والحياء من ربه وقال
يعني بن معاذ التواضع
في الخلق حسن ولكن
في الأغنياء أحسن
والتكبر صريح في الخلق
ولكن في الفقراء
أجمع . وقال ذو النون
ثلاثة من علامات
التواضع تصغير النفس
معرفة بالعب وطمع
الناس حرمة للتوحيد
وقبول الحق والصيحة
من كل واحد . وقيل
لأن يزيد متى يكون
الرجل متواضعاً قال إذا
لم يرى لنفسه حقاً ولا
حالا من علمه بشرها
وازدراءها ولا يرى أن
في الخلق شراً منه .
قال بعض الحكماء
وجدنا التواضع مع
الجهل والبخل أحمد

(١) حديث عائشة الانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان الحديث أبو نعيم في الطب النبوي
والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله لأحمد من حديث
أبي ذر أما الأذن قمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء .

إليه تعالى وأرقها وأصفها وأصلها ثم فسره قل أصلها في الدين وأصفها في اليقين وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى - أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقوله تعالى - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - قال أبي بن كعب رضى الله عنه مناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى - أو كظلمات في بحر لجي - مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى - في لوح محفوظ - وهو قلب المؤمن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب .

(بيان مجامع أوصاف القلب وأمثله)

اعلم أن الانسان قد اصطحب في خلقه وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي الصفات السبعة والبهيمة والشيطنية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أهوال السباع من العداوة والبغضاء والهجوم على الناس بالضرب والشم ومن حيث سلط عليه الشهوة يتعاطى أهوال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى - قل الروح من أمر ربي - فانه يدعى لنفسه الربوية وبهيب الاستسلام والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربة المبودية والتواضع ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الأمور ويخرج إذا نسب إلى العلم ويحزن إذا نسب إلى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالخير على جميع الخلائق من أوصاف الربوية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث يغتنص من البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التميز في استنباط وجوه الشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخذاع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة أعنى الربانية والشيطنية والسبعة والبهيمة وكل ذلك مجموع في القلب فكان المجموع في إهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير منموما لونه وشكله وصورته بل لجشمة وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب المقور ليس كلبا وسيما باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعة الضراوة والعدوان والعقرو في باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبهه فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير ويغيط السبع ويضري أحدهما بالآخر ويعسن لها ماها محبولا ن عليه والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبسه بصيرته النافذة ونوره للشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسلط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسلط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر المدل في مملكة البدن وجرى السكل على الصراط المستقيم وإن عجز عن قهرها قهره واستخدموه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دأبها في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنهم وكشف حقيقة حاله ومثله حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه مائلا بين يدي خنزير ساجدا له مرة وراكها أخرى ومنظرا لإشارته وأمره فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبثت على الفور في خدمته وإحضار شهوته أو رأى نفسه مائلا بين يدي كلب مقور عابدا له مطيعا مائلا بما يقتضيه ويلتزمه مدققا

من الكبر مع الأدب
والسخاء وقيل لبعض
الحكماء هل تعرف
نعمة لا يحسد عليها
وبلاء لا يرسم صاحبه
عليه قال نعم أما النعمة
فالتواضع وأما البلاء
فالكبر . والكشف
عن حقيقة التواضع
أن التواضع رعاية
الاعتدال بين الكبر
والضعة فالكبر رفع
الانسان نفسه فوق
قدره والضعة وضع
الانسان نفسه مكانا
يرى به ويفضى إلى
تضييع حقه وقد اتهم
من كثير من إشارات
أشايخ في شرح التواضع
أشياء إلى حد أقاموا
التواضع فيه مقام
الضعة ويلوح فيه
المسوى من أوج

بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويشير الكلب ويستهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه لإساعيا طول التهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مريوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تراكم عليه حتى يصير طابعا وربنا مهلكا للقلب ويمثاله أما طاعة الخنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والحث والتبذير والتفتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع واللق والحد والحقد والشناعة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التمور والبذلة والبذخ والصلف والاستشاطعة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتعقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والحداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبس والتضريب والعش والحب والحنا وأمثاله ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بعقائقي الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا تنتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثاله ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتفال والعمو والثبات والنبل والشهامة والوتر وغيرها فالقلب في حكم امرأة قد اكتتفته هذه الأمور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصله إلى القلب أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد امرأة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى تتألف فيه جليلة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله عليه السلام «إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له وأعظام من قلبه» (١) وبقوله صلى الله عليه وسلم «من كان له من قلبه وأعظم كان عليه من الله حافظ» (٢) وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الله كقول الله تعالى - ألابد كره الله تطمئن القلوب - وأما الآثار الذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى امرأة القلب ولا يزال يترام على عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى - كلابد ان على قلوبهم ما كانوا يكسبون - وقال عز وجل - أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطيع على قلوبهم فهم لا يسمعون - فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كإربط السماع بالتقوى فقال تعالى - واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله - ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعنى القلب عن إدراك الحق وصالح الدين ويستبين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها فاذا قرع صمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك الذين - يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور - وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قال ميمون بن مهران : إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء

(١) حديث إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له وأعظم من قلبه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد (٢) حديث من كان له من قلبه وأعظم كان عليه من الله حافظ لم أجده أصلا .

الافراط إلى خفيض
التفريط ويوم
أعراقا عن حد
الاعتدال ويكون
تصدم في ذلك المبالغة
في قمع نفوس الريدين
خوفا عليهم من العجب
والكبر فقل أن
يفتك مريد في مبادئ
ظهور سلطان الحال
من العجب حتى لقد
نقل عن جمع من
الكبار كلمات مؤذنة
بالعجاب وكل ما نقل
من ذلك القليل من
الشايع لبقايا المكر
عندهم وانحصارهم في
مضيق سكر الحال
وعدم الخروج إلى
فضاء الصحو في ابتداء
أمرهم وذلك إذا حدى
صاحب البصيرة نظره
يعلم أنه من استراق

فاذا هو نزع وتاب سقل وإن عاد زيد فيها حتى يملؤ قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود من كوس» (١) «فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي أسود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة وعما أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تفسح ويتنفس ثم تفسح فانها لا تغلو عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم «القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود من كوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق» (٢) فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القبيح والصيد فأى اللادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهب به قال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز ببقاء الله تعالى .

(بيان مثل القلب بالاضافة إلى العلوم خاصة)

اعلم أن محل العلم هو القلب أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي الطاعة المهدومة من جميع الأعضاء وهي بالاضافة إلى حقائق العلوم كالمرآة بالاضافة إلى صور التلونات فكما أن للتلوان صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتنطبع فيها وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور فكذلك هي ثلاثة أمور القلب وحقائق الأشياء وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه فالعلم عبارة عن القلب الذي فيه محل مثال حقائق الأشياء والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء والمعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة وكما أن القبض مثلا يستدعى قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويسمى قبضا فكذلك وحصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلًا لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتتمثله بالمرآة أولى لأن عين الانسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة العلوم في القلب يسمى علما وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لحضة أمور : أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل : والثاني لحضته وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل . والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . والرابع لجهة مرسل بين المرآة والصورة . والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطاوعة حتى يعتذر بسببه أن يهاذى بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة أولها نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا يتجلى له المعلومات لقصانه . والثاني

النفس السمع عند نزول الوارد على القلب والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يحفو على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم من تحت خضراء السماء منلى وقول بعضهم قدى على رقبة جميع الأولياء وكقول بعضهم أسرجت وألحمت وطفنت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد إشارة منه في ذلك إلى تفرده في وقته ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من

(١) حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر الحديث أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه (٢) حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر الحديث أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الحدرى وقد تقدم .

لكدورة للعاصي والحبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاء فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكبه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قارف ذنباً فارق عقله لا يعود إليه أبداً» (١) أي حصل في قلبه كدورة لا يزال أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يحويه بها فلو جاء بالحسنة ولم تقدم السيئة لازداد لاهالة إشتراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزد بها نوراً فهذا خسران مبين وتقصان لاهيلة له فليست للراءة التي تتدنس ثم تفسح بالمصقلة كالتي تفسح بالمصقلة لزيادة جلاهما من غير دنس سابق فالإقبال على طاعة الله والأعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يحلو القلب ويصفيه وقدك قال الله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا - وقال صلى الله عليه وسلم «من عمل بماعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» (٢) . الثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب الطبع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس هذا بما يمر آت مشطر المطلوب بل ربما يكون مستوهمب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتبئية أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جلية الحق فهاضك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي . الرابع الحجاب فان الطبع القاهر لشهواته التجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر التكلمين والتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق . الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها النور على المطلوب فان طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورثها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنبجلى حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنى إلا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين بأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتائج من ازدواج الفحل والأنثى ثم كما أن من أراد أن يستخرج زمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبغير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الله كرو الأنثى وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذا كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بأزاده وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وإن رضعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى للمرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يصيرها ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبق صورة القفا في المرآة الحاذية للقفا ثم تنطبق صورة

استراق النفس السمع
فلين ذلك بيزان
أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وتواضعهم
واجتنابهم أمثال هذه
الكلمات واستبادهم
أن يجوز لعبد التظاهر
بشيء من ذلك ولكن
يجعل الكلام الصادق
وجه في الصحة ويقال
إن ذلك طمع عليهم
في سكر الحال وكلام
السكراني يحمل فالمشايخ
أرباب التمكن لما علوا
في النفوس هذا الداء
الذين بالقوا في شرح
التواضع إلى حد الحقوه
بالضمة تدا وبالمريدين
والاعتدال في التواضع
أن يرضى الإنسان
بغزلة دوين ما يستحقه
ولو آمن الشخص
جموح النفس لأوقتها

(١) حديث من قارف ذنباً فارق عقله لا يعود إليه أبداً لم أر له أصلاً (٢) حديث من عمل بماعلم ورثه الله علم ما لم يعلم أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم.

هذه المرأة في المرأة الأخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفاف كذلك في اقتناص العلوم طرق هجينة فيها ازوورات وتعريفات أعجب مما ذكرناه في المرأة يمز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحجة في تلك الازوورات فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور والافكل قلب فهو القطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصة والشرف وإليه الإشارة بقوله عز وجل - إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان - إشارة إلى أن له خاصة تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار منطقاً لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطبق لها في الأصل ولكن يثبطه عن التماسك بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ^(١) » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(٢) » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل لرسول الله « يا رسول الله أين الله في الأرض أوفى السماء ؟ قال في قلوب عباده المؤمنين ^(٣) » وفي الخبر « قال الله تعالى : لم يسهن أرضي ولا سمائي ووسعتي قلب عبدي المؤمن اللين الوداع ^(٤) » وفي الخبر « أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القاب قليل وما مخموم القلب قال هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد ^(٥) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأى قلبى ربى إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فبرى جنة عرض بعضها السموات والأرض أما جعلتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بادرالك البصائر فلانهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية عجيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعباده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتركه وجلالته قد أفلح من زكاهها ومراد تركه حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقوله - أفمن شرح الله

على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ولكن لما كان الجروح في جبلته النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار احتاجت للتدأوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه لئلا يتطرق إليها الكبر فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاره ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ومن ادعاه من المخلوقين يكون كاذباً والكبر يتولد من الإعجاب والإعجاب من الجهل بحقيقة الماهاتن والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة وقد

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث تقدم (٣) حديث ابن عمر ابن الله قال في قلوب عباده المؤمنين لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله آتية من أهل الأرض وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث (٤) حديث قال الله ما وسعتي أرضي ولا سمائي ووسعتي قلب عبدي المؤمن اللين الوداع لم أره أصلاً وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه أليها وأرقها (٥) حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب الحديث هـ من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

صدره للإسلام فهو على نور من ربه - نعم هذا التعلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب . الرتبة الأولى : إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض . والثانية : إيمان التكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام . والثالثة : إيمان العارفين وهو للشاهد بنور اليقين وبنين ذلك هذه للراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات . الأولى : أن تخبرك من تجربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا تهتمه في القول فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وأسأصفاته وبشارة الرسل وصدقهم وما جاءوا به وكما سمعوا به قبله وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلمهم وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من القريين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانسراح صدر بنور اليقين إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الأحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات قلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما يسمعون من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ والسلمون اعتقدوا الحق للاطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق . الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقيناً لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكافؤ بطريق المماثلة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً ولا يقدر في هذا التلبس والمماثلة غرضاً . الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتظهر إليه بينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية والشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة القريين والصدّيقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والتكلمين ويتميزون بجزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ نعم وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم ودرجات الكشف، وأما درجات العلوم فمثلاً أن يبصر زيداً في الدار عن قرب وفي محض الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أوفى وقت عشيّة فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والحفايا من صورته ومثل هذا منصور في تفاوتات للشاهدة للأشياء الإلهية وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمراً وبكراً غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا لمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لاحالة فهذا حال القلب بالاضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

(بيان حال القلب بالاضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والأخروية)

اعلم أن القلب بغير رتبة مستند لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحمل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية أما العقلية فنحن بها ما نقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي تنقسم إلى ضرورية لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً معاً فان هذه علوم يحد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعني أنه لا يدري له - بياقريباً - إلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهذه إلى علوم مكتسبة وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قديسي عقلا قال على رضى الله عنه:

عظم الله تعالى شأن
الكبر بقوله تعالى - إنه
لا يحب للتكبرين -
وقال تعالى - أليس في
جهنم مثوى للتكبرين -
وقد ورد « يقول الله
تعالى: الكبرياء ردائي
والعظمة إزارى فمن
نازعى واحدا منهما
قصمته » وفي رواية فذنبه
في نار جهنم . وقال غز
وجل رداً للإنسان في
طغيانه إلى حده :
- ولا تمس في الأرض
مرحاً إنك لن تحرق
الأرض ولن تبلغ
الجبال طولاً - وقال
تعالى - فلينظر الإنسان
مَ خلق خلق من ماء
دافق - وأبلغ من هذا
قوله تعالى - قتل الإنسان
ما أكفره من أي شيء
خلقه من نطفة خلقه

رأيت العقل عقليين فطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع
إذا لم يك مطبوع كما لاتفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»^(١) والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل رضى الله عنه «إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك»^(٢) إذ لا يمكن التقرب بالقرينة القطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمسكوبة ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين وقوة الإبصار لطيفة تفقد فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أوجن عليه الليل والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورؤيته لأعيان الأشياء وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إثراق الشمس وفيضان نورها على البصرات والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتبأ بعد لقبول نفس العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نفس العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى - الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلبه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة وهى كالقارس والبدن كالفرس وعمى القارس أضرب على القارس من عمى الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سمى الله تعالى باسمه فقال - ما كذب الفؤاد ما رأى - سمى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى - وكذلك نرى إبراهيم منكوت السموات والأرض - وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ولذلك سمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى - فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال تعالى - ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً - فهذا بيان العلم العقلى . أما العلوم الدينية فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيها بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدوية والأمراض فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل فلاغنى بالعقل عن السماع ولاغنى بالسمع عن العقل فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين فإن العلوم العقلية كالغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص الرريض يستغنى بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه

قد روى وقد قال بعضهم
لبعض التكبرين أولئك
نطفة مذرة وآخرك
جيفة قدرة وأنت فيها
بين ذلك حامل المذرة
وقد نظم الشاعر هذا
للنبي :

كيف يزهو من رجيته
أبد الدهر ضجيجه
وإذا ارتحل التواضع
من القلب وسكن
الكبر انتشر أثره فى
بعض الجوارح وترشح
الاناء بما فيه فتارة
يظهر أثره فى المنق
بالتمايل وتارة فى الحد
بالتصغير قال الله تعالى
- ولا تصغر خدك
للناس - وتارة يظهر
فى الرأس عند استعصاء
النفس قال الله تعالى
- لوآوا رءوسهم
ورأيهم يصدون وهم

(١) حديث ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل الحكيم فى نوادر الأصول باسناد ضعيف
وقد تقدم فى العلم (٢) حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك أبو نعيم من
حديث على باسناد ضعيف .

لرئيس بما جلت البادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استغنى بها كما يستغنى الرضيع بالنعاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عجز في عين البصيرة نفوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين فيتجرب به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وإنما ذلك لأن هجزه في نفسه خيل إليه نقضا في الدين وههنا وإعسا مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم أترد إلى مواضعهم اقلوا له تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعمالك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عمالك وإنما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية. والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والجوهر وسائر الحرف والصناعات والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كالفصلان في كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتي البرزان وكالمشرق والمغرب وكالضريتين إذا أرضيت إحداها أمضت الأخرى ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في أمور الآخرة والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا لأن قوة العقل لا تنفي بالأمرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البله (١) » أي البله في أمور الدنيا. وقال الحسن في بعض مواعظه لقد أدر كنا أقواما لو رأيتهم لقمتم بحاجين ولو أدر كوكم قتلوا عياطين فلهما صمت أمرا غريبا من أمور الدين جحد أهل الكياسة في سائر العلوم فلا يفرنك جحودهم عن قبوله إذ من الهال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى - إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها - الآية وقال تعالى - يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وقال عز وجل - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عبادته في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء للتوידون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها فأما قلوب سائر الخلق فانها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها.

(بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظر)

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالتي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك للشيء في القلب والأول يسمى إلهاما وثقا في الزرع. والثاني يسمى وحيًا وتخص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذي قبله المكتسب وهو بطريق الاستدلال يختص به

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله، البرار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي إنه منكر.

مستكبرون - وكان
الكبر له انقسام على
الجوارح والأعضاء
تنشعب منه شعب
فكذلك بعضها كشف
من البعض كالتيه
والزهو والعزة وغير
ذلك إلا أن العزة تشبه
بالكبر من حيث
الصورة وتختلف من
حيث الحقيقة كاشتباه
التواضع بالضعفة
والتواضع بمحمود والضعفة
مذمومة والكبر
مذموم والعزة محمود
قال الله تعالى - وقه
العزة ولرسوله
وللمؤمنين - والعزة
غير الكبر ولا يهل
لؤمن أن يذل نفسه
فالعزة معرفة الإنسان
بحقيقة نفسه وإكرامها
أن لا يضعها لأغراض

العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها وإيماناً حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب للسند الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألفاظ وتكشف الحجب عن أعين القلوب فيجلى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتأم ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف النطأ وينكشف أيضاً في اللحظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمح في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما ودوامه في غاية التدور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في عمله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة اللاتكلمة وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً فيوحي بأذنه ما يشاء - فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو التولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت واتسع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلاذت فيه حقائق الآء والإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالصفة المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتمطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وقاض على صدورهم النور بالالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان الله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بقطع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والوالد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع المحم ولا يفرق فكره بقرأة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن يحس أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يحس عن القلب صورة اللفظ وحروقه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضر أفايه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بمافعله صامت عرضاً للفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحهم على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد تأخر وإن عاد فقد ثبت وقد يكون محطاً وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على دفن واحد ومنازل أولياء الله تعالى

حاجة دينية كما أن
الكبر جهل الإنسان
بنفسه وإنزالها فوق
منزلتها . قال بعضهم
لحسن ما أعظمك في
نفسك قال لست بعظيم
ولكني عزيز ولما
كانت العزة غير
مذمومة وفيها مشاكلة
بالكبر قال الله تعالى
- تستكبرون في
الأرض بنبر الحق -
فيه إشارة خفية لإثبات
العزة بالحق فالوقوف
على حد التواضع من
غير انحراف إلى الضعة
وقوف على صراط العزة
للتصوب على متن نار
الكبر ولا يؤيد في
ذلك ولا يثبت عليه
إلا أقدام العلماء
الراسخين والسادة
للقرين ورؤساء
الابدال والصديقين .

فيه لا يحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استمداد وانتظار فقط ، وأما النظر وذو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإنضائه إلى هذا المقصد على الدور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطوا ثمرته واستمدوا اجتماع شروطه وزعموا أن نحو الملائق إلى ذلك الحد كالمعتذر وإن حصل في حال ثباته أبعد منه إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غلباتها ^(١) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) » وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد الزاج ويختلط العقل ويمرض البدن وإذا لم تقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقاب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها فكيف من صوفي ذلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد اتقن العلم من قبل لافتتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فلا اشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ، وزعموا أن ذلك يضاها ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار قعيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعايق وأنا أيضا ربما انتهت في الرياضة والواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع هممه بل هو كمن يترك طريق السكسب والحراثة رجاء العنور على كنز من السكروز فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ، فكذلك هذا . وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ففساد ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

(بيان الفرق بين القامين بمثال محسوس)

قال بعضهم من تكبر
قد أخبر عن ندالة
نفسه ومن تواضع فقد
أظهر كرم طبعه . وقال
الترمذي التواضع على
ضرين : الأول أن
يتواضع العبد لأمر الله
ونبيه فإن النفس
لطلب الراحة تلهي
عن أمره والشهوة التي
فيها تهوى في نبيه فإذا
وضع نفسه لأمره ونبيه
فهو تواضع . والثاني أن
يضع نفسه لعظمة الله
فإن انتهت نفسه شيئا
عما أطلق له من كل نوع
من الأنواع منعها ذلك
وجهة ذلك أن يترك
مشيئته لمشيئة الله تعالى .
واعلم أن العبد لا يبلغ
حقيقة التواضع إلا عند
لمعان نور للشاهدة في
قلبه فعند ذلك تذوب

اعلم أن عجائب القاب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وماليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس ونحن نقترب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثاليين : أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ويحتمل أن يغمر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الحس مثل الأنهار ، وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والمزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله . فإن قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القاب وهو خال عنه . فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم العامة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة القربين ، فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في ياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يفيض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدها وينظر إليها ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب

(١) حديث قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غلباتها ، أحمد وك ومحمه من حديث للقداد بن الأسود (٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن م من حديث عبد الله بن عمر .

فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجا من خيال الانسان وقلبه والعالم الوجود موافق للنسخة الوجودية في اللوح المحفوظ فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ويتبعه وجوده الحقيقي ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعنى وجود صورته في القلب وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدثك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكتافها فيها ثم يسرى من وجودها في الحس وجود إلى الخيال ثم منه وجود في القلب فانك أبدا لا تدرك إلا ما هو واصل إليك فلو لم يجعل للعالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فصبحت من دهر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبمعجائنها . ولترجع إلى الغرض التصود فتقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويعكس صورتها فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيلات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض وكما أن من نظر إلى الماء الذي يعكس صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ، فاذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم اللائكة وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكي عالم الملكوت نوعا من المحاكاة فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يغني عليك وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ماسيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال ﷺ «سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ؟ قال المتزهدون بذكر الله تعالى وضع الله عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ثم قال في وصفهم إخبارا عن الله تعالى ثم أقبل بوجهي عليهم أرى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيهم أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم^(١)» ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والقياس لا يمكن أن يستقصى في علم العاملة فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين .

النفس وفي ذواتها صفاءها من غش الكبر والمحب فتلين وتطيع للحق والخلق لمواتها وسكون وهجها وغبارها وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبيها عليه السلام في أوطان القرب كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت «قعدت رسول صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة فلما مضى أنه عند بعض أزواجه فطلبت في حجر نسائه فلم أجده فوجدته في المسجد صاجدا كالثوب الخلق وهو يقول في سجوده سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك

(١) حديث سبق المفردون قيل ومن هم قال المستهترون بذكر الله الحديث م من حديث أبي هريرة مقتصر على أول الحديث وقال فيه وما المفردون قال الذين آثروا الله كثيرا والذاكرات ورواه ك بلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب يضع الذكر عنهم أثامهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي هريرة دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلامها ضعيف .

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العاملين : أعني عمل العلماء وعمل الأولياء فان العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيها وتصليبها فقط . وقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والنصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا يتحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يحملون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً فحجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ قليل وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه هجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق إذا كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد احسن جانبهم بمزيد التصقيل ؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتركته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الاشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم . فكيفما كان الأمر قلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفائه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله التراب لا يأكحل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى ، وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كائنات لا غنى إلا بالمسال فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزانة المترعة غنى وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تفاوتت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالمعارف أنوار ولا يسمى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى - يسمى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم - وقد روى في الخبر « إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إبهام قدميه فيضى مرة وينطفئ أخرى فإذا أضاء قدم قدميه فثنى وإذا أطفئ قام ومرورهم على السراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كاتقاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نوراً على إبهام قدميه يحب حبا على وجهه وبديه ورجليه يمر بداً ويلقى أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص (١) » الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح ، فهذا أيضاً يضاهاى قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السراج كلها لرجح ، فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم وإيمان الأنبياء كالشمس ، وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين ، ولذلك جاء في الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونصف مثقال وربع مثقال وشميرة وذرة (٢) » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه القادير من الإيمان لا تمنع دخول النار ، وفي

(١) حديث إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدميه الحديث الطبراني وك من حديث ابن مسعود قال ك صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله ربع مثقال

فؤادى وأقربك لسانى
وها أنا ذا بين يديك
يا عظيم يا ظافر القديب
العظيم « وقوله عليه
السلام » سجد لك
سوادى وخيالى «
استقصاء فى التواضع
بحوآثار الوجود حيث
لم تتخلف ذرة منه عن
السجود ظاهر أو باطن
ومضى لم يكن للصوفى
حظ من التواضع
الخاص على بساط
القرب لا يتوفر حفظه فى
التواضع للخلق وهذه
سعادات إن أقبلت
جاءت بكليتها والتواضع
من أشرف أخلاق
الصوفية . ومن أخلاق
الصوفية : للدائرة
واحتمال الأذى من
الخلق وبلغ من مداراة

مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقل فانه لا يدخل النار إذ لو دخل لأمر باخراجه أولاً وأن من قلبه مثقل ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن» (١) إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى للوثن فانه خير من ألف قلب من العوام وقد قال تعالى - وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين - تفضيلاً للمؤمنين على السالين وللرأى به للمؤمن العارف دون القلة . وقال عز وجل - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على القلة وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف . وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى - والذين أوتوا العلم درجات - وقاله برفع الله العالم فوق المؤمن بسبعائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال عليه السلام «أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» (٣) وفي رواية «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» فهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التفاضل إذ المحروم من رحمة الله عظيم النعيب والحسرة والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كمنظر النقي الذي يملك عشرة دراهم إلى النقي الذي يملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم النعيب على من يخسر حظه من ذلك - وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

(بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في الكتاب)

المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المتداد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق ومن لم يدرك نفسه قط فينبغي أن يؤمن به فإن درجة المعرفة فيه عز وجل ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات : أما الشواهد فقوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام ، وقال صلى الله عليه وسلم «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووقعه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار» (٤) وقال الله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجاً - من الإشكالات والشبه - ويزقه من حيث لا يحتسب - يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً - قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان عليه السلام يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل لي في قلبي نوراً وفي قبري نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً حتى قال في شعري وفي بشري وفي لحي ودمي وعظامي» (٥) «ومثل

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وجد قبلاً من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحقب بل وذاه جماعة ناقمن قبله وإن بأصحابه حاجة إلى بصير واحد يتقون به . وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاماً ولا ينهر خادماً . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا أبو الفتح الكرخي قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس الجبوري قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا قتيبة قال ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال خدمت

(١) حديث ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن ، الطبراني من حديث سلمان بلفظ الإنسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا تعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن وإسناده حسن (٢) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلاً (٣) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ت من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية (٤) حديث من عمل بما علم يجعل له مخرجاً من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية (٥) حديث اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .

صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى - أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - ما هذا الشرح فقال هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح (١) وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس «اللهم ققهه في الدين وعلمه التأويل» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فيها في كتابه وليس هذا بالتعلم (٣) وقيل في تفسير قوله تعالى - يؤتى الحكمة من يشاء - إنه الفهم في كتاب الله تعالى وقال تعالى - ففهمناها سليمان - خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو البرداء يقول للؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويهربه على ألسنتهم ، وقال بعض السلف ظن المؤمن كمانة ، وقال صلى الله عليه وسلم «اتقوا فراسة للؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى (٤)» وإليه يشير قوله تعالى - إن في ذلك لآيات للتوحيين - وقوله تعالى - قدينا الآيات لقوم يوقنون - وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «العلم علان فلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع» (٥) وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال عليه السلام «إن من أمي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم (٦)» وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث - يعني الصديقين والمحدث هو اللهم واللهم هو الذي انكشف له من باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم ، وقال الله تعالى - وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون - خصصها بهم وقال تعالى - هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين - وكان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فاذا نسي ما حفظه صار جاهلا إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء يلاحظ ولا درس ، وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعلمناه من لدنا علما - مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدني الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر . وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما نشأ رضي الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت ، وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته بإسارية الجبل الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فخره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريق فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين

(١) حديث مثل عن قوله تعالى - أفن شرح الله صدره للإسلام - الحديث وفي الاستدراك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٢) حديث اللهم ققهه في الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وحسب له وصححه وقد تقدم في العلم (٣) حديث على ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتى الله عبدا فيها في كتابه تقدم في آداب تلاوة القرآن (٤) حديث اتقوا فراسة للؤمن الحديث ت من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٥) حديث العلم علان الحديث تقدم في العلم (٦) حديث إن من أمي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم خ من حديث أبي هريرة لقد كان فيما قبلكم من الأم محدثون فإن يك في أمي أحد فانه همر رواه م من حديث عائشة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لي أف قط وما قال شيء صنعته لم صنعته ولا شيء تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمدارة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق حكاية من أخلاق الصوفية وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس وقد قيل

النظر لتوبن أولاً عزرتك فقلت أوحى بدائي ؟ فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وعن أبي سعيد الخراز قال دخلت للمسجد الحرام فرأيت قتيلاً عليه خرقتان قلت في نفسي هذا وأشباهه كل على الناس فناداني وقال - والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه - فاستغفرت الله في سرى فناداني وقال - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده - ثم غاب عني ولم أره . وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو غليل وكان ذاعياً ولم يعرف له سبب بهيش به قال فلما قلت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل قال فصاح بي يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى أطافاً خفية . وقال أحمد النقيب دخلت على الشبل فقال مفتوناً يا أحمد قلت ما الخبر ؟ قال كنت جالساً جري غطاطري أنك غيل قلت ما أنا غيل فنادني فنادني فنادني وقال بل أنت غيل قلت فافتح اليوم على بشي . فإدأضته إلى أول قتيير يلتقي قال لما استتم الحاطر حتى دخل على صاحب المؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً فقال اجعلها في مصالحك قال وقتت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يخلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الله ناير فقال أعطها للزبن قلت إن جعلتها كذا وكذا قال أوليس قد قلنا لك إنك غيل قال فناولتها للزبن فقال للزبن قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا تأخذ عليه أجراً قال فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد إلا أذهله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله العلوي دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخير التيناني هذا مشهوراً بالكرامات . وقال إبراهيم الرقي قصده مسلماً عليه فحضرت صلاة للغريب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستويًا قلت في نفسي ضاعت سفرتي فلما سلم خرجت إلى الطيارة فقصدي سبع فعدت إلى أبي الخير وقلت قصدي سبع فخرج وصاح به وقال ألم أقل لك لا تعرض لضيفاني فتحنى الأسد فطهرت فلما رجعت قال لي اشتغلتم بتقويم الظاهر غفتم الأسد واشغلنا بتقويم البواطن غفنا الأسد . وما حكى من تفرس الشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضأرهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الحضر عاين السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهاتف ومن فزون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشهد ذلك من نفسه ومن أنكر لأصل أنكر التفصيل . والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران : أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لا يشغل نفسه . الثاني إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل باصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقرباً القلب له بابان باب إلى خارج وهو الحواس وباب إلى اللسكوت عن داخله القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروح والوحي فإذا أقربهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه فهذا ما ينبغي على حقيقة ما ذكرناه من هيجب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم اللسكوت وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثل المخرج إلى التعبير وكذلك مثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضاً من أسرار هجاب القلب ولا يليق ذلك إلا بعلم الكاشفة فليقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستحاث على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكشفين ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شيئاً من ذكرى الحقي عن مشاهدتي

لكل شيء جوهر
وجوهر الانسان العقل
وجوهر العقل الصبر .
أخبرنا أبو زرعة
ظاهر عن أبيه الحافظ
للقدس قال أنا أبو محمد
الصريغني قال أنا
أبو القاسم عبيد الله
ابن حباب قال أنا
أبو القاسم عبد الله بن
محمد بن عبد العزيز قال
حدثنا علي بن أحمد قال
أنا شعبة عن الأعمش
عن يحيى بن وثاب
عن شيخ من أصحاب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال من
هو قال ابن عمر عن
النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال هو المؤمن
الذي يهاجر الناس
ويصبر على أذىهم خير
من الذي لا يغالطهم

من التوحيد وقال ما نكتب لك عملاً ونحن نحب أن نصعدك بعمل تقرب به إلى الله عز وجل فقلت أستاذنا
تكتبان القرآن قال لا بل قلت فيكتب كما ذلك وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار
القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين سألت بعض الأبدال عن مسألة من
مشاهدة اليقين فالتفت إلى شهابه فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت إلى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم
أطرق إلى صدره وقال ما تقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسأله عن التفاته فقال لم يكن
عندي في المسألة جواب عتيد فسألت صاحب الشمال فقال لا أدري فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه
فقال لا أدري فظننت إلى قلبي وسأله فحدثني بما أجبته فاذهاوأعلم منها وكان هذا هو معنى قوله عليه
السلام « إن في أمي حديثين وإن عمر منهن » وفي الآخر : إن الله تعالى يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت
القالب عليه التمسك بكري تولى سياسة وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الداراني
رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة الضرورية حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه فقد ظهر
اقتضاح باب من أبواب القلب إلى جهة للكوت وللألمى ويفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع
والإعراض عن شهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد احرصوا ما تسمعون
من اللطيفين فأنهم يجعل لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء يد الله على أفواء الحكماء لا ينطقون إلا
بما هيأ الله لهم من الحق . وقال آخر لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .
(بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضرورية لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ومثاله أيضاً
مثال هدف تنصب إليه سهام من الجوانب أو هو مثال امرأة منصوبة تحتاز عليها أصناف الصور المختلفة
فتراعى فيها صورة بعد صورة ولا تغفل عنها أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة فمن أنهار مفتوحة
إليه وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال أمان الظاهر فالحواس الخمس وأمان
الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان فانه إذا أدرك بالحواس شيئاً
حصل منه أثر في القلب وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة الزواج
حصل منها في القلب أثر وإن كلف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال
من شيء إلى شيء وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر والقصود أن القلب
في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الحواطر وأعني بالحواطر
ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار وأعني به إدراكاته علوماً إما على سبيل التجدد وإما على
سبيل التذكر فانها تسمى حواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها والحواطر هي المحركات
للارادات فان النية والعزم والرغبة إنما تكون بعد ظهور النوى بالبال لاجتماع مبدأ الأفعال
الحواطر ثم الحواطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء
والحواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى
الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقر إلى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود
يسمى إلهاماً والخاطر المنموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواساً ثم إنك تعلم أن هذه الحواطر حادثة
ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا
ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب السبب على الأسباب فهما استنارت حيطان البيت بنور النار
وأظلم سقفه وأسود بالدهان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة وكذلك لأنوار القلب وظلمته
سببان مختلفان فسبب الحواطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً وسبب الحواطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً

ولا يصبر على أقامه
وفي الخبر « أيسر أحكم
أن يكون حكماً
ضمضم قيل ماذا كان
يصنع أبو ضمضم قال
كان إذا أصبح قال
اللهم إني تصدقت
اليوم بمرضى على من
ظلمني فمن ضربني
لا أضربه ومن شتمني
لا أشتمه ومن ظلمني
لا أظلمه » . وأخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
قال أنا أبو الفتح
المروى قال حدثنا
الرياق قال أنا الجراحى
قال أنا الجبوني قاله
أنا أبو عيسى الترمذى
قال ثنا ابن أبي عمر
قال ثنا سفيان عن
محمد بن السكندر عن
عروة عن عائشة
رضي الله عنها قالت

والاطف الذي يتبها به القلب لقبول الإهام الحير يسمى توفيقا والذى به يتربأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا فان المعاني المختلفة تنفتر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفاضة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالمعصية والتخويف عند الهام الحير بالفقر بالسوسة في مقابلة الإهام والشيطان في مقابلة الملك والتوفيق في مقابلة الخذلان وإليه الإشارة بقوله تعالى - ومن كل شيء خلقنا زوجين - فان للوجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فانه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك وقد قال صلى الله عليه وسلم « في القلب لثان لمة من الملك إبعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولة من العدو إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستمد باقه من الشيطان الرحيم ثم تلا قوله تعالى - الشيطان صدكم الفقر ويأمركم بالمعصاء -^(١) الآية وقال الحسن إنما هما هيان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عنده فما كان من الله تعالى أمضاء وما كان من عدوه جاهدته ولتجاذب القلب بين هذين السلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب للؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن^(٢) » فانه تعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة القلب والقدرة على التحريك والتغير فانك لا تريد أصبعك لشخصه بل لقعه في القلب والترديد كما أنك تعاطى الأفعال بأصابعك والله تعالى يفعل ما يفعل باستسغار للملك والشيطان وهما مستغران بقدرته في قلب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك في قلب الأجسام مثلا والقلب بأصل القطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يرجع أحدهما على الآخر وإنما يرجع أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فان اتباع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عرش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرته وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهيأ لهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية للشبهة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالسوسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مامنكم من أحد إلا وله شيطان قالوا وأنت يا رسول الله قال وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير^(٣) » وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانته الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان التدرج بها لا يأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان عجلا فوسوس ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثاني اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلات بالسوس الداعية إلى إثارة العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى

« استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال بش ابن العشرة أو أخو العشرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ما قلت ثم ألتفت له القول قال يا عائشة إن من شر الناس من يترك الناس أو بدعه الناس اتقاء لغيره » وروى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتق الله حيثما كنت واتبع السنة الحسنة تمعها وخالف الناس بخلق حسن » فاشق يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن السدارة والنفس

(١) حديث في القلب لثان لمة من الملك إبعاد بالخير الحديث وحسنه ون في الكبرى من حديث ابن مسعود (٢) حديث للؤمن بين أصبعين الحديث تقدم (٣) حديث مامنكم من أحد إلا وله شيطان الحديث م من حديث ابن مسعود

والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر اللائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوي شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به المصوص فإن كان فيه شيء جالوه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان - فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى - أفرأيت من اتخذ إلهه هواه - وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك قال عمرو بن العاص [١] للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهب الله عني ^(٢) » وفي الخبر « إن للوسوء شيطانا يقال له الولهان فاستعينوا بالله منه ^(٣) » ولا يجوز وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يبالغ الشيء إلا بضده وضد جميع وسواس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون القلب عليهم ذكر الله تعالى وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفترات على سبيل الخلسة قال الله تعالى - إن الدين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى - من شر الوسواس الخناس - قال هو منبسط على القلب فإذا ذكر الله تعالى خنس واتقبض وإذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولضادها قال الله تعالى - استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله - وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه ^(٤) » وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه يده وقال بأبي وجهه من لا يفلح ^(٥) وكما أن الشهوات تمزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطه بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يعجى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ^(٦) » وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ويجري الشيطان الشهوات ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس - لأقمن لهم صراطك المستقيم

[١] حديث ابن أبي العاص إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي الحديث م من حديث ابن أبي العاص (٢) حديث إن للوسوء شيطانا يقال له الولهان الحديث م ت من حديث أبي بن كعب وقال غريب وأبى إسناذه بالقوى عند أهل الحديث (٣) حديث أنس إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب مكاييد الشيطان وأبو يعلى الوصلى وابن عدى في الكامل وضعفه (٤) حديث ابن وضاح إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان يده وجهه وقال بأبي وجهه من لا يفلح لم أجده أصلا (٥) حديث إن الشيطان يعجى من ابن آدم مجرى الدم تقدم [١] قوله عمرو بن العاص كذا في النسخ قال الشارح والصواب عثمان بن أبي العاص وفي العراق ما يشير لذلك اهـ .

لا تزال تشتمز من
بعكس مرادها
ويستفزه الغيظ
والغضب وبالمدارة قطع
حمة النفس ورد طيشها
وتفورها . وقد ورد
« من كظم غيظا وهو
يستطيع أن ينفذه
دعاه الله يوم القيامة على
رءوس الخلائق حتى
يغنيه في أي الحول
شاء » . وروى جابر
رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « ألا أخبركم
على من تحرم النار ؟ على
كل هين لين سهل
قريب » . وروى
أبو مسعود الأنصاري
رضي الله عنه قال أتى
النبي عليه السلام رجل
فكلمه فأرعد فقال
هون عليك فاني لست

ثم لا تبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيماهم وعن شمائلهم - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق. فقدم له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتترك دينك ودين آبائك فصاه وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماؤك فصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال آتجاهد وهو تلف النفس والمال فقاتل فقتل فتسكح نساؤك ويقسم مالك فصاه وجاهد (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتسكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة ، فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويقتصر إلى اسم يعرفه فاسم سبيه الشيطان ولا يتصور أن يفك عنه آدمي وإنما يختلفون بصيانه ومتابته ولذلك قال عليه السلام « ما من أحد إلا وله شيطان (٢) » قد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الانسان ماهو جسم فهذا الآن غير محتاج إليه في علم العاملة بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عن الجهل لمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لاهالة وعلم أن الداعي إلى الشر المندور في المستقبل عدو قد عرف العدو لاهالة ، فينبغي أن يشتغل بعجابهته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير - وقال تعالى - ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين - فينبغي للبعد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه ، نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للاميين ، فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته نموذج الله منه وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتفانين في علوم الكاشفات فلا يحتاج في علم العاملة إلى معرفته ، نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا ينبغي كونه وسوسة وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاما وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فإن من مكاييد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير والتمييز في ذلك فامض وأكثر العباد به يهلكون فإن الشيطان لا يقدر على دطهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من العاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الحق إلى انصراف للستقيم ؟ ولا يزال يقرر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحبل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوهم بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو في أثناءه يؤكده فيه شواهد الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج

بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش فكانت تأكل القديد » وعن بعضهم في معنى لين جانب الصوفية : هينون لينون أيسار بنويسر سواس مكرمة أبناء أيسار لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ولا يعارون إن ماروا إلى كثار من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق

(١) حديث إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه الحديث ن من حديث سيرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح (٢) حديث ما من أحد إلا له شيطان الحديث تقدم .

للسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلّم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول فبهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم» (١) . «وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٢) ولذلك روى أن إبليس لعنه الله يمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا إله إلا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لأن له أيضا تحت الخير تليبيسات وتليبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تنهاى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة ، وسندكر جملة من مكاييد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الريع ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه [تلبس إبليس] فانه قد انتشر الآن تلبسه في البلاد والعباد لا سيما في المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها كل ذلك إذعانا لتليبيسات الشيطان ومكاييده حتى على البعد أن يقف عند كل مخطر له ليعلم أنه من لمة للملك أولمة الشيطان وأن يعين النظر فيه بعين البصيرة لاهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا - أى رجعوا إلى نور العلم - فإذا هم مبصرون - أى ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلظه ويتعجل فيه هلاكه وهو يشعر وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - قيل هى أعمال ظنوها حسنة فإذا هى سيئات ، وأغصص أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسبهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر وأبواب الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلة في بيت مظلم تسد باب الحواس والتجرد عن الأهل والسالك يقلل مداخيل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخيل باطنه في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا ، نعم قديقوى بحيث لا يتغادله ويدفع عن نفسه شره بالجهاود لسكن لا يستغنى قط عن الجهاد والدفاع مادام الدم يجري في بدنه فانه مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتى شرحها ، ومهما كان الباب مفتوحا والمدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة . قال رجل للحسن يأبى سعيد أينام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسترحنا فاذن لخلص للمؤمن منه ، نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بيمره في سفره» (٣) وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزوله ، وقال قيس بن الحجاج قال لى شيطانى دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل المصفور قلت ولم ذلك قال تذهبنى بذكر الله تعالى فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أغنى الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التى تنفض إلى المعاصي الظاهرة وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فانهم لا يهتدون إليها

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ن من حديث أنس بإسناد جيد (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم في العلم (٣) حديث إن للمؤمن ينضى شيطانه الحديث أحمد من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة.

قد حرم حفظه من
الخبر « حدثنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
إسماعيل قال ثنا أبو
عبد الرحمن محمد بن
أبى عبد الله الساليني قال
أنا أبو الحسين
عبد الرحمن بن أبى
طلحة الداودى قال أنا
أبو محمد عبد الله
الحموى السرخسى
قال أنا أبو عمران
عيسى بن عمر
السمرقندى قال أنا
عبد الله بن عبد الرحمن
الدارمى قال أنا محمد بن
أحمد بن أبى خلف قال
ثنا عبد الرحمن بن محمد
عن محمد بن إسحق قال
حدثنى عبد الله بن أبى
بكر عن رجل من
العرب قال زحمت رسول
الله صلى الله عليه وسلم

فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ . والشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القاب للشيطان كثيرة وباب اللائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالبعد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هي القاب الصني بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدي إلى غوامض طرقه وإلا فطرقة كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا - وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل - لتلك الخطوط (١) » فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يندفع به العلماء والعباد السالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة ، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه وذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية تخفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه فوسوس إليه وقال الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقبلها فان سألوها قتل مانت فقتلها ودقها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودقها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال مانت فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذي خفيها وأنا الذي ألقى في قلوب أهلها فأنطى تنج وأخلصك منهم قال بماذا ؟ قال اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان إني برىء منك ، فهو الذي قال الله تعالى فيه - كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك - (٢) » فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبرياء وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمرهين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجره البهيم إلى البعض بحيث لا يجد محيصا فتعوذ بالله من تضيق أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه (٣) »

(بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب)

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بخراصة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلجه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه خفية القلب من وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف وملا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بعرفة

(١) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله الحديث في الكبرى وك وقال صحيح الاسناد (٢) حديث كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية تخفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب الحديث بطوله في قوله تعالى - كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر - ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعه مرسل وللحاكم نحوه موقوفا على أبي طالب وقال صحيح الاسناد ووصله بطين في مسنده من حديث على (٣) حديث من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه متفق عليه من حديث النعمان بن بشير من رجع حول الحمى يوشك أن يواقه لفظ طع .

يوم حنين وفي رجل
نمل كشيعة فوطت بها
على رجل رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فتفحق فتحة بسوط في
يده وقال باسم الله
أوجعتني قال فبت
نفسى لائما أقول
أوجعت رسول الله قال
فبت بليلة كما يعلم الله
فلما أصبحنا إذا رجل
يقول أين فلان قلت هذا
والله الذي كان معي
بالأمس قال فانطلقت
وأنا متخوف فقال لي
إنك وطئت بعلك على
رجلي بالأمس فأوجعتني
فتفتحت فتحة بالسوط
فهذه غمانون نعمة
تغذيها بها . ومن
أخلاق الصوفية الإيثار
والمواساة ويعملهم على
ذلك فرط الشفقة

مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان . فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة ، فقد روى أن موسى عليه السلام لقى إبليس فقال له يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برمائه وكلك تمكليا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى رب أن يتوب عليّ قال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه أذ الأمانة قال موسى يا رب عبدك إبليس يريد أن يتوب عليه فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فأتى موسى إبليس فقال له قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ثم قال له يا موسى إن لك عليّ حقا بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لأهلكك فيهن : اذكرني حين تغضب فإن روحي في قلبك وعيني في عينك وأجرى منك مجرى الدم ، اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان تفخت في أنه لا يدري ما يصنع واذكرني حين تلقى الزحف فأتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فأتى رسولها إليك وسو لك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس أرني كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى ، فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب أي أخلاق بني آدم أعون لك قال الحدة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة ، وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حرصا على كل شيء أهماه حرصه وأسمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشيء يعمى ويصم » (١) ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يصر فحينئذ يعمد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيئا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك قال دخالت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم منك فقال له نوح اخرج منها يا عدو الله فانك لعين فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك بأثنين فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان فقال هما اللتان لا تكذبانني هما اللتان لا تخافانني بهما أهلك الناس : الحرس والحسد ، فبالحسد لنت وجعلت شيطانا رجيا وأما الحرس فانه أيسر لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرس . ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا فإن الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان ، فقد روى أن إبليس ظهر ليعي بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له يا إبليس ما هذا للمعاليق ؟ قال هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم قال فهل فيها من شيء ؟ قال ربما شبعت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك ؟ قال لا قال له عليّ أن لا أملا بطني من الطعام أبدا فقال له إبليس والله عليّ أن لا أنصح مسلما أبدا . ويقال في كثرة

(١) حديث حبك الشيء يعمى ويصم أو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

والرحمة طبعها وقوة
اليقين شرما يؤثرون
بالموجود ويصبرون على
اللفقود . قال أبو يزيد
البيضاوي ما غلبني
أحد ما غلبني شاب من
أهل بلغ قدم علينا
حاجا فقال لي يا أبا يزيد
ما حد الزهد عندكم
قلت إذا وجدنا أكلنا
وإذا قدنا صبرنا فقال
هكذا عندنا كلاب
بلغ قتلته وما حد
الزهد عندكم ، قال
إذا قدنا شكرنا وإذا
وجدنا آثرنا . وقاله
ذو النون من علامة
الزاهد الشروح صدره
ثلاث : تفريق المجموع
وترك طلب للفقود
والإيثار بالقوت . روى
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما قال

الأكل ست خصال مذمومة : أولها أن يذهب خوف الله من قلبه . الثاني أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شياع . والثالث أنه يتقل عن الطاعة . والرابع أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة . والخامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس أن يهيج فيه الأمراض . ومن أبوابه حب التزين من الأثاث والثياب والدار فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرح فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين مقوفها وحيطانها وتوسيع أبينتها ويدعو إلى التزين بالثياب والدواب ويستخره فيها طول عمره . وإذا أوقعه في ذلك قد استغنى أن يعود إليه ثانية فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخفى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نموذ بالله منه . ومن أبوابه العظيمة الطمع في الناس لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتعجب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك ، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد روى صفوان بن سليم أن إبليس عثل لعباده بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به فقال لا حاجة لي به قال انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحد غير الله سؤال الرغبة وانظر كيف تكون إذا غضبت فاني أملكك إذا غضبت . ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك الثبوت في الأمور وقال صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان والثاني من الله تعالى » (١) وقال عز وجل - خلق الإنسان من عجل - وقال تعالى - وكان الإنسان عجولاً - وقال لنبية صلى الله عليه وسلم - ولا تمجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه - وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة والمعرفة والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتعمل والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري ، فقد روى أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أنت الشياطين إبليس فقالوا أصبحت الأصنام قد نسكت رءوسها فقال هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافق الأرض فلم يجد شيئاً ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا لللائكة حافين به فرجع إليهم فقال إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة . ومن أبوابه العظيمة الدرامم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فإن من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكتفي بما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت وليشتري الثياب الفاخرة وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني (٢) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ماهو فانطقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري قال أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبتنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى مسلاتهم فيمحي ذلك فقال إبليس رويداً بهم عيسى الله أن يفتح لهم الدنيا

(١) حديث العجلة من الشيطان والثاني من الله ت من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للأَنْصار « إن شتمت قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ونشاركونهم في هذه الفتيمة وإن شتمت كانت لكم دياركم وأموالكم ولم تقسم لكم شيئاً من الفتيمة » فقالت الأنصار بل تقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالفتيمة ولا نشاركهم فيها ، فأزل الله تعالى - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال يا رسول الله إني جائع فأطعمني فبست النبي صلى الله عليه وسلم إلى

فصيب منهم حاجتا (١). وروى أن عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا فمر به إبليس فقال يا عيسى رغبت في الدنيا فأخذني عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وطى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عنة الشيطان عليه فان القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعو إلى النوم وإلى أن يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك يال ولا تتحرك رغبته إلى النوم هذا في حجر فكيف بمن يملك الهاد الوثير والعرش الوطيئة والتزهات الطيبة فحق ينشط لعبادة الله تعالى ٢. ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فان ذلك هو الذى يمنع من الانفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكز والعذاب الأليم وهو للعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيشمة بن عبد الرحمن إن الشيطان يقول ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يفلني على ثلاث أن أمره أن يأخذ للنال من غير حقه وإنفاقه في غير حقه ومنعه من حقه. وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فاذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء. ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأوقات لجمع النال والأسواق هي معشئ الشياطين. وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلني إلى الأرض وجعلني رجيا فاجعل لي بيتا قال الحمام قال اجعل لي مجلسا قال الأسواق وجامع الطرق قال اجعل لي طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لي شرابا قال كل مسكر قال اجعل لي مؤذنا قال المزمار قال اجعل لي قرآنا قال الشعر قال اجعل لي كتابا قال الوشم قال اجعل لي حديثا قال الكذب قال اجعل لي مصايد قال النساء (٣)» ومن أبوابه العظيمة التوصل: التصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفاسق جميعا فان الطعن في الناس والاستغفال بذكر تقصم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعة فاذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسمى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطابق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدوله إذ موالى أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحية. وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكيف لسانه عن الكلام فيما لا يمينه فأتى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته وترى فضوليا آخر يتعصب للى رضى الله عنه وكان من زهد على سيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس السكين إلى الرسغ وترى الفاسق لباسا ثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه ويتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاه فكيف يكون حاله عنده ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم من الأهل والولد بل من أنفسهم

(١) حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسل (٢) حديث أبي أمامة إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلني إلى الأرض وجعلني رجيا فاجعل لي بيتا قال الحمام الحديث الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضا.

أزواجه هل عند كن
شبه تسكنهن قلن
والذى بعثك بالحق
نبيا ما عندنا إلا الماء
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما عندنا
ما نطعمك هذه الليلة
ثم قال من يضيف
هذا عنده الليلة رحمه
الله فقام رجل من
الأنصار فقال أنا
يا رسول الله فأتى به
منزله فقال لأهله هذا
ضيف رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأكرمه
ولا تدخري عنه شيئا
فقال ما عندنا إلا قوت
الصبية فقال فقوى
عليهم عن قوتهم حتى
يناموا ولا يطعمون
شيئا ثم أسرجى فاذا
أخذ الضيف ليأكل
فقوى كأنك تصاعدين
السراج فأطفئ فيه

والقائمون لمعاصي الشرع هم الذين يعزقون الشرع ويقطونه بعقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه قري كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى لابل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجرؤا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ثم إن الشيطان يغيل إليهم أن من مات محبا لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويغيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لملي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه ^(١) «اعلمي فاني لأغني عنك من الله شيئا ^(٢)» وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء ، وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس بسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لأجل العمل لأجل الهديان فما بالك خالفني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي القدي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم وقد سلت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتصصب فحبسوا ذلك في صدورهم ولم يذروهم على مكابد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عابيه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا وإذا الله تعالى يتوب علينا وعليهم وقال الحسن بلعنا أن إبليس قال رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم «عاصي ققصموا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء وقد صدق المعون قائمهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها . ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع فأتى رقعة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم قماموا يقتلون وليس إياهم يريد ، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم ففارقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم . ومن أبواب حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يلبثها أحد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يغيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقوام اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشد هم إناهما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله فاذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ^(٣) » والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشغلوا بعبادتهم ومعاشيتهم ويتروكوا العلم للعلماء فالعالم لو زنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري

ونصلي نخضع ألسنتنا
لضيف رسول الله حتى
يشبع ضيف رسول
الله قامت إلى الصبية
فعلتهم حتى ناموا عن
قوتهم ولم يطمئنا شيئا
ثم قامت فأنردت
وأسرجت فلما أخذ
الضيف ليا كل قامت
كانها تصلح السراج
فأطفأته فجعلها مضافا
أستقمها لضيف رسول
الله ووطن الضيف أنهما
ياكلان معه حتى شبع
الضيف وباتا طويين
فلما أصبحوا غدوا
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فلما نظر
إليهما تبسم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم
قال لقد عجب الله من
فلان وفلانة هذه الليلة
وأنزل الله تعالى -
ويؤثرون على أنفسهم

(١) حديث فاطمة بضعة مني متفق عليه من حديث السور بن مخرمة (٢) حديث إنى لأغني عنك من الله شيئا قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث عائشة إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله الحديث أحمد والبرار وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة .

كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيها يتعلق بالعقائد والمذاهب لا يحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال . ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم - فمن يحكم بشر على غيره بالظن يشبه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالنسبة فيهلك أو يقصر في القيام بمحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من الهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض لقتلهم فقال صلى الله عليه وسلم «اتقوا مواضع التهم» (١) حتى احتذر هو ﷺ من ذلك روى عن ابن حسين أن صنية بنت حيي بن أخطب أخبرته «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معسكفا في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال إنها صنية بنت حيي قتالا يارسول الله ما نظن بك إلا خيرا فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإنى خشيت أن يدخل عليكما» (٢) فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فخرسهما وكيف أشفق على أمته فطعمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول مثل لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه فان أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فان الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر فلهما رأيت إنسانا يسمى الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه وإنما رأى غيره من حيث هو فان المؤمن يطلب العاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولوأردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله . فان قلت فما العلاج في دفع الشيطان لو هل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الانسان لاحول ولا قوة إلا بالله . فاعلم أن علاج القلب في ذلك سدهذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره وغرضنا في هذا الربيع من الكتاب بيان علاج الصفات الهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ماسياتي شرحه ، نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان الشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمتعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الله لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديث نفس لاساطان له على القلب فلا بدفع ساطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - خصص بذلك التقي فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فان لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له احسأ فمجرد الصوت يدفعه فان كان بين يديك لحم وهو جائع فانه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الحالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الله ذكر فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الله ذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويده فاستقر الشيطان في سويداء القلب وأما قلوب المتقين الحالية من الهوى والصفات المذمومة فانه يطرقها الشيطان لالشهوات بل خلوها بالنفقة عن الذكر فإذا عاد إلى الله ذكر خفس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى - فاستمد بالله من الشيطان الرجيم - وسائر الأخبار والآيات

(١) حديث اتقوا مواضع التهم لم أجده أصلا (٢) حديث صنية بنت حيي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معسكفا فأتيته فتحدثت عنده الحديث وفيه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه .

ولو كان بهم خصاصة -
وقال أنس رضى الله
عنه أهدي لبعض
أصحابه رأس شاة
مشوى وكان مجهودا
فوجه به إلى جاره
فداوله سبعة أنفس
ثم عاد إلى الأول فأزالت
الآية لذلك . وروى أن
أبا الحسن الأنطاكي
اجتمع عنده نيف
وثلاثون رجلا بقرية
بقرى الرى وله أرغفة
معدودة لم تشبع
خمس منهم فكفروا
الرغفان وأطفؤا
السراج وجلسوا للطعام
فلما رفعوا الطعام فإذا
هو بحاله لم يأكل أحد
منهم إشارة منه على
نفسه . وحكى عن
حنيفة العدوى قال
انطقت يوم اليرموك
لطلب ابن عم لي

الواردة في الذكر . قال أبو هريرة النقي شيطان للؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهن مسمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أعبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل إذا أكل ممي الله فأطعم جاعاً وإذا شرب ممي الله فأطعم عطشاً وإذا لبس ممي الله فأطعم عرياناً وإذا ادهن ممي الله فأطعم شعثاً فقال لكتي مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرا به ولباحه . وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعبودنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نأراهم اللهم فأبسه منا كما أبسته من رحمتك وقطعه منا كما قطعه من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير قال فتمثل له إبليس يوماً في طريق للسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفني قال ومن أنت قال أنا إبليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم هذه الاستعاذة ولا أن عرض لك قال والله لا أنمنها بمن أراها فاصنع ما شئت . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا بطرق غير يارحم قال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه (١) وقال الحسن « نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك اقرأ آية الكرسي (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لقد أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه فوالذي بشئ بالحلق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحاً في السجد (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير الذي سلكه عمر (٤) » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مريع الشيطان وقوته وهي الشهوات لمهما طمعت أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالاً وكنت كمن يطعم أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمدة مشغولة بغليظ الأطعمة ويطعم أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتحلية للعدة والذكر الدواء والتقوى احتفاء وهي تغلي القلب عن الشهوات فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في العدة الخالية عن الأطعمة قال الله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - وقال تعالى - كتب

وممي شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سبقته ومسحت وجهه فإذا أنا به قتلست أسفك فأشار إلى أن نعم فإذا رجل يقول آم فقال ابن عمي انطلق به إليه فجلت إليه فإذا هو هشام بن العاص قتلست أسفك فسمع هشام آخر يقول آم فقال انطلق به إليه فجلت إليه فإذا هو قد مات ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضاً قد مات ثم رجعت إلى ابن عمي فإذا هو أيضاً قد مات . وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة فقال الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله « والذين تبوءوا الدار والإيمان - قال ابن

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا وبالمالك في الوطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلًا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارمة عن عياش الشامي عن ابن مسعود . ورواه أحمد والبراز من حديث عبد الرحمن بن حبشي وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه (٢) حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتاً من الجن يكيدك الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا (٣) حديث أناني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه الحديث ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلًا هكذا وللبخاري من حديث أبي هريرة أن عفريتاً من الجن قفلت على البارحة أو كلة نحوه ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه الحديث و ن في الكبرى من حديث عائشة كان يصلي فأناه الشيطان فأخذه فصرعه فغلقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدي الحديث وإسناده ضعيف (٤) حديث ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجاً غير فجه متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ يا ابن الخطاب ما عليك الشيطان سالكا فجاً .

عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السمير - ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان (١) ولم تفهم أن أكثر عموماً الشرع مخصوصة بشروط تعلقها علماء الدين إلى نفسك فليس الخبر كالبيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب العاندين وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهاالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسبت من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت بالصلاة يحك القلوب فيها يظهر محاسنها ومساوئها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا يطرده عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس كما أن الدواء قبل الاحتمال ربما يزيد عليك الضرر فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتياء بالتقوى ثم أردفه بدواء الله كبر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه ، ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تنسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر أى أنت مطيع له . وقال بعضهم يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته باحسانه وبطبع اللعين بعد معرفته بطغيانه ، وكما أن الله تعالى قال - ادعوني أستجب لكم - وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الله كروالدعاء ، قيل لآبراهيم ابن آدم ما بالنا ندعرك فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى - ادعوني أستجب لكم - ؟ قال لأن قلوبكم ميتة قيل وما الذى أماتها ؟ قال غمان خصال : عرقم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بمحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا - فواطأتموه على المعاصى وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم واقترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطم ربكم فكيف يستجيب لكم . فان قلت فالدعاء إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن البقلة ولكن الذى يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذى ذكرناه وهو أن اختلاف السبب يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان . وأما الأخبار فقد قال مجاهد لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزنبور ، فأما ثبر فهو صاحب اللصائب الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الحدود ودعوى الجاهلية وأما الأعور فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالغيب عنده ويفضبه عليهم وأما زنبور فهو صاحب السوق فبسيه لا يزالون متظلمين وشيطان الصلاة يسمى خزب (٢) وشيطان الوضوء يسمى الوطان (٣) وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة ، وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة ، وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه

(١) الحديث الوارد بأن الذكر يطرده الشيطان تقدم (٢) حديث إن شيطان الصلاة يسمى خزب م من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث (٣) حديث إن شيطان الوضوء يسمى الوطان تقدم وهو عند من حديث أنى .

عطاء يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ولو كان بهم خصاصة يعنى جوعا وفقرا . قال أبو حفص الإشار هو أن يقدم حظوظه الاخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة وقال بعضهم الاشارة لا يكون عن اختيار إنما الاشارة أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقتك ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة . وقال يوسف ابن الحسين من رأى لنفسه ملكا لا يصح منها الاشارة لأنه يرى نفسه أحق بالشئ برؤية ملكه إنما الاشارة من يرى الأشياء كلها لاحق فن وصل إليه فهو أحق به فإذا وصل شيء من ذلك

ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب القباب عن قصعة الصل في اليوم الصائف وما لو بدالك لم رأيتوه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغراه ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا اختطفته الشياطين (١) وقال أبو بوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر بن عبد الله أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تمنني عليه لأتقوى عليه قال لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك قال يارب زدني قال أجزى بالسيئة سيئة وبالخسنة عشرا إلى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح قال إبليس يارب هذا العبد الذي كرمته على إن لا تمنني عليه لأتقوى عليه قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد قال يارب زدني قال تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال أجلب عليهم بحيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى - لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل - وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله (٢) وقال وهيب بن الورد بلغنا أن إبليس يمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال إنني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا قبل على أحدهم حتى تقتله وتمسكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نمود عليه فيعود فلا نحن نياس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة السكر في أيدي صبيانكم تغلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء . فان قلت فكيف يمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به فان كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين . فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهم ما ولا ندرك حقيقة صورتهم ما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة لما رأى النبي ﷺ جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته إلا مرتين (٣) وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من الشرق إلى الغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة للعراج عند مدرة النسي وإما كان يراه في صورة الأدمي غالبا (٤)

إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤذيها إليه . وقال بعضهم حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك فان الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أحياه فلم يظهر البشر الكثير في وجهه فانكر أخوه ذلك منه فقال يا أخى سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة : تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا » فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر

(١) حديث أبي أمامة وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وطب في المعجم الكبير باسناد ضعيف (٢) حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب والحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وحب في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضفه ولا نحوه مختصرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الحنفي وقال صحيح الاسناد (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته إلا مرتين الشيطان من حديث عائشة وسئل هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين (٤) حديث أنه كان يرى جبريل في صورة الأدمي غالبا الشيطان من حديث عائشة وسئل فأين قوله: فدنا فتدلى ، قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث .

فكان رآه في صورة دحية الكلبي^(١) وكان رجلا حسن الوجه والأكثر أنه يكشف أهل الكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة فيراه بينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النوم جسدا رجلا شبه البلوري داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالى خنس ، ومثل هذا قد يشاهد بينه في اليقظة فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على جيفة يدعو الناس إليها وكانت الجيفة مثال الدنيا ، وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فإن القلب لا يد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي وجه إلى عالم الشهادة فالذي يظهر منه في الوجه الذي على جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن فيصبح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محكية للصفة ومواقفة لها لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة ومواقفة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعنى ومحكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار هجية وهي من أسرار هجائب القلب ولا يليق ذكرها بعم العامة وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم وتارة بطريق الحقيقة والأكثر هو التمثيل بصورة محكية للمعنى هو مثال المعنى لا عين المعنى إلا أنه يشاهد بالمعنى مشاهدة محقة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم .

(بيان ما يؤخذ به الصمد من وساوس القلوب وهما وخواطرها

وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به)

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على مياسرة العلماء بالشرع فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عني عن أمي ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »^(٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول للحفظة إذا هم عبدي بسية فلا تكتبوها فإن عملها فاكذبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكذبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا »^(٣) وقد خرج البخاري ومسلم في الصحيحين وهو

(١) حديث أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي الشيخان من حديث أسامة بن زيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدثهم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا بأس من هذا قالت دحية الحديث (٢) حديث عني لأمي عما حدثت به نفوسها متفق عليه من حديث أبي هريرة إن الله تجاوز لأمي عما حدثت به أنفسها الحديث (٣) حديث أبي هريرة يقول الله إذا هم عبدي بسية

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة قال أنا أبو حفص عمر ابن الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا القاسم الرازي يقول سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول : من محب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده . وقال سهل بن عبد الله الصوفي من يرى دمه هدرًا وملكه مباحًا وقال ربيع التصوف مبني على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق باليسئل

دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسبئية وفي لفظ آخر « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسبئية فلم يعملها لم تسكتب عليه وإن عملها كتبت » وفي لفظ آخر « وإذا تحدث بأن يعمل سبئية فأنا أغفرها له ما لم يعملها » وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذه فقول سبئانه - إن تبدوا مالي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيضرب لمن يشاء ويمدب من يشاء - وقوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشعولا - فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى - ولا تسكنوا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه - وقوله تعالى - لا يؤخذكم الله بالفنوف في إيمانكم ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم - والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الاحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح . فقول : أول ما يورد على القلب الخاطر كالمؤخر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لراها . والثاني هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة التي في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسبه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . والثالث حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والليل . الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا تسميه بما بالقول ونية وقصدا وهذا المهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أضنى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا المهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فرمما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل فهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجراحة : الخاطر وهو حديث النفس ثم الليل ثم الاعتقاد ثم المهم . فقول : أما الخاطر فلا يؤخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الليل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار وهما للرادان بقوله عز وجل « عني عن أمي ما حدثت به نفوسها » حديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، فأما المهم والعزم فلا يسمى حديث النفس بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة . قال مهلا إن من سنق النكاح . قال نفسي تحدثني أن أجب نفسي . قال مهلا خصاء أمي دؤب الصيام . قال نفسي تحدثني أن أترهب . قال مهلا رهبانية أمي الجهاد والحج قال نفسي تحدثني أن أترك اللحم . قال مهلا فاني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمه ^(١) »

فلا تكتبوها عليه الحديث قال المصنف أخرجه م في الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فهذا والله أعلم قدمه في الله كمر (١) حديث إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال مهلا إن من سنق النكاح الحديث ت الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسل نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ومحيي بن معين والدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بهت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عثمان إنني لم أؤمر بالرهانية الحديث وفيه من رغب عن سنق فليس مني وهو عند م بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاخصينا والبقوى والطبراني في مصجمي الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون أنه قال يا رسول الله إنني رجل تشق على هذه العزوبة في الغازي فأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأخصمت قال لا

والإيجاز وترك التعرض
والاختيار قبل المسمى
بالصوغية وغير الجيد
بالقصة وقبض على
الشحام والرقام
والنوري وبسط النطق
لضرب رقابهم تقدم
النوري قيل له إلى
ماذا تبادر ؟ فقال أوثر
إخواني بفضل حياة
ساعة ، وقيل دخل
الروزياري دار بعض
أصحابه فوجده غائبا
وباب بيته متعلق فقال
صوفي وله باب مفارق
احسروا الباب
فكسروه وأمر بجميع
ما وجدوا في البيت أن
يبيع فأتقذروه إلى
السوق واتخذوا رقما
من الثمن وقعدوا في
الدار فدخل صاحب
القول ولم يقل شيئا
ودخلت امرأته وعليها

فهذه الحواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل . وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا والأحوال تختلف فيه فلاختياري منه يؤخذ به والاضطراري لا يؤخذ به . وأما الرابع وهو الهم بالفعل فانه . يؤخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتب له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة فجده في غفلة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكاتبه حسنة لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل وإن تعمق الفعل بعائق أو تركه بعذر لاخوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة فإن همه فعل من القلب اختياري . والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفعلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قالت اللائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن هو عملها فاكذبوها له بمثلها وإن تركها فاكذبوها له حسنة إنما تركها من جرأى ^(١) » وحيث قال فإن لم يعملها أراد به تركها لله فاما إذا عزم على فاحشة فتعمدت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما يعشر الناس على نياتهم ^(٢) » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصيح ليقتل مسلما أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرا ويعشر على نيته وقد هم بسيئة ولم يعملها . والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان سيفيهما ذالقاتل والقتول في النار قليل يارسول الله هذا القاتل لما بالقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه ^(٣) » وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة وتقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة وأما الحواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالموأخذة به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى - وإن تبدوا

ولكن عليكم يا ابن مظهرين بالصيام فانه عجرة وأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خضاء أمق الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف إن عثمان بن مظعون قال يارسول الله ائذن لي في الاختصاص فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الخفية السمحة والتكبير على كل شرف الحديث و . بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنى ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس لكل نبي وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة إن سياحة أمق الجهاد في سبيل الله وإسناده جيد ^(١) حديث قالت اللائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر الحديث قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ^(٢) حديث إنما يعشر الناس على نياتهم . من حديث جابر دون قوله وإنما وله من حديث أبي هريرة إنما يعش الناس على نياتهم وإسنادهما حسن وم من حديث عائشة يعشهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يعشون على نياتهم ^(٣) حديث إذا التقى المسلمان سيفيهما فالقاتل والقتول في النار الحديث متفق عليه من حديث أبي بكر .

كساء فدخلت بيتا
فرمت بالكساء وقالت
هذا أيضا من بية المتاع
فيبعوه فقال الزوج لها
لم تكلف هذا باختيارك
قالت استكثرت مثل
الشيخ ياسطنا وبحكم
علينا وبينى لنا شيء
ندخره عنه . وقيل
مرض قيس بن سعد
فاستبطأ إخوانه في
عيادته فسأل عنهم
فقالوا إنهم يستحيون
بمالك عليهم من الدين
فقال أخزى الله ما لا يمنع
الاخوان عن الزيارة ثم
أمر مناديا ينادى من
كان لقيس عليه مال
فهو منه في حل
فكسرت عتبة داره
بالنسي لكثرة عواده .
وقيل آتى رجل صديقا
له ودق عليه الباب
فلما خرج قال لماذا

ما في أنفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله - « جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا ما لا نطبق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم لكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا » (١) فأزل الله الفرج بعد سنة بقوله - لا يكلف الله قسرا إلا وسعها - فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يخلط وكيف لا يؤخذ بأعمال القلب من السكر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبايا من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا أي ما يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي هرم لم يؤخذ به فإن أتبعتها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب » (٢) وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حوازي القلوب » (٣) وقال « البر ما اطمأن إليه القلب وإن أدتوك وأفتوك » (٤) حتى إذا قول إذا حكم القلب الفتى بإيجاب شيء وكان غمضا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بطله فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصي بوطئها وإن كانت زوجته وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

(بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الله كرام لا)

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعمايها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق : فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس » (٥) والخنس هو السكوت فكأنه يكت . وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثير بالوسوسة كالمشغول بهجه فانه قد يكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه . وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها لقلب فكأنه يوسوس من بعد على ضعف . وقالت فرقة ينعدم عند الله ذكر في لحظة وينعدم الله ذكر في لحظة ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فانك إذا أردتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواسلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الله ذكر ولا وجه له إلا هذا . وقالت فرقة الوسوسة والله ذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع وكأن الإنسان قد يرى بينه شيئين في حالة واحدة فكذلك

(١) حديث لما نزل قوله تعالى - وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله - جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا ما لا نطبق الحديث م من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه (٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى القلب م من حديث أبي هريرة وقال إلى صدره (٣) حديث الإثم حوازي القلوب تقدم في العلم (٤) حديث البر ما اطمأن إليه القلب وإن أدتوك وأفتوك الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وإن أفتاك الناس وأفتوك وقد تقدم (٥) حديث وإذا ذكر الله خنس ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث إن الشيطان واضح خطمه على قلب ابن آدم الحديث وقد تقدم قريبا .

جنتي ؟ قال لأربعةائة درهم دين على فدخل الدار ووزن أربعةائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باصكيا فقالت امرأته هلا تملكت حين شق عليك الإجابة فقال يا عما أباكى لأن لم أتفقد حاله حتى أحتاج أن يأتيني . وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ القدسي قال أنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان قال ثنا أبو عبد الله الجرجاني قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحدث أباذي قال ثنا أبو البختري قال ثنا أبو أسامة قال ثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الأشعرين إذا أرموا

القلب قد يكون مجرى لشئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يصير بهما أمر ديناه وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه » (١) وإلى هذا ذهب المحاسبي والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الاحاطة بأصناف الوسواس وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه . والوسواس أصناف الأول أن يكون من جهة التلبس بالحق فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للانسان ترك التمتع بالذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم فند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم نوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعدته وجدده إيمانه وبقينه خنس الشيطان وهرب إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول النصية لا تفنى إلى النار فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فيقطع وسواسه وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويمدحه كما تبده فما أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يجب به فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فإن المعرفة والإيمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة . الصنف الثاني : أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيئاتها وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينا أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن فإن علمه يقينا خنس الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهيج وإن كان مظلونا فربما يبقى مؤثرا بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبية . الصنف الثالث : أن تكون وسوسة مجرد الحواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلا فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويهوى ويندفع ويهوى فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتتلا على فهم معنى التراءى وعلى تلك الحواطر كأنهما في موضعين من القلب وبعد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا إذ قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) فلو لا أنه متصور لما ذكره إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمنتهر فإذا قد تروى السئوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويفوس في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ولو كله غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزير لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لسكل مذهب من المذاهب وجهها ولكن في محل مخصوص . وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرا طويلا بعيد جدا ومحال

(١) حديث مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يصير بهما أمر ديناه وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ الآخرة مكان دينه وفيه الحسين بن أحمد بن محمد المروى السباخي الحافظ كذبه ك والآفة منه (٢) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا تقدم في الصلاة .

في القزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم . وحدث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه إذا أراد أن يغزو قال : يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة فليضم أحدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة فلأحدكم من ظهر جملة إلا عقبة كعقة أحدهم » قال فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالى إلا عقبة كعقة أحدهم من جملة . وروى أنس قال لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد

في الوجود ولو تخاف أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهيب الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم قد روى « أنه نظر إلى علم توبه في الصلاة فلما سلم رعى بذلك التوب وقال شغلني عن الصلاة وقال اذهبوا به إلى أبي جهنم واتنوني بأنجانيته (١) ». وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على النبر ثم رعى به وقال نظرة إليه ونظرة إليكم (٢) ». وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لفة النظر إلى خاتم الذهب وعلم التوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبس ثم رعى به فلا تقطع وسوسة عروض الدنيا وتهدأ إلا بالرمي والفارقة فإدام عليك شيئا وراء حاجته ولو دينار أو احدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره وأنه كيف يحفظه وفيماذا يفتحه وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحدا وكيف يظهره حتى يتباهى به إلى غير ذلك من الوساوس فمن أنشأ محابله في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الدباب لا يقع عليه فهو محال فالدين باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل للمعاصي فإن امتنع أماته من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة فإن أبي أمره بالتخرج والشدّة حتى يحرم ما ليس به حرام فإن أبي شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرججه عن العلم فإن أبي خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا غفيا فتعيل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فانها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

(بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات)

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاعفه فتغير صفته فإن نزل به الشيطان قد جاء إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان لا يكون قطعهما ولا إليه الإشارة بقوله تعالى - وتقلب أفئدتهم وأبصارهم - ولا طلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجب صنع الله تعالى في هجائب القلب وتقلبه كان يخلف به فيقول « لا ومقلب القلوب (٣) » وكان كثيرا ما يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا أو تخاف يا رسول الله قال وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء (٤) » وفي لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة (٥) » وقال عليه السلام

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في توبه في الصلاة الحديث تقدم فيه (٢) حديث كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على النبر فرماه فقال نظرة إليه ونظرة إليكم ن من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة (٣) حديث لا ومقلب القلوب خ من حديث ابن عمر (٤) حديث يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك الحديث ت من حديث أنس وحسنه وك من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرطه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ون في الكبرى . ك وصححه على شرطه خ من حديث النوايس بن سمعان ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه ون في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٥) حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة ك في المستدرک وقال صحيح على شرطه والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح . قلت رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا أدري له صحة أم لا .

ابن الريس قال له أقاسمك مالي نصفين ولي امرأتان فأطلق أحدهما فإذا انقضت عدتها فزوجها فقال له عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك فما حمل الصوفي على الاشارة لإطمار نفسه وشرف غريزته وما جملة الله تعالى صوفيا إلا بسند أن صوفي غريزته لذلك وكل من كانت غريزته السخاء والسخرى يوشك أن يصير صوفيا لأن السخاء صفة الغريزة وفي مقابلته الشح والشح من لوازم صفة النفس قال الله تعالى - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - حكم بالفلاح لمن يوق الشح وحكم بالفلاح

« مثل القلب في قلبه كالقدر إذا استجمعت غلبانا ^(١) » وقال « مثل القلب كشل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن ^(٢) » وهذه التقلبات وهجاء صنع الله تعالى في قلبها من حيث لا تهتدى إليه للفرقة لا يعرفها إلا الراقيون والراعون لأحوالهم مع الله تعالى . والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تتفتح فيه خواطر الخير من خزانة القلب ومداخل للسكرات فينصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فيكشف له نور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحبه عليه ويدعوه إلى العمل به وينظر الملك إلى القلب فيجده طيايا جوهره طاهرا بتقواه مستقبلا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فإراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهيئا فعند ذلك يحمد بمجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ولا يتأخر إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - وفي مثل هذا القلب يشرق نور الصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يغنى فيه الشرك الحقني الذي هو أخفى من ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء فلا يغنى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكاييد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التي سذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكير والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذي أجبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب للطمئن أراد بقوله تعالى - ألا بدكر الله تطمئن القلوب - وبقوله عز وجل - يا أيها النفس الطمئنة - . القلب الثاني : القلب المخدول المشحون بالهوى الدنس بالأخلاق الذمومة والخبائث الفتوح فيه أبواب الشياطين السودود عنه أبواب الملائكة ومبدأ الشرف فيه أن يتفتح فيه خاطر من الهوى ويهيج فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفيق منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على انبساط الخيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنسبط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعتة فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزوين والغرور والأمانى ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويغيب نور اليقين لحوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يعلأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل كالمعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ولو بصرة واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت العصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى - أرايت من أخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا - . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا - وبقوله عز وجل - لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون - وبقوله تعالى - سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ورب قلب هذا حاله بالاضافة إلى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى

(١) حديث مثل القلب في قلبه كالقدر إذا استجمعت غلبانا أحمد و ك وقال صحيح على شرط مخ من حديث المقداد بن الأسود (٢) حديث مثل القلب كشل ريشة بأرض فلاة الحديث الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف .

من أحمق وبذل فقال
سومارز قنهم ينفقون
أولئك على هدى من
ربهم وأولئك هم
الفلحون - والفلاح
أجمع اسم لسادة
الدارين والنبي عليه
السلام به بقوله ثلاث
مهلكات ، وثلاث
منجيات فجعل إحدى
المهلكات شحا مطاعا
ولم يقل مجرد الشح
يكون مهلكا بل يكون
مهلكا إذا كان مطاعا
فأما كونه موجودا في
النفس غير مطاع فانه
لا ينكر ذلك لأنه من
لوازم النفس مستمدا
من أصل جبلتها التراب
وفي التراب قبض
وإمساك وليس ذلك
بالعجب من الأدنى
وهو جبل في وإنما
العجب وجود السخاء

وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه أو كالذي لا يملك نفسه فيأفقه الجلاء والرياسة والكبر ولا يقي معه مسكة لتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحق وزكريع من عيوبه أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهاك عليه تهاك الواله للستر فينسى فيه للرودة والتقوى فكل ذلك لتساعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتطفى منه أنواره فينطفئ نور الحياء والرودة والإيمان ويسمى في تحصيل مراد الشيطان . القلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعو إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعو إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمع والتتم فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبيهة والسبع في تهجمها على الشر وقله أكثراتها بالمواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حمة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التخرج البارد ولم تمتنع عن هؤلاء فتؤذي نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أو يترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتعجز على نفسك حتى تبقى محروما غنيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أو تريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد ضلوا مثل ما اشتريت ولم يتمتعوا أما ترى العالم القلاني ليس يعتز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه فتميل النفس إلى الشيطان وتقلب إليه فيحمل الملك حمة على الشيطان ويقول هل هلك إلا من اتبع لغة الحال ونسى العاقبة أفنقع بلعة بسيرة وترك لغة الجنة ونعيمها أبدأ الآباد أم تستغل ألم الصبر عن شهواتك ولا تستغل ألم النار أنصربفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هوام ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك مصيبة غيرك أرايت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أو كنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار فمضد ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجنتين متجاوزا بين الحزين إلى أن يظلم على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدوا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى وإن كان الأغلب على القلب الصفات لللكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتعرضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه قلب للؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن أي بين تجاذب هذين الجنتين وهو الغالب أعنى القلب والاتقال من حزب إلى حزب أما الثبات على الدوام مع حزب اللاتسكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزانة القلب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فانه من خزانة اللسكوت وهي أيضا إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنة يسر له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسر له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فانه بأنواع الحكم يضرب الحق بقوله إن الله رحيم فلا تبال وإن الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخافهم وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا - يعدم وعينهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا - يعدم التوبة وعينهم النفرة فيهلكهم باذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجرى مجراها فيوسع قلبه لقبول الضرور ويضيقه عن قبول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدره فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده - فهو الهادي

في التريزة وهو نفوس الصوفية الداعي لهم إلى البذل والإيتار والسخاء ثم وأكل من الجود ففي مقابلة الجود بالبخل وفي مقابلة السخاء الشح والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة التريزة وكل سخى جواد وليس كل جواد سخيا والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء لأن السخاء من نتيجة الفرائض والله تعالى منزله عن التريزة والجود يتطرق إليه الرياء ويأتي به الانسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من

والفضل يفعل ما يشاء ويعلم ما يريد لا أراد لحكمه ولا معقب لقصائه خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال - إن الأبرر لني نعيم وإن الفجار لني جحيم - ثم قال تعالى فيها روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم « هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي »^(١) فقال الله الملك الحق لا يستل عما يفعل وهم يستلون ولتقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم العامة وإيماننا ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم للعامة وأسرارها لينتفع بها من لا ينفع بالطواهر ولا يجزى بالتشرع عن الباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق . تم كتاب عجائب القلب والله الحمد والمنة ، ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

(وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ، وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها وتخفيفه وتخديره وسهل على خواص عبادته تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره . والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريه ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الاسلام من ظلمة الكفر ودياجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره .

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وعمرة مجاهدة للتقين ورياضة للتعبدين والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والردائل الواضحة والخبائث البعده عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة كأن الأخلاق الجلية هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد . وأين منه للرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد . ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوات الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوات حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكت وترادفت الملل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنيق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها فله الجنة هو المراد بقوله تعالى - قد أفلح من زكاها - وإمامها هو المراد بقوله - وقد خاب من دساها - ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جبل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل

(١) حديث قال الله عز وجل: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي. أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب إنه مضطرب الاسناد .

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

الثناء وغيره من
الخلق والثواب من
الله تعالى والسخط
لا يتطرق إليه الرياء
لأنه ينبع من النفس
الزكية المرتفعة عن
الأعواض دنيوا وآخرة
لأن طلب العوض مشعر
بالخل لكونه معلولا
بطلب العوض لما
تعرض سخاء فالسخط
لأهل الصفاء والائثار
لأهل الأنوار ويجوز
أن يكون قوله تعالى
- إنما نطعمكم لوجه
الله لا نريد منكم
جزاء ولا شكوراً - أنه
نفي في الآية الإطعام
لطلب الأعواض حيث
قال لا نريد بعد
قوله لوجه الله
فما كان له لا يشعر
بطلب العوض بل
الفرصة لطهارتها
تتجذب إلى مراد الحق

قل اللهم قوّن قوّاه بحسن الخلق والسّخاء ولما خلق الله السّكفر قال اللهم قوّن قوّاه بالبخل وسوء الخلق (١) « وقال صلى الله عليه وسلم » إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لديكم إلا السّخاء وحسن الخلق ألا فزينا دينكم بهما (٢) « وقال عليه السلام » حسن الخلق خلق الله الأعظم (٣) « وقيل « يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً قال أحسنهم خلقاً (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (٥) « وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل (٦) « وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك (٧) « وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً (٨) « وعن أبي مسعود البدرى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم حسنت خاتى فحسن خلقى (٩) « وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق (١٠) « وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه وحسن خلقه ومروءته عقله (١١) « وعن أسامة بن شريك قال « شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى العبد قال : خلق حسن (١٢) «

(١) حديث أبي الدرداء أول ما بوضع في الميزان حسن الخلق الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود وث من حديث أبي الدرداء ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وقال غريب وقال في بعض طرقه حسن صحيح (٢) حديث إن الله استخلص هذا الدين لنفسه الحديث الدارقطني في كتاب الاستجداء والحرايطى في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث حسن الخلق خلق الله الأعظم الطبرانى في الأوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف (٤) حديث قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً قال أحسنهم خلقاً ذلك من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكل المؤمنين والطبرانى من حديث أبي أمامة أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً (٥) حديث إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق البزار وأبو يعلى والطبرانى في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (٦) حديث سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقى في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير (٧) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك الحرايطى في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى في كتاب الآداب وفيه ضعف (٨) حديث البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً الحرايطى في مكارم الأخلاق بسند حسن (٩) حديث أبي مسعود البدرى اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى الحرايطى في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة (١٠) حديث عبد الله بن عمرو اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق الحرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين (١١) حديث أبي هريرة كرم للرد دينه ومروءته عقله وحسن خلقه حب وك وصحبه على شرطم والبيهقى . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال إسناده صحيح (١٢) حديث أسامة بن شريك شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد قال خاتى حسن ه وتقدم في آداب الصّحبة .

على الجنة قلت
يا جبريل لمن هذه
قال للسكاظمين النقيض
والعافين عن الناس
روى أبو هريرة رضى
الله عنه « أن أبا بكر
رضى الله عنه كان
مع النبي صلى الله
عليه وسلم في مجلس
جاء رجل فوقع في
أبي بكر وهو ساكت
والنبي عليه السلام
يتبسم ثم رد أبو بكر
عليه بعض الذى قال
فغضب النبي وقام
فلحقه أبو بكر فقال
يا رسول الله شتمنى
وأنت تبسم ثم رددت
عليه بعض ما قال
فغضبت وقت فقال
إنك حيث كنت
ساكتاً كان معك
ملك يرد عليك فلما
تكلمت وقع الشيطان

وقال صلى الله عليه وسلم «إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»^(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفه أو خلق يمشي به بين الناس»^(٢) وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»^(٣) وقال أنس يينا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال «إن حسن الخلق ليزيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد»^(٤) وقال عليه السلام «من سعادة الرء حسن الخلق»^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم «الجن حسن الخلق»^(٦) وقال عليه السلام لأبي ذر «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق»^(٧) وعن أنس قال «قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أ رأيت للرأة يكون لها زوجان في الدنيا تموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون، قال لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم «إن للسلم للسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته»^(٩) وفي رواية «درجة الظمآن في المواجر» وقال عبد الرحمن بن ممره كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال «إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى»^(١٠) وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليلج بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة»^(١١) وروى «أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته

فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ليس عبد يظلم بمظلة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة ينتقى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة». أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكرخي قال أنا الترياقى قال أنا الجراحي قال أنا الهبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا أبو هشام الرقاعي قال ثنا محمد ابن فضيل عن الوليد ابن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن

(١) حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا طس طس من حديث أبي هريرة إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا للطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان في آداب الصلوة (٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يمتد بشيء من عمله الحديث الخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٣) حديث اللهم اهدني لأحسن الأخلاق الحديث م من حديث علي (٤) حديث أنس إن حسن الخلق ليزيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه طب وطس والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا (٥) حديث من سعادة للرء حسن الخلق الخرايطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف (٦) حديث الجن حسن الخلق الخرايطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بأسناد ضعيف (٧) حديث أنس يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق ه جب من حديث أبي ذر (٨) حديث أنس قالت أم حبيبة يا رسول الله أ رأيت للرأة يكون لها زوجان البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الأخلاق بأسناد ضعيف (٩) حديث إن للسلم للسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه الحديث أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن لمعة (١٠) حديث عبد الرحمن بن ممره إني رأيت البارحة عجبا الحديث الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف (١١) حديث إن العبد ليلج بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة الحديث طب والخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصهبانيين من حديث أنس بإسناد جيد

فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه ثم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال عجبت لهذا الذي كن عندي لما سمعت صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال يا عذوات أنفسهن آهينني ولا تهين رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن نعم أنت أغاظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم إياها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيدي ما ليك الشيطان قط سالكا لجا لإسلاك لجا غيرك^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «سوء الخلق ذنب لا يفر وسوء الظن خطيئة تفوح»^(٢) وقال عليه السلام «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم»^(٣) الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الإنسان خير قال الدين قال فإذا كانت اثنتين قال الدين والمال قال فإذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فإذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق قال فإذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فإذا كانت ستا قال يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو تقي تقى الله ولى ومن الشيطان برى وقال الحسن : من ساء خلقه عذب نفسه ، وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد ، وقال يحيى بن معاذ في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق ، وقال وهب بن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا ، وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فليل له في ذلك فقال بكيت رحمة له فارقت وخلفه معه لم يفارقه . وقال الجعيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه : الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان ، وقال السكتاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزابلوهم بالأعمال ، وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات ، وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العز - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا ، وقال لكل بانيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق ، وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

(بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق)

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصفروا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول

- (١) حديث إن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرن الحديث متفق عليه (٢) حديث سوء الخلق ذنب لا يفر لا يفر الحديث طعن من حديث عائشة ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه واستاده ضعيف (٣) حديث إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم الطبراني والحرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصفيانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بمحدثين .

حقيقة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا » وقال بعض الصعابة « يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقرى ولا يضيف فيمربى أفأجزه قال لا أقره » وقال الفضيل القثوة الصفح عن عثرات الإخوان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الواصل المكافي ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مكارم الأخلاق

الحسن : حسن الخلق بسط الوجه وبذل الدي وكف الأذى . وقال الواسطي هو أن لا يغاصم ولا يغاصم من شدة معرفته بالله تعالى ، وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال اللؤم . وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطي مرة هو إرضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى ، وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك للكفاة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة أن لا يتهم الحق في الرزق ويشق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يصعبه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال طي رضى الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال ، وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق ، وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لأنفسه ثم ليس هو عيطا بجميع الثمرات أيضا وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من قتل الأقاويل المختلفة فتقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة ، وذلك لأن الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره بأضافته إليه إذا قال تعالى - إني خالق بشر من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين - فبه طي أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين ، والراد بالروح والنفس في هذا اللقاع واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة الحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذلك اللال على النذور الحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بمجد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم ، فهنا أربعة أمور : أحدها فعل الجليل والقيس . والثاني القدرة عليهما . والثالث للفرقة بهما . والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل قرب شخص خلقه السخاء ولا يذلل إما لفقده المال أو للمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يذل إما لباعث أولياءه وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الامساك والاعطاء بل إلى الضدين واحد وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقيس جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن الشيء الرابع وهو الهيئة التي بها تستمد النفس لأن يصدر منها الامساك أو البذل فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهر مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والحد بل لابد من حسن الجميع لتمام حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناصبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجليل والقيس في الأفعال فإذا

أن تغفو همن ظلك
وتصل من قطعك
وتعطى من حرمك
ومن أخلاق الصوفية
البشر وطلاقة الوجه.
الصوفي بكاء في خلوته
وبشره وطلاقة وجهه
مع الناس فالبشر على
وجهه من آثار أنوار
قلبه وقد تنازل باطن
الصوفي منازل إلهية
ومواهب قدسية
يرتوى منها القلب
ويعتلى فرحا وسورا
قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرحوا -
والسرور إذا تمكن من
القلب فاض على الوجه
آثاره قال الله تعالى
موجوه يومئذ مسفرة
أى مضيئة مشرقة
مستبشرة ساء فرحة
فيل أشرفت من طول
ما غبرت في حيل

صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا - وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعنى إشارة العقل والشرع . وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح الشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال النفذ المعنى لإشارة العقل والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ومثالها مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الحصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كاللدى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جينا وخورا وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا والمهمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور . وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبا وجريزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة فاذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتعملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ، ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الدهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها تصدر الجريزة والسكر والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والفجارة والحق والجنون ، وأعنى بالعمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فتدريكون الإنسان فخر إلى شيء دون شيء والفرق بين الحق والجنون أن الأحق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق للوصول إلى الغرض . وأما المجنون فإنه يختار مالا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإشارته فاسدا . وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطاة والتكبر والعجب . وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب . وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشرم والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والمتكبر والمجانة والعبث والمق والחסد والشهامة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربته من

الله ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيض نور السراج على الزجاج والمشكاة فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح فإذا تنعم القلب بليليد السامرة ظهر البشر على الوجه قال الله تعالى - تعرف في وجوههم نضرة النعيم - أي نضارته وبريقه قال أنضر النبات إذا أزهى ونور - وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - فلما نظرت نظرت فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور الشهادة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلي وإذا شرقت الشمس على المرأة الصقولة استنارت

رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه ويقندون به في جميع الأنفال ، ومن اتقك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأصداها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين البمدفيني أن يعد كما أن الأول قريب من الملك القرب فينبغي أن يقتدى به ويتقرب إليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليعلم مكارم الأخلاق كما قال (١) وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى - إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون - فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال وقد وصف الله تعالى الصعابة فقال - أشداء على الكفار رحماء بينهم - إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

(بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة)

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استغفل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتركية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبط دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير واستدل فيه بأمرين : أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فالخلق الظاهر لا يقدر على تغييرها فالقصور لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح الباطن يجرى هذا المجرى والثاني أنهم قالوا حسن الخلق يجمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده . فقولوا كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والوعاظ والتأدييات ولما قال رسول الله ﷺ «حسنوا أخلاقكم» (٢) وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البريمة يمكن إذ ينقل البازي من الاستبحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والامساك والتخلة والفرس من الجراح إلى السلاسة والالتقياد وكل ذلك تغير للأخلاق . والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن قول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسما والكوأكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد بأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربة إليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربة فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم تقدر عليهما أصلاً ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليهما وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاحنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول واختلافها سببان : أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلية وامتداده مدة الوجود فان قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمراً وأعصاها

الجدران قال الله تعالى
- سبحانه في وجوههم
من آراء السجود وإذا
تأثر الوجه بسجود
الظلال وهي القوالب
في قول الله تعالى
- وظلالهم بالسجود
والأصالة - كيف لا يتأثر
بشهود الجبال . أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا
الكرخي قال أنا
الترياق قال أنا الجراحى
قال أنا المحبوني قال أنا
أبو عيسى الترمذى قال
ثنا قتيبة قال ثنا
للكندر بن محمد بن
النكدر عن أبيه عن
جابر بن عبد الله قال
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم كل معروف
صدوق وإن من المعروف
أن تلقى أخاك بوجه
طلق وأن تفرغ من

(١) حديث بعثت لأتكم مكارم الأخلاق تقدم في آداب الصعبة (٢) حديث حسنوا أخلاقكم أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ بن عمرو بن الجموح حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات

على التغير قوة الشهوة فانها أندم وجودا إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلقه الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثاني أن الخلق قديماً كد بكثرة العمل بمقتضاها والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه على أربع مراتب : الأولى وهو الإنسان الفحل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقيبح بل يقي كآفطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستم شهوته أيضاً باتباع الذات فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يجعله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان . والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل يزين له سوء عمله فتعاطاه انتقاياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد ضعفت لوظيفة عليه إذ عليه قلع مارسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتقاد للفساد والآخر أن يفرس في نفسه صفة الاعتقاد للصالح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن اتهمض لها بحمد وتشمير وحزم . والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة للمستحسنة وأنها حق وجيل وتربي عليها فهذا يكاد تنتفع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على التدور وذلك لتضاعف أسباب الضلال . والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب للراتب وفي مثله قيل ومن العناء رياضة المحرم ومن التعذيب تهذيب الديب والأول من هؤلاء جاهل فقط والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشريد ، وأما الخيال الآخر الذي استدلوأ به وهو قولهم إن آدمي مادام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكيفية ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلية فلواتطعت شهوة الطعام لملك الإنسان ولو انقطعت شهوة الواقع لانتقطع التنزل ولو انعدم الغضب بالكيفية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولملك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يجعله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إبطاء ذلك بالكيفية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يغلو عن التهور وعن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته متقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى - أشداء على الكفار رحماء بينهم - وصفهم بالشدّة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكيفية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»^(١) . «وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق»^(٢) وقال تعالى - والكاذمين الغيظ والمافين عن الناس - ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما

(١) حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر م من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر (٢) حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان الغضب لا يخرج عن الحق الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه لهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله وللمسلم ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه الحديث .

دلوك في إثناء أخيك»
وقال سعد بن
عبد الرحمن الزبيدي
يسجن من القراء كل
سهل طلق مضحك .
فأما من تلقاه بالبشر
ويلقاك بالبوس كأنه
يمن عليك فلا أكثر
الله في القراء مثله ومن
أخلاق الصوفية السهولة
ولين الجانب والتزول
مع الناس إلى أخلاقهم
وطباعهم وترك
التعسف والتكلف
وقد روى في ذلك عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أخبار
وأخلاق الصوفية
تحاكي أخلاق رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وكان يقول عليه الصلاة
والسلام «أما إنى أمزح
ولا أقول إلا حقاً» روى
«أن رجلاً قال له زاهر

يمكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها على الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة وللشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - وقال تعالى - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط - وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشراهة والجود قال الله تعالى - واكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين - وقال في الغضب - أشداه على الكفار رحماء بينهم - وقال ﷺ « خير الأمور أوسطها (١) » وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى - إلامن أتى الله بقاب سليم - والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منها أي لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه فان الحريص على الاتفاق مصروف القلب إلى الاتفاق كما أن الحريص على الامساك مصروف القلب إلى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتورع والعفة بين الشراهة والجود وكذلك سائر الأخلاق فكلما طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن ، نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ويذم إمساك المال رأسا ولا يرخس له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذرا في استبقاء بخله وغضبه وظن أن القدر المارخص فيه فاذا قصد قطع الأصل وبالع في ولم يتيسر له إلا كسر سوره بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود فلا يخف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

(بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة)

قد عرف أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الانسان ويولد كاملا العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب بل خلقنا معتدلين متقادين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون في الطبع والقطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبي خلق صادق للهجة سخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتناء ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثاني اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال التواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعيا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق الحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه قديما فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يذله دون الذي يذله عن كراهة والتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ (١) حديث خير الأمور أوسطها البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا .

ابن حرام وكان بدويا وكان لا يأتي إلى رسول الله إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله فجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله في سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاها ذلك اليوم فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فقبل بكفيه فقال النبي عليه السلام من يشتري الصدة قال إذن تهديني كاسدا يا رسول الله فقال ولكن عند الله ربيع ثم قال عليه السلام لكل أهل حضر بادية وبادية آل ههنا زاهر بن حرام . وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ للقدس عن أبيه قال

الأخلاق الدينية في النفس ما لم تعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرعة عني في الصلاة ^(١) » ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستئصال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ، نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى - وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين - وقال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ^(٢) » ثم لا يكتفى في نيل السعادة الواعدة على حسن الخلق استلذا الطاعة واستكراه العصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكل ولذلك « لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال : طول العمر في طاعة الله تعالى ^(٣) » ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأظهر والأخلاق أقوى وأرسخ وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وإيماناً كد تأثيرها بكثرة للمواظبة على العبادات وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ورسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملها إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرعة العين ومصير العبادات لذينة فإن العادة تقتضي في النفس محجائباً أعرب من ذلك فاناقد نرى للولك والنعمين في أحزان دائمة ونرى القمار للفلس قد يخلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستغل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار بما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً رجليه وهو يحس بألمها لفرحه بالطيور وحر كاتها وطيرانها وتحديقها في جوار السماء بل نرى الفاجر الصار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياطوطى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته في الصبر على ذلك حتى يرى ذلك غفراً لنفسه ويقطع الواحد منهم إرباً بإرباطي أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصير على الإنكار ولا يبالى بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كالأول وشجاعة ورجولية فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرعة عينه وسبب افتخاره بل لاهالة أخس وأقبح من حال الخنث في تشبهه بالاناث في تنف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى الخنث في فرح بحاله وافتخار بكاله في تخنثه يتباهى به مع الخنثين حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاخر والبهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومتاهدة ذلك في المخالطين والعارف فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى التماح فكيف لا تستلذ الحق لوردت إليه مدة والتمت المواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الليل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ،

(١) حديث وجعلت قرعة عني في الصلاة ن من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير طب (٣) حديث سئل عن السعادة فقال طول العمر في عبادة الله رواء القضاء في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ولترمذى من حديث أبي بكره وصححه أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله.

أنا الطهر بن محمد
الفيقيه قال أنا أبو
الحسن قال أنا أبو عمرو
ابن حكيم قال أنا
أبو أمية قال حدثنا
عبيد بن اسحق الطار
قال ثنا سنان بن
هرون عن حميد عن
أنس قال « جاء رجل
إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال :
يا رسول الله احملني
على جبل فقال أحملك
على ابن الناقة قال أقول
لك احملني على جبل
وتقول أحملك على
ابن الناقة فقال عليه
السلام فالجبل ابن
الناقة « وروى صهيب
قال « أتينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وبين يديه تمر يأكل
فقال أصب من هذا
الطعام فجعلت آكل

فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفة وعبادته فهو كالليل إلى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وإنما اغذاء القلب الحكمة والعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حبل به كإقديع حمل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض يقدر ميله إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرباض وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعها انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وقعها لا محالة وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور ويعرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصير الخدق في الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتباً بالطبع فلا طريق له إلا أن يتعاطى بمجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انغصص من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير قتيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقهاء حتى تتعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير قتيه النفس وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طالب قته النفس لا يأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليله ولا ينالها بتكرار ليله فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتخليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء الوابد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالسكسل وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صفائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاعة وكما أن تكرار ليله لا يحس تأثيره في قته النفس بل يظهر قته النفس شيئاً فشيئاً على التدرج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فان الجملة الكبيرة منها مؤثرة وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد فكل واحد منها تأثير فاسم طاعة الأولها أثر وإن خفي فله ثواب لا محالة فان الثواب بازاء الأثر وكذلك المعصية وكما من قتيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين صفائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يخطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتعتذر عليه التوبة إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من محالها وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً - الآية ولذلك قال على رضي الله عنه : إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة يضاء كلما ازداد الإيمان أو داذ ذلك اليأس فاذا استكمل العبد الإيمان ايض القلب كله وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله فاذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والقطرة وتارة تكون باعتماد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة

من التمر فقال أتناكل وأنت رمد قلت إذن أمضغ من الجانب الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم » وروى أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم : يا دا الأذنين » . وسئلت عائشة رضى الله عنها « كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في البيت قالت كان ألين الناس بساما ضحاكاً » وروى أيضاً « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقت ثم سابقها بعد ذلك فسبقتها قال هذه بتلك » . وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح المروى قال أنا أبو نصر

ومصاحبهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقها الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع وافق له قرناء السوء فعمل منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . -

(بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق)

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس واللبل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له واللبل عن الاعتدال مرض فيه فلتنخذ البدن مثالا . فقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجاب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها مثال البدن في علاجه بمحو العال عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه وكما أن الغالب على أصل الزواج الاعتدال وإنما تفتري العدة المضرة بعارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية فبالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالمعروف وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تهذيب القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها وكما أن العلة الغيرة لاعتدال البدن الموجبة للرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتريات لعلاج الأبدان للريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجهود والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والديار بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبدأ بالآباد وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه بالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار وكما أن معيار الدواء مأخوذ من غير العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أي ضعيفة أم قوية فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة الريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ التتبع الذي يطيب نفوس للريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على الريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي أن ينظر في مرض الريد وفي حاله وسنه وزاجه وما تحتله بينه من الرياضة وينبغي على ذلك رياسته فإن كان الريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمصيبة فيأمره أولا بتركها

الترياقي قال أنا

أبو محمد الجراحي

قال أنا أبو العباس

المجسوبي قال أنا

أبو عيسى الحافظ

الترمذي قال ثنا

عبد الله بن الوضاح

الكوفي قال ثنا

عبد الله بن إدريس

عن شعبة عن أبي

التياح عن أنس رضي

الله عنه قال لا إن كان

رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليخاطبنا

حتى إنه كان يقول

لأخ لي صغير يا أبا عمير

ما فعل النغير والنغير

عصفور صغير . وروى

أن عمر سابق زيرا

رضي الله عنهما فسبقه

الزير فقال : سبقتك

ورب الكعبة ثم ساجده

مرة أخرى فسبقه عمر

فقال عمر : سبقتك

فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذ منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبية عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للسكدية والسؤال فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالدل ولاذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه الواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه فلن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكسب الواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعوته في النظافة فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون للرفعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه ومن لطائف الرياضة إذا كان المرید لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من الحلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم كما يرغب الصبي في السكتب باللبب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب إلى الرينة وفاخر الثياب ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فليقل إلى جاه أخف منه وكذلك سائر الصفات وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه وكذلك إذا رآه شابا متشوقا إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يطر ليلة على الماء دون الحبز و ليلة على الحبز دون الماء ويمنعه اللحم والأدم رأسا حتى تذلل نفسه وتنكسر شهوته فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع وإن رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتبه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به للكل وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج ، وعباد الهند يعالجون السكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نوبة واحدة وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر إذ خاف من فقرته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق السلكي فيه سلوك مسلك الضادة لكل ماتهواء النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى - وأما من حاف مقام ربه وهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى - والأصل اللهم في المجاهدة الوفاء بالعزم وإداعزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي أن يصبر ويستمر قامه إن عود نفسه ترك العزم ألقت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقص عزم

ورب السكبة وروى
عبد الله بن عباس
قال قال لى عمر تعال
أنا فسك فى الماء أينا
أطول نفسا ونحن
محرمون . وروى
بكر بن عبد الله قال
كان أصحاب رسول
الله صلى الله عليه
وسلم ينازحون حتى
يتبادحون بالبطين
فاذا كانت الحقائق
كانوا هم الرجال يقال
بدح يدح إذا رمى
أى يترامون بالبطين
وأخبرنا أبو زرعة
عن أبيه قال أنا الحسن
ابن أحمد الكرخي
قال ثنا أبو طالب
محمد بن محمد بن
إبراهيم قال ثنا
أبو بكر محمد بن محمد
ابن عبد الله قال حدثني
إسحاق الحربي قال ثنا

فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب الحاسبة والمراقبة وإذا لم يخوف النفس بقوة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية .

(بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة)

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعدى عليه فله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض البدن يتعدى عليها البطش ومرض العين أن يتعدى عليها الابصار وكذلك مرض القلب أن يتعدى عليه فله الخاص به الذي خاق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواء والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصة النفس التي للأدنى ما يتميز بها عن البهائم فانه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقوع والإبصار أو غيرها بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدتها ومحتزها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم - إلى قوله - أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بوضوح حتى يأتي الله بأمره - فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض وهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يضل عنه وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه عخالفة الشهوات وهو نزع الروح فان وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه فان الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب للمريض قلما يلتفت إلى علاجه فلماذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً والمدرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراآت فهذه علامات أصول الأمراض وأما علامات عودها إلى الصحة بعد للعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فان كان يعالج داء البخل فهو للهلك للبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه يذل المال وإنفاقه ولكنه قد يذل المال إلى حد يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين فان أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق المهدور فان كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألد عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فان صار البذل على غير المستحق ألد عندك وأخف عليك من الامساك بالحق قد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الامساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتفسير الأفعال وتصيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجع عندك البذل على الامساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا اللقاع خاصة ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق

أبو سلمة قال ثنا حماد
ابن خالد قال أنا محمد بن
عمرو بن علقمة قال ثنا
أبو الحسن بن عيص
الليث عن يحيى بن
عبد الرحمن بن حاطب
ابن أبي بلتعة قال إن
عائشة رضى الله عنها
قالت وأثبت النبي صلى
الله عليه وسلم بحريرة
طبعها له وقلت لسودة
والنبي صلى الله عليه
وسلم بيني وبينها كلتي
فأثبت قتلتي لها كلتي
فأثبت قتلتي لتأكلن
أو لألطخن بها وجهك
فأثبت فوضعت يدي
في الحريرة فلطخت بها
وجهها فضحك النبي
صلى الله عليه وسلم
فوضع يده وقال
لسودة الطلخى وجهها
فلطخت بها وجهي
فضحك النبي صلى الله

بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منتظمة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس للطمئة راضية مرضية داخلية في زمرة عباد الله للقرينين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية العموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم ، ومن استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ولما ينفك العبد عن ميل عن الصراط للمستقيم أعنى الوسط حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذي مال إليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم تنجي الدين اتقوا - أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله - اهدنا الصراط المستقيم - إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيتنى هود فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى - فاستقم كما أمرت - فالاستقامة على سواء السبيل في غاية العموض ولكن ينبغي أن يجتهد الانسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على تحقيقها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليفتقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من التقيين .

(بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه)

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الخنثع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق : الأول أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شأن للرديع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده . الثاني أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيقا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعبوبه الباطنة والظاهرة ينبه عليه فيكذب كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الذي بلغك عنى مما تكرهه فاستعفى فأخ عليه فقال بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة وأن لك حلتين حلة بالتهار وحلة بالليل قال وهل بلغك غير هذا ؟ قال لا فقال أما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناقنين فهل ترى على شيئا من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت نهمة لنفسه رضي الله عنه فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه إلا أن هذا أيضا قد عز قتل في الأصدقاء من يترك المداينة فيخبر بالعيوب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو في أصدقاتك عن حدود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيوب عينا أو عن مدهان يخفى عنك بعض عيوبك ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس قليل له لم لا تخلص الناس ؟ فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي فكانت شهوة دوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بقتبه غيرهم

عليه وسلم فمر عمر رضي الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل فقال قوما فاعسلا وجهكم قال قالت عائشة رضي الله عنها فما زلت أهاب عمر لهية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ووصف بعضهم ابن طاوس فقال كان مع الصبي صبا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحاة إذا خلا . وروى معاوية بن عبد الكريم قال كنا نذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزج عنده وعمازحنا وكنا نخرج من عنده ونعمن نضحك وكنا إذا دخلنا

وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويمررنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لهاغة فلو نبهنا منه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه مئة رفرحنا به واشتغلنا بازالة القرب وإبعادها وقتلها وإنما نكاتها على البدن ويدوم ألمها يوما فإدونه ونكايه الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد للوت أبدا أو آلافا من السنين ثم إنا لا نقرح عن يئسها عليها ولا نشغل بازالتها بل نشغل بمقابلة الناصح بمثل معالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الإيمان فنبأ الله عز وجل أن يلممنا رشدنا ويصيرنا بعيونا ويشغلنا بمداوتها ويوقتنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله . الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا ، ولعل انتفاع الانسان بدوة مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويغفي عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب المدو وحمل مايقوله على الحسد ولكن البصير لا يغلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم . الطريق الرابع : أن يخاطب الناس فكل مارآه مذموما فيها بين الخافق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن للؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى لما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليستفقد نفسه وبطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن الؤدب . قيل لمبى عليه السلام من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من قد شحنا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناهما في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناهما لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجي من الهلاك الذي هو بصدده .

(بيان شواهد الثقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة

أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات)

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فإن مجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى - رفع الله الدين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا وإذا اطاع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذي يقتضى الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقوال العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى سونى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - وقال تعالى - أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - قيل نزع منها عجة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم «الؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يخضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه» (١) فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

(١) حديث للؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يخضه الحديث أبو بكر بن لال في

مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

على الحسن تخرج من عنده ونحن نكاد نكفي فلهذا الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يتمدونه من للداعة في الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرم إلى سعة رحمة الله فاذا خلوا وقوا وموقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال ولا يقف في هذا للنفي على حد الاعتدال إلا صوفي قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم متى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذروا نذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب
 للتعلق بشهوات الدنيا عقولها عنى عجيوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة
 لموعود غائب لم يره وقال نبينا ﷺ تقوم قدموا من الجهاد «مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى
 الجهاد الأكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس» (١) وقال صلى الله عليه وسلم
 «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «كف أذاك عن نفسك
 ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيعلمن بعصك بعضا إلا أن ينظر الله تعالى
 ويستر» (٣) وقال سفيان الثوري ما عجلت شيئا أشد على من نفس مرة لى ومرة على وكان أبو العباس
 الوصلى يقول لنفسه يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتعمين ولا فى طلب الآخرة مع الصادق المجتهدين
 كأنى بك بين الجنة والنار تحبين يا نفس ألا تستحين وقال الحسن مالداه الجرح بأحوج إلى اللجام
 الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ الرازى جاهد نفسك بأسيا فى الرياضة والرياضة على أربعة أوجه
 القوت من الطعام والقمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة
 الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإزادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال
 الأذى البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شىء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت
 من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام
 من غيرة التهجذ وقلة المنام وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن
 من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفىها من ظلمة شهواتها فتنبو من عوائل آفاتنا فتصير عند ذلك
 نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول فى ميدان الحيرات وتسير فى مسالك الطاعات كالفرس الفاره
 فى الميدان والملك التزه فى البستان وقال أيضا أعداء الانسان ثلاثة دنياه وشيطانه ونفسه فاحترس
 من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من
 استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها محصورا فى سجن هواها مقهورا مغفولا زمامه فى يدها
 تجر به حيث شاءت فتمنع قلبه من القوائد وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم
 لا يدرك إلا بترك النعيم قال أبو يحيى الوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجرة
 الندامات وقال وهيب بن الورد ما زاد على الحبر فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتبئأ
 للذل . ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بئد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على
 راية الطريق فى يوم موكبى وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته سبحانه من جعل
 للملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له إن الحرص والشهوة صيرا للملوك عبيدا وذلك جزاء
 المفسدين وإن الصبر والتقوى صيرا للعبيد ملوكا فقال يوسف كى أخبر الله تعالى عنه - إنه من يتق ويصبر
 فإن الله لا يضيع أجر المحسنين - وقال الجنيد أرقت ليلة فعمت إلى وردى فلم أجدا الحلوة التى كنت أجدها
 فأردت أن أنام فلم أقدر فحسنت فلم أطلق الجلوس فخرجت فاذا رجل ملتف فى عبادة مطروح على الطريق
 فلما أحس بى قال يا أبا القاسم إلى الساعة قعلت يا سيدى من غير موعد فقال بلى سألت الله عز وجل
 أن يحرك لى قلبك قعلت قد فعل لما حاجتك قال فنى يصير داء النفس دواءها قعلت إذا خالفت النفس

ولا يصلح الاكثار
 من ذلك للمريدين
 للتدئين لقلة علمهم
 ومعرّضهم بالنفس
 وتهديم حد الاعتدال
 فللنفس فى هذه
 اللواتن نهضات ووثبات
 تخرج إلى الفساد وتخرج
 إلى العناد فالنزول إلى
 طباع الناس يحسن عن
 سعد عنهم وترقى لملو
 حاله ومقامه فينزل إليهم
 وإلى طباعهم حين
 ينزل بالعلم فأما من لم
 يصعد بصفاء حاله عنهم
 وفيه بقية مزح من
 طباعهم - ونفوسهم
 الجائعة الأماراة بالسوء
 إذا دخلت فى هذه
 للدخل أخذت النفس
 حظها واغتنت ما كرهها
 واستروحت إلى الرخصة
 والنزول إلى الرخصة
 يحسن لمن يركب

(١) حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر البيهقى فى الزهد وقد تقدم فى
 شرح محابب القلب (٢) حديث المجاهد من جاهد نفسه فى أثناء حديث وصحه وه من
 حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله الحديث
 لم أجده بهذا السياق .

هو اها فأقبل على نفسه فقال اسمي قد أجيتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسميه إلا من الجيد ها قد سمعته ثم انصرف وما عرفته . وقال يزيد الرقاشي إليك على الماء البارد في الدنيا لكي لا أحرمه في الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أنكم قال إذا اشتيت الصمت قال متى أصمت قال إذا اشتيت الكلام . وقال على رضي الله عنه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه اصبري فوالله ما منعك إلا من كرامتك على ، فاذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك لا يدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة وسرها أن لا تمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر لا بقدر الضرورة فيكون مقتصرًا من الأكل والنكاح واللباس والسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألته فإذا مات غنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتنهي الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولًا بمعرفة الله وحبه والتفكير فيه والانتفاع إليه ولا قوة على ذلك إلا بالله ويتنصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الله ذكر والفكر قط لمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة : رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات العيشة فهو من الصديقين ولا يتنهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة . الثاني رجل استغرق الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين . والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعًا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه . والرابع رجل اشتغل بهما جميعًا لكن الدنيا أغلبت على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم قواده وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه ، اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فانك أنت للماز وربما يقول القائل إن التمتع بالمباح مباح فكيف يكون التمتع بسبب البعد من الله عز وجل وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة وللباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا . وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتيته فأخذت منه واحدة فشقتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركها فرأيت رمانا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزناير فقلت السلام عليك فقال عليك السلام يا إبراهيم فقلت كيف عرفني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل فلوسأله أن يعميك من هذه الزناير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلوسأله أن يعميك من شهوة الرمان فان دغ الرمان يعمد الانسان ألمه في الآخرة ولغ الزناير يعمد ألمه في الدنيا فتركته ومضيت . وقال السري أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزتي في دبس فما أطعمتها فاذن لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التمتع بالمباح فان النفس إذا لم تمنع بعض الباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن النية والفضول خلقه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يشككم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يعمل وكذلك سائر الشهوات لأن الذي يشتهى به الحلال هو بعينه الذي يشتهى الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فان لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته ، فهذه إحدى آفات المباحات

الزمنه غالب أوقاته
وليس ذلك شأن
البتدي فالعقوبة
الملاء فيما ذكرته
تروح يطون حاجة
القلب إلى ذلك والشيء
إذا وضع للحاجة يتقدر
بقدر الحاجة ومعيار
مقدار الحاجة في ذلك
علم فامض لا يسلم لكل
أحد قال سيد بن
الناصر لأنه اقتصد في
مزاحك فلا فرط فيه
يذهب بالبهاء ويعجز
عليك السفهاء وتركه
يفيظ للزناين
ويوحش الخاطين فإله
بعضهم للزناح مسلبة
للبناء مقطعة للاخاء
وكما يصعب معرفة
الاعتدال في ذلك يصعب
معرفة الاعتدال في
الضحك والضحك من
خصائص الانسان

وراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بالنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير عملة كالسكران الذي لا يفقه من سكره وذلك القرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر للوت وأحوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها - وقال تعالى - وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع - وقال تعالى - اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - الآية وكل ذلك ذم لها ففسأل الله السلامة فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاناة الدنيا فوجدوها قاسية قهرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الله كرفلوا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ففطموها عن ملاذها وهودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلوا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة قد عذب بخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذ قصد تأديبه ونقله من التوب والاستيحاش إلى الاتقياد والتأديب فانه يحبس أولا في بيت مظلم وتغاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جواهر الهواء وينسى ما قد كان ألقه من طبع الاسترسال ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألقه إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ثم عودت الثناء والذكر والثناء ثانيا في الخلوة حتى يلبس عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يقتل على المرید في البداية ثم يتنم به في النهاية كالصبي يظلم عن الثدي وهو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكأؤه وجزعه عند الفطام ويشد ظوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلا عن اللبن ولكن إذا منع اللبن رأسيا يوما فيوما وعظم تعب في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبا فلوردد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه فيجبر الثدي ويصاف اللبن ويألف الطعام وكذلك الدابة في الابتداء تفرعن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السرج الذي ألقته بالسلال والقيود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزيها بالموت إذ قيل له أحب ما أحببت فانك مفارقة فإذا علم أنه من أحب شيئا يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فان ذلك يصعبه في القبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أولا أيا ما قاتل فان العمر قليل بالاضافة إلى مدة حياة الآخرة وما من قاتل إلا وهو راض باحتمال للشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ليقتنم به سنة أودعها وكل العمر بالاضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالاضافة إلى عمر الدنيا فلا بد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات السكرى كما قاله على رضى الله عنه . وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالتى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية ، أو بكثرة الأتباع في التدريس والافادة فينبغي أن يترك أولا ما به فرحه فانه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له فإياك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو بمن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه ثم إذا ترك أسباب الفرح

ويميزه عن جنس الحيوان ولا يصكون الضحك إلا عن سابقة تعجب والتعجب يستدعى الفكر والمكر شرف الانسان وخاصيته ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه في العلم ولهذا قيل إياك وكثرة الضحك فانه يمت القلب وقيل وكثرة الضحك من الرعونة . وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يفض الضحك من غير هجب للشاء في خير أرب وكرفرق بين المداعبة واللزاع قليل المداعبة ما لا يضرب جده والزاح ما يضرب جده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهوة في الصلاة

فليعتزل الناس وليفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والمكر فيه وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يجمع مادته مهما ظهر فإن لكل وسوسة سيئاً ولا تزول إلا بتقطع ذلك السبب والعلاقة ويلتزم ذلك بقية العمر فليس للجهد آخر إلا بالموت .

(بيان علامات حسن الخلق)

اعلم أن كل إنسان جاهل بعبود نفسه فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فإن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والنفاقين في كتابه وهي بحملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لنعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى - قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن الفحشاء معروضون - إلى قوله - أولئك هم الوارثون - وقال عز وجل - الثابتون العابدون الحامدون - إلى قوله - وبشر المؤمنين - وقال عز وجل - إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - إلى قوله - أولئك هم المؤمنون حقا - وقال تعالى - وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - إلى آخر السورة ، فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وقد جمعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض فليشتغل بتحصيل ما نقده وحقق ما وجدته وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١) وقال عليه السلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (٣) وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٤) وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم « أكل المؤمن إيمانا أحسنهم أخلاقا » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المؤمن ضحكوا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة » (٦) وقال « من سرتته حسنته وساءت سيئته فهو مؤمن » (٧) وقال « لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » (٨) وقال عليه السلام « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما » (٩) وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يجالس التجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن ينشئ على أخيه ما يكرهه » (١٠) وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون

(١) حديث للمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه الشيخان من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة (٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله (٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت متفق عليه أيضا من حديثهما وهو بعض الذي قبله (٥) حديث أكل المؤمن إيمانا أحسنهم أخلاقا متفق عليه من حديث أبي خلد بلطف إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطلقا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة (٦) حديث من سرتته حسنته وساءت سيئته فهو مؤمن أحمد والطبراني وكهجه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه طبرك وهجه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٨) حديث لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة ومرسلا وقد تقدم (٩) حديث لا يحل لمسلم أن يروع مسلما طلب طس من حديث النعمان بن بشير والبراز من حديث ابن عمر وإسناده صحيح (١٠) حديث إنما يجالس التجالسان بأمانة الله

من الذنب وحكم
ببطلان الوضوء بها
وقال يقوم الائم مقام
خروج الخارج
فلا اعتدال في المزاج
والضحك لا يتأتى إلا
إذا خلص وخرج من
مضيق الخوف والقبض
والهية فانه يقوم
بكل مضيق من هذه
المضايق بعض التقويم
فيعتدل الحال فيه
ويستقيم فالبسطة
والرجاء ينشئان المزاج
والضحك والخوف
والقبض يحكان فيه
بالعدل . ومن أخلاق
الصوفية ترك التكلف
وذلك أن التكلف
تصنع وتعمل وتمايل
على النفس لأجل الناس
وذلك يباين حال
الصوفية وفي بعضه خفي
منازعة للأقدار وعدم

كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول برا وصولا وقورا صبورا شكورا راضيا حلما رفيقا عفيفا شافيا لاهنا ولا سبابا ولا أنما ولا مفتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هاشاشا يحب في الله ويغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته في الطعام والشراب كالبيعة ^(١) » وقال حاتم الأصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرس والأمل وللمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله والمنافق راج كل أحد إلا الله وللمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله وللمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويكي والمنافق يسوء ويضحك والمؤمن يحب الخلوة والوحدة والمنافق يحب الخلطة والملا والمؤمن يزرع ويحني الفساد والمنافق يقطع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ومن شكك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه فان حسن الخلق احتمال الأذى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يوما مع أنس فذكره أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر بإعطائه ^(٢) » ولما كثرت قريش إيذاؤه وضربه قال « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون ^(٣) » قيل إن هذا يوم أحد فذلك أنزل الله تعالى فيه - وإنك لعل خلق عظيم - وبكى أن إبراهيم بن آدم خرج يوما إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال أنت عبد قال نعم فقال له أين العمران فأشار إلى المقبرة فقال الجندي إنما أردت العمران فقال هو المقبرة فعاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه وردده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا هذا إبراهيم بن آدم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقال إنه لم يسألني عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لأنني عبد الله فلما ضرب رأسى سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علت أنى أو جر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيه مني الشر . ودعى أبو عثمان الخيري إلى دعوة وكان الداعي قد أراد تجرته فلما بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ثم دعاه الثالثة وقال ارجع على ما يوجب الوقت فرجع فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فأكب على رجليه وقال يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فلما أحسن خلقك فقال إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا جازجر انزجر . وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما في سكة فطرحته عليه إبانة فجدسجد الشكر ثم جعل ينفذ الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقيل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فصول على الرماد لم يحزله

الرضا بما قسم الجبار ويقال التصوف ترك التكلف ويقال التكلف تخلف وهو تخلف عن شأو الصادقين . روى أنس ابن مالك قال شهدت وليمة لرسول الله مافيها خبر ولا لحم وروى عن جابر أنه أتاها ناس من أصحابه فاتاهم بخبز وخل وقال كلوا فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نعم الا دام الخل » وعن سفيان بن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسي فأخرج إلى خبزا ومالعا وقال كل لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لأحد تكلفتم لسمك والتكلف مذموم في جميع

الحديث تقدم في آداب الصبغة ^(١) حديث سئل عن علامة للمؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه في الصلاة والصيام الحديث لم أجده أصلا ^(٢) حديث كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية الحديث متفق عليه من حديث أنس ^(٣) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون حب والبيهي في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

أن يغضب ، وروى أن علي بن موسى الرضا رحمه الله عليه كان لونه يميل إلى السواد إذ كانت أمه سوداء وكان ينسابور حمام على باب داره وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه فتقدم رجل رستاق إلى باب الحمام ففتحه ودخل فترع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام فقال له قم واحمل إلي الماء فقام علي بن موسى وامتل جميع ما كان يأمره به فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاق وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلصها فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع مائه عند أمة سوداء ، وروى أن أبا عبد الله الحياطة كان يجلس على دكانه وكان له حريف مجوسى يستعمله في الحياطة فكان إذا خاط له شيئا حمل إليه دراهم زائفة فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يجبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فأتى المجوسى فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال بشئ ما عملت هذا المجوسى يعاماني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقها في البئر لئلا يفر بهامسها . وقال يوسف بن أسباط علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والنماسة العذرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطبلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولين فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل وما بلغ من حلمه قال بينا هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقه على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى . وقيل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا إخوتاه إن كن ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تندموا ساقى فتدعونى عن الصلاة ، وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف وقال إن كان قد بقي في نفسك شئ قتلته كي لا يسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك . وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعا ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام إليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى ، وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يامرائى فقال يا هذه وجدت اسمي الذى أضله أهل البصرة ، وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له لم تمسكه فقال لأنعم الحلم عليه فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الفسئ والعل والحقه بواطئها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهو لاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كاذكرنا . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يفتخر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المفلحون والصديقون .

(بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول تشوم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما تنشئ ومائل إلى كل ما يحال به

الأشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه والتكلف في الكلام وزيادة التماق الذى صار دأب أهل الزمان فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد وكم من يتعلم لا يعرف أنه تعلق ولا يظن له فقد يتعلم الشخص إلى حد يخرج به إلى صريح النفاق وهو مبين لحال الصوفى . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح المروى قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس الهبسوى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا أحمد بن منيع قال ثنا يزيد بن هرون عن

إليه ونعود الحير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شق وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالى له وقد قال الله عز وجل - يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا - ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيائته بأن يؤدبه ويهذبه ويصله بحسن الأخلاق ويحفظه من القراء السوء ولا يعود التعم ولا يحب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضائه وإرضاءه إلا امرأة سالحة متدنية تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشو الصبي انجبت طينته من الحبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الحباث ومهما رأى فيه محاليل التميز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه إذا كان محتشم ويستحي ويترك بعض الأعمال فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكل العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تميزه وأول ما يقلب عليه من الصفات شرم الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا يمينه وأن يقول عليه باسم الله عند أخذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره وأن لا يحقد النظر إليه ولا إلى من يأكل وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى بين اللقم ولا يبلطخ يده ولا توبه وأن يعود الحذر القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي للتأدب القليل الأكل وأن يحب إليه الاثثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الحشن ثم طعام كان وأن يحب إليه من الثياب البيض دون اللون والابريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والخشيش وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغب فيه فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب ردى الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذافضول وضحك وكيد ومجانة وإعما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في الكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأديباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يخرس في قلوب الصبيان بذور الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويمجأزى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ويهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتنفضح بين الناس ولا تنكسر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع اللامة وركوب القبايح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبايح وينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث السكل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يجبر عن التعم بل يعود الحشونة في الفرش

محمد بن مطرف عن
حسان بن عطية عن
أبي أمامة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال
«الحياء والعى شعبتان
من الإيمان والبذاء
والبيان شعبتان من
النفاق» البذاء الفحش
وأراد بالبيان ههنا
كثرة الكلام والتكاف
للناس بزيادة تماق
وثناء عليهم وإظهار
التفصح وذلك ليس
من شأن أهل الصدق
وحكى عن أبي وائل
قال مضيت مع صاحب
لى نزور سلمان فقدم
إلينا خبز شعير ومأجرا
جريشا فقال صاحبي
لو كان في هذا الملح
سعر كان أطيب فخرج
سلمان ورهن مطهرته
وأخذ سعرا فلما أكلنا
قال صاحبي الحمد لله

واللبس والطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا ترك تعود فعل القبيح ويعود في بعض النهار للشي والحركة والرياضة حتى لا يظلم عليه الكسل ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما إلى صدره ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والده أو شيء من مطاعمه وملابسه أو لوجه ودواته بل يعود للتواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المهتممين بل يعلم أن الرفقة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لوم وخسة ودناءة وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فانه يصعب في انتظار لقمة والطمع فيها . وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضمر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكبر أيضا وينبغي أن يعود أن لا يصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتشاءم بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يحد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللثام ويمنع العيّن رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ويمنع أن يتدبّر بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وخشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من القراء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قراء السوء وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب للمالك والنسوان وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جليلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يمتد في اللعب فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما عيت قلبه ويطل ذكاه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا ، وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسمح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يظلم على الصبيان فاذا وقع نشوء كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نصيبها ، وآنها دار عمر لدار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لدار عمر ، وأن الموت منتظر في كل ساعة وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نصيبه في الجنان فاذا كان النشوء صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر ، وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشرب الطعام واللباس والزينة والتفاخر بنا قلبه عن قبول الحق نبوة الخاطئ عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى فان الصبي مجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما

الذي قضا بما رزقنا فقال سلمان لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولاً وفعلًا وفي حديث يونس النبي عليه السلام أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كراماً من خبز شعير وجز لهم قسلاً كان يزرعونهم قال لولا أن الله لنن للتكفين لتكلفت لكم قال بعضهم إذا قصدت للزيارة قدم ماحضر وإذا استزرت فلا تبق ولا تنذر . وروى الزبير ابن العوام قال نادى نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً اللهم اغفر للذين يدعون

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (١) قال سهل بن عبد الله القسري كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معي الله ناظر إلى الله شاهد فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة فقلت فوقع في قلبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوما يسهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أبصه إياك والمصيبة فكنت أخلو بنفسى فبعثوا بي إلى المكتب فقلت إني لأخشى أن يتفرق على هي ولكن شارطوا العلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فوضيت إلى الكتاب فعملت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتى من خبز الشعير اثنتى عشرة سنة فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلى أن يعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيته البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألت عنه فأجابني فأقمت عنده مدة أتفنع بكلامه وأتأدب بأدابه ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويغزى لي فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحثا بغير ملح ولا أدم فكان يكفي ذلك الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسبح في الأرض سنين ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد فمأ رأيت أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

(بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدرج الريد في سلوك سبيل الرياضة)

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حارث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سببا مستمينا بنعيم الدنيا ولذاتها فان من كانت عنده خزانة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخزانة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حارث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر ولست أعنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص فان ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخزانة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقة فلا ومثل هذا المصدق إذا ألف الخزانة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة فاذا السانع من الوصول عدم السلوك والسانع من السلوك عدم الارادة والسانع من الارادة عدم الإيمان وسبب عدم الإيمان عدم الهداة وللذكرين والملاء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والنبيين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدهم وليس في علماء الدين من ينبههم فان تنبه منهم متنبه هج عن سلوك الطريق لجهله فان طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن سبج الطريق قصار ضعف الارادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتمطلت الطرق لاهالة فان تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حارث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أن له شروطا لا بد من تقديمها في بداية الارادة وله معصم (١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

لأموات أمسى ولا
يتكفون إلا إني برىء
من التكلف ومالحو
أما « وروى أن عمر
رضي الله عنه قرأ قوله
تعالى - فأثبتنا فيها حبا
وعبا وقضيا وزيتونا
ونخلا وحدائق غلبا
وفاكهة وأبا - ثم قال
هذا كله قد عرفناه
فما الأب قال ويبد
امر عساه فضر بها
الأرض ثم قال هذا
لعمر الله هو التكلف
غفدوا أيها الناس
ما بين لكم منه فما
عرقم أعمالوا به ومن لم
تعرفوا فسكوا علمه إلى
الله . ومن أخلاق
الصوفية الاتفاق من
غير إقتار وترك
للاذخار وذلك أن
الدم في يرى خزائن
فضل الحق فهو بمثابة

لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق. أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الارادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق فان حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون - والسد بين الريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والعصية وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والحرب من أسباب التذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان وعمرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فان غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيده وحجابا إذ ليس من شرط الريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا وأما العصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من الظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ماضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم فان من لم يصحح التوبة ولم يهجر العاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فان ترجمة عريية القرآن لا بد من تقديمها أولا ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه فكذلك لا بد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وأخرا ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها فاذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به فكذلك الريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا عالة ليهديه إلى سواء السبيل فان سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه فاده الشيطان إلى طرقة لا محالة فمن سلك سبل البوادي الهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون السبيل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فانها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فتعصم الريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يغالقه في ورده ولا صدره ولا يتيق في متابته شيئا ولا يذير وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب فاذا وجد مثل هذا التعمص وجب على مصلحه أن يحميه ويصممه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة والصمت والجوع والسر وهذا تحصن من القواطع فان مقصود الريد إصلاح قلبه لي شاهد به ربه ويصلح لقربه أما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه وفي ياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رفته ، ورقته مفتاح الكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فان مجاريه العروق المتكة بالشهوات وقال عيسى عليه السلام يا معشر الخواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التستري ما صار الأبدال أبدا إلا بأربع خصال : بإخماس البطون ، والسر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس فائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة وسيأتي بيان وجه التدرج فيه في كتاب كسر الشهوتين . وأما السر فانه يحلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرري والرائة المجلوة فيلوح فيه جمال

من هو مقيم على شاطئ بحر والقيم على شاطئ البحر لا يدخر الساء في قربته وراويته . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن يوم إلا له ملسكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعظم نفقا خلفاويقول الآخر اللهم أعط ممسكا نفقا » وروى أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لنفسه . » وروى أنه « أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طيرا فلما كان الضد أتاه به فقال رسول الله ألم أنهك أن تخبأ شيئا لنفسك فان الله تعالى يأتي

الحق ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتنا فتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة والسير أيضا نتيجة الجوع فان السير مع الشبع غير ممكن والنوم يقضى القلب ويمتعه إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب للكشف لأسرار القلب فقد قيل في صفة الأبدال إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال إبراهيم الحواس رحمه الله أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء . وأما الصمت فانه تسهله العزلة ولكن للمعزل لا يغلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرا به وتدير أمره فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فان الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم فانه يستروح إليه ويستقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه فالصمت يقطع العقل ويجلب الورع ويصل التقوى . وأما الخلوة فمما دفع الشواغل ومنبط السمع والبصر فانهما دلهيز القلب والقلب في حكم حوض تصب إليه مياه كرهية كدرة قدرة من أنهار الحواس ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها لينفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر وكيف يصح له أن ينزع الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من منبط الحواس إلا من قدر الضرورة وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوية أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة قليل له يا أيها المزمحل يا أيها للدثر (١) فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتنع العوارض القاطعة للطريق فاذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عتبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل وهي تلك الصفات أعنى أسرار العلاقات التي قطعها في أول الارادة وآثارها أعنى للال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصي فلا بد أن يغلب الباطن عن آثارها كما أغلب الظاهر عن أسبابها الظاهرة وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة طالبة على نفس الريد كما سبق ذكره فاذا كفى ذلك أضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويعينه من تسكير الأوراد والظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الأوراد وثمرتها أعنى ملازمة القلب لله كره الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتا إلى علاقته قال الشبلي للحصري إن كان يخطر بقلبك من الجملة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء عسى الله تعالى يحرام عليك أن تأتيني وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق للسهتر الذي ليس له إلا هم واحد فاذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية يفرد بها ويوكل به من

برزق كل غدا .
وروى أبو هريرة
رضي الله عنه « أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دخل على
بلال وعنده صبرة من
تمر فقال ما هذا يا بلال
قال أدخر يا رسول
الله قل أما تخشى أنفق
بلالا ولا تخشى من
ذي العرش إقلالا .
وروى أن عيسى ابن
مريم صلى الله عليه
وسلم كان يأكل الشجر
ويلبس الشعر ويبيت
حيث أمسى ولم يكن
له ولد يموت ولا يبيت
يخرب ولا يغبا شيئا
لقد قال صوفي كل خبايا
في خزائن الله لصدق
توكله وتوكله بره
فالدنيا للصوفي كدار
الغربة ليس له فيها
ادخار ولا له منها

(١) حديث بدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر قليل له يا أيها المزمحل يا أيها للدثر متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني الحديث وفيه فأبيت خديجة فقلت ذروني وصبوا على الماء باردا فذروني وصبوا على ماء باردا قال فقلت يا أيها للدثر وفي رواية فقلت زملوني زملوني ولهما من حديث عائشة فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال فان أصل طريق الدين القوت الحلال وعند ذلك يلقيه ذكرًا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً الله الله أو سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ثم لا يزال كذلك حتى يحس عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالباً عليه قد فرغ عن كل ما سواه لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره أي شيء كان فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو التصود خلا لا محالة عن غيره وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتلقا بالدنيا وما يتذكر فيه مما قدم من أحواله وأحوال غيره فانه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً قصصاً فيلجئ في دفع ذلك ومهما دفع وساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءت بها وساوس من هذه الكلمة وأنها ما هي وما معنى قولنا الله ولا شيء معنى كان إلهاً وكان معبوداً ويستره عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمرًا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزّه عنه ولكن الشيطان يلتقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن لا يبالي به ويخرج إلى ذكر الله تعالى ويبتل إليه ليدفعه عنه كما قال تعالى - وإما يترغّبك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه معييع عليم - وقال تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من قرة أو نشاط أو التفات إلى عقله أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحمله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فان هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مرید اشتغل بالرياضة فقلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فاقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فانه قد ركب سفينة الخطر فان سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «عليكم بدين العجائز» (١) وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فان الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المرید فان لم يكن ذكياً فطنا متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر بل يردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد للتواترة أو يشغله بخدمة للتجربدين للفكر لتشغله بركنهم فان العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحضر يوم القيامة في زميرتهم وتعمه بركنهم وإن كان

(١) حديث عليكم بدين العجائز قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء وابن السلمي له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يثمن بوضعها انتهى ، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه حب في الضعفاء في ترجمة ابن السلمي والله أعلم .

استكثر قال عليه السلام «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تفتدو خماساً وتروح بطنان» أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسي قال أنا أبو عمران السمرقندي قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا قال ابن عيينة إذا لم يكن عنده وعد وبلاstad

لا يبلغ درجتهم ثم اللريد للتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يدوم أوائل الكرامات ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفاً بل يبنى أن يلزم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله لا يقطع عن الخلق إلى الحق والحلوة قال بعض السياحين قلت لبعض الأبدال للنقطتين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق وقال مرة قلت له دلتني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة قلت هذا لعله قال يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبداً فإذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يغفل عن غيره ولا يغفل عن غيره إلا بطول المجاهدة فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً وإذا انكشف للريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاء ويتصدى للذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة إلى أن تتفكر في كيفية إيراد تلك اللذة للعاني وتحسين الألفاظ للعبارة عنها وترتيب ذكراها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتجلى إليه القلوب والأسماع فربما يغفل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب اللوحي الغافلين عن الله تعالى وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول وإن كان محركه هو الحق حرصاً على دعوة عباده الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وأزرنى على إصلاح عبادته كالذي وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدفنه إذ وجده ضائعاً وتعين عليه ذلك شرماء لجفاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من عينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم للنبيون والهيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرح بذلك وهذا عزيز الوجود جداً فينبغي أن يكون للريد على حذر منه فإنه أعظم حبال الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إشار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى - بل تؤثر الحياة الدنيا - ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال - إن هذا في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى - فهذا منهاج رياضة اللريد وتزيينه في التدرج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه أعنى به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاء وإذا طلب المال والجاء حدث فيه الكبر والعجب والرياضة وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً وتمسك من الدين بما فيه الرياضة وغلب عليه الضرور فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين السكتين أن نستكمل ربع المهلكات بثانية كتب إن شاء الله تعالى : كتاب في كسر شهوة البطن والفرج وكتاب في آفات اللسان وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد وكتاب في كسر الدنيا

عن الدارمي قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري قال إن جبريل عليه السلام قال ما في الأرض أهل عشرة من آيات إلا قلبتهم فما وجدت أحداً أشد إثمًا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم [ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا] . قال ذوالنون المصري : من قنع استراح من أهل زمانه واستطاع على أقرانه وقال بشر ابن الحرث لو لم يكن في القناعة إلا التمتع بالعرز لكفى صاحبه وقال بنان الجبال :

الحر عبد ما طمع
والعبد حر ما قنع

وتفصيل خدعها وكتاب في كسر حب المال وذم البخل وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه وكتاب في ذم الكبر والعجب وكتاب في مواقع الغرور وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق العالجة فيها يتم غرضنا من ربح المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والنهجات وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصيلها فانه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى. ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسما وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

﴿ كتاب كسر الشهوتين ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع المهلكات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتزنية القائم بالعدل فيما يرمه ويقضيه المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه التكفل بحفظ عبده في جميع موارد ومجاريه النعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما ينفي بأمانيه فهو الذي يرشده ويهديه وهو الذي يمينه ويعينه وإذا مرض فهو يشفيه وإذا ضعف فهو يقويه وهو الذي يوقه للطاعة ويرتضيه وهو الذي يطعمه ويسقيه ويحفظه من الهلاك ويحميه ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشبهه ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه كل ذلك يمتحنه به ويبتليه فينظر كيف يؤثر على ما بهواه وينتجيه وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه والصلاة على محمد عبده النبي وسوله الوجه صلاة نزلته وتحظيه وترفع منزلته وتعليه وعلى الأبرار من عترته وأقربيه والأخيار من صحابته وتابعيه .

[أما بعد] فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الدل والافتقار إذ نهما عن الشجرة فلأبتم ماشهواتهما حتى أكلتا منها فبدت لهما سواهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدوية والآفات إذ يقبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنسكاح شدة الرغبة في الجاه والمسال الذين هم وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعمات ثم يتبع استكثار المسال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكبر والسكبرياء ثم يدعى ذلك إلى الحق والجد والعداوة والبغضاء ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطن الشبع والامتلاء ولو ذل البعد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والظفیان ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتهما تحذيرا منها ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبية على فضلها وأمرها

﴿ كتاب كسر الشهوتين ﴾

وقال بعضهم انتقم من حرمك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص . وقال أبو بكر المراغى العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل . وقال يحيى بن معاذ من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه القناعة سيف لا ينبو . أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الحلال يفتاد قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوي قال

فيها وكذلك شرح شهوة الفرج فانها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ثم القول في شهوة الفرج ثم بيان ما طي المرید في ترك التزويج وفعله ثم بيان فضيلة من خالف شهوة البطن والفرج والعين .

(بيان فضيلة الجوع وذم الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش» (١) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه» (٢) وقيل يارسول الله أي الناس أفضل قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته» (٣) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف» (٤) وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البسوا واكلوا واشربوا في أنصاف البطون فانه جزء من النبوة» (٥) وقال الحسن قال النبي ﷺ «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة» (٦) وقال الحسن أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضاكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكراً في الله سبحانه وأنفسكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أ كول شروب» (٧) وفي الخبر «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز» (٨) أي مختاراً لذلك وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يباهي للملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصر وتركهما اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعوها إلا أبدلتها بدرجات في الجنة» (٩) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تميئوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزراع يموت إذا كثرت عليه السماء» (١٠) وقال صلى الله عليه وسلم «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقمات يقمن صلبه وإن كان لا بد فاعلا ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (١١) وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذا قال فيه «إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا الأحياء الأنبياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفقدوا وتمرهم بقاع الأرض ونحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل اقترش الناس القرش الوثيرة واقترشوا الجباه والركب ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم تبكى الأرض إذا قدتهم ويسخط العباد على كل

حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن عزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً ثم صبر عليه» وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» وروى جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «القناعة مال

(١) حديث جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش لم أجده له أصلاً (٢) حديث ابن عباس لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه لم أجده أيضاً (٣) حديث أي الناس أفضل قال من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته يأتي الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث (٤) حديث سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف (٥) حديث أبي سعيد الخدري البسوا واكلوا واشربوا في أنصاف البطون (٦) حديث الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة (٧) حديث الحسن أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً الحديث لم أجده لهذه الأحاديث المتقدمة أصلاً (٨) حديث كان يجوع من غير عوز أي مختاراً لذلك البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة قالت لو شئنا أن نشبع لشبعنا ولكن عهدنا ﷺ كان يؤثر على نفسه وإسناده معضل (٩) حديث إن الله يباهي للملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا الحديث ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الصيام (١٠) حديث لا تميئوا القلوب بكثرة الطعام والشراب الحديث لم أتف له على أصل (١١) حديث ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه الحديث ت من حديث التقديم وقد تقدم.

بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكلموا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الحرق شعنا غيرا إراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقولهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عتلوا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف في الآخرة يا أسامة إذا رأيتم في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يذهب الله قوماً فيهم. الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض أعظم لنفسك إخوانا عسى أن تنجو بهم وإن استطعت أن يأتيك اللوث وبطنك جائع وكبدك ظمآن فاقبل فانك تترك بذلك شرف للنازل وتخل مع النبيين وتفرح بقدوم روحك لللائكة ويصلى عليك الجبار (١) .

روى الحسن بن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «البسوا الصوف وتمرروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» (٢) وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين أجمعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل (٣) وروى ذلك أيضاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس وقيل مكتوب في التوراة إن الله لينقض الحبر السمين لأن السمن يدل على التفتة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالجيز ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله تعالى ينقض القارئ السمين وفي خبر مرسل «إن الشيطان ليحرق من ابن آدم يجري الدم فضيقوا بحماريه بالجوع والعطش» (٤) وفي الخبر «إن الأكل على الشبع يورث البرص» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «للمؤمن يأكل في معنى واحد وللنافق يأكل في سبعة أمعاء» (٦) أي يأكل سبعة أضغاف ماياً كل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضغاف شهوته وذكر للمع كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذها كما يأخذ المع وليس للمع زيادة عدد معي للنافق على معنى المؤمن . وروى الحسن بن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «أدعوا قرع باب الجنة يفتح لكم فقلت كيف نديم قرع باب الجنة قال بالجوع والظما» (٧) وروى «أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا» (٨)

(١) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه الحديث بطوله الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه رواه ابن الجوزي في اللوضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه (٢) حديث الحسن بن أبي هريرة البسوا الصوف وتمرروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث طاوس مرسل أجمعوا أكبادكم الحديث لم أجده أيضاً (٤) حديث إن الشيطان ليحرق من ابن آدم يجري الدم الحديث تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضاً (٥) حديث إن الأكل على الشبع يورث البرص لم أجده أصلاً (٦) حديث المؤمن يأكل في معنى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء متفق عليه من حديث عمر وحديث أبي هريرة (٧) حديث الحسن بن عائشة أديعوا قرع باب الجنة الحديث لم أجده أيضاً (٨) حديث إن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا البيهقي في الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند ت وحسنه وه من حديث ابن عمر تجشأ رجل الحديث لم يذكر أبا جحيفة .

لا ينفد وروى عن
عمر رضي الله عنه أنه
قال كونوا أوعية
الكتاب وينابيع
الحكمة وعدوا أنفسكم
في اللوق واسألوا الله
تعالى الرزق يوماً بيوم
ولا يضركم أن لا يكثر
لكم . وأخبرنا
أبو زرعة طاهر عن أبي
الفضل والده قال أنا
أبو القاسم إسماعيل بن
عبد الله الشاوي قال أنا
أحمد بن علي الحافظ قال
أنا أبو عمرو بن حمدان
قال حدثنا الحسن بن
سفيان قال حدثنا عمرو
ابن مالك البصري قال
حدثنا مروان بن
معاوية قال حدثنا
عبد الرحمن بن أبي
سلة الأنصاري قال
أخبرني سلة بن
عبد الله بن حصن

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتلى قط شبعاً وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه يدي وأقول نفسي لك الفداء لو بلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويعينك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولى الزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فاضروا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم فأجدي أستحي إن ترهفت في معيشتي أن يقصر بي غذا دونهم فالصبر أيا ما يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غذا في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بأصحابي وإخواني قالت عائشة فوافقه ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه (١) وعن أنس قال «جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الكسرة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أمتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله ﷺ أما إنه أول طعام دخل فم أيك منذ ثلاثه أيام (٢) وقال أبو هريرة «ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله للتخمون الملائم وماترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة (٤) . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه إياكم والبطنة فاتها تغل في الحياة تن في المات وقال شقيق البلخي العبادة حرفة حانوتها الحلوة وآلتها المجاعة وقال لقمان لابنه يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه أي شيء تخافين تخافين أن تجوعى لا تخاف ذلك أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه وكان كهس يقول إلهي أجعتي وأعرشتي وفي ظلم الليالي بلامصباح أجلسني فبأي وسيلة ما بلغتني وكان فتح اللوصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أودى شكر ما أنعمت به علي وقال مالك ابن دينار قلت لعمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليظة تقوته وتقنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راض وكان الفضيل بن عياض يقول إلهي أجعتي وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلامصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك وقال يحيى بن معاذ جوع الراغبين منبهة وجوع النابئين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياحة وجوع الزاهدين حكمة وفي التوراة اتق الله وإذا شبت فاذكر الجياع وقال أبو سليمان لأن أترك لقمة من عشاء أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح وقال أيضاً الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه وكان سهل بن عبد الله التستري يطوي نيفا وعشرين يوماً لا يأكل وكان يكفيه لطفه في السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لا يوافق القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله وقال لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا وقال لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل وقال وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت

عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » وقيل في تفسير قوله تعالى - فلنحينه حياة طيبة - هي القناعة فالصوفي قوام على نفسه بالقسط عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لئله بدائها ودواؤها . وقال أبو سليمان الداراني القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد . ومن أخلاق الصوفية ترك للراء والمجادلة والغضب لإلحاق واعتماد الرفق والحلم وذلك أن النفوس تثب وتظهر

(١) حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم لم يتلى قط شبعاً قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحديث لم أجده أيضاً [١] (٢) حديث أنس جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف (٣) حديث أبي هريرة ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا أخرجه م وقد تقدم (٤) حديث إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة طبوأبو بصير في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف

[١] وجد بهامش العراقي ما يأتي ، قلت : بل له أصل أخرجه أبو موسى اللدين مطولاً في كتاب استجلاء الموت وأوردته عياض في الشفاء ١ هـ .

المصيبة والجهل في الشبع وقال ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال وقد جاء في الحديث «ثلث للطعام فمن زاد عليه فأنما يأكل من حسنته»^(١) وسئل عن الزيادة فقال لا يبعد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين فإذا كان ذلك وجد الزيادة وقال ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأشخاص البطون والسهر والصمت والحلوة وقال رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ورأس كل فجور بينهما الشبع وقال من جوع نفسه انقطعت عنه الوسوس وقال إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله وقال أعلو أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد وقال مامر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فلم ينفع من المصيبة وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام. وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي قال قيدها بالجوع والعطش وذلكها بأخلاق الله كترك المزومضرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها وانجس آفاتها بدوام سوء الظن بها واصحبها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ما صافى أحداً إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع وقال أبو طالب السكي مثل البطن مثل للزهو وهو العود المحجوف والأوتار إنما حسن صوته لحفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للنمائم. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة. وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فغطر ياله الخبر فاقطع عن النجاة فإذا رغي موضوع بين يديه فجلس يبكي على فقد النجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة فغطر يالي الخبر فاقطعت عن فقال الشيخ اللهم إن كنت تعلم أن الخبر خطر يالي منذ عرفتك فلا تغفر لي بل كان إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخطر. وروى أن موسى عليه السلام لما قرب به الله عز وجل نجياً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً ثلاثين ثم عشراً على ما ورد به القرآن لأنه أمسك بغير تبييت يوماً فزيد عشرة لأجل ذلك.

(بيان فوائد الجوع وآفات الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك»^[١] ولعلك تقول هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو وما سببه وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمة وتناوله الأشياء المكروهة وما يجري مجراه فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعة لكرهه الداء ومرارته فأخذ يتناول كل ما يكرهه من اللذايق وهو غلط بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا وإعما يقف على تلك الخاصية الأطباء فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سمسرة العلماء ومن جوع نفسه مصداقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة للنفعة كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً ولكننا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى لا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فقول في الجوع عشر فوائد : الفائدة الأولى صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنقاذ البصيرة فإن الشبع يورث البلاء ويحمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن السكر فيقتل القلب بسببه عن

(١) حديث ثلث للطعام تقدم .

[١] «يث جاهد يا أنفسكم لم يخرجه المراقى .

في المارين والصوفي
كلما رأى نفس صاحبه
ظاهرة قابلها بالقلب
وإذا قبولت النفس
بالقلب ذهبت الوحشة
وانطقات الفتنة قال
الله تعالى تعلوا لعباده
- ادفع بالنفس هي أحسن
فاذا الذي بينك وبينه
عداوة كأنه ولى
حميم ولا يزعجك الراء إلا
من قوس زكية انتزع
منها النمل ووجود النمل
في النفوس مراد الباطن
وإذا انتزع المرء من
الباطن ذهب من
الظاهر أيضاً وتكون
القل في النفس مع من
يشاكله ويمائله لوجود
النافسة ومن استقصى
في تذويب النفس بنار
الزهادة في الدنيا ينمحي
القل من باطنه ولا يبقى
عنده منافسة دنيوية

الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك بل الضي إذا أكر الأكل بطل حفظه وفسده وفساد
بطي. الفهم والإدراك. وقال أبو سليمان الداراني عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو
يورث العلم السماوي وقال صلى الله عليه وسلم «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها
بالجوع تصفو وترقى» (١) ويقال مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة
كالمطر وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه» (٢) وقال
ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «من شبع ونام قسا قلبه ثم قال لكل شيء زكاة وزكاة
البدن الجوع» (٣) وقال الشبلي ما جمعت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة
مارأيت قط وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر للوصول إلى المعرفة والاستبصار بحقائق
الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة
الجوع قرعا لباب الجنة ولهذا قال لقمان لابنه يابني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة
وقدعت الأعضاء عن العبادة وقال أبو يزيد البسطامي الجوع سعاب فإذا جاع البسب أطر القلب
الحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم «نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة
إلى الله عز وجل حب الساكين والدنو منهم. لا تشبعوا فتنطفوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات
في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح» (٤) «الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاءه الذي به
ينها لأدراك لذة الثابرة والتأثر بالذكر فكمن ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن
القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب وقد يرق في بعض الأحوال
فيهمظم تأثره بالذكر وتلذذه بالناجاة وخلق العدة هو السبب الأظهر فيه. وقال أبو سليمان الداراني أحلى
ماتسكون إلى العبادة إذا التصق ظهري بيطي. وقال الجنيد يجعل أحدهم بينه وبين صدره عجلة
من الطعام ويريد أن يجد حلاوة الناجاة. وقال أبو سليمان إذا جاع القلب وعطش صبا ورق وإذا
شبع عوى وغلظ فإذا تأثر القلب بلذة الناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة
ثانية. الفائدة الثالثة: الانكسار والتذل وزوال البطر والفرح والأشمر الذي هو مبدأ الظفان
والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع فعنده تسكن لربها
وتخضع له وتتف على عجزها وذلتها إذ ضعفت منها وضافت حياتها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها
الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره
وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين التذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر
فليسكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للاضطراب بالدوق ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا
وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جمعت صبرت وتضرعت
وإذا شبعت شكرت» (٥) «أو كما قال فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع والتذل

(١) حديث أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترقى لم أجده له أصلا (٢) حديث
من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه كذلك لم أجده له أصلا (٣) حديث من شبع ونام قسا
قلبه ثم قال إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع. من حديث أبي هريرة لكل شيء
زكاة وزكاة الجسد الصوم وإسناده ضعيف (٤) حديث نور الحكمة الجوع والتباعد من الله
عز وجل الشبع والقربة إلى الله عز وجل حب الساكين والدنو منهم. من حديث أبي هريرة
وكتب عليه إنه مسند ومن علامة مارواه بإسناده (٥) حديث أجوع يوما وأشبع يوما الحديث
تقدم وهو عند.

في حظوظ عاجلة من
جاء ومال قال الله تعالى
في وصف أهل الجنة
المتقين - ونزعنا ما في
صدورهم من غل - قال
أبو حفص كيف يبقى
القل في قلوب اتلفت
بالله وانفتحت على عبته
 واجتمعت على مودته
 وأنست بذكره فان
تلك قلوب صافية من
هواجس النفوس
 وظلمات الطباع بل
كحلت بنور التوفيق
 فصارت إخوانا فكذا
قلوب أهل التصوف
 والمجتعين على الكلمة
 الواحدة ومن التزم
 شروط الطريق
 والانكباب على الظفر
 بالتحقيق. والناس
 رجلا ن: رجل طالب
 ماعند الله تعالى
 ويدعو إلى ماعند الله

والانسكار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالشرق والغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر .
القائمة الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد اللطيف لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى إنهم ليجوعون فيطمعون الضريع والزقوم ويسقون الفساق والهمل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذي يهب الخوف لمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يطلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد حجة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذا أحد الأسباب التي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل ولذلك قيل ليوסף عليه السلام لم تجوع وفي يدك خزانة الأرض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان في غفلة عن ألم الجائع . القائمة الخامسة : وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجروح إلا بضعف الجوع فإذا شبت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس كما قيل لبعض مبالك مع كبرك لا تهتد بدتك . وقد أهدى فقال لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمع بي فيورطني فلا أن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملني على الفواحش . وقال ذو النون ما شبت قط إلا غصيت وأهممت بمعصية . وقالت عائشة رضي الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع إن القوم لما شبت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزانة الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزانة الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والتمنيمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكك لا محالة بأعراض الناس ولا يكتب الناس في النار على مناهجهم إلا حصائد ألسنتهم . وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائلتها والجوع يكفي شرها وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه وإن منعه التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما أن الفرج يزني فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبر البحث سنة لا يخطأ به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء . القائمة السادسة : دفع النوم ودوام السهر فإن من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر المريدن لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها ومهما

نفسه وغيره فالله محقق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل فإن هذا معه في طريق واحد ووجهة واحدة واخوه ومعينه والمؤمنون كالبيان يشد بعضه بعضا ورجل مفتتن بشيء من عبادة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق لها للصوفي مع هذا منافسة لأنه زهد فيها فيه رغب فمن شأن الصوفي أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه عجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل ولا يماريه في الظاهر على شيء لعله بظهور نفسه الأمارة بالسوء في الرأى والمجادلة . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي

غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة ثم المتعذب إذا نام على الشبع احتلم ويمتنع ذلك أيضا من التهجد ويحوجه إلى الفصل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يحدّر عليه بالليل فيغفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام فإن فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر النسل في كل حال فالنوم منبغ الآفات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له . الفائدة السابعة : تيسر للمواظبة على العبادة فإن لأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه والأوقات للصروف إلى هذا لو صرفها إلى الذكر وللناجاة وسائر العبادات لكثرة ربه . قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويقا يستف منه قلت ماحمك على هذا قال إني حسبت ما بين للضع إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضت الحيز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضعه في الضغ وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لاقية لها فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته . ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته ومن جملة الصوم فإنه ييسر لمن تعود الجوع فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة وإنما يستحقها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها - يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات فقد حلاوة الناجاة وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع وثقل العبادة وزيادة الشهوات وأن سائر المؤمنين يدورون حول الساجد والشباع يدورون حول الزايل . الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في اللعنة والعروق ثم للرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينقص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من الهوى واقتحام الشهوات وفي الجوع ما يمنع ذلك كله . حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه فقال الهندي الدواء الذي لاداء فيه عندي هو الإهليلج الأسود وقال العراقي هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي هو عندي للماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الإهليلج يعفص اللعنة وهذا داء وحب الرشاد يزلق اللعنة وهذا داء والماء الحار يرخى اللعنة وهذا داء قالوا فما عندك فقال الدواء الذي لاداء معه عندي أن لاتأكل الطعام حتى تشتهيه وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا صدقت . وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ^(١) » فمعجب منه وقال ما سمعت كلاما في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم وقال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد ^(٢) » وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لامن ذلك وقال ابن سالم :

(١) حديث ثلث للطعام تقدم أيضا (٢) حديث البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا

قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الترياقي قال أنا أبو محمد
الجراحي قال أنا
أبو العباس المحبوبي
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال حدثنا
زياد بن أيوب قال
حدثنا المحاربي عن
ليث عن عبد الملك عن
عكرمة عن ابن عباس
رضي الله عنهما عن
النبي صلى الله عليه وسلم
قال « لا تغار أخاك ولا
تعد موعدا فتخلفه »
وفي الخبر « من ترك
للراء وهو مبطل بن له
بيت في ربيع الجنة
ومن ترك للراء وهو
محق بن له في وسطها
ومن حسن خلقه بن له
في أعلاها » . وأخبرنا
شيخنا شيخ الاسلام
أبو النجيب قال أنا

من أكل خبز الحنطة بحثا بأدب لم يستل إلا علة الموت قيل وما الأدب قال تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته الدالح ولأن يملك من الدالح خير له من أن يتكثر من الرمان وفي الحديث « صوموا تصحوا » (١) ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرها . الفائدة التاسعة : خفة المؤنة فإن من تعود قلة الأكل كفاء من المال قدر يسير والذي تعود الشبع صار بطنه غريبا ملازما له أخذًا بمنخفه في كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل للداخل فيكتسب من الحرام فيصلى أو من الحلال فيذل وربما يحتاج إلى أن يعد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الدل والقماء والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء إنني لأقضى عامة حوائجي بالتزك فيكون ذلك أروح لقلبي . وقال آخر إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر الماء كولات فيقال إنها غالية فيقول أرخصوها بالتزك . وقال سهل رحمه الله الأكل مذموم في ثلاثة أحوال : إن كان من أهل العبادة فيكسل وإن كان مكتسبا فلا يسل من الآفات وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه . وبالجمل سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم « أديعوا قرع باب الجنة بالجوع » فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضا وصار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتغلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهمهم تجارة ولا يبيع عن ذكر الله وإنما لا تلهمهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلبيه لاهماله . الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة في ظل صدقته (٢) كما ورد به الخبر فباأكله كان خزائنه الكثيف وما يتصدق به كان خزائنه فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأبقى أو لبس فأبقى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع . وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى - إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملت العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ثم عرضها على الجبال الشمامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت لا ، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناكم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فإذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأمنوا براذنين وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالتدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون كل بدن بما اعتاد لم أجده أصلا (١) حديث صوموا تصحوا الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث كل امرئ في ظل صدقته من حديث عتبة بن رافع وقد تقدم .

أبو عبد الرحمن
السهروردي محمد بن
أبي عبد الله السالبي
قال أنا أبو الحسن
عبد الرحمن الداودي
قال أنا أبو محمد عبد الله
ابن أحمد الحوي قال أنا
أبو عمران عيسى
السمرقندي قال أنا
أبو محمد عبد الله بن
عبد الرحمن الدارمي
قال حدثنا يحيى بن
بسطام عن يحيى ابن
حمزة قال حدثنا النعمان
ابن مكحول عن ابن
عباس رضي الله عنهما
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « من
طلب العلم ليس به
الطباء أو يمارى به
السفهاء أو يريد أن
يقبل بوجوه الناس
إليه أدخله الله تعالى
جهنم » انظر كيف

للبلاء وهم من الله في عافية يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا يشكى على
شماله وبأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكلفة ونزلت به البطنة قال
يا غلام اتنى بى أهضم به طعامى بالكع أطعامك تهضم إعمادك تهضم أين الفقير أين الأرملة
أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل
الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه ونظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : لو كان هذا في غير
هذا لكان خيرا لك (١) أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال والله لقد أدركت
أقواما كان الرجل منهم يسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولوشاء لأكله فيقول والله لأجعل هذا
كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله فهذه عشر فوائد للجوع ينشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها
ولا تنتهى فوائدها فالجوع خزنة عظيمة لفوائد الآخرة ولأجل هذا قال بعض السلف الجوع مفتاح
الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة بل ذلك صريح في الأخبار التى رويتها
وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة فاذا لم تعرف هذا
وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة التلادين في الإيمان والله أعلم بالصواب .

(بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن)

اعلم أن على الريد في بطنه وما كوله أربع وظائف : الأولى أن لا يأكل إلا حلالا فإن العبادة مع
أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال
والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته
في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس للأكل في تناول للشهيات وتركها . أما الوظيفة الأولى : في تقليل
الطعام فببيل الرياضة فيه التدرج فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله
مزاجه وضعف وعظمت مشقته فينبغى أن يتدرج إليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا
من طعامه المعتاد فإن كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل
يوم ربع سبع رغيف وهو أن ينقص جزءا من ثمانية وعشرين جزءا أو جزءا من ثلاثين جزءا
فيرجع إلى رغيف في شهر ولا يستعربه ولا يظهر أثره فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة
فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس ثم هذا فيه أربع درجات أصاها أن يرد نفسه
إلى قدر القوام الذى لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ
قال إن الله استعبد الخلق بثلاث : بالحياة والعقل والقوة فإن خاف البعد على اثنين منها وهى الحياة
والعقل أكل وأفطر إن كان صائما وتكلف الطلب إن كان فقيرا وإن لم يخف عليهما بل على القوة
قال فينبغى أن لا يبالي ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل
من صلاته قائما مع كثرة الأكل . ومثل سهل عن بدايته وما كان يقات به فقال كان قوتى في كل
سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدرهم ديسا وبدرهم دقيق الأرز . وبدرهم ممتا وأخط الجميع وأسوى
منه ثلثائة وستين أكرة أخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها قليله فالساعة كيف تأكل قاله بفرد
ولا توقيت . ويحكى عن الرهايين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام . الدرجة الثانية
أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم واليلة إلى نصف مد وهو رغيف وشى مما يكون الأربعة منه منا

(١) حديث نظر إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال لو كان هذا في غير هذا لكان
خيرا لك أحمد ولك في الاستدراك والبهيق في الشعب من حديث جمعة الجشمى وإسناده جيد .

جعل رسول الله صلى
الله عليه وسلم المارة
مع السفهاء سببا
لدخول النار وذلك
بظهور نفوسهم في طلب
العهر والغلبة والقهر
والغلبة من صفات
الشيطنة في آدمى .
قال بعضهم : المجادل
للمارى يضع في نفسه
عنه الخوض في
المجادل أن لا يقنع
بشئ ومن لا يقنع إلا
أن لا يقنع فما إلى
قناعته سبيل فنفس
الصوفى تبدلت صفاتها
وذهب عنه صفة
الشيطنة والسبعية
وتبدل باللين والرفق
والسهولة والطمأنينة
روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أنه قال «والذى نفسى
بيده لا يسلم عبد

ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وهو فوق القيمات لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم . الدرجة الثالثة : أن يردّها إلى مقدار الدوهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر وفي بعض الألفاظ ثلث للذكر بدل قوله للنفس . الدرجة الرابعة : أن يزيد على الد إلى الن ويشبه أن يكون ما وراء الن إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى - ولا تسرفوا - أعنى في حق الأكثرين فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسّن والشخص والعمل الذي يشتغل به وههنا طريق خامس لا تقدر فيه ولكنه موضع غلط وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ويشبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات : إحداها أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الحبز وحده . بشهوة أى خبز كان فلهما طلبت نفسه خبزاً بينه أو طلبت أداما فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل من علامته أن يصبق فلا يقع الدباب عليه أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فبدل ذلك على خلو المعدة ومعرفة ذلك غامض فالصواب للبريد أن يقدر مع نفسه التقدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي هو بصدها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته وعلى الجملة فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص، نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من خنطة في كل جمعة فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً وصاع الخنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريباً من نصف مد وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول طعامي في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فأنى سمعته يقول « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم ^(١) » وكان يقول في إنكاره على بعض الصحابة قد غيرتم نخل لكم الشعير ولم يكن ينخل وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بالوان الطعام وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله ﷺ وكان قوت أهل الصفة مداً من تمرين اثنين في كل يوم ^(٢) والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرة من الساء والمنافق مثل السبع الضارى بلعاً بلعاً وسطاً وسطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضل وجهه وهذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عيطا لكان قوت المؤمن منها حالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط . الوظيفة الثانية : في وقت الأكل ومقدار تأخير فيه أيضاً أربع درجات : الدرجة العليا أن يطوى ثلاثة أيام لما فوقها وفي الريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى التقدير حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو والقرنى وعبد الرحمن بن إبراهيم ورحيم وإبراهيم التيمي وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصي والسلم ابن سعيد وزهير وسلمان الخواص وسهل بن عبد الله التستري وإبراهيم بن أحمد الخواص وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام

(١) حديث أبي ذر أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم أحمد في كتاب الزهد . ون طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله وأحبكم إلى وهو منقطع (٢) حديث كان قوت أهل الصفة مداً من تمرين اثنين في كل يوم ك وصحيح إسناده من حديث طلحة البصري .

حقى يسم قلبه ولسانه
ولا يؤمن حق يأمن
جاره بوائقه » انظر
حكيف جعل النبي
صلى الله عليه وسلم من
شرط الاسلام سلامة
القلب واللسان وروى
عنه عليه السلام أنه
مر يقوم وهم يعدون
حجراً قال ما هذا قالوا
هذا حجر الأشداء
قال ألا أخبركم بأشد
من هذا رجل كان
بينه وبين أخيه غضب
فأتاه فقلب شيطانه
وشيطان أخيه فكلمه
وروى أنه جاء غلام
لأبي ذر وقد كسر
رجل شاة فقال أبو ذر
من كسر رجل هذه
الشاة فقال أنا قال ولم
فعلت ذلك قال عمدا
فعلت قال ولم قال
أغظك فتضربني

وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن الثوري وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة . قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من اللسكوت أي كوشف يعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر برهاب فذاكره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور فكلّمه في ذلك كلاما كثيرا إلى أن قال له الرّاهب إن المسيح كان يطوى أربعين يوما وإن ذلك معجزة لا تكون إلا للنبي أو صديق قال له الصوفي فإن طويت خمسين يوما ترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنتك على باطل ؟ قال نعم فجنس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ثم قال وأزبدك أيضا فطوى إلى تمام الستين فتعجب الرّاهب منه وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز المسيح فكان ذلك سبب إسلامه وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها لا مكاشف محمول شغل بعشادة ما قطعه عن طبعه وعاداته واستوفى نفسه في لذته وأنساء جوعته وحاجته . الدرجة الثانية: أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة . الدرجة الثالثة : وهي أدها أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع وذلك فعل الترفين وهو بعيد من السنة فقد روى أبو سعيد الحدرى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد (١) وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة وقال النبي ﷺ لعائشة إياك والسرف فإن أكلتين في يوم من السرف وأكلة واحدة في كل يومين إقتاروا أكلة في كل يوم قوام بين ذلك (٢) وهو المأمود في كتاب الله عز وجل ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجّد وقبل الصبح فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس إلى العلوم فلا تتأزعه قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تورم قدماء وما واصل وما لكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر (٣) وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ يواصل إلى السحر (٤) فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد الغروب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجّد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين فإن كان رغبين مثلا أكل رغبيا عند الفطر ورغبيا عند السحر لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجّد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر فيستعين بالرغب الأول على التهجّد والثاني على الصوم ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه . الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الأدام وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه وأوسطه شعير منخول وأدناه شعير لم ينخل وأعلى الأدم اللحم والحلاوة وأدناه الملح

(١) حديث أبي سعيد الحدرى كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد لم أجده له أصلا
(٢) حديث قال لعائشة إياك والاسراف فإن أكلتين في يوم من السرف البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى ترزع قدماء رواه مختصرا كان صلى الله عليه وسلم حتى ترزع قدماء وإسناده جيد (٤) حديث عائشة كان يواصل إلى السحر لم أجده من فعله وإنما هو من قوله فأبيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر رواه مخ من حديث أبي سعيد وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه

خاتم فقال أبو ذر لأغيظن من حضك على غيظي فأعتقه . وروى الأصمعي عن أعرابي قال إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى . أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أنا خورشيد قال ثنا إبراهيم بن عبد الله قال ثنا أحمد بن محمد ابن سليم قال ثنا الزبير ابن بكار قال ثنا سعيد ابن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

والحل وأوسطه للزورات بالأدهان من غير لحم وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات فإن كل لذيذ يشتهي الانسان وأكله اقتضى ذلك بطرا في نفسه وقسوة في قلبه وأنسا له بلدات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت و لقاء الله تعالى وتصور الدنيا جنة في حقه ويكون للموت سجناء له وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرما لذاتها صارت الدنيا سجناء عليه ومضيقاته فاشتبهت نفسه الافلات منها فيكون الموت إطلاقها وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لولمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى في كل الشهوات وتناول اللذات فلا تطول باعاده فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من اللباحات ويعظم الخطر في تناولها حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين يأكلون مع الحنطة ^(١) » وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يصح ومن دأب عليه أيضا فلا يصح بتناوله ولكن تربي نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتأنف اللذات وتسمى في طائها فيجرها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة لأن مع الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور تلك الأمور معاص وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم ^(٢) » وإنما هتم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمتنع من كثير الشهوات وقد اشتد خوف السلف من تناول لذية الأطعمة وتغرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة حتى روى أن وهب بن منبه قال التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين؟ قال أمرت بسوق حوت من البحر اشتاء فلان اليهودي لعنه الله وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتاء فلان العابد فم هذا تنبيه على أن تدبر أسباب الشهوات ليس من علامات الخير ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بصل وقال اعزلوا عني حسابها فلاعبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات كما أوردناه في كتاب رياضة النفس وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضا فاشتبهى بمكة طرية فالتفت له بالمدينة فلم توجد ثم وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام لهما برغيفها وادفنها إليه فقال له الغلام أصلحك الله قد اشتبهت بمكة كذا وكذا فلم نجد لها فلبا وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف فنحن نعطيه فتمنا فقال لهما وادفنها إليه ثم قال الغلام للسائل هل لك أن تأخذ درهما وتركها قال نعم فأعطاه درهما وأخذها واتي بها فوضها بين يديه وقال قد أعطيت درهما وأخذتها منه فقال لهما وادفنها إليه ولا تأخذ منه الدرهم فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء

(١) حديث شرار أمتي الذين يأكلون مع الحنطة لم أجده أصلا (٢) حديث شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم الحديث ابن عدى في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسل قال الدارقطني في العلل إنه أشبه بالصواب ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به (٣) حديث نافع أن ابن عمر كان مريضا فاشتبهى بمكة الحديث وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

وثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاتصاف عند الفقر والغنى وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم برآئ أمير على نفسه بصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر إلى الله بحسن الاحتساب -
تقبل أنهم كانوا يتوصأون عن إلقاء السلم يقول بعضهم لأن أتوصأ من كلمة خبيثة أحب إلي من أن أفوصأ من طعام طيب - وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الحديث

القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار^(١) أشار إلى أن القصور دمرت ألم الجوع والعطش ودفع ضررهم دون
التنعم بملكات الدنيا ، وبلغ عمر رضى الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر
لمولى له إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمنى فأعلمه فدخل عليه فحضر عشاؤه فأتوه بشريد لحم
فأكل معه همزم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف همز يده وقال الله الله يا يزيد بن أبي سفيان أطلعنا
بعد طعام والذي نفس همز يده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم ، وعن يسار بن عمير
قال ما غلت لعمري دقيقتا قط إلا وأنا له عاص ، وروى أن عتبة الغلام كان يسجن دقيقه ويحفظه في
الشمس ثم يأكله ويقول كسرة وملح حق يتبأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب وكان يأخذ الكوز
فينرف به من حب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له يا عتبة لو أعطيتني دقيقك فخرته لك وبردت
لك الماء فيقول لها يا أم فلان قد شردت عنى كلب الجوع . قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم
ابن آدم بمكة في سوق الليل عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم يسكن وهو جالس بناحية من الطريق
فمدت إليه وقعدت عنده وقلت إيش هذا البكاء يا أبا إسحاق فقال خير فعاودته مرة واثنتين وثلاثا
فقال يا شقيق استر على قلت يا أخى قل ماشئت فقال لي اشتيت نفسى منذ ثلاثين سنة سكبا جانا فمنعنا
جهدى حتى إذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى الناس إذ أنا بغنى شاب بيده قدح أخضر يملو
منه بخار ورائحة سكبا ج قال فاجتمعت به حتى عنه قربه وقال يا إبراهيم كل قلت ما أكل قد تركته
فله عز وجل فقال لي قد أطعمك الله كل فما كان لي جواب إلا أنى بكيت فقال لي كل رحمك الله قلت
قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم فقال كل عافاك الله فانما أعطيتني قليل يا أخضر اذهب
بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن آدم قد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها . اعلم
يا إبراهيم أنى سمعت اللائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يسط قلت إن كان كذلك فما أنا
بين يديك لأجل المقد مع الله تعالى ثم التفت فاذا أنا بغنى آخر ناوله شيئا وقال يا أخضر لعمري أنت فلم
يزل يلقنى حتى نمت فانتبهت وحلاوته فى نفسى ، قال شقيق قلت أرنى كفك فأخذت بكفه قبلتها
وقلت يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا النعم يا من يتدح فى الضمير اليقين يا من يشقى قلوبهم من
عجته آرى لشقيق عندك حالا ثم رفست يد إبراهيم إلى السماء وقلت بقدر هذا الكف عندك وبقدر
صاحبه وبالوجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق
ذلك قال فقام إبراهيم ومشى حتى أدر كنا البيت . وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهى لنا
فلم يأكله وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه كلوا فما ذقت منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبي الحواري :
اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفا حارا بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يسكن وقال
عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى قد عجزت على التوبة فألقى قال أحمد فأرايته أكل للملح
حتى لقي الله تعالى ، وقال مالك بن ضيف مررت بالبصرة فى السوق فنظرت إلى البقل فقالت لى نفسى
لواطعمتنى الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة ، ومكث مالك بن دينار بالبصرة
خمسین سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة
ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى ما زاد فيكم وقال طلقت الدنيا منذ
خمسین سنة اشتيت نفسى لنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق باقى تعالى وقال حماد بن أبي
حنيفة أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعتة يقول نفسى اشتيت جزرا فأطعمتك جزرا ثم

حدثان حدث من
فرجك وحدث من
فيك فلا يحمل حبة
الوقار والحلم إلا الغضب
ويخرج عن حد العدل
إلى العدوان يتجاوز
الحد في الغضب يشوردم
القلب فان كان الغضب
على من فوقه مما يجز
عن إيقاد الغضب فيه
ذهب الدم من ظاهر
الجلد واجتمع في القلب
ويصير منه الهم والحزن
والانكد ولا ينطوى
الصوفي على مثل هذا
لأنه يرى الحوادث
والإعراض من الله
تعالى فلا ينكد ولا يتم
والصوفي صاحب الرضا
صاحب الروح والراحة
والنبي عليه السلام
أخبر أن الهم والحزن
فى الشك والخط .
سئل عبيد الله بن

(١) حديث إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أبو منصور
الدبلى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة باسناد ضيف .

اشتبهت نمرًا فكأيت أن لاتأكله أبدا فسلمت ودخلت فاذا هو وحده ومراً أبو حازم يوما في السوق فرأى الفاكهة فاشتراها فقال لابنه اشتربنا من هذه الفاكهة المقطوعة المنوعة لعلمنا نذهب إلى الفاكهة القليلة المذوعة ولا ممنوعة فلما اشتراها وآتى بها إليه قال لنفسه قد خدعتني حتى نظرت واشتريت وغلبتني حتى اشتريت والله لا أدقيه فبعث بها إلى يثامى من الفقراء ، وعن موسى الأشج أنه قال نفسى تشهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة ، وعن أحمد بن خليفة قال نفسى تشهى منذ عشرين سنة ما طلبت منى إلا الله حتى تروى فيا أرويتها ، وروى أن عتبة الغلام اشتهى لما سبيع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبيع سنين سنة بعد سنة فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركبتها على رغيف فلقيت صبيبا ققلت ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك قال بلى فناولته إياها قالوا وأبلى بيكى ويقراً - ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيا وأسيرا - ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشهى نمرًا سنين فلما كان ذات يوم اشتري نمرًا بغيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال فبغت ربح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففرغ الناس فأقبل عتبة على نفسه يقول هذا الجراءتى عليك وشرأتى التمر بالغيراط ثم قال لنفسه ما أظن أخذ الناس إلا بذبك على أن لاتذوقيه . واشترى داود الطائي بنصف فاس بقلا وبفلس خلا وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ثم لم يأكل بعده إلا نقارا وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال لأنك تأكل مع خبزك نمرًا وهو لا يزيد على الخبز شيئا قال فان أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ بيكى فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك أكل التمر تبكى فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر أمرنى الجنيدي أن أشتري له التبن الوزيرى فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضنها في فيه ثم ألقاها وجعل بيكى ثم قال أحمله ققلت له في ذلك فقال هتب في هاتف أما تستحي تركته من أجلى ثم تعود إليه ، وقال صالح المري قلت لعطاء السلمي إنى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتى فقال أفضل ما تريد قال فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق قد لثته بسمن وعسل ققلت لاتبرح حتى يشربها فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها فعاتبته ولته على ذلك وقلت سبحان الله رددت على كرامتى فلما رأى وجدى لذلك قال لا يسوؤك هذا إني قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى - يتجرعه ولا يكاد يسيغه - الآية . قال صالح فبكيت وثلث في نفسى أنا في واد وأنت في واد آخر ، وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة في ديس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء أعرف رجلا يقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام واطعمنى بعد ذلك شهوة أشتها فيقول لها لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرضة ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صائنا حتى استدار من السحاب الذى يعمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والبهائم وبنى آدم حتى صار إليك ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به وفى الخبر لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائنا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل للماء من خزائن الرحمة ثم للثائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمير والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض وآخرهم الحجاز - وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها - (١)

(١) حديث لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صائنا أولهم ميكائيل

عباس رضى الله عنهما
عن التمر والغضب قال
مخرجهما واحدا واللفظ
يختلف فمن نازع من
يقوى عليه أظهره
غضا ومن نازع من
لا يقوى عليه كتمه
حزنا والحرد غضب
أيضا ولكن يستعمل
إذا قصد القنوط عليه
وإن كان الغضب على
من يشاكله ويمثله
ممن يردد في الانتقام
منه يتردد القلب بين
الانقباض والانبساط
فيتولد منه الغل والحقد
ولا يأوى مثل هذا إلى
قلب الصوفى قال الله
تعالى - ونزعنا ما فى
صدورهم من غل -
وسلامة قلب الصوفى
وحاله يذف زبد الغل
والحقد كما يذف البحر
الزبد لما فيه من تلاطم

وقال بعضهم أتيت قاسما الجرعى فسأته عن الزهد أى شئ؟ هو فقال أى شئ سمعت فيه فعددت أقوالا فسكت فقلت وأى شئ تقول أنت فقال : أعلم أن البطن دنيا العبد فيقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ويقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا ، وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شئ؟ يوافقه من الماء كولات فقال تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى قال صف لى حتى أسمع قال تشرب سكرنجينا وتمص سفرجلا وتأكل بعد ذلك اسفيداجا فقال له بشر هل تعلم شيئا أقل من السكنجين يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ماهو قال الهذبا بالحل ثم قال أنعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ماهو قال الحرنوب الشامى قال تعرف شيئا أقل من الاسفيداجا يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف ماء الحمص بسمن البقر فى معناه فقال له عبد الرحمن أنت أعلم منى بالطب فلم تسألنى ، فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرضوا لأنفسهم إلا فى قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان الملح شهوة لأنه زيادة على الحبز وما وراء الحبز شهوة وهذا هو النهاية ، فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لا يغفل عن نفسه ولا يهلك فى الشهوات فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ويفعل كل ما يهواه فينبغى أن لا يواظب على أكل اللحم . قال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن دوام عليه أربعين يوما قسا قلبه ، وقيل إن المداومة على اللحم ضراوة كضراوة الحجر ومهما كان جائعا وثابت نفسه إلى الجماع فلا ينبغى أن يأكل ويجماع فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع ، ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيمتد الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل أو يجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر ، وفى الحديث « أذبيوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم » (١) وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيب أكله ، فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر وكان يقول أشبع الزنجى وكده ومرة يقول أشبع الحمار وكده ومهما أشتى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الحبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتها ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . فطرس سهل إلى ابن سالم وفى يده خبز وتمر فقال له ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الحبز بعده بقدر حاجتك ومهما وجد طعاما لطيفا وغلظا فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهى الغليظ بعده ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته وكان بعضهم يقول لأصحابه لاتأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها وطالب بعض أنواع الحبز شهوة قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ماتا ثنيا من العراق فأكهة أحب إلينا من الحبز فرأى ذلك الحبز فأكهة ، وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فيقدر ما يستوفى العبد من شهوته يغشى أن يقال له يوم القيامة - أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها - ويقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته قال بعض أهل البصرة نازعتنى نفسى خبز أرز ومكافئتها قويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة فلما مات قال بعضهم رأيت فى المنام فقلت ماذا فعل الله بك قال لا أحسن أن أصف ما تلقانى به ربي من النعم والكرامات وكان أول شئ استقبلنى به خبز أرز ومكافئتها كل اليوم شهوتك ههنا خير حساب وقد قال تعالى - كلوا واشربوا ههنا

أمواج الأنس والهية وإن كان الغضب على من دونه من يقدز على الاتزام منه نار دم القلب والقلب إذا نار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ومنه تحمر الوجنتان لأن الدم فى القلب نار وطلب الاستعلاء وانتفعت منه العروق فظهر عكسه وأثره على الحد فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشم ولا يكون هذا فى الصوفى إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى فأما فى غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب إلى الله تعالى ثم تقواه تحمله على أن يزن حرصه وقوله

الحديث لم أجده أصلا (١) حديث أذبيوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم طرس وابن السني فى اليوم واليلة من حديث عائشة بسند ضعيف .

بما أسلفتم في الأيام الحالية - وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات ولذلك قال أبو سليمان ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وقتنا الله لما يرضيه .

(بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه)

اعلم أن الطلوب الأنقى في جميع الأمور والأخلاق الوسط إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وما أردناه في فضائل الجوع ربما يوسى* إلى أن الإفراط فيه مطلوب وهيمات ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في النع منه على وجه يوسى* عند الجاهل إلى أن الطلوب مضادة لما يقضيه الطبع بغاية الامكان والعالم يدرك أن المقصود الوسط لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينهى أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فبقيت أومان ويحصل الاعتدال فان من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهى إلى الغاية فانه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضا ما يدل على إساءته كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه^(١) فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فان مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل للمعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب وينع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لا يثقل للمعدة كونه أشد من مشبهه بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الإنسان الاقتداء بهم وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال ومثاله طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نخلة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض فان النخلة تهزب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تنقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعدها وأوضح عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنخلة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص فأشبه أحواله بهم البعد وأبعد الواضع عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها »^(٢) وإليه الإشارة بقوله تعالى - وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا - ومهما لم يحس الإنسان بالجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ولكن هذا بعد اعتدال الطبع أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً منشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في إيلاها بالجوع كما يبالغ في إيلاها الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلاها ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يتنع هو منها لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجحاح والامتناع عن العبادة كان الأصح لها الجوع الذي تمس بألمه في أكثر الأحوال لتتسكس نفسه والمقصود أن تتسكس حتى تعتدل فترد بعد ذلك في الغذاء أيضا إلى الاعتدال وإنما

(١) حديث النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله تقدم (٢) حديث خير الأمور أوسطها

البهني في الشعب مرسل وقد تقدم .

بميزان الشرع والعدل
وبتهم النفس بعدم
الرضا بالقضاء ، قيل
لبعضهم : من أقهر
الناس لنفسه قال
أرضاهم بالمقدور
وقال بعضهم أصبحت
ومالي سرور إلا مواقع
القضاء وإذا اتهم
الصوفي النفس عند
الغضب تداركه العلم
وإذا لاح علم العلم
قوى القلب وسكنت
النفس وعاد دم القلب
إلى موضعه ومقره
واعتدل الحال وغاضت
حرارة الحسد وبانت
فضيلة العلم قال عليه
السلام « الميت
الحسن والنوذة
والاقتصاد جزء من
أربعة وعشرين جزءاً
من النبوة » . وروى
حارثة بن قدامة قال

يبتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة إما صديق وإما مغرور أحق أما الصديق فلا ستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق وأما المغرور فلظنه بنفسه أنه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا وهذا غرور عظيم وهو الأغلب فان النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا وكثيرا ما تنظر إلى الصديق ومساعدته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا في نفسه وإنما هو مجاهدة نفس متناثية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم ^(١) وكان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال إني إذن صائم ^(٢) وكان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إني قد كنت أردت الصوم ثم يأكل ^(٣) » وخرج ^{عليه السلام} يوما وقال « إني صائم فقال له عائشة رضى الله عنها قد أهدى إلينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قريه ^(٤) » ولذلك حكى عن سهل أنه قبل له كيف كنت في بدايتك فأخبر بضروب من الرياضات منها أنه كان يقات ورق النبق مدة ومنها أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له فكيف أنت في وقتك هذا فقال آكل بلا حد ولا توقيت وليس للراد بقوله بلا حد ولا توقيت أنى آكل كثيرا بل آني لا أقدر بمقدار واحد ما آكله وقد كان معروف السكرخى يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل فقيل له إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا فقال إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتى المعرفة ثم قال إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطمعنى أكلت وإذا جوعنى صبرت مالى والاعتراض والتمييز ودفع إبراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم وقال خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حوريا فقيل يا أبا إسحق بهذا كله قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه فقرا يسيرا فيهم الأوزاعى والثورى فقال له الثورى يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا فقال ليس فى الطعام إسراف إنما الإسراف فى اللباس والأثاث فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن آدم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي للملح منذ عشرين سنة . وعن سري السقطى أنه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس لما فعل فراه متناقضا فيتجير أو يقطع بأن أحدهما غطىء والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غي مغرور فيقول المحتاط ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسى فليس نفسى أطوع من نفس سري السقطى ومالك بن دينار وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم والمغرور يقول ما نفسى بأعصى على من نفس معروف

(١) حديث عائشة كان يصوم حتى تقول لا يفطر ويفطر حتى تقول لا يصوم متفق عليه (٢) حديث كان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال إني صائم دت وحسنه ون من حديث عائشة وهو عند م بنحوه كما سيأتى (٣) حديث كان يقدم إليه الشيء فيقول أما إني كنت أريد الصوم البهقي من حديث عائشة بلفظ وإن كنت قد فرضت الصوم وقال إسناده صحيح وعند م قد كنت أصبحت صائما (٤) حديث خرج وقال إني صائم فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قريه م بلفظ قد كنت أصبحت صائما وفى رواية له أدنيه فلقد أصبحت صائما فأكل وفى لفظ للبهقي إني كنت أريد الصوم ولكن قريه .

قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لى أعيه قال لا تغضب فأعاد عليه كل ذلك يقول لا تغضب قال عليه السلام « إن الغضب حجرة من النار ألم تنظروا حمرة عينيه واتفاخ أوداجه من وجد ذلك منكم فان كان قائما فليجاس وإن كان جالسا فليضطجع » . أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب ابن عسى قال أنا أبو الفتح المروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحببى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن الفضل عن قرة بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس رضى الله

الكرخي وإبراهيم بن آدم فأقصدى بهم وأرفع التقدير في مأ كولي فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فإلى ولا اعتراض ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أوفى ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنوبة فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله واتباعه ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالسكية حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية فيكون عاملا لله في أكله وإفطاره فينبغي أن يعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله (١) ثم لم يقس نفسه عليه بل لما عرضت عليه شربة باردة مزوجة بعسل جعل يدير الأناة في يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى نفعها اعزلوا عن حسابها وتركها وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكشفها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لاحتالة عما يدعوه إليه فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة فإن الشيطان يحمد متعلقا من قلبه فيبقى إليه كل ساعة إنك عارف كامل وما الذي فاتك من المعرفة والكمال بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريدين في كل رياضة كان يأمره بها كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فينفرد بذلك من رياضته والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا في سياقتهم إلى السعادة وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان حد الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك في كل حال ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبد الله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مآدوما بسمن فعلاه بالدرة وقال لأم لك كل يوما خبزاً ولحماً ويوما خبزاً وصمنا ويوما خبزاً وزيتاً ويوما خبزاً وملحاً ويوما خبزاً فقاراً وهذا هو الاعتدال فأما الواظبة على اللحم والشهوات فافراط وإسراف ومهاجرة اللحم بالسكية إقتار وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

(بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام)

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فقتلتها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الحق . مثل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه قيل له هل تعلم به بأسا قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذه آفة عظيمة بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبا أن يظهرها فإن هذا صدق الحال وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال فإن إخفاء النقص وإظهار صفة من الكمال هو تصانن متضاعفان والكذب مع الإخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتبين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر الناقلين فقال تعالى - إن الناقلين في الدرك الأسفل من النار - لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر ومترف كان ستره لكفره كفرا آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر الخلقين فحبا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والنفس والإخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطا لمزله من قلوب الخلق وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين وإنما يقصد به تلبس حاله ليصرف

(١) حديث كان يحب العسل ويأكله متفق عليه من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل الحديث وفيه قصة شربه العسل عند بعض نساءه .

عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا شئ عيبه الفيس « إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى الحلم والأناة » ومن أخلاق الصوفية التودد والتألف والواقعة مع الإخوان وترك المخالفة قال الله تعالى في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقال الله تعالى - لو أنفق ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - والتودد والتألف من اختلاف الأرواح على ما ورد في الخبر الذي أوردناه فإنا نعارف منها اتلف قال الله تعالى - فأصبحتم بنعمته

عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله فنهاية الزهد : الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع بين صديقين كما أن الأول جمع بين كذابين وهذا قد حمل على النفس ثقلين وبجرعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميها فلا جرم أولئك يؤتون أجراً مرتين بما صبروا وهذا يضاهي طريق من يعطى جهراً فيأخذ ويرد سرا ليعسر نفسه بالقلل جهراً وبالفقر سرا لمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته وتقصانه والصدق فيه ولا ينبغي أن يفتره قول الشيطان إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك فانه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا إنما يقصد الرياء المجرد وبروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره فلذلك تمل عليه ظهور ذلك منه وان علم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في الفعل أو لا ينجر باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن لا يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات وقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شرمها وهي شهوة الحياء وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أكد من كسر شهوة الطعام فليأكل كل فهو أولى له قال أبو سليمان إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصحب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك منها فتكون قد أشفقت عن نفسك الشهوة وتكون قد نصت عليها إذ لم تعطها شهوتها وقال جعفر بن محمد الصادق إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أتلها منها شيئاً وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفرغ إلى حية لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام والله ولي التوفيق .

(القول في شهوة الفرج)

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لقائدين : إحداهما أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة فان لذته الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد كما أن النار وألهاها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بأنهم محسوس ولذته محسوسة مدركة فان ما لا يدرك بالدوق لا يعظم إليه الشوق . الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال وقد قيل في تأويل قوله تعالى - ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به - معناه شدة الغلبة . وعن ابن عباس « في قوله تعالى - ومن شر غاسق إذا وقب - قال هو قيام الذكر » وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره « الذكر إذا دخل وقد قيل إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ^(١) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهفي ومني ^(٢) » وقال عليه السلام « النساء حبايل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال ^(٣) » روى أن موسى عليه السلام كان جالسا في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى من أنت فقال أنا إبليس فقال لا حياك الله ما جاء بك قال جئت لأسلم عليك لمثل ذلك من الله ومكانتك منه قال فما الذي رأيت عليك قال برنس أختطف به قلوب بني آدم قال فما

إخواننا - وقال سبحانه وتعالى - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - وقال عليه السلام « المؤمن ألف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقال عليه السلام « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل البيدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقي مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا » وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوهم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس

(١) حديث ابن عباس موقوفاً ومسنداً في قوله تعالى - ومن شر غاسق إذا وقب - قال هو قيام الله ذكر وقال الذي أسنده الذكر إذا دخل هذا حديث لا أصل له (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وديني تقدم في الدعوات (٣) حديث النساء حبايل الشيطان الأصفيان في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة .

الذي إذا صنع الإنسان استحوذت عليه قال إذا أعجبت نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذر
ثلاثاً لا تغل بامرأة لا تغل لك فانه ما خلا رجل بامرأة لا تغل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أقتنه بها
وأقتنها به ولا تعاهد الله عهداً إلا أوفيت به ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فانه ما أخرج رجل صدقة فلم يعضها
إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاة بهائم ولي وهو يقول يا ويلتاء علم موسى ما يحذر
به بن آدم . وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبياً فيها خلا إلا لم يأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا
شيء أخوف عندي منهن وما بالمدينة بيت أدخله إلا يبقى وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح وقال
بعضهم إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرى به فلا أخطيء وأنت موضع
سرى وأنت رسولي في حاجتي نصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب وأعظم الشهوات شهوة النساء
وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفریط واعتدال فالإفراط ما يهزم العقل حتى يصرف همه الرجال إلى
الاستمتاع بالنساء والجوارى فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يهزم الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش
وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شديعين : أحدهما أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من
الوقوع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى للمدة لتعظم شهوة الطعام ومماثل ذلك إلا كمن ابتلى
بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهيجها ثم يشتغل بإصلاحها
وعلاجها فان شهوة الطعام والوقوع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك الله بسبب
الخلاص . فان قلت فقد روى في غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «شكوت إلى
جبرائيل ضعف الوقوع فأمرني بأكل الهريسة ^(١)» فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان تحتة تسع نموة
ووجب عليه تحصينهن بالامتناع وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن فكان طلبه القوة لهذا الامتناع .
والأمر الثاني أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجبل بموضع له الوقوع وهو
مجاوزه في البهيمية لحد البهائم لأن التعشق ليس يقنع بآفة شهوة الوقوع وهي أقبح الشهوات وأجدرها
أن يستجيا منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضي إلا من محل واحد والبهيمية تقضى الشهوة أين اتفق
فكفي به وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذل وعبودية إلى عبودية وحتى
يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة ومعتاداً لأجلها وما
العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لأم له وإعسا يجب الاحتراز من أوائله بترك
معاودة النظر والفكر وإلا فإذا استحكم عسر دفعه فكذلك عشق السال والجاه والمقار والأولاد حتى
حب اللعب بالطيور والزرد والشرطي فان هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم
الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة . ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعائه مثال من يصرف
عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يمالجها بصد
استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنوبها ويجرها إلى ورأها وما أعظم
التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج
إلا بمجهود جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح فاذن إفراط الشهوة أن يضل العقل إلى هذا الحد وهو
مذموم جداً وتفریطها بالنعاة أو بالضعف عن امتناع النكوح وهو أيضاً مذموم وإعسا المجهود أن تكون
معتدلة ومطبعة للعقل والشرع في اقتباسها وانسائها ومنها أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال

(١) حديث شكوت إلى جبريل ضعف الوقوع فأمرني بأكل الهريسة العقيل في الضعفاء طس من
حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

وهم لا يفرعون ويخافون
الناس وهم لا يخافون
وهم أولياء الله الذين
لا خوف عليهم ولا هم
يعزنون قيل من هؤلاء
يا رسول الله . قال
التحابون في الله . وقيل
لوتحاب الناس وتعاطوا
أسباب المحبة لاستغذوا
بها عن العدالة . وقيل
العدالة حليفة المحبة
تستعمل حيث لا توجد
المحبة وقيل طاعة المحبة
أفضل من طاعة الرهبة
فان طاعة المحبة من
داخل وطاعة الرهبة
من خارج ولهذا المعنى
كانت محبة الصوفية
مؤثرة من البعض في
البعض لأنهم لما تعابوا
في الله تواصوا بمحاسن
الأخلاق ووقع القول
بينهم لوجود المحبة
فاتسع لذلك المرید

صلى الله عليه وسلم « معاشر الشباب عليكم بالبائة فمن لم يستطع فضليه بالصوم فالصوم له وجاء (١) » .
(بيان ماطى الريد في ترك التزويج وضه)

اعلم أن الريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فان ذلك شغل شاغل عنه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يخرجه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان لا يشغل قلبه جميع مافي الدنيا عن الله تعالى (٢) فلا تقاس لللائكة بالحدادين ولذلك قال أبو سليمان الداراني من تزوج فقد ركن إلى الدنيا وقال مارأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول وقيل له مرة ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها فقال لا آنسى الله بها أى إن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى وقال أيضا كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فيهدمه فلذلك كان يضرب يده على غدة عائشة أحيانا ويقول كلبى يا عائشة لتشفله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لتصور طاقة قلبه عنه (٣) فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل وكان أنه بالخلق عارضا رقا يبدنه ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فاذا ضاق صدره قال أرحنا بها يا بلال (٤) حتى يعود إلى ما هو قرة عينه (٥) فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أنماله صلى الله عليه وسلم فشرط الريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في العزقة هذا إذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فان لم تنفع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالتكاح له أولى لتسكن الشهوة وإلا فهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره . ويتفرق عليه همه وربما وقع في بلية لا يطيقها وزنا العين من كبار الصغار وهو يؤدى إلى القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام إياكم والنظرة فانها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير إن أعاجأت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه عليه السلام يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء الزنا قال النظر والتحنى . وقال الفضيل يقول إبليس هو قوسى القديعة وسهمى الذى لا أخطئه به يعنى النظر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيمانا يعيد حلاوته في قلبه (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء (٨) » وقال تعالى - قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم - الآية وقال عليه السلام « لكل ابن آدم حظ من الزنا فاعلم ان

بالشيخ والأخ بالأخ
ولهذا المعنى أمرا لله تعالى
باجتماع الناس في كل
يوم خمس مرات في
المساجد أهل كل درب
وكل محلة وفي الجامع
في الأسبوع مرة أهل
كل بلد وانضم أهل
السواد إلى البلدان في
الأعياد في جميع السنة
مرتين وأهل الأقطار
من البلدان المتفرقة
في العمر مرة للحج كل
ذلك لحكم بالغة منها
تأكيد الألفة والمودة
بين المؤمنين وقال عليه
السلام « المؤمن للمؤمن
كالبنان يشد بعضه
بعضه » أخبرنا أبو زرعة
قال أنا والذى أبو الفضل
قال أنا أبو نصر محمد بن
سليمان العدل قال أنا
أبو طاهر محمد بن محمد
ابن عيسى الزياى قال

(١) حديث معاشر الشباب من استطاع منكهم النكاح فليتزوج الحديث تقدم في النكاح (٢) حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع مافي الدنيا تقدم (٣) حديث كان يضرب يده على غدة عائشة أحيانا ويقول كلبى يا عائشة لم أجد له أصلا (٤) حديث أرحنا بها يا بلال تقدم في الصلاة (٥) حديث إن الصلاة كانت قرة عينه تقدم أيضا (٦) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس الحديث تقدم أيضا (٧) حديث ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد (٨) حديث اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء من حديث أبى سعيد الخدرى .

تزيان وزناها النظر والبدان تزيان وزناها البطش والرجلان تزيان وزناها الشئ والقم تزيان وزناها القبة والقلب بهم أو يمتنى ويصدق ذلك القرج أو يكذب^(١) وقالت أم سلمة «استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام احتجبا قلنا أوليس بأعمى لا يبصرنا فقال وأننا لا تبصرانه؟^(٢) وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في الآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة وإنما يجوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالتكاح أولى به فإن الشر في الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين اللتحي لم يعمل له النظر إليه . فان قلت كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل والقيبح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة . فاقول لست أعنى تفرقة العين قط بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كما إدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فانه يميل إلى إحداها بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ولأجل ذلك لا يشتبه ملامسة الأزهار والأنوار وتقيها ولا تقبيل للماء الصافي وكذلك الشبهة الحسنة قد تبيل العين إليها وتترك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب واللامسة فهما وجد ذلك الليل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأشواب النعشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويحرم ذلك إلى العاطب وهم لا يشعرون . قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال سفيان لو أن رجلا عبث بسلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواط . وعن بعض السلف قال سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون وصنف يصافون وصنف يملكون فاذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فهما عجز الريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح قرب نفس لا يمكن توقاتها بالجوع . وقال بعضهم : غلبت على شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثر الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصا في المنام فقال مالك فشكوت إليه فقال تقدم إلى فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدى فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك فأكثر الاستغاثة فأتاني شخص في المنام فقال لي أعجب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك قلت نعم فقال مد رقبتك فمدتها فجرد سيفا من نور فضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبي وصدرى يخطبني ويقول ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه قال فترجعت فاقطع ذلك عني وولد لي ومهما احتاج للريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه أما في ابتداءه فبالنية الحسنة وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فعلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدنية ولا يطلب

(١) حديث لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينا تزيان الحديث م هق واللفظ له من حديث أبي هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس عوه (٢) حديث أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال احتجبا الحديث د ن ت وقال حسن صحيح .

أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الكرماني قال حدثنا يحيى الكرماني قال حدثنا حماد بن زيد عن حماد بن زيد عن ابن سعد عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ألا إن مثل المؤمنيين في توادهم وتحابهم وزحامهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرهُ بالسهر والحمى» . والتسآلف والتودد يؤكدان أسباب الصلحة والصلحة مع الأخيار مؤثرة جدا . وقد قيل لقاء الإخوان لقاح ولا شك أن البواطن تلقح وبتهوى البعض ببعض بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر

الغنية . قال بعضهم : من زوج غنية كان له منها خمس خصال : مغالة الصداق وتسويغ الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقته بالسن والطول والمال والحسب وأن تكون فوقه بأربع بالجمال والأدب والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق .

زوج بعض الريدن بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استجبت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت قد تغيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين مازدته إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبل إليه . وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستقبلها فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن بقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينه حين ذلك فقيل له في ذلك فقال تصدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا تقبل له قد سميت إخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها تقبل له لم لا تطأها فقال أختي أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها فإن تزوج الريد فهكذا ينبغي أن يكون وإن قدر على الترك فهو أولى له إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله كما روى أن محمد بن سليمان الهافمي كان ملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلمهم على راحة المدوية رحما الله تعالى فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم وليس تمضي الأيام والليالي حتى آتئها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبني فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث لهم والحزن فإذا أتاك كتابي هذا فبني زادك وقسم لمعادك وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أو صيائك فيقتسموا رثائك فسم الدهر وليكن فطرك الموت وأما أنا فلأولئك الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ما سرتني أن أشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان فليتنظر الريد إلى حاله وقلبه فإن وجدته في العزوبة فهو الأقرب وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ودواء هذه الملة ثلاثة أمور : الجوع وغيص البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب فلم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأمل سادتها فليطو لهذا كل السلف يادرون إلى النكاح وإلى تزوج البنات قال سعيد بن المسيب ما أبس إبليس من أحد إلا وأناه من قبل النساء . وقال سعيد أيضا وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يحشو بالأخرى مائى أخوف عندي من النساء . وعن عبد الله بن أبي وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدي أياما فلما أتته قال أين كنت ؟ قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة قهلت برحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة فقال أنا قهلت ونفعل ؟ قال نعم ، فحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين أو قال ثلاثة قال قمت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي وجعلت أفسكر بمن آخذ ومن أستدين فضليت القرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت وكنت صائما فقدمت عشائي لأفطر وكان خبزا وزيتا وإذا باني يقرع قهلت من هذا ؟ قال سعيد قال فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين دارة والمسجد قال فخرجت إليه فادا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بداله فقلت يا أبا محمد لو أرسلت إلي لأنتيتك فقال لأنت أحق أن تؤذى قلت لما تأمر قال إنك كنت رجلا عزبا فزوجت فكبرهت أن أيتك الليلة وحدك وهذه اسراتك وإذا هي قاعة خلفه في طولها ثم أخذ بيدها

صلاحا والظرف في الصور
بؤثر أخلاقا مناسبة
لخلق المنظور إليه
كدوام النظر إلى
المحزون يحزن ودوام
النظر إلى السرور
يسر . وقد قيل من
لا ينفك لحظه لا ينفك
لنظرة والجلل السرود
يصير ذلولا بمقارنة الجلل
الذلول فالمقارنة لها تأثير
في الحيوان والنبات
والجماد والماء والهواء
يغسدان بمقارنة الخفيف
والزروع تنقي عن أنواع
العروق في الأرض
والنبات لموضع الافساد
بالمقارنة وإذا كانت
المقارنة مؤثرة في هذه
الأشياء ففي النفوس
الشريفة البشرية
أكثر تأثيرا وصلى
الانسان إنسانا لأنه
يأس بما يراه من خير

فدفعها في الباب وردده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الحبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءوني وقالوا ما شأنك قلت ويحك زوجي سعيد بن السيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا وسعيد زوجك؟ قلت نعم قالوا وهي في الدار؟ قلت نعم فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام قال فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها فاذا هي من أجل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج قال فكشفت شهرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيتته وهو في حلقة فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان قلت بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال إن رابك منه أمر فدوئك والعسا فانصرفت إلى منزلي فوجهه إلى بشرين ألف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن السيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاء العهد فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحث على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تطفئه نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه.

(يان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل إلا أن مقتضاها فيسح يستجبا منه ويغشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لحوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فانه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخره ، نعم من المصمة أن لا يقدر في هذه العوائق فائدة وهي دفع الائم فان من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأى سبب كان تركه وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق فف ففكم ففمات فهو شهيد ^(١) » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وعدة منهم رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين ^(٢) » وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز وهو إمام لكل من وفق له هدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة . وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسأته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه قال سليمان فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف قال نعم أنا يوسف الذي همدت وأنت سليمان الذي لم تنهم أشار إلى قوله تعالى - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - وعنه أيضا ما هو أجيب من هذا وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليلتاع شيئا وجلس سليمان في الحيمة وكان من أجل الناس وجها وأورعهم فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانهدرت إليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فأسفرت عن وجهها كأنه فلق القمر وقالت

(١) حديث من عشق فف ففكم ففمات فهو شهيد في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد قال يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي مرس ومرمغ غزوت سويدا ورواه الحرافطي من غير طريق سويد بسد فيه نظر (٢) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وشروا التألف والتودد
مستجلب للمزيد وإنما
العزلة والوحدة تحمد
بالنسبة إلى أراذل
الناس وأهل الشر
فأما أهل العلم والصفاء
والوفاء والأخلاق
الحميدة فيقتنم مقارنتهم
والاستئناس بهم
استئناس بالله تعالى
كما أن محبتهم محبة الله
والجامع معهم رابطة
الحق ومع غيرهم رابطة
الطبع فالصوفي مع غير
الجنس كائن بأثن ومع
الجنس كائن مغاير
والمؤمن مرآة المؤمن
إذا نظر إلى أخيه
يستشف من وراء أقواله
وأعماله وأحواله
تجليات إلهية وتمريجات
وتلويحات من الله
الكريم خفية ثابتة
عن الأغيار وأمدكها

أهنتي فظن أنها تريد طعاما فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت لست أريدها إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله فقال جهزك إلى إبليس ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في التحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجمة حتى بلغت أهلها وجاء رفيقه فراه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال مايكيك ؟ قال خير ذكرت صبيتي قال لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديدا فقال سليمان وأنت مايكيك ؟ قال أنا أحق بالبكاء منك لأنني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان فلما انتهى سليمان إلى مكة فسمي وطاف ثم أتى الحجر فاحتجى بثوبه فأخذته عينه فقام وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان رحمك الله من أنت ؟ قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم قال إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لجبا فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب . وروى عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت إلى غار فدخلوا فأنعذرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لأغبق قبليهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى نأما فلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فسكرت أن أغبق قبليهما أهلا ولا مالا فلبت والقدح في يدي أنظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصية يضاضغون حول قدمي فاستيقظا فصربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفجرت شيئا لا يستطيعون الخروج منه وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطينيها مائة وعشرين دينارا على أن تحليني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تنقض الحاتم إلا بحقه فتخرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجرا وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فأنه ترك الأجر الذي له وذهب فتميت له أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءتني بعد حين فقال يا عبد الله أعطني أجرى فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والريق فقال يا عبد الله أتتهزأ بي فقلت لا أستهزئ بك فخذ فاستأقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا عيشون ^(١) فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين فإن العين مبدأ الزنا لحفظها مهم وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال ﷺ « لك الأولى وعليك الثانية ^(٢) » أي النظرة . وقال العلامة بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة وقلبا يغلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فهما تخايل إليه الحسن فاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل فإنه إن حقق النظر فاسمحس ثارت الشهوة وهجز عن الوصول فلا يحصل له

أهل الأنوار . ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الاحسان والدعاء له وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤيتهم النعم من النعم الجبار ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « مامن الناس أحد أمن علينا في صحبتته وذات يده من ابن أبي قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » وقال « ما نفقني مال كمال أبي بكر » فالخائق حجبوا عن الله بالخائق في النعم والعطاء فالصوفي في

(١) حديث ابن عمر انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت إلى غار فذكرا الحديث بطوله رواه البخاري (٢) حديث لك الأولى وليست لك الثانية أي النظرة دت من حديث بريده قاله لملي قال ت حديث غريب .

إلا التحسر وإن استعجب لم ياتئد وتألم لأنه قصد الانداز فقد فعل ما آله فلا يغلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل لأننا أشد حبا لك منك لي ولكن أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لأخافه فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فاذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلتنا سحابة حتى ندخل القرية قال مالي من عمل صالح فأدعو فأدع أنت قال أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتها سحابة حتى انتهيا إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه فمال السحابة فمال السحابة معه فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعك لتخبرني بأمرك فأخبره فقال الرسول إن الثابت عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحمد بن سعيد المابد عن أبيه قال كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم للسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمعت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك فلما كان ذات يوم وقفت على الطريق وهو يريد السجد فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلك بها ثم اعمل ما شئت فمضى ولم يكلمها ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلك بها فأطرق ملياً وقال لها هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً فقالت له والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسى لعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير وأنهم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها وجملة ما أقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فإله الله في أمري وأمرك قال فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله وكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أيها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم فاذا عاد إلى العصية مرة أخرى ستره فاذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه فإن كان ماذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل وقصير الجبال كالهن وتجنو الأم لصولة الجبار العظيم وإني والله قد ضعفيت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري وإن كان ماذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوى السكوم والمرضة والأوجاع المرضة ذلك الله رب العالمين فأقصد به بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى - وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مالم للظالمين من حميم ولا شفيع بطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور - فأين للهرب من هذه الآية ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غدا بين يدي الله تعالى ثم بكيت بكاء شديداً وقالت أسأل لك الله الذي يده معانيب قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ثم إنها تبعته وقالت آمين على بموعظة أحملها عنك وأوصى برصيه أعمل عليها فقال لها أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى - وهو الذي يتوفاكم بالدين ويعلم ما جرحتم بالنار - قال فأطرق وبكت بكاء شديداً أشد من بكائها الأول ثم إنها أفافت ولزمت بيها وأخذت في العبادة فلم تزل على

الابتداء يغني عن الخلق
ويرى الأشياء من الله
حيث طالع ناصيته
التوحيد وخرق
الحجاب الذي منع
الحلق عن صرف
التوحيد فلا يثبت
للخلق من ولا عطاء
ويحبه الحق عن الخلق
فاذا ارتقى إلى ذروة
التوحيد يشكر الخلق
بعد شكر الحق ويثبت
لهم وجوداً في النعم
والعطاء بعد أن يرى
السبب أولاً ولذلك
لسعة علمه وقوة
معرفة يثبت الوسائط
فلا يحبه الخلق عن
الحق كعامة المسلمين
ولا يحبه الحق عن
الخلق كأرباب الآراة
والتدين فيكون
شكره لاحقاً لأنه النعم
والمعطى والسبب

ذلك حتى ماتت كذا فكان الفقي يذكرها بعد موتها ثم يسكن فيقال له م بكائك وأنت قد أبانتها من نفسك ؟ فيقول إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن أسترده ذخيرة ادخرتها عنده تعالى . ثم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان . والمجده أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسما وسلم تسليما كثيرا .

(کتاب آفات اللسان)

(وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أحسن خلق الانسان وعدله وألهمه نور الايمان فزينه به وجهه وعلمه البيان قدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكله ثم أرسل عليه سترًا من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذى أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ونبهه الذى أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهله .

[أما بعد] فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعته الثرية فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بآيات أو نفي فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور والأذان لا تصل إلى غير الأصوات واليد لا تصل إلى غير الأجسام وكذا سائر الأعضاء واللسان رجب للبدان ليس له مرد ولا لهالة منتهى وحد، له في الخير مجال رجب وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيا ينفعه في الدنيا والآخرة. ويكفه عن كل ما يخشى فآلته في عاجله وآجله وعلم ما يحمده فيه إطلاق اللسان أو يدم فامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير وأعصى الأعضاء على الإنسان فإنه لا تب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحياله وإنه أعظم آفة الشيطان في استنواء الإنسان ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نقصل بجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ونعرف طريق الاحتراز عنها ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها فنذكر أولاً لفضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يبي ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض في الباطل ثم آفة اللراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التعر في الكلام بالتشدد وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاهين المدعين للخطابة ثم آفة الفحش والسب وبداءة اللسان ثم آفة القن إما حيوان أو جراد أو إنسان ثم آفة الفناء بالشعر وقد ذكرنا في كتاب الجامع ما يجرم من الفناء

ويشكر الخلق لأنهم
واسطة وسبب قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم «أول ما يدعى
إلى الجنة المحمداون
الذين يحمدون الله تعالى
في السراء والضراء»
وقال عليه السلام
«من عطس أو سحشا
فقال الحمد لله
على كل حال دفع الله
تعالى بها عنه سبعين
داء أهونها الجذام».
وروى جابر رضي الله
عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
«مامن عبد ينعم عليه
بنعمة حمد الله إلا
كان الحمد أفضل منها»
فقوله عليه السلام كان
الحمد أفضل منها يحتمل
أن يرضى الحق بها
شكرا ويحتمل أن
الحمد أفضل منها لعملة

(مکتب آفات اللسان)

وما يحل فلا يفيد ثم آفة المزاح ثم آفة السخرية والاستهزاء ثم آفة إفساء السر ثم آفة الوعد بالكاذب ثم آفة الكذب في القول واليمين ثم بيان التعارض في الكذب ثم آفة الغيبة ثم آفة النجاسة ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ثم آفة المدح ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى غفوى الكلام لاسيما فيما يتناقى بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن كلامه وعن الحروف أمى قديعة أو محدثة وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجعلتها عشرىون آفة ونسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه .

(بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت)

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطر إلا بالصمت فذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه قال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا »^(١) وقال عليه السلام « الصمت حكم وقيل فاعله »^(٢) أى حكمة وحزم . وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال « قلت لرسول الله أخبرنى عن الاسلام بأمر لأسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى فأومأ بيده إلى لسانه »^(٣) وقال عقبه بن عامر « قلت لرسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »^(٤) وقال سهل بن سعد الساعدى قال رسول الله ﷺ « من يتكفل لى بما بين لحيه ورجليه أتكفل له بالجنة »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من وفى شرفه وذبحه ولقلقه قد وفى الشر كله »^(٦) القيقب هو البطن والذبذب الفرج والقلق اللسان فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج « وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان القم والفرج »^(٧) فيحتمل أن يكون المراد بالقم لأنه منفذ فقد قال معاذ بن جبل قلت « يا رسول الله أنؤاخذ بما تقول فقال ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »^(٨) وقال عبد الله الثقفى قلت « يا رسول الله حدثنى بأمر أعظم به فقال قل ربى الله ثم استقم قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسانه وقال هذا »^(٩) وروى أن معاذ قال « يا رسول الله أى الأعمال أفضل فأخرج رسول الله

تكون نعمة الحمد
أفضل من النعمة التى
حمد عليها فإذا شكروا
النعم الأول يشكرون
الواسطة للنعم من
الناس ويدعون له .
روى أنس رضى الله
عنه قال كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
إذا أفطر عند قوم
قال « أفطر عندكم
الصائمون وأكل طعامكم
الأبرار ونزلت عليكم
الكنية » . أخبرنا
أبو زرعة عن أبيه
قال أنا أحمد بن محمد
ابن أحمد البرار قال أنا
أبو حفص عمر بن
إبراهيم قال حدثنا
عبد الله بن محمد
البغوى قال أنا عمرو
ابن زرار قال ثنا عيسى
ابن يونس عن موسى
ابن عبيدة عن محمد بن

(١) حديث من صمت نجات من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد (٢) حديث الصمت حكمة وقيل فاعله أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس (٣) حديث سفيان الثقفى أخبرنى عن الاسلام بأمر لأسأل عنه أحدا بعدك الحديث صحيح ورواه وهو عند دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان (٤) حديث عقبه بن عامر قلت لرسول الله ما النجاة قال امكك عليك لسانك الحديث ت وقال حسن (٥) حديث سهل بن سعد من يتوكل لى بما بين لحيه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه (٦) حديث من وفى شرفه وذبحه ولقلقه الحديث أبو منصور الديلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ قد وجبت له الجنة (٧) حديث سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث ت وصححه وه من حديث أبي هريرة (٨) حديث معاذ قلت لرسول الله أنؤاخذ بما تقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ت وصححه وه ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) حديث عبد الله الثقفى قال لرسول الله حدثنى بأمر أعظم به الحديث رواه ن قال ابن عساكر

صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه^(١) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم «لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه»^(٢) وقال ﷺ «من سره أن يسلم فليزِم الصمت»^(٣) وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان أي تقول اتق الله فينا فانك إن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»^(٤) وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه يده فقال له ماتنصع يا خليفة رسول الله؟ قال هذا أوردني الوارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته»^(٥) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول يا لسان قل خيراً تنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تتدم قيل له يا أبا عبد الرحمن أهدأ شيء تقول له أوشى سمعت؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»^(٦) وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره»^(٧) وروى أن معاذ بن جبل قال «يا رسول الله أوصني، قال: اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في اللوثي وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار يده إلى لسانه»^(٨) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق»^(٩) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل

ثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال لأخيه جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الشاء» ومن أخلاق الصوفية بذل الجاه للأخوان والمسلمين كافة فإذا كان الرجل وافر العلم بصيراً بعيوب النفس وآفاتهما وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين يذل الجاه والمعاونة في إصلاح ذات البين وفي هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخاطبتهم ومعاشرتهم ولا يصلح ذلك إلا لصوفي تام الحسالة عالم رباني . روى عن زيد بن أسلم أنه قال كان نبي من

ومعوضاً والصواب مفيان بن عبد الله الثقفي كإرواه ت وصححه . وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث (١) حديث إن معاذاً قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال أصبعه مكان يده (٢) حديث أنس لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت والحراني في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف (٣) حديث من سره أن يسلم فليزِم الصمت ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف (٤) حديث إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان الحديث ت من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعاً وإمما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه ت موقوفاً على عمار بن زيد وقال هذا أصح (٥) حديث إن عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ماتنصع يا خليفة رسول الله قال إن هذا أوردني الوارد إن رسول الله ﷺ قال ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر وقال الدارقطني إن الرفوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له (٦) حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول يا لسان قل خيراً تنم واسكت عن شر تسلم وفيه مرفوعاً إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن (٧) حديث ابن عمر من كف لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن (٨) حديث إن معاذاً قال أوصني قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ورجاله ثقات وفيه انقطاع (٩) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعاً .

خيرا أو ليسكت (١) » وقال الحسن ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدانكم فتم أو سكت فلم (٢) » وقيل ليسى عليه السلام دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تنطقوا أبدا قالوا لا نستطيع ذلك فقال فلا تنطقوا إلا بخير ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، وعن البراء بن عازب قال « جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال أطمع الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن النكر فإن لم تنطق فكف لسانك إلا من خير (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم مايقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة (٥) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب فالغانم الذي يذكر الله تعالى والسالم الساكت والشاحب الذي يغرض في الباطل (٦) » وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره قلبه ثم أمضاه بلسانه وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره قلبه (٧) » وقال عيسى عليه السلام العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر ذنوبه ومن كثر ذنوبه كانت النار أولى به (٨) » . والآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير إلى لسانه ويقول هذا الذي أوردني للوارد ، وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شئ أحوج إلى طول سجن من لسان ، وقال طاووس لسانى مبيع إن أرسلته أكلنى ، وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا لسانه مقبلا على شأنه . وقال الحسن ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله . أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسر ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يضيئه . وقال بعضهم الصمت يجمع للرجل فضيلتين السلامة في دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع

(١) حديث أبي هريرة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت متفق عليه .

(٢) حديث الحسن ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدانكم فتم أو سكت فلم ابن أبي الدنيا في الصمت والبهق في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين (٣) حديث البراء جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال أطمع الجائع الحديث ابن أبي الدنيا بإسناد جيد (٤) حديث اخزن لسانك إلا من خير الحديث طس من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولا بن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر (٥) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة . من حديث أبي خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة وقد تقدم .

(٦) حديث ابن مسعود الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب الحديث الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الحدودى بلفظ المجالس وضعفه ابن عدى ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود (٧) حديث إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطى في مكارم الأخلاق من روايه الحسن البصرى قال كانوا يقولون (٨) حديث من كثر كلامه كثر سقطه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن سمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة العقلاء والبهق في الشعب موقفا على عمر بن الخطاب .

الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس . وقال عطاء لأن يراني الرجل سنين فيكتبسبهاها يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتن به خلق من الجهال الدعين ولا يصلح هذا إلا لبعيد اطلع الله على باطنه فعلم منه أن لا رغبة له في شيء من الجاه والسال ولو أن ملوك الأرض وقفوا في خدمته ماطنى ولا استطال ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الانكار لهذا الحال وهذا لا يصلح إلا لأحد من الخلق وأفراد من

لمالك بن دينار يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له مالك يا أبا عمر لا تسكلم فقال له أختي الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقبصر، فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقول، وقال الآخر إنك إذا تسكلمت بكلمة ملكك ولم أملكها وإذا لم أتكلم به أملكها ولم تعلمك، وقال الثالث عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كله ضرته وإن ترجع لم تنفعه. وقال الرابع أنا على رد ما لم أقول أقدر مني على رد ما قلت، وقيل أقام النصور بن العز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة، وقيل ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقد اكمل ماتكلم به كتبته بحاسب نفسه عند النساء. فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ماسبه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغبية والنجمة والرياء والنفاق والفحش والراء وتركبة النفس والحوض في الباطل والحسومة والفضول والتعريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهي سياقة إلى اللسان لا تشغل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ويكفه عما لا يجب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفصيله ففي الحوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوفاء والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة فقد قال الله تعالى - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفي بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضيق زمان وهو عين الحشران فلا يبقى إلا القسم الرابع قد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغبية وتركبة النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفي دركه فيكون الإنسان به مغاطرا، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنده كرهه علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجما » (١) فلهذا أوتي والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم (٢) ولا يعرف ما تحت أحادكاته من بحار المعاني إلا خواص العلماء وفيها سند كره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها وترقى إلى الأغلظ قليلا ونؤخر الكلام في الغيبة والنجمة والكذب فان النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

(الآفة الأولى : الكلام فيما لا يبينك)

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنجمة والكذب والراء والجidal وغيرها وتسكلم فيها هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تسكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه فانك مضيع به زمانك وحاسب على عمل لسانك

(١) حديث من صمت نجما تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم م من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(الآفة الأولى الكلام فيما لا يبينك)

الصادقين يفسلون عن إرادتهم واختيارهم ويكشفهم الله تعالى برأيه منهم فيدخلون في الأشياء بمراد الله تعالى فإذا علموا أن الحق يريد منهم مخالطة وبذل الجاه يدخلون في ذلك بنية صفات النفس وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رفقوا إلى مقام البقاء فيصكون لهم في كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم أرتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح الراد في خفي الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته

وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان يفتتح لك من نعمات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ولو هلت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يبينه فانه وإن لم يأتهم قد خسر حيث فاتته الربح العظيم بذكر الله تعالى فإن المؤمن لا يكون صحته إلا فكرا ونظرة لإعبرة ونطقة لإذكرا (١) هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يبينه ولم يدخر بها ثوبا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يبينه » (٢) بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس « استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطة من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بني فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يبينه ويمنع ما لا يضره » (٣) وفي حديث آخر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم من هذه للتأية على الله ؟ قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يبينه أو منع ما لا يبينه » (٤) ومعناه أنه إنما تنهى الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يبينه حوسب عليه وإن كان كلامه في مباح فلا تنهى الجنة مع المناقشة في الحساب فانه نوع من العذاب وعن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به فقال إني لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يبينني » (٥) وقال أبو ذر قال لي رسول الله ﷺ « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ؟ قلت بلى يا رسول الله قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يبينك » (٦) وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدم الوقوفة لانتكلم فيما لا يبينك فانه فضل ولا آمن عليك الوزر ولا تتكلم فيما يبينك حتى تجد له موضعا فانه رب يتكلم في أمر يبينه

(١) حديث المؤمن لا يكون صحته إلا فكرا ونظرة لإعبرة ولا ذكرًا لم أجده أصلا وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله أمرني أن يكون نطق ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة (٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يبينه وقال غريب و من حديث أبي هريرة (٣) حديث استشهد منا غلام يوم أحد فوجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه لعله كان يتكلم بما لا يبينه ويمنع ما لا يضره من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٤) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث وفيه لعل كعبا قل ما لا يبينه أو منع ما لا يبينه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بأسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه (٥) حديث محمد بن كعب إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث وفيه إن أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يبينني ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نجيع اختلف فيه (٦) حديث أبي ذر ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث وفيه هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يبينك ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

ولا يكون في قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال . قال أبو عثمان الجبري لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء للنعم والعطاء والعز والعدل وبمثل هذا الرجل يصلح بذلك الجاه والدخول فيما ذكرناه . قال سهل ابن عبد الله لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهه عن الناس ويعتزل جهل الناس ويترك ما في أيديهم ويذل ما في يده لهم وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التي زهد فيها وتمين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه وإنما هذه

قد وضعه في غير موضعه فنتت ولا تمار حليما ولا سفيها فان الحليم يليك والسفيه يؤذك واذكر أخاك
إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه بما تحب أن يفيك منه وطامل أخاك بما تحب أن
يملكك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالاحسان مأخوذ بالاجترام . وقيل للقيمان الحكيم ما حكمتك
قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا ينيني . وقال مورق العجلي : أمرأنا في طلبه منذ عشرين سنة
لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا ينيني . وقال عمر رضي الله عنه
لا تعرض لما لا ينيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي
الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ولا تطلعه على سره واستشر في أمرك الذين يغشون
الله تعالى . وحد الكلام فيما لا ينيك أن تتكلم بكلام لو سكنت عنه لم تأثم ولم تستضره في حال ولا مال .
مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع
وما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم فهذه أمور لو سكنت
عنها لم تأثم ولم تستضر وإذا بالفت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكمتك زيادة ولا نقصان ولا تركية نفس
من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى
فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك وآتي تسلم من الآفات التي ذكرناها ومن جعلها أن تسأل غيرك
عما لا ينيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألبأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع هذا إذا
كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات فانك تسأل غيرك عن
عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وإن لم يدخل
سقطت عبادته من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وإن قال لا كان كاذبا
وإن سكنت كان مستحقرا لك وتأذيت به وإن احتال لمداغة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه قد
عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر
عباداته وكذلك سؤالك عن العاصي وعن كل ما يغنيه ويستحي منه وسؤالك عما حدث به غيرك
فتقول له ماذا تقول وفيه أنت وكذلك ترى إنسانا في الطريق فتقول من أين فرجما بمنعه مانع من
ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسأل
عن مسألة لا حاجة بك إليها والمثل ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لأدري فيجيب عن غير بصيرة
ولست أعني بالتكلم فيما لا يني هذه الأجناس فان هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر وإنما مثال ما لا يني
ما روى أن لقيمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم
فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فنتته حكته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ
قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للعرب فقال لقيمان الصمت حكم وقليل فاعله أي حصل العلم به من
غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال
فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهو مما لا يني
وتركه من حسن الاسلام فهذا حله . وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه
أو البساطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا قائمة فيها . وعلاج ذلك
كله أن يعلم أن اللوت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة وأن أخاها رأس ماله وأن لسانه حبة
يقدر على أن يقتنص بها الجور العين فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبین هذا علاجه من حيث العلم
وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يصع حصاة فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يني
حتى يتاد اللسان ترك ما لا ينيه وضبط اللسان في هذا على غير المعتاد شديد جدا .

رياسة أقامها الحق
لصلاح خاتمه فهو فيها
بالله يقوم بواجب حقها
وشكر نعمتها لله
تعالى .

[الباب الحادي
والثلاثون في ذكر
الأدب ومكانه من
التصوف]

روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أنه قال « أدبني ربى
فأحسن تأديبي »
فالأدب تهذيب الظاهر
والباطن فإذا تهذب
ظاهر العبد وباطنه
صار صوفيا أديبا وإنما
سميت للأدبة مأدبة
لأجتماعها على أشياء
ولا يتكامل الأدب في
العبد إلا بتكامل مكارم
الأخلاق ومكارم
الأخلاق مجموعها من
تحسين الخلق فالخلق

(الآفة الثانية : فضول الكلام)

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يبنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يبنى أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره وبهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرا معروف أو نهيًا عن منكر أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتذكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن الجين وعن النمل قصيد ما يلفظ من قول الإلديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والجار اللهم اخزه وما أشبه ذلك . واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل - لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأفق الفضل من ماله (١) » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان (٢) إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخفى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد إن الكلام ليكتب حق إن الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذبا . وقال الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ماسكان كريمين يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريتيه وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال هجيت من الملائكة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يعلون وقال إبراهيم التيمي إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظرفان كان له تكلم وإلا أمسك والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن من أكثر كلامه أكثر كذبه ومن أكثر ماله أكثر ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم

(الآفة الثانية : فضول الكلام)

(١) حديث طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأفق الفضل من ماله البغوى وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب الصري وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن وقال البغوى لا أدري مع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لا نعرف له حجة ورواه البراء من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث د ن في اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ الصنف

مسورة الانسان
والخلق معناه فقال
بعضهم الخلق لاسيبل
إلى تغييره كالخلق وقد
ورد « فرغ ربكم من
الخلق والخلق والرزق
والأجل » وقد قال تعالى
- لا تبديل لخلق الله -
والأصح أن تبديل
الأخلق يمكن مقدور
عليه بخلاف الخلق
وقد روى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال « حسنوا
أخلاقكم » وذلك أن
الله تعالى خلق الانسان
وهيأه لقبول الصلاح
والفساد وجعله أهلا
للأدب ومكارم الأخلاق
ووجود الأهلية فيه
كوجود النار في الزناد
ووجود النخل في النوى
ثم إن الله تعالى بقدرته
أهم الانسان ومكنه

« كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاي وأسناني قال أفما كان لك في ذلك ما يرد كلامك (١) » وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستتر في الكلام ثم قال ما أوتى رجل شرا من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه إنه لمعنى من كثير من الكلام خوف اللبابة . وقال بعض الحكماء إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكنا فأعجبه السكوت فليتكلم وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيين وزيادة وتقصان . وقال ابن عمر إن أحق ما ظهر الرجل لسانه ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها . وقال إبراهيم يهلك الناس خلتان فضول النال وفضول الكلام فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسيبه الباعث عليه وعلاجه ماسبق في الكلام فيما لا ينعى .

(الآفة الثالثة : الحوض في الباطل)

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتتم الأغنياء وتجهير الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فإن كل ذلك مما لا يخل الحوض فيه وهو حرام وأما الكلام فيما لا ينعى أو أكثر مما ينعى فهو ترك الأولى ولا تعزيم فيه نعم من يكثر الكلام فيما لا ينعى لا يؤمن عليه الحوض في الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفريج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الحوض في الباطل وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنيها فلذلك لا يخلص منها إلا بالاقتصار على ما ينعى من مهمات الدين والدنيا وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقها فقد قال بلال بن الحرث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة (٢) » وكان علقمة يقول كم من كلام منعه حديث بلال بن الحرث وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا (٣) » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفضه الله بها في أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصا في الباطل (٤) » وإليه الإشارة بقوله تعالى - وكنا نخوض مع الخافضين - وبقوله تعالى - فلا تفعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم - وقال سلمان أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله . وقال ابن سيرين كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الحوض في الباطل وهو

(١) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

(الآفة الثالثة : الحوض في الباطل)

(٢) حديث بلال بن الحرث إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث . ت وقال حسن صحيح (٣) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين وت إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار لفظت وقال حسن غريب (٤) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصا في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلًا ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسند صحيح .

من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى غلا والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار وكما جعل في نفس الانسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد فقال سبحانه وتعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها - فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا ثم قال عز وجل - قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها - فإذا تزكت النفس تدبرت بالفعل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة ونهذبت الأخلاق وتكونت الآداب فالأدب استخراج ما في القوة إلى الفعل وهذا

وراء ماسياتي من الغيبة والنيمة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون باطفه وكرمه .

(الآفة الرابعة الراء والجدال)

وذلك منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا تمارأخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه »^(١) وقال عليه السلام « ذروا الراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم من ترك الراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة^(٣) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال »^(٤) وقال أيضا « ماضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل »^(٥) وقال أيضا « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع للراء وإن كان محقا »^(٦) وقال أيضا « ست من كن في بلغ حقيقة الإيمان الصيام في الصيف وضرب أعداء الله بالسيف وتسهيل الصلاة في اليوم الدجن والصبر على الصديات وإسباغ الوضوء على المكروه وترك الراء وهو صادق »^(٧) وقال الزبير لابنه لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التقل . وقال مسلم بن يسار يا كم والراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته . وقيل ماضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا الراء يفسد القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال سفيان لو خالفت أخى في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسمي إلى السلطان وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش وقال ابن أبي ليلى لا أمارى صاحب فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء كفى بك إثمًا أن لا تزال مماريا

(الآفة الرابعة الراء والمجادلة)

(١) حديث لا تمارأخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ت من حديث ابن عباس وقد تقدم
(٢) حديث ذروا الراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته طب من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك واثلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفا على ابن مسعود (٣) حديث من ترك الراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة الحديث تقدم في العلم (٤) حديث أم سلمة إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في الراسل من حديث عروة بن رويم (٥) حديث ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة ومحمه وزاد بعد هدى كانوا عليه وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره الصنف (٦) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر الراء وإن كان محقا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن إلا بحق يترك الكذب في الزاحاة والراء وإن كان صادقا (٧) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك الراء وهو صادق أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير الحديث .

يكون لمن ركب
السجدة الصالحة فيه
والسجدة فعل الحق
لا قدرة للبشر على
تكوينها كتكون
النار في الزناد إذ هو
فعل الله المحض
واستخراجه بكسب
الآدمي فهكذا الآداب
متبعها السجاي الصالحة
ولمنح الإلهية ولماها
الله تعالى بواطن
الصوفية بتكيد
السجاي فيها تواصلوا
بحسن الممارسة والرياضة
إلى استخراج مالى
النفوس وهو مركوز
بخلق الله تعالى إلى
الفعل فصاروا مؤدبين
مهيدين والآداب تقع
في حق بعض الأشخاص
من غير زيادة بممارسة
ورباضة القوة ما أودع
الله تعالى في غرائزهم كما

وقال صلى الله عليه وسلم « تكفير كل لحاء ركتان (١) » وقال عمر رضى الله عنه لا تعلم العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث لا تعلمه لئلا تمارى به ولا لتباهى به ولا لتراى به ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثرت كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثرهم سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقول لميخون بن مهران مالك لا تترك أخاك عن قتي قال لأننى لا أشاركه ولا أماريه وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى . وحده المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ وإما فى المعنى وإما فى قصد التكميم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام ممتنع فإن كان حقا فصدق به وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاستكت عنه والطمع فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العريية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاطهار خلله وأما فى المعنى فبأن يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا وأما فى قصده فبأن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لاهل وجه العناد والسكرارة أو التلطف فى التعريف لاهل معرض الطعن وأما المجادلة فعبارة عن قصد إغاثم الغير وتمجيذه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطيئين به فضل نفسه وقص صاحبه ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأنم به ولو سكت عنه وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهمج على الغير باظهار قصه وهما شهورتان باطنتان للنفس قويتان لها أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدال فالموالظ على المراء والجدال مقول هذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو مصيبة مما حصل فيه إيذاء الغير ولا تنفك الممارسة عن الإيذاء وتهيج الغضب وحمل المعارض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدم فى قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين التمارين كما يشور الهراش بين السكبين يقصد كل واحد منهما أن يعرض صاحبه بما هو أعلم نكابة وأقوى فى إغاثمه وإجابه وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله والسبعية الباعث له على تنقيص غيره كاسيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فإن علاج كل علة بما طاعة سببها وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجملة عادة وطبعه حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه . روى أن أبا خنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى لم آثرت الأزواء قال لأجاهد نفسى بترك الجدال فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تسككهم قال ففعلت ذلك لما رأيت مجاهدة أشد على مناهو وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه نصر عليه الصبر عند ذلك جدا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يضل به فى اللذاهب والعقائد فإن المراء طبع فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه وذلك خطأ محض بل ينبغى للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة وإذا رأى مبتدعا تلطف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبى ربى فأحسن تأديبى » وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها فى العريضة فلهذا احتاج للريدون إلى محبة للشايخ لتكون المحبة والتعلم عوناً على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل قال الله تعالى - قوا أنفسكم وأهليكم نارا - قال ابن عباس رضى الله عنهما فقهوهم وأدبوهم وفى لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال - خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين - » قال يوسف بن الحسين

(١) حديث تكفير كل لحاء ركتان الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال فان الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتؤكد فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه وقال صلى الله عليه وسلم «رحم الله من كلف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه» (١) وقال هشام بن عروة كان عليه السلام يرد قوله هذا سبع مرات وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا فويت فيه هذه الهلكات ولا يستطيع عنها نزوا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحسب الجاه والتمزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها .

(الآفة الخامسة : الخصومة)

وهي أيضا مذمومة وهي وراء الجدال وللراء فالمرء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار للذهاب وتقريرها والخصومة لحاج في الكلام ليستوفي به مال أوحق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق فقد قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع» (٣) وقال بعضهم إياك والخصومة فانها تمحق الدين ويقال ما خاصم ورع قط في الدين وقال ابن قتبية مربي بشر بن عبد الله ابن أبي بكرة فقال ما يجلسك ههنا قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي فقال إن لأبيك عندي يدا وإني أريد أن أجزيك بها وإني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للرودة ولا أضيع للذة ولا أشغل لقلب من الخصومة قال قصمت لأنصرف فقال لي خصمي مالك قلت لأخاصمك قال إنك عرفت أن الحق لي قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال فاني لأطلب منك شيئا هو لك . فان قلت فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تندم خصومته ، فاعلم أن هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فانه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الايداء ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ويتناول الذي يجعله على الخصومة محض العناد لتهرا الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدى عناؤه وكسر عرضه وإني إن أخذت منه هذا المال ربما ربيت به في بر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة والابجاج وهو مذموم جدا فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لحاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد

(١) حديث رحمه الله من كلف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي ﷺ مرسلًا ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلقظ رحمه الله امرأ كلف لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا .

(الآفة الخامسة : الخصومة)

(٢) حديث عائشة إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم وخ وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ابن أبي الدنيا والأصمغاني في الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى صنفة الجمهور .

بالأدب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة وبالحكمة يقام الزهد وبالزهد تترك الدنيا وتترك الدنيا يرغب في الآخرة وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى . قيل لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقفا على رأسه يأثمرون لأمره لا يخطئ . أحد منهم فقال يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب للسلوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان الأدب في الباطن قال أبو الحسين النوري ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها

وإيذاء فقله ليس بهرام ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدر وتبيح الغضب وإذا هاجم الغضب نسي للتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويحزن بمسرة ويطلق اللسان في عرضه فمن بدأ بالخصومة قد تعرض لهذه المهدورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشغل بمحاجة خصمه فلا يتيق الأمر على حد الواجب فالخصومة مبدأ كل شر وكذا للرأ والجدال فينبغي أن لا يفتح بابه إلا للضرورة وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الآثم ولا تذهب خصومته إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيها خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يغوته في الخصومة والرأ والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي أحاصله إما تجهيل وإما تكذيب فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه قد جهله أو كذبه فيغوت به طيب الكلام وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام »^(١) وقد قال تعالى - وقولوا للناس حسنا - وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سلم عليك من خلق الله فاردده عليه السلام وإن كان مجوسيا إن الله تعالى يقول - وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - وقال ابن عباس أيضا لو قال لفرعون خيرا لردت عليه وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لعرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدتها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام »^(٢) وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال مر بسلام فقيل يا روح الله أتقول هذا الخنزير فقال أكره أن أعود لسانى الشر وقال نيينا عليه السلام « الكلمة الطيبة صدقة »^(٣) وقال « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة »^(٤) وقال عمر رضي الله عنه البرئى هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء الكلام اللين يفسل الضغائن للسكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء كل كلام لا يسيط ربك إلا أنك ترضى به جليستك فلا تسكن به عليه بخيلا فإنه لعله يعوضك منه ثواب الحسين وهذا كله في فضل الكلام العليب وتضاده الخصومة والرأ والجدال واللاجاج فإنه الكلام المستكره الوحش المؤذى للقلب المنفص للعيش للمهيج للغضب والوغل للصدر نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

(الآفة السادسة)

التعمر في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والتقدمات وما جرت به عادة المتفصحين المدعين للخطابة وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف المعقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أنفضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون للتشدقون في الكلام »^(٥) وقالت فاطمة رضي الله عنها

(١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هاني أبي شريح بإسناد جيد يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٢) حديث أنس إن في الجنة لعرفا يرى ظاهرها من باطنها والحديث ت وقد تقدم (٣) حديث الكلمة الطيبة صدقة م من حديث أبي هريرة (٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة الحديث متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وقد تقدم .

(الآفة السادسة : التعمر في الكلام والتشديق)

(٥) حديث إن أنفضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون للتشدقون أحمد من حديث

آداب الشريعة وآداب الشريعة حاية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب قال عبد الله بن المبارك أدب الخدمة . أعز من الخدمة . حكى عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال دخلت مكة فكنت ربما أقعد بمخاض الكعبة وربما كنت أستلقى وأمدت رجلى فجاءتني عائشة الكعبة فقالت لي يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم اقبل مني كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحق اسمك من ديوان القربول أبو عبيد وكانت من العارفات . وقال ابن عطاء : النفس مجبولة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ألهلك المنتطعون ثلاث مرات» (٢) والتطعن هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضي الله عنه : إن شق الكلام من شقاق الشيطان وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاء بالسنتها» (٣) وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب وللقدمة المصنوعة للتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع متكلف وكذلك التفاصيل الخارج عن حد العادة وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات «إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة في الجنين قال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل قال أسجعا كسجع الأعراب» (٤) وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلهذا شاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويحذر منه .

(الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان)

وهو مذموم ومنه عنه ومصدره الحبث والأؤم . قال صلى الله عليه وسلم «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش» (٥) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم» (٦) وقال صلى الله عليه وسلم «ليس للؤم بالطعام ولا للامان ولا الفاحش ولا البذي» (٧) وقال صلى الله عليه وسلم «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها» (٨) وقال صلى الله عليه وسلم

أبي ثعلبة وهو عند من حديث جابر وحسنه بإفظ إن أبغضكم إلى (١) حديث فاطمة شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم الحديث وفيه ويتشدقون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب (٢) حديث ألا هلك المنتطعون من حديث ابن مسعود (٣) حديث سعد بن أبي وقاص على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاء بلسانها رواه أحمد (٤) حديث كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث من حديث الثوري بن شعبة وأبي هريرة وأصاهما عند خ أيضا .

(الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان)

(٥) حديث إياكم والفحش الحديث ن في السكبر في التفسير والحاكم ومعه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن جبان من حديث أبي هريرة (٦) حديث النهي عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح إن رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث وفيه لا تسبوا أمواتا فتؤذوا أحيانا (٧) حديث ليس للؤم بالطعام ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي ت بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم ومعه وروى موقوفًا قال الدارقطني في العلل والوقوف أصح (٨) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية

على سوء الأدب والعبد
مأمور بملزمة الأدب
والنفس تجري بطباعها
في ميدان المخالفة
والعبد يرد بها بجده
إلى حسن المطالبة
فمن أعرض عن
الجهد قد أطاق
عنان النفس وغفل
عن الرعاية ومهما
أعانها فهو شر يكها وقال
الجنيذ من أعان نفسه
على هواها قد أشرك
في قتل نفسه لأن
العبودية ملازمة الأدب
والطغيان سوء الأدب
أخبرنا الشيخ العالم
صبيح الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
المسروي قال أنا
أبو النصر الترياقى قال
أنا أبو محمد الجراحي قال
أنا أبو العباس المحبوبي
قال أنا أبو عيسى الترمذي

« أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى يسمون بين الحميم والجهيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الأبد قد آذانا على ما بنا من الأذى فيقول إن الأبد كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة فيستلها كما يستلذ الرفث (١) » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء (٢) » وقال عليه السلام « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق (٣) » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ويحتمل أيضا للبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من البالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه عكوك ووساوس فاذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون للراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فان الأولى في مثله الإغماض والتخافل دون الكشف والبيان وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يحب الفاحش للتفحش الصياح في الأسواق (٤) » وقال جابر بن سمرة « كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامة فقال صلى الله عليه وسلم إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا (٥) » وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش للتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب . وقال الأحنف ابن قيس ألا أخبركم بأدوا الله الله اللسان البذي والخلق الدني ، فهذه مذمة الفحش فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور للاستبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الواقع وما يتعلق به فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتعاشون عنها بل يكونونها عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم ينفو ويكنو كنى باللسن عن الجماع فالسيس واللسن والدخول والصحة كنايةات عن الواقع وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة يستبجح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أغشى من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها معظورة وبينهما درجات يتردد فيها وليس يختص هذا بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والفائط أولى من لفظ التغوط والحراء وغيرها فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه غش وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجر أومن وراء الستر أوقالت أم الأولاد فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصریح فيها يفضى إلى الفحش وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري

من حيث عبد الله بن عمرو (١) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى الحديث وفيه إن الأبد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلها كما يستلذ الرفث ابن أبي الدنيا من حديث شق بن مائع واختلف في محبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره مع حب في التابين (٢) حديث يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلة عنها (٣) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق وحسنه وك وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم (٤) حديث إن الله لا يحب الفاحش ولا للتفحش الصياح في الأسواق ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله ولطبراني من حديث أسامة بن زيد إن الله لا يحب الفاحش للتفحش وإسناده جيد (٥) حديث جابر بن سمرة إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء الحديث أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

قال ثنا قتية قال ثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب الرجل ولله خير له من أن يتصدق بصاع » وروى أيضا أنه قال عليه السلام « ما نحل والدولدا من نحلة أفضل من أدب حسن » وروى عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه » وقال أبو طي الدقاق العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله كان

عجراه فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقته غفرج تحت إبطه خراج فأتيته نساءه لئلا يرى ما يقول قلنا من أين خرج فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتقاد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الحب واللؤم ومن عاداتهم السب ، وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسب شيئا قال فما سببت شيئا بعده ^(١) » وقال عياض بن حمار « قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتصر منه فقال التسبان شيطانان يتماويلان ويتهارجان ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه ^(٤) » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه » .

(الآفة الثامنة الامن)

إما الحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بلعان ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تلعنوا بلعة الله ولا نبضه ولا بهيم ^(٢) » وقال حذيفة ما تلعن قوم قط إلا حق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار طلى ناقة لها فضجرت منها فلعننها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة ^(٣) » قال فكأنني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : ما لعن أحد الأرض إلا قالت لعن الله أعصانه . وقالت عائشة رضي الله عنها « سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال يا أبا بكر أصدقين ولعائنين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا ^(٤) » فأعق أبو بكر يومئذ رقيقه وآتى النبي

(١) حديث قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه الحديث أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٢) حديث عياض بن حمار قلت يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتصر منه فقال التسبان شيطانان يتكاذبان ويتهاجان د الطيالسي وأصله عند أحمد (٣) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث التسبان ما قاله صلى الله عليه وسلم حتى يعتدي الظلوم ، م من حديث أبي هريرة وقال لم يعتد (٥) حديث ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو (الآفة الثامنة الامن)

(٦) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا (٧) حديث لا تلعنوا بلعة الله الحديث ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح (٨) حديث عمران بن حصين بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار طلى ناقة لها فضجرت منها فلعننها الحديث رواه م (٩) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعائنين وصدقين الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه .

الاستاذ أبو طي لا يستند إلى شيء فكان يوما في جمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهري لأنني رأيت غير مستند فتحنى عن الوسادة قليلا فتوهمت أنه توقي الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة فقال لأريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فملت أنه لا يستند إلى شيء أبدا . وقال الجلال البصري التوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له . وقال بعضهم الزم الأدب

صلى الله عليه وسلم وقال لأعوذ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللعائين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » (١) وقال أنس كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر فلحن بغيره فقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله لا تسر معنا على بئر ملعون » (٢) وقال ذلك إنكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعه من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد للملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه والصفات المنتزعة لللعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافر والبتدعين والفسقة. الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والحوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا وكل ذلك جائز ولكن في لمن أوصاف البدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بثله ويشير نزاعا بين الناس وفسادا . الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه مأمونا . فإن قلت يلحن لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال وإن كان يتصور أن يرتد . فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبتت له على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر ولا لعنة الله إن مات على الإسلام وذلك غيب لا يدري والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلحن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللحن فكان يقول في دعائه على قريش « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » (٣) وذكر جماعة قتلوا على الكفر بيد حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روي « أنه كان يلحن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فأنزل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » (٤) - يعني أنهم ربما يسلطون فمن أين تعلم أنهم ملعونون

(١) حديث إن اللعائين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة من حديث أبي الدرداء (٢) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر فلحن بغيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بئر ملعون ابن أبي الدنيا بإسناد جيد (٣) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث إنه كان يلحن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فأنزل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا الحديث وفي رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن الحيان ورعاه الحديث

ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا . قال بعضهم هو غلام الدقاق نظرت إلى غلام أمرد فظفر إلى الدقاق وأنا أنظر إليه فقال لتجدن غيبا ولو بعد سنين قال فوجدت غيبا بعد عشرين سنة أن أنسب القرآن . وقال سري صليت وردي ليلة من الليالي ومددت رجلي في المهراب فتوديت يأسري هكذا تجالس المالك ففهممت رجلي ثم قلت وعزتك لامتدت رجلي أبدا وقال الجنيد فبقى ستين سنة مامد رجله ليلا ولا نهائرا . قال عبد الله ابن المبارك مني مهان

وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فضرب ابنه عمرو ابن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي تحافة فقال أبو بكر بكلمة في هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتكم الكفار فعمموا فانكم إذا خصصتم غضب الأبناء للأباء فكف الناس عن ذلك (١)» وشرب نيمان الخمر خذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك (٢)» وفي رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله قتاه عن ذلك وهذا يدل على أن لمن فاسق بينه غير جائز وعلى الجملة في لمن الأشخاص خطر فليجنب ولا خطر في السكوت عن لمن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره . فان قيل هل يجوز لمن يزيد لأنه قاتل الحسين وأمر به . قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلاً عن القلة لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فان ذلك ثبت متواتراً فلا يجوز أن يرمى مسلم بنفسه أو كفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم «لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك (٣)» وقال ﷺ «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا بآء به أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بكفيرة إياه (٤)» وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فان ظن أنه كافر فريضة أو غيرها كان محطاً لا كافراً وقال معاذ

وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله - ليس لك من الأمر شيء - . لفظ م (١) حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتياً على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فضرب ابنه الحديث في الراسل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن الله صاحب هذا القبر فانه كان يجاهد الله ورسوله الحديث وفيه فإذا سببت المشركين فسبهم جميعاً (٢) حديث شرب نيمان الخمر خذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عوناً للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم ومرسل محمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ومعه محمد وكناه عبد الملك والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلدته في الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجلده فقال رجل من القوم اللهم الله ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلتصوه فوافقه ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفي رواية لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك (٣) حديث لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق (٤) حديث ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بكفيرة إياه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

بالأدب عوقب بحرمان
السنن ومن تهاون
بالسنن عوقب بحرمان
الفرائض ومن تهاون
بالفرائض عوقب
بحرمان المعرفة . وسئل
السري عن مسألة
في الصبر فجعل يتكلم
فيها فندب على رجله
عقرب فجعلت تضربه
بأرتها فقيل له ألا
تدفعها عن نفسك
قال أستحي من الله
أن أتكلم في حال
ثم أخالف ما أعلم فيه
وقبل من أدب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال
«زويت لي الأرض
فأريت مشارقها
ومغاربها» ولم يقل
رأيت . وقال أنس
ابن مالك الأدب
في العمل علامة قبول

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا والتعرض للأموات أشد» (١) قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت ما فعل فلان لعنه الله قلت توفي قالت رحمه الله قلت وكيف هذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتنسوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا» (٢) وقال عليه السلام «لاتنسوا الأموات فتؤذوا به الأحياء» (٣) وقال عليه السلام «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولاتسبوهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا» (٤) فان قيل فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله أو الأمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله لأنه يحتمل أن يموت بسد التوبة فان وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ولاتنتهى إلى رتبة الكفر فاذا لم يقيد بالتوبة وأطاق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى وإنما أوردنا هذا تهاون الناس باللعة وإطلاق اللسان بها والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعة إلا على من مات على الكفر أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص العيينين فالاشتغال بذكر الله أولى فان لم يكن ففي السكوت سلامة قال مكين إبراهيم كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلغونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكرك لما ارتكبت منك فقال إنما هاكلتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة لا إله إلا الله ولعن الله فلانا فلان يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال «أوصيك أن لا تكون لعانا» (٥) وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طمان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لوقلت إنه مرفوع لم أبال وعن أبي قتادة قال كان يقال «من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله» (٦) وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً لا صرح الله جسمه ولا مله الله وما يجرى مجراه فان ذلك مذموم وفي الخبر «إن الظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة» (٧) .

(١) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل (٢) حديث عائشة لاتنسوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا وخ ذكر الصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في رهد ولرقائق مع القصة (٣) حديث لاتنسوا الأموات فتؤذوا الأحياء الترمذي من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم (٤) حديث أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبوهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى احفظوني في أصحابي وأصهارى وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة لاتنسوا أصحابي ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم وللنساء من حديث عائشة لاتذكروا موتاكم إلا بخير وإسناده جيد (٥) حديث قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعانا أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرهم المجهيم وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٦) حديث لعن المؤمن كقتله متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك (٧) حديث إن الظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة لم أقف له على أصل وللترمذي من حديث عائشة بسد ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انصر .

العمل . وقال ابن
عطاء الأدب الوقوف
مع المستحسنات
قبل مامنه قال أن
تعامل الله سرا وعلنا
بالأدب فاذا كنت
كذلك كنت أديا
وإن كنت أهجيا ثم
أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل
ملحة
وإن سكنت جاءت
بكل ملح
وقال الجري من
عشرين سنة ممددت
رجلي في الخلوة فان
حسن الأدب مع الله
أحسن وأولى . وقال
أبو على ترك الأدب
موجب للطرد فمن أساء
الأدب على البساطرد
إلى الباب ومن أساء
الأدب على الباب رد

(الآفة التاسعة الفناء والشعر)

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم قال رسول الله ﷺ « لأن يتلى جوف أحدكم فيحاقى بربه خير له من أن يتلى شعرا » (١) وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في مصنف شعر وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرنا فان ذكر الله خير من الشعر . وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » (٢) نعم مقصود الشعر للدخ والقدم والتشبيب وقد يدخله الكذب وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في اللدح (٣) فانه وإن كان كذبا فانه لا يلحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليقت الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يستمد صورته وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبع لوجد فيها مثل ذلك فلم ينزع منه قالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر إلى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رأيك أبو كبير الهذلي لم أعك أحق بشعره قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي قلت يقول هذين البيتين :

ومبرا من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض للتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك (٤) . ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفناء يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما مكان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة

(الآفة التاسعة الفناء والشعر)

(١) حديث لأن يتلى جوف أحدكم فيحاقى بربه خير من أن يتلى شعرا مسلم من حديث سعد ابن أبي وقاص وافق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد (٢) حديث إن من الشعر لحكمة تقدم في العلم وفي آداب السماع (٣) حديث أمره حسانا أن يهجو للشركين متفق عليه من حديث البراء أنه ﷺ قال لحسان إهجمهم وجبريل معك (٤) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي :

ومبرا من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض للتهلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة .

إلى سيطرة الدواب .

[الباب الثاني

والثلاثون في آداب

الحضرة الالهية لأهل

القرب]

كل الآداب تتلقى من

رسول الله صلى الله

عليه وسلم فانه عليه

السلام مجمع الآداب

ظاهرا وباطنا وأخبر

الله تعالى عن حسن

أدبه في الحضرة بقوله

تعالى - مازاغ البصر

وما طفى - وهنه

غامضة من غوامض

الآداب اختص بها

رسول الله صلى الله

عليه وسلم أخبر الله

تعالى عن اعتدال

قلبه القدس في

الاعراض والاقبال

أعرض عما سوى الله

وتوجه إلى الله وترك

وراء ظهره الأرضين

من الابل ثم رجع وهو من أَرْضِي النَّاسِ فقال له صلى الله عليه وسلم أقول في الشعر فجعل يستدر إليه ويقول بَأَيِّ أَنتِ وَأَيِّ إِنِّي لأَجِدُ للشعر دِينًا طَيِّبًا لِسَانِي كَدِيبِ النَّخْلِ ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بدا من قول الشعر فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين^(١).

(الآفة العاشرة الزاح)

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدر إيسير استثنى منه قال صلى الله عليه وسلم «لا عار أخاك ولا تمارحه^(٢)» فان قلت الماراة فيها إيذاء لأن فيها تكديبا للأخ والصديق أو تجهيلا له ، وأما المزاح فطائفة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهي عنه ؟ فاعلم أن النهي عنه الإفراط فيه أو الداومة عليه أما الدلومة فلا لأنه اشتغال باللعب والهزل فيه والقلب يمتدح وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط الهابة والوقار فما غلب الضحك وكثرة الضحك نيمت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط الهابة والوقار فما غلب الضحك عن هذه الأمور فلا يذم كما روى النبي ﷺ أنه قال «إني لأمزح ولا أقول إلا حقا^(٣)» إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا وأما غيره إذا فصح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الثريا^(٤)» وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكك قلت هيئته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولأن الضحك يدل على الفلعة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لبكينم كثيرا وضحكنم قليلا^(٥)» وقال رجل لأخيه يا أخى هل أتاك أنك وإراد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها قال لا قال فقيم الضحك ؟ قيل فما روى ضاحكا حتى مات. وقال يوسف ابن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . وكان عبد الله بن أبي يحيى يقول أنضحك ولعل أكفانك

والله الماحجة محظوظها
والسموات والهار
الآخرة محظوظها فما
الضفت إلى ما أعرض
عنه ولا لحقه الأسف
على الغائب في إعراضه
قال الله تعالى - لكيلا
تأسوا على ما فاتكم -
فهذا الخطاب للعموم
وما زاع البصر إخبار
عن حال النبي عليه
السلام بوصف خلص
من معنى ما خاطب به
العموم فكان ما زاع
البصر حاله في طرف
الاعراض وفي طرف
الاقبال تلقى ما ورد
عليه في مقام قاب
قوسين بالروح والقلب
ثم فر من الله تعالى
حياء منه وهية
وإجلالا وطوى نفسه
بغراره في مطاوى
انكساره واقتاره

(١) حديث لما قسم الفنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلانس وفي آخره شعرة :

وما كان بدم ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس :

أجعل نهبي ونهب العيب مد بين عينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأنتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد في رواية أعطى علفمة بن علانة مائة وأما زيادة اقطعوا عنى لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة .

(الآفة العاشرة الزاح)

(٢) حديث لا عار أخاك ولا تمارحه الترمذي وقد تقدم (٣) حديث إني أمزح ولا أقول إلا حقا تقدم (٤) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا تقدم . (٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكينم كثيرا متفق عليه من حديث أنس ومائسة .

قد خرجت من عند القصار وقال ابن عباس من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبيك وقال محمد بن واسع إذا رأيت في الجنة رجلا يبيك ألسنتك تعجب من بكائه ؟ قيل بلى قل فالدن يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه فمذه آفة الضحك والذموم منه أن يستغرق ضحكا والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) قال القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوب له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرار ثم وقصه قتلته فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبوه وقد هلك فقال نعم وأفواهم ملائ من دمه ^(٢) وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه من مزح استخف به وقال محمد بن النكدر قالت لى أمى يابنى لا تمزح الصبيان قهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه يابنى لا تمزح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجترى عليك وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح تعذبوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم خفيث حسن من حديث الرجال وقال عمر رضي الله عنه أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق وقيل لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح ويقال المزاح مسلبة للنهى مقلعة للأصدقاء . فإن قلت قد ثقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه . فأقول إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ولا تؤذى قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الدور فلا خرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغار ما يصير كبيرة بالأصرار ومن المباحات ما يصير صغيرة بالأصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ^(٣) ثم روى أبو هريرة أنهم قالوا «يا رسول الله إنك تداعبنا فقال إني وإن دأبتكم لا أقول إلا حقا ^(٤)» وقال عطاء إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحمدى وجرى منه ذبلا كذيل العروس ^(٥) وقال أنس إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه ^(٦) وروى أنه كان كثير التبسم ^(٧) وعن الحسن قال أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لها صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة عجوز فبكت فقال إنك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى - إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا - ^(٨)» وقال زيد بن أسلم إن امرأة يقال لها

(١) حديث كان ضحكه التبسم تقدم (٢) حديث القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على قلوب له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه قتلته فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبوه فهلك قال نعم وأفواهم ملائ من دمه ابن المبارك في الزهد والرافق وهو حصل (٣) حديث إذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم (٤) حديث أبي هريرة قالوا إنك تداعبنا قال إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقا الترمذي وحسنه (٥) حديث عطاء إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم الحديث قد ذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسيه واحمدى وجرى منه ذبلا كذيل العروس لم أقف عليه (٦) حديث أنس قال من أفكه الناس تقدم (٧) حديث أنه كان كثير التبسم تقدم (٨) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز

لكيلا تنبسط النفس
تظنى فان الطغيان
عند الاستغناء وصف
النفس قال الله تعالى
- كلا إن الإنسان
ليظنى أن رآه استغنى -
والنفس عند الواهب
الواردة على الروح
والقلب تسترق السمع
ومنى نالت قسطا من
المنح استغنت وطنت
والطغيان يظهر منه
فرط البسط والإفراط
في البسط يستد باب
الزيد وطغيان النفس
لضيق وعائها عن
الواهب فوسى عليه
السلام صح له في
الحضرة أحد طرفي
ما زاغ البصر وما التفت
إلى ما فاتته وما طغى
متأسفا لحسن أدبه
ولسكن امتلا من المنح
واستقرت النفس السمع

أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم «قالت إن زوجي يدعوك قال ومن هو أهو الذي بعينه يياض قالت والله ما بعينه يياض فقال بل إن بعينه يياض قالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا وبعينه يياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة (١)» وجاءت امرأة أخرى فقالت «يا رسول الله احملني على بعير فقال بل نعملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به إنه لا يعملني فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بعير إلا وهو ابن بعير (٢)» فكان يمزح به وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول «يا أبا عمير ما فعل النغير (٣)» لغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضي الله عنها «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطا قممنا عليه واستبقينا فسبقني وقال هذه مكان ذى المجاز (٤)» وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسعني في أثرى فلم يدركني وقالت أيضا «سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سابقني فسبقني وقال هذه بتلك (٥)» وقالت أيضا رضي الله عنها «كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجثت به فقلت لسودة كلى فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك فقالت ما أنا بذاتقة فأخذت يدي من الصحيفة شيئا منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها خفص لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحيفة شيئا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك (٦)» وروى «أن الضحاك بن سفيان الكلاني كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداها فتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أمي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما (٧)». وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن على عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيمش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن

الترمذي في الشبائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزى في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف (١) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك أهو الذي بعينه يياض الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والزناح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف (٢) حديث قوله لامرأة استحمانته نعملك على ابن البعير الحديث أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ أنا حاملك على ولله الشاقة (٣) حديث أنس بأبعمير ما فعل النغير متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة (٤) حديث عائشة في مسابقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز لم أجده أصلا ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر (٥) حديث عائشة سابقني فسبقته النساء وابن ماجه وقد تقدم في النكاح (٦) حديث عائشة في لطخ وجهه وسودة بحريرة ولطخ وسودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد (٧) حديث إن الضحاك بن سفيان الكلاني قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداها فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أمي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلا وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

ونظامت إلى القسط والحظ فلما حظيت الناس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها وضاق نطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال أرني أنظر إليك ففتح ولم يطلق في قضاء الزيد وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد في وجبه باب الفتوح والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط في البسط ولو حصل الاعتدال في البسط ما وجبت العقوبة بالقبض والاعتدال في البسط بايقاف النازل من المنع على الخروج

لى الابن قد رزح وبقل وجهه وما قبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم « إن من لا يرحم لا يرحم »^(١)
فأكثر هذه العطايات منقولة مع النساء والاصديان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف
قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا
«أنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم »^(٢)
قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجزه . وروى « أن خوات بن جبير الأنصارى كان جالسًا إلى نسوة
من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا
لجللى شرود قال فبضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل
الشراد بعد قال فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أنفر من كل ما رأيت حياء منه حتى قدمت للدينة
وبعد ما قدمت المدينة قال فرأى فى المسجد يوما أصلى فجالس إلى فطولت فقال لا تطول فاني أتعطرك
فما سلت قال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت فقام وكنت بعد ذلك
أنفر من حقه لحقى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق واحد فقال أبا عبد الله أمارك ذلك
الجمل الشراد بعد قلت والذى بعثك بالحق ما شرود منذ أسلمت فقال الله أكبر الله أكبر اللهم اهد
أبا عبد الله قال حسن إسلامه وهداه الله »^(٣) وكان نعمان الأنصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر
فى المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلما كثر
ذلك منه قال له رجل من الصحابة لئنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله
وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي ﷺ فيقول يارسول الله هذا قد
اشترته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يارسول
الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا فيقول يارسول الله إنه لم يكن عندى
ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بشمعه »^(٤) فهذه مطايات

(١) حديث أبى سلمة عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن على فبرى
الصبي لسانه فيرش إليه فقال عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه
وما قبلته قط فقال إن من لا يرحم لا يرحم أبو يعلى من هذا الوجه دون ما فى آخره من قول عيينة
ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده وحكى الخطيب فى المبهجات قولين فى قائل
ذلك أحدهما أنه عيينة بن حصن والثانى أنه الأقرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهرى عن
أبى سلمة عن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال
إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله ﷺ من لا يرحم لا يرحم »^(٢) حديث
قال لصهيب وبه رمد أنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله
عليه وسلم ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات (٣) حديث إن خوات بن جبير كان
جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله
مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجللى شرود الحديث الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن
أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة
ابن عمرو (٤) حديث كان نعمان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فيضربه الحديث وفيه أنه كان يشترى الشئ ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم
يجى بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه الحديث الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن
عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدم أوله .

والقلب والإيقاف على
الروح والقلب بما
ذكرناه من حال النبي
عليه السلام من تغيب
النفس فى مطاوى
الانكسار فذلك الفرار
من الله إلى الله وهو غاية
الأدب حظى به رسول
الله عليه الصلاة
والسلام فما قوبل
بالقبض فدام مريده
وكان قاب قوسين
أو أدنى ويشاكل
الشرح الذى شرحناه
قول أبى العباس بن
عطاء فى قوله تعالى
- مازاغ البصر
وما طفى - قال لم يره
بطغيان عيىل بل رآه على
شرط اعتدال القوى
وقال سهل بن عبد الله
التسترى لم يرجع
رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى شاهد نفسه

يباح مثلها على التدور لاطى الدوام والواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المبيت للقلب .

(الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء)

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن - ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبية على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالهاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء وإذا كان بحضرة المستهزاء به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة قالت عائشة رضي الله عنها حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا »^(١) وقال ابن عباس في قوله تعالى - يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - إن الصغيرة التسمم بالاستهزاء بالؤمن والكبيرة التفهيم بذلك وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعظم فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجيء بكره وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجيء بكره وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم لهم فلا يأتيه^(٣) » وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل^(٤) » وكل هذا يرجع إلى اسحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغار له وعليه به قوله تعالى - عسى أن يكونوا خيرا منهم - أى لا تستحقه استصغارا فقله خير منك وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به فكانت السخرية في حقه من جملة المزاح وقد سبق ما يذم منه وما يمدح وإعما المحرم استصغار يتأذى به المستهزاء به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخط في ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه على صنعة أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا أو ناقصا لعييب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها .

(الآفة الثانية عشرة إفشاء السر)

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المارفين والأصدقاء قال النبي صلى الله عليه وسلم

(الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء)

(١) حديث عائشة حكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ما يسرني أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا أبو داود والترمذي وصححه (٢) حديث عبد الله بن زمة وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه (٣) حديث إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجيء بكره وغمه فاذا جاء أغلق دونه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هذبة أحد المهاجرين عن أنس (٤) حديث معاذ بن جبل من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل الترمذي دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس إسناده بم متصل قال الترمذي قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(الآفة الثانية عشرة إفشاء السر)

ولا إلى مشاهدتها وإعما كان مشاهدا بكيته لربه يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المثل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز في ذلك عن سهل بن عبد الله ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد ابن خاف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي قال سمعت أبا نصر ابن عبد الله بن علي

« إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة^(١) » وقال طلقا « الحديث بينكم أمانة^(٢) » وقال الحسن إن من الحياة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يأبى إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بطله إلى غيرك قال فلا تعدني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاء كان الخيار عليه قال فقلت يأبى وإن هذا يدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يابنى ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر قال فأثبت معاوية فأخبرته فقال يا وليد أعتقتك أبوك من رقى الخطأ فإفشاء السر خيانة وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار، وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة.

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

فإن الإنسان سباق إلى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود - وقال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الوأى مثل الدين أو أفضل^(٤) » والوأي الوعد وقد أئني الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال - إنه كان صادق الوعد قيل إنه وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره . ولما حضرت عبدالله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لألقى الله بثلاث النفاق أشهدكم أني قد زوجته ابنتي وعن عبدالله بن أبي الحنفية قال « بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والعد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك^(٥) » وقيل لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل اليعاد فلا يجيء قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجمىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال عسى^(٦) وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولي ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فإن كان عند الوعد عازما على أن لا ينفي فهذا هو النفاق . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان^(٧) » وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه كان منافقا

(١) حديث إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة أبو داود والترمذى وحسنه من حديث

جابر (٢) حديث الحديث بينكم أمانة ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا -

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

(٣) حديث العدة عطية الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنفية بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والعد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا بنى قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه (٦) حديث كان إذا وعد وعدا قال عسى لم أجده أصلا (٧) حديث أنى هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق الحديث وفيه إذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم

السراج قال أنا
أبو الطيب السكي عن
أبي محمد الجريري قال
التسرع إلى استدراك
علم الإقطاع وسيلة
والوقوف على حسد
الانحسار نجاة واللياذ
بالهرب من علم الدنو
وصلة واستبجاء ترك
الجواب ذخيرة
والاعتصام من قبول
دواعي استماع الخطاب
تكلف وخوف فوت
علم ما انطوى من
فصاحة الفهم في حين
الإقبال مساءة والإصغاء
إلى تلقى ما ينفصل عن
معدته بمد والاستسلام
عند التلاقى جراءة
والانبطاس في محل
الأنس غرة وهذه
الكلمات كلها من
آداب الحضرة لأربابها
وفي قوله تعالى - ما زانغ

ومن كانت فيه خلة منهم كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر (١) « وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغي أن يعتز من صورة النفاق أيضا كما يعتز من حقيقة ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقي واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحي يدي قد ذكر مواعده لأبي الهيثم فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم (٢) « فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق من مواعده له مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضعيفة ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل من الناس فقال إن لي عندك موعدا يا رسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هي لك وقال احتكمت يسيرا (٣) وإصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكما موسى عليه السلام فقالت : حكى أن تردني شاة وأدخل معك الجنة . قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثاقيل أشع من صاحب الثمانين والراعي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي (٤) « وفي لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يعد فلا إثم عليه .

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين)

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال اسميل بن واسط سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال يا كم والكذب فانه مع الفجور وما في النار (٥) وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق (٦) « وقال الحسن كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج وإن الأصل الذي بنى عليه

(١) حديث عبد الله بن عمرو أربع من كن في كان منافقا الحديث متفق عليه (٢) حديث كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السي فأعطى اثنين وبقي واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٣) حديث أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل فقال إن لي عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث وفيه لصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر (٤) حديث ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي وفي لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يعد فلا إثم عليه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالوا فلم يفي .

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين)

(٥) حديث أبي بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال يا كم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط وإسناده حسن (٦) حديث أبي أمامة إن الكذب باب من أبواب النفاق ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى

البصر وما طنى -
وجه آخر أطف -
سبق : مازاغ البصر
حيث لم يتخاف عن
البصيرة ولم يتأصر
وما طنى لم يسبق البصر
البصيرة فيتجاوز حده
ويتعدى مقامه بل
استقام البصر مع
البصيرة والظاهر
مع الباطن والقلب مع
القلب والنظر مع القدم
ففي تقدم النظر على القدم
طغيان والمعنى بالنظر
علم وبالقدم حال القلب
فلم يتقدم النظر على
القدم فيكون طغيانا
ولم يتخلف القدم عن
النظر فيكون تقصيرا
فلما اعتدلت الأحوال
وصار قلبه كقلبه
وقال به كقلبه وظاهره
كباطه وباطنه
كظاهره وبصره
كبصيرته وبصيرته

النفاق الكذب وقال عليه السلام «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هولاك به مصدق و نلت به كاذب»^(١) وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»^(٢). «ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأنتصك من كذا وكذا ويقول الآخر والله لأزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة»^(٣) وقال عليه السلام «الكذب ينقص الرزق»^(٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن التجار هم الفجار هم الفجار قليل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال نعم ولكمهم يملفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون»^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : اللنان بعطيته والنفق سلعته بالخلف الفاجر والسبل إزاره»^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكته في قلبه إلى يوم القيامة»^(٧) وقال أبوذر قال رسول الله ﷺ «ثلاثة يحبهم الله رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ورجل كان له جارسوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظمن ورجل كان معه قوم في سفر أو سيرة فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسنوا الأرض فقلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الخلاف والفقر المحتال والبخل للنان»^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له»^(٩) وقال صلى الله عليه وسلم «رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس يسد القائم كلوب من حديد يلقمه في شق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله

الوجهي ضعيف جدا ويفنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقا قال في كل منهما وإذا حدث كذب وهما في الصحيحين وقد تقدما في الآفة التي قبلها (١) حديث كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هولاك به مصدق وأنت له كاذب البخارى في كتاب الأدب للفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد (٢) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا متفق عليه (٣) حديث من رجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناها في أمالي ابن مسمون وناسخ ذكره البخارى هكذا في التاريخ وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ (٤) حديث الكذب ينقص الرزق أبو الشيخ في طبقات الأصهبانيين من حديث أبي هريرة وروينا كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف (٥) حديث إن التجار هم الفجار الحديث وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٦) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم اللنان بعطيته والنفق سلعته بالخلف الكاذب والسبل إزاره مسلم من حديث أبي ذر (٧) حديث ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكته في قلبه إلى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله ابن أنيس (٨) حديث أبي ذر ثلاثة يحبهم الله الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الخلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يفضهم الله البيع الخلاف الحديث وإسناده جيد (٩) حديث ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له أبو داود والترمذى وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

كبصره غيث انتهى
نظره وعلمه قارنه
قدمه وحاله ولهذا المعنى
انعكس حكم معناه
ونوره على ظاهره وآتى
البراق ينتهى خطوه
حيث ينتهى نظره
لا يتخلف قدم البراق
عن موضع نظره كما
جاء في حديث المعراج
فكان البراق بقاله
مشا كلالعناء ومتصفا
بصفته لقوة حاله ومعناه
وأشار في حديث المعراج
إلى مقامات الأنبياء
ورأى في كل مقام
بعض الأنبياء إشارة
إلى تعويقهم وتخلفهم
عن شأوه ودرجته
ورأى موسى في بعض
السماوات فمن هو في
بعض السماوات يكون
قوله - أرأى أنظر إليك -
تجاوزا للنظر عن حد

ثم يحذبه ويلقعه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة ^(١) » وعن عبد الله بن جرادة قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك قال ياني الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى - إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله - ^(٢) » وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول في دعائه « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وعائل مستكبر ^(٤) » وقال عبد الله بن عامر « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت نعم فقال أما إنك لو لم تعطني لكتبت عليك كذبة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « وكان متكئاً ألا أنبشكم بأكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال : ألا وقول الزور ^(٧) » وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من ثنن ماجاء به ^(٨) » وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وما هن ؟ قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي قم فقممت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقيه في شدة الجالس الحديث البخاري من حديث حمزة بن جندب في حديث طويل (٢) حديث عبد الله بن جرادة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل يزني المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا الحديث ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في السمعت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء (٣) حديث أبي سعيد اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب هكذا وقع في نسخ الإحياء عن ابن سعيد وإعماها عن أم معبد كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجني من الزنا وزاد وعلمي من الرياء وعيني من الحيانة وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه والإمام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت أن تعطيه قالت نعم فقال إن لم تعطني لكتبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجلها ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة (٦) حديث لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة (٧) حديث ألا أنبشكم بأكبر الكبائر الحديث وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكر (٨) حديث ابن عمر إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من ثنن ماجاء به الترمذي وقال حسن غريب (٩) حديث أنس تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب الحديث الحاكم في المستدرک والحراني في مكارم الأخلاق وفيه معدن ستان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال

القدم وتغافا للقدم
عن النظر وهذا هو
الاخلاق بأحد الوصفين
من قوله تعالى - ما زاغ
البصر وما طغى -
فرسول الله حمل مقترنا
قدمه ونظره في حبال
الحياة والتواضع ناظرا
إلى قدمه قادم على
نظره ولو خرج عن
حبال الحياة والتواضع
وتناول بالنظر متمديا
حد القدم تعوق في
بعض السموات
كتعوق غيره من
الأنبياء فلم يزل صلى
الله عليه وسلم متجلسا
حباله في خفارة أدب
حاله حتى خر حجب
السموات فانصبت إليه
أقسام القرب انصبابا
وانقشعت عنه
سحاب الحجب حجابا
حجابا حتى استقام حتى

« إن للشيطان كلا ولعوقا ونشوقا أما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كحله فالنوم ^(١) »
 وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقياي هذا فيكم فقال
 « أحسنوا إلى أئمتنا ثم الذين يلونهم ثم يغشوا الكذب حتى يغلف الرجل على اليمين ولم يستحلف
 ويشهد ولم يستشهد ^(٢) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب
 فهو أحد الكاذبين ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين يأنم ليقطع بها مال امرئ
 مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان ^(٤) » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
 رد شهادة رجل في كذبة كذبها ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها
 السلم إلا الحيانة والكذب ^(٦) » وقالت عائشة رضي الله عنها « ما كان من خلق أشد على أئمتنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل
 من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها ^(٧) »
 وقال موسى عليه السلام : يارب أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه
 ولا يزني فرجه ، وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلهم الصغور عما قيل يقله
 صاحبه ، وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كنّ فيك لا يضرّك ما فاتك من الدنيا
 صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن الخلق وعفة طعمه ^(٨) » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة
 بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أول ثم بكى
 وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البرّ وهما في الجنة ^(٩) » وقال معاذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح ^(١٠) »

صحيح الإسناد (١) حديث إن للشيطان كلا ولعوقا الحديث الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند
 ضعيف وقد تقدم (٢) حديث خطب عمر بالجاية الحديث وفيه ثم يغشوا الكذب الترمذي وصححه
 والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٣) حديث من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب
 فهو أحد الكاذبين مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٤) حديث من حلف على
 يمين يأنم ليقطع بها مال امرئ مسلم الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٥) حديث أنه
 رد شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسل لا موسى
 روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٦) حديث على : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن
 إلا الحيانة والكذب ابن أبي شيبة في اللصف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل
 من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من
 حديث سعد مرفوعا وموقوف والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلل (٧) حديث ما كان
 من خلق الله شيء أشدّ عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على
 الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة أحمد من
 حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات
 فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح (٨) حديث أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك
 من الدنيا صدق الحديث ، الحديث الحاكم والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو
 وفيه ابن أبي مليكة (٩) حديث أبي بكر عليكم بالصدق فإنه مع البرّ وهما في الجنة ابن ماجه والنسائي في
 اليوم والأيلة وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع (١٠) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق
 الحديث أبو نعيم في الحلية وقد تقدم .

صراط - مازاغ البصر
 وما طغى - فمركا البرق
 الحاطف إلى محمد
 الوصل واللطائف وهذا
 غاية في الأدب ونهاية في
 الأرب . قال أبو محمد
 ابن رويم حين سئل
 عن أدب السافر فقال
 لا يجاوزهم قدمه حيث
 وقف قلبه يكون مقمره
 أخبرنا شيخنا ضياء
 الدين أبو النجيب إجازة
 قال أنا عمر بن أحمد قال
 أنا أبو بكر بن خلف
 قال أنا أبو عبد الرحمن
 السلي قال ثنا القاضي
 أبو محمد يحيى بن
 منصور قال حدثنا
 أبو عبد الله محمد بن
 علي الترمذي قال حدثنا
 محمد بن رزام الأيلي قال
 حدثنا محمد بن عطاء
 المصممي قال حدثنا
 محمد بن نصير عن عطاء

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى ، وقال عمر رضي الله عنه : أحبك إلينا ما لم تركم أحسنكم إنما فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اخترناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتابا فأنيت على حرف إن أنا كتبت زينت الكتاب وكنت قد كذبت فضمت على تركه فتوديت من جانب البيت - ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقال الشعبي : ما أدري أيهما أبعد غورا في النار الكذاب أو البخيل وقال ابن السكيت ما أراى أوجر على ترك الكذب لأنى إنما أدعه أفنة ، وقيل لحالده بن صبيح أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة قال نعم وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فان كان صادقا صدق وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يمتزجان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له كذبت فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد الخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غير ورث جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب يحصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران الكذب في بعض المواطن خير من الصدق أرايت لو أن رجلا سمى خافا إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فأنهى إليك فقال أرايت فلانا ما كنت قائلا ألسنت تقول لم أراه وما تصدق به وهذا الكذب واجب . فنقول الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا وواجب إن كان المقصود واجبا كما أن عصمة دم السلم واجبة فلهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصودا للحرب أو إصلاح ذات البين أو استئالة قلب المجنى عليه إلا بالكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة . والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها (١) » وقالت أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا (٢) » وقالت أسماء بنت يزيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما (٣) » وروى عن أبي كاهل قال « وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما قتل مالك وقتلان قد

ابن أبي رباح عن ابن عباس قال « لا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية سرب أرى أنظر إليك - قال : قال ياموسى إنه لا يرانى حتى إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم » . ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض ليس هو على الإطلاق لأن الله تعالى أمر بالدعاء وإنما الامساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط في طلب للكرب

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث مسلم وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه وقد تقدم والذي قبله عند مسلم بعض هذا (٣) حديث أسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجائين يصلح بينهما أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه .

سمعتهم يحسن عليه الثناء ثم أتيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلاحاً ثم قلت أهـ كنت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كاهل أصلح بين الناس ^(١) «أى ولوبا الكذب وقال عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم «أكذب على أهلى قال لا خير في الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ^(٢)» وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى وكان في خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحد وثمة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ثم قال لا امرأته أنشدك بالله هل تبغضيني قالت لا تشدني قال فاني أنشدك الله قالت نعم فقال لابن الأرقم أنسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخلمهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه فقالت بئى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتخرجت أن أكذب فأكذب بأمر المؤمنين قال نعم فأكذبي فان كانت إحداكن لا تحب أحداً فلا تحدثه بذلك فان أقل البيوت الذى بيني على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب ، وعن النواس بن سمعان الكلبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مالى أراكم تهافتون في الكذب تهافت القراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب فان الحرب خدعة ويكون بين الرجلين شحنة فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها ^(٣)» وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً أو قال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالجرب خدعة فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله فمثل أن يأخذ ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره أو يأخذ سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زلت وما سرت ، وقال صلى الله عليه وسلم «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستر بستر الله ^(٤)» وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى فالرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطيبها فليعلم أو يمتد إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ولكن الحذية أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فيبغى أن يقابل أحدها بالآخر ويزن بالميزان القسط فإذا علم أن المحذور الذى يحصل

(١) حديث أبى كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه يا أبا كاهل أصلح بين الناس رواه الطبراني ولم يصح (٢) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير في الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل وهو في اللواط عن صفوان ابن سليم معضلاً من غير ذكر عطاء بن يسار (٣) حديث النواس بن سمعان مالى أراكم تهافتون في الكذب تهافت القراش في النار كل الكذب مكتوب الحديث أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ تنبأ يعون إلى قوله في النار دون ما بعده فرواه الطبراني وفيهما شهر بن حوشب (٤) حديث من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستر بستر الله الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستر بستر الله وإسناده حسن .

والحاجات الدنيوية
حتى رضى الحق مقاما
في القرب وأذن له في
الانبطاط وقال اطلب
منى ولو ملحا لمعجيك
فلما بسط انبطط وقال
- رب إنى لما أنزلت
إلى من خير فقير -
لأنه كان يسأل حوائج
الآخرة ويستعظم
الحضرة أن يسأل
حوائج الدنيا لحقارتها
وهو في حجاب الحشمة
عن سؤال المحقرات
ولهذا مثال في الشاهد
فإن الملك الأعظم يسأل
العظماء ويحتشم في
طلب المحقرات فلما رفع
بساط حجاب الحشمة
صار في مقام خاص من
القرب يسأل الحقير كما
يسأل الخطير قال
ذو النون العري أدب
العارف فوق كل أدب

بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الليل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم تغير جمع إليه ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فأما إذا تعلق بفرض غيره فلا يجوز الساعية لحق الغير والاضرار به وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم فهو لزيادات المال والحال ولأمور ليس فوائدها محذورا حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما فخر به وتكذب لأجل مراعاة الضرات وذلك حرام وقالت أسماء « سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت إن لي ضرة وإني أتكثر من زوحي عالم بفعل أضرارها بذلك فهل طي شيء فيه فقال صلى الله عليه وسلم: التشبع عالم يعطى كلابس ثوبي زور ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطعم بما لا يطعم أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة ويدخل في هذا قنوى العالم بما لا يتحققه ^(٢) » وروايته الحديث الذي لا يتبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه فهو لذلك يستكف من أن يقول لا أدري وهذا حرام وبما يلتحق بالنساء الصبيان فإن الصبي إذا كان لا يرغب في الكتب إلا بوعيد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا، نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا وإن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعنى عنه لأنه إنما أيسر بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة قد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن طائون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم « من كذب طي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ^(٣) » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب فقام ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها وقول القائل إن ذلك قد تكرر طي الأسع وسقط وقصه وما هو جدي فوقعه أعظم فهذا هو الس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب طي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطى الله تعالى ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا والكذب طي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار التي لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

(بيان الحذر من الكذب بالمعاريض)

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره وإنما أراد بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطر فادخل طي زياد فاستبطأ فتعلل بعرض وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت

(١) حديث أسماء قالت امرأة إن لي ضرة وإني أتكثر من زوحي بما لم يفعل الحديث متفق عليه وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق (٢) حديث من تطعم بما لا يطعم وقال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة لم أجبه بهذا اللفظ (٣) حديث من كذب طي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار متفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم .

لأن معروفة مؤدب قلبه . وقال بعضهم يقول الحق سبحانه وتعالى : من أئتمته القيام مع أسأى وصفاني أئتمته الأدب ومن كشف له عن حقيقة ذاتي أئتمته العطب . فاختار أيهما شئت الأدب أو العطب وقول القائل هذا يشير إلى أن الأساء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس مع لمعان نور عظمة الذات تتلشى الآثار بالأنوار ويكون معنى العطب التحقق بالثناء وفي ذلك العطب نهاية الأرب . وقاله أبو علي الدقاق في قوله تعالى - وأيوب

الأمير إلا ما رفعني الله وقال إبراهيم إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل إن الله تعالى يعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قوله ما حرف نفي عند السمع وعنده للإيهام. وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم وما كان قد أتاها بشيء فقال كان عندي ضاغط قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعت عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئا فقال أرضها به ومعنى قوله ضاغطا حتى رقيبا وأراد به الله تعالى وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبي له السجدة ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه فقام عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض الفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه، نعم الماريض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاج كقوله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة عجوز»^(١) وقوله للأخرى «لقد في عين زوجك ياض» وللأخرى «نعملك على ولد البعير» وما أشبهه وأما الكذب الصريح كإفعله نعيان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرر إذ قال له إنه نعيان وكما يتأده الناس من ملاعبة الحق بتفريهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام وإن لم يكن إلا لمطابته فلا بوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه قال صلى الله عليه وسلم «لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وحتى يجنب الكذب في مزاحه^(٢) «وأما قوله عليه السلام «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا»^(٣) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح. ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في البالغة كقوله طابت لك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم البالغة فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا وإن كان طلبه مرات لا يتأدد مثلها في الكثرة لا يأنم وإن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ومما يتأدد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهي وذلك منهى عنه وهو حرام وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد قالت أسماء بنت عميس «كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلها على رسول الله

(١) حديث لا يدخل الجنة عجوز وحديث في عين زوجك ياض وحديث نعملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة (٢) حديث لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة التماري وقال فيه نظر وللشيعين من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقيني في المؤلفات والختلاف من حديث أبي هريرة لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر (٣) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا تقدم في الآفة الثالثة.

إذ نادى ربه أن
مضى الضر وأنت
أرحم الراحمين لم يقل
أرحمى لأنه حفظ أدب
الخطاب وقال عيسى
عليه السلام - إن كنت
قلته فقد علمته - ولم
يقول لم أقل رعاية لأدب
الحضرة . وقال
أبو نصر السراج أدب
أهل - الخصوصية من
أهل الدين في طهارة
القلوب ومراعاة
الأسرار والوفاء بالعهود
وحفظ الوقت وقلة
الالتفات إلى الحواطر
والعوارض والبوادي
والعوائق واستواء
السر والعلاية وحسن
الأدب في مواقف
الطلب ومقامات القرب
وأوقات الحضور .
والأدب أدبان أدب
قول وأدب فعل فمن

صلى الله عليه وسلم ومعنى نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قري إلا قد حامن ابن فشرّب ثم ناوله عائشة قالت فاستحييت الجارية فقلت لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه قالت فأخذت منه طي حياء فشرّبته منه ثم قال ناولي صواحبك قهقري لا تشبهيه فقال لا تجمع من جوعا وكذبا قالت فقلت يا رسول الله إن قالت إحداها كفى تشبيه لا أغنيه أيعد ذلك كذبا قال : إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبية كذبية (١) « وقد كان أهل الورع يعترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن السيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينه فيقال له لو مسحت عينيك فيقول وأين قول الطبيب لأنس عينيك فأقول لأفضل وهذه مراقبة أهل الورع ومن تركه أنسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خيثم عائشة لابن له فأنكبت عليه فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع وقال أرضعتيه قالت لا قال ما عليك لو قلت يا ابن أخى فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم لمالا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام والآنم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم القرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينه في المنام مالم ير أو يقول طي مالم أقبل (٢) » وقال عليه السلام « من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شيرتين وليس باقدي بينهما أبدا (٣) » .

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة)

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بكل لحم الميتة فقال تعالى - ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - وقال عليه السلام « كل للسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٤) » والغيبة تقناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم وقال أبو هريرة قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا (٥) » وعن جابر وأبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه (٦) »

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هي أمها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة لكن في طبقات الأصمانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساء الحديث فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك (٢) حديث ابن من أعظم القرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينه في المنام مالم ير أو يقول طي مالم أقبل البخاري من حديث ابن عمر من أقرى القرى أن يرى عينه مالم يرا (٣) حديث من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شيرتين البخاري من حديث ابن عباس .

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة)

(٤) حديث كل السلم على السلم حرام دمه وماله وعرضه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضا وقد تقدم في آداب الصحبة (٦) حديث جابر وأبي سعيد إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير .

تغيب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب . قال ابن المبارك نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم وقال أيضا الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف وقال الثوري من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ذو النون إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء وقال ابن المبارك أيضا قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس وهذه إشارة منه إلى أن النفس هي منبع الجبهالات وترك الأدب من مخامرة الجهل فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ماؤرد

وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مرت ليلة أسرى بي على أقوام يغمشون وجوههم بأظفارهم قلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء الذين يتأبون الناس ويهونون في أعراضهم» (١) وقال سليم بن جابر «أثبت النبي عليه الصلاة والسلام قلت علمني خيرا أتفتع به فقال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي وأن تلقى أخاك يبشر حسن وإن أدبر فلا تتأبه» (٢) وقال البراء «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتأبوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (٣) وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تأبى من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرع عليها فهو أول من يدخل النار. وقال أنس «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس حتى إذا أسوا جعل الرجل يحس فيقول يا رسول الله ظلمت صائما فاذن لي لأفطر فآذن له والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال يا رسول الله فنانان من أهلك ظلمتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتيك فاذن لهما أن يفطرا فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده فأعرض عنه ثم عاوده فقال إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظلنهاره يأكل لحم الناس اذهب لفرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيتا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاهما فقامت كل واحدة منهما علقه من دم فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار» (٤) وفي رواية «أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال صلى الله عليه وسلم لئن تثنى بهما فجاءتا فدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لإحداهما قئى فقامت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح وقال للأخرى قئى فقامت كذلك فقال إن هاتين صائمتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس» (٥) وقال أنس «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زينة يزنها الرجل وأربنى الربا عرض السلم» (٦) وقال جابر «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يذب صاحباهما فقال إنهما يمدبان وما يمدبان في كبير أما أحدهما فكان يقاتب الناس وأما الآخر فكان لا يستزله من بوله فدعا بجريدة رطبة وأجر يدتين

(١) حديث أنس مررت ليلة أسرى بي على قوم يغمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبو داود مسندا ومرسلا والسند أصح (٢) حديث سليم بن جابر أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت علمني خيرا بنفعني الله به الحديث أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدبر فلا يتأبه وفي إسنادهما ضعف (٣) حديث البراء يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتأبوا المسلمين الحديث ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بسناد جيد (٤) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس الحديث في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقامت كل واحدة منهما علقه من دم ابن أبي الدنيا في الصمت وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ويزيد ضعيف (٥) حديث المرأتين الذكوريتين وقال فيه إن هاتين صائمتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر رجل اللهم (٦) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث وفيه وأربنى الربا عرض الرجل السلم ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

« من عرف نفسه قد عرف ربه » ولهذا النور لا تظهر النفس بجهاة إلا ويقيمها بصرح العلم وحينئذ يتأدب ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .
[الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها]
قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة - فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين - قيل في التفسير يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال الكلبي هو غسل الأدبار بالماء وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على

فكسرها ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر وقال أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو مالم يبسا (١) . « ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقص كما يقص الكلب فر صلى الله عليه وسلم وهما معه بحيفة فقال انهشا منها فقالا يا رسول الله نهش حيفة فقال ما أصبنا من أخيكما أنتن من هذه (٢) » وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يختابون عند الغيبة و يرون ذلك أفضل الأعمال و يرون خلافه عادة الناقصين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حياً فأنضج ويكلم (٣) وروى مرفوعاً كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدتين عند باب من أبواب المسجد فر بهما رجل كان عنثا ترك ذلك فقالا لقد بقي فيمنه شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا ففصلنا مع الناس خالف في أنفسهما ما قالاً فأتيا عطاء فأسألاه فأمرهما أن يعيد الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائعين . وعن مجاهد أنه قال في - ويل لكل همزة لمزة - الهمزة الطعان في الناس والهمزة القذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث ثلث من القية وثلث من النجاسة وثلث من البول وقال الحسن والله للنية أسرع في دين الرجل للؤمن من الأكلة في الجسد وقال بعضهم أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس وقال ابن عباس إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يصراً أحكم القذى في عين أخيه ولا يصير الجفيع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فصلاحه من نفسك فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار مرّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بحيفة كلب فقال الحواريون : ما أنتن ربح هذا الكلب فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشدّ يابض أسنانه كأنه صلى الله عليه وسلم نهام عن غيبة الكلب ونههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلاً يخطب آخر فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء وإياكم وذكر الناس فانه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

(بيان معنى التوبة وحدودها)

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغ سواد ذكرته بتهمة في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره وديارته . أما البدن فكذلك كرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان .

(١) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يندب صاحباهما فقال أما إنهما لعذبان وما عذابان في كبير أما أحدهما فكان يخطب الناس الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النجاسة بدل الغيبة . وللطائلي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكر بن نعيم باسناد جيد (٢) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق للرحوم هذا أقص كما يقص الكلب فر بحيفة فقال انهشا منها الحديث أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد (٣) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حياً الحديث ابن مردويه في التفسير مرفوعاً وموقوفاً وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعملة .

الجنابة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية « إن الله تعالى قد أمّن عليكم في الطهور فما هو ؟ قالوا إنا نستنجى بالماء وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار » وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء . قيل لسان قد علم نبيكم كل شيء حتى الحراة فقال سلمان أجل نهانا أن نستقبل القبلة بضائط أو بول أو نستنجى باليمين أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجى برجيع أو

وأما النسب فبأن تقول أبوه بنبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شئ مما يكرهه كنفها كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سىء الخلق بخيل متكبر مرأء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما فى أهله المتعاقبة بالدين فمكة قولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترم من التجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا فمكة قولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل ثوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فمكة قولك إنه واسع السكم طويل الذيل وسخ الثياب وقال قوم لا غيبة فى الدين لأنه ذم مآذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هى فى النار ^(١) » وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فما خيرها إذن ^(٢) » فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا محتاج إليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو متغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة وكل هذا وإن كان صادقاً فهو به متغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه قيل أرايت إن كان فى أخى ما أقوله قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته ^(٣) » وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه قال إن قامت ما ليس فيه فقد بهتموه ^(٤) » وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها ^(٥) » وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك وكل فى كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما فيه والبهتان أن تقول ما ليس فيه والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلاً فقال ذلك الرجل الأسود ثم قال استغفر الله إني أرايت قد اغتبته وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور وقالت عائشة لا يتباين أحدكم أحداً فأتى قتل لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال لى « الفظى الفظى فلعلت مضغة لحم ^(٦) »

(١) حديث ذكره امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال هى فى النار ابن حبان والحاكم ومصححه من حديث أبى هريرة (٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها إذن الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسل ورويناه فى أمالى ابن قمعون هكذا (٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه قال إن قامت ما ليس فيه فقد بهتموه ^(٤) » وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها ^(٥) » وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك وكل فى كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما فيه والبهتان أن تقول ما ليس فيه والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلاً فقال ذلك الرجل الأسود ثم قال استغفر الله إني أرايت قد اغتبته وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور وقالت عائشة لا يتباين أحدكم أحداً فأتى قتل لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال لى « الفظى الفظى فلعلت مضغة لحم ^(٦) »

عظم . حدثنا شيخنا
صبياء الدين أبو النجيب
إسلاء قال أنا
أبو منصور الحريرى
قال أنا أبو بكر الخطيب
قال أنا أبو عمر والهاشمى
قال أنا أبو على اللؤلؤى
قال أنا أبو داود قال
حدثنا عبد الله بن محمد
قال حدثنا ابن المبارك
عن ابن عجلان عن
القماقع عن أبى صالح
عن أبى هريرة رضى
الله عنه أنه قال : قال
صلى الله عليه وسلم
« إنما أنا لكم بمنزلة
الوالد أعلمكم فإذا
أتى أحدكم الغائط
فلا يستقبل القبلة
ولا يستدبرها ولا
يستطيب يمينه » وكان
يأمر بثلاثة أحجار
ويشى عن الروث
والرمة . والفرس فى

(بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان)

اعلم أن الله كر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت يدي أنها قصيرة فقال عليه السلام « اغتبتها ^(١) » ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال « ما يسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا ^(٢) » وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترب به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتى بيانه وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإماميت ومن النية أن تقول بعض من مربنا اليوم أو بعض من رأيناه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عنه جاز . كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ^(٣) » فكان لا يعين وقولك بعض من تدم من السفر أو بعض من يدعى العلم إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأثبت أنواع الغيبة غيبة القراء للرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طاب الحطام أو يقول نودى بالله من قلة الحياء نأى الله أن يصمنا منها وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ومدح نفسه بالتشبه بال صالحين بأن يذم نفسه فيكون مقابلا ومرائيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش وهو يجهله بظن أنه من الصالحين المتعقبين عن الغيبة ولذلك يابى الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحيط بمكائده وعمائمهم وينضح عليهم ويسخر منهم ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حق يصنى إليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسم آله له في تعتيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول ساءنى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاعتماد وفي إظهار الدعاء له بل لو قصد الدعاء لأخفاء في خلوته عقيب صلاته ولو كان يهتم به لا غتم أيضا بإظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخبث قصده وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا . ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فانه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط الغتاب

الاستنجاء شيئا إزالة الخبث وطهارة المزبل وهو أن لا يكون رجعا وهو الروث ولا مستعملا مرة أخرى ولا مرة وحى عظم النية ووتر الاستنجاء سنة فلما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع واستعمال الماء بعد الحجر سنة وقد قبل في الآية - محبوب أن يتطهروا - ولما سئلوا عن ذلك قالوا كنا نتبع الماء الحجر والاستنجاء بالشمال سنة ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قيل

(١) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أى قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن غفارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٢) حديث ما يسرنى أنى حكيت ولى كذا وكذا تقدم في الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث أبو داود من حديث عائشة دون قوله وكان لا يعيره ورجاله رجال الصحيح .

في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخبر وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فإن كل ذلك تصديق للعنتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك العنتاب قال صلى الله عليه وسلم «الستمع أحد الغتابين» (١) وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه إن فلانا لشوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ لئلا يلا به الخبر فقال صلى الله عليه وسلم «قد اتدتما؟ فقالا مانطه قال بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما» (٢) فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا وذل للرجلين اللذين قال أحدهما أقمص الرجل كما يقمص الكلب «انهم شام من هذه الحيفة» (٣) فجمع بينهما فلمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وإن قال بلسانه أسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نقاق ولا يخرج من الإثم مالم يكرهه بقلبه ولا يكفى في ذلك أن يشير باليد أى أسكت أو يشير بحاجبه وجيبته فإن ذلك استحقاق للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم «من أذل عند مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق» (٤) وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة» (٥) وقال أيضا «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار» (٦) وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصجبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها.

(بيان الأسباب الباعثة على الغيبة)

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا ثمانية منها تطرد في حق العامة وثلاثة تخص بأهل الدين والخاصة. أما الثمانية: فالأول أن يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه يشفي بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع وقد يمنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة. الثاني موافقة الأذنان وبجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فإنهم إذا كانوا يتفكحون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن العاشرة ويظن أنه

(١) حديث المستمع أحد الغتابين الطبراني من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف (٢) حديث أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لشوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد اتدتما؟ فقالا مانطه فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلانحوه (٣) حديث انهم شام من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أقمص كما يقمص الكلب تقدم قبل هذا باني عشر حديثا (٤) حديث من أذل عند مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أدله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفي رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف (٦) حديث من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

ملاقاة النجاسة ويمر
بالسج ويدبر الحجر
في مره حتى لا ينقل
النجاسة من موضع إلى
موضع يفعل ذلك إلى
أن ينتهي إلى مؤخر
المخرج ويأخذ الثاني
ويضعه على المؤخر
كذلك ويسح إلى
المقدمة ويأخذ الثالث
ويدبره حول السربة
وإن استجمر بحجر
ذى ثلاث شهب جاز
وأما الاستبراء إذا
انقطع البول فيمد
ذكره من أصله ثلاثا
إلى الحشفة بالرفق ثلاثا
يندق بقية البول ثم
يشتره ثلاثا ويحتاط في
الاستبراء بالاستنقاء
وهو أن يتنحى ثلاثا
لأن العروق ممتدة من
الحلق إلى الذكر
وبالتنحى تتحرك

محاملة في الصلحة وقد ينضب رفقاًؤه فيحتاج إلى أن ينضب لغضبه إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والساوى . الثالث أن يستنصر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محنتهم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليستطأ أثر شهادته أو يتبدى به ذكر مافيه صادقاً ليكذب عليه بصدء فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول مامن عادتى الصكذب فأنى أخبرتكم بكذا وكفا من أحواله فكان كما قلت . الرابع أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر القى فعله وكان من حقه أن يبرىء نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله . الخامس إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتفقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويربهم أنه أعلم منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدهح فيه لذلك . السادس الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدهح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فإن ذلك يستدعى جنابة من الغضب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق . السابع اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المفاكة ومنشؤه التكبر والعجب . الثامن السخرية والاستهزاء استهزأوا له فان ذلك قد يجرى في الحضور ويجرى أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به . وأما الأسباب الثلاثة التى هي في الخاصة فهى أغمضها وأدقها لأنها شرور خباياها الشيطان في معرض الحيرات وفيها خبر ولكن شاب الشيطان بها الشر . الأول أن تنبئ من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل . الثانى الرحمة وهو أن يفتن بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويلطمه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري والترحم والاعتماد يمكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليطال به ثواب اغتمامه وترحمه . الثالث الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارقه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء فهذه الثلاثة مما يغضب دركها على العلماء فضلاء عن العوام فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره . روى عن عامر بن واثلة « أن رجلاً مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المحاس لبس ما قلت والله لننبئنه ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له فدعاه وسأله فقال قد قلت ذلك

وتغذف ما في مجرى
البسول فان متى
خطئوات وزاد في
التنصح فلا بأس
ولكن براعى حد العلم
ولا يحصل للشيطان
عليه سبيلاً بالسوسة
فيضيع الوقت ثم يمسح
الذكر ثلاث مسحات
أو أكثر إلى أن لا يرى
الرطوبة. وشبه بعضهم
الله كذا بالضرع وقال
لا يزال تظهر منه
الرطوبة مادام يجد
فيراعى الحد في ذلك
ويراعى الوتر في ذلك
أيضاً والمسحات تكون
على الأرض الطاهرة
أو حجر طاهر وإن
احتاج إلى أخذ الحجر
لصغره فليأخذ الحجر
باليمين واليد كذا اليسار
ويعمسح على الحجر
وتصكون الحركة

قال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه للكتوبة قل فأسأله يا رسول الله هل رأيته أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها فأسأله قل لا فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر قال فأسأله يا رسول الله هل رأيته قط أفطرت فيه أو بقعت من حقه شيئا فأسأله عنه فقال والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر قال فأسأله يا رسول الله هل رأيته تقصت منها أو ما كست فيها طالبا الذي يسألها فأسأله فقال لا فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فقله خير منك (١) .

(بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة)

اعلم أن مساوي الأخلاق كلها إنما تعالج بمعاون العلم والعمل وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل . أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيته بهذه الأخبار التي رويها وأن يعلم أنها عبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومثبه عنده بأكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة من اغتابه فيحصل بها الرجوع ويدخل بها النار وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المحاسبة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب قال صلى الله عليه وسلم « ما النار في الييس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » (٢) وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تقتاتني فقال ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي فلهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » (٣) ومهما وجد عيا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل يبغي أن يتحقق أن يحجز غيره عن نفسه في التزهد عن ذلك العيب كمجزه وهذا إن كان ذلك عيا يتعلق بفعله واختياره وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل للحكيم ياقبيح الوجه : قال ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه وإذا لم يجد العبد عيا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوث نفسه بأعظم العيوب فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيته كتألمه بغيته غيره له فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يقتاب فيذبح أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملة . أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة يقطع سببها . وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيما لجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إنني إذا أمضيت غضبي عليه قلل الله تعالى بعضي غضبه على بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت

(١) حديث عامر بن وائلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إنني لأبغض هذا في الله الحديث بطوله وفيه فقال قم فقله خير منك أحمد بإسناد صحيح (٢) حديث ما النار في الييس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد لم أجده أصلا (٣) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

باليسار لا باليمين ثلاثا
يكون مستنجيا باليمين
وإذا أراد استعمال الماء
انتقل إلى موضع آخر
ويقنع الحجر ما ينتشر
البول على الحشفة وفي
ترك الاستنقاء في
الاستبراء وعيد ورد
فيما رواه عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما
قال « مر رسول الله
صلى الله عليه وسلم على
قبرين فقال إنهما
ليعذبان وما يعذبان في
كبير أما هذا فكان
لا يستبرئ أولا يستنزه
من البول وأما هذا
فكان يمشي بالتيعة ثم
دعا بعصيب رطب فشقه
اثنتين ثم غرس على
هذا واحدا وعلى هذا
واحدا وقال له لا تخفف
عنهما ما لم يبسا »
والعصيب الجريد وإذا

بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهم بابا لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء (٣) » وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أعظمك فيمن أعحق . وأما الواقعة بأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضا لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر للغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لملت الخالق أشد من التعرض لملت المخلوقين وأنت بالنية متعرض لسخط الله بقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتملك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى قدما وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان . وأما عندك كقولك إن أكلت الحرام فقلان يأكله وإن قبلت مال السلطان فقلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولودخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم تواقه ولو واقفه لسفه عقلك فقيا ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجأت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى العزى تردى نفسها من قلة الجبل فهي أيضا تردى نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالذم وصرحت بالذم وقالت العزى كبرى منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تهجب ولا تضحك من نفسك . وأما قصدك للباهة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدم في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما قص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث الناس فتكون قد بعث ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يفتنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عداين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد لما قتعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصررت أيضا خاسرا في الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضمره غيبتك وتضمره وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حدود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة

(١) حديث إن لجهم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله البزار وابن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف وروياه في الأربعين البلدانية للسلفي (٣) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه الحديث أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

كان في الصحراء يعد
من الميون . روى
جابر رضي الله عنه « أن
النبي عليه السلام كان
إذا أراد البراز انطلق
حتى لا يراه أحد » وروى
للغيره بن شعبة رضى
الله عنه قال : « كنت
مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم في سفر فأتى
النبي عليه السلام
حاجته فأبعدني الذهب »
وروى « أن النبي عليه
السلام كان يبتسوا
لحاجته كما يبتسوا الرجل
للنزل ، وكان يستتر
بهاائط أو نشز من
الأرض أو كوم من
الحجارة » ويجوز أن
يستتر الرجل بإحليله
في الصحراء أو بذيله إذا
حفظ أثوبه من الرشاش
ويستحب البول في
أرض دمنة أو على تراب

والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنائتك وخجلتك وخزيتك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخراج صاحبك ولوعرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فأنك سخرت به عند فقر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة يدك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار مستهزأ بك وفرحاً بخزيتك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك . وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم للرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتتقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة وإنما الشيطان حجب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرّضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة . وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدينه وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهلك الله سترك كما هتكك بالتعجب سترك أخيك فاذن علاج جميع ذلك المعرفة قط والتحقيق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكشف لسانه عن الغيبة لاعالة .

(بيان تحريم الغيبة بالقلب)

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بما سوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك واتقوا الظن بأخيك ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً معفو عنه ولكن النهي عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويعيل إليه القلب فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم - وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فاعلم أن الشيطان يلقى إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيدوا قوماً بجهالة - فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان ثم محتمل يدل على فساد واحتمل خلافة لم يجوز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استسكه فوجد منه رائحة الحجر لا يجوز أن يحدث إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالحجر ومجهاً وما شربها أو حمل عليه قهراً فكل ذلك لاعالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء ^(١) » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأته منه بمحمل الخير والشر . فإن قلت فماذا يعرف عقد الظن والشكوك تحتاج والنفس تحدث . فنقول : أماراة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفرد عنه نقورا ما ويستقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاغتنام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه وقد قال

(١) حديث إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف وابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

مهيل قال أبو موسى :
« كنت مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأراد أن يقول فأتى
دمشاً في أصل جدار
فقال ثم قال : إذا أراد
أحدكم أن يقول
فليرتد لبوله » وينبغي
أن لا يستقبل القبلة
ولا يستدبرها ولا
يستقبل الشمس والقمر
ولا يكره استقبال القبلة
في البنيان والأولى
اجتنابه للذهب بعض
الفقهاء إلى كراهية
ذلك في البنيان أيضاً
ولا يرفع ثوبه حتى
يدنو من الأرض
ويتجنب مهاب الريح
احتراساً من الرشاش
قال رجل ل بعض
الصعابة من الأعراب
وقد خاصمه لأحسبك
تحسن المرأة فقال

صلى الله عليه وسلم «ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه^(١)» أي لا يحققه في نفسه بمقدور لا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح فالعمل بموجبه والسيطان قد يقرر على القلب بأذى مخيلة مساء الناس ويطبق إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق «نظر ضرور الشيطان وظلمته» وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا لأنك لو كذبت لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب وذلك أيضا من سوء الظن فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو^(٢) فلك عند ذلك أن تتوقف وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندى في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لى شيء من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العداوة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ولكن قد يكون من عاداته التعرض للناس وذكر مساوئهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس يعدل فإن القتاب فاسق وإن كان ذلك من عاداته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر النية ولم يكثرثوا بتناول أعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبى أن تزيد في مراعاته وتدعوله بالخير فإن ذلك يفيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا تغدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نفسه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وترفع عليه بأبداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الاسم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك قصاص في دينك وينبى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيته وأجر الاعانة له على دينه، ومن ثمرات سوء الظن التجسس فإن القلب لا يقع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منبى عنه قال الله تعالى - ولا تجسسوا - فالنية وسوء الظن والتجسس منبى عنه في آية واحدة ومعنى التجسس أن لا تترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك السر حتى ينكشف له ملوكا مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

(بيان الأعداء الرخصة في النية)

اعلم أن الرخص في ذكر مساوئ الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به في دفع ذلك إثم النية وهي ستة أمور : الأول الظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والحيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى المظلمين وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم «إن لصاحب الحق مقالا»^(٣) وقال عليه السلام

(١) حديث ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف
(٢) حديث رد الشرع شهادة الولد العدل وشهادة العدو الترمذي من حديث عائشة، وضعفه لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غم لأخيه وفيه ولا ظن في ولاء ولا قرابة ولا يداود وابن ماجه باسناد جيد من روايه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى النعمر على أخيه (٣) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبي هريرة .

بلى وأبيك إني بها لحافق قال فضفها لى قال أبعده البشر وأعد للردو استقبل الشيخ وأستدبر الرمح وأقوى إقواء الظبي وأجفل إجمال النعام يعنى استقبل أصول النبات من الشيخ وغيره وأستدبر الرمح احترازا من الرشاش والإقواء ههنا أن يستوفى على صدور قدميه والاجفال أن يرفع عجزه . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وظهر قلبى من الرياء وحسن فرجى من القواحش وبكره . أن يول الرجل في الغتسل . روى عبد الله ابن مغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم : «نهى أن

« مطلق النفي ظلم ^(١) » وقال عليه السلام « لى الواجد يحل عقوبته وعرضه ^(٢) » الثاني الاستمانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهبت إلى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقب الحجر بالشام كتب إليه - بسم الله الرحمن الرحيم - حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - الآية فتاب ولم ير ذلك عمر بمن أبلاغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفضه نصحه ما لا ينفضه نصيح غيره وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما . الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي ظلمي أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى في الخلاص والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ولكنه التعين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدى أفأخذ من غير علمه فقال : خذى ما يكتفيك وولده بالمعروف ^(٣) » فقد كرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يجزها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء . الرابع تعذير السلم من الشر فإذا رأيت قهريا يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تعدى إليه بدعته وفسقه فذلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سزاية البدعة والفسق لا غيره وذلك موانع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإن في سكوتك ضرر المشتري وفي ذكره ضرر العبد والمشتري أولى بمراعاة جانبه وكذلك الزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا وكذلك المستشار في التزويج وإبداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقة فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصریح ببيعه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آرعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يعذره الناس ^(٤) » وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر والبتدع والمجاهر بفسقه الخامس أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص . السادس أن يكون مجاهرا بالفسق كالخنث وصاحب الساخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستكشف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث مطلق النفي ظلم متفق عليه من حديثه (٢) حديث لى الواجد يحل عرضه وعقوبته أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الثريد بإسناد صحيح (٣) حديث إن هذا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث آرعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يعذره الناس الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت .

يقول الرجل في مستحبه
وقال : إن عامة الوسواس
منه وقال ابن المبارك :
يوسع في البول في
المستحم إذا جرى فيه
الماء وإذا كان في
البيان يقدم رجليه
اليسرى لدخول الحلاء
ويقول قبل الدخول :
باسم الله أعوذ بالله
من الخبث والخبائث .
حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
السهروردي قال أنا
أبو منصور المقرئ قال
أنا أبو بكر الخطيب
قال أنا أبو عمرو
المهاشمي قال أنا أبو طي
اللوؤي قال أنا أبو داود
قال حدثنا عمر وهو
ابن مرزوق البصري
قال حدثنا شعبة عن
قائدة عن النضر
ابن أنس عن زيد

« من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له (١) » وقال عمر رضي الله عنه ليس لفاجر حرمة وأراد به المجرم نفسه دون للستر إذ الستر لا بد من مراعاة حرمة . وقال الصلت بن طريف قلت للحسن الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة . وقال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بنفسه والامام الجائر فهو لاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وبزعماء يتفخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهرون به أنهم . وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج من اغتابه كما ينتقم من الحجاج من ظلمه وإنك إذا لميت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

(بيان كفارة الغيبة)

اعلم أن الواجب على الغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ويخرج به من حق الله سبحانه ثم يستحل للغتاب ليحله فيخرج من مظلمته وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرأى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيك الاستغفار دون الاستحلال وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفارة من اغتابه أن تستغفر له (٢) » وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير . وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تعشى إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فان شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت وهذا هو الأصح ، وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في العرض حد القذف وثبت المطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه عليه السلام قال « من كانت لأخيه عنده مظنة في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخري إنها طويلة الذيل قد اغتبت بها فاستحلها فاذا ن لا بد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فان قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول لا لأنه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالي في الثناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطيب قلبه كان اعتذاره وتودده حنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة . وكان بعض السلف لا يحال . قال سعيد بن السيب لأحلم من ظلمي وقال ابن سيرين إني لم أحرمها عليه فأحلها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحل ما حرم الله أبدا . فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن الظلمة لأن ينقلب الحرام حلالا وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحال لغيره الغيبة . فان قلت فسمعتي قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس (٤) »

ابن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الحبث والحبائث » وأراد بالحشوش الكنف وأصل الحشش جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت وقوله محتضرة أي يحضرها الشياطين وفي الجفوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع يده ولا يخط في الأرض والحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك ولا يتكلم قد ورد أن رسول الله صلى الله

فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه فنقول معناه إن لا أطلب مظلة في القيامة منه ولا أخاصمه وإلا فلا نصير النجعة حالاً به ولا تسقط المظلة عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا نخاصم فإن رجع وخصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلة الآخرة مثل مظلة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة فودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا وقد قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین - فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل ما هذا العفو فقال إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك ^(١) » . وزوي عن الحسن أن رجلاً قال له إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال قد بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإني لأقدر أن أكافئك على التمام .

(الآفة السادسة عشرة النجعة)

قال الله تعالى - هازموا مشاء بنميم - ثم قال - عتل بعد ذلك زنيم - قال عبد الله بن المبارك الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنجعة دل على أنه ولد زنا استبطا من قوله عز وجل - عتل بعد ذلك زنيم - والزنيم هو الدعوى ، وقال تعالى - ويل لكل همزة لمزة - قيل الهمزة النمام وقال تعالى - حمالة الحطب - قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى - فغاثها فلم يخياعنها من الله شيئا - قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام ^(٢) » وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً للوطنون أكنافاً الذين يأنفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنجعة المرفقون بين الإخوان المتنسجون للبرآء الفترات ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراكم قالوا بلى قال المشاءون بالنجعة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب ^(٤) » وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ^(٥) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذنيه بها يوم القيامة في النار ^(٦) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابن عبد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وإتساهو رجل من كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي (١) حديث نزول - خذ العفو - الآية فقال يا جبريل ما هذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك تقدم في رياضة النفس .

(الآفة السادسة عشرة النجعة)

(٢) حديث لا يدخل الجنة نمام وفي حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً للوطنون أكنافاً الطبراني في الأوسط الصغير وتقدم في آداب الصحبة (٤) حديث ألا أخبركم بشراكم قالوا بلى قال للمشاءون بالنجعة الحديث أحمد من حديث أبي مالك الأصرعي وقد تقدم (٥) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث (٦) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذنيه بها يوم القيامة في النار ابن أبي الدنيا موقوف على أبي الدرداء ،

عليه وسلم قال « لا يخرج الرجلان يضربان الفائط كاشفين عوراتهما يتحدثان فان الله تعالى يمقت على ذلك » ويقول عند خروجه غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني ولا يستصعب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ولا يدخل حاسر الرأس روت عائشة رضى الله عنها عن أبيها أبي بكر رضى الله عنه أنه قال: استحياوا من الله فإني لأدخل الكنيف فأزرق ظهري وأغطي رأسي استحياء من ربى عز وجل .

[الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره] إذا أراد الوضوء

« من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النعمة. وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تسكلمي فقالت سعد من دخلني قال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر ولا مصرّ على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا غث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به »^(٢) وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم حط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فأسقوا فأوحى الله تعالى إليه: إنى لأستجيب لك ولن معك وفيكم نمام قد أصرّ على النعمة فقال موسى يارب من هو دلى عليه حتى أخرجه من بيننا يا موسى أنها كم عن النعمة وأكون نماما فتبأوا جميعا فسقوا. ويقال اتبع رجل حكما سبع مائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال: إنى جئت لك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها وعن الأرض وما أوسع منها وعن الصخر وما أغنى منه وعن النار وما أحرّ منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أدل منه فقال له الحكيم: البهتان على البرى أثقل من السموات والحق أوسع من الأرض والقلب القانع أغنى من البحر والحرص والخسد أحر من النار والحاجة إلى القريب إذا لم تتجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أغنى من الحجر والنام إذا بان أمره أدل من اليتيم.

(بيان حد النعمة وما يجب في ردها)

اعلم أن اسم النعمة إنما يطاق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى القول فيه كما تقول فلان كان يشكك فيك بكذا وكذا وليست النعمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال وسواء كان ذلك عيا وتقصا في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النعمة إفشاء السر وهتك السر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبى أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمصيبة كما إذا رأى من يتداول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق الشهود له فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه فدكره فهو نعمة وإفشاء للسر فإن كان ما يتم به نقصا وعيبا في المحكى عنه كان قد جمع بين الفية والنية فالنعمية فإما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل وكل من حملت إليه النعمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ملاءمة عدوك أو تقييح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور: الأول أن لا يصدق له لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيدوا قوماً بجهالة - الثاني أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعلة قال الله تعالى - وأمر بالمعروف وانه عن النكر - الثالث أن يغضه في الله تعالى فإنه بغض عند الله تعالى ويجب بغض من يغضه الله تعالى. الرابع أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى - اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم - الخامس أن لا يعملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى - ولا تجسسوا - السادس أن لا ترضى لنفسك ما نيت النمام عنه ولا تحكى نية من يقول فلان قد حكى لى كذا وكذا فتكون به نماما ومغتتابا وقد تكون

يبتدىء بالسواك .
حدثنا شيخنا
أبو النجيب قال أنا
أبو عبد الله الطائي
قال أنا الحافظ الفراء
قال أنا عبد الواحد بن
أحمد اللابى قال أنا
أبو منصور محمد بن
أحمد قال أنا أبو جعفر
محمد بن أحمد بن عبد
الجبار قال ثنا حميد بن
زنجويه قال ثنا يعلى
ابن عبيد قال ثنا محمد
بن إسحق عن محمد بن
إبراهيم عن أبي سلمة
ابن عبد الرحمن عن
زيد بن خالد الجهمي
قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم «لولا
أن أشق على أمتي
لأخرت العشاء إلى ثلث
الليل وأمرتهم بالسواك
عند كل مكتوبة »

ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم (١) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا من الإسناد (٢) حديث ابن عمر إن الله لما خلق الجنة قال لها تسكلمي

قد أثبت ما عنه نهيت . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية - إن جاءكم فاسق بذي خبيوا - وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية - ههنا مشاء بنهم - وإن شئت عفونا عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا . وذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكميم قد أبطأت في الزيارة وأثبت ثلاث جنابات بغضت أخى إلى وشغلت قلبى الفارغ واتهمت نفسك الأمانة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان بلغنى أنك وقعت في وكذا وكذا فقال الرجل ما فعلت ولا قلت فقال سليمان إن الذى أخبرنى صادق فقال له الزهرى لا يكون النمام صادقا فقال سليمان صدقت ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن من نِمَّ إليك نِمَّ عليك وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق وإل الفساد بين الناس والحديمة وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وقال تعالى - إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغفون في الأرض بغير الحق - والنمام منهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس من اتقاء الناس لشرة »^(١) والنمام منهم وقال « لا بدخل الجنة قاطع ، قيل وما القاطع ؟ قال قاطع بين الناس »^(٢) وهو النمام وقيل قاطع الرحم وروى عن علي رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقا مقتناك وإن كنت كاذبا عاقبتناك وإن شئت أن نقبلك أفتلك فقال أفتنى يا أمير المؤمنين . وقيل لحمد بن كعب القرظى أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد وقال رجل لعبد الله بن غاصر وكان أميراً بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أى ذكرته بسوء قال قد كان ذلك قال فأخبرنى عما قال لك حق أظهر كذبه عندك قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى وحسبى أنى لم أصدق فيما قال ولا أقطع عنك الوصال وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ما ظنكم بقوم محمد الصادق من كل طائفة من الناس إلا منهم وقال مصعب بن الزبير نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شئ فأخبر به كمن قبله وأجازاه فاتقوا الساعى فلو كان صادقا في قوله لكان لثما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هى الثميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة »^(٣)

قالت سعد من دخلني قال الجبار وعزى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية فذكر منها ولاقتات وهو النمام لم جده هكذا بتممه ولا أحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث وللنمسانى من حديث عبد الله بن عمرو لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ولا شيعين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولهما من حديث جبير بن مطعم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تسكمنى تزينى فتزينت فقالت طوبى لمن دخلني ورضى عنه إلهى فقال الله عز وجل لا سكنتك عنث ولا نائمة (١) حديث إن من شر الناس من اتقاء الناس لشرة متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث لا يدخل الجنة قاطع متفق عليه من حديث جبير بن مطعم (٣) حديث الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة وفيه شئ منها وقال له أسانيد هذا أمثها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال والحديث لأصله وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لا يسعى على الناس إلا ولد بغى - وإلا من فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة أبا الوليد القرشى .

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعن حذيفة قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » والشوص : الدلك ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وكلما تغير الفم من أزم وغيره وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض وقيل لا سكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة وعند القيام من الليل ويندى

يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى السلام وقال إني مكلحك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته فقال قل فقال يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفتك رجال ابتاعوا دينك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يغافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما اتهمتك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فاتهم لن يألوا فى الأمة حسفا وفى الأمانة تضییما والأعراض قطما واتهاكا على قريهم البغى والخیمة وأجل وسائلهم الغيبة والوقیعة وأنت مشول عما أجرموا وليسوا للثولین عما أجمرت فلا تصلح دنیاهم بفساد آخرتك فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسمى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للمواقفة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما اتهمتكم خاليا نغنت وإما قلت قولا بلا علم

فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الحیانة والام

وقال رجل لعمر بن عبيد بن الأسوارى ما يزال يذكرک فى قصصه بشر فقال له عمرو ياهذا ما رعبت حق عجالة الرجل حيث قلت إلینا حدیثه ولأدیت حق حین أعلنتنى عن أخى ما أكره ولكن أعله أن الموت یعنا والقبر یضمنا والقیامة تجمعنا والله تعالى یحکم بیننا وهو خیر الحاکمین ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة نبه فیها على مال یتیم یعمله على أخذه لكثرة فوقع على ظهرها السعاة قبیحة وإن كانت صبیحة فان كنت أجربتها مجرى النصح فخرانك فیها أفضل من الريح ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا فى مستور ولولا أنك فى خفارة شیتك لقابلناك بما یقتضیه فعلك فى مثلك فتوق یا ملعون العیب فان الله أعلم بالغیب ، البت رحمہ الله والیتیم جبرہ الله والمال ثمرہ الله والساعی لعنہ الله . وقال لقمان لابنه یابنى أوصیک بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سیدا ابسط خلقك للقريب والبعد وأمسك جملك عن الکريم والیتیم واحفظ إخوانك وصل أقربك وآمنهم من قبول قول ساع أو صماع باع یرید فسادك ویروم خداعك ولیکن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبرهم ولم یعیبوك . وقال بعضهم النیمة مبنیة على الکذب والحسد والتفاق وهى أنافى الذل وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام إلیك لكان هو المجترى بالشتم علیك والتقول عنه أولى بحملك لأنه لم یقابلك بشتمك وعلى الجملة فشر التمام عظیم ینبغى أن یتوقى قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا وقال للمشتري ما فیہ عیب إلا النیمة قال قد رضیت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجته مولاه إن سیدی لا یحبك وهو یرید أن یتسرى علیك فخذى الوسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه مشعرات حتى أسحره علیها فیحبك ثم قال للزوج إن امرأتك اتخذت خلیلا وترید أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها ترید قتله فقام إلیها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ووقع القتال بین القبیلتين ، فقال الله حسن التوفیق .

(الآفة السابعة عشرة)

كلام ذى اللسانین الذى یردد بین المتعادين ویكلم كل واحد منهما بكلام یواقه وقلما یخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عین التفاق قال عمار بن یاسر قال رسول الله صلى الله علیه وسلم « من كان له وجهان فى الدنیا كان له لسانان من نار یوم القیامة (١) » وقال أبو هريرة قال رسول الله

(الآفة السابعة عشرة : كلام ذى اللسانین)

(١) حدیث عمار بن یاسر : من كان له وجهان فى الدنیا كان له لسانان من نار یوم القیامة ، البخارى فى كتاب الأدب الفرد وأبو داود بسند حسن

المواك اليابس بالماء
ويستاك عرضا وطولا
فان اقتصر فعرضا فاذا
فرغ من السؤال فافله
ويجلس لا وضوء
والأولى أن يكون
مستقبل القبلة ويبتدىء
ببسم الله الرحمن الرحيم
ويقول سرب أعوذ بك
من همزات الشياطين
وأعوذ بك رب أن
يحضرون - ويقول عند
غسل اليد : اللهم إني
أسألك الجن والبركة
وأعوذ بك من الشؤم
والهامة ويقول عند
الضمضة : اللهم صل
على محمد وعلى آل
محمد وأعني على تلاوة
كتابك وكثرة الذكر
لك ويقول عند
الاستنشاق : اللهم صل
على محمد وعلى آل
محمد وأرحمني وأرحم

صلى الله عليه وسلم «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث» (١) «وفي لفظ آخر» الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه «وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وقال صلى الله عليه وسلم «أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لآخوانهم في صدورهم فاذا لقواهم تعلقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء » وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا (٢) » وقال ابن مسعود لا يكون أحدكم إمعة قالوا وما الإمعة ؟ قال الذي يجري مع كل ريح واتفقوا على أن ملاقة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملة ما قد روي أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه فقال يأمر المؤمنين إنه منهم فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضيقة لا تنتهي إلى حد الاخوة إذ لو تحققت الصداقة لاقضت معاداة الأعداء كما ذكرنا في كتاب آداب الصلوة والاخوة ، نعم لو قل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النجاسة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو يثنى على الحق من المتعادين ويثنى عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه ، قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق لأنه الذي أخرج نفسه إلى ذلك فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «حب المال والجاه ينبئان النفاق في القلب كما ينبئ الماء البقل» (٤) لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراعاتهم فأنما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور فان انتفاء الشر حاز قال أبو الدرداء رضي الله عنه إنا لنكسر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لنلهمهم

(١) حديث أبي هريرة : تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٢) حديث أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لآخوانهم في صدورهم فاذا لقواهم تعلقوا لهم الحديث لم أقف له على أصل (٣) حديث قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا . فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من طرق (٤) حديث حب الجاه والمال ينبئان النفاق في القلب كما ينبئ الماء البقل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال حب الغناء وقال العشب مكان البقل .

الجنة وأنت عنى راض
ويقول عند الاستئثار:
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد وأعوذ
بك من روائح النار
وسوء الدار ، ويقول
عند غسل الوجه: اللهم
صل على محمد وعلى
آل محمد ويصلي
وجهي يوم تبيض
وجوه أوليائك
ولا تسود وجهي يوم
تسود وجوه أعدائك ،
وعند غسل اليمنى :
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد وآتي كتابي
يمنى وحاسبي حسابا
يسيرا ، وعند غسل
الشمال : اللهم إني أعوذ
بك أن تؤتيني كتابي
بشمالى أو من وراء
ظهري ، وعند مسح
الرأس : اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد

وقلت عائشة رضي الله عنها « استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انذنوا له فبئس رجل العشرة هو ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم أنتله القول فقال يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم انتفاء شره (١) » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

(الآفة الثامنة عشرة للدخ)

وهو منهي عنه في بعض المواضع ، أما الدم فهو الغيبة والوقعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات أربع في الساج واثنتان في الممدوح . فأما للساج : فالأولى أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه . الثانية أنه قد يدخله الرياء فانه بالممدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرأيا منا قاصا . الثالثة أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، روى « أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام : ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثم قال إن كان أحدكم لا بد ما دعا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكي . على الله أحدا حسيه الله إن كان يرى أنه كذلك (٢) » وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه فأما إذا قال رأيتته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يحزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسأفرت معه قال لا ، قال أحاطتني بالبايعه والعامله قال لا ، قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا ، فقال والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه . الرابعة أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق (٣) » وقال الحسن من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح . وأما الممدوح فيضره من وجهين : أحدهما أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان قال الحسن رضي الله عنه : كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أتبل الجارود ابن النذر فقال رجل هذا سيد ريعة فسمعها عمرو بن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين قال مالي ولك أما لقد سمعتها قال سمعتها له قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأ طيء منك . الثاني هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وقرروا رضي عن نفسه

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انذنوا له فبئس رجل العشرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذي يكرم انتفاء شره متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها.

(الآفة الثامنة عشرة للدخ)

(٢) حديث إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبي بكره بحدوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث إن الله يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبي الدنيا في الصمت واليه في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى اللوصلي وابن عدى بلفظ إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في الميزان منكر وقد تقدم في آداب الكسب .

وغشني برحمتك وأنزلني من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك عرشك ويقول عند مسح الأذنين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيتبع أحسنه اللهم أجمعني منادى الجنة مع الأبرار ويقول في مسح العنق : اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين ، ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل

ومن أعجب بنفسه قلّة تشمّره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام « قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضاً ^(١) » وقال أيضاً لمن مدح رجلاً « عقرت الرجل عقرك الله ^(٢) » وقال مطرف ما سمعت قط شاء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي وقال زياد بن أبي مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراه إلى الشيطان ولكن للؤمن راجع فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص وقال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه ^(٣) » وقال عمر رضى الله عنه للدح هو الدبح وذلك لأن للدبوح هو الذي يفتّر عن العمل والدح يوجب الفتور أو لأن للدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالدهب فلذلك شبه به فإن سلم للدح من هذه الآفات في حق السادح والمدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً إليه ولذلك أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح ^(٤) » وقال في عمر « لو لم أثبت لبنت يا عمر ^(٥) » وأى ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصرة وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غر ^(٦) » أى لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن للتبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يتنخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه وتبصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذمّ اللع وبين الخث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت ^(٧) » لما أثنوا على بعض اللوى وقال مجاهد إن لبنى آدم جلساء من اللائكة فإذا ذكر الرجل للسلّم أخاه للسلّم بغير قالت لللائكة ولك بئله وإذا ذكره بسوء قالت لللائكة يا ابن آدم للسنور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك فهذه آفات المدح .

(بيان ما على للمدوح)

اعلم أن على للمدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ولا ينجونه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الحاجة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه للسادح ولو انكشف له جميع أسرارهم وما يجري على خواطره لكف السادح عن مدحه وعليه

(١) حديث إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضاً ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسل (٢) حديث عقرت الرجل عقرك الله قاله لمن مدح رجلاً لم أجده أصلاً (٣) حديث لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه لم أجده أيضاً (٤) حديث لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح تقدم في السلم (٥) حديث لو لم أثبت لبنت يا عمر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو مسكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر لو كان بسدى نبى لكان عمر بن الخطاب رواه الترمذى وحسنه (٦) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غر ، الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت : أنا سيد الناس يوم القيامة ولا غر ، ولمسلم من حديث أبي هريرة : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة (٧) حديث وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض اللوى متفق عليه من حديث أنس .

قدمى عن الصراط يوم
تزل فيه أقدام الناس
وإذا فرغ من الوضوء
يرفع رأسه إلى السماء
ويقول : أشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له وأشهد أن محمداً
عبد ورسوله سبحانه
الهم وبمحمد لا إله
إلا أنت عملت سوءاً
وظلمت نفسى أستغفرك
وأتوب إليك فاغفر لى
وتب على إنك أنت
التواب الرحيم اللهم
صل على محمد وعلى
آل محمد واجعلنى من
التوابين واجعلنى من
المطهرين واجعلنى
صبوراً شكوراً واجعلنى
أذكرك كثيراً وأسبحك
بكرة وأصليلاً .
وفرائض الوضوء :
النية عند غسل
الوجه . وغسل الوجه

أن يظهر كراهة للدخ بالذلال للداخل قال صلى الله عليه وسلم « احتوا التراب في وجوه الداهيين ^(١) »
وقال سفيان بن عيينة لا يضر للدخ من عرف تهة وأثنى على رجل من الصالحين فقال اللهم إن هؤلاء
لا يعرفوني وأنت تعرفني ، وقال آخر لما أثنى عليه اللهم إن عبدك هذا اتقرب إلى عتقتك وأنا أشهدك على
مقته . وقال على رضي الله عنه لما أثنى عليه اللهم اغفر لي ما لا يطعون ولا تؤاخذني بما يقولون
واجعلني خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال أتهلكني وتهلك نفسك وأثنى رجل
على علي كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه فقال أنا دون ماقلت وفوق ما في نفسك .
(الآفة التاسعة عشرة)

الفلة عن دقائق الخطأ في لحوى الكلام لاسانها يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمر الدين فلا يقدر على
تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن
الله تعالى يغفر عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ما شاء الله
وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت ^(٢) » وذلك لأن في العطف للطلق تشريكا وتسمية وهو على
خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضي الله عنهما « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأسر
فقال ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم أجعلني لله عديلا بل ما شاء الله وحده ^(٣) » . وخطب
رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يصبها فقد غوى
فقال قل : ومن يصب الله ورسوله فقد غوى ^(٤) فكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يصبها
لأنه تسوية وجمع وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول أعوذ بالله
ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان وكره بعضهم أن يقال اللهم أعفنا من النار
وكان يقول العتق يكون بعد الورد وكانوا يستجيبون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل اللهم
اجعلني ممن تصييه شفاععة محمد ﷺ فقال حذيفة إن الله يفتي المؤمنين عن شفاععة محمد وتكون
شفاعته للمذنبين من المسلمين وقال إبراهيم إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة
حمارا رأيتني خالفتك ، خنزيرا رأيتني خلقتك وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدكم يشرك حتى
يشرك بكابه فيقول لولاء لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ^(٥) » قال عمر
رضي الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها ، وقال صلى الله عليه وسلم « لاتسموا العنب كرمنا إنما
الكرم الرجل المسلم ^(٦) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم
عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله وليقل غلامى وجاريق وفتاى ولا يقول
الملك ربى . ولا ربى وليقل سيدى وسيدى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى »

(١) حديث احتوا في وجوه الداهيين التراب مسلم من حديث المقداد .

(الآفة التاسعة عشرة في الفلة عن دقائق الخطأ)

(٢) حديث حذيفة لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت الحديث أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح
(٣) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمور فقال ما شاء الله وشئت
فقال أجعلني لله عديلا بل ما شاء الله وحده . النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه (٤) حديث
خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يصبها فقد غوى
الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم (٥) حديث عمر إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم متفق عليه
(٦) حديث لاتسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم متفق عليه من حديث أبي هريرة

وحد الوجه من مبتدأ
تسطيح الوجه إلى
منهى الذقن وما ظهر
من اللحية وما استرسل
منها ومن الأذن إلى
الأذن عرضا ويدخل في
الفصل البياض الذى
بين الأذنين واللحية
وموضع الصلع
وما انحسر عنه الشعر
وهما الزعتان من الرأس
ويستحب غسلهما مع
الوجه ويوصل الماء
إلى شعر التحذيف وهو
القدر الذى يزيله النساء
من الوجه ويوصل
للماء إلى العنقفة
والشارب والحاجب
والعذار وما عدا ذلك
لا يجب ثم اللحية إن
كانت خفيفة يجب
إرسال الماء إلى البشرة
وحد الخفيف أن ترى
البشرة من تحته وإن

وقال صلى الله عليه وسلم «لا تقولوا للفاسيق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطكم ربكم»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كقائل وإن كان كاذبا قلن يرجع إلى الإسلام سالما»^(٢) فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره، ومن تأمل جميع ما أورده من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سرّ قوله صلى الله عليه وسلم «من صمت نجما»^(٣) لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق التكلم فإن سكت سلم من الكل وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يواقع لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فصاه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فقم فكن ممن سكت فلم فالسلامة إحدى التيمنين .

(الآفة العشرون)

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة وأنها محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقل على النفوس والنفوس خفيف على القلب والعامى يفرح بالخواص في العلم إذ الشيطان يغيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري وكل كبيرة يرتكبها العامى فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به العقاب من الله عز وجل ويشترطون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عاوى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ذروني ما تركتكم فاتمها هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»^(٤) وقال أنس «سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به قمام إليه رجل فقال يا رسول الله من أبي فقال أبوك حذافة قمام إليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا فقال أبوكم الذي تدعيان إليه ثم قام إليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار فقال لا بل في النار فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا قمام إليه عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقال اجلس يا عمر رحمك الله إنك ما علمت لمونقي»^(٥) وفي الحديث «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم «يوشك

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٢) حديث من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كقائل، الحديث النسائي وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح (٣) حديث من صمت نجما الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

(٤) حديث ذروني ما تركتكم فاتمها هلك من كان قبلكم بسؤالهم الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به الحديث متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله ابن حذافة وقول عمر ، ولمسلم من حديث أبي موسى قمام آخر فقال من أبي فقال أبوك سالم مولى شية . (٦) حديث النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث العنبرة بن شعبة .

كانت كشيعة فلا يجب
ويجتهد في تفتية مجتمع
الكحل من مقدم
العين . الواجب الثالث:
غسل اليدين إلى
المرقين ويجب إدخال
المرقين في الفصل
ويستحب غسلهما إلى
أنصاف المضدين ،
وان طالت الأظافر حتى
خرجت من رؤوس
الأصابع يجب غسل
ما تحتها على الأصح .
الواجب الرابع: مسح
الرأس ويكفي ما يطلق
عليه اسم السح
واستيعاب الرأس
بالمسح سنة وهو أن
يلصق رأس أصابع
اليمنى باليسرى
ويضعهما على مقدم
الرأس ويمدحهما إلى القفا
ثم ردهما إلى الوضع
الذي بدأ منه وينصف

الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله فإذا قالوا ذلك فقولوا - قل هو الله أحد الله الصمد - حتى تختتموا السورة ثم لينفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم (١) وقال جابر: ما زالت آية الثلاثين إلى الكثرة السؤال (٢). وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على اللع من السؤال قبل أو أن استحقاقه إذ قال - فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا - فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال - لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا - فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال - هذا فراق بيني وبينك - وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من الثيرات للفتن فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لاهماله فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بمحروفه أهى قديمة أم حديثة وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم .

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربيع الهلكت من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لا يشك على عفوهِ ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يفضبون ، ثم حفرهم بالمكاره والذات وأمل لهم لينظر كيف يعملون ، وامتنحن به حبرهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بفتنهم لا يشعرون ، فقال - ما ينظرون إلا لصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون - والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسر تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرئيين ، صلاة يوازي عددها عددها كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى بركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأنثى ، وإها المستكنة في طي الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الجمر النار من الحديد ، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فإن شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ومفبضهما مضغة إذا صلت صلت معها سائر الجسد وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوج به إلى معرفة معاطبه ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه ، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه ، فإن

بلل السكبين مستقبلا ومستديرا . والواجب الخامس : غسل القدمين ويجب إدخال السكبين في الفسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من السكبين ويجب تخليل الأصابع الملتفة فيخلل بخنصر يده اليسرى من اطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها وإن ترك فيها مجيئا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشيء .
الواجب . السادس : الترتيب على النسق للذكور في كلام الله تعالى .
الواجب السابع : التتابع في القول القديم

(١) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق الخالحاق الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٢) حديث جابر ما زالت آية الثلاثين إلى الكثرة السؤال رواه البرازيل بنادجيد

﴿ كتاب الغضب والحقد والحسد ﴾

من لا يعرف الشر يقع فيه . ومن عرفه فالمعرفة لا تسكبه . ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويغضيه . ونحن نذكر ضم النضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ويجمعها يان ضم الغضب ثم يان حقيقة الغضب ثم يان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ثم يان الأسباب المهيجة للغضب ثم يان علاج الغضب بعد هيجانه ثم يان فضيلة كظم النبط ثم يان فضيلة الحلم ثم يان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ثم القول في معنى الحقد وشأجه وفضيلة العفو والرفق ثم القول في ضم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته ثم يان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى الم والأقارب وتأ كده وقتلته في غيرهم وضعفه ثم يان الدواء الذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ثم يان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

(يان ضم النضب)

قال الله تعالى - إذ جعل الدين كنزوا في قلوبهم حمية الجاهلية فأزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين - الآية . ضم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومنع المؤمنين عما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال « يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب (١) » وقال ابن عمر « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولا وأقلل لعل أعقله فقال لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك رجع إلى لا تغضب (٢) » وعن عبد الله ابن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذني من غضب الله قال لا تغضب (٣) » وقال ابن مسعود قال النبي ﷺ « ماتعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا تضرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب (٤) » وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب (٥) » وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته (٦) » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى - وسيدوا حصورا - قال السيد الذي لا يخله الغضب . وقال أبو الدرداء « قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب (٧) » وقال يحيى لميسر عليهما السلام لا تغضب قال لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر قال لا تغضب مالا قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما غضب أحد إلا أشقى على جهنم (٩) » وقال له رجل « أي شيء أشد

(١) حديث أبي هريرة إن رجلا قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب رواه البخاري (٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله ﷺ قل لي قولا وأقلل الحديث نحوه أبو جلى باسناد حسن (٣) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب الطبراني في معارج الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد باسناد حسن وهو عند أحمد وأن عبد الله بن عمرو هو السائل (٤) حديث ابن مسعود ماتعدون الصرعة الحديث رواه مسلم (٥) حديث أبي هريرة وليس الشديد بالصرعة الحديث متفق عليه (٦) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وضم الغضب وفي الصمت وتقدم في آفات اللسان (٧) حديث أبي الدرداء دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط باسناد حسن (٨) حديث الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث ما غضب أحد إلا أشقى على جهنم البزار وابن عدى من حديث ابن عباس لئن لم يدر باب لا يدخله إلا من شق غيظه بمصيبة

عند الشافعي رحمه الله تعالى وحدث التفريق الذي يقطع التابع نشف العضو مع اعتدال الهواء .

[وسن الوضوء ثلاثة

عشر]
التسمية في أول الطهارة . وغسل اليدين إلى الكوعين والضمضة والاستنشاق والبالغة فيهما فيغرغر في الضمضة حتى يرد الماء إلى الفاصحة ويستمد في الاستنشاق الماء بالنفس إلى الحياشيم ويرفق في ذلك إن كان صائما وتخليل اللحية السكة وتخليل الأصابع النفرة والبسادة بالميا من وإطالة الفرة واستيعاب الرأس بالمسح ومسح الأذنين

قال غضب الله قال لما يمدني عن غضب الله قال لا تغضب (١) . الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار وعن ذي القرنين أنه لقي ملكا من الملائكة فقال علمني علما أزداد به إيمانا ويقينا قال لا تغضب فان الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فرد الغضب بالكظم وسكنه بالثؤدة وإياك والعجلة فانك إذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلا لنا للقريب والبعد ولا تكن جبارا عنيدا وعن وهب بن منبه أن راهبا كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضلّه فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال له افتح فلم يجه فقال افتح فاني إن ذهبت ندمت فلم يلتفت إليه فقال إني أنا المسيح قال الراهب وإن كنت المسيح فما أصنع بك أليس قد أمرت بالعبادة والاجتهاد ووعدتا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم تقبله منك فقال إني الشيطان وقد أردت أن أسلك فلم أستطع فجتك لتسألني عما شئت فأخبرك فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال فولي مدبر أقال الراهب ألا تسمع قال بلى قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن الرجل إذا كان حديدا فليتناه كما يقبل الصبيان الكرة وقال خيثة الشيطان يقول كيف يغلبي ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه وقال جعفر بن محمد الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الأنصار رأس الحق الحدة وقائمه الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال مجاهد قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فإن يعجزوني في ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بنحزمته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحبينا وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه ونمنه بما لا يقدر عليه وقيل للحكيم ما أملك فلانا لنفسه قال إذا لاتذله الشهوة ولا يصبره الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم إياك والغضب فانه يصيرك إلى ذلة الاعتذار وقيل اتقوا الغضب فانه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه إذا لم يغضب وما علمك بأمانته إذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا وقال علي بن زيد أغلظ رجل من قرشي لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال أردت أن يستغفرني الشيطان بعز السلطان فأنا لك اليوم ماتتالي متى غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى في التناير المسجورة فأقل الناس غضبا أعقلهم فان كان للدنيا كان دهاء ومكرا وإن كان للآخرة كان حلما وعلمنا فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال في خطبته أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب وقال بعضهم من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق وقصد في غنى وتعمل في فاقة وإحسان في قدرة وتعمل في رفاقة وصبر في شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمع به الحجة ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقتصر به نيته فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يذرو ولا يسرف ولا يقتصر إذا ظلم ويسفو عن الجاهل نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء وقيل لعبد الله بن المبارك أجهل لنا حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون

والثالث ، وفي القول الجديد التابع ويحتمل أن يزيد على الثلاث ولا يفيض اليد ولا يتكلم في أثناء الوضوء ولا يلطم وجهه بالماء لطما ، وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر وإلا فمكروه .

[الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء]
آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام أدبهم في الوضوء حضور القلب في غسل الأعضاء . سمعت بعض الصالحين يقول إذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة وإذا دخل السهو فيه دخلت

الله وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان (١) حديث قال رجل أي شيء أئد على قال غضب الله قال لما يمدني من غضب الله قال لا تغضب أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشرط الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

معى فى درجتى ويكون بعدى خليفتى فقال شاب من القوم أنا ثم أعاد عليه فقال الشاب أنا ووفى به فلما مات كان فى منزله بعدد وهو ذوالكفل معى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به وقال وهب بن منه للسفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة والحرق ، والطمع .

(بيان حقيقة الغضب)

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والوثن بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم مما فى كتابه . أما السبب الداخلى فهو أنه ركه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاءها بخاراً يتصاعد منها فلولم يتصل بالرطوبة مندم من الغذاء يخرجها من أنفها وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان خلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق فى الحيوان شهوة تبعث على تناول الغذاء كالموكل به فى خير ما انكسر وسد ما شمل ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب . وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان فكالكسيف والسنان وسائر المهلكات التى يقصد بها فتنه إلى قوة وحمة شور من باطنه فتدفع للمهلكات عنه خلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الإنسان ومجنها بطيئته فمما صدت عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثار ثوراناً يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعلى البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكى لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجات لون ما فيها وإنما ينسبط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه بأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً ولذلك يصفر اللون وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانسباط فيحمر ويصفر ويضطرب وبالجملة قوة الغضب عملها القلب ومعناها غليان دم القلب بطالب الانتقام وإعانتها وجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذبات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفریط والافراط والاعتدال . أما التفریط فيفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه إنه لاجمى له ولذلك قال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والجمية أصلاً فهو ناقص جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى ﷺ بالشدة والجمية فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقال لبيبة صلى الله عليه وسلم - جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم - الآية وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الجمية وهو الغضب . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته فى الفطرة صورة غضبان وبين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار (١) كما قال صلى الله عليه وسلم وإنما أسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قوماً يتبعجون بتشفى النيط وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذى لا أصبر على الفكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمراً ومعناه لا أعقل فى ولا حالم ثم يذكره

(١) حديث الغضب من النار الترمذى من حديث أبى سعيد بسند ضيف الغضب حمرة فى قلب ابن آدم ولأبى داود من حديث عطية السعدى أن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار .

الوسوسة فى الصلاة
ومن آدابهم استدامة
الوضوء والوضوء سلاح
المؤمن والجوارح إذا
كانت فى حماية الوضوء
الذى هو أثر شرعى يغل
طروق الشيطان عليها .
قال عدى بن حاتم
ما أقيمت صلاة منذ
أسلمت إلا وأنا على
وضوء . وقال أنس
ابن مالك « قدم النبى
عليه الصلاة والسلام
المدينة وأنا يومئذ
ابن ثمان سنين فقال
لى : يا بنى إن استطعت
أن لا تزال على الطهارة
فافعل فإنه من أتاه
الموت وهو على الوضوء
أعطى الشهادة فشان
العاقل أن يكون أبداً
مستعداً للموت ومن
الاستعداد لزوم الطهارة
وحكى عن الحصرى

في معرض الفجر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرابها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطق بنور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر وربما يمتد إلى معادن الحسن فتظلم عينه حتى لا يرى بينه وتعود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار فاسود وجوه وحشى مستقرة وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضيف فأنمحي أو انطفأ نوره فلا ثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا يرى فيه صورة ولا يقدر على إطفائه لامن داخل ولا من خارج بل ينبغي أن يصير إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتهدأ أعاليه على أسفله وذلك لا بطلان النار ما في جوانبه من القوة المسكة الجامعة لأجزائه فكذلك حال القلب عند الغضب وبالْحَقِيقَةُ فالسيفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا إذ في السفينة من يحتمل لتسكينها وتديرها وينظرها ويسوسها وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذا عمى الغضب وأصمته ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشفاد وتعمر الأحداق وتقلب المناخر وتستحيل الحلقة ولورأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وإنا غابحت صورة الباطن أو لا ثم اشتهر قبحها إلى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد. وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستجى منه ذوالعقل ويستجى منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تحبط النظم واضطراب اللفظ وأما أثره على الأعضاء فالضرب والهجم والتزيق والقتل والجرح عند التحكك من غير مبالاة فان هرب منه المفضوب عليه أوفاته بسبب وهجر عن التشفي رجح الغضب على صاحبه فزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب يده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والدهوش التحير وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والهوش بسبب شدة الغضب ويتره مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصة مثلا على الأرض وقد يكسر السائلة إذا غضب عليها ويتماطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخطبها ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما رفته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك. وأما أثره في القلب مع المفضوب عليه فالحدق والحسد وإضمار السوء والتمائة بالما آت والحزن بالسرور والعزم على إنشاء السرو هتك السر والاستهزاء وغير ذلك من القبايح فهذه ثمرة الغضب للفرط وأما ثمرة الحية الضعيفة قلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماء وهو أيضا مدموم إذ من ثمراته عدم الفيرة على الحرم وهو خونة قال صلى الله عليه وسلم «إن سعدا لغيري وأنا غير من سعد وإن الله أغير مني (١)» وإنما خلقت الفيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الفيرة

أنه قال مهما أنتبه من الليل لا يعملني النوم إلا بسد ما أقوم وأجدد الوضوء ثلاثا يسود إلى النوم وأنا على غير طهارة وممعت من صحب الشيخ على بن الهيثمي أنه كان يقعد الليل جميعه فان غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما اتبته يقول لا أكون نساء الأدب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام فاني سمعت دفن نعليك بين يدي في الجنة» قال ما عملت عملا في الاسلام

(١) حديث إن سعدا لغيري الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث الفيرة بنحوه وتقدم في النكاح

في رجالها وضمت الصيانة في نساءها ومن ضعف الغضب الحور والسكوت عند مشاهدة للنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتي أحداؤها »^(١) يعني في الدين وقال تعالى - ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله - بل من قد الغضب هجز عن رياضة نفسه إذ لا تتم الرياضة إلا بتسلط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الليل إلى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وإنما الممهور غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطق حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « خير الأمور أوسطها »^(٢) فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضف الضيرة وخسة النفس في احتمال الدل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحسن من السيف فان هجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى - ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة - فليس كل من هجز عن الاتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

(بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا)

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور عمو الغضب بالسلبية وزعموا أن الرياضة إليه توجه وإياه تقصد وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج وهذا رأى من يظن أن الخلق كالحلق وكلاهما لا يقبل التغيير وكلاهما لا يقبل التغيير بل الحق فيه ما نذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئا ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب ومادام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه والغضب يتبع ذلك فانه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة وإذا قصد بكمروه غضب لا محالة إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ماهو ضرورة في حق الكافة كالقوت والسكن والملبس وحمية البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق ماؤه الذي لعطشه فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها . القسم الثاني ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاء والمال الكثير والفلان والدواب فان هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكثران ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنيا عنهما في القوت فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ماهو غير ضروري كالجاء والصيت والتصدر في المجالس واللباهة في العلم فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا مزاحمه على التصدر في المجالس ومن لا يحب ذلك فلا يزال ولو جلس في صف النعال فلا يغضب إذا جلس غيره فوهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكافره فأكثر غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات

(١) حديث خير أمتي أحداؤها الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بن سعيد ضعيف وزاد الدين إذا غضبوا رجعوا (٢) حديث خير الأمور أوسطها البيهقي في الشعب مرسل لا يقدم.

أرجى عندي أني لم
أظهر طهرا في ساعة ليل
أونهار إلا صليت لرب
عز وجل بذلك الطهور
ما كتب لي أن أصلي
ومن أدبهم في الطهارة
ترك الاسراف في الماء
والوقوف على حد العلم.
أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الترقياني قال أخبرنا
أبو محمد الجراحي قال
أنا أبو العباس المحبوبي
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال حدثنا
عبد بن بشار قال حدثنا
أبو داود قال حدثنا
خارجة بن مصعب
عن يونس بن عبيد
عن الحسن بن عبي
ابن ضمرة السعدي عن
أبي بن كعب عن النبي

أكثر كان صاحبها أخط رتبة وأتقص لأن الحاجة صفة قصص فبها كثر كثر النقص والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة وعخالطة قرناء السوء إلى أن يضطرب لوقيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشرطي ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير وما يجري مجراه من الرذائل فالنضب على هذا الجنس ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري . القسم الثالث ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض الكتاب مثلا في حق العالم لأنه مضطر إليه فيجبه فينضب على من يحرقه ويفرقه وكذلك أدوات الصناعات في حق للكتيب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها فان ما هو وسيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله « من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاق غيرها » (١) ومن كان بصيرا بحقائق الأمور وسلم لهذه الثلاثة يتصور أن لا يضطرب في غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلندكر غاية الرياضة في كل واحد منها . أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه ليندم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع النضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك تمكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجانه الغيظ في الباطن وينتهي ضغفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ما صار ضروريا في حق شخص فلا ينعمه من الغيظ استثناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه . وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن النضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القاب وذلك بأن يعلم الانسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا مجرد جبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويعجز عنها عن قلبه ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يضطرب إذا ضربه غيره فالنضب تبع للحب فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل النضب وهو نادر جدا وقد تنتهي إلى المنع من استعمال النضب والعمل بموجبه وهو أهون . فان قلت : الضروري من القسم الأول التألم بقوات المحتاج إليه دون النضب فمن له شاة مثلا وهي قوته فانت لا يضطرب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فان الانسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يضطرب على الفصاد والحجامة فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يضطرب على أحد من خلقه إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يضطرب على القلم فلا يضطرب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يضطرب على موتها إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع النضب بغلبة التوحيد ويندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يضطرب كما لا يضطرب على الفصاد والحجامة لأنه يرى أن الخيرة فيه فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف تغلب في أحوال مختطفة ولا تدوم ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاق غيرها الترمذي وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن دون قوله بحذاق غيرها قال الترمذي حسن غريب .

صلى الله عليه وسلم أنه قال « للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواوس الساء » قال أبو عبد الله الروذباري إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم فلا يبالي أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيها أمروا به أو ينقصوا عنه . وحكى عن ابن الكرنبي أنه أصابته جنابة ليلة من الليالي وكانت عليه مرقعة فحينئذ غليظة فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد فغرت نفسه عن الدخول في الساء لشدة البرد فطرح نفسه في الساء مع الرقعة ثم خرج من الماء وقال عقدت أن لا أترعها من بدني حتى تجف على فمكشت

فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه (١) حتى قال «اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأبشأ مسلم سببته أولسته أو ضرته فأجعلها مني صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة (٢)» وقال عبد الله بن عمرو بن العاص «يارسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا قال أكتب فوالله يبعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق» وأشار إلى لسانه (٣) فلم يقل إنى لا أغضب ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق أى لا أعمل بموجب الغضب «وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك قالت ومالك شيطان قال بلى ولكن دعوت الله فأعاني عليه فأسلم فلا يامرني إلا بالخير (٤)» ولم يقل لا شيطان لى وأراد شيطان الغضب لكن قال لا يحماني على الشر ، وقال على رضى الله عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدين إذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يغم له شيء حتى يتصره (٥)» فكان يغضب على الحق وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة بل كل من يغضب على من يأخذ ضروره قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فانما غضب لله فلا يمكن الاتسكك منه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى إذا كان القلب مشغولاً بضرورى أهم منه فلا يكون في القلب متسع للغضب لا اشتغاله بغيره فان استغرق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بماعداه ، وهذا كما أن سلبان لما شتم قال إن خفت موازيتي فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيتي لم يضرنى ما تقول قد كان همهم صروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشم . وكذلك شتم الربيع بن خيثم قال : يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعها لم يضرنى ما تقول وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه فقال ماستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقى الله حتى تفاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره ، وقالت امرأة لمالك بن دينار ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ومنكرا على نفسه ما يليق الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعي فقال إن كنت صادقاً ففقر الله لى وإن كنت كاذباً ففقر الله لك فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغاب على قلوبهم فاذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب فاذا يتصور قد الغيظ إما باشتغال القلب بهم أو بظلة نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يفتأ يظنى شدة حبه لله غيظه وذلك غير محال في أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه مسلم من حديث جابر كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ولما حاكم كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم في أخلاق النبوة (٢) حديث اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر الحديث مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلده بدل ضرته وفي رواية اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأصله متفق عليه وقد تقدم ومسلم من حديث أنس إنما أنا بشر أرى كآثر رضى البشر وأغضب كما يغضب البشر ولأبي جلى من حديث أبي سعيد أو ضربه (٣) حديث عبد الله بن عمرو يارسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا قال أكتب فوالله يبعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه أبو داود بنحوه (٤) حديث غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك الحديث مسلم من حديث عائشة (٥) حديث على كان لا يغضب للدين الحديث الترمذى في المعجم والترمذى في المعجم.

عليه شهرا لخفاها
وغلظها أدب بذلك
نفسه لما حرت عن
الالتفات لأمر الله تعالى
وقيل إن سهل بن
عبد الله كان يحث
أصحابه على كثرة شرب
الماء وقلة صبه على
الأرض وكان يرى أن
في الإكثار من شرب
الماء ضعف النفس
وإمالة الشهوات وكسر
القوة ومن أفعال
الصوفية الاحتياط في
استيقاظ الماء للوضوء
قيل كان إبراهيم
الخوارج إذا دخل
البادية لا يحمل معه
إلا ركوة من الماء وربما
كان لا يشرب منها
إلا القليل يحفظ للماء
للووضوء وقيل إنه كان
يخرج من مكة إلى
السكوفة ولا يحتاج إلى

محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا ومن أخرج حب الزايع عن القلب غلب من أكثر أسباب الغضب ولا يمكن محوه يمكن كسره وتضييقه فيضف الغضب بسببه ويهون دفعه ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

(بيان الأسباب للمهجة للغضب)

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب ، وقد قال يحيى لميسر عليهما السلام أي شيء أشد قال غضب الله قال لما يقرب من غضب الله قال أن تغضب قال لما يبدى الغضب وما يبدىته قال عيسى : الكبر والفخر والتعزز والحمية والأسباب للمهجة للغضب هي الزهو والمجب والمزاح والمزل والمزء والتعير والمارة والضادة والندر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها ، فينبغي أن تمت الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفة نفسك كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا في الفضل أشثانا فبنوا آدم جنس واحد وإنما اختلفوا في الفضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة . وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما المزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تملكك إلى سعادة الآخرة . وأما المزء فتزيله بالتكريم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعير فالخذر عن القول القبيح صيانة النفس عن مرء الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لحر الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها والترغب النفس عنها وتنفر عن قبورها ثم الواظبة على مباشرة أضرارها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوقة هينة على النفس فإذا اعتجت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذي يتولد منها ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبرهمة وتلقيه بالأتقاب المحمود غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيخرج الغضب إلى القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب وتقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصها وآية أنه لضعف النفس أن الرأى أسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من السكهم وذو الجلق السيء . والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة وليخله إذا فاتته الحبة حتى إنه يغضب على أهله وولده وأصحابه بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والرفق وما استحسن منهم من كظم الغيظ فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ومن ذلك منقول عن الأكابر والأثراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم .

التيتم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب . وقيل إذا رأيت الصوفي ليس معه ركة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى . وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النسكاهم وهم يهتمون في دار فآراء أحد منهم أنه دخل الحلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه ، وقيل مات الخواص في جامع الرى في وسط الماء وذلك أنه كان به علة البطن وكما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه كل ذلك لحفظه على

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله .

(بيان علاج الغضب بعد هيجانه)

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج فاذا جرى سبب هيجه فسنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه الذموم وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمجموع العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور : الأول يتفكر في الأخبار التي سنورها في فضل كظم الغيظ والغفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التعففى والانتقام وينطفى عنه غيظه قال مالك بن أنس بن الحدثان غضب عمر على رجل وأمر بضربه قلت يا أمير المؤمنين - خذ الغفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فكان عمر يقول - خذ الغفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فكان يتأمل في الآية وكان وقافاً عند كتاب الله مهماتى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلقى الرجل وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى - والكاظمين الغيظ - فقال لفلانه خل عنه . الثانى أن يخوف نفسه بقباب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الانسان فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يعفى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ماأكون إلى الغفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين أغضب فلا أعفك فيمن أعفك . وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيلاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك (١) » أى القصاص في القيامة وقيل ما كان في بنى إسرائيل ملك الاومعه حكيم إذا غضب أعطاه محيفة فيها : ارحم السكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه . الثالث أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى في هدم أغراضه والشماتة بصائبه وهو لا يغفل عن الصائب فيخوف نفسه بمواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض إلا أن يكون محذوره أن تنشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه . الرابع أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء . ويغير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتبيل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل . الخامس أن يتفكر في السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمتنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصور حقيراً فى أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولاتأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منه وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبين ففهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله وذلك يعظمه عند الله فصالة للناس وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا فهذا وأمثاله من معارف الايمان ينبغى أن يكرره على قلبه . السادس أن يعلم أن غضبه من تصبجه من جريان الشئ على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه . وأما العمل فان تقول بلسانك

(١) حديث لولا القصاص لأوجعتك أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

الوضوء والطهارة وقيل كان إبراهيم بن آدم به قيام قدام في ليلة واحدة نفا وسبعين مرة كل مرة يجدد الوضوء ويصل ركعتين وقيل إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا في وقت البراز يراعى الأدب في الحلاوات واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا إن الوضوء يوزن وأجازه بعضهم ودلهمهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الله

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ (١) « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأفنها وقال يا عويش قولي اللهم هب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرتني من مضلات الفتن (٢) » فيستحب أن تقول ذلك فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب حمرة توقد في القلب (٣) » ألم تروا إلى اتفاح أو داجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدهم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يفضل فإن النار لا يطفئها إلا للاء فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء قائماً الغضب من النار (٤) » وفي رواية إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا غضبت فاسكت (٥) » وقال أبو هريرة « كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه (٦) » وقال أبو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا إن الغضب حمرة في قلب ابن آدم (٧) » ألا ترون إلى حمرة عينيه واتفاح أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتسحق به النفس القل وتزابل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب . وروى أن عمر غضب يوماً فلما بعاه فاستنشق وقال إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب وقال عروة بن محمد لما استعملت طي اليمن قال لي أبي أو ليت قلت نعم قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالفهما . وروى « أن أبا ذر قال لرجل يا ابن الحمرأ في خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله

ابن وهب عن زيد
ابن حباب عن أبي
معاذ عن الزهري
عن عروة عن عائشة
رضي الله عنها قالت
كان لرسول الله صلى الله
عليه وسلم خرقه ينشف
بها أعضاءه بعد
الوضوء . وروى معاذ
ابن جبل قال رأيت
رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا توضأ مسح
وجهه بطرف ثوبه
واستقصاء الصوفية في
تطهير البواطن من
الصفات الرديئة
والأخلاق الذمومة
لا الاستقصاء في طهارة
الظاهر إلى حد يخرج
من حد العلم وتوضأ عمر
رضي الله عنه من جرة
نصراية مع كون
النصارى لا يحترزون
عن الحمر وأجرى الأمر

(١) حديث الأمر بالتعود بالله من الشيطان الرجيم عند الفيظ متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يسبقان فأحدهما احمر وجهه واتفخت أوداجه الحديث وفيه لوقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد فقالوا له إن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم الحديث (٢) حديث كان إذا غضبت عائشة أخذ بأفنها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي الحديث ابن السني في اليوم والليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات (٣) حديث إن الغضب حمرة توقد في القلب الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب (٤) حديث إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد الحديث أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس إذا غضبت فاسكت أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لهما والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ليث بن أبي سليم (٦) حديث أبي هريرة كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولا أحمد باسناد جيد في أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فليل له لم تجلس ثم اضطجعت فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع والرفوع عند أبي داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبي سعيد ألا إن الغضب حمرة في قلب ابن آدم الحديث الترمذي وقال حسن .

صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر بلغني أنك اليوم عبرت أخاك بأمه فقال نعم فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر ارفع رسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل ثم قال إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد وإن كنت قاعداً فاتكئ وإن كنت متكئاً فاضطجع^(١) وقال المصنوع بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول إذا غضبت فأعطني هذه وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه وقال للثالث إذا ذهب غضبي فأعطني هذه فاشتد غضبه يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بالله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً فكان بعض غضبه فأعطى الثانية فإذا فيها ارحم من في الأرض يرحمك من السماء فأعطى الثالثة فإذا فيها خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك أى لا تطل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شبيب لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه فقال خلوا سبيله .

(فضيلة كظم الغيظ)

قال الله تعالى - والكاظمين الغيظ - وذكر ذلك في معرض الدخ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لمضاه ملاه الله قلبه يوم القيامة رضا - وفي رواية - ملاه الله قلبه أمناً وإيماناً^(٤) » وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى^(٥) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم « إن الجنة بابا لا يدخله إلا من شقى

(١) حديث أبي ذر أنه قال لرجل يا أبا الحراء في خصومة بينهما باغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر الحديث وفيه ثم قال إذا غضبت إلى آخره ابن أبي الدنيا في العفو ومن الغضب بإسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمه فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى ورجاله ثقات.

(فضيلة كظم الغيظ)

(٢) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه الحديث الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولا بن أبي الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وواء الله عذابه الحديث وقد تقدم في آفات اللسان (٣) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلًا بإسناد جيد وللبرار والطبراني في معارج الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أملاً مسكماً لنفسه عند الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه (٤) حديث من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لمضاه ملاه الله قلبه يوم القيامة رضا وفي رواية أمناً وإيماناً بن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله ابن ماجه.

على الظاهر وأصل الطهارة وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الأرض من غير سجادة ويمشون حفاة في الطرق وقد كانوا لا يعملون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلاً وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الأوقات وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التساهل واستقصاءهم في الطهارة الباطنة وهكذا شغل الصوفية وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس فلو اتسع ثوبه تخرج ولا يبالى بما في باطنه من القل والحقد والكبر

غِيظُهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى (١) » وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جُرْعَةِ غِيظٍ كَظْمِهَا عَبْدٌ وَمَا كَظْمُهَا عَبْدٌ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا (٢) » وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ كَظَمَ غِيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَى الْحَوَرِ شَاءَ (٣) » الْآثَارُ : قَالَ عُمَرُ رَضِيَ عَنْهُ مِنَ اتَّقَى اللَّهَ لَمْ يَشْفِ غِيظُهُ وَمَنْ خَافَ اللَّهَ لَمْ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ وَلَوْ لَاحَظَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرَ مَارُونٍ . وَقَالَ لِقَمَانِ لَابَنِهِ : يَا بُنَى لَا تَنْهَبِ مَاءَ وَجْهِكَ بِالسَّالَةِ وَلَا تَشْفِ غِيظَكَ بِفَضِيحَتِكَ وَاعْرِفْ قَدْرَكَ تَنْفَعَكَ مَعِيشَتَكَ . وَقَالَ أَيُّوبُ حَلَمٌ سَاعَةً يَدْفَعُ شَرًّا كَثِيرًا ، وَاجْتَمَعَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَبُو خَزِيمَةَ الْبَرَبِيُّ وَالْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ فَتَذَاكَرُوا الزُّهْدَ فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنْ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الْحَلَمُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْجُرْعِ . وَقَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا تَقْضَى بِالْعَدْلِ وَلَا تَعْطَى الْجَزُلُ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَسْمَعُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ - خُذْ الْعَهْدَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ - فَهَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ فَقَالَ عُمَرُ صَدَقْتَ فَكَأَنَّمَا كَانَتْ نَارًا فَأُظْفِقَتْ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ ثَلَاثٌ مِنْ كُنْ فِيهِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ إِذَا رَضِيَ لَمْ يَدْخُلْهُ رِضَاهُ فِي الْبَاطِلِ وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يَخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا قَدَّرَ لَمْ يَتَنَاوَلَ مَا لَيْسَ لَهُ . وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى سُلَيْمَانَ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ لَا تَغْضَبْ قَالَ لَا أَقْدَرُ قَالَ فَإِنْ غَضِبْتَ فَأَمْسِكْ لِسَانَكَ وَيَدَكَ .

(بيان فضيلة الحلم)

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلفا قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْعِلْمِ وَالْحَلَمُ بِالْحَلَمِ وَمَنْ يَتَغَيَّرِ الْخَيْرُ يَحِطُّهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يَوْقُهُ (٤) » وَأَشَارَ بِهَذَا إِلَى أَنَّ اكْتِسَابَ الْحَلَمِ طَرِيقُهُ التَّحَلُّمُ أَوَّلًا وَتَكْلُفُهُ كَمَا أَنَّ اكْتِسَابَ الْعِلْمِ طَرِيقُهُ التَّحَلُّمُ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحَلَمَ لِيَنْوَا مَنْ تَعْمَلُونَ وَلِمَنْ تَعْمَلُونَ مِنْهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جِبَابَةِ الْعُلَمَاءِ فَيَقْلَبُ جِهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ (٥) » وَأَشَارَ بِهَذَا إِلَى أَنَّ التَّكْبُرَ وَالتَّجَبُّرَ هُوَ الَّذِي يَهْجِجُ الْغَضَبَ وَيَنْعَمُ مِنَ الْحَلَمِ وَاللَّيْنِ ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ ﷺ « اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزِينِ بِالْحَلَمِ وَأَكْرِمْنِي بِالتَّقْوَى وَجَمِّلْنِي بِالْعَافِيَةِ (٦) » وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ابْتَغُوا الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ قَالُوا وَمَاهِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ تَصِلُ مِنْ قِطْعِكَ وَتَعْطَى مِنْ حَرَمِكَ وَتَحْلُمُ عَنْ جَهْلٍ عَلَيْكَ (٧) »

(١) حديث ابن عباس إن لجهنم بابا لا يدخل منه إلا من شقي غيظه بمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى تقدم في آفات اللسان
(٢) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبدا وما كظمها عبد إلا مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا ابن الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم وقد تقدم (٣) حديث من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعه الله على رءوس الخلائق حتى يغيره من أى الحور شاء تقدم في آفات اللسان .

(فضيلة الحلم)

(٤) حديث إنما العلم بالعلم والحلم بالتحلم الحديث الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم الحديث ابن السني في رياضة التلميذ بسند ضعيف (٦) حديث كان من دعائه اللهم اغنى بالعلم وزين بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية لم أجده أصلا (٧) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي ؟ قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عن جهل عليك وقد تقدم .

والعجب والرياء والنفاق

ولعله ينحصر على

الشخص لو دلس

الأرض حافيا مع وجود

رخصة الشرع ولا

ينكره عليه أن يتكلم

بكلمة غيبة مخرب بها

دينه وكل ذلك من قلة

العلم وترك التأدب

بضحية الصادقين من

العلماء الراسخين وكانوا

يكرهون كثرة الدلائل

في الاستبراء لأنه ربما

بسترخي المرقى ولا

يمسك البول ويتولد

منه القطر المفرط .

ومن حكايات المتصوفة

في الوضوء والطهارات

أن أبا عمرو الزجاجي

جاور بمكة ثلاثين سنة

وكان لا ينحط في الحرم

ويخرج إلى الحل وأقل

ذلك فرسخ . وقيل

كان بعضهم على وجهه

وقال صلى الله عليه وسلم « خمس من سنن الرسلين الحياء والحلم والحجامة والوالتطير »^(١) وقال
 على كرام الله وجهه قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه
 يكتب جبارا عنيدا ولا يملك إلا أهل بيته »^(٢) وقال أبو هريرة « إن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة
 أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم قال إن كان كما تقول فكأنما
 تسفهم الله ولا يزال معك من الله ظهير مما دعت على ذلك »^(٣) قال يعني به الرمل وقال رجل من المسلمين
 « اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبصر رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى
 إلى النبي ﷺ « إني قد غفرت له »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم
 قالوا وما أبو ضمضم قال رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على
 من ظلمني »^(٥) وقيل في قوله تعالى - ربانين - أي علماء علماء وعن الحسن في قوله تعالى - وإذا خاطبهم
 الجاهلون قالوا سلاما - قال علماء إن جهل عليهم لم يجهلوا وقال عطاء بن أبي رباح - يمشون على الأرض
 هونا - أي حياء وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل - وكهلا - قال الكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد
 - وإذا صرخوا باللغو صرخوا كراما أي إذا أودوا صفعوا. وروى « أن ابن مسعود مر بلفو معرضا فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما »^(٦) ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى
 - وإذا مروا باللغو مروا كراما - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان
 لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الخليل قلوبهم قلوب العجم والسنة العرب »^(٧) وقال
 صلى الله عليه وسلم « ليليني منكم ذؤاب الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا
 فتختلف قلوبكم وإياكم وهبشات الأسواق »^(٨) وروى « أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشعج فأناخ
 راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العية ثوبين حنين فلبسهما وذلك بعين

(١) حديث خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتطير أبو بكر بن أبي عاصم
 في الثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن
 أبيه عن جده. والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح
 (٢) حديث على « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم الحديث الطبراني في الأوسط بسند
 ضعيف (٣) حديث أبي هريرة « إن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن
 إليهم ويسئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم الحديث رواه مسلم (٤) حديث قال رجل من المسلمين
 اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبصر رجل أصاب من عرضي شيئا فهو صدقة عابه الحديث
 أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد بن أبي عباس بن جبر عن أبيه عن جده
 بإسنادين زاد البيهقي عن علي بن زيد وعليه هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر
 في الاستيعاب أنه رواه ابن عينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من
 المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبي ضمضم إنما هو علي بن زيد وأبو ضمضم
 ليس له محبة وإنما هو متقدم (٥) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم الحديث تقدم في
 آفات اللسان (٦) حديث إن ابن مسعود مر بلفو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود
 وأمسى كريما ابن المبارك في البر والصلة (٧) حديث اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه
 العلم ولا يستحيون فيه من الخليل الحديث أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٨) حديث
 ليليني منكم ذؤاب الأحلام والنهي الحديث مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله ولا تختلفوا فتختلف
 قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود.

قرح لم ينسب بل اثني
 عشرة سنة لأن الماء
 كان يضره وكان مع
 ذلك لا يدع تجديد
 الوضوء عند كل
 فريضة وبعضهم نزل
 في عتبه الماء فحملوا
 إليه الداوى وبذلوا
 له مالا كثيرا ليداويه
 فقال للداوى يحتاج
 إلى ترك الوضوء أياما
 ويكون مستلقيا على
 قفاه فلم يفعل ذلك
 واختار ذهاب بصره
 على ترك الوضوء .
 [الباب السادس
 والثلاثون في فضيلة
 الصلاة وكبر شأنها]
 روى عن عبد الله بن
 عباس رضى الله عنهما
 أنه قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 « لما خلق الله تعالى
 جنة عدن وخلق فيها

رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ثم أقبل يمشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام إن فيك يا أشجع خلقين مجيها الله ورسوله قال ماها بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال الحلم والأناة فقال خلطان تخلفتهما أو خلطان جبلت عليهما فقال بل خلطان جبلت عليك الله عليهما فقال الحمد لله الذي جعلني على خلقين مجيها الله ورسوله ^(١) وقال ^(٢) «إن الله يحب الحلم الذي لا يتعسف أبا العيال التي» ويغض الفاحش البذي السائل للتحف النبي ^(٣) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشيء من عمله تقوى تهجزه عن معاصي الله عز وجل وحلم يكف به السفه وخلق يعيش به في الناس» ^(٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم إن أنزلكم سراعا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسى إلينا عفونا وإذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فتم أجر العاملين» ^(٥) . الآثار : قال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم وقال على رضي الله عنه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا يتباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال الحسن اطلبوا العلم وزيّنوه بالوقار والحلم . وقال أكرم بن صبيح دعاة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء أدركت الناس ورقا لاشوك فيه فأصبحوا شوكا لا ورق فيه إن عرقهم قد دوك وإن تركهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع ؟ قال تفرضهم عن عرسك ليوم قهرك . وقال على رضي الله عنه إن أول ما عوض الحليم من سخطه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية لمعروبن الأهمش أي الرجال أشجع قال من رد جهله بحلمه قال أي الرجال أسخى قال من بذل دينه لصالح دينه . وقال أنس بن مالك في قوله تعالى - فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - إلى قوله - عظيم - هو الرجل يشتبه أخوه فيقول إن كنت كاذبا ففقر الله لك وإن كنت صادقا ففقر الله لي . وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة فلم على فاستعبدني بها زمانا . وقال معاوية لمعروبن الأهمش أي الرجال أشجع قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسنى في حوائجهم فمن فعل فعلهم فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فتعصيا ففكس الرجل رأسه واستسقى . وقال رجل لمعروبن عبد العزيز أشهد أنك من الفاسقين فقال ليس تقبل شهادتك . وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخمضة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على النسم والتوبة

(١) حديث يا أشجع إن فيك خصلتين مجيها الله الحلم والأناة الحديث متفق عليه (٢) حديث إن الله يحب الحلي الحلم الذي لا يتعسف الطبراني من حديث سعد إن الله يحب العبد الذي لا يتعسف الحلي (٣) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشيء من عمله أبو نعيم في كتاب الإيجاز بأسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بأسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة (٤) حديث إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس الحديث وفيه إذا جهل علينا حلمنا البيهقي في شعب الإيمان من زواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في إسناده ضعف .

ملاعين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب جر قال لها تكلمي فقالت - قد أفلح للمؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون - ثلاثا وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاني جبرائيل ليلولة الشمس حين زالت وصلى في الظهر» اشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو التارز والخشبة للوجه إذا أرادوا أن يعرضوا على النار ثم يقوم وفي العبد اعوجاج لوجود قسه الأمانة بالسوء وسبغات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها أحرقت من أدركته يصيب بها

ودرجوعه إلى مدح بعد اقصى ما شئ من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإني أريد أن أركه فأخشي أن يقال لي إن تركك له ذل قال جعفر إنما الدليل الظالم وقال الخليل بن أحمد كان يقال من أساء فأحسن إليه قد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس لست بحليم ولكنني أعلم وقال وهب بن منبه من رحم يرحم ومن صمت يسل ومن يجهل يظلم ومن يسجل يخطئ ومن يحرص على الثمر لا يسل ومن لا يدع للراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يصمم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يقول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفترق ومن يأمن مكر الله يخذل ومن يستعين بالله يظفر وقال رجل لمالك بن دينار بلغني أنك ذكرتني بسوء قال أنت إذ أنكرتني من نفسي إلى إذا ضلت ذلك أهديت لك حسنا . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به وقال رجل لبعض الحكماء والله لأسبئك سبا يدخل معك في قبرك فقال معك يدخل لامي ومرة المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام قوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا قيل له إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفي عما عنده وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحكيم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. ودخل على بعض الحكماء صديق له قدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفضت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مضطربا فبصحه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فقطعت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا قال نعم قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال صديق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم وضرب رجل قدم حكيم فأوجسه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال أقمته مقام حجر تثررت به فذبحت الغضب وقال محمود الوراق:

سأزيم نفسي الصفيح عن كل مذنب وإن صكرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذي فوق فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صفت عن إجابته عرضي وإن لام لأثم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

(بيان التقدير الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام)

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فضلناه في الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه »^(١) وقال « المستبان ما قال فهو على البادي ما لم يمتد المظلوم » وقال « المستبان شيطانان يتهاوران »^(٢) « وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر إنك كنت ساكنا لما شتمني فلما تكلمت قلت لأن الملك كان يجب عليك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان »^(٣)

(١) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم
(٢) حديث للمستبان شيطانان يتهاوران تقدم (٣) حديث شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومرسلا قال البخاري للرسول أصح .

الصلى من وهج
السلوة الإلهية
والعظمة الربانية
ما يزول به اعوجاجه
بل يتحقق به معراج
فالصلى كالمصلى بالنار
ومن اصطفى بنار الصلاة
وزال بها اعوجاجه
لا يمرض على نار جهنم
إلا غلة القسم . أخبرنا
الشيخ العالم رضى
الدين أحمد بن إسماعيل
القزويني بإجازة قال أنا
أبو سعيد محمد بن أبي
العباس بن محمد بن أبي
العباس الخليلي قال أنا
أبو سعيد الفرخزادى
قال أنا أبو إسحاق أحمد
ابن محمد قال أنا
أبو القاسم الحسن بن
محمد بن الحسن قال أنا
أبو زكريا يحيى بن محمد
العنبري قال ثنا جعفر
ابن أحمد بن العافظ

وقال قوم يجوز للقبالة بما لا كذب فيه وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعبير بعثله
 نهى تنزيه والأفضل تركه ولكنه لا يحصى به والذي يرخس فيه أن تقول من أنت وهل أنت إلا من
 بنى فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت إلا من بنى هذيل وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى
 أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة
 من بعض وقال ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله
 يا جاهل إذا من أحد إلا وفيه جهل قد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا سيء الخاق يا صفيق الوجه
 يا ثلأب للأعراس وكان ذلك فيه وكذلك قوله لو كان فيك حياة لما تسكمت وما أحرقت في عيني بما
 فعلت وأخزأك الله واستقم منك . فأما الخيعة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روى
 أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد له إن ما بيننا لم يبلغ
 ديننا يعني أن يأثم بعضنا في بعض فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله والدليل على جواز ما ليس
 بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب ما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى
 الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة فجاءت فقالت يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في
 ابنة أبي نعاقة والنبي صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية آجعين ما أحب قالت نعم قال فاجبي هذه فرجعت
 إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن ما أغيت عنا شيئا فأرسلن زينب بنت جحش قالت وهي التي كانت تسامني
 في الحب فجاءت فقالت بنت أبي بكر وبنت أبي بكر فما زالت تذكرني وأنا ما كنة أتتظر أن يأذن لي
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي فسيبتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه
 وسلم : كلا إنها ابنة أبي بكر (٢) « يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قطوقوها سيئتها ليس المراد به الفحش
 بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال النبي صلى الله عليه وسلم « المستبان ما قالوا فلي
 البادي منها حتى يتبدى للظلم (٣) » فأثبت للمظلوم انتصار إلى أن يتبدى فهذا القدر هو الذي أباحه
 هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ولا تبعذ الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل
 تركه فإنه يحجر إلى ما وراءه ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لله أسير
 من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه
 في فورة الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس
 في الغضب أربعة فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضب على الوقود بطيء الخمود
 وهذا هو بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود
 بطيء الخمود وهذا هو شرهم وفي الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه تلك (٤) » وقال
 الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى لم يرض فهو شيطان وقد قال
 أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى
 فمنهم بطيء الغضب سريع النوى ومنهم سريع الغضب سريع النوى فذلك تلك ومنهم سريع
 الغضب بطيء النوى ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الغضب البطيء النوى (٥) »

قال أنا أحمد بن نصر
 قال ثنا آدم بن أبي
 إياس عن ابن مسمان
 عن السلاء بن
 عبد الرحمن عن أبيه
 عن أبي هريرة رضي
 الله عنه أن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال يقول
 الله عز وجل قسمت
 الصلاة بيني وبين
 عبدي نصفين فإذا قال
 العبد بسم الله الرحمن
 الرحيم قال الله عز وجل
 محبني عبدي فإذا
 قال الحمد لله رب العالمين
 قال الله تعالى محبني
 عبدي فإذا قال
 الرحمن الرحيم قال الله
 تعالى أنبيائي محبني
 فإذا قال مالك يوم
 الدين قال فوض إلى
 عبدي فإذا قال إياك
 نعبد وإياك نستعين
 قال هذا بيني وبين

- (١) حديث ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عز وجل تقدم في العلم
- (٢) حديث عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي نعاقة الحديث رواه مسلم (٣) حديث المستبان ما قالوا فلي البادي منها حتى يتبدى للظلم (٤) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضى تقدم .
- (٥) حديث أبي سعيد الخدري ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات الحديث تقدم .

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ولأنه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيًا لغيظه ومرحبا نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذ به وعززه فشتبه السكران فرجم عمر قتيلا له بأمر المؤمنين لما شتمك تركته قال لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك لنفسي لنفسي ولم أحب أن أضرب مسلما حية لنفسي . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه لولا أنك أغضبتني لما قبضت .

(القول في معنى الحقد وتأنيجه وفضيلة العفو والرفق)

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لم يجز عن التشنج في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استغفاله والبغضة له والنفاق عنه وأن يدوم ذلك ويبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم « للؤمن ليس بحقدود (١) » فالحقد ثمرة الغضب والحقد ثمرة غمائية أمور الأول الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسرم بمصيبة إن نزلت به وهذا من فعل المنافقين وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى . الثاني أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشتم بما أصابه من البلاء . الثالث أن تهجره وتصارمه وتقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . الرابع وهو دونه أن تعرض عنه استصغاره . الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . السادس أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه . السابع إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه . الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تنصى الله به ولكن تستغله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على النعمة له أو تبرك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص درجاتك في الدين ويعول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يمرضك لعقاب الله ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لسكونه تكلم في واقعة الإفك زل قوله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم - فقال أبو بكر نعم نحب ذلك وعاد إلى الاتفاق عليه (٢) والأولى أن يبقى على ما كان عليه فإن أمكنه أن يزيد في الاحسان مجاهدة للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال القربين فلم يحقدود ثلاثة أحوال عند القدرة . أحدها أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة وتقصان وهو العدل . الثاني أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . الثالث أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل والثاني هو اختيار الصديقين والأول هو منهى درجات الصالحين ولذا ذكر الآن فضيلة العفو والاحسان .

(فضيلة العفو والاحسان)

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويرى عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم

(فضيلة العفو)

(١) حديث المؤمن ليس بحقدود تقدم في العلم (٢) حديث لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح زل قوله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم - الآية متفق عليه من حديث عائشة .

سبدي فاذا قال اهدنا
الصراط السقيم
صراط الدين أنعمت
عليهم غير الضلوع
عليهم ولا الضالين -
قال الله تعالى هذا
لعبدي ولعبدي ما سأل
فالصلاة صلة بين الرب
والمعبود وما كان صلة
بينه وبين الله غنى
المعبود أن يكون خاشعا
لصلاة الربوبية على
العبودية وقد ورد أن
الله تعالى إذا تجلى
لشيء خضع له ومن
يتحقق بالصلاة في الصلاة
تلمع له طوابع التجلي
فيخشع والفلاح للذين
هم في صلاتهم خاشعون
وباستقاء الحشوع يتنقى
الفلاح وقال الله تعالى
- وأقم الصلاة لذكري -
وإذا كانت الصلاة
لذكر حكيم يقع

الفيظ فذلك أفردناه قال الله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين سورة قال الله تعالى - وأن تعفوا أقرب للتقوى - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلاقا لحلفت عليهن مائة من ماله من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يتغنى بها وجهه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا نتج رجل على نفسه باب مسألة إلا نتج الله عليه باب فقر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد إلا عزا فاعفوا يرفعكم الله والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله (٢) » وقالت عائشة رضى الله عنها « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم يترك من محارم الله فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشد من ذلك غضبا وما خيرين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا (٣) » وقال عقبه « لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أوبدرتني فأخذ بيدي فقال : يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتمطى من حرملك وتعفو عمن ظلمك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أيّ عبادك أعزّ عليك قال الذى إذا قدر عفا (٥) » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعزّ الناس قال الذى يعفو إذا قدر فاعفوا يرفعكم الله (٦) » وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذه بمظلمته فقال له صلى الله عليه وسلم : إن المظلومين هم الفلحون يوم القيامة (٧) » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا مبشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعب بعضكم عن بعض (٨) » وعن أبي هريرة « أن رسول الله

فيها النسيان قال الله تعالى - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون - فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلّى وقد نهى الله عن ذلك فالسكران يقول الشيء ولا يحضور عقل والعاقل يصلّى لا يحضور عقل فهو كالسكران وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى - فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى - قيل نعليك همك بامرأتك وغنمك فالاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة وقيل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة وينظرون عينا وشيئا فلما نزلت

(١) حديث ثلاث والذى نفسى بيده إن كنت حلاقا لحلفت عليهن ما نقصت صدقة من مال الحديث الترمذى من حديث أبي كبشة الأنمارى ومسلم وأبى داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث التواضع لا يزيد العبد إلا رفة فتواضعوا يرفعكم الله الأصمهاى فى الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط الحديث الترمذى فى الشئائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقبه بن عامر يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك الحديث ابن أبى الدنيا والطبرانى فى معارج الأخلاق والبيهقى فى الشعب بأسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث قال موسى يارب أى عبادك أعزّ عليك قال الذى إذا قدر عفا الخرائطى فى معارج الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة (٦) حديث إن المظلومين هم الفلحون يوم القيامة وفى أوله قصة ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو من رواية أبى صالح الحنفى مرسل (٧) حديث أنس إذا بعث الله عزّ وجلّ الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يا مبشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعب بعضكم عن بعض أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ فى كتاب التبصرة والنذكرة بلفظ ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة يأتمه محمد إن الله تعالى يقول ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمتى وإسناده ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ نادى مناد يا أهل الجمع تاركوا المظالم بينكم وموابكم على وله من حديث أم هانئ ينادى مناد يا أهل التوحيد ليهم بعضكم عن بعض وعلى الثواب .

صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضادى الباب فقال ما تقولون وما تظنون فقالوا قول أمّ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف - لا تشرب عليكم اليوم يخبر الله لكم وهو أرحم الراحمين (١) قال فخرجوا كأنما نضروا من القبور فدخلوا في الاسلام . وعن سهيل بن عمرو قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم قال يا مشرك قريش ما تقولون وما تظنون ؟ قال قلت يا رسول الله قول خيرا وتظن خيرا أم كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخى يوسف - لا تشرب عليكم اليوم يخبر الله لكم - (٢) وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال العاقون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألما فيدخلونها بغير حساب (٣) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بعد إلا أقامه والله غفويهب الصلوة ثم قرأ - وليعفوا وليصنعوا - الآية (٤) » وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الجور العين حيث شاء من أدى ديننا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة - قل هو الله أحد - عشر مرات وعفاهن فأنه قال أبو بكر أو إحداهن يا رسول الله قال أو إحداهن (٥) . » الأناظر: قال إبراهيم التيمي إن الرجل ليطغى فآرحمه وهذا إحسان وراء الصلوة لأنه يشتغل قلبه بتعريضه لمصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم إذا أراد الله أن يتخف عبدا قبض له من يظلمه ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر إنك أن تلقى الله ومظلمتك كماهى خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبت لك وأجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسمكما عفو . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظلمه كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعاك عليه إلا أن يتداركه بعمله وأن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل الصلوة فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن النضر رجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فصفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فصاقبه وقال :

عفو للؤلؤ عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تجاوزت في اليسير وليس ذاك لجهلها

(١) حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضادى الباب فقال ما تقولون الحديث رواه ابن الجوزى في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سهيل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه لم أجده (٣) حديث أنس إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذى له على الله أجر ؟ قال العاقون عن الناس الحديث الطبرنى في معارج الأهل وفيه الفضل ابن يسار ولا يتابع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بعد إلا أقامه والله غفويهب الصلوة الحديث أحمد وإسحاق ومصححه وتقدم في آداب الصلاة (٥) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء الحديث الطبرانى في الأوسط وفي الدعاء بسند ضعيف .

- الذين هم في صلاتهم
خالصون - جملوا
وجوههم حيث
يسجدون وما رؤى بعد
ذلك أحد منهم ينظر
إلا إلى الأرض وروى
أبو هريرة رضى الله
عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« إن العبد إذا قلم إلى
الصلاة فإنه بين يدي
الرحمن فاذا التفت فالتفت
له الرب إلى من تلتفت
إلى من هو خير لك منى
ابن آدم أقبل إلى قاتل
خير لك ممن تلتفت
إليه » وأبصر رسول
الله صلى الله عليه وسلم
رجلا يبيت بلمحته في
الصلاة فقال لو خضع
قلب هذا خضعت
جوارحه » ولقد قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إذا صلحت

إلا لعرف حلها وخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر قال فكنت عنده إذ أتى برجل فأمر بقتله قتل رجل من المسلمين وأنا حاضر فقات يأمر المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن قال وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليتم فلا يقوم إلا من عفا فقال والله لقد سمعته من الحسن قلت والله لسمعته منه فقال خلبنا عنه . وقال معاوية عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فإذا أمكنكم فليكنم بالصفح والإيصال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب أرايت ذا القرنين ؟ كان نبيا ؟ فقال لا ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا حدث صدق ولا يجمع شغل اليوم لعد . وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم غلم حتى إذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم غلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد القدرة تذهب الحفيظة بمنى الحقد والغضب . وأتى هشام رجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بمحبته فقال له هشام وتكلم أيضا ؟ فقال الرجل يأمر المؤمنين قال الله عز وجل - يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها - أفجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاما . قال هشام بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين قليل له اقطعه فانه من أعدائنا فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدرام وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد حلت وإنها لمي فجهلوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها اللهم افعل به كذا فقال عبد الله اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ما رأيت أزهده من رجل من أهل خراسان جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف ففرقت دنائره كانت معه فجعل يبكي فقلت ألى الدنانير تبكي ؟ فقال لا ولكن مثاتي وإياه بين يدي الله عز وجل فأشرف عظمي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له وقال مالك بن دينار أتينا منزل الحكم ابن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراري فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطردهم له في الحب فقال باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر مالتى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أذاله منهم ورفع ذكره وأعلى كفته وجعله على خزائن الأرض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله - قال لا تنرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين - مرض للحكم بالغزو عن أصحابه قال الحكم فأنا أقول لا تنرب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا نوبي هذا لو أريتكم نعمته وكتب ابن القفع إلى صديق له يسأله الغزو عن بعض إخوانه فلان هارب من زله إلى غفوك لائذ منك بك . واعلم أنه إن زداد الذنب عظم إلا ازداد الغفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة ما ترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الطفر فأعط الله ما يحب من الغفو صفوا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأفقت منه فأخذ أخا له فقال له إن جنت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرايت إن جنتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلي قال نعم قال فأننا آتينا بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا - أم لم يبقا بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى أن لا تزروا زورا وآخري - فقال زياد خلوا سبيله هذا رجل قد إقن حجته . وقيل مكتوب في الإنجيل من استغفر لمن ظلمه فقد غفر له الشيطان .

فصل صلاة مودع
فالمصل سائر إلى الله تعالى قلبه يودع هواه ودينه وكل شيء سواه والصلاة في اللغة هي الدعاء فكأن المصل يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها السنة يدعوها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والحيثيات في تملقات يتضرع سائل محتاج فإذا دعا بكيته أجابه مولاه لأنه وعده فقال - ادع - ونى استجب لكم - كان خالد الرامى يقول بحجة لهذه الآية - ادعوني استجب لكم - أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط والاستجابة والإجابة

(فضيلة الرفق)

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من الثبات فالرفق في الأمور مرمزة لا يشرها إلا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولأجل هذا أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالح فيه فقال «يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على الحرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى»^(٣) وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف»^(٤) وقال ﷺ «يا عائشة أرفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق»^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم «أبما والى فرقي ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة»^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم «تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب»^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم «الرفق بمن والخرق شؤم»^(٩) وقال ﷺ «التأني من الله والعجلة من الشيطان»^(١٠) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله «إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصني منك بخير فقال الحمد لله مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال هل أنت مستوص مرتين أو ثلاثاً قال نعم قال إذا أردت أمراً تدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فاتته»^(١١)

(فضيلة الرفق)

(١) حديث يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة الحديث أحمد والعميلي في الضعفاء في ترجمة عید الرحمن بن أبي بكر الليثي وضعفه عن القاسم عن عائشة وفي الصحيحين من حديثهما يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله (٢) حديث إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث إن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على الحرق الحديث الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف (٤) حديث إن الله رفيق يحب الرفق الحديث مسلم من حديث عائشة (٥) حديث يا عائشة ارفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود يا عائشة ارفقي (٦) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهي عند أبي داود (٧) حديث أبما والى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه ومن ولى من أمر أمي شيئا فرفق بهم فافرق به (٨) حديث تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب الترمذي من حديث ابن مسعود وفي آداب الصعوبة (٩) حديث البرقي بمن والخرق شؤم الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (١٠) حديث التأني من الله والعجلة من الشيطان أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بالفظ الآتية من الله وقد تقدم (١١) حديث أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك الحمد وفيه فاذا أردت أمراً تدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه الحديث ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر

هي تفوذ دعاء العبد
فإن الداعي الصادق
الما لم يمن بدعوه بنور
يقينه فتخرق الحجب
وتقف الدعوة بين
يدي الله تعالى متقاضية
للحاجة وخمس الله
تعالى هذه الأمة بأزال
فاتحة الكتاب وفيها
تقديم الثناء على الدعاء
ليكون أسرع إلى
الاجابة وهي تعليم الله
تعالى عباده حكمية
الدعاء وفاتحة الكتاب
هي السبع المثاني
والقرآن العظيم قيل
سميت مثاني لأنها تزلت
على رسول الله صلى الله
عليه وسلم مرتين مرة
بمكة ومرة بالمدينة
وكان لرسول الله
صلى الله عليه وسلم
بكل مرة نزلت منها فهم
آخر بل كان لرسول

وعن عائشة رضي الله عنها « أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بئر صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانة ولا ينزع من شيء إلا شانه (١) ». الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عمله فأمرهم أن يوافوه فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا النصيحة بالغيث والعاونة على الخير ، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورعته وليس جهل أبض إلى الله ولا أنعم من جهل إمام وخرقه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه رزق العافية بمن هودونه. وقال وهب بن منبه الرفق ثمر العلم ، وفي الخبر موقوفا ومرفوعا « العلم خليل للؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده (٢) ». وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبيد الله : ما الرفق ؟ قال أن تكون ذا أناة فتلاين الولاية . قال فما الخرق ؟ قال معاداة إيمانك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور من مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه ، وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الفلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل :

ووضع الندى في موضع السيف بالهلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر فلذلك كثرت نداء الشرع على جانب الرفق دون العنف وإن كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألم من الزيد بالشهد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في الثاني فكتب إليه معاوية . أما بعد : فإن التفهم في الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الأناة وإن المثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا وإن العجل غطى أو كاد أن يكون غطاء وإن من لا ينفعه الرفق يضره الحرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك العلى ، وعن أبي عون الأنصاري قال ماتكم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي لا تتخذ من الحدم إلا مالا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه. وقال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل فهذا نداء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على التدور وإنما السكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجس معه في الأكثر .

الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرأها على التردد مع طول الزمان فهم آخرو هكذا المصلون المحققون من أمته يتكشف لهم عجائب أسرارها وتنفذ لهم كل مرة درر بحارها وقيل سميت مثاني لأنها استثنيت من الرسل وهي سبع آيات وروى ثم رومان قالت رأيت أبو بكر وأنا أتميل في الصلاة فزجرتني زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتي ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة » وقال رسول الله صلى الله

هو السمي عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جدا ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده إذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته وإسناده ضعيف (١) حديث عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانة الحديث رواه مسلم (٢) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائمه والرفق والدهم أبو الشيخ في كتاب الثواب فضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القاضي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف.

(القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته)

(بيان ذم الحسد)

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرع والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى ، وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه ونمراته « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباعدوا ولا تبادروا وكونوا عباد الله إخوانا » (٢) وقال أنس « كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فلم يكن قد كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال له إني لأحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فان رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت فقال نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يغم حتى يقوم لصلاة الفجر قال غير أني ما سمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكدرت أن أحقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا لما الذي بلغ بك ذلك فقال ماهو إلا ما رأيت فلما وليت دعاني فقال ماهو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحققي وإذا تطيرت فامضي وإذا حسدت فلا تبغ » (٤) وفي رواية « ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن » فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هي الحاقلة لأقول حاقلة الشعر ولكن حاقلة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم

(القول في ذم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث لا تقاطعوا ولا تبادروا ولا تباعدوا الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لأجد على أحد من المسلمين في نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البرار وصحى الرجل في رواية له سعدا وفيها ابن طبيعة (٤) حديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد الحديث وفي رواية وقل من ينجو منهن ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الرضى ضعهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف ولطبراني من حديث حارثة ابن النعمان نحوه وتقدم في آفات اللسان (٥) حديث دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء الحديث الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير .

عليه وسلم « تمودوا بالله من خشوع التفاق قيل وما خشوع التفاق قال خشوع البدن وشفاق القلب » . أما عيل اليهود قيل كان موسى يعامل بني إسرائيل على ظاهر الأمور لقلعة ما في باطنهم فكان يهين الأمور ويعظمها ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب ، ووقع لي والله اعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسائم

« كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يخلب القدر » (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمتي داء الأمم قالوا وما داء الأمم قال الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم المهرج » (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم « لا تظهر الثمالة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك » (٣) « وروى أن موسى عليه السلام لما تمجّل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلا قبطه بمكانه فقال إن هذا لكريم على ربه فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله ثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يبق والدبه ولا يمشي بالخمعة وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعني منسخط لقضائي غير راض بقسمي التي قسمت بين عبادي. وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتلون » (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » (٥) « وقال صلى الله عليه وسلم « إن نعم الله أعداء قليل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (٦) « وقال صلى الله عليه وسلم « ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة قيل يا رسول الله من هم قال الأمراء بالجور والعرب بالعصية والدهاقين بالتكبر والتجار بالحيانة وأهل الرستاق بالجهالة والعطاء بالحسد » (٧) « الآثار : قال بعض السلف أول خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على ربه فأنى أن يسجد له فعمله الحسد على العصية . وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل الهلب وكان يومئذ على واسط فقال إني أريد أن أعظك بشيء فقال وما هو قال إياك والسكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ثم قرأ - وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس - الآية وإياك والحرس فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهى الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ - اهبطوا منها - إلى آخر الآية وإياك والحسد ثانياً فقتل

الفضل وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية قهراً بالاستعلاء واللقب بها تشبكاً وامتزاجاً فيضطرب القلب ويتميل فرأى اليهود ظاهره فهايلوا من غير حظ لبواظهم من ذلك ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكاراً على أهل اليوسوسة « هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وقابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهياً بالاهيا » واعلم أن الله تعالى

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يخلب القدر أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضاً (٢) حديث إنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم قالوا وما داء الأمم قال الأشر والبطر الحديث ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث لا تظهر الثمالة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك الترمذي من حديث وثالة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا في رحمة الله (٤) حديث أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتلون ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي طاهر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد إن محمداً أخاف عليكم من بدى ما فتع عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البدرى والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا الحديث وسلم من حديث عبد الله بن عمرو وإدافتحت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبراز من حديث عمرو لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (٥) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث إن نعم الله أعداء قليل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم (٧) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة قيل يا رسول الله ومن هم قال الأمراء بالجور الحديث وفيه والعطاء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين .

ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ - وائل عليهم نبأ ابن آدم بالحق - الآيات، وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك وإذا ذكر القدر فاسكت وإذا ذكرت النجوم فاسكت. وقال بكر بن عدي أنه كان رجل يضي بعض اللوك فيقوم بمحذاء الملك فيقول أحسن إلى الحسن بإحسانه فإن السوء سيكفيك إساءته حسده رجل على ذلك للقيام والكلام فسمى به إلى الملك فقال إن هذا الذي يقوم بمحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر فقال له الملك وكيف يصح ذلك عندي قال تدعوه إليك فإنه إذا نادى منك وضع يده على أنفه ثلاثين ربح البخر فقال له انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بمحذاء الملك على عادته فقال أحسن إلى الحسن بإحسانه فإن السوء سيكفيك إساءته فقال له الملك ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه عفاة أن يشم الملك منه رنحة الثوم فقال الملك في نفسه ما أرى فلانا إلا قد صدق قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صله فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلدته تبنا وابتع به إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقية الرجل الذي سمي به فقال ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة فقال هبه لي فقال هو لك فأخذه ومضى به إلى العامل فقال العامل في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال إن الكتاب ليس هو لي فأنه الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبتع به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله فغضب الملك وقال ما فعل الكتاب فقال لقيني فلان فاستوبه مني فوهبه له قال له الملك إنه ذكر لي أنك تزعم أنني أبخر قال ما قلت ذلك قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطمعني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه قال صدقت أرجع إلى مكانك فقد كفى السوء إساءته . وقال ابن سيرين رحمه الله ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن قال ما أنساك بن يعقوب نعم ولكن غمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء ما أكره بعد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده وقال معاوية كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إقامتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسد ما يليق . وقال أعرابي ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد إنه يرى النعمة عليك تقمة عليه . وقال الحسن يا ابن آدم لم تحسد أخاك فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار . وقال بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ولا ينال من اللاتسكة إلا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : إحداها أن تسكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسدا فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن النعم عليه . الحالة الثانية أن لا تحب زوالها ولا تسكره وجودها ودوامها ولكن تشبه لنفسك مثلها وهذه تسمى غبطة وقد تخلص باسم المنافسة وقد تسمى للنافسة حسدا والحسد منافسة وبوضع أحد اللفظين موضع الآخر ولا حرج في الأسماء بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يغبط

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

أوجب الصلوات الخمس
وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« الصلاة عماد الدين
فمن ترك الصلاة فقد
كفر » فالصلاة تحقيق
العبودية وأداء حق
الربوبية وسائر
العبادات وسائل إلى
تحقيق سر الصلاة .
قال سهل بن عبد الله
يحتاج العبد إلى السنن
الرواتب لتكامل
الفرائض ويحتاج إلى
النوافل لتكامل
السنن ويحتاج إلى
الآداب لتكامل
النوافل ومن الأدب
ترك الدنيا والذي ذكره
سهل هو معنى ما قال
عمر على المنبر إن
الرجل ليشيب عارضا
في الإسلام وما أكل
له صلاة قبل وكيف

والنافق يحسد^(١) فاما الأول فهو حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجبر أو كافر وهو يستمين بها على تهيج الفتنة وافساد ذات اليمين وإيذاء الخلق فلا يضررك كراحتك لها ومحبتك لزوالها فانك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد لو أمنت فسادك لم يضررك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسقط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عنده فيه ولا رخصة وأى معصية تزيد على كراحتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة وإلى هذا أشار القرآن بقوله - إن تمسكتم حسنة نسوّم وإن تصبكم سيئة يفرّحوها - وهذا الفرح شئامة والحسد والشئامة يتلازمان وقال تعالى - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم - فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسداً وقال عز وجل - ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ذكركم الله تعالى حسداً إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى - إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً يخل لكم وجهه أيكم - فلما كرهوا أحب أيهم له وساءم ذلك وأحبوا زواله عنه فقبوه عنه وقال تعالى - ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا تضيق صدورهم به ولا يفتخرون فائتي عليهم بعدم الحسد وقال تعالى في معرض الإنكار - أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله - وقال تعالى - كان الناس أمة واحدة - إلى قوله - إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم - قيل في التفسير حسداً وقال تعالى - وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم - فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نساءك بالنبي الذي وعدتنا أن يرسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا^(٢) . فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به - إلى قوله - أن يكفروا بما أنزل الله بغياً - أى حسداً . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى قال أرى معاداته أيام الحياة^(٣) فهذا حكم الحسد في التحريم . وأما للنافقة فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل للنافقة والنافقة بدل الحسد

(١) حديث المؤمن يضبط والنافق يحسد لم أجده أصلاً مرفوعاً وإسماعيل بن الفضل بن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد (٢) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نساءك بالنبي الذي وعدتنا أن يرسله الحديث في نزول قوله تعالى - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه وهو منقطع (٣) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى الحديث ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً

ذالك قال لا يتم خشوعها وتواضعها وأقبله على الله فيها وقد ورد في الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن الصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لو علم الصلي من يتاجى ما التفت أو ما اقتل وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات لله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرضون من

قَالَ قَتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ لما أراد هو والنضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعلني حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنتي لما تقسنا ذلك عليك (١) أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إليك فاطمة والنفاسة في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على إباحة للنفاسة قوله تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وإعمال السابقة عند خوف القوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فليسلط علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويصله الناس (٢)» ثم فسّر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلومه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء» وهذان من حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال «ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء (٣)» فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تنبيهه للنسبة لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فإذا أخرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه للنفاسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضيا بالمصيبة وذلك حرام وإن كانت النعمة من الفضائل كالنفاق الأموال في السكارم والصدقات فالنفاسة فيها مندوب إليها وإن كانت نعمة يتعم بها على وجه مباح فالنفاسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته والحق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران أحدهما راحة النعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا يخرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في الباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا وعجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان وإعمايزول نقصانه إما أن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسأ أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد

(١) حديث قال قَتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ لما أراد هو والنضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعلني الحديث هكذا وقع للمصنف أنه قَتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ وهو الفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بئنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس اثنيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما فذكر الحديث (٢) حديث لا حسد إلا في اثنتين الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم (٣) حديث أبي كبشة مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلومه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء

آتاه الله مالا الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح

الركوع إلى يوم القيامة وهكذا في السجود والقيام والاعتكاف والعبادة للنيقظ بتصف في ركوعه بصفة الراكعين منهم وفي السجود بصفة الساجدين وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع غير مهم بالرفع منه فإن طرقة سامة بحكم الجيلة استغفر منها ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة وربما يترامى للراكع الحق أنه إن سبق همه في حال الركوع أو السجود إلى

إلى اختياره لسمى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك فيضي عما يحده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن عسوده معها كان كارهًا لذلك من نفسه بقوله ودينه والله للعنى بقوله صلى الله عليه وسلم «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة»^(١) ثم قال «وله منهن» مخرج إذا حدثت فلا تبغ «أى إن وجدت في قلبك شيئا فلا تسلم بهو بعيد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيحجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة إذ يجد لعمالة ترجيحها له على دوامها فهذا الحد من الثافة زاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فانه موضع الخطر وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المظهور إن لم يكن قوى الإيمان رزين التقوى ومهما كان محرکه خوف التفاوت وظهور قصائه عن غيره جره ذلك إلى الحسد للذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة وذلك لارخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا ولكن يعنى عنه في ذلك ما لم يصل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه. وأما امرأته فأربع: الأولى: أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الحب. الثانية: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سمعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لاتتم غيره بها. الثالثة: أن لا يشتهى عنها لنفسه بل يشتهى مثلها فان محجز عن مثلها أحبذ والمسا كى لا يظهر التفاوت بينهما. الرابعة: أن يشتهى لنفسه مثلها فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه وهذا الأخير هو المغفوع عنه إن كان في الدنيا والندوب إليه إن كان في الدين والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض وتسمية الرتبة حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى - ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض - فتمنيه مثل ذلك غير مذموم وأما غنية عين ذلك فهو مذموم.

(بيان أسباب الحسد والثافة)

أما الثافة فسيبها حب ما فيه الثافة فان كان ذلك أمرا دينيا فسيبه حب الله تعالى وحب طاعته وإن كان دنيويا فسيبه حب مباحات الدنيا والتتم فيها وإنما نظرنا الآن في الحسد للذموم ومداخله كثيرة جدا ولكن يحصر حملها سبعة أبواب: العداوة والتعزز والكبر والتعجب والخوف من قوت المقاصد المحبوبة وحب الرياسة وحب النفس ومغفلها فانه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالأمثال بل بحسد الحسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضا له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على الحسود ويتمتع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر وإما أن تكون النعمة عظيمة والنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب وإما أن يخاف من قوت مقاصد بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبئ على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لحب النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بد من شرح هذه الأسباب. السبب الأول: العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد

الرفع منه ما وفي الهيئة حقا فيكون هم الهيئة مستغرة فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيات فذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فان السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف في مصاب النفحات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد فتتمحى آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال. وقيل في الصلاة أربع هيات وستة أذكار فلهيات الأربع القيام والقعود والركوع والسجود والأذكار الستة التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فصارت

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة الحديث تقدم غير مرة.

(بيان أسباب الحسد والثافة)

فإن من آذله شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشنى والاستقام فإن حمز البض عن أن يتشنى بنفسه أحب أن يتشنى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بنضه وأنها لأجله ومهما أصابته نعمة مائة ذلك لأنه ضد مرادهم وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه. وبالجملة فالحسد يلوم البض والملو ولا يفارقهما وإنما غاية التقى أن لا يفي وأن يكره ذلك من نفسه فأما أن يبغض الإنسان ما يستوى عنده سرته ومساوته فهذا غير ممكن وهذا ما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى - وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الفيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور - إن تمسككم حسنة تؤم - الآية ، وكذلك قال تعالى سودوا ما عنتم قد بددت البغضاء بين أفواههم وما تغني صدورهم أكبر - والحسد بسبب البغض ربما غضى إلى التنازع والتقاتل واستغرق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر وما يجري مجراه. السبب الثاني: التعزز وهو أن يشغل عليه أن يرفع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطبق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال سلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضى بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بالترفع عليه. السبب الثالث: التكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستغفره ويستخدمه ويتوقع منه الاتقياء له وللطاعة في أغراضه فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابته أو ربما يقشوف إلى مساواته أو إلى أن يرفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه ومن التكبر والتعزز كان حسدا أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأ على رءوسنا فقالوا - لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - (١) أى كان لا يشغل علينا أن نتواضع له وتبته إذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش - أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - كالأستغفار لهم والأنفة منهم. السبب الرابع: التعجب كأخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا - ما أنتم إلا بشر مثلنا - وقالوا - أنؤمن لبشرين مثلنا - ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لحاسرون - فتهجوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشر مثلهم لحسودهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لآعن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين - أبئت الله بشرا رسولا - وقالوا - لولا أنزل علينا اللاتكة - وقال تعالى - أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم - الآية . السبب الخامس : الخوف من قوت المقاصد وذلك يختص بمنزلة من على مقصود واحد فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عون له في الأفراد بمقصوده ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ وتحاسد ندما للملك وخواصه في نيل المرتبة من قلبه للتوصل به إلى المال

(١) حديث سبب نزول قوله تعالى - لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ذكره ابن اسحاق في السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن النخيلة قال أنزل على محمد وآرك وأنا كبير قريش وسيدها وبترك أبو مسعود عمرو بن حمير الثقفي سيد قتيبة فحسن عظماء القريتين فأزل الله فيما بلغني هذه الآية وروله أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيرهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو وفي رواية لابن مردويه حبيب بن حمير الثقفي وهو صحيح .

عشرة كلمة خرق
هذه العشرة على عشرة
صفوف من اللاتكة
كل صف عشرة آلاف
فيجتمع في الركبتين
ما يفرق على مائة ألف
من اللاتكة .

[السبب السابع
والثلاثون في وصف
صلاة أهل القرب]
ونذكر في هذا الفصل
كيفية الصلاة بها
وشروطها وآدابها
الظاهرة والباطنة على
الكامل بأقصى ما انتهى
إليه فهمنا وعلما على
الوجه مع الاعراض
عن نقل الأقوال في
كل شيء من ذلك إذ في
ذلك كثرة ويخرج
عن حد الاختصار
والإيجاز المقصود فتقول
وبالله التوفيق : ينبغي
للعبد أن يستعد للصلاة

والجاء وكذلك تحاسد الواعظين للزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل اللال بالقبول
عندهم وكذلك تحاسد المالكين المزاحمين على طائفة من للتفقه محصورين إذ يطلب كل واحد منزلة
في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له . السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير
توصل به إلى القصور وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب
عليه حب الشئ واستغزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد البهر وفريد المصير في فنه وأنه لا نظير
له فانه لو جمع نظيره له في أقصى العالم لساء ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه
في المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو روية أو غير ذلك مما يتفرد به ويفرح
بسبب تفرده وليس السبب في هذا عداوة ولا تمزاولا تكبرا على المحسود ولا خوف من فوات القصور
سوى محض الرياسة بدعوى الاشراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والنزلة في قلوب
الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستبقاعهم مهما نسخ علمهم . السبب السابع :
خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا
وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه وإذا وصف له
اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به فهو أبدى يحب الإدبار لغيره
ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه ويقال البخيل من يبخل بمال
نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه
وبينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت
الجبلة ومما لجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيقطع في
إزالتها وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتصير إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته فهذه هي
أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد
بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجامعة بل ينبتك حجاب المجامعة وتظهر العداوة
بالمسكفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب وقلا يتجرد سبب واحد منها .

(بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني الم والأقارب

وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه)

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها وإنما يقوى بين قوم تجتمع
جملة من هذه الأسباب فيهم وتظهر إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يتمتع عن قبول
التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم
روابط يجتمعون بسببها في مجالس المحاطبات ويتواردون على الأغراض فإذا خالف واحد منهم صاحبه
في غرض من الأغراض تفرطه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه فعند ذلك يريد أن يستحقه
ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكرهه تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وترادف
جملة من هذه الأسباب إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين متباينتين فلا يكون بينهما محاسبة وكذلك
في محلتين ، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد توادعا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما
فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثار به أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم
دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد
البرازر إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة وحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب

تقبل دخول وقتها
بالوضوء ولا يوقع
الوضوء في وقت الصلاة
فذلك من المحافظة
عليها ويحتاج في معرفة
الوقت إلى معرفة الزوال
وتفاوت الأقدام لطول
النهار وقصره . ويصير
الزوال بأن الظل مادام
في الاتساق فهو
النصف الأول من النهار
فاذا أخذ الظل في
الازدياد فهو النصف
الآخر وقد زالت الشمس
وإذا عرف الزوال وأن
الشمس على كم قدم
تزال يعرف أول الوقت
وآخره ووقت العصر
ويحتاج إلى معرفة
للمنازل ليعلم طلوع الفجر
ويصل أوقات الليل
وشرح ذلك يطول
ويحتاج أن يخرجه باب
فاذا دخل وقت الصلاة

والرأى تحسد ضررتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لأن مقصد البراز غير مقصد الاسكاف فلا يتراحمون على المقاصد إذ مقصد البراز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون وإنما ينازعه فيه برز آخر إذ حريف البراز لا يطلبه الاسكاف بل البراز ثم مزاحمة البراز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ويتفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الفرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب لأن التراحم بينهما على مقصود واحد أحسن فأصل هذه المحاسن المداوة وأصل المداوة التراحم بينهما على غرض واحد والفرض الواحد لا يجمع متباعين بل متساينين فلذلك يكثر الحسد بينهما ، نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فانه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد عن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فإن الدنيا هي التي تضيق على التراحمين أما الآخرة فلا تضيق فيها وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملوكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين بل العلوم الواحد يعلمه ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص قدة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس ونعمة الاستفادة والافادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا تضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله ولا تضيق أيضا فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعم قدة لقائه وليس فيها محامنة ومزاحمة ولا تضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم ، نعم إذا قصد العلماء بالعلم للمال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لاحالة فيكون ذلك سببا للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يعتلى قلب غيره بها وأن يفرح بذلك والفرق بين العلم والسال أن السال لا يحل في يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه لمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملوكوت أرضه وسماؤه صار ذلك ألد عنده من كل نعيم ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحم فيه فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من قدته بل زادت قدته بمؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملوكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فإن نعيم العارف وجمته معرفته التي هي صفة ذاته بأمن زوالها وهو أبدا يبقى ثمارها فهو بروحه وقلبه مفتد بما كفه علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دائية فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين - ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين - فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا لما إذا يظن بهم عند انكشاف الظطاء ومشاهدة المنيب في القبي فأذن لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولأن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة لأن الجنة لا مصايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا بل الحسد من

يقدم السنة الراتبة في ذلك سر وحكمة وذلك والله أعلم أن العبد تشمت بطنه وتفرق همه لما يلي به من الخاطئة من الناس وقيامه بهم للعاش أوسو جرى بوضع الجلبة أو صرف هم إلى أكل أو نوم بقناعة العادة فاذا قدم السنة ينجذب بطنه إلى الصلاة وينتهي للاجاة وينذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفرصة فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ثم يجود التوبة مع الله تعالى عند القرينة عن كل ذنب عمله ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة السكائر

صفات للبعدين عن سعة عليين إلى ضيق سجين ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتناء ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وعمرّد وعصى فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ولكن السماء لسعة الأفق وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وهما بملكوته السموات والأرض ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه العرفة أيضاً فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنك رأيك وضعت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور إذا العنين لا يشاق إلى لذة الوقاع والصبي لا يشاق إلى لذة الملك فإن هذه لذات يختص بأدراكها الرجال دون الصبيان والمهشئين فكذلك لذة المعرفة يختص بأدراكها الرجال - رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله - ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم لأن الشوق بعد الذوق ومن لم يذوق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشاق ومن لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين - ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين - .

(بيان الدواء الذى ينفي مرض الحسد عن القلب)

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تدوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارتقت الحسد لا محالة أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكته فاستكرت ذلك واستبشمت به وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان وناهيك بهما جناية على الدين وقد انضاف إلى ذلك أنك غشيت رجلاً من المؤمنين وتركك نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبه الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهذه خباثت في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يحو الليل النهار وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تعذب به ولا تزال في كد وغم إذا عداؤك لا يخلطهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تتصرف عنهم فتبقى مغموماً محروماً منشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشبه الأعداء لك وتشبه الأعداء لك فقد كنت تريد الهنة لعدوك فتعجزت في الحال محتكك وغمك تقدا ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولولم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءمة مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير تقع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودياره من غير جدوى ولا فائدة وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودياره فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم قد ربه الله سبحانه فلاحيلة في دفعه بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكاني من الأنبياء من امرأة ظالمة مسئولية على الخلق فأوحى الله إليه فر من قدامها حتى تقضى أيامها أي ما قدر نام في الأزل

والصغار مما أوماً إليه
الشرع ونطبق به
الكتاب والسنة
والخاصة ذنوب حال
الشخص فكل عبد
على قدر صفاء حاله له
ذنوب تلائم حاله ويعرفها
صاحبها وقيل حسنات
الأبرار سيئات المقربين
ثم لا يصلى إلا جماعة قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « تفضل
صلاة الجماعة صلاة
الفد بسبع وعشرين
درجة » ثم يستقبل
القبلة بظاهره والخصرة
الإلهية بباطنه ويقرأ
- قل أعوذ برب
الداس - ويقرأ في نفسه
آية التوجه وهذا
التوجه قبل الصلاة
والاستفتاح قبل الصلاة
لوجه الظاهر بانصرافه
إلى القبلة وتخصيص

لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقباله فيها ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بمحسدي ، وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تستفيه أولا لنفسك فانك أيضا لاتخلو عن عدو يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الايمان أيضا لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان . قال الله تعالى - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم - إذ ما يريد المحسود لا يكون ، نعم هو يشل بأرذته الضلال لغيره فان إرادة الكفر كفر ، فمن اشتبهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم ، وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بمحسودك ولا تزول عنك بمحسود غيرك فهذا غاية الجهل والغباءة لكل واحد من حقي الحساد أيضا يشتهى أن ينقص بهذه الخاصة ولست بأولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تسكرها . وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . أما منفعة في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لأنك إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالنية والتدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات ففعلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة . وأما منفعة في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساواة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتتظر إلى نعمة الله عليه فيقطع قلبك حسدا ، ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا نيك الذي يكهد

لازلت محسودا على نعمة فأنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بنعمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده لما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهى عدوك فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذا تماطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع بعدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلألق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دأمة شئت أم أبيت باقية ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك لأنه لما رأى محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الأكبر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك لخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب بفنسه إليك حتى لاتلحقه بمحبك كالم تلحقه بعملك . وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ^(١) » وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال « يا رسول الله متى الساعة فقال ما أعددت لها ؟

(١) حدث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب متفق عليه من حديث ابن مسعود

جهته بالتوجه دون
جهة الصلاة ثم رفع
يديه حذو منكبيه
بحيث تكون كفاه
حذو منكبيه وإيهاماه
عند شحمة أذنيه
ورءوس الأصابع مع
الأذنين وبضم الأصابع
وان نشرها جازواضم
أولى فانه قبل النشر
نشر الكف لانشير
الأصابع ويكبر ولا
يدخل بين باء أكبر
ورائه ألفا ويحزم أكبر
ويجعل المد في الله ولا
يبالغ في ضم الهاء من
الله ولا يتسدى
بالتكبير إلا إذا
استقرت اليدان حذو
النكبين ويرسلهما مع
التكبير من غير تقص
فالوقار إذا سكن القلب
تشكلت به الجوارح
وتأيدت بالأولى

قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا آني أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت (١) قال أنس لما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرهم يومئذ إشارة إلى أن أكبر فضيلتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم . وقال أبو موسى قلت « يا رسول الله الرجل يحب الصليين ولا يصل ويحب الصوم ولا يصوم حتى عد أشياء فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو مع من أحب (٢) » وقال رجل للمبرين عبد العزيز إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فإن لم تستطع فلا تفهمهم فقال سبحانه الله لقد جعل الله لنا عزجا فانظر الآن كيف حسدك إبليس قوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى آتت وكيف لا وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم ونهب أن يخطي في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح وتجب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يعرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأنى يزيد على ذلك فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الأثم وعذب الآخرة وقد جاء في الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحبة له والكاف عنه (٣) » أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبنة فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمى سها إلى عدوه ليصيب مقلته فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقه التي في قامها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها فيزداد غظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجعه وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه وهذا حال الحسود وسخريه الشيطان منه بل حاله في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تقوت إلا العينين ولو بقيتا لغات الموت لا محالة والحسد يعود بالآثم والاثم لا يفوت بالموت ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار فلأن تذهب عنه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقطع الهيب النار فانظر كيف استقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد إذ السلامة من الآثم نعمة والسلامة من الثم والسكدة نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى - ولا يحق المسكر المسمى - إلا بأهله - وربما يتبلى بعين ما يشتهي لعدوه وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويتبلى بمثلها حتى قالت عائشة رضي الله عنها : ما عنيت له ثمان شيئا إلا نزل بي حتى لو عنيت له القتل لقتلت ، فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان والبد بالقواحيش في التشفى من الأعداء وهو الداء الذي فيه هلاك الأمم السالفة ، فهذه هي الأدوية العلمية لهم ما تنفسكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه وعلم أنه مهلك نفسه ومفرج عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه . وأما العمل الدافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيضه فإن بغه الحسد على القدر في محسوده كلف لسانه الدح له والثناء عليه وإن حمل على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه وإن بغه على كفى الإنعام

والأصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصل الصلاة بعينها . وحكى عن الجنييد أنه قال لكل شيء صفوة وصفوة الصلاة التكبير الأولى وإنما كانت التكبير صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة . قال أبو نصر السراج سمعت ابن سالم يقول النية بالله لله ومن الله والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو ونصيب العدو وإن كثرت لا يوازن بالنية التي هي لله بالله والله قل . وسئل أبو سعيد الخزاز كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال هو أن تقبل على الله تعالى

- (١) حديث سؤال الأعرابي متى الساعة فقال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس
(٢) حديث أبي موسى قلت يا رسول الله الرجل يحب الصليين ولا يصل الحديث وفيه هو مع من أحب متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا الرجل يحب القوم ولمسا يلحق بهم قال المرء مع من أحب .
(٣) حديث أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحبة له والكاف عنه لم أجده أصلا .

عليه أئتم نفسه الزيادة في الانعام عليه فلهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك للواقعة التي تقطع مادة الحسد لأن التواضع والتثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب النعم عليه ويستترقه ويستعطفه ويعمله على مقابلة ذلك بالاحسان ثم ذلك الاحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخراً ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثنت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكائده بل المجاملة تكلفاً كانت أو طبعاً تسكر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا إنها مارة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء الرقيق لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء وإنما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والتثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحسب ما أحبه وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل وعند ذلك يريد ما لا يكون إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات الراد ذل وخسة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الدل إلا بأحد أمرين إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء السككي فأما الدواء للفصل فهو وتبعية أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يخفى وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى فإنها مواد هذا المرض ولا يتقنع المرض إلا بقمع السادة فان لم تقمع السادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء موادها فانه مادام محباً للبقاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمزلة في قلوب الناس دونه وبغمه ذلك لا محالة وإنما غاية أن يهون النعم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الوفاق.

(بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب)

اعلم أن المؤذي محقوت بالطبع ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ولكن إن قوى ذلك فيك حتى يثبث على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفمالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك وإن كفت ظاهرك بالسكينة إلا أنك ياطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص لأن الحسد صفة القلب لصفة الفعل قال الله تعالى - ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - وقال عز وجل - ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكفرون سواهم - وقال - إن تمسكتم حسنة تسوؤم - أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح فأما إذا كفت ظاهرك وأئتمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الليل من جهة الطبع فقد أدبت الواجب عليك ولا يدخل تحت الاختيار في أغلب الأحوال أكثر من هذا فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذي والحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام

إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف فانه الملك العظيم . وقيل لبعض العارفين كيف تكبر التكبير الأولى فقال ينبغي إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله التعظيم مع الألف والهيبة مع اللام والمراقبة والقرب مع الهناء . واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة والكبرياء وامتناعاً باطنه نوراً وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره تكردة بأرض فلاة

ملتفتا إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله قد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بين واحدة وهي عين الرحمن ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله وبرامهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته أعنى الشيطان فانه ينازع بالوسوسة فهما قابل ذلك بكرهته وألزم قلبه هذه الحالة قد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأتهم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه مثل من الحسد فقال غمه فانه لا يضرك ما لم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا يغلو منهن للؤمن وله منهن مخرج فخرج من الحسد أن لا يغنى » والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو وتلك الكراهة تمنع من الغنى والإيذاء فان جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد فاذن كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى إذ يعد أن يغنى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال : أحدها أن تحب مساوئهم بطبعك وتكره حبه لك وذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه . الثاني أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساوئهم إما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعاً . الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت نفسك على حسدك ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف والظاهر أنه لا يغلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع الهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدا وآياتها ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلط طوعها من كسوفها ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بحمالها ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها وإذا قبلت لم يؤمن شرها ووبالها إن أحسنت ساعة أساءت سنة وإن أساءت مرة جعلتها سنة فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيتها خاسرة بأثرة وآفاتنا على التوالى لصدور طلابها راشقة ومجاري أحوالها بذل طلبها ناطقة فكل مغرور بها إلى الدنم مصيره وكل متكبر بها إلى التخرس مسيره شأنها الحرب من طلبها والطلب لهاربها ومن خدمها فاته ومن أعرض عنها واته لا يغلو صفوها عن شوائب السكودرات ولا ينفك سرورها عن النقصات سلامتها تعقب السقم وشبابها يسوق إلى الهرم وتعيها لا يشمر إلا الخسرة والندم فهي خداعة مكاررة طيارة فرارة لا تزال تزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها كثرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم منازم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون محبابها فأذاقهم قوائم سماتها

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

ثم تأتي الحردة لما يغشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخيل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الحردة فألقيت فكيف نزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد وقد نزاحم مطالعة العظمة والقيوبة في ذلك كون النية غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب بتعيز بالنية فتكون النية موجودة بالظن صفاتها مندرجة في نور العظمة اندراج الكواكب في ضوء الشمس ثم يقبض يده الخفي يده اليسرى ويجهلها بين السرة والصدر والجبني

ورفقتهم بصواب سبلهما، بينا أصحابها منها في سرور وإنعام إذولت عنهم كأنها أضفأت أحلامهم عكرت عليهم بدواهيها فطعنهم طعن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد إن ملكت واحدا منهم جميع ماطلعت عليه الشمس جملته حصيدا كأن لم يكن بالأسنى نعى أصحابها سرورا وتقدم غرورا حتى يأملون كثيرا وبينون قصورا فتصبح قصورهم قبورا وجمهم بورا وسيمهم هباء مثورا ودماؤهم ثورا هذه صفاتها وكان أمر الله قدرا مقدورا، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهورا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا.

[أما بعد] فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأوليائه الله وعدوة لأعداء الله أماعداتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها، وأماعداتها لأوليائه الله عز وجل فانها تزيت لهم زيتها وعنتهم زهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وأماعداتها لأعداء الله فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فتقتصرهم بشبكها حتى وثقوا بها وعوتلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها فاجتوا منها حسرة تقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكابدها يستغيثون ولا يأتون بل يقال لهم - اخسوا فيها ولا تسكحون - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون - وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وماهي وما الحكمة في خلقها مع عداوتها وما مدخل غرورها وشرورها فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها وحقيقتها وتفصيل معانيها وأصناف الأشغال المتعلقة بها ووجه الحاجة إلى أصولها وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى وهو العين على ما يرتضيه .

(بيان ذم الدنيا)

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها فقد روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا من هو أهلها ألقوها قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسق كافرا منها شربة ماء ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ^(٢) » وقال رسول الله ﷺ «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان فيه منها ^(٣) » وقال أبو موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحب دنياه أضرب آخرته ومن أحب آخرته أضرب دنياه فأثروا ما يبقى على ما بقي ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم «حب الدنيا رأس كل خطيئة ^(٥) »

(١) الحديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها الحديث ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم (٤) حديث أبي موسى الأشعري من أحب دنياه أضرب آخرته الحديث أحمد والبخاري والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهي في شب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا .

لكرامتها تجعل فوق

اليسرى وبعد السبحة

والوسطى على الساعد

ويقبض بالثلاثة

البواقي اليسرى من

الطرفين وقد يفسر أمير

الؤمنين على رضى

الله عنه قوله تعالى

- فصل ربك وانحر -

قال إنه وضع اليمنى على

الشمال تحت الصدر

وذلك أن تحت الصدر

عرفا يقال له الناحر

أى ضع يدك على الناحر

وقال بعضهم وانحرأى

استقبل القبلة بنحرك

وفي ذلك سر خفي

يكشف به من وراء

أستار الغيب وذلك أن

الله تعالى بلطيف

حكته خلق الأدمى

وشرفه وكرمه وجعله

محل نظره ومورد حبه

ونجته ما فى أرضه

وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فعدنا شراب فأقنى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا ولمسكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يجتهدون على مسأله قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكك قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئا ولم أرعه أحدا قلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك قال « هذه الدنيا ثبات لي قلت لها إليك عني ثم رجعت فقالت إنك إن أفلتت مني لم يفلت مني من بعدك ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا هجبا كل العجب للصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور ^(٢) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة قال « هلموا إلى الدنيا وأخذ خرة قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه الدنيا ^(٣) » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا مستخلق مثل تلك الحرق وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاما بالية وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب ^(٤) » وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا ربا تتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « يا معشر الحوارين إنني قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تتعشوها بعدى فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة ساعة أورثت أهاها حزنا طويلا وقال أيضا: بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا تازعكم فيها الملوك والنساء فأما الملوك فلا تنازعهم الدنيا فأنهم إن يرضوا لكم ما تركتموهم وديانهم وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة وقال أيضا الدنيا طلبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجمى الموت فيأخذ بفتقه . وقال موسى بن يسار قال النبي ﷺ « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ^(٥) » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال فربما يد من بني إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان وقال: لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى وقال صلى الله عليه وسلم « لهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ^(٦) »

(١) حديث زيد بن أرقم كما مع أبي بكر فعدنا شراب فأقنى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى الحديث وفيه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئا الحديث البراز بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصححه إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه (٢) حديث يا هجبا كل العجب للصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسل (٣) حديث إنه وقف على مزبلة فقال هلموا إلى الدنيا الحديث ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسل وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس (٤) حديث إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر كيف تعملون الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله إن بني إسرائيل الخ والشرط الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسل بالزيادة التي في آخره (٥) حديث موسى بن يسار إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل (٦) حديث لهاكم

وهمائه روحانيا
وجسمانيا أرضيا وسماويا
منتصب القامة مرتفع
الهيئة فضفه الأعلى
من حد الفؤاد مستودع
أسرار السموات ونصفه
الأسفل مستودع
أسرار الأرض فحمل
نفسه ومركزها النصف
الأسفل وحمل روحه
الروحاني والقلب
النصف الأعلى لجواذب
الروح مع جواذب
النفس يتطاردان
ويتحاربان وباغترار
تطاردهما وتغالهما
تكون لمة الملك ولمة
الشیطان ووقت الصلاة
يكثر التطارد لوجود
التجاذب بين الإيمان
والطبع فيكشف
للصلى الذى صار قلبه
مماويا مترددا بين
الفناء والبقاء لجواذب

قال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يصادى من لا علم له وعليها يحسد من لا قه له ولها يسعى من لا يقين له ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال: هـ لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ منه أبدا وقرا لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا ^(٢) » وقال أبو هريرة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ يدي وأتى بي واديا من أو دية للدينة فإذا مزلة فيها رهوس أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال يا أبا هريرة هذه رهوس كانت تحرم كركمكم وتأمل كألمكم ثم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رمادا وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قدفوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الحرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكا على الدنيا فليكن قال فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا ^(٣) » وروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ابن للخراب ولد للفناء . وقال داود بن هلال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام: يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتربنت لهم إني قدفت في قلوبهم بنضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لاتدوى لأحد ولا يدوم لك أحد وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصديق والاستقامة طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا التوريسى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها وتقول يوم القيامة يارب اجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكني يا لئىء إني لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم ^(٤) » وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ولم يكن ذلك مجمولا في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نها عن أكلها قال فجعل يدور في الجنة فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى فقل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « ليحيين أنوام يوم

التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشيخ ^(١) حديث الدنيا دار من لادار له الحديث أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله ولها يجمع من لا عقل له دون بقيته وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه ومال من لامال له وإسناده جيد ^(٢) حديث من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال الحديث الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف ^(٣) حديث أبى هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ يدي وأتى بي واديا من أو دية للدينة فإذا مزلة الحديث لم أجد له أصلا ^(٤) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها الحديث تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسل ولم أجد باقية

النفس متصاعدة من
مركزها وللبجوارح
وتصرفها وحركتها
مع معاني الباطن
ارتباط وموازنة
فبوضع الجنى على الشمال
حصر النفس ومنع
من صعود جوارحها
وأثر ذلك يظهر بدفع
الوسوسة وزوال
حديث النفس في
الصلاة ثم إذا استولت
جسواذب الروح
وتغلبت من الفرق
إلى القدم عند كمال
الأنس وتحقق قرة
العين واستيلاء سلطان
المشاهدة تصير النفس
مقهورة ذليلة ويستتير
مركزها بنور الروح
وتقطع حينئذ جوارح
النفس وعلى قدر
استنارة مركز النفس
يزول كل العبادة

القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار . قلوا يا رسول الله مصلين ؟ قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه « للؤمن بين محافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيومين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دينه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لمهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستحب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٢) » وقال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد وروى أن جبريل عليه السلام قال لروح عليه السلام يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا فقال كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر وقيل لعيسى عليه السلام لو اتخذت بيتا يكنك قال يكفيني حلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت (٣) » وعن الحسن قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجهله بصيرا ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمه فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمه أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الذئ إلا بالفخر والبخل ولا المحبة إلا بالاتباع الهوى لأن ذلك الزمان منكم نصير على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر على القتل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا (٤) » وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعد فأتاه فذا فيها امرأة غاد عنها فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال الهني جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى فأوحى الله تعالى إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجك يوم القيامة مائة حوراء خاتمتها يدي ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولأمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهدين في الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ويشقها وتخذله ويل للعقيرين كيف أرثهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يودون ويل لمن الدنيا همه والحطاي عمله كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « يا موسى مالك ولد دار الظالمين إنما ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي إلا العامل يعمل فيها فعمت الدار هي يا موسى إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم » . وروى « أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بعمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) حديث لجيئ أنوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٢) حديث المؤمن بين محافتين بين أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع (٣) حديث احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسلًا وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة قاله الذي لا يدري من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له (٤) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى الحديث ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلًا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم .

ويستغنى حينئذ عن متاعه النفس ومنع جوازها بوضع العين على الشمال فيسبل حينئذ ولعل لذلك والله أعلم ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم مذهب مالك رحمه الله ثم يقرأ - وجهت وجهي - الآية وهذا التوجه إلقاء لوجه قلبه والذي قبل الصلاة لوجه قلبه ثم يقول سبحانه اللهم وبمحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانه وربى وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم صمتم أن أبا عبيدة قدم بشيء قالوا أجل يا رسول الله قال فأبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها قهلكم كما أهلكتهم^(١) « وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض قليل ما بركات الأرض قال زهرة الدنيا^(٢) « وقال^(٣) لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا^(٤) « فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابتها عنها . وقال عمار بن سعيد مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأنفة والطرق فقال يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدانوا فقالوا يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادم يحيوك فلما كان الليل أشرف على نذر ثم نادى يا أهل القرية فأجابه عجيب ليبيك يا روح الله فقال ما حالكم وما قصتكم قال بئنا في عافية وأصبحنا في المساوية قال وكيف ذلك ؟ قال بعننا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي قال وكيف كان حكمك للدنيا ؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها قال فما بال أمها بك لم يجيئوني قال لأنهم ملجمون بالجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال فكيف أجبتني أنت من بينهم قال لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا مطلق على شفيع جهنم لأدري أننجو منها أم أكبكب فيها فقال المسيح للحواريين لا كل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس السوح والنوم على الزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم » إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه^(٥) « وقال عيسى عليه السلام من الذي يبنى على موج البحر دار تلجم الدنيا فلا تتخذوها قرارا وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه قال أبغضوا الدنيا يحبك الله تعالى وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة^(٥) « ثم قال أبو الدنيا من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ولتركت أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرت كالدن لا يملكون فبغضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها غفلة عما في عاقبتها ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله مافرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ولوا اجتماعهم

(١) حديث بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بهمال من البحرين فسمعت الأنصار بقعود أبي عبيدة متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدرى (٢) حديث أبي سعيد إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض الحديث متفق عليه (٣) حديث لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسل (٤) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضباء لا تسبق الحديث وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه البخارى (٥) حديث أبي الدرداء لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزاد لخرجتم إلى الصعدات الحديث وزاد الترمذى وابن ماجه من حديث أبي ذر وما تلذذتم بالنساء على الفراش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخارى من حديث عائشة .

الأخلاق فانه لا يهدى
لأحسنها إلا أنت
واصرف عني سيئها
فانه لا يصرف عني
سيئها إلا أنت ليك
وسمديك فالخير
كله يديك تباركت
وتعاليت أستغفرك
وأثوب إليك ويطرق
رأسه في قيامه ويكون
نظيره إلى موضع
السجود ويكمل القيام
بالتصائب القائمة ونزع
يسر الانطواء عن
الركبتين والخواصر
ومعاطف البدن
ويقف كأنه ناظر
بجميع جسده إلى
الأرض فهذا من
خشوع سائر الأجزاء
ويتكئون الجسد
بتكون القلب من
الخشوع وبرواح بين
القدمين بمقدار أربع
أصابع فان ضم الكمين

على البر لتعابيتهم مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ولا يملك أحدكم النصيحة لمن عبه وبهينه على أمر آخرته ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم لو كنتم توقنون بغير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لأترتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموالكم . فان قلتم حب العاجلة غالب فانا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للاجل منها تكسبون أنفسكم بالمسقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تندركونه فبئس القوم أنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الايمان البالغ فيكم فان كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لبين لكم ولربكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم والله ما أنتم بالمنقوسة عقولكم فنعذرکم إنكم تستبیتون صواب الراى فى دنیا کم وتأخذون بالحزم فى أمورکم مالکم تفرحون باليسير من الدنيا تصيدونه وتحزنون على اليسير منها بفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآثم وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم إني لأرى الله قد تبرأ منكم بقلبي بعضكم بعضا بالسرور وكلكم بكمزأ أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطجتم على الغل ونبئت مصرايكم على الدمن وتصافيتهم على رفض الأجل ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصاركم فان كان فيكم خير فقد أصمتكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا والله أسمعني على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يا مشر الحواريين ارضوا بذنبي الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بذنبي الدين مع سلامة الدنيا ، وفي معناه قيل :

أرى رجالا بأذى الدين قد تنعوا وما أراهم رضا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنيام عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر . وقال نينا صلى الله عليه وسلم ولئن أنتمكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب (١) « وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى لا تركزنن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها ، وموسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي فقال موسى يارب عبدك يبكي من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينه ورفع يديه حتى يسقط لم أغفر له وهو يحب الدنيا . الآثار : قال على رضى الله عنه من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً أولها : من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرضاها وعرف الآخرة فظلمها وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من اتهمهم عليها ثم راحوا خفافا وقال أيضا رحمه الله من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فآلقها في نهره وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها بالإيمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا ، وقال الفضيل طالبت فسكرتني في هذه الآية - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جزا - وقال بعض الحكماء : إنك إن تصبغ في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداة يوم فلا تهلك في أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى وربها النار وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر ؟ قال يغاق الأبدان ويحدد الآمال ويقرب للنية ويبعد الأمانة . قيل فما حال أهله ؟ قال من ظفر به تعب ومن فاتته نصب ، وفي ذلك قيل :

هو الصنف للنهي عنه
ولا يرفع لإحدى
الرجلين فانه الصنف
للنهي عنه نهى رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عن الصنف والصنف
وإذا كان الصنف منها
عنه ففي زيادة الاعتماد
على إحدى الرجلين
دون الأخرى معنى
من الصنف فالأولى
رعاية الاعتماد في
الاعتماد على الرجلين
جميعا ، ويكره اشتغال
الصماء وهو أن يخرج
يده من قبل صدره
ويجنب السدل وهو
أن يرخي أطراف
الثوب إلى الأرض فقيه
بمعنى الخلاء وقيل هو
الذي ياتف بالثوب
ويجعل يديه من داخل
فيركع ويوجد كذلك
وفي معناه ما إذا جعل

(١) حديث لئن أنتمكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ، لم أجده أصلا .

ومن يحمّد الدنيا لم يهمل يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على الرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إلا بها فإن عيشها
نكد وصفوها كدر وأهالها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية . وقال بعضهم :
من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص ، وقال سفيان أما ترى
النم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على
الحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر ومن طلب الآخرة على الحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد
أكثر وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار فقال انظر
ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذ إلا ما أمن حله ولا تضعه إلا في حقه ولا يضر لك حب الدنيا وإنما قال
هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتبعه حتى يترجم بالدنيا ويطلب الخروج منها ، وقال يحيى بن معاذ :
الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا فيجىء في مطابه فيأخذك ، وقال الفضيل لو كانت
الدنيا من ذهب ينفى والآخرة من خرف يبقى لكان ينفى لنا أن نختر خرفا يبقى على ذهب ينفى
فكيف وقد اخترنا خرفا ينفى على ذهب يبقى ، وقال أبو حازم يا كم والدنيا فانه يلقى أنه يوقف العبد
يوم القيامة إذا كان معظما للدنيا فيقال هذا عظم ما حتره الله ، وقال ابن مسعود ما أصبح أحدا من
الانس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة ، وفي ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن تردّ الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت اسكتوا عن ذكرها فلو لا موقعهم من قلوبكم
ما أكثرتم من ذكرها ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره وقيل لأبراهيم بن آدم كيف أنت فقال :
نرفع دينانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياء لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنعمها
صبيان بنى بيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدهما

وقيل أيضا في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذلك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه يابن بع دنياك بآخرتك تربعها جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا .
وقال مطرف بن الشخير لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظمهم
وعود منقلبهم . وقال ابن عباس إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء
للكافر فالؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع . وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئا
فليصبر على معاينة الكلاب ، وفي ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنحّ عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة قرية العرس من اللأثم

وقال أبو الدرداء من هو ان الدنيا على الله أنه لا يصح إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها ، وفي ذلك قيل :
إذا امتحن الدنيا لبيب تسكتف له عن عدو في ثياب صديق

يديه داخل القميص
ويجئ الكف وهو
أن يرفع ثيابه يديه
عند السجود ويكره
الاختصار وهو أن
يجعل يده على الحاصرة
ويكره الصلب وهو
وضع اليدين جميعا على
الحصرين وتجافي
العضدين فاذا وقف في
الصلاة على الهيئة التي
ذكرناها يجتنب للسكارة
فقدت القيام وكله
فيقرأ آية التوجه
والدعاء كما ذكرنا ثم
يقول أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم ويحولها
في كل ركعة أمام
القراءة ويقرأ الفاتحة
وما بعدها بحضور قلب
وجمع ثم واطاة بين
القلب واللسان بحفظ
وافر من الوصلة والدنو
والهية والخشوع

وقيل أيضا : يرافد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسعارا
أفنى القرون التي كانت منعمة كثر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان في الدهر ثقا وضرارا
يامن يسانق دنيا لابقاء لها عسى ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معاقبة حتى تعاقب في الفردوس أبارا
إن كنت تبغى جنات الخلد تسكنها فيبغى لك أن لاتأمن النارا

وقال أبو أمانة الباهلي رضى الله عنه لما سبث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا قد بعت
نبي وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبلى أن لا يسيروا الأوثان
وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير حقه وإفناقه في غير حقه وإمساكه عن
حقه والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى كرم الله وجهه يأمر المؤمنين صف لنا الدنيا قال :
وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن اتقرب فيها حزن ومن استغنى فيها افتن
في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب ومتشابهها العتاب ، وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم
أقصر قيل أقصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب ، وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر
قلوب العلماء يعني الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها فإذا
كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة لأن الآخرة كريهة والدنيا ليثة ، وهذا تشديد عظيم ورجو
أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح إذ قال الدنيا والآخرة يهتمعان في القلب فأيهما غلب كان
الآخر تبعا له ، وقال مالك بن دينار بقدر ما تعزى للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تعزى
للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك ، وهذا اقتباس مما قاله على كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا
والآخرة ضربان فبقدر ما ترضى إحداها تسخط الأخرى ، وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما
كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ما يالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت
إلى ذا أو ذهبت إلى ذا وقال رجل للحسن ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه
أيعسن له أن يعيش فيه ؟ يعني يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم
ذلك ليوم قعره ، وقال الفضيل لو أن الدنيا بمذاقها عارضت على حلالها لا حاسب عليها في الآخرة لكانت
أثقلها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا صر بها أن تصيب ثوبه ، وقيل لما قدم عمر رضى الله عنه الشام
فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم يرفه إلا سيفه وترسه
ورحله فقال له عمر رضى الله عنه لو اتخذت متاعا فقال يأمر المؤمنين إن هذا يلغنا القيل وقال سفيان
خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد
عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا ، وقال وهب قرأت في بعض الكتب الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال
لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا ، وقال لقمان لابنه يا بني إنك استدبرت الدنيا
من يوم نزلت واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها ، وقال سعيد بن مسعود
إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلبس بوجهه وهو لا يشعر
وقال عمرو بن العاص على النبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزهد فيه منكم والله ما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذي له (١)

والخشية والتعظيم
والوقار والشاهدة
والمناجاة وإن قرأين
الفاتحة وما يقرأ بعدها
إذا كان إماما في
السكنة الثانية : اللهم
باعدي بيني وبين خطاياي
كما باعدت بين الشرق
والغرب وتبني من
الخطايا كما تبني الثوب
الأبيض من الدنس
اللهم اغسل خطاياي
بالماء والتاج والبرد
لحسن ، وإن قلها في
السكنة الأولى حسن
روى عن النبي عليه
الصلاة والسلام أنه قال
ذلك وإن كان منفردا
بقولها قبل القراءة
ويعلم العبد أن تلاوته
نطق اللسان ومعناها
نطق القلب وكل
مخاطب للشخص
بتكلم بلسانه ولسانه

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزهد فيه منكم الحديث الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى - فلا تفرسكم الحياة الدنيا - من قل ذاقه من خلقها ومن هو أعلم بها إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرمانها عذاب إن أخذه من حله حوسب به وإن أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته في دينه ويحزج من مصيبته في دنياء . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز سلام عليك . أما بعد : فكأنك بأخر من كتب عليه اللوث قد مات فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم هيبا لمن يعرف أن للوث حق كيف يفرح وهيبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك وهيبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها وهيبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب . وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها فقال سنيت بلاء وسنيت رخاء يوم فيوم وليلة قليلة يولد ولديها هالك فلولا للولود لباد الخلق ولولا المسالك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له سل ما شئت قال عمر مضى قتره أو أجل حضر قتره قال لا أملك ذلك قال لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله ابن آدم فرحت يلوغ أملك وإنما بلفته باتضاء أجلك ثم سوفت بملكك كأن منفعة لنبرك وقال بشر من سأل الله الدنيا فأنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ماني الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : إنه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد قد نلت الغنى فقال إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار اصطاحنا على حب الدنيا فلا يأمر بضنا بضنا ولا ينهى بضنا بضنا ولا يدعنا الله على هذا فليت شعري أى عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم سیر الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنا منها لمن أهانتها . وقال أيضا إذا أراد الله بعبده خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمكها فإذا أعاد عليه وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول في دعائه يا محسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني وقال محمد بن النكدر أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله ويجاهد في سبيل الله واجتنب محارم الله غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال إن هذا عظم في عينه ما صغره الله وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترنا من الذنوب والخطايا وقال أبو حازم اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة فأما مؤنة الآخرة فأنك لا تجد عليها أعوانا وأما مؤنة الدنيا فأنك لا تقرب يدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه وقال أبو هريرة الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالى تتادى ربهما منذ خلقها إلى يوم يفنيها يارب يارب لم تبغضني فيقول لها اسكتي يا لشيء وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته فلي يصل الخير إليه وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب عليه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان قال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه قيل له إنه كان يفعل ويفعل وذكروا أبو بامن البر قال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا . وقال بعضهم الدنيا تبغض إلينا نقبها ونحن نجعلها فكيف لو تحببت إلينا وقيل لحكيم الدنيا لمن هي قال لمن تركها قيل الآخرة لمن هي قال لمن طلبها وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخر

يعبر عما في قلبه وثو
أمكن للتكلم إلهام
من يكلمه من غير
لسان فعل ولكن
حيث تنذر الأفهام
إلا بالكلام جعل اللسان
ترجما نأذا قال باللسان
من غير مواطأة القلب
لما اللسان ترجما نأولا
القارى متكلما قاصدا
إسماع الله حاجته
ولا مستمعا إلى الله
فأما عنه سبحانه
ما يخاطبه وما عنده غير
حركة اللسان بقلب
قائب عن قصد
ما يقول فينبغى أن
يكون متكلما مناجيا
أو مستمعا راعيا فأقل
مراتب أهل الخصوص
في الصلاة الجمع بين
القلب واللسان في
التلاوة ووراء ذلك
أحوال الخواص يطول

منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجيد كان الشافعي رحمه الله من الريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا وعظ أخاله في الله وخوفه بالله فقال يا أخى إن الدنيا حمض مزلة ودار مذلة عمراتها إلى الحراب صائر وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف إلا كثر فيها إفسار والإفسار فيها يسار فافزع إلى الله وأرض برزق الله لا تنتساف من دار فنائك إلى دار بئائك فان عيشك في زائل وجدار مائل أكثر من عملك وأتصر من أملك. وقال إبراهيم بن أدهم لرجل أدرهم في اللئام أحب إليك أم دينار في اليقظة فقال دينار في اليقظة فقال كذبت لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في اللئام والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن إسماعيل بن عياش قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خزيرة فيقولون إليك عنايا خزيرة فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب لتجيبن إليكم الدنيا حق تبودوها وأهلها وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه وبني قبره قبل أن يدخله وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضا الدنيا باع من شئونها أن تمنحك لما يملك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها وقال بكر بن عبد الله من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كعطى النار بالثبن وقال بندار إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقتة نيرانها بعنى الحرص حق يصير رمادا ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله عز وجل أحرقتة نيران التوحيد فصار جوهرًا لآحاد لقيته. وقال على كرم الله وجهه إنما الدنيا سائمة مشيئة مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشعوم فأشرف الطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف الشروبات اللبأ ويستوى فيه البر والفاجر وأشرف اللبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف المركوبات القرس وعليه يقتل الرجال وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال في مبال وإن المرأة لتزين أحسن شئ منها ويراد أقبح شئ منها وأشرف المشعومات للسك وهو دم.

(بيان الواعظ في ذم الدنيا وصفها)

قال بعضهم يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تنفروا بالأمل ونسيان الأجل ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة قد تزخرت لكم بفروها وتنتسك بأمانيها وتزين لخطاياها فأصبحت كالعروس المجلية العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتل ومطمئن إليها خذلت فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها جديدها يبلى وملسها يغنى وعزيزها يذل وكثيرها يغل ودعا يموت وخيرها يغوت فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم واتهبوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان غليل أو مدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل أو هل إلى الطبيب من سبيل فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ثم يقال قد قتل لسانه لما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أينك وثبت يقينك وطمعت جفونك وصدقت ظنونك وتلجج لسانك وبكى إخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان ومنبت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى السباء فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكتفائك ففسلوك وحكفوك فأتقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتها بأعمالك. وقال بعضهم لبعض للوكة إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لأنه يتوقع آفة تعدو

شرحها. قال: بعضهم ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها غير ما أقول وقيل لعامر بن عبد الله هل تجد في الصلاة شيئاً من أمور الدنيا فقال لأن تغتاف على الأئمة أحب إلى من أن أجدي الصلاة ما تجدون. وقيل لبعضهم هل تحدث نفسك في الصلاة بشئ من أمور الدنيا فقال لا في الصلاة ولا في غيرها ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال - منيين إليه واتقوا وأقيموا الصلاة - فينبى إلى الله تعالى ويتق الله تعالى بالتبى مما سواه ويقم الصلاة صدر منشرح

على بآله فتجنحه أو على جنه فتفرقه أو تأتي سلطانه تقدمه من القواعد أو تدب إلى جسده فتسقمه أو تضجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه فالله أعلم بالدم هي الآخذة ما تطى الراحة فيها تهيب لينهاى تضحك صاحبها إذ أضحكته منه غيره ويهاهى تبتكى له إذ أبكت عليه وينهاى تبسط كفها بالأعطاء إذ بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتفره بالتراب غدًا سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى تجدد فى الباقى من القاهب خلفا وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد : فإن الدنيا دار ظنن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة فأحذرهما يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها والفنى منها فترها لما فى كل حين قتل تذلة من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حشفة فكن فيها كالمدوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فأحذر هذه الدار الندارة الختالة الخداعة التي قد تزيفت بخدعها وقتلت بغرورها وحلت بآمالها وسوّفت بخطابها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب على أوالهه والنفوس لها مشقة وهي لأزواجها كلهم قالية فلا الباقى بالمضى معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنهما ذكر فقاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترى وطفى ونسى للعاد فشغل فيها ليه حتى زلت به قدمه فغطمت ذمامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات اللوت وتألمه وحسرات القوت بنفسه وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروّح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فأحذرهما يا أمير المؤمنين وكن أسرا ماتكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أو شخصته إلى مكروه السار في أهلها غار والنافع فيها غدار ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ففرورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماولى وأدبر ولا يدري ما هوأت فينتظر ، أما نيتها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فذر لها عند الله جلّ ثناؤه قدر وما ننظر إليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها (١) إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضعه ملكه فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغترارا فيظن للفرور بها لا تقتدر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله عز وجل بحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه (٢) ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفنى مقبلا قتل ذنب هجمت عقوبته وإذا رأيت الفقر مقبلا قتل مرحبا بشعار الصالحين وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول إدامى الجوع وشعارى الخوف ولباسى الصوف وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وسراجى القمر ودابى رجلاى

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها الحديث ابن أبى الدنيا هكذا مرسل ورواه أحمد والطبرانى متصل من حديث أبى مويبة فى أثناء حديث فيه إني قد أعطيت خزان الدنيا والخلد من الجنة الحديث وسنده صحيح ولترمذى من حديث أبى أمامة عرض على ربى ليجعل لى بطعنا مكة ذهاب الحديث (٢) حديث الحسن مرسل فى شدّ الحجر على بطنه ابن أبى الدنيا أيضا هكذا والبيخارى من حديث أنس رفعا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرتين وقال حديث غريب .

بالاسلام وقلب منفتح
بنور الإنعام فتخرج
الكلمة من القرآن
من لسانه ويسمعها
بقوله فتقع الكلمة
فى فضاء قلب ليس فيه
غيرها فيتماكها القلب
بحسن الفهم وقبيل
نعمه الإصغاء
ويتشربها بمحلاة
الاستماع وكال الوهى
ويدرك لطيف معناها
وشريف غواها معاني
تلطف عن تفصيل
الذكر وتتشكل بخفى
الفكر ويصير الظاهر
من معانى القرآن قوت
النفس فالنفس للطمشة
متنوعة بمعانى القرآن
عن حديثها لكونها
معانى ظاهرة متوجهة
إلى عالم الحكمة
والشهادة تخرب
مناسبتها من النفس

وطمأني وفاكهي ما أنبت الأرض آيت وليس لي شيء وأصبح وليس لي شيء وليس على الأرض
أحد أغني مني . وقال وهب بن منبه لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون
قال لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا فإن ناصيته يدي ليس ينطق ولا يطرّف ولا يتنفّس
إلا بأذني ولا يعينكما ما تمتع به منها فإنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت أن أزيّنكما
بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكني أرغب مكا
عن ذلك فأزوي ذلك عنكما وكذلك أفضل بأوليائي إلى لأدودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيع
غنمه عن مراتع الهلكة وإلى لأجنهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيع إله عن منازل الفرة وما ذاك
لهوائهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا إنما يترزبن لي أوليائي بالذلّ والخوف
والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهي ثيابهم التي يلبسون وذرارهم الذي يظهر
وضميرهم الذي يستشعرون ونجاتهم التي يافوزون ورجاؤهم الذي يأمون ومجدهم الذي يفتخرون
وسياهم التي بها يعرفون فإذا لقيتهم فاحض لهم جناحك وذلّ لهم قلبك ولسانك واعلم أنهم من أخاف لي
وليا فقد بارزني بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة . وخطب على كرم الله وجهه يوم ما خطبة فقال فيها:
انلوا أنكم ميتون وميعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلا تفرّسكم
الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالقدر موصوفة وكل ما فيها إلى زوال وهي بين
أهلها دول وسجل لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرّها زوالها بين أهلها منها في رخاء وسرور وإذام
منها في بلاء وغرور أحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما
أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيهم بحماها وكل حنفة فيها مقدور وحظه فيها
موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى بمن كان أطول
منكم أعمارا وأشدّ منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا أصبحت أصواتهم هامة خادمة من بعد طول
تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالنصور الشديدة والسرر
والنمارق المهددة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللطخة الملهدة فحلها مقرب وساكنها مقرب
بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران
والإخوان على ما بينهم من قرب السكان والجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تواصل وقد طعنهم
بكل سلكه البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رفاتا فجعهم
الأحباب وسكنوا تحت التراب وظنوا فليس لهم إياب هيات هيات - كلا إنها كلمة هو قائلها ومن
ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون - فكأن قد صرتم إلى ماصاروا إليه من البلاء والوحدة في دار اللثوى
وارتفعت في ذلك المضجع وضمكم ذلك المتودع فكيف بكم لو عايتكم الأمور وبثرت القبور وحصل
ماني الصدور وأوقفتكم للحصول بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب
وهزكت عنكم الحجب والأستار وظهرت منكم العيوب والأسرار هنالك تجزى كل نفس بما
كسبت إن الله عز وجل يقول - ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى -
وقال تعالى - ووضع الكتاب قري المجرمين مشفقين مما فيه - الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه
متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار القامة من فضله إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء : الأيام
سهم والناس أغراض والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويحترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع
أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في يدك لو كشف لك عما أحدثت
الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم ياب عليك واستقلت ممر الساعة بك ولكن تدير الله

للكونة لاقامة رسم
الحكمة ومعاني القرآن
الباطنة التي يكشفها
من لللكوت قوت
القلب وتخلص الروح
للقُدس إلى أوئل
سراقات الجبروت
بمطالعة عظمة التكلم
وبمثل هذه المطالعة
يكون كمال الاستغراق
في ليج الأشواق كما
نقل عن مسلم بن يسار
أنه صلى ذات يوم في
مسجد البصرة فوقعت
أسطوانة تسامع
بسة وطها أهل السوق
وهو واقف في الصلاة لم
يعلم بذلك ثم إذا أراد
الركوع يفصل بين
الفراة والركوع ثم
يركع منطوي القامة
والنصف الأسفل بحاله
في القيام من غير انطواء
الركعتين ويجافي

فوق تدبير الاعتبار وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وإنها لأمر من الملقم إذا عجبها الحكيم وقد أعييت الواصف ليعيها بظواهر أفعالها وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ اللهم أرشدنا إلى الصواب . وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك لأن ماضى عنك قد فاتك إدراكه وما لم يأت فلا علم لك به والدمر يوم مقبل تنعم ليلته وتطويه ساعاته وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغير والنقصان والدمر موكل بقتل الجماعات وانغرام الشمل وتنقل الدول والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور . وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فانكم حقا وإن كنتم تكذبون به فانكم هلكا إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تقولون عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص . ومن شرابكم شرقي لا تصفولكم نعمة تسرون بها الإغراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل . وقال على كرم الله وجهه في خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها البلية أجسامكم وأنتم تريدون تعديدها فانما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه وكم عسى أن يعجز الخبرى حتى ينتهى إلى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفارقها فلا تجزعوا بالبؤسها واضربوها فانه إلى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعماتها فانه إلى زوال هيجت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه . وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والعرفه والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وأنه لم يرضها لأولياؤه وأنها عنده حقيرة قليلة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي لبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية وإلى الآخرة أنها باقية فزودوا من الدنيا كراد الراكب غربوا الدنيا وعمرها بها الآخرة ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فملوا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم تمبوا قليلا وتعمموا طويلا كل ذلك بتوفيق مولاكم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

(بيان صفة الدنيا بالأمثلة)

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قرية الاقضاء تمدد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء تنظر إليها قراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيرا عيفا ومرحلة ارتحالا سريعا ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها وإنما يحس عند انقضائها ومثلها الظل فانه متحرك ساكن ، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصرة الباطنة ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظلال زائل إن الألباب بمثلها لا يندفع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظلال زائل حتى

وقيل إن هذا من قوله . ويقال إن أعرايا نزل بقوم قدموا إليه طعاما فأكل ثم قام إلى ظل خيمة لهم فقام هناك فاقتتلوا الحيمة فأصابته الشمس فاتته وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل : وإن أمرا دنياه أكبر همه لمستمك منها بحبل غرور

مرقبه عن جنبيه
ويعد عنته مع ظهره
ويضع راحته على
رصعته منشورة
الأصابع . روى مصعب
ابن سعد قال صليت إلى
جنب سعد بن مالك
فلمت يدي بين ركبتي
وبين غدي وطبقهما
فضرب يدي وقال
اضرب بكفك على
ركبتك وقال يا بني إنا
كنا نفعل ذلك فأمرنا
أن نضرب بالأكف
على الركب ، ويقول :
سبحان ربى العظيم
ثلاثا وهو أدنى الكمال
والكمال أن يقول
إحدى عشرة وما يأتي
به من العدديكون بعد
التسكن من الركوع
ومن غير أن يزوج آخر
ذلك بالرفع ويرفع يديه
للكوع والرفع من

[مثال آخر للدنيا من حيث التفرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إغلاتها] تشبه خيالات للناس وأضغاث الأحلام قال رسول الله ﷺ «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومما يقون» (١) وقال يونس بن عيسى ما شئت في الدنيا إلا كرجل نام قرأ في منامه ما يكرم وما يحب فيها هو كذلك إذ انتبه فكذلك الناس نيام فافلما ماتوا انتبهوا فإذا ليس بأيديهم شيء مما كانوا إليه وفرحوا به. وقيل لبعض الحكماء أي شيء أشبه بالدنيا قال أحلام النائم [مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها] اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل إلى الإهلاك آخرها وهي كمرأة تزني للخطاب حتى إذا نسكتهم ذمهم وقدرى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هباء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لأحبيهم قال فكلمهم مات عنك أم كلمهم طلقك قالت بل كلمهم قتل قال عيسى عليه السلام يؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يتبرون بأزواجك للناضين كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر [مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها] اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرار وهي شبه عجوز مزينة تخدع الناس بظاهرها فإذا وقفا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبايعها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاعتراض بظاهرها وقال العلماء ابن زياد رأيت في المنام عجوزا كبيرة متحبة الجلدة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها بخت ونظرت وتعجبت من نظرم إليها وإقبالها عليها قتلتها وبك من أنت ؟ قالت أو ما تعرفني . قلت لأدري من أنت قالت أنا الدنيا قلت أعوذ بالله من شرك قالت إن أحببت أن تعاذ من شري فابض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شعثاء تصفق يديها وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون فلما كانت بمحذائي أقبلت على فقال لو نظرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شعثاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقتها فتشرف على الخلائق فيقال لهم أنعرفون هذه فيقولون نعموذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادى أي رب أين أتباعي وأشياعي فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها وقال الفضيل بلغني أن رجلا عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب وإذا بالمر بها أحد إلا جرحته فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوز شعثاء زرقاء عشاء قال قتل أعوذ بالله منك قالت لا والله لا يجذك الله متى حتى تبغض الدرهم قال قتل من أنت ؟ قالت أنا الدنيا [مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها] اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهي ما قبل وجودك إلى الأزل . وحالة لا تكون فيها مشاهد الدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مالي وللدنيا وإنما مثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرغت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها » (٢) ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها

الركوع ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح : اللهم لك ركنك ولك خشيتك وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري وعظمي وعقلي وعصي ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ثم يرفع رأسه قائلا . مع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فإذا استوى قائما يحمد ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومما يقون لم أجده أصلا (٢) حديث مالي وللدنيا وإنما مثل الدنيا كمثل راكب الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

ولم يال كيف انتضت أيامه في ضر وضيق أوفى سعة ورفاهية بل لا يبنى لينة على لينة «توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة»^(١) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من جص فقال : «أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك»^(٢) وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال الدنيا قطرة فاعبروها ولا تمسروها وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا مبر إلى الآخرة والهدى هو الليل الأول على رأس القنطرة والحد هو الليل الآخر وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان [مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها] اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لينة يظن الخائف فيها أن حلاوة خفصها كحلاوة الخوض فيها وهيئات فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد وقد كتب على رضى الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثلها قال مثل الدنيا مثل الحية ابن مسأول يقتل سمها فأعرض عما يعجبك منها قللة ما يصحبك منها وضع عنك هو معها بما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحبها كلما اطمان منها إلى سرور أو شخصه عنه مكروهه والسلام [مثال آخر للدنيا في تندر التخلص من تبعثها بعد الخوض فيها] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما مثل صاحب الدنيا كالماشى في الماء هل يستطيع الذى يمشى في الماء أن لا يتبل قدماه»^(٣) وهذا يصفك جهالة قوم ظنوا أنهم غرضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا عمام فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها فكأن المشى على الماء يقتضى بلالا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملاسة الدنيا تقضى علاقة وظلة في القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر الرضيع إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجد كذا صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم إن الدابة إذا لم تركب وعنتن تصعب وتتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم إن الرزق مالم يذخر أو يقدح يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب مالم تحرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يفسدها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله»^(٤) [مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ماسبق] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»^(٥)

(١) حديث ما وضع لينة على لينة الحديث ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف من سأل عن أسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث صاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث (٢) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال أرى الأمر أعجل من هذا أبو داود وأترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح (٣) حديث إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى في الماء الحديث ابن أبي الدنيا والبيهقى في الشعب من رواية الحسن قال بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقى في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس (٤) حديث إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة الحديث ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات (٥) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

من شيء بعد ثم يقول
أهل الثناء والمجد
أحق ما قال الصديق
لك عبد لا مانع لما
أعطيت ولا معطى
لما منعت ولا ينفع
ذا الجدمك الجدقان
أطال في النافلة القيام
بعد الرفع من الركوع
فليقل لربى الحمد
مكررا ذلك مهاشاه
فأما في الفرض فلا
يطول تطويلا يزيد
على الحد زيادة بينة
ويقع في الرفع من
الركوع تمام الاعتدال
بإقامة الصلب ، ورد
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال
«لا ينظر الله إلى من
لا يقيم صلبه بين
الركوع والسجود
ثم يهوى ساجدا
ويكون في هويته مكبرا

[مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حق الهلاك] قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يهلكه [مثال آخر لخفاة آخر الدنيا وأولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها] اعلم أن شهوات الدنيا في القلب كدبنة كشموات الأطمعة في المعدة وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من السكراة والنشوة والتبع ما يجده للأطعمة والذينة إذا بلغت في المعدة فأيها وكما أن الطعام كلما كان أقدم طمعا وأكثر دسا وظهر حلاوة كان رجيحه أقدر وأشد تنافسا فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وأدق فتنتها وكرهتها والتأذي بها عند الموت أشد بل هي في الدنيا مشاهدة فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده فتكون مصيئته وألمه وتبعه في كل ما فقد بقدر قدرته به وجه له وحرصه عليه فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وأدق فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا وقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحالك بن سفيان الكلاني : ألسنتي تؤذي بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء قال بلى قال فيلأم يصير قال إلى ما قد علمت يا رسول الله قال فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم ^(١) » وقال أبي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قدحه وملحه إلام يصير ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وإن قرحه وملحه ^(٣) » وقال الحسن قد رأيتهم يطيبونه بالأفاوية والطيب ثم يرمون به حيث رأيتهم وقد قال الله عز وجل فلينظر الإنسان إلى طعامه قال ابن عباس إلى رجيحه وقال رجل لابن عمر إني أريد أن أسألك وأستحي قال فلا تسبحني وأسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته قام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما غفلت به انظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أرىكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسايمهم ومنهم [مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم يرجع إليه ^(٤) » [مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها] اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فأتته بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم القيام وخوفهم مرور السفينة واستجبالها فقرقوا في نواحي الجزيرة فقصى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف للسكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن وألینها وأوقفها لمراذه وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها للتلذذ ونعمات طيورها الطيبة وألحائها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من برتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة النظر العجيبة النقوش المألوبة أعين الناظرين

(١) حديث أنه قال للضحالك بن سفيان الكلاني ألسنتي تؤذي بطعامك وقد ملح وقزح الحديث وفيه فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه (٢) حديث أبي بن كعب إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث الطبراني وابن حبان بلفظ إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ جعل (٣) حديث إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا الحديث الشطر الأول منه غريب والشرط الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحالك بن سفيان إن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلا للدنيا (٤) حديث ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع إليه مسلم من حديث المستورد بن شداد .

مستيقظا حاضرا خاشعا
عالمًا بما يهوى فيه
وإليه وله فمن
الساجدين من يكشف
أنه يهوى إلى تخوم
الأرضين متغيا في
أجزاء الملك لا تملأ
قلبه من الحياء
واستشعار روجه عظيم
الكبرياء كما ورد أن
جبرائيل عليه السلام
استتر بخافية من جناحه
حياء من الله تعالى .
ومن الساجدين من
يكشف أنه يطوى
بسجوده بساط
العكون والسكان
ويسرح قلبه في فضاء
الكشف والعيان
قهوى دون هوى
أطباق السموات
وتسبح بقوة شهوده
نمائيل الكائنات
ويسجد على طرف

بحسن زبرجدها وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقا
خرجوا فاستقر فيه وبعضهم أكب على تلك الأصداق والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بأهلها
فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا وزاده ماحوله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه
ووبالا فندم على أخذه ولم يقدر على رميها ولم يجد مكانا لوضعه فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على
أخذه وليس ينفعه التأسف وبعضهم تولى الفيض ونسى المركب وبعد في متفرجه ومتزعه منه حتى
لم يلفه نداء الملاح لاستغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأشجار وهو
مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بشيابه
وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يزعج منه وعوسج يحرق ثيابه ويهتك
عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراد فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف متقلا بما معه ولم يجد في
المركب موضعا فبقى في الشط حتى مات جوعا وبعضهم لم يلفه النداء وسارت السفينة ففهم من أقرسته
السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ومنهم من مات في الأحوال ومنهم من نهشته الحيات
فتفرقوا كالخيف اللينة ، وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار فقد استرقت
وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذلت تلك الأزهار وكادت
تلك الألوان والأحجار فظهرت رأتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنفسها ووحشتها فلم يجد
حيلة إلا أن ألقاها في البحر هربا منها وقد أثر فيه ما أكل منها فبقيته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه
الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيا مدبرا ومن رجع قريبا ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضييق المكان مدة
ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ومن رجع أولا وجد للكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما فهذا
مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم مآلهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم
وما أتبع من يزعم أنه بصير عاقل أن تفره أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم التبت وهي زينة
الدنيا وشيء من ذلك لا يصحبه عند اللوث بل يصير كلا ووبالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن
والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل [مثال آخر لا عتار الخلق بالدنيا وضعف
إيمانهم] قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه «إيمان مثلي ومثلكم
ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أفعدوا الزاد
وخسروا الظهر وبقوا بين ظهري المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك إذ خرج
عليهم رجل في حلة تنظر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب فلما انتهى
إليهم قال يا هؤلاء قالوا يا هذا قال علام أنتم قالوا على ما ترى فقال أرايتم إن هديتكم إلى ماء رواء
ورياض خضر ماتلون ؟ قالوا لا نصيبك شيئا قال عهودكم ومواثيقكم بالله فأعطوه عهودهم ومواثيقهم
بالله لا يصونه شيئا قال فأوردتهم ماء رواء ورياضا خضرا فكثت فيهم ماشاء الله ثم قال يا هؤلاء قالوا
يا هذا قالوا الرجيل قال إلى أين قالوا إلى ماء ليس كائناكم وإلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم
والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجده وما نصنع جيش خير من هذا قالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا
هذه الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تصوبه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله لا يصدقكم
في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقيل (١) [مثال آخر لنتم

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه «إيمان مثلي ومثلكم ومثل
الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء الحديث ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبراز والطبراني من
حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى الناس ملكا الحديث وفيه قال

رداء العظمة وذلك
أنقى ما ينتهي إليه
طائر الهمة البشرية
وتقى بالوصول إليه
القوى الانسانية
ويتفاوت الأنبياء
والأولياء في مراتب
العظمة واستشعار
كنها لكل منهم على
قدره حفظ من ذلك
وفوق كل ذي علم عليم
ومن الساجدين من
يتسع عاؤه وينتشر
ضياؤه ويعطي
بالصفين ويبسط
الجناحين فيتواضع
بقلبه لإجلال ورفع
بروحه إكراما وإفضالا
فيجتمع له الأنس
والهية والحضور
والغنية والقرار والقرار
والإسرار والجمال
فيكون في سجوده
ساجدا في بحر شهوده

الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها [اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب يوما واحدا بعد واحد فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا يملكه ويأخذه فجعل رحمه وظن أنه قد وهب ذلك منه فعلق به قلبه لما ظن أنه له فلما استرجع منه ضجر وتضجع ومن كان عالم برحمته انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانسراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة طبلت على المجتازين لا على المقيمين ليزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالمواري ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وآفاتا وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه .

(بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد)

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تنكشف لك مالم تحرف الدنيا الذمومة ماهي ؟ وما الذي ينبغي أن يحتجب منها وما الذي لا يحتجب فلا بد وأن نبين الدنيا للذمومة للأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول دنياك وآخرك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت والتراخي للتأخر يسمى آخرة وهو ما جدد الموت فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك إليهم وفيه نصيب وحظ فليس بدموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك عمرته بعد الموت وهو عيشان العلم والعمل فقط وأعني بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسوله وملكوته أرضه وسمائه والعلم بجملة نبيه وأعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألد الأشياء عنده فيهجر النوم والطعم والشك في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظا عاجلا في الدنيا ولكننا إذا ذكرنا الدنيا للذمومة لم نجد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وكان آخره يقول اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ولكننا لسنا نفي بالدنيا للذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث النساء والطيب وقرعة عيني في الصلاة ^(١) » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أن السائق في هذا الكتاب تعرض إلا للدنيا للذمومة فنقول هذه ليست من الدنيا . القسم الثاني . وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولأخرة له في الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصي كلها والتمتع بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والعونات كالتمتع بالنواظر القنطرة من الذهب والنضة والحيل السومة والأنعام والحراث والفلان والجواري والحيل والواشي والقصور والدور ورفع الثياب ولذا نذ الأظمة لحظ العبد من هذا كله هي الدنيا للذمومة وفيما بعد فضلا أو في أهل الحاجة نظر طويل إذ روى عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدداء على حمص فأتى حمصا كثيرا فأتى

لم يتخلف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده سجد لك سوادي وخيالي - وله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها - الطوع للروح والقلب لما فيهما من الأهلية والسكر من النفس لما فيها من الأجنبية ويقول في سجوده : سبحان ربّي الأعلى ثلاثا إلى العشر الذي هو الكمال ويكون في السجود مفتوح العينين لأنهما يسجدان وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأفقه ويكون ناظرا نحو أرنبة أفقه في السجود فهو أبلغ في الخضوع للساجد ويباشر بكفيه المصل

أي أحد للملكين إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة فذكر نحوه أخضر منه وإسناده حسن (١) حديث حبيب إلى من دنيا كم ثلاث النساء والطيب وقرعة عيني في الصلاة النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم في النكاح .

عليه درهين فكتب إليه عمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أرا: الله خرابها فإذا أتاك كتابي هذا فقسيرتك إلى دمشق أنت وأهلك فلم يزل بها حتى مات فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه. القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الحشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وإن كان باعته الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات صفاء القلب أعنى طهارته عن الأدناس وأنه يذكر الله تعالى وحبه لله عز وجل وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى واللوامة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي للنجيات المسعدات بعد الموت. أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من النجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار فإن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه^(١) الحديث. وأما الأنس والحب فهما من السعادات وهما موصلان العبد إلى لغة اللقاء والمشااهدة وهذه السعادة تجعل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد وكانت العوائق متوقفة عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأملت من السجود وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سلبا من اللوانع آتانا من العوائق وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه ولذلك قيل:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما إنما هو فراق لمحب الدنيا وقدوم على الله تعالى فإذا سألك طريق الآخرة هو الواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا ويغض إليه ملاذها ويقطعه عنها وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن وصحة البدن لا تتألى إلا بقوت وملبس ومسكن ويحتاج كل واحد إلى أسباب فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذ العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التمتع صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا والبصير يعلم أن طول التوقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب^(٢) إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عذاب»^(٣)

(١) حديث متصلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه الحديث الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحزبه عمله الصلاة والصيام الحديث وإسناده صحيح (٢) حديث من نوقش الحساب عذب متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه

ولا يلقهما في الثوب ويكون رأسه بين كفيه ويدها حسو منكبيه غير متباعد ومتياسر بهما ويقول بعد التسبيح: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشمعه ببصره فتبارك الله أحسن الخالقين. وروى أمير المؤمنين على رضي الله عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك «وإن قال سبح قدوس رب الملائكة والروح حسن روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك ويجافي مرقبيه عن

وقد قال أيضا : حلالها عذاب . إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدرجات الملا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تقويتها لحظوظ حقيرة خسيصة لا يجاء لها هو أيضا عذاب وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علك بأنها سعادات منصرمة لا يجاء لها ومنصصة بكدورات لاصفاء لها فما حالك في قوت سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتتقطع الدهور دون غايتها فكل من تعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فانه ينقص من حظه في الآخرة أضماؤه وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من النعيم الذي تستل عنه » (١) أشار به إلى الساء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه عزو لواعي حسابها حين كان به عطش فرض عليه ماء بارد بصل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله فان ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حظه من نعيم الدنيا أشد حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماده إذ تمثل له إبليس وقال رغبت في الدنيا وحق إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطم الناس لثاذا الأظعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتنانا وشدة فان الصبر عن لثاذا الأظعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى « زوى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوى أياما » (٢) « وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع » (٣) ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفروا من الآخرة عظمتهم كاعتناء الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلتزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وجباله لا يغلا عليه وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا فان قلت في الذي هو لله . فأقول الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يجبر عنه بالمعاصي والمظهورات وأنواع التسمات في الباحات وهي الدنيا المحضة المذمومة فهي الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات فان هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتعرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده فان كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخراتي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استغفان المسألة موقوفا على علي بن أبي طالب بإسناد متقطع بلفظ وحرامها النار ولم أجده مرفوعا (١) حديث هذا من النعيم الذي تستل عنه تقدم في الأظعمة (٢) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يا رسول الله هبنا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك الحديث وهو من طريق اسحاق مضمنا وللترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالي للتابعة طاويا وأهله الحديث قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم .

جنيبه ويوجه أصابعه في السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الإبهام ولا يفرش ذراعيه على الأرض ثم يرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجهها بالأصابع إلى القبلة ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفرججهما ويقول : رب اغفر لي وارحمي واهدني واجبرني وعافني واغفر عني ولا يطل هذه الجلسة في الفريضة أما في النافلة فلا بأس معها أطال قائل رب اغفر وارحم مكررا ذلك ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ويكره الإقعاء في القعود وهو ههنا أن يضع

وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر (١) « فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويبر عنه بالهوى وإليه الإشارة بقوله تعالى - ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي التأوى - وبجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله تعالى في قوله - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر للقنطرة من الذهب والفضة والخيل للسومة والأنعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا - قد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدرة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله والاستكثار منه تنم وهو لغير الله وبين التمتع والضرورة درجة يبرعها بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فان الاقتصاد على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم جانب التمتع ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما يمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويس القرنى كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضيقه على نفسه فيناله بيتا على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهها وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة وكان طعامه أن يلتقط النوى وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بشنه ما يقوته وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون فيقول لهم يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار فاني أخاف أن تدموا عني فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب للساء فهكذا كانت سيرته ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن (٢) » إشارة إليه رحمه الله ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم قال فقاموا فقال اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة فجلسوا فقال اجلسوا إلا من كان من مراد فجلسوا فقال اجلسوا إلا من كان من قرن فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر أقرني أنت؟ فقال نعم فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى فوصفه له؟ فقال نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله ما فينا أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه فبكى عمر رضى الله عنه ثم قال ما قلت ما قلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر (٣) » فقال هرم بن حيان لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويس القرنى وأسأل عنه حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوصأ ويغسل ثوبه قال فعرفته بالثعلب الذى نمت لى فاذا رجل لحيم شديد الأدمة مخلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كربه الوجه متعيب النظر قال

(١) حديث من طلب الدنيا حاللا مكاثرا مفاخرها لى الله وهو عليه غضبان الحديث أبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أشار به إلى أويس القرنى تقدم في قواعد العقائد لم أجده أصلا (٣) حديث عمر يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أويسا ورويناه في جزء ابن السكك من حديث أبى أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمى أكثر من ربيعة ومضر وإسناده حسن وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره فكان للشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان .

أليه على عقيه ثم إذا أراد التهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة الاستراحة ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد وفي الصلاة سر المراج وهو معراج القلوب والشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيات على تدرج طبقات السموات والتعاليات سلام على رب البريات فاذهبن لما يقول ويتأدب مع من يقول ويدرك كيف يقول ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وبثله بين عيني قلبه ويسلم على عباد الله الصالحين فلا يبقى عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية

فسلمت عليه فرد على السلام ونظر إلى قلعت حياك الله من رجل ومددت يدي لأصاحبه فأبى أن يصالحني قلت رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ثم خنتني العبرة من حيي إياه ورقني عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى فقال وأنت حياك الله ياهر بن حيان كيف أنت يا أخى ومن ذلك على قال قلت الله فقال لا إله إلا الله سبحانه الله - إن كان وعد ربنا لمفعولا - قال فصبرت حين عرفني ولا والله ما رأيت قبل ذلك ولا رأيي قلت من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم؟ - قال نبأني العليم الخبير - وعرفت روحى روحك حين بكت نفسى نفسك إن الأرواح لها أنفوس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل قال قلت حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه محبة بأبى وأمى رسول الله ولكن رأيت رجلا قد محبوبه وبلغنى من حديثه كابلنك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس ياهر بن حيان قلت يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعا منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فأبى أحبك فى الله حبا شديدا قال فقام وأخذ يدي على شاطئ الفرات ثم قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم بكى ثم قال : قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ثم قرأ - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون - حتى انتهى إلى قوله - إنه هو العزيز الرحيم - فشبهق شهقة ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال يا ابن حيان مات أبوك حيان وبوشك أن تموت فلما إلى جنة وإما إلى نار ومات أبوك آدم ومات أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نبي الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفى ثم قال يا عمراه يا عمراه قال قلت رحمك الله إن عمر لم يمت قال قد نعاه إلى ربى ونعى إلى نفسى ثم قال أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم دعا بدعوات خفيات ثم قال هذه وصيتى إليك ياهر بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين قد نعت إلى نفسى ونفسك عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأتذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعا وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم قد دخل النار يوم القيامة ادع لى ولنفسك ثم قال اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فصرفى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حينما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا بالسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عنى خير الجزاء ثم قال استودعك الله ياهر بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني فأبى أكره الشهرة والوحدة أحب إلى إني كثير اللهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطلبني واعلم أنك منى على بال وإني لم أرك ولم ترني فاذكرنى وادع لى فأبى سأذكر وأدعوك إن شاء الله انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا فحرصت أن أشتى معه ساعة فأبى على وفارقه فبكى وأبكاني وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يغبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة العراضين عن الدنيا وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أغلته الخضراء وأغلته الغبراء

والخاصة الفطرية ويضع يده اليمنى على غنقه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا السبحة ويرفع السبحة فى الشهادة فى إلا الله لا فى كلمة النفس ولا يرفعها منتصبه بل مائلة برأسها إلى القخذ منظوية فهذه هيئة خشوع السبحة ودليل سرابة خشوع القلب إليها ويدعو فى آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين وإن كان إماما ينبغى أن لا يفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه وللمؤمنين ووراءه فان الامام التيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجتهم والمؤمنون كالبنیان يشد بعضه ببعضا وهذا وصفهم الله تعالى فى

إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وعند الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد وعطف الجمل وخرز الرواية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في عيئه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالمع والصل هو من الآخرة لا من الدنيا ، نعم إذا قصد تلبية البدن وتنمعه بهيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة ويغشى على قلبه القسوة قال الطنافسي : كنت على باب بني شيبه في المسجد الحرام سبعة أيام طاولا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم : ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه فهذا بيان حقيقة الدنيا في حرك فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

(بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هم الخلق حتى أنسهم أنفسهم

وخالتهم ومصدرهم وموردتهم)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر وما عليها لهم ملابس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات فيطلبه آدمي للآكلات والتداوي وأما المعادن فيطلبها للآلات والأواني كالنحاس والرصاص والنقد كالذهب والفضة وغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمأكول وظهورها للمركب والزينة وأما الإنسان فقد يطلب آدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرم كالغلمان أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ويطلب قلوب الناس ليلبسها بأن يفرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذي يجر عنه الجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الأعيان التي يمر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين وهذا من الإنس - والقناطير للقنطرة من الذهب والفضة - وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من الآليات واليوافيت وغيرها - والحلج السومة والالعام - وهي البهائم والحيوانات - والحرب وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدنيا إلا أن لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد أو الهب السهتر بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسعنة وسوء الظن والداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها . العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومقيلهم بالدنيا لها تين الملاقتين علاقة القلب بالحلب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميها دنيا لم تخلق إلا لطف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى وأعنى بالدابة البدن فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كالآتي في الجمل في طريق الحج إلا بطف وماء وجلال ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يلف التافة وتمهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويعمل إليها أنواع الخشيش ويردها للآباء بالثلج حتى

كلامه بقوله سبحانه -
كانهم ببيان مرسوم -
وفي وصف هذه الأمة
في الكتب السابقة
صفهم في صلاتهم
كصفهم في قتالهم
حدثنا بذلك غيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السروردي إملاء قال
أنا أبو عبد الرحمن محمد
ابن عيسى بن شعيب
الماليني قال أنا أبو الحسن
عبد الرحمن بن محمد
الظفر الواعظ قال
أنا أبو محمد عبد الله
ابن أحمد السرخسي
قال أنا أبو همران
عيسى بن همر بن
العباس السمرقندي
قال أنا أبو محمد عبد الله
ابن عبد الرحمن
الدارمي قال أنا مجاهد
ابن موسى قال ثمانين
هو ابن عيسى أنسأل

تقوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته والحاج البصير لا يهجم من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على الشئ فيتعهد موافقه إلى السكبة والحج وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة ، فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشتغل بتهدد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجها من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ومن ههنا ما يدخل بطنه قضيته ما يخرج منها وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضروري وأمر السكن والملبس أهون ولوعرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور وانصرفوا عليه لم تستفرقهم أشغال الدنيا وإنما استفرقهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداخت إلى غير نهاية محدودة فتأهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها ، ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا وكيفية حدوث الحاجة إليها وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنتم عاقبة أمورهم . فنقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منسكين عليها وسبب كثرة الأشغال هو أن الانسان مضطر إلى ثلاث القوت والسكن والملبس فالقوت للغذاء والبقاء والملبس لدفع الحر والبرد والسكن لدفع الحر والبرد ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال ولم يغلق الله القوت والسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الانسان فيه ، نعم خلق ذلك للبهائم فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبع والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ولباسها شعورها وجلودها فتستغنى عن اللباس والانسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات وأوائل الأشغال الدنيوية وهي الفلاحة والرعاية والاقتناس والحياكة والبناء . أما البناء فللمسكن ، والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة للملبس ، والفلاحة للمطعم ، والرعاية للمواشي والحيل أيضا للمطعم والركب ، والاقتناس نفع به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالصلاح يحصل النباتات والرعاية يحفظ الحيوانات ويستنتجها ، والقنص يحصل مائت وتنج بنفسه من غير صنع آدمي وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونفعه بالاقتناس ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة ، ثم هذه الصناعات تنفق إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناس والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب أو من المعادن كالحديد والرماس وغيرها أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع آخر من الصناعات التجارة والحداثة والحز وهو لاء هم عمال الآلات ونفعه بالتجار كل عامل في الخشب كيفما كان وبالحداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابري وغيرها وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الحزاز فنحن به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين : أحدهما حاجته إلى النسل لبقاء جنس الانسان ولا يكون ذلك إلا بالاجتماع الذكر والأنثى وعشرتهم . والثاني التعاون على تهيئة أسباب الطعام والملبس ولتربية الولد فإن الاجتماع يفرض إلى الولد لا محالة والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ثم ليس يكفي الاجتماع مع الأهل والولد في الزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة لتكفل كل واحد بصناعة فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ومحتاج الطعام إلى طهان وخباز وكذلك كيف يفرد بتحصيل اللبس وهو يفقر إلى حراسة القطن والآلات الحياكة والخياطة

كعب الأجار كيف
تجد نعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
التوراة قال نحمده محمد
ابن عبد الله يولد بمكة
وبهاجر لطيفة ويكون
ملكه بالشام وليس
بفحاش ولا صخاب في
الأسواق ولا يكافئ
بالسيئة السيئة ولكن
يعفو ويغفر ، أمته
المجادون بمحمدون الله
في كل سراء ويكبرون
الله على كل نجدة
يوشنون أطرافهم
ويأثرون في أوطاسهم
يصفون في صلاتهم كما
يصفون في قتالهم
دوبهم في مساجد
كدوى النحل يسمع
مناديتهم في جوف السماء
فالإمام في الصلاة مقدمة
الصف في محاربة
الشیطان فهو أولى

وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع ثم لواجتماعوا في صحراء مكشوفة لتأخذا بالحرّ والبود والطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبمأمنه من الآلات والأثاث وللنازل تدفع الحرّ والبود والطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها لكن للنازل قد قصدها جماعة من اللصوص خارج النازل فافتقر أهل النازل إلى العناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع النازل فحدثت البلاد لهذه الضرورة ثم مهما اجتمع الناس في النازل والبلاد وتماثلوا تولدت بينهم خصومات إذ تعهدت رئاسة وولاية للزوج على الزوجة وولاية للأبوين على الولد لأنه ضيف يحتاج إلى قوام بهومها حصلت الولاية على عاقل أنفى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلمت فأما المرأة فتخاصم الزوج والولد يخاصم الأبوين هذا في المنزل ، وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولوتركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والأراضى والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لاحتالة ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بمعنى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض غتافة ولوترك صناعتها لهلك ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يحصل كان لا يدعن له فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى فيها صناعة الساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتحكّن القسمة بينهم بالعدل ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في العائلات وشروطها فلهذا أمور سياسية لابد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية وإذا اشتغلوا بهائم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت أو تصرف القائم إليهم إن كانت العدو مع الكفار فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال الصالح وإن أرادوا التوسع تسمى الحاجة لاحتالة إلى أن يمدّم أهل البلد بأموالهم ليجدوم بالحراسة فتحدث الحاجة إلى الحراج ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الحراج الحاجة لصناعات أخرى إذ يحتاج إلى من يوظف الحراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة وللنرجون وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزّان وإلى من يفرّق عليهم بالعدل وهو الفارض للمساكر وهذه الأعمال لو تولّاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدرهم وأمير مطاع يمين لكل عمل شخصا ويختار لكل واحدا ما يليق به وبرامى النصفة في أخذ الحراج وإعطائه واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين السكاكة ويديرهم الحاجة إلى الكتّاب والخزّان والحساب والجباة والعمال ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو السمي فرع الحراج ، وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف الفلاحون والرعاة والمهترفون ، والثانية الجندية الحماة بالسيوف ، والثالثة الترتّدون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم ، فانظر كيف ابتداء الأمر من حاجة القوت والملبس

المصلين بالخصوع
والإيمان بوظائف
الأدب ظاهرا وباطنا
والصلون التي غطون كما
اجتمعت طواهرهم
تجتمع بواطنهم
وتتناصر وتتعاقد
وتسرى من البعض
إلى البعض أنوار
وبركات بل جميع
المسلمين المصلين في
أقطار الأرض بينهم
تعاقد وتناصر بحسب
القلوب ونسب الاسلام
ورابطة الإيمان بل
يمدّم الله تعالى باللائكة
الكرام كأمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
باللائكة السوّمين
لحاجاتهم إلى محاربة
الشیطان أسس من
حاجاتهم إلى محاربة
الكفار ولهذا كان
يقول رسول الله صلى

وللسكن وإلى ماذا انتهى وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب أخرى وهكذا تنهاى إلى غير حد مصور وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها من وقع في مهوالة منها سقط منها إلى أخرى وهكذا على التوالي فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات والرجال عباد عن أعيان الأرض وما عليها مما يتنفع به وأعلاها الأغذية ثم الأمكنة التي يأوى الإنسان إليها وهي الدور ثم الأمكنة التي يسمى فيها للتصنع كالخوانيت والأسواق وللزراعة ثم الكسوة ثم أثاث البيت والآلة ثم آلات الآلات وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقرة آلة الحراثة والقرس آلة الركوب في الحرب ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحداد والتجار يسكنون قرية لا يمكن فيها الزراعة فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح فيحتاج أحدهما أن يذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق للمواصلة إلا أن التجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بأكثر ربحا لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آله فلا يبيعه والفلاح إذا طلب الآلة من التجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتعوق الأراض فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليرصد بها صاحبها أرباب الحاجات وإلى آيات يجمع إليها ما يعمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الآيات ليرصد به أرباب الحاجات فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بضعن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعا في الربح وكذلك في جميع الأمتعة والأموال ثم يحدث لعمالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشتررون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنظيم أمور الناس في البلاد بسببهم إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام فالبعض يحتاج إلى البعض فيحجج إلى أهل فيحدث التجار للتكفلون بالنقل وبيعهم عليه حرص جمع المال لعمالة فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لترض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال القوي يأكله لعمالة غيرهم إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالنفلة وخسة المهمة ولو غفل الناس وارتفعت همهم لزهدها في الدنيا ولو فعلوا ذلك لبطلت العايش ولو بطلت لملكوا وملكوا لزهدها أيضا. ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فيحتاج إلى دواب تحملها وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الاجارة ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدين فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فمن أين يدرى القدر الذي يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كإياع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تناسب فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ثم يحتاج إلى مال يطول بقاءه لأن الحاجة إليه تدرم وأبقى الأموال العادون فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ثم منست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فليست الحاجة إلى دار الضرب والصارفة وهكذا تنداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرة إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء ، وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لسببه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسمى فيه غيره فيحدث منه حرفتان خسيستان للصوصية والكداية إذ يجمعهما أهما يأكلان من سعي غيرها ثم الناس يحترزون من المصور والسكدين ويحفظون عنهم أموالهم فاقتفروا إلى صرف عقولهم في امتناب

الله عليه وسلم رجونا
من الجهاد الأصغر إلى
الجهاد الأكبر
فتداركهم الأملاك
بل بأنفسهم الصادقة
تحماسك الأفلاك فإذا
أراد الخروج من
الصلاة يسلم على يمينه
وينوي مع التسليم
الخروج من الصلاة
والسلام على اللانكة
والحاضرين من المؤمنين
ومؤمنات الجن ويجعل
خده مبينا لمن على يمينه
بالواء عنقه ويفصل
بين هذا السلام
والسلام عن يساره
قد ورد النهى عن
المواصلة ، والمواصلة
خمس اثنتان تخص
بالامام وهو أن لا يوصل
القراءة بالصغير
والركوع بالقراءة
واثنتان على المأموم وهو

الحيل والتدابير . أما الصوم : فمنهم من يطلب أعوانا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالثقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغلة وإما بأن يكون طراراً أو سلالاً إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار الصروفة إلى استنباطها . وأما السكدي فإنه إذا طلب ماسحاً فيه غير موقبل له اتعب وأعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يحط شيئاً فافتقر وإلى حيلة في استخراج الأموال وتعهيد المنر لأتسهم في البطالة فاحتالوا للتمل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يحمون أولادهم وأتسهم بالحيلة ليغشوا بالصمى فيمطون وإما بالتعاضد والتفالج والتجانن والتمازج وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك حيلة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون أقوالاً أو أفعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسبحوا برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب ثم قد يندم بعد هوال التعجب ولا ينفع الندم وذلك قد يكون بالتمسخر والمهاكاة والشبهة والأفعال الضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور السجع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشد تأثيراً في النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة فضائل أهل البيت أو القدي يحرك داعية الشوق من أهل المهانة كصناعة الطباخين في الأسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التمويذات والخشيش القدي يغفل بآفته أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال وكأصحاب القرعة والفأل من للنجمين ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والسكدون على ردوس النابر إذا لم يكن وراءهم طائل على وكان غرضهم استماله قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل العيشة فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبو عليها وجرم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والسكوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتأهوا وضلوا وسبق إلى عفوهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة فافسدت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه : فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا المقصود أن نميش أياماً في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل فياً كلون ليكسبوا ثم يكسبون لياً كلوا وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تتم في الدنيا ولا قدم في الدين فإنه يتعب نهاري لياً كل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاري وذلك كبير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت وطائفة أخرى زعموا أنهم يظنونوا لأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتمتع في الدنيا بل السعادة في أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج فهو لاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستثناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهاريهم في الجمع فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلًا عليها أن تنقص وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت فيلقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات فيكون للجماع تبعه ووباله ولا آكل لذته ثم القدين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء واللدح والتجمل والروءة فهو لاء يتعبون في كسب المعاش ويضيعون على أنفسهم في اللطم والمشرط ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب

أن لا يوصل تكبيرة
الاحرام بتكبيره
الامام ولا تسليمه
بتسليمه وواحدة على
الامام والمؤمنين وهو
أن لا يوصل تسليم
الفرس بتسليم النفل
ويجزم التسليم ولا يعد
مدا ثم يدعو بعد
التسليم بما يشاء من
أمر دينه ودنياه
ويدعو قبل التسليم
أيضاً في صلب الصلاة
فإنه يستجاب ومن
أقام الصلوات الخمس
في جماعة فقد ملأ
البر والبحر عبادة
وكل المقامات والأحوال
زبدتها الصلوات
الخمس في جماعة وهي
سر الدين وكفارة
المؤمن وتنجيس
للخطايا على ما أخبرنا
شيخنا شيخ الإسلام

النفيسة ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنهم غفروا وإنه ذو روة ويظنون أن ذلك هي السعادة فهمتهم في نهارهم وليلهم في تمهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس واتقياد الخلق بالتواضع والتوقير فصرخوا همهم إلى استجراؤ الناس إلى الطاعة بطلب الولايات ونقل الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ويرون أنهم إذا تمت ولايتهم واتقادت لهم رعاياهم قد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب وهذا أغلب الشهوات على قلوب الناس فمن الناس هؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم . ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على ثلث وسبعين فرقة كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة الطم واللبس والسكن ونسوا ما أراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها وانجرت بهم وأثقل أسبابها إلى أواخرها وتداعى بهم ذلك إلى مهاول لم يمكنهم الرقي منها فن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يغوص في شغل وحرقة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه وأن غاية مقصوده تمهد يده بالقوت والكسوة حتى لا يهلك وذلك إن سلك في سبيل التفاضل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له وإن تصدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية فتشعب به المهوم ومن تشعبت به المهوم في أودية الدنيا فلا يبالى الله في أي واد أهلكه منها فذا شأن التهمكين في أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فجدد لهم الشيطان ولم يتركهم وأضلهم في الأعراض أيضا حتى انقسموا إلى طوائف فظننت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد فأروا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتجهمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محنة الدنيا وظننت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد وأن يخلصوا بإماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبس لأصل له فوقع في الإلحاد وظهر لبعضهم أن هذا التبع كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا يزيد عبادة متعبد فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع والأحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى فإذا حصلت المعرفة قد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع مهملهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتنعوا بالتكاليف وإنما التكليف على عوام الخلق ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبالغ فيها وسبعين فرقة وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يجمع الشهوات بالكلية أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد وأما الشهوات فيجمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة

ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي رحمه الله
إجازة قال أنا أبو منصور
محمد بن عبد الملك بن
خيرون قال أنا أبو محمد
الحسن بن علي
الجوهري إجازة قال
أنا أبو عمر محمد بن
العباس بن زكريا قال
ثنا أبو محمد يحيى بن
محمد بن صاعد قال
ثنا الحسين بن الحسن
المروزي قال أنا عبد الله
ابن المبارك قال أنا يحيى
ابن عبد الله قال سمعت
أبي يقول سمعت أبا
هريرة رضي الله عنه
يقول قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« الصلوات الخمس
كفارات للخطايا وقرءوا
إن هتتم - إن الحسنات
يزهبن السيئات ذلك
ذكرى لهذا كرم - » .

ومن للسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنهه واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ويبقى ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاعتناء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال «الناجي منها واحدة قالوا يارسول الله ومن هم؟ قال أهل السنة والجماعة قليل ومن أهل السنة والجماعة؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»^(١) وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع والله أعلم.

ثم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

﴿كتاب ذم البخل وذنم حب المال﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع الملهكات من كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه البسوط، وكاشف الضر بعد القنوط، الذي خلق الخلق، ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وأبسطهم فيها بقلب الأحوال. ورددهم فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر والطمع واليأس والثروة والإفلاس والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة والبخل والجود والفرح بالوجود والأسف على المفقود والإيثار والإنفاق والتوسع والإملاق والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحتمار الكثير كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلاً وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً واتخذ الدنيا ذخيرة وخولاً. والصلاة على محمد الذي نسخ بعلمته ملا وطوى بشريته أدياناً ونحلاً وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللاً وسلم تسليماً كثيراً.

[أما بعد] فإن فتن الدنيا كثيرة الشغب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها وأطمع عنها وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها ثم إذا وجدت فلا سلامة منها فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراناً. وبالجملة فهي لا تغلوا من الفوائد والآفات وفوائدها من النجيات وآفاتنا من الملهكات وتميز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا تقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين وشرح ذلك مهم على الأفراد فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل في الدنيا عامة إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل والمال بعض أجزاء الدنيا والجاه بعضها واتباع شهوة البطن والفرج بعضها وتشقى الغيظ بحكم الغضب والحسد

(١) حديث اقترأ الأئمة وفيه الناجي منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفرق أمق على ثلاث وسبعين مئة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يارسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسانيدها جيد.

﴿كتاب ذم البخل وحب المال﴾

[الباب الثامن]

والثلاثون في ذكر

آداب الصلاة

وأسرارها]

أحسن آداب المصلي

أن لا يكون مشغول

القلب بشئ أو كثر

لأن الأكياس لم يرضوا

الدنيا إلا ليقسوا

الصلاة كما أمروا لأن

الدنيا وأشغالها لما

كانت شاغلة للقلب

رفضوها غيرة على

عمل المناجاة ورغبة

في أوطان القربات

وإذعاناً بالباطن لرب

البريات لأن حضور

الصلاة بالظاهر إذعان

لظاهر وفراغ القلب

في الصلاة عما سوى

الله تعالى إذعان الباطن

فلم يروا حضور الظاهر

وتخلف الباطن حتى

لا يغفل إذعانهم فتخبرهم

عبوديتهم فيجتنب أن

بعضها والكبر وطلب العلو بعضها ولها أبعاد كثيرة ويجمعها كل ما كان للانسان فيه حظ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده إذ فيه آفات وغوائل وللانسان من قدده صفة الفقر ومن وجوده وصف الثنى وهما حالتان يحصل بهما الاختيار والامتحان . ثم للفائدتان : القناعة والحرص وإحداها مذمومة والأخرى محمودة وللحرص حالتان طمع فيها في أيدي الناس وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق والطمع شر الحالتين وللواجد حالان إما الكبحم البخل والشح وإتفاق وإحداها مذمومة والأخرى محمودة وللنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف النطاء عن النמוש فيها مهم . ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو بيان ذم للمال ثم مدحه ثم تفصيل فوائد للمال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ثم حكايات الأسخياء ثم ذم البخل ثم حكايات البخلاء ثم الايثار وفضله ثم حد السخاء والبخل ثم علاج البخل ثم مجموع الوظائف في المال ثم ذم النقي ومدح الفقر إن شاء الله تعالى .

(بيان ذم للمال وكرهه حبه)

قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون - وقال تعالى - إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم - فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وخسرنا عظيما ، وقال عز وجل - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وقال تعالى - إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى - فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وقال تعالى - ألهاكم التكاثر - . وقال رسول الله ﷺ « حب للمال والشرف يفتنان النفاق في القلب كما يفتن الماء البقل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلا في زرية غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلك الكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا أو قليل مأم (٣) » وقيل « يا رسول الله أي أمتك شر قال الأغنياء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون

يكون باطنه مرتها
بشيء ويدخل الصلاة
وقبل من فقه الرجل
أن يبدأ بقضاء حاجته
قبل الصلاة ولهذا
ورد « إذا حضر العشاء
والعشاء قد قدموا العشاء
على العشاء » ولا يصلي
وهو حاقن يطالبه البول
ولا حازق يطالبه الغائط
والحزق أيضا ضيق
الحنف ولا يصلي أيضا
وخفه ضيق يشغل قلبه
قد قيل لا رأى لحازق
قيل الذي يكون معه
ضيق وفي الجملة ليس من
الأدب أن يصلي وعنده
ما يغير مزاج باطنه عن
الاعتدال كهذه الأشياء
التي ذكرناها وأهنام
للفرط والغضب . وفي
الحبر « لا يدخل أحدكم
في الصلاة وهو مغضب
ولا يصلي إن أحدكم وهو

(١) حديث حب المال والشرف يفتنان النفاق في القلب كما يفتن الماء البقل لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاء بدل الشرف (٢) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلا في زرية غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان ولم يؤولا في زرية وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذي حسن صحيح وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد ما ذنبان ضاريان في زرية غنم الحديث وللبراز من حديث أبي هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبراني فيها ضعيف (٣) حديث هلك الأثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا الحديث الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبي بزي بلفظ الكثرون ولم يقل في عباد الله ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ الكثرون وهو متفق عليه . من حديث أبي ذر بلفظ هم الأخسرون فقال أبوذر من هم فقال هم إلا كثرون أموالا إلا من قال هكذا الحديث (٤) حديث قيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الأغنياء غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمق الدين ولدوا في النعم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسل وللبراز من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إن من شرار أمق الدين - غذوا بالنعم وتبث عليه أجسامهم .

فره الخيل وألوانها وينسكحون أجل النساء وألوانها ويلبسون أجل الثياب وألوانها لم يطون من القليل لا تشبع وأنسى بالكبير لا تنفع ما كفون على الدنيا يندون ويروحون إليها اتخذوها آلهة من دون إلههم وربما دون ربهم إلى أمرها ينتهون وهوام يتبعون فضرة من محمد بن عبد الله أن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنازهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم «دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم «يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفثيت أو لبست فأفثيت أو تصدقت فأفثيت ^(٣) » وقال رجل «يا رسول الله مالى لأحب الموت فقال هل معك من مال أقال نعم يا رسول الله قال قدم مالك فان قلب المؤمن مع ماله إن قدمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه ^(٤) » وقال ^(٥) «أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره والثالث إلى محشره فالتى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله والتى يتبعه إلى قبره فهو أهله والتى يتبعه إلى محشره فهو عمله ^(٦) » وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : مالك نمتى على اللئى ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندكم قالوا حسنة قال لكنهما والدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «بحاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أدبت حق الله في ثم بحاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله وبلك ألا أدبت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعوا بالويل والثبور ^(٧) » وكل ما أوردهنا في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال فلا نطول بتكريره وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم لأن المال أعظم أركان الدنيا وإنعاند كراآن ماورد في المال خاصة قال صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف ^(٨) »

(١) حديث سياتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينسكحون أجل النساء وألوانها الحديث بطوله الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة سيكون رجال من أمى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتى وسنده ضعيف ولم أجده لباقيه أصلا (٢) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر البزار من حديث أنس وفيه هاتى بن للتوكل ضعفه ابن حبان (٣) حديث يقول العبد مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث قال رجل يا رسول الله مالى لأحب الموت الحديث لم أقف عليه (٥) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره الحديث أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد الحديث (٦) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بحاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه الحديث . قلت ليس هو من حديث سلمان وإنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع (٧) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة

غضبان « فلا ينبغي للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الحيات وأحسن لبسة الصلح سكون الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع الجبين على الشمال لما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز وفي رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز وأرباب العزبة يتركون الحركة في الصلاة جملة وقد حركت يدي في الصلاة وعندى شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال عندا إن العبد إذا وقف في الصلاة ينبغي أن يبقى جامدا مجمدا لا يتحرك منه شئ . وقد جاء

وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا (١) » . الآثار : روى أن رجلا نال من أبي المرداء وأراه سوءا فقال اللهم من فعل بي سوءا فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة السال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما إنك ما لم تخرج عنى لاتفتنى . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بطائفا قالت ما هذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم سلت سترًا كان لها قطعتة وجعلته صررا وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت : اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد ماى هذا فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذهله الله وقيل إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبدى حقا وقال سبط بن مجلان إن الدرهم والدنانير أزمة الناقين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ الدرهم غريب فإن لم تحسن رقيقته فلا تأخذه فإنه إن لدغك تلتك معه قيل وما رقيقته قال أخذه من حله ووضع في حقه وقال الهلاء بن زياد تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعوذ بالله من شرك فقلت إن شرك أن يعبدك الله منى فأبفض الدرهم والدينار وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل :

إنى وجدت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تفك تقوى للدم

وفى ذلك قيل أيضا :

لا يضرنك من اللرم قميص رقه أو إزار فوق عظم الساق منه رقه

أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

وروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنعا لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار وكان ثلاثة عشر من الولد فقال عمر أقصدون فأقصدوه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فاني لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطيهم حقا لغيرهم وإنما ولدى أحد رجلين إما مطيع لله فاقه كافيه والله يتولى الصالحين وإما غاص لله فلا أبالي على ما وقع . وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا اقبل له لواء خمرته لولدك من بعدك قال لا ولكنى أدخره لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى . وروى أن رجلا قال لأبي عبدربه يا أخى لاتذهب بشر وتترك أولادك بخير فأخرج أبو عبدربه من ماله مائة ألف درهم وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله .

(بيان مدح السال والجمع بينه وبين الدم)

اعلم أن الله تعالى قد سمى السال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز - إن ترك خيرا - الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم السال الصالح للرجل الصالح (٢) » وكل ما جاء فى ثواب الصدقة والجمع فهو ثناء على السال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به وقال تعالى - ويستخرجنا كنزها رحمة من ربك - وقال تعالى عمتنا على عباده - وبمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم

يلغ به وقد تقدم فى آداب الصعبة (١) حديث لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا (٢) حديث نعم للسال الصالح يخرج الرجل الصالح أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ نعم أو قال للمرء .

فى الجبر « سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوحوسة والتأثؤب والحكاك والافتات « والبث بالثوء من الشيطان أيضا وقيل السهو والشك ، وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال إن الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من على يمينه وشماله . وتقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته ، وروى عن معاذ ابن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متمعدا فلا صلاة له وقال بعض العلماء من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو

أنهارا - وقال صلى الله عليه وسلم «كاد الفقر أن يكون كفرا»^(١) وهو ثناء على المال ولا تقف على وجه الجمع
بمدح الله والملاح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله حتى يكشف لك أنه خير من وجه
وشر من وجهه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فإنه ليس بغير محض ولا هو شر محض
بل هو سبب للأمرين جميعا ولهذا وصفه فيمدح لاهمالة تارة ويذم أخرى ولكن البصير لا يميز بذلك أن
المحمود منه غير المذموم ويأمن بالاستعداد لما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل
درجات النعم والتقدير المنع فيه هو أن مقصد الأكرام وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعم الدائم
وللك تقويم والقصد إلى هذا باب الكرام والأكرام إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «من أكرم
الناس وأكرهم؟» قال: أكرمهم للموت ذكرنا وأشدهم له استعدادا^(٢) وهذه السادة لا تتأثر إلا بثلاث
وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل
الخارجية عن البدن كالمال وسائر الأسباب وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجية فالخارجة أخسها والمال
من جملة الخارجيات وأدناها الدراهم والدنانير فإنهما خادمان ولا خادما لهما ورايان لغيرهما ولا يرادان
لذاتهما إذ النفس هي الجوهر النفس للطلوب سعادتها وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق
لتحصلها صفة في ذاتها والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء والطعام والملابس تخدم
البدن وقد سبق أن المقصود من الطعام إبقاء البدن ومن الناحية إبقاء النسل ومن البدن تسهيل
النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه مشرفه
وأنه من حيث هو ضرورة الطعام والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس
الذي هو خير ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لذلك الغاية ملتفتا إليها غير ناس لها فقد
أحسن واستغنى وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه فاذن المال آلة ووسيلة إلى متصود صحيح ويصلح
أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادرة عن سعادة الآخرة وتسديس العلم والعمل
فهو إذا محمود مذموم محمود بالإضافة إلى القصد الم محمود ومذموم بالإضافة إلى القصد المذموم فمن أخذ من
الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حته وهو لا يشعر^(٣) كما ورد به الخبر ولما كانت الطباع مائلة إلى
اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلها وآلة إليها أعظم الخطرفا يزيد على قدر الكفاية
فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل قوت آل محمد كقوت آل عاف»^(٤)
فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتحصن به خيره وقال «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشني في زمرة
المساكين»^(٥) واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال - واجنبي وبني أن نعبد الأصنام - وعنى بها
هذين الحجرين الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من يغشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه
الحجارة إذا قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر وإنما معنى عبادتها حبها والاعتزاز بها والركون

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث
أنس وقد تقدم في كتاب ذم الغضب (٢) حديث من أكرم الناس وأكرهم قال أكرمهم للموت
ذكرنا الحديث ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أي المؤمنين أكرهم ورواه ابن أبي الدنيا في الموت
بلفظ المصنف وإسناده جيد (٣) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حته وهو
لا يشعر تقدم قبله بنسبة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا (٤) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد
كقوت آل عافا متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا الترمذي
من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم .

بساط في صلاته فصلاته
باطلة قال بعضهم لأن
ذلك عدوه عملا، وقيل
في تفسير قوله تعالى
- والذين هم على صلاتهم
دأءون - قيل هو
سكون الأطراف
والطمأنينة . قال
بعضهم إذا سكبت
التكبير الأولى فاعلم
أن الله ناظر إلى شخصك
عالم بما في ضميرك
ومثل في صلاتك الجنة
عن يمينك والنار عن
شمالك وإنما ذكرنا
أن تمثل الجنة والنار
لأن القلب إذا شغل
بذكر الآخرة ينقطع
عنه الوسواس فيكون
هذا التمثيل تماويا
للقلب لدفع الوسوسة .
أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي بإجازة قال

إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم «تس عبد الدينار وتس عبد الدرهم تس ولا تتمش وإذا شيك فلا تتمش» (١) فبين أن محبهما عابدهما ومن عبد حجارتهما بدينهم بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كما بدينهم وهو شرك إلا أن الشرك شركان شرك خفى لا يوجب الخلود في النار وقلبا ينفك عنه للؤمنون فإنه أخفى من ديب الخلد وشرك جلى يوجب الخلود في النار فعوذ بالله من الجميع .

(بيان تفصيل آفات اللال وفوائده)

اعلم أن اللال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله مموه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستتر من خيره . أما القوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهاكوا على طلبها وأما الدينية فتتخصر جميعها في ثلاثة أنواع . النوع الأول : أن ينفقه على نفسه إماما في عبادة أوفى الاستعانة على عبادة أما في العبادة فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلها وأما فيما يقويه على العبادة فذلك هو الطعام والملبس والسكن والنسكح وضرورات العيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من القوائد الدينية ولا يدخل في هذا التتم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط . النوع الثاني : ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام . أما الصدقة فلا يغنى ثوابها وإنما لتطفى غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة فعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من القوائد الدينية إذ به يكتسب الكبد الاخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسيخاء فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها . وأما وقاية العرض فعنى به بذل المال لدفع هجو الشراء وتلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما وقي به المرء عرضه كتب له به صدقة» (٢) وكيف لا وفيه منع المقتاب عن محبة الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة . وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان تهيئة أسبابه كثيرة ولوتولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتضرر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أسمى مقامات السالكين ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضيع الوقت في غيره خسران

أنا عمر بن أحمد
الصفار قال أنا أبو بكر
ابن خلف قال أنا
أبو عبد الرحمن قال
سمعت أبا الحسين
الفارسي يقول سمعت
محمد بن الحسين يقول
قال سهل من خلا قلبه
عن ذكر الآخرة
تعرض لوساوس
الشیطان فأما من باشر
باطنه صفو اليقين
ونور المعرفة فيستغنى
بشاهده عن تمثيل
مشاهدة قال أبو سعيد
الحرّاز إذا ركع فالأدب
في ركوعه أن ينتصب
ويدنو ويتدلى في
ركوعه حتى لا يبقى
منه مفصل إلا وهو
منتصب نحو العرش
العظيم ثم يعظم الله
تعالى حتى لا يكون
في قلبه شيء أعظم

(١) حديث تس عبد الدينار تس عبد الدرهم الحديث البخارى من حديث أبي هريرة ولم يقل وانتش وإنما علق آخره بلفظ تس وانتكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم (٢) حديث ما وقي المرء عرضه به فهو صدقة أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم .

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء للمسجد والقنطرة والرباطات ودور للرضى ونصب الجباب في الطريق وغير ذلك من الأوقاف المرسدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدائرة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متبادية وناهيك بها خيرا فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية . وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية ثلاث . الأولى : أن تجر إلى المعاصي فان الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية لم تحرك داعيته فإذا استشعر القدرة عليها انبثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فان اتجهم ما اشتبه هلك وإن صبر وقع في شدة إذ الصبر مع القدرة أشد وقتة السراء أعظم من فتنة الضراء . الثانية : أنه يجر إلى التثلم في الباحات وهذا أول الدرجات فحق يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لثايد الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التثلم مألوفا عنده وغريبا لا يصبر عنه ويجرحه البعض منه إلى البعض فإذا اشتد أنسه بهر بما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتنعم الشبهات ويغوص في الرأفة والداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياء ويتيسر له تنعمه فان من كثر ماله كثر حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقهم ويصغى الله في طلب رضائهم فان سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلا ومن الحاجة إلى الخلق ثور العداوة والصداقة وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنجاسة والفتنة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ولا يغلو عن التمدي أيضا إلى سائر الجوارح وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه . الثالثة : وهي التي لا يفتك عنها أحد وهو أنه يلهي بإصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله ، فليل إن أخذه من حله ؟ فقال يضمه في غير حقه فليل إن وضعه في حقه فقال يشغله بإصلاحه عن الله تعالى وهذا هو الداء العضال فان أصل العبادات ونمها وشرها ذكر الله والتفكير في جلاله وذلك يستدعي قلبا فارغا وصاحب الضيقة يمسى ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسنته وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة أعوان السلطان في الخراج وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال وكذلك صاحب المواشي وهكذا سائر أصناف الأموال وأبعدها عن كثرة الشغل التقدير المكنوز تحت الأرض ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يثر عليه وفي دفع أطماع الناس عنه وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والتم والمهم والتعب في دفع الحساد وتجنس المصاعب في حفظ المال وكسبه فاذن تباقي المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك مسموم وآفات نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

من الله ويصرف في نفسه حتى يكون أقل من الهباء وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك . وقال أيضا ويكون معه من الحشية ما يكاد يذوب به . قال السراج إذا أخذ العبد في التلاوة فالأدب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا من أدهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والموارض ونفى كل شيء غير الله تعالى فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة فيكون مع النفس

(بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس)

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً بما في يده لا يطمع في الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حرصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من اللطم والملبس والسكن ويقتصر على أقله قدره وأخسه نوطاً ويرد أمه إلى يومه أو إلى شهره ولا يشغل قلبه بما بعد شهر فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمه فاته عن القناعة وتدنس لاهجته بالطمع وذلك الحرص وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الحارقة للمروآت وقد جبل الأدعي على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتغي لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» (١) «وعن أبي واقد الليثي قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناها يملأها أوحى إليه فجثته ذات يوم فقال: إن الله عز وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثمان ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» (٢) وقال أبو موسى الأشعري نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتغنى واديا ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» (٣) . وقال صلى الله عليه وسلم «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب المال أو كما قال» (٥) «ولما كانت هذه جيلة للأدعي مضلة وغريزة مهلكة أننى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به» (٦) «وقال صلى الله عليه وسلم «مامن أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا» (٧) «وقال صلى الله عليه وسلم «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس» (٨) ونهى عن شدة الحرص والبالغة في الطلب فقال «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له وإن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة» (٩) «

والعقل الذين دخلوا في الصلاة بهما فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب فكأنهم أبداً في الصلاة فهذا هو أدب الصلاة وقيل كان بعضهم لا يتبرأ له حفظ العدد من كمال استخراجه وكان يجلس واحداً من أصحابه يعدد عليه كم ركة صلى . وقيل : للصلاة أربع شعب حضور القلب في المحراب وشهود العقل عند الملك الوهاب وخشوع القلب بلا ارتياب وخضوع الأركان بلا ارتقاب لأن عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب وعند حضور النفس فتح الأبواب وعند خضوع

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتغي لهما ثالثاً الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس (٢) حديث أبي واقد الليثي إن الله عز وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الحديث أحمد والبيهقي في الشعب. بسند صحيح (٣) حديث أبي موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال الحديث مسلم مع اختلاف دون قوله إن الله يؤيد هذا الدين ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متكلم فيه (٤) حديث منهومان لا يشبعان الحديث الطبراني من حديث بن مسعود بسند ضعيف (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحديث متفق عليه من حديث أنس (٦) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقعه الله بما آتاه (٧) حديث مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى في الدنيا قوتا ابن ماجه من رواية نعيم بن الحارث عن أنس وتفيح ضعيف (٨) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس متفق عليه من حديث أبي هريرة (٩) حديث ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده وقد تقدم في آداب الكسب والعاش .

وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال أيّ عبادك أغني؟ قال أفنعمهم بما أعطيتهم قل فأبهم أعدل؟ قال من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» (١) وقال أبو هريرة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فليكن رغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار» وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا» (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري «أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله عظمي وأوجز فقال: إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا وأجمع اليأس مما في أيدي الناس» (٣) وقال عوف بن مالك الأشجعي «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله قلنا أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخمس وأن تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) قال فلقد كان بعض أولئك الذين يسطط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه. الآثار: قال عمر رضى الله عنه: إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من يأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمرّ وخطوب أيام تمرّ
اقنع بعيشك ترضه وأترك هواك تعيش حرّ
فلرب حنف ساقه ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يملّ الحزب اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد. وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال سميط بن عجلان: إنما بطئك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار. وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس. ويروى أن الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن. وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتي الرجل فيقول إنك وإنك فيقطع ظهره فانما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مازق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه ألا رفع إليه حوائجه فكتب إليه قد رقت حوائجي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت

(١) حديث ابن مسعود إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها الحديث ابن أبي الدنيا في التناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه (٢) حديث أبي هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس الحديث ابن ماجه وقد تقدم (٣) حديث أبي أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس ابن ماجه وقد تقدم في الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الاسناد (٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون الحديث وفيه ولا تسألوا الناس. مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدكم وهي عند أبي داود وابن ماجه كذا كرها المصنف

الأركان وجود الثواب
فمن أتى الصلاة بلا
حضور القلب فهو
مصلّ لاه ومن أتاها
بلا شهود العقل فهو
مصلّ ساه ومن أتاها
بلا خضوع النفس فهو
مصلّ خاطئ ومن
أتاها بلا خشوع
الأركان فهو مصل
جاف ومن أتاها كما
وصف فهو مصل واف.
وقد ورد عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« إذا قام العبد إلى
الصلاة المكتوبة مقبلا
على الله بقلبه وسمعه
وبصره انصرف من
صلاته وقد خرج من
ذنوبه كيوم ولدته أمه
وإن الله يغفر بغسل الوجه
خطيئة أصابها وبغسل
يديه خطيئة أصابها
وبغسل رجليه خطيئة

وما أمسك عني قنص . وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أسر للعاقل وأيعا شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما الحسود وأهنأهم عيشا القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفصهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم القرط وفي ذلك قيل :
 ارفقه يبال فقي أمسى على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
 فالعرض منه مصون لا يندسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
 إن القناعة من يجلل بساحتها لم يلق في دهره شيئا يؤرقه
 وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا في حيل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
 ونازح الدار لا أنفك مغتربا عن الأجنة لا يدرون ما حالي
 بمشرق الأرض طورائهم مغربها لا يخطر اللوت من حرص على بالي
 ولو قنعت أناني الرزق في دعة إن القنوع الفنى لا كثرة للمال

وقال عمر رضي الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى حلتان لشتائي وقيطي وما يسعى من الظهر لحبي وعمرتي وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفضهم ولا بأوضعهم فوائده ما أدري أيحل ذلك أم لا كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها . وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك من لاتفوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكأن ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخي لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا ، وفي ذلك قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
 فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسي قد رضيت

وقال الشعبي حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بي ؟ قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشقى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلك ثلاث خصال هي خير لك من أكلتي ، أما واحدة فأعلك وأنا في يدك وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل قال هات الأولى قالت : لا تلهفن على ما فاتك غفلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن مما لا يكون أنه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا سقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي درتين زنة كل درة عشرون مثقالا قال فعرض على شفته وتلف وقال هات الثالثة قالت أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحى ودعى ورشى لا يكون عشريين مثقالا فكيف يكون في حوصلي درتان كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فذهبت وهذا مثال لقرط طمع الأدمى فانه يعميه عن درك الحق حتى يقدر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السكك : إن الرجاء جبل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد البزدي : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآني تبسم قلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا وأنشدني :

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى يفتح لك بابها
 فان قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوات الأمور اجتنابها

أصابها حتى يدخل في
 صلاته وليس عليه
 وزره وذكرت السرقة
 عند رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 فقال أي السرقة أقبح
 فقالوا الله ورسوله أعلم
 فقال إن أقبح السرقة
 أن يسرق الرجل من
 صلاته قالوا كيف يسرق
 الرجل من صلاته ؟
 قال لا يتم ركوعها ولا
 سجودها ولا خشوعها
 ولا القراءة فيها .
 وروى عن أبي عمرو بن
 العلاء أنه قدم للإمامة
 فقال لا أصلح فلما أُلحوا
 عليه كبر فثنى عليه
 فقد موأماما آخر فلما
 أفاق سئل فقال لما
 قلبت استووا هتف بي
 هاتف هل استويت
 أنت مع الله قط . وقال
 عليه السلام « إن العبد

ولاتك مبذالا لمرضك واجتنب ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وءتوها قال الطمع وشبه النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل فسرتي قول كعب قال يطعم الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشراء فشبه النفس في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاه لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلعت عليه إذا مررت به وعده إذا مرض لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك ثم قال هذا خيرا لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجب أمر الانسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له من أين تأكل ؟ قال من يدر اللطيف الخبير الذي خلق الرجا يأتيها بالطحين وأوماً بيده إلى رجا أضراسه فسبحان القدير الخبير .

(بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة)

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور : الأول وهو العمل ، الاقتصاد في العيشة والرفق في الاتفاق فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ويقنع بأي طعام كان ويقلل من الإدام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ويمكن معه الاجمال في الطلب والاقتصاد في العيشة وهو الأصل في القناعة ونعني به الرفق في الاتفاق وترك الحرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الرفق في الأمر كله ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب ^(٣) » وروى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من قتهك رقهك في معيشتك وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة ^(٤) » وفي الخبر « التدبير نصف العيشة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذرأ فقره الله ومن ذكر الله عز وجل

(١) حديث إن الله يحب الرفق في الأمر كله متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث ما عال من اقتصد أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد (٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الغضب البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمات الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة (٥) حديث التدبير نصف العيشة رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين

إذا أحسن الوضوء
وصلى الصلاة لوقتها
وحافظ على ركوعها
وسجودها ومواقيتها
قالت حفظك الله كما
حفظتني ثم صعدت ولها
نور حتى تنتهي إلى
السماء وحتى تصل إلى
الله فتشفع لصاحبها
وإذا أضاءها قالت
صيمك الله كما صيمتني
ثم صعدت ولها ظلمة
حتى تنتهي إلى أبواب
السماء فتفلق دونها ثم
تلف كما يلف الثوب
الخلق فيضرب بها
وجه صاحبها « وقال
أبو سليمان الداراني إذا
وقف العبد في الصلاة
يقول الله تعالى ارفعوا
الحجب فيما بيني وبين
عبيد فإذا التفت
يقول الله أرخواها فيما
بين يميني وخلا

أحبه الله ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمرا فضلك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا وخرجاً ^(٢) » والتؤدة في الاتفاق من أهم الأمور . الثاني أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل وبينه على ذلك قصر الأمل والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه فأنشد الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق بل ينبغي أن يكون واثقا بوعده الله تعالى إذ قال عز وجل - وما من دابة في الأرض إلا على أثر رزقها - وذلك لأن الشيطان يمدد الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تعرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الدل في السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من التعب ويضحك عليه في احتماله التعب فهذا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثأني الحال وربما لا يكون . وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالله يضل الفقر

وقد دخل ابن خالده على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحما « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلهه أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى ^(٣) » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له « لا تسكر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة ^(٥) » ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد وأن ذلك يحصل لأعماله مع الاجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب - فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله . وقال صلى الله عليه وسلم « أبن الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب ^(٦) » وقال سفيان اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا أي لا يترك الشيء فقد اضروته بل ياتي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه ، وقال للفضل الضبي قلت لأعرابي من أين معاشك قال نذر الحاج قلت فإذا صدر وأبى كي وقال لو لم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش . وقال أبو حازم رضى الله عنه وجدت الدنيا شيئين شيئا منهما هو لى فلن أعمله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا منهما هو لغيري فذلك لم أنهلها مضى فلا أرجو . فلما بقي يمنع الذي لغيري متى كما يمنع الذي لى من غيرى في أى هذين أنفى عمرى فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر . الثالث أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الحرص والطمع من الدل فإذا تحقق عنده ذلك انبهت رغبته إلى القناعة لأنه

(١) حديث من اقتصد أغناه الله الحديث البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكرو أى هذا الحديث ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله .

(٢) حديث إذا أردت أمرا فضلك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا وخرجاً رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم (٣) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما الحديث ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابن خالده وقد تقدم (٤) حديث لا تسكر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المافرى مرسل (٥) حديث ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب الحديث تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا (٦) حديث أبن الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب ابن حبان في الضعفاء من حديث على باسناد واه ورواه ابن الجوزى في الموضوعات .

عبدى وما اختار لنفسه . وقال أبو بكر الوراق ربما أصلى ركنتين فأصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل أنصرف من الرزاق له هذا لعظم الأرب عنده ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب . وقيل لموسى بن جعفر إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمحرم بين يديك قال إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدي وقيل كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهم إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه فيقال له في ذلك فقول أتدرون بين يدي

في الحرص لا يغلو من تعب وفي الطمع لا يغلو من ذل وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال وللأنس ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فان من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق وبإزمه المداينة وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ريك العقل ناقص الإيمان قال صلى الله عليه وسلم « عز المؤمن استغناؤه عن الناس »^(١) ففي القناعة الحرية والعز ، ولذلك قيل استغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره . الرابع أن يكثر تأمله في تنم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى صمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمتع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويغير عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فإنه إن تنم في البطن فالخمار أكثرأ كلا منه وإن تنم في الوقاع فالخزير أعلى رتبة منه وإن ترين في اللبس والحيل في اليهود من هو أعلى رتبة منه وإن قنع بالقليل ورضى به لم يسأله في رتبته إلا الأنبياء والأولياء . الخامس أن يفهم ما في جمع السال من الخطر كما ذكرنا في آفات السال وما فيه من خوف السرفقة والنهب والضياع وما في خلو اليد من الأمن والفراغ ويتأمل ما ذكرناه في آفات السال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه فان الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتمتعون في الطعام والملابس ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلهم مشغولون بالتنم فلم تريد أن تتميز عنهم . قال أبو ذر أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوق^(٢) أي في الدنيا . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في السال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل الله عليه »^(٣) فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرًا طويلا فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء .

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم أن السال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة ، وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بفصن منها قاده ذلك

(١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس الطبراني في الأوسط والحاكم وصحح استاده وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبي صلى الله عليه وسلم في أثناء حديث وفيه زفر بن سايان عن محمد بن عيينة وكلاما مختلف فيه وجعله القضاة في مسند الشهاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم (٢) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق فأحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في السال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل الله عليه متفق عليه وقد تقدم

من أريد أن أقف .
وروى عمار بن ياسر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال
« لا يكتب للعبد من
صلاته إلا ما يعقل » وقد
ورد في لفظ آخر
« منكم من يصلي
الصلاة كاملة ومنكم
من يصلي النصف
والثالث والرابع والخمس
حتى يبلغ العشر » قال
الخواص ينبغي للرجل
أن ينسوي نوافله
لنقصان فرائضه فان
لم ينوها لم يحسب له
منها شيء . بلذا أن الله
لا يقبل نافلة حتى
تؤدي فريضة يقول
الله تعالى : مثلكم كمثل
العبد السوء بدأ
بالهدية قبل قضاء
الدين ، وقال أيضا
انقطع الخلق عن الله

التصن إلى الجنة (١) « وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموا بهما ما استطعتم (٢) « وفي رواية « فأكرموا بهما ما أحببتموه « وعن عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جيل الله تعالى ولياله إلا على حسن الخلق والسخاء (٣) « وعن جابر قال « قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال الصبر والسباحة (٤) « وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس (٥) « وروى للقدماء بن شريح عن أبيه عن جده قال « قلت يا رسول الله دلتى على عمل يدخلنى الجنة قال إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام (٦) « وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيأ أخذ بنفس من أخصاها فلم يتركه ذلك التصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيها أخذ بنفس من أغصانها فلم يتركه ذلك التصن حتى يدخله النار (٧) « وقال أبو سعيد الخدرى قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكنافهم فأنى جعلت فيهم رحمى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فأنى جعلت فيهم سخطى (٨) «

تعالى بمغصلتين
إحداهما أنهم طلبوا
النوافل وضيعوا
القرائن والثانية
أنهم عملوا أعمالا
بالتظاهر ولم يأخذوا
أنفسهم بالصدق فيها
والصح لها وأنى الله
تعالى أن يقبل من عامل
عملا إلا بالصدق وإصابة
الحق وفتح العين في
الصلوة أولى من
تغميض العين إلا أن
يتشتت همه بتفريق
النظر فيغمض العين
للاستعانة على الخشوع
وإن شاء في الصلاة
يضم شفتيه بقدر
الامكان ولا يلتزق ذقنه
بصدره ولا يزاحم في
الصلوة غيره قيل ذهب
المزحوم بصلوة المزاحم
وقيل من ترك الصف
الأول مخافة أن يضيق

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى في المستجاد من حديث أبي هريرة وسأى بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبو سعيد (٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى إن هذا دين رضىته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق الدارقطنى في المستجاد وقد تقدم (٣) حديث عائشة ما جعل الله ولياله إلا على السخاء وحسن الخلق الدارقطنى في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفور عن الأوزاعي عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا (٤) حديث جابر أى الإيمان أفضل قال الصبر والسباحة أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ سئل عن الإيمان وفيه يوسف بن محمد بن النسكر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عتبة بلفظ ما الإيمان قال الصبر والسباحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ أى الأعمال أفضل قال الصبر والسباحة وحسن الخلق وإسناده صحيح (٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء الحديث أبو منصور الديلمى دون قول في آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بذل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى ابن هارون وغيرها ووثقه الخطيب وروى الأصمغانى جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمى أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس إليه وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان (٦) حديث القدماء بن شريح عن أبيه عن جده إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام الطبرانى بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام (٧) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة الحديث وفيه والشح شجرة في النار الحديث الدارقطنى في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهرى ضعيف جدا (٨) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكنافهم الحديث ابن حبان في الضعفاء والخرائطى في مكارم الأخلاق والطبرانى

ومن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجافوا عن ذنب السخى فان الله اخذنيده كلما عثر^(١)» وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى لياهي بمطعم الطعام لللائكة عليهم السلام^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاسفها^(٣)» وقال أنس «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه وأثناء رجل فساءله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلموا فان محمدا يسطى عطاء من لا يخاف الفاقة^(٤)» وقال ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم «إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن غل بتلك المنافع على العباد قلها الله تعالى عنه وحوّلها إلى غيره^(٥)» وعن الهلالى قال «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرى من بني النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا فقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فإبال هذا من بينهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم نزل على جبريل فقال اقتل هؤلاء واترك هذا فان الله تعالى شكره سخاء فيه^(٦)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن لكل شئ ثمرة وثمره للعروف تعجيل السراح^(٧)» وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء^(٨)» وقال صلى الله عليه وسلم

في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فحمله عبد الرحمن السدى وقال إنه مجهول وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزته ابن القطان وتابعه عليه عبد القفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكامل فيه الجوزجاني والأزدى ورواه الحاكم من حديث على وقال إنه صحيح الإسناد وليس كإسناد (١) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخى فان الله اخذنيده كلما عثر الطبراني في الأوسط والحرثاني في مكارم الأخلاق . وقال الحرثاني أئبلوا السخى زلته وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بأسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من طريق الدار قطنى (٢) حديث ابن مسعود الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير الحديث لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ الخبر أسرع إلى البيت الذى ينشئ وفي حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير ولأبى الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث وكلها ضعيفة (٣) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها الحرثاني في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كرز وهذا مرسل ولا طبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد إن الله كريم يحب السكرم ويحب معالي الأمور وفي الكبير والبيهقى معالي الأخلاق الحديث وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة (٤) حديث أنس لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فأناه رجل فساءله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث مسلم وتقدم في أخلاق النبوة (٥) حديث ابن عمر إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد الحديث الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله ابن زيد الحمصى ضعفه الأزدى (٦) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بني النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا الحديث وفيه فان الله شكره سخاء فيه لم أجده أصلا (٧) حديث إن لكل شئ ثمرة وثمره للعروف تعجيل السراح لم أقف له على أصل (٨) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء ابن عدى والدار قطنى في غرائب مالك وأبو على الصدقى في عواليه وقال رجاله

على أهله قام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصنف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شئ وقيل إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل . وروى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أزيز كأزيز الرجل حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة . وسئل الجنيد عافريضة الصلاة ؟ قال قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله وقال الحسن ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك . وقيل أوحى الله تعالى إلى بعض

« من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه ^(١) » فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شيء لا تأكله النار قبل وما هو قال للعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ « الجنة دار الأسخياء ^(٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل وأدوا الداء البخل ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « اصنع للعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله قد أصبت أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين ^(٥) » وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل جعل للعروف وجوها من خلقه حبيب إليهم للعروف وحبيب إليهم فقال له وجه طلاب العروف إليهم ويسر عليهم إعطائه كما يسر العتيث إلى البلدة الجدة فيحييها ويهيئ به أهلها ^(٦) » وقال ﷺ « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما أوق به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة على أهله خلفها ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة الأفغان ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم

الأنبياء فقال إذا دخلت الصلاة فهبلى من قلبك الخشوع ومن بدتك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب . وقال أبو الخير الأقطع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله أوصني فقال « يا أبا الخير عليك بالصلاة فاني استوصيت ربي فأوصاني بالصلاة وقال لي إن أترب ما أكون منك وأنت تصلي » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ركعتان في تفكير خير من قيام ليلة . وقيل إن محمد ابن يوسف الفرغاني رأى حاتما الأصم واقفا يخط الناس فقال له يا حاتم أراك تعظ

ثقات آتمة قال ابن النطان وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدم بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه . (١) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بن أسامة نقطع وفيه خليس ابن محمد أحد للتروكين ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروي من وجوه كلها غير محفوظة (٢) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء ابن عدي والدار قطنى في الاستجداء والخرائطى قال الدار قطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى في الموضوعات . وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى جعفر . قلت رواه الدار قطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد القورى وهو ضعيف جدا (٣) حديث أبي هريرة إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة الحديث الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدوا الداء البخل ورواه بهذه الزيادة الدار قطنى فيه (٤) حديث اصنع العروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله الدار قطنى في الاستجداء من رواية جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدّه مرسلًا وتقدم في آداب العيشة (٥) حديث إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس الحديث الدار قطنى في الاستجداء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينورى أورد ابن عدي له منكير وفي الميزان إنه ضعيف منكر الحديث ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح للرى متكلم فيه (٦) حديث أبي سعيد إن الله جعل للعروف وجوها من خلقه حبيب إليهم للعروف الحديث الدار قطنى في الاستجداء من رواية أبي هريرة العبد عنه وأبو هريرة ضعيف ورواه الحاكم من حديث طي وصححه (٧) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة الحديث ابن عدي والدار قطنى في الاستجداء والخرائطى والبيهقى في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٨) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله

« كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة (١) » وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر « بث رسول الله صلى الله عليه وسلم بثا عليهم قيس بن سعد ابن عبادة فجهدوا ففحر لهم قيس تسع ركائب فخذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم إن الجود لمن شيعة أهل ذلك البيت (٢) » . الآثار : قال طي كرم الله وجهه إذا أقبلت عليه الدنيا فأتفق منها فاتها لا تنقضي وإذا أدبرت عنك فأتفق منها فاتها لا تبقى وأنشد :

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلة فليس يتقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فلحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الرودة والنجدة والسكرم فقال أما للرودة لحفظ الرجل دينه وحنره نفسه وحسن قيامه بضيافته وحنن المنازعة والاقدام في السكراهية . وأما النجدة فالقالب عن الجار والصبر في اللواطن وأما السكرم فالترجيع المعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرافة بالسائل مع بذل النائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية قليل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعة ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعة . وقال ابن السكك عجبت لمن يشتري للمالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى مائلنا وأغضى عن جاهلنا . وقال طي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يذل ماله لطلبه لم يكن سخيًا وإنما السخي من يتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تازعه نفسه إلى حب السكره إذا كان يقينه بثواب الله تاما . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ قال أن تجود بمالك في الله عز وجل قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الاسراف ؟ قال الاتفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمه الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهول ولا مظاهره كالشاوره ألا وإن الله عز وجل يقول : إن جواد كريم لا يجاورني ثيم والاثم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه درب فاجر في دينه أخرج في معيشته يدخل الجنة بساخته . وروى أن الأنحف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي قال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل : أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتة فالمال لك

وصي واصل بن عطاء الفزالي لأنه كان يجلس إلى الفزاليين فإذا رأى امرأة ضيفة أعطاها عيشا . وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما يشب عليهم في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير للمال ما وفي به المرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمسال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعت بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت

والله يحب إفاتة اللفهان الدار قطني في السجادة من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مغرقا فالجمل الأولى تخدمت قبله والجمل الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجمل الثالثة رواها أبو يلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النخري ضعيف (١) حديث كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة الدار قطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والحرثي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين (٢) حديث جابر بث رسول الله صلى الله عليه وسلم بثا عليهم قيس بن سعد ابن عبادة فجهدوا ففحر لهم الجود لمن شيعة أهل ذلك البيت الدار قطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

لثلاثي الحسن أن
تصلي ؟ قال نعم قال كيف
تصلي ؟ قال أقوم بالأمر
وأشئ بالحشة
وأدخل بالمهية وأكبر
بالعظمة وأقرأ بالتريث
وأركع بالحشوع
وأسجد بالتواضع
وأقعد للشهد بالتجم
وأسلم على السنة
وأسلمها إلى ربى
وأحفظها أيام حياتى
وأرجع باليوم على نفسى
وأخاف أن لا تقبل
منى وأرجو أن تقبل
منى وأنا بين الحوف
والرجاء وأشكر من
عطف وأعلمها من
سألنى وأحمد ربى إذ
هدانى فقال محمد بن
يوسف مثلك يصلح
أن يكون واعظا وقوله
تعالى - لا تحربوا
الصلاة وأتم سكارى-

أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي فأبخل عليهم بالمال . وقال الحسن بذل اليهود في بذل الوجود منتهى الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك قال من كثرت أيادي عندي قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز بن مروان إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده وقال المهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في داري قل يا أمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال :

إن الصنعة لا تتكون صنعة حتى يصاب بها طريق الصنع

فاذا اصطفت صنعة فاعمد بها لله أو لدوى القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليخلان الناس ولكن أمطر العروف مطرا فان أصاب السكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللثام كنت له أهلا .

(حكايات الأسخياء)

عن محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها قالت إن معاوية بعث إليها بعال في غراريتين ثمانين ومائة ألف درهم فدعت بطبق فجعلت تنسجه بين الناس فلما أمت قالت يا جارية هلى فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة ما استطعت فبما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما ففطر عليه فقالت لو كنت ذكرتني لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تندوا عندي اليوم فأتوه حتى ملؤا عليه الدار فقال ما هذا فأخبر الخبر فأمر عبيد الله بشراء فاكهة وأمر قوما فطبخوا وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت اللوائد فأكلوا حتى صدروا فقال عبيد الله لو كلالته أو وجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليغذ عندنا هؤلاء في كل يوم . وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية قال الحسن إن علينا دينا فلا بد لنا من إتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ثمروا عليه يبخى عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتغلف عن الابل وقوم يسوقونه فقال معاوية ما هذا فذكر له فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد . وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه فوقع المأمون على ظهر رقعة إنك رجل اجتمع فيك خصلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فان كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك وإن لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن اسحق عن الزهري عن أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وأنت أعلم ^(١) » قال الواقدي فوالله لهذا كرامة المأمون بإيى بالحديث أحب إلى من الجائزة وهي مائة ألف درهم . وسأل رجل الحسن بن علي رضى الله عنهما حاجة فقال له يا هذا حق سؤلك إيى يعظم لدى ومعرفتي بما يجب لك تكبر على ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير في ذات الله تعالى قليل وما في ملكي وفاء لشكرك فان قبلت اليسور ورفضت

قيل من حب الدنيا وقيل من الاهتمام وقال عليه السلام « من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشئ من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه » وقال أيضا « إن الصلاة تسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول : اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهو خداج » أي ناقصة وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان في أفطار الأرض خوفانه لأنه تأهب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس قيل يضرب بينه وبينه سراق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه فاذا قال الله أكبر اطلع للملك في قلبه فاذا لم

(١) حديث أنس يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش الحديث وفي أوله قصة مع المأمون الدار قطنى فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن اسحاق عن الزهري بالعمنة ولا يصح .

عن مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتسكفه من واجب حقك فقلت فقال يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية وأعذر طي اللع فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على تفقاته حتى استقصاها فقال هات الفضل من الثلاثة ألف درهم فأحضر خمسين ألفا قال فما فعلت بالحسنة دينار قال هي عندي قال أحضرها فأحضرها فدفع الدينارين والدرهم إلى الرجل وقال هات من يعملها لك فأناؤه بحالين فدفع إليه الحسن رداءه لسكراء الحمالين فقال له مواله والله ما عندنا درهم فقال أرجوا أن يكون لي عند الله أجر عظيم واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا لنا جار صوام قوام يمتنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر فقال اسلموا لعملوا فقال ابن عباس ما أنصفناه أعطيتاه ما يشغله عن قيامه وصيامه أرجوا بنا نكس أعوانه على تجهيزها فليس لدينا من القدر ما يشغل مؤننا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى فقبل وفضلوا . ونكى أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لأعطين الشيطان أتى عدوه فقال محاورهم إلى أن رخصت الأسعار ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حتى نساؤه وقيمتهن خمسمائة ألف ألف فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع القاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاته . وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل بحق على بن طالب لما وهبت لي نعلتك بموضع كذا وكذا فقال قد فعلت وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء فدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضى وادع على بشرة آلاف درهم حتى أقرك بها ثم احببني فإن أهلى لا يتركونى محبوبا فقبل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملا على العراقيين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يترأ له فقال يوما لبعض خدام معن إذا دخل الأمير البستان فمرني فلما دخل الأمير البستان أعلاه فكتب الشاعر بيتا على خشبة وأقامها في الماء الذى يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فاذا مكتوب عليها :

أيا جود معن ناج معنا بهاجق فمألى إلى معن سواك شفيح

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فقال له فأمره بشربد فأخذها ووضع الأمير الخبنة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم فلما أخذها الرجل شكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج فلما كان في اليوم الثالث قرأها فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن حق على أن أعطيه حتى لا يبق في بيت مالى درهم ولا دينار . وقال أبو الحسن للدائى خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا فقامت أمهم فجاءوا وعطشوا فمروا بصور في خباء لها فقالوا هل من شراب ؟ قالت نعم فاناخوا إليها وليس لها إلا عروبة في كسر الخيمة فقامت احلبوها وامتلقوا لبنها فملاوا ذلك ثم قالوا لها هل من طعام قالت لا إلا هذه الشاة فليذهبها أحدكم حتى أهى لكم ما تكون قدام إليها أحدم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نمر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجنا سالمين فأنى بنا فانا صائمون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته خبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال ويلك مذبحين شاة قوم لا تعرفينهم ثم تحولين نمر من قريش قال ثم بعد مدة الجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجلا يتقنان البحر إليها ويبعانه ويتبعشان فمته

يكن في قلبه أكبر
من الله تعالى يقول :
صدقت الله في قلبك
كما تقول وتشعشع من
قلبه نور يلحق
بلكوت العرش
ويكشف له بذلك النور
ملكوت السموات
والأرض ويكتب له
حشو ذلك النور
حسنات وإن الجاهل
العاقل إذا قام إلى الصلاة
احتوشته الشياطين كما
يحتوش الذباب على
قطعة العسل فاذا كبر
اطلع الله على قلبه فاذا
كان شئ في قلبه أكبر
من الله تعالى عنده
يقول له كذبت ليس
الله تعالى أكبر في
قلبك كما تقول فيشور
من قلبه دخان يلحق
بمنان السماء فيكون
حجابا لقلبه من

فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكورة فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها يا أمة الله أتعرفيني ؟ قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بأبي أنت وأمي أنت هو ؟ قال نعم ، ثم أمر الحسن فاشترى لها من شياء الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين بكم وصلك أخي ؟ قالت بألف شاة وألف دينار فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله ابن جعفر فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت بألفي شاة وألفي دينار فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار وقال لها لو بدأت بي لأتبعهما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار . وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام إليه غلام من ثقيف فثنى إلى جانبه فقال له عبد الله ألك حاجة يا غلام ؟ قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أفيك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه فأخذ عبد الله يده ومشى معه إلى منزله ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال استفق هذه فقم مأدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياءهم للزيارة فزولوا عند قبره . وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ولهذا الرجل بعير صمين فقال له في النوم نعم فباعة في النوم بعيره بنجيبي فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرجل من نومه فاذا الدم يشج من نحر بعيره فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال أنا فقال هل بعثت من فلان بن فلان شيئا وذكر الميت صاحب القبر قال نعم بعثت منه بعيرى بنجيبي في النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو أبى وقد رأيته في النوم وهو يقول إن كنت أبى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان وسماه . وقدم رجل من قريش من السفرة ففر رجل من الأعراب على قارعة الطريق فد أقعده الدهر وأضر به للرض فقال ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه مابق معك من النفقة فادفعه إليه فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما ييكلك لملك استقلت ما أعطيناك ؟ قال لا ولكن ذكرت ماتا كل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عتبة بن أبي معيط داره التي في السوق بثميين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خاله فقال لأهله ما هؤلاء ؟ قالوا يكون لدهام فقال يا غلام ائتم فأعلمهم أن للسال والدار لهم جميعا . وقيل بعث هرون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأخذ إليه ألف دينار فغضب هرون وقال أعطيت خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيى فقال يا أمير المؤمنين إن لى من غاقي كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم نجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عسل فأمر لها بزق من عسل فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا ؟ فقال إنما سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثائة وستين مسكينا . وقال الأعمش اشتكت شاة عندي فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالنداء والعش . ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ قدودا لبنا وكان يحكى ليد أجلس عليه فاذا خرج قال خذ ماتحت البلد حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثائة

للكوت فيزداد ذلك
الحجاب صلابة ويلتقم
الشیطان قلبه فلا يزال
ينفع فيه وينفث
ويوسوس إليه ويرين
حتى ينصرف من
صلاته ولا يعقل ما كان
فيه . وفي الخبر «لولا
أن الشياطين يحومون
على قلوب في آدم لنظروا
إلى ملكوت السماء»
والقلوب الصافية التي
كل أدبها لكمال أدب
قوالها تصير سماوية
تدخل بالكبير في
السما كما تدخل في
الصلاة والله تعالى
حرس السماء من
تصرف الشياطين
فالقلب السماوى لا سبيل
للشیطان إليه فتبقى
هو اجس نفسانية عند
ذلك لا تنقطع بالتحصن
بالسما كما تنقطع تصرف

ديار من بره حتى تميت أن الشاة لم تبرا . وقال عبد الملك بن مروان لأسهاء بن خارحة بلقي عنك خصال حدثني بها ، فقال هي من غيري أحسن منها مني فقال عزمت عليك ، إلا حدثتني بها فقال يأمر للمؤمنين ممدودت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على من عليهم ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئا فاستكرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه فلما نظر إليه سليمان عثل بهذا البيت فقال :

إني سمعت مع الصباح مناديا يا من بين على النقي للعوان

ثم قال ما حاجتك ؟ قال ديني قال وكم هو ؟ قال ثلاثون ألف دينار قال لك دينك ومثله . وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فهيل له إنهم يستحيون من مالك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر مناديا فنادي من كان عليه قيس بن سعد حتى فهو منه برى . قال فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده . وعن أبي إسحق قال صليت التجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريما لي فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان فقلت لست من أهل هذا المسجد فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين . وقال الشيخ أبو سعد الحر كوشى النيسابوري رحمه الله : سمعت محمد ابن محمد الحافظ يقول سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا فولد لبحضهم مولود قال فجئت إليه وقلت له ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإنى درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء قال ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشيء قال فأخذه وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فأحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الليث وقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه فقال هذا مالكم وليس لرؤيائي حكم فقالوا هو يتسخى ميتا ولا يتسخى نحن أحياء فلما ألقوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب الولود وذكر له القصة قال فأخذ منها دينارا فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر وقال يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء فقال أبو سعيد فلا أدرى أي هؤلاء أسخى . وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض بمصر قال مروا فلانا يغسلني فلما توفي بلغه خبر وفاته فغضر وقال اتنوني بذكركم فأتى بها فغظف فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلي إياه أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحر كوشى : لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سباعا الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى - وكان أبوها صالحا - وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلقي عنه أنه كان ذات يوم راكبا حمارة فمر به فمطر زره فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قتلها وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

الشیطان والقلوب
الرادة بالقرب تدرج
بالقريب وتخرج في
طبقات السموات وفي
كل طبقة من أطباق
السما يتخلف شيء من
ظلمة النفس ويقتدر
ذلك يقل الهاجس إلى
أن يتجاوز السموات
ويقف أمام العرش
ففسد ذلك يلهب
بالكلية هاجس النفس
بساطع نور العرش
وتندرج ظلمات النفس
في نور القاب اندراج
الليل في النهار وتأدب
حينئذ حقوق الآداب
على وجه الصواب ،
وما ذكرنا من أدب
الصلاة يسير من كثير
وشأن الصلاة أكبر
من وصفنا وأكل من
ذكرنا وقد غلط
أقسام وظنوا أن

يا لهف قلبي على مال أجود به على اللقلين من أهل المروات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني مالميس عندي لمن إحدى للصينات

وعن الريع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عنى . وقال الريع سمعت الحميدى يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خبائه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونقض الثوب وليس عليه ثوب . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال وكان قلما يسك شيئا من سباحته فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك قل غفرج ثم قدم علينا فأسأله عن ذلك للمال فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفى بأصلها وقد وقف أكثرها ولكني بنيت بمنى مضربا يكون لأصحابنا إذا حجوا أن يزلوا فيه وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول :

أرى نفسى تنوق إلى أمور يقصر دون مبلغهن مالى
فنفسى لا تطاوعنى يخل ومالى لا يلفنى فعالى

وقال محمد بن عباد المهلبى دخل أبى على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال يا أمير المؤمنين : منع الموجود، سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى . وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكى على الأرض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى . ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلًا قبل منه الدحة وأمر حاسبة بنيله ما يصلحه وقال عسى أن أقوم من مرضى فأقام شهرين فأوحشه طول للقام فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مدحتنا وترك ما ترجى من الصدف
كما الدرهم والدنانير فى البسيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيهتان إلى إبراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب ؟ قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفا وجئنى بدواة فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برّا فاعجلنا فأتاك عاجل برّا
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل وتقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج عثمان يوما إلى المسجد فقال له طلحة قد نهيأ مالك فأقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك . وقالت سعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت منه ثقالا فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام على بقوى نفسه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربع مائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال إن هذه الرحم ماسألتى بها أحد قبلك إن لى أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فان شئت فأقبضها وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن فقال الثمن فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن : وقيل بكى على كرم الله وجهه يوما فقبل ما يبكيك فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهاننى . وآتى رجل صديقا له فدى عليه الباب فقال ماجاء بك ؟ قال على أربع مائة درهم دين فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكى فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحنى فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

للقصود من الصلاة
ذكر الله تعالى وإذا
حصل الذكر فأى
حاجة إلى الصلاة
وسلكوا طرقا من
الضلال وركبوا إلى
أباطيل الخيال ومحو
الرسوم والأحكام
ورفضوا الحلال
والحرام وقوم آخرون
سلكوا في ذلك طريقا
أدته إلى نقصان الحال
حيث سلبوا من
الضلال لأنهم اعترفوا
بالفرائض وأنكروا
فضل التوافل واعتروا
بسير روح الحال
وأهملوا فضل الأعمال
ولم يعلموا أن الله في
كل هيئة من الهيئات
وكل حركة من
الحركات أسراراً
وحكماً لا توجد في شيء
من الأذكار والأحوال

(بيان ذم البخل)

قال الله تعالى - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - وقال تعالى ولا يحببن الدين يغفلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة - وقال تعالى - الدين يغفلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله - وقال صلى الله عليه وسلم «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم قطعوا أرحامهم» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة بخل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة» (٣) وفي رواية ولا جبار وفي رواية ولا منان وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب للرب نفسه» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله ينفق ثلاثة الشيوخ الزاني والبخليل النان واللعيل المختال» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «مثل النفق والبخل كمثل رجلين عليهما جبان من حديد من لدن نديهما إلى تراقيهما فأما النفق فلا ينفق شيئا إلا سبقت أو وفرت على جلده حتى تخفى ثنائه وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بثراقيه فهو يوسعها ولا تنسع» (٦) وقال صلى الله عليه وسلم «خصلتان لا تجتمعا في مؤمن البخل وسوء الخلق» (٧) وقال صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر» (٨) وقال صلى الله عليه وسلم «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والنفثش إن الله لا يحب الفاحش ولا التفحش وإياكم والشح فأما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة قطعوا» (٩) وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إياكم والشح الحديث مسلم من حديث جابر بلفظ واقفوا الشح فإن الشح الحديث ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم ومصححه من حديث عبد الله بن عمرو إياكم والشح فأما أهلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة قطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا (٢) حديث إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم قطعوا أرحامهم الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ حرمتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم (٣) حديث لا يدخل الجنة بخل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة وفي رواية ولا منان أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهى عند الترمذي وله ولا بن ماجه لا يدخل الجنة سيء الملكة (٤) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم في العلم (٥) حديث إن الله ينفق ثلاثة الشيوخ الزاني والبخليل النان والفقير المختال الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخليل النان وقال فيه النفي الظلوم وقد تقدم والطبراني في الأوسط من حديث علي بن الله لينقض النفي الظلوم والشيخ الجليل والمائل المختال وسنده ضعيف (٦) حديث مثل النفق والبخل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث خصلتان لا تجتمعا في مؤمن البخل وسوء الخلق الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب (٨) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن الحديث البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار (٩) حديث إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة الحديث الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح

والأعمال روح وجسمان وما دام البخل في دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطفيل فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .

[الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره] روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر» وقيل ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد للظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة هذا لي فلا ينقص أحد منه شيئا . وفي الخبر «الصوم لي وأنا أجزى به» قيل أضافه إلى

« شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع »^(١) « وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت : واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنه شهيد فقلله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه »^(٢) وقال جبير بن مطعم « بينا نحن لسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خير إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى حمرة غطفت رداءه فوقف صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه المضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً »^(٣) وقال عمر رضي الله عنه « قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قتل غير هؤلاء كان أحق به منهم فقال انهم يخبروني بين أن يسألوني بالقحش أو يبخلوني ولست يبخل »^(٤) وقال أبو سعيد الخدري دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقبهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتيا وقالوا معروفاً وشكراً ما صنع بهما فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا فقال صلى الله عليه وسلم « لكن فلان أعطيت ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني في مسألته متأبطها وهي نار فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار فقال يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل »^(٥) وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى فجدودوا بحمد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى وشداً غصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بنفس من أدخله الجنة ألا إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة وخلق البخل من مقتله وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بنفس منها أدخله النار ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار »^(٦) وقال ﷺ « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ الجنة إلا سخي والبخل شجرة تنبت في النار فلا يبلغ النار إلا بخيل »^(٧)

وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث وإسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر القحش^(١) حديث شرماني الرجل شح هالع وجبن خالع أبو داود من حديث جابر بسند جيد^(٢) حديث وما يدريك أنه شهيد فقلله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والبرقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذي إلا أن رجلاً قال له أبشر بالجنة^(٣) حديث جبير بن مطعم بينا نحن لسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به الحديث البخاري وتقدم في أخلاق النبوة^(٤) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قوماً الحديث وفيه ولست يبخل^(٥) حديث أبي سعيد في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عمر فأتيا وقالوا معروفاً الحديث وفيه ويأبى الله لي البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبراز نخوه ولم يقل أحمد إنهما سألاه عن بعير ورواه البراز من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات^(٦) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجدودوا بحمد الله لكم الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد^(٧) حديث السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ في الجنة إلا سخي الحديث تقدم دون قوله فلا يبلغ في الجنة إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده .

تسه لأن فيه خلقاً من أخلاق الصمدية وأيضاً لأنه من أعمال السر من قبيل التروك لا يطلع عليه أحد إلا الله وقيل في تفسير قوله تعالى - الصائمون - الصائمون لأنهم ساحتوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم وقيل في قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - هم الصائمون لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم إفراغاً وبجازف له مجازفة وقيل أحد الوجوه في قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون - كان عملهم الصوم . وقال

وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو فد بن الحيان من سيدكم يا بني الحيان ؟ قالوا سيدنا جد بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوا من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجوح^(١) » وفي رواية أنهم قالوا « سيدنا جد بن قيس » فقال بهم تسودونه؟ قالوا إنه أكثر مالا وإننا نرى ذلك ثرى منه البخل فقال عليه السلام : وأى داء أدوا من البخل ليس ذلك سيدكم قالوا فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال سيدكم بشر بن البراء » وقال على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ينفخ البخل في حياته السخى عند موته^(٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل^(٣) » وقال أيضا قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد^(٤) » وقال أيضا « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم عند الله من الشح حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل^(٧) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم وما ذنبك صفه لى فقال هو أعظم من أن أصفه لك فقال ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون فقال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الجبال قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم البحار قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم السموات قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم العرش قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الله قال بل الله أعظم وأعلى قال ويحك فصف لى ذنبك قال يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتينى يسألنى فكأنما يستقبلنى بشعلة من نار فقال صلى الله عليه وسلم إليك عني لا تحرقنى ببارك فو الذى بعثنى بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألقى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ثم مت وأنت لثيم لأكبك الله فى النار ويحك أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر فى النار ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول - ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون -^(٨) » الآثار ، قال ابن عباس رضى الله عنهم الما خلق الله

(١) حديث أبى هريرة من سيدكم يا بني الحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الحديث الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يا بني سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التى قال فيها سيدكم عمرو ابن الجوح فرواها الطبرانى فى الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٢) حديث على إن الله لينفخ البخل فى حياته السخى عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده فى مسنده ولم أجده إلا إسنادا (٣) حديث أبى هريرة السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل الترمذى بلفظ ولجاهل سخى وهو بقية حديث إن السخى قريب من الله وقد تقدم (٤) حديث أبى هريرة لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد النساءى وفى إسناده اختلاف (٥) حديث خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن الحديث الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٦) حديث لا ينبغي لمؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا لم أره بهذا اللفظ (٧) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم من الشح الحديث وفيه لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر لا يدخل الجنة بخيل وقد تقدم (٨) حديث كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقوم بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى الحديث فى ذم البخل وفيه قال إليك عني لا تحرقنى ببارك الحديث بطوله وهو باطل لأصل له .

يحيى بن معاذ إذا ابتلى للريد بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بهرص الأكل فقد أحرقت النار الشهوة وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها فإذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه بيس كل عضوا وأحرق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله وإذا أشبع بطنه وترك حلقه فى لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمكن الشيطان ، والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جامع نأثم فكيف إذا كان

جنة عدن قال لها تزيي قريفت ، ثم قال لها اظهري أنهارك فأظهرت عين السلسيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الحمروأنهار العسل واللبن ثم قال لها اظهري سرورك وحبالك وكراسيك وحليك وحملك وحوور عينك فأظهرت فطر إليها قال تسكلمي فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لأسكنك بغيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخل لو كان البخل قيصا مالبسته ولو كان طريقا ما سلكته ، وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يعبد البخله لكننا نتصبر ، وقال محمد بن السكندر كان يقال : إذا أراد الله ب قوم شرأ أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلاتهم ، وقال علي كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض بعض الوسر على ما في يده ولو لم يرم بذلك قال الله تعالى ولا تنفخوا الفضل بينكم - وقال عبد الله بن عمرو الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه والبخل هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي لأدري أيهما أبعد غورا في نار جهنم البخل أو الكذب . وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي تسكلم فقال خير الناس من ألقى سخيا وعند القضب وقورا وفي القول متأنيا وفي الرقة متواضعا وعلى كل ذي رحم مشفقا ، وقام الرومي فقال من كان بغيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم يزل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النجحة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا - قال البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يصرون الهدى ، وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملسكان يناديان اللهم عجل لمسك تلقا وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه وكأعما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لأرى أن أعدل بغيلا لأن البخل يعمل على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه : واقه ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى - عرّف بعضه وأعرض عن بعض - وقال الجاحظ ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخله وأكل القديد وحك الجرب . وقال بشر بن الحرث البخيل لا غية له قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك إذا لبخل (١) » . « ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوت أمة قوامه إلا أن فيها بخلًا قال فماخيرها إذا (٢) » وقال بشر : النظر إلى البخيل يقسى القلب ولقاء البخله كرب على قلوب المؤمنين ، وقال يحيى بن معاذ : ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاجرا ولا بخله إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن العزّ أبخل الناس بما له أجودهم بعرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته فقال له يا إبليس : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال أحب الناس إلى المؤمنين والبخل وأبغض الناس إلى الفاسق السخي قال له لم قال لأن البخل قد كفاني بخله والفاسق السخي أخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتكم .

(حكايات البغلاء)

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طباخة بيض فأكل منه فأكثر

(١) حديث انك لبحيل [١] (٢) حديث مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامه
بقوامه إلا أن فيها غللا الحديث تقدم في آفات اللسان.

[١] قول العراقي إنك لبخيل ، هكذا بالنسخ من غير ذكره ولم يخرج به الشارح أيضا فليست ظاهرة .

قائماً ومناقب الشيطان
شعباً قائماً فكيف
إذا كان قائماً قلبه
للريد الصادق يصرخ
إلى الله تعالى من طلب
النفس الطعام والشراب
دخل رجل إلى
الطباقي وهو يأكل
خبزاً يابساً قبله بالماء
مع ملح جريش فقال
له كيف تشتهي هذا
قال أدعه حتى أشفيه
وقيل من أسرف في
مطعمه ومشربه يجعل
الصغار والنمل إليه في
دنياه قبل آخرته وقال
بعضهم الباب العظيم
الذي يدخل منه إلى
الله تعالى قطع الغذاء
وقال بشر إن الجوع
يصفى الفؤاد ويميت
الهوى ويورث العلم
الذي قال ذوالنون
ما أكلت حتى شعبت

وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به السكر والبخل فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال لا بأس عليك : تقياً ما أكلت فقال هاهنا تقياً طباهجة بيض الموت ولا ذلك، وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلاً وبين يديه تين فقطى التين بكسائه فجلس الأعرابي فقال له الرجل هل تعمن من القرآن شيئاً قال نعم فقرأوا الزيتون وطور سينين فقال وأين التين قال هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخاه ولم يطعمه شيئاً فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذته مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العود وقال له بخيائى أئمت صوت تشتهى أن أسمك قال صوت القلى . وبخى أن محمد بن يحيى ابن خاله بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فبذل نسب له كان يعرفه عنه فقال له قائل صلبى ما ندته فقال هى قتر فى قتر ومخافة منقورة من حب الحشخاش قيل لمن يعرضها قال الكرام السكاكوتون قال فما يأكل معه أحد قال بلى الذباب فقال سوانك بدت وأنت خاص به ووثوبك محرق قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً بالبراشم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوت النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه بإعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ما فعل . ويقال كان مروان بن أبى حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه فاذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له نراك لا تأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء فلم تخز ذلك قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبننى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إذ مس عينا أو أذنا أو خذا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا عينه لونا وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصته لونا ودماغه لونا وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لى فيه مرافق وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله مالى عليك إن رجعت بالجائزة فقال إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فأعطى ستين ألفاً فأعطاهما أربعة دنانق واشترى مرة لحماً بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى الفصاف بنقصان دانق وقال أكره الاسراف ، وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأبى عليه الأعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال سربنا فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً فجاء سائل فقال له رب المنزل بورك فيك فأعاد عليه المسئلة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالعصا قال فناداه الأعمش وقال اذهب وبخك فلا والله ما رايت أحداً أضيق مواعيد منه هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فوالله ما زادنى عليهما .

(بيان الإيثار وفضله)

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجة السخاء الإيثار وهو أن يجد بالمال مع الحاجة إليه وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لغير محتاج والبذل مع الحاجة أشد وكما أن السخاوة قد تنتهى إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة فكيف من يبخل بمسك المال ويعرض فلا يتداوى ويشتهى الشهوة فلا ينعم منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها بخاناً لأكلها ، فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه فانظر ما بين الرجلين فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء ، وقد أثبت الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « أعيأ امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له (١) » وقالت عائشة رضى الله عنها « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية

(١) حديث أبيمار رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له ابن حبان فى الضعفاء . وأبو الشيخ

ولا شربت حتى رويت
إلا عصيت الله وأهملت
بعضية . وروى القاسم
ابن محمد عن عائشة
رضى الله عنها قالت :
كان يأتى علينا الشهر
ونصف شهر ما تدخل
بيتنا نار للمصباح
ولا نسيره قال قلت
سبحان الله فبأى
شئ كنتم تعيشون
قالت بالتمر والماء وكان
لنا جيران من الأنصار
جزأهم الله خيراً كانت
لهم منائح فرباً واسونا
بشئ . وروى أن
حفصة بنت عمر رضى
الله عنها قالت لأبيها
إن الله قد أوسع الرزق
فلو أكلت طعاماً
أكثر من طعامك
ولبست ثياباً ألين من
ثيابك فقال إني
أخاصمك إلى نفسك

حتى فارق الدنيا ولوشنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا (١) و نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يديده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ لقد عجب الله من ضيفكم الليلة إلى ضيفكم ونزلت - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - (٢) « فالسقاء خلق من أخلاق الله تعالى والإشارة أعلى درجات السقاء ، وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى - وإنك لعلى خلق عظيم - وقال سهل بن عبد الله التستري : قال موسى عليه السلام : يا رب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمه فقال : يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازل جلييلة عظيمة فضله بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تلتف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة قال بخلق اختصاصته به من بينهم وهو الإشارة ، يا موسى لا يأتي أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبه وبوآته من جنى حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله ابن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أتى السلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آتت به هذا الكلب قال ما هي بأرض كلاب إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السقاء إن هذا الغلام لأسخى منى فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه ، وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى كان أحوج منى إليه فبعت به إليه فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة آيات ورجع إلى الأول ، وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاخترارا كلاهما الحياة وأحبابها ، فأوحى الله عز وجل اليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة أهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه السلام يقول بخ بخ من مثلك يا ابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك اللاتسكة فأنزل الله تعالى - ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد - (٣) وعن أبى الحسن الأنطاكي أنه اجتمع

في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم (١) حديث عائشة ماشع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولوشنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ماشع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبر برحق مضى لسبيله وللشيخين ماشع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعا حتى قبض ، زاد مسلم من طعام (٢) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله الحديث في نزول قوله تعالى - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر

ألم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا يقول مرارا فبكت فقال قد أخبرتك والله لأشاركنه في عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء . وقال بعضهم ما غلت لعمري دقيقا إلا وأنا له حاص . وقالت عائشة رضى الله عنها : ماشع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبر برحق مضى لسبيله . وقالت عائشة رضى الله عنها : أدبعوا قرع باب الملكوت يفتح لكم ولو كيف نديم قالت بالجوع والعطش والظما . وقيل ظهر إليس ليحي بن زكريا عليها السلام وعليه معاليق فقال ما هذه قال

عنده نيف وثلاثون نفسا وكانوا في قرية بقرب الري ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفأوا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فاذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إشارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به قفلت أسقيك فأشار إلى أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمي إلى أن انطلق به إليه فجثه فاذا هو هشام بن العاص قفلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه فأشار هشام انطلق به إليه فجثه فاذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فاذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فانه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه واستعار ثوبا فمات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد فبعضنا كلب من البلد فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة مية فصعدنا إلى موضع عال وقدنا فلما نظر الكلب إلى لئته رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا فجاء إلى تلك الية وقد ناحية ووقعت الكلاب في الية لما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الية وبقى العظم ورجعت الكلاب إلى البلد فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها فليلا ثم انصرف ، وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فما يرضه عز وجل .

(بيان حد السخاء والبخل وحققتيهما)

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ولأجله يحفظ المال ويسكه فان كان يصير بماله المال بخيلاً فإذا لا ينفك أحد عن البخل وإذا كان الامساك مطلقاً لا يوجب البخل ولا معنى للبخل إلا الامساك فما الذي يوجب الهلاك وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول : قد قال قائلون حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخل وهذا غير كاف فان من يرد اللحم مثلاً إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد بخيلاً بالاتفاق وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي ثم يضايقهم في قسمة ازادادوها عليه أو عثرة أكلوها من ماله يعد بخيلاً ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخضاه عنه عد بخيلاً وقال قائلون : البخل هو الذي يستصعب العطية وهو أيضاً قاصر فانه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالخبة وما يقرب منها ويستصعب ما فوق ذلك وإن أريد به أنه يستصعب بعض المطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض المطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا في الجود فقيل الجود عطاء لا من وإسعاف من غير روية . وقيل الجود عطاء

الحديث في نزول قوله تعالى - ومن الناس من يتتبع نفسه ابتغاء مرضات الله - أحمد مختصراً
من حديث ابن عباس شري على نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قام مكانه الحديث
وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أنقص لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه
والحدث منكر .

الشهوات التي أصيب بها ابن آدم قال هل تجد لى فيها شهوة قال لا غير أنك شبت ليلة فقلناك عن الصلاة والذكر فقال لا جرم إني لا أتبع أبدا قال إبليس لا جرم إني لأنصح أحدا أبدا . وقال شقيق العباد حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع . وقال لقمان لابنه إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وتعدت الأعضاء عن العبادة . وقال الحنـ لاتجمعوا بين الأدميين فانه من طعام المنافقين وقال بعضهم أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية فيكره للبريد أن يوالى فى الإفطار أكثر

من غير مسأله على رؤية التقليل . وقيل الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن وقيل الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر وقيل من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل، وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل بل نقول : المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل فالإمساك حيث يجب البذل وبخل والبذل حيث يجب الإمساك تبذير وبينهما وسط وهو الحمد وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء وقد قيل له - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط - وقال تعالى - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والقبض وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصارها فهو متسخر وليس بسخي بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه . فان قلت فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله . فأقول : إن الواجب قسمان واجب بالشرع وواجب بالمرودة والعادة والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المرودة فان منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة وينع عياله وأهله النفقة أو يؤديها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع وإنما يتسخر بالتسكف أو الذي يتيمم الحبث من ماله ولا يطيّب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخيل . وأما واجب المرودة فهو ترك الضيقة والاستقصاء في المحقرات فان ذلك مستقيم واستقباح ذلك يخالف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من الضيقة ويستقبح من الرجل الضيقة مع أهله وأقاربه ومما يليه مالا يستقبح مع الأجانب ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ويستقبح في الضيقة من الضيقة مالا يستقبح في المعاملة فيختلف ذلك بعافيه من الضيقة في ضيقة أو معاملة وبما به الضيقة من طعام أو ثوب إذ يستقبح في الأطعمة مالا يستقبح في غيرها ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من الضيقة وكذلك بمن معه الضيقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي ومن منه الضيقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المرودة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال فان صيانة الدين أهم من حفظ المال فمانع الزكاة والنفقة بخيل وصيانة المرودة أهم من حفظ المال والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضائق معه هاتك ستر المرودة لحب المال فهو بخيل ثم تبقى درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المرودة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجته في الآخرة وإمساك المال عن هذا الغرض بخيل عند الأكياس وليس يبخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما وربما يظهر عند العوام أيضا

من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تترك إلى العادة وتنسج بالسهوة . وقيل الدنيا بطنك فعلى قدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا . وقال عليه السلام « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيات يقعن صلبه فان كان لإحالة ثلث لطعامه وثلث لشربه وثلث لنفسه » وقال فتح الموصلي : محبت ثلاثين شيئا كل يومين عند مفارقتي إياه بترك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

[الباب الأربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار]
جمع من للشاغل

سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج لمنعه وقال قد أدبت الزكاة الواجبة وليس طي غيرها ويختلف استنباح ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع وواجب للرودة الاثثة به فقد تبرأ من البخل ، نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فإذا اتصفت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا توجه إليه للامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والرودة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر والثناء فهو يبايع وليس بجواد فإنه يشتري الدخ بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه والجود هو بذل الشيء من غير عوض هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى وأما آدمي فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً فإن كان الباعث عليه الخوف من الهباء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من النعم عليه فكل ذلك ليس من الجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعراض معجلة له عليه فهو معارض لجواد كما روى عن بعض المتعبدين أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة فقالوا لها سأل عماشئت وأشاروا إلى حبان بن هلال فقالت ما السخاء عندهم قالوا العطاء والبذل والايثار قالت هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين قالوا أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة قالت تريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا نعم قالت ولم قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحانه الله فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتهم عليه قالوا لها فما السخاء عندهم عندك يرحمك الله قالت السخاء عندي أن تعبدوا الله متممين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطاع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء إن هذا في الدنيا لتبسيح وقالت بعض المتعبدين أعجبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط قيل فقيم قالت السخاء عندي في المهرج وقال المحاسبي السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تلتفها الله عز وجل ويسخو قلبك يبذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحب أن تختار لنفسك .

(بيان علاج البخل)

اعلم أن البخل سببه حب للمال ولحب للمال سببان : أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أظام الولد مقام طول الأمل فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخله مجبنة مجبنة ^(١) » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بجى الرزق قوى البخل لا محالة . السبب الثاني : أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد معه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا بعداواة نفسه عند

(١) حديث الولد مبخله زاد في رواية محزنة ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبراز من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

الصوفية كانوا يمدون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى . وكان أبو عبد الله بن جابر قد صام نيفاً وخمسين سنة لا يفطر في السفر والحضر فجهد به أصحابه يوماً فأفطر فاعتل من ذلك أياماً فإذا رأى المرید صلاح قلبه في دوام الصوم فليصم دائماً ويدع للأفطار جانباً فهو عون حسن له على ما يريد . روى أبو موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أي لم يكن له فيها موضع وكره قوم صوم الدهر وقد ورد

المرض بل صار عجا للدنانير عشقها يلتذ بوجودها في يده وبقدرة عليها فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه وجمع هذا فلا تسمع نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة وهذا مرض للقلب عسير العلاج لا سيما في كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فان الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ ثم قد نسي الحاجات وبصر الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقافهو جاهل بالإمن حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حب المال وإنعسا علاج كل علة بمضادة سببها فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير والبصر وتعالج طول الأمل بذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبه في جمع المال وضياعه بعدم تعالج النفقات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شروان ولده إن كان تقيا صالحا فانه كافيه وإن كان فاسقا فيستعين بماله على العصية وترجع مظلمته إليه ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعده الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستباحتهم له فانه ما من بخيل إلا ويستبجح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خلق ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجة إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا فان تحركت الشهوة فينبغي أن يحجب الخاطر الأول ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصد عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الحلاء فدعا تلميذه له وقال انزع عن القميص وادفعه إلى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال لم آمن على نفسي أن تغير وكان قد خطر لي بذله ولا تزول حفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزول المشق إلا بفارقة العشوق بالسفر عن مستقره حتى إذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله بل لورماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له ومن لطائف الخيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ولكن يعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا يلعب واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه ثم ينقل عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلب بعضها على بعض كما تسلب الشهوة على الغضب وتكسر سرورته بها ويسلب الغضب على الشهوة وتكسر رغبتها به إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الأقوى بالأضعف فان كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فانه يقطع من علة ويزيد في أخرى مثلها إلا أن علامة ذلك أن لا يشغل عليه البذل لأجل الرياء فذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فان ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها

في ذلك ما رواه أبو قتادة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بمن صام الدهر قال «لا صام ولا أفطر» وأول قوم أن صوم الدهر هو أن لا يفطر العبدن وأيام التشريق فهو الذي يكره وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما وقد ورد «أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما» واستحسن ذلك قوم من الصالحين لا يكون بين حال الصبر وحال الشكر . ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم

ثم يأكل بعضها بضاحي ترجع إلى اثنين قويتين عظيمتين ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحدهما الأخرى فتأكلها وتضمن بها ثم لا تزال تبقى جاثمة وحدها إلى أن تموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يجمعها ويجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ثم تقع الضاية بمحوها وإذا تبنا بالمجاهدة وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات أن لا يصل بعفتها فانها تقتضى لامحالة أعمالا وإذا خولقت صفات وماتت مثل البخل فانه يقتضى إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفته البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه فان علاج البخل بعلم وعمل فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ولكن قد بقوى البخل بحيث يسمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فبقي العلة مزمنة كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فانه لاحية فيه إلا الصبر إلى الموت وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في الريدين أن يمنهم من الاختصاص بزواياهم وكان إذا توم في مريد فرحه بزأوته ومافيا نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع مملكه وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يعيل إليه قلبه فهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فان كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألت به مصيبة بقدر حبه فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد ساء عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقير والمهلك . حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أوقرها قال كيف قال إن كسر كان مصيبة لا يجبر لها وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال صدق الحكيم إيتيه لم يعمل إلينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فان الدنيا عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار وعدوة أولياء الله إذ تجمعهم بالصبر عنها وعدوة الله إذا تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها فان المال لا يحفظ إلا بالحراثن والحراس والحراثن لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدرهم والدنانير فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس يبخل ولا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله بل كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بتقدير الحاجة.

(بيان مجموع الوظائف التي على الصبر في ماله)

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف . الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لما ذاخلق وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ولا يعطيه من همة فوق ما يستحقه . الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام كال السلطان ويحجب الجهات المكروهة الفارحة في ناروة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة والسؤال الذي فيه الدالة وهتك الروء وما يجري مجراه . الثالثة : في القدر الذي يكتبه فلا يستكثر منه ولا يستقل بل القدر الواجب ومعياره الحاجة والحاجة ملبس ومسكن ومطعم ولكل واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى ومادام ما مثلا إلى جانب القلة ومتفر من حد

يوما ويفطر يومين
ومنهم من كان يصوم
يوم الاثنين والخميس
والجمعة . وقيل : كان
سهل بن عبدالله يأكل
في كل خمسة عشر يوما
مرة وفي رمضان يأكل
أكلة واحدة وكان
يفطر بالماء القراح
للسنة . وحكى عن
الجنيدي أنه كان يصوم
على الدوام فإذا دخل
عليه إخوانه أفطروا معهم
ويقول ليس فضل
المساعدة مع الإخوان
بأقل من فضل الصوم
غير أن هذا الاقطار
يحتاج إلى علم فقد
يكون الداعي إلى ذلك
شره النفس لانية
الموافقة وتخليص الية
لحض الموافقة مع
وجود شره النفس
صعب ، وصعب شيخنا

الضرورة كان حقا وبهي من جملة المحققين وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لمعقها وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد . الرابعة : أن يراعى جهة الصرح ويقصد في الاتحاق غير مبذر . ولا مقتر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه فان الاتحاق في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء . الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والاتحاق والامساك فيأخذ ما يأخذ ويستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ولذلك قال على رضي الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أوماسين على العبادة فان أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقه وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قبض وإزار وفراش وآنية لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يعتمد منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حبة المال جوهرها وترباها وأبقى معها فلا تضره كثرة المال ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة الصبي الذي يرى للعزم الخافق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترباها فيقتدى به ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فيأخذها اقتداء به يقتله في الحال إلا أن قيل الحية يدرى أنه قتل وقتيل المال قد لا يعرف وقد شبهت الدنيا بالحية قصيل :

هي دنيا بحية تنفث السم وإن كانت الحية لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطى قلل الجبال وأطراف البحر والطرق والشوك والفعال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال .

(بيان ذم النفي ومدح الفقر)

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل النفي الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكننا في هذا الكتاب ندل أن الفقر أفضل وأعلى من النفي على الجملة من غير التفات إلى تفضيل الأحوال وتقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحرث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم العامة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فيأسوء ما تحكمون بتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى وما ينهى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الثقل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تاتى من الدنيا شهوته ولا تنقطع عنها رغبته بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم صلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتام تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في محل التحيرين

يقول لى سنين ما أكلت شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء بل يقدم إلى النسي فأراه من فضل الله ونعمته وفضله فأوافق الحق في فعله . وذكر أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر من عادته تقديم الطعام إليه قال ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها فدخلت السنسور وأخذت دجاجة كانت هناك فقلت هذا عقوبة لى على تصرفى في أخذ الرمانة . ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أى وقت أحضر الطعام أكل منه ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار في ما كوله وملبوسه

كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا ينشأ عن البيت الظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحشى مظلم كذلك لا ينشأ عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطله بإبيد الدنيا لا كسيد أبقياء ولا كأحرار كرام توهك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقبكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيركم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلكم إلى الملك الديان هراة فرادى فبوقصكم على سواكم ثم يهزيمكم بسوء أعمالكم ثم قال الحارث رحمه الله إخواني فهؤلاء علماء السوء هياطين الإنس وقتة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفضها وأكروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وعين وفي الآخرة هم الخاسرون أو يصفو الكبريم فضله [وبعد] فأنذرت الممالك المؤثر للدنيا سروره بمزج بالتنصيص فيتنجر عنه أنواع المصومون وفنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره فرح المالك برجاله فلم يبق له دنياه ولم يعلم له دينه - خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين - فإلها من مصيبة ما أظلمها ورزية ما أجلمها ألقوا الله إخواني ولا يضرنكم الشيطان وأوليائه الأنسين بالحجج الداحضة عند الله فأنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأقسهم المآذير والحجج ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيزين الثرورون بذكر الصحابة ليحرم الناس على جمع المال وقدها من الشيطان وما يشعرون ويحك أيها الفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن ابن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك قهلك لأنك متى زعمت أن أخبار الصحابة أرادوا المال لكثرة والثرف والزينة قد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أظلم وأفضل من تركه فقد ازدريت محمدا والمرحلين ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهة في هذا الخير الذي رغبته فيه أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أظلم من تركه فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهامهم عن جمع المال ^(١) وقد علم أن جمع المال خير للأمة فقد غشهم بزعمك حين نهامهم عن جمع المال كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رؤوفا ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لبيادته حين نهامهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم أوزعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهامهم عنه وأنت عليهم بما في المال من الخير والفضل فلذلك رغبته في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها الفتون تدبر بعقلك ماذا لك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يموت من الدنيا إلا قوتا ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إننا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب سبحانه الله وما تخافون على عبد الرحمن كعب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مضطربا يريد كعبا فمر بعظم لحي بصير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا فبقي لكعب إن أبا ذر يطلبك فخرج هاربا حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من

(١) حديث الترمذي عن جمع المال ابن عدي من حديث ابن مسعود ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التجارين الحديث ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث لا تجمعوا مالا تأكلون وكلاهما ضعيف .

وجميع تصاريغه وكان حاله الوقوف مع فعل الحق وقد كان له في ذلك بداية يميز مثلها حتى قل أنه كان يتيقأيا لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ولم يشعر أحد بحالته من الزمان ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتمائم وكانوا يتكفون الأطعمة ويأتون به إليه وهو يرى في ذلك فضل الحق والواقعة . سمعت يقول أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم وينقض الحق على محبتي الصوم بفعله فأوافق الحق في فعله . وحكى عن بعض

أبي ذرّ فقال له أبو ذرّ هيه يا ابن اليهودية تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال « يا أبا ذرّ قلت ليك يا رسول الله فقال : ألا كثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعنماله وقدمه وخلفه وقليل معهم ثم قال يا أبا ذرّ قلت نعم يا رسول الله بآبي أنت وأمي ، قال ما يسرني أنلى مثل أحد أثقه في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال بل قيراطان ثم قال يا أبا ذرّ أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل (١) » فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه خوفا حتى خرج وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه غير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها ما هذا ؟ قيل غير قدمت لعبد الرحمن قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والسلمين يدخلون سعيًا ولم أر أحدا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبوا (٢) » فقال عبد الرحمن إن الصبر وما عليها في سبيل الله وإن أرقاءها أحررا لعلنى أن أدخلها معهم سعيًا وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا (٣) » ويحك أيها الفتون فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراء بالجنة (٤) أيضا يوقف في عرسات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف وأنفق منه قصدا وأعطى في سبيل الله سمحا منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحب في آثارهم حبوا . فساظنك بأمثالنا الفرق في فن الدنيا وبعد فالمعجب كل المعجب لك يا مفتون تتمرغ في تغاليط الشبهات والسحت وتكالب على أوساخ الناس وتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة وتقلب في فن الدنيا ثم تحتج ببعد الرحمن وتزعم

الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبيل غروب الشمس إلا في رمضان. وقال أبو نصر السراج أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم قد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل والأليق بموافقة العلم إضاء الصوم قال الله تعالى -ولا تبطلوا أعمالكم- ولكن أهل الصدق لهم نيات فيها يعملون فلا يمارضون والصدق

(١) حديث أبي ذرّ الأثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا الحديث متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وإنكار أبي ذرّ عليه فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد الهامسي بلاني كاذكره للصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخضر من هذا اللفظ كعب إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذرّ عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهبا الحديث وفيه ابن لميعة (٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والسلمين شفا الحديث في أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا في كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر قراء المهاجرين والسلمين وفيه عمارة بن زاذان يختلف فيه الحديث (٣) حديث أنه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا البرار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث بشر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه أبو بكر في الجنة الحديث وفيه وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح

أنك إن جمعت المال قد جمعت الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ويعحك إن هذا من قياس إبليس ومن قتياله لأوليائه وأسأف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف ضائعك وفضل الصحابة ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله فكسبوا حلالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا وقدّموا فضلا ولم يمنعوا منها حقا ولم يخلوا بها لكنهم جادوا الله بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا فبالله أكذاك أنت والله إنك لبعيد الشبه بالقوم [وبعد] فإن أختيار الصحابة كانوا للسكنة محبين ومن خوف الفقر آمنين وبالله في أرزاقهم واتقين وبقادير الله مسرورين وفي البلاء راضين وفي الرخاء شاكرين وفي الضراء صابرين وفي السراء حامدين وكانوا لله متواضعين وعن حبّ الملوك والكثرة ورعين يبتالوا من الدنيا إلا الباطح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهاها وتجرّعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهراتها فبالله أكذاك أنت . ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا ذنب مجلت عقوبته من الله وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشمار الصالحين وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كشيء حزينا وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا قيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا وإذا كان عندهم شيء فرحوا وأنت لست كذاك قال إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا وللدنيا ومايراد بها فكأنهم على جناح خوف وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا الآن تعاهدنا ربنا فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذاك أنت إنك لبعيد الشبه بالقوم وأسأف لك أحوالك أيها المقتون من أحوالهم وذلك أنك تطفئ عند التقى وتبطر عند الرخاء وتفرح عند السراء وتغفل عن شكر ذي النعماء وتقطع عند الضراء وتسخط عند البلاء ولا ترضى بالقضاء نعم وتبغض الفقر وتأف من المسكنة وذلك غر الرسلين وأنت تأف من غرم وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بصفائه وكثي به إثمًا وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم فربت عليهم أجسامهم ^(١) » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ليحيى . يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها - وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فبالها حسرة ومصيبة نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والملوك والفخر والزينة في الدنيا . وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أوللتها لقي الله وهو عليه غضبان وأنت غير مكترث بما حلّ بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والملوك نعم وعسالك السكت في الدنيا أحب إليك من النقطة إلى جوار الله فأنت تكره لقاء الله والله لا تلتفتك أكره وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنياه فاتته اقرب من النار مسيرة شهر وقيل سنة » وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دينك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها . وقد بلغنا أن رسول الله

محمد لم يه كيف كان
والصادق في خفارة
صدقه كيف تقلب وقال
بعضهم إذا رأيت
الصوفي يصوم صوم
التطوع فاتمه فانه قد
اجتمع معه شيء من
الدنيا . وقيل إذا كان
جماعة متواقفين
أشكالا وفيهم مرید
يحتونه على الصيام فان
لم يساعدهم يهتموا
لافطاره ويتكفوا له
رفاقه ولا يعملوا حاله
على حالهم وإن كانوا
جماعة مع شيخ
يصومون لصومه
ويفطرون لافطاره إلا
من يأمره الشيخ بغير
ذلك . وقيل إن بعضهم
صام سنين بسبب شاب
كان يصحبه حتى ينظر
الشاب إليه فيتأدب
به ويصوم بصيامه .

(١) حديث شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم الحديث تقدم ذكره في أوائل كتاب فم البخل عند الحديث الرابع منه من أسف على دنياه فاتته اقرب من النار مسيرة سنة .

صلى الله عليه وسلم قال «من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه» (١) وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى وعساك تنسى بأمور دنياك أضعاف ما تنسى بأمور آخرتك وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كما لا للموت والرفعة في الدنيا وعساك ترى المخلوقين ماسخا لله تعالى كما تكرم وتمظم ويحك فكان احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ولا تكتر باطلاع الله عليك فيها فكان الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس فكان العيب أعلى عندك قدرا من الله تعالى الله عن جهلك فكيف تنطق عند ذوى الألباب وهذه الثالب فيك أفة لك متلوثة بالأنذار وتحتج بحال الأبرار هيئات هيئات ما أبدك عن السلف الأخيار والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهدهم في حرم عليكم إن الذى لا بأس به عندكم كان من اللوقات عندهم وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبار تلحصى فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل ليت صومك على مثال إفطارهم وليت اجتهدك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال غيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوى عنهم منها لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت فريق خيار الصحابة في الموت عند الله وفريق أمثالكم في السفالة أويغفر الله الكريم بفضلهم [وبعد] فأنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتخلف والبذل في سبيل الله فقدر أمرك ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا. لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام أقطع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات المزوجة بالسحت والحرام وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اجتأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام» (٢) أيها المفلور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أظلم وأفضل وأعظم لتدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله وسبيل البر بلفنا ذلك عن بعض أهل العلم قال لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تصدق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أم لا فان زعمت أنك أتقى وأورع من أن تلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ويحك إن كنت كما زعمت بالثبات في الورع فلا تعرض للحساب فان خيار الصحابة خافوا للسؤال وبلغنا أن بعض الصحابة قال ما سرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغاني الكسب عن صلاة الجماعة قالوا ولم ذاك رحمك الله قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول

وحكى عن أبي الحسن السكى أنه كان يصوم الدهر وكان مقبلا بالصرة وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة وكان قوته في كل شهر أربع دوايق يعمل يده حبال الليف ويبيعها وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول لا أسلم عليه إلا أن يفرط ويأكل وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية في ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس وقال بعضهم ما أحاس لله عبد قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام وقيل أقام أبو الحسن التتيسى

(١) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه لم أجده إلا بلافا للحارث بن أسد الهاشمي كما ذكره الصنف عنه (٢) حديث من اجتأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث.

فيا كلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبكم أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتكم فيما أعطيتكم (١) « وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ما سرتني أبني حمر النعم ولا أكون في الرغيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه يا قوم فاستبقوا السباق مع المتقين في زمرة الرسلين عليهم السلام وكونوا وجلين من التخلف والاقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين لقد بلغني « أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضي الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خففته العبرة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فصاد في البكاء فلما أكثر البكاء قيل له أكل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وماعه أحد في البيت غيري فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عني فقلت له فذاك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب فقال هذه الدنيا تطاولت إلى بنتها ورأسها فقالت لي يا محمد خذني فقلت إليك عني فقالت إن تتج مني يا محمد فإنه لا ينجو مني من جددك فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني فقطعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « يا قوم فهو لا الأخياري بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلال وبحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الاقطاع أف لك ما أعظم جهلك وبحك فان تغلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد للصطفى لتظنن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ولئن أزدت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير ولئن لم تنقع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ولئن رضيت بأحوال للتخلفين لتقطعن عن أصحاب الجنتين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نصيب التتممين ولئن خالفت أحوال التقيين لتكوتن من المعتبين في أهوال يوم الدين فتدبرو بحك ما سمعت [وبعد] فان زعمت أنك في مثال خيار السلف فقم بالقليل زاهد في الحلال بذول المسالك مؤثر في نفسك لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لندك مبغض للتسكّر والنقي راض بالفقر والبلا فرح بالقلة والسكينة مسرور بالقل والضة كاره للعلو والرضا قوى في أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك قد حاسبت نفسك في الله وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ولئن توقفت في المسألة ولئن يحاسب مثلك من التقيين وإنما تجمع المال الحلال للبدل في سبيل الله وبحك أيها الغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر أما علمت أن ترك الاشتغال بالمسالك وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكّر والفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أعنافا بلقنا عن بعض الصحابة أنه قال لو أن رجلا في حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله كان الدار أفضل. وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه وأما الآخر فانه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها فأيهما أفضل قال بعيد واقه ما بينهما الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها وبحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمسالك إن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنتم لعبسك وأرضى لبالك وأقل لعمومك لما عذررك في جمع المسالك وأنت بترك للمسالك أفضل ممن طلب المسالك لأعمال البر نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله

صوم أيام البيض
فبيض ثلث جسد
بكل يوم صامه حتى
ايض جميع جسد
بصيام أيام البيض
ويستحبون صوم
النصف الأول من
شعبان وإفطار نصفه
الأخير وإن واصل بين
شعبان ورمضان فلا
بأس به ولكن إن
لم يكن صام فلا يستقبل
رمضان يوم أو
يومين وكان يكره
بعضهم أن يصام رجب
جميعه كراهة المضاهاة
برمضان ويستحب
صوم العشر من ذي
الحجة والعشر من
المحرم ويستحب الخميس
والجمعة والسبت أن
يصام من الأشهر الحرام
وورد في الخبر من صام
ثلاثة أيام من شهر

(١) حديث يدخل قراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون الحديث لم أر له أصلا
(٢) حديث أن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل الحديث في دفع النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله إليك عني الحديث البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبي بكر فحدثنا بجراب فأتى بماء وعسل الحديث قال الحاكم صحيح الإسناد قلت بل ضعيف

فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل . [وبعد] فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تأسى بنبيك إذ هداك الله به وترضى ما اختاره لنفسه من مجانية الدنيا ويحك تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانية الدنيا فسر مع لواء الصطفى سابقا إلى جنة للأبدى فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سادات المؤمنين في الجنة من إذا نفدى لم يجد عشاء وإذا استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ولم يقدر على أن يكتب ما يشي به مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه - فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ^(١) » ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بهذه البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك لله والفضل تجمعهم لا أولئك خوفًا من الفقر تجمعهم وللتهم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمة والتعظم والتكرمة تجمعهم ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ويحك راقب الله واستحي من دعوئك أيها الغرور ويحك إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرا أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزييا على نفسك معترقا باسماؤك وجلا من الحساب فذلك أجنى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجاج لجمع المال - إخواني اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في الباطل لهم ونحن في دهر الحلال فيه مفقود وكيف لنا من الحلال ، مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال في دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه [وبعد] فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم وأين لنا مثل ضمايرهم وحسن نياتهم دهننا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها وعن قريب يكون الورود في سعادة الخفين يوم النشور وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل وقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الفنى ولا مزيد عليه ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب الثقور والزهد ويشهد له أيضا ما روى عن أبي أمامة الباهلي « أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة قليل قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة أمالك في أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبا وفضة لسارت قال والذي بمك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ولأفعلن ولأفعلن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فأخذ غنا فمعت كما ينمو الدود فضافت عليه المدينة فتحنى عنها فنزل وأديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والمصر في الجماعة ويدع ما - وأهم ثم تمت وكثرت فتحنى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة وطلق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ فقيل يا رسول الله أخذ غنا فضافت عليه المدينة وأخبر بأمره كله فقال يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى - خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم - وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلم رجلا من جبرئيل رجلا من بني سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا يأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجوا فيأخذوا الصدقة من المسلمين وقال مرة يا ثعلبة بن حاطب وبخلان رجل من بني سليم وخذا صدقاتهما

وقد تقدم قبل هذا في هذا الكتاب ^(١) حديث سادات المؤمنين في الجنة من إذا نفدى لم يجد عشاء الحديث عزاء صاحب مستند القردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء في الجنة الحديث ولم أره في مساجم الطبراني

حرام الخبيث والجمعة والسبت بعد من النار سبعائة عام .

[الباب الحادى والأربعون في آداب الصوم ومهامه]

آداب الصوفية في الصوم ضبط الظاهر والباطن وحكف الجوارح عن الآثام كنع النفس عن الطعام ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار وليس من الأدب أن يسلك الريد عن المباح ويغطر بحرام

فخرجنا حتى أتينا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى فانطلقا نحو السلمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إليه فمزها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا لا يجب عليك ذلك وما تريد تأخذ هذا منك قال بل خذوها نفسي بها طيبة وإنما هي لتأخذوها فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا ثعلبة فسألاه الصدقة فقال أروني كتابكما فنظر فيه فقال هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأهما قال يا وبع ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للسلمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السلمي فأمر الله تعالى في ثعلبة - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلهذا آتااهم من فضله فمخولوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتى أتى ثعلبة فقال لأم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال إن الله ممنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحشو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان ^(١) فهذا طغيان للمال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ولأجل بركة الفقر وشؤم النفي آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته حتى روى عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال كانت لي من رسول الله منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقت معي وقلت يا ب منزل فاطمة ففرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله فقال عمران بن حصين فقالت والذي بشك بالحق نبيا ما علي إلا عيادة فقال أصنم بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسد قد واريته فكيف برأسي فألقى إليهما لادة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع فبكي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا بنتاه فوافقه ما ذهقت طعاما منذ ثلاث وإني لأكرم على الله منك ولوسألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أيسري فوافقه إنك لسيدة نساء أهل الجنة فقالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران فقال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ثم قال لها اقمن يا بن عمك فوافقه لقد زوّجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة ^(٢)

الآثم قال أبو الدرداء يا حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف يغبنون قيام الحقي وصيامهم ولذة من ذي يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المفرين ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقال الطعام عن الحد الذي كان يأ كلة وهو مفطر وإلا فاذن جمع الأكالات بأ كلة واحدة قد أدرك بها ما فوت وقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لهم أن الاقتصار على الضرورة مجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة والنفس من طبعها أنها إذا

(١) حديث أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني ما لا قال يائنه أية قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه الحديث بطوله الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بطوله وفيه لقد زوّجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة لم أجده من حديث عمران ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار وصات النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك في فاطمة تعودها الحديث وفيه أما ترضين أن زوجتك أقدم أمي سلما وأكرم

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وترك المال ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوقى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الملم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ولا فراغ مع شغل المال ، وقد روى عن جرير عن ليث قال سمعت رجلا عيسى بن مريم عليه السلام فقال أكون معك وأصحبك فانطلقا فأتيا إلى شط نهر فجلسا يتعذبان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فغرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من أخذ الرغيف فقال لأدري قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشفان لها قال فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل ثم قال للخشف قم باذن الله فذهب فقال للرجل أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لأدري ثم أتيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فشيا على الماء فلما جاوزا قال له أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لأدري فأتيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهابا باذن الله تعالى فصار ذهابا فقسعه ثلاثة أثلاث ثم قال ثالث لي وثلاث لك وثلاث لمن أخذ الرغيف فقال أنا الذي أخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام فأتيا إلى رجلان في المفازة ومعه المال فأراد أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال هو بيننا أثلاثا فابتشوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله قال فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث لأى شيء أقاسم هؤلاء هذا المال لكى أضع في هذا الطعام صما فأقتلها وأخذ المال وحدى قال ففعل وقال ذاك الرجل لأمى شيء نجعل لهذا ثلث للمال ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا قال فلما رجع إليه ما قتلاه وأكلا الطعام فأتا باقى ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه فاحذروها . وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتضروا قبورا فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قبض لهم في ذلك ما يشين من نبات الأرض وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لأتيتي فأتيت بها أنا قد جئت فقال لو كان لي إليك حاجة لأتيتك فقال له ذو القرنين مالى أراكم على حالة لم أر أحمدا من الأمم عليها قال وما ذاك قال ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا تأخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها قالوا إنما كرهناها لأن أحد الم يعطى منها شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه فقال ما بالكم قد احتضرت قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنتنتموها وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا تأخذتم البهائم من الأنعام فاستمتعتموها وركبتموها فاستمتعتم بها قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام وإنما ما جاوز الخنك من الطعام لم نجعله طعاما كأنما كان من الطعام ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة فقال يا ذا القرنين أتدري من هذا قال لا ومن هو قال ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ففهم وظلم وعاقبنا رأى الله سبحانه ذلك منه حسما بالموت فصار كالخجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم تناول

علما وأعظمهم حلما وإسناده صحيح .

أنهت لله تعالى في شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحواله فيصير بالأكل النوم ضرورة والقول والفعل ضرورة وهذا باب كبير من أبواب الحيز لأهل الله تعالى يحب رعايته واقتضاه ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطالبها إلا عبد إربدا لله تعالى أن يقربه ويدينه ويصطفيه ويريه ويمتتع في صومه من ملاعبة الأهل واللامسة فان ذلك أنزه للصوم ويتسحر استعمالا للسنة وهو أدمى إلى إضاء الصوم لمعين أحدها عود بركة السنة عليه والثاني التقوية بالطعام على

جمجمة أخرى بالية فقال ياذا القرنين هل تدري من هذا قال لأدرى ومن هو قال هذا ملك مملوك الله
بصد قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من النشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر
بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى عجز به في آخرته ثم أهوى إلى جمجمة
ذى القرنين فقال وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين
هل لك في صحبتي فأخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هنا المال قال ما أصليح أنا وأنت في
مكان ولا أن نكون جميعا قال ذو القرنين ولم قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق قال
ولم قال يصادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحدا ينادي برضى لعدوك ولما عندي
من الحاجة وقلة الشيء قال فانصرف عنه ذو القرنين متحجبا منه ومتعظا به فهذه الحكايات تدل على
آفات الشيء مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق .

(تم كتاب ذم المال واليخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويلييه كتاب ذم الجاه والرياء .)

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع للملوكات من كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

- الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كباثر الذنوب ، العالم بما تخنه الضمائر
من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفي
وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه النفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ،
والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه البرئين من الحيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .
[أما بعد] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة
الخفية التي هي أخفى من ديب الخلة السوداء على الصخرة الصماء في اليلة الظلماء ^(١) » ولذلك عجز عن الوقوف
على غوائلها مما سرة العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن
مكائدها وإنما يتلى به العلماء والعباد والشعرون عن ساق الجد لسلك سبيل الآخرة فاتهم بها قهروا
أنفسهم وجاهدوها وقطموها عن الشهوات وحانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات
عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير
وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لغة القبول عند الخلق ونظروا إليه بين الوقار
والتعظيم فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع بإطلاع الخلق وفرحت بحمد الناس
ولم تقنع بحمد الله وحده وعلت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقية الشبهات وتحمله مشاق العبادات
أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التكريظ والإطراء ونظروا إليه بين التوقير والاحترام وتبركوا
بعشاهدته ولقائه ورغبوا في بركته دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفأعجزه بالخدمة والسلام وأكرموا في المحافل
فاية الإكرام وسامعوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس وتضاعفوا له
متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين فأصاب النفس في ذلك لذته هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب
الشهوات فاستحققت فيه ترك المعاصي والمفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية ابن ماجه والحاكم من حديث شدداد
ابن أوس وقالا الشرك بدل الرياء وفسراء بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت بل ضيف وهو عند
ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بانقظ المصنف .

الصيام ، وروى أنس
ابن مالك عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « تسحروا فإن في
السحور بركة »
ويسجل الفطر عملا
بالسنة فإن لم يرد تناول
الطعام إلا بعد العشاء
وبريد إحياء ما بين
العشاءين بفطر بالماء
أو على أعداد من
الزبيب أو التمر أو
ياكل لقيبات إن كانت
النفس تنازع ليصفولة
الوقت بين العشاءين
فإحياء ذلك له فضل
كثير وإلا فيقتصر
على الماء لأجل السنة
أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
المروسي قال أنا أبو نصر
الترائي قال أنا أبو محمد

في الباطن لثة الذات وشهوة للشهوات فهو يظن أن حياته بالله وعبادته الرضية وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تسمى عن مدركها القول النافذة القوية ويرى أنه غاص في طاعة الله ومجتنب لحارم الله والنفس قد أبطلت هذه الشهوة تزيينا للبلد وتصنعا للخلق وفرحاً بما نالت من النعمة والوفاء وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال وقد أثبت اسمه في جريدة للناقين وهو يظن أنه عند الله من القربين وهذه مكينة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ومهولة لا يرقى منها إلا القربون ولعلك قبل آخر ما يخرج من رجوس الصديقين حب الرياسة وإن كان الرياء هو الماء الدفيع التي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته وللمخبر منه ويتضح الفرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين : الشطر الأول في حب الجله والشهرة وفيه يبين ذم الشهرة ويان فضيلة المحمود ويان معنى الجله وحقيقته ويان السبب في كونه محبوباً أعند من حب لئاله ويان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي ويان ما عمد من حب الجاه وما ينم ويان السبب في حب للمدح والتناء وكراهية القم ويان العلاج في حب الجاه ويان علاج حب المدح ويان علاج كراهية القم ويان اختلاف أحوال الناس في المدح والقم فهم في اثنا عشر فصلاً منها تفشاً معاني الرياء فلا بد من تدعيمها والله الموافق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

(يان ذم الشهرة وانتشار الصيت)

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المممود المحمود إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه وديناه إلا من عصمه الله » (١) وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه وديناه إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلاً ولا بأس به إذا روي هذا الحديث قيل له يا أبا سعيد إن الناس إذا رآوك أشاروا إليك بالأصابع فقال إنه لم يكن هذا وإنما عني به المبتدع في دينه والفاسق في دينه . وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلموا كتم واصمت أسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله ماصدق الله من أحب الشهرة وقال أيوب السخيتاني والله ماصدق الله عبده إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . وعن أبي العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة فقال ذباب طمع وفراس نار . وقال سليم بن حنظلة ينانحن حول أبي ابن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع فقال إن هذه ذلة للتابع وقتة للمتبوع . وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبه ناس فالتفت إليهم فقال علام تتبعوني

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه وديناه البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر الحديث مثله وزاد في آخره أن لا ينظر إلى صوركم الحديث هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرين على الزيادة التي في آخره وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثمًا ورواه ابن يونس في تاريخ العرباء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك بالرجل وفسر دينه بالبدعة وديناه بالفسق وإسنادها ضعيف .

الجراحي قال أنا
أبو العباس المحبوبي
قل أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا
إسحق بن موسى
الأنصاري قال ثنا
الوليد بن مسلم عن
الأوزاعي عن قرعة عن
الزهري عن أبي سلمة
عن أبي هريرة رضي
الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
حكاية عن ربه قال
الله عز وجل « أحب
عبادي إليّ أحملهم
فطرا » وقال عليه
السلام « لا يزال الناس
يغير ما عملوا الفطر »
والانظار قبل الصلاة
سنة كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يفطر على جرعة من
ماء أو مذقة من لبن

فواقه لو تطلون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم. رجلا ن. وقال الحسن إن خفي النعال حول الرجال فلما تلبث عليه قلوب الحق. وخرج الحسن ذات يوم فاتبه قوم فقال هل لكم من حاجة وإلا فلما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن. وروى أن رجلا صاحب ابن عير في سفر فلما فارقه قال أوصني فقال إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتغنى ولا يغنى إليك وتسأل ولا تسأل فافعل. وخرج أبوب في سفر فشيخه ناس كثير فقال لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أتى لهذا كاره لحشيت للقت من الله عز وجل. وقال معمر طابت أبوب على طول قميصه فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طولها وهي اليوم في تشميرها. وقال بعضهم كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال يا كره هذا الحمار الناهق يشير به إلى طلب الشهرة. وقال الثوري كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا. وقال رجل لبشر بن الحرث أوصني قال أحمذ كركوك وطيب مطمك وكان حوشب يبي ويقول بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بشر ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وانقضح وقال أيضا لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

(بيان فضيلة الحول)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك (١) ». وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر متكبر جواظ (٣) » وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتدخل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لو سمعهم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن من أمي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ولو سأله الله الجنة لأعطاء إياه ولو سأله الدنيا لم يعطه إياه وما منعه إياه إلا هو أنها عليه رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (٥) » وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى ما ذين جبل يبي عند

أو تمرات. وفي الخبر
« كم من صائم حظه
من صيامه الجوع
والعطش » قيل هو
الذي يجوع بالنهار
ويفطر على الحرام
وقيل هو الذي يصوم
عن الحلال من الطعام
ويفطر على لحوم الناس
بالبقية. قال سفيان
من اغتاب فسد صومه
وعن مجاهد خصلتان
تفسدان الصوم البقية
والكذب قال الشيخ
أبو طالب السكي قرن
الله الاستماع إلى الباطل
والقول بالائتم بأكل
الحرام فقال - سماعون
للكذب - أكلون
للحمت - . وورد في
الخبر « أن امرأتين
صامتا على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فأجهدها الجوع

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك مسلم من حديث أبي هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ولما كرم رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الإسناد ولأبي أنيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه (٢) حديث ابن مسعود رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يعط من الدنيا شيئا ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف الحديث متفق عليه من حديث جارية بن وهب (٤) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم الحديث [١] (٥) حديث إن من أمي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه الحديث الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بأسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه إياه وما منعه إياه إلا هو أنه عليه.

[١] قول العراقي لم يؤذن لهم الحديث هكذا في النسخ من غير أو وقال الشارح يفيض له العراقي فليعلم.

قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصاييح الهدى ينجون من كل غبراء مظلة (١) » وقال محمد بن سويد قحط أهل المدينة وكان بهار جل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم في بيتهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فضلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع قطره حتى تفتت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الفرق فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم وسكن وبيع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إني أتيتك في حاجة فقال ما هي قال تخصني بدعوة قال سبحان الله أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة ثم قال ما الذي بالهك ما رأيت قال أعطت الله فم أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني . وقال ابن مسعود كونوا يباب العلم مصاييح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خاقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتحفون في أهل الأرض . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى « إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك قال ثم هز رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال عجبت منيته وقل ترائه وقلت بوا كيه (٢) » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أحب عباد الله إلى الله الغرباء قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يعن به على عبده ألم انعم عليك ألم أسترك ألم أحمل ذكرك . وكان الحليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري وجدت قاي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء . وقال إبراهيم بن آدم ما قرأت عني يوما في الدنيا قط إلا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن جفرتي المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل إن قدرت على أن لا تعرف فاضل وماعليك أن لا تعرف وماعليك أن لا يثنى عليك وماعليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وإيماء المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد . فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول . فاعلم أن المغموم طلب الشهرة فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمغموم ، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالعريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الفرقي فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم وأما القوي فالأولى أن يعرفه الفرقي ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

(بيان لم حب الجاه)

قال الله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للعالين عن الإرادة تين جميعا وقال عز وجل من كان يريد الحياة

(١) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الحديث الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد قلت بل ضيفه فيه عيسى بن عبيد الرحمن وهو الزرقى متروك (٢) حديث أبي أمامة إن أغبط أوليائي عندى مؤمن خفيف الحاذ الحديث الترمذى وابن ماجه باسنادين ضعيفين .

والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله في الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال قولوا لهما قيثا فيه ماء أكلتا قيثا فبعثتا إحداهما نصفه وما عيطا ولما غريضا وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتا ثم ضجبت الناس من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا وأفطرتا على ما حرم الله عليهما » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمته فليقل إني صائم » وفي الخبر « إن الصوم أمانة

الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون - وهذا أيضا تناول به مومه حب الجاه فإنه أعظم لغة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زيتها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يفتنان النفاق في القلب كما يفتن الماء البقل » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع إفساد من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم لعل كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء » (٣) نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .

(بيان معنى الجاه وحقيقته)

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الأعيان للنتفع بها ومعنى الجاه ملك الدلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير أى يقدر عليهم بالتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه وكما أنه يكتب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتب قلوب الخلق بأنواع من العلامات ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال اتقاده وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ويدعن قلبه للموصوف به اتقيادا ضروريا بحسب اعتقاده فان اتقيا القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتهما وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم يملك قلوبهم بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ولو خلى ورأه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا وبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالبيع والطوع مع القرح الجبرية والطاعة له لما يطلبه فوق ما يطلبه ملك الرق بكثير فإذا معنى الجاه قيام النزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعى من نعوت الكمال فيه فيقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم ويقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب ويقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحب الجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء فان المعتقد للكمال لا يكت عن ذكر ما يعتقد فيثنى عليه وكالحدمة والإعانة فانه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون مسخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار وترك النازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة والسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص إما بصل أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية

فاحفظ أحدكم أماته
والصوفى الذى لا يرجع
إلى معلوم ولا يدري
مق يساق إليه الرزق
فاذا ساق الله إليه
الرزق تناوله بالأدب
وهو دائم المراقبة
لوقته وهو فى إفطاره
أفضل من الذى له
معلوم معد فإن
كان مع ذلك يصوم
قد أكل الفضل .
حكى عن رويم قال
اجترت فى المهاجرة
بعض سكك بغداد
فقطشت فتقدمت إلى
باب دار فاستقيت
فاذا جارية قد خرجت
ومعها كوز جديد
ملآن من الماء البارد
فلما أردت أن أتناول
من يدها قالت
صوفى وشرب بالنهار
وضربت بالصكوز

(١) حديث السال والجاه يفتنان النفاق الحديث تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث ماذنبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم الحديث تقدم أيضا هناك (٣) حديث إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع الحديث ولأبى منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس يعنى ويصم .

أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يحقده الناس كالأوصاف كلها تنظم عمله في القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

(بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يغلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة)

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا هو جنيته يقتضى كون الجاه محبوبا بل يقتضى أن يكون أحب من المال كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساوى في للقدار وهو أنك تعلم أن الدرهم والدنانير لا غرض في أعيانها إلا لتصلح لمطعم ولا مشرب ولا منسكح ولا ملابس وإنما هي والمصنعة بمثابة واحدة ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض فلا اشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأول ، أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاء في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كذرا ولم يكن له جاء يحفظ ماله أراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له فاذن الجاه آله ووسيلة إلى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال فلذلك صار الجاه أحب . الثاني هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويفسب ويطمع فيه الملوك والظلمة ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراس والحرائن ويتطرق إليه أخطار كثيرة وأما القلوب إذا ملكت فلا تعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن غنية لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والنصاب وأثبتت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهي مخفوفة ومحروسة بأنفسها والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها ، نعم إنما تنصب القلوب بالنصر يف وتقيح الحال وتغير الاعتقاد فيها صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله . الثالث أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة فإن القلوب إذا أذعن لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصح الألسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القاب أيضا ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لأن ذلك إذا استطاع في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ولا يقدر على استئانه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبدا في النماء بنفسه ولا مرد لموقفه والمال واقف ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحققت الأموال في مقابلته فهذه مجاميع ترجيحات الجاه على المال وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح . فإن قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعا فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه ، نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب اللذات ودفع المضار معلوم كالحاجة إلى اللبس والسكن والطعم أو كالمبتلى بمرض أو بمقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاء خبه للمال والجاه معلوم إذ كل ما لا يتوصل إلى محبوب إلا به فهو محبوب وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال والكنوز وإدخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للمبدوا دين من ذهب لا ينبغي لهما ثالثا وكذلك يحب الإنسان أن يساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقصى البلاد التي يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به

على الأرض وانصرفت
قال روم فاستجيت
من ذلك ونذرت
أن لا أفطس أبدا
والجماعة الذين كرهوا
دوام الصوم كرهوه
لمكان أن النفس إذا
ألفت الصوم وتعودته
اشتد عليها الإفطار
وهكذا بتعودها
الإفطار تكره الصوم
فيرون الفضل في أن
لا تركز النفس إلى
عادة ورأوا أن إفطار
يوم وصوم يوم أشد
على النفس . ومن
أدب الفقراء أن
الواحد إذا كان
بين جمع وفي محبة
جماعة لا يصوم إلا
بإذنهم وإنما كان ذلك
لأن قلوب الجمع متعلقة
بفطوره وهم على غير
معلوم فإن صام بإذن

غاية الالتذاذ وحسب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل قامه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة . فتقول نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان : أحدهما جلي تدركه الكافة . والآخر خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا القواصون . فأما السبب الأول فهو دفع ألم الخوف لأن الشفيق يسوء الظن مولع بالإنسان وإن كان مكفيا في الحال فانه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا لشفقته على نفسه وحب الحياة يقدر طول الحياة ويقدر هجوم الحاجات ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن مثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هو مان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال ^(١) » ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام الميزة والجاه في قلوب الأبعاد عن وطنه وبلده فانه لا يغلو عن تقدير سبب يزججه عن الوطن أو يزجج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف . وأما السبب الثاني وهو الأقوى أن الروح أمر رباني بوصفه الله تعالى إذ قال سبحانه - ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر رب - أو معنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم الكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمة كالأكل والوقاع وإلى صفات سبعة كالقتل والضرب والإيذاء وإلى صفات شيطانية كالسكر والخدعة والإغواء وإلى صفات ربوية كالكبر والعز والتعجب وطلب الاستلاء وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فهولما فيه من الأمر الرباني يحب الربوية بالطبع ومعنى الربوية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبا بالطبع للإنسان والكمال بالتفرد بالوجود فان المشاركة في الوجود نقص لإحالة فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والتفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواء فان ماسواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لأن العلية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أنظار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جملة كمالها وإنما نقصان الشمس بوجود قمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستثناء عنها فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فاذا ن معنى الربوية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل إنسان فانه بطبعه يحب لأن يكون هو المفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى -

الجمع وفتح عليهم شيء
لا يلزمهم إذ خارهم للصائم
مع العلم بأن الجمع
القطرين يحتاجون
إلى ذلك فان الله تعالى
يأني للصائم برزقه إلا أن
يكون الصائم يحتاج إلى
الرفق لضعف حاله
أو ضعف بنيته
لشيخوخة أو غير ذلك
وهكذا الصائم لا يليق
أن يأخذ نصيبه
فيدخره لأن ذلك من
ضرف الحال فان كان
ضعيفا يسترف بحاله
وضرفه فيدخره والذي
ذكرناه لأقوام هم على
غير معلوم فأما الصوفية
القيمون في رباط على
معلوم فالأليق بحالهم
الصيام ولا يلزمهم
مواظبة الجمع في الإفطار
وهذا يظهر في جمع منهم
لهم معلوم يقدم لهم

(١) حديث منهومان لا يشبعان الحديث الطبراني من حديث أبي مسعود بسند ضعيف والبراز والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

ولكنه ليس يجده مجالا وهو كما قال فان البودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع وذلك
للفسفة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى - قل الروح من أمر ربي - ولكن لما هجرت النفس عن
مدرك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة للكمال ومشتية له وملتنة به لذاته لالهي
آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محبة لذاته ولكمال ذاته ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته
أو عدم صفات الكمال من ذاته وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل
الوجودات فان أكل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فأن تكون مستويا عليه
فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع لأنه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب
كل ذاته ويلتذبه إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الإرادة
وكونه مسخر لك تزدده كيف تشاء فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء للوجود
. مع إلا أن للوجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته وإلى ما يقبل التغيير
ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق كالأنفلاك والكواكب وملكوت السموات وقوس اللائكة
والجن والشياطين والحيوانات والنبات والحيوان ومن جعلتها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير
مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الوجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه
كالأرضيات وإلى مالا يقدر عليه كذات الله تعالى واللائكة والسموات أحب الانساب أن يستولى على
السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء إذا للعلوم المحاطة كالدخول
تحت العلم والعالم كالمستولى عليه فذلك أحب أن يعرف الله تعالى واللائكة والأنفلاك والكواكب
وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والحيال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء
نوع كمال وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يحجز عن
وضع الشطرنج فانه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة
أو الشجيرة أو جر الثقل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والتصور عنه ولكنه يشاق إلى
معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه . وأما القسم الثاني وهو الأرضيات التي
يقدر الإنسان عليها فانه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي
قسمان : أجساد وأرواح أما الأجساد فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادر عليها بفعل
فيها ماشاء من الرفع والوضع والتسليم والنزع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية
والربوبية محبوبة بالطبع فذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوراته
تسه وكذلك طلب استرقاق المبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف
في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وإن لم يملك قلوبهم فانها ربما لم تمتد كاله حتى يصير محبوبا لها
وقوم القهر منزلة فيها فان الحشية القهرية أيضا للذينة لما فيها من القدرة . القسم الثاني : نفوس
الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ماطي وجه الأرض فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون
مسخرة له متصرفه تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب
إنما تسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية
والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان وهو الذي لا يليه الموت
فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه يحمل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي
إليه فاذا من معنى الخلاء تسخر القلوب ومن تسخر له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء

بالتأهار فأما إذا كانوا
على غير معلوم قد قيل
مساعدة الصوام
للفطرين أحسن من
استدعاء الواقعة من
الفطرين للصوام وأمر
القوم ميناء على الصدق
ومن الصدق افتقاد
النية وأحوال النفس
فكل ما صحت النية فيه
من الصوم والانظار
والواقعة وترك الواقعة
فهو الأفضل فأما من
حيث السنة فمن يوافق
له وجه إذا كان صائما
وأفطر للواقعة وإن
صام ولم يوافق فله وجه.
فأما وجه من يفطر
ويوافق فهو ما أخبرنا به
أبو زرعة طاهر عن
أبيه أبي الفضل الحافظ
القدس قال أنا
أبو الفضل محمد بن
عبد الله قال أنا السيد

كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذا من محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومت ولا نهاية للقدورات وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنعمان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «منهومان لا يشبعان» فاذا من مطلوب القلوب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فدرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا وهو أمروراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه المنة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع المجانب وللشكليات لأن في العلم استيلاء على العلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لابد من بيانها إن شاء الله تعالى.

(بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لاحقيقة له)

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم والقدرة ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي ويانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فانه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى . الثاني من حيث تعلق العلم بالعلوم على ماهو به وكون العلوم مكشوفاً به كشفا تاماً فإن المعلومات مكتشفة لله تعالى بآتم أنواع الكشف على ماهو عليه فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى . الثالث : من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانعقاب كان أقرب إلى الله تعالى والمعلومات قسطن : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات فتألف العلم بكون زيد في الدار فانه علمه معلوم ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلا فيكون نقصانا لا كالا فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب للعتقد فيه عما اعتقدته كنت بهدد أن ينقلب كمالك قصا ويسود عليك جهلا ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم كملك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض وهدد البلاد وتباعدا ما بينها من الأميال والفراخ وسائر ما يذكّر في السالك والممالك وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم مطلوماتها مثل الزئبق تغير من حال إلى حال فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالا في القلب .

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات وامتنع الاستحيلات فإن هذه معلومات أزلية أبدية إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز محالا ولا المحال واجبا فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في مأكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ويبقى كما للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت - يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتم لنا زورا - أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدنيا كما أن من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك الدور الخفي على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى - كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها - بل - كظلمات في بحر لجي يشاء موج من فوقه موج من فوقه سحب

أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال ثنا عبد الله بن حماد قال ثنا عبد الله بن صالح قال حدثني عطاء ابن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن الشكدر عن أبي سعيد الخدري قال اصطفت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما فلما قدم إليهم قال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه «دعكم أخواكم تكلف لكم ثم تقول إني صائم أفطر وأفطر يوما مكانه» وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم

ظلمات بعضها فوق بعض - فاذن لاسعاده إلا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فهما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرها ومنها ماله منفعة في الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية المبادات والأهمال التي تفيد تزكية النفس ومعرفة طريق تزكية النفس تهيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى - قد أطلع من زكاهما - وقال عز وجل - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة فهي من تسكته معرفة الله تعالى وهذا حكم كمال العلم ذكرنا مؤناً يمكن لاقتها بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال . وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بأحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربيع النجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا، نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلكه أضرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للادراك فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمسال والجاه لتتوصل به إلى الطعام والشرب والملبس والسكن وذلك إلى قدر معلوم فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب ومن ظن ذلك كلاً فقد جهل فالحق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل فأنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بغير الحشمة وعلى أعيان الأموال بسعة النفي وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية أما العلم لما ذكرناه من معرفة الله تعالى وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفرغ الشهوة ولا يستهويهم الغضب فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله تعالى استعالة التغير التأثير عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقة تفرجه إلى عدم نقصان فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها أو الهلاك نقص في الذات وفي صفات الكمال فاذن الكمالات ثلاثة إن عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الاتقياء لها كلاً ككمال العلم وكمال الحرية وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ومعرفة وحرية لا يعدم بالموث بل بقيان كمالا فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى فإنظر كيف انقلب الجاهلون وأنكبوا على وجوههم انكساب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له هؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى - المال والنون زينة

قال رسول الله ﷺ
رزقنا ورزق بلال في الجنة
فإذا علم أن هناك قلباً يتأذى أو فضلاً يرجى من موافقة من يختم موافقه فطر بحسن النية لأحكم الطبع وتقاضيه فإن لم يجد هذا الذي لا ينبغي أن يتألم عليه الثمر وداعية النفس بالنية - فليتم صومه وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا قضاء حق أخيه . ومن أحسن آداب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد بطنه متغيراً عن هيئته ونفسه متشبطة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مزاج القلب التغير باذهب التغير عنه ويذهب

الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كالا في النفس وللال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال - إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض - الآية وقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء - إلى قوله - فأصبح هشيا تذروه الرياح - وكل ما تذروه رياح اللوت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل ما يقطع للوت فهو الباقيات الصالحات قد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل وإليه أشار أبو الطيب بقوله : ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة قصر فالتى فعل القفر إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي اللهم اجعلنا ممن وقته للخير وهديته بلفظك .

(بيان ما محمد من حب الجاه وما ينم)

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها حكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق في الدنيا فيجوز أن يتزود منه للآخرة وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة الطعام والشراب ولللبس فلا بد من أدنى جاه لضرورة العيشة مع الخلق والانسان كمالا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يتنازع به الطعام فكذلك لا يغفل عن الحاجة إلى خادم يخدمه ورفيق يعينه وأستاذ يرشده وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعو إلى الخدمة ليس بمذموم وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم وحبه لأن يكون له في قلب سلطان ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطان ما يحسن به دفع الشر عنه ليس بمذموم فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها معبوضين له بل ينزل ذلك منزلة حب الانسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ويود أن لا يستغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود التوصل إليه وتترك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به وقد يحب الانسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقى مستصحباً لكانها فهذا هو الحب دون الأول وكذلك الجاه والمال وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما يتوصل به إلى اكتساب بكد وبخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي . فإن قامت : طلبه للنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانة ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيما كان أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص . فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان مباحان ، ووجه محظور . أما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام النزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو متفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتبليس إما بالقول أو بالمعاملة . وأما أحد الباحين فهو أن يطلب النزلة بصفة هو متصف بها

الطعام بركات يصلها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفاريات به قد ورد في الخبر « أذيقوا طعامكم بالذكر » ومن مهام آداب الصوم كتمانها مهما أمكن إلا أن يكون متمكنا من الاخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن .

[الباب الثاني والأربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصاحبة والفسدة] الصوفي بعين نيته ووجه مقصده ووفور علمه وإتيانه بأدابه تصير عاداته عبادة والصوفي موهوب وقته لله ويريد حياته لله كما قال الله تعالى لنبيه أمرا له - قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي

كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى - اجعلنى على خزان الأرض إني حفيظ علم - فإنه طلب التزلة في قلبه بكونه حفيظا عليها وكان محتاجا إليه وكان صادقا فيه . والثاني أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على القبايح جائز ولا يجوز هتك السر وإظهار القبيح وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سبب لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالذي يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يباقي إليه أنه ورع فإن قوله إني ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب . ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإن ذلك رياء وهو ملبس إذ يغفل إليه أنه من المخلصين الحاشعين لله وهو مرء بما يفعله فكيف يكون غلصا فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره . فلا يجوز له أن يملك قلبه بتزوير وخداع فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

(بيان السبب في حب للدح والثناء وارتياح النفس به وميل

الطبع إليه وبفضها للذم ونفرتها منه)

اعلم أن حب للدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب : الأول وهو الأقوى شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب وكل محبوب قادر كالتذيد فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهترت وتلذذت وللدح يشعر نفس المدوح بكمالها فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته فإذا استشعرته لم يغل حدث الشعور عن حدوث لذة وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق فإن الإنسان ربما يكون شاكيا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه فإذا ذكره غيره أورت ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبيرها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلذذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والدكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة وإن طدر من يجازف في الكلام أو لا يكون بصير بذلك الوصف ضعفت اللذة وهذه العلة يفيض الذم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو محقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في اللدح . السبب الثاني : أن اللدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بمحموله لذيد وهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع بانتصاص قلبه كالملوك والأكابر ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء فإن القدرة عليه يملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل اللدح إلا على قدرة قاصرة وهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم . السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما إذا كان ذلك ممن يلفت إلى قوله ويعتد به وهذا محتمس بثناء يقع على الملائم فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلفت إلى قوله كان المدح ألد والذم أشد على النفس . السبب الرابع : أن المدح يدل

له رب العالمين -
تدخل على الصوفي
أمور العادة لموضع
حاجته وضرورة
بشريته ويخف بعبادته
نور يقظته وحن
نيته فتثور العادات
وتتشكل بالعبادات
ولهذا ورد «نوم العالم
عبادة ونفسه تسبيح»
هذا مع كون النوم
عين الغفلة ولكن كل
ما يستعان به على العبادة
يكون عبادة فتناول
الطعام أصل كبير
يحتاج إلى علوم كثيرة
لاشتاله على المصالح
الدنيوية والدنيوية
وتعلق أثره بالقلب
والقالب وبه قوام البدن
بأجراء سنة الله تعالى
بذلك والقالب مركب
القلب وبهما عمارة
الدنيا والآخرة وقد

على حشمة المدوح واضطرار اللادح إلى اطلاق اللسان بالثناء على المدوح إما عن طوع وإما عن قهر فان الحشمة أيضا لدينة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وإن كان اللادح لا يعتقد في الباطن مامدح به ولكن كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع اللادح وقوته فتكون لذة ثناء القوي المتع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الأسباب الأربع قد تجمع في مدح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفرقت فتقص اللذة بها أما العلة الأولى وهي استثمار الكمال فتدفع بأن يعلم المدوح أنه غير صادق في قوله كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك قد زل اللذة التي سببها استثمار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فان كان يعلم أن اللادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة يطلب اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الدم وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحسب الحمدة وخوف للذمة فان ما لا يعرف حسيه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض والله الوفاق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى.

(بيان علاج حب الجاه)

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصورا لهم على مراعاة الخلق مشغوبا بالتودد إليهم والبراءة لأجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لاهالة إلى التساهل في العبادات والبراءة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادها للدين بذنبيين ضارين وقال عليه السلام « إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » إذ النفاق هو عناية الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب التزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق فحب الجاه إذن من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخبره اللوت فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق صغر الجاه في عينه إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحققر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد ، فكأنك بأخرك من كتب عليه الموت قد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كأنه كذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه ، أما بعد فكأنك بالدنيا لم تسكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهو لاء كان التفاهم إلى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحققروا الجاه والمال في الدنيا وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى - بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة حير وأبى - وقال عز وجل - كلا بل يحبون العاجلة وتذرون الآخرة - فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الأخطار

ورد « أرض الجنة
قيان نباتها التسبيح
والتقديس » والقالب
بمفرده على طبيعة
الحيوانات يستعان به
على عمارة الدنيا والروح
والقلب على طبيعة
الملائكة يستعان بها
على عمارة الآخرة
وباجتماعهما صلاحا
لعمارة الدارين والله
تعالى ركب آدمي
بلطيف حكمته
من أخص جواهر
الجنة نبات والروحانيات
وجملته مستودع خلاصة
الأرضين والسموات
جسد عالم الشهادة
وما فيها من النبات
والحيوان لقوام بدن

التي يستهدف لها أبواب الجاه في الدنيا فان كل ذى جاه محسود ومقصود بالايداء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غلباتها وهي مترددة بين الإقبال والاعراض فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاها ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه يدفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه فلا يبنى في الدنيا مرجوها بخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا فهذا هو العلاج من حيث العلم . وأما من حيث العمل فاستقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أهوال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفرقه لذة القبول ويأس بالخول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وهذا هو مذهب اللامية إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليستقوا أنفسهم من أعين الناس فيسلوا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل ذلك بل له أن يفعل من الباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمد لله الذي صرفك عني ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس وهذا في جوازها نظر من حيث الفقه إلا أن أبواب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفيق به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا إنه طرار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والمهجرة إلى موضع الخول فان المنزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزل التي ترسخ له في القلوب بسبب عزله فانه ربما يظن أنه ليس محب لذلك الجاه وهو مغرور وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذهبوا أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألست وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك النصارى عن قلوبهم وربما احتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبس ولا يبالى به وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزل في قلوب الناس مادام يطعم في الناس فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالى أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن كما لا يبالى بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يرام ولا يطعم فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخول والذل مثل قولهم المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة وينظر في أحوال السلف ويشارم فذل على العز ورغبته في ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

(بيان وجه العلاج لحب الدخ وكرهه الدم)

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف منة الناس وحب مدحهم فصاحركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول

الآدمي قال الله تعالى
- خلق لكم ما في
الأرض جميعا - فكونوا
الطبايع وهي الحرارة
والرطوبة والبرودة
والليوسة وهككون
بواسطتها النبات وجعل
النبات قواما للحيوانات
مسخرة للآدمي يستعين
بها على أمر معاشه لقوام
بدنه فالطعام يصل إلى
المعدة وفي المعدة طباع
أربع وفي الطعام طباع
أربع فاذا أراد الله
اعتدال مزاج البدن
أخذ كل طباع من
طباع المعدة ضد من
الطعام فتأخذ الحرارة
للبرودة والرطوبة
لليوسة فيعتدل

المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فإن كنت متصفا بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع وإما صفة لا تستحق للدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيا تذروه الرياح وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال النبي: أشدّ النعم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه استقلالاً

فلا ينبغي أن يفرح الانسان بعروض الدنيا وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها ، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبى أن لا يفرح بها لأن الحاشية غير معلومة وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى وخطر الحاشية باقى فى الخوف من سوء الحاشية شغل عن الفرح بكل ما فى الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الحاشية فينبى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح فإن اللذة فى استثمار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح والمديح لا يزيدك فضلا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقدار والأثان ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خباثت باطنك وغوائل سريرتك وأقدار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفته التى هى من فضل الله عليك وإن كذب فينبى أن يغمك ذلك ولا تفرح به. وأما السبب الثانى وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حب الجاه والمزلة فى القلوب وقد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به . وأما السبب الثالث وهو الحشمة التى اضطرت المادح إلى المدح فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك بشى الرجل أنت فأنت والله بشى الرجل ، وروى فى بعض الأخبار أن صح فهو قاصم للظهور « أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فأتى على ذلك دخل النار (١) » وقال صلى الله عليه وسلم مرة للمادح « ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة (٢) » وقال عليه السلام « ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب (٣) » فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وقتته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شىء فقال أنت يأمر المؤمنين خير منى وأعلم فتغضب وقال إني لم أمرك بأن تزكبنى ، وقيل لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبكاك الله فتغضب وقال

المزاح وبأمن الاعوجاج وإذا أراد الله تعالى إقفاء قلب وغريب بنية أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتسيل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن فلك تقدير العزيز العليم . روى عن وهب بن منبه قال : وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام إني خلقت آدم وركبت جسمه من أربعة أشياء من رطب ويابس وبارد وسخن وذلك لأنى خلقت من التراب وهو يابس ورطوبته من الماء

(١) حديث أن رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار لم أجده أصلا (٢) حديث ويحك قطعت ظهره الحديث قاله للمادح تقدم . (٣) حديث ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب تقدم دون قوله ألا لا تمادحوا.

إني لأحسبك عزاليا ، وقال بعضهم لما مدح : اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقتك
وإنما كرهوا للدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم محمقون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم
بحالهم عند الله يغض إليهم مدح الخلق لأن المدوح هو للقرب عند الله والذموم بالحقيقة هو للبعد
من الله لللقي في النار مع الأشرار ، فهذا المدوح إن كان عند الله من أهل النار لما أعظم جهله إذا
فرح بمدح غيره وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس
أمره يد الخلق ، ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل الثناء إلى مدح الخلق وذمهم
وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهجه من أمر دينه ، والله للوفيق للصواب برحمته .

(بيان علاج كراهة الدم)

قد سبق أن العلة في كراهة الدم هو ضد العلة في حب المدح فصلاجه أيضا فيهم منه والقول الوجيز فيه
أن من ذمك لا يغلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ،
وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت ، وإما أن يكون كاذبا فإن كان صادقا وقصده
النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتفقد منه فإن من أهدي إليك
عيوبك قد أرشدك إلى للمهلك حتى تتقيه فينبغي أن تفرح به وتشغل بال إزالة الصفة الذمومة عن نفسك
إن قدرت عليها فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل وإن كان قصده التعنت
فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به أو ذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه
أو قبحه في عينك لينبث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك
وقد استفدت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماصمتها من المذمة فهما قصدت
الدخول على ملاك ونوبك ملوث بالمذرة وأنت لا تدري ولو دخلت عليه كذلك لحفت أن يحز رقتك
لنوبتك مجلسه بالمذرة فقال لك قائل أيها الملوث بالمذرة طهر نفسك فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك
بقوله غيبة وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنها إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي
أن تقتنيه . وأما قصد العدو التعنت بخيانة منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه
بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به . الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله
تعالى فينبغي أن لا تذكره ذلك ولا تشغل بذهمه بل تتفكر في ثلاثة أمور : أحدها أنك إن خلوت
من ذلك العيب فلا تغلو عن أمثاله وأشباهه وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى إذ لم
يطلعك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء منه ، والثاني أن ذلك كفارات لبقية مساويك
وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك
قد أهدي إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك ، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن
لهذا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . وأما الثالث فهو أن
للسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بأقترانه وتعرض لمقا به الأليم فلا ينبغي أن
تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغي أن تقول اللهم أصلحه
اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومي اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون »^(١)
لما أن كسروا نبيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج
رأسه بالخفرة قيل له في ذلك فقال علت آتى مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون

(١) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون قاله لما ضربه قومه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم
والحديث في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه .

وحرارته من قبل
النفس وبرودته من
قبل الروح وخلقت
في الجسد بعد هذا
الخلق الأول أربعة
أنواع من الخلق هن
ملاك الجسم يؤذي
وبهم قوامه فلا يقوم
الجسم إلا بهم ولا يقوم
منهم واحدة إلا بأخرى
منهم للرة السوداء
والرة الصفراء والدم
والبطن ثم أسكنت
بعض هذا الخلق
في بعض فجعلت مسكن
اليوسة في الرة
السوداء ومسكن
الرطوبة في الرة الصفراء
ومسكن الحرارة في
الدم ومسكن البرودة

هو معاقبا بسببي ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنت عنه مهمها فمك لم يحظم أثر ذلك في قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجوارح مادام الطمع قائما كان حب الجاه وللذع في قلب من طمعت فيه طالبا وكانت همته إلى تحصيل للزفة في قلبه مصر وبقول لا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب للمال والجاه ومحج للذع ومبغض للهم في سلامته فإن ذلك بنيد جدا .

(بيان اختلاف أحوال الناس في اللذع والهم)

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذم والساح : الحالة الأولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الهم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات العصية في هذا الباب . الحالة الثانية أن يتمتع في الباطن على الذم ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال . الحالة الثالثة وهي أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تهم للمذمة ولا تسره للذمة وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يتمتع بنفسه بعلاماته ، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استقلالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح وأن لا يكون موت المادح المطرى له أشد نكابة في قلبه من موت الذام وأن لا يكون غبه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي غيئه من زلة الذام فمما خاف الذام على قلبه كما خاف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يتمتعون أنفسهم بهذه العلامات وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام والشيطان يحسن له ذلك ويقول الذام قد عصى الله بمذمتك والمادح قد أطاع الله بمدحك فكيف تسوى بينهما وإنما استغفالك للذام من الدين المحض وهذا محض التلبس فان العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره ولا يجد في نفسه نقرة عنه بمذمة غيره كما يجد للمذمة نفسه والمذمة من حيث إنها مصيبة لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره فاذن العابد المغرور لنفسه يغضب ولهو يتمتع ثم إن الشيطان يخليل إليه أنه من الدين حتى يمثل على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسر في الآخرة وفيهم قال الله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - الحالة الرابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح ويمقت المادح إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهور مضرة له في الدين ويجب الذم إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشده إلى مهمه ومهد إليه حسناته قد قدل عليه السلام رأس التواضع أن تذكره أن تذكر بالبر والتقوى ^(١) وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « ويل للصائم ويول للقائم ويول لصاحب الصوف إلا من ، فقيل يا رسول الله إلا من ؟ فقال إلا من تزهدت نفسه عن الدنيا وأبغض المذمة واستحب المذمة ^(٢) »

في البلم فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفسطر الأربع التي جعلتها ملاكة وقوامه فكانت كل واحدة منهم رجلا لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته فان زادت منهم واحدة عليهن هزمتين ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهم ويعجز عن مقدارهن فأهم الأمور في الطعام أن يكون حلالا وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع

(١) حديث رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى لم أجده أصلا (٢) حديث ويول للصائم ويول للقائم ويول لصاحب الصوف الحديث لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس ويول لمن لبس الصوف يخالف قوله ولم يخرج له ولده في مسنده .

وهذا شديد جدا وغاية أمثاله الطمع في الحالة الثانية وهو أن يضر القرح والكراهة على الدام والمادح ولا يظهر ذلك بالقوله والعمل فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والدام فلنستأنطع فيها ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامه الحالة الثانية فأنها لا تأتي بها لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته وتشاغل على إكرام الدام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا تقدر على أن نسوي بينهما في القمل الظاهر كما لا تقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح والدام في ظاهر القمل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فانه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى فكيف بما بعده من اللزمتين وكل واحدة من هذه الرتب أيضا درجات أما الدرجات في اللذخ فهو أن من الناس من يتنى للذخ والثناء وانتشار الصيت فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرأى بالعبادات ولا يبالى بمفارقة المظهورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمادح وهذا من المالكين ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المظهورات وهذا على شفا جرف هار فان حدود الكلام الذي يستعمل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيها لا يهل ليل الحمد فهو قريب من المالكين جدا ومنهم من لا يريد للذخ ولا يسعى لطلبها ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فان لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجده فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكير في آفات اللذخ فهو في خطر المجاهدة فارة تكون اليد له وتارة تكون عليه ومنهم من إذا مدح مع اللذخ لم يسر به ولم يغم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص ومنهم من يكره اللذخ إذا صمعه ولكن لا يتمسك به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه لا أن يظهر الغضب وقلبه عجب له فان ذلك عين النفاق لأنه يريد أن يظهر من نفسه الاخلاص والصدق وهو مفلس عنه وكذلك بالصد من هذا تفاوت الأحوال في حق الدام وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار القرح ولا يكون القرح وإظهاره إلا بمن في قلبه حق وحقد على نفسه لمجرد ما عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبساتها الحبيثة فيغضبها بغض العدو والانسان يفرح بمن يذم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا صمعه ذمها ويشكر الدام على ذلك ويعتقد فطنته وذكائه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمته عنده إذا صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يتلى بفتنة الناس وإذا سيق إلى حسنات لم ينصب فيها فسادا يكون خيرا لعيوبه التي هو عاجز عن إماتها ولو جامد الريد نفسه طول عمره في هذه الحصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة غفبات كثيرة هذه إحداها ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل .

(الشطر الثاني : من الكتاب في طلب الجاه والنزلة بالعبادات)

وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء وبيان حقيقة الرياء وما يرأى به وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفى وبيان ما يعبط العمل من الرياء وما لا يحبط وبيان دواء الرياء وعلاجه وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها وهي عشرة فصول وبالله التوفيق

صبر الأمر وأتم
طلب الحلال . ومن
أدب الصوفية رؤية
النعم على النعمة وأن
يتدنى بغسل اليد
قبل الطعام قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« الوضوء قبل الطعام
ينفي الفقره وإعماكان
موجبا لنفي الفقر لأن
غسل اليد قبل الطعام
استقبال النعمة بالأدب
وذلك من شكر
النعمة والشكر
يستوجب المزيد فصار
غسل اليد مستجلبا
للنعمة . ذهب الفقير
وقد روى أنس بن
مالك رضى الله عنه
عن النبي صلى الله

(بيان ذم الرياء)

اعلم أن الرياء حرام وللرأى عند الله محضوت وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار . أما الآيات : قوله تعالى - فويل للصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم رياءون - وقوله عز وجل - والذين يكررون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يور - قال مجاهد : هم أهل الرياء وقال تعالى - إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا - فبدح المخلصين ينفي كل إرادته سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - (١) نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله . وأما الأخبار : فقد قال عليه السلام حين سأله رجل فقال يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال « أن لا يعمل البعد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة : للقتول في سبيل الله وللتصدق بماله والقارى لكتاب الله كما أوردناه في كتاب الاخلاص وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع كذبت بل أردت أن يقال فلان قارى فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لما يثابوا بأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم (٢) وقال ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رآى راءى الله به ومن سمع سمع الله به » (٣) وفي حديث آخر طويل « إن الله تعالى يقول للملائكة إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه في سجين » (٤) وقال عليه السلام « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصفر قالوا وما الشرك الأصفر يا رسول الله ؟ قال الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « استميدوا بالله عز وجل من جب الحزن قيل وما هو يا رسول الله قال واد في جهنم أعد للقراء للرئين » (٦) وقال عليه السلام « يقول الله عز وجل : من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » (٧)

عليه وسلم أنه قال « من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه ثم يدعى الله تعالى « قوله تعالى - ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان . واختلف الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله في وجوب ذلك وفهم الصوفى من ذلك بسد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل كل الطعام إلا مقرونا بالذكر فصره فريضة وقته وأدبه ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة

(١) حديث نزول قوله تعالى - من كان يرجو لقاء ربه - الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعبادته وأعماله الحاكم من حديث طاوس قال رجل إنى أقف للوقف أبغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا في نسخة من الاستدرك ولعله سقط منه ابن عباس وأبو هريرة وللبراز من حديث معاذ بنسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك الحديث وفيه أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية (٢) حديث أبي هريرة في الثلاثة : للقتول في سبيل الله والتصدق بماله والقارى لكتاب الله فان الله يقول لكل واحد منهم كذبت رواء مسلم وسيأتى في كتاب الاخلاص (٣) حديث ابن عمر من رآى راءى الله به ومن سمع سمع الله به متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواء الطبراني في الكبير والبيهقى في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفي الزهد لابن المبارك ومسنده أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه في سجين ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الاخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسل ورواه ابن الجوزى في الموضوعات (٥) حديث إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصفر الحديث أحمد والبيهقى في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٦) حديث استميدوا بالله من جب الحزن قيل وما هو ؟ قال واد في جهنم أعد للقراء للرئين الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وصححه ابن عدى (٧) حديث يقول الله من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله

وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته وبمسح شفتيه
لئلا يرى الناس أنه صائم وإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم
الثناء كما يقسم الرزق ، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من
رياء ^(١) » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك ؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا
القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن أدنى الرياء شرك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم
« أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية ^(٣) » وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه
وقال صلى الله عليه وسلم « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلا تصدق يمينه فكاد يخفيها عن
شماله ^(٤) » ولذلك ورد « أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا ^(٥) » وقال صلى الله عليه
وسلم « إن للرأي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ
أجرك ممن كنت تعمل له ^(٦) » وقال شداد بن أوس « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي قلت
ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال إني تخوفت على أمي الشرك أما إنهم لا يبدون صبا ولا تمسا ولا قرا
ولا حبرا ولكنهم يراءون بأعمالهم ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت
بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتادا للأرض فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال
فخلق الله الحديد فقطع الجبال ثم خلق النار فأذاب الحديد ثم أمر الله الماء بإطفاء النار وأمر الريح
فكدرت الماء فاختلفت الملائكة فقالت نساء الله تعالى قالوا يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟
قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قاب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخفيها عن
شماله فهذا أشد خلقا خلقتة ^(٨) » وروى عبد الله بن مبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل
حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكي معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سك
ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي « يا معاذ قلت ليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال

الحديث مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا منه برىء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها
أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح ^(١) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء لم أجده
هكذا ^(٢) حديث معاذ إن أدنى الرياء شرك الطبراني هكذا والحاكم بلفظ إن اليسير من الرياء شرك
وقد تقدم قبل هذه الورقة ^(٣) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء الحديث تقدم في أول هذا الكتاب
^(٤) حديث إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلا تصدق يمينه فكاد أن يخفيها عن شماله
متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث سبعة يظلمهم الله في ظله ^(٥) حديث تفضيل
عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء إن الرجل يعمل
العمل فيكتب له عمل صالح معقول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية
عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف بفضل
الله كره الحق الذي لا تسمعه الحفظة على الله كره الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة ^(٧) حديث إن
المرائي ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك الحديث ابن أبي الدنيا من
رواية جيلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرائي وإسناده ضعيف
^(٧) حديث شداد بن أوس إني تخوفت على أمي الشرك الحديث ابن ماجه والحاكم بنحوه وقد تقدم
قرىبا ^(٨) حديث لما خلق الله الأرض مادت بأهلها الحديث وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم
يتصدق يمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

هو اها ويرى ذكر الله
تعالى دواء ورياقه .
روت عائشة رضي الله
عنها قالت « كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
يأكل الطعام في ستة
نقر من أصحابه فجاء
أعرابي فأكله باقمتين
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم أما إنه
لو كان يسمى الله
لكفاكم فاذا أكل
أحدكم طعاما فليقل
بسم الله فإن نسي أن
يقول بسم الله فليقل
بسم الله أوله وآخره »
ويستحب أن يقول في
أول لقمة بسم الله وفي
الثانية بسم الله الرحمن
وفي الثالثة يتم ويشرب

إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته فمك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ثم خلق السموات فجعل لكل سله من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها عظماً تصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا سمدت به إلى السماء الدنيا زكته فذكرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب القية أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد تضر به فتركيه وتكرهه حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك للوكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد ينتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك للوكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهركا زهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك للوكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس للزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك للوكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على غائقه أنا ملك الحمد إنه كان يحمد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك للوكل بها قفوا اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة وتفقه وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك للوكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه : اضربوا به جوارحه اقلعوا به على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله تعالى إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكره عند العلماء وصيتاً في الدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرأى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم أنهم الحفظة على عمل عسدى وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فمليه لعنتي فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والأرض ومن فيهن قال معاذ قالت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال اقتدي وإن كان في عملك نقص يا معاذ حافظ على اسنانك من الوقية في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا ترك نفسك بدمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تسكبر في مجلسك

للماء بثلاثة أنفاس
يقول في أول نفس
الحمد لله إذا شرب وفي
الثانية الحمد لله رب
العالمين وفي الثالثة الحمد
له رب العالمين الرحمن
الرحيم وكان أن للمعدة
طباغاً تتقد ركاز كرناء
بمواقفة طاع الطعام
فلقب أيضاً مزاج
وطباغ لأرباب التفقد
والرعايا واليقظة يعرف
انحراف مزاج القلب
من اللقمة للتناولة تارة
تحدث من اللقمة
حرارة الطيش
بالهوض إلى الفضول
وتارة تحدث في القاب
برودة الكسل بالتقاعد
عن وظيفة الوقت وتارة

لكني يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تظلم على الناس فيقطع عنك خير الدنيا ولا تمنق الناس فتعزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى - والناشطات نشطا - أندري من هن يامعاذ ؟ قلت ماهن ؟ بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال كلاب في النار تنشط اللحم والعظم . قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله فمن يطبق هذه الحصال ومن ينجو منها ؟ قال يامعاذ إنه ليسر على من يسره الله عليه (١) قال لما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث ، وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطأ رقبته فقال يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبوامامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للرأى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهه الله تعالى ومحمد الناس قال لاشئ لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول لاشئ لك ثم قال في الثالثة إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أعجب أن تمتق ؟ قال لا قال فإذا عملت لله عملا فأخاه . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا الوجه لله ولو جهك لا يقولن هذا لله وللرحم فإن الله تعالى لاشريك له وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له اقتص مني فقال لا بل أدعها لله ولك فقال له عمر ما صنعت شيئا إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده فقال ودعها لله وحده فقال فعم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم تعرض له الحكمة لو نطق بها لبغته وتعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة . وإن كان أحدهم ليبر فيرى الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة . ويقال إن الرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يامرأى يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يرادون بما يعملون وصاروا اليوم يرادون بما يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لارياح فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : الرأى يريد أن يطلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا رأى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بي . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء اللوك وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل : من أراد أن ينظر إلى مرآة فليتنظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصوري : أظهر السمات بالليل فانه أشرف من سمك بالهار لأن السمك بالهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوفى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان قليل له وكيف ذلك ؟ قال يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن آدم : ماسدق الله من أراد أن يشهر .

(١) حديث معاذ الطويل إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاء للصف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواء في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

تحدث رطوبة السهو
والغفلة وتارة ييوسة
الهم والحزن بسبب
الحظوظ العاجلة فهذه
كلها عوارض يتغير
لها التيقظ ويرى تغير
القالب بهذه العوارض
تغير مزاج القلب عن
الاعتدال والاعتدال
كما هو مهم طلبه
للقالب فللقالب أهم
وأولى وتطرق
الانحراف إلى القلب
أسرع منه إلى القالب
ومن الانحراف ما يسقم
به القلب فيموت ملوث
القالب واسم الله تعالى
دواء نافع محرب يقي
الأسواء ويذهب الداء
ويجلب الشفاء . حكى

(بيان حقيقة الرياء وما يراى به)

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع وإنما الرياء أصله طلب للترلة في قلوب الناس بل رأيهم خصال الخير إلا أن الجاه وللترلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب التزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها فهد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله فالمرأى هو العابد والمرأى هو الناس للطلوب رؤيتهم بطلب للترلة في قلوبهم والمرأى به هو الحصول التي قصد المرأى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك للمرأى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يميز به العبد للناس وهو البدن والزي والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة وكذلك أهل الدنيا يرادون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

[القسم الأول : الرياء في الدين بالبدن] وذلك بإظهار التحول والصفار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ولبدل بالتحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين وكذلك يرأى بتشميت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها ليل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته وأضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته وعن هذا قال للسبح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه . وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ، ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين فهذه مراعاة أهل الدين بالبدن ، فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحنن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسها .

[الثاني : الرياء بالهيئة والزي] أما الهيئة فتشميت شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في الشئ والهدوء في الحركة وإبقاء أثر الجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكل وترك تنظيف الثوب وتركه عرقا كل ذلك يرأى به ليظهر من نفسه أنه متبع لسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس الرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن ومنه التقنع بالازار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوم أنه من أهل العلم والمرادون بالزي على طبقات فمنهم من يطلب التزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرأى بلفظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكتر بالدينا ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان الساف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح وذلك لحوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد وراجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردم القراء ولولبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والرقعات للصبوغة والفوط الرقيقة فيلبسونها ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيئة لون

أن الشيخ هذا
الغزالي لما رجع إلى
طوس وصف له في
بعض القري عبد صالح
قصده زائرا فصادفه
وهو في صحراء ليذر
الحنطة في الأرض فلما
رأى الشيخ محمد آجاء
إليه وأقبل عليه فجاء
رجل من أصحابه
وطلب منه البذر
لينوب عن الشيخ
في ذلك وقت اشتغاله
بالغزالي فامتنع ولم يعطه
البذر فسأله الغزالي
عن سبب امتناعه
فقال لأنني أبذر هذا
البذر بقلب حاضر
ولسان ذاكر أرجو
البركة فيه لكل من

ثياب الصلحاء فيلتبسون القبول عند الفريقين وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذئب خوافاً من السقوط من أعين اللوك والأغنياء ولو كلفوا لبس الديق والسكنان الدقيق الأبيض وللقصب اللطيف وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا وكل طبقة منهم رأى منزله في زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحاً خيفة من النعمة، وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة وللراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في اللبس والسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب اللصيفة والطباسة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس فانهم يلبسون في بيوتهم الثياب الحشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الزينة.

[الثالث : الرياء بالقول] ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهار الفزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق وإظهار النضب للمنكرات وإظهار الأسف على مفارقة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد إخماد الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر. وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاسيح في العبارات وحفظ النحو الفريب للإغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

[الرابع : الرياء بالعمل] كمرادة الصلي بطول القيام ومدالظهر وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والزواجر والحج والصدقة وباطعام الطعام وبالإحبات في الشيء عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام حتى إن للرائي قد يسرع في الشيء إلى حاجته فإذا اطاع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار فإن غاب الرجل عاد إلى محبته فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يحدد الخشوع له بل هو لا اطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من الباد والصلحاء ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن يخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكاف نفسه الشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يقتصر على التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رباؤه فانه صار في خلوته أيضاً مرأياً فانه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا خوف من الله وحياء منه، وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبخر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والأخذ بأطراف اللبيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

[الخامس : للرياء بالأصحاب والزائرين والمخالطين] كاللدى يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً أو فابداً من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه أو ملكاً من اللوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين وكالدى يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيأهى بشيوخه ومباهاته ومرأاته ترشح منه عند محاصنته فيقول لغيره من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه فنهه مجامع ما يرائي به للراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمزلة في قلوب العباد ومنهم من يفتن بحسن الاعتقادات فيه فكأن من راهب أنزوى إلى دير سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل

يتناول منه شيئاً فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيذر بلسان غير ذا كرو قلب غير حاضر وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنفجر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول أنا آكل وأنا أصلي يشير إلى حضور القلب في الطعام وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يفرق همه

إلى قلة جبل مدة مديدة وإنما خباثة من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولوعرف أنهم نسبوه إلى جرعة في دبره أو صومته لتشوش قلبه ولم يقع بعلم الله براءة صاحته بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فانه لا يذ كذا ذكرناه في أسبابه فانه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يفتربه إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لا يفتنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الخواج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهو لا يشرط طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء. فان قلت فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل . فأقول فيه تفصيل فان الرياء هو طلب الجاه وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فان كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلييسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه وكأن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الانسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال - إني حفيظ عليم - وكان المال فيه سم نافع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكأن كثير المال يلهمي ويطنى وينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد فتنه الجاه أعظم من فتنه المال وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز ، نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كأنصراف الهم إلى كثرة المال ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها أو ماسعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاء أو سعة من جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم فلي هذا نقول تحسين الثوب الذي يلبسه الانسان عند الخروج إلى الناس مرادة وهو ليس بحرام لأنه ليس برياض بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل نجعل للناس وتزين لهم والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان ينظر في حب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت أو تفعل ذلك يا رسول الله قال نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لأخوانه إذا خرج إليهم» (١) نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستماله قلوبهم ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم فان أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ ولكن لو قصد قاصده أن يحسن نفسه في أعينهم خذرا من ذمهم ولومهم واسترواحا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا إذ للانسان أن يحترز من ألم الذمة ويطلب راحة الأنس بالاخوان ومهما استقلوه واستقذروه لم يأنس بهم فانذ للمرأة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك تقول الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لافي معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا امرأة وليس بحرام وكذلك أمثاله. أما العبادات كالصدقة

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب الماء ويسوى عمامته وشعره الحديث ابن عدى في الكامل وقد تقدم في الطهارة .

وقت الأكل وبرى
لذكر وحضور القلب
في الأكل أثر كبير
لا يسه الإهمال له ومن
الله كره عند الأكل
التفكير فيها يا الله تعالى
من الأسنان المعينة على
الأكل فيها السكاسة
ومنها القاطمة ومنها
الطاحنة وما جعل الله
تعالى من الماء الخلو في
الفم حتى لا يتغير الذوق
كما جعل ماء العين مالحا
لما كان شحما حتى
لا يفسد وكيف جعل
الندوة تنبع من أرجاء
اللسان والفم ليعين
ذلك على المضغ والذوق
وكيف جعل القوة
الهاضمة مسلطة على

والصلاة والصيام والفرو والحج فللمرائي فيه حالتان: إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر وهذا يظل عبادته لأن الأعمال بالنيات وهذا ليس بقصد العبادة ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى يقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات. والمعنى فيه أمران أحدهما يتعلق بالعباد وهو التلبس والسكر لأنه خيل إليهم أنه غلام مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك والتلبس في أمر الدنيا حرام أيضا حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبس وتملك القلوب بالخداع والسكر. والثاني يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو على مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة إذا رأى العبد قال الله للملائكة انظروا إليه كيف يستهزئ به ومثاله أن يمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه للملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانة فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده فأى استحقاق يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذا أثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر (١) ، نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كإسائة بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به الرأفة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفر اجليا إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس فانتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فمن هذا كان شركا خفيا لا شر كاجليا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يمكنون من ضروهم ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله وما آله أكثر مما يملكه الله تعالى فذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعه ولا ضرا فكيف يمكنون لغيرهم هذا في الدنيا فكيف في يوم لا يجزى والدن ولدن ولا مولود هو جازع والدن شيئا بل تقول الأنبياء فيه تقى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس فلا ينبغى أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث القتل والقياس جميعا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الاخلاص وقد ذكرنا حكمه في كتاب الاخلاص ويدل على ما قلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلا .

(بيان درجات الرياء)

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات

(١) حديث سمى الرياء الشرك الأصغر أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس كذا نهد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر .

الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد والكبد بمثابة النار والصدمة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تقل الماشعة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل إلى كل عضو نصيبه وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك فمن أراد الاعتبار فليطالع تشریح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الأعضاء وتعاونها وتعلق بعضها ببعض في إصلاح الغذاء واستجذاب

فيه وأركانها ثلاثة للراى به والراى لأجله ونفس قصد الرياء . الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يغلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب وإما أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك فلا يغلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعة . الأولى : وهى أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا كالذى صلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى بل رياء يصلى من غير طهارة مع الناس فهذا مجرد قصده إلى الرياء فهو المعقوت عند الله تعالى وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أذاها فهذه الدرجة العليا من الرياء . الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولولم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه القمت والإثم . الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة أو كان كل واحد منهما حالوا انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فترجوا أن يسلم رأسا برأس لاله ولا عليه أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص . الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولولم يكن لكان لا يترك العبادة ونوكان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح . الركن الثانى : الراى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها . القسم الأول وهو الأغلظ الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات : الأولى الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار وهو الذى يظهر كلتى الشهادة وباطنه مشحون بالكذب ولكنه يرائى بظاهر الاسلام وهو الذى ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل - إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - أى فى دلائلهم بقولهم على ضمايرهم وقال تعالى - ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها - الآية وقال تعالى - وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ - وقال تعالى - يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك - والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل فى زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجعد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملاحدة أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه فهو لاء من المنافقين والمرائين المخلدن فى النار وليس وراء هذا الرياء رياء وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين فانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر . الثانية : الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجهما ويدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق لم يطر وكذلك يحضر الجمعة ولو لا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبرو والديه لاعتنا رغبة ولكن

القوة منه للأعضاء
واقسامه إلى الدم
والثمل والابن انغذية
للولد من بين فرث
ودم لنا خالصا سائغا
للشاريين فتبارك الله
أحسن الخالقين فالفكر
فى ذلك وقت الطعام
وتعرف لطيف الحكم
والقدر فيه من الذكر
ومما يذهب داء الطعام
للغير لمزاج القلب أن
يدعو فى أول الطعام
ويسأل الله تعالى
أن يجعله عوننا على
الطاعة ويكون
من دعائه : اللهم صل
على محمد وعلى آل محمد
ومارزقتنا مما تحب
اجعله عوننا لنا على

خوفا من الناس أو يفر أو يهيج كذلك فهذا مرأى منه أصل الإيمان بالله يستعد أنه لا يعبود سواه ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخالق أحب إليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ورغبته في محبتهم أشد من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد. الثالثة: أن لا يراعى بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يراعى بالوفاة والسنن التي لو تركها لا يهوى ولكنه يكسل عنها في الخلوة لتتور رغبته في ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يسمه الرياء على فعلها وذلك ككفور الجماعة في الصلاة وعبادة المريض واتباع الجنائز وغسل الميت وكالتجبد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس ، فقد يفعل الرائي جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحبة ويسلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضا عظيم ولكنه دون مقابله فإن الذي قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتيى ذم الخالق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الأول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء بأصول العبادات . القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهو أيضا على ثلاث درجات: الأولى أن يراعى بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل : أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديمًا للغلام على السيد واستهانة بالسيد لاحتالة . وهذا حال الرائي بتحسين الصلاة في الملا دون الخلوة وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة ، فهذا أيضا من الرياء المحظور لأن فيه تقديمًا للمخلوقين على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات فإن قال الرائي إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فأنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغبية وإنما قصدت صيانتهم عن هذه العصية فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولائك أعظم من ضررك بغبية غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت في هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها فبهديها إليه وهي عوراء قبيحة مةطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للمرائي فيه حالتان: إحداها أن يطلب بذلك النزلة والمحبة عند الناس وذلك حرام قطعا . والثانية : أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ولو خفت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بذهمهم وغيبتهم فاستفيد بتحسين الهية دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا فهو خير من أن أتترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر ، والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراعاة بطاعة الله

ما تحب وما زويت عنا
بما تحب اجعله فراغا
لنا فيما تحب .

[الباب الثالث
والأربعون في آداب
الآكل]

فمن ذلك أن يتبذره
بالملاح ويختم به روى
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال لعلي
رضي الله عنه « يا علي
أبدأ طعامك بالملاح
واختم بالملاح فإن الملاح
شفاء من سبعين داء
منها الجنون والجذام
والبرص ووجع البطن
ووجع الأضراس »
وروت عائشة رضي الله
عنها قالت « لدغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم

فإن ذلك استنزاه كما سبق . الدرجة الثانية : أن يرأى بفعل مالا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التسكلة والتسمة لعبادته كالطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السورة للعادة وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت واختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه . الثالثة : أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده لاصف الأول وتوجهه إلى عين الإمام وما يجري مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقص ومضى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم . الركن الثالث : الرأى لأجله فإن للرأى مقصودا لا محالة وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة وله أيضا ثلاث درجات : الأولى وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذى يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأبناء فيأخذها أو يسلم إليه تفرقه الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها أو يودع الودائع فيأخذها ويحدها أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيحتل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الخبيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في العاصي ، وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التجنب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظاهر بمن في الرقعة من امرأة أو غلام وهؤلاء أبغض الرائيين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سبيلا إلى معصيته وأخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم وقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جرمية آثم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذى يجد دديعة واتهمة الناس بها فيصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره ، وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى . الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوعظ والتذكير لبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكذلك يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه . الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا بعد من الخاصة والزهاد ويحتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستهجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لامن أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدمائه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لمسا كان يتفعل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير وكذلك يرى جماعة يصلون التراويح أو يتجهدون أو يصومون الخسيس والاثنيث أو يتصدقون فيوافقهم خيمة أن ينسب إلى السكل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان

في إيهامه من رجسه اليسرى لدغة فقال على بذلك الأبيض الذي يكون في العجين خشنا بلعج فوضعه في كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فكنت عنه » ويستحب الاجتماع على الطعام وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها . روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدي » وروى أنه قيل « يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع

لا يغفل شيئا من ذلك وكالذي يحطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خواف من أن يعلم الناس أنه غير صائم فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأن صائم ولكن يقول لي عذر وهو جمع بين خبيثين فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وأنه يعتز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرأيا فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر نفسه فيه عذرا تصرحاً أو تعريضا بأن يتصل بمريض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطيبا لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر براء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا مثل أن يقول إن فلانا عجب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجد بدا من تطيب قلبه ومثل أن يقول إن أي ضعيفة القلب مشقة على تظن أني لو صمت يوما مرضت فلا تدعى أصوم فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن أما المخلص فإنه لا يبالى كيف ينظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا وإن كان له رغبة في الصوم فقد علم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسبأ في شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف الرائيين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من ديب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه خول العلماء فضلا عن العباد الجاهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

(بيان الرياء الحفي الذي هو أخفى من ديب النمل)

اعلم أن الرياء جلل وخفي فالجلي هو الذي يمت على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاء وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بمجردة إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لو لا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل ولا بالتسميل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر بإطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتم العمل كذلك ولكن إذا أطلع عليه الناس سره ذلك وإرتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنا في القلب استكنا النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ثم إذا استشر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكرهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الحفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضا وإن كان لا يدعو إلى التصريح وقد يغنى فلا يدعو إلى الاظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالمثل كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وأخفى من ذلك أن يغنى بحث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يدهوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثبوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصر ثقّل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفها مع أنه لم يطلع عليه ولو

قال لكم تفتقرون على طعامكم اجتماعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه ومن عادة الصوفية الأكل على السفر وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن القومى بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزويني قال أنا محمد ابن الثني قل ثنا معاذ ابن هشام قال ثنا أبي عن يونس بن القرات عن قتادة عن أنس ابن مالك قال ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة قال

لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ومهما لم يكن وجود العبادة كدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديب النمل^(١) وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يعلم منه إلا الصديقون. وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال: إن الله عز وجل يقول لقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخس عليكم السر ألم تكونوا تبتدؤون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج وفي الحديث: لا أجر لكم قد استوفيت أجوركم وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد عناية الطغيان فخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخس عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس فقال السائح ما هذا قيل هذا الملك قد أظلك فقال للفلام اتنى بطعام فأنا أهبل ويقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدة ويأكل أكلا عيفا فقال الملك أين صاحبك؟ فقالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس، وفي حديث آخر يخبر فقال الملك ما عند هذا من خير فأنصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لى ذام فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرمون على إخفاؤها أعظم مما يحرم على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة باخلاصهم على ملا من الخلق إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلوا شدة حاجتهم وفاقهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزى والده عن ولده واشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد نفسى نفسى فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فاتهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب الثمن الخالص لهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والتبهرج والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يزدودونه له من التقوى فإذا شوايب الرياء الخفى كثيرة لا تحضر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضرة البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا فلو كان مخلصا قائما بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدر أن له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب وتقصان عقاب كالأجر يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ولكن ليس كل شوب محبط للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل. فان قلت لما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم. فنقول أولا: كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم، فأما محمود فأربعة أقسام: الأول أن يكون قصده إخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أعلمهم وأظهر الجليل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به فانه يستر الطاعة والعصية ثم الله يستر عليه العصية ويظهر الطاعة ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجليل ليكون فرحه بمجمل نظر الله له لا بمحمد الناس

(١) حديث في الرياء شوايب أخفى من ديب النمل أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من ديب النمل، ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعه هو والدارقطني.

فسلام كانوا يأكلون؟
قال على السفر ويصغر
اللقمة ويجود الأكل
بالمغنى وينظر بين
يديه ولا يطالع وجوه
الأكليين ويقعد على
رجله اليسرى وينصب
اليمين ويجلس جلسة
التواضع غير متكئ
ولا متمزز نهى رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أن يأكل الرجل
متكئا وروى أنه
أهدى لرسول الله
صلى الله عليه وسلم
شاة فجثا رسول الله
صلى الله عليه وسلم
على ركبته يأكل
فقال أعرابي ما هذه
الجلسة يا رسول الله؟

وقد قيل للنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى - قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا - فساكنة تظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به . الثاني أن يستدل باظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ «ماستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة (١)» فيكون الأول فرحا بالقول في الحال من غير ملاحظة للمستقبل وهذا التفات إلى المستقبل . الثالث أن يظن رغبة المطلبين على الانتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العالانية بما أظهره آخرا وأجر السر بما قصده أولا ومن اتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال القتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور فإن ظهور محال الرجوع لتبذ وموجب للسرور لا محالة . الرابع أن يحمد المطلقون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبجهم للطبع وبجل قلوبهم إلى الطاعة إذ من أهل الايمان من يرى أهل الطاعة فيمقتة ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمد عليه فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله وعلامة الاخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمد غيره مثل فرحه بحمد ياء . وأما اللذوم وهو الخامس فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

(بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط)

فقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه واد الرياء فلا يغلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعمت الاخلاص سالما عن الرياء فباطرا بعده فيرجو أن لا ينقطع عليه أثره لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يمتن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه ، نعم لو تم العمل على الاخلاص من غير عقد رياء ، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الاظهار فتحدث به وأظهره فهذا أعوف . وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البقرة فقال ذلك حظهم أو روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يا رسول الله فقال له «ما صمت ولا أفطرت (٢)» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يغل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الأقرب أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما إذا ورد واد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الاخلاص ولكن ورد في أثناءها واد الرياء فلا يغلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعث على العمل فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره ، ومثاله أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة

(١) حديث ماستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ، ما صمت ولا أفطرت . مسلم من حديث أبي قتادة قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لا صام ولا أفطر وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه قال رجل إني صائم قل بعض القوم إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم قل النبي صلى الله عليه وسلم لا صام ولا أفطر من صام الأبدي لم أجده بافظ الخطاب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله خلقني عبدا ولم يحاط جبارا عنيدا ه . ولا يتبدى بالطعام حتى يبدأ للقدم أو الشيخ روى حذيفة قال «كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين» روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لأكل أحدكم يمينه ولشرب يمينه وإأخذ يمينه وليعط يمينه فإن الشيطان يأكل جماله ويشرب

أوحضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه أويذ كر شيئا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الاعادة إن كان في فريضة وقد قال **عليه السلام** «العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله» (١) أي النظر إلى خاتمته، وروى «أنه من رأى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله» (٢) وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد لما يطرأ يفسد الباقي دون للآخر والصوم والحج من قبيل الصلاة وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمتنع من قصد الاتمام لأجل الثواب كالواحد من جماعة في أثناء الصلاة فحرج بمحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا فهذا رياء قد أثر في العمل واتهم باعثا على الحركات فإن غلب حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لأننا نكتفي بالنية السابقة عند الاحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يفسدها ويضرها ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسب رحمه الله تعالى إلى الاحباط في أمره هو أهون من هذا وقال إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس يعني سروره هو كعب التزلة والجماع قال قد اختلف الناس في هذا فصارت فرقة إلى أنه يحبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخوفين ولم يهتم بعمله بالاخلاص وإتمامه العمل بخاتمته ثم قال ولا أنقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والأغلب على قاي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنها حالتان فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية . وقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطاع عليه فيسرني قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية» (٣) ثم تسكلم على الخبر والأثر فقال أما الحسن فإنه أراد بقوله لا يضره أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره وأما الحديث فتسكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه : أحدها أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ . الثاني : أنه أراد إن يسره للاقتداء به أو لسرور آخر محمودا ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب الحمدة والتزلة بدليل أنه جعل له به أجرا ولا ذهاب من الأمة إلى أن للسرور بالحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه فكيف يكون له مخلص أجروا للرأي أجران . والثالث : أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الاحباط والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإيمانا انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم يتعدم به أصل نيته وبقيت تلك

جماله وبأخذ جماله ويعطى جماله « وإن كان للأكل تمر أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرى ولا يؤكل على الطبق ولا في كفه بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرمي ولا يأكل من ذروة الثريد . روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فإن البركة تنزل في وسطه» ولا ييبس الطعام روى أبو هريرة رضي الله عنه قال ما طاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ إذا طاب أسفله طاب أعلاه وقد تقدم (٢) حديث من رأى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من مع مع الله به ومن رأى رأى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث إن رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطاع عليه فيسرني فقال لك أجران الحديث البيهقي في شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطاع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية قال الترمذي غريب وقال إنه روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل .

النية باعثة على العمل وحاملة على الاتمام ، وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق وأما ما ورد في الشبهة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه أما إذا كان ضيقا بالاضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ولا ينبغي أن يفسد الصلاة ولا يمد أيضا أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله الخالص ما لا يشوبه شيء فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه وقد ذكرنا في كتاب الاخلاص كلاما أوفى بما أوردناه الآن فليرجع إليه فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ . القسم الثالث : الذي يقارن حال العقد بأن يتبدى الصلاة على قصد الرياء فإن استمر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضى ولا يستند بصلاته وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل القيام بقيامه بثلثة أوجه قالت فرقة لم تتعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريم الصلاة لأن التحريم عقد والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا وقالت فرقة لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتداء باخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا ينال محمد الناس وذمهم فنصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة تفسد الصلاة كذلك قول من يقول لو ختم باخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعثة مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتنال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لأجل الناس فهذه صلاة لانية فيها إذا النية عبارة عن إجابة باعثة الدين وههنا لا باعثة ولا إجابة فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المصداقة أيضا فاجتمع الباعثان فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة ورجح فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعثة الرياء وأطاع بإجابة باعثة الثواب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه إذ اجتمع في قلبه الباعثان ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاعتداء به باطل حتى إن من صلى التراخي وتبين من قرأتين حاله أن قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلاف بيت وحده لما صلى لا يصح الاعتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بطوعه فنصح باعتبار ذلك قصد صلاته وصح الاعتداء به وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا في حقه بمجرد واستقلاله وإن كان كل باعثة مستقلا حتى لو لم يكن باعثة الرياء لأدى الفرائض ولو لم يكن باعثة الفرض لأنشاء صلاة تطوعا لأجل الرياء فهذا العمل النظري وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال إن الواجب امتثال

طعاما قط إن اشتبه
أكله وإلا تركه وإذا
سقطت اللقمة يأكلها
قد روى أنس بن
مالك رضى الله عنه
عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال « إذا
سقطت لقمة أحدكم
فليطه عنها الأذى
ولأكلها ولا يدعها
للشيطان ويلقى
أصابعه » فقد روى جابر
عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « إذا
أكل أحدكم الطعام
فليمتص أصابعه فإنه
لا يدري في أي طعامه
تكون البركة » وهكذا
أمر عليه السلام
بإسالات القصعة وهو

الأمر يباعث مستقلاً بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى في دار مخصصة فانه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار للنسوبة فانه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما إذا كان الرياء في البادرة مثلاً دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد عن القدرح في النية هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه وأما مجرد السرور بإطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعد أن يفسد الصلاة فهذا ما رآه لا تها بقانون الفقه والسائلة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتحصروا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الاخلاص على إفساد العبادات بأن الحواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيها رآه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

(بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه)

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه فحذير بالتشهير عن ساق الجرد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل الشاق فلا شفاء إلا في شرب الأدوية للمرة البشعة وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم إذ الصبي يخاف ضعيف العقل والتمييز تمتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه وإنما يشمر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغمس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولاً وتخف آخرها وفي علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها انتفاعه والثاني دفع ما يخطر منه في الحال . المقام الأول : في قلع عروقه واستئصال أصوله وأصله حب المزية والجاه وإذا فضل رجوع إلى ثلاثة أصول وهي : لذة المحمدة والفرار من ألم القم والطمع فيما في أيدي الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى « أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ^(١) ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب وقال والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال ابن مسعود إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضي الله عنه يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملاً دفق راحلته ورقاً وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لا يفي إلا عقلاً فله مانوى ^(٢) » فهذا إشارة إلى الطمع وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبيخل بين الأغنياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فانه يتصدق بالقليل كي لا ييخل وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال ولكن إذا أبس

مسحها من الطعام قال أنس رضي الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسكات القصعة ولا ينفخ في الطعام فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ينفخ في الطعام يذهب بالبركة » وروى عبد الله بن عباس أنه قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا في شراب ولا يتنفس في الإناء فليس من الأدب ذلك والخل والبقل على السفرة من السنة . قيل إن الملائكة تنحصر للمائدة إذا كان

(١) حديث أبي موسى أن أعرابياً قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية الحديث متفق عليه .

(٢) حديث من غزا لا يفي إلا عقلاً فله مانوى النسائي وقد تقدم .

من الحمد كره الدم وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطعم في الحمد وقد يقدر الانسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الدم ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ويغنى بعلم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذرا من الدم فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك للرأي إلى الرياء وعلاجه ما ذكرناه في السطر الأول من الكتاب على الجملة ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يغني أن الانسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ إما في الحال وإما في المآل فان علم أنه لذيق في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيق ولكن إذا بان له أن فيه سمأ أعرض عنه فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من الضرورة ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يغوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من اللذة عند الله وما يترتب له من العقاب العظيم والقت الشديد والحزى الظاهر حيث ينادى على رؤوس الخلائق يا ظاهر يا غادر يا مرأى أما استحييت إذا شترت بطاعة الله عرض الدنيا وراقبت قلوب العباد واستنزأت بطاعة الله وتجهيت إلى العباد بالتبغض إلى الله وتزينت لهم بالشين عند الله وتقربت إليهم بالبعد من الله وتعمدت إليهم بالنذم عند الله وطلبت رضام بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله فهما تفكر العبد في هذا الحزى وقابل ما يحصل له من العباد والذين لهم في الدنيا بما يغوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يرجح به ميزان حسنة لو خلس فاذا فسد بالرياء تحول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجعة فقد كان ينال بهنئة الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت لهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فإن رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ومن طلب رضام في سخط الله يسخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أي غرض له في مدحهم وإشراقهم الله لأجل حمدهم ولا يزيدهم حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقه وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما في أيديهم فيأمن يعلم أن الله تعالى هو السخر للقلوب بالمنع والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والحياة وإن وصل إلى اللراد لم يخل من اللنة والهانة فكيف يترك ما عند الله برباء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلا تقى لذته بآلم مته ومذله وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيدهم ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ولا يجعل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ولا يفضله إلى الله إن كان محمدا عند الله ولا يزيد مقتا إن كان محموتا عند الله فالعباد كلهم محبة لا يمكن أن تكون لأنفسهم ضرا ولا نقما ولا يمكن أن يكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الاخلاص لقتوه وسيكشف الله عن سره حتى يفضله إلى الناس ويسرفهم أنه مرء ومحقوق عند الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم «إن مدحى زين وإن ذمى شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليها بقل روت أم سعد
رضي الله عنها قالت
«دخل رسول الله صلى
الله عليه وسلم على عائشة
رضي الله عنها وأنا
عندها فقال هل من
غداء؟ فقالت عندنا
خبز وعمر وخل فقال
عليه السلام: نعم الآدم
الحل اللهم بارك في الحل
فانه كان إدام الأنبياء
قبلي ولم يقفر بيت فيه
خل ولا يصمت على
الطعام فهو من سيرة
الأعاجم ولا يقطع
اللحم والخبز بالسكين
ففيه نهى ولا يكف يده
عن الطعام حتى يفرغ
الجمع فقد ورد عن ابن
عمر رضي الله عنهما

كذبت ذاك الله الذي لا إله إلا هو (١) إذ لازن إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه فأى خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة القربين فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والنازل الرفيعة عند الله استحق ما يتلقى بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من السكورات والنصت واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخاص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ويفتح بها له من لطائف الكاشفات ما يزيد به أنه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدينا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتدل له منهج الإخلاص فهذا وما قد مناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالمة مغارس الرياء . وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تعلق الأبواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بهذا فلم يرض في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الإخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل لطاف الله وما يعبده عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله ففتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما . - القام الثاني : في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه زغاته وهوى النفس وميلها إلا ينمحي بالكلية فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء وخاطر الرياء ثلاثة قد تخطر دفة واحدة كالخاطر الواحد وقد ترادف على التدرج فالأول العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حقدوم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه فالأول معرفة والثاني حالة تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قل مالك وللخلق علموا أولم يعلموا والله عالم عمالك فأى فائدة في علم غيره فإن حاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر مارسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للفتنة عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء لمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول والكرهية تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لاجالة أقواها وأغلبها فاذن لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة والكرهية والإباء وقد يصرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا يحضره للمعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحسب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بأفات الرياء وشؤم عاقبتها إذ لم يبق موضع في القلب

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفسرغ القوم وليتعل فان الرجل يجبل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة » وإذا وضع الحنيز لا ينتظر غيره فقد روى أبو موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكرموا الحنيز فان الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم . ومن أحسن الأدب وأهمه

(١) حديث قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله ، حم من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات إلا أنى لأعرف لأبي سلمة ابن عبد الرحمن سمعا من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ قال الرجل إن حمدى .

خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة علاء القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب وإليه أشار جابر بقوله : ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نقر ولم نبأ به على الموت فأنسيناها يوم حنين^(١) حتى نودى يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت للعهد السابق حتى ذكرناه ، وأكثرت الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة ، وقد يتذكر الانسان فيعلم أن الحاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يمرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك هذه الحال فيسوف بالثوبة أو يتشغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة فكأن من عالم يحضره كلام لا يدعو إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فيكون الحجة عليه أو كد إذ قبل داعي الرياء مع علمه بفائلته وكونه مذموما عند الله ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر للمعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به ليكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة وهذا أيضا لا يتفجع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل فإذا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والإباء بالإباء ثمرة الكراهة ثمرة المعرفة وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التذكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك ينتج بعضا ويشمره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لأن حلاوة حب الجاه والنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأتوار العلوم . فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملت الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وجه له ومنازعة إياه إلا أنه كاره لحبه وليلته إليه وغير محب إليه فهل يكون في زمرة المرائين ، فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطرق وليس في طاقة المبدع منع الشيطان عن نزغاته ولا منع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها وإنما غاية أن يقابل شهوته بكراهة استتارها من معرفة المواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به ويدل على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « شكوا إليه وقالوا تعرض لقلوبنا أشياء لأن نغتر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن تسلكم بها فقال عليه السلام أو قد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان^(٢) » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمل على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبان

(١) حديث جابر ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نقر الحديت مسلم مختصرا دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس (٢) حديث شكوى الصحابة ما تعرض في قلوبهم وقوله ذلك صريح الإيمان ، مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا مثل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الإيمان ، والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة .

أن لا يأكل إلا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملا آدمى وعاء شرا من بطنه » ومن عادة الصوفية أن يلتمس الخادم إذا لم يجلس مع القوم وهو سنة روى أبو هريرة رضي الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليأكله أو كلة أو أكلتين فإنه ولي حرمه ودخانه » وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى روى أبو سعيد

يندفع بها ضرر الأصغر أولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة (١) » وقال أبو حازم ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيتك نفسك لنفسك فهايتها عليه فاذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادها بالإباء والكرهه والخواطر التي هي العلوم والتذكريات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان والرغبة والميل بتلك الخواطر من النفس والكرهه من الإيمان ومن آثار العقل إلا أن للشيطان هنا مكيده وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الاخلاص وحضور القلب لأن الاشتغال بمجادة الشيطان ومداغته انصراف عن سر النجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله . والتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب : الأولى أن يرده على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادته وبطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق والتعريض على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك . الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادته . الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقعة وإن قلت بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكرهه غير مشتغل بالتكذيب ولا بالخاصمة . الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء فيكون قد عزم على أنه مهما نزع الشيطان زاد فيها هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسره وتوطئه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلاناً بكركك فقال والله لأغيظن من أمره قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان اللهم اغفر له أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبدة هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته . وقال إبراهيم التيمي إن الشيطان يدعو العبد إلى الباب من الأثم فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضاً إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك . وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالمهم كآربة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً لحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق فتقدم إلى واحد فتمعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه فوقف فدفع في عمر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرج منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان غلاب منه رجاؤه بالكيفية الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغيظه فزاد في هجته وترك الثاني في الشيء فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يهاودوا الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يهاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله . فان قلت فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب التردد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه . قلنا اختاف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة

(١) حديث ابن عباس الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بلفظ كيد .

قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاماً قال : الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذي أطعني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » ويتخلل فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخلصوا فانه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة » وفضل يديه قد روى

إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتر لهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم كما أيس من ضغفاء المبادي الدعوة إلى الخمر والزنا فاصارت ملاذ الدنيا عندهم وإن كانت مباحة كالخمر والحزير فارتحلوا من حبها بالسكية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلاحاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن التردد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراه الله فهو انضار والنافع والمارف يستحي منه أن يحذر غيره فاليقين بالوحدانية يضيء عن الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالسكية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان من السموات وحب الدنيا بل في صفات الله تعالى وأسمائه وفي تحسين البدع والفضائل وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته» وقال النبي ﷺ «إنه ليغان على قلبي» (١) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يامر به إلا بخير (٢) فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما - إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجمع فيها ولا تعرى وأنت لا تنظمها فيها ولا تضحى - ومع أنه لم يمتد إلى شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع الخن والتفن ومعدن الملاذ والسموات المنهى عنها وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى - هذا من عمل الشيطان - ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى - يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة - وقال عز وجل - إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم - والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف بدع الأمن منه وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى - وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم - وقال تعالى - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - فإذا لم يك بأمر الله الحذر من العدو والكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من العدو يراك ولا تراه أولى ولذلك قال ابن عثير يزيد صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في العقلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم فليس من الاشتغال بآفة الإعراض عما حذر الله وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قاصح في التوكل فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقصح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقصح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل التزوع عن الأسباب بالسكية وقوله تعالى - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - لا ينافي امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن الفاعل والنافع والهي والميت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويحتمل أن الهادي والناسخ هو الله ويرى الأسباب وسائط مستخرة كما ذكرناه .

(١) حديث إنه ليغان على قلبي تقدم (٢) حديث إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير تقدم أيضا .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بات وفي يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه » ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آرعوا الطموس وخالفوا الجبوس » ويستحب مسح العين يلك اليد . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا توضأتم فأشربوا أعينكم للساء ولا تفضوا أيديكم فانها

في التوكل وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم ينزر علمهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الابتساق بالله يستمر على الدوام وهو بيد ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم إذا حذرنا الله تعالى المدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا وقال قوم إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال المم كلة بالشیطان وذلك مراد الشيطان منابله تشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا تنسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فجمع بين الأمرين فانا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحسب وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا ينبغي غلظه وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر المدوّ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر بمولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإيمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أصر الله الخلق بذكره ونسيان ماعداه إبليس وغيره فخلق أن يلزم البعد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكسب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فانه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه بالتوكل غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع المدوّ إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصدوا وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر المدوّ واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر المدوّ وشال القلب برّ أريد تطهيرها من اللاء القدر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القدر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزع الماء القدر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تنبهه ولا تحف البئر من الماء القدر والبصير هو الذي جعل لجري الماء القدر مسدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القدر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

(بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات)

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاعتدال ورغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون أن السر أحرز العاملين ولكن في الاظهار أيضا فائدة ولذلك أنى الله تعالى على السر والعالية قال - إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم - والاظهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخرة بالتحدث بما عمل . القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في اللأ لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصاري

مراوح الشياطين «
قيل لأبي هريرة في
الوضوء وغيره قال
نعم في الوضوء وغيره.
وفي غسل اليد يأخذ
الأشنان باليمين وفي
الحلال لا يزدد
ما يخرج بالحلال من
الأسنان وإنما ما يلوكة
باللسان فلا بأس به
ويحتمل التصنع في
أكل الطعام ويكون
أكله بين الجمع
كله منفردا فان
الرياء يدخل على البعد
في كل شيء . وصف
بعض العلماء بعض
العباد فلم يثن عليه
قيل له تعلم به بأسا
قال نعم رأيته يتصنع

الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » (١) وتجري سائر الأعمال هذا الجرى من الصلاة والصيام والحج والقرى وغيرها ولكن الاقتداء في الصدقة على الطبايع أغلب ، نعم الغاى إذا ما بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن القزوة في أصله من أعمال العالانية لا يمكن إسراره بالمبادرة إليه ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل للمبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه لتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤدي للتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال : قوم السر أفضل من العالانية وإن كان في العالانية قدوة ، وقال قوم السر أفضل من علانية القدوة فيها أما العالانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قوله عليه السلام « له أجرها وأجر من عمل بها » وقد روى في الحديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العالانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العالانية إذا استأن بماله على عمل السر سبعين ضعفا » (٢) وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما اتفقت القلب عن شوائب الرياء وتم الاخلاص على وجه واحد في الحالتين لما يقتدى به أفضل لا محالة وإنما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيقتان : إحداهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق وربما يقتدى به أهل محله وإنما العالم للعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة فخير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وإنما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به والثانية أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الاظهار بئذ الاقتداء وإنما شهوته التجليل بالعمل وبكونه يقتدى به وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل مامم فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الفرق فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبوا به فهلكوا وهلك والفرق بالماء في الدنيا أله ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فانهم يتشبهون بالأقوياء في الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص فتجبت أجورهم بالرياء والتفتن لذلك فامض وحك ذلك أن يمرض على نفسه

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي (٢) حديث إن عمل السر يضاعف على عمل العالانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العالانية إذا استأن به على عمل السر سبعين ضعفا البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصر على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخي المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العالانية والعالانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة بفضل أو يضاعف الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

في الأكل ومن تصنع
في الأكل لا يؤمن
عليه التصنع في العمل
وإن كان الطعام حلالا
فليقل الحدقه الذي
بنعمته تم الصالحات
وتنزل البركات اللهم
صل على محمد وعلى آل
محمد اللهم أطعنا طيبا
واستعملنا صالحا وإن
كان شبهة يقول الحمد لله
على كل حال اللهم
صل على محمد ولا تحطه
عونا على مصيبتك
وليكثر الاستغفار
والحزن ويكي على
أكل الشبهة ولا
يضحك فليس من
يأكل وهو يكي كين
يأكل وهو يضحك

أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بما يد آخر من أقرئك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان فإن مال قلبه إلى أن يكون هو للقتدى به وهو الظاهر للعمل بقائه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فأنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره لما بال قلبه يميل إلى الاظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب وقلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة في الإخفاء وفي الاظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أثنا فليحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء . القسم الثاني : أن يتحدث بمافعله بعد الفراغ وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن قوة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقياء . قال سعد بن معاذ : ما صليت صلاة منذ أسلمت خدعت نفسي بغيرها ولا تمت جنازة خدعت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق ، وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأنني لا أدري أيهما خير لي ، وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه : ما تنيت ولا عنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقال شداد بن أوس : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه وكان قد ذل لئلامه اثنتا عشرة لثمت بها حتى ندرت الغداء ، وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا على فاني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في قضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله فهذا كله إظهار لأحوال شريفة وفيها غاية المראה إذا صدرت من يرأى بها وفيها غاية الترغيب إذا صدرت من يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز الأقياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع بحجة على حب التشبه والاقتداء بل إظهار الرأى للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي ، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله ، وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في مكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت فنصف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصف فإظهار الرأى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ^(٢) كما ورد في الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قريش ويحجب الدخول على قوم في وقت أكلهم فقد ورد من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاستأ وأكل حراماً وممناً افطأ آخر دخل سارقاً وخرج مغيراً إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ويحجب للضيف التكاف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ولا ينفل

(١) حديث عثمان قوله ما تنيت ولا عنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلي في معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وإن عثمان قال يا رسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك يا عثمان (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً .

(بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له)

اعلم أن الأصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه رجل عليك بعمل العلانية قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه ، وقال أبو مسلم الحولاني ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إيتاني أهلي والبول والنائط إلا أن هذه درجة عظيمة لا يبالها كل واحد ولا يغلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو يحوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما يحتاج به الحواطر في الشهوات والأمانى والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لاخفائها عن العيدين بما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحذور أنه يستتر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر للرأى. وأما الصادق الذي لا يرأى فله ستر للمعاصي ويصح قصده فيه ويصح اغتماه باطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه : الأول أن يفرح بستر الله عليه وإذا افتضح اغتم بهتت الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر « أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبا ستره الله عليه في الآخرة »^(١) وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان. الثاني أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله »^(٢) فهو وإن عصي الله بالذنوب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضا ويغتم بسببه . الثالث أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك ينميه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة وهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر ، وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان. الرابع أن يكون ستره ورغبته فيه لسكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فان الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإعاصيه إذا جازعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب على الإنسان أن لا يغم بنم الخلق ولا يتألم به ، نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعله أن الضر والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تتألم بالذم لمسا فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود إذا كان الدام من أهل البصيرة في الدين فاتهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغم به ، نعم الغم بالذموم هو أن يغم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمده بالورع ولا يجوز أن يحب أن يحمده بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فان وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالسكراهة والرد . وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وإتمامه أن يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم إذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فان ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر. الخامس أن يكره الذم من حيث إن الدام قد عصي الله تعالى به وهذا من الإيمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا

(١) حديث أن من ستر الله عليه في الدنيا يستر الله عليه في الآخرة تقدم قبل هذا بورقة (٢) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستر بستر الله الحاكم في المستدرك وقد تقدم .

ذلك حياء وتسكفا
وإذا أكل عند قوم
طعاما قليلا عند فراغة
إن كان بعد للغرب
أفطر عندكم الصائمون
وأكل طعامكم الأبرار
وصلت عليكم لللائكة
وروى أيضا عليكم
صلاة قوم أبرار ليسوا
بأئمن ولا تجار يصلون
بالليل ويصومون
بالتهار . كان بعض
الصحابية يقول ذلك .
ومن الأدب أن
لا يستحقر ما يقدم له
من طعام وكان بعض
أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
ماندرى أيهم أعظم
وزرا الذي يحقر

فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع . السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم القدم فإن ألم القدم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذرا منه . السابع : مجرد الحياء فانه نوع ألم وراء ألم القدم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبايح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله »^(١) وقال عليه السلام « الحياء شعبة من الإيمان »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء لا يأتي إلا بخير »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحي الحليم »^(٤) فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق والتثتق والوقاحة فقد الحياء فهو أشد حالاً ممن يستر ويستحي إلا أن الحياء يمتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً قل من يتفطن له ويدعى كل مرء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب بل الحياء خالق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبيه داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرأى معه ويبان أن الرجل يطلب من صديق له قرصاً ونفسه لا تسخو بأقرضه إلا أنه يستحي من رده وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا اطلب الثواب فله عند ذلك أحوال : أحدها أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لحياء له فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال : أحدها أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء . الثاني أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيعتذر الاعطاء فيهيج داعي الاخلاص ويقول له إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فتسخر النفس بالاعطاء لذلك فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه . الثالث أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاء بمحض الحياء وهو ما يحمده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثرت الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبايح كالبخل ومقارفة الذنوب والرأى يستحي من اللباحات أيضاً حتى إنه يرى مستجلاً في الشيء فيعود إلى الهدوء وأحسب أن جمع إلى الاتقياض يزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح والرياء به الحياء مما ليس بقيس كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال في الشبهة للإسلام وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه ، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبايح والذنوب . الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري

ما يقدم إليه أو الذي يحقر ما عنده أن يقدمه . ويكره أكل طعام اللباة وما تكلف به للأعراس والتعازي لما عمل للنوايح لا يؤكل وما عمل لأهل العزاء لا بأس به وما يجرى مجراه وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبطاح إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا يخرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه قال الله تعالى - أو صدقكم - قيل دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه ففتنوا الباب وأزولوا السفرة

(١) حديث الحياء خير كله مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٢) حديث الحياء شعبة من الإيمان (٣) حديث الحياء لا يأتي إلا بخير متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٤) حديث إن الله يحب الحي الحليم الطبراني من حديث فاطمة وللبزار من حديث أبي هريرة إن الله يحب الغنى الحليم للتعفف وفيه لث بن أبي سليم مختلف فيه .

عليه غيره ويقتدى به وهذه العلة الراحة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالآفة أو بمن يقتدى به وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا مصيبتهم من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومنها قصد بستر العصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرآيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة. فان قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصالح وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم «دلى على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وابذل إليهم هذا الخطأ محبوبك» (١) فتقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمدا وقد يكون مذموما فالحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده والمذموم أن تحب حبهم ومحمد على حبك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة يمينها فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله وللإباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة للمنة فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

(بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات)

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرآيا به وذلك غلط وموافق للشيطان بل الحق فيها يترك من الأعمال ومالا يترك لحوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم إلى ثلاثة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فاتها مقاساة ومجاهدات إنما تصير للديعة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس وحمد الناس للديعة وذلك عند اطلاع الناس عليه وإلى ما هو للديعة وهو أكثر مالا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتدريس وإتقان السال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة القسم الأول الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصوم والصلاة والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل فيصير على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه مصيبة لا طاعة فيه فإنه تدرج بصورة الطاعة إلى طلب المنة فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستعينين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عبادته حتى يدفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . الثانية أن ينبغي لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول . الثالثة أن يقدم على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الاخلاص ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل فإذا لم يحب واشتغلت فبدعوك إلى الرياء فإذا لم تحب ودفعت بقي يقول لك هذا العمل ليس بغامس وأنت مرء وتعبك ضائع فأمر فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فإذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل خوفا أن يكون مرآيا كمن سلم إليه مولاة حنطة فيأزوان وقال خلصها من الزوان ونفها عنه تنقية بالفة فيترك أصل العمل ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا قويا فترك العمل من أجله هو ترك الاخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل

(١) حديث قال رجل دلى على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد في أيدي الناس وقد تقدم .

وأكلوا فدخل سفيان
فخرج وقال ذكرتموني
أخلاق السلف هكذا
كانوا ومن دعى إلى
طعام فلاجابة من
السنة وأؤكد ذلك
الوليعة وقد يتخلف
بعض الناس عن
الدعوة تكبرا وذلك
خطأ وإن عمل ذلك
تضاعف رياء فهو أقل
من التكبر . روى
أن الحسن بن علي
مرّ بقوم من السابكيين
الذين يسألون الناس
على الطرق وقد ثروا
كسرا على الأرض
وهو على بنته قسا
مرّ بهم وسلم عليهم
فردوا عليه السلام

أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مرء فيحسون الله به فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضرك قولهم ويضوته ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم إنه مرء هو عين الرياء فلو لا حبه لهدتهم وخوفهم من ذمهم لماله ولقولهم قتلوا إنه مرء أو قتلوا إنه مخلص وأى فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مرء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه فافل مقصر بل ترك العمل لأشد من ذلك فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطررك بذلك إلى أن تهرب فان هربت ودخلت سرا تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهديك وهربك منهم وتعظيمهم لك بغلوهم على ذلك فكيف تتخلص منه بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا تقع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وإن نزع العدو نازغ الطبع فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لأجل ذلك يحجر إلى البطالة وترك الخيرات لما دمت تجدد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعيت نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد الخلقين وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتولك بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مرء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فان ترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب . فان قلت فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال لا يرى هذا أنا نقرأ أكل ساعة . وقال إبراهيم التيمي إذا أعجبك الكلام فأسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن أن كان أحدهم ليبر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة . قلنا هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه . وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل ، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الاخلاص ولا يتركه وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف فالاعتداء ينفي أن يكون بالأقوياء وأما إطباق إبراهيم النخعي للمصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستنائه بعد خروجه للاشتغال بمكائله فرأى أن لا يراء في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشية من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا مجرد خوف الرياء وأما قول التيمي إذا أعجبك الكلام فأسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذرا من العجب فأما الكلام الحق للدوب إليه فلم ينس عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني وإنما كلامنا في العبادات الخاصة بيد العبد بما

وقالوا هم الفناء ابن رسول الله فقال نعم إن الله لا يحب التكبرين ثم نفي وركه نزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل ثم سلم عليهم وركب وكان يقال الأكل مع الاخوان أفضل من الأكل مع العيال . وروى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال يا أبا معاوية تدري من صب على يدك ؟ قال لا قال أمير المؤمنين قال

لا يتعاق بالباس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لحوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها . القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إتفاق المال . أما الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والاخلاص وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما» (١) فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم «أول من يدخل الجنة ثلاثة ثلاثة الامام المقسط» (٢) أحدهم وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل» (٣) أحدهم وقال صلى الله عليه وسلم «أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة إمام عادل» (٤) رواه أبو سعيد الخدري فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل للتقوى يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظيم الخطر إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويضرب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة يفهم الحديث الذي ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول من يأخذها بما فيها وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «ممن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره» (٥) رواه معقل بن يسار وولاه عمر ولاية فقال يأمر للؤمنين أشرف على قال اجلس واكنم على وروى الحسن «أن رجلا ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي خذني قال اجلس» (٦) وكذلك حديث عبد الرحمن بن مرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فانك إن

(١) حديث ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط الحديث مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط الحديث ولم أر فيه ذكر الأولية (٣) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل تقدم (٤) حديث أبي سعيد الخدري أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة إمام عادل الأصماني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضا إسحاق بن إبراهيم الديلمي أيضا (٥) حديث مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلوله إلى عنقه لا يفكها إلا عدله أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبراز من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبراز وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البراز والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والى ثلاثة إلا لقي الله مغلوله يمينه الحديث وقد عزي الصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يستعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح راحة الجنة متفق عليه (٦) حديث الحسن أن رجلا ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هوان مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكورة يحدث بالباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ أرم ينك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق .

يأمر للؤمنين إماما
أكرمت العلم وأجلته
فأجلك الله تعالى
وأكرمك كأكرمت
العلم .

[الباب الرابع
والأربعون في ذكر
أدبهم في اللباس ونباتهم
ومقاصدهم فيه]

اللباس من حاجات
النفس وضرورتها لدفع
الحار والبرد كما أن
الطعام من حاجات
النفس لدفع الجوع وكما
أن النفس غير قانعة
بقدر الحاجة من الطعام
بل تطلب الزيادات
والشهوات فهكذا في
اللباس تنفث فيه ولها
فيه أهوية متنوعة

أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها^(١) وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر لا تأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال رافع ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يجدل فيها فليس بهلة الله يعني لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهي عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا وأعنى بالقوى القدي لا يميله الدنيا ولا يستغزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لأثم وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وفعلوا الشيطان فأيس منهم فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولوزهقت فيهم أرواحهم فهم أهل نيل الفضل في الامارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه قرأها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاق لذة الولاية وأن تستحل الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل فيدهن خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الحرب من تقلد الولاية فقال قائلون لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كإيل العزل طلاق الرجال فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى الداهية وإهمال الحق وتهوى به في قهر جهنم ولا يستطيع النزوع منه إلى اللوت إلا أن يحزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أماراة الشر ولتلك قال صلى الله عليه وسلم «إنا لانؤلى أمرنا من سألنا»^(٢) فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبي بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض . وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والامارة فهو في معناها فإن كل ذى ولاية أمير أى له أمر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «القضاء ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة»^(٣) وقال عليه السلام «من استعصى فقد ذبح بغير سكين»^(٤) حكاه حكم الامارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لأثم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء لإبعادهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل التعلقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أولم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فليس له أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت المهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله فان لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار . وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية

ومآرب مختلفة فالصوفي يرد النفس في لباس إلى متابعة صريح العلم . قيل لبعض الصوفية نوبك ممزق قال ولكنه من وجه حلال وقيل له وهو وسخ قال ولكنه طاهر فنظر الصادق في ثوبه أن يكون من وجه حلال لأنه ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من اشترى ثوبا ببشرة دراهم وفي عنقه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا» أى لا فريضة ولا نافلة ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا لأن طهارة الثوب شرط في صحة

(١) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تنبل الامارة الحديث متفق عليه (٢) حديث إنا لانؤلى أمرنا من سألنا متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث القضاء ثلاثة الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم في العلم وإسناده صحيح (٤) حديث من استعصى فقد ذبح بغير سكين أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفي رواية من ولي القضاء وإسناده صحيح .

الحديث وجع الأسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فأقته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بسر كذا وكذا فطر من الحديث وقال ينبغي من الحديث أني أشتبه أن أحدث ولو اشتبهت أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة فاذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ويفر عن كل كلام يستقله العوام وإن كان حقا وبصير مصروف المهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس اللبر وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أو لانهيهم يقول إذا أنعم الله على هذه النعمة ونعمني بهذه الحكمة فأقصموا لي بشاركتي في نعمها إخواني المسلمين فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكه حكم الولايات فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي أن يتركه ويغالف الهوى فيه إلى أن تتراض نفسه وتقوى في الدين همة ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه . فان قلت مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق . فنقول قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها (١) حتى قال « إنكم تحرمون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها » (٢) وقال « نعمت للرضعة وبئست الفاطمة » (٣) ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعاش فلم ينهي عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبي بن كعب رأى قوما يقيمونه وهو في ذلك يقول أبي سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يقيموه وقال ذلك فتنة على التبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويخط ولا يتمتع منه . واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنهى فقال أعنعني من نصح الناس فقال أخشى أن تنتفع حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه غايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخاق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدى إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء (٤) بل الرياسة وجبها يضطر الخلق إلى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تدرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فان الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ثم إنى أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في التهي عن إلا امتناع بعضهم وإلا فيعلم أن كلهم لا يتمتعون ولا يتركون لذة الرياسة فان لم يكن

(١) حديث التهي عن طلب الإمارة وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسئل الإمارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث (٢) حديث إنكم تحرمون على الإمارة وإنها حسرة وندامة إلا من أخذها بحقها البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله إلا من أخذها بحقها وزاد في آخره نعمت الرضعة وبئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهى في صحيح ابن حبان (٣) حديث نعمت الرضعة وبئست الفاطمة البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حبان بلفظ قبست للرضعة وبئست الفاطمة (٤) حديث التهي عن القضاء مسلم من حديث أبي ذر لا تؤمرون على اثنين ولا تليين مال يتم

الصلاة وما عدا هذين
النظرين فنظره في
كونه يدفع الحر والبرد
لأن ذلك مصلحة
النفس وبعد ذلك
ما تدعو النفس إليه
فكله فضول وزيادة
ونظر إلى الخلق
والصادق لا ينبغي أن
يلبس الثوب إلا لله
وهو ستر العورة
أو لنفسه لدفع الحر
والبرد . وحكى أن
سفيان الثوري رضى
الله عنه خرج ذات يوم
وعليه ثوب قد لبسه
مقلوبا قبيل له ولم يعلم
بذلك فهم أن يغلمه
ويضربه ثم تركه وقال
حيث لبسته نويت أني

في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر ونخيلته إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا تمنعه منه وهوله اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال لست أقدر على نفسي فتقول اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو المالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويرزق في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته ، فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة القرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه التزجية والتجربة على المعاصي بطيارات النكت فيجب إخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامه في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما أو ردتاه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله ، ولهذا قال المسيح عليه السلام : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تمكثون تتوبون بالقول والأمان وتعملون بالهوى وما يفتي عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمخلخلة يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبید الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفدتكم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأى ناس أخس منكم لو تملكون وبلغكم حتى متى تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في عملة التجبرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا ينفعني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا ينفعني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبید الدنيا لا كميده أقباء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقاكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يذفكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادی فيوقسكم على سوابقكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم وقد روى الحرث الحاسبى هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وقتة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل طار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون . فان قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ غلاب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ^(٣) » إلى غير ذلك من فضائل العلم فينبغي أن يقال للعالم اشتغل بالعلم وأترك مرآة الخلق كما يقال لمن خالجه لرياء في الصلاة لا ترك العمل ولكن أعم العمل وجاهد نفسك . فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم النسائي وقد تقدم قريبا (٢) حديث لأن يهدى الله بك رجلا خيرا لك من الدنيا وما فيها متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلطف خير لك من حمر النعم وقد تقدم في العلم (٣) حديث أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك في أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه الحديث .

ألبسه لله. والآن في
أغیره إلا لنظر الخلق
فلا أنقض النية الأولى
بهذه. والصوفية خصوا
بطهارة الأخلاق وما
رزقوا طهارة الأخلاق
إلا بالصلاح والأهلية
والاستعداد الذي
هبأه الله تعالى لنفوسهم
وفي طهارة الأخلاق
وتعاضدها تناسب واقع
لوجود تناسب هيئة
النفس وتناسب هيئة
النفس هو المشار إليه
بقوله تعالى - فاذا
صوته ونفخت فيه
من روحي - فالتناسب
هو التسوية فمن
للتناسب أن يكون
لباسهم مشا كلالطامهم

كفضل الخلافة والإمامة ولا تقول لأحد من عباد الله أترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإساءة الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا تقول له أيضا أترك ما دام يجد في نفسه باعثا دينيا مخزوجا يباعث الرياء أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الاظم أرشعه وأسلم وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها أما إذا خطر له وسواس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للنصاب الكبيرة في العلم . وبالجملة فالمراتب ثلاث : الأولى : الولايات والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة . الثانية : الصوم والصلاة والحج والغزو وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لحوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدر على فيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة . الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبين وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة فالصلاة يبنى أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات يبنى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء ومنصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم . وهنارثة رابعة وهي : جمع المال وأخذة للتفرقة على المستحقين فإن في الاتفاق وإظهار السخاء استجلابا للشاء وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس والآفات فيها أيضا كثيرة ، ولذلك مثل الحسن عن رجل طلب التوت ثم أمسك وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا وأن من ازهد تركها قرية إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يسرنى أني أقت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها أما إنى لأحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وقد اختلف العلماء فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم الجلوس في دوام ذكر الله أفضل والأخذ والإعطاء يشغل عن الله ، وقال السبيح عليه السلام ياطالب الدنيا ليربها تركها لها أبر ، وقال أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركها له أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل . وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو شار الآفات والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن هجز فلينظر وليجهد وليستف قلبه وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر ليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يغيب إليه الطبع . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلمنا تستلذ الخير ونميل إليه وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنى وإثبات فهو موكل إلى اجتهد القلب لينظر فيه لديه وبدع ما يريه إلى ما لا يريه ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفعه خيفة من الآفة وهو عين البخل ولا خلاف في أن تفرقة للمال في اللباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل الكسب والاتفاق أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات فأما للمال الحاصل من الحلال فتفرقة أفضل من إمساكه بكل حال . فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مرير رياء الناس . فاعلم أن لذلك علامات إحداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالنيغة وهو أن يتنى لنفسه مثل علمه ، والأخرى أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه فينظر إلى الخلق بين واحدة والأخرى أن لا يجب اتباع الناس له في الطريق والشئ خلفه في الأسواق

وطعامهم مشا كلا
لكلامهم وكلامهم
مشا كلا لمناهم لأن
التناسب الواقع في
النفس مقيد بالعلم
والتشابه والتماثل في
الأحوال يحكم به العلم
ومتصفوة الزمان
ملتزمون بشئ من
التناسب مع مزج
الهوى وما عندهم من
التطلع إلى التناسب
رشح حال سلفهم في
وجود التناسب . قال
أبو سليمان الداراني :
يلبس أحدكم عباءة
بثلاثة دراهم وشهوته
في بطنه بخمسة دراهم
أنكر ذلك لعدم
التناسب فمن خشن

ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها ، وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصغر فدخل المسجد على برذونه فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقه أحفل من حلقه الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ثم نفي وركه فزول ومشى نحو الحسن ففأراه الحسن متوجها إليه تهايا له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتهايت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة وجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم لما قطع الحسن كلامه قال سعيد قلت في نفسي لأبكون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيدني كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هية الحجاج أن ينقص من كلامه فتكلم الحسن كلاما واحدا نحو ما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال صدق الشيخ وبرت فليكن بهذه المجالس وأشبهها فأغذوها حلقا وعادة فانه يلتفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن مجالس الذكر رياض الجنة^(١) ولولا ما حملناه من أهر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمرفتنا بفضلها قال ثم اقتر الحجاج فتكلم حتى هبب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق قيام فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج فقال عباد الله السديين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وأنى أغزوا فأكلف فرسا وبغلا وأكلف فسطاطا وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال فشكاهن حاله حتى رقى الحسن له وأصغاه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزاهم الله غزاه في القسايط المهبأة وعلى البغال السبابة وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا وراجلا لما اقتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه قيام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمى به إلى الحجاج وحكى له كلامه فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الأمير قيام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تسكاه به فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيت فاعرا فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه ففظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الحياة ليست إلا في الدينار والدرهم إن الحياة أشدّ الحيانة أن يجالسا الرجل فتمطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار إلى أنيت هذا الرجل فقال أقصر عليك من لسانك وقولك إذا غزاهم الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا لا أبالك تعرض علينا الناس أما إننا نطيل ذلك لاتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عنى وركب الحسن حمرا يريد للزلز فيها هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتيمونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء أو إلفار جموا لما بقي هذا من قلب العبد فيه هذه العلامات وأمثالها تبين سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتفابرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين .

(بيان ما يصح من نشاط العبد لعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح)

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم في بيته ساعة قرية فاذا رآهم انبث نشاطه للمواظقة حتى يزيد على ما كان يتأده أو يصل مع أنه كان لا يتأد الصلاة بالليل أصلا ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل للوضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولا هم لما انبث هذا النشاط فهذا ما يظن أنه رياء وأن الواجب

(١) حديث أن مجالس الذكر رياض الجنة تقدم في الأذكار والدعوات .

ثوبه ينبغي أن يكون
ما كوله من جنسه
وإذا اختلف الثوب
والأكل يدل على
وجود انحراف لوجود
هوى كامن في أحد
الطرفين إما في طرف
الثوب لموضع نظر
الخلق وإما في طرف
للأكل لفرط الشراء
وكلا الوصفين مرض
يحتاج إلى للدواة
ليعود إلى حد
الاعتدال . ليس
أبوسليمان الداراني
ثوبا غسلا فقال له
أحمد لوليت ثوبا
أجود من هذا فقال
ليت قلبي في القلوب
مثل قلمي في الثياب

ترك للواقعة وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ولكن قد تحوّل العوائق وبغية الاشتغال وبغية النكاح من الشهوات أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة أو تدفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجّد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجه أو المهادنة مع أهله وأقاربه أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفرّغ رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا فانه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يستقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره للوضع أو سبب آخر فيفتنم زوال النوم وفي منزله ربما يضلّه النوم وربما يضاف إليه أنه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجّد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يصير عليه الصوم في منزله ومع أطيب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فإذا سلم منها قوى الباعث فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فانك تكون مرثياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزود على صلاتك المعتادة وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك غفامى ولست تصلى لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبّه إلا على ذوى البصائر فإذا عرف أن المهرج هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركة واحدة لأنه يعصى الله بطلب محمّدة الناس بطاعة الله وإن كان ابتعائه لدفع العوائق وتحريك القبضة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الوضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه فان سخط نفسه فليصل فان باعته الحق وإن كان ذلك يشغل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فان باعته الرياء وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب محمّدهم ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه تزوع النفس إلى حب الحمد فهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يحمده من حب الحمد بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشغل بالعبادة وكذلك قد يكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحسده لما يكي ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق إذ ينفى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً وذلك محمود وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فاعلم أن خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغي أن يترك التباكي . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك غشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الأحوال

فكان الفقراء يبسون الرقع وربما كانوا يأخذون الحرق من المزابل ويرقصون بها نوبهم وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الأبواب . وكان أبو عبد الله الرفاعي مثابراً على الفقر والتوكل ثلاثين سنة وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له في ذلك فيقول أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق للسكينة ثم

تارة تكون من الصدق والحزن والحرف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود وقد تقرر به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهاها سلم بكاؤه وتباكيه وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لخط الله تعالى به وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمدد ويؤدي رفع الصوت فذلك الرياء وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف مالا يملك العبد منه نفسه ولكن سبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت خشية الله ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء وكذلك قد يسمع الله كبر فضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد يزول عقله فيسقط ولكن يبقى سريعا فتخرج نفسه أن يقال حاله غير ثابتة وإنما هي كبري خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريرا فيخرج أن يقال لم تكن غشيتة صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكى على غيره يرى أنه يضيف عن القيام ويشايل في الشئ ويقرب الخطأ يظهر أنه ضعيف عن سرعة الشئ فهذه كلها مكاييد الشيطان ونزغات النفس فإذا خطرت فلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا ثقافته في الباطن واطلموا على ضميره لمتوه وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مكرها كإروى عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق قدامه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ الذي راكحين تقوم مجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء في الخبر «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»^(١) وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فإن ذلك قد يكون لحاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمرء أنه هذه خواطر ترد على القلب متفاداة مترادفة متقاربة وهي مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو فإن كان لله فأمضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كديب الخلق وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا ؟ لحوفك على الإخلاص فيها واحذر أن يتجدد ذلك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا فإذا خطر لك تفكر في اطلاع الله عليك ومقتك لك وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال يا أيوب أماغلت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويمجى بسريره وقول بعضهم أعوذ بك أن يرى الناس آثي أخشاك وأنت لي باقت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما : اللهم إني أعوذ بك أن تمسني في لائمة العيون علانيتي وتقميص لك فيما أخلو سررتي محافظا على رياء الناس من نفسي ومضيا لما أنت مطلع عليه مني أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملي تقربا إلى الناس بحسناتي وفرارا منهم إليك بسيئاتي فيجعل بي مقتك ويجب على غضبك أعذني من ذلك يارب العالمين وقد قال أحد الثلاثة نقر لأيوب عليه السلام يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا أعلانيتهم وأصاعوا سرأرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه حيل آفات الرياء ، فليراقب العبد قلبه ليحفظ عليها ففي الخبر «إن للرياء سبعين بابا»^(٢) وقد عرفت أن بعضه أغص من بعض حتى إن بعضه

يخرج بين المشايخ يطلب الكسر من الأبواب وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة . حكى أن جماعة من أصحاب الرضات دخلوا على بشر بن الحرث فقال لهم يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزي فانكم تعرفون به وتكرمون له فنسكتوا كلهم فقال له غلام منهم الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله ليظهرن هذا الزي حتى يكون الدين كله لله فقال له بشر أحسنت يا غلام مثلك من يلبس للرغبة فكان أحدهم

(١) حديث تمودوا بالله من خشوع النفاق البيهقي في الشعب من حديث أبو بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه أحمد وابن معين (٢) حديث الرياء سبعون بابا ههنا ذكر

مثل ديب النمل وبعضه أخفى من ديب النمل وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والرقابة وليته أدرك بعد بذل الجهد فكيف يطعم في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفنيش عن خدعها ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

(يان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه)

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله فأما من خاف غيره وارتجأه اشتبهى اطلاعه على محاسن أحواله فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للفتن وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره فإن النفس عند ذلك تسكاد تغلى حرصا على الانشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لجدوا لك ثناني الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بأخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرتك وعزمهم من الاقتداء بك ففى مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طاب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بمحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون على رزق ولا أجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن يأس عنه فيقول إنما يقدر على الاخلاص الأقوياء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة في الاخلاص لأن المخلط إلى ذلك أحوج من النقي لأن للنقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضة كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن نقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض وهلك به فخلط إلى الاخلاص أحوج . وقد روى تميم الهاربي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يحاسب العبد يوم القيامة فان قص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ بطريقه فألقى في النار (١) فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجترأه في جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلو الفرائض وأما النقي فيجده في زيادة الدرجات فان جبط تطوعه بقي من حسناته ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة ، فاذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكا في قوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقلته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد بل ينبغي أن يكون متيقنا في الابتداء أنه غفص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله فاذا

الصف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه الرياء بالمشاة وإنما هو الرياء بالموحدة والرسوم كتابه بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الرياء سبعون حوبا أسرها أن ينسج الرجل أمه وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيب مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الرياء ثلاثة وسبعون بابا . وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البراء حديث ابن مسعود بلفظ الرياء بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه الرياء بالمشاة لا اقترانه مع الشرك والله أعلم (١) حديث تميم الهاربي في إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أبو داود وابن ماجه وتقدم في الصلاة .

يقتضى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذي عليه . وروى أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كفه من رموس أصابعه وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب إن أردت أن تأتي صاحبك فرقع قميصك واخفف نملك وقصر أملك وكل دون الشيع . وحكى عن الجريري قال كان في جامع بغداد رجل لا تسكاد تجده إلا في ثوب واحد في الشتاء والصيف فمثل عن ذلك فقال قد

شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده رياء فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته في النجاة والطاعات، والإخلاص يقين والرياء شك وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه ، والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل للتعلم بعله فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من التعلم والنعم عليه فإن ذلك يحبط الأجر فهما توقع من التعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مراقبة في الشئ في الطريق ليستكثر باستتباعه أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره ، نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعله ليسكون له مثل أجره ولكن خدمة التليذ بنفسه قبل خدمته فترجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعد منه لو قطعه ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى إن بعضهم وقع في برغفاه قوم فادلوا بحيل لرفعوه خلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا خيفة أن يحبط أجره ، وقال شقيق البلخي أهديت لسفيان الثوري ثوبا فردته على قلتي له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى تردده على قال علمت ذلك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان يبدرة أو بديرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شئ فقال يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المسال إلي فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال قبل سفيان ذلك قال فلما خرج قال لولده يا مبارك الحقه فردته على فرجع فقال أحب أن تأخذ مالك فلم يزل به حتى رده عليه وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فسكره أن يأخذ ذلك قال ولده فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت ويلك أي شئ قلبك هذا حجارة عد أنه ليس لك عيال أما ترحمني أما ترحم إخوتك أما ترحم عيالك فأكرت عليه فقال لي يا مبارك تأكلها أنت هنيئا مريئا وأسأل عنها أنا ، فإذا ن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اعتداء الناس به فقط ويجب على التعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند العلم وعند الحقائق وربما يظن أن له أن برأى بطاعته لينال عند العلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم وربما يفيد وربما لا يفيد فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهم علم وذلك غير جائز بل ينبغي أن يشتم الله ويعبد الله ويخدم العلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله منه في رضا الوالدين ولا يجوز له أن يرأى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال ومكشفت الله عن ربه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا وأما الزاهد الصرل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بماحه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس بهذه واستعظامهم محله فإن ذلك يفسد الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله وهو لا يدري أنه الخفيف للعمل عليه . قال إبراهيم بن آدم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته فقلت يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت فما طعامك قال يا حنيفي وما دعاك إلى هذا قلت أحببت أن أعلم قال في كل ليلة حمصة قلت فما الذي يهيج من

كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنني دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقهاء على مائدة فأردت أن أجلس معهم فاذا بجماعة من الملائكة أخذوا يدي وأقاموني وقالوا لي هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك لبيان فلا تجلس معهم فالتفت ونبذت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى . وقيل مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية فردوه إلى صاحبه .

قلبك حتى تكفيك هذه الحصة قال ترى الدير الذي يحذائك قلت نعم قال إنهم يأتون في كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظمون فكلما شأقت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لزم ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لزم الأبد فوفر في قلبك للعرفة فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى قال أنزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حصة فقال لي ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ قلت من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا ساقم قلت عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال يا حنيفي ما الذي صنعت قلت بعتهم منهم قال بكم قلت بعشرين ديناراً قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك هذا عز من لا تبده فانظر كيف يكون عز من تبده ، يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهب والحيثة. والقصد أن استعمار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يعزع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بقله وإيمانه فانه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزد ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكرهية العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فبرجى له أن لا يغيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والاتباض كي لا يبتسطوا إليه فذلك لأبأس به ولكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتعلل بطلب الاتباض فيطالبها في دعواها قصد الاتباض بموتق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن اتباضهم عنه إنما حصل بأن يحدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمع نفسه بذلك فاذا لم تسمح وصمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها للزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا لخطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فاذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماله بذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استرواؤه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرء أو طماع وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويعجب إلى القلب للسكنة والنظر إلى الأغنياء بخلافه فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير ، وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتحنون أنهم قراء في مجلسه ، نعم لك زيادة إكرام لاغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لاتقدم الغنى عليه في إكرام وتوقير ألبتة فان الفقير أكرم على الله من الغنى فلا تشارك له لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي كما قال ابن السهاك الجارية له مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة قتلت الطمع يشهد لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطق عند الغنى بما لا ينطق به عند الفقير وكذلك يهضر من الخشوع عنده مالا يهضر عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لاتنصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك وتجرد بالشفقة على نفسك بقية صمرك

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا أنه بقي زماناً لا يلبس الثوب إلا مستأجراً حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئاً وقال أبو خنص الحداد إذا رأيت وضاعة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره وقيل مات ابن الكرنبي وكان أستاذ الجبدي وعليه مرقته قيل كان وزن فردكم له وتخاريفه ثلاثة عشر رطلاً فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن وقد يصكون جمع من الصالحين يتكفون لبس غير للرقع وزى

ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منفصة في أيام متقاربة وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بذنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات وعلم أنه لو احتسب وجاهد شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد تحولا لثقله أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصا لشدته احتمائه فلهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداء ذلك إلى اللوات للفرق بينهما وبين ملكته للوجوب لشهامة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيها يستفيد منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء ويدن محبب وقلب رخي وأمر نافذ فيخفف عليه مهاجرة اللذات ومضاربة للكروهات فكذلك للؤمن المرید بملك الآخرة احتسب عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل واختار النحول والدبول والوحشة والحزن والخوف وترك اللؤاسة بالخلق خوفا من أن يغفل عليه غضب من الله فيهلك ورجاء أن ينجو من عذابه تخفف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم للقيم في رضوان الله أبد الآبدين ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المریدين لمرضاته عوناً وبهم رءوفا وعليهم عطوفا ولوشاء لأغنائهم عن التعب ولكن أراد أن يلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الإعياء وسهل عليه الصبر وجب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة النجاة ما يلهمه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدّه بمعونته فان الكريم لا يضيع سعي الراجي ولا يغيث أمل المحب وهو الذي يقول : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا . ويقول تعالى : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقاءهم أشد شوقا . فليظهر العبد في البداية جهده وصدقته وإخلاصه فلا يبور من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بمجوده وكرمه ورأفته ورحمته . ثم كانت ذم الجاه والرياء والمجد لله وحده .

﴿ كتاب ذم الكبير والمعجب ﴾

(وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الخالق البارئ الصور العزيز الجبار التكبر العلى الذى لا يضعه عن محمده واضع الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع النفي الذى ليس له شريك ولا منازع القادر الذى بهر أبصار الخلق جلاله وبهاؤه وقهر العرش الجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه وحصر السن الأنبياء وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ومن نازعه فيها قسمه بداء الموت فأعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست أسماؤه والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور للنتشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه وعلى آله وأصحابه الذين هم أحياء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

﴿ كتاب ذم الكبير والمعجب ﴾

الفقراء ويكون نيتهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم الترويض بواجب حق للرقعة وقيل كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرس فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلاوطاء وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجملوا بينهم وبين التراب خائلا ويكون لبس أبي حفص الناعم يعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يفترض

[أما بعد] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قل الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيها فصته»^(١) وقال عليه السلام «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»^(٢) فالكبر والعجب داءان مهلكان والتكبر والعجب سقيان مريضان وهما عند الله مقفوتان بفيضان وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح للهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح الرديات ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين شطر في الكبر وشر في العجب: الشطر الأول من الكتاب في الكبر وفيه بيان ذم الكبر وبيان فضيلة التواضع وبيان فضيلة التواضع على التكبر وبيان أخلاق للتواضعين وما فيه يظهر الكبر وبيان علاج الكبر وبيان امتحان النفس في خلق الكبر وبيان المأمود من خلق التواضع والذموم منه.

(بيان ذم الكبر)

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وضم كل جبار متكبر فقال تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - وقال عز وجل - كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار - وقال تعالى - واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد - وقال تعالى - إنه لا يحب المتكبرين - وقال تعالى - لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا - وقال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وضم الكبر في القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(٣) وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقته في جهنم ولا أبالي»^(٤) وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يسبحي قالوا ما يكيك يا أبا عبد الرحمن فقال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكرهه الله في النار على وجهه»^(٥) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيه ما أصابهم من العذاب»^(٦) وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس والجن والبهائم اخرجوا واخرجوا في مائتي ألف من الانس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى مع زجل الملائكة بالنسيح في السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفته وقال

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيها فصته الحاكم في المستدرک دون ذکر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث ثلاث مهلكات الحديث البزار والطبرانی والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا (٣) حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان مسلم من حديث ابن مسعود (٤) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقته في جهنم مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قدفته في النار وقال مسلم عذبه وقال داود وإزاره بالنسيه وزاد مع أبي هريرة ابا سعيد أيضا (٥) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كرهه الله في النار على وجهه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح (٦) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين الحديث الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب.

عليهم غير أن ليس
الحسن والرقع يصلح
لسائر الفقراء بنية
التقليل من الدنيا
وزهرتها وبهجتها وقد
ورد «من ترك نوب
جمال وهو قادر على
لبسه ألبسه الله تعالى
من حلل الجنة» وأما
لبس الناعم فلا يصلح
إلا لعالم بحاله بسير
بصفات نفسه متفقد
خفي شهوات النفس
يلقى الله تعالى بحسن
النية في ذلك فلحسن
النية في ذلك وجوه
متعددة يطول شرحها
ومن الناس من لا يقصد
لبس نوب بينه
لالحشوت تهولا لنعمته

صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالمصورين ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة ^(٢) » وقال ^(٣) « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالتكبرين والتجبرين وقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وهزتهم فقال الله للجنة إنما أنت رحمتى أرحم بك من أعفاه من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ماؤها ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « بشى العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأمل بشى العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير للتعالي بشى العبد عبد غفل وسها ونسى القابروا لبلى بشى عبد عتا وبنى ونسى للبدا وللتهى ^(٥) » وعن ثابت أنه قال « بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت ^(٦) » وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمركا باثنتين وأنها كما عن اثنتين أنها كما عن الشرك والكبر وأمركا بلا إله إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة لليزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمها وأمركا بسبحان الله وبمحمد فأنصاصة كل شيء وبها يرزق كل شيء ^(٧) » قال للشيخ عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا. وقال صلى الله عليه وسلم « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء للقولون ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا وإن أبضكم أخلاقا وأبعدكم منا الثرثارون التشديقون التفهيمون قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمشدقون والفهميون قال التكبرون ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « يعشر التكبرون يوم القيامة في مثل صور القدر تطوّم الناس ذراعى مثل صور الرجال يلوّم كل شيء من الصغار ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يلوّم نار الأنبار يسقون من طين الحبال عصارة أهل النار ^(١٠) » وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم

بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه فإن رأى للنفس شهرا وشهوة خفية أو جليلة في التوب الذي أدخله الله عليه يخرجها إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار ففسد ذلك لا يسمه إلا أن يلبس التوب الذي ساقه الله إليه وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يتقيد بهيمة من اللبوس بل كان يلبس ما يتفق من غير تعدد تكلف

(١) حديث يخرج من النار عنق له أذنان الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح
(٢) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة تنتم في أسباب الكسب والعاش والعروف خائن مكان جبار (٣) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالتكبرين والتجبرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث بشى العبد عبد تجبر واعتدى الحديث الترمذى من حديث أسماء بنت هميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرک وجمعه ورواه البيهقى في الشعب من حديث نعيم بن حمار وضمه (٥) حديث ثابت بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت البيهقى في الشعب هكذا هم سلا بلفظ تجبر (٦) حديث عبد الله بن عمرو إن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمركا باثنتين وأنها كما عن اثنتين أنها كما عن الشرك والكبر الحديث أحمد والبخارى في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في قوله قال صحيح الاسناد (٧) حديث أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وهذه الزيادة عندها من حديث حارثة بن وهب الخزاعي ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل غل جواظ مستكبر (٨) حديث إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا الحديث أحمد من حديث أبي ثعلبة الحنفى بلفظ إلى منى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أى ثعلبة وقد تقدم في رواية للنفس أول الحديث (٩) حديث يعشر التكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال الحديث الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفان حسن غريب .

« يحشر الجبارون والتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطوهم الناس لهوانهم على الله تعالى »^(١) وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن في جهنم واديا يقال له هبيب حق على الله أن يسكنه كل جبار فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن في النار قصرا يجعل فيه للتكبرون ويطبق عليهم »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء »^(٤) وقال « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والقلول »^(٥) الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير ، وقال وهب لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماذ رجله فلم يقبضها وقد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال هبنا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين ، وقال الحسن العجبي من ابن آدم يفصل الحرم يده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات ، وقد قيل في - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - هو سبيل الغايط والبول ، وقد قال محمد بن الحسين ابن طي ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر. وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال الكبر ، وقال النعمان بن بشير على النبي إن للشيطان مصالي ونفوخا وإن من مصالي الشيطان ونفوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله ، نأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

(بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في الشئ وجز الثياب)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « بينا رجل يتبختر في بردته إذ أهبطته نفسه فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »^(٧) . وقال صلى الله عليه وسلم « من جرت ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » وقال

(١) حديث أبي هريرة يحشر الجبارون والتكبرون يوم القيامة في صور الذر الحديث البراز هكذا مختصرا دون قوله الجبارون وإسناده حسن (٢) حديث أبي موسى إن في جهنم واديا يقال له هبيب حق على الله أن يسكنه كل جبار أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث (٣) حديث إن في النار قصرا يجعل فيه للتكبرون ويطبق عليهم البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال توابت مكان قصرا وقال فيفضل مكان يطبق وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف (٤) حديث اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخة ونفثه وهمزته قال نفثه الشعر ونفخة الكبر وهمزته الموتة ولأصحاب السنان من حديث أبي سعيد الخدري نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب (٥) حديث من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والقلول الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر للصف لهذا الحديث هنا موافق للشهور في الرواية أنه الكبر بالوحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزي في جامع السانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكثر بالنون والراء وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير - والذين يكنزون الذهب والفضة - (٦) حديث لا ينظر الله إلى من جرت إزاره بطرا متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث بينا رجل يتبختر في بردته قد أهبطته نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بشرة دنائير ويلبس العمامة بدائق. وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس وكان الشيخ على بن الهيثي يلبس لبس فقراء السواد وكان أبو بكر الفراء بن نجمان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام ولكل في لبسه وهيئته نية صالحة وشرح تفاوت الأقدام في ذلك بطول ، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار وقد يساق إليه التوب

زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول أي بني أرفع إزارك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره خيلاء»^(١) وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا صويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وميد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أنصدي وآتي أوان الصدقة»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا مشيت أمتي للطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض»^(٣) قال ابن الأعرابي هي مشية فيها اختيال ، وقال صلى الله عليه وسلم «من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»^(٤) الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال بينا نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهمم يريد للقصورة وعليه جباب خزقة فشد بضعا فوق بعض على ساقه وانفج عنها قباضه وهو يمشي يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال أف أف شامع بأنته ثاني عطفه ، صمخده ينظر في عطفيه أي حقيق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير للأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخليج الجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان به لفة فسمع ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه فقال لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى - ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا - ومرّ بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له ابن آدم معجب بشبابه محب لثيابه كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لايت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يمشي في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال ليست هذه مشية من في بطنه خرم فقال عمر كالتعذر يا عمّ لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمها ، ورأى محمد بن واسع كوله يمشي فدعاه وقال أندري من أنت أما أمك فأشترىها بمائتي درهم وأما أبوك فلا أكر الله في المسلمين مثله ، ورأى ابن عمر رجلا يمشي إزاره فقال إن للشيطان إخوانا كرههم اثنين أو ثلاثا ، ويروي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى الهملب وهو يتبختر في جبة خرق فقال يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له الهملب أما ترفني فقال بلى أعرتك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قدرة وأنت بين ذلك تحمل المذرة فغضى الهملب وترك مشيته تلك ، وقال مجاهد في قوله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أي يتبختر ، وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

(بيان فضيلة التواضع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما زاد الله عبدا بغفو إلا عزاء وماتوا تواضع أحد في إزاره الله»^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها فان هورفع نفسه

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره خيلاء رواه مسلم مقتصر على الرفع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن البار رجل من بني ليث غير مسمى (٢) حديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه الحديث ابن ماجه والحاكم ومصحح إسناده من حديث بشر بن جعاش (٣) حديث إذا مشيت أمتي للطيطاء الحديث الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر للطيطاء بضم اليم وفتح الطامين الهملتين بينهما مشاة من تحت مصغرا ولم يستعمل مكبرا (٤) حديث من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان أحمد والطبراني والحاكم ومصحح والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر (٥) حديث ما زاد الله عبدا بغفو إلا عزاء الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الناعم فلبسه وكان يقال له ربما يسبق إلى مواطن بعض الناس الانكار عليك في لبسك هذا الثوب فيقول لا تلقى إلا أحد رجلين رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع فنقول له هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه فيقول لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة فنقول له هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول لا وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الحسن ولكن يحب

جذاها ثم قال اللهم ضعه وإن وضع نفسه قال اللهم ارفعه (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنت في مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة (٢) » وعن أبي سلمة الدين عن أبيه عن جده قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائما فأتيناه عند إفطاره بقدرح من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال ما هذا ؟ قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال أما إنى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمالة يتكبر منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له اطعم فكأن رجلا من قريش اثما زمته وتكبره ثم مات ذلك الرجل حتى كانت به زمالة مثلها (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربى بين أمرين أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيلا أدرأيهما أختار وكان صفى من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا (٥) » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع له طمخ ولم يتعاضم على خلقى وأزمت قلبه خوفا وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى وقال ﷺ « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى (٦) » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب النار يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم بل نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا هدى الله عبدا للإسلام وحسن صورته وجهه في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب الصمت وهو أول العباد

(١) حديث مامن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها الحديث العقيلي في الضعفاء والبيهقى في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف (٢) حديث طوبى لمن تواضع في غير مسكنة الحديث البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبراز من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان (٣) حديث أبي سلمة الدين عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائما الحديث وفيه من تواضع رفعه الله الحديث رواه البراز من رواية طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فقد كر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقاء وقال الذهبي في البراز إنه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرح فيه لبن وعسل الحديث وفيه أما إنى لا أزعم أنه حرام الحديث وفيه من أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى الرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكر أنه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم في ذم الدنيا (٤) حديث السائل الذى كان به زمالة منكروا أنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم الحديث لم أجده أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب (٥) حديث خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيلا الحديث أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلأ وأمسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن حمزة وقال صحيح الإسناد (٧) حديث إذا هدى الله عبدا للإسلام وحسن صورته الحديث الطبرانى موقوف على ابن مسعود نحوه وفيه السعدى مختلف فيه

أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجأ إلى الله والافتقار إليه ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه فله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أنتم وأكمل عن يكون لبسه لله . ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله فيلبس الثوب عن علم

والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا ^(١) » وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله ^(٣) » وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطمم فجاء رجلاً أسود به جذري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ^(٥) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً « مالي لأرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال التواضع ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم التواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم التكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار ^(٧) » . الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكته وقال انهش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رخصه الله في الأرض وقال احسأ حساك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله : انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس الطلع فسويته عليه ثم إن الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما مظلة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يحزى قليل الورع من كثير العمل ويحزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ماهو ؟ قال أن تخضع للحق وتتقاده ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك بدينك عليه فضل وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدينك عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علماً لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكالة أئمة وأعليك .

(١) حديث أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب الصحة وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا الطبراني والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصحة وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى للموضوعات ثم روى له هذا الحديث (٢) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة البهقي في الشعب نحوه وفيه زمة بن صالح ضعفه الجمهور (٣) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة الحديث الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياضي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف (٤) حديث كان يطمم فجاءه رجل أسود به جذري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه لم أجده هكذا والعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٥) حديث إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ، غريب (٦) حديث مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال التواضع ، غريب أيضا (٧) حديث إذا رأيتم التواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم التكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار ، غريب أيضا .

وإيقان ولا يالي بما
لبسه ناعما لبس أو خشنا
وربما لبس ناعما
ولنفسه فيه اختيار
وحظ وذلك الحظ فيه
يكون مكفرا له مردودا
عليه موهوبا له بواقته
الله تعالى في إرادته نفسه
ويكون هذا الشخص
تام التزكية تام الطهارة
محبوبا مراديا راع الله
تعالى إلى مراده ومحابه
غير أن ههنا مزية قدم
لكثير من الدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ
الرازي أنه كان يلبس
الصوف والحلقان في
ابتداء أمره ثم صار في
آخر عمره يلبس الناعم
فقال لأبي يزيد ذلك

وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه به إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك ابن مروان أتى الرجال أفضل ؟ قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصره عن قوة. ودخل ابن السماك على هرون فقال يأمر المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك فقال ما أحسن ما قلت فقال يأمر المؤمنين إن أصرا آناه الله جمالا في خلقته وموضعا في حبه وبسط له في ذات يده فنف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه يده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يهيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين . وقال بعضهم كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكرمه أن يراك الفقراء في الثياب للرفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام فمخت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قاب موسى عليه السلام فغصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم أشك في الرحمة لولا أنني كنت معهم إني أخشى أنهم حرموا بسبي ويقال أرفع ما يكون للؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد الحمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادى ياب المسجد ليخرج شر كم رجلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أوسعي قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذه صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يباح أبدا . وقال موسى بن القاسم : كانت تمنحنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا فبكي ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته فقال أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي أباد الله شاهدك أو تجعل نفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلي عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال رأيت على بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظمي فقال لي ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر قليل لهفتى يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعى عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي : الشريف إذا تنسك تواضع والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن ماذ : التكبر على ذوى التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الأغنياء أحسن والتكبر في الخلق كلهم قبيح

قال مسكين يحيى لم
يصبر على الدون
فكيف يصبر على
التحف ومن الناس من
يسبق إليه علم ماضوف
يدخل عليه من
اللبوس فيلبسه محمودا
فيه وكل أحوال
الصادقين على اختلاف
تنوعها مستحسنة
- قل كل يعمل على
شاكلته فربكم أعلم بمن
هو أهدى ميلا -
ولبس الحشن من
الثياب هو الأحب
والأولى والأسلم للعبد
والأبعد من الآفات .
قال مسلمة بن عبد الملك
دخلت على عمر بن

وفي الفقراء أفصح ، ويقال لأعزّ إلّا لمن تذلّله عز وجل ولا رفعة إلّا لمن تواضع لله عز وجل ولا أمن إلّا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح إلّا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو طي الجوزجاني : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولائه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم »^(١) ما تكلمت عليكم . وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها وللوح لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفضها وعن عمرو ابن شبة قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بظلة وبين يديه غلمان وإذا هم يصفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر إليه وأنامله فقال لي مالك تنظر إلى قفلك له شبهتك برجل دأته بمكة ووصفت له الصفة فقال له أنا ذلك الرجل قفلك ما فعل الله بك ؟ فقال إني ترفضت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يرفع الناس . وقال الغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذ بطيه كأنه امرأة ماخض وقال هذا من أجلى يصيكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة . وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكنني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتى الميزان فان ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع . نسال الله الكريم حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الكبر وآفته)

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر : فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الأعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق للتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه يفضل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فمعد ذلك يكون متكبرا ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحق غيره فانه مع ذلك لورأى نفسه أحقر لم يتكبر ولورأى غيره مثل نفسه

(١) حديث يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم الترمذي من حديث أبي هريرة إذا اتخذ النقي دولا الحديث وفيه كان زعيم القوم أرذلهم الحديث وقال غريب وله من حديث علي بن أبي طالب إذا ضلقت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة اثنان وصبعون خصلة فذكرها منها وفيها فرج بن فضالة ضعيف

عبد العزيز أعوده في مرضه فرأيت قيصر وسخا قفلت لامرأته فاطمة اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت فعمل إن شاء الله قال ثم هدته فاذا القميص على حاله قفلت يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوه ؟ قالت والله ماله قميص غير هذا . وقال سالم كان عمر بن عبد العزيز من ألبين الناس لباسا من قبل أن يسلم إليه الخلافة فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطهار له رثة فلبسها . وقيل لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعون

لم يشكبر بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة وأغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فمعرفة هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خاق الكبر لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فلذلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «أعوزبك من نخعة الكبرياء» (١) وكذلك قال عمر أخشى أن تنفخ حتى تباغ الثريا الذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتمزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى - إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه - قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراء وأقصاه عن نفسه وأبعد وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد نفسه في قضاء حوائجه وتعجب منه وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استكف من القبول وإن وعظ عنف في النصح وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالتعليم واستنذهم واتهرم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر استجهالهم واستحقارهم والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق ولما ينشك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» (٢) وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحق وفيه العز ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر على قول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز ولا معنى للتطويل فإما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظه عزمه وما من خاق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزمه فمن هذا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والأخلاق الدميعة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لاحتالة وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والالتقائه وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والتكبرين قال الله تعالى - والملائكة باسطوا أيديهم - إلى قوله - وكنتم عن آياته تستكبرون - ثم قال - ادخلوا أبواب جهنم نكالين فيها فبئس مشوى التكبرين - ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال - ثم لنزعن من كل شيعة أئهم أشد على الرحمن عتيا - وقال تعالى - فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون - وقال عز وجل - يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنكم لسكناء مؤمنين -

(١) حديث أعوز بك من نخعة الكبرياء تقدم فيه (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر تقدم فيه .

رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف . وقال زيد بن وهب : لبس علي بن أبي طالب قميصا رازيا وكان إذا مدَّ كفه بلغ أطراف أصابعه فعابه الخوارج بذلك فقال أنبيوني على لباس هو أجد من الكبر وأجد أن يقتدى بي السلم وقيل : كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علام بالدرة وقال دعوا هذه البراقات للنساء . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال نوروا قلوبكم بلباس الصوف

وقال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وقال تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام إن الزرع نبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب للتكبر ألا ترون أن من تمخض برأسه إلى السقف شجبه ومن طأطأ أظله وأكبه فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد التكبر والكشف عن حقيقته ، وقال « من سفه الحق وغمص الناس (١) » .

(بيان للتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات التكبر فيه)

اعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه وقد خلق الإنسان ظلو ما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق فاذن التكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام : الأول التكبر على الله وذلك هو أغشى أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل المحض والظن بما كان من عمروذ فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وقال تعالى - لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة القربون - الآية وقال تعالى - وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا . . القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس ورفضها عن الاتقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الاتقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للاتقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قوهم - أنؤمن لبشرين مثلنا - وقوهم إن أنتم إلا بشر مثلنا - ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون - وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا - وقالوا لولا أنزل عليه ملك - وقال فرعون فيما أخبر الله عنه - أو جاءه الملائكة مقترنين - وقال الله تعالى سواستكبر هو وجنوده في الأرض غير الحق - فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن وقل ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينا أنت رب تعبد إذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم - لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - قال قتادة عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف يشبه الله إلينا فقال تعالى - أم يقسمون رحمة ربك - وقال الله تعالى - ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا سأل استعثارهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش لرسل الله صلى الله عليه وسلم : كيف نخلس إليك وعندك هؤلاء وأشاروا إلى قراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن محاسنتهم فأنزل الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - إلى قوله - ما عليك من حسابهم - وقال تعالى - واصل

فانه مذلة في الدنيا ونور في الآخرة وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى نظرين فلما نظر إليهما أعجبهما حسنها فسجد لله تعالى فقيل له في ذلك فقال خشيت أن يمرض عني ربي فتواضعت له لاجرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت للقت من الله تعالى من أجلهما فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له ثلثان مخصوصان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال بطر الحق وغمص الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريمانة هكنا .

نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا - (١) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجلا كنا نعدهم من الأشرار قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والقناد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والعرفة فجعل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى عجبوا عنهم - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به - وقال - وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا - وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله . القسم الثالث : التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحق غير فناء نفسه عن الاتقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدرهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين : أحدهما أن الكبر والعز والمظنة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله ، ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضماها على رأسه ويجلس على سريره ثم استعظم استحقاقه للقت ومأعظم تهديفه للخزي والنكال وما أشد استجراؤه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته » أى أنه خاص صفى ولا يليق إلا بى والنازع فيه منازع في صفة من صفاتى وإذا كان الكبر على عباد لا يليق إلا به فمن تكبر على عباد فقد جنى عليه إذ الذى يستذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويرفع عليهم ويستأثر بمحاق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه فالخاق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه ، نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة عمرو وذو فرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك . الوجه الثانى الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن التكبر إذا جمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادون تجاهد التكبرين ومهما انتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبس وذلك من أخلاق الكافرين والناقضين إذ وصفهم الله تعالى فقال - وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون - فكل من يناظر للغلبة والإغما لا يهتم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى - وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم - وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال إن الله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف يقتل فقام آخر فقال تقتلون الدين يأمرسون بالقسط من الناس تقتل التكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال ^{عليه السلام} لرجل « كل يمينك قال لا أستطيع فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك (٢) »

(١) حديث قالت قریش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم - مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال فقال للشركون وقال ابن ماجه قالت قریش (٢) حديث قال لرجل كل يمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت الحديث مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .

الصوف واحتذى
المخسوف وأكل مع
العبيد وإذا كانت
النفس محل الآفات
فالوقوف على دسائسها
وخفى شهواتها وكم
هواها عسر جدا
فالأليق والأجدر
والأولى الأخذ بالأحوط
وترك ما يريب إلى ما
لا يريب ولا يجوز للعبد
الدخول في السعة إلا
بعد إتقان علم السعة
وكمال تزكية النفس
وذلك إذا غابت النفس
بنية هواها للتبع
وتخلصت النية وتدد
التصرف بعلم صريح
واضح وللعزيمة أقوام
يركبوها ويراعونها

أى اعتلت يده ، فاذن تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله وإنما ضرب إبليس مثله لهذا وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به فانه قال : أنا خير منه . وهذا الكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خالقنى من نار وخلقته من طين . فعمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له لغيره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبداً لا يباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآيتين إذ سأله ثابت بن قيس بن قيس فقال يا رسول الله « إنى امرؤ قد حجب إلى من الجلال ما ترى أئمن الكبر هو ؟ » فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس ^(١) وفى حديث آخر « من صفه الحق ^(٢) » وقوله وغمص الناس أى ازدرأهم واستحقروهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى وصفه الحق هو رده وهى الآفة الثانية فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدرأه ونظر إليه بغير الاستصغار أورد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الحق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

(بيان مابه التكبر)

اعلم أنه لا يتكبر إلا على استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا هو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع إلى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدينى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار فهذه سبعة أسباب الأول : العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء ^(٣) » فلا يلبث العالم أن يتميز بجزء العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكاله ويستعظم نفسه ويستحققر الناس وينظر إليهم نظره إلى البرائم ويستجملهم ويتوقع أن يبدوه بالسلام فإن بداه واحد منهم بالسلام أورد عليه يشر أوقام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنعة عنده ويداعيه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وأنه يذمى أن يرقوا له ويخمدوه وشكره على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويوزرونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراءه وكان تعالجه العلم صنعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم هذا فيما يتعاقى بالدنيا ، أما فى أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كاسيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم ، وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ، ويقضى أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليهم بالعلم وتقديره فى القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علماً ازداد وجهاً وهو كما قال . فإن قلت فما بال بعض الناس يزدد بالعلم كبراً وأمناً . فاعلم أن لذلك سببين : أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً

(١) حديث قول ثابت بن قيس بن قيس إنى امرؤ قد حجب إلى من الجلال ما ترى الحديث وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بمحدثين (٢) حديث الكبر من صفه الحق وغمص الناس تقدم معه (٣) حديث آفة العلم الخيلاء . قلت هكذا ذكره المصنف والمفروق آفة العلم النسيان وآفة الجلال الخيلاء هكذا رواه القضاعى فى مسند الثماب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس آفة الجلال الخيلاء وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفى لا يدري من هو حدث عن أبيه بمحدث موضوع قاله صاحب الميزان .

لا يرون التزول إلى الرخص خوفاً من قوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا وقد قيل من رقى ثوبه رقى دينه وقد يرخص من ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل الجنة كل من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً فقال النبي عليه

وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه خطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الحشية والتواضع دون التكبر والأمن قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا وثقاقا وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة الصودية والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا . السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردى النفس سيء الأخلاق فإنه لم يشتغل أولا بهذيب نفسه وتركه قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقى خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم أى علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخبر أثره وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار برقوقها فتحول على قدر طومها فيزداد للبرمرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدرهمها وأهوائها فيزيد التكبر كبرا والتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته التكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا واشفاقا وذلا وتواضعا فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولذلك قال تعالى لئن عليه السلام - واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - وقال عز وجل - ولو كنت فظا غليظ القلب لا لنفثوا من حورك - ووصف أولياءه فقال - أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين - وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن لمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم أتت إلى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار (١) » ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تكونوا أجابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم، ولذلك استأذن نعيم الدارى عمر رضى الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال إنه الذبح واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال إني أخاف أن تنتفع حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال للثمن إماما غيرى أو لثمن واحدانا فأبى رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل منى فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيئات فأتى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد اقرضوا في القرن الأول ومن يلهم بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على قوأت هذه الحصلة فذلك أيضا إما معدوم وإما عزز ولولا بشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتى على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أتم عليه نجا (٢) » لكان جديرا بنا أن نتحجم والبياض بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع مانع عليه من سوء أعمالنا ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه ولينا تمسكنا بعشر عشره . فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله . الثاني : العمل والعبادة وليس يغلو عن رذيلة العز والتكبر واستماله قلوب الناس

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن لمن أقرأ منا الحديث ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢) حديث سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أتم عليه نجا أحمد من رواية رجل عن أبي ذر .

السلام إن الله جميل يحب الجمال « فتكون هذه الرخصة في حق من يلبس لاهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومغتال فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكبر بها فقد ورد فيه وعيد . روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أزره المؤمن إلى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة فيينا رجل ممن كان قبلكم يتبختر في

الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم يزيارهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيلم الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكركهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الخطوط إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم من على الخلق وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » (١) وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مقتر بالله آمن من مكروه غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لقبره قال صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه للسلم » (٢) وكمن الفرق بينه وبين من يحبه الله ويستهلمه لعبادته ويستعظمه ويرجوه له مالا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه ففهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو تحقت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فأجدرهم إذا حو له صلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال كما روى أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليع بن إسرائيل لكثرة فساده من رجل آخر يقال له عابد بن إسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه أما خليع بن إسرائيل وهذا عابد بن إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد أنا عابد بن إسرائيل وهذا خليع بن إسرائيل فكيف يجلس إلى فأنف منه وقال له قم عنى فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرها فليستأفقا العمل فقد غفرت للخليع وأحببت عمل العابد. وفي رواية أخرى فتحولت التمامة إلى رأس الخليع وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل العاصي إذا تواضع هية لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله قبله فهو أطوع لله من العالم التكبر والعابد المعبود، وكذلك روى أن رجلا في بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطيء على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فو الله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألى على بل أنت لا يغفر الله لك (٣) وكذلك قال الحسن وحق إن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب الطرز الخزانى أن صاحب الخزندل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قد لا ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبمد أن يغفر الله ولا يشك في أنه صار محموتا عند الله ولو آذى مسلما آخر لم يستكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد ينتهى الحق والعبادة يعصمهم إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به الإشفاء غلبه والانتقام له منه مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم إن الله أهمل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ثم الجاهل الغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في ممت الله بأهحابه وكبره وهو غافل عن هلاك

(١) حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه للسلم ، مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ امرؤ من الشر (٣) حديث الرجل من بني إسرائيل الذى وطىء على رقبته عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فو الله لا يغفر الله لك الحديث أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذى قال للعاصي والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السياقة وإسناده حسن .

ردائه إذ أحبه رداؤه
خسف الله به الأرض
فهو يتجامل فيها إلى
يوم القيامة والأحوال
تختلف ومن صح حاله
بصحة علمه صحت نيته
في ما كوله وملبوسه
وسائر تصاريفه وفي
كل الأحوال يستقيم
ويتسدد باستقامة
الباطن مع الله تعالى
وبقدر ذلك تستقيم
تصاريف العبد كلها
بحسن توفيق الله
تعالى .

[الباب الخامس
والأربعون في ذكر
فضل قيام الليل]
قال الله تعالى - إذ
يشيكم الناس أمة

نفسه فهذه عقيدة المغترين ، وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان
تهبّ ريح أوتقع صاعقة ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسبي ولومات عطاء لتخلصوا وما قاله الآخر بعد
انصرافه من عرفات كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا اتقى
الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدور لعمله وسعيه وذلك ربما يضر من الرياء والكبر والحسد
والغل ما هو ضحكة للشيطان به ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله فقد
أحبط بعمله جميع عمله فان الجهل أغشى العاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بأنه خير
من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلا ذكر
بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال إني أرى
في وجهه سفة من الشيطان فلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أسألك
بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك قال اللهم نعم ^(١) « فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بنور النبوة ما استمكن في قلبه سفة في وجهه وهذه آفة لا يفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله
لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقرا في قلبه يرى
نفسه خيرا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه وهذا قدر سخ
في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية. الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في
المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الانكار على من يقصر في حقه وأدنى ذلك في العالم أن يصمر خده
للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه متزه عن الناس مستغفر لهم
أو غضبان عليهم وليس يعلم السكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في
الحد حتى يصمر ولا في الرقبة حتى تغطأ ولا في الذيل حتى يضم إنما الورع في القلوب قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم «التقوى ههنا وأشار إلى صدره ^(٢) « فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
«أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسا وانبساطا ^(٣) « ولذلك قال الحرث
ابن جزء الزيدى صاحب رسول الله ﷺ «جئني من القراء كل طليق ضحالك فأما الذي تلقاه يبشر
وبلقة بعبوس عين عليك بلمه فلا أكثر الله في السلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى رضى ذلك
لما قال لبيه صلى الله عليه وسلم «أخف جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر
على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى
يدعوه إلى الدعوى والفاخرة والباهة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لعلبة الغير
في العلم والعمل أما العابد فانه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده
في طول اللسان فيهم بالتقص ثم ينثني على نفسه ويقول إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم
القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول
قصدني فلان بسوء فملك ولده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجري مجراه يدعى الكرامة لنفسه وأما مباهاته
فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي وإن كانوا يصبرون على الجوع
فيكلف نفسه الصبر ليقلبهم ويظهر له قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره

(١) حديث أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي
ذكرناه لك فقال إني أرى في وجهه سفة من الشيطان الحديث أحمد والبرار والدار قطن من حديث
أنس (٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث
كان أكرم الخلق وأتقاهم الحديث تقدم في كتاب أخلاق النبوة .

منه وينزل عليكم
السما ماء ليظهركم به
ويذهب عنكم رجز
الشيطان - نزلت هذه
الآية في المسلمين يوم
بدر حيث نزلوا على
حكيب من الرمل
تسوخ فيه الأقدام
وحوافر الدواب وسيقم
المشركون إلى ماء بدر
العظمى وغلبهم عليها
وأصبح المسلمون بين
محدث وجنب وأصابهم
الظما فوسوس لهم
الشيطان أنكم تزعجون
أنكم على الحق وفيكم
نبي الله وقد غلب
المشركون على الماء
وأنتم تصلون محدثين
ومجنبيين فكيف

أعبد منه أو أقوى منه في دين الله وأما العالم فانه يتفاخر ويقول أنا متفني في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث كل ذلك ليضفه ويعظم نفسه وأما ما بهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يظلب ولا يظلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم القريبة ليغرب بها على الأقران ويعظم عليهم ويعظم الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله وتقصان أقرانه ويفرح مهما أخطأ واحدهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه فهذا كله أخلاق التكبر وآثاره التي يشرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يغلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» (١) كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار وإنما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبر بالعلم والعمل. الثالث: التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وممرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا بنطي ويا هندی ويا أرمني من أنت ومن أبوك فأنا فلان ابن فلان وأين لك أن يكلمني أو ينظر إلى ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال فان غلبه غضب أطما ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال «قالت رجلا عند النبي ﷺ فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أباذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل» (٢) فقال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي فانظر كيف نهى رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة التكبر بأخص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقيمه إلا الذل ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان ابن فلان فمن أنت لأم لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم «افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان ابن فلان حتى عدتة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم» (٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا غما في جهنم أوليكونن أهون على الله من الجمelan التي تدرف بآنائها القدر» (٤) . الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر

ترجون الظفر عليهم
فأنزل الله تعالى مطرا
من السماء سال منه
الوادى فشرب المسلمون
منه واغتسلوا وتوضوا
وسقوا الدواب وملثوا
الأسقية ولبد الأرض
حتى ثبت به الأقدام قال
الله تعالى - وثبت به
الأقدام. إذ يوحى ربك
إلى الملائكة أنى معكم -
أمدم الله تعالى
بالملائكة حتى غلبوا
للشركين ولكل آية
من القرآن ظهر
وبطن وحد ومطلع
والله تعالى كما جعل
الناس رحمة وأمنة
للصحابة خاصة في تلك
الواقعة والحادثة فهو

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تقدم (٢) حديث أبي ذر قالت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء الحديث ابن البارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بغير من أحمر ولا أسود إلا أن فضله يتقوى (٣) حديث أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان ابن فلان فمن أنت لأب لك الحديث عبد الله بن أحمد في زوائد السنن حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط (٤) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا غما في جهنم أوليكونن أهون على الله من الجمelan الحديث أبو داود والترمذي وحسنه

ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والتلب والغبية وذ كر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها (١) » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالتقصير فكأنها أهجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت . الخامس : الكبر بالمسال وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومرابكهم فيستحققر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له أنت مكدر ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أفقر في اليوم مالا تأكله في سنة وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاقه للفقير وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى وإليه الإشارة بقوله تعالى - فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا - حتى أجابه فقال - إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فسئ ربى أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليهما حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤهما غورا فلا تستطيع له طلبا - وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله - ياليتني لم أشرك بربى أحدا - ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره - فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم - السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف . السابع : التكبر بالاتباع والأنصار والتلامذة والفلسان والعشيرة والأقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين . وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يستفد كمال وإن لم يكن في نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به حتى إن الخنثى ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة الخنثى لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فله إلا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والفلسان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخظئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم والحسن اعتقاده في نفسه . نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

(بيان البواعث على التكبر وأسبابه الهيجة له)

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر كما سيأتى سمناه فانه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في التكبر وسبب في التكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذي في التكبر فهو العجب والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء فنصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء . أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يورث العجب الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال . وأما الحقد فانه يعمل على التكبر من غير هجب كالذى يتكبر

وابن حبان من حديث أبي هريرة (١) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا أي أنها قصيرة الحديث تقدم في آفات اللسان .

رحمة هم للأومنين
والنعماس قسم صالح
من الأتسام العاجلة
للمريدين وهو أمانة
لقلوبهم عن منازعات
النفس لأن النفس
بالنوم تستريح ولا
تشكو الكلال والتعب
إذ في شكائتها وتعبها
تقدير القلب
وباحترامها بالنوم
بشرط العلم والاعتدال
راحة القلب لما بين
القلب والنفس من
المواطأة عند طمأنينتها
للمريدين السالكين
فقد قيل ينبغي أن يكون
ثلث الليل والنهار نوما
حتى لا يضطرب الجسد
فيكون ثمان ساعات

على من يرى أنه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع فكأن من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له وعمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأتفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه فلا يحتذر إليه وإن جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكأن من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يعينه على أن يعامله بأخلاق التكبرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه . وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق التكبرين حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسبة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن مهما ثالث وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويرفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنه بأنه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على أفعال التكبرين وكأن اسم التكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار وهو إن سمى متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

(بيان أخلاق التواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر)

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصوفي وجهه ونظيره شررا وإطرافه رأسه وجلوسته مترجا ومتكشا وفي أقواله حتى في صوته ونعمته وصيغته في الإيراد ويظهر في مشيته وتبخره وقيامه وجلوسته وحركاته وسكناته وفي تعاطيه لأهله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله فمن التكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض ففنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو يبين يديه وقد قال صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك (١) . ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزدد من الله جدا ما مشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده إذا كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة ، ومشى قوم خلف الحسن البصري فنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى في غمارهم (٢) إما لتعليم غيره أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له الحديث تقدم في آداب الصلوة وفي أخلاق النبوة (٢) حديث كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا أنه خرج يمشي إلى البقيع فبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا

لنوم ساعتين من ذلك
بجملتهما اللريد بالتهار
وست ساعات بالليل
ويزيد في أحدهما
وينقص من الآخر
على قدر طول الليل
وقصره في الشتاء
والصيف وقد يكون
بحسن الإرادة وصدق
الطلب ينقص النوم
عن قدر الثلث ولا
يضر ذلك إذا صار
بالتدريج عادة وقد
يحمل ثقل السهر وقلة
النوم وجود الروح
والأنس فإن النوم
طبعه بارد رطب ينفع
الجسد والدماغ ويسكن
من الحرارة واليبس
الحادث في الزواج فإن

كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين العيين^(١). ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن آدم أن نعال فحدثنا فجاء سفيان فقيل له يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ومنها أن يستكشف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه قال ابن وهب جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فس غذى غزده فنجبت نفسي عنه فأخذ ثيابي فخرني إلى نفسه وقال لي لم تفعلون بي ما تفعلون بالجارية وإني لأعرف رجلا منكم شرا مني. وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تنهض به حيث شاءت^(٢). ومنها أن يتوقى من مجالسة للرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من التكبر دخل رجل وعليه جدري قد تفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون لما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه^(٣) وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدة. ومنها أن لا يتعاطى يده شغلا في بيته والتواضع خلافه روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة صيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هي أول نومة نلها فقام وأخذ البطقة وملا المصباح زيتا فقال الضيف فمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخبر الناس من كان عند الله متواضعا. ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة للتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك^(٤) وقال علي كرم الله وجهه لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يعمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك رأيت بأهريرة أقبلى من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمر يا ابن أبي مالك. وعن الأصمغ بن نباتة قال كآنى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحافى يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحافا بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لاء أبو العيال أحق أن يحمل. ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «البذاءة من الإيعان»^(٥) فقال هرون سألت معنا عن البذاءة فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم وعوتب على كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى

ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال إني سمعت خفي نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من التكبر وهو منكر فيه جماعة ضعفاء^(١) حديث إخراج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع. قلت المعروف نزع الثراك الجديد ورد الثراك الخاق أوزع الحنيفة ولبس الأنجانية وكلاهما تقدم في الصلاة^(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم في آداب العيشة^(٣) حديث الرجل الذي به جدري وإجلاسه إلى جنبه تقدم قريبا^(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسرابيل وحمله وتقدم^(٥) حديث البذاءة من الإيعان أبوداود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.

قصص عن التلث بضر
الدماع ويغشى منه
اضطراب الجسم فاذا
تاب عن النوم روح
القلب وأنه لا يضر
تقصاته لأن طبيعة
الروح والأنس باردة
رطبة كطبيعة النوم
وقد تقصر مدة طول
الليل بوجود الروح
فتصير بالروح أوقات
الليل الطويلة كالقصيرة
كما يقال سنة الوصل سنة
وسنة الهجر سنة
فيقصر الليل لأهل
الروح. قل عن
علي بن بكارة قال:
منذ أربعين سنة
ما حزنتي إلا طلوع
الفجر. وقيل لبعضهم

عليه السلام جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس إنى لأغسل ثوبى هذين فأشكر قلبى ماداما
تحيين . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف
دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول
ما أجوده لولائه قليل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين فقال إن لي ثوبا ذو أقدواها
لم تلق من الدنيا طبقة إلا تافت إلى الطبقة التى فوقها حتى إذا ذقت الخلافة وهى أرفع الطباق تافت
إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه
قميص مرقوع الجلب من بين يديه ومن خلفه فقال رجل يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلولبست
فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال
صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاة كان حقا على الله
أن يدخره عبقرى الجنة (١) » فان قلت فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب .
وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه
الحق وغمض الناس (٢) فكيف طريق الجمع بينهما . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته
أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو الذى عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال إنى امرؤ حبيب إلى من الجمال ما ترى (٣)
فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا يتكبر على غيره فانه ليس من ضرورته أن يكون من
الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة التكبر
أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يالى إذا انفراد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال أن يحب
الجمال فى كل شئ ولو فى خلوته وحتى فى سنوره داره فذلك ليس من التكبر فاذا انقسمت الأحوال
زل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى
القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجب ويجوز أن لا يوجب
الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر ، وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا والمحسوب الوسط من
اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا
والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا غيبة (٤) » . وإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٥) وقال
بكر بن عبد الله المزنى البسوا ثياب اللوك وأميتوا قلوبكم بالخشية وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون
التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان
وقلوبكم قلوب الدناب الضواري البسوا ثياب اللوك وأميتوا قلوبكم بالخشية . ومنها أن يتواضع
بالاحتمال إذا سب وأذى وأخذ حقه فذلك هو الأصل ، وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال
الأذى فى كتاب الغضب والحسد . وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه
وسلم فيه فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدرى

كيف أنت والليل قال
ماراعيته قط يرى
وجهه ثم ينصرف
وما تأملته . وقال
أبو سليمان الداراني
أهل الليل فى ليهم
أشد لذة من أهل النهو
فى لهوهم . وقال بعضهم
ليس فى الدنيا شئ
يشبه نعيم أهل الجنة
إلا ما يجد أهل الخلق
فى قلوبهم الليل من
حلاوة للناجاة خلاوة
للناجاة نواب عاجل
لأهل الليل . وقال
بعض العارفين إن
الله تعالى يطلع على
قلوب المستيقظين فى
الأسحار فيملؤها نورا
فترد الفوائد على قلوبهم

(١) حديث من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله الحديث أبو سعيد للمالينى فى مسند الصوفية
وأبونعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله الحديث وفى إسناده نظر (٢) حديث سئل
عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ، الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث إن ثابت بن قيس
قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنى امرؤ حبيب إلى الجمال الحديث هو الذى قبله ميمى فى السائل وقد تقدم
(٤) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا غيبة النسائى وابن ماجه من رواية
عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده الترمذى
وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما للصنف حديثا واحدا .

ما ترى فيها أحدث الناس من اللبس والشرب والركب والمطعم فقال يا ابن أخي: كل لله واشرب لله واللبس لله وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته كان يلفف الناضع ويعقل البعير ويقم البيت ويعلم الشاة ويخفف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا ويشترى الشيء من السوق ولا يمنعه من الحياء أن يلقه يده أو يحمله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسوداً أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشعث أغبر ولا يحقر ما دعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل للعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مثالة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم رقيق القلب دائم الإطراق لم يشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة قد خلت على عائشة رضي الله عنها أحدثها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذا ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يبت إلى أحد شكوى وإن كانت الفاقة لأحب إليهم من اليسار والغنى وإن كان ليزلل جائعاً يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض ونمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة به مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه يدي وأقول نفسي لك الغداء لو تلبت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولى الزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا لضوا على حالهم وتدموا على زهم فأكرم ما بهم وأجزل نوابهم فأجدي أستحي إن ترفعت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلي من الحقوق بإخواني وأخلائى قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١) . لما قل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق التواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق عمله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به لما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فمن نطلب العز في غير ما عاونت به بذاته هبته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن الله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تبجح وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعمائة صديقاً أو ثلاثون رجلاً فلو بهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من خلفه . واعلم يا أخي أنهم لا يلغون شيئاً ولا يؤذونه

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته كان يلفف الناضع الحديث وفيه قال أبو سلمة قد خلت على عائشة أحدثها بذلك عن أبي سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً الحديث بطوله لم أقف لها على إسناد .

فتستشير ثم تتشاور من قلوبهم القوائد إلى قلوب الغافين . وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه أن لي عباداً يحبوني وأحبهم ويشفقون إلي وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكروهم وينظرون إلي وأنظر إليهم فإن حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك قال يارب وما علامتهم قال يرعون الظلال بالنهار كإبراهيم الراعي غنمه ويعنون لي غروب الشمس كأعين الطير إلى أوكارها فإذا

ولا يحقرونه ولا يتناولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرمون على الدنيا هم أطيب الناس خيرا وأولهم عريكة وأسقام نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم العلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدرهم الرياح العواصف ولا الخيل المجرأة قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدماء في استباق الخيرات وأولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون - قال الراوي : قلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها فقال ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا فانك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتف به بالصحة . واعلم يا ابن أخي أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - قال يحيى ابن كثير فنظرنا في ذلك فما تلهذ التلهذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له)

اعلم أن الكبر من الهلكات ولا يغلو أحد من الخلق عن شيء منه وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمسك بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له وفي معالجته مقامان : أحدهما استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب . الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره . للقام الأول : في استئصال أصله وعلاجه على وعمل ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما أما العلم فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى وكيفيه ذلك في إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والهانة وإذا عرف ربه علم أنه لا يليق العظمة والكبرياء إلا بالله أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم الكاشفة وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والذلة وكيفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فان في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى - قتل الإنسان ما أكره - من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره - فقد أشارت الآية إلى أول خلق الانسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه فليستظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أفقرها إذ قد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علة ثم من مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنوع إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه حمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا ييطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بعوته قبل حياته وبضففه قبل قوته وبجمهله قبل علمه وبعماء قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هدايه وبفقره قبل غنايه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله - من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره - ومعنى قوله - هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه - كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال - ثم السبيل يسره - وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت وكذلك قال - من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميا بصيرا إنا هديناه

جنهم الليل واختلط
الظلام وخال كل حبيب
بحبيبه نصبوا لي
أقدامهم واقترشوا لي
وجوههم وناجسوني
بكلامي وتعلقوا إليّ
بأنعائهم فبين صارخ
وباك وبين متأوه
وشاك يعني ما يتحملون
من أجلى وبسعى
ما يشكون من حبي
أول ما أعطيهم أن
أقذف من نوري في
قلوبهم فيخبرون عني
كما أخبر عنهم والثاني
لو كانت السموات
السبع والأرضون
وما فيها في موازينهم
لاستقللنا لهم والثالث
أقبل بوجهي عليهم

السبيل إما شاكرا وإما كفورا - ومعناه أنه أحياء بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا وأصمه بعدما كان أصم وبصره بعدما كان فاقد البصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العرى وهداه بعد الضلال فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال سألتم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم هم تنثرون - فانظر إلى نعمة الله عليه كيف تله من تلك الدقة والقلة والحسنة والقادرة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد عدمه وحياء بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وطالما بعد الجهل ومهديا بعد الضلال وقادرا بعد المعجز وغنيا بعد الفقر فكان في ذاته لاشئ "وأى شئ" أحسن من لاشئ "وأى قلة أقل من عدم الحمض ثم صار بالله شيئا وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القادرة بعد عدم الحمض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمتها وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال - ألم نجعل له عيينين ولسانا وشفتين وهدينا له النجدين - وعرف خسته أولا فقال - ألم يك نطفة من منى - عني ثم كان علقه - ثم ذكر منته عليه فقال - غلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع فمن كان هذا بدو هذه أحواله فمن أين له البطور والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أحسن الأخساء وأضعف الضعفاء ولكن هذه عادة الحسبي إذا رفع من خسته فمخج بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم لو أكله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطنى وينسى المبدأ والنتهى ولكنه سلب عليه في دوام وجوده الأمراض المهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من اللزقة البلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط فيجوع كرها ويغشى كرها ويعرض كرها ويموت كرها لا يملك لنفسه نقما ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا يريد أن يعلم الشئ فيجهله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ ويفعل عنه فلا يفعل عنه ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول في أودية الوسواس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه ولا نفسه نفسه ويشهى الشئ وربما يكون هلاكا فيه ويكره الشئ وربما تكون حياته فيه يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتعييه ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتلفح أعضاؤه ويغتلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو مضطر ذليل إن ترك بقى وإن اختطف فى عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فأى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا أوسط أحواله فليتأمل. وأما آخره ومورده فهو الموت للشار إليه بقوله تعالى - ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره - ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حسن فيه ولا حركة ثم يوضع في التراب فيصير جيفة متنة قادرة كما كان في الأول نطفة مذرة ثم تلى أعضاؤه وتفتت أجزاؤه وتتخر عظامه ويصير زمبا رفاتا ويأكل الدود أجزاءه فينتدى بعذته فيقلعها ويغديه فيقطعها ويسائر أجزائه فيصير روتا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإثتان وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يصل منه الكيزان ويصير منه البنيان فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا فصار كأن لم يكن بالأمس حصيدا

أفستري من أقبلت
بوجهي عليه أعلم أحد
ما أريد أن أعطيه
فالصديق المرید إذا خلا
في ليله بمناجلة ربه
انتشرت أنوار ليله على
جميع أجزاء نهاره
ويصير نهاره في حماية
ليله وذلك لامتلاء قلبه
بالأنوار فتكون حركاته
وتصاريفه بالانوار
تصدر من منبع
الأنوار المجتمعة من
الليل ويصير قلبه في
قبة من قباب الحق
مسددا حركاته موفرة
سكناته. وقد ورد من
صلى بالليل - من وجهه
بالنهار - ويجوز أن
يكون لمعينين: أحدهما

كما كان في أول أمره أمدا مديدا وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا ، لابل يحبه بعد طول البلى
ليقاس شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه للترفة ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى
قيامة قائمة وسما مشقة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وأحوال
مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجنهم تفر وجهه ينظر إليها المهرجم فيتحسر ويرى صحائف منشورة
فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو ؟ فيقال كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها
وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمل من قليل
وكثير وقهر وقطير وأكل وشرب وقيام وقعود قد نسبت ذلك وأحصاه الله عليك فلم إلى الحساب
واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر
الصحيفة ويشاهد ما فيها من محازبه فإذا شاهده قال سيأولتنا ما لهذا الكتاب لا يضر صغيرة ولا كبيرة
إلا أحصاها - فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى - ثم إذا شاء أنشره - فالمن هذا حاله والتكبر
والتعظم بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو
ظهر آخره واليباذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع الهائم ترابا ولا يكون
إنسانا يسمع خطابا أو يلقي عذابا وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع
إذ أوله التراب وآخره التراب وهو يعزل عن الحساب والعذاب والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق
ولورأى أهل الدنيا العبد للذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ربحه
لمساتوا من ثمنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقي منه في بحار الدنيا لصارت أنثى من الخيفة فمن
هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح ويطر وكيف يتكبر
ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يستغله فضلا وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن
يعفو الله الكريم بفضله ويجبر السكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله
أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بعنائه ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن
يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذله
في السجن أقرى أنه يتكبر على من في السجن وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة
من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذلا فلهذا هو
الملاج العلى القامع لأصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل وللسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق
للتواضعين كما وصفناه وحكيائهم من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه
« كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل كل العبد »^(١) وقيل لسلطان لم لا تلبس ثوبا جديدا
فقال إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوما لبست جديدا أشار به إلى المتقى في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة
إلا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين
وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا ومن جملتها ما فيها من التواضع بالثول قائما وبالركوع والسجود
وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه
وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه حتى قال حكيم بن حزام بايست النبي صلى الله عليه وسلم
على أن لا آخر إلا قائما فبايسته النبي صلى الله عليه وسلم عليه ثم فقه وكل إيمانه بعد ذلك^(٢)

أن للشكاة تستنير
بالمصباح فإذا صار
سراج اليقين في القلب
زهر بكثرة زيت العمل
بالليل فيزداد المصباح
إشراقا وتعتدب
مشكاة القلب نورا
وضياء . كان يقول
سهل بن عبد الله
اليقين نار والإقرار
ثقلة والعمل زيت
وقد قال الله تعالى
- سيام في وجوههم
من أثر السجود - وقال
تعالى - مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح -
ف نور اليقين من نور
الله في زجاجة القلب
يزداد ضياء بزيت
العمل فتبقى زجاجة

(١) حديث كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد تقدم في آداب للعيشة

(٢) حديث حكيم بن حزام بايست رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائما الحديث

رواه أحمد مقتصر على هذا وفيه إرسال خفي .

فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعفة أمروا به لتتكسر بذلك خيالاتهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فان الركوع والسجود والثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على يقضيه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق بالأخلاق الممودة إلا بالعلم والعمل جميعا وذلك لحفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم لللكوت والقلب من عالم لللكوت . للقام الثاني : فيما يمرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فأما ماعدها مما يغني بالموت فسكال وهمي فمن هذا يسر على العالم أن لا يتكبر ، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة . الأول النسب فمن جتره الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أحدهما أن هذا جهل من حيث إنه تمزج بكال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غرت بأباه ذوى شرف لقد صدقت ولكن بش ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يعبر خسته بكال غيره بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولى أقرى أن الدودة التي خلقت من بولى إنسان أشرف من الدودة التي من بولى فرس هيات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة . الثاني أن يعرف نسبة الحقيقي فيعرف أباه وجده فان أباه القريب نقطة قدرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبة فقال - الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين - فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حما مسنونا كيف يتكبر وأحسن الأعيان ما إليه انتسابه إذ يقال بأذل من التراب ويا أثن من الحماة ويا أذل من للضفة فان كان كونه من أيه أقرب من كونه من التراب . فقول : افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ثم إن كان ذلك يوجب رفة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفته وإذا لم يكن له رفة فمن أين جاءت الرفة لولمه فاذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تفصل منه الأبدان ، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم إنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبس عليه فلم يبق له شك في صدقهم أقرى أن ذلك يبقى شيئا من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لحسته في شغل عن أن يتكبر على غيره ، فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة وللضفة والتراب إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غير هال كان يعلم به خسة نفسه لمعاسة أعضاء أيه للتراب والدم فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتره عنها هو في نفسه . السبب الثاني : التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم ، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يكدر عليه تمزجه بالجمال فانه وكل به الأقدار في جميع أجزائه الرجيع في أمعائه والبول في مثائله والخاط في أنفه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصدید تحت بشرته والصلان تحت إبطه يغسل الغائط يديه كل يوم دفعة أو دفتين ويتردد كل يوم الحلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لورآه بينه

القلب كالكوكب
الدرى وتنعكس أنوار
الزجاجة على مشكاة
القلب وأيضا يلين
القلب بنار النور
ويسرى لينة إلى القلب
فيلين القلب للين القلب
فيتشابهان لوجود اللين
الذي عنهما . قال الله
تعالى - ثم تلين جلودهم
وقلوبهم إلى ذكر الله -
وصف الجلود باللين كما
وصف القلوب باللين
فاذا امتلأ القلب بالنور
ولان القلب بما يسرى
فيه من الأنس
والسرور يسدج
الزمان والمكان في نور
القلب ويسدج فيه
الكلم والآيات والنور

لاستقذاره فضلا عن أن يمه أو يشمه كل ذلك ليصرف قذارته وذله هذا في حال توسطه وفي أول أمره خلق من الأقدار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقدار إذ خرج من الصلب ثم من اللد كرجى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر . قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقترئ علينا أنفسنا ويقول خرج أحدكم من مجرى البول مرتين ، وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ما هذه مشية من في بطنه خرم إذ رآه يتبختر وكان ذلك قبل خلافة وهذا أوله ووسطه ، ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعدها بالتنظيف والفصل ثارت منه الأتان والأقدار وصار أثنى وأقذر من الدواب للمهمة التي لا تتمدها نفسها قط فإذا نظر أنه خلق من أقدار وأسكن في أقدار وسيصير جيفة أقذر من سائر الأقدار لم يفخر بحماله الذي هو تكفراء الدم وكلون الأزهار في البوادي فيبنا هو كذلك إذ صار هشيما تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمده عليه ، كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب فكمن من وجوه جملة قد صمجت بهذه الأسباب فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملا . السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى ويعتبه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العلل والأمراض وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أهجن من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه اللباب شيئا لم يستغن منه وأن بقاءه لو دخلت في أفقه أو غلة دخلت في أذنه لقتلته وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته وأن حمى يوم تغلل من قوته مالا ينجز في مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقاء لا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفخر بقوته ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى انتخار في صفة يسبقك فيها الهائم . السبب الرابع والخامس : النفى وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمسك من جهنهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم ، وهذا أقبح أنواع الكبر فإن التكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لماد ذليلا والتكبر بتمسك السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فإن تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف والتكبر بالنفى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في النفى والثروة والتجمل فأف تشرف يسبقك به اليهودى وأف تشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه أسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتمسخر به غاية الجهل وكل ما ليس إليك فليس لك وشى . من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره ، ومثاله أن يفخر النافل بقوته وجماله وماله وحرته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانة إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له فلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء ماله فآخذه وأخذ جميع ما في يده وهو مع ذلك يخشى أن يماقيه وينكس به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب ماله ليصرف ان له ماله كما نظر العبد فرأى نفسه محبوبا في منزل قد أحقدت به الحيات والعقارب والحوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا في الخلاص البتة أقترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكاله أم تذلل نفسه وبخضع ؟ وهذا حال كل

وتشرق الأرض بأرض
القالب بنور ربها إذ
يصير القلب سماء
والقالب أرضا ولذة
تلاوة كلام الله في عمل
للسعادة تستر كون
الكائنات والكلام
المجيد بكونه ينوب
عن سائر الوجود في
مزاينة صفو الشهود
فلا يبقى حيث لا نفس
حديث ولا يسمع
لها جس حسي وفي
مثل هذه الحالة تصور
تلاوة القرآن من
فأتمته إلى خاتمة من
غير وسوسة وحديث
تس وذلك هو الفضل
العظيم . الوجه الثاني
قوله عليه السلام

عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته ويدنه وأعضائه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشبهات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك، فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة فهذا الطريق علاج التكبر بالأسباب الحاركة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس : الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحرار: إن للعلم طغيانا كطغيان المال، وكذلك قال عمر رضي الله عنه العالم إذا زلزل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لسكرة مانتقى الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بعرفة أمرين : أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكيد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم غنائه أغشى إذ لم يقض حق نعمته الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالهالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدورها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية^(١) » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يصلح بالحمار والكلب فقال عز وجل - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا - أراد به علماء اليهود، وقال في بلم بن باعوراء - وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - حتى بلغ - فله ككل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوتي بلم كتابا فأخذه إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فله بالكلب - إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوتيه لا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخير الذي لا آتية فهما خطر للعالم عظيم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فان خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فانه إذا أخذ وقهر انتهى أن يكون قد كان فقيرا فكم من عالم يشتهى في الآخرة سلامة الجاهل والعياذ بالله منه فهذا الخطر يمنع من التكبر فانه إن كان من أهل النار فالحزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : باليتي لم تلدن أمي وبأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول باليتي كنت هذه التبنة ويقول الآخر ليتي كنت طيرا أو كلبا ويقول الآخر ليتي لم أكن شيئا مذكورا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما طال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فصرع فيها فترك بعضها وأدخل البقمان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا فأخبره خبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج به من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الحر والشمس زمانا طويلا حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وقتش عن جميع أعماله قليلا وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أى الفريقين يكون فاذا تفكر

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه الحديث متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم في العلم

« من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » معناه أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تحسن وتندار كالمعونة من الله الكريم في تضاريفه ويكون معانا في مصدره ومورده فيحسن وجهه مقاصده وأفعاله وينتظم في سلك السداد مسددا أقواله لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب [الباب السادس والأربعون في ذكر الأسباب للعينة على قيام الليل وأدب النوم] فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ويقصد مستقبل

في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم تسكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفاعة عند نزول العذاب فكذلك العالم إذا تفكر في أضياعه من أوامر ربه بجنائيات على جوارحه وذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والفتاق وغيره وعلم عما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لاهالة الأمر الثاني: أن العالم يصرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده وأنه إذا تسكبر صار محموتا عند الله بغيضا وقد أحب الله منه أن يتواضع وقاله إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التسكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك وبهذا زال التسكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله علمهم فهذا أيضا مما يرضه على التواضع لاهالة . فان قلت فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يحجل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يخشى أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر . فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتسكبر في خطر الحاتمة بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبر من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب والحزير أكل ربة ثم من هو عندنا من أهل النار وهو لا يدري ذلك فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحققه وازدراه لكفره وقدر زفة الله الاعلام وفاق جميع السليين إلا أبابكر وحده فالعواقب مطوية بين العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة فاذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال هذا عصي الله بجعل وأنا عصيته بلم فهو أعذر مني وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله وإن نظر إلى صغير قال إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال ما يدري الله لي غم له بالاسلام ويغتم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية إلى كمال لم يكن ابتداءها إلى فملاحظة الحاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يلبث له ولعمري هذا الخطر مشترك بين التسكبر والتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لما يقتله لأن يشتغل بخوف غيره فإن الشفيق بسوء الظن مولع وشدة كل إنسان على نفسه فإذا حبس جماعة في جنات أو وعدوا بأن تضرب رقابهم لم يفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عهم الخطر إذ يغفل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات إلى غيره حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيئته وخطره . فان قلت فكيف أبض المبتدع في الله وأبض الفاسق وقد أمرت بغيضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض . فاعلم أن هذا أمر مشتهر يلتبس على أكثر الخلق إذ يمزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جالساً بجنبه أزهى من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بن إسرائيل مع خليفهم وذلك لأن الكبر على للطبع ظاهر كونه شرراً والحذر منه ممكن والتكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضب ان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والتكبر يغضب وأحدهما يثمر الآخر ويوجبهما وها يمزجان ملتصقان لا يميز بينهما إلا الوقوف والتدبر يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

القبلة منتظرا مجيء الليل وصلاة المغرب مقبلاً في ذلك على أنواع الأذكار ومن أولها التسبيح والاستغفار قال الله تعالى لتبني واستغفر لذنوبك وسبح بحمد ربك بالتسبيح والابكار ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر وأفضل ذلك الصلاة فإنه إذا واصل بين العشاءين يفضل عن باطنه آثار السكينة الحادثة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم فان ذلك كله له أثر وخذش في القلوب

أحدها التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك . والثاني أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لالك فترى ذلك منه حق لا تعجب بنفسك وإذا لم تعجب لم تتكبر . والثالث ملاحظة إيهام عاقبتك ، وعاقبته أنه ربما يغتم لك بالسوء ويغتم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه . فان قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولوك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لالنفسك وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خطايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالحقيقة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره .

فأقول : إذا كان للملك غلام وولد هوقرة عنه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ولأنه يريد التقرب بأمثال أمره إليه ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأن الولد أعز لأمه من الغلام ، فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاقد وتظن أنه ربما كان قدرها في الآخرة عند الله أعظم لما سبق لهما من الحسن في الأزل ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاه إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة ، فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما الفرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الفرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه وجانبتها بحكم الأمر . السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى - هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - . وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ^(١) » إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم ، فان قال العابد : ذلك لعامل بملء وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن ، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر ثابتا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له . فان قلت : فان صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » . فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق للذنوب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لأمر غيره فينبغي أن يكون الطالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال فهذا

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي الترمذي من حديث أبي أمامة وتقدم في العلم .

حتى النظر إليهم يعقب
كدر في القلب يدركه
من يرزق صفاء القلب
فيكون أثر النظر إلى
الحاقق للبصيرة كالنذير
في العين للبصر
وبالمواصلة بين
العشائرين يرجى ذهاب
ذلك الأثر . ومن ذلك
ترك الحديث بعد
العشاء الآخرة فان
الحديث في ذلك الوقت
يذهب طراوة النور
الحادث في القلب من
مواصلة العشائرين
ويقيد عن قيام الليل
سواء إذا كان عريا
عن يقظة القلب ، ثم
تجديد الوضوء بعد
العشاء الآخرة أيضا

حال العابد مع العالم فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبر على المستور فله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما يزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة ، نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كمالورايت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والفيل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله بمقوتاً وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته فيكشف الغطاء يوم القيامة تراه فوق نفسك بدرجات فهذا يمكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك فلا تتكبر فيما هو ممكن لغيرك بل فباه وخوف في حقك فانه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك فاذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك ، وقد قال وهب بن منبه ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فقد تسمة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وإنما الناس عنده فرقان : فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتبني أن يلحق به وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويحتم له بأحسن الأعمال وبرى ظاهر فذلك شر لي فلا يأتني فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ثم قال فحينئذ كل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بهال من الأحوال ، نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روى أن عبدا أدى إلى جبل فقيل له في النوم اثنت فلانا الاسكاف فسله أن يدعوك فأثاء فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ويكتسب فيصدق بعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول إن هذا الحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لخدمة الله فأتى في النوم ثانيا فقيل له اثنت فلانا الاسكاف فقل له ما هذا الصغار الذي يوجهك فأثاء فسأله فقال له ما رأيت أحدا من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا فقال العابد بهذه والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى - يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون - أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى - إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - وقال تعالى - إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين - وقد وصف الله تعالى للملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدوام بالاشفاق فقال تعالى خبرا عنهم - يسبحون الليل والنهار لا يفترون - وهم من خشية مشفقون - فلي رال الاشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ، فاذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بصين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب

معين على قيام الليل .
حكى لي بعض الفقهاء
عن شيخ له غراسان
أنه كان يتنسل في الليل
ثلاث مرات مرة بعد
العشاء الآخرة ومرة
في أثناء الليل بعد
الانتباه من النوم
ومرة قبل الصبح
فللوضوء والفعل بعد
العشاء الآخرة أثر
ظاهر في تيسير قيام
الليل ومن ذلك التعود
على الذكر أو القيام
بالصلاة حتى يذهب
النوم فان التعود على
ذلك يسين على سرعة
الانتباه إلا أن يكون
واقفا من نفسه وعادته
فيتعمل للنسوم

لا غير إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضرر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ونسيت وعدها فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تسكن بالعمل وتجرب بأفعال التواضع في مواقع هيجان الكبر من النفس ، ويبدأ أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج مافي الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة : الامتحان الأول أن ينظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فنقل عليه قبوله والافتقار له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا فليتيق الله فيه ويشغل بعلاجه ، أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطيئته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالجور ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نهتني له بالحكمة صالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم فقيه كبر فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في اللأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بأن منفعة في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق إلى غير ذلك من أدوية الرياء وإن ثقل عليه في الخلوة واللأ جميعاً ففقيه الكبر والرياء جميعاً ولا ينفعه التخلص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني فليعالج كلا الداءين فانهما جميعاً مهلكان . الامتحان الثاني أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويثني خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله فذلك يزيله الكبر وهم بالاشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخفف على نفوس التكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضاً بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بمنهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن . الامتحان الثالث أن يجرب دعوة الفقير ويعمر إلى السوق في حاجة الرقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ففور النفس عنها ليس إلا الخبث في الباطن فليشتغل بأزائه بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر . الامتحان الرابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورقاته من السوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإن كان ثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وعالجه المهلكة له إن لم تدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كسب عليها الموت لاهماله والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى - إلامن أتى الله بقلب سليم - ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب قليل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك قال أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك فلم يمنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأثرة حتى جربها فهي صادقة أم كاذبة وفي الخبر « من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برى من الكبر » (١) . الامتحان الخامس أن يلبس ثياباً بدلة فإن غور النفس عن ذلك في اللأ رياء وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله

(١) حديث من حمل الشيء والفاكهة فقد برى من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بإفظ من حمل بضاعته .

ويستجلبه ليقوم في وقته للمعروف وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للريدين والطالبين وبهذا وصف الهبون قيل نومهم نوم الفرق وأكلهم أكل المرضى وكلامهم ضرورة فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل وإنما النفس إذا أطعت ووطنت على النوم استرسلت فيه وإذا أزهجت بصديق العزيمة لا تسترسل في الاستقرار وهذا الانزعاج في النفس بصديق العزيمة

عنه له مسح بلبسه بالليل وقد قل صلى الله عليه وسلم «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى من الكبر» (١). وقال عليه الصلاة والسلام «إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعتل البعير وألق أصابعي وأجيب دعوة للملوك، فمن رغب عن سنقي فليس مني» (٢). وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أتواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فلا يختص بالملا فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك للرض لا يداويه.

(بيان غاية الرياضة في خلق التواضع)

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يعيل إلى الزيادة يسمى تكبراً وطرفه الذي يعيل إلى النقصان يسمى تجانساً ومذلة، والوسطية تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تجانس فان كلا طرفي الأمور ذميم. وأحب الأمور إلى الله تعالى أو ساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه والله إذا دخل عليه إسكاف فتحنى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تجانس وتذل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطى كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع على هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوق فبالقيام والبشرى الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسمي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يعتز به ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره، فاذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التخلق والتجاسس فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه إذ ليس له من أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق والليل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التخلق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الليل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أغشى، وكذلك نهاية التكبر ونهاية النقص والتذل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخرة، والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة، ولتقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشرط الثاني: من الكتاب في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما وبيان علاج العجب على الجملة وبيان أقسام مآه العجب وتفصيل علاجه.

(بيان ذم العجب وآفاته)

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى - ويوم نحين إذ أعجبكم كثرتمكم فلم تقن عنكم شيئاً - ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل - وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا - فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل. وقد

(١) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليمري ضعيف جداً.

(٢) «إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف الحديث تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

هو التجافي الذي قال الله تعالى - تجافي جنوبهم عن المضاجع - لأن المهم بقيام الليل وصدق المزينة يجعل بين الجنب والمضجع نبواً أو تجافياً وقد قيل للنفس نظران: نظراً إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ونظراً إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية. فأرباب المزينة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوا حظها من النفس.

يجب الانسان بعمل هو محطىء فيه كما يجب بعمل هو مصيب فيه . وقد صلى الله عليه وسلم
 « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (١) » وقال لأن ثعلبة حيث ذكر آخر
 هذه الأمة ، فقال « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك نفسك (٢) » .
 وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي
 والطلب والجهد والتشمر والقنوط لا يسعى ولا يطلب والعجب يعتد أنه قد سعد وقد ظفر بمراوده فلا يسعى
 فالموجود لا يطلب والحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد العجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد
 القنوط فمن هنا جمع بينهما . وقد قال تعالى - فلا تزكوا أنفسكم - قال ابن جرير معناه إذا عملت
 خيراً فلا تقل حملت . وقال زيد بن أسلم لا تبروها أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكان أنه أعجبه فله
 العظيم إذ فداء بروحه حتى جرح ففارس ذلك عمر فيه فقال ما زال يرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) والنأو هو العجب في اللغة إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلماً
 ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة قال ذلك رجل فيه نخوة ، فإذا كان
 لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم . وقال مطرف لأن آيت
 نأماً وأصبح نادماً أحب إلى من أن آيت قائماً وأصبح معجباً . وقال صلى الله عليه وسلم « لولم تذبذبوا
 لحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب (٤) » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور
 من الذين إذ رؤوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ملوا طيبته على العبادة فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر
 فظن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له لا يعجبك ما رأيت منى فان إبليس لعنه الله قد عبد الله
 تعالى مع اللاتكة مدة طويلة ثم صار إلى ماضار إليه . وقيل لما نشأ رضى الله عنهما فيكون الرجل
 مسيئاً قالت إذا ظن أنه محسن وقد قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى - والن نتيجة استعظام
 الصدقة واستعظام العمل هو العجب ، فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً .

(بيان آفة العجب)

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه في تولد من العجب
 الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى
 نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقد لها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فيكدها هو ما
 يتذكره منها فيستغفره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات
 والأعمال فإنه يستعظمها ويتجبح بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتحكمين منها ثم
 إذا أعجب بها عسى عن آفاتهما ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً فان الأعمال الظاهرة
 إذا لم تكن خالصة تبة عن الشوائب قلما تنفع وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث أنى ثعلبة إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً
 وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك نفسك أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم (٣) حديث
 وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه البخاري من رواية قيس
 ابن أبي حازم قال رأيت يد طلحة سلاه وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم (٤) حديث لولم تذبذبوا لحشيت
 عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب البرزاري وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث
 أنس وفيه سلام بن أبي الصفاء قال البخاري منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه
 أبو منصور القليل في مسند القردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً .

بما فيها مركز من
 الترابية والجمادية ترسب
 وتستعسل وتستلذ
 النوم . قال الله تعالى
 - هو الذي خلقكم من
 تراب - ولأدى بكل
 أصل من أصول خلقه
 طبيعة لازمة له .
 والرسوب صفة التراب
 والسكل والتقاعد
 والتناوم بسبب ذلك
 طبيعة في الانسان ،
 فأرباب الهمة أهل العلم
 الذين حكم الله تعالى لهم
 بالعلم في قوله تعالى - آمن
 هو قانت آناه الليل
 ساجداً وقائماً - حتى
 قال - قل هل يستوى
 الذين يعلمون والذين
 لا يعلمون - حكم هؤلاء
 الذين قاموا بالليل بالعلم

دون العجب والعجب يضر نفسه ورأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطايه ويغريه العجب إلى أن يشق على نفسه ويحمدها ويذكرها وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فإن كان رأيه في أمر ديني أو دنيوي فيحقق فيه وإن كان في أمر دني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولواتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق، فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من الهلكات ومن أعظم آفاته أن يفتري السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهالك الصريح الذي لا شبهة فيه . نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

(بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما)

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا عمالة للعالم كمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان: أحدهما أن يكون خائفا على زواله ومشقفا على نكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بعجب والأخرى أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضا ليس بعجب وله حالة ثالثة هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاد ما يجري على الفاسق سمى هذا إدلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه وعن عليه فيكون معجبا فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تحلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال قتادة في قوله تعالى - ولا تمنن تستكثر - أي لا تمدل بعملك وفي الخبر « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ولأن تضعك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك » (١) والإدلال وراء العجب فلا مدل وهو معجب ورب معجب لا يدل إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها يباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتمتع من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات التكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

(بيان علاج العجب على الجملة)

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار المبدأ كالعبادة والصدقة والقرى وسياحة الخلق وإصلاحهم فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول : الورع التقوى والعبادة والعمل الذي به يجب إنما يجب به من حيث إنه فيه

(١) حديث إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه الحديث لم أجده له أصلا .

فهم لموضع علمهم
أزعموا النفوس عن
مقار طبيعتها ورقوها
بالنظر إلى الذات
الروحانية إلى ذرات
حقيقتها فتجافت
جنوبهم عن اللذات
وخرجوا من صفة
القل الهاجع . ومن
ذلك أن يغيب العادة
فإن كان ذا وسادة
يترك الوسادة وإن
كان ذا وطاء يترك
الوطاء وقد كان بعضهم
يقول لأن أرى في بيتي
شيطانا أحب إلى من
أن أرى وسادة فانها
تدعوني إلى التوسم
وتنسيب العادة في
الوسادة والنساء

فهو محله ومجراه أومن حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لأن المحل مسخر وعجري لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس إليه وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته ثم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بحجود الله وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لعلسانه ونظر إليهم وخلع من جماتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا الوسيلة ولا الجمال ولا الخدمة فينبغي أن يتعجب للنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه ، نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب فلولا أنه تنفطن في صفة من الصفات الحمودة الباطنة لما اقتضى الايثار بالخدمة ولما آثرني بها فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هي عطية غيره فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول إنما أعطاني غلاما لأن صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له فيقال وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لنفسك وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة فانك إن أعجبت بعبادتك وقلت ووقفى للعبادة لحبي له فيقال ومن خلق الحب في قلبك فتقول هو فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الإعجاب بحجوده إذ أنهم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لامع لعجب العابد بعبادته وهب العالم بعباده وهب الجليل بجماله وهب الثني بفضله لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيض فضل الله تعالى وجوده والمحل أيضا من فضله وجوده . فان قلت : لا يمكنني أن أجهل أعمالى وأنى أنا عملتها فأنى أنتظر عليها ثوابا ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا فان كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وإن كانت الأعمال مكنى وبقدرك فكيف لا أعجب بها . فأعلم أن جوابك من وجهين : أحدهما هو صريح الحق والآخر فيه مساهمة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه لما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إحصاء العين بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم فتدريجى في الخلق شيئا بعد شيء . هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت ، وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سبحانه تهريره في كتاب الشكر فانه ألقى به فأرجع إليه ، ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مساهمة ما وهو أن نحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك

والوطاء تأثير في ذلك
ومن ترك شيئا من
ذلك والله عالم بنيه
وعزيمته يشبه على ذلك
بتيسير مرام ومن ذلك
خفة للمعدة من الطعام
ثم تناول ما يأكل من
الطعام إذا اقترن بذلك
الله وبقظة الباطن
أعان على قيام الليل
لأن بالذكر يذهب
داؤه فان وجد للطعام
تقلا على المعدة ينبغي
أن يعلم أن تقله على
القلب أكثر فلا ينال
حق يذيب الطعام
بالذكر والتلاوة
والاستغفار قال بعضهم
لأن أقص من عشائى
لحمة أحب إلى من

ووجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لامنك فان كان العمل
 بالقدره فالتدرة مفتاحه وهذا للفتح يد الله ومهما لم يعطك للفتح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن
 بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة أرايت لورايت خزائن
 الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها يد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألسنة لم يمكنك
 أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك للفتح لأخذته من قريب بأن يمسك يدك إليه فتأخذه فقط
 فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك باعطاء
 الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن
 المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قرية وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهمة خلقت
 القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرفت عنك اللوانع والصوارف حتى لم
 يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرفت العوائق
 وتيسر الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن
 إليه الأمر كله ولا تعجب بجموده وقضه وكرمه في إيثاره إياك على الفاسق من عباده إذ سلط دواعي
 الفساد على الفاسق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم
 من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك
 حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فكل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريئة سابقة
 من الفاسق العاصي بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضل وأبعد العاصي وأغناه ببدله فأعجب إعجابك
 بنفسك إذا عرفت ذلك فاذا لا تنصرف قدرتك إلى التدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجديلا إلى
 مخالفتها فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لآله وسياق في كتاب
 التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والسبب ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه
 والعجب بمن يتعجب إذا رزقه الله عقلا وأقره بمن أفاض عليه المال من غير علم فيقول كيف منعتني
 قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل حتى يكاد يرى هذا
 ظلما ولا يدري المفورر أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال
 إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والفقر ومنعته منهما فلا يجمعهما إلى أو هلا رزقتني
 أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء قراءم قال إن عقل الرجل محسوب
 عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الفنى أحسن حالا من نفسه ولو قيل له
 هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وقورك لا تمتنع عنه فاذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر
 فلم يتعجب من ذلك والراءة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميعة القبيحة فتعجب وتقول
 كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويغصص مثل ذلك القبح ولا تدري المفوررة أن الجمال
 محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الفنى لآثرت الجمال فاذا نعمة الله
 عليها أكبر وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطينا الجاهل كقول من
 أعطاه الملك فرسا فيقول أيها الملك لم لا تعطينى الغلام وأنا صاحب فرس فيقول كنت لا تتعجب من
 هذا لو لم أعطك الفرس فبب آتى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها
 نعمة أخرى ؟ فهذه أو هام لا تغلو الجاهل عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم الحق بأن
 العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب
 والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يسبب

أن أقوم ليلة والأحوط
 أن يوتر قبل النوم
 فانه لا يدري ماذا يحدث
 ويضطهروه وسواكه
 عنده ولا يدخل النوم
 إلا وهو على الطهارة.
 قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « إذا نام
 العبد وهو على الطهارة
 عرج بروحه إلى العرش
 فكانت رؤياه صادقة
 وإن لم ينم على الطهارة
 قصرت روحه عن
 البلوغ فتكون النامات
 أضغاث أحلام
 لا تصدق » والريد
 للتأهل إذا نام في
 الفراش مع الزوجة
 ينتقص وضوءه باللمس
 ولا يفوته بذلك فائدة

بعله وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام يارب ما تأنى ليله إلا وإنسان من آل داود قائم ولا يأتى يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ومن أين لهم ذلك إن ذلك لم يكن إلا بى ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحق ويعقوب فقال إني ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا إن ابتليتني صبرت فأذل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى فاني لم أخبرهم بأى شئ أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم وأنا أخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيها وقع فيه وكذلك لما اتسكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا تغلب اليوم من قلة (١) وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى - ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين - . روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال إلهى إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى فتودى من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب أتى لك ذلك أى من أين لك ذلك ؟ قال فأخذ رمادا ووضع على رأسه وقال منك يارب منك يارب فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكناكم من أحد أبدا - وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « ما منكم من أحد ينجه عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته (٢) » ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لدى بصيرة أن يعجب بعمله أويلد به ولا يخاف على نفسه فاذن هذا هو العلاج القامع لمسادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها بل هو ينظر إلى الكفار والفاسق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول إن من لا يبالى أن يحرم من غير جنابة ويعطى من غير وسيلة لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبق معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

(بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه)

اعلم أن العجب بالأسباب التى بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كمجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بمجهله فإبه العجب ثمانية أقسام : الأول أن يعجب ببدنه فى جماله وهيبته ومجته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فإلغى إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه ما ذكرناه فى السكبر بالجمال وهو التفكير فى أقدار باطنه وفى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت فى التراب وأنت فى القبور حتى استقدرتها الطباع . الثانى : البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد

(١) حديث قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة البيروق فى دلائل النبوة من رواية الريح بن أنس مرسل أن رجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزل الله عز وجل - ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم - ولا بن مردويه فى تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم تقاتل قفروا ، فيه القرح بن فضالة ضعفه الجمهور (٢) حديث ما منكم من أحد ينجه عمله الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

النوم على الطهارة ما لم
يترسل فى التذاذ
النفس باللس ولا يهدم
يقظة القلب فأما إذا
استرسل فى الالتذاذ
وغفل فتعجب الروح
أيضا لمكان صلاته
ومن الطهارة التى تشر
صدق الرؤيا طهارة
الباطن عن خدش
الهوى وكدورة محبة
الدنيا والتزهر عن
أنجاس الغل والحقد
والحسد وقد ورد « من
أوى إلى فراشه لا ينوى
ظلم أحد ولا يعقد على
أحد غفلة ما اجترم »
وإذا طهرت النفس
عن الرذائل انجلت
مرآة القلب وقابل

حين قالوا فيما أخبر الله عنهم - من أشد منا قوة - وكما اتسكل عوج على قوته وأعجب بها فالتفت جبالا
ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقره هدهد ضعيف النفاذ
حتى صارت في عنقه وقد يتسكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سلمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن
الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله تعالى فحرم ما أراد من الولد (١) وكذلك قول داود عليه السلام
إن ابتليتنى صبرت وكان إعجابا منه بالقوة فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة الهجوم في
الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه
ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حتى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة
يسلبها عليه . الثالث : العجب بالقتل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وعرته
الاستعداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس الخالفين له ولرأيه ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل
العلم وإعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والمقل واستحقار لهم وإهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على
ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويمن بحيث يضحك منه
فلا يأمّن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقل بشكره وليست قصر عقله وعلمه وليعلم أنه ما أوتي من
العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف يعلم معرفة الناس
من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر إلى الحق كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر
أن يكون منهم وهو لا يدري فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله
من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجاويزا ولا يظن
بنفسه إلا الخير ولا يظن لجهل نفسه فيزداد به عجايزا . الرابع : العجب بالنسب الشريف كمعجب الهاشمية
حق يظن بعضهم أنه ينجر بشرف نسبه ونجاة آباءه وأنه مغفور له ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق
له موال وعبيد وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أخلاقهم وأخلاقهم ووطن أنه ملحق بهم فقد
جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق
ومدح النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به وقد
ساوهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شر من الكلاب
وأخس من الخنازير ولذلك قال تعالى - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى - أي لا تفاوت في أنسابكم
لا اجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال - وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا - ثم بين أن الشرف
بالنقوى لا بالنسب فقال - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولما قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس من
أكرمكم الناس لم يقل من ينتمى إلى نسبي ولكن قال أكرمكم أكرمهم للموت ذكر أو أشدهم لاستعدادا (٢)
وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو
وخالد بن أسيد هذا العبد الأسود يؤذن فقال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وقال النبي
صلى الله عليه وسلم «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية أي كبرها كلكم بنو آدم وآدم من تراب» (٣)

القول المحفوظ في النوم
وانتفتت فيه هجائب
الغيب وغراب الأنبياء
ففي الصديقين من
يكون في منامه مكالة
وعجائز فيأمره الله
تعالى وينهاه ويفهمه
في المنام ويسرفه
ويكون موضع ما يفتح
له في نومه من الأمر
والنهي كالأمر والنهي
الظاهر يصي الله تعالى
إن أدخل بهما بل
تكون هذه الأوامر
أكد وأعظم وقعا لأن
المخالفات الظاهرة
تمحوها النسوة
والنائب من الذنب
كن لا ذنب له وهذه
أوامر خاصة تعلق بحاله

- (١) حديث قال سلمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة الحديث البخاري من حديث أبي هريرة
(٢) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكرمكم الناس قال أكرمهم للموت ذكرنا الحديث
ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في
ذكر الموت آخر الكتاب (٣) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية الحديث أبو داود
والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تعملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا أي أعرض عنكم ^(١) » فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش « ولما نزل قوله تعالى - وأنذر عشيرتك الأقرين - ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفيه بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أعمال لا تفسكها فاني لأغني عنكما من الله شيئا ^(٢) » فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آباءه التواضع اتحدى بهم في التقوى والتواضع وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما اتى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق . فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية « إنى لأغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها بيلالها ^(٣) » وقال عليه الصلاة والسلام « أرجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب ^(٤) » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة . فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذئيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه فانه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته لأن الذنوب منتظمة إلى ما يوجب اللقت فلا يؤذن في الشفاعته إلى ما يعنى عنه بسبب الشفاعته كالذنوب عند ملوك الدنيا فان كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعته فيها اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب مالا تجب منه الشفاعته وعنه العبارة بقوله تعالى - ولا يشفعون إلا لمن ارضى - وبقوله - من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه - وبقوله - ولا تنفع الشفاعته عنده إلا لمن أذن له - وبقوله - فما تنفعهم شفاعة الشافعين - وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى مالا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لاحالة ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعته لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المصيبة ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة فلا تنهاك في الذنوب وترك التقوى امتكالا على رجاء الشفاعته بضاهى إتهامك للرياض في شهواته اعتمادا على طيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لاني كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر في الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال الزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصالحين للأقارب والأجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتعمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقوهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارق الخوف والحشوع قلوبهم .

(١) حديث يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تعملونها على رقابكم الحديث الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يا معشر بني هاشم وسنده ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - وأنذر عشيرتك الأقرين - ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفيه بنت عبد المطلب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة (٣) حديث قوله بعد قوله للتقدم لفاطمة وصفية ألا إن لكم رحما سأبلها بيلالها مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها بيلالها (٤) حديث أرجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق ابن واصل وكلامها ضعيف جدا .

فيا بينه وبين الله تعالى
فاذا أحل بها يغنى
أن ينقطع عليه طريق
الإرادة ويكون في
ذلك الرجوع عن الله
واستيجاب مقام اللقت
فان ابتلى الصديق بعض
الأحايين بكسل وفخور
عزيمة يمنع من تجديد
الطهارة عند النوم بعد
الحدث يمسح أعضاءه
بالماء مسحا حتى يخرج
بهذا القدر عن زمرة
العافلين حيث تقاعد
عن فصل التيقظين
وهكذا إذا كسل عن
القيام عقيب الاستباه
يجتهد أن يستاك
ويعمس أعضاءه بالماء
مسحا حتى يخرج في

فكيف يعجب بنفسه ويشكل على الشفاعة من ليس له مثل محبتهم وسابقتهم . الخامس : العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم ، وهذا غاية الجهول وعلاجه أن يتفكر في عجزهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم المقتوتون عند الله تعالى ولو نظر إلى صورهم في النار وأتانتهم وأقدارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسب إليهم استغذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة أخذون بنواصيرهم يحرقونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والحزير أحب إليه من الانتساب إليهم فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ، فاما العجب بنسب جهل محض . السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد والحشم والفلان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار - نحن أكثر أموالا وأولادا - وكما قال المؤمنون يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة وعلاجه ما ذكرناه في السكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفه وأن كلمهم عبيد هزلة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله - ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يفنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته إليهم وكذلك يهربون منه يوم القيامة - يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه - الآية ، فأى خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تشكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نعمك وضرك وموتك وحياتك . السابع : العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال - أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا - « ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فانتفض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام : أخشيت أن يبدو إليك فقره (١) » وذلك للعجب بالغنى وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة وإلى أن للمال غاد ورأع ولا أصل له وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « بيننا رجل يتبختر في حلته قد أعجبت نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٢) » أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه ، وقال أبوذر « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أباذر أرفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب جياذ ثم قال أرفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي يا أباذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا (٣) » وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يغلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك فقصيره إلى الحزى والبوار فكيف يعجب بماله . الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال تعالى - أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا - وقال تعالى - وهم يحسبون أنهم

تغلباته وانتباهاته عن زمرة العاقلين في ذلك فضل كثير لمن كثرت نومه وقل قيامه . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الابتداء منه ويستقبل القبلة في نومه وهو على نوعين فأما على جنبه الأيمن كالملاحود وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كاليت للسجى ويقول بامك اللهم وضعت جنبي وبك أرفضه اللهم إن أمسكت نفسي فاعف عني لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما

(١) حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فانتفض عنه الحديث رواه أحمد في الزهد (٢) حديث بينا رجل في حلة قد أعجبت نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث أني در كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أباذر أرفع رأسك فرفعت رأسي الحديث وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه .

يخسرون صنعا - وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة (١) وبذلك هلكت الأمم السالفة إذا فترقت فرقا فكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون ، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لمحبهم بأرائهم والعجب بالبدعة هو استعسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخاطئ جاهل بخطئه ولوعرفه لتركه ولا يصالح الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإن لا يوصى إلى العارف وينهجه قد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده وإنما علاجه على الجملة أن يكون متبعا لرأيه أبدا لا يقتربه إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بمرحلة تامة وعقل ثابت وجد وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومداينة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يهوض في المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسعها ولكن يستند أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه - ليس كمثل شيء - وهو السميع البصير - وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقيح وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا ويشتمل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على السليين وسائر الأعمال فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر ، هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر الطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء للؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى الصمة من الضلال ونموذبه من الاغترار بخيالات الجاهل .

ثم كتبت ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

(وهو الكتاب العاشر من ربيع الهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي يده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائهم من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطبات الغرور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تهرم الحياة الدنيا ولم يهرم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على عمر الدهور ومكر الساعات والشهور . [أما بعد] لفتاح السعادة الثبوت والفظنة ومنبع الشقاوة الغرور والفلة فلانعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والعرفه ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا تمة أعظم من التكفر والعصية ، ولاداعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالأكياس وأرباب البصائر

(١) حديث أنه يغلب على آخر هذه الأمة الاعجاب بالرأى هو حديث أبي ثعلبة المتقدم فاذا رأيت شعا مطاطا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن بك بغصة نفسك وهو عند أبي داود والترمذي .

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

تحفظ به عبادك الصالحين
اللهم إني أسألك قسى
إليك ووجهت وجهي
إليك وفوضت أمري
إليك وألجأت ظهري
إليك رهبة منك ورغبة
إليك لا ملجأ ولا منجى
منك إلا إليك آمنت
بكتابك الذي أنزلت
ونبيك الذي أرسلت
اللهم قسى عذابك يوم
تبعث عبادك الحمد لله
الذي حكم قهر الحمد
الله الذي بطن غير
الحمد لله الذي ملك
تقدر الحمد لله الذي
هو يحيى الموتى وهو
على كل شيء قدير اللهم
إني أعوذ بك من
غضبك وسوء عقابك

فأولهم كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور وافتخرون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإله من نور فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى والفترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدورهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء والغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقي في العمى فأتخذ الهوى قائدا والشیطان دليلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومخاريجه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره الريد بعد معرفته فتقريبه فالغرف من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبقي على الحزم والبصيرة أمره ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف الغرورين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بعبادى الأمور، الجلية ظواهرها القبيحة سرورها ونشير إلى وجه اغترارهم بها وعفلتهم عنها فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء وفرق الغرورين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف. الصنف الأول من العلماء. الصنف الثاني من العباد. الصنف الثالث من المتصوفة. الصنف الرابع من أرباب الآمال والافتقار من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ للمسجد ويخزفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجلال ومنهم من يترك الأهم ويشغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة ومنهم من يترك الباب ويشغل بالشر كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تنصح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة ولنبداً أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

(بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله)

اعلم أن قوله تعالى - فلا تفرعنكم الحياة الدنيا ولا يفرعنكم بالله الغرور - وقوله تعالى - ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني - الآية. كاف فى ذم الغرور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف يخبنون سهر الحق واجتهادهم ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من الغريرين ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) » وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذاً الجهل هو أن يحتقد الشيء وراءه على خلاف ما هو به والغرور هو جهل الإنسان كل جهل ليس بغرور بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يفرقه فهما كان الجهول المعتقديا يوافق الهوى وكان السبب للوجوب للجهل شبهة وغيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا لسمى الجهل الحاصل به غرورا فالفقر هو سكن النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرم الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قوله أبى الدرداء بحوّه وفيه اقلع وفى بعض الروايات أبى الورد موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

وشر عبادك وشر الشيطان وشركه وقرأ خمس آيات من البقرة الأربع من الأول الآية الخامسة - إن فى خلق السموات والأرض - وآية الكرسي، وآمن الرسول . وإن ربكم الله . وقل ادعوا الله ، وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والعوذتين، وينفثنهم فى يديه ويمسح بهما وجهه وجسده وإن اضاف إلى ما قرأ عشرين من أول الكهف وعشرين من آخرها فحسن ويقول اللهم

الحير وهم غطثون فيه فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختافت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفاسق فنورد لهم أمثلة لحقيقة الغرور . المثال الأول : غرور الكفار فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور أما الدين غرته الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسبة والدنيا تعدو الآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إشارتها وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا ترك اليقين بالشك وهذه أقبيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال - أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون - وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله - ما عندكم ينفد وما عند الله باق - وفي قوله عز وجل - وما عند الله خير - وقوله - والآخرة خير وأبقى - وقوله - وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور - وقوله - فلا تفرحكم الحياة الدنيا - وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار قتلوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان (١) . ومنهم من قال نشدتك الله أبشك الله رسولاً ؟ فكان يقول نعم فيصدق (٢) وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والله في أن حضور للكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان فإن كل مغرور فلغروره سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان : أحدهما أن الدنيا تعد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخرة قوله إن النقد خير من النسبة وهذا محل التلبس فليس الأمر كذلك بل إن كان النقد مثل النسبة في المقدار والقصور فهو خير وإن كان أقل منها فالنسبة خير فإن الكافر الغرور يذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسبة فلا آركه وإذا حذر الطبيب الفواكه ولذات الأطمعة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار ويتبعون في الأسفار قدراً لأجل الراحة والريح نسيئة فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فأنسب للنسبة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشر من جزء من ألف جزء من الآخرة فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدره مشوبة بأنواع النقصات ولذات الآخرة صافية غير مكدره فاذن قد غلط في قوله النقد خير من النسبة فهذا غرور منشؤه قبول اللفظ عام مشهور أطلق

(١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن من ذلك قصة إسلام الأنصار ويحتجهم وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بشنا الله إليه من يرب فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقره القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه الحديث وهي عند أحمد بإسناد جيد (٢) حديث قول من قاله نشدتك الله أبشك الله رسولاً فيقول نعم فيصدق متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة وقوله لئن صلى الله عليه وسلم أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفي آخره فقال الرجل أمنت بما جئت به ولطبراني من حديث ابن عباس في قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى قال نعم الحديث .

أيقظني في أحب الساعات
إليك واستمعي
بأحب الأعمال إليك
التي تقريني إليك زلي
وتبعدني من سخطك
بعدا أصالك فخطي
وأستغفر لك فخطي
وأدعوك فتسجيب لي
اللهم لا تؤمنني مكر
ولا تولني غيرك ولا
ترفع عني شرك ولا
تنسئ ذكرك ولا تجعني
من الغافلين . ورد
أن من قال هذه
الكلمات بث الله
تعالى إليه ثلاثة
أملاك يوظفونه للصلاة
فان صلى ودعا أمواطي
دعائه وإن لم يتم تعبدت
الأملاك في الهواء وكتب

وأريد به خاص ففعل به الغرور عن خصوص معناه فإن من قال النقد خير من النسبثة أراد به خير امن
نسبثة هي مثله وإن لم يصرح به وعند هذا يفرع الشيطان إلى القياس الآخر وهو أن اليقين خير من الشك
والآخرة شك وهذا القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصليه باطل إذ اليقين خير من الشك إذا
كان مثله والافالاجر في تبعه على يقين وفي ربحه على شك والتفقه في اجتهاده على يقين وفي إدراكه رتبة
العلم على شك والصيد في ترده في المقتص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك وكذا الحزم دأب العقلاء
بالانفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول إن لم أاجر بقيت جائعا وعظم ضرري وإن
اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع السكرية وهو من الشفاء
على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالاضافة إلى ما أخافه من
المرض وللولوت فيكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول أيام الصبر قلائل وهو
منتهى العمر بالاضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة فإن كان ما قيل فيه كذبا لم يفوتنى إلا التمتع أيام
حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتمم فأحسب أنى بقيت في العدم وإن كان ما قيل صدقا
فأبقى في النار أبدا الأباد وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملاحدين إن كان ما قلته
حقا فقد غلصت وغلصنا وإن كان ما قلناه حقا فقد غلصنا وهلكنا وما قال هذا عن شك منه في الآخرة
ولكن كلم للحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور . وأما الأصل الثاني من
كلامه وهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان: أحدهما الإيمان
والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص
ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علقته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه
النبت القلاني فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل
يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادى أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم
أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لاعلم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يستقد
كذبهم بقوله ولا يفتقر في علمهم بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك
من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها
وجدم خير خلق الله وأعلام رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء
واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم
إلى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا
الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك
قول هذا الغنى الذى استرقت الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء وهذا القدر
من الإيمان كاف لمجلة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به . وأما المدرك
الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والأطهام للأولياء ولا نطقن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر
الآخرة ولأمر الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماح منه كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه
وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته وإنما يختلف المقلد فقط وهيئات فإن التقليد ليس بمعرفة
بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأحياء كما هي عليها
فناهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لآعن
سماع وتقليد وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من
أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر

لهم ثواب عبادتهم
ويسبح ويحمد ويكبر
كل واحد ثلاثا وثلاثين
ويتم المائة بلا إله إلا
الله والله أكبر ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلى
المعظم .

[الباب السابع
والأربعون في أدب
الانتباه من النوم
والعمل بالليل]

إذا فرغ المؤمن من أذان
المغرب صلى ركعتين
خفيفتين بين الأذان
والإقامة وكان العلماء
يصلون هاتين الركعتين
في البيت يجعلون بهما
قبل الخروج إلى الجماعة
كيلا يظن الناس أنهما

الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالمان عالم الأمر وعالم الخلق والله الخلق والأمر فالأجسام ذوات السكينة والمقادير من عالم الخلق إذا خلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود منزّه عن السكينة والمقدار فإنه من عالم الأمر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماحه كسر القدر الذي منع من إفشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تعالى وأنه أمر رباني وحينئذ إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي لأن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له - ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون - أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كالمها إذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه إشارة إلى أسرارهم تراستشاق رواهم العارفون وتشمز من سماع ألفاظها القاصرون فانها تضرهم كما تضر رياح الورد بالجمل وتبر أعينهم الضعيفة كما تبر الشمس أبصار الحفايش وافتتح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الكسوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهي مبادئ مقامات الأنبياء وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء. ولترجع إلى الغرض المطلوب فالقصد أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إماميين تقليدي وإماما يصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بالسنتهم وبفائدهم إذا ضيعوا وأمر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا السموات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يصممهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكمهم أيضا من الغرورين فانهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنكم مالوا إلى الدنيا وآثروها وبجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى - وإن لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - وقال تعالى - إن رحمت الله قريب من المحسنين - ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه» (١) وقال تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر - فوعد العفوة في جميع كتاب الله تعالى بنوط بالاحسان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده فهو لا أيضا مغرورون أعنى للطمئنين إلى الدنيا الفرحين به المترفين بتعظيمها المهيئين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة إلهامه فهم ذمائل الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا. ولندكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين، فأما غرور الكفار بالله فشاله قول بعضهم في أنفسهم وبالسنتهم إنه لو كان الله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حفاظا وأبعد حالا كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال - وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيما منها مثلي وأجملة أمرها كما نقل في التفسير أن الكافر منها بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخرما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار وفي ذلك كله يظنه للؤمن ويقول اشتريت قصرا بغنى وبخرم ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يغنى واشتريت بستانا بخرب ويغنى ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يغنى وخرما لا يغنى ولا يتون وزوجة من الحور العين لا تموت وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شيء وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وإن كان

سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنهم أنهم سنة وإذا صلى المغرب صلى ركعتي السنة بعد المغرب يجعل بهما فانها رمضان مع الفريضة يقرأ فيها بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين اكتبوا في صحيفتي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأشهد أن الجنة حق والنار حق والحوض حق

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم.

فليكوننّ لي في الجنة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول لأوتينّ مالا وولدا - فقال الله تعالى ردّا عليه - أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا - روى عن خباب ابن الأرت أنه قال « كان لي طي العاص بن وائل دين جئت أتقاضاه فلم يقض لي قتلتي إني آخذة في الآخرة ، فقال لي إذا صررت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه فأنزل الله تعالى قوله - أفرأيت الذي كفر بآتنا وقال لأوتينّ مالا وولدا (١) » - وقال الله تعالى - ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلي ربي إن لي عنده للحسنى - وهذا كله من الغرور بالله . وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول - فقال تعالى جوابا لقولهم - حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومرة ينظرون إلى المؤمنين ، وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون - أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - ويقولون - لو كان خيرا ما سبقونا إليه - وترتيب القياس الذي نظمته في قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن أفضاى للمستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى هكذا يحسن فيما بقي

وإنما يقيس للمستقبل على لماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول لولائي كريم عند الله وهبوب لما أحسن إلى والتبليس تحت ظنه أن كل محسن محب لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يفض أحدهما ويحب الآخر ، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه السكتب ويعبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من الفواكه وملأه الأطعمة التي تضره ويسقيه الأدوية التي تنفعه والذي يفضيه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل للسكتب ويأكل كل ما يشتهى فيظن هذا العبد المفضل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فانها مملكات ومبعدات من الله فان الله يعمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يعمى أحدكم مريضة من الطعام والشراب وهو يحبه (٢) هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر . وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجبت عقوبته ورأوا ذلك علامة للقت والاهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين . والغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرقت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال - فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمته ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن - فأجاب الله عن ذلك - كلا - أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت فبين أن ذلك غرور . قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا باكرامى ولا هذا بهوانى ولكن الكريم من أكرمه بطاعى غنيا كان أو فقيرا . والمهان من أهنته بمصيق غنيا كان أو فقيرا وهذا الغرور غلاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد . أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات

والشفاعة حسق
والضراط ولليراز
حق ، وأشهد أن
الساعة آتية لا ريب
فيها وأن الله يبعث من
في القبور اللهم أودعك
هذه الشهادة ليوم
حاجتي إليها . اللهم
احطط بها وزري
واغفرها ذنبي ونقل
بها ميزاني وأوجب لي
بها أمانى وتجاوز عني
يا أرحم الراحمين فان
واصل بين العشاءين
في مسجد جماعته
يعكون جامعا بين
الاعتكاف ومواصلة
العشاءين وإن رأى
انصرافه إلى منزله وأن
للمواصلة بين العشاءين

(١) حديث خباب بن الأرت قال كان لي طي العاص بن وائل دين جئت أتقاضاه الحديث في نزول قوله تعالى - أفرأيت الذي كفر بآياتنا - الآية البخارى ومسلم (٢) حديث إن الله يعمى عبده من الدنيا وهو يحبه الحديث الترمذى وحسه والحاكم ومصححه من حديث قتادة بن النعمان .

إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء وشرحه من جملة علوم الكاشفة ولا يلقى بعلم العامة. وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى - أيحسبون أن مانعهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - وقال تعالى - سنستدرجهم من حيث لا يعلمون - وقال تعالى - فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون - وفي تفسير قوله تعالى - سنستدرجهم من حيث لا يعلمون - أنهم كلما أخذوا ذنبا أخذنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى - إنما نلهم ليزدادوا إنما - وقال تعالى - ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار - إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يقتر بأمثال هذه الحيلالات الفاسدة وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا فقال تعالى - هل نحس منهم من أحد - الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال - فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - وقال تعالى - ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون - وقال عز وجل ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - وقال تعالى - إنهم يكيدون كيدا وكيد الله أهمل الكافرين أمهلهم رويدا - فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرامه وكيدا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه فإن يحب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فأذن من آمن مكر الله فهو مفتقر ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك النعم واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يعيل بالقاب إلى ما يوافق الله وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور . المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين بقولهم إن الله كريم وإننا نرجو عفوّه وانكالمهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تنبيهم واعتذارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عظيم وأبى معاصي العباد في بهار رحمته وإننا موحدون ومؤمنون فخرجوه بوسيلة الإيثار وربما كان مستند رجائهم التمسك بسلاح الآباء وعلو رتبتهم كاعتزاز العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خالفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاعتزاز بالله تعالى بقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة وينسى الغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من الفرقين - فقال رب إن ابني من أهلي - فقال تعالى - يأنوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح - وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم على كل عبد مصطفي استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار فجلس يبكي على قبر أمه لرحته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضا اعتزاز بالله تعالى وهذا لأن الله تعالى يحب الطيع ويبغض العاصي فكما أنه لا يفيض الأب للطيع ينفضه للأولاد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

في بيته أسلم لدينه
وأقرب إلى الاخلاص
وأجمع لهم فليعمل .
وسئل رسول الله عليه
السلام عن قوله تعالى
- تتجافى جنوبهم عن
الضامع - فقال هي الصلاة
بين العشاءين وقال
عليه السلام « عليكم
بالصلاة بين العشاءين
فإنها تذهب بلاغة
النهار وتهذب آخره »
ويجعل من الصلاة بين
العشاءين ركعتين
بمسورة البروج
والطارق ثم ركعتين
بعد ركعتين يقرأ في
الأولى عشر آيات من
أول سورة البقرة
والآيتين وإلهكم إله

عجه للأب للطبع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى بغض أيضا بل الحق أن لاتزر وازرة وزر أخرى ، ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى شرب أبيه ويصير طالما بتعلم أبيه ويصل إلى السكبة ويراه يمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس وعند الله جزاء التقوى - يوم يفر الرء من أخيه وأمه وأبيه - إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة كما سبق في كتاب الكبر والعجب . فان قلت فأين الخلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإننا رجور رحمة ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب . فاعلم أن الشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر محدود الباطن ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١) وهذا هو التقى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فبما رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - يعني أن الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى - جزاء بما كانوا يعملون - وقال تعالى - وإنما توفون أجوركم يوم القيامة - أقرى أن من استؤجر على إصلاح أو ان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يعني بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر وزعم أن للمستأجر كريم أقرء العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والقرء قبل للحسن قوم يقولون نرجوا الله وضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك أمانهم يترجعون فيها من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل إننا نرجو الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور فكما أنه إذا نكح ووطى وأزله بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من الله تعالى أن يشبهه بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويعرس قلبه عن الليل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يعيل إلى المعاصي فهو كيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بأفه - وسوف يطون حين يرون العذاب من أهل سيلا - . ولتعلن نبأ بعد حين - وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم - ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون - أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بعمارة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى . كما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير - أي ألم نسلمكم سنة الله في عباده وأنه - توفي كل نفس ما كسبت . وأن - كل نفس بما كسبت رهينة - فما الذي عرکم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم - قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير .

واحد إلى آخر الآيتين وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد وفي الثانية آية الكرسي وآمن الرسول وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ويقرأ في الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر الواقعة ويصلى بعد ذلك ماشاء فان أراد أن يقرأ نسيئامن حزبه في هذا الوقت في الصلاة أو غيرها وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الاخلاص والفاحة ولو اصل بين الصلواتين ركعتين يطيلهما بحسن وفي هاتين الركعتين يطيل القيام

(١) حديث الكيس من دان نفسه تقدم قريبا .

فان قلت فأين مظنة الرجاء وموضعه المأمود . فاعلم أنه محمود في موضعين : أحدهما في حق العاصي
 للتهكم إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فينقطه من رحمة الله تعالى فيجب
 عند هذا أن يجمع القنوط بالرجاء ويتذكر - إن الله يغفر الذنوب جميعا - وأن الله كريم يقبل
 التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تسكف الذنوب قال الله تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على
 أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنبيوا إلى ربكم -
 أمرهم بالإجابة وقال تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - فإذا توقع الغفرة
 مع التوبة فهو راج وإن توقع الغفرة مع الإصرار فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو
 في السوق فخطره أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان إنك لا تدرى الجمعة فأقم على موضعك فكذب
 الشيطان ومرة يدعو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير
 الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.
 الثاني أن تفرق نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعده
 الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى - قد أفلح
 المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون - إلى قوله - أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها
 خالدون - فالرجاء الأول يجمع القنوط للناس من التوبة والرجاء الثاني يجمع القنوط للناس من النشاط
 والتشمر فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتورا في
 العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرّة كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل فيقول له الشيطان
 مالك ولا يذنب نفسك وتمنيها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتري بذلك عن التوبة والعبادة فهو
 غرّة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الحوافر فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول
 إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وإنه مع أنه كريم خلده السكفار في النار أبدا لا يآب
 مع أنه لم يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده
 في الدنيا وهو قادر على إزالتها فمن هدمته في عباده وقد خوّف عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغترّ به
 فالخوف والرجاء قائمان وسائقان يبعثان الناس على العمل فلا يبعث على العمل فهو بمنّ وغرور ورجاء
 كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإقبالهم على
 الآخرة فذلك غرور فقد أخبر عليه السلام وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة (١)
 وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات
 ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار
 في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشهوات والشهوات ويكون على أنفسهم في الخلوات
 وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهما كهم
 في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم وآتقون بكرم الله تعالى وفضلهم راجعون لغفوه ومغفرته
 كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان
 هذا الأمر يدرك بالمخبر وينال بالمخبر فسلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا تحقيق
 هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيارواه معقل بن يسار
 «يأتى على الناس زمان يغلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تغلق الشياطين على الأبدان أمرهم كله يكون

(١) حديث إن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة تقدم في آخر فم الكبير والعجب وهو حديث
 أبي ثعلبة في إيجاب كل ذي رأى برأيه .

تاليا للقرآن حزبه
 أو مكررا آية فيه الدماء
 والتلاوة مثل أن يقرأ
 مكررا - ربنا عليك
 توكلنا وإليك أنبنا
 وإليك المصير - أو آية
 أخرى في معناها
 فيكون جامعا بين
 التلاوة والصلاة والدماء
 ففي ذلك جمع اللهم
 وظفر بالفضل ثم صلى
 قبل العشاء أربعا
 وبعدها ركعتين ثم
 ينصرف إلى منزله
 أو موضع خلوته فيصلى
 أربعا أخرى وقد كان
 رسول الله صلى الله عليه
 وسلم يصلى في بيته أول
 ما يدخل قبل أن يجلس
 أربعا ويقرأ في هذه

طمعاً لا خوف معه إن أحسن أحدهم قال يتقبل مني وإن أساء قال ينفري^(١) فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخوينات القرآن وما فيه وبثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى - غفل من بعدهم خلف ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - ومعناه أنهم ورتوا الكتاب أي هم علماء يأخذون عرض هذا الأدنى أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً وقد قال تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيدوا القرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بمعانيه وهل في العالم غرور يزيد على هذا فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر وهم يتوقعون الغفرة ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل قرى الواحد يتصدق بدرهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضغاث لغول ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين وهو يتكلم عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصديق بشجرة من الحرام أو الحلال وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله، نعم . ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراسهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدذ ويكون نظره إلى عدد سبعته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة وألف مرة وقد كتبه السكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتلهيلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة الغتابين والسكذابين والفسامين والمتناقضين يظهرون من الكلام ما لا يضرهم إلى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كان السكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما كتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته وما نطق به في قراته كان بعده ويعسبه ويوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجره نسخها فيا همما لمن يحاسب نفسه ويحسب خوطاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يهتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها لقد دفعا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من السكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحق المبرورين فهاهنا أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يغشى ويتق ولا يخرجه اسكلاً على أباطيل النى وتعاليل الشيطان والهوى والله أعلم .

(بيان أصناف الغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف)

الصنف الأول : أهل العلم والفترون منهم فرق . ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات واغترتوا بعلمهم وظنوا

(١) حديث معقل بن يسار يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

الأربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من - والسماء والطارق - إلى آخر القرآن ثلثمائة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله وإن أراد قرأ هذا القدر في أقل من هذا العدد من الركعات وإن قرأ من سورة

أنهم عند الله بئكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل في الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة فأما العلم بالمعاملة كعرفة الحلال والحرام وسعرفة أخلاق النفس الذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فثال هذا كمرض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء فيسمى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تحتلب وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أقرى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا هيئات هيئات لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يشفه ذلك من مرضه شيئا إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتيا وجميع شروطه وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا فهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة ومازكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قال تعالى - قد أفلح من زكاهها - ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تركتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يعرفك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض وإنما مطلبك القرب من الله ونوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم فإن كان السكين معتمدا مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل وإن كان كيدسافوة ولوللشيطان أن تذكرني فضائل العلم وتنسيف ماورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى - فمثلته كمثل الكلب - وكقوله تعالى - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا - فأى خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار وقد قال ﷺ «من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا» (١) وقال أيضا «يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى» (٢) وكقوله عليه الصلاة والسلام «شر الناس العلماء السوء» (٣) وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات: أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله وقال ﷺ «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» (٤) فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وماورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما بهواه وذلك عين الغرور فإنه إن نظر بالبصيرة فثاله ما ذكرناه وإن نظر بعين الايمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بدم العلماء السوء وإن حالهم عند الله أشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور وأما الذى يدعى علوم المكاشفة كالمعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده وفروره أشد ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلىه

الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير وإن لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات قل هو الله أحد إلى عشر مرات إلى أكثر ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجيد إلا أن يكون وانقا من نفسه في عاداتها بالانقياء للتهجد فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل. وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وزه ثم يتنفل ما شاء ويوتر في آخر ذلك وإذا كان الوتر من أول

(١) حديث من ازداد علما ولم يزد هدى الحديث تقدم في العلم (٢) حديث يلقي العالم في النار فتندلق أفتابه الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث شر الناس علماء السوء تقدم في العلم (٤) حديث أهد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه تقدم فيه

ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس
 جميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زى وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على
 الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه
 متوسلا إليه بعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته
 فهذا مغرور جدا إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك
 أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه
 لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني إذ لو عرف الله حق معرفته لحشيه واتقاء فلا يتصور
 أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام خفي كاتخاف
 السبع الضاري نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد فمن عرف
 الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله ألاف
 مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع
 ولذلك قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وفاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله وقال
 ابن مسعود كفى بحشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا واستغنى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له
 إن فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت قريبا قط الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا وقال
 مرة الفقيه لا يدارى ولا يحسارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله فاذن
 الفقيه من قعه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به
 خيرا يفقهه في الدين وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من الغرورين. وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل
 فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليحجوا عنها الصفات للغمومة
 عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظر والطلب
 الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحز عنها ولا
 يلتفت إلى قوله ﷺ « أدنى الرياء شرك (١) » وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال
 ذرة من كبر (٢) » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كأنما كل النار الحطب (٣) » وإلى
 قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل (٤) » إلى غير ذلك
 من الأخبار التي أو ردتها في جميع ربيع المهاركات في الأخلاق المذمومة فهو لا زينو اظواهرهم وأهملوا
 بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى
 قلوبكم وأعمالكم (٥) » فتعمدوا الأعمال وما تعبدوا القلوب والقاب هو الأصل إذ لا ينبجوا إلا من آتى الله
 بقلب سليم ومثال هؤلاء كثير الحش ظاهرها جص وباطنها نزن أو كقبور الوتنى ظاهرها مزين وباطنها
 جيفة أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم أو كرجل قصد الملك
 ضيافته إلى داره فحصى باب داره وترك الزايل في صدر داره ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال إليه
 رجل زرع زراعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز
 ردوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فنبت لأن مفارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن

الليل يصلى بعد الور
 ركعتين جالسا يقرأ
 فيها إذا زلزلت
 وألهاكم وقيل فعل
 الركعتين قاعدا بمنزلة
 الركعة قائما يشفع له
 الور حتى إذا أراد
 التهجيد يأتي به ويوتر
 في آخر تهجده ونية
 هاتين الركعتين نية
 النفل لا غير ذلك
 وكثيرا ما رأيت الناس
 يتفاوضون في كيفية
 نيتها وإن قرأ في كل
 ليلة المسبحات وأضاف
 إليها سورة الأهل
 قصير ستا فقد كان
 العلماء يقرءون هذه
 السور ويترقبون
 بركتها فإذا استيقظ

(١) حديث أدنى الرياء شرك تقدم في ذم الجاه والرياء (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه
 مثقال ذرة من كبر تقدم غير مرة (٣) حديث الحسد يأكل الحسنات الحديث تقدم في العلم وغيره
 (٤) حديث حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب الحديث تقدم (٥) حديث إن الله لا ينظر
 إلى صوركم الحديث تقدم.

لا يظهر القلب منها لانتم له الطاعات الظاهرة لإماع الآفات الكثيرة بل هو كريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه فقتع بالطلاء وترك الدواء وبقي يتناول ما يزيد في المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن. وفرقة أخرى : علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفسكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ في العلم فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ثم إذا ظهر عليهم غايل الكبر والرياسة وطلب المال والشرف قالوا ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين وإنى لولبت الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لسمت في أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلي ذلا على الإسلام ونسى الغرور أن عدوه الذي حذر منه مولا هو الشيطان وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاعة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره ثم هذا الغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والابريسم المحرم والخيل والراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين وكذلك هما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال إنما هذا غضب للحق ورد على البطل في عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد أنه لوطن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوجم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا ينضب مهما طعن في عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه وهكذا يرأى بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيئات وإنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ولا يتأمل الغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يغليه الشيطان أيضا ويقول إنما ذلك لأنهم إذا هتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي فأنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الاظهار وحسب مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيئات إنما ذلك عند الطمع في مالهم فأما أنت فدرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطمع فيه والكذب عليه لفل وكذلك قد يتهى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مال له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين أفلا تعلم أن تأخذ قدر حاجتك فيقر بهذا التلبس في ثلاثة أمور : أحدها في أنه مال لا مال له فانه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء وغاية الأمر وقوع الخلط

من النوم لمن أحسن
الأدب عند الاتقاء
أن يذهب يباطنه إلى
الله ويصرف فكره
إلى أمر الله قبل أن
يجول الفكر في شيء
سوى الله ويشغل
اللسان بالذكر فالصديق
كالطفل الكلف بالشيء
إذا نام ينام على جهة
الشيء وإذا انتبه
يطلب ذلك الشيء
الذي كان كلف به على
حسب هذا الكلف
والشغل يكون اللوث
والقيام إلى الخير
فلينظر وليعتبر عند
انتباهه من النوم ما هو
فانه هكذا يكون عند
القيام من القبر إن

في أموالهم ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام ولا يقال هو مال لأملاك له ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر الثاني في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ، ولعل الدين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الدين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لإمام الدين إذا الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف . والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب للماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار للآخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير ، وفرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر الماصي وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبرى منها وقلعوا من القلوب منابتها الجليلة القوية ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس مادي وغمض مدركه فلم يفتنوا لها وأهلوها وإعما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وقتش عن كل حشيش رآه فقلعه إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز وكان قد ثبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهلها وهو يظن أنه قد اقتلعها فإذا هو بها في غفلته وقد بنت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين الفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعته الحق هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة إليه من الآفاق وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والابراء والتلذذ بتعريك الرؤوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين والسرور بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتسكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة للقبليين على الدنيا لا عن تنجيع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص ولعل هذا للسكينة القروية حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز واتقياء وتوقير وحسن ثناء فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ففساد يتشوش عليه قلبه وتختلط أوراذه ووظائفه وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيه وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبؤ قلبه ممن عرف حقه فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثر لتقدمه في الفضل والورع وإعسا ذلك لأنه أطوع له وأبجع لمراهه وأكثر ثناء عليه وأشد إعفاء إليه وأحرص على خدمته ولعلمهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لا خلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ويرى أن ذلك مكفر للذنوب ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره المحول

كان همه الله فهمه هو وإلا فهمه غير الله والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حق لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ويكون قادرا إلى ربه يباطنه خوفا من ذكر الأغيار ومهسا وفي الباطن بهذا للعباد قد اتقى طريق الأنوار وطرق النفحات الإلهية فجدبر أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موقلا ومآبا ويقول

والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولا اختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع من فبجعله وقع في حبائل وغسائه يصنف ويجهل فيه ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدح تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو الصنف لا من ادعاه ولعله في تصنيفه لا يغلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعوى الطويلة العريضة وإما ضمنا بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان في غيبة عن الطعن فيه ، ولعله يعكس من الكلام المزيف ما يزيد تزيفه فيعزبه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزبه إليه ليقظ أنه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قريبا فيتخذ قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يجهل في تزيين ألفاظه وتسجيعة وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركافة ويرى أن غرضه ترويح الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس وعساة غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض ثقافا وإني لأقبل من ثقافك شيئا ولعل جماعة من هذا الصنف من المقربين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افرقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعا أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ثم إذا افرقوا واشتغلوا بالأفادة تعابروا وتهايدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أوقع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتمثل بالظن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول وإنما غضبت لدين الله لأنفسى ، ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه يظهر أنه كاره بعينه المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك ، فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفتن له إلا الأكياس ولا يتزده عنه إلا الأقوياء ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوء ذلك ويكرهه ويحصر على إصلاحه فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءت سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من الغرور الزكي لنفسه للمتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه فتعوذ بآية من الغفلة والاعتذار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال ، هذا غرور الدين حصول العلوم الهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم ، ولندكر الآن غرور الدين فتعوا من العلوم بحالهم مهمهم وتركوا المهم وهم به مفترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه ، فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرصوا اللسان عن الفية ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن الشئ إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يحرصوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فتؤلا مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم. أما العمل فقد ذكرنا وجه الضرر فيه وأن مثاله

باللسان الحمد لله الذي
أحيانا بعد ما أمانا
وإليه النشور ويقرأ
المشر الأواخر من
سورة آل عمران ثم
يقصد الماء الطهور
قال الله تعالى - وبزل
عليكم من السماء ماء
ليطهركم به - وقال
عز وجل - أنزل من
السماء ماء فسال
أودية بقدرها - قال
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما الماء
القرآن والأودية
القلوب فسالت
بقدرها واحتملت
ما وسعت والماء مطهر
والقرآن مطهر والقرآن
بالتطهير أجدر فالماء

مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لأبل مثلهم مثال من به علة البواسير
والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واسعة، باله اشتغل بتعلم دواء الاستحاضة بتكرار
ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يحض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة
لامرأة وتساألني عن ذلك وذلك غاية الغرور فكذلك المنفعة للسكين قد يسقط عليه حب الدنيا واتباع
الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة وربما يخطئه الموت قبل التوبة والتلافي
فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار والعان والجراحات
والديات والدعاوى والبيئات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه وإذا
احتاج غيره كان في الفتنة كثرة فيشتغل بذلك ويعرض عليه لما فيه من الجاه والرياسة والسال وقد
دهاه الشيطان وما يشعر إذ يظن للفرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال
بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية، هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد
بالفقه وجه الله تعالى فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه
فهذا غروره من حيث العمل، وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم
الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال إنهم ثقلة
أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بأدراك جلاله
وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهبة والخشوع ويحمل على التقوى قرآنا آمننا من الله فمترابه
متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوام دينه وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام وقد ترك
العلوم التي هي أم وهو غافل مغرور وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه ولم يدرك ذلك
الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والرجوة ليستشمر القلب الخوف ويلزم التقوى إذ قال تعالى
- فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون -
والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشرط المعاملات وحفظ
الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات والمال في طريق الله وآله والبدن مكره وإنما العلم المهم هو
معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى
وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من
سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه
ليس من الحج في شيء ولا بسبيله وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم
الفقه على الخلافات ولم يهجم إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة
فهو طول الليل والنهار في التفنيس عن مناقضات آراء المذاهب والنفقة لم يوب الأقران والتائق لأنواع
التبسيات المؤذية وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الأيذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم
لمباهات الأقران فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو
الصفات المذمومة وتبديلها بالهمومة فانهم يستحقرونه ويسمونونه التزويق وكلام الوعاظ وإنما التحقيق
عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الدين
من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق
الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتغل عليها علم المذهب وهو كتاب الله
وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما وأما حيل الجدل من السكرو والقلب وفساد الوضع
والتركيب والتدعية فانما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها فزور هؤلاء أعد

يقوم غيره مقامه
والقرآن والعلم لا يقوم
غيرها مقامهما ولا يسد
مسدهما فالمداء الظهور
يطهر الظاهر والعلم
والقرآن يطهران
الباطن ويذهبان
رجز الشيطان فالنوم
غفلة وهو من آثار
الطبع وجدير أن
يكون من رجز
الشيطان لما فيه من
النفقة عن الله تعالى
وذلك أن الله تعالى أمر
بقبض القبضة من
التراب من وجه
الأرض فكانت القبضة
جهة الأرض والجلدة
ظاهرها بشرة وباطنها
أدمة قال الله تعالى

كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم . وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على
الخالقين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة القالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة
أولئك وإحاطهم واقتروا في ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لبعد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان
إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموا أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وأنه لا إيمان لمن لم
يستقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها ثم هم فرقتان ضالقة ومحققة فالضالقة هي التي
تدعو إلى غير السنة والحقة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل للجميع . أما الضالقة فلنظمتها عن
ضلالها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بمضا وإعما أتيت من حيث إنما لم تنهم
رأيها ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقة
الحقة فأنما اغترارها من حيث إنما ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت
أنه لا يتم لأحد دينه مالم يفحص ويبحث وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل
فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله فهذا الظن القاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل
والبحت عن القالات وهذيانات المتدعة ومناقضاتهم وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم
وخطاياهم الظاهرة والباطنة وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ولكنه
لا تدافه بالظلمة والإلغام ولقد الرياسة وعز الانتماء إلى الدب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم
يلتفت إلى القرن الأول فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق وأنهم قد أدركوا كثيرا
من أهل البدع والهموى لما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد
قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم بل لم يتسكّموا فيه إلا أن حيث رأوا حاجة وتوسموا تخالفا لغيرهم فذكروا
بجدر الحاجة ما يبدل الضال على ضلاله وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في
الله ولم يلزموا للملاحاة معه طول العمر بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل
في الدعوة إلى السنة إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما ضل قوم قط بعد
هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل (١)» وخرج رسول الله ﷺ يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون
فغضب عليهم حتى كأنه فقي في وجهه حب الرمان (٢) حرمة من الغضب فقال: «ألهذا بعثتم أهبدا أمرتم
أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتهم عنه فاتهم» فقد زجرهم
عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى
كافة أهل اللل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام لما
جادلهم إلا بتلاوة القرآن للزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها
الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان يجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق
الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا بهذا وقالوا لو نجما
أهل الأرض وهلكنا لم تنفنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس علينا في المجادلة
أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل اللل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا
نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفضا في يوم قمرنا وفاقتنا ولم نخوض فيها لا نأمن على أنفسنا الخطأ في
تفاصيله ثم نرى أن للبتدع ليس يترك بدعته بمجذله بل يزيده التعصب والخصومة تشددا في بدعته
فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للأخرة أولى هذا لو كنت لم أنه عن الجدل

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل تقدم في العلم وفي آفات اللسان (٢) حديث
خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقي في وجهه حب الرمان الحديث تقدم.

- إن خالق بشر من
طين - فالبشرة والبشر
عبارة عن ظاهره
وصورته والأدمة عبارة
عن باطنه وآدميته
والآدمية مجمع الأخلاق
الحسنة وكان التراب
موطن أقدم إبليس
ومن ذلك اكتسب
ظلمة وصارت تلك
الظلمة مصبوبة في طينة
الآدمي . ومنها الصفات
للذمومة والأخلاق
الرديئة . ومنها الظلمة
والسوء فإذا استعمل
الماء وقرأ القرآن آتى
بالمطهرين جميعا ويذهب
عنه رجز الشيطان
وأثر وطأته وبعمقه
بالعلم والخروج من

والخصومة فكيف وقد نهيت عنه وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما ينفذه الله تعالى وما يحبه لأتزره عما ينفذه وأتسك بما يحبه . وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلام رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائرهم من مبرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موسوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام السليين وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبجحوا في علم الهبة إلا وهم محبوبون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم محاصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها مزهونون ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى التقرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله فالسكينة بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ويرى أنه من الراجين وهو من الفتيرين الضمين ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ويرى أنه من التوكلين على الله وهو من المتسكين على العز والجاه والسال والأسباب ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ويصف الرياء ويذكره وهو يرأى بذكره ليعتقديه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ويدم الصفات للذمومة وهو بها متصف ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت وزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ولو أثنى أحد من التردددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه فهو لأعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد لأن للرجب في الأخلاق الممودة والنفر عن الذمومة هو العلم بفوائدها وفوائدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغلته حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات الممودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدعى مثلاً حب الله لما الذي تركه من محاب نفسه لأجله ويدعى الخوف لما الذي امتنع منه بالخوف ويدعى الزهد لما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ويدعى الأنس بالله فتمت طابت له الخلوة ومضى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالخلوة إذا أحرق به المريدون وراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبة ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطلبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزيق بل يموثق من الله غليظ والمفترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف العطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق أفتابهم فيدور بها أحدم كابدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأسرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور هؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفضله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لا صافهم بها وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة

حيز الجهل فاستعمال الطهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب بإزاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي الذي له تأثير في تكدير القلب فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة في الصلاة حيث رآها حكما طيعا جالبالا ثم والإثم رجز من الشيطان والماء يذهب رجز الشيطان حتى كان بعضهم يتوضأ من الفية والكذب وعند الغضب لظهور

فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل ربما زاد أمته
وقلّ خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى ، وإنما مثاله مثال مريض يصف
للرض ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء وغيره من الرضى لا يقدر على وصف الصحة
والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه فهو لا يفارقهم في صفة الرضى والاتصاف به وإنما يفارقه في الوصف
والعلم بالعلب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه يصبح غاية الجمل فكذلك العلم بالخوف والحب
والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بمقتضاها ، ومن التبس عليه وصف الحقائق
بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظم منهاج
وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم . وفرقة أخرى . منهم عدلوا
عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله على الندور في بعض
أطراف البلاد إن كان ولنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والسطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع
والعقل طلبا للإغراب ، وطائفة شغلوا بطارات النسك وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم
بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات والتواجدلو
على أغراض فاسدة فهو لأ شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل فإن الأولين وإن لم يصلحوا
أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم ومصححوا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله
ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا
لأسيب إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والحيل والمراكب فانه تشهد هيئته من فرقة إلى قدمه بشدة
حرصه على الدنيا لما يفسده هذا الغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا
يغني وجه كونه مغرورا . وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم
يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على اللابر ،
وبعضهم في الحاربي ، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر
عن السوق والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا
له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل
الدين يكفي ، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم . وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم
الحديث أعنى في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الثرية العالية فهمة أحدهم أن
يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى من الاستناد ليس
مع غيرة ، وغرورهم من وجوه : منها أنهم كحكمة الأسفار فانهم لا يعرفون العناية إلى فهم معاني
السنة فليسهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها
لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين
وهو معرفة علاج القلب ويشغلون بتكثير الأسانيد وطلب المعالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك .
ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرد وإن
لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد
التفهم فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع
ثم تركوا حقيقة السماع فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب
ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدى لسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يفتل ولا يسمع
ولا يفتي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ والشيخ الذي يقرأ عليه لو هف وغير ما يقرأ عليه

النفس وتصرف
الشیطان في هذه
الواطن ، ولو أن
التحفظ السراعى
المراقب المحاسب كلما
انطلقت النفس في مباح
من كلام أو ما كنة
إلى مخالطة الناس أو
غير ذلك مما هو بعرضه
تحليل عقد العزيمة
كالجوش فيما لا يفي
قولا وفلا عقب ذلك
بتجديد الوضوء ثبت
القلب على طهارته
وتزاهته ولما كان
الوضوء لصفاء البصيرة
بنهاية الجفن الذى
لا يزال بخفة حركته
يجلو البصر وما يعقلها
إلا العالمون - فتفكر

لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فإن هجرت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن تصنى لتسمع تحفظ وتروى كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً ولو غير غيرك منه حرفاً أو خطأ علمت خطأه وحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستدعيه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجارى الأحوال . والثاني أن تكتب كما تسمع وتصحح للكتاب وتحفظه حتى لا يصل إليه يد من يغيره ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فانه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره فإذا لم تحفظه لم تستمر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمين فيه من التغيير والتحريف ، فإذا لم تحفظ بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيراً أو غارقاً حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجر لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة ، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوتقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك وقد قال الله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقول الشيخوخ كاهم في هذا الزمان إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ، ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والتافل والثامم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في اللمد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فان كان لا يكتب سماع الصبي في اللمد لأنه لا يفهم ولا يحفظ . فالصبي الذي يلعب والتافل والشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وإن استجراً جاهل فقال يكتب سماع الصبي في اللمد فليكتب سماع الجنين في البطن فان فرقى بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت لما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول سمعت بـمد بلوغى آتى في صباى حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع معنى صوته ولا أدري ماهو فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في اللمد وذلك غاية الجهل ، ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها»^(١) وكيف يؤدى كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أخص أنواع الغرور وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يهدوا شيواً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة إلا أن للمحدثين في ذلك جاهها وقبولاً غافقاً للساكنين أن يشترطوا ذلك فيقول من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدوها ذلك واقتضوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه مدممة وإن كان لا يدري ما يجرى ، وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم

(١) حديث نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها الحديث أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد ابن ثابت والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس .

فيما نهيك عليه تجد
بركه وآثره ، ولو
اغتسل عند هـنـه
للتجديدات والموارض
والانتباه من النوم
لكان أزيد في تنوير
قلبه ولكان الأجدر
أن الصبي يقتل لكل
فريضة بأذلا مجهوده
في الاستعداد للمناجاة
لله ويحسد غسل
الباطن بصدق الإنابة
وقد قال الله تعالى
- منيبين إليه واتقوه
وأقيموا الصلاة -
قدم الإنابة للدخول
في الصلاة ولكن من
رحمة الله تعالى وحكم
الحيفية السهلة السمعة
أن رفع الحرج وعوض

علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانین أصول الفقه فهذا عرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلامه المرء تركه ما لا يعنيه ^(١) » فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره ، فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور . وفرقة أخرى : اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغترتوا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة إذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثلهم كمن يفتي جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعلم أنه يكفي أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والضيع عمره في معرفة لغة العرب كالضيع له في معرفة لغة الترك والهند وإنما فارتقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الفريين في الأحاديث والكتاب ومن النحو ما يتعاق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنهاى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات ومن احتاج إلى أن يشرب السكجيين لبزول ما به من الصفراء وضيع أوقاته في تحسين القدر الذي يشرب فيه السكجيين فهو من الجهال الغرورين فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تهمة فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فالألب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالتشر للعمل وكاللب بالاضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الاضافة إلى المعرفة ولب بالاضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الألب العلم بمخارج الحروف والقانون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يخرج عليها إلا بقدر حاجته فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالاضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يستند أصحابها أنهم يتألون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن الممدود منه ليعنه هو المنتهى والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به . وفرقة أخرى : عظم غرورهم

(١) من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسل وقد تقدم .

بالوضوء عن الغسل
وجواز أداء مفترقات
بوضوء واحد دفعا
للحرج عن عامة الأمة
وللخواص وأهمل
العزبة مطالبات من
بواطنهم تحكم عليهم
بالأولى وتلجئهم إلى
سلوك طريق الأعلى
فإذا قام إلى الصلاة وأراد
استفتاح التهجيد يقول
الله أكبر كبيرا والحمد لله
كثيرا وسبحان الله
بكرة وأصيلا ويقول
سبحان الله والحمد لله
الكلحات . عشر مرات
ويقول الله أكبر
ذو الملك والملكوت
والجبروت والكبرياء
والعظمة والجلال

في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ للبهمة واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم السكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة : فمن ذلك فتوهم بأن للزوجة حق أبرأت من الصداق برمي الزوج بينه وبين الله تعالى وذلك خطأ بل الزوج قد يسره إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتخلص منه فهو إبراء لاطى طيبة نفس وقد قال تعالى - فإن طعن لكم عن شيء منه نفسا فستكونه هنثا مريثا - وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الإنسان بقلبه مالا تطيب به نفسه فانه يريد الحجابة بقلبه ولكن تكرهها نفسه وإنما طيبة النفس أن تسمح بنفسها بالإبراء لاعن ضرورة تقابلها حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها فهذه مصادرة على التحقيق باكرام الباطن نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض فينظر إلى الإبراء الظاهر وإنما لم تكره بسبب ظاهر والاكرام الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الإبراء ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه فلو طلب من الإنسان مالا لملا من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف أن مذمة الناس وخاف أن تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الأئين وهو ألم التسليم فسلمه فلافرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلاء البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب يبدل للمال فيختار أهون الأئين والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر وإنما حاكم الدنيا هذا الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك من يعطى انقاء لشر لسانه أو لشر سماعته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له يارب كيف لي بخصمي فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر ببدنه في صخرة بيت المقدس فنادى يا أوربا فأجابه لييك يا بني الله أخرجه من الجنة لماذا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك في أمر فبه لي قال قد فعلت ذلك يا بني الله فالنصف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل لك كرت له ما فعلت ؟ قال لا قال فارجع فبين له فرجع فناداه فقال لييك يا بني الله فقال إني أذنبت إليك ذنبا قال ألم أهبك لك قال ألا تسألني ما ذلك الذنب قال ما هو يا بني الله ؟ قال كذا وكذا وذكر هأن للزوجة فاقطع الجواب ، فقال يا أوربا ألا تهيبني قال يا بني الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى أقف معك بين يدي الله فاستقبل داود اليكاه والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوبه منه في الآخرة ، فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرها إلا إذا خلى الإنسان واختاره حتى تمتنع الدواهي من ذات نفسه لأن يضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والالزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وانها بماله لا إسقاط الزكاة فالنقبة يقول سقطت الزكاة فان أراد به أن مطالبة السلطان والمبايع سقطت عنه فقد صدق فان مطمئع نظرم ظاهر الملك وقد زال وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته إلى البيع لاطى هسلما القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة فان سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم

والقدرة اللهم لك الحمد
أنت نور السموات
والأرض ولك الحمد
أنت بهاء السموات
والأرض ولك الحمد
أنت قيوم السموات
والأرض ولك الحمد
أنت رب السموات
والأرض ومن فيهن
ومن عطين أنت الحق
وملك الحق ولقاؤك
حق والجنة حق والنار
حق والنيبون حق
ومحمد عليه السلام حق
اللهم لك أسلمت وبك
آمنت وعليك توكلت
وبك خاسمت وإليك
حاكمت فاغفر لي ما قدمت
وما أخرت وما أسررت
وما أعلنت أنت للنعيم

«ثلاث مهلكات شح مطاع^(١)» وإتباع شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وجهه المال وحرصه عليه وأنه بلغ من حرصه على المال أن استبسط الحبل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك إباحة الله مال الصالح للفقير وغيره بقدر الحاجة والفقهاء للغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والكسوات وبين الحاجات بل كل ما لا يتم رعوتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة المباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد الاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ولودهننا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لأننا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول . الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ومنهم في الحج ومنهم في الغزو ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم . فمنهم فرقة : أهلوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بظهارته في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قربة في التجاسة وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القربة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توصى عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال التجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام ثم من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صب الماء وذلك منهى عنه^(٢) وقد يطول الأمر حتى يضيق الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاتته من فضيلة أول الوقت وإن لم يفته فهو مغرور لاسرافه في الماء وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فبالله مندوحة عنه إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سني ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيصد بهم عن الله بمثل ذلك . وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعتقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويفترون بذلك ويظنون أنهم إذا اتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عنسدر بهم . وفرقة أخرى : تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من عجزها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمله غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهى عن الاسراف في الوضوء الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب إن للوضوء شيطانا يقال له الوهسان الحديث وتقدم في عجائب القلب .

وأنت المؤخر لا إله إلا
أنت اللهم آت نفسي
تقواها وزكها أنت خير
من زكها أنت وليها
ومولاها اللهم اهدني
لأحسن الأخلاق
لا يهدي لأحسنها إلا
أنت واصرف عني سيئها
لا يصرف عني سيئها إلا
أنت أسألك مسألة
البائس المسكين
وأدعوك دعاء الفقير
الذليل فلا تجعلني
بدعائك رب شقيا
وكن بي رءوفا رحما
يا خبير المستولين
ويا أكرم المعطين ثم
يصل ركعتين تهبة
الطهارة يقرأ في
الأولى بعد الفاتحة

ومثال هؤلاء مثل من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤذيها على وجهها فأخذ يؤذي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس لما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويعلم عليه بقدر العقل. وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرآن فيبدونه هذا وربما يغمثونه في اليوم والليل مرة واحدة يجرى به وقلبه يتردد في أودية الأمانى إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجه ويتعظ بعظمته ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن أن القصد من إنزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه. ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمر به مولاه إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ومهما ظن أن ذلك هو الراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لعمائه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذبه ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته ولوردد ألفاظه بشعر أو كلام آخر لا لئذ به ذلك إلا لئذ به فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته. وفرقة أخرى : اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيحمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور . وفرقة أخرى : اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن اللظام وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد للحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويمجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكسب الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحذرون في الطريق من الرقت والحصام وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيحصى الله تعالى في كسب الحرام وأولاه في إنفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور . وفرقة أخرى : أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكرًا ورد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر على وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ولو قام بتعهد السجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حق وزوجت على مرتبتي وكذلك قد يتفقد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام للمسجد فلا تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه . وفرقة أخرى : جاؤوا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يظهروا ظاهرهم وباطنهم قلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك وتراه يتعدى ويقول قد جاورت بمكة كذا كذا سنة وإذا سمع أن ذلك فيسبح تروك صريح التعدي وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد يهاور ويمدعين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة تصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل

- ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم - الآية وفي الثانية - ومن يحمل سوا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يحمد الله غفورا رحبا - ويستغفر بعد الركعتين مرات ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد يقرأ فيها بآية الكرسي وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ثم يصلي ركعتين طويلتين هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتجدد هكذا ثم يصلي ركعتين طويلتين أقصر من الأولتين وهكذا يتدرج إلى أن

والطمع وجلة من المهلكات كان عنها بعزل لو ترك المجاورة ولكن حب الهمة وأن يقال إنه من المجاورين أئمه المجاورة مع الضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتهما واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج من كتاب الحج والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وإعنا الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب . وفرقة أخرى زهدت في المال وقتعت من اللباس والطعام بالدون ومن السكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمور وباء بأعظم المهلكين فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدرك أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خباثات الأخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلو والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويغشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجول نفسه أكثر مما يرجو لهم ويجب عمله ويتصف بجملة من خباثات القلوب وهو لا يدري وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ولو قيل له إنه حلال فخذ في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من الأدب أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فرميا لا يغلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والليل إلى المريدين له والثنين عليه والفرقة عن السائلين إلى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويغتم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقد تطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة حسناته وهيئات وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يغلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشوته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن أن تركية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدري أن ذلك لجمل الناس بخباث باطنه . وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه « ما تقرب المتقربون إلىي بمثل أداء ما افترضت عليهم » (١) وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يمتنع على الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلا أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصي فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض على النوافل وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قاربه غيره وتقديم الأهم (١) حديث ما تقرب للمتقربون إلىي بمثل أداء ما افترضت عليهم ، البخارى من حديث أبي هريرة بانظ ما تقرب إلى عبدى .

يصلى اثنتى عشرة ركعة
أو ثمان ركعات أو يزيد
على ذلك فإن في ذلك
فضلا كثيرا والله أعلم .
[الباب الثامن
والأربعون في تقسيم
قيام الليل]
قال الله تعالى - والذين
يبيتون لربهم سجدا
وقياما - وقيل في تفسير
قوله تعالى - فلا تعلم نفس
ما أخفى لهم من قرة
أعين جزاء عما كانوا
يعملون - كان عملهم
قيام الليل وقيل في
تفسير قوله تعالى
- استعينوا بالصبر
والصلاة - استعينوا
بصلاة الليل على مجاهدة
النفس ومصاربة العدو

من فروض الأعيان على مادونه وتقديم ما يفوت على مالا يفوت وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلا له : من أبر يارسول الله . قال أمك ثم من قل أمك . قال ثم من قال أمك . قال ثم من قال أبك . قال ثم من . قال أدناك فأدناك »^(١) فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأحوج فإن استويا فبالأقرب والأورع وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فرعما يحج وهو مغرور بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج وهذا من تقديم فرض أم على فرض هو دونه وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة نفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد ممصية وإن كان هو طاعة في نفسه ، وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغسل القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإبذاؤها محذور . والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور ، وهذا غرور في غاية الغموض لأن الغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة ممصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها ومن جملة الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والعماسي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه ، فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة البهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعنى عليه حتى يفتر به مع نفسه ويظن أنه مشغول بهم دينه . الصنف الثالث التصوفة وما أغلب الغرور عليهم ولغفوتهم منهم فرق كثيرة . ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزنى والهيثة والنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيههم وهيتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمفسكر وفي تنفس الصمداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشائيل والهيئات فلما تسكفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يعوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على التقير والقطمير ويحرق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة هجوز سمعت أن الشجمان والأبطال من القاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درما ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الأبطال أياتا وتعودت إيراد تلك الأيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في اللبدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلقفت جميع شأنهم في الزى والنطق والحركات والسكنات ثم توجهت إلى المعسكر لثبت اسمها في ديوان الشجمان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تبهرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجمان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي هجوزة ضيفة زمنة لا تطبق حمل الدرع والمغفر ؟ قليل لها أجت للاستنزاء بالملك وللإستخفاف بأهل حضرته والتلبس عليهم

وفي الخبر « عليكم قيام الليل فإنه مرضة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنها عن الأئمة وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطرودة للداء عن الجسد . وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله حتى تقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء . منهم سعيد بن المسيب وقضيل بن عياض . وهيب بن الورد . وأبو سليمان الداراني . وطى بن بكار . وحبيب العجمي . وكهمس ابن التها . وأبو حازم . ومحمد بن المسكدر . وأبو حنيفة رحمه الله

(١) حديث من أبر قال أمك الحديث الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم في آداب الصعبة .

خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل فمكذبا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم النطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزى والرقع بل إلى سر القلب. وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاعة الثياب والرضا بالدون فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا الرقعات النفيسة والقوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب وهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ونسى أنهم إنما لو نوا الثياب ثلاثا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا الرقعات إذ كانت ثيابهم مخزقة فكانوا يرفعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع القوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة الرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهو هؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين فانهم يتمتعون بنفس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغب العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدى بهم ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم وكل ذلك من شؤم التشبهين وشرهم . وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسماء والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهو ينظر إلى الفقهاء والفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكنه ويلازمهم أياما معدودة ويلتقف منهم تلك الكلمات الزيفة فيردددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ويستحق بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفقار المناقذين ، وعند أرباب القلوب من الحق الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه . وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي . وبعضهم يقول : قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كفوا ما لا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب . وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ، ولا يعلم الأحق أن الناس لم يكفوا قلع الشهوة والغضب من أصلها بل إنما كفوا قلع مادتهما بحيث يتقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وتلوينا والهة بحب الله وواصله إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا ييكون عليها وينوحون سنين متواليه وأصناف غرور أهل الإباحة من التشبهين بالصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على أغاليط وسواس يخدعهم الشيطان بهالشته لهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم بطول.

تعالى وغيرهم عددهم
وسماهم بأنسابهم
الشيخ أبو طالب الكي
في كتابه قوت القلوب
فمن عجز عن ذلك
يستحب له قيام ثلثه أو
ثلاثة . وأقل الاستحباب
سدس الليل فإما أن
ينام ثلث الليل الأول
ويقوم نصفه وينام
سدسه الآخر أو ينام
النصف الأول ويقوم
ثلاثة أو ينام السدس .
روى أن داود عليه
السلام قال يارب إني
أحب أن أتعبك فأني
وقت أقوم فأوحى الله
تعالى إليه : يا داود
لا تقم أول الليل ولا
آخره فإنه من قام أوله
نام آخره ومن قام آخره
نام أوله ولكن قم
وسط الليل حتى

وفرقة أخرى : جاوزت حد هؤلاء واجتذبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتنا ، فهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه والله بالله ولله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إظهار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصح دعوى التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه لفافهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لاهل الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به ومامن مقام من المقامات النجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع النجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها ، وفرقة أخرى : ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخاص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الحصلة الواحدة ، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه إلا انتقد جميع الطاعات والمعاصي ، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور . وفرقة أخرى : ادعوا حسن الخلق والتواضع والسباحة قصدوا الخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتسكفوا بخدشهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وإعما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الارتفاع وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لشكر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والافتقار وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والافتقار منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لارادة الخير كن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة . وفرقة أخرى : اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتنا فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالفات إلى كونه عيبا عيب ويشنفون فيه بكلمات مسائلة تضيع الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج لذلك لا يفتيه . وفرقة أخرى : جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤا سلوك الطريق وافتتح لهم أبواب المعرفة فكما تشمعو من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرابها فتقيدت قلوبهم بالالفات إليها والتفكير فيها وفي كيفية افتتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب مبدئه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر إليها ويتمتع حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك . وفرقة أخرى : جاوزوا هؤلاء ولم ياتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في

تخلو وأخلو بك وارفع إلى حوائجك ويكون القيام بين نومتين وإلا يغالب النفس من أول الليل ويتفعل فإذا غلبه النوم ينام فإذا انتبه يتوضأ فيكون له قسومتان ونومتان ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول ، وقد ورد « لا تكبدوا الليل » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعلق بجبل قنبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال « ليصل أحدكم من الليل ما تيسر

الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يرجعوا على الفرح بها والالذات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقوا وغلطوا فان الله تعالى سميع حجاب من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل ، وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخبارا عنه - فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي - وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا والجهال يظنون أن الكوكب ليس بآله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يفره الكوكب الذي لا يفر السوادية ، ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ولا تصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأضغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى - وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى إليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانعطاط عن ذروة الكمال قال لأحب الآفلين - . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - وسالك هذه الطريق قد يفتقر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يفتقر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فانه أيضا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى : أعنى سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالسائر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائت ما يدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول أنا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يترأى في المرأة بالمرأة فيظن أنه لون المرأة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل :

رقى الزجاج ورقت الحمر فتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلاأفيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيحديه إليه ليأخذه وهو مغرور وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم الكاشفة وذلك مما لا رخصة في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله الزخرف ويصدق أيضا بما يحكي له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله من عظم غروره ربما أصرم كذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل . الصنف الرابع : أرباب الأموال والمفترين منهم فرق

فاذا غلبه النوم فليمن
وقال عليه السلام :
« لاتشادوا هذا الدين
فانه متين لمن يشاهه
يغلبه » ولا تبغضن إلى
نفسك عبادة الله
ولا يلق بالطالب ولا
ينبغي له أن يطلع الفجر
وهو نائم إلا أن يكون
قد سبق له في الليل
قيام طويل فيمذر في
ذلك على أنه إذا استيقظ
قبل الفجر بساعة مع
قيام قليل سبق في
الليل يكون أفضل
من قيام طويل ثم
النوم إلى بعد طلوع
الفجر فاذا استيقظ
قبل الفجر يكثر
الاستغفار والتسبيح
ويغتنم تلك الساعة وكما
يصل بالليل يجلس
قليلًا بعد كل ركعتين

فرقة منهم : يعمدون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالأجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين : أحدهما أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المخطورة فهم قد تعرضوا لخط الله في كسبها وتعرضوا لخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فاذن قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برد بدلها عند المعز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أم المصالح وربما يكون الأثم التفرقة على الساكنين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالأجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسماهم المكتوبة فيها لبقاء الخير . والوجه الثاني أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإيفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الوضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتر إلى ذلك . وفرقة أخرى : ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين : أحدهما الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره أو بلده قراء وصرف المال إليهم أم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس . والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومغتنقة أبصارهم (١) والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يفت به ويرى أنه من الخيرات وبعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى وهو مع ذلك قد تعرض لخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له ويمتثل لأمره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا فيشبهون مثل ذلك في بيوتهم ويستغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك ابن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال مثلي لا يدخل بيت الله فكتبه الملاك عند الله صديقا فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى ، وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه فقال أمي أمي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله إن الله لا يعيب بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك . وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زخرتم مساجدكم وحلتم مصاحفكم فالدمار عليكم » (٢) وقال الحسن « إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبنى مسجدا المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه » (٣) وفرو هذا من حيث

ويستغفر ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام وقد كان بعض الصالحين يقول هي أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عني . وحكى لي بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل وأكلة واحدة لليوم والليلة . وقد جاء في الخبر « قم من الليل ولو قدر حلب شاة » وقيل يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين . وقيل في تفسير قوله تعالى - تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء -

(١) حديث النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش البخاري من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تمحروا ولا تصفروا (٢) حديث إذا زخرتم مساجدكم وحلتم مصاحفكم فالدمار عليكم ابن المبارك في الزهد وأبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء (٣) حديث الحسن مرسل لما أراد أن يبنى مسجداً المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه لم أجده .

إنه رأى النكر واتكل عليه . وفرقة أخرى : ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والساكنين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والإنشاء للمعروف ويكرهون التصديق في السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يؤاسيه وقال أبو نصر التمار إن رجلا جاء يودع بشر ابن الحرث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء فقال له كم أعددت للنفقة فقال أثنى درهم قال بشر فأى شيء تبتغي بحجك ترهنا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتتفق أثنى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضى دينه وقيم يرم شعته ومعيلى يخنى عياله ومربي يقيم يفرحه وإن قوى قلبك تمطيها واحدا فأفعل فان إدخالك السرور على قلبك السلم وإغاثة اللهمان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فأخرجها كما أمرناك وإلا قل لنا ما في قلبك فقال يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له السال إذا جمع من وسخ الدجارات والشبهات انتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل التقيين . وفرقة أخرى : من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قنعة باخراج السال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في توبة حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكتنجين ليسكن به الصغراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكتنجين ، ولذلك قيل لبشر إن فلانا الفنى كثير الصوم والصلاة فقال للمسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجبايع والاتفاق على المساكن فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه لاربا ومنه للفقراء . وفرقة أخرى : غلبهم البخل فلا تسمع نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أو من يحتاجون إليه في المستقبل للاستدخار في خدمة أو من لهم فيه على الجلمة غرض أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحدا من الأكابر ممن يستظهر بعشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومبطلات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا ومثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور . وفرقة أخرى : من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لأنها تبتث على العمل فان ضعفت عن العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغدير فلا قيمة له وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرتة النساء فيبكي ولا عزم وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق يديه ويقول يا سلام سلم أو نموذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور

هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كلا وتورا في المزينة أو تهاونا به لقلة الاعتماد بذلك أو اغترارا بحاله فليكن عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ويحمد من دعة القرب ما يفتقر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وتوف في مقام الشوق وهذا يباط فيه وبهلك به خالق من المدعين والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر والانسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة ولا حالة أجل

وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لا يفي عنه من مرضه وجوعه شيئاً فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يفي من الله شيئاً فكل وعظم لم يغير منك صفة تغييراً غير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قويا أو ضعفا وتعرض عن الدنيا فلذلك الوعظ زيادة حجة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا . فإن قلت لما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات . فأقول الإنسان إذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المخلق في جو السماء مع بعده منه استنزه وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه وإذا أراد أن يقتنص الوحوش الملقاة في البراري والصحارى اقتنصها وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظم الحيوانات استسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويثبت بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها وإذا أراد أن يتخذ الديباج للون النقش من ورق التوت اتخذها وإذا أراد أن يعرف مقادير السكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لأقتناص الطيور وهيا الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لأن همه أمر دنياء وذلك معين له على دنياء فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه ففجز عن تقويم قلبه وتحاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا اللهم الواحد بل هو كما يقال * لو صح منك الهوى أرشدت للحيل * فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها . فإن قلت قد قربت الأمر فيه مع أنك أكرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور . فأقول أنه ينجم عنه ثلاثة أمور : بالعقل والعلم والعرفه فله ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل فأعنى به الفطرة الفريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والسكيس فطرة الحق والبلادة فطرة والبلد لا يقدر على التحفظ عن الغرور فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن ، نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشناتا ^(١) » إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وماقسم الله خلقه حظا هو أنضل من العقل واليقين . وعن أبي الدرداء أنه قيل « يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويعرج ويحتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويحس الضيف ولا يطمئنه منزله عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يجزى على قدر عقله ^(٢) » وقال

من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماء وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريحا فنقول ما بالنا لا نتبع تشريعه وهذه دقيقة فنعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جنب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالي وهو تقييد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في العبد والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الأعمال فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم

(١) حديث تبارك الذي قسم العقل بين عباده الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفي أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضا (٢) حديث أبي الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويعرج في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء.

أنس « أتني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف عقله ؟ قالوا يا رسول الله تقول من عبادته وفضله وخاقه فقال كيف عقله فإن الأحق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم ^(١) » وقال أبو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا أحسن قال ارجموه وإن قالوا غير ذلك قال لن يبلغ ^(٢) وذكر له شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالتكاهم جميع وغيضة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن قامت بيلادة وحماسة فلا تدارك لها . الثاني : المعرفة وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية وإنما للوفاق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليست على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ويحصل به التنبيه على الجملة وكال معرفة وراه فإن هذا من علوم الكاشفة ولم ينطب في هذا الكتاب إلا في علوم العامة وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليهما بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانبية للدنيا إلى الآخرة فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ناز من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها وبصيرتهم أمورهم ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والتزوع إلى الدنيا والجماع والمسال فان ذلك هو للفسد لانية ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهو نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة بالله وبفهمه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى اللقي الثالث وهو العلم أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعالم بما يقرب به من الله وما يبعد عنه والعلم بأفان الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين فيعرف من ربيع العبادات شروطها وفعالها وفتحها ومن ربيع العادات أسرار العايش وما هو مضطر إليه فيأخذ به بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربيع الماسكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فان المانع من الله الصفات الذمومة في الخلق فيعلم الذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربيع النجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن الذمومة بعد محوها فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يخلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها . فان قلت فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه . فأقول يخاف عليه أن يخذله الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله فان للريد الخالص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصنعت الدنيا في عينه قترها وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ولم يبق إلا هم

(١) حديث أنس أتني على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله الحديث داود بن الحبر في كتاب العقل وهو ضيف وتقدم في العلم (٢) حديث أبي الدرداء كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله الحديث الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه .

فليعلم ذلك فإننا رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقشور . قيل لا حسن يا أبا سعيد إني أبيت معافي وأحب قيام الليل وأعدت طهورى لما بالى لأتقوم قال ذنوبك قيدتك فليحذر العبد في نهارة ذنوباً تقيد في ليله وقال النووي رحمه الله حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنوب أذنبته قليل له ما كان الذنب قال رأيت رجلاً بكاء فقلت في نفسي هذا مراء . وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يسكن قتل ما بالك أنك نسي بعض أهلك فقال

واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره وناهجته والشوق إلى لقائه وقد هجر الشيطان عن إغوائه إديأته من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صامعا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وقد دوا الطبيب وأشرف فوا على العطب فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه وقد كان لذلك يسهر ليله وقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية السكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينهم وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فنذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدري على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فصحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم وحرصه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من ديب الخمل لا يشعر به الريد فليرز ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتجسين الألفاظ والنفحات والحركات والتصنع في الزي والهبة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم فأثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم فقدموه وقدموه في المحافل وحكوه على الملوك والولاة فبعد ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذات لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوق في أعظم لذاتها فبعد ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فزو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وأماره انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب فاذا أنكر على نفسه ما وجد من الغضب بادر الشيطان غيل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد الريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوق في الغرور فربما أخرجه ذلك إلى الوقعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ووقع في السكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك إذا سبق الضحك أو قتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قطره فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يغيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيترك كون الطريق بتركه وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا ينجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يفتن ذلك إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ونظمي رأس البئر بحجر كبير فنجسوا عن الرقي من البئر بسببه فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشقى عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونعم بنفسه فيعظم بذلك فرحه لاهماله

أشد قلقت وجمع بولك
قال أشد قلقت وماذا لك
قال بابي مفاقي وسترى
مسبل ولم أقرأ حزبي
البارحة وماذا لك إلا
بذنوب أحدثه . وقال
بعضهم : الاحتلام
عقوبة وهذا صحيح
لأن المرامى التحفظ
بحسن تحفظه وعلمه
بحاله يقدر ويتمكن
من سد باب الاحتلام
ولا يتطرق الاحتلام
إلا على جاهل بحاله أو
مهمل حكم وقته وأدب
حاله ومن كل تحفظه
ورعايته وقيامه بأدب
حاله قد يكون من ذنبه
للموجب للاحتلام ووضع
الرأس على الوسادة إذا
كان ذاعزعة في ترك
الوسادة وقد يتهمل للنوم
ووضع الرأس على

إذ غرضه خلاص إخوانه من البثر فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أمانه أو كفاه ذلك لم يشغل عليه أرايت لو اهتموا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يشغل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم فإذا اهتموا بغيره فلم يشغل عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كباثر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فتعود باقه من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء . فان قلت فحق يصح له أن يشغل بنصح الناس . فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتموا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عندهم وذبهم فلم يبال بذبهم إذا كان الله يحمد . ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقرن به حمد الله تعالى ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب الثروة في قلوبهم فانه لا يبالى كيف نراه البهائم فلا يترين لها ولا يتصنع بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الدثب عنها دون نظر الماشية إليه فلم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالى بها لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم ، نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضئ لغيره ويحترق في نفسه . فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لحلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب . فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة ^(١) » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت العايش وهلكت القلوب والأبدان جميعا إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تغرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصيحة وذكر مافي حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سيطرها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى - ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس فان الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد وأشخاص - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فاعلم يخشى أن يفسد طريق الاتعاط فأما أن تغرس ألسنة الوعاظ ووراهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا . فان قلت فان علم المريد هذه المسكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصيحة أو نصح وراعى شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبال الغترار . فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا .

تم الجزء الثالث من تخریج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي
وبليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

الوسادة بحسن التوبة
من لا يكون ذلك ذنبه
وله فيه نية للعون على
القيام وقد يكون ذلك
ذنباً بالنسبة إلى بعض
الناس فإذا كان هذا
القدر يصلح أن يكون
ذنباً جالباً للاحتلام
فقس على هذا ذنوب
الأحوال فاتها تختص
بأربابها وبمصرفها
أصحابها وقد يرتفق
بأنواع الرفق من
الفراسخ الوطىء
والوسادة ولا يعاقب
بالاحتلام وغيره على
فعله إذا كان عالماً بآذانية
يعرف مداخل الأمور
ومخارجها وكم من
نائم يسبق القائم لو فر
علمه وحسن نيته وفي
الحبر « إذا نام العبد

عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك وعملك إذ قواك على تهرى ومكنك من التفتن لجميع
مداخل غرورى فيصنى إليه ويصدقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله فيكون إجماعه بنفسه
غاية الغرور وهو المهلك الأكبر فالمعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم إذا ظننت
أنك بملك تخلصت منى فيجهلك قد وقعت فى حبالى . فان قلت فلو لم يجب بنفسه إذ علم أن ذلك
من الله تعالى لامنه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونه ومن عرف ضعف
نفسه وهجزه عن أقل القليل فاذا قدر على مثله هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله
تعالى لما الذى يخاف عليه بعد نفي المعجب ، فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه
والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والاقبال فيكون
حاله الانكسار على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ومن أمن مكر الله فهو خاسر
بعدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت
عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ويكون
خائفا أن يسلب حالة فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة وهذا خطر
لا يحصى عنه وخوف لانجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء
فى قت الزرع وكان قد بقى له نفس فقال أفلت منى يا فلان فقال لا بعد ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى
إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعالمون كلهم هلكى إلا المتخلصون والمتخلصون
على خطر عظيم فاذن للغرور هالك والمتخلص الغار من الغرور على خطر فذلك لا يفارق الخوف
والحذر لقلب أولياء الله أبدا .

فنسأل الله تعالى الدون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فان الأمور بخواتمها .

تم كتاب ذم الغرور وبه تم ربع المهاركات ، ويتلوه فى أول ربع النجيات كتاب التوبة
والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من إحياء علوم الدين
وبه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة .

عقد الشيطان على رأسه
ثلاث عقد فان عقد
وذكر الله تعالى انحلت
عقدة وإن توشأ انحلت
عقدة أخرى وإن صلى
ركعتين انحلت العقد
كلها فأصبح نشيطا
طيب النفس وإلا
أصبح كسلان خبيث
النفس « وفى خبر آخر
« إن من نام حتى يصبح
بال الشيطان فى أذنه »
والذى يغفل بقيام الليل
كثرة الاهتمام بأمور
الدنيا وكثرة أشغال
الدنيا وإتباع الجوارح
والامتلاء من الطعام
وكثرة الحديث واللغو
واللفظ وإعمال القيلولة
واللغو من بختهم وقته
ويسرف دأبه ودوامه
ولا يهمل فيهمل .

فهرس

بقية عوارف المعارف للسهروردي الذي بالهامش

صفحة	صفحة
٢٤٧ الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره	٢ الباب الثلاثون في تفاصيل أخلاق الصوفية
٢٥٤ الباب الأربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإنظار	١١٠ الباب الحادي والثلاثون في ذكر الأدب ومكانه من التصوف
٢٦٥ الباب الحادي والأربعون في آداب الصوم ومهامه	١٢٣ الباب الثاني والثلاثون في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب
٢٧٨ الباب الثاني والأربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصاحبة والفسدة	١٣٩ الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها
٢٩٥ الباب الثالث والأربعون في آداب الأكل	١٥١ الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره
٣١٥ الباب الرابع والأربعون في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصد فيهم	١٦١ سنن الوضوء ثلاثه عشر
٣٤٠ الباب الخامس والأربعون في ذكر فضل قيام الليل	١٦٢ الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء
٣٥٣ الباب السادس في ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم	١٧٣ الباب السادس والثلاثون في فضيلة الصلاة وكبر شأنها
٣٧٠ الباب السابع في أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل	١٨٩ الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب
٣٩١ الباب الثامن والأربعون في تقسيم قيام الليل	٢٢٥ الباب الثامن والثلاثون في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ

لِلإمام الفخر الرازي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الفزالي
وفلسفته في الإحياء
بمقدم

الدكتور بدوي طه بانه
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزي (المقدمي)

From the Library of
Muhammad T. Hosien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" - سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع للنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدر كل خطاب . وبعمده يتنم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وخرب بينهم وبين السمداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونزع الخوف رجائنا مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . ونعهد لنا عند الله زلفى وحسن مأب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام الريدن ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع الاسطفاء والاجتباء للقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجد بالأولاد ، الاقتداء بالأباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجترم ، فهى شذوثة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه فى كلا طرفى التنى والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم . فمن أخذ قذوة فى الذنب دون التوبة قد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب اللائكة القربين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة آدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان ، واصطبغ فى سجيّتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملزمة حد الانسان ، والصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى اللائكة بالتجرد لمحض الخير فمخرج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم ههنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

[الباب التاسع]

والأربعون فى استقبال

التهار والأدب فيه

والعمل

قال الله تعالى - وأقم

الصلاة طرفى التهار -

أجمع المفسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

فى الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

واظهر طرف وصلاة

العصر والمغرب طرف

وزلنا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ومعناها وقال - إن

الحسنات يذهبين

(كتاب التوبة)

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خباثات الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمراتها والآفات للنافعة منها والأدوية اليسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة ويان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب ويان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى ويان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ويان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب ويان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم للقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء اطراد سنة الله في الملك والملاكو . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محقة ييقن غالب على قلبه ثار من هذه العرقلة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل الفوت فيسمى تألمه بسبب فعله الفوت لمحبوبه ندما فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالتترك للذنوب الذي كان ملاسبا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب الفوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخبرات وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فإن الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب عموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بأشراق نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانهضاع سحاب أو انحسار حجاب قرأى سيرة وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبت تلك النيران بارادته للانهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالتترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضى ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والقدمة والتارك كالثمره والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يغلو الندم عن علم أو حبه وأثره وعن عزم ينجمه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات - أي الصلوات
الحسن يذهب
الخطيئات ، وروى
أن أبا اليسر كتب
ابن عمرو الأنصاري
كان يبيع التمر قامت
امرأة بتناع تمرا فقال
لها إن هذا التمر ليس
يجيد وفي البيت أجود
منه فهل لك فيه رغبة
قالت نعم فذهب بها
إلى بيته فضمها إلى
نفسه وقبلها فقالت له
اتق الله فتركها وندم
ثم أتى النبي عليه
السلام وقال يا رسول
الله ما تقول في رجل
راود امرأة عن نفسها
ولم يبق شيء مما يفعل
الرجال بالنساء إلا
ركبه غير أنه لم يجامعها
قال عمر بن الخطاب

في السكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات الذمومة بالحركات الحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقوال في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل يستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة . فإليك إمامي لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهتدي إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين يتقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يوزع ذلك فيتخير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده يختصر وخطاه قاصرة ومن سعي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتبته بأدنى إشارة لسلك طريق معوضة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجتري بأدنى بيان فكأنه يكاد زيت يضيء ولو لم تمسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوتها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو صفه بكونه واجبا بمعنى . وقول القائل صار واجبا بالانجاب حديث محض فان مالا غرض لنا أجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لاحالة محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والآكيات على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا يقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجه فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام للترفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر الزني يأبها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

لقد ستر الله عليك لو
سترت على نفسك ولم
يرد رسول الله صلى الله
عليه وسلم عليه شيئا
وقال أنتظر أمر ربي
وحضرت صلاة العصر
وصلى النبي عليه الصلاة
والسلام العصر . فلما
فرغ أتاه جبريل بهذه
الآية فقال النبي عليه
الصلاة والسلام : أين
أبو اليسر فقال هاأنذا
يا رسول الله قال شهدت
منا هذه الصلاة قال
نعم قال اذهب فانها
كفارة لما عملت قال
عمر يا رسول الله هذا
له خاصة أولنا طاعة ،
قال بل للناس طاعة
فيستعد البعد لصلاة
الفسح باستكمال
الطهارة قبل طلوع

بحال رحب يتوصل به إلى النجاة، من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب المتوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفرح بتوبة العبد للمؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأنه تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا راحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرأت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذؤيبك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعانى منهم لبيتك كما لبيتك ومن سألني الغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب عجب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع متفق من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدبش الغفلة عنه فعنى هذا العلم بإزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاجتماع عقيب حقيقة العرف بمافات من العمر وضاع في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب . فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لاجتماع أن العلم يخلق العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم بالندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خلقكم وما تعملون - وهذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل وتركه قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضاً من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبه الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على إن الله يحب العبد المؤمن الفتى التواب (٢) حديث الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ثم صلى ركعتي النجس يقرأ في الأولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد وإن أراد قرأ في الأولى - قلوا آمنا بالله وما أنزل - الآية في سورة البقرة وفي الأخرى - ربنا آمنا بما أنزلنا واتبعنا الرسول - ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وإن اقتصر على كلمة استغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر للتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فأنجزم الارادة بعد تردد الحواطر للتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الليل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المكال ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة إرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المخلوق لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعداد المخل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيبا والعبد مجرى هذه الحوادث للربة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعدها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما المباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه ميلا يسمى الإدراك والعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكنيت ونودي من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحير عقول القاعدين في مجبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولونفتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجهه وأن القصور شامل لجميع فلم يدركوا واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بهوانه وتمام علمه ينال بأشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.
ثم يقول اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد اللهم
إني أسألك رحمة من
عندك تهدي بها قلبي
وتجمع بها شملى وتلم
بها شعثى وترد بها
الفتن عنى وتصلح بها
دينى وتحفظ بها قائمى
وترفع بها شاهدى
وتركى بها عملى وتبيض
بها وجهى وتلقى بها
رشدى وتصمنى بها
من كل سوء اللهم
أعطنى إيمانا صادقا
وحيثا ليس بصد
كفر ورحمة أنال بها
شرف هكرامتك في
الدنيا والآخرة اللهم إني
أسألك الفوز عند
القضاء ومنازل الشهداء
وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسبب وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسبات سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن لإرسال ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد صمموا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى القيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا صمموا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ونعرفه بالمس الذي تدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن القيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه أليّن منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة القيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف القيل ولكنهم بحيلهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة القيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصلي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لاتعلق بصن بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصلي عن عهده ما لم يصير باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) وما أراد به نفى الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بآفة ووحدايته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا يعني أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصود الشارب من علوم الأظفار نقي البشرة عن الحبث حتى يتميز عن البهائم الرسالة للوثة بأرواتها المستكرهة الصور بطول محالبها وظلالها وهذا مثال مطابق فلايمان كالانسان

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء
ومراقبة الأنبياء اللهم
إني آتزل بك حاجتي
وان قصر رأي وضف
عملي واقترت إلى
رحمتك وأسألك
يا قاضي الأمور ويا شافي
الصدور كما تجير بين
البحور أن تجيرني من
عذاب السعير ومن
دعوة الثبور ومن فتنة
القبور اللهم ما قصر
عنه رأي وضف فيه
عملي ولم تبلغه نيتي
وأمنيتي من خير
ورته أحدا من
عبادك أو خير أمت
معطيه أحدا من خلقك
فأنا راغب إليك فيه
وأسألك إياه يا رب
العالمين . اللهم اجعلنا
هادين مهدين خير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل للروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزايده الروح الضعيفة المنفردة التي تغلف عنها الأعضاء التي تعدها وتقويه فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المهركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إنسان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الحاتمة لاما يدق بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ضد ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النخلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلي الفبار أقرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الحاتمة وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح التمسك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن للموت ظاهرا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح بخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الحاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأذ بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافيا لبدنه المتصرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام بقي للتدارك مهلة وهو العمر فإن الخوف من هذا السم قوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم القيم والمملك العظيم وفي قواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أضعاف أعمار الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبنة فالبدار البدار إلى التوبة قيل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتناء فلا يجمع بعد ذلك نصيح التاممين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهاككين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يفرنك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالهجوم عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيوجب في الحاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاء جميع ما يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فعلوم المكاشفة وعلوم الهامة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

ضالين ولا مضلين حربا
لأعدائك وسلا
لأوليائك نحب بحبك
الناس ونصادي
بعداوتك من خالفك
من خلقك اللهم هذا
الدعاء مني ومنك
الاجابة وهذا الجهد
وعليك التكلان إن الله
وإنا إليه راجعون ولا
حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم ذي
الحبل الشديد والأمر
الرشيد أسألك الأمن
يوم الوعيد والجنة
يوم الخلود مع المقربين
الشهود والركع السجود
والموفين بالعهود إنك
رحيم وودود وأنت تفعل
ما تريد سبحانه من
تصطف بالمرز وقال به
سبحان من لبس المجد

التابع وعلوم العامة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

(بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق البعد عن الله للقرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تسكل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنها ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تسكل في العبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه وييسر عليه الزرع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز المعين مواعده حيث قال - لأحتسكن ذريته بالإفلال - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات والامتناع للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيته الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدو الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدو الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبييا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطلق في تبدلها فاذا ن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما متعبا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفائه بتفهم معنى الإسلام فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في النع والاطلاق والانتكالك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلاك الأكثرون إذ هجروا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كالم يستغنى آدم عن خلقه الولد لا يتسع لما يتسع له خلقه الوالد أصلا ، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بخوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن المهم بالنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن المهم فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الخواطر المنفرقة المذهلة عن ذكر الله فإن خلا عنه فلا يخلو عن عفته وقصوره في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالشغول بأصداها رجوع عن طريق إلى ضده وللراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وانما يتفاوتون

وتكرم به سبحانه الذي لا ينبغي التسييح إلا له سبحانه ذي الفضل والنعم سبحانه ذي الجود والكرم سبحانه الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في صمى ونورا في بصري ونورا في شكري ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خافي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا . ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت

في القادر فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرمته الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من المأموم والخواطر تقص وأن الكمال في الخلوة عنه وأن التصور عن معرفة كنه جلال الله تقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب نقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال . فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقه من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجهه للراءة الصافية فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالطبوع من الخبث ولا يكتفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يكتفي في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاؤه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصديق الأول ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصلابة عن المرأة كمشغله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاته لتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدّى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية فانه مهم ما فسدت المعاش لم يفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحزنة والخير يستغرق جميع العمر من كل واحد فيحتاج إليه جميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها ، فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه
إلا وعنده خير ظاهر
وبركه وهو من وصية
الصادقين بعضهم بعضا
يحفظه والمحافظة عليه
منقول عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
كان يقرؤه بين الفريضة
والسنة من صلاة
الفجر ثم يقصد المسجد
للصلاة في الجماعة
ويقول عند خروجه
من منزله : - وقل رب
أدخلني مدخل صدق
وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك
سلطانا نصيرا - ويقول
في الطريق : اللهم إني
أسألك بحق السائلين
عليك وبحق ممشاي
هذا إليك لم أخرج
أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر الزنى
لأنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار
والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

يبتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلهم على وضم وتكررة مطروحة فليس يشترط لكل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنبأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحوايه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لما لا الدنيا بالكفاية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا الآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التعم ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزع (١) وشغله شرك فله الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق (٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه آرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقة ليخرجه حتى كاد يخرج معروحه ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما كله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجها فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تترك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روايتها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يترك العاقل قبل ما بقي من عمره إلا على تفويت ماضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى المات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بثقل ماضى من جهله وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهر نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لاهالة وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهر نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأي جوهر أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرفتها إلى معصية فقد هلك هلاكاً قاحشا ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف الصواب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فإذا ماتوا اتبوا فسد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلامه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للتعب من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستتب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا سمعة خرجت انتفاء
سخطك وانتفاء
مرضاتك أسألك أن
تنقذني من النار
وأن تغفر لي ذنوبي
إنه لا يضر الذنوب إلا
أنت . وروى أبو سعيد
الخدري أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« من قال ذلك إذا
خرج إلى الصلاة وكل
الله به سبعين ألف
ملك يستغفرون له
وأقبل الله تعالى عليه
بوجهه الكريم حتى
يقضى صلاته » وإذا
دخل السجد أو دخل
سجدة للصلاة يقول :
بسم الله والمحمد لله
والصلاة والسلام على
رسول الله اللهم اغفر
لي ذنوبي واقبض لي

ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذريه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسي فيقول فنيث الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فنيث الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ بروحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولكل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتقدم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو . الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيائته فأمره عظيم . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبيد قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبيد ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على الصفاء فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فوا بعدي أوف بعهدكم - وبقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

(بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإعما فتوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة وأن نور الحسننة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطعمة للظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنية يوسخ الثوب وغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلا .

أبواب رحمتك ويقدم
رجله الخبي في الدخول
واليسرى في الخروج
من المسجد أو السجدة
فسجادة الصوفي بمنزلة
البيت والمسجد ثم يصلي
صلاة الصبح في جماعة
فاذا سلم يقول : لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له ، له الملك وله الحمد
يعبي ويعيب وهو حي
لا يموت يسده الخير
وهو على كل شيء قدير
لا إله إلا الله وحده
صدق وعده ونصر
عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
لا إله إلا الله أهل النعمة
والفضل والثناء الحسن
لا إله إلا الله ولا نعبد
إلا إياه مخلصين له الدين
ولو كره الكافرون
ويقراً هو الله الذي

بالصابون والماء الحار ينظفه لاحتالة قاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويزكاه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فيبدول قد سبق به القضاء الأزل الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله - قد أفلح من زكاها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من للشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا بقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبما وريتا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا لما يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف التمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القليلين على الدنيا العرضيين عن الله بالسكينة فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نهضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويغفر عن السيئات - وقال تعالى - غفر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار وإلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ^(١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ^(٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه ثابتا منه فارا حتى يدخل الجنة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة ^(٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسئء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسئء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبت (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسل وأبى نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن
الرحيم التسعة
والتسعين اسما إلى
آخرها فإذا فرغ منها
يقول : اللهم صل
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك النبي
الأمي وطي آل محمد
سلام تكون لهم رضاء
ولحمه أداء وأعطه
الوسيلة والمقام المحمود
الذي وعدته وأجزه
عنا ما هو أهله وأجزه
عنا أفضل ما جازيت
نبيا عن أمته وصل
على جميع إخوانه من
الطيبين والصديقين
والشهداء والصالحين .
اللهم صل على محمد
في الأولين وصل على
محمد في الآخرين وصل
على محمد إلى يوم الدين
اللهم صل على روح

ويروي « أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه ^(١) » ويروي أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ ^(٣) » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر الذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أتى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها المبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه بحيث عنه في أم الكتاب . ويروي أن نبيامن أنبياء بنى إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لأن عدت لأعذبتك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصحني لأعودن فصممه الله تعالى وقال بعضهم إن الصبد ليذنب الذنب فلا يزال ناديا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتنى لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروي أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يخلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون السلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغنى أن توبة السلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن الصبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفه عين . وقال عمر رضى الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أثمة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم الغفرة أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروي أنه كان في بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطعنتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتك وتركنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواقى القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجئوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى أورده المصنف بصيغة ويروي كذا ولم يمهز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا .

محمد في الأرواح وصل
على جسد محمد
في الأجساد واجمل
شرائط صلواتك
ونواى برحمتك
ورأيتك ورحمتك
وتحيتك ورضوانك
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك اللهم
أنت السلام ومنك
السلام وإليك يعود
السلام فحين ربنا
بالسلام وأدخلنا دار
السلام تباركت يا ذا
الجلال والاکرام
اللهم إني أصبحت
لا أستطيع دفع ما أكره
ولا أملك قمع ما أرجو
وأصبح الأمر بيد
غيري وأصبحت مرتهنا
بمولى فلا قصير أقهر
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتبلهوا من غير عي ولا بكم وإنهم هم البلاء الصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم توطئت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدين واستلوا خشونة للضعج حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة القطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قلته العزلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريد العزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للفسية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدر متبعة بخلافه لو سبقت به السيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت لما من تأمب إلا هو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل سهل وذلك لشكك في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله الوفي للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد)

اعلم أن للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب هجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مئارات الذنوب في أربع صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فانتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرًا من الآثار كما يقتضى السكر والخمر والفرغران في السكنجين آثارًا مختلفة . فأما ما يقتضى الزرع إلى الصفات الربوية فثقل السكر والخمر والجبرية وجب للدخ والتناء والعز والنفي وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأئمة وهذا يقتضيه منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يصدوها ذنوبًا وهي الهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر العاصي كما استقصيناه في ربيع الهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضيه الحسد والبغى والحيلة والخذاع والأمر بالفساد والنكر وفيه يدخل النفاق والدعوة إلى

عدوى ولا تسيء في صدقي ولا تجعل مصيقي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يرحمي اللهم هذا خلق جديد فاتحه علي بطاعتك واختمه لي بعفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزككها وضعفها وماعلمت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود رضىت بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبينا اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البهيمة ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللاواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعة ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة فالصفة البهيمة هي التي تغلب أولاً ثم تلوها الصفة السبعة ثانياً ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الحقد والكسر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه النابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإظهار سوء الناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فانه واضح . قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد كما يتعلق بالبعد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقلته النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراس وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جوارح أو تناول الدين بالاغواء والبداء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتسهيل أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتخليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك فظالم العباد (١) » أي لا بد وأن يطالب بها حتى يفي عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لاصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً - وقال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللجم - وقال ﷺ «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر (٢)» وفي لفظ آخر «كفارات لما بينهن إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس (٣)» واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة لما فوق ذلك فقال ابن مسعود «أربع وقال ابن عمر «سبع وقال عبد الله بن عمرو «هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول «هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها منهجة لا يعرف عددها كلية القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه - فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب السكي

طوارق الليل والنهار
ومن بفتات الأمور
وجفاء الأقدار ومن
شر كل طارق يطرق
إلا طارقاً يطرق منك
يغير يارحم الدنيا
والآخرة ورحيمهما
وأعوذ بك أن أزل
أو أزل أو أضل أو أضل
أو أظلم أو أظلم أو أجهل
أو أجهل على عز جارك
وجل ثناؤك وتقدست
أسمائك وعظمت
نعمائك أعوذ بك من
شرب ما يبلع في الأرض
وما يخرج منها وما ينزل
من السماء وما يجرح فيها
أعوذ بك من حسنة
الحرص وشدة الطمع
وصورة الغضب وسنة
الفضلة وتضايق الكلفة
اللهم إني أعوذ من

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس رواه البخاري.

الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهى الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصنات واليمين القموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وماهى؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لا تتركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابعون على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو وأكبر الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإيأس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل المساء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرها وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراك بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف والطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه الرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام والطبراني من حديث وائلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه عليه السلام مر على قبرين فقال لهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالقيمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الخمر اسأني

مباهاة المكثرين
والإضرار على القليلين وأن
أنصر ظالمساً أو أخذل
مظلوماً وأن أقول في
العلم بغير علم أو أعمل في
الدين بغير يقين أعوذ
بك أن أشرك بك وأنا
أعلم وأستغفر لك لما
لا أعلم أعوذ بعفوك
من عقابك وأعوذ
برضاك من سخطك
وأعوذ بك منك
لا أحصى ثناء عليك
أنت كما أثنت على
نفسك اللهم أنت ربى
لا إله إلا أنت خلقتنى
وأنا عبدك وابن
عبدك وعلى عهدك
ووعدك ما استطعت
أعوذ بك من شر
ما صنعت أبوء بنعمتك
على وأبوء بذنبي فاغفر لى

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين النعموس ، وهي التي يحق بها بطلا أو يطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم بطلا ولو سوا كامن أراك . وسُميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج هما الزنا والواط . واثنان في اليدين هما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وحجة عقوقهما أن يقسم عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيها وإن يسأه فيضربها ويجوعان فلا يطعمها هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جنائية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم ^(١) وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة آيينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين النعموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله وتقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم ^(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة في عرض السلم بغير حق كما تقدم ^(٢) حديث أبي سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من اللوبات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لا ثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة إلى مادونه وصغير بالاضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالاضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ما جهل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التمس عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيما وكبيرة لاحالة بالاضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من اللغات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصفات وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسماح من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرة أو خمسا وفيصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ «ثلاث من الكبائر (١)» وفي بعضها «سبع من الكبائر (٢)» . ثم ورد «أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعمده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر لعظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فمعرفة بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصفات فلا سبيل إلى معرفته . ويانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسوله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالصودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يبعثه الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام «الدنيا مزرعة الآخرة (٣)» فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

للنار بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد يا حي يا قيوم يا حي حين لا حي في دعوته ملكه وجانه يا حي يحيي الموتى يا حي يميت الأحياء ووارث الأرض والسماء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت يا نور النور يا مدبر الأمور

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

واللعن من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل ما يستد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر
وبليه ما يستد باب حياة النفوس وبليه ما يستد باب للعائش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،
حفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع
كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل فلا يجوز أن الله تعالى يمت نبيا يريد بعثه
إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بمساغتهم عن معرفته ومعرفة رسوله أو يأمرهم بإهلاك
النفوس وإهلاك الأموال لحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة
الله تعالى ومعرفة رسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر ، ذالحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل
والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعدة بقدر جهله ويتلو الجهل الذى
يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور
أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التملقة بذات الله وصفاته وأفعاله
وبعضها أشد من بعض ومخاوتها على حسب مخاوت الجهل ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله
وشرائعه وبأوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخله تحت ذكر
الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم
للتوسط طمع فى غير مطمع . للرتبة الثانية : النفوس إذ يفتانها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة
بالله قتل النفس لعمالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصدم عين القصود وهذا
يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه
الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع فى
هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور فى قضاء الشهوات
انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن
يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينظم العيش إلا بها بل كيف
يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينظم أمور البهائم مالم يتميز الفعل منها بإثبات يختص بها عن سائر
الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغى أن يكون الزنا
فى الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولعمركه يفوت تميز الأنساب
ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال وينبغى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة
داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرة . للرتبة الثالثة : الأموال فانها معاش
الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاء واحق بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغى أن تحفظ
لتبقى يقاتها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن ترميعها
فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يصير التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من
الكبائر وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف
يتدارك . الثانى أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فانه مؤتمن
فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف النصب فانه ظاهر
بحرف وبخلاف الحيانة فى الودعة فان للودع خصم فيه يتصنف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة
الزور . الرابع : أخذ الودعة وغيرها باليمين القموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
أن تختلف الشرائع فى ترميعها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية التملقة بالنفوس

إعالم ما فى الصدور
يا صبيح يا قريب يا مجيب
الدعاء يا لطيفا لما يشاء
يارءوف يارحم يا كبير
يا عظيم يا الله يارحم
يا ذا الجلال والاكرام
الم الله لا إله إلا هو الحى
القيوم وعنت الوجوه
لحي القيوم يا الهى
واله كل شىء إلهى
واحدا لا إله إلا أنت
الهم إنى أسألك باسمك
يا الله الله الله الذى
لا إله إلا هو رب العرش
العظيم فتعالى الله الملك
الحق لا إله إلا هو رب
العرش الكريم أنت
الأول والآخر والظاهر
والباطن وسعت كل
شىء رحمة وعلم
كهيعص حم عسق
الرحمن يا واحد يا قهار

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الرافليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وبغيره وعظم الخيانة والصبر إلى أن أكل دائق بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيق مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيمد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه محال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية ولتناولها مراتب وأعظمها تناول القذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا قاطبا أن الصحابة كانوا يمدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي زيده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويحمله الشهود عليه بمجرد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضرهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نفي بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بوضه مظنون للنفي والاثبات وبوضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فإن قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر

يعزز بإجبار بأحد
يا صمد يا ودود يا غفور
وهو الله الذي لا إله إلا
هو عالم الغيب والشهادة
هو الرحمن الرحيم لا إله
إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين
اللهم إني أعوذ باسمك
المكنون المخزون
المنزل السلام الطهر
الطاهر القدوس القدس
يادهر يادهور ياديهار
يأبد يا أزل يا من لم يزل
ولا يزال ولا يزول هو
يا هو لا إله إلا هو يا من
لا هو إلا هو يا من
لا يعلم ما هو إلا هو
يا كان يا كائن
يا روج يا كائن قبل
كل كون يا كائن بعد
كل كون يا مكنونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تحتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقامته على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عنيئا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي الحمر بطبعه ولو أيسح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع اللاهی والأوتار، ثم من يشتهي الحمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ويطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفة : قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفة (١) » قيل ما ترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاؤه فهذا أو أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فبقى لأحالة مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فاعلم أنا لا نخصي رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع اللاهی ولبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه إذا شرب الخنق النديز حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة تقياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في العمدلة إلا ما لا يغلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والعلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على الصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس ليس الحرير وسماع اللاهی واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا النهج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واطب عليها لا ترد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن الباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالفناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعني بالدنيا حالنا قبل

لكل كون أهيا
شرا هيا أدوناى
أصبوت يا مجلى عظام
الأمور - فان تولوا
قل حسبي الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش
العظيم - ليس كمثل شيء
وهو السميع البصير -
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت
على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على
محمد وعلى آل محمد كما
باركت على إبراهيم
وآل إبراهيم إنك
حميد مجيد اللهم إني
أعوذ بك من علم
لا ينفع وقلب لا يخضع
ودعاء لا يسمع اللهم إني
أعوذ بك من فتنة
الدجال وعذاب القبر

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد .

الموت وبالأخرة حالته بعد الموت فديناك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والتأخر آخرة ونعني الآن تتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» (١) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصبت الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صفرة وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنيما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يغم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو اللع الذي يراة الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . ومن ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها اللحد بمحمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور اللحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف يتقلب العرض جسما وهل هذا إلا اعمال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال - وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جى بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال العبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

ومن فتنة الهياولمات
اللهم إني أعوذ بك من
شر ما علمت وشر ما لم
أعلم وأعوذ بك من
شر سمعي وبصري
ولساني وقلبي اللهم إني
أعوذ بك من القسوة
والغفلة والذل والسكنة
وأعوذ بك من الفقر
والكفر والفسوق
والشقاق والنفاق وسوء
الأخلاق وضيق
الأرزاق والسمة
والرياء وأعوذ بك من
الصمم والبكم والجنون
والجذام والبرص ومائر
الأسقام ، اللهم إني أعوذ
بك من زوال نعمتك
ومن تحويل عافيتك
ومن خفاة نعمتك ومن
جميع سخطك ، اللهم
إني أسألك الصلاة على

(١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنيما يعزى إلى علي بن أبي طالب
(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على
صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من
حديث أبي سعيد .

للمذبح وقع اليأس منه فإن المبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الوكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرا لأدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كدش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبتت للمعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع الصادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لاصورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألبته فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين وممذيين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم الممذيون ويغلب بعضهم فهم الناجون ويخلق على بعضهم فهم الفائزون فإن كان للملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يغلب إلا معترفا له بربته الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلق عليه ولا يخلق إلا له من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقة أو تسكيلا بالثلة بحسب درجاتهم في العاندة وتعذيب الممذيين في الخفة والشدة وطول الدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن ممذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والممذيون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك الهالكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة الهالكين . نعى بالهالكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في الثالثة الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمريضين التجردين للدنيا المسكينين باقه ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

محمد وعلى آله وأسألك
من الخير كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأعوذ بك
من الشر كله عاجله
وأجله . ما علمت منه
وما لم أعلم وأسألك الجنة
وما قرب إليها من قول
وعمل وأعوذ بك من
النار وما قرب إليها من
قول وعمل وأسألك
ماسألك عبدك ونييك
محمد صلى الله عليه
وسلم وأستعيذك عما
استعاذك منه عبدك
ونبيك محمد صلى الله
عليه وسلم وأسألك
ما قضيت لي من أمر أن
تجعل عاقبته رشدا
نرحمك يا أرحم
الراحمين يا حي يا قيوم
نرحمك أستغث

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبدأ الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه لمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للجنات العيين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبد الله بطلب جنته أو لخوف ناره بل العارف يعبد الله فلهذا فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتيقها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ونار جهنم لا تشغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحرق مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روي من غلب عليه الوجد فندا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لقرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار ^(١) » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرقت صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لمصاح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، واستأعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسية وسائر الأعضاء عاله ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلت صلت لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تنكفى إلى قضى
طرفة عين وأصلح لى
شأنى كله يا نور
السموات والأرض
يا جمال السموات
والأرض يا عماد
السموات والأرض
يا بديع السموات
والأرض يا ذا الجلال
والاكرام يا صريح
المتصرخين يا غوث
الستغيثين يا منتهى
رغبة الراغبين
والفرج عن الكروبين
والروح عن القوميين
ومجيب دعوة
الضطرين وكاشف
السوء وأرحم الراحمين
وإله العالمين منزل
بك كل حاجة يا أرحم
الراحمين اللهم استر
عورائى وآمن روغائى

الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولنعُد إلى الفرض فقد أُرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم للعاملات التي تقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورد لها الرتبة الثانية : رتبة للعذابين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد أخذ إلى هواء فهو موحِد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشرع وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يغلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لامحالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان نار ان نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل ماثل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول اللذة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضمنه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يغلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا نيقنا أنا على النار واردون وشككتنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان^(١) قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار بقرق خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر الدد وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتمذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما شدة العذاب بشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرة فقبحها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بهوله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأقلى عثراني ، اللهم
احفظني من بين يدي
ومن خلفي وعن يميني
وعن شمالي ومن فوقی
وأعوذ بك أن أغتال
من تحتي ، اللهم -م إني
ضعيف فقو في رضاك
ضعفي وخذ إلى الخير
بناصتي واجعل الاسلام
منتهى رضاي ، اللهم
إني ضعيف فقو
اللهم إني ذليل فأعزني ،
اللهم إني فقير فأغنني
برحمتك يا أرحم
الراحمين ، اللهم إنك تعلم
سري وعلايتي فأقبل
معذرتي وتعلم حاجتي
فأعطني سؤلي وتعلم
ما في نفسي فأغفر لي
ذنوبي ، اللهم إني أسألك
إيماناً يساير قلبي
وبقيناً صادقاً حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملی عن أنس وأبو ظلال ضعيف وإسمه هلال بن مسمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي » (١) وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستقنede ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فتقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لساينين ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصفائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمعرون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بانشرح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القربون النازلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبعمق المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفوح فيه القواصون بقدر قواهم ويقدر ماسبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرئين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المنسول كالندي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاصيا إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للأغلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يذببان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتسكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

أنه لمن يصيبني إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والاكرام اللهم ياهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقبل عثرة العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأعباء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف ^(١) » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كتول القائل أخذ منه جملا وأعطاء عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاء مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشرة عشره بل هو موازنه معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليتها وفروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسدية وهذا صادق عند من يعرف روح المالكة من الذهب والفضة بل لو أعطاء جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فنصدق ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات ^(٢) » كما ورد في الأخبار والسموات كن الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزير قوم ذل ^(٣) » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو العقب بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ^(٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم إذ بلى بحمالة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٥) » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلنا ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك الصبر يامن
لا يشغله شأن عن شأن
ولا يشغله صمم عن صمم
ولا تشبه عليه
الأصوات ويا من
لا تملظه المسائل ولا
تختلف عليه اللغات
ويامن لا يتبرم بالحاج
الملحين أذقنى برد
عفوك وحلاوة رحمتك
اللهم إني أسألك قلبا
سليما ولسانا صادقا
وعملا متقبلا أسألك
من خير ما تعلم وأعوذ
بك من شر ما تعلم
وأستغفرك لما تعلم ولا
أعلم وأنت علام
الغيوب . اللهم إني
أسألك إيمانا لا يرتد
ونعما لا ينفد وقرة عين
الأبد ومراقبة نبيك
محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البختري، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخارى من حديث ابن مسعود .

من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسماية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجبل من الكافرين كما يجب أن يكون المتناض عن الجبل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من البندين للضعيف. فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ إلى عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملته وأشفقن منه فلا يدرك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تسكنونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لاهياله نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقمة الله لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فغده أمانة مترجع لاهياله إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إمامظلة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توقيفه ولم يهده طريقه ، فتعوز باق من الضلال والتزلزل إلى منازل الجبال فهذا حكم اتقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينعى إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبة وأيدي الغافلين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة بحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينعى القول باللسان وإنما ينعى الصدق في التوحيد وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين التقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها في الأثر إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

وحب من أحبك
وحب عمل يقرب إلى
حبك . اللهم بعلمك
الغيب وقدرتك على
خلقك أحيى ما كانت
الحياة خيراً لي وتوفى
ما كانت الوفاة خيراً لي
أسألك خشيتك في
الغيب والشهادة وكلمة
العدل في الرضا والغضب
والقصد في الغنى والفقر
ولذة النظر إلى
وجهك والشوق إلى
لقاءك وأعوذ بك من
ضراء مضرة وفئة
مضلة . اللهم اقم لي
من خشيتك ما تحول
به بيني وبين مصيبتك
ومن طاعتك ما يدخلني
جنتك ومن اليقين
ماتهمون به علينا
مصائب الدنيا . اللهم
ارزقنا حزن خوف

اللائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وسكوا له سكا إلى النار وكما يهلك هو بسبب غيره بطريق القصاص فكذلك ينجم للظلم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفضل ليس في صيفي حسنة أفضل منها فكيف أعوها وقال هو وغيره مذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صيفي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في العباد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاها حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لاعالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه حين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا وعمافيضى إلى الهلاك بالضرب والانتقام ووراء ذلك سر الشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على الطامع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - وكل ذلك صحيح فليس للانسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فبارى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأعلى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يغمموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين اللقامين عبر الشرح عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور رجاء للعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف مامن نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن في قوسنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك واجعلنا أخصى لك بمن سواك نسألك تمام النعمة بشام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما أحبنى حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فتمت لهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي مشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن الدني عن أبيه مختصرا وأبو مشر نجيب السندى ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مشلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستتمن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عن الملمات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك ^(١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم القربون السابقون فإن القلة وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يلقى هؤلاء مجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والحجر والحلى والأساور فأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمة وعلى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لملمات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخاري من حديث حمزة بن حنبل في روي النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسل الله وأولاد الشركين قال وأولاد الشركين وللطبراني من حديثه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية ، وفيه ألا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرايت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يغلقها الله في بطن أمه إلا أنه شق أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من
تحب بقاءه وتوفى وفاة
الشهداء وفاة من تحب
لقاءه يا خير الرازيين
وأحسن التوابين
وأحكم الحاكمين
وأرحم الراحمين ورب
العالمين ، اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد
وارحم ما خلقت واغفر
ما قدرت وطيب
ما رزقت وتعمم الأنعم
وتقبل ما استعملت
واحفظ ما استحفظت
ولا تهتك ما سترت فانه
لا إله إلا أنت أستغفرك
من كل لذة بغير ذكرك
ومن كل راحة بغير
خدمتك ومن كل
سرور بغير قربك
ومن كل فرح بغير
مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لراية العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواء حق عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى بلغت إليه لائقه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرضه ينكشف النطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لمسي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الوفي بلفظه.

(بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الإصرار والواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثله لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل » ^(١) والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بفتنة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر قلما يرنى الزانى بفتنة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بفتنة من غير مشاحنة سابقة ومعادة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بفتنة ولم يتفكر إليها ودور بما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحدور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في النفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في النفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » ^(٢) وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لملحه بجلال الله فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لاصغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقده ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه اللهم احفظنا فيها أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم
(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخاري من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه قد ذكر هذا وحديث لله أفقر بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشرر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللوبيقات إذ كانت معرفة الصحابة بحلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد النكس من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من الذين من يمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمعارفته إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجي شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه ولا يدرى أنه إنما يعمل ممّتا ليزداد بالإهمال إنما فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبيهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتية في مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده له عليه وتحريك لرغبة الشرف من أعمه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فقلظت به فان انضاف إلى ذلك الترهيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين بيبب أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه ^(١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - الناقدون والناققات بعضهم من بعض يأمرون بالفسك والمنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما تهتك الرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم عالا يقصده إلا الجاه كالمجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً ^(٢) » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة باللفظ كل أمق وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

الحافظين وإذا كر
الذاكرين وباشا كر
الشاكرين بذكر
ذكروا وبفضلك
شكروا يا غياث ياغيث
يا مستغاث ياغيث
الستغاثين لا تكلني إلى
نفسى طرفة عسين
فأهلك ولا إلى أحد من
خلقك فأضيع أكلتي
كلاءة الوليد ولا تغل
عني وتولني بما تولى به
عبادك المالحين أنا
عبدك وابن عبدك
ناصرتي بيدك جار في
حكمتك عدل في
نصاؤك نافذ في مشيئتك
إن تعذب فأهل ذلك
أنا ، وإن رحم فأهل
ذلك أنت فاقبل اللهم
بامولاي يا الله يارب
ما أنت له أهل ولا تفعل

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الإصلاح دهرًا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت له ولكن كيف بمن أضلت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداها ترك الذنب والأخرى إخفاؤه وكتمانها . فالتضاعف أو زيارته على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجميل والليل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيقتنع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجميل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدر أن على التجميل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عز ما وقصد أو ذلك الندم أو رثته العلم يكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبته ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من ثباتها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو يبعث أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى عجز أصدق من الله ورسوله ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبًا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لظال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فإلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة ^(١) » ومن علامته أن تترك حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا عن حلاوتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبل توبته فقال وعزنى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه . فان قلت فالذنوب هى أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلًا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فان قلت لا فهو جحد للشهادة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت

اللهم يارب يا الله
ما أنا له أهل إنك أهل
التقوى وأهل المغفرة
يا من لا تغفر الذنوب
ولا تنقص المغفرة هب
لى ما لا يضرك وأعطينى
مالا ينقصك ياربنا
أفرغ علينا صبرا
وتوفنا مسلمين توفى
مسلمًا وألحقنى
بالصالحين أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت
خير الغافرين ربنا
عليك توكلنا وإليك
أنتنا وإليك المصير
ربنا اغفر لنا ذنوبنا
وإسرافنا فى أمرنا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين
ربنا آتنا من لدنك
رحمة وهب لنا من
أمرنا رشدا ربنا

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله روى ابن أبي الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالنوععة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دعة وأرق قلبا .

وينبغي أن يجد هذه المرات في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في
 العسل النقرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل بمخافه ولم
 يكن ضرر الثائب من سرقته وزناؤه من حيث إنه سرقه وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى
 وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب
 ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك
 ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروط محتثاتها تعلق بالماضى أن
 يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالنسب أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهر اشهر
 ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها فإن
 كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية في قضائها عن
 آخرها فإن شك في عدد ما فات منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى
 الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه
 في سفر ولم يقضه أو أنظر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد
 ويستقل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن
 الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن
 لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك
 فإن ذلك لا يجزئه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل
 عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له
 الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد
 فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه
 إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء
 نصرايا (١) » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات
 وتداركها . وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن ممعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله
 وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع
 على جميعها صفاتها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق
 بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة
 وشرب خمر ومما ملأه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحرر عليها وبأن
 يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث الدعة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من
 الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) »
 بل من قوله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات » فيكفر بمعاصي الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر
 ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف محدثا بكرام
 الصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويحمله وقفا ويكفر شرب الخمر
 بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك
 (١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله

أتانا في الدنيا حسنة وفي
 الآخرة حسنة وفنا
 عذاب النار اللهم صل
 على محمد وعلى آل محمد
 وارزقنا العون على
 الطاعة والعصمة من
 المعصية وإفراغ السبر
 في الخدمة وإيداع
 الشكر في النعمة
 وأسألك حسن الخاتمة
 وأسألك اليقين وحسن
 المعرفة بك وأسألك
 المحبة وحسن التوكل
 عليك وأسألك الرضا
 وحسن الثقة بك
 وأسألك حسن القلب
 إليك اللهم صل على
 محمد وعلى آل محمد
 وأصلح أمة محمد اللهم
 ارحم أمة محمد اللهم
 فرج عن أمة محمد
 فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن المرض يالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يحسها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي التناسبات فلذلك ينبغي أن تحصى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطيف في طريق الموهو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في الموهو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدينار رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم يذو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالمهموم والغموم عن دار المهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم ^(١) » وفي لفظ آخر « إلا المهم بطلب العيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المهموم فتكون كفارة لذنوبه ^(٢) » ويقال إن المهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والمهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فان قلت هم الإنسان غالبا بما له وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرامان عنه كفارة ولو تمتع به لثمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكلى قال فما له عند الله قال أجر مائة شهيد فاذن المهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد فيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا لما تعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والأتان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل بإنذائه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والتدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتناق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ المبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتناق بإيجاد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الأعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والموهو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتناق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجمه ولم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس والأموال والأعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض . أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إيمانه أو من عاقبته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لاقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فان شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقم حد الله على نفسه بأزواج المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواتنا الذين
سبقونا بالإيمان ولا
تجعل في قلوبنا غلا
لذين آمنوا ربنا إنك
رؤوف رحيم اللهم
اغفرلى ولوالدى ولمن
تولدا وارحمهما كما
ربيانى صغيرا واغفر
لأعمامنا وعماتنا
وأخواننا وخالاتنا
وأزواجنا وفرياتنا
ولجميع المؤمنين
والمؤمنات والمسلمين
والمسلمات الأحياء
منهم والأموات يا أرحم
الراحمين يا خير الغافرين
ولما كان الدعاء مخ
العبادة أحببنا أن
نستوفى من ذلك نسما
صالحا نرجو بركته
وهذه الأدعية
استخرجها الشيخ

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم وفي لفظ آخر إلا المهم في طلب المعيشة طس
وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح
(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم وتقدم أيضا
في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن .

فقال يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فردّه فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إني قد زنيت فردّه الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماثوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني فردّها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزاً فوالله إني لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهي حتى تضعي فلما ولدت أنت بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تنظميه فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يا بني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلاً يا خالد قو الذي نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان تناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويح زائف أو سر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفقش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجاه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجرم ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلمهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظالمة وعلى التجار فانهم لا يقدرّون على طلب العاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتسكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا واجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فلا يرد إلى المالك ما يعرف له مال كالمعينا وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الخيانة على القلوب بعشافة الناس بما يسوؤهم أو يغيهم في النية فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أدى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجدده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا وردّه صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى قله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات]

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين عبده أهل

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يمكن وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاستحلال
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنائته على
 الغير ماله ذكره وعرفه لتأذي بعمره كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا
 عيوبه يعظم أذاها مهما شغفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم
 تبقى له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الليل والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال
 بقيت المظلة عليه فان هذا حقه عليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نقر بسيئة مال بحسنة
 فاذا طاب قلبه بكثرته وتودده وتلطفه صمحت نفسه بالاستحلال فان أبي إلا الاصرار فيكون تلطفه به
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرجه
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدها الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك
 منه عوضا في القيامة يحكم الله به عليه كمن أتلّف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي التّفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا
 فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا
 نصف الطريق أتاه الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة
 جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي
 فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين قالى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) « وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعتقد مع الله عقدا مؤكدا وبما هده بهد وثيق أن لا يعود
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جازما
 أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه
 الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائبا مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب
 في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث
 حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فيقتصر عليه فان رأس للعاصي أكل الحرام
 فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

للعامة وأرباب القلوب
 وقد ندب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إلى
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة
 وأول سورة البقرة إلى
 للفلقون والآيتين
 وإلهكم إله واحد وآية
 الكرسي والآيتين
 بعدها وآمن الرسول
 والآية قبلها وشهد الله
 وقل اللهم مالك الملك
 وإن ربكم الله الذي
 خلق السموات
 والأرض إلى الحسين
 ولقد جاءكم رسول إلى
 الآخر وقل ادعوا الله
 الآيتين وآخر الكهف
 من إن الذين آمنوا
 وذا النون إذ ذهب
 مغاضبا إلى خير الوارثين
 فسبحان الله حين
 تمسون وحين تصبحون

(١) حديث أبي سعيد الخدري التّفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

في الماء كولات واللبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لاتصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولنا تتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لهما إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بغوات محبوبة سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بغوات محبوبة وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التماثلات فهو كالمكمل المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أي لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يتم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستلحق النصف بتفصيل به ينكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يخفى على أهل الملك وحرمة ويخفى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يعذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويعذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والرب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كافي تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر
السورة ولقد صدق الله
وأول سورة الحديد إلى
بذات الصدور وآخر
سورة الخثر من
لو أنزلناهم بسبع ثلاثا
وثلاثين وهكذا محمد
مثله ويكبر مثله ويتمها
مائة بلا إله إلا الله وحده
لا شريك له فإذا فرغ
من ذلك يشتغل بتلاوة
القرآن حفظا أو من
المصحف أو يشتغل
بأنواع الأذكار ولا
يزال كذلك من غير
قصور وقصور ونعاس
فان النوم في هذا الوقت
مكروه جدا فان غلبه
النوم فليقم في مصلاه
قائما مستقبل القبلة
فان لم يذهب النوم
بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الفرية أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون قوة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والقفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون ملما بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقطع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخصي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فعماني أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى وبصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول الله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بجاهدتى فيه أن بكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متاملة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلا ولا يمكن أن يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاءه بعزمه على الترك يلحظه عن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه . ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة في إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم بنيانه وتبتي أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يتسدى بهراء المساعات العشر

لكانت حرقه الندم تتمتع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحبا عنه
سيئته إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ
عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا
أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستجبل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ
إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله
تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فضاء يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله
ترجع إلى أن ظلمة الحسية تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة
بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى
على محوها دون المجاهدة ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل مالم يمضِ التائب بعد التوبة مدة يجاهد
نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً. فان قلت
إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو
يجاهدها ويعنمها فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما يختلف الطاء فيه ، فقال أحمد بن أبي الحواري
وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك
الآخر أفضل لأنه لو قر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن
المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن
الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة
فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو
دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين
وتتمتع الشهوة النبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا
أسلم إذ لو قر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل
العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل
من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفلّس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا
كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلوش طرقة اقتحام
الاعترار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة
من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على
الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان
قويا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان
النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب
الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من
المجاهد القامس لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة
بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل للمقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شوائه
وان هيج عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت
في المجاهدة فأنت بصدق طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد
في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما تأمسان عنده
بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالاضافة إلى من هو مشغول بمسألة التأديب بعد ولقد ذل

وهي من تعليم الخضر
عليه السلام عليها
ابراهيم التيمي وذكر
أنه علمها من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ،
وينال بالمداومة عليها
جميع التفرق في
الأذكار والدعوات ،
وهي عشرة أشياء
سبعة سبعة الفاتحة
والعوذتان وقل هو
الله أحد وقل يا أيها
الكافرون وآية
الكرسى وسبحان الله
والحمد لله ولا إله إلا الله
والله أكبر والصلاة
على النبي وآله وسنغفر
لنفسه ولوالديه
والمؤمنين والمؤمنات
ويقول سبعا اللهم افعل
بي وبهم عاجلاً وآجلاً
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطلوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتها بالكليّة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فحجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واستمر في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلت فما قولك في تأييد أحد هاتسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جملة نصب عينه ولا يزال يتفكر فيموحترق ندما عليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام المتسوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يغبر عن حال نفسه فقط ولا يهتم حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه متصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم عن هو أهدي سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق البتديء لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولو امعن الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق السافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب السافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه نهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطلان الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى بمن الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعاقل وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة ليزيد رغبته ولكن إن كان شافلا ينبغي أن يبطل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته في طلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدي أيضا قد يستغربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتمة بأهمهم فانهم مابعثوا إلا لارشادهم فعلمهم التلبس بما تنفع أمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر ^(١) » وفي لفظ « انما أسهو لأسن » .

(١) حديث « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ما أنت له أهل ولا تفعل ربنا يا مولا نا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رؤوف رحيم . وروى أن ابراهيم التيمي لما قرأه بعد أن تعلمها من الحضرة رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسببات أقبل على التيسيع والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ »^(١) لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لسانه بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيعة والطائر تلتطفا في تعليمه فأياك أن تفعل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزية أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه .

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون للسهرة بذكر الله تعالى وضع الله كرههم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا »^(٢) فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الله كرههم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فقتر زاعها ولم يشغل عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملئ بمجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف اللذة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن غنط يمتوت قريبا من توبته يخط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يحمل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فائتاء نحوها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق قهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه اليسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعثره لاعتن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غيره أن يقدم عزمها على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوطا إلا مرسل لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنصاطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه اللائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسند (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للمفردون للسهرة بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة العداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين يجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أثرا ونورا وروحاً وأنسا إذا كان صادقا والذي يحمد

أسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جذيرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تعلم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الدميعة لاعتن تصميم عزم وتغمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يعلب خيره شره حتى يشغل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكيفية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل للمام يقع بصغيرة لاعتن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم الغفو عنه قال تعالى - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأتى عليهم مع ظلمهم لآفة - هم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن ثواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تنفي أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يؤيس للفقهاء عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته (٥) » أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا.

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعلها وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس اللسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهاته لما تعاطاه مرجو

(١) حديث على خياركم كل مفتن ثواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن من كالسنبلة تنفي أحيانا ويميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسل وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تنفي وفي الأمثال للراهمرمزى إسناده جيد لحديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستغفره والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل للمستغفرون . قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسعيد بدل غيرهم .

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليته ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلاته هذه ليستزيد بالله تعالى من شر يومه وليته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بأمك وكلتك النامة من شر السامة والهامة

فحسب الله أن يوب عليه وعاقبته عظيمة من حيث تسوية وتأخير فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فان تدارك الله فضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الحاجة مسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تعذر على التفتحه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دله تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضرب الرجاء في حقه وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادته الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة ب تناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول قه النفس التي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قهية بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا القلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها - فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدما والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (١) فاذن الخوف من الحاجة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المهذور ودامت الحشرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويمر بمرحلة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصيرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفارغة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاجة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يحمده وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب الغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في الواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من أجز استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا زعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر الغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير مالك سبيل الغفرة بعد عند آرباب القلوب من المعتوهين والعجب من عقل هذا المعتوه وترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ بأصمك وكنكك
التامة من شر عذابك
وشر عبادك وأعوذ
بأصمك وكنكك التامة
من شر ما يجري به الليل
والنهار إن ربى الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم
ويقول بعد الر كنتين
الأولين اللهم إني
أصبحت لأستطيع
دفع ما أكره ولا أملك
نقع ما أرجو وأصبحت
مرتهنا بعملى وأصبح
أمرى بيد غيرى فلا
تقير أقرمى اللهم
لا تشمت بى عدوى
ولا تنس بى صديقى
ولا تجعل مصيبتى فى
دينى ولا تجعل الدنيا
أكبر همى ولا مبلغ
على ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تعتسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهيء به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره سبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يطم الغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيها جميعا وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يستقدانه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفئور عن كسب المال ومقتضاء الفتور عن العمل للملك القيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فتعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحا - أمى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فتعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء القلب والمآب.

(يان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلمام بحكم الانفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك للعبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق للذنوب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمم بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان الفحوص عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الافلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وعمره مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين^(١) وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات^(٢)

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في السكبري للنسائي مرفوعا وموقوفا قلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الوقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحم الله إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النعم ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل عمله في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلّيها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية ^(١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات ^(٢) » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فبلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهتد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للاستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله ^(٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكنا ^(٤) . فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الفضلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نفوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتغاله في سؤال الغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فصلاح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تعمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة ^(٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جالس منها جلس الرجل من أمراته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدية فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طرقي النهار - الآية وإسناده جيد ^(١) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر الحديث ^(٢) حديث إن رجلاً قال يا رسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث ^(٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزى. بربه وسنده ضعيف ^(٤) حديثا بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفع الترمذي من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه ابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس ^(٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تهدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجل فيه
الحيرة . ثم يصلى
ركعتين أخريين يقرأ
في الأولى سورة الواقعة
وفي الأخرى سورة
الأعلى ويقول بعدها
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد واجعل
حبك أحب الأشياء
إلى وخشيتك أخوف
الأشياء عندي واقطع
عني حاجات الدنيا
بالشوق إلى لقاءك وإذا
أقررت أعين أهل
الدنيا بدينام فأقرر
عينى بعبادتك واجعل
طاعتك في كل شيء
منى يا أرحم الراحمين
ثم يصلى بعد ذلك
ركعتين يقرأ فيها
شيئا من حربه من
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء . فإن عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من العصية قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الحلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يقفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفسك ثم المعرفة ثم المنابة ثم المصافة ثم الموالاة ثم عمادة السرو وهو الحلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والدكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقالوا ، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية . وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه ، والقصد أن للتوبة ثمرتين إحداها تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه نحو لأصل الذنب بالكيفية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فلا يستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالا تخلو شعيرة تطرح في البران عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجع للبران بأعمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يقل فترفع كفة السيئات فيألك أن تستغفر ذرات الطاعات فلا تأتيا وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تسكس عن الغزل تعلا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري العتوه أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالاضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان الغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يعجز بالذكر والقرآن وقابى غافل . فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا جمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقق وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى في إحدى الكلمتين وبسليم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعانى قوله تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغيبة واللحن والفضول هذا تضيق في الدنيا لأدنى الطاعات وتضيق الآخرة كبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليحضر لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقية الله سواء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقية الله سواء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يعلمون - فإياك وأن تلح في الطاعات مجرد الآفات فتفتت به غيتك عن العبادات فإن هذه مكيدة وروجها الشيطان بلمسته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فأبى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه الكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلا فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم للغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الغفلة لهذه الدقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأضعف الشيطان وتدلى بجبل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كآليل : وافق شن طبقه . وافقه فاعتنقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بأشراك القلب في العمل وتفطن لتقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشارك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذي ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً والظالم للخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال لأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يندم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القريين. فإن هذه أمور ثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقرُوا منها شيئاً فاعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقرُوا منها شيئاً فاعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقرُوا منهم أحداً فلعلمه ولي الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء قريباً كانت الإجابة فيه .

(الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز زنادر: والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورضه وإبطاله ولا يطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلادواء إذن للتوبة إلا المعجون بسجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الحل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيجمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار فاذن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بينهما .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يحتم القرآن في الصلاة بين اليوم والليلة وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم يجعلها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الأسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المصية وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الايمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصفى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضررة على الجملة حتى يفلت عليه الخوف في ترك الاحتياء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتياء ووزانه من الدين الاصغاء إلى الآيات والأخبار المشتعلة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلحق إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف القوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصفى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتياء عنه ليعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتياء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم وعبر ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فاتهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قسيسا متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار الرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرض الأبدان ثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يصلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم واليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد اللوت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتلت النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها فذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ويجهد في علاج مرض البدن من غير انكسار . والثالثة : وهو الداء الضال قد الطيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا همزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيد مرضا لأن الداء للهالك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فبالكم تأمرون بالعلاج وتنفسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء واقطع الدواء وهلك الخلق لتقعد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفتن الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا الميخشا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ولتهم سكوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهملهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذلك لئلا يذلل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من يد جراءة على العاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا وأخانا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك الصر على الذنوب الشهي للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط والياس استعظاما لذنوبه التي سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور السترسل في العاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المهرور بالمثل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فأذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر مافي القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا علموا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا بما علموا تابوا بما عملوا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب الميخ صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاء فإنكما لم تخلفاه ولو خلقتهما لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده الحديث وفيه ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والقرب صلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرّ الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

فذلك معنى قوله تعالى - إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلّت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها ^(١) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطابع ^(٢) » وقال الحسن : إن بين البد وبين الله حدا من العاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقه بعدها لحير والأخبار والآثار في ذم العاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه ^(٣) .

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من العصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدت عورته فاستجعا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعاً عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصائي قال فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال هذا أول شؤم العصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلم ملكه أربعين يوماً فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فاني سليمان بن داود شيخ وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الحاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذرت إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى أن الاسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فإودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستصم قال فنبأ الله بركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بركي العاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قيصة نظرة وكان جديداً فكانه أعجبه قال فوضعت الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطعمك إذا أظمت الله .

حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة بمضي فيه وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً وقلبا وقالباً وإلا فإطماناً وترتيب ذلك أنه يصلى مادام منشرحاً وقسمه عجيبة فإن سم ينزل من الصلاة إلى التلاوة فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فإن سم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقاب واللسان فهو أخف من القراءة فإن سم الله ذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه الراقبة والمراقبة على القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدي وابن حبان في الضمراء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة . قلت هكذا قال الصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث عمرو بن الحرث قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما ولا أمة ولا مسلم من حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما ولا أمة ولا مسلم من ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم في العلم .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأمصار بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب السكبار ، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأستقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنبه على ألسان الصالحين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها تعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ^(١) » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا ^(٢) » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه وقصا في المال إثمًا للعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرم من رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المشكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يعقته الله تعالى لثمته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ققام وهو يمشى في وسط الوحل ويبكى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجهنمها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتى وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحسنة كيف خلقت للنار فقمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحد أصلا جماعة إلا بذنب يذنبه وفى الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم ^(٣) » وفى الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أنصنع

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبا أنكرتم من أعمالكم البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء

الذكر وأفضله فإن عجز عن ذلك أيضا وتعلمته الوسواس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فليتم فى النوم السلامة وإلا فكثرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير إسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر بباطنه كما يعتبر بظاهره فانه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد

بالعبء إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيت مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى غامراً قابى هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غشاه في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيـد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فاستترت نفسك بشهوة حتى استولت عليك رقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلو لا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فصبرت كيف علم بذلك وهو يبتدأ وأنا بالركة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجهه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقيماً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يحاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالزنا والسرقة والقتل والفيـسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ولتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تكثر على قال لا تغضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يتذر منه (٣) » وقال رجل لمحمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب قهء عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيماً كن لك الجنة وعيافاً فكأنه تفرس فيه آثار القظاظ والغلاظة . وقال رجل لبراهيم بن آدم أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هاني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما صنع بالعبء إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر على قال لا تغضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يمجهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإتياء

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس» (١) والسلام عليك فانظر إلى قهها كيف تعرضت لآفة التي تكون الولاية بصدها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاهك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغتوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الالفة ليسكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير محكمة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت لإلأمن خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضولك كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تغالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمس في غير أرب ولا تسأل عمالا عنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتهم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل ما لوجاءك الموت فرائته غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرائته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن قناعا ولا تكن ضاررا واتزع عن اللجاجة ولا تش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تدير الخطأين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل للحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل للحمد للآفاف أوصني فقال اجعل لديك غلافا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا ما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا ما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : أما بعد ، غف محاورك الله واحذر محاذرك الله وخذ محافى يديك لما بين يديك فعد الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المفضعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يفتر من لا علم عنده فكفى فيها يأمر المؤمنين كالدواوى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكفه الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

من نوم النهار تجدد
في الباطن نشاطا آخر
وشفا آخر كما كان
في أول النهار فيكون
للصادق في النهار نهاران
يغتنمهما بخدمة الله
تعالى والدؤوب في العمل
وينبغى أن يكون
انتباهه من نوم النهار
قبل الزوال بساعة
حتى يتمكن من
الوضوء والطهارة قبل
الاستواء بحيث يكون
وقت الاستواء
مستقبل القبلة ذا كرا
أومسبحا أو تاليا قال الله
تعالى - وأنتم الصلاة طرفي
النهار - وقال - فسبح
بحمد ربك قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها -
قبل قبل طلوع
الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الهاء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرمطة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فممتهم وأما أعداؤه فمفترتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، قد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحدا فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته فهذه اللواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الاتفاع بها ولأجل قد مثل هؤلاء اللواعظ انهم باب الاتعاض وغلبت العاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف وللتسمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره وإنما تناول ذلك إما لتفاته عن مضره وإما لشدة غلبة شهوته فله سبيلان فإذ كرهناه هو علاج النفقة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضررته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يذهب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا يدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يبالغ الشهوة في العاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى الخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول له لذائذ الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وانتكار أو عن مماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الله كثر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتنام الفهم وينبعث من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر واتبعت الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فانتفى وانتظر الثواب وصدق بالحسن فييسره الله تعالى ليسرى ، وأما من بغل واستغنى وكذب بالحسن فييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا المشرح طرق الهدى وإعناؤه الآخرة والأولى . فإن قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعالم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان اذ كل مؤمن مصدق بأن العصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أجهدها أن العقاب الموعود غيب ليس محاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتقاد والإلف والمادة طيبة خامسة والتزوع عن

وقبل غروبها صلاة
العصر - ومن آتاه
الليل فبصبح - أراد
العشاء الأخيرة
- وأطراف النهار - أراد
الظهر والغرب لأن
الظهر صلاة في آخر
الطرف الأول من
النهار وآخر الطرف
الآخر غروب الشمس
وفيها صلاة المغرب
فصار الظهر آخر
الطرف الأول والمغرب
آخر الطرف الآخر
فيستقبل الطرف الآخر
بالقطة والتذكر كما
استقبل الطرف الأول
وقد عاد بنوم النهار
جديدا كما كان بنوم
الليل ويصلى في أول
الثوال قبل السنة
والفرض أربع ركعات

العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمسكاره وحفت النار بالشهوات (١) » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها خلفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يقي أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها خلفها بالمسكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد (٢) » فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المال سيان ظاهرا في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة قلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهم عليه الألم المنتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق لقوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فلو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان، نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس قدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكيا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذر الطيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر. فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناسين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شركائه نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذ كر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألم لحظة إذ لم يخف ما بعده ومفارقة الدنيا لا بد منها فتكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أرلا وأبد أفلي نظر كيف يبادر إلى ترك ملاذنه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكير يمينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا لا أبدا وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنفصمها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجها بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لأن التسويف يبين الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلهذا لا يبقى وإن بقي

(١) حديث حفت الجنة بالمسكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم ومعه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

بتسليمه واحدة كان
صليها رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهذه
صلاة الزوال قبل الظهر
في أول أوقاتها و يحتاج
أن يراعى لهذه الصلاة
أول الوقت بحيث
يفطن للوقت قبل
المؤذين حين يذهب
وقت الصلوة
بالاستواء فيشرع في
صلاة الزوال ويسمع
الأذان وقد توسط
هذه الصلاة ثم يستعد
لصلاة الظهر فإن وجد
في بطنه كدرا من
عجالة أو عجلة
اتفقت يستغفر الله
تعالى ويتضرع إليه
ولا يشرع في صلاة
الظهر إلا بعد أن يجد
الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الخيال إلا الغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتیاد فليست الشهوة التي أكرهها إلا أن الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين الثمانيين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق وماء مال للسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فراهاقوية لا تنقلع إلى عسقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العزور على كثر في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره . وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأمصار أن مثل ذلك وقع فأتانا أنتظر من فضل الله مثله فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند ترك طعامك في البيت لحظة أنه ولدت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطمعة فيقول أتركه لاحالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا نبيحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمملوءة بالدرة وقدرنا طائر ايلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الدرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحي المعري :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إليك
إن صح قولك فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليك

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قالت فقد تخلفنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت أي الماقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال ألقول هجرت الفكر فيها واستقلت بها وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المنافع من الفكر

من الصفاء والداقون
حلاوة الناجاة لا بد أن
يجدوا صفو الأنس في
الصلاة ويتكبدون
ببسير من الاسترسال
في اللباح ويصير على
بواطنهم من ذلك عقد
وكدرو قد يكون ذلك
بمجرد الخاطلة والمجاسة
مع الأهل والولد مع
كون ذلك عبادة
ولكن حسنات الأبرار
سيأت القربين فلا
يدخل الصلاة إلا
بعد حل العقد
وإذ هاب الكدرو حل
العقد بصدق الانابة
والاستغفار والتضرع
إلى الله تعالى ودواء
ما يحدث من الكدر
بمجالسة الأهل والولدان
أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم القيم وهذا الفكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وعامن إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حياته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر ينمعه من ذلك ، وأما علاج هذين للأعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما جده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقفه فكيف تصبر على مقاماته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مغوا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فأنه لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريرة الدور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن العاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بعمرته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة لما عودتها تعود والخير عادة والشر لاجبة ، فاذن هذه الأفكار هي الهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر مواقفا للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع المواقفة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقدروى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لمي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما ذابني ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعصى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت الملباء ومن عمى نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب ، فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(وهو الكتاب الثاني من ربيع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المفرد براء الكبرياء ، للتوحد بصنات المجد والعلاء ، الويد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محرومة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والاعتناء [أما بعد] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإيمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً فاجل هو بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل
الركعون بل يسترى
القلب في ذلك نظرات
إلى الله تعالى فتكون
تلك النظرات كفارة
لتلك المجالسة إلا أن
يكون قوى الحال
لا يحجبه الخلق عن
الحق فلا يعتقد على
باطنه عقدة فهو كما
يدخل في الصلاة
لا يجدها ويجد باطنه
وقلبه لأنه حيث
استروحت نفس هذا
إلى المجالسة كان
استرواح نفسه منغمرًا
بروح قلبه لأنه يجالس
ويخالط وعين ظاهره
ناظرة إلى الخلق وعين
قلبه مطالعة للحضرة
الإلهية فلا يعتقد على
باطنه عقدة وصلاة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مآبه الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مآبه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا وقال تعالى - ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يوفى الصابرون وأجرهم غير حساب - ثم من قرأه إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى «الصوم لي وأنا أجزى به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصر على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربي بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يحصها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتدبون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» (١) على ما سأتى وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافق كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بحدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظهر بكل أنواعه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - (٢) الآية وروى جابر أنه سئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة» (٣) وقال أيضاً «الصبر كنز من كنوز الجنة» (٤) وسئل مرة «ما الإيمان فقال الصبر» (٥) وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة» (٦) معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والحطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

نزول التي ذكرناها
تحل الصدق وتهيب
الباطن لصلاة الظهر
فقرأ في صلاة الزوال
بقدر سورة البقرة
في النهار الطويل وفي
القصر ما يتيسر من
ذلك قال الله تعالى :
وعشوا وحين تظهرون -
وهذا هو الإظهار فان
انتظر بعد السنة
حضور الجماعة للفرص
وقرأ الدعاء الذي بين
الفريضة والسنة من
صلاة الفجر فحسن
وكذلك ماورد أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دعا به إلى
صلاة الفجر ثم إذا
فرغ من صلاة الظهر
قرأ الفاتحة وآية
الكرسى ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»^(١) وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟ فمكتوا فقال عمر بن الخطاب نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا انشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «فى الصبر على ما تكره خير كثير»^(٣) وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبر كم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»^(٤) والأخبار فى هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال صلى الله عليه وسلم : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم العبدان وأعمت الملاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة وبالملاوة الهدى والملاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - بكى وقال وأعجباه أعطى وأثنى أى هو العطاء للصبر وهو الثنى . وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث الثقل وأما من حيث النظر بين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إنما تنظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هى الأصول وهى توزن الأحوال والأحوال ثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مظهر فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على السكل كإذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللاتسكة والإنس والبهايم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك فى البهايم ولللائكة أما فى البهايم فلتنقصانها . وأما فى اللاتسكة فللكمالها ويانه أن البهايم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى نبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما اللاتسكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أؤمنون أنتم فمكتوا فقال عمر بن الخطاب نعم يا رسول الله الحديث الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٣) حديث فى الصبر على ما تكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبرانى من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقيلي .

وعمد ويكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفنا ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما ومن له همه ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئا لله تعالى ثم يحى بين الظهر والعصر كما يحى بين العشاءين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ومن دام سهره ينام نومة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر ولو أحيا بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يطلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه تمييز بموثة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة الصالح المتعاقبة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا تطلب إلا الاندب . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجل ومعرفة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل يشمره حال يسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عداوا قاطعا لطريق الله تعالى فإذا قوى يقينه أغنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عداوا قاطعا لطريق الله تعالى فإذا قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والأيمان فتصبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للسكان هما التكفلان بهذين الجندين بأذن الله تعالى وتسخير إياهما ، وهما من الكرام السكاتبين وهما للملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك القوي لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنب الدست ، ينبغي أن يكون مسلما له فهو أذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . ولعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى* إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب أقباله حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسمى* إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بآبائهما فلذلك سميا كراما

أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وإن أراد أن يحج هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بشترين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال إذا كان صائما وإن لم يكن صائما فأى وقت خير فيه الفم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قبل إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأين

كاتبين أما الكرام فلا تنفع العبد بكرمها ولأن الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلا ينالهم الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطبهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات قد قامت قيامته ^(١) » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيئا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمة الخلق وفيها يساق للتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والحوال الأول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تتزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت يبللة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده قد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما ينشعر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزلة أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تغشاها إذ ليس يتزلزل به بدنك فخطك من زلزلة الأرض كلها بزلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترباك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك ومعمك وبصرك وسائر خواصك نجوم جهاك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فإذا رمت العظام قد سفت الجبال نسفا فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فإذا بطل معمك وبصرك وسائر حواسك فقد انكسرت النجوم انكسارا فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلًا فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فدت حتى ألفت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يحسك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انشترت حواسك التي بها تنفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لا ينفعها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فلا انجلاء بعد ذلك حصه غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما على جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماؤه فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والحوال بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونعت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طوكتا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات قد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلتين في صلاته في
عشرين ركعة في كل
ركعة آية أو بعض آية
تقرأ في الركعة الأولى
ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة
حسنة وقنا عذاب
النار - ثم في الثانية
ربنا أفرغ علينا صبرا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين -
ثم - ربنا لا تؤاخذنا
بإخراة السورة ثم - ربنا
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم
ربنا إنا سمعنا ناديا
ينادي للإيمان - الآية
ثم - ربنا آمنا بما
أُنزلت - ثم - أنت
ولينا فاغفر لنا - ثم
فاطر السموات
والأرض أنت ولي -
ثم - ربنا إنا نكلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنبذة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه الصبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور إلـدجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا »^(١) أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت »^(٢) أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيطنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جيع لدينا محضرون ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى الفرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعـث الدين في مقاومة باعـث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيدة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على صمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا صمت في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بالفظ اللهم أعنى على سكرات الموت .

ما تخفى وما نعان -
الآية ثم - وقال رب
زدني علما - ثم - لا إله
إلا أنت سبحانك - ثم
- رب لا تذرنى فردا -
ثم - وقال رب اغفر
وارحم وأنت خير
الراحمين - ثم - ربنا
هب لنا من أزواجنا -
ثم - رب أوزعنى أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على وعلى
والذي وأن أعمل صالحا
تَرْضاه وأدخلني برحمتك
في عبادك الصالحين -
ثم - يعلم خائنة الأعين
وما تخفى الصدور - ثم
- رب أوزعنى أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على - الآية
من سورة الأحقاف ثم
- ربنا اغفر لنا

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» (١) وأشار إلى أصعبه الكريمين صلى الله عليه وسلم .

(بيان كون الصبر نصف الإيمان)

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلافه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشك لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين للعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يرفقه أن العصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن تزك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما يؤتيه اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لاهل العارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين . باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيق والغضب للهروب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع بمحدود الأعمال والأحوال ونسبها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

(بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتطاعى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والارض العظيم والجراحات المهائلة وذلك قد يكون محمدا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والملمع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلا ويضاده التذمر وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول الغيبي سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولاخواننا الذين -
الآية ثم - ربنا عليك
توكلنا - ثم درب اغفر
لى ولوالدى ولمن دخل
بيتي مؤمنا وللؤمنين
والؤمنات ولا تزد
الظالمين إلا تبارا -
مهما يصل فليقرأ بهذه
الآيات وبالحفاظة على
هذه الآيات فى الصلاة
مواظبا للقلب واللسان
يوشك أن يرقى إلى
مقام الاحسان ولورد
فرد آية من هذه فى
ركعتين من الظهر أو
الصبر كان فى جميع
الوقت مناجيا لمولاه
وداعيا وتاليا ومضليا
والدؤوب فى العمل
واستيعاب أجزاء النهار
بزيادة وحلاوة من
غير سامة لا يصح

الحرم وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سوى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق
الإنسان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه»^(١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى
- والصابرين في البأساء - أي الضيعة - والضراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - أولئك
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ اللعان من
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفا والذي
يسلك الطريق للستقيم وينظر بنور الله يلحظ للعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي
فإنها وضعت دالة على اللعان فاللعان هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع
لا بد وأن يزل وإلى التريقين الإشارة بقوله تعالى - آمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يفلطوا فيها غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يتبع
له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة
هم الأفلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا اقمهم استقاموا فؤلا ولازموا الطريق
للمستقيم واستوتوا على الصراط القويم واطمأنات نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى النادى
- يا أيها النفس الطمئة ارجعى إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى
وتسقط بالكلية المنازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة
وهؤلاء هم العافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقهم شهواتهم وغلبت عليهم شغوتهم فكروا
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليه الإشارة بقوله تعالى
- ولوشئنا لآتيناك كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فغسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عمن
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن
الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي وهذا السكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته فقد صار عقله في يد شهواته كسلم
أسير في أيدي الكفار فهم يستخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمر وحملها وعمله عند الله تعالى
عمل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق السلم أن يكون متسلطا
لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكفار أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل
بالدين وباعث الشياطين وحق السلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

إلا بعد تزكت نفسه
بكمال التقوى
والاستقصاء في الزهد
في الدنيا وانزع منه
متابعة الهوى ومتى بقي
على الشخص من
التقوى والزهد والهوى
بقية لا يندوم روحه في
العمل بل ينشط وتنا
ويسام وتنا ويتناوب
النشاط والكسل فيه
لبقاء متابعة شئ من
الهوى يتقصان تقوى
أوجبة دنيا وإذا صح
في الزهد والتقوى فإن
ترك العمل بالجوارح
لا يفتر عن العمل بالقلب
فمن رام دوام الروح
واستحلاء الذؤوب في
العمل فعليه بحسب مادة
الهوى والهوى روح
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذى هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبيض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنعمته لأن الهوى أبيض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يمد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يظلب جميع الشهوات أو لا يظلب شيئاً منها أو يظلب بعضها دون بعض وتزبل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من هجر عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تعاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المذنب بقينا ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فستيسره لليسر - ومثال هذه القسمة قدرة الصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وبعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانقضت وتسلطت باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورش ذلك مقام الرضا كما سأتى في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولا وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على الصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونقل ومكروه وعمرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نقل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يده ولده وهو يصبر عليه ما كتاكوتن يقصد حرمة بشهوة محظورة قبيح غيرته فيصبر عن إظهار القبرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر عمرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يغفل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذى يوافق هواه .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم .

تزول متابعته والنبي
عليه السلام ما استعاذ
من وجود الهوى
ولكن استعاذ من
متابعته فقال « أعوذ
بك من هوى متبع »
ولم يستعذ من وجود
الشع فانه طبيعة
النفس ولكن استعاذ
من طاعته فقال « وشع
مطاع » ودقائق متابعة
الهوى تثبت على قدر
صفاء القلب وعلو الحال
فقد يكون متبعاً للهوى
باستحلاء مجالسة الخلق
ومكالمهم أو النظر
إليهم وقد يتبع الهوى
بتجاوز الاعتدال في
النوم والأكل وغير
ذلك من أقسام الهوى
التي تبع وهذا شغل من
ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والطفيان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الفراء فصرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجنة محزنة (١) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصة نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسي أن أخذه (٢) » ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرج بها ولا ينهمك في التعم واللذة والهوى واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفى بدنه يذل المعونة للخلق وفى لسانه يذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وإنعابا كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدره ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحاجة والفصد إذا تولاها غيرك أسير من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثانى مالا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أولا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشقى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أمثاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهى مضرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان محتما من إظهاره فإن استشاطته وغيطه عند تقصيرهم فى خدمته واستبداده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاختلاص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان آكل وآثم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والماسك وصلى العصر ويعمل من قراءته فى بعض الأيام والسماء ذات البروج وصمت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدمايل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مجنة مبخلة محزنة أبو يعلى الوصلى من حديث أبى سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قيصة نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويعبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالبنى والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن النّ والأذى قد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونقل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النقل ، وإيتاء ذى القربى هو الرودة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثانى للمعاصى لما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (٢) والمعاصى مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفاً بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصدها الأزرار والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفى علومهم وسيرهم ومناصبهم فإن ذلك فى ظاهره غيبة وفى باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفى الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التى هى فى طبعه ، وهى ضد ما أمر به من العبودية ولا اجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معنادا فى المحاورات يمسر الصبر عنها ، وهى أكبر الوبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لسكرة تكريرها وعموم الأتس بها فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد فى الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد » (٣) فلا يجنبه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسواس فلا جرم يبقى

الصبر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا ويسدّد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين للتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد وللداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتعدت فليترجّح بالتنقل فى أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائى فى الكبرى بالشرط الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم فى آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يعلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهوومه ثم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فنور الوسواس عنه . القسم الثاني ملايرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ككلو أذى بفعل أو قول وجهي عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى - ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون - « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصر^(١) » وقال تعالى - ودع أذاهم وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة جليلا - وقال تعالى - ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك^(٢) » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على الصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا^(٣) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قل الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميزانا وأأشهر له ديوانا^(٤) »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على وضوء . وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسي الله لاقوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ؛ وليقرأ الفاتحة وللمؤمنين ولا بدع أن تصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمر أو لقمة فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذى والنسائى والحاكم ومصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بخصية فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أوثرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك ^(٢) » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته قال سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي ^(٤) » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاه الحزين الذي صبر على الصائب ابتداء مرضاته قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزع عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنتم الله على عبد نعمة فأنزعها منه وعوضه منها الصبر. إلا كان ماعوضه منها أفضل مما أنزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا تمنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشئ ربه الله في النارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا أحباؤك جاءوك زارين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي ، وكان بعض العارفين في جيهة رقعة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك - أيمنا - ويقال إن امرأة فتحت الموصلي عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجددين الوجع فقالت إن لغة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك ^(٥) » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفة صرة فافقدتها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقك ماء فقال جرتني قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فإني صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر سالك طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاة في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي بن عيسى وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بخصية فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته الحديث الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسطلي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضه منهما الجنة رواه ابن عبيد وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كرمي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري وعبد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوف على أبي هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في الرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بخصيتك ولا بوجهك ولا تزكي نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من الصبر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجرع وشق الجيوب وضرب الحدود والمبالغة في الشكوى وإظهار السكابة وتغيير العادة في اللبس والفرش والطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يحتجب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويستند أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فهاأت له إفطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بشي ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من اقه تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك في السجدة سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فاذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجليل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى الموت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجیح يمزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أباه له . واعلم أن الساضى قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذن مهمادفع السكراة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضيق زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه بل يقدر التحالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عمايتهم لئلا يهملون به

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت الحديث طيب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبعمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة

في محالته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حر كجنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطينة طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف للملعون المخلوق من النار أن يظمن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فأذن حيث لم يسجد للملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يظمع في سجوده لأولاده ومهما كلف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر اتقياده وإذعانه بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون عن قيده عالم الشهادة بالسكينة عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من النظيرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهو منك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فند ذلك تكون من عباد الله الخالصين الداخلين في الاستثناء عن سلطة هذا الأمين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سبال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدرح فانك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت في غير مطعم بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بغيرهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان والإفطن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قريب إلا الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يغيض الشاب الفارغ» (١) وهذا لأن الشاب إذا تطل عن عمل يشغل باطنه يباح يستعين به على دنسه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهنوتك وهي صفة تفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذن حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حر كة مذمومة وحر كة باطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه .

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذي أزل الداء أزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقا أو تمتعنا فتحصيله ممكن يصحون العلم والعمل فالعلم والأخلاق التي منها تتركب الأدوية لأمر أراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك عما يطول

(١) حديث إن الله يغيض الشاب الفارغ لم أجده .

مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتي عشرة مرة بأنواع الذكر . وتقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واللييلة وتقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم واللييلة وليقل مائة مرة بين اليوم واللييلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسيبيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللذيذة للشهوة . الثاني قطع أسبابه للبهجة في الحال فانه إنما ينجح بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظر سهم مسموم من سهام إبليس »^(١) وهو سهم يسدده ملعون ولا ترس يمنع منه إلا تعميض الأجفان أو الحرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشبهه وذلك بالنكاح فان كل ما يشبهه الطبع في الباحات من جنسه ما يفتنى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء »^(٢) فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته . الثاني يضاهي تغيب اللحم عن النكب وتغيب الشعر عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهي تسليتها بشئ قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فاعلمت تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائد المجاهدة وممراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه لإمداد الحياة وحصل له ما يبقى بعده وموته أبد الدهر ومن أسلم خيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة تضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإثما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها فان الاعتياذ والممارسة للأعمال الشاقة تؤد كد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحالمين والفلاحين والعاقلين وبالجملة تقوية الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الحياطين والخطارين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قواهم لم تتأكل كد بالممارسة فالعلاج الأول يضاهي أطماع المصارع بالحمامة عند الغلبة ووعدده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام موسى حيث قال - وإنكم إذا لمن القربين - والثاني يضاهي تعويد الصبي

سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان للثان سبحان الله المسيح في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قللت ما سمكت فقال مهليئلا قللت ما نواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . وروى أن عثمان رضى

(١) حديث النظر سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يانس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالسكينة المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والله كرو الفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصبر المصوم بها واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بمجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد المتواصلة الترتيب في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات وبحاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد والظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يغلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع المشاغلة . وأما النوع الثانى فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهيتها ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يغلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملة أو واقعة في تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر غيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والالتناء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك مجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولود راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، ثم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو الراد بقوله **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ** وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المهل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا عطر ولا يدري متى قدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغني سنة عن مطر فكذلك فلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدبار رحمته حتى

الله عنه سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عن تفسير قوله تعالى
- له مقابل السموات
والأرض - فقال سألني
عن شيء عظيم ما سألني
غيرك هو لا إله إلا الله
والله أكبر وسبحان الله
والحمد لله ولا حول
ولا قوة إلا بالله عز وجل
وأستغفر الله الأول
الآخر الظاهر الباطن
له الملك وله الحمد لله
الحق وهو على كل شيء
قدير من قالها عشرا
حين يصبح وحين
يمسي أعطيت حسنة
فأول حسنة أن يحرس
من إبليس وجنوده
الثانية أن يعطي قنطارا
من الأجر الثالثة يرفع
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار الكاشفات والطائف المعارف من خزائن
الملوك أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل
الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بملاتك وشهواتك فصار ذلك
حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من
باطن القلب واطهار ماء الأرض بمحرف القى أسهل وأقرب من استرسال إليها من مكان بعيد منخض عنها
ولكونه حاضراً في القلب ومنسيا بالثقل عنه ممي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكر افعال تعالى
- إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد
يسرنا القرآن لذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات
الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا
إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب
شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق
على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب الذات في
الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب الذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية
والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمر الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى
- قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب
تمرير الشيطان العين للبعد عن طام الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه وكيف يكون
مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلا بقاء لافناء فيه وعزا لادله فيه وأمثالاً خوف فيه
وغنى لا فقر فيه وكالآلات نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل
حق كل عبد أن يطالب ملكاً عظيماً لا آخر له وطالب الملك طالب لأمورهم وزوال الكمال لا محالة ولكن الملك
ملكاً كان مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك محله
دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان محجولاً رغباً في العاجلة فجاء
الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغوا به العاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة
الحق فوعده بالفرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال عليه السلام «والأحق من أتبع نفسه
هو أها» وتغنى على الله الأمانى فأنخدع المخدول بفروره واشتغل بطالب عز الدنيا وملكمها على قدر إمكانه ولم
يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فبصر عن المخدولين بقوله تعالى - كلا
بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوماً
تقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -
ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما هم على الخلق
من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل
له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل
الله إنا قلتم إلى الأرض أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -
فالتوراة والإنجيل والفرقان ومحمد موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما نزل إلا لدعوة
الخلق إلى الملك الدائم الخلد والبرور والفرقان ومحمد موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما نزل إلا لدعوة
فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه وعزا
لاذله فيه وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك
الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يموت به إذ الدنيا والآخرة خمرتان ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من
الخور العين الخامسة
أثنا عشر ملكاً
يستغفرون له السادسة
يكون له من الأجر كن
حج واعتبر ويقول
أيضاً في هذا الوقت وفي
أول النهار اللهم أنت
خلقتني وأنت هديتني
وأنت تطعمني وأنت
تسقينني وأنت تهيئني
وأنت تحييني أنت ربي
لا رب لي سواك ولا
إله إلا أنت وحدك
لا شريك لك ويقول
ما شاء الله لا قوة إلا بالله
ما شاء الله كل نعمة
من الله ما شاء الله الخير
كله بيد الله ما شاء الله
لا يصرف السوء إلا الله
ويقول حسبي الله لا إله
إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول المصوم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزمنت وطن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن يترك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخنته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الانسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك فقال كيف قادم أنت عبده فهو عبدى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك في الآخرة فالجهد وعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتليسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجوه ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثانى أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى أن يبدلها بتقاضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده ضده فلامعنى للمعالجة إلا المضادة - الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسل نفسه ببعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التى رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهرا أبقي (١) » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه (٢) » فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فأعذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التى فصلناها من قبل فإن تفصيل الآحاد بطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

وهو رب العرش العظمى
ثم يستعد لاستقبال
الليل بالوضوء والطهارة
ويقرب المسببات قبل
الغروب ويديم
التسبيح والاستغفار
بعث تغيب الشمس
وهو في التسبيح
والاستغفار ويقرأ عند
الغروب أيضا والشمس
والليل والعبادتين
ويستقبل الليل كما
استقبل النهار قال الله
تعالى - وهو الذى
جعل الليل والنهار خلفه
لمن أراد أن يذكر أو
أراد شكورا - فكما
أن الليل يعقب النهار
والنهار يعقب الليل
ينبغى أن يكون العبد
بين الذكر والشكر
يعقب أحدهما الآخر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه تقدم فيه .

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتعكس أمره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والدقوق وله نظير في العادات فان الصبر يعمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشقى عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ قال الصبر في الله تعالى قال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فليس ؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه :
والصبر عنك لهدوم عواقبه والصبر في مائر الأشياء محمود
وقيل أيضا : الصبر يعمل في للوطن كلها إلا عليك فانه لا يعمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسواره .

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر ، وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه . الثاني : في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذکر في كتابه مع أنه قال - وقد ذكر الله أكبر - فقال تعالى - فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم - وقال تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين - لأتقنن لهم صراطك المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق قال: ولا نجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالزيادة مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والاجابة والرزق والنفرة والتوبة فقال تعالى - فسوف ينصبيكم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ماتعدون إليه إن شاء - وقال: يرزق من يشاء بغير حساب وقال : ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال : ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين - وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(١) وروى عن عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك وقالت وأى شأنه لم يكن محباً أنا في ليلة قد دخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لسكني أوثرهوا فكأذنت له فقام إلى قربة ماء فوضاً فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فكأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر قال أفلاً أكون عبداً شكوراً ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطعام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنان وفي إسناده اختلاف.

ولا يخللها شيء كما
لا يخلل بين الليل
والنهار شيء. والدكر
جميعه أعمال القلب
والشكر أعمال
الجوارح قال الله تعالى
- اعملوا آل داود
شكرا - والله الموفق
للمعنى .

[الباب الحادى
والمحسون فى آداب
المرید مع الشیخ]
أدب المریدین مع
الشیوخ عند الصوفیة
من مهام الآداب
وللقوم فى ذلك اقتداء
برسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه
وقد قال الله تعالى
- یا ایها الذین آمنوا
لا تقدموا بین یدى الله
ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى على - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجابه ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً . وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادي يوم القيامة ليقم المحادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن المحادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إن رضيت بالشكر مكافأته من أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أمزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل في الكنوز ما نزل . قال عمر رضي الله عنه « أي المال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لساناً ذا كراو قلباً شاكراً (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن اللسان . وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان .

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بالنعامة والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبو به ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقها وبذات النعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط ثم يسخر من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتقار بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجيباً الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله عليه السلام ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب وأصححه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجيباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادي يوم القيامة ليقم المحادون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة المحادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلاً في الصحيح من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه الحديث وتقديم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لساناً ذا كرا وقلباً شاكراً الحديث تقدم في الشكاح .

الله صميع عليم - .
روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو بكر أمر القمقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافتك قهارياً حتى لترتفع أصواتها فأنزل الله تعالى على أهلها الذين آمنوا - الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فبهوا عن تقديم الأضحية على

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقله وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والحازن أيضا مضطربان من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الحازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فإن الله تعالى هو السلطان الدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت كالحازن المضطرب الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطرب إذ سلط الله عليه الإزادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه القصد عنده في الخلق والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لنفسه لا لغيرك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن نفعه في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطربا إلى الإيصال إليك فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت أن الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه العرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الشكر منه فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأجل. الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل للعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فأكبره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكبي لاتسبقوا رسول الله يقول ولا فصل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لاتقدموا لاتمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالنعم لا بالنعمة ولا بالإعانة، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فاضرب لك مثالا فقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجد في سمراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح. الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشقيقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في سمراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل الحل في قلب الملك. الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بمخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يحطيه فرسا ويعتق به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظره صاحبها تصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطى، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها للذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الإعانة في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدرها على التوصل إلى القرب منه تعالى والوصول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا. وأما رتبة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها للذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهم لمج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية النعم لا رؤية النعمة. وقال الحواص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدرجات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل:

ومن يك ذا فم مريض يجهد مرآ به الماء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فعمري، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية. أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكيف من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه. الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه. وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت
أمشي أمام أبي بكر
فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تمشي أمام من هو خير
منك في الدنيا والآخرة
وقيل نزلت في أقوام
كانوا يحضرون
مجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فاذا سئل الرسول
عليه السلام
عن شيء خاضوا فيه
وتقدموا بالقول
والفتوى فهو عن
ذلك وهكذا أدب
لاريد في مجلس الشيخ
ينبغي أن يلزم السكوت
ولا يقول شيئا يحضرته
من كلام حسن إلا
إذا استأمر الشيخ
ووجد من الشيخ
فسحة في ذلك وشأن

الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر العيين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون ونيهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تصبح الشكوى من ملك للملك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والتضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلى والقادر على إزالة البلاء وذلك العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فانتفوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبير الكبير فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسنة لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلنا إلينا فضلك وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك وإعما نحن وفدا لشكر جثائك نشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة النعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلا إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تنفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عمالهمهم أو يتكلمون بما يروونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يقتل بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته .

للريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فتطلعه إلى الاستماع وما يريزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فإنا نشكر للملوك إما بالثناء ليزيد مجدهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تسخير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والخسمة بالثناء والإطراء وعن تسخير سواد الخدم بالثول بين يديه ركما سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه يضاهاى شكرنا الملك للنعم علينا بأن نام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تعطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة نعمة ولو أعطانا الملك مراكوبا فأخذنا مراكوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مراكوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكركم لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة منى رضى منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم العاملة ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذلك لم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميثنى حيث قرئ بين يديه - يحبه ويحبونه - فقال لعمرى يحبه ودعه يحبه

وهو عند حضور
الصادقين يرفع قلبه
إلى الله ويستنمطر
ويستسقى لهم فيكون
لسانه وقلبه في القول
والنطق مأخوذين إلى
مهم الوقت من أحوال
الطالبين المحتاجين إلى
ما يفتح به عليه لأن
الشيخ يعلم تطلع
الطالب إلى قوله
واعتداده بقوله
والقول كالبذر يقع في
الأرض فاذا كان
البذر فاسدا لا ينبت
وفساد الكلمة بدخول
الهوى فيها فالشيخ
ينقى بذر الكلام عن
شوب الهوى ويسلمه
إلى الله ويسأل الله
المعونة والسداد ثم يقول
فيكون كلامه بالحق

فبحق محبتهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لانفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يغني عليك أن الصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعه فان أحبه لما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتبصر الصوفية عن هذه الحالة بخفاء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريية أذرع ولله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجاهل بلهائم بمعاني كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظرين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسما قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم نقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقام به ولم يقتصر واطل هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الموجد وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو الوجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عصى ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عمها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتنا بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى الهو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي السجدة الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم السكالكون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأفلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأنفى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز :

من الحق للحق فالشيخ
للمريدن أمين الإلهام
كما أن جبريل أمين
الوحي فكما لا يغون
جبريل في الوحي
لا يغون الشيخ في
الإلهام وكما أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
لا ينطق عن الهوى
فالشيخ مقتد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
ظاهرا وباطنا لا يتكلم
بهوى النفس . وهوى
النفس في القول
بشيئين : أحدهما طلب
استجلاب القلوب
وصرف الوجوه إليه
وما هذا من شأن
الشيخ . والثاني ظهور
النفس باستحلاء
الكلام والمعجب وذلك
خيانة عند المحققين

لكلّ إلى شأو الملا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قيل له «واسجد واقترب» - قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) فقوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأنفاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقرب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستعيذا ومثليا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» يان أنه للثنى والثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شئ هالك إلا وجهه - فكان أوّل مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستعبد بفعل من فعله فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصا في سواكه وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (٢) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أوّلها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا» (٣) «مضاء أفلا أكون طالبا للزيد في القامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تفلطنا في جوار للكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم العامة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة للخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرح كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك التمام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والشكور ولا يعرف ذلك إلا بالثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعده من مركوبا وملبوسا وهذا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقبله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بغية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه .

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشفه مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيصكون الشيخ لما يجرىه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناء وغيبته لاتقص من ملكه فيكون قصد من الإناعام عليه بالمركوب والراد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وابتغاه فأنزل البعاد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنقذه إليه مولاه فيها أحبه لأجله لأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهم حالس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في عبته : أي فيما أحبه لعبده لأنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لأنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته إذا أهملها وعطّلها وإن كان هذا دون ماله بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدر على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آليات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لمواقفة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أوعاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سرّ القدر الذي منع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضا ينحل الثاني فانالم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محلّه فقد أثني عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أثني وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة عبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجد له ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئة لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شيء إذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخالق مجارى قدرة الله تعالى وعمل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في المنام كأن قائلا يقول له أليس الغواص يوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في محلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل فهم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب للمريد مع الشيخ السكوت والجمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلًا وقيل أيضا في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعمل لقبول فعل الحياة إلا جوهراً ولا يستعمل لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل ممد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتهم معاقبون مذمومون على العصيان وما للإنسان فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالتقون يساقون إلى الجنة قهراً والمجرمون يقادون إلى النار قهراً ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين العاقلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء النادى - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن العاقلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للعاقلين من كشف الأحوال حيث لا ينفهم الكشف ، فعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أبواب الهلاك .

(بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ولتميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدر كان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطاع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية . أما الجليلة فكالمعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتبصر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب
وأعزها وبغنى للمريد
أن لا يحدث نفسه
بطلب منزلة فوق
منزلة الشيخ بل يجب
للشيخ كل منزلة عالية
ويتمنى للشيخ عز
النسب وغرائب المواهب
وبهذا يظهر جوهر
الرغبة فى حسن الإرادة
وهذا يعزى للرغبة
فإرادته للشيخ تعطيه
فوق ما يمتنى لنفسه
ويكون قائماً بلحجب
الإرادة . قال السرى
رحمه الله حسن الأدب
ترجمان العقل . وقال
أبو عبد الله بن حنيفة
قال لى روم يابى
اجعل عملك ملحا
وأدبك دقيقا ، وقيل
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لان شقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي عملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صبينا السماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثواب غفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واللبطش واليد للبطش والمشى والرجل للمشى فالأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلى وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاوب والتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - فاذن كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لئلا يهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذا إبصار يتيهما وإنما خلقنا لمبصر يتيهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والسماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية للنفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس للطمشة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك العصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والتكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرام والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامتعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يحجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبدل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بقباب أو عبا يخف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر للامالات جدا فافتقرت هذه الأعيان التنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم به ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التمديل بالتقدين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما انتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في مناه كأنه كل الأشياء والشئ إنما تستوى نسبته إلى الاختلافات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيد بها بخصوصها كالمرآة لالون لها وتعكس كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامتعى له في نفسه وأظهر به المعاني في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيها أيضاً حكم بطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ينتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فأنهما حجران وإنما خلقا لتداولهما الأبدى فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يسجرون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الوجودات بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم - وكل من أخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والسكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفى الحزف والحديد في المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم^(١) وكل من عامل معاملة الرابحى الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا أبحر في عينهما فقد أخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في يمه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى في غيره وموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقبداً عنده وينزل منزلة المكثور وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً .

أخبرنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن طي
قال أنا أبو الفتح
الهروى قال أنا أبو نصر
الترياقي قال أنا أبو محمد
الجراحى قال أنا
أبو العباس الجبوري
قال أنا أبو عيسى
الترمذى قال ثنا محمد
ابن الشئبى قال ثنا مؤمل
ابن إسماعيل قال ثنا نافع
ابن عمر بن جميل الجهمي
قال حدثني حابس بن
أبى مليكة قال حدثني
عبد الله بن الزبير أن
الأقرع بن حابس قدم
على النبي صلى الله عليه
وسلم فقال أبو بكر
استعمله على قومه فقال
عمر لا تستعمله يا رسول
الله فبكى بكاء شديداً
على الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تفرق في الحاجات قليلا قليلا في النعم منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساوى ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذ به بغيره ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذ به بغيره فلا تمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم تمنعه منه ونحكم بأن جيبها ورديئها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحققها أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فاعلم إن مجرد ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقي صورة للمسامحة فيكون له حمد وأجر . والعارضة لاحد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص للمسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فان فتش باب المعاملة فيها يوجب تقيدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم يأتأ كله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليسمه ممن يطلبه بهوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه النعم أسقط الشرع غرض النعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون السكيات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى يرماه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فرائى الشرع التحديد بجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتعير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فمعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حقى علت أصواتها
فقال أبو بكر لعمر
ما أردت إلا خلافي وقال
عمر ما أردت خلافاك
فأنزل الله تعالى الآية
فكان عمر بعد ذلك
إذا تكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم
لا يسمع كلامه حتى
يستغفر . وقيل لما نزلت
الآية آلى أبو بكر أن
لا يتكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم إلا
كأن السرار فكذا
ينبغي أن يكون المريد
مع الشيخ لا ينسبط
رفع الصوت وكثرة
الضحك وكثرة
الكلام إلا إذا بسطه
الشيخ فرفع الصوت
تنجية جلباب الوقار
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة - ومن يؤث الحكمة قد أوتي خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا المثال قصص عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكونك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى قد كفرت نعمة الدين إذ خلق الله لك الدين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك الدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للمصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت للمصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمن فقد خصصت الشرف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متمسكة في حركتك وقسم الجهات إلى عالم يصرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدتك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بلى باصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدرح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة فقيح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يحمل القبلة بمن عينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فيمنعق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يماقب عبده إذا استعمل سكنه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكنين أعزأ ولاد لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان
ما يقول وقد ينازل
باطن بعض الريدين
من الحرمة والوقار من
الشيخ ما لا يستطيع
الريد أن يشبع النظر
إلى الشيخ وقد كنت
أحم فيدخل على عمي
وشيخي أبو النجيب
السهروردي رحمه
الله فيترشح جسدي
عرقاً وكنت أتمنى
العرق لتخف الحمى
فكنت أجد ذلك
عند دخول الشيخ
على ويكون في قدمه
بركة وشفاء وكنت
ذات يوم في البيت
خالياً وهناك مندبل
وهبه لي الشيخ وكان
يتعم به فوق قدمي
على الندبل اتفاقاً قاتماً

لاستعمال السكين بغير إذن حكم ونكابة في نفسه فشكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسيبه هذه الضرورة وإلا فشكل هذه السكارة عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة المبلغه للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في العبد بتقصان القرب وانعطاف النزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهيمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنها تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال العينة على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إلى الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والتمتع ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لقصد الحكمة وعدول عن العدل فإن كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جعل لافداء لأغراض الإنسان فأنها جميعا فانيان هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تصييرها جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بينها لاتفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إلى الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن ثبت ذلك في موات الأرض لا يسيى آدمى اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فله السابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك للملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها راحه فجاء عبد آخر وأراد اتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لاتفى بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يفرد به العبد فتمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمراقه في عباده ولذلك تقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتسكين العوام ذلك يجرى مجرى تسكين الصبيان الوقار والنوذة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه فتركنا الاعتراض عليهم في الحب واللغو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللغو واللغو حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصاد في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جيلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فيحسبكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرأكب فشكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن ركب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأكب وبال عليه

باطن من ذلك وهائل الوطء بالتقدم على مندبل الشيخ وانبت من باطن من الاحترام ما أرجو بركته . قال ابن عطاء في قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم - زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل في ذلك لا تغاطبوه إلا المستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر لا تبدهوه بالخطاب ولا تهيبوه إلا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تغلطوا له في الخطاب ولا تنادوه بأصمعه يا محمد يا أحمد كما ينادى ببعضكم بعضا ولكن غصوه

في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك محتاج إلى مجلدات ثم لانفي إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادى الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثيرهم شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وراء ذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتقام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتعمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فإن البعد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيها سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نعبّر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها فهمها من عرف منطق الطير ويحدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يحول في جو الملكوت جولان الطير فنقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنهه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفافيث عن نور الشمس لانهوض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفافيث فاضطر الدين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم للتناطين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق قفلا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توهم منها أمرا مجعلا عند المتناطين باللغات التي هي حروف وأصوات التفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل إنها مجعلا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجعلا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيفاء حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقتت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاء في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وتقولوا له : يا نبي الله يا رسول الله ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ وإذا سكن الوفا القاب علم اللسان كيفية الخطاب . ولما كلفت النفوس بحجة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهي تحت وقها صاغها كلف النفس وهواها فاذا امتلأ القلب حرمة ووفا تعلم اللسان العبارة . وروى لما نزلت هذه الآية فقد ثابت بن قيس في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدى فقال

بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجلك وأجل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو الثنى على الجمال فهو الثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب والسيئات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبمحت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلف بالبصر أو هو أقرب ففاضت عمار للتقدير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدي إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لما إذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام اللعق وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم لا يستل عما يفعل وهم يسئلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تفسد نار فستل نورا على نور فاشتعل نورا على نور فاشتعلت أقطار للكواكب بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقبل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وأنزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأمنس بكم الضعفاء ويقتسبوا من بقايا أنواركم الشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة غمتلها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة التردد في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب هكذا شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حداما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجروا راء أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصناعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجروا راء آخر فهذه أمور نسبة السيرة إليها إلى السيرة على ما هو محال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للشيء صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لشيء على الهواء (٢) » فهذه

ما يبيحك يا ثابت قال هذه الآية تخوف أن تكون نزلت في - أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسد على الضبة بمسار فضربته بمسار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لشيء على الهواء وهذا حديث منكرا لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبهم قليل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العامية أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قبل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف المباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والإرشاد سباقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعله؟ فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير وفعله الذي رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب المشعب الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وترعق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعب وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعب الذي الأمر إليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيجولون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محررون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفين والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بمدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الحيوط في مناطات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك اللناعات مقابض هي في أيدي الملائكة المهركين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله أمراهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لعلن أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل يمشي على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

أتى عاصم النبي وأخبره
بخبره قال اذهب
فادعه فجاء عاصم إلى
المكان الذي فيه رآه
فلم يجدته فجاء إلى أهله
فوجدته في بيت الفرس
فقال له إن رسول الله
يدعوك فقال اكر
الضبة فأتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما ييك
يا ثابت فقال أنا صيت
وأخاف أن تكون هذه
الآية نزلت في فقال له
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أما ترضى أن
نعيش سيدا ونقتل
شهيدا وتدخل الجنة
فقال قدر ضيت يبشري
الله تعالى ورسوله ولا
أرفع صوتي أبدا على

الراسخين في العلم بعلوم لا تختملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمر بينهن - فقال لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجتموني وفي لفظ آخر قلتم إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العاملة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول : إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعلا في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر المباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب بومانهم إلاولة مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض وبلى درجتهم درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتتم بهم حكمته وأعلامهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبیین وليم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج راع . واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالما فاسقا . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتتكرون ويغدون وما يصلح الله بهم أكثر فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فليعلموا الوزر وعليكم الصبر (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلا إن الله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيقطع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشب السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصية قصون .

(الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر)

وهو النعمة فلندكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وجماعها فيما يخص وبم كان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فتقدم أمور كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشغل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يعرفون وتتكرون ويغدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتتكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أمراء وقال حسن صحيح وللإبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عتبة فقال عبيد الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والإمارة الفاجرة خير من المهرج رواء الطيراته في الكبير بإسناد لا بأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى - إن الذين يغشون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم القيامة في حرب مسلمة قرأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار واتهمت طائفة منهم فقال آفة لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن خديفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعد رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتنمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويبين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائل فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية والأسباب العينة واللذات المسماة نعمة نثرها بتقسيمات [القسم الأول] أن الأمور كلها بالإضافة إلى التقسيم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المال كاللذات بتابع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المال كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمال هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيقا وهو ضدها والنافع في الحال للضرر في المال بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجاهل نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فانه يئده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه والضرر في الحال النافع في المال نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجاهل ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعامل يئده نعمة ويتفقد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجابة والأب يدعو إليها فان الأب لكامل عقله يلح العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلاحظ الحال والصبي لجهله يتفقد منة من أمه دون أيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن منعها إياه من الحجابة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجابة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو [قسم ثانيا] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها قلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه ووسائل الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضرر كقدر الكفاية من المال والجاه ووسائل الأسباب وإلى ماضرة أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكفي ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حق موزع إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه [قسم ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلفة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انتضاء لها فانها لا تتطلب لتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تتطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالدراهم والنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحسب بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجاهل محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنهم مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتمديد الرسول ومراعاته وتفقدته وهو ظاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو لتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصدها أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله ف يريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم
وعليه درع فرأه
رجل من الصحابة بعد
موته في المنام فقال له
اعلم أن فلانا رجلا من
المسلمين نزع درعي
فذهب بها وهو في
ناحية من السكر
وعنده فرس يستن
في طيله وقد وضع على
درعي برمة فانت خالدا
ابن الوليد فأخبره
حتى استرد درعي واثت
أبا بكر خليفة رسول
الله عليه السلام فقل
له إن على ديننا حتى
يقضى غنى وفلان من
عبيدي عتيق فأخبر
الرجل خالدا فوجد
الدرع والفرس على
ما وصفه فاسترد الدرع
وأخبر خالد أبا بكر

من حيث إنها سلامة فإذا نالته قط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالتقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الحيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيد وجميل فاللذيد هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فانهما ناهية وجبلة ولذيدة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وإنما يحس الجاهل بأن جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيدة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك نقصان وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالخمر فانه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لاعتق له فانه لا يهتم بالعاقبة فيسترخ في الحال إلى أن عين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قهراً ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرها وإلى مالا يكون ضرورياً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة] اعلم أن النعمة يعبر بها عن كمال لذيد واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر التسمين باسمهم والترسمين برسومهم وأما شرفها فلائها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ودائمة لا تمهل فالتطامع يشبع منه فيمل وشهوة الوقوع يفرغ منها فتستقل والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمهل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً الآباد إذا رضى بالحسيس الفاني في أقرب الآمال فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإتفاق والمال ينقص بالاتفاق والمال يسرق والولاية يمزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالجزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً ثم العلم نافع ولذيد وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ولذلك فم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سباه خيراً في مواضع وأما قصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس رضى الله عنهما لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه فهذه كرامة ظهرت ثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المرید الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذي يعتمد مع الشيخ عوض ماله كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فإنما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشفق إذ الشوق تبع الذوق وإما الفساد
أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا
وإما لتصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة
العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيدة ولا استطابته اللبن يدل
على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن ذوق لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحس باطنه كالطفل وإما
من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم
مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحس
حياة باطنه وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء
والذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة
يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلفة الرياضة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسد والنمر
وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلفة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا
وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة
تشبت به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمغالبين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب
اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين
ولا ينال تمامها إلا بالخروج استيلاء حب الرياضة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب
الرياضة وأما ثمره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياضة لا يقوى على
كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال
فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس
بلذة الرياضة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية
فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا
تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر
فيه وقلب لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاء والرياضة والمال وسائر الشهوات
البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في
بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه
في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد وأما الثاني
فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فوجدان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك
إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون أكثره في الأعصار القريبة
من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب
الساعة ويقضي الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة
والملك عزيز والملوك لا يكثر فكلما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من
دونهم فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة فإنها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة
عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة
والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى
نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة
فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم
للتقوى - أي اختبر
قلوبهم وأخلصها كما
يمتحن الذهب بالنار
فيخرج خالصه وكأن
اللسان ترجمان القلب
وتهذب اللفظ لتأدب
القلب فهذا ينبغي أن
يكون السريد مع
الشيخ . قال أبو عثمان
الأدب عند الأكابر
وفي محاسبة السادات من
الأولياء يبايع بصاحبه
إلى الدرجات العلا
والخير في الأولى والعقبى
ألا ترى إلى قول الله
تعالى - ولو أنهم صبروا
حتى تخرج إليهم لكان
خييرا لهم - ومما علمهم
الله تعالى قوله سبحانه
- إن الذين ينادونك
من وراء الحجرات

ولكن الانكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة عاكس لعالم الغيب
والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى
عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولى الأبصار - ومنهم من
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حيمه أبواب جهنم وهذا
الحبس مملوء نارا من غائتها أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك أئمتها حجابا فإذا رفع
ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استطعهم بالحق فقالوا
الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر
يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن
للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم -
أى في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أى في الآخرة فإذا ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة
لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح ملك الدنيا .

(قسمة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الثانية فأنها
سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بهاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى
لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عيش إلا عيش الآخرة »^(١)
وقال ذلك مرة في الشدة تسليه للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر - وقال ذلك مرة
في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع^(٢)
وقال رجل « اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم تمام النعمة ؟ قال لا
قال تمام النعمة دخول الجنة^(٣) » وأما الوسائل فتتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى
ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب
اللطيفة بالبدن من المال والأهل والمشيئة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص
الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انتساب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان
إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وإلى علوم للعامة ، وحسن الخلق
ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب وإصمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن
مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان
العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى « أن لا تطغوا في البرزاق
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا البرزاق » فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح
مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر
البرزاق ومن انهماك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في البرزاق وإغما العدل أن يخلو وزنه وتقديره
عن الطغيان والخسران فاعتدل به كفتا الميزان فاذا من الفضائل الخاصة بالنفس القربة إلى الله تعالى أربعة
علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالانواع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يقولون -
وكان هذا الحال من
وفد بن تميم جاء وإلى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنادوا يا محمد
أخرج إلينا فان مدحنا
زين وذمنا شين قال
فسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم فخرج
إليهم وهو يقول « إنما
ذلكم الله الذي ذمه
شين ومدحه زين » في
قصة طويلة وكانوا أتوا
بشاعرهم وخطيبهم
فظمهم حسان بن ثابت
وشيبان اللهاجرين
والأصهار بالخطبة وفي
هذا تأدب للبريد في
الدخول على الشيخ
والإقدام عليه وتركه
الاستعجال وصبره إلى
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث
قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة الشافعي مرسلًا والحاكم متصلًا ومعهه وتقدم في الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنياً هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة الطيبة بالبدن وهي أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا يتنفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأنيده ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافلة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للانسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية . وأما الحاجة النافلة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح البالغ والآلة السهلة للمقصود . أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال ^(٢) » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأتوات وفي تهية اللباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم فقال : ألقى فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(٣) » وأما الأهل والولد الصالح فلا يغني وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له ^(٥) » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فلهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه مالا وانفرد به لطلال شغله وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا من طريقه رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إلا من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صانع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

موضع خلوته . صحبت
أن الشيخ عبدالقادر
رحمه الله كان إذا جاء
إليه فقير زائر يغبر
بالفقير فيخرج ويضع
جانب الباب ويصافح
الفقير ويسلم عليه ولا
يجلس معه ويرجع
إلى خلوته وإذا جاء
أحد ممن ليس من
زمرة الفقراء يخرج
ويجلس معه فخطب
لبعض الفقراء نوع
إنكار لتركه الخروج
إلى الفقير وخروجه
لتسريح الفقير فانهى
ما خطر للفقير إلى
الشيخ فقال الفقير
رابطتنا معه رابطة
قلبية وهو أهل وليس
عنده أجنبية فنكتفى
معه بمواقفة القلوب

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالعمى والجاء ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاء إلى ملك القلوب كالأ معنى للنبي الملك الدرام ومن ملك الدرام تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وطى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يرعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا طى قصد التناول من خزائهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بتابعهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكرام » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قليل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسنة فى اللبث السوء » (٥) فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التوسمين بالعلم والعمل . فان قلت فما معنى الفضائل البدنية . فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وتفتح بها عن ملاقة
الظاهرة بهذا القدر
وأما من هو من غير
جنس الفقراء فهو
واقف مع العادات
والظاهر فمى لم يوف
حقه من الظاهر
استوحش خلق الريد
عمارة الظاهر والباطن
بالأدب مع الشيخ ،
قبيل لأبى منصور
للمعربى كم صعبت
أبا عثمان قال خدمته
لاصحبته فالصعبة مع
الإخوان والأقران
ومع الشايخ الخدمة
وينبى للمريد أنه كلما
أشكل عليه شيء من
حال الشيخ يذكرك قصة
موسى مع الخضر عليهما
السلام كيف كان
الخضر يفعل أشياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم
من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد
لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل الحديث ولترمذى
ومحممه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوديت فى الله وما يؤذى أحد
ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئ يواريه بطلال
قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت
عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى
ميطب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر
فدفعه عنه الحديث والبراز وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أقتلوا رجلا أن يقول ربى الله وإسناده
صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح
(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى
مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من
كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى
من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه
والطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال
أقوام يتنزلون أصلى فوائه لأننا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه
من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ^(١) » وإنما يستحق من جلته أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمري الجمال قليل الفناء ولكنه من الخيرات أيضا أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكانه من هذا الوجه جناح يبلغ كماله والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والمهبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيأت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسورور والنم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للآمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألسكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة أو على الباطن فقصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ^(٢) » وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهها أولاهم بالأمامة ، وقال تعالى « مماثل ذلك » وارتفاع بسطة في العلم والجسم - ولنا نعي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإنما نعي به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقه الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على كرم الله وجهه في فم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فإمعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها إلا أن فيها فتنا ومحافوف ، فثال للمال مثال الحية التي فيها تريق نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهابط وطريق استخراج تريقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى الفر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق القوص وطريق الاحتراز عن

ينكرها موسى واذا
أخبره الخضر بسر
يرجع موسى عن
إنكاره لما ينكره
الريد لقلعه بحقيقة
ما يوجد من الشيخ
فلشيخ في كل شيء
عذر بلسان العلم
والحكمة . سأل بعض
أصحاب الجنيد مسألة
من الجنيد فأجابه
الجنيد فمارضه في ذلك
فقال الجنيد فان لم
تؤمنوا الى فاعتزلون
وقال بعض المشايخ من
لم يعظم حرمة من
تأدب به حرم بركة
ذلك الأدب ، وقيل
من قال لأستاذه لا ،
لا يفلح أبدا . أخبرنا
شيخنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن على

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمسها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجاه الترمذى من حديث كعب بن مالك ماذنبا جائعا أرسلا في غم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه وقد تقدم في ذم المال والبخل .

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك قد هلك فلذلك مدح الله تعالى للال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى للال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحيه في قلوب الخلق وهو اللحن بالجاه ولكن للنقول في مدحهما قليل وللنقول في ذم للال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية للال وطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم للال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانوا في أعيانهم مذمومين بالاضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة للالك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن ينضاف إليها النقي كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون فقد يضر الصبي ما لا يضر للعزم ، نعم للعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية تعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لا تقدي به ولده وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فبذلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره يهلكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالحرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سماً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يبعثه أصلاً بما فيها من تقع الترياق فإن ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يمرض من ولده لا تبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فإن كان لا ينجو من الصبي بمجرد الزجر مهما رأى ولده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه يئس يديه فكذلك الأمة في حجب الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بعجزكم ^(٢) » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يبعثوا إلا ذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أشقوه فان الاتفاق في الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والمعنى به تقيح إمساكها والحرس عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذا أنها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحملة . فاما إذا صمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الرزاق على الرقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ^(٣) » معناه لأنفسكم خاصة

قال أنا أبو الفتح المبرور قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتركوني ماتر كنتم وإذا حدثكم غفدوا عني فإني هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » قال الجنيد رحمه الله رأيت مع أبي حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لأصحابه من هذا

- (١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم
(٢) حديث إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بعجزكم متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجلعت الدواب والفرائش يقمن فيه فأتا آخذ بعجزكم وأنتم تفتحون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بعجزكم من النار وأنتم تخلصون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

ولا لقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويغرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة * ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مه بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف ^(١) الحديث . فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وتقمها بضرها فمن وثق يصيرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا دامها ومستخرجا بدواها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تصدله بالسلاسة شيئا في حق هؤلاء . وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهدهد لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة المبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل لخصص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفق فأكثر ما يجنى عليه اجتهد

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فنأين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم * ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا ^(٢) . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناه النجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما عود فقد نبأهم فاستحبوا العمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تمنى القلوب وإن كانت لا تمنى الأبصار قال تعالى - فانها لا تمنى الأبصار ولكن تمنى القلوب التي في الصدور - ومن جملة العميات الإلف والعادة وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلفظ وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استأذنان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مه أن يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالفه بن أبي مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة واقره به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان
يصحب أبا حفص
ويغمدنا وقد أئق
عليه مائة ألف درهم
كانت له واستدان مائة
ألف أخرى أنفقها عليه
ما يسوغ له أبو حفص
أن يتكلم بكلمة واحدة
وقال أبو يزيد البسطامي
صحبت أبا علي السندي
فكنت ألقنه ما يقيم به
فرضه وكان يلحنى
التوحيد والحقائق
صرفا . وقال أبو عثمان
صحبت أبا حفص وأنا
غلام حدث فطردني
وقال لا تجلس عندي
فلم أجعل مكافأتي له على
كلامه أن أولى ظهري
إليه فأنصرفت أمشي
إلى خلف ووجهي
مقابل له حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أ بشرنا منا واحدا نتبعه - فهذه المعينات هي التي منحت الاهتمام والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يعد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وهو المراد بقوله تعالى - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي ضرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهندي بها إلى ما لا يهندي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فبغير هدى - وهو للسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس - والعنى بقوله تعالى - أفمن نرحم الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتقره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا يحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يندروا لا يريد الاستثناء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يظن أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أ كمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فان الهداية بمجرد ما لا تكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذا يدتك روح القدس - وتقرب منه الصمة وهي عبارة عن وجود الهوى يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كإنع من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - فهذه هي مجامع النعم وإن تثبت إلا بما يحول به الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعى والعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاه وظلم الأعداء ويستدهى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل التحيرين وملجأ للضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

عنه واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قريبي وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن للرشد لا ييسر طسجاده مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فان للرشد من شأنه التبذل للخدمة في السجادة إيماء إلى الاستراحة والتمزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وتقيده واستغراقه في

(بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء)

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا محبة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو لها ولا بد لها من قدرة على

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد لكل من مأكول ولا بد
للمأكول من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فأنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الارادات
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .
(الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك)

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي
لا تنمى ولا تغذى فإن النبات خلق فيه قوة بها يجذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في
الأرض وهي له آلات فيها يجذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم
تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا
أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمس أصله جف وييس ولم يمكنه
طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن
ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى
ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت
لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به قهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا
يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن
يحس بما لا يلاصقه ويماسه فإن الاحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل
حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فإن النبات يقطع
فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على
طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى
حس تدرك به ما بعد عنك غفلت لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية
فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ربحه وربما لم تعثر فتكون
في غاية التعمان لو لم يخلق لك إلا هذا خلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك
الجهة بينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر
غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره
وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من
وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا أو ما الغائب فلا يمكنك
معرفة الإبلاام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك
وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفنيك لو لم يكن لك حسي الذوق إذ يصل الغذاء
إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهرك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها
فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر
يسمى حسا مشتركا تأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولا لطال الأمر عليك فانك إذا
أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرعا لخالك فتركته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر مالم تذقه
ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك الرائحة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك الرائحة
ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عند الصفرة والرائحة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه
مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها لو لم يكن لك
إلهذا لكنت ناقصا فإن البهيمة يحتمل عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه
ومطالعة موارد فضل
الحق عليه أنجع له من
الإصغاء إلى السماع ومن
الأدب أن لا يكتفى على
الشيخ شيئا من حاله
ومواهب الحق عنده
وما يظهر له من كرامة
وإجابة وينكشف
للشيخ من حاله ما يعلم
الله تعالى منه وما
يستحي من كشفه
يذكره إيماء وتعريضا
فإن المريد متى انطوى
ضميره على شيء
لا يكشفه للشيخ
تصرحا أو تعريضا
يصير على باطنه منه
عقدة في الطريق
وبالقول مع الشيخ
تحل العقدة وتزول
ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بشر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البيعة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا، فترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في علمه وعند ذلك تنقلب قائمة الحواس الخمس في حرك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمور تخص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة واللينة والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتضون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مخومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه مخومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تمن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الادراكات ولا تظن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات عشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزه صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الادراكات.

(الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات)

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إلى مشهوه له تستحك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناولها فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة وفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلمها بك كالمتقاضى الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتفتدى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها لا كالزراع فإنه لا يزال يحتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غداه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صفة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند اللريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو محبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان للريد كلما يقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمجبة والتألف هو الوساطة بين اللريد والشيخ وعلى قدر قوة المجبة تكون سراية الحال لأن المجبة علامة التعارف والتعارف علامة الجذبية والجذبية جالبة للريد حاله الشيخ أو بعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من النى ودم الحيض وكيفية خاق الأثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها وتتشكل بشكل الله كور وتغير في بعضها فتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقه ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظاهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك الهللكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولا خدمتك كل ما حصلت من الغذاء فان كل واحد يشتهى ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا تكفى فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كإخلاق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة قم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد صمينا هذه الارادة باعثا ديننا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

(الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة)

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والارادة لا معنى لها إلا الليل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض متتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه فقد رجليه أولا يمكنه أن يتناول له فقد يده أو لقلج وخدر فيها فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمهما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجنح للطير والتوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها ما يذب وذو ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفى ما لم تتمكن من أن تأخذه فاخترت إلى آلة باطشة فأتم الله تعالى عليك بخلق البدن وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشملتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك فلا تكون تكسبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضعا إن بسطها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند الإبهام وس الأصابع حتى لا تنفتحت حتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحببها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارها ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المدة وهى في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
سليمان قال أنا أبو الفضل
حميد قال أنا الحافظ
أبو نعيم قال ثنا سليمان
ابن أحمد قال ثنا أنس
ابن أسلم قال ثنا عتبة
ابن رزين عن أبي
أمامة الباهلي عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « من علم
عبدا آية من كتاب
الله فهو مولاه ينبغي
له أن لا يخذله ولا
يستأثر عليه فمن فعل
ذلك فقد فهم عروة
من عرا الاسلام » ومن
الأدب أن يراعى
خطرات الشيخ في
جزئيات الأمور
وكلياتها ولا يستحقر
كراهة الشيخ ليصير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكبيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه ففتحناج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح ولولا ذلك لما تيسر لأضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسيحانه ما أعظم شأنه وأعرسلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالخزفة التي ترد الطعام إلى الرحي هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وهجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنه وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن يترلق إلى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينحج به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام الطحون النمنج من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يدق بالمعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرء والخبرة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تطبق وتتضغظ حتى يتقلب الطعام بضغطة فيهبى إلى المعدة فدهليز الرء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتعلق عليه الأبواب فلا يزال لا بنا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنغوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه وركته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداها شبيهة بالدردي والعكر وهو الحائط السوداءى والأخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلтан فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى الحرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للقرى ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والفوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتفسير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للمريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه الفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لمافيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية وأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منها عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدية الكبد حتى يجذب مايلها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق النقيقة شعرية كمروق الأوراق والأشجار بحيث لا تترك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالهبق والجذام والماليخوليا وغيرها وإن لم تدفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها وتذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحدوصته وينبها ويشيرها ويخرج الباقي مع الثقل وأما الكلى فإنها تمتدئ بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولود ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل والأمور أخر سواه بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها إلا أنك نجوع ف تأكل والجار أيضا يعلم أنه يجوع ف يأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجائع ويستنهض فينهض ويرمح فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الجار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط قمس على الاجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أول من قطرة من بحر إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وادراكها وقواها بخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن

فإن كان واقعة للريد من الله تعالى يوافق الشيخ وبعضها له وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة نزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالمريد لعله في واقعة بخامره يكون إرادة في النفس فيشتبك بكون الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أويقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم للريد باستئصال شأفة السكامن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ فإن

إلا وحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وعمله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالسرجة والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفيتية والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ* مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفيتية قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ* السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفراط حرارة القلب فينطفئ* ومع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كرجع عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو التفتل وكما أن انطفاء السراج بقاء الزيت أو فساده الفيتية أو ربح عاصف أو إطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنوارها التي كان يستفيد منها الروح هي أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أضرار مزيج إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحاسن صنعته وحكته يعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - عز وجل فتصا لمن كفر بالله تصا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «مثل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاختراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لان طول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء بروحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يما لجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تخفى العقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتزول في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول القيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في منسجها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية فنسبه إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الحي المحسوسات ولا يدرك العقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وإن كان ينزع واقته إلى كمن هوى النفس نزول وتبرأ ساحة للريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وحمة إيوانه إلى جناب الحق وكمال معرفته ومن الأدب مع الشيخ أن للريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمته الشيخ والمهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما أن للعداء أوقاتاً وأدبا وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

وإنه لقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لسلك وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولبواب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطى أول اللبدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحالة أن يصل اللبدان فكيف بالاتباء إلى ما وراءه من للشاهدات العالية وقدك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربها واتي بصادف هذا في خزنة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للنبي للسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان لللك بالإضافة إلى لللك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان لللك فظن أنه رأى لللك ولا يشك في أن خطئه فاحش وهذا الخطأ أخشى منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبته وفضله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فضله فقد ذكر في قوله تعالى - يأتينا النفس للطمشة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخلنى في عبادى وادخلنى جنتى - ولترجع الآن إلى الترض فان التصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

(الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة)

وتصير صالحة لأن يصلحها آدمى بعد ذلك جنته)

اعلم أن الأطعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب موائمة لا تنتهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلأخذ الأغذية فانها الأصل ولأخذ من جعلتها حبة من البر ولتدع سائر الأغذية فتقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فليت وبقيت جائها فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنبت تمام حاجتك خلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يشتد به كما خلق فيك فان النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاعتناء لأنه يشتد بالماء ويمتدب إلى باطنه بواسطة العروق كما تشتد أنت وتمتدب ولنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فتقول : كما أن الحطب والتراب لا يذيقك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تشتد بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبثنا فيها حبا وعبا وقضاو زيتونا ونخلا - ثم لا يكفى للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لقعد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهجره وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يفيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فيحتاج إلى حرارة الريح والصيف قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينسق

فلقول مع الشيخ أيضا
آداب وشروط لأنهم
معاملة الله تعالى وبسأل
الله تعالى قبل الكلام
مع الشيخ التوفيق
لما يجب من الأدب
وقد نبه الحق سبحانه
وتعالى على ذلك فبأمر
به أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
مخاطبته فقال - يا أيها
الذين آمنوا إذا ناجيتكم
الرسول قدموا بين
يدي نجواكم صدقة -
يعنى أمام مناجاتكم
قال عبد الله بن عباس
سأل الناس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأكثروا حتى شقوا
عليه وأحفوه بالمسئلة
فأدبهم الله تعالى
وفظهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار والبحار والعيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والياء لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تعال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدارا على الأرض في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريها فلو خرجت دفعة لقرت البلاد وهلك الزرع واللواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فاتها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس وكيف خلقها مع جدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في القواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته التريط كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج القواكه ويصنعها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف تريط القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتخلب على رأسك الرطوبة التي يصر عنها بالزكام فكما يربط رأسك يربط القاكه أيضا ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للتريط فلا يغلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها ولولم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لا فائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وأحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة يخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل المنهى عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق وإن كان دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ولذلك إذا كان ملك ثوب غسلته وتريد تخفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائثه حمى

وأمرهم أن لا يتاجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلا هم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وزلت الرخصة وقال تعالى - أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد والاطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمكنوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغيير وجه الانسان قال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا ان السكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فتننا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ^(١) ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأقنص والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه جباله فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه وتصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده فإن تعجبت من تصنيف فلا تصعب من للصنف بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيده وتعميقه كما إذا رأيت لعب الشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تصعب من القلب فاتها خرق بحركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق الشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذا ان للقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالأماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بعلائكة ساهوة يحركونها وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تبيينا بما ذكرناه على ما هم له ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

(الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب للوصول للأطعمة إليك)

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب الدال وشهوة الربح مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تخرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يعمتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجبل والقفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والجل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فتننا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي ترك تأملها التلوي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جندب يعنى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدس ديارا تصدق به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبل ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ما ترى في الصدقة كم تكون دينار قال على لا يطبقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لرهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما به الحق عليه بالأمر بالصدق وما فيه من حسن الأدب وتفييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

(الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة)

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلتعين رغيفا واحدا ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بد الإلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التمهيد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القربك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراث والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرماس والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار واللحادن وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة ، فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الثلاثكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الانسان ، فاذا استدار طلبة قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الانسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تتكامل صورتها من حديد تصنع للآلة إلا بعد أن يمر على يد الأبرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتضت إلى عمل للنجل الذي تعمد به البر مثلا بعد نباته لفد عمره ومجرت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قنرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع القريه فانظر إلى القراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل القراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوئى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس العمال أو عن الخائك أو عن واحد من جملة الصنائع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تهذب به مشيته وتمت به حكته . ولنويز القول في هذه الطبقة أيضا فان القرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

(الطرف السابع : في إصلاح للصالحين)

اعلم أن هؤلاء الصنائع الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتافرت طبائعهم تافرت طبائع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم يقتنع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يجوعهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألهم الله تعالى بين قلوبهم وسلطان الأنس والمحبة عليهم لو أهدت ما في الأرض جميعا

مانسوخ ، والقائدة
باقية . أخبرنا الشيخ
الثقة أبو الفتح محمد
ابن سلمان قال أنا
أبو الفضل أحمد قال
أنا الحافظ أبو نعيم
قال حدثنا سليمان
ابن أحمد قال حدثنا
مطلب بن شعيب قال
حدثنا عبد الله بن صالح
قال ثنا ابن لهيعة
عن أبي قبيل عن
عبادة بن الصامت قال
سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يقول « ليس منا من
لم يعمل كبيرا وبرحم
صغيرنا ويعرف لعالمنا
حقه » فاحترام العلماء
توفيق وهداية وإمهال
ذلك خذلان وعقوق .

مالفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبنوا المدن والبلاد وربوا الساكن والدور متقاربة متجاورة وربوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يزاحمون عليها ويتنافسون فيها في جبلته الإنسان النيط والحسد والنافسة وذلك مما يؤدي إلى القتال والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والمدة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزمهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالصب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحو السلاطين الصالحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتموا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أُرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء باللائكة وكيف أصلح اللائكة بعضهم بعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات الصالحين لآلات الأطمعة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين واللائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا - لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطعم بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عز لنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا فبأنه انبسطنا وإن سكتنا فبقهره انتفضنا ، إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بنعم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

(الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق اللائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق اللائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهذا بهم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات اللائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: اللائكة الأرضية والسموية وحمة العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتدى إلا بأن يوكل بمسئلة من اللائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأمنه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ذلك الغذاء بصير دما في آخر الأمر ثم بصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاء ذلك بالدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طعينا ثم عينا ثم خبزا مستديرا غبورا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[الباب الثاني والخمسون
في آداب الشيخ وما
يعتمده مع الأصحاب
والتلامذة]

أهم الآداب : أن
لا تعرض الصادق
للتقدم على قوم ولا
تعرض لاستجلاب
بواطنهم بلطف الرفق
وحسن الكلام محبة
للاستبصار فإذا رأى
أن الله تعالى يبعث
إليه المرشدين
والمرشدين بحسن
الظن وصدق الإرادة
محذر أن يكون ذلك
ابتلاء وامتحانا من
الله تعالى والنفوس
عجولة على محبة إقبال
الخلق والشهرة وفي
الحقون السلامة فاذ بلغ
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى التقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالمرضي مالا يزيل عرضه وبالجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غذاه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقت له بل ينبغي أن يسوق إلى الأجناف مع رقتها وإلى الحديقة مع صفائها وإلى الأغاذه مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض الواضع وضعف بعض الواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجاين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمرعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مدد من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريد في كل صفة حيث كلام الناصح المشفق والدلول له بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرشد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه راجع الله تعالى في معناه ويكثر الاجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا بالنجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تكلم أحدا من الفقراء إلا في أصنى

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها افتح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أمقي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت نبت إلا وتحتها ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أوى وأمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة يزولون في كل ليلة يحسون السلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حذيفة فلان فتتحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة الحديث.

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفقر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولانهم إلى من
يمزجه عن النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الباء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم
إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يصبها بالنور
سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال
الانس ظاهرا ؟ فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقه الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة
ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى
- وما لنا إلا له مقام معلوم - فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مشاغلهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم
وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحم البصر ولا اللمس يزاحم
الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب
غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن
والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه
فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك نرى الانسان يطبخ الله مرة ويصيه أخرى
لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية
في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون
والراكم منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفهامهم ولا فتور
ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة
أطرافك لك ، فانك مهما جازمت الارادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في
طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك فهذا
يشبه من وجهه ولكن يخالفه من وجه إذا الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطافا
والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك
إليها في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فاننا لم نطول بذكرها ، فهذه
طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع
الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه -
فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك
من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة ، بل أقول
كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن قنع جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر
كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات
والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره
أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها
أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل
جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا البياض يفرق الضوء والسواد
يجمعه ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبها
للأفداء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لبن أصلها ومع اللين قوام نصبا وله
في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من قشع العين ولو طبق لم يضر
فيجمع الأجفان مقدار ما تنتشاك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر مانعا من
وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحديقة غبار فقد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية
نافعة لأن الكحة تقع
في سمع الرئد الصادق
كالجبة تقع في الأرض
وقد ذكرنا أن الجبة
القاسدة تهلك وتضيع
وفساد حبة الكلام
بالموى وقطرة من
الموى تكدر بحرا
من العلم فعند الكلام
مع أهل الصدق
والارادة ينبغي أن
يستمد القلب من الله
تعالى كما يستمد اللسان
من الجنان وكما أن
اللسان ترجمان القلب
يكون قلبه ترجمان
الحق عند العبد
فيكون ناظرا إلى الله
مصغيا إليه متلقيا
ما يرد عليه مؤديا
للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انفصلت الحدقة من التبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والقياب لما لم يكن لحدقة جفن خلق له يدين قراء على الدوام يسبح بهما حدقيه ليصقلهما من التبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا نقدره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولطنا نناقضه كتاباً تصود فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم قد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالبدن ولا الغذاء ولا الغذاء إلا باللباء والأرض والهواء وللطرو والنيم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا باللائكة فان الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فان كل كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا ولعنه وذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم^(١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر^(٢) وأن اللائكة يلعنون العصاة^(٣) في ألقاط كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع مافي للكل ولللكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيقبل اللعن بالاستغفار فبشيء الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لي من الآدميين إلاومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال للكان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علو رتبة وعندي آي أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والباقع تحبهم والآثار تبكي عليهم ، وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين إذا نبسطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وباتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متنفسه لاحترق قلبه باققطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فليكن في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان أن لفت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه وشربه قد قتل علمه وحضر عذابه وجميع ماذكرناه يرجع إلى اللطعم والشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطعم .

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغبلة فانهم لم ينعموا بالجهل والغبلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المرتبتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم لم أجده أصل (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر تقدم في العلم (٣) حديث إن اللائكة يلعنون العصاة مسلم من حديث أبي هريرة اللائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديثه وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

للشيخ أن يعتبر حال الريدن ويفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحته واستعداده فمن الريدن من يصلح لتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ومن للريدن من يكون مستعداً صالحاً لقرب وسلوك طريق القربين المرادين بحاملة القلوب والعاملات السنية ولكل من الأبرار والقربين مبادون نهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب أن الصراوى

واستلاء الشيطان . أما النعمة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس تجهلهم لا يجدون ما بهم الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق بمنولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يمد نعمة ولا ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختلفهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء قتل برطوبة الماء ماتوا غمما فان ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجى ربحا قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فتند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة وعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فمده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل البعد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به متعة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث السكرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قمره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به قال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك أقطع الدين والرجلين ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فصد عليه سورا ثم قال فمك قيمته مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه فقال له عظمي قال لو لم تعط هذه الثرية إلا ينفل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم قال لو لم تعط إلا عليك كله فهل كنت تركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فهذا بين أن نعمه الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو آمن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والملم أما العقل فما من عبده تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أمت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكثر من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده وبقى شكره لأنه في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها وأخلاقيات مدها وإمانيات مدها من حيث يرى قسه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من يواظن أمورهم وخوايا أفكاره ما هو متفرد به ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا تضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد غم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر من الله الجليل الذي أرسله على وجه مبالو به فأظهر الجليل ومتر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

يعلم الأرضي والفروسي
ويعلم كل غرس وأرضه
وكل صاحب صنعة يعلم
منافع صنعة ومضارها
حتى للراة تعلم قتلها
وما يتأتى منه من الفزع
ودقته وغلظه ولا يعلم
الشيخ حال للريد
وما يصلح له . وكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يكلم الناس
على قدر عقولهم
ويأمر كل شخص بما
يصلح له فمنهم من كان
يأمره بالانفاق ومنهم من
أمره بالإسكاف ومنهم
من أمره بالكسب
ومنهم من قرره على
ترك الكسب كأصحاب
الصفة فكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إماما مطلقا وإما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمور أو سلب ذلك منه وأعطى ما خص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا مجادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأنني وصحيفا لا مريضيا وسلميا لا معيبا فإن كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص فاذن الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد الغيوبطين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما بالله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما بالله لا يسوى ديناه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها يتندر إليها بأن في الساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » (١) فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفقد عما خص به وجد الله تعالى على نفسه نعمة كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيما بسطيل به في دينه ثم في ديناه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (٢) وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو الفنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه » (٣) وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله » (٤) وقال عليه السلام « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن » (٥) وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى » (٦) وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب النزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه الشئ بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الفناء الذى لا غنى بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسل وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله البخارى في التاريخ من حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحدا أو تى أفضل مما أو تى قد صغر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته وورود من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبرانى من حديث عتبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا في القناعة موقوفا عليه وقد تقدم.

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحججة وإيضاح الحججة يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسهه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخاطبة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعمت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالصاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(١) » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصلوهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علك بل عن عشر عشر علك لم يأخذها وذلك لرجائه أن نعمة العلم تنفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذها لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لاكدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بنعمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذا ما خلقت لذات الدنيا لا لتجلب بها العقول الناقصة وتخضع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجليل ظاهرها تزين للشاب الشبق الغني حتى إذا انخدعت وتقيدت بقلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تمب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره بللدة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فكذا وقت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن نقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها أياضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم العرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضي إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى - ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يآلمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نسيك طريق الشكر على الخلق لجلبهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامية . فإن قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاد مع ما فيه من أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بيلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجنة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فإن يوم القيامة يوم التخابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فلما أعظم غنبي إذ ضيقت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فعبثه ظاهر فإذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يغلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كشف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخا للباطلين بلقمة تؤكل عنده ويرفق بوجود منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا بقية سلوك طريق للتقين فافتن وأقن وبقي في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الإسهال في كل نفس من الأتقاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب العافلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبر افسكان يضع غلا في عنقه ويثام في لحده ثم يقول رب ارجعوني لعلّي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول يارب ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا تزد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم قل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدها بالشكر وفي الخبر ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ^(١) فمن تهان بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيها يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر (بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا فاما معنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجودا فاما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ما ذكرته من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بآثبات النعمة يوجب القول بآثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكلايمان وحسن الخلق وما يصيب عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسه من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى وإمامدة وإمّا أبدا وأما في الدنيا فالكفر والعصية وسوء الخلق وهي التي تنفض إلى البلاء المطلق وأما المقيد فالكفر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا العصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فله ترك العصية بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

دائرة الفتور لما يستغنى الشيخ عن الاستعداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وإعجاب خلت الفتنة على الغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من اللوثة وقلة تأديهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوس معكم ما جلست عندكم فاذا رأي الفضل في الخلوة غلوا

والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحصى عبده للؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضرارها إذن نعا في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كال نعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قد صدها نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو عرفه الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقدته وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهائته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض السكبان فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التائب بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من العصية كقطعه يد نفسه ووضعه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لافي حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف التائبون قدر نعمه ولا أكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المتبلى أو على غير المتبلى فاذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قات فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينعم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفي كل قهر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح المقاتل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضيقها الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويججزها فليشكر إذ لم تسكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل الصبي بيتي

(١) حديث إن الله ليحصى عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه الحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في
الجلوة يجلس مع
الأصحاب فتكون جلوته
في حماية خلوته وجلوته
مزيدا لخلوته وفي هذا
سر وذلك أن الأذى
ذو تركيب مختلف فيه
تضاد وتغاير على
ما أسلفنا من كونه
متريدا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التغاير له حظ من
الفتور عن الصبر
على صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل
فترة والفترة قد تكون
تارة في صورة العمل
وتارة في عدم الروح في
العمل وإن لم تسكن في
صورة العمل ففي وقت
الفترة للمريد
والسالكين تضييع

وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذا لم يكن أعظم منه وإذا لم أحرم الرضا به وإذا أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضر به فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال اشكر الله فحصى مجوسى فحبس عنده وكان مبطونا قعيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأنى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن مامن إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أذبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فليل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقصر على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال أنتم تستبطون المطر وأنا أستبطى الحجر . فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حق الكفار . فاعلم أن الكافر قد خيئه له ما هو أكثر وإنما أهمل حتى يستكبر عن الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى - إنما نعلمهم ليزدادوا إثما - وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله - وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم اعلم قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجبت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى مقطوعة بالسكينة في الآخرة عن المعذنين ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا (١) » الرابع أن هذه المصيبة والبلى كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لابد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون النعم من أسباب اللب نعمة في حق الصبي فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يحسر جميع عمره فكذلك السال والأهل والأقارب

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

واستراح للنفس وركون إلى البطالة فمن بلغ رتبة الشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلق الخلق بقسم فترته وما ضاع قسم فترته كضايعة في حق الريدين فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله والشيخ يكتب الفضيلة من تقع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته فيعود من الخلق إلى الخلوة منزوع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متخلصة عن

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحمة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صييانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فإمن شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رآوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذة وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أنهم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روي «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك (١)» ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار المرور ومواناة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سحنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كإخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الموحّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامة مجانا أو يسيك دواء نافعاً بشما مجانا فانك تألم وتفرح فصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناج بمنزل لا يمكنه الإقامة فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب الصيبة أكبر من الصيبة لم يتصور منه الشكر على الصيبة. وحكي أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن زياد في أوله وفي إسناده ابن لهيعة (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحك عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ولقناني في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد به وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار
قائمة بحمد شغفها إلى
دار القرار . ومن
وظيفة الشيخ حسن
خلقه مع أهل الارادة
والطلب والتزول من
حقه فيما يجب من
التبجيل والتعظيم
للشايخ واستعماله
التواضع . حكي الرق
قال كنت بمصر وكنا
في المسجد جماعة من
الفقراء جلوسا قد دخل
الزقاق فقام عنده
أسطوانة يركع قلنا
يفرغ الشيخ من
صلاته وتقوم نسلم عليه
فلما فرغ جاء إلينا وسلم
علينا قلنا نحن كنا
أولى بهذا من الشيخ
فقال ما عذب الله

اصبر نككن بك صابرين فاقما صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعدد والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصيبه» (١) وقال عليه السلام «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أصيب له ميزانا أو أنثر له ديوانا. وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فضل الله ذلك به» قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كرميته فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيبلغها بذلك» (٣) وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قلنا يا رسول الله ألا ندعو الله تستنصره لنا فجلس عمرأ لونه ثم قال «إن من كان قلبكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويحيا بالملشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه» (٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أيعا رجل حبسه السلطان ظلما فبات فهو شهيد وإن ضربه فبات فهو شهيد . وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكوا وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولد دون الموت وتعمرون للخراب وتخرجون من طغي ما غنى وتنفرون ما يبق إلا حينئذ الكروهاة الثلاث الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا أو أراد أن يضيفه صب عليه البلاء صبا ونجحه عليه نجا فإذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى ليكن عبدك وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جاء بأهل الأعمال فوقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصيب منه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية القولوي ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فأنه أعلم وطى هذا فأنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي ياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فأنه أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكرونا إليه الحديث تقدم .

قلبي بهذا قطبى
ما تقيدت بأن أحترم
وأقصد . ومن آداب
الشيخ الزول إلى
حال الريدين من
الرفق بهم وبسطهم .
قال بعضهم : إذا رأيت
المقير الله بالرفق ولا
تلقه بالعلم فإن الرفق
يؤنس والعلم يوحش
فإذا فعل الشيخ
هذا اتقى من الرفق
يتدرج للريد بركة
ذلك إلى الانتفاع
بالعلم فيعامل حينئذ
بصرح العلم . ومن
آداب الشيخ
التنظف على الأصحاب
وقضاء حقوقهم في
الصحة والمرض ولا
يترك حقوقهم اعتادا
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تفرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب . فذلك قوله تعالى - إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكنا في من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويحسب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحترى عليك وظل معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذه محاسنهم بغير حساب (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصاويه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض » الحديث من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له إسناده صحيح وقال الدارقطني وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء ثبت (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

قال بعضهم لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من الودة . وحكى عن الجريري قال وافيت من الحج فابتدأت بالجند وصلت عليه وقلت حق لا يتنى ثم أتيت منزلي فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجند خلفي فقلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لي يا أبا محمد هذا حقك وذلك فضلك .

ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتقاد صدق العزيمة أن يرققوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم (١) . وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجيا بين يديه في ربي الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الحادة فأثبت على زرع فنظرت يمينا وشيلا فاذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أفاعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ولدك أفاعلت أن اللوت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولده بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يا بني : لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا بئس لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى وموثة كفها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فضلى ركبتين ثم قال قد صنعت ما أمراه تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فعزاه بحوسى يعرفه ، فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك كتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله ليتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبواب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة صر فواذلك فجىء بالمنشار فشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن صدقت منك أنه ثانية لأعونك من ديوان النبوة فضض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بعصية فزق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رحما يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى مرضى ، فقلت لعمى مانت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من مرضك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد : وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلى كالأشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضاحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجليل في الدنيا والآخرة .

به ويوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خبر كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرام إذا ثبت وخالف الفقهاء وتدرج بالرفق إلى أوطان العزقة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف إبراهيم الصائغ وكان لأبيه نسمة فانقطع إلى الصوفية وهب أبا أحمد القلائي فربما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصية يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفديكي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفديكي منكر الحديث .

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .
 فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من
 بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة
 وفي الآخرة حسنة ^(٢) » وكانوا يستعبدون من شجاعة الأعداء وغيرها ^(٣) . وقال على كرم الله وجهه
 اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية ^(٤) » وروى
 الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما
 أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين ^(٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك
 فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الحير الذي لا شرف فيه العافية مع الشكر
 فكف من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبلى فأصبر
 وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي ^(٦) » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل
 واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمامي الدنيا أوفى
 الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تعالى النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من
 البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه
 على الصبر . فان قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم
 فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعله الحصر
 فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا العكم الكذاب ، وأماحبة الانسان
 ليكون هو في النار دون صائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه
 حيا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب
 عليه كان حالة لا حقيقة لها فاسمعت من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث
 بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجربنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث
 عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة
 (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
 عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعوها النبي صلى الله عليه وسلم يقول
 اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتتنا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شجاعة
 الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال على رضي الله عنه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم
 لقد سألت الله البلاء فسله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما
 قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنا فرى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن
 صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد
 جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى
 الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا

النعمة فيجب أن نفرق

به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ

التنزه عن مال المريد

وخدمته والارتفاق

من جانبه بوجه من

الوجوه لأنه جاء الله

تعالى فيجعل نفسه

وإرشاده خالصا لوجه

الله تعالى فما يسدى

الشيخ للمريد من

أفضل الصدقات .

وقد ورد « ما تصدق

متصدق بصدقة أفضل

من علم يبيته في الناس »

وقد قال الله تعالى

تنبيها على خلوص

الله وحراسته من

الشوائب . إنا نطمعكم

لوجه الله لا يريد منكم

جزاء ولا شكورا فلا

ينبغي للشيخ أن يطلب

يستلذ سماعه ولا يحول عليه كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذي يمنعك عنى ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلمته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يابى الله كلام العشاق لا يعنكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا عمل ومغناة أنى أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهمين بترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضاه محبوبة منه تزيد تلك اللذة على لذة فى مشاهدته مع كراهته فند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضاه الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يعدو وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يلقى بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى الثامن بفضلته على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

(بيان الأفضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سياتى وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب يبعد عن التحصيل فلامعنى للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فقول فى بيان ذلك مقامان : المقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن ذلك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والظفر بالشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السان وضروب الحلاوات بل باللبين اللطيف وعليه أن تؤخر عنه أطيب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لما يقوته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيتة فتقول : هذا المقام فى البيان بأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزى الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وأبليتك فصبرت لأضعف لك الأجر عليه فيعطى أضاعف جزاء الشاكرين ^(٢) » وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ^(٣) »

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزى الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه أو صلاح يراه للشيخ فى حق للريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على للريد مأمونة الفائسة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحكم تبخلوا ويخرج أضغانكم - معنى يحفكم أى يحمدكم ويلج عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا

فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأى حسن التبعيل^(١)» وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن^(٢)» وأبدا الشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه^(٣)» وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً^(٤)» وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام^(٥)» وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى، فهذا هو المقام الذي يقع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم . المقام الثاني : هو البيان الذي قصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن للوازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكتشف يشتمل على أقسام لا يمكن للوازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأى حسن التبعيل الحديث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فبايعد ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مضمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحديث بن أبي أسامة من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصماني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا ضعيف بن خاله وهو كوفي ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين للصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وإلى الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين الصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

تأديب من الله الكريم
والأدب أدب الله .
قال جعفر الخلدی جاء
رجل إلى الجنيد وأراد
أن يخرج عن ماله
كله ويجلس معهم
على الفقر فقال له الجنيد
لا تخرج من مالك
كله احبس منه مقدار
ما يكفيك وأخرج
الفضل وتوالت بما
حبست واجتهد في
طلب الحلال لا تخرج
كل ما عندك فقلت
آمن عليك أن
تطالبك نفسك وكان
النبي عليه السلام إذا
أراد أن يعمل عملاً
تثبت وقد يكون
الشيخ يعلم من حاله
للريد أنه إذا خرج
من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها ببعض لآخر للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالتعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل للعلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم الكاشفة وهي أرفع من علوم العامة بل علوم العامة دون العامة لأنها تراد للعامة ففائدتها إصلاح العمل وإنما أفضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه بما يميم نفسه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعالم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم الكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للفرقة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها وكل ماعداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنها إنما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكذلك كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فنقص بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا توضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصله علوم الكاشفة ، وكما أن تصفية الرأية يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للرأية بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لأحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إيمان يجلب إليه حالة مانعة من الكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهيتة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول العصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن النفي الذي معه ما لو قد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء القسرك من علوم الكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا اللدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر شهوة بطنه ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشبع الطامع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للمهلكات فليرجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ملا يتطلع به إلى المال فينتد بعجز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبله منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله أعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه الذمة مجعلا لفصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الإدارة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الخير أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخير للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتماعا فلينظر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالخير أفضل فان تساويا فهما متساويان وكذا إذا قيل السكجيين أفضل أم شراب الينوفرم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكجيين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكجيين مراد له وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لاهالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ونشأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للعرفة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت قد حث الشارع على الأعمال والبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - وبأخذ الصدقات - فكيف لا يكون الفعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يملك على أن الدواء مراد لغيره أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به ظاهرا فهو كبرص على وجه من لامرأة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسيل معه للبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحبه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يشب ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الوالد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجيل لتوفر ذاعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي السكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدّر عليه دون تكليفي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بقدر هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا للسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استثناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويسقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمنزل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إطعام الساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ما قالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا - فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل يصل به كثير أو يهدى به كثيرا فهو لا لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل الساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في الساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أفتقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثالين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للسكين الأخذ لما يستوفى بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة الهلكة من باطنك فالجوام خادم لك لأنك خادم للجوام ولا يخرج الجوام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من
للريد تقصير في خدمة
نديه إليها عمل تقصيره
ويغفو عنه ويحرضه
على الخدمة بالرفق
واللين وإلى ذلك ندب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
الكروخي قراءة عليه
قال أنا أبو نصر الترياق
قال أنا أبو محمد الجراحي
قال أنا أبو العباس
المجوسي قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا حنيفة
قال ثنا رعد بن
سعد عن أبي هلال
الحولاني عن ابن
عباس بن جليد
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام ومماها أو ساع أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول السكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولنرجع الآن إلى خصوص مانع من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب ويبد التناوب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المئين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمان متساويتان هذا إن اعتبرت في البلاء والصائب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن النصية وفيها يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو القصد منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والنصيحة والبلا وقد ظهر حكمها في الطاعة والنصيحة وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالمئين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العنان فصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في جش المعاصي وشكر البصير عليها من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجلية لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جبل فصر كان شاكرا لنعمة المئين وإن أتبع النظر كفر نعمة المئين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا امتنان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى حجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلهم على وضوء ذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يغوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه في الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال « كل يوم مبعين مرة » وأخلاق للشايع مهبذة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس بأحياء سنته في كل ما أمر وتنب وأنكروا وأوجب ومن جهة مهام الآداب حفظ أسرار للردين فيها يكاشفون به ويمنحون من أنواع للنسح فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس للرديما يجده في خلوته من كشف أو صماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

(١) حديث التهي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة ومماها أو ساع الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة إن هذه الصدقة لا عمل لنا إنما هي أو ساع القوم وإنما لا عمل لحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو ساع الناس .

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أسمى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لأن الغني الصارف ماله إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمته وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لاجتماع قوة والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أسمى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصاد في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي بدل العمل عليها فإن الأعمال لا تتراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فماد على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لاجتماع جميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على المحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لأن يصرفها إلى الطاعة ، فاذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة وإلى هذا للغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشرط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزججها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزججها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسرح حتى يصرف اليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاء وصيت ولا تقليد منه بل أداء لحق الله تعالى في فقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر ، فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك ببلائه في القدرة على الانفاق ، فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطلوب بالعين بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما في حقه للدينة عنده كما يصير النظم عند الصبي العاقل للذي نادى قد كان مؤلما له أو لا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراد من عموم الحلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء
من هذا يشغل عن
الله ويسد باب المزيد
بل يعرف أن هذه نعمة
تشكر ومن ورائها نعم
لا تحصى ويعرفه أن
شأن المريد طلب النعم
لا النعمة حتى يبقى سره
محفوظا عند نفسه
وعند شيخه ولا يذيع
سره فإذاعة الأسرار
من ضيق الصدر
وضيق الصدر
الوجب لإذاعة السر
يوصف به الفسوان
وضغفاء العقول من
الرجال وسبب إذاعة
السر أن الإنسان قوتين
أخذة ومعطية وكلتاها
تتشوف إلى الفضل
المختص بها ولولا أن
الله تعالى وكل للمعطية
بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق فصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذا الصبر مع التأمل والرضا يمكن بمال الألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فان حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفصيل أخذها على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسأله عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فانفق أنهما زوجت مني فليقل زفافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمضى سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقه أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقه إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذا نزلوا قوف على حقائق الفضلات لا بتفصيل كما سبق والله أعلم .

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إلى النزول بفنائهم والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصددهم عن التعرض لأثمته والتهدف لسخطه ونقمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللاطف إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المؤمنون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه محفوقا بطوائف الشهوات ومجائب اللذات إلا بسياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتمازجها ونحو

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار
فكامل العقل كلما
طلبت القوة الفعل
قيدها ووزنها بالعقل
حتى يضعها في مواضعها
فيجل حال الشيخ
عن إذاعة الأسرار
لرزاقه عقولهم وينبغي
للرصيد أن يحفظ سره
من بثه في ذلك صوته
وسلامته وتأيد الله
سبحانه وتعالى له
بتدارك الزيدتين
الصادقين في مورد
ومصدرهم .

[الباب الثالث]

والحمس في حقيقة
الصحة وما فيها من
الحير والشر [

للتفتي للصحة وجود
الجنسية وقد يدعو
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرها في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يمثلب به الرجاء .

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى مسمى ذكراً وتذكراً وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال مسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً وإنما مسمى وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك مسمى انتظاراً وتوقعاً فإن كان للنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب مسمى خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح مسمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه قاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظاراً مع انحراف أسبابه واضطرابها قاسم الضرر والحق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء قاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أن باب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جازية تجري تقليب الأرض وتطهيرها وتجري حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب المستتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبعة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبعة فينبغي أن يقاس رجاء العبد للمغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته مسمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبعة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه مسمى انتظاره حقاً وغروراً لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تلب الأمطار ولا يمتنع أيضاً مسمى انتظاره تمنياً لارجاء ، فإذا سمى الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاء بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كليل جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كليل أهل كل صفة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كليل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكليل أهل العصية بعضهم إلى بعض فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصفة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليتنقذ الإنسان نفسه عند الليل إلى صفة شخص وينظر ما الذي يميل به إلى محبته ويزن أحوال من يميل إليه بغير أن الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيتته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة للفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعنا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بند الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق واتهمك في طلب لذات الدنيا انتظر للمغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحقق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١)» وقال تعالى - غلغف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - غلغف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيفر لنا - وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبدي هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير تحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشهى التوبة ويشاق إليها تحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذي قد يقضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيها يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يحزم على التوبة والرجوع فرجاؤه الفقرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعده بسقى ولا تنقية. قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى التماسي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة يئذ النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الانحراف :

يرجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تتيجن الجهد للقيام بقيمة الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال يعمل صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتقر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لأعماله تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كما تأقلمت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بنتاجاته والتلطيف في التخلق له فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فإن كان لا يظهر فليست تدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحقق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة
فليشر نفسه بحسن
الحال فقد جعل الله
تعالى مرآته بمجولة
يلوح له في مرآة أخيه
جمال حسن الحال وإن
رأى أفعاله غير مسددة
فليرجع إلى نفسه باللائمة
والإهام فقد لاح له في
مرآة أخيه سوء حاله
قبالجدير أن يخرمته
كفراره من الأمد
قائما إذا اصطحبا
لزماد اظلمة واعوجاجا
ثم إذا علم من صاحبه
الذي مال إليه حسن
الحال وحكم لنفسه
بحسن الحال طالع ذلك
في مرآة أخيه فليعلم أن
الميل بالوصف الأعم
مركوز في جبلته والميل
بطرفه واقع وله

ويدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحنت إليه قال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراد بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور^(١)».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبه له والحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغب لا سيما في وقت الموت قال تعالى - لا تفرحوا من رحمة الله - فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أن تدرى لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء^(٣)» «ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجدك فقال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم ما أخرج الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال صفيان : من أذنب ذنباً فعمل أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عرّف قوماً فقال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فان لقنه الله حجة قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك^(٥)» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن العسر فلقى الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا^(٦)» فغفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سواء النبي ﷺ والخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بارسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن حبان من حديث وائلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن العسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن العسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزاً عنه وإنفقنا عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام والنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأنخص ويصير بين للتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد يفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقةهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بخسبة الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأتقوا محارز قناهم سرا وعلاية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم
 ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون إلى
 ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غفر عليم ورجاهم
 وشوقهم ^(١) وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب وأحب من عبيتي وخيبي إلى
 خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجليل واذكر آلائي وإحساني وذكركم
 ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجليل ^(٢) ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء
 فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك قلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال
 قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قبيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين
 يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا
 حدثت عنك فقال وما حدثت عنى قلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن
 نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبيدي في فليظن بي ما شاء
 وكنت أظن بك أن لاتعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق
 الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشي بين يدي الولدان إلى الجنة
 قلت يا لها من فرحة - وفي الخبر «أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال
 فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها ^(٣) وقال صلى الله
 عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى
 لجبريل اذهب فائتني بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك
 فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشى ويلتفت إليه ورائه فيقول الله عز وجل إلى
 أى شيء تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعذبني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا
 به إلى الجنة ^(٤) فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه.

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب)

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب
 عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضرب بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن
 الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصي للفرور
 التمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب محمومًا مهلكة في حقه
 وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل
 الفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق
 متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاعها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبي هريرة بن عوف ^(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل
 الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة ولخرجتم
 إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم ^(٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام
 أحب وأحب من عبيتي الحديث لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذي قبله ^(٣) حديث أن رجلا
 من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث زواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم
 فذكره مقطوعا ^(٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان
 الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله واليهيقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصبغة
 لاكتسب من طريقهم
 الفسور في الطلب
 والتخلف عن بلوغ
 الأرب فليتببه الصادق
 لهذه الحقيقة وتأخذ
 من الصبغة أصنى
 الأقسام ويذر منها
 ما يسد في وجهه للرام
 قال بعضهم هل رأيت
 شرا قط إلا بمن تعرف
 ولهذا النعى أنكر
 طائفة من السلف
 الصبغة ورأوا الفضيلة
 في العزلة والوحدة
 كإبراهيم بن آدم
 وداود الطائي وفضيل
 ابن عياض وسليمان
 الخواص وحكى عنه
 أنه قيل له جاء إبراهيم
 ابن آدم أما لتلقاه قال
 لأن ألقى سبعا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج بما
يرده إلى الوسط لاجبا يزيد في ميده عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق
أسباب الرجاء بل للبالغة في التخوف أيضا تكاد أن لاتردم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر
أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالسكية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم
يكن غرض الوعظ إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بالبناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد
الفساد فسادا وازداد التهلكون في طغيانهم ثم ادبا قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس
من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس
أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتملان على الخوف
والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعملوا الطباء الذين هم ورثة
الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية
صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يفتل بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات
والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ماذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى
إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في
الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار
وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينظم
بفقد غرض مقصود وإنما كان يفوت به مزية جمال فالنباية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال
هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الزايد والمزاي في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياتهم إلى
الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا
حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يهذب بعد الموت أبدا مثلا أولا يعثر أصلا
فليست كراهمهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتعنى الموت نادر ثم لا يتمناه إلا في
حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة
فسنة الله لاتعدها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو
غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا توأمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن
الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض
المعارفين يرى آية اللدانية في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا
كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية
ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى
- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه
هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال
تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعداها
لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلال من النار ومن تحتهم ظلال ذلك يخوف الله به
عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأنذركم ناراً تملطي لأصلاها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب
جميعا ولا يبالى الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب إلى من أن ألقى
إبراهيم بن آدم قال
لأنني إذا رأيت أحسن له
كلامي وأظهر قسبي
بأظهار أحسن أحوالها
وفي ذلك القنطة وهذا
كلام عالم بنفسه
وأخلاقها وهذا واقع
بين المصاحبين لإيمان
عصمه الله تعالى . أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
محمد بن عبد الباقي
إجازة قال أنا الحافظ
أبو بكر محمد بن أحمد
قال أنا أبو القاسم
احمدي بن مسعدة قال
أنا أبو عمرو محمد بن
عبد الله بن أحمد قال
أنا أبو سليمان أحمد بن
محمد الخطيب قال أنا
محمد بن بكر بن
عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأثقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - ^(١) » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب قيل هذا فداؤك من النار ^(٢) » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فداؤك من النار فيلقى فيها ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار ^(٤) » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم ^(٥) » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيري فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لثلاث تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فان أعمالكم تعرض على فما رأييت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأييت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم ^(٧) »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعليني في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سميد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يعوت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث لم أقفله على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجالاه رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بأسناد ضعيف.

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعبة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم - واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى - استظهر بالعرلة على قومه . قيل : العرلة نوعان فريضه وفضيلة فالفريضة العرلة عن الشروأهله

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم الغفو قال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم الغفو هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما تعلم النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال العلماء قد آمَنَ الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجائي (٤)» وفي الخبر «لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي قحط آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليقين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه فقال أعرابي وإن تاب عنه قال عفى عنه قال فإن عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال عفى من صغيفته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يعل من الغفرة حتى يعل العبد من الاستغفار فإذا آمَنَ العبد بحسنة كتبها صاحب اليقين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم الغفو قال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم الغفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظيمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجائي (٥) حديث لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئاً لقيته بمثلها مغفرة ولقترمدي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لوقيتني الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليقين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب اليقين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه فقال أعرابي فإن تاب عنه قال عفى عنه قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يعل من التوبة حتى يعل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله وبجوز أن يقال الخلو غير العزلة فالخلو من الأغيار والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله فالخلو كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخالطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصحة وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليزِم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يا رسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ انت قنيسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم معي ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين (١) » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فنيسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكك يا أعرابي فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل - الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « وللمؤمن طيب طاهر (٤) » « وللمؤمن أكرم على الله تعالى من لللائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فإنه أصل
والكلام عارض ولا
يتكلم إلا بحجة فخطر
الصحة كثير يحتاج
العبد فيه إلى مزيد
علم والأخبار والآثار
في التحذير عن
الخلطة والصحة
كثيرة والكتب بها
مشحونة . وأجمع
الأخبار في ذلك ما أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
باسناده السابق إلى
أبي سليمان قال حدثنا
أحمد بن سليمان
النجاد قال ثنا محمد
ابن يونس الكرمي
قال ثنا محمد
ابن منصور الجشمي
قال ثنا مسلم بن سالم
قال ثنا السري
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يا رسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعاً . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للمسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يعمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره فإذا هم العبد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيسة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعلمها كتبها الله سيسة واحدة زاد مسلم في رواية أو عفاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، فقال يا رسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يا رسول الله من يلي حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فنيسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث المؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس يده لحمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضعه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من اللائكة ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض اللائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه (٢) « وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تغلب غضبه (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) . « ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (٦) . « ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابحث بحث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلى القوم وجعلوا يكون وتعطوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تأويل وثاريت ومنسك وأجوج وماجوج أم لا يحضيا إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود كالرقعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخفى عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب اللبزان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تغلب غضبه متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله في الجنة وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبدا مؤمنا إلا محبب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يساف من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان إنني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ غالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحين النار وإخراجهم بالشفاعه ، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص
عن عبد الله بن مسعود
قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
ليأتين على الناس زمان
لا يسلم لدى دين دينه
إلا من فر بدينه من
قرية إلى قرية ومن
شاهق إلى شاهق ومن
جهر إلى جهر كالطلب
الذي يروغ قالوا ومتى
ذلك يا رسول الله قال
إذا لم تنل العيشة إلا
بعاصي الله فإذا كان
ذلك الزمان حلت
العزوبة قالوا وكيف
ذلك يا رسول الله وقد
أمرتنا بالزوج قال إنه
إذا كان ذلك الزمان
كان هلاك الرجل على
يد أبويه فإن لم يكن له
أبوان فعلى يذوخته

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوام بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مآرآة سبيل الشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة الطلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « قد ذهب بكم وجاء بخلق آخر يذبون فيغفر لهم إنه هو النور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده أنه أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تسميه (٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عندة تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترامح الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتطمط البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتخمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي آرونها للمطيعين التقيين بل هي للمتوكلين المخلصين (٩) »

وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد صلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يبرونه بضيق الميتة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الملكة . وقد رغبت جمع من السلف في الصعبة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أبدلك بنصره وبالمؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون ليغفر لهم ، وفي لفظ قد ذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البرار وابن جبان في الضعفاء واليهيقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسى بيده أنه أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله تقدم أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعا لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعي لأهل الكبائر من أمي ، ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعا وبين أن يدخل نصف أمي الجنة فأخبرت الشفاعا لأنها أهم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

وقال عليه الصلاة والسلام «بشت بالحنيفية السمحة السهلة»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة»^(٢) ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه فقال يا جبريل فافقه تعالى أكرم من أن ياتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقركما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا ملا يشبه كرمي»^(٣) . والأخبار الواردة في أميابة الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فافقه أن كرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فافقه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أضرار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة ياربى قال الله تعالى حتى متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري أشهدكم أني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت : ياربى اعصمني حتى لأعصيك أبدا ففتفت بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم فعلت من أفضّل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للمؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجليل رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للشيخين بالهشيين . ولقي مالك بن دينار أبا نا قال له إلى كم تحدث الناس بالرخى فقال يا أبا يحيى إلى لأرجو أن ترى من عفا الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بمد اللوت . قال لما مات أخى سجي يؤبه ألقيناه على نمشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إني لقيت ربي عز وجل خياي بروح وريحان وربى غير غضبان وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح قمعه فكانها كانت حياكة وقعت في طشت فحملناه ودقناه . وفي الحديث

بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الله تعالى سعيد ابن السيب وعبد الله ابن المبارك وغيرهما . وفائدة الصفة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

(١) حديث بشت بالحنيفية السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة لسنه ضعيف دون قوله السهلة وله للطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالضعفة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه وزجره فكان يقول دعني وربّي أبث على رقبيا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فضرب فقال لا يضر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أستطيع أخذان يحظر رحتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته ^(١)» وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الخواريق فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو زلت فكنت معها ثالثاً قال فزل فجعل يريد أن يذنب من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيماً للحوارى ويقول في نفسه مثل لا يمشى إلى جنب هذا العابد قال وأحسن الحوارى به فقال في نفسه هذا يمشى إلى جانبي فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألقى الحصى بجنبه قال فرغ النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب قلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تأنى على عبادى إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام ^(٢)» وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعت على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسأنى في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبد مؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابهم وبين من يخدم ارتجاء لانعامه وكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فإني سألتون كريماً ^(٣)» وقال «إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطى شيء ^(٤)» وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحة والأخوة
التعاقد والتعاون
وتتقوى جنود القلب
وتستروح الأرواح
بالنشام وتتفق في
التوجه إلى الرفيق
الأعلى ويصير مثالها
في الشاهد كالأسوات
إذا اجتمعت خرقت
الأجرام وإذا تفردت
قصرت عن بلوغ
اللام . ورد في الخبر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم «للؤمن
كثير بأخيه» وقال
الله تعالى غفرا عن
لاصديق له - فقالنا من
شافعين ولاصديق
حميم والحميم في الأصل
الحميم إلا أنه أبدلت
الهاء بالحاء لقرب
مخرجهما إذ هما من

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث ابن عباس يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلاناً وفلاناً بما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد أنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذى ومسلم وأبى إسحاق والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا لحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإني سألتون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطى شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم
 مستعينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغضضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته
 يكاد رجائي لك مع الذنوب يطلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتد في الأعمال على الاخلاص وكيف
 أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتد على عفوك وكيف لا تغفرها أنت بالجوهر موصوف.
 وقيل إن محوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفك للمجوسى
 فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته
 ليلة ماذا كان عليك لم إبراهيم يسعى خلف المجوسى فردّه وأضافه فقال له المجوسى ما السبب فيما بدالك
 فقد كر له فقال له المجوسى أهكذا ياملنى ثم قال اعرض على الاسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل
 الصملوكى أبا سهل الزجاجى في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أهون
 مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصملوكى في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذهم نلت هذا
 فقال بحسن ظنى بربى. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه
 أن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال جاءوا ثم قال ماذا عملتم فيها علمتم
 أن قتلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا
 فأنس في صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك
 ثلاث ليال. وقيل كان رجل شرب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن
 يشتري شيئا من القواكه للمجلس لم الغلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول
 من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذى تريد
 أن أدعوك قال لي سيد أريد أن أغلخص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يغفر الله على دراهمى
 فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لى وليسدى ولك
 وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت قمص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت
 لنفسى العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأبش الثانى قال أن يغفر الله على الدراهم قال لك أربعة
 آلاف درهم وأبش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأبش الرابع قال أن يغفر
 الله لى ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت
 فعلت ما كان إليك أقرى أتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللغلام وللمصور بن عمار وللقوم الحاضرين
 أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون
 جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا لبيت ققلت للمرأة من كان هذا
 البيت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وأبش كان هذا
 قالت عمتنا قال فرحمها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه
 أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى ققلت من أنت فقال الخنث الذى
 دفنتمونى اليوم رحمى ربى باحتقار الناس إياى. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا فينداد مع معروف
 الكرخى على دجلة إذ مر أحدنا في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا المعروف أماراهم
 يحسون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال
 اغفر لى إن شئت ولكن ليعزم ويعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطى شيء أعطاه والبخارى
 من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فإذا سألتهم الله فأسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى
 الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

حروف الحلق والمهميم
 مأخوذ من الاهتمام
 أى يهتم بأمر أخيه
 فالاهتمام بهم الصديق
 حقيقة الصداقة. وقال
 عمر إذا رأى أحدكم
 ودا من أخيه
 فليتمسك به قلقا
 يصيب ذلك وقد قال
 القائل :

وإذا صفالك من زمانك
 واحد

فهو للراد وأين ذاك
 الواحد

وأوحى الله تعالى إلى
 داود عليه السلام
 قال يا داود مالى أراك
 متبذرا وحده قال
 إلهى قلت الحلق من
 أجلك فأوحى الله إليه
 يا داود كن يقظانا
 مرتادا لنفسك اخوانا

للقوم إنما سألتك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض الساف يقول في دعائه يارب أي أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابعة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتغضب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق المعرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما منورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالوسط والعصا وإظهار الحشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتهما ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالهيب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وإتماما للشهود غاية القامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل القامات فتقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاجش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحبه على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في مخالاب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه تكوفا من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الساء يخاف لأنه بطبعه محبوب على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثبوت لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم ينعمه مانع وتارة يكون بكثرة الجنابة من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بهيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغاثته وأنه لا يبطل عما يفعله وهم يشلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله » (١) وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كملت المعرفة (١) حديث أنا أخوفكم البخاري من حديث أنس والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولاشيخين

وكل خدن لا يوافق على مسرتي . فلا تصحبه فانه عدوي قسي قلبك وياعدك مني . وقد ورد في الخبر « إن أحبك إلى الله الدين يالفون ويؤلفون فالؤمن ألف مألوف » وفي هذا دقمة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفاً فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليلي ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس خطا

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالحول والصفار والبكاء وقد تنشق به الرارة فيفيض إلى الموت أو يبعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فيكفها عن الماصي وتقيد بها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التوب متى يكون العبد خائفاً قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى بحافة طول السقام . وأما في الصفات فإن يجمع الشهوات ويكثر اللذات فيصير الماصي المحبوبة عنده بكرهه كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه صمغاً يحترق الشهوات بالخوف وتآذ الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة وبفارقته الكبير والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطراته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس والليحظات ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله من وقع في غلاب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بحلال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبتغي ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسه من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام وينجده له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً وقوراء اسم الصديق والتقرب وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره والهاشمي إما علوي أو غيره والعلوي إما حنفي أو حنفي فإذا ذكرت أنه حنفي مثلاً فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للعاني فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداماً .

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

من هذا الوصف
الأنبياء ثم الأولياء
وأنتم الجميع في هذا
نبينا صلوات الله عليه
وكل من كان من
الأنبياء أنهم ألفة كان
أكثر تبعاً ونبينا
صلى الله عليه وسلم
كان أكثرهم ألفة
وأكثرهم تبعاً وقال
«تناكحوا نكحوا»
فإن مكاتر بكم الأمم
يوم القيامة» وقد نبه
الله تعالى على هذا
الوصف من رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فقال - ولو كنت فظاً
غليظ القلب لانقضوا
من حولك - وإنما
طلب العزلة مع وجود
هذا الوصف ومن
كان هذا الوصف فيه

(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثركان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى اللواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للهيمة أن لا تغلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها الممايرح فلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترشحين برسوم العلماء والمتسعين بأسمائهم فأنهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك بمقادير عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن العاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الجمل على العمل ولولا لما كان الخوف كلاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخذور لا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس يكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يعرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها المعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالحمد ومنه ما يفضي إلى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يقتله سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما يبطل العمر أو العقل أو الصحة التي تعطى العمر بتعطيلها فهو حسران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأنم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة في أول أمره وكان يغلو في غار حراء ويتحنث الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أنم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما سلفنا في أول الباب إن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف

إلى أمور آخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة التقين والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما محمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدین الللازمین للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي نافس العقل .

(بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه)

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والسكره إيمان أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإيمان أن يكون مكروها لأنه يفرض إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه الضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتحمل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشهاده ذلك للكره ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المهدورة فالدين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يخلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بنصام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحيانة والنقص وإضمار السوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الحتم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفرض إلى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه محظر وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تحمل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما ذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفية أنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر قبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادونهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الخدائق ذلك ألهمهم الله تعالى حجة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الليل بالوصف الأعم لترتقي المهمة العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فاذا وفوا التصفية حقها اشترأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكلمة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل الموت ولو بغواق ناقة وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بغواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم (١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنائته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضى الهيبة لآعالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الفرور والأمن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأل يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسر أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من سرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا الطبع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يعجز إفشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يادود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢)» فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا الجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك ثمة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته وثالث الأمل ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله «هو لاء إلى الجنة ولا أبالي وهو لاء إلى النار ولا أبالي» ويكشفك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم البالاة.

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصعبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصعبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهشه الله

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يادود خفي كما يخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل للمصنف قصد بإبراده أنه من الأسرئليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الأسرئليات التي هي غير مرفوعة .

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل في أنفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدة أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبه الوقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السر والسؤال عن النقيز والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة ذار النعيم والملك القيم وعن قصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجهه الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والإقباطه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فمبيلة أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تيسر اللواظبة على الذكر والفكر إلا باقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تنفع الشهوة بشيء كما تنفع نار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن اللامعي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المأمورة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فمأورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ونهايك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم خشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه فأنظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

للصادقين رقما من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والأنيس قد يكون مفيدا كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمرئيين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فإن كان قاصرا يؤنس الله بمن يتم حاله به وإن كان غير قاصر يقضى الله تعالى له من يؤنس من المرئيين وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفي الله . وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «التحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) فاذن إن نظر إلى مشمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كفا بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول - يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتمكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نبياً وجعلتم نبياً فوضعتم نبياً ورفعتهم نبيكم - قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأيتهم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فالיום أضع نسبكم وأرفع نبي أين المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة مارأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كغلب بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وقتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهده الأسامي وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخاصة فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزتي

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضربونهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله عز وجل فإذا أشرقوا عليهم أنصاء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لما ذابني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لما خبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم غير فلما نزل به ورأسه في حجرى غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتمكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نبياً الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والعلبي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نبياً الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضاً (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمتي في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتي يوم القيامة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم » من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء (٢) « وقال عليه السلام » أتعلمون عقلا أشدكم خوفا لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا (٣) « وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد الله حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدكم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله لا نجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن بالله سيد كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تسكد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تغالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويرزى قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (٤) » والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفصلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر ينتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفي الشك محمدي يرجح على الآخر بمحذور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفا وطعما - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - مالكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتعلمون عقلا أشدكم لله خوفا الحديث لم أنف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويرزى قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة
وجوههم كالقمر ليلة
البدر يفرغ الناس
ولا يفرعون ويخاف
الناس ولا يخافون وهم
أولياء الله الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون
قيل من هؤلاء
يا رسول الله ؟ قال
التعابون في الله عز
وجل . وروى عبادة
ابن الصامت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « يقول الله عز وجل
حق عبي للمتعابين
في والزاورين في
والتبازلين في
والتصادقين في »
أخبرنا الشيخ
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي إجازة قال
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - يبكون ويذعنون خشوعا - وقال عز وجل - أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال **عليه السلام** « ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطايا كما يتحات من الشجرة ورقها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ^(٣) » وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ^(٤) » وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمعت من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمر ^(٧) » وقال **عليه السلام** « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ^(٨) » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعا من دموعه . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما ترغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحانت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والفصائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم أقف له على أصل (٦) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسل دون ذكر الله وذكر الدار قطن في العلل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسل قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في السكتي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فان الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإعنا ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم، ثم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الهاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن السيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فانها هي الخالقة » وإسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أمامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فان سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها محاراً من النيران ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجمل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فذنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا ففسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى قد ناققت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والركة فخرجت وجعلت أنادى نافع حنظلة فاستقبانى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلاً لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلاً لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجاءت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصالحكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إلى ما في متريه شك فى أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهاى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتماعاً نظر إلى الأغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الوجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد للعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكجيين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكجيين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر الحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاعتذار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقيم من بحر الرحمة ومستقيم الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستندة إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الأثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً .

أبا مسلم يقول صمت
أبا هريرة يقول الخبر
وفى الخبر تحذير عن
البغضة وهو أن يحفو
الختلى الناس مقتا لهم
وسوء ظن بهم وهذا
خطأ وإنما يريد أن
يخلو مقتنا لنفسه
وعلم بما فى نفسه من
الآفات وحذرا على
نفسه من نفسه وعلى
الخلق أن يعود عليهم
من شره فمن كانت
خلوته بهذا الوصف
لا يدخل تحت هذا
الوعيد والاشارة
بالخالقة يعنى أن البغضة
خالقة للدين لأنه نظر
إلى المؤمنين والمسلمين
يعين التمت . وأخبرنا
الشيخ أبو الفتح
باسناده إلى إبراهيم

فيلو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لا اعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابن خنف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت به حسنات أهل الأرض لم يقبلها منك وأرج الله رجاء ترى أنك لو أتيت بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدلهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الدين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزراع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تهذيبها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال التقيين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فلا يفيضه ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثل مسألنا بذر لم يحرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدها الزارع ولم يخبرها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألنا هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبئه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والثبات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق محالته ولم يحرب مثله والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يحرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند التصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يحرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا عمالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يتألم في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وإن اعتقد تقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» (٢) ، وفي رواية «لا تقدر فواق

الحربى قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعا له اللهم فكذا ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا تثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وهكيف لاتألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسهه فيه شيء لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك القام العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة في أمهات ثمانية عشر مناقباً تمامه لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية لا تقدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يحتم له بعمل أهل النار وللبرار والطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن والشيخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أهدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار، وقد رفوا في الناقاة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يخلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذا أقصى غايات المؤمن أن يستدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاعتراض وقلة الأمر فقولنا ذلك جميع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعاً - وقال عز وجل - ويدعوننا رغباً ورهباً - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالحق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سبباً لتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعو إلى التجافي عن دار القرور فهو الخوف الممود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس للوجوب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى ببعض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بعض الرجاء تاه في مفازة الاعتراض ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار - وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي ومن عبده بالهبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والهبة فهو موحد فاذا نال من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تمجيل موته وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحيازة الله تعالى ليكون محالاً لقاء الله تعالى فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه والرجاء تفارقه الهبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والتقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة للهبة فإن المصير إليه والقيد بالموت عليه ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوه اشتدت محبته وعذابه فلهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ولا ينبغي حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فموته قد قدم على محبوه وخلّص من السجن ولا ينبغي حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوه بلا مناع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها وأطعوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا بالكسب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد»^(١) والغرض

ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

وقال السلام علينا
وطي عباد الله الصالحين
فهم مجتمعون وإن
كانوا متفرقين
وصحبهم لازمة
وعزيمتهم في التواصل
في الدنيا والآخرة
جازمة . وعن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
لو أن رجلاً صام النهار
وقام الليل وتصدق
وجاهد ولم يحب في
الله ولم ييغض فيه
ما نفعه ذلك . أخبرنا
رضي الدين أحمد بن
إسماعيل بن يوسف
إجازة إن لم يكن معاً
قال أنا أبو المظفر عن
والده أبي القاسم
القشيري قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت عبد الله

ابن المسلم يقول سمعت أبا بكر التلمساني يقولوا همبوا مع الله فان لم تطيقوا فاهبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحدا يقول سمعت علي بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

۴۹۰

يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأهل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد الحبيب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد أيضاً في خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف وزول على قرب حق إن الصبي ربما يرى العزم يدم على أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب العاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفاً في محالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يغناه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا المعرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواء فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب اللانكسة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سائلة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بالضرورة فان كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لاعة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله يده ونفخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائله وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبين كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قاله موسى بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أقتلوني على أن عملت عملاً كتبته الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطهرين على سر القدر ومن مع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محالب السبع والسبع قديغل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفتسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمى اتفاقاً وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقاً والواقع في محالب السبع لو كانت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نبه القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعان الصحة والحلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قوم الرء وحده
[الباب الرابع]
والجسوسون في أداء حقوق الصحة والأخوة في الله تعالى
قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له خلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يعالج نفسه بمواع الأخيار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم للفراعة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلي على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار » (٣) وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ففضب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم » (٤) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك « والله لأزكى أحدا بعد عثمان » (٥) وقال محمد بن حوالة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره » (٦) وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو غليل فسمع امرأة تقول هنيئا

رسول الله صلى الله عليه وسلم - أشداه على الكفار رحماء بينهم - وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصلوة فمن اختار صلوة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصلوة فانه يفتح على نفسه بذلك إماما بابا من أبواب الجنة وإماما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا خفر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم لله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلي على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه في الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أقلت أحد من ضمة القبر لأقلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقالت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى في الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أشير بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه النألية على الله تعالى فقال المريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويخجل بما لا يفنيه (١) « وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتني هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال الغناء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألا بعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لنود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قتها كاذبة ، خافضة رافضة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما رافضة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكاوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الحاتمة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت بداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لعفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق النفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فمسي أن يكون من المفلحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم آية الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهمه أربعة شروط للخلاص من الحشران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتكما ققلا ومن يأمن مكره (٣) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتحان لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا من المكرو ما وفيما يقولهما كأن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إننا نخاف أن يخرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أجمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له - لا تخف إنك أنت الأعلى - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا - وإن مكنت الآية

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا لك الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتني هود وأخواتها الحديث الترمذى وحسنه الحاكم ومحمه من حديث ابن عباس وهو في الثبائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث همر وروياه في مجلس من أمالى أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » (١) فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه دمع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك - وقال - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية . ففوض الأمر إلى الشبهة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حدد العقولات والمألوفا فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ومرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ثم يغير عنه ويقول - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول في الأزل ولا يطعم في تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطعمة تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستعراء خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسهل له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشفاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الحيرات كلها يسيرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن بغير الحال وقلب المؤمن بين أصبع الرحمن وإن القلب أشد تقلبا من القدر في غلباتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لرهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنني لأدري ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لا اخترت الموت على الإسلام لأنني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يخلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحاتمة عند كل خطرة وعند كل

وردت في قصة مشهورة ولكن الله تعالى نيه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصعبة والأخوة اتفاقا من غير نية في ذلك وتثبت في أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، قاله ساد بالصعبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يحذر في أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخاري من حديث ابن عباس بالفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما احتضر سفيان جعل يركي ويجزع قبيلاً يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرتي الوفاة فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني متاً على التوحيد فخذ جميع ما أمسكه فاشتره لوزاوسكرا واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس للنفات ، وإن متّ على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يشترّوا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحبّ على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال د وهم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والأوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يتبلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتبلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطى زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامشتر الحواريين أنتم تخافون للمعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أن نبيا شكاً إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبيدي أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفربي حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، وقال بلى قد مرضيت يارب فاعصمني من الكفر ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات الذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنّي بريء من النفاق كان أحبّ إلي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق القبي هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناققاً ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفي لفظ آخر « وإذا هاهد غدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صدق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه العاني بل صارت هذه الأمور مألوقة بين الناس متبادنة ونسي كونها منسكراً بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً إنني لأجمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتمامون أعمالاً هي أدق في أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد .

وسؤال البركة والخيرة
في ذلك وتقديم صلاة
الاستخارة . ثم إن
اختيار الصلحة
والأخوة عمل وكل
عمل يحتاج إلى النية
وإلى حسن الخاتمة
وقد قال عليه الصلاة
والسلام في الخبر
الطويل « سبعة
يظلمهم الله تعالى فمنهم
اثنان تهابأ في الله
فأشأ على ذلك وماتا
عليه » إشارة إلى
أن الأخوة والصلحة
من شرطهما حسن
الخاتمة حتى يكتب
لهما ثواب للؤاخة
ومنى أفسد للؤاخة
بتضييع الحقوق فيها
فسد العمل من
الأول . قيل ما حصد

من الشمر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار^(١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس مأتى مثله ، وأن تعبّ على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . وروى أنه مع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنّت تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) . وأشد من ذلك ما روى أن قرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم النافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يتلى بالآيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز إبرة ويأتي عليه ساعة يتلى بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى غلخ العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، قال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قديقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار^(٥) » ، والله المستعان .

(بيان معنى سوء الحاتمة)

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشمر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبخاري من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث مع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن قرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب التزهيد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجوه ولده في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین
على بر حسنه
متأخین فی الله
متحابین فیہ فانه
یجهد نفسه ویمح
قیسله على إفساد
ما بینهما . وكان
الفضل یقول : إذا
وقمت الغیة ارتفعت
الأخوة ، والأخوة فی الله
تعالی مواجہة قال
الله تعالی - إخوانا
على سرر متقابلین -
ومتی أضمر أحدهما
للآخر سوءا أو کره
منه شیئا ولم ینبه
عليه حتى یزله أو
یتسبب إلى إزالته منه
فما واجهه بل استدبره
قال الجنید رحمه الله
ما تواخى اثنان فی
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يطلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المعروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهي فهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرم يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويعمل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما محت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الحاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشق مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم لم أجده أصلا (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رموس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والنافق فينادى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلي فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا
لعله فى أحدهما فالموأخاة
فى الله أصنى من الماء
الزلال وما كان لله فالله
مطالب بالصفاء فيه وكل
ما ضا دام والأصل فى
دوام صفائه عدم المخالفة
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « لا تمار
أخاك ولا تمازحه
ولا تعده موعدا
فتخلفه » . قال أبو سعيد
الحراز : صحبت
الصوفية خمسين سنة
ما وقع بينى وبينهم
خلاف قليل له وكيف
ذلك ؟ قال لأنى كنت
معهم على نفسى .
أخبرنا شيخنا
أبو النجيب السمروردي
إجازة قال أنا عمر بن
أحمد الصغار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للنفرة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر مطقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعباد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا . فأقول إنه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ماهو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يفتر وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه فهو لاهم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - وبقوله عز وجل - قل هل تنبشكم بالأخسرين أعمالا الدين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وكما أنه قد ينكشف في اليوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي النافذة للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق والبله بعزل عن هذا الخطر أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا محملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا صفوا إلى أصناف التكلمين في تقليد أقوالهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثرة ومسالكه وعرة والمعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا معجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتمازض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للمقائد الورثة أو المأخوذة بحسن الظن من العلين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف
قال أنا أبو عبد الرحمن
السلمى قال سمعت
عبد الله الداراني قال
سمعت أبا عمرو والدمشقي
الرازي يقول سمعت أبا
عبد الله بن الجلاء يقول
وقد سأله رجل على أي
شرط أصحب الخلق
فقال إن لم تبرم فلا
تؤذم . وإن لم تسرم
فلا تسؤم . وبهذا
الاسناد قال أبو عبد الله
لا تضيع حق أخيك
بما بينك وبينه من
للودة والصدقة فان الله
تعالى فرض لكل
مؤمن حقوقا لم يضيعها
إلا من لم يراع حقوق الله
عليه ومن حقوق
الصحة أنه إذا وقع
فرقة ومباينة لا يدرك

يحب الدنيا مشغوفة وعلينا مقبلة وشهوات الدنيا بختها آخذة وعن تمام الفكر صارقة فإذا فصح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والاعتقود مع تفاوت الناس في قرأهم واختلافهم في طبائهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فانسدت بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعزوا المأه وخارج عن حد طاقاتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأه بعد حين - وينبئ أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنتم ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسألتك الليالي فاعتزرت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينه وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والمهلك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بفضاعة عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصباتهم أودون الأدلة فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واتقاه فهو آمن من مكر الله مغتر بقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو السكربت الأحمر وأنى يتيسر وإعنا يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة.

وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى لإمان حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في محاربة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقتو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفى ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعنا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيختشى أن يشور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بضما فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء المضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آبؤكم وأبنؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصواحتي يأتي الله بأمره - فاذن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بآله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل
كان لبعضهم زوجة
وكان يعلم منها ما يكره
فكان يقال له استخبارا
عن حالها فيقول لا ينبغي
للرجل أن يقول في أهله
إلا خيرا ففارقها وطلقها
فاستخبر عن ذلك فقال
امرأة بعدت عني
ولست مني في شيء
كيف أذكرها وهذا
من التخلق بأخلاق الله
تعالى أنه سبحانه يظهر
الجميل ويستر القبيح
وإذا وجد من أحدها
ما يوجب التقاطع فهل
يبغضه أولا يختلف
القول في ذلك . كان
أبو ذر يقول إذا انقلب
عما كان عليه أبغضه
من حيث أحبته وقال
غيره لا يبغض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد البغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يغني ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تعمل مشاق الأعمال ووعشاء الأسفار طمعا في لقائه فلا يغني ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سبيان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة وجميع ما ألفه الانسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله أكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله أكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يغني عليك أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يائل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراقب الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الواقع ثم لا يغني أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجو له الخلاص منها وكما أن ما غطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك أحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من شيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدر آه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقل الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الحياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليعيط بها ويبل أسبغته التي لها عادة بالسكتان ويأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى القراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في نظامه

بعد الصحبة ولكن
يغض عمله قال الله
تعالى لنبيه صلى الله
عليه وسلم - فإن
عصوك قل إنى برى
مما تعملون - ولم يقل
إنى برى منكم .
وقيل . كان شاب يلازم
مجالس أبي الدرداء
وكان أبو الدرداء يعزبه
على غيره فابتلى الشاب
بكبيرة من الكبائر
وانتهى إلى أبي الدرداء
ما كان منه قليل له
لوا بعدته وهجرته
فقال سبحان الله لا يترك
الصاحب بشيء كان
منه . قيل : الصداقة
لحمة كلحمة النسب .
وقيل لحكيم مرة
أيما أحب إليك أخوك
أو صديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخليّة الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه وعشر على ما مات عليه ولذلك قيل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلتي الشهادة فيقول خمسة سنة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره ثلاثة تلالاً نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يحل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات للقتضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فيها عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني منامي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فبهجرتي شهر أو لم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك وباحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف إذا صمدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم الاضطراب من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فراق الناقة لأعماله نوجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنني أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء.

(١) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم.

أحب أخى إذا كان
صديقي وهذا الخلاف
في المفارقة ظاهراً وباطناً
وأما الملازمة باطنياً إذا
وقعت المباعدة ظاهراً
فتختلف باختلاف
الأشخاص ولا يطلق
القول فيه إطلاقاً من
غير تفصيل فمن الناس
من كان تغييره رجوعاً
عن الله وظهور حكم
سوء السابقة فيجب
بفضه وموافقة الحق
فيه ومن الناس من
كان تغييره غيرة
حدثت وفترة وقعت
يرجى عوده فلا ينبغي
أن يفيض ولكن
يغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلاحظ بعين
الود منتظراً له المرح
والعود إلى أوطان

الحاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة منبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلائنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالسكرامة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلائنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على الموت إلا حب الله وطلباً لمرضاته وبإعداد نياه بآخرته وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - والبايع راضب عن البيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب وبمجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يلبس على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبباً لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والفتيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار^(١) وإذ بان لك معنى سوء الحاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهلك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الحاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك فراقب قلبك في كل تطريفة وإياك أن تهمل لحظة فعمل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيماروحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يلبسك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يغاب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه وأنه لا يلبس في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا يبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينالم العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديها باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تنفل عن الله طريقة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكي إلا عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك . طعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تسكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبهة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء

الصلح قد ورد «أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى بفاحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك» وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئسه» وروى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذاك أخو الشيطان قال له ما قال له إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والفتيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يقاتل للدنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليري مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاثل حمية ويقاثل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

حاجتك فسلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكتفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوئة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأمامك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولوقد نسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القاتم في تحصيله بالكسب حرمة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تستكف به في حساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت بمن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقما والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرتك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لحاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك فأقبل هذه النصيحة بمن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختلطت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الحاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيد بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغرّ ميتا إلى الأرض ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

(بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف)

روت عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجر ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله^(١)» وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصق^(٢)» وقال تعالى سوخر موسى صعقا - ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصق^(٣)» وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصق المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكالا وجعيا وطاما إذا غصة وعذابا ألجما - فصق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعاه به فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا

الكبار حتى وقع في الحرج فقال إذا أردت الخروج فأذننى قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت عينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالم يكتبكيا كل هذا البكاء فقالا يارب مانأمن منك فقال الله تعالى هكذا كونا لاتأمننا مكرى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنثدة اللائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم طادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضى الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل فقال يا ابن عمر مالك لاتأكل قلت يا رسول الله لاأشتهيه فقال لستى أشتهي وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخشون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فوا الله ما برحنا ولا نقا حتى نزلت - وكان من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو المسيح العليم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله ليأمركم بكنز المال ولا اتباع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله الا واني لا أكنز دنائرا ولا درهما ولا أخبرا رزقا لعد (٤)» وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما سجدا لا يرفع رأسه حتى نبت الرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فودى يداود أجائع أنت فتطمع أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى فتحب نعمة حاج العود فأحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفى فصار خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثائه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى . سبحانه إلهي أتيت أطباء عبادك ليدأوا وخطيئتي فكلمهم عليك بدلتى فؤسا لافانطين من رحمتك . وقال الفضيل بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضع يده على

كان مريضا عدته وإن
كان مشغولا أعنته
وكان يقول ابن عباس
رضي الله عنهما
ما اختلف رجل إلى
مجلس ثلاثا من غير
حاجة تكون له فعلت
صامكافاته في الدنيا وكان
يقول صعيد بن العاص
لجليسى حتى ثلاث
إذا دنا رجبت به وإذا
حدث أقبلت عليه
وإذا جلس أوسعت له
وعلمة خلوص المحبة
فه تعالى أن لا يكون
فيها شائبة حظ عاجل
من رفق أو إحسان
فان ما كان معلولا
يزول بزوال علته ومن
لا يستند في خلقه إلى
علة يحكم بدوام خلقه
ومن شرط الحب في الله

بلفظ فتشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل لستمائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة مع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث ما جاءني جبريل قط إلا هو وترعد فرائضه من الجبار لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مراسلا وورد ذلك أيضا في حق إسماعيل بن عيسى في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف.

رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي بجزع صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أمت ارحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كفف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظنى الطير على رأسي وأنست بالوحوش إلى عمراني إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقتة يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجه حواء أمي وأسكنته جنتي عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اجمع منى والحق أقول أطعنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأهلناك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له المنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت فأتى الوحوش من البراري والآكام وتأتى السباع من الفياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرفى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الشاء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتصوت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبناء قدمزقت الستمعين كل محرق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فيبناهاو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مفشيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال ينادي ربه فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا أبناء تقوّ بهذا على ما تريد فإيا كل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس عظمهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف قال وكان له جاريتان أخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا علىهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهدهم قد خرقوا التراقي وسلخوا فيها السلاسل وشهدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك

إشارة الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - فقله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا يجدون إخوانهم على ما هم وهذا الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني الإشارة بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام « المرء على دين خليله والاخير

فرجع إلى أبيه فر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا لنلعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى
أبيه فسألهما أن يدرجاه الشعر ففعلوا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً
حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيوان الشعب فخرج أبواه في طلبه
فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أتقن رجله في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك
لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير
ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبرفرده أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام
يصلى بكى حتى يسكى معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام ليكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يسكى
حتى خرفت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن أخذلك
شيئاً توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فمهدت إلى قطمق لبود ففألتصقتهما على خديه فكان
إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه في القطمقين أتت إليه أمه ففصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل
على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا
يوما يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيناي بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام
أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال
المسيح عليه السلام : معاشر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة
ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزابل مع الكلاب في طلب الفردوس
قليل . وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب
قلبه ميلاً في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خيلاً يخاف
خليه فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك
والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف)

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك ياطرني ولم أخلق بشراً . وقال أبوذر
رضي الله عنه وددت لو أنني شجرة تعصد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا
مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه
كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه فكان يباد أياماً وأخذ يوماً تبنة من
الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً مذكوراً ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدني
أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله
لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه
- إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خرمغشياً عليه وصر يوماً بدار إنسان
وهو يصل ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع -
نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زماناً ثم رجع إلى منزله ففرض شهراموده الناس ولا يندرون مامرضه
وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب
محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شماً صفر اغبراً بين أعينهم أمثال ركب للمري قد
باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا
كل عبيد الشجر في يوم الربح ومهلت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأن بالقوم باتوا غافلين

لك في صحبة من
لا يرى لك مثل
ما يرى لنفسه وكان
يقول أبو معاوية
الأسود إخواني كلهم
خير مني قيل وكيف
ذاك ؟ قال كلهم يرى
لي الفضل عليه ومن
فضلي على نفسه فهو خير
منى وبعضهم نظماً :
تذلك لمن إن تذللته
يرى ذاك للفضل
لا لبله

وجانب صداقة من
من لم يزل
على الأصدقاء يرى
الفضل له .

[الباب الخامس
والحسنون في آداب
الصحة والأخوة]
سئل أبو حفص عن
أدب الفقراء في الصحة

ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسمود كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لأعصيتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك علي طاعتك ، وكان المسور ابن مخزومة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة لما يعقل أياها حتى أتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نحشر التقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من الجرمين ولست من التقيين أعد على القول أي القاري فأعادها عليه فشيق شهقة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينا أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذلها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وبئكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول شككت مالكا أمه ، وروى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكوى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأناه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدا وطى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقنا . ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فعما روى ذلك الفتي بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس مجلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأنتت فيقول تلك جلسة الأمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبد الأبق إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ملقى ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تبعده لقي ملقى ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السري : إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظري السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إني اجتريت البارحة على الله سألته الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها يابى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً وكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلتك ونهارك فقال يا أماء ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزنى وجلالى لا غفرت لك ، وقال الفضيل إني لا أغبط نبيا مرسل ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخاف . وروى « أن فتى من الأنصار

فقال حفظ حرمات الشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس في طبقتهم وملازمة الاشارة ومحاربة الادخار والمعاونة في أمر الدين والدنيا فمن أدبهم التغافل عن زلل الاخوان والصبر فيما يجب فيه النصيحة وكنتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحم الله امرأ أهدي إلى عيوبى وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينهه على عيوبه قال جعفر ابن برقان قال لي

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه ففر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول يا ليت أمتي لم تلدني فقالت له أمه يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الاسلام قال أجل ولكن الله قديين لنا أنا ولردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فذا كرن ثواب الله وعما به فتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما فززع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة عفاة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طام قال هذا من أجل يصيبهم لومات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم تقشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله الطيعين وكيف أهان العاصين فيبيناهم يمشون إذ مر أحدهم بمكان غفر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاءوا بعماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من التابعين - يوم تغلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما فقرأت - كما أرادوا أن يخرجوا منها أعيديا وفيها - فخر ميتا، وروى أن زرارَةَ بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ - فاذا تقر في الناقر - خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عطفي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غفر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم وعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر على (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولهها وهي تقول يا ابناء ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في اللثة الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ففتحت علي عيني فقامت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فان لم تبكوا فنيا كوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٣) وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يجب من صدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر. ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والروقة فقال له العباس قلعت ما كان

(١) حديث إن فتي من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة واليهيقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم وعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أنف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فواعد المعاهد

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة وبحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وروى الفضيل يوما وهو ينشئ قيل له إلى أين؟ قال لأندري وكان ينشئ والها من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : مبال التكلمين يتكلمون فلا يبي أحد فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة الشكلى كالنائمة للمتأجرة وحكي أن قوما وقفوا بباب وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرعة يجدها الخائفون في فلوهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني . وقال صالح المري : قدم علينا ابن السكاة مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فنهبته به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فإذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه - إذا الأغلال في أعناقهم والسايل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون - فتهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فتهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فقرأت - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد - فتهق شهقة فبدا الدم من منخره وجعل يتشبط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فأدركته على ستة أنفاس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابغ فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الحصى تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في معلاة فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن لخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقى مبهوتا فأعماه شاخصا بصره يصيح بصوته ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عطل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل منا أبدا فأرؤى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل منا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغنى أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أذى حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على منها فقال هيه قالت جئى بعد لللك بن مروان فحمل عليه فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسلیمان بن عبد الملك فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرم مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسوله الله صلى الله عليه وسلم وضمه يديه فقال إذن لا يردى إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيان كنا لانسحب من يقول نملى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى الظفر عن والده أبى القاسم القشبرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسى دخلت على قوم من الفقهاء يوما بالبصرة فأكرموني

ويعكس أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكن من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويسا ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طائوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلب كما تتقلب الحبة في القلي ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طبر ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام بالتي كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفا من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كأن النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره ففتنى فقال اذهب فلا غفرت لك فأنا أعمل في غير معتمل . وعن ابن السكيت : قال وعظت يوما في مجلس قمام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال ذلك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عني فقصدته في المجلس الآخر فلم أراه فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأنتيت أعوده فقلت يا أخى ما الذى أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال غفرلى ورحمى وأدخلنى الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والملاء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة والإفليس أمنا لقلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزهبنا فقال الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرنا وانجربنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولا شق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قلنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يفرنكم بالله الفرور . يا أيها الانسان ما تحرك بربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فهاهنا إلا عنة هائلة إن لم يفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا ففسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سراير قلوبنا وأن لا يحمل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخلاص أعظم من هذا ففسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشدين بفضلته ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الحولاني وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهية المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والموام فهو خائف حذر

وبجلوني قلت يوما لبعضهم أين إزارى فسطبت من أعينهم . وكان إبراهيم بن آدم إذا صاحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيد فقال رجل من أصحابه أنا لأقدر على هذا فقال أعجبى صدقك . وكان إبراهيم ابن آدم ينظر البساتين ويحمل في الحصاد ويتفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتشبه الهوام فهو مذخور القلب وجل فهو في المخافة ليله وإن أمن المفقرون وفي الحزن نهاده وإن فرح البطالون ثم ولي وتركني ققلت لو زدتن شيئا عسى ينفعني فقال الظمآن يحزبه من الماء أيسره وقد صدق فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل الواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لما فيها ترى عينك العقارب والحيات وقد أحدثت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

كتاب الفقر والزهد

(وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكرك من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصالصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالعدو والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور العبادة حتى لاحظ بضائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستنقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستنقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجبت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والإغتيال ، ثم لا تجترى معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البعض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[أما بعد] فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بفرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحارب رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها ودم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البعض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها السكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواها عن العبد ويسمى ذلك قفرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما مدرجة في نيل السعادات وحظ في الاثابة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودور جاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فنقول : [الشطر الأول من الكتاب في الفقر] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

(كتاب الفقر والزهد)

تعالى - وأمرهم شوري بينهم - أى مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استئذوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسبون في إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصفة. قال أبو بكر الصكافي صحبني رجل وكان على قلبي ثقباً فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقبه من قلبي فلم يزول فخلوت به يوماً وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله المطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

(بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ)

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد منه من غير فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله الغنى وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكل السانقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والإفقر العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فقول: كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخص كل حال باسم لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب لمجزءه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وأهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاثر الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عند وجود المال وقفده فأن وجد لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاه مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادماتها ما استطعت فيها فرقت اليوم أن تشتري لنا بذر من الحنظل فطير عليه فقالت لو ذكرتني لعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا فبرها في يده وخزائنه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره . وينبغي أن يصمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعتنا بقاءه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والابتناء بالوضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا بوضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتر ذلك عليهم فأترل الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بشار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فباشيا فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فضاء إلى العموم أميل فهو إلى الفنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب البعد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليقى الفنى اصما لمن له الفنى المطلق عن كل شئ، وأما هذا البعد فان استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعطه من هذا الرقى فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرقى والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصمين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الفنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا. واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه تفضيلا إذ حسنت الأبرار سيئات المقربين وهذا لأن السكارة للدينا مشغول بالدينا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره. وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول بيفض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمشتوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفاله وكرهه حضوره فهو في حال اشتغال قلبه بيفضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول بيفض الدينا غافل عن الله تعالى كما المشغول بحبا إلا أن المشغول بحبا غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول بيفضها غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود فالكمال له مرتبة لأن بغض الدينا مطية توصل إلى الله فالهيب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالاضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى المتكفف في الكعبة اللازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدينا مقصود في عينه بل الدينا حائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فاذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وتقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يفيض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال
بأى عذر فقال بأنك
لقيت الجنيد وما لقيته
ومن أدبهم ترك محبة
من همه شئ من
فضول الدنيا قال الله
تعالى - فأعرض عمن
تولى عن ذكرنا ولم يرد
إلا الحياة الدنيا -
ومن أدبهم بذل
الانصاف للاخوان
وترك مطالبة الانصاف
قال أبو عثمان الجيرى
حق الصعبة أن توسع
على أخيك من مالك
ولا تطعم في ماله وتصفه
من نفسك ولا تطلب
منه الانصاف وتكون
تبعاله ولا تطعم أن
يكون تبعالك وتستكثر
ما يصل اليك منه
وتستقل ما يصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فمكذبا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا بحالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى، قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة أذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن الأمس قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار . فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يعمهوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري المحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حمت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عن عمر خاف أن لو أخذه أن يمدحه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض المال والمهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال والسكن أظهر الفرائز والفارز ولا إلى درجة الضعفاء ليقصدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لما سلكوا كما يفر للرجل المعز من يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها والسكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآها فليسكون والسير يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن الراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما الضرر فيتصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العاقين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر» (٢)

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قعة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فانهم يرون هذه التنديرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفارقة والحريص على الملازمة . قيل صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان

(١) حديث إن خزائن الأرض حمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحبته من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بن مال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر متاديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فلأتا قلعت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »^(١) لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وميتى مسكينا »^(٢) إذ فقر المضطر هو الذي استعاض منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأل في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقر المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقر الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساق السلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أي الناس خير فقالوا مؤسرون من المال يعطى حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا »^(٤) وقال عليه السلام « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال »^(٥) وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام »^(٦) وفي حديث آخر « بأربعين خريفا »^(٧) أي أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على الغنى الحرص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتنا بين الفقراء في درجاتهم وكأن الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستطيق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »^(٨) فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته وللأسكفة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وميتى مسكينا الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا مؤسرون من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذي من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخاري من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصعبه
لأنك صهيبتنا أولا فقال
الرجل زال عن قلبي
نية المفارقة . ومن
أدبهم التعطف على
الأصغر . قيل :
كان إبراهيم بن
أدهم يعمل في الحصاد
ويطعم الأصحاب وكانوا
يجتمعون بالليل وهم
صيام وربما كان يتأخر
في بعض الأيام في العمل
فقالوا ليلة تعالوا نأكل
فطورنا دونه حتى يعود
بعد هذا يسرع
فأفطروا وناموا فرجع
إبراهيم فوجدهم نياما
فقال مساكين لعلمهم
لم يكن لهم طعام فعمد
إلى شيء من الدقيق
فعمجنه فانتبهوا وهو
ينفخ في النار واضعا

بل مخالفًا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها
 تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات القرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة
 وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بها يصير لللائكة ويشاهد كما أن
 للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها البصير. والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب
 إما في البقطة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم
 ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن قسمها إلى أربعين وإلى
 خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن تكاف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة
 جزءا واحدا من جملة ما ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن
 وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات
 التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء
 لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد
 حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس
 في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والفرس التنبيه على
 منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله
 صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك. ولترجع إلى نقل الأخبار فقد
 قال صلى الله عليه وسلم أيضا «خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها» (١) وقال
 صلى الله عليه وسلم «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر
 والجهاد» (٢) وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ
 عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا (٣) «وتسكون معك أينما كنت فأشرق رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها جمع من
 لا عدل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت. وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرقى
 سياحته رجل نائم ملتف في عبادة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذا كره الله تعالى فقال ما تريد مني؟ إلى
 قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم رجل نائم على التراب
 وتحت رأسه لينة ووجهه ولحيته في التراب وهو منزعج بعبادة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع
 فأرحني الله تعالى إليه يا موسى أما علمت آني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا
 كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه
 فأرسلني إلى رجل من يهودي خير وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بنى دقيقا إلى هلال رجب
 قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله
 إني لأؤمن في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه اذهب بدرعي

عاشته على التراب فقالوا
 له في ذلك قال قالت
 لعلكم لم تجدوا فطورا
 فتمتم فقالوا انظروا
 بأي شيء عاملناه
 وبأي شيء ياملنا.
 ومن أدبهم أن لا يقولوا
 عند الدعاء إلى أين ولم
 وبأي سبب قال بعض
 العلماء إذا قال الرجل
 للصاحب قم بنا فقال
 إلى أين فلا تصعبه.
 وقال آخر من قال
 لأخيه أعطني من
 مالك فقال كم تريد
 ما قام بحق الإخاء وقد
 قال الشاعر:
 لا يسألون أخام حين
 يندبهم
 للنايات على ما قال برهانا
 ومن أدبهم أن
 لا يتكلفوا للاخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث
 إن لي حرفتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال
 إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار
 من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي
 ليحصل لي بطعام مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن
 ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم في ذم الدنيا.

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولاتمدن عينيك إلى مامتعا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كعب الأحبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرني من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا قال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بأخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا العبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من السكرامة ولذلك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أين الأغنياء قليل حبيبهم الجدة» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأسمهان الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الفنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجل ذلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديدة الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولاتمدن عينيك إلى مامتعا به أزواجا منهم - الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبراني من حديث شدد بن أوس بسند ضعيف والعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه الحديث الترمذى وقد تقدم (٤) حديث اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازى في شرف الفقر وأبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به رواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت يبنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الفنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب

قبل لما ورد أبو حفص العسراق تكلف له الجنيب أنوعا من الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابي مثل الخائث يقدم لهم الألوان والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ماحضر فإن بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه ومن أدبهم في الصعبة الإدارة وترك المداينة وتشبه الإدارة بالمداهنة والفرق بينهما أن الإدارة ما أردت به صلاح أخيك فدأرت له لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره

عليه وسلامه إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برأحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس النخعي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فترك عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر الله تعالى - عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنته الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فأنث له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي ﷺ أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على ولكن لما أعددت لك من السكرامة والفضيلة أخرج ياعبدى إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ يده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ يده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة قالوا يارسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا يده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أذنوا مني أحبائي فتقول الملائكة ومن أحبائك فيقول فقراء المسلمين فيدونون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتم اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة نادى مناد عيروا إلى الفقراء فيعتلر إليهم كما يعتلر أحدكم إلى

والداهنة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاء . ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبطاط ، قل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبطاط إليهم محبة لقرناء السوء فكان بين النقبض والنبط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم ناعما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونعطيه فقال بل تكشفون عورته

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا ققراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل قلت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فأضرت بهن الأحمران الذهب والحريز وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أمحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي قلت ما خلفك عنى قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشياطين وظننت أنني لأأراك ، قلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي (١) فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة (٢) وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» (٣) ومع هذا فقد استضرى بالنقى إلى هذا الحد «ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقبر فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «الأنبياء هم ملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أنتم على الله لأبره» (٥) وقال عمران ابن حصين «كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقت معه حتى وقف بياب فاطمة قعرع الباب وقال السلام عليكم أدخل فقال قلت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بشك بالحق نبيا ما لى إلا عيادة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف يرأسى فالتقى إليها مائة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربنى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى يا ابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولوسألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب يده على منكبها وقال لها أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنسكن فى بيوت من قصب لأذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقضى بآبى عمك

إلى أخيه فى الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت إلى أعلاها فإذا ققراء أمي وأولادهم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث إلا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقبر ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث الأنبياء هم ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقلوا ملوك وقد تقدم ولا بى ما جبه بسند جيد من حديث معاذ الأنخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث أنخذوا مع الفقراء أيادى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر .

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحكم يسمع فى أخيه بالسكامة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر النيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع الكاره عنهم . حكى أن أخوين اتسلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إني ابتليت بهوى فان شئت أن لا تعقد على محبى لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد إختلك لأجل خطيئتك وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمافيه الله تعالى من هواء وطوى أربعين يوما كذا يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة^(١)» وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولادة الأحكام والشوكة من الأعداء^(٢)». وأما الآثار فقد قال أبو الفرداء رضي الله عنه: ذوالدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذي الدرهم، وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرى درعك الخلق فشقة وجهه صررا وفرقه ثم قام يصلي ويسكن إلى اللدة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج^(٣)» وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوق قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لسكرته تقريره للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر. وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تعقرن أحدا لخلقان ثيابه فان ربك وربك واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمروق وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحا فطرين عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحق بى فليكن بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترفقه^(٤)» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أعوامسى من ديوان الفقراء بشرة آلاف درهم لأفصل ذلك أبدا رضي الله عنه.

عن هواه يقول مازال
فبعد الأربعين أخبره
أن الهوى قد زال
فأكل وشرب. ومن
أدبهم أن لا يحوجوا
صاحبهم إلى الدارة
ولا يلجئوه إلى الاعتذار
ولا يتكلفوا للصاحب
ما يشق عليه بل
يكونوا للصاحب من
حيث هو مؤثرين مراد
الصاحب على مراد
أنفسهم قال علي بن أبي
طالب كرم الله وجهه
شر الأسداء من
حوجك إلى مداراة
أو الجأك إلى اعتذار
وتكلفت له. وقال
جعفر الصادق أثقل
إخواني على من
يتكلف لي وأنحفظ
منه وأخفهم على قلبي

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في قيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقه، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورتين. (٤) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بى فليكن بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به ^(١) »
وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بثواب فقركم وإفلا ^(٢) »
فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومي أن الحريص لأثواب له على فقره ولكن العمومات
الورادة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه فلعل للراى عدم الرضا والكرهات لعل
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله
فذلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم جلوسهم
الله تعالى يوم القيامة ^(٣) » وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى
الفقر القانع برزقه الراضى عن الله تعالى ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد
كفافا ^(٥) » وقال « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ^(٦) » وأوحى الله
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال
صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا ^(٧) » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة
أين صفوتى من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون
بقدرى أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون ^(٨) » فهذا في
القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا ينبغي أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن
الطمع فقر والياس غنى وإنه من يشى عمافى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله
تعالى عنه ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال
أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه ما من أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا
مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمرهم لا يحزنه ذلك ويع ابن آدم ما ينفع مال يزيدو عمرهم ينقص وقيل
لبعض الحكماء ما ألقى قال قللة غنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم غراسان
فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فقلنى به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به روى عنه مسلم وقد تقدم (٢) حديث
يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث
أبى هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى في غرائب مالكا
وأبو بكر بن لال في مكالم الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير التمتع (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من
حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ
يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقي ؟
فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

من أكون معه كما
أكون وحدى فأدأب
الصحة وحقوق
الأخوة كثيرة
والحكايات في ذلك
يطول قلها وقد رأيت
في كتاب الشيخ أبى
طالب المكي رحمه الله
من الحكايات في هذا
المعنى شيئا كثيرا قد
أودع كتابه كل شئ
حسن من ذلك وحاصل
الجميع أن العبد ينبغي له
أن يكون لمولاه وريد
كل ما يريد لمولاه
لأنفسه وإذا صاحب
شخصا تكون محبته
إياه لله تعالى وإذا صحبه
الله تعالى يجتهد في كل
شئ يزيد عند الله
زلفى وكل من قام
بحقوق الله تعالى برزقه

قال نعم قال فثبت قال نعم قال ثم ثبت طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدين والنفوس تنفع بهذا القدر ومترجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبلا قال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا هَذَا فَقَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِشَرِّ مِنْ هَذَا قَالَ بَلَى قَالَ مَنْ رَضِيَ بِالْدُّنْيَا عَوَّضًا عَنْ الْآخِرَةِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَخْرُجُ خَبْرًا يَأْسَا فِيهِ الْمَاءُ وَيَأْكُلُهُ بِالْمَلْحِ وَيَقُولُ مَنْ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا هَذَا لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَنْ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ لَمْ يَصْدُقْهُ ثُمَّ قَرَأَ - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ - الْآيَةَ . وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاللَّهُ مَا فِي الْبَيْتِ هُمَةٌ وَلَا سَهْنَةٌ قَالَ يَا هَذِهِ إِنْ بَيْنَ أَيْدِينَا عَقِبَةُ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ غَفَفٍ فَرَجَمَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْرَبَ النَّاسُ إِلَى الْكَفَرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مَا مَالُكَ فَقَالَ التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ وَالْقَصْدُ فِي الْبَاطِنِ وَالْيَأْسُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ الدُّكْتُبِ السَّالِفَةِ الْمَزْلَةَ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ فَإِذَا أَنَا أُعْطَيْتُكَ مِنْهَا الْقَوْتُ وَجَعَلْتُ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ فَأَنَا عَمَّنْ إِلَيْكَ وَقَدْ قِيلَ فِي الْقَنَاعَةِ:

أَضْرَعُ إِلَى اللَّهِ أَنْ تَضْرَعَ إِلَى النَّاسِ وَاتَّقِ يَأْسَ فَنَ الْغَزَى فِي الْيَأْسِ
وَاسْتَعْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ النَّفْسَ مِنَ اسْتَعْنَى عَنِ النَّاسِ

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه	بمقدرا أي باب منه يخلقه
مفكرا كيف تأتبه منيته	أغاديا أم بها يسرى فتطرقة
جمعت ما لا يقل لي هل جمعت له	يا جامع المال أيا ما تفرقه
للال عندك عجزون لوارثه	ما للمال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ييال فتي يندو على ثقته	أن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يهلك بساحتها	لم يبق في ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيح والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيح دعا على ابن عطاء لمحاقتة إياه في هذا فأصابته حمة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التغاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : أنما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أوراخ بالإضافة إلى غنى منفق ماله في الحيرات ليس حريصا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص المسك وأن الغنى المنفق ماله في الحيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير لأنهما تساويا في نصف الحرص على المال والغنى متقرب بالصدقات والحيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالحيرات والصدقات والحج والجهاد فلعنهم كلمات في التوبيخ وذكر لهم أنهم يالون بها فوق ما ناله الأغنياء فعلم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة وينقعه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تركيتها وبقائه صفاتها عليه فإن صحبت ظلمت بالأفراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات والمواظ على الآداب وصماعها لا يعمل في النفس

فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ^(١) وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أماديله الأول ففيه نظر لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لا بحث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إني رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحبون ولا تقدر عليه ويعتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا يموتوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا النبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا ^(٢) فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينافى فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته» ^(٣) وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنها من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لاتبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والعرفة فإنه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد له بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست بخزيرة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب بالدينه لكن لأن فيه قد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن التصدق والغاية القصد في الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه
(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بحث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحبون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا أبركم أن قراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون
كبر قلب فيه للنساء
من فوقه فلا يمتك فيه
ولا ينفع به وإذا
أخذت بالتقوى والزهد
في الدنيا نبع منها ماء
الحياة وتفقهت وعلمت
وأدت الحقوق وقامت
بواجب الآداب
بتوفيق الله سبحانه
وتعالى .

[الباب السادس
والحمسون في معرفة
الانسان نفسه
ومكاشفات الصوفية
من ذلك]

حدثنا شيخنا أبو
النجيب السهروردي
قال أنا الشريف نور
الهدى أبو طالب الزيني
قال أنا كريمة المروزية
قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل العرفه مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا إن فرصت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقيهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قنعه إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل للعرفه وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقه الآدميين كلهم إلا الشاذ القذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تغليب الأموال يمسّ حلاوة الإيمان وفي الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجلا هذه الأمة الدينار والدرهم ^(١) » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبيا عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عنى ^(٢) » إذ كانت تمثل له زينتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ويا بيضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس ^(٣) » وإذا كان ذلك بعيدا فاذا الأصلح لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفسكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة العرفه بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لاهالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلها مثل الشرق والغرب فانهما جهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهم إلا أن هذا مزية قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

النكشمي قال أخبرنا أبو عبد الله القريري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق للصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضخة مثل ذلك ثم يمش الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشق أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح وإن الرجل ليعمل بعمل

(١) حديث لكل أمة عجل وعجلا وهذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك عنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عن السال ويكون حبه ديننا في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا فكلم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في القواد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدين أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعبادته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول وقدك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطنى النار بالحلفاء ومثل من يفصل يده من العمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشبهه فصرى واحتسب كان خيرا له من ألف دينار بنفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرتني العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعاءك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدلالة عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن قد المسال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حائوتا على باب المسجد ولا تحطني فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين دينارا وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكبره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقاءه فلا يضاهاه غناء غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به ، نعم قدراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأثور

أهل النار حتى ما يكون
بينه وبينها إلا ذراع
فيسبق عليه الكتاب
فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخل الجنة وإن
الرجل يعمل بعمل
أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها
إلا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل
أهل النار فيدخل النار
وقال تعالى - ولقد
خلقنا الإنسان من
سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين -
أى حريز لاستقرارها
فيه إلى بلوغ أمدها ثم
قال بعد ذكر تليقاتهم
أنشأناه خلقا آخر - قيل
هذا الانشاء نفخ الروح
فيه . واعلم أن الكلام
في الروح صعب المرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتليس فلي
 العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانس
 أكبر من البهيمة والجسد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة
 لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا تقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك
 موقوف على الحاتمة وليس يدري الحاتمة كيف تكون وكيف تنفي فليجعله بذلك وجب أن لا يستقد
 نفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يغتم للكافر بالإيمان وقد يغتم له بالكفر فلم يكن ذلك لاثابه
 لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من
 صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضمره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس
 من أوصاف الله تعالى علم يضمره فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصور في العبد من صفات
 الله تعالى فلاجرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود
 المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو
 فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .
 [المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ولنفرض هذا في شخص واحد
 هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حاله أفضل فنقول:
 ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه
 فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والتذكر إلا قدره مدخوله
 بشغل والسكنى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفاقا » وقال « كاد
 الفقر أن يكون كفرا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة وكان
 المطلوب قنرا الحاجة ولكن لم يكن التصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح
 لأنهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق
 الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن افرقا في أن الواحد
 يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون
 الدنيا عنده كالسجن الذي ينفى الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما
 أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لاهالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد
 أنسه بالدنيا وقد قال عليه السلام « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »
 وهذا نبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو
 الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما
 تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذما في فراقه بقدر حبه وقدر أنه به وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر
 من أنس الفاقدها وإن كان حرصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل
 والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود
 والمعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن
 مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبق حياته
 ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والعاصي ولومات جوعا لكانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت
 جوعا ولا يجهد مضطرا إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك
 سبيل ذوى الأحلام وقد
 عظم الله تعالى شأن
 الروح وأسجل على
 الخلق بقلة العلم حيث
 قال - وما أوتيتهم من
 العلم إلا قليلا - وقد
 أخبرنا الله تعالى في كلامه
 عن إكرامه بنى آدم
 فقال ولقد كرمتنا بنى
 آدم وروى « أنه لما
 خلق الله تعالى آدم
 وذريته قالت الملائكة
 يارب خلقتهم يأكلون
 وشربون وينكحون
 فاجعل لهم الدنيا ولنا
 الآخرة فقال وعزتي
 وجلالى لأجعل ذرية
 من خلقت يدي كمن
 قلت كن فكان « فمع
 هذه الكرامة واختياره
 سبحانه وتعالى إياهم على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له هم سواء وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال
لوقد كنفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدها عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما
لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته والعلم عند الله تعالى فيه .

(بيان آداب الفقير في فقره)

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره وعخالته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فأن لا يكون
فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لا يكون كارهها فدل الله تعالى من حيث إنه فعله
وإن كان كارهها للفقر كالهجوم يكون كارهها للحجامة لتأله بها ولا يكون كارهها فعل الحجامة ولا كارهها
للحجامة بل ربما يتقلد منه منه فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو
معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم نظفوا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع
من هذا أن لا يكون كارهها للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعله بغوائل
الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه به في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحتالة ويكون كارهها
لزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن
علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به به ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على
فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى به بترك طاعته ويكثر الشكاية
ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر
ويرضى لعله بشمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول
حساب . وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعمف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يسترققه ويستتر أنه
يستتره في الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير التعمف أبا العيال» وقال تعالى - يحسبهم الجاهل أغنياء من
التعفف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الحاجة وقال بعضهم ستر الفقر من كذو البر . وأما في أعماله
فأدبه أن لا يتواضع لغيره لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير
رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تبه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها
أن لا يخاطب الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير
الأغنياء فاعلم أنه مرء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء
أنحلت عروته فإذا طمع فيهم انطمعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق
مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتربسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليل
ما يفضل عنه فان ذلك جهد للقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل
وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل
درهماً من درهمين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف» (١)
وينبغي أن لا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات إحداها أن
لا يدخر إلا ليوومه وليته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل
في طول الأمل وقد فهم المعنى ذلك من معاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال
أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث الثاني من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في
الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلًا .

اللائكة لما أخبر عن
الروح أخبر عنهم بقلة
العلم وقال - ويسئلونك
عن الروح قل الروح
من أمر ربى - الآية قال
ابن عباس قالت اليهود
لأنبي عليه السلام
أخبرنا ما الروح وكيف
تعذب الروح التي في
الجسد وإنما الروح
من أمر الله ولم يكن
نزل إليه فيه شيء فلم
يجيبهم فأتاه جبرائيل
بهذه الآية وحيث
أمسك رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن
الإخبار عن الروح
وما هيته بأذن الله تعالى
ووجهه وهو صلوات
الله عليه معدن
العلم وينبوع الحكمة
فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة أن يدخر لسته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار الموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ففى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهم قوت أربعين يوما وبعضهم يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس اللال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجة بيقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فلاولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنفعة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال « لقد هممت أن لأتهب لإلا من قرشى أو تقي أو أنصاري أو دوسي » (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح الوصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من آتاه رزق من غير مسألة فرده فأنما يرد على الله » (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزما من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليملى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من ممن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبوداود والترمذى من حديث أبي هريرة وأيم الله لا أقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لأتهب لإلا من قرشى أو تقي أو أنصاري أو دوسي الترمذى من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من آتاه رزق من غير وسيلة فرده فأنما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا ولأحمد وأبي يعلى والطبرانى بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهمى من بلفه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرد فأنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسى من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا اللال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا اللال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة إليه لاجرم لما تناقض الأنفس الانسانية للتطلعة إلى الفضول المشوقة إلى للمقول التحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسورة محرصها إلى كل تحقيق وكل نمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح التفكير وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والفعل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولولت النفوس حدها مترفة بسجوها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين وتعوذه
وبعرض عليه غيرهم الثين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أركه عندك
وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل ، فيقبل القبول فأخبرني حتى آخذته والإفلا ، وأما هذا
أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى النة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم
أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط
شيئا إلا سرى السقطى لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم
بقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بسألته أن يأكله
فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه
في الحل والبقول بل في الحلالات والطيبات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على
منك ، فقال الجنيد ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجرى وذلك صدقة
وزكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد
ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ،
فإن كان مقارفا لمصلحة في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق
عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة
فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ،
إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علت أنهم
لا يدكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد
صلتهم إشفاعة عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط
أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه
فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ . قال النبي
صلى الله عليه وسلم « ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله
عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله
إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يسطو قد
كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السري :
يا أحمد احذر آفة الرد فأنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد
مارددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فأجبتك لي عندك فإذا كان بعد شهر فأفذه إلي ، وقد
قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما
إذا كان مأثما زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء
والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه
إن كان طالبا لطريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان
أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في العلانية

(١) حديث ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا الطبراني من حديث ابن عمر
وقد تخدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو
رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يرد تقدم قبل هذا بحديث .

وأولى فأما أقاويل
من ليس متمسكا
بالشرائع فنزله
الكتاب عن ذكرها
لأنها أقوال أبرزتها
العقصول التي ضلت
عن الرشاد وطبعت
على الفساد ولم يصبا
نور الاهتداء ببركة
متابعة الأنبياء فهم كما
قال الله تعالى - كانت
أعينهم في غطاء عن
ذكرى وكانوا
لا يستطيعون سمعا - .
وقالوا قلوبنا في
أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر
ومن بيننا وبينك
حجاب - فلما حببوا
عن الأنبياء لم يسمعوا
وحيث لم يسمعوا لم
يهتدوا فأصروا على

ويرد في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرق في السرّ ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ففعل كليهما في السرّ أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا ههنا الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمه الله فأما كان لاستغناؤه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإعطاء في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول صوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يأمن يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خلعان لانسكاد قواريه فقلت في نفسي لا أجد لدراهمي موصلا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مزرين ودرهم أضعه ثلاثا فلا حاجة في إلى الباقي فزده . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخذه خشى تحت أقدامنا إلى الكهين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أتعال وقتة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رقعا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الفرق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب ^(١) » فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تنص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لغة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتحتن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتمهيد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يغلو في قلبك فتمسكه فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتعم في الطعام والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لاعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاء وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يفر للقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وخسبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمكنون بالشرائع الذين تكلموا في الروح قعود منهم بطريق الاستبدال والنظر وقوم منهم بلسان الدوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله ببلده ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

- ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قيل معناه ليعبأ أحد ثوبه وقيل معناه فليستعرض بجأه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن الله تعالى عباده ينفقون على قدر بضائهم والله عباده ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء والأغنياء والأغنياء قبيل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط وفي المال وفي المعطى فليأخذ ويبنى أن يرى ما يأخذ من الله لا من المعطى لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إليه بما سطر عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما صدقوا لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته قطعامي عليه حرام قهروا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أخبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغدوني هذا يوما ويشتيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا يبنيني أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر ما جاور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفيق لما يرزاه .

(بيان تحرير السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير للضر فيه)

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس ^(١) » وفي الحديث « ردوا السائل ولو بظلف عرق ^(٢) » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدى على عدوانه والاعطاء إعانة فالكشف للنطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فإن كان غيابه فهو حرام وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد للملك لو سأل لكان سؤاله تشييعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشييع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يعمل إلا بالضرورة كما نحل الميتة . الثاني أن فيه إذلال السائل نفسه تغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه تغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه فأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا بالضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المستول . الثالث أنه لا ينفك عن إيذاء للمستول غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب منه فإن يذل حياه من السائل أورياه فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استعيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخله في البخل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بالضرورة ومهما فهمت هذه المهدورات الثلاث فقد فهمت قوله

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول يلى بن أبي يحيى جهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بائنه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف عرق أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تجاوز العبارة عنه
بأكثر من موجود
ولكن نجعل للصادقين
محلا لأقوالهم وأفعالهم
ويجوز أن يكون
كلامهم في ذلك بمثابة
التأويل لكلام
الله تعالى والآيات
المنزلة حيث حرم
تفسيره وجوز تأويله
إذ لا يوسع القول في
التفسير إلا لثقل وأما
التأويل فتتمتع
القول إليه بالباع
الطويل وهو ذكر
ما عتمد الآية من
الغنى من غير القطع
بذلك وإذا كان الأمر
كذلك فللقول فيه
وجسه ومحل . قال
أبو عبد الله النجاشي
الروح جسم يلفظ

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح للضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفييه أجه يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبابيع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) ومع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لو احدمن قومه عش الرجل فمشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيت فنظر عمر فإذا تحت يده محلاة مملوءة خبز فقال لست سائلا ولكك تاجر ثم أخذ المحلاة وثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدارة وقال لا تعد ولولأن سؤاله كان حراما لما ضرب به ولا أخذ محلاته ولعل الفقيه الضعيف اللئيم الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضرب به فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتحزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره التصور في الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيبات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي مالا مالا له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعلفه من الصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المملوك بقوله إني علوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصالحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لوعرفها المعطى لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الخنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة والمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثر أفتانما يسأل جمرا الحديث وللبراز والطراني من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بابيع قوما على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البراز والطراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث فتمقفوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ .

عن الحسن وبكر
عن الحسن وبكر
عنه بأكثر من
موجود وهو وإن منع
عن العبارة فقد حكم
بأنه جسم فكأنه عبر
عنه . وقال ابن عطاء
خلق الله الأرواح قبل
الأجساد لقوله تعالى
ولقد خلقناكم - يعني
الأرواح - ثم صورناكم -
يعني الأجساد . وقال
بعضهم الروح لطيف
قائم في كسيف
كالبرص جوهر لطيف
قائم في كسيف وفي هذا
القول نظر وقال
بعضهم الروح عبارة
والقائم بالأشياء هو
الحق وهذا فيه نظر
أيضا إلا أن يجعل على
معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يعل كونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المشول بكونه مباحا والمشول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا عنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا من طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فمكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشيء بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذي أذى أطيعه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا يلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واحد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شيء من المذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المشول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المذورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فإن قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بشوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذي قد أعدت ماله لكل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عند الذل بذلك فإن الذل لازم للنة لا محالة . وأما الإيذاء فسيبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرعا بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التعاقل إن أراد فإذا لم يتعافى مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستجيب منه لورده أو يتعافى عنه فإن الحياء من السائل يؤدي كأن الرياء مع غير السائل يؤدي . فإن قلت فإذا أخذ مع العلم بأن باعث العطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاهما ابتداء به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسيط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكابة في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة
الهي كالخلق صفة
الخالق وقال - قل الروح
من أمر ربى - وأمره
كلامه وكلامه ليس
بخلق أى صار إلى
حيا بقوله كن حيا
وعلى هذا لا يكون
الروح معنى في الجسد
فمن الأقوال ما يدل
على أن قائله يمتدح قيم
الروح ومن الأقوال
ما يدل على أنه يعتد
حدوته ثم إن الناس
مختلفون في الروح الذي
سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عنه
فقال قوم هو جبرائيل
وتقل عن أمير المؤمنين
على بن أبى طالب رضى
الله عنه أنه قال هو
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدر ضئيل به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » (١) فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين الصبر وبين الله تعالى والحكمة فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أتوك وأتوك فإن المتقى معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبتوابع النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن مفتي الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه ردة إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يشبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقضى عن مهادته فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن يعسر الإطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا . فأقول لهذا ترك للتقون السؤال رأسا لما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرج غروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالشفف لهذا لأن الأذى إنما يحصل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم البنية فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان واقفا يصيرته في الإطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بهضا ويرد بهضا كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا بأخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم فإذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن السؤال بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا بد أنك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريض حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت وتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الاتم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » (٢)

سبعون ألف وجهه
ولكل وجه منه
سبعون ألف لسان
ولكل لسان منه
سبعون ألف لغة يسبح
الله تعالى بتلك اللغات
كلها ويخلق من كل
تسبيحة ما يكايطير مع
الملائكة إلى يوم
القيامة . وروى عن
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما أن
الروح خلق من خالق
الله صورهم على صورة
بنى آدم وما نزل من
السماء ملك إلا ومعه
واحد من الروح وقال
أبو صالح الروح كهية
الإنسان وليسوا بناس
وقال مجاهد الروح على
صورة بنى آدم لهم أيد
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلا وكذا قال الزى لما سئل عنه.

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتى جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فقتت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبه بحلال أنت أو مورثك فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يحينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

(بيان مقدار الفنى المحرم للسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جمرًا فليستقل منه أوليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حد الفنى مشكل وتقديره عسيره وليس إلينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استغنوا بغير الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة ^(١) » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدها من الذهب فقد سأل إلخافا ^(٢) » وورد في لفظ آخر « أربعون درهما » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبى أن يقطع بوزودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به غورته ويبت يكتنه فإزاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما فى معناها حتى يلحق بها الكراء للسافر إذا كان لا يقدر على الشئ وكذلك ما يجرى مجراء من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفاله كالدابة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوى الدين وهو ثوب واحد وقيص ومنديل وسراويل ومبداش وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبى أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفى فيما يكفى فيه الخرف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقد رة فى اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالسكية إضرار فى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأنه ما يعجز من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداها ما يحتاج إليه فى غد . والثانية ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه فى السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة نسؤاله حرام فان ذلك غاية الفنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث فان خمسة دنانير تكفى المنفرد

(١) حديث استغنوا بغير الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة تقدم فى الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يفتيه قال ما يفتيه أو بعشيه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذى ذكره الصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدها من الذهب فقد سأل إلخافا وفى لفظ آخر أربعون درهما تقدما فى الزكاة .

يا كلون الطعام وليسوا
بلائكة وقال سعيد
ابن جبير لم يخلق الله
خلقا أعظم من الروح
غير العرش ولو شاء
أن يبلغ السموات
والأرضين السبع فى
لقمة لقط صورة
خلقه على صورة
اللائكة وصورة
وجهه على صورة
الآدميين يقوم يوم
القيامة عن عرش العرش
واللائكة معه فى صف
واحد وهو عن يشفع
لأهل التوحيد ولولا أن
بينه وبين اللائكة
سترا من نور لحرق
أهل السموات من
نوره فهذه الأقاويل
لا تكون إلا أهلا وصماعا
لنعمهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للليل فرميا لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا نفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه هدام يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الجبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بيدفوه بتأخير السؤال تخاف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يجنيه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مألجا السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية وتسكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا قبل الضبط وهو منوط بجهد المبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه ويسمى به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بجي الرزق في المستقبل ثم وقناعته بقوت الوقت أظهر قدرته عند الله تعالى أظلي فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعياذك لإلّا من ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافون وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفتشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - والسؤال من الفتشاء التي أبحث بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادّخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حبة الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات الهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أحوال السائلين)

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القريين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب الجنتين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة عظم الرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنهم ما وصفهم بترك السؤال قد أنقضى عليهم غاية الشاء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضضا إلى قلاعا ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يرقى إلى أعلى عليين ومن لا يعزبين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النوري رحمه الله يعيده ويسأل الناس في بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحت له فأثبت الجنيده رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسأل الناس إلا لمعطيه وانما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المظى هي العليا ^(١) » فقال بعضهم يد المظى هي يد الآخذ للسأل لأنه يعطى الثواب والقدره

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للسؤال عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الدلّ قيل فمن أي شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وجاها بكلامه

(١) حديث يد المظى هي العليا . سلم من حديث أبي هريرة .

لأما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنالاً أقل منك أنت شيئاً وأخذ مازاد على المائة قال فزاد تصبجي فسأته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الخبل بطرفه وزن المائة لنفسه طلباً للثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال أخذ ماله ورد مالنا الله السمتان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه المهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتماعه حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للمسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لملّة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين وبمشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والسكن والأثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد .

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه وإن لم يكن صادراً عن حال مسمى إسلاماً ولم يسم إيماناً والعلم هو السبب في حال يجري مجرى الثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فاما عدل عنه لرغبته عنه وإعما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فحالّه بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً فإذا استدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً إذا نازك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً وإنما يسمى زاهداً من ترك الدرامم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة قال بائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع فيكون حاله بالإضافة إلى البيع زهداً وفيه بالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً ولذلك قال الله تعالى - وشروه بثلثين بخرى درهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهى معتقلمن ذل كن
وسئل أبو سعيد الخراز
عن الروح مخلوقة هى
قال نعم ولولا ذلك
ما أقرت بالربوبية
حيث قالت بلى والروح
هى التى قام بها البدن
واستحق بها اسم الحياة
وبالروح ثبت العقل
وبالروح قامت الحجة
ولو لم يكن الروح
كان العقل معطلا
لا حجة عليه ولا له
وقيل إنها جوهر مخلوق
واصكنا أطف
المخلوقات وأصغى
الجواهر وأثورها وبها
تراهى النفىات وبها
يكون الكشف لأهل
الحقائق وإذا حجب
الروح عن مراعاة
السبب أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن عيّل إلى الباطل خاصة وإن كان هو لليل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفرائس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ يناله في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والقواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتقصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في اللرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في اللرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فضاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو منبر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيرا بالاضافة إلى للأخذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا للعلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يصير على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلى . فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر الذي لا فناء له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضعف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم إلى أن يحتطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد القوت وإلى تعريف خسارة الدنيا الاشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف تقاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل - وقال الدين أوتوا العلم وبلدكم ثواب الله خير - فبه على أن العلم بنفاة الجوهر هو الرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بماوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرني

الآدب ولذلك صارت
الروح بين تجل واستار
وقابض ونازع وقيل
الدنيا والآخرة عند
الأرواح سواء وقيل
الأرواح أقسام أرواح
تجول في البرزخ وتبصر
أحوال الدنيا والملائكة
وتسمع ما تحدث به
في السماء عن أحوال
الأميين وأرواح
تحت العرش وأرواح
طيارة إلى الجنان
والى حيث شاءت على
أقدارها من السعي
إلى الله أيام الحياة .
وروى سعيد بن المسيب
عن سلمان قال أرواح
للؤمنين تذهب في
برزخ من الأرض
حيث شاءت بين السماء
والأرض حتى يردها

الدنيا كأريتها الصالحين من عبادك (١) « وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه فيرى السكل في درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله ويراها متفاوتاً بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك للزهد فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائل الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وقع بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر بيمينه الذي يبيع به فإن الذي يباعه بهذا البيع وفي بالعهد فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إلى الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أمينا منا - وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فتركه ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم بل عند التسليم والبيع فعلمة الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم تصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بضروره ويغيب إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تلق بالقدرة على الترك عندها فكيف من ظان بنفسه كراهة للماض عند تمررها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المخطورات فإياك أن تثق برعدها في الساحات واللوثق الغليظ الذي تأخذ عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا دعت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصراف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر فانها سرية النقص للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما تركه قط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تفق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو لكن أعلم أن الدنيا فدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علنا في أي شيء يحبته لعلنا حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تنقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصور ولم يخرج له (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علنا في أي شيء يحبته لعلنا حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم - الآية لم أفهم له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعمتد إلى الله ظاهراً عنه فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لملك محفاتها بالإضافة إلى نقاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهي من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من الشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من آتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاءه وتبجح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آتسا بنير الله ومحالما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك اللطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن ما في الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا لعمالات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى - نخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهدهم فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستجيبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك ففهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع الهللكات إذ ذبح الدنيا من الهللكات ونحن الآن تقتصر على فضيلة بعض الدنيا فإنه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قمره بين عينه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه »

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا - الآية البهية في دلائل النبوة بإسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

وتزداد وجوههم ياضا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من لائق فان كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض ، مثل الواسطي لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التحكين والاستقرار الآراء يقول « كنت

فانه يلقي الحكمة^(١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنتطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى النقي القدي لاغل فيه ولاغش ولابغى ولاحسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره ؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة^(٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا^(٣) » فجعل الزهد سبيلا للجنة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل القامات ومفهومه أيضا أن حب الدنيا ممرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا^(٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فائز ، عبد نور الله قلبه بالايمان^(٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بمزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان « ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل له ماهذا الشرح ؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قلبه يا رسول الله وهل ذلك من علامة ؟ قال نعم التجافي عن دار الغرور والإنيابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله^(٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون^(٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى « ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم ؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالمصيبة إذا زلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبينوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون^(٨) » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم البعد قد أوتى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسنده ضعف (٢) حديث قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى النقي الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذكور الحرائطي في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نبيا وآدم بين الروح والجسد « أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي للطاقتان سمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان وللنور يدمهما وأن الروح هي الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه على كرم الله وجهه ، فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسرنا لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء يعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة ^(١) . وفي الخبر « السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك » ^(٢) . وقال أيضا « السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار » ^(٣) . والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والتناء على الثمرة ثناء على الثمر لا محالة . وروى عن ابن السيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » ^(٤) . وروى أنه صلى الله عليه وسلم « مر في أصحابه بشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر والاحم والبين والور ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى - وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به - » ^(٥) الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت « قلت يا رسول الله ألا تستظم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجرى معي جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وققر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنفي لحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكفني ما كلفهم ، فقال - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله » ^(٦)

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا وابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله بها ما يبيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضيفة (٥) حديث مرفي أصحابه بشار من النوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستظم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد ابن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم

البدن بوجودها حيا وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو اختيار أبي الصمالي الجويني وكثير منهم مال إلى أنه عرض إلا أنه ردم عن تلك الأخبار الدالة على أنه جسم لما ورد فيمن العروج والهبوط والتردد في البرزخ حيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم لأن العرض لا يوصف بأوصاف إذ الوصف معنى والعنى لا يقوم بالعنى واختار بعضهم أنه عرض .

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرَّبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبثت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة انزوها بائنتين كما كنتم تنهونها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساء من إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفه إلى عنقه فصرى كذلك فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

من الرسل إلا الصبر على مكروها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاله مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدرى متروك الحديث وللترمذى من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللاشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذى في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟ مسح ثيابه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وضمفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الغطرى في جزئه الشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لجها إذا مرضت . وقال بعض من ينهم بالعلوم الردودة المذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالسة للعاني والحسومات لأن

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإن الله سآصر على عيشهما الشديد لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم ^(١) » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم تبأ الدنيا تبأ للدينار والدرهم قلنا يا رسول الله نهانا الله عن كثر الذهب والفضة فأى شيء ندخر فقال ^(٢) : ليتخذ أحدهم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تعينه على أمر آخرته ^(٣) » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثا لا يفارق قلبه أبدا وبقرا لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا ^(٤) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته ^(٥) » وقال المسيح ^(٦) الدنيا قطرة فاعبروها ولا تمروها وقيل له يا بني الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بئان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربي عز وجل عرض علي أن يمحلي بطعام مكة ذهباً فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأترضع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ^(٧) يا جبريل والنبي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كسف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفضتته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

تجردها من هيأت
البدن عند الفارقة
غير يمكن وهي عند
الوفاة شاعرة بالموت
وبعد الموت متخيلة
بنفسها مقبورة
وتصور جميع
ما كانت تعتقد حال
الحياة وتحس بالثواب
والعقاب في القبر قال
بعضهم أسلم القالات
أن يقال الروح شيء
مخلوق أجرى الله تعالى
العادة أن يحس البدن
مادام متصلا به وأنه
أشرف من الجسد
يدوق الموت بفارقة
الجسد كما أن الجسد
يفارقه يدوق الموت
فان الكيفية والمادية
يتعاشى العقل فيهما
كما يتعاشى البصر في

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة الحديث بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة - الآية قال تبأ الدنيا تبأ للدينار والدرهم الحديث وفيه فأى شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبأ للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإسناد الصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كافي رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرته لم أجده استنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسل لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذن معضل .

القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأنه إسرائيلي فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بفتاح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نينا ملكا وإن شئت نينا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نينا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتبه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب» (٥) ويروى عن نينا وعن النسيح عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإبراد جميع الأخبار الواردة في مدح بخص الدنيا ودم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الآثار: لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما يقص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابعتنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنى لأشتى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجواز قبولها وأرسل إلى الفضيل بشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال أتدرون ما منى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرمون عليها فلما هرمت ذبحوها لأجل أن يتنفعوا بجلدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيلي وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فقعه في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتبه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم.

شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم الوجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فأحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يعيل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذبحي على كبرسي موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تدبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشجر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يبت يخرّب ولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بدّ ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن لم لا تخلص ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك . وقال إبراهيم بن آدم قد حببت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالوجود والحزن على المفقود والسرور بالمُدح فاذا فرحت بالوجود فأنت حرص وإذا حزنت على المفقود فأنت سخط والسخط معذب وإذا سرت بالمُدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدًا . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما يعمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه ^(١) » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في النعم في اللع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برحاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لا يخاف من العمل المتعب حتى لا يفرغ من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وهبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا بأسفون على شيء منها أدبر ولم يكن كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل قيام على أنفاسهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يفرجها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما ملأوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

(بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى للرغوب عنه وإلى الرغوب فيه)
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهد بها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد وللتزهد يذيق أول نفسه ثم كيبه والزهد أو لا يذيق كيبه ثم يذيق نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقته والتزهد على خطر فانه ربما تطلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : التي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده و يظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعا وبزهده في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خرفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعم الآخرة أحسن من خرفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كاللحرفة

(١) حديث إن الله يعمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

يوه اللك فليهم الخير
عند ذلك وتحرك
لشعر ومن حركتها
تظهر ظلة في القلب
فيرى الشيطان الظلة
فيقبل بالاغواء وحيث
وجدت أقوال الشاغل
تشير إلى الروح
أقوله : ما عسدى في
فلك على معنى ما ذكرت
من التأويل دون
أن أقطع به إذ ميل
في فلك إلى السكوت
والامساك فأقول والله
أعلم : الروح الانساني
الصلوى الساموى من
عالم الأمر والروح
الحيوانى البشرى من
عالم الخلق والروح
الحيوانى البشرى
هل الروح الصلوى
ومسوره والروح

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهر آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أى شئ تسكلم ؟ قال في الزهد قال في أى شئ ؟ قال في الدنيا ففض يده وقال ظننت أنه يتكلم في شئ . والدنيا لا شئ . إيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمجاهدات والكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أفقرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال الضغ وتقتضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنهى إلى التئن والقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للتناهي إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تسامى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدر غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ تعبر للزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة اللجب يزهد بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: الدرجة السفلى أن يكون الرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد عدم الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الخور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرم لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقاءه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مهمة ثم واحد وهو اللوح الحقيقى الذى لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله قد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف قوة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالخور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بصدك عبسا فظيما كرهها ما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لوورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جنبانى لطيف
حامل لقوة الحس
والحركة ينبعث من
القلب أعنى بالقلب
ههنا الصفة للحمية
المروفة الشكل المودعة
في الجانب الأيسر
من الجسد وينتشر
في تجاويف العروق
الضوارب وهذه
الروح لسائر الحيوانات
ومنه تفيض قوى
الحواس وهو الذى
قوامه بأجراء سنة الله
بالغذاء غالبا ويتصرف
بسلم الطب فيه
باعتدال مزاج الأخلط
ولورود الروح الانساني
العلاوى على هذا
الروح تجنس الروح
الحيوانى وبان
أرواح الحيوانات

والنظر إلى نفس القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبق للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أظى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بتقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للمرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل وتفصيله مراتب بعضها أشرح لاحاد الأقسام وبعضها أجمال للجمل . أما الاجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والاجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا أموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها قتال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر والمنظرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإذافهم طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والاجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لا محالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أزد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المناققين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا واستظروا إحدى الحسينين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستشفقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله وأويل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى
فصار قسما محلا للناطق
والإلهام قال الله تعالى
- وتفس وما سواها
فأنشأها فجورها
وتقواها - فتسويتها
بورود الروح الإنساني
عليها وانقطاعها عن
جنس أرواح الحيوانات
فكوتت النفس
بكون الله تعالى من
الروح العلوى وصار
تكون النفس التي
هي الروح الحيوانى من
الآدى من الروح
العلوى في عالم الأمر
كنكون حواء من
آدم في عالم الخلق وصار
بينهما من التألف
والتماشق كما بين آدم
وحواء وصار كل واحد
منهما يذوق للو

وأما الناقصون ففروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فاشارم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فمأرجحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فصاروا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد واستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به فهذا بيان الزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حدّ زهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي الميعة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إنعما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّلوها حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بها أحدهم انضبط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل ورأى ما نقلناه فلم نرى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروهم بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الزهنية التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المتغيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث قد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وقيل وسلامة كما قاله إبراهيم بن آدم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

عنارفة صاحبه قال الله تعالى - وجعل منها زوجيا ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعني بهذا القلب الطيفة التي عملها اللبنة للحمية فاللبنة للحمية من عالم الخلق وهذه اللبنة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون النورية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ماتكون القلب فمن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تمتنع به النفس في الخطرات والحفظات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذ مع ما تركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس السوح حتى تقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس فسأته أمه أن يلبس مكان السوح جبة من صوف ففضل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فسكى وتزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس بلغ من العز أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أنت أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبة وعظور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمهم وكل ذلك اشتغال بماسوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكريا ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فلهما اقتضرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بملف الناقصة ويسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدتك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك بالذات بل غرضك مقصور على دفع للمهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدتك عن الجوع والعطش للمهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للمهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطياف ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وتقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس وشرب الماء الحار ويقول من وجد قدة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتباء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم سياسة الشرع للتعصمين بمرور اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل المسوسة مثلا إن قال الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى ميال إليه وهو القلب المؤبد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه خديجة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فذلك الإيمان فيه مثل البقلة يمددها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمددها القيح والصديد فأى المادتين

إنما يقتنيها لترفه ركوها وهو قادر على الشيء والمهم كالأكل والشرب ولنا قدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والهمات ستة أمور : الطعم والملبس والسكن وأثاثه والتكسح والسال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جملة ما قد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن تقتصر على بيان هذه الهمات الستة [الأول الطعم] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طول له فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يتقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طول له فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لمثاقه وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضغفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا اعتماد من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى القدر وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلامه واحد وهو ما قدره الله تعالى في إ طعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغاله به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الحبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والقدرة وأعلى خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التمتع وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاء عن أوائله وأما الأحم فأقله للحم أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلى اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلى أن يتنهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع للمهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وتركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين القرو والماء ^(١) » وهذا ترك اللحم والرقعة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل الخوص ويلبغ أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجاس كما تجلس العبيد ^(٢) » وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس غلب الشعير له والنوم على الزايل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعين ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولا محمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكم له بها والقلب للنكوس ميل إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميده إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه والدال عليه وتديره للقلب المؤيد والنفس الزكية للطمشة تدبير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فنكوس من وجه

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر (١). وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكر ناسيرة الأنبياء والسلف في الطعام والشرب في ربيع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إني لست أحرمه ولكن أركه تواسع الله تعالى» (٢) وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذي كرهه رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمة والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [المهم الثاني] اللبس وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر الدورة وهو كساء يغطي به وأوسطه قميص وقنسوة ونعلان وأعلى أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث القدر فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القمود في البيت ، فإذا صار صاحب قميص وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث القدر ، أما الجنس فأقله المسوح الجلشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلىه القطن الفليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان عبدا للدنيا وينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس» (٤) وقال عمرو بن الأسود العنسي لا لبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دثار أبدا ولا أركب على ماثور أبدا ولا أملا جوفى من طعام أبدا فقالت عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود (٥) وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يتزعه وإن كان عنده حبيبا» (٦) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم (٧)

ومنجذب إلى تديرها من وجه إذ لا بد له منهما وقول القائلين واختلافهم في عقل فمن قائل إن عقله الدماغ ومن قائل إن عقله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارتارة وإلى العاق أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق فإذا روى في تدير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدير البار قيل مسكنه القلب فالروح الملوى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقا وحسوا ونزها

الحديث تقدم ذون قوله إنما أنا عبد فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس لم أجده أصلا (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبيبا (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١) . وكان إزاره أربعة أذرع ونصف (٢) . واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣) . وكان يلبس فمطين يضاوين من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثلثا درهم (٦) فكان أصحابه يلبسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهدها إليه المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من الثركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والدياج وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوم مات ثم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته سعد عليه السلام للبر حرمه وكما أباح الثمة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيمته لما علم فلما سلم قال شغافى النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم والتفتى بأبجائيتها (١٠) بمعنى كساء فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شر الكثرة قد أخلق فأبدل بغير جديد فضلى فيه فلما سلم قال أعيذوا الشراك الخلق واتزعوها هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين واشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصف أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرصلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس فمطين يضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحرارة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الضرورية وعليه أحسن ما يكون من حلة اليمن وقال رأيته على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلة وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غايظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي وللبراز من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حمراء وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قبضه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحية حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثلثا درهم أهدها له المقوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح الثمة ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خيمته لما علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة .

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يشكك عليه الشارح فليظنراه .

عن الأكواف ومن
الأصكوان القلب
والنفس فإذا ارتقى
الروح نحو القلب إليه
حنو الولد الحنين
البار إلى الوالد وتحن
النفس إلى القلب الذي
هو الولد حينئذ والدة
الحنينة إلى ولدها وإذا
حننت النفس ارتقت
من الأرض واتزوت
عروفها الضاربة في
العالم السفلى وأنطوى
هواها وانحسرت
مادته وزهدت في الدنيا
وتجافت عن دار
الضرور وأثابت إلى دار
الخلود وقد تغلغل النفس
التي هي الأم إلى
الأرض بوضعها الجبلي
لتسكنها من الروح
الحيوانى الجنس

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم» (١). «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أهيبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يعقني ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه» (٢). وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار وجلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما ألينها قال فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هب لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبعث به قال فدفعتها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فلبسها صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة» (٣). وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الأبل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي حرارة الدنيا لعيم الأبد فأنزله الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى» (٤). وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني للآل الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤتمن على الناس خفية وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش» (٥). فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللباس «وقد أوصى أئمة عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسنني» (٦) وقال «عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» (٧) وقال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - «وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت اللحق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعه» (٨) «وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو في الخلافة وقطع كفه من الرسنين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشاه. وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يعقرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليجرني وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان وفعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشراها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه رقى دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد قوله وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فهمي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنني تقدم في التكميل (٧) حديث عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي ومحمد وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بي فإياك ومجالسة الأغنياء

ومستندها في ركونها إلى الطبايع التي هي أركان العالم السفلى . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للنكسوس انجذاب الولد لآل إلى الوالد المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فمذ ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول الناس الذي وفى الخبر « البذادة من الإيمان » وفى الخبر « من ترك ثوب جمال وهو بقدر عايله تواضع لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة فى تحت الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى وانظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب فى خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به السلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال « إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعين ^(١) » ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا قليل له أنت الأمير وتفضل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء وأمرنا أن نحتفى أحيانا ^(٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارع القميص ونكس الإزار واخشف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا زى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشددون فى الكلام ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزره المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك فى النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا ^(٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشر من أمتى إلا مراء أو أحرق ^(٥) » وقال الأوزاعي لباس الصوف فى السفرة وفى الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة عداك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تحببى فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى أوفقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذه الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذى وقال غريب والحاكم ومصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التمتع وقال إن الله عبادا ليسوا بالمتنعين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء [١] وأمرنا أن نحتفى أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتى وقد تقدم (٤) حديث أزره المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشر من أمتى إلا مراء أو أحرق لم أجده له إسنادا .

[١] الإرفاء بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع فى الطعام والمشرب يرفهان اه .

- ذلك تقدير العزيز
العليم - . وقد ورد
فى أخبار داود عليه
السلام أنه سأل ابنه
سليمان أين موضع العقل
منك قال القلب لأنه
قالب الروح والروح
قالب الحياة . وقال
أبو سعيد القرنى
الروح روحان روح
الحياة وروح المات فاذا
اجتمعا عقل الجسم
وروح المات هى التى إذا
خرجت من الجسد
يصير الحى ميتا وروح
الحياة مابى مجارى
الأنفاس وقوة الأكل
والشرب وغيرها ،
وقال بعضهم : الروح
نسيم طيب يكون به
الحياة والنفس ريح
حارة تصكون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق قلبه والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ، وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب أن لك فضلا على الناس بكسبانك بلغني أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية ثقافا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من الزابل ويفسها ويلبسها فقلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويسكن [اللهم الثالث] للسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا الساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موصفا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بعماء أو بإجارة فإن كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد فإن طلب التشديد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكنية حد الزهد في السكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو الطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون ملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلاء الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من السكن دفع للطر والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريس والتشديد يعني بالتدريس كلف دروز الثياب فأنها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان بالجص والآجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجماني » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علاها (٢) « ومروا عليه السلام بمجنونة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كلف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كلف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء في الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبل المسجد وجعلوا عضاديه الحجارة الحديث ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كف المسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والمجنونة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لبنة الحديث ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مر سلا للطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فلان نظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لبنة الحديث وإسناده ضعيف .

الحركات للذمومة
والتهنؤات ويقال
فلان حار الرأس وفي
الفصل الذي ذكرناه
يحق التنبيه بماهية
النفس وإشارة المشايخ
بماهية النفس إلى
ما يظهر من آثارها
من الأفعال للذمومة
والأخلاق للذمومة
وهي التي تعالج بحسن
الرياضة وإزالتها
وتبديلها والأفعال
الرديئة زوال والأخلاق
الرديئة تبدل . أخبرنا
الشيخ العالم رضي الدين
أحمد بن اسمعيل
القزويني قال أنا إجازة
أبو سعيد محمد بن أبي
العباس الحلبي قال أنا
القاضي محمد بن سعيد
الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين» (١) وقال عبد الله
ابن عمر «مررت علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاصاً فقال ما هذا قلنا خصاص لنا قد وهى
فقال أرى الأمر أعجل من ذلك» (٢) واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب قليل له لوبيت فقال
هذا أكبر لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قدمال عليه
قليل له لو أصلحته فقال كم من رجل قدم مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم
« من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » (٣) وفي الخبر « كل نفقة للعبد يؤجر عليها
إلا ما نفقه في الماء والطين » (٤) وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً
في الأرض ولا فساداً - إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم « كل بناء وبال
على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حرٍّ أو برد » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكى
إليه ضيق منزله « اتسع في السماء » (٦) أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى
صرح قد بنى بحص وأجر فسكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان
لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الآجر ويقال إن فرعون هو أول
من بنى له بالحص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض
السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف ثم رأيت مبنيًا من
رصاص ثم رأيت الآن مبنيًا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرصاص وكان أصحاب الرصاص
خييرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصرأه له وزهده
في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده وكانت بيوتهم
من الخشب والجلود وهي عادة العرب الآن يلاذ اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال
الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد
ابن إبراهيم قال أنا
الحسين بن محمد بن
عبد الله السفياني
قال حدثنا محمد
ابن الحسن القطيفي
قال حدثنا أحمد بن
عبد الله بن يزيد
القيلي قال حدثنا
صفوان بن صالح قال
حدثنا الوليد بن مسلم
عن ابن لهيعة عن
خالد بن يزيد عن

ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد المقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الحزف في كل ما يكتفي فيه الحزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ التاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف وأعلامها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فان زاد في العدد أوفى قلته الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف^(١) . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف ، وروى «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط جلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عيناه عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك^(٢) » ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أبذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معي عصا أتوكأ عليها وأتكل بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبين ومعى مطهرتي أحمل فيها شراي وطهورى للصلاة لما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله «وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت^(٣) »

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف الترمذي في الشائل من حديث حفصة بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة إسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلني انظر فارجه الحديث والنسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتع من ذهب الحديث

النفس لطيفة مودعة في الثقال منها الأخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الممودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والتم محل الدوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف الممودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيب والثاني الشره وطيبها من جعلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيبها بكرة مستديرة على مكان أملس

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال «كلار آيته ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان»^(١) وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فإزال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدى العباءة الخلقة ونعسى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة^(٢) وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهل ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنهما فنام حينئذ حتى سمعت غبطة ثم قال «ما ظن محمد بربه لولق الله وهذه عنده»^(٣) وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم يباشر الأرض بحمسه وجعل ثوبه فوقه [اللهم الخامس] النكح وقد قال قائلون لامعنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزهادين للنساء فكيف زهدن فيه وواقعه على هذا القول ابن عينة وقال كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون المروبة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فضله ولكن ترك النكاح احتراز عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشغل عن ذكر الله وترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احتراز من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التى تلحق الإنسان فيها هو من ضرورة الوجود لا تنزهه إذ لم تكن هى المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شيء لأن فى ترك ذلك فوات بدنه فكذلك فى ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فيمت فاشتريت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار (١) حديث رأى على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها (٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان فى كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش خشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجاهد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة التقدم ذكره من الثمالي (٣) حديث أتته دنائير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهل ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولق الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أنفقها فى رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام [١] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع فقلت يا بنى الله مالك عام الوجه قال من أجل الدنائير السبعة التى أتتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية أمسينا ولم تنفقه.

[١] شام بالمجعة متغير يقال شهم تغير عن حاله لما روى اهـ.

مصوب لا تزال متحركة
يجلبها ووضعها وشبهت
فى حرصها بالفراش
الذى يلقي نفسه على
ضوء الصباح ولا يقنع
بالضوء اليسير دون
المجسم على جرم الضوء
الذى فيه هلاكه فمن
الطيش توجد العجلة
وقلة الصبر والصبر
جوهر العقل والطيش
صفة النفس وهواها
وروحها لا يئلبه إلا
الصبر إذ العقل يجمع
المهوى ومن الشر
يظهر الطمع والحرص
وها الذان ظهرا فى
آدم حيث طمع فى
الخلود لحرص على أكل
الشجرة وصفات النفس
لها أصول من أصل
تكونها لأنها مخلوقة

نفسه فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا معناه سهل لا محالة
ولأنه نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بأصلاجهن^(١) والاتفاق عليهن^(٢) فلا معنى لزهده فيهن^(٣) حذر من مجرد كثرة
الوقوع والنظر ولكن أتى بتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان
فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال
للرأفة فيلنكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون
أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجنيد رحمه الله أحب للمرید البتدى أن لا يشغل قلبه ثلاث
وإلا تغير حاله: التمسك وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع
لحمه فإذا ظهر أن كثرة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو عذور فيها جميعا [اللهم السادس]
ما يكون وسيلة إلى هذه الخساسة ، وهو المال والجاء: أما الجاء فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانفق إلى
من يخدمه افتقر إلى جاء لا محالة في قلب خادمه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام
القدر والمحل في القلوب هو الجاء وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاوية لا عمق لها ومن حرم
حول المحي يوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب ثمن أو لدفع ضرر أو لخلاص
من ظلم فأما النفع فينبغي عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما
يحتاج إلى الجاء في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاء في بلد لا يكمل
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والمحاض
في طلب الجاء سالك طريق الملاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله
بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين
المسلمين فأما التوهّمات والتقديرية التي تنحوي إلى زيادة في الجاء على الحاصل بغير كسب فهي أوهام
كاذبة إذ من طلب الجاء أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من
علاجه بطلب الجاء ، فإذا نطلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته
أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في العيشة أعنى القليل منه
فإن كان كدوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب حبتين
رفع سبطه وقام. هذا شرط الزهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء
الزهاد وأقرباؤهم جميعا وإن كانت له ضيقة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي
ربعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته
ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القامات
المحمودة لا يناله وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر للنفس في
جميع ذلك أخف من أمر الصل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه
فإن أجابوا وإلا تركهم وفضل نفسه ماشاء معناه أن التضييق الشروط على الزاهد ينقصه ولا يلزمه كل
ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يحجبهم أيضا فخرج عن حد الاعتدال وليتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم
(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بأصلاجهن والاتفاق عليهن تقدم في النكاح .

من تراب ولها بحسبه
وصف وقيل وصف
الضعف في آدمي من
التراب ووصف البخل
فيه من الطين ووصف
الشهوة فيه من الحمأ
للننون ووصف الجبل
فيه من الصلصال
وقيل قوله كالنخار فهذا
الوصف فيه شيء من
الشيطنة لدخول النار
في النخار فمن ذلك
الخداع والحيل والحمد
فمن عرف أصول
النفس وجبلاتها عرف
أن لا قدرة له عليها
إلا بالاستعانة بياربها
وقاطرها فلا يتحقق
البعد بالإنسانية
إلا بعد أن يدبر
دواعي الحيوانية فيه
بالعلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما اضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس يحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا ولكنه قليل الضرر والسم محذور شره والدواء فرض تناوله وما بينهما مشبه أمره فمن احتاط فأنما يحاط لنفسه ومن تساهل فأنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة ، والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا خفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدل فيه ، وظاية سعادته به أن يسلم لورثته فيما كلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القمل لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد غفلا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فأنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه قصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معانة بالدنيا التي فاتته وخافها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك الموت قد عانت بهروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل للؤلؤ بيدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث إنره لما ظنك بأنك تتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة موت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مساطة إلا على محجوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، ففسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نقت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

(١) حديث نقت في روعه أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم

رعاية طرفي الإفراط والتفريط ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة وكال إنسانيته ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية من الكبر والعز وروية النفس والحب وغير ذلك فيرى أن صرف العبودية في ترك المنازعة للربوبية والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال - يأتيها النفس المطمئنة - وسماها الوامة

كدود كدود القز ينسج دائماً وبهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحصب والرخاء لو رأيتهم قلم عجمانيين ، ولورأوا خياركم قالوا هؤلاء بمن خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهلولة يخاف من فساد والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً - . وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام بعجب يدخل الغنى الجنة أو قال بشدة . مالك والحقني . فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغنى الجنة أو قال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلقا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

(بيان علامات الزهد)

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب اللذخ بالزهد فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وإتمام سريرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والنياب الرقيقة كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يجهلون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيمتطوا كما تمطى الساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجؤوا إلى الضائق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فقلبتهم فادعوها حالا فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يهزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأمروا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يمتلئ وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بشيء

قال - لا أنسى يوم
القيامة ولا أنسى
بالنفس اللوامة -
وسماها أمارة ، فقال
- إن النفس لأمارة
بالسوء - وهي نفس
واحدة . ولها صفات
متفاربة ، فإذا امتلأ
القلب سكرة خلج
على النفس خلج
الطمانينة لأن السكرة
مزيد الإيمان وفيها
ارتقاء القلب إلى مقام
الروح لما منح من
حظ اليقين وعند
توجه القلب إلى محل
الروح تتوجه النفس
إلى محل القلب ، وفي
ذلك طمانينتها وإذا
أزهدت من مقار
جسالاتها ودواعي
طبيعتها متطلعة إلى

ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفنى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا ياشرك قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والقيم والوجود والعدم ولا يستدل بمساكنة قليلا من المال على فقد زهده أصلا . قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يملك الدنانير ، فقال أزدت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كفافه للسبح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجري على الطمع في غايته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاضده شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لعلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من اللذات . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراني : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد أنه يحبط الحبل والخرذل والعارف يشمك السك والعنبر وقال له رجل متى أدخل خانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقصد مع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضمف في نفسك . فأما ما يبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يستجم وجهها وينشف شعرها ويغرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد فقلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الحجر كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمأنينة فهي
لوامسة لأنها تعود
بالطمأنينة على نفسها
لتظورها وعلوها بعمل
الطمأنينة ثم انجذابها
إلى محلها التي كانت
فيه أمانة بالسوء ،
وإذا أقامت في عملها
لا يشاها نور العلم
والعرفة فهي على
ظلمتها أمانة بالسوء
فالنفس والروح
يتطاردان ، فتارة
يملك القلب دواعي
الروح ، وتارة يملكه
دواعي النفس . وأما
السر فقد أشار
القوم إليه ووجدت
في كلام القوم أن
منهم من جعله بعد
القلب وقبل الروح ،
ومنهم من جعله بعد

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والمكوت المنفرد بالهزة والجبروت الرافع للساء بغير همد القدر فيها أرزاق
العباد الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب
ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعدا والاعتماد على مدبر سواه فلم يبدؤوا إلا بإياه علما بأنه الواحد القادر
الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثاله لا يبتغي عندهم الرزق وأنه ما من ذرة
إلا إلى الله خلقها وما من دابة إلا على الله رزقها فلما تحققت أنها لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا
عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قانع الأباطيل الهادي إلى سواء السبيل وعلى
آله وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات
القربين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث
الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكلية طعن في السنة
وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تثير في وجه العقل وانقماش في
غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقضى التوحيد والنقل والشرع في غاية
العموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الحفاء للإحماسرة الطماء الذين اكتحلوا
من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث
استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر
الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكل)

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - وعلى الله فليتوكل
التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين -
وأعظم بمقام موسوم بحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه
وكافيه وحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى -
أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال
في معرض استنطاق الحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا -
وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع
من لاذ بمنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى
- إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - يعني أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته
مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين تصدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - والله خزائن السموات والأرض ولكن للناس الذين
لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد
فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

الروح وأعطى منها
والطيف وقالوا السر
عمل للشاهدة
والروح عمل المحبة .
والقلب عمل العرفة
والسر الذي وقمت
إشارة القوم إليه غير
مذكور في كتاب
الله وإنما المذكور
في كلام الله الروح
والنفس وتنوع صفاتها
والقلب والفؤاد والعقل
وحيث لم نجد في كلام
الله تعالى ذكر السر
بالمعنى المشار إليه ورأينا
الاختلاف في القول
فيه وأشار قوم إلى أنه
دون الروح وقوم إلى
أنه ألتف من الروح
فنقول والله أعلم : الذي
محموه سرا ليس هو
شيء مستقل بنفسه

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

صلى الله عليه وسلم فما رواه ابن مسعود «أريت الأم في الموسم فرأيت أمق قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وحياتهم قليل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله؟ قال الذين لا يكتون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة^(١)» وقال صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بطاناً^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكلفه الله اليها^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه^(٤)» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربِّي عز وجل قال عز وجل - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها -^(٥)» الآية وقال عليه السلام «لم يتوكل من استرقى وأكتوى^(٦)» وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق أنك حاجة قال أما إليك فلا ولفه بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأزل الله تعالى - وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام بإدأود مامن عبد يعتصم في دون خلق فتكبه السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً . وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتي عقرب فأقسمت على أمي لتسترقني فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى - وتوكل على الحى الذى لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينبغي لأحد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك الضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولاتنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأثور بطاب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربى من أين يطعمنى . وقال هرم بن حيان لأويس القرنى أين تأمرنى أن أكون فأوماً إلى الشام قال هرم كيف العيشة قال أويس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم في الموسم فرأيت أمق قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذى والحاكم ومحمد بن حنبل من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن بن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربِّي قال تعالى - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيصعد سماعه من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى وأكتوى الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث القيرة بن شعبة وقال الترمذى من أكتوى أو استرقى قد برى من التوكل وقال النسائى ما توكل من أكتوى أو استرقى .

له وجود وذات كالروح
والنفس وإنما
صفت النفس وتزكت
انطلق الروح من وثاق
ظلمة النفس فأخذ في
المروج إلى أوطان
القرب واترح القلب
عند ذلك عن مستقره
متطلعا إلى الروح
فأكتسب صفاتاً
على وصفه فأنجم على
الواجدين ذلك الوصف
حيث رأوه أصفى من
القلب فسموه سرا
ولما صار للقلب وصف
زائد على وصفه بتطلعه
إلى الروح اكتسب
الروح وصفاتاً
في عروجه وأنجم
على الواجدين فسموه
سرا والذي زعموا أنه
الطيف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

(بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى سمى يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالقدرة التي ترجم عنها قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك والاعتماد بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ثم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والأفان وحيد هو البحر الحظم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب القلب وإلى قشر وإلى قشر القشر ونقسم ذلك تقرياً إلى الأقسام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب القلب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً وإذا لم يرفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه في عن رؤية نفسه والخلق فالأول موجد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسمان والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا العقدة حيل يقصدها لتضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضاً أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاماً والعارف به يسمى متكلماً وهو في مقابلة البتدع ومقصده دفع البتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يغصن التكلم باسم الموحد من حيث إنه بمعنى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشف له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تليق الكلام الذي به حيل البتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الداق وإن نظر إلى باطنه فهو كركبه بالنظر وإن أخذ

متصفه بوصف أخص
مما عهدوه والذي سموه
قبل الروح سر هو قلب
اتصف بوصف زائد
غير ما عهدوه وفي مثل
هذا الترقى من الروح
والقلب ترقى النفس
إلى محل القلب وتخدع
من وصفها فتصير قسا
مطمئنة تترد كثيراً
من مرادات القلب من
قبل إذ صار القلب يريد
ما يريد مولاه متبرئاً
عن الحصول والقوة
والارادة والاختيار
وعندها ذاق طعم
صرف العبودية حيث
صار حراً عن إرادته
واختياره وأما العقل
فهو لسان الروح
وترجمان البصيرة
والبصيرة للروح بمثابة

حطياً أطفأ النار وأكبر الدخان وإن ترك في البيت ضيق السكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمي به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر عديم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد النفاق يصون بدنه عن سيف الفزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحمسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطب الكفا نازلة القدر بالاضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والشهادة التي تحصل بانشرائح الصدر واتساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكان القلب تيسر في نفسه بالاضافة إلى القشرة وكله القصور ولكنه لا يغلو عن شوب عصاره بالاضافة إلى الدعن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ولكنه لا يغلو عن شوب ملاحظة الضمير والالتفات إلى السكرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فأعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العاملة، ثم ذكر ما يكسر سورة استبعادك تمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من للمشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفث إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ تقول إنه إنسان واحد فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والمثلث إلى السكرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير السكرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة نظراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام أندر عز نزول إلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فباد أنت فقال أدور في الأسفار لأصح حالتي في التوكل وقد كان من التوكلين فقال الحسين قد أنثيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فسكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال . فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما فهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيان وليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والسفل بشارة
اللسان . وقد ورد في
الحجر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال لا يؤمن من لم يثق
الله العقل فقال له أقبل
فأقبل ثم قال له أدبر
فأدبر ثم قال له أقعد
فقعص ثم قال له انطق
فانطق ثم قال له اصمت
فصمت فقال وعزني
وجعلني وعظمتني
وتبرأتني وسألتني
وجبروتني ما خلقت
خلقا أعجب إلي منك
ولا أكرم علي منك
بك أعرف وبك
أحمد وبك أطاع
وبك آخذ وبك
أعطي وإياك أعاتب
ولك الشواب وعليك
العقاب وما أكرمك

المبتدعة فيه مذكور في علم السلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقهر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتزم بآباده واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تثبتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لاستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب الكاشفة انفتح لك هذا اتساحا آتم من الشاهدة بالبصر وإنما يصعدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتننى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على الطرفين خروج الزرع ونباته ونعائه وعلى القيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع القيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجانا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي النفات من أخذ لحز رقبتك فكنت الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فیری نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والقيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأنت في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي عزز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضملاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضملاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد للابيض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لفريق حديقها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقه في الطريق

بشيء أفضل ممن
الصبر » وقال عليه
السلام « لا ينجيكم
إسلام رجل حتى
تعلموا ما عقده عقله »
وسألت عائشة رضي
الله عنها النبي صلى الله
عليه وسلم قالت قلت
« يا رسول الله بأي شيء
يتفاضلون الناس ؟ قال
بالعمل في الدنيا
والآخرة قالت قلت
أليس يحزى الناس
بأعمالهم ؟ قال يا عائشة
وهل يعمل بطاعة
الله إلا من قد عقل
فبغير عقولهم يعملون
وعلى قدر ما يعملون
يحزون » وقال عليه
السلام « إن الرجل
ليطلق إلى المسجد
فيصلي وصلاته

على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى معوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أثنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه الهائم وإنما أريد به معما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فإن قلت فهذه أهوية لا قبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف صبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر وله يتناهي فإنها كانت تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يطلع على صدور الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوحى بخفاياه فنأى بسره على ملائمة الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء السر القدر (٢) . ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أمهاتي فأمسكوا » (٣) ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نمان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهاية ولو كنا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونزد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه أسود وجهه بالخبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة فإني مأسودت وجهي بنفسى ولكن سل الخبر فانه كان مجموعا في الهبة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظمأ وعدوانا فقال صدقت فسأل الخبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فإني كنت في الهبة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادى وفرق جمعي وبددني كاتري على ساحة يضاء فالسؤال عليه لاطي فقال صدقت ثم سأله القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال سل اليد والأصابع فإني كنت قصبا ثابتا على شط الأنهار مترها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنيابي ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الخبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيقي على قمة رأسي ولقد ثرت للصح على جرحي بسؤالك وعتابك فتسح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سأله اليد عن ظلمه وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أوحسا يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي تردني

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهي عن إفشاء سر القدر ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا الله عز وجل سره انظر أبي نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

لا تعدل جناح بهوضة
وإن الرجل ليأتي
المسجد فيصلي وصلاته
تعدل جبل أحد إذا
كان أحسنهما عقلا
قيل وكيف يكون
أحسنهما عقلا ؟ قال
أورعهما عن محارم
الله وأحرصهما على
أسباب الخير وإن
كان دونه في العمل
والنطوع . وقال :
عليه الصلاة والسلام
« إن الله تعالى قسم
العقل بين عباده
أشتاتا فإن الرجلين
يستوى علمهما
وبرهما وصومهما
وصلاتهما ولكنهما
يتفاوتان في العقل
كاللدة في جنب أحد »
وروى عن وهب بن

وتجول في نواحي الأرض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى الفاهر أما ترى أيدي الوقي تساوين في صورة اللحم والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزجني من ركبتي فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبي فكم من لأم معلوم وكم من معلوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزجني وأرهنني إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزجني من غمرة النوم وأرهنني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأني فقال صدقت ثم سأل الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة الطمئة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهنها إليه إرهابا لم نجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تميل على فعل لما عذر أو أنت تلوم فإني ما انتهضت بنفسى ولكن انتهضت وما اتبعته ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فإني ميكنة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكفى أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتخير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجز حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فإني كما قال القائل :

مقى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إليهم على استهزاء الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقش في يياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تتعج السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال تعجى في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكني كنت أظن أني سأبكرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في القواد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لأعلم قلما إلامن القصب واللوحة إلامن الحديد والخشب ولا خطا إلا بالحبر ولا سراجا إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جمجمة ولا أرى طعنا فقال له القلم إن صدقت فياقلت فبضاعتك مزجة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تتصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى القصد فألق سمك وأنت شهيد . واعلم أن العالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولهما ولقد كان السكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت

منه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا. واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا فقال قوم : العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فإذا جاوزته انتهى إلى منازل وفيه المهامه والقيح والجبال الشاهقة والبحار الغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض وللساء فلا هي في حد اضطراب الساء ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها وكل من عشى على الأرض عشى في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يعوى على ركوب السفينة كان كمن عشى في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن عشى على الساء من غير سفينة عشى في عالم الملكوت من غير تمتع فإن كنت لا تقدر على الشيء على الساء فانصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الساء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي عشى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوازداد يقينا لشيء على الهواء»^(١) لما قيل له إنه كان عشى على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطبق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل ذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذا نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قسبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذا قال العلم لقد أبعدت النجمة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الدوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأفلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بهيتم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من قصب ولا لونه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا عشتا بين حقول التنزيه وأنوثة التشبيه مذذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف زهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها وزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكأن منزها صرفا ومقدسا حقا واطو الطريق فأنك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلمك تعبد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إن أنا ربك - فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه عشت بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تمسه نارا فلما شفع فيه العلم بمحدثه اشتعل زيتته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واخضع بصرك لملك تعبد على النار هدى ففتح بصره فأنكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى عشى على الماء قال لوازداد يقينا لشيء على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر
تقدم كمال العقل فهو
إذن من العلوم
الضرورية وليس هو
جميعها فإن صاحب
الحواس الختلة ناقص
وقد علم بعض
مدارك العلوم
الضرورية. وقال بعضهم
العقل ليس من أقسام
العلوم لأنه لو كان منها
لوجب المحكم بأن
الداهل عن ذكر
الاستحالة والجواز
لا يتصف بكونه ناقصا
ونحن نرى العاقل في
كثير من أوقاته ذاهلا
وقالوا هذا العقل صفة
ينتهي بها درك العلوم .
ونقل عن الحرث بن
أسد الهامسي وهو من
أجل الشايع أنه قال

فأذا هو كما وصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له قضى منه العجب وقال نعم الرقيق العلم جزاء الله تعالى عني خيرا إذا الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا أقلام فصد هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فاسفر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى اللقدورات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصممت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابى مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يردنى وأنام قهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسموات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فاسفر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحصى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه عين لا كالإيمان ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم يحركها في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة إذ لا يد لا حكم لها في نفسها وإنما يحركها القدرة لا محالة فاسفر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنعانا صفة فاسأل القادر إذ العدة على الوصفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فحشيت هية الحضرة غر صغيا اضطرب في غشيته فلما أفاق قال سبحانه ما أعظم شأنك ثبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بآنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرصاك من سخطك ومالى إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأتقن عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك غفده وما نهاك عنه فاته عنه وما قاله لك قلله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سبحانه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) فقال إلهي إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع إلى الصديق الأكبر فاقنديه فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فيكفيك نصيما من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فصد هذا رجوع السالك واعتذر عن أسئلته ومعانيته وقال لليمين والقلم والعلم والإزادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث المهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لى أن للفرد بالملك والمكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخرو الظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخروها وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس ياطن فقال هو الأول بالإضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر

العقل غريزة يتبها بها
درك العلوم وعلى هذا
يتقرر ما ذكرناه في
أول ذكر العقل : أنه
لسان الروح لأن
الروح من أمر الله
وهي التحمة للأمانة
التي أبت السموات
والأرضون أن يعملنها
ومنها يفيض نور
العقل وفي نور العقل
تتشكل العلوم فالعقل
للعلم بمثابة الروح
للمكتوب وهو صفته
منكوس متطلع إلى
النفس تارة ومنتصب
مستقيم تارة فمن كان
العقل فيه منكوسا
إلى النفس فرقه في
أجزاء الكون وعدم
حسن الاعتدال
بذلك وأخطأ طريق

(١) حديث سبحانه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السرف فهو آخر في الشهادة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يحجده فطريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فاني لأهتدي إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بمآراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا شئ به فلمنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من مجملتهم فاني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياماً قلائل وماكل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود قبل الإزالة والتقية اشتغلوا بتفتيته اشتغال الكمال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضاً توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للزلل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقله إلى العالم واحد والمدير واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة فيفسد اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأندباء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وكذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاورة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يعضف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقاها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإفطار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثل للكاشفين والمتقين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقوله فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثر لك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التضرير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فما نظروا إلى عمل السامري ومعموا خواره تغيروا ومعموا قوله - هذا إلهكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتمام ومن انتصب العقل فيه واستقام تأييد العقل بالبصيرة التي هي لروح بمثابة القلب واهتدى إلى الملكوت ثم عرف الكون بالكون مستوفيا أقسام المعرفة بالكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله في أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله في أمر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجنب مساخطه وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالاته على الرشد ونبيه عن النقي . قال بعضهم : العقل على

إلى ثعبان يكفر لاحالة إذا نظر إلى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ماذا كرت من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إرادة إن إراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الفلطول كن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لافترقت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة إليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لاحالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجرام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان التكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متظفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا علم العامة ، ولكي أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والخنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بحمسه فينسب إليه الحرق في الماء ، والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها ثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا إراديا ونسمى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو غطى من السطح للهواء انحرق الهواء لاحالة فيكون الحرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انحراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانحراق بعده وليس الثقل إليه وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بآلة طبخ الأجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تضيض الأجفان اضطرارا فعل إرادى ولكنه إذا مثل صورة الإبرة في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالتضيض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهذا الجبر بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويبان أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تخير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بآلة أو بدلك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تبعث الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتصلح حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الأشياء ما يتوقف التخيير والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى تقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الإرادة ههنا كما تبعث لدفع السيف والسنان فإذا انبثقت فعل ما ظهر للعقل

ضمير بين ضرب يصير
به أمر دنياه وضرب
يصير به أمر آخرته ،
وذكر أن العقل الأول
من نور الروح والعقل
الثاني من نور الهداية
فالعقل الأول موجود
في عامة ولد آدم والعقل
الثاني موجود في
الموحدين مفقود من
الضالين . وقيل إنما
سمى العقل عقلا لأن
الجبر ظلمة فإذا غلب
النور بصوره في تلك
الظلمة زالت الظلمة
فأبصر فصار عقلا
فالجبر ، وقيل عقل
الإنسان مستحقته في
القلب ومتممه في
الصدر بين عيني
العلماد والذى ذكرناه
من كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيها له في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحجز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لالعدم القدرة في اليد والعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية للشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عتوة مؤلمة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردد بين شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقعت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فاذاهو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنما كان فذاثاً واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تخير وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم وإطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله تعالى وإن أبيت ذلك فإمضى ترتيب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل هوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأمل الذي لم ينف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فأنهم وقفوا على كنهه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرةنا وهو بعيد عن الحق ويان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتيب للشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت العامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكشفين بنور الحق والإفلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والضرورة وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقت السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداة إلى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة طالب البصيرة تحيط بالمعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لا عين . ما خلقناهما إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجدنا تأخر متأخر إلا لا تتظار شرطه وللشروط قبل الشرط محال والحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لا نقدر شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لا نقدر شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديرو تفهم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن نقدر إنسانا محدثا قد انغمس في الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملاقيه فقدرة القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها القدور كالإحساس برفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أنه الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيه إذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فاذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لما لا يغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من محار التوحيد إلا نظرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤثته على اللسان وما أسهل اعتقاده مفهوم أظنه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم محملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخرع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلوم بالعلو وارتبطت بالمتخترع بالمتخترع وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا فكيف كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فذلك سمى فاعلا لكذلك ارتباط المقدرات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل بتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى - أفرأيتم ما تعجلون - أضاف إليهم قال تعالى - أنا صبينا الماء صبائهم شققنا الأرض شقة فأنبتنا فيها حبا وعنبا - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم بارونا فقاموا لها بشراسويا - ثم قال تعالى - فنفخنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي تنفذ البحر دون نقادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستمضاء بنور الشرع حظى بعوالم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أبواب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه البيان - وقال - ثم إن علينا ياناه - وقال - أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم بصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك ^(١) » . وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين في الخبر « أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المهيأ والهي لا يميت ولا يحيي سواي ^(٢) » فأذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة « خذها لولم تأتها لأنتك ^(٣) » أضاف الاتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال الثائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله ^(٤) »

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم بصورها جسدا الحديث البرار وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فأمّن شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدى إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لولم تأتها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والقول دون الجامدين
على مجرد القول دون
البصائر وقد قال بعضهم
إن العقل عقلان عقل
للهداية مسكنه في القلب
وذلك للمؤمنين الموقنين
ومتعمله في الصديقين
عنى الفؤاد والعقل
الآخر مسكنه في الدماغ
ومتعمله في الصديقين
عنى الفؤاد قبل الأول
يدبر أمر الآخرة ،
وبالشأن يدبر أمر
الدنيا والذي ذكرناه
أنه عقل واحد إذا
تأيد بالبصيرة دبر
الأمرين وإذا تفرد
دبر أمرا واحدا وهو
أوضح وأبين ، وقد
ذكرنا في أول الباب
من تديره للنفس
الطمشة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والستير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فيها فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعت أي اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوى له ولما جرى حقيقة اللغى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *» (١) أي كل ما لا قوام له بنفسه وإعما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإعما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لاحق بالحقيقة إلا الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر لهما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلان طول باعدته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يترتب فيه وهو أن يصدق تصديقاً يقيناً لا يضاف فيه ولا يرب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من الصلح ما تختمه نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لمتهم لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وغفلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار اللسكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك واللسكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخف من ذرة ولا أن يدفع مرض أوعيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن بلى به ولا أن يزال همه أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالتقدير الذى ينبغي وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أنم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفضله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ولو لم يكن قادراً لكان عجراً يناقض الألوية بل كل فقر وضرف الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تيمم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما يتنبه الانسان به إلى كونه عقلاً واحداً مؤيداً بالبصرة تارة ومنفرداً بوصفه تارة والله اللهم للصواب .
[السبب السابع والمحسون في معرفة الحسائط وتفصيلها وتمييزها]

أخبرنا شيخنا أبو النجيب للسرور روى قال أخبرنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحسوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الحمداى عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكان فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذمهم ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خالق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غاي لا يقله إلا المالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق الشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولترجع إلى علم العامة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيخوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والعامل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرة وقد أكثر الخاضعون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الوكيل إليه وكلا ويسمى المفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وتصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكيل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فانه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيجتمه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاله على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفد دون الناية به إذا كان لا يهجم أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لمطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليُدفع ما يعضد منه من تصور

رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم «إن للشيطان لمة
بابن آدم ولذلك لمة
فألمة الشيطان فإبعاد
بالشر وتكذيب بالحق
وألمة الملك فإبعاد
بالخير وتصديق بالحق
فمن وجد ذلك فليعلم
أنه من الله فليحمد الله
ومن وجد الأخرى
فليتعوذ بالله من
الشيطان ثم قرأ
الشيطان يعدكم الفقر
ويأمركم بالفحشاء -
وإنما يتطلع إلى معرفة
الدين وتمييز الخواطر
طالب مر يدتشفو إلى
ذلك تشوف العطشان
إلى الماء لما يعلم من
وقع ذلك وخطره
وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلول كل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين ينتهي الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواماً بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بمجمله العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل على حاله قلبك عليه وحده ولم ياتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيبه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فإن القلب قد يزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فشيبه بين يديه بالعذرة ربما فطرطبه وتغذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو يبيت فطرطبه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه حجاب في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يخيه وإن كان قادراً عليه كأنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو البيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلنا غلخو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكنون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أألم تؤمن من قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الحيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تباع بالآخرة إلى درجة النفس الطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب اللل والذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وماتهموى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذن الجبن والجرأة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كأن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة ما لعمرون من تقته إنسان مثله وقد قال عليه السلام «من استعز بالعباد ذله الله تعالى» (١) وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالخطوة صفو اليقين ومنع الوقوفين وأصغر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا بهم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتر بالعباد ذله الله العقبلى في الضمفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أوردته العقبلى في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحالها في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يستمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يغفلها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فأنهما مفرعه فانه قد وثق بكفالتها وكفائتها وشققها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوبل بتفصيل هذه الحصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتاده عليه كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعوره بذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وخدمه وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قبل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي العامل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد العامل الميت وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون باننا عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويسدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تغامحه وتقيه وهذا التمام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فسكن من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والتمام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت فهذه الأحوال هل تصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بحال ولكنه عزيز نادر والتمام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون للتمام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجه فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجه عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تتمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فإن البشرة ستر رقيق تراءى من وراء حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما التمام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن التمام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمهتوت والتمام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والتمام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالنحوك على وكيه في الحصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيه به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنعه دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا منافضا لتوكله عليه إذ ليس هو فزع عامنه

عصبت الله وهذا حال
عبد استقام قلبه
واستقامة القلب
اطمأنينة النفس وفي
طمأنينة النفس يأمن
الشیطان لأن النفس
كلما تحركت كدرت
صفو القلب وإذا
تكدر طمع الشيطان
وقرب منه لأن صفاء
القلب محفوف بالتذكر
والرعاية وللذكر نور
بتمية الشيطان كاتقاء
أحدنا النار . وقد
ورد في الخبر « إن
الشیطان جائم على
قلب ابن آدم فإذا
ذكر الله تعالى تولى
وخسئ وإذا غفل
التقم قلبه فخذ به ومناه »
وقال الله تعالى « ومن
يشئ عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما يسميه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر قنوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحتاج الحشم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يعمل السجل مع نفسه إليه عند خاصته فاذا لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بأشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقد ناظرا إلى محاجته فقد يقضى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهول ينتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسأبني تفصيله في الأعمال فاذا فزع التوكل إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فاذا لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمداً لم حاجته وعرفه بذلك بأشارته وسنته فاذا لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكتل منها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهم مفيدين إذ جعلهم حاشراً طامساً مخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها وهيئات فأنما ذلك جزاء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولين فكذا لك هذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قبدوا بالقشرين وما طرقتوا إلى اللين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه مخلاً وجبت له الجنة» (٢) وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاحسان أراد بالمطلق هذا القيد كما أنضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والمراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس وإنما الصدق والإخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك إلا للقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اللين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقاً مخلاً من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن تقيض له
شيطاناً فهو له قرين -
وقال الله تعالى - إن
الذين اتقوا إذا مسهم
طائف من الشيطان
تذكروا فاذا هم
مبصرون - فبالنقوى
وجود خالص الذكر
وبها يفتتح باب ولا
يزال العبد يتقى حق
يحمي الجوارح من
المكروه ثم يحميها من
الفضول وما لا يعبئ
فتفسير أقواله وأفعاله
ضرورة ثم تنتقل
تقواه إلى باطنه ويظهر
الباطن ويقيد عن
المكروه ثم من الفضول
حتى يتقى حديث النفس
قال سهل بن عبد الله
أسوأ المعاصي حديث
النفس ويرى الإصغاء

سرر موضوعه متشككين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب البين ما زاد على ذكر الماء والظل
والفواكه والأشجار والخور العين وكل ذلك من لذات المنظر والشروب والمأكل والنكوح ويتصور
ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين
ولو كان لهذه اللذات قدر لها وصمت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم
وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى
والدواشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوظة من أحوال الملائكة في سرورهم بقرب
من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيئات هيئات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون
حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس
يغنى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها
إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل
لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء
هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب
درجة الملائكة فتركها الطاب للعجز ، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أخرى بالذم
وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاماً معتزلاً فلنرجع إلى المقصود
قد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة
فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله
فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة
المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز
وصفهما بالصغر تجوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من
جهة آدميين بل هما من خالق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعزلة والفلاسفة
وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بمعدة نظره فهي مهلكة
مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أنبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق
سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو
الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان . إحداهما : النظر
إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات . والثانية : النظر إلى اختيار
الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة
أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة
والتوكل على الواحد الحق ويتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى
الدبلي قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي
عن عيذك ويسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة
يتممون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذكره أبو موسى
فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم
الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تميز بين أهل النار

إلى ما تحدث به النفس
ذنباً فيتقيه ويتقصد
القلب عند هذا الانتقاء
بالذكر انتقاء الكواكب
في كبد السماء وبصير
القلب سماء عفو ظا بزينة
كواكب الله كذا فاذا
صار كذلك بمسد
السيطان ومثل هذا
العبد يسدر في حقه
الخواطر الشيطانية
ولماته ويكون له
خواطر النفس ويحتاج
إلى أن يتقيا ويعيها
بالعلم لأن منها خواطر
لا يضر إمسأوها
كطالبات النفس
بحاجاتها وحاجاتها
تنقسم إلى الحقوق
والحظوظ ويتعين
التمييز عند ذلك وإتمام
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغصن أنواع العلم ووراه سر القدر وأبو يزيد قد استكام إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه وللتنظر في هذا الجمل ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائنق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال تترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولي لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به واضطرابه بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والسلم يكفي بعله وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقوال شتى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والقل فهذا ملحق بحال التوكل والله الموفق برحمته وطفه .

بيان أعمال التوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يشمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالحرقة الملقاة كاللحم على الوضغ وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف الغطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسميه بطله إلى مقاصده وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسكب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضرر لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضرر قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى
يا أيها الذين آمنوا
إن جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا - أي فتبينوا
وسبب نزول الآية
الوليد بن عتبة حيث
بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق فكذب عليهم
ونسبهم إلى الكفر
والعصيان حتى هم
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتالهم ثم
بعث خلفه إليهم فسمع
أذان المغرب والمشاء
ورأى ما يدل على
كذب الوليد بن عتبة
فأنزل الله تعالى الآية
في ذلك فظهر الآية
وسبب نزولها ظاهر
وصار ذلك تنبيهاً من
الله عباده على التثبت

(١) حديث إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالتداوى من الرض فقصود حركات العبد لاتعدو هذه العنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فانذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[الفن الأول : في جلب النافع] فقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاشق النفس به ثقة تامة ولاطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أفعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيعا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطعمت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاهي اليد والطعام وكيف تعتمد على محبة يدك وربما تحجب في الحال وتفجع ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلب الله تعالى من يظلمك عليه أو يبعث حية تزحجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتقول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليحد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والاقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطررها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاهي الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاوبه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما ينفق من الأشياء الحسيسة فبعد هذين الشرطين لا يغلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقة الإبرة والقراض والحبل والركرة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون للقاء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر بغير دلو ولا حبل ولا يظلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يظلب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية الفاسق الكذاب والكاذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتعين الثبوت عند خاطرها وإقامتها فيجعل العبد خاطره النفس نبأ يوجب الثبوت ولا يستفزه الطبع ولا يستجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بحرك النفس وخالفها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقرض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الحياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوفا إلى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لاماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأنسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي فقد عدي سبعا فكاد يموت ولم يأت به رزق فقال يارب إن أحييتني فانتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتعد بين الناس فدخل الصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فاذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمضى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب . فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البداية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قدينا أخر عنه والصبر يمكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتش باب البيت وهو بطلال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه بالعمالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا وقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رزق ولا ميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وترجع بظانا ولزالت بدعائكم الجبال»^(١) وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف يقبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق . وقال أبو يعقوب السوسي التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يثاب ويमान ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق أمضاء وإن كان للحظ نفاذ وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسه في محنته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ بصبر ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب الكلي مرسلًا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

بذل كالسؤال وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بمزكالصوبة يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى للسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالسكية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أغنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يغني أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضر فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يعجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونيات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيتته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بغيره ويموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصاير وهذا أضنف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجلية إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسحره سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ يتصور أن يفعل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السمر لا يخرج عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أممابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرته تعالى كما يرى القلم في يد الملك الوقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يميل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو لفرق على الساكنين فهو يدينه مكتسب وقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وأضاف إليه الحال والمعرفة كالمسبق أن الصديق رضي الله عنه لما بوجع بالخلافة أصبح أخذ الأتواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أمنت الخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لاسواهم أضيع حق فرضوا له قودساً هل بيت من المسلمين قد ارضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة ليعبد مأذون له في السعة عالم بالأذن فيمضي خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته وتقصانه عالم بحاله يحكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص بعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر النفس في مقام تخلصه من للمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير خواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه داتقا ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول استحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجالوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يعمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك قد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت لما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان التوكلون يأخذون ما استشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فردده فلما ولي قال له أحمد الحق وأعطه فانه يقبل فالحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيسر فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضرة ورضي بصحبي ولكي فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلتي فاذن للكاتب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت لما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استمنت على رزقك بالمغازل أرايت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاص إلى الأرض ومن ضائق النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط عمل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من الرادين المتعلقين بمقام المقرين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المظلمة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لا يعمل به إلا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلهذا لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وهايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيرا له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيئا حزيننا يتطير بخاره وابن عمه من سبقني من دهاني وماهي إلا رحمة رحمة الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا بألي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ما شئمت منه راحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولم له أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الايمان بأن لافاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتنمنا العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبئ على أصولها من الايمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القاب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - فان الانسان بطبعه مشغوف بسباع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضمف القلب ومشاهدة التمكنين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له مملوم فقال له الامام لو اكتببت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فلكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل إقعل يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجى الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة الرعشى وقد كان خدم ابراهيم بن آدم قليل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فكتبت به إليه فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشراف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهرة وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعي وجودا وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخاطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
 هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكُن الضمين لنصفها يابارى
 مدحى لغيرك لخب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تملق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد الفلانى فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسلمته عن ركب البغلة فقال هذا نصرانى فجئت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فإنه يحسب الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جئت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثت نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجمة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جئت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جالس بين يدى ووضع قطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فندرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فإذا فيها صيد مصرى ولوز مقشور وسكر كذاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا غيلى أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا تصابا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل فوجدت خائلا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يجمى صاحبه فرجما يعطينى شيئا فأرده عليه فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يجمى صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت ألقها فاكثفت بها إلى قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له عنها وقالوا هو ذا يجمى النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من ممرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة ، وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة فرأيت الرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أتى سكنت واتسكنت على غيره وآليت أن لأدخل للرحلة إلا أن أحمل إليها فحشرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا يا أهل الرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فإنه سيمنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتنى فى لمكان
 القرب وخاطر النفس
 بعد عنه ليعد النفس
 وخاطر الملك تخلف عنه
 كتخلف جبريل فى ليلة
 للعراج عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 حيث قال . لودنوت
 أكلة لا حترقت . قال
 محمد بن على الترمذى
 المحدث والكلام إذا
 تحققت فى درجته لم يخافا
 من حديث النفس
 فكما أن النبوة
 محفوفة من إلقاء
 الشيطان كذلك محل
 الكلمة والمحادثة
 محفوفة من إلقاء النفس
 وفتنتها ومحروس بالحق
 والسكينة لأن السكينة
 حجاب للكلام والمحدث
 مع نفسه . وصحبت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إن ند اشتقت إليك فما الذي شغلك عني فقال إني قرأت القرآن فأغنانني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكي عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بر فجاءتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فاستتمت هذا الحاطر حتى مر برأس البرجر جلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البرجر لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطحوار وأس البر فهممت أن أصبح قنطري في نفسي إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في مهمة لك كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فاذا هو سبع فر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيتك من التلف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهائي حيائي منك أن أكشف الهوى وأغيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطف في أمري فأبدت شاهدي إلى غائب واللاطف يدرك باللاطف
ترأيت لي باليب حق صكائما تبشرنى بالغيب أنك في الكف
أراك وبني من هيتي لك وحشة فتؤاسي باللاطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب ختفه وإذا عجب كون الحياة مع الخلف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه، ثم التوكل بهذه الأحوال والشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل العيال

اعلم أن من له عيال فخكه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استئراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الإيمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأتيه رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مضبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الإيمان فاذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو اللقاع الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكل في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل في حقهم فهذا حرام وقد يفرض إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعد على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روي أن أبا تراب النخعي نظر إلى صوفي مدب يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف أزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزمه السوق ومروء بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيها يضر بدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبا محمد بن
عبد الله البصري
بالبصرة يقول الحواطر
أربعة : خاطر من
النفس واطر من
الحق واطر من
الشیطان واطر من
الملك فأما الذي من
النفس فيحسن به من
أرض القلب والذي
من الحق من فوق
القلب والذي من الملك
عن يمين القلب والذي
من الشيطان عن يسار
القلب والذي ذكره
إنما يصح لعباد أذاب
نفسه بالتقوى والزهد
وتصفي وجوده واستقام
ظاهره وباطنه
فيكون قلبه كالمرآة
الجلوة لا يأتيه
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تعقبا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأُم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شاة أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يعض به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولكنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواجه الغذاء الكثيف أثبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل بعض لأنه ما نقصت أسباب معيشته يلوغ به زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفردة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرفق والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحسن بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص لما رأوه محتاجا ولو رأوه يتيم لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في سنى الحصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشغل في الصبا وقد كان الشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكأن من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فبيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثانا فليجهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فلا للبطال والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالتوكل لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصبره فإذا السود
القاب وعسله الرين
لا يصبر الشيطان .
روى عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن العبد
إذا أذنب نكث في
قلبه نكثته سوداء
فإن هو نزع واستغفر
وتاب صقل وإن عاد
زبد فيه حتى تعلو قلبه
قال الله تعالى - كلاب
ران على قلوبهم
ما كانوا يكسبون - »
سمعت بعض العارفين
يقول كلاما دقيقا
كوشف به فقال الحديث
في باطن الإنسان
والخيال الذي تراه
لباطنه وتخيل بين
القلب وصفاء الذكر

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فئات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل أتى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب إلى الأسباب ، نعم مديرة تدير يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السان والياب الرقيقة والحيل النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناول له لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملكوت تديرا لا يحاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشف هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والإفلاس عن الإيعان به علما ، فاذن عليك بالقناعة بالزر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يعث إليك رزقك على يدي من لا يحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذا الذ الأطعمة لما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن وأطمأن إلى ضمانه فان الذي أحاط به تدير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم بمناظر للحاق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسال الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البداية فتألى جوع شديد فقلت نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أهالي التوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضيق من أماننا

ويسألنا على الإحتار جهدا نحن لا نراه ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتقا بالله عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسألته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس منازعة ومعادنات وتألما وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل فأثر القلب بذلك وتكدر فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وحمل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتبة للنفس وذكر النفس عيئا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فإذا كان الحاضر أول الفعل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحدابك ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب كالأنسكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادر بلازاد أو يقع فى الأمصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام حمرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فإن اشتد به سبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الحامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق فيسبح بذى الدين وهو بالعلماء أتيح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل كل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للعطى على نيل الثواب ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحق للرزق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرر كل أحق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلن البهائم

(بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يطبوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويحتمدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلاني إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم ماء ورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب اليدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أنه من يد الغلام وهو ساكن فأتى أخصه بخلة سنية في العيد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلة له ومن أخطأ غلاني فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قتلا لته أوصل إلى رغيفا فأتى غدا أستوزره وأفوض ما سكي إليه فانتسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الوعدة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جاثمون فبادروا إلى الغلمان فأدوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في العيد المذكور فقدموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين طلبا للجوع فسلوا من العقوبة وما فازوا بالخلة وقسم قالوا إنا نجلس بمراى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن تأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا وتقع به فلمنا نوز بالخلة ففازوا بالخلة وقسم رابع اختلفوا في زوايا اليدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا إن اتبعونا وأعطينا رغيفا واحدا وإن

ومفتحه فمعرفة من
ثم شأن العبد لأن
الأفعال من الخواطر
تنشأ حتى ذهب بعض
العلماء إلى أن العلم
للفترض طلبه بقول
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « طلب
العلم فريضة على
كل مسلم » هو علم
الخواطر قال لأنها أول
الفعل وبفسادها فساد
الفعل وهذا للمعنى
لا يتوجه لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أوجب ذلك على كل
مسلم وليس كل المسلمين
عندهم من القريحة
والعرفة ما يعرفون به
ذلك ولكن يعلم
الطالب أن الخواطر
عبارة البذر فمنها ما هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فقلنا تقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفهم ذلك إذ اتبعهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد غيافا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للعلمان وأخذنا طعامنا فلنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت واليعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلمان هو المعتدى في الأسباب والعلمان المسخرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الميدان يرى العلمان هم القيمين في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والخفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الحاق إلى هذه الأنقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد وعلله كان كذلك في الأمصار السالفة وأما الآن فالناركة للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التمرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوافي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية القابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والخمالة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام الم محمود والوعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصم إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السبكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلامعنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالمستنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليسلة فمادونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود ممن يؤمل سنة وتقيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعد كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا»^(١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ناء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومنه
ما هو بذر الشقاوة .
وسبب استنباه
الحواطر أحد أربعة
أشياء لا خامس لها إما
ضعف اليقين أو قلة العلم
بعرفة صفات النفس
وأخلاقها أو متابعة
الهوى بخرم قواعد
التقوى أو عجة الدنيا
جاهها وماله وطلب
الرفعة والمنزلة عند
الناس فمن عصم
عن هذه الأربعة
يفرق بين لمة الملك
ولمة الشيطان ومن
ابتلى بها لا يعلها
ولا يطلها وانكشف
بعض الحواطر دون
البعض لوجود بعض
هذه الأربعة دون
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر له إلا بحسبكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بأحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالباً ومن آخر لأقل من سنة فله درجة بحسب تصرأمله ومن كان أمه شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهراً ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو ينهض في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلاً ، وإن ضعف قلبه فكلماته ادخاره كان فضله أكثر ، وقدرى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه وأسامته أن يسهله فسهله وكفناه يردته فلما دفنه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث وجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهى يا رسول الله ؟ قال كان صوماً قواماً كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعم قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فلا ادخار له أولى بل لو أمسك ضيقة يكون دخله وإيقا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجدد للذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محدورة لوجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخاره قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم الفرد ، فأما العيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سيئه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ^(٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخره شيئاً لهد ^(٣) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال ^(٤) « أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقللاً » ^(٥)

ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جداً وهو باطل (١) حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر علياً أو أسامة فسهله وكفنه يردته أنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلاً وتقدم آخر الحديث قبل هذا . (٢) حديث ادخر لعياله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لقد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقللاً البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بتميز الحواطر وأقوهم بعرفة النفس ومعرقها صمة النال لا تكاد تيسر إلا بعد الاستعصاء في الزهد والتقوى . واتفق الشايع على أن من كان أكمله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو طي الدقاق من كان قوته معلوماً لا يفرق بين الإلهام والوسوسة وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعباده أن يسرق إليه في الأخذ منه والتقوى به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الحواطر إنما ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تمنعاً » (١) « اقتداء بسيد التوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لا يبلغه » (٢) وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا يثق بما آذخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليلاً لأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة للضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٣) « تطيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والاضوط فيتركون اليسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن فقال ﷺ فقتلوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره قال صلى الله عليه وسلم كتمان » (٤) وقد كان غيره من المسلمين يموت ويغلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كتمان من التارك كما قال تعالى - تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس . والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به نقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كتمان في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدار الآخرة ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين الغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أصغر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيته قام لأحد غيره قال ودفع إلى كف من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال فحقت بالطعام فوضته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ففجيت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فنع الوصلى زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يعلن أن التوكل إذا صح لم يضر مع الادخار [الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكان يوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة ترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تمنعاً الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة . حديث القى الله فقيراً [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لا يبلغه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كتمان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول العراقي حديث القى الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فقلعه بنسخته تأمل .

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسوخ من إرادته فلا يحجبه السلام وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلع فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الحاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيدي الحاطر الأول

فان الكى والرقية قديمتان به على المذخور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المذخور للازاله للذوق - ول
 الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة ولم يصنفهم بأنهم إذا خرجوا إلى
 موضع بارد لم يلبسوا جبة والحبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم
 الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تنهجا لقوة الحرارة من الباطن ربما
 يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكى بخلاف الحجة وترك الأسباب
 الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فانه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي
 فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فاتخذوه وكلاء واصبر على ما يقولون - وقال تعالى -
 ولنصبرن على ما آذيتهم وناو على الله فليتوكل المتوكلون - وقال عز وجل - ودع أذا هم وتوكل على الله -
 وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر العاملين الذين
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب
 فترك دفعا ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعائته على
 الدين وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب المنافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب
 الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب
 عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير
 وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل (١)» وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف
 - وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى
 لموسى عليه السلام - فأسر ببأدى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب
 واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة
 ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعاً ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن
 المظنون كالقطوع وإنما الوهم هو الذي يقتضى التوكل تركه . فان قلت فقد حكى عن جماعة أن
 منهم من وضع الأسد يده على كنفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه
 فلا ينبغي أن يفرك ذلك المقام فانه وإن كان مهيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير
 بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .
 فان قلت وهل من علامة أعلم بها أن قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن
 من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب فلا يزال
 يحضرك وبعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستقل إلا بأشارتك وكان مسخراً
 لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك أولى بأن يكون
 مسخراً لك من كلب البوادي وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب
 الباطن فلا تطمع في استسغار الكلب الظاهر . فان قلت فاذا أخذ التوكل سلاحه حذراً من العدو وأغلق
 بابه حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق فيأى اعتبار يكون متوكلاً . فأقول يكون متوكلاً
 بالدم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله
 تعالى إياه فكذلك من باب يقات ولا يدفع وكم من بعير يعقل ويعوت أو يقات وكم من أخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بقي رجع صاحبه
 إلى التأمل وهذا شرط
 العلم . وقال ابن عطاء
 الثاني أقوى لأنه ازداد
 قوة بالأول . وقال
 أبو عبد الله بن خفيف
 هما سواء لأنهما
 من الحق فلا مزية
 لأحدهما على الآخر قالوا
 الواردات أعم من
 الخواطر لأن الخواطر
 تختص بنوع خطاب
 أو مطالبة والواردات
 تكون تارة خواطر
 وتارة تكون واردة
 سرور ووارد حزن
 ووارد قبض ووارد
 بسط . وقيل بنور
 التوحيد يقبل الخاطر
 من الله تعالى وبنور
 للعرفة يقبل من
 للكل وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذي من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في
 التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها (٢) حديث اختفى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

أويغلب فلا تشكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كما حضر بنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا تشكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فاني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصناً من قضايتك وتسخطا له بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجد بل وجده مسروقاً فنظر إلى قلبه فإن وجده راضياً أو فريحاً بذلك عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكوه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب يئسه فقد كانت السركة مزبداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبته في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتبدل بحبل غرورها فإنها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير. فإن قلت فكيف يكون للتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإتمام يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات العيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زاد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء التوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطاً في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين. فإن قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي له حاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الحيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الحيرة له في مدار رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الحيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والحيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحاً بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفاً وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدم إليه الدواء فرح وقال لولا أنه

ينهى النفس وبنور
الاسلام يرد على العدو
ومن قصر عن درك
حقائق الزهد وتطلع
إلى تمييز الخواطر
الخطاير أولاً بغير
الشرع لما كان من
ذلك تفلأ وفرضاً عليه
وما كان من ذلك محرماً
أو مكروهاً يتفيه فإن
استوى الخطاير في
نظر العلم ينفذ أقرها
إلى مخالفة هوى
النفس فإن النفس قد
يكون لها هوى كما من
في أحدهما والغالب من
شأن النفس الا عوجاج
والركون إلى الدون
وقد يلم الخطاير بنشاط
النفس والعبد يظن أنه
ينهوض القلب وقد
يكون من القلب تفارق

يعرف أن الغداء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربته إلى وإن أخر عنه الغداء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغداء يضرنى ويسوقنى إلى الموت لما حال بينى وبينه وكل من لا يعتد في لطف الله تعالى ما يعتده للمريض في الوالد المشفق الحافق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أى الأسباب خير له كما قال عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدري أيهما خير لى فكذلك ينبغي أن لا ينال للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتنى كنت فقيرا .

(بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم)

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يثاق الباب ولا يستقصى في أسباب الحفظ كالتحاسة من الجيران الحفظ مع العلق وبكمه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يثلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شدته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا عرض عليه السراق فيكون هو سبب مصيبتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لأحاجة لى إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى العدو أن اللى أخذها فكأنه احترز من أن يصعب السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسوس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من المصيبة فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعدم وقد زال عصيانها بكل الحرام لما أن جسه في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما بنو حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينو دفع المصيبة عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »^(١) ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويخير القضاء الأزلى ولكن يتحقق بالزهد نية فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الواقع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاف لكان ثوابه على فعله وقعله لم ينصم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الحيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جمعه في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جمعه في سبيل الله فترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بكونه إلى النفس
يقول بعضهم منذ
عشرين سنة ما سكن
قلبي إلى نفس ساعة
فيظهر من سكون
القلب إلى النفس
خواطر تشبه بخواطر
الحلق على من يكون
ضعيف العلم فلا يدرك
نفاق القلب والخواطر
المتولدة منه إلا العلماء
الراسخون . وأكثر
ما تدخل الآفات على
أرباب القلوب
والبخذين من اليقين
واليقظة والحال
بسم من هذا القليل
وذلك لقلة العلم بالنفس
والقلب وبقاء نصيب
الهوى فيهم . وينبغي
أن يعلم العبد قطعا
أنه مهما بقى عليه أثر

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ثاقته فطلبها حتى أعيانهم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فبعاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ثاقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إني كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل فيها فرأيته قال وهو مع ذلك كتيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم إني لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة رفعت لي مقامات في عليين مارأيت مثلها فيها رأيت فقرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له وإنما هي لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيتها لك . وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانك فذكر له لحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حلالاتيا فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فعدا ابنا له وجعل يصره صررا ويبحث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فبما أصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر » (١) . وحكي أن الزبيد بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم ينزعج فطلبه فجاءه قوم بمنزله ، فقال أما إني قد كنت رأيته وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلي من ذلك يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قيل أرأيت لورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمني أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيد شرا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تنرق في شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم الظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظالم » (٢) . السادس أن يغتم لأجل السارق وعصيانه ونعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نصا في دينه لا نصا في دينه فقد شكك بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

من الهوى وإن دق
وقل يبق عليه بحسبه
بقية من اشتباه
الحواطر ثم قد يخلط
في تمييز الحواطر من
هو قليل العلم ولا
يؤاخذ بذلك ما لم يكن
عليه من الشرع
مطالبة وقد لا يسامح
بذلك بعض العاطفين لما
كوشفوا به من دقيق
الحفاء في التمييز ثم
استمعناهم مع عليهم
وقلة التثبت . وذكر
بعض العلماء أن لملة
الملك ولملة الشيطان
وجدتا لحركة النفس
والروح وأن النفس
إذا تحركت اتحدت من
جوهرها ظلمة تنسكت
في القلب همة سوء
فيظن الشيطان إلى

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم الظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

فقال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويعزن فقال أهي الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن طي للسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع طي من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والحبز للزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتصد والحجامة وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أغنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة التوسطة وهي المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التدأوى غير مناقض للتوكل فدل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام ^(١) » يعني الموت وقال عليه السلام « تدأوا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء ^(٢) ». « وسئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله ^(٣) » وفي الخبر المشهور « ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة ^(٤) » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يبيغ بكم الدم فيقتل ^(٥) » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج المقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة بجهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه فانها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهي ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات. وذكر أن الروح إذا تحركت انتدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفة إلى آخره وإسناده حسن ولترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الهرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تدأوا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ إن خيرا ما تجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولا ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحرق سبعة عشر الحديث.

هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروق عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحمية (٢) وقطع السعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لملى رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأننا كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك» (٥) يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقال إني أكل من الجانب الآخر فبسم صلى الله عليه وسلم» (٦) . وأما فضله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنن المكي . وتداوى ﷺ غير مرة من القرب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يخلقه بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلقة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادها واحد اختلف على روايته في الصحابي وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوهم تداؤوا الحديث وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكله فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لملى وكان رمداً لأننا كل من هذا الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكرو فيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويعني بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من القرب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عرق فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تغمص كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي جلي والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بماء من فيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيخلقه بالحناء البراز وابن عدى في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأخص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سباجته بالأرض ثم رضعها وقال بسم الله ثمبة أرضنا وريقة بعضنا في سقيتنا.

ذلك النور في القلب همة
عالية بأحد معان ثلاثة
إما بفرض أمر به
أو بفضل نذب إليه
وإما بمباح يعود
صلاحه إليه وهذا
الكلام يدل على أن
حركتي الروح والنفس
هما الوجدان للمتين .
وعندى والله أعلم أن
اللاتين يتقدمان على
حركة الروح والنفس
لحركة الروح من لمة
الملك والهمة العالية من
حركة الروح وهذه
الحركة من الروح يركه
لمة الملك وحركة النفس
من لمة الشيطان ومن
حركة النفس الهمة
الدينية وهي من شؤم لمة
الشيطان فإذا وردت
الامنان ظهرت الحركتان

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لأتداوى حتى يفاينى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن
دواء هذه العلة معروف مجرب وإن اتتداوى به فبئراً فقال لأتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه
وعزنى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فدأوه فبرأ
فأوحى فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلت على من أودع العقاقير
منافع الأشياء غيرى . وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجهلها فأوحى الله
تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيها القوة قيل
هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم
أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع إذ فيه
يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والفساء الرطب فهذا تبين أن مسبب
الأسباب أجرى سنته ربط السبب بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى
كسائر الأسباب فكما أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا
دواء الاسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح
يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق
فى حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشرط آخر فى الباطن وأسباب
فى الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن
الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب
دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين
والإفالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره
وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب
والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء؟
قال يا كلون أرزاقهم ويطيئون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فأذن معنى التوكل مع التدأوى
التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التدأوى رأسا فليس
شرطا فيه . فإن قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب
الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب السهل وسقى البردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلهما فى الظهور
لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يمتاد السكى فى أكثر البلاد إنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب
فهذا من الأسباب الوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء
عنه فإنه مأمون وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء ينفى عنه ليس فيه إحراق فلا إحراق بالنار جرح محرب
للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما
غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى (١) وكل واحد منهما بعيد
عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزوالا به وعزم عليه
الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما كتويت انقطع
ذلك عنى وكان يقول اكتبونا كتاب فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سر العطاء
والابتلاء من معط
كريم ومبل حكيم وقد
تكون هاتان اللتان
متداركتين وينمحي أثر
إحداها بالأخرى
وللتفطن للتقبط
يفتتح عليه بمطالعة
وجود هذه الآثار فى
ذاته باب أنس ويتق
أبدانته قد أحاله مطالعا
آثار اللتين : وذكر
خاطر خامس : وهو
خاطر العقل متوسط
بين الخواطر الأربعة
يكون مع النفس
والعدو لوجود التمييز
وإثبات الحجة على
العبد ليدخل العبد فى
النسب بوجوه عقل إذ
لو فقد العقل سقط
العقاب والعتاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس
وأنهى أمى عن السكى ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يحسد من أمر الملائكة وقال لطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفقدها فاذن السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو منموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

(يان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل)

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر فرعا يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كالتوكل تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم لإدراكه حال غيره في التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر إلى وقال إني فعالم ما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبي قيل لما تشبهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعوك طبيبا قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لوداوينهما قال إني عنهما مشغول فقيل لوسألت الله تعالى أن يافيك فقال أسأله فإيهما على منها . وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج فقبل له لوداويت فقال قد همت ثم ذكرت عادا وعمودا وأصحاب الرمس وقرنواين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك التداوى والتداوى ولم تكن الرقى شيئا . وكان أحد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للطبيب بها أيضا إذا سأله . وقيل لسهل متى يصح لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بهالة ونظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بعصر الصوارف عن التداوى . فنقول إن ترك التداوى أسبابا . السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنه تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فإنه كان من المكاشفين فإنه قال لما تشبهى رضى الله عنه في أمر الميراث إنما هو اختناك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت أمراته حاملة فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأننى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بأنها حاملة . وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به . السبب الثاني : أن يكون للمريض مستحولا بهالة وبخوف عاقبه وإطلاع الله تعالى عليه فينسى ذلك ألم المرض فلا تنفر قلبه للتداوى هضلا بهالة وعليه يدل كلام أبي ذر إذا قال إني عنهما مشغول . وكلام أبي الدرداء إذا قال إنما تشكى ذنوبي فكان تألمه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بعوت عزيز من أعزته أو كالحائف الذى يعمل إلى ملك من اللوك ليقتل إذا قيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمنا بغير أكل وتقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكر الحى القيوم فقيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن الغذاء قال الغذاء هو الذى ذكر قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فردته إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة إلى علة وهو موهوم النفع جار مجرى السكى والرقية فيترك التوكل وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذا قال ذكرت عادا

يكون مع الملك والروح
ليوقع الفعل مختارا
ويستوجب به
الثواب . وذكر
خاطر سادس وهو خاطر
اليقين وهو روح
الإيمان ومزيد العلم
ولا يبعد أن يقال الخاطر
السادس وهو خاطر
اليقين حاصله راجع
إلى ما يرد من خاطر
الحق وخاطر العقل
أصله تارة من خاطر
الملك وتارة من خاطر
النفس وليس من
العقل خاطر على
الاستقلال لأن العقل
كما ذكرنا غريزة يتبها
به إدراك العلوم ويتبها
بها الانجذاب إلى
دواعى النفس تارة
وإلى دواعى الملك تارة

وتعود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يثلب على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر قد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمن خرج كالذهب الإبريز لا يرد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا (٢) » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فإن صبر اجتناب فإن رضى اصطفاه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تعرضون ولا تسقون (٤) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصبح شئ قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصبح شئ جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الله عليه المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتصموا لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له عليه غفيرا ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغل المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلما أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٦) » قليل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تسكروها شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة
وإلى دواعى الشيطان
تارة فعلى هذا لا تزيد
الخواطر على أربعة
ورسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يذكر غير
المتين وهاتان اللتان
هما الأصل والخطاران
الآخران فرع عليهما
لان لمة الملك إذا حركت
الروح واهتزت الروح
بالهمة الصالحة قربت
أن تهتز بالهمة الصالحة
إلى حظائر القرب فورد
عليه عند ذلك خواطر
من الحق وإذا تحقق
بالقرب يتحقق بالفناء
فتبت الخواطر الربانية
عند ذلك كما ذكرناه
قبل لموضع قربه
فيكون أصل خواطر
الحق لمة للملك ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أن أمانة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده وللطبراني من حديث أبي غنبة إذا أراد الله بعبده خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تعرضون ولا تسقون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بهالة أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فاعنا هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ عينا من الدواء ولو كان هو الماء البارد سئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا. وقال سهل رحمه الله على الأجسام رحمة وعال القلوب عقوبة. السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى للرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام «لا تزال الحمى والليلية بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة» (١) وفي الخبر «حمى يوم كفارة سنة» (٢) فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ويعد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة» (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتعمى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخوله للمصاب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطياه. وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أكره ذنوبه وأزيد في درجاته. السبب السادس أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والظفان تطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والظفان أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التمسك في الباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للريح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبيه بالأمراض والمصاب ولذلك قيل لا يغلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليلية بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى ولطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفاتها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محمومًا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أريت هذه الأمراض تصيننا مالا فيها قال كفارات قال أبى وإن قلت قال فان شوكة لما فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعل حتى يموت الحديث ولطبراني في الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله طي بن المديني (٤) حديث من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم الرفوع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتعمى العمى.

الشیطان اذا حرك
النفس هوت بجباتها
الى مركزها من
الفسريزة والطبع
فظهر منها لحركتها
خواطر ملائمة لفرزتها
وطبيعتها وهواها
فصارت خواطر النفس
نتيجة لمة الشيطان
فأصاها لثان وينتجان
آخرين وخاطر اليقين
والعقل مندرج فيها
والله أعلم

[الباب الثامن
والخون في شرح
الحال والمقام والفرق
بينهما]

قد كثر الاشتباه بين
الحال والمقام واختلفت
إشارات الشيوخ في
ذلك ووجود الاشتباه
لمكان تشابههما

الؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالمعصية في ترك المعاصى فقد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تمس الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ماعوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالمراقى في يوم عيد ما هذا الذى أظهروه؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدهم فقال كل يوم لا يمضى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم ماتحبون - قيل العوافى - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يعم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لله الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هازم اللذات (١)» وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكرة له ودافع للتسوف ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تحب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يغفل المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرست قط ، فقال لا حاجة لى فيها (٢)» . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلي نظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فتحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائده المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أن تقسم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التدأوى قصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

في نفسها وقد اخلهما قترأى لبعض الشيء حالا وتزأى لبعض مقامها وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال مسمى حال التحول والقام مقاماً لثبوته واستقراره وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بقلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

(١) حديث أكثروا ذكر هازم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرست قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال إليك عني الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفي إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى في الأوسط من حديث أنس وأبو منه ورواه الديلمى في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسن (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟

(بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال)

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والقصد عند تبيخ الدم. فإن قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما؟. فإن قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالحية وهذا لا فائز به، ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فإنهم لما قصدوا الشام واتوا إلى الجاية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وباء ذريما فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلتقى بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه: أنفر من قدر الله تعالى؟ قال عمر نعم نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلا، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعتان: إحداها محصية، والأخرى مجذبة أليس إن رعى المحصية رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»^(١) ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجاية بالناس، فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل. فإن قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه؟. فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهى عنه، إذ الحجابة والقصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخص غالبا من الأثر الذى استحکم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرق والطيرة وغيرها، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منيها عنه ولكن صار منيها عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقدمهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا وخلاصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجاية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى.

إلى أن تداركه
المعونة من الله الكريم
وبغلب حال المحاسبة
وتستقهر النفس
وتتضبط وتتملكها
المحاسبة فتصير المحاسبة
وطنه ومستقره ومقامه
فيصير في مقام المحاسبة
بعد أن كان له حال
المحاسبة، ثم ينزله
حال المراقبة، فمن
كانت المحاسبة مقامه
يصير له من المراقبة
حال، ثم يحول حال
المراقبة لتناوب السهو
والغفلة في باطن العبد
إلى أن يتقشع ضباب
السهو والغفلة ويتدارك
الله عبده بالمعونة
فتصير المراقبة مقاما
بعد أن كانت حالا ولا
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأمعاء منتظر فلما أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخللاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين والمسلمون كالبقيان يشد بعضه بضواؤهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو القى ينقذ عندنا في تعليل التهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البله فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البله حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبله إلا مطعونون وافترقوا إلى التمهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقذ استجباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولاينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه القرار من الطاعون في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسما في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماصمه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالاضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لقلبه الفئلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو فصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقي أو كان شغفه بحاله ينمعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضفه عن الجمع فيلزم هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالاضافة إلى بعض الخلق وقصان بالاضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وقدها فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال تقص والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا تقص بالاضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء اللدر والذهب عنده وكان لا يسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تعرف الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمتة فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك بعظم ضرره، نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصده بالصحة ليستعان بها على المصاى وذلك منهى عنه والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بنازل حال
المراقبة ولا يستقر مقام
المراقبة قراره إلا بنازل
حال المشاهدة فإذا
منع العبد بنازل حال
المشاهدة استقرت
مراقبته وصارت مقامه
ونازل المشاهدة أيضا
يصكون حالا يحول
بالاستتار ويظهر
بالنجلي ثم يصير مقاما
وتخلص فحسه عن
كسوف الاستتار ثم
مقام المشاهدة أحوال
وزيادات وترقيات من
حال إلى حال أعلى
منه كالتحقق بالفناء
والتخلص إلى البقاء
والترقى من عين
اليقين إلى حق اليقين
وحق اليقين نازل
يغرق شغاف القلب
وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه القرار من الطاعون بالقرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولفظه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك الموهومات كالسكى والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يلبق بالتوكلين .

(بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكتبانه)

اعلم أن كتبان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتبانه أسلم عن الآفات ومع هذا فلاظهار لأبأس به إذا صحت فيه النية والقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون مرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لافي معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يغير بأمرام يعجدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لعير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك بحسن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) » فهذه النيات يرخس في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كاذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الافشاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - فصر جليل - لاشكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذى أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواى إلى عبادى فقال يارب آتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أبوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى غير دعواه وإن شكا وذكر شرا قالَا كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض المباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابَه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وغنم أجمعين .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرفت شفاف

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

كل كتاب التوحيد والتوكل بمون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفق .

﴿ كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجل لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلالة حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلامته بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجمال صبر أيها الآيس عن نيل الحق بجهله ومجملته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[أما بعد] فإن الحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والقدرة العليا من الدرجات فما بعد إدراك الحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل الحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تغل القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة الحبة في حال إلامع الجنس والثال ولما أنكروا الحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة اللذات وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في الحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكرهه المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - يحبهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أهدى الله سبيله - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي « يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون

القلب ووصلت إلى
سويدائه وهي حق
اليقين هي أسنى المطايا
وأعز الأحوال
وأشرفها ونسبة هذه
الحال من المشاهدة
كنسبة الآجر من
التراب إذ يكون ترابا
ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا
فالمشاهدة هي الأول
والأصل يكون منها
الفناء كالطين ثم البقاء
كاللبن ثم هذه الحالة
وهي آخر الفروع .
ولما كان الأصل في
الأحوال هذه الحالة
وهي أشرف الأحوال
وهي محض موهبة
لا تسكتسب سميت
كل المواهب من
النوازل بالعبد أحوالا
لأنها غير مقدورة

﴿ كتاب الحبة والشوق والأنس ﴾

الله ورسوله أحب إليك مما سواها (١) وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها (٢) وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) وفي رواية «ومن نفسه» كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والانسكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال «أحبوا الله لما يفتدكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي (٤)» وروى «أن رجلاً قال يا رسول الله إني أحبك فقال ﷺ : استعد للفقر فقال إني أحب الله تعالى قال استعد للبلاء (٥)» وعن عمر رضي الله عنه قال «نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل الذي نورا قلبه لقد رأيت بينه وبين أبيه يفتدونه بأطيب الطعام والشراب ففتاه حب الله ورسوله إلى ما ترون (٦)» وفي الخبر المشهور «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فأقبض (٧)» وهذا لا يعده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء أنزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد (٨)» وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يا رسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها أعددت لكثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩)» قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدين اهتدى بهداه والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواها أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يفتدكم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلاً قال يا رسول الله إني أحبك فقال استعد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تحفيافاً دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية باسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلاً يقبض خليله الحديث لم أجد له أصلاً (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوع أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب وللمواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت اللواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت اللواهب فالأحوال مواهب علوية صماوية والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين طي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . وروى
أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى
فقالوا الحرف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الحائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا
وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم
جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائي من النور فقال ما الذي بلغ
بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم القربون أنتم القربون أنتم القربون . وقال عبد الواحد بن زيد
مررت برجل قائم في الحاج فقلت أما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي
تدعى الأمم يوم القيامة بأبنائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير
المحبين لله تعالى فانهم نادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم
ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه
لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة .
وقال يحيى بن معاذ عفوهُ يستغرق اللذوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه
يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبيد أنا وحقك لك
عجب فبحق عليك كن لي عجا . وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين
سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلنتي
بمرفقتك وأمكنتي من لطفك وتملكتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا
وحبا تسقينني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرت شاربي ولاح
طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه
وبالضراعة إليك هممة لأنني عجب وكل عجب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد
في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما الغموض
في تحقيق معناه فلنشتغل به .

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن الطلب من هذا الفصل لا يتكشف إلا بعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها
ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا
بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد بل هو من
خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلتذ به وإلى
ما ينافيه وينافره ويؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاهم وإلذا فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب
عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف
بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذية محبوب عند الملتذبه ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه
ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ فان تأكد
ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتافها
أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك
والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فكل حاسة إدراك لنوع من المدركات
واكمل واحدها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع
للإدراك فلهذا العين في الأبصار وإدراك المبصرات الخلية والصور اللطيفة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في
المنعمات الطيبة للموزونة ولذة الذم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللبس في اللين والنعمية

السموات فاني أعرف
بها من طرق الأرض
إشارة إلى المقامات
والأحوال فطرق
السموات التوبة والزهد
وغير ذلك من المقامات
فان السالك لهذه
الطرق يصير قلبه
سماويا وهي طرق
السموات ومتنزل
البركات وهذه
الأحوال لا يتحقق بها
إلا ذو قلب سهاوي .
قال بعضهم الحال هو
الذكر الخفي وهذا
إشارة إلى شيء مما
ذكرناه وسمعت الشايع
بالعراق يقولون الحال
مامن الله فكل
ما كان من طريق
الاكتساب والأعمال
يقولون هذا مامن
العبد فاذا لاح للمريد

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة» (١) فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن الإلباس واللبس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذلك الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطأت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالقلوب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيئات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة للقلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لذاته كما سيأتي تفصيله فلا يسكر إذن حب الله تعالى لإيمان قد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للحب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه بعد الموت ولا مجرد الخذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض إلا المتفاسدة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بلاء فمحبوبه زوال البلاء فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالحلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقدر للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر الفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكمال الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكما له وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء للأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكما له بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتعمل المشاق لأجله لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له فلا يفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شيء من اللواهب والواجيد قالوا هذا مامن الله وميموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة . وقال بعض مشايخ خراسان الأحوال مواريث الأعمال . وقال بعضهم الأحوال حكا البروق فان بقي لحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلبها النفس فأما على الإطلاق فلا والأحوال لا تعترج بالنفس كالدهن لا يعترج بالماء . وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه الحق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه
لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجسلا بكاملهم فان العشرة والمال والأسباب
الخارجة كالجنح الكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب الطبع لا محالة فاذا كان المحبوب الأول عند
كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروم عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب. السبب الثاني:
الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها
وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جرحاً طيَّداً فيحبه قلبي» (١) إشارة إلى أن حب القلب لله حسن
اضطرار لا استطاع دفعه وهو جبلّة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي
الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال
والعمونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي يتهيأ الوجود
إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن
فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة
الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها
والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم
محبوب لذاته والأستاذ محبوب لسكونه حبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير
محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذا يرجع الفرق إلى
تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب
ذاته تحقيقاً بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو نقص نقص
الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه. السبب الثالث أن
يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ
الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك
لحين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظن أن حب
المور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة
لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضاً لذية فيجوز أن يكون محبوباً لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة
والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري (٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ
النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن
الانسان لتفرج عنه الغموم والمهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملادة
وكل لذية محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً
بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال» (٣).

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن الهبوس في مضيق الخيالات والمحموسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لسكاف طيَّداً فيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث
معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في
الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء
الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا
لم تدم فهي لوائح
وطوالع وبوادروهي
مقدمات الأحوال
وليست بأحوال .
واختاف الشايع في أن
العبد هل يجوز له أن
ينتقل إلى مقام غير
مقامه الذي هو فيه
قبل إحكام حكم مقامه .
قال بعضهم : لا ينبغي
أن ينتقل عن النبي هو
فيه دون أن يحكم حكم
مقامه . وقال بعضهم :
لا يكمل المقام الذي هو
فيه إلا بعد ترقية إلى
مقام فوقه فينظر من
مقامه العالي إلى مادونه
من المقام فيحكم أمر
مقامه . والأولى أن يقال
والله أعلم : الشخص في
مقامه يعطى حالاً من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الحلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إقام حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فلهذا معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم العامة الاطئاب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء بمفعاله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن وعدو وتيسر كركر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذى يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأوانى بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فإن قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ففى محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإيمانها بغير ذلك في غير المدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ قال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والروءة وسائر خلال الخير وسمى من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فكيف من دم أربق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعى مثلاف محبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسنه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بحدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات الحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا

مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى فإن العبد بالآحوال يرتقى إلى المقامات والآحوال مواهب ترقى إلى المقامات التى يخرج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب رقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزيادة الآحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والآحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهوانه فجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس وعملهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الخلى وطبمه إذا أردنا أن نجيب إليه غائبا أو حاضرا حباً أو ميتاً لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والمقابع التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحببهم القلوب حباً ضرورياً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لعمد الزار ونأي الديار ، فاذن ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى الحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يعيل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للسماني الباطنة أكثر من حبه للسماني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الخفية بين الحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمها اختلف »^(١) وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الإنسان وجود نفسه وكأله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلما اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تفاعف الحب لاهالة كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لاهالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أثار إلى الرضا ويكون منه حالاً ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يقتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانقياد من الغفلة فيرده إلى اليقظة فإذا تيسر أبعصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة .

(بيان أن الستحق للمحبة هو الله وحده)

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبته إلى الله لذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحبه الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز به إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بمجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ، وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً وبيان أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكأله ودوام وجوده وبضئه لهلاكه وعدمه وتقصانه وقواطع كآله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن يفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكأله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المخترع الوجد له وهو البقى له وهو الكل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف له لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص ببدء لوجوده لولا فضل الله عليه بالتكليف لحلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا اليوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب الفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موحداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها هو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع القابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الانسان نفسه ضرورياً فحب الله تعالى له بقوامه وأولادومه ثانياً في أصاه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التمتع به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطارأ ربه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يصير به خطأ قصد الزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق العقاب وزجر من طريق الإيعان فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالبدن ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنزلة حال تربيته لفته ترك الاشتغال بالدنيا وتقبس له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بموته واستدب
لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في
نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فانه
لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست
أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد
أشربنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير
متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك
منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به
وبعاله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذى أنعم بخلق
ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه
أن صلاح دينه أودياه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله
عليه الدواعى وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً
في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة
الرهيقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطراب
مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن
حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما
الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبدل ماله إلا لنفرض له في البذل إما أجل وهو الثواب
وإما عاجل وهو اللذة والاستسغار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق
إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان
إلا لنفرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض
حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرتك في القبض
للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله أو عواضها هو أرجح عنده
من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجل ذلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر
والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدر له على المخالفة فهو جار مجرى
خازن الأمير فانه لا يرى محسناً بتسليم خزانة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة
والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن
لو خلاه الله ونفسه لم يبدل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن حظه ديناً
ودنياً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما
لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب
أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها
أعواض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من
غير عوض وحظ يرجع إلى البازل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحساناً
إليهم ولأنهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض فلنفظ الجود والاحسان في حق
غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد
بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجو أثر حاله بدلالة
شره النفس وحرصها
على الدنيا ورؤية العاجلة
حتى تتداركه المعونة
من الله الكريم فيزهد
ويستقر زهده ويصير
الزهد مقامه ولا تزال
نازلة حال التوكل تفرغ
باب قلبه حتى يتوكل
وهكذا حال الرضا حتى
يطئن على الرضا ويصير
ذلك مقامه وههنا
لطيفة وذلك أن مقام
الرضا والتوكل يثبت
ويحكم ببقائه مع وجود
داعية الطبع ولا يحكم
ببقاء حال الرضا مع
وجود داعية الطبع
وذلك مثل كراهة
مجدها الراضى بحكم
الطبع ولكن علمه
بمقام الرضا يغمر حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على
الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن
لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق
بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر
ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد
في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آتس من خير الأول
وآمن من شر الثاني لا تقطاع طعمك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن
فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا
إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى الكافة والتفضل على جميع أصناف الخلائق
أولا بأعجادهم وثانيا بتكليمهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم
بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة وربما بتجملهم بالمزايا
والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجية عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء
الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين
وحمرة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري
من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه والأطعمة التي لا تنخرم
بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل
صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرض فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره
محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق المحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان
وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه الملة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه
الملة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك
الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين
الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم
والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركون فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل
جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة
حب الأنبياء والعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق للرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة
الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره
الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن ما ظهر له
منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي
مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن
شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأدغال صفاتها الجميلة الباطنة
التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة
كان العلم أشرف وأجمل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل
رتبة وأشرف قدرا وأجل للمعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهر حكم
الطبع في وجود
الكراهية المضمرة
بالعلم لا يخرج عنه
مقام الرضا ولا يفتقد
حال الرضا لأن الحال
تجردت موهبة أحرقت
داعية الطبع فيقال
كيف يكون صاحب
مقام الرضا ولا يكون
صاحب حال فيه والحال
مقدمة المقام والمقام
أثبتت بقول: لأن المقام
لما كان مشوبا بكسب
العبد احتمل وجود
الطبع فيه والحال لما
كانت موهبة من الله
تزهت عن مزج الطبع
فحال الرضا أصل مقام
الرضا أمكن ولا بد
للمقامات من زائد
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور - أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تزهمهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخاق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بوضحة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه عدوه كما قال تعالى - خلق الإنسان علمه البيان - فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يغلو عن علم ما تقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخاق متناهية . وأما صفة القدرة فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه للذي حق إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصاف في قبه اهتز ازا وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القاب ضرورياً للمتصف به فانه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوام بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقهرهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامتى قدرته وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضرراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من الرض ولا يحتاج إلى عد ما يجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس لمعد قدرة إلا بتمكن مولا كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إن أمكننا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك القدرة ثم تلك القدرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيسهل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرة وسياسته وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا
تفرد للمقامات دون
سابقة الأحوال . وأما
الأحوال فمنها ما يصير
مقاماً ومنها ما لا يصير
مقاماً والسر فيه
ما ذكرناه أن الكسب
في المقام يظهر والوهبة
بطنت وفي الحال ظهرت
للوهبة والكسب
بطن فلا مكان في
الأحوال للوهبة غالبية
لم تنقيد وصارت
الأحوال إلى ما لا نهاية
لها ولطف سنى
الأحوال أن يصير مقاماً
ومقدورات الحق غير
متناهية ومواهب غير
متناهية ولهذا قال
بعضهم لو أعطيت
روحانية عيسى وكلمة
موسى وخلة إبراهيم

القاهر والعاليم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعب بخلقها ولا يعبه لنوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا هو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا لا واحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وإيس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقائص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكنشآت فلا يطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقة إلهه وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفارس كالا بالاضافة إلى الجمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شامل للكل وإعماضا فتوتون في درجات النقص ؟ فاذن الجليل محبوب والجليل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغنى الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أغناق الجبارة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأزلى الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد الملك والمالك ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الأسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا وبجمله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بشار العينان غيرته على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتبهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات الهائم يترددون يعلدون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يملكون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن يعطى الربوبية حقها ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستئزال بركة المزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك لي في صبيحة ذلك اليوم » وفي دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ما قصر عنه رأيي وضمف فيه

عبدني لجنة أونار لولم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع : ومرة عيسى عليه السلام طي طائفة من المباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار وزرجو الجنة فقال لهم نحلوا فاحرقتم ونحلوا فاحرقتم ، ومرة يقوم آخرون كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أتم أولياء الله حقامعكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبد للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ولا أجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل»^(١) وأما السبب الخامس للحب فهو للناسبة والشاكلة لأن شبه النبي منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه ويفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه وإذا كانت الناسبة سبب المحبة فالناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالعارف هو التناكب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضي حب الله تعالى للناسبة باطنة لا ترجع إلى الشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يثمر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتدري يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أقرها بالاعتداه والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان والاطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنعمة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لاجتناب طلب القرب بالمسكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يومي إليها قوله تعالى - ويسئلك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك الناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢) حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدنني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدني فلان فلم تعده ولوعدته وجدتنني عنده»^(٣) وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وألسانه الذي ينطق به»^(٤) وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عملي ولم تبلغه نبيق
وأمنيق من خير وعدته
أحدا من عبادك أو
خير أنت معطيه أحدا
من خلقك فأنا أرغب
إليك وأسألك إياه
فاعلم أن مواهب الحق
لا تنحصر والأحوال
مواهب وهي متصلة
بكلمات الله التي ينفذ
البحر دون نقادها
وتنفذ أعداد الرمال
دون أعدادها والله
النعيم العطى .

[الباب التاسع
والخمسون في الاشارات
إلى اللقائات على
الاختصار والابحاز]
أخبرنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
المهروردي رحمه الله
قال أنا أبو منصور بن

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقول ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجهه على أجمة قد قطع قصبتها وبقي أصوله حتى تشقت قدماه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلمها وجوده ، فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذ الأصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

(بيان أن أجل الذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز ولكل قوة وغريزة للذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الفرائز ما ركبت في الانسان عشا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تغلو غريزة من هذه الفرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدرجاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأهامى فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفته ما يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كما دراكه خلق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن نذم وهذه الغريزة خلقت يعلم بها حقائق الأمور كلها لمقتضى طبعها للمعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شئ خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو في شئ حقير يغمى به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتدحى في الأشياء الحقيرة فالعالم بالالمبالى بالشرع على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعاليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لقرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن الروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائني قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فأتى استغفاره

من كمال ذاته به فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا انتهى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الشئ كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحرارة والحياة كلفة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الحلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلفة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملوكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف العلوم حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده والذمن علمه بأسرار الرئيس فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده والذمن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف العلوم فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها ومعجائب أحوالها وصف الواصفين فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذته وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره في مملكته من منتهى عرشه إلى غيوم الأرضين فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً كمخالفة لذة الواقع لذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهي مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المتعلم من الجماع لذة الفاتر للشهوة كمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل للفائق الجمال لذة النظر إلى مادونه في الجمال وإنما عرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فإن الخير بين النظر إلى صورة جميلة والمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة القلب في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلفة الحواس الخمس وإلى باطنة كلفة الرياسة والقلب والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للذن ولا للمس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستبلاء فإن كان الخير خسيس المهمة ميت القلب شديد التهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على المهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياماً كثيرة فاختاره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة، نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمتوم لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعنه ففقد معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

في اليوم واليلة
مائة مرة وروى
أبو هريرة رضي الله عنه
في حديث آخر «فاني
لأستغفر الله وأتوب
إليه في كل يوم مائة
مرة» وروى أبو بردة
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إني
ليغان على قلبي فأستغفر
الله في اليوم مائة مرة»
وقال الله تعالى - وتوبوا
إلى الله جميعاً آية
المؤمنون لعلكم
تفلحون - وقال الله
عز وجل - إن الله يحب
التوابين - وقال الله
تعالى - يا أيها الذين
آمَنوا توبوا إلى الله
نوبة نصوحاً - التوبة
أصل كل مقام وقوام
كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الإلهية أنه من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحققر الخلق الذين يرأسهم لهله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوباً بالكسورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فاستعظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والكسورات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلانها لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ تمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى وعلمها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويغلبها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ولا تحبب الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية - ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتنق في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتعنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء ^(١) » فاذن جميع أقطار مملكات السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وشخصه فهو من مطالعة جمال المملكات في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثله من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزلاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبيحة ولا لصبي ولا لمعتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لدوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله ومملكات سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بعرفته من نال رتبة المعرفة وذائقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحان على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتنق في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم فيه وإن الشهداء يتعنون أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول المقامات
وهي بمثابة الأرض
للبناء لمن لا أرض له
لبناء له ومن لا توبة
له لا حال له ولا مقام له
وإني بمبلغ على وقد
وسعى وجهدي اعتبرت
المقامات والأحوال
ومررتها فرأيتها يجمعها
ثلاثة أشياء بعد صحة
الإيمان وعقوده
وشروطه فصارت مع
الإيمان أربعة ثم رأيتها
في إفادة الولادة للعنوية
الحقيقية بمثابة الطابيع
الأربع التي جعلها الله
تعالى بأجراء سنته
مفيدة للولادة
الطبيعية ومن تحقق
بحقائق هذه الأربع
لمح مملكات السموات

القدر ينهيك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لالذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العباد والالتقاط عن الخلق فكنت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتي مشغوبا بطلب الرب تعالى فقد نلناه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشربان قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الوفي قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص يصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف قلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوف من ناره ولا شوق إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة ماحققة إيمانك قالت ما عبדתه خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبדתه حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لداكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي المحب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وعلمها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها يعظوظ العاجلة ويحبها هو أهل له الحب لجأله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما وأدق مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا لما انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا فتمصدا العارفين كلامهم وصله ولقاؤه فقط فمضى قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم من أرواحها إذا حصلت اتحدت الموموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم ينتف إلى السكال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شمري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عدا الله تعالى به عبادة وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن الذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المزلات ويعظم بجميع الأحوال والمقامات فكلمها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بمد الايمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير فتور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

كانت لقي أهواء مفارقة فاستجمعت مذ رأتك العيون أهواي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولاي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنياي
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جته

وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما ذكره وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألية من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم يقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بعناية النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون - .

(بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا)

اعلم أن الإدراكات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلة والأجسام للتلوين والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالم والقدر والارادة وغيرها ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كمن شخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف ، فاذن الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل للكشف في الجهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين التخيل والرؤية فيسمى الثاني أيضاً بالاشارة إلى الأول مشاهدة واقعة ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والرؤية ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محبوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام
وقلة المنام والاعتزال
عن الناس . واتفق
العلماء الزاهدون
والشايخ على أن هذه
الأربع بها تستقر
المقامات وتستقيم
الأحوال وبها صار
الأبدال أبدالاً بتأييد
الله تعالى وحسن
توفيقه ونبيه بالبيان
الواضح أن سائر
المقامات تدرج في
صحة هذه ومن ظفر
بها فقد ظفر بالمقامات
كلها وأولها بعد الإيمان
التوبة وهي في مبدأ
صحتها تفقر إلى أحوال
وإذا صحت تشتمل
على مقامات وأحوال
ولا بد في ابتدائها
من وجود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي إلى الشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً بطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن تراني - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أي في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحب والصدأ فصار كالمرآة التي فقد بطول تراكم الحب جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم يفته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول الزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقطع منه الحب الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى الزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فإذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحد من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فغند ذلك يشتغل بصفائه وقائه عن الكدورات حيث لا يبرق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عله كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تجليه ، وهذه الشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتباغ كمال الكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالى أراك مهموماً . قال لأنى ضالاً ومطلوب ظللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرايا بالبصرة يشكي عيها وهما يسيل منها المساء فقاتله ألا

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نوراً إني أراه ورجال إسنادهما رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي الحديث وفيه وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

الكشف أيضا جهة وصورة لأنها بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كأن الصورة المرئية هي التخييلة بعينها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - إسمي نورم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كانتقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة باختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف باختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لهامحلاتها وبكرتها وقتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة»^(١) فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيرة ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة يتجلّى انفراد به وكأنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى النكوح والطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والنكوح وهؤلاء بمنهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للنكوح والطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتقولين في الجنة فقال الجارم الدار فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ولا يعوت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف النطاء فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة الممشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السماعات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فان كانت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أصغافها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلما عارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لوعرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والشاهدة كما لا نسبة للذة خيال الممشوق إلى رؤيته وللذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها وللذة اللبس باليد إلى لذة الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطني رواه عن الهاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني إن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينيك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولا خير فيمن لا يزجر فالزجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق انتبه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه افتقر وإذا كر ذنبه استغفر إذا ذكر الدنيا انتبه وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المصروف في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المصروف ونقصاته فان اللذة في النظر إلى الأجل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه كالتذامن من ضعف شهوته وحب . والثالث كمال الادراك فليس التذامن برؤية المصروف في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذامن بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة الضاحجة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذامن الصحيح الفارغ للتجرد للنظر إلى المصروف كالتذامن الخائف للدعور أو الرضا التأم أو للشغل قلبه بهم من المهمات قدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه مصروفه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي بمرئيه وتشتغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يغلو عن لذة ما من مشاهدة مصروفه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا وهجعت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتساقط على الانسان من الجوع والعطش والغضب والنم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال قصور النفس في الدنيا ونقصاتها عن الشوق إلى اللأعلى والتفتاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفتاته إلى اللعب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يغلو عن هذه الشهوات ولا يتصور أن يغلو عنها البتة ثم قد تنصف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبريق الخاطف وقفا يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبنر وبهر المعرفة لا ساحل له فلا حيلة بكنهه جل جلال الله تعالى فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر التمسك في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله» (١) لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانتفاع عن علائق الدنيا والتجرد لطلب ويستدعى ذلك زمانا لا يحصى فمن أحب الموت أحب الله لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالناس إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كره الله لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تضمنه قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبّه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا وإن اتسعت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحارثي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن أبي عمير عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في محبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الأناة والترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقدمه

التيقظ فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطالب لطريق الرشد فيطلب وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبتهم يسطى باتباعه حال التيقظ. قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خط السالك بعد مشاهدة سبيل النجاة . وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة . وقيل : اليقظة خردة من جهة الولي لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة فإذا تمت

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران معمدرة الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لفظة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لفظة الرؤية ومعنى كونها اللذات سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما تكمن الرياسة الله من الطعومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن البقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن تحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

(بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها التقدم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبداً الآباد من غير منقوص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . وكما قال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومبادم يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - . ويقول تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أى لا معبود ولا محبوب سواء فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل يحب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرأيت من اتخذ إلهه هواه - وقال ﷺ « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله عخلصا دخل الجنة » (٢) ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب فما حاله من ليس له إلا المحبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتماهى عنه حبسه غلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبداً فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة الدنيا وبه حب الأهل والمال والولد والأقارب والمقارب والدواب والبساتين والمتنزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله عخلصا دخل الجنة تقدم .

يقضته قل بقلبك إلى
مقام التوبة فهذه
أحوال ثلاثة تقدم
التوبة ثم التوبة في
استقامتها تحتاج إلى
الحاسبة ولا تستقيم
التوبة إلا بالحاسبة .
قل عن أمير
المؤمنين على رضي
الله عنه أنه قال :
حاسبوا أنفسكم قبل
أن تحاسبوا وزنوها
قبل أن توزنوا
وتزينوا للعرض
الأكبر على الله يومئذ
تعرضون لا تخفى
منكم خافية - والحاسبة
محفظ الأنفاس وضبط
الحواس ورعاية
الأوقات وإثارة المهمات
ويعلم العبد أن

حتى إن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويعد بالضرورة من المغرب بقدرة ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها بالدنيا والآخرة ضررتان وهما كالشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والاعتقاد إليهما بزمان الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالقوة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخليّة القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منها التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميع طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «الطهور شطر الإيمان» (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها بحرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والعرفه وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي العرفه - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجبال لهذه العرفه وكالحادهم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه العرفه وأما العلم بكيفية العمل فإفراد العمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإتمام الأول علم العاملة وغرضه العمل وغرض العاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم العرفه وهو علم المكشفة ومهما حصلت هذه للعرفه تنبها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدي المزاج إذا أبصر الجبل وأندركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع العرفه بالضرورة ولا يوصل إلى هذه العرفه بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وبقوله تعالى - شهد أنه لا إله إلا هو - ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي ربي ولولا ربي لما عرفت ربي وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية وبقوله عز وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - وبقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات والأرض - وبقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لثامهما

(١) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلة رحمة منه لعله سبحانه بعده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستبد به الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويصد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرقابة ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو قاض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس وللنازع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشغال أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أصل السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحار علوم لا تكشفه ولا يمكن أن يتطفل به على علوم العامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإعجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتسكلم فيها ولترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فطلب أقلها وأحقها وأضرها ولننظر في هجابها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى الملائكة وما كوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها التي هي مركوزة فيه فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكسرى كحلقة في فلاة والكسرى في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادير وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار قد قاله رسول الله ﷺ « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض ^(١) » ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأديمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للقليل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيما من القوى الفاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والمأخضة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو معد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرية الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يفرز فيه الخرطوم وكيف علمه اللس والتجرج للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته عجولًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتسنى إلى بطنه وينتشر في سائر أجزائه ويفيد ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعيدة منه فيترك اللس ويهرب ثم إذا سكنت اليد يوجد ثم انظر كيف خلق له حذقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حذقة كل حيوان صغير لما لم تحتل حذقه الأجنان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحذقة عن القذى والنباح خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض لم أجده أصلًا .

القلب نكتة سوداء
وتعقد عليه عقدة
والثقفد المحاسب يهي
الباطن للصلاة بضبط
الجوارح ويعقق مقام
المحاسبة فيكون عند
ذلك لصلاته نور يشرق
على أجزاء وقته إلى
الصلاة الأخرى فلا تزال
صلاته منورة تامة بنور
وقته ووقته منورا
معمورا بنور صلاته .
وكان بعض المحاسبين
يصحكتب الصلوات في
قرطاس ويدع بين كل
صلتين يابضا وكما
ارتكب خطيئة من
كله غيبة أو أمر آخر
خط خطأ وكلماتكم
أو تمرك فيما لا ينبغي
تقط قطرة ليضرب
ذنبه وحركاته فيما

فتراه على الدوام يمسح حدقته يديه وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقيه الأجنان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصفلتين من غير أجنان وعلمها كيفية التصقيل بالدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى السكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت الظلم إلى الموضع المضي فلا يزال يطلب الضوء ويرمي نفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الأكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينفس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فأنها باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أومدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهافت الفراش»^(١) فهذه لمعة عجبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه وعجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعبها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترارها عن التماسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها وأكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى أنه يقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجايب آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاته إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مائعا بل مسدسا لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافته قدم

لا يعبه لضيق المحاسبة
محاربي الشيطان
والنفس الأمارة بالسوء
لموضع صدقه في حسن
الافتقاد وحرمه على
تحقيق مقام العباد وهذا
مقام المحاسبة والرعاية
يقع من ضرورة محبة
التوبة قال الجيد من
حسن رعايته دامت
ولايته . وسئل
الواسطي: أي الأعمال
أفضل قال مراعاة السر
والمحاسبة في الظاهر
والمراقبة في الباطن
ويكمل أحدهما بالآخر
وبهما تستقيم التوبة
والمراقبة والرعاية حالان
شريفان وصبران
مقامين شريفيين
يصحان بصحة مقام
التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة ثلثي ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتنون من يدي .

لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتناً بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك هجاب ملكوت الأرض والسموات فإنّ القدر الذي بلغه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علنا إلى ما أحاط به الماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى ببلده بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالباً لسعادة لقاء الله تعالى فانبد الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمسالك تحظى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا يشتركون في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يظلموا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليقين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القربين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلاً فنقول أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته وهما مدخلاً لخصاله ولكن العامي يعرف علمه بجماله واقفيه يعرفه بمقتضاه فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وجهه له أشد فأن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاهالة ومال إليه قلبه فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاهالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة بجملة ويكون له بحسبه ميل بمجل والبصير إذا فقه عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاهالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملة صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويمتدحه وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويثير فيه له ويزداد بسببه لاهالة عظيمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدلل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا وبجر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى عمراً ساحلاً له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب المحمّلة التي ذكرناها للحب فإن من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه منعا عليه ولم يحبه لقداته ضقت محبته إذ تفتير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعيم وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان إليه فهذا هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوتهم في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - ولاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً -

على الكمال بهما
فصارت الهامسة
والراقية والراية من
ضرورة مقام التوبة .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن ابن خلف أبي بكر
الشيرازي قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت الحسن
الفارسي يقول سمعت
الجريري يقول أمرنا
هذا مبنى على فصلين
وهو أن تلزم شك
للراقية أنه تعالى ويكون
العلم على ظاهره قائماً .
وقال المرتضى: للراقية
مراعاة السر للاحظة
الحق في كل لحظة
ولقطة قال الله تعالى
- أفن هو قائم على
كل نفس بما كسبت -
وهذا هو علم القيام

(بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبغها إلى الأفهام وأسرها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمعنى لانفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات بحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخطاة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه ومحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدر طولها واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمانياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة لما عليه إلا لدليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسما وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاعة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لأحصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتها وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أول تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقتصر عن فهمه عقولنا قلنا سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما ينهيه وضوحه وهذا كما أن الخفاش يصير بالليل ولا يصير بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصير الخفاش ضيف به نور الشمس إذا شرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصيرة سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فسبحان من احتجب بإشراق نوره واحتفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسبق بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس الشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزل عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة لاشرق لاغرب لما كنا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والقصان وهو أن يعلم ميسار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الخاطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الخواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التسوية لأن من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة للكاره من

فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت للواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فقلنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء وانصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعده وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصبر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور وهذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استنباط أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة ودونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سما وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا فقينا عنا فقينا بل نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بمبارة مفهومة موصلة للعرض إلى الأفهام أو باستغنائهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعينهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق فيهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألهاها فقطع وقعا عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للمادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأس بها ولو فرض أنك بلغ عاقلا ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب الخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسياسة في بحارها الواسعة فالتناس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به الثلل إذا كان راكبا لحراره وهو يطلب حراره والحيات إذا صارت مطلوبة صارت معاتمة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكنه لا يعسر القمر

لكن بطب بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالمحاسنة
استدراك ما انفلت
من المراقبة . أخبرنا
أبو زرعة عن ابن
خلف عن السلمي قال
سمعت أبا عثمان القرني
يقول أفضل ما يلزم
الإنسان في هذا
الطريق المحاسبة
والمراقبة وسياسة
العمل بالعلم وإذا صحت
التوبة صحت الانابة
قال إبراهيم بن آدم
إذا صدق العبد في
توبته صار منيبا لأن
الانابة ثانی درجة
التوبة وقال أبو سعيد
القرشي المنيب الراجع
عن كل شيء يشغله
عن الله إلى الله وقال
بعضهم الانابة الرجوع
منه إليه لا من شيء

(بيان معنى الشوق إلى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيمكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لاهالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن يانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكامله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعاقب بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحن عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ونعم الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً منصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخليلات فإن الخيالات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا فأما كمال الوضوح بالمشاهدة وتعمق إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة بوجوب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لسلك عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن آدم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضر بي القلق قال فرأيت في النوم أنه أوفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فاعف عني وعلني ما أقول فقال قل اللهم رضى بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبه ما أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لا يذوقه لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجح من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحييت من نفسي عملاً فأحتسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

أطراف الكشف والظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعم واللذة متزايدا أبداً لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من أطراف النعم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعم واقفاً على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستعرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتهم لنا نورنا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأعمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى - انظرونا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقاً فاما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحق حقاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فلما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك »^(١) وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخى آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقاءى وإني إلى لقاءهم لأشد شوقاً قال ومكتوب إلى جانبها من طلبى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحببى وجليس لمن جالسى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحببى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فافرضوا يا أهل الأرض ما أتم عليه من غرورها واهلها إلى كرامتى ومصاحبى ومجالسنى واتسوا بى أو أناسكم وأسارع إلى محبتكم فانى خالفت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نبيى ومحمد صفى وخلقت قلوب الشائقين من نورى ونعمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكركم وينظرون إلى وأنظر إليهم فان حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحمنون إلى غروب الشمس كما يحمن الطائر إلى وكفه عند الغروب فإذا جثم الليل واختلط الظلام وفرشت القرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتعلقوا إلى بانامى فبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد يعنى ما يتحملون من أجل وبسمى ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلت بها الحزم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم فرى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى إليه يادود الى كم تذكر الجنة ولا تنسأنى الشوق الى قال يارب من الشائقون اليك قال ان للشائقين الى الذين صفيتهم من كل كدر ونبتهم بالخير وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون الى وانى لأحمل قلوبهم بيدي فأضئها على صفائى ثم ادعوا نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

الى ابتدائه فيروض
نفسه ثانياً ومن لم يزن
نفسه بيزان الصدق
فيأله وعليه لا يبلغ
مبلغ الرجال ورؤية
عيوب الأفعال من
ضرورة صحة الانابة
وهو فى تحقيق مقام
التوبة ولا تستقيم
التوبة الا بصدق
المجاهدة ولا يصدق
العبد فى المجاهدة الا
بوجود الصبر. وروى
فضالة بن عبيد قال
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
المجاهد من جاهد نفسه
ولا يتم ذلك الا بالصبر
وأفضل الصبر الصبر
على الله بمكوف اللهم
عليه وصدق المراقبة
له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لى فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب الشواقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضى في سمانى للملائكى كما تضى الشمس لأهل الأرض .
 ياداد إني خلقت قلوب الشواقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فأنخذتهم لنفسي محبدي ،
 وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى زدادون في كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال ياداد انت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فأقرهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرهم السلام ويقول لكم الأنسألون حاجة فانكم أجابى وأصفياى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله إليكم جيشكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقرهم السلام ويقول لكم الأنسألون حاجة ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أجابى وأصفياى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظرا الوالدة الشفيقة الرقيقة . قال جبرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بمن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أنجرتى على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شئ من أمورنا فأدع لنا لزوم الطريق إليك وأنهم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بمجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أنجرتى على الكلام من هو مشغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كنت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أولياك وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترى العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بمجودك فهب لنا نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتدعنا عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا في شئ من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تسمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شئ دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى ثوري وجلالى . فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والحلوات بي ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل شئ من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقي فمذ ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشئ وأريه كرامتي في كل ساعة وأقره من نور وجهي ، إن

الحواطر والصبر ينقسم إلى فرض وفضل فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذي هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الأولى وهكذا المصاب والأوجاع وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنع والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم حمة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادود عجت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفر عن الاشتغال بـ . يستمجنى القدم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأته يادود وقد ذابت نفسه وتعمل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانفجرت قلبه إذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزى وجلالى يادود لأقصدته فى الفردوس ولأخفين صدره من النظر إلى حقى برضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لبادى للتوجهين إلى محبى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفضت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيوت قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه نزع أمك محبى ، فإن كنت محبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبها لا يجتمعان فى قلب . يادود خالص حبيبى محالمة وخالط أهل الدنيا محالمة ودينك قلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك قلدنيه حقاً على آتى أسارع إلى سياستك وتقويك ولا تكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعنيك على الشدائد وإن قد حلفت على نفسى آتى لا أنيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزع القلة والوحشة عنك وأسكن النقى قلبك فأنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى ضالها إلا وكلته إليها أنصف الأشياء إلى لا تضاد عملك فكون متعباً ولا يتفجع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس لها غاية ، متى طلبت منى الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عنى أجمع لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى ينصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجب عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطاع ثوابى عنها فأنى حلفت بزنى وجلالى لا أتحس ثوابى لبعد دخل فى طاعنى للتجربة والتسوية تواضع لمن تملته ولا تطاول على الريدن ، فلو علم أهل محبى منزلة الريدن عنى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عنى جيداً ، ومن كتبتك عنى جيداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادود : تمسك بكلامى وخذ من تمسك لنفسك لا تؤتني منها فأحجب عنك محبى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فأنما أبعث الشهوات لنسفة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فأنما تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عنى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم أن أحجب عقولهم عنى فأنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزته عنها . يادود : لا تجعل بينى وبينك عالماً يهيجك بسكره عن محبى . أولئك قطاع الطريق على عبادى الريدن استمن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار فإن محبى للصوم إدمانه . يادود تحبب إلى بمعاذة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة وإنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعنى . وأوحى الله تعالى إلى داود يادود لويل المدبرون عنى كيف استطاعوا لهم ورهق بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما نوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كاتبة فى التوبة كينونة للراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات المؤمنين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسمين موضعاً وما ذكر شيئاً بهذا العدد وحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى وهذا أيضاً داخل فى حصة التوبة

يادادود هذه إرادتي في الدارين عني فكيف إرادتي في القبلين علي يادادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإتمام تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - يحبهم ويحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله تعالى - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : عمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن ليل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبويح ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه ، وهذا التباعد في سائر الأسماء

(١) حديث أسى إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد بأسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبروا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحول والتواضع والتدل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتركيتها بالتوبة

أظهر كالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسماء أولا للخلق فان الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجرده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأصالة قط وليس في الوجود إلا ذاته وأصالة ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد البهي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأعمال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل فحبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى «لا يزال عبيدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى واطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بعشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرايفه لئلا إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لالارتفاع به ولا للاستئجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبيب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني بالمعنى الأول وإنما يصح تمثله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجديد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشرائط والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى إذا التغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالتزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائما في التغير والترق إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بمقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت
بالتوبة النصوح زالت
عنها الشراسة الطبيعية
وقلة الصبر من وجود
الشراسة للنفس وإزالتها
واستعصائها والتوبة
النصوح تلين النفس
وتخرجها من طبيعتها
وشراستها إلى اللين
لأن النفس بالمحاسبة
والراقبة تصفو وتنطفيء
نيرانها المتساجعة
بمناجاة الهوى وتبلغ
بطمانيتها محل لرضا
ومقامه وتطمئن في
مجارى الأقدار قال
أبو عبد الله النابجى
«عبد الله يستحيون
من الصبر ويتلقفون
مواضع أقداره بالرضا
تلقفا ، وكان عمر بن
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التليذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى فإنه لا نهاية لكمالته وسلك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد بتقريبه من نفسه بدفع الشواغل والعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشق إلى مافاتة وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً ^(١) » فعلاقة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى سحاراً فتركه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغاني عن نفسه بحمار ، وفى الخبر « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبراً اجتبه فان رضى اصطفاه ^(٢) » وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتلىك فاعلم أنه يريد يصفيك ، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحسوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيك عبداً حق يلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه ^(٣) » وقد قال « إذا أراد الله بعبده خيراً ابصره بيبوب نفسه ^(٤) » فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره والزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والسدد لظواهره وباطنه والجاعل همومه ما واحداً والبغض للدنيا في قلبه والموحي له من غيره والمؤنس له بلذة النجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد .

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد ومأسول الدعوى ومأعز المعنى فلا ينبغي أن يفتقر الإنسان بتأيسر الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وتثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفاضلة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقته بالموت فينبغى أن يكون محباً للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبراً اجتبه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث طي بن أبى طالب ولم يخرج له ولله في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً ابصره بيبوب نفسه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس زيادة فيه بإسناد ضعيف .

أصبحت ومالى سرور
إلا مواقع القضاء قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم لابن عباس
حين وصاه « اعمل لله
باليقين فى الرضا فان لم
يكن فان فى الصبر
خيراً كثيراً » وفى الخبر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم « من خير
مأعطى الرجل الرضا
بما قسم الله تعالى له »
فالأخبار والآثار
والحكايات فى فضيلة
الرضا وشرفه أكثر
من أن تحصى والرضا
عمرة التوبة النصوح
ومما يخلف عبداً عن
الرضا إلا يتخلفه عن
التوبة النصوح فاذن
تجمع التوبة النصوح
حال الصبر ومقام الصبر
وحال الرضا ومقام

ليتمتع بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (١) وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلاح من نسيم . وقال بعض السلف : مامن خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود . فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرءى والباطل خفيف وهو مع خفته وبى فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرئك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تمجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية ففدا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجذب أنفي وأذني ويقر بطني فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنتك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لهما لقتان في خيط (٢) قال سعيد بن المسيب أرجو أن يروى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الخافي يقولان لا يكره الموت إلا مربب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد آتعب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحييته وتلا قوله تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - فقال الرجل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت » (٣) فقال إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا يناقض كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاها عاتبتة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم » (٤) فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجذب أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاها عاتبتة قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

الرضا والخوف والرجاء
مقامان شريهان من
مقامات أهل اليقين
وهما كائنان في صلب
التوبة النصوح لأن
خوفه حمله على التوبة
ولولا خوفه ما تاب
ولولا رجاءه ما خاف
فالرجاء والخوف
يتلازمان في قلب المؤمن
ومتبدل . الخوف
والرجاء لاتب المستقيم
في التوبة . دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
على رجل وهو في
سياق الموت فقال
« كيف تجدك قال
أجدني أخاف ذنوبي
وأرجو رحمة ربّي فقال
ما اجتمع في قلب عبد
في هذا الموطن إلا أعطاه
الله ما رجا وآمنه بما

بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره
عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الحبيب بقدوم
حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب
عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته
الدروب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهيه
في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويحجب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب الحب مزيدا القرب
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم
لحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى
فمحبوبه ما يهواه بل يترك الحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قبح الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه
نهارا فصدافه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى التهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلها نبين فقالت أما إذا كان الله تعالى
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ففعلتها سكنت إليه ؟ فاذن من أحب الله
لا يصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تصلى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب الناهي وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاها ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهوته فلا
يخذه الله ولا يكله إلى هواه وشهوته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى
بالله نصيرا - فإن قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكيف
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضاعف والشهوة قد تناب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى
« أن أنيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصيبة يرتكبها إلى أن
آتى به يوما فلهذه فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه
وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة، نعم يخرج به بالمصيبة عن كمال الحب

(١) حديث آتى أنيمان يوما فلهذه فلعنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلغنه فإنه يحب الله
ورسوله البخاري وقد تقدم .

يغاف « وجاء في تفسير
قوله تعالى سولانلقوا
بأيديكم إلى التهلكة
هو العبد يذنب
الكبائر ثم يقول قد
هلك لا ينفعني عمل
فالتائب خاف ذناب
ورجال الغفيرة ولا يكون
التائب تابيا إلا وهو راج
خائف ثم إن التائب
حيث قيد الجوارح عن
السكران واستعان بنعم
الله على طاعة الله فقد
شكر النعم لأن كل
جائحة من الجوارح
نعمة وشكرها قيدها
عن العصية واستعمالها
في الطاعة وأي شاكر
للنعم أكبر من التائب
المستقيم فإذا جمع مقام
التوبة هذه المقامات
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حيا متوسطا فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشئ من ذلك . ومنها أن يكون مستترا بذكر الله تعالى لا يفتتر عنه لسانه ولا يغلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محبته فإذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحسوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى (١)» وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة الناجاة في سنن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي عجة القرآن فعاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغته إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالحلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويستتم هذه الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالحلوة بالحبيب والتتم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الله عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لأبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فاني إنما أقطع عن رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيت فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يسجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى شيء . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد عشن في شجرة بأوى إليها وبصر عندها فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة الحديث تقدم .

التسوية حال الزجر
وحال الانتباه وحال
التيقظ ومخالفة النفس
والتقوى والمجاهدة
ورؤية عيوب الأفعال
والانابة والصبر والرضا
والمحاسبة والرقابة
والرعاية والشكر
والخوف والرجاء وإذا
صححت التوبة النصوح
وتزكت النفس انجحت
مرآة القلب وبان قبح
الدنيا فيها فيحصل
الزهد والزهد يتحقق
فيه التوكل لأنه لا يزهد
في الوجود إلا لاعتماده
على الوعود والسكون
إلى وعد الله تعالى هو
عين التوكل وكلما بقي
على العبد بقية في تحقق
المقامات كلها بعد
توبته يستدركه

قال فضل فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطتكم درجة لا تتألموا بشيء من عملك أبدا ، فاذن علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة الم محبوب وكال التمتع بالخلاوة . وكال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن قلة للتأجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بقلبة النجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة بعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والنجاة قرّة عينه يدفع بها جميع المصوم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على صممه مرارا مثل العاشق الوطمان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بحبوه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبي إذا جنة الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فيها أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستغفار والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومفاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق المحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسى وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا الله لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - ومنها أن يتمم بالطاعة ولا يستغفلا ويسقط عنه تعبه كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدروب بشهوة تنفرت بدنه ولا تنفرت قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتغى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستقل الدمي في هوى معشوقه ويستتلك خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تماوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فكذلك يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لأمالة ما هو دونه فمن كان محبوه أحب إليه من الكل ترك الكل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض الهيبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فأش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملك

يزهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرو قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بغاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سرا وزوائد في يديها فلما رأى

ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقات هذا خلق لحاق وعبد لعبد فكيف يعبد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكافون عيسى كما يكلف الصبي بالنسب . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة . وينضبون لهارمه كما ينضب النمر إذا حرد طاقه لا يبالى قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالكى لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فإن قام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد ونمستك به ومهما فارقته بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفاً في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعيم - ثم قال - يسقون من رحيق مخثوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسليم عينا يشرب بها المقربون - فإذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الصريف الذى هو لامة قربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عابدين - ثم قال - يشهد القربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهد المقربون وكان الأبرار يمدون الزيد فى حالهم ومعرفهم بقربهم من القربين ومشاهدتهم لهم - كذلك يكون حالهم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - . كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء نعماتهم فقول الحالم بالصرف من الشراب وقول الشوب بالشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - . وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - . وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغب عايه إلا حبه بالاخلاص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتعمون فى الجنان مع الجور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها يقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقولم آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب ^(١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتمظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البزار من حديث أنس بن مالك ضعيف مقتصر على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى وأما أدراج فيه .

ذلك رجع ولم يدخل
ثم جلس فجعل ينكت
فى الأرض ويقول
مالى وللدنيا مالى
وللدنيا فرأت فاطمة
أنه إنما رجع من أجل
ذلك الست فأخذت
الستر والزوائد
وأرسلت بهما مع بلال
وقالت له اذهب إلى
النبي صلى الله عليه وسلم
قل له قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فأتى
بلال إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال قالت
فاطمة قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم
بأبى وأمى قد فعلت
بأبى وأمى قد فعلت
اذهب فبعه وقيل
فى قوله تعالى - إنا
جعلنا ما على الأرض
زيناً لها لعلهم أهم

الحسين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - وإنما عظم هيبه البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به لحديث البعد في حق البعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ولا يمن إلى القرب من ألف البعد ولا يبيك لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وطلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » (٢) وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم واليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة » (٣) وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أضع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيت مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة لعدم فاما الخصوص فيحبهم عن الزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى مظاهر من مبادئ اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد قوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فاقنا فهب ما فاقنا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنيت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه وأسبب رجعه والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية مماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله السكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرواليان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحسنة فن أوصافه ما يلوح فيورث السلوك أوصاف الجبرية والمزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواقباضه عن دوام الدكر وملا له لوظائف الأوراد أسباب هذه اللعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللقت نمود بالله منه وملازمة الحوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لاهالة فقدته فلا يغلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الحوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالحب لا يغلو عن خوف والخائف لا يغلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيبتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيل
الزهد في الدنيا . سئل
أمير المؤمنين على بن
أبي طالب رضي الله
عنه عن الزهد فقال
هو أن لا تبالي بمن
أكل الدنيا مؤمن أو
كافر . وسئل الشبلي
عن الزهد فقال ويلكم
أي مقدار الجناح
بعوضة أن يزهد فيها .
وقال أبو بكر الواسطي
إلى متى تصول بترك
كيف وإلى متى تصول
ياعراضك عما لا تزن
عند الله جناح بعوضة
فاذا صح زهد العبد
صح توكله أيضا لأن
صدق توكله مكنه من
زهده في الوجود فن
استقام في التوبة
وزهد في الدنيا وحق

حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فأعما الخوف ببدله ويخفف وقته على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك ففهم في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الدرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة فذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخبرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيها سألت أعطيتهم كما أعطيت قسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر المارفين ، وقد قيل في وصف حال المارفي :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد	عن الأحرار منهم والبيد
غريب الوصف ذو علم غريب	كان فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت	عن الأبصار إلا لكثيريد
يرى الأعياد في الأوقات تجري	له في كل يوم ألف عييد
وللاجباب أفراس بعيد	ولا يجد السرور له بييد

وقد كان الجنيد رحمه الله يشد ألياتا يشير بها إلى أسرار أحوال المارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الأيات :

سرت بأناس في الصيوب قلوبهم	خلوا قرب الحاجد التفضل
عراسا بقرب الله في ظل قدسه	تجول بها أرواحهم وتقل
مواردم فيها على المز والتهى	ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح جز مفرد من صفاته	وفي حال التوحيد تمشي وترقل
ومن جد هذا مانتدق صفاته	وما كتبه أولى لديه وأعدل
سأكم من علمي به ما يصونه	وأبذل منه ما أرى الحق يبدل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم	وأمنع منه ما أرى اللع يفضل
على أن لرحمن سرا يصونه	إلى أهله في السر والصون أجل

ومثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا بالحكمة تنفض فعمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لهدم فيها وطلبت الأسواق ولما بقي بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن الله تعالى فيها هو شرف الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبيب وإجلالا له وهية منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في المعنى وتسجل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين القامبين استوفى
سائر اللقائات وتكون
فيها وتحقق بها وترتيب
التوبة مع المراقبة
وارتباط إحداها
بالأخرى أن يتوب
العبد ثم يستقيم في
التوبة حتى لا يكتب
عليه صاحب النجاة
شيئا ثم يرتقى من
تطهير الجوارح عن
للماضي إلى تطهير
الجوارح عما لا يبي
فلا يسمع بكلمة فضول
ولا حركة فضول ثم
ينتقل للرعاية والحاسبة
من الظاهر إلى
الباطن وتستولي
المراقبة على الباطن
وهو التحقق بعلم
القيام بمحو خواطر
الصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق - لظنه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالتقادر على الكتمان يقول:
وقالوا قريب قلت ماأنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى
لمالى منه غير ذكرى بخاطر يهيج نار الحب والشوق فى صدرى
والعاجز عنه يقول :

يخفى فيسدى السمع أسرارہ ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم
وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكتر التعريض به
فى كل شئ ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محمقوت عند الهيبين والعلماء بالله عز وجل
ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى بلاء فقال لا يحبه من وجد
ألم ضره فقال الرجل لكى أقول لا يحبه من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شهر
نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى القامات وإظهارها إظهار للغير
فلماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإعما الذموم التظاهر بها لما يدخل فيها
من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغى
أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون
قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فترك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الإنجيل
إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يحزبك علانية وإذا صمت
فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا تعلم بذلك غير ربك فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب
سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض
المجانين ما استجبه له فيه فأخبر بذلك معروفا السكرانى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبوب صغار
وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان
عارفا وعرف أحوال اللائكة فى جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون
ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه
من أخس الهيبين فى مملكته وأن حبه أقمص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من الهيبين
عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت
أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا
من اللائكة بعد جميع ما خلق الله من شئ فقلت من أتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نبيده ههنا
منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها
لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فأذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيامه حتى الحياء
خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته
كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم تعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها صيبا
فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه
بول عاشق قال الجنيد فصمت وغشى على ووقعت القارورة من يدي ثم رجعت إلى السرى فأخبرته
فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول
فأذا تممكن من
رعاية الخطرات عصم
عن مخالفة الأركان
والجوارح وتستقيم
توبته قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه
وسلم - فاستقم كما
أمرت ومن تاب
معك - أمره الله
تعالى بالاستقامة فى
التوبة أمرا له ولأتباعه
وأمرته وقيل لا يكون
للريد مريدا حتى
لا يكتب عليه صاحب
الشمال شيئا عشرين
سنة ولا يلزم من
هذا وجود العصمة
ولكن الصادق الثائب
فى النادر إذا اجتلى
بذنب يسمعى أثر الذنب
من باطنه فى

لو شئت أقول ما أيسر جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على أنه
أضجع في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما
سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو
من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون
لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام ظنوا
ذلك بمحبتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتحالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر
على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد
بالملك ولما عرفوا صفاته السكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك
لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدواقه إبليس وهو مع ذلك
يلبس على نفسه بحكم الضرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى قدت فيه هذه
العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف
ذلك كمداء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال
يادوست أى يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيباً فكيف تقول هذا فقال فى أذن القائل سرا: لا يغلو
إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقاً فهو حبيب
إبليس وقد قال أبو تراب النخعي في علامات المحبة آياتاً :

لا تخدعن فلاحبيب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بحر بلائه	وسروره فى كل ما هو فاعل
فالتنع منه عطية مقبولة	والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبها	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متشفاه	منحظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا	فى خرفتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	جوف الظلام لما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا	نحو الجهاد وكل فصل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى	من دار ذل والنعم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باهكيا	أن قد رآه على قبيح ضائل
ومن الدلائل أن تراه ملها	كل الأمور إلى ليليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا	بملكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكك بين الورى	والقلب محزون كقلب الثا كل

(بيان معنى الأنس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب
نظره وما يطلب عليه فى وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر
قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

الطف صاحة لوجود
النم فى باطنه
على ذلك والنم توبة
فلا يكتب عليه
صاحب التوالت شيئا
فاذا تاب توبة نصوحا
ثم زهد فى الدنيا
حتى لا يهتم فى غذائه
لغذائه ولا فى عشاءه
لغذائه ولا يرى الادخار
ولا يكون له تعلق
م بفسد قد جمع
فى هذا الزهد
والفقر والزهد أفضل
من الفقر وهو فقر
وزيادة لأن الفقير
عادم لشيء اضطارا
والزاهد تارك لشيء
اختيارا وزهده
بحق توكله وتوكله
بحق رضاه ورضاه
بحق الصبر وصبره

في الازعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر للكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات الفز والاستغناء وعدم البلالة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشمار فيسمى تأله خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس من استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما قابله وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما للشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا قال من يشاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الامكان من مزايا الأنس ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل قليل له من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله بل كل ما يهوى عن الخلوة فيكون من الأنس الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذته النسيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأسا من سواي مستوحشا وقيل لراية بن ميثم قلت هذه الميزة قالت بتركي مالا يعني وأنسى عن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب قلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليهم من نفسك الوحدة رأس العبادة قلت يا راهب ما أقل ما أعجبه في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت العاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فأعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور محالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشرروا روح اليقين واستأنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون محبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهلل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والديعة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال اللذات بالبصائر أكمل من جمال البصرات ولذا معرفتها أغرب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحق حبس النفس
وصدق المجاهد
وحبس النفس لله
بحق خوفه وخوفه
بحق رجاءه ويجمع
بالثوبة والزهد كل
القامات والزهد
والثوبة إذا اجتمع
صحة الإيمان وعقوده
وشروطه يعوز هذه
الثلاثة رابع بهتمامها
وهو دوام العمل لأن
الأحوال السنية
يتكشف بعضها بهذه
الثلاثة وتيسر بعضها
متوقف على وجود
الرابع وهو دوام
العمل وكثير من
الزهاد المتحققين بالزهد
للتقويمين في الثوبة
تخلفوا عن كثير من
سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحوال محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم مفسدة لله عمال
(بيان معنى الانبساط والادلالات الذي تشره غلبة الأنس)

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التفكير والحجاب فإنه يثمر
نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه
من الجرامة وقلة الهية ولكن محتال بمن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم
في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليهما موسى
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام
ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف استجيب لهم وقد أغلقت عليهم ذنوبهم
سرائرهم خبيثة بدعوني على غير يقين ويأمنون مكرى ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له
يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق
إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدتها على عنقه صفره موسى
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما صمك فقال اسمي برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين
اخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلك وما الذي بدالك أنقصت
عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نقد ما عندك أم اشتد غضبك على الذين أئست كنت
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك تمتنع أم تخشى القوت فتعجل
بالعقوبة قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربّي كيف أنصفتي
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن
قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر
بذلك فبعث إلى صاحب الحصص قال فأتني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على
ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضي الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرههم »^(١) قال ووقع حريق بالبصرة
فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على
ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فأعزم على النار أن تطأ قال فزعم عليها فطفت وكان أبو حصص
يمشي ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حصص ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره
قال فوقف أبو حصص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليهما قال فظهر حماره في الوقت ومرّ
أبو حصص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجري لدى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله
أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة لوصيها
العموم لكفروهم وهم يحمدون الزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تغالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيتهم عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما في القرآن تنبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله

لأبرههم ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا
يراد الزهد في الدنيا
إلا لكمال الفراغ
الاستعانة به على إدامة
العمل لله تعالى والعمل
لله أن يكون العبد
لا يزال ذا كرا أو تاليا
أو مصليا أو مراقبا
لا يشغله عن هذه إلا
واجب شرعي أو مهم
لا بد منه طبيعي فاذا
استولى العمل القلبي
على القلب مع وجود
الشغل الذي أداه إليه
حكم الشرع لا يفتتر
باطنه عن العمل
فاذا كان مع الزهد
والتقوى متمسكا
بدوام العمل فقد
أكمل الفضل وما آلى
جهدا في العبودية

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار فأعماهى عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس أمتراهما كيف اشتهرا في اسم العصية والخالفه ثم تباينا في الاجتناء والعصية . أما إبليس فأبلى عن رحمته . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه - وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى - وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وما في العبودية بيان واسكن في الحال مختلفان ، فقال - وأما من جاءك يسعى وهو يغشى فأنت عنه تلهى - وقال في الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى - وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، قال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قتل سلام عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال - وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم - حتى قال - فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هي إلا فتنتك فضل بها من تشاء وتهدى من تشاء - وقوله في التليل والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولهم على ذنب - وقوله - إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى - وقوله - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس بلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فزوق بالجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن تداركه نعمة من ربه لبند بالعراء وهو مذموم - . قال الحسن العراء هو القيامة ، ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من الفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا - وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، فقال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ففقر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل هي من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من للسرفين وكانت مصيته في الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام يارأس العابدين وياابن محبة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزني وجلالى لأن أخذته عصفه من صفاتي عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :
من خرج من قالب
العبودية صنع به ما
يصنع بالآبق . وسئل
سهل بن عبد الله
التستري : أى منزلة إذا
قام العبد بها مقام
العبودية قال إذا ترك
التدبير والاختيار فاذا
تحقق العبد بالتوبة
والزهد ودوام العمل
لله يشغله وقته الحاضر
عن وقته الآتى ويصل
إلى مقام ترك التدبير
والاختيار ثم يصل إلى
أن يملك الاختيار ،
فيكون اختياره من
اختيار الله تعالى لئوال
هواه ووفور علمه
واقطاع مادة الجهل
عن باطنه . قال يحيى
ابن معاذ : الرازى مادام

كثيما من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تقب طي وكيف أستعصم إن لم تصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على المهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما خبقت به للشبهة الأزلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل لنا في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وتارة يتعرف إليهم بصفات جلالة فيقول - للذك القدوس السلام للؤمن للهيمن العزيز الجبار المتكبر - وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة قول الرجوة فينبو عليهم سنته في أفعاله وفي أنبيائه فيقول - ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات الصناد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ولا يبدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ومعرفة صفاته وأسمائه ومعرفة أفعاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس ولزمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القرآن فقال « من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن ^(١) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور : لا يكون حاصله منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يولد ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعاً من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفوا أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنهاه أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن والتسموا غرائب فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفه له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن مبنية في طي القصص والأخبار فكان حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحق معه العلوم الزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو عمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

(القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته)

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات التبرين وحقيقته غامضة على الكثيرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقفه في الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وأن يندفع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال اللهم قفه في الدين وعلمه التأويل ^(٢) »

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قفه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبد يتعرف يقال له لا غتر ولا تخن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا غتر لأنك إن اخترت فاختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فاختيارنا تركت الاختيار فانك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وتعليك التدبير

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف
المحوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والمكوث على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أما من الآيات قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان
إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى
- وما كن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - قد رفع الله الرضا فوق جنات عدن
كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكرو ولقد كر الله أكبر - فكما
أن مشاهدة للذكر في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أسمى من الجنة بل هو غاية مطلب
سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك (١) فسلوهم
الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو
بمعنى آخر يقرب عما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقتصر أفهام الخلق
عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بأدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلارتبة فوق النظر إليه فاعلموا
الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا
بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلوا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولله ينمزيد
قال بعض للفرسين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزبد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية
من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة
أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى - سلام قولامن
رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك
قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أى من النعم الذي هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو نعمة رضا
العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ورضى بمواقع القضاء فقال
مؤمنون ورب الكعبة (٢) » وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء (٣) »
وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى به (٤) » وقال عليه السلام « من رضى من الله
تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى عنه بالقليل من العمل (٥) » وقال أيضا « إذا أحب الله تعالى
عبدا ابتلاه فان صبر اجتباء فان رضى اصطفاه » وقال أيضا « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة
من أمم أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فيقول لهم
(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك البرار والطيراني في الأوسط من حديث
أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقتم وعدى وأتممت عليكم
نعمتي وهذا محل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو جلى بلفظهم قول ماذا تريدون
فيقولون رضائك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا
من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضا (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى
به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من
الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى عنه بالقليل من العمل رويناه في أمالي الهاملي بإسناد ضعيف من حديث
على بن أبي طالب ومن طريق الهاملي رواه أبو منصور الديلمى في مسند القردوس .

والاختيار من الله
تعالى لعبده ورده إلى
الاختيار تصرف بالحق
وهو مقام البقاء وهو
الانسلاخ عن وجود
كان بالعبد إلى وجود
يصير بالحق وهذا
العبد ما بقى عليه من
الاعوجاج ذرة واستقام
ظاهره وباطنه في
العبودية وعمر العلم
والعمل ظاهره وباطنه
وتوطن حضرة القرب
بنفس بين يدي الله
عز وجل متمسكة
بالاستكانة والافتقار
متحققة بقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« لا تسكننى إلى نفسى
طرفة عين فأهلك ولا
إلى أحد من خلقك
فأضيع أكلنى كلامه

للالائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزئ الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول لللائكة من أمة من أتم؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا قبلنا هذه النزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماهما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول لللائكة بحق لكم هذا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا» (٢). وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فطناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه» (٣) وفي أخبار داود عليه السلام مالأولياي والهـم بالدنيا إن الهـم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم. يادادود إن بحق من أولياي أن يكونوا روحانيين لا يمتنون. وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه: إن رضائي في كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره. قال يارب دلني عليه، قال فإن رضائي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه الم محبوب سألني قال فأني خلقك أنت عليه ساخط. قال من يستخيرني في الأمر فاذا قضيت له سخط قضائي. وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي» (٤) ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلغاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلغاني» (٥) وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقت له للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم وويل لمن قال لم وكيف» (٦) وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقميل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكروا هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن على القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عند الله الحديث الحاكم من حديث جابر ومحمه بالفظ منزله ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجدهم بهذا اللفظ للطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني.

[الباب الستون :

في ذكر إشارات

المشايع في القامات

على الترتيب]

قولهم في التوبة قال

رويم معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغزالي عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما أحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأهونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجلاه على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده يابن : أما ترى ما يصنع هذا بك لونهيته عن هذا فقال يابن : إني رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تعلموا إلى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لي كشيء فعلته لم فعلته ولا كشيء لم أفعله لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان إذا خاصني عناصم من أهله يقول دعوه لوقضى شيء لكان (١) » . ويزيد أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أضيقك فيها تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [وأما الآثار] فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر . وقيل له ماتتشي ، فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن في أكل خبز الشعير والحل ولا في لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول كشيء كان ليته لم يكن أو كشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني . وروى في الاسرائيليات أن تابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل قائما ويظل منطوية ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، قالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خبيثة واحدة هي في إن كنت في شدة لم آمن أن أكون في رخاء وإن كنت في مرض لم آمن أن أكون في صحة وإن كنت في الشمس لم آمن أن أكون في الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خبيثة هذه والله خبيثة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عني فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبي فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده النعم والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قدرضى من عبيده بما رضى العبيد من موالهم السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لي كشيء فعلته لم فعلته لم لأفعله ولا كشيء لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان إذا خاصني عناصم من أهله يقول دعوه لوقضى شيء لكان (١) . ويزيد أن

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلزم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذوالنون توبة الصوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من النفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن محبة الله من عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحبكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل النهم والحزن في الشك والسخط (١) » .

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فاعلم أن من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجري عليه الإؤلوم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الهم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحاق رأسه بمديدة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهته بحيث يدهش وينشئ عليه فلا يحس بما يجري عليه . فقد روى أن امرأة فتحت الوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجددين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعز بعقله وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من القصاد الفسد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقصد من القصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجري عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجملة راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمضى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا عنه ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توأفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا مئة إلى الملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فساهو الإجلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بلبائته من نطفة ملوثة ونهايته جيفة قدره وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك

(١) حديث إن الله يحبكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا والفرح في الرضا الحديث الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بتسطه وقد تقدم .

يتوب من الشيء
ويتركه ثم يخطر ذلك
الشيء بقلبه أو يراه
أو يسمع به فيجد
حلاوته فقال الحلاوة
طبع البشرية ولا بد
من الطبع وليس له حيلة
إلا أن يرفع قلبه إلى
مولاه بالشكوى
وينكره بقلبه ويلزم
نفسه الإنكار ولا
يفارقه ويدعو الله أن
ينفيه ذلك ويشغله
بغيره من ذكره
وطاعته قال وإن غفل
عن الإنكار طرفة
عين أخاف عليه أن
لا يسلم وتعمل الحلاوة
في قلبه ولكن مع
وجدان الحلاوة يلزم
قلبه الإنكار ويحزن
فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحسيدة التي تفلط فيما ترى كثيرا فتري الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا
والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلى الأبدى
الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها الغلط ولا يدور بها الوت بل تبقى بعد الموت
حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح
من حيث النظر بعين الاعتبار وشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال
شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل
يجد الحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة
ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار .
وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس
فنبهته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأني عاشق فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوقى كان بخدائى
ينظر إلى فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال فزعتى زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ
الرازى رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى
الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة
هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتى فاذا برجل أعمى مجذوم
محنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرضت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق
قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا إربا ما زددت له إلا حبا . قال بشر
فما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وبين ربه فأنتسكرتها . قال أبو عمرو ومحمد بن الأشعث إن أهل
مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا
إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل فى القرآن ما هو أبلغ من ذلك
قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت
بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول والوت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجنى التى ترحل

ثم بقر بالمدينة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لى أنه كان يهوى ففى بعض الملوك
حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دنى على أعبد أهل الأرض
فدلى على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب يصره فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما
ماشتت أنت وسلبتني ماشتت أنت وأبقيت لى فيك الأمل يا رب يا وصول . ويروى عن عبد الله بن
عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشنا
على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجا أشد
سرورا أبدا منه فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به .
وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالدك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه
الناء ويعمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فخرنوا له وكان الرجل
صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل
عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم
فنظروا فاذا قد سبى من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف
بالغ لكل طالب صادق
يريد محبة توبته .
والعارف القوى الحال
يتمكن من إزالة
الحلاوة عن بطنه
ويسهل عليه ذلك .
وأساب سهولة ذلك
متنوعة للعارف ومن
تمكن من قلبه حلاوة
حب الله الخاص عن
صفاء شاهدة وصرف
يقين فأى حلاوة تبقى
فى قلبه وإنما حلاوة
الموى لعدم حلاوة حب
الله . ومثل السوسى
عن التوبة فقال التوبة
من كل شيء ذمه العلم
إلى مامدحه العلم وهذا
وصف يعم الظاهر
والباطن لمن كوشف
بصره العلم لأنه لا بقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي
 لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد
 مضروب الجنين بفالج وقد تآثر لجه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا
 من خلقه فقال له عيسى يا هذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله تأخير من لم يعمل
 الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها
 وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير
 رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وإياك لأن كنت أخذت
 لقد أبقيت ولئن كنت ابتليت لقد عاقبت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والنقى
 مطيتان ما أبلى أيتهما ركبته إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان النقى فإن فيه البذل . وقال
 أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا مشام الربح وعلى ذلك لو أدخل
 الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال
 أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعني جبرا على جهنم يعبر الخلاق على إلى الجنة ثم ملائبي
 جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم
 أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بالنار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في
 استتماره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان
 بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء . ويطن أن
 ماهو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان
 وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنه فقال يا هذا إن كان هذا من
 طريق التعظيم والاحلال فلا أعرف . وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال
 ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين . واستسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم
 ولا يقعد قد تقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء
 فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإن أحبه
 إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لعل الله أن يفتحك به وإياكم على حتى أموت إن لللائكة
 تزورني فأتس بها وتسلم على فأسمع تسليحها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إدهو سبب هذه
 النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلانه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعة
 نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلي فداؤك ما نطعمك
 مانسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لأأطعم طامأولا أسبيغ شرابا منذ كذا
 فذكر أياما وما يسرني أني تقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد
 كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فإدعوا لهذا ولهذا وكان مجاب
 الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتينته وأنا غلام فتعرفت إليه فمررتي وقال أنت قارى أهل مكة ؟
 قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها قلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك
 بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير
 ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعترضى عليه فيما قضى أشد
 على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لشيء كان ليته

للجهل مع العلم كالإبقاء
 قليل مع طلوع الشمس
 وهذا يستوعب جميع
 أقسام التوبة بالوصف
 الخاص والعام وهذا
 العلم يكون علم الظاهر
 والباطن بتطهير الظاهر
 والباطن بأخص
 أوصاف التوبة وأعم
 أوصافها . وقال
 أبو الحسن الثوري
 التوبة أن تتوب عن
 كل شئ سوى الله
 تعالى . قولهم في الورع
 قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « ملاك
 دينكم الورع » أخبرنا
 أبو زرعة إجازة عن
 أبي بكر بن خلف عن
 أبي عبد الرحمن السلمي
 إجازة قال أنا أبو سعيد
 الحلال قال حدثني

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أنول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد هبنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فأتعبد من يدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستعجب منك لأخبرتكم بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة وممنه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعدق طبقات أصحاب اليمين لأن من يدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أتم ؟ فقالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريوا فقال ما بالكم ادعيتهم هبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك أن أحدهم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارى بها يعني بذلك أن النهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل لشرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالخط وراعه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له قد يغلب الحب بحيث ينغمز مراد الحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاء ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : فما الجرح إذا أرضاك كم ألم وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من قده من نفسه لأنه إنما قده لقمه سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف محائبه فله محبين محائب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الراصي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فقي يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس ففسرت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على الماشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشككي

فقال لها الفتي أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى ذال التفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا قلت قال فتحنى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال ممنون المحب كان في جيراننا رجل وله جارية يهبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت للامتنان يده وجلس يحرك مافي القدر يده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البندادي قال رأيت بالبصرة شاعرا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقة عن أبي بكر بن أبي مرزوم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجسا على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يلننه الله عز وجل قوما ينفعهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السكري احتفظ لسائك من اللحم كما تحفظه من الدم . قال هن الحرث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبحه الوسطى عرق إذا مديده إلى

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فملوه ميتا فهذا أو مثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات الموزونة فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهل ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للفرق بين وزعم أن للعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تمل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى اللقائم من الرضا وقد أتى الله تعالى على بعض عباده بقوله سيدعو ثار غياور هب! وأما إنكار العاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أطيعوا الله وأطيعوا أئمة الله» وقال تعالى: «رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع على قلوبهم» وفي الخبر للشهور «من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد قتل» وفي الحديث «الدال على الشر كغفاله»^(١) وعن ابن مسعود: «إن العبد لينيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك؟ قال يلفقه فيرضى به وفي الخبر «لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمعرب كان شريكا في قتله»^(٢) وقد أمر الله تعالى بالحدس والنافقة في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا حد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبينها في الناس ويطلعها ورجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق»^(٣) وفي لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاه الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لقلت مثل ما يفعل». وأما بعض الكفار والفجار والآنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» وقال تعالى: «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا» وفي الخبر «إن الله تعالى أخذ الليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافق وعلى كل منافق أن ينفذ كل مؤمن»^(٤) وقال عليه السلام «الراء مع من أحب»^(٥) وقال «من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة»^(٦) وقال عليه السلام «أوثق

(١) حديث الدال على الشر كغفاله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المعرب كان شريكا في قتله لم أجده أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرها ففكأنا غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها ففكأنا حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حد إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ الليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافق الحديث لم أجده أصلا (٥) حديث الراء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قريصة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زميرهم زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضيف .

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك المرق . سئل الشبلي عن الورع فقال الورع أن تورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل . سئل الخواص عن الورع فقال أن لا تكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما رضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد

عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصلوة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذر في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة أمضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وممونه حسن الخلق وهو جهل محض بل تقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فكركه موته من حيث إنه مات عدو وعدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموتا عند الله وبغضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولما لقت فهو من هذا الوجه منكرو ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوا من الخلق قال بين يدي محبيه إنني أريد أن أميز بين من يحبني ويغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لي فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة حتى على كل من هو صادق في محبته وعالم بشرط المحبة أن يقول أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتريضك إياء للبغض والعداوة فأنا عاب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم للوجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبّرته فأنا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويضا في مرادك وأنا كاره لمرادك ولكن من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو رادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحبه له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا من بغض له لأن شرط المحبة أن يكون الحبيب المحبوب حبيبا وأمدوه عدوا وأما بغضه لك فاني أَرْضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك للبغض وكسبه وفعله وأمته لذلك فهو محموت عندى لمقتة إياك وبغضه ومقتة لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرس من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جالب من مصر شيئا. وقال الخواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم في الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع. وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك زهدا وإزهد فيما هو له

(١) حديث أوثق عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصلوة (٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله يقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاختبارة واقدري الخير حيث كان ثم رضى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً يجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بعض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقتة فواجب على كل عبد محب لله أن يخض من أبغضه الله ويعتق من مقته الله ويعادى من أبغده الله عن حضرته وإن اضطره بغيره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً بطرده واضطراً وبعيداً عن درجات القرب بذنبه أن يكون مقبلاً أيضاً إلى جميع المحبين موافقة للمحسوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم وللبالغة في مقته مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في الشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قاله إلهما جميعاً منه من غير اقتراق في الرضا والكراهة فهو أيضاً مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الترفع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تشو» (١) وذلك يتعلق بعلم الكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضاً أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب الدينية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبب لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلباً لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصائه في كتاب التوكل فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء وحنة والعيال هم وتمب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والملكة لما لملكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا تأبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فاني لأدري أيهما خير لي .

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تشو أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

فكيف يزهد فيه وهو
معه وعندة فليس
إلا ظلف النفس وبذل
مواساة ، يشير إلى
الأنعام التي سبقت بها
الأفلام وهذا لو اطرده
هدم قاعدة الاجتهاد
والكسب ولكن
مقصود السبيل أن يقال
الزهد في عين اللذات
بالزهد لئلا يفر به .
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إذا
رأيت الرجل قد أوتي
زهداً في الدنيا ومنطقاً
فاقربوا منه فإنه يلقي
الحكمة» وقد سمى الله
عز وجل الزاهدين
علماء في قصة قارون
فقال تعالى - وقال
الذين أوتوا العلم ويلكم
نواب الله خير - قيل

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد يظهر به الطاعون ^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أن تلوث فتح هذا الباب لأرسل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا تمتهد لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف ^(٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلية في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن الصية ليست منسومة فإزال السلف الصالح يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطالب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها إلا شرطا غضبان أو تاجرا لمغان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببغداد يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فدا تصنع به بلغنى أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفية الداء الضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فثلاثة أعشاره بالشام وعشرة بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه سوفي متدرع ببغاة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال ببغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أهدم في زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال في عسى الظلة وكان بشر بن الحرث يقول مثال التعبد ببغداد مثال التعبد في الحش وكان يقول لا تهتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثرا في يقضى قبل وأين تختار السكنى قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد إذا هدم زاهد وشريرم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببغدة تكثر فيها المعاصي وقيل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها قاتلا على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل الطامعين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضاعتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها محال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختر شيئا بل أرضى

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر « العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم » وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يألوا ما تحصى من دنياهم فإذا ضلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف تقدم فيه .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه السألة إلى بعض المارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أعوف من الفتنة فقال يوسف لكفى لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لم لي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فليل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحب إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

(بيان جملة من حكايات الهيبين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

قيل لبعض المارفين إنك محب فقال لست محبا إنما محروب والمحب مشعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من الصبغة فقال أنا أكل السبغة وكان يقول إذا رأيت مني فقد رأيتم أربعين بدلا وقيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الحضرة عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الحضرة ولكن العجب ممن يريد الحضرة أن يراه فيجتنب عنه وحكي عن الحضرة عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأحد عجائبتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجعلت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قصد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم انفضت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذمتي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الملك الأسفل فدورني في الملك السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى التري ثم أدخلني في الملك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أحبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنفان فذكر أشياء ، قال يحيى فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لأسألك العرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويملك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواء . وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والرياء مشغول بعبادته ومواجهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكره عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد حاج وجد المريء فقال وبحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويملك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فببت الذي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويملك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحسب المنزلة عند الناس وحسب المصلحة والثناء وسئل الثبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت فقال احملني اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقنا على تل ننظره
ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع قال لمربنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت
لأبني هذا أبو يزيد فانظر إليه فانظر إليه الفتى ضعت فخر كناه فاذا هومت فعاونا على دفعه فقلت
لأبني يزيد ياسيدي نظره إليك قله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف
له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضياء للريدين فقتله ذلك.
ولما دخل الزنج البصرة قتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى
دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم
إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله
أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يجمعها وهذه أمور ممكنة في أنفسها
فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يغلو عن التصديق والایمان بامكانها فإن القدرة واسعة والفضل
عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الدين اسطفي
لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب
ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حببتك به وهذا بلا مثلم
ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء
رأيتن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتشخشن ويتنقن معهن فنظرت
إلین نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال،
وقيل لي انظر إلین قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لثلاث أنظر إلین وقلت أعوذ بك
مما سواك لاحاجة لي بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني . فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي
أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه
القاسي اضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة
أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم
مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن المحول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم
وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كبدورة الالتفات إلى الخلق بغض
عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يعمرى
عجری إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديد إذا شكلت وتبيت وصقلت وصورت
بعورة المرأة فنظر للنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو
لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك
غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك
وقصور من رآه وبشئ المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يشم روايح المكاشفة من
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شيء بلغت هذه للزلة قال كنت أكره الله
تعالى حالى معناه أسأله أن يكتم على ويغنى أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام ، فقال له
ادع الله تعالى لى ، فقال بسر الله عليك طاعته . قلت : زدنى قال وسترها عليك ، فقيل معناه
سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال أقلفنى
الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء
على . قال فرأيتة فما غلب على همى ولا همى إلا أن قلت له يا أبا العباس علمنى شيئا إذا قاتله حبيب عن
قلوب الخليفة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصالح ولا ديانة ، فقال قل : اللهم أسبل على كيف

زهدهم في الدنيا
لهوائها عندهم وعندى
أن الزهد في الزهد
غير هذا وإنما الزهد
في الزهد بالخروج من
الاختيار في الزهد لأن
الزاهد اختار الزهد
وأرادته وإرادته تستند
إلى علمه وعلمه قاصر
فاذا أقيم في مقام ترك
الارادة وانسلخ من
اختياره . كاشفه الله
تعالى بمراده فيترك
الدنيا ويراد الحق لا يريد
نفسه فيكون زهده
بالله تعالى حينئذ أو
يعلم أن مراد الله منه
التلبس بشيء من
الدنيا فما يدخل بالله
في شيء من الدنيا
لا يقص عليه زهده
فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادات حبيبك واجعاني في مكنون غيبك واحجيني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فإزات أقول هذه الكامحات في كل يوم فحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويعتمد حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلعه وخوله فكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون إنما يطلبونهم تحت الرقعات والطيالسة وفي الشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأني بالإخفاء هم كما قال تعالى : أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العمان القلوب الشكيرة العجيبة بأنفسها المستبشرة بحملها وعلمها وأقرب القلوب إليها القلوب النكسرة المستشعرة ذل نفسها استتماراً إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاة فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضاً بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلاً في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات فمثل هذا القلب يرجى له أن يستشق مبادئ هذه الروائح فإن قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأنه فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤنابهم فحسب أن يحضر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة إلا في قلوب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها باذلال النفس إلى منتهى الضعة والحقنة حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجند دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يردّه ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولوردتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضاً أنه قال نزلت في محلة ففرفت فيها بالصالح فتشقت على قلمي فدخلت الحمام وعبدت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقتي فوقها وخرجت وجملت أمشي قليلاً قليلاً فلحقوني فترعوا مرقتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضرباً فصرت بعد ذلك أعرف بلبس الحمام فسكنت نفسي فكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يخامسهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان اللتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بهر وتخال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يغارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوماً أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقت ليلاً ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله ، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيّتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعني صفة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الشيء من الدنيا بالله
وباذن منه زهداً
في الزهد والزاهد
في الزهد استوى عنده
وجود الدنيا وعدمها
إن تركها تركها بالله
وإن أخذها أخذها
بالله وهذا هو الزهد في
الزهد وقد رأينا من
العارفين من أقيم في
هذا التمام . وفوق هذا
مقام آخر في الزهد وهو
لمن يرد الحق إليه
اختياره لسمة عليه
وطهارة نفسه في مقام
البقاء في زهد زهداً
ثالثاً ويترك الدنيا بعد
أن مكن من ناصيتها
وأعبدت عليه
موهوبة ويكون تركه
الدنيا في هذا المقام
باختياره واختياره

وما سبعت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدى بهذا قبل كل شيء فقال لأطبقه قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف»^(١) وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا»^(٢) وقال عليه السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاء في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له»^(٣) وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الفنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية»^(٤) فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة على وراء الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً أخذ لحاقى من لا يفر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقه وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمشاير لم يجد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوتاته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصدى رضي الله عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم»^(٥) وفي حديث آخر «إن الله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله السخاء»^(٦) وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد
يختار تركها حيناً تأسياً
بالأنبياء والصالحين
ويرى أن أخذها في
مقام الزهد رفق أدخل
عليه لموضع ضعفه عن
درك شأواً لأقوياء من
الأنبياء والصدى
فيترك الرفق من الحق
بالحق للحق وقد تناوله
باختياره رفقاً بالنفس
بتدبير يسوسه فيه
صرح السلم وهذا
مقام التصرف لأقوياء
العارفين زهدوا ثالثاً
بالله كما رغبوا ثانياً بالله
كما زهدوا أولاً بالله .
[قولهم في الصبر]
قال سهل: الصبر انتظار
الفرج من الله وهو
أفضل الخدمة وأعلاها
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث طي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة إيماناً مع من التابعين ولم أجد له أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه ما لم يراعى ضعفه ابن ميمون والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصدى إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن طي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقه بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلثمائة شريعة وثلاث عشرة شريعة

« رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمقي فوضعت في كفة فرجح بهم (١) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لأنخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالهبة ينتفع بها)

قال سفيان : الهبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الله كروا لله غيره إشاراً المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الهبة فأما نفس الهبة فلم يتعرضوا لها ، وقال بعضهم الهبة معنى من المحبوب قهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته ، وقال الجند حرم الله تعالى الهبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت الهبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله أحذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحبة فقال العارف إن تكلم هلك والمحبة إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم
عجبت لمن يقول ذكرت إلي وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيأ ولولا حسن ظني ما حيت
فأحيأ بالمئي وأموت شوقاً فكم أحيأ عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نقد الشراب وما رويت
قلبت خياله نصب لعيسى فان قصرت في نظري عجت

وقالت رابعة العدوية يوماً من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمعون يوماً في الهبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فأت وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأنتى بذكرك وفرغتنى للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحق يقود وروح في لاش والعاقل عن عبويه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحبة لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاة مولاة وقال الشبلي الحب دهش في لذة وعبرة في تعظيم وتبيل المحبة أن تجو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل الهبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص الهبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن الهبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لأنخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن تصبر في الصبر
أى لا تطالع فيه
الفرج . قال الله تعالى
والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم التقون .
وقيل : لكل شيء
جوهر وجوهر الإنسان
العقل وجوهر العقل
الصبر فالصبر عرك
النفس وبالعرك تلين
والصبر جار في الصابر
يجرى الأنفاس لأنه
يحتاج إلى الصبر عن
كل مبهى ومكروه
ومذهوم وظاهره وباطنه
والعلم يدل والصبر
يقبل ولا تنفع دلالة العلم
بغير قبول الصبر ومن
كان العلم سائسه في
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة الحب على أربع منازل على المحبة والمحبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفتره وهي تحسر في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من التبعديت تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا لفقائه قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أقفأه يعذبني وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم الديرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما تروا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه إرادتي في الدبرين عنى فكيف إرادتي في القبلين على يا داود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما يكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجعت إلى وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء ما بدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلى رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركى لذا كرى وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى قطعه ومن اشتاق إليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا منى إليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دىنى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنىمى والعجز غنىمى والزهد حرقى واليقين قوتى والصدق شفعى والطاعة حى والجهد خلقى وقرة عىنى فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحان من جعل الأرواح جنودا مجنده فأرواح العارفين جلالية قدسية فذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الفاذلين هوائية فذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض الشايع رأيت فى جبل اللكام رجلا أعمى اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعباير والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الوفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان المؤمنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دىنى الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرها القرينة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل ومحبة الاعتدال وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ويان ذلك بدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القريبين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الخالص للدين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة الشاركيين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فقد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعمل والعبادة فالناس كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا العاملون والعاملون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهول لنفاق كفاء ومع العصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً بمغموراً - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بصدقهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما سبلنا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [الباب الأول في النية] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - والراد بذلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينسكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنيه (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاًحاً يوفق الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإيمانناظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحف مغممة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهمافي الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علماً فهو يتخطب بحمله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهمافي الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنيه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيته - واصبر وماصبرك - وإلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقب رجل على الشبلى فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبلى وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موطأ يخيظ السكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوهم بحسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر بيتني شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأته منافكا كان يسمى مهاجرا مقيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا يغزو معي فقال لاحق تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مركبنا من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لتسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به ، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بعسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيقه وفارقها أزهى ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكرة والأجير فقال يحشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجهه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتنطق بصبرته خجلا وذوبانا ويتغيب في مفاز استكاثته وتخفيه لإحساسه بعظم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصبرتها باستلحاق نور الجلال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر

من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر بيتني شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأته منافكا كان يسمى مهاجرا مقيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار أمجد له أصلا في الموصولات وأما رواه أبو اسحق الفراء في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى النسي من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا يغزو معي فقال لاحق تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي مسمى (٦) حديث من هم بعسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهى ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضيف بلفظ إنما يعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يعث المسلمون على النيات ولا بن ماجه من حديث أبي هريرة إنما يعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه .

هي العليا فهو في سبيل الله ^(١) » وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على مامات عليه ^(٢) » وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه ^(٣) » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة ^(٥) » . وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز أعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف . رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائفي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يعلمون النية للعمل كما تعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله قليل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا قترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعدوها ولكن أصبحوا تواابين وأمساوا تواابين يغفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولاتهم بصية وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ سورة البقرة حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأ أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فاضحتنا وهتكت أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا تنوي فإن صلاح نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مقتدر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بمائق .

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها ^(١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحلقى على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(٢) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواه مسلم ^(٣) حديث الأحنف عن أبي بكرة إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار متفق عليه ^(٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق ^(٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى ذلك .
وقال أبو الحسن بن
سالم هم ثلاثة متصبر
وصابر وصبار فالمتصبر
من صبر في الله فترة
يصبر ومرة يجزع
والصابر من يصبر في
الله وقه ولا يجزع
ولكن توقع منه
الشكوى وقد يمكن
منه الجزع وأما الصبار
فذاك الذي صبره في
الله والله وبالله فهذا لو
وقع عليه جميع البلايا
لا يجزع ولا يتغير من
جهة الوجود والحقيقة
لأمن جهة الرسم
والخلقة وإشارته في
هذا ظهور حكم العلم
فيه مع ظهور صفة
الطبيعة . وكان
الشبلي يمثل بهذين
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أغنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يطمح فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موقفا للغرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلازم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار النافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغداء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الحرب منها غخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية الحركة إليه غخلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لسكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلعت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالتية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل فالحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد النوى والانبعاث هو المقصد والنية وانبعاث القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاء القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهى عاضدا له ومعاوناً فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه صارا فانبعثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه فاتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بعوجها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها الفقير وقربته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمة ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للباعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من
ألم الشوق
ق وخوف الفراق
يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث
به الصبر
ر فصاح الحب للصبر
صبرا
قال جعفر الصادق
رحمه الله أمر الله تعالى
أنبياءه بالصبر وجعل
الحظ الأعلى للرسول
صلى الله عليه وسلم
حيث جعل صبره بالله
لا بنفسه فقال
- وما صبرك إلا بالله -
وسئل السري عن
الصبر فتكلم فيه فذهب
على رجله عقرب فجعل
يضربه بإبرته فقبل له لم
لا تدفعه ؟ قال أستحي
من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إتهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه النبي فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون ابتعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يتعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتقر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكامها في نفسها وإنما الحكم للتبوع .

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله »)

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بالنية أو على العقلة لا خير فيه أصلا والنية بمجرد خيرا وظاهر الترجيح للشركيين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بذية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أى لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخير خير من الفاكهة قائما بمعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن سميان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف ما أتاكم فيه . أخبرنا أبو زرعة بإجازة أبي بكر بن خلف بإجازة عن أبي عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغاني يقول سمعت الجنييد رحمه الله يقول إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالآيمان وأكرم الایمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالایمان زين المؤمن والعقل زين الایمان والصبر زين العقل وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله :
صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسي لنفسي ففرت

فالطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالقصد للذة السعادة بقاء الله قطع ولن ينعم بقاء الله إلا لمن مات عبدا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا لمن عرفه ولن يأمن بربه إلا لمن طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعاده في الآخرة منوط بها كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فإن للمواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتزوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميلا في الابتداء بالإضعاف ، فإن اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميلا ورسخ وعسر عليه التزوع وإن خالف مقتضى ميلا ضعف ميلا وانكسر وربما زال وانحرق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميلا حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على التزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميلا لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة ليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتقعق وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا والآخرة ، ويميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بلمه يموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو القصد والأعضاء آلات موصلة إلى القصد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد » (١) وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية » (٢) وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لاحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من حملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يسود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر بالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن العدة إذا تأملت فقد تدأوى بأن يوضع الظلاء على الصدر وتدأوى بالكرب والدواء الواصل إلى العدة ، فالكرب خير من ظلاء الصدر لأن ظلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعها للكروه

حتى تدرجت

ولولم أجرعها إذن

لاشعأزت

ألارب ذلساق للنفس

عزة

وبارب نفس بالتذال

عزت

إذا مامدوت السكف

ألتس النفي

إلى غدير من قال

اسألوني فشت

سأصبر جهدي إن في

الصبر عزة

وأرضى بدنيائي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ماأنعم الله

على عبد من نعمة ثم

اتزعها فعاضه مما

اتزع منه الصبر

إلا كان ماعاضه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .

إلى العدة ، فما يلقى عين العدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغير القلوب وتبديل صفاتها قسط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يقيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يقيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح نوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كدمه بل زاده شرا فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو سبيله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إشارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى ههنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركوا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الحارثيين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لموافق تخص الأسباب الخارجية عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردها في فضيلة النية فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

(بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الأعمال وإن اتسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفسكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاصي ومباحات. القسم الأول: للأصفي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن العصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يفتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رابطا بمال حرام وقصد الخير فهذا كله جهل بالنية لا تؤثر في إخراجها عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو مماند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل للروح لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طاب الجاهل واستماله قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يابا بمحمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالسكينة باب التعلم فمن يظن بالسكينة بنفسه أنه عالم فكيف يعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما انزعجه منه وأنشد
لسمنون :

تجمرت من حاله
نعمي وأبؤسا

زمانا إذا أجرى عزاليه
احتسى

فكم غمرة قد جرعتني
كؤوسها

فجرعتها من بحر صبري
أكؤوسا

تدرعت صبري
والتحفت صروقه

وقلت لنفسي الصبر أو
قاهل كي أسي

خطوب لوان الشم
زاحم خطبها

لساخت ولم تدرك لها
الكف ملسا

[قولهم في الفقر] قال
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فإذا كان
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والقصور أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعليم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ^(١) » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للفسهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على مكارمة العلماء ومباراة السفهاء واستماله وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والساكين فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا قاطع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألني سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لأمي وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم العلم يحسن ذلك في قلبه والشیطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للقزاة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو المعاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرم مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ^(٢) » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به غيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد تعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدينائه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيراً في نقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذاراً وأمنه فجورا واستحلال حرام هجره ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاء عن تعليمه لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تعدو جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل . حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو

نثر . وقال السكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهم أحالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند للوجود . وقال الدراج فتشمت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت ، فلما جاء قلت له : إني وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيتهما ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئاً فقالت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقي

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بطل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلغنى أنك طيقت حائط ديارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو
أعملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فمكثا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا
وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالة والأحكام الواسعة وأصحاب
الأسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا
والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعاقب بالخلق ويتوصل بها إلى جمع
الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والباحات دون العاصي إذ الطاعة تنقأ بمعصية بالقصد والباح ينقأ
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقأ طاعة بالقصد أصلا ، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف
إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة . القسم الثاني الطاعات
وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى
لا غير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة
يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل
حسنة عشر أمثالها ^(١) كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله
وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال
«من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زائره» ^(٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة
بعد الصلاة في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - ورابطوا - . وثالثها الترهيب
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كفو وهو في معنى الصوم وهو
نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمي القعود في المساجد» ^(٣) ورابعها
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاغترال إلى المسجد
 وخامسها التجرد لذكر الله أولا استماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر
الله تعالى أو يذكره به كان كالحجاء في سبيل الله تعالى» ^(٤) وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف
ونهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عن منسى في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده
إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراؤه . وسابعها أن يستفيد أخا
في الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله . وثامنها
أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضى هناك الحرمة ،
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع
خصال أحما مستفادا في الله أو رحمة مستنزلة أو علما مستظرفا أو كلفة تدل على هدى أو تصرفه

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى
وحق على المزور إكرام زائره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمي القعود
في المساجد لم أجده أصلا (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكره به كان كالحجاء في سبيل
الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجة وإسناده جيد
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح

الله تعالى من الدنيا
مفسراء ولا يضاء
غيرها فأردت أن
أوصي أن تشد في كفي
فأردها إلى الله وقال
ابراهيم الخواص الفقر
رداء الشرف ولباس
المسلمين وجلباب
الصالحين . وسئل
سهل بن عبد الله عن
الفقر الصادق فقال
لا يسأل ولا يرد ولا
يعبس . وقال أبو علي
الروذباري رحمه الله
سألت الزقاق فقال
يا أبا علي لم ترك الفقراء
أخذ البلغة في وقت
الحاجة قال قلت لأنهم
مستغنون بالعطى عن
العطايا قال نعم ولكن
وقع لي شيء آخر فقلت
هات أفدني ما وقع لك

عن ردى أو يترك الذنوب خشية أوحياء فهذا طريق تسخير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا واحتمل نيات كثيرة وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] وما من شيء من المباحات إلا واحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى الهائم للمهمة عن سهو وغفلة ولا ينفى أن يستحق العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللاحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده بهذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب» (١) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» (٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنث من الحيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فان قلت فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التعم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكترة المال ليحسده الأقران أو يقصده رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ولأموار أخر لا تخصي وكل هذا يجعل التطيب معصية فذلك يكون أنث من الحيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتعم فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستجمل ما يفنى ويغسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٣) وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة وأن يقصده ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤذى إلى إيذاء مخالطيه وأن يقصد حمم باب الغيبة عن المفتايين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيحسون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل: إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالباً على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده له إسناداً (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبوداود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما طي أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا يشفعهم الوجود إذ الله فاقهم ولا تضرهم الفاقة إذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال السوحي الفقير الذى لا تغنيه النعم ولا تفقره الحن . وقال يحيى بن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله ورحمه عدم الأسباب كلها وقال أبو بكر الطوسي بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أمهاتنا لهذا الفقر على سائر الأشياء فلم يجبني أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحامى فقال لى لأنه أول منزل من منازل

وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف إنني لأستحجب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان طيما بأكله ونسكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممنوع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله وإذا بلغه اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ولنيز ذلك بسكوته عن الجواب في الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك (١) » وفي الخبر « إن العبد ليؤا في القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص له ذمام حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فئت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشروورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جاري فتخرجت ثم قلت تراب وما تراب قربة فتفت في هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب ففرقه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوء فسأله عن ذلك فقال إن لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليعلم بالرجل يوم القيامة فيقول يبي وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من اللغتين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك من الآخرة وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأعرض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون الداعي هو خفي لا يطلع عليه ولا يعرفك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراق فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البجلي مختصرا إن العبد لياقي كتابه يوم القيامة منتظرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعلمها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليؤا في القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فقتلت بذلك
وسئل ابن الجلاء عن
الفقر فسكت حتى صلى
ثم ذهب ورجع ثم قال
إنني لم أسكت إلا لدرهم
كان عندي فذهبت
فأخرجته واستجيت
من الله تعالى أن أتكلم
في الفقر وعندي ذلك
ثم جلس وتكلم .
قال أبو بكر بن
طاهر عن حكم الفقير
أن لا يكون له رغبة
فإن كان ولا بد لا تجاوز
رغبته كفايته . قال
فارس قلت لبعض
الفقراء مرة وعليه أثر
الجوع والضر لم لا تسأل
فيطعموك ؟ فقال إنني
أخاف أن أسألهم
فيمنعوني فلا يفلحون
وأشد لبعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتهجّبوا منه لما علموا من سخائم وزهده وظنوا أن الخير في طلب الساعة في الطعام فقال إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إلى الرغيف لا تقوى به على عملهم فلوأ كلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلني حتى لقي أصابه ثم قال لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين التفاق وبالتالي تعريضه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقسم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

(بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكبيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمنزلة من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما أجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبان نويت أن أشتري الطعام وأميل إليه أوقول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبثق النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس اللائمة لها وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا توجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعثة إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم فضله لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التسب وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد فإذا اتهمته القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري فقالت أجيء بالمرأة فكت ساعت ثم قال نعم قليل له في ذلك فقال كان لي في المدري نية

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خاخصة ساق عبده الجرجا
فقر وصبرها ثوبان تحمها
قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحري الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور في الثوب الذي حلما
الدهر لي مآثم إن غبت يا أملي
والعيد مادمت لي مرأى ومستعما .
[قولهم في الشكر]
قال بعضهم الشكر هو الغيبة عن الذممة برؤية الذم . وقال يحيى بن معاذ الرازي لست بشاكر مادمت تشكر وغاية الشكر

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

ولم تحضرني في المرأة نية تنوقت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قبيل الثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عما من أعمال البر يقول إن رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ولا يسأل فيتدىء قبيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فعلت. وحكى أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد فصفا وورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأنظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فاستغفرت قال أحمد فردده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجده نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لزيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميهون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في الفرض إلا بمجهود وجه ودوايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بساط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته وإجلاله لا لأمر سواء فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الوعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فاتها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جباله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتقدمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجهه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين مما يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مغالطة الخدان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإفهامها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يلتفت إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التعبر وذلك أن
الشكر نعمة من
الله يجب الشكر
عليها وفي أجار داود
عليه السلام إلهي
كيف أشكرك وأنا
لا أستطيع أن
أشكرك إلا بنعمة
ثانية من نعمك فأوحى
الله إلي أنه إذا عرفت
هذا فقد شكرته
ومعنى الشكر في اللغة
هو الكشف والاعتراف
يقال شكر وكشر
إذا كشف عن قعر
وأظهره فنشر النعم
وذكرها وتمسدها
بالسان من الشكر
وباطن الشكر أن
تستعين بالنعم على
الطاعة ولا تستعين بها
على المعصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا يزيد فان يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلي . ورؤى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قوله واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فاما نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بقصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضر نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبت نية في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادات لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفسا ساعة بلم وحدث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشئ من الله فيكون ذلك عوناً لي على الحق وقال علي كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عمت وهذه دقائق لا يدركها إلا بمسيرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور بالحجم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطلب وإنما ينبغي به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالصد والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستعملها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمن إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا لا تعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمهما لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

(الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالص - وقال تعالى - إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - نزلت فيمن يعمل لله ويجب أن يعمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله ^(١) » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعةائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم ^(٢) » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

(الباب الثاني في الاخلاص)

(١) حديث ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعةائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تصرون وترزقون إلا بضعةائكم .

النعمة . وصيحت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :
أوليتي نعماً أبوح بشكرها
وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلا شكر لك ما حيت وإن أمت
فلتشكرتك أعظمي في قبرها .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصر وأعطى فشكر وظلم ففقر وظلم فاستغفر » قيل فما باله قال « أولئك

أحببت من عبادي ^(١) » وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تنهوا القلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يحرك منه القليل ^(٢) » وقال عليه السلام « مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٣) » وقال عليه السلام « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله ما لا فيقول الله تعالى لقد أتممت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتل فيقول الله كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ على غزدي وقال يا باهريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة ^(٤) » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تهرق ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الأسرار إليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحلك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذلك تركت عبادتك واشتغلتك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبد بها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فإذا به لاقتال فعليه العابد وصرعه وقعد على صدره فجزئ إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنزع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشئ لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهم فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواة سأل فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل يحرك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لهم الأمن وهم مهتدون . وقال الجليل قرص الشكر الاعتراف بالنعمة بالقلب واللسان . وفي الحديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » . وقال بعضهم في قوله تعالى - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - قال الظاهرة العوافي والغنى والباطنة البسلاوي والفقر فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء . وحقبة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعمًا غير ما يضره في دينه لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئًا إلا وهو نعمة في حقه فإما عجلة

وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينار بن عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ رأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قل فتناوله العابد ليفعل به كإفد أول مرة فقال هيراث فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالمصفور بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتبين عن هذا الأمر أولاً فغلبتك فأنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال يا هذا غلبتني غلتي عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أولاً مرة فله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لا يوهذه المرة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص ولذلك كان معروف السكروني رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن سخط له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلعت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص النية في أتمالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخلّص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . وروى بعضهم في المنام فقبل له كيف وجدت : عملك ؟ فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنة وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيتها في كفة السيئات وكان قد نفق حماري قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت موت سنور في كفة الحسنة وموت حماري فيها فقبل لي إنه قد وجه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسنة . وفي رواية قال وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لأعلى ولألى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القث والهم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفقش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه القضية لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشيء فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألتني أن أحج معك فقلت لا قلت فم لا فعلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد زويت أن أتم هذه الأرض العسية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حبة . وروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فمرض بعضنا فملا فقلت اشتريها فأتفّع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعثها فربعت فيها فاشتريتها فرأيت تلك اللبة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الفزاة فأملى عليه خرج فلان منزهاً وفلان مرأياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجراً فقلت

بصرفها ويفهمها وإما آجلة بما يقضى له من المكارة فاما أن تكون درجة له أو تمجيصاً أو تكفيراً فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

[قولهم في الخوف]
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضاً وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياة منه» قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت أتجر وما مئى تجارة أتجر فيها ماخرجت إلا للزوق قال يا شيخ قد اشتريت
أمس عملة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت لا تسكتبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال
اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه عملة ليربع فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى.
وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تسكتب
سبعين حديثا أو سبعائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نحة الأبد ولكن الاخلاص عزيز
ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه
ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه
الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط . وقال
الجيد : إن لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب
البر أجمع . وقال محمد بن سعيد الروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له
فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وتخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل
الصفي الخالص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فوثن ودم لنا خالصا سائغا للشاربين - فاعلموا خلوص
اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفوثن ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده
الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك
في الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب
فمحله القلب وإنما يكون ذلك في التصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة
البواعث ففهما كان الباعث واحدا على التجرد مسمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى الذوى
فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخالص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص
ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب
كما أن الاتحاد عبارة عن البيل ولكن خصصته العادة بالبيل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء
فهو معرض للهلاك وإنما تتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات
وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن الرائى يدعى يوم القيامة بأربع أسماء يامرأى يا غادع يا مشرك
يا كافر (١) » وإنما تتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر
إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحلمة الحاصلة بالصوم مع
قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصحب مزاجه بحركة السفر
أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل
هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزو ولجارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيشة
الساكر وجرحها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع الناس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتم
العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيا بين المشركين أو ليكون عقاره أو ماله محروسا
بعض العلم عن الأطلاع أو اشتغل بالدريس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث
أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا في الدنيا

(١) حديث إن الرائى يدعى يوم القيامة يامرأى يا غادع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة
والاخلاص وقد تهدم .

نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان . وقال
بعضهم ليس الخائف
من يبكى ويمسح
عينيه ولكن الخائف
الناظر ما يخاف أن
يعذب عليه . وقيل
الخائف الذى لا يخاف
غير الله قيل أى
لا يخاف لنفسه إنما
يخاف إجلالا له
والخوف للنفس خوف
العقوبة . وقال سهل
الخوف ذكر والرجاء
أنهى أى منهما تتولد
حقائق الإيمان . قال
الله تعالى - ولقد
وصينا الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم
وإياكم أن اتقوا
الله - . قيل هذه الآية
قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضعا
ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلوم الاسناد أو اعتسكف في السجد
ليخفف كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله
الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إيرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريض العباد إذا مرض
أو يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويدكر به وينظر إليه بعين
الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى واسكن انضاف إليه خطرة من هذه
الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج
عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»
وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق
إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما
ينفك قل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك
قل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب
عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ
إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يغني شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد
الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة المواقفة أو في
رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث
الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخلص العمل
عن هذه الشوائب كلها قليلا وكثيرا حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا
لا يتصور إلا من يحب الله مستمرا بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى
لا يغيب الأكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة
فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج
إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدراً للضرورة مطلقا بعنده
لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل وشرب وأقضى حاجته كان
خالص العمل صحيح الية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يرجع نفسه ليتقوى على العبادة بعده
كان نومه عبادة وكان له درجة الخاصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود
عليه إلا على الدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة همه
وصارت إخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقد اكتمت جميع
حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإذا نزل علاج الاخلاص كسر
حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا تيسر
الاخلاص وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى
وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول
لأنى تأخرت يوما لعذر فصلت في الصف الثانى فاعتزنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى
فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرنا وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر وهذا دقيق
غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من تنبه له إلا من وقفه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في
الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .
وقيل إن الله تعالى جمع
للخائفين مافرقه على
المؤمنين وهو الهدى
والرحمة والعلم
والرضوان فقال تعالى
- هدى ورحمة للذين
هم لربهم يرهبون -
وقال - إنما يخشى الله
من عباده العلماء -
وقال - رضى الله عنهم
ورضوا عنه ذلك لمن
خشى ربه - . وقال
سهل: كمال الإيمان بالعالم
وكمال العلم بالخوف .
وقال أيضا: العلم كسب
الإيمان والخوف
كسب المعرفة . وقال
ذوالنون: لا يسقى المحب
كأس المحبة إلا من بعد
أن ينضج الخوف قلبه .
وقال فضيل بن عياض

وبقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشدّ الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للأكثرين على نشر العلم للذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والشاء والسيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسرله من نصرة الدين ولوظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يغلبه ويقول إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا انصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو انعطوا بقولك لكنت أنت الثابت واعتمادك لقوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوبا وأعود عليه في الآخرة من انقراذه ، وليست شعري لو اعتم عمر رضي الله عنه بتصدع أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أ كان غمه محمودا أم مذموما ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد يتخذه بعض أهل العلم بفرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحنائها ، فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد القذ وهو المستثنى في قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر.

(بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص)

قال الموسى : الإخلاص فقد رؤية الاخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه عجب ؟ وهو من جملة الآفات . والخالص : ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالفرض وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعايد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معاول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله
اسكت فانك ان قلت لا
كفرت وان قلت نعم
كذبت فليس وصفك
وصف من يخاف .
[قولهم في الرجاء] قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم «يقول الله
عز وجل أخرجوا من
النار من كان في قلبه
مثقال حبة من خردل
من إيمان ثم يقول
وعزني وجسلا لي
لأجعل من آمن بي
من ساعة من ليل
أو نهار كمن لا يؤمن
بي» . قيل «جاء أعرابي
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال من يلي
حساب الخلق ؟ فقال
الله تبارك وتعالى قال
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشوائب الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء . وهذا لا يعمد الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لوعوضوا عما هم فيه من لذّة الطاعة والناجاة وملزمة الشهود للحضرة الإلهية سرّا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقاقه . ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط . وقدك قال بعضهم الإخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الإخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون ليسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تمرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجليل : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقوال في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكرير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي يان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الإخلاص فقال : أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

(يان درجات الشوائب والآفات المكذرة للإخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضئيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلي مهم من مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أودخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر يعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يغني ذلك على البتة من الريدين . الدرجة الثانية يكون المرید يدفع هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وماتفعله يؤثر عنك ويتأسي بك فغيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت عليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه ففساد يقتدى بك في الحشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الإخلاص فقال أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذی وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به قال قل ربّي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرجي فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ضحكك يا أعرجي ؟ فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح . وقال شاه الكرمانی : علامة الرجاء حسن الطاعة . وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجلال . وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب . قال أبو علي الروذباري : الخشوف والرجاء بكناهي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه . قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو . قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم
لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا بعض التلبس
بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستقرار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما
هذا فمحض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويماقب على إظهاره
من نفسه مالميس متصفا به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد
الشیطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون
صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا
رائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويعسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ويصلي في الملاء
أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء النامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملاء فلا يكون قد
فرق بينها فالتفاتة في الخلوة والملاء إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة
الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي
من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة والملاء وهما
بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملاء جميعا وهذا من شخص
مشغول بهم بالخلق في الملاء والخللا جميعا وهذا من السكايد الخفية للشیطان . الدرجة الرابعة هي أدق
وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف
أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه
واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن
ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والحداع فان خشوعه لو كان نظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة
تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون
هذا الحاضر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاء لا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الحاضر كما لا يكون
حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن
صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب
الظلمة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من
دق نظره وسعد بصحة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشیطان ملازم للمتشمخين لعبادة الله تعالى
لا يشغل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب
وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لا يرتبط بنظر
الخلق بها ولا ستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها
وتكون ابتعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص
بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجده مور نظيف حسن
العمارة بأنس إليه الطبع فالشیطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك
الحق في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد
المسجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشواهب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الظلمة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة
تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف اللؤمن
ورجاء لا اعتدلا .
والخوف والرجاء
للإيمان كالجناحين
ولا يكون خافها إلا
وهو راج ولا راجيا
إلا وهو خائف لأن
موجب الخوف الإيمان
وبالإيمان رجاء
وموجب الرجاء الإيمان
ومن الإيمان خوف
ولهذا المعنى روى
عن لقمان أنه قال
لابنه خف الله تعالى
خوفا لا تأمن فيه
مكره وارجح أشد من
خوفك ، قال فكيف
أستطيع ذلك وإني
لي قلب واحد ؟ قال
أما علمت أن اللؤمن
لذو قلبين يخاف
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري المش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يوجب ومنها ما يوجب لكن يسهل فذكره ومنها ما يوجب بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبت النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واعتزازه بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار الموه واستدارته وهو مغموش زائف في نفسه وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر العبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات التطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليتنفع بما ذكرناه مثالا والفتن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس قد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب العقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذي يتقدم لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفوض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من الهلكات وإنما غذاء هذا الهلاك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من التنجيات وإنما قوتها بالعمل على وقعتها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالتضرر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يغلب الغالب عن أثر فكلا لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والدكر ماله فقال لا شيء له فأعاده ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه ولترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان . [قولهم في التوكل] قال السري : التوكل الانحلال من الحول والقوة . وقال الجليل التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وفقا غير التوكل فإنه وجه بلا تفا قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله فتوكلوا وإن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لنبيه - ونوكل على الحى الذى لا يموت - وقال

من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إثارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا قد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر. وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض غفيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب. وما عدى أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها التنازع وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والزعيج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإعلاء الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة. فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا -» (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغني الأغنياء عن الشرك» ممن عمل على عملا فلا يشرك معي غيره ودعت نصيبى لشريكى» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فتقول هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبد من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمده ويؤجر فنزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ففي سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. وقال أبو بكر الرقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد. وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره. وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله. وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الإنسان عدد الشركة أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولئك قال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص في الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث ترضيه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنمة وقدر على غزوطا فنتبين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لا علاء كلمة الله وللغنمة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج في الدين ومداخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في حصان الثواب فأما أن يكون في إحباطه فلا نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يغنى غاية الحفاه فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لأعتد بما ظهر من عملي وقال عبدالعزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا طئ ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ القصد أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيا الحجاز ويغف في أعماله فكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يفتقه فداقه عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فمذر عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالبتة نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» (١) ويكفى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال - واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث في الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدي إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

صليت بين يدي
العاسل يقبله كيف أراد
ولا يكون له حركة
ولا تدبير وقال حمدون
التصار : التوكل هو
الاعتماد بالله . وقال
سهل أيضا : العلم كله باب
من التمسك والتعبد كله
باب من الورع والورع
كله باب من الزهد
والزهد كله باب من
التوكل . وقال :
التقوى واليقين مثل
كفك البرهان والتوكل
لسانه به تعرف الزيادة
والنقصان ويقع لى أن
اتوكل على قدر العلم
بلوكل فكل من كان
أتم معرفة كان أتم
توكلا ومن كل توكله
فأب في رؤية الوكيل
عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام قلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل قلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان أجمل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل للحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن طي السكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياد اود من صدقي في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فالله تعالى ينجيهِ كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والملاء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب الطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجمعون فقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم ولا مال أرفع من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفسك ولا حسنة أعل من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قعر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة يدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق^(١)» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أصدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراقبته)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدقي لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه والخبر إيمان يتعلق بالماضي أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للمراقبة فيصدق فيه العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بازاء للقسوم لهم عدلا وموازنة فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ما أحس بشيء يقدر في توحيده يراه من منبع النفس فتقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكأله يثبت بضية النفس وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم في تفتيش النفس بتقوية مواد القلب فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصح التوكل والمبد غير ناظر إليه وكما تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض فتدقيق في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك محتمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويتقضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره^(١) وذلك كي لا يتهمى الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيرا»^(٢) ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فهما صرح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد - وقوله أنا عبد الله فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحميقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تعبد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة»^(٣) فسمى كل من تعبد قلبه بشيء عبدا له وإعما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحقت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبه وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقتنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتقضي إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كاليت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيغلب وجود الحق الأعيان والأشياء ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضملاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائل لأنه يرى الأسباب موثقا لحياته لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [قوله في الرضا] قال الحارث الرضا نكون

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده مولود لآلئته وهذه درجة الصديقيين . وأما الحرية عن غير الله
فدرجات الصادقين وبمدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا
ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثاني : في النية والأرادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص
وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس
بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين
يسئل العالم ما عملت فيها علمت ؟ فقال فملت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال
فلان عالم (١) فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق
صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك
لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب
يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال : إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يتقدم بقول
فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد
معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مختصا . الصدق الثالث :
صدق العزم فان الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعة
أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتل وإن أعطاني الله تعالى ولاية
عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة
جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق
هنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لقائل شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم
تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق
والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل
تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فاضرب
عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه تامة فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم
والهبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه أو كذا ذلك بما ذكره من القتل . ومراتب
الصديقيين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا دخل
ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والؤمنين من لو خير بين أن
يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم
فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حققت الحقائق
وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد
الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس «أن
عمة أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول
مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال
يا أبا عمرو إلى أين فقال واهما لرجل الجنة إني أجد ريحها دون أحد قاتل حتى قتل فوجد في جسده
ضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا بينائه ، فنزلت
هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) . «وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت ماذا عملت تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

القلب تحت جريان
الحكم وقال ذوالنون
الرضا سرور القلب عبر
القضاء . وقال سفيان
عند رابعة اللهم أرض
عنا فقالت له أما
تستحي أن تطلب رضا
من است عنه يرض
فسألها بعض الحاضرين
مق يكون العبد راضيا
عن الله تعالى فقالت
إذا كان سروره
بالمصيبة كسروره
بالنعمة . وقال سهل إذا
اتصل الرضا بالرضوان
اتصلت الطمأنينة
- فطوبى لهم وحسن
مآب - وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«ذاق طعم الإيمان من
رضي الله ربه» وقال
عليه السلام «إن الله

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو في الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا إن رزقنا الله تعالى مالنا لنصدقن فبخلوا به فزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شئ نووه في أنفسهم لم يتكلموا به قط ، - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله غلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تنكس عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحكم وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فخصرب عنقى أحب إلى من أن أنامر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يشغل عليها ذلك فتغير عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا لى السماء الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مراثبا بإمام ولا ينبجى من هذا إلا باستواء السريرة والعلاية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا نكثت الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت زياء وبفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده إضع وتمايون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرا هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسل (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمجة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يفرقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمجة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فى رضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي سالحة (١) » وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه الردود لا يقتضى الثنا

للدنيا في قلبه مقدار .
وقال السري : خمس
من أخلاق القربين
الرضا عن الله فيما يحب
النفس وتكبره
والحب له بالحب
إليه والحياء من الله
والأنس به والوحشة
مما سواه . وقال الفضيل
الراضي لا يتعنى فوق
منزله شيئا وقال ابن
شعون الرضا بالحق
والرضا له والرضا عنه
فالرضا بمدبراً ومختاراً
والرضا عنه قاماً
ومعطياً والرضا له إلهاً
ورباً . سئل أبو سعيد
هل يجوز أن يكون
العبد راضياً ساخطاً قال
نعم يجوز أن يكون
راضياً عن ربه ساخطاً
على نفسه وعلى كل قاطع

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقعت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به اللائكة يقول هذا عبدى حقاً . وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أشمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويكي ، وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبدأ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال فلان صادق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألتك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية (٢) » ولنضرب للتحرف مثلاً من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرسه ويتنخم عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفاً من مدرك المذخور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان نصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها (٣) » فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه اللقائات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبيد منه حظ بحسب حاله إما ضئيف وإما قوى فإذا قوى سمي صادقاً فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوق النبي ﷺ مغشياً عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيراً من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر للروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إسناداً .
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعل كاهله وإن رجله قد مرقنا تحت غيوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع ^(١) ، بمعنى كالصغور الصغير ، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملاء الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى ^(٢) » يعني السماء التي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يبنوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما إن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حتى في دين الله . وقال مطرف ما من الناس أحد إلا وهو أحقق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير ^(٣) » فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لنهايتها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيها سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت لحدثت نفسي حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة لحدثت نفسي بغير ما هي قائمة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكل قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة وآتوا الجنازات ولم يلفوا هذا البالغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لامة للمؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليته بيلابا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحببها وإن وجدته جزوعا بشكونى إلى خلقى خذته ولا أبالي فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها . ثم كتاب الصدق والاخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال على رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال . وقال يحيى يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فعل منه بك وفعل

- (١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملاء الأعلى كالحلس البالي من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيدى ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده أصلا في حديث مرفوع .

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت الطلع على ضياء القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يهرب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على التقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت التفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت التطول بالغفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها الزجاجة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغفرت رحمة الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فينفحات فضله انسمت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالمبادات وتآذبت وبمحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وتأييده ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته ترجع كفة الحسنات إذا قتل وتيسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والاباء والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[أما بعد] فقد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يبعثهم الله جميعا فلينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه - فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمِرصاد وأنهم سينا قشون في الحسب ويظالبون بمثاقيل الدر من الحطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الحطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن متقبله وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الحزى والقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والرابطة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا صبروا وصابروا وراابطوا - فرابطوا أنفسهم أولا بالمشاركة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم المراقبة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحسبان المعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

(المقام الأول من الرابطة المشاركة)

اعلم أن مطلب للتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

منك له قرضي بما
عمل وتخلص فيما تعمل
وقال بعضهم الراضي
من لم يندم على فائت
من الدنيا ولم يتأسف
عليها . وقيل ليحي
ابن معاذ فيبلغ العبد
إلى مقام الرضا قال إذا
أقام نفسه على أربعة
أصول فيما يعمل به يقول
إن أعطيني قبلت
وإن منعتني رضيت
وإن تركتني عبت
وإن دعوتني أجبت
وقال الشبلي رحمه الله
بين يدي الجنيد لا حول
ولا قوة إلا بالله . قال
الجنيد قولك ذائق
صدر فقال صدقت قال
فضيق الصدر ترك
الرضا بالقضاء وهذا
إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها وقد خاب من
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرجها
فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً
يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويقا به أو يما تبه رابعاً وكذلك
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يخفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يمتز
إلا الحياة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو واتهم بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره المنتهى
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها
محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت قصيرها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح باقطاعه دائماً وقد انقضى
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فغم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يخفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها
وسكناتها وخطراتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها يمكن أن
يشتري بها كثر من الكنوز لا يتناهى نعيمة أبد الآباد فاتقضاء هذه الأنفاس ضائعة ومصروفة إلى
ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا العمر ومهما فى فقد فى رأس المال
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أهملنى الله فيه وأنسى فى أجلى وأنعم على
به ولو توفانى لكنت أمتنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحدا حتى أعمل فيه صالحاً لحاسبى أنك قد توفيت
ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها واعلمى بأنفس
أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة
فيقال له من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار الملووزع
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة
فروح تنتهى ويفشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيقال له من الهول والفرع الموقم على أهل
الجنة لتفحص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهى الساعة
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتعسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب مسلكك ولا تعيلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

الله تنبيها منه على
أصل الرضا وذلك أن
الرضا يحصل لا بشرط
القلب وانفساحه
وانسراح القلب من
نور اليقين قال الله تعالى
- أفمن شرح الله صدره
للإسلام فهو على نور
من ربه - فاذا تمكن
النور من الباطن اتسع
الصدر وانفتحت عين
البصيرة وعان حسن
تدبير الله تعالى فيتنوع
الخط والضرر لأن
اتساع الصدر يتضمن
حلاوة الحب وفعل
المحبوب بموقع الرضا
عن المحب الصادق لأن
المحب يرى أن الفعل
من المحبوب مراده
واختياره فيفى في لذة
روية اختيار المحبوب

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلاً .

درجات عليين ما بدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرتك لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن السوء قد عني عنه أليس قد فاعل ثواب المحسنين أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وسية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة وإن لهن سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وحنه رسوله ومطالعة كتب الحكمة للانعاط والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها اللسان والبطن أما اللسان فلا أنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنائه عظيمة بالنية والكذب والتمية وتركبة النفس ومذمة الخلق والأطعمة والأمن والدعاء على الأعداء والمارة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكروالتذكروا لئلا يكرهوا العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ومنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالنس عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ليستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفتر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المراتبة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المراتبة فيها بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتحاق للحق في مجاريها ويحذر بها منية الإهمال ويحفظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستحبة عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراتبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة وزيادة وتقصان فإنه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره يعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فبينوا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما

قيل :

وكل ما يفعل المحبوب

محبوب .

[الباب الحادى

والستون في ذكر

الأحوال وشرحها]

حدثنا شيخنا شيخ

الاسلام أبو النجيب

السهروردي رحمه الله

قال أنا أبو طالب الزيني

قال أخبرتنا كريمة

السروزية قالت أنا

أبو الهيثم الكشميري

قال أنا أبو عبد الله

الفسري قال أنا

أبو عبد الله البخاري

قال ثنا سليمان بن حرب

قال حدثنا شعبة عن

قتادة عن أنس بن

مالك رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويصطه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فأنته عنه » (١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (٢) دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لمحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموت تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتيسروا للمرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلاء بالدارة وقال إلامن حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلامن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للـ مستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [الرابطة الثانية الرقابة] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها مذكراته فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائلة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولتذكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه » (٣) وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) وقد قال تعالى - أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قانعون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالملم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريدي : أمرنا هذا مبني على أصلين أن تلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكُن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرئك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تسكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فعدا بمدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تسكرم .

كن فيه وجد حلاوة
الايمن : من كان الله
ورسوله أحب إليهما
سواهما ومن أحب عبدا
لا يحبه إلا الله ومن يكره
أن يعود في الكفر بعد
إذ أنقذه الله منه كما
يكره أن يلقى في النار .
وأخبرنا شيخنا
أبو زرعة طاهربن
أبي الفضل قال أنا
أبو بكر بن خائف قال
أنا أبو عبد الرحمن قال
أنا أبو عمر بن حيوة
قال حدثني أبو عبيد بن
مؤمل عن أبيه قال
حدثني بشر بن محمد
قال حدثنا عبد الملك
ابن وهب عن إبراهيم
ابن أبي عتبة عن
العرباض بن سارية
قال « كان رسول الله

- (١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت فغطت وجهه ضمير كان لها فقال يوسف مالك أنتسحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال ممن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكبا . وقال رجل للجند هم أستعين على غض البصر فقال بطرك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني والذين اثنت أصلاهم من خشيق وعزنى وجلالى إني لأهم بصذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المهاجر عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة . ويرى أن الله تعالى قال ملائكته أتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن طي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تنيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تشفع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه - قال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا لناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن طي عظمى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية عليك بالرجاء ممن يملك الوفاء عليك بالحدذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبادة بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فمرسنا في بعض الطريق فأنعذر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعنى شاة من هذه النعم فقال إني مملوك فقال قل لسيديك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تمتك في الآخرة .

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة للمراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتشمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تشمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشيرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم
يدعو : اللهم اجعل
حبك أحب إلى من
نفسى ومحمى وبصرى
وأهلى ومالى ومن
الماء الباردة فكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلب
خالص الحب وخالص
الحب هو أن يحب الله
تعالى بكليته وذلك
أن العبد قد يكون في
حال قائما بشروط
حاله بحكم العلم والجيلة
تتقاضه بضد العلم مثل
أن يكون راضيا
والجيلة قد تنكره
ويكون النظر إلى
الانقياد بالعلم لا إلى
الاستعصاء بالجيلة
قد يحب الله تعالى
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربّ علم لاشك فيه لا يلبث على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والوقوف بهذه المراقبة هم للقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، فراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والاحلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها لأنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فأنها تدخل عن الالتفات إلى اللبّاحات فضلا عن المخطورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاء الله سائر الهوم ، ومن نال هذه الدرجة قد ينفذ عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو قانع عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمرّ على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يمرى عليه ذلك ، فقال لمن طابه إذا مرت بي فركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا في القلوب المنظمة للملوك الأرض حتى إن خدم للملك قد لا يحسون بما يمرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيفوس الرجل في الفكر فيه ويمشى فريحا يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبند الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة القام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عبّ ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من أقيت في الطريق فقال ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أمت وحدك فقال معى ربى وملسكأى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومضى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتسكّم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فأنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو متكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه الرقابة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما انظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتنى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . قلت : نشدكما بالله إلا ارددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكلى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صليت الظهر والمصر

ويحب الأهل والولد
بحكم الطبع . وللمحبة
وجوه وبواعث المحبة
فى الانسان متنوعة
لأنها محبة الروح
ومحبة القلب ومحبة
النفس ومحبة العقل
فقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وقد ذكر الأهل
والمال والماء البارد
معناه استئصال عروق
المحبة بمحبة الله تعالى
حتى يكون حب الله
تعالى طالبا فيحب الله
تعالى بقلبه وروحه
وكلته حتى يكون
حب الله تعالى أغلب
فى الطبع أيضا والحبيلة
من حب الماء البارد
وهذا يكون حبا
صافيا لخواص تنضم

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظمى فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصاب ليس لنا لسان العظة فقيمت عندها ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلًا شيا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعطاني أعلى أن أتفع بعظمتها فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبتة على قلبك يعظك بلسان ضله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة للمراقبين الذين غلب على قلوبهم الاحلال والتعظيم فلم يبق فيهم منفع لغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولستكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلف إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يعجمون إلا بعد الثبوت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فانهم يرون الله فى الدنيا مطالعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتجسن جلوسك وتراعى أحوالك لأعن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيب الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مظهره وتحركه بقطعه خاطره أهو لله خاصة أهو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى يشكف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استجيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه فان فى الخبر « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن ^(١) » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أ كان عليك أن تفعله لمولاه أوملت إليه بشهوتك وهوائك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له كيف فعلت أبلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو اللطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت الوجه الله خالصاً وفاء بقوله لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمرا آة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقى وعقابى إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وترفه بعمق ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تمجدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وعلمك أما سمعتنى أقول - أالله الدين الحامى - فاذا عرف العبد أنه بصد هذه اللطابات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليسكن الجواب صواباً فلا يبدى ولا يعيد إلا بعد الثبوت

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن . لم أنف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فإذا الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامثال الأمر وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء

ولا يحرك جفنا ولا أتملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكره إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عندك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن طي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كعاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم للثين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكاييد الشيطان فحتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يعز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمة وفكرته وسكونه وحركته فلا يسل في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يندر هبات بل طاب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكاييد الشيطان ومواقع الضرور فيتنق ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يعتز منه فلا يزال الجاهل في ثعب والشيطان منه في فرح وهجامة فتعود بالله من الجهل والنقطة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالقفل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيحضيه أو هو لهوى النفس فينتبه ويحذر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فإن الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث القفل والقفل يورث البوار والمقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يقبعه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فينفكر في ذلك بنور العلم ويستنجد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن هجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضي بنور علماء الدين ولغير من العلماء المضلين القبلين على الدنيا فرار من الشيطان بل أشد قد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضي بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغضها ومقتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همه المريد أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقان ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدنى به حتى يعد إلى محوه ويحط بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واعتزلوا

(١) حديث قال لما ذكره إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم في الذي قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت إذا هممت أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .

والزعماء وهذا الحب محرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه بإياه وهذا الحب يصحكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه

بالوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإلادفح الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت» (١) ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك» (٢) وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «إياكم والظن فان الظن أ كذب الحديث» (٣) وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفنى بعض المواقف قلبه فيها أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه وأنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متتابعاً على فاتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رعيته فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه» (٤) وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيماً - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وعلى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العصى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق الكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العر التوفى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الأمور أشباه والراء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه لما نالك من دنياك فلا تسكترن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلقت وشغلك لآخرتك وهك فيما بعد الموت وغرمتنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى بشيء من عمله وإذا عرض له أمر أن أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا» (٦) وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحواً ولكن

(١) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث إياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح
تلتذ بحب الذات
وهذا الحب روح
والحب الذى يظلم عن
مطالعة الصفات ويطالع
من مطالع الإيمان
قال هذا الروح ولما
صحت محبتهم هذه أخبر
الله تعالى عنهم بقوله -
أذلة على المؤمنين - لأن
الحب يذل لهجوبه
ولحبيب محبوبه
وينشد :
لعين تغدى ألف عين
وتتقى
ويكرم ألف للحبيب
السكرم
وهذا الحب الخالص
هو أصل الأحوال
السنية وموجها وهو
في الأحوال كالتوبة
في اللقائات فمن صحت

لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). النظر الثاني للرقابة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يغفل في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»^(٢) ولا يجلس متربها إذ لا مجالس للولك كذلك وملك للولك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحمه الله جلست مرة متربها فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك متربها وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في الرقابة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراته لآدابها وفاء بالرقابة فاذن لا يغفل البصير عما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحرصها عن الآفات وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود للنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يغفل البصير في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضير عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من الرقابة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذوب عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام الرقابة - ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد البصير نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليستغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تتال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياء لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيحتك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها على البصير كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري البصير أي عيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه وراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة وإن أتت الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول الله خمسين سنة فيطول عليه العزم على الرقابة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدرك الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم»^(٣) وما روى عنه أيضاً في معناه «وطى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يغفل فيها للمطعم والشرب»^(٤)

نوبته على الكمال
تحقق بسائر المقامات
من الزهد والرضا
والتوكل على ما شرعناه
أولاً ومن صحت
عجته هذه تحقق
بسائر الأحوال من
الفناء والبقاء والصحو
والخو وغير ذلك
والتوبة لهذا الحب
أيضاً بمثابة الجسدان
لأنها مشتتة على الحب
العام الذي هو لهذا
الحب كالجسد ومن
أخذ في طريق
المحبوبين وهو طريق
خاص من طريق
الحبة يتكامل فيه
ويجتمع له روح الحب
الخاص مع قالب
الحب العام الذي
يشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون للمؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وطى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والشرب لا ينبغي أن يغفل عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين التفت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويرتقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المهيين إذ الهب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد البعد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب المكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملة ويذمون منه ما لا يوافق هوائهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطباخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

(الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولذا ذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد - وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيياً فأنته عنه » وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جبه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريك كان يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضي الله تعالى عنه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر فأنظر كيف نظر بعد الفراغ من الكرامة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها « وحدثني أبي طلحة حين شغلته الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى فداور جاءه للموض بمافاته » (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغلته الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة لله تعالى .

النصوص وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن القلب في أطوار المقامات والترقى من شيء منها إلى شيء طريق المهيين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا - ومن قوله تعالى - ويهدي إليه من ينشأ - أثبت كون الانابة سبباً للهداية في حق الحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتماع غير معال بالكسب فقال الله تعالى - يحبني إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب قليل له يا أيوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه محاسبها لله وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يصعبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجق ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعترف بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فاسمعه يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو ليغذبنك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي والفاجر يعصى فعدا لا يعاتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذهبا ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان فاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعانج سلاسلها وأغلغلها فقلت لنفسى يا نفس أى شيء تريدن فقلت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الأمانة فاعلمي ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فإزال يقول حق أبكاني ، وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يحجى إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينفي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ومحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يمتي إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدأ بالأباده هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اعتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقرط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغيب في شيء منها فينبغي أن يتقى غيبة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكاراة فليطالها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسها وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها واتزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلغ ملابس صفات النفس ونسوتها والمقامات كلها مصفية قنوت والصفات النفسانية فالزهد يصفه عن الرغبة والتوكل يصفه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرق عليها فتموس الحبة الخاصة فيبقى ظلمتها

من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي القدي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها فالقرامة والضمان وبعضها برده عنه وبعضها بالقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما قلنا عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي واحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : يا ويلتي ألتى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف . وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هوميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأطل فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قرية من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والمساكن يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

(الرابطة الرابعة في معاينة النفس على تفصيلها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روي عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على غذاها ثم ندم فوضع يده على النار حتى بدست . وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعه فكثرت كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاقتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بساقه فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيهايات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركم معاملة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكربي يقول أصابني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت وإعجابه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم ما تسكفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال إنك للحاظلة إلى ما يضر لك ونظر بعضهم نظارة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بفرقة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق
بالحب الخاص لانت
نفسه وذهب جمودها
فإذا ينزع الزهد منه
من الرغبة ورغبة
الحب أحرق رغبته
وماذا يصفي منه التوكل
ومطالعة الوكيل حشو
بصيرته وماذا يسكن
فيه الرضا من عروق
المنزعة ممن لم تسلم
كليتة . قال الروذباري
ما لم تخرج من كليتك
لا تدخل في حد الهبة
وقال أبو يزيد من
قتلته محبته فدينه
رويته ومن قتلته عشقه
فدينه منادته ، أخبرنا
بذلك أبو زرعة عن
ابن خلف عن أبي
عبد الرحمن قال سمعت
أحمد بن علي بن جعفر

أبي بعد العصر قلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقفه لك جاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عن شيئاً أدركته وهو يدخل القابرو وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنسكان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تكلمين بما لا تعلين أما إن لله على عهداً لا أقضه أبداً لا أؤسذك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوءة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيبك لا تنتهين قال وجعل يسكي وهو لا يشعر بما كان فلما رأيت ذلك انصرفت وركته . وعيكي عن نعيم الدار أن نام ليلة لم يقم فيها تهجد فقام سنة لم يقم فيها عقوبة للذي صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال «انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتعرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجفة بالليل بظلمة النهار فينما هو كذلك إذ أنصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأناه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي فقال النبي صلى الله عليه وسلم وعمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدد له فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم^(١) . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما طي وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السكك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تصيد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة مرة ثم سأل حاجته فلم يسطها فرجع إلى نفسه وقال منك أثبت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فزول إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فخصر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لأرمقته اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أولهم ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشوا فكان في موضعه حتى أنكشوا امرأتها وهوناً ثابتاً ماثل فوالله ما زال ذلك ذا به حتى رأيته صريعاً فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن جمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنسكرو هيب بن الورد شيئاً طي نفسه فتنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه وعيكم إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسي تدعوني إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام في الدنيا فمكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

يقول سمعت الحسين ابن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فإذا التقلب في أطوار القمامات لروام المحبين وطى بساط الأطوار لحواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن همهم القمامات وربما كانت القمامات على مسدارج طبقات السموات وهي مواطن من يتستر في أذيال بغيائه . قال بعض الصكبار لأبراهيم الحواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتعرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا .

أنك تعاقب عبدك وأمنك وأهلك وولدتك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخلف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبضوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضرك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن غايته أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

[الرابطة الخامسة المجاهدة]

وهو أنه إذا حسب نفسه فراها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأن بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بتقبل الأوراد عليها وبلغها فتوأن من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى قد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياتك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعق رقتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها . فإن قلت إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فمما سبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين ^(١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صفة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهداه فعملت على ذلك أسبوعا إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد قد في هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهد الأولين فينبغي أن يعمل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد وقد انقضت عليهم وبقي نوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكذرة ثم يأتي الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد فعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أقواما تحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى » ^(٢) قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » ^(٣) ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فضلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وما هم بمرضى لم أجده أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بال قوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفها متفلة من
دائرة الزهد يردّها
الزاهد إلى الدائرة
بزهده والتوكل إذا
تحركت نفسه يردّها
بتوكله والراضى يردّها
برضاه وهذه الحركة
من النفس بقايا
وجودية تفترق إلى
سياسة العلم وفي ذلك
تسم روح القرب
من بعيد وهو أداء
حق العبودية مبلغ
العلم وبحسبه الاجتهاد
والكسب ومن أخذ
في طريق الخاصة
عرف طريق التخلص
من البقايا بالتستر
بأنوار فضل الحق
ومن اكتسب ملابس
نور القرب بروح دائمة
المكوف محمية عن

فيقولون إلهنا خوقهم شيئا غفوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف
لورأتى عبادى لسكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا
يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهمى كانت أهون في أعينهم من هذا
التراب الذى تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم يمشى عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة
طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم
الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك
رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة
آحزتهم وسألوا الله أن يضرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا
إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب
ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذى بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال
سألتك بالله إلا صدقتنى فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها
وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار
فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال
أبو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز قليل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب
الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن
أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون
فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزبن من غدوة إلى العصر لما التفت
عنة ولايسة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى
فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق
إلا وساقاه متفتختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال
أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل
ومجالسة أقوام يفتقون أطياب الكلام كما يفتق أطياب الثمر ، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة
ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول
كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن
فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت
به ، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلى جالساً ألف ركعة
فاذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلائلك عجبت للخلقة كيف أنست
بسواك بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حببت إليه
الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك في قبره فائذن لي أن أصلى في قبري .
وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى أمت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا في علة
الموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك
فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأحوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم
وسوا حفظهم الأكبر من ربهم فبكي القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد الغزالي قال جاور أبو محمد
الجزيري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يعد رجله ففسر عليه
أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطنى

الطوارق والصروف
لا يزججه طلب ولا
يوحشه سلب فالزهد
والتوكل والرضا كائن
فيه وهو غير كائن
فيها على معنى أنه كيف
تقلب كان زاهدا وان
رغب لأنه بالحق لا
بنفسه وإن روى منه
الالتفات إلى الأسباب
فهو متوكل وإن وجد
منه الكراهة فهو
راض لأن كراهته
لنفسه ونفسه للحق
وكراهته للحق أعيد
إليه نفسه بدواعيها
وصفاتهما مطهرة
موهوبة محمولة
ملطوف بها صار عين
الداء دواءه وصار
الاعلال شفاءه وناب
طلب الله له مناب كل

فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فتاح الموصلي
فأرأيت قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد
خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما
فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع
ثلاثا يكون ما صحت لي الدموع قال فأرأيت بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت
له فإذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على
تخلفي عن واجب حقه فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يافتح
ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد سعد حافظك أربعين سنة بصحيفةك ما فيها خطيئة ، وقيل
إن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فأتوها إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم
من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعمل القوم
ما أراد فقالوا ياراهب إنا سألوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تسكروا فإن النهار إن يرجع والعمر
لا يعود والطالب حيث فجبب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الحاق غدا عند مليككم فقال
على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البعثة ثم أرشدهم إلى الطريق
وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين
فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال ياهذا ما أنا
براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده
على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر
في حسابيه وعقابه فتهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا
فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس ثلاثا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع
الحاق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الحاق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها عمل
المعاصي والدنوب والمآقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من
ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه
ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل
كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتبأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لورقت بنفسك
قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان
الثوري عند الصباح بمحمد القوم السري وعند المات بمحمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود :
كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن
يصل كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان
بيكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون
وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتناء إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يليق الربيع من البكاء
والسهر نادته يا بني لملك قتلتي قتيلا قال نعم يا أماء قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك نواله
لو يطلون ما أنت فيه لرحمك وعفوا عنك فيقول يا أماء هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت بشر بن
الحارث قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب على قنات له
أمي يا أختي أنا أنفذ لي حتى أصلي لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه برم جوفك فقال لها
ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فسكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل
ورضا أو صار مطلوبه
من الله ينوب عن كل
مطلوب من زهد
وتوكل ورضا . قالت
رابعة : عجب الله لا يسكن
أنيته وحنينه حتى
يسكن مع محبوبه .
وقال أبو عبد الله
القرشي حقيقة المحبة
أن تهب لمن أحببت
كلك ولا يبقى لك . نك
شيء . وقال أبو الحسين
الوراق : السرور بالله
من شدة المحبة له والمحبة
في القلب نار تحرق كل
دنس . وقال يحيى بن
معاذ صبر المهين أشد
من صبر الزاهد
واضح كيف يصبر
الإنسان عن حبيبه .
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذا ولدني لم يدر نديها علي . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الريح : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبت عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فعمدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم يتقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوء الخاف ذلك في صدره فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد وضوءه فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عيفيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد صمنون في كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردى في شبقي كل يوم ليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي ، وكان منصور بن للشمير إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لملكك يا بني أصبت نفسا لملك قتلت قتيلًا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ المواجر فقال هل هو إلا أنني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خضير أمر وكان يقول مارأيت مثل الجنة نام طالها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فاذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بديل ولا نهار . وروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقلبت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعنا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله براوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون السكل منك لامي فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابق وكان يقول ايظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئزاحمهم عليه زحاما حتى يملوا انهم تدلفوا ووراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

عجة الله من غير توزع
عن محارمه فهو كذاب
ومن ادعى عجة الجنة
من غير إغناك ملكه
فهو كذاب ومن ادعى
حب رسول الله صلى
الله عليه وسلم من غير
حب الفقراء فهو كذاب
وكانت رابعة تشد :
نعصى الإله وأنت
تظهر حبه

هذا العمري في القمال
يبيع
لو كان حبك صادقا
لأطعته

إن الهب لمن يحب

مطيع

وإذا كان الحب

للأحوال كالسوبة

للنعمات فمن ادعى

حالا يهترج ومن

ادعى عجة تحب نوته

مالوقيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحبه لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدت بدأت بعاشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ - فنن الله علينا ووقانا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية فمضت حتى مللت وهى كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كاهى تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من اللوت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم عليهم غيرة الحاشمين . وقيل للحسن : ما بال المتجدين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تمنى خلقت معى عدوا وجعلته يحرق منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استعصمك إلهى كيف أستعصمك إن لم تمسكنى إلهى فى الدنيا المموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأبى الراحة والفرح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى الصلوة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد حدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيدانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا ههنا ههنا ههنا داع ومن ههنا قارى ومن ههنا متوضى ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنهم عليهم فحرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلوا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ويوتا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى اللسكوت وتلوح بمحجوب الغيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف القوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالدياج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تحييه لها دوى عال فانبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - إلى قوله - ويحذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرم منشيا عليه فقلت وأسفاه هذا الشقائى ، ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إغراض الغافلين ثم قال لك خست قلوب الحائفين وإليك فرغت آمال المتصيرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نقض يده فقال مالى وللدنيا

فإن التوبة قال الروح
الحب وهذا الروح
قيامه بهذا القلب
والأحوال أعراض
قوامها بجوهر الروح .
وقال سمون : ذهب
المحبون لله بشرف
الدنيا والآخرة لأن
النبي صلى الله عليه وسلم
قال «لأرى مع من
أحب» فهم مع الله
تعالى وقال أبو يعقوب
السوسى لا تصح المحبة
حتى تخرج من رؤية
المحبة إلى رؤية
المحبوب بفناء علم
المحبة من حيث كان
له المحبوب فى القيب
ولم يكن هذا بالمحبة
فإذا خرج الحب إلى
هذه النسبة كان
محبا من غير محبة

ومال الدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى عبيك فاذهي وإياهم فاخذعي ثم قال
 أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فذا بدت يا عبد الله ألتفتد
 اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتتبادر مخاف سبقتها بالموت إلى نفسه
 أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها وللسل شدة أفوقع زولها ثم لها على
 ساعة وقرأ - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر
 مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما خاطري
 هب لي إسماعلي من فضلك وجللي بسترى واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت
 له بالذي ترجوه لنفسك وثق به إلا كتني فقال عليك بكلام من ينطق بكلامه ودع كلام من أوقته
 ذنوبه إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس وبجاهدي فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه
 غيرك فإليك عني يا غدوع فقد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله
 من شرك ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويفضل علي برحمته . قال فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله
 فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى
 شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال لي يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه
 فاتبعته فسمعتة وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لي في الموت فقلت وفيما بعد الموت
 فقال من أيقن بما بعد الموت شمر منزلة الخذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت
 الوجوه يبض وجهي بالنظر إليك واملاقي من المحبة لك وأجرتي من ذل التوبيخ غدا عندك فقد
 آن لي الحياء منك وحن لي الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسكن أجلى ولولا
 عفوك لم يتبسط فيما عندك أملي ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا المعنى :

تحيل الجسم مكثب الفؤاد تراه بقعة أو بطن وادي
 ينوح على معاص فاضحات يكدر ثقلها صفو الرقاد
 فان هاجت مخاوفه وزادت فدعوته أغثنى يا عمادي
 فأنث بما ألقىه عليم كثير الصفح عن زلل العباد
 ألد من التلذذ بالغواني إذا أقبلني في حلال حسان
 منيب فر من أهل ومال يسبح إلى مكان من مكان
 ليخمل ذكره ويعيش فردا ويظفر في العباد بالأماني
 تلذذه التسلاوة أين ولي وذكر بالفساد وباللسان
 وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان
 فيدرك ما أراد وماتمسي من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقل له
 قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا قليل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة قليل خمسون
 ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني أنك لو عشت عمر الدنيا
 واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقبارة خمسين ألف سنة لكان ربحك
 كثيرا وكنت بالرجة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف
 الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فلهما تدرت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة
 فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثاهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجح

مثل الجنيد عن
 المحبة قال : دخول
 صفات المحبوب على
 البديل من صفات
 المحب . قيل هذا على
 معنى قوله تعالى « فإذا
 أحببته كنت له سمعا
 وبصرا » وذلك أن
 المحبة إذا صفت وكملت
 لا تزال تجذب بوصفها
 إلى محبوبها ، فإذا
 انتهت إلى غاية جهدها
 وقفت والرابطة متصلة
 متأكدة وبكمال وصف
 المحبة أزال للوانع من
 المحب وبكمال وصف
 المحبة تجذب صفات
 المحبوب تطفأ على
 المحب الخاص من
 موانع قادحة في صدق
 الحب ونظرا إلى
 قصوره بعد استفاد

في القلب وأبحث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا هجرت عن هذا فلا تفعل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل لمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زمرةهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجملة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لما أن تتخرط في سلك الحق وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثك نفسك بأن هؤلاء رجال أفوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد دروي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت التمتع قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يدك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما بقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . وروى عن هجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها عزون إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فيك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفني لديك في عليين في درجة القربين وأن تلتحقني بصادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا خلعت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لورقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد بن قال فيكت ثم قالت والله لوددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جراحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء حتى غشي عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتبعدات قالت رأيت في منامي كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقد موسها فقلت ومن هذه المرأة قيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختي والله قالت فيبينا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجية تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختي أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت فتبسمت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ألزمتي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك منى مت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبى فقلت لها لا تتولى بحبك لي ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبى لي أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبعه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشميقا فقلت يوما لحامى لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فلما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلاتك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لخطئك بالتوب على معاصيك فلما جد قلته أترها أظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت ليل من وادى كنعان قلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود الحب
ينفوالله اكتساب
الصفات من المحبوب
فيقول عند ذلك :
أنا من أهوى
ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتني أبصرته
وإذا أبصرتني أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه
حقيقة قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« تخلقوا بأخلاق الله »
لأنه بزاهة النفس
وكال الزكية يستعد
للمحبة والمحبة موهبة
غير معللة بالزكية
ولكن سنة الله
جارية أن يركب نفوس
أحبائه بحسن توفيقه
وتأييده وإذا منح
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ويكي فلما قرب من السواد إذا هي امرأة عليها صوف ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فرقة مني قتلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك قتلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فإن كنت صادقاً فلم بكيت قتلت برحمتك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذلك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متجنباً من قولها . وقال أحد بن علي استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلأزمننا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي للنفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فغمضها عليه فأصابه فتق في بطنه فباليث عفيرة إذا رفعت رأسها لم تنص وباليث إذا عصت لم تعد . وقال بعض الصالحين خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتسبتها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحني حتى أنصرف اليك قال فأنصرفت فلم أجدها في الموضع فأنصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأيته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك أجلسني في موضع لم أرفيه ذا كر الله تعالى خفت أن يخسف بذلك الموضع فصجبت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أجدها . وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في الصحف فكلمها أنت على آية فيها ذكر النار بكيت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نضلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فباريرة كيف أصبحت قالت أصبحت أضيافاً منيخين بأرض غربة ننظر متى ندعى فنحجب قلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعيني عند الله خير لما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لهما عند الله شرف فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فمهي والله في شيء غير ما نحن فيه . وكانت معافة المدوية إذ جاء النهار تقول هذا يوم الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني في قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غداً وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقاءك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يغيب لديك أمل الآملين ولا يطل عندك شوق المشتاقين إلهي إن كان دنائي إلى ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالتدب وسائل عظمي فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدني إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت من تولاني في حياتي أحسانه أن يسعني عند مماتي بفرانه إلهي كيف أياأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن عجبني لك قد أجارتني فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهي لو أردت إهانتني لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بماله هديتني وأدم لي ماله سترتني إلهي ما أطنك تردني في حاجة أنيت فيها عمري إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عمت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفوليهون عليها الأمر قال فشبهت

جلب روحه بمحاذب
الحبة خلع عليه خلع
الصفات والأخلاق
ويكون ذلك عنده
رتبة في الوصول فتارة
ينبعث الشوق من
باطنه إلى ما وراء ذلك
لكون عطايا الله
غير متناهية
وتارة يتسلى بما منح
فيكون ذلك وصوله
الذي يسكن نيران
هوقه ويباعث الشوق
بمستقر الصفات للهوية
الحققة رتبة الوصول
عند المحب ولولا باعث
الشوق رجع القهقرى
وظهرت صفات نفسه
الحائلة بين اللز وقلبه
ومن ظن من الوصول
غير ما ذكرناه أو تخايل
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفى فرح فزادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلفنى ولم أك شيئا مذكورا
ثم أقبلت على صلاتها . فعليك إن كنت من الرابطين الراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء
من المجتهدين لينبث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فأنك إن قطع أكثر
من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن
أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان
والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك
إلا ما يجرى عليهم والصلية إذا عمت طابت فأياك أن تدلى بحبل غرورها وتتخضع بتزويرها وقل
لها أرايت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد ويثبوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم
بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من العرق فهل يخرج
فى نفسك أن الصلية إذا عمت طابت أم تركين مواضعهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذر
عما دهاك فاذا كنت تركين مواضعهم خوفا من العرق وعذاب العرق لا يمتد إلى الساعة فكيف
لاهرين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصية إذا عمت ولأهل
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك السكفار إلا بواقعة أهل زمانهم
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فعليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك
وحملها على الاجتهاد فاستصمت أن لا تترك معانيها وتوبيخها وتقريرها وتعريفها سوء نظرها لنفسها
ففساها تنزجر عن طغيانها .

(الرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعانيها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت مارة بالسوء مالة إلى الشر فرارة من الخير
وأمرت بتركها وتويعها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها
عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمها بالتوبيخ والمعاتبة والمعدل
والملازمة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة للدعوة
إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تنفلن ساعة عن تذكيرها ومعانيها ولا تشتغلن
بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ
نفسك فإن انعطت فمظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فإن الله كرى تنفع المؤمنين -
وسيطك أن تقبل عليها فقرر عندها جهلها وغبوتها وأنها أبداً تعزز بقطنتها وهدايتها ويشد أنفها
واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة
وأنت أشد الناس غباوة وحماة أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على
القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم
تخطفين أوغدا فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن
البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بضعة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة
وأنة لا يأتى فى شيء دون شيء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل
دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأتقاس يمكن أن يكون
فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون للرض فجأة ثم ينفى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت

متعرض للذهب
النصارى فى اللاهوت
والناسوت. وإشارات
الشيوخ فى الاستغراق
والفناء كلها عائدة إلى
تحقيق مقام المحبة
بإستلاء نور اليقين
وإخلاصة الذكر على
القلب وتحقيق حق
اليقين بزوال الأعوجاج
البقايا وأمنت اللوث
الوجودى من بقاء
صفات النفس وإذا
جمحت المحبة ترتبت
عليها الأحوال وتبينها.
سئل الشبل عن المحبة
فقال كأس لها وهج
إذا استقر فى الخواص
وسكن فى النفوس
تلاشت . وقيل للمحبة
ظاهر وباطن ظاهرها
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ويحك يا نفس إن كانت جرائدك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع غمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك . ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تمرضين لقت الله وغضبه وشديده عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جربي نفسك إن الهلاك البطر عن أليم عذابه فاحبس ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستثنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تسكينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها وتغصليها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . ويحك يا نفس ما أعجب تقاقلك ودعائك الباطلة فانك تدعين الإيعان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للانسان إلا ماسعى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تكالبن على طلبها تكالب الدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض للفرور المستحقر ما هذان علامات الإيعان لو كان الإيعان باللسان فلم كان الناقضون في الدرك الأسفل من النار . ويحك يا نفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت وهيات أنتحسين أنك تركين سدى ألم تكوني نقطة من مئتي مئتي ثم كنت علقة غلقت فمضى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أما تفكرين أنه بماذا خلقك من نقطة خلقك قدرك ثم السيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله ثم إذا شاء أنشرك فإن لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرَكَ ولو أن يهوديا أخبرك في آله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته واجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للوידين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه للزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغلالتهم وأنكأهم وزقومهم ومقامعهم وصديدها وسومها وأفاعها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ما هذه أفعال العقلاء بل لو انكشف لأبائهم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن سكنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولطه يختطفك من غير مهلة فبأ إذا آمنت استبحال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقة يفلح ويقدر على قطع العقة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفقه في الفرية فأقام فيها سنين متعللا بطلا لا بد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضعكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بمدة قرية أو حسبانه أن مناصب القمهاء تنال من غير تخفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ينافي المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم : حزني كحسبك لالدا أمد

ينهى إليه ولالدا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الخوارى دخلت على أبي سليمان

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلافلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشغلن فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال لما للنازع من اللبادة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا هيجرك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التنب والشقة أنتتظرين يوماً يأتيك لا تنصر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمسكاره ولا تكون المسكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غذا غذا فقد جاء القد وصار يوماً فكيف وجدته أما علمت أن القد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لا بل تعجزين عنه اليوم فانت غذا عنه أهيج وأهيج لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا هيج العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هيج عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفه وهما لما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في للشيب بل من العناية رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب القديب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركبين إلى التسويف لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما معنى عن الاستقامة إلا حرصى على لغة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والشقات فما أشد غباوتك وأنبغ اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الداعة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهناً بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة يصبر ثلاثة أيام لينتم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثانة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، ولست شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر حتى أو لحق جلى . أما الكفر الحق فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واعتداجه واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من اللال أو كلة واحدة تسميها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب المخالفة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها ونفى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تترك الحياة الدنيا ولا يتركك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضعى أو قاتك فلا تقاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعصك فاعتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والنقى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمنين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تسكين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدنح عنك البرد من غير جبة ولبدو حطب وغير ذلك فاته قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأته يسكني
قلعت ما يسكنك رحلك
الله قال وعحك يا أحمد
إذا جن هذا الليل
اقرشت أهل الهبة
أقدامهم وجرت
دموعهم على خدودهم
وأشرف الجليل
جل جلاله عليهم
يقول « بيني من تخذ
بكلامي واستراح إلى
مناجاني وإلى مطلع
عليهم في خلواتهم أصعب
أنينهم وأرى بكاءهم
يا جبريل ناد فيهم
ما هذا البكاء الذي
أراه فيكم هل خبركم
خبر أن حبساً يذب
أحبابه بالنار كيف
يجعل بي أن أعذب
قوما إذا جن عليهم
الليل تملقوا إلى فهي

في الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجيلة والنار
وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخذق الطاعات وإنما كرم الله تعالى
في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كأن كرم
الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذا للطريق استخراجها من بين حديد وجر حتى تدفع
بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجيلة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما اشترينه
لنفسك إذ خلقه سبيلا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى
نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فطليها والله غني عن العالمين . ويحك يانفس انزعى عن جهلك
وقبى آخرتك بدنيك فما خلقك ولا بشكركم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما
بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدن لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ما أراك إلا ألفت الدنيا
وأنت بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكد في نفسك مودتها فاحسب أنك
غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت الفرق بينك وبين محابك
أقرين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجهه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك
قلبه ثم يضطر لاجالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الحق . أما تعلمين أن الدنيا دار الملك
للملوك ومالك فيها إلا عجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله
عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقها فاعمل ما شئت فانك تجزي
به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس
بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكر من الحسرة عند المفارقة وإنما يزوم من السم الممك وهو لا يدري
أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلاؤهم ذهبوا واخلوا وكيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم
أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤمنون مالا يدركون بين كل واحد
قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانكاس أعظم من
هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويغرب آخرته وهو سائر إلى ما قطعها ، أما تستحيين يانفس
من مساعدة هؤلاء الحق على حماقتهم واحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تعلمين
بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا
واقتردى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقد في نفسك العقل والدكاء يانفس ما أعجب
أمرك وأشد جهلك وأظهر ظفانك ، عجبك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يانفس
أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض
الناس إليك فاحسب أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا
فكيف تبين يانفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكا
من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعيت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى
إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يانفس لا تتركين
للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترضا عن خسة شركائهم أو ترها عن
كثرة غنائمها وتوقيا من سرعة فنائها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت كثيرها ومالك

حلفت إذا وردوا
القيامة على أن أسفر لهم
عن وجهي وأيحيهم
رياض قدسي وهذه
أحوال قوم من المحبين
أقيموا مقام الشوق
والشوق من المحبة
كالزهد من التوبة
إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد وإذا
استقرت المحبة ظهر
الشوق . قال الواسطي
في قوله تعالى - عجبات
إليك رب لترضى - قال
شوقا واستهانة بمن
وراءه - قال هم أولاء
على أنرى - من شوقه
إلى مكاملة الله ورمى
بالألواح لما فاته من
وقته . قال أبو عثمان
الشوق ثمرة المحبة فمن
أحب الله اشتاق إلى

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم في العلم وغيره .

تفرحين بدنيا إن ساءرتك فلا تحلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء فما أجھلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة القريين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبدأ الآبدن لتسكون في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما فلال في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلح عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن تجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ماضيت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك . أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتكاثف فراشك والدود أئدسك والفرع الأكرين يديك ، أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان الغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أما تعلمين يا نفس أنهم يتنحون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهن ويوم من عمرك لو يبع منهم بالدنيا بخذا فيرها لا يشروهم لو قدروا عليه وأنت تضيئين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أما تستحيين تزيين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعتائم أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أن تأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس أن المذنب أثنى من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقولك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لنجوت منه رأسا برأس لكان الريح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجھلك وما أجراك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتقضي ويحك كم تمدين فتعدين ويحك يا نفس أنت تخيلين مع هذه الخطايا بعمارة دنيائك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جرموا كثيرًا وبؤا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنائهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أملك بهم عبرة أم أملك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ماتت وهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابقي على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل يتفكك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكيف من مستقبل يوما لا يستكملها وكيف من مؤمل لعد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قربين تحسرم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيها النفس السكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقعه وجليله سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله لآت - تقرية للمشتاقين معناه آلى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القسامات إذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكأن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل دمه بمطايا يجدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تغفين بين يدي الله وبأي لسان تهيين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب
صوابا واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال والدار مقام توفي دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود اصلي قبل أن لا تعمل اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على
الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور منبور ورب منبور لا يشرفويل
لن له الويل ثم لا يشمر بضحك ويضح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه
من وقود النار فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرابا ورغبتك لها اختيارا وطلبك
للاخرة ابتدارا ولا تسكوني عن جزع عن هكر ما أوتيت وبينتني الزيادة في باقي وينهي الناس ولا ينتهي
واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار
قائه يساره وإن لم يسر فانتظري يا نفس بهمة للوعظة واقبلي هذه النصيحة فإن من أعرض عن
الوعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فإن كانت القساوة تمنحك عن
قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجذ والقيام فإن لم تزل قبل المواظبة على الصيام فإن لم تزل فبقية
المخالطة والكلام فإن لم تزل فبصلة الأرحام والعلف بالأيام فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك
وأقل على عينه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار قد خلق الله
الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فإن لم يبق فيك مجال للوعظ
فانتظري من نفسك والقنوط كبيرة من الكبار فعوذ بالله من ذلك فلا سميل لك إلى القنوط ولا سميل
لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك
حزن على هذه اللصية التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن
صححت فستقلى الدمع من بحر الرحمة قد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني
بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تمل طول الشكاية لله أن يرحم
نفسك وبنيك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد ثقافت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك
الحيل وراحت عنك الطل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك
فافرعي إليه بالتضرع واخشي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع
الدليل ونبئت الطالب التلهف ويحب دعوة المضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته
محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق واقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات
ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمستول جواد والمستغاث به برّ رءوف والرحمة واسعة
والكرم قاض والفوضائل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا للذنوب
الصر أنا الجريء الذي لا أقنع أنا للهادي الذي لا أستحي هذا مقام للتضرع المسكين والبائس الفقير
والضعيف الحقير والهالك الفريق فجل أغاثني وفرجني وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومعذرتك
وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما أهبط
الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له فمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عززون
كثيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم مله هذا الجهد الذي أرى بك قال يارب عظمت
مصيبتى وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار
الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار
وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم
أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى ألم أخلقك يدي وتدفنت فيك

علما ويطلبونها ذوقا
فكذلك يكون شوقهم
ليصير العلم ذوقا وليس
من ضرورة مقام الشوق
استبطاء الموت وربما
الأسحاء من الحبسين
يتلذذون بالحياة لله
تعالى كما قال الجليل
رسوله عليه الصلاة
والسلام قل إن صلاتي
ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين فمن
كانت حياته لله منحه
الكرام لمة للناجاة
والهبة فتمتلى عينه
من النقد ثم يكشفه من
للنخ والعطايا في الدنيا
ما يتحقق مقام الشوق
من غير الشوق إلى
ما بعد الموت وأنكر
بعضهم مقام الشوق
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصبت أُمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى
لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحوننى ثم عصونى لأنزلهم منازل العاصين فبكى آدم
عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أنا
الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت
المقامع لرأسك نهياً واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت
فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أردت بعصيتك مخالفتك ولا عصيتك
إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى
وأعانتى على ذلك شقوتى وغرنى سترك الرخى على فصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك
الآن من يستغنى أو يجهل من اعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأته من الوقوف بين يديك غدا
إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمتقين حطوا مع المخفين أجورهم مع المتقين أحطوا بلى كلما كبرت سنى كثرت
ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى قالى متى آتوب وإلى متى أعود أنا إلى أن أستحيى من ربى
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم
من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن نفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون
الله تعالى عنه راضيا والسلام . ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى
والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

﴿ كتاب التفكير ﴾

(وهو الكتاب التاسع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى لم يقدر لانهاء عزته نهوا ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام
إلى حمى عظمت مجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدهاء كبرياته والهمة حيرى كلما اهتزت لنيل
مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجلال صبرا
صبرا ثم قيل لها أجبلى فى ذل البودية منك ففكرنا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى
له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك
تترى وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا
وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا
ونكرا فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا وخطرت بنفسك
بمجازة حد طاقة البشر ظلما وجورا قد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانقصت على أعقابها
اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته غمرا صلاة تبقى لنا فى
عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا
وطواف للسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » (١) وكثر الحديث فى كتاب

﴿ كتاب التفكير ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة

لغائب ومتى يغيب
الحبيب عن الحبيب
حتى يشاق ولها سائل
الأنطاكي عن الشوق
قَالَ إِنَّمَا يَشْتَاكُ إِلَى
الغائب وما غبت عنه
منذ وجدته وإنكار
الشوق على الإطلاق
لا أرى له وجهاً لأن
رتب العطايا والنح
من أنصبة القرب إذا
كانت غير متناهية
كيف ينكر الشوق
من الحب فهو غير غائب
وغير مشتاق بالنسبة
إلى ما وجد ولكن
يكون مشتاقاً إلى ما لم
يجد من أنصبة القرب
فكيف يمنع حال
الشوق والأمور هكذا
ووجه آخر أن الإنسان
لا بد له من أمور يردها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته لكن جعلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه فان كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير ثم حقيقة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

(فضيلة التفكير)

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره ^(١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون ؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فان بهنا المغرب أرضا يضاء نورها يياضها ويياضها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم ؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا ^(٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فسلمتينا وبيننا حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبككت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى آتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ^(٣) » قيل

بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة ^(١) حديث ابن عباس « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الأصمهانى في الترهيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى في الأوسط والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا الإسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك ^(٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام ^(٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء .

حكم الحال لموضع
بشريته وطبيعته
وعدم وقوفه على حد
العلم الذى يقتضيه حكم
الحال ووجود هذه
الأمور من آثار الشوق
ولا نغنى بالشوق إلا
مطالبة بتبعث من
الباطن إلى الأولى
والأعلى من أنصبة
القرب وهذه المطالبة
كاشفة في المحبين فالشوق
إذن كائن لا وجه
لإنكاره وقد قال قوم
شوق للشاهدة واللقاء
أشد من شوق البعد
والغيوبة فيكون في
حال الغيبة مشتاقا
إلى اللقاء ويكون في
حال اللقاء والشاهدة
مشتاقا إلى زوائد
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فهن قال يقرؤهن ويعلمهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لأبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتعمل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في الصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه ^(١) » ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب التقيين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تفر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحسبك فلو جلست مع الناس كان آتس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي ف قيل له يبكيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويعمي القلوب . وقال حاتم من العبارة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أه فاذا كان همه وهو أه إلى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالله كر على الفكر والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خاف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء تفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لاس فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشراب بكأس الحجة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا إلهام من مجالس ما أجملها ومن شراب ما ألذ طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة باسناد ضعيف .

وإنضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره . وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله فاذا تحركت اشتد أضاء النور ما بين الشرق والغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أنني إليهم أشوق . وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار . سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأرباب من البعد بعد القرب . سئل بعضهم هل الشوق

وقال الشامي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والقفظة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهدم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل الطاء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

(بيان حقيقة الفكر وعمره)

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقتان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بصلته إلى إيثار الآخرة اعتقادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحنها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند يدل على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يبرهنها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع الصور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر أن تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصله فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أغرت معرفة أخرى فالمعرفة تناج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك تناج آخر وهكذا يتمادى النتائج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإعنا تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعواقب . هذا لمن يقدر على استقمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فاعنا منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كاللدى لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج للفضى إلى النتائج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهي في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم التفكير قد يحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها قلقة بممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكلم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو شغل عن سبب معرفته لم يقدر على إبراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى

أعلى أم الهبة ؟ فقال
الهبة لأن الشوق
يتولد منها فلا مشتاق
إلا من غلبه الحب فالحب
أصل والشوق فرع
وقال النصر ابادي :
للخلق كلهم مقام
الشوق لا مقام الاشتياق
ومن دخل في حال
الاشتياق هام فيه
حتى لا يرى له أثر ولا
قرار . ومنها الأنس
وقد مثل الجنيد عن
الأنس فقال : ارتفاع
الحشمة مع وجود
الهيئة . ومثل
فوق النون عن الأنس
فقال : هو انبساط
المحب إلى المحبوب قيل
معناه قول الحليل -
أرني كيف نجي لائق -
وقول موسى - أرني

بالإيثار وأن الآخرة أبقي من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة . وأما نعمة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن نعمة الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو اللبداً وللفتح للخبرات كلها وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فاذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذى ينقل من المكارة إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ومورغته ثم أثر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والانبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار للمعرفتين في القلب . وثانيها التفكير وهو طالع للمعرفة المقصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضي بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل فكذلك زند نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرفقين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما ينبعث النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يعيل إلى ما لم يكن يعيل إليه كما يغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فاذن نعمة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانها يطلعها والأحوال التي تصورها أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريها وأنه فياذا تفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة ونعماته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريها بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليلا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فاتها مشتملة على علوم تلك العلوم تستمد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجرى في أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بشيئ الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين السديين الرب تعالى لجميع أفكار العبد إيمان أن تتعلق بالبعد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين التسمين وما يتعلق بالبعد إيمان أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين التسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ولهذا أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما وينكشف

أنظر إليك وأنت

لرويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا

ينفك طول الحيلة

عن فكر

آنستى منك بالوداد قد

أوحشتنى من جميع

ذا البشر

ذكرك لى مؤنس

يعارضنى

يوعدنى عنك منك

بالظفر

وحينا حكنت

يامدى همى

فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف

ابن الشخير كتب إلى

عمر بن عبد العزيز

ليكن أنسك بالله

واقطعك إليه فان

له عبادة استأنسوا

بالله وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يضاهاى حال العاشق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالا ، فنقول : العاشق المستغرق الهم يشقه لا يسد وفكره من أن يتعلق بمشوقه أو يتعاق بنفسه فإن تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعا للذمة ومقويا لحيته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوه حتى ينزله عنها أوفى الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فإن تفكر في شئ خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يبدو نظره وتفكره محبوه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدا بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم السكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالقرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثاني التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات بطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المرید سائر ما وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] ينبغي أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لا بسببها بالأسس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للقيء والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا ينعى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والافتراء وبأن لا يجالس إلا الخلق النقيين كره عليه مهما تكلم بما يكرهه الله وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له أنه فكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه أنه يصفى به إلى القية والكذب وفصول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وامكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم

أشد استئناسا من
الناس في كثرتهم
وأوحش ما يكون
الناس آنس ما يكونون
وآنس ما يكون الناس
أوحش ما يكونون .
قال الواسطي : لا يصل
إلى عمل الأنس
من لم يستوحش من
الأكل أن كلفها . وقال
أبو الحسين الوراق :
لا يكون الأنس بالله
إلا ومع التعظيم لأن
كل من استأنست
به سقط عن قلبك
تعظيمه إلا الله تعالى
فانك لا تزاد به أنسا
إلا زددت منه هية
وتعظيما . قالت رابعة :
كل مطيع مستأنس
وأنشدت :
ولقد جعلت في الفؤاد
معدنى

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضامة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فلهما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض للكتابة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن التقصير والتقصير أو كيف يجبر تقصاتها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبدة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتطهر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بطاعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن مصيئته فلم لأفعله وكذلك يقول في سمعه إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فإني أعطيه وقد أنعم الله على به وأودعني لأشكره فما لي أ كفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إني قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالإسوال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أنصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الأيثار أحوج مني إلى ذلك المال وهكذا يفكر عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلماؤه وأولاده فإن كل ذلك أدوات وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيها يري في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الملهكة التي محلها القلب] فيعرفها بما ذكرناه في ربيع الملهكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والنزور وغير ذلك ويتقدم من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلاجات عليه فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتغلف فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فليخفى أن تجرب بحمل حزمة حطبي في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة المكرهه أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع للملهكات فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث البخله كالورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملي يبدى وجارحاً وبقدري وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلهي وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذي خلقني وخلق جارحني وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد اللوث وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقياً

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

مجهول وقد تقدم .

وأجبت جسمي من

أراد جلوس

فالجسم مني للجلوس

مؤانس

وحبيب قلبي في الفؤاد

أنيس

وقال مالك بن دينار:

من لم يأمن بحادثة

أدع عن محادثة الخلقين

قد قل علمه وعمي

قلبه وضع عمره .

قل لبعضهم من معك

في الدار قال الله تعالى

معي ولا يستوحش من

أنس بره . وقال

الحراز: الأنس محادثة

الأرواح مع المحبوب

في مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين

صفة أهل المحبة

الواصلين فقال: جند

لهم الود في كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال للتواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما انصف به البهائم ومهما كان الثمر عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن للملائكة القريبين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [وأما النوع الرابع وهو للنجيات] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهدة في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأمره والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربيع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتذكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يدور من هذه الصفات التي هي للقربة إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لقتل الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرعنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال المنكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في الناقشة في الحساب والمضايقة في القيامة والقطيع ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى التبال فيكون من أمحباب النار أو يصرف إلى اليقين فينزل دار القرار ثم ليحضر بسوء أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاها ومقامها وأحوالها وسلسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية للموكلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد صموا لها تعيظاً وزفيراً وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها اللقيم وملوكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو تنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة قراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

بدوام الاتصال وآواهم في كنفه بمحائق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنث أرواحهم شوقاً وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ همهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار بحمد من عبيده العموم أن

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

العالم حق التأمل لم يتقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم والحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالسكينة فهذا هو طريق الفكر في علوم العاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أوسكروهة والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يسمر قلبه بالأخلاق الحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن السكره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية للطلب بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث ينفى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستغرق عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة الشاق . فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق ينتم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالى في التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجربى مجرى الخروج عن السدة في النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهية المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب ، فكذا ينبغي أن تنهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذ اعرف مجال الفكر في علوم العاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدتك صباحا ومساء فلا تنفل عن نفسك وعن صفاتك للبعدة من الله تعالى وأحوالك للمقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مرید فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات للمنجات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشدة الطعام وشدة الوقوع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والاخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على الدعة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالنوبة والتدم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة

رفع عن قلوبهم جميع
المحوم . وأنشد في
معناه

كانت قلبي أهواء
مفرقة

فاستجعت إذا رأيتك
النفس أهواء

ضار يهدني من
كنت أحسد

وصرت مولى الورى
مدصرت مولائي

تركت للناس دنياهم
ودينهم

شعلا بذكرك ياديني
ودنياي

وفد يكون من الأنس
الأنس بطاعة الله

وذكره وتلاوة كلامه
وسائر أبواب القربات

وهذا القدر من الأنس
نعمة من الله تعالى

ومنحة منه ولكن

وأما كثر الناس من الموددين من الصالحين فينبغي أن يشتوا في جرائد المعاصي الظاهرة كأكل
الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والتمية والمراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء، وموالة
الأولياء، والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من
وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن
الاشتغال بصمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون
تقدم لها وتفكرهم فيها لا في معاصيهم بمنزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يغفل في غالب الأمر عن إظهار
نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إماما لتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفئة عظيمة
لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب
والحيلاء والتزين والتصنع وذلك من الهلكات وإن رد كلامه لم يغفل عن غيظ وأتفة وحقد على من
يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلامه غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من
حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور
وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعتراض لم يغفل
عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان
قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها ينتشر الحق ويحسن موقعه في
القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على
واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما
اختلف ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له الاعتقاد لفضله أكثر احتراما
ويكون بقلائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغفل في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاته وربما
ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغايروا النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره
وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستنكة في سر
القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما يكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم
عظيمة وهو إما مالك وإما مالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب
عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة
رضي الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون
الفتوى وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا
لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندurst العلوم من بين الخلق ولقل لهم إن دين الاسلام مستغن
عنى فإنه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدى ولومت لم تهتم أركان الاسلام فإن الدين مستغن
عنى وأما أنا فاست مستغنيا عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية
الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياضة
والملو يحلمهم على كسر القيود وهزم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم
لا يندرس مادام الشيطان يحب إلى الخلق الرياضة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز
لنشر العلم أقواما لاصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين
بأقوام لا خلاق لهم»^(١) و«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٢) فلا ينبغي أن يفتخر العالم بهذه
التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذور الاتفاق

ليس هو حال الأنس
الذي يكون للمحبين
والأنس حال شريف
يكون عند طهارة
الباطن وكنهه بصدق
الزهد وكمال التقوى
وقطع الأسباب
والعلائق ومحو الخواطر
والمواجس وحقيقته
عند كنس الوجود
بثقل لأفع العظمة
وانتشار الروح في
ميادين الفتوح وله
استقلال بنفسه يشتمل
على القلب فيجمعه به
عن الهية وفي الهية
اجتماع الروح ورسوبه
إلى محل النفس وهذا
الذي وصفناه من
أنس القادات وهيبة
القادات يكون في مقام
البقاء بعد العبور على

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين
بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم.

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل »^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلاني في زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم »^(٢) ولا يتقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والمهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليسكن العالم في التفتن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكيرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فأعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجاشنا طلبه وقد علمنا أن المهرب من النار بترك الشهوات والحرام وترك المعاصي ونحن منه مكمون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذا امتنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فما نأله الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا بهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتنعيم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع للهالكات والانصاف بجميع المنجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معولامكذرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتغص عليه قدة المشاهدة ولا طريق له في كمال التنعيم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات الذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبية على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكراماته ، وفيه مقامان المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يغشى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويغشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث الممش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فإن أكثر العقول لا تختمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن للكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروهم إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طاقة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يشاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحنقي من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يغيب النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ما ذئبان جائعان

محر الفناء وما غيبر
الأنس والهية للذين
يذهبون بوجود الفناء
لأن الهية والأنس
قبل الفناء ظهرا من
مطالعة الصفات من
الجلال والجمال وذلك
مقام التلويح وما ذكرناه
بعد الفناء في مقام
التحسين والبقاء من
مطالعة الذات ومن
الأنس خضوع النفس
للمطشنة ومن الهية
خضوعها والخضوع
والخشوع يتقاربان
يفترقان بفرق لطيف
يدرك بإيماء الروح.
ومنها القرب قال الله
تعالى لنبيه عليه الصلاة
والسلام - واسجد
واقرب - وقد ورد
« أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالس على سريره وبين يديه غلمان يتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طير أن أنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أن يكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثاها وهو خالقي ومصوري وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخظرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصالح الخلق أن لا يتعرض لجأري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره ومجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلالة وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما امتدارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كأن قولم نور الأجسام بنور الشمس الضئيلة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة ينض قلل من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهري بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

(بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى)

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكتب بذلك كنف البحر قبل أن ينفد عشر عشره ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالنائل لما عدها . فنقول للوجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - وخلق ما لانعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يحلون - وقال - وننشك فيما لانعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن تفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما ذكرناه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر فكل ما لا تكتفى والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويضيق فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي الدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكواكبها ومحسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وتلوجها ورعدها وبرقها وصور أفعالها وشبهها وعواصفها فهاهنا هي الأجناس الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام وينقسم كل قسم

من ربه في سجوده
فالساجد إذا ذيق طعم
السجود يقرب لأنه
يسجد ويطوى
بسجوده بساط الكون
ما كان وما يكون
ويسجد على طرف
رداء العظمة فيقرب .
قال بعضهم إني لأجد
الحضور فأقول يا الله
أو يارب فأجد ذلك
على أنقل من الجبال
قيل ولم قال لأن النداء
يكون من وراء حجاب
وهل رأيت جليسا
ينادي جليسه وإنما
هي إشارات وملاحظات
ومناغاة وملاطقات
وهذا الذي وصفه مقام
عزير متحقق فيه
القرب ولكنه مشعر
بتجو ومؤذن بسكر

إلى أصناف ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة
وجميع ذلك مجال القسرك فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولانبات ولا حيوان ولا
فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك
شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلالة وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث
على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
لآيات لأولي الأبصار - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر
في بعض الآيات ، فمن آياته الإنسان مخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من الصغائر
الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشرة وأنت غافل عنه ، نيام من هو غافل
عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه
العزیز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الإنسان
ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء
أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشيء تنتصرون - وقال تعالى سأل
بك نطفة من متى متى ثم كان علقه خلق فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه
في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال
- إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة واللضعة عظاما
فقال تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة
علقة - الآية ، فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزیز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر
الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لتوركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنت كيف أخرجه
رب الأرباب من الصاب والتراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف
قدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الولاغ وكيف
استجلب دم الحيض من أعماق المروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاء به
الحيض وغذاء حتى يمازىها وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاه مشرفة علقة حمراء ثم كيف جعلها
مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والمروق والأوتار واللبم
ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والمروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر
والأنف والتم وسائر المنافذ ثم مديد الرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف
ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرتة والرحم والثانة والأمعاء كل واحد
على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء
بأقسام أخرى فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لوقدت طبقة
منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في أحاد هذه الأعضاء
من العجائب والآيات لا تنقضي فيه الأعمار فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقتها
من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة
فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجا
إلى الحركة بجملته بدنه وبعض أعضائه مفتقرا للتدبر في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل
عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وقد شكل كل واحدة منها على وفق الحركة
المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتا من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت
نفسه في نور روحه
لغلبة سكره وقوة عهوه
فاذا همأ وفاق تتخلص
الروح من النفس
والنفس من الروح
ويعود كل من العبد
إلى محله ومقامه فيقول
يا الله ويلرب بلسان
النفس للطمثنة العائدة
إلى مقام حاجتها وهل
عبوديتها والروح
تستقل بفتوحه وبكمال
الحال عن الأقوال
وهذا أتم وأقرب من
الأول لأنه وفي حق
القرب باستقلال الروح
بالفتوح وأقام رسم
العبودية بعود حكم
النفس إلى محل الاقتدار
وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفر اغاصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا الفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحمي الأعلى واثنان للحمي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريكات وزيادات وتقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذلك عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وعناية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حتى بها خلال للفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيصة رقيقة ، وليس للقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء وللمرحون وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان عتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فتنتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات تخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهي مختلفة القادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفائها لو نقصت واحدة من جعلتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرابين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلنذكر بحال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاريبها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخفوا للنطفة سمعا وبصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو مخلقا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعرا لم يقدر أن يخلق الله تعالى ذلك لعجز واعنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح
باقامة رسم العبودية
من النفس . وقال
الجنيد إن الله تعالى
مقرب من قلوب
عباده على حسب
ما يرى من قرب قلوب
عباده منه فانظر ماذا
يقرب من قلبك .
وقال أبو يعقوب
السوسي مادام العبد
يكون بالقرب لم يكن
قريبا حتى يقب عن
رؤية القرب بالقرب
فاذا ذهب عن رؤية
القرب بالقرب فذلك
قرب وقد قال قائمهم:
قد تحققتك في الله
ر فناجك لسانی
فاجتمعنا لمعان
وافترقنا لمعان

إنسان مصور على حائط تأتى النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصنع والقلم واليد والحائط وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما انتهى فعله الجمع بين الصنع والحائط على ترتيب مخصوص فيكبر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة غفلتها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أركانها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها تجري لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها مبيعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهياكلها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأذى عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدقة الأذن لتجمع الصوت قرده إلى صياخها ولتحس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريقات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصد لها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للنخريين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودع اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا هما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد ردوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناصفة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ولتحميها حروف الكلام وخلق الخنجره وهياكلها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والنقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكبرتها ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والحشونة واللينة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه بالجلية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها والكلى تخدمها يجذب للمائية عنها والثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التع
ظلم عن لحظ عيان
فلقد صيرك الوج
د من الأحشاء داف
قال ذو النون ما ازداد
أحد من الله قرينة إلا
ازداد هينة . وقال
سهل أدنى مقام من
مقامات القرب الحياء
وقال النصراني
باتباع السنة قال
المعرفة وبأداء
القرائن تال القرية
وبالمواظبة على التواضع
تال الهبة . ومنها
الحياء والحياء على
الوصف العام والوصف
الحاس فأما الوصف
العام فما أمر به رسول
الله صلى الله عليه وسلم
في قوله «استحيوا من
الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت معرفة له وإن بسطها وضم أصابعها كانت معرفة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أهمل الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حرك بدنه ثم هذى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنظرة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يضر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الطعام واللباء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فثيبا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما صاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبل حتى تتكس وتحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كأنه عاقل صير بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الذي ثم لما كان بدنه ضعيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرت والهم ما تمنا خالصا وكيف خلق الصدين وجمع فيهما اللبن وأنتب منها حلتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلة الثدي تقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بالصلص تدريجا فان الطفل لا يطبق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتعدى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأنتب له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حثن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والمهذبة تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كنورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك هجائب الحضرة الربانية والسجب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقسا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطا وأنه كيف نفسه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنمته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفكر عن صانعه ومصوره فلا تدعشه عظمتة ولا يحيره جلالة وحكمته فهذه نبذة من هجائب بدنك التي لا يمكن استنفاؤها فهو أقرب مجال لتفكيرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت عاقل عن ذلك مشغول بيطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن مجموع فتا كل وتشتبع فتنام وتنتهي فتجتمع وتنضب فتتائل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الإنسان التي حجب البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل البعد في زمرة الملائكة المقربين ويعشر في زمرة النبيين والصدقيين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحي من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلوى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحي من الله حق الحياء وهذا الحياء من اللصامات وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال إني لأغتسل في البيت المظلم فأطوى حياء من الله. أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا الصباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي

للبيضة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق التفكير في قصك تفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاءا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى - والسماء بانيها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فمنع للهادون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأسموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأخضرت وأنبئت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للماء عتمة ففجر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به ثمرن الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وقواكه كثيرة لأخصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح بفضل بعضها على بعض في الأكل يسقي بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نطفة مطوقة بضائقة الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفنق ظاهرها وباطنها اقراها تراها متشابهة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وهكل بخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى المفاهيم النافعة في هذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قلع الصفراء من أمهات المروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرج وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يحصى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالتخلل تؤبر والسكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت بيت البلد في الأرض وبضه بفرس الأغصان وبضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لامتضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والسكرية والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لطبيب الطعام ولو خلقت عنه بطة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبعة بموهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من الطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت
محمد بن عبدون يقول
سمعت أبا العباس
المؤدب يقول قال لي
سري : احفظ عنى
ما أقول لك إن الحياة
والأنس يطوفان
بالقلب فإذا وجد فيه
الزهد والورع حطا
وإلارحلا والحياة
إطراق الروح إجلالا
لعظيم الجلال والأنس
التذاد الروح بكمال
الجمال فإذا اجتمعا
فهو الغاية في النى والنهاية
في العطاء وأنشد
شيخ الاسلام :
أشواقه فإذا بدا
أطربت من إجلاله
لاخنة بل هية
وصيانة لجماله
الموت في إداره
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فبينما تعيش وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه واطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بعين ما خلقناهما إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يعيش وانقسام ما يعيش إلى ما يعيش على رجلين وإلى ما يعيش على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ثم انقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرته مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة أو النحلة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلهائها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنّي بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع لها دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب يلتصق به ثم ينفذ إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متاسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقده القمط ورب الحيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادراً إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط أو وصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منك - في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الضنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادي له ولا معلم أفيتشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل القيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكائه وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لقاظره الحكيم وخالقه القادر العليم فالصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق الدبر وجلاله وكما لا قدرته وحكمته ما تتعجب فيه الأبواب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنهم أكثر الشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولدوداً تجد تعجبه وقال سبحانه الله ما أعجبكم إلا أناساً أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي أنعم الله عليها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقها وكذا نالهم في ظعنهم وإقامتهم وآية لأشربهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبادي والفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ما خلقها إلا ليعلم محيط بجميع منافعها سابق على خاقه إياها سبحانه من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استماعة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقلّ القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده فما للخلق إلا الأذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والافراز بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا
وأروم طيف خياله
قال بعض - الحكام
من تكلم في الحياء
ولا يستحي من الله فيما
يتكلم به فهو مستدرج .
وقال ذو النون : الحياء
وجود الهية في القلب
مع حشمة ما سبق منك
إلى ربك . وقال ابن
عطاء . العلم الأكبر
الهيبة والحياء فإذا
فهب عنه الهية
والحياء فلا خير فيه .
وقال أبو سليمان : إن
العباد عملوا على أربع
درجات على الخوف
والرجاء والتعظيم
والحياء وأشرفهم منزلة
من عمل على الحياء
لما أيقن أن الله تعالى
يراه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته عنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ^(١) » فأنسب إصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحرفان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاعف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سمته أضاعف سمعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فيزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضاعفه وفيه أجناس لا يسهلها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتعمل أفعالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف للأحبار موارد الرياح ومهابها ومواقبتها ولا يستنصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للفكر ومجال ذلك شواهد متظاهرة وآيات متاصرة ناطقة بلسان حالها مفضحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكيمه فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب أما تراني وترى صورتي وتركبي وصفاتي ومناقبتي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي أنظن أنني كوت نفسي أو خلقتي أحد من جنسي أو ماتستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيز في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقي وأجفاني وجهي وخدي وشفتي قري القويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدرج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للأنثى ولا للأنثى ولا للنطفة ولا للرحم أفأهذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملاسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنه
أكثر مما استحيا
العاصون من سيئاتهم .
وقال بعضهم : الغالب
على قلوب المستحيين
الاجلال والتعظيم دائماً
عند نظر الله إليهم .
ومنها الاتصال . قال
النوري : الاتصال
مكشفات القلوب
ومشاهدات الأسرار .
وقال بعضهم الاتصال
وصول السر إلى مقام
الدهول وقال بعضهم
الاتصال أن لا يشهد
العبد غير خالق
ولا يتصل بغيره خاطر
لغير صانعه . وقال .
سهل بن عبد الله
حركوا بالبلاء فتحركوا
ولو سكنوا اتصلوا .
وقال عبي بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور
وتش وقد لا نظير له ولا يساويه تقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين
الفاعلين من البينة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه
أعجب من كل عجب فان الذي أعشى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنمك من التبيين مع هذا البيان
جدير بأن تعجب منه فسيحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحابيه
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعشى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائقه الخلق
والأمر والامتنان والفضل والطف والقهر لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه ومن آياته الهواء اللطيف
المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض [لا يدرك بحس اللبس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى
بالمين شخصه وجمته مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج
البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فان شاء جعله نحرأين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعمل لئلاء وإن شاء جعله عذاباً
على العصاة من خليقته كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس
كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق المنفوخ
يتعامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه
فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه
الماء وكذلك كل بحوف فيه هواء لا يفوس في الماء لأن الهواء ينقبض عن الفوس في الماء فلا يفصل
عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف
كالذي يقع في بئر فيتملق بذيل رجل قوى يمتنع عن الهوى في البر فالسفينة بقعرها تثبت بأذيال
الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والفوس في الماء فسيحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من العيوم والريود والبروق
والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عباداً - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى
تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب المسخر بين السماء والأرض - وحيث تعرض للريود
والبرق والسحاب والمطر فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك
فالهيئة تشاركك في هذه المعرفة فارفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم اللاألهي فقد فتحت عينيك
فأدركت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب
أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استتمائه تأمل السحاب الكثيف المظلم كيف
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء متى شاء وهو مع رعايته حامل
لقماء الثقل ويمسك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتطبيع القطرات كل قطرة بالقدر
الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاء فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات
متفصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم
لها لاتحدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلما اجتمع الأولون
والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددها ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة
لمجز حسابها لجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جهدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي : العمال أربعة
تائب وزاهد ومشتاق
وواصل فالتائب
محبوب بتوبته
والزاهد محبوب بزهده
والمشتاق محبوب
بماله والواصل لا يجيبه
عن الحق شيء . وقال
أبو سعيد القرشي :
الواصل الذي يصله الله
فلا يحشى عليه القطع
أبداً والتصل الذي
بجهده يتصل وكلا دنا
اقطع وكان هذا
الذي ذكره حال
المرید والمراد لكون
أحدهما مباداً
بالكشف وكون
الآخر مردوداً إلى
الاجتهاد . وقال
أبو يزيد : الواصلون
في ثلاثة أحرف مهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة غبط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالتظن للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس له مؤنن من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للميمان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له ما معنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء للصوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيمضى كل جزء من كل ورقة ويمجرى إليها في تجاويف عروق شجرية صفار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للممدود في طول الورقة عروق صفار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك بمجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات قد فاته الكل تحقيقاً فالأرض والنبع والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فثمان سورة إلا وتشتمل على تفصيلها في مواضع وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج، والسماء والطارق، والسماء ذات الحيك، والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى، فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسمت لوتعلمون عظيم - قد علمت أن عجائب النطفة القنطرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرين وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحوال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وإنني على التفكير فيه فقال - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته (١) أي تجاوزها من غير تفكير وضم العرضين عنها فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يابح الكتاب أجله ولذلك ساء الله تعالى محفوظا فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سماءً ثغرى - وقال - أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفح محكم أقواسها - فانظر إلى الملكوت ترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تعد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم

(١) حديث وبل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - تقدم -

له وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعد . وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال ربيع أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبداً . وقال ذوالنون ما رجعت من رجع إلا من الطريق وما وصل إليه أحد قرع عنه . واعلم أن الاتصال وللواصله أشار إليه الشيوخ وكل من

تشاركك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله - وكذلك ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يعيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى ففتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فتند ذلك ربما يرجي لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأي قلمي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء الكثيف لك ثم النبات والحايوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم اللائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينبك وبين هذه المقاوز العظيمة والسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه قريبا ذا أنفكر وإلى ماذا تطلع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها عليل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بمسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف الواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يميز وقت العاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إماتته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي يحبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافي كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة وثلاثين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها (١) ثم الكواكب

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما تزعمها من أمر الله لأهلك

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفصال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى بتمام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة مفعيا في

التي تراها أصفرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتسنى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبمدها إذ للبعد صارت ترى صنارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بدها فقال - رفع صمكها فساوها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام^(١) فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضمافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة مقدار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام^(٢)» فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدوة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتهما مع اتساع أكنافها في حدة العين مع صفرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك فهوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنتظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفه فالحجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح محوها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعه وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه لما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد بينائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك ثم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مانأ كله بهيمة فكون الهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بألسنتهم بين يديك ويضمرن خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الضرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خفرت في قصر مشيد من تصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواوير والقلبان وأنواع الدخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقت^(١) حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره سماع من أبي ذر^(٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلّي القات لخواص القربين وهذا المقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمح وهو سريان نور الشهادة في كلية العبد حتى يغطي به روحه وقلبه ونفسه حتى قلبه وهذا من أعلى رتب الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول هيئات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى فكيف في العمر القصير الدنيوى ومنها

والتماس فإياها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها وغداها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بعزل عنه وعن التفكير فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبينها إلى غيره وكما غفلت التملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وصار بنيانه وغفلت أيضا عن مكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه التملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه التملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للتملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب تصرفك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملوكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة القربون كما سرافيل وجبريل وغيرهما جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أو تيتيم من العلم إلا قليلا - فهذا يان معاقدا للجل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيد محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فمكندا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل مافي الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر مازرق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضيف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرننا في ذلك الكتاب في فضل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرننا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شق وارتردى فتعوز بالله من الضلال ، ونسأله أن ينجبنا مزالة أقدام الجهال بتمته وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

(تم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه)

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما
حالات شريفة قال الله
تعالى - والله يقبض
ويبسط - وقد تكلم
بهما الشيوخ وأشاروا
بإشارات هي علامات
القبض والبسط ولم
أجد ككشافا عن
حقيقتيهما لأنهما كنفوا
بالإشارة والإشارة
تمنع الأهل وأحببت
أن أشبع الكلام فيهما
لهذه يتشوق إلى ذلك
طالب ويجب بسط
القول فيه والله أعلم .
واعلم أن القبض
والبسط لهما موسم
معلوم ووقت محتموم
لا يكونان قبله ولا
يكونان بعده ووقتهما
وموسمهما في أوائل حال
الهبّة الخاصة في نهايتها

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء اليهود إلى ظلمة الملحود ، ومن ملاعبة الجوارى والعدنان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التفرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن الضجع الوثير إلى المصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، وانخذلوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فسيحان من انقرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقاء وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي العجرات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جلسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة والنار مورد ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترص إلا له ، وحقيق بأن بعد نفسه من الموت وبراهها في أمهات القبور ، فإن كل ماهو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ^(١) » ولن ييسر الاستعداد للشي إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصغاء إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمم الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحشا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فمابق من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

(الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :)

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة
الخاصة فمن هو
في مقام المحبة العامة
الثابتة بحكم الايمان
لا يكون له قبض ولا
بسط وإنما يكون له
خوف ورجاء وقد يجد
شبه حال القبض وشبه
حال البسط ويظن
ذلك قبضا وبسطا
وليس هو ذلك وإنما
هو ثم يستريح فيظنه
قبضا واهتزاز نفساني
ونشاط طبيعي يظنه
بسطا والهم والنشاط
يصدران من محل
النفس ومن جوهرها
لبقاء صفاتها وامادمت
صفة الأمانة فيها بقية
على النفس يكون منها
الاهتزاز والنشاط والهم
وهج ساجور النفس

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره)

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن للموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ. أو عارف منته أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما النائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والحشية فينبى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه»^(١) فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجهه رضاه فلا يعد كارهه للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيبه والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطنه بحسب الموت ويحب محبته ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفلق . من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فأذن النائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يخاف لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبا إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثوابه وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينقص عليه نصيبه ويكدر عليه صفوته وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر هازم اللذات»^(٢) معناه نقصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا»^(٣) وقالت عائشة رضي الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»^(٤) «وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»^(٥) «وإنما قال هذا

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه)

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثرُوا من ذكر هازم اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلًا بسند حسن .

والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذاق قلب وذو نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبضك عمالك ويبسطك فيها له وقال النوري يقبضك ببايك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القاب وغابته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداداة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تخفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغار فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبار وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الازدات قالوا وما مكدر الازدات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . «وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال: اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . «وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال: كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال: أكثرهم ذكر الموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكيس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) وأما الآثار: فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خيثم ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربى سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تبعى فيها الموت فلا تحمد . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعنا عنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاء الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الازدات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الجبلي مر سلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكاه باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منها وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه فاذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيد به الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حيث يشاء فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وذل مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما ترام إلا والهبين . وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فانما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أكرهى ذكر الموت يرق قلبك فقللت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمي فقال ألت أول خليفة يموت قال زدني قال ليس من آياك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت فلي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنينة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأبي هرون : أتحب الموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته (بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكورهم ومن يذكركه ليس يذكركه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا يجمع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة عظيمة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرجه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وتمعن طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فينتدح موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف يحا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتمو أولادهم وضيعوا أموالهم وخلصت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم ففهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانغداه بموت الأسباب وبركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع صمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ففند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كما قبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فقد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غدا يا أرواحا إلى الله عز وجل تضعونه في صعد من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فلازمة هذه الأفكار وأمانها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويتجافى عن دار الغرور والإفلال ذكر بظواهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يسود إلى الوجود والنوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط وذلك أن الولد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتشرق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى في التحذير والتنبية ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال والله لولا اللواتي كنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور أقربت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .
(الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الأمل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن همتك لسمكك فانك يا عبد الله لا تدري ما يملك غدا ^(١) » وروى علي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويمنع وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن الدين أبناء والدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتفعت مولية ألا إن الآخرة قد ارتفعت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل ^(٢) » وقالت أم النضر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون ^(٣) » وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عينا إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ولا لثمت لقمة إلا ظننت أنى لأسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من اللوتى والذي نفسي بيده - إن ماتوا وعدون لآت وما أتم بجمعين - ^(٤) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبائه ^(٥) » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فحز عودا

(الباب الثاني في طول الأمل)

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث كنى في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث على إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم النضر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون الحديث ابن الدنيا ومن طريقه البيهقى في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبرانى في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بإسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبائه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بإسناد ضعيف .

إلى النفس طنت بطبعها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا فقت لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تهر بالطنيان تارة وبالصبيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنسره ورطايته الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكتف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتماطأ ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل ^(١) وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته الناياء وقع في الهرم ^(٢)» قال ابن مسعود هذا الهرم وهذه الخوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الخوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الخوف شوارع إليه فأمر به أخذه فإن أخطأته الخوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبادة «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تهش إن أخطأته هذا تهش هذا وذلك الأمل يعني الخط الخارج ^(٣)» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل ^(٤)» وفي رواية وتنبأ معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة باليغل والأمل ^(٥)» وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يشير بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فساءله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فممت إلى مسحاتي وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء ^(٦)» وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ^(٧) الآثار : قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالعقلة عن الموت ولولا العقلة ماتوا بعيش ولا مات بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنا العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة باليغل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهه ولا أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه القبح سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء إلى الله وإذا لم يلتجئ بالايواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى الممنوع منه فمن ذلك القبح في بعض الأحيان وهذا من أطف الذنوب الموجبة للقبح وفي النفس من حركاتها وصفاتها وبات متعددة موجبة للقبح ثم الحروف والرجاء لا يدمهما صاحب القبح والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يعدمان وأما القبح والبسط

عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضى الله عنه ثلاث أعجبني حتى أضحكنتي مؤمل الدنيا والوت يطابه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزننتي حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زلزلة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الأعمال أبلغ عنكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس يأكل القليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تتسل قبضك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل باد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما وكيف أوصل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مضرور فقال له أستاذك إيش هذا معك فقال لوزات دفعتها إلى أخ لي وقال أحب أن تفطرها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا تملك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فحسوا قلوبكم وتقادوا لعدوكم فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يعمى بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات الناياء كم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا ينهي عنه نفسي فتخسر صفقة وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الفنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال للداب ولو عنيتم به الأرض لشهقت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونعم في أضفائ أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا يطويل والموت من الإنسان قريب ولانقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول جعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن ميمون سمعت أبي يقول أيها الغتر بطول محنته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها الغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبا لصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظرا لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر الصديق بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى يوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولانصرت من حرصك وحيلك وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أهلك وحشمتك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسانك زائد فاعمل

فيمدمان عند صاحب
الإيمان لنقصان الحظ
من القلب وعند صاحب
الفناء والبقاء والقرب
لتخلصه من القلب
وقد يرد على الباطن
قبض وبسط ولا
يسرف سببها ولا
يخفى سبب القبض
والبسط إلا على قليل
الحظ من العلم الذي
لم يحكم علم الحال ولا
علم المقام . ومن أحكم
علم الحال والمقام لا يخفى
عليه سبب القبض
والبسط وربما يشبهه
عليه سبب القبض
والبسط كما يشبهه عليه
الهم بالقبض والنشاط
بالبسط وإنما علم
ذلك لمن استقام قلبه
ومن عدم القبض
والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فيكي سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكرو ونكير فيقعدانك وينتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجمى بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالى وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب التقيين فأنعمنا نحن بهوله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمدا لله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم خباب وشقي غدا عيدا أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا يباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غدا ياورنكم إلى الله عز وجل قد قضى نهبه واتقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسى ولا محمد قد خلع الأسباب وفارق الأحياب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ولكننا سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يسكي حق بلى دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القمقام بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أناني ما أحسبت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول أما في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر للموت أن ينزل بي ولو أناني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أ كفاك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ قعده ناحية وهي تدفن جثت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد نصر عليه البعيد ومن طال أمله ضغف عمله وكل ما هو آت قريب . واعلم يا أخى أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما خلفون ويفرحون بما يقدمون لما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى فتعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بذار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يغرب وكم من مقيم متبسط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضرنكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إنما الدنيا كقصر ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماء يوم حنقه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومضاه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنما تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

نفسه مطمئنة
لا تتفدح من جوهرها
فان توجب القبض ولا
يتلاطم بحر طبعها من
أهوية الهوى حتى
يظهر منه البسط وربما
صار لمثل هذا القبض
والبسط في نفسه لا من
نفسه فتكون نفسه
الطمئنة بطبع القلب
فيجدرى القبض
والبسط في نفسه
الطمئنة وما لقلبه قبض
ولا بسط لأن القلب
متحصن بشعاع نور
الروح مستقر في دعة
القرب فلا قبض ولا
بسط (ومنها الفناء
والبقاء) قد قيل
الفناء أن يفنى عن
الخطوط فلا يكون له
في شيء حظ بل يفنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوههم المعبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون القلبة في مواطن الحرب قد تضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الواحاً ثم النجا النجا .

(بيان السبب في طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلاقتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمضى نفسه أبداً بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كما كفا على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فقول إلى أن تصير شيخاً فإذا صار شيخاً قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تخطفه النية في وقت لا يحتسبها فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف والسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً وإنما زاد بطول المدة قوة ورسوخاً ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغاً قطوه هيأت لها فراغاً منها إلا من أطرحها :

لما قضى أحد منها لبائسه وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله عليه السلام «أحب من أحببت فانك مفارقة» (١) . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ولايس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا الآن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار أعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره وله اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها
شغلا بمن في فيه
وقد قال عامر بن
عبد الله لأبالي
امرأة رأيت أم حانظا
ويكون محفوظا فيها
لله عليه مصروفا
عن جميع المخالفات
والبقاء يعقبه وهو
أن يغنى عماله ويغنى
بما لله تعالى . وقيل
الباقى أن نصير
الأشياء كلها له شيئا
واحدا فيكون كل
حركته في موافقة
الحق دون مخالفة
فكان قانيا عن
المخالفات باقيا في
المواقفات . وعندى
أن هذا الذى ذكره
هذا القائل هو

الباقية من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذي يدعو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استبكت أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغمس فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أماناً كان مستهدفاً فافوزوا عظيماً وأماناً كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خساراً مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاهالة وكيف تنفت عظامها ولتفكر أن الدود يبدأ بحرقته التي أولاً واليسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر ووال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره)

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى - يؤد أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم » (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه استنثى اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد إلا للهاره وأماله فلا قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول لعلى لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعتها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلى ليلاً ويلتفت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

مقام صحة التوبة
النصح وليس من
الفناء والبقاء في شيء
ومن الإشارة إلى الفناء
ماروى عن عبد الله
ابن عمر أنه سلم عليه
إنسان وهو في الطواف
فلم يرد عليه فشكاه
إلى بعض أصحابه فقالا
له كتنا تراءى الله في
ذلك المكان . وقيل :
الفناء هو التوبة عن
الأشياء كما كان فناء
موسى حين تجلى ربه
للجبل . وقال الحران :
الفناء هو التلاشي
بالحق والبقاء هو
الحضور مع الحق .
وقال الجنيد : الفناء
استجماع الكل عن
أوصافك واشتغال
الكل منك بكلية

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعتها أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في البادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فانه يعنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيندل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفل عنه ساعة فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يأسكين فان السير حثك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهات فيه .

(بيان البادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له أخوان غائبان وينظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هراما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة أو الساعة أدهى وأمر (١) » وذل ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ (٣) » أي أنه لا يفتنهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن ساعة الله غالية ألا إن ساعة الله الجنة (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه (٥) » « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة (٦) » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الوعد (٧) »

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدی مرسل (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه ابن حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

وقال إبراهيم بن
شيدان علم الفناء
والبقاء يدور على
إخلاص الوجدانية
وصحة العبودية وما
كان غير هذا
فهو من المغالط
والزندقة . وسئل
الحراز ما علامة
القائي ؟ قال علامة من
ادعى الفناء ذهب
حظه من الدنيا
والآخرة إلا من الله
تعالى . وقال أبو سعيد
الحراز : أهل الفناء
في الفناء صحتهم أن
يصحبهم علم البقاء
وأهل البقاء في البقاء
صحتهم أن يصحبهم
علم الفناء .
واعلم أن أقاويل
الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع» (٢) وقال جابر «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيّتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه» (٣) وقال ابن مسعود رضى الله عنه «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح قليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الغرور والالابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» (٤) وقال السدي - الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً - أي أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن له استعداداً وأشد منه خوفاً وحذراً وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر - في الموت وقال سعيد مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال أرحنى بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقامت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضى الله عنه التؤدة في كل شيء خبر إلى في أعمال الخير للآخرة ، وقال النذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتاك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتاك الأمر حتى كرر ذلك سنين مرة أسمعته ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته المبادرة المبادرة فاتما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأً نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنا نهد لهم عدداً - يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهداً شديداً قليل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرعلت تقارب رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا وعلوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم وترحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر للدوة وإن غالباً يجد به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقة والمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به بعينه التوبة ليسوفها ويزين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيها محسرة على ذى غفلة

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه بأسناد حسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تبصره عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه مبيع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فاعمال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم - قال شككنكم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغركم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن - تصبروا وتشددوا فأنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بعضرتكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلاً بكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن فإن من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لينة على إبنه ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمم إليه الوحا الوحا النجا لئلا يعلم تمرجون أنتم ورب السكبة كأنكم والأمر معاً رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(١) . وقال عاصم الأحوال قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فيقطع عنك النهار في لاشئ فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

(الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنده)

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد للسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد هالكان جديراً بأن يتنقص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقائقه بأن يطول فيه فسكره ويعظم له استمداده لاسيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب يبديسواك لا تدري متى يغشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس الله فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدده أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات التزع وهو عنه غافل فلما لهذا سبب الإلهل والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فأنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدر كها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنفوس في سائر أجزاء البدن فلا يفيى جزء من العضو المحترق ظاهراً

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى
على كون العبد وهو
ينقسم إلى فناء ظاهر
وفناء باطن فأما الفناء
الظاهر فهو أن
يتجلى الحق سبحانه
وتعالى بطريق الأفعال
ويستلب عن العبد
اختياره وإرادته فلا
يرى لنفسه ولا لغيره
فعلاً إلا بالحق ثم
يأخذ في المعاملة
مع الله تعالى بحسبه
حتى سمعت أن بعض
من أقيم في هذا
المقام من الفناء كان
يبقى أياماً لا يتناول
الطعام والشراب حتى
يتجرد له ففعل
الحق فيه ويقبض
الله تعالى له من

وباطنا وإلا توصيه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم التزعج يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه التزعج المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لثقله بالروح فكيف إذا كان التناول للبشر نفس الروح وأنما يستنبت المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وأنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتضاعف على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارجا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربدا حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلا تنسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتردأ ولا أقدماء ثم ساقاء ثم غذاءه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقة يوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويفلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغر» (١) وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عين الرسل فصد ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت» (٢) والناس إنما لا يستعينون منه ولا يستعظمون له لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الخواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفتني خوفا من الموت على الموت . وروى أن نزارا من بني إسرائيل مرّ بأقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه القبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يموت عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه عليّ» (٣) وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمرى فناء لأنه في عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغر الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة ابن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف^(١) هـ. «وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف^(٢)». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته^(٣)» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدرور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لدوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليلبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف يجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجدته فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر^(٤)» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل شعرة للموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات^(٥)» وروى «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت^(٦)» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جمل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسى كالصفور حين يقلى على اللقى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تملخ يده القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات الموت^(٧)»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغضته وأله فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث سئل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف (٥) حديث مكحول لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفته وفيه لو أن ألم شعرة ، وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجده أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفى وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى فقال لى هذا يكون فى مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت أسطوانة فى الجامع فأنزعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطننا ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون

وقاطمة رضى الله عنها تقول واكرباه لسكرتك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أهلك بعد اليوم^(١) وقال عمر رضى الله عنه لسكرب الأبحار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كمنصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديدا فاجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة^(٢) » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن النهمكون في المعاصى وتوالى علينا من سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التى قبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتك التى قبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطبق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر متن الریح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فثقى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في الدار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذى لا أهلب الملوك ولا يمنع منى الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه^(٣) » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضر بها برجله فقال تكلمنى بأذن الله قالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرى رملكى إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حاله ثم خرجت نفسى إليه فبالت ما كان من تلك الجموع كان فرقة وبالت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها العاصاة ويكتفاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنفص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال . وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربهما فقال أنا ربهما فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترى الصورة التى قبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب قد كثر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة المسكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يترأى له ملكه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله يباطنه فى جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باقى والباقى فى مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت واكرباه لسكرتك يا أبتاه الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفى رواية لابن خزيمة واكرباه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رويناه فى الأربعين لأبى هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبى هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه .

السكرات عملها فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات قد تجاوزت قوام واستسلمت للخروج أرواحهم ولن يخرج أرواحهم مالم يسمعو انقصة ملك الموت بأحد البشريين إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الأبواب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاءه ^(٢) » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أرى ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم نار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه حسي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك يا سيدنا فيقول أمارتون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان محصوما ^(٣) » وقال الحسن لأرواح المؤمنين إياي لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى قيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا إخوانا الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخوانا عليكم السلام إلى النار أو إلى الله وأتمنى بعضهم أن يبقى في التبرج أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . يخوف سوء الخاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الدار ي باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللإسناد من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتمه ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيقولون أخرجني راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يحجب الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والفاني محبوب بالحق عن الخلق والقناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والقناء الباطن لمن أطلق عسن وثاني الأحوال وصار بالله لا بالأحوال وخرج من القاب فصار مع مقبله لأمع قلبه .

[الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية] أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الحاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .
(بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وبيست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيظ الخنوق وأحمر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به ^(١) » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ^(٢) » وفي رواية حذيفة « فانها تهدم ما قبلها من الخطايا ^(٣) » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ^(٤) » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكرهم قائمهم يرون مالاترون ولقنوه لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحية فوجد طرف لسانه لاصقا بمنكبه يقول لا إله إلا الله ففصر له بكلمة الاخلاص ^(٥) » وينبغي للملقن أن لا يلبس في التلقين ولكن يخلط فرجما لا ينطق لسان المريض فيشقى عليه ذلك ويؤدي إلى استئقالة التلقين وكراهيته للكلمة ويغنى أن يكون ذلك سبب سوء الحاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوظا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن بفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكن أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ^(٦) » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا

الأصمغاني قال ثنا محمد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الاستغناء بما قد علم » فتشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع ثواب قطعهم الله تعالى مالم

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فانها تهدم ما قبلها تقدم (٤) حديث من بات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين وللطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وصفي في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طاحه وهو ضعيف (٦) حديث دخل واثلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف^(١) وقال ثابت البناني كان شاباً به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له يا بني إن لك يوماً فاذا ذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً فقال يا أمه إن لي رباً كثيراً للعروف وإنني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاباً به رهق فاحضر فقالت له أمه يا بني توصني بشي ، قال نعم خاتمي لتسليبيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن روى في المنام فقال أخبروا أمي أن السلامة قد نقتني وأن الله قد غفر لي . ومريض أعرابي قيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال لما كراحتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو العتمر بن سليمان قال أبنى لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للبعد عاصم عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

(بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أَدْعُو الأرواح بأذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام الملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى ليس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفض في منخره نفخة ففلاهم كبراً ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرافجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فخير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتلك أبداً قبض روحه فخر كأنه خشية ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته طي فو الله ما كان في الأرض غالب أحب إلى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر طي أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر طي ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوصاً وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشي كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه فرأه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهيلة حتى أفرقه قال هيات انقطعت عنك المهيلة فهل كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذناه وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حراساً من غلمانهم ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد على سريره ورفع إحدى رجله على الأخرى وهم يأكلون

(١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يطلوا من غرائب
العلوم ودقيق الاشارات
واستنبطوا من كلام
الله تعالى غرائب العلوم
وعجائب الأسرار
وترسخ قدمهم في العلم
قال أبو سعيد الخزاز
أول الفهم لكلام الله
العمل به لأن فيه العلم
والفهم والاستنباط
وأول الفهم إلقاء السمع
والمشاهدة لقوله تعالى
- إن في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد .
وقال أبو بكر الواسطي
الراسخون في العلم هم
الذين رسخوا بأرواحهم
في غيب الغيب وفي
سر السر ففهمهم
ماعرهم وأراد منهم
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يانفس انعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه محلاة يتشبه بالمساكين قصرع الباب بشدة عظيمة قرعاً أفزعوه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا ماشأئك فقال ادعوا إلى مولانا كم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فسلمت به وفعلتم قصرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أني ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخضع فقال قولوا له قولاً لنا وقولوا له تأخذ به أحداً فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتي عن عبادة ربي ومنعتني أن آتخلى لربي فأنطق الله إليك فقال لم تصبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد التقى عن بابهم وكنت تنسج التمتع بي وتجلس مجالس الملوك بي وتنفعني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فتطلق يري ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فقطع وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة بمن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأثبتها وقد ولدت مولوداً فرحمتهما فثربتهما ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتهد له بها فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك الولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن العبد ليغرس الفراس وينسكح الأزواج ويبني البنيان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحداً قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بينا جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا بعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فنار إليه فزعا مضطربا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فإلهي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف دعوة التسلطين ولا يتمتع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذلا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهدا قال هيأت انقطاع مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإني لأظي نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارع وبك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء القلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خزيمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال أقدر أيتيه ينظر إلى كأنه يريدني قال فإذا تريد قال أريد أن تغلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أماء ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك .

مالم يرد من غيرهم
وخاضوا بحر العلم
بالفهم لطلب الزيادات
فأنكشف لهم من
مدخور الخزان
والخزون تحت كل
حرف وآية من الفهم
وعجائب النص
فاستخرجوا الدرر
والجواهر ونطقوا
بالحكمة . وقد ورد
في الخبر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فيما رواه سفيان بن
عيينة عن ابن جريج
عن عطاء عن أبي
هريرة أنه قال إن من
العلم كهيئة المسكون
لا يملئه إلا العلماء بالله
فإذا انطقوا به لا ينسكرو
إلا أهل المعرفة بالله .
أخبرنا أبو زرعة قال

(الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)

(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوقولاوجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحييه ونجيته وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا، بل أرسل إليه اللائكة الكرام اللوكلين يقبض أرواح الأنام فجذبوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها والجلوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط فحماله وبينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل ساعده إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لانعبر به ولنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء العاصي والسيئات فما بالنا لاتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المؤمنين وحيب رب العالمين لعلنا نظن أننا مخلدون أو توم أنامع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات بل نتيقن أناجيما على النار واردون ثم لاينجو منها إلاالتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لئلا يظن منتظرين لما نحن والله من التقين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فلينظر كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ماوقفوا له من الحائقين ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أموره على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عندهم فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنسة المأوى قال ابن مسعود رضي الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إني لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاءه وعبادته وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنسة المأوى وإلى السكاس الأولى فاقروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) ». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

(الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البرار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصماني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود وروينا في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهم انقطعتان وضعيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كإرواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

أنا أبو بكر بن خلف
قال ثنا أبو عبد الرحمن
قال سمعت النضر بن أبي
يقول سمعت ابن عائشة
يقول سمعت القرشي
يقول هي أسرار الله تعالى
بيدها إلى أمنا أوليائه
وسادات النبلاء من
غير صماع ولا دراسة
وهي من الأسرار التي
لم يطلع عليها إلا
الحواص . وقال
أبو سعيد الخزاز
للعارفين خزائن
أودعها علوما غريبة
وأبناء عجمية يتكلمون
فيها بلسان الأبدية
ويخبرون عنها ببارة
الأزلية وهي من العلم
المجهول فقله بلسان
الأبدية وعجالة الأزلية
إشارة إلى أنهم بالله

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قوت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدود ما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه ووطن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سداً هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصلابة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربيقى وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأوماً برأسه أن نعم فتناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوماً برأسه أن نعم فليته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلأطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثل ذلك فمد يده وقالها فتناولوه فقال ما تقولون قالوا نقول نخشى أن تموت وتصابح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طى والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم هل خلدني قبلى فيمن بعث فأخذه فيكم ألا إنى لاحق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا يعملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أشير يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نقسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل الدارمى في مسنده وفيه إبراهيم بن الحنار مختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربيقى وريقه عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر - آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما - فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهمان من بعضهم البعض وإشارة منهم إلى أحوال يحدثونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قبل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللاسلكة وأولوا العلم - وقوله تعالى - آمنا بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والتفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الفشار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ألا ولا تستأثروا عليهم
ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الخوض حوضي أعرض محباين بصري الشام
وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد يابضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد
من شرب منه لم يظمأ أبدا حضاؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمة في الموقف غدا حرم الحيرة
ألا فمن أحب أن يردده على غدا فليكنف لسانه ويده إلا عما ينهى فقال العباس يابني أله أوص بقريش
قال إنما أوصى بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش يرم يرم فاجرم فاجرم فاستوصوا
آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس برم أنعم
وإذا فجر الناس عقوم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون- (١)
وروى ابن مسعود رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضى الله عنه سل يا أبا بكر
قال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى ليهتك يابني الله ماعد الله فليتشمري
عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى
والرفيق الأعلى والحظ والعيش اللهم قال يابني الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى
قال فقيم نفسك ؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا
وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلكموني وكفتموني فضعوني
على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلى على الله عز وجل هو
الذى يصلى عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله
ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى
الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني
بزيك ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان
قال فمن يدخلك القبر ؟ قال زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لارونهم وهم يرونكم
قوموا فأدوا عني إلى من بعدى (٢) « وقال عبد الله بن زمة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن
بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في
رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صبيحا سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك والسلمون قالها ثلاث
مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق
القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا
مصبوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبن فذكر خطبته بطولها هو حديث
مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن
ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث في
سؤالهم له من يلى غسلك وفيهم نفسك وكيف الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد
ابن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

فزع فكل جمع
بلا خفزة زندقة
وكل خفزة بلا جمع
تعطيل . وقال الجنيدي
القرب بالوجد جمع
وغيبته في البشرية
تفرقة وقيل جمعهم في
للفرقة وفرقهم في
الأحوال والجمع اتصال
لا يشاهد صاحبه إلا
الحق فحق شاهد غيره
فما جمع والتفرقة شهود
لمن شاء بالمانسة
وعباراتهم في ذلك
كثيرة والمقصود أنهم
أشاروا بالجمع إلى
تجريد التوحيد
وأشاروا بالتفرقة إلى
الاكتساب فلى هذا
لا جمع إلا بتفرقة
ويقولون فلان في عين
الجمع يظنون استيلاء

قال صلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا آتي ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا لرغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والمهلكة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويغفون عليه ويتشامون به فأذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما عوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائحهم يستبشرون وأخلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنعاء فيينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أخرجني عن هذا الملك يستأذن عليّ فخرج من في البيت فغري ورأسه في حجرى» وجلس وتحنيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأعاد ورأسه في حجرى وقال للنبوة ادخلني قتل ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن فان لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت وأمرني أن لا أقضك حتى تأمرني فماذا أمرك قتل كفف عني حتى يأتي جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصخرة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحدهم أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملائكة أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم صرفت حسه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال أجدنى وجما فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يملك ما أعد لك فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق أم يملك الذى يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يمضى وأذن للنساء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى منى رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وهى تضعك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها هجبا فساتها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال إني ميت اليوم فبكيت ثم قال إني دعوت الله أن يملكك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى فضحك وأدنت ابنها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فلم واستأذن فأذن له فقال الملك ما تأمرنا يا محمد قال ألقنى ربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصلى بالناس وقال يابى الله ذلك وللؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك مضطربا وأما ما فى آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك إن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه
فاذا عاد إلى شيء من
أعماله عاد إلى التفرقة
فضحة الجمع بالتفرقة
وصحة التفرقة بالجمع
فهذا يرجع حاصله
إلى أن الجمع من العلم
بالله والتفرقة من العلم
بأمر الله ولا بد منهما
جميعا . قال للزين
الجمع عين القناء بالله
والتفرقة العبودية
متصل بعضها ببعض
وقد غلط قوم وادعوا
أنهم فى عين الجمع
وأغاروا إلى صرف
التوحيد وعطلوا
الاكتساب فترددوا
ولما الجمع حكم الروح
والتفرقة حكم القالب
وما دلم هذا التركيب
باقيا فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بأذن غيرك ولستكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يخرج إلي في ذلك كلمة ولا يمشي إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقا قالت قممت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي وأمسكت بصدري وجعل يغمي عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك الغرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي وتقي وأهلي ماتلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتبنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى بعثه إلى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدم الله عنه لأنه ولده جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأمي كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متأسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يومى بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضى الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضى الله عنها ماتت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بمظيعة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخبروا رسول الله ﷺ بالنساء فيينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجن عني هذا الملك يستأذن على الحديث بطوله في عجمي ملك الموت ثم ذهبه ثم عجمي جبريل ثم عجمي ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلقت حبيبي جبريل قال خلفته في صماء الدنيا والملائكة يزورونه فيك فلما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بهالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد النعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تعبدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في عجمي ملك الموت أولا واستئذانه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال ابن جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث (٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والتفارقة . وقال
الواسطي إذا نظرت
إلى نفسك فرقت وإذا
نظرت إلى ربك
جمعت وإذا كنت
قائما بغيرك فأنت فان
بلا جمع ولا تفرقة .
وقيل جمعهم بذاته
وفرقتهم في صفاته وقد
يريدون بالجمع والتفرقة
أنه إذا أثبت لنفسه
حكما ونظرا إلى
أعماله فهو في التفرقة
وإذا أثبت الأشياء
بالحق فهو في الجمع
وجمع الاشارات
ينبغي أن الكون يفرق
والمكون يجمع فمن
أفرد المكون جمع
ومن نظر إلى الكون
فرق فالتفرقة عبودية
والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فماليق من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتعنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم^(١) وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسفي هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدها بالتوفيق والساداد وإن كان الناس لم يرجعوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رباً محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم - ^(٢) الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب بمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلاً وهو منكرو (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله ﷺ وهو منثنى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد منها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها .

أثبت طاعته نظرا
إلى كسبه فرق وإذا
أثبتها بالله جمع وإذا
تحقق بالفناء فهو
جمع الجمع ويمكن أن
يقال رؤية الأفعال
تفرقة ورؤية الصفات
جمع ورؤية الذات جمع
الجمع . مثل بعضهم
عن حال موسى عليه
السلام في وقت
الكلام فقال : أفنى
موسى عن موسى فلم
يكن لموسى خبر
من موسى ثم كالم
فكان الكلام والكلم
هو وكيف كان
يطبق موسى حمل
الخطاب ورد الجواب
لولا بإياه مع ومعنى
هذا أن الله تعالى
منحه قسوة بتلك

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ف عظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصمت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفقدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه عنا فكمد وأدكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا إذ كرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يتم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (١) . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجبا سمع أهل الصلي كلما ذكر شيئا ازدادوا فها سكن عجبهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم بأهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه ففقوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته بأهل البيت إذ كروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القمعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في مباح التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه ففقوا ثم ممعوا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للسكريين في إزار ورداء ينخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك قالوا الله تعالى فأنبيوا ونظروا إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فظفروا بمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نينا عليه السلام جاء يمزينا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فباؤه ففقوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدررون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تسكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمروفي عن علي بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الخضر.

القوة مع ولولا
تلك القوة ما قدر
على السمع ثم أنشد
القائل مثلا :
وبدا له من بعد
ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا
لمعانه
يدنو ككاشية الرداء
ودونه
سحب القدرى متمنع
أركانها
فبدا لينظر كيف لاح
فلم يطق
نظرا إليه ورده
أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه
ضلوعه
وللألم ما أصبحت به
أجفانه
ومنها قولهم التحلى
والاستار . قال الجنيد

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده الله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كازل وأن الدين كاشرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومما فاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الحير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابشعه مقاما محمودا يعبطه به الأولون والآخرون واقنعنا ببقائه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشفلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا وكذا أو يوم كذا كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقال والله لكأنني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نختب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لفصله قالوا : والله ما ندري كيف نفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجرده عن ثيابه كما نضع بموتانا أو نفسله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال لا يدري من هو عسلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فنقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيصره حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قيصره فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه في قيصره كما نفصل موتانا مستلقيا مانشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحفيقا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقطان على القטיפه والفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة (١) ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

(وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع الفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته ففقد أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها التجلي) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

لمسرك مايفى الثراء عن الفقى إذا حشر جرت يوما وضاق بها الصدر
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه
تخيد - انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنوه فيهما فان الحق إلى الجديد أحوج من الميت .
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طبيبا ينظرك إليك؟
قال قد نظر إلى طبيبي وقال إني ضال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه
بحوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك « واعلم أن
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تضرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك، ولما نقل
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس
له استخلفت علينا فظا غليظا لماذا تقول لربك فقال أقول استخافت على خلقك خير خاقت ثم أرسل
إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة وإنما نقلت موازين من نقلت
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا ونقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يشقل
وإما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل
أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغبا راغبا
ولا يلقى يديه إلى التماسكة ولا يمتحن على الله غير الحق فان حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب
إليك من الموت ولا بذلك منه وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين ؟ قال قاع بين يدي العرش
فيه رياض الله وأنهار وأشجار يشاء كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا المقول جعل الله روحه في هذا
المكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا
للسعير فأجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت
منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشفق بمصائبك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل
أن تخلقها فلا تجعل لها مما علمت فأجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء
فاجعل مشيتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا تتحرك شيء
إلا بأذنك فأجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهم عاملا
يعمل به فأجعلني من خير التمسعين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا
فأجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم فأشرح صدري
للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد الموت حياة
طيبة وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى فتمته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائي ولا حول
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل .

لهم ولنيرهم فأما لهم
فلائهم به يرجعون
إلى مصالح النفوس وأما
لغيرهم فلا نه لولا مواضع
الاستئثار لم ينتفع بهم
لاستغراقهم في جمع
الجمع وبروزهم لله الواحد
القهار . قال بعضهم
علامة تجلئ الحق
للأشرار هو أن لا يشهد
السر ما يتسلط عليه
التبصير ويعويه الفهم
فمن عبر أوفهم فهو
صاحب استدلال لا ناظر
اجلال . وقال بعضهم
التجلى رفع حجة
البشرية لأن يتلون
ذات الحق عز وجل
والاستئثار أن تكون
البشرية حائلة بينك
وبين شهود الغيب .
(ومنها التجريد والتفريد)

(وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر ما بين وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفيين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استنوا حتى إذا لم يرفهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فها هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أو أكلني السكب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملح بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد عينا أو شملا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملح أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم قدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكرمهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلكم وجواحجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقاتل يقول أخاف عليه وقاتل يقول لأبأس فأني بنيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فزفروا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشريا أمير المؤمنين يبشري من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم ولت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لاعي ولالي فلما أدير الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ماعلى من الدين خصبوه فوجدوه ستة وعشرين ألفا أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا نسل في بني عدي بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تدهم إلى غيرهم وأد عني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تغفل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله وسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدوها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريدك لنفسى ولأثرته اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال مالك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قلنا فوجئت عليه فبككت عنده ساعة واستأذن الرجال فوجئت داخلا فسمنا بكاهها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستن به أيكم أمرفاني لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصي خليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصيه بالأصاخير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير أقاتهم ردة الاسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية واثقاذا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن حكمه (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويضيره عن هيئته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بمقدمهم وأن يقاتلهم من وراءهم ولا يكافهم إلا طاقهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر ^(١) » وعن ابن عباس قال « وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن ليجمعنك الله مع صاحبك وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ^(٢) » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجمعك الله معهما .

(وفاة عثمان رضي الله عنه)

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد رده بين يدي وبين كتي وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشبط عثمان في الوت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشبط ؟ قالوا معناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتوني بصاحبيكم الذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنهما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم للمدينة وليس بها ماء يستحب غير بر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين غير له منها في الجنة فاشترتها من سلب مالى فأتتم اليوم تمنوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشترتها من سلب مالى فأتتم اليوم تمنوني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على نبيز بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحفيض قال فركضه برجله وقال امكن نبيز لما عليك إلا نبي وصدق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أتى شهيد ^(٣) . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكفنه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذي وقال حسن والنسائي .

وتطلع إلى الله تعالى وهو فرجة يجدها القلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالله كره والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربني وجدى فأقمه عن رؤية الوجد من في الوجد موجود والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم
إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

(وفاة علي كرم الله وجهه)

قال الأصمعي الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر
يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عثرته وهو يقول:

اشدد حيازيعك للموت فان الموت لا يكا

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول
مالي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن
علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنه
ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله
عنه فقال يا أخى لأى شيء تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وهما أبو الكوكلى خديجة
بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله
وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنهما يؤمن أنهم قاتلوه قام في أصحابه
خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمراء من وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدير معروفها
وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصباة الإناء الأحسبي من عيش كالمري الويل لأتروا الحق لا يعمل به
والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى الموت لإسماعدة والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

(الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعذوني فأتعذ فجعل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى
وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغضب الشباب نضر ريان وبكى حتى
علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحملك
على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه
في مرضه فرأوا في جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا
أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا
بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من
دار ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع
قد استحصد وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيراً منى
ويا يزيد إذا وفى أجلي فوال غملى رجلاً ليبياً فان الأيب من الله يمكن فلينعن العسل وليجهر بالتكبير
ثم اعمد إلى منديل فى الحزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره
فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ
وصية الله فى الوالدين فإذا أدرجتموني فى جديدى ووضعتوني فى حفرتى غفلوا معاوية وأرحم
الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلاً من قريش بنى طوى
وإنى لم آل من هذا الأمر شيئاً . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق
يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به لفظة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدي يوماً يوم

(ومنها الغلبة) الغلبة
وجد متلاحق فالوجد
كالبريق يبدو والغلبة
كتلاحق السبق
وتواتره يغيب عين
للمتخير فالوجد ينطق
سريماً والغلبة تسبق
للأسرار حرزاً منيعاً .
(ومنها السامرة) وهى
تفرد الأرواح بحسنى
مناجاتها ولطيف
مناجاتها فى سر السر
بلطيف إدراكها
للقلب لتفرد الروح بها
فتلذذ بها دون القلب
(ومنها السكر والصحو)
فالسكر استيلاء
سلطان الحال والصحو
العود إلى ترتيب الأفعال
وتهذيب الأقوال
قال محمد بن خفيف

(الباب الخامس فى كلام جماعة من المختصرين)

ولم آل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يشعرون ما نحن فيه وإذا حضروا الموت لم تمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وترككم ما خولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيدي وبينه باب وهو في قبة له فسمعه يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين - ثم هدا فجعلت لأسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هوميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصر عى هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولاتأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال رب خير مذهب إليه والله لو علمت أن شفاى عند شحمة أذنى ما رفعت يدي إلى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى قليل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحفمت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلموني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فصبت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر قليل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة ما هم بأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وهكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أ كفافه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عني ماله هلك عني سلطانيه وفرش الأمن رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت وكان للتصير يضطرب على نفسه عند موته قليل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبيه من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون إنك لا تغفر لي فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه وبغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أفا لها ؟ قيل نعم قال عسى .

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)

(من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين)

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظما للهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التبع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد كان كما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أختفى خفتك فوعزت لك إنك تعلم أن قلبي يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى قليل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب
عند معارضات ذكر
المحبوب وقال الواسطي
مقامات الوجد أربعة
الذهول ثم الحيرة ثم
السكر ثم الصحو كمن
صبح بالبحر ثم دنأته
ثم دخل فيه ثم أخذته
الأمواج فعلى هذا من
بقى عليه أثر من
سريان الحال فيسه
فعله أثر من السكر
ومن عاد كل شئ منه
إلى مستقره فهو صاح
فالسكر لأرباب القلوب
والصحو لكاهل الشافين
بحقائق القيوب .
(ومنها الهو والإنبات)
الهو بإزالة أوصاف
النفس والانبات بما
أدبر عليهم من آثار
الحب كؤوس أو الهو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) فلما مات سلمان نظر في جميع ماله فإذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناته فقال بل واطرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال سئل هذا فيعمل العاملون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى قهقري له ما يبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن للكندر الوفاة بكى قهقري له ما يبكيك فقال والله ما يبكيك لندب أعلم أني أميت ولكن أخاف أني أميت شيئا حسبه هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى قهقري له ما يبكيك قال ما يبكي جزعا من اللوت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يغفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وأبعد سفره وأقله زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقبرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحيني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقي ولأهد على ما لم أنكمم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت قال ما آمنتك بعد وبكى بعضهم عند اللوت قهقري له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يعجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهق في أوله . وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النير وزهو يقرأ القرآن فغتم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم قال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول:

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكرهم وقت للناجاة للسر
أدبرت ككؤوس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كغفاء ذى الشكر
همومهم جواله بمسك به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو الملائسرى
لما عرّسوا لإقرب حبيبهم وما عرّجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن يجب أن تطير روحه احتياقا وقيل لدى النون عند موته مات شهيدا قال أن أعرفه قبل موته بلحظة وقيل لبعضهم وهو في النزاع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند عماد الدينوري قدّم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجعد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت قد مت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجرى فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم ترد هاتم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا بمسكين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ وبالحد المورّد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

هو رسوم الأعمال
ينظر الفناء إلى نفسه
ومامنسه والاثبات
إثباتها بما أنشأ الحق
له من الوجود به
فهو بالحق لا بنفسه
بأبواب الحق إياه
مستأنفا بعد أن
عماء عن أوصافه .
قال ابن عطاء بن محو
أوصافهم ويثبت
أسرارهم (ومنها علم
اليقين وعين اليقين
وحق اليقين) فطم
اليقين ما كان
من طريق النظر
والاستدلال وعين اليقين
ما كان من طريق
الكشف والنوال
وحق اليقين ما كان
بتحقيق الانفصال
عن لوث الصلصال

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمي ذنبي فلما قرئت به بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكرمنا
ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صديق آدم

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا
وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالمعادة أو الشقاوة فآن لي أو ان الجواب فنه
أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى
بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة إلى أحوالهم.

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم
يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون
ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرين ولا يتفكرون أن المحولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون
فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها
فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولطه في غد أو بعد غد . وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا
رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر . وكان مكحول الدمشق إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائعون
موعظة بليغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة
فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه ولمامات أخو مالك بن دينار خرج مالك
في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعمش
كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندري إلا
متنعما بما كنا فيه فكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم
يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأذريه إلا في الحيلة
التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل
عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر
والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا ينينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه
الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكائهم على الميت ولو عقلوا بسكوا على أنفسهم لا على الميت
نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه
نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحائمة وقد
أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جريح وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة
فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

ثرونا الجنائز مقبسات ونلهو حين تذهب مدبرات

صكروعة ثلة لغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكير والتفكير والاستعداد والتي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا
آدابه وسننه في فن القمه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن
كان ظاهرها الصلاح فان الحائمة محظرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر)

قال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« ماذا أبقيت لعياذك
قال الله ورسوله » وقال
بعضهم : علم اليقين
حال التفرقة وعين
اليقين حال الجمع وحق
اليقين جمع الجمع
لسان التوحيد وقيل
ليقين اسم ورسم
وعلم وعين وحق
فلاسم والرسم للموام
وعلم اليقين للأولياء
وعين اليقين لخواص
الأولياء وحق اليقين
للأنبياء عليهم الصلاة
والسلام وحقية اليقين
اختص بها نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم .
(ومنه الوقت) والمراد
بالوقت ما هو غالب
على العبد وأغلب

واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا . ويحكى أن رجلا من قتهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من بينها على حمل جنازته إذ لم يدبرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى الصلي فاصلى عليه أحد خدمتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمتنظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى فى المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره فى المأخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود إلى المأخور ويشتغل بالفسق ، والثانى أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمة وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث يبنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

(بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور)

قال الضحاك قال رجل « يا رسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور (١) . وقيل أهدى كرم الله وجهه ما شأنك جاورت القبرة قال إني أجدهم خير جيران إني أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويدكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظرا إلا والقبر أقطع منه (٢) » وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكى فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لك قال هذا قبر أمي أمانة بنت وهب استأذنت ربي فى زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (٣) »

(١) حديث الضحاك : قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى الحديث تقدم (٢) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أقطع منه تقدم فى الباب الثالث من آداب الصلاة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر أمينة بنت وهب استأذنت ربي فى زيارتها فأذن لى الحديث وتقدم فى آداب الصلاة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانى ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته
فانه كالسيف يعضى
الوقت بحكمه ويقطع
وقد يراد بالوقت
ما بهجم على العبد
لا يكسبه فيتصرف
فيه فيكون بحكمه
يقال فلان بحكم
الوقت يسعى مأخوذا
عما منه بما للحق.
(ومنها الغيبة والشهود)
فالشهود هو الحضور
وقتا بنت المرافقة
ووقتا بوصف
المشاهدة لادام العبد
موصوفا بالشهود
والرافية فهو حاضر
فاذا قصد حال
المشاهدة والمرافقة
خرج من دائرة
الحضور فهو غائب
وقد يضمن بالنية

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى ييل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكي إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه لما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد» (١) وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى القبرة فنزل وصلى ركعتين فقبل له هذا شي لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت العربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لي . وقال أبوذر ألا أخبركم يوم قمرى يوم أوضع في قبرى وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقبل له في ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قتت لم يفتابوني وكان جعفر ابن محمد يأتي القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بـ أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرتقت الليلة أنفكر في القبر وسأكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويمر في الصديد وتغترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وتقاء الثوب قال ثم شق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشي يقول أيها القبور في حفرته والتخلي في القبر بوحدته للسناس في بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي اخوانك اغتبطت ثم يبكي حتى ييل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله باخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يغور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالقبائر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يأماه ليتك كنت بي عقيما إن لابتك في القبر حسبا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبتك من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبتك من قبرك منعها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القابر يقول ما أحسن ظواهركم إنما الدواهي في بواطنكم وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى القبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعايتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء في القبور غدا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول - رب ارجعون لعل أعمل صالحا فيما تركت - يردد ما ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تعجب الأرض من رجل يهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شي * وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث واستحك فيهم البلى وأصابته الهوام مقيلا في أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت للقبائر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى ييل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصعبة .

الغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق إيمان والشرب علم والرى حال فالذوق الأرباب البوادم والشرب لأرباب الطوابع واللسوانح والوامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوابع وقيل الحال لا تستقر لأنها تحسول فإذا استقرت تكون مقاما (ومنها المحاضرة والكاشفة والمشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التأويل والمشاهدة

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما قصدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعروا فاقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهابا وأضيحا
إذا جاءني يوم القيامة قائداً عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مثي إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على صاحبها من منكم للمعمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبيز الفضل في درجاتها
لو جابوك لأخبروك بالسن نصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فإزل في روضة يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا
فكيف أذوق لطم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناء بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أنيت القبور فناديتها فأين العظم والمهتقر
وأين الدل بسلطانه وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما خبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو نبات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائل عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تتاجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت عموت

لأرباب التمكن
والكشفة بينهما إلى
أن تستقر للمشاهدة
والحاضرة لأهل العلم
والكشفة لأهل العين
والشاهدة لأهل الحق
أى حق اليقين (ومنها)
الطوارق واليوادى
والباده والواقع
والقادح والطوالع
واللوامع والأوانع
وهذه كلها ألفاظ
مقاربة المعنى ويمكن
بسط القول فيها
ويكون حاصل ذلك
راجعا إلى معنى واحد
يكثر بالعبارة فلافائدة
فيه والمقصود أن هذه
الأسماء كلها مبادئ
الحال ومقدماته وإذا
صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه بينهم
وقال ابن السكك مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنبات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جعدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا في الله أسرع ما نسوني
ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب يختلس لا ينزع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدينا ولذتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في القص منغصا وأنت دهرك في اللذات منغص
لا يرحم الموت ذا جهل لفرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقتت به عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف وقبرك اليوم في الأجداث مندرس
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلا أن بكيت وفاض دمعى رأيت عيناى بينهم مكانى
ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رسمه
فأين ما بوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسمه
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فلتقى الله ربه رجل أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى قلت حيث ترى كل إلى مثله سيقتل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصر هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بعد أفيها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فاعلموا حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الوفي به ربه فيتضاعف له الثواب فانهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة واعلمك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضى لهما فوطن نفسك على التضرع على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتداء فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها يعنى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفوننى فإن فلانا

هذه الأسماء كلها ومعانيها .

(ومنها التلويح والتحكين)

فالتلويح لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب وللقلوب تخلص إلى الصفات وللصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلويحات ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التحكين فخرجوا عن مشام الأحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم بسطوع نور الذات فارفع التلويح لدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أقدر على أن أجلسهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

(بيان أقوالهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كان في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسميا وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر عمل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لدواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا قليله ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدف فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعنى به مامتتى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمت طاعتك وطاعتي اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فاقدم مضينا وتركنك ولو ألقنا ما نفعناك . ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان بأعيان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا امتشعنا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فاجأ إلى جبل فرمقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فاسمن مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار بزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خنفي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في السكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في القات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبه تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبها عن حال التمسك لأن جريان التلوين في النفس بقاء رسم الانسانية وثبوت القدم في التمسك كشف حق الحقيقة وليس المتي بالتمسك أن لا يكون للعبادة تغير فإنه بشر وإنما المتي

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا^(١)» وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ^(٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار^(٣) كأوردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها^(٤) ولا ينبغي أن يتمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهن يكثرن الهجر على رسول المقابر فلا ينبغي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام الزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة تردأعين الرجال عنها وذلك بشرط الاختصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «زار القبور تذكركم بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله^(٥)» وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ «زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة^(٦)» وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا^(٧)» وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لم يوت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين^(٨)» وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا ينقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون نبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمنهى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكانت إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابتة قال البخاري لم يصح وريضة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأنخس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قالت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زار القبور تذكركم الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا في هكذا مرسلًا وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان برفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين أن الرجل لم يوت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عتبة بن أبي العيزار عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة ^(٢) » وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطاع إلا أنزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. ولستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسح ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأى مائة مرة أو أكثر يمشي إلى القبر فيقول السلام على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يركب السلام على أبي وينصرف. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه اقتنع الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ^(٣) » وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصميا منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا واقف في روضة من رياض الجنة أنا وتمر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فتتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تملأون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة قبيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يملأون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبري قبل طلوع الشمس يوم السبت علم البيت بزيارته قبل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلج إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ونجاوز عن ميتاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخناق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاءكم بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلنا قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشر بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور عذرة بناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بناديل الحرير ثم أتى به البيت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالفرق الغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف ^(١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج ^(٢) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه ^(٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن مسمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشيلي.

متمكن من الحال
لا يتناوب عليه الحال
بالنية والحضور بل
تكون للواجب
مقرونة بأنقاسه مقيمة
لا تتناوب عليه وهذه
كلها أحوال لأربابها
ولهم منها ذوق وشرب
والله ينفع يبركهم
آمين

[الباب الثالث
والسنة في ذكر
شيء من البدايات
والنهايات ومعتها]
حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
السهروردي قال أنا
الشريف أبو طالب
الحسين بن محمد الزيني
قال أخبرتنا كريمة
الروزية قالت أخبرنا
أبو الهيثم محمد بن مكي

أوأخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأخياء للأموال
الدعاء والاستغفار (١) . وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام قفلة ما كان حالك حيث وضعت
في قبرك قال أنا أنى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعاني لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب
تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي وشهدت بأمامة الباهلي وهو في
الترغ فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم
فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجب
ثم ليل يا فلان ابن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليل يا فلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول أرسدنا
يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له أذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن
إماماً فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عنده هذا وقد لقن حجة
ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى
حواء (٢) ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحدا قال: كنت مع أحمد بن
حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضري يقرأ عند القبر فقال له
أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله
ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن
اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة
البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد
ابن أحمد الروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقروا وباتحة الكتاب والمعوذتين وقل
هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل اليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة
فنزات الخندق فطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فسمعت ثم تنهت فاذا صاحب القبر
يشتكى يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركتان
اللتان ركعتيها خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خير أقرهم السلام فانه قد يدخل
علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمتعود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه
فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور
في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القبر سيالحق به كما روى
عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت هجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل
تخزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت في كثرة اتيانها للمقابر

الكشميني قال أنا
أبو عبد الله محمد بن
يوسف القريري قال
حدثنا أبو عبد الله محمد
ابن اسمعيل بن ابراهيم
البخاري قال حدثنا
الحسين بن علي قال حدثنا
سفيان بن عيينة قال
حدثنا يحيى بن سعيد
الأنصاري قال أخبرني
محمد بن ابراهيم النخعي
أنه سمع علقمة بن
وقاص قال سمعت عمر
ابن الخطاب رضي الله
عنه يقول على المنبر
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
«إنما الأعمال بالنيات
وإنما لكل امرئ
ما نوى فمن كانت
هجرته إلى الله
ورسوله فحجرتة إلى
الله ورسوله ومن

(١) حديث ما للميت في قبره إلا كالفرق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له
الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن
عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بهديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي
قال شهدت بأمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول
يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف .

قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلبس إلا رسوم البلى وإنى لآنى القبور فسكنى أنظروا وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأفئس وأشد تلفها للأبدان بل ينبى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لورأتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدتان فسالتا طى الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتآ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرايت أعجب مما تراه الآن ويستعجب الثناء طى الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار نخسبهم ما هم فيه»^(٣) وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أثبتتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثبتتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله فى الأرض»^(٤) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليوت فيبنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن عبنى فى عبيدى»^(٥)

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نسخة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عقاب للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحدادين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتمتع بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمقاب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبيث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هل سكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن العبد ليوت فيبنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبرانه الأدين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبيدى طى ما علموا وغفرت له ما علم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه «النية أول العمل وبهجتها يكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزينا بزيمهم ويخالس طائفتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمريد ينبى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامعذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرّفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطن باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد بتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبسبب تفتح في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العاقلة للندرك باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام والنفوس وللذات الأفراس ومهما بطل تصرّفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراس والنفوس ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام والذات وذلك لا يموت أى لا يندم ومعنى الموت انقطاع تصرّفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالوقت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية . نعم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه غيظه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانة ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الأشياء فإن المؤلم هو القراق والفرق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين ، وإعنا معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له في الدنيا شئ يأنس به ويجترع إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقه بل ياتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قبيص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادتة إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوقا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوقا له في النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سرّ قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويحسرها عليها تحسرا يؤثر أن يغوص غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك حسياسا - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتغل فيه نيران القراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فإن من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدی قال سمعت الجيسد يقول أكثر العوائق والحوائل والوانع من فساد الابتداء فالمرید في أول مسلكه هذا الطريق يحتاج

بفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعنى عنه ويكون حال التمتع بالدنيا المظنين إليها كحال من تتم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريره اعتمادا على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بفتنة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجنایاته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر مبتسط وغيور على حرمه ومتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والحجة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المظنين إليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك السر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدا أولوا البصائر مشاهدا باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرف حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى (١) » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن أطلع عليه وإعما للأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت وبدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين - ولما قتل صناديل قریش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقل » قال رسول الله ﷺ « أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والنبي نفي يده إتهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغلو للميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعاده يتعجل عند الموت من غير تأخر وإعما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقدمه غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا مقدمك حتى تبث إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة المتعدين من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح ، متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - وإستلونك عن الروح - وقد تقدم (٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

إلى إحكام النية وإحكام
النية تنزيهاً من
دواعي الهوى وكل
ما كان للنفس فيه حظ
عاجل حتى يكون
خروجه خالصاً لله تعالى .
وكتب سالم بن عبد الله
إلى عمر بن عبد العزيز
اعلم يا عمر أن عون الله
للعباد بقدر النية فمن
تمت نيته تم عون الله له
ومن قصرت عنه بنته
قصر عنه عون الله
بقدر ذلك . وكتب
بعض الصالحين إلى
أخيه أخلص النية في
أعمالك يكفك قليل
من العمل ومن لم يهتد
إلى النية بنفسه يصحب
من يعلمه حسن النية .
قال سهل بن عبد الله
التستري أول ما يؤمر به

وعن أبي قيس قال كنا مع عاقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة ^(١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في الملحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فإن لم يمت قال يقل ماله وولده وإنا أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنا أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للانسان بالدنيا والانس عن لابد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنا مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من يخاف عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكل اللذات لاشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخره والبائع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وأقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد ينشق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الانسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم المذاب أن ينزع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أنقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجم الجابر « ألا أبشرك بإجبار وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك فأقعد بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب ما عبدتك حق عبادتك آتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبئك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع ^(٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأنني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب

المريد البدوي التبري
من الحركات الذمومة
ثم النقل إلى الحركات
المحمودة ثم التفرد
لأمر الله تعالى ثم
التوقف في الرشد ثم
الثبات ثم البيان ثم
القرب ثم المناجاة ثم
الصادقة ثم الموالاة
ويكون الرضا والتسليم
مراده والتفويض
والتوكل حاله ثم يمن
الله تعالى بعد هذه
بالمعرفة فيكون مقامه
عند الله مقام التبرئين
من الحول والقوة
وهذا مقام حملة العرش
وليس بعده مقام
هذا من كلام سهل
جمع فيه ما في البداية
والنهاية ومتى تمسك
المريد بالصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك بإجبار الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقعد بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت باسناد فيه ضعف وللمتقدمي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطاك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون.

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتعلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه^(١)» فترك هذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجها حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه^(٢)» وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه^(٣)» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقي مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التي تعاقب وتتاب إلى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإتهم ليعلمونه ويكفونونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها قال الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم^(٤)» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فأنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور^(٥)» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعجل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال في حواصل طير يبض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجها حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنازي مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ مرّ عليه بجملة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في اللوت باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها قال الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فأنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمحاملي بأسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث .

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الترحم وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكلد إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغراً» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعبادتهم . قال أحمد بن حنبل خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فيلزم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن للبت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره»^(١). وقال صالح
المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مآواك
وفي أى الجسد كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا تأتم
البت قالوا ماض فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قسم عليكم فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به
غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد:
إن الرجل ليشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا
أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت
فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية»^(٢).
(بيان كلام القبر للبت)

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم
الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في
ألم تعلم أتى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمرى فذاذا
فإن كان مصلحا أجاب عنه عجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول
القبر إني إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى»^(٣) والفاذ هو
الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسر الراوى . وقال عبيد بن عمير الليث ليس من ميت يموت
إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعا
كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج
مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغذب
أو أصابه بعض مايكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك
فينا معتبرا أما كان لك في متقدما إياك فكرة أمارأت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فلا استدركت
مافات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها القبر بظاهر الدنيا هلا عتبرت بمن غيب من أهللك في بطن
الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا لها دام أجته إلى المنزل الذى
لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن للبت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله؟ فقالت
أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا
وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء
ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدرى إن للبت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره ورواه أحمد
من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن
نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى
يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبرانى في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك
في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل
ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول
القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم أتى بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب
القبور والطبرانى في مسند الشاميين وأبو أحمد الحافى الكنى من حديث أبي الحجاج النخلى بإسناد ضعيف.

الصدق فإن الله تعالى
مع الصادقين وقد ورد
في الخبر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«الصدق يهdy إلى
البر» ولا بد للمريد
من الخروج من المال
والجاء والخروج عن
الخلق بقطع النظر
عنهم إلى أن يحكم
أساسه فيعلم دقائق
المهوى وخفايا شهوات
النفس وأنفع شئ
للمريد معرفة النفس
ولا يقوم بواجب حق
معرفة النفس من له
في الدنيا حاجة من
طلب الفضول
والزيادات أو عليه
من المهوى بقية . قال
زيد بن أسلم: خصلتان
هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجهه لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتنشرون له فراشا من الجنة ودنارا من الجنة ويفتح له في قبره مد بصره ويؤتى بتعديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعث الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرتني وقلتني وهولي ودودي فإذا أعددت لي (١) » .

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروهم ما أعددت لهم من الكرامة فإني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خلق نعالمهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروهم ما أعددت له من الشر إني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خلق نعالمهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبسذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الحبيث والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلقي ولم يرفعه .

لاهم لله بمصية وتسمى
ولا تهم لله بمصية فاذا
أحكم الزهد والتقوى
انكشفت له النفس
وخرجت من حجبها
وعلم طريق حركتها
وخفى شهبواتها
ودسائسها وتلبساتها
ومن تمسك بالصدق
قد تمسك بالمروة
الوثقى . قال ذو النون
الله تعالى في أرضه
سيف ما وضع على شيء
إلا قطع وهو الصدق
ونقل في معنى الصدق
أن عابدا من بني
إسرائيل راودته
ملكة عن نفسه
فقال اجعلوا لى ماء فى
الحلاء أنتظف به ثم
صعد على موضع فى
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرًا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يملوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واقتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن طي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسنة وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان فتسل روحه كاتسل الشجرة من العجين ويقال : أيتها النفس الطمينة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضمت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه حجارة فتزعج روحه انزعاجا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسغوظا عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضمت على تلك الحجرة وإن لها نشيئا يطوى عليها السح ويذهب بها إلى سجين (٢) وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحا فارتد - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب تريد أن ترجع لتجمع المال وتفرس الفراس وتبنى البنين وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحا فارتد قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « للؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فياذا أنزلت - فإن له معيشة ضنكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلمط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخذشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق الذمومة من الكبر والرياء والحسد والذل والحقده وسائر الصفات فإن لها أصولا معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي الهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه الهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأما هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم. فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف الشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن ارم عبدي قال فزمره ووضع على الأرض وضعا رفيقا قيل لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لاستعصى النفس وتجنب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكمسا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكاه وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضرته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز بافظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان

والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولستكك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور اللسكونية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم اللسكون أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الأعميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [للقام الثاني] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى العقطان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد [للقام الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاها منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضي إليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقوع مثلا من غير مباشرة صورة الوقوع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لداعته وهذه الصفات للمهايكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشوق فانه كان للذيذا فطرات حالة صار للذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تتم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشد عذابه ويتمنى ويقول ليت له لم يكن لي مال قط ولا جاء قط فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتمتع به فيتوالت عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدأ الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمدب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقد من عذابه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدأ الآباد ومثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه فليست هذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وتبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق
النفس لا لله بغير نية
صالحة صار ذلك وبالا
عليه وقد ورد في الخبر
«من تطيب لله تعالى
جاء يوم القيامة وريحه
أطيب من السك الأذفر
ومن تطيب لغير الله
عز وجل جاء يوم
القيامة وريحه أثنى
من الجيفة». وقيل
كان أنس يقول طيبوا
كفى بكم فان ثابتا
يصالحني ويقبل يدي
وقد كانوا يحسنون
اللباس للصلاة متقربين
بذلك إلى الله ببيتهم
فالمريد ينبغي أن يتفقد
جميع أحواله وأعماله
وأقواله ولا يسمع
نفسه أن تتحرك
بحركة أو تكلم
بكلمة إلا الله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قد بينا أن
 للنبي الذي هو للدرك للآلام والذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه في الحياة يتسلى بأسباب
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء الموضع منه ولاسلوة
 بعد الموت إذ قد انسدت عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث
 كان يشقّ عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فإن كان غضا في الدنيا سلم وهو للنبي
 بقولهم نجا المحفون وإن كان مثقلا عن عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو النبي بقوله
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) وما من شيء من الدنيا
 يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل
 فإن استكثر فلست بمستكثر إلا من الحسرة وإن استقلت فلست تخفف إلا عن ظهرك وإنما استكثر
 الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها
 فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدري
 أبنا له قد مات في المنام فقال له يابني عظمي قال لا تخاف الله تعالى فإني يريد قال يابني زدني قال يابني
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما فما لبس قيما ثلاثين سنة . فإن قلت فما الصحيح
 من هذه المقامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر
 الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الخلق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار
 أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصته وجهله باتساع قدرة الله
 سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل
 هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه
 الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليلا وكثيرا ، هذا
 هو الحق صدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا والذي أوصيك به أن
 لا تستكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان
 فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبهه ليقطع يده
 ويجمع أنفه فأخذ طول الليل يفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بعوسى وأهمل طريق
 الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن البعد لا يخلو بعد
 لاوت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فسخ له
 في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له ثم يقول دعوني أرجع إلى أهلي
 فأخبرهم فيقال له ثم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهلها إليه حتى يبعثه الله من مضجعه
 ذلك وإن كان مناقها قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقد رأينا من أصحاب
 شيخنا من كان ينوي
 عند كل لقمة ويقول
 بلسانه أيضا أكل
 هذه اللقمة لله تعالى
 ولا يرفع القول إذا لم
 تكن النية في القلب
 لأن النية عمل القلب
 وإنما اللسان ترجمان
 فما لم تشتمل عليها
 غزيرة القلب لله
 لا تكون نية . ونادى
 رجل امرأته وكان
 يسرح شعره فقال
 هات الدرري أراد
 الليل ليفرق شعره
 فقالت له امرأته أجبني
 بالمسدري وللرأة
 فسكت ثم قال نعم
 فقال له من معك سكنت
 وتوضعت عن للرأة
 ثم قلت نعم فقال إني

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثني عليه فلتثني عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قفاً سواك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهولوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتان القبر منكراً ونكيراً أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنبياهما فتلاك وترترك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقي الآن ؟ قال نعم قال إذن أكيفيهما (٢) وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مدركاً لما بالآلام والذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تنأرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلم على قبره دابة غمام صام في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتنتبه ولا تسمع صوته فتريحه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرايته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت اليتيم واليتيم واليتيم للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أحبابك . وعن حذيفة قال « كن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقمة فبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساء حاله ، فلما اتينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأناً لم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قفاً سواك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا . قلت ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد فرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد إلينا عاقلنا فقال نعم كبريتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري
بنية فلما قالت والمرأة
لم يكن لي في المرأة
فتوقفت حتى هيا الله
تعالى لي نية فقلت
نعم وكل مبتدئ
لا يحكم أساس بدايته
بمأجرة الألف
والأصدقاء والمعارف
ويتمسك بالوحدة
لا تستقر بدايته ، وقد
قيل من قلة الصدق
كثرة الخطاء وأثقع
ماله لزوم الصمت وأن
لا يترك صممه كلام
الناس فإن باطنه يتغير
ويتأثر بالأقوال المختلفة
وكل من لا يعلم كمال
زهده في الدنيا وعسكه
بحقائق التقوى
لا يعرفه أبداً فإن عدم

قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين (١) .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وإقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن خالد زيد وعمر وبعينه فلا ينكشف أصلاً فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمر فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يغشى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمر إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذامات قد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت مالم تنقش تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة متشعبة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى في عالم الملكوت فشاهدوه وأخبروا، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقامه بين يديه ليس بينهما ستر، ومثل هذه الشهادة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضئيلة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية أعنى بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» (٣) وهو أيضاً انكشف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتكتم لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) وقبلها يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدتها جميعاً الرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة آدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والحقا غافلون عنه كفتلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة تسليمان الأعشى عن أنس ولم يسمع منه .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة)

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعت فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخوله مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالشمع قبل كل نقش وربما استضر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضل النظر أيضاً وفصول المني فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بيمينه ويساره ثم يبقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالزعاية والاحتراز فإن علم الناس منه بذلك أضرب عليه من فضله ولا يستحق فضول

علاوة على علم العاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال امرأة تراهى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب البين وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرآن لجميع ما جرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثلا يقر به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرأه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبئ أن تفهم كون اللوح منقوشا لجميع ما قدره الله تعالى وقضاء والوحي فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع فى مقابلة المرآة امرأة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تراهى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته وقضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تارة فى مرآة القلب شئ من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد ثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورد الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورد على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شئ مما فى اللوح كأنه فى الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحريكه فما يقع فى القلب ينتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج المبرر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالنسبة التى بين التخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير وبكيفية مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن يئدى خانما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإنما يكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألب المنع عند الختم بالخنثى بالصوره الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضئيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل لماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالمسكية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنسكال والمجازى والنضام نحو ذبابة من ذلك وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخره وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء - لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - ويقال - أفسح هذا أم أتم لاتبصرون أصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون -

الشي فان كل شئ من
قول وفعل ونظر وسامع
خرج عن حد
الضرورة جبر إلى
الفضول ثم يجر إلى
تضييع الأصول - قال
سفيان : إنما حرموا
الأصول بتضييع
الأصول فكل من
لا يتمسك بالضرورة فى
القول والفعل لا يقدر
أن يقف على قدر
الحاجة من الطعام
والشراب والنوم ومضى
تعدى الضرورة
تداعت عزائم قلبه
وانحلت شيئا بعد شئ
قال سهل بن عبد الله
من لم يعبد الله اختيارا
يعبد الخلق اضطرارا
وينفخ على العبد
أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذير ترفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرتنا بل بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال السيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فلاجرم لما كان ذلك مكشوفاً له بين اليقين كان في الدنيا كما برسيل لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة (٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهما (٣) ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً ليللاً لا اتخذت أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن» (٤) فين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه مقسماً للخليل ولا حبيب وقد قال لأمته - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله - فأتى أمته من اتبعه وما تبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادام إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله قد اتبعته وبقدر ما اتبعته قد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحققت بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى - فلو خرجت من مكن التورور وأنصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لانسى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه ما أبعد ظنك وما أبعد طمعك - أفنحصل السليين كالجحيمين ما لك كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال اللوتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت البشائر وليس ذلك إلا للامات

(بيان منامات تكشف عن أحوال اللوتى والأعمال النافعة في الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً رأى حقاً فان الشيطان لا يتمثل بي» (٥) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيت لا ينظر إلى قلات يارسل الله ماشاً في قاتفت إلى وقال ألت القيل وأنت صائم قال والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً . وقال العباس رضى الله عنه كنت ودّاً لعمر فاشتيت أن أرافق المنام فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيت يحس العرق عن جبينه وهو يقول هذا أو ان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رءوفاً رحباً . وقال الحسن بن على قال لى على رضى الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لى الليلة فى منامى ققلت يارسل الله ما لقيت من أمك قال ادع عليهم ققلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى يخرج فضر به ابن ملجم وقال بعض الشيوع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ققلت يارسل الله استغفر لى فأعرض عنى ققلت يارسل الله إن

والإسراع ويهلك مع
المالكين ولا ينبغي
للبدنى أن يعرف
أحد من أرباب
الدنيا فان معرفته لهم
سم قاتل . وقد ورد
«الدنيا مبغوضة الله
فمن تمسك بعجل منها
قاده إلى النار» وما
جبل من جبالها إلا
كأبنائها والطالبين
لها والمحبين فمن
عرفهم انجذب إليها
شاء أو أبى ويحترز
للبدنى عن مجالسة
المفتراء الذين لا يقولون
بقيام الليل وصيام
التهار فانه يدخل عليه
منهم أشمر ما يدخل
عليه بمجالسة أبناء
الدنيا وربما يشيرون
إلى أن الأعمال شغل

- (١) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة أيضاً (٣) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهما تقدم أيضاً (٤) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضاً (٥) حديث من رأى فى المنام قدراً رأى فى متفق عليه من حديث أبى هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سبيد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل على فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال فرأيتني يلقب ناراً فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعفت وليدة لي فرحاً به فأناهي الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمارت الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فدخلني من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عيني فتمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه يده ثم أتاني فقال قم فقد يرض الله وجهه أيك قلت له من أنت باني أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض لما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده فجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلاني بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر لما كان بأسرع من أن أخرج على رضي الله عنه وهو يقول قصي لي وزب الكعبة وما كان بأسرع من أن أخرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرزفها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني الموائد فإذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

(بيان منامات للشافعي رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض الشايع رأيت متعماً الدورقي في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك فقال ديرني في الجنان قليل لي يا متعم هل استحسنيت فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال لو استحسنيت منها شيئاً لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام قليل له ما فعل الله بك قال غفر لي قيل بماذا قال ما خلطت جداً بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فأنى استحييت أن أقربه فأوقفني في المرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقهاء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما يده طشت ويد الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل يده ثم أمر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما مثل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التعبدن وأن أرباب
الأحوال ارتضوا عن
ذلك . وينبغي للفقير
أن يقتصر على الفرائض
وصوم رمضان فحسب
ولا ينبغي أن يدخل
هذا الكلام معه رأساً
فأنا اخترنا وما رتبنا
الأموال كلها وجالسنا
الفقراء والصالحين
ورأينا أن الدين يقولون
هذا القول ويرون
الفرائض دون
الزيادات والنوافل
تحت القصور مع كونهم
أصحاب في أحوالهم فلي
العبد التمسك بكل
فريضة وفضيلة فبذلك
يثبت قدمه في بدايته
ويراعى يوم الجمعة
خاصة ويحمله لله تعالى
خالصاً لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم فقلت يا رسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت « الرء مع من أحب » قال بلى قلت يا رسول الله فاني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيدي رأيت في المنام كأني أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا فعلت عمل خفي يميزان وفي قولي للملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤي مجمع في النوم قليل ٤ كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمراً فصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تقره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أغفني ذلك راحة طويلاً وفرحاً دائماً فقلت في أي الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرارة بن أبي أوفى للناس أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخاً كبيراً فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال علي الطلمي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجيني نفسك قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني فقلت وما مهرك قالت حبسك عن آفاتك وقال إبراهيم بن اسحق الحاربي رأيت زبدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري روى في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الخواريزي رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نوراً فقلت لها لماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت صمك فمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيدي في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا طير ركتين كنا نعليهما في الليل ورؤيت زبدة في المنام فقلت لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أدخل بها وحدي لا إله إلا الله أفنى بها ربي ورؤي بشر في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال رحمى ربي عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤي أبو سليمان في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال رحمى وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال النفوي قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها فنهتني هاتف إن هذا لا يخاف من هذه وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت إبليس في النوم يمشي عرياناً فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألبس بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكر بالسكر بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحوال نفسه ومآربها ويسكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغيل للجمعة وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك لحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بشتاك وما من شيء إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين » ويستغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع التذكر من غير فتور إلى أن يصل الجمعة ويجلس متكففاً في

صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لكل هذا فليعمل العاملون فقلت له أوصى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
قد كنت قواما إذا أظلم الدجى بصيرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلي بعد موته بثلاثة أيام قهيل له ما فعل الله بك قال ناقضت حتى أيسر فلما رأيت بأسى تمددني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قهيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على المحبين وروى الثوري في المنام قهيل له ما فعل الله بك قال رحماني قهيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو عني يلج على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فسئل عن حاله فقال: حاسبونا فقد قوائهم منوا فأعتقوا وروى مالك بن أنس قهيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنائز سبحان الحى الذى لا يموت وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان متاديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قهيل له ما فعل الله بك فقال:

ولا تكتب بخطك غير شئ يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الحديث وروى النصر أباضى بمكة بعد وفاته في النوم قهيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعث الاتصال انفصال فقلت لا يا أبا الجلال لما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أذاك عاشقة فأنظر لأمعلم من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي عليها حتى ألك وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم في المنام قهيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا أمسكنكم خشية الاتفاق - وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً وملائكة تزولوا وملائكة صعدوا فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلاً الصعلوكي في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع التشيع قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تمنعنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها المجزوء قال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لنحول عن الهوى فقد وحيات الحب حلتم وما حلنا

قال فانتهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى قالت فما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال يخرج ذاك - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى
فرض العصر وبقية
النهار يشغله بالتسبيح
والاستغفار والصلاة
على النبي صلى الله عليه
وسلم فانه يرى بركة
ذلك في جميع الأسبوع
حتى يرى ثمرة ذلك
يوم الجمعة وقد كان من
الصادقين من يضبط
أحواله وأقواله وأفعاله
جميع الأسبوع لأنه يوم
المزيد لكل صادق
ويكون ما يجده يوم
الجمعة معياراً يعتبر به
سائر الأسبوع الذى
مضى فانه إذا كان
الأسبوع سليماً يكون
يوم الجمعة فيه مزيد
الأنوار والبركات وما يجد
في يوم الجمعة من الظلة
وسأمة النفس وقلة

قال أجلسني على كرسى من ذهب وشرطى المأزول الرب وراى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلتمات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القارى الذى رأى فى منامى رجلا آدم طوا الأوال الناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أوبى القرنى فأثبته فقلت أوصنى رحمك الله فكلم فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند عبته واحذر عقبة عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى مريم رأى ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة قالت يا أبت قدما على أمر عظيم نعلم ولا نعلم ونعملون ولا تعلمون والله لتسيحبة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأى عتبة فى المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فاذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت يا هادى المصلين ويا راحم المذنبين ويا مقبل عثرات المائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأى سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله سمعت هذا فقال بالورع قلت فتابا على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب ورأى رجلا من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عظمى قال نعم من لم ينفق القصد فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمه الله عليه دهمى فى هذه الأيام أمر مضى وآلئى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقفتى اللهم فوقى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت أدعت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه اللدعات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من الكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلتى ، قلنذكر بعدها ما بين يدي اللوتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار] وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأسماها وصفة المسألة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصى ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الخوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأنصاف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وشررهم وصفة طعامهم وصفة الخور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى مكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

(الشطر الثانى من وقت نفخة الصور)

الانشرائح فلما ضيع فى الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما للترفع من الثياب أو ثياب التشفين ليرى بين الزهد ففى لبس الترفع للناس هو فى لبس الحسن رياء فلا يلبس إلا الله . بلغنا أن سفيان لبس القميص مغلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا أغيره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لنسكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مضطربا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة القادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدثه ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاستعداد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأحوال لا بد لك من معرفتها إيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبت من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثرت الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرق الصيف وبرد الشتاء ونهاونهم بحر جهنم وزمهرير هاجع ما تكتشفه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداق لبسائه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذبه فيقول له لن يبدني كابداني (١) » وإيمان قور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم للأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صائغا يصنع من النطفة القدرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل التكلم التصرف لا شدة نور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى - أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعجيب تزيد على الأعجيب بعثه وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقول الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتضكر أولا فيما يقرع مع سكان القبور من شدة نفخ الصور فأنها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رموس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والعرب مضافا إلى ما كان عندهم من المغموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فإذا قرأ في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جذبرا بأن يتقي فأنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصح إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما ينبغي بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايخ أن يديم الريد ذكر واحد ليجمع المهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيد التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة

وأصفي بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ ^(١) قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرئيل عليه السلام وضع فاه على القرن كهية اليوق ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرئيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرئيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرئيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنلك قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين يموت إلى يموت إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فانتقوا النفخة ^(٢) » فنفكر في الخلائق وذلمم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفين والأغنياء التمتعين ثلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطشون بالأقدام مثل الدرع وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أبليت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هبة العرش على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا - فنفكر في حالك وحال قايتك هناك .

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراغر لا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صصاف لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ولا ترى عليها بؤة يخفى الإنسان ورامها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا فسيحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أنظار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادقة والراجفة هي النفخة الأولى والرادقة هي النفخة الثانية وحقيق لثلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد ^(٣) »

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التزم القرن وحتى الجهة الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرآن يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين يموت إلى يموت إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرئيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرئيل فهو واضمه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخارى ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان وإسناده جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحسب الوساوس وحديث النفس فانه مضروءاء عضال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشتمل بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع واللقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لانباء يستر ولا تفتاوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا فى الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتعد مد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسه وقمرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدة فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لحدود سراجها فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشتت مع غلظها وشدة خمسة عام والملائكة قيام على حافات وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فى سمعك وبهاية ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدة ثم تنهار وتسيل كالفضة الذابة تغالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كاللؤلؤ وصارت الجبال كالعين واشتبك الناس كالفرش الميثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبی صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأنا ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » فى طبع آدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشئ على غير رجل والشئ بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لحالته قياس ما فى الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

(صفة العرق)

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرفت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتدكر به وغمه من وهجه ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلهم من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأناه الحديث الثعلبى والبقوى وهوى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأناه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأناه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يابى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة . قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك المرید بهذه الأصول وليستعن بدوام الافتقار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضا لشدّة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحجلة والحياة من الاتضاح والاختراء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه» (١) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا يلجمهم ويبلغ آذانهم» (٢) كذا رواه البخاري وسلم في الصحيح وفي حديث آخر «قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب» (٣) وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ غلظه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار يده فألجمها فاه، ومنهم من يغطي العرق، وضرب يده على رأسه هكذا» (٤) فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج التنب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو لم يكن ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصائب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يحمدون في روح نسيم . قال كعب وقناة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال «كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في السكانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» (٥) وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لا أظن أنه كان يعتمد الكذب لكن له شبهة عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمر وتلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في السكانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق التسوم وهذا الافتقار مع كل الأقداس لا ينشبت بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلعت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علنا ذلك وتحققناه . وقال سهل من اتقى من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا يبينه وتركه ما بينه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن عنده الله ثم رجع إلى

لا ياكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آتية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي شغلني أمرى عن أمر غيبي واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يتي لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترج ربحا لا يمتنى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا السكان ربحك كثير أوتعبك يسيرا .

(صفة يوم القيامة ودواهيته وأساميته)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوأته ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والكواكب من هولاء قد انثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجيال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلقت ، والجيال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلازلهما ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض الجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، وعجل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرصعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه المعاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجماع بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ماعومات من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تحرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا أبو يهوى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتندي الشمس للقروب إلى أن تنرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بافظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال نالني وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتعنيني وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أديها وآلى على نفسي أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا . أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأنصاري يقول سمعت الجنيدي يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما نالوا وهذه

وتتطرق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال « شيتني هود وأخواتها »^(١) وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛
فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك أن تجمع القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا
فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك عما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا قنعت بحركة اللسان
أفقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثرها من أساميها
لتنف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسماء تكرير الأسماء والألقاب بل
الغرض تنبيه أولى الألباب فتحث كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعمت من نعمتها معنى طاهر ص
على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم
الحاسبة ويوم المسألة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم النافسة ويوم الزلزلة ويوم الدسمة ويوم
الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الفاشية ويوم الداهية ويوم
الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم الساق ويوم القصاص
ويوم التناد ويوم الحساب ويوم التأكب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم
البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض
ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي
ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة
ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع
ويوم المنتهى ويوم التأوى ويوم الليقات ويوم اليعاد ويوم المصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم
الانتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود
ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى
السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا ينفى مولى عن مولى
شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على
وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه
وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار
يفتون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم
العاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات
ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد وبشيب الصغير
ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الجحيم وزفرت
النار ويشس الكفار وسمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان
فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت السُّور واستترت عن
الخالق قمارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك كل لويل كل لويل لنا معاشر
العاقلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت
يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقتراب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر
من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

الجملة يحتاج البتدى
أن يحكمها والنتهى
عالم بها عامل بحقائقها
فالمبتدى صادق
والنتهى صديق قال
أبو سعيد القرشى
الصادق الذى ظاهره
مستقيم وباطنه ميل
أحيانا إلى حظ النفس
وعلامته أن يجد
الحلاوة فى بعض
الطاعة ولا يجدها فى
بعض وإذا اشتغل
بالذكر نور الروح
وإذا اشتغل بمحظوظ
النفس يحجب عن
الأذكار والصادق
الذى استقام ظاهره
وباطنه يسب الله تعالى
بتسلوئ الأحوال
لا يحجبه عن الله
وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذى وحسنه
والحاكم وصححه وقد تقدم .

وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا وبؤرا قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميهِ ولا نستمد للتخلص من دواهيهِ فنعمود بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة المسألة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والقطيع فينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي الجرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (١) » لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم الآخوذون فهذا حال المقربين لما ظنك بالعصاة الجرمين وعند ذلك يدار أقوام من شدة الفرع فيقولون للملائكة أفكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفرع الملائكة من سؤلهم إجلالا لحالهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفحا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الدل والخضوع وهيئة الخوف والتهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين فلتقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين - وقوله - فو ربك لنساءنهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء - يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قندهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ويؤتى يعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائكة الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرقت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتقني بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جبريل أجيبي خاتلك ومليكك فيصادفهما جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوبهة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا احتيا على الركب

ولا نوم ولا شرب
ولا طعام والصديق
يريد نفسه لله وأقرب
الأحوال إلى النبوة
الصدقية . وقال
أبو يزيد : آخر
نهايات الصديقين أول
درجة الأنبياء . واعلم
أن أرباب النهايات
استقامت بواطنهم
وظواهرهم لله
وأرواحهم خلصت
عن ظلمات النفوس
ووطئت بساط القرب
ونفوسهم متقادة
مطوعة صالحة مع
القلوب عجيبة إلى كل
ما تحبب إليه القلوب
أرواحهم متعلقة
بالمقام الأعلى انطفاأت
فيهم نيران الهوى
وتخمر في بواطنهم

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

ولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقط الحلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فلبست الحناجر كاطمين وذهلت العقول من السمداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا » قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا » قال فوالله نفسى يده لا تضارون في رؤية ربكم فلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأذكرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى ^(١) فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضدك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب فقبلا ذا ألبسته ألم أمهل لك في العمر فقبلا ذا أفنيتك ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذا أنفقته ألم أكرمك بالعلم فإذا عملت فباعته فكيف ترى حياتك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضي الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاق لا أجيز على نفسى إلا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيئا وبالكرام السكاكين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وسحقا فضكن كنت أنا ضل ^(٢) فتوذبا لله من الاتضاح على ملائحة الحق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ^(٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة ^(٤) » فهذا إن عار جى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم عما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ليس قد فرغ سمعك النداء إلى المعرض فيكفئك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم تقدر

صریح العلم وانكشف
لهم الآخرة كما قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم في حق أبي
بكر رضي الله عنه « من
أراد أن ينظر إلى ميت
يتنى على وجه الأرض
فلينظر إلى أبي بكر »
إشارة منه عليه
الصلاة والسلام إلى
ما كشف به من
صریح العلم الذى
لا يصل إليه عوام
المؤمنين إلا بعد الموت
حيث يقال فكشفنا
عنك غطاءك فبصرك
اليوم حديد - فأرباب
النهايات ماتت أهويتهم
وخلصت أرواحهم .
قال يحيى بن معاذ وقد
سئل عن وصف
العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بهامس (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتغرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المحبوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم أدن مني فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسبتها فتدكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فكشف لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وهجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان نجيب وبأي قلب تعقل ماتقول ثم تفكر في عظم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شفها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكبر وت استعظمت نظر غيبي ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلتفتاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتنق أحدكم النار ولوبشق تمره فان لم يجد فبكمرة طيبة» (٢) وقال ابن مسعود مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالتمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن عمله ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفباذا أنفقه فأعظم يأمنكم بحياتك عند ذلك ويخطر لك فأنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك وينطق الأولون والآخرون وإما أن يقال لله الانسكة خذوا هذا العبد السوء فقلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

(صفة اليزان)

ثم لا تنفل عن الفكر في اليزان وتطير الكتب إلى الأيمان والتمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار وينادي عليهم شقاوة لاسعادة بعدها وقسم آخر لاسيئة لهم فينادى مناد ليقيم الجادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم عن لم تشغله نجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم سعادة لاشقاوة بعدها ويقي قسم ثالث وهم الأكثر خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يغنى عنهم ولا يغنى على الله تعالى أن الغالب حسنتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعده عند العقاب فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب اليزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ثم إلى لسان اليزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث مامنكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلمه الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخاري من حديث عدي بن حاتم .

مهم بأشئ منهم وقال مرة عبد كان فبان فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقته معوقين بتوقيف الأجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدي بهم يرشد بهم يحذب أهل الإرادة كلامهم دواء وانظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم . قال ذو النون علامة العارف ثلاثة لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يمتد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حبر عائشة رضى الله عنها فنفس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فمقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أين خف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمنه يأخذ كتابه أو شماله ، وعند الصراط (١) » . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويؤكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سدا فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبأسوا حتى ما أوضوا أبدا حكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الذئبة (٢) »

(صفة الخصماء ورد المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمة هائلة وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويستدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعاقب بلبه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتنى في الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فأساءت جوارى وهذا يقول عاملتنى فشتشتنى وهذا يقول أباعدتنى ففجنتنى وأخفيت عني عيب سلمتك وهذا يقول كذبت في سعر

كلما ازدادوا نعمة
ازدادوا عبودية وكلما
ازدادوا دنيا ازدادوا
قربا وكلما ازدادوا
جها ورفعة ازدادوا
تواضعا وذلة - أدلة على
الؤمنين أعزة على
الكافرين - وكلما تناولوا
شهوة من شهوات
النفوس استخرجت
منهم شكرا صافيا
بتناولون الشهوات نارة
رققا بالنفوس لأنها
معهم كالطفل الذي
يلطف بالشيء ويهدى
له شيء لأنه مقهور
تحت السياسة مرحوم
ملطوف به وتارة
يمنعون نفوسهم
للمشهورات تأسيا بالأنبياء
واختيارهم التقليل من
الشهوات الدنيوية قال

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا لها أطعمتني وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فدهانت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك محالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مبهوت متعير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بغية أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخافك من أيديهم إذ قرع صمعك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - فخذ ذلك ينخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مغنى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس الآفة فأشد فرحك اليوم بتمحضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مغلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً فخذ ذلك تؤخذ حسناتك التي تمعت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من ألقى الفلوس قلنا الفلوس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال الفلوس من ألقى من ألقى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاصبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجزى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت تراباً فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما فارقتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في الباطية والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والدارسة وسائر أصناف المعاملة .

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من الفلوس ؟ قالوا الفلوس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يدري وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها مشقتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويحرق ثوبها والعارف بالله مشغل بسيدته ولا يلتفت إليها . واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضاً عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول اللذات الشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ولكن

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحجى يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيه لما يزال عبد يحجى فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته لما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم - حطب فتفرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وضعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لظمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غير أنهم ما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا أحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقضه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا أحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقضه منه حتى لاظلمة قلنا وكيف وإنما نأى الله عز وجل عراة غير أنهم ما قال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله وظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استئصال أرباب الظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكامل الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فمساها يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بيننا رسول الله بأبى أنت وأمى قال رجلان من أمى جثا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعطاك مظلمته فقال يا رب لم يبق من حسناتى شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يا رب يتحمل عني من أوزارى قال وقاضيت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يا رب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام الزيد
وقوم لما رأوا أن هذه
الأشياء لا تؤثر فيهم
فسوة ولا تورثهم حجة
ركنوا إليها واسترسلوا
فيها وقنعوا بأداء
القراض واتسعوا في
لأكل والشرب وهذا
الانسياط منهم بقية
من سكر الأحوال
وتفقد بنور الحال
وعدم التخاضع
بالكلية إلى نور الحق
ومن تخاضع من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد آيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات الحديث وفى آخره إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد آيس أن يعبد الصلوات فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غير أنهم ما بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث ذات ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غيرا .

مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبي هذا أولى صدق هذا أولى شهيد هذا قال لمن أعطاني
الغن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إني قد عفوت
عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله
وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق
الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتفكر الآن في نفسك إن خلت مهيبتك عن الظالم أو تلطفت
لك حتى عفائك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع
عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعم لا يدور بهواشيه الفناء وعند ذلك طار
قلبك سرورا وفرحا وابتسج وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فوهم بتخترك بين الخلائق
رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهورك ونضرة نسيم النسيم وبرد الرضا تلا لأمن جبينك وخلق الأولين
والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك واللائكة يحشون بين يديك ومن
خائفك وينادون على رموس الأشهداد هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد بسعادة لا يشقى
بعدها أبدا أترى أن هذا للنصب ليس بأعظم من السكينة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك
ومداومتك وتضمنك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فوسل إلى إدراك هذه
الربة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تسكن الأخرى
والعياذ بالله بأن خرج من مهيبتك جريئة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ففتك لأجلها فقال
عليك لعني يا عبد السوء لا تقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تفضب
للائكة لغضب الله تعالى فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنال إليك الزبانية
وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك
يسحبونك على وجهك على ملائ الخلق وهم ينظرون إلى أسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت
تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى لللائكة
ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعجازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد
بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طابا للسكينة في قلوبهم أو خوفا من
الافتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تحتز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا
للتفرقة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك اللأ العظيم مع التمرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق
بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

(صفة الصراط)

ثم فذكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى - يوم نحشر النقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين
إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقوهم إنهم مسئولون - قال ناس بعد هذه
الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن
استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا
وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تشر في أول قدم من الصراط وتردى ففكر الآن فيما عمل من الفزع بغوادك
إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتك ثم قرع صمرك شقيق النار وتغيظها

(١) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيت ضحك حتى بدت ثناياه فقال
عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبي وأمي قال رجلان من أمي جثيان يدي رب العالمين الحديث بطوله
إن ابن الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق
ينهب عنه بقايا
السكر ويوقف نفسه
مقام العبيد كأحد
عوام المؤمنين يتقرب
بالصلاة والصوم وأنواع
البر حتى يطمأنة الأذى
عن الطريق ولا
يستكبر ولا يستكف
أن يسود في صور
عوام المؤمنين من
إظهار الإرادة بكل
بر وصلة فيتناول
الشهوات وقتا رقعا

وقد كفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار
الساكنة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه
إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطربت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلاتق بين يديك يزولن
ويتعثرن وتتداولهن زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف يتكسبون فتسفل
إلى جهة النار رموسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أنظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصدر إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق
وهم يهاتفون في النار والرسول عليه السلام يقول «يا رب سلم سلم» والزعقات بالويل والثبور قد
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلّاتق فكيف بك لو زلت قدمك
ولم ينفعك ندمك فنادت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياتي باليتني
اتخذت مع الرسول سيلا يوليئني لم آخذ فلانا خليلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نسياما نسيا
ياليت أُمّي لم تلدني ، وعند ذلك تحتطفك النيران والعاذ بالله وينادي النادى اخسوا فيها ولا تكلمون
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عتلك وهذه الأخطار
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت
به مؤمنا وعنه غافلا وبلاستعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطفيلتك وماذا ينفعك إيمانك إذا
لم ينفعك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط
وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فذا هي بك به هولا وفزعاً ورسول الله صلى الله
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج من الرسل ولا يتكلم يومئذ
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم
شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى
تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بعمله ومنهم من يخرج دل ثم ينجو^(١) وقال أبو سعيد الخدري
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرى الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف
تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من
يعبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأمثال النار الذين هم أهائها فلا يعوتون ولا يحبون وأما ناس
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة^(٢) وذكر إلى آخر
الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين
ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فرفعوا رؤوسهم فيعطهم
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخجو مرة فاذا أضاء
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس المطهرة المزرعة
للقادة الطواعة لأنها
أسيرته وينعمها
النسوات وقتا لأن
في ذلك صلاحها
واعتبر هذا سواء
بحال الصبي فانه إن
جاوز حد الاعتدال
من إعطاء المراد
وقتا ومنه وقتا
انفس طبعه لأن
الجليلة لا بد من فهمها
بسياسة العلم ومادامت
الجليلة باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج من الرسل ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بعمله ومنهم من يخرج دل ثم ينجو^(١) وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرى الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يعبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأمثال النار الذين هم أهائها فلا يعوتون ولا يحبون وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة^(٢) وذكر إلى آخر الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فرفعوا رؤوسهم فيعطهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخجو مرة فاذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كأنه قضاة السكوا كب
ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو
على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار
قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط
أحدًا إذ تجاني منها بعد إذ رأيته فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) « وقال أنس بن
مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة
ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجزتي وإنى لأقول يا رب سلم - لم فاللون
والزلات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائمها فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال
يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال
في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كركة النساء تدفع عينك ويرق قلبك حال السباع
ثم تنفاه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئًا هرب منه
ومن رجا شيئًا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى وعيثك على طاعته وأبعد من
رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعذت بالله فعوذ
بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشياطين يضحك من
استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن فادارأي أنياب السبع وصولته
من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك
بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول
لا إله إلا الله صادقًا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ الله
هو أهو فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره محط في نفسه فإن عجزت عن ذلك كله فكأن محال الرسول
الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومقتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا
بأدعيتهم فعاك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء
والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله
وقرأته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن
لا تغتر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبا ولايته في عباده فاعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ولا تستصغر
معصية أصلا فإن الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى
خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه
وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولستوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة
أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث
يطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو
كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضيف قال وروى عن زياد النميري عن
أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من
حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة العلم وهذا
باب غامض دخل
في النهايات على المنتهى
من ذلك ودخل ووقع
الركون وانسد به
باب المزيد فالمنتهى
ملك ناصية الاختيار
في الأخذ والترك ولا بد
له من أخذ وترك
في الأعمال والحظوظ
ففي الأعمال لا بد له من
أخذ وترك فتارة
يأتي بالأعمال كآحاد
الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فاعذبهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك في أمتك ولا نسوءك^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لي القنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وطريقاً ما طهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيته الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختي دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة^(٤) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقتى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً كرجال قد بعث بهم إلى النار وحق إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لفضبك في أمتك من بقية^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر^(٦) » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ففشي منها نهمشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقفاً
بالنفس وتارة يأخذ
الخطوط والشهوات رقفاً
بالنفس وتارة يتركها
افتقاداً للنفس بحسن
السياسة فيكون في
ذلك كله مختاراً فمن
ساكن ترك الخطوط
بالكلية فهو زاهد
تارك بالكلية ومن
استرسل في أخذها
فهو راغب بالكلية
والنهي شمل الطرفين
فإنه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فاعذبهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك ولا نسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيته الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختي دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقتى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث مريدة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فصيته نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صمالك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويدكرها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون ياموسى أنت رسول الله فضلك رسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفسا وأمر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فأطاعني فأتى تحت العرش فأقع ساجدا للرب ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحني على أحد قبل ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمي أمي يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن بين المصريين وبين مزارع الجنة كما بين مكة وحجرا أو كما بين مكة وبصري (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله في السكوا كب هذا ربي وقوله لأهلهم بل فضله كبيرهم هذا وقوله إنى سقيم فهذه شفاعرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعرة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعرة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها ثمشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعرة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجه مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعرة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر رويته في جزء أبي عمر بن السكك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فسكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن ولازمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة بشفاعرة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط
بين الافراط والتفريط
فن ردت إليه
الأقسام في النهاية
فأخذها زاهدا في
الزهد فهو تحت قهر
الحال من ترك الاختيار
وتارك الاختيار الواقف
مع فعل الله تعالى مقيد
بالحال وكأن الزاهد
مقيد بالترك تارك
الاختيار فكذلك
الزاهد في الزهد الآخذ
من الدنيا ماسيق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني
 شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني
 أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي
 استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من
 النار (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا
 وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يتسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي
 ولا غفر (٣) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة
 من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيبي (٤)
 وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه
 فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبنا إن الله عز وجل أخذ من
 خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليما ، وقال آخر فعيسى
 كلمة الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت
 كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله
 وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا غفر وأنا حامل لواء الحمد
 يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك خلق
 الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى قراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) «
 (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه
 ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه
 لم يظم أبدا . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له
 يا رسول الله لم ضحكك ؟ فقال آية أنزلت علي آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك
 الكوثر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعندي

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على
 قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمتي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة
 الحديث وقال حسن وللبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس
 إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا وما فاستسقيتني
 شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
 بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب
 (٤) حديث فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث
 أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم
 عجبنا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فعل الله مقيدا
 بالأخذ وإذا استقرت
 النهاية لا يتقيد بالأخذ
 ولا بالترك بل يترك وقتا
 واختياره من اختيار الله
 ويأخذ وقتا واختياره
 من اختيار الله وهكذا
 صومه النافلة وصلاته
 النافلة يأتي بها وقتا
 ويسمح للنفس وقتا لأنه
 مختار صحيح في الاختيار
 في الحالين وهذا هو
 الصحيح ونهاية النهاية
 وكل حال يستقر

ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آتيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب التؤلؤ المجوف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢) وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابي حوضي مثل ما بين المدينة ومنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان (٣) وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرا به أشد يابسا من اللبن وأحلى من الفصل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل التؤلؤ والرجان (٤) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان اللقاء ماؤه أشد يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أوكل الناس ورودا عليه قراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله قال ثم الشعث رءوسا الذين ثيابا الذين لا ينسكون التمتع ولا يفتح لهم أبواب السدد (٥) قال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت التمتع فاطمة بنت عبد الملك وفتح لي أبواب السدد لأن ربحني الله لاجرم لأدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض؟ قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للضحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشد يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٦) وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متعنيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراخي للحصاد من بث البذر وتقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحرث أو الزراعة وتفقير الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب التؤلؤ المجوف الحديث الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابي حوضي مثل ما بين المدينة ومنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضي ما بين عدن إلى عمان اللقاء الحديث الترمذي وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبي ذر قلت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذي نفس بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث حمزة إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة الحديث الترمذي وقال غريب قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ولم يذكر فيه عن حمزة وهو أصح

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غصير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إنني عزم أن لا أكل اللحم قال فإني أكل اللحم وأجبه ولو سألت

فهذا مغر ومنمن وليس من الراجين في شيء. وهكذا رجاء كثير الخلق وهو غرور الخلق نموذبا لله من الغرور والنفلة فان الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى - فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور -

(القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها)

يا أيها العاقل عن نفسه الغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا الشرف على الاقضاء والزوال دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحشا - فانت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فمسالك تستعد لك فجاءته وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا في دنياهم في كربها وأهوالها وقوا فينتظرون حقيقة أنبيائها وتشفيح شفعاؤها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وصعدوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة القيظ والغضب فبعد ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجث الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المقلب وخرج الناصي من الزبانية قائلا : أين فلان ابن فلان السوف نفسه في الدنيا بطول الأمل للضيع عمره في سوء العمل فيأدرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظام التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا هاهنا ضيقة الأرجاء مظلمة السالك بهمة الهالك غلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الزبانية تقمهم والهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالم منها فساك قد شددت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لانهود فتقول الزبانية هيئات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولوا خرجتم منها لكانتم إلى ما نهيتهم عنه تموددون فبعد ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيماهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طعماهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب القامع وثقل السلاسل فهم يتجملجون في مضائقها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواشيا تغلق بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ولحم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيفتجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمتع من الأطراف شعورها بل جلودها وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفتح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يحشون على النار بوجوههم ويطنون حاك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجسامهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

(القول في صفة جهنم)

ي أن يطعمني كل يوم لأطعمني وذلك يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل وكان يترك الأكل اختيارا وقد دخلت الجنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء الراغبين » (٢) فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشعابها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شحوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جحر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها » (٣) ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكبر كالغريق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقامهم عذابا بالو عرضت عليه الدنيا بخلافها لاقتدى بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلظ دماغه من حرارة نعليه » (٤) فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فاقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضواها طائمين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا » (٥) بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » (٦) وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها فسبغ في سبغها »

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا حجر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولو لا ذلك ما انتفع بها أحد وللبراز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتنهى عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل بعض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخصه وفضله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق فكل

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجردونه في الصيف من حرها وأشد ما تجردونه في الشتاء من زمهريرها (١) وقال أنس بن مالك يؤتى بالناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس حرًا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرًا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في السجدة ألف أوزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لما اتوا وقد قال بعض العلماء في قوله - تلغح وجوههم النار - إنها لغتهم لحة واحدة لما أقيمت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في تنقن الصيد الذي يسيل من أبدانهم حتى يعرفون فيه وهو النفاق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «لو أن دلوًا من غساق جهنم أُلقي في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢)» فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وبأبيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعًا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لا تكون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها الشوبان من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارًا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن لدينا أنكالا وجعيا وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثها عليكم (٤)» وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يجيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا ما لكم لا تدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما كنتم (٥)» قال الأعمش أنبئت أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يغلو إما أنه كان ليقضى به وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك فإن كان ليقضى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلوًا من غساق أُلقي في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخشوا فيها ولا تسكفون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال « يقرب إليه فيسكره فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم ^(١) » فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفضاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فهي لا تفر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زببتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا عسبن الذين سيخلون بما آتاهم الله من فضله الآية - ^(٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبحال اللوكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وفى ذلك وفى هذه الحيات فلم تمتل له ^(٣) » ثم تفكر بهذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يترأد عذابهم بسببه فيحمون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه ^(٥) » وقال عليه السلام « إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس ^(٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناها جلودا غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا . ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشيقتهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إلقتهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ^(٧) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة الحديث أحمد من رواية ابن أبي ليلى عن ذراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد للحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجيلة . قال الله تعالى خطابا له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنجاة عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والشهيقي والزفير والدعوة بالويل والشبور فلهن فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (١) قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتين وأحبيتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصحنا فارجعنا لعلنا نصالح - فيجيبهم الله تعالى - أولم تكونوا أقمتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا لها لعظا لمين من نصير - ثم يقولون - ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلمون - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك فاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلاموت (٢) » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتى كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يكي قفيل لم تبكى ؟ فقال أخشى أن يطرحنى في النار ولا يبالي بهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غموها وأحزانها ومحنها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدره منخصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعيان ربنا وكيف لم نكف أنفسنا الصبرا يوما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انتفعت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متممين بالرضا والرضوان في الحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذا تهايمهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لانصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثليها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرىتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتكم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم (٣) » قال أحمد بن حنبل إن أحدا من يورث الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود الهادي لاصبري على حر منسك - كيف صبري

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا اتفقوا به وبين نفسه الظاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورباطة النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفوا رائحتها رواها الحديث رويناه في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك .

على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك ؟ فإن قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك الموائق خدفعه ولا تقصد شرا إلا فيتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر كل من الدارين والله أعلم .

(القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدها استقرار لا محالة في الأخرى فاسترأخوف من قبلك بطول الفكر في أهوال الجحيم واسترأرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم للوعد لأهل الجنان وسقى نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق محتوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجمر والعسل مخفوفة باللعنان والولدان مزينة بالخور العين من الحيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطاها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتجيز فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلاوت غنجات عطرآت آمنت من الحرمان والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يضيء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ السكون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتعاهدون فهم فيما اشتمت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب اللنون آمنون فهم فيها يتمتعون وبأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضها من فضة وحسابها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويطفرون من سحب فيها من ماء النسرين على كشبان الكافور ويؤتون بأكواب وأنى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المحتوم مخزج به السليل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وجرته لم يصنعه آدمى فيصير في تدوية صنعه وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

(القول في صفة الجنة)

ألفت آثا كما أن
الأرواح ألفت أولا
ولكل روح مع
نفسه تأليف خاص
والسكون والتأليف
والامتزاج واقع بين
الأرواح والنفوس
وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يديم
المعمل لتصفية نفسه
ونفوس الأتباع لها
احتاج إليه نفسه من
ذلك ناله وما فضل من
ذلك وصل إلى نفوس

وملاحة أحداقه في أعجيبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تهل القبايع عن
تزل بفتائها ولا تنظر الأحداث بعين التفسير إلى أهلها كيف يأبى بدار قد أذن الله في خرابها وبنينا
ببشئ دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجوع والعطش وسائر أصناف
الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفحص من ضرورته
كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بثناء العرش
محضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم
الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم بكرة دون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم
أن تمحوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تتعموا فلا تيبسوا أبدا
فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون -^(١)» وبهذه أردت أن
تعرف صفة الجنة لأقرأ القرآن فليس وراء يان الله تعالى يان وأقرأ من قوله تعالى - ولئن خاف مقام
ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف
تفصيل صفاتها من الأخبار فأقبل الآن تفصيلها بعد أن اطلمت على جملتها وتأمل أو لا تعد الجنان
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قال «جنتان من فضة
آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء
الكبرياء على وجهه في جنة عدن^(٢)» ثم انظر إلى أبواب الجنة فاتها كثيرة بحسب أصول الطاعات كآل
أبواب النار بحسب أصول الباطي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتق زوجين
من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى
من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب
الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من
ضرورة من أنها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم^(٣)» وعن عاصم بن
ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظم أمرها ذكر الأخطية ثم قال - وسبق الذين اتقوا
ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتقوا إلى باب من أبوابها وجدوا عند مشجرة يخرج من تحتها
عنان فهران فمعدوا إلى إحداها كما أمروا به فسيروا منها فأذهبت ماني بطونهم من أذى وأبأس ثم
عمدوا إلى الأخرى فطيطروا منها فخرت عليهم نضرة النعيم فلم تغير أعمارهم بعدها أبدا ولا تشعب
رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتقوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طيتم فادخلوها
خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة
يقولون له أجزر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض
أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان بأهله الذين كان يدعى به في الدنيا فيقول أنت رأيت فيقول
أنا رأيته وهو بأثرى فيستغفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس
بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمه وهكذا انتهى
مع الأصحاب والأتباع
على هذا المعنى فلا يخلف
عن الزيادات والنوافل
ولا يسترسل في الشهوات
والذات إلا بدلالة
نقص النفس ولا يعطى
الاعتدال حقه من
ذلك إلا بتأييد الله تعالى
ونور الحكمة وكل
من يحتاج إلى حصة
الجلوة للغير لا بد له
من خلوة صحيحة
بالحق حتى تكون

(١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث
أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما
الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من ماله في سبيل
الله دعى من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ثم يطأطى رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ومبارق مصفوفة وزرابى مثبثة - ثم اتكأ فقال - الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تنظنون أبدا وتصحون فلا تمضون أبدا « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١) » ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذا في الجاهلون به تفاوتا ظاهرا فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى - ساقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فيتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوباء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنقص بمسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخلافها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليرادون أهل الغرف فوقهم كما ترادون السكوك الفائز في الأفق من الشرق إلى الغرب لثفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢) » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنما (٣) » وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبين أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجواهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن أتى الله السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال أمي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفاض السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الدفاعة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤) » يعنى اليهود والنصارى والمجوس . « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زهر أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويسطى للؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع (٥) » .

(١) حديث أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليرادون أهل الغرف فوقهم كما ترادون السكوك الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يا رسول الله بأبينا أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجواهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث مثل عن قوله تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجرى في كتاب الصيحة

جلوته في حماية خلوته
ومن يراى له أن
أوقاته كلها خلوة وأنه
لا يحجب به شيء وأن
أوقاته بالله والله ولا يرى
قصا لأن الله ما فطنه
لحقيقة المزيد فهو
صحيح في حاله غير أنه
تحت قصور لأنه ما به
لسياسة الجيلة وما عرف
سر تملك الاختيار
وما وقف من البيان
على البيضاء النقية وقد
نقلت عن الشايع كلمات

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها)

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتها بالديار عوضاً عنها قد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك» (١). «وسئل النبي ﷺ عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص» (٢). وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا» (٣). «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك» (٤). «ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما عليها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها» (٥). وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها قرءوا إن شئتم - وظل محدود» (٦). وقال أبو أمامة: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومساائلهم أقبل أعرابي فقال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكاً فقال قد قال الله تعالى - في سدر عضود - يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تتفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر» (٧). وقال جرير بن عبد الله: «زلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تلبسه فقلت للفلان انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع قد فأن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه قد يسميها الإنسان ويبني عليها والأولى أن يقتصر إلى الله تعالى في أي كلمة يسميها حتى يسميها الله من ذلك الصواب . نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت التفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة طي قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمقتضى ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما عليها الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفه فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها القؤلوز والذهب وأعلاها النمر .

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ^(١) » . وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تضحكون من جاهل سألت علما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينسج عنها نمر الجنة مرتين ^(٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتخطون آنتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة وورشهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقيها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية (وفي رواية) على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب ^(٤) » وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤمن أهل لإبراهيم الآخرون ^(٥) » ورواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) »

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور والسمان واللبن والسوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تنسج نسجا الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه للصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لكما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

لا يبقى تمييز بين الحلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يعني أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يقتصر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ المرید يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أخبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ قال فقراء المهاجرين ، قال اليهودى لما تحفتم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال فما غذاؤهم على أرضها ؟ قال ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال فما شرابهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقر لى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم يعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمير (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني . قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنعم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها ياأبا بكر (٤) » وقال عبدالله بن عمر فى قوله تعالى - يطاف عليهم بصحاف - قال يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب كل صحيفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب الجن ويشربه المقربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يخمون به آخر شراهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجه لم يبق ذرورح إلا وجد ريح طيبها .

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه ، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة طلعت إلى الأرض لأضأت وللاث ما بينهما رائحة وللصيفى على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء جبر من أخبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى لما تحفتم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل للمسك الإنسانى فى الكبرى بإسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا بالزار بإسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير ناعمة قال أكلها أنعم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون بمن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التمييز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل لحمد ابن الفضل حاجة الممارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصلة التى كملت بها الحسن كلها ألا وهى الاستقامة وكل من كان أنتم معرفة كان أم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمام والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محبوب بها

أبو سعيد الخدرى «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أنسى من الرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لنضى ما بين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا يتفذه بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك» (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليدخ عليه خيام اللؤلؤ والبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظمن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - (٢) وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي - في شغل ما كرون - قال شغلهم انقضاء الأبكار . وقال رجل يا رسول الله «أبياض أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك» (٣) وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا» (٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيدن ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له» (٥) وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من للرأة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسل دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن للرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط لم أجده هكذا إسماعيل وللترمذى من حديث طى إن في الجنة لمجتمع للحور العين يرفعن أصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيدن ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب وأبى الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمع في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يا رسول الله أبياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك الترمذى ومحمد وابن جبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قليل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهم مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتابه العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقته لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله حديث (٥) حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه في موضعين من حديث طى وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

عن الأحوال وفي التوسط . محض بالاحوال فقد يحجب عن الأعمال وفي الانتهاء لا تعجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . سئل الجني عن النهاية فقال هي الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجني فقال معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل إلى

« إن الخور في الجنة يتغني نحن الخور الحسان خبتنا لأزواج كرام ^(١) » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجبرون - قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الخور العين ينيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديده ^(٢) » .
(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأل وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار طالية بهية سليمة قالوا نعم المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه ^(٣) » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تعجني قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تعجني فهل في الجنة من إبل قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت تسلك ولدت عيناك ^(٤) » وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة ^(٥) » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الأخوان إلى الأخوان فيفسر سرير هذا إلى سرير هذا فليتقيا ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول بأخي تذكرك يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فقفرنا ^(٦) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يعرض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين طي خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع ^(٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمعرفة ثم زد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - . وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحميرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه ينادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون للنهي

(١) حديث أنس إن الخور في الجنة يتغني فيقلن نحن الخور الحسان خبتنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكدي قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الخور العين ينيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديده الطبراني بإسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فأنها تعجني الحديث الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السعدي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له محبة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث أبي رزين يلد ويلد مثل لدا تمك في الدنيا وتلدون بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الأخوان إلى الأخوان فيفسر سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا نعلمه يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يعرض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله يعرض جماد مكحولون أبناء ثلاث

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزرجد وياقوت كابين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها تكلف البعر القتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت يا جارية لمن أنت ؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)» وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا ، وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لينة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الروع وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد مرد قد آمنوا العذاب وأطاعت بهم الدار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزرجد وإن عروقها وتغلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يلم عليها إلا الله تعالى وإن ربها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم المحور العين كأنهن يمس مكنون وإن للراء تأخذ بين أصبعي سبعين حلة تلبسها فيرى من ساقها من وراء تلك السبعين حلة قططر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشا أما إنه ليس ليل يكر العدو على الرواح والرواح على العدو وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدله في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويضع له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يقضى عليهم سبعين ألف صحيفة من ذهب وبراح عليهم بمثلها في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ومحمد طم آخره كما محمد طم أوله وإن في الجنة يا قوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرضهم القدي ينظر إلى ربه بالعداة والشئ . وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها الصيامة إذا مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد من ترك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا دل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا هببا لمن يختار الذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى .

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أيهم آدم تفتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانرفه إلا من حديث رشدين سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كجلد البعر للقتب وإذا طيرها كالبعث كالبخت الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هريرة المبدى عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الراد للأخوذ في طريق
المحبوبين تتجنب
روحه إلى الحضرة
الالهية وتستبج
القلب والقلب يستبج
النفوس والنفوس تستبج
القلب فيكون بكنيته
قائم بالله ساجدا
بين يدي الله تعالى
كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«سجد لك سواي
وخيالي» وقال الله تعالى
- والله يسجد من في

الكبرى التي ينسب فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب الهبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صبيب قال «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجزنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية الحمى وكل ما فضلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسب وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانسبة شيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فضلناه في كتاب الهبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة بشيء سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البريمة للسرحة في للرعى .

(نغتم الكتاب بباب في سنة رحمة الله تعالى على سبيل التفاضل بذلك)

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به للتغفرة فنفتدى برسول الله ﷺ في التفاضل ونرجو أن نغتم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو ظنى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدهاء به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعمير بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم الحديث هو في الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صبيب في قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

(باب في سنة الرحمة)

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث : ويصحبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة : وخيرها الفأل قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسميها أحدكم .

السموات والأرض
طوعا وكرها وظلالهم
بالصد والآمال -
والظلال القلوب تسجد
بسجود الأرواح وعند
ذلك تسرى روح الهبة
في جميع أجزائهم
وأبصارهم فيتلذذون
ويتنعمون بذكر
الله تعالى وتلاوة
كلامه بحبة وودا
فيحبهم الله تعالى

فإن الكرم عظيم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها يتعاطفون وبها يترحمون وأخر تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتكم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراجهم من النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبد المؤمن من الوالدة الشفيلة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

(١) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضاً يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جدعان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتكم لقائي فيقولون نعم الحديث أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معان في النار الحديث في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ - ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبد المؤمن من الوالدة الشفيلة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألصقته بيطنها فأرضعته .

ويعجبهم إلى خلقه
نعمة منه عليهم وفضلاً
على ما أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروزي رحمه الله
قال أنا أبو طالب
الزبي قال أخبرتنا
صكرية المروزية
قالت أنا أبو الهيثم
الكشميهني قال أنا
عبد الله الفربري قال
أنا أبو عبد الله البخاري

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تنه وعزني وجلالي لو استغاث بي لأعنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ - من ظني بك كان يشعرنى أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمى (١) » ويروى أن أعرايا مع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاخرة من النار فأتقذكم منها - فقال الأعراي والله ما أتقذكم منها وهو يريد أن يوقهكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير قبيه وقال الصائغى دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار (٢) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينثر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمت لك كنتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تطعم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وتقلت البطاقة فلا تثقل مع اسم الله شئ (٣) » وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمى ربي رواه في سابعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البجلي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصائغى عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصائغى بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينثر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب .

قال حدثني إسحق قال
حدثنا عبد الصمد
قال حدثنا عبد الرحمن
ابن عبد الله بن دينار
عن أبيه عن أبي
سالم عن أبي هريرة
رضي الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت لللائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقهم في نهر في أنفوا الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل إلا رونها تكون مما يلي الحجر والشجر مما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوا ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة ثم أرايتم فهو لكم فية ولون ربنا أعطيتنا ما لم تمنع أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا^(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم عمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجل والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي قتل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق قيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا قيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أنباؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتفون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقت بها عكاشة^(٢) وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى قلنا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وإن سألني ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب^(٣) وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول لللائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأمم عمر النبي صلى الله عليه وسلم والنبي معه الرجل والنبي معه أحد الحديث إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا أحمد والنشور وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا أحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدت فقال قد استزدت فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدت قال قد استزدت فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحشي عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف .

تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في

وإن سرق وإن زنى قال نعم وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن
زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر ^(١) وقال أبو الدرداء
«قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قلت وإن سرق وإن زنى
يأرسوله الله فقال - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قلت وإن سرق وإن زنى قال - فقلت - قلت
ربه جنتان - قلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله قال وإن رغب أنف أبي الدرداء ^(٢) وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فليلق له هذا
فداؤك من النار ^(٣)» وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه
أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يومئذيا أو نصرانيا
فاستخلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم خلف له ^(٤)» وروى «أنه وقف صبي في بعض الغازي ينادى عليه فيمن يزيد في يوم
صائف شديد الحر فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت فتفتت وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت
الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر» وقالت ابنتي ابني
فبكى الناس وتركوا ما هم فيه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر
فسرّ برحمتهم ثم بشرهم فقال أعجبتم من رحمة هذه لابنها قالوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فإن الله
تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها ^(٥) فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة
فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى فترجو من الله تعالى
أن لا يعاملنا بما نستحقه ويفضل علينا بما هو أهله عنه وسعة جوده ورحمته .

الأرض وباقه العون
والصحة والتوفيق ،
تم بحمد الله للعبد
للبيدي كتاب عوارف
للعارفين للإمام
السهروردي والحمد لله
رب العالمين وعلى الله
طى سيدنا محمد وطى
آله وصحبه أجمعين .

(١) حديث أبي ذر عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة الحديث متفق عليه بلفظ أتأتى جبريل فبشرنى وفى رواية لهما أتأتى آت من ربى
(٢) حديث أبى الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولئن خاف مقام ربه جنتان - فقلت وإن زنى وإن سرق الحديث رواه أحمد باسناد صحيح (٣) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل اللئلى قليل له هذا فداؤك من النار رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم (٤) حديث أبى بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا عزاء الصنف لرواية مسلم وهو كذلك (٥) حديث وقف صبى فى بعض المغازى بنادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة الحديث وفيه الله أرحم بكم جميعا من هذه بابها متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسى فاذا امرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته بيطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آتون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخارى فاذا امرأة من السبى قد تحابب ثم فيها تسعى إذ وجدت صبيا الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على بدء. والصلاة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة وهذه.

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي إنتهى أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٩١
وأكلت تبليغ هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .